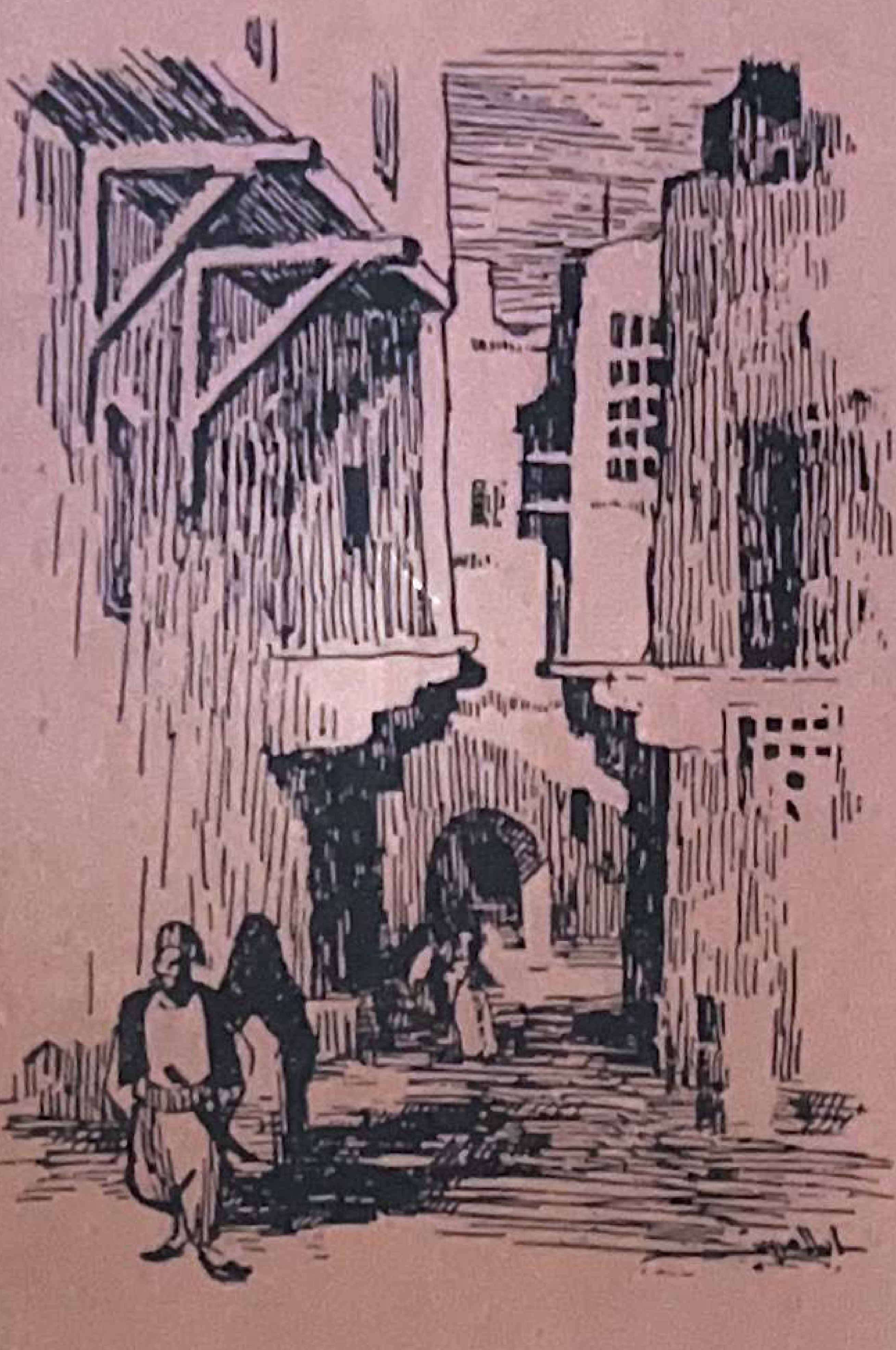
خطط المقريزى

الجزء
١



كتاب التحرير

«كانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت منذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

المقريزى

صاحب كتاب الخطط

بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة

ربما دل البحث المقارن فى عصور التاريخ ـ وهو ميدان بكر لاستجلاء الأسس العامة فى الحضارة الانسانية ـ على أن القرن الخامس عشر الميلادى ، أى القرن التاسع الهجرى تقريبا ، أهم العصور التاريخية عند الاطلاق ، بسبب ما بدا فيه من عناصر توجيهية واحداث مؤذنة بتغير احوال الدول ، والجماعات والافراد ، بالغرب والشرق سواء .

وكفى دليلا هنا ، على صحة هذا الفرض التاريخى ، أن الأوربيين مضوا جاهدين ان يصلوا مباشرة الى الهند وتجارتها طول هذا القرن ، حتى اذا وصل البرتغاليون منهم الى الشواطىء الهندية ، صار مصير الشرق كله فى كفة المقادير العاجلة .

ولم يقف الامر عند هذا الحد البعيد ، بل عثر الأوربيون ـ حوالى ذلك الوقت ـ على ارض أخرى حسبوها الناحية الغربية من الهند ، وسموا أهلها الهنود الحمر ، ثم استقروا على تسمية تلك الارض وسكانها أمريكا والامريكيين، وولوا وجوههم شطرها وشطر الهند الحقيقية فى عنف لا هوادة فيه ونهم شديد ، مما يرجع كله فى الاصل الى القرن الخامس عشر الميلادى وحوادثه .

وللمؤرخين فى مصر فى ذلك القرن ظاهرة توجب الالتفات ، وهى فى الواقع برهان على بدء العالم الاسلامى ، فى شىء من الافاقة ، لفهم كيانه . ولعل اكبر دليل على وجود تلك الظاهرة تاريخ ابن خلدون ، المسمى « كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر » ، لا سيما الجزء الاول منه ، وهو الجزء المعروف باسم المقدمة ، اذ يرى القارىء بصفحاته الافتتاحية تعريفا أخاذا للتاريخ بأنه « فى ظاهره

(*) تفضل السيد الدكتور محمد مصطفى زيادة ، فأذن بنشر هذه الدراسة تصديرا لطبعة الخطط التى تصدرها دار التحرير . والدكتور محمد مصطفى زيادة أقدم وأكبر متخصص فى دراسات العصور الوسطى الاسلامية بصفة عامة ، والمقريزى بصفة خاصة . وقد ظهرت هذه الدراسة عام ١٩٤٩ ضمن كتاب تحت عنوان : « المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) » .

لا يزيد على اخبار عن الايام والدول ، والسوابق من القرون الاول .. وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق » (١) .

والواقع ان ابن خلدون يشير الى العلل والكيفيات ، والاسباب والنتائج ، بتلك الصفحات الافتتاحية ، اشارات كثيرة ، مما يدل على فقهه التام للتاريخ بالمعنى الحديث ، كما انه يشير الى ما يجب ان يتدرع به المشتغل بالتاريخ من المؤهلات حين يقول ان المؤرخ الصالح « محتاج الى ماخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت ، يفضيان بصاحبهما الى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ..» (٢) .

كتب ابن خلدون تاريخه ، بعد ان تنقل في البلاد الاسلامية بالاندلس والمغرب ، وعاش في بلاد سلاطينها المسلمين ، وتقلب في خدم دواوينهم ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، كما سفر لاحد اولئك السلاطين ، وهو محمد الخامس سلطان غرناطة ، عند بيترو (Pietro) ملك قشتالة المسيحية ، وبذا شهد بنفسه احوال الكثير من الدول من كثب ، ولمس بيده عوامل التدهور الناشبة اظفارها بين المسلمين والمسلمين ، مما جعل لكتابه على وجه التعميم ، والمقدمة على وجه التخصيص ، قيمة تاريخية فريدة .

ثم وفد ابن خلدون الى مصر سنة ١٣٨٢ م ، وكان انتهى من تاليف كتابه قبل ذلك ببضع سنين ، فاقام بالاسكندرية والقاهرة اقامات متقطعة ، وحج اكثر من مرة ، ودرّس بالجامع الازهر ، والمدرسة القمحية ، وموضعها قرب جامع عمرو ، بل تولى منصب قاضى القضاة المالكية بمصر ، كما رافق الحملة المملوكية التى قادها السلطان فرج الى الشام سنة ١٤٠١ م لدفع تيمورلنك عن دمشق ، وشارك في وفد المفاوضة للصلح بين الدولتين : المملوكية والمغولية .

اما منبع الاهمية في هذه التفاصيل الخاصة بحياة ابن خلدون ، فهو انها تنبىء باصناف التجارب التى تمرس بها واودع منها في كتابه ، كما انها تدل على اتصاله الطويل بكثير من العلماء والمؤرخين في مصر والشام وغيرهما من البلاد ، بل تدل المراجع على ان اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها بالذات ادت الى تكوين مدرسة حوله من المعجبين به والمتلمذين على طريقته ، كما ادت الى قيام فئة من الغامطين لقامه والتندين بمقدرته .

واذا لم يتسع البحث هنا لاكثر من هذه الاشارة العابرة ، فان في اخبار تلاميذه ، والتابعين له باحسان وغير احسان ، برهانا على أن قصة المؤرخين في مصر ، في القرن الخامس عشر الميلادى ، لا تتم الا بذكر ابن خلدون ، والاشارة الى فضله ، ولو لم يتسع الأمر لشىء سوى كلمات معدودة .

اما اول اولئك التلاميذ فهو احمد بن على المقريزى ، الذى ولد بالقاهرة سنة ١٣٦٤ م ، بحارة برجوان بقسم الجمالية الحالى ، والمقصود بالحارة هنا الفندق او الخان او الوكالة على حد المصطلح المصرى في العصور الوسطى ، او العمارة الكبيرة على حد التعبير الحديث ، ولا يزال استعمال لفظ الحارة بالمعنى القديم سائدا ببلاد الشام .

وجاءت اسرة المقريزى الى القاهرة من بعلبك في حياة ابيه على ، واصل نسبتها يرجع الى حارة المقارزة بتلك المدينة الشامية القديمة ، ولا يسع الباحث هنا الا ان يشير الى الشبه الملحوظ بين هذه التسمية ولفظ مقريزى (Maccarese) وهى جهة بايطاليا قرب (٣) روما ، مما يحتمل معه ان تلك الحارة البعلبكية كانت سكنا لجالية من الجاليات الايطالية التى وفدت للتجارة ببلاد الشرق الادنى زمن الحروب الصليبية ، وأن اسرة المقريزى اكتسبت هذه التسمية لحلولها بتلك الحارة (٤) بعد خلوها من اهلها الأصليين .

ومهما يكن فالمعروف المقطوع به ان احمد بن على المقريزى نشا قاهريا ، بناحية من اعظم نواحى القاهرة امتلاء بالعمران والصخب وضوضاء الحياة (٥) ، وان جده لامه ، واسمه ابن الصايغ الحنفى ،

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، طبعة بولاق ، جـ١ ص٢ .

(٢) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، طبعة بولاق ، جـ١ ص٧ .

(٣) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يجد تعريفا لهذه الجهة بمختلف المراجع الجغرافية والموسوعات ، ماعدا اطلس التيمس الجديد (Times Modern Atlas) حيث ورد بفهرسه مانصه (Maccarese, torr. environs di Rome) وربما كان من لطيف الاتفاق أن لفظ (Macarisie) في الفرنسية وهو شديد الشبه بلفظ المقريزى ، اسم لمجموعة من النبات ، انظر : (Nouveau Larousse Illustré)..

(٤) جهد الكاتب ان يعثر على تلك الحارة حين زيارته بعلبك ولكنه لم يستطع أن يتعرف عليها او على موضعها من البلدة الحالية .

(٥) انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار ، طبعة بوق ، جـ٢ ص٩٥ ، ٩٦ .

هو الذى كفل تعليمه ، لضيق حال ابيه على فيما يبدو قبل ان يصبح من اصحاب الاملاك والعقار (١) ، ولذا اخذ جده بتنشئته على اصول الحنفية ، واكب هو على الدرس والتحصيل تحت ارشاد اساتذة عصره ، واظهر نجابة ومقدرة .

ثم مات ابن الصايغ سنة ١٣٨٤ م ، فترك المقريزى مذهب الحنفية ، وانتقل الى الشافعية ودرس الفقه دراسة واسعة ، واخذ من ثم يهاجم الحنفية في عنف استوجب لوم معاصريه له .

ثم التحق المقريزى بالخدم الحكومية ، فكان اول عهده بها ديوان الانشاء بالقلعة ، حيث ظل يعمل موقعا ـ اى كاتبا ـ حتى سنة ١٣٦٨م (٢) ، ثم غدا بعد ذلك نائبا من نواب الحكم ـ اى قاضيا ـ عند قاضى القضاة الشافعية ، فاماما لجامع الحاكم ، ومدرسا للحديث بالمدرسة المؤيدية . وفي سنة ١٣٩٨ م اختاره السلطان برقوق (وكان حفيا به مشجعا اياه) لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين .

وفي ذلك الوقت تزوج المقريزى وانجب ، اذ المعروف ان بنتا له ماتت بالطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية ، سنة ١٤٠٢ م .

وفي سنة ١٤٠٨ م انتقل المقريزى الى دمشق ، ليتولى النظر على اوقاف القلانسية والمارستان النورى ، وليقوم بتدريس الحديث بالمدرستين : الاشرفية والاقبالية هناك .

ثم لم يلبث ان عينه السلطان فرج بن برقوق كذلك نائبا للحكم بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف ان يكون المتنظرون على اوقافها قضاة بها .

لكن المقريزى ابى قبول هذا الشرف ، على الرغم من عرض الوظيفة عليه مرارا من قبل السلطان ، ويظهر انه سئم الخدم الحكومية ، وضاق بتكاليفها ، وأنه ملك من الموارد التى ربما ورثها عن اهله ما اغناه عن تضييع وقته في كسب العيش ، من طريق الدواوين ومجالس الحكم ، وكيفما كان الامر ترك المقريزى دمشق واعماله بها بعد اقامته عليها عشر سنوات تقريبا ، ورجع الى القاهرة خاليا من عمل او وظيفة ، ليتوفر على الدرس والاشتغال بالعلم ، ولا سيما التاريخ .

ومن اجل ذلك رحل المقريزى وعائلته سنة ١٤٣٠ م حاجا الى مكة ، وكان مجاورا بها قبلا ابان طلبه العلم ، بيد انه ظل مقيما بمكة تلك المرة الثانية حتى سنة ١٤٣٥ م ، واشتغل بها في تلك الاثناء بتدريس الحديث وبالتاليف في التاريخ .

ثم عاد المقريزى من بعدئذ الى القاهرة ، حيث امضى بقية حياته بحارة برجوان التى ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات ، ويظهر انه جعل من منزله بها مكانا لمدارسة تلاميذه ، وللتاليف الكثير في مختلف علوم عصره (٣) .

بدا المقريزى نشاطه العلمى الضخم بظهور تاريخ القاهرة المسمى « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهو كتاب عنى فيه صاحبه قبل كل شىء بدراسة الخطط حتى عرف بهذه التسمية حتى الآن ، وكان تاليفه اياه ما بين عامى ١٤١٧ و ١٤٣٦ م .

على انه يظهر ان المقريزى اعتمد ـ الى حد كبير ـ في تاليف هذا الكتاب الزاخر الذى يعد فخر مؤلفاته ، على كتاب صنفه قبله الاوحدى المؤرخ ، فنقل منه دون ان يشير اليه أو يعترف باخذه منه ، ورماه السخاوى من اجل ذلك بقوله : ان كتاب الخطط « مفيد لكونه (اى المقريزى) ظفر بمسودة الاوحدى فاخذها وزادها زوائد غير طائلة » (٤) .

بل ذكر السخاوى في موضع اخر ان الاوحدى « كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأفاد واجاد ، وبيض بعضها ، فبيضها التقى المقريزى ، ونسبها لنفسه مع زيادات » (٥) . وان المقريزى نفسه اعترف بانتفاعه بتلك المسودات (٦) .

ولم يستطع الاخصائيون من مستشرقى القرن التاسع عشر الميلادى أن يدفعوا تلك التهمة تماما عن المقريزى ، او يدلى احدهم فيها براى حاسم ، بل قال بصددها كاترمير (Quatremère) الفرنسى ان من

---

(١) نفس المؤلف والمرجع والجزء ، جـ٢ ص٩٢ ، ١٠٥ .

(٢) انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار ، طبعة بولاق ، جـ٢ ، ص٢٢٥ ، حيث ذكر المؤلف انه ظل في وظيفة الموقع بديوان الانشاء بالقلعة حتى تلك السنة .

(٣) ابو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب الملكية ، جـ٨ ، ص٢١٨ .

(٤) السخاوى : التبر المسبوك في ذيل السلوك ص٢٢ .

(٥) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ١ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(٦) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ١ ص٢٥٩ .

الفتنة والصواب ان نسكت عن هذه القضية ، وان نحذر الحكم فيها برأى قاطع (١) . على انه مما يسترعى النظر ان المقريزى نفسه لم يدفع هذه التهمة بشىء قاطع ، ولم يستطع ان يدلى فى سياق الرد عليها باكثر من قوله « حسب العالم ان يعلم ما قيل ، ويقف عليه » (٢) .

يضاف الى ذلك انه توجد بكتاب المواعظ شواهد داخلية تؤدى بالباحث الى كثير من الشك فى الاقل ، ومنها خلو بعض كتب المقريزى المتاخرة من عبارات واردة بكتاب المواعظ ، مثل ادلائه فى نسب الاكراد والايوبيين برأى هام ، وعدم تكراره لهذا الرأى على اهميته فى كتاب السلوك (٣) ، ومنها كذلك ما جاء بكتاب المواعظ بصدد رباط البغدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد ما نصه . « واخر من ادركنا فيه الشيخة ... فاطمة بنت عباش (٤) البغدادية ، توفيت فى ذى الحجة سنة اربع عشرة وسبعمائة » ، وهذا التاريخ ــ ان صح المتن وصحت الوفاة ــ انما يقع قبل مولد المقريزى (والاوحدى كذلك) بازيد من خمسين سنة (٥) .

ومهما يكن من شىء فالمقريزى صدر هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبة ، وتناول المدن والاثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق ، مبتدئا بالاسكندرية ، وعنى عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة طبعا ، فجاء الجزء الثانى منه ــ وهو نصف الكتاب ــ ثبتا زاخرا باحوال القاهرة ، واخبارها ، وطرق المعيشة بارجائها الواسعة فى العصور الوسطى .

ثم اتبع المقريزى هذا الكتاب بتاليف فى تاريخ الفسطاط ، سماه عقد جواهر الاسفاط من اخبار مدينة الفسطاط ، وهو فى الواقع تاريخ لمصر الإسلامية فى عهد الولاة . واتلى المقريزى ذلك بكتاب فى دولة الفاطميين بمصر ، واسمه اتعاظ الحنفا باخبار الخلفا (٦) ، حتى اذا فرغ منه فكر فى تاليف كتاب يكون تاريخا للايوبيين والمماليك ليتم به سلسلة مؤلفاته فى التاريخ المصرى الوسيط ، من الفتح العربى الى زمنه ، فكان كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو الكتاب الذى غدا اساسا رئيسا لكل التواريخ المصرية فى عصر الدولتين الايوبية والمملوكية الأولى والثانية .

ويلاحظ ان المقريزى كتب المؤلفات المتقدمة لتكون ذيلا على كتاب المواعظ والاعتبار ، وانه قصد فى كل منها ان يشرح ما اجمله من اخبار الدول الإسلامية المصرية التى تناولها قبلا فى بكر مؤلفاته .

ومن اجل ذلك كذلك شرع المقريزى فى التاليف فى كتب التراجم والسير ، واوغل فى مشروعين كبيرين من هذا النوع من الكتابة ، غير انه لم يتممهما لضخامة القياس الذى بنى عليه كلا منهما .

اما اول هذين المشروعين ، فهو كتاب المقفى الكبير ، وكان المقصود به ان يكون معجما لتراجم حكام مصر ورجالها من المسلمين والنصارى منذ اقدم العصور الى ما قبل عصره ، وقدر له ان يكون فى ثمانين مجلدا ، ولم يستطع ان ينجز منها سوى ستة عشر فقط

اما ثانيهما ، وهو كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الاعيان المفيدة ، فكان الغرض منه ان يكون معجما لتراجم معاصريه ، غير ان المقريزى تركه كذلك دون ان يفرغ من مراجعته .

وصرف المقريزى كثيرا من نشاطه الجم فى التاريخ الاسلامى العام ، فالف فى السيرة النبوية ، وفى قبائل العرب التى نزلت مصر منذ الفتح ، وفى جغرافية حضرموت بجنوب شبه جزيرة العرب ، وفى الدويلات الاسلامية بالحبشة ، كما اسهم بنصيب وافر فى التاريخ الاقتصادى والنميات Numismatics والتاريخ الاجتماعى ، حين الف فى الاوزان والاكيال ، والمقاييس والنقود ، وفى تاريخ المجاعات والطواعين . وربما كان اهم مؤلفاته هذه كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى امية وبنى هاشم ، وكتاب اغاثة الامة بكشف الغمة ، اذ رجع المقريزى ، فى الكتاب الاول من هذين الكتابين ، امر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الامويين والهاشميين الى عصبيات الجهالة القديمة ، واهمل جانب الحوادث

---

(١) انظر : (Quatremère : Mamlouks, I., p. XIII)

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، طبعة بولاق ، جـ١ ص١٢ ، وكذلك جـ٢ ص٢٥٦ ، حيث اشار المقريزى الى اتصاله بالاوحدى .

(٣) انظر مقدمتى للقسم الثالث من الجزء الاول من كتاب السلوك للمقريزى ، صفحة ى ــ ك .

(٤) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار ، طبعة بولاق جـ٢ ، ص٤٢٨ . انظر كذلك ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ص٢٢٦ ، حيث ورد اسم هذه السيدة الفاضلة فاطمة بنت عباش .

(٥) يلاحظ أن هذه العبارة منقولة من الطبعة الكاملة المعدودة احسن الطبعتين المعروفتين لهذا الكتاب ، وهى عبارة تتطلب تحقيقا دقيقا بعد مقابلة النسخ المخطوطة بعضها على بعض ولا يسع كاتب هذا الا ان يتمنى للمسيو جاستون فيت التوفيق فى اتمام طبعته الفاخرة لذلك الكتاب العظيم .

(٦) نشر الدكتور جمال الدين الشيال هذا الكتاب حديثا فى طبعة مزيدة عن طبعته الاوربية القديمة (دار الفكر العربى ، ١٩٤٩) .

الزبرة والحروب المستحرة ، والشخصيات المتنافرة ، التى لم تعد كلها ان تكون اسبابا طارئة على جذم ذلك الخلاف وجرثومته ، مترسما فى ذلك سبيل ابن خلدون وفلسفته فى المقدمة (١) .

اما الكتاب الثانى من هذين الكتابين ، فتناول المقريزى فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ اقدم العصور الى سنة ١٤٠٥ م وهى السنة التى الف فيها ذلك الكتاب ، وادى به البحث الى ان اسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين واقلية انما هو « سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد » (٢) ، وهو تخريج اقتصادى سليم مصدره كذلك مقدمة ابن خلدون وما جاء بها فى فصل الجباية وسبب قلتها وكثرتها ، وما يليه من الفصول المتفرعة على هذا المعنى (٣) بل ان تاثير ابن خلدون على المقريزى فى تاليف هذا الكتاب بالذات تعدى الى طريقة العرض والاسلوب وفواتح الابواب وخواتيمها ، فضلا عن الفكرة العامة (٤) .

والحقيقة ان المقريزى تاثر بابن خلدون ومقدمته فى هذين الكتابين وغيرهما من مؤلفاته تاثرا فاق حد الاعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بانها « لم يعمل مثالها ، وانه لعزيز ان ينال مجتهد منالها ، اذ هى زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الاشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والانباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبىء عن اصل كل موجود » (٥) . وهو وصف يدل فى وضوح على دراسة المقريزى لمقدمة ابن خلدون دراسة وافية ، كما يدل على دقة فهمه لمحتوياتها المتنوعة ، وتقديره لقيمتها العلمية بالقياس الى غيرها مما عرفه خلال قراءاته الدائبة التى يبدو انها لم تنقطع الا بوفاته سنة ١٤٤٢ م .

والواقع ان المقريزى كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع ، كثير الدأب والمثابرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد به ما خلفه من مؤلفات لم ير الضوء بعضها حتى الآن ، وان نظرة واحدة الى ثبت مؤلفاته لكفيلة بايقافنا على المامه بالخطط والتاريخ والترجمة ، والسكة والاوزان والمقاييس كما تقدم ، وهذا فضلا عن معرفته بعلم الحشرات (٦) والمعادن والطب والموسيقى ، وعلم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث . لكن اعظم اهتمامه كان موجها نحو التاريخ ، اذ كان مغرى به ، معنيا بتحقيقه والتاليف فيه ، فعرف منه جزءا كبيرا معرفة تامة ، وحفظ منه كثيرا عن ظهر قلب . واقر بذلك كله تلميذه الذى عرف معاصريه من المؤرخين ، وخليفته الذى اقتفى أثره ومناهجه فى كتابة التاريخ ، وهو ابو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، حين قال فى كتاب النجوم الزاهرة : « وفى الجملة هو اعظم من رأيناه فى علم التاريخ وضروبه ، مع معرفتى لمن عاصره من علماء المؤرخين ، والفرق بينهم ظاهر ، وليس فى التعصب (٧) فائدة » .

اما عن اخلاق المقريزى الشخصية ، فالمعاصرون له اجمعوا على انه عاش رجلا فاضلا دينا ، مجدا ، امينا فى عمله ، حتى ان السخاوى ــ مع شدته فى نقد كتاب المواعظ والاعتبار ــ يقول ان المقريزى كان على جانب عظيم من « حسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ، والمحبة فى المذاكرة ، والمداومة على التهجد والاوراد ، وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة ، والملازمة لبيته » ، وانه « حمدت سيرته فى مباشراته » (٨) اى فى الوظائف التى تولاها قبل ان ينصرف الى حياة الدرس الخالية .

وحفل عصر المقريزى بكثير من المشتغلين بالتاريخ ، وربما بذ بعضهم اوسع منه معرفة بدخائل ذلك العصر ، نظرا لتقلبهم فى الوظائف الكبرى بالدولة المصرية ، ومن هؤلاء ابن حجر والعينى وخليل بن شاهين وابن عرب شاه والخالدى .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، طبعة بولاق ، ص١٠٧ وما بعدها .

(٢) المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة ، نشر زيادة والشيال ، ص٤ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، طبعة بولاق ، ص٢٣٢ ، وما بعدها .

(٤) المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة ، نشر زيادة والشيال صفحة د .

(٥) السخاوى : الضوء اللامع جـ٤ ص١٤٤ . انظر المرجع نفسه جـ٢ ص٢٤ ، حيث توجد ملاحظة عابرة الى ما كان من عظيم الصلة والصداقة بين المقريزى وابن خلدون ، وانظر كذلك المقريزى : المواعظ والاعتبار ، طبعة بولاق ، جـ١ ص٥٠ حيث اشار المقريزى الى ابن خلدون اشارة التلميذ لاستاذه ، ولم يتحرج أن يستشهد بعبارة لاذعة له فى وصف المصريين ، ونصها حسبما ورد بنفس المرجع والجزء والصفحة : « قال لى شيخنا الاستاذ ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : اهل مصر كانما فرغوا من (يوم) الحساب » .

(٦) انظر كتاب نحل عبر النحل الذى نشره الدكتور جمال الدين الشيال (مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٤٦) .

(٧) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، جـ٧ ص٢٧٩ .

(٨) السخاوى : التبر المسبوك ، ص٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

خطط المقريزى

كتاب المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك باخبار إقليم مصر
والنيل وذكر القاهرة
ومايتعلق بها وبإقليميها..
تأليف سيدنا الشيخ
لإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على
ابن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى
رحمه الله ونفع بعلومه
آمين.

تصدره
دار التحرير للطبع والنشر
عن
طبعة بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى عرّف وفهم ، وعلم الانسان ما لم يكن يعلم ، وأسبغ على عباده نعما باطنة وظاهرة ، ووالى عليهم من مزيد آلائه مننا متظافرة متواترة ، وبثهم فى أرضه حينا يتقلبون ، واستخلفهم فى ماله فهم به يتمعون . وهدى قوما الى اقتناص شوارد المعارف والعلوم ، وشوّقهم للتفنن فى مسارح التدبر والركض بميادين الفهوم ، وأرشد قوما الى الانقطاع من دون الخلق اليه ، ووفقهم للاعتماد فى كل أمر عليه . وصرف آخرين عن كل مكرمة وفضيلة ، وقيض لهم قرناء قادوهم الى كل ذميمة من الأخلاق ورذيلة . وطبع على قلوب آخرين فلا يكادون يفقهون قولا ، وثبطهم عن سبل الخيرات فما استطاعوا قوة ولا حولا . ثم حكم على الكل بالفناء ، ونقلهم جميعا من دار التمحيص والابتلاء ، الى برزخ البيود والبلاء ، وسيحشرهم أجمعين الى دار الجزاء ، ليوفى كل عامل منهم عمله ، ويسأله عما أعطاه وخوله ، وعن موقفه بين يديه سبحانه وما أعد له ، لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

أحمده سبحانه حمد من علم أنه اله لا يعبد الا اياه ، ولا خالق للخلق سواه ، حمدا يقتضى المزيد من النعماء ، ويوالى المنن بتجدد الآلاء .

وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله ، ونبيه وخليله ، سيد البشر ، وأفضل من مضى وغبر ، الجامع لمحاسن الأخلاق والسير ، والمستحق لاسم الكمال على الاطلاق من البشر ، الذى كان نبيا وآدم بين الماء والطين ، ورقم اسمه من الأزل فى عليين ، ثم تنقل من الأصلاب الفاخرة الزكية ، الى الأرحام الطاهرة المرضية ، حتى بعثه الله عز وجل الى الخلائق أجمعين ، وختم به الأنبياء والمرسلين ، وأعطاه ما لم يعط أحدا من العالمين ، وعلى آله وصحابته والتابعين ، وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين .

وبعد ، فان علم التاريخ من أجل العلوم قدرا ، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا ، لما يحويه من المواعظ والانذار بالرحيل الى الآخرة عن هذه الدار ، والاطلاع على مكارم

الأخلاق ليقتدى بها ، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى .

لا جرم أن كانت الأنفس الفاضلة به وامقة ، والهمم العالية اليه مائلة وله عاشقة . وقد صنف فيه الأئمة كثيرا ، وضمن الأجلة كتبهم منه شيئا كبيرا .

وكانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لا زلت مذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الاشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان من سكان ديارها * .

فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة ، وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب ، أو يحويها لعزتها وغرابتها اهاب . الا أنها ليست بمرتبة على مثال ، ولا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال . فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم الماضية والقرون الخالية ، وما بقى بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يفنيه البلى والقدم ، ولم يبق الا أن يمحو رسمها الفناء والعدم .

وأذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة ، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع ، وحوته من المبانى البديعة الأوضاع ، مع التعريف بحال من أسس ذلك

(*) [illegible] نسخة بولاق .

من أعيان الأماثل ، والتنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضل . وأنثر خلال ذلك نكتا لطيفة ، وحكما بديعة شريفة ، من غير اطالة ولا اكثار ، ولا اجحاف مخل بالغرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين ، وطريق بين بين .

فلهذا سميته « كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » .

وانى لأرجو أن يحظى — ان شاء الله تعالى — عند الملوك ، ولا ينبو عنه طباع العامى والصعلوك ، ويجله العالم المنتهى ، ويعجب به الطالب المبتدى ، وترضاه خلائق العابد الناسك ، ولا يمجه سمع الخليع الفاتك ، ويتخذه أهل البطالة والرفاهية سمرا ، ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبرا ، يستدلون به على عظيم قدرة الله تعالى فى تبديل الابدال ، ويعرفون به عجائب صنع ربنا سبحانه من تنقل الأمور الى حال بعد حال .

فان كنت أحسنت فيما جمعت ، وأصبت فى الذى صنعت ووضعت ، فذلك من عميم منن الله تعالى وجزيل فضله ، وعظيم أنعمه على وجليل طوله . وان أنا أسأت فيما فعلت ، وأخطأت اذ وضعت ، فما أجدر الانسان بالاساءة والعيوب ، اذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب :

وما أبرىء نفسى اننى بشر
أسهو وأخطىء ما لم يحمنى قدر

ولا ترى عذرا أولى بذى زلل
من أن يقول مقرا : اننى بشر

فليسبل الناظر فى هذا التأليف على مؤلفه ذيل ستره ان مرت به هفوة ، وليغض تجاوزا وصفحا ان وقف منه على كبوة أو نبوة ، فأى جواد — وان عتق — ما يكبو ؟ وأى عضب مهند لا يكل ولا ينبو ؟ لا سيما والخاطر بالأفكار مشغول ، والعزم لالتواء الأمور وتعسرها فاتر محلول ، والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل ، والقلب لتوالى المحن وتواتر الاحن عليل :

يعاندنى دهرى كأنى عدوه
وفى كل يوم بالكريهة يلقانى
فان رمت شيئا جاءنى منه ضده
وان راق لى يوما تكدر فى الثانى

اللهم غفرا ما هذا من التبرم بالقضاء ، ولا التضجر بالمقدور ، بل أنة سقيم ونفثة مصدور ، يستروح الى أبدى التوجع والأنين ، ويجد خفا من ثقله اذا باح بالشكوى والحنين :

ولو نظروا بين الجوانح والحشا
رأوا من كتاب الحب فى كبدى سطرا
ولو جربوا ما قد لقيت من الهوى
اذن عذرونى أو جعلت لهم عذرا

والله أسأل أن يحلى هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء ، كما أعوذ به من تطرق أيدى الحساد اليه والجهلاء ، وأن يهدينى فيه وفيما سواه من الأقوال والأفعال الى سواء السبيل ... انه حسبنا ونعم الوكيل ، وفيه جلت قدرته لى سلو من كل حادث ، وعليه عز وجل أتوكل فى جميع الحوادث .. لا اله الا هو ، ولا معبود سواه .

ذكر الرؤوس الثمانية

اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب ، وهى : الغرض ، والعنوان ، والمنفعة ، والمرتبة ، وصحة الكتاب ، ومن أى صناعة هو ، وكم فيه من أجزاء ، وأى أنحاء التعاليم المستعملة فيه ... فنقول :

أما الغرض فى هذا التأليف ، فانه جمع ما تفرق من أخبار أرض مصر وأحوال سكانها كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار اقليم مصر ، وهى التى اذا حصلت فى ذهن انسان ، اقتدر على أن يخبر فى كل وقت بما كان فى أرض مصر من الآثار الباقية والبايدة ، ويقص أحوال من ابتدأها ومن حلها ، وكيف كانت مصاير أمورهم وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر .

وأما عنوان هذا الكتاب ، أعنى الذى وسمته به ، فانى لما فحصت عن أخبار مصر ، وجدتها مختلطة متفرقة ، فلم يتهيأ لى اذ جمعتها أن أجعل وضعها مرتبا على السنين ، لعدم ضبط وقت كل حادثة ، لا سيما فى الأعصر الخالية ، ولا أن أضعها على أسماء الناس * لعلل أخر تظهر عند تصفح هذا التأليف .

فلهذا فرقتها فى ذكر الخطط والآثار ، فاحتوى كل فصل منها على ما يلايمه ويشاكله ، وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما

(*) ص٣ ، ج١ ، ط. بولاق .

تفرق وتبدد من أخبار مصر . ولم أتحاش من تكرار الخبر اذا احتجت اليه ، بطريقة يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب ، كى يستغنى مطالع كل فصل بما فيه عما فى غيره من الفصول ، فلذلك سميته « كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » .

وأما منفعة هذا الكتاب ، فان الأمر فيها يتبين من الغرض فى وضعه ومن عنوانه ، أعنى أن منفعته هى أن يشرف المرء فى زمن قصير على ما كان فى أرض مصر من الحوادث والتغييرات فى الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة ، فتتهذب بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه ، فيحب الخير ويفعله ، ويكره الشر ويتجنبه ، ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالاعراض عنها والاقبال على ما يبقى .

وأما مرتبة هذا الكتاب ، فانه من جملة أحد قسمى العلم اللذين هما العقلى والنقلى . فينبغى أن يتفرغ لمطالعته وتدبر مواعظه بعد اتقان ما تجب معرفته من العلوم النقلية والعقلية . فانه يحصل بتدبره ، لمن أزال الله أكنة قلبه وغشاوة بصره ، نتيجة العلم بما صار اليه أبناء جنسه ، بعد التخول فى الأموال والجنود ، من الفناء والبيود ... فاذن مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم العقلية والنقلية ، ليعرف منه كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبل .

وأما واضع هذا الكتاب ومرتبه ، فاسمه أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد ، ويعرف بالمقريزى ، رحمه الله تعالى . ولد بالقاهرة المعزية من ديار مصر بعد سنة ستين وسبعمائة من سنى الهجرة المحمدية . ورتبه من العلوم ما يدل عليه هذا الكتاب وغيره مما جمعه وألفه .

وأما من أى علم هذا الكتاب ، فانه من علم الأخبار . وبها عرفت شرائع الله تعالى التى شرعها ، وحفظت سنن أنبيائه ورسله ، ودون هداهم الذى يقتدى به من وفقه الله تعالى الى عبادته ، وهداه الى طاعته ، وحفظه من مخالفته . وبها نقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة ، وكيف حل بهم سخط الله تعالى لما أتوا ما نهوا عنه . وبها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة ما دونوه من العلوم والصنائع ، وتأتى لهم علم ما غاب عنهم من الأقطار الشاسعة والأمصار النائية ، وغير ذلك مما لا ينكر فضله .

ولكل أمة من أمم العرب والعجم ، على تباين آرائهم واختلاف عقائدهم ، أخبار عندهم معروفة مشهورة ذائعة بينهم . ولكل مصر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرت به ، يعرفها علماء ذلك المصر فى كل عصر . ولو استقصيت ما صنف علماء العرب والعجم فى ذلك لتجاوز حد الكثرة ، وعجزت القدرة عن حصره .

وأما أجزاء هذا الكتاب فانها سبعة :

أولها : يشتمل على جمل من أخبار أرض مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها .

وثانيها : يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها .

وثالثها : يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها .

ورابعها : يشتمل على أخبار القاهرة وخلفائها وما كان لهم من الآثار .

وخامسها : يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال .

وسادسها : يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها .

وسابعها : يشتمل على ذكر الأسباب التي نشأ عنها خراب اقليم مصر .

وقد قسمت كل جزء من هذه الأجزاء السبعة عدة أقسام .

وأما أي أنحاء التعاليم التي قصدت في هذا الكتاب ، فاني سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهي : النقل من الكتب المصنفة في العلوم ، والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس ، والمشاهدة لما عاينته ورأيته .

فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم ، فاني أعزو كل نقل الى الكتاب الذي نقلته منه ، لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته . فكثير ممن ضمني واياه العصر واشتمل علينا المصر ، صار لقلة الماله بالعلوم ، وقصور باعه في معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس ، يهجم بالانكار على ما لا يعرفه ، ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله . وليس ما تضمنه هذا الكتاب ، من العلم الذي يقطع عليه ولا يحتاج في الشريعة اليه . وحسب العالم أن يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه .

وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ ، فاني — في الغالب والأكثر — أصرح باسم من حدثني ، الا ألا يحتاج الى تعيينه ، أو لا أكون قد أسندته ، وقل ما يتفق مثل ذلك .

وأما ما شاهدته ، فاني أرجو أن أكون — ولله الحمد — غير متهم ولا ظنين .

وقد قلت في هذه الرؤوس الثمانية ما فيه قنع وكفاية ، ولم يبق الا أن أشرع فيما قصدت . وعني أن أجعل الكلام في كل خط من الأخطاط ، وفي كل أثر من الآثار على حدته ، ليكون الطلب بما يشتمل عليه من الأخبار أنجح وأكثر فائدة وأسهل تناولا . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . وفوق كل ذي علم عليم .

***

فصل : أول من رتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسبابها في ديوان جمعه ، أبو عمر محمد ابن يوسف الكندي . ثم كتب بعده القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي كتابه المعروف بـ « المختار في ذكر الخطط والآثار » ، ومات في سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سني الشدة .

فدثر أكثر ما ذكراه ، ولم يبق الا يسير وموضع بلقع ، بما حل بمصر من سني الشدة المستنصرية من سنة سبع وخمسين الى سنة أربع وستين وأربعمائة من الغلاء والوباء ، فمات أهلها ، وخربت ديارها ، وتغيرت أحوالها ، واستولى الخراب على عمل فوق من الطرفين بجانبي الفسطاط الغربي والشرقي .

[illegible]

فأما الغربي فمن القنطرة التي والكوم ، حيث الى قلت الآن قريبا من باب القنطرة خارج مدينة مصر ، الى الشرف المعروف الآن بالرصد وانت نظر الى القرافة الكبرى .

وأما الشرقي فمن طرفه بركة الحبش التي على القرافة الى نحو جامع أحمد بن طولون .

ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالي مصر في سنة ست وستين وأربعمائة ، وهذه المواضع خاوية على عروشها ، خالية من سكانها وأنيسها ، قد أبادهم الوباء والتباب ، وشتتهم الموت والخراب . ولم يبق بمصر الا بقايا من الناس كأنهم أموات ، قد اصفرت وجوههم ، وتغيرت سحنتهم من غلاء الأسعار وكثرة الخوف من العسكرية ، وفساد طوائف العبيد والملحية ، ولم يجد من يزرع الأراضي .

هذا ، والطرقات قد انقطعت بحرا وبرا الا بخفارة وكلفة كثيرة ، وصارت القاهرة أيضا يبابا داثرة . فأباح الناس من العسكرية والملحية والأرمن ، وكل من وصلت قدرته الى عمارة ، أن يعمر ما شاء في القاهرة ، مما خلا من دور الفسطاط بموت أهلها . فأخذ الناس في هدم المساكن ونحوها بمصر ، وعمروا بها في القاهرة . وكان هذا أول وقت اختط الناس فيه بالقاهرة .

ثم كان الشيء بعد القضاعي ، على الخطط والتعريف بها ، الشريف أبو عبد الله محمد ابن بركات النحوي ، في تأليف لطيف ، نبه فيه الأجل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، على مواضع قد اغتصبت وتملكت بعد ما كانت أحباسا .

ثم كتب الشريف محمد بن أسعد الجواني كتاب « النقط بعجم ما أشكل من الخطط » ، نبه فيه على معالم قد جهلت ، وآثار قد دثرت .

وآخر من كتب في ذلك القاضي تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج كتاب « ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » في الخطط ، بين فيه جملا من أحوال مصر وخططها ، الى أيام ملوك مصر وعشرين وسبعمائة ، فكان بعده معظم ذلك في وباء سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، ثم في وباء سنة احدى وستين ، ثم في غلاء سنة ست وسبعين وسبعمائة .

وكتب القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب « الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة » ، فتح فيه بابا كانت الحاجة داعية اليه .

ثم تراجعت العمارة من بعده ، في الأيام الناصرية (محمد بن قلاوون) بالقاهرة وظواهرها ، الى أن كانت تضيق على أهلها ، حتى حل بها وباء سنة تسع وأربعين ، وسنة احدى وستين ، ثم غلاء سنة ست وسبعين ، فخربت بها عدة أماكن .

فلما كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة ، شمل الخراب القاهرة ومصر وعامة الاقليم . وسأورد من ذكر الخطط ما تصل اليه قدرتي ان شاء الله تعالى .

ذكر طرف من هيئة الأرض

اعلم أنه لما كانت مصر قطعة من الأرض ، تعين — قبل التعريف بمواضعها من الأرض ،

وتبيين موضع الأرض من الفلك — أن أذكر طرفا من هيئة الأفلاك ، ثم أذكر صورة الأرض وموضع الأقاليم منها ، وأذكر محل مصر من الأرض وموضعها من الأقاليم، وأذكر حدودها واشتقاقها وفضائلها وعجائبها وكنوزها وأخلاق أهلها ، وأذكر نيلها وخلجانها وكورها ومبلغ خراجها ، وغير ذلك مما يتعلق بها ، قبل الشروع فى ذكر خطط مصر والقاهرة ، فأقول :

علم النجوم ثلاثة أقسام :

الأول : معرفة تركيب الأفلاك ، وكمية الكواكب ، وأقسام البروج ، وأبعادها ، وعظمها ، وحركتها . ويقال لهذا القسم علم الهيئة .

والقسم الثانى : علم الزيج وعلم التقويم .

والقسم الثالث : معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج على الحوادث قبل كونها ، ويسمى هذا القسم علم الأحكام .

والغرض هنا ايراد نبذ من علم الهيئة تكون توطئة لما يأتى ذكره .

اعلم أن الكواكب أجسام كريات ، والذى أدرك منها الحكماء بالرصد ألف كوكب وتسعة وعشرون كوكبا . وهى على قسمين : سيارة ، وثابتة . فالسيارة سبعة ، وهى زحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر . وقد نظمت فى بيت واحد وهو :

زحل شرى مريخه من شمسه
فتزاهرت بعطارد الأقمار

ويقال لهذه السبعة : الخنس ، وقيل انها التى عناها الله تعالى بقوله : « فلا أقسم بالخنس . الجوارى الكنس » ، والتى عناها الله تعالى بقوله « فالمدبرات أمرا » ، وقيل لها الخنس ، لاستقامتها فى سيرها ورجوعها . وقيل لها الكنس ، لأنها تجرى فى البروج ثم تكنس ، أى تستتر ، كما يكنس الظبى .

وقيل : الكنس والخنس منها خمسة ، وهى ما سوى الشمس * والقمر ، سميت بذلك من الانخناس، وهو الانقباض . وفى الحديث: « الشيطان يوسوس للعبد ، فاذا ذكر الله خنس » ، أى انقبض ورجع ، فيكون الخنس على هذا فى الكواكب بمعنى الرجوع ، وسميت بالكنس من قولهم : كنس الظبى اذا دخل الكناس ، وهو مقره . فالكنس على هذا فى الكواكب بمعنى اختفائها تحت ضوء الشمس .

ويقال لهذه الكواكب : المتحيرة ، لأنها ترجع أحيانا عن سمت مسيرها بالحركة الشرقية وتتبع الغربية فى رأى العين ، فيكون هذا الارتداد لها شبه التحير .

وهذه الأسماء التى لهذه الكواكب يقال انها مشتقة من صفاتها .

فزحل مشتق من زحل فلان اذا أبطأ ، سمى بذلك لبطء سيره وقيل للزحل ، والزحل الحقد ، وهو بزعمهم يدل على ذلك . ويقال انه المراد فى قوله تعالى : «والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب» .

(*) ص ٥ ، ج ١ ، ط . بولاق .

والمشترى سمى بذلك لحسنه ، كأنه اشترى الحسن لنفسه ، وقيل لأنه نجم الشراء والبيع ، ودليل الربح والمال فى قولهم .

والمريخ مأخوذ من المرخ ، وهو شجر يحتك بعض أغصانه ببعض فيورى نارا ، سمى بذلك لاحمراره . وقيل المريخ سهم لا ريش له ، اذا رمى به لا يستوى فى ممره ، وكذا المريخ فيه التواء كثير فى سيره ، ودلالته بزعمهم تشبه ذلك .

والشمس لما كانت واسطة بين ثلاثة كواكب علوية لأنهم من فوقها ، وثلاثة سفلية لأنهم من تحتها ، سميت بذلك لأن الواسطة التى فى المخنقة تسمى شمسة .

والزهرة من الزاهر ، وهو الأبيض النير من كل شىء .

وعطارد هو النافذ فى كل الأمور ، ولذلك يقال له أيضا الكاتب ، فانه كثير التصرف مع ما يقارنه ويلابسه من الكواكب .

والقمر مأخوذ من القمرة ، وهى البياض ، والأقمر : الأبيض .

ويقال لزحل كيوان ، وللمشترى تير البرجيس أيضا ، وللمريخ بهرام ، وللشمس مهر ، وللزهرة أياهيد وسدحت أيضا ، ولعطارد هرمس ، وللقمر ماه . وقد جمعت فى بيت واحد وهو هذا :

لا زلت تبقى وترقى للعلا أبدا
ما دام للسبعة الأفلاك احكام

مهر وماه وكيوان وتير معا
وهرمس وأياهيد وبهرام

ويقال لما عدا هذه الكواكب السبعة من بقية نجوم السماء : الكواكب الثابتة ، سميت بذلك لثباتها فى الفلك بموضع واحد ، وقيل لبطء حركتها ، فانها تقطع الفلك بزعمهم بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة شمسية مرة واحدة .

ولكل كوكب من الكواكب السبعة السيارة فلك من الأفلاك يخصه .

والأفلاك أجسام كريات مشفات ، بعضها فى جوف بعض ، وهى تسعة : أقربها الينا فلك القمر ، وبعده فلك عطارد ، ثم بعده فلك الزهرة ، وبعده فلك الشمس ، وفوقه فلك المريخ ، ثم فلك المشترى ، وفوقه فلك زحل ، ثم فلك الثوابت وفيه كل كوكب يرى فى السماء سوى السبعة السيارة ، ومن فوق فلك الثوابت الفلك المحيط ، وهو الفلك التاسع ويسمى الأطلس ، وفلك الأفلاك ، وفلك الكل .

وقد اختلف فى الأفلاك : فقيل هى السموات ، وقيل بل السموات غيرها ، وقيل بل هى كرية ، وقيل غير ذلك ، وقيل الفلك الثامن هو الكرسى ، والفلك التاسع هو العرش ، وقيل غير ذلك .

وهذا الفلك التاسع دائم الدوران كالدولاب ، ويدور فى كل أربعة وعشرين ساعة مستوية دورة واحدة . ودورانه يكون أبدا من المشرق الى المغرب . ويدور بدورانه جميع الأفلاك الثمانية ، وما حوته من الكواكب ، دورانا حركته قسرية لادارة التاسع لها . وعن حركة التاسع المذكور يكون

الليل والنهار ، فالنهار مدة بقاء الشمس فوق أفق الأرض ، والليل مدة غيبوبة الشمس تحت أفق الأرض .

وفلك الكواكب الثابتة مقسوم باثنى عشر قسما كحجز البطيخة ، كل قسم منها يقال له برج ، وهى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

وكل برج من هذه البروج الاثنى عشر ينقسم ثلاثين قسما ، يقال لكل قسم منها درجة . وكل درجة من هذه الثلاثين مقسومة ستين قسما ، يقال لكل قسم منها دقيقة . وكل دقيقة من هذه الستين مقسومة ستين قسما ، يقال لكل قسم منها ثانية ... وهكذا الى الثوالث والروابع والخوامس الى الثوانى عشر وما فوقها من الأجزاء .

وكل ثلاثة بروج تسمى فصلا ، فالزمان على ذلك أربعة فصول ، وهى : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء .

وجهات الأقطار أربعة : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب .

والأركان أربعة : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

والطبائع أربعة : الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة .

والأخلاط أربعة : الصفراء ، والسوداء ، والبلغم ، والدم .

والرياح أربعة : الصبا ، والدبور ، والشمال ، والجنوب .

فالبروج : منها ثلاثة ربيعية ، صاعدة فى الشمال ، زائدة النهار على الليل ، وهى الحمل والثور والجوزاء . وثلاثة صيفية ، هابطة فى الشمال ، آخذة الليل من النهار ، وهى السرطان والأسد * والسنبلة . وثلاثة خريفية ، هابطة فى الجنوب زائدة الليل على النهار ، وهى : الميزان والعقرب والقوس . وثلاثة شتوية ، صاعدة فى الجنوب آخذة النهار من الليل ، وهى الجدى والدلو والحوت .

والفلك المحيط — كما تقدم — دائم الدوران كالدولاب ، يدور أبدا من المشرق الى المغرب فوق الأرض ، ومن المغرب الى المشرق تحتها . فيكون دائما نصف الفلك — وهو ستة بروج بمائة وثمانين درجة — فوق الأرض ، ونصفه الآخر — وهو ستة بروج بمائة وثمانين درجة — تحت الأرض .

وكلما طلعت من أفق المشرق درجة من درجات الفلك التى عدتها ثلثمائة وستون درجة ، غرب نظيرها فى أفق المغرب من البرج السابع ، فلا يزال دائما ستة بروج طلوعها بالنهار ، وستة بروج طلوعها بالليل .

والأفق عبارة عن الحد الفاصل من الأرض بين المرئى والخفى من السماء .

والفلك يدور على قطبين : شمالى وجنوبى ، كما يدور الحق على قطبى المخروطة ، ويقسم الفلك خط من دائرة تقسمه

(*) صبا ، ج١ ، ط. بولاق ×

نصفين متساويين ، بعدهما من كلا القطبين سواء ، وتسمى هذه الدائرة دائرة معدل النهار ، فهى تقاطع فلك البروج . ودائرة فلك البروج تقاطع دائرة معدل النهار . ويميل نصفها الى الجانب الشمالى بقدر أربع وعشرين درجة تقريبا ، وهذا النصف فيه قسمة البروج الستة الشمالية ، وهى من أول الحمل الى آخر السنبلة . ويميل نصفها الثانى عنها الى الجنوب بمثل ذلك ، وفيه قسمة البروج الستة الجنوبية ، وهى من أول برج الميزان الى آخر برج الحوت .

وموضع تقاطع هاتين الدائرتين — أعنى دائرة معدل النهار ودائرة فلك البروج — من الجانبين ، هما نقطتا الاعتدالين ، أعنى رأس الحمل ورأس الميزان .

ومدار الشمس والقمر وسائر النجوم ، على محاذاة دائرة فلك البروج دون دائرة معدل النهار . وتمر الشمس على دائرة معدل النهار عند حلولها بنقطتى الاعتدالين فقط ، لأنها موضع تقاطع الدائرتين ، وهذا هو خط الاستواء الذى لا يختلف فيه الزمان بزيادة الليل على النهار ، ولا النهار على الليل ، لأن ميل الشمس عنه الى كلا الجانبين ، الشمالى والجنوبى ، سواء .

فالشمس تدور الفلك ، وتقطع الاثنى عشر برجا ، فى مدة ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم بالتقريب ، وهذه هى مدة السنة الشمسية ، وتقيم فى كل برج ثلاثين يوما وكسرا من يوم ، وتكون أبدا بالنهار ظاهرة فوق الأرض وبالليل بخلاف ذلك .

واذا حلت فى البروج الستة الشمالية — التى هى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة — فانها تكون مرتفعة فى الهواء ، قريبة من سمت رؤوسنا ، وذلك زمن فصل الربيع وفصل الصيف .

واذا حلت فى البروج الجنوبية — وهى الميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت — كان فصل الخريف وفصل الشتاء ، وانحطت الشمس وبعدت عن سمت الرؤوس .

وزعم وهب بن منبه أن أول ما خلق الله تعالى من الأزمنة الأربعة الشتاء ، فجعله باردا رطبا ، وخلق الربيع فجعله حارا رطبا ، وخلق الصيف فجعله حارا يابسا ، وخلق الخريف فجعله باردا يابسا .

وأول الفصول ، عند أهل زماننا ، الربيع . ويكون فصل الربيع عندما تنتقل الشمس من برج الحوت .

وقد اختلف القدماء فى البداية من الفصول : فمنهم من اختار فصل الربيع وصيره أول السنة ، ومنهم من اختار تقديم الانقلاب الصيفى ، ومنهم من اختار تقديم الاعتدال الخريفى ، ومنهم من اختار تقديم الانقلاب الشتوى .

فاذا حلت أول جزء من برج الحمل ، استوى الليل والنهار ، واعتدل الزمان ، وانصرف الشتاء ، ودخل الربيع ، وطاب الهواء ، وهب النسيم ، وذاب الثلج ، وسالت الأودية ، ومدت الأنهار — فيما عدا مصر — ونبت العشب ، وطال الزرع ، ونما الحشيش ، وتلألأ الزهر ، وأورق الشجر ، وتفتح النور ،

واخضر وجه الأرض ، وتتجت البهائم ، ودرت الضروع ، وأخرجت الأرض زخرفها وازينت ، وصارت كصبية شابة قد تزينت للناظرين .

ولله در القائل ، وهو الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد اليعمرى ، رحمه الله تعالى :

واستنشقوا ليهنّوا الربيع فانه
نعم النسيم وعنده ألطاف

يغذى الجسوم نسيمه وكأنه
روح حواها جوهر شفاف

وقال ابن قتيبة : ومن ذلك الربيع يذهب الناس الى أنه الفصل الذى يتبع الشتاء ، ويأتى فيه النور والورد ، ولا يعرفون الربيع غيره .

والعرب تختلف فى ذلك : فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تدرك فيه الثمار ، وهو الخريف ، وفصل الشتاء بعده . ثم فصل الصيف بعد الشتاء ، وهو الوقت الذى تدعوه العامة الربيع . ثم فصل القيظ ، وهو الذى تدعوه العامة الصيف .

ومن العرب من يسمى الفصل الذى يعتدل وتدرك فيه الثمار — وهو الخريف — الربيع الأول ، ويسمى الفصل الذى يتلوه الشتاء ، ويأتى فيه الكمام والنور ، الربيع الثانى . وكلهم مجتمعون على أن الربيع هو الخريف .

فاذا حلت الشمس آخر برج الجوزاء وأول برج السرطان ، تناهى طول النهار وقصر الليل ، وابتدأ نقص النهار وزيادة * الليل ، وانصرم فصل الربيع ، ودخل فصل الصيف ، واشتد الحر ، وحمى الهواء ، وهبت السمائم ، ونقصت المياه الا بمصر ، ويبس العشب ، واستحكم الحب ، وأدرك حصاد الغلال ، ونضجت الثمار ، وسمنت البهائم ، واشتدت قوة الأبدان ، ودرت أخلاف النعم ، وصارت الأرض كأنها عروس .

فاذا بلغت آخر برج السنبلة وأول برج الميزان ، تساوى الليل والنهار مرة ثانية ، وأخذ الليل فى الزيادة والنهار فى النقصان ، وانصرم فصل الصيف ودخل فصل الخريف ، فبرد الهواء ، وهبت الرياح ، وتغير الزمان ، وجفت الأنهار ، وغارت العيون ، واصفر ورق الشجر ، وصرمت الثمار ، ودرست البيادر ، واختزن الحب ، واقتنى العشب ، واغبر وجه الأرض الا بمصر ، وهزلت البهائم ، وماتت الهوام ، وانحجرت الحشرات ، وانصرف الطير والوحش يريد البلاد الدافئة ، وأخذ الناس يخزنون القوت للشتاء ، وصارت الدنيا كأنها امرأة كهلة قد أدبرت وأخذ شبابها يولى .

ولله در القائل — وهو الامام عز الدين أبو الحسن أحمد بن على بن معقل الأزدى المهلبى الحمصى — حيث يقول :

لله فصل الخريف المستلذ به
برد الهواء لقد أبدى لنا عجبا

أهدى الى الأرض من أوراقه ذهبا
والأرض من شأنها أن تهدى الذهبا

وقال أيضا :

لله فصل الخريف فصلا
رقت حواشيه فهو رائق

(*) ص٧ ، جـ١ ، ط. بولاق .

فالماء يجرى من قلب سالٍ[1] ؟
والدمع يبدو بوجه عاشق

فبرد هذا ولون هذا
يلذه ذائق ووامق

وقال أيضا :

أتى فصل الخريف بكل طيب
وحسن معجب قلبا وعينا

أرانا الدوح مصفرا نضارا
وصاف الماء مبيضا لجينا

فأحسن كل احسان الينا
وأنعم كل انعام علينا

وقال آخر يذم الخريف :

خذ فى التدثر فى الخريف فانه
مستوبل ونسيمه خطاف

يجرى مع الأجسام جرى حياتها
كصديقها ، ومن الصديق يُخاف

وقال آخر :

ياعائبا فصل الخريف وغائبا
عن فضله فى ذمه لزمانه

لا شىء ألطف منه عندى موقعا
أبدا يعرى الغصن من قمصانه

وتراه يفرش تحته أثوابه
فاعجب لرأفته وفرط حنانه

وألذ ساعات الوصال اذا دنا
وقت الرحيل وحان حين أوانه

(١) لعل صوابه « بقلب سال » لانه من مخلع البسيط .

فاذا حلت الشمس آخر برج القوس وأول برج الجدى ، تناهى طول الليل وقصر النهار ، وأخذ النهار فى الزيادة والليل فى النقصان ، وانصرم فصل الخريف وحل فصل الشتاء ، واشتد البرد وخشن الهواء ، وتساقط ورق الشجر ومات أكثر النبات ، وغارت الحيوانات فى جوف الأرض ، وضعف قوى الأبدان ، وعرى وجه الأرض من الزينة ، ونشأت الغيوم وكثرت الأنداء ، وأظلم الجو ، وكلح وجه الأرض الا بمصر ، وامتنع الناس من التصرف ، وصارت الدنيا كأنها عجوز هرمة قد دنا منها الموت .

فاذا بلغت آخر برج الحوت وأول برج الحمل ، عاد الزمان كما كان عام أول ، وهذا دأبه ... ذلك تقدير العزيز العليم ، وتدبير الخبير الحكيم ، لا اله الا هو .

وقد شبه بطليموس فصل الربيع بزمان الطفولية ، وفصل الصيف بالشباب ، والخريف بالكهولة ، والشتاء بالشيخوخة .

وعن حركة الشمس ، وتنقلها فى البروج الاثنى عشر المذكورة ، تكون أزمان السنة وأوقات اليوم من الليل والنهار وساعاتهما .

وعن حركة القمر فى البروج الاثنى عشر تكون الشهور القمرية والسنة القمرية .

فالقمر يدور البروج الاثنى عشر ، ويقطع الفلك كله ، فى مدة ثمانية وعشرين يوما وبعض يوم ، ويقيم فى كل برج يومين وثلث يوم بالتقريب ، ويقيم فى كل منزلة من منازل القمر الثمانية والعشرين منزلة يوما وليلة ، فيظهر عند اهلاله من ناحية الغرب بعد غروب جرم الشمس ، ويزيد نوره فى كل ليلة قدر نصف

سبع حتى يكمل نوره ، ويمتلىء فى ليلة الرابع عشر من اهلاله ، ثم يأخذ من الليلة الخامسة عشر * فى النقصان، فينقص من نوره فى كل ليلة نصف سبع كما بدا ، الى أن يمحق نوره فى آخر الثمانية وعشرين يوما من اهلاله .

ويمر فى هذه المدة — منذ يفارق الشمس ، ويبدو فى ناحية الغرب ، ويستتر الى أن يجامعها — بثمانية وعشرين منزلة ، وهى : السرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك والغفر والزبانا والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرع المقدم والفرع المؤخر وبطن الحوت .

ولحساب ذلك كتب موضوعة ، وفيما ذكر كفاية . والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

ذكر صورة الارض وموضع الاقاليم منها

ولما تقدم فى الأفلاك من القول ما يتبين به ، لمن ألهمه الله تعالى ، كيف تكون الحركة التى بها الليل والنهار وتركب الشهور والأعوام منهما ، جاز حينئذ الكلام على الأرض ، فأقول :

الجهات من حيث هى ست : الشرق ، وهو حيث تطلع الشمس والقمر وسائر الكواكب فى كل قطر من الأفق .

والغرب ، وهو حيث تغرب .

(*) ص٨ ، جـ١ ، ط.بولاق .

والشمال ، وهو حيث مدار الجدى والفرقدين .

والجنوب ، وهو حيث مدار سهيل .

والفوق ، وهو ما يلى السماء .

والتحت ، وهو ما يلى مركز الأرض .

والأرض جسم مستدير كالكرة ، وقيل ليست بكرية الشكل ، وهى واقفة فى الهواء بجميع جبالها وبحارها وعامرها وغامرها ، والهواء محيط بها من جميع جهاتها كالمح فى جوف البيضة . وبعدها من السماء متساو من جميع الجهات . وأسفل الأرض ما تحقيقه هو عمق باطنها مما يلى مركزها من أى جانب كان .

ذهب الجمهور الى أن الأرض كالكرة ، موضوعة فى جوف الفلك كالمح فى البيضة ، وأنها فى الوسط ، وبعدها فى الفلك من جميع الجهات على التساوى .

وزعم هشام بن الحكم أن تحت الأرض جسما من شأنه الارتفاع ، وهو المانع للأرض من الانحدار ، وهو ليس محتاجا الى ما يعمده ، لأنه ليس يطلب الانحدار بل الارتفاع .

وقال : ان الله تعالى وقفها بلا عماد .

وقال ديمقراطيس : انها تقوم على الماء ، وقد حصر الماء تحتها حتى لا يجد مخرجا فيضطر الى الانتقال .

وقال آخر : هى واقفة على الوسط على مقدار واحد من كل جانب ، والفلك يجذبها من كل وجه ، فلذلك لا تميل الى ناحية من الفلك دون ناحية ،لأن قوة الأجزاء متكافئة ، وذلك كحجر المغناطيس فى جذبه الحديد ، فان الفلك بالطبع مغناطيس الأرض ، فهو يجذبها فهى واقفة فى الوسط ، وسبب وقوفها فى الوسط سرعة تدوير الفلك ودفعه اياها من كل جهة الى الوسط ، كما اذا وضعت ترابا فى قارورة وأدرتها بقوة فان التراب يقوم فى الوسط .

وقال محمد بن أحمد الخوارزمى : الأرض فى وسط السماء ، والوسط هو السفلى بالحقيقة ، وهى مدورة مضرسة من جهة الجبال البارزة والوهاد الغائرة ، وذلك لا يخرجها عن الكرية اذا اعتبرت جملتها ، لأن مقادير الجبال — وان شمخت — يسيرة بالقياس الى كرة الأرض ، فان الكرة التى قطرها ذراع أو ذراعان مثلا اذا نتأ منها شىء أو غار فيها لا يخرجها عن الكرية ، ولا هذه التضاريس لاحاطة الماء بها من جميع جوانبها وغمرها بحيث لا يظهر منها شىء ، فحينئذ تبطل الحكمة المؤدية المودعة فى المعادن والنبات والحيوان ... فسبحان من لا يعلم أسرار حكمه الا هو .

وأما سطحها الظاهر ، المماس للهواء من جميع الجهات ، فانه فوق . والهواء فوق الأرض يحيط بها ويجذبها من سائر الجهات .

وفوق الهواء الأفلاك المذكورة فيما تقدم ، واحدا فوق آخر ، الى الفلك التاسع الذى هو أعلى الأفلاك ونهاية المخلوقات بأسرها .

وقد اختلف فيما وراء ذلك : فقيل خلاء ، وقيل ملاء ، وقيل لا خلاء ولا ملاء .

وكل موضع يقف فيه الانسان من سطح الأرض ، فان رأسه أبدا يكون مما يلى السماء الى فوق ، ورجلاه أبدا تكون أسفل مما يلى مركز الأرض ، وهو دائما يرى من السماء نصفها ، ويستر عنه النصف الآخر حدبة الأرض . وكلما انتقل من موضع الى آخر ، ظهر له من السماء بقدر ما خفى عنه .

والأرض غامرة بالماء كعنبة طافية فوق الماء قد انحسر عنها نحو النصف وانغمر النصف الآخر فى الأرض ، وصار المنكشف من الأرض نصفين ، كأنما قسم بخط مسامت لخط معدل النهار يمر تحت دائرته .

وجميع البلاد التى على هذا الخط لا عرض لها ألبتة ، والقطبان غير مرتبين فيها ، ويكونان هناك على دائرة الأفق من الجانبين . وكلما بعد موضع بلد عن هذا الخط الى ناحية الشمال قدر درجة ، ارتفع القطب الشمالى الذى هو الجدى على أهل ذلك البلد درجة ، وانخفض القطب الجنوبى الذى هو سهيل درجة ، وهكذا ما زاد .

ويكون الأمر فيما بعد ، من البلاد الواقعة فى ناحية الجنوب كذلك ، من ارتفاع القطب الجنوبى وانحطاط القطب الشمالى . وبهذا عرف عرض * البلدان ، وصار عرض البلد عبارة عن ميل دائرة معدل النهار عن سمت رؤوس أهله وارتفاع القطب عليهم ، وهو أيضا بعد ما بين سمت رؤوس أهل ذلك البلد وسمت رؤوس أهل بلد لا عرض له .

فأما ما انكشف من الأرض ، مما يلى الجنوب من خط الاستواء ، فانه خراب . والنصف الآخر ، الذى يلى الشمال من خط

(*) ص٩ ، جـ١ ، ط.بولاق .

الاستواء ، فهو الربع العامر ، وهو المسكون من الأرض .

وخط الاستواء لا وجود له فى الخارج ، وانما هو فرض بوهمنا أنه خط ، ابتداؤه من المشرق الى المغرب تحت مدار رأس الحمل ، وسمى بذلك من أجل أن النهار والليل هنالك أبدا سواء ، لا يزيد ولا ينقص أحدهما عن الآخر شيئا ألبتة فى سائر أوقات السنة كلها . ونقطتا هذا الخط ملازمتان للأفق : احداهما على مدار سهيل فى ناحية الجنوب ، والأخرى مما يلى الجدى فى ناحية الشمال .

والعمارة من المشرق الى المغرب مائة وثمانون درجة ، من الجنوب الى الشمال من خط أريس الى بنات نعش ثمان وأربعون درجة ، وهو مقدار ميل الشمس مرتين ، وخلف خط أريس وهو مقدار ستة عشر درجة .

وجملة معمور الأرض نحو من سبعين درجة ، لاعتدال مسير الشمس فى هذا الوسط ، ومرورها على ما وراء الحمل والميزان مرتين فى السنة . وأما الشمال والجنوب فالشمس لا تحاذيهما الا مرة واحدة ، ولأن أوج الشمس مرتين فى جهة الشمال ، كانت العمارة فيه ، لارتفاعها وانتفاء ضرر قربها عن ساكنيه ، ولأن حضيضها فى الجنوب عدمت العمارة هنالك .

وقد اختلف الناس فى مسافة الأرض ، فقيل مسافتها خمسمائة عام : ثلث عمران ، وثلث خراب ، وثلث بحار .

وقيل المعمور من الأرض مائة وعشرون سنة : تسعون ليأجوج ومأجوج ، واثنا عشر

للسودان ، وثمانية للروم ، وثلاثة للعرب ، وسبعة لسائر الأمم .

وقيل الدنيا سبعة أجزاء : ستة ليأجوج ومأجوج ، وواحد لسائر الناس .

وقيل الأرض خمسمائة عام : البحار ثلاثمائة ومائة خراب ، ومائة عمران .

وقيل الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ : للسودان اثنا عشر ألف ، وللروم ثمانية آلاف ، ولفارس ثلاثة آلاف ، وللعرب ألف .

وعن وهب بن منبه : ما العمارة من الدنيا فى الخراب الا كفسطاط فى الصحراء .

وقال أزدشير بن تابك : الأرض أربعة أجزاء : جزء منها للترك ، وجزء للعرب ، وجزء للفرس ، وجزء للسودان .

وقيل الأقاليم سبعة ، والأطراف أربعة ، والنواحى خمسة وأربعون ، والمداين عشرة آلاف ، والرساتيق مائتا ألف وستة وخمسون ألفا .

وقيل المدن والحصون أحد وعشرون ألفا وستمائة مدينة وحصن . ففى الاقليم الأول ثلاثة آلاف ومائة مدينة كبيرة ، وفى الثانى ألفان وسبعمائة وثلاثة عشر مدينة وقرية كبيرة ، وفى الثالث ثلاثة آلاف وتسع وسبعون مدينة وقرية ، وفى الرابع — وهو بابل — ألفان وتسعمائة وأربع وسبعون مدينة ، وفى الخامس ثلاثة آلاف مدينة وست مدائن ، وفى السادس ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمان مدن ، وفى السابع ثلاثة آلاف وثلاثمائة مدينة فى الجزائر .

قال الخوارزمى : قطر الأرض سبعة آلاف فرسخ ، وهو لصفه سدس الأرض والجبال والمفاوز والبحار ، والباقى خراب يباب لا نبات فيه ولا حيوان .

وقيل المعمور من الأرض مثل طائر : رأسه الصين ، والجناح الأيمن الهند والسند ، والجناح الأيسر الخزر ، وصدره مكة والعراق والشام ومصر ، وذنبه الغرب .

وقيل قطر الأرض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا ، ودورها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل ، وذلك جميع ما أحاطت به من بر وبحر .

وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخى : طول الأرض ، من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، نحو أربعمائة مرحلة . وعرضها من حيث العمران الذى من جهة الشمال ، وهو مساكن يأجوج ومأجوج ، الى حيث العمران الذى من جهة الجنوب ، وهو مساكن السودان ، مائتان وعشرون مرحلة . وما بين برارى يأجوج ومأجوج الى البحر المحيط فى الشمال ، وما بين برارى السودان والبحر المحيط فى الجنوب ، خراب ليس فيه عمارة ، ويقال ان مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ . وهذه أقوال لا دليل على صدقها .

والطريق فى معرفة مساحة الأرض ، أنا لو سرنا على خط نصف النهار من الجنوب الى الشمال بقدر ميل دائرة معدل النهار عن سمت رؤوسنا ، الى الجنوب درجة من درج الفلك التى هى جزء من ثلاثمائة وستين جزءا ، وارتفع القطب علينا درجة نظير تلك الدرجة ، فانا نعلم أنا قد قطعنا من محيط جرم الأرض جزءا من ثلاثمائة وستين جزءا ، وهو نظير ذلك الجزء من الفلك .

فلو قسنا من ابتداء مسيرنا الى انتهاء مكاننا الذى وصلنا اليه ، حيث ارتفع القطب علينا درجة ، فانا نجد حقيقة الدرجة الواحدة من الفلك قد قطعت من الأرض ستة وخمسين ميلا وثلثى ميل ، عنها خمسة وعشرون فرسخا .

فاذا ضربنا حصة الدرجة الواحدة — وهو ما ذكر من الأميال — فى ثلاثمائة وستين ، خرج من الضرب عشرون ألفا وأربعمائة ميل ، وذلك مساحة دور الأرض .

فاذا قسمنا هذه الأميال — التى هى مساحة دور الأرض * — على ثلاثة وسبع ، خرج من القسمة ستة آلاف وأربعمائة وأربعون ميلا ، وهى مساحة قطر الأرض .

فلو ضربنا هذا القطر فى مبلغ دور الأرض ، لبلغت مساحة بسط الأرض بالتكسير مائة ألف ألف واثنين وثلاثين ألف ألف وستمائة ألف ميل بالتقريب .

فعلى هذا مساحة ربع الأرض المسكون بالتكسير ثلاثة وثلاثون ألف ألف ميل ومائة وخمسون ألف ميل . وعرض المسكون من هذا الربع بقدر بعد مدار السرطان عن القطب ، وهو خمسة وخمسون جزءا وسدس جزء ، وهذا هو سدس الأرض ، وانتهاؤه الى جزيرة تولى فى برطانية ، وهى آخر المعمور من الشمال ؛ وهو من الأميال ثلاثة آلاف وسبعمائة وأربعة وستون ميلا .

(*) ص١٠ ، ج١ ، ط.بولاق .

فاذا ضربنا هذا السدس الذى هو مساحة عرض الأرض ، فى النصف وهو مقدار الطول ، كان المعمور من الشمال قدر نصف سدس الأرض . وأما الطول فانه يقل لتضايق أقسام كرة الأرض ، ومقداره مثل خمس الدور ، وهو بالتقريب أربعة آلاف وثمانون ميلا .

وفى الربع المسكون من الأرض سبعة أبحر كبار ، وفى كل بحر منها عدة جزائر . وفيه خمسة عشر بحيرة منها ملح وعذب . وفيه مائتا جبل طوال ، ومائتا نهر وأربعون نهرا طوالا ، ويشتمل على سبعة أقاليم تحتوى على سبعة عشر ألف مدينة كبيرة .

وقال فى كتاب هروشيوس : لما استقامت طاعة يوليس الملقب قيصر الملك ، فى عامة الدنيا ، تخير أربعة من الفلاسفة ساهم ، فأمرهم أن يأخذوا له وصف حدود الدنيا وعدة بحارها وكورها أرباعا . فولى أحدهم أخذ وصف جزء المشرق ، وولى آخر أخذ وصف جزء المغرب ، وولى الثالث أخذ وصف جزء الشمال ، وولى الرابع أخذ وصف جزء الجنوب . فتمت كتابة الجميع على أيديهم فى نحو من ثلاثين سنة .

فكانت جملة البحار المسماة فى الدنيا تسعة وعشرين بحرا قد سموها : منها بجزء الشرق ثمانية ، وبجزء الغرب ثمانية ، وبجزء الشمال أحد عشر ، وبجزء الجنوب اثنان .

وعدة الجزائر المعروفة الأمهات احدى وسبعون جزيرة : منها فى الشرق ثمان ، وفى الغرب ست عشرة ، وفى جهة الشمال احدى وثلاثون ، وفى جهة الجنوب ست عشرة .

وعدة الجبال الكبار المعروفة فى جميع الدنيا ستة وثلاثون ، وهى أمهات الجبال ، وقد سموها فيما فسروه : منها فى جهة الشرق سبعة ، وفى جهة الغرب خمسة عشر ، وفى الشمال اثنا عشر ، وفى الجنوب اثنان .

والبلدان الكبار ثلاثة وستون : منها فى المشرق سبعة ، وفى المغرب خمسة وعشرون ، وفى الشمال تسعة عشر ، وفى الجنوب اثنا عشر . وقد سموها .

والكور الكبار المعروفة تسع ومائتان : منها فى المشرق خمس وسبعون ، وفى المغرب ست وستون ، وفى الشمال ست ، وفى الجنوب اثنان وستون .

والأنهار الكبار المعروفة فى جميع الدنيا ستة وخمسون : منها لجزء الشرق سبعة عشر ، ولجزء الغرب ثلاثة عشر ، ولجزء الشمال تسعة عشر ، ولجزء الجنوب سبعة .

والأقاليم السبعة ، كل اقليم منها كأنه بساط مفروش قد مد ، طوله من الشرق الى الغرب ، وعرضه من الشمال الى الجنوب .

وهذه الأقاليم مختلفة الطول والعرض . فالاقليم الأول منها يمر وسطه بالمواضع التى طول نهارها الأطول ثلاثة عشر ساعة والسابع منها يمر وسطه بالمواضع التى طول نهارها الأطول ست عشر ساعة ... لأن ما حاذى حد الاقليم الأول الى نحو الجنوب يشتمل عليه البحر ولا عمارة فيه ، وما حاذى الاقليم السابع الى الشمال لا يعلم فيه عمارة .

فجعل طول الأقاليم السبعة من الشرق الى الغرب مسافة اثنتى عشرة ساعة من دور

الفلك ، وصارت عروضها تتفاضل نصف ساعة من ساعات النهار الأطول . فأطولها وأعرضها الاقليم الأول ، وطوله من المشرق الى المغرب نحو ثلاثة آلاف فرسخ ، وعرضه من الشمال الى الجنوب مائة وخمسون فرسخا . وأقصرها طولا وعرضا الاقليم السابع ، وطوله من الشرق الى الغرب ألف وخمسمائة فرسخ ، وعرضه من الشمال الى الجنوب نحو من سبعين فرسخا . وبقية الأقاليم الخمسة فيما بين ذلك .

وهذه الأقاليم خطوط متوهمة لا وجود لها فى الخارج ، وضعها القدماء الذين جالوا فى الأرض ليقفوا على حقيقة حدودها ، ويتيقنوا مواضع البلدان منها ، ويعرفوا طرق مسالكها .

هذا حال الربع المسكون . وأما الثلاثة الأرباع الباقية فانها خراب .

فجهة الشمال واقعة تحت مدار الجدى ، قد أفرط هناك البرد ، وصارت ستة أشهر ليلا مستمرة ، وهى مدة الشتاء عندهم لا يعرف فيها نهار ، ويظلم الهواء ظلمة شديدة ، وتجمد المياه لقوة البرد فلا يكون هناك نبات ولا حيوان .

ويقابل هذه الجهة الشمالية ناحية الجنوب حيث مدار سهيل ، فيكون النهار ستة أشهر بغير ليل ، وهى مدة الصيف عندهم ، فيحمى الهواء ويصير سموما محرقا يهلك بشدة حره الحيوان والنبات ، فلا يمكن سلوكه ولا السكنى فيه .

وأما ناحية الغرب فيمنع البحر المحيط من السلوك فيه ، لتلاطم أمواجه وشدة ظلماته .

وناحية الشرق تمنع من سلوكها الجبال الشامخة .

وصار الناس أجمعهم قد انحصروا فى الربع المسكون من الأرض * ، ولا علم لأحد منهم بالأرض ، أى بالثلاثة الأرباع الباقية .

والأرض كلها ، بجميع ما عليها من الجبال والبحار ، نسبتها الى الفلك كنقطة فى دائرة .

وقد اعتبرت حدود الأقاليم السبعة بساعات النهار . وذلك أن الشمس اذا حلت برأس الحمل ، تساوى طول النهار والليل فى سائر الأقاليم كلها . فاذا انتقلت فى درجات برج الحمل والثور والجوزاء ، اختلفت ساعات نهار كل اقليم . فاذا بلغت آخر الجوزاء وأول برج السرطان ، بلغ طول النهار فى وسط الاقليم الأول ثلاث عشرة ساعة سواء ، وصارت فى وسط الاقليم الثانى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ، وفى وسط الاقليم الثالث أربع عشرة ساعة ، وفى وسط الاقليم الرابع أربع عشرة ساعة ونصف ساعة ، وفى وسط الاقليم الخامس خمس عشرة ساعة ، وفى وسط الاقليم السادس خمس عشرة ساعة ونصف ساعة ، وفى وسط الاقليم السابع ست عشرة ساعة سواء ، وما زاد على ذلك الى عرض تسعين درجة يصير نهارا كله .

ومعنى طول البلد ، هو بعدها من أقصى العمارة فى الغرب ، وعرضها هو بعدها عن خط الاستواء .

وخط الاستواء — كما تقدم — هوالموضع الذى يكون فيه الليل والنهار طول الزمان

(*) ص١١ ، جـ١ ، ط. بولاق ■

سواء . فكل بلد على هذا الخط لا عرض له . وكل بلد فى أقصى الغرب لا طول له . ومن أقصى الغرب الى أقصى الشرق مائة وثمانون درجة . وكل بلد يكون طوله تسعين درجة ، فانه فى وسط ما بين الشرق والغرب . وكل بلد كان طوله أقل من تسعين درجة ، فانه أقرب الى الغرب وأبعد من الشرق . وما كان طوله من البلاد أكثر من تسعين درجة ، فانه أبعد عن الغرب وأقرب الى الشرق .

وقد ذكر القدماء أن العالم السفلى مقسوم سبعة أقسام ، وكل قسم يقال له اقليم : فاقليم الهند لزحل ، واقليم بابل للمشترى ، واقليم الترك للمريخ ، واقليم الروم للشمس ، واقليم مصر لعطارد ، واقليم الصين للقمر .

وقال قوم : الحمل والمشترى لبابل ، والجدى وعطارد للهند ، والأسد والمريخ للترك ، والميزان والشمس للروم .

ثم صارت القسمة على اثنى عشر برجا : فالحمل ومثلاه للمشرق ، والثور ومثلاه للجنوب ، والجوزاء ومثلاها للمغرب ، والسرطان ومثلاه للشمال .

قالوا : وفى كل اقليم مدينتان عظيمتان بحسب بيتى كل كوكب ، الا اقليم الشمس واقليم القمر ، فانه ليس فى كل اقليم منهما سوى مدينة واحدة عظيمة . وجميع مدائن الأقاليم السبعة وحصونها أحد وعشرون ألف مدينة وستمائة مدينة وحصن بقدر دقائق درج الفلك .

وقال هرمس : اذا جعلت هذه الدقائق روابع كانت أناس هذه الأقاليم ، واذا مات أحد ولد نظيره .

ويقال ان عدد مدن الاقليم الأول من مطلع الشمس وقراها ثلاثة آلاف ومائة مدينة وقرية كبيرة ، وأن فى الثانى ألفان وسبعمائة وثلاث عشرة مدينة وقرية كبيرة ، وفى الثالث ثلاثة آلاف وتسع وسبعون ، وفى الرابع — وهو بابل — ألفان وتسعمائة وأربع وسبعون ، وفى الخامس ثلاثة آلاف وست مدن ، وفى السادس ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمان مدن ، وفى السابع ثلاثة آلاف وثلاثمائة مدينة وقرية كبيرة فى الجزائر .

فالاقليم الأول يمر وسطه بالمواضع التى طول نهارها الأطول ثلاث عشرة ساعة ، ويرتفع القطب الشمالى فيها عن الأفق ست عشرة درجة وثلثا درجة وهو العرض . وانتهاء عرض هذا الاقليم من حيث يكون طول النهار الأطول فيه ثلاث عشرة ساعة وربع ساعة ، وارتفاع القطب الشمالى ، وهو العرض ، عشرون درجة ونصف درجة .

وهو مسافة أربعمائة وأربعين ميلا ، وابتداؤه من أقصى بلاد الصين ، فيمر فيها الى ما يلى الجنوب ، ويمر بسواحل الهند ثم ببلاد السند ، ويمر فى البحر على جزيرة العرب وأرض اليمن ، ويقطع بحر القلزم فيمر ببلاد الحبشة ، ويقطع نيل مصر الى بلاد الحبشة ومدينة دنقلة من أرض النوبة ، ويمر فى أرض المغرب على جنوب بلاد البربر الى نحو البحر المحيط .

وفى هذا الاقليم عشرون جبلا ، فيها ماطوله من عشرين فرسخا الى ألف فرسخ . وفيه ثلاثون نهرا طويلا ، منها ما طوله ألف فرسخ الى عشرين فرسخا . وفيه خمسون مدينة كبيرة . وعامة أهل هذا الاقليم سود الألوان .

ولهذا الاقليم من البروج الحمل والقوس ، وله من الكواكب السيارة المشترى .

وهو — مع فرط حرارته — كثير المياه كثير المروج ، وزروع أهله الذرة والأرز ، الا أن الاعتدال عندهم معدوم ، فلا يثمر عندهم كرم ولا حنطة ، والبقر عندهم كثير لكثرة المروج ، وفى مشرقه البحر الخارج وراء خط الاستواء بثلاث عشرة درجة ، وفى مغربه النيل وبحر الغرب .

ومن هذا الاقليم يأتى نيل مصر ، وشرقهم معمور بالبحر الشرقى الذى هو بحر الهند واليمن .

والاقليم الثانى حيث يكون طول النهار الأطول ثلاث عشرة ساعة ونصف ، ويرتفع القطب الشمالى فيه قدر أربعة وعشرين جزءا وعشر جزء . وعرضه ، من حد الاقليم الأول الى حيث يكون النهار الأطول ، ثلاث عشرة ساعة ونصف وربع ساعة . وارتفاع القطب الشمالى ، وهو العرض ، سبعة وعشرون درجة ونصف درجة .

ومساحة هذا الاقليم أربعمائة ميل * ، ويبتدىء من بلاد الشرق مارا ببلاد الصين الى بلاد الهند والسند ، ثم بملتقى البحر الأخضر وبحر البصرة ، ويقطع جزيرة العرب فى أرض نجد وتهامة ، فيدخل فى هذا الاقليم اليمامة والبحران وهجر ومكة والمدينة والطائف وأرض الحجاز ، ويقطع بحر القلزم فيمر بصعيد مصر الأعلى ، ويقطع النيل فيصير فيه مدينة قوص واخميم واسنى وانصنا واسوان ، ويمر فى ارض المغرب على وسط بلاد افريقية فيمر على بلاد البربر الى البحر فى المغرب .

وفى هذا الاقليم سبعة عشر جبلا ، وسبعة عشر نهرا طوالا ، وأربعمائة وخمسون مدينة كبيرة . وألوان أهل هذا الاقليم مابين السمرة والسواد . وله من البروج الجدى ، ومن السيارة زحل .

ويسكن هذا الاقليم الرحالة : ففى المغرب منهم حدالة وصنهاجة ولمتونة ومسوفة ، ويتصل بهم رحالة مصر من الواح . وفى هذا الاقليم يكون يحل ، وفيه مكة والمدينة ، ومنه السماوة من أهل العراق الى رحالة الترك .

والاقليم الثالث وسطه حيث يكون طول النهار الأطول أربع عشرة ساعة . وارتفاع القطب ، وهو العرض ، ثلاثون درجة ونصف وخمس درجة . وعرض هذا الاقليم من حد الاقليم الثانى الى حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة وربع ساعة . وارتفاع القطب وهو العرض ثلاث وثلاثون درجة .

ومسافته ثلاثمائة وخمسون ميلا ، ويبتدىء من الشرق فيمر بشمال الصين وبلاد الهند وفيه مدينة الهندهار ، ثم بشمال السند وبلاد كابل وكرمان وسجستان الى سواحل بحر البصرة ، وفيه اصطخر وسابور وشيراز وسيراف ، ويمر بالأهواز والعراق والبصرة وواسط وبغداد والكوفة والأنبار وهيت ، ويمر ببلاد الشام الى سلمية وصور وعكا ودمشق وطبرية وقيسارية وبيت المقدس وعسقلان وغزة ومدين والقلزم ، ويقطع أسفل أرض مصر من شمال

(*) ص١٢ ، جـ١ ، ط. بولاق

انصا الى فسطاط مصر وسواحل البحر وفيه الفيوم والاسكندرية والفرما وتنيس ودمياط ، ويمر ببلاد برقة الى أفريقية فيدخل فيه القيروان ، وينتهى فى البحر الى الغرب .

وبهذا الاقليم ثلاث وثلاثون جبلا كبارا ، والثان وعشرون نهرا طوالا ، ومائة وثمانية وعشرون مدينة . وأهله سمر الألوان . وله من البروج العقرب ، ومن السيارة الزهرة .

وفى هذا الاقليم العمائر المتواصلة من أوله الى آخره . اهـ .

والاقليم الرابع وسطه حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة ونصف ساعة . وارتفاع القطب الشمالى ، وهو العرض ، ست وثلاثون درجة وخمس درجة .

وحد هذا الاقليم ، من حد الاقليم الثالث الى حيث يكون النهار الأطول ، أربع عشرة ساعة ونصف وربع ساعة ، والعرض تسعا وعشرين درجة وثلث درجة .

ومسافة هذا الاقليم ثلاثمائة ميل ، ويبتدىء من الشرق فيمر ببلاد التبت وخراسان وخجندة وفرغانة وسمرقند وبخارى وهراة ومرو والرود وسرخس وطوس ونيسابور وجرجان وقومس وطبرستان وقزوين والديلم والرى وأصفهان وهمذان ونهاوند ودينور والموصل ونصيبين وآمد ورأس العين وشمشاط والرقة ، ويمر ببلاد الشام فيدخل فيه بالس ومسح وملطية وحلب والطاكية وطرابلس والمصيصة وحماة وصيدا وطرسوس وعمورية واللاذقية ، ويقطع بحر الشام على جزيرة قبرس ورودس ، ويمر ببلاد طنجة فينتهى الى بحر المغرب .

وفى هذا الاقليم خمسة وعشرون جبلا كبارا ، وخمسة وعشرون نهرا طوالا ، ومائتا مدينة واثنتا عشرة مدينة . وألوان أهله بين السمرة والبياض . وله من البروج الجوزاء ، ومن السيارة عطارد ، وفيه البحر الرومى من مغربه الى القسطنطينية .

ومن هذا الاقليم ظهرت الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، ومنه انتشر الحكماء والعلماء ، فانه وسط الأقاليم ثلاثة جنوبية وثلاثة شمالية ، وهو فى قسم الشمس ، وبعده فى الفضيلة الاقليم الثالث والخامس ، فانهما على جنبيه ، وبقية الأقاليم منحطة ، أهلوها ناقصون ومنحطون عن الفضيلة لسماجة صورهم وتوحش أخلاقهم ، كالزنج والحبشة ، وأكثر أمم الاقليم الأول والثانى والسادس والسابع يأجوج ومأجوج والتغزغز والصقالبة ونحوهم .

والاقليم الخامس وسطه حيث يكون النهار الأطول خمس عشر ساعة . وارتفاع القطب الشمالى ، وهو العرض ، احدى وأربعون درجة وثلث درجة . وابتداؤه من نهاية عرض الاقليم الرابع الى حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة ، والعرض ثلاثا وأربعين درجة .

ومسافته خمسون ومائتا ميل ، ويبتدىء من المشرق الى بلاد يأجوج ومأجوج ، ويمر بشمال خراسان وفيه خوارزم واسبيجاب واذربيجان وبردعة وسجستان وأردن وخلاط ، ويمر على بلاد الروم الى رومية الكبرى والأندلس حتى ينتهى الى البحر الذى فى المغرب .

وفى هذا الاقليم من الجبال الطوال ثلاثون جبلا ، ومن الأنهار الكبار خمسة عشر نهرا ، ومن المدائن الكبار مائتا مدينة . وأكثر أهله بيض الألوان . وله من البروج الدلو ، ومن السيارة القمر .

والاقليم السادس وسطه حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة . وارتفاع القطب الشمالى ، وهو العرض ، خمسا * وأربعين درجة وخمسى درجة . وابتداؤه من حد نهاية عرض الاقليم الخامس الى حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة ونصف وربع ساعة . والعرض سبعا وأربعين درجة وربع درجة .

ومسافة هذا الاقليم مائتا ميل وعشرة أميال ، ويبتدىء من المشرق ، فيمر بمساكن الترك من أبحر خير والتغزغز ، الى بلاد الخزر من شمال نجومهم على اللان والشرير وأرض برجان والقسطنطينية وشمال الأندلس الى البحر المحيط الغربى .

وفى هذا الاقليم من الجبال الطوال اثنان وعشرون جبلا ، ومن الأنهار الطوال اثنان وثلاثون نهرا ، ومن المدن الكبار تسعون مدينة . وأكثر أهل هذا الاقليم الوانهم ما بين الشقرة والبياض . وله من البروج السرطان ، ومن السيارة المريخ .

والاقليم السابع وسطه حيث يكون النهار الأطول ست عشرة ساعة سواء . وارتفاع القطب الشمالى ، وهو العرض ، ثمانيا وأربعين درجة وثلثى درجة .

(*) ص١٣ ، ج١ ، ط. بولاق

وابتداء هذا الاقليم من حد نهاية الاقليم السادس الى حيث يكون النهار الأطول ست عشرة ساعة وربع ساعة ، والعرض خمسين درجة ونصف درجة . ومسافته مائة وخمسة وثمانون ميلا .

فتبين أن ما بين أول حد الاقليم الأول وآخر حد الاقليم السابع ، ثلاث ساعات ونصف ، وأن ارتفاع القطب الشمالى ثمانية وثلاثون درجة ، تكون من الأميال ألفين ومائة وأربعين ميلا .

ويبتدىء الاقليم السابع من المشرق على بلاد يأجوج ومأجوج ، ويمر ببلاد الترك على سواحل بحر جرجان مما يلى الشمال ، ويقطع بحر الروم على بلاد جرجان والصقالبة الى أن ينتهى الى البحر المحيط فى المغرب .

وبهذا الاقليم عشرة جبال طوال ، وأربعون نهرا طوالا ، واثنتان وعشرون مدينة كبيرة . وأهله شقر الألوان . وله من البروج الميزان ، ومن السيارة الشمس .

وفى كل اقليم من هذه الأقاليم السبعة أمم مختلفة الألسن والألوان ، وغير ذلك من الطبائع والأخلاق والآراء والديانات والمذاهب والعقائد والأعمال والصنائع والعادات والعبادات ، لا يشبه بعضهم بعضا ، وكذلك الحيوانات والمعادن والنبات مختلفة فى الشكل والطعم واللون .

والريح بحسب اختلاف أهوية البلدان ، وتربة البقاع وعذوبة المياه وملوحتها على ما اقتضته طوالع كل بلد من البروج على أفقه ، وممر الكواكب على مسامتة البقاع من

الأرض ، ومطارح شعاعاتها على المواضع ، كما هو مقرر فى مواضعه من كتب الحكمة ... ليتدبر أولو النهى ، ويعتبر ذوو الحجى بتدبير الله فى خلقه ، وتقديره لما يشاء وفعله لما يريد ، لا اله الا هو .

ومع ذلك فان الربع المسكون من الأرض — على تفاوت أقطاره — مقسوم بين سبع أمم كبار ، وهم الصين والهند والسودان والبربر والروم والترك والفرس .

فجنوب مشرق الأرض فى يد الصين ، وشماله فى يد الترك ، ووسط جنوب الأرض فى يد الهند ، وفى وسط شمال الأرض الروم ، وفى جنوب مغرب الأرض السودان ، وفى شمال مغرب الأرض البربر ، وكانت الفرس فى وسط هذه الممالك قد أحاطت بهم الأمم الست .

ذكر محل مصر من الارض وموضعها من الاقاليم السبعة

وإذ يسر الله سبحانه بذكر جمل أحوال الأرض ومعرفة ما فى كل اقليم من أقاليم الأرض ، فلنذكر محل مصر من ذلك فنقول :

ديار مصر بعضها واقع فى الاقليم الثانى ، وبعضها واقع فى الاقليم الثالث : فما كان منها فى الصعيد الأعلى ، كقوص واخميم واسنى وأنصنا وأسوان ، فان ذلك واقع فى أقسام الاقليم الثانى . وما كان من ديار مصر فى جهة الشمال من أنصنا ، وهو الصعيد الأدنى من سيوط الى فسطاط مصر والفيوم والقاهرة والاسكندرية والفرما وتنيس ودمياط ، فان ذلك من أقسام الاقليم الثالث .

وطول مدينة مصر الفسطاط والقاهرة — وهو بعدهما من أول العمارة فى جهة المغرب — خمس وخمسون درجة ، والعرض — وهو البعد من خط الاستواء — ثلاثون درجة ، وطول النهار الأطول أربع عشرة ساعة ، وغاية ارتفاع الشمس فى الفلك بها ثلاث وثمانون درجة وثلث وربع درجة .

وفسطاط مصر مع القاهرة ، من مكة شرفها الله تعالى ، واقعان فى الربع الجنوبى الشرقى ، والصعيد الأعلى أشد تشريقا لبعده عن مدينة الفسطاط بأيام عديدة فى جهة الجنوب ، فيكون على ذلك مقابلا لمكة من غربيها .

ومصر لا يتوصل اليها الا من مفازة : ففى شرقيها بحر القلزم من وراء الجبل الشرقى ، وفى غربيها صحراء المغرب ، وفى جنوبها مفازة النوبة والحبشة ، وفى شمالها البحر الشامى .

والرمال التى فيما بين بحر الروم وبحر القلزم ، وبين مصر وبغداد — على ما ذكره ابن جرداديه فى كتاب «الممالك والمسالك» — ألف وسبعمائة وعشرة أميال ، يكون خمسمائة وسبعين فرسخا ومائة وبضعا وأربعين بريدا .

وبين مصر والشام ، أعنى دمشق ، ثلاثمائة وخمسة وستون ميلا ، تكون من الفراسخ مائة واحدى وعشرين فرسخا وثلثى فرسخ ، عنها ثلاثون بريدا وكسر .

وقال ابن جرداديه : أرض الحبشة * والسودان مسيرة سبع سنين ، وأرض مصر

(*) ص ١٨ ، جـ١ ، ط. بولاق .

جزء واحد من ستين جزءا من أرض السودان ، وأرض السودان جزء واحد من الأرض كلها .

وفى كتاب هردوشيش : بلد مصر الأدنى شرقه فلسطين ، وغربه أرض لبية ، وأرض مصر الأعلى تمتد الى ناحية الشرق ، وحده فى الشمال خليج الغرب ، وفى الجنوب البحر المحيط ، وفى الغرب مصر الأدنى ، وفى الشرق بحر القلزم ، وفيه من الأجناس ثمانية وعشرون جنسا .

ذكر حدود مصر وجهاتها

اعلم أن التحديد هو صفة المحدود على ما هو عليه ، والحد هو نهاية الشىء ، والحدود تكثر وتقل بحسب المحدود .

والجهات التى تحد بها المساكن والبقاع أربع جهات ، وهى :

جهة الشمال التى هى اشارة الى موضع قطب الفلك الشمالى ، المعروف من كواكبه الجدى والفرقدان .

ويقابل جهة الشمال الجهة الجنوبية . والجنوب عبارة عن موضع قطب الفلك الجنوبى ، الذى يقرب منه سهيل وما يتبعه من كواكب السفينة .

والجهة الثالثة جهة المشرق ، وهو مشرق الشمس فى الاعتدالين اللذين هما رأس الحمل أول فصل الربيع ورأس الميزان أول فصل الخريف .

والجهة الرابعة جهة المغرب ، وهو مغرب الشمس فى الاعتدالين المذكورين .

فهذه الجهات الأربع ثابتة بثبوت الفلك ، غير متغيرة بتغير الأوقات ، وبها تحد الأراضى ونحوها من المساكن ، وبها يهتدى الناس فى أسفارهم ، وبها يستخرجون سمت محاريبهم . فالمشرق والمغرب معروفان . والشمال والجنوب جهتان مقاطعتان لجهتى المشرق والمغرب على تربيع الفلك .

فالخط المار بنقطتى الشمال والجنوب يسمى خط نصف النهار ، وهو مقاطع للخط المار بنقطتى المشرق والمغرب المسمى بخط الاستواء ، على زوايا قائمة وأبعاد ما بين هذين الخطين متساوية . فالمستقبل للجنوب يكون أبدا مستدبرا للشمال ، ويصير المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره .

وهذه الجهات الأربع هى التى ينسب اليها ما يحد من البلاد والأراضى والدور . الا أن أهل مصر يستعملون فى تحديدهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلة ، فيقولون الحد القبلى ينتهى الى كذا ولا يقولون الحد الجنوبى ، وكذلك يقولون الحد البحرى ينتهى الى كذا ، ويريدو بالبحرى الحد الشمالى .

وقد يقع فى هاتين الجهتين الغلط فى بعض البلاد . وذلك أن البلاد التى توافق عروضها عرض مكة ، اذا كانت أطوالها أقل من طول مكة ، فان القبلة تكون فى هذه البلاد نفس الشرق ، بخلاف التى توافق عروضها عرض مكة الا أن أطوالها أطول من طول مكة ، فان القبلة فى هذه البلاد تكون نفس الغرب . فمن

حدد في شيء من هذه البلاد أرضا أو مسكنا بحدود أربعة ، فانه يصير حدان منها حدا واحدا .

وكذلك جهة البحر لما جعلوها قبالة جهة القبلة ، وحددوا ما بينهما من الأراضي والدور بما يسامتها منه ، فانهم أيضا ربما غلطوا ، وذلك أن القبلة والبحر يكونان في بعض البلاد في جهة واحدة .

فاذا عرفت ذلك، فاعلم أن أرض مصر لها حد يأخذ من بحر الروم من الاسكندرية — وزعم قوم من برقة في البر — حتى ينتهي الى ظهر الواحات ، ويمتد الى بلد النوبة ، ثم يعطف على حدود النوبة في حد أسوان — على حد أرض البجة في قبلي أسوان — حتى ينتهي الى بحر القلزم ، ثم يمتد على بحر القلزم ، ويجاوز القلزم الى طور سينا ، ويعطف على تيه بني اسرائيل مارا الى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفح ، ويرجع الى الساحل مارا على بحر الروم الى الاسكندرية ، ويتصل بالحد الذي قدمت ذكره من نواحي برقة .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ، في رسالته المصرية : أرض مصر بأسرها واقعة في المعمورة في قسمي الاقليم الثاني والاقليم الثالث ، ومعظمها في الثالث .

وحكى المعتنون بأخبارها وتواريخها : أن حدها في الطول من مدينة برقة التي في جنوب البحر الرومي ، الى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين ، ومسافة ذلك قريب من أربعين يوما . وحدها في العرض من مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة الى رشيد وما حاذاها من مساقط النيل في البحر الرومي ، ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوما .

ويكتنفها في العرض الى منتهاها جبلان : أحدهما في الضفة الشرقية من النيل وهو المقطم ، والآخر في الضفة الغربية منه ، والنيل متسرب فيما بينهما . وهما جبلان أجردان غير شامخين ، يتقاربان جدا في وضعهما من لدن أسوان الى أن ينتهيا الى الفسطاط ، ثم يتسع ما بينهما وينفرج قليلا ، ويأخذ المقطم منهما مشرقا والآخر مغربا ، على وراب في مأخذيهما وتفريج في مسلكيهما ، فتتسع أرض مصر من الفسطاط الى ساحل البحر الرومي الذي عليه الفرما وتنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية ، فهناك تنقطع في عرضها الذي هو مسافة ما بين أوغلها في الجنوب وأوغلها في الشمال .

واذا نظرنا بالطريق البرهانية في مقدار * هذه المسافة من الأميال ، لم تبلغ ثلاثين ميلا بل تنقص عنها نقصانا ما له قدر ، وذلك لأن فضل ما بين عرض مدينة أسوان التي هي أوغلها في الجنوب ، وعرض مدينة تنيس التي هي أوغلها في الشمال ، تسعة أجزاء ونحو سدس جزء ، وليس بين طوليها فضل له قدر يعتد به ، وينوب ذلك نحو خمسمائة وعشرين ميلا بالتقريب ، وذلك مسافة عشرين يوما أو قريب منها .

وفي هذه المدة من الزمان تقطع السفار ما بين البلدين بالسير المعتدل أو أكثر من

(*) ص١٥ ، جـ١ ، ط. بولاق .

ذلك ، لما في الطريق من التعويج وعدم الاستقامة .

وقال القضاعي : الذي يقع عليه اسم مصر من العريش الى آخر نوبية ومراقية ، وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض أنطابلس وهي برقة . ومن العريش فصاعدا يكون ذلك مسيرة أربعين ليلة ، وهو ساحل كله على البحر الرومي ، وهو بحري أرض مصر ، وهو مهب الشمال منها الى القبلة شيئا ما .

فاذا بلغت آخر أرض مراقية ، عدت ذات الشمال واستقبلت الجنوب ، وتسير في الرمل — وأنت متوجه الى القبلة — يكون الرمل من مصبه عن يمينك الى افريقة ، وعن يسارك من أرض مصر الى أرض الفيوم منها وأرض الواحات الأربعة ، فذلك غربي مصر وهو ما استقبلته منه .

ثم تعوج من آخر أرض الواحات ، وتستقبل المشرق سائرا الى النيل تسير ثماني مراحل الى النيل ، ثم على النيل فصاعدا ، وهي آخر أرض الاسلام هناك ، ويليها بلاد النوبة .

ثم تقطع النيل ، فتأخذ من أسوان في المشرق ، منكبا عن بلد أسوان الى عيذاب ساحل البحر الحجازي ، فمن أسوان الى عيذاب خمس عشرة مرحلة ، وذلك كله قبلي أرض مصر ، ومهب الجنوب منها .

ثم تقطع البحر الملح من عيذاب الى أرض الحجاز ، فينزل الحوراء أول أرض مصر ، وهي متصلة بأعراض مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا البحر المحدود هو بحر القلزم ، وهو داخل في أرض مصر بشرقيه وغربيه وبحريه : فالشرقي منه أرض الحوراء وطنبه والنبك وأرض مدين وأرض أيلة فصاعدا الى المقطم بمصر ، والغربي منه ساحل عيذاب الى بحري النعام الى المقطم ، والبحري منه مدينة القلزم وجبل الطور .

ومن القلزم الى الفرما مسيرة يوم وليلة ، وهو الحاجز فيما بين البحرين ، بحر الحجاز وبحر الروم ، وهذا كله شرقي أرض مصر من الحوراء الى العريش وهو مهب الصبا منها ..

فهذا المحدود من أرض مصر . وما كان بعد هذا من الحد الغربي ، فمن فتوح أهل مصر وثغورهم من البرقة الى الأندلس .

ذكر بحر القلزم

القلازم : الدواهي والمضايقة . ومنه بحر القلزم ، لأنه مضيق بين جبال . ولما كانت أرض مصر منحصرة بين بحرين ، هما بحر القلزم من شرقيها وبحر الروم من شماليها ، وكان بحر القلزم داخلا في أرض مصر كما تقدم ، صار من شرط هذا الكتاب التعريف به ، فنقول :

هذا البحر انما عرف في ناحية ديار مصر بالقلزم ، لأنه كان بساحله الغربي في شرقي أرض مصر مدينة تسمى القلزم ، وقد خربت — كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى في موضعه من هذا الكتاب عند ذكرى قرى مصر ومدنها — فسمى هذا البحر باسم تلك المدينة وقيل له بحر القلزم على الاضافة ، ويقال له بالعبرانية : ثم تسوبه .

وهذا البحر انما هو خليج يخرج من البحر الكبير المحيط بالأرض الذى يقال له بحر اقيانس ، ويعرف أيضا ببحر الظلمات ، لتكاثف البخار المتصاعد منه وضعف الشمس عن حله ، فيغلظ وتشتد الظلمة ، ويعظم موج هذا البحر وتكثر أهواله ، ولم يوقف من خبره الا على ما عرف من بعض سواحله وما قرب من جزائره .

وفى جانب هذا البحر الغربى — الذى يخرج منه البحر الرومى الآتى ذكره ان شاء الله — الجزائر الخالدات ، وهى فيما يقال ست جزائر ، يسكنها قوم متوحشون . وفى جانب هذا البحر الشرقى ، مما يلى الصين ، ست جزائر أيضا تعرف بجزائر السيلى ، نزلها بعض العلويين فى أول الاسلام خوفا على أنفسهم من القتل .

ويخرج من هذا المحيط ستة أبحر : أعظمها اثنان ، وهما اللذان عناهما الله تعالى بقوله : « مرج البحرين يلتقيان » وقوله : « وجعل بين البحرين حاجزا » . فأحدهما من جهة الشرق ، والآخر من جهة الغرب .

فالخارج من جهة الشرق يقال له البحر الصينى ، والبحر الهندى ، والبحر الفارسى ، والبحر اليمنى ، والبحر الحبشى ، بحسب ما يمر عليه من البلدان . وأما الخارج من الغرب ، فيقال له البحر الرومى .

فأما البحر الهندى الخارج من جهة الشرق ، فان مبدأ خروجه من مشرق الصين ، وراء خط الاستواء بثلاثة عشر درجة ، ويجرى الى ناحية الغرب ، فيمر على بلاد الصين وبلاد الهند الى مدينة كنبانة والى التيز من بلاد مكران . فاذا صار الى بلاد مكران ينقسم هناك قسمين : أحدهما يسمى بحر فارس ، والآخر يسمى بحر اليمن ، فيخرج بحر اليمن من ركن جبل خارج فى البحر يسمى هذا الركن رأس الجمجمة ، فيمتد من هناك الى مدينة ظفار ، ويسير الى المسجر وساحل بلاد حضرموت الى عدن والى باب المندب .

وطول هذا البحر الهندى ثمانية * آلاف ميل ، فى عرض ألف وسبعمائة ميل عند بعض المواضع ، وربما ضاق عن هذا القدر من العرض .

فاذا انتهى الى باب المندب يخرج الى بحر القلزم . والمندب جبل طوله اثنا عشر ميلا ، وسعة فوهته قدر ما يرى الرجل الآخر من البر تجاهه .

فاذا فارق باب المندب ، مر فى جهة الشمال بساحلى زبيد والحرون الى عثر — وكانت عثر مقر الملك فى القديم — ويمر من هناك على حلى الى عسفان وانسار ، وهى فرضة المدينة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام ، ومنها على ما يقابل الجحفة — حيث يسمى اليوم رابغ — الى الحوراء ومدين وأيلة والطور وفاران ومدينة القلزم .

فاذا وصل الى القلزم انعطف من جهة الجنوب ، ومر الى القصير وهى فرضة قوص ، ومن القصير الى عيذاب وهى فرضة البجة ، ويمتد من عيذاب الى بلد الزيلع — وهو ساحل بلاد الحبشة — ويتصل ببربر .

(*) ص١٦ ، جـ١ ، ط.بولاق .

وطول هذا البحر ألف وخمسمائة ميل ، وعرضه من أربعمائة ميل الى ما دونها . وهو بحر كريه المنظر والرائحة .

وفى هذا البحر مصب دجلة والفرات . وعلى أطرافه بلاد السند وبلاد اليمن كأنها جزائر أحاط بها الماء من جهاتها الثلاث . وهو يردع نهر مهران كردع البحر الرومى لنيل مصر .

وفيه — فيما بين مدينة القلزم ومدينة أيلة — مكان يعرف بمدينة فاران ، وعندها جبل لا يكاد ينجو منه مركب لشدة اختلاف الريح وقوة ممرها من بين شعبتى جبلين ، وهى بركة سعتها ستة أميال تعرف ببركة الغرندل ، يقال ان فرعون غرق فيها . فاذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة .

ويقال ان الغرندل اسم صنم كان فى القديم هناك ، قد وضع ليحبس من خرج من أرض مصر مغاضبا للملك أو فارا منه ، وأن موسى عليه السلام لما خرج ببنى اسرائيل من مصر وسار بهم مشرقا ، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينزل تجاه هذا الصنم ، فلما بلغ ذلك فرعون ظن أن الصنم قد حبس موسى ومن معه ومنعهم من المسير ، كما يعهدونه منه ، فخرج بجنوده فى طلب موسى وقومه ليأخذهم بزعمه ، فكان من غرقه ما قصه الله تعالى .

وسيرد خبر موسى عليه السلام عند ذكر كنيسة دموه من هذا الكتاب فى ذكر كنائس اليهود .

وفى بحر القلزم هذا خمس عشرة جزيرة ، منها أربع عامرات ، وهى : جزيرة دهلك ، وجزيرة سواكن ، وجزيرة النعمان ، وجزيرة السامرى .

ويخرج من هذا البحر خلجان : خليج لطيف ببلاد الهند المتصلة بالبحر الأعظم ، وخليج يحول بين بلاد السودان وبلاد اليمن عرض زقاقه نحو من فرسخين .

ويقرب هذا البحر من البحر الرومى فى أعمال بلاد الشام وديار مصر حتى يكون بينهما نحو يوم .

ذكر البحر الرومى

ولما كانت عدة بلاد من أرض مصر مطلة على البحر الرومى كمدينة الاسكندرية ودمياط وتنيس والفرما والعريش وغير ذلك ، وكان حد أرض مصر ينتهى فى الجهة الشمالية الى هذا البحر وهو نهاية مصب النيل ، حسن التعريف بشىء من أخباره :

وقد تقدم أن مخرج البحر الرومى هذا من جهة الغرب ، وهو يخرج فى الاقليم الرابع بين الأندلس والغرب سائرا الى القسطنطينية .

ويقال ان اسكندر الجبار حفره وأجراه من البحر المحيط الغربى ، وأن جزيرة الأندلس وبلاد البربر كانت أرضا واحدة يسكنها البربر والاشبان ، فكان بعضهم يغير على بعض ، الى أن ملك اسكندر الجبار ابن سلقوس بن اعريقس بن دوبان ، فرغب اليه الاشبان فى أن يجعل بينهم وبين البربر خليجا من البحر يسكن به احتراز كل طائفة عن الأخرى ، فحفر زقاقا طوله ثمانية عشر ميلا

فى عرض اثنى عشر ميلا ، وبنى بجانبيه سكرين وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها ، وجعل عندها حرسا يمنعون البربر من الجواز عليها الا باذن . وكان قاموس البحر أعلى من أرض هذا الزقاق ، فطما الماء حتى غطى السكرين مع القنطرة وساق بين يديه بلادا كثيرة ، وطمى على عدة بلاد .

ويقال ان المسافرين فى هذا الزقاق بالبحر يخبرون أن المراكب فى بعض الأوقات تتوقف سيرها مع وجود الريح فيجدون المانع لها كونها قد سلكت بين شرافات السور وبين حائطين .

ثم عظم هذا الزقاق فى الطول والعرض حتى صار بحرا عرضه ثمانية عشر ميلا ، ويذكرون أن البحر اذا جزر ترى القنطرة حينئذ .

وهذا الخبر أظنه غير صحيح ، فان أخبار هذا البحر وكونه بسواحل مصر ، لم يزل ذكره فى الدهر الأول قبل اسكندر بزمان طويل ، فاما أن يكون ذلك قد كان فى أول الدهر مما عمله بعض الأوائل ، واما أن يكون خبرا واهيا ، والا فزمان اسكندر حادث بعد كون هذا البحر ، والله أعلم .

وهذا الزقاق صعب السلوك ، شديد الهول ، متلاطم الأمواج . واذا خرج البحر من هذا الزقاق ، مر مشرقا فى بلاد البربر وشمال الغرب الأقصى الى وسط بلاد المغرب على افريقة وبرقة والاسكندرية وشمال التيه وأرض فلسطين والسواحل من بلاد الشام ، ثم يعطف * من هناك الى العلايا وانطاكية الى ظهر بلاد القسطنطينية ، حتى ينتهى الى البحر المحيط الذى خرج منه .

وطول هذا البحر خمسة آلاف ميل ، وقيل ستة آلاف ميل ، وعرضه من سبعمائة ميل الى ثلاثمائة ميل ، وفيه مائة وسبعون جزيرة عامرة فيها أمم كثيرة معروفة ، الا أنه ليس من شرط هذا الكتاب ، منها صقلية وصورقة واقريطش .

وقبالة البحر الهندى من جهة المغرب بحر خارج من المحيط فى مغرب بلاد الزنج ، ينتهى الى قرب من جبل القمر ، وفيه مصب النيل المار على بلاد الحبشة ، وفى أسفله جزائر الخالدات التى هى منتهى الطول فى المغرب .

ويقابل البحر الشامى من ناحية المشرق بحر جرجان ، وقيل انه يتصل بالبحر المحيط من بين جبال شامخة .

وبحر الصقلب بحر يخرج من جهة المغرب بين الاقليم السادس والاقليم السابع ، وهو متسع ، وفيه جزائر كثيرة ، ومنها جزيرة الأندلس الا أنها تتصل بالبر الكبير ، وهو جبل كالذراع يتصل بهذا البر عند برسلونة ، ولهم بحر — يعرف بأجوج ومأجوج — غزير وفيه عجائب ، الا أنه ليس من شرط هذا الكتاب ذكرها . ويقال ان مسافة هذا البحر الرومى نحو أربعة أشهر .

وقال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب « تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن » : وقد كان حرص بعض ملوك الفرس فى بعض استيلائهم على مصر ، على أن يحفروا ما بين البحرين : القلزم

(*) ص١٧ ، جـ١ ، ط. بولاق م

والرومى ، ويرفعوا من بينهما البرزخ ، وكان أولهم شاسيس بن طراطس الملك ، ثم من بعده دارنوش الملك ، فلم يتمكن لهم ذلك لارتفاع ماء القلزم على أرض مصر . فلما كانت دولة اليونانيين جاء بطليموس الثالث ، ففعل ذلك على يد أرسمدس ، بحيث يحصل الغرض بلا ضرر . فلما كانت دولة الروم القياصرة طموه منعا لمن يصل اليهم من أعدائهم .

وذكر بعض أصحاب السير من الفلاسفة أن ما بين الاسكندرية وبلادها وبين القسطنطينية كان فى قديم الزمان أرضا تنبت الجميز ، وكانت مسكونة وخصبة ، وكان أهلها من اليونانية ، وأن الاسكندر خرق اليها البحر فغلب على تلك الأرض .

وكان بها — فيما يزعمون — الطائر الذى يقال له ققنس ، وهو طائر حسن الصوت ، واذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع ، وأنه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح .

وزعموا أن عامل الموسيقى من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت ققنس فى تلك الحال ، فخشى ان هجم عليه أن يقتله حسن صوته ، فسد أذنيه سدا محكما ، ثم قرب اليه فجعل يفتح من أذنيه شيئا بعد شىء حتى استكمل فتح الأذنين فى ثلاثة أيام ، يريد أن يتوصل الى سماعه رتبة بعد رتبة ، فلا يبغته حسنه فى أول مرة فيأتى عليه .

وزعموا أن ذلك الطائر هلك ، ولم يبق منه ولا من فراخه شىء بسبب هجوم ماء البحر عليه وعلى رهطه بالليل فى الأوكار ، فلم يبق له بقية .

ويقال ان بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله ، فأعطاه قدحا فيه سم ليشربه فأعلمه بذلك ، فظهر منه مسرة وفرح ، فقال له : ماهذا أيها الحكيم ؟

فقال : هل أعجز أن أكون مثل ققنس ؟

ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعدد اسمائها

ويقال كان اسمها فى الدهر الأول قبل الطوفان « جزلة » ، ثم سميت « مصر » .

وقد اختلف أهل العلم فى المعنى الذى من أجله سميت هذه الأرض بمصر ، فقال قوم : سميت بمصر بن مركابيل بن دوابيل بن عرباب ابن آدم ، وهو مصر الأول .

وقيل : بل سميت بمصر الثانى ، وهو مصرام بن يعراوش الجبار ابن مصريم الأول ، وبه سمى مصر بن بنصر بن حام بعد الطوفان .

وقيل : بل سميت بمصر الثالث ، وهو مصر بن بنصر بن حام بن نوح ، وهو اسم أعجمى لا ينصرف .

وقال آخرون : هى اسم عربى مشتق ، فأما من ذهب الى أن مصر اسم أعجمى ، فانه استدل بما رواه أهل العلم بالأخبار من نزول مصر بن بنصر بهذه الأرض ، وقسمها بين أولاده فعرفت به . اهـ .

وذكر الحسن بن أحمد الهمداني أن مصر بن حام ، وهو مصرايم . وقيل ان بنصر بن هرمس بن هردوس جد الاسكندر ... قال : ونكح لوما بن حام بنت شاويل بن يافث بن نوح ، فولدت له بوقير وقبط — أبا القبط قبط مصر — ومن هنا أن مصر بن حام ، وانما هو مصر بن هرمس بن هردش بن بيطون بن روى بن ليطى بن يونان ، وبه سميت مصر فهى مقدونية .

وذكر أبو الحسن المسعودى فى كتاب « أخبار الزمان » أن بنى آدم لما تحاسدوا ، وبغى عليهم بنو قابيل بن آدم ، ركب نقراوس الجبار بن مصريم بن مركايل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام ، فى نيف وسبعين راكبا من بنى عرياب جبابرة ، كلهم يطلبون موضعا من الأرض يقطنون فيه فرارا من بنى أبيهم .

فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا الى النيل فأطالوا المشى عليه ، فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه ، أعجبهم وقالوا : هذه بلد زرع وعمارة ، فأقطنوا فيه واستوطنوا ، وبنوا فيه الأبنية * المحكمة والصنائع العجيبة ، وبنى نقراوس مصر وسماها باسم أبيه مصريم .

وكان نقراوس جبارا له قوة ، وكان مع ذلك عالما ، وله ائتمر الجن فى هلاك بنى أبيه ، ولم يزل مطاعا . وقد كان وقع اليه من العلوم ، التى كان زواميل علمها لآدم عليه السلام ، ما قهر به الجبابرة الذين كانوا قبله وملوكهم .

(*) ص١٨ ، ج١ ، ط.بولاق

ثم أمر ، حين ملك ، ببناء مدينة فى موضع خيمته ، فقطعوا له الصخور من الجبال ، وأثاروا معادن الرصاص ، وبنوا مدينة سماها أمسوس ، وأقاموا فيها أعلاما طول كل علم منها مائة ذراع ، وزرعوا وعمروا الأرض . ثم أمرهم ببناء المدائن والقرى ، وأسكن كل ناحية من الأرض من رأى .

ثم حفروا النيل حتى أجروا ماءه اليهم ، ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى ، انما كان ينبطح ويتفرق فى الأرض حتى يتوجه الى النوبة ، فهندسوه وساقوا منه أنهارا الى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها ، وساقوا منه نهرا الى مدينتهم أمسوس يجرى فى وسطها .

ثم سميت مصر ، بعد الطوفان ، بمصر بن بنصر بن حام بن نوح . وذلك أن قليمون الكاهن خرج من مصر ولحق بنوح عليه السلام ، وآمن به هو وأهله وولده وتلامذته ، وركب معه فى السفينة ، وزوج ابنته من بنصر بن حام بن نوح . فلما خرج نوح من السفينة وقسم الأرض بين أولاده — وكانت ابنة قليمون قد ولدت لبنصر ولدا سماه مصرايم — فقال قليمون لنوح : ابعث معى يانبى الله ابنى حتى أمضى به بلدى ، وأظهره على كنوزى ، وأوقفه على علومه ورموزه .

فأنفذه معه فى جماعة من أهل بيته — وكان غلاما مرفها — فلما قرب من مصر بنى له عريشا من أغصان الشجر ، وستره بحشيش الأرض ، ثم بنى له بعد ذلك فى هذا الموضع

مدينة وسماها درسان أى باب الجنة . فزرعوا وغرسوا الأشجار والأجنة من درسان الى البحر ، فصارت هناك زروع وأجنة وعمارة . وكان الذى مع مصرايم جبابرة ، فقطعوا الصخور ، وبنوا المعالم والمصانع ، وأقاموا فى أرغد عيش .

ويقال ان أهل مصر أقاموا عليهم مصرايم ابن بنصر ملكا فى أيام تالغ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشد بن سام بن نوح ، فملك مصر وهى مدينة منيعة على النيل وسماها باسمه .

ويقال ان مصرايم غرس الأشجار بيده ، وكانت ثمارها عظيمة بحيث يشق الأترجة نصفين فيحمل على البعير نصفها ! وكان القثاء فى طول أربعة عشر شبرا . ويقال انه أول من صنع السفن بالنيل ، وأن أول سفينة كانت ثلاثمائة ذراع طولا ، فى عرض مائة ذراع .

ويقال ان مصرايم نكح امرأة من بنى الكهنة فولدت له ولدا فسماه قبطيم ، ونكح قبطيم بعد سبعين سنة من عمره امرأة ولدت له أربعة نفر : قبطيم واشمون وأتريب وصا ، فكثروا وعمروا الأرض وبورك لهم فيها .

وقيل انه كان عدد من وصل معهم ثلاثين رجلا ، فبنوا مدينة سموها نافة ، ومعنى نافة ثلاثون بلغتهم ، وهى منف . وكشف أصحاب قليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم ، وأثاروا المعادن ، وعلموهم علم الطلسمات ، ووضعوا لهم علم الصنعة ، وبنوا على غير البحر مدنا منها رقودة مكان الاسكندرية .

ولما حضر مصرايم الوفاة عهد الى ابنه قبطيم ، وكان قد قسم أرض مصر بين بنيه ، فجعل لقبطيم من قفط الى أسوان ، ولأشمون من أشمون الى منف ، ولأتريب الحوف كله ، ولصا من ناحية صا البحرية الى قرب برقة ، وقال لأخيه فارق : لك من برقة الى الغرب ، فهو صاحب افريقة ووالد الأفارقة .

وأمر كل واحد من بنيه أن يبنى لنفسه مدينة فى موضعه ، وأمرهم عند موته أن يحفروا له فى الأرض سربا ، وأن يفرشوه بالمرمر الأبيض ويجعلوا فيه جسده ، ويدفنوا معه جميع ما فى خزائنه من الذهب والجوهر ويزبروا عليه أسماء الله تعالى المانعة من أخذه .

فحفروا له سربا طوله مائة وخمسون ذراعا ، وجعلوا فى وسطه مجلسا مصفحا بصفائح الذهب ، وجعلوا أربعة أبواب على كل باب منها تمثال من ذهب ، عليه تاج مرصع بالجوهر ، وهو جالس على كرسى من ذهب قوائمه من زبرجد ، وزبروا فى صدر كل تمثال آيات مانعة ، وجعلوا جسده فى جسد مرمر مصفح بالذهب .

وزبروا على مجلسه : مات مصرايم بن بنصر بن حام بن نوح بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان ، ولم يعبد الأصنام ، اذ لا هرم ولا سقام ولا حزن ولا اهتمام ، وحصنه بأسماء الله العظام ، ولا يصل اليه الا ملك ولدته سبعة ملوك تدين بدين الملك الديان ، ويؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعى الى الايمان آخر الزمان .

وجعلوا معه فى ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط ، وألف تمثال من الجوهر النفيس ، وألف برنية مملوءة من الدر الفاخر والصنعة الالهية ، والعقاقير والطلسمات

العجيبة ، وسبائك الذهب . وسقفوا ذلك بالصخور ، وهالوا فوقها الرمال بين جبلين ، وولى ابنه قبطيم الملك .

قال [1] أبو محمد عبد الملك بن هشام فى كتاب « التيجان » : ان عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود أخى عاد ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . واسم عبد شمس هذا عامر ، وعرف بعبد شمس لأنه أول من عبد الشمس .

وقيل له أيضا سبأ لأنه أول من سبى ، وهو سبأ الأكبر أبو حمير وكهلان ، ملك بعد أبيه يشجب بأرض اليمن ، جمع بنى قحطان وبنى هود عليه السلام ، وحثهم على الغزو ، ثم سار بهم الى أرض بابل ففتحها ، وقتل من كان بها من الثوار حتى بلغ أرض ارمينية ، وملك أرض بنى يافث بن نوح ، وأراد أن يعبر من هناك الى الشام وأرض الجزيرة ، فقيل له ليس لك مجاز غير الرجوع فى طريقك ، فبنى قنطرة على البحر وجاز عليها الى الشام ، فأخذ تلك الأراضى الى الدرب ، ولم يكن خلف الدرب اذ ذاك أحد .

ثم نهض يريد بلاد العرب ، فنزل على النيل ، وجمع أهل مشورته وقال لهم : انى رأيت أن أبنى مصرا الى حد بين هذين البحرين — يعنى بحر الروم وبحر القلزم — فيكون فاصلا بين الشرق والغرب ، فقالوا : نعم الرأى أيها الملك .

(1) من هنا الى قوله « وقال أبو القاسم ... » ساقطة فى كثير من النسخ ، فلعلها من زيادة من اطلع على الكتاب .

(*) ص١٩ ، جـ١ ، ط.بولاق م

فبنى مدينة سماها مصر وولى عليها ابنه بابليون، ومضى الى بنى حام بن نوح — وهم نزول فى البرارى الى قوصية وبعوصية القبط — فأوقع بجميع تلك الطوائف ، وسبى ذراريهم كما فعل ببلاد الشرق ، فقيل له من أجل ذلك : سبأ . ثم عاد الى مصر ومضى فيها الى الشام يريد الحجاز ، وأوصى ابنه بابليون عند رحيله :

ألا قل لبابليون والقول حكمة
ملكت زمام الشرق والغرب فاجمل

وخذ لبنى حام من الأمر وسطه
فان صدفوا يوما عن الحق فاقبل

وان جنحوا بالقول للرفق طاعة
يريدون وجه الحق والعدل فاعدل

ولا تظهرن الرأى فى الناس يجتروا
عليك به واجعله ضربة فيصل

ولا تأخذن المال فى غير حقه
وان جاء لا تدنيه نحوك وابذل

وداو ذوى الأحقاد بالسيف انه
متى يلق منك العزم ذو الحقد يجمل

وجد لذوى الأحساب لينا وشدة
ولا تك جبارا عليهم وأجمل

وكن لسؤال الناس غوثا ورحمة
ومن يك ذا عرف من الناس يسأل

واياك والسفر القريب فانه
سيغنى بما يوليه فى كل منهل

ثم عاد الى اليمن وبنى سد مأرب ، وهو سد فيه سبعون نهرا ، ويصل اليه السيل من مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها ، ثم مات عن خمسمائة سنة .

وقام من بعده ابنه حمير بن سبأ ، فعتا بنو حام على بابليون وأرادوا تخريب مصر ، فاستدعى أخاه حمير لينجده عليهم ، فقدم عليه مصر ، ومضى الى بلاد المغرب ، فأقام بها مائة عام يبنى المدائن ويتخذ المصانع ، فمات بابليون بن سبأ بمصر ، وولى بعده ابنه امرىء القيس بابليون .

ثم مات حمير بن سبأ عن أربعمائة سنة وخمس وأربعين سنة ، منها فى الملك أربعمائة سنة . وأقام من بعده وائل بن حمير ثم مات .

فقام من بعده ابنه السكسك بن وائل الذى يقال له مقعقع الحمد — وقد افترق ملك حمير — فحارب الثوار ، وسار الى الشام ، فلقيه عمرو بن امرىء القيس بن بابليون بن سبأ بالرملة — وقد ملك بعد أبيه — وقدم له هدية ، فأقره على مصر حتى قدم عليه ابراهيم الخليل عليه السلام ووهبه هاجر .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم فى كتاب « فتوح مصر وأخبارها » ، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال : كان لنوح عليه السلام أربعة من الولد : سام وحام ويافث ويخطون ، وأن نوحا رغب الى الله عز وجل ، وسأله أن يرزقه الاجابة فى ولده وذريته حين تكاملوا بالنماء والبركة ، فوعده ذلك .

فنادى نوح ولده وهم نيام عند السحر ، فنادى ساما فأجابه يسعى ، وصاح سام فى ولده فلم يجبه أحد منهم ، الا ابنه أرفخشد ، فانطلق به معه حتى أتياه ، فوضع نوح يمينه على سام وشماله على أرفخشد بن سام ، وسأل الله عز وجل أن يبارك فى سام أفضل البركة ، وأن يجعل الملك والنبوة فى ولد أرفخشد .

ثم نادى حاما وتلفت يمينا وشمالا ، فلم يجبه ولم يقم اليه هو ولا أحد من ولده ، فدعا الله عز وجل نوح أن يجعل ولده أذلاء ، وأن يجعلهم عبيدا لولد سام .

وكان مصر بن بنصر بن حام نائما الى جنب جده ، فلما سمع دعاء نوح على جده وولده ، قام يسعى الى نوح وقال : ياجدى قد أجبتك اذ لم يجبك جدى ولا أحد من ولده ، فاجعل لى دعوة من دعائك .

ففرح نوح ، ووضع يده على رأسه وقال : اللهم انه قد أجاب دعوتى فبارك فيه وفى ذريته ، وأسكنه الأرض المباركة التى هى أم البلاد وغوث العباد ، التى نهرها أفضل أنهار الدنيا ، واجعل فيها أفضل البركات ، وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم وقوهم عليها .

ثم دعا ابنه يافث ، فلم يجبه ولا أحد من ولده ، فدعا الله عليهم أن يجعلهم شرار الخلق .

وعاش سام مباركا الى أن مات . وعاش ابنه أرفخشد بن سام مباركا حتى مات . وكان الملك الذى يحبه الله والنبوة والبركة فى ولد أرفخشد بن سام .

وكان أكبر ولد حام* كنعان بن حام — وهو الذى حمل به فى الرجز فى الفلك — فدعا عليه نوح فخرج أسود ، وكان فى ولده الملك والجبروت والجفاء ، وهو أبو السودان والحبش كلهم ، وابنه الثانى كوش بن حام ، وهو أبو السند والهند . وابنه الثالث قوط ابن حام ، وهو أبو البربر ، وابنه الأصغر الرابع بنصر بن حام ، وهو أبو القبط كلهم .

فولد بنصر بن حام أربعة : مصر بن بنصر وهو أكبرهم والذى دعا له نوح بما دعا له ، وفارق بن بنصر ، وماح بن بنصر . وقيل ولد مصر أربعة : قفط بن مصر ، وأشمن بن مصر ، وأتريب بن مصر ، وصا بن مصر .

وعن ابن لهيعة وعبد الله بن خالد : أول من سكن مصر بنصر بن حام بن نوح عليه السلام بعد أن أغرق الله تعالى قومه ، وأول مدينة عمرت بمصر منف : فسكنها بنصر بولده وهم ثلاثون نفسا ، منهم أربعة أولاد له قد بلغوا وتزوجوا ، وهم مصر وفارق وياح وماح — وكان مصر أكبرهم — فبنوا مصر ، وكان اقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم ، ونقروا هناك منازل كثيرة .

وكان نوح عليه السلام قد دعا لمصر أن يسكنه الله الأرض الطيبة المباركة التى هى أم البلاد وغوث العباد ، ونهرها أفضل الأنهار ، ويجعل له فيها أفضل البركات ، ويسخر له الأرض ولولده ويذللها لهم ويقويهم عليها ، فسأله عنها فوصفها له وأخبره بها .

قالوا : وكان مصر بن بنصر مع نوح فى السفينة لما دعا له ، وكان بنصر بن حام قد كبر وضعف ، فساق ولده مصر وجميع اخوته الى مصر فنزلوها ، وبذلك سميت مصر .

فلما قر قرار بنصر وبنيه بمصر ، قال لمصر اخوته فارق وماح وياح بنو بنصر : قد علمنا أنك أكبرنا وأفضلنا ، وأن هذه الأرض التى أسكنك اياها جدك نوح ، ونحن نضيق عليك أرضك — وذلك حين كثر ولده وأولادهم — ونحن نطلب اليك البركة التى جعلها فيك جدنا نوح أن تبارك لنا فى أرض نلحق بها ونسكنها وتكون لنا ولأولادنا .

فقال : نعم ، عليكم بأقرب البلاد الى ولا تباعدوا منى ، فان لى فى بلادى مسيرة شهر من أربعة وجوه أحوزها لنفسى ، فتكون لى ولولدى ولأولادهم .

فحاز مصر بن بنصر لنفسه ما بين الشجرتين التى بالعريش الى أسوان طولا ، ومن برقة الى أيلة عرضا .

وحاز فارق لنفسه ما بين برقة الى أفريقية ، وكان ولده الأفارقة ، ولذلك سميت افريقية ، وذلك مسيرة شهر .

وحاز ماح ما بين الشجرتين من منتهى حد مصر الى الجزيرة مسيرة شهر ، وهو أبو قبط الشام .

وحاز ياح ما وراء الجزيرة كلها ما بين البحر الى الشرق مسيرة شهر ، وهو أبو قبط العراق .

ثم توفى بنصر بن حام ، ودفن فى موضع دير أبى هرميس غربى الأهرام ، فهى أول مقبرة قبر فيها بأرض مصر .

(*) ص٢٠ ، جـ١ ، ط. بولاق *

وكثر أولاد مصر ، وكان الأكابر منهم قفط وأتريب واشمن وصا ، والقبط من ولد مصر هذا . ويقال ان قبط اخو قفط ، وهو بلسانهم قفطيم وقبطيم ومصرايم .

قال : ثم ان بنصر بن حام توفى ، واستخلف ابنه مصر ، وحاز كل واحد من اخوة مصر قطعة من الأرض لنفسه سوى أرض مصر التى حازها لنفسه ولولده .

فلما كثر ولد مصر وأولاد أولادهم ، قطع مصر لكل واحد من ولده قطيعة يحوزها لنفسه ولولده ، وقسم لهم هذا النيل .

فقطع لابنه قفط موضع قفط فسكنها ، وبه سميت قفط قفطا ، وما فوقها الى أسوان وما دونها الى أشمون فى الشرق والغرب .

وقطع لأشمن من أشمون فما دونها الى منف فى الشرق والغرب ، فسكن أشمن أشمون فسميت به .

وقطع لأتريب ما بين منف الى صا ، فسكن أتريبا فسميت به .

وقطع لصا ما بين صا الى البحر ، فسكن صا فسميت به .

فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء : جزأين بالصعيد ، وجزأين بأسفل الأرض .

قال البكرى : ومصر مؤنثة . قال تعالى : « أليس لى ملك مصر » ، وقال : « ادخلوا مصر » . وقال عامر بن أبى وائلة الكنانى لمعاوية : أما عمرو بن العاص فاقطعته مصر . وأما قوله سبحانه « اهبطوا مصرا » فانه أراد مصرا من الأمصار . وقرأ سليم الأعمش « اهبطوا مصر . وقال : هى مصر التى عليها سليم بن على ، فلم يجرها .

وقال القضاعى : وكان بنصر بن حام قد كبر وضعف ، فساقه ولده مصر وجميع اخوته الى مصر فنزلوها ، وبذلك سميت مصر .

وهو اسم لا ينصرف فى المعرفة لأنه اسم مذكر ، سميت به هذه المدينة ، فاجتمع فيها التأنيث والتعريف فمنعاها الصرف ، ثم قيل لكل مدينة عظيمة يطرقها السفار مصر ، فاذا أريد مصر من الأمصار صرف لزوال احدى العلتين وهى التعريف .

وأما قوله تعالى اخبارا عن موسى عليه السلام « اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم » فانه مصروف فى قراءة سائر القراء ، وفى قراءة الحسن والأعمش غير مصروف . فمن صرفها فله وجهان : أحدهما أنه أراد اهبطوا مصرا من الأمصار لأنهم كانوا يومئذ فى التيه ، والآخر أنه أراد مصر هذه بعينها ، وصرفها لأنه جعل مصرا اسما للبلد ، وهو اسم مذكر سمى به مذكر فلم يمنعه الصرف . وأما من لم يصرفه فانه أراد بمصر هذه المدينة .

وكذلك قوله تعالى اخبارا عن يوسف عليه السلام : « ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » ، وقول فرعون : « أليس لى ملك مصر » انما يراد به مصر هذه . فأما المصر فى كلام العرب فهو الحد بين الأرضين . ويقال ان أهل هجر يقولون : اشتريت الدار بمصورها ، أى بحدودها .

وقال الجاحظ * فى كتاب مدح مصر : انما سميت مصر بمصر لمصير الناس اليها واجتماعهم

(*) ص١١ ، جـ١ ، ط. بولاق *

بها ، كما سمى مصير الجوف مصيراً ومصراناً لمصير الطعام اليه .

قال : وجمع المصر من البلدان أمصار ، وجمع مصير الطعام مصران ، وليس لمصر هذه جمع لأنها واحدة .

قال : وقال الأخطل : همت بالاسلام ثم توقفت عنه . قيل : ولم ذلك ؟

قال : أتيت امرأة لى وأنا جائع فقلت : أطعميني شيئا ، فقالت : ياجارية ، ضحى لأبى مالك مصيرا فى النار ، ففعلت .

فاستعجلتها بالطعام فقالت : ياجارية ، أين مصير أبى مالك ؟ قالت : فى النار .

قال : فتطيرت ، وهممت بأن أسلم فتوقفت .

وقال الجوهرى فى كتاب الصحاح : مصر هى المدينة المعروفة ، تذكر وتؤنث .

عن ابن السراج : والمصران الكوفة والبصرة .

وقال ابن خالويه فى كتاب « ليس » : ليس أحد فسر لنا لم سميت مصر مقدونية قديما الا فى اللسان العبرانى ، قال : مقدونية مغيث ، وانما سميت مصر لما سكنها بنصر بن حام .

وتزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعا وقف على الكنيسة العظمى التى بالقسطنطينية ، ويسمون بلاد مقدونية الأوصفية ، وهى عندهم الاسكندرية وما يضاف اليها ، وهى مصر كلها بأسرها الا الصعيد الأعلى .

ويقال لمصر : أم خنور ، وتفسيره النعمة .

والمصر : الفرق بين الشيئين . قال الشاعر يصف الله تعالى :

وجاعل الشمس مصرا لا خفاء به
بين النهار وبين الليل قد فصلا

هذا البيت قاله عدى بن زيد العبادى ، ويروى لأمية بن الصلت الثقفى ، وهو من أبيات أولها :

اسمع حديثا كما يوما تحدثه
عن ظهر غيب اذا ما سائل سألا

كيف بدا ثم ربى الله نعمته
فينا وعلمنا آياته الأولا

كانت رياح وسيل ذو كرانية
وظلمة لم تدع فتقا ولا خللا

فآمر الظلمة السوداء فانكشفت
وعزل الماء عما كان قد شغلا

وبسط الأرض بسطا ثم قدرها
تحت السماء سواميل وما ثقلا

وجاعل الشمس مصرا لا خفاء به
بين النهار وبين الليل قد فصلا

وفى السماء مصابيح تضىء لنا
ما ان تكلفنا زيتا ولا فتلا

قضى ، لستة أيام ، خليقته
وكان آخر شىء صور الرجلا

فأخذ الله من طين فصوره
لما رأى أنه قد تم واعتدلا

دعاه آدم صوتا فاستجاب له
فنفخ الروح فى الجسم الذى جبلا

ثمة أورثه الفردوس يسكنها
وزوجه ضلعه من جنبه سلا

لم ينهه ربه عن غير واحدة
من شجر طيب ان شم أو آكلا

وكانت الحية الرقشاء اذ خلقت
كما ترى ناقة فى الخلق أو جملا

فلامها الله اذ أطغت خليفته
طول الليالى ولم يجعل لها آكلا

تمشى على بطنها فى الأرض ماعمرت
والترب تأكله حزنا وان سهلا

وقال الحافظ أبو الخطاب مجد الدين عمر ابن دحية : ومصر أخصب بلاد الله ، وسماها الله بمصر ، وهى هذه دون غيرها باجماع القراء على ترك صرفها . وهى اسم لا ينصرف فى معرفة لأنه اسم مذكر سميت به هذه المدينة ، واجتمع فيه التأنيث والتعريف فمعناه الصرف . وهى عندنا مشتقة من مصرت الشاة اذا أخذت من ضرعها اللبن ، فسميت مصر لكثرة ما فيها من الخير مما ليس فى غيرها ، فلا يخلو ساكنها من خير يدر عليه منها كالشاة التى ينتفع بلبنها وصوفها وولادتها .

وقال ابن الأعرابى : المصر الوعاء ، ويقال للمعا : المصير ، وجمعه مصران ومصارين .

وكذلك هى خزائن الأرض ، قال أبو بصرة الغفارى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مصر خزائن الأرض كلها ، ألا ترى الى قول يوسف عليه السلام : « اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » فأغاث الله بمصر يومئذ وخزائنها كل حاضر وباد ... ذكره الحوفى فى تفسيره .

وقال البكرى : أم خنور — بفتح أوله وتشديد ثانيه وبالراء المهملة — اسم لمصر .

وقال أرطاه بن شهبة : يال ذبيان ، ذودوا عن دمائكم ، ولا تكونوا كقوم أم خنور .

يقول لا تكونوا أذلاء ينالكم من أراد ، ويأخذ منكم من حب ، كما يختار مصر وهى أم خنور [1] .

وقال كراع : أم خنور النعمة ، ولذلك سميت مصر أم خنور لكثرة خيرها .

وقال على بن حمزة : سميت أم خنور ، لأنها يساق اليها * القصار الأعسار . ويقال للضبع : خنور وخنوز ، بالراء والزاى .

وقال ابن قتيبة فى غرائب الحديث : ومصر الحد ، وأهل هجر يكتبون فى شروطهم : اشترى فلان الدار بمصورها كلها ، أى بحدودها .

وقال عدى بن زيد :

وجاعل الشمس مصرا لا خفاء به
بين النهار وبين الليل قد فصلا

أى حدا .

ذكر طرف من فضائل مصر

ولمصر فضائل كثيرة ، منها أن الله عز وجل ذكرها فى كتابه العزيز بضعا وعشرين مرة ، تارة بصريح الذكر وتارة ايماء ... قال تعالى : « اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم » .

قال أبو محمد عبد الحق بن عطية فى تفسيره : وجمهور الناس يقرأون مصرا

(١) هكذا فى النسخ ، وهو محل تأمل .

(*) ص٢٢ ، جـ١ ، طـ بولاق .

بالتنوين ، وهو خط المصاحف ، الا ما حكى عن بعض مصاحف عثمان رضى الله عنه .

وقال مجاهد وغيره : من صرفها أراد مصرا من الأمصار غير معين . واستدلوا بما اقتضاه القرآن من أمرهم بدخول القرية ، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه .

وقالت طائفة ممن صرفها : أراد مصر فرعون بعينها ، واستدلوا بما فى القرآن أن الله تعالى أورث بنى اسرائيل ديار فرعون وآثاره ، وأجازوا صرفها .

قال الأخفش : لخفتها وشبهها بهند ودعد . وسيبويه لا يجيز هذا . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصرف .

وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وغيرهما : اهبطوا مصر ، بترك الصرف ، وكذلك هى فى مصحف أبى بن كعب ، وقال : هى مصر فرعون .

قال الأعمش : هى مصر التى عليها صالح بن على .

وقال أشهب : قال لى مالك : هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون ... قال تعالى : « ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره ، عن فرقد السبخى ، قال : خرج يوسف عليه السلام يتلقى يعقوب عليه السلام ، وركب أهل مصر مع يوسف وكانوا يعظمونه . فلما دنا أحدهما من صاحبه ، وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على رجل من ولده يقال له يهوذا ، فنظر يعقوب الى الخيل والى الناس فقال : يايهوذا ، هذا فرعون مصر .

قال : لا ، هذا ابنك .

فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه قال يعقوب عليه السلام : عليك ياذاهب الأحزان عنى ... هكذا قال : ياذاهب الأحزان عنى .

وقال تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة » .

قال الطبرى عن ابن عباس وغيره : كانت بنو اسرائيل تخاف فرعون ، فأمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلون فيها .

قال قتادة : وذلك حين منعهم فرعون الصلاة ، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم فى بيوتهم ، وأن يوجهوا نحو القبلة .

وعن مجاهد : « بيوتكم قبلة » ، قال : نحو الكعبة حين خاف موسى ومن معه من فرعون أن يصلوا فى الكنائس الجامعة ، فأمروا أن يجعلوا فى بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة ، يصلون فيها سرا .

وعن مجاهد فى قوله « أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا » قال : مصر الاسكندرية .

وقال تعالى مخبرا عن فرعون انه قال : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون » .

قال ابن عبد الحكم ، وأبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس وغيرهما ، عن أبى زهم السماعى ، أنه قال فى قوله تعالى : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من

تحتى » قال : ولم يكن يومئذ فى الأرض ملك أعظم من ملك مصر ، وكان جميع أهل الأرضين يحتاجون الى مصر . وأما الأنهار فكانت قناطر وجسورا بتقدير وتدبير ، حتى ان الماء يجرى من تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا .

فهذا ما ذكره الله سبحانه فى مصر من آى الكتاب العزيز بصريح الذكر .

وأما ما وقعت اليها الاشارة فيه من الآيات فعدة .

قال تعالى : « ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق » .

وقال تعالى : « وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » .

قال ابن عباس وسعيد بن المسيب ووهب بن منبه : هى مصر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه : هى الاسكندرية .

وقال تعالى : « فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز مقام كريم » .

وقال تعالى : «كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين » .

قال ابن يونس فى قول الله سبحانه : « فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم » . قال أبو زهم : كانت الجنات بحافتى النيل من أوله الى آخره من الجانبين ، ما بين أسوان الى رشيد ، وسبعة خلج : خليج الاسكندرية ، وخليج سخا ، وخليج دمياط ، وخليج سردوس ، وخليج منف ، وخليج الفيوم وخليج المنهى ... متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء ، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر الى آخرها مما يبلغه الماء . وكان جميع أرض مصر كلها تروى يومئذ من ستة عشر ذراعا ، لما قد دبروا من قناطرها وجسورها .

قال : والمقام الكريم : المنابر . كان بها ألف منبر .

وقال مجاهد وسعيد بن جبير : المقام الكريم : المنابر .

وقال قتادة : ومقام كريم ، أى حسن . ونعمة كانوا فيها فاكهين * ، ناعمين .

قال : اى والله أخرجه الله من جناته وعيونه وزروعه حتى ورطه فى البحر .

وقال سعيد بن كثير بن عفير : كنا بقبة الهواء عند المأمون لما قدم مصر ، فقال لنا : ما أدرى ما أعجب فرعون من مصر حيث يقول : « أليس لى ملك مصر » ؟

فقلت : أقول ياأمير المؤمنين ؟

فقال : قل ياسعيد .

فقلت : ان الذى ترى بقية مدمر ، لأن الله عز وجل يقول : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » .

قال : صدقت ، ثم أمسك .

وقال تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون » .

(*) ص٢٢ ، جـ١ ، ط.بولاق .

وقال تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال : «ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض» .

وقال تعالى : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » .

وقال تعالى مخبرا عن قوم فرعون : «أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض » ، يعنى أرض مصر .

وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام أنه قال : « اجعلنى على خزائن الأرض ، انى حفيظ عليم » .

روى ابن يونس عن أبى بصرة الغفارى رضى الله عنه قال : مصر خزائن الأرض كلها ، وسلطانها سلطان الأرض كلها ، ألا ترى الى قول يوسف عليه السلام لملك مصر « اجعلنى على خزائن الأرض » ففعل ، فأغيث بمصر وخزائنها يومئذ كل حاضر وباد من جميع الأرض .

وقال تعالى : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء» ، فكان ليوسف بسلطانه بمصر جميع سلطان الأرض كلها ، لحاجتهم اليه والى ما تحت يديه .

وقال تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام أنه قال : « ربنا انك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

وقال تعالى : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون » .

وقال تعالى : « وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد » ، يعنى أرض مصر .

وقال تعالى : « ان فرعون علا فى الأرض » يعنى أرض مصر .

وقال تعالى حكاية عن بعض اخوة يوسف عليه السلام : « فلن أبرح الأرض » ، يعنى أرض مصر .

وقال تعالى : « ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض » ، يعنى أرض مصر .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : سميت مصر بالأرض كلها فى عشرة مواضع من القرآن .

فهذا ما يحضرلى مما ذكرت فيه مصر من آى كتاب الله العزيز .

وقد جاء فى فضل مصر أحاديث :

روى عبد الله بن لهيعة من حديث عمرو بن العاص أنه قال : حدثنى عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » .

قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يارسول الله ؟

قال : « لأنهم فى رباط الى يوم القيامة » .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٢



كتاب
التحرير

«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وعن عمرو بن الحمق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تكون فتنة أسلم الناس فيها (أو خير الناس فيها) الجند الغربى » .

قال : « فلذلك قدمت عليكم مصر » .

وعن تبيع بن عامر الكلاعى قال : أقبلت من الصائفة فلقيت أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه ، فقال لى : من أين أنت ؟

فقلت : من أهل مصر .

قال : من الجند الغربى .

فقلت : نعم .

قال : الجند الضعيف .

قلت : أهو الضعيف ؟

قال : نعم .

قال : أما انه ما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤنته ، اذهب الى معاذ بن جبل حتى يحدثك .

قال : فذهبت الى معاذ بن جبل فقال لى : ما قال لك الشيخ ؟

فأخبرته ، فقال لى : وأى شىء تذهب به الى بلادك أحسن من هذا الحديث ؟ أكتبت فى أسفل ألواحك : فلما رجعت الى معاذ أخبرنى أن بذلك أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وروى ابن وهب من حديث صفوان بن عسال قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « فتح الله بابا للتوبة فى الغرب عرضه سبعون عاما ، لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه » .

وروى ابن لهيعة من حديث عمرو بن العاص : حدثنى عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لهم منكم صهرا وذمة » .

وروى ابن وهب قال : أخبرنى حرملة بن عمران النجيبى ، عن عبد الرحمن بن شماسة المهرى ، قال : سمعت أبا ذر رضى الله عنه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما ، فاذا رأيتم رجلين يقتتلان فى موضع لبنة فاخرجوا منها » .

قال : فمر بربيعة وعبد الرحمن ابنى شرحبيل يتنازعان فى موضع لبنة ، فخرج منها .

وفى رواية : « ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها فان لهم ذمة ورحما (أو قال : ذمة وصهرا) ... » الحديث .

ورواه مالك والليث وزاد « فاستوصوا بالقبط خيرا » أخرجه مسلم فى الصحيح عن أبى الطاهر عن ابن وهب .

قال ابن شهاب : وكان يقال ان أم اسماعيل منهم .

قال الليث بن سعد : * قلت لابن شهاب : ما رحمهم ؟

(*) ص٢٤ ، جـ١ ، ط. بولاق .

قال : ان أم اسماعيل بن ابراهيم ، صلوات الله عليهما ، منهم .

وقال محمد بن اسحاق : قلت للزهرى : ما الرحم التى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : كانت هاجر أم اسماعيل منهم .

وروى ابن لهيعة ، من حديث أبى سالم الجيشانى ، أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انكم ستكونون أجنادا ، وان خير أجنادكم أهل الغرب منكم ، فاتقوا الله فى القبط : لا تأكلوهم أكل الخضر » .

وعن مسلم بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « استوصوا بالقبط خيرا ، فانكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدو » .

وعن يزيد بن أبى حبيب أن أبا سلمة بن عبد الرحمن حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته أن تخرج اليهود من جزيرة العرب ، وقال : « الله الله فى قبط مصر ، فانكم ستظهرون عليهم ، ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله » .

وروى ابن وهب ، عن موسى بن أيوب الغافقى ، عن رجل من الزند ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال : « استوصوا بالأدم الجعد » ثم أغمى عليه الثانية ، ثم أفاق فقال مثل ذلك ، ثم أغمى عليه الثالثة فقال مثل ذلك .

فقال القوم : لو سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدم الجعد ؟

فأفاق فسألوه ، فقال : « قبط مصر ، فانهم أخوال وأصهار ، وهم أعوانكم على عدوكم ، وأعوانكم على دينكم » .

قالوا : كيف يكونون أعواننا على ديننا يارسول الله ؟

قال : « يكفونكم أعمال الدنيا ، وتتفرغون للعبادة : فالراضى بما يؤتى اليهم كالفاعل بهم ، والكاره لما يؤتى اليهم من الظلم كالمتنزه عنهم » .

وعن عمرو بن حريب ، وأبى عبد الرحمن الحلبى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم ، فاستوصوا بهم خيرا ، فانهم قوة لكم ، وبلاغ الى عدوكم باذن الله » ، يعنى قبط مصر .

وعن ابن لهيعة ، حدثنى مولى عفرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الله الله فى أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا » .

قال عمرو مولى عفرة : صهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى فيهم ، ونسبهم أن أم اسماعيل عليه السلام منهم .

قال ابن وهب : فأخبرنى ابن لهيعة أن أم اسماعيل هاجر من أم العرب ، قرية كانت أمام الفرما من مصر .

قال مروان القصاص : صاهر الى القبط من الأنبياء ثلاثة : ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام تسرى هاجر ، ويوسف تزوج بنت

صاحب عين شمس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى مارية .

وقال يزيد بن أبى حبيب : قرية هاجر باق التى عندها أم دنين .

وقال هشام : العرب تقول : هاجر وآجر ، فيبدلون من الهاء الألف ، كما قالوا : هراق الماء وأراق الماء ونحوه .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : الأمصار سبعة : فالمدينة مصر ، والشأم مصر ، ومصر ، والجزيرة ، والبحرين ، والبصرة ، والكوفة .

وقال مكحول : أول الأرض خرابا أرمينة ، ثم مصر .

وقال عبد الله بن عمرو : قبطة مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة ، ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر الى مثلها فى الدنيا ، فلينظر الى أرض مصر حين يخضر زرعها ، وتنور ثمارها .

وقال كعب الأحبار : من أراد أن ينظر الى شبه الجنة ، فلينظر الى مصر اذا أخرفت (وفى رواية اذا أزهرت) .

ومن فضائل مصر أنه كان من أهلها السحرة وقد آمنوا جميعا فى ساعة واحدة ، ولا يعلم جماعة أسلمت فى ساعة واحدة أكثر من جماعة القبط .

وكانوا — فى قول يزيد بن أبى حبيب وغيره — اثنى عشر ساحرا رؤساء ، تحت يد كل ساحر منهم عشرون عريفا ، تحت يد كل عريف منهم ألف من السحرة ، فكان جميع السحرة مائتى ألف وأربعين ألفا ومائتين واثنين وخمسين انسانا بالرؤساء والعرفاء . فلما عاينوا ما عاينوا أيقنوا أن ذلك من السماء ، وأن السحر لا يقوم لأمر الله ، فخر الرؤساء الاثنا عشر عند ذلك سجدا ، فاتبعهم العرفاء ، واتبع العرفاء من بقى ، وقالوا : « آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون » .

قال تبيع : كانوا من أصحاب موسى عليه السلام ، ولم يفتتن منهم أحد مع من افتتن من بنى اسرائيل فى عبادة العجل .

قال تبيع : ما آمن جماعة قط فى ساعة واحدة مثل جماعة القبط .

وقال كعب الأحبار : مثل قبط مصر كالغيضة كلما قطعت نبتت ، حتى يخرب الله عز وجل بهم وبصناعتهم جزائر الروم .

وقال عبد الله بن عمرو : خلقت الدنيا على خمس صور ، على صورة الطير برأسه وصدره وجناحيه وذنبه .

فالرأس مكة والمدينة واليمن .

والصدر الشام ومصر .

والجناح الأيمن العراق ، وخلف العراق أمة يقال لها واق ، وخلف واق أمة يقال لها واق واق ، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه الا الله عز وجل .

والجناح الأيسر السند ، وخلف السند الهند ، وخلف أمة الهند أمة يقال لها ناسك ، وخلف ناسك أمة يقال لها منسك ، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه الا الله عز وجل .

والذنب من ذات الحمام الى مغرب الشمس ، وشر ما فى الطير الذنب .

وقال الجاحظ : الأمصار عشرة : الصناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة * ، والتخنيث ببغداد ، والعى بالرى ، والجفا بنيسابور ، والحسن بهراة ، والطرمذة بسمرقند ، والمروءة ببلخ ، والتجارة بمصر ، والبخل بمرو (الطرمذة كلام ليس له فعل) .

وعن يحيى بن داخر الغافرى أنه سمع عمرو بن العاص يقول فى خطبته : واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ، ولاشراف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية .

وعن عبد الرحمن بن غنم الأشعرى أنه قدم من الشام الى عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : ما أقدمك الى بلادنا ؟

قال : كنت تحدثنى أن مصر أسرع الأرض خرابا ، ثم أراك قد اتخذت منها ، وبنيت فيها القصور ، واطمأنت فيها

قال : ان مصر قد أوفت خرابها ، حطمها البخت نصر فلم يدع فيها الا السباع والضباع ، فهى اليوم أطيب الأرضين ترابا ، وأبعدها خرابا ، ولا يزال فيها بركة ما دام فى شيء من الأرض بركة .

ويقال : مصر متوسطة الدنيا ، قد سلمت من حر الاقليم الأول والثانى، ومن برد الاقليم السادس والسابع ، ووقعت فى الاقليم الثالث فطاب هواها ، وضعف حرها ، وخف بردها . وسلم أهلها من مشاتى الأهواز ، ومصايف عمان ، وصواعق تهامة ، ودماميل الجزيرة ، وجرب اليمن ، وطواعين الشام ، وبرسام العراق ، وعقارب عسكر مكرم ، وطحال البحرين ، وحمى خيبر وأمنوا من غارات الترك ، وجيوش الروم ، وهجوم العرب ، ومكايد الديلم ، وسرايا القرامطة ، ونزف الأنهار ، وقحط الأمطار .

وبها ثمانون كورة ، ما فيها كورة الا وبها طرائف وعجائب من أنواع البر والأبنية والطعام والشراب والفاكهة ، وسائر ما تنتفع به الناس وتدخره الملوك ، يعرف بكل كورة وجهاتها ، وينسب كل لون الى كورة :

فصعيدها أرض حجازية ، حره حر العراق ، وينبت النخل والاراك والقرظ والدوم والعشر .

وأسفل أرضها شامى يمطر مطر الشام ، وينبت ثمار الشام من الكروم والزيتون واللوز والتين والجوز وسائر الفواكه والبقول والرياحين ، ويقع به الثلج والبرد

وكورة الاسكندرية ولوبية ومراقية برارى وجبال وغياض تنبت الزيتون والأعناب ، وهى بلاد ابل وماشية وعسل ولبن .

وفى كل كورة من كور مصر مدينة ، فى كل مدينة منها آثار كريمة من الأبنية والصخور والرخام والعجائب .

وفى نيلها السفن التى تحمل السفينة الواحدة منها ما يحمله خمسمائة بعير .

وكل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة ، يؤيد ذلك قول الله سبحانه وتعالى « وابعث فى المدائن حاشرين » .

(*) ص٢٥ ، جـ١ ، ط.بولاق .

ويعمل بمصر معامل كالتنانير ، يعمل بها البيض بصنعة ، يوقد عليه فيحاكى نار الطبيعة فى حضانة الدجاجة لبيضها ، ويخرج من تلك المعامل الفراريج ، وهى معظم دجاج مصر ، ولا يتم عمل هذا بغير مصر .

وقال عمر بن ميمون : خرج موسى عليه السلام ببنى اسرائيل ، فلما أصبح فرعون أمر بشاة فأتى بها ، فأمر بها أن تذبح ثم قال : لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع عندى خمسمائة ألف من القبط .

فاجتمعوا اليه فقال لهم فرعون : ان هؤلاء لشرذمة قليلون . وكان أصحاب موسى عليه السلام ستمائة ألف وسبعين ألفا .

ووصف بعضهم مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء .

فأما اللؤلؤة البيضاء ، فان مصر فى أشهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء ، وضياعها على روابى وتلال مثل الكواكب قد أحيطت بها المياه من كل وجه ، فلا سبيل الى قرية من قراها الا فى الزوارق .

وأما المسكة السوداء ، فان فى أشهر بابه وهاتور وكيهك ينكشف الماء عن الأرض فتصير أرضا سوداء ، وفى هذه الأشهر تقع الزراعات .

وأما الزمردة الخضراء ، فان فى أشهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر نبات الأرض وربيعها فتصير خضراء كأنها زمردة .

وأما السبيكة الحمراء فان فى أشهر برمودة وبشنس وبؤونة يتورد العشب ويبلغ الزرع الحصاد ، فيكون كالسبيكة التى من الذهب منظرا ومنفعة .

وسأل بعض الخلفاء الليث بن سعد عن الوقت الذى تطيب فيه مصر ، فقال : اذا غاض ماؤها ، وارتفع وباها ، وجف ثراها ، وأمكن مرعاها .

وقال آخر : نيلها عجب ، وأرضها ذهب ، وخيرها جلب ، وملكها سلب ، ومالها رغب ، وفى أهلها صخب ، وطاعتهم رهب ، وسلامهم شغب ، وحربهم حرب ، وهى لمن غلب .

وقال آخر : مصر من سادات القرى ورؤساء المدن .

وقال زيد بن أسلم فى قوله تعالى : « فان لم يصبها وابل فطل » : هى مصر ، ان لم يصبها مطر أزكت ، وان أصابها مطر أضعفت ... قاله المسعودى فى تاريخه .

ويقال لما خلق الله آدم عليه السلام مثل له الدنيا شرقها وغربها ، وسهلها وجبلها ، وأنهارها وبحارها ، وبناءها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك .

فلما رأى مصر أرضا سهلة ، ذات نهر جار مادته من الجنة ، تنحدر فيه البركة ، ورأى جبلا من جبالها مكسوا نورا ، لا يخلو من نظر الرب اليه بالرحمة ، فى سفحه أشجار مثمرة ، وفروعها فى الجنة تسقى بماء الرحمة . فدعا آدم عليه السلام فى النيل * بالبركة ، ودعا فى أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى ،

(*) ص٢٦ ، جـ١ ، ط.بولاق .

وبارك فى نيلها وجبلها سبع مرات ، وقال : يأيها الجبل المرحوم ، سفحك جنة ، وتربتك مسكة ، يدفن فيها غراس الجنة ، أرض حافظة مطيعة رحيمة ، لا خلتك يامصر بركة ، ولا زال بك حفظ ، ولا زال منك ملك وعز . ياأرض مصر ، فيك الخبايا والكنوز ، ولك البر والثروة ، وسال نهرك عسلا . كثر الله زرعك ، ودر ضرعك ، وزكى نباتك ، وعظمت بركتك ، وخصبت ، ولا زال فيك خير ما لم تتجبرى وتتكبرى أو تخونى ، فاذا فعلت ذلك عداك شر ، ثم يغور خيرك .

فكان آدم أول من دعا لها بالرحمة والخصب والرأفة والبركة .

وعن ابن عباس أن نوحا عليه السلام دعا لمصر بن بيصر بن حام فقال : اللهم انه قد أجاب دعوتى فبارك فيه وفى ذريته ، وأسكنه الأرض المباركة التى هى أم البلاد وغوث العباد ، التى نهرها أفضل أنهار الدنيا ، واجعل فيها أفضل البركات ، وسخر له ولولده الأرض ، وذللها لهم ، وقوهم عليها .

وقال كعب الأحبار : لولا رغبتى فى بيت المقدس ، لما سكنت الا مصر .

فقيل له : لم ؟

فقال : لأنها بلد معافاة من الفتن ، ومن أرادها بسوء أكبه الله على وجهه ، وهو بلد مبارك لأهله فيه .

وقال ابن وهب : أخبرنى يحيى بن أيوب ، عن خالد بن يزيد ، عن ابن أبى هلال ، أن كعب الأحبار كان يقول : انى لأحب مصر وأهلها ، لأن مصر بلد معافاة ، وأهلها أصحاب عافية ، وهم بذلك معارفون

ويقال ان فى بعض الكتب الالهيه : مصر خزائن الأرض كلها ، فمن أرادها بسوء قصمه الله تعالى .

وقال عمرو بن العاص : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة ، يعني اذا جمع الخراج مع الامارة .

وقال أحمد بن مدبر : تحتاج مصر الى ثمانية وعشرين ألف ألف فدان ، وانما يعمر منها ألف ألف فدان . وقد كشفت أرض مصر فوجدت غامرها أضعاف عامرها ، ولو اشتغل السلطان بعمارتها لوفت له بخراج الدنيا

وقال بعضهم : ان خراج العراق لم يكن قط أوفر منه فى أيام عمر بن عبد العزيز ، فانه بلغ ألف ألف ألف درهم ، وسبعة عشر ألف ألف درهم . ولم تكن مصر قط أقل من خراجها فى أيام عمرو بن العاص ، وانه بلغ اثنى عشر ألف ألف دينار . وكانت الشامات بأربعة عشر ألف ألف سوى الثغور

ومن فضائل مصر أنه ولد بها من الأنبياء موسى وهارون ويوشع عليهم السلام .

ويقال ان عيسى بن مريم صلوات الله عليه أخذ على سفح الجبل المقطم وهو سائر الى الشام ، فالتفت الى أمه وقال : ياأماه ، هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويذكر أنه ولد فى قرية اهناس من نواحى صعيد مصر ، وأنه كانت به نخلة يقال انها النخلة المذكورة فى القرآن بقوله سبحانه وتعالى « وهزى اليك بجذع النخلة » . وهذا

القول وهم ، فانه لاخلاف بين علماء الأخبار من أهل الكتاب ومن يعتمد عليه من علماء المسلمين أن عيسى صلوات الله عليه ولد بقرية بيت لحم من بيت المقدس .

ودخل مصر من الأنبياء ابراهيم خليل الرحمن ، وقد ذكر خبر ذلك عند ذكر خليج القاهرة من هذا الكتاب . ودخلها أيضا يعقوب ويوسف والأسباط ، وقد ذكر ذلك فى خبر الفيوم . ودخلها أرميا ، وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذى أثنى عليه الله جل جلاله فى القرآن ، ويقال انه ابن فرعون لصلبه ، وأظنه أنه غير صحيح .

وكان منها جلساء فرعون الذين أبان الله فضيلة عقلهم بحسن مشورتهم فى أمر موسى وهارون عليهما السلام لما استشارهم فرعون فى أمرهما فقال تعالى : « قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه ، وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم » .

وأين هذا من قول أصحاب النمرود فى ابراهيم صلوات الله عليه حيث أشاروا بقتله ، قال تعالى حكاية عنهم : « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين » .

ومن أهل مصر امرأة فرعون التى مدحها الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين » .

ومن أهلها ماشطة بنت فرعون ، وآمنت بموسى عليه السلام ، فمشطها فرعون بأمشاط الحديد كما يمشط الكتان ، وهى ثابتة على ايمانها بالله .

وقال صاعد اللغوى فى كتاب « طبقات الأمم » : ان جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان انما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، وهو أول من تكلم فى الجواهر العلوية ، والحركات النجومية ، وهو أول من ابتنى الهياكل ومجد الله فيها ، وأول من نظر فى علم الطب ، وألف لأهل زمانه قصائد موزونة فى الأشياء الأرضية والسماوية .

وقالوا : انه أول من أنذر بالطوفان ، ورأى أن آفة سماوية تصيب الأرض من الماء أو النار ، فخاف ذهاب العلم واندراس الصنائع ، فبنى الأهرام والبرابى التى فى صعيد مصر الأعلى ، وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم فيها صفات العلوم ، حرصا على تخليدها لمن بعده ، وخيفة أن يذهب رسمها من العالم .. وهرمس هذا هو ادريس عليه السلام .

وقال أبو محمد الحسن بن اسماعيل بن (*) الفرات فى أخبار مصر : ان الخضر جاز البحر مع موسى عليه السلام وكان مقدما عنده ، وكان بمصر من الحكماء جماعة ممن عمرت الدنيا بكلامهم وحكمهم وتدبيرهم ، وكان من علومهم علم الطب ، وعلم النجوم ، وعلم المساحة ، وعلم الهندسة ، وعلم الكيمياء ، وعلم الطلسمات . ويقال كانت مصر فى الزمن

(*) ص٢٧ ، ج١ ، ط. بولاق

الأول يسير اليها طلاب العلوم لتزكو عقولهم وتجود أذهانهم ، وتتميز عندهم الذكاء ، وتدق الفطنة .

ومن فضائل مصر أنها تمير أهل الحرمين ، وتوسع عليهم .

ومصر فرضة الدنيا ، يحمل خيرها الى ما سواها : فساحلها بمدينة القلزم يحمل منه الى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند والشحر ، وساحلها من جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلاد الروم والافرنج وسواحل الشام والثغور الى حدود العراق ، وثغر اسكندرية فرضة أقريطس وصقلية وبلاد المغرب ، ومن جهة الصعيد يحمل الى بلاد الغرب والنوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن .

وبمصر عدة من الثغور المعدة للرباط فى سبيل الله تعالى ، وهى البرلس ورشيد والاسكندرية وذات الحمام والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتنيس والأشتوم والفرما والورادة والعريش وأسوان وقوص والواحات فيغزى من هذه الثغور الروم والفرنج والبربر والنوبة والحبشة والسودان .

وبمصر عدة مشاهد وكثير من المساجد ، وبها النيل والأهرام والبرابى والأديار والكنائس . وأهلها يستغنون بها عن كل بلد ، حتى انه لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد .

وبمصر دهن البلسان الذى عظمت منفعته ، وصارت ملوك الأرض تطلبه من مصر وتعتنى به ، وملوك النصرانية تترامى على طلبه ، والنصارى كافة تعتقد تعظيمه ، وترى أنه لا يتم تنصير نصرانى الا بوضع شىء من دهن البلسان فى ماء المعمودية عند تغطيسه فيها .

وبها السقنقور ومنافعه لا تنكر ، وبها النمس والعرس ولهما فى أكل الثعابين فضيلة لا تنكر ، فقد قيل لولا العرس والنمس لما سكنت مصر من كثرة الثعابين ، وبها السمكة الرعادة ونفعها فى البرء من الحمى اذا علقت على المحموم عجيب .

وبمصر حطب السنط ، ولا نظير له فى معناه ، فلو وقد منه تحت قدر يوما كاملا لما بقى منه رماد . وهو مع ذلك صلب الكسر ، سريع الاشتعال ، بطىء الخمود . ويقال انه أبنوس غيرته بقعة مصر فصار أحمر .

وبها الأفيون عصارة الخشخاش ، ولا يجهل منافعه الا جاهل . وبها البنج ، وهو ثمر قدر اللوز الأخضر ، كان من محاسن مصر الا أنه انقطع قبل سنة سبعمائة من الهجرة .

وبها الأترج ، قال أبو داود صاحب السير فى كتاب الزكاة : شبرت قثاءة بمصر ثلاثة عشر شبرا ، ورأيت أترجة على بعير قطعتين وصيرت مثل عدلين .

قال المسعودى فى التاريخ : والأترج المدور حمل من أرض الهند بعد الثلاثمائة من سنى الهجرة ، وزرع بعمان ، ثم نقل منها الى البصرة والعراق والشام ، حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية وفى انطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر ، وما كان يعهد ولا يعرف ، فعدمت منه الأراهج الحمراء الطيبة ، واللون الحسن الذى كان فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة وخاصية البلد .

وفى مصر معدن الزمرد ، ومعدن النفط ، والشب ، والبرام ، ومقاطع الرخام . ويقال كان بمصر من المعادن ثلاثون معدنا .

وأهل مصر يأكلون صيد بحر الروم وصيد بحر اليمن طريا ، لأن بين البحرين مسافة ما بين مدينة القلزم والفرما ، وذلك يوم وليلة . وهو الحاجز المذكور فى القرآن قال تعالى : « وجعل بين البحرين حاجزا » ، قيل هما بحر الروم وبحر القلزم ، وقال تعالى : « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » ، قال بعض المفسرين : البرزخ مابين القلزم والفرما .

ومن محاسن مصر أنه يوجد بها فى كل شهر من شهور السنة القبطية صنف من المأكول والمشموم دون ما عداه من بقية الشهور ، فيقال : رطب توت ، ورمان بابه ، وموز هاتور ، وسمك كيهك ، وماء طوبة ، وخروف أمشير ، ولبن برمهات ، وورد برمودة ، ونبق بشنس ، وتين بؤونة ، وعسل أبيب ، وعنب مسرى .

ومنها أن صيفها خريف لكثرة فواكهه ، وشتاءها ربيع لما يكون بمصر حينئذ من القرظ والكتان .

ومن محاسنها أن الذى ينقطع من الفواكه فى سائر البلدان أيام الشتاء ، يوجد حينئذ بمصر .

ومنها أن أهل مصر لا يحتاجون فى حر الصيف الى استعمال الخيش والدخول فى جوف الأرض كما نعانيه أهل بغداد ، ولا يحتاجون فى برد الشتاء الى لبس الفرو والاصطلاء بالنار الذى لا يستغنى عنه أهل الشام . كما أنهم أيضا فى الصيف غير محتاجين الى استعمال الثلج .

ويقال : زبرجد مصر ، وقباطى مصر ، وحمير مصر ، وثعابين مصر ، ومنافعها فى الدرياق جليلة .

ومن فضائل مصر أن الرخامة التى فى الحجر من الكعبة من مصر ، بعث بها محمد بن طريف مولى العباس بن محمد فى سنة احدى وأربعين ومائتين مع رخامة أخرى خضراء هدية للحجر . فجعلت احدى الرخامتين على سطح جدر الكعبة ، وهما من أحسن الرخام فى المسجد خضرة ، وكان المتولى * عليها عبد الله بن محمد بن داود ، ذرعها ذراع وثلاث أصابع ... قاله الفاكهى فى أخبار مكة .

ومن فضائل مصر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى من أهلها ، وولد له صلى الله عليه وسلم من نساء مصر ، ولم يولد له ولد من غير نساء العرب الا من نساء مصر .

قال ابن عبد الحكم : لما كانت سنة ست من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، بعث الى الملوك . فمضى حاطب بن أبى بلتعة بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انتهى الى الاسكندرية وجد المقوقس فى مجلس مشرف على البحر ، فركب البحر ، فلما حاذى

(*) ص٢٨ ، جـ١ ، ط. بولاق .

مجلسه أشار بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصبعيه ، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض ، وأمر به فأوصل اليه .

فلما قرأ الكتاب قال : ما منعه ان كان نبيا أن يدعو على فيسلط علىّ ؟

فقال له حاطب : ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل به ويفعل .

فوجم ساعة ثم استعادها ، فأعادها عليه حاطب ، فسكت . فقال له حاطب : انه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى ، فانتقم الله به ثم انتقم منه . فاعتبر بغيرك ولا تعتبر بك ، وان لك دينا لن تدعه الا لما هو خير منه وهو الاسلام الكافى الله به فقد ما سواه [1] ، وما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

ثم قرأ الكتاب فاذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، فأسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين . ويأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

فلما قرأه أخذه فجعله فى حق من عاج وختم عليه .

(١) « الكافى الله به فقد ما سواه » .. هكذا فى بعض النسخ ، فليتأمل .

وعن أبان بن صالح قال : أرسل المقوقس الى حاطب ليلة وليس عنده أحد الا الترجمان فقال له : ألا تخبرنى عن أمور أسألك عنها فانى أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك ؟

قلت : لا تسألنى عن شىء الا صدقتك .

قال : الام يدعو محمد ؟

قال : الى أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتخلع ما سواه ، ويأمر بالصلاة .

قال : فكم تصلون ؟

قال : خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، والوفاء بالعهد ، وينهى عن أكل الميتة والدم .

قال : من أتباعه ؟

قال : الفتيان من قومه وغيرهم .

قال : وهل يقبل قوله ؟

قال : نعم .

قال : صفه لى .

قال : فوصفته بصفة من صفته ولم آت عليها .

قال : قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها : فى عينيه حمرة قل ما تفارقه ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتزى بالتمرات والكسر ، لا يبالى من لاقى من عم ولا ابن عم .

قلت : هذه صفته .

قال : قد كنت أعلم أن نبيا بقى ، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج فى أرض العرب ، فى أرض جهد وبؤس ، والقبط لا

تطاوعنى فى اتباعه ، ولا أحب أن تعلم بمحاورتى اياك ، وسيظهر على البلاد ، وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ههنا ، وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفا ، فارجع الى صاحبك .

قال : ثم دعا كاتبا يكتب بالعربية فكتب :

« لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام . أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أن نبيا يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام » .

وعن عبد الرحمن بن عبد القارى قال : لما مضى حاطب بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل المقوقس الكتاب ، وأكرم حاطبا ، وأحسن نزله ، ثم سرحه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهدى له كسوة ، وبغلة بسرجها ، وجاريتين : احداهما أم ابراهيم ، ووهب الأخرى لجهم بن قيس العبدرى ، فهى أم زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص على مصر ، ويقال بل وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحمد بن مسلمة الأنصارى ، ويقال بل لدحية بن خليفة الكلبى ، وقيل بل لحسان بن ثابت .

وعن يزيد بن أبى حبيب أن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمه الى صدره وقال : هذا زمان يخرج فيه النبى الذى نجد نعته وصفته فى كتاب الله تعالى ، وانا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين فى ملك يمين ولا نكاح ، وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، وأن جلساءه المساكين ، وأن خاتم النبوة بين كتفيه .

ثم دعا رجلا عاقلا ، ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية وأختها [1] ، وهما من أهل جفن (بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون بعده) من كورة انصنا ، فبعث بهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهدى له بغلة شهباء ، وحمارا أشهب ، وثيابا من قباطى مصر ، وعسلا من عسل بنها ، وبعث اليه بمال صدقة .

ويقال ان المقوقس أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع جوارى ، وقيل جاريتين ، وبغلة اسمها الدلدل ، وحمارا اسمه يعفور ، وقباء ، وألف مثقال * ذهبا ، وعشرين ثوبا من قباطى مصر ، وخصيا يسمى مابور ، ويقال انه ابن عم مارية ، وفرسا يقال لها الكرار ، وقدحا من زجاج ، وعسلا من عسل بنها ، فأعجب النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا فيه بالبركة ، وقال : « ضن الخبيث بملكه ، ولا بقاء لملكه » . فان المقوقس قال خيرا ، وأكرم حاطب بن أبى بلتعة ، وقارب الأمر ولم يسلم .

وقال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر الواقدى ، أنبأنا يعقوب بن محمد بن أبى صعصعة ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة قال : أهدى المقوقس صاحب الاسكندرية الى النبى صلى الله عليه وسلم فى

(١) هكذا فى النسخ ، وفيه تأمل .
(*) ص٢٩ ، جـ١ ، ط.بولاق .

سنة سبع من الهجرة مارية وأختها سيرين ، وألف مثقال ذهبا ، وعشرين ثوبا ، وبغلته الدلدل ، وحماره عفيرا ، وخصيا يقال له مابور . فعرض حاطب على مارية الاسلام فأسلمت هى وأختها ، ثم أسلم الخصى بعد . وكان الذى بعثه المقوقس مع مارية اسمه جبير بن عبد الله القبطى ، مولى بنى غفار .

قال ابن عبد الحكم : وأمر رسوله أن ينظر من جلساؤه ، وينظر الى ظهره هل يرى شامة كبيرة ذات شعر ، ففعل ذلك الرسول ، فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم اليه الأختين والدابتين والعسل والثياب ، وأعلمه أن ذلك كله هدية . فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدية ، وكان لا يردها من أحد من الناس .

قال : فلما نظر الى مارية وأختها أعجبتاه وكره أن يجمع بينهما ، وكانت احداهما تشبه الأخرى ، فقال : « اللهم اختر لنبيك » فاختار الله له مارية .

وذلك أنه لما قال لهما : « اشهدا أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله » فبادرت مارية فشهدت وآمنت قبل أختها ، ومكثت أختها ساعة ثم تشهدت وآمنت ، فوهب رسول الله صلى الله عليه وسلم أختها لمحمد ابن مسلمة الانصارى ، وقال بعضهم : بل وهبها لدحية بن خليفة الكلبى .

وعن يزيد بن أبى حبيب عن عبد الرحمن بن شامة المهرى ، عن عبد الله بن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم ابراهيم أم ولده القبطية ، فوجد عندها نسيبا لها كان قدم معها من مصر ، وكان كثيرا ما يدخل عليها ، فوقع فى نفسه شىء فرجع ، فلقيه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فعرف ذلك فى وجهه ، فسأله فأخبره ، فأخذ عمر السيف ثم دخل على مارية وقريبها عندها ، فأهوى اليه بالسيف ، فلما رأى ذلك كشف عن نفسه — وكان مجبوبا ليس بين رجليه شىء — فلما رآه عمر رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان جبريل أتانى فأخبرنى أن الله عز وجل قد برأها وقريبها ، وأن فى بطنها غلاما منى ، وأنه أشبه الخلق بى ، وأمرنى أن أسميه ابراهيم ، وكنانى بأبى ابراهيم » .

وقال الزهرى عن أنس : لما ولدت أم ابراهيم ابراهيم كأنه وقع فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم منه شىء ، حتى جاءه جبريل فقال : السلام عليك ياأبا ابراهيم .

ويقال ان المقوقس بعث معها بخصى كان يأوى اليها ، وقيل ان المقوقس أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم جوارى منهن أم ابراهيم ، وواحدة وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى جهم بن حذيفة ، وواحدة وهبها لحسان بن ثابت . فولدت مارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابراهيم ، وكان أحب الناس اليه حتى مات فوجد به ، وكان سنه يوم مات ستة عشر شهرا .

وكانت البغلة والحمار أحب دوابه اليه ، وسمى البغلة الدلدل ، وسمى الحمار يعفورا ، وأعجبه العسل ، فدعا فى عسل بنها بالبركة ، وبقيت تلك الثياب حتى كفن فى بعضها صلى الله عليه وسلم .

وكان اسم أخت مارية قيصر ، وقيل بل كان اسمها سيرين ، وقيل حنة .

وكلم الحسن بن على معاوية بن أبى سفيان فى أن يضع الجزية عن جميع قرية أم ابراهيم لحرمتها ، ففعل ووضع الخراج عنهم ، فلم يكن على أحد منهم خراج ، وكان جميع أهل القرية من أهلها وأقربائها فانقطعوا .

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو بقى ابراهيم ما تركت قبطيا الا وضعت عنه الجزية » .

وماتت مارية فى محرم سنة خمس عشرة بالمدينة .

وقال ابن وهب : أخبرنى يحيى بن أيوب وابن لهيعة ، عن عقيل ، عن الزهرى ، عن يعقوب بن عبد الله بن المغيرة بن الأخفش ، عن ابن عمر ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « دخل ابليس العراق فقضى حاجته منها ، ثم دخل الشام فطردوه حتى دخل جبل شاق ، ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط عبقريه » ... حديث صحيح غريب .

وقد عاب بعضهم مصر فقال : محاسنها مجلوبة اليها ، حتى العناصر الأربعة : الماء ، وهو فى النيل مجلوب من الجنوب ، والتراب مجلوب فى حمل الماء ، والا فهى رمل محض لا تنبت الزرع ، والنار لا يوجد بها شجرها ، والهواء لا يهب بها الا من أحد البحرين اما من الرومى واما من القلزم . وقد زاد هذا فى تحامله .

وقال كعب الأحبار : الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينة ، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة ، والكوفة آمنة من الخراب حتى تكون الملحمة .

ذكر العجائب التى كانت بمصر من الطلسمات والبرابى ونحو ذلك

ذكر فى كتاب « عجائب الحكايات وغرائب الماجريات » أنه كان بمصر حجر من جمع كفيه عليه تقيأ جميع ما فى جوفه * .

قال القضاعى : ذكر الجاحظ وغيره أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة :

منها بسائر الدنيا عشر أعجوبات ، وهى : مسجد دمشق ، وكنيسة الرها ، وقنطرة سنجر ، وقصر غمدان ، وكنيسة رومية ، وصنم الزيتون ، وايوان كسرى بالمدائن ، وبيت الريح بتدمر ، والخورنق والسدير بالحيرة ، والثلاثة الأحجار ببعلبك ، وذكر أنها بيت المشترى والزهرة ، وأنه كان لكل كوكب من السبعة بيت فيها فتهدمت .

ومنها بمصر عشرون أعجوبة :

فمن ذلك الهرمان ، وهما أطول بناء وأعجبه ، ليس على وجه الدنيا بناء باليد حجر على حجر أطول منهما ، واذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان ، ولذلك قال بعض من رآهما : ليس من شىء الا وأنا أرحمه من الدهر الا الهرمين ، فانى لأرحم الدهر منهما .

(*) ص٣٠ ، جـ١ طـ.بولاق .

ومن ذلك صنم الهرمين ، وهو « بلهوبه » ويقال « بلهيب » ، ويقال انه طلسم للرمل لئلا يغلب على ابليز الجيزة .

ومن ذلك بربا سمنود ، وهو من أعاجيبها . وذكر عن أبي عمرو الكندى أنه قال : رأيته وقد خزن فيه بعض عمالها قرظا ، فرأيت الجمل اذا دنا من بابه بحمله وأراد أن يدخله سقط كل دبيب فى القرظ لم يدخل منه شىء الى البربا ، ثم خرب عند الخمسين والثلاثمائة .

ومن ذلك بربا اخميم عجب من العجائب بما فيه من الصور واعاجيب وصور الملوك الذين يملكون مصر ، وكان ذو النون الاخميمى يقرأ البرابى ، فرأى فيها حكما عظيمة فأفسد أكثرها .

ومن ذلك بربا دندرة وهو بربا عجيب فيه ثمانون ومائة كوة ، تدخل الشمس كل يوم من كوة منها ، ثم الثانية حتى تنتهى الى آخرها ، ثم تكر راجعة الى موضع بدائها .

ومن ذلك حائط العجوز من العريش الى أسوان ، يحيط بأرض مصر شرقا وغربا .

ومن ذلك الاسكندرية ومافيها من العجائب فمن عجائبها المنارة والسوارى والملعب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة ثم يرمون بكرة فلا تقع فى حجر أحد الا ملك مصر . وحضر عيدا من أعيادهم عمرو بن العاص ، فوقعت الكرة فى حجره ، فملك البلد بعد ذلك فى الاسلام . ثم يحضر هذا الملعب ألف ألف من الناس ، فلا يكون فيهم أحد الا وهو ينظر فى وجه صاحبه . ثم ان قرىء كتاب سمعوه جميعا أو لعب نوع من أنواع اللعب رأوه عن آخرهم ، لا يتطاولون فيه بأكثر من المراتب العلية والسفلية .

ومن عجائبها الملتان ، وهما جبلان قائمان على سرطانات نحاس فى أركانها ، كل ركن على سرطان . فلو أراد مريد أن يدخل تحتها شيئا حتى يعبره من جانبه الآخر لفعل .

ومن عجائبها عمودا الاعيا ، وهما عمودان ملقيان ، وراء كل عمود منهما جبل ، حصبا كصبر الجمار بمنى ، يقبل المعنى التعب النصب بسبع حصيات حتى يلتقى على أحدهما ، ثم يرمى وراءه السبع ، ويقوم ولا يلتفت ، ويمضى لطيته ، فكأنما يحمل حملا لا يحس بشىء من تعبه .

ومن عجائبها القبة الخضراء ، وهى أعجب قبة ، ملبسة نحاسا كأنه الذهب الابريز ، لا يبليه القدم ، ولا يخلقه الدهر .

ومن عجائبها منية عقبة ، وقصر فارس ، وكنيسة أسفل الأرض ، ثم هى مدينة على مدينة ، ليس على وجه الأرض مدينة بهذه الصفة سواها . ويقال انها ارم ذات العماد ، سميت بذلك لأن عمدها ورخامها من البدنجنا والأصطنيدس المخطط طولا وعرضا .

ومن عجائب مصر أيضا الجبال التى هى بصعيدها على نيلها وهى ثلاثة أجبل : فمنها جبل الكهف ، ويقال الكف ، ومنها الطيلمون ، ومنها جبل زماجيز الساحرة ، يقال ان فيه حلقة من الجبل ظاهرة مشرفة على النيل ، لا يصل اليها أحد ، يلوح فيها خط مخلوق باسمك اللهم

ومن عجائبها شعب البوقيرات بناحية أشمون من أرض الصعيد ، وهو شعب فى جبل فيه صدع ، تأتيه البوقيرات فى يوم من السنة كان معروفا ، فتعرض أنفسها على الصدع ، فكلما أدخل بوقير منها منقاره فى الصدع مضى لسبيله ، فلا يزال يفعل ذلك حتى يلتقى الصدع على بوقير منها فيحبسه ، وتمضى كلها ولا يزال ذلك الذى يحبسه متعلقا حتى يتساقط ويتلاشى .

ومن عجائبها عين شمس ، وهى هيكل الشمس ، وبها العمودان اللذان لم ير أعجب منهما ولا من شأنهما ، طولهما فى السماء نحو من خمسين ذراعا ، وهما محمولان على وجه الأرض ، وفيهما صورة انسان على دابة ، وعلى راسهما شبه الصومعتين من نحاس ، فاذا جاء النيل قطر من رأسهما ماء ، وتستبينه وتراه منهما واضحا ينبع حتى يجرى فى أسفلهما فينبت فى أصلهما العوسج وغيره . واذا حلت الشمس دقيقة من الجدى ، وهو أقصر يوم فى السنة ، انتهت الى الجنوبى منهما فطلعت عليه على قمة رأسه ، وهى منتهى الميلين ، وخط الاستواء فى الواسطة منهما ، ثم خطرت بينهما ذاهبة وجائية سائر السنة ... كذا يقول أهل العلم بذلك .

ومن عجائبها منف وعجائبها وأصنامها وأبنيتها ودفائنها وكنوزها ، وما يذكر فيها أكثر من أن يحصى من آثار الملوك والحكماء والأنبياء ، لا يدفع ذلك .

ومن عجائبها الفرما ، وهى أكثر عجائب وأكثر آثارا .

ومن عجائبها الفيوم . ومن عجائبها نيلها . ومن عجائبها الحجر المعروف بحجر الخل ، يطفو على الخل ويسبح فيه كأنه سمكة * .

وكان يوجد بها حجر اذا أمسكه الانسان بكلتا يديه تقايأ كل شىء فى بطنه . وكان بها خرزة تجعلها المرأة على حقوها فلا تحبل . وكان بها حجر يوضع على حرف التنور فيتساقط خبزه . وكان يوجد بصعيدها حجارة رخوة تكسر فتتقد كالمصابيح .

ومن عجائبها حوض كان بدلالات تدور من حجارة ، يركب فيها الواحد والأربعة ويحركون الماء بشىء ، فيعبرون من جانب الى جانب ، لا يعلم من عمله ، فأخذه كافور الأخشيدى الى مصر ، فنظر اليه ثم أخرج من الماء فألقى فى البر ، وكان فى أسفله كتابة لا يدرى ما هى ، ثم بطل .

ومن عجائبها أن بصعيدها ضيعة تعرف بدشنى ، فيها سنطة اذا تهددت بالقطع تذبل وتجتمع وتضمر ، فيقال لها قد عفونا عنك وتركناك فتتراجع ، والمشهور — وهو الموجود الآن — سنطة فى الصعيد ، اذا نزلت اليد عليها دبلت ، واذا رفعت عنها تراجعت . وقد حملت الى مصر وشوهدت . وبها نوع من الخشب يرسب فى الماء كالأبنوس ، وبها الخشب السنط الذى يوقد منه القدر الكثير فى الزمن الطويل فلا يوجد له رماد .

وذكر ابن نصر المصرى أنه كان على باب القصر الكبير ، الذى يقال له باب الريحان عند الكنيسة المعلقة ، صنم من نحاس على خلقة

(*) ص٢١ ، جـ١ ، ط. بولاق .

الجمل، وعليه رجل راكب عليه عمامة، متنكب قوسا عربية، وفى رجليه نعلان، كانت الروم والقبط وغيرهم اذا تظالموا بينهم، واعتدى بعضهم على بعض، تحاروا اليه حتى يقفوا بين يدى ذلك الجمل، فيقول المظلوم للظالم: أنصفنى قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل فيأخذ الحق لى منك شئت أم أبيت (يعنون بالراكب النبى محمدا صلى الله عليه وسلم). فلما قدم عمرو بن العاص، غيبت الروم ذلك الجمل لئلا يكون شاهدا عليهم.

قال ابن لهيعة: بلغنى أن تلك الصورة فى ذلك الموضع قد أتى الآن عليها سنين لا يدرى من عملها.

قال القضاعى: فهذه عشرون أعجوبة من جملتها ما يتضمن عدة عجائب، فلو بسطت لجاء منها عدد كثير.

ويقال ليس من بلد فيه شىء غريب الا وفى مصر مثله أو شبيه به. ثم تفضل مصر على البلدان بعجائبها التى ليست فى بلد سواها.

وفى كتاب «تحفة الألباب» أنه كان بمصر بيت تحت الأرض، فيه رهبان من النصارى، وفى البيت سرير صغير من خشب، تحته صبى ميت ملفوف فى نطع أديم، مشدود بحبل، وعلى السرير مثل الباطية فيها أنبوب من نحاس فيه فتيل، اذا اشتعل الفتيل بالنار وصار سراجا خرج من ذلك الأنبوب الزيت الصافى الحسن الفائق، حتى تمتلىء تلك الباطية، وينطفىء السراج بكثرة الزيت، فاذا انطفأ لم يخرج من الدهن شىء، فاذا خرج الصبى الميت من تحت السرير لم يخرج من الزيت شىء، والباطية يربها الانسان فلا يرى تحتها شيئا ولا موضعا فيه ثقب. وأولئك الرهبان يتعيشون من ذلك الزيت ... يشتريه الناس منهم فينتفعون به.

وقال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه: عديم الملك ابن تقطريم كان جبارا لا يطاق، عظيم الخلق، فأمر بقطع الصخور ليعمل هرما كما عمل الأولون، وكان فى وقته الملكان اللذان أهبطا من السماء، وكانا فى بئر يقال له افتاره، وكانا يعلمان أهل مصر السحر.

وكان يقال: ان الملك عديم بن البودشير استكثر من علمهما، ثم انتقلا الى بابل.

وأهل مصر من القبط يقولون انهما شيطانان يقال لهما «مهله» و «بهاله»، وليس هما الملكين، والملكان ببابل فى بئر هناك يغشاها الصحرة الى أن تقوم الساعة، ومن ذلك الوقت عبدت الأصنام.

وقال قوم: كان الشيطان يظهر وينصبها لهم.

وقال قوم: أول من نصبها بدوره، وأول صنم أقامه صنم الشمس.

وقال آخرون: بل النمرود الأول أمر الملوك بنصبها وعبادتها.

وعديم أول من صلب، وذلك أن امرأة زنت برجل من أهل الصناعات، وكان لها زوج من أصحاب الملك، فأمر بصلبهما على منارين، وجعل ظهر كل واحد منهما الى ظهر الآخر، وزبر على المنارين اسمهما، وما فعلاه، وتاريخ الوقت الذى عمل ذلك بهما فيه، فانتهى الناس عن الزنا.

وبنى أربع مداين، وأودعها صنوفا كثيرة من عجائب الأعمال والطلسمات، وكنز فيها كنوزا كثيرة، وعمل فى الشرق منارا، وأقام على رأسه صنما موجها الى الشرق، مادا يديه، يمنع دواب البحر والرمال أن تتجاوز حده، وزبر فى صدره تاريخ الوقت الذى نصبه فيه. ويقال ان هذا المنار قائم الى وقتنا هذا، ولولا هذا لغلب الماء الملح من البحر الشرقى على أرض مصر.

وعمل على النيل قنطرة فى أول بلد النوبة، ونصب عليها أربعة أصنام موجهة الى أربع جهات الدنيا، فى يدى كل واحد من الأصنام حربتان يضرب بهما اذا أتاهم آت من تلك الجهة فلم تزل بحالها الى أن هدمها فرعون موسى عليه السلام.

وعمل البربا على باب النوبة، وهو هناك الى وقتنا هذا.

وعمل فى احدى المداين الأربع التى ذكرناها حوضا من صوان أسود مملوء ماء، لا ينقص طول الدهر ولا يتغير ماؤه، لأنه اجتلب اليه من رطوبة الهواء. وكان أهل تلك الناحية وأهل تلك المدينة يشربون منه ولا ينقص ماؤه وعمل ذلك لبعدهم عن النيل

وذكر بعض كهنة القبط أن ذلك الماء ثم لقربه من البحر الملح، فان الشمس ترفع بحرها بخار البحر فينحصر * من ذلك البخار جزء بالهندسة أو بالسحر، وتجعله ينحط ذلك فى ذلك الموضع بالجوهر مثل الظل، وتمده بالهواء فلا ينقص بذلك ماؤه على الدهر، ولو شرب منه العالم

(*) ص٣٢، جـ١، ط. بولاق.

وعمل قدحا لطفا على مثل هذا العمل، وأهداه حوميل الملك الى اسكندر اليونانى.

وملكهم عديم مائة وأربعين سنة، ومات وهو ابن سبعمائة وثلاثين سنة، ودفن فى احدى المداين ذات العجائب، وقيل فى صحراء قفط.

وذكر بعض القبط أن ناووس عديم عمل فى صحراء قفط على وجه الأرض، تحت قبة عظيمة من زجاج أخضر براق، معقود على رأسها كرة من ذهب، عليها طائر من ذهب موشح بجوهر، منشور الجناحين، يمنع من الدخول الى القبة، وكان قطرها مائة ذراع فى مثلها، وجعل جسده فى وسطها على سرير من ذهب مشبك، وهو مكشوف الوجه، وعليه ثياب منسوجة بالذهب المفروز بالجوهر المنظوم، وطول القبة أربعون ذراعا.

وجعل فى القبة مائة وسبعين مصحفا من مصاحف الحكمة، وسبع موائد بأوانيها، منها مائدة من در رمانى أحمر، وأوانيها منها، ومائدة من ذهب قلمونى أوانيها منها، ومائدة من حجر الشمس المضىء، بآنيتها، وهو الزبرجد الذى اذا نظرت اليه الأفاعى سالت أعينها، ومائدة من كبريت أحمر مدبر بآنيتها، ومائدة من ملح أبيض مدبر براق بآنيتها، ومائدة من زيبق معقود

وجعل فى القبة جواهر كثيرة وبرابى صنعة مدبرة، وحوله سبعة أسياف وأتراس من حديد أبيض مدبر، وتماثيل أفراس من ذهب، عليها سروج من ذهب، وسبعة توابيت من دنانير عليها صورته. وجعل معه من

أصناف العقاقير والسمومات والأدوية فى برابى من حجارة .

وقد ذكر من رأى هذه القبة أنهم أقاموا أياما فما قدروا على الوصول اليها ، وأنهم اذا قصدوها وكانوا منها على ثمانية أذرع دارت القبة عن أيمانهم أو عن شمائلهم .

ومن أعجب ما ذكروه أنهم كانوا يحاذون آزاجها أزجا أزجا ، فلا يرون غير الصورة التى يرونها من الأزج الآخر على معنى واحد .

وذكروا أنهم رأوا وجه الملك قدر ذراع ونصف بالكبير ، ولحيته كبيرة مكشوفة ، وقدروا طول بدنه عشرة أذرع وزيادة .

وذكر هؤلاء الذين رأوها أنهم خرجوا لحاجة فوجدوها اتفاقا ، وأنهم سألوا أهل قفط عنها فلم يجدوا أحدا يعرفها سوى شيخ منهم .

وأوصى عديم الملك ابنه شداب بن عديم أن ينصب فى كل حيز من أحياز ولايته منارا ، ويزبر عليه اسمه . فانحدر الى الأشمونين ، وعمل مناراتها ، وزبر عليها اسمه ، وعمل بها ملاعب ، وعمل فى صحرائها منارا أقام عليه صنما برأسين ، على اسم كوكبين كانا مقترنين فى الوقت الذى خرج فيه الى أتريب ، وبنى فيها قبة عظيمة مرتفعة على عمد وأساطين بعضها فوق بعض ، وعلى رأسها صنما صغيرا من ذهب ، وعمل هيكلا للكواكب . ومضى الى حيز صا ، فعمل فيه منارا ، على رأسه مرآة من أخلاط تورى الأقاليم ، ورجع .

وعمل شداب بن عديم هيكل أرمنت ، وأقام فيه أصناما بأسماء الكواكب من جميع المعادن ، وزينه بأحسن الزينة ، ونقشه بالجواهر والزجاج الملون ، وكساه الوشى والديباج ، وعمل فى المدائن الداخلة من انصنا هيكلا ، وأقام فيه بأتريب ، وهيكلا شرقى الاسكندرية .

وأقام صنما من صوان أسود باسم زحل على عبرة النيل من الجانب الغربى ، وبنى فى الجانب الشرقى مداين فى احداها صورة صنم قائم وله احليل ، اذا أتاه المعقود والمسحور ومن لا ينتشر ذكره فمسحه بكلتا يديه ، انتشر ذكره وقوى على الباه .

وفى احداها بقرة لها ضرعان كبيران ، اذا انعقد لبن امرأة أتتها ومسحتها بيديها ، فانه يدر لبنها .

وجمع التماسيح بطلسم عمله بناحية أسيوط ، فكانت تنصب من النيل الى اخميم انصبابا ، فيقتلها ويستعملها جلودا فى السفن وغيرها .

وعمل منقاوس الملك بيتا تدور به تماثيل بجميع العلل ، وكتب على رأس كل تمثال ما يصلح من العلاج ، فانتفع الناس بها زمانا الى أن أفسدها بعض الملوك .

وعمل صورة امرأة متبسمة ، لا يراها مهموم الا زال همه ونسيه . فكان الناس يتناوبونها ، ويطوفون حولها ، ثم عبدوها من جملة ما عبدوه بعد ذلك .

وعمل تمثالا من صفر مذهب بجناحين ، لا يمر به زان ولا زانية الا كشف عورته بيده .

وكان الناس يمتحنون به الزناة ، فامتنعوا من الزنا فرقا منه .

فلما ملك كلكن عشقت حظية عنده رجلا من خدمه ، وخافت أن تمتحن بذلك الصنم ، فأخذت فى ذكر الزوانى مع الملك وأكثرت من سبهن وذمهن ، فذكر كلكن ذلك الصنم وما فيه من المنافع .

فقالت : صدق الملك ، غير أن منقاوس لم يصب فى أمره ، لأنه أتعب نفسه وحكماءه فيما جعله لاصلاح العامة دون نفسه ، وكان حكم هذا أن ينصب فى دار الملك حيث يكون نساؤه وجواريه ، فان اقترفت احداهن ذنبا علم بها فيكون رادعا لهن متى عرض بقلوبهن شىء من الشهوة .

فقال كلكن : صدقت ، وظن أن هذا منها نصح ، فأمر بنزع الصنم من موضعه ونقله الى داره فبطل عمله ، وعملت المرأة ما كانت همت به .

وبنى هيكلا على جبل القصير للسحرة ، فكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب المقلعة الا * بضريبة يأخذونها منهم للملك .

وبنى مناوس بن منقاوس فى صحراء الغرب مدينة بالقرب من مدينة السحرة تعرف بقنطرة ، ذات عجائب ، وجعل بوسطها قبة عليها كالسحابة تمطر شتاء وصيفا مطرا خفيفا ، وتحت القبة مطهرة فيها ماء أخضر يداوى به من كل داء فيبريه ، وعمل فى شرقيها بربا لطيفا له أربعة أبواب ، لكل باب عضادتان ، فى كل عضادة صورة وجه ، يخاطب كل واحد منهما صاحبه بما يحدث فى يومه .

فمن دخل البربا على غير طهارة نفخا فى وجهه فأصابه رعدة فظيعة لا تفارقه حتى يموت .

وكانوا يقولون ان فى وسطه مهبط النور فى صورة العمود ، من اعتنقه لم يحتجب عن نظره شىء من الروحانية ، وسمع كلامهم ، ورأى ما يعملون .

وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب فى يده مصحف فيه علم من العلوم ، فمن أحب معرفة ذلك العلم ، أتى تلك الصورة فمسحها بيديه وأمرها على صدره ، فيثبت ذلك العلم فى صدره .

ويقال ان هاتين المدينتين بنيتا على اسم هرمس وهو عطارد ، وأنهما بحالهما .

وحكى عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان ، وهو أمير مصر . فعرفه أنه تاه فى صحراء الشرق ، فوقع على مدينة خراب فيها شجرة تحمل كل صنف من الفاكهة ، وأنه أكل منها وتزود .

فقال له رجل من القبط : هذه احدى مدينتى هرمس ، وفيها كنوز كثيرة .

فوجه عبد العزيز معه جماعة معهم ماء وزاد ، فأقاموا يطوفون تلك الصحارى شهرا فلم يقفوا لها على أثر .

وعملت أم ميلاطس الملك بركة عظيمة فى صحراء الغرب ، وجعلت فى وسطها عمودا طوله ثلاثون ذراعا ، وفى أعلاه قصعة من حجارة يفور منها الماء فلا ينقص أبدا . وجعلت حول البركة أصناما من حجارة ملونة ، على صور الحيوانات من الوحش والطير والبهائم ،

(*) ص٢٢ ، جـ١ ، ط. بولاق .

فكان كل جنس يأتى الى صورته ويألفها ، فيؤخذ باليد وينتفع به .

وعملت لابنها متنزها لأنه كان يحب الصيد ، فجعلت فيه مجالس مركبة على أساطين من مرمر ، مصفح بالذهب ، مرصع بالجوهر والزجاج الملون ، وزخرفته بالتصاوير العجيبة والنقوش ، فكان الماء يطلع من فوارات ، وينصب الى أنهار قد صفحت بالفضة ، تجرى الى حدائق فيها بديع الفروشات ، وقد أقيم حولها تماثيل تصفر بأنواع اللغات . وأرخت على المجلس ستورا من ديباج ، واختارت لابنها من حسان بنات عمه وبنات الملوك وأزوجته ، وحولته الى هذه الجنة ، وبنت حول الجنة مجالس للوزراء والكهنة وأشراف أهل الصناعات ، فكانوا يرفعون اليه جميع ما يعملونه ، فاذا فرغوا من أعمالهم ، حمل اليهم الطعام والشراب .

وكان ميلاطس تقلد الملك بعد أبيه مرقوه وهو صبى ، وكانت أمه مدبرة الملك — وهى حازمة مجربة — فأجرت الأمور على ما كانت عليه فى حياة أبيه ، وأحسنت وعدلت فى الرعية ، ووضعت عنهم بعض الخراج .

وكانت أيامه سعيدة كلها فى الخصب الكثير والسعة للناس والعدل وكان له يوم يخرج فيه الى الصيد ، ويرجع الى جنته فيأمر لكل من معه بالجوائز والأطعمة ، ويجلس للنظر يوما فى مصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ويخلو يوما بنسائه .

وكان ملكه ثلاث عشرة سنة وجدر فمات .

وعمل فرسون بن قيلمون بن أتريب منارا على بحر القلزم ، وعلى رأسه مرآة تجتذب بها المراكب الى شاطىء البحر ، فلا يمكنها أن تبرح الا أن تعشر ، فاذا عشرت سترت المرآة حتى تحوز المراكب .

وأقام فرسون مائتى سنة وستين سنة ، وعمل لنفسه ناووسا خلف الجبل الأسود الشرقى ، فى وسطه قبة حولها اثنا عشر بيتا ، فى كل بيت أعجوبة لا تشبه الأخرى ، وزبر عليها اسمه ومدة ملكه .

وكان مرقونس الملك حكيما محبا للنجوم والعلوم والحكمة ، فعمل فى أيامه درهما اذا ابتاع به صاحبه شيئا اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم ، ولا يطلب عليه زيادة ، فيغتر البائع بذلك ، ويقبل الشرط ، فاذا تم ذلك بينهما وقع فى وزن الدرهم أرطال كثيرة تساوى عشرة أضعافه . وكان اذا أحب أن يدخل فى وزنه أضعاف تلك الأرطال دخل . وقد وجد هذا الدرهم فى كنوزهم ثم فى خزائن بنى أمية ، وكان الناس يتعجبون منه .

ووجدوا دراهم أخر قيل انها عملت فى وقته أيضا ، فيكون الدرهم منها فى ميزان الرجل ، فاذا أراد أن يبتاع حاجة أخذ ذلك الدرهم وقبله وقال : اذكر العهد ، وابتاع به ما أراد . فاذا أخذ السلعة ومضى الى بيته ، وجد الدرهم قد سبقه الى منزله ، ويجد البائع موضع ذلك الدرهم ورقة آس أو قرطاسا أو مثل ذلك بدور الدرهم .

وفى وقته عملت الآنية الزجاج التى توزن ، فاذا ملئت ماء أو غيره ثم وزنت لم تزد عن وزنها الأول شيئا . وعمل فى وقته الآنية التى اذا جعل الماء فيها صار خمرا فى لونه ورائحته وفعله .

وقد وجد من هذه الآنية باطفيح فى امارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، شربة جزع بعروة زرقاء ببياض . وكان الذى وجدها أبو الحسن الصائغ الخراسانى هو ونفر معه ، فأكلوا على شاطىء النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمرا سكروا منه ، وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع ، فاغتم الرجل وجاء بها الى هارون فأسف عليها وقال : لو كانت صحيحة لاشتريتها * ببعض ملكى .

وأما الآنية النحاسية التى تجعل الماء خمرا ، فانها منسوبة الى قلوبطرة بنت بطليموس ملكة الاسكندرية ، فكثير

وفى وقته عملت الصور الحيثمية من الضفادع والخنافس والذباب والعقارب وسائر الحشرات ، وكانت اذا جعلت فى موضع اجتمع اليها ذلك الجنس ، ولا يقدر على مفارقة تلك الصورة حتى يقتل ، وكأنه يعمل أعماله كلها بصور درج الفلك وأسمائها وطوالعها ، فيتم له من ذلك ما يريده .

وعمل فى صحراء الغرب ملعبا من زجاج ملون فى وسطه قبة من زجاج أخضر صافى اللون ، فاذا طلعت عليها الشمس ألقت شعاعها على مواضع بعيدة ، وعمل فى جوانبه الأربعة أربعة مجالس عالية من زجاج ، كل مجلس لون ، ونقش عليها بغير لونها طلسمات عجيبة ، ونقوشات غريبة وصورا بديعة ، كل ذلك من زجاج مطلق يشف .

وكان يقيم فى هذا الملعب الأيام . وعمل له ثلاثة أعياد فى كل سنة ، فكان الناس يحجون اليه فى كل عيد ، ويذبحون له ويقيمون فيه سبعة أيام .

ولم يزل هذا الملعب تقصده الأمم ، فانه لم يكن له نظير ، ولا عمل فى العالم مثله ، الى أن هدمه بعض الملوك لعجزه عن عمل مثله .

وكانت أم مرقونس ابنة ملك النوبة ، وكان أبوها يعبد الكوكب الذى يقال له السها ويسميه الها ، سألت ابنها أن يعمل لها هيكلا بفردها به ، فعمله وصفحه بالذهب والفضة ، وأقام فيه صنما ، وأرخى عليه الستور الحرير ، فكانت تدخل اليه بجواريها وحشمها ، وتسجد له فى كل يوم ثلاث مرات ، وعملت لكل شهر عيدا تقرب له قرابين وتبخره ليله ونهاره ، ونصبت له كاهنا من النوبة يقوم به ويقرب له ويبخره ، ولم تزل بابنها حتى سجد له ودعا الى عبادته .

فلما رأى الكاهن الأمر فى عبادة الكواكب قد تم وأحكم من جهة الملك ، أحب أن يكون لكوكب السها مثال فى الأرض على صورة حيوان يتعبد له ، فأقام يعمل الحيلة فى ذلك ، الى أن اتفق أن العقبان كثرت بمصر وأضرت بالناس ، فأحضر الملك هذا الكاهن وسأله عن سبب كثرتها ، فقال : ان الهك أرسلها لتعمل لها نظيرا ليسجد له .

فقال مرقونس : ان كان يرضيه ذلك فأنا فاعله .

فقال : ان ذلك رضاه .

فأمر بعمل عقاب طوله ذراعان فى عرض ذراع من ذهب مسبوك ، وعمل عينيه من ياقوتتين ، وعمل له وشاحين من لؤلؤ منظوم

(*) ص٢٤ ، جـ١ ، ط. بولاق .

على أنابيب جوهر أخضر ، وفى منقاره درة معلقة ، وسروله بالدر الأحمر ، وأقامه على قاعدة من فضة منقوشة ، قد ركبت على قائمة زجاج أزرق ، وجعله فى أزج عن يمين الهيكل ، وألقى عليه ستور الحرير ، وجعل له دخنه من جميع الأفاويه والصموغ ، وقرب له عجلا أسود وبكارة الفراريج وباكورة الفواكه والرياحين .

فلما تمت له سبعة أيام دعاهم الى السجود اليه فأجابه الناس . ولم يزل الكاهن يجهد نفسه فى عبادة العقاب وعمل له عيدا .

فلما تم لذلك أربعون يوما نطق الشيطان من جوفه ، وكان أول ما دعاهم اليه أن يبخر له فى أنصاف الشهور بالمندل ، ويرش الهيكل بالخمر العتيقة التى تؤخذ من رءوس الخوابى . وعرفهم أنه قد أزال عنهم العقبان وضررها ، وكذلك يفعل فى غيرها مما يخافون .

فسر الكاهن بذلك وتوجه الى أم الملك يعرفها ذلك ، فسارت الى الهيكل وسمعت كلام العقاب ، فسرها ذلك وأعظمته . وبلغ الملك فركب الى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه . فسجد له ، وأقام له سدنة ، وأمر أن يزين بأصناف الزينة . وكان مرقونس يقوم بهذا الهيكل ، ويسجد لتلك الصورة ، ويسألها عما يريد فتخبره .

وعمل من الكيمياء ما لم يعمله أحد من الملوك . فيقال انه دفن فى صحراء الغرب خمسمائة دفين .

ويقال انه عمل على باب مدينة صا عمودا عليه صنم فى صورة امرأة جالسة وفى يدها مرآة تنظر اليها ، وكان العليل يأتى الى هذه المرآة وينظر فيها — أو ينظر له أحد فيها — فان كان يموت من علته تلك رؤى ميتا ، وان كان يعيش رآه حيا ، وينظر فيها أيضا للمسافر فان رأوه مقبلا بوجهه علموا أنه راجع ، وان رأوه موليا علموا أنه يتمادى فى سفره ، وان كان مريضا أو ميتا رأوه كذلك فى المرآة .

وعمل بالاسكندرية صورة راهب جالس على قاعدة ، وعلى رأسه كالبرنس وفى يده كالعكاز ، فاذا مر به تاجر جعل بين يديه شيئا من المال على قدر بضاعته ، فان تجاوزه ولو عن بعد من غير أن يضع بين يديه المال لم يقدر على الجواز وثبت قائما مكانه ، فكان يجتمع من ذلك مال عظيم يفرق فى الزمنى والضعفا والفقرا .

وعمل فى زمنه كل أعجوبة ظريفة ، وأمر أن يزبر اسمه عليها وعلى كل علم وكل طلسم وكل صنم .

وعمل لنفسه ناووسا فى داخل الأرض ، عند جبل يقال له سدام . وعمل تحته أزجا يقال ان طوله مائة ذراع ، وارتفاعه ثلاثون ذراعا ، وعرضه عشرون ذراعا ، وصفحه بالمرمر والزجاج الملون ، وسقفه بالحجارة ، وعمل فيها دائرة مساطب مبلطة بزجاج على كل مسطبة أعجوبة ، وفى وسط الأزج دكة من زجاج ، على كل ركن من أركانها صورة تمنع الدنو اليها ، وبين كل صورتين منارة عليها حجر مضىء ، وفى وسط الدكة حوض من ذهب فيه جسده بعد ما ضمد بالأدوية الماسكة ، ونقل اليه ذخائره من الذهب

والجوهر وغيره ، وسد باب الأزج * بالصخور والرصاص ، وهيل عليها الرمال .

وكان ملكه ثلاثا وسبعين سنة ، وعمره مائتين وأربعين سنة ، وكان جميلا ، ذا وفرة حسنة ، فتنسكت نساؤه ولزمن الهيكل من بعده .

وملك بعده ابنه ايساد ، ثم صا بن ايساد ، وقيل صا بن مرقونس أخو ايساد ، فعمل مرآة فى مدينة منف ترى الأوقات التى تخصب فيها مصر وتجدب ، وبنى بداخل الواحات مدينة ، ونصب قرب البحر أعلاما كثيرة .

وعمل خلف المقطم صنما يقال له صنم الحيلة ، فكان كل من تعذر عليه أمر يأتيه ويبخره فيتيسر ذلك الأمر له . وجعل بحافة البحر الملح منارا يعلم منه أمر البحر وما يحدث فيه ، من أقصى ما يصل اليه البصر على مسيرة أيام ، وهو أول من اتخذها . ويقال انه بنى أكثر مدينة منف ، وكل بنيان عظيم بالاسكندرية .

ولما ملك بدارس بن صا الأحياز كلها بعد أبيه ، وصفا له ملك مصر ، بنى فى غربى مدينة منف بيتا عظيما لكوكب الزهرة ، وأقام فيه صنما عظيما من لازورد مذهب ، وتوجه بذهب يلوح بزرقة ، وسوره بسوارين من زبرجد أخضر .

وكان الصنم فى صورة امرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبر ، وفى رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ، ونعلان من ذهب ، وبيدها قضيب مرجان ، وهى تشير بسبابتها كأنها مسلمة على من فى الهيكل .

وجعل بحذائها تمثال بقرة ذات قرنين وضرعين من نحاس أحمر مموه بذهب ، موشحة بحجر اللازورد ، ووجه البقرة تجاه وجه الزهرة ، وبينهما مطهرة من أخلاط الأجساد ، على عمود رخام مجزع ، وفى المطهرة ماء مدبر يستشفى به من كل داء ، وفرش الهيكل بحشيشة الزهرة يبدلونها فى كل سبعة أيام .

وجعل فى الهيكل كراسى للكهنة قد صفحت بالذهب والفضة ، وقرب لهذا الصنم ألف رأس من الضأن والمعز والوحش والطير ، وكان يحضر يوم الزهرة ويطوف به . وفرش الهيكل وستره ، وجعل فيه تحت قبة صورة رجل راكب على فرس ، له جناحان ، ومعه حربة فى سنانها رأس انسان معلق .

ولم يزل هذا الهيكل الى أن هدمه بختنصر فى أيام ماليق بن تدارس ، وكان موحدا على دين قبطيم ومصرايم ، خرج فى جيش عظيم فى البر والبحر فغزا البربر وأرض أفريقية وبلاد الأندلس وأرض الافرنج الى البحر ، وعمل فى البحر أعلاما زبر عليها اسمه ومسيره ، ورجع فهابه ملوك الأرض .

وكان فى غربى مصر مدينة يقال لها قرميدة بها قوم قد ملكوا عليهم امرأة ساحرة فغزاهم فلم ينل منهم قصدا ورجع ، فأرادت ملكتهم افساد مصر ، فعملت من سحرها وأمرت فألقى فى النيل ، ففاض الماء على المزارع حتى أفسدها ، وكثرت التماسيح والضفادع ،

(*) ص٢٥ جـ١ ، ط. بولاق .

وفشت الأمراض فى الناس ، وانبثت فيهم الثعابين والعقارب

فأحضر ماليق الكهنة والحكماء فى دار حكمتهم ، وألزمهم بالنظر لذلك . فنظروا فى نجومهم فرأوا أن هذه الآفة أتتهم من ناحية الغرب ، وأن امرأة عملته وألقته فى النيل ، فعلموا حينئذ أنه من فعل تلك الساحرة ، واجتهدوا فى دفع ذلك بما عندهم من العلم حتى انكشف عنهم الماء الفاسد وهلكت الدواب المضرة .

وجهزوا قائدا فى جيش الى المدينة ، فلم يجدوا بها غير رجل واحد ، فأخذوا من الأموال والجواهر والأصنام ما لا يحصى .

فمن ذلك صورة كاهن من زبرجد أخضر ، على قائمة من حجر الاسباديم ، وصورة روحانى من ذهب ، رأسه من جوهر أحمر ، وله جناحان من در ، وفى يده مصحف فيه كثير من علومهم ، فى دفتين مرصعتين بجوهر ، ومطهرة من ياقوت أزرق ، على قاعدة زجاج أخضر ، فيها ماء لدفع الاسقام ، وفرس من فضة ، اذا عزم عليه بعزائمه ودخن بدخنته وركبه أحد طار به .

فأحضر ذلك وغيره من عجائب السحرة وأصنامهم ، والاموال والجواهر الى مصر ، ومعهم الرجل ، فسأله الملك عن أعجب أعمالهم ، قال : قصدهم بعض ملوك البربر بجمع كثيف وتخاييل هائلة ، فأغلق أهل مدينتنا حصنهم ولجأوا الى الأصنام ، فأتى الكاهن الى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها فجلس على حافتها ، وأحاط رؤساء الكهنة بها ، وأخذ يزمزم على الماء حتى فار ، وخرج من وسطه نار ، فى وسطها وجه كدارة الشمس لها ضوء ، فخر الجماعة لها سجودا ، وتلك الصورة تعظم حتى صعدت وخرقت القبة وسمع منها : قد كفيتم شر عدوكم

فقاموا واذا بعدوهم قد هلك وسائر من معه ، وذلك أن صورة الشمس التى ظهرت من الماء مرت فصاحت عليهم صيحة هلكوا بها .

ولما ملك كلكن مصر بعد أبيه خربتا ، كان النمرود فى وقته ، فاتصل بنمرود خبر حكمته وسحره فاستزاره ، ووجه اليه أن يلقاه . وكان النمرود يسكن سواد العراق ، وغلب على كثير من الأمم .

فأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله ، لها أجنحة ، قد أحاطت به كالنار ، وحوله صور هائلة ، فدخل بها ، وهو متوشح بثعبان ، ومحزم ببعضه ، وذلك التنين فاغر فاه ، ومعه قضيب آس أخضر ، كلما حرك التنين رأسه ضربه بالقضيب . فلما رأى النمرود ذلك هاله ، واعترف له بجليل الحكم

وتقول القبط : انكلكن كان يرتفع فيجلس على الهرم الغربى فى قبة تلوح على رأسه ، وكان أهل البلد اذا دهمهم أمر اجتمعوا حول الهرم * . ويقولون : انه ربما قام على رأس الهرم أياما لا يأكل ولا يشرب .

ثم انه استتر مدة حتى توهموا انه هلك ، فطمع الملوك فى مصر ، وقصدها ملك من المغرب يقال له سادوم فى جيش عظيم ، الى أن

(*) ص٢٦ ، جـ١ ، ط.بولاق .

بلغ وادى هيب . فأقبل كلكن وجللهم من سحره بشىء كالغمام شديد الحرارة ، وهم تحته أياما لا يدرون أين يتوجهون ، ثم ارتفع وصار بمصر يعرفهم ما عمل ، وأمرهم فخرجوا ، فاذا بالقوم ودوابهم قد ماتوا . فهابه جميع الكهنة ، وصوروه فى سائر الهياكل . وبنى هيكلا لزحل من صوان أسود فى ناحية الغرب ، وجعل له عيدا

وفى أيام دارم بن الريان ، وهو الفرعون الرابع الذى يقال له عند القبط دريموش ، ظهر معدن فضة على ثلاثة أيام من النيل ، فأثاروا منه شيئا عظيما . وعمل صنما على اسم القمر ، لأن طالعه كان برج السرطان ، ونصبه على القصر الرخام الذى بناه أبوه فى شرقى النيل ، ونصب حوله أصناما كلها من الفضة ، وألبسها الحرير الأحمر ، وعمل للصنم عيدا ، كلما دخل برج السرطان .

ولما ولى اكسايس الملك بعد أبيه معدان بن معاديوس بن دارم بن دريموس ، وهو الفرعون السادس ، أقام أعلاما كثيرة حول منف ، وجعل عليها أساطين يمشى من بعضها الى بعض ، وعمل برقودة وصا ومدائن الصعيد وأسفل الأرض أعلاما ومنائر للوقود وطلسمات كثيرة ، وعمل كودة من فضة ، ونقش عليها صورة الكواكب ، ودهنها بالدهن الصينى ، وأقامها على منار فى وسط منف ، وعمل فى هيكل أبيه روحانى زحل من ذهب أسود مدبر .

وعمل فى وقته ميزانا يعتبر به الناس ، كفتاه من ذهب ، وعلاقته من فضة ، وسلاسله من ذهب ، فكان معلقا فى هيكل الشمس ، وكتب على احدى كفتيه حق ، والأخرى باطل ، وتحته فصوص قد نقش عليها أسماء الكواكب ، فيدخل الظالم والمظلوم يأخذ كل منهما فصا من تلك الفصوص ، ويسمى عليه ما يريده ، ويجعل أحد الفصين فى كفة ، والآخر فى كفة ، فتثقل كفة الظالم ، وترتفع كفة المظلوم .

ومن أراد سفرا أخذ فصين ، وذكر على أحدهما اسم السفر ، وعلى الآخر الاقامة ، وجعل كل واحد فى كفة ، فان ثقلا جميعا ولم يرتفع أحدهما على الآخر لم يسافر ، وان ارتفعا سافر ، وان ارتفع أحدهما أخر السفر ثم سافر . وكذا من عليه دين ، ومن له غائب ، أو ينظر فى صلاح أمره وفساده .

ويقال ان بخت نصر لما دخل الى مصر حمل هذا الميزان معه فيما حمل الى بابل ، وجعله فى بيت من بيوت النار .

وعمل فى أيامه تنورا أيضا ، يشوى فيه من غير نار ، ويطبخ فيه بغير نار ، وسكينا تنصب فاذا رآها شىء من البهائم أقبل حتى يذبح نفسه بها ، وعمل ماء يستحيل نارا ، وزجاجا يستحيل هواء ، وشيئا من النيرنجيات والنواميس .

وأما البرابى فذكر ابن وصيف شاه أن سوريد الذى بنى الأهرام هو الذى بنى البرابى كلها ، وعمل فيها الكنوز ، وزبر عليها علوما ، ووكل بها روحانية تحفظها ممن يقصدها .

وقال فى كتاب « الفهرست » : وبمصر أبنية يقال لها البرابى من الحجارة العظيمة الكبيرة ،

وهى على أشكال مختلفة ، وفيها مواضع الصحن والسحق والحل والعقد والتقطير تدل على انها عملت لصناعة الكيمياء ، وفى هذه الأبنية نقوش وكتابات لا يدرى ما هى ، وقد أصيبت تحت الأرض فيها هذه العلوم مكتوبة فى التوز ، وهى صفائح الذهب والنحاس ، وفى الحجارة .

وذكر الحسن بن أحمد الهمدانى أن برابى مصر تنسب الى براب بن الدرمسيل بن تحويل ابن خنوخ بن قار بن آدم عليه السلام .

وذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب « الاشارات الباقية عن القرون الخالية » أن كنيسة فى بعض قرى مصر قد شاهدها الموثوق بقولهم ، المأخوذ برأيهم ، المأمون من جهتهم الرواية عنهم ، فيها سرداب ينزل اليه بنيف وعشرين مرقاة ، وفيه سرير تحته رجل وصبى مشدودين فى نطع ، وفوقه ثور رخام فى جوفه باطيه زجاج ، يدخلها قنينة من نحاس ، فى جوفها فتيلة كتان ، توقد فيصب فيها زيت ، فلا يلبث الا أن تمتلىء الباطية الزجاج زيتا ، وتفيض الى الثور الرخام ، فينفق على تلك الكنيسة وقناديلها .

وذكر الجهانى أنه صار اليه من وثق به ، ورفع الباطية عن الثور ، وأفرغ الزيت من الباطية والثور جميعا ، وأطفأ النار ، وأعادها جميعا الا الزيت ، فانه صب زيتا من عنده ، وأبدله فتيلة أخرى وأشعلها ، فما لبث الزيت أن فاض الى الباطية الزجاج ، ثم فاض الى الثور الرخام من غير مدد ولا عنصر .

وذكر الجهانى أنه اذا أخرج الميت من تحت السرير ، انطفأت النار ولم يفض الزيت .

وذكر عن أهل القرية أن المرأة المتوهمة فى نفسها حملا ، تحمل ذلك الصبى وتضعه فى حجرها ، فيتحرك ولدها فى البطن ان كان الحمل حقيقة ، أو تيأس ان لم تحس بحركة .

قال المؤلف رحمه الله : أخبرنى داود بن رزق الله بن عبد الله ، وكانت له سياحات كثيرة بأراضى مصر ومعرفة أحوالها ، أنه عبر فى مغارة كبيرة يقال لها مغارة شقلقيل بالوجه القبلى ، فاذا فيها كوم عظيم من سندورس ، وأنه تخطاه ومضى ، فاذا شىء كثير الى الغاية من السمك وجميعها ملفوفة بثياب كأنها قد كفنت بعد الموت . وأنه أخذ منها سمكة وفتشها * فاذا فى فمها دينار عليه كتابة لا يحسن قراءتها ، وأنه صار يأخذها سمكة سمكة ويخرج من فم كل واحدة دينارا ، حتى اجتمع له من ذلك عدة دنانير ، وأنه أخذ تلك الدنانير ورجع ليخرج حتى جاء الى الكوم السندروس واذا به ارتفع حتى سد عليه الموضع . فعاد الى السمك وأعاد الدنانير الى مواضعها وخرج ، فاذا السندروس كما كان أولا بحيث يتجاوزه ويخرج .

فعاد وأخذ الدنانير ومشى يخرج بها ، فاذا السندروس قد ارتفع حتى سد عليه الموضع . فعاد الى السمك وأعاد الدنانير الى موضعها وخرج ، فاذا السندروس على حاله كما كان أولا بحيث يتجاوزه ويخرج . وأنه كرر أخذ الدنانير واعادتها مرارا ، والحال على ما ذكر ، حتى خشى الهلاك فتركها وخرج .

(*) ص٣٧ ، جـ١ ، ط. بولاق .

فلما كان مدة سكن موضعها فرأى حجرا فى جدار وقد قور ، ووضع حجر آخر ، فحاول الحجر الآخر حتى رفعه ، فاذا تحته ستة دنانير من تلك الدنانير التى وجدها فى أفواه السمك ، فأخذ منها واحدا وترك البقية فى موضعها ، وأعاد الحجر على الحجر .

وقدر الله بعد ذلك أنه ركب النيل ليعدى من البر الشرقى الى البر الغربى .

قال : فلما توسط البحر ، واذا بالأسماك تثب من الماء وتلقى أنفسها فى المركب حتى كدنا نغرق من كثرتها ، فصاح الركاب خوفا من الهلاك .

قال : فتذكرت الدينار الذى معى ، وأن هذا ربما كان بسببه ، فأخرجته من جيبى وألقيته فى الماء ، فتواثبت الأسماك من المركب وألقت نفسها فى الماء حتى لم يبق منها شىء .

قلت : وأخبرنى قديما بعض من لا أتهمه أنه ظفر بطلسم من هذا المعنى ، وأنه عنده ، وأراد أن يرينى السمك يثب من الماء فلم يقدر لى أن أرى ذلك .

قال ابن عبد الحكم : لما أغرق الله آل فرعون ، بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد ، ولم يبق بها الا العبيد والأجراء والنساء . فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا ، وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة بنت زبا ، وكان لها عقل ومعرفة وتجارب ، وكانت فى شرف منهن وموضع ، وهى يومئذ بنت مائة وستين سنة ، فملكوها .

فخافت أن يتناولها الملوك ، فجمعت نساء الأشراف وقالت لهن : ان بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ، ولا يمد عينه اليها ، وقد هلك أكابرنا وأشرافنا ، وذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم . وقد رأيت أن أبنى حصنا أحدق به جميع بلادنا ، فأضع عليه المحارس من كل ناحية ، فانا لا نأمن أن يطمع فينا الناس .

فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها : المزارع ، والمدائن ، والقرى . وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء ، وأقامت القناطر والترع . وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة ، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل ، وجعلت فى كل محرس رجالا ، وأجرت عليهم الأرزاق ، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس ، فاذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم الى بعض الأجراس فأتاهم الخبر من أى وجه كان فى ساعة واحدة فنظروا فى ذلك ... فمنعت بذلك مصر ممن أرادها .

وفرغت من بنائه فى ستة أشهر . وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز بمصر ، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة .

قال المسعودى : وقيل انما بنته خوفا على ولدها ، وكان كثير القنص ، فخافت عليه سباع البر والبحر واغتيال من جاور أرضهم من الملوك والبوادى ، فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها . وقد قيل غير ما وصفنا ... فملكتهم ثلاثين سنة فى قول .

قال المؤلف رحمه الله : قد بقى من حائط العجوز هذا فى بلاد الصعيد بقايا ، أخبرنى الشيخ المعمر محمد بن المسعودى أنه سار

فى بلاد الصعيد على حائط العجوز ومعه رفقة ، فاقتلع أحدهم منها لبنة ، فاذا هى كبيرة جدا تخالف المعهود الآن من اللبن فى المقدار ، فتناولها القوم واحدا بعد واحد يتأملونها ، وبينما هم فى رؤيتها اذ سقطت الى الأرض ، فانفلقت عن حبة فول فى غاية الكبر الذى يتعجب منه لعدم مثله فى زماننا ، فقشروا ما عليها فوجدوها سالمة من السوس والعيب ، كأنها قريبة عهد بحصادها ، لم يتغير فيها شىء البتة . فأكلها الجماعة قطعة قطعة ، وكأنها انما خبئت لهم من الزمن القديم والأعصر الخالية ... انه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها .

قال ابن عبد الحكم : وكان ثم عجوز ساحرة يقال لها بدور ، وكانت السحرة تعظمها وتقدمها فى علمهم وسحرهم . فبعثت اليها دلوكة ابنة زبا : انا قد احتجنا الى سحرك ، وفزعنا اليك ، ولا نأمن أن يطمع فينا الملوك ، فاعملى لنا شيئا نغلب به من حولنا ، فقد كان فرعون يحتاج اليك ، فكيف وقد ذهب أكابرنا (يعنى فى الغرق مع فرعون موسى) ، وبقى أقلنا .

فعملت بربا من حجارة فى وسط مدينة منف وجعلت لها أربعة أبواب ، كل باب منها الى جهة القبلة والبحر والغرب والشرق ، وصورت فيه صور الخيل والبغال والحمير والسفن والرجال ، وقالت لهم : قد عملت لكم عملا يهلك به كل من أرادكم من كل جهة تؤتون منها برا أو بحرا ، وهذا يغنيكم عن الحصن ، ويقطع عنكم مؤنة من أتاكم من كل جهة ، فانهم ان كانوا فى البر على خيل أو بغال أو ابل أو فى سفن أو رجالة تحركت هذه الصور من جهتهم التى يأتون * منها ، فما فعلتم بالصور من شىء أصابهم ذلك فى أنفسهم على ما تفعلون بهم .

فلما بلغ الملوك حولهم أن أمرهم قد صار الى ولاية النساء ، طمعوا فيهم ، وتوجهوا اليهم ، فلما دنوا من عمل مصر ، تحركت تلك الصور التى فى البربا ، فطفقوا لا يهيجون تلك الصور بشىء ولا يفعلون بها شيئا ، الا أصاب ذلك الجيش الذى كان أقبل اليهم مثله : ان كان خيلا ، فما فعلوا بتلك الخيل المصورة فى البربا من قطع رءوسها أو سوقها أو فقء عيونها أو بقر بطونها ، أثر مثل ذلك بالخيل التى أرادتهم ، وان كانت سفنا أو رجالة فمثل ذلك . وكانوا أعلم الناس بالسحر وأقواهم عليه ، وانتشر ذلك فتبادرهم الناس .

وكان نساء أهل مصر — حين غرق فرعون وقومه ، ولم يبق الا العبيد والأجراء — لم يصبرن عن الرجال ، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه ، وتتزوج الأخرى أجيرها . وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئا الا باذنهن ، فأجابوهن فى ذلك ، فكان أمر النساء على الرجال .

قال يزيد بن أبى حبيب : ان نساء القبط على ذلك الى اليوم اتباعا لمن مضى منهم ، لا يبيع أحد منهم ولا يشترى الا قال : أستأمر امرأتى !

فملكتهم دلوكة بنت زبا عشرين سنة تدبر أمرهم بمصر ، حتى بلغ صبى من أبناء أكابرهم وأشرافهم ، يقال له دركون بن بلوطس ، فملكوه عليهم .

(*) ص٢٨ ، ج١ ، ط. بولاق .

فلم تزل مصر ممتنعة بتدبير تلك العجوز نحوا من أربعمائة سنة ، وكلما انهدم من ذلك البربا الذى صور فيه الصور ، لم يقدر أحد على اصلاحه الا تلك العجوز وولدها وولد ولدها ، وكانوا أهل بيت لا يعرف ذلك غيرهم . فانقطع أهل ذلك البيت ، وانهدم من البربا موضع فى زمان لقاس بن مرينوس ، فلم يقدر أحد على اصلاحه ومعرفة علمه ، وبقى على حاله ، وانقطع ما كان يقهرون به الناس ، وبقوا كغيرهم . الا أن الجمع كثير والمال عندهم .

فلما قدم بخت نصر بيت المقدس ، وظهر على بنى اسرائيل وسباهم ، وخرج بهم الى أرض بابل ، قصد مصر ، وخرب مدائنها وقراها ، وسبى جميع أهلها ، ولم يترك بها شيئا ، حتى بقيت مصر أربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن ، يجرى نيلها ويذهب لا ينتفع به . ثم رد أهل مصر اليها بعد أربعين سنة ، فعمروها ، ولم تزل مقهورة من يومئذ .

وقال بعض الحكماء : رأيت البرابى وأخذت أتأملها ، فوجدتها مستحكمة على جميع أشكال الفلك . والذى ظهر لى أنه لم يعملها حكيم واحد ، بل تولى عملها قوم بعد قوم ، حتى تكاملت فى دور كامل ، وهو ستة وثلاثون ألف سنة شمسية ، لأن مثل هذه الأعمال لا تعمل الا بالأرصاد ، ولا يتكامل رصد المجموع فى أقل من هذه المدة المذكورة .

وكانوا يجعلون الكتاب حفرا ونقرا فى الصخور ، ونقشا فى الحجارة ، وحلقة مركبة فى البنيان . وربما كان الكتاب هو الحفر اذا كان متضمنا لأمر جسيم ، أو عهدا لأمر عظيم ، أو موعظة يرتجى نفعها ، أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره .

وقد كتب غير المصريين كذلك كما كتبوا على قبة غمدان ، وعلى باب القيروان ، وعلى باب سمرقند ، وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المستقر ، وعلى الأبلق المفرد ، وعلى باب الرها . وكانوا يعمدون الى الأماكن الشريفة والمواضع المذكورة ، فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور ، وأمنها من الدروس ، وأجدر أن يراها من مر بها ، ولا ينسى على طول الدهر .

وقال المسعودى : واتخذت دلوكة بمصر البرابى والصور ، وأحكمت آلات السحر ، وجعلت فى البرابى صور من يرد من كل ناحية ودوابهم ابلا كانت أو خيلا ، وصورت فيها من يرد من البحر فى المراكب من بحر الغرب والشام ، وجمعت فى هذه البرابى العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة ، وخواص الأحجار والنباتات والحيوانات ، وجعلت ذلك فى أوقات فلكية ، واتصالها بالمؤثرات العلوية .

وكانوا اذا ورد اليهم جيش من نحو الحجاز واليمن ، عورت تلك الصور التى فى البربا من الابل وغيرها ، فيتعور ما فى ذلك الجيش ، وينقطع عنهم ناسه وحيوانه . واذا كان الجيش من نحو الشام ، فعل فى تلك الصور التى من تلك الجهة التى أقبل منها جيش الشام ما فعل بما وصفنا ، فيحدث فى ذلك الجيش من الآفات فى ناسه وحيوانه ما صنع فى تلك

الصور التى من تلك الجهة ، وكذلك من ورد من جيوش الغرب ، ومن ورد فى البحر من رومية والشام ، وغير ذلك من الممالك .

فهابهم الملوك والأمم ، ومنعوا ناحيتهم من عدوهم ، واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز واتقانها لزم أقطار المملكة وأحكامها السياسية .

وقد تكلم من سلف وخلف فى هذه الخواص ، وأسرار الطبيعة التى كانت ببلاد مصر . وهذا الخبر من فعل العجوز مستفيض لا يشكون فيه .

والبرابى بمصر ، من صعيدها وغيره ، باقية الى هذا الوقت ، وفيها أنواع الصور مما اذا صورت فى بعض الأشياء أحدثت أفعالا على حسب ما رسمت له وصنعت من أجله ، على حسب قولهم فى الطبائع ، والله أعلم بكيفية ذلك .

قال : وأخبرنى غير واحد من بلاد اخميم من صعيد مصر ، عن أبى الفيض ذى النون ابن ابراهيم المصرى الاخميمى الزاهد — وكان حكيما ، وكانت له طريقة يأتيها ونحلة يقصدها ، وكان ممن يقر على أخبار هذه البرابى ، وامتحن كثيرا مما صور فيها * ورسم عليها من الكتابة والصور — قال : رأيت فى بعض البرابى كتابا تدبرته ، فاذا هو : احذر العبيد المعتقين ، والأحداث والجند المتعبدين ، والنبط المستعربين ورأيت فى بعضها كتابا تدبرته ، فاذا فيه : يقدر المقدر والقضاء يضحك ، وفى آخره كتابة تثبتها فى ذلك العلم فوجدتها :

تدبر بالنجوم ولست تدرى
ورب النجم يفعل ما يريد

قال : وكانت هذه الأمة ، التى اتخذت هذه البرابى ، لهجة بالنظر فى أحكام النجوم ، من المواظبين على معرفة أسرار الطبيعة . وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفانا سيكون فى الأرض ، ولم يقطع على ذلك الطوفان ما هو : أنار تأتى على الأرض فتحرق ما عليها ، أو ماء يغرقها ، أو سيف يبيد أهلها .

فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلها ، فاتخذت هذه البرابى ، ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة ، وجعلت بنيانها نوعين : طينا ، وحجارة ، وفرزت ما بنى بالطين مما بنى بالحجارة ، وقالت : ان كان هذا الطوفان نارا استحجر ما بنى بالطين ، وان كان الطوفان الوارد ماء أذهب ما بنينا بالطين ويبقى ما بنى بالحجارة ، وان كان الطوفان سيفا بقى كل من النوعين ، مما هو من الطين ، وما هو من الحجر .

وهذا ما قيل — والله أعلم — انه كان قبل الطوفان ، وان الطوفان الذى كانوا يرقبونه ، ولم يعينوه أنار هو أم ماء أم سيف ، كان سيفا أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيتها ، وملك نزل عليها فأباد أهلها .

ومنهم من رأى أن ذلك الطوفان كان وباء عم أهلها . ومصداق ذلك مايوجد ببلاد تنيس من التلال المتقذرة من الناس ، من صغير وكبير وذكر وأنثى ، كالجبال العظام ، وهى المعروفة ببلاد تنيس من أرض مصر بذات الكوم ، وما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من

(*) ص٣٩ ، جـ١ ، طـ بولاق .

الناس المنكسين بعضهم على بعض فى الكهوف والغيران والنواويس ، ومواضع كثيرة من الأرض ، لا يدرى من أى الأمم هم ، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم ، ولا اليهود تقول انهم من أوائلهم ، ولا المسلمون يدرون من هؤلاء ، ولا تاريخ ينبىء عن حالهم ، وعليهم أثوابهم ، وكثيرا ما يوجد فى تلك البرابى والجبال من خليتهم .

والبرابى ببلاد مصر بنيان قائم عجيب كالبربا التى بأخميم ، والتى بسمنود وغير ذلك .

ذكر الدفائن والكنوز
التى تسمها اهل مصر المطالب

الأصل فى جواز تتبع الدفائن ما رواه أبو عمرو بن عبد البر والبيهقى فى الدلائل من حديث ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف من الطائف ، مر بقبر أبى رغال فقال : « هذا قبر أبى رغال ، وهو أبو ثقيف ، كان اذا هلك قوم صاح فى الحرم فمنعه الله ، فلما خرج من الحرم رماه بقارعة ، وآية ذلك أنه دفن معه عمود من ذهب » ، فابتدر المسلمون قبره فنبشوه واستخرجوا العمود منه .

ومن حديث عبد الله بن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، حين خرجنا معه الى الطائف فمررنا بقبر ، فقال : « هذا قبر أبى رغال ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان ، فدفن فيه ، وآية ذلك أنه دفن معه عصا من ذهب ، ان نبشتم عليه أصبتموه معه » ، فابتدره الناس فأخرجوا العصا الذى كان معه .

وبمصر كنوز يوسف عليه السلام ، وكنوز الملوك من قبله والملوك من بعده ، لأنه كان يكنز ما يفضل عن النفقات والمؤن لنوائب الدهر ، وهو قول الله عز وجل « فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز » .

ويقال ان علم الكنوز فى كنيسة القسطنطينية نقلت اليها من طليطلة .

ويقال ان الروم لما خرجت من الشام ومصر ، اكتنزت كثيرا من أموالها فى مواضع أعدتها لذلك ، وكتبت كتبا بأعلام مواضعها ، وطرق الوصول اليها ، وأودعت هذه الكتب قسطنطينية ، ومنها يستفاد معرفة ذلك .

وقيل ان الروم لم تكتب ، وانما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين والكلدانيين والقبط . فلما خرجوا من مصر والشام ، حملوا تلك الكتب معهم وجعلوها فى الكنيسة .

وقيل انه لا يعطى من ذلك أحد حتى يخدم الكنيسة مدة ، فيدفع اليه ورقة تكون حظه .

قال المسعودى : ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان ، وما يوجد فى الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض ، وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض ، وتدعى بالمطالب الى هذه الغاية . وقد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا .

فمن أخبارها ما ذكره يحيى بن بكير قال : كان عبد العزيز بن مروان عاملا على مصر

لأخيه عبد الملك بن مروان ، فأتاه رجل متنصح فسأله عن نصحه فقال : بالقبة الفلانية كنز عظيم .

قال عبد العزيز : وما مصداق ذلك ؟

قال : هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر والرخام عند يسير من الحفر ، ثم ينتهى بنا الحفر الى باب من الصفر ، تحته عمود من الذهب ، على أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا ، وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمرد ، ورأسه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود .

فأمر له عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال * فى ذلك ويعمل فيه .

وكان هناك تل عظيم ، فاحتفروا حفيرة عظيمة فى الأرض ، والدلائل المقدم ذكرها من الرخام والمرمر تظهر . فازداد عبد العزيز حرصا على ذلك ، وأوسع فى النفقة ، وأكثر من الرجالة .

ثم انتهوا فى حفرهم الى ظهور رأس الديك ، فبرق عند ظهوره لمعان عظيم لما فى عينيه من الياقوت ، ثم بان جناحاه ثم بانت قوائمه ، وظهر حول العمود عمود من البنيان بأنواع الحجارة والرخام ، وقناطر مقنطرة وطاقات على أبواب معقودة ، ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور الذهب ، وأجرنة من الأحجار قد أطبق عليها أغطيتها وسبكت .

فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف على الموضع ، فنظر الى ما ظهر من ذلك ، فأسرع بعضهم ووضع قدمه على درجة من نحاس ينتهى الى ما هناك . فلما استقرت قدماه على المرقاة ، ظهر سيفان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها ، فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعا وهوى جسمه سفلا .

فلما استقر جسمه على بعض الدرج ، اهتز العمود ، وصفر الديك صفيرا عجيبا أسمع من كان بالبعد من هناك ، وحرك جناحيه وظهرت من تحته أصوات عجيبة قد عملت بالكواكب والحركات ، اذا مال وقع على بعض تلك الدرج شيء أو ماسها شيء انقلبت ، فتهاوى من هناك من الرجال الى أسفل تلك الحفرة ، وكان فيها — ممن يحفر ويعمل وينقل التراب وينظر ويحول ويأمر وينهى — نحو ألف رجل ، فهلكوا جميعا .

فخرج عبد العزيز وقال : هذا ردم عجيب الأمر ممنوع النيل ، نعوذ بالله منه . وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس ، فكان الموضع قبرا لهم .

قال المسعودى : وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد اعتنى وأغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، قد وقع اليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام ، بأن فيه مطلبا عجيبا . فأخبروا الاخشيد محمد بن طغج بذلك ، فأمرهم بحفره ، وأباحهم استعمال الحيلة فى اخراجه .

(*) ص٤٠ ، جـ١ ، ط. بولاق

فحفروا حفرا عظيما الى أن انتهوا الى أزج وأقباء وحجارة مجوفة فى صخرة ، منقور فيها تماثيل قائمة على أرجلها من الخشب ، قد طلى بالأطلية المانعة من سرعة البلاء وتفرق الأجزاء ، والصور مختلفة فيها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والزبرجد والفيروزج ، ومنها ما وجوهها ذهب وفضة .

فكسر بعض تلك التماثيل ، فوجدوا فى أجوافها رمما بالية وأجساما فانية ، والى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية — كالبرابى وغيرها — من المرمر والرخام ، وفيه من الطلا الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى التماثيل الخشب ، والطلاء دواء مسحوق وأخلاط معمولة لا رائحة لها ، فجعل منه على النار شيء ، ففاح منه ريح طيبة مختلفة لا تعرف فى نوع من أنواع الطيب .

وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم ، وبازاء كل تمثال تمثال من الحجر المرمر أو من الرخام الأخضر على هيئة الصنم — على حسب عبادتهم للتماثيل والصور — عليها أنواع من الكتابات لم يقف أحد على استخراجها من أهل الملل . وزعم قوم من أهل الدراية أن لذلك القلم ، منذ فقد من أرض مصر ، أربعة آلاف سنة .

وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا يهود ولا نصارى . ولم يؤدهم الحفر الا لما ذكرناه من هذه التماثيل . وكان ذلك فى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .

وقد كان من سلف وخلف من ولاة مصر ، من أحمد بن طولون وغيره ، الى هذا الوقت (وهو سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة) لهم أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر ، وما أصيب فى هذه المطالب من القبور ، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا .

وركب أحمد بن طولون يوما الى الأهرام ، فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف ، ومعهم المساحى والمعاول ، فسألهم عما يعملون ، فقالوا : نحن قوم نطلب المطالب .

فقال لهم : لا تخرجوا بعدها الا بمشورتى أو رجل من قبلى .

وأخبروه أن فى سمت الأهرام مطلبا قد عجزوا عنه ، فضم اليهم الرافقى ، وتقدم الى عامل الجيزة فى اعانتهم بالرجال والنفقات ، وانصرف .

فأقاموا مدة يعملون حتى ظهر لهم .

فركب أحمد بن طولون اليهم وهم يحفرون ، فكشفوا عن حوض مملوء دنانير ، وعليه غطاء مكتوب عليه بالبربطية ، فأحضر من قرأه فاذا فيه . « أنا فلان بن فلان ، الملك الذى ميز الذهب من غشه ودنسه ، فمن أراد أن يعلم فضل ملكى على ملكه ، فلينظر الى فضل عيار دينارى على عيار ديناره ، فان مخلص الذهب من الغش مخلص فى حياته وبعد وفاته » .

فقال أحمد بن طولون : الحمد لله ، ان ما نبهتنى عليه هذه الكتابة أحب الى من المال .

ثم أمر لكل من القوم المطالبة بمائتى دينار منه ، ولكل من الصناع بخمسة دنانير بعد توفيه أجرة عمله ، وللراقى بثلاثمائة دينار ، ولنسيم الخادم بألف * دينار ، وحمل باقى الدنانير فوجدها أجود من كل عيار . وشدد من حينئذ فى العيار بمصر حتى صار عيار ديناره ، الذى عرف بالأحمدى ، أجود عيار وكان لا يطلى الا به .

ذكر هلاك أموال اهل مصر

قال الله عز وجل : « وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما ... » .

هذا دعاء من موسى عليه السلام على فرعون وقومه من أهل مصر لكفرهم ، أن يهلك الله أموالهم .

قال الزجاج : طمس الشىء اذهابه عن صورته .

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وعن محمد بن كعب القرظى ، أنهما قالا : صارت أموال أهل مصر ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها ، صحاحا وأثلاثا وأنصافا ، فلم يبق معدن الا طمس الله عليه ، فلم ينتفع به أحد بعدهم .

وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة .

وقال مجاهد وعطية : أهلكها الله تعالى حتى لا ترى ، يقال : عين مطموسة أى ذاهبة ، وطمس الموضع اذا عفا ودرس .

وقال ابن زيد : صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شىء لهم حجارة .

وقال محمد بن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله وفراشه وقد صارا حجرين . قال : وقد سألنى عمر بن عبد العزيز ، فذكرت ذلك ، فدعا بخريطة أصيبت بمصر ، فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وانها لحجارة .

وقال محمد بن شهاب الزهرى : دخلت على عمر بن عبد العزيز ، فقال : ياغلام ، ائتنى بالخريطة .

فجاء بخريطة نثر ما فيها ، فاذا فيها دراهم ودنانير وتمر وجوز وعدس وفول ، فقال : كل يا ابن شهاب .

فأهويت فاذا هو حجارة ، فقلت : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟

قال : هذا مما أصاب عبد العزيز بن مروان فى مصر اذ كان عليها واليا ، وهو مما طمس الله عليه من أموالهم .

وقال المضارب بن عبد الله الشامى : أخبرنى من رأى النخلة بمصر مصروعة وانها لحجر . ولقد رأيت ناسا كثيرا قياما وقعودا فى أعمالهم ، لو رأيتهم ما شككت فيهم — قبل أن تدنو منهم — أنهم أناس ، وانهم لحجارة . ولقد رأيت الرجل من رقيقهم وانه لحارث على ثورين وانه وثوريه لحجارة .

(*) ص٤١ ، جـ١ ، ط.بولاق .

ونقل وسة بن موسى فى قصص الأنبياء أن فرعون لما هلك وقومه ، وأمنت بنو اسرائيل غائلته ، ندب موسى عليه السلام من قبائله الاثنى عشر نقيبين : أحدهما كالب بن موقيا ، والآخر يوشع بن نون ، مع كل واحد من سبطه اثنا عشر ألفا ، وأرسلهما الى مصر — وقد خلت من حاميها لغرق أهلها مع فرعون — فأخذوا ذخائر فرعون وكنوزه ، وعادوا الى موسى .

فذلك توريثهم أرض مصر ، يعنى قول الله عز وجل عن قوم فرعون « فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها قوما آخرين » ، وقوله تعالى « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » يعنى أرض مصر ، أورثناها بنى اسرائيل ، لأنهم هم المستضعفون الذين كانوا فيها ، بدليل قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض » .

قال جامعه ومؤلفه رحمه الله تعالى : أخبرنى داود بن رزق بن عبد الله — وكانت له سياحات كثيرة بأرض مصر — أنه عبر الى واد بالقرب من القلمون بالوجه القبلى ، فرأى فيه مقاتات كثيرة ، ما بين بطيخ وقثاء وتفاح ، وكلها حجارة .

وكان قد أخبرنى قديما بعض الأعيان أنه شاهد ، فى سفره الى البلاد من أرض مصر ، بطيخا كثيرا كله حجارة ، وكذلك البطيخ من الصنف الذى يقال له العبدلى .

ذكر اخلاق اهل مصر وطبائعهم وامزجتهم

قال أبو الحسن على بن رضوان الطبيب : مصر اسم — فيما نقلت الرواة — يدل على أحد أولاد نوح النبى عليه السلام ، فانهم ذكروا أن مصر هذا نزل بهذه الأرض فانسل فيها وعمرها فسميت باسمه .

والذى يدل عليه هذا الاسم اليوم هو الأرض التى يفيض عليها النيل ويحيط بها حدود أربعة ، وهى أن الشمس تشرق على أقصى العمارة بالشرق قبل أن تغيب عن آخر العمارة بالغرب بثلاث ساعات وثلثى ساعة ، فيجب من ذلك أن تكون هذه الأرض فى النصف الغربى من الربع العامر .

والنصف الغربى من الربع العامر — على ما قال أبقراط وبطليموس — أقل حرارة وأكثر رطوبة من النصف الشرقى ، لأنه قسم كوكب القمر ، والنصف الشرقى فى قسم كوكب الشمس . وذلك أن الشمس تشرق على النصف الشرقى قبل شروقها على النصف الغربى ، والقمر يهل على النصف الغربى قبل النصف الشرقى .

وقد زعم قوم من القدماء أن أرض مصر فى وسط الربع من المعمور من الأرض بالطبع ، فأما بالقياس فعلى ما ذكرنا من أنها فى النصف الغربى .

والحد الثالث هو أن أول بعد هذه الأرض عن خط الاستواء * فى جهة الجنوب أسوان ،

(*) ص٤٢ ، جـ١ ، ط.بولاق .

وبعدها عن خط الاستواء اثنان وعشرون درجة ونصف . فالشمس تسامت رؤوس أهلها مرتين في السنة : عند كونها في آخر الجوزاء ، أو في أول السرطان ، وفي هذين الوقتين لا يكون للقائم بأسوان نصف النهار ظل أصلا ، فالحرارة واليبس والاحراق غالب على مزاجها لأن الشمس تنشف رطوباتها ، ولذلك صارت ألوانهم سودا وشعورهم جعدة لاحتراق أرضهم .

والحد الرابع هو أن آخر بعد أرض مصر عن خط الاستواء في جهة الشمال طرف بحر الروم ، وعليه من أرض مصر بلدان كثيرة كالاسكندرية ورشيد ودمياط وتنيس والفرما . وبعد دمياط عن خط الاستواء في الشمال أحد وثلاثون جزءا وثلث ، وهذا البعد هو آخر الاقليم الثالث وأول الاقليم الرابع .

فالشمس لا تبعد عنهم كل البعد ولا تقرب منهم كل القرب ، فالغالب عليهم الاعتدال مع ميل يسير الى الحرارة ، فان الموضع المعتدل على الصحة من البلدان العامرة ، وهو أول وسط الاقليم الرابع . وأيضا فمجاورة دمياط للبحر واحاطته بها ، تجعلها معتدلة بين الحر والبرد ، خارجة عن الاعتدال الى الرطوبة ، فيكون الغالب عليها المزاج الرطب الذي ليس بحار ولا بارد ، ولذلك صارت ألوانهم سمرا وأخلاقهم سهلة ، وشعورهم سبطة .

واذا كان أول مصر من جهة الجنوب الغالب عليه الاحتراق ، وآخرها من جهة الشمال الغالب عليها الاعتدال مع ميل يسير نحو الحرارة ، فما بين هذين الموضعين من أرض مصر الغالب عليه الحرارة ، وتكون قوة حرارته بقدر بعده من أسوان وقربه من بحر الروم .

ومن أجل هذا قال أبقراط وجالينوس : ان المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة .

قال : وجبل لوقا في مشرق هذه الأرض يعوق عنها ريح الصبا ، فانه لم يوجد بفسطاط مصر صبا خالصة ، لكن متى هبت الصبا عندهم ، هبت نكبا بين المشرق والشمال أو المشرق والجنوب . وهذه الرياح يابسة مانعة من العفن ، وقد عدمت أهل مصر هذه الفضيلة ، ومن أجل ذلك صارت المواضع التي تهب فيها ريح الصبا من أرض مصر أحسن حالا من غيرها ، كالاسكندرية وتنيس .

ويعوق أيضا هذا الجبل اشراق الشمس على أرض مصر ، واذا كانت على الأفق فيكون زمان لبث الشعاع على هذه الأرض أقل من الطبيعي ، ومثل هذه الحال سبب لركود الهواء وغلظه .

وأرض مصر أرض كثيرة الحيوان والنبات جدا ، لا تكاد تجد فيها موضعا خلوا من الحيوان والنبات وهي أرض متخلخلة ، فانك تراها عند انصراف النيل بمنزلة الحماة ، فاذا حلت الحرارة ما فيها من الرطوبة تشققت شقوقا عظاما ، والمواضع الكثيرة الحيوان والنبات أرض كثيرة العفونة .

وقد اجتمع على أرض مصر حرارة مزاجها ، وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات ، فأوجب ذلك احتراقها وسواد طينها ، فصارت أرضا سوداء ، وما قرب منها من الجبل سبخ اما

بورقي أو مالح ، ويظهر من أرض مصر بالعشيات بخار أسود أو أغبر ، وخاصة في أيام الصيف .

وأرض مصر ذات أجزاء كثيرة ، ويختص كل جزء منها بشيء دون غيره . وعلة ذلك ضيق عرضها ، واشتمال طولها على عرض الاقليم الثاني والثالث ، فان الصعيد فيه من النخل والسنط وآجام القصب والبردي ، ومواضع احراق الفحم وغير ذلك شيء كثير ، والفيوم فيه من النقائع وآجام القصب ومواضع تعطين الكتان شيء كثير ، وأسفل أرض مصر فيه من النبات أنواع كثيرة كالقلقاس والموز وغير ذلك . وبالجملة فكل بقعة من أرض مصر لها أشياء تختص بها وتنفصل عن غيرها .

قال : والنيل يرطب يبس الصيف والخريف، فقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة والرطوبة الفضلية ، وأنها ذات أجزاء كثيرة ، وأن هواءها وماءها رديئان ، وقد بين الأوائل أن المواضع الكثيرة العفن يتحلل منها في الهواء فضول كثيرة لا تدعه يستقر على حال لاختلاف تصعدها .

وقد كان استبان أن هواء أرض مصر يسرع اليه التغير ، لأن الشمس لا يثبت على أرض مصر شعاعها المدة الطبيعية ، فمن أجل هذين كثر اختلاف هواء أرض مصر ، فصار يوجد في اليوم الواحد على حالات مختلفة : مرة حر ، ومرة برد ، ومرة يابس ، وأخرى رطب ، ومرة متحرك ، وأخرى ساكن ، ومرة الشمس صاحية ، ومرة قد سترها الغيم .

وبالجملة هواء مصر كثير الاختلاف ، غير لازم لطريقة واحدة ، فيصير من أجل ذلك في الأوعية والعروق من أخلاط البدن ، لا يلزم حدا واحدا .

وأيضا فان ما يتحلل كل يوم من البخار الرطب بأرض مصر ، يعوقه اختلاف الهواء وقلة سمك الجبال وكثرة حرارة الأرض عن الاجتماع في الجو ، فاذا برد الهواء ببرد الليل ، انحدر هذا البخار على وجه الأرض ، فيتولد عنه الضباب الذي يحدث عنه الطل والندى ، وربما تحلل هذا البخار بالتحلل الخفي ، فاذا يتحلل كل يوم ما كان اجتمع من البخار في اليوم الذي قبله ، فمن أجل هذا لا يجتمع الغيم المطر بأرض مصر * الا في الندرة وظاهر أيضا أن أرض مصر يترطب هواؤها في كل يوم بما يترقى اليه من البخار الرطب وما يتحلل .

وقد قال بعض الناس : ان الضباب يتكون من استحالة الهواء الى طبيعة الماء ، فاذا انضاف هذا الى ما قلناه ، كان أزيد في بيان سرعة تغير الهواء بأرض مصر وكثرة العفونة فيها ، وقد استبان أن أرض مصر كثيرة الاختلاف ، كثيرة الرطوبة الفضلية التي يسرع اليها العفن .

والعلة القصوى في جميع ذلك ، هو أن أخص الأوقات بالجفاف في الأرض كلها يكثر فيه بمصر الرطوبة ، لأنها تترطب في الصيف والخريف بمد النيل وفيضه ، وهذا بخلاف ما عليه البلدان الأخر .

(*) ص٤٢ ، ج١ ، ط.بولاق .

وقد علمنا أبقراط أن رطوبة الصيف والخريف فضلية ، أعنى خارجة عن المجرى الطبيعى كرطوبة المطر الحادث فى الصيف . ومن أجل هذه قلنا ان رطوبة مصر فضلية ، وذلك أن الحرارة واليبس هو بالحقيقة مزاج مصر الطبيعى ، وانما عرض له ما أخرجه عن اليبس الى الرطوبة الفضلية بمد النيل فى الصيف والخريف ، ولذلك كثرت العفونات بهذه الأرض .

فهذا هو السبب الأعظم فى أن صارت أرض مصر على ما هى عليه من سخافة الأرض وكثرة العفن ورداءة الماء والهواء .

الا أن هذه الأشياء لا تحدث فى أبدان المصريين استحالة محسوسة اذا جرت على عادتها ، من أجل الف المصريين لهذه الحال ومشاكلة أبدانهم لها ، فان كل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان والنبات مشابه لما عليه مصر فى سخافة الأبدان وضعف القوى وكثرة التغير وسرعة الوقوع فى الأمراض وقصر المدة ، كالحنطة بمصر فانها وشيكة الزوال ، سريع اليها العفن فى المدة اليسيرة .

ولا مطعن أن أبدان الناس وغيرهم تخالف ما عليه الحنطة من سرعة الاستحالة ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وأبدانهم مبنية من هذه الأشياء . فحال ما يتولد بأرض مصر من النبات والحيوان ، فى السخافة وكثرة الفضول والعفن وسرعة الوقوع فى الأمراض ، كحال سخافة أرضها وعفنها وفضولها وسرعة استحالتها ، لأن النسبة واحدة ، ولذلك أمكن حياة الحيوان فيها ونبات النبات بها ، فان هذه الأشياء — من حيث ناسبتها ولم تبعد من مشاكلتها — أمكن حياتها .

فأما الأشياء الغريبة فانها اذا دخلت الى مصر تغيرت فى أول لقائها لهذا الهواء ، حتى اذا استقرت وألفت الهواء واستمرت عليه ، صحت مشاكلة لأرض مصر .

قال : وأما جنس ما يؤكل ويشرب بأرض مصر ، فان الغلات سريعة التغير ، سخيفة ، متخلخلة ، تفسد فى الزمان اليسير ، كالحنطة والشعير والعدس والحمص والباقلاء والجلبان ، فان هذه تسوس فى المدة القليلة ، ليس لشىء من الأغذية التى تعمل منها لذاذة ما لنظيره فى البلدان الأخر ، وذلك أن الخبز المعمول من الحنطة بمصر متى لبث يوما واحدا بليلته لا يؤكل ، وان أكل لم يوجد له لذاذة ولا تماسك لبعضه ببعض ، ولا يوجد فيه علوكة ، ولكنه يتكرج فى الزمان اليسير ، وكذلك الدقيق ، وهذا خلاف أخبار البلدان الأخر .

وكذلك الحال فى جميع غلات مصر وفواكهها وما يعمل فيها ، فانها وشيكة الزوال ، سريعة الاستحالة والتغير . فأما ما يحمل من هذه الى مصر ، فظاهر أن مزاجها يتبدل باختلاف الهواء عليها ، ويستحيل عما كانت عليه الى مشاكلة أرض مصر ، الا أن ما كان حديثا قريب العهد بالسفر ، فقد بقيت فيه من جودته بقايا صالحة ... فهذا حال الغلات .

وأما الحيوان الذى يأكله الناس ، فالبلدى منه مزاجه مشاكل لمزاج الناس بهذه الأراضى فى السخافة وسرعة الاستحالة ، فهو على هذا

ملائم لطبائعهم ، والمجلوب — كالكباش البرقية — فالسفر يحدث فى أبدانها قحلا ويبسا وأخلاطا لا تشاكل أخلاط المصريين ، ولهذا اذا دخلت مصر مرض أكثرها ، فاذا استقرت زمانا صالحا تبدل مزاجها ووافق مزاج المصريين .

وأهل مصر يشرب الجمهور منهم من ماء النيل ، وقد قلنا فى ماء النيل ما فيه كفاية ، وبعضهم يشرب مياه الآبار ، وهى قريبة من مشاكلتهم . والمياه المخزونة فقل من يشربها بأرض مصر . وأجود الأشربة عندهم الشمسى، لأن العسل الذى فيه يحفظ قوته ولا يدعه يتغير بسرعة ، والزمان الذى يعمل فيه خالص الحر فهو ينضجه ، والزبيب الذى يعمل منه مجلوب من بلاد أجود هواء .

وأما الخمر فقل من يعتصرها الا ويلقى معها عسلا ، وهى معتصرة من كرومهم فتكون مشاكلة لهم ، ولهذا صاروا يختارون الشمسى عليها ، وما عدا الشمسى والخمر من الشراب بأرض مصر ، فردىء لا خير فيه لسرعة استحالته من فساد مادته النبيذ التمرى والمطبوخ والمزر المعمول من الحنطة

وأغذية أهل مصر مختلفة : فان أهل الصعيد يغتذون كثيرا بتمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ، ويحملونها الى الفسطاط وغيرها ، فتباع هناك وتؤكل . وأهل أسفل الأرض يغتذون كثيرا بالقلقاس والجلبان ، ويحملون ذلك الى مدينة الفسطاط وغيرها ، فتباع هناك وتؤكل ، وكثير من أهل مصر يكثرون أكل * السمك طريا ومالحا ، وكثير يكثرون أكل الألبان وما يعمل منها ، وعند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كمكا ، يعمل من جريش الحنطة ويجفف ، وهو أكثر أكلهم السنة كلها .

وبالجملة فكل قوم منهم قد ابتنت أبدانهم من أشياء بأعيانها وألفتها ونشأت عليها ، الا أن الغالب على أهل مصر الأغذية الرديئة ، وليست تغير مزاجهم ما دامت جارية على العادة ، وهذا أيضا مما يؤكد امرهم فى السخافة وسرعة الوقوع فى الأمراض

وأهل الريف أكثر حركة ورياضة من أهل المدن ، ولذلك هم أصح أبدانا ، لأن الرياضة تصلب أعضاءهم وتقويها .

وأهل الصعيد أخلاطهم أرق وأكثر دخانية وتخلخلا وسخافة ، لشدة حرارة أرضهم من أسفل الأرض وأهل أسفل الأرض بمصر أكثر استفراغ فضولهم بالبراز والبول ، لفتور حرارة أرضهم ، واستعمالهم للأشياء الباردة والغليظة كالقلقاس .

وأما أخلاط المصريين فبعضها شبيه ببعض ، لأن قوى النفس تابعة لمزاج البدن ، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد ، وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة ، والتنقل من شىء الى شىء ، والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر ، والرغبة فى العلم ، وسرعة الخوف ، والحسد والنميمة والكذب والسعى الى السلطان وذم الناس .

وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التى تكون من دناءة الأنفس ، وليس هذه الشرور عامة فيهم ، ولكنها موجودة فى أكثرهم ، ومنهم

(*) ص٤٤ ، جـ١ ، ط.بولاق .

من خصه الله بالفضل وحسن الخلق ، وبرأه من الشرور .

ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة فى النفس لم تسكنها الأسد ، واذا دخلت ذلت ولم تتناسل ، وكلابها أقل جراءة من كلاب غيرها من البلدان ، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخر ، ما خلا ما كان منها فى طبعه ملايمة لهذه الحال كالحمار والأرنب .

وقال : ان جالينوس يرى أن فصل الربيع طبيعته الاعتدال ، ويناقض من ظن أنه حار وطب . ومن شأن هذا الفصل أن تصح فيه الأبدان ويجود هضمها ، وتنتشر الحرارة الغريزية فيه ، ويصفو الروح الحيوانى ، لاعتدال الهواء وصفائه ، ومساواة ليله لنهاره ، وغلبة الدم .

والهواء المعتدل هو الذى لا يحس فيه ببرد ظاهر ولا حر ولا رطوبة ولا يبس ، ويكون فى نفسه صافيا نقيا ، فيقوى فيه الروح الحيوانى لهذا السبب ، وتصح الأبدان ويكثر نشاط الحيوان ، وتنمو الأشياء وتزيد وتتوالد .

واذا طلبنا بأرض مصر مثل هذا الهواء لم نجده فى وقت من السنة ، الا فى أمشير وبرمهات وبرمودة وبشنس ، عندما تكون الشمس فى النصف الأخير من الدلو والحوت والحمل والثور ، فانا نجد بمصر فى هذا الزمان أياما معتدلة نقية صافية ، لا يحس فيها بحر ظاهر ولا برد ولا رطوبة ولا يبوسة ، وتكون الشمس فيها نقية من الغيوم ، والهواء ساكنا لا يتحرك ، الا أن يكون ذلك فى برمودة وبشنس ، فانه يحتاج الى أن تهب ريح الشمال ليعتدل ببردها حر الشمس .

وفى هذا الزمان تكثر حركة الحيوان وسفاده ، وتحسن أصواته ، وتورق الأشجار ، ويعقد الزهر ، وتقوى القوة المولدة ، ويغلب كيموس الدم .

وهذا الفصل فى أرض مصر يتقدم زمانه الطبيعى بمقدار ما ينقص عن آخره . وعلة ذلك قوة حرارة هذه الأرض .

وقد يعرض فى أول هذا الفصل أيام شديدة البرد ، وذلك فى أمشير ، اذا هبت ريح الشمال ، وكانت الشمس غير نقية من الغيوم . وعلة ذلك دخول فصل الربيع فى فصل الشتاء ، فاذا هبت ريح الشمال برد ببردها الهواء ، فأعادته بعد الاعتدال الى البرد .

ولكثرة ما يصعد من الأرض فى هذا الزمان من البخار الرطب ، يرطب الهواء ويعود الى حاله فى فصل الشتاء ، وربما برد الهواء من هبوب رياح أخر ، فان ريح الجنوب ، التى هى أشد الرياح حرارة ، اذا هبت فى هذا الزمان اكتسبت برودة من الأرض والماء اللذين قد بردهما هواء الشتاء ، فاذا مرت بشىء بردته ببرودتها العرضية ، حتى اذا دام هبوبها أياما كثيرة متوالية ، عادت الى حرارتها ، وأسخنت الهواء وأحدثت فيه يبسا .

والدليل على أن برد رياح الجنوب ، التى تعرفها المصريون بالمريسى ، يتولد من برد مياه مصر وأرضها لا بشىء طبيعى لها ، أنه لايجتمع فى الجو ، فى أيام هبوبها ، الضباب الذى

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزي

الجزء
٣

كتاب
التحرير



وكانت مصر هي مسقط رأسي، وملعب أترابي، ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامتي،
وموطن خاصتي وعامتي، وجؤجؤي الذي ربي جناحي في وكره، وعش مأربي. فلا
تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتاني ربي الفطانة والفهم، أرغب في
معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها.

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

يجتمع من تحليل الحرارة للبخار الرطب بالنهار وجمع البرودة له بالليل ، فحرارة ريح الجنوب تفرق البرودة عن جمعه وتبدده فى الهواء ، واذا دام هبوب هذه الريح أسخنت الماء والأرض ، وعادت الى طبيعتها فى الحرارة .

واذا كان فصل الربيع يتقدم زمانه الطبيعى ، ويختلف هذا الاختلاف — والهواء فى الأصل بمصر يختلف بكثرة استحالته وما يرقى اليه من البخار — فما ظنك بغيره من الفصول ، ولذلك كثرت فيه الرياح ، وأخر الأطباء فيه سقى الأدوية المسهلة الى أن يستقر أمره فى شمس الحمل مع الثور .

ثم يدخل فصل الصيف فى آخر بشنس وبئونة وأبيب وبعض مسرى ، عندما تكون الشمس فى الجوزاء والسرطان والأسد وبعض السنبلة ، فيشتد الحر واليبس فى هذا الزمان ، وتجف الغلات وتنضج الثمار ، ويجتمع من أكلها فى الأبدان كيموسات رديئة .

واذا نزلت الشمس فى السرطان * أخذ النيل فى الزيادة والفيض على أرض مصر ، فيتغير مزاج الصيف الطبيعى بكثرة ما يترقى الى الهواء من بحار الماء .

ويوجد فى أول هذا الفصل — عندما تكون الشمس فى الجوزاء — أيام يشاكل هواؤها هواء الربيع ، عندما تكون الشمس مستورة بالغيوم ، أو تكون الريح الشمال هابة . ولهذا يغلط كثير من الأطباء ويسقى الأدوية المسهلة فى هذا الزمان ، لظنه أن فصل الربيع لم يخرج . الا من كان منهم أحذق ، فهو يختار ما كان من هذه الأيام أسكن حرارة ، والأكثر لا يشعرون ألبتة بهذه الحال .

وفى آخر الصيف يكون فيض النيل ، فظاهر أن هذا الفصل يتقدم دخوله الزمان الطبيعى بقدر ما يتقدم آخره ، وأنه كثير الاضطراب بكثرة ما يرقى اليه من بخار الأرض . فلولا استمرار أبدانهم على هذا الاختلاف ، ومشاكلتهم لهذه الحال ، لحدثت فيهم الأمراض التى ذكر أبقراط أنها تحدث اذا كان الصيف رطبا .

ثم يدخل فصل الخريف وطبيعته يابسة ، من النصف الأخير من مسرى ثم توت وبابه وبعض أيام هاتور ، وتكون الشمس فى آخر السنبلة والميزان والعقرب ، فتكمل زيادة النيل فى أول هذا الفصل ، ويطلق على الأرض ، فيطبق أرض مصر ، ويرتفع منه فى الجو بخار كثير ، فينتقل مزاج الخريف عن اليبس الى الرطوبة ، حتى انه ربما وقع فيه الأمطار وكثرة الغيم فى الجو .

ويوجد فى هذا الفصل أيام شديدة الحر لأنها على الحقيقة صيفية ، فاذا نقى الجو من البخار الرطب عادت الى طبيعتها من الحرارة . وفيه أيضا أيام شديدة الشبه بأيام الربيع ، تكون عندما يساوى الليل النهار ويرطب الماء يبس الهواء .

ويشتد فى هذ الفصل اضطراب الهواء بكثرة ما يرتقى اليه من البخار الرطب ، فيكون مرة حارا ، وأخرى باردا ، ومرة يابسا ، وأكثر أوقاته يغلب عليه الرطوبة ، فلا يزال كذلك يتمزج حتى يغلب عليه رطوبة الماء فى آخر الأمر .

(*) ص٤٥ ، جـ١ ، ط. بولاق .

ويصاد فى أيام الخريف من النيل أسماك كثيرة جدا ، يولد أكلها فى الأبدان أخلاطا لزجة ، وكثيرا ما يستحيل الى الصفراء اذا صادفت فى البدن خلطا صفراويا ، فمن أجل ذلك يضطرب ما فى الأبدان من الروح الحيوانى ، وتهيج الأخلاط ، ويفسد الهضم فى البطون والأوعية والعروق ، ويتولد من ذلك كيموسات رديئة كثيرة الأخلاط : بعضها مرة صفراء ، وبعضها مرة سوداء ، وبعضها بلغم لزج ، وبعضها خلط خام ، وبعضها مرة محترقة ، وكثير منها يتركب من هذه الأشياء فتثير الأمراض .

حتى اذا انصرف النيل فى آخر الخريف ، وانكشفت الأرض ، وبرد الهواء ، وكثرت الأسماك ، واحتقن البخار ، وكثر ما يرتفع به من الأرض من العفونة ، واستحكم عند ذلك وجود العفن ، تزايدت الأمراض . ولولا الف أهل مصر لهذه الأشياء ، لكان ما يحدث فيهم من الأمراض أكثر من ذلك .

ثم يدخل فصل الشتاء وطبيعته باردة رطبة ، من النصف الآخر من هاتور ثم كيهك وطوبة ، وذلك عندما تكون الشمس فى القوس والجدى وبعض الدلو ، وذلك أقل من ثلاثة أشهر ، والعلة فى ذلك قوة حرارة أرض مصر ، وكون الأبدان مضطربة .

وتنكشف الأرض فى أول هذا الفصل ، وتحرث وتعفن بالجملة ، لكثرة ما يلقى فيها من البزور ، وما فيها من أزبال الحيوان وفضولها ، ولأنها سخيفة ، وهى كالحماة فى هذا الزمان ، فيتولد فيها من أنواع الفار والدود والنبات والعشب وغير ذلك ما لا يحصى كثرة ، وينحل منها فى الجو أبخرة كثيرة ، حتى يصير الضباب بالغدوات سائرا للابصار عن الألوان القريبة .

ويصاد أيضا من الأسماك المحبوسة فى المياه المخزونة شىء كثير ، وقد داخلها العفن لقلة حركتها ، فيولد أكلها فى الأبدان فضولا كثيرة لزجة شديدة الاستعداد للعفن ، فتقوى الأمراض فى أول هذا الفصل . حتى اذا اشتد البرد ، وقوى الهضم فى الأبدان ، واستقر الهواء على شىء واحد ، وعادت الحرارة الغريزية الى داخل ، وتطبقت الأرض بالنبات ، وسكنت عفونتها ، صحت عند ذلك الأبدان ، وهذا يكون فى آخر كيهك أو فى طوبة .

فقد استبان أن الفصول بأرض مصر كثيرة الاختلاف ، وان أردأ أوقات السنة عندهم ، وأكثرها أمراضا ، هو آخر الخريف وأول الشتاء ، وذلك فى شهرى هاتور وكيهك ، فاذن اختلاف الفصول مشاكل لما عليه أرضهم من الرداءة ، فمضرة الفصول اذن بالأبدان فى أرض مصر أقل منها فى البلدان الأخر اذا اختلفت هذا الاختلاف .

واستبان أيضا أن السبب الأول فى ذلك هو مد النيل فى أيام الصيف ، وتطبيقه الأرض فى أيام الخريف ، بخلاف ما عليه مياه الأنهار فى العمارة كلها ، فانها انما تمتد فى أخص الأوقات بالرطوبة ، وهو الشتاء والربيع .

قال : وقد استبان مما تقدم أن الرطوبة الفضلية بأرض مصر كثيرة . وظاهر أن أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه الرطوبة ، فانى أنا قلما رأيت أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه كلها ، لا يشوبها فى أول أمرها

البلغم والخلط الخام ، والأمراض كلها تحدث عندهم فى الأوقات كلها كما قال أبقراط ، وأكثر أمراضهم هى الفضلية ، أعنى العفنة من أخلاط صفراوية وبلغمية ، على ما يشاكل مزاج * أرضهم .

وما ذكرناه فيما تقدم يوجب حدوث الأمراض كثيرا ، الا أن مشاكلة هذه بعضها بعضا ، واتفاقها فى سنة واحدة ، تمنع من أن تكون فى أنفسها ممرضة متى لزمت العادة ، فأما اذا خرجت عن عادتها ، فهى تحدث مرضا ، وخروجها عن عادتها بمصر هو الذى أعده اختلافا ممرضا ، لا الاختلاف الموجود فيها على الدائم .

والنيل ليس يحدث فى الأبدان كل سنة مرضا ، ولكنه اذا أفرطت زيادته ، ودام مدة تزيد على العادة ، كان ذلك سببا لحدوث المرض الوافد .

فان قيل : اذا كانت أبدان الناس بأرض مصر من السخافة على ما ذكرت فلعلها فى مرض دائم .

فالجواب : لسنا نبالى بهذا كيف كان ، لأن المرض هو ما يضر بالفعل ضررا محسوسا من غير توسط ، فمن أجل ذلك ليس أبدان المصريين فى مرض دائم ، ولكنها كثيرة الاستعداد نحو الأمراض .

قال : أما أمراض مصر البلدية فقد ذكرنا من أمرها ما فيه كفاية ، وظهر أن أكثرها الأمراض الفضلية التى يشوبها صفراء وخام ، على أن باقى الأمراض تحدث عندهم بسرعة وقرب ، وخاصة فى آخر الخريف وأول الشتاء .

وأما الأمراض الوافدة — ومعنى المرض الوافد ، هو ما يعم خلقا كثيرا فى بلد واحد وزمان واحد ، ومنه نوع يقال له الموتان ، وهو الذى يكثر معه الموت — وحدوث الأمراض الوافدة يكون عن أسباب كثيرة تجتمع فى أجناس أربعة ، وهى : تغير كيفية الهواء ، وتغير كيفية الماء ، وتغير كيفية الأغذية ، وتغير كيفية الأحداث النفسانية .

فالهواء تغير كيفيته على ضربين : أحدهما تغيره الذى جرت به العادة ، وهذا لا يحدث مرضا وافدا ، وليس تغيرا ممرضا . والثانى التغير الخارج عن مجرى العادة ، وهذا هو الذى يحدث المرض الوافد . وكذلك الحال فى الأجناس الباقية .

وخروج تغير الهواء عن عادته يكون اما بأن يسخن أكثر أو يبرد أو يرطب أو يجفف أو يخالطه حال عفنة . والحالة العفنة اما أن تكون قريبة أو بعيدة ، فان أبقراط وجالينوس يقولان انه ليس يمنع مانع من أن يحدث ببلد اليونانيين مرض وافد عن عفونة اجتمعت فى بلاد الحبشة ، وتراقت الى الجو وانحدرت على اليونانيين ، فأحدثت فيهم المرض الوافد .

وقد يتغير أيضا مزاج الهواء عن العادة ، بأن يصل وفد كثير قد أنهك أبدانهم طول السفر وساءت أخلاطهم ، فيخالط الهواء منها شىء كثير ، ويقع الاعداء فى الناس ، ويظهر المرض الوافد .

(*) ص٤٦ ، جـ١ ، ط. بولاق .

والماء أيضا قد يحدث المرض الوافد ، اما بأن يفرط مقداره فى الزيادة أو النقصان ، أو يخالطه حال عفنة ، ويضطر الناس الى شربه ، ويعفن به أيضا الهواء المحيط بأبدانهم ، وهذه الحال تخالطه اما قريبا أو بعيدا ، بمنزلة ما يمر فى جريانه بموضع خرب قد اجتمع فيه من جيف الموتى شىء كثير ، أو بمياه تقاطع عفنة فيحدرها معه ويخالط جسمه .

والأغذية تحدث المرض الوافد ، اما اذا لحقها اليرقان وارتفعت أسعارها واضطر الناس الى أكلها ، واما اذا أكثر الناس منها فى وقت واحد — كالذى يكون فى الأعياد — فيكثر فيهم التخم ، ويمرضون مرضا متشابها ، واما من قبيل فساد مرعى الحيوان الذى يؤكل ، أو فساد الماء الذى يشرب .

والأحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متى حدث فى الناس خوف عام من بعض الملوك ، فيطول سفرهم وتفكرهم فى الخلاص منه وفى وقوع البلاء ، فيسوء هضمهم وتتغير حرارتهم الغريزية ، وربما اضطروا الى حركة عنيفة فى هذه الحال ، أو يتوقعون قحط بعض السنين ، فيكثرون الحركة والاجتهاد فى ادخار الأشياء ، ويشتد غمهم بما سيحدث .

فجميع هذه الأشياء تحدث فى أبدان الناس المرض الوافد ، متى كان المتعرض لها خلق كثير فى بلد واحد ووقت واحد . وظاهر أنه اذا كثر فى وقت واحد المرضى بمدينة واحدة ، ارتفع من أبدانهم بخار كثير فيتغير مزاج الهواء ، فاذا صادف بدنا مستعدا أمرضه ، وان كان صاحبه لم يتعرض لما يتعرض اليه الناس .

فالأمراض الوافدة بمصر تحدث اما عن فساد لم تجر به العادة يعرض للهواء — سواء كان مادة فساده من أرض مصر ، أو من البلاد التى تجاورها كالسودان والحجاز والشام وبرقة — أو يعرض للنيل بأن تفرط زيادته فتكثر زيادة الرطوبة والعفن ، أو تقل زيادته جدا فيجف الهواء عن مقدار العادة ويضطر الناس الى شرب مياه رديئة ، أو يخالطه عفونة تحدث عن حرب يكون بأرض مصر أو بلاد السودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير ويرتفع بخار جيفهم فى الهواء فيعفنه ويتصل عفنه اليهم ، أو يسيل الماء ويحمل معه العفن ، أو يغلو السعر ، أو يلحق الغلات آفة ، أو يدخل على الكباش ونحوها مضرة ، أو يلحق الناس خوف عام أو قنوط ... وكل واحد من هذه الأسباب يحدث فى أرض مصر مرضا وافدا يكون قوته بمقدار قوة السبب المحدث له ، وان كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشد وأقوى وأسرع فى القتل .

قال : فمزاج أرض مصر حار رطب بالرطوبة الفضلية . وما قرب من الجنوب بأرض مصر كان أسخن وأقل عفنا فى ماء النيل * بما كان منها فى الشمال ، ولا سيما من كان فى شمال الفسطاط مثل أهل البشمور ، فان طباعهم أغلظ ، والبله عليهم أغلب ، وذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جدا ، ويشربون من الماء الردىء .

وأما اسكندرية وتنيس وأمثال هذه ، فقربها من البحر وسكون الحرارة والبرد

(*) ص٤٧ ، جـ١ ط. بولاق .

عنهم وظهور الصبا فيهم ، مما يصلح أمورهم ويرق طباعهم ويرفع هممهم ، ولا يعرض لهم ما يعرض لأهل البشمور من غلظ الطبع والجمادية . واحاطة البحر بمدينة تنيس ، توجب غلبة الرطوبة عليها ، وما يسر أخلاق أهلها .

قال : انه لما كانت أرض مصر وجميع ما فيها ، سخيفة الأجسام سريعا اليها التغير والتعفن ، وجب على الطبيب أن يختار من الأغذية والأدوية ما كان قريب العهد حديثا ، لأن قوته بعد باقية عليه لم تتغير كل التغير ، وأن يجعل علاجه ملايما لما عليه الأبدان بأرض مصر ، ويجتهد فى أن يجعل ذلك الى الجهة المضادة أميل قليلا ، ويتجنب الأدوية القوية الاسهال وكل ما له قوة مفرطة . وان نكاية هذه الأبدان سريعة ، سيما وأبدان المصريين سريعة الوقوع فى النكايات .

ويختار ما يكون من الأدوية المسهلة وغيرها ألين قوة ، حتى لا يكون على طبيعة المصريين منها كلفة ، ولايلحق أبدانهم مضرة ، ولا يقدم على الأدوية الموجودة فى كتب أطباء اليونانيين والفرس ، فان أكثرها عملت لأبدان قوية البنية عظيمة الأخلاط ، وهذه الأشياء قلما توجد بمصر ، فلذلك يجب على الطبيب أن يتوقف فى اعطاء هذه الأدوية للمرضى ، ويختار ألينها ، وينقص عن مقدار شرباتها ، ويبدل كثيرا منها بما تقوم مقامه ويكون ألين منه ، فيتخذ السكنجبين السكرى فى مقام العسلى ، والجلاب بدلا من ماء العسل .

واعلم أن هواء مصر يعمل فى المعجونات وسائر الأدوية ضعفا فى قوتها ، فأعمار الأدوية المفردة والمركبة — المعجون منها وغير المعجون — بمصر أقصر من أعمارها فى غير مصر ، فيحتاج الطبيب بمصر الى تقدير ذلك وتمييزه حتى لا يشتبه عليه شىء مما يحتاج اليه . واذا لم يكتف فى تنقية البدن بالدواء المسهل دفعة واحدة ، فلا بأس باعادته بعد أيام ، فان ذلك أحمد من ايراد الدواء الشديد القوة فى دفعة واحدة .

قال : ولكون أرض مصر تولد فى الأجسام سخافة وسرعة قبول للمرض ، وجب أن تكون الأبدان على الهيئة الفاضلة بأرض مصر قليلة جدا ، فأما الأبدان الباقية فكثيرة ، وأن تكون الصحة التامة عندهم على الأمر الأكثر فى القريبة من الهيئة الفاضلة .

والطريق الأولى التى تدبر بها الأبدان فى الهيئة الفاضلة يحتاج فيها بأرض مصر الى أن يدبر الهواء والغذاء والماء وسائر الأشياء تدبيرا يصير به فى غاية الاعتدال ، ولأن الهضم كثيرا ما يسوء بأرض مصر وكذلك الروح الحيوانى ، فيجب صرف العناية الى مراعاة أمر القلب والدماغ والكبد والمعدة والعروق وسائر الأعضاء الباطنة ، فى تجويد الهضم واصلاح أمر الروح الحيوانى وتنظيف الأوساخ الأحمة .

وقال فى شرح كتاب الأربع لبطليموس : وأما سائر أجزاء الربع الذى يميل الى وسط جميع الأرض المسكونة — أعنى بلاد برقة ، وسواحل البحر من مريوط الى الاسكندرية ورشيد ودمياط وتنيس والفرما ، وأسفل الأرض بمصر ، ونواحى مدينة منف ومدينة الفسطاط ، وما يلى شرقى النيل من صعيد

مصر والفيوم الى أعلى الصعيد مما فى غرب النيل ، وأرض الواحات وأرض النوبة والبجة ، والأرض التى على البحر فى شرقى بلاد النوبة والحبشة — فان هذه البلاد موضوعة فى الزاوية التى تؤثر فى جميع الربع الموضوع فيما بين الدبور والجنوب .

وهى من جملة النصف الغربى من الربع المعمور ، والكواكب الخمسة المتحيرة تشترك فى تدبيرها . فصار أهلها محبين لله ، ويعظمون الجن ، ويحبون النوح ، ويدفنون موتاهم فى الأرض ويخفونهم ، ويستعملون سننا مختلفة وعادات وآراء شتى ، لميلهم الى الأسرار التى تدعو كل طائفة منهم الى أمر من الأمور الخفية فيعتقده ويوافقه جماعة .

ومن أجل هذه الأسرار ، كان المستخرج للعلوم الدقيقة — كالهندسة والنجوم وغيرها — فى الزمان الأول ، أهل مصر ومنهم تفرقت فى العالم . واذا ساسهم غيرهم كانوا أذلاء ، والغالب عليهم الجبن والاستخذاء فى الكلام . واذا ساسوا غيرهم كانت أنفسهم طية وهممهم كثيرة .

ورجالهم يتخذون نساء كثيرة ، وكذلك نساؤهم يتخذن عدة رجال ، وهم منهمكون فى الجماع ، ورجالهم كثيرو النسل ، ونساؤهم سريعات الحبل ، وكثير من ذكرانهم تكون أنفسهم ضعيفة مؤنثة .

وقال أبو الصلت : وأما سكان أرض مصر فأخلاط من الناس مختلفو الأصناف والأجناس ، من قبط وروم وعرب وأكراد وديلم وحبشان وغير ذلك من الأصناف ، الا أن جمهورهم قبط .

قالوا : والسبب فى اختلاطهم تداول المالكين لها والمتغلبين عليها ، من العمالقة واليونانيين والروم وغيرهم ، فلهذا اختلطت أنسابهم ، واقتصروا من التعريف بأنفسهم على الاشارة الى مواضعهم والانتماء الى مساقطهم فيها .

وحكى أنهم كانوا فى الزمن السالف عباد أصنام ومدبرى هياكل * ، الى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر ، فتنصروا وبقوا على ذلك الى أن فتحها المسلمون ، فأسلم بعضهم ، وبقى بعضهم على دين النصرانية .

وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك فى اللذات ، والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات . ولهم خبرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية اليه ، لما فى أخلاقهم من الملق والبشاشة التى أربوا فيها على من تقدم وتأخر ، وخصوا بالافراط فيها دون جميع الأمم ، حتى صار أمرهم فى ذلك مشهورا ، والمثل بهم مضروبا .

وفى خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتى
ألا فخذوا من ناصح بنصيب

رماكم أمير المؤمنين بحية
أكول لحيات البلاد شروب

فان يك باق افك فرعون فيكم
فان عصا موسى بكف خصيب

(*) ص٤٨ ، جـ١ ، ط. بولاق .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : وقد مر لى قديما أن منطقة الجوزاء تسامت رؤوس أهل مصر ، فلذلك يتحدثون بالأشياء قبل كونها ، ويخبرون بما يكون ، وينذرون بالأمور المستقبلة ، ولهم فى هذا الباب أخبار مشهورة .

قال ابن الطوير : وقد ذكر استيلاء الفرنج على مدينة صور ، فعاد الحفظ والحراسة على مدينة عسقلان ، فما زالت محمية بالأبدال المجردة اليها من العساكر والأساطيل ، والدولة تضعف أولا فأولا باختلاف الآراء ، فثقلت على الأجناد ، وكبر أمرها عندهم ، واشتغلوا عنها ، فضايقها الفرنج حتى أخذوها فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . ولقد سمعت رجلا قبل ذلك بسنين يحدث بهذه الأمور ، ويقول : « فى سنة ثمان تؤخذ عسقلان بالأمان » .

ومن هذا الباب واقعة الكنائس التى للنصارى . وذلك أنه لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وسبعمائة ، والناس فى صلاة الجمعة ، كأنما نودى فى اقليم مصر كله — من قوص الى الاسكندرية — بهدم الكنائس ، فهدم فى تلك الساعة — بهذه المسافة الكبيرة — عدد كبير من الكنائس ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر كنائس النصارى .

ومن هذا الباب واقعة ألدمر . وذلك أنه خرج الأمير ألدمر — أمير جندار — يريد الحج من القاهرة فى سنة ثلاثين وسبعمائة ، وكانت فتنة بمكة قتل فيها ألدمر يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة ، فأشيع فى هذا اليوم بعينه فى القاهرة ومصر وقلعة الجبل ، بأن وقعة كانت بمكة قتل فيها ألدمر . فطار هذا الخبر فى ريف مصر واشتهر ، فلم يكترث الملك الناصر محمد بن قلاوون بهذا الخبر . فلما قدم المبشرون على العادة ، أخبروا بالواقعة وقتل الأمير سيف الدين ألدمر فى ذلك اليوم الذى كانت الاشاعة فيه بالقاهرة .

قال جامع السيرة الناصرية : كنت مع الأمير علم الدين الخازن فى الغربية — وقد خرج اليها كاشفا — فلما صليت أنا وهو صلاة الجمعة وعدنا الى البيت ، قدم بعض غلمانه من القاهرة فأخبرنا أنه أشيع بأن فتنة كانت بمكة قتل فيها جماعة من الأجناد ، وقتل فيها الأمير ألدمر أمير جندار .

فقال له الأمير علم الدين : هل حضر أحد من الحجاز بهذا الخبر ؟

قال : لا .

فقال : ويحك ، الناس ما تحضر من منى بمكة الا ثالث يوم بعد عيد النحر ، فكيف سمعتم هذا الخبر الذى لا يسمعه عاقل ؟

فقال : قد استفيض ذلك .

وكان الأمر كما أشيع .

ووقع لى فى شهر رمضان من شهور سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، أنى مررت فى الشارع بين القصرين بالقاهرة بعد العتمة ، فاذا العامة تتحدث بأن الملك الظاهر برقوق خرج من سجنه بالكرك واجتمع عليه الناس . فضبطت ذلك ، فكان اليوم الذى خرج فيه من السجن . وفى هذا الباب من هذا كثير .

ومن أخلاق أهل مصر قلة الغيرة . وكفاك ما قصه الله سبحانه وتعالى من خبر يوسف

عليه السلام ، ومراودة امرأة العزيز له عن نفسه ، وشهادة شاهد من أهلها عليها بما بين لزوجها منها السوء ، فلم يعاقبها على ذلك بسوى قوله « استغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين » .

وقال ابن عبد الحكم : وكان نساء أهل مصر — حين غرق من غرق منهم مع فرعون ولم يبق الا العبيد والأجراء — لم يصبرن عن الرجال ، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه ، وتتزوج الأخرى أجيرها . وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئا الا باذنهن ، فاجابوهن الى ذلك ، فكان أمر النساء على الرجال .

فحدثنى ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، أن نساء القبط على ذلك الى اليوم اتباعا لمن مضى منهم ، لا يبيع أحدهم ولا يشترى الا قال : أستأمر امرأتى .

وقال : ان فرعون لما غرق ومعه أشراف مصر ، لم يبق من الرجال من يصلح للملكة ، فعد الناس فى مراتبهم : بنت الملك ملكة ، وبنت الوزير وزيرة ، وبنت الوالى وبنت الحاكم على هذا الحكم ، وكذلك بنات القواد والأجناد .

فاستولت النساء على المملكة مدة سنين ، وتزوجن بالعبيد ، واشترطن عليهم أن الحكم والتصرف لهن ، فاستمر ذلك مدة من الزمان . ولهذا صارت ألوان أهل مصر سمرا من أجل أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق واستولدوهن (*) .

(*) ص٤٦ ، جـ١ ، ط. بولاق .

وأخبرنى الأمير الفاضل الثقة ناصر الدين محمد بن محمد بن الغرابيلى الكركى رحمه الله تعالى ، أنه منذ سكن مصر يجد من نفسه رياضة فى أخلاقه ، وترخصا لأهله ، ولينا ورقة طبع من قلة الغيرة .

ومما لم نزل نسمعه دائما بين الناس أن شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه .

ومن أخلاق أهل مصر الاعراض عن النظر فى العواقب ، فلا تجدهم يدخرون عندهم زادا كما هى عادة غيرهم من سكان البلدان ، بل يتناولون غذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشيا .

ومن أخلاقهم الانهماك فى الشهوات ، والامعان فى الملاذ ، وكثرة الاستهتار ، وعدم المبالاة ... قال لى شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب .

وقد روى عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها ، فقال : ان الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شىء لشىء . فقال العقل : أنا لاحق بالشام ، فقالت الفتنة : وأنا معك ! وقال الخصب : أنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك ! وقال الشقاء : أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة : وأنا معك !

ويقال : لما خلق الله الخلق خلق معهم عشرة أخلاق : الايمان والحياء والنجدة والفتنة والكبر والنفاق والغنى والفقر والذل والشقاء . فقال الايمان : أنا لاحق باليمن ، فقال الحياء : وأنا معك ! وقالت النجدة : أنا لاحقة بالشام ، فقالت الفتنة : وأنا معك !

وقال الكبر : أنا لاحق بالعراق ، فقال النفاق : وأنا معك ! وقال الغنى : أنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك ! وقال الفقر : أنا لاحق بالبادية ، فقال الشقاء : وأنا معك !

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : المكر عشرة أجزاء : تسعة منها فى القبط ، وواحد فى سائر الناس .

ويقال : أربعة لا تعرف فى أربعة : السخاء فى الروم ، والوفاء فى الترك ، والشجاعة فى القبط ، والغم فى الزنج .

ووصف ابن العربية أهل مصر فقال : عبيد لمن غلب ، أكيس الناس صغارا ، وأجهلهم كبارا .

وقال المسعودى : لما فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك ، كتب الى حكيم من حكماء العصر : انا لناس عرب قد فتح الله علينا البلاد ، ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن البلاد والأمصار ، فصف لى المدن وأهويتها ومساكنها ، وما تؤثره الترب والأهوية فى سكانها .

فكتب اليه : وأما أرض مصر فأرض قوراء غوراء ، ديار الفراعنة ومساكن الجبابرة ، ذمها أكثر من مدحها ، هواؤها كدر ، وحرها زائد ، وشرها مائد ، تكدر الألوان والفطن ، وتركب الاحن . وهى معدن الذهب والجوهر ومغارس الغلات ، غير أنها تسمن الأبدان وتسود الانسان ، وتنمو فيها الأعمار . وفى أهلها مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة . وهى بلدة مكسب ليست بلدة مسكن ، لترادف فتنها واتصال شرورها .

وقال عمر بن شبة : ذكر ابن عبيدة فى كتاب أخبار البصرة ، عن كعب الأحبار ، خير نساء على وجه الأرض نساء أهل البصرة ، الا ما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم من نساء قريش ، وشر نساء على وجه الأرض نساء أهل مصر .

وقال عبد الله بن عمر : لما أهبط ابليس ، وضع قدمه بالبصرة ، وفرخ بمصر .

وقال كعب الأحبار : ومصر أرض نجسة كالمرأة العاذل ، يطهرها النيل كل عام .

وقال معاوية بن أبى سفيان : وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف : فثلث ناس ، وثلث يشبه الناس ، وثلث لا ناس ، فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب ، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالى ، والثلث الذين لا ناس المسالمة ، يعنى القبط .

ذكر شىء من فضائل النيل

أخرج مسلم من حديث أنس رضى الله عنه فى حديث المعراج ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثم رفعت لى سدرة المنتهى ، فاذا نبقها مثل قلال هجر ، واذا ورقها مثل آذان الفيلة .

« قلت : ما هذا ياجبريل ؟

« قال : هذه سدرة المنتهى .

« واذا أربعة أنهار : نهران باطنان ، ونهران ظاهران .

« فقلت : ما هذا ياجبريل ؟

« قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات » .

وفى التوراة : وخلق فردوسا فى عدن ، وجعل الانسان فيه ، واخرج منه نهران فقسمها اربعة أجزاء : جيحون المحيط بأرض حويلا ، وسيحون المحيط بارض كوش وهو نيل مصر ، ودجلة الآخذ الى العراق ، والفرات .

وروى ابن عبد الحكم ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أنه قال : نيل مصر سيد الأنهار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب . فاذا أراد الله أن يجرى نيل مصر ، أمر كل نهر أن يمده ، فتمده الأنهار بمائها ، وفجر الله له الأرض عيونا فأجرته الى ما أراد الله عز وجل ، فاذا انتهت جريته أوحى الى كل ماء أن يرجع الى عنصره .

وعن يزيد بن أبى حبيب ، أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، سأل كعب الأحبار : هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله خبرا ؟

قال : اى والذى فلق البحر لموسى ، انى لأجده فى كتاب الله أن الله يوحى اليه فى كل عام مرتين : يوحى اليه عند جريته : ان الله يأمرك أن تجرى ، فيجرى ما كتب الله له ، ثم يوحى اليه بعد ذلك : يانيل ، عد حميدا .

وعن كعب الأحبار أنه قال : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله * فى الدنيا : النيل نهر العسل فى الجنة ، والفرات نهر الخمر فى الجنة ، وسيحان نهر الماء فى الجنة ، وجيحان نهر اللبن فى الجنة .

وقال المسعودى : نهر النيل من سادات الأنهار وأشراف البحار ، لأنه يخرج من الجنة على ما ورد به خبر الشريعة .

وقد قال : ان النيل اذا زاد غاضت له الأنهار والأعين والآبار ، واذا غاض زادت ... فزيادته من غيضها ، وغيضه من زيادتها . وليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا غير نيل مصر لكبره واستبحاره .

وقال ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث : وفى حديثه عليه السلام « نهران مؤمنان ونهران كافران ، أما المؤمنان فالنيل والفرات ، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ » ، انما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الأرض ، ويسقيان الحرث والشجر ، بلا تعب فى ذلك ولا مؤنة ، وجعل دجلة ونهر بلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ، ولا يسقيان الا شيئا قليلا ، وذلك القليل بتعب ومؤنة ... فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين ، وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين .

ذكر مخرج النيل وانبعاثه

اعلم أن البحر المحيط بالمعمور اذا خرج منه نهر الهند ، افترق قطعا كما تقدم ، وكان منه قطعة تسمى بحر الزنج ، وهى مما يلى بلاد اليمن وبحر بربر .

وفى هذه القطعة عدة جزائر منها جزيرة القمر (بضم القاف واسكان الميم وراء مهملة) . ويقال لهذه الجزيرة أيضا جزيرة ملاى ،

(*) ص٥٠ ، جـ١ ، ط.بولاق .

وطولها أربعة أشهر ، فى عرض عشرين يوما الى أقل من ذلك . وهذه الجزيرة تحاذى جزيرة سرنديب ، وفيها عدة بلاد كثيرة ، منها قمرية ، واليها ينسب الطائر القمرى .

ويقال ان بهذه الجزيرة خشبا ينحت من الخشبة ساق طوله ستون ذراعا يحذف على ظهره مائة وستون رجلا ، وان هذه الجزيرة ضاقت بأهلها ، فبنوا على الساحل محلات يسكنونها فى سفح جبل يعرف بهم يقال له جبل القمر .

واعلم أن الجبال كلها متشعبة من الجبل المستدير بغالب معمور الأرض ، وهو المسمى بجبل قاف ، وهو أم الجبال كلها ، تتشعب منه فيتصل فى موضع وينقطع فى آخر ، وهو كالدائرة لا يعرف له أول اذ كان كالحلقة المستديرة لا يعرف طرفاها ، وان لم يكن استدارة كرية ولكنها استدارة احاطة .

وزعم قوم أن أمهات الجبال جبلان : خرج أحدهما من البحر المحيط فى المغرب آخذا جنوبا ، وخرج الآخر من البحر الرومى آخذا شمالا ، حتى تلاقيا عند السد ، وسموا الجنوبى قاف ، وسموا الشمالى قاقونا . والأظهر أنه جبل واحد ومحيط بغالب بسيط المعمور ، وأنه هو الذى يسمى بجبل قاف ، فيعرف بذلك فى الجنوب ويعرف فى الشمال بجبل قاقونا .

ومبدأ هذا الجبل المحيط من كتف السد آخذا من وراء صنم الخط المشجوج الى شعبته الخارجة منه المعمول بها باب الصين آخذا على غربى صين الصين ، ثم ينعطف على جنوبه مستقيما فى نهاية الشرق على جانب البحر المحيط مع الفرجة المنفرجة بينه وبين البحر الهندى الداخلة ، ثم ينقطع عند مخرج البحر الهندى المحيط مع خط الاستواء ، حيث الطول مائة وسبعون درجة ، ثم يتصل من شعبة البحر الهندى الملاقى لشعبة المحيط الخارجة الى بحر الظلمات من الشرق بجنوب كثير من وراء مخرج البحر الهندى فى الجنوب .

وتبقى الظلمات من هاتين الشعبتين : شعبة المحيط الجائية على جنوب الظلمات شرقا مغربا ، ومخرج البحر الهندى الجائية على الظلمات ، حتى تتلاقى الشعبتان عند مخرج هذا الجبل كتفصيل السراويل ، ثم ينفرج برأس البحرين شعبتان على مبدأ هذا الجبل ، ويبقى الجبل بينهما كأنه خارج من نفس الماء .

ومبدأ هذا الجبل هنا وراء قبة أرين عن شرقيها ، وبعده منها خمس عشرة درجة . ويقال لهذا الجبل فى أوله المجرد ، ثم يمتد حتى ينتهى فى القسم الغربى الى طوله الى خمس وستين درجة من أول المغرب . وهناك يتشعب من الجبل المذكور جبل القمر ، وينصب منه النيل . وبه أحجار براقة كالفضة تتلألأ تسمى ضحكة الباهت ، كل من نظرها ضحك والتصق بها حتى يموت ، ويسمى مغناطيس الناس ، وتتشعب منه شعب يسمى أسيفى ، أهله كالوحوش ، ثم ينفرج منه فرجة ، ويمر منه شعب الى نهاية المغرب فى البحر المحيط يسمى جبل وحشية ، به سباع لها قرون طوال لا تطاق .

وينعطف دون تلك الفرجة من جبل قاف شعاب ، منها شعبتان الى خط الاستواء يكتنفان مجرى النيل من الشرق والغرب ، فالشرقى يعرف بجبل قاقول ، وينقطع عند خط الاستواء ، والغربى يعرف بادمرية يجرى عليه نيل السودان المسمى ببحر الدمادم ، وينقطع تلقاء مجالات الحبشة ما بين مدينة سغرة وحيمى وراء هذه الشعبة ، يمتد منه شعبة هى الأم من الموضع المعروف فيه الجبل بأسيفى المذكور الى خط الاستواء ، حيث الطول هناك عشرون درجة ، ويعرف هناك بجبل كرسقابة ، وبه وحوش ضارية .

ثم ينتهى الى البحر المحيط وينقطع دونه بفرجة ، وذلك وراء التكرور عند مدينة قلمتبورا . ووراء هذا الجبل سودان يقال لهم نمنم يأكلون الناس . ثم تتصل الأم من ساحل * البحر الشامى فى شماله شرقى رومية الكبرى مسامتا للشعبة المسماة أدمدمة المنقطعة بين سغرة وحيمى ، لا يكاد يخطوها حيث الطول خمس وثلاثون درجة . ويقع منشأ اتصال هذه الأم على عرض خمسين درجة ، وكذلك تقع شعبها الآخذة فى الجنوب على عرض خمسين درجة عند آخرها ، ما بين سردالة وبلنسية .

وتتناهى وصلة هذه الأم الى البحر المحيط فى نهاية الشمال قبالة جزيرة بركانية ، وتبقى سوسية داخل الجبل . ثم تمد هذه الأم بعد انقطاع لطيف ، ويعطف انعطاف خرجة البحر المحيط فى المغرب على الصقلب المسماة ببحر الانقلشين ممتدا الى غاية المشرق ، ويسمى هناك بجبل قاقونا ، ويبقى وراءه البحر جامدا لشدة البرد ، ثم ينعطف من الشمال الى المشرق جنوبا بتغريب الى كتف السد الشمالى ، فيتلاقى هناك الطرفان ، وبينهما فى الفرجة المنفرجة سوّى ذو القرنين بين الصدفين .

وفى جزيرة القمر ثلاثة أنهار : أحدها فى شرقيها من قنطورا ومعلا ، وثانيها فى غربيها ينصب من جبل قدم آدم على مدينة سبأ ، ويأخذ مارا على مدينة فردرا ، ويتبحر هناك بحيرة فى جنوبها مدينة كيما حيث محل السودان الذين يأكلون الناس ، وثالثها فى غربيها أيضا . ويخرج من الجبل المشبه ماء محدودب الذيل ، يطوف بمدينة دهما ، فتبقى مدينة دهما فى جزيرة بينهما يكون هو محيطا بها شرقا وجنوبا وغربا ، ويصير لذلك كالجزيرة ، ويتصل شمالها بالبحر الهندى ، وتقع مدينة قواره فى غربيه حيث يصب فى البحر الهندى .

ومن جبل القمر يخرج نهر النيل ، وقد كان يتبدد على وجه الأرض ، فلما قدم نقراوش الجبار بن مصرايم الأول بن مركابيل ابن دوابيل بن عرباب بن آدم عليه السلام الى أرض مصر ومعه عدة من بنى عرباب ، واستوطنوها ، وبنوا بها مدينة أمسوس وغيرها من المدائن ، حفروا النيل حتى أجروا ماءه اليهم .

ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى ، بل ينبطح ويتفرق فى الأرض ، حتى وجه الى النوبة الملك نقراوش فهندسوه ، وساقوا منه أنهارا الى مواضع كثيرة من مدنهم التى

(*) ص ٥١ جـ ١ ، ط . بولاق .

بنوها ، وساقوا منه نهرا الى مدينة أمسوس . ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان — كانت أيام البودشير بن قفط بن مصر بن مصر بن حام بن نوح عليه السلام - عدل جانبى النيل تعديلا ثانيا بعد ما أتلفه الطوفان

قال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه : فملك البودشير وتجبر ، وهو أول من تكهن وعمل بالسحر واحتجب عن العيون . وقد كانت أعمامه أشمن وأتريب وصا ملوكا على أحيازهم ، الا أنه قهرهم بجبروته وقوته فكان الذكر له ، كما تجبر أبوه على من قبله لأنه كان أكبرهم . ولذلك أغضوا عنه .

فيقال انه أرسل هرمس الكاهن المصرى الى جبل القمر الذى يخرج النيل من تحته حتى عمل هناك التماثيل النحاس ، وعدل البطيحة التى ينصب فيها ماء النيل .

ويقال انه الذى عدل جانبى النيل ، وقد كان يفيض ، وربما انقطع فى مواضع .

وهذا القصر الذى فيه تماثيل النحاس يشتمل على خمس وثمانين صورة ، جعلها هرمس جامعة لما يخرج من ماء النيل بمعاقد ومصاب مدورة ، وقنوات يجرى فيها الماء ، وينصب اليها اذا خرج من تحت جبل القمر ، حتى يدخل من تلك الصور ويخرج من حلوقها وجعل لها قياسا معلوما بمقاطع وأذرع مقدرة ، وجعل ما يخرج من هذه الصور من الماء ينصب الى الأنهار ، ثم يصير منها الى بطيحتين ، ويخرج منهما حتى ينتهى الى البطيحة الجامعة للماء الذى يخرج من تحت الجبل .

وعمل لتلك الصور مقادير من الماء الذى يكون معه الصلاح بأرض مصر وينتفع به أهلها دون الفساد ، وذلك الانتهاء المصلح ثمانية عشر ذراعا بالذراع الذى مقداره اثنان وثلاثون أصبعا ، وما فضل عن ذلك عدل عن يمين تلك الصور وشمالها الى مسارب يخرج ويصب فى رمال وغياض لا ينتفع بها من خلف خط الاستواء ، ولولا ذلك لغرق ماء النيل البلدان التى يمر عليها .

قال : وكان الوليد بن دومع العمليقى قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها ، فلما صار الى الشام انتهى اليه خبر مصر وعظم قدرها ، وأن أمرها قد صار الى النساء وباد ملوكها ، فوجه غلاما له يقال له عون الى مصر ، وسار اليها بعده واستباح أهلها ، وأخذ الأموال ، وقتل جماعة من كهنتها .

ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل فيعرف ما بحافتيه من الأمم ، فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه ، وخرج فى جيش عظيم ، فلم يمر بأمة الا أبادها ، ومر على أمم السودان وجاوزهم ، ومر على أرض الذهب فرأى فيها قضبانا نابتة من ذهب .

ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة التى ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القمر ، وسار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر ، وهو جبل عال ، وانما سمى جبل القمر لأن القمر لا يطلع عليه لأنه خارج من تحت خط الاستواء .

ونظر الى النيل يخرج من تحته فيمر فى طرايق وأنهار دقاق حتى ينتهى الى حظيرتين ، ثم يخرج منهما فى نهرين حتى ينتهى الى حظيرة أخرى ، فاذا جاوز خط الاستواء مدته * عين تخرج من ناحية نهر مهران بالهند ، وتلك العين أيضا تخرج من تحت جبل القمر الى ذلك الوجه .

ويقال ان نهر مهران مثل النيل يزيد وينقص ، وفيه التماسيح والأسماك التى مثل أسماك النيل . ووجد الوليد بن دومع القصر الذى فيه التماثيل النحاس التى عملها هرمس الأول فى وقت البودشير بن قفطريم بن قبطيم ابن مصرايم .

وقد ذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب التى من وراء البحر المظلم ، وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل ، وأن تلك الأرض من أرض الجنة ، وأن تلك القبة من زبرجد ، وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور .

وممن جاء بهذا رجل من ولد العيص بن اسحاق بن ابراهيم عليهما السلام ، وصل الى تلك القبة ، وقطع البحر المظلم ، وكان يقال له حايد .

وقال آخرون : تنقسم هذه الأنهار على اثنين وسبعين قسما حذاء اثنين وسبعين لسانا للأمم .

وقال آخرون : هذه الأنهار من ثلوج تتكاثف ، ويذيبها الحر فتسيل الى هذه الأنهار ، وتسقى من عليها ، لما يريد الله عز وجل من تدبير خلقه .

قالوا : ولما بلغ الوليد جبل القمر ، رأى جبلا عاليا فعمل حيلة الى أن صعد اليه ليرى ما خلفه ، فأشرف على البحر الأسود الزفتى المنتن ، ونظر الى النيل يجرى عليه كالأنهار الدقاق ، فأتته من ذلك البحر روائح منتنة هلك كثير من أصحابه من أجلها ، فأسرع النزول بعد أن كاد يهلك .

وذكر قوم أنهم لم يروا هناك شمسا ولا قمرا ، الا نورا أحمر كنور الشمس عند غيابها .

وأما ما ذكر عن حايد وقطعه البحر المظلم ماشيا عليه لا يلصق بقدمه منه شيء — وكان [1] فيما يذكر نبيا ، وأوتى حكمة ، وأنه سأل الله تعالى أن يريه منتهى النيل فأعطاه قوة على ذلك — فيقال انه أقام يمشى عليه ثلاثين سنة فى عمران ، وعشرين سنة فى خراب .

قالوا : وأقام الوليد فى غيبته أربعين سنة ، وعاد ودخل منف ، وأقام بمصر فاستعبد أهلها ، واستباح حريمهم وأموالهم ، وملكهم مائة وعشرين سنة ، فأبغضوه وسئموه ، الى أن ركب فى بعض أيامه متصيدا ، فألقاه فرسه فى وهدة فقتله ، واستراح الناس منه .

وقال قدامة بن جعفر فى كتاب «الخراج» : انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار ، كل خمسة منها تصب الى بطيحة ، ثم يخرج من

(*) ص٥٢ ، جـ١ ، ط. بولاق .

(١) لعله « فانه كان فيما يذكر ... » الخ ، ليكون جوابا لأما .

كل بطيحة نهران ، وتجرى الأنهار الأربعة الى بطيحة كبيرة فى الاقليم الأول ، ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل .

وقال فى كتاب « نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق » : ان هذه البحيرة تسمى بحيرة كورى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها متوحشين يأكلون من وقع اليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج لهم نهر غانة وبحر الحبشة ، فاذا خرج النيل منها يشق بلاد كورى وبلاد ينه ، وهم طائفة من السودان بين كانم والنوبة . فاذا بلغ دنقلة — مدينة النوبة — عطف من غربيها وانحدر الى الاقليم الثانى ، فيكون على شطيه عمارة النوبة ، وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى ، ثم تشرق الى الجنادل .

وقال المسعودى رحمه الله تعالى : رأيت فى كتاب جغرافيا النيل مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر ، ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتى عشرة عينا ، فتصب تلك المياه الى بحيرتين هنالك كالبطائح ، ثم يجتمع الماء منهما جاريا فيمر برمال هنالك وجبال ، ويخرق أرض السودان فيما يلى بلاد الزنج ، فيتشعب منه خليج يصب فى بحر الزنج ويجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ — وقيل ألف فرسخ — فى عامر وغامر من عمران وخراب ، حتى يأتى أسوان من صعيد مصر .

وقال فى كتاب هردسوس : نهر النيل مخرجه من ريف بحر القلزم ، ثم يميل الى ناحية الغرب ، فيصير فى وسطه جزيرة ، وآخر ذلك يميل الى ناحية الشمال فيسقى أرض مصر . وقيل ان مخرجه من عين فيما يجاوز الجبل ، ثم يغيب فى الرمال ، ثم يخرج غير بعيد فيصير له محبس عظيم ، ثم يساير البحر المحيط على قفار الحبشة ، ثم يميل على اليسار الى أرض مصر ... فيحق ما يظن بهذا النهر أنه عظيم ، اذ كان مجراه على ما حكيناه .

قال : ونهر النيل — وهو الذى يسمى بأون — مخرجه خفى ، ولكن ظاهر اقباله من أرض الحبشة ، ويصير له هناك محبس عظيم مجراه اليه مائتا ميل .

وذكر مخرجه حتى ينتهى الى البحر .

قال : وكثيرا ما يوجد فى نهر النيل التماسيح . واقبال النيل من أرض الحبشة ليس يختلف فيه أحد ، وعدة أمياله من مخرجه المعروف الى موقعه مائة ألف وتسعون ألفا وتسعمائة وثلاثون ميلا . وماء النيل عكر مرمل عذب وفى . انتهى .

والنيل اذا وصل الى الجنادل كان عنده انتهاء مراكب النوبة انحدارا ، ومراكب الصعيد اقلاعا . وهناك حجارة مضرسة لا مرور للمراكب عليها الا فى أيام زيادة النيل ، ثم يأخذ على الشمال فيكون على شرقيه أسوان من الصعيد الأعلى ، ويمر بين جبلين يكتنفان أعمال مصر : أحدهما شرقى ، والآخر غربى ، حتى يأتى مدينة فسطاط مصر فتكون فى بره الشرقى . فاذا تجاوز فسطاط مصر بمسافة يوم ، صار فرقتين : فرقة تمر * حتى تصب فى بحر الروم عند دمياط ، وتسمى هذه الفرقة بحر الشرق ، والفرقة الأخرى هى عمود النيل ومعظمه ، يقال لها بحر الغرب ،

(*) ص٥٣ ، جـ١ ، ط. بولاق .

تمر حتى تصب فى بحر الروم أيضا عند رشيد ، وكانت مدينة كبيرة فى قديم الزمان .

ويقال ان مسافة النيل من منبعه الى أن يصب فى البحر عند رشيد سبعمائة وثمانية وأربعون فرسخا ، وانه يجرى فى الخراب أربعة أشهر ، وفى بلاد السودان شهرين ، وفى بلاد الاسلام مسافة شهر .

وذهب بعضهم الى أن زيادة ماء النيل انما تكون بسبب المد الذى يكون فى البحر ، فاذا فاض ماؤه تراجع النيل وفاض على الأراضى ، ووضع فى ذلك كتابا حاصله أن حركة البحر — التى يقال لها المد والجزر — توجد فى كل يوم وليلة مرتين ، وفى كل شهر قمرى مرتين ، وفى كل سنة مرتين .

فالمد والجزر اليومى تابع لقرص القمر ، ويخرج الشعاع عنه من جنبتى جرم الماء .. فاذا كان القمر وسط السماء كان البحر فى غاية المد ، وكذا اذا كان القمر فى وتد الأرض ، فاذا بزغ القمر طالعا من الشرق أو غرب ، كان الجزر .

والمد الشهرى يكون عند استقبال القمر للشمس فى نصف الشهر ، ويقال له الامتلاء أيضا عند الاجتماع ، ويقال له السرار .

والجزر يكون أيضا فى وقتين : عند تربيع القمر للشمس فى سابع الشهر ، وفى ثانى عشريه .

والمد السنوى يكون أيضا فى وقتين : أحدهما عند حلول الشمس آخر برج السنبلة ، والآخر عند حلول الشمس بآخر برج الحوت .

فان اتفق أن يكون ذلك فى وقت الامتلاء أو الاجتماع ، فانه حينئذ يجتمع الامتلاءان الشهرى والسنوى ، ويكون عند ذلك البحر فى غاية الفيض ، لا سيما ان وقع الاجتماع أو الامتلاء فى وسط السماء ، ووقع مع النيرين أو مع أحدهما أحد الكواكب السيارة ، فانه يعظم الفيض .

فان وقع كوكب فصاعدا مع أحد النيرين تزايد عظم الفيض ، وكانت زيادة النيل تلك السنة عظيمة جدا ، وزاد أيضا نهر مهران .

فان كان الاجتماع أو الامتلاء زائلا عن وسط السماء ، وليس مع أحد النيرين كوكب ، فان النيل ونهر مهران لا يبلغان غاية زيادتهما لعدم الأنوار التى تثير المياه ، ويكون بمصر فى السنة الغلاء .

والجزر السنوى يكون عند حلول الشمس برأسى الجدى والسرطان .

فأما المد اليومى الدافع من البحر المحيط ، فانه لا ينتهى فى البحر الخارج من المحيط أكثر من درجة واحدة فلكية ، ومساحتها من الأرض نحو من ستين ميلا ثم ينصرف ، وانصرافه هو الجزر . وكذلك الأودية اذا كانت الأرض وهدة .

والمد الشهرى ينتهى الى أقاصى البحار ، وهو يمسكها حتى لاتنصب فى البحر المحيط ، وحيث ينتهى المد الشهرى فهناك منتهى ذلك البحر وطرفه .

وأما المد السنوى فانه يزيد فى البحار الخارجة عن البحر المحيط زيادة بينة ، ومن هذه الزيادة تكون زيادة النيل وامتلاؤه

وامتلاء نهر مهران والديتلو الذى ببلاد السند .

قال : ولما جاء أرسطو الى مصر مع الاسكندر ، ورأى مصب النيل ، وعلم أن من المحال أن يكون النيل فى أسوان واديا من الأودية ، وكلما أسحل اتسع حتى ان عرضه فى أسفل ديار مصر لينتهى الى مائة ميل عند غاية الفيض ، وله أفواه كثيرة شارعة فى البحر تسع كل مايهبط من الميزان فى ذلك الصنع ... فرأى محالا أن يكون الوادى بحيث يضيق أسفله عن حمل ما يأتى به أعلاه ، مع ضيق أعلاه وسعة أسفله .

فلما رأى ذلك قال : ان رياحا تستقبل جرية الماء وتردعه فيفيض لذلك .

وقال الاسكندر : ان من المحال أن يكون الريح يردع الماء السائل فى الوادى حتى يفيض أكثر من مائة ميل ، ولو كانت الريح تفعل ذلك لكان الماء ينفلت من أسفل الوادى ويسيل الى البحر ، لأن البحر لا يمسك الا أعلاه ، ولكن الرياح تقذف الرمل فى أفواه تلك الشوارع التى تفضى الى البحر ، فيعتريها شبه الردم ، فيفيض .

قال : وأغفل أن الرمل جسم متخلخل فالماء يتخلله وينفذه سائلا الى البحر ، مع أن الرمل لم يعتل اعتلاء يظهر للحس ، والماء سائل فى كل حين على حلق تنيس ودمياط وحلق رشيد وحلق الاسكندرية ، ففطنوا لاستحالة كونه سائلا عن سيل حامل ، ونسبوا توقفه الى الريح والرمل . وهم استقصوا الهواء واستقصوا الأرض ، وأغفلوا الاستقصاء الثالث الذى هو الماء ، لأنهم لم يعرفوا حركة البحر السنوية لأنها لا تبلغ الغاية الا فى ثلاثة أشهر ، فلا يظهر مقدار صعودها فى كل يوم للحس ، ولذلك وضع أمير مصر المقياس بديار مصر .

قال : والمد كله واحد ، وهو أن القمر يقابل الماء كما تقابل الشمس الأرض . فنور القمر اذا قابل كرة الأرض سخنها ، كما تسخن الشمس الهواء المحيط ، فيعترى الهواء المحيط بالماء بعض تسخين يذيب الماء ، فيفيض وينمى بخاصته ، كالمرآة المحرقة الملهبة للجو حتى تحرق القطنة الموضوعة بين المرآة والشمس ... فهذا مثاله فى المقابلة .

ومثاله فى السرار كون الزجاجة المملوءة ماء يلقى الشعاع الى حلقها فتحترق القطنة أيضا ، فالقمر جسم نورى باكتسابه ذلك من الشمس ، فاذا حال بين الشمس والأرض خرج عن جانبى الماء شعاع نافذ يمر مع جيبى الماء فيسخن ماقابله فينمو ، والماء جسم شفاف عن جانبيه * يخرج الشعاع كما يخرج عن جانبى الزجاجة ، فيحدث لها نور يسخن الهواء الذى يحيط بالزجاجة أو بالأرض ، فيعترى الماء شبه تسخين ينمى به ويزيد ، وذلك قبالة القرص ، وقبالة مخرج الشعاع من قبالة وتد القمر . فهذا هو المد دائما ، ويستديره باستدارة الفلك ، وتدويره لفلك القمر ، وتدوير فلك القمر للقمر .

والمد الشهرى هو أن يقابل القمر الشمس أو يستتر تحتها ، لأنه ليس الا كون القمر قبالة الشمس ، لكونه فى تربيع الشمس

(*) ص٥٤ جـ١ ، ط.بولاق .

أضعف ، وفى المقابلة أقوى . وكذلك اذا قابلها على وسط كرة الأرض ، بحيث تكون الحركة أشد ، والاكتاف للماء والأرض أعم ، فذلك هو المد السنوى .

فصل فى الرد على من اعتقد ان النيل من سيل يفيض

أما العامة فليس عندهم ما يجىء على وجه الأرض أنه سيل ، ومن تفطن الى عظمه واتساعه فى أسفله وضيقه فى أعلاه ، ولم ينظر الى ماء ولا أرض ولا هواء ، نسب ذلك الى الخيال المحض ، كما فعل صاحب كتاب «المسالك والممالك» الذى زعم أن الماء يسافر من كل أرض وموطن الى النيل تحت الأرض فيمده ، لأن النيل انما يفيض فى الخريف ، والعيون والآبار فى ذلك الوقت يقل ماؤها ، والنيل يكثر ، فرأوا كثرة وقلة فأضافوا أحدهما الى الآخر بالخيال .

ومما يدلك على أنه ليس عن سيل يفيض أن السيل يكون فى غير وقت فيض البحر ، ولا يفيض النيل لكون البحر فى الجزر ، فيصل السيل ويمر نحو البحر فلا يردعه رادع .

ومنها أن فيض النيل على تدريج مدة ثلاثة أشهر من حلول الشمس رأس السرطان الى حلولها بآخر برج السنبلة . والناس يحسبون به قبل فيضه بمدة شهرين . ولعامل مصر فى وسط النيل مقياس موضوع ، وهو سارية فيها خطوط يسمونها أذرعا يعلم بها مقدار صعوده فى كل يوم .

ومنها أن فيضه أبدا فى وقت واحد ، فلو كان بالسيل لاختلف بعض الاختلاف .

ومنها أنه قد يجىء السيل فى غير هذا الوقت فلا يفيض .

ومنها أن الحذاق بمصر اذا رأوا الحر يزيد ، علموا أن النيل سيزيد ، لأن شدة الحر تذيب الهواء فيذوب الماء ، ولا يكون الا عن زيادة كوكب ودنو نور .

ومنها أن موضع مصبه من أسوان انما هو واد من الأودية ، وما أسحل اتسع حتى يكون عرض اتساعه نحوا من مائة ميل ، وأسوان هو منتهى بلوغ الردع ، فما ظنك بسيل مسيره نصف شهر ، لا نسبة بين مصب أعلاه وأسفله ، كيف كان يكون أعلاه لو كان امتلاء أسفله عن السيل ؟

ومنها أن أهل أسوان انما يرقبون بلوغ الردع اليهم مراقبة ، ويحافظون عليه بالنهار محافظة ، فاذا جن الليل أخذوا حقة خزف فوضعوا فيها مصباحا ، ثم يضعونه على حجر معد عندهم لذلك وجعلوا يرقبونه ، فاذا أطفىء المصباح بطفو الماء عليه ، علموا أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم بأخذه فى الجزر ، فيكتبون بذلك الى أمير مصر يعلمونه أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم ، وأنهم قد أخذوا بقسطهم من الشرب . فحينئذ يأمر بكسر الأسداد التى على أفواه قرص المشارب ، فيفيض الماء على أرض مصر دفعة واحدة .

ومنها أن جميع تلك المشارب تسد عند ابتداء النيل بالخشب والتراب ، ليجتمع ما

يسيل من الماء العذب فى النيل ، ويكثر ويعم جميع أرضهم ، ويمنع بجملته دخول الماء الملح عليه . فلو كان سيلا ما احتاج الى ذلك ، ولفتحت له أفواه قرص المشارب عند ابتداء ظهوره .

ومنها أن الخلجان اذا سدت ولم يكن لها وادع من البحر ، كان السيل من جنبه الى البحر ، اذ أسفل النيل أوسع وأخفض من أعلاه .

ومنها أن ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى حلق رشيد وتنيس ودمياط ، كما يفعل فى سائر الأودية التى تدخل المد والجزر ، فلو كان النيل خاليا من الماء العذب ، وصل البحر من أسوان الى منتهى بلوغ لردع ، لأن الماء يطلب بطبعه ما انخفض من الأرض ، وأن يكون فى صفحة كرة مستوية الخطوط الخارجة من النقطة الى المحيط متساوية .

ومنها أنها اذا فتحت تلك الأسداد ، وكسر الخلج ، وفاض النيل على بطائح أرض مصر ، شعر بذلك أهل أسوان للحين ، وقالوا : فى هذه الساعة كسرت الخلج وفاض ماء النيل على أرض مصر ، لأن ذلك يتبين لهم بتحول الماء دفعة . فلو كان سيلا ، وهم على أعلى المصب ، لقالوا : قد ارتفع المطر عن الأرض التى يسيل منها السيل .

ومنها أن قسيمه الذى يمر ببلاد الحبشة ، المنبعث واياه من جبل القمر ، لا يفيض كمدة فيض النيل ثلاثة أشهر ، ولا يقيم على وجه الأرض مدة مقامه ، لكنه اذا كثر فيه السيل غمر جوانبه على قدر انبساطها ، واذا نضبت مادته أردع عليه ، فلو كان فيض النيل عن السيل ، وهما من شعب واحد ، لكان شأنهما واحدا .

ولا تقول ان فيض النيل بسبب فيض البحر فقط ، اذ لولا كونه سيل ماء لما دخل ردع البحر اليه ، ولكان شاطىء ديار مصر كسائر السواحل المجاورة له ، ولولا السيل السائل فيه لردمه البحر ، اذ عادة البحر ردم السواحل .

وانما دخل * الشك على أهل مصر فى أيام النيل لأنهم لم يشاهدوا منشأه ، ولا عاينوا مبدأه من جبل القمر ، لأنه فى موضع لا ساكن عليه ، ولا تحققوا المد السنوى الرادع له ، فلم يتحققوا شيئا من أمره لأنه بعيد من أذهان العامة أن يعلموا أن ماء البحر يعظم فى أيام الصيف ، لأن المعهود عندهم فى البحر أن يعظم فى أيام الشتاء . وطمو البحر فى الشتاء انما يكون عن الرياح الهابة عليه من أحد جانبيه ، فيفيض ويخرج الى الجانب الآخر ، الا ما كان من البحر المحيط ، فانه يتحرك أبدا من داخل البحر الى البر ، وهو أن المحيط يطلب بطبعه أن يكون على وجه الأرض ، والأرض ليست بسيطة فهى تمانعه بما فيها من التركيب ، فهو يطلب أبدا أن يعلوها ويركبها بيردها .

قال : والسبب فى عظم المد والجزر كثرة الأشعة ، فاذا زاحمت الشمس والقمر الكواكب السيارة ، عظم فيض البحر ، واذا عظم فيض البحر فاضت الأنهار ، وكذلك اذا نهض القمر لمقابلة أحد السيارة ارتفع البخار ،

(*) ص٥٥ جـ١ ، ط. بولاق .

وصعد الى كورة الزمهرير ، ونزل المطر . فاذا فارق القمر الكواكب ارتفع المطر لكثرة التحليل ، كما يكون فى نصف النهار عند توسط الشمس لرؤوس الخلق ، وكما يكون عند حلول الكواكب الكبيرة على وسط خط أرين .. والله تعالى أعلم بالصواب .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : الذى تحصل من هذا القول أن النيل مخرجه من جبل القمر ، وأن زيادته انما هى من فيض البحر عند المد .

فأما كون مخرجه من جبل القمر فسلم اذ لا نزاع فى ذلك . وأما كون زيادته لا تكون الا من ردع البحر له ، بما حصل فيه من المد ، فليس كذلك . نعم توالى هبوب الرياح الشمالية على وفور الزيادة وردع البحر له اعانة على الزيادة .

ومن تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه ولابد ، فانه لا يزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ماؤه صافيا من الكدرة ، فاذا فرغت أيام زيادته وكان فى غاية نقصه تغير طعمه ، ومال لونه الى الخضرة ، وصار بحيث اذا وضع فى اناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب . وسبب ذلك أن البطيحة التى فى أعالى الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش حتى يتغير ماؤها ، فاذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف ، وعظمت السيول الهابطة فى هذه البطيحة ، فاض منها ما تغير من الماء ، وجرى الى أرض مصر ، فيقال عند ذلك توحم النيل .

ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ، ويزاد عكره بزيادة الماء ، فاذا وضع منه أيام الزيادة شىء فى اناء رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة ، وهذا الطين هو الذى تحمله السيول التى تنصب فى النيل حتى تكون زيادته منها ، وفيه يكون الزرع بعد هبوط النيل ، والا فأرض مصر سبخة لا تنبت ولا ينبت منها الا ما مر عليه ماء النيل ، وركد منه هذا الطين .

وقوله « ان السيل يكون فى غير وقت فيض البحر ، ولا يفيض النيل لكون البحر فى الجزر ، فيصل السيل ويمر نحو البحر فلا يردعه رادع » غير مسلم ، وان العادة أن السيول التى عليها زيادة ماء النيل لا تكون الا عن غزارة الأمطار ببلاد الجنوب ، وأمطار الجنوب لا تكون الا فى أيام الصيف ، ولم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء .

وأول دليل على أن كون زيادته عن سيل يسيل فيه انما يزيد بتدريج على قدر ما يهبط فيه من السيول .

وأما استدلاله بصب النيل فى أسوان واتساعه أسفل الأرض ، فانما ذلك لأنه يصب من علو فى منخرق بين جبلين ، يقال لهما الجنادل ، وينبطح فى الأرض حتى يصب فى البحر ... فاتساعه حيث لا يجد حاجزا يحجزه عن الانبساط .

وأما قوله «ان الأسداد اذا كثرت فاض الماء على الأرض دفعة » فليس كذلك ، بل يصير الماء عند كسر كل سد من الأسداد فى خليج ، ثم يفتح ترع من الخليج الى الخليج الى ما على جانبيه من الأراضى حتى يروى . فمن تلك الأراضى ما يروى سريعا ، ومنها ما يروى بعد أيام ، ومنها ما لا يروى لعلوه .

وأما قوله « ان جميع تلك المشارب تستد عند ابتداء صعود النيل ، يجتمع ما يسيل من الماء فى النيل ويكثر ، فيعم جميع أرضهم ، ويمنع بجملته دخول الماء الملح عليه » فغير مسلم أن تكون السداد كما ذكر ، بل أراضى مصر أقسام كثيرة : منها عال لا يصل اليه الماء الا من زيادة كثيرة ، ومنها منخفض يروى من يسير الزيادة . والأراضى متفاوتة فى الارتفاع والانخفاض تفاوتا كثيرا ، ولذلك احتيج فى بلاد الصعيد الى حفر الترع ، وفى أسفل الأرض الى عمل الجسور حتى يحبس الماء ليروى أهل النواحى على قدر حاجتهم اليه عند الاحتياج ، والا فهو يزيد أولا فى غير سقى الأراضى ، حتى اذا اجتمع من زيادته المقدار الذى هو كفاية الأراضى فى وقت خلو الأراضى من الغلال — وذلك غالبا فى أثناء شهر مسرى — فتح سد الخليج حتى يجرى فيه الماء الى حد معلوم ، ووقف حتى يروى ما تحت ذلك الحد الذى وقف عنده الماء من الأرض ، ثم فتح ذلك الحد فى يوم النيروز حتى يجرى الى حد آخر ، ويقف عنده حتى يروى ما تحت هذا الحد الثانى من الأراضى ، ثم يفتح هذا الحد فى يوم عيد الصليب بعد النوروز بسبعة عشر يوما حتى يجرى الماء ، ويقف على حد ثالث حتى يروى ما تحت هذا الحد من الأراضى * ، ثم يفتح هذا الحد فيجرى الماء ويروى ما هنالك من الأراضى ، ويصب فى البحر الملح ... هذا هو الحال فى سدود أراضى مصر .

(*) مرآة جـ١ ، ط.بولاق .

وقوله « ان ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى حلق رشيد وتنيس ودمياط ، فلو كان خاليا من الماء العذب لوصل البحر من أسوان الى منتهى بلوغ الردع » ، فنقول هذا قول من لم يعرف أرض مصر ، فان النيل [illegible] مصبه بأعالى أسوان يكون أعلى منه [illegible] كونه [illegible] مقامات عديدة ، فاذا فاض [illegible] حبسه أن يتدافع هو [illegible] النيل . [illegible] البحر ماء النيل فى أيام نقصان النيل حتى يملح ماء النيل فيما بين دمياط وفارس كور . وأما فى أيام زيادة النيل فانى شاهدت مصب النيل فى البحر من دمياط ، وكل منهما يدافع الآخر فلا يطيقه ، حتى صارا متمانعين ... عبرة لمن اعتبر !

قوله « ان الأسداد اذا فتحت علم أهل أسوان بذلك فى الحال » غير مسلم ، بل لم نزل نشاهد النيل فى الأعوام الكثيرة اذا فتح منه خليج أو انقطع مقطع فأغرق ماؤه أراضى كثيرة ، لا يظهر النقص فيه الا فيما قرب من ذلك الموضع ، وما برح المفرد يخرج من قوص ببشارة وفاء النيل ، وقد أوفى عندهم ستة عشر ذراعا ، فلا يوفى ذلك المقياس بمصر الا بعد ثلاثة أيام ونحوها .

وأما قوله « ان ما كان من النيل يمر ببلاد الحبشة بخالفه » فليس كذلك ، بل الزيادة فى النيل أيام زيادته تكون ببلاد النوبة وماوراءها فى الجنوب كما تكون فى أرض مصر ، ولا فرق بينهما الا فى شيئين : أحدهما أنه فى أرض مصر يجرى فى حدود ، وهناك يتبدد على الأراضى . والثانى أن زيادته تعتبر بالقياس

فى أرض مصر وهناك لا يمكن قياسه لتبدده . ومن عرف أخبار مصر علم أن زيادة ماء النيل تكون عن أمطار الجنوب .

ويقال : ان النيل ينصب من عشرة أنهار من جبل القمر المتقدم ذكره ، كل خمسة أنهار من شعبة ، ثم تتبحر تلك الأنهار العشرة فى بحرين ، كل خمسة أنهار تتبحر بحيرة بذاتها ، ثم يخرج من البحيرة الشرقية بحر لطف يأخذ شرقا على جبل قاقول ، ويمتد الى مدن هناك ، ثم يصب فى البحر الهندى ، ويخرج من البحيرتين ستة أنهار ، من كل بحيرة ثلاثة أنهار .

وتجتمع الأنهار الستة فى بحيرة متسعة تسمى البطيحة ، وفيها جبل يفرق الماء نصفين : يخرج أحدهما من غرب البطيحة — وهو نيل السودان — ويصير نهرا يسمى بحر الدمادم ، ويأخذ مغربا ما بين سمغرة وغانة على جنوبى سمغرة وشمالى غانة ، ثم ينعطف هناك منه فرقة ترجع جنوبا الى غانة ، ثم تمر على مدينة برسة ، وتأخذ تحت جبل فى جنوبها خارج خط الاستواء الى زفيلة ، ثم تتبحر فى بحيرة هناك ، وتستمر الفرقة الثانية مغربة الى بلاد مالى والتكرور حتى تنصب فى البحر المحيط شمالى مدينة قلبتو .

ويخرج النصف الآخر متشاملا آخذا على الشمال الى شرقى مدينة حيا ، ثم تشعب منه هناك شعبة تأخذ شرقا الى مدينة سحرت ، ثم ترجع جنوبا ، ثم تعطف شرقا بجنوب الى مدينة سحرتة ، ثم الى مدينة مركة ، وينتهى الى خط الاستواء حيث الطول خمس وستون درجة ، ويتحر هناك بحيرة ، ويسمى عمود النيل ، من قبالة تلك الشعبة شرقى مدينة شيمى متشاملا آخذا على أطراف بلاد الحبشة ، ثم يتشامل على بلاد السودان الى مدينة دنقلة حتى يرمى على الجنادل الى أسوان ، وينحدر وهو يشق بلاد الصعيد الى مدينة فسطاط مصر ، ويمر حتى يصب فى البحر الشامى .

وقد استفيض ببلاد السودان أن النيل ينحدر من جبال سود يبين على بعد كأن عليها الغمام ، ثم يتفرق نهرين : يصب أحدهما فى البحر المحيط الى جهة بحر الظلمة الجنوبى ، والآخر يتصل الى مصر حتى يصب فى البحر الشامى .

ويقال انه فى الجنوب يتفرق سبعة أنهار تدخل فى صحراء منقطعة ، ثم تجتمع الأنهار السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا فى بلاد السودان .

ذكر مقاييس النيل وزيادته

قال ابن عبد الحكم : أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام ... وضع مقياسا بمنف ، ثم وضعت العجوز دلوكة ابنة زبا — وهى صاحبة حائط العجوز — مقياسا بأنصنا ، وهو صغير الذرع ، ومقياسا باخميم ، ووضع عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان ، وهو صغير ، ووضع أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة ، وهو أكبرها .

قال يحيى بن بكير : أدركت القياس يقيس فى مقياس منف ، ويدخل بزيادته الى الفسطاط .

وقال القضاعى : كان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام ، وبنى مقياسا بمنف ، وهو أول مقياس وضعه عليه السلام .

وقيل ان النيل كان يقاس بمصر بأرض علوة الى أن بنى مقياس منف ، وان القبط كانت تقيس عليه الى أن بطل .

ومن بعده دلوكة العجوز بنت مقياسا بأنصنا ، وهو صغير الذرع ، وآخر باخميم وهى التى بنت الحائط المحيط بمصر .

وقيل انهم كانوا يقيسون الماء — قبل أن يوضع المقياس — بالرصاصة ، فلم يزل المقياس فيما مضى قبل الفتح بقيسارية الأكسية * ، ومعالمه هناك ، الى أن ابتنى المسلمون بين الحصن والبحر أبنيتهم الباقية الآن .

وكان للروم أيضا مقياس بالقصر خلف الباب يمنة من دخل منه فى داخل الزقاق ، أثره قائم الى اليوم ، وقد بنى عليه وحواليه .

ثم بنى عمرو بن العاص عند فتحه مصر مقياسا بأسوان ، ثم بنى بموضع يقال له دندرة .

ثم بنى فى أيام معاوية مقياس بأنصنا ، فلم يزل يقاس عليه الى أن بنى عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان ، وكانت منزله ، وكان هذا المقياس صغير الذرع .

(*) ص٥٧ جـ١ ، ط. بولاق .

فأما المقياس القديم الذى بنى فى الجزيرة ، فالذى وضعه أسامة بن زيد ، وقيل انه كسر فيه ألفى أوقية ، وهو الذى بنى بيت المال بمصر . ثم كتب أسامة بن زيد التنوخى عامل خراج مصر لسليمان بن عبد الملك ببطلانه ، فكتب اليه سليمان بأن يبنى مقياسا فى الجزيرة ، فبناه فى سنة سبع وتسعين .

ثم بنى المتوكل فيها مقياسا فى أول سنة سبع وأربعين ومائتين فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى على مصر ، وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد ، وأمر بأن يعزل النصارى عن قياسه . فجعل يزيد بن عبد الله التركى على المقياس أبا الرداد المعلم ، واسمه عبد الله ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبى الرداد المؤذن ، كان يقول القمى : أصله بالبصرة ، قدم مصر ، وحدث بها ، وجعل على قياس النيل ، وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ سبعة دنانير فى كل شهر . فلم يزل المقياس من ذلك الوقت فى يد أبى الرداد وولده الى اليوم . وتوفى أبو الرداد سنة ست وستين ومائتين .

ثم ركب أحمد بن طولون سنة تسع وخمسين ومائتين ، ومعه أبو أيوب صاحب خراجه ، وبكار بن قتيبة القاضى ، فنظر الى المقياس وأمر باصلاحه ، وقدر له ألف دينار ، فعمر .

وبنى الحارث فى الصناعة مقياسا ، وأثره باق لا يعتمد عليه .

وقال ابن عبد الحكم : ولما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها الى عمرو ، حين دخل

بئونة من أشهر العجم ، فقالوا له : أيها الأمير ، ان لنيلنا هذا سنة لا يجرى الا بها .

فقال لهم : وما ذاك ؟

قالوا : انه اذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر ، عمدنا الى جارية بكر من أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى النيل .

فقال لهم عمرو : ان هذا لا يكون فى الاسلام ، وان الاسلام يهدم ما كان قبله .

فأقاموا بئونة وأبيب ومسرى ، وهو لا يجرى قليلا ولا كثيرا ، حتى هموا بالجلاء . فلما رأى عمرو ذلك كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك ، فكتب اليه عمر أن قد أصبت ، ان الاسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل اذا أتاك كتابى .

فلما قدم الكتاب الى عمرو فتح البطاقة فاذا فيها : « من عبد الله أمير المؤمنين ، الى نيل مصر . أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » .

فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها ، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل ، وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا فى ليلة ، وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر .

وذكر بعضهم أن جاحلا الصدق هو الذى جاء ببطاقة عمر رضى الله عنه الى النيل حين توقف ، فجرى باذن الله تعالى .

وقال يزيد بن أبى حبيب : ان موسى عليه السلام دعا على آل فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء ، فطلبوا الى موسى أن يدعو الله ، فدعا الله رجاء أن يؤمنوا — وذلك ليلة الصليب — فأصبحوا وقد أجراه الله فى تلك الساعة ستة عشر ذراعا .

فاستجاب الله بطوله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام .

قال القضاعى : وجدت فى رسالة منسوبة الى الحسن بن محمد بن عبد المنعم قال : لما فتحت العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده فى مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره ، وأن فرط الاستشعار يدعوهم الى الاحتكار ، وأن الاحتكار يدعو الى تصاعد الأسعار بغير قحط .

فكتب عمر الى عمرو يسأله عن شرح الحال فأجابه : انى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا ، والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا ، والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان ، وهما الظمأ والاستبحار ، اثنا عشر ذراعا فى النقصان ، وثمانية عشر ذراعا فى الزيادة .

هذا ، والبلد فى ذلك الوقت محفور الأنهار ، معقود الجسور ، عندما تسلموه من القبط ، وخميرة العمارة فيه .

فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عليا رضى الله عنه فى ذلك ، فأمره أن يكتب اليه أن يبنى مقياسا ، وأن ينقص ذراعين من اثنى عشر ذراعا ، وأن يقر ما بعدها على الأصل ، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعا أصبعين . ففعل ذلك ، وبناه بحلوان ... فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الارجاف ، وزوال ما منه كان يخاف ، بأن جعل الاثنى عشر ذراعا أربع عشرة ، لأن كل ذراع أربع وعشرون أصبعا ، فجعلها ثمانيا وعشرين من أولها الى الاثنى عشر * ذراعا يكون مبلغ الزيادة على الاثنى عشر ثمانيا وأربعين أصبعا ، وهى الذراعان ، وجعل الأربع عشرة ست عشرة والست عشرة ثمانى عشرة والثمانى عشرة عشرين .

قال القضاعى : وفى هذا الحساب نظر فى وقتنا لزيادة فساد الأنهار وانتقاض الأحوال . وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية من أولها الى آخرها أربع وعشرون أصبعا كل ذراع ، والمقاييس الاسلامية على ما ذكر ، منها المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى بالجزيرة ، وهو الذى هدمه الماء . وبنى المأمون آخر بأسفل الأرض بالبروذات ، وبنى المتوكل آخر بالجزيرة ، وهو الذى يقاس عليه الماء الآن ، وقد تقدم ذكره .

قال ابن عفير عن القبط المتقدمين : اذا كان الماء فى اثنى عشر يوما من مسرى اثنتى عشرة ذراعا ، فهى سنة ماء ، والا فالماء ناقص ، واذا تم ست عشرة ذراعا قبل النوروز فالماء يتم ... فاعلم ذلك .

(*) ص٥٨ جـ١ ، ط.بولاق .

وقال أبو الصلت : وأما النيل وينبوعه ، فهو من وراء خط الاستواء من جبل هناك يعرف بجبل القمر ، فانه يبتدىء فى التزايد فى شهر أبيب . والمصريون يقولون : اذا دخل أبيب كان للماء دبيب . وعند ابتدائه فى التزايد يتغير جميع كيفياته ويفسد ، والسبب فى ذلك مروره بنقائع مياه آجنة يخالطها فيجتلبها معه ، الى غير ذلك مما يحتمله .

فاذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعا ، وزاد من السادس عشر أصبعا واحدا ، كسر الخليج . ولكسره يوم معدود ، ومقام مشهود ، ومجتمع خاص ، يحضره العام والخاص . فاذا كسر فتحت الترع — وهى فوهات الخلجان — ففاض الماء وساح ، وغمر القيعان والبطاح ، وانضم الناس الى أعالى مساكنهم من الضياع والمنازل ، وهى على آكام وربى لا ينتهى الماء اليها ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود أرض مصر بأسرها عند ذلك بحرا غامرا لما بين جبليها ، وربما يبلغ الحد المحدود فى مشيئة الله عز وجل له ، وأكثر ذلك يحوم حول ثمانى عشرة ذراعا .

ثم يأخذ عائدا فى صبه الى مجرى النيل ومسربه ، فينضب أولا عما كان من الأرض عاليا ، ويصير فيما كان منها متطامنا ، فيترك كل قرارة كالدرهم ، ويغادر كل ملقة كالبرد المسهم .

وقال القاضى أبو الحسن على بن محمد الماوردى فى كتاب « الأحكام السلطانية » : وأما الذراع السوداء فهى أطول من ذراع الدور بأصبع وثلثى أصبع ، وأول من وضعها أمير المؤمنين هارون الرشيد ، قدرها بذراع

خادم أسود كان على رأسه قائما ، وهى التى تتعامل الناس بها فى ذرع البز والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

وأكثر ما وجد فى القياس من النقصان سنة سبع وتسعين ومائة ، وجد فى المقياس تسعة أذرع واحد وعشرون أصبعا . وأقل ما وجد منه سنة خمس وستين ومائة ، فانه وجد فيه ذراع واحد وعشر أصابع . وأكثر ما بلغ فى الزيادة سنة تسع وتسعين ومائة ، فانه بلغ ثمانية عشر ذراعا وتسعة عشر أصبعا . وأقل ما كان فى سنة ست وخمسين وثلاثمائة الهلالية ، فانه بلغ اثنى عشر ذراعا وتسع عشرة أصبعا ، وهى أيام كافور الاخشيدى .

والمقياس عمود رخام أبيض مثمن ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه ، وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع ، ما عدا الاثنى عشر ذراعا الأولى فانها مفصلة على ثمان وعشرين أصبعا كل ذراع .

وقال المسعودى : قالت الهند : زيادة النيل ونقصانه بالسيول ، ونحن نعرف ذلك بتوالى الأنواء وكثرة الأمطار .

وقالت الروم : لم يزد قط ولم ينقص ، وانما زيادته ونقصانه من عيون كثرت واتصلت .

وقالت القبط : زيادته ونقصانه من عيون فى شاطئه يراها من سافر ولحق بأعاليه .

وقيل لم يزد قط ، وانما زيادته بريح الشمال ، اذا كثرت واتصلت تحبسه ، فيفيض على وجه الأرض .

وقال قوم : سبب زيادته هبوب ريح تسمى ريح الملتن ، وذلك أنها تحمل السحاب الماطر من خلف خط الاستواء ، فيمطر ببلاد السودان والحبشة والنوبة ، فيأتى مدده الى أرض مصر بزيادة النيل . ومع ذلك فان البحر الملح يقف ماؤه على وجه النيل ، فيتوقف حتى يروى البلاد .

وفى ذلك يقول :

فاسمع فللسامع أعلى يدا
عندى وأسمى من يد المحسن

فالنيل ذو فضل ولكنه
الشكر فى ذلك للملتن

ويبتدىء النيل بالتنفس والزيادة بقية بئونة (وهو حزيران) ، وأبيب (وهو تموز) ، ومسرى (وهو آب) . فاذا كان الماء زائدا زاد شهر توت كله (وهو أيلول) الى انقضائه ، فاذا انتهت الزيادة الى الذراع الثامن عشر ففيه تمام الخراج ، وخصب الأرض ، وهو ضار بالبهائم لعدم الرعى والكلأ .

وأتم الزيادات كلها ، العامة النفع للبلد كله ، سبعة عشر ذراعا ، وفى ذلك كفايتها ورى جميع أرضها . واذا زاد على ذلك وبلغ ثمانية عشر ذراعا وغلقها ، استبحر من أرض مصر الربع ، وفى ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرنا من الاستبحار واذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا ، كانت العاقبة فى انصرافه

حدوث وباء . وأكثر الزيادات ثمان عشرة ذراعا

وقد بلغ فى خلافة عمر بن عبد العزيز* اثنى عشر ذراعا ومساحة الذراع الى أن يبلغ اثنتى عشرة ذراعا ثمان وعشرون أصبع ، ومن اثنتى عشرة ذراعا الى ما فوق ذلك تكون الذراع أربعا وعشرين أصبعا . وأقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع ، وفى تلك السنه تكون الماء قليلا .

والأذرع التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسميان منكر ونكيرا ، وهى الذراع الثالث عشر والذراع الرابع عشر فاذا انصرف الماء عن هذين الذراعين وزيادة نصف ذراع من الخمس عشرة ، استسقى الناس بمصر ، فكان الضرر الشامل لكل البلدان واذا تم خمس عشرة ودخل فى ست عشرة ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ، ولا يستسقى فيه ، وكان ذلك نقصا من خراج السلطان .

والنبيذ يتخذ بمصر من ماء طوبة وهو كانون الثانى — بعد الغطاس ، وهو لعشرة تمضى من طوبة ، وأصفى ما يكون ماء النيل فى ذلك الوقت . وأهل مصر يفتخرون بصفاء ماء النيل فى هذا الوقت ، وفيه يخزن الماء أهل تنيس ودمياط وتونة وسائر قرى البحيرة .

وقد كانت مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعا ، غامرها وعامرها ، لما أحكموا من جسورها ، وبناء قناطرها ، وتنقية خلجانها . وكان الماء اذا بلغ فى زيادته تسع أذرع دخل خليج المنهى وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا .

قال : والمعمول عليه فى وقتنا هذا — وهو سنة خمس وأربعين وثلثمائة — أنه ان زاد على لستة عشر ذراعا أو نقص عنها ، نقص من خراج السلطان .

وقد تغير فى زماننا هذا عامة ما تقدم ذكره ، لفساد حال الجسور والترع والخلجان وقانونه اليوم أنه يزيد فى القيظ اذا حلت الشمس برج السرطان والأسد والسنبله حين تنقص عامة الأنهار التى فى المعمور ، ولذلك قيل ان الأنهار تمده بمائها عند غيضها فتكون زيادته .

وتبتدىء الزيادة من خامس بئونة ، وتظهر فى ثانى عشره ، وأول دفعه فى الثانى من أبيب ، وتنتهى زيادته فى ثامن بابة ، ويأخذ فى النقصان من العشرين منه ، فتكون [1] مدة زيادته — من ابتدائها الى أن ينقص — ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوما ، وهى أبيب ومسرى وتوت وعشرون يوما من بابة ، ومدة مكثه بعد انتهاء زيادته اثنا عشر يوما ، ثم يأخذ فى النقصان .

ومن العادة أن ينادى عليه دائما فى اليوم السابع والعشرين من بئونة بعدما يؤخذ قاعه ، وهو ما بقى من الماء القديم ، فى ثالث عشر بئونة ، ويفتح الخليج الكبير اذا أكمل الماء ستة عشر ذراعا .

(*) ص٥٩ جـ١ ، ط. بولاق .

(١) قوله « فتكون مدة زيادته ... » الخ ، هو غير موافق لما قبله ، بل مقتضى ما ذكره من التفصيل قبله ، ان مدة الزيادة — من ابتدائها الى ان ينقص — اربعة اشهر وخمسة عشر يوما .. فليتامل . ١ هـ . مصححه .

وأدركت الناس يقولون : نعوذ بالله من أصبع من عشرين وكما نعهد الماء اذا بلغ أصابع من عشرين ذراعا ، فاض ماء النيل ، وغرق الضياع والبساتين ، وفارت الملاليح . وهانحن فى زمن ، منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ، اذا بلغ الماء فى سنة أصبعا من عشرين لا يعم الأرض كلها لما قد فسد من الجسور ، وكان الى ما بعد الخمسمائة من الهجرة قانون النيل ستة عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة ، وهى فى الحقيقة ثمانية عشر ذراعا .

وكانوا يقولون : اذا زاد على ذلك ذراعا واحدة زاد خراج مصر مائة ألف دينار لما يروى من الأراضى العالية ، فان بلغ ثمانية عشر ذراعا كانت الغاية القصوى ، لأن الثمانية عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة اثنان وعشرون ذراعا فى الصعيد الأعلى ، فان زاد على الثمانية عشر ذراعا واحدا ، نقص من الخراج مائة ألف دينار ، لما يستبحر من الأرض المنخفضة .

قال ابن ميسر فى حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . وفيها بلغت زيادة ماء النيل تسعة عشر ذراعا وأربعة أصابع ، وبلغ الماء الباب الجديد أول الشارع خارج القاهرة ، وكان الناس يتوجهون الى القاهرة من مصر من ناحية المقابر . فلما بلغ الخليفة الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن محمد أن الماء وصل الى الباب الجديد ، أظهر الحزن والانقطاع . فدخل اليه بعض خواصه وسأله عن السبب ، فأخرج له كتابا فاذا فيه « اذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الامام عبد المجيد » ثم قال : هذا الكتاب الذى نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا وما يأتى بعدها . فمرض الحافظ فى آخر هذه السنة ، ومات فى أول سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

وقال القاضى الفاضل فى متجددات سنة ست وسبعين وخمسمائة . وفى يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر ربيع الأول ، وهو السادس عشر من مسرى ، وفى النيل على ستة عشر ذراعا ، وهو الوفاء ، ولا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن متقدم . وهذا أيضا مما تغير فيه قانون النيل فى زماننا ، فانه صار يرق فى أوائل مسرى ، ولقد كان الوفاء فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فى اليوم التاسع والعشرين من أبيب قبل مسرى بيوم .

وهذا من أعجب ما يؤرخ فى زيادات النيل .

واتفق أن فى الحادى عشر من جمادى الأولى ، سنة تسع وسبعمائة ، وفى النيل ، وكان ذلك فى اليوم التاسع عشر من بابة بعد النوروز بتسعة وأربعين يوما .

قال . وفى تاسع عشره (يعنى شوال سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة) كسر بحر أبى المنجى ، وباشر الملك العزيز عثمان كسره ، وزاد النيل فيه أصبعا ، وهى الأصبع الثامنة عشرة من ثمان عشرة ذراعا ، وهذا الحد يسمى عند أهل * مصر اللجة الكبرى .

فانظر كيف سمى القاضى الفاضل هذا القدر اللجة الكبرى ، وانه — والعياذ بالله — لو بلغ ماء النيل فى سنة هذا القدر فقط لحل

(*) ص٦٠ جـ١ ، ط. بولاق .

بالبلاد غلاء يخاف منه أن يهلك فيه الناس ، وما ذاك الا لما أهمل من عمل الجسور .

ويحصل لأهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعا فرح عظيم ، فان ذلك كان قانون الرى فى القديم واستمر ذلك الى يومنا هذا . ويتخذ ذلك اليوم عيدا يركب فيه السلطان بعساكره ، وينزل فى المراكب لتخليق المقياس .

وقد ذكرنا ما كان فى الدولة الفاطمية ، من الاهتمام بفتح الخليج ، عند ذكر مناظر اللؤلؤة .

وقال بعض المفسرين رحمهم الله تعالى : ان يوم الوفا هو اليوم الذى وعد فرعون موسى عليه السلام بالاجتماع فى قوله تعالى « قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى » ، وقد جرت العادة أن اجتماع الناس للتخليق يكون فى هذا الوقت .

ومن أحسن السياسات فى أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق ، فى سيرة المعز لدين الله ، قال : وفى هذا الشهر (يعنى شوال سنة اثنتين وستين وثلثمائة) منع المعز لدين الله من النداء بزيادة النيل ، وألا يكتب بذلك الا اليه والى القائد جوهر ، فلما تم أباح النداء (يعنى لما تم ست عشرة ذراعا) وكسر الخليج .

فتأمل ما أبدع هذه السياسة ، فان الناس دائما اذا توقف النيل فى أيام زيادته أو زاد قليلا يقلقون ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل ، فيقبضون أيديهم على الغلال ، ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ، ويجتهد من عنده مال فى خزن الغلة ، اما لطلب السعر ، أو لطلب ادخار قوت عياله ، فيحدث بهذا الغلاء ، فان زاد المال انحل السعر ، والا كان الجدب والقحط ... ففى كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة .

وقال المسبحى فى تاريخ مصر : وخرج أمر صاحب القصر الى ابن حيران بتحرير ما يستفتح به القياسون كلامهم اذا نادوا على النيل ، فقال : نعم لا تحصى ، من خزائن الله لا تفنى ، زاد الله فى النيل المبارك كذا .

ومن عادة نيل مصر اذا كان عند ابتداء زيادته اخضر ماؤه ، فتقول عامة أهل مصر : قد توحم النيل . ويرون أن الشرب منه حينئذ مضر .

ويقال فى سبب اخضراره أن الوحوش — سيما الفيلة — ترد البطيحات التى فى أعالى النيل ، وتستنقع فيها مع كثرة عددها لشدة الحر هناك ، فيتغير ماء تلك البطيحات . فاذا وقع المطر فى الجهة الجنوبية فى أوقاته عندهم ، تكاثرت السيول حينئذ فى البطيحات ، فخرج ما كان فيها من الماء الذى قد تغير ومر الى مصر ، وجاء عقيبه الماء الجديد ، وهو الزيادة بمصر ، وحينئذ يكون الماء محمرا لما يخالطه من الطين الذى تأتى به السيول .

فاذا تناهت زيادته غشى أرض مصر ، فتصير القرى التى فى الأقاليم فوق التلال والروابى وقد أحاط بها الماء ، فلا يتوصل اليها الا فى المراكب ، أو من فوق الجسور الممتدة التى يصرف عليها — اذا عملت كما

ينبغى — ربع الخراج ، لحفظ عند ذلك ماء النيل حتى ينتهى رى كل مكان الى الحد المحتاج اليه .

فاذا تكامل رى ناحية من النواحى ، قطع أهلها الجسور المحيطة بها من أمكنة معروفة عند خولة البلاد ومشايخها فى أوقات محدودة لا تتقدم ولا تتأخر عن أوقاتها المعتادة ، على حسب ما يشهد به قوانين كل ناحيـة من النواحى ، فتروى كل جهة مما يليها ، مع ما يجتمع فيها من الماء المختص . ولولا اتقان ما هنالك من الجسور وحفر الترع والخلجان ، لقل الانتفاع بماء النيل ، كما قد جرى فى زماننا هذا .

وقد حكى أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر فى كل سنة ثلث الخراج ، لعنايتهم فى القديم بها من أجل أنه يترتب على عملها رى البلاد الذى به مصالح العباد ... وستقف — ان شاء الله تعالى — عن قريب على ما كان من أعمال القدماء ومن بعدهم فى ذلك .

وكان للمقاس فى الدولة الفاطمية رسوم لكنس مجارى الماء ، خمسون دينارا فى كل سنة ، تطلق لابن أبى الرداد .

ذكر الجسر الذى كان يعبر عليه فى النيل

اعلم أنه كان فى النيل جسر من سفن فيما بين الفسطاط والجزيرة التى تعرف اليوم بالروضة ، وكان فيما بين الجزيرة والجيزة أيضا جسر ، فى كل جسر منهما ثلاثون سفينة .

ذكر ما قيل فى ماء النيل من مدح وذم

قال الرئيس أبو على بن سينا عفا الله عنه : وقوم يفرطون فى مدح النيل افراطا شديدا ، ويجمعون محامده فى أربعة : بعد منبعه ، وطيب مسلكه ، وغموره ، وأخذه الى الشمال عن الجنوب . فأخذه الى الشمال عن الجنوب ملطف لما يجرى فيه من المياه ، وأما غموره فيشاركه فيها غيره .

قال : فأفضل المياه مياه العيون ، ولا كل العيون ، ولكن مياه العيون الحرة الأرض ، التى لا يغلب على تربتها شىء من الأحوال والكيفيات الغريبة ، أو تكون حجرية * فتكون أولى بألا تعفن عفونة الأرضية ، لكن التى هى من طينة حرة خير من الحجرية ولا كل عين حرة ، بل التى هى مع ذلك جارية . ولا كل جارية ، بل الجارية المكشوفة للشمس والرياح ، وان هذا مما يكسب الجارية فضيلة ، وأما الراكدة فربما اكتسبت بالكشف رداءة لا تكسبها بالغور والستر .

واعلم أن المياه التى تكون طينية المسيل خير من التى تجرى على الأحجار ، فان الطين ينقى الماء ويأخذ منه الممزوجات الغريبة ويروقه ، والحجارة لا تفعل ذلك لكنه يجب أن تكون طين مسيله حرا ، لا حماة ولا سبخة ، ولا غير ذلك .

فان اتفق أن كان هذا الماء غمرا شديد الجرية ، يحيل بكثرة ما يخالطه الى طبيعته ،

(*) ص ٦١ جـ١ ، ط. بولاق

فان كان يأخذ الى الشمس فى جريانه فيجرى الى المشرق وخصوصا الى الصيفى منه ، فهو أفضل ، لا سيما اذا بعد جدا من ميدانه ، ثم ما يتوجه الى الشمال ، والمتوجه الى المغرب والجنوب ردىء ، خصوصا عند هبوب ريح الجنوب .

والذى ينحدر من مواضع عالية مع سائر الفضل أفضل ، وما كان بهذه الصفة كان عذبا يخيل أنه حلو ، ولا يحتمل الخمر اذا مزج به منه الا قليلا ، وكان خفيف الوزن سريع البرد والتسخين لتخلخله ، باردا فى الشتاء ، حارا فى الصيف ، لا يغلب عليه طعم ألبتة ولا رائحة ، ويكون سريع الانحدار من الشراسيف ، سريعا لهرى ما يهرى فيه ، وطبخ ما يطبخ فيه .

قال الرئيس علاء الدين على بن أبى الحرم ابن نفيس فى شرح القانون : هذه المحامد التى ذكرها ليست علامات للحمد ، بل هى من الأشياء الموجبه لكونه محمودا .

واحد هذه الأربعة بعد منبعه ، وقد بينا أن ذلك يوجب لطافة الماء بسبب كثرة حركته .

واعلم أن منبع النيل من جبل يقال له جبل القمر ، وهذا الجبل وراء خط الاستواء باحدى عشرة درجة وثلاثين دقيقة مما به أعظم دائرة فى الأرض بثلثمائة درجة وستين . وابتداء هذا الجبل من السادسة والأربعين درجة وثلاثين دقيقة من أول العمارة من جهة المغرب ، وآخره عند آخر احدى وستين درجة وخمسين دقيقة ، فيكون امتداد هذا الجبل مقدار خمس عشرة درجة وعشرين دقيقة مما به أعظم دائرة فى الأرض ثلثمائة وستون درجة

ويخرج من هذا الجبل عشرة أنهار من أعين فيه ، ترمى كل خمسة منها الى بحيرة عظيمة مدورة . واحدى هاتين البحيرتين مركزها ، حيث البعد من ابتداء العمارة بالمغرب خمسون درجة ، والبعد من خط الاستواء فى الجنوب سبع درج واحدى وثلاثون دقيقة . ومركز الثانية حيث البعد عن أول العمارة بالمغرب سبع وخمسون درجة ، وحيث البعد من خط الاستواء فى الجنوب سبع درج واحدى وثلاثون دقيقة .

وهاتان البحيرتان متساويتان ، وقطر كل واحدة منهما مقدار خمس درج ، ويخرج من كل واحدة من البحيرتين أربعة أنهار ، ترمى الى بحيرة صغيرة مدورة فى الاقليم الأول ، بعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب ثلاث وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعن خط الاستواء من الشمال درجتان من الاقليم الأول ، ومقدار قطرها درجتان .

ويصب كل واحد من الأنهار الثمانية فى بحيرة (وفى هذه البحيرة نهر واحد وهو نيل مصر ، ويمر ببلاد النوبة نهر آخر ابتداؤه من غير مركزها على خط الاستواء) كبيرة مستديرة ، مقدار قطرها ثلاث درج ، وبعد مركزها من أول العمارة بالمغرب ثلاث وأربعون درجة ويلقى نهر هذه العين نهر النيل حيث البعد من أول العمارة بالمغرب ثلاث وأربعون دقيقة .

واذا تعدى النيل مدينة مصر الى بلد يقال له شطنوف ، يفرق هناك الى نهرين يرميان

الى البحر المالح : أحدهما يعرف ببحر رشيد ، ومنه يكون خليج الاسكندرية . وثانيهما يعرف ببحر دمياط ، وهذا البحر اذا وصل الى المنصورة تفرع منه نهر يعرف ببحر أشموم يرمى الى بحيرة هناك ، وباقيه يرمى الى البحر المالح عند دمياط .

وزيادة النيل هى من أمطار كثيرة ببلاد الحبشة ، والله أعلم .

واعلم أن الوزن من الدستورات المنتخبة من حال الماء ، فان الأخف فى أكثر الأحوال أفضل .

فهذا ما ذكره الرئيس ابن سينا من صفات المياه الفاضلة ، واعتبر ما قاله تجد ذلك قد اجتمع فى ماء النيل .

فأوله أن ماء النيل عين تمر على أراضى حرة ، ولا يغلب على تربه ما يمر به شىء من الأحوال والكيفيات الردية ، كمعادن النفط والشب والأملاح والكباريت ونحوها ، بل يمر على الأراضى التى تنبت الذهب ، بدليل ما يظهر فى الشطوط من قراضات الذهب . وقد عانى جماعة تصويل الذهب من الرمل المأخوذ من شطوط النيل ، فربحوا منه مالا . وفضيلة كون الذهب فى الماء لا تنكر .

الثانى : أن النيل فى جريانه أبدا مكشوف للشمس والرياح .

الثالث : أن طينه من طين مسيل من مياه مجتمعة من أمطار تمر على أراض حرة ، ويظهر ذلك من عطرية روائح الطين اذا نديته بماء .

الرابع : غمورة ماء النيل وشدة جريته التى تكاد تقصف العمد اذا اعترضتها ، وتدفع الأثقال العظيمة اذا عارضتها .

الخامس : بُعد مبدأ خروجه من مصبه فى البحر المالح ، وقد تقدم * من طول مسافته ما لا نجده فى نهر غيره من أنهار المعمور .

السادس : انحداره من علو ، فان الجنوب مرتفع عن الشمال ، لا سيما اذا صار الى الجنادل انحط من أعلى جبل مرتفع الى وادى مصر .

وذكر ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث من حديث جرير بن عبد الله البجلى ، حين سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منزله ببلنسة ، فذكره الى أن قال : وماؤنا يمتنع أن يجرى من علو ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « خير الماء السنم » أى ما كان ظاهرا على وجه الأرض .

والسنم الماء على وجه الأرض ، وكل شىء علا شيئا فقد تسنمه ، مأخوذ من سنام البعير لعلوه .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى : « ومزاجه من تسنيم » : أى يمزج بما ينزل من علو .

السابع : أنه يمر من الجنوب الى الشمال ، فتستقبله ريح الشمال الطيبة دائما .

الثامن : خفته فى الوزن ، وقد اعتبر ذلك غير مرة مع غيره من المياه فخف عنها فى الوزن .

(*) ص٦٢ جـ١ ، ط. بولاق .

التاسع : عذوبة طعمه ، وحسن أثره فى هضم الغذاء ، وانحداره عن المعدة ، بحيث انه يحدث بعد شربه جشاء .

وهذه صفات ، ان كنت ممن مارس العلم الطبيعى وعرف الطب ، فانه يعظم عندك قدر ماء النيل ، وتبين لك غزارة نفعه وكثرة محاسنه .

ويقال : ان ذا القرنين كتب كتابا فيه ما شاهده من عجائب الدنيا ، فضمنه كل أعجوبة ، ثم قال فى آخره : وليس ذلك بعجب ، بل العجب نيل مصر .

وقال بعض الحكماء : لولا ما جعل الله فى نيل مصر من حكمة الزيادة فى زمن الصيف على التدريج ، حتى يتكامل رى البلاد وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة ، لفسد اقليم مصر وتعذر سكناه ، لأنه ليس فيه أمطار كافية ، ولا عيون جارية تعم أرضه ، الا بعض اقليم الفيوم .

ولله در القائل :

واها لهذا النيل أى عجيبة ... بكر بمثل حديثها لا يسمع
يلقى الثرى فى العام وهو مسلم ... حتى اذا ما مل عاد يودع
مستقبل مثل الهلال فدهره ... أبدا يزيد كما يريد ويرجع

وقال آخر :

كأن النيل ذو فهم ولب ... لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى حين حاجتهم اليه ... ويمضى حين يستغنون عنه

وقال تميم بن المعتز :

يوم لنا بالنيل مختصر ... ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تجرى كالخيول بنا ... صعدا وجيش الماء منحدر
وكأنما أمواجه عكن ... وكأنما داراته سرر

وقال أيضا :

أما ترى الرعد بكى واشتكى ... والبرق قد أومض واستضحكا
فاشرب على غيم بصنع الدجى ... يضحك وجه الأرض لما بكى
وانظر لماء النيل فى مده ... كأنما صندل أو مصطكا

وقال آخر :

والله مجرى النيل منه اذا الصبا ... أرتنا به من برها عسكرا بحرا
بشط بنهر السمهرية ذبلا ... وموج بنهر البيض هندية بترا
اذا مر حاكى الورد غضا وان صفا ... حكى ماءه لونا ولو بعده مرا

وقال أبو الحسن محمد بن الوزير فى تدريج زيادة النيل وعظم منفعته :

أرى أبدا كثيرا من قليل ... وبدرا فى الحقيقة من هلال

فلا تعجب فكل خليج ماء
بمصر مسيب بخليج مال

زيادة أصبع فى كل يوم
زيادة أذرع فى حسن حال

وقال الشهاب أحمد بن فضل الله العمرى :

بمصر فضل باهر لعيشها الرغد النضر
فى سفح روض يلتقى ماء الحياة والخضر *

وقال ابن قلاقس :

انظر الى الشمس فوق النيل غاربة
وانظر لما بعدها من حمرة الشفق

غابت وألقت شعاعا منه يخلفها
كأنما احترقت بالماء فى الغرق

وللهلال فهل وافى لينقذها
فى اثرها زورق قد صيغ من ورق

وقال بشر الملك ابن المنجم :

يارب سامية فى الجو قمت بها
أمد طرفى فى أرض من الأفق

حيث العشية فى التمثيل معترك
اذا رآها جبان مات للفرق

للشمس غاربة ، للغرب داهبة ،
بالنيل مصفرة ، من هجمة الغسق

وللهلال انعطاف كالسنان بدا
من سورة الطعن ملقى فى دم الشفق

قال القاضى الفاضل رحمة الله تعالى عليه .
وأما النيل فقد ملأ البقاع ، وانتقل من الأصبع الى الذراع ، فكأنما غار على الأرض فغطاها ، وأغار عليها فاستقعدها وما تحطاها ، فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ، ولا مرغوب مرهوب الا اياه .

ونيل مصر مخالف فى جريه لغالب الأنهار ، فانه يجرى من الجنوب الى الشمال ، وغيره ليس كذلك ، الا نهران فانهما يجريان كما يجرى النيل ، وهما نهر مهران بالسند ، ونهر الأريط — وهو الذى يعرف اليوم بنهر العاصى — فى حماة احدى مدائن الشام .

وقد عاب ماء النيل قوم . قال أبو بكر بن وحشية فى كتاب « الفلاحة النبطية » : وأما ماء النيل ، فمخرجه من جبال وراء بلاد السودان يقال لها جبال القمر .

وحلاوته وزيادته يدلان على موقعه من الشمس أنها أحرقته لا كل الاحراق ، بل أسخنته اسخانا طويلا لينا ، لا تزعجه الحرارة ولا تقوى عليه ، بحيث تبدد أجزاءه الرطبة وتبقى أجزاءه الراسخة ، بل يعتدل عليه ، فصار ماؤه لذلك حلوا جدا ، وصار كثرة شربه يعفن البدن ويحدث البثور والدماميل والقروح ، وصار أهل مصر الشاربون منه دمويين محتاجين الى استفراغ الدم عن أبدانهم فى كل مدة قصيرة .

فمن كان عالما منهم بالطبيعة ، فهو يحسن مداواة نفسه حتى يدفع عن جسمه ضرر ماء النيل ، والا فهو يقع فيما ذكرنا من العفونات وانتشار البثر والدماميل . وذلك أن هذا الماء ناقص البرد عن سائر المياه ، قد صير له الطبخ قواما هو أثخن من قوام الماء ، فصار اذا خالط الطعام فى الأبدان كثر فيها

(*) ص٦٢ جـ١ ، ط.بولاق .

الفضول الردية العفنة ، فيحدث من ذلك ما ذكرناه .

ودواء أهل مصر الذى يدفع عنهم ضرر ماء النيل ادمان شرب ربوب الفاكهة الحامضة القابضة ، وأخذ الأدوية المستفرغة للفضول . ولو زادت حرارة الشمس على ماء النيل وطال طبخها له لصار مالحا بمنزلة ماء البحار الراكدة التى لا حركة لها الا وقت جزر البحر ، وهبوب الرياح . وهو أوفق للزروع والمنابت من الحيوان .

وقال ابن رضوان : والنيل يمر بأمم كثيرة من السودان ، ثم يصير الى أرض مصر وقد غسل ما فى بلاد السودان من العفونات والأوساخ ، ويشق مارا بوسط أرض مصر من الجنوب الى الشمال ، الى أن يصب فى بحر الروم . ومبدأ زيادته فى فصل الصيف ، وتنتهى زيادته فى فصل الخريف ، ويرتقى فى الجو منه فى أوقات مده رطوبات كثيرة بالتحلل الخفى ، فيرطب ذلك يبس الصيف والخريف .

واذا مد النهر فاض على أرض مصر فغسل ما فيها من الأوساخ — نحو جيف الحيوانات وأزبالها ، وفضول الآجام والنبات ومياه النقاع — وأحدر جميع ذلك معه ، وخالطه من تراب هذه الأرض وطينها مقدار كثير من أجل سخافتها ، وباض فيه من السمك الذى تربى فيه وفى مياه النقائع .

ومن قبل ذلك تراه فى أول مده يخضر لونه بكثرة ما يخالطه من مياه النقائع العفنة التى قد اجتمع فيها العرمض والطحلب ، واخضر لونها من عفنها ، ثم يتعكر حتى يصير آخر أمره مثل الحمأة ، واذا صفا اجتمع منه فى الاناء طين كثير ورطوبة لزجة لها سهوكة ورائحة منكرة ، وهذا من أوكد الأشياء فى ظهور رداءة هذا الماء وعفنه . وقد بين أبقراط وجالينوس أن أسرع المياه الى العفن ما لطفته الشمس بمياه الأمطار .

ومن شأن هذا الماء أن يصل الى أرض مصر وهو فى الغاية من اللطافة من شدة حرارة بلاد السودان ، فاذا اختلط به عفونات أرض مصر زاد ذلك فى استحالته ، ولذلك يتولد فيه من أنواع السمك شىء كثير جدا ، فان فضول الحيوانات والنبات وعفونة هذا الماء وبيض السمك يصير جميعها مواد فى تكون هذه الأسماك كما قال أرسطاطاليس فى كتاب الحيوان .

وذلك شىء ظاهر للحس ، فان كل شىء يتعفن يتولد من عفونته الحيوان ، ولهذا صار ما يتولد من الدود والفأر والثعابين والعقارب والزنابير والذباب وغيرها بأرض مصر كثيرا .

فقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة * والرطوبة الفضلية ، وأنها ذات أجزاء كثيرة ، وأن هواءها وماءها رديان .

وربما انقطع النيل فى آخر الربيع وأول الصيف من جهة الفسطاط ، فيعفن بكثرة ما يلقى فيه الى أن يبلغ عفنه الى أن يصير له رايحة منكرة محسوسة . وظاهر أن هذا الماء اذا صار على هذه الحالة غير مزاج الناس تغيرا محسوسا .

(*) ص٦٤ جـ١ ، ط.بولاق .

وينبغى أن يستقى ماء النيل من الموضع الذى فيه جريه أشد والعفونة فيه أقل .

ويصفى كل انسان هذا الماء بحسب ما يوافق مزاجه : أما المحروورن فى أيام الصيف فبالطباشير والطين الأرمنى والمغرة والنبق المرضوض والزعرور المرضوض والخل ، وأما المبرودون فى أيام الشتاء فباللوز المر وداخل نوى المشمش والصعتر والشب .

وينبغى أن ينظف ما يروق ويشرب ، وان شئت أن تصفيه بأن تجعله فى آنية الخزف والفخار والجلود وما يصل من ذلك بالرشح ، وان شئت طبخته بالنار وجعلته فى هواء الليل حتى يروق، ثم نظفت منه مايروق واستعملته .

واذا ظهرت فيه كيفيات رديئات فاطبخه بالنار ، ثم برده تحت السماء فى برودة الليل ، وصفه بأخلاط الأدوية التى ذكرتها .

وأجود ما اتخذ هذا الماء أن يصفى مرارا ، وذلك بأن يسخنه أو يطبخه ، ثم يبرده فى هواء الليل ، ويقطف ما يروق منه ، فتصفيه أيضا ببعض الأدوية ، ثم تأخذ ما يروق فتجعله فى آنية تمصل فى برد الليل ، وتأخذ الرشح فتشربه .

واجعل آنية هذا الماء فى الصيف الخزف والفخار المعمولين فى طوبة ، والظروف الحجرية والقرب ونحوها مما يبرد ، وفى الشتاء الآنية الزجاج والمدهون وما يعمل فى الصيف من الفخار والخزف .

ويكون موضعه فى الصيف تحت الأسراب وفى مخاريق ريح الشمال ، وفى الشتاء بالمواضع الحارة .

ويبرد فى الصيف بأن يخلط معه ماء الورد ، ويؤخذ خرقة نظيفة ، ويشد فيها طباشير وبزر رجلة أو خشخاش أبيض أو طين أرمنى أو مغرة ، ويلقى فيه كيما يأخذ من بردها ولا يخالطه جسمها ، وتغسل ظروفه فى الصيف بالخزف المدقوق وبدقيق الشعير والباقلاء والصندل ، وفى الشتاء بالأشنان والسعد ، ويبخر بالمصطكى والعود .

وأردأ ما يكون ماء النيل بمصر عند فيضه ، وعند وقوف حركته ، فعند ذلك ينبغى أن يطبخ ويبالغ فى تصفيته بقلوب نوى المشمش ، وسائر ما يقطع لزوجته .

وأجود ما يكون فى طوبة عند تكامل البرد ، ومن أجل هذا عرفت المصريون بالتجربة أن ماء طوبة أجود المياه ، حتى صار كثير منهم يخزنه فى القوارير الزجاج والصينى ، ويشربه السنة كلها ، ويزعم أنه لا يتغير ، وصاروا أيضا لا يصفونه فى هذا الزمان لظنهم أنه على غاية الخلاص . وأما أنت فلا تسكن الى ذلك ، وصفه على أى حالة كان ، فالماء المخزون لابد أن يتغير .

فهذا ما عندى من ذم ماء النيل . وحاصله أن الماء تتغير كيفيته بما يمر عليه لا أن ذاته ردية . فلا يهولنك ماتسمع ، فما الأمر الا ما قلت لك . واذا كان الضرر بحسب ما تغير من كيفيته لا من كميته ، فقد عرفت ما تعالجه به كى يزول ما يخالطه من الكيفيات الردية . والله الموفق بمنه وكرمه .

ذكر عجائب النيل

ومن عجائب النيل فرس البحر . قال عبد الله ابن أحمد بن سليم الأسوانى فى كتاب « أخبار النوبة » : ومسافة ما بين دنقلة الى أول بلد علوة أكثر مما بين دنقلة وأسوان ، وفى ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشى والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الاسلام .

وفى هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام ، فيها الحيات والوحوش والسباع ، ومفاوز يخاف فيها العطش . وماء النيل ينعطف من هذه النواحى الى مطلع الشمس والى مغربها مسافة أيام ، حتى يصير الصعيد كالمنحدر ، وهى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل الى المعدن المعروف بالشتكة ، وهى بلد معروف بشنقير ، ومنه يخرج القمرى ، وفرس البحر يكثر فى هذا الموضع .

وحدثنى سيمون ، صاحب عهد علوة ، أنه أحصى فى جزيرة سبعين دابة منها ، وهى من دواب الشطوط : فى خلق الفرس ، فى غلظ الجاموس ، قصيرة القوائم ، لها خف ، وهى فى ألوان الخيل بأعراف وآذان صغار كآذان الخيل ، وأعناقها كذلك ، وأذنابها مثل أذناب الجواميس ، ولها خرطوم عريض ، يظن الناظر اليها أن عليها مخلاة ، لها صهيل وأنياب ، لا يقوم حذاءها تمساح ، وتعترض المراكب عند الغضب فتغرقها ، ورعيها فى البر العشب ، وجلدها فيه متانة عظيمة ، يتخذ منه دبابيس . انتهى .

وهو كفرس البر الا أنه أكبر عرفا وذنبا ، وأحسن لونا ، وحافره مشقوق كحافر البقر ، وجثته أكبر من الحمار بقليل ، وهو يأكل التمساح أكلا ذريعا ، ويقوى عليه قوة ظاهرة . وربما خرج من الماء ونزا على فرس البر فيتولد بينهما فرس فى غاية الحسن .

واتفق أن بعض الناس نزل على طرف النيل ومعه حجرة ، فخرج من الماء فرس أدهم عليه نقط بيض ، فنزا على الحجرة فحملت منه وولدت مهرا * عجيب الصورة . فطمع فى مهر آخر ، فجاء بالحجرة والمهر الى ذلك الموضع ، فخرج الفرس من الماء وشم المهر ساعة ، ثم وثب الى الماء ومعه المهر فصار الرجل يتعهد ذلك المكان كثيرا ، فلم يعد الفرس ولا المهر اليه .

قال المسعودى : وفى نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من الحيوانات ، فمن ذلك السمك المعروف بالرعاد ، والواحدة نحو الذراع ، اذا وقعت فى شبكة الصياد ارتعدت يده وعضده فيعلم بوقوعها ، فيبادر الى أخذها واخراجها من شبكته ، ولو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك .

وقد ذكرها جالينوس ، وانها ان جعلت على رأس من به صداع شديد أو شقيقة — وهى فى الحياة — هدأ من ساعته .

قال ابن البيطار عن جالينوس : هو الحيوان البحرى الذى يحدث الخدر . وزعم قوم أنه اذا أدنى من رأس من يشتكى الصداع سكن صداعه ، وان أدنى من مقعدة من انقلبت

(*) ص٦٥ جـ١ ، ط.بولاق .

مقعدته أصلحها . ولكن أنا جربت الأمرين جميعا فلم أجده يفعل ولا واحدا منهما ، ففكرت أنى أدنيته من رأس المصدوع والحيوان ما هو حى ، لأننى ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزلة الأدوية ، فوجدته ينفع مادام حيا .

قال ديسقوريدوس : هو سمكة بحرية مخدرة اذا وضعت على الرأس الذى عرض له الصداع المزمن سكن شدة وجعه ، واذا احتمله ذو المقعدة التى تبرز الى خارج أصلحها .

وقال يونس : الزيت الذى يطبخ فيه يسكن أوجاع المفاصل الحريفة اذا دهنت به .

قال ابن البيطار : رأيت بساحل مدينة مالقة من بلاد الأندلس سمكة عريضة ، لون ظاهرها لون رعاد مصر سواء ، وباطنها أبيض ، وفعلها فى تخدير ماسكها كفعل رعاد مصر أو أشد ، الا انها لا تؤكل ألبتة .

وقال بعضهم : اذا علقت المرأة شيئا من الرعاد عليها ، لم يطق زوجها البعد عنها ، وكذلك ان علق منها الرجل عليه لم تكد المرأة أن تفارقه .

والسقنقور وهو صنف يتوالد من السمك والتمساح ، فلا يشاكل السمك لأن له يدين ورجلين ، ولا يشاكل التمساح لأن ذنبه أجرد أملس عريض غير مضرس ، وذنب التمساح سخيف مضرس . ويتعالج بشحم السقنقور للجماع . ولا يكون بمكان الا فى النيل وفى نهر مهران من أرض الهند . ولقد بلغنى أن أقواما شووها وأكلوا منها فماتوا كلهم فى ساعة واحدة .

والسقنقور ، قال ابن سيناء : هو ورل يصاد من نيل مصر ، يقولون انه من نسل التمساح ، وأجود ما يصطاد فى الربيع .

وقال آخر : انه فرخ التمساح ، فاذا خرج من البيض : فما قصد الماء صار تمساحا ، وما قصد الرمل صار سقنقورا .

وقال ابن البيطار : هو جنس من الجراد ، يجفف فى الخريف ، اذا شرب منه وزن درهمين من الموضع الذى يلى كلاه بشراب أنهض الجماع ، وهو شديد الشبه بالورل ، يوجد بالرمال التى تلى نيل مصر فى نواحى صعيدها ، وهو مما يسعى فى البر ويدخل فى الماء (يعنى النيل) ، ولهذا قيل له الورل المائى لشبهه به ولدخوله فى الماء .

وهو يتولد من ذكر وأنثى ، ويوجد للذكر خصيتان كخصيتى الديك فى خلقهما وموضعهما ، واناثه تبيض فوق العشرين بيضة وتدفنها فى الرمل . وللذكر من السقنقور احليلان ، وللانثى فرجان

والسقنقور يعض الانسان ويطلب الماء ، فان وجده دخل فيه وان لم يجده بال وتمرغ فى بوله ، واذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته وسلم السقنقور . فان اتفق أن سبق المعضوض الى الماء ، فدخله قبل دخول السقنقور الماء وتمرغه فى بوله ، مات السقنقور لوقته وسلم المعضوض .

والأفضل الذكر منه ، والأبلغ فى تقوية الباه ، بل هو المخصوص بذلك دون الأنثى . والمختار من أعضائه ما يلى أصل ذنبه ومحاذى سرته .

والوقت الذى يصاد فيه الربيع ، فانه يكون فيه هائجا للسفاد فيكون فى هذا الوقت أبلغ نفعا ، فاذا أخذ ذكى فى يوم صيده ، فانه ان ترك حيا زال شحمه وهزل لحمه وضعف فعله ، ثم يقطع رأسه وطرف ذنبه من غير استئصال ، ويشق جوفه طولا ، ويلقى مافيه الا كلاه وكسه . فاذا نظف حشى ملحا ، وخيط الشق ، وعلق منكوسا فى ظل معتدل الهواء حتى يجف ، يؤمن فساده ، ثم يرفع فى اناء متخرق للهواء كالسلال المضفورة من قضبان شجر الصفصاف والخوص ونحوه الى وقت الحاجة .

ولحمه — طريا — حار رطب ، والمجفف أشد حرارة وأقل رطوبة ، ولا يوافق استعماله من مزاجه حار يابس ، وانما يوافق ذوى الأمزجة الباردة الرطبة . وخاصة لحمه وشحمه انهاض شهوة الجماع ، ويهيج الشبق ، ويقوى الانعاظ ، وينفع أمراض العصب الباردة ، وخاصة ما يلى سرته ويحاذى ذنبه .

وينفع مفردا ومركبا ، واستعماله مفردا أبلغ . والمقدار منه بعد تجفيفه من مثقال الى ثلاثة مثاقيل — بحسب السن والمزاج والبلد والوقت الحاضر — يسحق ويذاب بشراب أو ماء العسل أو نقيع الزبيب ، أو يذر على صفرة بيض الدجاج النيمرشت ويحتسى ، وكذلك يفعل بلحمه اذا أخذ منه من درهم الى درهمين وذر على صفرة البيض بمفرده أو مع مثله بزر جرجير مسحوق .

ولا يوجد السقنقور الا فى بلاد الفيوم خاصة ، وأكثر صيده فى الأربعينات اذا اشتد البرد وخرج * من الماء الى البر ، فحينئذ يصاد .

وقال المسعودى : والفرس الذى يكون فى نيل مصر اذا خرج من الماء وانتهى وطؤه الى بعض المواضع من الأرض ، علم أهل مصر أن النيل يزيد الى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه ، لا يتخلف ذلك عندهم لطول العادات والتجارب .

وفى ظهوره من الماء ضرر بأرباب الأرض والغلات لرعيه الزرع ، وذلك أنه يظهر من الماء فى الليل فينتهى الى موضع من الزرع ، ثم يولى عائدا الى الماء فيرعى فى حال رجوعه من الموضع الذى انتهى اليه مسيره ، ولا يرعى من ذلك الذى قد رعاه شيئا فى ممره ، واذا رعى ورد الماء وشرب ، ثم قذف ما فى جوفه فى مواضع شتى ، فينبت ذلك مرة ثانية .

واذا كثر ذلك من فعله ، واتصل ضرره بأرباب الضياع ، طرحوا له من الترمس فى الموضع الذى يعرف خروجه منه ، مكاكى كثيرة ، مبدرا مبسوطا ، فيأكله ثم يعود الى الماء ، فاذا شرب منه ربا الترمس فى جوفه وانتفخ ، فينشق جوفه منه ويموت ، ويطفو على الماء ويقذف به الى الساحل .

(*) ص٦٦ جـ١ ، ط.بولاق

والوضع الذى يرى فيه لايرى به تمساح ، وهو على صورة الفرس الا أن حوافره وذنبه بخلاف ذلك ، وجبهته واسعة .

وقال المسيحى : ان الصنف المعروف بالبلطى من أصناف السمك أول ما عرف بنيل مصر فى أيام الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله ، ولم يكن يعرف قبله فى النيل . وظهر فى أيامه أيضا سمك يعرف باللبيس ، وانما سمى باللبيس لأنه يشبه البورى الذى بالبحر الملح فالتبس به ، وغالب الظن أنها من أسماك البحر الملح دخلت فى الحلو .

ومن حيوان البحر التمساح ، قال ابن البيطار : التمساح حيوان معروف يكون فى الأنهار الكبار ، وفى النيل كثيرا ، ويوجد فى نهر مهران ، وقد يوجد فى بلاد السودان ، وهو الورل النيلى .

وقال ابن زهران : كل حيوان يحرك فكه الأسفل اذا أكل ، ما خلا التمساح ، فانه يحرك فكه الأعلى دون الأسفل .

وشحم التمساح اذا عجن بالسمن وجعل فيه فتيلة وأسرج فى نهر أو أجمة ، لم ينعق ضفادعها ما دامت تقد . وان طيف بجلد تمساح حول قرية ، ثم علق على سطح دهليز لم يقع البرد فى تلك القرية .

واذا عض التمساح انسانا ، فوضع على العضة شحم التمساح ، برأ من ساعته . وان لطخ بشحمه جبهة كبش نطاح ، نفر كل كبش يناطحه وهرب منه . ومرارته يكتحل بها للبياض فى العين مذهبه . وكبده يبخر بها المجنون فيبرأ .

وزبل التمساح يزيل البياض من العين الحديث والقديم ، وان قلعت عيناه وهو حى وعلقت على من به جذام أوقفه ، ولم يزد عليه شىء . وان علق شىء من التى بالجانب الأيمن على رجل زاد فى جماعه . وعينه اليمنى لمن يشتكى عينه اليمنى ، وعينه اليسرى لمن يشتكى عينه اليسرى . وشحمه اذا أذيب بدهن ورد نفع من وجع الصلب والكليتين ، وزاد فى الباه .

واذا أخذ دم التمساح وخلط به هليلج وأملج ، وطلى به على الوضح ، أذهبه وغير لونه ، واذا طلى به على الجبهة والصدغين نفع من وجع الشقيقة . واذا أكل لحمه أسفيدباجا سمن البدن النحيف . وشحمه اذا قطر بعد أن يذاب فى الأذن الوجعة نفعها ، وان أدمن تقطيره فى الأذن نفع من الصمم ، واذا دهن به صاحب حمى الربع سكنت عنه . ولحمه ردىء الكيموس .

وقال المسعودى : وكذلك التمساح آفته من دويبة تكون فى سواحل النيل وجزائره ، وهو أن التمساح لا دبر له ، وما يأكله يتكون فى بطنه دودا ، فاذا آذاه ذلك خرج الى البر فاستلقى على قفاه فاغرا فاه ، فينقض اليه طير الماء — وقد اعتاد منه ذلك — فيأكل ما يظهر من جوفه من ذلك الدود العظيم ، وتكون تلك الدويبة قد كمنت فى الرمل ، فتثب الى حلقه وتصير الى جوفه ، وتخرج فيخبط بنفسه الى الأرض ، ويطلب قعر النيل ، حتى تأتى الدويبة على حشو جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج . وربما قتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزي رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء ٤

كتاب التحرير



«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وهذه الدوبية تكون نحو الذراع ، على صورة ابن عرس ، ذات قوائم شتى ومخاب .

ويقال كان بجبال فسطاط مصر طلسم معمول بها ، وكان التمساح لا يستطيع القرب حوله ، بل كان اذا بلغ حدوده انقلب واستلقى على ظهره فيعبث به الصبيان الى أن يجاوز نهاية المدينة ، ثم يعود مستويا ويعود الى طباعه ، ثم ان هذا الطلسم كسر فبطل فعله .

ويقال ان التمساح يبيض كبيض الاوز ، وربما تولد فيه جرادين صغار ، ثم تكبر حتى يبلغ طولها عشرة أذرع ، وتزداد طولا كلما عمرت . والتمساح يرتعش ستين مرة فى حركة واحدة ومحل واحد ، وسنه اليسرى نافعة للنافض .

ذكر طرف من تقدمة المعرفة بحال النيل فى كل سنة

قال ابن رضوان فى شرح الأربع : وقد يحتاج أمر النيل الى شروط :

منها أن تكون الأمطار متوالية فى نواحى الجنوب قبل مده وفى وقت مده ، ولذلك وجب أن يكون النيل — متى كانت الزهرة وعطارد مقترنين فى مدخل الصيف — كثير الزيادة لرطوبة الهواء ، ومتى كان المريخ أو بعض المنازل فى ناحية الجنوب فى مدخل الربيع * أو الصيف ، كان قليلا لقلة الأمطار فى تلك الناحية .

ومنها أن تكون الرياح شمالية لتوقف جريه ، فأما الجنوبيه فانها تسرع انحداره ولا تدعه يلبث . فاذا علمت ما يكون فى ناحية الجنوب من كثرة الأمطار أو قلتها ، وفى ناحية مصر من هبوب الرياح فى فصلى الربيع والصيف ، فقد علمت حال النيل كيف يكون ، وتعلم من حاله ما يعرض بمصر من الحصب والجدب .

وقال أبو سامر بن يونس المنجم عن بطليموس : اذا أردت أن تعلم مقدار النيل فى الزيادة والنقصان ، فانظر حين تحل الشمس برج السرطان الى الزهرة وعطارد والقمر : فان كانت أحوالها جيدة وهى برية من النحوس ، فالنيل يمتد وتبلغ الحاجة به ، وان كانت أحوالها بخلاف ذلك وهى ضعيفة ، فانكس القول ، فان ضعف بعضها وصلح ابعض ، توسط الحال فى النيل . والضابط أن قوة الثلاثة تدل على تمام النيل ، وضعفها على توسطه ، وانتحاسها أو احتراقها أو وقوعها فى بعدها الأبعد من الأرض على النقص وأنه قليل جدا ، الا أن احتراق الزهرة فى برج الأسد يستنزل الماء من الجنوب .

وقال أبو معشر : ينظر عند انتقال الشمس الى برج السرطان للزهرة وعطارد والقمر : فان كانت فى سيرها الأكبر فان زيادة النيل عظيمة، وان كانت فى سيرها الأوسط فاعرف كم أكثر مسيرها وكم أقله وانسبه بحسب ما تراه ، وان كانت بطيئة السير فزيادة النيل قليلة ، وان اختلف مسير هذه الثلاثة فكان بعضها فى مسيره الأكبر وبعضها بطىء السير . فغلب أقواها وامزج الدلالة ، وقل بحسب ذلك .

(*) ص٦٧ جـ١ ، ط. بولاق .

وقالت القبط : ينظر أول يوم من شهر برمودة ، ما الذى يوافقه من أيام الشهر العربى ، فما كان من الأيام ، فزد عليه خمسة وثمانين ، فما بلغ خذ سدسه فانه يكون عدد مبلغ النيل من الأذرع فى تلك السنة .

قالوا : ومن المعتبر أيضا فى أمر النيل أن تنظر اليوم الذى تفطر فيه النصارى اليعاقبة بمصر ، وما بقى من الشهر العربى فزد عليها أربعا وثلاثين ، فما بلغ أسقطه اثنى عشر ، فان بقى بعد ذلك الاسقاط من العدد زيادة على اثنى عشر فهو زيادة النيل من الأذرع فى تلك السنة مع الاثنى عشر ، وان بقى اثنا عشر فهى سنة ردية .

قالوا : واذا كان العاشر من الشهر العربى موافقا لشهر أبيب ، والقمر فى برج العقرب ، فان كان مقارنا لقلب العقرب كان النيل مقصرا والا فهو جيد .

قالوا : وينظر أول يوم من بئونة ، فان هبت الريح شمالا فى بكرة النهار كان النيل عاليا ، وان هبت وسط النهار فانه متوسط ، وان هبت آخر النهار كان نيلا قاصرا ، وان لم تهب لم يطلع تلك السنة . وقيل يعتبر هكذا أول خميس من بئونة .

ومن المعتبر الذى جربته أنا سنين ، والخبرنى بعض شيوخنا أنه جربه وأخبره به من جربه فصح ، أن ينظر أول يوم من مسرى كم مبلغ النيل ، فزد عليه ثمانية أذرع ، فما بلغ فهو زيادة النيل فى تلك السنة .

ومما اشتهر عند أهل مصر — وجربته أيضا فصح — أن يؤخذ قبل عيد ميكائيل يوم فى وقت الظهر من الطين الذى مر عليه ماء النيل قطعة زنتها ستة عشر درهما سواء ، وترفع فى اناء مغطى الى بكرة يوم عيد ميكائيل ، وتوزن ، فما زاد على وزنها من الخراريب كان مبلغ النيل فى تلك السنة بقدر عدد تلك الخراريب ، لكل خروبة ذراع .

ومن ذلك أخذ شىء من دقيق القمح وعجنه بماء النيل فى اناء فخار ، وقد عمل من طين مر عليه النيل ، وتركه مغطى طول ليلة عيد ميكائيل ، فاذا وجد بكرة يوم العيد قد اختمر بنفسه كان النيل تاما وافيا ، وان وجد لم يختمر دل على قصور هذا النيل .

ثم ينظرون مع ذلك بكرة يوم عيد ميكائيل الى الهواء ، فان هبت طيابا فهو نيل كبير ، وان هبت غير طياب فهو نيل مقصر ، لا سيما ان هبت مريسيا فانه يكون نيلا غير كاف . والشأن عندهم انما هو فى دلالة العلامات الثلاث على شىء واحد ، فأما اذا اختلف فالحكم لا يكاد يصح .

وقال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» : وذكر أصحاب التجارب أنه اذا تقدم فعمد الى لوح ، وزرع عليه من كل زرع ونبات ، حتى اذا كانت الليلة الخامسة والعشرون من شهر تموز — أحد شهور الروم وهى آخر أيام الباحور — ثم وضع اللوح بارزا لطلوع الكواكب وغروبها ، لا يحول بينه وبين السماء شىء ، فان كل ما لا يزكو فى تلك السنة من الزروع يصبح أصفر ، وما يصلح ريعه منها يبقى أخضر . وكذلك كانت القبط تفعل ذلك .

وقد جربت أنا — على ما أفادنيه بعض الكتاب — أنه اذا حصل مطر ، ولو قل ، فى شهر بابة ، ينظر ما ذلك اليوم من الشهر القبطى ، فانه يبلغ سعر الويبة القمح تلك السنة من الدراهم بعدد ما مضى من أيام شهر بابة . وأول ما جربت هذا أنه وقع مطر فى بابة يوم الخميس الخامس عشر منها ، فبيعت الويبة تلك السنة بخمسة عشر درهما .

ذكر عيد الشهيد

ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد ، وكان من أنزه فرج مصر ، وهو اليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط * ، ويزعمون أن النيل بمصر لا يزيد فى كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتا من خشب ، فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى ، ويكون ذلك اليوم عيدا ترحل اليه النصارى من جميع القرى ، ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها .

ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم ، وينصبون الخيم على شطوط النيل وفى الجزائر ، ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق ، الا ويخرج لهذا العيد . فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم الا خالقهم ، وتصرف أموال لا تنحصر ، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق ، وتثور فتن ، وتقتل أناس ، ويباع من الخمر خاصة فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهبا ، وباع نصرانى فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر .

وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائما بناحية شبرا من ضواحى القاهرة ، وكان اعتماد فلاحى شبرا دائما فى وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر فى عيد الشهيد .

ولم يزل الحال ، على ما ذكر من الاجتماع ، كذلك الى أن كانت سنة اثنتين وسبعمائة — والسلطان يومئذ بديار مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والقائم بتدبير الدولة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وهو يومئذ أستادار السلطان ، والأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة بديار مصر — فقام الأمير بيبرس فى ابطال ذلك قياما عظيما ، وكان اليه أمور ديار مصر هو والأمير سلار ، والناصر تحت حجرهما لا يقدر على شبع بطنه الا من تحت أيديهما .

فتقدم أمر الأمير بيبرس ألا يرمى أصبع فى النيل ، ولا يعمل له عيد ، وندب الحجاب ووالى القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرا على عادتهم . وخرج البريد الى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب الى الولاة باجهار النداء واعلانه فى الأقاليم بألا يخرج أحد من النصارى ، ولا يحضر لعمل عيد الشهيد .

فشق ذلك على أقباط مصر كلهم ، من أظهر الاسلام منهم وزعم أنه مسلم ، ومن هو باق على نصرانيته ، ومشى بعضهم الى بعض .

وكان منهم رجل يعرف بالتاج بن سعيد الدولة يعانى الكتابة ، وهو يومئذ فى خدمة

(*) ص٦٨ جـ١ ، ط. بولاق »

الأمير بيبرس ، وقد احتوى على عقله ، واستولى على جميع أموره ، كما هي عادة ملوك مصر وأمرائها من الأتراك في الانقياد لكتابهم من القبط ، سواء منهم من أسر الكفر ومن جهر به .

وما زال الأقباط بالتاج الى أن تحدث مع مخدومه الأمير بيبرس في ذلك ، وخيل له من تلف مال الخراج اذا بطل هذا العيد ، فان أكثر خراج شبرا انما يحصل من ذلك ، وقال له : متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل أبدا ، ويخرب اقليم مصر لعدم طلوع النيل ... ونحو ذلك من هتف القول ، وتمنيق المكر .

فثبت الله الأمير بيبرس وقواه حتى أعرض عن جميع ما زخرفه من القول ، واستمر على منع عمل العيد وقال للتاج : ان كان النيل لا يطلع الا بهذا الأصبع فلا يطلع ، وان كان الله سبحانه هو المتصرف فيه ، فنكذب النصارى .

فبطل العيد من تلك السنة ، ولم يزل منقطعا الى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة .

وعمر الملك الناصر محمد بن قلاوون الجسر في بحر النيل ، ليرمى قوة التيار عن بر القاهرة الى ناحية الجيزة ، كما ذكر في موضعه من هذا الكتاب .

فطلب الأمير يلبغا اليحياوي والأمير الطنبغا المارديني من السلطان أن يخرجا الى الصيد ويغيبا مدة ، فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه في محبتهما ، وأراد صرفهما عن السفر فقال لهما : نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفرجكما عليه أنزه من خروجكما الى الصيد — وكان قد قرب أوان وقت عيد الشهيد — فرضيا منه بذلك ، وأشيع في الاقليم اعادة عمل عيد الشهيد .

فلما كان اليوم الذي كانت العادة بعمله فيه ، ركب الأمراء النيل في الشخاتير بغير حراريق ، واجتمع الناس من كل جهة ، وبرز أرباب الغناء وأصحاب اللهو والخلاعة فركبوا النيل ، وتجاهروا بما كانت عادتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات ، وتوسع الأمراء في تنوع الأطعمة والحلاوات وغيرها توسعا خرجوا فيه عن الحد في الكثرة البالغة ، وعم الناس منهم ما لا يمكن وصفه لكثرته ، واستمروا على ذلك ثلاثة أيام .

وكانت مدة انقطاع عمل عيد الشهيد منذ أبطله الأمير بيبرس الى أن أعاده الملك الناصر ستا وثلاثين سنة . واستمر عمله في كل سنة بعد ذلك الى أن كانت سنة خمس وخمسين وسبعمائة تحرك المسلمون على النصارى ، وعملت أوراق بما قد وقف من أراضي مصر على كنائس النصارى ودياراتهم ، وألزم كتاب الأمراء بتحرير ذلك وحمل الأوراق الى ديوان الأحباس .

فلما تحررت الأوراق ، اشتملت على خمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الديارات والكنائس ، فعرضت على أمراء الدولة القائمين بتدبير الدولة في أيام الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون — وهم الأمير شيخو العمري ، والأمير صرغتمش ، والأمير طاز — فتقرر الحال على أن ينعم بذلك على الأمراء زيادة على اقطاعاتهم ، وألزم النصارى بما يلزمهم من الصغار ، وهدمت لهم عدة

كنائس ، كما هو مذكور في موضعه من هذا الكتاب * عند ذكر الكنائس .

فلما كان العشر الأخير من شهر رجب من السنة المذكورة ، خرج الحاجب والأمير علاء الدين على بن الكوراني والي القاهرة الى ناحية شبرا الخيام من ضواحي مصر ، فهدمت كنيسة النصارى ، وأخذ منها أصبع الشهيد في صندوق ، وأحضر الى الملك الصالح ، وأحرق بين يديه في الميدان ، وذرى رماده في البحر حتى لا يأخذه النصارى ، فبطل عيد الشهيد من يومئذ الى هذا العهد ، ولله الحمد والمنة .

ذكر الخلجان التي شقت من النيل

اعلم أن النيل اذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان وترع يتخرق الماء فيها يمينا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجرى النيل . وأكثر الخلجان والترع والجسور والأخوار بالوجه البحري ، وأما الوجه القبلي — وهو بلاد الصعيد — فان ذلك قليل فيه ، وقد ذهبت معالمه ودرست رسومه من هنالك .

والمشهور من الخلجان : خليج منجا ، وخليج منف ، وخليج المنهى ، وخليج أشموم طناح ، وخليج سردوس ، وخليج الاسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج القاهرة ، وبحر أبي المنجا ، والخليج الناصري ظاهر القاهرة .

(*) ص٦٦ جـ١ ، ط. بولاق .

قال ابن عبد الحكم ، عن أبي رهم السماعي ، قال : كانت مصر ذات قناطر وجسور بتقدير وتدبير ، حتى ان الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا ، فذلك قوله تعالى عما حكى عن قول فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ، أفلا تبصرون » .

ولم يكن يومئذ في الأرض ملك أعظم من ملك مصر ، وكانت الجنات بحافتي النيل من أوله الى آخره في الجانبين معا جميعا — ما بين أسوان الى رشيد ، وسبع خلج : خليج الاسكندرية ، وخليج سخا ، وخليج دمياط ، وخليج منف ، وخليج الفيوم ، وخليج المنهى ، وخليج سردوس — جنات متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، والزرع ما بين الجبلين من أول مصر الى آخرها مما يبلغه الماء .

وكان جميع أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا ، لما قدروا ودبروا من قناطرها وخلجها وجسورها ، فذلك قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم » .

قال : والمقام الكريم المنابر ، كان بها ألف منبر .

خليج سخا

وخليج سخا حفره ندارس بن صا بن قبطيم ابن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح ، وهو أحد ملوك القبط القدماء الذين ملكوا مصر في الدهر الأول .

قال ابن وصيف شاه : تدارس الملك أول من ملك الأحياز كلها بعد أبيه صا ، وصفا له ملك مصر . وكان تدارس محتنكا مجربا ، ذا أيد وقوة ومعرفة بالأمور ، فأظهر العدل ، وأقام الهياكل وأهلها قياما حسنا ، ودبر جميع الأحياز . ويقال انه الذى حفر خليج سخا ، وارتفع مال البلد على يده مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار .

وقصده بعض عمالقة الشام ، فخرج اليه واستباحه ، ودخل فلسطين وقتل بها خلقا ، وسبى بعض حكمائها وأسكنهم مصر ، وهابته الملوك .

وعلى رأس ثلاثين من ملكه طمع السودان من الزنج والنوبة فى أرضه ، وعاثوا وأفسدوا . فجمع الجيوش من أعمال مصر ، وأعد المراكب ، ووجه قائدا يقال له قلوطس فى ثلثمائة ألف ، وقائدا آخر فى مثلها ، ووجه فى النيل ثلثمائة سفينة ، فى كل سفينة كاهن يعمل أعجوبة من العجائب . ثم خرج فى جيوش كثيرة فلقى جمع السودان — وكانوا فى زهاء ألف ألف — فهزمهم وقتل أكثرهم أبرح قتل ، وأسر منهم خلقا ، وتبعتهم جيوشه حتى وصلوا الى أرض الفيلة من بلاد الزنج ، فأخذوا منها عدة ومن النمور والوحوش ، وساقوها الى مصر فذللها . وعمل على حدود بلده منارا وزبر عليه مسيره وظفره والوقت الذى سار فيه .

ومات بمصر ، فدفن فى ناووس نقل اليه شيئا كثيرا من أصنام الكواكب ، ومن الذهب والجوهر والصنعة والتماثيل ، وزبر عليه اسمه وتاريخ هلاكه ، وجعل عليه طلسمات تمنع منه ، وعهد الى ابنه ماليق بن تدارس .

خليج سردوس

حفره هامان ، قال ابن وصيف شاه : ظلما ابن قومس الملك جلس على سرير الملك ، وحاز جميع ما كان فى خزائنهم ، وهو الذى تذكر القبط أنه فرعون موسى ، فأما أهل الأثر فيزعمون أنه الوليد بن مصعب ، وأنه من العمالقة ، وذكروا أن الفراعنة سبعة .

وكان ظلما — فيما حكى عنه — قصيرا ، طويل اللحية ، أشهل العينين ، صغير العين اليسرى ، فى جبينه شامة ، وكان أعرج .

وزعم قوم أنه من القبط ، ونسب أهل بيته مشهور عندهم .

وذكر آخرون أنه دخل منف على أتان عليها نطرون جاء ليبيعه ، وكانوا قد اضطربوا فى تولية الملك ، فرضوا أن يملكوا عليهم أول من يطرأ من الناس ، فلما رأوه ملكوه عليهم .

ولما جلس فى الملك بذل الأموال وقرب من أطاعه ، وقتل من خالفه ، فاعتدل أمره . واستخلف هامان ، وكان يقرب منه فى نسبه ، وأثار بعض الكنوز وصرفها فى بناء المدائن والعمارات ، وحفر خلجانا كثيرة ، ويقال انه الذى حفر خليج سردوس ، وكان كلما عرجه الى قرية من قرى الحوف حمل اليه أهلها

مالا ، حتى اجتمع من ذلك مال كثير ، فأمر برده على أهله .

وقال ابن عبد الحكم * عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : ان فرعون استعمل هامان على حفر خليج سردوس ، فلما ابتدأ حفره أتاه أهل كل قرية يسألونه أن يجرى الخليج تحت قريتهم ويعطونه مالا .

قال : وكان يذهب به الى هذه القرية من نحو الشرق ، ثم يرده الى قرية من نحو دبر القبلة ، ثم يرده الى قرية فى الغرب ، ثم يرده الى أهل قرية فى القبلة ، ويأخذ من أهل كل قرية مالا حتى اجتمع له من ذلك مائة ألف دينار ، فأتى بذلك يحمله الى فرعون ، فسأله عن ذلك فأخبره بما فعل فى حفره .

فقال له فرعون : ويحك ، انه ينبغى للسيد أن يعطف على عباده ، ويفيض عليهم ، ولا يرغب فيما بأيديهم ، رد على أهل كل قرية ما أخذت منهم .

فرده كله على أهله .

قال : فلا يعلم بمصر خليج أكثر انعطافا منه ، لما فعل هامان فى حفره ، وكان هامان نبطيا .

خليج الاسكندرية

قال ابن عبد الحكم : ويقال ان الذى بنى منارة الاسكندرية قلبطرة الملكة ، وهى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الاسكندرية ، ولم يكن يدخلها الماء ، كان يعدل من قرية يقال لها كسا قبالة الكريون ، فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية ، وهى التى بلطت قاعته .

وقال الكندى : ان الحارث بن مسكين قاضى مصر حفر خليج الاسكندرية .

وقال الأسعد بن مماتى فى كتاب « قوانين الدواوين » : خليج الاسكندرية عليه عدة ترع ، وطوله من فم الخليج ثلاثون ألف قصبة وستمائة قصبة ، وعرضه من قصبتين ونصف الى ثلاث قصبات ونصف . ومقام الماء فيه بالنسبة الى النيل : فان كان مقصرا قصرت مدة اقامته فيه ، وان كان عاليا أقام فيه ما يزيد على شهرين .

ورأيت جماعة من أهل الخبرة وذوى المعرفة يقولون : انه اذا عملت من قبالة منية تتيج الى تتيج زلاقة ، استقر الماء فيه صيفا وشتاء . ورأيت البحيرة جميعها وحوف ودمسيس والكفور الشاسعة وقد زرعت عليه القصب والقلقاس والنيلة وأنواع زراعة الصيفى ، وجرى مجرى بحر الشرق والمحلة ، وتضاعفت عليه البلاد ، وعظم ارتفاعها .

واقامة هذه الزلاقة ممكنة لوجود الحجارة فى ربوة ، والطوب فى البحيرة . وانهم قدروا ما يحتاج اليه فوجدوه يناهز عشرة آلاف دينار .

ويقال انه كان الماء فيه جاريا طول السنة ، وكان السمك فيه غاية من الكثرة بحيث تصيده الأطفال بالخرق ، فضمنه بعض الولاة بمال ، ومنع الناس من صيده ، فعدم منه السمك ، ولم ير بعد ذلك فيه سمكة ، فصار يخرج بالشباك .

(*) ص٧٠ جـ١ ، ط. بولاق .

خليج الفيوم والمنهى

مما حفره نبى الله يوسف الصديق عليه السلام عندما عمر الفيوم ، كما هو مذكور فى خبر الفيوم من هذا الكتاب . وهو مشتق من النيل ، لا ينقطع جريه أبدا ، واذا قابل النيل ناحية دورة سربام التى تعرف اليوم بدورة الشريف (يعنى ابن يغلن النائب فى الأيام الظاهرة بيبرس) تشعبت منه فى غربيه شعبة تسمى المنهى ، تستقل نهرا يصل الى الفيوم ، وهو الآن عرف ببحر يوسف ، وهو نهر لا ينقطع جريانه فى جميع السنة ، فيسقى الفيوم عامة سقيا دائما ، ثم ينجر فضل مائه فى بحيرة هناك .

ومن العجب أنه ينقطع ماؤه من فوهته ، ثم يكون له بلل دون المكان المندى ، ثم يجرى جريا ضعيفا دون مكان البلل ، ثم يستقل نهرا جاريا ، لا يقطع الا بالسفن ، ويتشعب منه أنهار ، وينقسم قسما يعم الفيوم يسقى قراه ومزارعه وبساتينه وعامة أماكنه . والله أعلم .

خليج القـاهرة

هذا الخليج بظاهر القـاهرة من جانبهـا الغربى ، فيما بينها وبين المقس ، عرف فى أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين ، وتسميه العامة اليوم الخليج الحاكى ، وبخليج اللؤلؤة .

وهو خليج قديم ، أول من حفره طوطيس ابن ماليا ، أحد ملوك مصر الذين سـكنوا مدينة منف ، وهو الذى قدم ابراهيم الخليل صلوات الله عليه فى أيامه الى مصر ، وأخذ منه امرأته سـارة وأخدمهـا هاجر أم اسماعيـل صلوات الله عليهما . فلما أخرجها ابراهيم هى وابنها اسماعيل الى مكة ، بعثت الى طوطيس تعرفه أنها بمكان جدب وتستغيثه ، فأمر بحفر هذا الخليج ، وبعث اليها بالسفن تحمل الحنطة وغيرها الى جدة ، فأحيا بلد الحجاز .

ثم ان اندرومانوس الذى يعرف بإيليا ، أحد ملوك الروم بعد الاسـكندر بن فلبس المجدونى ، جدد حفر هذا الخليج ، وسارت فيه السفن وذلك قبل الهجرة النبـوية بنيف وأربعمائة سنة .

ثم ان عمرو بن العاص رضى الله عنه جدد حفره لما فتح مصر ، وأقام فى حفره ستة أشهر ، وجرت فيه السفن بحمل الميرة الى الحجاز ، فسمى خليج أمير المؤمنين (يعنى عمـر بن الخطاب رضى الله عنه ، فانه هو الذى أشار بحفره) .

ولم تزل تجرى فيه السفن من فسـطاط مصر الى مدينة القلزم التى كانت على حافة البحر الشرقى ، حيث الموضع الذى يعـرف اليوم على البحر بالسـويس ، وكان يصب ماء النيل فى البحر من عند مدينة القلزم ، الى أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بطمه فى سنة خمسين ومائة فطم ، وبقى منه ما هو موجود الآن . وسيأتى الكلام عليه مبسوطا ، ان شاء الله تعالى ، عند ذكر ظواهر القاهرة من هذا الكتاب .

بحر أبى المنجا

هذا الخليج تسميه العامة بحر أبى المنجـا الذى حفره الأفضل بن أمير الجيـوش * فى سنة ست وخمسمائة . وكان على حفـره أبو المنجا بن شعيا اليهودى ، فعرف به . وقد ذكر خبر هـذا الخليج عنـد ذكر مناظر الخلفاء ومواضع نزههم من هذا الكتاب .

الخليج الناصرى

هذا الخليج فى ظاهر المقس ، حفره الناصر محمـد بن قلاوون فى سـنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وقد ذكر فى موضعـه من هـذا الكتاب .

ذكر ما كانت عليه أرض مصر فى الزمن الأول

قال المسـعودى : وقد كانت أرض مصر — على ما زعم أهل الخبرة والعناية بأخبار شأن العالم — يركب أرضها ماء النيـل ، وينبسـط عـلى بلاد الصعيـد الى أسفل الأرض ، وموضع الفسطاط فى وقتنا هذا . وكان بدء ذلك من موضع يعرف بالجنادل بين أسوان والنوبة ، الى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه ، وما يتصـل من النوبة بتياره من موضع الى موضع ، فنضب الماء عن بعض المواضع من بلاد مصر ، وسـكن الناس بلاد مصر ، ولم يزل الماء ينضب عن أرضها قليلا قليلا ، حتى امتلأت أرض مصر من المدن والعمائر ، وطرقوا للماء ، وحفروا له الخلجان ، وعقدوا فى وجهه المسنيات ، الى أن خفى ذلك على ساكنيها ، لأن طول الزمان ذهب بمعـرفة أول سـكناهم كيف كان ... انتهى .

(*) ص٧١ جـ١ ، ط. بولاق .

قلت : ومما ذكر أرسطاطاليس فى كتـاب « الآثار العلوية » أن أرض مصر كان النيل ينبسط عليها فيطبقها كأنها بحر ، ولم يزل الماء ينضب عنها ، وييبس ما علا منها أولا فأولا ويسـكن ، الى أن امتـلأت بالمدن والقرى والناس .

ويقال ان الناس كانوا قبل سـكنى مدينة منف يسـكنون بسفح الجبل المقطم فى منازل كثيرة نقروها ، وهى المغاير التى فى الجبـل المقابل لمنف من قبلى المقطم ، فى الجبل المتصل بدير القصير الذى يعرف بدير البغل ، المطل على ناحية طرا .

ومن وقف عند أهرام نهيا ، رأى المغـائر فى الشرقى وبينهما النيل ، ومن صعد من طرا الى الجبـل وسار فيه دخلها . وهى مغـاير متسعة ، وفيها مغائر تنفذ الى القلزم تسـمى المغارة منها أهل مدينة ، واذا دخلها أحد ولم يهتد على ما يدله على المخرج هلك فى تحيره .

ويقال كانت مصر جرداء لا نبـات بهـا ، فأقطعهـا متوشلخ بن أخنـوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينـان بن أنوس بن شيـث بن آدم لطائفة من أولاده . فلما نزلوها وجدوا نيلها قد سـد ما بين الجبلين ، فنضب الماء عن أرض زروعها ، فأخرجت الأرض بركاتها .

ثم بعد زمان أخذها عنقام الأول بن عرباب ابن آدم بالغلبة ، ونسل بها خلقا عظيما ، وجهز لقتال أولاد برد سبعين ألف مقاتل ، وحفر من البحر الى الجبل نهرا عرضه أربعون قصبة ليمنع من يأتيه ، فأتاه بنو برد فلم يجدوا اليه سبيلا ، ففزعوا الى الله تعالى ، فبعث على أرض مصر نارا .

ذكر اعمال الديار المصريه وكورها

اعلم أن أرض مصر كانت فى الزمن الأول الغابر مائة وثلاثا وخمسين كورة ، فى كل كورة مدينة وثلثمائة وخمس وستون قرية . فلما عمرت أرض مصر بعد بخت نصر ، صارت على خمس وثمانين كورة ، ثم تناقصت حتى جاء الاسلام وفيها أربعون عامرة بجميع قراها لا تنقص شيئا .

ثم استقرت مصر كلها فى الجملة على قسمين : الوجه القبلى ، وهو ما كان فى جهة الجنوب من مدينة مصر ، والوجه البحرى وهو ما كان فى شمال مدينة مصر .

وقد قسمت الأرض جميعها — قبليها وبحرها — على ستة وعشرين عملا ، وهى : الشرقية ، والمرتاحية ، والدقهلية ، والايوانية ، وثغر دمياط .

الوجه البحرى : جزيرة قوسنا ، والغربية ، والسنودية ، والدنجاوية ، والمنوفية ، والتراوية ، وفوه ، والمزاحميتين ، وجزيرة بنى نصر ، والبحيرة ، واسكندرية وضواحيها، وحوف دمسيس .

والوجه القبلى : الجيزة ، والأطفيحية ، والبوصيرية ، والفيومية ، والبهنساوية ، والأشمونين ، والمنفلوطية ، والأسيوطية ، والاخميمية ، والقوصية .

وهى أيضا ثلاثون كورة ، وهى :

كورة الفيوم : وفيها مائة وست وخمسون قرية ، ويقال انها كانت ثلثمائة وستين قرية .

وكورة منف ووسيم : خمس وخمسون قرية .

وكورة الشرقية ، وتعرف بالأطفيحية : سبع عشرة قرية ، وقرى اهناس ومنها قِمَن ثمانى قرى .

وكورتا دلاص وبوصير ست قرى .

وكورة اهناس خمس وتسعون قرية ، سوى الكفور .

وكورة البهنسا مائة وعشرون قرية .

وكورة القشن سبع وثلاثون قرية .

وكورة طحا سبع وثلاثون قرية .

وحوز سنودة ثمان قرى .

وكورة الأشمونين مائة وثلاث وثلاثون قرية .

وكورة أسفل أنصنا احدى عشرة قرية .

وكورة سيوط سبع وثلاثون قرية .

وكورة شطب ثمان قرى .

وكورة أعلى أنصنا ثنتا عشرة قرية .

وكورة قهقوه سبع وثلاثون قرية .

وكورة أخميم والدوير ثلاث وستون قرية .

وكورة السبابة والواحات ثلاث وستون قرية ، سوى الكفور

وكورة هو عشرون قرية .

وكورة فاو ثمان قرى .

وكورة قنا سبع قرى .

وكورة دندرة عشر قرى .

وكورة قفط ثنتان وعشرون قرية .

وكورة الأقصر خمس قرى .

وكورة اسنا خمس قرى .

وكورة أرمنت سبع قرى .

وكورة * أسوان سبع قرى ...

فجميع قرى الصعيد ألف وثلاث وأربعون قرية ، سوى المنى والكفور فى ثلاثين كورة .

كورة أسفل الأرض (الحوف الشرقى) : خمس وستون قرية .

كورة أتريب مائة وثمان قرى ، سوى المنى والكفور .

كورة بنو : سبع وثمانون قرية ، سوى المنى والكفور .

كورة نما مائة وخمسون قرية ، سوى المنى والكفور .

كورة بسطة تسع وثلاثون قرية .

كورة طرابية ثمان وعشرون قرية ، منها السدير والهامة وفاقوس .

كورة هربيط ثمان عشرة قرية ، سوى المنى والكفور .

كورة صا وابليل ست وأربعون قرية ، منها سنهور والفرما والعريش ...

(*) ص٧٢ جـ١ ، ط. بولاق .

فجميع قرى الحوف الشرقى خمسمائة وتسع وعشرون قرية ، سوى المنى فى سبع كور .

بطن الريف : كورتا دمسيس ومنوف مائة وأربع قرى ، سوى المنى والكفور .

كورة تاطورة منوف : اثنتان وسبعون قرية ، سوى المنى والكفور .

كورة سخا مائة وخمس عشرة قرية .

كورة بيدة والافراحون ثلاث وعشرون قرية ، سوى المنى والكفور .

كورة البشرود أربع وعشرون قرية .

كورة نقرا ثنتا عشرة قرية ، سوى المنى .

كورة بيا وبوصير ثمان وثمانون قرية ، سوى المنى والكفور .

كورة سنود مائة وثمان وعشرون قرية ، سوى المنى والكفور .

كورة نوسا احدى وعشرون قرية ، سوى المنى .

كورة الأوسية أربعون قرية ، سوى المنى .

كورة النجوم أربعون قرية ، سوى المنى .

تنيس ودمياط ثلاث عشرة قرية ، سوى المنى ، وهى شىء كثير .

الاسكندرية (الحوف الغربى) : كورة صا ثلاث وسبعون قرية ، سوى المنى والكفور .

كورة شباس اثنان وعشرون قرية ، سوى المنى والكفور .

كورة اليدقون ثلاث وأربعون قرية ، سوى المنى والكفور .

حيز اليدقون تسع وعشرون قرية ، سوى المنى والكفور .

الشراك : تسع قرى .

كورة ترنوط ثمان قرى .

كورة خربتا اثنان وستون قرية ، سوى المنى والكفور .

كورة قرطسا اثنان وعشرون قرية ، سوى المنى والكفور .

كورتا مصيل والمليدس تسع وأربعون قرية ، سوى المنى .

كورتا اخنور ورشيد سبع عشرة قرية .

البحيرا والحصص بالاسكندرية ، والكرومات والبعل ومريوط ومدينة الاسكندرية ولوبية ومراقية : مائة وأربع وعشرون قرية ، سوى المنى ...

فالحوف الغربى أربعمائة وتسع وأربعون قرية ، سوى المنى فى ثلاث عشرة كورة .

قال المسبحى فى تاريخه : تصير قرى مصر أسفل الأرض ألفا وأربعمائة وتسعا وثلاثين قرية ، ويكون جميع ذلك بالصعيد وأسفل الأرض ألفين وثلثمائة وخمسا وتسعين قرية .

وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى : أرض مصر قسمين ، فمن ذلك صعيدها ، وهو ما يلى مهب الجنوب منها ، وأسفل أرضها ، وهو ما يلى مهب الشمال منها .

فقسم الصعيد على ثمان وعشرين كورة . فمن ذلك : كورة الفيوم كلها ، وكورتا منف ووسيم ، وكورة الشرقية ، وكورتا دلاص وبوصير ، وكورة اهناس ، وكورتا الفشن والبهنسا ، وكورة طحا ، وحيز سنودة ، وكورة بوبط ، وكورتا الأشمونين وأسفل أنصنا وأعلاها ، وشطب قوص قام ، وكورة سيوط ، وكورة قهقوه ، وكورتا اخميم والدير وابشاية ، وكورة هو وأقنا وفاو ودندرة ، وكورة قفط والأقصر ، وكورة اسنا وأرمنت ، وكورة أسوان ... فهذه كور الصعيد .

ومن ذلك كور أسفل الأرض ، وهى خمس وعشرون كورة (وفى نسخة ثلاث وثلاثون كورة ، وفى نسخة ثمان وثلاثون كورة) .
فمن ذلك كور الحوف الشرقى : كورتا أتريب وعين شمس ، وكورتا بنى ونمى ، وكورتا بسطة وطرابية ، وكورة هربيط ، وكورة صا وابليل ، وكورة الفرما والعريش والجفار

ومن ذلك كور بطن الريف من أسفل الأرض : كورة بنا وبوصير ، وكورتا سمنود وبوسا ، وكورتا الأوسية والنجوم ، وكورة دقهلة ، وكورتا تيس ودمياط .

ومنها كورة الجزيرة من أسفل الأرض ، وكورة دمسيس ومنوف ، وكورة طوه ومنوف ، وكورة سخا وبيدة والأفراحون ، وكورة مقين وديصا ، وكورة البشرود .

ومن ذلك كور الحوف الغربى : كورة صا وكورة شباس ، وكورة اليدقون وحيزها ، وكورة الخيس والشراك ، وكورة خربتا ، وكورة قرطسا ومصيل والمليدس ، وكورتا اخنا والبحيرة ورشيد ، وكورة الاسكندرية ، وكورة مريوط ، وكورة لوبية ومراقية .

ومن كور القبلة كرى الحجاز ، وهى كورة الطور وفاران ، وكورة راية والقلزم ، وكورة

أيلة وحيزها ، ومدين وحيزها ، والعويند ، والحوراء وحيزها ، ثم كورة بدا وشغب .

وذكر من له معرفة بالخراج وأمر الديوان أنه وقف على جريدة عتيقة بخط ابن عيسى بقطر بن شفا — الكاتب القبطى المعروف بالبولس ، متولى خراج مصر للدولة الاخشيدية — يشتمل على ذكر كور مصر وقراها الى سنة خمس وأربعين وثلثمائة : ان قرى مصر بالصعيدين وأسفل الأرض ألفان وثلثمائة وخمس وتسعون قرية ، منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية ، وبأسفل الأرض ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية ، وهذا عددها فى الوقت الذى جردت فيه الجرايد المذكورة ، وقد تغيرت بعد ذلك بخراب ما خرب منها .

وقال * ابن عبد الحكم ، عن الليث بن سعد رضى الله عنه : لما ولى الوليد بن رفاعة مصر ، خرج ليحصى عدة أهلها وينظر فى تعديل الخراج عليهم ، فأقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد ، حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الكتاب والأعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير ، وثلاثة أشهر بأسفل الأرض ، وأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية ، فلم يحصر فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، يكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل .

والذى استقر عليه الحال فى دولة الناصر محمد بن قلاوون أن الوجه القبلى تسعة أعمال ، وهى عمل قوص — وهو أجلها ، ومنه أسوان وغرب قمولة — وعمل أخميم ، وعمل سيوط ، وعمل منفلوط ، وعمل الأشمونين — وبها الطحاوية — وعمل البهنساوية الغربى ، وهو عبارة عن قرى على غربى المنهى المار الى الفيوم ، وعمل الفيوم ، وعمل أطفيح ، وعمل الجيزة .

والوجه البحرى ستة أعمال : عمل البحيرة ، وهو متصل البر بالاسكندرية وبرقة .

وعمل الغربية جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين ، وهما : البحر المار مسكبه عند دمياط ويسمى الشرقى ، والبحر الثانى مسكبه عند رشيد ويسمى الغربى .

والمنوفية ، ومنها ابيار ، وجزيرة بنى نصر . وعمل قليوب ، وعمل الشرقية ، وعمل اسموم طناح ، ومنها الدقهلية والمرتاحية ، وهناك موقع ثغر البرلس وثغر رشيد والمنصورة .

وفى هذا الوجه الاسكندرية ودمياط ، ولا عمل لهما .

وأما الواحات فمنقطعة وراء الوجه القبلى ، مغاربة لم تعد فى الولايات ولا فى الأعمال ، ولا يحكم عليها والى السلطان ، وانما يحكم عليها من قبل مقطعها ، والله تعالى أعلم .

ذكر ما كان يعمل فى اراضى مصر
من حفر الترع وعمارة الجسور ونحو ذلك
من اجل ضبط ماء النيل وتصريفه فى اوقاته

قال ابن عبد الحكم ، عن يزيد بن أبى حبيب : وكانت فريضة مصر — بحفر خلجها ، واقامة جسورها ، وبناء قناطرها ،

(*) ص٧٢ جـ١ ، طـ بولاق .

وقطع جزائرها — مائة ألف وعشرين ألفا معهم المساحي والطوريات والاداة ، يعتقبون ذلك ، لا يدعونه شتاء ولا صيفا .

وعن أبي قبيل قال : زعم بعض مشايخ أهل مصر أن الذي كان يعمل به بمصر على عهد ملوكها انهم كانوا يقرون القرى في أيدي أهلها ، كل قرية بكراء معلوم لا ينقض عنهم الا في كل أربع سنين من أجل الظمأ وتنقل اليسار . فاذا مضت أربع سنين نقض ذلك ، وعدل تعديلا جديدا ، فيرفق بمن استحق الرفق ، ويزاد على من احتمل الزيادة ، ولا يحمل عليهم من ذلك ما يشق عليهم .

فاذا جبي الخراج وجمع ، كان للملك من ذلك الربع خالصا لنفسه ، يصنع به ما يريد .

والربع الثاني لجنده ، ومن يقوى به على حربه وجباية خراجه ودفع عدوه .

والربع الثالث في مصلحة الأرض ، وما تحتاج اليه من جسورها وحفر خلجها وبناء قناطرها ، والقوة للزارعين على زرعهم ، وعمارة أرضهم .

والربع الرابع يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها ، فيدفن ذلك لنائبة تنزل أو جائحة بأهل القرية ... فكانوا على ذلك .

والذي يدفن في كل قرية من خراجها هي كنوز فرعون التي يتحدث الناس بها أنها ستظهر ، فيطلبها الذين يتتبعون الكنوز .

وذكر أن بعض فراعنة مصر جبى خراج مصر اثنين وسبعين ألف ألف دينار ، وأن من عمارته أنه أرسل ويبة قمح الى أسفل الأرض والى الصعيد في وقت تنظيف الأرض والترع من العمارة ، فلم يوجد لها أرض فارغة تزرع فيها .

وذكر أنه كان عند تناهي العمارة يرسل بأربع ويبات برسيم الى الصعيد والى أسفل الأرض ، والى أي كورة ، فان وجد لها موضعا خاليا فزرعت فيه ، ضرب عنق صاحب الكورة .

وكانت مصر يومئذ عمارتها متصلة أربعين فرسخا في مثلها ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والبريد أربعة فراسخ ، فتكون عشرة برد في مثلها .

ولم تزل الفراعنة تسلك هذا المسلك الى أيام فرعون موسى ، فانه عمرها عدلا وسماحة ، وتتابع الظمأ ثلاث سنين في أيامه فترك لأهل مصر خراج ثلاث سنين ، وأنفق على نفسه وعساكره من خزائنه ، ولما كان في السنة الرابعة أضعف الخراج ، واستمر فاعتاض ما أنفق .

وكتب عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، الى عمرو بن العاص رضي الله عنه : أن اسأل المقوقس عن مصر ، من أين تأتي عمارتها وخرابها ؟

فسأله عمرو ، فقال له المقوقس : عمارتها وخرابها من وجوه خمسة : أن يستخرج خراجها في ابان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ، ويرفع خراجها في ابان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم ، ويحفر في كل سنة خلجانها ، وتسد ترعها وجسورها ، ولا يقبل مطل أهلها يريد البغي . فاذا فعل هذا فيها عمرت ، وان عمل فيها بخلافه خربت » .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما استبطأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه في الخراج ، كتب اليه أن ابعث الى رجلا من أهل مصر . فبعث اليه رجلا قديما من القبط ، فاستخبره عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن * مصر وخراجها قبل الاسلام ، فقال : ياأمير المؤمنين ، كان لايؤخذ منها شيء الا بعد عمارتها ، وعاملك لا ينظر الى العمارة ، وانما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها الا لعام واحد .

فعرف عمر رضي الله عنه ما قال ، وقبل من عمرو ما كان يعتذر به .

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه للمقوقس : أنت وليت مصر ، فبم تكون عمارتها ؟

فقال : بخصال : أن تحفروا خلجانها ، وتسد جسورها وترعها ، ولا يؤخذ خراجها الا من غلتها ، ولا يقبل مطل أهله ، ويوفى لهم بالشروط ، ويدر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا ، ويرتفع عن أهله المعاون والهدايا ليكون قوة لهم ... فبذلك تعمر ويرجى خراجها .

ويقال ان ملوك مصر من القبط كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام : قسم لخاصة الملك ، وقسم لأرزاق الجند ، وقسم لمصالح الأرض ، وقسم يدخر لحادثة تحدث فينفق فيها .

ولما ولي عبيد الله بن الحبحاب خراج مصر لهشام بن عبد الملك ، خرج بنفسه فمسح أرض مصر كلها — عامرها وغامرها ، مما يركبه النيل — فوجد فيها مائة ألف ألف فدان ، والباقي [1] استبحر وتلف . واعتبر مدة الحرث فوجدها ستين يوما ، والحراث يحرث خمسين فدانا . وكانت محتاجة الى أربعمائة ألف وثمانين ألف حراث .

(*) ص٧٤ ج١ ، ط. بولاق .

ذكر مقدار خراج مصر في الزمن الأول

قال ابن وصيف شاه : وكان منقاوس قسم خراج البلاد أرباعا : فربع للملك خاصة يعمل فيه ما يريد ، وربع ينفق في مصالح الأرض وما تحتاج اليه من عمل الجسور وحفر الخلج وتقوية أهلها على العمارة ، وربع يدفن لحادثة تحدث أو نازلة تنزل ، وربع للجند . وكان خراج البلد ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف ألف دينار ، وقسمها على مائة وثلاث كور بعدة الآلاف . ويقال ان كل دينار عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الاسلامية .

وهي اليوم خمس وثمانون كورة : أسفل الأرض خمس وأربعون كورة ، والصعيد أربعون كورة . وفي كل كورة كاهن يديرها ، وصاحب حرب .

وارتفع مال البلد على يد تدارس بن صا مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار ، وفي أيام كلكن بن خربتا بن ماليق بن تدارس مائة ألف ألف دينار وبضعة عشر ألف ألف دينار .

(١) وفي بعض النسخ « فدان » . ويقال ان احمد بن مدبر اعتبر ما يصلح للزراعة بأرض مصر ، فوجده أربعة وعشرين ألف ألف ، والباقي ... » .

ولما زالت دولة القبط الأولى من مصر ؟ وملكها العمالقة ، اختل أمرها . وكان فرعون الأول يجبيها تسعين ألف ألف دينار ، يخرج من ذلك عشرة آلاف ألف دينار لمصالح البلد ، وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح الناس — من أولاد الملوك ، وأهل التعفف — وعشرة آلاف ألف دينار لأولياء الأمر والجند والكتاب ، وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح فرعون ، ويكتزون لفرعون خمسين ألف ألف دينار .

وبلغ خراج مصر فى أيام الريان بن الوليد — وهو فرعون يوسف عليه السلام — سبعة وتسعين ألف ألف دينار ، فأحب أن يتمه مائة ألف ألف دينار ، فأمر بوجوه العمارات ، واصلاح جسور البلد ، والزيادة فى استنباط الأرض ، حتى بلغ ذلك وزاد عليه .

وقال ابن دحية : وجبيت مصر فى أيام الفراعنة فبلغت تسعين ألف ألف دينار بالدينار الفرعونى ، وهو ثلاثة مثاقيل من مثقالنا المعروف الآن بمصر ، الذى هو أربعة وعشرون قيراطا ، كل قيراط ثلاث حبات من قمح ، فيكون بحساب ذلك مائتى ألف ألف وسبعين ألف ألف دينار مصرية .

وذكر الشريف الجوانى أنه وجد فى بعض البرابى بالصعيد مكتوبا باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف عليه السلام — وهو الريان بن الوليد — من أموال مصر بحق الخراج مما يوجبه الخراج وسائر وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل والانصاف والرسوم الجارية ، من غير تأويل ولا اضطهاد ولامشاحة على عظيم فضل كان فى يد المؤدى لرسمه ، وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان نظرا للعاملين وتقوية لحالهم : من العين أربعة وعشرون ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار .

وذكر ما فيه كما فى خبر الحسن بن على الأسدى .

وقال الحسن بن على الأسدى : أخبرنى أبى قال : وجدت فى كتاب قبطى باللغة الصعيدية — مما نقل الى اللغة العربية — أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون مصر ، بحق الخراج الذى يوجد ، وسائر وجوه الجبايات لسنة كاملة على العدل والانصاف والرسوم الجارية ، من غير اضطهاد ولا مناقشة على عظيم فضل كان فى يد المؤدى لرسمه ، وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان رفقا بالعاملين وتقوية لهم : من العين أربعة وعشرين ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار من جهات مصر ، وذلك ما يصرف فى عمارة البلاد لحفر الخلج ، واتقان الجسور ، وسد الترع ، واصلاح السبل والسامة ، ثم فى تقوية من يحتاج التقوية من غير رجوع عليه بها ، لاقامة العوامل ، والتوسعة فى البدار ، وغير ذلك .

وثمن الآلات ، وأجرة من يستعان به من الأجراء لحمل الأصناف وسائر نفقات تطريق أراضيهم : من العين ثمانمائة ألف دينار .

ولما يصرف فى أرزاق الأولياء الموسومين بالسلاح وحملته ، والغلمان وأشياعهم ، مع ألف كاتب موسومين * بالدواوين ، سوى أتباعهم من الخزان ، ومن يجرى مجراهم

(*) ص٧٥ جـ١ ، ط. بولاق .

— وعدتهم مائة ألف وأحد عشر ألف رجل — من العين ثمانية آلاف دينار

ولما يصرف فى الأرامل والأيتام ، فرضا لهم من بيت المال ، وان كانوا غير محتاجين اليه ، حتى لا تخلو آمالهم من بر يصل اليهم : من العين أربعمائة ألف دينار .

ولما يصرف فى كهنة برابيهم وأئمتهم ، وسائر بيوت صلواتهم : من العين مائة ألف دينار .

ولما يصرف فى الصدقات — وينادى فى الناس : برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ، فليحضر ، فلا يرد عند ذلك أحد ، والأمناء جلوس ، فاذا رؤى رجل لم تجر عادته بذلك أفرد بعد قبض ما يقبضه ، حتى اذا فرق المال واجتمع من هذه الطائفة عدة ، دخل أمناء فرعون اليه وهنوه بتفرقة المال ، ودعوا له بالبقاء والسلامة ، وأنهوا حال الطائفة المذكورة ، فيأمر بتغيير شعثها بالحمام واللباس ، ويمد الأسمطة ، ويأكلون ويشربون ، ثم يستعلم من كل واحد سبب فاقته ، فان كان من آفة الزمان ، رد عليه مثل ما كان وأكثر ، وان كان عن سوء رأى وضعف تدبير ، ضمه الى من يشرف عليه ويقوم بالأمر الذى يصلح له — من العين مائتا ألف دينار ...

فذلك جملة ما تبين وفصل فى هذه الجهات المذكورة : من العين تسعة آلاف ألف وثمانمائة ألف دينار ويحصل بعد ذلك ما يتسلمه فرعون فى بيوت أمواله عدة لنوائب الدهر وحادثات الزمان : من العين أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار .

وقيل لبعضهم : متى عقدت مصر تسعين ألف ألف دينار ؟

قال : فى الوقت الذى أرسل فرعون بوبية قمح الى أسفل الأرض والى الصعيد ، فلم يجد لها موضعا تبذر فيه لشغل جميع البلاد بالعمارة .

ذكر ما عمله المسلمون عند فتح مصر فى الخراج وما كان من امر مصر فى ذلك مع القبط

قال زهير بن معاوية : حدثنا سهيل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مُدْيها ودينارها ، ومنعت مصر اردبها ، وعدتم من حيث بدأتم » .

قال أبو عبيد : قد أخبر صلى الله عليه وسلم بما لم يكن ، وهو فى علم الله كائن ، فخرج لفظه على لفظ الماضى لأنه ماض فى علم الله . وفى اعلامه بهذا قبل وقوعه ، ما دل على اثبات نبوته ، ودل على رضاه من عمر رضى الله عنه ما وظفه على الكفرة من الخراج فى الأمصار .

وفى تفسير المنع وجهان ؟

أحدهما أنه علم أنهم سيسلمون ويسقط عنهم ما وظف عليهم ، فصاروا مانعين باسلامهم ما وظف عليهم ، يدل عليه قوله « وعدتم من حيث بدأتم » وقيل معناه أنهم يرجعون عن الطاعة ... والأول أحسن .

وقال ابن عبد الحكم ، عن عبد الله بن لهيعة : لما فتح عمرو بن العاص مصر ، صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط — ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك ، ليس فيهم امرأة ولا صبى ولا شيخ — على دينارين دينارين ، فأحصوا ذلك فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف .

وعن هشام بن أبى رقية اللخمى أن عمرو ابن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر : ان من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته .

وان قبطيا من أرض الصعيد يقال له بطرس ذكر لعمرو أن عنده كنزا ، فأرسل اليه فسأله فأنكر وجحد ، فحبسه فى السجن وعمرو يسأل عنه : هل تسمعونه يسأل عن أحد ؟

فقالوا : لا ، انما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور .

فأرسل عمرو الى بطرس فنزع خاتمه ، ثم كتب الى ذلك الراهب أن ابعث الى بما عندك ، وختمه بخاتمه .

فجاء الرسول بقلة شامية مختومة بالرصاص ، ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها « مالكم تحت الفسقية الكبيرة » .

فأرسل عمرو الى الفسقية فحبس عنها الماء ، ثم قلع البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين اردبا ذهبا مصريا مضروبة . فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد ، فأخرج القبط كنوزهم شفقا أن يبغى على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس .

وعن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص استحل مال قبطى من قبط مصر ، لأنه استقر عنده أنه يظهر الروم على عورات المسلمين ، ويكتب اليهم بذلك ، فاستخرج منه بضعا وخمسين أردبا دنانير .

قال ابن عبد الحكم : وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه يبعث الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه . وكانت فريضة مصر لحفر خلجها ، واقامة جسورها ، وبناء قناطرها ، وقطع جزائرها ، مائة ألف وعشرين ألفا ، معهم الطور والمساحى والاداة ، يعتقبون ذلك ، لا يدعون ذلك صيفا ولا شتاء .

ثم كتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصيهم ، ويركبوا على الأكف عرضا ، ولا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه الموسى ، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ، ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم .

وعن يزيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى أمراء الأجناد ألا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه الموسى . وجزيتهم أربعون درهما على أهل الورق ، وأربعة دنانير على أهل الذهب ، وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان من حنطة ، وثلاثة * أقساط من زيت فى كل شهر لكل انسان من أهل الشام والجزيرة ، وودك ، وعسل لا أدرى كم هو . ومن كان من أهل مصر فاردب فى كل شهر لكل انسان ، ولاأدرى كم الودك والعسل ، وعليهم من البز الكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين الناس ، ويضيفون من نزل بهم من أهل الاسلام ثلاثة أيام وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل انسان ، ولا أدرى كم لهم من الودك . وكان لا يضرب الجزية على النساء والصبيان ، وكان يختم فى أعناق رجال أهل الجزية ، وكانت ويبة عمر فى ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد

(*) ص٧٦ جـ١ ، ط. بولاق .

قال : وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر ، أقر قبطها على جباية الروم ، فكانت جبايتهم بالتعديل : اذا عمرت القرية وكثر أهلها يزيد عليهم ، وان قل أهلها وخربت نقصوا .

فيجتمع عرافو كل قرية وأمراؤها ورؤساء أهلها ، فيتناظرون فى العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع .

ثم يجتمع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة ، فيبتدئون ويخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان .

فاذا فرغوا نظروا لما فى كل قرية من الصناع والأجراء ، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها ، وقلما كانت تكون الا للرجل الشاب أو المتزوج .

ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم : فان عجز أحد منهم وشكا ضعفا عن زرع أرضه ، وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال ، وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم

وكانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة وعشرين قيراطا ، يقسمون الأرض على ذلك ، ولذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا » ، وجعل لكل فدان عليهم نصف أردب قمح وويبتين من شعير ، الا القرظ فلم يكن عليه ضريبة ... والويبة ستة أمداد .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمى على نفسه ، لا يضع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه . ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا يؤديه ، نظر عمر فى أمره ، فاذا احتاجوا خفف عنهم ، وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم .

وقال هشام بن أبى رقية اللخمى : قدم صاحب اخنا على عمرو بن العاص رضى الله عنه ، فقال له : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصير لها .

فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : لو أعطيتنى من الأرض الى السقف ما أخبرتك ما عليك ، انما أنتم خزانة لنا : ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم .

ومن ذهب الى هذا الحديث ، ذهب الى أن مصر فتحت عنوة .

وعن يزيد بن أبى حبيب قال : قال عمر بن عبد العزيز : أيما ذمى أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من أرض فانها من فىء الله على المسلمين . وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها ، فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم .

وقال الليث : كتب الى يحيى بن سعيد أن ما باع القبط فى جزيتهم ، وما يؤخذون به من الحق الذى عليهم — من عبد ، أو وليدة ، أو بعير ، أو بقرة ، أو دابة — فان ذلك جائز عليهم . فمن ابتاعه منهم ، فهو غير مردود عليهم ان أيسروا ، وما أكروا من أرضهم فجائز كراؤه ، الا أن يكون يضر بالجزية التى عليهم ، فلعل الأرض أن ترد عليهم ان أضرت بجزيتهم ، وان كان فضلا بعد الجزية فانا نرى كراءها جائزا لمن يكراها منهم .

قال يحيى : فنحن نقول : الجزية جزيتان : جزية على رؤوس الرجال ، وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية . فمن هلك من أهل القرية التى عليهم جزيه مسماة على القرية ليست على رؤوس الرجال ، فانا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له ولا وارث أن أرضه ترجع الى قريته فى جملة ما عليهم من الجزية ، ومن هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال ، ولم يدع وارثا ، فان أرضه للمسلمين .

وقال الليث عن عمر بن عبد العزيز : الجزية على الرؤوس وليست على الأرضين ... يريد أهل الذمة .

وكتب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم . وهذا يدل على أن عمر كان يرى أن أرض مصر فتحت عنوة ، وأن الجزية انما هى على القرى ، فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم ، وأن موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئا .

قال : ويحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح ، فذلك الصلح ثابت على من بقى منهم ، وأن موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئا .

قال الليث : وضع عمر بن عبد العزيز الجزية على من أسلم من أهل الذمة من أهل مصر ، وألحق فى الديوان صلح من أسلم منهم فى عشائر من أسلموا على يديه ، وكانت تؤخذ قبل ذلك ممن أسلم . وأول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف .

ثم كتب عبد الملك بن مروان الى * عبد العزيز بن مروان أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة ، فكلمه ابن حجيرة فى ذلك قال : أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر ، فوالله ان أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف نضعها على من أسلم منهم ؟

فتركهم عند ذلك .

وكتب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح : أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، فان الله تبارك وتعالى قال : « فان

(*) ص٧٧ جـ١ ، ط. بولاق .

تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم » ، وقال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وكتب حيان بن شريح الى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل .

فكتب اليه عمر : أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وقد وليتك جند مصر ، وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه .

قال : ولما استبطأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص ، كتب اليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، الى عمرو بن العاص ، سلام الله عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو . أما بعد ، فانى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه ، فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر ، وانها قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها عملا محكما ، مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحوط ولا جدب . ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ، ورجوت أن تفيق فترفع الى ذلك ، فاذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى . لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ، ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك ، فلئن كنت مجربا كافيا صحيحا ، ان البراءة لنافعة ، وان كنت مضيعا نطعا ، ان الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع الى ذلك . وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك الا أن عمالك عمال السوء ، وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفا ، وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه . فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه ، فان النهر يخرج الدر ، والحق أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ، فانه قد برح الخفاء . والسلام .

فكتب اليه عمرو بن العاص : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من عمرو بن العاص ، سلام الله عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو . أما بعد ، فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى ، واعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام . ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر

والأرض أعسر ، لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها . وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وثربت ، وعلمت أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خبر ، فجئت لعمرى بالمقطعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم ، بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده ، فكنا – نحمد الله – مؤدين لأماناتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا ، والعمل به شينا . فتعرف ذلك لنا ، وتصدق فيه قلبنا . معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم ، والاجتراء على كل مأثم . فأمض عملك ، فان الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أخا والله يابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضبا لنفسى ، ولها انزاها واكراما ، وما عملت من عمل أرى علىّ فيه متعلقا ، ولكنى حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت – يغفر الله لك ولنا – وسكت عن أشياء كنت بها عالما ، وكان اللسان بها منى ذلولا ، ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل .

فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من عمر بن الخطاب ، الى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو . أما بعد ، فانى قد عجبت من كثرة كتبى اليك فى ابطائك بالخراج ، وكتابك الى بثنيات الطرق ، وقد علمت أنى لست أرضى منك الا بالحق البين ، ولم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك . فاذا أتاك كتابى هذا ، فاحمل الخراج فانما هو فىء المسلمين ، وعندى من قد تعلم قوم محصورون . والسلام *

فكتب اليه عمرو بن العاص : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعمر بن الخطاب ، من عمرو ابن العاص ، سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو . أما بعد ، فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ، ويزعم أنى أحيد عن الحق ، وأنكث عن الطريق ، وانى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ، ولكن أهل الأرض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى بهم عنه . والسلام .

وقال الليث بن سعد رضى الله عنه : جباها عمرو بن العاص رضى الله عنه اثنى عشر ألف ألف دينار ، وجباها المقوقس قبله لسنة عشرين ألف ألف دينار ، فعند ذلك كتب اليه عمر بن الخطاب بما كتب .

وجباها عبد الله بن سعد بن سرح ، حين استعمله عثمان رضى الله عنه على مصر ، أربعة عشر ألف ألف دينار ، فقال عثمان لعمرو بن العاص بعد ما عزله عن مصر : يا أبا عبد الله ، درت اللقحة بأكثر من درها الأول .

(*) ص٧٨ جـ١ ، ط. بولاق .

قال : أضررتم بولدها .

فقال : ذلك ان لم يمت الفصيل .

وكتب معاوية بن أبى سفيان الى وردان – وكان قد ولى خراج مصر – أن زد على كل رجل من القبط قيراطا .

فكتب اليه وردان : كيف نزيد عليهم وفى عهدهم ألا يزاد عليهم شىء ؟

فعزله معاوية ، وقيل فى عزل وردان غير ذلك .

وقال ابن لهيعة : كان الديوان فى زمان معاوية أربعين ألفا ، وكان منهم أربعة آلاف فى مائتين مائتين ، فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان عطياتهم وعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح الى الحجاز ، ثم بعث الى معاوية بستمائة ألف دينار فضل .

وقال ابن عفير : فلما نهضت الابلّ لقيهم برح بن كسحل المهرى ، فقال : ما هذا ؟ ما بال مالنا يخرج من بلادنا ؟ ردوه .

فردوه حتى وقف على باب المسجد فقال : أخذتم عطياتكم وأرزاقكم وعطاء عيالكم ونوائبكم ؟

قالوا : نعم .

قال : لا باركَ الله لهم فيه ... خذوه ، فساروا به .

وقال بعضهم : جبى عمرو بن العاص عشرة آلاف ألف دينار ، فكتب اليه عمر بن الخطاب يعجزه ويقول له : جباية الروم عشرون ألف ألف دينار .

فلما كان العام المقبلّ جباه عمرو اثنى عشر ألف ألف دينار .

وقال ابن لهيعة : جبى عمرو بن العاص الاسكندرية الجزية ستمائة ألف دينار ، لأنه وجد فيها ثلثمائة ألف من أهل الذمة فرض عليهم دينارين دينارين .

والله تعالى أعلم .

ذكر انتقاض القبط
وما كان من الاحداث فى ذلك

خرج الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : « كيف أنتم اذا لم تجبوا دينارا ولا درهما ؟

« قالوا : وكيف نرى ذلك كائنا يا أبا هريرة ؟

« قال : اى والذى نفس أبى هريرة بيده عن قول الصادق المصدوق .

« قالوا : عم ذلك ؟

« قال : تنتهك ذمته وذمة رسوله فيشد الله عز وجل قلوب أهل الذمة فيمنعون ما فى أيديهم » .

قال أبو عمرو محمد بن يوسف الكندى فى كتاب « أمراء مصر » : وفى امرة الحر بن يوسف أمير مصر كتب عبد الله بن الحبحاب ، صاحب خراجها ، الى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطا ، فانتقضت كورة بنو ونى وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقى ، فبعث اليهم الحر بأهل الديوان ، فحاربوهم

فقتل منهم بشر كثير ، وذلك أول انتقاض القبط بمصر .

وكان انتقاضهم فى سنة سبع ومائة ، ورابط الحر بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر ، ثم انتقض أهل الصعيد .

وحارب القبط عمالهم فى سنة احدى وعشرين ومائة ، فبعث اليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر ، أهل الديوان فقتلوا من القبط ناسا كثيرا وظفر بهم .

وخرج بخنس (رجل من القبط) فى سمنود ، فبعث اليه عبد الملك بن مروان موسى بن نصير أمير مصر ، فقتل بخنس فى كثير من أصحابه ، وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وخالفت القبط برشيد ، فبعث اليهم مروان بن محمد الجعدى — لما دخل مصر فارا من بنى العباس — بعثمان بن أبى قسعة ، فهزمهم

وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب بن أبى صفرة أمير مصر ، بناحية سخا ، ونابذوا العمال وأخرجوهم ، وذلك فى سنة خمسين ومائة ، وصاروا الى شبرا سنباط ، وانضم اليهم أهل البشرود والأريسية والنجوم . فأتى الخبر يزيد بن حاتم ، فعقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه مصر ، فخرجوا اليهم ، فبيتهم القبط وقتلوا من المسلمين ، فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط ، وانصرف المسلمون الى مصر منهزمين .

وفى ولاية موسى بن على بن رباح على مصر ، خرج القبط بيلهيب فى سنة ست وخمسين ومائة ، فخرج اليهم عسكر فهزمهم .

ثم انتقضوا مع من انتقض فى سنة ست عشرة ومائتين ، فأوقع بهم الأفشين فى ناحية البشرود ، حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون ، فحكم عليهم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا وسبى أكثرهم .

ومن حينئذ أذل الله القبط فى جميع أرض مصر ، وخذل شوكتهم * فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان ، وغلب المسلمون على القرى ، فعاد القبط من بعد ذلك الى كيد الاسلام وأهله باعمال الحيلة واستعمال المكر ، وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم فى كتاب الخراج .

وكان للمسلمين فيهم وقائع يأتى خبرها فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

ذكر نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشا وما كان فى نزولهم من الاحداث

قال الكندى : فى ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى على مصر ، نقلت قيس الى مصر فى سنة تسع ومائة ، ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك الا ما كان من فهم وعدوان ، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل الى مصر منهم أبياتا ، فأذن له هشام فى

(*) ص٧٦ جـ١ ، ط. بولاق *

لحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على ألا ينزلهم بالفسطاط ، فعرض لهم ابن الحبحاب وقدم بهم ، فأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه .

ويقال ان عبيد الله بن الحبحاب ، لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر ، قال : ما أرى لقيس فيها حظا الا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان .

فكتب الى هشام : ان أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم ، وانى قدمت مصر ولم أر لهم حظا الا أبياتا من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ، وهى بلبيس ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل .

فكتب اليه هشام : أنت وذاك .

فبعث الى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر ، ومائة أهل بيت من بنى سليم ، فأنزلهم بلبيس ، وأمرهم بالزرع . ونظر الى الصدقة من العشور فصرفها اليهم فاشتروا ابلا ، فكانوا يحملون الطعام الى القلزم ، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر . ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الرجل يشترى المهر فلا يمكث الا شهرا حتى يركب ، وليس عليهم مئونة فى علف ابلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم .

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا اليهم ، فوصل اليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة ، فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت ، فصار ببلبيس الف وخمسمائة أهل بيت من قيس .

حتى اذا كان زمن مروان بن محمد ، وولى الحوثرة بن سهيل الباهلى مصر ، مالت اليه قيس ، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم .

وفى سنة ثمان وسبعين ومائة كشف اسحاق ابن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس أمير مصر أمر الخراج ، وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم ، فخرج عليه أهل الحوف وعسكروا ، فبعث اليهم الجيوش وحاربهم ، فقتل من الجيش جماعة ، فكتب الى أمير المؤمنين هارون الرشيد يخبره بذلك ، فعقد لهرثمة بن أعين فى جيش عظيم وبعث به الى مصر ، فنزل الحوف ، وتلقاه أهله بالطاعة واذعنوا بأداء الخراج ، فقبل هرثمة منهم واستخرج خراجه كله .

ثم ان أهل الحوف خرجوا على الليث بن الفضل البيودى أمير مصر ، وذلك أنه بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم ، فانتقصوا من القصبة أصابع ، فتظلم الناس الى الليث فلم يسمع منهم ، فعسكروا وساروا الى الفسطاط .

فخرج اليهم الليث فى أربعة آلاف من جند مصر ، فى شعبان سنة ست وثمانين ومائة ، فالتقى معهم فى رمضان ، فانهزم عنه الجند فى ثانى عشره ، وبقى فى نحو المائتين ، فحمل بمن معه على أهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة ، وكان التقاؤهم على أرض جب

عميرة ، وبعث الليث الى الفسطاط بثمانين رأسا من رؤوس القيسية ورجع الى الفسطاط .

وعاد أهل الحوف الى منازلهم ومنعوا الخراج ، فخرج ليث الى أمير المؤمنين هارون الرشيد فى محرم سنة سبع وثمانين ومائة ، وسأله أن يبعث معه بالجيوش فانه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف الا بجيش يبعث معه . وكان محفوظ بن سليم بباب الرشيد ، فرفع محفوظ الى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا ، فولاه الخراج ، وصرف ليث بن الفضل عن صلات مصر وخراجها .

وفى ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج ، فبعث أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيى بن معاذ فى أمرهم ، فنزل بلبيس فى شوال سنة احدى وتسعين ومائة ، وصرف الحسين بن جميل عن امارة مصر فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وولى مالك بن دلهم .

وفرغ يحيى بن معاذ من أمر الحوف ، وقدم الفسطاط فى جمادى الآخرة ، فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخروج اليه . فكتب الى أهل الحوف أن أقدموا حتى أوصى بكم مالك بن دلهم ، وأدخل بينكم وبينه فى أمر خراجكم ، فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية — وقد أعد لهم القيود — فأمر بالأبواب فأخذت ، ثم دعا بالحديد فقيدهم ، وتوجه بهم للنصف من رجب منها .

وفى امارة عيسى بن يزيد الجلودى على مصر ، ظلم صالح بن شيرزاد عامل الخراج الناس وزاد عليهم فى خراجهم ، فانتقض أهل أسفل الأرض ، وعسكروا . فبعث * عيسى بابنه محمد فى جيش لقتالهم ، فنزل بلبيس وحاربهم ، فنجا من المعركة بنفسه ولم ينج أحد من أصحابه ، وذلك فى صفر سنة أربع عشرة ومائتين .

فعزل عيسى عن مصر وولى عمير بن الوليد التميمى ، فاستعد لحرب أهل الحوف ، وسار فى جيوشه فى ربيع الآخر ، فزحفوا عليه واقتتلوا ، فقتل من أهل الحوف جمع وانهزموا ، فتبعهم عمير فى طائفة من أصحابه ، فعطف عليه كمين لأهل الحوف فقتلوه لست عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر .

فولى عيسى الجلودى ثانيا ، وسار اليهم فلقيهم بمنية مطر ، فكانت بينهم وقعة آلت الى أن انهزم منهم الى الفسطاط ، وأحرق ما ثقل عليه من رحله ، وخندق على الفسطاط ، وذلك فى رجب .

وقدم أبو اسحاق بن الرشيد من العراق ، فنزل الحوف وأرسل الى أهله ، فامتنعوا من طاعته ، فقاتلهم فى شعبان ودخل — وقد ظفر بعدة من وجوههم — الى الفسطاط فى شوال ، ثم عاد الى العراق فى المحرم سنة خمس عشرة ومائتين بجمع من الأسارى .

فلما كان فى جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين ، انتقض أسفل الأرض بأسره — عرب البلاد وقبطها — وأخرجوا العمال ، وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم .

(*) ص ٨٠ جـ١ ، ط. بولاق .

فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدت الى أن قدم الخليفة عبد الله أمير المؤمنين المأمون الى مصر ، لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ، فسخط على عيسى بن منصور الرافقى — وكان على امارة مصر — وأمر بحل لوائه ، وأخذه بلباس البياض عقوبة له ، وقال : « لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس ما لا يطيقون ، وكتمتنى الخبر حتى تفاقم الأمر ، واضطرب البلد » .

ثم عقد المأمون على جيش بعث به الى الصعيد ، وارتحل هو الى سخا ، وبعث بالافشين الى القبط — وقد خلعوا الطاعة — فأوقع بهم فى ناحية البشرود ، وحصرهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ، فحكم فيهم المأمون بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، فسبى أكثرهم .

وتتبع المأمون كل من يومى اليه بخلاف ، فقتل ناسا كثيرا ، ورجع الى الفسطاط فى صفر ، ومضى الى حلوان ، وعاد فارتحل لثمان عشرة خلت من صفر . وكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوما .

وكان خراج مصر قد بلغ فى أيام المأمون — على حكم الانصاف فى الجباية — أربعة آلاف ألف دينار ومائتى ألف دينار وسبعة وخمسين ألف دينار .

ويقال ان المأمون لما سار فى قرى مصر ، كان يبنى له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله . وكان يقيم فى القرية يوما وليلة ، فمر بقرية يقال لها « طاء النمل » فلم يدخلها لحقارتها . فلما تجاوزها خرجت اليه عجوز — تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية — وهى تصيح ، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة ، فوقف لها ، وكان لا يمشى أبدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس ، فذكروا له أن القبطية قالت : يا أمير المؤمنين ، نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى ، والقبط تعيرنى بذلك ، وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف والعقبى ، ولا تشمت بى الأعداء ... وبكت بكاء كثيرا .

فرق لها المأمون ، وثنى عنان فرسه اليها ونزل . فجاء ولدها الى صاحب المطبخ وسأله : كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته ؟

فأحضر جميع ذلك اليه بزيادة .

وكان مع المأمون أخوه المعتصم ، وابنه العباس ، وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ، ويحيى بن أكثم والقاضى أحمد بن داود ، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده ، ولم تكل أحدا منهم ولا من القواد الى غيره ، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا حتى انه استعظم ذلك .

فلما أصبح — وقد عزم على الرحيل — حضرت اليه ، ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر : قد جاءتكم القبطية بهدية الريف : الكامخ ، والصحناة ، والصبر .

فلما وضعت ذلك بين يديه اذا فى كل طبق كيس من ذهب . فاستحسن ذلك وأمرها باعادته ، فقالت : لا ، والله لا أفعل .

فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله ، فقال : هذا والله أعجب ، وبما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك !

فقالت : يا أمير المؤمنين ، لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا .

فقال : ان فى بعض ما صنعت لكفاية ، ولا نحب التثقيل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك .

فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين ، هذا (وأشارت الى الذهب) من هذا (وأشارت الى الطينة التى تناولتها من الأرض) ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا شىء كثير .

فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعطاها من قريتها « طاء النمل » مائتى فدان بغير خراج ، وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها .

ذكر قبالات اراضى مصر بعد ما فشا الاسلام فى القبط ، ونزول العرب فى القرى ، وما كان من ذلك الى الروك الأخير الناصرى *

وكان من خبر أراضى مصر — بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها ، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا ، وانقياد جمهور القبط الى اظهار الاسلام ، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات — أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك .

فاذا انقضى هذا الأمر ، خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها الى ناحيته ، فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى ابانه على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها ، بضرائب مقدرة فى ديوان الخراج .

ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين ، ويقال لما تأخر من مال الخراج البواقى . وكانت الولاة تشدد فى طلب ذلك مرة وتسامح به مرة . فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة ، وراكوا البلاد كلها وعدلوها تعديلا جديدا ، فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ، ونقص فيما يحتاج الى التنقيص منها .

ولم يزل ذلك يعمل فى جامع عمرو بن العاص ، الى أن عمر أحمد بن طولون جامعه ، وصار العسكر منزلا لأمراء مصر ، فنقل الديوان الى جامع أحمد بن طولون . ثم نقل أيام العزيز بالله نزار الى دار الوزير يعقوب ابن كلس ، فلما مات الوزير نقل الديوان الى القصر بالقاهرة ، واستمر به مدة الدولة الفاطمية ، ثم نقل منه بعدها . وسأتلو عليك من نبأ ذلك ما يتضح به ما ذكرت .

(*) ص٨١ جـ١ ، طـ بولاق .

قال ابن دولاق فى كتاب أخبار الماردانيين كتاب مصر : وحضر أبو الحسن وهب بن اسماعيل مجلس أبى بكر بن على الماردانى فى المسجد الجامع ، وهو يعقد الضياع ، فقال له أبو بكر : الساعة آمر بالنداء على صفقة ، فخذها شركة بينى وبينك .

فنودى على صفقة ، فقال أبو بكر : اعقدوها على أبى الحسن ، فعقدت عليه وتحملها ، فأفضلت له أربعين ألف دينار ، فاستنض عشرين ألف دينار ولم يدر ما يعمل فيها ... الى أن اجتمع مع أبى يعقوب — كاتب أبى بكر — ليتحدثا ، فقال أبو يعقوب : رأيت الشيخ (يعنى أبا بكر الماردانى) فى اليوم مشغول القلب ، أراد جمع مال وقد عجز عنه ، فقال له أبو الحسن : عندى نحو عشرين ألف دينار ، فقال : جئنى بها ، فأنفذها اليه وجاءه خطه بالمبلغ .

فاتفق أن مضى أبو الحسن الى أبى بكر الماردانى ، فقال له : تلك الصفقة قد غلقت ما عليها وفضل أربعون ألف دينار ، وقد حصل عندى عشرون ألف دينار حملتها الى أبى يعقوب ، وأرسلت فى استخراج الباقى فاحمله .

فقال الماردانى : ما هذا العجز ؟ انما قلت لك تكون بينى وبينك خوفا من تفريطك ، وانما أردت حفظ المال عليك .

ثم أمر أبا يعقوب أن يرد عليه ما دفعه اليه ، وقال لأبى الحسن : رد عليه خطه . فقبض ما دفعه الى أبى يعقوب .

وبلغ خراج مصر ، فى السنة التى دخل فيها جوهر القائد : ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ونيفا .

وقال فى كتاب « سيرة المعز لدين الله معد » : ولست عشرة بقيت من المحرم ، سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، قلد المعز لدين الله الخراج ووجوه الأموال وغير ذلك ، يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن ، وجلسا فى هذا اليوم فى دار الامارة فى جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال ، وحضر الناس للقبالات ، وطلبوا البقايا من الأموال مما على المالكين والمتقبلين والعمال .

وقال جامع سيرة الوزير الناصر للدين الحسن بن على البازورى : وأراد أن يعرف قدر ارتفاع الدولة ، وما عليها من النفقات ، ليقايس بينهما ، فتقدم الى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجرى فى ديوانه ، وما عليه من النفقات ، فعمل ذلك وسلمه الى متولى ديوان المجلس — وهو زمام الدواوين — فنظم عليه عملا جامعا وأحضره اياه .

فرأى ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار : منها الشام ألف ألف دينار ، ونفقاته بازاء ارتفاعه . ومنها الريف وباقى الدولة ألف

ألف دينار ، يقف منها عن معلول ومنكسر على موتى وهراب ومفقود مائتا ألف دينار ، ويبقى ثمانمائة ألف دينار يصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلثمائة ألف دينار ، وعن ثمن علة للقصور مائة ألف دينار ، وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار ، وعن عمائر وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار ، ويبقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصلة يحملها كل سنة الى بيت المال المصون ، فحظى بذلك عند سلطانه وخف على قلبه .

قال : وانتهى ارتفاع الأرض السفلى الى ما لا نسبة له من ارتفاعها الأول (يعنى بعد موت البازورى وحدوث الفتن) ، وهو قبل سنى الفتن (يعنى فى أيام البازورى) ستمائة ألف دينار * كانت تحصل فى دفعتين فى السنة : فى مستهل رجب ثلثمائة ألف دينار ، وفى مستهل المحرم ثلثمائة ألف دينار ، فاتضع الارتفاع وعظمت الواجبات .

وقال ابن ميسرة : وأمر الأفضل بن أمير الجيوش بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر ، فجاء خمسة آلاف ألف دينار ، وكان متحصل الأهراء ألف ألف أردب .

وقال الأمير جمال الدين والملك موسى بن المأمون البطائحى ، فى تاريخه من حوادث سنة احدى وخمسمائة : ثم رأى القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحى من اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين ، وتضررهم من كون اقطاعاتهم قد خس ارتفاعها ، وساءت أحوالهم لقلة المتحصل منها ، وأن اقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عن غيرها ، وأن فى كل ناحية من الفواضل للديوان جملة تجىء بالعسف وبتردد الرسل من الديوان الشريف بسببها .

فخاطب الأفضل بن أمير الجيوش فى أن يحل الاقطاعات جميعها ويروكها ، وعرفه أن المصلحة فى ذلك تعود على المقطعين والديوان ، لأن الديوان يتحصل له من هذه الفواضل جملة يحصل بها بلاد مقورة . فأجاب الى ذلك ، وحل جميع الاقطاعات وراكها .

وأخذ كل من الأقوياء والمميزين يتضررون ، ويذكرون أن لهم بساتين وأملاكا ومعاصر فى نواحيهم ، فقال له : من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الاقطاع ، وهو محكم : ان شاء باعه وان شاء آجره .

فلما حلت الاقطاعات أمر الضعفاء من الأجناد أن يتزايدوا فيها ، فوقعت الزيادة فى اقطاعات الأقوياء الى أن انتهت الى مبلغ معلوم ، وكتبت السجلات بأنها باقية فى أيديهم الى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد .

وأحضر الأقوياء وقال لهم : ما تكرهون من الاقطاعات التى كانت بيد الأجناد ؟

قالوا : كثرة عبرتها وقلة متحصلها ، وخرابها وقلة الساكن بها .

فقال لهم : ابذلوا فى كل ناحية ما تحمله وتقوى رغبتكم فيه ، ولا تنظروا فى العبرة الأولى .

(*) ص٨٢ جـ١ ، ط. بولاق .

فعند ذلك طابت نفوسهم ، وتزايدوا فيها الى أن بلغت الى الحد الذى رغب كل منهم فيه ، فأقطعوا به ، وكتب لهم السجلات على الحكم المتقدم .

فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم . وحصل للديوان بلاد مقورة ، بما كان مفرقا فى الاقطاعات ، بما مبلغه خمسون ألف دينار .

وقال فى حوادث سنة خمس عشرة وخمسمائة : وكان قد تقدم أمر الأجل المأمون بعمل حساب الدولة من الهلالى والخراجى ، وجعل نظمه على جملتين : احداهما الى سنة عشر وخمسمائة الهلالية الخراجية ، والجملة الثانية الى آخر سنة خمس عشرة وخمسمائة هلالية وما يوافقها من الخراجية .

فعقدت على جملة كثيرة من العين والأصناف ، وشرحت بأسماء أربابها وتعيين بلادها . فلما أحضرت أمر بكتب سجل يتضمن المسامحة بالبواقى الى آخر سنة عشر وخمسمائة ، ونسخته بعد التصدير :

« ولما انتهى الينا حال المعاملين والضمناء والمتصرفين وما فى جهاتهم من بقايا معاملاتهم ، أنعمنا بما تضمنه هذا السجل من المسامحة ، قصدا فى استخلاص ضامن طالت غفلته وخربت ذمته ، وانقاذ عامل أجحف به من الديوان طلبته ، وتوفير الرغبة على عمارتها ، وجريها فيها على قديم عادتها ...

« ولما كان ذلك من جميل الأحدوثة التى لم نسبق اليها ولا شاركنا ملك فيها ، اقتضت الحال ايرادها فى هذا الكتاب وايداعها هذا الباب ، لما اطلعنا عليه ، مما انتهت اليه أحوال الضمناء والمعاملين بالمملكة ، من الاختلال وتجمد البقايا فى جهاتهم والأموال ، عطفنا عليهم برأفة ورحمة ، وطالعنا المقام الأشرف النبوى بالتفصيل من أمورهم والجملة ، واستخرجنا الأمر العالى بوضع ذلك فى الحال » .

وأنشأ السجلات الكريمة مقصورة على ذكر هذا الاحسان وتنفيذها الى جميع البلدان ليقرأ على رؤوس الأشهاد بسائر البلاد .

ومبلغ ما انتهت اليه هذه المسامحة ، الى حين ختم هذا السجل :

من العين ألفا ألف وسبعمائة ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وسبعة وستون دينارا ونصف وثلث وثلثان وربع قيراط ، ومن الفضة النقرة أربعة دراهم ، ومن الورق سبعة وستون ألفا وخمسة دراهم ونصف وسدس درهم .

ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون أردبا وثمن ونصف وسدس وثلثى قيراط .

ومن العناب ربع أردب ، ومن ورق الصباغ ألفان وأربعمائة وثلاثة أرادب ونصف ، ومن زريعة الوسمة عشرة أرادب وربع ، ومن الصباغ ألف وأربعمائة وثمانون قنطارا ورطل ونصف ، ومن القوه أربعمائة وسبعون رطلا ، ومن الشب تسعمائة وثلاثة عشر قنطارا ونصف ، ومن الحديد خمسمائة رطل وأحد وثلاثون رطلا ، ومن الزفت ألف وثلثمائة وثلاثة أرطال وربع وسدس ، ومن القطران تسعة عشر رطلا وثلث .

ومن الثياب الحلبى ثلاثة أثواب ، ومن المآزر مائة مئزر صوف ، ومن الغرابيل مائة وسبعون غربالا .

ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفا وثلثمائة وخمسة أرؤس .

ومن البسر ثلثمائة وثلاثة عشر قنطارا وثمانية وثلاثون رطلا ، ومن السجيل ثلثمائة ألف ، وخمسة وسبعون ألفا وخمسمائة وخمسون باعا ، ومن الجريد أربعمائة ألف وثمانية وثلاثون ألفا وسبعمائة وثلاثة وخمسون جريدة ، ومن السلب ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون سلبة .

ومن الأطراف ستة آلاف وسبعمائة وثلاثة أطراف ، ومن الملح ألفان وسبعمائة وثلاثة وتسعون اردبا وثلث ، ومن الاشنان أحد عشر اردبا ، ومن الرمان ألفا حبة .

ومن العسل النحل خمسمائة وأحد وأربعون قنطارا وسدس ، ومن الشهد اثنان وثلاثون زيرا وقادوسا واحدا ، ومن الشمع أربعمائة وأربعون رطلا ، ومن الخلايا ثلاثة آلاف وأربعمائة وخليتان ، ومن عسل القصب مائة وثمانية وثلاثون قنطارا .

ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفا ومائة وأربعة وستون رأسا ، ومن الدواب أربعة وسبعون رأسا .

ومن السمن ألفان وتسعمائة وستة وتسعون مطرا وسدس وثمن ، ومن الجبن ثلثمائة وعشرون رطلا .

ومن الصوف أربعة آلاف ومائة وثلاثة وعشرون جزة ، ومن الشعر ستة آلاف وخمسون رطلا وربع ، ومن بيوت الشعر بيتان .

وفصل ذلك بجهاته ومعاملاته .

قال : ولما انتهى الى المأمون ما يعتمد فى الدواوين ، من قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها ممن كابد فيها المشقة والتعب ، وتسليمها الى باذل الزيادة من غير كلفة ولا نصب ، أنكر ذلك ومنع من ارتكابه ، ونهى عن الولوج فى بابه ، وخرج أمره باعفاء الكافة أجمعين والضمناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ويستولون عليه ، ما داموا مغلقين وبأقساطهم قائمين .

وتضمن ذلك منشور قرىء فى الجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وديوانى المجلس والخاص الآمرين السعيدين . ونسخته بعد التصدير :

« ولما انتهى الى حضرتنا ما يعتمد فى الدواوين ، ويقصده جماعة من المتصرفين والمستخدمين ، من تضمين الأبواب والرباع والبساتين والحمامات والقياسر والمساكن وغير ذلك من الضمانات ، للراغبين فيها ممن تستمر معاملته ولا تنكر طريقته . فما هو الا أن يحضر من يزيد عليه فى ضمانه ، حتى قد نقض عليه حكم الضمان ، وقبل ما يبذل من الزيادة كائنا من كان ، وقبضت يد الضامن الأول عن التصرف ، ومكن الضامن الثانى من التصرف من غير رعاية للعقد على الضامن الأول ، ولا تحرز فى فسخه الذى لا يبيحه الشرع ولا يتأول ... أنكرنا ذلك على

معتمديه ، وذممنا من قصدنا عليه ومرتكبيه ، اذ كان للحق مجانبا ، وعن مذهب الصواب ذاهبا ، وعرضنا ذلك بالمواقف المقدسة المطهرة — ضاعف الله أنوارها وأعلى أبدا منارها — واستخرجنا الأوامر المطاعة فى كتب هذا المنشور الى سائر الأعمال ، بأنه أى أحد من الناس ضمن ضمانا من باب أو ربع أو بستان أو ناحية أو كفر — وكان لأقساط ضمانه مؤديا ، ولما يلزمه من ذلك مبديا ، وللحق متبعا — فان ضمانه باق فى يده لا تقبل زيادة عليه مدة ضمانه على العقد المعقود ، عملا بالواجب والنظام المحمود ، واتباعا لما أمر الله تعالى به فى كتابه المجيد ، اذ يقول جل من قائل : « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، الى أن تنقضى مدة الضمان ويزول حكمها ويذهب وضعها ورسمها ، حملا على قضية الواجب وسننها ، واعتمادا على حكم الشريعة التى ماضل من اهتدى بفرائضها وسننها ...

« فأما من ضمن ضمانا ولم يقم بما يجب عليه فيه ، وأصر على المدافعة والمغالطة التى لا يعتمدها الا كل ذميم الطباع سفيه ، فذلك الذى فسخ حكم ضمانه بنقضه الشروط المشروطة عليه ، وحكمه حكم من اذا زيد عليه فى ضمانه نقل عنه وأخرج من يديه ، لأنه الذى بدأ بالفسخ وأوجد السبيل اليه ...

« فليعتمد كافة أرباب الدواوين ، وجميع المتصرفين والمستخدمين العمل بما تضمنه هذا المنشور ، وامتثال المأمون ، وحمل هؤلاء الضمناء والمعاملين على ما نص فيه ، والحذر من تجاوزه وتعديه بعد ثبوته فى ديوانى المجلس والخاص الآمرين السعيدين ، وبحيث يثبت مثله ان شاء الله تعالى » .

قال : ووصلته المكاتبة من الوالى والمشارف ، ومن كان ندب صحبته لكشف الأراضى والسواقى ومساحتها ، متضمنة ما أظهره الكشف وأوضحته المساحة على من بيده السواقى — وهم عدة كثيرة — ومن جملتها ساقية مساحتها ثلثمائة وستون فدانا تشتمل على النخل والكرم وقصب السكر بمدينة اسنا خراجها فى السنة عشرة دنانير ، وما يجرى فى الأعمال هذا المجرى .

وأنهم وضعوا يد الديوان على جميعها ، وطلبوا من أرباب السواقى ما يدل على ما بأيديهم . فذكروا أنها انتقلت اليهم ، ولم يظهروا ما يدل عليها . وقد سيروا ملاكها الى الباب تحت الحوطة ليخرج الأمر بما يعتمد عليه فى أمرهم . وعند وصولهم أوقع الترسيم عليهم الى أن يقوموا بما يجب من الخراج عن هذه السواقى ، فان الأملاك بجملتها لا تقوم بما يجب عليها .

فوقف المذكورون للمأمون فى يوم جلوسه للمظالم ، فأمر بحضورهم بين يديه ، وتقدم الى القاضى جلال الملك أبو الحجاج يوسف ابن أبى أيوب المغربى — وهو يومئذ قاضى القضاة — لمحاكمتهم ، فجرى له معهم * مفاوضة أوجبت الحق عليهم ، وألزمهم بالقيام بما يستغرق أموالهم وأملاكهم .

فحصل من تضررهم ما أوجب العاطفة عليهم ، وأخذهم بالخراج من بعد ، وأن

يضرب عما تقدم صفحا ، وكتب منشور نسخته :

« قد علم الكافة ما نراه من افاضة سحب العدل عليهم والاحسان والنظر فى مصالح كل قاص منهم ودان ، وأننا لا ندع ضررا يتوجه الى أحد من الرعية الا حسمناه ، ولا نعلم صلاحا يعود نفعه عليه الا قويناا سببه ووصلناه ، حسب ما يتعين على رعاة الأمم ، وعملا بالواجب فى البعيد والأمم ، وسلوكا لمحجة الدولة الفاطمية — خلد الله ملكها — القويمة ، واستمرارا على قضاياها وسجاياها الكريمة ...

« ولما كنا نرى النظر فى مصالح الرعايا أمرا واجبا ، ونصرف الى سياستهم عزما ماضيا ورأيا ثاقبا ، كذلك نرى النظر فى أمور الدواوين واستيفاء حقوقها المصروفة الى حماية البيضة ، والمحاماة عن الدين ، وجهاد الكفرة والملحدين ، ليكون ما نراعيه وننظر فيه جاريا على سنن الواجب ، محروسا من الخلل — باذن الله — من جميع الجوانب .

« ومن الله نستمد مواد التوفيق فى الحل والعقد ، ونسأله الارشاد الى سواء السبيل والقصد ، وما توفيقنا الا بالله ، عليه نتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وكان القاضى الرشيد بن الزبير — أيام مشارفته الصعيد الأعلى — قد طالع المجلس الأفضلى بحال أرباب الأملاك هناك ، وأنهم قد استضافوا الى أماكنهم من أملاك الدواوين أراضى اغتصبوها ، ومواضع مجاورة لأملاكهم تعدوا عليها وخلطوها بها وحازوها . ورسم له كشفها ونظم المشاريح بها وارتجاعها للديوان ، وأن يعتمد فى ذلك ما يوجبه حكم العدل المثبت فى كل قطر ومكان .

وبآخر ذلك : «سيرنا من الباب من يكشف ذلك على حقيقته وانهائه على طيته ، فاعتمدوا ما أمروا به من الكشف فى هذه الأملاك .

« ووردت المطالعة منهم بأنهم التمسوا ممن بيده ملك أو ساقية ، ما يشهد بصحة ملكه ومبلغ فدنه وذكر حدوده ، فلم يحضر أحد منهم كتابا ، ولا أوضح جوابا ...

« وأصدروا الى الديوان المشاريح بما كشفوه وأوضحوه ، فوجدوا التعدى فيه ظاهرا ، وباب الحيف والظلم غير متقاصر ، والشرع يوجب وضع اليد على ما هذه حاله ، ومطالبة صاحبه بريعه واستغلاله ، لا سيما وليس بيده كتاب يشهد بصحة الملك راسا ، ولا يستند فى ذلك الى حجة ادخرها احترازا عن مجاهدة سبيله واحتراسا ..

« ولكى نحكم بما نراه من المصلحة للرعية والعدل الذى أقمنا مناره ، وأحيينا معالمه وآثاره ، مع الرغبة فى عمارة البلاد ومصالح أحوالها ، واستنباط الأرضين الدائرة ، وانشاء الجروس واقامة السواقى بها ... أمرنا بكتب هذا المنشور وتلاوته بأعمال الصعيد الأعلى ، باقرار جميع الأملاك والأرضين والسواقى بأيدى أربابها الآن ، من غير انتزاع شىء منها ولا ارتجاعه ، وأن يقرر عليها من الخراج ما يجب تقريره ، ويشهد الديوان على أمثالهم بمثله ، احسانا اليهم لم نزل نتابع مثله ونواليه ، وانعاما ما برحنا نعيده عليهم ونبديه ...

« وقد أنعمنا وتجاوزنا عما سلف ، ونهينا من يستأنف ، وسامحنا من خرج عن التعدى الى المألوف ، وجرينا على سنتنا فى العفو والمعروف ، وجعلناها توبة مقبولة من الجماعة الجانين ، ومن عاد من الكافة أجمعين فلينتقم الله منه ، وطولب بمستأنفه وأمسه ، وبرئت الذمة من ماله ونفسه ، وتضاعفت عليه الغرامة والعقوبة ، وسدت فى وجهه أبواب الشفاعة والسلامة ...

« وقد فسحنا — مع ذلك — لكل من يرغب فى عمارة أرض حلفاء دائرة وادارة بئر مهجورة معطلة ، فى أن يسلم اليه ذلك ويقاس عليه ، ولا يؤخذ منه خراج الا فى السنة الرابعة من تسليمه اياه ، وأن يكون المقرر على كلّ فدان ما توجبه زراعته لمثله خراجا مؤبدا وأمرا مؤكدا ...

« فليعتمد ذلك النواب وحكام البلاد ، ومن جرت العادة بحضوره عقد مجلس ، واحضار جميع أرباب الأملاك والسواقى ، واشعارهم ما شملهم من هذا الاحسان الذى تجاوز آمالهم فى اجابتهم الى ما كانوا يسألون فيه ، وتقرير ما يجب على الأملاك المذكورة من الخراج على الوضع الذى مثلناه ، ويجيز الديوان تقريره ويرضاه ، مع تضمين الأراضى الدائرة والآبار المعطلة لمن يرغب فى ضمانها ، ونظم المشاريح بذلك واصدارها الى الديوان ، ليخلد فيه على حكم أمثالها بعد ثبوت هذا المنشور بحيث يثبت مثله » .

قال : ولما سرت هذه المصالح الى جميع أهل هذه الأعمال ، حصل الاجتهاد فى تحصيل مال الديوان وعمارة البلاد .

واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد اقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وانما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم ، لا يعرف هذه الابذة التى يقال لها اليوم الفلاحة .

ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا ، فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، الا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقى ومن ولد له كذلك ، بل كان من اختار زراعة أرض يقبلها كما تقدم ، وحمل ما عليه لبيت المال .

فاذا صار مال * الخراج بالديوان ، أنفق فى طوائف العسكر من الخزائن .

وكان مع ذلك اذا انحط ماء النيل عن الأراضى ، وتعلقت نواحى مصر بأصناف الزراعات ، ندب من الحضرة من فيه نباهة ، وخرج معه عدول يوثق بهم وكانت لهم معرفة بعلم الخراج ، وكثيرا ما كان هذا الكاتب من النصارى الأقباط .

ويخرج الى كل ناحية من ذكرنا ، فيحررون مساحة ما شمله الرى من الأراضى مما لعله بار أو شرق ، ويكتب بذلك مكلفات واضحة بالفدن والقطائع على جميع الأصناف المزروعة ، ويحضر الى دواوين الباب .

فاذا مضى من السنة القبطية أربعة أشهر ، ندب من الأجناد من عرف بالحماسة وقوة

(*) ص٨٥ جـ١ ، ط. بولاق .

البطش ، وعين معه من الكتاب العدول من قد اشتهر بالأمانة ، وكاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة ، وساروا الى كل ناحية كذلك ، فاستخرج مباشرو كل بلد ثلث ما وجب من مال الخراج على ما شهدت به المكلفات ، فاذا أحضر هذا الثلث صرفه فى واجبات العساكر ... وهكذا العمل فى استخراج كل قسط طول الزمان من كل سنة .

وكانت تبقى فى بعهدات الفسان والمتقبلين بجملة بواق .

وكانت بلاد مصر ، اذ ذاك ، تقبل بعين وغلة وأصناف ، وقد عرف ذلك من نسخة المسموح الذى تضمن ترك البواقى فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحى .

ورأيت بخط الأسعد بن مهذب بن زكريا ابن مماتى الكاتب المصرى : سألت القاضى الفاضل عبد الرحيم : كم كانت عدة العساكر فى عرض ديوان الجيش ، لما كان سيدنا يتولى ذلك فى أيام رزيك بن الصالح ؟

فقال : أربعين ألف فارس ونيفا ، وثلاثين ألف راجل من السودان .

وقال أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب «حسن السريرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة» : ان ضرغاما لما ثار على شاور ، وفر شاور الى السلطان نور الدين محمود بن زنكى بدمشق يستجد به على ضرغام ووعده بأنه يكون نائبا عنه بمصر ويحمل اليه الخراج ، أثنا لنور الدين عزما لم يكن . فجهز ألف فارس ، وقدم عليهم أسد الدين شيركوه ، وأمره بالتوجه ، فأبى وقال : لا أمضى أبدا ، فان هلاكى ومن معى وسوء ما سمعه السلطان معلوم من هنا ، وكيف أمضى بألف فارس الى اقليم فيه عشرة آلاف فارس ، ومائة سيهبد فيها عشرة آلاف مقاتل وأربعون ألف عبد وقوم مستوطنون فى أوطانهم ، فرأيت حرابتهم — ونحن نأتيهم من تعب السفر — بهذه العدة القليلة ؟

قال : ثم أجابه بعد ذلك .

هذا — أعزك الله — بعد ما كانت عساكر أحمد بن طولون ، ما ستراه فى ذكر القطائع ان شاء الله تعالى ، ثم ما كان من عساكر الأمير أبى بكر محمد بن طغج الاخشيد ، وهى — على ما حكاه غير واحد ، منهم ابن خلكان — أنها كانت أربعمائة ألف .

ولما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغز من بلاد الشام ، واستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر ، تغير الحال بعض التغير لا كله .

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة : فى ثامن المحرم خرجت الأوامر الصلاحية بركوب العساكر قديمها وجديدها ، بعد أن أنفذ حاضرها وغائبها ، وتوافى وصولها وتكامل سلاحها وخيولها ، فحضر فى هذا اليوم جموع ، شهد كل من علا سنه وقرطس ظنه أن ملكا من ملوك الاسلام لم يحز مثلها ، وشاهدت رسل الروم والفرنج ما أرغم أنوف الكفرة .

ولم يتكامل اجتياز العساكر موكبا بعد موكب ، وطلبا بعد طلب (والطلب — بلغة الغز — هو الأمير المقدم الذى له علم معقود وبوق مضروب ، وعدة من مائتى فارس الى مائة فارس الى سبعين فارسا) الى أن انقضى النهار ، ودخل الليل وعاد ولم يكمل عرضهم .

وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلبا ، والغائب منها عشرون طلبا ، وتقدير العدة يناهز أربعة عشر ألف فارس ، أكثرها طواشية (والطواشى من رزقه من سبعمائة الى ألف الى مائة وعشرين وما بين ذلك ، وله برك من عشرة رؤوس الى ما دونها ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل ، وله غلام يحمل سلاحه) وقرا غلامية تتمة الجملة .

قال : وفى هذه السفرة عرض العربان الخدامين ، فكانت عدتهم سبعة آلاف فارس ، واستقرت عدتهم على ألف وثلثمائة فارس لا غير ، وأخذ بهذا الحكم عشر الواجب ، وكان أصله ألف ألف دينار ، على حكم الاعتداد الذى يتأصل ولا يتحصل ، وكلف الثعالبة ذلك فامتعضوا ولوحوا بالتحيز الى الفرنج .

وقال فى متجددات شهر رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة : استمر انتصاب السلطان صلاح الدين فى هذه السنة للنظر فى أمور الاقطاعات ومعرفة عبرها ، والنقص منها والزيادة فيها ، واثبات المحروم وزيادة المشكور ، الى أن استقرت العدة على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين فارسا : أمراء مائة وأحد عشر أميرا ، طواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعون ، قرا غلامية ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسون .

والمستقر لهم من المال ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف وسبعون ألفا وخمسمائة دينار ، وذلك خارج عن المحلولين من الأجناد الموسومين بالحوالة على العشر ، وعن عدة العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة ، وعن الكنانيين والمصريين والفقهاء * والقضاة والصوفية ، وعما يجرى بالديوان ولا يقصر عن ألف ألف دينار .

وقال فى متجددات سنة خمس وثمانين وخمسمائة : أوراق بما استقر عليه عبر البلاد من اسكندرية الى عيذاب ، الى آخر الرابع والعشرين من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، خارجا عن الثغور وأبواب الأموال الديوانية والأحكار والحبس ومنفلوط ومنقباط وعدة نواح أوردت أسماؤها ولم يعين لها فى الديوان عبرة ، من جملة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وخمسين ألفا وتسعة عشر دينارا ، بعد ما يجرى فى الديوان العادلى السعيد وغيره عن الشرقية والمرتاحية والدقهلية وبوش وغير ذلك ، وهو ألف ألف ومائة ألف وتسعون ألفا وتسعمائة وثلاثة وعشرون دينارا ، تفصيل ذلك :

الديوان العادلى : سبعمائة ألف وثمانية وعشرون ألفا ومائتان وثمانية وأربعون دينارا .

الأمراء والاجناد المرسوم بابقاء اقطاعاتهم بالأعمال المذكورة : مائة ألف وثمانية وخمسون ألفا ومائتان وثلاثة دنانير .

ديوان السور المبارك والأشراف : ثلاثة عشر ألفا وثمانمائة وأربعة دنانير .

(*) ص٨٦ جـ١ ، طـ بولاق =

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

له منها مائة ألف أردب غلة فى كل سنة . واقتدى به جميع الأمراء ، وأخرجوا ما فى اقطاعاتهم من ذلك ، فبطلت الحمايات .

وجعل السلطان فى هذا الروك للأمراء والأجناد أحد عشر قيراطا ، وأفرد تسعة قراريط ليحدم بها عسكرا ويقطعهم اياها ، ثم رتب أوراقا بتكفية الأمراء والأجناد بعشرة قراريط ، ووفر قيراطا لزيادة من عساه يطلب زيادة لقلة متحصل اقطاعه ، وأفرد لخاص السلطان عدة أعمال جليلة ، وأفرد للنائب منكوتمر لتفرقة المثالات فى تابعيه فتنكرت قلوب الأمراء ، حتى كان من المنصور لاجين ونائبه منكوتمر ما كان .

فلما كانت الأيام الناصرية ، راك الناصر محمد البلاد ... قال جامع السيرة الناصرية : وفى سنة خمس عشرة وسبعمائة ، اختار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يروك الديار المصرية ، وأن يبطل منها مكوسا كثيرة ، ويفضل لخاص مملكته شيئا كثيرا من أراضى مصر .

وكان سبب ذلك أنه اعتبر كثيرا من أخباز المماليك والحاشية الذين كانوا للملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير والأمير سلار وسائر المماليك البرجية ، فاذا هى ما بين ألف دينار الى ثمانمائة دينار ، وخشى من قطع أخباز المذكورين ، فولد له الرأى مع القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش ، أن يروك ديار مصر ، ويقرر اقطاعات مما يختار ، ويكتب بها مثالات سلطانية فتقدم الفخر ناظر الجيش فعمل أوراقا بما عليه عبر النواحى ومساحتها .

وعين السلطان لكل اقليم من أقاليم ديار مصر أناسا ، وكتب مرسوما للأمير بدر الدين جنكل بن البابا أن يخرج لناحية الغربية ومعه أعزل الحاجب ، ومن الكتاب المكين بن قروينة .

وأن يخرج الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى الى ناحية الشرقية ومعه الأمير ايتمش المجدى ومن الكتاب أمين الدولة ابن قرموط .

وأن يخرج الأمير بلبان الصرخدى والقليجى وابن طرنطاى وبيبرس الجمدار الى ناحية المنوفية والبحيرة .

وأن يخرج البليلى والمرتينى الى الوجه القبلى

وندب معهم كتابا ومستوفين وقياسين ... فساروا الى حيث ذكر .

فكان كل منهم اذا نزل باول عمله ، طلب مشايخ كل بلد ودلالاءها وعدولها وقضاتها وسجلاتها التى بأيدى مقطعيها ، وفحص عن متحصلها من عين وغلة وأصناف ، ومقدار ما تحتوى عليه من الفدن ، ومزروعها وبورها وما فيها من تراب وبواق وغرس ومستبحر ، وعبرة الناحية وما عليها لمقطعيها من غلة ودجاج وخراف وبرسيم وكشك وكعك وغير ذلك من الضيافة .

فاذا حرر ذلك كله ، ابتدأ بقياس تلك الناحية ، وضبط بالعدول والقياسين وقاضى العمل ما يظهر بالقياس الصحيح ، وطلب مكلفات تلك القرية وغنداقها وفضل ما فيها الأجناد والرزق ، حتى ينتهى الى آخر عمله .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزي رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

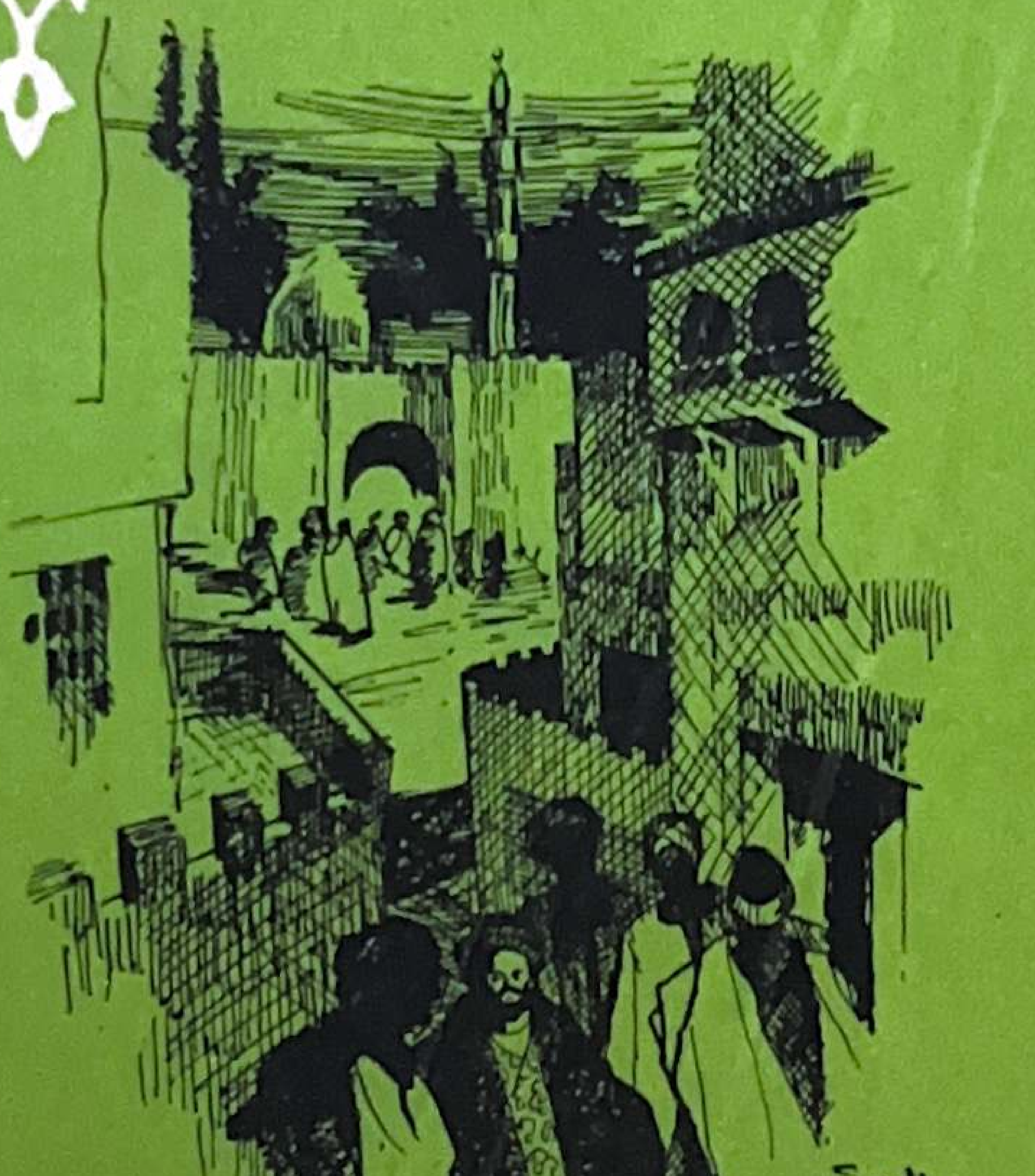
عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء

٥



كتاب التحرير

«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها».

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

لم يحضروا بعد خمسة وسبعين يوما ، وقد تحرر في الأوراق المحضرة حال جميع ضياع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها ، وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة وصنف .

فطلب السلطان الفخر ناظر الجيش والتقى الأسعد بن أمين الملك المعروف بكاتب سرلغى وسائر مستوفى الدولة ، وألزمهم بعمل أوراق تشتمل على بلاد الخاص السلطاني التي عينها لهم وعلى اقطاعات الأمراء ، وأضاف على عبرة كل بلد ما كان على فلاحيها من ضيافة لمقطعيها ، وأضاف الى العبرة ما في الاقطاع من الجوالى ، وكتب مثالات للأجناد باقطاعات على هذا الحكم ، فاعتد منها بما كان يصرف في كلف حمل الغلال من النواحى الى ساحل القاهرة وما كان عليها من المكس .

وأبطل السلطان عدة مكوس منها مكس ساحل الغلة ، وكان جل متحصل الديوان ، وعليه اقطاعات الأمراء والأجناد ، ويتحصل منه في السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم ، وعليه أربعمائة مقطع لكل منهم من عشرة آلاف الى ثلاثة آلاف ، ولكل من الأمراء من أربعين ألفا الى عشرة آلاف .

وكانت جهة عظيمة لها متحصل كثير جدا ، وينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصى ، ويحل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم ، فان مظالمها كانت تتعدد ما بين نواتية تسرق وكيالين تبخس وشادين وكتاب يريد كل منهم شيئا ، وكان مقرر الأردب درهمين للسلطان ويلحقه نصف درهم ، غير ما ينهب ويسرق .

وكان لهذه الجهة مكان يعرف بخص الكيالة في ساحل بولاق ، يجلس فيه شاد وستون متعمما ما بين كتاب ومستوفين وناظر وثلاثون جنديا مباشرون ، ولا يمكن أحدا من الناس أن يبيع قدحا من غلة في سائر النواحى ، بل تحمل الغلات حتى تباع في خص الكيالة ببولاق .

ومما أبطل أيضا نصف السمسرة : وهو عبارة عن أن من باع شيئا من الأشياء فانه يعطى أجرة الدلال — على ما تقرر من قديم — عن كل مائة درهم درهمين ، فلما ولى ناصر الدين الشيخى الوزارة قرر على كل دلال من دلالته درهما من كل درهمين ، فصار الدلال يعمل معدله ويجتهد حتى ينال عادته وتصير الغرامة على البائع ، فتضرر الناس من ذلك وأوذوا فلم يغاثوا حتى أبطل ذلك السلطان .

ومما أبطل رسوم الولاية : وكانت جهة تتعلق بالولاة والمقدمين فيجبيها المذكورون من عرفاء الأسواق وبيوت الفواحش ، ولهذه الجهة ضامن وتحت يده عدة صبيان وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم ، وكانت تشتمل على ظلم شنيع وفساد قبيح وهتك قوم مستورين وهجم بيوت أكثر الناس .

ومما أبطل مقرر الحوائص والبغال من المدينة وسائر أعمال مصر كلها من الوجه القبلى والبحرى ، فكان على كل من الولاة والمقدمين مقرر يحمل في كل قسط من أقساط

---

(١) ص ٨٨ جـ ١ ، ط بولاق .

السنة الى بيت المال ، عن ثمن حياصة ثلثمائة درهم ، وعن ثمن بغل خمسمائة درهم ، وعلى هذه الجهة عدة مقطعين ويفضل منها ما يحمل . وكان يصيب الناس من هذه الجهة ما لا يوصف ، ويحل بهم من عسف الرقاصين ما يهون معه الموت .

ومن ذلك مقرر السجون : وهو عبارة عما يؤخذ من كل من يسجن ، فللسجان على حكم المقرر ستة دراهم سوى كلف أخرى ، وعلى هذه الجهة عدة مقطعين ، ويرغب فيها الضمان ويتزايدون فى مبلغ ضمانها لكثرة ما يتحصل منها ، فانه كان لو تخاصم رجل مع امرأته أو ابنه رفعه الوالى الى السجن ، فبمجرد ما يدخل السجن — ولو لم يقم به الا لحظة واحدة — أخذ منه المقرر ، وكذلك كان على سجن القضاة أيضا .

ومن ذلك مقرر طرح الفراريج : ولها ضمان عدة ، فى سائر نواحى أرض مصر ، يطرحون على الناس الفراريج ، فيمر بضعفاء الناس من ذلك بلاء عظيم ، وتقاسى الأرامل من العسف والظلم شيئا كثيرا . وكان على هذه الجهة عدة مقطعين ، ولا يمكن أحدا من الناس فى جميع الأقاليم أن يشترى فروجا فما فوقه الا من الضامن ، ومن عثر عليه أنه اشترى أو باع فروجا من سوى الضامن جاءه الموت من كل مكان وما هو بميت .

ومن ذلك مقرر الفرسان : وهو عبارة عما يجبيه ولاة النواحى من سائر البلاد ، فلا يؤخذ درهم مقرر حتى يغرم عليه صاحبه درهمين ، ويقاسى الناس فيه أهوالا صعبة .

ومن ذلك مقرر الأقصاب والمعاصر : وهو ما يجبى من مزارعى قصب السكر ومن المعاصر ورجال المعاصر .

ومن ذلك مقرر رسوم الأفراح : ويجبى من سائر النواحى ، ولهذه الجهة عدة ضمان ، ولا يعرف لهذه الجهة أصل ألبتة ، وانما يجبى بضرائب ينال الناس فيها مع المقرر غرامات وروعات .

ومن ذلك حماية المراكب : وهى عبارة عما يؤخذ من كل مركب بتقرير معين يعرف بمقرر الحماية . وكانت هذه الجهة أشد ما ظلم به الناس ، فيؤخذ من كل من ركب البحر للسفر ، حتى من السؤال والمكدين .

ومن ذلك حقوق القينات : وهو عبارة عما يجمع من الفواحش والمنكرات ، فيجبيه مهتار الطشتخاناه السلطانية من أوباش الناس .

ومن ذلك شد الزعماء : وهى جهة مفردة وحقوق السودان وكشف المراكب ، ومقرر ما على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة ، فيؤخذ من كل ذكر وأنثى مقرر معين .

ومتوفر الجراريف : وهو ما يجبى من سائر النواحى ، فيحمل ذلك مهندسو البلاد الى بيت المال باعانة الولاة لهم فى تحصيل ذلك . وعلى هذه الجهة عدة مقطعين من الجند .

ومقرر المشاعلية : وهو عبارة عما يؤخذ عن كسح الأفنية وحمل ما يخرج منها من الوسخ الى الكيمان ، فكان اذا امتلأ سراب جامع أو مدرسة أو مسمط أو تربة أو منزل من منازل سائر الناس ، لا يمكنه — ولو بلغ من العظمة

ما عسى أن يبلغ — التعرض لذلك حتى يأتيه ضامن الجهة ويقاوله على كسح ذلك بما يريد . وكان من عادة الضامن الاشطاط فى السوم ، وطلب أضعاف القيمة ، فان لم يرض رب المنزل بما طلب الضامن والا تركه وانصرف ، فلا يقدر على مقاساة ترك الوسخ ويضطر الى سؤاله ثانيا ، فيعظم تحكمه ويشتد بأسه الى أن يرضيه بما يختار حتى يتمكن من كسح فنائه ورفع ما هنالك من الأقذار

ومن ذلك ابطال المباشرين من النواحى : وكانت بلاد مصر كلها ، من الوجهين القبلى * والبحرى ، ما من بلد صغير وكبير الا وفيه عدة من كتاب وشاد ونحو ذلك ، فأبطل السلطان المباشرين ، وتقدم منعهم من مباشرة النواحى الا من بلد فيها مال السلطان فقط ، فأراح الله سبحانه الخلق بابطال هذه الجهات من بلاء لا يقدر قدره ولا يمكن وصفه .

ولما أبطل السلطان هذه الجهات ، وفرغ من تعيين الاقطاعات للأمراء والأجناد ، أفرز لخاص السلطان من بلاد أرض مصر عدة نواح مما كان فى اقطاعات البرجية ، وهى الجيزة وأعمالها وهو والكوم الأحمر ومنفلوط والمرج والخصوص ، وغير ذلك مما بلغ عشرة قراريط من الاقليم ، وصار لاقطاعات الأمراء والأجناد وغيرهم أربعة عشر قيراطا .

ومكر الأقباط فيما أمكنهم المكر فيه ، فبدأوا بأن أضعفوا عسكر مصر ، ففرقوا الاقطاع الواحد فى عدة جهات ، فصار بعض الجبى فى الصعيد ، وبعضه فى الشرقية ، وبعضه فى الغربية ، اتعابا للجندى وتكثيرا للكلفة . وأفردوا جوالى الذمة من الخاص ، وفرقوها فى البلاد التى أقطعت للأمراء والأجناد ... فان النصارى كانوا مجتمعين فى ديوان واحد — كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى — فصار نصارى كل بلد يدفعون جاليتهم الى مقطع تلك الضيعة .

فاتسع مجال النصارى ، وصاروا يتنقلون فى القرى ولا يدفعون من جزيتهم الا ما يريدون ، فقل متحصل هذه الجهة بعد كثرته ، وأفردوا ما بقى من جهات المكوس برسم الحوائج خاناه التى تصرف للسماط ، ليتناولوا ذلك ويوردوا منه ما شاءوا ، ثم يتولوا صرف ما يحصل منه فى جهات تستهلك بالأكل . وصارت جهات المكوس مما يتحدث فيه الوزير وشاد الدواوين .

ثم نظر السلطان فيما كان بيد الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار نائب السلطنة من البلاد ، فأخذ ما كان باسم كل منهما وباسم حواشيه ، ولم يدع من ذلك شيئا مما كانوا قد وقفوه حتى حله ، وجعل الجميع اقطاعات ، واعتد فى سائر الاقطاعات بما كان يستهديه المقطع من فلاحه ، فحسب ذلك وأقامه من جملة عبر الاقطاع ، وأبطل الهدية ، فلم يتهيأ له الفراغ من ذلك الى آخر السنة .

فلما أهل المحرم من سنة ست عشرة وسبعمائة ، وقد نظمت الحسبانات على ثلث مغل سنة خمس عشرة ، جلس السلطان فى الايوان الذى استجده بقلعة الجبل ، وقد تقدم لسائر نقباء الأجناد على لسان نقيب

(*) ص٨٦ جـ١ ، ط. بولاق .

الجيش بالحضور بأجنادهم ، وجعل للعرض فى كل يوم أميرين من الأمراء المقدمين بمضافيهما .

فكان الأمير مقدم الألف يقف ومعه مضافوه ، وناظر الجيش يستدعيهم من تقدمة ذلك الأمير بأسمائهم على قدر منازلهم ، فيقدم نقيب الجيش الواحد بعد الواحد من يد نقيبه الى ما بين يدى السلطان ، فاذا مثل بحضرته سأله السلطان بنفسه من غير واسطة عن اسمه وأصله وجنسه ووقت حضوره الى ديار مصر ، ومع من قدم ، والى من صار من الأمراء وغيرهم ، وعن مشاهده التى حضرها فى الغزو ، وعما يعرفه من صناعة الحرب وغير ذلك من الاستقصاء . فاذا انتهى استفهامه اياه ناوله بيده مثالا من غير تأمل بحسب ما قسم الله له ، فلم يمر به فى مدة العرض أحد الا وقد عرفه ، وأشار الى الأمراء بذكر شىء من خبره .

هذا ، وقد تقدم الى سائر الأمراء بأسرهم بأن يحضروا الى الايوان عند العرض ، ولا يعارض أحد منهم السلطان فى شىء يفعله ، فكانوا يحضرون وهم سكوت لا يتكلم أحد منهم خوفا من مخالفة السلطان لما يقوله . وأخذ السلطان فى موازبة الأمراء ، فما أثنوا على أحد فى مجلس العرض الا وأعطاه السلطان مثالا باقطاع ردىء . فلما علموا ذلك أمسكوا عن الكلام معه جملة .

وانفرد بالاستبداد بأموره دونهم ، فما عرف منه أنه قدم اليه أحد الا وسأله : ان كان مملوكا عمن أقدمه من التجار وسائر ما تقدم ، وان كان شيخا فمن أصله وسنه وكم مصاف حضرها ، حتى أتى على الجميع . وأفرد المشايخ العاجزين فلم يعطهم اقطاعات ، وجعل لكل منهم مرتبا يقوم به ... فانتهى العرض فى طول المحرم ، وتوفر كثير من مثالات الأجناد فبلغ عدة مائتى مثال .

ثم اخذ فى عرض أطباق المماليك السلطانية ، ووفر من جوامكهم كثيرا ، وقطع عدة رواتب من رواتبهم ، وعوضهم عن ذلك اقطاعات ، وجعل حصة مكس قطيا لضعفاء الأجناد ممن قطع خبزه ، فجعل لكل منهم فى السنة ثلاثة آلاف درهم .

وكان لبيبرس وسلار الجوكندار تعلقات كثيرة فى بيت المال ، وفى الأعمال كالجيزة والاسكندرية ، من متجر وحمايات ، فارتجع ذلك وأبطله وما شابهه ، وأضاف ما لم يقطعه الى ديوان الخاص .

ومما أمر به فى مدة العرض ألا يرد أحد مثالا أخذه من السلطان ولو استقله ، ولا يشفع أمير فى جندى ، وأن من خالف ذلك ضرب وحبس ونفى وقطع خبزه ... فعظمت مهابة السلطان وقويت حرمته ، ولم يجسر أحد أن يرد عليه مثالا أخذ من السلطان ، ولا استطاع أمير أن يتكلم لأحد . وصار كثير ممن كان اقطاعه مثلا ألف دينار الى اقطاع مائتى دينار ونحوها ، وكثير ممن كان اقطاعه قليلا الى اقطاع معتبر ، فانه كان يعطى المثال * من غير تأمل كيفما وقعت يده عليه .

وقدر الله سبحانه وتعالى أن السلطان كان من جملة صبيان مطبخه رجل مضحك يهزل

(*) ص٩٠ جـ١ ، ط.بولاق .

بحضرته ، فيضحك منه ويعجب به ولا يعترض فيما يقول من السخف . فجلس السلطان فى بعض أيام العرض فى البستان بقلعة الجبل وعنده الخاصة من الأمراء ، فدخل هذا المضحك وأخذ فى السخرية على عادته ليضحك السلطان ، الى أن قال : وجدت بعض أجناد الروك الناصرى وهو راكب الاكديش وخرجه خلفه ورمحه فوق كتفه (يقصد بهذا السخرية والطعن) . فغضب السلطان غضبا شديدا ، وصاح : خذوه وعروه ثيابه .

فتبادره الأعوان ، وجروه برجله ونزعوا ثيابه ، وربطوه فى الساقية مع القواديس ، وأكثروا من ضرب الأبقار حتى أسرعت بدوران الساقية . فصار المسكين ينقلب مع القواديس ، ويغطس فى الماء تارة ويرقى أخرى ، ثم ينتكس والماء يمر عليه مقدار ساعة ، الى أن انقطع حسه وأشرف على الهلاك . واشتد رعب الأمراء لما رأوه من قوة غضب السلطان .

ثم تقدم الأمير طغاى الدوادار فى طائفة من الأمراء الخاصكية ، واعتذروا عن هذا المسكين بأنه لم يرد الا أن يضحك السلطان من كلامه ، ولم يقصد عيب الأجناد ولا انتقاصهم ، ونحو هذا من القول الى أن أمر بحله ، فاذا ليس فيه حركة فسحب . ورسم السلطان بأنه ان كان حيا لا يبيت بديار مصر . فأخرج من وقته منفيا .

وحمد الله كل من الأمراء على ما وفقه من السكوت عن الكلام فى حال العرض .

وما زال الأمر بمصر على ما رسمه الملك الناصر فى هذا الروك ، الى أن زالت دولة بنى قلاوون بالملك الظاهر برقوق فى شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، فأبقى الأمر على ذلك الا أن أشياء منه أخذت تتلاشى قليلا قليلا ... الى أن كانت الحوادث والمحن فى سنة ست وثمانمائة حيث حدث من أنواع التغيرات وتنوع الظلم ما لم يخطر ببال أحد . وسيمر بك جمل من ذلك عند ذكر أسباب خراب اقليم مصر ان شاء الله تعالى .

وكانت لأراضى مصر تقاوى مخلدة فى نواحيها وهى على قسمين : تقاوى سلطانية ، وتقاوى بلدية ، فالتقاوى السلطانية وضعها الملوك فى النواحى . وكان الأمير أو الجندى عندما يستقر على الاقطاع يقبض ما له من التقاوى السلطانية ، فاذا خرج عنه طولب بها . فلما كان الروك الناصرى خلدت تقاوى كل ناحية بها ، وضبطت فى الديوان السلطانى ، فبلغت جملتها مائة ألف وستين ألف اردب سوى التقاوى البلدية .

ذكر الديوان

قال أقضى القضاة أبو الحسن الماوردى : الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال .

وفى تسميته ديوانا وجهان : أحدهما أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم ، فقال : « ديوانه » ، أى مجانين ، فسمى موضعهم

بهذا الاسم ، ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا للاسم فقيل ديوان .

والثانى : أن الديوان اسم بالفارسية للشياطين ، فسمى الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور ، ووقوفهم على الجلى والخفى ، وجمعهم لما شذ وتفرق ، واطلاعهم على ما قرب وبعد . ثم سمى مكان جلوسهم باسمهم فقيل ديوان . انتهى .

واعلم أن كتابة الديوان على ثلاثة أقسام : كتابة الجيوش ، وكتابة الخراج ، وكتابة الانشاء والمكاتبات . ولابد لكل دولة من استعمال هذه الأقسام الثلاثة . وقد أفرد العلماء فى كتابة الخراج وفى كتابة الانشاءات عدة مصنفات ، ولم أر أحدا جمع شيئا فى كتابة الجيوش والعساكر .

وكانت كتابة الدواوين فى صدر الاسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفا مدرجة . فلما انقضت أيام بنى أمية ، وقام عبد الله بن محمد أبو العباس السفاح ، استوزر خالد بن برمك بعد أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال ، فجعل الدفاتر فى الدواوين من الجلود ، وكتب فيها وترك الدروج ... الى أن تصرف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك فى الأمور أيام الرشيد ، فاتخذ الكاغد ، وتداوله الناس من بعده الى اليوم .

وذكر أبو النمر الوراق قال : حدثنى أبو حازم القاضى قال : قال لى أبو الحسن بن المدبر : لو عمرت مصر كلها لوفت بأعمال الدنيا .

وقال : ان أرض مصر مساحتها للزراعة ثمانية وعشرون ألف ألف فدان ، وانما المعمر منها ألف ألف فدان .

قال : وقال لى ابن المدبر : انه كان يتقلد ديوان المشرق وديوان المغرب ، قال : ولم أبت قط ليلة من الليالى حتى أنهيه ولا بقيته ، وتقلدت مصر فكنت ربما نمت وقد بقى على شىء من العمل فأستتمه اذا أصبحت .

ذكر ديوان العساكر والجيوش

يقال ان أول من وضع ديوان الجند بخيلهم كيهراسف أحد ملوك الطبقة الثانية من الفرس ، وان كيقباذ قبله * كان قد أخذ العشر من الغلات وصرفه فى أرزاق جنده .

وأما فى الاسلام فما خرجه البخارى ومسلم ، من حديث حذيفة رضى الله عنه ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اكتبوا لى من تلفظ بالاسلام من الناس » فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل ... الحديث ، ذكره البخارى فى باب كتابة الامام الناس .

وللبخارى من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله انى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا وامرأتى حاجة ، قال : « ارجع فاحجج مع امرأتك » .

وقال عمرو بن منبه ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : آخر ما أتى به النبى صلى الله عليه

(*) ص٩١ جـ١ ، ط.بولاق .

وسلم ثمانمائة ألف درهم من البحرين ، فما قام من مجلسه حتى أمضاه .

ولم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم بيت مال ولا لأبى بكر . وأول من اتخذ بيت المال عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقال ابن شهاب : عمر أول من دون الدواوين .

وروى ابن سعد ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قسم أبى الفىء عام أول ، فأعطى الحر عشرة ، والمملوك عشرة ، والمرأة عشرة ، وأمتها عشرة . ثم قسم العام الثانى ، فأعطاهم عشرين عشرين .

فقيل : ان سببه أن أبا هريرة رضى الله عنه قدم على عمر رضى الله عنه بمال من البحرين ، فقال له عمر : ماذا جئت به ؟

فقال : خمسمائة ألف درهم

فاستكثره عمر وقال : أتدرى ما تقول ؟

قال : نعم مائة ألف خمس مرات .

فقال عمر : أطيب هو ؟

قال : لا أدرى .

فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كِلنا لكم كيلا ، وان شئتم عددنا لكم عدا

فقام اليه رجل فقال : ياأمير المؤمنين ، قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانا لهم ، فدون أنت ديوانا ... فدون عمر .

وقيل بل سببه أن عمر بعث بعثا وعنده الهرمزان ، فقال لعمر : هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال ، فان تخلف منهم رجل من أين يعلم صاحبك به ، فأثبت لهم ديوانا .

فسأله عن الديوان حتى فسره له .

فاستشار المسلمين فى تدوين الدواوين ، فقال له على بن أبى طالب : تقسم كل سنة ما اجتمع عندك من المال ، ولا تمسك منه شيئا .

وقال عثمان رضى الله عنه : أرى مالا كثيرا يسع الناس ، فان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر .

وقال خالد بن الوليد رضى الله عنه : قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا جنودا ، فدون ديوانا وجند جنودا .

فأخذ بقوله ، ودعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم — وكانوا كتاب قريش — فقال : اكتبوا الناس على منازلهم .

فبدأوا ببنى هاشم وكتبوهم ، ثم أتبعوهم أولاد أبى بكر وقومه ، ثم عمر وقومه ، وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة ، ثم رفعوا ذلك الى عمر رضى الله عنه .

فلما نظر فيه قال : لا ، ولكن ابدأوا بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الأقرب فالأقرب ، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله .

فشكره العباس رضى الله عنه على ذلك ، وقال : وصلت رحمك .

وقد اختلف فى السنة التى فرض فيها عمر رضى الله عنه الأعطية ودون الدواوين ، فقال الكلبى : فى سنة خمس عشرة . وحكى ابن

سعد عن عمر الواقدى أنه جعل ذلك فى سنة عشرين . قال الزهرى : وكان ذلك فى المحرم سنة عشرين من الهجرة .

وقيل : لما فتح الله على المسلمين القادسية ، وقدمت على عمر رضى الله عنه الفتوح من الشام ، جمع المسلمين وقال : ما يحل للوالى من هذا المال ؟

فقالوا جميعا : أما الخاصة فقوته وقوت عياله لا وكس ولا شطط ، وكسوته وكسوتهم للشتاء والصيف ، ودابتان الى جهاده وحوائجه وحملانه الى حجته وعمرته ، والقسم بالسوية ، وأن يعطى أهل البلاد على قدر بلادهم ، ويرم أمور الناس بعد ، ويتعاهدهم فى الشدائد والنوازل حتى تنكشف ، ويبدأ بأهل الفىء ثم يجوزهم الى كل مغلوب ما بلغ الفىء .

وقال الضحاك [1] عن ابن عباس رضى الله عنهما : لما افتتحت القادسية وصالح من صالح من أهل السواد ، وافتتحت دمشق وصالح أهل الشام ، قال عمر رضى الله عنه للناس : اجتمعوا فأحضرونى علمكم فيما آفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام .

فاجتمع رأى على وعمر ، رضى الله عنهما ، أن يأخذوه من قبل القرآن ، فقالوا : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى (يعنى من الخمس) فلله وللرسول (يعنى من الله الأمر وعلى الرسول القسم) ولذى القربى واليتامى والمساكين .

---

(١) قوله « وقال الضحاك ... » الخ ، لا تخلو هذه العبارة من نظر .

ثم فسروا ذلك بالآية الأخرى التى تليها « للفقراء المهاجرين ... » الآية ، فأخذوا أربعة الأخماس على ما قسم عليه : الخمس فيمن بدىء به وثنى وثلث ، وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم .

ثم استشهدوا على ذلك بقوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ... » الآية من تلك الطبقات الثلاث ، وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه ، فقسم الأخماس على ذلك .

فاجتمع على ذلك عمر وعلى ، وعمل به المسلمون بعد ذلك ، فبدأ بالمهاجرين ثم الأنصار ثم التابعين الذين شهدوا معهم وأعانوهم ، ثم فرض الأعطية من الجزا على من صالح أو دعا الى الصلح من حرابة ، فرده عليهم بالمعروف .

وليس فى الجزا أخماس : الجزا لمن منع الذمة ووفى لهم ممن ولى ذلك منهم ، ولمن لحق بهم * فأعانهم بأسوة ، الا أن يواسوا بفضله عن طيب أنفس منهم من لم ينل مثل الذى نالوا .

وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، قال عمر رضى الله عنه : انى مجند المسلمين على الأعطية ، ومدونهم ومتحرى الحق .

فقال عبد الرحمن بن عوف وعثمان وعلى رضى الله عنهم : ابدأ بنفسك .

قال : لا أبدأ الا بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الأقرب فالأقرب منهم من رسول الله .

(*) ص٩٢ جـ١ ، ط. بولاق .

فرض للعباس وبدأ به ، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ، ثم فرض لمن بعد بدر الى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ، ثم فرض لمن بعد الحديبية الى أن أقلع أبو بكر رضى الله عنه عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف .

ودخل فى ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبى بكر ومن ولى الأيام قبل القادسية ، كل هؤلاء على ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف . ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام أصحاب اليرموك ألفين ألفين ، وفرض لأهل البلاد النازح منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة .

فقيل له : لو ألحقت أهل القادسية بأهل الأيام ؟

فقال : لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا ، لاها الله اذن .

وقيل له : قد سويتهم — على بعد دارهم — بمن قد قربت داره وقاتل عن فنائه .

فقال : هم كانوا أحق بالزيادة لأنهم كانوا ردء الحقوق وشجى للعدو ، وأيم الله ما سويتهم حتى استطبتهم ، فهلا قال المهاجرون مثل قولهم حين سوينا بين السابقين من المهاجرين وبين الأنصار ، وقد كانت نصرة الأنصار بفنائهم وهاجر اليهم المهاجرون من بعد ؟!

وفرض للروادف الذين ردفوا بعد افتتاح القادسية واليرموك بعد الفتح ، ثلثمائة ثلثمائة ... سوى كل طبقة فى العطاء ليس بينهم تفاضل ، قويهم وضعيفهم ، عربيهم وأعجميهم فى طبقاتهم سواء .

حتى اذا حوى أهل الأمصار من حووا من سباياهم ، وردفت المربع من الروادف ، فرض لهم على خمسين ومائتين ، وفرض لمن ردف من الروادف الخمس على مائتين . فكان آخر من فرض له عمر رضى الله عنه أهل هجر على مائتين .

ومات عمر على ذلك ، وأدخل فى أهل بدر أربعة من غير أهل بدر ، الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان .

وقال أبو سلمة : فرض عمر للعباس على خمسة وعشرين ألفا ، وقال الزهرى : على اثنى عشر ألفا .

وجعل نساء أهل بدر الى الحديبية على أربعمائة أربعمائة ، ونساء من بعد ذلك الى الأيام قبل القادسية على ثلثمائة ثلثمائة ، ثم نساء أهل القادسية على مائتين مائتين ، ثم سوى بين النساء بعد ذلك .

وجعل للصبيان من أهل بدر وغيرهم مائة مائة ، ثم دعا ستين مسكينا فأطعمهم خبزا بملح ، فأحصوا ما أكلوه فوجدوه يخرج من جزيتين ، ففرض لكل انسان يقوم بالأمر له ولعياله جزيتين جزيتين فى كل شهر ، مسلمهم وكافرهم .

وفرض لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف عشرة آلاف ، الا من جرى عليه البيع ، فقالت أمهات المؤمنين : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضلنا عليهن فى القسمة ولكن كان يسوى بيننا فسو بيننا ،

فجعلهن على عشرة آلاف عشرة آلاف ، وفضل عائشة رضى الله عنها بألفين ، فأبت ، فقال : لفضل منزلتك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا أخذتها فشأنك .

وكان الناس أعشارا ، فكانت العرفاء ثلاثة آلاف عريف ، كل عريف على عشرة ، ورزق الخيل على أعرافها . فما زالوا كذلك حتى اختطت الكوفة والبصرة ، فغيرت العرفاء والأعشار ، وجعلت أسباعا ، وجعل مائة عريف ، على كل مائة ألف درهم عريف .

وكانت كل عرافة من القادسية خاصة ، ثلاثة وأربعين رجلا وثلاثا وأربعين امرأة وخمسين من العيال ، لهم مائة ألف درهم . وكل عرافة من أهل الأيام عشرين رجلا على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة ، ولكل عيال مائة على مائة ألف درهم . وكل عرافة من الرادفة الأولى ستين رجلا وستين امرأة وأربعين من العيال ، ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمسمائة ، على مائة ألف درهم .

وكان العطاء يدفع الى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات — والرايات على أيادى العرب — فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والأمناء ، فيدفعونه الى أهله فى دورهم ...

فمات عمر رضى الله عنه والأمر على ذلك .

وقد عزم قبل موته أن يجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف ، وقال : لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف : ألف يخلفها الرجل فى أهله ، وألف يتزودها معه فى سفره ، وألف يتجهز بها ، وألف يترفق بها ... فمات وهو فى ارتياد ذلك قبل أن يفعل .

وكان يقرى البعوث على قدر المسافة : ان كان بعيدا فستة ، وان كان دون ذلك فستة أشهر . فاذا أخل الرجل بثغره ، نزعت عمامته وأقيم فى مسجد حيه ، فقيل : هذا فلان قد أخل .

وقال سيف بن عمر : أول عطاء أخذ سنة خمس عشرة .

وكان عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، يبعث من مصر الى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه .

فلما استخلف عثمان ، رضى الله عنه ، لثلاث مضين من المحرم سنة أربع وعشرين ، زاد الناس مائة . وكان أول من زاد ورفد أهل الأمصار . وهو أول من رفدهم وصنع فيهم الصنائع ، فاستن به الخلفاء فى الزيادة .

وكان عمر قد فرض لكل نفس منفوسة من أهل الفىء فى رمضان * درهما فى كل يوم ، وفرض لأمهات المؤمنين درهمين ، فقيل له : لو صنعت لهم به طعاما فجمعتهم عليه ؟ فقال : أشبعوا الناس فى بيوتهم .

فأقر عثمان رضى الله عنه ذلك ، وزاد فوضع لهم طعام رمضان ، وقال : هو للمتعبد الذى يتخلف فى المسجد ، ولابن السبيل ، وللمعترين بالناس فى رمضان ... فاقتدى به الخلفاء من بعده .

وكان بمصر ، فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، أربعون ألفا . وكان منهم أربعة

(*) ص٩٢ جـ١ ، ط. بولاق .

آلاف فى مائتين مائتين . وكان انما يحمل الى معاوية ستمائة ألف دينار عن فضل أعطيات الجند وما يصرف الى الناس .

وكان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلا يصبح كل يوم ، فيدور على المجالس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ؟ وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال : ولد لفلان غلام ولفلان جارية ، فيكتب أسماءهم ، ويقال : نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله ، فيسميه وعياله . فاذا فرغ من القيل ، أتى الديوان حتى يثبت ذلك .

وأعطى مسلمة بن مخلد الأنصارى ، أمير مصر ، أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور ، وأرزاق الكتبة وحملان القمح الى الحجاز ، وبعث الى معاوية ستمائة ألف دينار فضلا .

وأول تدوين كان بمصر على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه ، ثم دون عبد العزيز بن مروان تدوينا ثانيا ، ودون قرة بن شريك التدوين الثالث ، ثم دون بشر بن صفوان تدوينا رابعا ، ثم لم يكن بعد تدوين بشر شىء له ذكر الا ما كان من الحاق قيس بالديوان فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان .

فلما انقرضت دولة بنى أمية ، وغلبت المسودة بنو العباس ، أحدثوا أشياء ... حتى اذا مات عبد الله المأمون بن هارون الرشيد لسبع خلون من رجب سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وبويع أخوه المعتصم أبو اسحاق محمد بن هارون ، كتب الى كندر بن نصر الصفدى أمير مصر ، يأمره باسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم ، ففعل ذلك .

وكان مروان بن محمد الجعدى ، آخر خلائف بنى أمية ، قطع عن أهل مصر العطاء سنة ، ثم كتب اليهم كتابا يعتذر فيه : « انى انما حبست عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدو حضرنى فاحتجت الى المال ، وقد وجهت اليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة ، فكلوه هنيئا مريئا ، وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه » .

ولما قطع كندر عطاء أهل مصر ، خرج يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام ، وقال له : هذا أمر لا يقوم فينا أفضل منه لأنا منعنا حقنا وفيئنا ... فاجتمع اليه نحو خمسمائة رجل .

ومات كندر فى ربيع الآخر سنة تسع عشرة ومائتين . وولى ابنه المظفر مصر من بعده ، فسار الى يحيى ، وقاتله فى بحيرة تنيس وأخذه أسيرا .

فانقرضت دولة العرب من مصر ، وصار جندها العجم والموالى من عهد المعتصم الى أن ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مصر ، فاستكثر من العبيد ، وبلغت عدتهم زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركى وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق . ثم استجد ابنه الأمير أبو الجيش خمارويه بعده عدة من شناترة حوف مصر .

فلما كانت امارة الأمير أبى بكر محمد بن طغج الاخشيد على مصر ، بلغت عدة عساكره بمصر والشام أربعمائة ألف ، تشتمل على

عدة طوائف . ثم ان الأستاذ أبا المسك كافورا الاخشيدى استجد عدة من السودان فى أيام تحكمه بمصر .

فلما تغلب الامام المعز لدين الله أبو تميم معد الفاطمى على مصر ، صارت عساكرها ما بين كتامة وزويلة ونحوها من طوائف البربر ، وفيهم الروم والصقالبة وهم فى العدد كما قيل :

« ومنهم معد ، ولم تكن جيوشه تعد ، ولا لما أوتيه كان حد ، من كل ما يسعد فيه جد » .

وحتى قيل : انه لم يطأ الأرض — بعد جيش الاسكندر بن فيلبش المقدونى — أكثر عددا من جيوش المعز .

فلما قام فى الخلافة بمصر من بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار ، استخدم الديلم والأتراك ، واختص بهم .

وذكر الأمير المختار عبد الملك المسيحى فى تاريخه : أن خزانة الخاص حملها — لما خرج العزيز الى الشام — عشرون ألف جمل ، خارجا عن خزائن القواد وأكابر الدولة .

وذكر ابن ميسر فى تاريخه : أن عبيد السيدة أم المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على منصور بن العزيز بالله خاصة ، كانت عدتهم خمسين ألف عبد سوى طوائف العسكر .

ورأيت بخط الأسعد بن مماتى : أن عدة الجيوش بمصر ، فى أيام رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك ، كانت أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف راجل .

وزاد غيره « وعشرة شوانى بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل » ... وهذا عند انقراض الدولة الفاطمية .

فلما زالت دولتهم على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، أزال جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأرمن وغيرهم ، واستجد عسكرا من الأكراد والأتراك خاصة ، وبلغت عدة عساكره بمصر اثنى عشر ألف فارس لا غير .

فلما مات افترقت من بعده ، ولم يبق بمصر مع ابنه الملك * العزيز عثمان سوى ثمانية آلاف فارس وخمسمائة فارس ، الا أن فيهم من له عشرة أتباع ، وفيهم من له عشرون ، وفيهم من له أكثر من ذلك الى مائة تبع لرجل واحد من الجند ، فكانوا اذا ركبوا ظاهر القاهرة يزيدون على مائتى ألف .

ثم لم يزالوا فى افتراق واختلاف حتى زالت دولتهم بقيام عبيدهم المماليك الأتراك ، فحذوا حذو مواليهم بنى أيوب ، واقتصروا على الأتراك وشىء من الأكراد ، واستجدوا من المماليك التى تجلب من بلاد الترك شيئا كثيرا ... حتى يقال ان عدة مماليك الملك المنصور قلاوون كانت سبعة آلاف مملوك ، ويقال اثنى عشر ألفا . وكانت عدة مماليك ولده الأشرف خليل بن قلاوون اثنى عشر ألف مملوك .

ثم لم تبلغ بعد ذلك قريبا من هذا ... الى أن زالت دولة بنى قلاوون ، فى شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، بالملك الظاهر

(*) ص٩٤ جـ١ ، ط . بولاق .

برقوق ، فأخذ فى محو المماليك الأشرفية ، وأنشأ لنفسه دولة من المماليك الجركسية بلغت عدتهم — ما بين مشترى ومستخدم — أربعة آلاف أو تزيد قليلا .

فلما قام من بعده ابنه الناصر فرج افترقوا واختلفوا ، فلم يقتل حتى هلك كثير منهم بالقتل وغيره .

وعساكر مصر فى الدولة التركية على قسمين : أجناد الحلقة ، والمماليك السلطانية .

وأكثر ما كانت أجناد الحلقة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، فانها بلغت — على ما رأيته فى جرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصرى — أربعة وعشرين ألف فارس . ثم ما زالت تنقص حتى صارت اليوم — مع قلة عدتها — سواء منها الألف والواحد ، فانها لا تنفع ولا تدفع .

وأما المماليك فانها اليوم قليل عددها ، بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية ، لا تكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس ، يصلح منها لأن يباشر القتال ألف أو دونها .

وهى اليوم قسمان : أجناد الحلقة ، والمماليك السلطانية . والمماليك السلطانية ثلاثة أقسام : ظاهرية ، وناصرية ، ومؤيدية . والمؤيدية ما بين حكمية ونوروزية ومن استجده المؤيد .

وان خوفى ليكثر أن يكون الحال بعد الملك المؤيد أبى النصر شيخ — خلد الله ملكه — يتلاشى ، الى أن يؤيد الله الملك بابنه الأمير صارم الدين ابراهيم — شد الله به أزره — فانه فتح من البلاد الرومية ما لا ملكه أحد من ملوك مصر فى الدولة الاسلامية قبله .

« والشبل فى المخبر مثل الأسد » .

« وابن السرى اذا سرى أسرا هما »

« ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده » .

بأبه اقتدى عدى فى الكرم

ومن يشابه أبه فما ظلم

« ان الأصول عليها ينبت الشجر »

ثم لما ملك الأشرف برسباى ، صارت المماليك سبع طوائف : ظاهرية ، وناصرية ، ومؤيدية ، ونوروزية ، وحكمية ، وططرية ، وأشرفية ... كل طائفة منها مباينة لجميعها ، فلذلك اضمحلت شوكتهم وانكسرت حدتهم ، وأمنت على السلطان غائلتهم ، ولم يخف ثورتهم لتفرقهم وان كانوا مجتمعين ، وتباينهم وان كانوا فى الظاهر متفقين .

واعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والفاطميين ، من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن تجبى أموال الخراج ، ثم تفرق من الديوان فى الأمراء أو العمال والأجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم . وكان يقال لذلك فى صدر الاسلام « العطاء » .

وما زال الأمر على ذلك ... الى أن كانت دولة العجم ، فغير هذا الرسم ، وفرقت الأراضى اقطاعات على الجند .

وأول من عرف أنه فرق الاقطاعات على الجند ، نظام الملك أبو على الحسن بن على

ابن اسحاق بن العباس الطوسى ، وزير البرشلان بن داود بن ميكال بن سلجوق ، ثم وزر ابنه ملكشاه بن البرشلان . وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم الى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر اقطاعه ، لأنه رأى أن فى تسليم الأراضى الى المقطعين عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها ... بخلاف ما اذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد ، فان الخرق يتسع ويدخل الخلل فى البلاد .

ففعل نظام الملك ذلك ، وعمرت به البلاد وكثرت الغلات . واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك ، من أعوام بضع وثمانين وأربعمائة لى يومنا هذا .

وكانت الخلفاء ترزق من بيت المال ، فذكر عطاء بن السائب فى حديث ، أن أبا بكر رضى الله عنه ، لما استخلف ، فرض له كل يوم شطر شاة وما يكسى به الرأس والبطن .

وذكر عن حميد بن هلال ، أنه فرض له بردان اذا أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما ، وظهره اذا سافر ، ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف .

وذكر ابن الأثير فى تاريخه أن الذى فرضوا له ستة آلاف درهم فى السنة .

وفرض لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما استخلف ، ما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف ، وقال له على رضى الله عنه : ليس لك غيره ، فقال القوم : القول ما قال على ، يأخذ قوته .

وفرض عمر لمعاوية بن أبى سفيان ، على عمله فى الشام ، عشرة آلاف دينار فى السنة ، وقيل بل رزقه ألف دينار . وهو أشبه .

ذكر القطائع والاقطاعات

يقال : اقتطع طائفة من الشىء : أخذها . والقطيعة : ما اقتطعه منه . وأقطعنى اياها : أذن لى فى اقتطاعها . واستقطعه اياها * : سأله أن يقطعه اياها . وأقطعه نهرا وأرضا : أباح له ذلك .

وقد أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتألف على الاسلام قوما . وأقطع الخلفاء من بعده من رأوا فى اقطاعه صلاحا .

روى ابن أبى نجيح ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطع أناسا من مزينة (أو جهينة) أرضا فلم يعمروها ، فجاء قوم فعمروها . فخاصمهم الجهينيون (أو المزنيون) الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال عمر : لو كانت منى أو من أبى بكر لرددتها ، ولكنها قطيعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها ، فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها .

وقال هشام بن عروة عن أبيه : أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير أرضا فيها نخل من أموال بنى النضير ، وذكر أنها أرض يقال لها الجرف .

وذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقطع العقيق أجمع الناس حتى جازت قطيعة عروة ، فقال ابن الزبير : المستقطعون فند اليوم ، فان يك فيه خير فتحت قدمى ، قال خوات بن جبير : أقطعنيه . فأقطعه اياه .

(*) ص٩٥ جـ١ ، ط. بولاق .

وقال سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، قال : لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة أقطع أبا بكر وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

وقال أشعث بن سوار ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن صلت المكى ، عن أبى رافع قال : أعطى النبى صلى الله عليه وسلم قوما أرضا ، فعجزوا عن عمارتها فباعوها فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بثمانية آلاف دينار ، أو بثمانمائة ألف درهم ، فوضعوا أموالهم عند على بن أبى طالب رضى الله عنه . فلما أخذوها وجدوها ناقصة ، فقالوا : هذا ناقص .

قال : احسبوا زكاته .

قال : فحسبوا زكاته ، فوجدوه وافيا .

فقال : أحسبتم أن أمسك مالا ولا أزكيه .

وقد سأل تميم الدارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يقطعه عيون البلد الذى كان منه بالشام قبل فتحه ، ففعل .

وسأله أبو ثعلبة الخشنى ، أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم ، فأعجبه ذلك وقال : ألا تسمعون ما يقول ؟

فقال : والذى بعثك بالحق ليفتحن عليك .

فكتب له بذلك كتابا .

وقال ثابت بن سعد ، عن أبيه عن جده : ان الأبيض بن جمال استقطع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ملح مأرب ، فأقطعه .

فقال الأقرع بن حابس التميمى : يارسول الله انى وردت هذا الملح فى الجاهلية ، وهو بأرض ليس فيها ملح من ورده أخذه ، وهو مثل الماء العذب بالأرض .

فاستقال الأبيض ، فقال : قد أقلتك على أن تجعله منى صدقة .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هو منك صدقة ، وهو مثل الماء العذب من ورده أخذه » .

وقال كثير بن عبد الله بن عوف المزنى ، عن أبيه عن جده : أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلال بن الحارث المعادن القبلية جليتها وغورتها .

وقال مالك ، عن ربيعة ، عن قوم من علمائهم : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطع بلال بن الحارث المزنى معادن بناحية الفرع .

وعن ربيعة ، عن الحارث بن بلال ، عن أبيه بلال بن الحارث ، أن النبى صلى الله عليه وسلم أقطعه العقيق أجمع .

وعن حماد بن سلمة ، عن أبى مكين ، عن أبى عكرمة مولى بلال بن الحارث ، قال : أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا أرضا فيها جبل معدن ، فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضا منها ، فظهر فيها معدن (أو قال معدنان) ، فقالوا : انما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن ، وجاءوا بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم لهم فى جريدة . فقبلها عمر وفتح ومسح بها عينيه ، وقال لقيمه : انظر ما خرج منها وما أنفقت ، فقاصهم بالنفقة ، ورد عليهم الفضل .

واصطفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أرض السواد أموال كسرى وأهل بيته ، وما

هرب عنه أربابه أو هلكوا ، فكان مبلغ غلته تسعة آلاف ألف درهم ، كان يصرفها في مصالح المسلمين ولم يقطع شيئا منها .

ثم ان عثمان رضى الله عنه أقطعها ، لأنه رأى اقطاعها أوفر لغلتها من تعطيلها ، وشرط على من أقطعها أن يأخذ منه حق الفيء ، فكان مبلغ غلته خمسين ألف ألف درهم ، كان منها صلاته وعطاياه . ثم تناقلها الخلفاء بعده .

فلما كان عام الجماجم سنة اثنتين وثمانين ، فى فتنة عبد الرحمن بن الأشعث ، أحرق الديوان ، وأخذ كل قوم ما يليهم .

وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ابن سندر منية الأصبغ ، فحاز منها لنفسه ألف فدان .

وقال وكيع ، عن سفيان ، عن جابر الجعفى ، عن عامر : لم يقطع أبو بكر ولا عمر ولا على رضى الله عنهم ، وأول من أقطع القطائع عثمان رضى الله عنه ، وبيعت الأرضون فى خلافة عثمان .

قال الليث بن سعد : ولم يبلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحدا من الناس شيئا من أرض مصر الا ابن سندر ، فانه أقطعه أرض منية الأصبغ ، فلم تزل له حتى مات ، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته ، فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل .

وقال الأعمش ، عن ابراهيم بن المهاجر ، عن موسى بن طلحة ، قال : أقطع عثمان رضى الله عنه عبد الله بن مسعود النهرين ، وعمار ابن ياسر استينا ، وأقطع خبابا وصهيبا ،

وأقطع سعد بن أبى وقاص قرية هرمز . وكان عبد الله بن مسعود وسعد يعطيان أرضهما بالثلث والربع .

وقال سيف بن عمر ، عن عمرو بن محمد ، عن عامر ، قال : أقطع الزبير وخباب وعبد الله ابن مسعود وعمار بن ياسر وابن هبار أزمان عثمان . فان يكن عثمان أخطأ ، فالذين قبلوا منه الخطأ أخطأوا ، وهم الذين أخذنا عنهم ديننا .

وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلحة وجرير بن عبد الله والربيل بن عمرو ، وأقطع أبا مفرز دار الفيل فى عدة ممن أخذنا عنه . وانما القطائع على وجه النفل من خمس ما أفاء الله .

وكتب عمر رضى الله عنه ، الى عثمان بن حنيف ، مع جرير بن عبد الله البجلى : « أما بعد ، فأقطع جرير بن عبد الله قدر ما يقوته ، لا وكس ولا شطط » .

فكتب عثمان الى عمر : « ان جريرا قدم على بكتاب منك تقطعه ما يقوته ، فكرهت أن أمضى ذلك حتى أراجعك فيه » .

فكتب اليه : « صدق جرير ، فأنفذ ذلك ، وقد أحسنت فى مؤامرتى » .

وأقطع أبو موسى الأشعرى ، وأقطع على ابن أبى طالب رحبة كردوس بن هانى ، وأقطع سويد بن غفلة الجعفى .

قال سيف ، عن ثابت بن هرثمة ، عن سويد ابن غفلة ، قال : استقطعت عليا ، فقال :

(١) ص٢٦ جـ١ ، ط بولاق .

اكتب « هذا ما أقطع على سويدا : أرضا لدوابه ما بين كذا الى كذا ، ما شاء الله » .

وذكر أ القا (١) الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم ما أقطعه معوية بن أبى سفيان ومن من الخلفاء ، من دور مصر ، فأورد شيئا يسيرا .

وقد كان خلفاء بنى أمية ، وخلفاء بنى العباس ، يقطعون الأراضى من أرض مصر ، النفر من خواصهم ، لا كما هو الحال اليوم ، بل يكون مال خراج أرض مصر ، يصرف منه أعطية الجند وسائر الكلف ، ويحمل ما يفضل الى بيت المال . وما أقطع من الأراضى فانه بيد من أقطعه .

وأما منذ كانت أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الى يومنا هذا ، فان أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده .

وأرض مصر اليوم على سبعة أقسام .

قسم يجرى فى ديوان السلطان ، وهذا القسم ثلاثة أقسام : منه ما يجرى فى ديوان الخاص ، ومنه ما يجرى فى الديوان المفرد .

وقسم من أراضى مصر قد أقطع للأمراء والأجناد . وقد ذكر تفصيل ذلك عند ذكر الروك الناصرى .

وقسم ثالث جعل وقفا محبسا على الجوامع والمدارس والخوانك ، وعلى جهات البر ، وعلى ذرارى واقفى تلك الأراضى وعتقائهم .

وقسم رابع يقال له الأحباس ، يجرى فيه أراض بأيدى قوم يأكلونها ، اما عن قيامهم بمصالح مسجد أو جامع ، واما يكون لهم لا فى مقابلة عمل .

وقسم خامس قد صار ملكا يباع ويشترى ويورث ويوهب ، لكونه اشترى من بيت المال .

وقسم سادس لا يزرع للعجز عن زراعته ، فترعاه المواشى أو ينبت الحطب ونحوه .

وقسم سابع لا يشمله ماء النيل فهو قفر : وهذا القسم منه ما لم يزل كذلك منذ عرفت أحوال الخليقة ، ومنه ما كان عامرا فى الدهر الأول ثم خرب .

وسائر هذه الأقسام مذكورة أخبارها فى هذا الكتاب ، تجدها ان أنت تأملته ان شاء الله تعالى .

وقال أبو عبد الله القاسم بن سلام فى كتاب « الأموال » ، فى الكلام على حديث معمر عن عبد الله بن طاووس عن أبيه طاووس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عادى الأرض لله ولرسوله ، ثم هى لكم » قلت : ما معنى ذلك ؟ قال : « تكون اقطاعا » . هذا الخبر أصل فى الاقطاع .

والعادى : كل أرض كان لها سكان فانقرضوا ، أى فصارت خرابا ، فان حكمها الى الامام .

قال : وأما الأرض التى جعلها النبى صلى الله عليه وسلم لبعض الناس — وهى عامرة لها أهل — فاعطاء الامام يكون على وجه النفل .

ومن ذلك ما أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم تيما الدارى ، فانه أعطاه أرضا بالشام من قبل أن يفتح الشام وقبل أن يملكها المسلمون ، فجعلها له نفلا من أموال أهل الحرب اذا ظهر عليهم ... كما فعل نائبه نفيلة لما وهبها الشيبانى قبل افتتاح الحيرة ، فأمضاها له خالد بن الوليد رضى الله عنه .

وكذلك أمضى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لتميم الدارى ، لما فتحت فلسطين ، ما كان النبى صلى الله عليه وسلم نفله ، انتهى .

فقد خرّج أبو عبيد الله هذه العطية المعلقة مخرج النفل الذى ينفله الامام بعض المقاتلة .

وقال أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى فى «الأحكام السلطانية» : والاقطاع ضربان : اقطاع استغلال ، واقطاع تمليك . والثانى ينقسم الى موات وعامر ، والثانى ضربان : أحدهما ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه ، الا بتلك الأرض فى حق لبيت المال اذا كانت فى دار الاسلام . فان كانت فى دار الحرب ، حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد ، فأراد الامام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها ، فانه يجوز .

فقد سأل تميم الدارى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيه عيون البلد الذى كان منه قبل أن يفتح الشام ، ففعل .

وسأله أبو ثعلبة الخشنى أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم ، فأعجبه ذلك وقال : « ألا تسمعون ما يقول هذا ! » .

فقال : والذى بعثك بالحق ليفتحن عليك . فكتب له بذلك كتابا .

قال الماوردى : وهكذا لو استوهب أحد من الامام مالا فى دار الحرب وهو على ملك أهلها ، أو استوهبه شيئا من سبيها أو ذراريها ليكون أحق به اذا فتحت ، جاز وصحت العطية منه — مع الجهالة بها — لتعلقها بالأمور العامة .

وقد روى الشعبى أن خريمة بن أوس الطائى قال للنبى صلى الله عليه * وسلم : ان فتح الله عليك الحيرة فأعطنى بنت نفيلة .

فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة ، قال له خريمة : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى بنت نفيلة ، فلا تدخلها فى صلحك ، فشهد له بشر بن سعد ومحمد بن مسلمة ، فاستثناها من الصلح ودفعها الى خريمة

فاشتريت بألف درهم — وكانت عجزت وحالت عما عهد منها — فقيل له : قد أرخصتها ، وكان أهلها يدفعون لك أضعاف ما سألت .

فقال : ما كنت أظن أن عددا يكون أكثر من ألف .

قال الماوردى : واذا صح الاقطاع والتمليك على هذا الوجه ، نظر حال الفتح : فان كان صلحا ، خلصت الأرض لمقطعها ، وكانت خارجة عن حكم الصلح بالاقطاع السابق . وان كان الفتح عنوة ، كان المقطع والمستوهب أحق بما استقطعه واستوهبه من الغانمين ... ونظر فى الغانمين : فان كانوا علموا بالاقطاع أو الهبة قبل الفتح ، فليس لهم المطالبة

(*) ص٦٧ جـ١ ، ط. بولاق *

بعوض . وان لم يعلموا حتى فتحوا ، عاوضهم الامام بما يستطيب نفوسهم من غير ذلك من الغنائم .

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : لا يلزم الامام استطابة نفوسهم منه ولا من غيره من الغنائم ، اذا رأى المصلحة فى ذلك .

ذكر ديوان الخراج والأموال

يقال لكتابة الخراج : قلم التصريف . وأول ما دون هذا الديوان فى الاسلام بدمشق والعراق على ما كان عليه قبل الاسلام .

وكان ديوان الشام بالرومية ، وديوان العراق بالفارسية ، وديوان مصر بالقبطية ، فنقلت دواوين هذه الأمصار الى العربية .

والذى نقل ديوان مصر من القبطية الى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر ، فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، سنة سبع وثمانين ، ونسخها بالعربية ، وصرف أثناش عن الديوان ، وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص .

وأول من نقل الدواوين من الفارسية الى العربية الوليد بن هشام بن مخزوم بن سليمان ابن ذكوان ، وتوفى سنة اثنتين وعشرين ومائتين .

والأكثرون على أن الذى نقل ديوان العراق الى العربية صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج ، وكان مولى لبنى سعد ، وهو يومئذ صاحب دواوين العراق ، وذلك بعد سنة ثمانين

وسبب ذلك أن صالح بن عبد الرحمن هذا كان أبوه من سبى سجستان ، ومهر صالح فى الكتابة ، وكتب لزادان فروخ كاتب الحجاج بن يوسف الثقفى ، وخط بين يديه بالفارسية والعربية .

فخف على قلب الحجاج ، فخاف من زادان وقال له : أنت الذى رقيتنى حتى وصلت الى الأمير ، وأراه قد استخفنى ولا آمن أن يقدمنى عليك فتسقط منزلتك .

فقال زادان : لا تظن ذلك ، هو أحوج الى منى اليه ، لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى .

فقال صالح : والله لو شئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته .

قال : فحول منه أسطرا حتى أرى ... ففعل .

فقال له : تمارض ... فتمارض . فبعث اليه الحجاج بطبيبه ، فشق ذلك على زادان ، وأمره ألا يظهر للحجاج .

فاتفق عقيب ذلك أن زادان قتل فى فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله ، فاستكتب الحجاج بعده صالحا ، فأعلم الحجاج بما جرى له مع زادان فى نقل الديوان ، فأعجبه ذلك وعزم عليه فى امضائه ، فنقله من الفارسية الى العربية .

وشق ذلك على الفرس ، وبذلوا له مائة ألف درهم على ألا يظهر النقل ، فأبى عليهم ، فقال له مروان شاه بن زادان فروخ : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية .

وكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله در صالح ، ما أعظم منته على الكتاب .

وأما ديوان الشام فان الذى نقله من الرومية الى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل . واختلف فى وقت نقله : فقيل نقل فى خلافة عبد الملك بن مروان ، وقيل فى خلافة هشام بن عبد الملك .

وكان الذى يكتب على ديوان الشام سرجون بن منصور النصرانى فى أيام معاوية ابن أبى سفيان ، ثم كتب بعده ابنه منصور ابن سرجون .

ذكر خراج مصر فى الاسلام

أول من جبى خراج مصر فى الاسلام عمرو ابن العاص رضى الله عنه ، فكانت جبايته اثنى عشر ألف ألف دينار ، بفريضة دينارين دينارين من كل رجل . ثم جبى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مصر أربعة عشر ألف ألف دينار .

فقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لعمرو ابن العاص : يأبا عبد الله درّت اللقحة بأكثر من درّها الأول .

فقال : أضررتم بولدها .

وهذا الذى جباه عمرو ثم عبد الله ، انما هو من الجماجم خاصة دون الخراج .

وانحط خراج مصر بعدهما ، لنمو الفساد مع الزمان وسريان الخراب فى أكثر الأرض ووقوع الحروب ، فلم يجبها بنو أمية وخلفاء بنى العباس الا دون الثلاثة آلاف ألف ، ما خلا أيام هشام بن عبد الملك ، فانه وصى عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر بالعمارة * .

فيقال : انه لم يظهر من خراج مصر ، بعد تناقصه ، كثرة الا فى وقتين :

أحدهما فى خلافة هشام بن عبد الملك ، عندما ولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب ، فخرج بنفسه ومسح العامر من أراضى مصر والغامر مما يركبه ماء النيل ، فوجد قانون ذلك ثلاثين ألف ألف فدان سوى ارتفاع الجرف ووسخ الأرض ، فراكها كلها وعدلها غاية التعديل ، فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار ... هذا والسعر راخ ، والبلد بغير مكس ولا ضريبة .

وفى سنة سبع ومائة لأول أيام هشام بن عبد الملك ، وقف ابن الحبحاب بمصر طبقات معلومة منسوبة فى الدواوين ، ولم تزل الى ما بعد ذهاب بنى أمية ، ومبلغها ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وثمانمائة وسبعة وثلاثون دينارا ، منها على كور الصعيد ألف ألف وأربعمائة دينار وعشرون دينارا ونصف ، والباقى على كور أسفل الأرض .

ويقال : ان أسامة بن زيد جباها فى خلافة سليمان بن عبد الملك مبلغ اثنى عشر ألف ألف دينار .

والوقت الثانى فى امارة أحمد بن طولون ، لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر ، وقد خربت أرض مصر حتى بقى خراجها ثمانمائة ألف ألف دينار ، فاستقصى أحمد بن طولون فى العمارة وبالغ فيها ،

(*) ص٩٨ جـ١ ، ط. بولاق .

فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار .

وجباها ابنه الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد أربعة آلاف ألف دينار ... مع رخاء الأسعار أيامئذ ، فانه ربما بيع فى الأيام الطولونية القمح : كل عشرة أرادب بدينار .

وذكر ابن خرداذبة أن خراج مصر فى أيام فرعون ، كان ستة وتسعين ألف ألف دينار ، وأن ابن الحبحاب جباها ألفى ألف وسبعمائة ألف وثلاثة وعشرين ألفا وثمانمائة وتسعة وثلاثين دينارا .

وهذا وهم منه ، فان هذا القدر هو ماحمله الى بيت المال بدمشق بعد أعطية أهل مصر وكلفها .

قال : وحمل منها موسى بن عيسى الهاشمى ألفى ألف ومائة ألف وثمانين ألف دينار ، يعنى بعد العطاء والمؤن وسائر الكلف .

قال : وكان خراج مصر ، اذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا وعشر أصابع ، أربعة آلاف ألف دينار ومائتى ألف وسبعة وخمسين ألف دينار ، والمقبوض عن الفدان دينارين ... فى خلافة المأمون وغيره .

وبلغ خراج مصر ، فى أيام الأمير أبى بكر محمد بن طغج الاخشيد ، ألفى ألف دينار سوى ضياعه التى كانت ملكا له . والاخشيد أول من عمل الرواتب بمصر .

وكان كاتبه ابن كلا قد عمل تقديرا عجز فيه المرتب عن الارتفاع مائتى ألف دينار ، فقال له الاخشيد : كيف نعمل ؟

قال : حط من الجرايات والأرزاق ، فليس هؤلاء أولى من الواجب .

فقال : غدا تجيئنى وندبر هذا .

فلما أتاه من الغد ، قال له الاخشيد : قد فكرت فيما قلت ، فاذا أصحاب الرواتب الضعفاء وفيهم المستورون وأبناء النعم ، ولست آخذ هذا النقص الا منك .

فقال ابن كلا : سبحان الله !

فقال : تسبيحا !

وما زال به الاخشيد حتى أخذ خطه بالقيام بذلك .

فعوتب على ما صنعه ، فقال : ياقوم اسمعوا ايش كان يعمل ... جاءه أحمد بن محمد بن الماردانى فقال له : ما بينى وبين السلطان معاملة ، ولا للاخشيد علىّ طريق ، وهذه هدية عشرة آلاف دينار للاخشيد وألف دينار لك .

فجاءنى وقال : لك قبلْ ابن الماردانى مطالبة ؟

فقلت : لا .

فقال : هذه ألف دينار قد جاءتك على وجه الماء . فأعطانى ألفا وأخذ عشرة آلاف دينار .

وأهدى الى محمد بن على الماردانى فى وقت عشرين ألف دينار على يده ، فاستقللتها . فلما اجتمعنا عاتبته ، فقال لى : أرسلت اليك مائة ألف دينار ، ولابن كلا كاتبك عشرين ألف دينار ، فأخذ المائة وأعطانى العشرين ألفا .

فذكرت قول محمد بن على له ، فقال : ما أرد

هذا ! حفظت لك المائة ألف لوقت حاجتك ... تريدها ؟ خذها وأنا أعلم أنك تتلفها !

وبلغت الرواتب فى أيام كافور الاخشيدى خمسمائة ألف دينار فى السنة لأرباب النعم والمستورين وأجناس الناس ، ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين فى الأعمال ، فحسّن له على بن صالح الروذبادى الكاتب أن يوفر من مال الرواتب شيئا ينتقصه من أرزاق الناس .

فساعة جلس يعمل ، حكه جبينه فحكه بقلمه ، والحكاك يزيد به ، الى أن قطع العمل وقام لما به ، فعولج حينئذ بالحديد حتى مات فى رمضان سنة سبع وأربعين وثلثمائة .

وهذه موعظة من الله لمن توسط الناس بالسوء ... قال تعالى : « ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » .

ولما مات كافور ، نزلت محن شديدة كثيرة بمصر ، من الغلاء والفناء والفتن ، فاتضع خراجها ... الى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد ، فجبى الخراج لسنة ثمان وخمسين وثلثمائة : ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ونيفا .

وأمر الوزير الناصر للدين أبو الحسين عبد الرحمن البازورى ، وزير مصر فى خلافة المستنصر بالله بن الظاهر ، أن يعمل قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات . فعمل أرباب كل ديوان ارتفاعه وما عليه ، وسلم الجميع لمتولى ديوان المجلس وهو زمام الدواوين ، فنظم عليه عملا جامعا وأتاه به ، فوجد ارتفاع * الدولة ألفى ألف دينار : منها الشام ألف ألف دينار ، ونفقاته بازاء ارتفاعه . والريف وباقى الدولة ألف ألف دينار .

قال القاضى أبو الحسن فى كتاب « المنهاج فى علم الخراج » : وقفت على مقايسة عملت لأمير الجيوش بدر الجمالى ، حين قدم مصر فى أيام الخليفة المستنصر وغلب على أمرها وقهر من كان بها من المفسدين ، شرح فيها أن الذى اشتمل عليه الارتفاع فى الهلالى لسنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وفى الحراجى على ما يقتضيه الديوان فيه — مما كان جاريا فى الأعمال المصرية من الخراج وما يجرى معه ، والمضمون والمقطع والمورد بغيره ، والمحلول بالقاهرة ومصر وضواحيهما وناحيتى الشرقية والغربية ، من أسفل الأرض وأعمالها وتنيس ودمياط وأعمالهما والاسكندرية والبحيرة والأعمال الصعيدية العالية والدانية وواحات وعيذاب ، لسنة ثمانين وأربعمائة الخراجية على الرسوم المصرية ، وما كان من الأعمال الشامية التى أولها من حد الشجرتين وهو أول الأعمال الفلسطينية والأعمال الطرابلسية ، ولسنة ثمان وسبعين وأربعمائة الخراجية — على ما استقرت عليه الجملة : عينا ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار ...

وأن الذى استقر عليه جملة ما كان يتأدى فى سنة ست وستين وأربعمائة الهلالية ، قبل نظر أمير الجيوش ، الموافقة لسنة ثلاث وستين وأربعمائة الخراجية ، فكان مبلغها ألفى ألف وثمانمائة ألف دينار ، وكان الزائد

(*) ص٩٦ جـ١ ، ط. بولاق .

للسنة الجيوشية عما قبلها ثلثمائة ألف دنار ، مما أعرب عنه حسن العمارة وشمول العدل وكان نظم هذه المقايسة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة .

وذكر ابن ميسر أن الأفضل بن أمير الجيوش أمر بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر ، فجاء خمسة آلاف ألف دينار .

وذكر القاضى الفاضل فى مياوماته : أنه عبر البلاد من اسكندرية الى عيذاب لسنة خمس وثمانين وخمسمائة ، خارجا عن الثغور وأرباب الأموال الديوانية وعدة نواح ، أربعة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وخمسين ألفا وتسعة وعشرين دينارا .

ثم تقاصرت الى أن جباها القاضى الموفق أبو الكرم بن معصوم العاصمى التنيسى : عينا خالصا الى بيت المال ، بعد المؤن والكلف ، ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار الى آخر سنة أربعين وخمسمائة . ثم بعده لم يجبها هذه الجباية أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية .

وسبب اتضاع خراج مصر — بعد ما بلغ مع الروم فى آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر عشرين ألف ألف دينار — أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق فى كلف عمارة الأرض ، فانها تحتاج أن ينفق عليها ما بين ربع متحصلها الى ثلثه .

وآخر ما اعتبر حال أرض مصر ، فوجد مدة حرثها ستين يوما ، ومساحة أرضها مائة ألف ألف وثمانين ألف ألف فدان ، يزدع منها فى مباشرة ابن مدبر أربعة وعشرون ألف ألف فدان ، وأنه لا يتم خراجها حتى يكون فيها أربعمائة ألف وثمانون ألف حراث يلزمون العمل فيها دائما . فاذا أقيم بها هذا القدر من العمّال فى الأرض ، تمت عمارتها ، وكمل خراجها

وآخر ما كان بها مائة ألف وعشرون ألف مزارع : فى الصعيد سبعون ألفا ، وفى أسفل الأرض خمسون ألفا . وقد تغير الآن جميع ما كان بها من الأوضاع القديمة ، واختلت اختلالا فاضحا .

ذكر اصناف اراضى مصر واقسام زراعتها

اعلم أن أراضى مصر عدة أصناف :

أعلاها قيمة ، وأوفاها سعرا وأعلاها قطيعة ، الباق : وهو أثر القرط والمقاتى ، فانه يصلح لزراعة القمح .

وبعد الباق رى الشراقى : وهو الأرض التى ظمئت فى الخالية ، فلما رويت فى الآتية وصارت مستريحة من الزرع وزرعت ، أنجب زرعها .

والبرايب : وهو أثر القمح والشعير ، وسعرها دون الباق لضعف الأرض بزراعة هذين الصنفين ، فمتى زرعت على أثر أحدهما لم ينجب كنجابة الباق . والبرايب صالح لزراعة القرط والقطانى والمقاتى ، فان الأرض تستريح بزراعة هذه الأصناف ، وتصير فى القابل أرض باق .

والسقماهية اثر الكتان ، فان زرعت قمحا خسر ،

والشتوية أثر ما روى وبار فى السنة الماضية ، وهو دون الشراقى

والسلايح ما روى وبار فحوث وتعطل ، وهو مثل رى الشراقى ، فان زرعه يكون ناجيا .

والنقا كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها ، ولم يبق شاغل عن قبول ما يزرع فيها من أصناف الزراعات .

والوسخ كل أرض استحكم وسخها ، ولم يقدر الزارعون على ازالته كله منها ، بل حرثوا وزرعوا فيها فجاء زرعها مختلطا بالحلفاء ونحوها

والغالب : كل أرض حصل فيه نبات شغلها عن قبول الزراعة ، ومنع كثرته من زراعتها وصارت مراعى .

والخرس كل أرض فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع وكانت بها مراع ، وهو أشد من الوسخ الغالب ، واذا أدمن على ازالة ما فيها من الموانع تهيأ صلاحها

والشراقى : كل أرض لم يصل اليها الماء ، اما لقصور ماء النيل أو علو الأرض ، أو سد طريق الماء عنها أو غير ذلك * .

والمستبحر : كل أرض وطيئة حصل بها الماء ولم يجد مصرفا ، حتى فات أوان الزرع وهو باق فى الأرض .

والسباخ : كل أرض غلب عليها الملح حتى ملحت و لم ينتفع بها فى زراعة الحبوب ، وربما زرعا — ما لم يستحكم السباخ فيها — غير ... رب دهليون والباذنجان ، ويزرع فيها القصب الفار .

ومما لا غنى لأراضى مصر عنه الجسور ، وهى على قسمين : سلطانية ، وبلدية

فالجسور السلطانية هى لعامة النفع فى حفظ النيل على البلاد كافة الى حين يستغنى عنه ، ولها رسوم موظفة على الأعمال الشرقية والأعمال الغربية . وكانت فى القديم تعمل من أموال النواحى ، ويتولى عملها مستقبلو الأراضى ، ويعتد لهم بما يصرف عليها مما عليهم من قبالات الأراضى ثم صار بعد ذلك يستخرج ، برسم عملها من هذين العملين ، مال بأيدى المستخدمين من الديوان ويصرف فيه ، ويفضل من المال بقية تحمل الى بيت المال .

ثم صار يتولى ذلك أعيان أمراء الدولة ... الى أن حدثت الحوادث فى أيام الناصر فرج ، فصار يجبى من البلاد مال عظيم ولا يصرف منه شىء ألبتة ، بل يرفع الى السلطان ، ويتفرق كثير منه بأيدى الأعوان ، ويسخر أهل البلاد فى عمل الجسور ، فيجىء الخلل كما ستقف عليه ان شاء تعالى عند ذكر أسباب الخراب .

وأما الجسور البلدية فانها عبارة عما يخص نفعها ناحية دون ناحية . ويتولى اقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية .

ومحل الجسور السلطانية من القرى محل سور المدينة الذى يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته وكفاية الرعية أمره . ومحل الجسور البلدية محل الدور التى من داخل السور ، فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها ويزيل ضررها .

ومن العادة أن المقطع اذا انفصل — وكان قد أنفق شيئا من مال اقطاعه فى اقامة جسر لأجل عمارة السنة التى انتقل الاقطاع عنه فيها — فان له أن يستعيد من المقطع الثانى نظير ما أنفقه من مال سنته فى عمارة سنة غيره .

وأصلح ما زرع القمح فى أثر الباق والشراقى ، وكان يزرع بالصعيد القمح على أثر القمح لكثرة الطرح ، وربما زرع هناك على أثر الكتان والشعير .

ويزرع القمح من نصف شهر بابة الى آخر هتور ، وهذا فى العوالى من الأرض التى تخرج بدريا ، وأما البحائر المتأخرة فيمتد وقت الزرع فيها الى آخر كيهك .

ومقدار ما يحتاج اليه الفدان الواحد من بذر القمح يختلف بحسب قوة الأرض وضعفها ورقتها وتوسطها ، وما يزرع فى اللوق وما يزرع فى الحرث ، وأكثر البذر من اردب الى خمس ويبات وأربع ويبات أيضا ، ويوجد فى الصعيد أراض تحتمل دون هذا ، وفى حوف دمسيس أراض يكفى الفدان منها نحو الويبتين .

ويدرك الزرع بمصر فى بشنس (وهو نيسان) . ويختلف ما يخرج من فدان القمح بحسب الأراضى ، فيرمى من اردبين الى عشرين اردبا .

وقال أبو بكر بن وحشية فى كتاب « الفلاحة » : وذكر أن فى مصر اذا زرعوا يخرج من المُدّ ثلثمائة مد . والعلة فى ذلك حرارة هواء بلادهم ، مع سمن أرضهم وكثرة كدورة ماء النيل .

ولما كان فى سنة ست وثمانمائة ، انحسر الماء عن قطعة أرض من بركة الفيوم التى يقال لها اليوم بحر يوسف ، فزرعت وجاء زرعها عجيبا ... رمى الفدان منها أحدا وسبعين اردبا من شعير بكيل الفيوم ، واردبها تسع ويبات .

وكانت قطيعة فدان القمح ببلاد الصعيد ، فى أيام الفاطمية ، ثلاثة أرادب . فلما مسحت البلاد ، فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، تقرر على كل فدان اردبان ونصف ، ثم صار يؤخذ اردبان عن الفدان . وأما أراضى أسفل الأرض فيؤخذ عنها عين لا غلة .

ويزرع الشعير فى أثر القمح وغيره فى الأرض التى غرقت وهى رطبة ، وتتقدم زراعته على زراعة القمح بأيام ، وكذلك حصاده فانه يحصد قبل القمح . ويحتاج الفدان منه أن يبذر فيه بحسب الأرض ، ويخرج أكثر من القمح ، ويكون ادراكه فى برمودة (وهو آذار) .

ويزرع الفول فى الحرث اثر البرابب من أول شهر بابة ، ويؤكل وهو أخضر فى شهر كيهك . ويحتاج الفدان من البذر منه الى ثلاث ويبات ونحوها ، ويدرك فى برمودة ، ويتحصل من فدانه ما بين عشرين اردبا الى ما دون ذلك .

(*) ص ١٠٠ ج ١ ، ط . بولاق .

ويزرع العـدس والحمص من هتـور الى كيهك . والجلبان لا يزرع الا فى أرق الأراضى حرثا من الأرض العالية ، ويزرع لوقتا فى الأراضى الغرس .

ويبذر فى كل فدان من الحمص من اردب الى ثلاث ويبات ، ومن الجلبان من اردب الى أربع ويبات ، ومن العدس من ويبتين الى ما دونهما . وتدرك هذه الأصناف فى برمودة . ويتحصل من فدان الحمص من أربعة أرادب الى عشرة ، ومن الجلبان من عشرة أرادب الى ما دونها ، والعـدس من عشرين اردبا فما دونها .

وأنجب ما يكـون الكـتان اذا زرع فى البرش ، ويحتـاج أن يسبخ بتراب سباخ ، وهو اذا طال رقه ، ويقلع قضبانا ويسمى حينئذ أسلاقا ، وينشر فى موضعه حتى يجف ، فاذا جف حل وهدر وعزل جوزه ، فيخرج منه بزر الكـتان ، ويستخرج منه الزيت * الحار .

ويزرع الكتان فى شهر هتـور ، ويحتاج الفدان أن يبذر فيـه من البزر ما بين اردب وثلث الى ما دون ذلك ، ويـدرك فى شـهر برمودة ، ويخرج من الفدان ما بين ثلاثين شدة الى ما دون ذلك ، ومن البزر من ستة أرادب الى ما دونها . وكانت قطيعة الفدان منه فى التقيم : بأرض الصعيد من خمسة دنانير الى ثلاثة ، وفى دلاص ثلاثة عشر دينارا ، وفيما عدا ذلك ثلاثة دنانير .

ويزرع القرط عنـد أخذ ماء النيـل فى النقصان ، ولا ينبغى تأخير زرعه الى أوان هبوب الريح الجنوبية التى يقال لها المريسية ، وأول ما يبذر فى شهر بابة ، وربما زرع بعد النوروز .

والحراثى منـه يزرع فى كيهـك وطوبة ، ويزرع أحيانا فى هتور ، ويبذر فى كل فدان من ويبتين ونصف الى ما حولهـا ، ويدرك الأخضر منه فى آخر شهر كيهـك ، ويدرك الحراثى فى طوبة وأمشير ، ويتحصـل من الفـدان الحراثى ما بين اردبين الى أربـع ويبات .

ويزرع البصل والثوم من شهر هتور الى نصف كيهك . ويبذر فى فدان البصـل من نصف وربع ويبة الى ويبة ، والثوم من مائة حزمة الى مائة وخمسين حزمة ، ويدرك ذلك فى برمودة .

والبصل الذى يخرج ليزرع زريعـة ، فانه يزرع من أول كيهك الى العاشر من طوبة ، ويخرج من زريعته عشرة أرادب من الفدان ، ويدرك فى بشنس .

ويزرع الترمس فى طوبة ، وزريعتـه لكل فدان اردب ، ويدرك فى برمودة ، ويتحصل من الفدان ما بين عشرين اردبا الى مادونها ... وهذه هى الأصناف الشتوية .

وأما الأصناف الصيفيـة : فان البطيـخ واللوبيا يزرعان من نصف برمهات الى نصف برمودة ، ويزرع فى الفدان قدحان ، ويدرك فى بشنس .

ويزرع السمسم فى برمودة ، وزريعته ربع ويبة للفدان ، ويدرك فى أبيب ومسرى ، ويتحصـل من الفدان ما بين اردب الى ستة أرادب .

(*) [illegible]

ويزرع القطن فى برمودة ، وزريعته أربع ويبات حب للفـدان ، ويدرك فى تـوت ، فيخرج من الفدان من ثمانية قناطير بالجروى الى ما دونها .

ويزرع قصب السكر من نصف برمهات فى أثر الباق والبرش ، وتبرش أرضه سبع سكك ، وأنجبه ما تكامل له ثلاث عزقات قبل انقضاء شهر بشنس ، ومقـدار زريعتـه ثمن فدان وما حوله لكل فدان .

ويحتاج القصب الى أرض جيدة دمثة ، قد شملها الرى وعلاها ماء النيل ، وقلع ما بها من الحلفاء ونظفت ، ثم برشت بالمقلقلات (وهى محـاريث كبـار) ستة وجوه وتجرف حتى تتمهد ، ثم تبرش ستة وجوه أخرى وتجرف . ومعنى البرش : الحرث .

فاذا صلحت الأرض وطابت ونعمت وصارت ترابا ناعما وتساوت بالتجريف ، شقت حينئذ بالمقلقلات ، ويرمى فيها القصب قطعتين : قطعة مثناة وقطعة مفردة ، بعـد أن تجعل الأرض أحواضا وتفرز لها جداول يصل الماء منها الى الأحـواض ، ويكون طول كل قطعـة من القصب ثلاثة أنابيب كوامل وبعض أنبوبة من أعلى القطعة وبعض أخرى من أسفلها ، ويختار ما قصرت أنابيبه وكثرت كعوبه من القصب ، ويقال لهذا الفعل : النصب .

فاذا كمل نصب القصب أعيد التراب عليه ، ولابد فى النصب أن تكون القطعـة ملقـاة لا قائمة ، ثم يسقى — من حين نصبه فى أول فصل الربيع — لكل سبعة أيام مرة .

فاذا نبت القصب وصـار أوراقا ظاهرة ، نبت معه الحلفاء والبقلة الحمقاء التى يسميها أهل مصر الرجلة ، فعند ذلك تعزق أرضـه (ومعنى العزاق أن تـكش أرض القصب) وتنظف ما نبت مع القصب .

ولا يزال يتعاهد ذلك حتى يعزو القصب ويقوى ويتكاثف ، فيقال عنـد ذلك : طرد القصب عزاقه ، فانه لا يمكن عزاق الأرض ولا يكون هذا ، حتى يبرز الأنبوب منه .

ومجموع ما يسـقى بالقـادوس ثمانيـة وعشرون ماء . والعادة أن الذى ينصب من الأقصاب على كل مجال بحرانى ، أى مجاور للبحر — اذا كانت مزاحة العلة بالأبقار الجياد مع قرب رشا الآبار — ثمانية أفدنة ، ويحتاج الى ثمانية أرؤس بقر ، فان كانت الآبار بعيدة عن مجرى النيل لا يمكن حينئذ أن يقـوم المجال بأكثر من ستة أفدنة الى أربعة .

فاذا طلع النيل وارتفع ، سقى القصب عند ذلك ماء الراحة . وصفة ذلك أن يقطع عليـه من جانب جسر يكون قد أدير عليه ليقيه من الغرق عند ارتفاع النيل بالزيادة ، فيـدخل الماء من ثلمة فى ذلك الجسر حتى يعلو على أرض القصب نحو شبر ، ثم يسد عنه الماء حتى لا يصل اليه ، ويترك الماء فوق الأرض قدر ساعتين أو ثلاث الى أن يسـجن ، ثم يصرف من جانب آخر حتى ينضـب كله ، ويجدد عليه ماء آخر كذلك ، فيتعاهد ما ذكرنا مرارا فى أيام متفرقة بقدر معلوم ، ثم يفطم بعد ذلك .

فاذا عمل ما قلناه وفى القصب حقه ، فان نقص عن ذلك حصـل فيه الخلـل . ولابد للقصب من القطران قبل أن يحلو حتى لا

موس . ويكسر القصب فى كيهك . ولابد من حرق آثار القصب بالنار ، ثم سقيه وعزقه كما تقدم ، فينبت قصبا يقال له الخلفة ، ويسمى الأول الرأس .

وقنود الخلفة أجود غالبا من قنود الرأس . ووقت ادراك الرأس فى طوبة ، والخلفة فى نصف هتور . وغاية ادارة معاصر القصب الى النوروز . ويحصل من الفدان ما بين * أربعين أبلوجة قند الى ثمانين أبلوجة ، والأبلوجة تسع قنطارا قندا حوله .

ويزرع القلقاس مع القصب ، ولكل فدان عشرة قناطير قلقاس جروبة . ويدرك فى هتور .

ويزرع الباذنجان فى برمهات وبرمودة وبشنس وبئونة ، ويدرك من بئونة الى مسرى .

ويزرع النيلة من بشنس ، والزريعة للفدان ويبة ، ويدرك من أبيب .

ويزرع الفجل طول السنة ، وزريعة الفدان من قدح واحد الى قدحين .

ويزرع اللفت فى أبيب ، وزريعة الفدان قدح واحد ، ويدرك بعد أربعين يوما .

ويزرع الخس فى طوبة شتلا ، ويؤكل بعد شهرين .

ويزرع الكرنب فى توت شتلا ، ويدرك فى هتور .

ويغرس الكرم فى أمشير ، نقلا وتحويلا .

ويغرس التين والتفاح فى أمشير .

ويقلع التوت فى برمهات ويغرس .

ويبل اللوز والخوخ والمشمش فى ماء طوبة ثلاثة أيام — وهى قضبان — ثم يغرس ، ويحول شجرها فى طوبة .

ويزرع نوى التمر ، ثم يتحول وديا ، فينقل .

ويدفن بصل النرجس فى مسرى .

ويزرع الياسمين فى أيام النسىء وفى أمشير .

ويزرع المرسين فى طوبة وأمشير ، غرسا .

ويزرع الريحان فى برمودة .

ويزرع حب المنثور فى أيام النيل .

ويزرع الموز الشتوى فى طوبة ، والصيفى فى أمشير .

ويحول الخيار شنبر فى برمهات .

وتقلع الكروم على ريح الشمال ، الى ليال من برمهات ، حتى تخرج العين منها .

وتقلع الأشجار فى طوبة وأمشير ، الا السدر — وهو شجر النبق — فانه يقلع فى برمودة .

وتسقى الأشجار فى طوبة ماء واحدا ، ويسمونه ماء الحياة . وتسقى فى أمشير ثانيا عند خروج الزهر . وتسقى فى برمهات ماءين آخرين الى أن ينعقد التمر . وتسقى فى بشنس ثلاث مياه . وتسقى فى بؤونة وأبيب ومسرى ماء فى كل سبعة أيام . وتسقى فى توت وبابة مرة واحدة تغريقا من ماء النيل . وتسقى فى هتور من ماء النيل بتغريق

(*) ص ١٠٢ ج ١ ، ط بولاق .

المساطب . ويسقى البعل من الكروم فى هتور من ماء النيل مرة واحدة تغريقا .

وجميع أراضى مصر تقاس بالفدان ، وهو عبارة عن أربعمائة قصبة حاكمية طولا فى عرض قصبة واحدة . والقصبة ستة أذرع وثلثا ذراع بذراع القماش ، وخمسة أذرع بذراع النجار تقريبا .

وقال القاضى أبو الحسن فى كتاب المنهاج : خراج مصر قد ضرب على قصبة فى المساحة اصطلح عليها ، زرع المزارع على حكمها . وتكسير الفدان أربعمائة قصبة ، لأنه عشرون قصبة طولا فى عشرين قصبة عرضا . وقصبة المساحة تعرف بالحاكمية ، وهى تقارب خمسة أذرع بالنجارى .

ذكر اقسام مال مصر

اعلم أن مال مصر فى زمننا ينقسم قسمين : أحدهما يقال له خراجى ، والآخر يقال له هلالى .

فالمال الخراجى مايؤخذ مسانهة من الأراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة ، وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف .

والمال الهلالى عدة أبواب ، كلها أحدثها ولاة السوء شيئا بعد شىء .

وأصل ذلك فى الاسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بلغه أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الجند فيأخذون منهم العشر ، فكتب الى أبى موسى الأشعرى وهو على البصرة : أن خذ من كل تاجر يمر بك من المسلمين من كل مائتى درهم خمسة دراهم ، وخذ من كل تاجر من تجار العهد (يعنى أهل الذمة) من كل عشرين درهما درهما ، ومن تجار الحرب من كل عشرة دراهم درهما .

وقيل لابن عمر : كان عمر يأخذ من المسلمين العشر ؟

قال : لا .

ونهى عمر بن عبد العزيز عن ذلك ، وكتب : ضعوا عن الناس هذه المكوس ، فليس بالمكس ولكنه النجس .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتاه ناس من أهل الشام ، فقالوا : أصبنا دواب وأموالا فخذ منها صدقة تطهرنا بها .

فقال : كيف أفعل ما لم يفعل من كان قبلى ؟

وشاور ...

فقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لا بأس به ان لم يأخذه من بعدك .

فأخذ عن العبد عشرة دراهم وكذلك عن الفرس ، وعن الهجين ثمانية ، وعن البرذون والبغل خمسة .

وأول من وضع على الحوانيت الخراج فى الاسلام أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبى جعفر المنصور فى سنة سبع وستين ومائة ، وولى ذلك سعيد الجرمى .

وأول من أحدث مالا ، سوى مال الخراج بمصر ، أحمد بن محمد بن مدبر — لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين — فانه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب . فابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرة من بعده لا تنقض ، فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس ، وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد ... الى غير ذلك .

فانقسم حينئذ مال مصر الى خراجى وهلالى . وكان الهلالى يعرف ، فى زمنه وما بعده ، بالمرافق والمعاون .

فلما ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون امارة مصر ، وأضاف اليه أمير المؤمنين المعتمد على الله * الخراج والثغور الشامية ، رغب وتنزه عن أدناس المعاون والمرافق ، وكتب باسقاطها فى جميع أعماله ، وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار فى كل سنة .

وله فى ذلك خبر فيه أكبر معتبر ، قد ذكرته عند ذكر أخبار الجامع الطولونى من هذا الكتاب .

ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية عندما ضعفت ، وصارت تعرف بالمكوس .

فلما استبد السلطان الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بملك مصر ، أمر باسقاط مكوس مصر والقاهرة ، فكتب عنه القاضى الفاضل مرسوما بذلك .

(*) ص١٠٢ جـ١ ، ط. بولاق .

وكان جملة ذلك فى كل سنة مائة ألف دينار ، تفصيلها :

مكس البهار وعمالته : ثلاثة وثلاثون ألفا وثلثمائة وأربعة وستون دينارا .

مكس البضائع والقوافل وعمالتها : تسعة آلاف وثلثمائة وخمسون دينارا .

منفلت الصناعة ، عن مكس البز الوارد اليها والنحاس والقزدير والمرجان والفاضلات : خمسة آلاف ومائة وثلاثة وتسعون دينارا .

الصادر عن الصناعة بمصر : ستة آلاف وستمائة وستة وستون دينارا .

سمسرة التمر : ثلثمائة دينار .

الفندق بالمنية عن مكس البضائع : ثمانمائة دينار وستة وخمسون دينارا .

رسوم دار القند : ثلاثة آلاف ومائة وثمانية دنانير .

رسوم الخشب الطويل والملح : ستمائة وستة وسبعون دينارا .

رسوم العلب المنسوبة الى بلبيس والبورى : مائة دينار .

رسوم التفتيش بالصناعة عن البهار وغيره : مائتان وسبعة عشر دينارا .

خيمة أرمنت عن الوارد اليها : سبعة وستون دينارا .

فندق القطن : ألفا دينار .

سوق الغنم بالقاهرة ومصر والسمسرة وعبور الأغنام بالجيزة : ثلاثة آلاف وثلثمائة وأحد عشر دينارا .

عبور الأغنام والكتان والأبقار بباب القنطرة . ألف ومائتا دينار

واجب ما ورد من الكتان الحطب الى الصناعة : مائتا دينار .

رسوم واجب الغلات ، كالحبوب الواردة الى الصناعة ، والمقس والمنية والجسر والتبانين ومفالت جزيرة الذهب وطموم ومنبر الدرج : ستة آلاف دينار .

مكس ما يرد الى الصناعة من الأغنام : ستة وثلاثون دينارا .

الأغنام البيتوتية : اثنا عشر دينارا .

العرصة والرسناوى بالجيزة ، ومكس الأغنام : مائة وتسعون دينارا .

منفلت الفيوم عما يرد من الكتان من القبلة ومن البضائع الواردة من الفيوم وغيره : أربعة آلاف ومائة وستون دينارا .

مكس الورق المجلوب الى الصناعة ورسم التفتيش : مائتا دينار .

الحصة بساحل الغلة والأقوات والرسائل : سبعمائة وثمانية وستون دينارا .

دار التفاح والرطب بمصر والعرصة بالقاهرة : ألف وسبعمائة دينار .

رسم ابن المليجى : مائتا دينار .

دار الجبن : ألف دينار .

مشارفة الخزائن : مائتان وأربعون دينارا .

واجب الحلى الوارد من الوجه البحرى والقطن : ألف وعشرون دينارا .

رسم سمسرة الصفا : ألف ومائتا دينار .

منفلت الصعيد : مائة وأحد وستون دينارا .

خاتم الشرب والديبقى : ألف وخمسمائة دينار .

مكس الصوف : مائتا دينار .

نصف الموردة بساحل المقس : أربعة عشر دينارا .

دكة السمسار : ثلثمائة وخمسون دينارا .

منفلت العريف بالصناعة وحملة البهار والبضائع : مائتان وستة عشر دينارا .

الحلفاء الواردة من القبلة : مائة وخمسة وثلاثون دينارا .

الوقد والسرقين والطعم بدار التفاح ومنفلت القبلة بالتبانين والجسر : خمسة وثلاثون دينارا .

رسوم الصفا والحمراء ورسوم دار الكتان : ستون دينارا .

حماية الغلات بالمقس ودار الجبن : مائة وأربعون دينارا .

الحلفاء الواردة على الجسر ومعدية المقياس : مائة دينار .

خمس البرنية بالجيزة : عشرون دينارا .

تل التعريف بالصناعة : ثمانية وعشرون دينارا .

منفلت الغلات بمعدية جزيرة الذهب : عشرة دنانير .

رسوم الحام بساحل الغلة : خمسمائة وأربعة وثلاثون دينار .

واجب الحناء الواردة فى البر ؛ ثمانمائة دينار .

واجب الحلفاء والقصاب : ثلاثة وستون دينارا .

مكس ما يرد من البضائع الى المنية : مائة وأربعة وثمانون دينارا .

مسلخة شطنوف والبرانية : مائتا دينار .

سوق السكريين : خمسون دينارا .

رسوم خيمة الجملى بالشارع وسوق وردان : تسعة عشر دينارا .

واجب الفحم الوارد الى القاهرة : عشرة دنانير .

معدية الجسر بالجيزة : مائة وعشرون دينارا .

خيمة البقرى : أربعون دينارا .

الخيمة بدار الدباغة : تسعة عشر دينارا .

سمسرة الجبس الجيوشى : ثلثمائة واثنا عشر دينارا .

دكان الدهن ومعصرة الشيرج والخل بالقاهرة : خمسمائة دينار .

الخل الحامض وما معه : أربعمائة دينار .

بيوت الغزل والمصطبة : ثلثمائة وخمسون دينارا .

ذبائح الأبقار : ألف دينار

سوق السمك بالقاهرة ومصر : ألف ومائتا دينار .

رسوم الدلالة : ثلثمائة دينار .

سمسرة الكتان : ثلثمائة دينار .

رسوم حماية الصناعتين : أربعمائة دينار .

مربعة العسل : مائتان واثنان وثلاثون دينارا .

معادى جزيرة الذهب وغيرها : ثلثمائة دينار .

خاتم الشمع بالقاهرة : ثلاثة وستون دينارا .

زريبة الذبيحة : سبعمائة دينار .

معدية المقياس وامبابة : مائتا دينار .

حمولة السلجم . ثلثمائة وثلاثون دينارا .

دكة الدباغ . ثمانمائة دينار .

سوق الرقيق . خمسمائة دينار .

معمل الطبرى * : مائتان وأربعون دينارا .

سوق منسوبة : مائة وأربعة وستون دينارا .

ذبائح الضأن بالجيزة ورسوم ساحل السنطة : عشرة دنانير .

نخ السمك : خمسة دنانير .

تنور الشوى : مائة دينار .

نصف الرطل من مطابخ السكر : مائة وخمسة وثلاثون دينارا

سوق الدواب بالقاهرة ومصر : أربعمائة دينار .

سوق الجمال : مائتان وخمسون دينارا .

قبان الحناء : ثلاثون دينارا

واجب طاقات الأدم : ستة وثلاثون دينار .

(*) ص١٠٤ جـ١ ، ط.بولاق .

منفلت الخام بالشاشين : ثلاثة وثلاثون دينارا .

أنولة القصار : أربعون دينارا .

بيوت الفروج : ثلاثون دينارا .

الشعر والطارات : أربعة دنانير .

رسوم الصبغ والحرير : ثلثمائة وأربعة وثلاثون دينارا .

وزن الطفل : مائة وأربعون دينارا .

معمل المزر : أربعة وثمانون دينارا .

الفاخور بمصر والقاهرة : مائتان وستة وثلاثون دينارا .

وذكر ابن أبى طى أن الذى أسقطه السلطان صلاح الدين ، والذى سامح به لعدة سنين آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة ، مبلغه عن نيف ألف ألف دينار وألفى ألف اردب ... سامح بذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين .

فلما ولى السلطان الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين يوسف ، أعاد المكوس وزاد فى شناعتها .

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة تسعين وخمسمائة : وكان قد تتابع فى شعبان أهل مصر والقاهرة فى اظهار المنكرات وترك الانكار لها ، واباحة أهل الأمر والنهى لها ، وتفاحش الأمر فيها ، الى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره ، وأقيمت طاحون بحارة المحمودية لطحن حشيش المزر وأفردت برسمه ...

وحميت بيوت المزر ، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة ، فمنها ما انتهى أمره فى كل يوم الى ستة عشر دينارا ، ومنع المزر البيوتى ليتوفر الشراء من البيوت المحمية ، وحملت أوانى الخمر على رؤوس الأشهاد وفى الأسواق من غير منكر ، وظهر من عاجل عقوبة الله عز وجل وقوف زيادة النيل عن معتادها ، وزيادة سعر الغلة فى وقت ميسورها .

وقال فى متجددات سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : وآل الأمر الى وقوف وظيفة الدار العزيزية من خبز ولحم الى أن يتحمل فى بعض الأوقات لا كلها لبعض ما يتبلغ به من خبز ، وكثر ضجيجهم وشكواهم فلم يسمع ، ووقف الحال فيما ينفق فى دار السلطان ، وفيما يصرف الى عياله ، وفيما يقتات به أولاده ، وما يغصب من أربابه ، وأفضى هذا الى غلاء الأسعار ، فان المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى أسعار المأكولات العامة بمقدار ما يؤخذ منهم للدار السلطانية ، فأفضى ذلك الى النظر فى المكاسب الخبيثة .

وضمن المزر والخمر باثنى عشر ألف دينار ، وفسح فى اظهار منكره والاعلان به والبيع له فى القاعات والحوانيت مع قرب استهلال رجب ، وما استطاع أحد من العامة الانكار لا باليد ولا باللسان ، وصار هذا السحت مما ينفرد السلطان به لنفقته وطعامه ، وانتقل مال الثغور ومال الجوالى الحل الطيب ، الى أن يصير حوالات لمن لا يبالى من أين أخذ المال ، ولا يفرق بين الحرام والحلال .

وفى شهر رمضان غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها ، وتظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطانى ، واستيفاء رسمه بأيدى مستخدميه . وبلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار ، وحصل منه شىء حمل اليه . فبلغنى أنه صنع به آلات الشراب ذهبيات وفضيات .

وكثر اجتماع النساء والرجال فى شهر رمضان لا سيما على الخليج لما فتح ، وعلى مصر لما زاد الماء ، وتلقى فيه النيل بمعاص نسأل الله الا يؤاخذنا بها ، وألا يعاقبنا عليها بجراءة أهلها .

وقال جامع السيرة التركية : ولما استقل الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى الصالحى بمملكة مصر فى سنة خمسين وستمائة — بعد انقراض دولة بنى أيوب — استوزر شخصا من نظار الدواوين يعرف بشرف الدين هبة الله ابن صاعد الفائزى ، أحد كتاب الأقباط — وكان قد أظهر الاسلام من أيام الملك الكامل ، وترقى فى خدمة الكتابة — فقرر فى وزارته أموالا على التجار وذوى اليسار وأرباب العقار ، ورتب مكوسا وضمانات سموها حقوقا ومعاملات .

ولما ولى الملك المظفر سيف الدين قطز مملكة مصر ، بعد خلعه الملك المنصور على بن المعز أيبك ، أحدث عند سفره الذى قتل فيه مظالم كثيرة لأجل جمع المال وصرفه فى الحركة لقتال جموع التتر ، منها تصقيع الأملاك وتقويمها وزكاتها ، وأحدث على كل انسان دينارا يؤخذ منه ، وأخذ ثلث التركات الأهلية ، فبلغ ذلك ستمائة ألف دينار فى كل سنة .

فلما قتل قطز ، وجلس الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بعده على سرير الملك بقلعة الجبل ، أبطل ذلك جميعه وكتب به مساميح قرئت على المنابر ، ثم أبطل ضمان المزر وجهاته فى سنة اثنتين وستين وستمائة ، وكتب وهو بالشام الى الأمير عز الدين الحلى نائب السلطنة بمصر أن يبطل بيوت المزر ، ويعفى آثاره ، ويخرب بيوته ، ويكسر مواعينه ، ويسقط ارتفاعه من الديوان ... فان بعض الصالحين تحدث معى فى ذلك وقال : القمح الذى جعله الله تعالى قوتا للعالم يداس بالأرجل ، وقد تقربت الى الله تعالى بابطاله ، ومن ترك شيئا لله عوضه * خيرا منه ، ومن كان له على هذه الجهة شىء يعوضه الله من المال الحلال .

فأبطل الحلى ذلك ، وعوض المقطعين عليه بدله .

وفى سنة ثلاث وستين أبطل حراسة النهار بالقاهرة ومصر — وكانت جملة مستكثرة — وكتب بذلك توقيعا ، وأبطل من أعمال الدقهلية والمرتاحية : عن رسوم الولاية أربعة وعشرين ألف دينار .

وفى خامس عشرى شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة ، قرىء بجامع مصر مكتوب بابطال ما قرر على رسوم ولاية مصر من الرسوم ، وهى مائة ألف درهم مصرية ... فبطل ذلك .

وأبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها فى سنة خمس وستين وستمائة ، وأمر باراقة

(*) ص١٠٥ جـ١ ، ط.بولاق .

الخمور ، وابطال المنكرات ، وتعفية بيوت المنكرات ، ومنع الحانات والخواطىء بجميع أقطار مملكة مصر والشام ... فطهرت من ذلك البقاع .

ولما وردت المراسيم بذلك على القاضى ناصر الدين أحمد بن المنير قال :

ليس لابليس عندنا أرب
غير بلاد الأمير مأواه
حرمته الخمر والحشيش معا
حرمتا ماؤه ومرعاه

وقال الأديب الفاضل أبو الحسين الجزار :

قد عطل الكوب من حبابه
وأخلى الثغر من رضابه
وأصبح الشيخ وهو يبكى
على الذى فات من شبابه

وفى تاسع جمادى الآخرة سنة ست وستين وستمائة ، أمر الملك الظاهر بيبرس باراقة الخمور ، وابطال الفساد ، ومنع النساء الخواطىء من التعرض للبغاء من جميع القاهرة ومصر وسائر الأعمال المصرية . فتطهرت أرض مصر من هذا المنكر ، ونهبت الخانات التى كانت معدة لذلك ، وسلب أهلها جميع ما كان لهم ، ونفى بعضهم ، وحبست النساء حتى يتزوجن . وكتب الى جميع البلاد بمثل ذلك . وحط المال المقرر على البغايا من الديوان ، وعوض الحاشية من جهات حل بنظيره .

وفى سابع عشر ذى الحجة سنة تسع وستين وستمائة ، أريقت الخمور ، وأبطل ضمانها — وكان كل يوم ألف دينار — وكتب توقيع بذلك قرىء على المنابر . وافتتح سنة سبعين باراقة الخمور ، والتشدد فى ازالة المنكرات ، وكان يوما مشهودا بالقاهرة . وبلغه فى سنة أربع وسبعين عن الطواشى شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز — وكان قد تمكن منه تمكنا كثيرا — أنه يشرب الخمر ، فشنقه تحت قلعة الجبل .

ولما ولى الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى مملكة مصر أبطل زكاة الدولة ، وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله أبدا ولو عدم منه ، واذا مات يؤخذ من ورثته . وأبطل ما كان يجبى من أهل اقليم مصر كله اذا حضر مبشر بفتح حصن أو نحوه ، فيؤخذ من الناس بالقاهرة ومصر على قدر طبقاتهم ، ويجتمع من ذلك مال كثير .

وأبطل ما كان يجبى من أهل الذمة ، وهو دينار سوى الجالية ، برسم نفقة الأجناد فى كل سنة .

وأبطل مقرر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر والغزاة ، وكان يؤخذ من جميع تجار القاهرة ومصر : من كل تاجر دينار .

وأبطل ما كان يجبى عند وفاء النيل مما يعمل به شوى وحلوى وفاكهة فى المقياس ، وجعل مصرف ذلك من بيت المال ...

وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط .

وأبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون عدة جهات قد ذكرت فى الروك الناصرى . وآخر ما أدركنا ابطاله ضمان الأغانى ، وضمان القراريط ، فى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ،

على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون .

فأما ضمان الأغانى فكان بلاء عظيما ، وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا ، فلو خرجت أجل امرأة فى مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة ، وقامت بما يلزمها ، لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة .

وكان على النساء اذا تنفس ، أو عرس امرأة ، أو خضبت امرأة يدها بحناء ، أو أراد أحد أن يعمل فرحا ، لابد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ، ومن فعل فرحا بأغان ، أو نفس امرأته من غير اذن الضامنة ، حل به بلاء لا يوصف .

وأما ضمان القراريط ، فانه كان يؤخذ من كل من باع ملكا عن كل ألف درهم عشرون درهما .

وكان متحصل هاتين الجهتين مالا كثيرا جدا .

وأبطل الملك الظاهر برقوق ما كان يؤخذ من أهل البرلس وشورى وبلطيم ، شبه الجالية ، فى كل سنة ستين ألف درهم .

وأبطل ما كان على القمح من مكس يؤخذ من الفقراء بثغر دمياط ممن يبتاع من اردبين فما دونهما .

وأبطل ما كان يؤخذ مكسا من معمل الفروج بالنحريرية والأعمال الغربية .

وأبطل ما كان يؤخذ تقدمة لمن يسرح الى العباسة من الخيل والجمال والغنم وغير ذلك .

وأبطل ما كان يؤخذ على الدريس والحلفاء بباب النصر خارج القاهرة .

وأبطل ضمان الأغانى بمنية ابن خصيب بأعمال الأشمونين ، وزرقنا بالأعمال الغربية *.

وأبطل الأبقار التى كانت ترمى بالوجه البحرى عند فراغ الجسور .

وأبطل الأمير يلبغا السالمى — لما ولى أستادار السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة احدى وثمانمائة — تعريف الغلال بمنية ابن خصيب ، وضمان العرصة بها ، وأخصاص الغسالين ... وكانت من المظالم القبيحة .

وأبطل من القاهرة ضمان بحيرة البقر ، ثم أعاده القبط من بعده .

وقد بقيت الى الآن من المكوس بقايا . أخبرنى الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا السالمى ، فى أيام وزارته ، أن جهات المكوس بديار مصر تبلغ فى كل يوم بضعا وسبعين ألف درهم ، وأنه اختبرها فلم يجدها تصرف فى شىء من مصالح الدولة ، بل انما هى منافع للقبط وحواشيهم . وكان قد عزم على ابطال المكوس فلم يمهل .

والمال الهلالى عبارة عما يستأدى مشاهرة ، كأجر الأملاك المسقفة من الآدر ، والحوانيت ، والحمامات ، والأفران ، والطواحين ، وعداد الغنم ، والجهة الهوائية المضمونة والمحلولة .

وعد بعض الكتاب أحكار البيوت ، وريع البساتين التى تستخرج أجرها مشاهرة ،

(*) ص١٠٦ ج١ ، ط. بولاق .

ومصايد السمك ، ومعاصر الشيرج والزيت ، فى المال الهلالى .

ومن اصطلاح كتاب مصر القدماء أن تورد جزية أهل الذمة من اليهود والنصارى قلما واحدا مستقلا بذاته ، بعد الهلالى ، قبل الخراجى ، وذلك أنها تستأدى مسانهة ، وكانوا يرون وجوبها مشاهرة . وفائدته فيمن أسلم أو مات فى أثناء الحول ، فانهم كانوا يلزمونه بقدر ما مضى من السنة قبل اسلامه أو وفاته ، فلذلك أوردت فيما بين الهلالى والخراجى .

وكانوا فى الاقطاعات الجيشية ، يجرونها مجرى المال الهلالى عند خروج اقطاع من مقطع ، ودخول آخر على ذلك الاقطاع ، فانها كانت تستخرج على حكم الشهور الهلالية لا الشمسية بحيث لو تعجلها مقطع فى غرة السنة على العادة فى ذلك ، وخرج الاقطاع عنه فى أثناء السنة بوفاة أو نقلة الى غيره ، استحق منها نظير ما مضى من شهور السنة الى حين انتقال الاقطاع عنه ، لا على حكم ما استحق من المغل . ويستحق المتصل من استقبال تاريخ منشوره ، كعادة النقود والمتخلل بينهما من المدة مستحق ذلك الديوان ، فيرد من جملة المحلولات من الاقطاعات .

وكان من أبواب الهلالى جهات تسمى المعاملات ، وهى : الزكاة ، والمواريث ، والثغور ، والمتجر ، والشب ، والنطرون ، والجبس الجيوشى ، ودار الضرب ، ودار العيار ، والجاموس ، وأبقار الجبس ، والأغنام ، والفروس والبساتين ، والأحكار والرباع ، والمراكب ، وما يستأدى من الذمة غير الجوالى ، وساحل السنط ، والخراج والقرظ ، ومقرر الجسور ، وموقف الأبقار ، ومقرر القصب ، ومقرر البريد ، ومقرر ا‍‍لسط ، وعشر ا‍ ق ، وغير ذلك من جهات المكوس .

فأما الجزية ، تعرف فى ر‍ تنا بالجوالى ، فانها تستخرج سلفا وتعجيلا فى غرة السنة ، وكان يتحصل منها مال كثير فيما مضى .

قال القاضى الفاضل فى متجددات الحوادث : الذى انعقد عليه ارتفاع الجوالى لسنة سبع وثمانين وخمسمائة : مائة ألف وثلاثون ألف دينار . وأما فى وقتنا هذ ، فان الجوالى قلت جدا لكثرة اظهار النصارى للاسلام فى الحوادث التى مرت بهم .

ولما استبد السلطان الملك المؤيد شيخ بملك مصر ، بعد الخليفة العباس بن محمد أمير المؤمنين المستعين بالله ، ولى رجلا جباية الجوالى ، فكثر الاستقصاء عن الذمة والكد فى الاستخراج منهم ، فبلغت الجوالى فى سنة ست عشرة وثمانمائة : أحد عشر ألف دينار وأربعمائة دينار ، سوى ما غرم للأعوان ، وهو قدر كثير .

وأما المراعى — وهو الكلأ المطلق المباح الذى أنبته الله تعالى لرعى دواب بنى آدم — فأول من أدخلها الديوان بمصر أحمد بن مدبر ، لما ولى الخراج ، وصير لذلك ديوانا وعاملا جلدا يحظر على الناس أن يتبايعوا المراعى أو يشتروها الا من جهته .

وأدركنا المراعى ببلاد الصعيد مما يضاف الى الاقطاعات ، فيأخذ الأمير ممن يرعى دوابه فى أرض بلده الكتيح فى كل سنة مالا

عن كل رأس ، فيجبى من صاحب الماشية بعدد أغنامه . فلما اختل أمر الصعيد فى الحوادث الكائنة منذ سنة ست وثمانمائة ، تلاشى الأمر فى ذلك .

وكانت العادة القديمة أن يندب للمراعى مشد وشهود وكاتب ، فيعدون المواشى ، ويستخرجون من أربابها عن كل رأس شيئا ، ولا يكون ذلك الا بعد هبوط النيل ونبات الكلا واستهلاكه للمرعى .

وأما المصايد فهى ما أطعم الله سبحانه وتعالى من صيد البحر . وأول من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر ، وصير لها ديوانا ، واحتشم من ذكر المصايد وشناعة القول فيها ، فأمر أن يكتب فى الديوان خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك ، فاستمر ذلك .

وكان يندب لمباشرتها مشد وشهود وكاتب الى عدة جهات ، مثل خليج الاسكندرية ، وبحيرة الاسكندرية ، وبحيرة نسترو ، وثغر دمياط ، وجنادل ثغر أسوان ، وغير ذلك من البرك والبحيرات ... فيخرجون عند هبوط النيل ورجوع الماء من المزارع الى بحر النيل بعد ما تكون أفواه الترع قد سكرت ، وأبواب القناطر قد سدت عند انتهاء زيادة النيل ، كيما يتراجع * الماء ويتكاثف مما يلى المزارع .

ثم تنصب شباك وتصرف المياه ، فيأتى السمك وقد اندفع مع الماء الجارى ، فتصده الشباك عن الانحدار مع الماء ، ويجتمع فيها ، فيخرج الى البر ، ويوضع على أنخاخ ، ويملح ويوضع فى الأمطار ، فاذا استوى بيع وقيل له الملوحة والصير . ولا يكون ذلك الا فيما كان من السمك فى قدر الأصبع فما دونه . ويسمون هذا الصنف اذا كان طريا «ابسارية» فتؤكل مشوية ومقلية .

ويصاد من بحيرة نسترو وبحيرة تنيس وبحيرة الاسكندرية أسماك تعرف بالبورى ، وقيل لها ذلك لأنها كانت تصاد عند قرية من قرى تنيس يقال لها بورة ، وقد خربت ، والنسبة اليها البورى ، ونسب اليها جماعة من الناس منهم بنو البورى . وقيل لهذا السمك البورى اضافة الى القرية المذكورة .

وقد بطل فى زمننا اليوم أمر هذه المصايد ، الا من بحيرة نسترو بالبرلس ، وبحيرة تنيس بدمياط فقط . وهاتان البحيرتان تجريان فى ديوان الخاص ، وهما مضمنتان ، وما يخرج منهما من البورى وغيره من أنواع السمك فللسلطان ، لا يقدر أحد أن يتعرض لصيد شىء منه الا أن يكون من صياديهما القائمين بالضمان . وما عدا هاتين البحيرتين من البرك والأملاق والخلجان فليست للسلطان . وأما بحيرة اسكندرية فقد جفت ، وثغر أسوان فقد خرج عن يد السلطنة ، وتغلب عليه أولاد الكفرة .

وثم برك بأيدى أقوام ، كبركة الفيل بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس ، وبركة الرطلى بيد أولاد الأمير بكتمر الحاجب ، وغير ذلك ... فان أسماكها مضمنة لهم يبيعونها ، ومع ذلك لا يمنع أحد الصيد منها .

(*) ص١٠٧ جـ١ ، ط بولاق .

وأما بحر النيل فما صيد منه يحمل الى دار السمك بالقاهرة ، فيباع ويؤخذ منه مكس السلطان ، الا أن الأمير جمال الدين يوسف الأستادار زاد فيما كان يؤخذ من الصيادين مكسا ، ومن حينئذ قل السمك بالقاهرة وغلا سعره .

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى « تاريخ مصر » : ان صنما كان بالاسكندرية يقال له شراحيل ، على حشفة من حشاف البحر ، مستقبلا باصبع من كفه قسطنطينية ، لا يدرى أكان مما عمله سليمان النبى ، أم عمله الاسكندر ؟ فكانت الحيتان تدور بالاسكندرية وتصاد عنده فيما زعموا .

قال زيد بن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أخبرنى أبى عن أبيه أنه انبطح على بطنه ومد يديه ورجليه ، فكان طوله طول قدم الصنم .

فكتب رجل يقال له أسامة بن زيد ، كان عاملا على مصر للوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين : ان عندنا بالاسكندرية صنما ، يقال له شراحيل ، من نحاس ، وقد غلت علينا الفلوس ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينزله ويضربه فلوسا فعل ، وان رأى غير ذلك فليكتب الى من أمره .

فكتب اليه : لا تنزله حتى أبعث اليك ضمناء يحضرونه .

فبعث اليه رجالا أمناء حتى أنزل من الحشفة ، فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة ، فضربه فلوسا ، فانطلقت الحيتان فلم ترجع الى ما هنالك .

وأما الزكاة فان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أول من جباها بمصر ... قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة : ثالث عشر ربيع الآخر فرقت الزكوات ، بعد ما جمعت ، على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين . بعد أن رفع الى بيت المال السهام الأربعة ، وهى سهام العاملين ، والمؤلفه وفى سبيل الله وفى الرقاب ، وقررت لهم فريضة ، واستودى على الأموال والبضائع ، وعلى ما يتقرر عليه من المواشى والنخل والخضراوات .

قال : والذى انعقد عليه ارتفاع الجوالى لسنة سبع وثمانين وخمسمائة : ثلاثون ألف دينار . والزائد فى معاملة الزكاة ودار الضرب لسنتى ست وسبع وثمانين وخمسمائة : أحد وعشرون ألف دينار وثمانمائة وأحد وستون دينارا .

وقال فى سنة ثمان وثمانين : واستخدم ابن حمدان فى ديوان الزكاة ، وكتب خطه بما مبلغه اثنان وخمسون ألف دينار لسنة واحدة من مال الزكاة ، وجعل الطواشى قراقوش الشاد فى هذا المال وألا يتصرف فيه ، بل يكون فى صندوق مودعا للمهمات التى يؤمر بها .

ولما قدم ابن عنين الشاعر من عند الملك العزيز سيف الاسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب بن شادى ملك اليمن الى مصر — وقد أجزل صلته عندما وفد عليه وفارقه ، وقد أثرى ثراء كثيرا — قبض أرباب ديوان الزكاة بمصر على ما قدم به من المتجر ، وطالبوه

بزكاة ما معه ، وكان ذلك فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى ، فقال :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها
أهل ، ولا كل برق سحبه غدقه

بين العزيزين فرق فى فعالهما :
هذاك يعطى، وهذا يأخذ الصدقه

ثم ان العزيز كشف عما يستأدى من الزكاة ، فانه انتهى اليه فيها أقوال شنيعة ، منها أنه أخذ من رجل فقير يبيع الملح فى قفة على رأسه زكاة عما فى القفة ، وانه بيع جمل بخمسة دنانير ذهب فأخذ زكاتها خمسة دراهم . فأمر بتفويض * أمرها الى أرباب الأموال ومن وجب عليه حق .

ثم لما كانت سلطنة الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، أخرج من زكاة الأموال التى كانت تجبى من الناس سهمى الفقراء والمساكين وأمر بصرفهما فى مصارفهما الشرعية ، ورتب من جملة هذين السهمين معاليم للفقهاء والصلحاء وأهل الخير تجرى عليهم . فاستحسن ذلك : مَن فعله وحمله الى ديوان الزكاة قبل منه ، ومن لم يحمل لا يتعرض اليه .

فبخل الأغنياء بزكاة أموالهم حتى تضرر الفقراء والمساكين ، وأخذ السعاة يبذلون فى ضمانها الأموال لتعود الى ما كانت عليه . فولى النظر فى ديوان الزكاة القاضى الأسعد شرف الدين أبو المكارم أسعد بن مهذب ابن مماتى ، فاستخرج الزكاة من أربابها ، ثم ضمنت بمال كثير ، وعاد الأمر فيها الى ما كانت عليه من العسف والجور .

وكانت أعوان متولى الزكاة تخرج الى منية ابن خصيب وأخميم وقوص ، لكشف أحوال المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم ، فيحتشون عن جميع ما معهم ، ويدخلون أيديهم أوساط الرجال خشية أن يكون معهم مال ، ويحلفون الجميع بالأيمان الحرجة على ما بأيديهم وما عندهم غير ما وجدوه .

وتقوم طائفة من مردة هذه الأعوان ، وبأيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة ، فيصعدون الى المراكب ، ويجسون بمسالهم جميع ما فيها من الأحمال والغرائر ، مخافة أن يكون فيها شىء من بضاعة أو مال ، فيبالغون فى البحث والاستقصاء بحيث يقبح ويستشنع فعلهم ويقف الحجاج بين يدى هؤلاء الأعوان مواقف خزى ومهانة ، لما يصدر منهم عند تفتيش أوساطهم وغرائر أزوادهم ، ويحل بهم من العسف وسوء المعاملة ما لايوصف ... وكذلك يفعل فى جميع أرض مصر منذ عهد السلطان صلاح الدين بن أيوب .

وأما الثغور : فهى دمياط ، وتنيس ، ورشيد ، وعيذاب ، وأسوان ، والاسكندرية — وهى أعظمها قدرا — فانه كان فيها عدة جهات منها الخمس والمتجر :

فالخمس ما يستأدى من تجار الروم الواردين فى البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضى ما صولحوا عليه ، وربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار ومائتان وخمسة وثلاثون دينارا ، وربما انحط عن

(*) ص ١٠٥ جـ ١ ، ط بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٦



"كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

كتاب التحرير

عشرين دينارا . ويسمى كلاهما خمسا . ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر ، ولذلك ضرائب مقررة .

وقال القاضى الفاضل : والحاصل من خمس الاسكندرية فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ثمانية وعشرون ألف دينار وستمائة وثلاثة عشر دينارا .

والمتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع تدعو اليها الحاجة ويقتضيه طلب الفائدة ... قال جامع سيرة الوزير اليازورى : وقصر النيل بمصر فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، ولم يكن فى مخازن الغلات شىء ، فاشتدت المسغبة بمصر . وكان لخلو المخازن سبب أوجب ذلك ، وهو أن الوزير الناصر للدين لما أضيف اليه القضاء فى أيام أبى البركات الوزير كان يبتاع للسلطان فى كل سنة غلة بمائة ألف درهم ، وتجعل متجرا .

فمثل القاضى بحضرة الخليفة المستعين بالله ، وعرفه أن المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين ، وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها ، فتتعفن فى المخازن وتتلف ، وأنه يقيم متجرا لا كلفة فيه على الناس ، ويفيد أضعاف فائدة الغلة ، ولا يخشى عليه من تغيره فى المخازن ولا انحطاط سعره ، وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك .

فأمضى السلطان له ما رآه . واستمر ذلك ، ودام الرخاء على الناس ، فوسعوا فيه مدة سنين ثم عمل الملوك بعد ذلك ديوانا للمتجر ، وآخر من عمله الظاهر برقوق .

وأما الشب فان معادنه بالصعيد ، وكانت عادة الديوان الاتفاق فى تحصيل القنطار منه بالليثى (يبلغ ثلاثين درهما) ، وكانت العربان تحضره من معادنه الى ساحل أخميم وسيوط والبهنسا ليحمل الى الاسكندرية أيام النيل فى الخليج ، ويشترى بالقنطار الليثى ، ويباع بالقنطار الجروى : فيباع منه على تجار الروم قدر اثنى عشر ألف قنطار بالجروى ، بسعر أربعة دنانير كل قنطار الى ستة دنانير ، ويباع منه بمصر على اللبوديين والصباغين نحو الثمانين قنطارا بالجروى ، سعر ستة دنانير ونصف القنطار . ولا يقدر أحد على ابتياعه من العربان ولا غيرهم ، فان عثر على أحد أنه اشترى منه شيئا أو باعه سوى الديوان ، نكل به ، واستهلك ما وجد معه منه . وقد بطل هذا .

وأما النطرون فيوجد فى البر الغربى من أرض مصر بناحية الطرانة ، وهو أحمر وأخضر ، ويوجد منه بالفاقوسية شىء دون ما يوجد فى الطرانة . وهو أيضا مما حظر عليه ابن مدبر من الأشياء التى كانت مباحة ، وجعله فى ديوان السلطان ، وكان من بعده على ذلك الى اليوم . وقد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه فى كل سنة عشرة آلاف قنطار ، ويعطى الضمان منها فى كل سنة قدر ثلاثين قنطارا يتسلمونها من الطرانة فتباع فى مصر بالقنطار المصرى ، وفى بحر الشرق والصعيد بالجروى ، وفى دمياط بالليثى .

قال القاضى الفاضل : وباب النطرون كان مضمونا الى آخر سنة * خمس وثمانين

(*) ص١٠٩ جـ١ ، ط. بولاق .

وخمسمائة يبلغ خمسة عشر ألفا وخمسمائة دينار ، وحصل منه فى سنة ست وثمانين مبلغ سبعة آلاف وثمانمائة دينار ، وأدركنا النطرون اقطاعا لعدة أجناد .

فلما تولى الأمير محمود بن على الأستادارية وصار مدبر الدولة فى أيام الظاهر برقوق ، حاز النطرون ، وجعل له مكانا لا يباع فى غيره ، وهو الى الآن على ذلك .

وأما الحبس الجيوشى فكان فى البرين الشرقى والغربى : ففى الشرقى بهتين والأميرية والمنية ، وكانت تسجل هذه النواحى بعين ، وفى الغربى سفط ونهيا ووسيم . وهذه النواحى حبسها أمير الجيوش بدر الجمالى على عقبه ، هى والبساتين ظاهر باب الفتوح . فلما مات وطال العهد ، استأجرها الوزراء بأجرة يسيرة طلبا للفائدة ، ثم أدخلت فى الديوان .

قال ابن المأمون فى تاريخه : وجميع البساتين المختصة بالورثة الجيوشية ، مع البلاد التى لهم ، لم تزل فى مدة أيام الوزير المأمون البطائحى بأيديهم ، لم تخرج عنهم بضمان ولا بغيره .

فلما توفى الخليفة الآمر بأحكام الله ، وجلس أبو على بن الأفضل بن أمير الجيوش فى الوزارة ، أعاد الجميع الى الملاك لكون نصيبه فى ذلك الأوفر .

فلما قتل واستبد الخليفة الحافظ لدين الله ، أمر بالقبض على جميع الأملاك ، وحل الأحباس المختصة بأمير الجيوش . فلم يزل يانس به لانه غلام الأفضل والوزير فى ذلك الوقت ، وعز الملك غلام الأوحد بن أمير الجيوش ، يتلطفان ويراجعان الخليفة ، مع الكتب التى أظهرها الورثة وعليها خطوط الخلفاء ، الى أن أبقاها عليهم ولم يخرجها عنهم .

ثم ارتفعت الحوطة عنها فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة للديوان الحافظى .

ولما خدم الخطير المرتضى فى سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ، فى وزارة رضوان بن ولخشى ، أعاد البساتين خاصة ، دون البلاد ، على الورثة بحكم ما آل أمرها اليه من الاختلال ونقص الارتفاع .

ولما انقرض عقب أمير الجيوش ، ولم يبق منه سوى امرأة كبيرة ، أفتى فقهاء ذلك العصر ببطلان الحبس . فقبضت النواحى ، وصارت من جملة الأموال السلطانية : فمنها ما هو اليوم فى الديوان السلطانى ، ومنها ما صار وقفا ورزقا أحباسية ، وغير ذلك .

وأما دار الضرب ، فكان بالقاهرة دار الضرب ، وبالاسكندرية دار الضرب ، وبقوص دار الضرب . ولا يتولى عيار دار الضرب الا قاضى القضاة أو من يستخلفه ، ثم رذلت فى زمننا حتى صار يليها مسالمة فسقة اليهود المصرين على الفسق مع ادعائهم الاسلام .

وكان يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عياره ، الى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير الناصرية فجاءت غير خالصة . وكانت بمصر المعاملة بالورق ، فأبطلها الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب فى سنة بضع

وعشرين ، وضرب الدرهم المدور الذى يقال له الكاملى ، وجعل فيه من النحاس قدر الثلث ، ومن الفضة الثلثين . ولم يزل يضرب بالقاهرة الى أن أكثر الأمير محمود الأستادار من ضرب الفلوس بالقاهرة والاسكندرية ، فبطلت الدراهم من مصر ، وصارت معاملة أهلها الى اليوم بالفلوس ، وبها يقوم الذهب وسائر المبيعات . وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى عند ذكر أسباب خراب مصر .

وكانت دار الضرب يحصل منها للسلطان مال كثير ، فقل فى زماننا لقلة الأموال . ودار الضرب اليوم جارية فى ديوان الخاص .

وأما دار العيار ، فكانت مكانا يحتاط فيه للرعية ، وتصلح موازينهم ومكاييلهم به ، ويحصل منها للسلطان مال . وجعلها السلطان صلاح الدين من جملة أوقاف سور القاهرة ، وقد ذكرت فى خطط القاهرة من هذا الكتاب .

وأما الأحكار ، فانها أجر مقررة على ساحات بمصر والقاهرة ، فمنها ما صار دورا للسكنى ، ومنها ما أنشىء بساتين . وكانت تلك الأجر من جملة الأموال السلطانية . وقد بطل ذلك من ديوان السلطان ، وصارت أحكار مصر والقاهرة وما بينهما أوقافا على جهات متعددة .

وأما العروس ، فكانت فى الغربية فقط ، عدة أراض يؤخذ منها شبه الحكر عن كل فدان مقرر معلوم ، وقد بطل ذلك من الديوان .

وأما مقرر الجسور ، فكان على كل ناحية تقرير بعدة قطع معلومة يجبى منها عن كل قطعة عشرة دنانير ، لتصرف فى عمل الجسور ، فيفضل منها مال كثير يحمل الى بيت المال . وقد بطل هذا أيضا .

وجدد الناصر فرج على الجسور حوادث قد ذكرت فى أسباب الخراب .

وأما موظف الأتبان ، فكان جميع تبن أرض مصر على ثلاثة أقسام : قسم للديوان ، وقسم للمقطع ، وقسم للفلاح . فيجبى التبن على هذا الحكم من سائر الأقاليم ، ويؤخذ فى التبن عن كل مائة حمل أربعة دنانير وسدس دينار ، فيحصل من ذلك مال كثير . وقد بطل هذا أيضا من الديوان .

وأما الخراج ، فانه كان فى البهنساوية وسفط رشين والأشمونين والأسيوطية والاخميمية والقوصية أشجار لا تحصى من سنط ، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول ، فلا يقطع منها الا ما تدعو الحاجة اليه ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار .

وكان يستخرج من هذه النواحى مال يقال له رسم * الخراج ، ويحتج فى جبايته بأنه نظير ما تقطعه أهل النواحى ، وتنتفع به من أخشاب السنط فى عمائرها ، ومقرر آخر كان يجبى منهم يعرف بمقرر السنط ، فيصرف من هذا المقرر أجرة قطع الخشب وحزه بضريبة عن كل مائة حمل دينار ، وعلى المستخدمين فى ذلك ألا يقطعوا من السنط

(*) ص١١٠ جـ١ ، ط. بولاق .

ما يصلح لعمل مراكب الأسطول ، لكنهم انما يقطعون الأطراف التى ينتفع بهـا فى الوقود فقط .

ويقال لهذا الذى يقطع « حطب النار » ، فيباع على التجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانيـر ، ويكتب على أيديهم زنة ما يبـع عليهـم ، فاذا وردت المـراكب بالحطب الى ساحل مصر اعتبرت عليهم ، وقوبل ما فيها بما عين فى الرسالة الواردة ، واستخرج الثمن على ما فى الرسالة .

وكانت العادة أنه لا يباع مما فى البهنسا الا ما فضل من احتياج المصالح السلطانية . وقد بطل هذا جميعه ، واستولت الأيدى على تلك الأشجار فلم يبق منها شىء ألبتة ، وبقى هذا من الديوان .

وأما القرظ ، فانه ثمر شجر السنط ، وكان لا يتصرف فيه الا الديوان ، ومتى وجد منه مع أحد شىء اشتراه من غير الديوان نكل به ، واستهلك ما وجد معه منه . فاذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع ، ويؤخذ من ثمنها الربع عند ما تصل الى ساحل مصر بعدم ما تقـوم أو ينادى عليها ، وكان فيها حيف كبير . وقد بطل ذلك .

وأما ما يتأدى من أهل الذمة ، فانه كان يؤخذ منهم عما يرد ويصدر معهم من البضائع ، فى مصر والاسكندرية وأخميم خاصة دون بقية البلاد ، ضرائب بتقرير فى الديوان . وقد بطل ذلك أيضا .

وأما مقرر الجاموس ومقرر بقر الخيس ومقرر الأغنام ، فانه كان للسلطان من هـذه الأصناف شىء كثير جدا ، فيؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب فى نظير ما يتحصل منه فى كل سنة من خمسة دنانير الى ثلاثة دنانير ، ومن اللاحق بحق النصف من الراتب ، وأقل ما تنتج كل مائة خمسون الى غير ذلك من ضرائب مقررة على الجاموس وعلى أبقار الخيس وعلى الغنم البيض والغنم الشعارى وعلى النحل . وقد بطل ذلك جميعه لقلة مال السلطان ، واعراضه عن العمارة وأسبابها ، وتعاطى أسباب الخراب .

وأما المواريث ، فانها فى الدولة الفاطمية لم تكن كما هى اليوم ، من أجل أن مذهبهم توريث ذوى الأرحام ، وأن البنت اذا انفردت استحقت المال بأجمعه . فلما انقضت أيامهم ، واستولت الأيوبية ، ثم الدولة التركية ، صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية ، وهى التى يستحقها بيت المال عند عدم الوارث ، فتعدل فيها الوزارة مرة ، وتظلم أخرى .

وأما المكوس ، فقد تقدم حدوثها ، وما كان من الملوك فيها ، والذى بقى منها الى الآن بديار مصر يلى أمره الوزير . وفى الحقيقة انما هو نفع للأقباط يتخولون فيه بغير حق . وقد تضاعفت المكوس فى زمننا عما كنا نعهده منذ عهد تحدث الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى الأموال السلطانية ، كما ذكر فى أسباب الخراب .

وأما البراطيل ، وهى الأموال التى تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها ، فأول من عمل ذلك بمصر الصالح بن رزيك فى

ولاة النواحى فقط ، ثم بطل . وعمل فى أيام العزيز بن صلاح الدين أحيانا ، وعمله الأمير شيخون فى الولاة فقط ، ثم أفحش فيه الظاهر برقوق ، كما يأتى فى أسباب الخراب .

وأما الحمايات والمستأجرات ، فشىء حدث فى أيام الناصر فرج ، وصار لذلك ديوان ومباشرون ، وعمل مثل ذلك الأمراء . وهو من أعظم أسباب الخراب كما يذكر فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ذكر الاهرام

اعلم أن الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جدا ، منها بناحية بوصير شىء كثير ، بعضها كبار ، وبعضها صغار ، وبعضها طين ولبن ، وأكثرها حجر ، وبعضها مدرج ، وأكثرها مخروط أملس .

وقد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر عدة كثيرة كلها صغار ، هدمت فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش ، وبنى بها قلعة الجبل ، والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التى بالجيزة .

وأعظم الأهرام : الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر ، وقد اختلف الناس فى وقت بنائها ، واسم بانيها ، والسبب فى بنائها ، وقالوا فى ذلك أقوالا متباينة أكثرها غير صحيح . وسأقص عليك من نبأ ذلك ما يشفى ويكفى ان شاء الله تعالى .

قال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب فى « أخبار مصر وعجائبها » فى أخبار سوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن بدرسان بن هوصال ، أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون فى مدينة أمسوس الآتى ذكرها عند ذكر مدائن مصر من هذا الكتاب : وهو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر ، المنسوبين الى شداد بن عاد ... والقبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم .

وسبب بناء الهرمين أنه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة قد رأى سوريد فى منامه * كأن الأرض انقلبت بأهلها ، وكأن الناس قد هربوا على وجوههم ، وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة ... فغمه ذلك ، ولم يذكره لأحد ، وعلم أنه سيحدث فى العالم أمر عظيم .

ثم رأى بعد ذلك بأيام كأن الكواكب الثابتة نزلت الى الأرض فى صور طيور بيض ، وكأنها تختطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين ، وكأن الجبلين قد انطبقا عليهم ، وكأن الكواكب المنيرة مظلمة مكسوفة .

فانتبه مرعوبا مذعورا ، ودخل الى هيكل الشمس ، وتضرع ومرغ خديه على التراب وبكى .

فلما أصبح ، جمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر — وكانوا مائة وثلاثين كاهنا —

(*) ص١١١ ج١ ، ط. بولاق .

فمثلا بهم ، وحدثهم ما رآه أولا وآخرا ، فأولوه بأمر عظيم يحدث فى العالم .

فقال عظيم الكهان ، ويقال له أقليمون : ان أحلام الملوك لا تجرى على محال لعظم أقدارهم ، وأنا أخبر الملك برؤيا رأيتها منذ سنة ، ولم أذكرها لأحد من الناس ...

رأيت كأنى قاعد مع الملك على وسط المنار الذى بأمسوس ، وكأن الفلك قد انحط من موضعه حتى قارب رؤوسنا ، وكان علينا كالقبة المحيطة بنا ، وكأن الملك قد رفع يديه نحو السماء ، وكواكبها قد خالطتها فى صور شتى مختلفة الأشكال ، وكأن الناس قد جفلوا الى قصر الملك وهم يستغيثون به ، وكأن الملك قد رفع يديه حتى بلغتا رأسه وأمرنى أن أفعل كما فعل ... ونحن على وجل شديد ، اذ رأينا منها موضعا قد انفتح وخرج منه نور مضىء ، وطلعت علينا منه الشمس ، وكأنا استغثنا بالشمس فخاطبتنا أن الفلك سيعود الى موضعه ، فانتبهت مرعوبا .

ثم نمت فرأيت كأن مدينة أمسوس قد انقلبت بأهلها ، والأصنام تهوى على رؤوسها ، وكأن أناسا نزلوا من السماء بأيديهم مقامع من حديد يضربون الناس بها ، فقلت لهم : ولم تفعلون بالناس كذا ؟

قالوا : لأنهم كفروا بالههم .

فقلت : فما بقى لهم من خلاص ؟

قالوا : نعم ، من أراد الخلاص فليلحق بصاحب السفينة .

فانتبهت مرعوبا .

فقال الملك : خذوا الارتفاع للكواكب ، وانظروا هل من حادث ؟

فبلغوا غايتهم فى استقصاء ذلك ، وأخبروا بأمر الطوفان وبعده بالنار التى تخرج من برج الأسد تحرق العالم .

فقال الملك : انظروا ، هل تلحق هذه الآفة بلادنا ؟

فقالوا : نعم ، تأتى فى الطوفان على أكثره ، ويلحقه خراب يقيم عدة سنين .

قال : فانظروا هل يعود عامرا كما كان ، أو يبقى مغمورا بالماء دائما .

قالوا : بل تعود البلاد كما كانت وتعمر .

قال : ثم ماذا ؟

قالوا : يقصدها ملك يقتل أهلها ويغنم مالها .

قال : ثم ماذا ؟

قالوا : يقصدها قوم مشوهون من ناحية جبل النيل ، ويملكون أكثرها .

قال : ثم ماذا ؟

قالوا : ينقطع نيلها ، وتخلو من أهلها .

فأمر عند ذلك بعمل الأهرام ، وأن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل الى مكان بعينه ، ثم يفيض الى مواضع من أرض الغرب وأرض الصعيد ، وملأها طلسمات وعجائب وأموالا وأصناما وأجساد ملوكهم ، وأمر الكهان فزبروا عليها جميع ما قالته الحكماء ، وزبر فيها وفى سقوفها وحيطانها وأسطواناتها جميع العلوم الغامضة التى يدعيها أهل مصر ،

وصور فيها صور الكواكب كلها ، وزبر عليها أسماء العقاقير ومنافعها ومضارها ، وعلم الطلسمات وعلم الحساب والهندسة وجميع علومهم مفسرا لمن يعرف كتابتهم ولغتهم .

ولما شرع فى بنائها أمر بقطع الأسطوانات العظيمة ، ونشر البلاط الهائل ، واستخراج الرصاص من أرض المغرب ، واحضار الصخور من ناحية أسوان . فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة الشرقى والغربى والملون ، وكانت لهم صحائف وعليها كتابة ، اذا قطع الحجر وتم احكامه ، وضعوا عليه تلك الصحائف وضربوه ، فيبعد بتلك الضربة قدر مائة سهم ، ثم يعاودون ذلك حتى يصل الحجر الى الأهرام . وكانوا يمدون البلاطة ويجعلون فى ثقب بوسطها قطبا من حديد قائما ، ثم يركبون عليها بلاطة أخرى مثقوبة الوسط ويدخلون القطب فيها ، ثم يذاب الرصاص ويصب فى القطب حول البلاطة بهندام واتقان ... الى أن كملت .

وجعل لها أبوابا تحت الأرض بأربعين ذراعا : فأما باب الهرم الشرقى ، فانه من الناحية الشرقية على مقدار مائة ذراع من وسط حائط الهرم . وأما باب الهرم الغربى ، فانه من الناحية الغربية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط . وأما باب الهرم الملون ، فانه من الناحية الجنوبية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط . فاذا حفر بعد هذا القياس ، وصل الى باب الأزج المبنى ، ويدخل الى باب الهرم .

وجعل ارتفاع كل واحد من الأهرام فى الهواء مائة ذراع بالذراع الملكى ، وهو بذراعهم خمسمائة ذراع بذراعنا الآن ، وجعل طول كل واحد من جميع جهاته مائة ذراع بذراعهم ، ثم هندسها من كل جانب حتى تحددت أعاليها من آخر طولها على ثمانية أذرع بذراعنا .

وكان ابتداء بنائها فى طالع سعيد اجتمعوا عليه وتخيروه . فلما فرغت ، كساها ديباجا ملونا من فوقها الى أسفلها ، وعمل لها عيدا حضره أهل مملكته بأجمعها .

ثم عمل فى الهرم الغربى ثلاثين مخزنا من حجارة صوان ملون ، وملئت بالأموال الجمة والآلات والتماثيل المعمولة من * الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخر من السلاح الذى لا يصدأ ، والزجاج الذى ينطوى ولا ينكسر ، والطلسمات الغريبة ، وأصناف العقاقير المفردة والمؤلفة ، والسموم القاتلة .

وعمل فى الهرم الشرقى أصناف القباب الفلكية والكواكب ، وما عمله أجداده من التماثيل والدخن التى يتقرب بها الى الكواكب ومصاحفها ، وكون الكواكب الثابتة وما يحدث فى أدوارها وقتا وقتا ، وما عمل لها من التواريخ والحوادث التى مضت ، والأوقات التى ينتظر فيها ما يحدث ، وكل من يلى مصر الى آخر الزمان ، وجعل فيها المطاهر التى فيها المياه المدبرة ، وما أشبه ذلك .

(*) ص١١٢ جـ١ ، ط. بولاق .

وجعل فى الهرم الملون أجساد الكهنة فى توابيت من صوان أسود ، ومع كل كاهن مصحف فيه عجائب صناعاته وأعماله وسيرته ، وما عمل فى وقته ، وما كان وما يكون من أول الزمان الى آخره ، وجعل فى الحيطان من كل جانب أصناما تعمل بأيديها جميع الصنائع على مراتبها وأقدارها ، وصفة كل صنعة وعلاجها وما يصلح لها . ولم يترك علما من العلوم حتى زبره ورسمه .

وجعل فيها أموال الكواكب التى أهديت الى الكواكب ، وأموال الكهنة ، وهو شىء عظيم لا يحصى .

وجعل لكل هرم منها خادما : فخادم الهرم الغربى صنم من حجارة صوان مجزع ، وهو واقف ومعه شبه حربة ، وعلى رأسه حية قد تطوق بها : مَنْ قَرب منه وثبت اليه وطوقت على عنقه وقتلته ، ثم تعود الى مكانها . وجعل خادم الهرم الشرقى صنما من جزع أسود مجزع بأسود وأبيض ، له عينان مفتوحتان براقتان ، وهو جالس على كرسى ومعه حربة : اذا نظر أحد اليه سمع من جهته صوتا يفزع منه فيخر على وجهه ، ولا يبرح حتى يموت . وجعل خادم الهرم الملون صنما من حجر البهت على قاعدة منه : من نظر اليه ، جذبه حتى يلتصق به فلا يفارقه حتى يموت .

فلما فرغ من ذلك ، حصن الأهرام بالأرواح الروحانية ، وذبح لها الذبائح لتمنع عن أنفسها من أرادها ، الا من عمل لها أعمال الوصول اليها .

وذكر القبط فى كتبهم أن عليها منقوشا تفسيره بالعربية : أنا سوريد الملك ، بنيت هذه الأهرام فى وقت كذا كذا ، وأتممت بناءها فى ست سنين . فمن أتى بعدى ، وزعم أنه ملك مثلى ، فليهدمها فى ستمائة سنة ، وقد علم أن الهدم أيسر من البنيان . وانى كسوتها عند فراغها بالديباج ، فليكسها بالحصر .

فنظروا فوجدوا أنه لا يقوم بهدمها شىء من الأزمان الطوال .

وحكى القبط فى كتبهم أن روحانية الهرم الشمالى غلام أمرد ، أصفر اللون ، عريان ، فى فمه أنياب كبار . وروحانية الهرم الجنوبى امرأة عريانة ، بادية الفرج ، حسناء ، فى فمها أنياب كبار ، تستهوى الانسان اذا رأته ، وتضحك له حتى يدنو منها فتسلبه عقله . وروحانية الهرم الملون شيخ فى يده مجمرة من مجامر الكنائس يبخر بها . وقد رأى غير واحد من الناس هذه الروحانيات مرارا وهى تطوف حول الأهرام وقت القائلة وعند غروب الشمس .

قال : ولما مات سوريد ، دفن فى الهرم ومعه أمواله وكنوزه . وقالت القبط : ان سوريد هو الذى بنى البرابى ، وأودع فيها كنوزا ، وزبر عليها علوما ، ووكل بها روحانيات تحفظها ممن يقصدها .

قال : وأما الأهرام الدهشورية ، فيقال ان شدات بن عديم هو الذى بناها من الحجارة التى كانت قد قطعت فى زمن أبيه . وشدات هذا يزعم بعض الناس أنه شداد بن عاد . وقال من أنكر أن يكون العادية دخلت مصر : انما غلطوا باسم شدات بن عديم ، فقالوا شداد ابن عاد ، لكثرة ما يجرى على ألسنتهم شداد

ابن عاد ، وقله ما يجرى على ألسنتهم شدات ابن عديم ، والا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر ، ولا قوى على أهلها ، غير بخت نصر والله أعلم .

وذكر أبو الحسن المسعودى فى كتابه « أخبار الزمان ، ومن أباده الحدثان » أن الخليفة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، لما قدم مصر وأتى على الأهرام ، أحب أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها ، فقيل له انك لا تقدر على ذلك ، فقال : لابد من فتح شىء منه .

ففتحت له الثلمة المفتوحة الآن بنار توقد ، وخل يرش ، ومعاول وحدادين يعملون فيها ، حتى أنفق عليها أموالا عظيمة ، فوجدوا عرض الحائط قريبا من عشرين ذراعا . فلما انتهوا الى آخر الحائط ، وجدوا خلف الثقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب ، وزن كل دينار أوقية ، وكان عددها ألف دينار .

فجعل المأمون يتعجب من ذلك الذهب ومن جودته ، ثم أمر بجملة ما أنفق على الثلمة فوجدوا الذهب الذى أصابوه لا يزيد على ما أنفقوه ولا ينقص ، فعجب من معرفتهم بمقدار ما ينفق عليه ، ومن تركهم ما يوازيه فى الموضع ، عجبا عظيما .

وقيل ان المطهرة التى وجد فيها الذهب كانت من زبرجد ، فأمر المأمون بحملها الى خزائنه

وكان آخر ما عمل من عجائب مصر ، وأقام الناس سنين تقصدونه ، وينزلون فى الزلاقة التى فيه : فمنهم من يسلم ، ومنهم من يهلك .

فاتفق عشرون من الأحداث على دخوله ، وأعدوا لذلك ما يحتاجون من طعام وشراب وحبال وشمع ونحوه ، ونزلوا فى الزلاقة ، فرأوا فيها من الخفاش ما يكون كالعقبان يضرب وجوههم ، ثم انهم أدلوا أحدهم بالحبال فانطبق عليه المكان ، وحاولوا جذبه حتى أعياهم ، فسمعوا صوتا * أرعبهم فغشى عليهم ، ثم قاموا وخرجوا من الهرم .

فبينما هم جلوس يتعجبون مما وقع لهم اذ أخرجت الأرض صاحبهم حيا من بين أيديهم يتكلم بكلام لم يعرفوه ، ثم سقط ميتا ، فحملوه ومضوا به . فأخذهم الخفراء وأتوا بهم الى الوالى فحدثوه خبرهم ، ثم سألوا عن الكلام الذى قال صاحبهم قبل موته ، فقيل لهم : معناه ، هذا جزاء من طلب ما ليس له . وكان الذى فسر لهم معناه بعض أهل الصعيد .

وقال على بن رضوان الطبيب : فكرت فى بناء الأهرام ، فأوجب علم الهندسة العملية ، ورفع الثقيل الى فوق ، أن يكون القوم هندسوا سطحا مربعا ، ونحتوا الحجارة ذكرا وأنثى ، ورصوها بالجبس البحرى الى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل . وكانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازى للمربع الأسفل مربعا أصغر من المربع السفلانى ، ثم عملوا فى السطح المربع الفوقانى مربعا أصغر بمقدار ما بقى فى الحاشية ما يمكن رفع الثقيل اليه . وكلما رفعوا حجرا مهندما رصوه اليه ذكرا وأنثى ، الى أن ارتفع مقدار مثل المقدار الأول . ولم

(*) ص١١٣ ج١ ، ط. بولاق .

يزالوا يفعلون ذلك الى أن بلغوا غاية لا يمكنهم بعدها أن يفعلوا ذلك ، فقطعوا الارتفاع ونحتوا الجوانب البارزة التى فرضوها لرفع الثقيل ، ونزلوا فى النحت من فوق الى أسفل ، وصار الجميع هرما واحدا .

وقياس الهرم الأول بالذراع التى تقاس بها اليوم الأبنية بمصر ، كل حاشية منه أربعمائة ذراع ، يكون بالذراع السوداء — التى طول كل ذراع منها أربعة وعشرين أصبعا — خمسمائة ذراع . وذلك أن قاعدته مربع متساوى الأضلاع والزوايا : ضلعان منهما على خط نصف النهار ، وضلعان على خط المشرق والمغرب . وكل ضلع بالذراع السوداء خمسمائة ذراع . والخط المنحدر على استقامة من رأس الهرم الى نصف ضلع المربع أربعمائة وسبعون ذراعا ، يكون اذا تم أيضا خمسمائة ذراع .

وأحيط بالهرم أربعة مثلثات ومربع ، كل مثلث منها متساوى الساقين ، كل ساق منه اذا تم خمسمائة وستون ذراعا . والمثلثات الأربعة تجتمع رؤوسها عند نقطة واحدة وهى رأس الهرم اذا تم ، فيلزم أن يكون عموده أربعمائة وثلاثين ذراعا .

وعلى هذا العمود مراكز أثقاله ، ويكون تكسير كل مثلث من مثلثاته مائة وخمسة وعشرين ألف ذراع ، اذا اجتمع تكاسيرها كان مبلغ تكسير سطح هذا الهرم خمسمائة ألف ذراع بالسوداء .

وما أحسب على وجه الأرض بناء أعظم منه ، ولا أحسن هندسة ، ولا أطول . والله أعلم .

وقد فتح المأمون نقبا من هذا الهرم فوجد فيه زلاقة تصعد الى بيت مربع مكعب ، ووجد فى سطحه قبر رخام ، وهو باق فيه الى اليوم ، ولم يقدر أحد يخطه .

وبذلك أخبر جالينوس أنها قبور ، فقال فى آخر الخامسة من تدبير الصحة بهذا اللفظ : « وهم يسمون من كان فى هذا السن الهرم ، وهو اسم مشتق من الأهرام التى هم اليها صائرون عن قريب » .

وقال الحوقلى فى صفة مصر : وبها الهرمان اللذان ليس على وجه الأرض لهما نظير فى ملك مسلم ولا كافر ، ولا عمل ولا يعمل لهما .

وقرأ بعض بنى العباس على أحدهما : انى قد بنيتهما ، فمن كان يدعى قوة فى ملكه فليهدمهما ، فالهدم أيسر من البنيان . فهمّ بذلك ، وأظنه المأمون أو المعتصم ، فاذا خراج مصر لا يقوم به يومئذ . وكان خراجها على عهده ، بالانصاف فى الجباية وتوخى الرفق بالرعية والمعدلة ، اذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا وعشر أصابع : أربعة آلاف ألف ومائتى ألف وسبعة وخمسين ألف دينار ، والمقبوض على الفدان دينارين . فأعرض عن ذلك ولم يعد فيه شيئا .

وفى حد الفسطاط فى غربى النيل أبنية عظام يكثر عددها ، مفترشة فى سائر الصعيد ، تدعى الأهرام ، وليست كالهرمين اللذين تجاه

الفسطاط ، وعلى فرسخين منها ، ارتفاع كل واحد منهما أربعمائة ذراع ، وعرضه كارتفاعه مبنى بحجارة الكذان التى سمك الحجر وطوله وعرضه من العشر أذرع الى الثمان ، بحسب ما دعت الحاجة الى وضعه فى زيادته ونقصه ، وأوجبته الهندسة عندهم ، لأنهما كلما ارتفعا فى البناء ضاقا حتى يصير أعلاهما من كل واحد منهما مثل مبرك جمل ، وقد ملئت حيطانهما بالكتابة اليونانية .

وقد ذكر قوم أنهما قبران ، وليس كذلك ، وانما حمل صاحبهما على عملهما أنه قضى بالطوفان أنه يهلك جميع ما على وجه الأرض الا ما حصن فى مثلهما ، فخزن ذخائره وأمواله فيهما . وأتى الطوفان ثم نضب ، فصار ما كان فيهما الى بيصر بن مصرايم بن حام بن نوح . وقد خزن فيهما بعض الملوك المتأخرين ، وجعلهما هراءه . والله أعلم .

وقال أبو يعقوب محمد بن اسحاق النديم الوراق فى كتاب « الفهرست » وقد ذكر هرمس البابلى : قد اختلف فى أمره :

فقيل انه كان أحد السدنة السبعة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة ، وانه كان لترتيب عطارد ، وباسمه سمى ، فان عطارد باللغة الكلدانية هرمس .

وقيل انه انتقل الى أرض مصر بأسباب ، وانه ملكها ، وكان له أولاد منهم طا وصا وأشمن وأتريب وقفط ، وانه كان حكيم زمانه ، وانه لما توفى دفن فى البناء الذى يعرف بمدينة مصر بأبى هرميس ، ويعرفه العامة بالهرمين ، فان أحدهما قبره ، والآخر قبر زوجته ، وقيل قبر ابنه الذى خلفه بعد موته * .

وهذه البنية (يعنى الأهرام) طولها بالذراع الهاشمى أربعمائة ذراع وثمانون ذراعا ، على مساحة أربعمائة وثمانين ذراعا ، ثم ينخرط البناء ، فاذا حصل الانسان فى رأسه ، كان مقدار سطحه أربعين ذراعا ... هذا بالهندسة .

وفى وسط هذا السطح قبة لطيفة فى وسطها شبيهة بالمقبرة ، وعند رأس ذلك القبر صخرتان فى نهاية النظافة والحسن وكثرة التلون ، وعلى كل واحدة منهما شخصان من حجارة صورة ذكر وأنثى ، وقد تلاقيا بوجهيهما ، وبيد الذكر لوح من حجارة فيه كتابة ، وبيد الأنثى مرآة ، والرف ذهب نقشه نقاش .

وبين الصخرتين برنية من حجارة على رأسها غطاء ذهب ، فلما قلع فاذا فيها شبيه بالقار بغير رائحة قد يبس . وفيها حقة ذهب ، فنزع رأسها ، فاذا فيها دم عبيط ، ساعة قرعه الهواء جمد كما يجمد الدم وجف .

وعلى القبور أغطية حجارة ، فلما قلعت اذا رجل نائم على قفاه على نهاية الصحة والجفاف ، بين الخلقة ، ظاهر الشعور ، والى جنبه امرأة على هيئته .

قال : وذلك السطح منقر نحو قامة ، كما يدور مثل المسمار ، ذات أزاج من حجارة ،

(*) ص١١ ج١ ، ط. بولاق .

فيها صور وتماثيل مطروحة وقائمة ، وغير ذلك من الآلة التى لا تعرف أشكالها .

وقال العلامة موفق الدين عبد اللطيف بن أبى العز يوسف بن أبى البركات محمد بن على بن سعد البغدادى المعروف بابن المطحن فى سيرته : وجاء رجل جاهل عجمى ، فخيل الى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أن الهرم الصغير تحته مطلب ، فأخرج اليه الحجارين وأكثر العسكر ، وأخذوا فى هدمه ، وأقاموا على ذلك شهورا ، ثم تركوه عن عجز وخسران مبين فى المال والعقل .

ومن يرى حجارة الهرم يقول انه قد استوصل الهرم ، ومن يرى الهرم لا يجد به الا تشعيثا يسيرا . وقد أشرفت على الحجارين فقلت لمقدمهم : هل تقدرون على اعادته ؟ فقال : لو بذل لنا السلطان عن كل حجر ألف دينار لم يمكنا ذلك .

وقال أبو الحسن المسعودى فى « مروج الذهب » : وأما الأهرام ، فطولها عظيم وبنيانها عجيب ، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة والممالك الداثرة ، لا يدرى ما تلك الكتابة ولا المراد بها . وقد قال من عنى بتقدير ذرعها : ان مقدار ارتفاع الهرم الكبير ، ذهابا فى الجو ، نحو أربعمائة ذراع أو أكثر ، وكلما صعد دق ذلك ، والعرض نحو ما وصفنا ، وعليها من الرسوم علوم وخواص وسحر وأسرار الطبيعة ، وان من تلك الكتابة مكتوبا : انا بنيناها ، فمن يدعى موازاتنا فى الملك وبلوغ القدرة وانتهاء أمر السلطان ، فليهدمها وليزل رسمها ، فان الهدم أيسر من البناء ، والتفريق أسهل من التأليف .

وقد ذكر أن بعض ملوك الاسلام شرع يهدم بعضها ، فاذا خراج مصر لا يفى بقلعها ، وهى من الحجر والرخام ، وأنها قبور الملوك .

وكان الملك منهم اذا مات وضع فى حوض من حجارة — ويسمى بمصر والشام الجرون — وأطبق عليه ، ثم بنى من الهرم على مقدار ما يريدون من ارتفاع الأساس ، ثم يحمل الحوض ويوضع وسط الهرم ، ثم يقنطر عليه البنيان ، ثم يرفعون البناء على المقدار الذى يرونه ، ويجعل باب الهرم تحت الهرم ، ثم يحفر له طريق فى الأرض ، ويعقد أزج طوله تحت الأرض مائة ذراع أو أكثر . ولكل هرم من هذه الأهرام باب مدخله على ما وصفت .

قال : وكان القوم يبنون الهرم من هذه الأهرام مدرجا ذا مراق كالدرج ، فاذا فرغوا نحتوه من فوق الى أسفل ، فهذه كانت حيلتهم . وكانوا مع ذلك لهم قوة وصبر وطاعة .

وقال فى كتاب « البنية والاشراف » : والهرمان اللذان فى الجانب الغربى من فسطاط مصر هما من عجائب بنيان العالم ، كل واحد منهما أربعمائة ذراع فى سمك مثل ذلك ، مبنيان بالحجر العظيم على الرياح الأربع ، كل ركن من أركانهما يقابل ريحا منها ، فأعظمها فيهما تأثيرا ريح الجنوب ، وهى المريسى .

وأحد هذين الهرمين قبر أغاذيمون ، والآخر قبر هرمس ، وبينهما نحو ألف سنة ، وأغاذيمون المتقدم .

وكان سكان مصر ، وهم الأقباط ، يعتقدون نبوتهما قبل ظهور النصرانية فيهم ، على ما يوجبه رأى الصابئين فى النبوات ، لا على طريق الوحى ، بل هم عندهم نفوس طاهرة صفت وتهذبت من أدناس هذا العالم ، فاتحدت بهم مواد علوية ، فأخبروا عن الكائنات قبل كونها ، وعن سرائر العالم ، وغير ذلك .

وفى العرب من اليمانية من يرى أنهما قبر شداد بن عاد وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر فى قديم الدهر ، وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم .

وهى عند من ذكرنا من الصابئين قبور أجساد طاهرة .

وذكر أبو زيد البلخى أنه وجد مكتوبا على الأهرام بكتابتهم خط ، فعرب فاذا هو « بنى هذان الهرمان والنسر الواقع فى السرطان » . فحسبوا من ذلك الوقت الى الهجرة النبوية ، فاذا هو ست وثلاثون ألف سنة شمسية مرتين ، يكون اثنتين وسبعين ألف سنة شمسية .

وقال الهمدانى فى كتاب « الاكليل » : لم يوجد مما كان تحت الماء وقت الغرق من القرى قرية فيها بقية سوى نهاوند — وجدت كما هى اليوم لم تتغير — وأهرام الصعيد من أرض مصر .

وذكر أبو محمد عبد الله بن عبد الرحيم القيسى * فى كتاب «تحفة الألباب» أن الأهرام مربعة الجملة ، مثلثة الوجوه ، وعددها ثمانية عشر هرما ، فى مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة أهرام ، أكبرها دوره ألفا ذراع ، فى كل وجه خمسمائة ذراع ، وعلوه خمسمائة ذراع ، وكل حجر من حجارتهما ثلاثون ذراعا فى غلظ عشرة أذرع ، قد أحكم الصاقه ونحته

ومنها عند مدينة فرعون يوسف هرم أعظم وأكبر ، دوره ثلاثة آلاف ذراع ، وعلوه سبعمائة ، من حجارة كل حجر خمسون ذراعا .

وعند مدينة فرعون موسى أهرام أكبر وأعظم ، وهرم آخر يعرف بهرم مدون كأنه جبل ، وهو خمس طبقات .

وفتح المأمون الهرم الكبير الذى تجاه الفسطاط .

قال : وقد دخلت فى داخله ، فرأيت قبة مربعة الأسفل ، مدورة الأعلى ، كبيرة ، فى وسطها بئر عمقها عشرة أذرع ، وهى مربعة ، ينزل الانسان فيها فيجد فى كل وجه من تربيع البئر بابا يفضى الى دار كبيرة ، فيها موتى من بنى آدم ، عليهم أكفان كثيرة ، أكثر من مائة ثوب على كل واحد ، قد بليت بطول الزمان ، واسودت .

وأجسامهم مثلنا ليسوا طوالا ، ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعورهم شىء ، وليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض ، وأجسادهم قوية لا يقدر الانسان أن يزيل عضوا من أعضائهم ألبتة ، ولكنهم خفوا حتى صاروا كالغشا لطول الزمان ، وفى تلك البئر أربعة من الدور مملوءة بأجساد الموتى ، وفيها خفاش كثير ، وكانوا يدفنون أيضا جميع الحيوان فى الرمال .

(*) ص١١٥ جـ١ ، ط. بولاق .

ولقد وجدت ثيابا مفروقة كثيرا ، مقدار عرضها أكثر من ذراع ، وقد أحضرت تلك الثياب من الدخلة ، فازلت الثياب الى أن ظهرت خرق صحاح قوية بيض من كتان ، لشكل العصائب ، فيها أعلام من الحرير الأحمر ، وفي داخلها مقعد ميت لم يتغير من وجهه ولا من جسده شيء ، كأنه قد مات الآن .

وفي القبة التي في الهرم باب ينتهي الى علو الهرم ، وليس فيه درج ، عرضه نحو خمسة أشبار ، يقال انه صعد فيها في زمان المأمون فأفضوا الى قبة صغيرة فيها صورة آدمي من حجر أخضر كالدهنج ، فأخرجت الى المأمون فاذا هي مطبقة ، فلما فتحت وجد فيها جسد آدمي عليه درع من ذهب ، مزين بأنواع الجواهر ، وعلى صدره نصل سيف لا قيمة له ، وعند رأسه حجر ياقوت أحمر كبيضة الدجاجة ، يضيء كلهب النار ، فأخذه المأمون .

ولقد رأيت الصنم الذي أخرج منه ذلك الميت ملقى عند باب دار الملك بمصر في سنة احدى عشرة وخمسمائة .

وقال القاضي الجليل أبو عبد الله محمد ابن سلامة القضاعي : روى علي بن الحسن ابن خلف بن قديد ، عن يحيى بن عثمان بن صالح ، عن محمد بن علي بن صفر التميمي ، قال : حدثني رجل من عجم مصر ، من قرية من قراها تدعى قفط — وكان عالما بأمور مصر وأحوالها ، وطالبا لكتبها القديمة ومسانديها — قال : وجدنا في كتبنا القديمة قال : وأما الأهرام فان قوما احتفروا قبرا في دير أبي هرميس ، فوجدوا فيه ميتا في أكفانه ، وعلى صدره مرصص مقفول في خرق ، فاستخرجوه من الخرق فرأوا كتابا لا يعرفونه ، وكان الكتاب بالقبطية الأولى ، فطلبوا من يقرأه لهم فلم يقدروا عليه ، فقيل لهم ان بدير القلمون من أرض الفيوم راهبا يقرأه . فخرجوا اليه ، وكد حثوا اياه في القبطية ، فقرأه لهم .

وكان فيه : « كتب هذا الكتاب في أول سنة من سنة ملك فيلطياس الملك ، وانا استنسخناه من كتاب نسخ في أول سنة من ملك فيليبس الملك ، وان فيليبس استنسخه من صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا ، وكان من الكتاب الأول ترجمة له أخرجاه من القبط يقال لأحدهما ايلو والآخر بريا ...

« وان الملك فيليبس سألهما عن سبب معرفتهما بما جهله الناس من قراءته ، فذكرا انهما من ولد رجل من أهل مصر الأوائل ، لم ينج من الطوفان من أهل مصر أحد غيره ، وكان سبب نجاته انه آمن بنوح عليه السلام فآمن به ، ولم يأمن من أهل مصر غيره ، فحمله معه في السفينة ، فلما نضب ماء الطوفان الى مصر ولده فرابن ولد حام بن نوح ، وكان بها حتى هلك ، فورث ولده علم كتاب أهل مصر الأول ، فورثناه عنه كابرا عن كابر » .

وكان تاريخه الذي مضى الى ان استنسخه فيليبس ألفا وثلاثمائة واثنين وسبعين سنة ، وان الذي استنسخه في صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا وجده فيليبس ، وان تاريخه الى ان استنسخه ألف وسبعمائة سنة وخمس وثمانون سنة .

وكان الكتاب المنسوخ : « انا نظرنا فيما تدل عليه النجوم فرأينا ان آفة نازلة من السماء وخارجة من الأرض . فلما بان لنا الكون نظرنا ما هو ، فوجدناه ماء مفسدا للأرض وحيوانها ونباتها . فلما تم اليقين من ذلك عندنا قلنا للملكنا سوريد بن سهلوق : مر ببناء أفروشات وقبر لك وقبر لأهل بيتك ، فبنى لهم الهرم الشرقي ، وبنى لأخيه هوجيت الهرم الغربي ، وبنى لابن هوجيت الهرم الملون ، وبنيت أفروشات في أسفل مصر وأعلاها ...

« فكتبنا في حيطانها علم غامض أمر النجوم وعللها ، والصنعة والهندسة والطب ، وغير ذلك مما ينفع ويضر ، ملخصا مفسرا لمن عرف كلامنا وكتابتنا ...

« وان هذه الآفة نازلة بأقطار العالم ، وذلك عند نزول قلب الأسد في أول دقيقة من رأس السرطان ، ويكون الكوكب عند نزوله اياها في هذه المواضع من الفلك : الشمس والقمر في أول * دقيقة من رأس الحمل وقوروس في درجة وثمان وعشرين دقيقة ، وراوس في الحوت في تسع وعشرين درجة وثمان وعشرين دقيقة ، وآويس في الحوت في تسع وعشرين درجة وثلاث دقائق ، وأفرد وبطن في الحوت في ثمان وعشرين درجة ودقائق ، وهرمس في الحوت في سبع وعشرين درجة ودقائق ، والجوزهر في الميزان وأوج القمر في الأسد في خمس درجات ودقائق ...

(*) ص ١١٦ ج١ ، ط بولاق .

« ثم نظرنا هل يكون بعد هذه الآفة كون مضر بالعالم ، فأصبنا الكواكب تدل على أن آفة نازلة من السماء الى الأرض ، وأنها ضد الآفة الأولى ، وهي نار محرقة أقطار العالم ...

« ثم نظرنا متى يكون هذا الكون المضر » فرأيناه يكون عند حلول قلب الأسد في آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشرة من الأسد ، ويكون ابليس معه في دقيقة واحدة متصلة بقوروس من تثليث الرامي ، ويكون راوس مشترى في أول الأسد في آخر احتراقه ومعه آويس في دقيقة ، ويكون سليس في الدلو مقابلا لابليس الشمس ومعه الذنب في اثنتين وعشرين ، ويكون كسوف شديد له مكث يوازي القمر ، ويكون هرمس عطارد في بعده الأبعد أمامها مقبلين ، أما أفرد وبطن فللاستقامة ، وأما هرمس فللرجعة ...

« قال الملك فهل عندكم من خبر توقفونا عليه غير هاتين الآفتين ؟

« قالوا : اذا قطع قلب الأسد ثلثي سدس أدواره ، لم يبق من حيوان الأرض متحرك الا تلف . فاذا استتم أدواره تحللت عقد الفلك ، وسقط على الأرض .

« قال لهم : وأي يوم فيه انحلال الفلك ؟

« قالوا : اليوم الثاني من بدو حركة الفلك » ...

فهذا ما كان القرطاس .

فلما مات الملك سوريد بن سهلوق ، دفن في الهرم الشرقي ، ودفن هوجيت في الهرم الغربي ، ودفن كرورس في الهرم الذي أسفله من حجارة أسوان وأعلاه كدان .

ولهذه الأهرام أبواب فى أزج تحت الأرض ، طول كل أزج مائة وخمسون ذراعا ، فأما باب الهرم الشرقى فمن الناحية البحرية ، وأما باب أزج الهرم الموزر فمن الناحية القبلية .

وفى الأهرام من الذهب وحجارة الزمرذ ما لا يحتمله الوصف .

وان مترجم هذا الكتاب من القبطى الى العربى أجمل التاريخين الى أول يوم من توت وهو يوم الأحد طلوع شمسه سنة خمس وعشرين ومائتين من سنى العرب ، فبلغت أربعة آلاف وثلثمائة واحدى وعشرين سنة لسنى الشمس .

ثم نظر كم مضى للطوفان الى يومه هذا فوجده ألفا وسبعمائة واحدى وأربعين سنة وتسعة وخمسين يوما وثلاث عشرة ساعة وأربعة أخماس ساعة وتسعة وخمسين جزءا من أربعمائة جزء من ساعة ، فألقاها من الجملة فبقى معه ثلثمائة وتسع وتسعون سنة ومائتان وخمسة أيام وعشر ساعات وأحد وعشرون جزءا من أربعمائة جزء من ساعة .

فعلم أن هذا الكتاب المؤرخ كتب قبل الطوفان بهذه السنين والأيام والساعات والكسر من الساعة .

وأما الهرم الذى بدير أبى هرميس ، فانه قبر قرياس ، وكان فارس أهل مصر ، وكان يعد بألف فارس ، فاذا لقيهم لم يقوموا به وانهزموا . وانه مات فجزع الملك عليه جزعا بلغ منه ، واكتأبت لموته الرعية ، فدفنوه بدير هرميس ، وبنوا عليه الهرم مدرجا . وكان طينه الذى بنى به مع الحجارة من الفيوم ، وهذا معروف اذا نظر الى طينه لم يعرف له معدن الا بالفيوم ، وليس بمنف ووسيم له شبه من الطين .

وأما قبر الملك صاحب قرياس هذا ، فانه الهرم الكبير من الأهرام التى فى بحرى دير أبى هرميس . وعلى بابه لوح كدان ، مكتوب فيه باللازورد ، طول اللوح ذراعان فى ذراع ، وكله مملوء كتبا مثل كتب البرابى ... يصعد الى باب الهرم بدرج بعضها صحيح لم ينخرم . وفى هذا الهرم ذخائر صاحبه من الذهب وحجارة الزمرذ ، وانما سد بابه حجارة سقطت من أعاليه ، ومن وقف عليه رآه بيتا .

وقال ابن عفير عن أشياخه : ان جياد بن مياد بن شمر بن شداد بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ، ملك الاسكندرية ، وكانت تسمى ارم ذات العماد ، فطال ملكه وبلغ ثلثمائة سنة . وهو الذى سار وبنى الأهرام وزبر فيها : أنا جياد بن مياد بن شمر بن شداد ، الشاد بزراعة الواد ، المؤيد الأوتاد ، الجامع الصخر فى البلاد ، المجند الأجناد ، الناصب العماد ، الكند الكناد ، تخرجه أمة اسم نبيها حماد ، آية ذلك اذا غشى بلد البلاد ، سبعة ملوك أجناس السواد .

تاريخ هذا الزبر ألف سنة وأربعمائة سنة عداد .

وقال ابن عفير وابن عبد الحكم : وفى زمان شداد بن عاد بنيت الأهرام ، فيما ذكر بعض المحدثين . ولم نجد عند أحد من أهل

العلم من أهل مصر معرفة فى الأهرام ولا خبر ثبت .

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : ما أحسب الأهرام بنيت الا قبل الطوفان ، لأنها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس .

وقال عبد الله بن شبرمة الجرهمى : لما نزلت العماليق أرض مصر حين أخرجها جرهم من مكة ، بنت الأهرام ، واتخذت لها المصانع ، وبنت فيها العجائب ، ولم تزل بمصر حتى أخرجها مالك بن دعر الخزاعى .

وقال محمد بن عبد الحكم : كان من وراء الأهرام الى المغرب أربعمائة مدينة سوى القرى من مصر الى * المغرب فى غربى الأهرام .

وقال ابن عفير : ولم يزل مشايخنا من أهل مصر يقولون الأهرام بناها شداد بن عاد ، وهو الذى بنى المغار ، وجند الأجناد ... فالمغار والأجناد هى الدفائن . وكانوا يقولون بالرجعة ، واذا مات أحدهم دفن معه ماله كائنا ما كان ، وان كان صانعا دفن معه آلة صنعته ، وكانت الصابئة تحج الى الأهرام .

وقال أبو الريحان البيرونى فى كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» : والفرس والمجوس تنكر الطوفان ، وأقر به بعض الفرس لكنهم قالوا : كان بالشام والمغرب منه شىء فى زمان طمهورث ، ولكنه لم يعم العمران كله ، ولم يتجاوز عقبة حلوان ، ولم يبلغ ممالك الشرق ، وان أهل الغرب لما أنذر به حكماؤهم بنوا أبنية – كالهرمين بمصر – ليدخلوها عند الآفة ، وان آثار ماء الطوفان وتأثيرات الأمواج كانت بينة على أنصاف الهرمين لم تتجاوزهما . انتهى .

ويقال ان الطوفان لما نضب ماؤه لم يوجد تحت الماء قرية سوى نهاوند – وجدت كما هى – وأهرام مصر وبرابيها ، وهى التى بناها هرميس الأول الذى تسميه العرب ادريس . وكان قد ألهمه الله علم النجوم ، فدلته على أنه سينزل بالأرض آفة ، وأنه سيبقى بقية من العالم يحتاجون فيها الى علم ، فبنى هو وأهل عصره الأهرام والبرابى ، وكتب علمه فيها .

وقال أبو الصلت الأندلسى فى رسالته ، وقد ذكر أخلاق أهل مصر : الا أنه يظهر من أمرهم أنه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم ، وخصوصا علم الهندسة والنجوم ، ويدل على ذلك ما خلفوه من الصنائع البديعة المعجزة ، كالأهرام والبرابى ، فانها من الآثار التى حيرت الأذهان الثاقبة ، واستعجزت الأفكار الراجحة ، وتركت لها شغلا بالتعجب منها والتفكر فيها . وفى مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرى من قصيدته التى يرثى بها أباه :

تضل العقول الهبرزيات رشدها
ولا يسلم الرأى القويم من الأفن

وقد كان أرباب الفصاحة كلما
رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وأى شىء أعجب وأغرب ، بعد مقدورات الله عز وجل ومصنوعاته ، من القدرة على بناء جسم جسيم ، من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة ، مخروط الشكل ، ارتفاع عموده

(*) ص١١٧ جـ١ ، ط. بولاق .

للثمائة ذراع وتسعة عشر ذراعا ، يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ، طول كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ، وهو مع العظم من احكام الصنعة واتقان الهندام وحسن التقدير ، بحيث لم يتأثر الى هلم جرا بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل . وهذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربى على ما شاهدناه منهما .

وقد ذكرت عجائب مصر ، وان ما على وجه الأرض بنية الا وأنا أرثى لها من الليل والنهار الا الهرمان ، فأنا أرثى الليل والنهار منهما ، وهذان الهرمان لهما اشراف على أرض مصر ، واطلال على بطائحها ، واصعاد فى جوفها . وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبى بقوله :

أين الذى الهرمان من بنيانه
ما قومه ، ما يومه ، ما المصرع ؟
تتخلف الآثار عن سكانها
حينا ، ويدركها الفناء فتتبع

واتفق يوما أنا خرجنا اليهما ، فلما طفنا بهما واستدرنا حولهما ، كثر التعجب منهما ، فقال بعضنا :

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا
على طول ما أبصرت من هرمى مصر ؟
أنافا عنانا للسماء وأشرفا
على الجو اشراف السماك أو النسر
وقد وافيا نشزا من الأرض عاليا
كأنهما نهدان قاما على صدر

وزعم قوم أن الأهرام قبور ملوك عظام آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم ، كما تميزوا عنهم فى حياتهم ، وتوخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخى العصور .

ولما وصل الخليفة المأمون الى مصر أمر بنقبها ، فنقب أحد الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهد شديد وعناء طويل ، فوجدوا داخله مهاوى ومراقى يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ، ووجدوا فى أعلاها بيتا مكعبا طول كل ضلع من أضلاعه نحو من ثمانية أذرع ، وفى وسطه حوض رخام مطبق ، فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمة بالية قد أتت عليها العصور الخالية . فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ما سواه .

ويقال ان النفقة على نقبه كانت عظيمة والمؤنة شديدة .

ومن الناس من زعم أن هرمس الأول — المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة ، وهو الذى تسميه العبرانيون خنوخ بن برد ابن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام ، وهو ادريس عليه السلام — استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الأرض ، فأكثر من بنيان الأهرام وايداعها الأموال ، وصحائف العلوم ، وما يشفق عليه من * الذهاب والدروس ، حفظا لها واحتياطا عليها .

ويقال ان الذى بناها ملك اسمه سوريد بن سهلوق بن سرياق ، وقال آخرون ان الذى

(*) ص ١١٨ ج١ ، ط. بولاق .

بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط شداد بن عاد لرؤيا رآها .

والقبط تنكر دخول العمالقة بلد مصر ، وتحقق أن بانيها سوريد لرؤيا رآها وهى ان آفة تنزل من السماء وهى الطوفان . وقالوا انه بناهما فى مدة ستة أشهر ، وغشاهما بالديباج الملون ، وكتب عليهما : قد بنيناهما فى ستة أشهر ، قل لمن يأتى من بعدنا يهدمهما فى ستمائة سنة ، فالهدم أيسر من البنيان ، وكسوناهما الديباج الملون ، فليكسهما حصرا ، فالحصر أهون من الديباج .

ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها الى أسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها ، لا تعرف اليوم أحرفها ، ولا تفهم معانيها .

وبالجملة ، الأمر فيها عجيب ، حتى ان غاية الوصف لها ، والاغراق فى العبارة عنها ، وعن حقيقة الموصوف منها ، بخلاف ما قاله على ابن العباس الرومى ، وان تباعد الموصوفان ، وتباين المقصودان ، اذ يقول :

اذا ما وصفت امرا لامرىء
فلا تغل فى وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنو
ن فيه الى الغرض الأبعد
فيصغر من حيث عظمته
لفضل المغيب على المشهد

ويقال ان المأمون أمر من صعد الهرم الكبير أن يدلى حبلا ، فكان طوله ألف ذراع بالذراع الملكى — وهو ذراع وخمسان — وتربيعه أربعمائة ذراع فى مثلها ، وكان صعوده فى ثلاث ساعات من النهار ، وانه وجد مقدار رأس الهرم قدر مبرك ثمانية جمال .

ويقال انه وجد على المقبور فى الهرم حلة قد بليت ولم يبق منها سوى سلوكها من الذهب ، وان ثخانة الطلاء الذى عليه قدر شبر من مر وصبر .

ويقال انه وجد فى موضع من هذا الهرم ايوان ، فى صدره ثلاثة أبواب على ثلاثة بيوت ، طول كل باب منها عشرة أذرع فى عرض خمسة أذرع من رخام منحوت محكم الهندام ، وعلى صفحاته خط أزرق لم يحسنوا قراءته .

وانهم أقاموا ثلاثة أيام يعملون الحيلة فى فتح هذه الأبواب ، الى أن رأوا أمامها على عشرة أذرع منها ثلاثة أعمدة من مرمر ، وفى كل عمود خرق فى طوله ، وفى وسط الخرق صورة طائر .

ففى الأول من هذه العمد صورة حمام من حجر أخضر ، وفى الأوسط صورة بازى من حجر أصفر ، وفى العمود الثالث صورة ديك من حجر أحمر .

فحركوا البازى فتحرك الباب الأول الذى فى مقابلته ، فرفعوا البازى قليلا فارتفع الباب ، وكان بحيث لا يرفعه مائة رجل من عظمه ، فرفعوا التمثالين الآخرين ، فارتفع البابان الآخران .

فدخلوا الى البيت الأوسط ، فوجدوا فيه ثلاثة سرر من حجارة شفافة مضيئة ، وعليها

ثلاثة من الأموات ، على كلّ ميت ثلاث حلل ، وعند رأسه مصحف بخط مجهول .

ووجدوا فى البيت الآخر عدة رفوف من حجارة ، عليها أسفاط من حجارة فيها أوانٍ من الذهب عجيبة الصنعة ، مرصعة بأنواع الجواهر .

ووجدوا فى البيت الثالث عدة رفوف من حجارة ، عليها أسفاط من حجارة فيها آلات الحرب وعدد السلاح ، فقيس منها سيف فكان طوله سبعة أشبار ، وكل درع من تلك الدروع اثنا عشر شبرا .

فأمر المأمون بحمل ما وجد فى البيوت ، وأمر فحطت العمد فانطبقت الأبواب كما كانت .

ويقال كانت عدة الأهرام ثمانية عشر هرما منها تجاه مدينة الفسطاط ثلاثة ، أكبرها دوره ألفا ذراع ، وهو مربع ، فى كل وجه من وجوهه الأربعة خمسمائة ذراع .

ويقال ان المأمون لما فتحه وجد فيه حوضا من حجر ، مغطى بلوح من رخام وهو مملوء بالذهب ، وعلى اللوح مكتوب بقلم عرب فكان : انا عمرنا هذا الهرم فى ألف يوم ، وأبحنا لمن يهدمه فى ألف سنة ، والهدم أسهل من العمارة . وكسونا جميعه بالديباج ، وأبحنا لمن يكسوه الحصر ، والحصر أيسر من الديباج . وجعلنا فى كل جهة من جهاته مالا بقدر ما يصرف على الوصول اليه .

فأمر المأمون أن يحسب ما صرف على النقب ، فبلغ قدر ما وجد فى الحوض من غير زيادة ولا نقص .

ويقال انه وجد فيه صورة آدمى من حجر أخضر كالدهنج ، فيها طبق كالدواة ، ففتح فاذا فيه جسد آدمى عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر ، وعلى صدره نصل سيف لا قيمة له ، وعند رأسه حجر من ياقوت أحمر فى قدر بيضة الدجاجة . فأخذه المأمون وقال : هذا خير من خراج الذهب .

وذكر بعض مؤرخى مصر أن هذا الصنم الأخضر الذى وجدت الرمة فيه لم يزل معلقا عند دار الملك بمدينة مصر الى سنة احدى عشرة وستمائة من سنى الهجرة .

وكان عند مدينة فرعون هرمان ، وعند ميدوم هرم ، وهذا آخرها .

وفى سنة تسع وسبعين وخمسمائة من سنى الهجرة ظهر بتربة بوصير من ناحية الجيزة بيت هرميس ، ففتحه القاضى ابن الشهرزورى * وأخذ منه أشياء من جملتها كباش وقرود وضفادع من حجر بازهر ، وقوارير من دهنج ، وأصنام من نحاس .

وقال ابن خرداذبة : من عجيب البنيان أن الهرمين بمصر سمك كل واحد منهما أربعمائة ذراع ، وكلما ارتفع دق ، وهما من رخام ومرمر ، والطول أربعمائة ذراع فى عرض أربعمائة ذراع ، مكتوب عليهما باليد كل سحر وكل عجيب من الطب ، ومكتوب عليهما : انى بنيتهما ، فمن يدعى قوة فى ملكه فليهدمهما ، فان الهدم أيسر من البناء .

فاعتبر ذلك ، فاذا خراج الدنيا لا يفى بهدمهما .

(*) ص١١٦ جـ١ ، ط. بولاق .

وقال فى كتاب « عجائب البنيان » عن الأهرام : قد انفردت مصر بهذه الأشكال ، فليس لها بغيرها تمثال ، يظنهما الناظر للديار المصرية نهدين ، ويحسبهما القابل أن مكارم أهلها قد أعدتهما للتكرم أبلوجين ، تراهما العين على بعد المسافة ، واذا حدثت عن عجائبهما يظن أنه حديث خرافة .

وقد أكثر الناس فى ذكر الأهرام ووصفها ومساحتها ، وهى كثيرة العدد جدا ، وكلها ببر الجيزة على سمت مصر القديمة ، تمتد نحوا من مسافة ثلاثة أيام . وفى بوصير منها شىء كثير . وبعضها كبار وبعضها صغار ، وبعضها طين وبعضها لبن ، وأكثرها حجر ، وبعضها مدرج ، وأكثرها مخروط أملس .

وقد كان منها بالجيزة عدد كثير كلها صغار ، هدمت فى زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد الطواشى بهاء الدين قراقوش ، أخذ حجارتها وبنى بها القناطر فى الجيزة ، وقد بقى من هذه الأهرام المهدومة تلها .

وأما الأهرام المتحدث عنها ، فهى ثلاثة أهرام ، موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط ، وبينها مسافات كثيرة وزوايا متقابلة نحو الشرق . واثنان عظيمان جدا فى قدر واحد ، وهما متقاربان ، ومبنيان بالحجارة البيض ، وأما الثالث فصغير عنهما نحو الربع ، لكنه مبنى بحجارة الصوان الأحمر المنقط ، الشديد القوة والصلابة ، ولا يكاد يؤثر فيه الحديد الا فى الزمان الطويل ، وتجده صغيرا بالقياس الى ذينك ، فاذا أتيت اليه وأفردته بالنظر هالك مرآه ، وحير النظر فى تأمله .

وقد سلك فى بناء الأهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ، ولذلك صبرت على ممر الأيام ... لا ، بل على ممرها صبر الزمان . فانك اذا تأملتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها ، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها ، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها ، والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثالا فى غاية امكانها ، حتى انها تكاد تحدث عن قوة قومها ، وتخبر عن سيرتهم ، وتنطق عن علومهم وأذهانهم ، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم .

وذلك أن وضعها على شكل مخروط ، ويبتدىء من قاعدة مربعة وينتهى الى نقطة . ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله فى وسطه ، يتساند على نفسه ، ويتواقع على ذاته ، ويتحامل بعضه على بعض ، وليس له جهة أخرى يتساقط عليها .

ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع ، فان الريح تنكسر سورتها عند مسامتتها الزاوية ، وليست كذلك عندما تلقى السطح .

وذكر المساح أن قاعدة كل من الهرمين العظيمين أربعمائة ذراع بالذراع السوداء ، وينقطع المخروط فى أعلاه عند سطح مساحته عشرة أذرع فى مثلها . وذكر أن بعض الرماة

ومى سهما فى قطر أحدهما وفى سمكه ، فسقط السهم دون نصف المسافة . وذكر أن ذرع سطحها أحد عشر ذراعا بذراع اليد .

وفى أحد هذين الهرمين مدخل يلجه الناس ، يفضى بهم الى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك ، وغير ذلك على ما يحكيه من يلجه . وان أناسا كثيرين لهم غرام به وتخيل فيه ، فيتوغلون فى أعماقه ، ولابد أن ينتهوا الى ما يعجزون عن سلوكه

وأما المسلوك المطروق كثيرا ، فزلاقة تفضى الى أعلاه ، فيوجد فيه بيت مربع فيه ناووس من حجر . وهذا المدخل ليس هو الباب فى أصل البناء ، وانما هو منقوب نقبا صادف اتفاقا ، وذكر أن المأمون فتحه

وحكى من دخله وصعد الى البيت الذى فى أعلاه ، فلما نزلوا حدثوا بعظيم ما شاهدوه ، وأنه مملوء بالخفافيش وأبوالها ، وتعظم فيه حتى تكون قدر الحمام ، وفيه طاقات وروازن نحو أعلاه ، كأنها عملت مسالك للريح ومنافذ للضوء بحجارة جافية ؛ طول الحجر منها من عشرة أذرع الى عشرين ذراعا ، وسمكه من ذراعين الى ثلاثة أذرع ، وعرضه نحو ذلك

والعجب كل العجب من وضع الحجر على الحجر بهندام ليس فى الامكان أصح منه ، بحيث لا تجد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين لونه الزرقة لا يدرى ما هو ولا صفته ، وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم يوجد بديار مصر من زعم أنه سمع من يعرفه ، وهذه الكتابات كثيرة جدا حتى لو نقل ما عليها الى صحف لكانت قدر عشرة آلاف صحيفة .

وقرأت فى بعض كتب الصابئة القديمة ان أحد هذين الهرمين قبر أغاذيمون ، والآخر قبر هرمس ، ويزعمون انهما نبيان عظيمان ، وأن أغاذيمون اقدم وأعظم ، وأنه كان يحج اليهما ، ويهدى اليهما من أقطار البلاد .

وكان [1] الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما استقل بالملك بعد أبيه ، سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام . فبدأ بالصغير الأحمر ، فأخرج اليه النقابين والحجارين وجماعة من أمراء دولته وعظماء مملكته ، وأمرهم بهدمه فخيموا عنده ، وحشروا الرجال والصناع ، ووفروا عليهم النفقات .

وأقاموا نحو ثمانية أشهر ، بخيلهم ورجلهم ، يهدمون كل يوم — بعد الجهد ، واستفراغ بذل الوسع — الحجر والحجرين ، فقوم من فوق يدفعونه بالأسافين ، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والأشطان ؛ فاذا سقط سمع له وجبة عظيمة من مسافة بعيدة ، حتى ترجف الجبال وتزلزل الأرض ، ويغوص فى الرمل فيتعبون تعبا آخر حتى يخرجوه ، ويضربون فيه بالأسافين بعد ما ينقبون لها موضعا ويثبتونها فيه فيتقطع قطعا ، وتسحب كل قطعة على العجل حتى يلقى فى ذيل الجبل ، وهى مسافة قريبة .

فلما طال ثواؤهم ، ونفدت نفقاتهم ، وتضاعف نصبهم ، ووهت عزائمهم ، كفوا

(1) ص١٢ ج١ ، ط بولاق .

محسورين لم ينالوا بغية ، بل شوهوا الهرم ، وأبانوا عن عجز وفشل . وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، ومع ذلك فان الرائى لحجارة الهرم يظن أنه قد استؤصل ، فاذا عاين الهرم ظن أنه لم يهدم منه شىء ، وانما سقط بعض جانب منه .

وحينما شوهدت المشقة التى يجدونها فى هدم كل حجر ، سئل مقدم الحجارين فقيل له : لو بذل لكم السلطان ألف دينار على أن تردوا حجرا واحدا الى مكانه وهندامه ، هل كان يمكنكم ؟ فأقسم بالله انهم ليعجزون عنه ولو بذل لهم أضعاف ذلك .

وبازاء الأهرام مغاير كثيرة العدد ، كبيرة المقدار ، عميقة الأغوار ، لعل الفارس يدخلها برمحه ويتخللها يوما أجمع ولا ينهيها لكبرها وسعتها وبعدها ، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام . وأما مقاطع حجارة الهرم الأحمر ، فيقال انها بالقلزم وبأسوان .

وعند هذه الأهرام آثار أبنية جبابرة ، ومغاير كثيرة منقبة . وقلما ترى من ذلك شيئا الا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول . ولله در الفقيه عمارة اليمنى حيث يقول :

خليلى ما تحت السماء بنية
تماثل فى اتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه ، وكل ما
على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها
ولم يتنزه فى المراد بها فكرى

أخذ هذا من قول بعض الحكماء : كل شىء يخشى عليه من الدهر الا الأهرام ، فانه يخشى على الدهر منها

وقال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر بن الحاجب ، ومات فى سنة سبع وثمانين وثلثمائة :

انظر الى الهرمين اذ برزا
للعين فى علو وفى صعد
وكأنما الأرض العريضة قد
ظمئت لطول حرارة الكبد
حسرت عن الثديين بارزة
تدعو الاله لفرقة الولد
فأجابها بالنيل يشبعها
ريا وينقذها من الكمد
لكرامة المولى المقيم بها
خير الأنام مقوم الأود

وقال سيف الدين بن جبارة :

لله أى عجيبة وغريبة
فى صنعة الأهرام للألباب
أخفت عن الأسماع قصة أهلها
ونضت عن الابداع كل نقاب
فكأنما هى كالخيام مقامة
من غير ما عمد ولا أطناب

وقال آخر :

انظر الى الهرمين واسمع منهما
ما يرويان عن الزمان الغابر
وانظر الى سر الليالى فيهما
نظرا بعين القلب لا بالناظر

لو ينطقان لخبرانا بالذى
فعل الزمان باول وبآخر

واذا هما بديا لعينى ناظر
وصفا له أذنى جواد عاثر

وقال الامام أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشى :

ألست ترى الأهرام دام بناؤها
وتفنى لدنيا العالم الانس والجن

كأن رحى الأفلاك أكوارها على
قواعدها الأهرام والعالم الطحن

وقال * :

قد كان للماضين من سكان مصر همم
فالفضل عنهم فضلة والعلم فيهم علم
ثم انقضت أعلامهم وعلمهم واحتطموا
وانظر تراها ظاهرا باد عليها الهرم

وقال :

خليلى لا باق على الحدثان
من الأول الباقى فيحدث ثانى

الى هرمى مصر تاهت قوى الورى
وقد هرمت فى دهرها الهرمان

فلا تعجبا أن قد هرمت فانما
رمانى بفقدان الشباب زمانى

وعوجا بقرطاجنة فانظرا بها
جنابتى العادين تنتجبان

وايوان كسرى فانظراه فانه
يخبركما بالصدق كل أوان

فلا تحسبا أن الفناء يخصنى
ألا كل ما فوق البسيطة فان

ووجدت بخط الشيخ شهاب الدين أحمد ابن يحيى بن أبى حجلة التلمسالى : أنشدنى القاضى فخر الدين عبد الوهاب المصرى لنفسه فى الأهرام ، سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، وأجاد :

أمبانى الأهرام كم من واعظ
صدع القلوب ولم يفه بلسانه

أذكرتنى قولا تقادم عهده
« أين الذى الهرمان من بنيانه »

هن الجبال الشامخات تكاد أن
تمتد فوق الأرض عن كيوانه

لو أن كسرى جالس فى سفحها
لأجل مجلسه على ايوانه

ثبتت على حر الزمان وبرده
مددا ولم تأسف على حدثانه

والشمس فى احراقها والريح عنـ
ـد هبوبها والسيل فى جريانه

هل عابد قد خصها بعبادة
فمبانى الأهرام من أوثانه

أو قائل يقضى برجعى نفسه
من بعد فرقته الى جثمانه

فاختارها لكنوزه ولجسمه
قبرا ليأمن من أذى طوفانه

(*) ص١٢١ جـ١ ، ط. بولاق .

أو أنها للسائرات مراصد
يختار راصدها أعز مكانه

أو أنها وصفت شئون كواكب
أحكام فرس الدهر أو يونانه

أو أنهم نقشوا على حيطانها
علما يحار الفكر فى تبيانه

فى قلب رائيها ليعلم نقشها
فكر يعض عليه طرف بنانه

ذكر الصنم الذى يقال له ابو الهول

هذا الصنم بين الهرمين عرف أولا ببلهيب ، وتقول أهل مصر اليوم أبو الهول

قال القضاعى : صنم الهرمين ، وهو « بهلوبه » ، صنم كبير من حجارة فيما بين الهرمين ، لا يظهر منه سوى رأسه فقط ، تسميه العامة بأبى الهول ، ويقال بلهيب ، ويقال انه طلسم للرمل لئلا يغلب على ابليز الجيزة .

وقال فى كتاب « عجائب البنيان » : وعند الأهرام رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم تسميه الناس أبا الهول ، ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض . ويقتضى القياس بالنسبة الى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعا فصاعدا ، وفى وجهه حمرة ودهان يلمع عليه رونق الطراوة ، وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مسحة بهاء وجمال ، كأنه يضحك تبسما .

وسئل بعض الفضلاء عن عجيب ما رأى فقال : تناسب وجه أبى الهول ، فان أعضاء وجهه — كالأنف والعين والأذن — متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة ، فان أنف الطفل مثلا مناسب له ، وهو حسن به ، حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوها . وكذلك أنف الرجل لو كان لصبى لتشوهت صورته . وعلى هذا سائر الأعضاء ، فكل عضو ينبغى أن يكون على مقدار ماهيته بالقياس الى الصورة ، وعلى نسبتها . والعجب من مصوره ، كيف قدر أن يحفظ التناسب للأعضاء مع عظمها . وانه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه

ويقابله فى بر مصر ، قريبا من دار الملك ، صنم عظيم الخلقة والهيئة ، متناسب الأعضاء كما وصف ، وفى حجره مولود ، وعلى رأسه ماجور ... الجميع صوان مانع . يزعم الناس أنه امرأة ، وأنها سرية أبى الهول المذكور ، وهى بدرب منسوب اليها . ويقال لو وضع على رأس أبى الهول خيط ومد الى سريته لكان على رأسها مستقيما . ويقال ان أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن * النيل ، وان السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر .

وقال ابن المتوج : زقاق الصنم هو الزقاق الشارع ، أوله بأول السوق الكبير ، بجوار درب عمار ، ويعرف الصنم بسرية فرعون . وذكر أنه طلسم النيل لئلا يغلب على البلد . وقيل ان بلهيب الذى عند الأهرام يقابله ، وان ظهر بلهيب الى الرمل ، وظهر هذا الى النيل ، وكل منهما مستقبل الشرق .

(*) ص١٢٢ جـ١ ، ط. بولاق .

وقد نزل في سنة احدى عشرة وسبعمائة أمير يعرف ببيلاط ، في نفر من الحجارين والقطاعين ، وكسروا الصنم المعروف بالسرية ، وقطعوه أعتابا وقواعد ، ظنا أن يكون تحته مال ، فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة ، فحفر تحتها الى الماء فلم يوجد شيء وجعل من حجره قواعد تحتانية للعمد الصوان التي بالجامع المستجد بظاهر مصر ، المعروف بالجامع الجديد الناصري ، وأزيل عن هذا الصنم من مكانه . والله أعلم .

وفي زمننا كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية ، سعيد السعداء ، قام في نحو من سنة ثمانين وسبعمائة ، لتغيير أشياء من المنكرات ، وسار الى الأهرام ، وشوه وجه أبي الهول وشعثه ، فهو على ذلك الى اليوم . ومن حينئذ غلب الرمل على أراض كثيرة من الجيزة . وأهل تلك النواحي يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضي فساد وجه أبي الهول ، ولله عاقبة الأمور .

وما أحسن قول ظافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين واعجب
وبينهما أبو الهول العجيب
كعماريتين على رحيل
بمحبوبين بينهما رقيب
وماء النيل تحتهما دموع
وصوت الريح عندهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب
تخلف فهو محزون كئيب

ويقال ان أتريب بن قبط بن مصر بن بيصر ابن حام بن نوح أوصى أخاه صا عند موته أن يحمله في سفينة ويدفنه بجزيرة وسط البحر . فلما مات فعل ذلك من غير أن يعلم به أهل مصر ، فاتهمه الناس بقتل أتريب وحاربوه تسع سنين .

فلما مضى من حربهم خمس سنين مضى بهم حتى أوقفهم على قبر أتريب ، فحفروه فلم يجدوا به شيئا ، وقد نقلته الشياطين الى موضع أبي الهول ، ودفنته هناك بجانب قبر أبيه وجده بيصر .

فازدادوا له تهمة ، وعادوا الى مدينة منف وتحاربوا . فأتاهم ابليس فدلهم على قبر أتريب حيث نقله ، فأخرجوه من قبره ووضعوه على سرير ، فتكلم لهم الشيطان على لسانه حتى افتتنوا به وسجدوا له ، وعبدوه فيما عبدوا من الأصنام .

وقتلوا صا ودفنوه على شاطيء النيل ، فكان النيل اذا زاد لا يعلو قبره فافتتن به طائفة وقالوا : قد قتل صا ظلما ، وصاروا يسجدون لقبره كما يسجد أولئك لأتريب . فعمد آخرون الى حجر فنحتوه على صورة أشموم ، وكان يقال له أبو الهول ، ونصبوه بين الهرمين وجعلوا يسجدون له ... فصار أهل مصر ثلاث فرق .

ولم تزل الصابئة تعظم أبا الهول ، وتقرب له الديكة البيض ، وتبخره بالصندروس .

ذكر الجبال

اعلم أن أرض مصر بأسرها محصورة بين جبلين آخذين من الجنوب الى الشمال ، قليلي الارتفاع ، وأحدهما أعظم من الآخر ، والأعظم

منهما هو الجبل الشرقي المعروف بجبل لوقا ، والغربي جبل صغير وبعضه غير متصل ببعض ، والمسافة بينهما تضيق في بعض المواضع وتتسع في بعضها ، وأوسع ما يكون بأسفل أرض مصر .

وهذان الجبلان أقرعان لا ينبت فيهما نبات ، كما يكون في جبال البلدان الأخر . وعلة ذلك أنهما بورقيان مالحان ، لأن قوة طين مصر تجذب منهما الرطوبات الموافقة في التكوين ، ولأن قوة الحرارة تحلل منهما الجوهر اللطيف العذب ، وكذلك مياه الآبار منهما مالحة .

وهذان الجبلان يجففان ما يدفن فيهما ، فان أرض مصر بالطبع قليلة الأمطار .

وجبل لوقا في مشرق أرض مصر يعوق عنها ريح الصبا ، فعدمت مصر هذا الريح ، ويعوق أيضا اشراق الشمس على أرض مصر اذا كانت على الأفق .

وتتعدد أسماء هذين الجبلين بحسب مواضعهما من الاقليم ، فيقال على الفسطاط وعلى القاهرة الجبل المقطم .

ذكر جبل المقطم

اعلم أن الجبل المقطم أوله من الشرق من الصين حيث البحر المحيط ، ويمر على بلاد الططر حتى يأتي فرغانة الى جبال اليتم المتد بها نهر السغد الى أن يصل الجبل الى جيحون ، فيقطعه ويمضي في وسطه بين شعبتين منه وكأنه قطع ثم في وسطه ، ويستمر الجبل الى الجورجان ، ويأخذ على الطالقان الى أعمال مرو والرود الى طوس ، فيكون جميع مدن طوس فيه ، ويتصل به جبال أصبهان وشيراز الى أن يصل الى البحر الهندي ، وينعطف هذا الجبل ويمتد الى شهرزور فيمر على * الدجلة ، ويتصل بجبل الجودي ، موقف سفينة نوح عليه السلام في الطوفان .

ولا يزال هذا الجبل مستمرا من أعمال آمد وميافارقين حتى يمر بثغور حلب فيسمى هناك جبل اللكام ، الى أن يعدى الثغور فيسمى نهرا ، حتى يجاوز حمص فيسمى لبنان ، ثم يمتد على الشام حتى ينتهي الى بحر القلزم من جهة ، ويتصل من الجهة الأخرى ، ويسمى المقطم ، ثم يتشعب ويتصل أواخر شعبه بنهاية الغرب . ويقال انه عرف بمقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام .

وجبل المقطم يمر على جانبي النيل الى النوبة ، ويعبر من فوق الفيوم فيتصل بالغرب الى أرض مقراوة ، ويمضي مغربا الى سجلماسة ، ومنها الى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر .

وقال ابراهيم بن وصيف شاه (وذكر مجيء مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح الى أرض مصر) : وكشف أصحاب اقليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم ، التي هي بخط البرابي ، وآثارهم والمعادن من الذهب والزبرجد والفيروزج وغير ذلك ، ووصفوا لهم عمل الصنعة (يعني الكيمياء) . فجعل

(*) ص١٢٢ ج١ ، ط. بولاق .

مصرايم أمرها الى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام الحكيم ، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقى ، فسمى به المقطم من أجل أن مقيطام الحكيم كان يعمل فيه الكيمياء ، واختصر من اسمه وبقى ما يدل عليه فقيل له جبل المقطم ، يعنى جبل مقيطام الحكيم .

وقال البكرى رحمة الله تعالى عليه : المقطم — بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الطاء المهملة وفتحها — جبل متصل بمصر يواروق فيه موتاهم .

وقال القضاعى : المقطم ، ذكر أبو عبد الله اليمنى أن هذا الجبل نسب الى المقطم بن مصر ابن بيصر بن حام بن نوح ، وكان عبدا صالحا ، فانفرد بعبادة الله عز وجل فيه ، فسمى الجبل باسمه .

وليس هذا بصحيح ، لأنه لا يعرف لمصر ولد اسمه المقطم . والذى ذكره العلماء أن المقطم مأخوذ من القطم ، وهو القطع ، فكأنه لما كان منقطع الشجر والنبات سمى مقطما ... ذكر ذلك على بن الحسن الهنائى الدوسى ، المنبوذ بكراع ، وغيره .

وروى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، عن الليث بن سعد رضى الله عنه ، قال : سأل المقوقس عمرو بن العاص رضى الله عنه أن يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين ألف دينار (وفى نسخة بعشرين ألف دينار) ، فعجب عمرو من ذلك وقال : أكتب بذلك الى أمير المؤمنين . فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب اليه عمر : سله لم أعطاك به ما أعطاك ، وهى لا تزرع ولا يستنبط بها ماء ؟

فسأله فقال : انا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة

فكتب بذلك الى عمر فكتب اليه : انا لا نعلم غراس الجنة الا المؤمنين ، فاقبر فيها من مات قبلك من المؤمنين ، ولا تبعه بشىء .

فكان أول من قبر فيها رجلا من المعافر يقال له عامر ، فقيل عمرت .

فقال المقوقس لعمرو : وما ذلك ، وما على هذا عاهدتنا .

فقطع لهم الحد الذى بين المقبرة وبينهم .

وذكر عمر بن أبى عمر الكندى فى فضائل مصر أن عمرو بن العاص رضى الله عنه سار فى سفح الجبل المقطم ومعه المقوقس ، فقال له : ما لجبلكم هذا أقرع ليس به نبات كجبال الشام ؟ فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل وغرسناه نخلا ؟

فقال المقوقس : وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر الجبال أشجارا ونباتا وفاكهة ، وكان منزل المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام . فلما كانت الليلة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام ، أوحى الله الى الجبال : انى مكلم نبيا من أنبيائى على جبل منكم ، فسمت الجبال كلها وتشامخت الا جبل بيت المقدس فانه هبط وتصاغر ، فأوحى الله اليه : لم فعلت ذلك ؟ — وهو به أخبر — فقال : اعظاما واجلالا لك يارب .

قال : فأمر الله سبحانه الجبال أن يحبوه كل جبل بما عليه من النبت ، فجاد له المقطم بكل ما عليه من النبت حتى بقى كما ترى ، فأوحى الله اليه : انى معوضك على فعلك بشجر الجنة ، أو غراس الجنة

فكتب بذلك عمرو بن العاص رضى الله عنه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه : انى لا أعلم شجر الجنة غير المؤمنين ، فاجعله لهم مقبرة ... ففعل .

فغضب المقوقس من ذلك ، وقال لعمرو : ما على هذا صالحتنى .

فقطع له عمر قطيعا نحو الحبش تدفن فيه النصارى .

قال : وروى أن موسى عليه السلام سجد فسجد معه كل شجرة من المقطم الى طرا .

وروى أنه مكتوب : واذا فتح مقدسى ... يريد وادى مسجد موسى عليه السلام بالمقطم عند مقطع الحجارة ، فان موسى عليه السلام كان يناجى ربه بذلك الوادى .

وروى أسد بن موسى قال : شهدت جنازة مع موسى بن لهيعة ، فجلسنا حوله فرفع رأسه فنظر الى الجبل فقال : ان عيسى بن مريم عليه السلام مر بسفح هذا الجبل وعليه جبة صوف وقد شد وسطه بشريط وأمه الى جانبه ، فالتفت اليها وقال : يا أمه ، هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى عبد الله بن لهيعة ، عن عياش بن عباس ، أن كعب الأحبار رضى الله عنه سأل رجلا يريد مصر فقال له : أهدنى تربة من سفح مقطمها ، فأتاه منه بجراب ، فلما حضرت كعبا الوفاة أمر به فجعل فى لحده تحت جنبه .

وروى عن كعب أنه سئل عن جبل مصر فقال : انه لمقدس ما بين القصير الى اليحموم .

قال ابن لهيعة : والمقطم ما بين القصير الى مقطع الحجارة ، وما بعد ذلك فمن اليحموم .

وفى هذا الجبل حجر الجوهر ، وشىء من الفولاذ . وهو يمتد الى أقاصى بلاد السودان .

الجبل الاحمر

هذا الجبل مطل على القاهرة من شرقيها الشمالى ، ويعرف باليحموم .

قال القضاعى : اليحاميم هى الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقى وجبابها . وتنتهى هذه الجبال الى بعض طرق الجب . وقيل لها اليحاميم لاختلاف ألوانها . واليحموم فى كلام العرب الأسود المظلم .

وقال ابن عبد الحكم ، عن سعى بن عبيد : انه لما قدم مصر وأهل مصر قد اتخذوا مصلى بحذاء ساقية أبى عون التى فى العسكر ، فقال : ما لهم وضعوا مصلاهم فى الجبل الملعون ؛ وتركوا الجبل المقدس (يعنى المقطم) ؟

وقال ابن عبد الظاهر : الجبل الأحمر ، ذكر القضاعى أن اليحموم هو الجبل المطل على القاهرة ، ولا أرى جبلا يطل على القاهرة غيره .

(*) ص ١٢٤ جـ١ ، ط. بولاق .

وقال البكرى : اليحموم (بفتح أوله واسكان ثانيه) . قال الحربى : اليحموم جبل بمصر .

وروى من طريق أبى قبيل عن عبد الله بن عمرو : أنه سأل كعبا عن المقطم : أملعون ؟ قال : ليس بملعون ، ولكنه مقدس من القصير الى اليحموم .

وذكر البكرى أيضا أن عابدا (بالباء الموحدة والدال المهملة ، على وزن فاعل) جبل بمصر قبل المقطم .

جبل يشكر

هذا الجبل فيما بين القاهرة ومصر عليه الجامع الطولونى .

قال القضاعى : جبل يشكر ، هو يشكر ابن جديلة من لخم ، وهو الذى عليه جامع ابن طولون . ويشكر بن جديلة قبيلة من قبائل العرب اختطت عند الفتح بهذا الجبل ، فعرف بجبل يشكر لذلك .

قال ابن عبد الظاهر : وجامع ابن طولون على جبل يشكر ، وهو مكان مشهور باجابة الدعاء ومكان مبارك . وقيل ان موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات .

وكان هذا الجبل يشرف على النيل ، وليس بينه وبين النيل شىء ، وكان يشرف على البركين (أعنى بركة الفيل ، والبركة التى تعرف اليوم ببركة قارون) . وعلى هذا الجبل كانت تنصب المجانيق التى تجرب قبل ارسالها الى الثغور .

الكبش

هو جبل بجوار يشكر ، كان قديما يشرف على النيل من غربيه . ثم لما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر ، صار الكبش من جملة خطة الحمراء القصوى ، وسمى الكبش .

الشرف

اسم لثلاثة مواضع : فاثنان منها فيما بين القاهرة ومصر ، وواحد فيما بين بركة الحبش وفسطاط مصر .

فأما الذى بظاهر القاهرة ، فأحدهما عليه الآن قلعة الجبل ، وهو من جملة الجبل المقطم .

والآخر فيما بين الجامع الطولونى ومصر ، فيشرف غربيه على جهة الخليج الكبير ، ويصير فيما بين كوم الجارح وخط الجامع الطولونى . وكان من خطة تجيب ، ثم صار من جملة العسكر .

وأما الشرف الثالث فيعرف اليوم بالرصد ، وهو يشرف على راشدة .

وكان يقال للشرف سند . والسند ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح . ويقال فلان سند أى معتمد .

ذكر الرصد

هذا المكان شرف يطل من غربيه على راشدة ، ومن قبليه على بركة الحبش ؛

فيحسبه من رآه من جهة راشدة جبلا ، وهو من شرقيه سهل يتوصل اليه من القرافة بغير ارتقاء ولا صعود . وهو محاذ للشرف الذى كان من جملة العسكر ، والشرف الذى يعرف اليوم بالكبش .

وكان يقال له قديما الجرف ، ثم عرف بالرصد من أجل أن الأفضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى أقام فوقه كرة لرصد الكواكب ، فعرف من حينئذ بالرصد .

قال فى كتاب « عمل الرصد » : وحمل الى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر ، من الشام ، تقاويم لما يستأنف من السنين لاستقبال سنة خمسمائة من سنى الهجرة ... قبل مائة تقويم أو نحوها .

وكان منجمو الحضرة يومئذ — ابن الحلبى وابن الهيثمى وسهلون وغيرهم — يطلق لهم الجارى فى كل شهر والرسوم والكسوة على عمل التقويم فى كل سنة . وكان كل منهم يجتهد فى حسابه وما تصل قدرته اليه ، فاذا كان فى غرة السنة حمل كل منهم تقويمه ، فيقابل بينها وبين التقويمات المحضرة من الشام فيوجد بينها اختلاف كثير ، فأنكر ذلك .

فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة — عند احضار التقاويم على العادة — جمع المنجمين والحساب وأهل العلم ، وسألهم عن السبب فى الخلف بين التقاويم ، فقالوا : الشامى يحسب ويعمل على رأى الزيج المهجور المأمونى ، ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكمى لقرب عهده ، وبين المتقدم والمتأخر تفاوت وخلف ، وقد أجمع القدماء أن القريب العهد أصح من المتقدم لتنقل الكواكب وتغير الحساب .

وتحدثوا فى معنى ذلك بما هو مذكور فى موضعه ، وأشاروا عليه بعمل رصد * مسجد يصحح به الحساب ، ويخرج به المعور والتفاوت ، وتحصل به المنفعة العظيمة ، والفائدة الجليلة ، والسمعة الشريفة ، والذكر الباقى .

فقال : من يتولى ذلك ؟

فقال صاحب دسته ومشيره ، الشيخ الأجل أبو الحسن بن أبى أسامة : هذا القاضى ابن أبى العيش الطرابلسى المهندس العالم الفاضل . وكان ابن أبى العيش صهره زوج ابنته ، وهو شيخ كبير السن والقدر ، كثير المال . وساعده على ذلك القائد ابو عبد الله الذى تقلد الوزارة بعد الأفضل ، ودعى بالمأمون بن البطائحى .

فاستصوب الأفضل ذلك وقال : مروه يهتم بذلك ، ويستدعى ما يحتاج اليه .

فكان أول ما بدأ به لما حصل ذلك أن مدح نفسه — وكان الأفضل غيورا على كل شىء ، أشد ما عليه من يفتخر أو يلبس ثيابا مذكورة — ثم قال : هذه الآلات عظيمة ، وخطرها جسيم ، ولا كل أحد يقوم بها ولا يحسنها .

وأكثر الكلام والتوسعة ، وقال : يحتاج أن الذى يتولى ذلك يعتمد معه الانعام

(*) ص١٢٥ جـ١ ، ط.بولاق .

والاكرام ، لتطيب نفسه للمباشرة ، وينشرح صدره ، ويقدح خاطره لما يعمل فى حقه

فضجر الأفضل من ذلك وقال : لقد أكثر فى مدح نفسه ولدده ، وما يعاملنا بعد لا حاجة الى معاملته

فأشار القائد بن البطائحى وقال : هنا من يبلغ الغرض بأسهل مأخذ ، وأقرب وقت وأسرعه ، وألطف معنى ، أبو سعيد بن قرقة الطبيب ، متولى خزائن السلاح والسروج والصناعات وغير ذلك .

فأحضره للوقت ، فاتفق له من الحديث الحسن السهل ، وما سبب عمل الآلات ، ومن ابتدأها من الأول ، وذكر القدماء فى العلم ، ومن رصد منهم واحدا واحدا الى آخرهم ... شرحا مستوفيا ، كأنه يحفظه ظاهرا ، أو يقرأه من كتاب .

فأعجب الأفضل والحاضرين ، وقال : أى شيء تحتاج ؟

فقال : ما أحتاج كبير أمر ، والأمور سهلة ، وكل ما أحتاجه فى خزائن السلطان — خلد الله ملكه — النحاس والرصاص والآلات ، وكل ما أحتاج أستدعيه أولا أولا ، الا النفقات وأجرة الصناع فيتولاها غيرى .

فأعجب به وقال : يطلق له جار لنفسه .

فقال : أنا مستخدم فى عدة خدم ، فجوارى تكفينى ، فأنا مملوك الدولة ما أحتاج الى جار ، واذا بلغت الغرض وأنهيت الأشغال فهو المقصود .

وكان قيل للأفضل : هذا الرصد يحتاج الى أموال عظيمة ، فقال : كم تقول يحتاج اليه ؟

فقال : ما ينفق عليه الا مثل ما ينفق على مسجد أو منظر .

فرجع يكرر عليه القول ، فقال : هاتوا ورقة . فكتب فيها : المملوك يقبل الأرض وينهى : دعت الحاجة الى خروج الأمر العالى الى دار الوكالة باطلاق مائتى قنطار من النحاس التجر ، وثمانين قنطارا من النحاس القضيب الأندلسى ، وأربعين قنطارا من النحاس الأحمر ، ومن الرصاص ألف قنطار ، ومن الحطب ومن الحديد والفولاذ من الصناعة ما لعله يحتاج اليه ، ومن الأخشاب ومن النفقة مائة دينار على يد شاهد ينفق عليه ، فاذا فرغت استدعى غيرها ... واختار موضعا يصلح الرصد فيه ؛ ويكون العمل والصناعة فيه ، ومباشرة السلطان فيما يتوقف عليه ، وما يستأمر فيه .

فاستصوب الأفضل جميع ذلك ، وأراد أن يخلع عليه فقال القائد : هذا فيما بعد اذا شوهدت أعماله .

فخدم من أول الحال الى آخرها ولم يحصل له الدرهم الفرد ، لأنه كان يستحيى أن يطلب وهو مستخدم عندهم . وكانوا بأجمعهم يؤملون طول المدة والبقاء ، فقتل الأفضل ثانى سنة ، وتغيرت الأحوال .

ثم انهم اختاروا للرصد مسجد التنور فوق المقطم ، فوجدوه بعيدا عن الحوائج ، فأجمعوا على سطح الجرف بالمسجد المعروف بالفيلة الكبير — وكان قد صرف على المسجد خاصة

ستة آلاف دينار — فحفروا فى مسجد الفيلة نقرا فى الجبل مكان الصهريج الآن ، فعمل فيه قالب الحلقة الكبيرة — وقطرها عشرة أذرع ودورها ثلاثون ذراعا — وهندموه وحرروه أياما . وعمل حوله عشر هرج ، على كل هرجة منفاخان ، وفى كل هرجة أحد عشر قنطارا نحاسا وأقل وأكثر ، والجميع مائة قنطار وكسر ، قسموها على الهرج ، وطرح فيها النار من العصر ، ونفخوا الى الثانية من النهار .

وحضر الأفضل بكرة ، وجلس على كرسى ، فلما تهيأت الهرج ودارت أمر الأفضل بفتحها — وقد وقف على كل هرجة رجل ، وأمروا بفتحها فى لحظة — ففتحت ، وسال النحاس كالماء الى القالب ، وكان قد بقى فيه بعض النداوة ، فلما استقر به النحاس بحرارته ، تقعقع المكان الندى فلم تتم الحلقة . ولما بردت وكشف عنها ، اذ هى تامة ما خلا المكان الندى

فضجر الأفضل وضاق صدره ، ورمى الصناع بكيس فيه ألف درهم ، وغضب وركب . فلاطفه ابن قرقة وقال : مثل هذه الآلة العظيمة التى ما سمع قط بمثلها ، لو أعيد سبكها عشر مرات حتى تصح ما كان كثيرا .

فقال له الأفضل : اهتم فى اعادتها .

فسبكت وصحت ، ولم يحضر الأفضل فى المرة الثانية ففرح بصحتها ، وعملت ورفعت الى سطح مسجد الفيلة ، وأحضر لها جميع صناع النحاس ، وعمل لها بركار خشب من السنديان — وهو بركار عجيب — وبنى فى

وسط الحلقة مسطبة حجارة منقبة لرجل البركار ، وهو قائم مثل عروس الطاحون ، وفيه * ساعد مثل ناف الطاحون ، وقد لبس بالحديد ، والجميع سنديان جيد ، وطرف الساعد مهيأ لعدة فنون : تارة لتصحيح وجه الحلقة ، وتارة لتعديل الاجناب ، وتارة للخطوط والحزوز .

وأقام فى التصحيح فيها وأخذ زوائدها بالمبارد مدة طويلة ، وجماعة الصناع والمهندسين وأرباب هذا العلم حاضرون ، واستدعى لهم خيمة عظيمة ضربت على الجميع ، وعقد تحت الحلقة أقباء وثيقة ، وأرادوا قيامها على سطح مسجد الفيلة فلم يتهيأ لهم ، فانهم وجدوا المشرق لأول بروز الشمس مسدودا ، فاتفقوا على نقلها الى المسجد الجيوشى مجاور الانطاكى ، المعروف أيضا بالرصد ، وكان الأفضل بناه ألطف من جامع الفيلة ولم يكمل ، فلما صار برسم الرصد كمل .

فحضر الأفضل فى نقل الحلقة من جامع الفيلة الى المسجد الجيوشى ، وقد أحضرت الصوارى الطوال العظام والسرباقات والمنجانات من الاسكندرية وغيرها ، وجمعت الأسطولية ورجال السودان وبعض أصحاب الركاب والجند حتى أدلوه ، وحملوه على العجل الى مسجد الرصد الجيوشى .

وثانى يوم حضروا بأجمعهم حتى رفعوه الى السطح ، وكملوه ، وأقاموا الحلقة ، وجعلوا تحت أكتافها عمودين من رخام سبكوهما بالرصاص من أسفلهما وأعلاهما

(١) ص١٢٦ جـ١ ، ط. بولاق .

حتى لا يرتخى ثقل النحاس ، وجعل فى الوسط عمود رخام ، وبأعلاه قطب العضادة مسبوك بالنحاس الكثير لتدور عليه العضادة . وعملت من نحاس فما تمارست ولا دارت ، فعملوها من خشب ساج وقطبها وأطرافها من نحاس صفائح ليخف الدوران ، ثم رصدوا بها الشمس بعد كلفة .

وكانت الحلقة ترخى الدرجة والدقائق كل وقت للثقل ، فعمل عمود من نحاس فوق عمود الرخام ليمسك رخوها . وغلبوا بعد ذلك ، فكانت تختلف لشدة ما كانوا يحررونها بالشواقيل وعضادة الخشب .

وتردد اليها الأفضل مع كبر سنه وهو يرتعش ، والقائد يحمله الى فوق ، ويقعد زمانا من التعب لا يتكلم ويده ترتعش ، فرصدوا قدامه .

وفى خلال ذلك قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة وخمسمائة .

وقيل للأفضل عن ابن قرقة انه أسرف فى كبر الحلقة وعظم مقدارها ، فقال له الأفضل : لو اختصرت منها كان أهون .

فقال : وحق نعمتك ، لو أمكننى أن أعمل حلقة تكون رجلها الواحدة على الأهرام والأخرى على التنور فعلت ، فكلما كبرت الآلة صح التحرير . وأين هذا فى العالم العلوى ؟

ثم أكثروا عليه فعمل حلقة دونها فى الموضع المهندم بالطوب الأحمر ، تحت المسجد الجيوشى ، كان قطرها أقل من سبعة أذرع ودورها نحو أحد وعشرين ذراعا .

فلما كملت قتل الأفضل ، ولم ينفق من مال السلطان فى الأجرة والمؤن وما لابد منه سوى نحو مائة وستين دينارا .

فلما تمت الوزارة للمأمون البطائحى ، أحب أن يكملها — ويقال له الرصد المأمونى المصحح ، كما قيل للأول الرصد المأمونى الممتحن — فأخرج الأمر بنقل الرصد الى باب النصر بالقاهرة ، فنقل على الطريقة الأولى بالعتالين والأسطولية وطوائف الرجال ، وكان يدفع لهم كل يوم برسم الغداء جملة دراهم .

فلما صار فوق العجل مضوا به على الخندق من وراء الفتح على المشاهد الى مسجد الذخيرة من ظاهر القاهرة ، وتعبوا فى دخوله من باب النصر تعبا عظيما لخوفهم أن يصدم فيتغير ، فنصبوا الصوارى على عقد باب النصر من داخل الباب ، وتكاثر الرجال فى جذب المياحين من أسفل ومن فوق حتى وصل الى السطح الكبير ، ثم نقلوه من السطح الكبير الى السطح الفوقانى ، وأوقفوا له العمد كما تقدم ذكره ، ورصدوا بالحلقة الكبرى كما رصدوا بها على سطح الجرف ، فصح لهم ما أرادوا من حال الشمس فقط .

ثم اهتموا بعمل ذات حلق يكون قطرها خمسة أذرع ، وسبكت فى فندق بالعطوفية من القاهرة ، وكان الأمر فيها سهلا عندما لحقهم من العناء العظيم فى الحلقة الكبيرة والحلقة الوسطى . وتجرد المأمون لعملها والحث فيها ، وكان ابن قرقة يحضر كل يوم دفعتين ، ويحضر أبو جعفر بن حسنداى ،

وأبو البركات بن أبى الليث صاحب الديوان وبيده الحل والعقد .

فقال له المأمون : اطلع اليهم كل يوم وأى شىء طلبوه وقع لهم به من غير مؤامرة .

وكان قصده ما أطمعوه فيه من أن يقال الرصد المأمونى المصحح ، فلو أراد الله أن يبقى المأمون قليلا كان كمل جميع رصد الكواكب ، لكنه قبض عليه ليلة السبت ثالث شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وكان من جملة ما عدد من ذنوبه عمل الرصد المذكور والاجتهاد فيه ، وقيل أطمعته نفسه فى الخلافة بكونه سماه الرصد المأمونى ونسبه الى نفسه ولم ينسبه الى الخليفة الآمر بأحكام الله .

وأما العامة والغوغاء فكانوا يقولون أرادوا أن يخاطبوا زحل ، وأرادوا أن يعلموا الغيب .

وقال آخرون منهم : عمل هذا للسحر ونحو ذلك من الشناعات .

فلما قبض على المأمون بطل ، وأنكر الخليفة على عمله ، فلم يجسر أحد أن يذكره . وأمر فكسر وحمل الى المناخات ، وهرب المستخدمون ومن كان فيه من الخاص .

وكان فيه من المهندسين * برسم خدمته وملازمته فى كل يوم بحيث لا يتأخر منهم أحد : الشيخ أبو جعفر بن حسنداى ، والقاضى بن أبى العيش ، والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب ، والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتى الاسكندرانى المهندس ، وأبو محمد عبد الكريم الصقلى

(*) ص١٢٧ جـ١ ، ط.بولاق .

المهندس ، وغيرهم من الحساب والمنجمين كابن الحلبى وابن الهيثمى وأبى نصر تلميذ سهلون ، وابن دياب ، والقلعى ، وجماعة يحضرون كل يوم الى ضحوة النهار ، فيحضر صاحب الديوان ابن أبى الليث ، وكان ابن حسنداى ربما تأخر فى بعض الأيام ، فانه كان امرأ عظيما صاحب كبرياء وهيبة .

وفى كل يوم يبعث المأمون من يتفقد الجماعة ويطالعه بمن غاب منهم ، لأنه كان كثير التفقد للأمور كلها ، وله غمازون وأصحاب أخبار لا تنام ، ولا يكاد يفوته شىء من أحوال الخاصة والعامة بمصر والقاهرة ومن يتحدث ، وجعل فى كل بلد من الأعمال من يأتيه بسائر أخبارها .

وأنا أدركت هذا الموضع الذى يعرف اليوم بالرصد — حيث جامع الفيلة — عامرا ، فيه عدة مساكن ومساجد ، وبه أناس مقيمون دائما ، وقد خرب ما هناك وصار لا أنيس به .

وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أنشأ فيه سواقى لنقل الماء من أماكن قد حفر لها خليج من البحر بجوار رباط الآثار النبوية ، فاذا صار الماء فى سفح هذا الجرف المسمى بالرصد نقل بسواق هناك قد أنشئت ، الى أن يصير الى القلعة . فمات ولم يكمل ما أراده من ذلك ، كما ذكر فى أخبار قلعة الجبل من هذا الكتاب .

وما زال موضع هذا الرصد متنزها لأهل مصر ، ويقال ان المعز لدين الله معدا لما قدم من بلاد المغرب الى القاهرة ، لم يعجبه مكانها ، وقال للقائد جوهر : فاتك بناء

القاهرة على النيل ، فهلا كنت بنيتها على الجرف (يعنى هذا المكان)

ويقال ان اللحم علق بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، وعلق بقلعة الجبل فتغير بعد يومين وليلتين ، وعلق فى موضع الرصد فلم يتغير ثلاثة أيام ولياليها ، لطيب هوائه . ولله در القائل :

ياليلة عاش سرورى بها
ومات من حسدنا بالكمد
وبت بالمعشوق فى المشتهى
وبات من يرقبنا بالرصد

ذكر مدائن ارض مصر

قال ابن سيده : مدن بالمكان أقام ، والمدينة : الحصن يبنى فى أسطحة الأرض ، مشتق من ذلك ، والجمع مدائن ومدن . ومن هنا حكم أبو الحسن — فيما حكى الفارسى عنه — أن مدينة فعيلة

وقال العلامة أثير الدين ابو حيان : المدينة معروفة مشتقة من مدن ، فهى فعيلة ، ومن ذهب الى أنها مفعلة من دان فقوله ضعيف لاجماع العرب على الهمز فى جمعها ، فانهم قالوا مدائن بالهمز ، ولا يحفظ مداين بالياء . ولا ضرورة تدعو الى أنها مفعلة من دان ، ويقطع بأنها فعيلة جمعهم لها على فعل ، فانهم قالوا مدن ، كما قالوا صحف فى صحيفة .

واعلم أن مدائن مصر كثيرة ، منها ما دثر وجهل اسمه ورسمه ، ومنها ما عرف اسمه وبقى رسمه ، ومنها ما هو عامر .

وأول مدينة عرف اسمها فى أرض مصر مدينة أمسوس ، وقد محا الطوفان رسمها ، ولها أخبار معروفة ، وبها كان ملك مصر قبل الطوفان ، ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان مدينة منف ، وكان بها ملك القبط والفراعنة الى أن خربها بخت نصر .

فلما قدم الاسكندر بن فيلبش المقدونى من مملكة الروم ، عمر مدينة الاسكندرية عمارة جديدة ، وصارت دار المملكة بمصر ، الى أن قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين وفتح ارض مصر ، فاختط فسطاط مصر ، وصارت مدينة مصر الى أن قدم جوهر القائد من الغرب بعساكر المعز لدين الله أبى تميم معد ، وملك مصر واختط القاهرة ، فصارت دار المملكة بمصر الى أن زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فبنى قلعة الجبل ... وصارت القاهرة مدينة مصر الى يومنا هذا .

وفى أرض مصر عدة مدائن ليست دار ملك ، وهى مدينة الفيوم ومدينة دلاص ومدينة اهناس ومدينة البهنسا ومدينة القيس ومدينة طلخا ومدينة الأشمونين ومدينة أنصنا ومدينة قوص ومدينة سيوط ومدينة قاو ومدينة أخميم ومدينة البلينا ومدينة هو ومدينة قنا ومدينة دندرة ومدينة قفط ومدينة الأقصر ومدينة اسنا ومدينة أرمنت ومدينة أدفو وثغر أسوان ، وأدركناه مدينة ... هذه مدائن الوجه القبلى .

وكان أهل مصر يسمون من سكن من القبط بالصعيد المريس ، ومن سكن منهم أسفل الأرض يسمونه البيما .

وفى الوجه البحرى مدينة نوب من الحوف الشرقى بأسفل الأرض ، ومدينة عين شمس ومدينة أتريب ومدينة تنوا ، ومن قراها ناحية زنكلون ، ومدينة نمى ومدينة بسطة ، ويعرف اليوم موضعها بتل بسطة ، ومدينة قربيط ومدينة البتنون ومدينة منوف ومدينة طوة ومدينة منوف * أيضا ومدينة سخا ومدينة الأوسة ، وهى دميرة ، ومدينة تيدة ومدينة الافراحون ، ومن جملة قراها نشا ، ومدينة بقيرة ومدينة بنا ومدينة شبراساط ومدينة سمنود ومدينة نوسا ومدينة سبتى ومدينة النجوم — وقد غلب على مدينة النجوم الرمال والسباخ ، ويعرف اليوم منها قرية ادكو على ساحل البحر بين اسكندرية ورشيد — ومدينة تنيس ومدينة دمياط ومدينة الفرما ومدينة العريش ومدينة صا ومدينة برنوط ومدينة قرطسا ومدينة أخنو ومدينة رشيد ومدينة مريوط ومدينة لوبية ومراقية ، وليس بعد لوبية ومراقية الا أرض انطابلس وهى برية .

وفى كور القبلة مدينة فاران ومدينة القلزم ومدينة راية ومدينة أيلة ومدينة مدين .

وأكثر هذه المدائن قد خرب ، ومنها ما له أخبار معروفة .

وقد استحدث فى الاسلام بعض مدائن ، وسيأتى من أخبار ذلك ان شاء الله ما يكفى .

وديار مصر اليوم وجهان : قبلى وبحرى ، جملتهما خمس عشرة ولاية . فالوجه القبلى أكبرهما ، وهو تسعة أعمال :

عمل قوص ، وهو أجلها ، ومنه أسوان وغرب قمولة ، وأسوان حد المملكة من الجنوب .

وعمل اخميم .

وعمل سيوط .

وعمل منفلوط .

وعمل الأشمونين ، وبها الطحاوية .

وعمل البهنسا .

وعمل الفيوم .

وعمل أطفيح .

وعمل الجيزة .

والوجه البحرى ستة أعمال :

عمل البحيرة ، وهو متصل البر بالاسكندرية وبرقة .

وعمل الغربية ، وهى جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين : بحر دمياط وبحر رشيد .

والمنوفية ، ومنها ابيار التى تسمى جزيرة بنى نصر .

وعمل قليوب .

وعمل الشرقية .

وعمل أشموم طناح ، ومنها الدقهلية والمرتاحية ، وهنا موضع ثغر البرلس وثغر رشيد بالمنصورة .

وفى هذا الوجه الاسكندرية ودمياط وهما مدينتان لا عمل لهما .

وذكر أبو الحسن المسعودى فى كتاب « أخبار الزمان » أن الكوكة (وهى أمة من أهل أيلة) ملكوا الأرض وقسموا الصعيد على ثمانين كورة ، وجعلوه أربعة أقسام .

(*) ص١٢٨ جـ١ ، ط. بولاق .

وكان عدد مدن مصر الداخلة فى كورها ثلاثين مدينة ، فيها جميع العجائب والكور مثل أخميم وقفط وقوص والفيوم .

ويقال ان مصر بن بيصر قسم الأرض بين أولاده ، فأعطى ولده أشمون من حد بلده الى رأس البحر الى دمياط ، وأعطى ولده أنصنا من حد أنصنا الى الجنادل ، وأعطى لولده صا من صا أسفل الأرض الى الاسكندرية ، وأعطى لولده منوف وسط الأرض السفلى منف وما حولها ، وأعطى لولده قفط غربى الصعيد الى الجنادل ، وأعطى لولده أتريب شرقى الأرض الى البرية — برية فاران — وأعطى لبناته الثلاث ، وهن الفرما وسريام وبدورة ، بقاعا من أرض مصر محددة فيما بين اخوتهن .

ذكر مدينة امسوس وعجائبها وملوكها

قال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب فى كتاب « أخبار مصر وعجائبها » : وكانت مصر القديمة اسمها أمسوس . وأول من ملك أرض مصر نقراوش الجبار بن مصرايم — ومعنى نقراوش : ملك قومه — الأول ابن مركابيل بن دوابيل بن عرباب بن آدم عليه السلام . ركب فى نيف وسبعين راكبا من بنى عرباب جبابرة ، كلهم يطلبون موضعا يقطنون فيه ، فرارا من بنى أبيهم عندما بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا ، وبغى عليهم بنو قابيل ابن آدم .

فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا الى النيل ، فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه ، أعجبهم فأقاموا فيه ، وبنوا الأبنية المحكمة . وبنى نقراوش مصر وسماها باسم أبيه مصرايم ، ثم تركها وأمر ببناء مدينة سماها أمسوس .

وقال ابن وصيف شاه : وكان قد وقع اليه علم ذلك من العلوم التى تعلمها دوابيل من آدم عليه السلام ، فبنى الأعلام ، وأقام الأساطين ، وعمل المصانع ، واستخرج المعادن ، ووضع الطلسمات ، وشق الأنهار ، وبنى المدائن ... فكل علم جليل كان فى أيدى المصريين انما هو من فضل علم نقراوش وأصحابه ، كان ذلك مرموزا على الحجارة ، ففسره قليمون الكاهن الذى ركب مع نوح عليه السلام فى السفينة .

ونقراوش هو الذى بنى مدينة أمسوس وعمل بها عجائب كثيرة : منها طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين وعند غروبها مرتين ، فيستدلون بصفيره على ما يكون من الحوادث حتى يتهيأوا لها .

ومنها صنم من حجر أسود فى وسط المدينة ، تجاهه صنم مثله ، اذا دخل الى المدينة سارق لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما ، فاذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ .

وعمل صورة من نحاس على منار عال ، لا يزال عليها سحاب يطلع ، فكل من استمطرها أمطرت عليه ما شاء .

وعمل على حد البلاد أصناما من نحاس مجوفة ، وملأها كبريتا ، ووكل بها روحانية النار ، فكانت اذا قصدهم قاصد أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارا أحرقته .

وعمل فوق جبل بطرس منارا يفور بالماء ، ويسقى ما حوله من المزارع ... ولم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان .

ويقال انه هو الذى أصلح مجرى النيل ، وكان قبله يتفرق بين الجبلين ، وانه وجه الى بلاد النوبة جماعة هندسوه * ، وشقوا نهرا عظيما منه بنوا عليه المدن وغرسوا الغروس . وأحب أن يعرف مخرج النيل فسار حتى بلغ خلف خط الاستواء ، ووقف على البحر الأسود الزفتى ، ورأى النيل يجرى على البحر مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القمر ويخرج منه الى بطائح .

ويقال انه هو الذى عمل التماثيل التى هناك .

وعاد الى أمسوس وقسم البلاد بين أولاده : فجعل لابنه الأكبر — واسمه نقاوش — الجانب الغربى ، ولابنه شوورب الجانب الشرقى ، وبنى لابنه الأصغر — واسمه مصرايم — مدينة برسان وأسكنه فيها .

وأقام ملكا على مصر مائة وثمانين سنة .

ولما مات لطخ جسده بأدوية ماسكة ، وجعل فى تابوت من ذهب ، وعمل له تابوت مصفح بالذهب ، ووضع فيه ومعه كنوز واكسير وأوان من ذهب لا يحصى لذلك كثرة . وزبروا على الناووس تاريخ موته ، وأقاموا عليه طلسما يمنعه من الحشرات المفسدة .

وملك بعده ابنه نقاوش بن نقراوش ، وكان كأبيه فى علم الكهانة والطلسمات ، وهو أول من عمل بمصر هيكلا ، وجعل فيه صور الكواكب السبعة ، وكتب على هيكل كل كوكب منافعه ومضاره ، وألبسها كلها الثياب الفاخرة ، وأقام لها خدمة وسدنة .

وخرج من أمسوس مغربا حتى بلغ البحر المحيط ، وأقام عليه أساطين على رؤوسها أصنام تسرج عيونها فى الليل .

ومضى على بلاد السودان الى النيل ، وأمر ببناء حائط على جنب النيل ، وعمل له أبوابا يخرج منها الماء .

وبنى فى صحراء الغرب خلف الواحات ثلاث مدن على أساطين مشرفات من حجارة ملونة شفافة ، وفى كل مدينة عدة خزائن من الحكمة .

وفى احداها صنم للشمس على صورة انسان وجسد طائر من ذهب ، وعيناه من جوهر أصفر ، وهو جالس على سرير من مغناطيس ، وفى يده مصحف العلوم .

وفى احداها صنم رأسه رأس انسان بجسد طائر ، ومعه صورة امرأة جالسة قد عملت من زئبق معقود ، لها ذؤابتان ، فى يدها مرآة ، وعلى رأسها صورة كوكب ، وقد رفعت المرآة بيديها الى وجهها .

وفى احداها مطهرة فيها سبعة ألوان من سائل يرد اليها ولا يغير بعضها لون بعض .

وفى بعضها صورة شيخ جالس قد عمل من الفيروزج ، وبين يديه صبية جلوس كلهم من عقيق .

وفى بعضها صورة هرمس (يعنى عطارد) ، وهو ينظر الى مائدة بين يديه من نوشادر ، على قوائم من كبريت أحمر ، وفى وسطها

(*) ص١٢٩ جـ١ ، ط.بولاق .

مسطحة من جوهر ، وجعل فيها صورة عقاب من زبرجد أخضر ، وعيناه من ياقوت أصفر ، وبين يديه حية زرقاء من فضة ، قد لوت ذنبها على رجليه ، ورفعت رأسها كأنها تنفخ عليه ، وجعل فيها صفة المريخ وهو راكب على فرس ، وفي يده سيف مسلول من حديد أخضر ، وجعل فيها عمودا من جوهر أحمر ، وعليه قبة من ذهب فيها صورة المشترى ، وجعل فيها قبة من آنك على أربعة أعمدة من جزع أزرق ، وفي سقفها صورة الشمس والقمر متحاذيين في صورة رجل وامرأة يتحادثان ، وجعل فيها قبة من كبريت أحمر فيها صورة الزهرة على هيئة امرأة ممسكة بضفائرها ، وتحتها رجل من زبرجد أخضر في يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها .

وجعل في بقية الخزائن من كنوز الأموال والجواهر والحلى واكسير الصنعة وصنوف الأدوية والسموم القاتلة ما لا يحصى كثرة .

وجعل على باب كل مدينة طلسما يمنع من دخولها ، واتخذ لها سارب تحت الأرض ينفذ بعضها الى بعض ، طول كل سرب ثلاثة أميال .

وبنى أيضا مدينة بأرض مصر اسمها حلجمة ، وعمل فيها جنة صفح حيطانها بالجواهر الملونة بالذهب ، وغرس فيها أصناف الأشجار ، وأجرى تحتها الأنهار ، وغرس فيها شجرة مولدة تطعم سائر الفواكه ، وعمل فيها قبة من رخام أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس ، ووكل بها شياطين اذا خرج أحد من بيته في الليل هلك ، وأقام بها أساطين زبر عليها جميع العلوم وصور العقاقير ومنافعها ومضارها .

وجعل لهذه المدينة سارب تتصل بسارب تلك المدن الثلاث ، بين كل سرب منها وبين هذه المدينة عشرون ميلا .

فلم تزل هذه المدائن حتى أفسدها الطوفان .

ولما مات بعد مائة وتسع سنين من ملكه على مصر ، جعل في ناووس مطلسم ودفن فيه .

وملك بعده أخوه مصرام بن نقراوش الجبار ابن مصرايم — ويقال به سميت مصر — وكان حكيما ، فعمل هيكلا للشمس من مرمر مموه بذهب أحمر ، وفي وسطه فرس من جوهر أزرق عليه صورة الشمس من ذهب أحمر ، وعلى رأسه قنديل من الزجاج فيه حجر مدبر يضيء أكثر من السراج .

ثم انه ذلل الأسد وركبها ، وسار الى البحر المحيط ، وجعل في وسطه قلعة بيضاء عليها صنم للشمس ، وزبر عليه اسمه وصفته ، وعمل صنما من نحاس زبر عليه : أنا مصرام الجبار ، كاشف الأسرار ، الغالب القهار ، وضعت الطلسمات الصادقة ، وأقمت الصور الناطقة ، ونصبت الأعلام الهائلة على البحار السائلة ، ليعلم من بعدى أنه لا يملك أحد أشد من أيدى .

وعاد الى أمسوس ، واحتجب عن الناس ثلاثين سنة ، واستخلف رجلا يقال له عيقام من ولد عرياب بن * آدم ، وكان كاهنا ساحرا .

(*) ص ١٢٠ ج ١ ، ط . بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

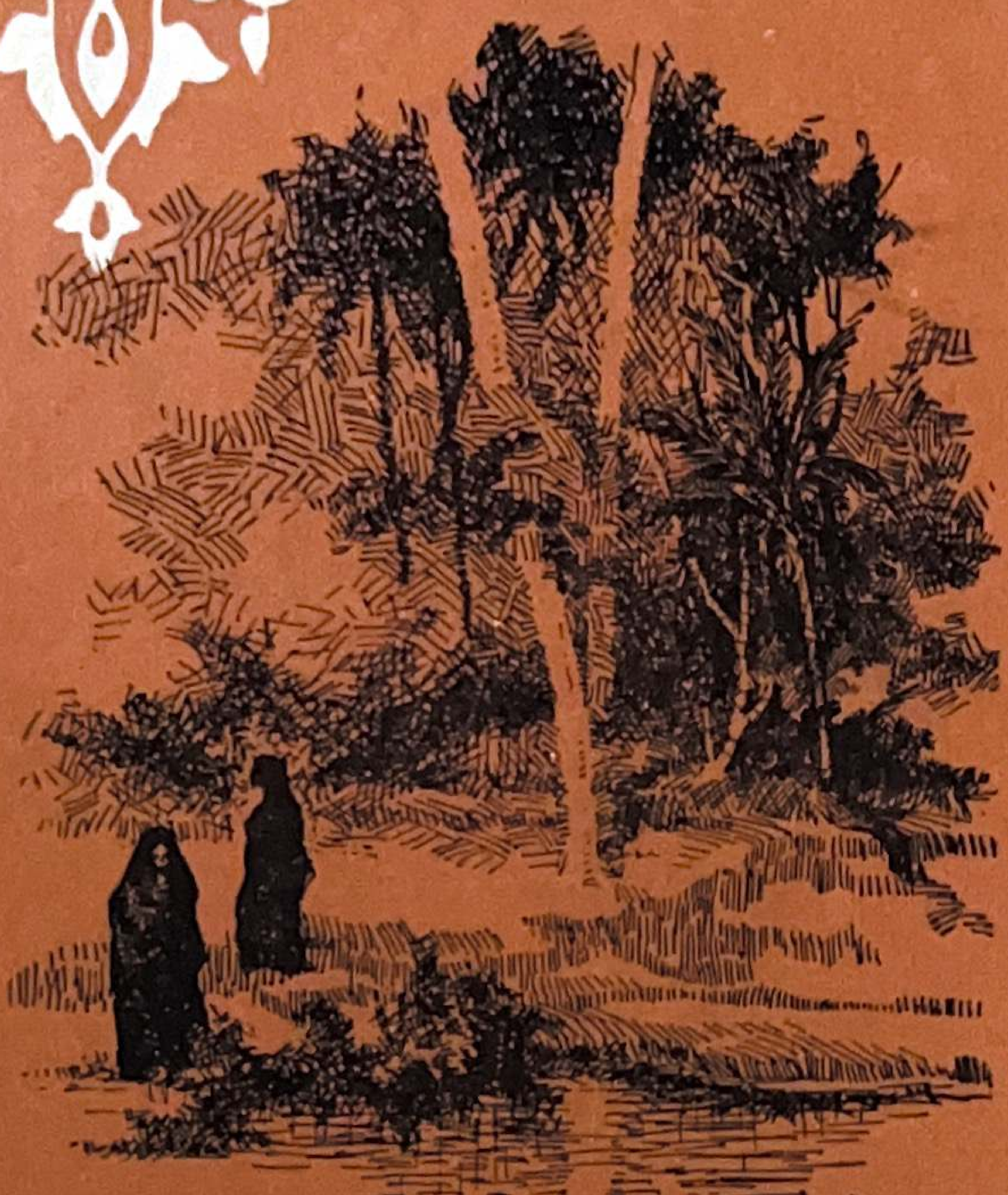
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٧



كتاب التحرير

«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاعتراف من آثارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها.»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

فلما مضت المدة أحب أهل مصر أن يروه ، فجمعهم عيقام بعد ما أعلم مصرام ، فظهر لهم فى أعلى مجلس مزين بأصناف الزينة ، فى صورة هائلة ملأت قلوبهم رعبا ، فخروا له ساجدين ، ودعوا له . ثم أحضر اليهم الطعام فأكلوا وشربوا ، وأمرهم بالرجوع الى مواضعهم ، ولم يروه بعدها .

فملك بعده خليفته عيقام ، وقد حكى عنه أهل مصر حكايات لا تصدقها العقول .

ويقال ان ادريس عليه السلام رفع فى أيامه ، وانه رأى فى علمه كون الطوفان ، فبنى خلف خط الاستواء فى سفح جبل القمر قصرا من نحاس ، وجعل فيه خمسة وثمانين تمثالا من نحاس يخرج ماء النيل من حلوقها ويصب فى بطحاء تنتهى الى مصر .

وسار اليه من أمسوس ، فشاهد حكمة بنيانه ، وزخرفة حيطانه وما فيها من النقوش من صور الأفلاك وغيرها .

وكان قصرا تسرج فيه المصابيح ، وتنصب فيه الموائد وعليها من كل الأطعمة الفاخرة فى الأوانى النفيسة ما لو أكل منها عسكر لما نقصت ذرة ، ولا يعرف من عملها ولا من وضعها ، وفى وسط القصر بركة من ماء جامد الظاهر ، وترى حركته من وراء ما جمد منه .

فأعجب بما رأى ، وعاد الى أمسوس ، واستخلف ابنه عرياق ، وقلده الملك وأوصاه ، وعاد الى ذلك القصر وأقام به حتى هلك .

والى عيقام هذا يعزى مصحف القبط الذى فيه تواريخهم ، وجميع ما يجرى فى آخر الزمان .

فقام من بعده ابنه عرياق ويقال أرياق بن عيقام ، ويقال له الأثيم ، فعمل أعمالا عجيبة :

منها شجرة صفراء لها أغصان من حديد بخطاطيف ، اذا قرب الظالم منها أخذته تلك الخطاطيف ولا تفارقه حتى يقر بظلمه ، ويخرج منه لخصمه .

ومنها صنم من كدان أسود سماه عبد زحل ، كانوا يتحاكمون اليه : فمن زاغ عن الحق ثبت فى مكانه ، ولم يقدر على الخروج منه حتى ينصف خصمه من نفسه ، ولو أقام سنة . ومن كانت له حاجة قام ليلا ونظر الى الكواكب وتضرع وذكر اسم عرياق ، فاذا أصبح وجد حاجته على بابه .

وعمل شجرة من حديد ذات أغصان ، ولطخها بدواء مدبر ، فكانت تجلب كل صنف من الدواب والسباع والوحوش اليها حتى يتمكن من صيدها .

وكان اذا غضب على أهل اقليم سلط عليهم الوحوش والسباع ، وتارة يجعل ماءهم من الايداق .

ويقال ان هاروت وماروت كانا فى زمانه ، وانه بنى جنة عظيمة ، واغتصب النساء الحسان وأسكنهن فيها ، فعملت عليه امرأة منهن وسمته فهلك .

وملك بعده لوجيم بن نقاوش ، ويقال بل هو من بنى نقراوش الجبار ويعرف بلوجيم

الفتى ، وهو الذى أخذ الملك من عرباق بن عيقام الكاهن ورده لبنى نقراوش بعدما خرج منهم بلا حرب ولا قتل .

وكان عالما بالكهانة والطلسمات فعمل أعمالا عجيبة منها أن الغداف والغراب كثر فى أيامه وأتلف الزرع ، فعمل أربع منارات فى جوانب مدينة أمسوس الأربعة ، وعلى كل منارة صورة غراب فى فمه حية قد التوت عليه ، فنفرت عنهم الطيور المضرة من حينئذ ، ولم تقربهم حتى زالت المنارات بالطوفان .

وكان حسن السيرة ، منصفا للرعية ، عادلا ، مقربا للكهنة . ولما مات دفن فى ناووس ومعه كنوزه ، وعمل عليه طلسم يمنعه .

وملك بعده ابنه خصليم ، وكان فاضلا عالما كاهنا ، فعمل أعمالا عجيبة . وهو أول من عمل مقياسا لزيادة ماء النيل بأن جمع أرباب العلوم والهندسة فقدروا بيتا من رخام على حافة النيل ، وفى وسطه بركة صغيرة من نحاس فيها ماء موزون ، وعليها من جانبيها عقابان من نحاس أحدهما ذكر والآخر أنثى . فاذا كان أول الشهر الذى يزيد فيه النيل فتح هذا البيت ، وجمع الكهان فيه بين يديه ، وزمزم الكهان بكلامهم حتى يصفر أحد العقابين : فان صفر الذكر كان الماء تاما ، وان صفرت الأنثى كان الماء ناقصا ، فيستعدون عند ذلك لغلاء الأسعار بما يصلحون به شأنهم .

وهو الذى بنى القنطرة ببلاد النوبة على النيل .

ولما مات جعل فى ناووس ومعه كنوزه ، وعمل عليه طلسم .

وملك بعده ابنه هوصال ، ويقال يوصال ومعناه خادم الزهرة ، ويقال سومال بن لوجيم الملك النقراوشى من بنى نقراوش الجبار .

ويقال ان نوحا عليه السلام ولد فى أيامه .

وكان فاضلا كاهنا عالما بالسحر والطلسمات فعمل عجائب ، منها أنه بنى مدينة عمل فى وسطها صنما للشمس يدور بدورانها ، ويبيت مغربا ، ويصبح مشرقا . وعمل سربا تحت النيل ، فشق الأرض وخرج منه متنكرا حتى بلغ مدينة بابل ، وكشف أعمال الملوك . وكان نوح عليه السلام فى زمانه .

وولد له عشرون ولدا ، فجعل مع كل ولد منهم قطرا ، وهو رأس الكهنة . وأقام فى الملك مائة وسبع عشرة سنة ، ثم لزم الهياكل وأقام أولاده على حالهم ، كل منهم فى قسمه الذى أعطاه اياه أبوه مدة سبع سنين .

ثم اجتمعوا على واحد منهم وملكوه عليهم ، وكان اسمه تدرشان ، وقيل تدرسان ، فلما ملك نفى جميع اخوته الى المدائن الداخلة فى الغرب ، واقتصر على امرأة من بنات عمه ، وكانت ساحرة . وعمل له قصرا من خشب منقوشا فيه صورة الكواكب ، وبسطه بأحسن الفرش ، وحمله على الماء ، وصار * يجلس فيه .

فبينما هو فيه ذات يوم اذ هبت ريح شديدة اضطرب منها الماء ، فانقلب القصر وتكسر ، فغرق هو ومن كان معه فى القصر .

(*) ص١٢١ جـ١ ، ط. بولاق .

وملك بعده أخوه نمرود الجبار ، ويقال شمرود بن هوصال ، فأحسن السيرة وأنصف الرعية وبسط العدل ، وجمع اخوته وفرق عليهم كنوز أخيهم ، فسر الناس به .

وطلب امرأة أخيه الساحرة ففرت منه بابنها الى مدينة ببلاد الصعيد ، وامتنعت عليه بسحرها ، وأقامت مدة . واجتمع السحرة الى ابنها — وكان اسمه توميدون — وحملوه على طلب الملك ، فسار وخرج اليه شمرود واخوته ، فاقتتلوا قتالا عظيما كان فيه الظفر لتوميدون فقتله ، وملك من بعده .

فقام توميدون بن تدرسان بالملك فى مدينة أمسوس ، وكان عالما فاضلا ، فتقوى بسحر أمه ، وعملت له أعمالا عجيبة ، منها قبة من زجاج على هيئة الكرة ، تدور بدوران الفلك ، وصورت فيها صور الكواكب ، فكانوا يعرفون بها أسرار الطبائع وعلوم العالم .

فلما ماتت أمه الساحرة بعد ستين سنة من ملكه ، طلى جسدها بما يدفع عنه النتن والحشرات ، ودفنت تحت صنم القمر . ويقال انها كانت بعد موتها يسمع من عندها صوت بعض الأرواح ، وتخبرهم بعجائب ، وتجيب عما تسأل عنه .

ولما مات توميدون بعد مائة سنة من ملكه ، عمل له صورة من زجاج مقسومة نصفين ، وأدخل فيها بعد ما طلى بالأدوية المانعة من النتن ، وأطبقت الصورة عليه حتى التحمت ، وأقيم فى هيكل الأصنام ، ودفنت كنوزه عنده ، وصار يعمل له فى كل سنة عيد .

وملك بعده ابنه شرياق ، ويقال له سرياق ، ابن توميدون بن تدرسان بن هوصال . وكان كأبيه فى علم الكهانة والسحر والطلسمات ، فعمل أعمالا عجيبة ، منها على باب مدينة أمسوس هيئة بطة من نحاس قائمة على أسطوانة اذا دخل غريب من ناحية من النواحى صفقت بجناحيها وصرخت ، فيؤخذ ذلك الغريب ويكشف أمره حتى يعرف فيما قدم . وشق من النيل نهرا يمر الى مدائن الغرب ، وبنى عليه أعلاما ومدنا ومتنزهات .

وسار ملك من بنى فراشى بن آدم ، ويقال من بنى صوانيتى بن آدم ، خرج من ناحية العراق فى أيامه ، وغلب على بلاد الشام ، وقصد مصر ليأخذ ملكها فقيل له انك لا تقدر عليها لسحر أهلها . فتنكر ودخل فى جماعة من خواصه ليكشف حال أهل مصر ، فلما وصل الى أول حد مصر حبسه الموكلون بذلك الحد هو ومن معه حتى يأمر الملك فيهم بأمره ، وبعثوا اليه بصفتهم .

وكان قد رأى فى منامه كأنه على منار عال ، وكأن طائرا عظيما انقض عليه ليخطفه فحاد عنه حتى كاد يسقط من المنار ، فجاوزه الطائر وسلم منه .

فانتبه مذعورا وقص رؤياه على كبير الكهنة ، فقال : يطلبك ملك ولا يقدر عليك . ونظر فى نجومه فرأى الملك الذى يطلب ملكه قد دخل الى مصر ، وكان ذلك هو الوقت الذى قدم عليه فيه الرسل بصفات الذين وصلوا الى حد مصر ، فأمر باحضارهم اليه

بعدما يطاف بهم على عجائب مصر كلها ليروها

فأوثقوهم وساروا بهم ، وأوقفوهم على عجائب أرض مصر وما فيها من الطلسمات ، حتى بلغوا الى الاسكندرية ، ثم الى أمسوس ، ثم الى الجنة التى عملها مصرام — وكان الملك شرياق مقيما بها — فعندما وصلوا اليها أظهرت السحرة التماثيل العجيبة ، فدخلوا عليه وحوله الكهنة وبين يديه نار لا يصل اليه أحد حتى يخوضها ، فمن كان بريئا لم تضره ، ومن كان يريد بالملك سوءا أو أضمر له مكروها أخذته النار .

فشق القوم فى وسط النار واحدا بعد واحد من غير أن تضرهم ، حتى انتهى الأمر الى ملك العراق ، فعندما دنا من النار أخذته بحرها فولى هاربا ، فأتبعوه حتى أخذوه وأوقفوه بين يدى شرياق ، فلم يزل به حتى اعترف ، فأمر بصلبه ، فصلب على الحصن الذى أخذ منه ، ونودى عليه : هذا جزاء من طلب ما لا يصل اليه ، وعفا عن الباقين فساروا من مصر وتحدثوا بما رأوه من العجائب ، فانقطع طمع ملوك الأرض عن طلب ملك مصر .

ومات شرياق بعد ما ملك مصر مائة وثلاثين سنة ، فجعل فى ناووس ومعه أمواله وطلسم يحفظه ممن يقصده .

وملك بعده ابنه شهلوق ، وكان عالما بالكهانة والطلسمات ، فقسم ماء النيل موزونا يصرف الى كل ناحية قسطها ، ورتب الدولة ، وعمل بيت نار ، وهو أول من عبد النار ، وعمل بأمسوس عجائب ، منها شجرة على أعلى الجبال تقسم بها الرياح التى تمنع من أراد مصر بأذى أو فساد من جنى أو انسى أو سبع أو طائر .

وعمل بالمدينة قبة مركبة على سبعة أركان ، ولها سبعة أبواب على كل ركن باب ، وفى وسط القبة قبة من صفر ، وفى أعلاها صور الكواكب السبعة ، وتحت القبة قبة أخرى معلقة على سبع أساطين .

وعلى الباب الأول من القبة أسد ولبوة من صفر وهما رابضان ، كان يذبح لهما جروا أسود ويبخرهما بشعره . وعلى الباب الثانى ثور وبقرة يذبح لهما عجلا ويبخرهما بشعره . وعلى الباب الثالث خنزير وخنزيرة يذبح لهما خنوصا ويبخرهما بشعره . وعلى الباب الرابع كبش وشاة يذبح لهما سخلة ويبخرهما بشعرها . وعلى الباب الخامس ثعلب وثعلبة يذبح لهما فرخ * ثعلب ويبخرهما بشعره . وعلى الباب السادس عقاب وأنثاه يذبح لهما فرخ عقاب ويبخرهما بريشه . وعلى الباب السابع نسر وأنثاه يذبح لهما فرخ نسر ويبخرهما بريشه ... ويلطخ كلا منهما بدم ما ذبح له ، وتحرق سائر القرابين ، ويوضع رمادها تحت عتبات أبواب القبة ، وجعل لهذه القبة سدنة يشعلون المصابيح ليلا ونهارا .

وقسم الناس بمصر سبع مراتب ، لكل مرتبة منهم باب من أبواب تلك القبة ... فكان الخصم اذا تقدم الى شىء من تلك الصور ، وكان ظالما ، فانه يلتصق بها ولا يتخلص منها حتى يخرج من الحق الذى عليه : الذكر

(*) ص١٢٢ جـ١ ، ط. بولاق .

للذكر ، والأنثى للأنثى ، فيعرفون بذلك الظالم من المظلوم .

ولم تزل هذه القبة بأمسوس حتى أزالها الطوفان .

ويقال انه رأى أباه فى النوم وهو يأمره أن ينطلق الى جبل وصفه له من جبال مصر ، فان فيه كوة صفتها كذا ، على بابها أفعى لها رأسان ، اذا أقبل اليها كشرت فى وجهه . فخذ معك طائرين صغيرين ذكرا وأنثى فاذبحهما لها ، وألقمها اياهما ، فانها تأخذ برأسيهما وتنتحى بهما الى سرب . فاذا غابت ادخل الكوة تجد فيها امرأة عظيمة من نور حار يابس ، فانها تسطع لك وتحس بحرارتها فلا تدن منها تحترق ، ولكن اقعد حذاءها ، وسلم عليها ، فانها تخاطبك . فافهم ماتقول لك واعمل به ، فانك تشرف بذلك ، وتدلك على كنوز جدك مصرام ، فانها حافظة لها .

فلما انتبه عمل ما أمره أبوه ، فلما قعد بجانب المرأة وسلم ، قالت له : أتعرفنى ؟

قال : لا .

قالت : أنا صورة النار المعبودة فى الأمم الخالية ، وقد أردت أن تحيى ذكرى ، وتجدد لى بيتا تقد لى فيه نارا دائمة بقدر واحد ، وتتخذ لها عيدا فى كل سنة تحضره أنت وقومك ، فانك تتخذ بذلك عندى يدا أنيلك بها شرفا الى شرفك ، وملكا الى ملكك ، وأمنع عنك من يطلبك بسوء ، وأدلك على كنوز جدك مصرام .

فضمن لها أن يفعل كل ما أمرته به ، فدلته على الكنوز التى تحت المدائن المعلقة ، وعلمته كيف يصير اليها وكيف يحترس من الأرواح الموكلة بها وما ينجيه منها .

ثم قال لها : كيف لى بأن أراك فى وقت آخر ؟

قالت : لا تعد ، فان الأفعى لا تمكنك ، ولكن بخر فى بيتك بكذا فانى آتيك .

فسُر بذلك ، وغابت عنه ، وخرج ، ففعل ما أمرته به من عمل بيت النار ، وأخذ كنوز مصرام .

ولما مات جعل فى ناووس ومعه سائر أمواله وكنوزه ، وجعل عليه طلسم يحفظه ممن يقصده .

وملك بعده ابنه سوريد ، وكان حكيما فاضلا ، وهو أول من جبى الخراج بمصر ، وأول من أمر بالانفاق على المرضى والزمنى من خزائنه ، وأول من سن رقعة الصباح .

وعمل أعمالا عجيبة ، منها مرآة من أخلاط كان ينظر فيها الى الأقاليم فيعرف فيها ما حدث من الحوادث ، وما يخصب منها وما يجدب . وأقام هذه المرآة فى وسط مدينة أمسوس ، وكانت من نحاس .

وعمل فى أمسوس صورة امرأة جالسة فى حجرها صبى ترضعه . وكانت المرأة من نساء مصر اذا أصابتها علة فى موضع من جسمها أتت هذه الصورة ومسحت ذلك الموضع من جسدها بمثل ذلك الموضع من الصورة فتزول عنها العلة ، وان قل لبنها مسحت ثديها بثدى الصورة فيغزر لبنها ، وان قل حيضها مسحت فرجها بفرج الصورة فيكثر حيضها ، وان كثر دمها مسحت أسفل ركبها بمثل ذلك من

الصورة ، وان عسرت ولادة امرأة مسحت رأس الصبيّ الذى فى حجر الصورة فتضع حملها ، وان أرادت التحبب الى زوجها مسحت وجهها وتقول افعلى كذا وكذا ، فاذا وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تتوب .

ولم تزل هذه الصورة الى أن أزالها الطوفان . وفى كتب القبط أنها وجدت بعد الطوفان ، وأن أكثر الناس عبدوها .

وعمل سوريد صنما من أخلاط كثيرة ، فكان من أصابته علة فى موضع من جسده غسل ذلك الموضع من الصنم بماء وشرب الماء فانه يبرأ .

وسوريد هذا هو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر المنسوبين الى شداد بن عاد ، والقبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم .

ولما مات سوريد دفن فى الهرم ومعه كنوزه . ويقال انه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة ، وانه ملك مائة سنة وتسعين سنة . .

فملك بعده ابنه هرجيب ، وكان كأبيه حكيما فاضلا فى علم السحر والطلسمات ، فعمل أعمالا عجيبة ، واستخرج معادن كثيرة ، وأظهر علم الكيمياء ، وبنى أهرام دهشور وحمل اليها أموالا عظيمة وجواهر نفيسة وعقاقير وسمومات ، وجعل عليها روحانيات تحفظها .

وشج رجل رجلا فأمر بقطع أصابعه ، وسرق رجل مالا فملك المسروق له رق السارق .

ولما مات دفن فى الهرم ومعه جميع أمواله وذخائره .

وملك بعده ابنه مناوس ، ويقال منقاوس ، وكان كأبيه فى الحكمة ، الا أنه كان جبارا فاسقا سفاكا للدماء ، ينتزع النساء من أزواجهن ويبيح ذلك لخواصه .

وعمل أعمالا عجيبة ، واستخرج كنوزا ، وبنى قصورا من ذهب وفضة ، وأجرى فيها الأنهار ، وجعل حصباءها من أصناف الجواهر النفيسة ، وسلط رجلا جبارا اسمه قرناس على الناس ، ووجهه لمحاربة الأمم الغربية ، فقتل منهم خلائق .

ولما مات دفن فى بعض قصوره ومعه أمواله ، وعمل عليه طلسم يحفظه ويمنعه من كل طالب * .

وملك بعده ابنه أفروس ، وكان كأبيه فى العلم والحكمة ، ولما ملك أظهر العدل وأحسن السيرة ، ورد النساء اللاتى غصبن فى أيام أبيه على أزواجهن .

وعمل قبة طولها خمسون ذراعا فى عرض مائة ذراع ، وركب فى جوانبها طيورا من صفر تصفر بأصوات مختلفة مطربة لا تفتر ساعة .

وعمل فى وسط مدينة أمسوس منارا عليه رأس انسان من صفر ، كلما مضى من النهار أو الليل ساعة صاح صيحة يعلم من سمعها بمضى ساعة .

(*) ص١٢٢ جـ١ ، ط. بولاق .

وعمل منارا عليه قبة من صفر مذهب ولطخها بلطوخات ، فاذا غربت الشمس فى كل ليلة اشتعلت القبة نورا تضىء له مدينة أمسوس طول الليل حتى يصير مثل النهار ، لا تطفئها الرياح ولا الأمطار ، فاذا طلع النهار خمد ضوؤها .

وأهدى لبعض ملوك بابل مدهنا من زبرجد قطره خمسة أشبار . ويقال انه وجد بعد الطوفان .

وعمل فى الجبل الشرقى صنما عظيما قائما على قاعدة ، وهو مصبوغ مصفر بالذهب ، ووجهه الى الشمس يدور معها حتى تغرب ، ثم يدور ليلا حتى يحاذى المشرق مع الفجر ، فاذا أشرقت الشمس استقبلها بوجهه .

وبنى بصحراء الغرب مدنا كثيرة ، وأودعها كنوزا عظيمة ، ونكح ثلثمائة امرأة ، ولم يولد له ولد ، فان الله تعالى كان قد أعقم الأرحام لما يريد من اهلاك العالم بالطوفان ، ووقع الموت فى الناس والبهائم .

ولما مات وضع فى ناووس بالجبل الشرقى ومعه أمواله ، وطلسم عليه .

وملك بعده أرمالينوس ، فعمل أعمالا عجيبة ، وبنى مدنا ومصانع ، وجدد الطلسمات .

وكان له ابن عم يسمى فرعان ، وكان جبارا ، فأبعده وجعله على جيش سار به عنه ، فقهر ملوكا وقتل أمما عظيمة ، وغنم أموالا كثيرة وعاد ، فشغفت به امرأة من نساء الملك ، وما زالت به حتى اجتمع بها وتآلفا وأقاما على ذلك مدة ، فخافا الملك أن يفطن بهما ، فعملت المرأة لأرمالينوس سما فى شرابه هلك منه .

وملك بعده ابن عمه فرعان بن مشور ، فلم ينازعه أحد لشجاعته وسياسته ، ولم تطل أعوامه حتى رأى قليمون الكاهن كأن طيورا بيضا قد نزلت من السماء وهى تقول : من أراد النجاة فليلحق بصاحب السفينة .

وكان عندهم علم بحدوث الطوفان من أيام سوريد وبنائه الأهرام لأجل ذلك ، واتخذ الناس سراديب تحت الأرض مصفحة بالزجاج قد حبست الرياح فيها بتدبير ، وعمل منها فرعان لنفسه ولأهله عدة .

فما كذب أن جمع أهله وولده وتلاميذه ، ولحق بنوح عليه السلام وآمن به ، وأقام معه حتى ركب فى السفينة .

وجاء الطوفان فى أيام فرعان فأغرق أرض مصر كلها ، وخرب عمائرها ، وأزال تلك المعالم كلها ، وأقام الماء عليها ستة أشهر ، ووصل الى أنصاف الهرمين العظيمين ... وسيأتى خبر ذلك ان شاء الله تعالى عند ذكر محن مصر من هذا الكتاب .

ويقال ان فرعان كان عاتيا متجبرا يغصب الأموال والنساء ، وانه كتب الى الدرشيل ابن لحويل ببابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام ، وانه استخف بالكهنة والهياكل . ففسدت فى أيامه أرض مصر ، ونقص الزرع ، وأجدبت النواحى ، لانهماكه فى ضلاله وظلمه ، واقباله على لهوه ولعبه . وان الناس اقتدوا

به فتشا ظلم بعضهم لبعض . وانه لما أقبل الطوفان وسحت الأمطار ، قام سكران يريد الهرب الى الهرم ، فتخلخلت الأرض به ، وطلب الأبواب فخانته رجلاه ، وسقط بجور حتى هلك ، وهلك من دخل الأسراب بالهم . والله تعالى أعلم .

ذكر مدينة منف وملوكها

هذه المدينة كانت فى غربى النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من مدينة فسطاط مصر ، وهى أول مدينة عمرت بأرض مصر بعد الطوفان ، وصارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التى تقدم ذكرها ، الى أن أخربها بخت نصر .

وقد ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله تعالى « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » ، قال الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى كتاب « جامع البيان فى تفسير القرآن » : عن السدى أنه قال : كان موسى عليه السلام حين كبر يركب كمراكب فرعون ويلبس مثل ما يلبس ، وكان انما يدعى ابن فرعون . ثم ان فرعون ركب مركبا وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى عليه السلام قيل له ان فرعون قد ركب ، فركب فى اثره ، فأدركه المقيل فى أرض يقال لها منف ، فدخلها نصف النهار وقد تغلقت أسواقها وليس فى طرقها أحد ، وهى التى يقول الله جل ذكره : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » .

وقال ابن عبد الحكم ، عن عبد الله بن لهيعة : أول من سكن بمصر بعد أن أغرق الله قوم نوح عليه السلام ، بيصر بن حام بن نوح فسكن منف — وهى أول مدينة عمرت بعد الطوفان — هو وولده ، وهم ثلاثون نفسا ، منهم أربعة أولاد قد بلغوا وتزوجوا ، وهم : مصر وفارق وماج وباج بنو بيصر ، وكان مصر أكبرهم ، فبذلك سميت مافه (ومافه بلسان القبط : ثلاثون) وكانت اقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم ، ونقروا هناك منازل كثيرة .

وقال ابن خرداذبة فى كتاب « المسالك والممالك » : ومدينة منف هى مدينة فرعون التى كان ينزلها ، واتخذ لها * سبعين بابا من حديد ، وجعل حيطان المدينة من الحديد والصفر . وفيها كانت الأنهار تجرى من تحت سريره ، وهى أربعة .

ويروى أن مدينة منف كانت قناطر وجسورا بتدبير وتقدير ، حتى ان الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا ، فذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون » .

وكان بها كثير من الأصنام لم تزل قائمة الى أن سقطت فيما سقط من الأصنام فى الساعة التى أشار فيها النبى صلى الله عليه وسلم الى الأصنام يوم فتح مكة ، بقضيب فى يده وهو يطوف حولها ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » ، فما أشار الى صنم منها فى وجهه الا وقع لقفاه ، ولا أشار لقفاه الا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم الا وقع .

(*) ص١٢٤ جـ١ ، ط. بولاق .

وفى تلك الساعة سقطت أصنام الأرض من الشرق الى الغرب ، وبقى أصحابها متعجبين لا يعلمون لها سببا أوجب سقوطها ، وبقيت أصنام مدينة منف ساقطة من ساعته ، وفيها الصنمان الكبيران المجاوران للبيت الأخضر الذى كان به صنم العزيز ، وكان من ذهب وعيناه ياقوتتان لا يقدر على مثلهما . ثم قطعت الأصنام والبيت الأخضر من بعد سنة ستمائة .

ويقال كانت منف ثلاثين ميلا طولا فى عشرين ميلا عرضا ، وان بعض بنى يافث بن نوح عمل فى أيام مصرايم آلة تحمل الماء حتى تلقيه على أعلى سور مدينة منف . وذلك أنه جعلها درجا مجوفة كلما وصل الماء الى درجة امتلأت الأخرى ، حتى يصعد الماء الى أعلى السور ، ثم ينحط فيدخل جميع بيوت المدينة ، ثم يخرج من موضع الى خارج المدينة .

وكان بمنف بيت من الصوان الأخضر الماتع الذى لا يعمل فيه الحديد قطعة واحدة ، وفيه صور منقوشة وكتابة ، وعلى وجه بابه صور حيات ناشرة صدورها ... لو اجتمع ألوف من الناس على تحريكه ما قدروا لعظمه وثقله .

والصابئة تقول انه بيت القمر .

وكان هذا البيت من جملة سبعة بيوت كانت بمنف للكواكب السبعة .

وهذا البيت الأخضر هدمه الأمير سيف الدين شيخون العمرى بعد سنة خمسين وسبعمائة ، ومنه شىء فى خانقاهه وجامعه الذى بخط الصليبة خارج القاهرة .

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القيسى فى كتابه « تحفة الألباب » : ورأيت فى قصر فرعون موسى بيتا كبيرا من صخرة واحدة ، أخضر كالآس ، فيه صورة الأفلاك والنجوم ، لم نر عجبا أحسن منه .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى : وكانت دار الملك بمصر فى قديم الدهر مدينة منف ، وهى فى غربى النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من الفسطاط .

فلما بنى الاسكندر مدينة الاسكندرية رغب الناس فى عمارتها ، فكانت دار العلم ومقر الحكمة الى أن فتحها المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة بالفسطاط ، فانتشر أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم الى سكناها ، فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها الى وقتنا هذا .

وقال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب ، وقد ذكر أخبار مدينة أمسوس وخراب عامر أرض مصر بطوفان نوح عليه السلام : ولما نزل الماء كان أول من ملك مصر بعد الطوفان بيصر بن حام بن نوح ، وكان معه ثلاثون من الجبابرة من أهله وولده ، فاجتمعوا وبنوا مدينة منف ونزلوا بها .

وكان قليمون الكاهن الذى تقدم ذكره فى خبر مدينة أمسوس من جملتهم ، وكان قد زوج ابنته بيصر المذكور ، وجاءت معه الى مصر ، وولدت منه ولدا سماه مصرايم ، فلما مات بيصر دفن فى موضع دير أبى هرميس . ويقال دير آبى هرميس غربى الأهرام ، ويقال

انها أول مقبرة دفن بها بأرض مصر . وكان موته بعد ألف وثلاثمائة وست سنين مضت من وقت الطوفان .

وقال غيره : ثم بنى مصرايم مدينة سماها باسمه ، فجاءه رجل من بنى يافث فعمل له سورا قائما ، وصنع له درجا ، وأجرى الماء الى أن بقى يصعد الى أعلى السور بحكمة أتقنها ، ثم ينزل ذلك الماء من أعلى السور الى المدينة فينتفع به فيها بغير مشقة ولا كلفة ، ثم يخرج من ناحية أخرى . وكتب على السور : هذه صنعة من يموت لا صنعة من يدوم .

وملك بعد بيصر ابنه مصرايم — ويقال له مصر — بن بيصر ، فأظهره قليمون الكاهن على كنوز مصر وعلمه قراءة خطهم ، وأطلعه على حكمهم . وبنى مصرايم المدن ، وشق الأنهار ، وغرس الأشجار ، وبنى مدينة عظيمة سماها درسان ، وهى العرش ، ونكح امرأة من أولاد الكهنة فولدت له ابنا سماه قفطيم ، وبنى مدينة رقودة مكان الاسكندرية .

ولما مات مصرايم جعل له سرب طوله مائة وخمسون ذراعا وبسط بالمرمر الأبيض ، وعمل فى وسطه مجلس مصفح بصفائح الذهب ، وله أربعة أبواب على كل باب تمثال من ذهب على رأسه تاج من ذهب ، وهو جالس على كرسى من ذهب قوائمه من زبرجد ، ونقش فى صدر كل تمثال آيات مانعة . وجعلوا جسده فى جسد من زبرجد أخضر ، شبه تابوت ، طوله أربعون ذراعا ، دفن فيه ومعه جميع ما كان فى خزائنه من ذهب وفضة وجوهر * ، منها

(*) ص١٢٥ جـ١ ، ط. بولاق .

ألف قطعة من زبرجد مخروط ، وألف تمثال من جوهر نفيس ، وألف برنية من ذهب مملوءة درا نقيا ، وألف آنية من ذهب ، وعدة سبائك من فضة .

وعمل عليه طلسم مانع من الوصول اليه ، وزبروا عليه : « مات مصرايم بن بيصر بن حام ابن نوح بعد ألفين وستمائة عام — وقيل بعد سبعمائة سنة — مضت من الطوفان ، ولم يعبد الأصنام ، فصار الى جنة لا هرم فيها ولا سقم ، ولا هم ولا حزن . وكتب اسم الله الأعظم عليه حتى لا يصل اليه أحد الا ملك يأتى فى آخر الزمان ، يدين بدين الملك الديان ، ويؤمن بالبعث والفرقان ، والنبى الداعى الى الايمان فى آخر الزمان » .

وسقفوا فوق السرب بالصخور العظام ، وهالوا عليه الرمال حتى سدوا بين جبلين متقابلين .

ويقال كان مصر بن بيصر مع جد أبيه نوح عليه السلام فى السفينة ، فدعا له أن يسكنه الله الأرض الطيبة المباركة التى هى أم البلاد وغوث العباد ونهرها أفضل الأنهار ، ويجعل له فيها أفضل البركات ، ويسخر له الأرض ولولده ويذللها ويقويهم عليها ، فسأله عنها فوصفها له وأخبره بها .

وكان بيصر بن حام قد كبر وضعف ، فساقه ولده مصرايم وجميع اخوته الى مصر فنزلوها ، وبذلك سميت مصر .

وملك بعده ابنه قبطيم ، ويقال له قفط ، بن مصرايم ، وهو أول من عمل العجائب بعد الطوفان ، فاستخرج المعادن ، وشق الأنهار ، ونصب الأعلام والمنارات ، وعمل الطلسمات .

ويقال ان مصرايم لما مات اختلف أولاده من بعده ، وكان قفط أصغرهم ، فاجتمعوا عند الأهرام ورضوا بأن من غلب منهم أخاه أخذ الملك . فتحارب أشموم وأتريب فغلب أتريب ، ثم تحارب صا هو وأشموم فغلب أشموم ، ثم تحارب قفط وصا فغلب قفط . فأخذ قفط الملك بعد أبيه ، وأطاعه اخوته ، وسكن مدينة منف دار مملكة أبيه ، وتزوج امرأة ولدت له أربعة أولاد هم : قفطريم وأشمون وأتريب وصا ، فتناسلوا وكثروا وعمروا البلاد .

ثم انه قسم الأرض بين أولاده الأربعة عند وفاته : فجعل لولده قفطريم من أسوان الى قفط ، وجعل لولده أشمون من مدينة قفط الى مدينة منف ، وجعل لولده أتريب الجرف كله ، وجعل لولده صا من ناحية البحيرة الى الغرب .

وجعل أمرهم الى قفطريم وأمر كل واحد منهم أن يبنى لنفسه مدينة فى حيزة .

وجعل لنفسه سربا تحت الجبل الكبير وصفحه بالمرمر ، وعمل فيه منافذ للريح ، فصارت تنخرق فيه بدوى عظيم ، وأقام فى السرب رؤوسا من نحاس مطلية تضىء كالسرج ليلا ونهارا .

ولما مات وضع جسده بهذا السرب فى جرن من ذهب ، بعدما ألبس ثيابا منسوجة بالدر والمرجان ، وأقيم عند رأسه عمود من مرمر عليه جوهرة تضىء ، وعمل حول الجرن توابيت من حجارة ملونة حولها مصاحف الحكمة ، ووضعت عنده أمواله وكنوزه وذخائره ، وزبروا عليه كما زبروا على أبيه .

وانتقل كل من أولاده الى حيزه ، فانتقل صا بأهله وأولاده وسكن مدينة صا الآتى ذكرها .

ويقال كانت البلبلة فى أيام قفط ، وانه ألهمه الله تعالى اللغة القبطية ، وانه أقام ملكا أربعمائة وثمانين سنة ، ومات فدفن بأرض الواحات ، وملك بعده أخوه أشمن بن مصر .

وقيل بل أسكن فى حياته ابنه قفطريم فى حيزه ، فشرع فى العمارة ، وكان جبارا عظيم الخلقة ، فأثار من المعادن ما لم يثره أحد قبله ، وبنى مدينة دندرة ، وعمل فى جبل قفط منارا عاليا يرى منه البحر الشرقى ، ووجد هناك معادن من الزئبق ، وعمل البركة التى سماها صيادة الطير .

وهلك عاد بالريح فى آخر أيامه . وفى أيامه أثارت الشياطين الأصنام التى أغرقها الطوفان فعبدت .

وأقام ملكا أربعمائة وثمانين سنة ومات .

وذكر ابن عبد الحكم : بعد مصر بن بيصر قفط بن مصر ، وأن الذى ملك بعد قفط أخوه أشمن ، ثم أتريب بن مصر ، ثم صا بن مصر ، ثم ابنه تدراس بن صا ، ثم ابنه ماليق بن تدراس ، ثم ابنه حزابا بن ماليق ، ثم ابنه كلكلى بن حزابا .

ويقال ان أشمن لما ملك بعد أخيه ، سار اليه شداد بن هداد بن شداد بن عاد وملك أرض مصر وهدم مبانيها ، وبنى أهراما ، ومضى الى موضع الاسكندرية فبناها ، وأقام

دهرا ثم خرجت العادية من أرض مصر ، فعاد أشمن الى ملكه ، وانه ملك بعده أخوه صا ، ثم ملك بعد صا ابنه تدراس ، وفى أيامه بعث الله صالحا الى ثمود .

ومات ، فملك ابنه ماليق البودسير ، وكان من الجبابرة العظام ، عمل أعمالا عظيمة ، منها منار فوقه قبة لها أربعة أركان ، فى كل ركن كوة يخرج منها فى يوم معلوم عندهم من كل سنة دخان ملتف فى ألوان شتى ، يستدلون بكل لون على شىء : فان خرج الدخان أخضر دل على العمارة والخصب فى تلك السنة ، وان خرج أبيض دل على الجدب وقلة الخير ، وان خرج أحمر دل على الحروب وقصد الأعداء ، وان خرج أصفر دل على النيران وآفات تحدث من الملك ، وان خرج أسود دل على الأمطار والسيول وفساد بعض الأرض ، وان خرج مختلطا دل على كثرة الظلم وبغى الناس بعضهم على بعض .

وعمل شجرة من نحاس تجذب سائر الوحوش حتى تصلّ اليها ، فلا تستطيع الحركة الى أن تؤخذ ، فشبع أهل مصر من لحوم الوحوش .

واتفق أن غرابا نقر عين صبى * من أولاد الكهنة فقلعها ، فعمل شجرة من نحاس عليها غراب منشور الجناحين ، وفى منقاره حية ، وعلى ظهره أسطر ، فكانت الغربان تقع على هذه الشجرة ولا تبرح حتى تموت .

وكانت الرمال قد كثرت فى أيامه على أرض مصر من ناحية الغرب ، فعمل صنما من صوان أسود على قاعدة منه ، وفوق كتفه قفة فيها مسحاة ، ونقش على وجهه وصدره وذراعيه كتابة ، وجعل وجهه الى الغرب ، فانكشفت الرمال ، ورجعت بها الرياح الى ورائها وصارت تلالا عالية .

وبعث بهرمس الحكيم الى جبل القمر الذى يخرج منه النيل ، فعمل تماثيل النحاس ، وعدل جانبى النيل — وكان قبله يفيض فى مواضع وينقطع فى مواضع — وسار مغربا لينظر ما وراء ذلك ، فوقع على أرض واسعة ينخرق فيها الماء والأشجار ، فبنى فيها متنزهات وأقام بها وحول اليها عدة من أهله ، فعمروا تلك النواحى حتى صارت أرض الغرب كلها معمورة . ثم خالطتهم البربر ، وجرت بينهم حروب كثيرة أفنتهم ، فخربت تلك البلاد ولم يبق منها الا الواحات .

ثم انّ البودسير احتجب عن الناس ، وصار يبرز وجهه من مقعده فى النادر ، وربما خاطبهم من حيث لا يرونه .

وذكر أبو الحسن المسعودى فى كتاب « أخبار الزمان » أن أول من تحقق بالكهانة وغير الدين وعبد الكواكب : البودسير . وتزعم القبط أن الكواكب كانت تخاطبه ، وأن له عجائب كثيرة ، منها أنه استتر عن الناس عدة سنين من ملكه ، وكان يظهر لهم وقتا بعد وقت مرة فى كل سنة ، وهو حلول الشمس فى برج الحمل ، ويدخل الناس اليه فيخاطبهم وهم يرونه ، فيأمرهم وينهاهم ويحذرهم مخالفة أمره ، ثم بنيت له قبة من فضة مطلية بذهب ، فصار يجلس فى أعلاها وله وجه عظيم ، فيخاطبهم .

(*) ص١٣٦ جـ١ ، ط. بولاق .

فلما مات ملك بعده ابنه أرقليمون ، وكان كاهنا ساحرا ، فعمل أعمالا عظيمة ، منها أنه كان يجلس فى السحاب فيرونه فى صورة انسان عظيم ، وأقام مدة على ذلك .

ثم انه غاب عن أهل مصر وصاروا بغير ملك ، ثم رأوا صورة بحذاء جرم الشمس عند حلولها أول برج الحمل ، فأمرهم أن يقلدوا الملك عديم بن قفطيم ، وأعلمهم أنه ما بقى يعود اليهم .

فولوا عليهم عديم بن قفطيم ، وكان جبارا عظيما ، وهو أول من صلب بمصر ، وذلك أن امرأة ورجلا زنيا فصلبهما ، وجعل ظهر كل منهما لظهر الآخر .

وبنى أربع مدائن أودعها كنوزا عظيمة ، وجعل عليها طلسمات وعدة عجائب ، وعمل منارا على البحر الشرقى وعليه صنم الى الشرق حتى لا يغلب البحر على أرض مصر ، وعمل قنطرة على النيل فى أرض النوبة .

وأقام ملكا مائة وأربعين سنة ، ومات وعمره سبعمائة وثلاثون سنة .

وملك بعده ابنه شدات بن عديم — وهو الذى تسميه العامة شداد بن عاد — وكان عالما كاهنا ساحرا ، ويقال انه هو الذى بنى الأهرام الدهشورية ، وعمل أعمالا عظيمة وطلسمات عجيبة ، وبنى فى الجانب الشرقى مدائن ، وفى أيامه بنيت قوص ، وغزا الحبشة وسباهم ، وأقام ملكا تسعين سنة .

وهو أول من اتخذ الجوارح وصاد بها ، وولد الكلاب السلوقية ، وعمل فى بركة سيوط تماسيح منصوبة تنصب اليها التماسيح من النيل انصبابا فيقتلها ويعلق جلودها فى السفن .

واتفق أنه طرد صيدا فكبا به فرسه فى وهدة فهلك . وكان قد غضب على بعض خدمه فرماه من جبل عال فتقطع ، فرأى أنه يصيبه مثل ذلك .

ولما هلك وضع فى ناووس ودفنت معه أمواله ، وعمل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده ، وكتب عليه : لا ينبغى لذى القدرة أن يخرج عن الواجب ، ولا يفعل ما لا يجوز له فعله ، فيجازى بعمله ... هذا ناووس بن شدات بن عديم ، فعل ما لا يحل له فعله ، فكوفىء عليه بمثله .

وملك بعده ابنه منقاوش ، وكان حكيما فاضلا كاهنا ، عمل أعمالا عجيبة ، وبنى أشياء معجبة ، منها أنه عمل هيكلا لصور الكواكب على ثمانية فراسخ من منف ، وكنز من الأموال ما لا يحصى ، وفتح عليه من المعادن ما لم يفتح به على غيره .

وسار فى الجنوب يوما ، ثم سار مغربا يوما وبعض آخر ، فانتهى فى اليوم الثالث الى جبل أسود ، فعمل تحته أسرابا ومغاير ، ودفن فيها أمواله ، وزبر عليها حتى انه من كثرتها يقال انه دفن حمل اثنى عشر ألف عجلة ذهبا وجواهر .

وأقام أربع سنين يرسل فى كل سنة عجلا كثيرة يدفنها . وبقيت آثار العجل ترى فى ما بين منف والمغرب زمانا طويلا .

وبنى هيكلا للقمر ، ويقال انه هو الذى بنى مدينة منف لبناته ، وكن ثلاثين بنتا . وانه

ألزم الناس بعمل الكيمياء فكانوا لا يفترون عن عملها ليلا ولا ونهارا ، حتى اجتمع عنده مال عظيم وجوهر كثير .

وهو الذى بنى مدينة عين شمس ، وقسم خراج مصر أرباعا : جعل الربع للملك ، والربع للجند ، والربع ينفق فى مصالح الأرض ، والربع الرابع يدفن لحادثة تحدث .

وهو الذى قسم أرض مصر على مائة وثلاثين كورة .

وأقام ملكا احدى وتسعين سنة ومات .

فملك بعده ابنه عديم بن منقاوش ، وكان جبارا لا يطاق ، وفى أيامه كان نزول الملكين اللذين يعلمان الناس السحر ، والقبط تزعم أنهما نزلا بأرض مصر ثم نقلا الى بابل .

ثم ملك بعده أخوه مناوش بن منقاوش ، وكان عالما كاهنا * فاضلا ، بنى مواضع كثيرة فى الجبال والصحارى ، وكنز فيها كنوزا عظيمة ، وأقام عليها أعلاما ، وبنى فى صحراء الغرب مدينة ، وأقام لها منارة ، وكنز حولها كنوزا عظيمة ، وجعل فيها شجرة تطلع كل لون من الفاكهة ، وهو أول من عبد البقر بمصر .

وكان يطلب الحكمة ويستخرج كتبها ، وكذا كان كل من ملك منهم يجتهد فى أن يعمل له غريبة من الأعمال لم تعمل لمن كان قبله ، وتثبت فى كتبهم ، وتزبر على الحجارة .

ولما مات ملك بعده ابنه هرميس ، وكان قليل الحكمة فلم يعمل شيئا مما عمله آباؤه ، ومات وقد أقام احدى عشرة سنة .

(*) ص١٢٧ جا ، ط. بولاق .

فملك بعده أشمون بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ، وكان حيزه من أشمون الى منف فى الغرب ، وحيزه فى الشرق الى حد البحر الملح مما يحاذى برقة ، وهو آخر حد مصر ، ومن بلاد الصعيد الى حدود أخميم ، وكانت منزله مدينة الأشمونين ، وكان طولها اثنى عشر ميلا فى مثلها .

وبنى فى شرقى النيل مدينة أنصنا ، وبنى بها قصرا عظيما ، واتخذ بها أبنية وملاعب وعجائب كثيرة ، وبنى مدينة طهراطيس . وهو أول من لعب بالكرة والصولجان .

ويقال انه بنى مدنا كثيرة عمل فيها عجائب ، منها مدينة فى سفح الجبل لها أربعة أبواب من كل ناحية باب : فعلى الباب الشرقى صورة عقاب ، وعلى الباب الغربى صورة ثور ، وعلى الباب الشمالى صورة أسد ، وعلى الباب الجنوبى صورة كلب .

وفى هذه الصورة روحاليات تنطق ، فاذا قدم غريب لا يقدر على الدخول اليها الا باذن الموكلين بها ، ودفن تحت كل شكل من هذه الأشكال الأربعة صنفا من الكنوز .

وغرس فى هذه المدينة شجرة مولدة تثمر كل لون من الفاكهة ، ونصب منارا طوله ثمانون ذراعا ، فوقه قبة تتلون كل يوم لونا ، حتى تمضى سبعة أيام ثم تعود الى اللون الأول ، فكانت تلك المدينة تكسى من تلك الألوان شعاعا مثل لونها .

وأجرى حول المنار ماء شقه من النيل ، وجعل فيه سمكا من كل لون ، وأقام حول المدينة طلسمات فى هيئة أناس رؤوسها

كالقردة ، وأسكن هذه المدينة السحرة ، وكانوا يعملون فيها أصناف السحر .

وبنى بالقرب منها مدينة عرفت بذات العجائب ، وبنى مجالس مصفحة بزجاج ملون فى وسط النيل ، وبنى سربا تحت الأرض من الأشمونين الى أنصنا .

وقيل انه هو الذى بنى مدينة عين شمس ، وانه ملك ثمانمائة سنة ، وان قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة سنة ، وأقاموا بمصر تسعين سنة ، فأصابهم وباء خرجوا منه الى المدينة بطريق الحجاز الى وادى القرى ، فعاد أشمون بعد خروج العادية الى ملك مصر .

وهو أول من عمل النوروز بمصر ، وفى زمانه بنيت مدينة البهنسا .

ولما مات جعل له ناووس فى آخر حد الأشمونين ، ودفن فيه ومعه كنوزه العظيمة وعجائبه الكثيرة ، منها ألف برنية من العقاقير المدبرة لفنون الأعمال ، وزبروا على ناووسه اسمه ونسبه ، وجعل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده .

وملك بعده ابنه صا ، ثم بعد صا ابنه تدراس .

وقيل ملك مناقيوش ، وكان شجاعا فاضلا ، فاستأنف العمارة ، وبنى القرى ، ونصب الأعلام ، وعمل العجائب الهائلة ، وبنى مدائن منها مدينة أخميم ، وحول الكهنة اليها

وأقام ملكا نيفا وأربعين سنة ، ومات فدفن فى الهرم الشرقى ومعه كنوزه .

وملك بعده ابنه ، وقد اختلف فى اسمه ، وكان فاضلا حازما معظما عند أهل مصر . وهو أول من عمل المارستان ، وأول من عمل الميدان للرياضة ، وفى أيامه بنيت مدينة سنترية فى صحراء الواحات . ثم ان نساءه تغايرن عليه ، فقتلته احداهن بسكين ، فدفن فى ناووس ومعه أمواله ، وعمل عليه طلسم يحفظه .

وملك بعده ابنه مرقورة ، وكان حكيما كاهنا ، وهو أول من ذلل السباع وركبها ، وبنى المدن ، وعمر الهياكل ، وأقام الأصنام .

ولما مات جعل له ناووس فى صحراء الغرب ، ودفن معه ماله .

وملك بعده ابنه بلاطس ، وكان صبيا ، فدبرت أمه أمر الملك ، وكانت حازمة فأجرت الأمور على أحسن ما يكون ، وأظهرت العدل ، ووضعت عن الناس الخراج فأحبوها . ولما كبر ابنها أحب الصيد ، فعملت له أمه أعمالا عجيبة . وأقام ملكا ثلاث عشرة سنة وجدر فمات ، وانتقل الملك الى أعمامه .

فملك بعده أتريب بن قبطيم بن مصرايم ، وهو الثالث عشر من ملوك مصر بعد الطوفان ، وهو الذى بنى مدينة أتريب ، وعاش خمسمائة سنة ، منها مدة ملكه ثلثمائة وستون سنة .

ويقال ان النيل وقف فى أيام أتريب مائة وأربعين سنة ، حتى أكلت البهائم بأرض مصر ولم يبق بها بهيمة ، ورؤى أتريب ماشيا وهو يبسط يديه ويقبضهما من الجوع ، ومات عامة أهل مصر جوعا ، ثم أغيثوا بعد ذلك وكثر الرخاء ، ودام مدة مائتى سنة ، وبيع كل أردب بدانق وأقل .

ولما مات اتهم أخوه صا بقتله ، وحاربه أهل مصر تسع سنين وقتلوه .

فملكت بعده ابنته تدورة ، وكانت كاهنة ساحرة ، فساست الملك أحسن سياسة ودبرت الملك أجود تدبير ، وعملت طلسمات عجيبة ، منها طلسم منع الوحش والطير أن يشرب من النيل حتى مات أكثرها عطشا * ، ووقعت فى زمانها صيحة ارتجت لها الأرض فهلكت .

وملك بعدها أخوها قليمون بن أتريب ، وكان حكيما فاضلا ، فبنى البنيان وعمل الطلسمات . وفى أيامه بنيت مدينة تنيس الأولى ، وبنيت مدينة دمياط . وأقام ملكا تسعين سنة ومات فدفن فى ناووس .

وملك بعده ابنه فرسون ، وكان فاضلا كاهنا ، بنى المدائن ، وجدد الهياكل . وكان حدثا ، فقصده بعض ملوك حمير فى جموع عظيمة ، فخرج اليهم ، ولقيه بمدينة ايليا وقاتله قتالا شديدا حتى تفانى من الفريقين معظمهما ، وأظهر المصريون أشياء من سحرهم فانهزم الحميرى فى طائفة يسيرة ، وقتل فرسون عامة أصحابه وأخذ ما كان معهم ، وعاد مظفرا الى مدينة منف .

وعمل منارا على بحر القلزم فى رأسه مرآة تجذب المراكب الى الساحل حتى يؤخذ منها ما هو مقرر عليها من المال .

وأقام ملكا مائتى سنة وستين سنة ، ومات فدفن فى ناووس خلف الجبل الأسود الشرقى ، وعمل فيه قبة تحتوى على اثنى عشر بيتا ، فى كل بيت أعجوبة ، ودفن معه ماله ، وعمل عليه طلسم يحفظه .

وملك بعده نحو أربعة ، وصار الملك الى صا بن قبطيم ، وكان أصغر ولد أبيه وأحبهم اليه .

ولما مات ملكت بعده نوبية الكاهنة، وكانت ساحرة ، فكانت تجلس على سرير من نار ، فاذا تحاكم اليها أحد وكان صادقا شق تلك النار من غير أن تضره ، وان كان كاذبا أخذته تلك النار ، وكانت تتصور كل يوم فى صور كثيرة الأشكال .

ثم بنت قصرا واحتجبت فيه ، وجعلت فى سوره أنابيب من نحاس مجوفة ، وكتبت على كل أنبوب فنا من الفنون التى يتحاكم الناس بها اليها ، فكان من أتاها فى محاكمة وقف عند الأنبوب الذى فيه محاكمته ، وتكلم بما يريده ، وسأل عنه بصوت خفى ، فاذا فرغ جعل أذنه فى الأنبوب فيأتيه منه جواب ما سأل . ولم يزل هذا القصر والأنابيب حتى أتلفه بخت نصر .

وملك بعدها مرقونس ، وكان فاضلا حكيما ، وكانت أمه بنت ملك النوبة ، فعملت عجائب ، وصنع فى أيامه كل غريبة . وملك ثلاثا وسبعين سنة ، ومات وعمره مائتان وأربعون سنة .

فملك بعده ابنه ايساد ، وهو ابن خمس وأربعين سنة ، وكان جبارا طماح العين ، فاتزى امرأة أبيه ، وانكشف أمره معها ، وكان أكبر همه اللهو واللعب ، فجمع كل ملة فى مملكته ، ورفض العلوم ، وأهمل أمر الهياكل والكهنة ، وترك النظر فى أحوال الناس ، وبنى قصورا على النيل ليتنزه فيها ، وأتلف أكثر الأموال فى اللعب .

(*) ص١٢٨ جـ١ ، ط. بولاق .

فكرهه الناس وكرههم ، الى أن سموه فمات عن مائة وعشرين سنة .

وملك بعده ابنه صا ، ويقال ان صا هو ابن مرقونس ، وهو أخو ايساد . ولما ملك سكن منف ، ووعد الناس بخير ، وملك الأحياز كلها ، وعمل بها عجائب وطلسمات ، ورد الكهنة الى مراتبهم ، ونفى الملهين وأهل الشر ، ونصب العقاب الذى عمله أبوه وشرف هيكله ودعا اليه ، وبنى بداخل الواحات مدينة ، ونصب قرب البحر أعلاما كثيرة ، وجعل على الأطراف أصحاب أخبار يرفعون اليه ما يجرى فى حدودهم ، وعمل على حافتى النيل منابر يوقد عليهم اذا حزبهم أمر أو قصدهم أحد ، وجعل بحافتى بحر الملح منارا يعلم به أمر البحر .

ويقال انه بنى أكثر مدينة منف وكل بنيان عظيم بالاسكندرية .

وكان لما ملك البلد بأسره جمع الحكماء ونظر فى النجوم ، وكان بها حاذقا ، فرأى أن مصر لابد أن تغرق من نيلها ، وانها تخرب على يد رجل يأتى من ناحية الشام ، فجمع كل فاعل بمصر ، وبنى مدينة فى الواح الأقصى .

وقصده ملك الافرنجة وملك منه مدينة منف ، وقدم معه ألف مركب ، وهدم أكثر الاسكندرية ، ودخل الى النيل من رشيد حتى أخذ منف ، وفر منه صا الى المدائن الداخلة ، وتحصن بها من عدوه ، فامتنعت بالطلسمات أياما كثيرة ، ثم كانت العاقبة له ، وعاد عدوه منهزما ، ورجع الى منف فتتبع الكهنة ، وقتل منهم كثيرا .

وأقام ملكا سبعا وستين سنة ، وعاش مائة وسبعين سنة .

وملك ابنه تدراس ، واستولى على الأحياز كلها ، وصفا له الوقت ، وملك مصر ، وكان محتكما مجربا ذا أيد وقوة ومعرفة بالأمور ، فأظهر العدل ، وأقام الهياكل وأهلها قياما حسنا ، وبنى بيتا للزهرة ، وحفر خليج سخا .

وحارب بعض عمالقة الشام ، ودخل الى فلسطين ، وقتل بها خلقا وسبى بعض أهلها الى مصر ، وغزا السودان من الزنج والحبشة ، ووجه فى النيل بثلثمائة سفينة فلقى السودان — وكانوا زهاء ألف ألف — فهزمهم وقتل أكثرهم ، وأسر منهم خلقا كثيرا ، وساق الفيلة والنمور الى مصر .

وعمل على حدود بلده منارات زبر عليها اسمه ومسيره وظفره .

وفى أيامه بعث الله نبيه صالحا الى ثمود .

ويقال انه هو الذى أنزل النوبة حيث هى ، وذلك أنه لما أوغل فى أرض الحبشة وقتل أمم السودان ، وجد فيهم أمة تقرأ صحف آدم وشيث وادريس ، فمن عليها وأنزلها على نحو من شهر من أرض مصر ، فسموا النوبة ... ومات بمنف .

فملك بعده ابنه ماليق ، وكان عاقلا كريما حسن الصورة مجربا ، مخالفا لأبيه وأهل مصر فى عبادة الكواكب والبقر .

ويقال انه كان موحدا على دين أجداده * قبطيم ومصرايم ، وكانت القبط تذمه لذلك .

وأمر الناس باتخاذ كل قاره من الخيـل ، واقتنى السلاح ، وأكثر الأسفار ، وأنشأ فى بحر المغرب مائتى سفينة ، وخرج فى جيش عظيم فى البر والبحر ، وأتى البربر فهـزمهم واستأصل أكثرهم .

وبلغ أفريقية ، وسار الى الأندلس يريد الافرنجة ، فلم يمر بأمة الا أبادها . فحشد له ملك الافرنجة وحاربه شهرا ، ثم طلب صلحه وأهدى اليه ، فسار عنه ودوخ الأمم المتصلة بالبحر الأخضر .

والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة ، وعمل أعمالا على البحر وزبر عليها اسمه ومسيره ، وخرب مدن البربر ، ورجع فتلقاه أهل مصر بأصناف الرياحين وأنواع اللهو ، وفرشت له الطرقات . فهابه الملوك وحملوا اليه الهدايا .

وما زال موحدا حتى مات .

فملك بعده ابنه حزابا ، وكان لينا سهل الخلق ، قد عرفه أبوه التوحيد ونهاه عن عبادة الأصنام ، فرجع عن ذلك بعده الى دين قومه .

وغزا الهند والسودان بعد ما عمل مائة سفينة على شكل سفن الهند ، وتجهز وحمل معه امرأته ووجوه أصحابه ، واستخلف ابنه كلكلى على مصر — وكان صبيا — وجعل معه وزيرا كاهنا . فمر على ساحل اليمن وعاث فى مدائنه ، وبلغ سرنديب وأوقع بأهلها ، وبلغ جزيرة بين الهند والصين فأذعن له أهلها ، وتنقل فى تلك الجزائر سنين .

فيقال انه أقام فى سفره سبع عشرة سنة ورجع غانما ، فهابه الملوك . وبنى عدة هياكل وأقام بها الأصنام للكواكب . ثم غزا نواحى الشام فأطاعه أهله ، ورجع فغزا النوبة والسودان ، وضرب عليهم خراجا يحملونه اليه ، ورفع أقدار الكهنة ومصاحفهم . وكان يرى أن هذا الظفر بمعونة الكواكب له .

ومات وقد ملك خمسا وسبعين سنة .

فقام ابنه كلكلى ، وعقد له بالاسكندرية فأقام بها شهرا ، ثم قدم الى منف . وكان أصناميا ، فسر به أهل مصر ، وكان يحب الحكمة واظهار العجائب ، ويقرب أهلها ويجيزهم ، وعمل الكيمياء ، وخزن أموالا عظيمة بصحارى العرب .

وهو أول من أظهر علم الكيمياء بمصر ، وكان علمها مكتوما ، وكان من تقدمه من الملوك أمروا بترك صنعتها ، فعملها كلكلى وملأ دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهب فى زمن بمصر أكثر منه فى وقته ، ولا الخراج ، لأنه كان مائة ألف ألف وبضعة عشر ألف ألف مثقال ، فاستغنوا عن اثارة المعادن .

وعمل أيضا من الحجارة الملونة التى تشف شيئا كثيرا ، وعمل من الفيروزج وغيره أشياء واخترع أمورا تخرج عن حد العقل حتى سمى حكيم الملوك ، وغلب جميع الكهنة فى علومهم ، وكان يخبرهم بما يغيب عنهم .

وكان نمرود ابراهيم عليه السلام فى وقته ، فاتصل بنمرود خبر حكمته وسحره فاستزاره .

(*) ص١٢٩ جـ١ ، ط.بولاق .

وكان النمرود جبارا مشوه الخلق ، يسكن السواد من العراق ، وآتاه الله قوة وقدرة وبطشا فغلب على كثير من الأمم .

فتقول القبط ان النمرود لما استزار كلكلى ، وجه اليه أن يلقاه بموضع كذا ، فسار الى الموضع على أربعة أفراس تحمله ذوات أجنحة ، وقد أحاط به نور كالنار ، وحوله صورة هائلة وقد خيل بها ، وهو متوشح بثعبان متحزم ببعضه ، وقد فغر فاه ، وهو يضربه بقضيب آس .

فلما رآه النمرود هاله ، وأقر له بجليل الحكمة ، وسأله أن يكون ظهيرا له .

ويقال انه كان يرتفع ويجلس على الهرم الغربى فى قبة تلوح على رأسه ، فاذا دهم أهل البلد أمر اجتمعوا حول الهرم ، فيقيم أياما لا يأكل ولا يشرب .

ثم استتر مدة حتى توهموا أنه هلك ، فطمع فيه الملوك وقصده ملك من الغرب فى جيش عظيم حتى قدم وادى هبيب ، فأقبل حتى جللهم من سحره بشىء كالغمام شديد الحر ، فأقاموا تحته أياما متحيرين ، ثم طار الى مصر وأمرهم بالخروج الى الجيش ، فوجدوهم قد ماتوا هم ودوابهم ... فهابه الكهنة مهابة لم يهابوها أحدا قبله .

وعمر طويلا ، وغاب فلم يعلم خبره .

وقال ابن عبد الحكم : ان كلكلى بن حزابا ملكهم نحو مائة سنة ، ثم مات ولا ولد له ، فملك أخوه ماليا بن حزابا .

قال ابن وصيف شاه : وقام أخوه ماليا ، وكان شرها كثير الأكل والشرب ، منفردا بالرفاهية ، غير ناظر فى شىء من الحكمة ، وجعل أمر البلد الى وزيره ، واشتغل بالنساء ، وكان له من النساء ثمانون امرأة ، فهجم عليه ابنه طوطيس ، وهو سكران ، فقتله ، وقتل امرأة كانت عنده .

وملك بعده ابنه طوطيس . ويقال انه عمرو ابن امرىء القيس بن بابليون بن حمير بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان — ويقال الوليد بن الريان — وانه أحد فراعنة مصر من ولد دان بن فهلوج بن امراز بن أشود بن سام بن نوح ... وقيل فراعنة مصر من ولد عملاق الأول ابن لاود بن سام بن نوح .

وكان جبارا جريئا شديد البأس مهيبا . والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر ، وهو فرعون ابراهيم عليه السلام ، ويقال ان الفراعنة سبعة هو أولهم .

وحفر نهرا فى شرقى مصر بسفح الجبل ، حتى ينتهى الى مرفأ السفن فى البحر الملح ، وكان يحمل الى هاجر — أم اسماعيل التى أعطاها ابراهيم عليه السلام — الحنطة وأصناف الغلات ، فتصل الى جدة ، فأحيى بلد الحجاز مدة .

ويقال ان كل ما حليت به الكعبة فى ذلك العصر مما أهداه ملك مصر ، ولكثرة ماحمل الى الحجاز سمته العرب من جرهم * الصادوق .

وفى كتاب هروشيش أن سلطان المصريين فى زمن ابراهيم الخليل عليه السلام كان بأيدى

(*) ص١٤٠ جـ١ ، ط.بولاق .

القوم يعبدون يمنى فاليق بن جارق ، ودام ملكهم بمصر مائة وعشرين سنة .

وقال ابن اسحاق عن بعضهم : ان فراعنة مصر من ولد فاق بن فطلوج بن امراز بن الشود بن سام بن نوح .

قال : والمشهور أنهم من العماليق ، منهم الريان بن الوليد (ويقال الوليد بن الريان) فرعون يوسف ، والوليد بن مصعب فرعون موسى ، ومنهم سنان بن علوان .

قال ابن وصيف شاه : وانما قيل له فرعون لأنه أكثر القتل ، ولم يرزق غير ابنة ، وكانت حاذقة ، فخافت لكثرة قتله الناس ، فقتلته بسم ، وله في الملك مائة وسبعون سنة .

وملكت بعده جورياق ، فوعدت الناس بالاحسان ، وجمعت الأموال ، وقتلت الكهنة وأهل الحكمة ورؤساء السحرة ، ورفعت أقدارهم ، وجددت الهياكل .

وصار من لم يرضها الى مدينة أتريب ، وملكوا رجلا من ولد أتريب ، وقد تقدم خبره في الاسكندرية .

وجورياق أول امرأة ملكت مصر من ولد نوح عليه السلام ، وماتت .

فملكت بعدها ابنة عمها زلفى بنت مأمون ، وكانت عذراء عاقلة ، فوعدت الناس بالجميل . وقام عليها أيمن الأتريبي ، واستنصر بملك العمالقة ، ليسير معه قائدا ، فأخرجت اليه جيشا فالتقوا بالعريش واقتتلوا حتى فني منهم كثير من الناس ، ثم انهزم أصحاب زلفى الى [illegible] ، وهم في أعقابهم .

فانهزمت زلفى الى الصعيد ، ونزلت بالأشمونين ، فلحقتها [illegible] عساكر العمالقة حروب انهزموا فيها ، وخرجوا عن مصر بعد ما هلكوا فيها ، ورجعوا الى [illegible] فاستعصموا به ، وصارت مصر بيد [illegible] .

ثم ان زلفى طوحت الحرب ، فاستمرت ثلاثة أشهر حتى [illegible] الى قوص ولحق خلفها ، فلما أدركت [illegible] نفسها فهلكت .

وقال ابن عبد الحكم : ثم توفى طوطيس بن ماليا ، فاستخلفت ابنته جورياق ابنة طوطيس ، ولم يكن له ولد غيرها ، ثم توفيت جورياق ، فاستخلفت ابنة عمها زلفى ابنة مأمون بن ماليا ، فعمرت عمرا طويلا .

وكثروا ونموا ، وملأوا أرض مصر كلها ، فطمعت فيهم العمالقة ، فغزاهم الوليد بن دومع فقاتلهم قتالا عظيما ، ثم رضوا أن يملكوه عليهم ، فملكهم نحوا من مائة سنة ، فطغى وتكبر وأظهر الفاحشة ، فسلط الله عليه سبعا فافترسه وأكل لحمه .

والذي ملك مصر من الفراعنة خمسة .

وملك أيمن وتجبر ، وقتل خلقا ممن حاربه .

وكان الوليد بن دومع العمليقي قد خرج في جيش كثيف ، حيث غازيا يقال له فرعون الى مصر ففتحها ، ثم تملك بغير [illegible] واستباح أهل مصر وأخذ أموالهم ، ثم خرج [illegible] على مصب النيل فرأى جبل القمر ، وأقام في غيبته أربعين سنة ورجع الى مصر ، وقد غلبه فرعون ونفر منه ، فاستعبد أهل مصر وملكهم مائة وعشرين سنة حتى هلك .

وملك ابنه الريان بن الوليد بن دومع ، أحد العمالقة ، وكان أقوى أهل الأرض في زمانه وأعظمهم ملكا .

والعمالقة ولد عمليق بن لاود بن سام بن نوح ، وهو فرعون يوسف عليه السلام ، والقبط تسميه نهراوش .

وقيل لفرعون يوسف اسمه الريان بن الوليد ابن ليث بن قاران بن عمرو بن عمليق بن بلقع ابن عابر بن اشليخا بن لود بن سام بن نوح .

وقيل فرعون يوسف هو جد فرعون موسى أبو أبيه ، واسمه برخو ، وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلا ، فوعد الناس الجميل ، وأسقط عنهم الخراج لثلاث سنين ، وفرق المال فيهم .

وملك رجلا من أهل بيته يقال له اطفين ، وهو الذي يقال له العزيز ، وكان عاقلا أديبا مستعملا للعدل والعمارة ، فأمر أن ينصب له سرير من فضة في قصر الملك يجلس عليه ، ويخرج وجميع الكتاب والوزراء بين يديه ، فكفى نهراوش ما خلف ستره ، وقام بجميع أموره ، وخلاه للذاته . فأقام على قصفه مدة ، والبلد عامر — فقصده رجل من العمالقة ، وسار الى مصر في جيوشه ، فخرج اليه وقاتله وهزمه وسار خلفه ، ودخل الشام وعاث هنالك ... فهابته الملوك ولاطفته .

وقيل انه بلغ الموصل ، وضرب على أهل الشام خراجا . وخرج لغزو بلاد المغرب في تسعمائة ألف ، ومر بأرض البربر وجلا كثيرا منهم ، ومر الى البحر الأخضر ، وسار الى الجنوب فقدم النوبة ، وعاد الى مدينة منف .

وكان من خبر يوسف معه ما ذكر عند ذكر الفيوم .

وملك بعده ابنه دريموش ، ويقال له دارم ابن الريان ، وهو الفرعون الرابع ، فخالف سنة أبيه ، وكان يوسف خليفته فيقبل منه تارة ويخالفه تارة ، وظهر في أيامه معدن فضة فأثار منه شيئا عظيما .

وفي أيامه مات يوسف عليه السلام ، فاستوزر بعده رجلا حمله على أذى الناس وأخذ أموالهم ، فبلغ ذلك منهم مبلغا عظيما . ثم زاد في التجبر حتى اقتلع كل امرأة جميلة بمدينة منف من أهلها ، فكان لا يسمع بامرأة حسناء في موضع الا وجه اليها فحملت اليه .

فاضطرب الناس ، وشنبوا عليه ، وعطلوا الصنائع والأعمال والأسواق ، فعدا عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وزاد الأمر حتى اجتمعوا على خلعه ، فبرز لهم وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين ، وأنفق فيهم مالا ... فسكتوا .

وفي أيامه ثار القبط على بني اسرائيل ، وطلبوا * من الوزير أن يخرجهم من مصر ، فما زال بهم حتى أمسكوا .

وبلغ الملك ذلك ، وكان قد خرج الى الصعيد ، فتوعد أهل مصر ، فشنبوا عليه وحشدوا له ، فحاربوه فقتل منهم خلقا كثيرا ، وظفر بمن بقي فقتلهم وصلبهم على حافتي النيل ، وعاد الى أعظم ما كان عليه من أخذ الأموال والنساء واستخدام أشراف القبط وبني اسرائيل ، فأجمع الكل على ذمه ، فركب

(*) ص١٤١ جـ١ ، ط.بولاق .

النيل للنزهة وثار به ريح عاصف فغرق ، فلم يوجد الا ناحية شطنوف ، وقيل فيما بين طرا وحلوان

فقدم الوزير ابنه معاوريوس — وكان صبيا ، ويقال له معدان — فأسقط عن الناس ما أسقطه أبوه من الخراج ، ووعد بالاحسان فاستقام له الأمر ، ورد نساء الناس . وهو خامس الفراعنة .

وحدث فى زمانه طوفان مصر ، وكثر بنو اسرائيل وعابوا الأصنام ، فأفردوا ناحية عن البلد بحيث لا يختلط بهم غيرهم ، وأقطعوا موضعا فى قبلى منف فاجتمعوا فيه وبنوا فيه معبدا .

وغلب بعض الكنعانيين على الشام ، ومنع من الضريبة التى كانت على أهل الشام لملك مصر ، فاجتمع الناس الى معدان ، وحثوه على المسير لحربه ، فامتنع عن المسير ولزم الهيكل .

فزعموا أنه قام فى هيكل زحل للعبادة ، فتجلى له زحل وخاطبه وقال له : قد جعلتك ربا على أهل بلدك ، وحبوتك بالقدرة عليهم وعلى غيرهم ، وسأرفعك الىّ فلا تخل من ذكرى .

فعظم عند نفسه وتجبر ، وأمر الناس أن يسموه ربا ، وترفع عن أن ينظر فى شىء من أمر الملك ، وجعل عليه ابنه اكسامس .

فقام ابنه اكسامس فى الملك — ويقال كاسم ابن معدان — فرتب الناس مراتب ، وقسم الكور والأعمال ، وأمر باستنباط العمارات واظهار الصناعات ، ووسع على الناس فى أرزاقهم ، وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها ، وزاد فى القرابين .

وهو الذى يقال له كاشم بن معدان بن دارم بن الريان بن الوليد بن دومع العمليقى ، وهو سادس الفراعنة ، وسموا فراعنة بفرعان الأول ، فصار اسما لكل من تجبر وعلا أمره .

فطال ملكه ، وأقام أعلاما كثيرة حول منف ، وعمل مدنا كثيرة ومنابر للوقودات وطلسمات ، وأقام سبع سنين بأجمل أمر .

فلما مات وزير أبيه استخلف رجلا من أهل بيت المملكة يقال له ظلما بن قومس . وكان شجاعا ساحرا كاهنا كاتبا حكيما متصرفا فى كل فن ، وكانت نفسه تنازعه الملك ، فأصلح أمر الملك ، وبنى مدنا من الجانبين ، ورأى فى نجومه أنه سيكون حدث فبنى بناحية رقودة والصعيد ملاعب ومصانع

وشكا اليه القبط من الاسرائيليين ، فقال : هم عبيدكم فأذلوهم من حينئذ . وخرج الى ناحية البربر فعاث وقتل وسبى .

وفى أيامه بنيت منارة الاسكندرية ، وهاج البحر الملح فغرق كثيرا من القرى والجنان والمصانع .

ومات اكسامس ، وكان ملكه احدى وثلاثين سنة ، منها احدى عشرة سنة تدبر أمره ظلما .

فلما مات اضطرب الناس واتهموا ظلما أنه سمه . فقام وولى لاطيس بن اكسامس ، وكان جريئا معجبا صلفا ، فأمر ونهى ، وألزم الناس أعمالهم ، وقال : أنا مستقيم مااستقمتم ، وان ملتم عن الواجب ملت عنكم . وحط جماعة عن مراتبهم ، وصرف ظلما عن خلافته ، واستخلف غيره ، وأنفذ ظلما الى الصعيد فى جماعة من الاسرائيليين ، وجدد بناء الهياكل ، وبنى القرى ، وأثار معادن كثيرة ، وكنز فى صحراء الشرق عدة كنوز ، وكان يحب الحكمة .

ثم تجبر وعلا أمره وأمر الا يجلس احد فى مجلسه ولا فى قصر الملك لا كاهن ولا غيره ، بل يقومون على أرجلهم حتى يمضوا . وزاد فى أذى الناس والعنف بهم ، ومنع فضول ما بأيديهم وقصرهم على القوت ، وجمع أموالهم ، وطلب النساء وانتزع كثيرا منهن ، وفعل أكثر مما فعله من تقدم قبله ، واستعبد بنى اسرائيل ، وقتل جماعة من الكهنة ، فأبغضه الخاص والعام .

وثار ظلما بالصعيد وكاتب وجوه الناس ، فكتب لاطيس بصرفه عن العمل ، فامتنع وحارب عساكره ، وزحف حتى دخل منف .

ظلما بن قومس فرعون موسى ، يقال ان اسمه الوليد بن مصعب بن أراهون بن الهلوت ابن قاران بن عمرو بن عمليق بن بلقع بن عابر ابن اشليخا بن لود بن سام بن نوح ، وانه من العمالقة . وكان قصيرا ، طويل اللحية ، أشهل العين اليمنى ، صغير العين اليسرى ، أعرج . وزعم قوم أنه من القبط ، وأن نسبه ونسب أهل بيته مشهور عندهم . وقيل غير ذلك .

وكان من خبره ما ذكرنا فى كنيسة دموه .

وقال ابن عبد الحكم : ولما أغرق الله فرعون بقيت مصر بعد غرقه ليس فيها من أشراف أهلها أحد ، ولم يبق الا العبيد والأجراء والنساء ، فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا ، وأجمع رأيهن أن يولين امرأة يقال لها دلوكه

فملكت دلوكة ابنة زبا ، ويقال دلوكه بنت قاران — وكان لها عقل وتجارب ومعرفة ، وكانت فى شرف منهن ، وهى يومئذ بنت مائة وستين سنة — فبنت جدارا حصنت به مصر من الأعداء ، وكان من حد زنج الى أفريقية الى الواحات الى بلد النوبة ، على كل موضع منه حرس قيام ليلهم ونهارهم ، يقدون النار وقودا لا يطفأ أبدا ، أحاطت به على جميع أرض مصر كلها * فى ستة أشهر ، وهو حائط العجوز .

وفى أيامها بنت تدورة الساحرة البرابى فى وسط منف .

فملكتهم دلوكة عشرين سنة ، حتى بلغ صبى من أبناء آكابرهم يقال له دركون بن بلاطس . ثم مات واستخلف ابنه تودست ، ثم توفى تودست بن دركون ، فاستخلف أدقاش ، فلم يملك الا ثلاث سنين حتى مات ، فاستخلف أخوه مرينا بن مرينوس .

ثم توفى فاستخلف استادس بن مرينا ، فطغى وتكبر وسفك الدم وأظهر الفاحشة ، فخلعوه وقتلوه ، وبايعوا رجلا من أشرافهم يقال له بلطوس بنميناكيل ، فملكهم أربعين سنة .

ثم توفى فقام ابنه مالوس .

ثم توفى مالوس فاستخلف أخوه ميناكيل ابن بلطوس بن ميناكيل ، فملكهم زمانا .

ثم توفى واستخلف ابنه نولة ابن ميناكيل ، فملكهم مائة وعشرين سنة .

(*) ص١٤٢ جـ١ ، ط.بولاق .

وهو الأعرج الذى سبى ملك بيت المقدس وقدم به الى مصر ، وكان قد تمكن وطغى وبلغ مبلغا لم يبلغه أحد ممن قبله بعد فرعون ، فصرعته دابته فمات

وقيل له الأعرج لأنه لما غزا اهل بيت المقدس وسبيهم وسبى ملكهم يوشيا بن آموص بن منشا ابن حزقيا ، هم أن يصعد على كرسى نبى الله سليمان بن داود — وكان بلولب لايمكن أحدا أن يصعد عليه الا برجليه جميعا — فصعد برجل واحدة ، وهى اليمنى ، فدار اللولب على ساقه الأخرى فاندقت ، فلم يزل يحمع بها الى أن مات ، فلذلك سمى الأعرج

فاستخلف مرنيوس بن نوله ، فملكهم زمانا ثم توفى واستخلف ابنه فرعورة فملكهم ستين سنة ثم توفى واستخلف أخوه نقاس بن مرنيوس ، واهدم البربا فى زمنه فلم يقدر أحد على اصلاحه ثم توفى نقاس واستخلف ابنه قومس بن نقاس فملكهم دهرا وحاربه بخت نصر وقتله ، وخرب مدينة منف وغيرها من المدائن ، وسبى اهل مصر ولم تترك بها أحدا حتى بقت أرض مصر أربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن .

وذكر فى ترجمة كتاب هروشيش الأندلسى ، فى وصف الدول والحروب ، أن فيما بين غرق فرعون موسى الى مائة وسبع سنين كان بمصر ملك يسمى بوشردس ، كان يقتل الغرباء والأضياف ، ويذبحهم لأوثانه ، ويجعل دماءهم قربانا لها

وأن بعد غرق فرعون الى ثلثمائة وثمان وعشرين سنة كان بمصر ملك يسمى بروته ، وكان عظيم المملكة قوى السلطان أخذ بالحرب أكثر نواحى الجنوب برا وبحرا .

وهو أول من حارب الروم الذين قبل لهم بعد ذلك الغوط وكان قد أرسل اليهم يدعوهم الى طاعته ويحوهم حربه ، فاجابوه ليس من الرأى المحمود للملك الغنى محاربة قوم فقراء لكثرة نوازل الحروب واختلاف حوادثها بالظفر والهلاك ، وانا لا ننتظر مجيئك ، بل نسرع لغارتك .

واتبعوا قولهم عملا ، وخرج فرعون اليهم فخرجوا مسرعين اليه ، وهزموا جيوشه ونهبوا عساكره وأمواله وعدده وجميع ذخائره ، ومضوا فنهبوا أرض مصر حتى كادوا يغلبون عليها لولا وحول عرضت لهم منعتهم مما خلفها ثم انصرفوا الى بلاد الشام بحروب متصلة حتى أذلوا أهلها وجعلوهم يؤدون اليهم المغارم

وأقاموا محاربين لمن خالفهم فى غزوتهم خمس عشرة سنة ، ولم ينصرفوا الى بلادهم حتى أتتهم من نسائهم من يقول لهم : اما أن تنصرفوا ، واما أن نتخذ الأزواج ونطلب النسل من عند المجاورين لنا فعند ذلك انصرفوا الى بلادهم وقد امتلأت أيديهم موالا وأوقارا جمة ، وقد خلفوا وراءهم ذكرا مفزعا

ويقال ان ملوك مدين ملكوا مصر خمسمائة عام بعد غرق فرعون وهلاك دلوكة حتى أخرجهم منها نبى الله سليمان بن داود ، فعاد الملك بعدهم الى القبط وان جالوت بن بالوت ، لما قتله داود ، سار ابنه جالوت بن جالوت الى مصر وبها ملوك مدين ، فأنزله ملك مصر بالجانب الغربى ، فأقام بها مدة ثم سار الى بلاد الغرب

ويقال ان القبط ملكوا مصر بعد دلوكة وابنها مدة ستمائة سنة وعشرين سنة ، وعدتهم سبعة وعشرون ملكا هم :

ديوسقوليطا ، ومدته ثمان وسبعون سنة ، وقيل ثمان وثمانون سنة .

ثم ملك بعده ساناودوس ستا وعشرين سنة .

وقام بعده سوماناس مدة مائة سنة .

ثم ملك مفخراس أربع سنين .

ثم ملك أماناقوناس تسع سنين .

ثم أسحوريس ست سنين .

ثم فسيناخس تسع سنين

ثم فسوسانس خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك سوناخوسيس احدى وعشرين سنة .

ثم ملك أساليون خمس عشرة سنة .

ثم طافالونيس ثلاث عشرة سنة .

ثم نطافاناسطلس خمسا وعشرين سنة .

ثم أساراثون تسع سنين .

ثم ملك فسامرس عشر سنين .

ثم أوفاينواس أربعا وأربعين سنة .

ثم ساياقور ثنتى عشرة سنة .

ثم سخس الحبشى ثنتى عشرة سنة .

ثم طراحوش الحبشى عشرين سنة .

ثم امراس الحبشى ثنتى عشرة سنة .

ثم استطافينياس سبع سنين .

ثم باخفاسوس ست سنين .

ثم باخو ثمان سنين .

ثم فساماملطيقوش أربعا وأربعين سنة .

ثم بحنوقا ست سنين .

ثم فسامرتاس سبع عشرة سنة .

ثم وافرس خمسا وعشرين سنة .

ثم أماسلس اثنتين وأربعين سنة .

وملك بعد هؤلاء * مصر خمسة ملوك من ملوك بابل ، وهم : أمرطيوش ست سنين ، ثم مافرطاس سبع سنين ، ثم أوخرس اثنتى عشرة سنة ، ثم فساموت مدة سنتين ، ثم ملك موتاطوس سبع سنين .

ثم ملك ثلاثة ملوك من أثور ، وهم الجرامقة الذين ملكوا الموصل والجزيرة ، وهم : نافاطانبوش ثلاث عشرة سنة ، ثم طوس سبع سنين ، ثم نافاطانيناس ثمان عشرة سنة .

ثم انتقل ملك مصر منهم الى الاسكندر بن فيلبش اليونانى .

وهذه أسماء رومية ، ولعلها أو بعضها متداخل فيما تقدم ذكره ممن ملك بعد دلوكة .

وبين بخت نصر وبين الطوفان ألفا سنة وثلثمائة وست وخمسون سنة وأشهر ، ويجتمع من حساب ما وقع فى التوراة أن بين الطوفان وبين خراب بيت المقدس على يد بخت نصر من السنين ألفا وستمائة وأربعا وثمانين سنة . وهذا خلاف ما نقله المسعودى ، والله تعالى أعلم بالصواب .

(*) ص١٤٢ جـ١ ، ط. بولاق *

ذكر مدينة الاسكندرية

هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعا . وقد بنيت غير مرة : فأول ما بنيت بعد نزول الطوفان فى زمان مصرايم بن بيصر ابن نوح ، وكان يقال لها اذ ذاك مدينة رقودة ، ثم بنيت بعد ذلك مرتين . فلما كان فى أيام اليونانيين جددها الاسكندر بن فيلبش المقدونى ، الذى قهر دارا وملك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف بمائة وعشرين سنة شمسية ، فعرفت به .

ومنذ جددها الاسكندر المذكور ، انتقل تخت المملكة من مدينة منف الى الاسكندرية ، فصارت دار المملكة بديار مصر . ولم تزل على ذلك حتى ظهر دين الاسلام ، وقدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين ، وفتح الحصن والاسكندرية . وصارت ديار مصر أرض اسلام ، فانتقل تخت الملك حينئذ من الاسكندرية الى فسطاط مصر ، وصار الفسطاط من بعد الاسكندرية دار مملكة ديار مصر

وسأقص عليك من أخبار الاسكندرية ما وصل اليه علمى ان شاء الله تعالى .

ذكر أبو الحسن المسعودى فى كتاب «أخبار الزمان» أن الكوكة (وهى أمة فى غابر الدهر من أهل أيلة) ملكوا الأرض وقسموها على ثلاثين كورة وأربعة أقسام ، كل قسم عمل ، وبنوا فى كل عمل مدينة بها ملك يجلس على منبر من ذهب ، وله بربا وهى بيت الحكمة ، وله هيكل على اسم كوكب فيه أصنام من ذهب . وجعلوا الاسكندرية، واسمها رقودة ، خمس عشرة كورة ، وجعلوا فيها كبار الكهنة ، ونصبوا فى هياكلها من أصنام الذهب أكثر مما نصبوا فى غيرها ، فكان ما بها مائتا صنم من ذهب . وقسموا الصعيد ثمانين كورة على أربعة أقسام وثلاثين مدينة فيها جميع العجائب .

وذكر بطليموس فى كتاب « الأقاليم ووصف الجزائر والبحار والمدن » أن مدينة الاسكندرية لبرج الأسد ، ودليلها المريخ ، وساعاتها أربع عشرة ساعة ، وطولها ستون درجة ونصف درجة ، يكون ذلك أربع ساعات مستوية وثلث عشر ساعة

وقال ابن وصيف شاه فى ذكر أخبار مصرايم ابن بيصر بن نوح : وعلمهم أيضا عمل الطلسمات ، وكانت تخرج من البحر دواب تفسد زرعهم وجنانهم وبنيانهم ، فعملوا لها الطلسمات ، فغابت ولم تعد . وبنوا على غير البحر مدنا ، منها مدينه رقودة مكان الاسكندرية ، وجعلوا فى وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب ، والقبة مذهبة ، ونصبوا فوقها مرآة من أخلاط شتى قطرها خمسة أشبار وارتفاع القبة مائة ذراع .

فكانوا اذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم ، فان كان مما يهمهم وكان من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شعاعها على ذلك الشىء فأحرقته ، فلم تزل الى أن غلب البحر عليها . ويقال ان الاسكندر انما عمل المنارة تشبيها بها .

وكان عليها أيضا مرآة يرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم ، فاحتال عليهم بعض ملوكهم ووجه اليها ما أزالها ، وكانت من زجاج مدبر

قال : وذكر بعض القبط أن رجلا من بنى الكهنة الذين قتلهم ايساد ملك مصر صار الى ملك كان فى بلاد الافرنجة فذكر له كثرة كنوز مصر وعجائبها ، وضمن له أن يوصله الى ملكها وأموالها ، ويرفع عنه أذى طلسماتها حتى يبلغ جميع ما يريد .

فلما اتصل بصا بن مرقونس أخى ايساد ، وهو ملك مصر يومئذ ، أن صاحب بلاد الافرنجة يتجهز اليه ، عمد الى جبل بين البحر الملح وشرقى النيل فأصعد اليه أكثر كنوزه ، وبنى عليها قبابا مصفحة بالرصاص .

وظهر صاحب بلاد الافرنجة فى ألف مركب ، فكان لا يمر بشىء من أعلام مصر ومنازلها الا هدمه ، وكسر الأصنام بمعونة ذلك الكاهن حتى أتى الاسكندرية الأولى فعاث فيها وفيما حولها ، وهدم أكثر معالمها ، الى أن دخل النيل من ناحية رشيد وصعد الى منف ، وأهل النواحى يحاربونه ، وهو ينهب ما مر به ويقتل ما قدر عليه ، الى أن طلب المدائن الداخلة ★ لأخذ كنوزها ، فوجدها ممتنعة بالطلسمات الشداد والمياه العميقة والخنادق والشداخات ، فأقام عليها أياما كثيرة فلم يمكنه الوصول اليها ، وغضب على الكاهن فقتله من أجل جماعة من أصحابه هلكوا .

فاجتمع أهل النواحى وقتلوا من أصحابه الذين بالمراكب خلقا ، وأحرقوا بعض المراكب ، وقام أهل مصر بسحرهم وتهاويلهم ، فأتت رياح أغرقت أكثر مراكبه حتى نجا بنفسه ، وقد خرج فعاد الناس الى منازلهم وقراهم .

ورجع الملك صا الى مدينة منف وأقام بها ، وتجهز لغزو بلدان الروم وبعث اليها ، وخرب الجزائر فهابته الملوك ، وتتبع الكهنة فقتل منهم خلقا كثيرا .

وأقام ملكا سبعا وستين سنة ، ومات وعمره مائة وسبعون سنة ، ودفن بمنف فى وسطها تحت الأرض ومعه الأموال والجواهر والتماثيل والطلسمات كما فعل آباؤه : منها أربعة آلاف مثقال ذهبا على صور حيوانات برية وبحرية ، وتمثال عقاب من حجر أخضر ، وتمثال تنين من ذهب ، وزبروا عليها اسمه ، وغلبته الملوك وسيرته ، وعهد الى ابنه تدراس .

قال : ولما جلست جورياق ابنة طوطيس ، أول فراعنة مصر — وهو فرعون ابراهيم الخليل عليه السلام — على سرير الملك بعد قتلها لأبيها ، وعدت الناس بالاحسان وأخذت فى جمع الأموال ، فاجتمع لها ما لم يجتمع لملك ، وقدمت الكهنة وأهل الحكمة ورؤساء السحرة ورفعت أقدارهم ، وأمرت بتجديد الهياكل .

وصار من لم يرضها الى مدينة أتريب ، وملكوا عليهم رجلا من ولد أتريب يقال له ايداخس ، فعقد على رأسه تاجا واجتمع اليه جماعة . فأنفذت اليه جيشا فهزموه وقتلوا أكثر أصحابه ، فهرب الى الشام وبها الكنعانيون فاستغاث بملكهم ، فجهزه بجيش

(★) ص١٤٤ جـ١ ، ط. بولاق .

عظيم . ففتحت جورياق الخزائن ، وفرقت الأموال ، وقوت السحرة فعملوا أعمالهم .

وتقدم ايداخس بجيوش الكنعانيين وعليها قائد منهم يقال له جيرون . فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرا لها من عقلاء النساء الى القائد سرا عن ايداخس تعرفه رغبتها فى تزوجه ، وأنها لا تختار أحدا من أهل بيتها ، وأنه ان قتل ايداخس تزوجت به وسلمته ملك مصر .

ففرح بذلك وسم ايداخس بسم أنفذته اليه فقتله .

وبعثت اليه بعد قتل ايداخس أنه لا يجوز أن أتزوجك حتى يظهر قومك فى بلدى وتبنى لى مدينة عجيبة — وكان افتخارهم حينئذ بالبنيان واقامة الأعلام وعمل العجائب — وقالت : انتقل من موضعك الى غربى بلدى ، فثم آثار لنا كثيرة ، فاقتف تلك الأعمال وابن عليها .

ففعل ، وبنى مدينة فى صحراء الغرب يقال لها قيدومة ، وأجرى اليها من النيل نهرا ، وغرس حولها غروسا كثيرة ، وأقام بها منارا عاليا فوقه منظر مصفح بالذهب والفضة والزجاج والرخام ، وهى تمده بالأموال ، وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه وهو لا يعلم .

فلما فرغ منها قالت له : ان لنا مدينة أخرى حصينة كانت لأوائلنا ، وقد خربت منها أمكنة وتشعث حصنها ، فامض اليها واعمل فى اصلاحها حتى أنتقل أنا الى هذه المدينة التى بنيتها ، فاذا فرغت من اصلاح تلك المدينة فأنفذ الى جيشك حتى أصير اليك وأبعد عن مدينتى وأهل بيتى ، فانى أكره أن تدخل على بالقرب منهم .

فمضى وجد فى عمل الاسكندرية الثانية .

وأهل التاريخ يذكرون ان الذى قصدها الوليد بن دومع العمليقى ثانى الفراعنة . وكان سبب قصدها أنه كان به علة فوجه الى الأقطار ليحمل اليه من مائها حتى يرى ما يلائمه . فوجه الى مملكة مصر غلاما فوقف على كثرة خيراتها ، وحصل اليه من مائها وألطافها ، وعاد اليه فعرفه حال مصر . فسار اليها فى جيش كثيف ، وكاتب الملكة يخطبها لنفسه ، فأجابته وشرطت عليه أن يبنى لها مدينة يظهر فيها أيده وقوته ، ويجعلها لها مهرا . فأجابها وشق مصر الى ناحية الغرب ، فبعثت اليه أصناف الرياحين والفواكه ، وخلقت وجوه الدواب .

فمضى الى الاسكندرية وقد خربت بعد خروج العادية منها ، فنقل ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها ، ووضع أساس مدينة عظيمة ، وبعث اليها مائة ألف فاعل ، وأقام فى بنائها مدة ، وأنفق جميع ما كان معه من المال ، وكلما بنى شيئا خرج من البحر دواب فتقلعه ، فاذا أصبح لم يجد من البناء شيئا ، فاهتم لذلك .

وكانت جورياق قد أنفذت اليه ألف رأس من المعز اللبون يستعمل ألبانها فى مطبخه ، وكانت مع راع تثق به يرعاها هنالك ، فكان اذا أراد أن ينصرف عند المساء خرجت اليه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسه اليها ، فاذا كلمها شرطت عليه أن تصارعه ، فان صرعها كانت له ، وان صرعته أخذت من المعز رأسين .

فكانت طول الأيام تصرعه وتأخذ الغنم حتى أخذت أكثر من نصفها ، وتغير باقيها لشغله بحب الجارية عن رعيها ، ونحل جسمه . فمر به صاحبه وسأله عن حاله فأخبره الخبر خوفا من سطوته ، فلبس ثياب الراعى ، وتولى رعى الغنم يومه الى المساء .

فخرجت اليه الجارية وشرطت عليه الشرط فأجابها ، وصارعها فصرعها وشدها ، فقالت : ان كان ولابد من أخذى فسلمنى لصاحبى الأول ، فانه ألطف بى وقد عذبته مدة .

فردها اليه وقال له : سلها عن هذا البنيان الذى * نُبنيه ويزال من ليلته ، من يفعل ذلك ؟ وهل فى ثباته من حيلة ؟

فسألها الراعى عن ذلك ، فقالت : ان دواب البحر التى تنزع بنيانكم .

فقال : فهل من حيلة ؟

قالت : نعم ، تعملون توابيت من زجاج كثيف بأغطية ، وتجعلون فيها أقواما يحسنون التصوير ، ويكون معهم صحف وأنقاش وزاد يكفيهم أياما ، وتحمل التوابيت فى المراكب بعد ما تشد بالحبال . فاذا توسطوا الماء أمروا المصورين أن يصوروا جميع ما يمر بهم ، ثم ترفع تلك التوابيت ، فاذا وقفتم على تلك الصور فاعملوا لها أشباها من صفر أو حجارة أو رصاص ، وانصبوها قدام البنيان الذى تبنونه من جانب البحر ، فان تلك الدواب اذا خرجت ورأت صورها هربت ولم تعد .

فعرف الراعى صاحبه ذلك ففعله ، وتم البنيان وبنى المدينة .

(*) ص١٤٥ جـ١ ، ط. بولاق .

وقال قوم : ان صاحب البناء والغنم هو جيرون ، كان قصدهم قبل الوليد ، وانما أتاهم الوليد بعد جورياق وقهرهم وملك مصر .

وذكروا أن الأموال التى كانت مع جيرون نفدت كلها فى تلك المدينة ولم تتم ، فأمر الراعى أن يخبر الجارية فقالت : ان فى المدينة التى خربت ملعبا مستديرا حوله سبعة عمد على رؤوسها تماثيل من صفر قيام ، فقرب لكل تمثال منها ثورا سمينا ، ولطخ العمود الذى تحته من دم الثور ، وبخره بشعر من ذنبه وشىء من نحاتة قرونه وأظلافه ، وقل له : هذا قربانك فأطلق لى ما عندك . ثم قس من كل عمود الى الجهة التى يتوجه اليها وجه التمثال مائة ذراع ، واحفر عند امتلاء القمر واستقامة زحل ، فانك تنتهى بعد خمسين ذراعا الى بلاطة عظيمة ، فلطخها بمرارة الثور وأقلها ، فانك تنزل الى سرب طوله خمسون ذراعا ، فى آخره خزانة مقفلة ، ومفتاح القفل تحت عتبة الباب فخذه ، ولطخ الباب ببقية المرارة ودم الثور ، وبخره بنحاتة قرونه وأظلافه وشعر ذنبه ، وادخل فانه يستقبلك صنم فى عنقه لوح من صفر مكتوب فيه جميع ما فى الخزانة ، فخذ ما شئت ولا تعترض ميتا تجده ولا ما عليه .

وكذلك كل عمود وتمثاله ، فانك تجد مثل تلك الخزانة . وهذه نواويس سبعة من الملوك وكنوزهم .

فلما سمع ذلك سر به ، وامتثله فوجد ما لا يدرك وصفه ، ووجد من العجائب شيئا كثيرا ، فتم بناء المدينة .

وظنة ذلك جورباق قـــاصدا ، وكانت قد أرادت اغتياله وهلاكه بالحيلة

ويقال انه وجد بيـــا وجد درجا من ذهب مختوما ، فيه مكحلة زبرجد فيها درور أخضر ومعها عرق أحمر ، من اكتحل من ذلك الدرور بالعرق وكان أشيب ، عاد شابا واسود شعره وأضاء بصره حتى يدرك الروحانيين ووجد تمثالا من ذهب اذا ظهر غيمت السماء وأمطرت ، ومثال غراب من حجر اذا سئل عن شيء صوت وأجاب عنه ، ووجد في كل خزانة عشر أعجوبات .

فلما فرغ من بناء المدينة وجه الى جورباق يحثها على القدوم اليه ، فعملت اليه فرشا فاخرا ليبسطه في المجلس الذي يجلس فيه ، وقالت له : اقسم جيشك أثلاثا فأنفذ الى ثلثه ، حتى اذا بلغت ثلث الطريق فأنفذ الثلث الآخر ، فاذا جزت نصف الطريق فأنفذ الثلث الباقي ليكونوا من ورائي ، لئلا يرانى أحد اذا دخلت عليك ، ولا يكون عندك الا صبية تثق بهم يخدمونك ، فانى أوفيك في جوار تكفيك الخدمة ولا أحتشمهن ففعل

وأقامت تحمل الجهاز اليه والأموال حتى علم بسيرها فوجه اليها ثلث جيشه ، فعملت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة ، وأنزلهم جوارها وحشمها وقدموا اليهم الأطعمة والأشربة والطيب وأنواع اللهو ، فلم يصبح منهم أحد حيا . وسارت ، فلقيها الثلث الآخر ففعلت به مثل ذلك .. وهى توجه اليه أنها أنفذت جيشه الى قصرها ومملكتها يحفظونها .

وسارت حتى دخلت عليه هى وطشرها وجوارها ، فنفحت طشرها في وجهه نفحة بهت اليها ، ووثبت عليه ما كان معها فارتعدت أعضاؤه ، وقال : من ظن أنه يغلب النساء فقد كذبته نفسه وغلبه النساء .

ثم انها فصدت عروقه وقالت : دماء الملوك شفاء ، وأخذت رأسه ووجهت به الى قصرها ونصبته عليه ، وحولت تلك الأموال الى مدينة منف ، وبنت منارا بالاسكندرية وزبرت عليه اسمها واسمه ، وما فعلت به ، وتاريخ الوقت .

فلما بلغ خبرها الملوك هابوها وأطاعوها وهادوها .

وعملت بمصر عجائب كثيرة ، وبنت على حد مصر من ناحية النوبة حصنا وقنطرة يجرى ماء النيل من تحتها ، واعتلت فقلدت ابنة عمها زلفى بنت مأمون ، وماتت .

وقال ابن خرداذبة : روى أن الاسكندرية بنيت في ثلثمائة سنة ، وأن أهلها مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار الا بخرق سود مخافة على أبصارهم من شدة بياض حيطانها ، ومنارتها العجيبة على سرطان زجاج في البحر ، وأنه كان فيها سوى أهلها ستمائة ألف من اليهود خول لأهلها

وقال ابن وصيف شاه : وكانت العمارة ممتدة في رمال رشيد والاسكندرية الى برقة ، فكان الرجل يسير في أرض مصر فلا يحتاج الى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ، ولا يسير الا في ظلال تستره من حر الشمس .

وعمل الملك صا بن قبطيم في تلك الصحارى قصورا ، وغرس فيها غروسا ، وساق اليها من النيل أنهارا ، فكان يسلك من الجانب الغربى الى حد المغرب في عمارة متصلة

فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم في تلك الصحارى ، وخربت تلك المنازل وباد أهلها ، ولا يزال من دخل تلك الصحارى يحكى ما رآه فيها من الآثار والعجائب

وقال ابن عبد الحكم : وكان الذى بنى الاسكندرية وأسس بناءها ذوالقرنين الرومى ، واسمه الاسكندر ، وبه سميت الاسكندرية ، وهو أول من عمل الوشى ، وكان أبوه أول القياصرة .

وقيل انه رجل من أهل مصر اسمه مرزبا بن مرزبة اليونانى ، من ولد يونان بن يافث بن نوح صلى الله عليه وسلم

وقيل كان من أهل لوبية (كورة من كور مصر الغربية) . وقال ابن لهيعة : وأهلها روم .

ويقال هو رجل من حمير ، قال تبع :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما
ملكا تدين له الملوك بمحشد

بلغ المغارب والمشارق يبتغى
أسباب علم من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها
في عين ذى خلب وثأط حرمد

ويروى «قد كان ذو القرنين قبلى مسلما» .

(*) ص١٤٦ جـ١ ، ط.بولاق .

وحدثنى عثمان بن صالح ، حدثنى عبد الله ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن سعد بن مسعود التجيبى ، عن شيخين من قومه قالا : كنا بالاسكندرية ، فاستطلنا يومنا فقلنا : لو انطلقنا الى عقبة بن عامر نتحدث عنده ، فانطلقنا اليه فوجدناه جالسا في داره ، فأخبرناه أنا استطلنا يومنا

فقال : وأنا مثل ذلك ، انما خرجت حين استطلته .

ثم أقبل علينا فقال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أخدمه ، فاذا أنا برجال من أهل الكتاب معهم مصاحف أو كتب ، فقالوا : استأذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرفت اليه فأخبرته بمكانهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مالى ولهم ، يسألونى عما لا أدرى ، انما أنا عبد لا أعلم الا ما علمنى ربى »

ثم قال : « أبلغنى وضوءا » ، فتوضأ ثم قام الى مسجد بيته فركع ركعتين ، فلم ينصرف حتى عرفت السرور في وجهه والبشر ، ثم انصرف فقال : « أدخلهم ، ومن وجدت بالباب من أصحابى فأدخله » .

قال : فأدخلتهم ، فلما وقفوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « ان شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألونى قبل أن تكلموا ، وان أحببتم تكلمتم وأخبرتكم » .

قالوا : بلى ، أخبرنا قبل أن تتكلم .

قال : « أجئتم أن تسألونى عن ذى القرنين ، وسأخبركم عما تجدونه مكتوبا عندكم ، ان أول أمره أنه غلام من الروم أعطى

ملكا ، فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر فابتنى عنده مدينة يقال لها الاسكندرية .

« فلما فرغ من بنائها أتاه ملك فعرج به حتى استقله فرفعه ، فقال : انظر ما تحتك ؟ فقال : أرى مدينتى وأرى مدائن معها . ثم عرج به فقال : انظر ؟ فقال : قد اختلطت مدينتى مع المدائن فلا أعرفها . ثم زاد فقال : انظر ؟ فقال : أرى مدينتى وحدها ولا أرى غيرها . قال له الملك : انما تلك الأرض كلها ، والذى ترى يحيط بها هو البحر . وانما أراد ربك أن يريك الأرض ، وقد جعل لك سلطانا فيها سوف يعلم الجاهل ويثبت العالم .

« فسار حتى بلغ مغرب الشمس ، ثم سار حتى بلغ مطلع الشمس ، ثم أتى السدين ، وهما جبلان لينان يزلق عنهما كل شىء ، فبنى السد . ثم جاز يأجوج ومأجوج ، فوجد قوما وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج ومأجوج ، ثم قطعهم فوجد أمة قصارا يقاتلون القوم الذين وجوههم وجوه الكلاب ، ووجد أمة من الغرانيق يقاتلون القوم القصار ، ثم مضى فوجد أمة من الحيات تلتقم الحية منها الصخرة العظيمة ، ثم أفضى الى البحر المدير بالأرض » .

فقالوا : نشهد أن أمره هكذا كما ذكرت ، وأنا نجده هكذا فى كتابنا .

وعن خالد بن معدان الكلاعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فقال : « ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب » .

قال خالد : وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول ياذا القرنين ، فقال : اللهم غفرا ، أما رضيتم أن تسموا بالأنبياء حتى تسميتم بالملائكة !

وقال قتادة عن الحسن : كان ذو القرنين ملكا ، وكان رجلا صالحا .

قال : وانما سمى ذا القرنين لأن عليا رضى الله عنه سئل عن ذى القرنين فقال : لم يكن ملكا ولا نبيا ، ولكن كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه الله ، ونصح لله فنصحه الله ... بعثه الله عز وجل الى قومه فضربوه على قرنيه فمات ، فسمى ذا القرنين .

ويقال انما سمى ذا القرنين لأنه جاوز قرنى الشمس من المغرب والمشرق .

ويقال انما سمى ذا القرنين لأنه كان له غديرتان من شعر رأسه يطأ فيهما ، وقيل بل كان له قرنان صغيران توارهما العمامة .

وعن ابن شهاب : انما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مشرقها .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : كان أول شأن الاسكندرية أن فرعون اتخذ بها مصانع ومجالس ، وكان أول من عمرها وبنى فيها ، فلم تزل على بنائه ومصانعه . ثم تداولها ملوك مصر بعده ، فبنت دلوكة بنت زبا منارة الاسكندرية ومنارة بوقير بعد فرعون . فلما ظهر سليمان بن داود عليهما السلام على الأرض اتخذ بها مجلسا * وبنى فيها مسجدا .

(*) ص١٤٧ ج١ ، ط.بولاق .

ثم ان ذا القرنين ملكها فهدم ما كان من بناء الملوك والفراعنة وغيرهم ، الا بناء سليمان لم يهدمه ولم يغيره ، وأصلح ما كان رث منه ، وأقر المنارة على حالها ، ثم بنى الاسكندرية من أولها بناء يشبه بعضه بعضا . ثم تداولها الملوك بعده من الروم وغيرهم ، ليس من ملك الا يكون له بها بناء يضعه بالاسكندرية يعرف به وينسب اليه .

قال ابن لهيعة : وبلغنى أنه وجد بالاسكندرية حجر مكتوب فيه : أنا شداد ابن عاد ، وأنا الذى نصب العماد ، وجيد الأحياد ، وشد بذراعه الواد ، بنيتهن اذ لا شيب ولا موت ، واذ الحجارة فى اللين مثل الطين .

وفى رواية : وكنزت فى البحر كنزا على اثنى عشر ذراعا ، لن يخرجه أحد حتى تخرجه أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

قال ابن لهيعة : والأحياد كالمغار .

وقال أبو على القالى فى كتاب « الأمالى » : وأنشد ابن الأعرابى وغيره :

تسألنى عن السنين كم لى
فقلت لو عمرت عمر الحسل
أو عمر نوح زمن الفطحل
لو أننى أوتيت علم الحكل
وعشت دهرا زمن الفطحل
لكنت رهن هرم أو قتل

وفى رواية :

علم سليمان كلام النمل
أيام كان الصخر مثل الوحل

وقال آخر : زمن الفطحل : اذ السلام رطاب

وعندهم أن زمن الفطحل زمان كان بعد الطوفان عظم فيه الخصب وحسنت أحوال أهله

وقال بعضهم : زمن الفطحل زمن لم يخلف بعد

وقوله « علم الحكل » الحكل ما لا يسمع صوته من الحيوان .

وهذا الرجز لرؤبة بن العجاج بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن حيى بن بكر بن ربيعة بن سعد بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وذلك أنه ورد ماء لعكل فرأى فتاة فأعجبته فخطبها ، فقالت : أرى سنا ، فهل من مال ؟

قال : نعم ، قطعة من ابل .

قالت : فهل من ورق ؟

قال : لا .

قالت : ياآل عكل أكبرا وامعارا !

فقال رؤبة :

لما ازدرت قدرى وقلت ابلى
تألفت واتصلت بعكل حظى
وهزت رأسها تستبلى
تسألنى عن السنين كم لى
فقلت لو عمرت عمر الحسل
أو عمر نوح زمن الفطحل
والصخر مبتل كطين الوحل

وفى رواية :

لو أننى أوتيت علم الحكل
علم سليمان كلام النمل

وسألت أبا بكر بن دريد عن زمن الفطحل فقال : تزعم العرب أنه زمان كانت فيه الحجارة رطبة .

قال ابن عبد الحكم : ويقال ان الذى بنى الاسكندرية شداد بن عاد ، والله أعلم .

وكانت الاسكندرية ثلاث مدن ، بعضها الى جنب بعض : منيعة ، وهى موضع المنارة وما والاها ، والاسكندرية — وهى موضع قصبة الاسكندرية اليوم — ونقيطة . وكان على كل واحدة منهن سور ، وسور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهن جميعا .

وقيل كان على الاسكندرية سبعة حصون منيعة ، وسبعة خنادق .

قال : وان ذا القرنين لما بنى الاسكندرية رخمها بالرخام الأبيض جدرها وأرضها ، فكان لباسهم فيها السواد والحمرة ، فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام . ولم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام ، واذا كان القمر أدخل الرجل الذى يخيط بالليل فى ضوء القمر مع بياض الرخام الخيط فى ثقب الابرة . ويقال بنيت الاسكندرية فى ثلثمائة سنة ، وسكنت ثلثمائة سنة ، وخربت ثلثمائة . ولقد مكثت سبعين سنة ما يدخلها أحد الا وعلى بصره خرقة سوداء من بياض جصها وبلاطها ، ولقد مكثت سبعين سنة ما يستسرج فيها .

قال : وكانت الاسكندرية بيضاء تضىء بالليل والنهار ، وكانوا اذا غربت الشمس لم يخرج أحد من بيته ، ومن خرج اختطف . وكان منهم راع يرعى على شاطىء البحر ، فكان يخرج من البحر شىء فيأخذ من غنمه ، فكمن له الراعى فى موضع حتى خرج ، فاذا جارية قد نفشت شعرها ، وماثلته عن نفسها ، فقوى عليها ، فذهب بها الى منزله فألفت به . فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس فسألتهم ، فقالوا : من خرج منا اختطف . فهيأت لهم الطلسمات ، فكانت أول من وضع الطلسمات بمصر فى الاسكندرية . وقيل كان الرخام قد سخر لهم حتى يكون من بكرة النهار كالعجين ، فاذا انتصف النهار اشتد .

وقال المسعودى : ذكر جماعة من أهل العلم أن الاسكندر المقدونى لما استقام ملكه فى بلاده ، وسار حتى يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء ، حتى انتهى الى موضع الاسكندرية فأصاب فيها أثر بنيان وعمدا كثيرة من الرخام ، وفى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند ، وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد : أنا شداد بن عاد ، شددت بساعدى الواد ، وقطعت (١) عظيم العماد وشوامخ الجبال والأطواد ، وبنيت ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وأردت أن أبنى هنا مدينة كارم ، وأنقل اليها كل ذى قدم وكرم ، من جميع العشائر والأمم ، وذلك اذ لا خوف ولا هرم ، ولا اهتمام ولا سقم ، فأصابنى ما أعجلنى ، وعما أردت قطعنى ، ومع وقوعه طال همى وشجنى ، وقل نومى وسكنى ، فارتحلت بالأمس عن دارى لا لقهر ملك جبار ، ولا لخوف جيش جرار ، ولا عن رغبة ولا عن صغار ، ولكن لتمام المقدار ، وانقطاع

(١) ص١٤٨ جـ١ ، ط. بولاق .

الآثار ، وسلطان العزيز الجبار . فمن رأى أثرى ، وعرف خبرى وطول عمرى ونفاذ بصرى وشدة حذرى ، فلا يغتر بالدنيا بعدى ، فانها غرارة غدارة ، تأخذ منه ما تعطى ، وتسترجع منه ما تؤتى ... وكلام كثير يرى فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون اليها .

فنزل الاسكندر مفكرا يتدبر هذا الكلام ويعتبره ، ثم بعث يحشر الصناع من البلاد ، وخط الأساس ، وجعل طولها وعرضها أميالا ، وجمع اليها العمد والرخام ، وأتته المراكب فيها أنواع الرخام وأنواع المرمر والأحجار من جزيرة صقلية وبلاد أفريقية وأقريطش وأقاصى بحر الروم مما يلى مصبه بحر اقيانوس ، وحمل اليه أيضا من جزيرة رودس . وأمر الفعلة والصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة .

وجعل على كل قطعة من الأرض خشبة قائمة ، وجعل من الخشبة الى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض ، وأوصل جميع ذلك بعمود من الرخام ، وكان أمام مضربه ، وعلق على العمود جرسا عظيما مصوتا ، وأمر الناس والقوام على البنائين والفعلة والصناع أنهم اذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال ، وقد علق على كل قطعة منها جرسا صغيرا ، حرصوا على أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها ، وأحب الاسكندر أن يجعل ذلك فى وقت يختاره ، وطالع سعد .

فحرك الاسكندر رأسه وأخذته نعسة فى حال ارتقابه الوقت المحمود ، فجاء غراب فجلس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فحركه ، وخرج صوت الجرس ، وتحركت الحبال وخفق ما عليها من الأجراس الصغار ، وكان ذلك معمولا بحركات هندسية وحيل حكمية . فلما رأى الصناع تلك الحبال قد تحركت ، وسمعوا الأصوات ، وضعوا الأساس دفعة واحدة ، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس . فاستيقظ الاسكندر من رقدته ، وسأل عن الخبر فأخبر بذلك ، فأعجب وقال : أردت أمرا وأراد الله غيره ، ويأبى الله الا ما يريد ... أردت طول بقائها ، وأراد الله سرعة فنائها وخرابها وتداول الملوك اياها .

وان الاسكندر لما أحكم بناءها ، وثبت أساسها ، وجن الليل عليهم ، خرجت دواب البحر فأتت على جميع البنيان ، فقال الاسكندر حين أصبح : هذا بدو الخراب فى عمارتها ، وتحقق مراد البارى سبحانه من زوالها .

تتطير من فعل الدواب ، فلم تزل البناة فى كل يوم تبنى وتحكم ويوكل من يمنع الدواب اذا خرجت من البحر ، فيصبحون وقد خرجت وخربت البنيان .

فقلق الاسكندر لذلك وراعه ما رأى من البحر ، فأقبل يفكر ما الذى يصنع ، وأى حيلة تنفع فى ذلك ، حتى تدفع الأذية عن المدينة ، فسنحت له الحيلة عند خلوه بنفسه وايراده الأمور واصدارها .

فلما أصبح دعا الصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع فى عرض خمسة أذرع ، وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها ، وقد

أسند ذلك بالقار والزفت وغيره من الأطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء الى التابوت ، وقد جعل فيها مواضع للحبال .

ودخل الاسكندر فى التابوت ورجلان من كتابه ممن له علم باتقان التصوير ، وأمر أن تسد عليه الأبواب ، وأن تطلى بما ذكرنا من الأطلية ، وأمر بمركبين عظيمين فأخرجا الى لجة البحر وعلق فى التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والحجارة لتهوى بالتابوت سفلا ، وجعل التابوت بين المركبين ، وألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا ، وشد حبال التابوت الى المركبين وطول حباله ، فغاص التابوت حتى انتهى الى قرار البحر .

فنظروا الى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف فى صفاء ماء البحر ، فاذا بصور الشياطين على مثال الناس ، وفيهم من له مثل رؤوس السباع وفى أيديهم الفئوس مع بعضهم ، وفى أيدى بعضهم المناشير والمقامع يحكون بذلك صناع المدينة والفعلة وما فى أيديهم من آلات البناء .

فأثبت الاسكندر ومن معه تلك الصور ، وحكوها بالتصوير فى القراطيس على اختلاف أنواعها وتشوه خلقها وقدودها . ثم حرك الحبال ، فلما أحس بذلك من فى المركبين جذبوا الحبال وأخرجوا التابوت .

فخرج الاسكندر ، وأمر صناع الحديد والنحاس والحجارة فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما صور ، فلما فرغوا منها وضعت على العمد بشاطىء البحر ، ثم أمرهم فبنوا .

فلما جن الليل ظهرت الدواب والآفات من البحر ، فنظرت الى صورها على العمد مقابلة الى البحر ، فرجعت ولم تعد بعد ذلك ... فبنيت الاسكندرية وشيدت .

وأمر الاسكندر أن يكتب على أبوابها : هذه الاسكندرية ، أردت ان أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات فى الدهور ، ولم يرد البارى عز وجل مالك السموات والأرض ومفنى الأمم أن يبنيها كذلك ، فبنيتها وأحكمت بنيانها وشيدت سورها . وآتانى الله عز وجل من كل شىء علما وحكمة ، وسهل لى وجوه الأسباب فلم يتعذر على فى العالم شىء مما أردته ، ولا امتنع عنى شىء مما طلبته ، لطفا من الله عز وجل وصنعا لى وصلاحا لعباده من أهل عصرى ، والحمد لله رب العالمين ، لا اله الا هو رب كل شىء .

ورسم بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الأحداث بعده فى مستقبل الزمان من الآفات والعمران والخراب ، وما يؤول أمرها اليه الى وقت دثور العالم .

وكان بناء الاسكندرية طبقات ، وتحتها قناطر مقنطرة عليها دور المدينة ، يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا تضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التى تحت المدينة . وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق ، ومتنفسات للضياء ، ومنافذ للهواء .

وقد كانت الاسكندرية تضىء بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر ، وكانت

(١) ص١٤٦ جـ١ ط بولاق .

أسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة كلها لا يصيب أهلها شىء من المطر . وكان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة الألوان ، بينها خنادق ، وبين كل خندق وسور فصول . وربما تعلق فى المدينة شقاق الحرير الأخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه .

فلما أحكم بناءها وسكنها أهلها ، كانت آفات البحر وسكانه — على ما زعم الاخباريون من المصريين والاسكندريين — تختطف بالليل أهل المدينة ، فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير .

فلما علم بذلك الاسكندر اتخذ الطلسمات على أعمدة هنالك تدعى المسال ، وهى باقية الى هذه الغاية ، كل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السروة ، وطول كل واحد منها ثمانون ذراعا ، على عمد من نحاس ، وجعل تحتها صورا وأشكالا وكتابة .

قال مؤلفه رحمه الله : فيما تقدم من حكاية ابن وصيف شاه ما يتبين به وهم ما نقله المسعودى من أن الاسكندر هو الذى عمل التابوت حتى صور أشكال حيوانات البحر ، فان ابن وصيف شاه أعرف بأخبار أهل مصر . وكذلك ما ذكره المسعودى من أن المسال من عمل الاسكندر وهم أيضا ، بل هذه المسال هى المناير التى كان ينور عليها ، والأعلام التى كانت ملوك مصر القدماء تنصبها . وهى من أعمال ملوك القبط الأول ، ومن أعمال الفراعنة الذين ملكوا مصر من قديم الزمان .

ذكر الاسكندر

هو الاسكندر بن فليش بن آمنته — ويقال آمنتاس — بن هركلش — ويقال هرقول — الجبار الذى هو ابن الاسكندر الأعظم . ولى أبوه فليش الملك فى بلد مجدونية — ويقال مقدونية — خمسا وعشرين سنة ، استنبط فيها ضروبا من المكر ، وابتدع أنواعا من الشر تقدم فيها كل من ولى الملك بها قبله .

وكان فى أول أمره قد جعله أخوه الاسكندر رهينة عند أمير من الروم ، فأقام عنده ثلاث سنين ، وكان فيلسوفا ، فتعلم عنده ضروب الفلسفة .

فلما قتل أخوه الاسكندر ، اجتمع الناس على تولية فليش ، فولوه أميرا ، فقام فى السلطان مقاما عظيما ، فحارب الروم وغلب عليهم ، ومضى الى البرية فقتل بها من الناس آلافا ، وغلب على مدائن ، فاجتمع له جمع لا يقاد وجيش لا يرام ، فأذل جميع الروم ، وذهبت عينه فى بعض الحروب . وغمر البلدان والمدائن عمارة وهدما وسبيا وانتهابا .

ثم حشد جميع أهل بلد الروم ، وعبى عسكرا فيه مائتا ألف راجل وخمسون ألف فارس ، سوى من كان فيه من أصحابه المقدونيين ومن غيرهم من أجناس اليونانيين ، يريد غزو الفرس .

فبينا هو يجمع هذا الجمع نظر فى تزويج ابنة له يقال لها قلوبطرة من ختنه (أخى امرأته وخال ولده) الاسكندر ، وجلس قبل العرس بيومين يحدث قواده اذ سئل عن أى

الموتات أحق أن يتمناها الانسان ! فقال : الواجب على الرجل القوى الظافر المجرب (يريد نفسه) ألا يتمنى الموت الا بالسيف فجأة ، لئلا يعذبه المرض وتحل قوته الأوجاع

فعجل له ما تمنى فى ذلك العرس ، وذلك أنه حضر لعبا كان على الخيل بين ولده الاسكندر وختنه الاسكندر ، فبينما هو فى ذلك غافله أحد أحداث الروم بطعنة فقتله بها ثائرا بأبيه عندما تمكن منه منفردا .

فولى الاسكندر الملك بعد أبيه فيلبش . وكان أول شىء أظهر فيه قوته وعزمه فى بلد الروم ، وكانوا قد خرجوا عن طاعة المقدونيين الى طاعة الفرس ، فدرسهم واستأصلهم وخرب مدنهم وجعلهم سبيا مبيعا ، وجعل سائر بلادهم وكورهم تؤدى اليه الخراج . ثم قتل جميع أختانه وأكثر أقاربه فى وقت تعبيته لمحاربة الفرس .

وكان جميع عسكره اثنين وعشرين ألف فارس وستين ألف راجل ، وكانت مراكبه خمسمائة مركب وثمانين مركبا . فحرك بهذه العدة كبار ملوك الدنيا ، وسار الى الاسكندرية * ، ودخل بيت المقدس وقرب فيه لله تعالى قربانا .

وخرج يريد محاربة دارا ، وكان فى عسكر دارا ملك الفرس فى أول ملاقاته اياه ستمائة ألف مقاتل ، فغلبه الاسكندر ، وكانت اذ ذاك على الفرس وقعة شنعاء ونكبة دهياء ، قتل فيها منهم عدد لا يحصى ، ولم يقتل من عسكر الاسكندر الا مائة وعشرون فارسا وتسعون راجلا

ومضى الاسكندر ففتح مدائن وانتهب ما فيها ، فبلغه أن دارا قد عبى وأقبل نحوه بجمع عظيم ، فخاف أن يلحقه فى ضيق الجبال التى كان فيها ، فقطع نحوا من مائة ميل فى سرعة عجيبة حتى بلغ مدينة طرسوس ، وكاد يهلك لفرط البرد حتى انقبض عصبه .. فلاقاه دارا فى ثلثمائة ألف راجل ومائة ألف فارس

فلما التقى الجمعان كاد الاسكندر يفر لكثرة ما كان فيه دارا وقلة ما كان فيه ، ووقع القتال بينهما وباشر القواد الحرب بأنفسهم ، وتنازل الأبطال ، واختلف الطعن والضرب ، وضاق الفضاء بأهله ، فباشر كلا الملكين الحرب بأنفسهما : دارا والاسكندر ، وكان الاسكندر أكمل أهل زمانه فروسية وأشجعهم وأقواهم جسما ، فباشرا حتى جرحا جميعا ، وتمادى الحرب بينهما حتى انهزم دارا ، ونزلت الوقيعة بالفرس ، فقتل من راجلهم نحو من ثمانين ألفا ، ومن فرسانهم نحو من عشرة آلاف ، وأسر منهم نحو من أربعين ألفا ، ولم يسقط من عسكر الاسكندر الا مائتان وثلاثون راجلا ومائة وخمسون فارسا .

فانتهب الاسكندر جميع عسكر الفرس ، وأصاب فيه من الذهب والفضة والأمتعة الشريفة ما لا يحصى كثرة ، وأصيب من جملة الأسارى أم دارا وزوجته وأخته وابنتاه ، فطلب دارا من الاسكندر فديتهن بنصف ملكه فلم يجبه الى ذلك . فعبى دارا مرة ثالثة وحشد الفرس عن آخرهم ، واستجاش بكل من قدر عليه من الأمم ، فبعث الاسكندر

(*) ص١٥٠ ج١ ، ط. بولاق .

قائدا فى أسطول للغارة على بلد الفرس ، ومضى الاسكندر الى الشام فتلقاه هنالك ملوك الدنيا خاضعين له ، فعفا عن بعض ونفى بعضا وقتل بعضا ، ومضى الى احراز طرسوس — وكانت مدينة زاهرة قديمة عظيمة الشان ، وأهلها قد وثقوا بعون أهل أفريقية لهم لصهر كان بينهم — فحاصرهم فيها حتى افتتحها ، ومضى منها الى رودس والى مصر فانتهب الجميع ، وبنى مدينة الاسكندرية بأرض مصر ، وقال هروشيوش : وله فى بنيانها أخبار طويلة وسياسات كرهنا تطويل كتابنا بها .

ثم ان دارا لما يئس من مصالحته أقبل فى أربعمائة ألف راجل ومائة ألف فارس فتلقى الاسكندر مقبلا من ناحية مصر ، فى أعمال مدينة طرسوس ، فكانت بينهما معركة عجيبة شنيعة ، اجتهادا من الروم على ما كانوا خبروه واعتادوا من الغلبة والظفر ، واجتهادا من الفرس بالتوطين على الهلاك وتفضيل الموت على الرق والعبودية ، فقلما يحكى عن معركة كان القتل فيها أكثر منه فى تلك المعركة .

فلما نظر دارا الى أصحابه يتغلب عليهم ويهزمون ، عزم على استعجال الموت فى تلك الحرب بالمباشرة لها بنفسه والصبر حتى يقتل معترضا للقتل ، فلطف به بعض قواده حتى سلوه فانهزم ، وذهبت قوة الفرس وعزهم ، وذل بعدها سلطانهم ، وسار بلد المشرق كله فى طاعة الروم ، وانقطع ملك الفرس مدة أربعمائة عام وخمسين عاما .

واشتغل الاسكندر بتحصيل ما أصاب فى عسكر الفرس والنظر فيه ، وقسمته على عسكره ثلاثين يوما .

ثم مضى الى مدينة الفرس التى كانت رأس مملكتهم ، والتى اجتمعت فيها أموال الدنيا ونعمها فهدمها ونهب ما فيها ، فبلغه عن دارا أنه صار عند قوم مكبلا فى كبول من فضة ، فتهيأ وخرج فى ستة آلاف فوجده بالطريق مجروحا جراحات كثيرة ، فلم يلبث أن هلك منها . فأظهر الاسكندر الحزن عليه والمرثية له ، وأمر بدفنه فى مقابر الملوك من أهل مملكته .

وكان فى أمر هذه الثلاث معارك عبرة لمن اعتبر ، ووعظ لمن اتعظ ، اذ قتل فيها من أهل مملكة واحدة نحو من خمسة عشر ألف ألف بين راكب وراجل من أهل بلد آسيا — وهى العراق — وقد كان قتل من أهل تلك المملكة قبل ذلك بنحو من ستين سنة نحو تسعة عشر ألف ألف الى ألف ألف ما بين راكب وراجل من أهل بلد العراق والشام وطرسوس ومصر وجزيرة رودس وجميع البلدان الذين درسهم الاسكندر أجمعين .

وكان سلطان الدنيا مقسوما بين قواده بعد ما زلزل بدواهيه العظيمة العالم كله ، وعم أهله بعضا بالمنايا القطيعة ، وبعضا بالتوطين عليها والمباشرة لأهوالها . وأوصى عند وفاته أن يلقب كل قائم فى اليونانيين بعده بيطليموس تهويلا للاعداء ، لأن معناه « الحربى » .

فهذا هو الصحيح من خبر الاسكندر ، فلا يلتفت الى ما خالفه .

ويقال انه كان أشقر أزرق ، وهو أول من سمر بالليل ، وكان له قوم يضحكونه ويحكو له الخرافات ... يريد بذلك حفظ ملكه وحراسة نفسه ، لا اللذة . وبه اقتدى الملوك فى السمر واتخاذ المضحكين والمخرفين .

ذكر تاريخ الاسكندر *

قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى : تاريخ الاسكندر اليونانى — الذى يلقبه بعضهم بذى القرنين — على سنى الروم ، وعليه عمل أكثر الأمم ، لما خرج من بلاد يونان ، وهو ابن ست وعشرين سنة لقتال دارا ملك الفرس .

ولما ورد بيت المقدس أمر اليهود بترك تاريخ داود وموسى عليهما السلام ، والتحول الى تاريخه . فأجابوه وانتقلوا الى تاريخه ، واستعملوه فيما يحتاجون اليه ، بعد أن عملوه من السنة السادسة والعشرين لميلاده — وهو أول وقت تحركه — ليتموا ألف سنة من لدن موسى عليه السلام . وبقوا معتصمين بهذا التاريخ ومستعملين له .

وعليه عمل اليونانيين، وكانوا قبله يؤرخون بخروج يونان بن نورس عن بابل الى المغرب .

وأول تاريخ الاسكندر يوم الاثنين أول تشرين الأول ، وموافقه اليوم الرابع من بابه . ومبادى الأيام عندهم من وقت طلوع الشمس الى وقت غروبها ، والى أن يصبح الصباح وتطلع الشمس فقد كمل يوم بليلته . ومبادى الشهور ترجع الى عدد واحد له نظم يجرى عليه دائما ، وعدد شهور سنتهم اثنا عشر شهرا يخالف بعضها بعضا فى العدد .

وهذه أسماؤها وعدد أيام كل شهر منها :

تشرين الأول : أحد وثلاثون يوما .

تشرين الثانى : ثلاثون يوما .

كانون الأول : أحد وثلاثون يوما .

كانون الثانى : أحد وثلاثون يوما .

شباط : ثمانية وعشرون يوما وربع .

آذار : أحد وثلاثون يوما .

نيسان : ثلاثون يوما .

أيار : أحد وثلاثون يوما .

حزيران : ثلاثون يوما .

تموز : أحد وثلاثون يوما .

آب : أحد وثلاثون يوما .

أيلول : ثلاثون يوما .

فسبعة أشهر ، كل شهر منها أحد وثلاثون يوما ، وأربعة أشهر كل شهر منها ثلاثون يوما ، وشهر واحد ثمانية وعشرون يوما وربع يوم — وذلك أنهم جعلوا شباط كل ثلاث سنين متواليات ثمانية وعشرين يوما ، وجعلوه فى السنة الرابعة تسعة وعشرين يوما — فيكون عدة أيام سنتهم ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم ، ويجعلون السنة الرابعة ثلثمائة وستة وستين يوما ويسمونها السنة الكبيسة .

وانما زادوا الربع فى كل سنة ليقرب عدد أيام سنتهم من عدد أيام السنة الشمسية ، حتى تبقى أمورهم على نظام واحد ، فتكون شهور البرد وشهور الحر وأوان الزرع ولقاح الشجر وجنى الثمر فى وقت معلوم من السنة ، لا يتغير وقت شىء من ذلك ألبتة .

(*) ص١٥١ جـ١ ، ط.بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

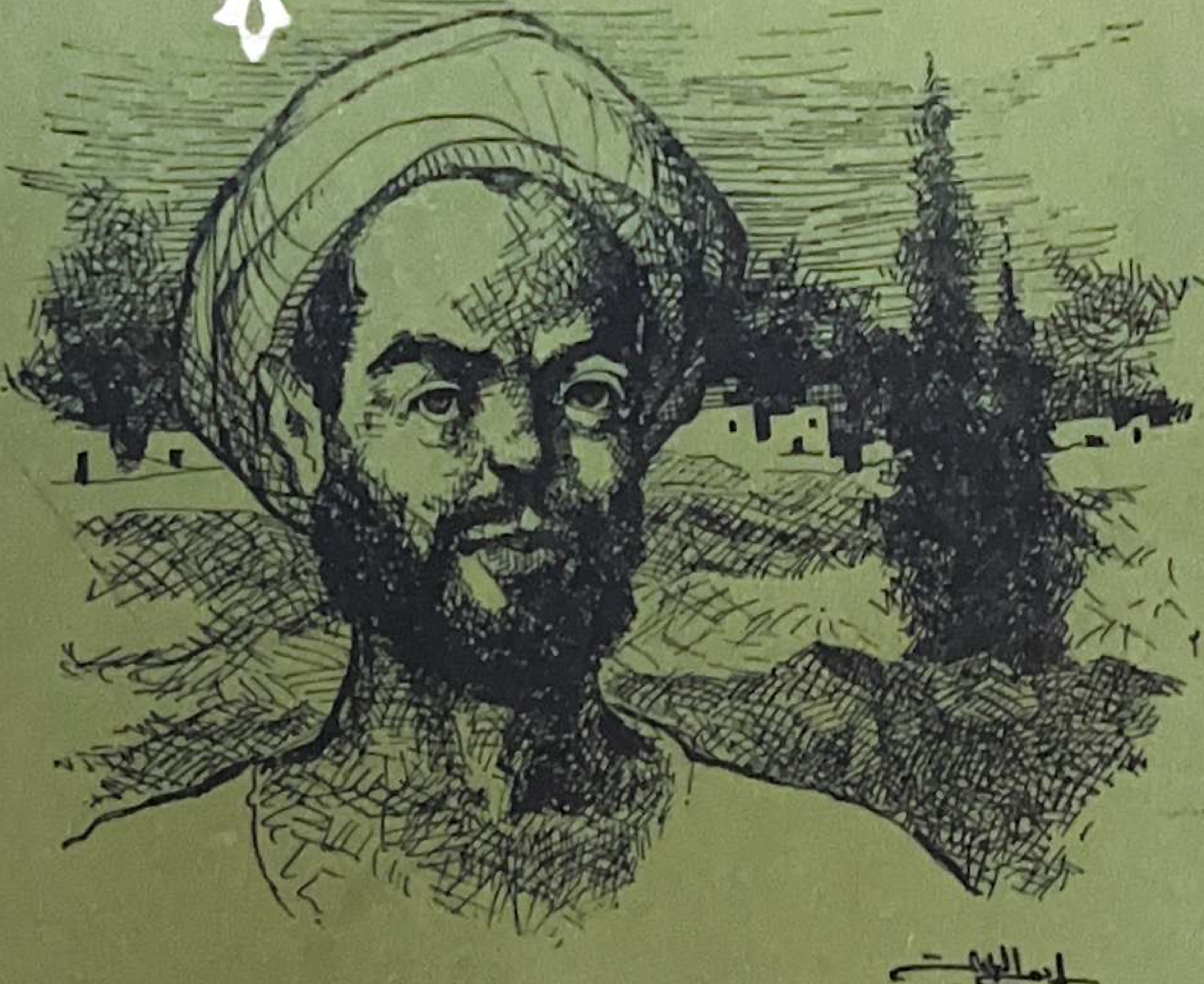
الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء

٨

كتاب التحرير



"كانت مصر هي مسقط رأسي، وملعب أترابي، ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامتي، وموطن خاصتي وعامتي، وجؤجؤي الذي ربى جناحي في وكره، وعش مأربي، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتاني ربي الفطانة والفهم، أرغب في معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها"

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

وكان ابتداء الكبيس فى السنة الثالثة من ملك الاسكندر .

وبين يوم الاثنين أول يوم من تاريخ الاسكندر هذا وبين يوم الخميس أول شهر المحرم من السنة التى هاجر نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة تسعمائة سنة وثلاث وثلاثون سنة ومائة وخمسة وخمسون يوما .

وبينه وبين يوم الجمعة أول يوم من الطوفان ألفا سنة وسبعمائة سنة واثنتان وتسعون سنة ومائة وثلاثة وتسعون يوما .

وبين ابتداء ملك بخت نصر وبين أول تاريخ الاسكندر أربعمائة وخمس وثلاثون سنة شمسية ومائتا يوم وثمانية وثلاثون يوما .

وقال أبو بكر أحمد بن على بن قيس بن وحشية فى كتاب « الفلاحة النبطية » : الشهر المسمى تموز — فيما ذكر القبط بحسب ما وجدت فى كتبهم — اسم رجل كانت له قصة عجيبة طويلة ، وهو أنه دعا ملكا الى عبادة الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر ، وأن الملك قتله وعاش بعد القتلة ، ثم قتله قتلات بعد ذلك قبيحة وفى كلها يعيش ، ثم مات فى آخرها .

وان شهورهم هذه كل واحد منها اسم رجل فاضل عالم كان فى القديم من النبط الذين كانوا مكان اقليم بابل قبل الكسدانيين . وذلك أن تموز هذا ليس من الكسدانيين ولا الكنعانيين ولا العبرانيين ولا الجرامقة ، وانما هو من الحزناسيين الأولين .

ولذلك يقولون فى كل شهورهم : انها أسماء رجال مضوا ، وان تشرين الأول وتشرين الثانى اسما أخوين كانا فاضلين فى العلوم ، وكذلك كان كانون الأول وكانون الثانى ، وان شباط اسم رجل نكح ألف امرأة — أبكارا كلهن — ولم ينسل نسلا ولا ولد ولدا ، فجعلوه فى آخر الشهور لنقصانه عن النسل ، فصار النقصان من العدد فيه .

والصابئون من البابليين والحزناسيين جميعا الى وقتنا هذا ينوحون ويبكون على تموز فى الشهر المسمى تموز فى عيد لهم فيه منسوب الى تموز ، ويعددون تعديدا عظيما ، وخاصة النساء ، فانهن يقمن ههنا جميعا وينحن ويبكين على تموز ، ويهذين فى أمره هذيانا طويلا ، وليس عندهم علم من أمره أكثر من أن يقولوا هكذا وجدنا أسلافنا ينوحون ويبكون على تموز فى هذا العيد المنسوب الى تموز .

والنصارى تذكر أنهم يعملونه لرجل يسمى جورجيس ، أحد حواريى عيسى عليه السلام ، دعا ملكا من الملوك الى دين النصرانية فعذبه الملك بتلك القتلات ...

فلا أدرى وقع الى النصارى قصة تموز فأبدلوا مكانها اسم جورجيس وخالفوا الصابئين فى الوقت ، لأن الصابئين يعملون ذكران تموز أول يوم من شهر تموز ، والنصارى يعملون لجورجيس فى آخر نيسان .

ويقال ان بعض ملوك رومية زاد فى شهور الروم كانون الثانى وشباط ، فان شهورهم

كانت الى زمانه عشرة أشهر كل شهر * ستة وثلاثون يوما .

ويقال ان فيوفيوس أول من ملك مدينة رومية ، وانه أقام ملكا ثلاثا وأربعين سنة ، وزاد كانون الثانى وشباط فى شهور الروم بحكم أنها كانت الى ذلك الزمان عشرة أشهر كل شهر ستة وثلاثون يوما .

وكان سبب نقص شباط يومين ، وقوع غارة فى أيام فيطن رئيس جيش الروم مع خلف وحروب بينه وبين فربوريوس آلت الى نصرة فيطن وأخذه مملكة الروم ، وأمر بفربوريوس فنودى عليه : « أعيا مرديا » ، وتفسيره : اخرج ياشباط ، ثم غرق فى البحر . وسموا شهر شباط فربوريوس ليكون تذكار سوء له ، فان هذا الفعل كان فى يومى التاسع والعشرين والثلاثين من شباط ، فنقصوهما من شباط وزادوهما فى تموز وكانون الثانى ، فجعلوا كل شهر منهما أحدا وثلاثين يوما .

ثم بعد زمان جاء ملك آخر فقال : لا يحسن أن يكون شباط فى وسط السنة ، فنقله الى آخرها ... ولم يزل الروم من ذلك الوقت يتطيرون من شباط .

ذكر الفرق بين الاسكندر وذى القرنين وانهما رجلان

اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار أن ذا القرنين الذى ذكره الله فى كتابه العزيز فقال : « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . انا مكنا له فى الأرض ، وآتيناه من كل شىء سببا ... » الآيات ، عربى قد كثر ذكره فى أشعار العرب ، وان اسمه الصعب بن ذى مراثد بن الحارث الرائش بن الهمال ذى سدد بن عاد ذى منح بن عامر الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ابن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وأنه ملك من ملوك حمير وهم العرب العاربة ، ويقال لهم أيضا العرب العرباء .

وكان ذو القرنين تبّعا متوجا ، ولما ولى الملك تجبر ، ثم تواضع لله واجتمع بالخضر . وقد غلط من ظن أن الاسكندر بن فليش هو ذو القرنين الذى بنى السد ، فان لفظة ذو عربية ، وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن ، وذاك رومى يونانى .

قال أبو جعفر الطبرى : وكان الخضر فى أيام أفريدون الملك بن الضحاك فى قول عامة علماء أهل الكتاب الأول ، وقبل موسى بن عمران عليه السلام .

وقيل انه كان على مقدمة ذى القرنين الأكبر الذى كان على أيام ابراهيم الخليل عليه السلام ، وان الخضر بلغ مع ذى القرنين أيام مسيره فى البلاد نهر الحياة فشرب من مائه وهو لا يعلم به ذو القرنين ولا من معه ، فخلد ، وهو حى عندهم الى الآن .

وقال آخرون : ان ذا القرنين الذى كان على عهد ابراهيم الخليل عليه السلام هو أفريدون بن الضحاك ، وعلى مقدمته كان الخضر .

(*) ص١٥٢ ج١ ، ط.بولاق .

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام فى كتاب « التيجان فى معرفة ملوك الزمان » بعد ما ذكر نسب ذى القرنين الذى ذكرناه : وكان تبعا متوجا ، لما ولى الملك تجبر ، ثم تواضع واجتمع بالخضر ببيت المقدس ، وسار معه مشارق الأرض ومغاربها ، وأوتى من كل شىء سببا كما أخبر الله تعالى ، وبنى السد على يأجوج ومأجوج ، ومات بالعراق .

فأما الاسكندر فانه يونانى ، ويعرف بالاسكندر المجدونى ، ويقال المقدونى .

سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن ذى القرنين : ممن كان ؟ فقال : من حمير ، وهو الصعب بن ذى مراثد الذى مكنه الله تعالى فى الأرض ، وآتاه من كل شىء سببا ، فبلغ قرنى الشمس ورأس الأرض ، وبنى السد على يأجوج ومأجوج .

قيل له : فالاسكندر ؟

قال : كان رجلا صالحا روميا حكيما ، بنى على البحر فى أفريقية منارا ، وأخذ أرض رومة ، وأتى بحر الغرب ، وأكثر عمل الآثار فى الغرب من المصانع والمدن .

وسئل كعب الأحبار عن ذى القرنين فقال : الصحيح عندنا من أحبارنا وأسلافنا أنه من حمير ، وأنه الصعب بن ذى مراثد ، والاسكندر كان رجلا من يونان من ولد عيصو بن اسحاق بن ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهما . ورجال الاسكندر أدركوا المسيح بن مريم ، منهم جالينوس وأرسطاطاليس .

وقال الهمدانى فى كتاب « الأنساب » : وولد كهلان بن سبأ زيدا ، فولد زيد عريبا ومالكا وغالبا وعميكرب — وقال الهيثم : عميكرب بن سبأ أخو حمير وكهلان — فولد عميكرب أبا مالك فدرحا ومهيليل ابنى عميكرب ، وولد غالب جنادة بن غالب — وقد ملك بعد مهيليل بن عميكرب بن سبأ — وولد عريب عمرا ، فولد عمرو زيدا والهميسع ، ويكنى أبا الصعب ، وهو ذو القرنين الأول ، وهو المساح والبناء . وفيه يقول النعمان بن بشير :

فمن ذا يعاددنا من الناس معشرا
كراما ، فذو القرنين منا وحاتم

وفيه يقول الحارثى :

سموا لنا واحدا منكم فنعرفه
فى الجاهلية لاسم الملك محتملا

كالتبعين وذى القرنين يقبله
أهل الحجى فأحق القول ما قبلا

وفيه يقول ابن أبى ذئب الخزاعى * :

ومنا الذى بالخافقين تغربا
وأصعد فى كل البلاد وصوبا

فقد نال قرن الشمس شرقا ومغربا
وفى ردم يأجوج بنى ثم نصبا

وذلك ذو القرنين تفخر حمير
بعسكر قيل ليس يحصى فيحسبا

قال الهمدانى : وعلماء همدان تقول : ذو القرنين الصعب بن مالك بن الحارث الأعلى بن ربيعة بن الجبار بن مالك ، وفى ذى القرنين أقاويل كثيرة .

(*) ص١٥٢ ج١ ، ط.بولاق .

وقال الامام فخر الدين الرازى فى كتاب « تفسير القرآن الكريم » : ومما يعترض به على من قال ان الاسكندر هو ذو القرنين أن معلم الاسكندر كان أرسطاطاليس بأمره يأتمر وبنهيه ينتهى ، واعتقاد أرسطاطاليس مشهور ، وذو القرنين نبى ، فكيف يقتدى نبى بأمر كافر ؟.. فى هذا اشكال .

وقال الجاحظ فى كتاب « الحيوان » : ان ذا القرنين كانت أمه آدمية ، وأبوه من الملائكة ، ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا ينادى رجلا : ياذا القرنين ، قال : أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتم الى أسماء الملائكة ؟!

وروى المختار بن أبى عبيد أن عليا رضى الله عنه كان اذا ذكر ذا القرنين قال : ذلك الملك الأمرط .. والله أعلم .

ذكر من ولى الملك بالاسكندرية بعد الاسكندرية

قال فى كتاب هروشيوش : ان الاسكندر ملك الدنيا اثنتى عشرة سنة ، فكانت الدنيا مأسورة بين يديه طول ولايته ، فلما مات تركها بين يدى قواده المستخلفين تحته ... فكان مثله معهم كمثل الأسد الذى ألقى صيده بين يدى أشباله ، فتقاتلت عليه تلك الأشبال بعده . وذلك أنهم اقتسموا البلاد ، فصارت مصر وأفريقية كلها وبلاد الغرب الى قائده وصاحب خيله الذى ولى مكانه وهو بطليموس بن لاوى ، ويقال بطليموس بن أرنبا المنطقى .

وذكر بقية ممالك القواد من أقصى بلاد الهند الى آخر بلاد المغرب ، ثم قال : فثارت بينهم حروب ، وسببها رسالة كانت خرجت من عند الاسكندر بأن يرجع جميع الغرباء المنفيين الى بلادهم ، ويسقط عنهم الرق والعبودية . فاستثقل ذلك ملك بلاد الروم ، اذ خاف أن يكون الغرباء والمنفيون اذا رجعوا الى بلدانهم ومواطنهم يطلبون النقمة لأنفسهم ، فكان هذا الأمر سبب خروجهم عن طاعة سلطان المجدونيين

وقال غيره : وبطليموس هذا سبى بنى معد بعد ما غزا فلسطين ، ثم أطلقهم وحباهم بآنية جوهر وضعت فى بيت المقدس ، وملك عشرين سنة .

وقال غيره : ولى أربعين سنة ، وقيل ثمانيا وثلاثين سنة .

وقيل ان اسمه فيلدلفوس — وهو محب الأب — وكان مجدونيا . وهو الذى غنم اليهود ونقل كثيرا منهم الى مصر . وفى زمانه كان زينون الفيلسوف ، وكان هذا الملك فيلسوفا . وأقبل برديقا أحد قواد الاسكندر الى مصر بعسكر عظيم وجيش عرمرم ، فتفرق سلطان مجدونية على قسمين .

ثم ان بطليموس جمع عساكر مصر وأفريقية ولاقى برديقا فهزمه وأصاب عسكره ، ثم قتله وأصاب ما كان معه ، وحارب عدة من قواد الاسكندر .

وقال غيره : وكان بطليموس هذا حكيما عالما شابا مدبرا ، وهو أول من اقتنى البزاة ولعب بها وضراها ، وكان من قبله من الملوك لا يلعب بها .

ولما مات ، ملك الاسكندرية بعده بطليموس الثانى ، واسمه فيلوزوفوس — ويقال له محب الأخ — وكانت مدة ملكه ثمانيا وثلاثين سنة . وهو الذى أطلق اليهود الذين كانوا مأسورين بأرض مصر ، ورد الأوانى المقدسة على عزير النبى .

وهو الذى تخير السبعين مترجما من علماء اليهود الذين ترجموا كتب التوراة والأنبياء من اللسان العبرانى الى اللسان الرومى اليونانى واللاطينى ، وكان فيلسوفا منجما .

ومات ، فولى بعده ابنه بطليموس أوراخيطس — المعروف بمحب الأب — ستا وعشرين سنة ، ثم ولى بعده أخوه بطليموس فيلوبطور سبع عشرة سنة . وهو الذى قتل من اليهود نحوا من ستين ألفا ، وتغلب عليهم .

ويقال انه صاحب علم الفلك والنجوم وكتاب « المجسطى » .

ثم ملك بعده ابنه بطليموس أسفاميش — محب الأم — أربعا وعشرين سنة .

ثم ولى بعده ابنه بطليموس فلوناطرة — وهو الصانع — خمسا وثلاثين سنة ، وهو الذى غلب ملك الشام ، وحمل اليهود أنواع البلاء والعذاب .

ثم ملك الاسكندرية بعده ابنه بطليموس ابرياطيش — وهو الاسكندرانى — تسعا وعشرين سنة . وفى زمانه غلب الرومانيون على الأندلس ، واحترقت مدينة قرطاجنة بالنار ، وأقامت النار فيها سبعة عشر يوما ، فهدمت وحولت أساساتها حتى ضار رخام أسوارها غبارا ، وذلك الى تسعمائة سنة من وقت بنيانها ، وبيع جميع أهلها رقيقا ، الا قليلا من خيارهم وأشرافهم . وكان المتولى لتخريبها قواد رومة .

ثم ولى بعده ابنه بطليموس شوطار — الذى يقال له الحديد — سبع عشرة سنة . وكان قبيح السيرة ، تزوج بأخته ثم فارقها على أقبح حال مما تزوجها عليه ، فى خبر له ، ثم تزوج ربيبته التى كانت بنت * أخته ، ثم زوجها من ابنه المولود له من أخته ... وكثرت فواحشه حتى نفاه أهل الاسكندرية ، فمات منفيا .

وولى أخوه بطليموس الاسكندر — وهو الجوال — عشر سنين .

ثم ولى بعده ابنه بطليموس ديوشيش ثمانيا وثلاثين سنة . وفى زمانه غلب قائد الرومانيين على بيت المقدس ، وجعل اليهود يؤدون اليه الجزية .

وظهرت فى ذلك الزمان علامات فى السماء مهولة : منها أنه ظهر فى السماء بناحية مطلع الشمس من مدينة رومة مما يلى ناحية الجنوب نار ملتهبة عظيمة ، وكسر قوم خبزا فى صنع لهم فانفجر من الخبز دم سائل ، ونزل بمدينة رومة مدة سبعة أيام متوالية برد كان يوجد فى داخله حجارة وشقاف ، وانفتحت الأرض فصار فيها غور عظيم وخرج منه لهب اشتعل حتى ظنوه بلغ السماء ، ونظر أهل رومة يومئذ الى عمود من الأرض الى السماء لونه لون الذهب ، وكان من عظمه تكاد الشمس أن تغيب منه .

(*) ص١٥٤ جـ١ ، ط. بولاق .

ثم ولي الاسكندرية بعد كلوبطرة ستيق ، فعلت مملكة الاسكندرية — وهي الدولة البطليوسية — الى أول ملوك قيصر الذي هو أول ملوك الروم ، ملكتهم ولاطين وثمانين سنة .

فبعث قيصر ... بعساكر كثيرة الى مصر ، فتزوج أنطونيا كلوبطرة ابنة ديونيشيش الملقب بطليموس ، وقتل الملك الآخر ، وخالف قيصر ، فسار اليه قيصر بنفسه ، وجرت أمور آلت الى فتح الاسكندرية بعد حروب ، واستولى قيصر على مملكة مصر ، وقتل كلوبطرة وولديها ، وقتل القائد الذي تزوجها . وقتل بل سمت نفسها عندما تيقنت غلبة قيصر لها .

وقيل انها كانت ذات حزم ومعرفة وتدبير ، وانها حفرت خليج الاسكندرية وأجرت فيه الماء من مصر ، وبنت بالاسكندرية أبنية عجيبة ، منها هيكل زحل ، وعملت فيه صنما من نحاس أسود . وكان أهل مصر والاسكندرية يعملون له عيدا في اليوم الثاني عشر من هتور ، ويحج اليه اليونانيون من سائر الأقطار ويذبحون له ذبائح لا تحصى كثرة . فلما ظهرت ملة النصارى في الاسكندرية جعلوا هيكل زحل كنيسة ، ولم تزل الى أن هدمتها جيوش المعز لدين الله عند قدومهم من الغرب الى أرض مصر في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة من سني الهجرة النبوية .

ويقال ان كلوبطرة هي التي بنت حائط العجوز بمصر . وحسبه أن يكون هذا غير صحيح .

وقيل انها بنت مقياسا بمدينة أخميم ، ومقياسا آخر بأنصنا .

وقيل كانت مدة ملكها ثلاثين سنة . وليس بصحيح .

وبموت كلوبطرة انقرضت مملكة مصر ، وصارت تحت يد ملوك الروم من أهل مدينة رومة ، ثم تحت يد ملوك الروم من أهل قسطنطينية . فلم تزل تحت أيديهم يولون فيها من قبلهم من شاءوا ، فيجيء الى الاسكندرية ويقيم بها ، الى أن قدم عمرو بن العاص بالمسلمين ، وفتح الله على يده الحصن والاسكندرية وجميع أرض مصر .

ومعنى كلوبطرة : الباكية .

فكان جميع المدة التي ما بين ذهاب دولة البطالسة من الاسكندرية وقدوم عمرو بن العاص الى مصر وفتحها ستمائة سنة وخمسا وسبعين سنة .

وفي خلال هذه المدة قوي جانب ملوك الفرس على القياصرة ، وملكوا منهم بلاد الشام ، واستولوا على أرض مصر والاسكندرية في أيام كسرى أبرويز بن هرمز ، فبعث قائدا الى مصر وملك الاسكندرية وقتل الروم ، وأقاموا بالاسكندرية مدة عشر سنين .

فلما استبد هرقل بمملكة الروم وخرج من القسطنطينية ليجمع الأموال من سائر مملكته لأخذ حماة ودمشق ، وسار الى بيت المقدس وقد خربها الفرس فأمر ببنائها ، وسار منها الى أرض مصر ، ودخل الاسكندرية وقتل من بها من الفرس ، وأقام بها يطرقها ، ثم عاد الى

قسطنطينية ... فاستمرت مصر بعده تحت ايالة الروم ، حتى ملكها المسلمون .

ويقال ان كل بناء بمصر من آجر فهو للفرس ، وما فيها من بناء حجر فهو للروم . والله أعلم .

ذكر منارة الاسكندرية

قال المسعودي : فأما منارة الاسكندرية ، فذهب الأكثرون من المصريين والاسكندرانيين ممن عني بأخبار بلدهم أن الاسكندر بن فيليش المقدوني هو الذي بناها .

ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة بنتها وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو الى بلدهم .

ومن الناس من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذي بناها .

ومنهم من رأى أن الذي بنى مدينة رومة هو الذي بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها والأهرام بمصر ، وانما أضيفت الاسكندرية الى الاسكندر لشهرته باستيلائه على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به ، وذكروا في ذلك أخبارا كثيرة يستدلون بها على ما قالوا .

والاسكندر لم يطرقه في هذا البحر عدو ، ولا هاب ملكا يرد اليه في بلده ويغزوه في عقره ، فيكون هو الذي جعلها مرقبا .

وان الذي بناها جعلها على كرسي من الزجاج على هيئة السرطان في جوف البحر ، وعلى طرف اللسان الذي هو داخل في البحر من البر ، وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره .

منها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك ، واذا علت في الفلك فأصبعه يشير بها نحوها ، فاذا انخفضت صارت يده سفلا تدور معها حيث دارت .

ومنها تمثال يشير بيده الى البحر ، اذا صار العدو منه على نحو من ليلة ، فاذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة ، سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من مسيرة ميلين أو ثلاثة ، فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم فيرمقونه بأبصارهم .

ومنها تمثال كلما مضى من الليل أو النهار ساعة ، سمعوا له صوتا بخلاف ما صوت في الساعة التي قبلها ، وصوته مطرب .

وقد كان ملك الروم في ملك الوليد بن عبد الملك بن مروان أنفذ خادما من خواص خدمه ذا رأي ودهاء ، فجاء مستأمنا الى بعض الثغور ، فورد بآلة حسنة ومعه جماعة ، فجاء الى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك ، وأنه أراد قتله لموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل ، وانه استوحش ورغب في الاسلام . فأسلم على يد الوليد ، وتقرب من قلبه ، وتنصح اليه في دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن .

فلما صارت الى الوليد تلك الأموال والجواهر شرهت نفسه ، واستحكم طمعه ، فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين ، ان ههنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك .

---

(١) ص١٥٥ جـ١ ، ط. بولاق .

فسأله الوليد عن الخبر فقال : تحت منارة الاسكندرية أموال ملوك الأرض ، وذلك آن الاسكندر احتوى على الأموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك مصر ، فبنى لها أزجا تحت الأرض ، وقنطر لها الأقباء والقناطر والسراديب ، وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجوهر ، وبنى فوق ذلك هذه المنارة .

وكان طولها فى الهواء ألف ذراع ، والمرآة فى علوه ، والديادبة جلوس حوله ، فاذا نظروا الى العدو فى البحر فى ضوء تلك المرآة صوتوا لمن قرب منهم ، ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم ، فتحذر الناس وتنذر البلد ، فلا يكون للعدو عليهم سبيل .

فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه ، فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة ، فضج الناس من هذا وعلموا أنها مكيدة وحيلة فى أمرها . فلما علم الخادم استفاضة ذلك ، وأنه سينم الى الوليد ، وأنه قد بلغ ما يحتاج اليه ، هرب فى الليل فى مركب كان قد أعده ، وواطأ على ذلك ، فتمت حيلته . وبقيت المنارة على ما ذكرناه الى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

وكانت حوالى منارة الاسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع من الجوهر يتخذ منه فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر ، يقال ان ذلك من آلات اتخذها الاسكندر للشراب ، فلما مات كسرتها أمه ورمت بها فى تلك المواضع من البحر .

ومنهم من رأى أن الاسكندر اتخذ ذلك النوع من الجواهر وغرقه حول المنارة ، لكيلا تخلو من الناس حولها ، لأن من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا فى كل عصر .

ويقال ان هذه المنارة انما جعلت المرآة فى أعلاها لأن ملوك الروم بعد الاسكندر كانت تحارب ملوك مصر والاسكندرية ، فجعل من كان بالاسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد فى البحر من عدوهم .

وكان من يدخلها يتيه فيها ، الا أن يكون عارفا بالدخول والخروج فيها ، لكثرة بيوتها وطبقاتها وممراتها .

وقد ذكر أن المغاربة ، حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب ، دخل جماعة منهم على خيولهم الى المنارة ، فتاهوا فيها فى طرق تؤول الى مهاو تهوى الى السرطان الزجاج ، وفيه مخاريق الى البحر . فتهورت دوابهم وفقد منهم عدد كثير ، وعلم بهم بعد ذلك . وقيل ان تهورهم كان على كرسى لها قدامها .

وفى المنارة مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه مطوعة المصريين وغيرهم .

وفى سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، سقط رأس المنارة من زلزلة .

ويقال ان منارة الاسكندرية كانت مبنية بحجارة مهندمة مضببة برصاص على قناطر من الزجاج ، وتلك القناطر على ظهر سرطان ، وكان فى المنارة ثلثمائة بيت بعضها فوق بعض ، وكانت الدابة تصعد بحملها الى سائر البيوت من داخل المنارة . ولهذه البيوت طاقات تشرف على البحر . وكان على الجانب الشرقى من المنارة كتابة عربت فاذا هى : بنت هذه

المنظرة قريبا بنت مرينوس اليونانية لرصد الكواكب .

وقال ابن وصيف شاه ، وقد ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح : وبنوا على البحر مدنا منها رقودة مكان الاسكندرية ، وجعلوا فى وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب ، والقبة مذهبة ، ونصبوا فوقها منارة عليها مرآة من أخلاط شتى ، قطرها خمسة أشبار ، وكان ارتفاع القبة مائة ذراع ، فكانوا اذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم ، فان كان مما يهمهم أو من البحر ، عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شعاعها على ذلك الشىء فأحرقته . فلم تزل على حالها الى أن غلب عليها البحر فنسفها .

ويقال ان الاسكندر انما عمل المنار الذى كان شبيها بها ، وقد كان أيضا عليه مرآة يرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم ، فاحتال بعض ملوك الروم فوجه من أزالها ، وكانت من زجاج مدبر .

وقال المسعودى فى كتاب « التنبيه والاشراف » : وقد كان وزير المتوكل عبيد الله ابن * يحيى بن خاقان ، لما أمر المستعين بنفيه الى برقة فى سنة ثمان وأربعين ومائتين ، صار الى الاسكندرية من بلاد مصر ، فرأى حمرة الشمس على علو المنارة التى بها وقت المغيب ، فقدر أنه يلزمه ألا يفطر اذا كان صائما أو تغرب الشمس من جميع أقطار الأرض ، فأمر انسانا أن يصعد الى أعلى منارة الاسكندرية ومعه حجر ، وأن يتأمل موضع سقوط الشمس ، فاذا سقطت رمى بالحجر ، ففعل

(*) ص١٥٦ جـ١ ، ط. بولاق .

الرجل ذلك ، فوصل الحجر الى قرار الأرض بعد صلاة العشاء الآخرة ، فجعل افطاره بعد صلاة العشاء الآخرة فيما بعد اذا صام فى مثل ذلك الوقت .

وكان عند رجوعه الى سر من رأى لا يفطر الا بعد العشاء الآخرة . وعنده أن هذا فرضه ، وأن الوقتين متساويان . وهذا غاية ما يكون من قلة العلم بالفرض ومجارى الشرق والغرب .

وقد ذكر أرسطاطاليس فى كتاب « الآثار العلوية » أن بناحية المشرق الصينى جبلا شامخا جدا ، وأن من علامة ارتفاعه أن الشمس لا تغيب عنه الى ثلاث ساعات من الليل ، وتشرق عليه قبل الصبح بثلاث ساعات .

ومنارة الاسكندرية أحد بنيان العالم العجيب ، بناها بعض البطالمة ملوك اليونانيين بعد وفاة الاسكندر بن فيليبش الملك لما كان بينهم وبين ملوك رومة من الحروب فى البر والبحر ، فجعلوا هذه المنارة مرقبا ، فى أعاليها مرآة عظيمة من نوع الأحجار المشفة ليشاهد منها مراكب البحر اذا أقبلت من رومة على مسافة تعجز الأبصار عن ادراكها ، فكانوا يراعون ذلك فى تلك المرآة ، فيستعدون لهم قبل ورودهم .

وطول المنارة فى هذا الوقت على التقريب مائتان وثلاثون ذراعا . وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع ، فهدمت على طول الأزمان وترادف الزلازل والأمطار ، لأن بلد الاسكندرية تمطر ، وليس سبيلها سبيل فسطاط مصر ، اذ كان الأغلب عليها ألا تمطر الا اليسير .

وبناؤها ثلاثة أشكال : فقريب من النصف وأكثر من الثلث مربع الشكل ، بناؤه بأحجار بيض ، يكون نحوا من مائة ذراع وعشرة أذرع على التقريب . ثم من بعد ذلك مثمن الشكل ، مبنى بالحجر والجص نحو من نيف وستين ذراعا ، وحواليه فضاء يدور فيه الانسان . وأعلاها مدور .

وكان أحمد بن طولون رم شيئا منها ، وجعل فى أعلاه قبة من الخشب ليصعد اليها من داخلها ، وهى مبسوطة موربة بغير درج . وفى الجهة الشمالية من المنارة كتابة برصاص مدفون بقلم يونانى ، طول كل حرف ذراع فى عرض شبر ، ومقدارها على جهة الأرض نحو من مائة ذراع ، وماء البحر قد بلغ أصلها .

وقد كان تهدم أحد أركانها الغربية مما يلى البحر ، فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون .

وبينها وبين مدينة الاسكندرية فى هذا الوقت نحو من ميل ، وهى على طرف لسان من الأرض قد ركب البحر جنبيه . وهى مبنية على فم مينا الاسكندرية ، وليس بالمينا القديم لأن القديم فى المدينة العتيقة لا ترسى فيه المراكب لبعده عن العمران . والمينا هو الموضع الذى ترسى فيه مراكب البحر .

وأهل الاسكندرية يخبرون عن أسلافهم أنهم شاهدوا بين المنارة وبين البحر نحوا مما بين المدينة والمنارة فى هذا الوقت ، فغلب عليه ماء البحر فى المدة اليسيرة ، وأن ذلك فى زيادة .

قال : وتهدم فى شهر رمضان سنة أربع وأربعين وثلثمائة نحو من ثلاثين ذراعا من أعاليها بالزلزلة التى كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب فى ساعة واحدة ، على ما وردت به علينا الأخبار المتواترة ونحن بفسطاط مصر ، وكانت عظيمة جدا مهولة فظيعة أقامت نحو نصف ساعة زمانية ، وذلك لنصف يوم السبت لثمان عشرة ليلة خلت من هذا الشهر ، وهو الخامس من كانون الآخر والتاسع من طوبة .

وكان لهذه المنارة مجمع فى يوم خميس العدس ، يخرج سائر أهل الاسكندرية الى المنارة من مساكنهم بمآكلهم — ولابد أن يكون فيها عدس — فيفتح باب المنار ويدخله الناس ، فمنهم من يذكر الله ، ومنهم من يصلى ، ومنهم من يلهو ... ولا يزالون الى نصف النهار ثم ينصرفون . ومن ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدو .

وكان فى المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل ، فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد ، فاذا رأى أهل المنار ما يريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة ، فاذا رآها الحرس ضربوا الأبواق والأجراس ، فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو .

ويقال ان المنار كان بعيدا عن البحر ، فلما كان فى أيام قسطنطين بن قسطنطين هاج البحر وغرق مواضع كثيرة وكنائس عديدة بمدينة الاسكندرية ، ولم يزل يغلب عليها بعد ذلك ويأخذ منها شيئا بعد شىء .

وذكر بعضهم أنه قاسه فكان مائتى ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعا . وهى ثلاث طبقات : الطبقة الأولى مربعة ، وهى مائة واحدى وعشرون ذراعا ونصف ذراع . والطبقة الثانية

مثمنة ، وهى احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع . والطبقة الثالثة مدورة ، وهى احدى وثلاثون ذراعا ونصف ذراع .

وذكر ابن جبير فى رحلته أن منار الاسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا ، وأنه ذرع أحد جوانبه الأربعة * فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فأناف على خمسين ذراعا ، وأن طول المنار أزيد من مائة وخمسين قامة . وفى أعلاه مسجد يتبرك الناس بالصلاة فيه .

وقال ابن عبد الحكم : ويقال ان الذى بنى منار الاسكندرية كلوباطرة الملكة ، وهى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الاسكندرية ، ولم يكن يبلغها انما كان يعدل من قرية يقال لها كسا قبالة الكريون ، فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية ، وهى التى بلطت قاعه .

ولما استولى أحمد بن طولون على الاسكندرية بنى فى أعلى المنار قبة من خشب فأخذتها الرياح .

وفى أيام الظاهر بيبرس تداعى بعض أركان المنار وسقط ، فأمر ببناء ما انهدم منه فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، وبنى مكان هذه القبة مسجدا ، وهدم فى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة عند حدوث الزلزلة ، ثم بنى فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة على يد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وهو باق الى يومنا هذا .

ولله در الوجيه الدروى حيث يقول فى منار الاسكندرية :

وسامية الأرجاء تهدى أخا السرى
ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الأنس صافيا
فكان بتذكار الأحبة معلما
وقد ظللتنى من ذراها بقبة
ألاحظ فيها من صحابى أنجما
فخيل أن البحر تحتى غمامة
وأنى قد خيمت فى كبد السما

وقال ابن قلاقس من أبيات :

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقيا
كأنما فيه للنسرين أوكار
راسى القرارة سامى الفرع فى يده
للنون والنور أخبار وأخبار
أطلقت فيه عنان النظم فاطردت
خيل لها فى بديع الشعر مضمار

وقال الوزير أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن عبد ربه :

لله در منار اسكندرية كم
يسمو اليه على بعد من الحدق
من شامخ الأنف فى عرنينه شمم
كأنه باحث فى دارة الأفق
للمنشآت الجوارى عند رؤيته
كموقع النوم فى أجفان ذى أرق

وقال عمر بن أبى عمر الكندى فى فضائل مصر : ذكر أهل العلم أن المنارة كانت فى وسط الاسكندرية حتى غلب عليها البحر فصارت فى جوفه ، ألا ترى الأبنية والأساسات فى البحر الى الآن عيانا ؟

وقال عبد الله بن عمرو : عجائب الدنيا أربعة : مرآة كانت معلقة بمنارة الاسكندرية ،

(*) ص١٥٧ جـ١ ، ط. بولاق .

فكان بجلس الحالس تحتها فيرى من بالقسطنطينية ، وبينهما عرض البحر ... وذكر الثلاثة .

ذكر الملعب الذى كان بالاسكندرية وغيره من العجائب

قال القضاعى : ومن عجائب مصر الاسكندرية ومابها من العجائب ، فمن عجائبها المنارة والسوارى والملعب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة ، ثم يرمون بأكرة فلا تقع فى حجر أحد الا ملك مصر .

وحضر عيدا من أعيادهم عمرو بن العاص ، فوقعت الأكرة فى حجره فملك البلد بعد ذلك فى الاسلام .

ثم حضر هذا الملعب ألف ألف من الناس ، فلا يكون فيهم أحد الا وهو ينظر فى وجه صاحبه . ثم ان قرىء كتاب سمعوه جميعا ، أو لعب لون من اللعب رأوه عن آخرهم ، لا يتظالمون فيه بأكثر من مراتب العلية والسفلية .

وقال ابن عبد الحكم : فلما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة ، وقدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية ، خلا به عمرو بن العاص واستأذنه فى المسير الى مصر .

وكان عمرو قد دخل فى الجاهلية مصر وعرف طرقها ، ورأى كثرة ما فيها . وكان سبب دخوله اياها أنه قدم الى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش ، فاذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسيح ، وكان عمرو يرعى ابله وابل أصحابه ، وكانت رعية الابل نوبا بينهم .

فبينا عمرو يرعى ابله ، اذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر ، فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له ، فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه . وكانت الى جنب الشماس حيث نام حفرة ، فخرجت منها حية عظيمة ، فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها .

فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد أنجاه الله منها ، فقال لعمرو : ماهذه ؟

فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها ، فأقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحيانى الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية ، فما أقدمك هذه البلاد ؟

قال : قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا .

فقال له * الشماس : وكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك ؟

قال : رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا ، فانى لا أملك الا بعيرين ، فآمل أن أصيب بعيرا آخر فتكون ثلاثة أبعرة .

فقال له الشماس : أرأيت دية أحدكم بينكم كم هى ؟

قال : مائة من الابل .

فقال له الشماس : لسنا أصحاب ابل ، انما نحن أصحاب دنانير ؟

(*) ص١٥٨ ج١ ، ط. بولاق .

قال : تكون ألف دينار .

فقال له الشماس : انى رجل غريب فى هذه البلاد ، وانما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس وأسيح فى هذه الجبال شهرا ، جعلت ذلك نذرا على نفسى ، وقد قضيت ذلك ، وأنا أريد الرجوع الى بلادى ، فهل لك أن تتبعنى الى بلادى ولك علىّ عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ، لأن الله عز وجل أحيانى بك مرتين ؟

فقال له عمرو : أين بلادك ؟

قال : مصر ، فى مدينة يقال لها الاسكندرية .

فقال له عمرو : لا أعرفها ، ولم أدخلها قط .

فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها .

فقال له عمرو : وتفى لى بما تقول ، ولى عليك بذلك العهد والميثاق ؟

فقال له الشماس : نعم ، لك والله على العهد والميثاق أن أفى لك ، وأن أردك الى أصحابك .

فقال له عمرو : كم يكون مكثى فى ذلك ؟

قال : شهرا ، تنطلق معى ذاهبا عشرا ، وتقيم عندنا عشرا ، وترجع فى عشر . ولك على أن أحفظك ذاهبا ، وأن أبعث معك من يحفظك راجعا

فقال له عمرو : أنظرنى حتى أشاور أصحابى فى ذلك .

فانطلق عمرو الى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس ، وقال لهم : تقيمون على حتى أرجع اليكم ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك ، على أن يصحبنى رجل منكم آنس به .

فقالوا : نعم ، وبعثوا معه رجلا منهم .

فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس ، حتى انتهوا الى مصر ، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه ، فقال عمرو للشماس : ما رأيت مثل ذلك .

ومضى الى الاسكندرية ، فنظر عمرو الى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة ، وجودة بنائها وكثرة أهلها ، فازداد عجبا . ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ، ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم ، وفيما اختبروا من تلك الكرة — على ما وصفها من مضى منهم — أنها من وقعت الكرة فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم .

فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الاكرام كله ، وكساه ثوب ديباج ألبسه اياه . وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس ، حيث يترامون بالكرة وهم يتلقونها بأكمامهم ، فرمى بها رجل منهم ، فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو ، فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة . أترى هذا الأعرابى يملكنا ؟ هذا ما لا يكون أبدا .

وان ذلك الشماس مشى فى أهل الاسكندرية ، وأعلمهم أن عمرا أحياه مرتين ، وأنه قد ضمن له ألفى دينار ، وسألهم أن

يجمعوا ذلك له فيما يتهم ، فعلوا ودفعوها الى عمرو .

فانطلق عمرو وصاحبه ، وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا ، وزودهما وأكرمهما حتى رجع هو وصاحبه الى أصحابهما ... فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها أموالا .

فلما رجع عمرو الى أصحابه ، دفع اليهم فيما بينهم ألف دينار ، وأمسك لنفسه ألفا .

قال عمرو : وكان أول مال اعتقدته وتأثلته .

ذكر عمود السوارى

هذا العمود حجر أحمر منقط ، وهو من الصوان المانع ، كان حوله نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا — والى الاسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — ورماها بشاطىء البحر ليوعر على العدو سلوكه اذا قدموا .

ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس الذى كان يدرس به الحكمة ، وأنه كان دار علم ، وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص باشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ويقال ان ارتفاع هذا العمود سبعون ذراعا ، وقطره خمسة أذرع .

وذكر بعضهم أن طوله بقاعدتيه اثنان وستون ذراعا وسدس ذراع ، وهو على تشز طوله ثلاثة وعشرون ذراعا ونصف ذراع ، فجملة ذلك خمسة وثمانون ذراعا وثلثا ذراع ، وطول قاعدته السفلى اثنا عشر ذراعا ، وطول القاعدة العليا سبعة أذرع ونصف .

قال المسعودى : وفى الجانب الغربى من صعيد مصر جبل رخام عظيم ، كانت الأوائل تقطع منه العمد وغيرها ، وكانوا يحملون ما عملوا بعد النقر .

فأما العمد والقواعد والرؤوس التى يسميها أهل مصر الأسوانية — ومنها حجارة الطواحين — فتلك نقرها الأولون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين ، ومنها العمد التى بالاسكندرية ، والعمود بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله .

وقد رأيت فى جبل أسوان أخا هذا العمود وقد هندس ونقر ، ولم يفصل من الجبل ، ولم يحمل ما ظهر منه ، وانما كانوا ينتظرون به أن يفصل من الجبل ، ثم يحمل الى حيث يريد القوم ... انتهى .

وكان بالاسكندرية من العمد العظام ، وأنواع الحجارة والرخام الذى لا تنقل القطعة منه الا بألوف من الناس ، وقد علقت بين السماء والأرض على فوق ★ المائة ذراع ، وفوق رؤوس أساطين دائر الاسطوانة ما بين الخمسة عشر ذراعا الى العشرين ذراعا ، والحجر فوقه عشرة أذرع فى عشرة أذرع فى سمك عشرة أذرع ، بغرائب الألوان .

وكان بالاسكندرية قصر عظيم لا نظير له فى معمور الأرض ، على ربوة عظيمة بازاء باب البلد ، طوله خمسمائة ذراع ، وعرضه على النصف من ذلك ، وبابه من أعظم بناء وأتقنه ،

(★) ص١٥٦ ج١ ، ط. بولاق –

كل عضادة منه حجر واحد ، وعتبته حجر واحد .

وكان فيه نحو مائة أسطوانة ، وبازائه أسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها ، غلظها ستة وثلاثون شبرا ، وعلوها بحيث لا يدرك أعلاها قاذف حجر ، وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك بناء ، وتحتها قاعدة حجر أحمر محكم الصناعة ، عرض كل ضلع منه عشرون شبرا فى ارتفاع ثمانية أشبار .

والأسطوانة منزلة فى عمود من حديد قد خرقت به الأرض ، فاذا اشتدت الرياح رأيتها تتحرك ، وربما وضع تحتها الحجارة فطحنتها لشدة حركتها .

وكانت هذه الأسطوانة لحدى عجائب الدنيا . وقد زعم قوم أنها مما عمله الجن لسليمان بن داود عليهما السلام ، كما هى عادتهم فى نسبة كل ما يستعظمون عمله الى أنه من صنع الجن ، وليس كذلك ، بل كانت مما عمله لقدماء من أهل مصر

وكان فى وسطه قبة ، ومن حولها أساطين ، وعلى الجميع قبة من حجر واحد رخام أبيض كأحسن ما أنت راء من الصنائع

ويقال ان بعض ملوك مصر دخل الاسكندرية ، فأعجبه هذا القصر وأراد أن يبنى مثله ، فجمع الصناع والمهندسين ليقيموا له قصرا عظيما على هيئته ، فما منهم الا من اعترف بعجزه عن مثله ، الا شيخا منهم فانه التزم أن يصنع مثله .

فسر الملك ذلك ، وأذن له فى طلب ما يحتاج اليه من المؤن والآلات والرجال .

فقال : ائتونى بثورين مطيقين ، وعجلة كبيرة ... فللحال أتى بذلك .

فمضى الى المقابر القديمة ، وحفر منها قبرا أخرج منه جمجمة عظيمة ، رفعها عدة من الرجال على العجلة ، فما جرها الثوران ، مع قوتهما ، الا بعد جهد وعناء .

فلما وقف بها بين يدى الملك ، قال : أصلح الله سيدنا ، ان أتيتنى بقوم رؤوسهم مثل هذا الرأس ، عملت لك مثل هذا القصر .

فتيقن الملك عند ذلك عجز أهل زمانه عن اقامة مثل ذلك القصر

وقد ذكر انه كان بالاسكندرية ضرس انسان ، عند قصاب يزن به اللحم ، زنته ثمانية أرطال .

ويقال ان عمود السوارى ، الموجود الآن خارج مدينة الاسكندرية ، أحد سبعة أعمدة أتى بأحدها البتون بن مرة العادى ، وهو يحمله تحت ابطه ، من جبل بريم الأحمر قبلى أسوان ، الى الاسكندرية ، فانكسر ضلعه لأنه كان ضعيف القوى فى قومه .

فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد ، وقال : ليتنى فديته بنصف ملكى .

وجاء بعمود آخر جحدر بن سنان الثمودى — وكان قويا — فحمله من أسوان تحت ابطه وجاء بقية رجالهم ، كل رجل بعمود ، فأقام العمد السبعة الجاورد بن قطن المؤتفكى — وكان بناءها — بعد أن اختاروا لها طالعا سعيدا كما هى عادتهم فى عامة أعمالهم .

وقد ذكر غير واحد أن الصخور ، فى القديم من الدهر ، كانت تلين ، فعمل منها أعمدة

ناعط ومأرب وبينون ومآثر اليمن ، وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتدمر ، وأن كل شيء كان يتكلم .

قال أمية بن الصلت :

وإذ هم لا لبوس لهم عراة

وإذ صخر السلام لهم رطاب

وقال قوم : عمود السوارى من جملة أعمدة كانت تحمل رواقا يقال له بيت الحكمة ، وذلك حيث انتهت علوم أهل الغرب الى خمس فرق وهم : أصحاب الرواق هذا ، وأصحاب الأسطوانة وكانوا ببعلبك ، وأصحاب المظال وهم بأنطاكية ، وأصحاب البرابى وكانوا بصعيد مصر ، والمشاءون وكانوا بمقدونية .

وكأنى بمن قل علمه ينكر علىّ ايراد هذا الفصل ، ويراه من قبيل المحال ومما وضعه القصاص ، ويجزم بكذبه ... فلا يوحشنك حكايتى له ، واسمع قول الله تعالى عن عاد قوم هود : « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة » ، أى طولا وعظم جسم .

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ذراعا . وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم ، وقيل على خلق قوم نوح .

وقال وهب بن منبه : كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة ، وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم .

وروى شهر بن حوشب ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : ان كان الرجل من قوم عاد ليحمل المصراعين ، لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يطيقوه . وان كان أحدهم ليغمز بقدمه الأرض فيدخل فيها .

وروى عبد الله بن لهيعة ، عن يزيد بن عمرو المعافرى ، عن ابن بجرة قال : استظل سبعون رجلا من قوم موسى عليه السلام فى قحف رجل من العماليق .

وعن زيد بن أسلم : بلغنى أن الضبعة وأولادها ربضن فى حجاج عين رجل من العماليق .

وقال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد » .

قال المبرد : وقولها (يعنى الخنساء) : رفيع العماد ، انما تريد الطول . يقال رجل معمد : يريد طويلا ، ومنه قوله تعالى : « ارم ذات * العماد » ، أى الطوال .

وقال البغوى : سموا ذات العماد ، لأنهم كانوا أهل عمد سيارة . وهو قول قتادة ومجاهد والكلبى ، ورواية عطاء عن ابن عباس .

وقال بعضهم : سموا ذات العماد ، لطول قاماتهم . قال ابن عباس : يعنى طولهم مثل العماد .

قال مقاتل : كان طول أحدهم اثنى عشر ذراعا .

وفى « كشاف » الزمخشرى : لم يخلق مثلها (مثل عاد) فى البلاد عظم أجرام وقوة ، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع ، وكان يأتى

(*) ص ١٦٠ ج ١ ، ط بولاق .

الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحى فيهلكهم

وقد ذكر غير واحد أنه وجد فى خلافة المقتدر بالله ، أبى الفضل جعفر بن المعتضد ، كنز بمصر فيه ضلع انسان ، طوله أربعة عشر شبر فى عرض ثلاثة أشبار .

واعلم أن أعين بنى آدم ضيقة ، وقد نشأت نفوسهم فى محل صغير ، فاذا حدث القوم بما يتجاوز مقدار عقولهم أو مبلغ أجسامهم — مما ليس له عندهم أصل يقيسونه عليه الا ما يشاهدونه أو يألفونه — عجلوا الى الارتياب فيه ، وسارعوا الى الشك فى الخبر عنه ، الا من كان معه علم وفهم ، فانه يفحص عما يبلغه من ذلك حتى يجد دليلا على قبوله أو رده .

وكيف يرد مثل هذه الأخبار ، وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خلق الله آدم طوله ستون ذراعا فى السماء ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

وذكر محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسى الغرناطى فى كتاب « تحفة الألباب » قال : نقل الشعبى فى كتاب « سير الملوك » أن الضحاك بن علوان لما هرب منه لام بن عامر الى ناحية الشمال ، أرسل فى طلبه أميرين ، مع كل أمير طائفة من الجبارين ، خرج أحدهما قاصدا الى بلغار ، والآخر الى باشقرد فأقام أولئك الجبارون فى أرض بلغار وفى باشقرد .

قال الاقليشى : وقد رأيت صورهم فى باشقرد ، ورأيت قبورهم بها ، فكان مما رأيته ثنية أحدهم ، طولها أربعة أشبار وعرضها شبران ، وقد كان عندى فى باشقرد نصف أصل الثنية ، أخرجت لى من فكه الأسفل ، فكان عرضها شبرا ، ووزنها ألف مثقال ومائتا مثقال ، أنا وزنتها بيدى ، وهى الآن فى دارى فى باشقرد ، وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعا .

وفى بيت بعض أصحابى فى باشقرد عضد أحدهم ، طوله ثمانية وعشرون ذراعا ، وأضلاعه كل ضلع عرضه ثلاثة أشبار وأكثر كاللوح الرخام ، والخرج الى نصف رسغ يد أحدهم ، فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدى جميعا .

قال : ولقد رأيت فى بلد بلغار ، سنة ثلاثين وخمسمائة ، من نسل العاديين رجلا طوالا ، كان طوله أكثر من سبعة أذرع ، وكان يسمى دنقى ، وكان يأخذ الفرس تحت ابطه كما يأخذ الانسان الطفل الصغير ، وكان اذا وقع القتال بتلك الناحية يقاتل بشجرة من شجر البلوط : يمسكها كالعصا فى يده ، لو ضرب بها الفيل قتله وكان خيرا متواضعا ، كلما التقانى سلم على ورحب بى وأكرمنى ، وكان رأسى لا يصل الى حقوه .

وكان له أخت على طوله ، رأيتها فى بلغار مرارا عدة ، قال لى القاضى يعقوب بن النعمان (يعنى قاضى بلغار) : ان هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم ، وكان من أقوى أهل بلغار ، ضمته الى صدرها فكسرت أضلاعه ، فمات من ساعته

قال : ولم تكن فى بلغار حمام تسعهم الا حمام واحدة واسعة الأبواب ... انتهى

وقد حدثنى الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الفريابى ، عن أبيه ، أنه شاهد قبرا احتفر بمدينة قرطاجنة من أفريقية ، فاذا جثة رجل قدر عظم رأسه كثورين عظيمين ، ووجد معه لوح مكتوب بالقلم المسند ، وهو قلم عاد وحروفه مقطعة ، ما نصه :

« أنا كوش بن كنعان ابن الملوك من آل عاد . ملكت بهذه الأرض ألف مدينة ، وبنيت بها على ألف بكر ، وركبت من الخيل العتاق سبعة آلاف حمر وصفر وشهب وبيض ودهم ، ثم لم يغن عنى ذلك شيئا ، وجاءنى صائح فصاح بى صيحة أخرجتنى من الدنيا ، فمن كان عاقلا ممن جاء بعدى فليعتبر بى » ، وأنشد :

ياواقفا يرعى السها
برسم ربع قد وهى
قف واستمع ثم اعتبر
ان كنت من أهل النهى
بالأمس كنا فوقها
واليوم صرنا تحتها
لكل حد غاية
لكلّ أمر منتهى

قال : فأمر السلطان أبو بكر بن يحيى الحفصى صاحب تونس بطمه ، فطم القبر .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : وأنا أدركت شيئا من ذلك ، وهو أنه ترافع فى بعض الأيام طائفة من الحجارين الى السلطان الملك الظاهر برقوق أعوام بضع وتسعين وسبعمائة ، وقد اختلفوا على مال وجدوه بجبل المقطم ...

وهو أنهم كانوا يقطعون الحجارة من مغار فيما يلى قلعة الجبل من بحريها ، فانكشف لهم حجر أسود عليه كتابة ، فاجتمعوا على قطع ما بين يدى هذا الحجر طمعا فى وجود مال ، فانتهى بهم القطع الى عمود عظيم قائم فى قلب الجبل ، فلعجلتهم أقبلوا بمعاولهم عليه حتى تكسر قطعا ، فاذا (*) هو مجوف وانسان قائم على قدميه بطوله . وتناثر لهم من جهة رأسه دنانير كثيرة ، فاقتسموها وتنافسوا فى قسمتها ، واختلفوا حتى اشتهر أمرهم وترافعوا الى السلطان .

فبعث من كشف المغار ، فوجد الحجر والعمود وقد تكسر ، فأخذ منهم ما وجد بأيديهم من الدنانير ، ولم يجد من يعرف ما قد كتب على الحجر .

وتسامع الناس بالخبر ، فأقبلوا الى المغار وعبثوا برمة الميت .

فأخبرنى من شاهد سنا من أسنان هذا الميت أنها سوداء بقدر الباذنجانة ، وأن عظم ساقه فيما بين قدمه الى ركبته خمسة أذرع ، فيجىء من هذا حساب طوله عشرين ذراعا وأزيد ، ودماغ سن واحدة من أسنانه فى قدر الباذنجانة ما هو الا كالقلبة الكبيرة .

وأخبرنى السيد الشريف ، قاضى القضاة بدمشق ، شهاب الدين أحمد بن على بن ابراهيم الحسينى ، المعروف بابن عدنان وبابن أبى الجن ، أنه وقف فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، بمقبرة باب الصغير من دمشق ، على قبر ليدفن فيه ميت لهم ، فلما تهيأ القبر ولم يبق الا أن يدلى فيه الميت ، انخسف

(*) ص١٦١ جـ١ ، ط. بولاق .

وخرج من الخسف ذباب كثير كبار زرق الألوان حتى كادت تظلهم . فنزل الحفار فى الخسف ، فاذا قبر طوله اثنان وعشرون ذراعا ، وفيه بطوله ميت قد صار كالرماد .

وأخبرنى أيضا أنه شاهد بهذه المقبرة ضرس انسان وله ثلاث شعب وقد سقطت منه قطعة ، وهو فى قدر البطيخة ، وأنه وزن بحضرته فبلغ رطلين وتسع أواقى بالرطل الشامى ، وأن القطعة التى انكسرت منه نحو أوقيتين بالشامى . فيكون على هذا زنة هذا الضرس نحو اثنى عشر رطلا بالمصرى . والله تعالى أعلم .

ذكر طرف مما قيل فى الاسكندرية

قال أبو عمرو الكندى : أجمع الناس أنه ليس فى الدنيا مدينة على ثلاث طبقات غير الاسكندرية .

ولما دخل عبد العزيز بن مروان الاسكندرية سأل رجلا من علماء الروم عنها وعن عدد أهلها .

فقال : والله أيها الأمير ما أدرك علم هذا أحد من الملوك ، والذى أخبرك كم كان فيها من اليهود ، فان ملك الروم أمر باحصائهم فكانوا ستمائة ألف .

قال : فما هذا الخراب الذى فى أطرافها ؟

قال : بلغنى عن بعض ملوك فارس ، حين ملكوا مصر ، أنه أمر بفرض دينار على كل محتلم لعمران الاسكندرية ، فأتاه كبراء أهلها وعلماؤهم وقالوا : أيها الملك لا تتعب ، فان الاسكندرية أقام الاسكندر على بنائها ثلثمائة سنة ، وعمرت ثلثمائة سنة ، وانها لخراب منذ ثلثمائة سنة . ولقد أقام أهلها سبعين سنة لا يمشون فيها نهارا الا بخرق سود فى أيديهم ، خوفا على أبصارهم من شدة بياضها .

ومن فضائلها ما قاله بعض المفسرين من أهل العلم انها المدينة التى وصفها الله عز وجل فى كتابه العزيز فقال : « ارم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد » .

وقال أحمد بن صالح : قال لى سفيان بن عيينة : يامصرى أين تسكن ؟

قلت : أسكن الفسطاط .

فقال : أتأتى الاسكندرية ؟

قلت : نعم .

قال : تلك كنانة الله ، يجعل فيها خيار سهامه .

وقال عبد الله بن مرزوق الصدفى : لما نعى لى ابن عمى خالد بن يزيد — وكان قد توفى بالاسكندرية — لقينى موسى بن على بن رباح وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعد متفرقين ، كلهم يقول : أليس مات بالاسكندرية ؟

فأقول : نعم .

فيقولون : هو حى عند الله يرزق ، ويجرى عليه أجر رباطه ما أقامت الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك

وقال الذين ينظرون فى الأهوية والبلدان وترتب الأقاليم والأمصار : انه لم تطل أعمار الناس فى بلد من البلدان طولها بمربوط من كورة الاسكندرية ووادى فرغانة .

وقال الحسن بن صفوان: وأما الاسكندرية وتنيس وأمثالها : فقربها من البحر ، وسكون الحرارة والبرد عندهم ، وظهور ريح الصبا فيهم ، مما يصلح أمرهم ، ويرق طباعهم ، ويرفع همتهم ، وليس يعرض لهم ما يعرض لأهل اليشمون من غلظ الطبع والحرارة .

وقد وصف أهل الاسكندرية بالبخل ... قال جلال الدين بن مكرم بن أبى الحسن بن أحمد الخزرجى ملك الحفاظ :

نزيل سكندرية ليس يقرى
بغير الماء أو نعت السوارى
وتحف حين يكرم بالهواء !!
حلاتن والاشارة للمنار
وذكر البحر والأمواج فيه
ووصف مراكب الروم الكبار
فلا يطمع نزيلهم بخبز
فما فيها لذاك الحرف قارى

وقال أحمد بن خرداذبة : من الفسطاط الى ذوات الساحل أربعة وعشرون ميلا ، ثم الى مربوط ثلاثون ميلا ، ثم الى كوم شريك ثلاثون ميلا ، ثم الى كريون أربعة وعشرون ميلا ، ثم الى الاسكندرية أربعة وعشرون ميلا .

وقال آخر : وطريق الاسكندرية اذا نضب ماء النيل يأخذ بين المدائن والضياع . وذلك اذا أخذت من شطنوف الى * سبك العبيد ، فهو منزل فيه منية لطيفة ، وبينهما اثنا عشر سقسا .

ومن سبك الى مدينة منوف — وهى كبيرة فيها حمامات وأسواق ، وبها قوم فيهم يسار ووجوه من الناس — وبينهما ستة عشر سقسا .

ومن منوف الى محلة صرد — وفيها منبر وحمام وفنادق وسوق صالح — ستة عشر سقسا .

ومن محلة صرد الى سخا — وهى مدينة كبيرة ذات حمامات وأسواق وعمل واسع ، واقليم جليل له عامل بعسكر وجند ، وبه الكتان الكثير وزيت الفجل وقموح عظيمة — ستة عشر سقسا .

ومن سخا الى شبركية — وهى مدينة كبيرة بها جامع وأسواق — ستة عشر سقسا .

ومن شبركية الى مسير — وهى مدينة بها جامع وأسواق — ستة عشر سقسا .

ومن مسير الى سنهور — وهى مدينة ذات اقليم كبير ، وبها حمامات وأسواق وعمل كبير — ستة عشر سقسا .

ومن سنهور الى النخوم — وهى اقليم ، وبها حمامات وفنادق وأسواق — ستة عشر سقسا .

ومن النخوم الى نسترو — وكانت مدينة عظيمة حسنة على بحيرة اليشمون — عشرون سقسا .

ومن نسترو الى البرلس — وهى مدينة كثيرة الصيد فى البحيرة ، وبها حمامات — عشر سقسات .

ومن البرلس الى اخنا — وهى حصن على شط بحر الملح — عشر سقسات .

ومن أخنا الى رشيد — وهى مدينة على النيل ، ومنها يصب النيل فى البحر من فوهة تعرف بالأشتوم وهى المدخل — ثلاثون سقسا . وكان بها أسواق صالحة وحمام ، وبها نخيل وضريبة على ما يحمل من الاسكندرية .

وهذا الطريق ، الآخذ من شطنوف الى رشيد ، وربما امتنع سلوكه عند زيادة النيل .

والثياب المنسوجة بالاسكندرية لا نظير لها ، وتحمل الى أقطار الأرض وفى ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه ، اذا عمل ثيابا يقال لها الشرب ، كل زنة درهم بدرهم فضة ، وما يدخل فى الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة .

(*) ص١٦٢ جـ١ ، ط.بولاق .

ذكر فتح الاسكندرية

قال أبو عمرو الكندى : لما حاز المسلمون الحصن بما فيه ، أجمع عمرو على المسير الى الاسكندرية ، فسار اليها فى ربيع الأول سنة عشرين .

وقال غيره : بل سار فى جمادى الآخرة منها .

وذكر سيف بن عمر أن عمرو بن العاص بعث الى الاسكندرية ، وهو على عين شمس ، عوف بن مالك ، فنزل عليها وبعث يقول لأهلها : ان شئتم أن تنزلوا فلكم الأماز ، فقالوا : نعم . فراسلهم وتربصوا أهل عين شمس ، وسار المسلمون من بين ذلك .

وقال ابن عبد الحكم (ويقال ان المقوقس انما صالح عمرو بن العاص) : لما فتح الاسكندرية حاصر أهلها ثلاثة أشهر ، وألح عليهم فخافوه ، وسأله المقوقس الصلح عنهم كما صالحه على القبط ، على أن يستنظر رأى الملك .

فحدثنا يزيد بن أبى حبيب أن المقوقس الرومى ، الذى كان ملكا على مصر ، صالح عمرو بن العاص على أن يسير من أراد من الروم المسير ، ويقر من أراد من الروم على أمر قد سماه .

فبلغ ذلك هرقل ملك الروم ، فسخط أشد السخط ، وأنكر أشد الانكار ، وبعث الجيوش فأغلقوا أبواب الاسكندرية ، وآذنوا عمرا بالحرب .

فخرج اليه المقوقس فقال : أسألك ثلاثا .

قال : ما هن ؟

قال : لا تبذل للروم ما بذلت لى ، فانى قد نصحت لهم فاستغشونى ، ولا تنقض القبط فان النقض لم يأت من قبلهم ، وأن تأمر بى اذا مت فادفنى فى بخنس .

فقال عمرو : هذه أهونهن علينا .

قال : فخرج عمرو بالمسلمين حين أمكنهم الخروج ، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الطرق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم .

وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت وقدمت عليهم مراكب من أرض الروم فيها جمع عظيم من الروم بالعدة والسلاح ، فخرج اليهم عمرو من الفسطاط متوجها الى الاسكندرية ، فلم ير منهم أحدا ، حتى بلغ مربوط فلقى فيها طائفة من الروم ، فقاتلهم قتالا خفيفا فهزمهم الله .

ومضى عمرو بمن معه حتى لقى جمع الروم بكوم شريك ، فاقتتلوا ثلاثة أيام ، ثم فتح الله على المسلمين ، وولى الروم أكتافهم .

ويقال بل أرسل عمرو بن العاص شريك بن سمى فى آثارهم ، فادركهم عند الكوم الذى يقال له كوم شريك ، فهزمهم وكان على مقدمة عمرو — وعمرو بمريوط — فالجاوه الى الكوم فاعتصم به ، وأحاطت به الروم .

فلما رأى ذلك شريك بن سمى أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمه الصدفى — وهو صاحب الفرس الأشقر الذى يقال له أشقر صدف ، وكان لا يجارى سرعة — فانحط عليهم من الكوم . وطلبه الروم فلم تدركه ، حتى أتى عمر فأخبره

فأقبل عمرو متوجها ، وسمعت به الروم فانصرفت ، ثم التقوا بسلطيس فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم هزمهم الله تعالى ، ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما

وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة ، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو ، فأصابت عبد الله بن عمرو جراحات كثيرة فقال : ياوردان لو تتقهقرت قليلا نصيب الروح .

فقال وردان : الروح تريد ؟ الروح أمامك وليس خلفك .

فتقدم عبد الله ، فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه . فقال * :

أقول لها اذا جشأت وجاشت
رويدك تحمدى أو تستريحى

وهذا البيت لعمرو بن الاطنابة ، وهو أن رجلا من بنى النجار كان مجاورا لمعاذ بن النعمان فقتل ، فقال معاذ : لا أقتل به الا عمرا بن الاطنابة ، وهو يومئذ أشرف الخزرج ، فقال عمرو :

الا من مبلغ الأكفاء عنى
وقد تهدى النصحة للنصيح

بأنكم وما تزجون شطرى
من القول المرغى والصريح

سيقدم بعضكم عجلا عليه
وما أثر اللسان الى الجروح

أبت لى عفتى وأبى بلائى
وأخذى الحمد بالثمن الربيح

واعطائى على المكروه مالى
واقدامى على البطل المشيح

وقولى كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدى أو تستريحى

لأدفع عن مآثر صالحات
وأحمى بعد عن عرض صحيح

بذى شطب كلون الملح صاف
ونفس لم تقر على القبيح

الشطب : سعف النخل الأخضر ، الواحدة شطبة . وجشأت : ارتفعت من حزن أو فزع ، وجاشت : دارت للغثيان ، وقيل هما بمعنى ارتفع . والمشيح : البارد المنكمش .

فرجع الرسول الى عمرو فأخبره بما قال ، فقال عمرو : هو ابنى حقا ... وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف .

(*) ص١٦٢ ج١ ، ط بولاق .

ثم فتح الله للمسلمين ، وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة ، وأتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية . فتحصن بها الروم — وكان عليها حصون متينة لا ترام ... حصن دون حصن — فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الأطعمة والعلوفة ، فأقاموا شهرين .

ثم تحول ، فخرجت عليه خيل من ناحية البحيرة مستترة بالحصن ، فواقعوه ، فقتل يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلا ... ورسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية فى المراكب بمادة الروم .

وكان ملك الروم يقول : لئن ظهرت العرب على الاسكندرية ، ففى ذلك انقطاع الروم وهلاكهم ، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية .

وانما كان عيد الروم — حين غلبت العرب على الشام — بالاسكندرية . فقال الملك : لئن غلبونا على الاسكندرية هلكت الروم وانقطع ملكها .

فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه الى الاسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه . فلما فرغ من جهازه ، صرعه الله عز وجل فأماته ، وكفى المسلمين مؤنته . وكان موته فى سنة تسع عشرة ، فكسر الله بموته شوكة الروم ، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه .

وقال الليث : مات هرقل فى سنة عشرين ، وفيها فتحت قيسارية الشام .

قال : واستأسدت العرب عند ذلك ، وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، وخرج طرف من الروم من باب حصن الاسكندرية ، فحملوا على الناس فقتلوا رجلا من مهرة ، واحتزوا رأسه ومضوا به ، فجعل المهريون يتغضبون ويقولون : لا ندفنه الا برأسه .

فقال عمرو : تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم ، احملوا على القوم اذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلا ، ثم ارموا برأسه يرمونكم برأس صاحبكم .

فخرجت الروم اليهم فاقتتلوا . فقتل من الروم رجل من بطارقتهم ، فاحتزوا رأسه ورموا به الروم ، فرمت الروم برأس المهرى اليهم ، فقال : دونكم الآن فادفنوا صاحبكم .

وكان عمرو يقول : ثلاث قبائل من مصر : أما مهرة فقوم يقتلون ولا يقتلون ، وأما غافق فقوم يقتلون ولا يقتلون ، وأما بلى فأكثرها رجلا صحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وأفضلها فارسا .

وقال رجل لعمرو : لو جعلت المنجنيق ورميتهم به لهدم حائطهم .

فقال عمرو : تستطيع أن يغنى مقامك من الصف .

وقيل له : ان العدو قد غشوك ، ونحن نخاف على رايطة (يريدون امرأته) .

فقال : اذن يتخذوا أرباطا كثيرة .

ولما استبحر القتال بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد ، فصرعه الرومى وألقاه عن فرسه ، وهوى اليه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه — وكان مسلمة لا يقاوم ولكنها

مقادير — ففرحت بذلك الروم ، وشق على المسلمين .

وغضب عمرو بن العاص لذلك ، وكان مسلمة كثير اللحم ثقيل البدن ، فقال عمرو عند ذلك : مابال الرجل السته الذى يشبه النساء ، يتعرض مداخل الرجال ويتشبه بهم . فغضب من ذلك مسلمة ولم يراجعه .

ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الاسكندرية ، فقاتلهم العرب فى الحصن ، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعا من الحصن ، الا أربعة نفر تفرقوا فى الحصن ، وأغلقوا عليهم باب الحصن ... أحدهم عمرو ابن العاص ، والآخر مسلمة ، ولم نحفظ الآخرين ، وحالوا بينهم وبين أصحابهم ، ولا يدرى الروم من هم .

فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه ، التجأوا الى ديماس من حماماتهم ، فدخلوا فيه فاحترزوا به .

فأمروا روميا أن يكلمهم بالعربية ، فقال لهم : انكم قد صرتم بأيدينا أسارى ، فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم ... فامتنعوا عليه

ثم قال لهم . ان فى أيدى أصحابكم منا رجالا أسروهم ، ونحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم . فأبوا عليه .

فلما رأى ذلك الرومى منهم قال لهم : هل لكم الى خصلة وهى نصف ، فان غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من

(*) ص ٤٠ ج ١ ، ط . بولاق .

أنفسكم ، وان غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم الى أصحابكم

فرضوا بذلك ، وتعاهدوا عليه ، وعمرو ومسلمة وصاحباهما فى الحصن فى الديماس .

فتداعوا الى البراز ، فبرز رجل من الروم — وقد وثقت الروم بنجدته وشدته — وقالوا . يبرز رجل منكم لصاحبنا

فأراد عمرو أن يبرز ، فمنعه مسلمة وقال : ما هذا ؟ تخطىء مرتين : تشذ من أصحابك وأنت أمير ، وانما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك ، لا يدرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل ، فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك مكانك وأنا أكفيك ان شاء الله تعالى

فقال عمرو : دونك فربما فرجها الله بك .

فبرز مسلمة للرومى ، فتجاولا ساعة ، ثم أعانه الله عليه فقتله .

فكبر مسلمة وأصحابه ، ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه ، ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ، ولا تدرى الروم أن أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك فأسفوا على ذلك ، وأكلوا أيديهم تغيظا على ما فاتهم

فلما خرجوا استحيا عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب ، فقال عمرو عند ذلك : استغفر لى ما كنت قلت لك .. فاستغفر له .

وقال عمرو . ما أفحشت قط الا ثلاث مرار : مرتين فى الجاهلية ، وهذه الثالثة وما منهن مرة الا وقد ندمت ، وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت

لك . ووالله انى لأرجو ألا أعود الى الرابعة ما بقيت .

قال : وأقام عمرو محاصر الاسكندرية أشهرا .

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ما أبطأوا بالفتح الا لما أحدثوا . وكتب الى عمرو بن العاص :

« أما بعد ، فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر ، انكم تقاتلونهم منذ سنين ، وما ذاك الا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، فان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم ...

« وقد كنت وجهت اليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقاوم ألف رجل على ما كنت أعرف ، الا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم ...

« فاذا أتاك كتابى هذا ، فاخطب الناس ، وحضهم على قتال عدوهم ، ورغبهم فى الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة فى صدور الناس ، ومر الناس جميعا أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد . وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة . وليعج الناس الى الله ، ويسألوه النصر على عدوهم » .

فلما أتى عمرو بن العاص رضى الله عنه الكتاب ، جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر رضى الله عنه . ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس ، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يرغبوا الى الله تعالى ويسألوه النصر ... ففعلوا ، ففتح الله عليهم .

ويقال ان عمرو بن العاص استشار مسلمة فقال : أشر على فى قتال هؤلاء .

فقال له مسلمة : أرى أن تنظر الى رجل له معرفة وتجارب ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتعقد له على الناس ، فيكون هو الذى يباشر القتال ويكفيكه .

فقال عمرو : من ذلك ؟

قال : عبادة بن الصامت .

فدعاه عمرو ، فأتاه وهو راكب على فرسه ، فلما دنا منه أراد النزول ، فقال له عمرو : عزمت عليك ان نزلت ، ناولنى سنان رمحك . فناوله اياه . فنزع عمرو عمامته عن رأسه ، وعقد له وولاه قتال الروم .

فتقدم عبادة مكانه ، فصادف الروم وقاتلهم ، ففتح الله على يديه الاسكندرية من يومهم ذلك .

وكان حصار الاسكندرية بعد موت هرقل تسعة أشهر ، وخمسة أشهر قبل ذلك . وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة احدى وعشرين .

وقال أبو عمرو الكندى : وحاصر عمرو الاسكندرية ثلاثة أشهر ، ثم فتحها عنوة ، وهو الفتح الأول . ويقال : بل فتحها عمرو لمستهل المحرم سنة احدى وعشرين .

قال القضاعى عن الليث : أقام عمرو بالاسكندرية ، فى حصارها وفتحها ، ستة أشهر ، ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها دارا فى ذى القعدة .

وقال ابن عبد الحكم : فلما هزم الله تعالى الروم وفتح الاسكندرية ، هرب الروم فى البر

والبحر ، فخلف عمرو بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ، ومضى ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر ، فرجع من كان هرب من الروم فى البحر الى الاسكندرية ، فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم .

وبلغ ذلك عمرا ، فكر راجعا ففتحها وأقام بها ، وكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ان الله قد فتح علينا الاسكندرية بغير عقد ولا عهد » .

فكتب اليه عمر رضى الله عنه يقبح رأيه ، ويأمره ألا يجاوزها .

قال ابن لهيعة : وهو فتح الاسكندرية الثانى . وكان سبب فتحها هذا أن رجلا يقال له ابن بسامة كان بوابا ، فسأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب . فأجابه عمرو الى ذلك ، ففتح له ابن بسامة الباب ، فدخل عمرو .

وقتل من المسلمين ، من حين كان من أمر الاسكندرية ما كان الى أن فتحت ، اثنان وعشرون رجلا .

وبعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج ، وافدا الى عمر بن الخطاب بشيرا له بالفتح ، فقال له معاوية : ألا تكتب معى ؟

فقال له عمرو : وما أصنع بالكتاب ، ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرت ؟

فلما قدم على عمر أخبره بفتح الاسكندرية ، فخر عمر ساجدا ، وقال : الحمد لله .

وقال معاوية بن خديج : بعثنى عمرو بن العاص الى عمر رضى الله عنه بفتح الاسكندرية ، فقدمت المدينة فى الظهيرة ، فأنخت راحلتى بباب المسجد ، ثم دخلت المسجد .

فبينا أنا قاعد فيه ، اذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فرأتنى شاحبا علىّ ثياب السفر ، فأتتنى وقالت : من أنت ؟

فقلت : أنا معاوية بن خديج رسول عمرو ابن العاص .

فانصرفت عنى ، ثم أقبلت تشد أسمع حفيف ازارها على ساقها ، حتى دنت منى ، ثم قالت : قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك .. فتبعتها .

فلما دخلت ، فاذا بعمر يتناول رداءه باحدى يديه ويشد ازاره بالأخرى ، فقال : ما عندك ؟

فقلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الاسكندرية .

فخرج معى الى المسجد ، فقال للمؤذن : أذن فى الناس « الصلاة جامعة » . فاجتمع الناس .

ثم قال لى : قم فأخبر أصحابك . فقمت فأخبرتهم .

ثم صلى ودخل منزله ، واستقبل القبلة فدعا بدعوات .

ثم جلس فقال : ياجارية ، هل من طعام ؟

فأتت بخبز وزيت ، فقال : كل ... فأكلت حياء . ثم قال : كل ، فان المسافر يحب الطعام ، فلو كنت آكلا لأكلت معك . فأصبت على حياء .

---

(١٥) ص١٧٤ ج١ ، المقريزي .

ثم قال : ياجارية ، هل من تمر ؟

فأتت بتمر فى طبق ، فقال : كل . فأكلت على حياء .

ثم قال : ماذا قلت يامعاوية حين أتيت المسجد ؟

قال : قلت أمير المؤمنين قائل .

قال : بئس ما قلت (أو بئس ما ظننت) ، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى ، فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية ؟

ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك الى عمر ابن الخطاب : « أما بعد ، فانى فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك » .

وعن أبى قبيل أن عمرا لما فتح الاسكندرية وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر .

وترحل من الاسكندرية ، فى الليلة التى دخلها عمرو ، وفى الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو ، سبعون ألف يهودى .

وكان بالاسكندرية ، فيما أحصى من الحمامات ، اثنا عشر ألف ديماس ، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس ، كل مجلس يسع جماعة نفر .

وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف رجل ، فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن .

وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار ، فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل .

وبقى من بقى من الأسارى من بلغ الخراج . فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان .

فاختلف الناس على عمرو فى قسمها ، فكان أكثر الناس يريدون قسمها .

فقال عمرو : لا أقدر على قسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين

فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها .

فكتب اليه عمر : لا تقسمها ، وذرها يكون خراجها فيئا للمسلمين ، وقوة لهم على جهاد عدوهم .

فأقرها عمرو ، وأحصى أهلها ، وفرض عليهم الخراج .

فكانت مصر صلحا كلها بفريضة دينارين على كل رجل ، لا يزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين ، الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع ... الا الاسكندرية ، فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم ، لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة .

وقد كانت قرى من قرى مصر قاتلت ، فسبوا منها قرية يقال لها بلهيب ، وقرية يقال لها الخيس ، وقرية يقال لها سلطيس ... فوقع

سباياهم بالمدينة وغيرها ، فردهم عمر بن الخطاب الى قراهم ، وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة

وعن يزيد بن أبى حبيب أن عمرا سبى أهل بلهيب وسلطيس وقرطيا وسخا ، فتفرقوا وبلغ أولهم المدينة حين نقضوا ثم كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بردهم ، فرد من وجد منهم .

وفى رواية أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب فى أهل سلطيس خاصة : من كان منهم فى أيديكم فخيروه بين الاسلام ، فان أسلم فهو من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، وان اختار دينه ، فخلوا بينه وبين قريته ... فكان البلهيبى خير يومئذ فاختار الاسلام

وفى رواية أن أهل سلطيس وصا وبلهيب ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون ، استحلوهم وقالوا : هؤلاء لنا فىء مع الاسكندرية

فكتب عمرو الى عمر بن الخطاب بذلك .

فكتب اليه عمر . أن تجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ، وتضرب عليهم الخراج ، ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ، ولا يجعلون فيئا ولا عبيدا فقعل ذلك .

ويقال انما ردهم عمر رضى الله عنه لعهد كان تقدم لهم .

وقال ابن لهيعة : جبى عمرو جزية الاسكندرية ستمائة ألف دينار ، لأنه وجد ثلثمائة ألف من أهل الذمة ، فقدر عليهم دينارين دينارين ، فبلغت ذلك .

وقيل كانت جزية الاسكندرية ، ثمانية عشر ألف دينار . فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك بلغت ستة وثلاثين ألف دينار .

ويقال ان عمرو بن العاص استبقى أهل الاسكندرية ، فلم يقتل ولم يسب بل جعلهم ذمة كأهل النوبة .

ذكر ما كان من فعل المسلمين بالاسكندريه ، وانتقاض الروم

قال ابن عبد الحكم : فأما الاسكندرية فلم يكن بها خطط ، وانما كانت أخائذ ، من أخذ منزلا نزل فيه هو وبنو أبيه وان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ؛ أقبل هو وعبادة ابن الصامت حتى علوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص ، فقال معاوية بن خديج : ننزل . فنزل عمرو القصر ، ونزل أبو ذر منزلا كان غربى المصلى الذى عند مسجد عمرو مما يلى البحر وقد انهدم ، ونزل معاوية ابن خديج فوق التل وضرب عبادة بن الصامت خباء فلم يزل فيه حتى خرج من الاسكندرية ويقال ان أبا الدرداء كان معه . والله أعلم .

قال : فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو ابن العاص من أصحابه لرباط الاسكندرية ربع الناس ، وربعا فى السواحل ، والنصف مقيمون معه .

وكان يصير بالاسكندرية خاصة الربع فى الصيف بقدر ستة أشهر ، ويعقب بعدهم شاتية

(٭) ص١٦٦ جـ١ ، ط. بولاق .

ستة أشهر . وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه ، واتخذوا فيه أخائذ .

وعن يزيد بن أبى حبيب أن المسلمين لما سكنوا الاسكندرية فى رباطهم ، ثم قفلوا ، ثم غزوا ابتدروا ، فكان الرجل منهم يأتى المنزل الذى كان فيه صاحبه قبل ذلك ، فيبتدره فيسكنه .

فلما غزوا ، قال عمرو : انى أخاف أن تخربوا المنازل اذا كنتم تتعاورونها .

فلما كان عند الكريون قال لهم : سيروا على بركة الله ، فمن ركز منكم رمحه فى دار فهى له ولبنى بنيه .

فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى منزل منها ، ثم يأتى الآخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار ، فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث . وكانوا يسكنونها ، حتى اذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها .

وكان يزيد بن أبى حبيب يقول : لا يحل من كرائها شىء ولا بيعها ، ولا يورث منها شىء ، انما كانت لهم يسكنوها فى رباطهم .

وعن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ، ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها ، هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى ذلك .

فسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟

قال : نعم ياأمير المؤمنين اذا جرى النيل .

فكتب عمر الى عمرو : « انى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم شتاء ولا صيفا » .

فتحول عمرو بن العاص الى الفسطاط .

قال : وكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى ، والى عامله بالبصرة ، والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : « ألا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى ما أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم عليكم ، قدمت » .

فتحول سعد بن أبى وقاص من مدائن كسرى الى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة ، وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط .

وكان عمر بن الخطاب يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية . وكان على الولاء : لا يغفلها ، ويكنف مرابطها ، ولا يأمن الروم عليها .

وكتب عثمان رضى الله عنه الى عبد الله بن سعد بن أبى سرح : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين فألزم الاسكندرية مرابطيها ، ثم أجر عليهم أرزاقهم ، وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر » .

قال : وكانت الاسكندرية انتقضت ، وجاءت الروم ، عليهم منويل الخصى ، فى المراكب حتى أرسوا بالاسكندرية ، فأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث . وقد كان عثمان رضى الله عنه عزل

عمرو بن العاص ، وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح

فلما نزلت الروم سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم ، فان له معرفة بالحرب وهيبة فى العدو ، ففعل .

وكان على الاسكندرية سورها ، فحلف عمرو بن العاص ، لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتى يكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان .

فخرج اليهم عمرو فى البر والبحر ، فضموا الى المقوقس من أطاعه من القبط ، وأما الروم فلم يطعه منهم أحد .

فقال خارجة بن حذافة لعمرو : ناهضهم قبل أن يكثر مددهم ، فلا آمن أن تنتقض مصر كلها .

فقال عمرو : لا ، ولكن أدعهم حتى يسيروا الى ، فانهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض .

فخرجوا من الاسكندرية ، ومعهم من نقض من أهل القرى ، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ، ويأكلون أطعمتها ، وينتهبون ما مروا به .

فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس ، فلقوهم فى البر والبحر فبدأت الروم القبط ، فرموا بالنشاب فى الماء رميا شديدا ، حتى أصابت النشاب يومئذ فرس عمرو فى لبته وهو فى البر فعقر ، فنزل عنه عمرو .

ثم خرجوا من البحر ، فاجتمعوا هم والذين فى البر ، فنضحوا المسلمين بالنشاب ، فاستأخر المسلمون عنهم * شيئا ، وحملوا على المسلمين حملة ولى المسلمون منها ، وانهزم شريك بن سمى فى خيله .

وكانت الروم قد جعلت صفوفا خلف صفوف .

وبرز يومئذ بطريق — ممن جاء من أرض الروم — على فرس له ، عليه سلاح مذهب ، فدعا الى البراز . فبرز اليه رجل من زبيد — يقال له حومل ، يكنى أبا مذحج — فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان ، ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف ، فألقى حومل رمحه وأخذ سيفه ، وكان يعرف بالنجدة ، فجعل عمرو يصيح : أبا مذحج ، فيجيبه : لبيك ، والناس على شاطىء النيل فى البر على تعبيتهم وصفوفهم ، فتجاولا ساعة بالسيف ، ثم حمل عليه البطريق ، فاحتمله وكان نحيفا ، فاخترط حومل خنجرا كان فى منطقته أو فى ذراعه ، فضرب به نحر العلج أو ترقوته فأثبته ، ووقع عليه فأخذ سلبه .

ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رحمه الله ، فرؤى عمرو يحمل سريره بين عمودى نعشه حتى دفنه بالمقطم .

ثم شد المسلمون عليهم ، فكانت هزيمتهم . فطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالاسكندرية ، ففتح الله عليهم ، وقتل منويل الخصى ، وقتلهم عمرو حتى أمعن فى مدينتهم .

فكلم فى ذلك ، فأمر برفع السيف عنهم ، وبنى فى ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا ، وهو المسجد الذى بالاسكندرية الذى يقال له مسجد الرحمة ، سمى بذلك لرفع عمرو السيف هناك ، وهدم سورها كله ، وجمع ما أصاب منهم .

فجاءه أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض ، فقالوا : قد كنا على صلحنا ، وقد مر علينا هؤلاء اللصوص ، فأخذوا متاعنا ودوابنا ، وهو قائم فى يديك . فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البينة .

وقال بعضهم لعمرو : ما حل لك ما صنعت بنا ، كان لنا أن تقاتل عنا لأنا فى ذمتك ولم تنقض ، فأما من نقض فأبعده الله .

فندم عمرو وقال : ياليتنى كنت لقيتهم حين خرجوا من الاسكندرية .

وكان سبب نقض الاسكندرية هذا ، أن فلما صاحب اخنا قدم على عمرو فقال : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها .

فقال عمرو ، وهو يشير الى ركن كنيسة : لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك ، انما أنتم خزانة لنا : ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم .

فغضب صاحب اخنا ، وخرج الى الروم فقدم بهم ، فهزمهم الله تعالى .

وأسر فأتى به الى عمرو ، فقال له الناس : اقتله .

فقال : لا ، بل انطلق فجئنا بجيش آخر .

وسوره وتوجه ، وكساه برنس أرجوان ، فرضى بأداء الجزية ، فقيل له : لو أتيت ملك الروم ؟

فقال : لو أتيته لقتلنى ، وقال قتلت أصحابى .

وعن أبى قبيل أن عتبة بن أبى سفيان عقد لعلقمة القطيفى على الاسكندرية ، وبعث معه اثنى عشر ألفا . فكتب علقمة الى معاوية بن أبى سفيان يشكو عتبة حين غرر به وبمن معه . فكتب اليه معاوية : « انى قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام ، وبخمسة آلاف من أهل المدينة » ، فكان فى الاسكندرية سبعة وعشرون ألفا .

وفى رواية : أن علقمة بن يزيد كان على الاسكندرية ومعه اثنا عشر ألفا ، فكتب الى معاوية : « انك خلفتنى بالاسكندرية وليس معى الا اثنا عشر ألفا ، ما يكاد بعضنا يرى بعضا من القلة » .

فكتب اليه معاوية : « انى قد أمددتك بعبد الله بن مطيع فى أربعة آلاف من أهل المدينة ، وأمرت معن بن يزيد السلمى أن يكون بالرملة فى أربعة آلاف ممسكين بأعنة خيولهم ، متى يبلغهم عنك فزع يعبروا اليك » .

قال ابن لهيعة : وقد كان عمرو بن العاص يقول : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة .

وكان عمرو ، حين توجه الى الاسكندرية ، خرب القرية التى تعرف اليوم بخربة وردان .

واختلف علينا السبب الذى خربت له . فحدثنا سعيد بن عفير أن عمرا لما توجه الى نقيوس لقتال الروم ، عدل وردان لقضاء

(*) ص١٦٧ جـ١ ، طـ بولاق *

حاجته عند الصبح ، فاختطفه أهل الخربة فخبوه . ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره ، فوجدوه فى بعض دورهم ، فأمر باخرابها واخراجهم منها .

وقيل كان أهل الخربة رهبانا كلهم ، فغدروا بقوم من ساقة عمرو ، فقتلوهم بعد أن بلغ عمرو الكريون ، فأقام عمرو ، ووجه اليهم وردان فقتلهم وخربها ، فهى خراب الى اليوم .

وقيل كان أهل الخربة أهل تويت وخيت ، فأرسل عمرو الى أرضهم فأخذ له منها جراب فيه تراب من ترابها ، فكلمهم فلم يجيبوه الى شىء ، فأمر باخراجهم ، ثم أمر بالتراب ففرش تحت مصلاه ، ثم قعد عليه ، ثم دعاهم فكلمهم ، فأجابوه الى ما أحب . ثم أمر بالتراب فرفع ، ثم دعاهم فلم يجيبوه الى شىء ... فعل ذلك مرارا . فلما رأى عمرو ذلك قال : هذه بلدة لا يصلح أن توطأ . فأمر باخرابها .

فلما هزم الله الروم أراد عثمان رضى الله عنه أن يكون عمرو بن العاص على الحرب ، وعبد الله بن سعد على الخراج ، فقال عمرو : أنا اذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها ... فأبى عمرو .

وكان فتح عمرو هذا عنوة قسرا فى خلافة عثمان سنة خمس وعشرين ، وبينه وبين الفتح الأول أربع سنين .

وقال الليث : كان فتح الاسكندرية الأول سنة اثنتين وعشرين ، وكان فتحها الآخر سنة خمس وعشرين .

وأقامت الجيش[1] من السماء يقاتلون الناس سبع سنين ، بعد أن فتحت مصر ، مما يفتحون عليهم من تلك المياه والغياض .

قال : ثم غزا « عبد الله بن سعد بن أبى سرح ذا الصوارى فى سنة أربع وثلاثين .

وكان من حديث هذه الغزوة أن عبد الله بن سعد ، لما نزل ذو الصوارى ، أنزل نصف الناس مع بسر بن أرطاة فى البر . فلما مضوا أتى آت الى عبد الله بن سعد فقال : ما كنت فاعلا حين ينزل بك ابن هرقل فى ألف مركب ، فافعله الساعة .

وكانت مراكب المسلمين مائتى مركب ونيفا .

فقام عبد الله بن سعد بين ظهرانى الناس فقال : بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل اليكم فى ألف مركب ، فأشيروا على . فما كلمه رجل من المسلمين

فجلس قليلا لترجع اليهم أفئدتهم ، ثم قام الثانية فكلمهم ، فما كلمه أحد .

فجلس ، ثم قام الثالثة فقال : انه لم يبق شىء فأشيروا على .

فقام رجل من أهل المدينة — كان متطوعا مع عبد الله بن سعد — فقال : أيها الأمير ان الله جل ثناؤه يقول : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » .

---

(١) « وأقامت ... الخ » ، هكذا فى الأصول التى بيدى . وانظر ما معنى هذه العبارة ، فانها لا تخلو من سقط أو تحريف فاحش . وكذا قوله قبلها بأسطر « أهل تويت وخيت » ، فانه بصيغة الواجبة لم يفهم له معنى ، ولعله محرف من « برقة وبيت » ومعناهما : الحذاقة بالأمر والسحر . ا هـ

[انظر] ص١٦٨ جـ١ ، طـ بولاق .

فقال عبد الله : اركبوا فركبوا ، وانما فى كل مركب نصف شحنته ، لأنه قد خرج النصف الآخر الى البر مع بسر فلقوهم ، فاقتتلوا بالنبل والنشاب

وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة ، وجعلت القوارب تختلف اليه بالأخبار ، فقال : ما فعلوا ؟

قالوا : قد اقتتلوا بالنبل والنشاب .

فقال : غلبت الروم

ثم أتوه ، فقال : ما فعلوا ؟

قالوا : قد نفد النبل والنشاب . فهم يرمون بالحجارة .

فقال : غلبت الروم .

ثم أتوه ، فقال : ما فعلوا ؟

قالوا : قد نفدت الحجارة ، وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف

قال : غلبت الروم

وكانت السفن اذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال .

قال : فقرن مركب عبد الله يومئذ — وهو الأمير — بمركب من مراكب العدو ، فكان مركب العدو يجتر مركب عبد الله اليهم ، فقام علقمة بن يزيد القطيفى ، وكان مع عبد الله بن سعد فى المركب ، فضرب السلسلة بسيفه فقطعها .

فسأل عبد الله امرأته بعد ذلك بسيسة ابنة حمزة بن يشرح — وكانت مع عبد الله يومئذ ، وكان الناس يغزون بنسائهم فى المراكب — من رأيت أشد قتالا ؟

قالت : علقمة صاحب السلسلة .

وكان عبد الله قد خطب بسيسة الى أبيها فقال له : ان علقمة قد خطبها ، وله على فيها رأى . فان تركها أفعل .

فكلم عبد الله علقمة فتركها ، فتزوجها عبد الله بن سعد ، ثم هلك عنها عبد الله فتزوجها بعده علقمة بن يزيد ، ثم هلك عنها علقمة فتزوجها بعده كريب بن أبرهة وماتت تحته .

وقيل مشت الروم الى قسطنطين بن هرقل ، فى سنة خمس وثلاثين ، فقالوا : أتترك الاسكندرية فى أيدى العرب وهى مدينتنا الكبرى ؟

فقال : ما أصنع بكم ؟ ما تقدرون أن تماسكوا ساعة اذا لقيتم العرب

قالوا : اخرج على أنا نموت ... فتبايعوا على ذلك .

فخرج فى ألف مركب يريد الاسكندرية ، فسار فى أيام غالبة الرياح ، فبعث الله عليهم ريحا فغرقتهم ، الا قسطنطين فانه نجا بمركبه ، فألقته الريح بصقلية ، فسألوه عن أمره ، فأخبرهم .

فقالوا : شتت النصرانية ، وأفنيت رجالها ، لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردهم .

فقال : خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا .

فصنعوا له الحمام ودخلوا عليه ، فقال : ويلكم ، يذهب رجالكم ، وتقتلون ملككم ؟

قالوا : كأنه غرق معهم . ثم قتلوه وخلوا من كان معه فى المركب .

قال أبو عمرو الكندى : وانما سميت غزوة ذى الصوارى لكثرة صوارى المراكب واجتماعها .

ذكر بحيرة الاسكندرية

قال ابن عبد الحكم : كانت بحيرة الاسكندرية كروما كلها لامرأة المقوقس ، فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر بفريضة عليهم ، فكثر الخمر عليها حتى ضاقت به ذرعا ، فقالت : لا حاجة لى فى الخمر ، أعطونى دنانير

فقالوا : ليس عندنا .

فأرسلت اليهم الماء فغرقتها ، فصارت بحيرة يصاد فيها الحيتان ، حتى استخرجها الخلفاء من بنى العباس ، فسدوا جسورها وزرعوها

ثم صارت بحيرة طولها اقلاع يوم فى عرض يوم ، ويصير اليها الماء من أشتوم فى البحر الرومى ، ويخرج منها الى بحيرة دونها فى خليج عليه مدينتان : احداهما الحدبه ، والأخرى اتكو ، وهى كثيرة المقاثى والنخل ، وكلها فى الرمل

ويصب فى هذه البحيرة خليج من النيل — يسمى الحافر — طوله نصف يوم اقلاعا ، وهو كثير الطير والسمك والعشب .

وكان السمك ، بوجود هذه البحيرة فى الاسكندرية ، غاية فى الكثرة ، يباع بأقل القيم وأبخس الأثمان . ثم انقطع الماء عن هذه البحيرة منذ ... ...

ذكر خليج الاسكندرية

يقال ان كلوباطرة الملكة هى التى ساقت خليج الاسكندرية حتى أدخلته اليها . ولم يكن يبلغها الماء ، فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية ، وبلطت قاعه بالرخام من اوله الى آخره ، ولم يزل يوجد ذلك فيه .

وقال أبو الحسن المخزومى فى كتاب « المنهاج » : أما خليج الاسكندرية فانه من فوهة الخليج الى ترعة بودرة ليس على شىء منها سد : بومنحرج ، محلة * بتوك ، أسينة أورين ، محلة فرنو ، محلة حسن ، منية طراد — وتعرف بالقاعة — محلتا نصر ومسروق .

فأما ترعة لقانة فانها تفتح بعد سبعة أيام من توت .

والترعة الجديدة تفتح فى السادس عشر من توت .

وترعة بودرة ، تفتح بعد سبعة أيام من توت .

وترعة بوبحيى ، وترعة بوالسحما ، وترعة القهوقية ، ليس على شىء من ذلك سد

وترعة الشراك تفتح بعد سبعة أيام من توت

وترعة بو خراشة ، وترعة البربيط ، يشرب منها ديسو وسمخراط وشيرنوبه ومنية حماد وسنادة وبعض محلة مارية

وترعة فيشة بلخا تفتح فى ثانى عشر توت .

وجرت العادة أن تفتح فى النوروز ترعة بوبط

ومقطع سمديسة يفتح فى الثانى والعشرين من توت .

ومقطع ياطس يفتح فى تاسع عشر توت .

(*) ص١٦٦ جـ١ ، طـ بولاق .

ولما سد المقطع المذكور ، عملت بعد ذلك ترعة تروى الصفقة القبلية منها ، فتفتح فى يوم النوروز .

ولما استحدثت ترعة افلاقة ، وخرجت فى أرض ياطس ، جرت العادة ، اذا رويت الصفقة القبلية من افلاقة ، تطلق الترعة المذكورة على القسم البحرى من ياطس الى أن يروى .

وترعة القارورة محدثة .

وترعة بفوها تفتح فى ثانى عشر توت .

وترعة افلاقة تفتح فى عاشر توت .

وترعة اسكنيدة تفتح فى سادس توت .

تراع بحر دمنهور تفتح فى العشرين من مسرى الى سادس توت . ويروى منها بعض طاموس ، وبعض كنيسة الغيط ، وبعض قرطسا ودمنهور .

ترعة القواديس ، منها تشرب شبرا النخلة وكوم التلول .

تراع شبرا النخلة تفتح على أعاليها من أول توت .

وترعة بسطرى تفتح فى خامس عشر مسرى .

وترعة مسيد تفتح فى ثامن توت .

وترعة سنتويه تفتح فى ثامن عشر توت .

وبحر دمشوية يفتح فى العشرين من مسرى ، ومنه تشرب منية رزقون ، وسفط كرداسة ، ودمشوية ، ومحلة الشيخ ومصيل .

وترعة دمشوية تفتح فى تاسع توت ، ويقيم الماء عليها سبعة عشر يوما ، وتفتح الى محلة الشيخ ، ومصيل يقيم الماء عليها ثلاثين يوما ، ويسد بعد ذلك على دمشوية سبعة أيام .

وعلى سفط ومنية رزقون ترعة بوسيق كانت تفتح فى أول توت .

محلة برسيق ليس عليها سد .

محلة الكروم تفتح فى ثامن توت . ومنها تشرب عدة أماكن ، وهى محلة الكروم وكفورها ، وهى دنيسة وكوم الولائد وكوم الصخرة وديرامس والصفاصف ، وما يخرج عن كفورها وهى تلمسا والجلمون من حقوق محلة كيل . ومنها تشرب الجهة الغربية .

شبرابار ليس عليها سد .

وترعة قافلة كانت تفتح فى ثامن توت ، وليس عليها الآن سد .

وترعة بلقطر وكفورها ، كانت تفتح فى تاسع توت ، وليس عليها الآن سد .

ترعة الراهب ليس عليها سد .

وترعة دسونس المقاريضى تسقى الحلفاية ، وتفتح فى ثامن توت .

وكذلك ترعة مرحنا والملعقية ، وترعة نيلامة وبيشاى ، وآخر تراع الحجيجة ، وترعة الكريون تفتح فى ثامن توت .

وترعة السلقون كانت تفتح فى سادس توت ، وليس عليها الآن سد .

وترعة أرمياخ تفتح فى ثانى عشر توت .

وترعة أبلوق تفتح فى سادس توت .

وأما جون رمسيس فان بحر رمسيس كان يضرب السد فيه على تراع رمسيس من أول

النيل الى سابع عشر توت . والذى يشرب من السد المذكور ، من النواحى والسكتور ، رمسيس ومحلة جعفر وقليشان وبعض أبنية البعيدى وبعض خربتا وبعض البلكوس وبعض بولين وبعض محلة واقد والبيصاء وبعض طيلاس .

ثم يفتح سد دكدوكة ، وهو محدث يقيم الماء عليه عشرة أيام ، وتشرب منه دكدوكة ومحلة معن ومنية أسامى وبعض صيفية .

ثم يقطع سد القطامى ، وهو محدث ، ومنه يشرب بعض جنبوية وطيانة البحرية والسرة وأبو حمار والبهوط .

ثم يقطع سد دسونس وأبو دينار وترعة طبرية ، فيشرب منه دنشال ، وطلموس يقيم الماء عليها ستة أيام ، ومنه تشرب منية عطية وسلطيس .

وأما بحر دمنهور فانه يسد على سلطيس الى سابع عشر توت ، ومنه تشرب سلطيس وزهرا وبعض طايوس وبعض قرطسا وبعض كنيسة الغيط ودمنهور .

ثم يقطع سد ندية ، وهو محدث ، فيقيم ثمانية أيام ، ومنه تشرب ندية ودقوس والعسيرية والنسرين .

ثم يفتح ويسد على محلة خفض ومحلة كيل ومحلة نسير .

ثم يقطع سد سلطيس ، وهو محدث ، فيقيم عشرة أيام بعد اختلاط الماءين ببحر دمنهور ورمسيس .

ثم يقطع جسر ملولة ، ومنه تشرب تروجة وأرسيس والمراسى وغابة الاعساس وبعض سرو ومحلة نسير ، ويبقى هناك الى انقضاء النيل .

وأما ترعة طبرية فهى محدثة ، واذا رويت طبرية تطلق على دسونس أم دينار ، ثم تقطع على طاموس بمقدار ربها ، ثم تطلق فى النيل العالى على أرض قراقس ، ويطلق الماء على قرطسا وكنيسة الغيط .

وخليج الطبرية اذا خرج الماء منه يسقى منه فى أول النيل ، الى أن يضرب جسر شبرا وسيم ، فيسقى منه شبرا وسيم وبعض البلكوس وحفيرة الزعفرانى وبعض بولين ومسجد غانم والصواف وكوم شريك ومنية مغنين وتل القطامى ومحلة واقد .

ثم يقطع جسر دليجة ، ومنه يشرب بعض خربتا وبعض قليشان وبعض بولين والبيضا ودنست وتليانة الأبراج وتل بقا والحدين واليهودية والنوم وأبو صادة والحصن * وقلاوة بنى عبيد وطوخ دخاية ودرشا وسقرا ودليجة وملحة وطية ، ثم يقطع على منية وزراقة الحجر والمحزون وبعض حيارس واقريم وأبو سمار وأم اضروع .

خليج ابن زلوم — ويعرف بخليج ابن ظلوم وسد مخرج التعيدى — لا يفتح الى عشرة أيام من توت ، ومنه يشرب شابور وكنيسة مبارك وبعض مرسيقة وبعض دموشة ومنية يزيد وحوض لماصلى وحصة سلمون وبعض سنيت وبعض التعيدى وبعض قليشان .

ثم يفتح ، فيشرب منه أمليط وبعض انباى وبعض كنيسة عبد الملك وبعض أرمنية وميتا وبعض محلة عبيد وسفط خالد وبرنامة وشبرا نوبة وكيمان شراس وبعض دمشوه ، وتقام الحراس على جسر سفط

(*) ص١٧٠ جـ١ ، ط. بولاق .

ويشرب من خليج الاسكندرية وما يفيض منه ، أهل الباطن وأهل البحيرة فى فجاج وأودية ، فيكون ذلك الماء صلة ، وهم قبيل من دنانة والرمحانة وبنى يزان وقبائل البربر ، ويزرعون عليه فيستوفى منهم الخراج

وبين مشارق الفرما من ناحية جوجير وفاقوس ، وبين آخر ما شرب من خليج الاسكندرية ، مسيرة شهر ، كان عامرا كله — فى محلول ومعقود — الى ما بعد الخمسين وثلثمائة من سنى الهجرة ، وقد خرب معظم ذلك .

وقال أبو بكر الطرطوسى ، عمن حدثه من مشايخ البحر ، أنه قال : شاهدت الاسكندرية والصيد فى الخليج مطلق للرعية ، والسمك فيه يطفو الماء به كثرة حتى تصيده الأطفال بالخرق ، ثم حجره الوالى ومنع الناس من صيده ، فذهب حتى كاد لا يرى فيه الا الواحدة بعد الواحدة الى يومنا هذا .

وقال أبو عمرو الكندى فى كتاب «الموالى» عن الحارث بن مسكين : انه تقلد قضاء مصر من قبل أمير المؤمنين الواثق بالله فى سنة تسع وثلاثين ومائتين ، فذكر سيرته وقال : وحفر خليج الاسكندرية ، وورد الكتاب بصرفه فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين .

وقال جامع السيرة الطولونية : وفى ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومائتين ، أمر أحمد ابن طولون بحفر خليج الاسكندرية .

وقال المسعودى : وقد كان النيل انقطع عن بلاد الاسكندرية قبل سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

وقد كان الاسكندر بنى الاسكندرية على هذا الخليج من النيل ، وكان عليها معظم ماء النيل ، فكان يسقى الاسكندرية وبلاد مريوط ، وكانت بلاد مريوط فى نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة ، وكانت السفن تجرى فى النيل وتتصل بأسواق الاسكندرية .

وقد بلط أرض خليجها فى المدينة بالأحجار والمرمر ، وانقطع الماء عنها لعوارض سدت خليجها ومنعت الناس دخوله ، فصار شربهم من الآبار ، وصار النيل على يوم منهم .

وذكر المسيحى أن الحاكم بأمر الله ، أبا منصور بن العزيز ، أطلق لحفر خليج الاسكندرية ، فى سنة أربع وأربعمائة ، خمسة عشر ألف دينار ، فحفر كله .

وفى سنة اثنتين وستين وستمائة بعث الملك الظاهر بيبرس الأمير عليا ، أمير جاندار ، لحفر خليج الاسكندرية ، وقد امتلأت فوهته بالطين ، وقل الماء فى الاسكندرية ، فابتدأ بالحفر من التعيدى ، وأنشأ هناك مسجدا . وتولى مباشرة هذا الحفر المعلم تعا سيف ناظر الدواوين .

ثم بعث السلطان ، فى سنة أربع وستين وستمائة ، لحفر هذا الخليج الأمير علم الدين سنجر المسرورى ، ثم سار بعامة الأمراء والأجناد ، وباشر الحفر بنفسه ، وعمل فيه الأمراء وجميع الناس الى أن زالت الرمال التى كانت على الساحل بين التعيدى وفم

الخليج ، ثم عدى الى باربار ، وغرق مراكب هناك وبنى عليها بالحجارة ، فلما تم الغرض عاد الى قلعة الجبل

ثم تعطل استمرار جريان الماء فيه بطول السنة ، وصار يحفر سريعا بعد شهرين أو نحوهما من دخول الماء اليه ، واحتاج أهل الاسكندرية فى طول السنة الى الشرب من الصهاريج التى يخزن فيها الماء .

الى أن كانت سنة عشر وسبعمائة ، فقدم الأمير بدر الدين بكتوت الخزندارى ، المعروف بأمير شكار ، متولى الاسكندرية الى قلعة الجبل ، وحسّن للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حفره ، وذكر له ما فى ذلك من المنافع

أولها : حمل الغلال وأصناف المتجر الى الاسكندرية فى المراكب ، وفى ذلك توفير للكلف ، وزيادة فى مال الديوان .

وثانيها : عمارة ما على حافتى الخليج من الأراضى بانشاء الضياع والسواقى ، فينمو الخراج بهذا نموا كثيرا .

وثالثها : انتفاع الناس به فى عمارة بساتينهم ، وشرب مائه دائما .

فأعجب السلطان ذلك ، وندب الأمير بدر الدين محمد بن كندغدى بن الوزيرى مع بكتوت لعمله ، وتقدم الى جميع أمراء الدولة بالخراج مباشريهم لاحضار رجال النواحى الجارية فى اقطاعاتهم للعمل للحفير ، وكتب لولاة الأعمال بالوقوف فى العمل .

فاجتمع من النواحى نحو الأربعين ألف رجل ، جمعت فى نحو العشرين يوما ، ووقع العمل فى شهر رجب من السنة المذكورة ، وأفرد لكل أهل ناحية قطعة يحفرونها حتى كمل ... فجاء قياس الحفر ، من فم بحر النيل الى ناحية شنبار ، ثمانية آلاف قصبة حاكمية ، ومن شنبار الى الاسكندرية مثلها .

وكان الخليج الأصلى يدخل الماء اليه من حد شنبار ، فجعل فم هذا البحر يرمى عليه ، وعمل عمقه ست قصبات ، فى عرض ثمانى قصبات . فلما انتهوا الى حد الخليج الأول ، حفر أيضا على نظير الخليج المستجد ، فصارا بحرا واحدا ، وركبت عليه السدود والقناطر .

ووجد فى الخليج الأول عند حفره ، من الرصاص المبنى تحت الصهاريج ، شىء كثير جدا ، فلم يتعرض السلطان لشىء منه ، وأنعم به على الأمير بكتوت .

وعظمت المشقة فى حفر هذا الخليج ، فان الذى تجاوز البحر منه غلب عليه الماء ، فصارت الرجال تغطس فيه وترفع الطين من أسفله ، ثم كثر الماء فركبت السواقى حتى نزحته .

الا أن عظيم النفع به سهل جميع ذلك ، فان السفن جرت فيه طول السنة ، واستغنى أهل الاسكندرية عن شرب ماء الصهاريج ، وبادر الناس للعمارة على جانبى الخليج ، فلم يمض غير قليل حتى استجد عليه ما يزيد على مائة ألف فدان ، زرعت بعد ما كانت سباخا ، وما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسمسم ، وفوق الأربعين ضيعة ، وأزيد من ألف غيط بالاسكندرية ، وعمرت منه عدة

(١) ص١٧١ جـ١ ، ط. بولاق .

بلاد كثيرة ، وتحول عالم عظيم الى سكنى ما استجد عليه ، وفيه .

ولما فرغ العمل فى الخليج شرع الأمير بكتوت فى عمل جسر من ماله ، فان الناس كانوا ، فى وقت هيجان البحر ، يجدون مشقة عظيمة لغلبة الماء على أراضى السباخ ، فأقام ثلاثة أشهر حتى بنى رصيفا ، دك أساسه بالحجر والرصاص وأعلاه بالحجر والكلس ، وعمل فيه ثلاثين قنطرة .

وأنشأ خانا ينزله الناس ، ورتب فيه الخفراء ، ووقف على مصالحه رزقة ، فبلغ مصروفه نحو الستين ألف دينار مصرية ، سوى ما أخذ من الحجارة التى بعضها من قصر قديم خارج الاسكندرية ، وسوى ما وجده من الرصاص فى سرب بأسفل هذا القصر ينتهى بمن يمشى فيه الى قريب البحر ، وسوى ما أنعم به عليه من الرصاص الموجود بالخليج .

ولم يزل الخليج فيه الماء طول السنة الى ما بعد سنة سبعين وسبعمائة ، فانقطع الماء منه وصار الماء لا يدخل اليه الا فى أيام زيادة ماء النيل فقط ، ثم يجف عند نقصه ، فتلف من أجل هذا أكثر بساتين الاسكندرية وخربت ، وتلاشى كثير من القرى التى كانت على هذا الخليج .

وسبب انقطاع الماء عنه غلبة الروم على الأشتوم الذى كان يعبر منه ماء بحر الملح الى بحيرة الاسكندرية حتى جفت ، وصار الرمل تلقيه الرياح فى الخليج ، فانطم فمه وعلا قاعه .

وقصد من أدركناه من ملوك مصر حفر هذا الخليج غير مرة ، فلم يتهيأ ذلك ... الى أن كانت سلطنة الملك الأشرف برسباى ، فندب لحفره الأمير جرباش الكريمى ، المعروف بعاشق .

فتوجه اليه ، وجمع له من قدر عليه من رجال النواحى ، فبلغت عدتهم ثمانمائة وخمسة وسبعين رجلا ، ابتدأوا فى حفره من حادى عشر جمادى الأولى سنة ست وعشرين وثمانمائة الى حادى عشر شعبان لتمام تسعين يوما ، فانتهى عملهم .

ومشى الماء فى الخليج حتى انتهى الى حده من مدينة الاسكندرية ، وجرت فيه السفن ، فسر الناس به سرورا كبيرا .

وجبى ما أنفق على العمال فى الحفر من أرباب النواحى التى على الخليج ، ومن أرباب البساتين بالاسكندرية ، ولم يكن فى حفره كبير شناعة ، مما جرت به عادة الولاة فى مثل ذلك ، ولله الحمد .

وعندما انتهى قدم الأمير جرباش الى قلعة الجبل ، فخلع السلطان عليه وشكره ، ثم عمله حاجب الحجاب ، فلم يستمر ذلك الا قليلا حتى انطم بالرمل ، وتعذر سلوك الخليج بالمراكب الا فى أيام النيل فقط .

ذكر جمل حوادث الاسكندرية

وفى سنة تسع وتسعين ومائة ، عظمت الحروب بديار مصر بين المطلب بن عبد الله الخزاعى أمير مصر ، وبين عبد العزيز بن الوزير الجروى الثائر بتنيس ، فعقد المطلب

على الاسكندرية لمحمد بن هبيرة بن هاشم ابن خديج ، فاستخلف محمد خاله عمر بن عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية ابن خديج — الذى يقال له عمر بن ملاك — ثم عزله المطلب بعد ثلاثة أشهر بأخيه الفضل ابن عبد الله بن مالك .

وكانت بالاسكندرية مراكب الأندلسيين قد قفلوا من غزوهم . وكان سبب قدوم هذه المراكب ما جرى لأهل قرطبة بوقعة الربض مع الحكم بن هشام فى سنة اثنتين وثمانين ومائة ، فأخرج جماعة منهم ، فوصلوا الى ثغر الاسكندرية زيادة على عشرة آلاف .

وكان سبب ثورتهم أن قصابا من الاسكندرية رمى وجه رجل منهم بكرش ، فأنفوا من ذلك ، وصاروا الى ما صاروا اليه ، وذلك لما نزلوا رمل الاسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم . وكذلك كانوا على الزمان ، وكانت الأمراء لا تبيحهم دخول الاسكندرية ، انما كان الناس يخرجون اليهم فيبايعونهم .

فلما عزل عمر بن ملاك ، كتب اليه عبد العزيز الجروى يأمره بالوثوب على الاسكندرية والدعاء له بها ، فبعث عمر بن ملاك الى الأندلسيين ، فدعاهم الى القيام معه فى اخراج الفضل عنها ، فساروا معه ، وأخرج الفضل ، ودعا للجروى .

فوثب أهل الاسكندرية على الأندلسيين ، وأخرجوهم وردوا الفضل ، وقتل من الأندلسيين نفر ، وانهزم الباقون الى مراكبهم . فعزل المطلب أخاه ، وولى عليها * اسحاق ابن أبرهة بن الصباح فى شهر رمضان سنة تسع وتسعين ، ثم عزله بأبى ذكر بن جنادة المعافرى .

فلما اقتتل السرى بن الحكم هو والمطلب بن عبد الله ، وغلب السرى على مصر ، وثب عمر ابن ملاك على أبى ذكر ، وأخرجه من الاسكندرية ، ودعا للجروى ، وأقبل الأندلسيون اليه فأفسدوا ، فأمرهم بالخروج الى مراكبهم ، فشق ذلك عليهم .

وظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون بالصوفية ، يأمرون بالمعروف ، ويعارضون السلطان فى أموره ، فترأس عليهم رجل منهم ، يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى ، فصاروا مع الأندلسيين يدا واحدة ، واعتقدوا بلخم ، وكانت لخم أعز من فى ناحية الاسكندرية .

فخوصم أبو عبد الرحمن الصوفى الى عمر ابن ملاك فى امرأة ، فقضى على أبى عبد الرحمن ، فوجد فى نفسه من ذلك ، وخرج الى الأندلسيين فألف بينهم وبين لخم ، ورجا أهل الأندلس أن يدركوا ثأرا من عمر بن ملاك .

فساروا الى عمر بن ملاك ، وهم زهاء عشرة آلاف ، فحصروه فى قصره ، وخشى أن القصر لا يمنعه منهم ، وخاف أن يدخلوا عليه عنوة فيفضح فى حرمه ، فاغتسل وتحنط وتكفن ، وأمر أهله أن يدلوه اليهم ، فدلى فأخذته السيوف فقتل .

ثم ولى أخوه محمد بن عبد الله الذى يلقب جيوس ، فقتل .

ثم ولى عليهم عبد الله البطال ابن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج ، فقتل .

(*) ص١٧٢ جـ١ ، ط. بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

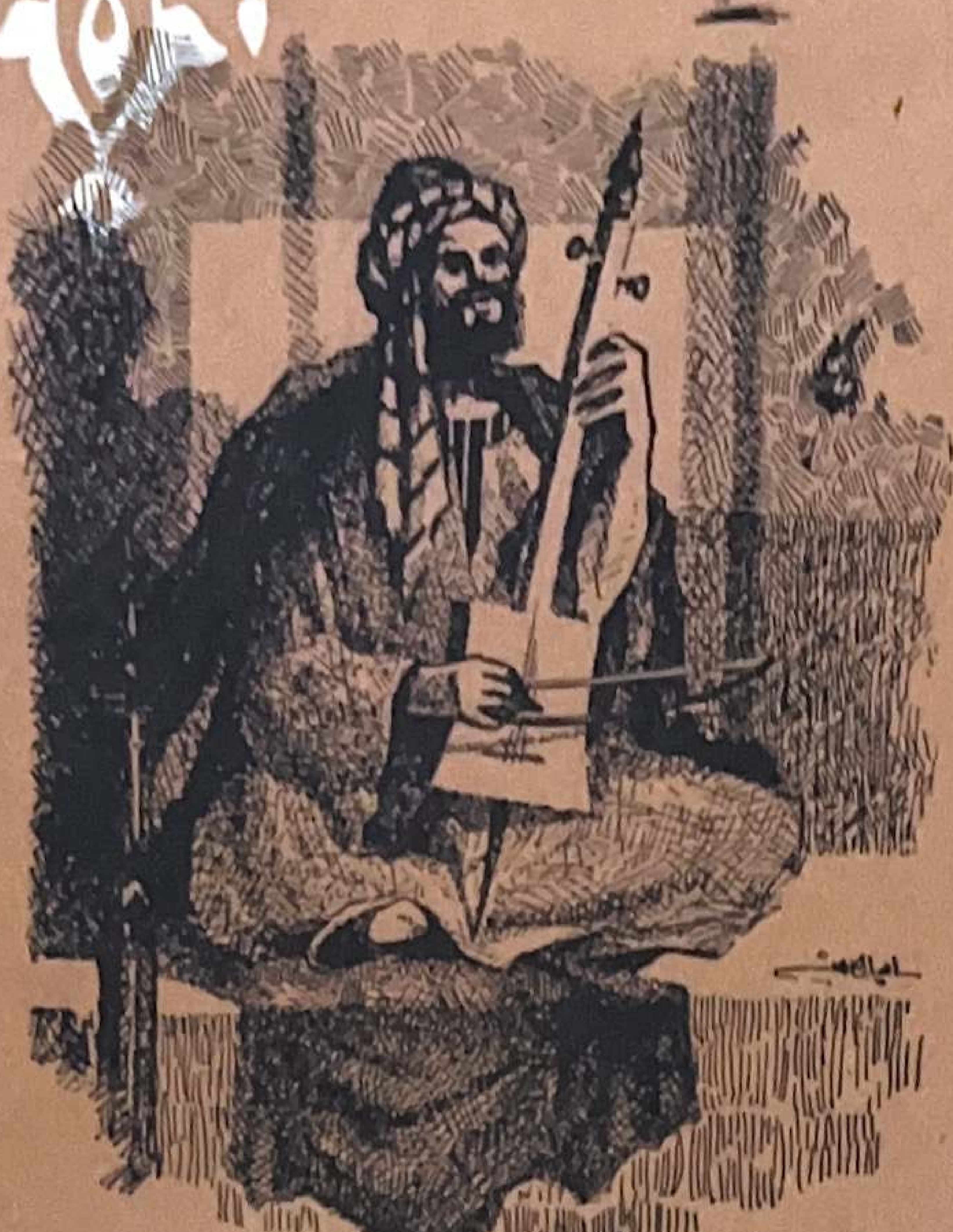
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزي رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزي

الجزء
٩



كتاب التحرير

"كانت مصر هي مسقط رأسي، وملعب أترابي، ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامتي، وموطن خاصتي وعامتي، وجؤجؤي الذي ربي جناحي في وكره، وعش مأربي، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شذوت العلم، وآتاني ربي الفطانة والفهم، أرغب في معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

ثم ولى عليهم أخوه أبو هبيرة الحارث ، فقتل .

ثم ولى عليهم خديج بن عبد الواحد ، فقتل ... وانصرف القوم ، وذلك فى ذى القعدة .

ثم فسد ما بين لخم والأندلسيين عند مقتل ابن ملاك ، واقتتلوا ، فانهزمت لخم ، فظفر الأندلسيون بالاسكندرية فى ذى الحجة ، فولوها أبا عبد الرحمن الصوف ، فبلغ من الفساد والنهب والقتل ما لم يسمع بمثله ، فعزله الأندلسيون ، وولوا رجلا منهم يعرف بالكنانى .

ثم حاربت بنو مدلج الأندلسيين ، فظفر بهم الأندلسيون ونفروهم عن البلاد ، فلم يقدر بنو مدلج على الرجوع الى أرض الاسكندرية حتى طلب السرى من الأندلسيين أن يردوهم ، فأذنوا لهم حينئذ ورجعوا .

وكان أبو قبيل يقول : أنا على الاسكندرية من أربعين مركبا مسلمين ، وليسوا بمسلمين ، تأتى فى آخر الصيف ، أخوف منى عليها من الروم .

فيقال له : ما هذه الأربعون مركبا فى هذا الخلق لو كانت نيرانا تضطرم ؟

فيقول : اسكت ويلك ، منها وممن فيها يكون خراب الاسكندرية وما حولها .

وبلغ عبد العزيز الجروى قتل ابن ملاك ، فسار فى خمسين ألفا حتى نزل على حصن الاسكندرية ، وحصرها حتى أجهد من فيها . فبلغه أن السرى بن الحكم بعث الى تنيس بعثا فكر راجعا فى المحرم سنة احدى ومائتين ، فدعا الأندلسيون للسرى .

ثم لما خلع أهل مصر المأمون ، ودعوا لابراهيم بن المهدى ، وقام الجروى بذلك ، سار الى الاسكندرية ، وحصر الأندلسيين حتى دخلها صلحا ، ودعى له بها ، ثم سار عنها الى الفسطاط ، فحارب السرى وقتل ابنه ، ثم انصرف .

فثار الأندلسيون بعامل الجروى ، وأخرجوه من الاسكندرية ، وخلعوا الجروى ، ودعوا للسرى .

فسار اليهم الجروى فى شهر رمضان سنة ثلاث ومائتين ، فعارضته القبط بسخا ، وأمدتهم بنو مدلج — وهم فى نحو من مائتى ألف — فهزمهم ، وبعث بجيوشه الى الاسكندرية فحاصروها .

وكانت بين السرى وبين أهل الصعيد حروب .

ثم ان الجروى سار الى الاسكندرية سيره الرابع وحاصرها ، ونصب عليها المجانيق سبعة أشهر ، من أول شعبان سنة أربع ومائتين الى سلخ صفر سنة خمس ، فأصاب الجروى فلقة من حجر منجنيقه ، فمات سلخ صفر سنة خمس ومائتين .

وقام من بعده ابنه على ، فلم تزل الفتن بالأندلسيين فى الاسكندرية متصلة ، الى أن قدم عبد الله بن طاهر الى مصر من قبل أمير المؤمنين المأمون ، وأخرج عبيد الله بن السرى من مصر ، وسار الى الاسكندرية فى قواد العجم من أهل خراسان ، مستهل صفر سنة

اثنتى عشرة ومائتين ، فحاصرها بضع عشرة ليلة حتى خرج اليه أهلها بأمان .

وصالحه الأندلسيون على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا ، على ألا يخرجوا فى مراكبهم أحدا من أهل مصر ولا عبدا ولا آبقا ، فان فعلوا فقد حلت له دماؤهم ، ونكث عهده ... وتوجهوا .

فبعث ابن طاهر من يفتش عليهم مراكبهم ، فوجدوا فيها جمعا من الذين اشترط عليهم ألا يخرجوهم ، فأمر باحراق مراكبهم ، فسألوه أن يردهم الى شرطهم ، ففعل .

وساروا الى جزيرة اقريطش وملكوها ، وكان الأمير معهم أبو حفص عمر بن عيسى ، ثم ملكها ولده من بعده ، وعمرها الأندلسيون الى أن غزاها الروم سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، وملكها بعد حصار طويل .

وولى على الاسكندرية الياس بن أسد بن سامان ، ورجع الى الفسطاط فى جمادى الآخرة ، ثم سار الى العراق .

ولما انتقض أسفل الأرض فى جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين ، وحاربهم الأفشين ومعه عيسى بن منصور الرافقى أمير مصر ، وبعث عبد الله بن يزيد بن مزيد الشيبانى الى الغربية ، فانهزم الى الاسكندرية ، واستجاشت عليه بنو مدلج ، وحصروه فى شوال .

فسار الافشين ، وأوقع ببن * فى طريقه حتى قدم الاسكندرية فى جنوده ، فلقيته طائفة من بنى مدلج ، فهزمهم مرتين ، وأسر منهم وقتل .

ودخل الاسكندرية لعشر بقين من ذى الحجة ، ففر منه رؤساؤها ، وكان عليها معاوية ابن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن ابن معاوية بن خديج ، فأصلح أمرها .

ثم خرج الى أهل البشرود فامتنعوا عليه ، حتى قدم المأمون الى مصر ، فصار الى البشرود ، والافشين قد أوقع بالقبط بها كما تقدم ذكره .

ولما ولى ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب أفريقية فى سنة احدى وستين ومائتين ، حسنت سيرته ، فكانت القوافل والتجار تسير فى الطرق وهى آمنة ، وبنى الحصون والمحارس على ساحل البحر ، حتى كانت توقد النار من مدينة سبتة الى الاسكندرية ، فيصل الخبر منها الى الاسكندرية فى ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر .

وفى سنة اثنتين وثلثمائة دخل حباسة ، فى جيوش أفريقية ، الى الاسكندرية فى المحرم ، ومعه مائة ألف أو زيادة عليها ، وقدمت الجيوش من المشرق مددا لتكين أمير مصر ، وسار حباسة من الاسكندرية .

ونودى بالنفير فى الفسطاط ، لعشر بقين من جمادى الآخرة ، فلم يتخلف عن الخروج الى الجيزة أحد من الخاصة والعامة ، الا من عجز عن الحركة لمرض أو عذر . وأتاهم حباسة ، فلقوه وهزموه ، ثم دار عليهم ، فقتل من أهل مصر نحوا من عشرة آلاف ، ونهض حباسة الى أفريقية ، وأقاموا بمصر مضطربين .

(*) ص١٧٢ جـ١ ، ط. بولاق .

فأقبل مؤنس الخادم من العراق فى رمضان بجيوش كثيرة ، فصرف تكين فى ذى القعدة . وولى ذكاء الأعور فى صفر سنة ثلاث وثلثمائة ، فخرج فى جيوشه الى الاسكندرية ، وتتبع كل من يوما اليه بمكاتبة صاحب أفريقية ، فسجن منهم وقتل كثيرا .

وجلا أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية ، فى شوال سنة أربع وثلثمائة ، خوفا من صاحب برقة .

وفى سنة سبع وثلثمائة سارت مقدمة المهدى عبيد الله من أفريقية ، مع ابنه أبى القاسم ، الى لوبية . فهرب أهل الاسكندرية وجلوا عنها ، وخرج منها مظفر بن ذكاء الأعور فى جيشه ، ودخلت اليها العساكر يوم الجمعة لثمان خلون من صفر ، وفر أهل القوة من الفسطاط الى الشام .

فخرج ذكاء أمير مصر الى الجيزة وعسكر بها ، ثم مرض ومات على مصافه بالجيزة فى ربيع الأول .

فولى تكين بعده ولايته الثانية من قبل المقتدر ، ونزل الجيزة .

وأقبلت مراكب صاحب أفريقية الى الاسكندرية عليها سليمان الخادم ، فقدم ثمل الخادم ، صاحب مراكب طرسوس ، فالتقيا برشيد فى شوال ، فاقتتلا .

فبعث الله ريحا على مراكب سليمان ألقتها الى البر ، فتكسر أكثرها ، وأخذ من فيها أخذا باليد ، وقتل أكثرهم ، وأسر من بقى وسيقوا الى الفسطاط ، فقتل منهم نحو سبعمائة رجل .

وسار أبو القاسم بن المهدى من الاسكندرية الى الفيوم ، وملك جزيرة الأشمونين والفيوم وأزال عنها جند مصر .

فمضى ثمل الخادم فى مراكبه الى الاسكندرية ، فقاتل من بها من أهل أفريقية فظفر بهم ، ونقل أهل الاسكندرية الى رشيد .

وعاد الى الفسطاط ، ومضى فى مراكبه الى اللاهون ، ولحقته العساكر ، فدخلوا الى الفيوم فى صفر سنة سبع وثلثمائة . فخرج أبو القاسم بن المهدى الى برقة ، ولم يكن بينهما قتال ، ورجعت العساكر الى الفسطاط .

وما زالت الاسكندرية وأعمالها فى اضطراب الى أن قدمت جيوش المعز لدين الله مع القائد جوهر ، فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، فملكتها . وما برحت الى أن قام بها نزار بن المستنصر ، وكان من أمره ما قد ذكر عند ذكر خزائن القصر .

وفى سنة ثنتى عشرة وستمائة ، اجتمع بالاسكندرية ثلاثة آلاف من تجار الفرنج ، وقدمت بطسة الى المينا فيها من ملوك الفرنج ملكان ، فهموا أن يثوروا ويقتلوا أهل البلد ويملكوها .

فتوجه الملك العادل أبو بكر بن أيوب اليها ، وقبض على التجار المذكورين وعلى من بالبطسة ، واستصفى أموالهم وسجنهم ، وسجن الملكين ، وجرت خطوب حتى أطلق السلطان نساءهم ، وعاد الى القاهرة .

وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة بنى الملك الصالح طلائع بن زريك على بلبيس حصنا من لبن .

وفى سنة اثنتين وستين وخمسمائة كانت وقعة البابين ، بين الوزير شاور وأسد الدين شيركوه ، فانهزم عسكر شيركوه ، ومضى منهم طائفة الى الاسكندرية ، ثم كانت لشيركوه على شاور ، فانهزم منه الى القاهرة .

ومضى شيركوه الى الاسكندرية ، فخرج اليه أهل الثغر ، وفيهم نجم الدين محمد بن مصال والى الثغر ، وقاضيه الأشرف بن الخباب ، وناظره القاضى الرشيد بن الزبير ، وسروا بقدومه ، وسلموه المدينة .

ثم سار منها يريد بلاد الصعيد ، واستخلف ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على الثغر فى ألف فارس . فنزل عليه شاور ، ومعه مرى ملك الفرنج ، فقام معه أهل الثغر ، واستعدوا لقتال شاور ، فكان ما أخرجوه أربعة وعشرين ألف فرس .

فوعدهم شاور أن يضع عنهم المكوس والواجبات ، ويعطيهم الخمس اذا سلموه صلاح الدين ، فأبوا ذلك ، وألحوا فى قتاله ، فحصرهم حتى قل الطعام عندهم .

فتوجه اليهم شيركوه ، وقد حشد من العربان جموعا كثيرة ، فبعث اليه (*) شاور ، وبذل له خمسة آلاف دينار على أن يرجع الى الشام ، فأجابه الى ذلك .

(*) ص١٧٤ جـ١ ، ط.بولاق .

وفتحت المدينة ، وخرج صلاح الدين الى مرى ملك الفرنج ، وجلس معه ، فما زال به شاور أن يسلمه صلاح الدين فلم يوافقه ، بل سيره الى عمه شيركوه من البحر على عكا بمن معه الى دمشق .

ودخل شاور الى الاسكندرية فى سابع عشر شوال ، فاستتر ابن مصال وفر الى الشام ، وقبض على ابن الخباب ، وعوقب حتى فداه أهله بمال جزيل ، ولم يقدر على ابن الزبير وخرج الى رشيد .

هذا ، وقد امتنع الفقيه أبو الطاهر بن عوف وجماعة كثيرة بالمنار ، فوقف عليهم شاور ، فقال له ابن عوف : اعذرنا ياأمير الجيوش ، وسامحنا بما فعلناه ،

فعفا عنهم ، وولى القاضى الأشرف أبا القاسم عبد الرحمن بن منصور بن نجا ناظرا على الأموال . وخرج ومعه مرى ملك الفرنج الى القاهرة ، ثم توجه مرى الى بلاده .

وفى سنة احدى وسبعين وستمائة ورد الخبر بحركة الفرنج الى ثغور مصر ، فاهتم الملك الظاهر بيبرس بأمر الشوانى ، ونصب على أسوار الاسكندرية نحو مائة منجنيق .

وفى يوم الخميس ، خامس شهر رجب سنة سبع وعشرين ، خرج بعض تجار الفرنج الى ظاهر باب البحر ؛ حيث تجتمع العامة للفرجة ، وتعرض الى صبى أمرد يراوده عن نفسه .

فأنكر ذلك بعض من هناك من المسلمين ، وقال : هذا ما يحل . فأخذ الفرنجى خفا كان بيده وضربه على وجهه ، فصاح بالناس فأتوه ، فقام الفرنج مع صاحبهم .

واتسع الخرق ، الى أن ركب متولى الثغر ، وأغلق أبواب المدينة ، وطلب مَن أثار الفتنة ، ففروا ، وعاد الى داره وترك الأبواب مغلقة .

وكان بظاهر المدينة خلق كثير قد توجهوا على عادتهم فى حوائجهم ، فحيل بينهم وبين بيوتهم ، وجاء الليل وهم قيام على الأبواب يضجون ويصيحون ، فمضى أعيان البلد الى المتولى ، وما زالوا به حتى فتح لهم .

فدخلوا مبادرين وهم يزدحمون ، فمات منهم زيادة على عشرة أنفس ، وتلفت أعضاء جماعة ، وذهب من عمائم الناس ومناديلهم وغير ذلك شىء كثير ، وعظم البكاء والصراخ طول الليل .

فلما كان من الغد ركب الوالى لكشف أحوال الناس ، فتكاثروا عليه ورجموه ، فانهزم منهم الى داره ، فتبعوه وقاتلوه ، فقاتلهم من أعلى الدار حتى سفكت بينهما دماء كثيرة ، وأحرقوا بابه ، ونهبوا دورا بجانبه . فكتب يستنجد والى دمنهور ومن حوله من العربان ، فأتوه واحتاطوا بالمدينة .

وسرح الطائر الى السلطان بخروج أهل الاسكندرية عن الطاعة ، فاشتد غضبه ، وخشى من اطلاقهم الأمراء المسجونين ، وبعث الى القضاة فجمعهم واستفتاهم فى قتالهم ، فكتبوا بما يجب .

وخرج اليهم الوزير مغلطاى الجمالى ، وطوغان شاد الدواوين ، وأيدمر أمير جندار ، وعدة من المماليك السلطانية ، وناظر الخاص ، ومع الوزير تذكرة باراقة دماء أهل الفساد ، ومصادرة جماعة ، وأخذ أموال أهل البلد ، والقبض على الأسلحة المعدة بها للغزاة ، وامساك القاضى والشهود ، وحمل الأمراء المسجونين الى القاهرة .

فساروا فى عاشره ، وقدموا الثغر بعد ثلاثة أيام ، ونزل الوزير بالخيس ، وفرض على الناس خمسمائة ألف دينار مصرية ، وأحضر قاضى القضاة عماد الدين ونائبه فى الحديد ، وأنكر عليهما كونهما شهرا النداء فى البلد بالغزاة فى سبيل الله . فأنكرا وقوع هذا منهما ، وأنهما لم يكن فى قدرتهما رد السواد الأعظم .

فضرب نائبه ابن الشيبى ضربا مبرحا ، وألزمه بحمل ستمائة ألف درهم ، وألزم القاضى بخمسمائة ألف درهم ، وكان قد رسم بشنقه ، فتلطف فى مكاتبة السلطان ، واعتذر عنه وبرأه حتى عفا عنه .

وتتبع العامة ، فوسط منهم ثلاثين رجلا فى يوم الجمعة ثالث عشره ، فتسارع الناس الى دورهم من الخوف ، فذهبت عدة عمائم ، واشتد الخوف مدة عشرين يوما ، وكتب السلطان تتوالى بالايقاع بأهل الثغر وأخذ أموالهم ، والوزير يحسن فى الجواب الى أن جهز الأمراء المسجونين وسار من الثغر .

وقد استعرض ما به من السلاح فوجد ستة آلاف عدة كاملة ، جعلها جميعها فى قاعة وختم عليها ، وبلغت الجباية من الناس ما ينيف على مائتين وستين ألف دينار .

فكانت هذه من المحن العظيمة ، والحوادث الشنيعة .. ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ذكر مدينة أتريب

هذه المدينة بناها أتريب بن قبطيم بن مصر ابن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام .

قال ابن وصيف شاه : وكان أتريب قد انتقل الى حيزه بعد موت أبيه قبطيم ، وهى المدينة التى كان أبوه بناها له ، وكان طولها اثنى عشر ميلا ، ولها اثنا عشر بابا .

وجعل فى شارعها الأعظم ثلاث قباب عالية على أعمدة بعضها فوق بعض ، منها قبة فى وسط المدينة ، وقبتان فى طرفيها ، وجعل على كل قبة مرقبا كبيرا ، وفى كل ناحية منها ملعبا ومجالس ومتنزهات تشرق .

وشق فى غربيها نهرا ، وعقد عليه قناطر ، وجعل من فوقها مجالس متصلة ، وحولها المنازل تدور بالخليج متصلة بالقناطر على رياض * مزروعة من خلفها الجنان والبساتين .

وعلى كل باب من الأبواب أعجوبة من تماثيل وأصنام متحركة ، وأصنام تمنع من يؤذى .

وجعل فى داخل كل باب صورة شيطانين من صفر ، فاذا قصدها أحد من أهل الخير قهقه الشيطان الذى عن يمنة الباب ، وان كان من أهل الشر بكى الشيطان الذى عن يسرة الباب .

وجعل فى كل متنزه منها من الوحش الآلف والطيور المغردة كل مستحسن ، وفوق قباب المدينة صورا تصفر اذا هبت الرياح ، ونصب مرآة ترى البلاد البعيدة .

وبنى حذاءها فى الشرق مدينة ، وجعل فيها ملاعب وأصناما بارزة فى صور مختلفة ، وفى وسطها بركة اذا مر بها الطير سقط عليها فلا يبرح حتى يؤخذ .

وجعل لها حصنا باثنى عشر بابا ، على كل باب تمثال يعمل أعجوبة .

وعمل حواليها جنانا ، وجعل بالقرب منها — فى ناحية الشرق — مجلسا منقوشا على ثمانى أساطين ، وفوقه قبة عليها طائر منشور الجناحين ، يصفر فى كل يوم ثلاث تصفيرات : بكرة ، ونصف النهار ، وعند غروب الشمس .

وأقام فيها أصناما وعجائب كثيرة .

وبنى مدنا كثيرة ، وأقام فيها رجلا يقال له برسان ، يعمل الكيمياء ، وضرب منها دنانير ، فى كل دينار سبعة مثاقيل ، عليها صورته .

وعاش أتريب ملكا ثلثمائة وستين سنة ، وبلغ من العمر خمسمائة سنة .

وعمل له ناووس فى جبل بالشرق ، حفر له تحته سرب بطن بالزجاج والمرمر ، وجعل على سرير من ذهب مرصع ، وحملت اليه ذخائره ، وجعلوا على بابه صورة تنين لا يدنو منه أحد الا أهلكه ، وسووا عليه الرمال ، وزبروا عليه اسمه وتاريخ وقته .

وقال ابن الكندى : أربع كور بمصر ليس على وجه الأرض أفضل منها ، ولا تحت السماء لهن نظير : كورة الفيوم ، وكورة أتريب ، وكورة سنود ، وكورة أنصنا .

وكورة أتريب من جملة كور أسفل الأرض ، وهى مائة وثمانى قرى .

وكان يقال مدائن السحرة من ديار مصر سبع ، وهى : أرمنت ، وبيا ، وبوصير ، وأنصنا ، وصان ، وأتريب ، وصا .

(*) ص١٧٥ جـ١ ، ط.بولاق .

ذكر مدينة تنيس

تنيس (بكسر التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وكسر النون المشددة وياء آخر الحروف وسين مهملة) بلدة من بلاد مصر فى وسط الماء . وهى من كورة الخليج ، سميت بتنيس بن حام بن نوح . ويقال بناها قليمون من ولد أتريب بن قبطيم أحد ملوك القبط فى القديم .

قال ابن وصيف شاه : وملكت بعد أتريب ابنته ، فدبرت الملك وساسته بأيد وقوة ، خمسا وثلاثين سنة ، وماتت . فقام بالملك من بعدها ابن أختها قليمون الملك ، فرد الوزراء الى مراتبهم ، وأقام الكهان على مواضعهم ، ولم يخرج الأمر عن رأيهم ، وجد فى العمارات وطلب الحكم .

وفى أيامه بنيت تنيس الأولى التى غرقها البحر ، وكان بينه وبينها شىء كثير ، وحولها الزرع والشجر والكروم ، وقرى ومعاصر للخمر ، وعمارة لم يكن أحسن منها .

فأمر الملك أن يبنى له فى وسطها مجالس ، وينصب له عليها قباب ، وتزين بأحسن الزينة والنقوش ، وأمر بفرشها واصلاحها .

وكان اذا بدأ النيل يجرى انتقل الملك اليها ، فأقام بها الى النوروز ورجع .

وكان للملك بها أمناء يقسمون المياه ، ويعطون كل قرية قسطها ، وكان على تلك القرى حصن يدور بقناطر ، وكان كل ملك يأتى يأمر بعمارتها والزيادة فيها ، ويجعلها له متنزها .

ويقال ان الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى فى كتابه العزيز ، اذ يقول : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ... » الآيات ، كانتا لأخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع ، فأحسنا عمارته وهندسته وبنيانه . وكان الملك يتنزه فيهما ، ويؤتى منهما بغرائب الفواكه والبقول ، ويعمل له من الأطعمة والأشربة ما يستطيبه .

فعجب بذلك المكان أحد الأخوين ، وكان كثير الضيافة والصدقة ، ففرق ماله فى وجوه البر . وكان الآخر ممسكا يسخر من أخيه اذا فرق ماله ، وكلما باع من قسمه شيئا اشتراه منه ، حتى بقى لا يملك شيئا .

وصارت تلك الجنة لأخيه ، واحتاج الى سؤاله ، فانتهره وطرده ، وعيره بالتبذير وقال : قد كنت أنصحك بصيانة مالك فلم تفعل ، ونفعنى امساكى فصرت أكثر منك مالا وولدا ، وولى عنه مسرورا بماله وجنته .

فأمر الله تعالى البحر ، فركب تلك القرى وغرقها جميعها ، فأقبل صاحبها يولول ويدعو بالثبور « ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا » ... قال الله جل جلاله : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله » .

وفي زمان قليون الملك بنيت دمياط .

وملك قليون تسعين سنة ، وعمل لنفسه ناووسا في الجبل الشرقي ، وحول اليه الأموال والجواهر وسائر الفخائر ، وجعل من داخله تماثيل تدور بلواليب ، في أيديها سيوف ، من دخل قطعته .

وجعل عن يمينه ويساره أسدين من نحاس مذهب بلوالب ، من أتاه حطماه ، وزبر عليه : هذا قبر قليون بن أتريب بن قبطيم بن مصر ، عمر * دهرا ، وأتاه الموت فما استطاع له دفعا . فمن وصل اليه فلا يسلبه ما عليه ، وليأخذ من بين يديه .

ويقال ان تنيس أخ لدمياط .

وقال المسعودي في كتاب « مروج الذهب » وغيره : تنيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة ، وكانت جنانا ونخلا وكرما وشجرا ومزارع ، وكانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض .

ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض ، ولا أحسن اتصالا من جنانها وكرومها ، ولم يكن بمصر كورة يقال انها تشبهها الا الفيوم .

وكان الماء منحدرا اليها ، لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء ، يسقون جنانهم اذا شاءوا ،

(*) ص٢٣٦ جـ١ طـ بولاق .

وكذلك زروعهم ، وسائره يصب الى البحر من جميع خلجانه ، ومن الموضع المعروف بالأشتوم .

وقد كان بين البحر وبين هذه الأرض مسيرة يوم ، وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوك الى قبرس تسلكه الدواب يبسا ، ولم يكن بين العريش وجزيرة قبرس في البحر سير طويل ، حتى علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وقبرس .

فلما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتان واحدى وخمسون سنة ، هجم الماء من البحر على بعض المواضع ، التي تسمى اليوم بحيرة تنيس ، فأغرقه ، وصار يزيد في كل عام حتى أغرقها بأجمعها . فما كان من القرى التي في قرارها غرق ، وأما الذي كان منها على ارتفاع من الأرض ، فبقى منه تونة وبورا ، وغير ذلك مما هو باق الى هذا الوقت ، والماء محيط بها .

وكان أهل القرى التي في هذه البحيرة ينقلون موتاهم الى تنيس ، فينبشوهم واحدا بعد واحد . وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها قبل أن تفتح مصر بمائة سنة .

قال : وقد كان لملك من الملوك التي كانت دارها الفرما ، مع أركون من أراكنة البليناء وما اتصل بها من الأرض ، حروب عملت فيها خنادق وخلجان ، فتحت من النيل الى البحر ، يمتنع بها كل واحد من الآخر . وكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل ، واستيلائه على هذه الأرض .

وقال في كتاب « أخبار الزمان » : وكانت تنيس عظيمة لها مائة باب .

وقال ابن بطلان : تنيس بلد صغير ، على جزيرة في وسط البحر ، ميله الى الجنوب عن وسط الاقليم الرابع خمس درج ، وأرضه سبخة ، وهواؤه مختلف ، وشرب أهله من مياه مخزونة في صهاريج تملأ في كل سنة عند عذوبة مياه البحر بدخول ماء النيل اليها ، وجميع حاجاتها مجلوبة اليها في المراكب .

وأكثر أغذية أهلها السمك والجبن وألبان البقر ، فان ضمان الجبن السلطاني سبعمائة دينار حسابا ، عن كل ألف قالب دينار ونصف ، وضمان السمك عشرة آلاف دينار .

وأخلاق أهلها سهلة منقادة ، وطبائعهم مائلة الى الرطوبة والأنوثة .

قال أبو السرى الطبيب : انه كان يولد بها في كل سنة مائتا مخنث ، وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة ، وأكثرهم يبيتون سكارى ، وهم قليلو الرياضة لضيق البلد ، وأبدانهم ممتلئة الأخلاط ، وحصل بها مرض ، يقال له الفواق التنيسي ، أقام بأهلها ثلاثين سنة .

وقال جامع تاريخ دمياط : وكان على تنيس رجل ، يقال له أبو ثور ، من العرب المتنصرة . فلما فتحت دمياط سار اليها المسلمون ، فبرز اليهم نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرة والقبط والروم ، وكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزام أصحابه . فدخل المسلمون البلد ، وبنوا كنيستها جامعا ، وقسموا الغنائم ، وساروا الى الفرما .

فلم تزل تنيس بيد المسلمين الى أن كانت امرة بشر بن صفوان الكلبي على مصر ، من قبل يزيد بن عبد الملك ، في شهر رمضان سنة احدى ومائة ، فنزل الروم تنيس ، فقتل مزاحم ابن مسلمة المرادي أميرها في جمع من الموالي . وفيهم يقول الشاعر :

ألم تربع فيخبرك الرجالُ
بما لاقى بتنيس الموالى

وكانت تنيس مدينة كبيرة ، وفيها آثار كثيرة للأوائل ، وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء . وأكثرهم حاكة ، وبها يحاك ثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا .

وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لا يدخل فيه من الغزل — سداه ولحمة — غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب ، بصناعة محكمة لا تحوج الى تفصيل ولا خياطة ، تبلغ قيمته ألف دينار . وليس في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه — وهو ساذج بغير ذهب — مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط .

وكان النيل اذا أطلق يشرب منه من بشارق الفرما من ناحية جرجير وفاقوس ، من خليج تنيس ...

فكانت من أجل مدن مصر ، وان كانت شطا وديقو ودميرة وتونة ، وما قاربها من تلك الجزائر ، يعمل فيها الرفيع ، فليس ذلك يقارب التنيسي والدمياطي .

وكان الحمل منها ، الى ما بعد سنة ستين وثلثمائة ، يبلغ من عشرين ألف دينار الى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق ، فلما تولى الوزير يعقوب بن كلس تدبير المال ، استأصل ذلك بالنوائب .

وكان يسكن بمدينة تنيس ودمياط نصارى تحت الذمة ، وكان أهل تنيس يصيدون السمانى وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم (والسمانى طائر يخرج من البحر فيقع فى تلك الشباك) ، وكانت السفن تركب من تنيس الى الفرما * وهى على ساحل البحر .

ولما مات هارون الرشيد ، وقام من بعده ابنه محمد الأمين ، وأراد الغدر والنكث بالمأمون ، كان على مصر حاتم بن هرثمة بن أعين من قبل الأمين ، فلما ثار عليه أهل تنو وتمى ، بعث اليهم السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، فغلبا بعد الثمانية من شوال سنة أربع وتسعين ومائة .

ثم ولى الأمير جابر بن الأشعث الطائى مصر ، وصرف حاتم بن هرثمة ، وكان جابر لينا . فلما تباعد مابين محمد الأمين وبين أخيه عبد الله المأمون ، وخلع محمد أخاه من ولاية العهد ، وترك الدعاء له على المنابر ، وعهد الى ابنه موسى ولقبه بالشديد ، ودعى له ... تكلم الجند بمصر بينهم فى خلع محمد غضبا للمأمون ، فبعث اليهم جابر ينهاهم عن ذلك ، ويخوفهم عواقب الفتن .

وأقبل السرى بن الحكم يدعو الناس الى خلع محمد ، وكان ممن دخل الى مصر فى أيام الرشيد من جند الليث بن الفضل ، وكان خاملا ، فارتفع ذكره بقيامه فى خلع محمد الأمين .

وكتب المأمون الى أشراف مصر يدعوهم الى القيام بدعوته ، فأجابوه وبايعوا المأمون فى

(*) ص١٧٧ جـ١ ، ط.بولاق .

رجب سنة ست وتسعين ومائة ، ووثبوا بجابر فأخرجوه ، وولوا عباد بن محمد .

فبلغ ذلك محمدا الأمين ، فكتب الى رؤساء الحوف بولاية ربيعة بن قيس الجرشى ، وكان رئيس قيس الحوف ، فانقاد أهل الحوف كلهم معه ، يمنها وقيسها ، وأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون ، وساروا الى الفسطاط لمحاربة أهلها ، واقتتلوا فكانت بينهما قتلى ، ثم انصرفوا وعادوا مرارا الى الحرب .

فعقد عباد بن محمد لعبد العزيز الجروى ، وسيره فى جيش ليحارب القوم فى دارهم ، فخرج فى ذى القعدة سنة سبع وتسعين ومائة ، وحاربهم بعمريط ، فانهزم الجروى ، ومضى فى قومه من لخم وجذام الى فاقوس ، فقال له قومه : لم لا تدعو لنفسك ، فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض ؟

فمضى فيهم الى تنيس فنزلها ، ثم بعث بعماله يجبون الخراج من أسفل الأرض .

فبعث ربيعة بن قيس يمنعه من الجباية ، وسار أهل الحوف فى المحرم سنة ثمان وتسعين الى الفسطاط ... فاقتتلوا ، وقتل جمع من الفريقين . وبلغ أهل الحوف قتل الأمين ، فتفرقوا .

وولى امرة مصر مطلب بن عبد الله الخزاعى من قبل المأمون ، فدخلها فى ربيع الأول ، وولى عبد العزيز الجروى شرطته ، ثم عزله وعقد له على حرب أسفل الأرض .

ثم صرف المطلب ، وولى العباس بن موسى ابن عيسى فى شوال ، فولى عبد العزيز

الشرطة . فلما ثار الجند ، وأعادوا المطلب فى المحرم سنة تسع وتسعين ، هرب الجروى الى تنيس .

وأقبل العباس بن موسى بن عيسى من مكة الى الحوف ، فنزل ببلبيس ودعا قيسا الى نصرته ، ثم مضى الى الجروى بتنيس ، فأشار عليه أن ينزل دار قيس ، فرجع الى بلبيس فى جمادى الآخرة ، وبها مات مسموما فى طعام دسه اليه المطلب على يد قيس .

فدان أهل الأحواف للمطلب وبايعوه ، وسارعوا الى جب عميرة وسالموه عندما لقوه ، وبعث الى الجروى يأمره بالشخوص الى الفسطاط ، فامتنع من ذلك ، وسار فى مراكبه حتى نزل شطنوف .

فبعث اليه المطلب السرى بن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح ، فأجابهم اليه ، ثم اجتهد فى الغدر بهم ، فتيقظوا له ، فمضى راجعا الى بنا ، فأتبعوه وحاربوه .

ثم عاد فدعاهم الى الصلح ولاطفه السرى فخرج اليه فى زلاج ، وخرج الجروى فى مثله ، فالتقيا فى وسط النيل مقابل سندفا ، وقد أعد الجروى فى باطن زلاجه الحبال ، وأمر أصحابه بسندفا اذا لصق بزلاج السرى أن يجروا الحبال اليها ، فلصق الجروى بزلاج السرى ، فربطه فى زلاجه وجر الحبال ، وأسر السرى ومضى به الى تنيس فسجنه بها ، وذلك فى جمادى الأولى .

ثم كر الجروى وقاتل ، فلقيه جموع المطلب بسفط سليط فى رجب ، فظفر .

ولما عزل عمر بن ملاك عن الاسكندرية ، ثار بالأندلسيين ودعا للجروى . فأقبل عبد الله ابن موسى بن عيسى الى مصر ، طالبا بدم أخيه العباس ، فى المحرم سنة مائتين ، فنزل على عبد العزيز الجروى ، فسار معه فى جيوش كثيرة العدد فى البر والبحر حتى نزل الجيزة .

فخرج اليه المطلب فى أهل مصر ، فحاربوه فى صفر ، فرجع الجروى الى شرقيون ، ومضى عبد الله بن موسى الى الحجاز ، وظهر المطلب على أن أبا حرملة فرجا الأسود هو الذى كاتب عبد الله بن موسى وحرضه على المسير ، فطلبه ففر الى الجروى .

وجد المطلب فى أمر الجروى ، فأخرج الجروى السرى بن الحكم من السجن وعاهده وعاقده على أن يثور بالمطلب ويخلعه ، فعاهده السرى على ذلك فأطلقه ، وألقى الى أهل مصر أن كتابا ورد بولايته ، فاستقبله الجند من أهل خراسان ، وعقدوا له عليهم .

وامتنع المصريون من ولايته ، فنزل داره بالحمراء ، وأمده قيس بجمع منهم ، وحارب المصريين فهزمهم وقتل منهم ، فطلب المطلب منه الأمان فأمنه ، وخرج من مصر ، واستبد السرى بن الحكم بأمر مصر فى مستهل شهر رمضان .

فلما قتل الأندلسيون عمر بن ملاك بالاسكندرية ، سار اليها الجروى فى خمسين ألفا ، فبعث السرى الى تنيس بعثا ، فكر الجروى راجعا الى تنيس فى محرم سنة احدى * ومائتين . فلما ثار الجند بالسرى فى

(*) ص١٧٨ جـ١ ، ط.بولاق .

شهر ربيع الأول ، وبايعوا سليمان بن غالب ، قام عباد بن محمد عليه وخلعه .

وقام بالأمر على بن حمزة بن جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس فى مستهل شعبان ، فامتنع عباد أن يبايعه ولحق بالجروى ، ثم لحق به أيضا سليمان بن غالب ، فكان معه .

وعاد السرى الى ولاية مصر فى شعبان ، وقوى سلطانه .

فلما كان فى المحرم سنة اثنتين ومائتين ، ورد كتاب المأمون اليه يأمره بالبيعة لولى عهده على بن موسى الرضى ، فبويع له بمصر .

وقام فى فساد ذلك ابراهيم بن المهدى ببغداد ، وكتب الى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولى عهده ، وبالوثوب على السرى .

فقام بذلك الحارث بن زرعة بن محرم بالفسطاط ، وعبد العزيز بن الوزير الجروى بأسفل الأرض ، ومسلمة بن عبد الملك الطحاوى الأزدى بالصعيد ، وخالفوا السرى ، ودعوا الى ابراهيم بن المهدى ، وعقدوا على ذلك الأمر لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدى ، فحاربه السرى وظفر به فى صفر .

ولحق كل من كره بيعة على الرضى بالجروى ، لمنعته بتنيس وشدة سلطانه ، فسار الى الاسكندرية وملكها ، ودعى له بها وببلاد الصعيد . ثم سار فى جمع كبير لمحاربة السرى ، واستعد كل منهما لصاحبه بأعظم ما قدر عليه . فبعث اليه السرى ابنه ميمونا ، فالتقيا بشطنوف ، فقتل ميمون فى جمادى الأولى سنة ثلاث ومائتين .

وأقبل الجروى فى مراكبه الى الفسطاط ليحرقها ، فخرج اليه أهل المسجد وسألوه الكف ، فانصرف عنها .

وحارب الاسكندرية غير مرة ، وقتل بها من حجر أصابه من منجنيقه فى آخر صفر سنة خمس ومائتين ، ومات السرى بعده بثلاثة أشهر فى آخر جمادى الأولى .

وقام بعد الجروى ابنه على بن عبد العزيز الجروى ، فحارب أبا نصر محمد بن السرى — أمير مصر بعد أبيه — بشطنوف ، ثم التقيا بدمنهور ، فيقال ان القتلى بينهما يومئذ كانوا سبعة آلاف ، وانهزم ابن السرى الى الفسطاط ، فتبعته مراكب ابن الجروى ثم عادت ، فدخل أبو حرملة فرج بينهما حتى اصطلحا .

ومات ابن السرى فى شعبان سنة ست ومائتين . فولى بعده أخوه عبيد الله بن السرى ، فكف عن ابن الجروى .

وبعث المأمون مخلد بن يزيد بن مزيد الشيبانى الى مصر فى جيش من ربيعة ، فامتنع عبيد الله بن السرى من التسليم له ومانعه ، فاقتتلوا .

وانضم على بن الجروى الى خالد بن يزيد ، وأقام له الأنزال وأغاثه ، وسار حتى نزل على خندق عبيد الله بن السرى ، فاقتتلا فى شهر ربيع الأول سنة سبع ومائتين ، وجرت بينهما حروب بعد ذلك آلت الى ترفع خالد الى أرض الحوف .

فكره ذلك ابن الجروى ، ومكر به حتى أخرجه من عمله الى غربى النيل ، فنزل نهيا ، وانصرف ابن الجروى الى تنيس ، فصار خالد فى ضر وجهد ، وعسكر له ابن السرى فى شهر رمضان وأسره ، وأخرجه من مصر الى مكة فى البحر .

وبعث المأمون بولاية عبيد الله بن السرى على ما فى يده ، وهو فسطاط مصر وصعيدها وغربيها ، وبولاية على بن عبد العزيز الجروى تنيس مع الحوف الشرقى وضمنه خراجه .

وأقبل ابن الجروى على استخراج خراجه من أهل الحوف ، فمانعوه وكتبوا الى ابن السرى يستمدونه عليه ، فأمدهم بأخيه ، فالتقيا بكورة بنا فى بلقينة ، فاقتتلوا فى صفر سنة تسع ومائتين ، وامتدت الحروب بينهما الى أثناء ربيع الأول وهم منتصفون .

فانصرف ابن الجروى فيمن معه الى دمياط . فسار ابن السرى الى محلة شريقون ونهبها ، وبعث الى تنيس ودمياط فملكهما .

ولحق ابن الجروى بالفرما ، وسار منها الى العريش ، فنزل فيما بينها وبين غزة ، ثم عاد وأغار على الفرما فى جمادى الآخرة ، ففر أصحاب ابن السرى من تنيس .

وسار ابن الجروى الى شطنوف ، فخرج اليه ابن السرى . واقتتلا ، فكانت لابن الجروى فى أول النهار ، ثم أتاه كمين ابن السرى فانهزم ، وذلك فى رجب ، فمضى الى العريش ، وسار ابن السرى الى تنيس ودمياط .

ثم أقبل ابن الجروى ، فى المحرم سنة عشر ومائتين ، وملك تنيس ودمياط بغير قتال ، فبعث اليه ابن السرى البعوث ، فحاربهم .

فبينما هم فى ذلك اذ قدم عبد الله بن طاهر ، فتلقاه ابن الجروى بالأموال والأنزال ، وانضم اليه ونزل معه ببلبيس ، فامتنع ابن السرى ودافع ابن طاهر ، فتراخى له ، وبعث فجبى المال ، ونزل زفتا ، وبعث الى شطنوف عيسى الجلودى على جسر عقده من زفتا ، وجعل ابن الجروى على سفنه التى جاءته من الشام لمعرفته بالحرب ، فهزم مراكب ابن السرى فى المحرم سنة احدى عشرة .

وصالح ابن طاهر عبيد الله بن السرى فى صفر ، وخلع عليه وأجازه بعشرة آلاف دينار ، وأقره بالخروج الى المأمون ، فسكنت فتن مصر بعبيد الله بن طاهر .

وفى سنة سبع وسبعين وثلثمائة ، ولدت بتنيس معزى جديا له قرون عدة ، ورأسه مع صدره ، وبدنه ومقدمه بصوف أبيض ، ومؤخره بشعر أسود ، وذنبه ذنب شاة .

وولدت امرأة سخلة لها رأس مدور ، ولها يدان ورجلان وذنب .

ولثلاث بقين من ذى الحجة من هذه السنة ، حدث بتنيس رعد وبرق وريح * شديدة وسواد عظيم فى الجو . ثم ظهر وقت السحر فى السماء عمود نار احمرت منه السماء والأرض أشد حمرة ، وخرج غبار ودخان يأخذ بالأنفاس ، فلم يزل الى الرابعة من

(*) ص١٧٩ جـ١ ، ط . بولاق .

النهار حتى ظهرت الشمس ، ولم يزل كذلك خمسة أيام .

وفى سنة إثنتين وثلاثين وثلثمائة ، حضر عند قاضى تنيس أبى محمد عبد الله بن أبى الرس رجل وامرأة ، فطالبت المرأة الرجل بفرض واجب عليه ، فقال الرجل : تزوجت بها منذ خمسة أيام ، فوجدت لها ما للرجال وما للنساء .

فبعث اليها القاضى لمرأة لتشرف عليها ، فأخبرت أن لها فوق القبل ذكرا بخصيتين والفرج تحتها والذكر أقلف ، وأنها رائعة الحسن ، فطلقها الزوج .

قال أبو عمرو الكندى : حدثنى أبو نصر أحمد بن على قال : حدثنى يس بن عبد الأحد قال : سمعت أبى يقول : لما دخل عبد الله بن طاهر مصر كنت فيمن دخل عليه ، فقال : حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن أبى قبيل عن سبيع ، قال : يأهل مصر ، كيف بكم اذا كان فى بلدكم فتن ، فوليكم فيها الأعرج ثم الأصفر ثم الأمرد ، ثم يأتى رجل من ولد الحسين ، لا يدفع ولا يمنع ، تبلغ راياته البحر الأخضر ، يملأها عدلا .

فقلت : كان ذلك ... كانت الفتنة : فوليها السرى وهو الأعرج ، والأصفر ابنه أبو النصر ، والأمرد عبد الله بن السرى ، وأنت عبد الله بن طاهر بن الحسين .

ثم ان عبد الله بن طاهر سار الى الاسكندرية ، وأصلح أمرها ، وأخرج ابن الجروى الى العراق .

ثم قدم به الأفشين الى مصر فى ذى الحجة سنة خمس عشرة ، وقد أمر الأفشين أن يطالبه بالأموال التى عنده ، فان دفعها اليه والا قتله ، فطالبه فلم يدفع اليه شيئا ، فقدمه بعد الأضحى بثلاث فقتله .

وفى جمادى الآخرة سنة تسع عشرة ومائتين ، ثار يحيى بن الوزير فى تنيس ، فخرج اليه المظفر بن كندر أمير مصر ، فقاتله فى بحيرة تنيس وأسره ، وتفرق عنه أصحابه .

وفى سنة تسع وثلاثين ومائتين ، أمر المتوكل ببناء حصن على البحر بتنيس ، فتولى عمارته عنبسة بن اسحاق أمير مصر ، وأنفق فيه وفى حصن دمياط والفرما مالا عظيما .

وفى سنة تسع وأربعين ومائتين ، عذبت بحيرة تنيس صيفا وشتاء ، ثم عادت ملحا صيفا وشتاء . وكانت قبل ذلك تقيم ستة أشهر عذبة وستة أشهر مالحة .

وفى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة ، وصلت مراكب من صقلية ، فنهبوا مدينة تنيس .

وفى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة ، صيد بأشتوم تنيس حوت طوله ثمانية وعشرون ذراعا ونصف ، من ذلك طول رأسه تسعة أذرع ، ودائر بطنه مع ظهره خمسة عشر ذراعا ، وفتحة فمه تسعة وعشرون شبرا ، وعرض ذنبه خمسة أذرع ونصف ، وله يدان يجذف بهما طول كل يد ثلاثة أذرع .

وهو أملس أغبر غليظ الجلد ، مخطط البطن بياض وسواد ، ولسانه أحمر ، وفيه خمل كالريش طوله نحو الذراع يعمل منه أمشاط شبه الذبل ، وله عينان كعينى البقر .

فأمر أمير تنيس أبو اسحاق ابن لوبة به ، فشق بطنه وملح بمائة اردب ملح ، ورفع فكه الأعلى بعود خشب طويل ، وكان الرجل يدخل الى جوفه بقفاف الملح وهو قائم غير منحن ، وحمل الى القصر حتى رآه العزيز بالله .

وفى ليلة الجمعة ، ثامن عشر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، شاهد أهل تنيس تسعة أعمدة من نار تلتهب فى آفاق السماء من ناحية الشمال ، فخرج الناس الى ظاهر البلد يدعون الله تعالى حتى أصبحوا ، فخبت تلك النيران .

وفيها صيد ببحيرة تنيس حوت طوله ذراع ، ونصفه الأعلى فيه رأس وعينان وعنق وصدر على صورة أسد ، ويداه فى صدره بمخالبه ، ونصفه الأدنى صورة حوت بغير قشر ... فحمل الى القاهرة .

وفى سنة سبع وتسعين وثلثمائة ، ولدت جارية بنتا برأسين : أحدهما بوجه أبيض مستدير ، والآخر بوجه أسمر فيه سهولة ، فى كل وجه عينان ، فكانت ترضعهما . وكلاهما مركب على عنق واحد ، فى جسد واحد ، بيدين ورجلين وفرج ودبر .

فحملت الى العزيز حتى رآها ، ووهب لأمها جملة من المال ، ثم عادت الى تنيس وماتت بعد شهور .

وفى سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، وصل الى تنيس ، من شوانى صقلية ، نحو أربعين مركبا ، فحصروها يومين وأقلعوا .

ثم وصل اليها من صقلية أيضا ، فى سنة ثلاث وسبعين ، نحو أربعين مركبا ، فقاتلوا أهل تنيس حتى ملكوها .

وكان محمد بن اسحاق صاحب الأسطول قد حيل بينه وبين مراكبه ، فتحيز فى طائفة من المسلمين الى مصلى تنيس ، فلما أجنهم الليل هجم بمن معه البلد على الفرنج وهم فى غفلة ، فأخذ منهم مائة وعشرين فقطع رؤوسهم ، فأصبح الفرنج الى المصلى ، وقاتلوا من بها من المسلمين ، فقتل من المسلمين نحو السبعين ، وسار من بقى منهم الى دمياط .

فمال الفرنج على تنيس ، وألقوا فيها النار فأحرقوها ، وساروا — وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى — الى جهة الاسكندرية بعدما أقاموا بتنيس أربعة أيام .

ثم لما كانت سنة ست وسبعين وخمسمائة ، نزل فرنج عسقلان ، فى عشر حراريق ، على أعمال تنيس ، وعليها رجل منهم يقال له المعز ، فأسر جماعة . وكان على مصر الملك العادل من قبل أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف عندما سار الى بلاد الشام .

ثم مضى المعز ، وعاد فأسر ونهب ، فثار به المسلمون وقاتلوه ، فظفرهم (*) الله به وقبضوا عليه ، وقطعوا يديه ورجليه ، وصلبوه .

وفى سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، انتدب السلطان لعمارة قلعة تنيس وتجديد الآلات بها ، عندما اشتد خوف أهل تنيس من الاقامة

(*) ص ١٨٠ جـ١ ، ط. بولاق .

بها ، فقدر لعمارة سورها القديم — على أساساته الباقية — مبلغ ثلاثة آلاف دينار عن ثمن أصناف وآجر .

وفى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، كتب باخلاء تنيس ونقل أهلها الى دمياط ، فأخليت فى صفر من الذرارى والأثقال ، ولم يبق بها سوى المقاتلة فى قلعتها .

وفى شوال من سنة أربع وعشرين وستمائة ، أمر الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ابن أيوب بهدم مدينة تنيس ، وكانت من المدن الجليلة ، تعمل بها الثياب السرية ، وتصنع بها كسوة الكعبة .

قال الفاكهى فى كتاب « أخبار مكة » : ورأيت كسوة مما يلى الركن الغربى (يعنى من الكعبة) مكتوبا عليها : « مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وطاهر بن الحسين ، سنة سبع وتسعين ومائة » .

ورأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها ، الا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين » .

ورأيت كسوة من كسا المهدى مكتوبا عليها « بسم الله ، بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع فى طراز تنيس ، على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة » .

ورأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها « بسم الله ، بركة من الله ، مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين ، أصلحه الله ج محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة ، على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة » .

قال المسيحى فى حوادث سنة أربع وثمانين وثلثمائة : وفى ذى القعدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهديته ، وهى أسفاط وتخوت وصناديق مال ، وخيل وبغال وحمير ، وثلاث مظال ، وكسوتان للكعبة .

وفى ذى الحجة سنة اثنتين وأربعمائة ، وردت هدية تنيس الواردة فى كل سنة : منها خمس نوق مزينة ، ومائة رأس من الخيل بسروجها ولجمها ، وتجافيف وصناعات عدة ، وثلاث قباب ديبقية بمراتبها ، ومتحرقات وبنود ، وما جرى الرسم بحمله من المتاع والمال والبز .

ولما قدم الحاكم ، استدعت أخته السيدة سيدة الملك ، الى عامل تنيس عن الحاكم ، بأن يحمل مالا كان اجتمع قبله ، ويعجل توجيهه ، وقيل انه كان ألف ألف دينار وألفى ألف درهم ، اجتمعت من ارتفاع البلد لثلاث سنين ، وأمره الحاكم بتركها عنده ... فحمل ذلك اليها ، وبه استعانت على ما دبرت .

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة ، ورد الخبر على الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، أبى هاشم على بن الحاكم بأمر الله ، أن السودان وغيرهم ثاروا بتنيس وطلبوا أرزاقهم ،

وضيقوا على العامل حتى هرب ، وأنهم عاثوا فى البلد وأفسدوا ، ومدوا أيديهم الى الناس ، وقطعوا الطرقات ، وأخذوا من المودع ألفا وخمسمائة دينار .

فقام الجرجرائى وقعد ، وقال : كيف يفعل هذا بخزانة السلطان ؟ وساءنا فعل هذا بتنيس أو بيت المال ، وسير خمسين فارسا للقبض على الجناة .

وما زالت تنيس مدينة عامرة ، ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها ، ولا أحصن من عمارتها ، الى أن خربها الملك الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب ، فى سنة أربع وعشرين وستمائة ، فاستمرت خرابا ، ولم يبق منها الا رسومها فى وسط البحيرة .

وكان من جملة كورة تنيس : بورا ، ومنها ، وابوان ، وشطا .

وبحيرتها الآن يصاد منها السمك ، وهى قليلة العمق يسار فيها بالعادى ، وتلتقى السفينتان هذه صاعدة وهذه نازلة بريح واحدة ، وقلع كل واحدة منهما مملوء بالريح ، سيرهما فى السرعة مستو .

توسط البحيرة عدة جزائر تعرف اليوم بالعزب (جمع عزبة بضم العين المهملة وزاى ثم باء موحدة) ، سكنها طائفة من الصيادين وفى بعضها ملاحات يؤخذ منها ملح عذب لذيذ ملوحته ، وماؤها ملح وقد يحلو أيام النيل .

تونة : وكان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها تونة ، يعمل بها طراز تنيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا .

قال الفاكهى : ورأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد ، من قباطى مصر ، مكتوبا عليها « بسم الله ، بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين ، أكرمه الله ، مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونة سنة تسعين ومائة » .

سمناى : قرية من قرى تنيس ، غلبت عليها بحيرة تنيس فصارت جزيرة .

فلما كان فى شهر ربيع الأول ، سنة سبع وثلاثين وثمانمائة ، كشف عن حجارة وآجر بها ، فاذا عضادات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الامام المعز لدين الله ، وعلى بعضها اسم الامام العزيز بالله نزار ، ومنها ما عليه اسم الامام الحاكم بأمر الله ، ومنها ما عليه اسم الامام الظاهر لاعزاز دين الله ، ومنها ما عليه اسم المستنصر ، وهو أكثرها ... أخبرنى بذلك من شاهده ورآه .

بورا : كانت فيما بين تنيس ودمياط ، واليها ينسب السمك الذى يقال له « البورى » ، واليها ينسب * أيضا بنو البورى الذين كانوا بالقاهرة والاسكندرية .

وفى سنة عشر وستمائة ، وصل العدو اليها بشوانيه وسباها ، فقدمت اليها القطائع التى كانت على رشيد ، فسار عنها العدو .

القيس (بفتح القاف وبعدها سين مهملة) : بلد ينسب اليها الثياب القيسية ، آثارها الى اليوم باقية على البحر الملح فيما بين السوادة والورادة ، وبعدها من مدينة الفرما قريب من ستة برد فى البر .

(*) ص١٨١ جـ١ ، ط. بولاق .

وهناك تل عظيم من رمل ، خارج فى البحر الشامى ، يقطع الفرنج عنده الطريق على المارة ، وبالقرب من التل سباخ ، ينبت فيه ملح يحمله العربان الى غزة والرملة ، وبقرب هذا السباخ آبار يزرع عندها مقاثى لعربان تلك البوادى .

ذكر مدينة صا

قال ابن وصيف شاه : ولما قسم قبطيم بن مصرايم الأرض بين أشمون وأتريب وقفط وصا ، انتقل كل واحد الى قسمه وحيزه ، فخرج صا بأهله وولده وحشمه الى حيزه — وهو بلد البحيرة والاسكندرية — حتى انتهى الى برقة ونزل مدينة صا قبل أن تبنى الاسكندرية .

وكان صا أصغر ولد أبيه وأحبهم اليه ، فلما ملك حيزه أمر بالنظر فى العمارات وبناء المدائن والبلدان والهياكل ، واظهار العجائب ، كما صنع اخوته ، وطلب الزيادة فى ذلك .

وقال مرهون الهندى صاحب بانه : فبنى من حد صا الى حد لوبية ومراقية على البحر أعلاما ، وجعل على رؤوس تلك الأعلام مرائى من أخلاط شتى .

فكان منها ما يمنع من دواب البحر وأذاها . ومنها ما اذا قصدهم عدو من الجزائر وأصابها الشمس ، ألقت شعاعا على مراكبهم فأحرقتها . ومنها ما يرى المدائن التى تحاذيهم من عدوة البحر وما يعمله أهلها . ومنها ما ينظر فيها الى اقليم مصر ، فيعلم منه ما يخصب وما يجدب فى كل سنة .

وجعل فيها حمامات تقد من قمها ، وجعل مستشرفات ومتنزهات . وكان ينزل كل يوم منها فى موضع بمن يخصه من خدمه وحشمه ، وجعل حواليها بساتين ، وسرح فيها الطيور المغردة والوحش المستأمن والأنهار المطردة والرياض المونقة .

وجعل شرفات قصوره من حجارة ملونة ، تلمع اذا أصابتها الشمس ، فينشر شعاعها على ما حولها ، ولم يدع شيئا من آلة النعمة والرفاهية الا استعمله .

فكانت العمارة ممتدة فى رمال رشيد ورمال الاسكندرية الى برقة . وكان الرجل يسافر فى أرض مصر لا يحتاج الى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ، ولا يسير الا فى ظلال تستره من الشمس .

وعمل فى تلك الصحارى قصورا ، وغرس فيها غروسا ، وساق اليها من النيل أنهارا ... فكان يسلك من الجانب الغربى الى حد الغرب فى عمارة متصلة .

فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى ، وخربت تلك المنازل ، وباد أهلها .

ولا يزال من دخل تلك الصحارى يحكى ما رآه فيها من الآثار والعجائب .

قال مؤلفه رحمه الله : حدثنى الثقة عمن دخل مدينة صا ومشى فى خرابها ، فاذا هو بلبنة طولها أربعة أشبار ، فتناولها وأخذ يتأملها ، ثم كسرها ، فاذا فيها سنبلة قدر شبر وافر كأنها كما حصدت ، وفركها بيده ، فخرج

منها قمح أبيض كبار حبه جدا ، فى قدر حب اللوبيا ، فأكله كله فلم يجد فيه تغيرا .

ودخل آخر اليها قبيل سنة تسعين وسبعمائة ، وأخذ منها لبنة طولها ذراع ونصف فى عرض ذراع ، فكسرها ، فاذا فيها سنبلة قمح ، ثخن كل قمحة منها فى مقدار ما يكون أكبر من الحمص ، فلم يطق كسره الا بعدما رضه بالحجارة رضا .

ووجد بصا صنم لطيف طول أصبع ، فاتفق أنه ألقى فى خابية ماء فصار خمرا . وكان ذلك عند رجل من تنيس ، فصلحت حاله من بيعه ذلك الخمر . فطلبه الأمير الأوحد مستولى تنيس ، وما زال به حتى أخذ الصنم منه .

رمل الغرابى

اعلم أن هذا الرمل ممتد فى الأرض ، ويسميه بعضهم الرمل الهبير ، وطوله من وراء جبل طى الى أن يتصل مشرقا بالبحر ، ويمضى من وراء جبل طى الى أرض مصر ، ثم الى بلد النوبة ، ويمتد الى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر .

ومنه عرق يضرب من القادسية الى البحرين ، فيعبر البحرين ، فيمر على مشارق خوزستان وفارس الى أن يرد سجستان ، ويمر مشرقا الى مر ، وآخذا على جيحون فى برية خوارزم ، ويأخذ فى بلاد الحدلحية الى الصين والبحر المحيط فى جهة الشرق .

وهو ، على ما وصفته وسقته ، من المحيط بالمشرق الى المحيط بالمغرب . وفيه جبال عظام لا ترتقى . وبعضه فى أرض سهلة ينتقل من مكان الى مكان ، ومنه أصفر لين اللمس ، وأحمر وأزرق سماوى ، وأسود حالك ، وأكحل مشبع كالنيل ، وأبيض كالثلج ، ومنه ما يحكى الغبار نعومة ، ومنه خشن جريش اللمس .

وزعم بعضهم أن رمل الغرابى * ومايتصل به من حد العريش الى أرض العباس ، حادث .

وذكر فى سبب كونه خبر فيه معتبر ، وهو أن شداد بن هداد بن شداد بن عاد ، أحد الملوك العادية ، قدم الى مصر ، وغلب بكثرة جيوشه أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ملك مصر ، وهدم ما بناه هو وآباؤه ، وبنى لنفسه أهراما ، ونصب أعلاما زبر عليها الطلسمات ، واختط موضع الاسكندرية .

وأقام هناك دهرا الى أن نزل به وبقومه وباء ، فخرجوا من أرض مصر الى جهة وادى القرى ، فيما بين المدينة النبوية وأرض الشام ، وعمروا الملاعب والمصانع لحبس المياه التى تجتمع من الأمطار والسيول ، فكان سعة كل مصنع ميلا فى ميل ، وغرسوا النخل وغيره ، وزرعوا أصناف الزراعات فيما بين راية وأيلة الى البحر الغربى .

وامتدت منازلهم من الدثنة الى العريش والجفار ، فى أرض سهلة ذات عيون تجرى وأشجار مثمرة وزروع كثيرة ، فأقاموا بهذه

(*) ص١٨٢ جـ١ ، ط.بولاق .

الأرض دهـرا طويلا ، حتى عتـوا وطغـوا وتجبروا وعتـوا ، وقالوا : نحن الأكثرون قوة ، الأشدون الأطيلون .

فسلط الله عليهم الريح فأهلكتهم ، ونسفت مصانعهم وديارهم حتى سحقتها رملا .

فما تراه من هذه الرمال التي بأرض الجفار — ما بين العبابسة حيث القرية التي تعـرف اليوم بالصالحيـة الى العريش — من رمل مصانع العادية وسحالة صخورهم ، لما أهلكهم الله بالريح ، ودمرهم تدميرا .

وإياك وانكار ذلك لغرابته ، ففي القرآن الكريم مايشهد لصحته — قال تعالى : « وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم » أى كالشيء الهالك البالى . وقيل الرميم نبات الأرض اذا يبس وديس ، وقيل الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم . والرميم الخلق البالى من كل شيء .

مراقية : مدينة مراقية كورة من كور مصر الغربيـة ، وهى آخر حد أرض مصر . وفى آخر أرض مراقيـة تلقى أرض انطابلس وهى برقة ، وبعدها من مدينة سترية نحـو من مرحلتين .

وكان قطرا كبيرا به نخـل كثير ومزارع ، وبه عيون جارية ، وبها الى اليوم بقيـة ، وثمرها جيد الى الغاية ، وزرعها اذا بذر ينبت من الحبة الواحدة من القمح مائة سنبلة ، وأقل ما تنبت تسعون سنبلة ، وكذلك الأرز بها فانه جيد زاك . وبها الى اليوم بساتين متعددة .

وكانت مراقيـة ، فى القـديم من الزمان ، سكنها البربر الذين قاتلهم داود عليه السلام من أرض فلسطين ، فنزلها منهم خلائق ، ومنها تفرقت البربر : فنزلت زناتة ومغيلة وضريسـة الجبـال ، ونزلت لواتة أرض برقة ، ونزلت هوارة طرابلس الغرب ، ثم انتشرت البـربر الى السوس .

فلما كان فى شوال سنة أربع وثلثمائة من سنى الهجرة المحمدية جلا أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية خوفا من صاحب برقة .

ولم تزل فى اضمحلال الى أن تلاشت فى زمننا ، وبها بعد ذلك بقية جيدة .

كوم شريك : هـذا المكان بالقـرب من الاسـكندرية ، له ذكر فى الأخبـار ، عرف بشريك بن سـمى بن عبـد يغوث بن جزء المرادى الغطيـفى ، من الصـحابة رضى الله عنهم .

وكان على مقدمة عمرو بن العاص فى فتـح الاسكندرية الثانى ، فعندما كثرت جمـائع الروم ، انحاز شريك الى هذا الكوم بأصحابه ، ودافع الروم حتى أدركه عمرو .

وكـوم شريك هـذا من جملـة حـوف رمسيس .

غيفة : قرية تقـارب مدينـة بلبيس ، من الفسطاط اليها مرحلتـان ، كانت منزلة قافلة الحاج .

وقـال ان صواع الملك الذى فقـد من مدينة مصر ، وجد فى رحال اخوة يوسف عليه السلام بغيفة هذه .

سمنود : كان بها بربا عليه هيئة درقة فيها كتابة — حكى ابن زولاق ، عن أبى القاسم مأمون العدل ، أنه نسخ الكتابة فى قرطاس وصوره على درقة ، قال : فما كنت أستقبل به أحدا الا ولى هاربا .

وكان بها أيضا تماثيـل وصـور من ملوك مصر ، فيهم قوم عليهم شاشيات ، وبأيديهم الحراب ، وعليهم مكتوب « هؤلاء يملكون مدينة مصر » .

ذكر مدينـة بلبيس

وسميت فى التوراة « أرض جاشان » ، وفيها نزل يعقوب لما قدم على ولده يوسف عليهما السلام ، فأنزله بأرض جاشان ، وهى بلبيس الى العلاقمة ، من أجل مواشيهم .

قال ابن سعيد : بلبيس ، واليها يصل حكمه الى الوراردة ، وهى آخر حد مصر .

واليها تنتهى المعاملة بفضـة السـواد ، ويصير الناس يتعاملون بالفلوس بعدها الى العريش ، وهى أول الشام ، وقيل هى آخر مصر .

وقال أبو عبيد البكرى : بلبيس (بفتـح أوله واسكان ثانيه بعـده باء مثـل الأولى مفتوحة أيضا وياء ساكنة وسين مهملة) وهو موضع قرب مصر معروف .

وذكر ابن خرداذبة فى كتـاب « المسالك والممالك » : أن بين بلبيس ومدينة فسطاط مصر أربعة وعشرين ميلا .

وذكر الواقدى أن المقـوقس زوج ابنتـه أرمانوسة من قسطنطين بن هرقل ، وجهـزها بأموالها وجواريها وغلمانها وحشمها ، لتسير اليه حتى يبنى عليها فى مدينة قيسـارية وهم محاصرون لهـا . فخرجت الى بلبيس وأقامت بها ، وبعث حاجبها الكبير فى ألفى فارس * الى الفرما ، ليحفظ الطريق ، ولا يدع أحدا من الروم ولا غيرهم يعبر الى مصر .

وبعث المقوقس رسله الى أطراف بلاده ، مما يلى الشام ، ألا يتركوا أحدا يدخل أرض مصر ، مخافة أن يتحدثوا بغلبة المسلمين على الشام ، فيدخل الرعب فى قلوب عساكره .

فلما قدم عمر بن الخطاب الجابية ، وسار عمرو بن العاص الى مصر ، نزل على بلبيس — وبها أرمانوسة ابنة المقوقس — فقاتل من بها ، وقتل منهم زهاء ألف فارس وأسر ثلاثة آلاف ، وانهزم من بقى الى المقوقس ، وأخذت أرمانوسة وجميع مالها ، وسائر ما كان للقبط فى بلبيس .

فأحب عمرو ملاطفة المقوقس ، فسير اليه ابنته أرمانوسة مكرمة فى جميع مالها مع قيس ابن أبى العاص السهمى ، فسر بقدومها ، ثم سار عمرو الى القصر .

ولم تزل من مدائن مصر الكبار ، حتى نزل عليها مرى ملك الفرنج ، وأخذها عنوة بعد حصار طويل ، وقتل منها آلافا .

ولها أخبار كثيرة .

(*) ص١٨٢ جـ١ ، ط. بولاق .

وقد خربت منذ عهد الحوادث بديار مصر بعد سنة ست وثمانمائة ، بعد ما أدركناها وبها عمارة كثيرة ، وفيها عدة بساتين ، وأهلها أصحاب يسار ونعم سنية .

ذكر بلد الورادة

الورادة من جملة الجفار .

قال عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة في كتاب « المسالك والممالك » : وصفة الطريق والأرض من الرملة الى أزدود اثنا عشر ميلا ، ثم الى غزة عشرون ميلا ، ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلا في رمل ، ثم الى الورادة ثمانية عشر ميلا ، ثم الى القرب عشرون ميلا ، ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلا .

قال الخليفة الآمر :

فيالك كان بالسدا
في قصر شيده بالفرما
غريب في قرى مصر
يقاسي الهم والسقما

ثم الى جرجير ثلاثون ميلا ، ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلا ، ثم الى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلا ثم الى بلبيس أحد وعشرون ميلا ، ثم الى فسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلا .

وقال جامع تاريخ دمياط : ولما افتتح المسلمون الفرما ، بعدما افتتحوا دمياط وتنيس ، ساروا الى البقارة فأسلم من بها ، وساروا منها الى الورادة ، فدخل أهلها في الاسلام وما حولها الى عسقلان .

وقال القاضي الفاضل في متجددات شهر المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة : وصلنا الورادة فبتنا على بئر الورادة . ودخلنا الورادة ، فرأيت تاريخ عمارة جامعها سنة ثمان وأربعمائة ، واسم الحاكم بأمر الله عليها .

والورادة من جملة الجفار . ويقال أخذ اسمها من الورود . ولم يزل جامعها عامرا تقام به الجمعة الى ما بعد السبعمائة .

وبلد الورادة القديمة في شرقي المنزلة التي يقال لها اليوم الصالحية ، وبها آثار عمائر ونخل قليل .

الصالحية : هذه البلدة اختطها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد ابن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، بأرض السانح والعلاقمة ، في أول الرمل الذي بين مصر والشام ، وأنشأ بها قصورا وجامعا وسوقا ، لتكون منزلة العساكر اذا خرجوا من الرمل ، وذلك في سنة أربع وأربعين وستمائة .

ذكر مدينة ايلة

ذكر ابن حبيب أن أثال (بضم أوله ثم ثاء مثلثة) وادي أيلة ، وأيلة (بفتح أوله ، على وزن فعلة) مدينة على شاطئ البحر فيما بين مصر ومكة ، سميت بأيلة بنت مدين بن ابراهيم عليه السلام .

وأيلة أول حد الحجاز ، وقد كانت مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح ، بها التجارة الكثيرة ، وأهلها أخلاط من الناس .

وكانت حد مملكة الروم في الزمن الغابر ، وعلى ميل منها باب معقود لقيصر ، قد كان فيه مسلحته يأخذون المكس

وبين أيلة والقدس ست مراحل ، والطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام على يوم وليلة من أيلة .

وكانت في الاسلام منزلا لبني أمية ، وأكثرهم موالي عثمان بن عفان ، وكانوا سقاة الحاج . وكان بها علم كثير وآداب ، ومتاجر وأسواق عامرة ، وكانت كثيرة النخل والزروع .

وعقبة أيلة لا يصعد اليها من هو راكب ، وأصلحها فائق ، مولى خمارويه بن أحمد بن طولون ، وسوى طريقها ، ورم ما استرم منها .

وكان بأيلة مساجد عديدة ، وبها كثير من اليهود ، ويزعمون أن عندهم برد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه بعثه اليهم أمانا ، وكانوا يخرجونه رداء عدنيا ملفوفا في الثياب قد أبرز منه قدر شبر فقط .

ويقال ان أيلة هي القرية التي ذكرها الله تعالى في كتابه حيث قال : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، اذ يعدون في السبت ، اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » .

وقد اختلف في تعيين هذه القرية ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والسدي : هي أيلة . وعن ابن عباس أيضا أنها مدينة بين أيلة والطور . وعن الزهري أنها طبرية .

وقال قتادة وزيد بن أسلم : هي ساحل من سواحل الشام ، بين مدين وعينونة (*) ، يقال لها معناة .

وسئل الحسين بن الفضل : هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك الا قوتا ، والحرام يأتيك جزافا ؟

قال : نعم في قصة أيلة « اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم » .

وكان من خبر أهل القرية أنهم كانوا من بني اسرائيل ، وقد حرم الله عليهم العمل في يوم السبت ، فزين لهم ابليس الحيلة وقال : انما نهيتم عن أخذ الحيتان يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان اليها يوم الجمعة فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد .

وقيل كان الرجل يأخذ خيطا ، ويضع فيه وهقه ويلقيه في ذنب الحوت ، وهو (بتحريك الهاء واسكانها) حبل كالطول ، ويجعل في الطرف الآخر من الخيط وتدا ، ويتركه كذلك الى يوم الأحد .

(*) ص١٨٤ ج١ ، ضبرواتى .

ثم تطرق الناس ، حين رأوا من صنع هذا لا يبتلى ، حتى كثر الصيد للحيتان ، ومشى به فى الأسواق ، وأعلن الفسقة بصيده .

فقامت طائفة من بنى اسرائيل ، وجاهرت بالنهى ، واعتزلت وقالت : لا نساكنكم .

فقسموا القرية بجدار ، فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ، ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : ان للناس لشأنا .

فعلوا على الجدار ، فاذا هم قردة ، فدخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الانس ، فجعلت تأتيهم فتشم ثيابهم وتبكى ، فيقول الناهون للقردة : ألم ننهكم ؟ فتقول برأسها : نعم

قال قتادة : فصارت الشباب قردة ، والشيوخ خنازير ، فما نجا الا الذين نهوا ، وهلك سائرهم

وقيل ان ذلك كان فى زمن نبى الله داود عليه السلام .

وقيل ان أيلة أصلها أيليالية ، وقد وقع ذكرها فى التوراة كذلك .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى ; دكالة من البربر بطن من المصامدة وقالت طائفة : ان دكالة ولد أيلة — وبقال أيل — الذى سميت به عقبة أيلة ، وآخر : انهم من دغفل بن أيلة ، وانهم يعزون الى البربر ، ويقولون : نحن من ربيعة الفرس . وفى ذلك خلاف عظيم .

وذكر المسعودى أن يوشع بن نون عليه السلام ، حارب السميدع بن هرمز بن مالك العمليقى ملك الشام ، ببلد أيلة نحو مدين ، وقتله واحتوى على ملكه . وفى ذلك يقول عون بن سعيد الجرهمى :

ألم تر أن العملقى بن هرمز
بأيلة أمسى لحمه قد تمزعا

تداعت عليه من يهود جحافل
ثمانون ألفا حاسرين ودرعا

وهى أبيات كثيرة .

وقال ابن اسحاق : فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك ، أتاه تحية بن روبة صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية ، وكتب لهم كتابا فهو عندهم ، وكتب لتحية بن روبة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسوله ، لتحية بن روبة وأهل أيلة ، أساقفهم وسائرهم ، فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ; ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر ... هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة ، باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان ذلك فى سنة تسع من الهجرة . ولم تزل مدينة أيلة عامرة آهلة .

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة ، طرق عبد الله بن ادريس الجعفرى أيلة — ومعه بعض بنى الجراح — ونهبها ، وأخذ منها ثلاثة آلاف دينار وعدة غلال ، وسبى النساء والأطفال ، ثم انه صرف عن ولاية وادى القرى ، فسارت اليه سرية من القاهرة لمحاربته .

قال القاضى الفاضل : وفى سنة ست وستين وخمسمائة ، أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مراكب مفصلة ، وحملها على الجمال ، وسار بها من القاهرة فى عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة ، وكانت قد ملكها الفرنج وامتنعوا بها ، فنازلها فى ربيع الأول ، وأقام المراكب وأصلحها وطرحها فى البحر ، وشحنها بالمقاتلة والأسلحة .

وقاتل قلعة أيلة فى البر والبحر حتى فتحها فى العشرين من شهر ربيع الآخر ، وقتل من بها من الفرنج وأسرهم ، وأسكن بها جماعة من ثقاته ، وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره ، وعاد الى القاهرة فى آخر جمادى الأولى .

وفى سنة سبع وسبعين ، وصل كتاب النائب بقلعة أيلة ، أن المراكب على تحفظ وخوف شديد من الفرنج ، ثم وصل الابرس — لعنه الله — الى أيلة وربط العقبة ، وسير عسكره الى ناحية تبوك ، وربط جانب الشام لخوفه من عسكر يطلبه من الشام أو مصر .

فلما كان فى شعبان من السنة المذكورة ، كثر المطر بالجبل المقابل للقلعة بأيلة ، حتى صارت به مياه استغنى بها أهل القلعة عن ورود العين مدة شهرين ، وتأثرت بيوت القلعة لتتابع المطر ، ووهت لضعف أساسها ، فتداركها أصحابها وأصلحوها .

وذكر أبو الحسن المسعودى فى كتاب «أخبار الزمان ومن أباده الحدثان» الكوكة ، وهم أمة لهم أربعة ملوك ملكوا أرض أيلة والحجاز .

وبنى كل واحد منهم مدينة سماها باسمه ، وجعلوا سائر الأرض خيسات وقسموها على ثلاثين كورة * ، وجعلوها أربعة أعمال لكل عمل ملك يجلس على منبر ذهب فى مدينته .

وعمل بربا — وهى بيت الحكمة — وعمل هيكلا لأخذ الكواكب ، وجعل فيه أصناما من ذهب ، كل صنم له مرتبة .

وكانت الاسكندرية ، واسمها رقودة ، فجعلوا لها خمس عشرة كورة ، وجعلوا فيها كبار الكهنة ، ونصبوا فى هياكلها من أصنام الذهب أكثر مما فى غيرها ، وكان فيها مائتا صنم من ذهب .

وقسموا الصعيد على ثمانين كورة ، وجعلوه أربعة أقسام ، وكان عدد مدن أهل مصر ، الداخلة فى كورها ، ثلاثين مدينة فيها العجائب .

وقيل ان حميرا الأكبر ، واسمه العرنجج ابن سبأ الأكبر — واسمه عامر ، ويعرف بعبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان — لما ملك بعد أبيه جمع جيوشه ، وسار يطأ الأمم ،

(*) ص١٨٥ جـ١ ، طـ.بولاق .

وهوس الممالك كما فعل أبوه ، فأمعن في المشرق حتى أبعد يأجوج ومأجوج الى مطلع الشمس ، ثم نقل نحو المغرب .

فجاءه قبائل من أهل اليمن ، من بنى هود ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، يشكون من ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح ، وما نزل بهم من ظلمهم . فأمر برفعهم من أرض اليمن ، وأنزلهم أيلة ، فعمروها من أيلة الى ذات الآصال الى أطراف جبل نجد .

فقطعت ثمود هناك الصخور ، ونحتوا من الجبال البيوت ، وتكبروا وطغوا . فبعث الله فيهم صالحا نبيا ورسولا ، فكذبوه وسألوه أن يخرج لهم ناقة من صخره ، فأخرجها لهم ، فعقروها ، فأهلكهم الله بالصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

وقد ذكر أن موسى عليه السلام سار ببنى اسرائيل ، بعد موت أخيه هارون ، الى أرض أولاد العيص — وهى التى تعرف بجبال السراة — بجنب بلد الشوبك . ثم مر فيها الى أيلة ، وتوجه بعد أيام الى برية باب ، حيث بلاد الكرك حتى حارب تلك الأمم .

وكان الى جانب أيلة مدينة ، يقال لها عصيون ، جليلة عظيمة .

مريوط : كورة من كور الاسكندرية ، كانت لشدة بياضها لا يكاد يبين فيها دخول الليل الا بعد وقت ، وكان الناس يمشون فيها وفي أيديهم خرق سود خوفا على أبصارهم ، ومن شدة بياضها لبس الرهبان السواد .

وكانت بلاد مريوط في نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة . وهى اليوم من قرى الاسكندرية ، يزرع بها الفواكه وغيرها . وقد وقفها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير على جهات بر بالجامع الحاكمى من القاهرة ، وبها جامع عمر في سنة ست وستين وستمائة .

ثم استأجرها الملك المؤيد شيخ المحمودى ، في سنة احدى وعشرين وثمانمائة ، وجدد عمارة بستانها ، وقد خرب لترداد عرب لبدة وبرقة اليه ، فاستمرت في ديوان السلطان .

وادى هبيب : هذا الوادى بالجانب الغربى من أرض مصر ، فيما بين مريوط والفيوم ، يجلب منه الملح والنطرون .

عرف بهبيب بن محمد بن معقل بن الواقعة ابن حزام بن غفان الغفارى ، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد فتح مكة ، وروى عنه أبو تميم الجيشانى ، وأسلم مولى تجيب ، وسعيد بن عبد الرحمن الغفارى .

وكان قد اعتزل ، عند فتنة عثمان رضى الله عنه ، بهذا الوادى فعرف به ، وكان يقول : لا يفرق بين قضاء دين رمضان ، ويجمع بين الصلاتين في السفر .

ويقال لهذا الوادى أيضا : وادى الملوك ، ووادى النطرون ، وبرية شيهات ، وبرية الاسقيط ، وميزان القلوب .

وكان به مائة دير للنصارى ، وبقى به سبعة ديورة .

وقد ذكرت ، عند ذكر الإدبار من هذا الكتاب : وهو واد كثير الفوائد ، فيه النطرون ويتحصل منه مال كثير ، وفيه الملح الاندرانى ، والملح السلطانى — وهو على هيئة ألواح الرخام — وفيه الوكت ، والكحل الأسود ، ومعمل الزجاج . وفيه الماسكة ، وهو طين أصفر في داخل حجر أسود ، يحك في الماء ويشرب لوجع المعدة . وفيه البردى لعمل الحصر ، وفيه عين الغراب ، وهو ماء في هيئة البركة ، وطولها نحو خمسة عشر ذراعا في عرض خمسة أذرع ، في مغار بالجبل ، لا يعلم من أين يأتى ولا الى أين يذهب ، وهو حلو رائق .

ويذكر أنه خرج منه سبعون ألف راهب ، بيد كل واحد عكاز ، فتلقوا عمرو بن العاص بالطرانة ، مرجعه من الاسكندرية ، يطلبون أمانه لهم على أنفسهم وأديارهم .

فكتب لهم بذلك أمانا بقى عندهم ، وكتب لهم أيضا بجراية الوجه البحرى فاستمرت بأيديهم . وان جرايتهم جاءت في سنة زيادة على خمسة آلاف اردب ، وهى الآن لا تبلغ مائة اردب .

ذكر مدينة مدين

اعلم أن مدين — أمة شعيب — هم بنو مديان بن ابراهيم عليه السلام ، وأمهم قنطوراء ابنة يقطان الكنعانية ، ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم أمم .

ومدين على بحر القلزم ، تحاذى تبوك على نحو ست مراحل ، وهى أكبر من تبوك ، وبها البئر التى استقى منها موسى لسائمة شعيب ، وعمل عليها بيت .

قال الفراء : مدين اسم بلد وقطر ، وقيل اسم قبيلة سميت باسم أبيها مدين ، ويقال له مديان بن ابراهيم ... قاله مقاتل وغيره .

والجمهور على أن مدين أعجمى ، وقيل * عربى . فان كان عربيا فانه يحتمل أن يكون فعيلا من مدن بالمكان أقام به ، وهو بناء نادر وقيل مهمل ، أو مفعلا من دان فتصحيحه شاذ ، وهو ممنوع الصرف على كل حال ، سواء كان اسم الأرض أو اسم القبيلة ، عجميا أو عربيا .

وقال المسعودى : قد تنازع أهل الشرائع في قوم شعيب بن نوفل بن رعويل بن مر بن عيقا بن مدين بن ابراهيم عليه السلام ، وكان لسانه العربية ، فمنهم من رأى أنهم من العرب الدائرة والأمم البائدة ، وبعض من ذكرنا من الأجيال الخالية .

ومنهم من رأى أنهم من ولد المحصن بن جندل بن يعصب بن مدين بن ابراهيم الخليل ، وأن شعيبا آخرهم في النسب .

وقد كانوا عدة ملوك ، تفرقوا في ممالك متصلة ، فمنهم المسمى بأبجد ، وهوز ، وحطى ، وكلمن ، وسعفص ، وقرشت .

(*) ص١٨٦ جـ١ ، ط.بولاق .

وهم – على ما ذكرنا – بنو المحصن بن جندل . والحروف الجمل هي أسماء هؤلاء الملوك ، وهي الاثنان والعشرون حرفا التي عليها حساب الجمل . وقد قيل في هذه الحروف غير ما ذكرنا من الوجوه .

فكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز . وكان هوز وحطى ملكين ببلاد وج – وهي الطائف – وما اتصل بذلك من أرض نجد . وكلمن وسعفص وقرشت ملوك بمدين ، وقيل ببلاد مصر . وكان كلمن على ملك مدين .

ومن الناس من رأى أنه كان ملك جميع من سميتا مشاعا متصلا على ما ذكرنا ؛ وان عذاب يوم الظلة كان في ملك كلمن منهم ، وان شعيبا دعاهم فكذبوه ، فوعدهم بعذاب يوم الظلة ، ففتح عليهم باب من السماء من نار ، ونجا شعيب بمن آمن معه الى الموضع المعروف بأيلة ، وهي غيضة نحو مدين .

فلما أحس القوم بالبلاء ، واشتد عليهم الحر ، وأيقنوا بالهلاك ، طلبوا شعيبا ومن آمن معه – وقد أظلتهم سحابة بيضاء ، طيبة النسيم والهواء ، لا يجدون فيها ألم العذاب – فأخرجوا شعيبا ومن آمن معه من مواضعهم ، وأزالوهم عن أماكنهم ، وتوهموا أن ذلك ينجيهم مما نزل بهم ، فجعلها الله عليهم نارا فأتت عليهم .

فرثت جارية بنت كلمن أباها ، وكانت بالحجاز ، فقالت :

كلمن هدم ركني ... هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الحتف نارا وسط ظله ... كونت نارا فأضحت ... دار قومي مضمحله

وقال المنتصر بن المنذر المدينى :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة ... أبدت بها عمرا وحيي بني عمرو
هم ملكوا أرض الحجاز بأوجه ... كمثل شعاع الشمس في صورة البدر
وهم قطنوا البيت الحرام وزينوا ... قطورا وفازوا بالمكارم والفخر
ملوك بني حطى وسعفص ذي الندى ... وهوز أرباب الثنية والحجر

قال المسعودى : ولهؤلاء الملوك أخبار عجيبة من حروب وسير ، وكيفية تغلبهم على هذه الممالك وتملكهم عليها ، وابادتهم من كان فيها قبلهم من الأمم . وقيل ان الأيكة المذكورة في قوله عز وجل « ولقد كذب أصحاب الأيكة المرسلين » . وفي قوله سبحانه وتعالى « وان كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم » هي مدين ، وقيل من ساحل البحر الى مدين ، وقيل هي غيضة نحو مدين .

وقيل بل أصحاب الأيكة الذين بعث اليهم شعيب كانوا بتبوك بين الحجر وأول الشام ، ولم يكن شعيب منهم ، وانما كان من مدين .

وقال أبو عبيد البكرى : الأيكة المذكورة في كتاب الله تعالى ، التي كانت منازل قوم شعيب ، روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فيها روايتان : احداهما أن الأيكة من مدين الى شعيب ، والرواية الثانية أنها من ساحل البحر الى مدين .

وكان شجرهم المقل ، والأيكة عند أهل اللغة : الشجر الملتف ، وكانوا أصحاب شجر ملتف .

وقال قوم : الأيكة الغيضة ، وليكة اسم البلد وما حولها ، كما قيل مكة وبكة

وقال أبو جعفر النحاس : ولا يعلم ليكة اسم البلد .

وقال ابن قتيبة : وكان بعضهم يزعم أن بكة هو موضع المسجد ، وما حولها مكة ، كما فرق بين الأيكة وليكة ، فقيل الأيكة الغيضة ، وليكة البلد حولها .

وقال البكرى : مدين بلد بالشام معلوم تلقاء غزة ، وهو المذكور في كتاب الله تعالى .

وهذا وهم ، بل مدين من أرض مصر .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الى مدينة مدين ، أميرهم زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فأصاب سبيا من أهل ميناء (قال ابن اسحاق : وميناء هي السواحل) فبيعوا ، وفرق بين الأمهات والأولاد .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون ، فقال : « ما لهم ؟ » فأخبر خبرهم ، فقال : « لا تبيعوهم الا جميعا » .

ومدين من منازل جذام بن عدى بن الحارث ابن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن كهلان . وشعيب النبي ، المبعوث الى أهل مدين ، أحد بني وائل * بن جذام .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوفد جذام : « مرحبا بقوم شعيب وأصهار موسى ، ولا تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح ويولد له » .

وقال محمد بن سهل الأحول : مدين من أعراض المدينة ، مثل فدك والفرع ورهاط .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : وكان بأرض مدين عدة مدائن كثيرة قد باد أهلها وخربت ، وبقي منها الى يومنا هذا – وهو سنة خمس وعشرين وثمانمائة – نحو الأربعين مدينة قائمة ، منها ما يعرف اسمه ، ومنها ما قد جهل اسمه .

فمما يعرف اسمه – فيما بين أرض الحجاز وبلاد فلسطين وديار مصر – ست عشرة مدينة ، منها في ناحية فلسطين عشر مدائن ، وهي : الخلصة ، والسنيطة ، والمدرة ، والمنية ، والأعوج ، والخويرق ، والبئرين ، والماءين ، والسبع ، والمعلق .

وأعظم هذه المدائن العشر الخلصة والسنيطة ، وكثيرا ما تنقل حجارتها الى غزة ويبنى بها هناك .

ومن مدائن مدين بناحية بحر القلزم والطور مدينة فاران ، ومدينة الرقة ، ومدينة القلزم ، ومدينة أيلة ، ومدينة مدين .

(*) ص١٨٧ جـ١ ، ط. بولاق .

وبمدينة مدين الى الآن آثار عجيبة ، وعمد عظيمة .

ووجد فى مدينة الأعوج ، أعوام بضع وستين وسبعمائة ، جب بقلعتها بعيد المهوى ، يبلغ عمقه نحو مائة ذراع ، وبقاعه عدة أسفار على رفوف ، حمل منها سفر طوله ذراعان وأزيد ، قد غلف بلوحين من خشب ، وكتابة بالقلم المسند ، طول الألف واللام نحو شبر .

فوجد ببلاد الكرك من قرأه ، فاذا هو سفر من عشرة أسفار ، قد ابتدأه بحمد الله ، ثم قال : خروج موسى من أرض مصر الى بلاد مدين ، وملوك بنى مدين فيما بعد شعيب . فذكر لموسى عليه السلام عدة أسماء منها : اسمه بالعربية موسى بن عمران ، وبالعبرانية موشى ، وبالفارسية داراق ، وبالقبطية هروسيس .

وذكر أنه تزوج ابنة شعيب ، وأنه أقام بمدين ثمانى حجج ، ثم قال لابنة شعيب : قد أتممت لك شرطك ، وسأزيدك سنتين فضلا منى .

بقية خبر مدينة مدين

قال : وخرج موسى متوجها الى مصر ، والملك يومئذ على مدين أبجد .

قال : وقوى أمر أبجد ، فطغى حتى ملك الحجاز واليمن ، وكان له خمسة أولاد ، هم : هوز ، وحطى ، وكلمن ، وسعفص ، وقرشت . فأقام أبجد ملكا باليمن مائة سنة ومات .

وقد استخلف من بعده ابنه كلمن باليمن ، وجعل ابنه هوز على الحجاز ، وابنه حطى على أرض مصر ، وابنه سعفص على الجزيرة وبلادها حيث الموصل وحران الى أرض العراق ، وابنه قرشت على العراق ومشارفها من خراسان .

وكان قرشت هو الجبار فيهم ، وكان سعفص وهوز وكلمن أهل عدل وحلم ، وكان حطى صاحب بطش وجرأة .

وكان بنو اسرائيل اذ ذاك بالشام ، فلم يملك أولاد أبجد أرض الشام ، ولا احتووا عليها .

وكانت مدة ملكهم نحوا من مائة وخمسين سنة . فتم لهم بدولة أبيهم أبجد ثلثمائة سنة وأزيد .

ثم ملك بعدهم على بنى اسرائيل روزت ابن هوز ، وعرزت بن حطى بن أبجد ، نحو سبع سنين . ثم خرجت الدولة عن أولاد أبجد .

وأقام هذا الكتاب عندهم زمانا ، ثم أعادوه الى الجب من قلعة الأعوج .

حدثنى بهذا الخبر الحافظ المتقن الضابط أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الغرناطى التونسى المالكى ، قال : حدثنى به شتر بن غنيم العامرى — شيخ لقيه بأرض فلسطين — أنه شاهد الكتاب المذكور وهو شاب ، وحفظ منه ما تقدم ذكره .

وقيل ان مالك بن دعر بن حجر بن جديلة ابن لخم ، كان له أربعة وعشرون ولدا ذكرا ،

فكثرت أولادهم حتى بنوا المدائن والقرى والحصون ، وعمروا بلاد مدين كلها ، وغلبوا على بلاد الشام ومصر والحجاز وغيرها خمسمائة سنة .

وقيل انما كان استيلاء ملوك مدين على مصر خمسمائة سنة ، بعد غرق فرعون موسى وهلاك دلوكة بنت زفان ، حتى أخرجهم منها نبى الله سليمان بن داود ، فعاد الملك الى القبط بعدهم .

ذكر مدينة فاران

هذه المدينة بساحل بحر القلزم ، وهى من مدن العماليق ، على تل بين جبلين ، وفى الجبلين نقوب كثيرة لا تحصى مملوءة أمواتا .

ومن هناك الى بحر القلزم مرحلة واحدة ويقال له هناك ساحل بحر فاران ، وهو البحر الذى أغرق الله فيه فرعون .

وبين مدينة فاران والتيه مرحلتان .

ويذكر أن فاران اسم لجبال مكة ، وقيل اسم لجبال الحجاز ، وهى التى ذكرت فى التوراة .

والتحقيق أن فاران والطور كورتان من كور مصر القبلية ، وهى غير فاران المذكورة فى التوراة .

وقيل ان فاران بن عمرو بن عمليق هو الذى نسب اليه جبال الحرم ، فقيل جبال فاران ، وبعضهم يقول جبال فران .

وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين الى اليوم ، وبها نخل كثير مثمر أكلت من ثمره ، وبها نهر عظيم ، وهى خراب يمر بها العربان * .

ذكر ارض الجفار

اعلم أن الجفار اسم لخمس مدائن وهى : الفرما ، والبقارة ، والورادة ، والعريش ، ورفح .

والجفار كله رمل ، وسمى بالجفار لشدة المشى فيه على الناس والدواب ، من كثرة رمله ، وبعد مراحله .

والجفار تجفر فيه الابل ، فاتخذ له هذا الاسم ... كما قيل للحبل الذى يهجر به البعير هجار ، وللذى يحجر به حجار ، وللذى يعقل به عقال ، وللذى يبطن به بطان ، وللذى يخطم به خطام ، وللذى يزم به زمام .

واشتقت البقارة من البقر ، والورادة من الوريد ، والعريش أخذ من العرش ، وقيل ان رفح اسم جبل .

وكان يسكن الجفار فى القديم خذام بن العريان .

ويقال ان أرض الجفار كانت فى الدهر الأول والزمن الغابر متصلة العمارة ، كثيرة البركات ، مشهورة بالخيرات ، لكثرة زراعة أهلها الزعفران والعصفر وقصب السكر . وكان ماؤها غزيرا عذبا ، ثم صار بها نخل

(*) ص١٨٨ جـ١ ، ط. بولاق .

تحقق بها من كل النواحى ، الى أن دمرها الله تدميرا ، فصارت الى اليوم ذات رمل عظيم يسلك فيه الى العريش والى رفح ، كله قفر ، تعرف بقعته برمل الغرابى ، قليل الماء ، عديم المرعى ، لا أنيس به ... فسبحان محيل الأحوال .

ذكر صعيد مصر

الصعيد : المرتفع من الأرض ، وقيل الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة ، وقيل ما لم يخالطه رمل ولا سبخة ، وقيل هو وجه الأرض ، وقيل الأرض الطيبة ، وقيل هو كل تراب طيب .

وتسمية هذه الجهة من أرض مصر بهذا الاسم انما حدث فى الاسلام ، سماها العرب بذلك لأنها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر ، ولذلك يقال فيها أعلى الأرض ، ولأنها أرض ليس فيها رمل ولا سباخ ، بل كلها أرض طيبة مباركة . ويقال للصعيد أيضا الوجه القبلى .

قال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه : ولما حضرت مصرايم الوفاة عهد الى ابنه قبطيم ، وكان قد قسم أرض مصر بين بنيه : فجعل لقبطيم من بلد قفط الى أسوان ، ولأشمون من بلد أشمون الى منف ، ولأتريب الحوف كله ، ولصا من ناحية صا البحيرة الى قرب برقة .

وقال لأخيه فارق : لك من برقة الى الغرب ، فهو صاحب أفريقية ، وولده الأفارق

وأمر كل واحد من بنيه أن يبنى لنفسه مدينة فى موضعه .

وقال ابن عبد الحكم : فلما كثر ولد مصر وأولاد أولادهم ، قطع مصر لكل واحد منهم قطعة يحوزها لنفسه ولولده ، وقسم لهم هذا النيل .

فقطع لابنه قفط موضع قفط فسكنها ، وبه سميت قفط قفطا ، وما فوقها الى أسوان ، وما دونها الى أشمون فى الشرق والغرب .

وقطع لأشمون من أشمون ، فما دونها فى الشرق والغرب ، الى منف ، فسكن أشمون أشمون ، فسميت به .

وقطع لأتريب ما بين منف الى صا ، فسكن أتريب ، فسميت به .

وقطع لصا ما بين صا الى البحر ، فسكن صا فسميت به .

فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء : جزءين بالصعيد ، وجزءين بأسفل الأرض .

وقال أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوى فى كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد » : مسافة اقليم الصعيد الأعلى مسيرة اثنى عشر يوما بسير الجمال ، وعرضه ثلاث ساعات وأكثر بحسب الأماكن العامرة .

ويتصل عرضه فى الكورة الشرقية بالبحر الملح وأراضى البجة ، وفى الغربية بالواح ، وهى كورتان : شرقية وغربية ، والنيل بينهما فاصل .

وأول الشرقية من مرج بنى هميم ، المتصلة أرضها بأراضى جرجا من عمل أخميم ، وآخرها من قبلى الهو ، ويليها أول أراضى النوبة ، وفى هذه الكورة تيج وقفط وقوص .

وأول الكورة الغربية برديس تتصل أرضها بأرض جرجا ، وفى هذه الكورة الغربية سمهود ، وآخر الكورة الغربية أسوان ، وبحافته أكثر النخل من الجانبين ، تكون مساحة الأراضى التى فيها النخل والبساتين تقارب عشرين ألف فدان ، والمستولى على اقليم الصعيد المشترى .

ويقال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمرا ، فغصبها بعض الولاة ، فلم تحمل فى ذلك العام ولا تمرة واحدة ، وكانت هذه النخلة فى الجانب الغربى ، وبيع منها فى الغلاء كل ويبة بدينار .

ويقال لما صورت الدنيا لأمير المؤمنين هارون بن محمد الرشيد ، لم يستحسن الا كورة سيوط من صعيد مصر ، فانها ثلاثون ألف فدان فى استواء من الأرض ، لو وقعت فيها قطرة ماء لانتشرت فى جميعها .

وبالصعيد بقايا سحر قديم .

حكى الأمير طقطبا — والى قوص فى أيام الناصر محمد بن قلاوون — قال : أمسكت امرأة ساحرة فقلت لها : أريد أن أبصر شيئا من سحرك .

فقالت : أجود عملى أن أسحر العقرب على اسم شخص بعينه ، فلابد أن تقع عليه ، ويصيبه سمها فتقتله .

فقلت : أرينى هذا ، واقصدينى بسحرك .

فأخذت عقربا وعملت ما أحبت ، ثم أرسلت العقرب فتبعنى ، وأنا أتنحى عنه ، وهو يقصدنى .

فجلست على تخت وضعته على بركة ماء ، فأقبل العقرب الى ذلك الماء ، وأخذ فى التوصل الى فلم يطق ذلك ، فمر الى الحائط ، وصعد فيه وأنا أشاهده ، حتى وصل الى السقف * ، ومر فيه الى أن صار فوقى ، وألقى نفسه صوبى ، وسعى نحوى حتى قرب منى ، فضربته فقتلته ، ثم قتلت الساحرة أيضا .

وأرض الصعيد كثيرة المواشى ، من الضأن وغير ذلك لكثرة نتاجه ، حتى ان الرأس الواحد من نعاج الضأن يتولد عنه فى عشر ستين ألفا وأربعة وعشرون رأسا ... وذلك بتقدير السلامة ، وأن تلد كلها اناثا ، وتلد مرة واحدة كل سنة ، ولا تلد فى كل بطن غير رأس واحد ، والا فان ولدت فى السنة مرتين وكان فى كل بطن رأسان ، تضاعف العدد . وتأمل حساب ما قلناه تجده صحيحا .

وقد شوهد كثيرا أن من أغنام الصعيد ما يلد فى السنة ثلاث مرات ، ويلد فى البطن الواحد ثلاثة أرؤس .

وكانت الكثرة والغلبة ببلاد الصعيد لست قبائل وهم : بنو هلال ، وبلى ، وجهينة ، وقريش ، ولواتة ، وبنو كلاب . وكان ينزل مع هؤلاء عدة قبائل سواهم من الأنصار ومن مزينة وبنى دراج وبنى كلاب وثعلبة وجذام .

(*) ص١٨٦ ج١ ، ط.بولاق .

وبلغ من عمارة الصعيد أن الرجل[1] ، فى أيام الناصر محمد بن قلاوون وما بعدها ، كان يمر من القاهرة الى أسوان فلا يحتاج الى نفقة ، بل يجد بكل بلد وناحية عدة دور للضيافة اذا دخل داراً منها أحضر لدابته علفها وجيء له بما يليق به من الأكل ونحوه ، وآل أمره الآن الى الا يجد الرجل أحداً فيما بين القاهرة وأسوان يضيفه لضيق الحال

ثم تلاشى أمر بلاد الصعيد منذ سنة الشراقى فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وتزايد تلاشيه فى أيام الظاهر برقوق لجور الولاة . ولم يزل فى ادبار الى أن كانت سنة ست وثمانمائة ، وشرقت مصر بقصور مد النيل ، فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف ، حتى انه مات من مدينة قوص سبعة عشر ألف انسان ، ومات من مدينة سيوط أحد عشر ألف انسان ممن غسل وكفن ، ومن مدينة هو خمسة عشر ألف انسان ... وذلك كله سوى الطرحى على الطرقات ، ومن لا يعرف من الغرباء ونحوهم . ثم دمر فى أيام المؤيد شيخ فلم يبق منه الا رسوم تبذل الولاة الجهد فى محوها ، نسأل الله حسن الخاتمة .

ذكر الجنادل
وبلغ من اخبار ارض النوبة

الجندل ما يقل الرجل من الحجارة ، وقيل هو الحجر كله : الواحدة جندلة .

والجندل الجنادل ، قال سيبويه : وقالوا جندل يعنون الجنادل ، وصرفوه لنقصان البناء عما لا ينصرف ، وأرض جندلة ذات جندل . وقيل الجندل المكان الغليظ فيه حجارة ، ومكان جندل : كثير الجندل .

قال عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى فى كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل : وأول بلد النوبة قرية تعرف بالقصر من أسوان اليها خمسة أميال ، وآخر حصن للمسلمين جزيرة تعرف بيلاق بينها وبين قرية النوبة ميل ، وهو ساحل بلد النوبة

ومن أسوان الى هذا الموضع جنادل كثيرة الحجر ، لا تسلكها المراكب الا بالحيلة ودلالة من يخبر بذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك ، لأن هذه الجنادل متقطعة وشعاب معترضة فى النيل ، ولانصبابه فيها خرير عظيم ودوى يسمع من بعد .

وبهذه القرية مسلحة وباب الى بلد النوبة ، ومنها الى الجنادل الأولى من بلد النوبة عشر مراحل . وهى الناحية التى يتصرف فيها المسلمون ، ولهم فيها قرب أملاك ، ويتجرون فى أعلاها . وفيها جماعة من المسلمين قاطنون ، لا يفصح أحدهم بالعربية ، وشجرها كثير .

وهى ناحية ضيقة شظفة كثيرة الجبال ، وما تخرج عن النيل ، وقراها مشطرة على شاطئه ، وشجرها النخل والمقل ، وأعلاها أوسع من أدناها ، وفى أعلاها الكروم . والنيل لا يروى مزارعها لارتفاع أرضها ، وزرعها الفدان والفدانان والثلاثة على أعناق البقر بالدواليب .

والقمح عندهم قليل والشعير أكثر والسلت ، ويعتقبون الأرض لضيقها فيزرعونها فى الصيف ، بعد تطريتها بالزبل والتراب ، الدخن والذرة والجاورس والسمسم واللوبيا .

وفى هذه الناحية نجراش مدينة المريس ، وقلعة أبريم ، وقلعة أخرى دونها ، وبها مينا تعرف بأدواء ينسب اليها لقمان الحكيم وذو النون ، وبها بربا عجيب .

ولهذه الناحية وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل من أجل ولانهم لقربه من أرض الاسلام . ومن يخرج الى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه ، فى تجارة أو هدية اليه أو الى مولاه ، يقبل الجميع ويكافىء عليه بالرقيق ، ولا يطلق لأحد الصعود الى مولاه لا لمسلم ولا لغيره .

وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى هى ساحل ، واليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم ، ولا تتجاوزها المراكب ، ولا يطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها الا باذن من صاحب جبلهم ، ومنها المقس الأعلى ست مراحل

وهى جنادل كلها ، وشر ناحية رأيتها لهم لصعوبتها وضيقها ومشقة مسالكها .

أما بحرها فجنادل وجبال معترضة فيه ، حتى ان النيل ينصب من شعاب ويضيق فى مواضع حتى يكون سعة ما بين * الجانبين خمسين ذراعاً .

---

[1] ص ١٩٠ جـ١ ، ط. بولاق .

وبرها مجاوب ضيقة ، وجبال شاهقة ، وطرقات ضيقة ، حتى لا يمكن الراكب أن يصعد منها ، والراجل الضعيف يعجز عن سلوكها ، ورمال فى غربها وشرقها .

وهذه الجبال حصنهم ، واليها يفزع أهل الناحية التى قبلها المتصلة بأرض الاسلام

وفى جزائرها نخل يسير ، وزرع حقير ، وأكثر أكلهم السمك ، ويدهنون بشحمه .

وهى من أرض مريس ، وصاحب الجبل واليهم ، والمسلحة بالمقس الأعلى صاحبها من قبل كبيرهم شديد الضبط لها ، حتى ان عظيمهم اذا صار بها وقف به المسلحى وأوهم أنه يفتش عليه ، حتى يجد الطريق الى ولده ووزيره فمن دونهما .

ولا يجوزها دينار ولا درهم ، اذ كانوا لا يتبايعون بذلك الا دون الجنادل مع المسلمين ، وما فوق ذلك لا بيع بينهم ولا شراء ، وانما هى معاوضة بالرقيق والمواشى والجمال والحديد والحبوب .

ولا يطلق لأحد أن يجوزها الا باذن الملك ، ومن خالف كان جزاؤه القتل كائناً من كان . وبهذا الاحتياط تكتم أخبارهم ، حتى ان العسكر منهم يهجم على البلد الى البادية وغيرهم فلا يعلمون به .

والسنباذ الذى يخرط به الجوهر يخرج من النيل فى هذه المواضع ، يغطس عليه فيوجد جسمه بارداً مخالفاً للحجارة ، فاذا أشكل عليه نفخ فيه بالفم فيعرق .

ومن هذه المسلحة الى قرية تعرف بساى بجنادل أيضا ، وهى آخر كرسيهم ، ولهم فيها أسقف ، وفيها بربا .

ثم ناحية سقلودا ، وتفسيرها السبع ولاة ، وهى أشبه الأرض بالأرض المتاخمة لأرض الاسلام فى السعة والضيق فى مواضع والنخل والكرم والزرع وشجر المقل . وفيها شىء من شجر القطن ، ويعمل منه ثياب وخشنة ، وبها شجر الزيتون .

وواليها من قبل كبيرهم ، وتحت يده ولاة يتصرفون .

وفيها قلعة تعرف بأصطنون ، وهى أول الجنادل الثلاثة ، وهى أشد الجنادل صعوبة لأن فيها جبلا معترضا من الشرق الى الغرب فى النيل ، والماء ينصب من ثلاثة أبواب — وربما رجع الى بابين عند انحساره — شديد الخرير عجيب المنظر ، ينحدر الماء عليه من علو الجبل .

وقبليه فرش حجارة فى النيل نحو ثلاثة برد الى قرية تعرف بيستو ، وهى آخر قرى مريس وأول بلد مقرة .

ومن هذا الموضع الى حد المسلمين لسانهم مريسى ، وهى آخر عمل متملكهم .

ثم ناحية بقون ، وتفسيرها العجب ، وهى عند لسانها لحسنها . وما رأيت على النيل أوسع منها . وقدرت أن سعة النيل فيها من الشرق الى الغرب مسيرة خمس مراحل ... الجزائر تقطعه ، والأنهار منه تجرى بينها على أرض منخفضة ، وقرى متصلة ، وعمارة حسنة ، بأبرجة حمام ومواش وأنعام .

وأكثر ميرة مدينتهم منها ، وطيورها النقط والنوبى والببغا ، وغير ذلك من الطيور الحسان . وأكثر نزهة كبيرهم فى هذه الناحية .

قال : وكنت معه فى بعض الأوقات فكان سيرنا فى ظل شجر من الحافتين فى الخلجان الضيقة . وقيل ان التمساح لا يضر هناك ، ورأيتهم يعبرون أكثر هذه الأنهار سباحة .

ثم سقدينقل وهى ناحية ضيقة شبيهة بأول بلادهم الا أن فيها جزائر حسانا ، وفيها دون المرحلتين نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان والكنائس والأديار والنخل الكثير والكروم والبساتين والزرع ، ومروج كبار فيها ابل وجمال صهب مؤبلة للنتاج .

وكبيرهم يكثر الدخول اليها لأن طرفها القبلى يحاذى دنقلة مدينتهم ، ومن مدينة دنقلة دار المملكة الى أسوان خمسون مرحلة .

وذكر صفتها ثم قال : انهم يسقفون مجالسهم بخشب السنط ، وبخشب الساج الذى يأتى به النيل فى وقت الزيادة ، سقالات منحوتة لا يدرى من أين تأتى ، ولقد رأيت على بعضها علامة غريبة .

ومسافة ما بين دنقلة الى أول بلد علوة أكثر مما بينها وبين أسوان ، وفى ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشى والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الاسلام .

وفى هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام ، فيها الجبال والوحش والسباع ، ومفاوز يخاف فيها العطش .

والنيل ينعطف من هذه النواحى الى مطلع الشمس والى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر ، وهى الناحية التى تبلغ المعطوف من النيل الى المعدن المعروف بالشلة ، وهو بلد يعرف بشنقير ، ومنه خرج العمرى وتغلب على هذه الناحية الى أن كان من أمره ما كان .

وفرس البحر يكثر فى هذه المواضع .

ومن هذا الموضع طرق الى سواكن وباضع ودهلك وجزائر البحر ، ومنها عبر من نجا من بنى أمية عند هربهم الى النوبة .

وفيها خلق من البجة يعرفون بالزنافج انتقلوا الى النوبة قديما وقطنوا هناك ، وهم على حدتهم فى الرعى واللغة لا يخالطون النوبة ولا يسكنون قراهم ، وعليهم وال من قبل النوبة .

ذكر تشعب النيل من بلاد علوة ومن يسكن عليه من الامم

اعلم أن النوبة والمقرة جنسان بلسانين كلاهما على النيل : فالنوبة هم المريس المجاورون لأرض الاسلام ، وبين أول بلدهم وبين أسوان خمسة أميال .

ويقال ان سلها جد النوبة ، ومقرى جد المقرة ، من اليمن .

وقيل النوبة ومقرى من « حمير .

وأكثر أهل الأنساب على أنهم جميعا من ولد حام بن نوح .

(١) ص١٩١ جـ١ ، ط بولاق .

وكان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية .

وأول أرض المقرة قرية تعرف بتافة على مرحلة من أسوان . ومدينة ملكهم يقال لها نجراش ، على أقل من عشر مراحل من أسوان . ويقال ان موسى صلوات الله عليه غزاهم قبل مبعثه فى أيام فرعون ، فأخرب تافة ، وكانوا صابئة يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لها ، ثم تنصروا جميعا : النوبة والمقرة .

ومدينة دنقلة هى دار مملكتهم ، وأول بلاد علوة قرى فى الشرق على شاطىء النيل تعرف بالأبواب . ولهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح .

والنيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار ، فمنها نهر يأتى من ناحية المشرق كدر الماء يجف فى الصيف حتى يسكن بطنه ، فاذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء ، وزادت البرك التى فيه ، وأقبل المطر والسيول فى سائر البلد فوقعت الزيادة فى النيل . وقيل ان آخر هذا النهر عين عظيمة تأتى من جبل .

قال مؤرخ النوبة : وحدثنى سيمون صاحب عهد بلد علوة أنه يوجد فى بطن هذا النهر حوت لا قشر له ، ليس هو من جنس ما فى النيل ، يحفر عليه قامة وأكثر حتى يخرج ، وهو كبير .

وعليه جنس مولد بين العلوة والبجة يقال لهم الديجيون ، وجنس يقال لهم بازة ، يأتى من عندهم طير يعرف بحمام بازين .

وبعد هؤلاء أول بلاد الحبشة ، ثم النيل الأبيض . وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن .

قال : وقد سألت من طرق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذى عندهم وعن لونه ، فذكر أنه يخرج من جبال الرمل (أو جبل الرمل) وأنه يجتمع فى بلد السودان فى برك عظام ، ثم ينصب الى ما لا يعرف ، وأنه ليس بأبيض ، فاما أن يكون اكتسب ذلك اللون مما يمر عليه ، أو من نهر آخر ينصب اليه ، وعليه أجناس من جانبيه

ثم النيل الأخضر ، وهو نهر يأتى من القبلة مما يلى الشرق شديد الخضرة ، صاف اللون جدا ، يرى ما فى قعره من السمك ، وطعمه مخالف لطعم النيل ، يعطش الشارب منه بسرعة ، وحيتان الجميع واحدة ، غير أن الطعم مختلف ، ويأتى فيه وقت الزيادة خشب الساج والبقم والغثاء ، وخشب له رائحة كرائحة اللبان ، وخشب غليظ ينحت ويعمل منه مقدام . وعلى شاطئه ينبت هذا الخشب أيضا . وقيل انه وجد فيه عود البخور

قال : وقد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة التى تأتى فيه وقت الزيادة علامة غريبة ، ويجتمع هذان النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملك بلد علوة ، ويبقيان على ألوانهما قريبا من مرحلة ، ثم يختلطان بعد ذلك وبينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما .

قال : وأخبرنى من نقل النيل الأبيض وصبه فى النيل الأخضر ، فبقى فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا . وبين هذين النهرين جزيرة لا يعرف لها غاية ، وكذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية . فأولهما يعرف عرضه ، ثم يتسع فيصير مسافة شهر ، ثم لا تدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض لأن فيهما أجناسا كثيرة وخلقا عظيما

قال : وبلغنى ان بعض متملكى بلد علوة سار فيها يريد أقصاها فلم يأت عليه بعد سنين . وأن فى طرفها القبلى جنسا يسكنون ودوابهم فى بيوت تحت الأرض مثل السراديب بالنهار من شدة حر الشمس ، ويسرحون فى الليل ، وفيهم قوم عراة

والأنهار الأربعة الباقية تأتى أيضا من القبلة ، مما يلى الشرق أيضا ، فى وقت واحد ، ولا يعرف لها نهاية أيضا . وهى دون النهرين الأبيض والأخضر فى العرض وكثرة الخلجان والجزائر .

وجميع الأنهار الأربعة تنصب فى الأخضر ، وكذلك الأول الذى قدمت ذكره ، ثم يجتمع مع الأبيض . وكلها مسكونة عامرة مسلوك فيها بالسفن وغيرها . وأحد هذه الأربعة يأتى مده من بلاد الحبشة .

قال : ولقد أكثرت السؤال عنها ، واستكشفتها من قوم عن قوم ، فما وجدت مخبرا يقول انه وقف على نهاية جميع هذه الأنهار . والذى انتهى اليه علم من عرفنى عن آخرين الى خراب ، وأنه يأتى فى وقت الزيادة فى هذه الأنهار آلة مراكب وأبواب وغير ذلك ، فيدل على عمارة بعد الخراب .

فأما الزيادة ، فيجمعون أنها من الأمطار مع مادة تأتى من ذاتها . والدليل على ذلك النهر الذى يجف ويسكن بطنه ، ثم ينبع وقت الزيادة . ومن عجائبه أن زيادته فى أنهار مجتمعة ، وسائر النواحى والبلدان فى مصر وما يليها والصعيد وأسوان وبلد النوبة وعلوة وما وراء ذلك فى زمان واحد

وأكثر ما وقف عليه من هذه الزيادة أنه ربما وجدت مثلا بأسوان ولا توجد بقوص ثم تأتى بعد . فاذا كثرت الأمطار عندهم ، واتصلت السيول ، علم أنها سنة رى . واذا قصرت الأمطار علم أنها سنة ظمأ .

قال : وأما من طرق بلاد الزنج ، فانهم أخبرونى عن مسيرهم فى بحر الصين الى بلاد الزنج بالريح الشمالى مساحلين للجانب الشرقى من جزيرة مصر ، حتى ينتهوا الى موضع يعرف برأس حفرى ، وهو عندهم آخر جزيرة مصر ، فينظرون كوكبا يهتدون به ، فيقصدون الغرب ، ثم يعودون الى البحرى ، ويصير الشمال فى وجوههم ، حتى يأتوا الى قبيلة من بلاد الزنج . وهى مدينة متملكهم * ، وتصير قبلتهم للصلاة الى جدة .

قال : وبعض الأنهار الأربعة يأتى من بلاد الزنج لأنه يأتى فيه الخشب الزنجى .

وسوبة مدينة العلوى شرقى الجزيرة الكبرى التى بين البحرين الأبيض والأخضر فى الطرف الشمالى منها عند مجتمعهما ، وشرقيها النهر الذى يجف ويسكن بطنه .

(*) ص١٩٢ جـ١ ، ط. بولاق .

وفيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ، ولها رباط فيه جماعة من المسلمين .

ومتملك علوة أكثر مالا من متملك المقرة ، وأعظم جيشا ، وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى ، وبلده أخصب وأوسع ، والنخل والكرم عندهم يسير .

وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التى مثل الأرز ، منها خبزهم ومزرهم ، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشى والمروج الواسعة العظيمة السعة ، حتى انه لا يوصل الى الجبل الا فى أيام .

وعندهم خيل عتاق ، وجمال صهب عراب ، ودينهم النصرانية يعاقبة ، وأساقفتهم من قبل صاحب الاسكندرية كالنوبة ، وكتبهم بالرومية ، يفسرونها بلسانهم ، وهم أقل فهما من النوبة .

وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ، ولا ينكرون ذلك عليه ، بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم . وينادون : الملك يعيش ، فليكن أمره . وهو يتتوج بالذهب ، والذهب كثير فى بلده .

ومما فى بلده من العجائب أن فى الجزيرة الكبرى التى بين البحرين جنسا يعرف بالكرنينا ، لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر ، فاذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر ، واختط على مقدار ما معه ، وزرع فى أربعة أركان الخطة يسيرا ، وجعل البذر فى وسط الخطة وشيئا

من المزر ، وانصرف عنه . فاذا أصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر . فاذا كان وقت الحصاد حصد يسيرا منه ووضعه فى موضع أراده ومعه مزر وينصرف ، فيجد الزرع قد حصد بأسره وجرن فاذا أراد دراسه وتذريته فعل به كذلك . وربما أراد أحدهم أن ينقى زرعه من الحشيش ، فيلفظ بقلع شيء من الزرع فيصبح وقد قلع جميع الزرع .

وهذه الناحية التى فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين فى شهرين ، يزرع بجميعها فى وقت واحد

وميرة بلد علوة ومتملكهم من هذه الناحية ، فيوجهون المراكب فتوسق ، وربما وقع بينهم حرب .

قال : وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة ، وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه ، ولا يرتابون به ، ولولا أن اشتهاره وانتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثله ، لما ذكرت شيئا منه لشناعته .

فأما أهل الناحية فيزعمون أن الجن تفعل ذلك ، وأنها تظهر لبعضهم وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها ، وتعمل لهم عجائب ، وأن السحاب يطيعهم .

قال : ومن عجائب ما حدثنى به متملك المقرة للنوبة ، أنهم يمطرون فى الجبال ، ويلتقطون منه للوقت سمكا على وجه الأرض . وسألتهم عن جنسه فذكروا أنه صغير القدر بأذناب حمر

قال : وقد رأيت جماعة وأجناسا ممن تقدم ذكر أكثرهم ، يعترفون بالبارى سبحانه وتعالى ، ويتقربون اليه بالشمس والقمر والكواكب ، ومنهم من لا يعرف البارى ويعبد الشمس والنار ، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة .

وذكر أنه رأى رجلا فى مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده فقال : مسافته الى النيل ثلاثة أهلة . وسأله عن دينه فقال : ربى وربك الله ، ورب الملك ورب الناس كلهم واحد .

وأنه قال له : فأين يكون ؟

قال : فى السماء وحده .

وقال انه اذا أبطأ عنهم المطر ، أو أصابهم الوباء ، أو وقع بدوابهم آفة ، صعدوا الجبل ، ودعوا الله فيجابون للوقت ، وتقضى حاجتهم قبل أن ينزلوا .

وسأله : هل أرسل فيكم رسول ؟

قال : لا .

فذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وما أيدوا به من المعجزات ، فقال : اذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا .

ثم قال : قد صدقتهم ان كانوا فعلوا .

قال مؤلفه رحمه الله : وقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من سنة ..... وبنى بدنقلة جامع يأوى اليه الغرباء .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

خطط المقريزي

الجزء
١٠

كتاب التحرير



"كانت مصر هي مسقط رأسي، وملعب أترابي، ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامتي، وموطن خاصتي وعامتي، وجؤجؤي الذي ربي جناحي في وكره، وعش مأربي، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتاني ربي الفطانة والفهم، أرغب في معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

واعلم أن على ضفة النيل أيضا الكانم ، وملكها مسلم وبينه وبين بلاد مالى مسافة بعيدة جدا ، وقاعدة ملكه بلدة اسمها حيمى ، وأول مملكته من جهة مصر بلدة اسمها زرلا ، وآخرها طولا بلدة يقال لها كاكا ، وبينهما نحو ثلاثة أشهر .

وهم يتلثمون ، وملكهم متحجب لا يرى الا يومى العيدين ، بكرة وعند العصر ، وطول السنة لا يكلمه أحد الا من وراء حجاب .

وغالب عيشهم الأرز ، وهو ينبت من غير بذر . وعندهم القمح والذرة والتين والليمون والباذنجان واللفت والرطب . ويتعاملون بقماش ينسج عندهم اسمه دندى ، طول كل ثوب عشرة أذرع ، يشترون به من ربع ذراع فأكثر . ويتعاملون أيضا بالودع والخرز والنحاس المكسر والورق ، وجميع ذلك بسعر ذلك القماش .

وفى جنوبها شعارى وصحارى فيها أشخاص متوحشة كالغيول ، قريبة من شكل الآدمى ، لا يلحقها الفارس ، تؤذى الناس .

ويظهر فى الليل أيضا شبه نار تضىء ، فاذا مشى أحد ليلحقها بعدت عنه ، ولو جرى اليها لا يصل اليها بل لا تزال أمامه ، فاذا رماها بحجر فأصابها تشظى منها شرر .

وتعظم عندهم اليقطينة حتى تصنع منها مراكب يعبر فيها * فى النيل .

وهذه البلاد بين أفريقية وبرقة ممتدة فى الجنوب الى سمت الغرب الأوسط . وهى بلاد قحط وشطن وسوء مزاج . وأول من بث بها الاسلام الهادى العثمانى ، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وصارت بعده لليزنيين من بنى سيف بن ذى يزن . وهم على مذهب الامام مالك بن أنس رحمه الله ، والعدل قائم بينهم ، وهم يابسون فى الدين لا يلينون . وبنوا بمدينة مصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق فى سنى أربعين وستمائة ، وصارت وفودهم تنزل بها ، وسيرد ذكرها فى المدارس ان شاء الله تعالى .

(*) ص١٩٣ جـ١ ، ط. بولاق .

ذكر البجة ويقال انهم من البربر

اعلم أن أول بلد البجة ، من قرية تعرف بالخزية معدن الزمرذ فى صحراء قوص . وبين هذا الموضع وبين قوص نحو من ثلاث مراحل . وذكر الجاحظ أنه ليس فى الدنيا معدن للزمرذ غير هذا الموضع . وهو يوجد فى مغاير بعيدة مظلمة ، يدخل اليها بالمصابيح وبجبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال . ويحفر عليه بالمعاول فيوجد فى وسط الحجارة وحوله غشيم دونه فى الصبغ والجوهر .

وآخر بلاد البجة أول بلاد الحبشة ، وهم فى بطن هذه الجزيرة — أعنى جزيرة مصر — الى سيف البحر الملح مما يلى جزائر سواكن وباضع ودهلك .

وهم بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعى بأخبية من جلود ، وأنسابهم من جهة النساء . ولكل بطن منهم رئيس ، وليس عليهم متملك ولا لهم دين .

وهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ، ويقولون ان ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح ، فانه ان كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال .

وكان لهم قديما رئيس يرجع جميع رؤسائهم الى حكمه ، يسكن قرية تعرف بهجر هى أقصى جزيرة البجة .

ويركبون النجب الصهب ، وتنتج عندهم ، وكذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضا .

والمواشى من البقر والغنم والضأن غاية فى الكثرة عندهم . وبقرهم حسان ملمعة بقرون عظام ، ومنها جم ، وكباشهم كذلك منمرة ولها ألبان . وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن ، وأكلهم للجبن قليل وفيهم من يأكله ، وأبدانهم صحاح ، وبطونهم خماص ، وألوانهم مشرقة الصفرة ، ولهم سرعة فى الجرى يباينون بها الناس .

وكذلك جمالهم شديدة العدو صبورة عليه وعلى العطش ، يسابقون عليها الخيل ، ويقاتلون عليها ، وتدور بهم كما يشتهون ، ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره ، ويتطاردون عليها فى الحرب ، فيرمى الواحد منهم الحربة فان وقعت فى الرمية طار اليها الجمل فأخذها صاحبها ، وان وقعت فى الأرض ضرب الجمل بجرانه الأرض فأخذها صاحبها .

ونبغ منهم فى بعض الأوقات رجل يعرف بكلاز ، شديد مقدام ، وله جمل ما سمع بمثله فى السرعة ، وكان أعور وصاحبه كذلك ... التزم لقومه أنه يشرف على مصلى مصر يوم العيد ، وقد قرب العيد قربا لا يكون للبلوغ اليها فى مثله حقيقة ، فوفى بذلك ، وأشرف على المقطم ، وضربت الخيل خلفه فلم يلحق .

وهذا هو الذى أوجب أن يكون فى السفح طليعة يوم العيد . وكان الطولونية وغيرهم من أمراء مصر يوقفون فى سفح الجبل المقطم — مما يلى الموضع المعروف بالحبش — جيشا كثيفا مراعيا للناس حتى ينصرفوا من عيدهم فى كل عيد .

وهم أصحاب ذمة ، فاذا غدر أحدهم رفع المغدور به ثوبا على حربة وقال : هذا عرش فلان (يعنى أبا الغادر) ، فتصير سيئة عليه الى أن يترضاه .

وهم يبالغون فى الضيافة ، فاذا طرق أحدهم الضيف ذبح له ، فاذا تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من أقرب الأنعام اليه سواء كانت له أو لغيره ، وان لم يكن شىء نحر راحلة الضيف وعوضه ما هو خير منها .

وسلاحهم الحراب السباعية ، مقدار طول الحديدة ثلاثة أذرع ، والعود أربعة أذرع ، وبذلك سميت سباعية . والحديدة فى عرض السيف لا يخرجونها من أيديهم الا فى بعض الأوقات ، لأن فى آخر العود شيئا شبيها بالفلكة يمنع خروجها عن أيديهم .

وصناع هذه الحراب نساء فى موضع لا يختلط بهن رجل الا المشترى منهن : فاذا ولدت احداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها ، وان ولدت غلاما قتلته . ويقلن ان الرجال بلاء وحرب .

ودرقهم من جلود البقرة مشعرة ، ودرق مقلوبة تعرف بالأكسومة من جلود الجواميس — وكذلك الدهلكية — ومن دابة فى البحر .

وقسيهم عربية كبار غلاظ من السدر والشوحط ، يرمون عليها بنبل مسموم . وهذا السم يعمل من عروق شجر الغلف ... يطبخ على النار حتى يصير مثل الغرا . فاذا أرادوا تجربته شرط أحدهم جسده وسيل الدم ثم شممه هذا السم ، فاذا تراجع الدم علم أنه جيد ، ومسح الدم لئلا يرجع الى جسمه فيقتله . فاذا أصاب الانسان قتل لوقته ، ولو مثل شرطة الحجام . وليس له عمل فى غير الجرح والدم ، وان شرب منه لم يضر .

وبلدانهم كلها معادن ، وكلما تصاعدت كانت أجود ذهبا وأكثر . وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنيطيس والمرقشيتا والحمست والزمرد وحجارة شطبا ، فاذا بلت الشطبة منها بزيت ، وقدت * مثل الفتيلة ، وغير ذلك مما شغلهم طلب معادن الذهب عما سواه .

والبجة لا تتعرض لعمل شىء من هذه المعادن .

وفى أوديتهم شجر المقل والاهليلج والأذخر والشيح والسنا والحنظل وشجر البان ، وغير ذلك . وبأقصى بلدهم النخل وشجر الكرم والرياحين ، وغير ذلك مما لم يزرعه أحد . وبها سائر الوحش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقردة وعناق الأرض والزباد ، ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب ، قليلة البقاء اذا صيدت ، ومن الطيور الببغا والنقيط والنوبى والقمارى ودجاج الحبش وحمام بازين ، وغير ذلك .

وليس منهم رجل الا منزوع البيضة اليمنى ، وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن ، وانه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج بمقدار ذكر الرجل ، ثم قل هذا الفعل عندهم .

وقيل ان السبب فى ذلك أن ملكا من الملوك حاربهم قديما ، ثم صالحهم وشرط عليهم قطع ثدى من يولد لهم من النساء وقطع ذكور من يولد من الرجال ... أراد بذلك قطع النسل منهم ، فوفوا بالشرط ، وقلبوا المعنى فى أن جعلوا قطع الشدى للرجال والفروج للنساء .

وفيهم جنس يقلعون ثناياهم ويقولون : لا تتشبه بالحمير . وفيهم جنس آخر فى آخر بلاد البجة يقال لهم البازة ، نساء جميعهم يتسمون باسم واحد ، وكذلك الرجال ... فطرفهم فى وقت رجل مسلم له جمال ، فدعا بعضهم بعضا وقالوا : هذا الله قد نزل من السماء ، وهو جالس تحت الشجرة ، فجعلوا ينظرون اليه من بعد .

وتعظم الحيات ببلدهم وتكثر أصنافها ، ورئيت حية فى غدير ماء قد أخرجت ذنبها والتفت على امرأة وردت فقتلتها ، فرؤى شحمها قد خرج من دبرها من شدة الضغطة .

وبها حية ليس لها رأس ، وطرفاها سواء ، منقشة ليست بالكبيرة ، اذا مشى الانسان على أثرها مات ، واذا قتلت وأمسك القاتل ما قتلها

(*) ص١٩٤ جـ١ ، ط. بولاق .

به من عود أو حربة فى يده ولم يلقه من ساعته مات . وقتلت حية منها بخشبة ، فانشقت الخشبة . واذا تأمل هذه الحية أحد وهى ميتة أو حية أصابه ضررها .

وفى البجة شر ، وتسرع اليه ، ولهم فى الاسلام وقبله أذية على شرق صعيد مصر .. خربوا هناك قرى عديدة . وكانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحيانا لحاجتهم الى المعادن ، وكذلك الروم لما أن ملكوا مصر . ولهم فى المعادن آثار مشهورة ، وكان أصحابهم بها وقد فتحت مصر .

قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : وتجمع لعبد الله بن سعد بن أبى سرح فى انصرافه من النوبة على شاطىء النيل البجة ، فسأل عن شأنهم فأخبر أن ليس لهم ملك يرجعون اليه ، فهان عليه أمرهم وتركهم ، فلم يكن لهم عقد ولا صلح .

وكان أول من هادنهم عبيد الله بن الحبحاب السلولى . ويذكر أنه وجد فى كتاب ابن الحبحاب : لهم ثلثمائة بكر فى كل عام حين ينزلون الريف مجتازين ، تجارا غير مقيمين ، على ألا يقتلوا مسلما ولا ذميا ، فان قتلوه فلا عهد لهم . ولا يؤووا عبيد المسلمين ، وأن يردوا آبقيهم اذا وقعوا اليهم . ويقال انهم كانوا يؤاخذون بهذا ، وبكل شاة أخذها البجاوى فعليه أربعة دنانير ، وللبقرة عشرة ، وكان وكيلهم مقيما بالريف رهينة بيد المسلمين .

ثم كثر المسلمون فى المعدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم .

وأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب اسلاما ضعيفا ، وهم شوكة القوم ووجوههم ، وهم مما يلى مصر من أول حدهم الى العلاقى وعيذاب المعبر منه الى جدة وما وراء ذلك .

ومنهم جنس آخر يعرفون بالرنافج ، هم أكثر عددا من الحدارب ، غير أنهم تبع لهم ، وخفراؤهم يحمونهم ويحبونهم المواشى . ولكل رئيس من الحدارب قوم من الرنافج فى حمله ، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الرنافج قديما أظهر عليهم .

ثم كثرت أذيتهم على المسلمين ، وكان ولاة أسوان من العراق ، فرفع الى أمير المؤمنين المأمون خبرهم ، فأخرج اليهم عبد الله بن الجهم ، فكانت له معهم وقائع ، ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون ، رئيسهم الكبير الذى يكون بقريتهم هجر المقدم ذكرها ، كتابا نسخته :

« هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين ، صاحب جيش الغزاة ، عامل الأمير أبى اسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله ، فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين ، لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان ...

« انك سألتنى وطلبت الى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة ، وأعقد لك ولهم أمانا على وعلى جميع المسلمين ، فأجبتك الى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا ، على ما أعطيتنى وشرطت لى فى كتابى هذا ...

« وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر الى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين ، الا أنك تكون فى بلدك ملكا على ما أنت عليه فى البجة .

« وعلى أن تؤدى اليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجة ، وذلك مائة من الابل ، أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال ، والخيار فى ذلك لأمير المؤمنين ولولاته . وليس لك أن تخرم شيئا عليك من الخراج .

« وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمدا رسول الله صلى * الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغى أن يذكره به ، أو قتل أحدا من المسلمين حرا أو عبدا ، فقد برئت منه الذمة : ذمة الله ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة أمير المؤمنين أعزه الله ، وذمة جماعة المسلمين ، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم .

« وعلى أن أحدا منكم ان أعان المحاربين على أهل الاسلام بمال ، أو دله على عورة من عورات المسلمين أو أثر لعزتهم ، فقد نقض ذمة عهده ، وحل دمه .

« وعلى أن أحدا منكم ان قتل أحدا من المسلمين عمدا أو سهوا أو خطأ ، حرا أو عبدا أو أحدا من أهل ذمة المسلمين ، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد البجة ، أو ببلاد الاسلام ، أو ببلاد النوبة ، أو فى شىء من البلدان برا أو بحرا : فعليه فى قتل المسلم عشر ديات ، وفى قتل العبد المسلم عشر قيم ، وفى قتل الذمى عشر ديات من دياتهم ، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه . وان دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا ، فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم .

« ولا تؤووا أحدا من آبقى المسلمين ، فان أتاكم آت ، فعليكم أن تردوه الى المسلمين .

« وعلى أن تردوا أموال المسلمين اذا صارت فى بلادكم بلا مؤنة تلزمهم فى ذلك .

« وعلى أنكم ان نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين ، لا تظهرون سلاحا ، ولا تدخلون المدائن والقرى بحال .

« ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها برا ولا بحرا ، ولا تخيفوا السبيل ، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة ، ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمى مالا .

« وعلى ألا تهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر ، وسائر بلادكم طولا وعرضا ، فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة .

« وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر ، وكيلا يفى للمسلمين بما شرط

(*) ص١٦٥ جـ١ ، ط. بولاق .

لهم من دفع الخراج ، ورد ما أصابه البجة للمسلمين من دم ومال .

« وعلى أن أحدا من البجة لا يعترض حد القصر الى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حد الأعمدة .

« عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجة الأمان على ما سمينا وشرطنا فى كتابنا هذا ، وعلى أن يوافى به أمير المؤمنين . فان زاغ كنون أو عاث ، فلا عهد له ولا ذمة .

« وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة .

« وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله ابن الجهم ، وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق .

« ولكنون بن عبد العزيز ولجميع البجة عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين ، وذمة الأمير أبى اسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد ، وذمة عبد الله بن الجهم ، وذمة المسلمين ، بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم ما وفى كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه . فان غيَّر كنون أو بدل أحد من البجة ، فذمة الله جل اسمه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبى اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم » .

وترجم جميع ما فى هذا الكتاب حرفا حرفا زكريا بن صالح المخزومى من سكان جدة ، وعبد الله بن اسماعيل القرشى . ثم نسق جماعة من شهود أسوان .

فأقام البجة على ذلك برهة ، ثم عادوا الى غزو الريف من صعيد مصر ، وكثر الضجيج منهم الى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله ، فندب لحربهم محمد بن عبد الله القمى ، فسأل أن يختار من الرجال من أحب ، ولم يرغب الى الكثرة لصعوبة المسالك .

فخرج اليهم من مصر فى عدة قليلة ورجال منتخبة ، وسارت المراكب فى البحر . فاجتمع البجة لهم فى عدد كثير عظيم قد ركبوا الابل فهاب المسلمون ذلك ، فشغلهم بكتاب طويل كتبه فى طومار ولفه بثوب ، فاجتمعوا لقراءته ، فحمل عليهم وفى أعناق الخيل الأجراس فنفرت الجمال بالبجة ، ولم تثبت لصلصلة الأجراس . فركب المسلمون أقفيتهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وقتل كبيرهم .

فقام من بعده ابن أخيه ، وبعث يطلب الهدنة ، فصالحهم على أن يطأ بساط أمير المؤمنين . فسار الى بغداد ، وقدم على المتوكل بسر من رأى فى سنة احدى وأربعين ومائتين . فصولح على أداء الأداوة والبقط ، واشترط عليهم ألا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن .

وأقام القمى بأسوان مدة ، وترك فى خزائنها ما كان معه من السلاح وآلة الغزو . فلم تزل الولاة تأخذ منه حتى لم يبقوا منه شيئا .

فلما كثر المسلمون فى المعادن واختلطوا بالبجة قل شرهم ، وظهر التبر لكثرة طلابه ، وتسامع الناس به فوفدوا من البلدان ، وقدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمرى ، بعد محاربته النوبة فى سنة

خمس وخمسين ومائتين ، ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب . فكثرت بهم العمارة فى البجة ، حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة اليهم من أسوان ستين ألف راحلة ، غير الجلاب التى تحمل من القلزم الى عيذاب ، ومالت البجة الى ربيعة وتروجوا اليهم .

وقيل ان كهان البجة قبل اسلام من أسلم منهم ، ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة ولكنون معا ، فهم على ذلك .

فلما قتل العمرى ، واستولت ربيعة على الجزائر ، والاهم على ذلك البجة * ، فأخرجت من خالفها من العرب ، وتصاهروا الى رؤساء البجة ، وبذلك كف ضررهم عن المسلمين .

والبجة الداخلة فى صحراء بلد علوة مما يلى البحر الملح الى أول الحبشة ، ورجالهم فى الظعن والمواشى واتباع الرعى والمعيشة والمراكب والسلاح ، كحال الحدارب ، الا أن الحدارب أشجع وأهدى من الداخلة على كفرهم من عبادة الشيطان والاقتداء بكهانهم .

ولكل بطن كاهن يضرب له قبة من أدم معبدهم فيها . فاذا رأوا استخباره عما يحتاجون اليه ، تعرى ودخل الى القبة مستدبرا ، ويخرج اليهم وبه أثر جنون وصرع ، يقول : الشيطان يقرئكم السلام ، ويقول لكم ارحلوا عن هذه الحلة فان الرهط الفلانى يقع بكم . وسألتم عن الغزو الى بلد كذا ، فسيروا فانكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا . والجمال التى تأخذونها من موضع

(*) ص١٦٦ جـ١ ، ط. بولاق .

كذا هى لى ، والجارية الفلانية التى تجدونها فى الخباء الفلانى ، والغنم التى من صفتها كذا ... ونحو هذا القول .

فيزعمون أنه يصدقهم فى أكثر من ذلك . فاذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر ، ودفعوه الى الكاهن يتموله ، ويحرمون ألبان نوقها على من لم يقبل . فاذا أرادوا الرحيل ، حمل الكاهن هذه القبة على جمل مفرد ، فيزعمون أن ذلك الجمل لا يثور الا بجهد — وكذلك سيره — ويتصبب عرقا ، والخيمة فارغة لا شىء فيها .

وقد بقى فى الحدارب جماعة على هذا المذهب ، ومنهم من يتمسك بذلك مع اسلامه .

قال مؤرخ النوبة ، ومنه لخصت ما تقدم ذكره : وقد قرأت فى خطبة الأجناس لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ذكر البجة والكجة ، ويقول عنهم : شديد كلبهم ، قليل سلبهم . فالبجة كذلك ، وأما الكجة فلا أعرفهم .

انتهى ما ذكره عبد الله بن أحمد مؤرخ النوبة .

وقال أبو الحسن المسعودى : فأما البجة فانها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر ، وتشعبوا فرقا وملكوا عليهم ملكا . وفى أرضهم معادن الذهب — وهو التبر — ومعادن الزمرذ . وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب الى بلاد النوبة ، فيغزون ويسبون .

وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة الى أن قوى الاسلام وظهر ، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى وعيذاب ، وسكن فى تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فاشتدت شوكتهم ، وتزوجوا من البجة ، فقويت البجة ، ثم صاهرها قوم من ربيعة ، فقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم ممن سكن تلك الديار .

وصاحب المعدن فى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — بشر بن مروان ابن اسحاق بن ربيعة ... يركب فى ثلاثة آلاف ألف من ربيعة وأحلافها من مصر واليمن ، وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة فى الحجف التحاوية ، وهم الحدارب ، وهم مسلمون من بين سائر البجة . والداخلة من البجة كفار يعبدون صنما لهم .

والبجة المالكة لمعدن الزمرذ يتصل ديارها بالعلاقى ، وهو معدن الذهب . وبين العلاقى والنيل خمس عشرة مرحلة ، وأقرب العمارة اليه مدينة أسوان .

وجزيرة سواكن أقل من ميل فى ميل ، وبينها وبين البحر الحبشى بحر قصير يخاض . وأهلها طائفة من البجة تسمى الخاسة ، وهم مسلمون ، ولهم بها ملك .

وقال الهمدانى : نكح كنعان بن حام أرتيب بنت شاويل بن ترس بن يافث ، فولدت له حقا والأساود ونوبة وقران والزنج والزغاوة وأجناس السودان .

وقيل البجة من ولد حام بن نوح ، وقيل من ولد كوش بن كنعان بن حام .

وقيل البجة قبيلة من الحبش أصحاب أخبية من شعر ، وألوانهم أشد سوادا من الحبشة ، يتزيون بزى العرب . وليس لهم مدن ولا قرى ولا مزارع ، ومعيشتهم مما ينقل اليهم من أرض الحبشة وأرض مصر والنوبة .

وكانت البجة تعبد الأصنام ، ثم أسلموا فى امارة عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وفيهم كرم وسماحة .

وهم قبائل وأفخاذ ، لكل فخذ رئيس . وهم أهل نجعة ، وطعامهم اللحم واللبن فقط .

ذكر مدينة أسوان

أسوان من قولهم أسى الرجل يأسى أسى ، اذا حزن . ورجل أسيان وأسوان ، أى حزين .

وأسوان فى آخر بلاد الصعيد ، وهى ثغر من ثغور الاقليم يفصل بين النوبة وأرض مصر . وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضراوات والبقول . وكانت كثيرة الحيوان من الابل والبقر والغنم ، ولحمانها هناك غاية فى الطيب والسمن . وكانت أسعارها أبدا رخيصة ، وبها تجارات وبضائع تحمل منها الى بلاد النوبة .

ولا يتصل بأسوان من شرقها بلد اسلامى .

وفى جنوبها جبل به معدن الزمرذ ، وهو فى برية منقطعة عن العمارة ، وعلى خمسة عشر يوما من أسوان معدن الذهب .

ويتصل بأسوان من غربيها الواحات ، ويسلك من أسوان الى عيذاب ، ويتوصل من عيذاب الى الحجاز والى اليمن والهند .

قال المسعودى : ومدينة أسوان يسكنها خلق من العرب من قحطان * ونزار بن ربيعة ومضر وخلق كثير من قريش ، وأكثرهم من الحجاز . والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير ... تودع النواة فى الأرض ، فتنبت نخلة ، ويؤكل من ثمرها بعد سنتين .

ولمن بأسوان ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة ، يؤدون خراجها الى ملك النوبة ، وابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الاسلام فى دولة بنى أمية وبنى العباس .

وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون — حين دخل مصر — على هؤلاء القوم ، بوفد وفدهم الى الفسطاط ذكروا عنه أن أناسا من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان ، وأنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم ، وانما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العامرين فيها .

فجعل المأمون أمرهم الى الحاكم بمدينة أسوان ، ومن بها من أهل العلم والشيوخ .

وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنزع من أيديهم ، فاحتالوا على ملك النوبة بأن يقدموا الى من ابتيع منهم من النوبة أنهم اذا حضروا حضرة الحاكم ألا يقروا لملكهم بالعبودية ، وأن يقولوا : سبيلنا معاشر النوبة سبيلكم مع ملككم ، يجب علينا طاعته وترك مخالفته ، فان كنتم أنتم عبيدا لملككم وأموالكم له ، فنحن كذلك .

(*) ص١٦٧ ج١ ، ط. بولاق .

فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك ، أتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوه مما أوقفوهم عليه من هذا المعنى ، فمضى البيع — لعدم اقرارهم بالرق لملكهم — الى هذا الوقت ، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس .

وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين : من وصفنا أحرار غير عبيد ، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد ، وهم من سكن النوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان ، وهى بلاد مريس .

قال : وأما النوبة فافترقت فرقتين : فرقة فى شرق النيل وغربه ، فأناخت على شاطئه ، واتصلت ديارها بديار القبط من أرض صعيد مصر ، واتسعت مساكن النوبة على شاطىء النيل مصعدة ، ولحقوا بقريب من أعاليه ، وبنوا دار مملكة ، وهى مدينة عظيمة تدعى دنقلة . والفرقة الأخرى من النوبة يقال لها علوة ، وبنوا مدينة عظيمة سموها سرقة .

والبلد المتصل مملكته بأرض أسوان يعرف بمريس ، واليه تضاف الريح المريسية ، وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان .

قال : وفى الجانب الشرقى من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الأوائل تقطع منه العمد وغيرها ، فأما العمد والقواعد والرؤوس التى يسميها أهل مصر « الأسوانية » ، ومنها

حجارة الطواحين ، فتلك نقرها الأولون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين ، ومنها العمد التى بالاسكندرية .

وفى ذى الحجة سنة أربع وأربعين وثلثمائة أغار ملك النوبة على أسوان ، وقتل جمعا من المسلمين . فخرج اليه محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل أونوجور بن الاخشيد ، فى محرم سنة خمس وأربعين ، فساروا فى البر والبحر ، وبعثوا بعدة من النوبة أسروهم ، فضربت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة . وسار الخازن حتى فتح مدينة أبريم وسبى أهلها . وقدم الى مصر فى نصف جمادى الأولى سنة خمس وأربعين بمائة وخمسين أسيرا وعدة رؤوس .

وقال القاضى الفاضل : ان متحصل ثغر أسوان فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة بلغ خمسة وعشرين ألف دينار .

وقال الكمال جعفر الادفوى : وكان بأسوان ثمانون رسولا من رسل الشرع . وتحصل من أسوان فى سنة واحدة ثلاثون ألف اردب تمرا . وأخبرنا من وقف على مكتوب كان فيه أربعون شريفا خاصة ، وأن مكتوبا آخر رأى فيه ستين شريفا دون من عداهم .

قال : ووقفت أنا على مكتوب فيه نحو من أربعين ، مؤرخ بما بعد العشرين وستمائة من الهجرة .

وكان بثغر أسوان بنو الكنز من ربيعة ... أمراء ممدوحون مقصودون ، صنع لهم الفاضل الشديد أبو الحسن بن عرام سيرة ذكر فيها مناقبهم وأسماء من مدحهم ومن ورد عليهم

ولما أرسل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشا الى كنز الدولة وأصحابه ، ترحلوا عن البلاد ، فدخلوا بيوتهم فوجدوا بها قصائد من مدحهم ، منها قصيدة أبى محمد الحسن ابن الزبير ، قال فيها :

ونجده — ان خانه الدهر أو سطا —
أناس اذا ما أنجد الذل أتهموا
أجاروا فما تحت الكواكب خائف
وجادوا فما فوق البسيطة معدم

وأنه أجازه عليها بألف دينار ، ووقف عليه ساقية تساوى ألف دينار .

وكان بأسوان رجال من العسكر مستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان عليه . فلما زالت الدولة الفاطمية أهمل ذلك ، فسار ملك النوبة فى عشرة آلاف ، ونزل تجاه أسوان فى جزيرة ، وأسر من كان فيها من المسلمين .

ثم تلاشى بعد ذلك أمر الثغر ، واستولى عليه أولاد الكنز من بعد سنة تسعين وسبعمائة ، فأفسدوا فسادا كبيرا ، وكانت لهم مع ولاة أسوان عدة حروب ... الى أن كانت المحن منذ سنة ست وثمانمائة ، وخرب اقليم الصعيد ، فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان ، ولم يبق * للسلطان فى مدينة أسوان وال ، واتضع حاله عدة سنين .

(*) ص١٩٨ جـ١ ، ط. بولاق .

ثم زحفت هوارة فى محرم سنة خمس عشرة وثمانمائة الى أسوان ، وحاربت أولاد الكنز وهزموهم ، وقتلوا كثيرا من الناس ، وسبوا ما هناك من النساء والأولاد ، واسترقوا الجميع ، وهدموا سور مدينة أسوان ، ومضوا بالسبى ، وقد تركوها خرابا يبابا لا سكن بها . فاستمرت على ذلك بعد ما كانت بحيث يقول عنها عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى فى كتاب « أخبار النوبة » : ان أبا عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى لما غلب على المعدن ، كتب الى أسوان يسأل التجار الخروج اليه بالجهاز من طريق المعدن ، فخرج اليه رجل يعرف بعثمان بن حيخلة التميمى فى ألف راحلة فيها الجهاز والبر .

وذكر أن العمرى لما عاد الى بلاد البجة بعد حروبه للنوبة ، كثرت العمارة حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة اليهم من أسوان ستين ألف راحلة ، غير الجلاب التى تحمل من القلزم الى عيذاب .

قال : ومما شاهده جماعة من شيوخنا الثقات بأسوان بقرية تدعى أساشى ، هى من أسوان على مرحلتين ونصف ، أنهم رأوا شرقها من جانب النيل قرية بسور وخارج بابها جميزة ، وناس يدخلون ويخرجون ، فاذا عبروا الى الموضع لم يجدوا شيئا .

وهذا يكون فى الشتاء دون الصيف قبل طلوع الشمس . والناس مجمعون على رؤيتها ، وصحة هذا الخبر .

وكان بها أنواع من التمر ، وأنواع من الرطب ، منها نوع من الرطب أشد ما يكون من خضرة السلق . وأمر هارون الرشيد أن يجمع له من ألوان تمر أسوان من كل صنف تمرة واحدة ، فجمع له ويبة ولا يعرف فى الدنيا بسر يتتمر قبل أن يصير رطبا الا بأسوان .

ذكر بلاق

بلاق أجل حصن للمسلمين ، وهى جزيرة تقرب من الجنادل محيط بها النيل ، فيها بلد كبير يسكنه خلق كثير من الناس . وبها نخل عظيم ، ومنبر فى جامع . واليها تنتهى سفن النوبة وسفن المسلمين من أسوان . وبينها وبين القرية التى تعرف بالقصر — وهى أول بلد النوبة — ميل واحد . وبينها وبين أسوان أربعة أميال . ومن أسوان الى هذا الموضع جنادل فى البحر لا تسلكها المراكب الا بالحيلة ودلالة من يخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك .

وبالقصر مسلحة وباب الى بلد النوبة .

ذكر حائط العجوز

هذا الحائط كان حصنا لأرض مصر يحدق بجميعها ، وكان فيه محارس ومسالح ، ومن ورائه خليج يجرى فيه الماء ، معقود عليه القناطر ، عملته دلوكة بنت زبا . وقد وهى وتلاشى ، ولم يبق منه الا يسير فى شط النيل الشرقى ينتهى الى أسوان .

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم ، فى كتاب « فتوح مصر » : فبقيت مصر بعد غرقهم (يعنى فرعون

وجنوده) وليس فيها من أشراف أهلها أحد ، ولم يبق بها الا العبيد والأجراء والنساء . فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا ، وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة بنت زبا ، وكان لها عقل ومعرفة وتجارب ، وكانت فى شرف منهن وموضع ، وهى يومئذ بنت مائة سنة وستين سنة .

فملكوها ، فخافت أن يتناولها ملوك الأرض ، فجمعت نساء الأشراف فقالت لهن : ان بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ، ولا يمد عينه اليها ، وقد هلك أكابرنا وأشرافنا ، وذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم . وقد رأيت أن أبنى حصنا أحدق به جميع بلادنا ، فأضع عليه المحارس من كل ناحية ، فانا لا نأمن من أن يطمع فينا الناس .

فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها ، المزارع والمدائن والقرى ، وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء ، وأقامت القناطر والترع ، وجعلت فيه محارس ومسالح ، على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة ، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل . وجعلت فى كل محرس رجالا ، وأجرت عليهم الأرزاق . وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس ، فاذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم الى بعض بالأجراس ، فأتاهم الخبر من أى جهة كانت فى ساعة واحدة فنظروا فى ذلك .

فمنعت بذلك مصر ممن أرادها .

وفرغت من بنائه فى ستة أشهر . وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز بمصر ، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كبيرة . والله أعلم .

ذكر البقط

البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ، ويحمل الى مصر ضريبة عليهم . فان كانت هذه الكلمة عربية ، فهى اما من قولهم : فى الأرض بَقَط" من بقل وعشب ، أى نبذ من مرعى ، فيكون معناه على هذا نبذة من المال ، أو * يكون من قولهم ان فى بنى تميم بقطا من ربيعة أى فرقة أو قطعة ، فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه . ومنه بقط الأرض فرقة منها ، وبقط الشىء فرّقه . والبقط أن تعطى الحبة على الثلث أو الربع . والبقط أيضا ما سقط من التمر اذا قطع فأخطأ المخرف ، فيكون معناه على هذا بعض ما فى أيدى النوبة .

وكان يؤخذ منهم فى قرية يقال لها القصر ، مسافتها من أسوان خمسة أميال فيما بين بلد بلاق وبلد النوبة . وكان القصر فرضة لقوص .

وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة فى امارة عمرو بن العاص ، لما بعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد فتح مصر الى النوبة سنة عشرين — وقيل سنة احدى وعشرين — فى عشرين ألفا ، فمكث بها زمانا ، فكتب اليه عمرو يأمره بالرجوع اليه .

(*) ص١٩٦ جـ١ ، ط. بولاق *

فلما مات عمرو رضى الله عنه نقض النوبة الصلح الذى جرى بينهم وبين عبد الله بن سعد ، وكثرت سراياهم الى الصعيد فأخربوا وأفسدوا . فغزاهم مرة ثانية عبد الله بن سعد ابن أبى سرح وهو على امارة مصر فى خلافة عثمان رضى الله عنه سنة احدى وثلاثين ، وحصرهم بمدينة دنقلة حصارا شديدا ، ورماهم بالمنجنيق — ولم تكن النوبة تعرفه — وخسف بهم كنيستهم بحجر . فبهرهم ذلك وطلب ملكهم — واسمه قليدوروث — الصلح ، وخرج الى عبد الله وأبدى ضعفا ومسكنة وتواضعا . فتلقاه عبد الله ورفعه وقربه ، ثم قرر الصلح معه على ثلثمائة وستين رأسا فى كل سنة . ووعده عبد الله بحبوب يهديها اليه لما شكا له قلة الطعام ببلده ، وكتب لهم كتابا نسخته بعد البسملة :

« عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته ، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان الى حد أرض علوة : أن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة .

« انكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى صلى الله عليه وسلم ألا نحاربكم ، ولا ننصب لكم حربا ، ولا نغزوكم ، ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم .

« على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه .

« وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم . وان عليكم رد كل آبق خرج اليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه الى أرض الاسلام ، ولا تستولوا عليه ، ولا تمنعوا منه ، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره الى أن ينصرف عنه .

« وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصليا ، وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته .

« وعليكم فى كلّ سنة ثلثمائة وستون رأسا تدفعونها الى امام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب ، يكون فيها ذكران واناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم ... تدفعون ذلك الى والى أسوان .

« وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ، ولا منعه عنكم من حد أرض علوة الى أرض أسوان .

« فان أنتم آويتم عبدا لمسلم ، أو قتلتم مسلما أو معاهدا ، أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، أو منعتم شيئا من الثلثمائة رأس والستين رأسا ، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان ، وعدنا نحن وأنتم على سواء ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

« علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم ، الله الشاهد بيننا وبينكم على

ذلك ... كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة احدى وثلاثين » .

وكانت النوبة دفعت الى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط قبل نكثهم ، وأهدوا الى عمرو أربعين رأسا من الرقيق فلم يقبلها ورد الهدية الى كبير البقط — ويقال له سمقوس — فاشترى له بذلك جهازا وخمرا ووجهه اليه .

وبعث اليهم عبد الله بن سعد ما وعدهم به من الحبوب : قمحا وشعيرا وعدسا ، وثيابا ، وخيلا . ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسما يأخذونه عند دفع البقط فى كل سنة ، وصارت الأربعون رأسا التى أهديت الى عمرو يأخذها والى مصر .

وعن أبى خليفة حميد بن هشام البحترى أن الذى صولح عليه النوبة ثلثمائة وستون رأسا لفىء المسلمين ، ولصاحب مصر أربعون رأسا ، ويدفع اليهم ألف اردب قمحا ، ولرسله ثلثمائة اردب ، ومن الشعير كذلك ، ومن الخمر ألف اقنيز ، للملك ولرسله ثلثمائة اقنيز ، وفرسين من نتاج خيل الامارة ، ومن أصناف الثياب مائة ثوب ، ومن القباطى أربعة أثواب للملك ولرسله ثلاثة ، ومن البقطرية ثمانية أثواب ، ومن المعلمة خمسة أثواب ، وجبة مجملة للملك ، ومن قمص أبى بقطر عشرة أثواب ، ومن أحاص عشرة أثواب ، وهى ثياب غلاظ .

قال أبو خليفة : ليس فى كتاب عبد الله بن وهب ، ولا فى كتاب الواقدى ، تسمية ينتهى اليها ، وانما أخذت التسمية من أبى زكريا ...

قال أبو زكريا : سمعت والذى عمرو بن صالح يقول هذا الخبر ، فحفظت منه ما وقفت عليه .

وقال : حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر ، وهو على مصر ، فقال * : أنت عثمان ابن صالح الذى وجهنا اليك فى كتاب بقط النوبة ؟

قلت : نعم .

فأقبل على محفوظ بن سليمان فقال : ما أعجب أمر هذه البلدة ! وجهنا اليهم نطلب علما من علومهم والى هذا الشيخ ، فما شفانا أحد منهم .

فقلت : أصلح الله الأمير ، ان الذى طلبت من خبر النوبة عندى ، قد حفظه شيوخ عن الشيوخ الذين حضروا هناك ، والهدنة والصلح الذى جرى بين عبد الله بن سعد وبين النوبة .

ثم حدثته عن أخبارهم كما سمعت ، فأنكر عطية الخمر ، فقلت : قد أنكرها عبد العزيز ابن مروان .

وكان هذا المجلس بفسطاط مصر سنة احدى عشرة ومائتين ، بعد أن تم الصلح بينه وبين عبد الله بن السرى بن الحكم التميمى الأمير كان قبله .

قال عثمان بن صالح : فوجه الأمير الى الديوان بظهر المسجد الجامع بمصر ، فاستخرج منه خبر النوبة فوجده كما ذكرت ، فسره ذلك .

(*) ص ٢٠٠ جـ ١ ، ط بولاق .

وعن مالك بن أنس أنه كان يرى أن أرض النوبة الى حد علوة صلح ، وكان لا يجيز شراء رقيقهم . وكان أصحابه مثل عبد الله بن عبد الحكم وعبد الله بن وهب والليث بن سعد ويزيد بن أبى حبيب وغيرهم من فقهاء مصر يرون خلاف ذلك ...

قال الليث بن سعد : نحن أعرف بأرض النوبة من الامام مالك بن أنس ، انما صولحوا على ألا نغزوهم ولا نمنع منهم عدوا ، فما استرقه متملكهم أو غزا بعضهم بعضا فشراؤه جائز ، وما استرقه بغاة المسلمين وسراقهم فغير جائز .

وكان عند جماعة منهم جوار نوبيات لفرشهم . ولم يزل النوبة يؤدون البقط فى كل سنة ، ويدفع اليهم ما تقدم ذكره ، الى أيام أمير المؤمنين المعتصم بالله أبى اسحاق بن الرشيد ، وكبير النوبة يومئذ زكرياء بن بحنس . وكانت النوبة ربما عجزت عن دفع البقط فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم ، ويمنع من اخراج الجهاز اليهم ، فأنكر فيرقى ولد كبيرهم زكرياء على أبيه بذله الطاعة لغيره ، واستعجزه فيما يدفع ، فقال له أبوه : فما تشاء

قال : عصيانهم ومحاربتهم .

قال أبوه : هذا شىء رآه السلف من آبائنا صوابا ، وأخشى أن يفضى هذا الأمر اليك فتقدم على محاربة المسلمين . غير أنى أوجهك الى ملكهم رسولا ، فأنت ترى حالنا وحالهم ، فان رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة ، والا سألته الاحسان الينا .

فشخص فيرقى الى بغداد ، وكانت البلدان تزين له ويسير على المدن ، وانحدر بانحداره رئيس البجة بأسبابه ، ولقيا المعتصم فنظرا الى ما بهرهما من حال العراق فى كثرة الجيوش وعظم العمارة مع ما شاهداه فى طريقهما . فقرب المعتصم فيرقى وأدناه ، وأحسن اليه احسانا تاما ، وقبل هديته وكافأه بأضعافها ، وقال له : تمن ما شئت .

فسأله فى اطلاق المحبوسين فأجابه الى ذلك .

وكبر فى عين المعتصم ، ووهب له الدار التى نزلها بالعراق ، وأمر أن يشترى له فى كل منزل من طريقه دار تكون لرسلهم ، فانه امتنع من دخول دار لأحد فى طريقه ، فأخذ له بمصر دار بالجيزة ، وأخرى ببنى وائل .

وأجرى لهم فى ديوان مصر سبعمائة دينار ، وفرسا وسرجا ولجاما ، وسيفا محلى ، وثوبا مثقلا ، وعمامة من الخز ، وقميص شرب ورداء شرب ، وثيابا لرسله غير محدودة عند وصول البقط الى مصر . ولهم حملان وخلع على المتولى لقبض البقط ، وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمنصرفين معه ، وما يهدى اليهم بعد ذلك فغير محدود ، وهو عندهم هدية يجازون عليها .

ونظر المعتصم الى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقط ، وأنكر عطية الخمر ، وأجرى الحبوب والثياب التى تقدم ذكرها ، وقرر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين ، وكتب لهم كتابا بذلك بقى فى يد النوبة .

وادعى النوبى على قوم من أهل أسوان أنهم اشتروا أملاكا من عبيده ، فأمر المعتصم بالنظر فى ذلك . فأحضر والى البلد والمختار للحكم فيه التابعين من النوبة وسألاهم عما ادعاه صاحبهم من بيعهم ، فأنكروا ذلك وقالوا : نحن رعية . فزال ما ادعاه .

وطلب أشياء غير ذلك من ازالة المسلحة المعروفة بالقصر عن موضعها الى الحد الذى بينهم وبين المسلمين ، لأن المسلحة على أرضهم ، فلم يجبه الى ذلك . ولم يزل الرسم جاريا بدفع البقط على هذا التقرير ، ويدفع اليهم ما أجراه المعتصم ، الى أن قدمت الدولة الفاطمية الى مصر ... ذكر ذلك مؤرخ النوبة .

وقال أبو الحسن المسعودى : والبقط هو ما يقبض من السبى فى كل سنة ويحصل الى مصر ضريبة عليهم ، وهو ثلثمائة رأس وخمسة وستون رأسا لبيت المال ، بشرط الهدنة بين النوبة والمسلمين . وللأمير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأسا ، ولخليفته المقيم بأسوان — وهو المتولى لقبض البقط — عشرون رأسا ، وللحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة أرؤس ، ولاثنى عشر شاهدا عدول من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنا عشر رأسا من السبى ... على حسب ما جرى به الرسم فى صدر الاسلام فى بدء ايقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة .

وقال البلاذرى فى كتاب « الفتوحات » : ان المقرر على النوبة أربعمائة رأس يأخذون بها طعاما (أى غلة) ، وألزمهم أمير المؤمنين المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور ثلثمائة وستين رأسا وزرافة * .

وفى سنة أربع وسبعين وستمائة كثر خبث داود متملك النوبة ، وأقبل الى أن قرب من مدينة أسوان ، وحرق عدة سواق بعدما أفسد بعيذاب . فمضى اليه والى قوص فلم يدركه ، وقبض على صاحب الخيل فى عدة من النوبة ، وحملهم الى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بقلعة الجبل فوسطهم .

وقدم سكندة ابن أخت متملك النوبة متظلما من خاله داود ، فجرد السلطان معه الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى الأستادار ، والأمير عز الدين أيبك الأفرم ، وأمير جاندار ، فى جماعة كثيرة من العسكر ، ومن أجناد الولايات وعربان الوجه القبلى والزراقين والرماة ورجال الحراريق .

فساروا فى أول شعبان من القاهرة حتى وصلوا الى أرض النوبة ، فخرجوا الى لقائهم على النجب ، بأيديهم الحراب ، وعليهم دكادك سود .

فاقتتل الفريقان قتالا كبيرا ، انهزم فيه النوبة ، وأغار الأفرم على قلعة الدو ، وقتل وسبى . وأوغل الفارقانى فى أرض النوبة برا وبحرا يقتل ويأسر ، فحاز من المواشى ما لا يعد ، ونزل بجزيرة ميكائيل برأس الجنادل ، ونفر المراكب من الجنادل .

(*) ص ٢٠١ ، جـ ١ ، ط . بولاق .

ففر النوبة الى الجزائر ، وكتب لقمر الدولة نائب داود متملك النوبة أمانا ، فحلف لسكندة على الطاعة ، وأحضر رجال المريس ومن فر .

وخاض الأفرم الى برج فى الماء وحصره حتى أخذه ، وقتل به مائتين ، وأسر أخا لداود ، فهرب داود والعسكر فى أثره مدة ثلاثة أيام ، وهم يقتلون ويأسرون ، حتى أذعن القوم .

وأسرت أم داود وأخته ، ولم يقدر على داود فتقرر سكندة عوضه ، وقرر على نفسه القطيعة فى كل سنة ثلاث فيلة وثلاث زرافات وخمس فهود من اناثها ، ومائة نجيب أصهب وأربعمائة رأس من البقر المنتجة ، على أن تكون بلاد النوبة نصفين : نصفها للسلطان ، ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ، ما خلا بلاد الجنادل ، فانها كلها للسلطان لقربها من أسوان ، وهى نحو الربع من بلاد النوبة . وأن يحمل ما بها من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان . وأن يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية ، فيدفع كل بالغ منهم فى السنة دينارا عينا .

وكتب نسخة يمين بذلك حلف عليها الملك سكندة ، ونسخة يمين أخرى حلفت عليها الرعية .

وخرب الأميران كنائس النوبة ، وأخذ ما فيها ، وقبض على نحو عشرين أميرا من أمراء النوبة ، وأفرج عمن كان بأيدى النوبة من أهل أسوان وعيذاب من المسلمين فى أسرهم .

وألبس سكندة تاج الملك ، وأقعد على سرير المملكة ، بعد ما حلف والتزم أن يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب الى السلطان مع البقط القديم ، وهو أربعمائة رأس من الرقيق فى كل سنة وزرافة (من ذلك ما كان للخليفة ثلثمائة وستون رأسا ، ولنائبه بمصر أربعون رأسا) ، على أن يطلق لهم اذا وصلوا بالبقط تاما من القمح ألف اردب لمتملكهم ، وثلثمائة اردب لرسله .

ذكر صحراء عيذاب

اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتى سنة لا يتوجهون الى مكة — شرفها الله تعالى — الا من صحراء عيذاب . يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط الى قوص ، ثم يركبون الابل من قوص ويعبرون هذه الصحراء الى عيذاب ، ثم يركبون البحر فى الجلاب الى جدة ساحل مكة . وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة ، يردون فى البحر الى عيذاب ، ثم يسلكون هذه الصحراء الى قوص ، ومنها يردون مدينة مصر .

فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج ، حتى ان كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها ، والقفول صاعدة وهابطة ، لا يعترض لها أحد ، الى أن يأخذها صاحبها .

فلم تزل مسلكا للحجاج فى ذهابهم وايابهم زيادة على مائتى سنة : من أعوام بضع

وخمسين وأربعمائة ، الى أعوام بضع وستين وستمائة . وذلك منذ كانت الشدة العظمى فى أيام الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر وانقطاع الحج فى البر ... الى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الكعبة وعمل لها مفتاحا ، ثم أخرج قافلة الحاج من البر فى سنة ست وستين وستمائة ، فقل سلوك الحاج لهذه الصحراء .

واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب الى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة ، وتلاشى أمر قوص من حينئذ .

وهذه الصحراء مسافتها من قوص الى عيذاب سبعة عشر يوما ، ويفقد فيها الماء ثلاثة أيام متوالية ، وتارة يفقد أربعة أيام .

وعيذاب مدينة على ساحل بحر جدة ، وهى غير مسورة ، وأكثر بيوتها أخصاص .

وكانت من أعظم مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة . فلما انقطع ورود مراكب الهند واليمن اليها ، صارت المرسى السلطنية عدن من بلاد اليمن ، الى أن كانت أعوام بضع * وعشرين وثمانمائة فصارت جدة أعظم مراسى الدنيا ، وكذلك هرمز فانها مرسى جليل .

وعيذاب فى صحراء لا نبات فيها ، وكل ما يؤكل بها مجلوب اليها حتى الماء . وكان لأهلها من الحجاج والتجار فوائد لا تحصى ، وكان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقررة ، وكانوا يكارون الحجاج الجلاب التى تحملهم فى البحر الى جدة ومن جدة الى عيذاب ، فيجتمع لهم من ذلك مال عظيم .

ولم يكن فى أهل عيذاب الا من له جلبة فاكثر على قدر يساره .

وفى بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ فى جزائر قريبة منها ، تخرج اليه الغواصون فى وقت معين من كل سنة فى الزوارق ، حتى يوافوه بتلك الجزائر فيقيمون هنالك أياما ثم يعودون بما قسم لهم من الحظ . والمغاص فيها قريب القعر .

وعيش أهل عيذاب عيش البهائم ، وهم أقرب الى الوحش فى أخلاقهم من الانس .

وكان الحجاج يجدون فى ركوبهم الجلاب على البحر أهوالا عظيمة ، لأن الرياح تلقيهم فى الغالب بمراس فى صحارى بعيدة مما يلى الجنوب ، فينزل اليهم التجار من جبالهم فيكارونهم الجمال ، ويسلكون بهم على غير ماء ... فربما هلك أكثرهم عطشا وأخذ التجار ما كان معهم ، ومنهم من يصل ويهلك عطشا . والذى يسلم منهم يدخل الى عيذاب كأنه نشر من كفن ، قد استحالت هيئاتهم ، وتغيرت صفاتهم .

وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى ، ومنهم من يساعده الريح فتحطه بمرسى عيذاب ، وهو الأقل .

وجلباتهم التى تحمل الحجاج فى البحر لا يستعمل فيها مسمار ألبتة ، انما يخيط خشبها بالقنبار — وهو متخذ من شجر النارجيل — ويخللونها بدسر من عيدان النخل ، ثم يسقونها بسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش ، وهو حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقى . وقلاع هذه الجلاب من خوص شجر المقل .

ولأهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت ، فانهم يبالغون فى شحن الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصا على الأجرة ، ولا يبالون بما يصيب الناس فى البحر ، بل يقولون دائما : علينا بالألواح ، وعلى الحجاج بالأرواح .

وأهل عيذاب من البجاة ، ولهم ملك منهم ، وبها وال من قبل سلطان مصر . وأدركت قاضيها عندنا بالقاهرة أسود اللون . والبجاة قوم لا دين لهم ولا عقل ، ورجالهم ونساؤهم أبدا عراة ، وعلى عوراتهم خرق ، وكثير منهم لا يسترون عوراتهم .

وعيذاب حرها شديد بسموم محرق .

ذكر مدينه الأقصر

هذه المدينة من مدائن الصعيد العظيمة ، يقال ان أهلها المريس ، ومنها الحمير المريسية .

ذكر البلينا

هذه ... ...

وذكر الكمال الأدفوى أنه وقع بين أهل البلاد ووالى قوص ، فتوجهوا الى القاهرة وصرفوه ، وولى غيره . وطلع الخطيب بالبلينا صحبته ، وكان اقطاعه أرمنت ، فلما وصل اليها أضافه أهلها بستين منسفا من طعام اللبن ، فقال للخطيب : فى بلادكم مثل هذا ؟ فقال الخطيب : وحلوى .

فلما وصل الى أخميم تقدم الخطيب الى البلينا ، فعندما وصل الوالى اليها أخرجوا له ستين منسفا حلوى وستين منسفا شواء .

قال : وبعض الحكام بها فى عيد من الأعياد امتدحه من أهلها خمسة وعشرون شاعرا . وفيها من لا يرضى بمدح القاضى ، وفيها من تقصر رتبته عن ذلك .

قال : وكان فيها عدة مسابك للسكر ، ويوصف أهلها بالمكارم .

ذكر سمهود

هذه المدينة بالجانب الغربى من النيل ، قال الادفوى : كان بسمهود سبعة عشر حجرا لاعتصار قصب السكر . ويقال ان الفار لا يدخل قصبها .

ذكر ارجنوس

هذه المدينة من جملة عمل البهنسا ، بها كنيسة بظاهرها فيها بئر يقال لها بئر سيرس صغيرة لها عيد يعمل فى اليوم الخامس والعشرين من بشنس أحد شهور القبط ، فيفور بها الماء عند مضى ست ساعات من النهار حتى يطفو ثم يعود الى ما كان عليه .

(*) ص ٢٠١ جـ١ ، ط. بولاق .

ويستدل النصارى على زيادة النيل فى كل سنة بقدر ما على الماء من الأرض ، فيزعمون أن الأمر فى النيل وزيادته يكون موافقا لذلك .

ذكر أبو بط

هذه المدينة أيضا من جملة البهنساوية ، كان بها منارة محكمة البناء ، اذا هزها الرجل تحركت يمينا وشمالا ، فيرى * ميلها رؤية ظاهرة بانتقال ظلها عن موضعه .

ذكر ملوى

هذه المدينة بالجانب الغربى من النيل ، وأرضها معروفة بزراعة قصب السكر ، وكان بها عدة أحجار لاعتصاره . وآخر من كان بها أولاد فضيل ، بلغت زراعتهم فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ألفا وخمسمائة فدان من القصب فى كل سنة . فأوقع النشو — ناظر الخاص — الحوطة على موجودهم فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، فوجد من جملة مالهم أربعة عشر ألف قنطار من القند حملها الى دار القند بمصر ، سوى العسل . وألزمهم بحمل ثمانية آلاف قنطار بعد ذلك . وأفرج عنهم ، فوجدوا لهم حاصلا لم يهتد له النشو فيه عشرة آلاف قنطار قند ، سوى ما لهم من عبيد وغلال وغير ذلك .

(*) ص١٠٢ جـ١ ، طـ بولاق .

ذكر مدينة أنصنا

اعلم أن مدينة أنصنا احدى مدائن صعيد مصر القديمة ، وفيها عدة عجائب ، منها الملعب ، ويقال انه كان مقياس النيل ، وانه من بناء دلوكة أحد من ملك مصر ، وكان كالطيلسان ، وفى دائره عمد على عدة أيام السنة الشمسية ، كلها من الصوان الأحمر الماتع ، ومسافة ما بين كل عمودين مقدار خطوة انسان .

وكان ماء النيل يدخل الى هذا الملعب من فوهة عند زيادة الماء . فاذا بلغ ماء النيل الحد الذى كان اذ ذاك يحصل منه رى أرض مصر وكفايتها ، جلس الملك عند ذلك فى مشرف له ، وصعد القوم من خواصه الى رؤوس الأعمدة المذكورة ، فيتعادون عليها ما بين ذاهب وآت ، ويتساقطون من الأعمدة الى الملعب وهو ممتلىء بالماء .

قال أبو عبيد البكرى : أنصنا — بفتح أوله واسكان ثانيه بعده صاد مهملة مكسورة ونون وألف — كورة من كور مصر معروفة ، منها كانت سرية النبى صلى الله عليه وسلم أم ابنه ابراهيم من قرية يقال لها حفن من قرى هذه الكورة .

ويقال ان سحرة فرعون كانوا منها ، وانه جلبهم منها يوم الموعد للقاء موسى عليه السلام .

ويقال ان التمساح لا يضر بساحل أنصنا لطلاسم وضعت بها ، وانه اذا حاذى برها انقلب على ظهره حتى يجاوزها .

ويقال ان الذى بنى مدينة أنصنا أشمون ابن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح .

وهى واقعة فى شرقى النيل ، وكانت حسنة البساتين والمتنزهات ، كثيرة الثمار والفواكه ، وهى الآن خراب .

وقال أبو حنيفة الدينورى : ولا ينبت البنج الا بأنصنا ، وهو عود ينشر منه ألواح للسفن ، وربما أرعفت ناشرها . ويباع اللوح منها بخمسين دينارا ونحوها . واذا شد لوح منها بلوح وطرح فى الماء ستة أيام ، صارا لوحا واحدا .

وكان لأنصنا سور عتيق هدمه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وجعل على كل مركب منحدر فى النيل جزءا من حمل صخره الى القاهرة ، فنقل بأسره اليها .

ذكر القيس

اعلم أن القيس من البلاد التى تجاور مدينة البهنسا . وكان يقال القيس والبهنسا .

قال ابن عبد الحكم : بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث الى الصعيد ، فسار حتى أتى القيس فنزل بها فسميت به .

وقال ابن يونس : قيس بن الحارث المرادى ثم الكعبى ، شهد فتح مصر يروى عن عمر بن الخطاب ، وكان يفتى الناس فى زمانه . روى عنه سويد بن قيس — وقيل شديد بن قيس ابن ثعلبة — وروى عنه عسكر بن سوادة . وهو الذى فتح القرية بصعيد مصر المعروفة بالقيس فنسبت اليه .

وقال ابن الكندى : ولهم ثياب الصوف ، وأكسية المرعز ، وليس هى بالدنيا الا بمصر . وذكر بعض أهل مصر أن معاوية بن أبى سفيان لما كبر كان لا يدفأ ، فاجتمعوا أنه لا يدفيه الا الأكسية تعمل بمصر من صوفها المرعز العسلى العين المصبوغ . فعمل له منها عدد ، فما احتاج منها الا الى واحد . ولهم طراز القيس والبهنسا فى الستور والمضارب ، يعرفون به ، ومنه طراز أهل الدنيا .

وظهر بها بالقرب من البهنسا سرب فى أيام السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، فأمر متولى البهنساوية بكشفه ، فجمع له أهل المعرفة بالعوم والغطس ، فكانوا ما ينيف على مائتى رجل ما فيهم الا من نزل السرب فلم يجد له قرارا ولا جوانب .

فأمر بعمل مركب طويل رقيق بحيث يمكن ادخاله من رأس السرب وشحنه بالأزواد والرجال ، وركب فيه حبالا مربوطة فى خوازيق عند رأس السرب ، وحمل مع الرجال آلات يعرفون بها أوقات الليل والنهار ، وعدة شموع وغيرها مما تستخرج به النار وتشعل به . وأمرهم أن يسلكوا بالمركب فى السرب حتى ينفد نصف ما معهم من * الزاد . فساروا بالمركب فى ظلمة وهم يلقون الحبال ولا يجدون لما هم سائرون فيه من الماء جوانب . فما زالوا حتى قلت أزوادهم ، فأبطلوا حركة المركب بالمجاذيف الى داخل السرب وجروا الحبال ليرجعوا الى حيث دخلوا ، حتى انتهوا الى رأس السرب .

(*) ص١٠٢ جـ١ ، طـ بولاق .

فكانت مدة غيبتهم فى السرب ستة أيام ؛ أربعة منها دخولا الى جوفه وتطواف جوانبه ، ويومان رجوعا الى رأس السرب . ولم يقفوا فى هذه المدة على نهاية السرب .

فكتب بذلك الأمير علاء الدين الطنبغا والى البهنسا الى الملك الكامل ، فتعجب عجبا كثيرا ، واشتغل عن ذلك بمحاربة الفرنج على دمياط . فلما رحلوا عن دمياط وعادوا الى القاهرة ، خرج بعد ذلك حتى شاهد السرب المذكور .

ذكر دروط بلهاسة

اعلم أن دروط — وهى بفتح الدال المهملة وضم الراء وسكون الواو وطاء — اسم لثلاث قرى : دروط أشموم من الأشمونين ، ودروط سربان من الأشمونين أيضا ، ودروط بلهاسة من ناحية البهنسا بالصعيد .

وبها جامع أنشأه زياد بن المغيرة بن زياد ابن عمرو العتكى ، ومات فى المحرم سنة احدى وتسعين ومائة فدفن به . وقال فيه الشاعر :

حلف الجود حلفة بـرّ فيها
ما بـرا الله واحـدا كزياد
كان غيثـا لمصر اذ كان حيا
وأمانا من السـنين الشداد

ومات أخوه ابراهيم بن المغيرة سنة سبع وتسعين ومائة ، فقال الشاعر فيه :

ابن المغيـرة ابراهيـم من ذهب
يزداد حسـنا على طول الدهارير
لو كان يملك ما فى الأرض عجله
الى العفـاة ولم يهم بتـأخير

ومات أحمد بن زياد بن المغيرة فى المحرم سنة ست وثلاثين ومائتين ، فقـال الشـاعر فيه :

أحمد مات ماجدا مفقـودا
ولقد كان أحمـد محمـودا
ورث المجـد عن أب ثم عم
مثله ليس بعـده موجـودا

ذكر سكر

هى من الأطفيحية ، تجاهها واد به الى وقتنا هذا شكل جمل من الحجر كأكبر ما يرى من الجمال وأحسنها هيئة . وهـو قائم على أربعة وقد استقبل بوجهه المشرق ، وعلى فخذه الأيمن كتابة بقلمهم ، وهى أحرف مقطعـة فى ثلاثة أسطر .

ثم على نحو مائة وخمسين خطوة منه جمل آخر مثله سواء ، ووجهـه الى وجه الجمل الأول ، وليس عليه كتابة .

وفيما بين الجملين المذكورين هيئـة أعدال قد ملئت قماشا عدتها أربعون زكيبة موضوعة بالأرض ، عشرين تجاه عشرين ، وجميعها من حجارة ، ولا يشك من رآها أنهـا أحمـال قماش .

وبعد مائة وخمسين خطوة منها جمل ثالث على هيئة الجملين المذكورين . وهـو أيضـا قائم ، وظهره الى ظهر الجمل الثانى ، ووجهه

الى الجبل ، وهناك آخر الوادى . وليس على هذا الجمل أيضا كتابة ...

أخبرنى بذلك من لا أتهم روايته .

ذكر منية الخصيب

هذه المدينة تنسب الى الخصيب بن عبد الحميد ، صاحب خراج مصر من قبـل أمير المؤمنين هارون الرشيد .

ذكر منية الناسك

هى بلدة من جملة الأطفيحية عرفت بالناسك أخى الوزير بهرام الأرمنى فى أيام الخليفـة الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن محمد ، ولى من قبل أخيه مدينة قوص سنة تسع وعشرين وخمسـمائة — وولاية قوص يومئـذ أجل ولايات مصر — فجـار على المسلمين ، واشتد عسفه وأذاه لهم . فعندما وصل الخبر بقيام رضـوان بن ولخشى على بهرام وهزيمته منه وتقلده الوزارة بعده ، ثار أهل قوص بالناسك فى جمادى الآخرة سـنة احدى وثلاثين وخمسمائة وقتلوه ، وربطـوا كلبا ميتا فى رجله ، وسحبوه حتى ألقوه على مزبلة . وكان نصرانيا .

ذكر الجيزة

قال ابن سيده : الجيزة الناحية والجانب ، وجمعها جيز وجيز . والجيز جانب الوادى ، وقد يقال فيه الجيزة .

واعلم أن الجيزة اسم لقرية كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربى تجاه مدينة فسطاط مصر . لها فى كل يوم أحد سوق عظيم يجىء اليه من النواحى أصناف كثيرة جدا ، ويجتمع فيه عالم عظيم . وبها عدة مسـاجد جامعة .

وقد روى * الحـافظ أبو بكر بن ثابت الخطيب ، من حديث نبيط بن شريط ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الجيزة روضة من رياض الجنة ، ومصر خزائن الله فى أرضه » .

ويقال ان مسجد التوبة الذى بالجيزة كان فيـه تابوت موسى عليه السلام الذى قذفته أمه فيـه بالنيل . وبها النخلة التى أرضعت مريم تحتها عيسى ، فلم يثمر غيرها .

وقال ابن عبد الحكم ، عن يزيد بن أبى حبيب : فاستحبت همدان ومن والاها الجيزة ، فكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما يعلمه بما صنع الله للمسلمين ، وما فتح عليهم ، وما فعلوا فى خططهم ، وما استحبت همدان من النزول بالجيزة . فكتب اليـه عمر يحمـد الله على ما كان من ذلك ، ويقول له : كيف رضيت أن تفرق أصحابك ؟ لم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر ، ولا تدرى ما يفجأهم ، فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره . فاجمعهم اليك ، فان أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك ، فابن عليهم من فىء المسلمين حصنا .

(*) ص٢٠٥ ج١ ، ط. بولاق .

فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا ، وأعجبهم موضعهم بالجيزة — ومن والاهم على ذلك من رهطهم يافع وغيرها — وأحبوا ما هنالك . فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن فى الجيزة فى سنة احدى وعشرين ، وفرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين .

ويقال ان عمرو بن العاص لما سأل أهل الجيزة أن ينضموا الى الفسطاط ، قالوا : مقدم قدمناه فى سبيل الله ، ما كنا لنرحل منه الى غيره . فنزلت يافع الجيزة فيها مبرح بن شهاب ، وهمدان وذو أصبح فيهم أبو شمر ابن أبرهة ، وطائفة من الحجر .

وقال القضاعى : ولما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ، ونزل الفسطاط ، جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدو يغشاهم من تلك الناحية . فجعل فيها آل ذى أصبح من حمير وهم كثير ، ويافع بن زيد من رعين ، وجعل فيها همدان ، وجعل فيها طائفة من الأزديين بنى الحجر بن الهبو بن الأزد ، وطائفة من الحبشة ... وديوانهم فى الأزد .

فلما استقر عمرو فى الفسطاط ، أمر الذين خلفهم بالجيزة أن ينضموا اليه ، فكرهوا ذلك وقالوا : هذا مقدم قدمناه فى سبيل الله وأقمنا به ، ما كنا بالذين نرغب عنه ونحن به منذ أشهر .

فكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بذلك ، يخبره أن همدان وآل ذى أصبح ويافعا ومن كان معهم أحبوا المقام بالجيزة .

فكتب اليه : كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك وتجعل بينك وبينهم بحرا ، لا تدرى ما يفجأهم ، فلعلك لا تقدر على غياثهم . فأجمعهم اليك ولا تفرقهم ، فان أبوا وأعجبهم مكانهم فابن عليهم حصنا من فىء المسلمين .

فجمعهم عمرو وأخبرهم بكتاب عمر ، فامتنعوا من الخروج من الجيزة ، فأمر عمرو ببناء الحصن عليهم ، فكرهوا ذلك وقالوا : لا حصن أحصن لنا من سيوفنا . وكرهت ذلك همدان ويافع ، فأقرع عمرو بينهم فوقعت القرعة على يافع ، فبنى فيهم الحصن فى سنة احدى وعشرين ، وفرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين .

وأمرهم عمرو بالخطط بها : فاختط ذو أصبح من حمير من الشرق ، ومضوا الى الغرب حتى بلغوا أرض الحرث والزرع ، وكرهوا أن يبنى الحصن فيهم .

واختط يافع بن الحارث من رعين بوسط الجيزة ، وبنى الحصن فى خططهم ، وخرجت طائفة منهم عن الحصن أنفة منه .

واختطت بكيل بن جشم بن نوف — من همدان — فى مهب الجنوب من الجيزة فى شرقيها .

واختطت حاشد بن جشم بن نوف فى مهب الشمال من الجيزة فى غربيها .

واختطت الجياوية بنو عامر بن بكيل فى قبلى الجيزة .

واختطت بنو حجر بن أرحب بن بكيل فى قبلى الجيزة .

واختط بنو كعب بن مالك بن الحجر بن الهبو بن الأزد فيما بين بكيل ويافع .

والحبشة اختطوا على الشارع الأعظم .

والمسجد الجامع بالجيزة بناه محمد بن عبد الله الخازن ، فى المحرم سنة خمسين وثلثمائة ، بأمر الأمير على بن الاخشيد . فتقدم كافور الى الخازن ببنائه ، وعمل له مستغلا . وكان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد همدان ، وهو مسجد مراحق بن عامر بن بكيل ، كان يجمع فيه الجمعة فى الجيزة .

وشارف بناء هذا الجامع ، مع الخازن ، أبو الحسن بن أبى جعفر الطحاوى .

واحتاجوا الى عمد للجامع ، فمضى الخازن فى الليل الى كنيسة بأعمال الجيزة فقلع عمدها ونصب بدلها أركانا ، وحمل العمد الى الجامع . فترك أبو الحسن بن الطحاوى الصلاة فيه مذ ذاك تورعا .

قال اليمنى : وقد كان ابن الطحاوى يصلى فى جامع الفسطاط العتيق وبعض عمده ، أو أكثرها ، ورخامه من كنائس الاسكندرية وأرياف مصر ، وبعضه بناه قرة بن شريك عامل الوليد بن عبد الملك .

ويقال ان بالجيزة قبر كعب الأحبار ، وانه كان بها أحجار ورخام قد صوورت فيها التماسيح ، فكانت لا تظهر فيما يلى البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علوا وسفلا .

وفى سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، منع الملك الناصر محمد بن قلاوون الوزير أن يتعرض الى شىء مما يتحصل من مال الجيزة ، فصار جميعه يحمل اليه * :

(*) ص٢٠٦ جـ١ ، ط.بولاق .

ذكر سجن يوسف عليه السلام

قال القضاعى : سجن يوسف عليه السلام ببوصير من عمل الجيزة ، أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان . وفيه أثر نبين : أحدهما يوسف ، سجن به المدة التى ذكر أن مبلغها سبع سنين ، وكان الوحى ينزل عليه فيه .

وسطح السجن موضع معروف باجابة الدعاء ... يذكر أن كافور الاخشيدى سأل أبا بكر بن الحداد عن موضع معروف باجابة الدعاء ليدعو فيه ، فأشار عليه بالدعاء على سطح السجن .

والنبى الآخر موسى عليه السلام ، وقد بنى على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى .

أخبرنا أبو الحسن على بن ابراهيم الشرفى بالشرف قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن الورد — وكان قد هلكت أخته وورث منها موروثا ، وكنا نسمع عليه دائما ، وكان لسجن يوسف وقت يمضى الناس اليه يتفرجون — فقال لنا يوما : ياأصحابنا ، هذا أوان السجن ، نريد أن نذهب اليه .

وأخرج عشرة دنانير فناولها لأصحابه وقال لهم : ما اشتهيتموه فاشتروه . فمضى أصحاب الحديث واشتروا ما أرادوا .

وعدينا يوم أحد الجيزة كلنا ، وبتنا فى مسجد همدان ، فلما كان الصباح مشينا حتى جئنا الى مسجد موسى ، وهو الذى فى السهل ، ومنه يطلع الى السجن ، وبينه وبين السجن تل عظيم من الرمل ، فقال الشيخ :

من يحملنى ويطلع بى الى هذا السجن حتى أحدثه بحديث لا أحدثه لأحد بعده حتى تفارق روحى الدنيا ؟

قال الشرقى : فأخذت الشيخ وحملته حتى صرت فى أعلاه ، فنزل وقال : معك ورقة ؟

قلت : لا .

قال : أبصر لى بلاطة .

فأخذ فحمة وكتب : حدثنى يحيى بن أيوب ، عن يحيى بن بكير ، عن زيد بن أسلم ابن يسار ، عن ابن عباس قال : ان جبريل أتى الى يوسف فى هذا السجن ، فى هذا البيت المظلم ، فقال له يوسف : من أنت الذى مذ دخلت السجن ما رأيت أحسن وجها منك ؟

فقال له : أنا جبريل .

فبكى يوسف فقال : ما يبكيك يانبى الله ؟

فقال : ايش يعمل جبريل فى مقام المذنبين ؟

فقال : أما علمت أن الله تعالى يطهر البقاع بالأنبياء ، والله لقد طهر الله بك السجن وما حوله .

فما أقام الى آخر النهار حتى أخرج من السجن !

قال القضاعى : سقط بين يحيى وزيد رجل .

وقال الفقيه أبو محمد أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى ، وذكر سجن يوسف : لو سافر الرجل من العراق ليصلى فيه وينظر اليه ، لما عنفته فى سفره .

وقال الفقيه أبو اسحاق المروزى : لو سافر الرجل من العراق لينظر اليه ما عنفته .

وذكر المسبحى فى حوادث شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة وأربعمائة : أن العامة والسوقة طافت الأسواق بمصر بالطبول والبوقات ، يجمعون من التجار وأرباب الأسواق ما ينفقونه فى مضيهم الى سجن يوسف ، فقال لهم التجار : شغلنا بعدم الأقوات يمنعنا من هذا . وكان قد اشتد الغلاء .

وأنهوا حالهم الى الحضرة المطهرة (يعنى أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله أبا الحسن على بن الحاكم بأمر الله) ، فرسم لنائب الدولة أبى طاهر بن كاف — متولى الشرطة السفلى — الترسيم على التجار حتى يدفعوا اليهم ما جرت به رسومهم ، ورسم لهم بالخروج الى سجن يوسف ، ووعدوا أن يطلق لهم من الحضرة ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية من الهبة ، فخرجوا .

وفى يوم السبت لتسع خلون من جمادى الأولى ركب القائد الأجل عز الدولة وسناها معضاد الخادم الأسود فى سائر الأتراك ووجوه القواد ، وشق البلد ونزل الى الصناعة التى بالجسر بمن معه . ثم خرج من هناك وعدى فى سائر عساكره الى الجيزة ، حتى رتب لأمير المؤمنين عساكر تكون معه مقيمة هناك لحفظه ، لأنه عدى يوم الاثنين لاحدى عشرة خلت منه فى أربع عشاريات وأربع عشرة بغلة من بغال النقل ، وفى جميع من معه من خاصته وحرمه الى سجن يوسف عليه السلام ، وأقام هناك يومين وليلتين ، الى أن عاد الرمادية الخارجون الى السجن بالتماثيل والمضاحك والحكايات والسماجات ،

فضحك منهم واستظرفهم ، وعاد الى قصره بكرة يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت منه .

وأقام أهل الأسواق نحو الأسبوعين يطرقون الشوارع بالخيال والسماجات والتماثيل ، ويطلعون الى القاهرة بذلك ليشاهدهم أمير المؤمنين ، ويعودون ومعهم سجل قد كتب لهم : ألا يعارض أحد منهم فى ذهابه وعوده ، وأن يعتمد اكرامهم وصيانتهم .

ولم يزالوا على ذلك الى أن تكامل جميعهم . وكان دخولهم من سجن يوسف يوم السبت لأربع عشرة بقيت من جمادى الأولى ، وشقوا الشوارع بالحكايات والسماجات والتماثيل ، فتعطل الناس فى ذلك اليوم عن أشغالهم ومعايشهم . واجتمع فى الأسواق خلق كثير لنظرهم ، وظل الناس أكثر هذا اليوم على ذلك .

وأطلق لجميعهم ثمانية آلاف درهم ، وكانوا اثنى عشر سوقا ، ونزلوا مسرورين .

وبخارج مدينة الجيزة موضع يعرف بأبى هريرة ، فيظن من لا علم له أنه أبو هريرة الصحابى ، وليس كذلك ، بل هو منسوب الى ابن ابنته * .

ذكر قرية ترسا

قال القضاعى : وذكر أن القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب ، عامل هشام بن عبد الملك على خراج مصر ، بنى فى الجيزة قرية تعرف بترسا .

(*) ص٢٠٧ جـ١ ، ط.بولاق *

والقاسم هذا خرج الى مصر وولى الخلافة عن أبيه عبيد الله بن الحبحاب السلولى على الخراج فى خلافة هشام بن عبد الملك . ثم أمره هشام على خراج مصر حين خرج أبوه الى امارة افريقية فى سنة ست عشرة ومائة ، فلم يزل الى سنة أربع وعشرين ومائة ، فنزع عن مصر . وجمع لحفص بن الوليد عربها وعجمها ، فصار يلى الخراج والصلات معا .

وبترسا هذه كانت وقعة هارون بن محمد الجعدى .

ذكر منية اندونة

هى احدى قرى الجيزة ، عرفت بأندونة كاتب أحمد المداينى الذى كان يتقلد ضياع موسى بن بغا التى بمصر ، فقبض أحمد بن طولون على أندونة هذا — وكان نصرانيا — فأخذ منه خمسين ألف دينار .

ذكر وسيم

قال ابن عبد الحكم : وخرج عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر الى وسيم ، وكانت لرجل من القبط ، فسأل عبد الله أن يأتيه الى منزله ويجعل له مائة ألف دينار . فخرج اليه عبد الله بن عبد الملك .

وقيل انما خرج عبد الله الى قرية أبى النمرس مع رجل من الكتاب يقال له ابن حنظلة . فأتى عبد الله العزل وولاية قرة بن

شريك وهو هناك . فلما بلغه ذلك قام ليلبس سراويله فلبسه منكوسا .

وقيل ان عبد الله لما بلغه العزل ، رد المال على صاحبه وقال : قد عزلنا .

وكان عبد الله قد ركب معه الى المعدية ، وعدى أصحابه قبله وتأخر ، فورد الكتاب بعزله فقال صاحب المال : والله لابد أن تشرف منزلى ، وتكون ضيفى ، وتأكل طعامى . ووالله لا عاد لى شىء من ذلك ، ولا أدعك منصرفا . فعدى معه .

ذكر منية عقبة

هذه القرية بالجيزة عرفت بعقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه .

قال ابن عبد الحكم : كتب عقبة بن عامر الى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما يسأله أرضا يسترفق فيها عند قرية عقبة ، فكتب له معاوية بألف ذراع فى ألف ذراع ، فقال له مولى له كان عنده : انظر أصلحك الله أرضا صالحة .

فقال عقبة : ليس لنا ذلك ، ان فى عهدهم شروطا ستة : منها ألا يؤخذ من أرضهم شىء ، ولا من نسائهم ولا من أولادهم ، ولا يزاد عليهم ، ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم . وأنا شاهد لهم بذلك .

وفى رواية : كتب عقبة الى معاوية يسأله نقيعا فى قرية يبنى فيها منازل ومساكن ، فأمر له معاوية بألف ذراع فى ألف ذراع ، فقال له مواليه ومن كان عنده : انظر الى أرض تعجبك فاختط فيها وابتن .

فقال : انه ليس لنا ذلك . لهم فى عهدهم ستة شروط : منها ألا يؤخذ من أرضهم شىء ، ولا يزاد عليهم ، ولا يكلفوا غير طاقتهم ، ولا تؤخذ ذراريهم ، وأن يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم .

قال أبو سعيد بن يونس : وهذه الأرض التى اقتطعها عقبة هى المنية المعروفة بمنية عقبة فى جيزة فسطاط مصر : عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو بن عدى بن عمرو بن رفاعة بن مودوعة بن عدى بن غنم بن الربعة بن رشدان ابن قيس بن جهينة .. كذا نسبه أبو عمرو الكندى .

وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر : عقبة ابن عامر بن حسن الجهنى من جهينة بن زيد ابن مسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة — وقد اختلف فى هذا النسب — يكنى أبا حماد ، وقيل أبا أسد ، وقيل أبا عمرو ، وقيل أبا سعاد ، وقيل أبا الأسود .

وقال خليفة بن خياط : وقتل أبو عامر عقبة ابن عامر الجهنى يوم النهروان شهيدا ، وذلك سنة ثمان وثلاثين . وهذا غلط منه ، وفى كتابه بعد : وفى سنة ثمان وخمسين توفى عقبة ابن عامر الجهنى .

قال : سكن عقبة بن عامر مصر ، وكان واليا عليها ، وابتنى بها دارا ، وتوفى فى آخر خلافة معاوية . روى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وأبو امامة ومسلمة بن مخلد ، وأما رواته من التابعين فكثير .

وقال الكندى : ثم وليها عقبة بن عامر من قبل معاوية ، وجمع له صلاتها وخراجها ، فجعل على شرطته حمادا . وكان عقبة قارئا فقيها فرضيا شاعرا ، له الهجرة والصحبة السابقة . وكان صاحب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء الذى يقودها فى الأسفار . وكان صرف عقبة عن مصر بمسلمة ابن مخلد ، لعشر بقين من ربيع الأول سنة أربعين . فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر .

وقال ابن يونس : توفى بمصر سنة ثمان وخمسين ، ودفن فى مقبرتها بالمقطم . وكان يخضب بالسواد ، رحمه الله (*) تعالى .

ذكر حلوان

يقال انها تنسب الى حلوان بن بابليون بن عمرو بن امرىء القيس ملك مصر بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان . وكان حلوان هذا بالشام على مقدمة أبرهة ذى المنار أحد التبابعة .

قال ابن عبد الحكم : وكان الطاعون قد وقع بالفسطاط ، فخرج عبد العزيز بن مروان من الفسطاط فنزل بحلوان داخلا فى الصحراء فى موضع منها يقال له أبو قرقورة ، وهو رأس العين التى احتفرها عبد العزيز بن مروان وساقها الى نخيله التى غرسها بحلوان .

فكان ابن خديج يرسل الى عبد العزيز فى كل يوم بخبر ما يحدث فى البلد من موت وغيره ، فأرسل اليه ذات يوم رسولا فأتاه فقال له عبد العزيز : ما اسمك ؟

فقال : أبو طالب .

فثقل ذلك على عبد العزيز وغاظه .

فقال له عبد العزيز : أسألك عن اسمك فتقول أبو طالب ! ما اسمك ؟

فقال : مدرك ... فتفاءل بذلك .

ومرض فى مخرجه ذلك ومات هنالك ، فحمل فى البحر يراد به الفسطاط حتى تغير ، فأنزل فى بعض خصوص ساحل مريس فغسل فيه وأخرجت من هنالك جنازته ، وخرج معه بالمجامر فيها العود لما كان قد تغير من ريحه .

وأوصى عبد العزيز أن يمر بجنازته اذا مات على منزل جناب بن مرثد بن زيد بن هانىء الرعينى صاحب حرسه — وكان صديقا له ، وقد توفى قبل عبد العزيز — فمر بجنازته على باب جناب ، وقد خرج عيال جناب ولبسن السواد ووقفن على الباب صائحات ثم اتبعنه الى المقبرة .

وكان لنصيب من عبد العزيز ناحية ، فقدم عليه فى مرضه فأذن له ، فلما رأى شدة مرضه أنشأ يقول :

وتزور سيدنا وسيد غيرنا
ليت التشكى كان بالعواد
لو كان يقبل فدية لفديته
بالمصطفى من طارق وتلادى

فلما سمع صوته فتح عينيه وأمر له بألف دينار . واستبشر بذلك آل عبد العزيز وفرحوا به ، ثم مات .

(*) ص٢٠٨ ج١ ، ط. بولاق .

وقال الكندى : ووقع الطاعون بمصر فى سنة سبعين ، فخرج عبد العزيز بن مروان منها الى الشرقية متبديا ، فنزل حلوان فأعجبه ، فاتخذها وسكنها . وجعل بها الحرس والأعوان والشرط ، فكان عليهم جناب بن مرثد بحلوان .

وبنى عبد العزيز بحلوان الدور والمساجد ، وعمرها أحسن عمارة وأحكمها ، وغرس نخلها وكرمها ، فقال ابن قيس الرقيات :

سقيا لحلوان ذى الكروم وما
صنف من تينه ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من ال
سبرنى يهتز ثم فى سربه
أسود سكانه الحمام فما
ينفك غربانه على رطبه

ولما غرس عبد العزيز نخل حلوان وأطعم ، دخله والجند معه ، فجعل يطوف فيه ويقف على غروسه ومساقيه ، فقال يزيد بن عروة الجبلى : ألا قلت أيها الأمير كما قال العبد الصالح : ما شاء الله لا قوة الا بالله !!

فقال : أذكرتنى ، شكرا ياغلام ، قل لأيناس يزيد فى عطائه عشرة دنانير .

عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى أبو الأصبغ ، أمه ليلى ابنة زبان بن الأصبغ الكندى . روى عن أبى هريرة وعقبة بن عامر الجهنى ؛ وروى عنه على بن رباح وبحير بن داخرة وعبيد الله بن مالك الخولانى وكعب بن علقمة ، ووثقه النسائى وابن سعد .

ولما سار أبوه مروان الى مصر ، بعثه فى جيش الى أيلة ليدخل مصر من تلك الناحية ، فبعث اليه ابن جحدم أمير مصر بجيش عليهم زهير بن قيس البلوى ، فلقى عبد العزيز ببصاق — وهى سطح عقبة أيلة — فقاتله فانهزم زهير ومن معه .

فلما غلب مروان على مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس وستين ، جعل صلاتها وخراجها الى ابنه عبد العزيز بعد ما أقام بمصر شهرين ، فقال عبد العزيز : ياأمير المؤمنين ، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟

فقال له مروان : يابنى ، عمهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقا تصفُ لك مودتهم ، وأوقع الى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن لك عينا على غيره ، وينقاد قومه اليك . وقد جعلت معك أخاك بشرا مؤنسا ، وجعلت لك موسى ابن نصير وزيرا ومشيرا . وما عليك يابنى أن تكون أميرا بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من اغلاق بابك وخمولك فى منزلك ؟

وأوصاه عند مخرجه من مصر الى الشام فقال : أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . وأوصيك ألا تجعل لداعى الله عليك سبيلا ، فان المؤذن يدعو الى فريضة افترضها الله ، ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا . وأوصيك ألا تعد الناس موعدا

الا أنفذته لهم ، وان حملته على الأسنة . وأوصيك ألا تعجل فى شىء من * الحكم حتى تستشير ، فان الله لو أغنى أحدا عن ذلك لأغنى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عن ذلك بالوحى الذى يأتيه ... قال الله عز وجل : « وشاورهم فى الأمر » .

وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة خمس وستين ، فوليها عبد العزيز على صلاتها وخراجها .

وتوفى مروان لهلال رمضان ، وبويع ابنه عبد الملك بن مروان ، فأقر أخاه عبد العزيز . ووفد على عبد الملك فى سنة سبع وستين ، وجعل على الحرس والخيل والأعوان جناب ابن مرثد الرعينى ، فاشتد سلطانه . وكان الرجل اذا أغلظ لعبد العزيز وخرج ، تناوله جناب ومن معه فضربوه وحبسوه .

وعبد العزيز أول من عرف بمصر فى سنة احدى وسبعين ... قال يزيد بن أبى حبيب : أول من أحدث القعود يوم عرفة فى المسجد بعد العصر عبد العزيز بن مروان .

وفى سنة اثنتين وسبعين ، صرف بعث البحر الى مكة لقتال عبد الله بن الزبير ، وجعل عليهم مالك بن شرحبيل الخولانى ، وهم ثلاثة آلاف رجل فيهم عبد الرحمن بن بحنس مولى ابن ابزى ، وهو الذى قتل ابن الزبير .

وخرج الى الاسكندرية فى سنة أربع وسبعين ، ووفد على أخيه عبد الملك فى سنة خمس وسبعين ، وهدم جامع الفسطاط كله ، وزاد فيه من جوانبه كلها فى سنة سبع وسبعين ، وأمر بضرب الدنانير المنقوشة .

(*) ص٢٠٩ جـ١ ، ط.بولاق .

وقال ابن عفير : كان لعبد العزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره . وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل .

وكتب عبد الملك اليه أن ينزل له عن ولاية العهد ليعهد الى الوليد وسليمان ، فأبى ذلك وكتب اليه : ان يكن لك ولد فلنا أولاد ، ويقضى الله ما يشاء .

فغضب عبد الملك ، فبعث اليه عبد العزيز بعلى بن رباح يترضاه . فلما قدم على عبد الملك ، استعطفه على أخيه ، فشكا عبد الملك وقال : فرق الله بينى وبينه .

فلم يزل به على حتى رضى ، فقدم على عبد العزيز فأخبره عن عبد الملك وعن حاله ، ثم أخبره بدعوته فقال له : أفعل ؟ أنا والله مفارقه ، والله ما دعا دعوة قط الا أجيبت .

وكان عبد العزيز يقول : قدمت مصر فى امرة مسلمة بن مخلد ، فتمنيت بها ثلاث أمانى فأدركتها : تمنيت ولاية مصر ، وأن أجمع بين امرأتى مسلمة ، ويحجبنى قيس بن كليب حاجبه .

فتوفى مسلمة ، وقدم مصر فوليها ، وحجبه قيس ، وتزوج امرأتى مسلمة .

وتوفى ابنه الأصبغ بن عبد العزيز لتسع بقين من ربيع الآخر سنة ست وثمانين . فمرض عبد العزيز ، وتوفى ليلة الاثنين لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين . فحمل فى النيل من حلوان الى الفسطاط فدفن بها .

وقالَ ابن أبى مليكة : رأيت عبدَ العزيز بن مروان حين حضره الموت يقول : ألا ليتنى لم أكُ شيئًا مذكورا ، ألا ليتنى كابتة من الأرض أو كراعى ابل فى طرف الحجاز .

ولما مات لم يوجد له مال ناض الا سبعة آلاف دينار ، وحلوان والقيسارية ، وثياب بعضها مرقوع ، وخيل ، ورقيق . وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما ، ولم يلها فى الاسلام قبله أطول ولاية منه .

وكانَ بحلوان فى النيل معدية من صوانْ تعدى بالخيل ، تحمل فيها الناس وغيرهم من البر الشرقى بحلوان الى البر الغربى . فلما كان ... ...

وهذا من الأسرار التى فى الخليقة . فان جميع الأجسام المعدنية ، كالحديد والنحاس والفضة والرصاص والذهب والقصدير ، اذا عمل من شىء منها اناء يسع من الماء أكثر من وزنه فانه يعوم على وجه الماء ، ويحمل ما يمسكه ولا يغرق .

وما برح المسافرون فى بحر الهند — اذا أظلم عليهم الليل ولم يروا ما يهديهم من الكواكب الى معرفة الجهات — يحملون حديدة مجوفة على شكل سمكة ويبالغون فى ترقيتها بجهد المقدرة ، ثم يعمل فى فم السمكة شىء من مغناطيس جيدا ، ويحك فيها بالمغناطيس ، فان السمكة اذا وضعت فى الماء دارت واستقبلت القطب الجنوبى بفمها ، واستدبرت القطب الشمالى ، وهذا أيضا من أسرار الخليقة .

فاذا عرفوا جهتى الجنوب والشمال ، تبين منهما المشرق والمغرب ، فان من استقبل الجنوب فقد استدبر الشمال وصار المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره . فاذا تحددت الجهات الأربع ، عرفوا مواقع البلاد بها ، فيقصدون حينئذ جهة الناحية التى يريدونها .

ذكر مدينة العريش

العريش مدينة فيما بين أرض فلسطين واقليم مصر . وهى مدينة قديمة من جملة المدائن التى اختطت بعد الطوفان .

قال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه عن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام : وكان غلاما مرفها ، فلما قرب من مصر بنى له عرشا من أغصان الشجر وستره بحشيش الأرض . ثم بنى له بعد ذلك فى هذا الموضع مدينة وسماها دوسان (أى باب الجنة) . فزرعوا وغرسوا الأشجار والجنان من دوسان الى البحر ، فكانت كلها زروعا وجنانا وعمارة .

وقال آخر : انما سميت بذلك لأن بيصر ابن حام بن نوح تحصل فى ولده ، وهم أربعة ومعهم * أولادهم ، فكانوا ثلاثين ما بين ذكر وأنثى . وقدم ابنه مصر بن بيصر أمامه نحو أرض مصر حتى خرج من حد الشام ، فتاهوا وسقط مصر فى موضع العريش — وقد اشتد تعبه — ونام ، فرأى قائلا يبشره بحصوله فى أرض ذات خير ودر وملك وفخر . فانتبه فزعا ، فاذا عليه عريش من

(*) ص ٢١٠ جـ١ ، ط بولاق .

أطراف الشجر ، وحوله عيون ماء . فحمد الله وسأله أن يجمعه بأبيه واخوته ، وأن يبارك له فى أرضه ، فاستجيب له ، وقادهم الله اليه فنزلوا فى العريش وأقاموا به . فأخرج الله لهم من البحر دواب ما بين خيل وحمر وبقر وغنم وابل ، فساقوها حتى أتوا موضع مدينة منف فنزلوه ، وبنوا فيه قرية سميت بالقبطية مافة (يعنى قرية ثلاثين) .

فنمت ذرية بيصر حتى عمروا الأرض وزرعوا ، وكثرت مواشيهم . وظهرت لهم المعادن ، فكان الرجل منهم يستخرج القطعة من الزبرجد يعمل منها مائدة كبيرة ، ويخرج من الذهب ما تكون القطعة منه مثل الأسطوانة ، وكالبعير الرابض .

وقال ابن سعيد عن البيهقى : كان دخولُ اخوة يوسف وأبويه عليهم السلام عليه بمدينة العريش ، وهى أول أرض مصر ، لأنه خرج الى تلقيهم حتى نزل المدينة بطرف سلطانه . وكان له هناك عرش — وهو سرير السلطنة — فأجلس أبويه عليه . وكانت تلك المدينة تسمى فى القديم بمدينة العرش لذلك ، ثم سمتها العامة مدينة العريش فغلب ذلك عليها .

ويقال انه كان ليوسف عليه السلام حرس فى أطراف أرض مصر من جميع جوانبها . فلما أصاب الشام القحط ، وسارت اخوة يوسف لتمتار من مصر ، أقاموا بالعريش . وكتب صاحب الحرس الى يوسف : ان أولاد يعقوب الكنعانى يريدون البلد لقحط نزل بهم . فعمل اخوة يوسف عند ذلك عرشا يستظلون به من الشمس حتى يعود الجواب ، فسمى الموضع العريش . وكتب يوسف بالاذن لهم ، فكان من شأنهم ما قد ذكر فى موضعه .

ويقال للعريش الخ ... فهذا كما ترى . وابن وصيف شاه أعرف بأخبار مصر .

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة ، طرق عبد الله بن ادريس الجعفرى العريش بمعاونة بنى الجراح ، وأحرقها وأخذ جميع ما فيها .

وقال القاضى الفاضل : وفى جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ورد الخبر بأن نخل العريش قطع الفرنج أكثره وحملوا جذوعه الى بلادهم ، وملئت منه ، ولم يجدوا مخاطبا على ذلك .

ونقلَ عن ابن عبد الحكم أن الجفار بأجمعه كان أيام فرعون موسى فى غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان ، وأن قول الله تعالى : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » عن هذه المواضع ، وأن العمارة كانت متصلة منه الى اليمن ، ولذلك سميت العريش عرشا .

وقيل انها نهاية التخوم من الشام ، وان اليه كان ينتهى رعاة ابراهيم الخليل عليه السلام بمواشيه ، وانه عليه السلام اتخذ به عرشا كان يجلس فيه حتى تحلب مواشيه بين يديه ، فسمى العريش من أجل ذلك .

وقيل ان مالك بن دعر بن حجر بن جذيلة ابن لخم كان له أربعة وعشرون ولدا ، منهم

العريش بن مالك ، وبه سميت العريش لأنه نزل بها وبناها مدينة .

وعن كعب الأحبار أن بالعريش قبور عشرة أنبياء .

ذكر مدينة الفرماء

قال البكرى : الفرماء — بفتح أوله وثانيه ممدود على وزن فعلاء وقد يقصر — مدينة تلقاء مصر .

وقال ابن خالويه فى كتاب « ليس » : الفرما هذه سميت بأخى الاسكندر ، كان يسمى الفرما ، وكان كافرا . وهى قرية أم اسماعيل بن ابراهيم ... انتهى .

ويقال اسمه الفرما بن فيلقوس ، ويقال فيه ابن فليس ، ويقال بليس . وكانت الفرما على شط بحيرة تنيس ، وكانت مدينة خصباء ، وبها قبر جالينوس الحكيم .

وبنى بها المتوكل على الله حصنا على البحر ، تولى بناءه عنبسة بن اسحاق أمير مصر فى سنة تسع وثلاثين ومائتين عندما بنى حصن دمياط وحصن تنيس ، وأنفق فيها مالا عظيما .

ولما فتح عمرو بن العاص عين شمس أنفذ الى الفرماء أبرهة بن الصباح ، فصالحه أهلها على خمسمائة دينار هرقلية وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم ، فرحل عنهم الى البقارة .

وفى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة نزل الروم عليها ، فنفر الناس اليهم وقتلوا منهم رجلين .

ثم نزلوا فى جمادى الأولى سنة تسع وأربعين وثلثمائة ، فخرج اليهم المسلمون وأخذوا منهم مركبا ، وقتلوا من فيه وأسروا عشرة .

وقال اليعقوبى : الفرما أول مدن مصر من جهة الشمال ، وبها أخلاط من الناس . وبينها وبين البحر الأخضر ثلاثة أميال .

وقال ابن الكندى : ومنها الفرما ، وهى أكثر عجائب ، وأقدم آثارا . ويذكر أهل مصر أنه كان منها طريق الى جزيرة قبرس فى البر ، فغلب عليها البحر . ويقولون انه كان فيما غلب عليه البحر مقطع الرخام الأبلق ، وأن مقطع الأبيض بلوبية .

وقال يحيى بن عثمان : كنت أرابط فى الفرما ، وكان بينها وبين البحر قريب من يوم ، يخرج الناس والمرابطون فى أخصاص على الساحل ، ثم علا البحر على ذلك كله * .

وقال ابن قديد : وجه ابن المدبر — وكان بتنيس — الى الفرما فى هدم أبواب من حجارة شرقى الحصن احتاج أن يعمل منها جيرا . فلما قلع منها حجر أو حجران خرج أهل الفرما بالسلاح فمنعوا من قلعها وقالوا : هذه الأبواب التى قال الله فيها على لسان يعقوب عليه السلام : « يابنى ، لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » .

والفرما بها النخل العجيب الذى يثمر حين ينقطع البسر والرطب من سائر الدنيا ، فيبتدىء هذا الرطب من حين يلد النخل فى الكوانين ، فلا ينقطع أربعة أشهر حتى يجىء البلح فى الربيع . وهذا لا يوجد فى بلد من

(*) ص١١١ جـ١ ، طـ بولاق .

البلدان ، لا بالبصرة ، ولا بالحجاز ، ولا باليمن ، ولا بغيرها من البلدان . ويكون فى هذا البسر ما وزن البسرة الواحدة فوق العشرين درهما ، وفيه ما طول البسرة نحو الشبر والفتر .

وقال ابن المأمون البطايحى فى حوادث سنة تسع وخمسمائة : ووصلت النجابون من والى الشرقية تخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل الى أعمال الفرما .

فسير الأفضل بن أمير الجيوش للوقت الى والى الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين بها ، وسير الراجل من العطوفية ، وأن يسير الوالى بنفسه بعد أن يتقدم الى العربان بأسرهم بأن يكونوا فى الطوالع ، ويطاردوا الفرنج ، ويشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر اليهم ... فاعتمد ذلك .

ثم أمر باخراج الخيام وتجهيز الأصحاب والحواشى .

فلما تواصلت العساكر وتقدمها العربان ، وطاردوا الفرنج ، وعلم بغدوين ملك الفرنج أن العساكر متواصلة اليه ، وتحقق أن الاقامة لا تمكنه ، أمر أصحابه بالنهب والتخريب والاحراق ، وهدم المساجد ، فأحرق جامعها ومساجدها وجميع البلد ، وعزم على الرحيل ، فأخذه الله سبحانه وتعالى ، وعجل بنفسه الى النار . فكتم أصحابه موته ، وصاروا بعد أن شقوا بطن بغدوين وملأوه ملحا حتى بقى الى بلاده ، فدفنوه بها .

وأما العساكر الاسلامية ، فانهم شنوا الغارات على بلاد العدو ، وعادوا بعد أن خيموا على ظاهر عسقلان .

وكتب الى الأمير ظهير الدين طغدكين — صاحب دمشق — بأن يتوجه الى بلاد الفرنج . فسار الى عسقلان ، وحملت اليه الضيافات .

وطولع بخبر وصوله فأمر بحمل الخيام وعدة وافرة من الخيل والكسوات والبنود والأعلام وسيف ذهب ومنطقة ذهب وطوق ذهب وبدلة طقم وخيمة كبيرة مكملة ومرتبة ملوكية وفرشها وجميع آلاتها وما تحتاج اليه من آلات الفضة .

وسير برسم شمس الخواص — وهو مقدم كبير — خلعة مذهبة ومنطقة ذهب وسيف .

وسير برسم المميزين من الواصلين خلع وسيوف . وسلم ذلك يثبت لأحد الحجاب ، وسير معه فراشان برسم الخيام .

وأمر بضرب الخيمة الكبيرة وفرشها ، وأن يركب والى عسقلان ، وظهير الدين وشمس الخواص وجميع الأمراء الواصلين والمقيمين بعسقلان الى باب الخيمة ويقبلوه ، ثم الى بساطها والمرتبة المنصوبة ، ثم يجلس الوالى وظهير الدين وشمس الخواص والمقدمون ويقف الناس بأجمعهم اجلالا وتعظيما . ويخلع على الأمير ظهير الدين وشمس الخواص ، وتشد المناطق فى أوساطهما ، ويقلدا بالسيوف ، ويخلع بعدهما على المميزين ، ثم يسير ظهير الدين والمقدمون بالتشريف والأعلام والرايات المسيرة اليهم ، الى أن يصلوا الى الخيام التى ضربت لهم . فاذا كان كل يوم يركب الوالى والأمراء والمقدمون والعساكر الى الخيمة الملوكية ،

ويتفاوضون فيما يجب من تدبير العساكر ... فامتثل ذلك .

وتواصلت الغارات على بلاد العدو ، وأسروا وقتلوا . فسيرت اليهم الخلع ثانيا ، وجعل لشمس الخواص خاصة فى هذه السفرة عشرة آلاف دينار ، وتسلم ظهير الدين الخيمة الكبيرة بما فيها . وكان تقدير ما حصل له ولأصحابه ثلاثين ألف دينار . وبلغ المنفق فى هذه النوبة وعلى ذهاب بغدوين وهلاكه مائة ألف دينار .

وفى شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة نزل الفرنج على الفرما فى جمع كبير وأحرقوها ونهبوا أهلها .

وآخر أمرها أن الوزير شاور خربها لما خرج منها متوليها ملهم أخو الضرغام فى سنة ... فاستمرت خرابا لم تعمر بعد ذلك .

وكان بالفرما والبقارة والورادة عرب من جذام يقال لهم القاطع ، وهو جرى بن عوف ابن مالك بن شنوءة بن بديل بن جشم بن جذام ، منهم عبد العزيز بن الوزير بن صابى ابن مالك بن عامر بن عدى بن حرش بن بقر ابن نصر بن القاطع ، مات فى صفر سنة خمس ومائتين .

وللسروى والجروى هنا أخبار كثيرة نبهنا عليها فى كتاب « عقد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط » .

وقال ابن الكندى : وبها مجمع البحرين ، وهو البرزخ الذى ذكره الله عز وجل فقال : « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » ، وقال : « وجعل بين البحرين حاجزا » ، وهما بحر الروم وبحر الصين ، والحاجز بينهما مسيرة ليلة ما بين القلزم والفرما . وليس يتقاربان فى بلد من البلدان أقرب منهما بهذا الموضع ، وبينهما فى السفر مسيرة شهور .

ذكر مدينة القلزم

القلزم — بضم القاف وسكون اللام وضم الزاى وميم — بلدة كانت على ساحل بحر اليمن فى أقصاه من جهة مصر . وهى كورة من كور مصر ، واليها ينسب بحر القلزم ، وبالقرب منها غرق فرعون ، وبينها وبين مدينة مصر ثلاثة أيام .

وقد خربت ، ويعرف اليوم موضعها بالسويس تجاه عجرود .

ولم يكن بالقلزم ماء ولا شجر ولا زرع ، وانما يحمل الماء اليها من آبار بعيدة . وكان بها فرضة مصر والشام ، ومنها تحمل الحمولات الى الحجاز واليمن .

ولم يكن بين القلزم وفاران قرية ولا مدينة . وهى نخل يسير فيه صيادو السمك . وكذلك من فاران وجيلان الى أيلة .

قال ابن الطوير : والبلد المعروف بالقلزم آثارها باق الى اليوم . ويراها الراكب السائر من مصر الى الحجاز .

وكانت فى القديم ساحلا من سواحل الديار المصرية . ورأيت شيئا من حسابه من جهة مستخدميه فى حواصل القصر وما ينفق على

(*) ص٢١٢ ج١ ، ط.بولاق .

واليه وقاضيه وداعيه وخطيبه والأجناد المركزين به لحفظه وقربه وجامعه ومساجده ، وكان مسكونا مأهولا .

قال المسبحى فى حوادث سنة سبع وثمانين وثلثمائة : وفى شهر رمضان سامح أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أهل مدينة القلزم مما كان يؤخذ من مكوس المراكب .

وقال ابن خرداذبة عن التجار : فيركبون فى البحر الغربى ، ويخرجون بالفرماء ويحملون تجاراتهم على الظهر الى القلزم — وبينهما خمسة وعشرون فرسخا — ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى تجار جدة ، ثم يمضون الى السند والهند والصين . ومن القلزم ينزل الناس فى برية وصحراء ست مراحل الى أيلة ، ويتزودون من الماء لهذه المراحل الست .

ويقال ان بين القلزم وبحر الروم ثلاث مراحل ، وان ما بينهما هو البرزخ الذى ذكره الله تعالى بقوله « بينهما برزخ لا يبغيان » .

التيه

هو أرض بالقرب من أيلة ، بينهما عقبة لا يكاد الراكب يصعدها لصعوبتها ، الا أنها مهدت فى زمان خمارويه بن أحمد بن طولون . ويسير الراكب مرحلتين فى محض التيه هذا حتى يوافى ساحل بحر فاران ، حيث كانت مدينة فاران ، وهناك غرق فرعون .

والتيه مقدار أربعين فرسخا فى مثلها ، وفيه تاه بنو اسرائيل أربعين سنة ، لم يدخلوا مدينة ولا أووا الى بيت ، ولا بدلوا ثوبا . وفيه مات موسى عليه السلام .

ويقال ان طول التيه نحو من ستة أيام .

واتفق أن المماليك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين ، فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، مر طائفة منهم بالتيه فتاهوا فيه خمسة أيام ، ثم تراءى لهم فى اليوم السادس سواد على بعد ، فقصدوه فاذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلها من رخام أخضر ، فدخلوا بها وطافوا بها فاذا هى قد غلب عليها الرمل حتى طم أسواقها ودورها . ووجدوا بها أوانى وملابس ، وكانوا اذا تناولوا منها شيئا تناثر من طول البلى . ووجدوا فى صينية بعض البزازين تسعة دنانير ذهبا ، عليها صورة غزال وكتابة عبرانية ، وحفروا موضعا ، فاذا حجر على صهريج ماء فشربوا منه ماء أبرد من الثلج .

ثم خرجوا ومشوا ليلة ، فاذا بطائفة من العربان فحملوهم الى مدينة الكرك . فدفعوا الدنانير لبعض الصيارفة ، فاذا عليها أنها ضربت فى أيام موسى عليه السلام . ودفع لهم فى كل دينار مائة درهم .

وقيل لهم ان هذه المدينة الخضراء من مدن بنى اسرائيل ، ولها طوفان رمل يزيد تارة وينقص أخرى ، لا يراها الا تائه . والله أعلم .

ذكر مدينة دمياط

اعلم أن دمياط كورة من كور أرض مصر ، بينها وبين تنيس اثنا عشر فرسخا .

ويقال سميت بدمياط من ولد أشمن بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

ويقال ان ادريس عليه السلام كان أول ما أنزل عليه ذو القوة والجبروت : أنا الله مدين المدائن ، الفلك بأمرى وصنعى ، أجمع بين العذب والملح والنار والثلج ، وذلك بقدرتى ومكنون علمى الدال والميم والألف والطاء.

قيل هم بالسريانية دمياط ، فتكون دمياط كلمة سريانية أصلها دمط : أى القدرة ، اشارة الى مجمع العذب والملح.

وقال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه : دمياط بلد قديم بنى فى زمن قليمون بن أتريب ابن قبطيم بن مصرايم على اسم غلام كانت أمه ساحرة لقليمون.

ولما قدم المسلمون الى أرض مصر ، كان على دمياط رجل من أخوال المقوقس يقال له الهاموك . فلما افتتح عمرو بن العاص مصر ، امتنع الهاموك بدمياط واستعد للحرب ، فأنفذ اليه عمرو بن العاص المقداد بن الأسود فى طائفة من المسلمين ، فحاربهم الهاموك ، وقتل ابنه فى الحرب ، فعاد الى دمياط ، وجمع اليه أصحابه فاستشارهم فى أمره.

وكان عنده حكيم قد حضر الشورى . فقال : أيها الملك ، ان جوهر العقل لا قيمة له ، وما استغنى به أحد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك ، وهؤلاء * العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية ، وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد ، وما لأحد عليهم قدرة ، ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع . وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر . والرأى أن تعقد مع القوم صلحا تنال به الأمن وحقن الدماء وصيانة الحرم ، فما أنت بأكثر رجالا من المقوقس.

فلم يعبأ الهاموك بقوله ، وغضب منه فقتله . وكان له ابن عارف عاقل ، وله دار ملاصقة للسور ، فخرج الى المسلمين فى الليل ودلهم على عورات البلد ، فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها . وبرز الهاموك للحرب ، فلم يشعر بالمسلمين الا وهم يكبرون على سور البلد وقد ملكوه . فعندما رأى شطا بن الهاموك المسلمين فوق السور ، لحق بالمسلمين ومعه عدة من أصحابه . ففت ذلك فى عضد أبيه واستأمن للمقداد . فتسلم المسلمون دمياط ، واستخلف المقداد عليها ، وسير بخبر الفتح الى عمرو بن العاص.

وخرج شطا — وقد أسلم — الى البرلس والدميرة وأشموم طناح ، فحشد أهل تلك النواحى وقدم بهم مددا للمسلمين وعونا لهم على عدوهم.

وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس ، فبرز لأهلها وقاتلهم قتالا شديدا حتى قتل رحمه الله فى المعركة شهيدا ، بعد ما أنكى فيهم وقتل منهم ، فحمل من المعركة ودفن فى مكانه المعروف به خارج دمياط . وكان قتله فى ليلة الجمعة النصف من شعبان ، فلذلك صارت هذه الليلة من كل سنة موسما يجتمع الناس فيها من النواحى عند شطا ويحيونها ، وهم على ذلك الى اليوم.

(*) ص٢١٢ جـ١ ، ط. بولاق.

وما زالت دمياط بيد المسلمين الى أن نزل عليها الروم فى سنة تسعين من الهجرة فأسروا خالد بن كيسان — وكان على البحر هناك — وسيروه الى ملك الروم ، فأنفذه الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التى كانت بينه وبين الروم.

فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك نازل الروم دمياط فى ثلثمائة وستين مركبا ، فقتلوا وسبوا ، وذلك فى سنة احدى وعشرين ومائة.

ولما كانت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون ، وكانت الفتن بأرض مصر ، طمع الروم فى البلاد ، ونازلوا دمياط فى أعوام بضع ومائتين.

ثم لما كانت خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحاق ، نزل الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، فملكوها وما فيها ، وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين ، وسبوا النساء والأطفال وأهل الذمة . فنفر اليهم عنبسة بن اسحاق يوم النحر فى جيشه ، ونفر كثير من الناس اليهم فلم يدركوهم . ومضى الروم الى تنيس فأقاموا بأشتومها ، فلم يتبعهم عنبسة ، فقال يحيى بن الفضيل للمتوكل :

أترضى بأن يوطا حريمك عنوة
وأن يستباح المسلمون ويحربوا

حمار أتى دمياط والروم وثب
بتنيس رأى العين منه وأقرب

مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما
أصابوه من دمياط والحرب ترتب

فما رام من دمياط شبرا ولادرى
من العجز ما يأتى وما يتجنب

فلا تنسنا انا بدار مضيعة
بمصر ، وان الدين قد كاد يذهب

فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط ، فابتدىء فى بنائه يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين ، وأنشأ من حينئذ الأسطول بمصر.

فلما كان فى سنة سبع طرق الروم دمياط فى نحو مائتى مركب ، فأقاموا يعيشون فى السواحل شهرا وهم يقتلون ويأسرون ، وكانت للمسلمين معهم معارك.

ثم لما كانت الفتن بعد موت كافور الاخشيدى ، طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة فى بضع وعشرين مركبا ، فقتلوا وأسروا مائة وخمسين من المسلمين.

وفى سنة ثمان وأربعمائة ، ظهر بدمياط سمكة عظيمة طولها مائتان وستون ذراعا ، وعرضها مائة ذراع . وكانت حمير الملح تدخل فى جوفها موسوقة فتفرغ وتخرج ، ووقف خمسة رجال فى قحفها ومعهم المجاريف يجرفون الشحم ويناولونه الناس ، وأقام أهل تلك النواحى مدة طويلة يأكلون من لحمها.

وفى أيام الخليفة الفائز بنصر الله عيسى ، والوزير حينئذ الصالح طلائع بن رزيك ، نزل

على دمياط نحو ستين مركبا فى جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسمائة بعث بها لوجيز ابن رجا وصاحب صقلية ، فعاثوا وقتلوا ، ونزلوا تنيس ورشيد والاسكندرية ، فاكثروا فيها الفساد .

ثم كانت خلافة العاضد لدين الله فى وزارة شاور بن مجير السعدى — الوزارة الثانية — عندما حضر ملك الفرنج مرى الى القاهرة وحصرها ، وقرر على أهلها المال ، واحترقت مدينة الفسطاط ، فنزل على تنيس واشموم ومنية غمر ، وصاحب أسطول الفرنج فى عشرين شونة ، فقتل وأسر وسبى .

وفى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد ، وصل الفرنج الى دمياط فى شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وخمسمائة ، وهم فيما يزيد على ألف ومائتى * مركب . فخرجت العساكر من القاهرة ، وقد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار . فأقامت الحرب مدة خمسة وخمسين يوما ، وكانت صعبة شديدة . واتهم فى هذه النوبة عدة من أعيان المصريين بممالأة الفرنج ومكاتبتهم ، وقبض عليهم الملك الناصر وقتلهم .

وكان سبب هذه النوبة أن الغز لما قدموا الى مصر من الشام صحبة أسد الدين شيركوه ، تحرك الفرنج لغزو ديار مصر خشية من تمكن الغز بها ، فاستمدوا اخوانهم أهل صقلية فأمدوهم بالأموال والسلاح ، وبعثوا اليهم بعدة وافرة . فساروا بالدبابات والمجانيق ، ونزلوا على دمياط فى صفر — وهم فى العدة التى ذكرنا من المراكب — وأحاطوا بها بحرا وبرا . فبعث السلطان بابن أخيه تقى الدين عمر ، وأتبعه بالأمير شهاب الدين الحازمى فى العساكر الى دمياط ، وأمدهما بالأموال والميرة والسلاح . واشتد الأمر على أهل دمياط وهم ثابتون على محاربة الفرنج .

فسير صلاح الدين الى نور الدين محمود ابن زنكى صاحب الشام يستنجده ، ويعلمه بأنه لا يمكنه الخروج من القاهرة الى لقاء الفرنج خوفا من قيام المصريين عليه .

فجهز اليه العساكر شيئا بعد شىء ، وخرج نور الدين من دمشق بنفسه الى بلاد الفرنج التى بالساحل وأغار عليها واستباحها .

فبلغ ذلك الفرنج وهم على دمياط ، فخافوا على بلادهم من نور الدين أن يتمكن منها ، فرحلوا عن دمياط فى الخامس والعشرين من ربيع الأول ، بعد ما غرق لهم نحو الثلثمائة مركب ، وقلت رجالهم بفناء وقع فيهم ، وأحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات وغيرها .

وكان صلاح الدين يقول : ما رأيت أكرم من العاضد ... أرسل الى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار ، سوى ما أرسله الى من الثياب وغيرها .

وفى سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، رتبت المقاتلة على البرجين ، وشدت مراكب الى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ، ورم شعث سور المدينة وسدت ثلمة ، وأتقنت السلسلة التى بين البرجين ...

(*) ص ٢١٤ جـ ١ ، ط. بولاق »

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

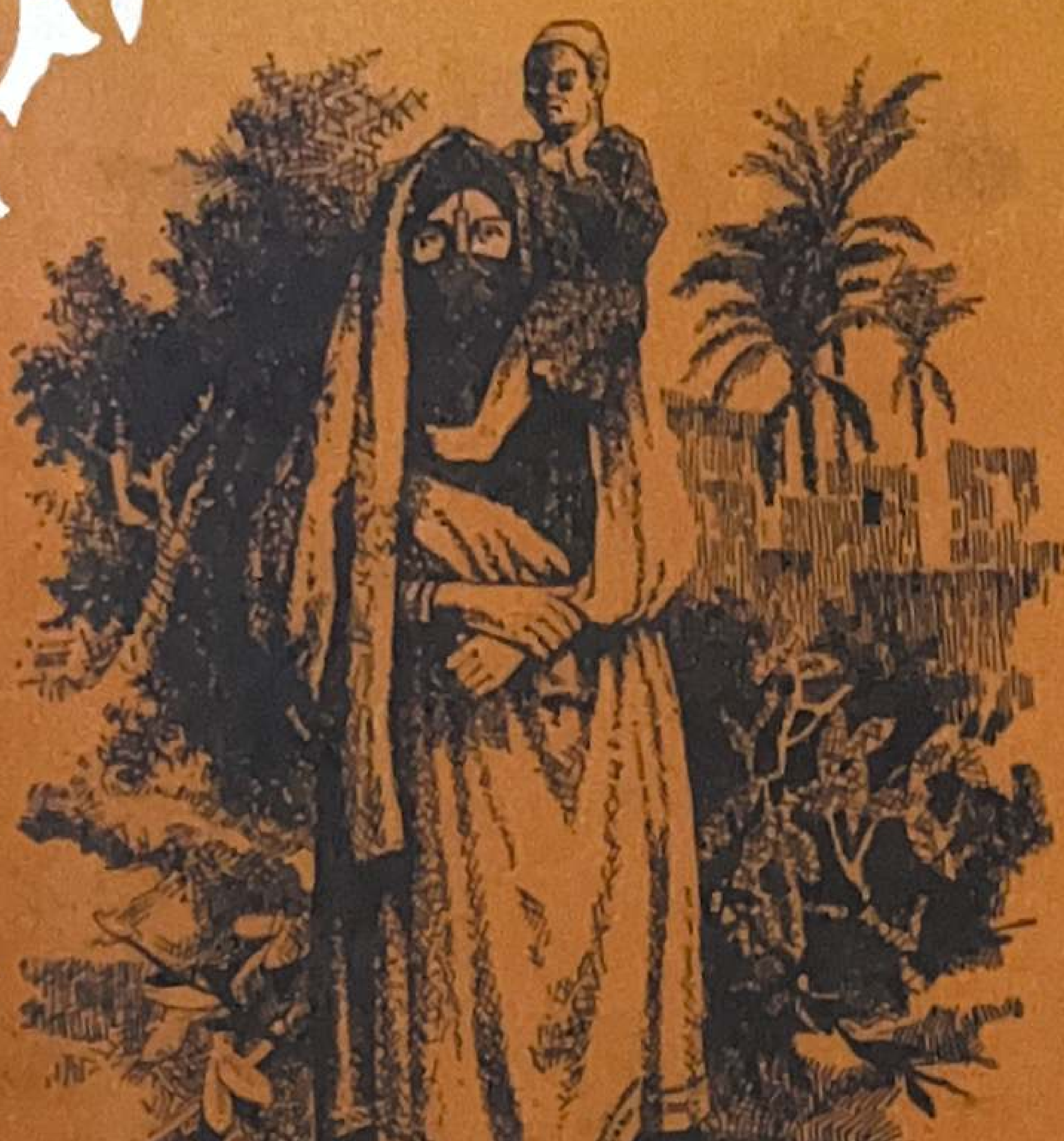
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وباقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
١١



كتاب
التحرير

"كانت مصر هي مسقط رأسي . وملعب أترابي . ومجمع ناسي . ومغنى عشيرتي وحامتي .
وموطن خاصتي وعامتي . وجؤجؤي الذي ربي جناحي في وكره . وعش مأربي ، فلا
تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت منذ شذوت العلم . وآتاني ربي الفطانة والفهم . أرغب في
معرفة أخبارها . وأحب الإشراف على الاعتراف من آبارها . وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها"

تقي الدين احمد بن علي المقريزي

فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار . واعتبر السور ، فكان قياسه أربعة آلاف وستمائة وثلاثين ذراعا .

وفى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، أمر السلطان بقطع أشجار بساتين دمياط وحفر خندقها ، وعمل جسر عند سلسلة البرج .

وفى سنة خمس عشرة وستمائة ، كانت واقعة دمياط العظمى . وكان سبب هذه الواقعة أن الفرنج فى سنة أربع عشرة وستمائة تتابعت أمدادهم من رومية الكبرى مقر البابا ومن غيرها من بلاد الفرنج . وساروا الى مدينة عكا فاجتمع بها عدة من ملوك الفرنج ، وتعاقدوا على قصد القدس وأخذه من أيدى المسلمين ، فصاروا بعكا فى جمع عظيم .

وبلغ ذلك الملك أبا بكر بن أيوب ، فخرج من مصر فى العساكر الى الرملة . فبرز الفرنج من عكا فى جموع عظيمة . فسار العادل الى بيسان ، فقصده الفرنج فخافهم لكثرتهم وقلة عسكره ، فأخذ على عقبة فيق يريد دمشق .

وكان أهل بيسان وما حولها قد اطمأنوا لنزول السلطان هناك ، فأقاموا فى أماكنهم . وما هو الا أن سار السلطان ، واذا بالفرنج قد وضعوا السيف فى الناس ، ونهبوا البلاد ، فحازوا من أموال المسلمين ما لا يحصى كثرة ، وأخذوا بيسان وبانياس وسائر القرى التى هناك . وأقاموا ثلاثة أيام ، ثم عادوا الى مرج عكا بالغنائم والسبى ، وهلك من المسلمين خلق كثير . فاستراح الفرنج بالمرج أياما ، ثم عادوا ثانيا ونهبوا صيدا والشقيف ، وعادوا الى مرج عكا فأقاموا به .

وكان ذلك كله فيما بين النصف من شهر رمضان وعيد الفطر ، والملك العادل مقيم بمرج الصفر ، وقد سير ابنه المعظم عيسى بعسكر الى نابلس لمنع الفرنج من طروقها والوصول الى بيت المقدس .

فنازل الفرنج قلعة الطور سبعة عشر يوما ثم عادوا الى عكا .

وعزموا على قصد الديار المصرية فركبوا بجموعهم البحر ، وساروا الى دمياط فى صفر فنزلوا عليها يوم الثلاثاء رابع ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة — الموافق لثامن حزيران — وهم نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف راجل . فخيموا تجاه دمياط فى البر الغربى ، وحفروا على عسكرهم خندقا ، وأقاموا عليه سورا .

وشرعوا فى قتال برج دمياط ، فانه كان برجا منيعا فيه سلاسل من حديد غلاظ تمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر الملح من الدخول الى ديار مصر فى النيل .

وذلك أن النيل اذا انتهى الى فسطاط مصر مر عليه فى ناحية الشمال الى شطنوف ، فاذا صار الى شطنوف انقسم قسمين : أحدهما يمر فى الشمال الى رشيد فيصب فى البحر الملح ، والشطر الآخر يمر من شطنوف الى جوجر . ثم يتفرق من عند جوجر فرقتين : فرقة تمر الى أشموم فتصب فى بحيرة تنيس ، وفرقة تمر من جوجر الى دمياط فتصب فى البحر الملح هناك وتصير هذه الفرقة من النيل فاصلة بين مدينة دمياط والبر الغربى .

وهذا البر الغربى من دمياط يعرف بجزيرة دمياط ، يحيط بها ماء النيل والبحر الملح . وفى مدة اقامة الفرنج بهذا البر الغربى ، عملوا الآلات والمرامى ، وأقاموا أبراجا يزحفون بها * فى المراكب الى برج السلسلة ليملكوه ، فانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور فى النيل الى القاهرة ومصر .

وكان هذا البرج مشحونا بالمقاتلة ، فتحيل الفرنج عليه ، وعملوا برجا من الصوارى على بسطة كبيرة ، وأقلعوا بها حتى أسندوها اليه وقاتلوا من به حتى أخذوه .

فبلغ نزول الفرنج على دمياط الملك الكامل — وكان يخلف أباه الملك العادل على ديار مصر — فخرج بمن معه من العساكر فى ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر نزول الفرنج لخمس خلون منه ، وأمر والى الغربية بجمع العربان ، وسار فى جمع كبير .

وخرج الأسطول فأقام تحت دمياط ، ونزل السلطان بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط . واشتدت عساكره الى دمياط لتمنع الفرنج من السور . والقتال مستمر ، والبرج ممتنع مدة أربعة أشهر . والعادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئا بعد شيء ، حتى تكاملت عند الملك الكامل .

واهتم الملك لنزول الفرنج على دمياط واشتد خوفه ، فرحل من مرج الصفر الى عالقين ، فنزل به المرض ومات فى سابع جمادى الآخرة . فكتم الملك المعظم عيسى موته ، وحمله فى محفة وجعل عنده خادما وطبيبا راكبا الى جانب المحفة ، والشرابدار يصلح الشراب ويحمله الى الخادم فيشربه ، ويوهم الناس أن السلطان شربه ، الى أن دخلوا به الى قلعة دمشق ، وصارت اليها الخزائن والبيوتات ، فأعلن بموته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه ، ودفنه بالقلعة ، ثم نقله الى مدرسة العادلية بدمشق .

وبلغ الملك الكامل موت أبيه وهو بمنزلة العادلية قرب دمياط ، فاستقل بسلطنة ديار مصر .

واشتد الفرنج وألحوا فى القتال ، حتى استولوا على برج السلسلة ، وقطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم فى بحر النيل ويتمكنوا من البلاد . فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسرا عظيما لمنع الفرنج من عبور النيل ، فقاتلت الفرنج عليه قتالا شديدا الى أن قطعوه .

وكان قد أنفق على البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار .

وكان الكامل يركب فى كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتدبير الأمور ، واعمال الحيلة فى مكايدة الفرنج . فأمر الملك الكامل أن يفرق عدة من المراكب فى النيل حتى تمنع الفرنج من سلوك النيل . فعمد الفرنج الى خليج هناك يعرف بالأزرق ، كان النيل يجرى فيه قديما ، فحفروه وعمقوا حفره ، وأجروا فيه الماء الى البحر الملح ، وأصعدوا مراكبهم فيه الى بورة على أرض جيزة دمياط ، مقابل المنزلة التى بها السلطان ليقاتلوه من هناك . فلما صاروا فى بورة جاءوه وقاتلوه فى الماء ،

(*) ص٢١٥ جـ١ ، ط.بولاق .

وزحفوا اليه عدة مرار فلم يظفروا منه بطائل .

ولم يتغير على أهل دمياط شيء ، لأن الميرة والأمداد متصلة اليهم ، والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج ، وأبواب المدينة مفتحة ، وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر ، والعربان تتخطف الفرنج فى كل ليلة بحيث امتنعوا من الرقاد خوفا من غاراتهم .

فلما قوى طمع العرب فى الفرنج حتى صاروا يخطفونهم نهارا ، ويأخذون الخيم بمن فيها ، أكمن الفرنج لهم عدة كمناء وقتلوا منهم خلقا كثيرا . وأدرك الناس الشتاء ، وهاج البحر على مخيم المسلمين وغرقهم ، فعظم البلاء وتزايد الغم .

وألح الفرنج فى القتال ، وكادوا أن يملكوا ، فبعث الله ريحا قطعت مراسى مرمة الفرنج — وكانت من عجائب الدنيا — فمرت الى بر المسلمين فأخذوها ، فاذا هى مصفحة بالحديد لا تعمل فيها النار ، ومساحتها خمسمائة ذراع ، فكسروها فاذا فيها مسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا .

وبعث الكامل الى الآفاق سبعين رسولا ، يستنجد أهل الاسلام لنصرة المسلمين ، ويخوفهم من غلبة الفرنج على مصر . فساروا فى شوال ، وأتته النجدات من حماة وحلب .

وبينا الناس فى ذلك ، اذ طمع الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبى الحسين على بن أحمد الهكارى المعروف بابن المشطوب فى الملك الكامل عندما بلغه موت الملك العادل . وكان له لفيف ينقادون اليه ويطيعونه ، وكان أميرا كبيرا مقدما عظيما فى الأكراد الهكارية ، وافر الحرمة عند الملوك ، معدودا بينهم مثل واحد منهم . وكان مع ذلك عالى الهمة ، غزير الجود ، واسع الكرم ، شجاعا ، أبى النفس ، تهابه الملوك ، وله الوقائع المشهورة . وهو من أمراء دولة صلاح الدين يوسف .

فاتفق مع جماعة من الجند والأكراد على خلع الملك الكامل ، واقامة أخيه الملك الفائز ابراهيم ليصير له الحكم . ووافقه الأمير عز الدين الحميدى ، والأمير أسد الدين الهكارى ، والأمير مجاهد الدين وجماعة من الأمراء .

فلما بلغ ذلك الملك الكامل ، دخل عليهم وهم مجتمعون والمصحف بين أيديهم ليحلفوا للفائز . فلما رأوه انفضوا ، فخشى على نفسه فخرج .

فاتفق وصول الصاحب صفى الدين بن شكر من آمد الى الملك الكامل ، فانه كان استدعاه بعد موت أبيه ، فتلقاه وأكرمه وذكر له ما هو فيه ، فضمن له تحصيل المال . فلما كان فى الليل ركب الملك الكامل وتوجه من العادلية فى جريدة الى أشموم طناح ، فنزلها .

وأصبح العسكر بغير سلطان ، فركب كل منهم هواه ، ولم يعطف الأخ على أخيه ، وتركوا أثقالهم * وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ، ولحقوا بالسلطان . فبادر الفرنج فى الصباح الى مدينة دمياط ، ونزلوا البر الشرقى يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة

(*) ص٢١٦ جـ١ ، ط.بولاق .

بغير منازع ولا مدافع ، وأخذوا سائر ما كان فى عسكر المسلمين وكان شيئا لا يحيط به الوصف . ودخل السلطان وهم عظيم ، وكاد أن يفارق البلاد ، فانه تخيل من جميع من معه .

واشتد طمع الفرنج فى أرض مصر كلها ، وظنوا أنهم قد ملكوها ، الا أن الله سبحانه وتعالى أغاث المسلمين ، وثبت السلطان . ووافاه أخوه الملك المعظم بأشموم طناح فاشتد به أزره وقوى جأشه ، وأطلعه على ما كان من ابن المشطوب ، فوعده بازاحة ما يكره .

ثم ان المعظم ركب الى خيمة ابن المشطوب واستدعاه للركوب معه ومسايرته ، فاستمهله حتى يلبس خفيه وثياب الركوب فلم يمهله وأعجله .

فركب معه وسايره حتى خرج به من العسكر الكاملى ، ثم قال له : ياعماد الدين ، هذه البلاد لك ، وأشتهى أن تهبها لنا . وأعطاه نفقة ، وسلمه الى جماعة من أصحابه يثق بهم ، وقال لهم : أخرجوه من الرمل ، ولا تفارقوه حتى يخرج من الشام .

فلم يسع ابن المشطوب الا امتثال ما قال المعظم ، لأنه معه بمفرده ولا قدرة له على الممانعة . فساروا به الى حماة ، ثم مضى منها الى الشرق .

ولما شيع الملك المعظم ابن المشطوب ، رجع الى الملك الكامل ، وأمر أخاه الفائز ابراهيم أن يسير الى ملوك الشام فى رسالة عن أخيه الملك الكامل لاستدعائهم الى قتال الفرنج . فمضى الى دمشق ، وخرج منها الى حماة فمات بها مسموما على ما قيل ، فثبت للملك الكامل أمر الملك ، وسكن روعه .

هذا والفرنج قد أحاطوا بدمياط برا وبحرا ، وأحدقوا وضيقوا على أهلها ، ومنعوا القوت من الوصول اليهم ، وحفروا على عسكرهم المحيط بدمياط خندقا ، وبنوا عليه سورا . وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال ، ويمانعونهم ، وقد غلت عندهم الأسعار لقلة الأقوات .

ثم ان المعظم فارق الملك الكامل ، وسار الى بلاد الشام . وأقام الكامل لمحاربة الفرنج وانتدب شمائل — أحد الجاندارية فى الركاب — للدخول الى دمياط ، فكان يسبح فى الماء ويصل الى أهل دمياط فيعدهم بوصول النجدات . فحظى بذلك عند الكامل ، وتقرب منه حتى عمله والى القاهرة ، واليه تنسب خزانة شمائل بالقاهرة .

فلم يزل الحال على ذلك الى أن دخلت سنة ست عشرة ، فجهز الملك المنصور محمد بن عمرو بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة ابنه المظفر تقى الدين محمودا الى مصر ، نجدة لخاله الملك الكامل على الفرنج ، فى جيش كثيف . فوصل الى العسكر ، وتلقاه الملك الكامل وأنزله فى ميمنة العسكر منزلة أبيه وجده عند السلطان صلاح الدين يوسف .

فألح الفرنج فى القتال ، وكان بدمياط نحو العشرين ألف مقاتل ، فنهكتهم الأمراض ، وغلت عندهم الأسعار حتى بلغت بيضة الدجاجة عندهم عدة دنانير .

قال الحافظ عبد العظيم المنذرى : سمعت الشيخ أبا الحسن على بن فضل يقول : كان

لبعض بنى خيار بقرة فذبحوها وباعوها فى الحصار ، فجاءت ثمانمائة دينار .

وقال فى «المعجم المترجم» : سمعت الأمير أبا بكر بن حسن بن خسوام يقول : كنت بدمياط فى حصار العدو بها ، فبيع السكر بها بمائة وأربعين دينارا الرطل ، والدجاجة بثلاثين دينارا .

قال : واشتريت ثلاث دجاجات بتسعين دينارا ، والراوية بأربعين درهما ، والقبر يحمر بأربعين مثقالا . وأخذت أختى جملا فشقت جوفه وملأته دجاجا وفاكهة وبقلا وغير ذلك ، وخاطته ورمته فى البحر ، وكتبت الى تقول قد فعلت كذا فاذا رأيتم جملا ميتا فخذوه ، فوقع لنا ليلا فأخذناه ، وكان فيه ما يساوى جملة ، ففرقته على الناس . ثم عمل بعد ذلك ثلاثة جمال على هيئته ، ففطن لها الفرنج فأخذوها .

وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد من الموتى ، وعدمت الأقوات ، وصار السكر كعزة الياقوت ، وفقدت اللحوم فلم يقدر عليها بوجه ، وآلت بهم الحال الى أن لم يبق بها سوى قليل من القمح والشعير فقط .

فتسور الفرنج وأخذوا منه البلد فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان ، وكانت مدة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما .

ولما أخذوا البلد وضعوا السيف فى الناس ، فتجاوزوا الحد فى القتل ، وأسرفوا فى مقدار القتلى . وبلغ ذلك السلطان ، فرحل بعد أخذ دمياط بيومين ، ونزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم ورأس بحر دمياط ، وحيز فى المنزلة التى صار يقال لها المنصورة .

وحصن الفرنج أسوار دمياط ، وجعلوا الجامع كنيسة ، وبثوا سراياهم فى القرى فقتلوا ونهبوا . وسير السلطان الكتب الى الآفاق ليستحث الناس على الحضور لدفع الفرنج عن ملك مصر ، وشرع العسكر فى بناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق بمنزلة المنصورة .

وجهز الفرنج من أسروه من المسلمين فى البحر الى عكا ، وخرجوا من دمياط ونازلوا السلطان تجاه المنصورة ، وصار بينهم وبينه بحر أشموم وبحر دمياط . وكان الفرنج فى مائتى ألف راجل وعشرة آلاف فارس .

فقدم المسلمون شوانيهم أمام المنصورة وعدتها مائة قطعة ، واجتمع الناس من القاهرة ومصر وسائر النواحى من أسوان الى القاهرة . ووصل الأمير حسام الدين يونس ، والفقيه * تقى الدين أبو الطاهر محمد بن الحسن بن عبد الرحمن المحلى ، فأخرجا الناس من القاهرة ومصر ، ونودى بالنفير العام . وخرج الأمير علاء الدين جلدك وجمال الدين بن صيرم لجمع الناس فيما بين القاهرة الى آخر الحوف الشرقى ، فاجتمع عالم لا يقع عليه حصر .

وأنزل السلطان على ناحية شارمساح ألف فارس فى آلاف من العربان ، ليحولوا بين الفرنج ودمياط . وسارت الشوانى ومعها حراقة كبيرة على رأس بحر المحلة ، وعليها الأمير بدر الدين بن حسون ، فانقطعت الميرة عن الفرنج من البر والبحر . وسارت عساكر

(*) ص ٢١٧ جـ١ ، ط . بولاق •

المسلمين من الشرق والشام الى الديار المصرية .

وكان قد خرج الفرنج من داخل البحر لمدد الفرنج على دمياط ، فقدم منهم أمم لا تحصى يريدون التوغل فى أرض مصر . فلما تكاملوا بدمياط ، خرجوا منها فى حدهم وحديدهم ، ونزلوا تجاه الملك الكامل كما تقدم . فقدمت النجدات يقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل ، وعلى ساقتها الملك المعظم عيسى ، فتلقاهم الملك الكامل ، وأنزلهم عنده بالمنصورة فى ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة .

وتتابع مجىء الملوك ، حتى بلغت عدة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس ، فحاربوا الفرنج فى البر والبحر ، وأخذوا منهم ست شوانى وجلاسة وبطسة ، وأسروا من الفرنج ألفين ومائتين ، ثم ظفر المسلمون بثلاث قطائع أخر .

فتضعضع الفرنج لذلك ، وضاق بهم المقام ، فبعثوا يطلبون الصلح ، فقدم عند مجىء رسلهم أهل الاسكندرية فى ثمانية آلاف مقاتل . وكان الذى طلب الفرنج القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية ، وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف من الساحل ، ليرحلوا عن ديار مصر .

فبذل المسلمون لهم سائر ما ذكر من البلاد خلا مدينة الكرك والشوبك ، فامتنع الفرنج من الصلح وقالوا : لابد من أخذهم الكرك والشوبك ، ومبلغ ثلثمائة ألف دينار ، عوضا عما خربه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق من أسوار القدس .

وكان المعظم لما مات أبوه العادل ، واستولى الفرنج على دمياط ، ونازلوا الملك الكامل قبالة المنصورة ، خاف أن يصل منهم فى البحر من يأخذ القدس ، ويتحصنوا به ، فأمر بتخريب أسواره ، وكانت أسواره وأبراجه فى غاية العظمة والمنعة ، فأتى الهدم على جميعها ما خلا برج داود . وانتقل أكثر الناس من القدس ، ولم يبق به الا القليل . ونقل المعظم ما كان بالقدس من الأسلحة والآلات .

فامتنع المسلمون من اجابة الفرنج الى ذلك وقاتلوهم ، وعبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة الى الأرض التى عليها الفرنج ، وحفروا مكانا عظيما فى النيل — وكان فى قوة الزيادة — فركب الماء أكثر تلك الأرض وصار حائلا بين الفرنج ومدينة دمياط .

وانحصروا ، فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة ، فأمر السلطان للوقت بنصب الجسور عند أشموم طناح ، فعبرت العساكر عليها ، وملكت الطريق التى يسلكها الفرنج الى دمياط اذا أرادوا الوصول اليها . فاضطربوا ، وضاقت عليهم الأرض .

واتفق مع ذلك وصول مرمة عظيمة للفرنج فى البحر حولها عدة حراقات تحميها ، وقد ملئت كلها بالميرة والأسلحة ، فقاتلتهم شوانى المسلمين وظفرها الله بهم فأخذها المسلمون .

وعندما علم الفرنج ذلك أيقنوا بالهلاك . وصار المسلمون يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم . فهدموا حينئذ خيامهم ومجانيقهم ، وألقوا فيها النار ، وهموا بالزحف على المسلمين ومقاتلتهم ليخلصوا الى دمياط ، فحال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل

والمياه الراكبة على الأرض . وخشوا من الاقامة لقلة أقواتهم ، فذلوا وسألوا الأمان على أن يتركوا دمياط للمسلمين .

فاستشار السلطان فى ذلك ، فاختلف الناس عليه : فمنهم من امتنع من تأمين الفرنج ، ورأى أن يؤخذوا عنوة ، ومنهم من جنح الى اعطائهم الأمان خوفا ممن وراءهم من الفرنج فى الجزائر وغيرها . ثم اتفقوا على الأمان ، وأن يعطى كل من الفريقين رهائن . فتقرر ذلك فى تاسع شهر رجب سنة ثمان عشرة .

وسير الفرنج عشرين ملكا رهنا عند الملك الكامل ، وبعث الملك الكامل بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وجماعة من الأمراء الى الفرنج .

وجلس السلطان مجلسا عظيما لقدوم ملوك الفرنج ، وقد وقف اخوته وأهل بيته بين يديه ، وصار فى أبهة وناموس مهيب .

وخرج قسوس الفرنج ورهبانهم الى دمياط ، فسلموها للمسلمين فى تاسع عشره ، وكان يوم تسليمها يوما عظيما .

وعندما تسلم المسلمون دمياط وصارت بأيديهم ، قدمت نجدة فى البحر للفرنج ، فكان من جميل صنع الله تأخرها حتى ملكت دمياط بأيدى المسلمين ، فانها لو قدمت قبل ذلك لقوى بها الفرنج ، فان المسلمين وجدوا مدينة دمياط قد حصنها الفرنج وصارت بحيث لا ترام .

ولما تم الأمر ، بعث الفرنج بولد السلطان وأمرائه اليه ، وسير اليهم السلطان من كان عنده من الملوك فى الرهن ، وتقررت الهدنة بين الفرنج والمسلمين مدة ثمانى سنين . وكان مما وقع الصلح عليه أن كلا من المسلمين والفرنج يطلق ما عنده من الأسرى . وحلف السلطان واخوته ، وحلفت ملوك الفرنج . وتفرق الناس الى بلادهم ، ودخل الملك الكامل الى * دمياط باخوته وعساكره ، وكان يوم دخوله اليها من الأيام المذكورة .

ورحل الفرنج الى بلادهم ، وعاد السلطان الى مقر ملكه . وأطلقت الأسرى من ديار مصر ، وكان فيهم من له من أيام السلطان صلاح الدين يوسف . وسارت ملوك الشام بعساكرها الى بلادها .

وعمت بشارة أخذ المسلمين مدينة دمياط من الفرنج سائر الآفاق ، فان التتر كانوا قد استولوا على ممالك المشرق ، فأشرف الفرنج على أخذ ديار مصر من أيدى المسلمين .

وكانت مدة نزول الفرنج على دمياط ، الى أن أقلعوا عنها سائرين الى بلادهم ، ثلاث سنين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما ، منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يوما .

فلما كان فى سنة ست وأربعين وستمائة ، حدث بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ورم فى مأبضه تكون منه ناصور فتح وعسر برؤه ، فمرض من ذلك ، وانضاف اليه قرحة فى الصدر ، فلزم الفراش ، الا أن علو همته اقتضى مسيره من ديار مصر الى الشام .

فسار فى محفة ونزل بقلعة دمشق ، فورد عليه رسول الامبراطور ملك الفرنج الألمانية

(*) ص٢١٨ جـ١ ، ط.بولاق .

بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر ، وأخبره سرا بأن بواش الذى يقال له « روا د فرنس » عازم على المسير الى أرض مصر وأخذها .

فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى محفة ، ونزل بأشموم طناح فى المحرم سنة سبع وأربعين ، وجمع فى مدينة دمياط من الأقوات والأزواد والأسلحة وآلات القتال شيئا كثيرا ، خوفا أن يجرى على دمياط ما جرى فى أيام أبيه ، فأخذت بغير ذلك .

ولما نزل السلطان بأشموم ، كتب الى الأمير حسام الدين أبى على بن أبى على الهدبانى — نائبه بديار مصر — أن يجهز الأسطول من صناعة مصر . فشرع فى الاهتمام بذلك ، وشحن الأسطول بالرجال والسلاح وسائر ما يحتاج اليه ، وسيره شيئا بعد شىء .

وجهز السلطان الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ومعه الأمراء والعساكر ، فنزل بجيرة دمياط من برها الغربى ، وصار النيل بينه وبينها .

فلما كان فى الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع بقين من صفر ، وردت مراكب الفرنج البحرين ، وفيها جموعهم العظيمة ، وقد انضم اليهم فرنج الساحل ، وأرسوا بازاء المسلمين . وبعث ملكهم الى السلطان كتابا نصه :

« أما بعد ، فانه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى على أنك أمين الأمة المحمدية . وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه الينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار .

« وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح الى النهاية . فلو حلفت لى بكل الأيمان ، وأدخلت على الأقساء والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، لكنت واصلا اليك ، وقاتلك فى أعز البقاع اليك .

« فاما أن تكون البلاد لى ، فياهدية حصلت فى يدى ، واما أن تكون البلاد لك والغلبة على ، فيدك العليا ممتدة الى .

« وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك بأسياف القضاء » .

فلما قرىء الكتاب على السلطان ، وقد اشتد به المرض ، بكى واسترجع . فكتب القاضى بهاء الدين زهير بن محمد الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فانه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد الا جددناه ، ولا بغى علينا باغ الا دمرناه .

« ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولابد أن تزل بك القدم ، فى يوم

أوله لنا وآخره عليك . فهنالك تسىء الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

« فاذا قرأت كتابى هذا ، فتكون فيه على أول سورة النحل «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» وتكون على آخر سورة ص « ولتعلمن نبأه بعد حين » ، ونعود الى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » وقول الحكماء : ان الباغى له مصرع . وبغيك يصرعك ، والى البلاء يقلبك . والسلام » .

وفى يوم السبت ورد الفرنج وضربوا خيامهم فى أكثر البلاد التى فيها عساكر المسلمين ، وكانت خيمة الملك روا د فرانس حمراء . فناوشهم المسلمون القتال ، واستشهد يومئذ الأمير نجم الدين يوسف ابن شيخ الاسلام ، والأمير صارم الدين أزبك الوزيرى .

فلما أمسى الليل ، رحل الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بعساكر المسلمين جينا وصلفا ، وسار بهم فى بر دمياط ، وسار الى جهة أشموم طناح . فخاف من كان فى مدينة دمياط ، وخرجوا منها على وجوههم فى الليل لا يلتفتون الى شىء ، وتركوا المدينة خالية من الناس ، ولحقوا بالعسكر فى أشموم وهم حفاة عرايا ، جياع حيارى ، بمن معهم من النساء والأولاد ، ومروا هاربين الى القاهرة فأخذ منهم قطاع الطريق ما عليهم من الثياب * وتركوهم عرايا .

فشنعت القالة على الأمير فخر الدين من كل أحد ، وعد جميع ما نزل بالمسلمين من البلاء بسبب هزيمته ، فان دمياط كانت مشحونة بالمقاتلة والأزواد العظيمة والأسلحة وغيرها ، خوفا أن يصيبها فى هذه المدة ما أصابها فى أيام الكامل ، فانه ما أتى عليها ذلك الا من قلة الأقوات بها ، ومع ذلك امتنعت من الفرنج أكثر من سنة حتى فنى أهلها كما تقدم ، ولكن الله يفعل ما يريد .

ولما أصبح الفرنج يوم الأحد لسبع بقين من صفر ، قصدوا دمياط ، فاذا أبواب المدينة مفتحة ، ولا أحد يدفع عنها ، فظنوا أن ذلك مكيدة ، وتمهلوا حتى ظهر لهم خلوها فدخلوا اليها من غير مانع ولا مدافع ، واستولوا على ما بها من الأسلحة العظيمة وآلات الحرب والأقوات الخارجة عن الحد فى الكثرة والأموال والأمتعة ، صفوا بغير كلفة ، فأصيب الاسلام والمسلمون ببلاء لولا لطف الله لمحى اسم الاسلام ورسمه بالكلية .

وانزعج الناس فى القاهرة ومصر انزعاجا عظيما لما نزل بالمسلمين مع شدة مرض السلطان وعدم حركته . وأما السلطان فانه اشتد حنقه على الأمير فخر الدين وقال : أما قدرت أنت والعساكر أن تقفوا ساعة بين يدى الفرنج ، وأقام عليه القيامة ، لكن الوقت لم يكن يسع غير الصبر والاغضاء . وغضب على الكنانيين الذين كانوا بدمياط ووبخهم فقالوا : ما نعمل اذا كانت عساكر السلطان بأجمعهم وأمراؤه هربوا وأحرقوا الزردخاناة ... كيف لا نهرب نحن ؟

فأمر بشنقهم لكونهم خرجوا من دمياط بغير اذن . وكانت عدة من شنق من الأمراء الكنانية زيادة على خمسين أميرا فى ساعة

(*) ص ١١٩ جـ ١ ، ط. بولاق .

واحدة ، ومن جملتهم أمير جسيم له ابن جميل ، سأل أن يشنق قبل ابنه ، فأمر السلطان أن يشنق ابنه قبله ، فشنق الابن ثم الأب .

ويقال ان شنق هؤلاء كان بفتوى الفقهاء .

فخاف جماعة من الأمراء وهموا بالقيام على السلطان ، فأشار عليهم الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ بأن السلطان على خطة ، فان مات فقد كفيتم أمره ، والا فهو بين أيديكم .

وأخذ السلطان فى اصلاح سور المنصورة ، وانتقل اليها لخمس بقين من صفر ، وجعل الستائر على السور . وقدمت الشوانى الى تجاه المنصورة وفيها العدد الكاملة ، وشرع العسكر فى تجديد الأبنية هناك ، وقدم من العربان وأهل النواحى ومن المطوعة خلق لا يحصى عددهم ، وأخذوا فى الاغارة على الفرنج . فملأ الفرنج أسوار مدينة دمياط بالمقاتلة والآلات .

فلما كان أول ربيع الأول ، قدم الى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العربان ستة وثلاثون ، منهم فارسان . وفى خامس ربيع الآخر ورد منهم تسعة وثلاثون . وفى سابعه ورد اثنان وعشرون أسيرا . وفى سادس عشره ورد خمسة وأربعون أسيرا ، منهم ثلاثة خيالة . وفى ثامن عشر جمادى الأولى ورد خمسون أسيرا .

هذا ، ومرض السلطان يتزايد ، وقواه تتناقص ، حتى أيس الأطباء منه .

وفى ثالث عشر رجب ، قدم الى القاهرة سبعة وأربعون أسيرا ، وأحد عشر فارسا ،

وظفر المسلمون بسطح للفرنج فى البحر فيه مقاتلة بالقرب من نستراوة

فلما كانت ليلة الأحد لأربع عشرة مضت من شعبان ، مات الملك الصالح بالمنصورة ، فلم يظهر موته ، وحمل فى تابوت الى قلعة الروضة وقام بأمر العسكر الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، فان شجرة الدر زوجة السلطان لما مات أحضرت الأمير فخر الدين ، والطواشى جمال الدين محسنا — واليه أمر المماليك البحرية والحاشية — وأعلمتهما بموته ، فكتما ذلك خوفا من الفرنج ، لأنهم كانوا قد أشرفوا على تملك ديار مصر فقام الأمير فخر الدين بالتدبير ، وسيروا الى الملك المعظم توران شاه وهو بحصن كيفا الفارس أقطاى لاحضاره .

وأخذ الأمير فخر الدين بتحليف العسكر للملك الصالح ، وابنه الملك المعظم بولاية العهد من بعده ، وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر والقيام بأمر الملك ... حتى حلفهم كلهم بالمنصورة وبالقاهرة فى دار الوزارة عند الأمير حسام الدين بن أبى على فى يوم الخميس لاثنتى عشرة بقيت من شعبان .

وكانت العلامات تخرج من الدهاليز السلطانية بالمنصورة الى القاهرة بخط خادم يقال له سهيل ، لا يشك من رآها أنها خط السلطان ومشى ذلك على الأمير حسام الدين بالقاهرة .

ولم يتفوه أحد بموت السلطان ، الى أن كان يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان ، ورد الأمر الى القاهرة بدعاء الخطباء فى الجمعة

الثانية للملك المعظم بعد الدعاء للسلطان ، وأن ينقش اسمه على السكة

فلما علم الفرنج بموت السلطان ، خرجوا من دمياط بفارسهم وراجلهم — وشوانيهم تحاذيهم فى البحر — حتى نزلوا فارسكور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان . فورد فى يوم الجمعة من الغد كتاب الى القاهرة من العسكر ، أوله : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » ، وفيه مواعظ بليغة بالحث على الجهاد . فقرىء على منبر جامع القاهرة وقد جمع الناس لسماعه ، فارتجت القاهرة ومصر وظواهرهما بالبكاء والعويل ، وأيقن الناس باستيلاء الفرنج على البلاد لخلو الوقت من ملك يقوم بالأمر ... لكنهم لم يهنوا *، وخرجوا من القاهرة ومصر وسائر الأعمال ، فاجتمع عالم عظيم .

فلما كان يوم الثلاثاء أول شهر رمضان ، اقتتل المسلمون والفرنج ، فاستشهد العلائى أمير مجلس وجماعة ، ونزل الفرنج شارمساح .

وفى يوم الاثنين سابعه نزلوا البرمون ، فاضطرب الناس وزلزلوا زلزالا شديدا لقربهم من العسكر .

وفى يوم الأحد ثالث عشره ، وصلوا تجاه المنصورة ، وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم وخندقوا عليهم ، وأداروا على خندقهم سورا ستروه بكثير من الستائر ، ونصبوا المجانيق ليرموا بها على المسلمين ، وصارت

(*) ص٢٢٠ جـ١ ، ط.بولاق .

شوانيهم بازائهم فى بحر النيل ، وشوانى المسلمين بازاء المنصورة ، والتحم القتال برا وبحرا .

وفى سادس عشره ، نفر الى المسلمين ستة خيالة أخبروا بمضايقة الفرنج .

وفى يوم عيد الفطر أسروا من الفرنج كندا من أقارب الملك .

وأبلى عوام المسلمين فى قتال الفرنج بلاء كبيرا ، وأنكوهم نكاية عظيمة . وصاروا يقتلون منهم فى كل وقت ويأسرون ، ويلقون أنفسهم فى الماء ويسرون فيه الى الجانب الذى فيه الفرنج ويتحيلون فى اختطاف الفرنج بكل حيلة ، ولا يهابون الموت ، حتى ان انسانا قور بطيخة وجعلها على رأسه ، وغطس فى الماء حتى حاذى الفرنج ، فظنه بعضهم بطيخة ونزل حتى يأخذها ، فخطفه وأتى به الى المسلمين .

وفى يوم الأربعاء سابع شوال ، أخذ المسلمون شونة للفرنج فيها كند ومائتا رجل .

وفى يوم الخميس النصف منه ، ركب الفرنج الى بر المسلمين واقتتلوا ، فقتل منهم أربعون فارسا ، وسير فى عدة الى القاهرة بسبعة وستين أسيرا ، منهم ثلاثة من أكابر الدوادارية .

وفى يوم الخميس ثانى عشريه ، أحرقت للفرنج مرمة عظيمة فى البحر ، واستظهر المسلمون عليهم .

وكان بحر أشموم فيه مخايض ، فدل بعض من لا دين له ممن يظهر الاسلام الفرنج عليها ، فركبوا سحر يوم الثلاثاء خامس ذى القعدة أو رابعه ، ولم يشعر المسلمون بهم الا وقد هجموا على العسكر .

وكان الأمير فخر الدين قد عبر الى الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على العسكر .

فركب دهشا غير معتد ولا متحفظ ، وساق ليأمر الأمراء والأجناد بالركوب فى طائفة من مماليكه ، فلقيه عدة من الفرنج الداوادارية ، وحملوا عليه ففر أصحابه ، وأتته طعنة فى جنبه ، وأخذته السيوف من كل جانب ، حتى لحق بالله عز وجل ، وفى الحال غدت مماليكه فى طائفة الى داره ، وكسروا صناديقه وخزائنه ، ونهبوا أمواله وخيوله .

وساق الفرنج عند مقتل الأمير فخر الدين الى المنصورة ، ففر المسلمون خوفا منهم ، وتفرقوا يمنة ويسرة ، وكادت الكسرة أن تكون ، وتمحو الفرنج كلمة الاسلام من أرض مصر .

ووصل الملك روا د فرنس الى باب قصر السلطان ، ولم يبق الا أن يملكه . فأذن الله تعالى أن طائفة المماليك من البحرية والجمدارية الذين استجدهم الملك الصالح ، ومن جملتهم بيبرس البندقدارى ، حملوا على الفرنج حملة صدقوا فيها اللقاء ، حتى أزاحوهم عن مواقفهم ، وأبلوا فى مكافحتهم بالسيوف والدبابيس فانهزموا .

وبلغت عدة من قتل من فرسان الفرنج الخيالة فى هذه النوبة ألفا وخمسمائة فارس ، وأما الرجالة فانها كانت وصلت الى الجسر لتعدى ، فلو تراخى الأمر حتى صاروا مع المسلمين لأعضل الداء . على أن هذه الواقعة كانت بين الأزقة والدروب ، ولولا ضيق المجال لما أفلت من الفرنج أحد .

فنجا من بقى منهم ، وضربوا عليهم سورا ، وحفروا خندقا . وصارت طائفة منهم فى البر الشرقى ، ومعظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط .

وكانت البطاقة عند الكبسة سرحت على جناح الطائر الى القاهرة ، فانزعج الناس انزعاجا عظيما ، ووردت السوقة وبعض العسكر ، ولم تغلق أبواب القاهرة ليلة الأربعاء .

وفى يوم الأربعاء ، سقط الطائر بالبشارة بهزيمة الفرنج وعدة من قتل منهم ، فزينت القاهرة ، وضربت البشائر بقلعة الجبل ، وسار المعظم توران شاه الى دمشق فدخلها يوم السبت آخر شهر رمضان ، واستولى على من بها .

ولأربع مضين من شوال ، سقط الطائر بوصوله الى دمشق ، فضربت البشائر فى العسكر بالمنصورة وفى قلعة الجبل .

وسار من دمشق لثلاث بقين منه ، فتواترت الأخبار بقدومه ، وخرج الأمير حسام الدين ابن أبى على الى لقائه ، فوافاه بالصالحية لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة ، ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح ، بعدما كان قبل

ذلك لا ينطق أحد بموته ألبتة ، بل الأمور على حالها ، والدهليز السلطانى بحاله ، والسماط على العادة ، وشجرة الدر أم خليل زوجة السلطان تدبر الأمور وتقول : السلطان مريض ما اليه وصول .

ثم سار من الصالحية ، فتلقاه الأمراء والمماليك . واستقر بقصر السلطنة من المنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة .

وفى أثناء هذه المدة ، عمل المسلمون مراكب وحملوها على الجمال الى بحر المحلة وألقوها فيه ، وشحنوها بالمقاتلة . فعندما حاذت مراكب الفرنج بحر المحلة — وتلك المراكب فيه مكمنة — خرجت عليهم ، ووقع الحرب بينهما .

وقدم الأسطول الاسلامى من جهة المنصورة وأحاط بالفرنج ، فظفر باثنين وخمسين مركبا للفرنج ، وقتل * وأسر منهم نحو ألف رجل . فانقطعت الميرة عن الفرنج ، واشتد عندهم الغلاء ، وصاروا محصورين .

فلما كان أول يوم من ذى الحجة ، أخذ الفرنج من المراكب التى فى بحر المحلة سبع حراريق ، وفر من كان فيها من المسلمين .

وفى يوم عرفة ، برزت الشوانى الاسلامية الى مراكب قدمت للفرنج فيها ميرة ، فأخذت منها اثنين وثلاثين مركبا منها تسع شوانى . فوهنت قوة الفرنج ، وتزايد الغلاء عندهم ، وشرعوا فى طلب الهدنة من المسلمين ، على أن يسلموا دمياط ، ويأخذوا بدلا منها القدس وبعض بلاد الساحل ، فلم يجابوا الى ذلك .

(*) ص٢٢١ جـ١ ، ط. بولاق .

فلما كان اليوم السابع والعشرون من ذى الحجة ، أحرق الفرنج أخشابهم كلها ، وأتلفوا مراكبهم يريدون التحصن بدمياط . ورحلوا فى ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة الى دمياط ، وأخذت مراكبهم فى الانحدار قبالتهم . فركب المسلمون أقفيتهم بعدما عدوا الى برهم ، وطلع الفجر من يوم الأربعاء وقد أحاط المسلمون بالفرنج ، وقتلوا وأسروا منهم كثيرا .. حتى قيل ان عدد من قتل من الفرسان على فارسكور يزيد على عشرة آلاف ، وأسر من الخيالة والرجالة والصناع والسوقة ما يناهز مائة ألف ، ونهب من المال والذخائر والخيول والبغال ما لا يحصى .

وانحاز الملك روا د فرنس وأكابر الفرنج الى تل ، ووقفوا مستسلمين وسألوا الأمان . فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى ، ونزلوا على أمانه ، وأحيط بهم وسيقوا الى المنصورة .

فقيد روا د فرنس ، واعتقل فى الدار التى كان ينزل فيها القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الانشاء ، ووكل به الطواشى صبيح المعظمى ، واعتقل معه أخوه ، ورتب له راتب يحمل اليه فى كل يوم .

ورسم الملك المعظم لسيف الدين يوسف بن الطورى — أحد من وصل صحبته من الشرق — أن يتولى قتل الأسرى . فكان يخرج منهم كل ليلة ثلثمائة رجل ويقتلهم ويلقيهم فى البحر حتى فنوا .

ولما قبض على الملك روا د فرنس ، رحل الملك المعظم من المنصورة ، ونزل بالدهليز السلطانى على فارسكور ، وعمل له برجا من خشب ، وتراخى فى قصد دمياط . وكتب بخطه الى الأمير جمال الدين بن يغمور نائبه بدمشق وولده توران شاه :

« الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عند الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بنعمة ربك فحدث ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ... نبشر المجلس السامى الجمالى — بل نبشر المسلمين كافة — بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ، فانه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله .

« ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة ، وهى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، تمم الله على الاسلام بركتها ، فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة ، وخلقا لا يعلمهم الا الله ، جاءوا من كل فج عميق ، ومكان سحيق . فلما رأى العدو ذلك ، أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل ، فأبينا .

« ولما كانت ليلة الأربعاء ، تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا فى آثارهم طالبين . وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزى والويل .

« فلما أصبحنا يوم الأربعاء ، قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه فى اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس الى المنية وطلب الأمان ، فأمناه وأخذناه وأكرمناه ، وسلمناه دمياط بعون الله تعالى وقوته ، وجلاله وعظمته » .

وبعث مع الكتاب غفارة الملك فرنسيس فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور ، وهى أشكرلاطا أحمر بفرو سنجاب . فقال الشيخ نجم الدين بن اسرائيل :

ان غفارة الفرنسيس جاءت
فهى حقا لسيد الأمراء
كبياض القرطاس لونا ولكن
صبغتها سيوفنا بالدماء

وقال آخر :

أسيد أملاك الزمان بأسرهم
تنجزت من نصر الاله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدى
ويلبس أثواب الملوك عبيده

وأخذ الملك المعظم يهدد زوجة أبيه شجرة الدر ويطالبها بمال أبيه ، فخافته وكاتبت مماليك الملك الصالح تحرضهم عليه .

وكان المعظم لما وصل اليه الفارس أقطاى الى حصن كيفا ، وعده أن يعطيه امرة فلم يف له بها ، وأعرض مع ذلك عن مماليك أبيه واطرح أمراءه ، وصرف الأمير حسام الدين ابن أبى على عن نيابة السلطنة وأحضره الى العسكر ولم يعبأ به ، وأبعد غلمان أبيه .

واختص بمن وصل معه من المشرق ، وجعلهم فى الوظائف السلطانية ، فجعل الطواشى مسرورا — خادمه — أستادارا ، وعمل صبيحا — وكان عبدا حبشيا فحلا — خازنداره ، وأمر أن * تكون له عصا من ذهب ، وأعطاه مالا جزيلا واقطاعات جليلة .

وكان اذا سكر جمع الشمع وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ، ويقول : هكذا أفعل بالبحرية ... فانه كان فيه هرج وخفة . واحتجب على العكوف بملاذه ، فنفرت منه النفوس .

وبقى كذلك الى يوم الاثنين تاسع عشرى المحرم ، وقد جلس على السماط ، فتقدم اليه أحد المماليك البحرية وضربه بسيف قطع أصابع يديه ، ففر الى البرج ، فاقتحموا عليه وسيوفهم مصلتة ، فصعد أعلى البرج الخشب فرموه بالنشاب وأطلقوا النار على البرج .

فألقى نفسه ومر الى البحر وهو يقول : ما أريد ملككم ، دعونى أرجع الى الحصن ، يامسلمين ، ما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى .

وسائر العساكر بالسيوف واقفة ، فلم يجبه أحد ، والنشاب يأخذه من كل ناحية . وأدركوه فقطع بالسيوف ، ومات حريقا غريقا قتيلا فى يوم الاثنين المذكور ، وترك على الشط ثلاثة أيام ثم دفن .

ولما قتل الملك المعظم ، اتفق أهل الدولة على اقامة شجرة الدر والدة خليل فى مملكة مصر ، وأن يكون مقدم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى .

(*) ص ٢٢٢ جـ ١ ، ط . بولاق .

وحلف الكل على ذلك ، وسيروا اليها عز الدين الرومى ، فقدم عليها فى قلعة الجبل وأعلمها بما اتفق ، فرضيت به ، وكتبت على التواقيع علامتها وهى والدة خليل ، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة .

وجرى الحديث مع الملك روا د فرنس فى تسليم دمياط ، وتولى مفاوضته فى ذلك الأمير حسام الدين بن أبى على الهدبانى ، فأجاب الى تسليمها ، وأن يخلى عنه بعد محاورات . وسير الى الفرنج بدمياط يأمرهم بتسليمها الى المسلمين ، فسلموها — بعد جهد جهيد من كثرة المراجعات — فى يوم الجمعة ثالث صفر ، ورفع العلم السلطانى على سورها ، وأعلن فيها بكلمة الاسلام وشهادة الحق ، بعدما أقامت بيد الفرنج أحد عشر شهرا وسبعة أيام .

وأفرج عن الملك روا د فرنس ، وعن أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه ، الى البر الغربى . وركبوا البحر من الغد — وهو يوم السبت رابع صفر — وأقلعوا الى عكا .

وفى هذه النوبة يقول الوزير جمال الدين يحيى بن مطروح :

قل للفرنسيس اذا جئته
مقال نصح عن قؤول نصيح
آجرك الله على ما جرى
من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغى ملكها
تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدهم
ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم
يحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم
الا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها
لعل عيسى منكم يستريح
ان كان باباكم بذا راضيا
فرب غش قد أتى من نصيح
قل لهم ان أضمروا عودة
لأخذ ثأر أو لنقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق والطواشى صبيح

وقدر الله أن الفرنسيس هذا بعد خلاصه من هذه الواقعة ، جمع عدة جموع وقصد تونس ، فقال شاب من أهلها يقال له أحمد ابن اسماعيل الزيات :

يافرنسيس هذه أخت مصر
فتأهب لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر
وطواشيك ، منكر ونكير

فكان هذا فألا حسنا ، فانه مات وهو على محاصرة تونس .

ولما تسلم الأمراء دمياط ، وردت البشرى الى القاهرة ، فضربت البشائر وزينت القاهرة ومصر ، فقدمت العساكر من دمياط يوم الخميس تاسع صفر . فلما كان فى سلطنة الأشرف موسى ابن الملك المسعود أقسيس ابن الملك الكامل والملك المعز عز الدين التركمانى ، وكثر الاختلاف بمصر ، واستولى الملك الناصر يوسف ابن العزيز على دمشق .. اتفق أرباب الدولة بمصر — وهم المماليك البحرية — على تخريب مدينة دمياط ، خوفا من مسير الفرنج اليها مرة أخرى . فسيروا اليها الحجارين والفعلة ، فوقع الهدم فى أسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة ، حتى خربت كلها ، ومحيت آثارها ، ولم يبق منها سوى الجامع ، وصار فى قبليها أخصاص على النيل سكنها الناس الضعفاء ، وسموها المنشية .

وهذا السور هو الذى بناه أمير المؤمنين المتوكل على الله كما تقدم ذكره .

فلما استبد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى * الصالحى بمملكة مصر بعد قتل الملك المظفر قطز ، أخرج من مصر عدة من الحجارين فى سنة تسع وخمسين وستمائة لردم فم بحر دمياط . فمضوا وقطعوا كثيرا من القرايص وألقوها فى بحر النيل الذى ينصب من شمال دمياط فى البحر الملح حتى ضاق وتعذر دخول المراكب منه الى دمياط .

وهو الى اليوم على ذلك ، لا تقدر مراكب البحر الكبار أن تدخل منه ، وانما ينقل ما فيها من البضائع فى مراكب ليلية تعرف عند أهل دمياط بالجروم (واحدها جرم) وتصير مراكب بحر الملح واقفة بآخر البحر ، قريبا من ملتقى البحرين .

ويزعم أهل دمياط الآن أن سبب امتناع دخول مراكب البحر جبل فى فم البحر ، أو رمل يتربى هناك . وهذا قول باطل حملهم عليه ما يجدونه من تلاف المراكب اذا هجمت

(*) ص٢٢٢/ جـ١ ، ط. بولاق .

على هذا المكان ، وجهلهم بأحوال الموجود ، وما مر من الوقائع .

والى يومنا هذا يخاف على المراكب عند ورودها فم البحر ، وكثيرا ما تتلف فيه . وقد سرت اليه حتى شاهدته ، ورأيته من أعجب ما يراه الانسان .

وأما دمياط الآن فانها حدثت بعد تخريب مدينة دمياط ، وعمل هناك أخصاص ... وما برحت تزداد الى أن صارت بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد . ودورها تشرف على النيل الأعظم ، ومن ورائها البساتين . وهى أحسن بلاد الله منظرا .

وقد أخبرنى الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا السالمى رحمه الله ، أنه لم ير فى البلاد التى سلكها من سمرقند الى مصر أحسن من دمياط هذه ، فظننت أنه يغلو فى مدحها الى أن شاهدتها ، فاذا هى أحسن بلد وأنزهه .

وفيها أقول :

سقى عهد دمياط وحياه من عهد
فقد زادنى ذكراه وجدا على وجد
ولا زالت الأنواء تسقى سحابها
ديارا حكت من حسنها جنة الخلد
فياحسن هاتيك الديار وطيبها
فكم قد حوت حسنا يجل عن العد
فلله النهار تحف بروضها
لكالمرهف المصقول أو صفحة الحد
وبشنينها الريان يحكى متيما
تبدل من وصل الأحبة بالصد
فقام على رجليه فى الدمع غارقا
يراعى لجوم الليل من وحشة الفقد
وظل على الأقدام تحسب أنه
لطول انتظار من حبيب على وعد
ولا سيما تلك النواعير انها
تجدد حزن الواله المدنف الفرد
أطارحها شجوى وصارت كأننا
تطارح شكواها بمثل الذى أبدى
فقد خلتها الأفلاك فيها نجومها
تدور بمحض النفع منها وبالسعد
وفى البرك الغراء ياحسن نوفر
حلا وغدا بالزهو يسطو على الورد
سماء من البلور فيها كواكب
عجيبة صبغ اللون محكمة النضد
وفى شاطىء النيل المقدس نزهة
تعيد شباب الشيب فى عيشه الرغد
وتثنى رياحا تطرد الهم والأسى
وتثنى ليالى الوصل من طيبها عندى
وفى مرج البحرين جم عجائب
تلوح وتبدو من قريب ومن بعد
كأن التقاء النيل بالبحر اذ غدا
مليكان سارا فى الجحافل من جند
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا
ولا طعن الا بالمثقفة الملد
فظلا كما باتا وما برحا كما
هما من جليل الخطب فى أعظم الجهد

فكم قد مضى لى من أفانين لذة
بشاطئها العذب الشهى لذى الورد

وكم قد نعمنا فى البساتين برهة
بعيش هنىء فى أمان وفى سعد

وفى البرزخ المأنوس كم لى خلوة
وعند شطا عن أيمن العلم الفرد

هناك ترى عين البصيرة ما ترى
من الفضل والأفضال والخير والمجد

فيارب هيىء لى بفضلك عودة
ومُنَّ بها فى غير بلوى ولا جهد

وبدمياط — حيث كانت المدينة التى هدمت — جامع من أجل مساجد المسلمين ، تسميه العامة مسجد فتح ، وهو المسجد الذى أسسه المسلمون عند فتح دمياط أول ما فتح الله أرض مصر على يد عمرو بن العاص . وعلى بابه مكتوب بالقلم الكوفى « انه عمر بعد سنة خمسائة من الهجرة » . وفيه عدة من عمد الرخام ، منها ما يعز وجود مثله .

وانما عرف * بجامع فتح ، لنزول شخص يقال له فاتح به ، فقالت العامة جامع فتح . وانما هو فاتح بن عثمان الأسمر التكرورى قدم من مراكش الى دمياط على قدم التجريد ، وسقى بها الماء فى الأسواق احتسابا من غير أن يتناول من أحد شيئا ، ونزل فى ظاهر الثغر ، ولزم الصلاة مع الجماعة .

وترك الناس جميعا ، ثم أقام بناحية تونة من بحيرة تنيس وهى خراب نحو سبع سنين ، ورم مسجدها . ثم انتقل من تونة الى جامع دمياط ، وأقام فى وكر بأسفل المنارة من غير أن يخالط أحدا ، الا اذا أقيمت الصلاة خرج وصلى ، فاذا سلم الامام عاد الى وكره ، فان عارضه أحد بحديث كلمه وهو قائم بعد انصرافه من الصلاة .

وكانت حاله أبدا اتصالا فى انفصال ، وقربا فى ابتعاد ، وأنسا فى نفار .

وحج ، فكان يفارق أصحابه عند الرحيل ، فلا يرونه الا وقت النزول . ويكون سيره منفردا عنهم ، لا يكلم أحدا ، الى أن عاد الى دمياط فأخذ فى ترميم الجامع وتنظيفه بنفسه ، حتى نقى ما كان فيه من الوطواط بسقوفه ، وساق الماء الى صهاريجه ، وبلط صحنه ، وسبك سطحه بالجبس ، وأقام فيه .

وكان قبل ذلك من حين خربت دمياط لا يفتح الا فى يوم الجمعة فقط ، فرتب فيه اماما راتبا يصلى الخمس . وسكن فى بيت الخطابة ، وواظب على اقامة الأوراد به ، وجعل فيه قراء يتلون القرآن بكرة وأصيلا ، وقرر فيه رجلا يقرأ ميعادا يذكر الناس ويعلمهم .

وكان يقول : لو علمت بدمياط مكانا أفضل من الجامع لأقمت به ، ولو علمت فى الأرض بلدا يكون فيه الفقير أخمل من دمياط لرحلت اليه ، وأقمت به .

وكان اذا ورد عليه أحد من الفقراء ولا يجد ما يطعمه ، باع من لباسه ما يضيفه به . وكان يبيت ويصبح وليس له معلوم ، ولا ما يقع عليه العين ، أو تسمعه الأذن .

وكان يؤثر فى السر الفقراء والأرامل ، ولا يسأل أحدا شيئا ، ولا يقبل غالبا ، واذا قبل

(*) ص٢٢٤ جـ١ ، ط. بولاق .

ما يفتح الله عليه آثر به . وكان يبذل جهده فى كتم حاله ، والله تعالى يظهر خيره وبركته من غير قصد منه لذلك .

وعرفت له عدة كرامات ، وكان سلوكه على طريق السلف من التمسك بالكتاب والسنة ، والنفور عن الفتنة ، وترك الدعاوى واطراحها ، وستر حاله ، والتحفظ فى أقواله وأفعاله .

وكان لا يرافق أحدا فى الليل ، ولا يعلم أحد يوم صومه من يوم فطره ، ويجعل دائما قول « ان شاء الله تعالى » مكان قول غيره « والله » .

ثم ان الشيخ عبد العزيز الدميرى أشار عليه بالنكاح ، وقال له : النكاح من السنة . فتزوج فى آخر عمره بامرأتين لم يدخل على واحدة منهما نهارا ألبتة ، ولا أكل عندهما ولا شرب قط .

وكان ليله ظرفا للعبادة ، لكنه يأتى اليهما أحيانا ، وينقطع أحيانا لاستغراق زمنه كله فى القيام بوظائف العبادات وايثار الخلوة .

وكان خواص خدمه لا يعلمون بصومه من فطره ، وانما يحمل اليه ما يأكل ويوضع عنده بالخلوة ، فلا يرى قط آكلا .

وكان يحب الفقر ، ويؤثر حال المسكنة ، ويتطارح على الخمول والجفا ، ويتواضع مع الفقراء ، ويتعاظم على العظماء والأغنياء .

وكان يقرأ فى المصحف ، ويطالع الكتب ، ولم يره أحد يخط بيده شيئا . وكانت تلاوته للقرآن بخشوع وتدبر . ولم يعمل له سجادة قط ، ولا أخذ على أحد عهدا ، ولا لبس طاقية ، ولا قال أنا شيخ ولا أنا فقير ، ومتى قال فى كلامه « أنا » ، تفطن لما وقع منه ، واستعاذ بالله من قول أنا ، ولا حضر قط سماعا ، ولا أنكر على من يحضره .

وكان سلوكه صلاحا من غير اصلاح ، ويبالغ فى الترفع على أبناء الدنيا ، ويترامى على الفقراء ، ويقدم لهم الأكل ، ولم يقدم لغنى أكلا ألبتة .

واذا اجتمع عنده الناس ، قدم الفقير على الغنى . واذا مضى الفقير من عنده ، سار معه وشيعه عدة خطوات وهو حاف بغير نعل ، ووقف على قدميه ينظره حتى يتوارى عنه .

ومن كان من الفقراء يشار اليه بمشيخة جلس بين يديه بأدب مع امامته ، وتقدمه فى الطريق ويقول : ما أقول لأحد افعل أو لا تفعل ، من أراد السلوك يكفيه أن ينظر الى أفعاله ، فان من لم يتسلك بنظره لا يتسلك بسمعه .

وقال له شخص من خواصه : ياسيدى ، ادع الله لنا أن يفتح علينا فنحن فقراء .

فقال : ان أردتم فتح الله ، فلا تبقوا فى البيت شيئا ثم اطلبوا فتح الله بعد ذلك ، فقد جاء : « لا تسأل الله ولك خاتم من حديد » .

ومن كلامه : الفقير بحال البكر ، اذا سأل زالت بكارته .

وسأله بعض خواصه أن يدعو له بسعة ، وشكا له الضيق ، فقال : أنا ما أدعو لك بسعة ، بل أطلب لك الأفضل والأكمل .

وكان مع اشتغاله بالعبادة واستغراق أوقاته فيها لا يغفل عن صاحبه ، ولا ينسى حاجته حتى يقضيها ، ويلازم الوفاء لأصحابه ويحسن معاشرتهم ، ويعرف أحوال الناس على طبقاتهم ، ويعظم العلم ، ويكرم الأيتام ، ويشفق على الضعفاء والأرامل ، ويبذل شفاعته فى قضاء حوائج الخاص والعام من غير أن يمل ولا يتبرم بكثرة ذلك ، ويكثر من الايثار فى السر ، ولا يمسك لنفسه شيئا ، ويستقل ما منه مع كثرة احسانه ، ويستكثر ما يدفع اليه وان كان يسيرا ، ويكافىء عليه بأحسن منه . ولم يصحب قط أميرا ولا وزيرا ، بل كان فى سلوكه وطريقه يرفع فى تواضع ، ويعتز مع مسكنة ، وقرب فى ابتعاد ، واتصال فى انفصال ، وزهد فى الدنيا وأهلها . وكان أكبر من خيره * .

ومن دعائه لنفسه ، ولمن يسأل له الدعاء : اللهم بعدنا عن الدنيا وأهلها ، وبعدها عنا .

وما زال على ذلك الى أن مات آخر ليلة أسفر صباحها عن الثامن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وستمائة ، وترك ولدين ليس لهما قوت ليلة ، وعليه مبلغ ألفى درهم دينا . ودفن بجوار الجامع ، وقبره يزار الى يومنا هذا .

ذكر شطا

شطا مدينة عند تنيس ودمياط ، واليها تنسب الثياب الشطوية .

(*) ص٢٢٥ جـ١ ، ط.بولاق .

ويقال انها عرفت بشطا بن الهاموك ، وكان أبوه خال المقوقس ، وكان على دمياط . فلما فتح الله الحصن على يد عمرو بن العاص ، واستولى على أرض مصر ، جهز بعثا لفتح دمياط ، فنازلوها الى أن ملكوا سور المدينة ، فخرج شطا فى ألفين من أصحابه ولحق بالمسلمين . وقد كان قبل ذلك يحب الخير ويميل الى ما يسمعه من سيرة أهل الاسلام .

ولما ملك المسلمون دمياط ، امتنع عليهم صاحب تنيس ، فخرج شطا الى البرلس والدميرة وأشموم طناح يستنجد ، فجمع الناس لقتال أهل تنيس ، وسار بهم مع من كان بدمياط من المسلمين ومن قدم مددا من عند عمرو بن العاص الى قتال أهل تنيس . فالتقى الفريقان ، وأبلى شطا منهم بلاء حسنا وقتل من أبطال تنيس اثنى عشر رجلا .

واستشهد فى ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة احدى وعشرين من الهجرة ، فقبر — حيث هو الآن — خارج دمياط ، وبنى على قبره ، وصار الناس يجتمعون هناك فى ليلة النصف من شعبان كل عام ، ويفدون للحضور من القرى . وهم على ذلك الى يومنا هذا .

وكانت تعمل كسوة الكعبة بشطا .. قال الفاكهى : ورأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطى مصر ، مكتوبا عليها : « بسم الله ، بركة من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته فى طراز شطا ، كسوة الكعبة سنة احدى وتسعين ومائة » .

ومن المواضع المشهورة بدمياط :

البرزخ : وهو مسجد بحيرة دمياط ، تسميه العامة البرزخ ، ولا أعرف مستندهم فى ذلك .

وشاهدت فيه عجبا ، وهو أن به منارة كبيرة مبنية من الآجر ، اذا هزها أحد اهتزت ، فلما صعدت أعلاها —حيث يقف المؤذنون— وحركتها ، رأيت ظلها قد تحرك بتحريكى لها .

ويوجد حول هذا المسجد رمم أموات يشبه أن تكون ممن استشهد فى وقائع الفرنج . والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

ديبق : قرية من قرى دمياط ، ينسب اليها الثياب المثقلة ، والعمائم الشرب الملونة .

والديبقى : العلم المذهب .

وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها ، ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع ، وفيها رقمات منسوجة بالذهب .. فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار ، سوى الحرير والغزل . وحدثت هذه العمائم وغيرها فى أيام العزيز بالله بن المعز ، سنة خمس وستين وثلثمائة ، الى أن مات فى شعبان سنة ست وثمانين وثلثمائة .

النحريرية : قرية من الأعمال الغربية ، أسس حكرها الأمير شمس الدين سنقر السعدى نقيب الجيش فى أيام الناصر محمد ابن قلاوون ، وبالغ فى عمارتها ، فبلغت فى أيامه عشرة آلاف درهم فضة .

ثم خرج عنها فعمرت للسلطان ، واتسع أمرها حتى أنشىء فيها زيادة على ثلاثين بستانا ، ووصل حكرها لكثرة سكانها الى ألف درهم فضة لكل فدان ، وصارت بلدا كبير العمل ، يبلغ فى السنة ما بين خراجى وهلالى ثلثمائة ألف درهم فضة ، عنها خمسة عشر ألف دينار ذهبا .

ومات سنقر هذا فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة . واليه تنسب المدرسة السعدية بخط حدرة البقر خارج باب زويلة .

جزيرة بنى نصر : منسوبة الى بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن . وذلك أن بنى حماس بن ظالم بن جعيل بن عمرو بن درهمان ابن نصير بن معاوية بن بكر بن هوازن كانت لهم شوكة شديدة بأرض مصر ، وكثروا حتى ملأوا أسفل الأرض ، وغلبوا عليها حتى قويت عليهم قبيلة من البربر تعرف بلواتة — ولواتة تزعم أنها من قيس — فأجلت بنى نصر ، وأسكنتها الجدار ، فصاروا أهل قرى فى مكان عرف بهم وسط النيل ، وهى جزيرة بنى نصر هذه .

ذكر الطريق فيما بين مدينة مصر ودمشق

اعلم أن البريد أول من رتب دوابه الملك دارا بن بهمن بن كيشتاسف بن كيهراسف ، أحد ملوك الفرس .

وأما فى الاسلام فأول من أقام البريد أمير المؤمنين المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور ،

أقامه فيما بين مكة والمدينة واليمن ، وجعله بغالا وابلا ، وذلك فى سنة ست وستين ومائة .

وأصل هذه الكلمة « بريد ذنب » فان دارا أقام فى سكك البريد دواب محذوفة الأذناب سميت « بريد ذنب » ، ثم عربت وحذف منها نصفها الأخير فقيل « بريد » .

وهذا الدرب * الذى يسلكه العساكر والتجار وغيرهم من القاهرة على الرمل الى مدينة غزة ، ليس هو الدرب الذى يسلك فى القديم من مصر الى الشام .

ولم يحدث هذا الدرب الذى يسلك فيه من الرمل الآن الا بعد الخمسمائة من سنى الهجرة ، عندما انقرضت الدولة الفاطمية .

وكان الدرب أولا قبل استيلاء الفرنج على سواحل البلاد الشامية غير هذا .. قال أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة فى كتاب « المسالك والممالك » : وصفة الأرض والطريق من دمشق الى الكسوة اثنا عشر ميلا ، ثم الى جاسم أربعة وعشرون ميلا ، ثم الى فيق أربعة وعشرون ميلا ، ثم الى طبرية مدينة الأردن ستة أميال ، ومن طبرية الى اللجون عشرون ميلا ، ثم الى القلنسوة عشرون ميلا ، ثم الى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلا . والطريق من الرملة الى أزدود اثنا عشر ميلا ، ثم الى غزة عشرون ميلا ، ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلا فى رمل ، ثم الى الورادة ثمانية عشر ميلا ، ثم الى أم العرب عشرون ميلا ، ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلا ، ثم الى جرير ثلاثون ميلا ، ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلا ، ثم الى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلا ، ثم الى بلبيس أحد وعشرون ميلا ، ثم الى الفسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلا .

فهذا كما ترى انما كان الدرب المسلوك من مصر الى دمشق ، على غير ما هو الآن ، فيسلك من بلبيس الى الفرما فى البلاد التى تعرف اليوم ببلاد السباخ ، من الحوف ، ويسلك من الفرما — وهى بالقرب من قطية — الى أم العرب — وهى بلاد خراب على البحر فيما بين قطية والورادة ، ويقصدها قوم من الناس ، ويحفرون فى كيمانها فيجدون دراهم من فضة خالصة ، ثقيلة الوزن ، كبيرة المقدار — ويسلك من أم العرب الى الورادة ، وكانت بلدة فى غير موضعها الآن ، قد ذكرت فى هذا الكتاب .

فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية فى سنة تسعين وأربعمائة لأخذ البلاد من أيدى المسلمين ، وأخذ بغدوين الشوبك وعمره فى سنة تسع وخمسمائة ، وكان قد خرب من تقادم السنين ، وأغار على العريش وهو يومئذ عامر ... بطل السفر حينئذ من مصر الى الشام ، وسار يسلك على طريق البر مع العرب مخافة الفرنج ، الى أن استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدى الفرنج فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وأكثر من الايقاع بالفرنج ، وافتتح منهم عدة بلاد بالساحل ، وصار يسلك هذا الدرب على الرمل . فسلكه المسافرون من حينئذ الى أن ولى ملك مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، فانشأ بأرض السباخ ، على طرف الرمل ، بلدة عرفت الى اليوم بالصالحية وذلك فى سنة أربع وأربعين وستمائة ، وصار ينزل بها ويقيم فيها ، ونزل بها من بعده الملوك .

(*) ص ٢٢٦ ج ١ ط ٠ بولاق

فلما ملك مصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، رتب البريد فى سائر الطرقات ، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل الى دمشق فى أربعة أيام ويعود فى مثلها . فصارت أخبار الممالك ترد اليه فى كل جمعة مرتين ، ويتحكم فى سائر ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم بالقلعة ، وأنفق فى ذلك مالا عظيما ، حتى تم ترتيبه . وكان ذلك فى سنة تسع وخمسين وستمائة .

وما زال أمر البريد مستمرا فيما بين القاهرة ودمشق ، يوجد بكل مركز من مراكزه عدة من الخيول المعدة للركوب — وتعرف بخيل البريد — وعندها عدة سواس ، وللخيل رجال يعرفون بالسواقين ، واحدهم سواق ، يركب مع من رسم بركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره . ولا يركب أحد خيل البريد الا بمرسوم سلطانى ، فتارة يمنع الناس من ركوبه الا من انتدبه السلطان لمهماته ، وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطانى .

وكانت طرق الشام عامرة ، يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج اليه المسافر من زاد وعلف وغيره . ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة الى الشام بمفردها — راكبة أو ماشية — لا تحمل زادا ولا ماء .

فلما أخذ تيمورلنك دمشق وسبى أهلها ، وحرقها فى سنة ثلاث وثمانمائة ، خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما نزل بالبلاد من المحن ، وما دهوا به من كثرة الفتن ، عن اقامة البريد ، فاختل بانقطاعه طريق الشام خللا فاحشا . والأمر على ذلك الى وقتنا هذا ، وهو سنة ثمان عشرة وثمانمائة

ذكر مدينه حطين

هذه المدينة آثارها الى اليوم باقية فيما بين حبوة والعاقولة بأرض العاقولة فيما بين قطية والعريش ، تجاهها بسيل ماء عذب تسميه العرب أبا العروق ، وهو شرقيها .

وهذه المدينة تنسب الى حطين ، ويقال حطى بن الملك أبى جاد المدينى . وأهل قطية اليوم يسمون تلك الأرض ببلاد حطين والجفر .

وملك حطين هذا أرض مصر بعد موت أبيه ، وكان صاحب حرب وبطش ، وكان ينزل بقلعة فى جبال الأردن قريبا من طبرية ، واليه تنسب قرية حطين التى بها * الآن قبر شعيب بالقرب من صفد .

ذكر مدينة الرقة

هذه المدينة من جملة مدائن مدين فيما بين بحر القلزم وجبل الطور . كان بها عندما خرج موسى عليه السلام ببنى اسرائيل من مصر قوم من لخم آل فرعون يعبدون البقر ، واياهم

(*) ص ٢٢٧ ج ١ ط ٠ بولاق

عنى الله بقوله تعالى « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ... » الآية .

قال قتادة : أولئك القوم من لخم ، وكانوا نزولا بالرقة وقيل كانت أصنامهم تماثيل البقر ، ولهذا أخرج لهم السامرى عجلا .

وآثار هذه المدينة باقية الى اليوم ، فيما بقى من مدينة فاران والقلزم ومدين وأيلة ، تمر بها الأعراب .

ذكر عين شمس

وكان يقال لها فى القديم رعساس ، وكانت عين شمس هيكلا يحج الناس اليه ، ويقصدونه من أقطار الأرض ، فى جملة ما كان يحج اليه من الهياكل التى كانت فى قديم الدهر .

ويقال ان الصابئة أخذت هذه الهياكل عن عاد وثمود . ويزعمون أنه عن شيث بن آدم ، وعن هرمس الأول — وهو ادريس — وأن ادريس هو أول من تكلم فى الجواهر العلوية ، والحركات النجومية ، وبنى الهياكل ومجد الله فيها .

ويقال ان الهياكل كانت عدتها فى الزمن الغابر اثنى عشر هيكلا ، وهى : هيكل العلة الأولى ، وهيكل العقل ، وهيكل السياسة ، وهيكل الصورة ، وهيكل النفس — وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات — والهيكل السادس هيكل زحل وهو مسدس ، وبعده هيكل المشترى وهو مثلث ، ثم هيكل المريخ وهو مربع ، وهيكل الشمس وهو أيضا مربع ، وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل ، وهيكل عطارد مثلث فى جوف مربع مستطيل ، وهيكل القمر مثمن .

وعللوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا : لما كان صانع العالم مقدسا عن صفات الحدوث وجب العجز عن ادراك جلاله ، وتعين أن يتقرب اليه عباده بالمقربين لديه ، وهم الروحانيون ، ليشفعوا لهم ، ويكونوا وسايط لهم عنده .

وعنوا بالروحانيين الملائكة ، وزعموا أنها المدبرات للكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها ، وهى هياكلها ، وانه لابد لكل روحانى من هيكل ، ولابد لكل هيكل من فلك ، وأن نسبة الروحانى الى الهيكل نسبة الروح الى الجسد .

وزعموا انه لابد من رؤية المتوسط بين العباد وبين بارئهم حتى يتوجه اليه العبد بنفسه ، ويستفيد منه . ففزعوا الى الهياكل التى هى السيارات ، فعرفوا بيوتها من الفلك ، وعرفوا مطالعها ومغاربها واتصالاتها ، وما لها من الأيام والليالى والساعات والأشخاص والصور والأقاليم ، وغير ذلك مما هو معروف فى موضعه من العلم الرياضى .

وسموا هذه السبعة السيارة أربابا وآلهة ، وسموا الشمس اله الآلهة ورب الأرباب ، وزعموا أنها المفيضة على السنة أنوارها ، والمظهرة فيها آثارها . فكانوا يتقربون الى الهياكل تقربا الى الروحانيين لتقربهم الى

البارى ، لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين ، وكل من تقرب الى شخص فقد تقرب الى روحه .

وكانوا يصلون لكل كوكب يوما يزعمون أنه رب ذلك اليوم ، وكانت صلاتهم فى ثلاثة أوقات : الأولى عند طلوع الشمس ، والثانية عند استوائها فى الفلك ، والثالثة عند غروبها . فيصلون لزحل يوم السبت ، وللمشترى يوم الأحد ، وللمريخ يوم الاثنين ، وللشمس يوم الثلاثاء ، وللزهرة يوم الأربعاء ، ولعطارد يوم الخميس ، وللقمر يوم الجمعة .

ويقال انه كان ببلخ هيكل بناه بنو حمير على اسم القمر لتعارض به الكعبة ، فكانت الفرس تحجه وتكسوه الحرير ، وكان اسمه نوبهر . فلما تمجست الفرس عملته بيت نار ، وقيل للموكل بسدانته برمك (يعنى والى مكة) . وانتهت البرمكة الى جد خالد جد جعفر بن يحيى بن خالد ، فأسلم على يد هشام ابن عبد الملك ، وسماه عبد الله .

وخرب هذا الهيكل قيس بن الهيثم فى أول خلافة معاوية سنة احدى وأربعين . وكان بناء عظيما حوله أروقة وثلثمائة وستون مقصورة لسكن خدامه .

وكان بصنعاء قصر غمدان من بناء الضحاك ، وكان هيكل الزهرة ، وهدم فى خلافة عثمان بن عفان .

وكان بالأندلس ، فى الجبل الفارق بين جزيرة الأندلس والأرض الكبيرة ، هيكل المشترى من بناء كلوبطرة بنت بطليموس .

وكان بفرغانة بيت يقال له كلوسان هيكل للشمس ، بناه بعض ملوك فارس الأول ، خربه المعتصم .

وقد اختلف فيمن بنى هيكل عين شمس . وسأقص من أخباره ما لم أره مجموعا فى كتاب .

قال ابن وصيف شاه : وقد كان الملك منقاوس اذا ركب عملوا بين يديه التخاييل العجيبة ، فيجتمع الناس ويعجبون من أعمالهم . وأمر أن يبنى له هيكل للعبادة يكون له * خصوصا ، ويجعل فيه قبة فيها صورة الشمس والكواكب ، وجعل حولها أصناما وعجائب ، فكان الملك يركب اليه ، ويقيم فيه سبعة أيام .

وجعل فيه عمودين زبر عليهما تاريخ الوقت الذى عمله فيه ، وهما باقيان الى اليوم ، وهو الموضع الذى يقال له عين شمس ، ونقل الى عين شمس كنوزا وجواهر وطلسمات وعقاقير وعجائب ، ودفنها بها وبنواحيها .

وأقام ملكا احدى وتسعين سنة ، ومات من الطاعون ، وقيل من سم .

وعمل له ناووس فى صحراء الغرب ، وقيل فى غربى قوص ، ودفن معه مصاحف الحكمة والصنعة ، وتماثيل الذهب والجوهر ، ومن الذهب المضروب شىء كثير .

ودفن معه تمثال روحانى الشمس من ذهب يلمع ، وله جناحان من زبرجد ، وصنم على صورة امرأته ، وكان يحبها .

(*) ص٢٢٨ جـ١ ، ط. بولاق .

فلما ماتت أمر أن تعمل صورتها فى الهياكل كلها ، وعمل صورتها من ذهب بقوائمين سوداوين ، وعليها حلة من جواهر منظومة وهى جالسة على كرسى . وكان يجعلها بين يديه فى كل موضع يجلس فيه ، يتسلى بذلك عنها ، فدفنت هذه الصورة معه تحت رجليه كأنها تخاطبه .

وقال الحكيم الفاضل أحمد بن خليفة فى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » : واشتاق فيثاغورس الى الاجتماع بالكهنة الذين كانوا بمصر ، فورد على أهل مدينة الشمس — المعروفة فى زماننا بعين شمس — فقبلوه قبولا كرها ، وامتحنوه زمانا فلم يجدوا عليه نقصا ولا تقصيرا .

فوجهوا به الى كهنة منف كى يبالغوا فى امتحانه ، فقبلوه على كراهة ، واستقصوا امتحانه ، فلم يجدوا عليه معيبا ، ولا أصابوا له عثرة .

فبعثوا به الى أهل ديوسوس ليمتحنوه ، فلم يجدوا عليه طريقا ولا الى امتحانه سبيلا ، ففرضوا عليه فرائض صعبة كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه ، ويحرموه طلبه مخالفة لفرائض اليونانيين ، فقبل ذلك وقام به .

فاشتد اعجابهم به ، وفشا بمصر ورعه ، حتى بلغ ذكره الى أماسيس ملك مصر ، فأعطاه سلطانا على ضحايا الرب وعلى سائر قرابينهم ، ولم يعط ذلك لغريب قط .

ويقال انه كان للكواكب السبعة السيارة هياكل ، يحج الناس اليها من سائر أقطار الدنيا ، وضعها القدماء ، فجعلوا على اسم

كل كوكب هيكلا فى ناحية من نواحى الأرض .

زعموا أن البيت الأول هو الكعبة ، وأنه مما أوصى ادريس — الذى يسموه هرمس الأول المثلث — أن يحج اليه ، وزعموا أنه منسوب لزحل .

والبيت الثانى بيت المريخ ، وكان بمدينة صور من الساحل الشامى .

والبيت الثالث للمشترى ، وكان بدمشق ، بناه جيرون بن سعد بن عاد ، وموضعه الآن جامع بنى أمية .

والبيت الرابع بيت الشمس بمصر : ويقال انه من بناء هرشيك ، أحد ملوك الطبقة الأولى من ملوك الفرس ، وهو المسمى بعين شمس .

والبيت الخامس بيت الزهرة ، وكان بمنبج .

والبيت السادس بيت عطارد ، وهو بصيدا من ساحل البحر الشامى .

والبيت السابع بيت القمر ، وكان بحران — ويقال انه قلعتها — ويسمى المدور ، ولم يزل عامرا الى أن خربه التتر . ويقال انه كان هو هيكل الصابئة الأعظم .

وقال شافع بن على فى كتاب « عجائب البلدان » : وعين شمس مدينة صغيرة ، تشاهد سورها محدقا بها مهدوما ، ويظهر من أمرها أنها كانت بيت عبادة .

وفيها من الأصنام الهائلة العظيمة الشكل ، من نحيت الحجارة ، ما يكون طول الصنم بقدر ثلاثين ذراعا ، وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم . وكل هذه الأصنام قائمة على قواعد ، وبعضها قاعد على نصبات عجيبة واتقانات محكمة .

وباب المدينة موجود الى الآن .

وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير على شكل الانسان وغيره من الحيوان ، وكتابة كثيرة بالقلم المجهول ، وقلما ترى حجرا خلا عن كتابة أو نقش أو صورة .

وفى هذه المدينة المسلتان المشهورتان ، وتسميان مسلتى فرعون .

وصفة المسلة قاعدة مربعة ، طولها عشرة أذرع فى مثلها عرضا فى نحوها سمكا ، قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض ، ثم أقيم عليها عمود مثلث مخروط ينيف طوله على مائة ذراع ، يبتدىء من القاعدة بسطة قطرها خمسة أذرع ، وينتهى الى نقطة

وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس الى نحو ثلاثة أذرع منها كالقمع ، وقد تزنجر بالمطر وطول المدة ، واخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة ، وكلها عليها كتابات بذلك القلم .

وكانت المسلتان قائمتين ، ثم خرت احداهما ، وانصدعت من نصفها لعظم الثقل ، وأخذ النحاس من رأسها .

ثم ان حولها من الأصنام شيئا كثيرا لا يحصى عدده ، على نصف تلك العظمى أو يليها . وقلما يوجد فى هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة ، بل فصوصها بعضها على بعض ، وقد تهدم أكثرها وانما بقيت قواعدها

وقال محمد بن ابراهيم الجزرى فى تاريخه : وفى رابع شهر رمضان (يعنى من سنة ست وخمسين وستمائة) وقعت احدى مسلتى فرعون ، التى بأراضى المطرية من ضواحى القاهرة ، فوجدوا داخلها مائتى قنطار من نحاس ، وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار .

ويقال ان عين شمس بناها الوليد بن دومع من الملوك العماليق وقيل بناها الريان بن الوليد ، وكانت سرير ملكه . والفرس تزعم أن هرشيك بناها .

ويقال طول العمودية مائة ذراع . وقيل * أربعة وثمانون ذراعا . وقيل خمسون ذراعا .

ويقال ان بخت نصر هو الذى خرب عين شمس لما دخل الى مصر .

وقال القضاعى : وعين شمس — وهى هيكل الشمس — بها العمودان اللذان لم ير أعجب منهما ولا من شأنهما ، طولهما فى السماء نحو من خمسين ذراعا ، وهما محمولان على وجه الأرض ، وبينهما صورة انسان على دابة ، وعلى رأسهما شبه الصومعتين من نحاس .

فاذا جاء النيل قطر من رأسيهما ما تستبينه وتراه منهما واضحا ينبع حتى يجرى من أسافلهما ، فينبت فى أصلهما العوسج وغيره .

واذا دخلت الشمس دقيقة من الجدى — وهو أقصر يوم فى السنة — انتهت الى

(*) ص٢٢٩ جـ١ ، ط. بولاق .

الجنوبي منهما ، فطلعت عليه على قمة رأسه . ثم اذا دخلت دقيقة من السرطان — وهو أطول يوم فى السنة — انتهت الى الشمالى منهما ، فطلعت على قمة رأسه .

وهما منتهى الميلين ، وخط الاستواء فى الواسطة منهما ، ثم خطرت بينهما ذاهبة وجائية سائر السنة ... كذا يقول أهل العلم بذلك .

وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب : وكانت عين شمس ، فى قديم الزمان ، عظيمة الطول والعرض ، متصلة البناء بمصر القديمة حيث مدينة الفسطاط الآن . ولما قدم عمرو بن العاص ، نازل عين شمس — وكان جمع القوم — حتى فتحها .

وقال جامع السيرة الطولونية : كان بعين شمس صنم ، بمقدار الرجل المعتدل الخلق ، من كذان أبيض محكم الصنعة ، يتخيل من استعرضه أنه ناطق .

فوصف لأحمد بن طولون ، فاشتاق الى تأمله ، فنهاه ندوسة عنه وقال : ما رآه وال قط الا عزل .

فركب اليه — وكان هذا فى سنة ثمان وخمسين ومائتين — وتأمله ، ثم دعا بالقطاعين وأمرهم باجتثاثه من الأرض ، ولم يترك منه شيئا .

ثم قال لندوسة خازنه : ياندوسة ، من صرف منا صاحبه ؟

قال : أنت أيها الأمير .

وعاش بعدها أحمد ثنتى عشرة سنة أميرا .

وبنى العزيز بالله نزار بن المعز قصورا بعين شمس .

وقال أبو عبيد البكرى : عين شمس (بفتح الشين واسكان ثانيه بعده سين مهملة) عين ماء معروفة .

قال محمد بن حبيب : عين شمس حيث بنى فرعون الصرح . وزعم قوم أن عين شمس الى هذا الماء أضيف .

وأول من سمى هذا الاسم سبأ بن يشجب .

وذكر الكلبى أن شمسا ، الذى تسموا به ، صنم قديم .

وقال ابن خرداذبة : وأسطوانتين بعين شمس من أرض مصر ، ومن بقايا أساطين كانت هناك ، فى رأس كل أسطوانة طوق من نحاس ، يقطر من احداهما ماء من تحت الطوق الى نصف الأسطوانة لا يجاوزه ، ولا ينقطع قطره ليلا ولا نهارا ، فموضعه من الأسطوانة أخضر رطب ، ولا يصل الماء الى الأرض . وهو من بناء أوسهنك .

وذكر محمد بن عبد الرحيم فى كتاب «تحفة الألباب» أن هذا المنار مربع علوه مائة ذراع قطعة واحدة ، محدد الرأس على قاعدة من حجر ، وعلى رأس المنار غشاء من صفر كالذهب ، فيه صورة انسان على كرسى قد استقبل المشرق ، ويخرج من تحت ذلك الغشاء الصفر ماء يسيل مقدار عشرة أذرع ، وقد نبت منه شىء كالطحلب ، فلا يبرح لمعان الماء على تلك الخضرة أبدا صيفا وشتاء ، لاينقطع ولا يصل الى الأرض منه شىء .

وبعين شمس نبت يزرع كالقضبان يسمى البلسم ، يتخذ منه دهن البلسان ، لا يعرف بمكان من الأرض الا هناك ، وتؤكل لحى هذه القضبان فيكون له طعم ، وفيه حرارة وحرافة لذيذة .

وبناحية المطرية ، من حاضرة عين شمس ، البلسان ، وهو شجر قصار يسقى من ماء بئر هناك ، وهذه البئر تعظمها النصارى ، وتقصدها وتغتسل بمائها وتستشفى به .

ويخرج لاعتصار البلسان — أوان ادراكه — من قبل السلطان من يتولى ذلك ويحفظه ، ويحمل الى الخزانة السلطانية ، ثم ينقل منه الى قلاع الشام والمارستانات لمعالجة المبرودين ، ولا يؤخذ منه شىء الا من خزانة السلطان ، بعد أخذ مرسوم بذلك .

وللملوك النصارى — من الحبشة والروم والفرنج — فيه غلو عظيم ، وهم يتهادونه من صاحب مصر ، ويرون أنهم لا يصح عندهم لأحد أن يتنصر الا أن ينغمس فى ماء المعمودية ويعتقدون أنه لابد أن يكون فى ماء المعمودية شىء من دهن البلسان ، ويسمونه الميرون .

وكان فى القديم اذا وصل من الشام خبر انتهى الى صاحب عين شمس ، ثم يرد من عين شمس الى الحصن الذى عرف بقصر الشمع حيث الآن مدينة مصر ، ثم يرد من الحصن الى مدينة منف حيث كانت منف تحت الملك .

وسبب تعظيم النصارى لدهن البلسان ما ذكره فى كتاب « السنكسار » — وهو يشتمل على أخبار النصارى — أن المسيح لما خرجت به أمه ، ومعهما يوسف النجار ، من بيت المقدس ، فرارا من هيرودس ملك اليهود ، نزلت به أول موضع من أرض مصر مدينة بسطة فى رابع عشرى بشنس ، فلم يقبلهم أهلها ، فنزلوا بظاهرها ، وأقاموا أياما .

ثم ساروا الى مدينة سمنود ، وعدوا النيل الى الغربية ، ومشوا الى مدينة الأشمونين . وكان بأعلاها اذ ذاك شكل فرس من نحاس ، قائم على أربعة أعمدة ، فاذا قدم اليها غريب صهل .. فجاءوا ونظروا فى أمر القادم ، فعندما وصلت مريم بالمسيح عليه السلام الى المدينة سقط الفرس المذكور وتكسر * ، فدخلت به أمه .

وظهرت له عليه السلام فى الأشمونين آية ، وهو أن خمسة جمال محملة زاحمتهم فى مرورهم ، فصرخ فيها المسيح فى الأشمونين ، فصارت حجارة .

ثم انهم ساروا من الأشمونين ، وأقاموا بقرية تسمى فيلس مدة أيام ، ثم مضوا الى مدينة تسمى قس وقام — وهى التى يقال لها اليوم القوصية — فنطق الشيطان من أجواف الأصنام التى بها ، وقال : ان امرأة أتت ومعها ولدها يريدون أن يخربوا بيوت معابدكم . فخرج اليهم مائة رجل بسلاحهم ، وطردوهم عن المدينة .

فمضوا الى ناحية ميرة فى غربى القوصية ، ونزلوا فى الموضع الذى يعرف اليوم بدير المحرق ، وأقاموا به ستة أشهر وأياما ، فرأى

(*) ص٢٢٠ جـ١ ، ط.بولاق .

يوسف النجار فى منامه قائلا مخبره بموت هيرودس ، وأمره أن يرجع بالمسيح الى القدس .

فعادوا من ميرة حتى نزلوا حيث الموضع الذى يعرف اليوم فى مدينة مصر بقصر الشمع ، وأقاموا بمغارة تعرف اليوم بكنيسة بومرجة

ثم خرجوا منها الى عين شمس ، فاستراحوا هناك بجوار ماء ، فغسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح وقد اتسخت ، وصبت غسالتها بتلك الأراضى ، فأنبت الله هنالك البلسان ، وكان اذ ذاك بالأردن ، فانقطع من هناك وبقى بهذه الأرض .

وغمرت هذه البئر ، التى هى الآن موجودة هناك ، على ذلك الماء الذى غسلت منه مريم . وبلغنى أنها الى الآن اذا اعتبرت يوجد ماؤها عينا جارية فى أسفلها ... فهذا سبب تعظيم النصارى لهذه البئر وللبلسان ، فانه انما سقى منها . والله أعلم .

المنصورة

هذه البلدة على رأس بحر أشموم ، تجاه ناحية طلخا ، بناها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب ، فى سنة ست عشرة وستمائة ، عندما ملك الفرنج مدينة دمياط .

فنزل فى موضع هذه البلدة وخيم به ، وبنى قصرا لسكناه ، وأمر من معه من الأمراء والعساكر بالبناء ، فبنى هناك عدة دور ، ونصبت الأسواق ، وأدار عليها سورا مما يلى البحر ، وستره بالآلات الحربية والستائر .

وتسمى هذه المنزلة المدينة المنصورة ، ولم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط — كما تقدم ذكره عند ذكر مدينة دمياط من كتابنا هذا — فصارت مدينة كبيرة ، بها الحمامات والفنادق والأسواق

ولما استنقذ الملك الكامل دمياط من الفرنج ، ورحل الفرنج الى بلادهم ، جلس بقصره فى المنصورة وبين يديه اخوته : الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، والملك الأشرف موسى صاحب بلاد الشرق ، وغيرهما من أهله وخواصه ... فأمر الملك الأشرف جاريته فغنت على عودها :

ولما طغى فرعون عكا وقومه
وجاء الى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا
فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف ، وقال لها : بالله كررى .

فشق ذلك على الملك الكامل وأسكتها ، وقال لجاريته : غنى أنت .

فأخذت العود وغنت :

أياأهل دين الكفر قوموا لتنظروا
لما قد جرى فى وقتنا وتجددا
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه
وموسى جميعا ينصران محمدا

وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن جبارة أولها : « أبى الوجد الا أن أبيت مسهدا »

فأعجب ذلك الملك الكامل ، وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار

فنهض القاضى الصدر الأجل الرئيس هبة الله بن محاسن قاضى غزة — وكان من جملة الجلساء — على قدميه ، وانشد يقول :

هنيئا فان السعد جاء مخلدا
وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحا لنا بدا
مبينا وانعاما وعزا مؤبدا
تهلل وجه الأرض بعد قطوبه
وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله ا
لطغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه
صقيلا كما سل الحسام المهندا
فلم ينج الا كل شلو مجدل
ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا
عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه
وموسى جميعا ينصران محمدا

فكانت هذه الليلة بالمنصورة من أحسن ليلة مرت للملك من الملوك .

وكان عند انشاده بشير ، اذا قال عيسى ، الى * عيسى المعظم ، واذا قال موسى ، الى موسى الأشرف ، واذا قال محمدا ، الى السلطان الملك الكامل

وقد قيل ان الذى انشد هذه الأبيات انما هو راجح المحلى الشاعر .

(*) ص٢٢١ جـ١ ، ط.بولاق .

العباسة

هذه القرية فيما بين بلبيس والصالحية من أرض السدير ، لم يزل متنزها لملوك مصر ، وبها ولد العباس بن أحمد بن طولون ، فسماه لذلك أبوه العباس وولد بها أيضا الملك الأمجد تقى الدين عباس بن العادل أبى بكر ابن أيوب

وكان الملك الكامل محمد بن العادل يقيم بها كثيرا ، ويقول : هذه تعلو مصر . اذا أقمت بها أصطاد الطير من السماء ، والسمك من الماء ، والوحش من الفضاء ، ويصل الخبز من قلعة الجبل الى بها فى قلعتى وهو سخن . وبنى بها آدرا ومناظر وبساتين ، وبنى أمراؤه بها أيضا عدة مساكن فى البساتين .

ولم تزل العباسة على ذلك ، حتى أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل المنزلة الصالحية ، فتلاشى حينئذ أمر العباسة ، وخربت المناظر فى سلطنة الملك المعز أيبك .

فلما كانت سلطنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، مر على السدير — وهو فم الوادي — فأعجب به ، وبنى فى موضع اختاره منه قرية سماها الظاهرية ، وأنشأ بها جامعا ، وذلك فى سنة ست وستين وستمائة .

وسميت بالعباسة بنت أحمد بن طولون ، فانها خرجت الى هذا الموضع مودعة لبنت أخيها قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون ، لما حملت الى المعتضد ، وضربت هناك فساطيطها ، ثم بنت قرية فسميت باسمها .

ذكر مدينة قفط بصعيد مصر

هذه المدينة تعرف بقفطريم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام . وكانت فى الدهر الأول مدينة الاقليم ، وانما بدأ خرابها بعد الأربعمائة من تاريخ الهجرة النبوية . وآخر ما كان فيها — بعد السبعمائة من سنى الهجرة — أربعون مسبكا للسكر ، وست معاصر للقصب .

ويقال كان فيها قباب بأعالى دورها ، وكانت اشارة من ملك من أهلها عشرة آلاف دينار ، أن يجعل فى داره قبة وبالقرب منها معدن الزمرذ ، ولم يبطل الا من قريب .

فان قفطريم ولى الملك بعد ابيه قبطيم :

قال ابن وصيف شاه : كان أكبر ولد أبيه ، وكان جبارا عظيم الخلق ، وهو الذى وضع أساسات الأهرام الدهشورية وغيرها ، وهو الذى بنى مدينة دندرة ومدينة الأصنام ، وهلكت عاد بالريح فى آخر أيامه .

وأثار من المعادن ما لم يثره غيره . وكان يتخذ من الذهب مثل حجر الرحى ، ومن الزبرجد مثل الأسطوانة ، ومن الاسبادشم فى صحراء الغرب كالقلة .

وعمل من العجائب شيئا كثيرا ، وبنى منارا عاليا على جبل قفط يرى منه البحر الشرقى ، ووجد هناك معدن زئبق فعمل منه تمثالا كالعمود لا ينحل ولا يذوب . وعمل البركة التى سماها صيادة الطير ، اذا مر عليها طائر سقط فيها ، ولم يقدر على الحركة حتى يؤخذ . وهذه البركة يقال انها هناك الى الآن ، وأما المنار فسقط .

وعمل عجائب كثيرة . وفى أيامه أثار عبادة الأصنام التى كان الطوفان غرقها ، وزين الشيطان أمرها وعبادتها .

ويقال انه بنى المدائن الداخلة وعمل فيها عجائب . وبنى غربى النيل وخلف الواحات الداخلة ، مدنا عمل فيها عجائب كثيرة ، ووكل بها الروحانيين الذين يمنعون منها ، فما يستطيع أحد أن يدنو اليها ولا يدخلها الا أن يعمل قرابين لأولئك الروحانيين .

وأقام قفطريم ملكا أربعمائة وثمانين سنة . وأكثر العجائب عملت فى وقته ووقت ابنه البودسير . ولذلك كان الصعيد أكثر عجائب من أسفل ، لأن حيز قفطريم فيه .

ولما حضر قفطريم الوفاة ، عمل ناووسا فى الجبل الغربى قرب مدينة الكهان ، فى سرب تحت الأرض معقود على أزج الى الأرض ، ونقر تحت الجبل دارا واسعة ، وجعل دورها خزائن منقورة ، وفى سقفها مسارب للرياح ، وبلط السرب وجميع الدار بالمرمر .

وجعل فى وسط الدار مجلسا على ثمانية أركان ، مصفحا بالزجاج الملون المسبوك ، وجعل فى سقفه جواهر تسرج ، وجعل فى كل ركن من أركان المجلس تمثالا من الذهب بيده كالبوق الذى يبوق به .

وتحت القبة دكة مصفحة بذهب ، ولها حواف من زبرجد ، وفوق الدكة فرش من حرير ، وجعل عليها جسد بعد أن لطخ بالأدوية المجففة ، ووضع فى جانبه آلات كافور ، وسدلت عليه ثياب منسوجة بالذهب ، ووجهه مكشوف ، وعلى رأسه تاج مكلل ، وعن جوانب الدكة أربعة تماثيل مجوفات من زجاج مسبوك ، فى صور النساء بأيديهن مراوح من ذهب ، وعلى صدره من فوق الثياب سيف فاخر قائمته من زبرجد .

وجعل فى تلك الخزائن من الذخائر وسبائك الذهب والتيجان والجوهر وبرابى الحكم وأصناف العقاقير والطلسمات ومصاحف العلوم ما لا يحصى كثرة .

وجعل * على باب المجلس ديكا من ذهب ، على قاعدة من زجاج أخضر ، منشور الجناحين ، مزبورا عليه آيات مانعة .

وجعل على كل مدخل أزج صورتين من نحاس بأيديهما سيفان ، وقدامهما بلاطة تحتها لوالب من وطئها ضرباه بأسيافهما فقتلاه ، وفى سقف كل أزج كرة ، وعليها لطوخ مدبر ، يسرج فيقد طول الزمان .

وسد باب الأزج بالأساطين المرصصة ، ورصوا على سقفه البلاط العظام ، وردموا فوقها الرمال ، وزبروا على باب الأزج :

« هذا المدخل الى جسد الملك المعظم ، المهيب الكريم الشديد قفطريم ، ذى الأيد والفخر والغلبة والقهر ، أفل نجمه ، وبقى ذكره وعلمه ، فلا يصل أحد اليه ، ولا يقدر بحيلة عليه ، وذلك بعد سبعمائة وسبعين ودورات مضت من السنين » .

(*) ص٢٢٢ جـ١ ، طـ بولاق .

وقال المسعودى : ومعدن الزمرد فى عمل الصعيد الأعلى من مدينة قفط ، ومنها يخرج الى هذا المعدن . والموضع الذى هو فيه يعرف بالخربة ، وهى مفازة وجبال ، والبجة تحمى هذا المكان المعروف بالخربة ، واليها يؤدى الخفارات من يرد الى حفر الزمرذ .

ووجدت جماعة من صعيد مصر من ذوى الدراية — ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن ، وعرف هذا النوع من الجوهر — يخبرون أنه يكثر ويقل فى فصول السنة ، فيكثر فى قوة مواد الهواء وهبوب نوع من الرياح الأربع ، وتقوى الخضرة فيه والشعاع النورى فى أوائل الشهر ، والزيادة فى نور القمر .

وبين الموضع المعروف بالخربة الذى فيه معدن الزمرذ ، وبين مااتصل من العمارة وقرب منه من الديار ، مسيرة سبعة أيام . وهى قفط وقوص وغيرهما من صعيد مصر . وقوص راكبة النيل . وبين النيل وقفط نحو من ميلين .

ولمدينتى قفط وقوص أخبار عجيبة فى بدء عمارتهما ، وما كان فى أيام القبط من أخبارهما ، الا أن مدينة قفط فى هذا الوقت متداعية للخراب ، وقوص أعمر ، والناس فيها أكثر .

وكان بقفط بربا موكل بها روحانى فى صورة جارية سوداء تحمل صبيا أسود صغيرا ، حكى أنها رؤيت بها مرارا .

ومعدن الزمرد فى البر المتصل بأسوان ، وكان به ديوان فيه شهود وكتاب ، وينفق على العمال به ، وتنال لهم المؤن لحفره ، واستخراج الزمرد منه . وهو فى جبال مرملة يحفر فيه ، وربما سقط على الجماعة به فماتوا . وكان يجمع ما يخرج منه ، ويحمل الى الفسطاط ، ومنه يحمل الى البلاد .

وقد كان الناس يسيرون من قوص الى معدن الزمرد فى ثمانية أيام بالسير المعتدل . وكانت البجاة تنزل حوله وقريبا منه لأجل القيام بخفره وحفظه .

وهذا المعدن فى الجبل الآخذ على شرقى النيل ، فى بحرى قطعة عظيمة من هذا الجبل تسمى قرشندة ، وليس هناك من الجبال أعلى منها ، وهو فى منقطع من البر لا عمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه ، والماء عنه مسيرة نصف يوم أو أزيد ، وهو ما يتحصل من المطر ، ويعرف بغدير أعين ، يكثر بكثرة المطر ويقل بقلته .

وهذا المعدن فى صدر مغازة طويلة فى حجر أبيض يستخرج منه الزمرد . وهذا الحجر الأبيض ثلاثة أنواع : أحدها يقال له طلق كافورى ، والثانى يقال له طلق فضى ، والثالث يقال له حجر جروى . ويضرب فى هذه الحجارة حتى يخرج الزمرد ، وهو كالعروق فيه .

وأنواعه الريانى ، وهو أقل من القليل ، لا يخرج الا فى النادر ، واذا استخرج ألقى فى الزيت الحار ، ثم يحط فى قطن ، ويصر ذلك القطن فى خرق خام أو نحوها .

وكان الاحتراز على هذا المعدن كثيرا جدا ، ويفتش الفعلة عند الخروج منه كل يوم حتى تفتش عوراتهم ، ومع ذلك فيختلسون منه بصناعات لهم فى ذلك .

ولم يزل هذا المعدن يستخرج منه الزمرد ، الى أن أبطل العمل منه الوزير الصاحب علم الدين عبد الله بن زنبور ، فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فى سنة بضع وستين وسبعمائة .

وفى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، كانت فتنة كبيرة بمدينة قفط ، سببها أن داعيا من بنى عبد القوى ادعى أنه داود بن العاضد ، فاجتمع الناس عليه . فبعث السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، أخاه الملك العادل أبا بكر بن أيوب على جيش ، فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف ، وصلبهم على شجرها ظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم .

ذكر مدينة دندرة

هى احدى مدن الصعيد الأعلى القديمة . بناها قفطريم بن مصرايم بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام . وكان فيها بربا عظيمة فيها مائة وثمانون كوة ، تدخل الشمس فى كل يوم من كوة حتى تأتى على آخرها ، ثم تكر راجعة الى حيث بدأت . وكانت روحانيتها الموكلة بها تظهر فى هيئة انسان له رأس أسد بقرنين .

وكان بها أيضا شجرة — تعرف بشجرة العباس — متوسطة ، وأوراقها خضر مستديرة ، اذا قال الانسان عندها : ياشجرة

العباس جاءك الفاس ، تجتمع أوراقها وتحزن لوقتها ثم تعود كما كانت .

وبين دندرة وبين قوص بريد واحد . وكانت بربا دندرة أعظم من بربا اخميم * .

ذكر الواحات الداخلة

الواحات منقطعة وراء الوجه القبلى فى مغاربه ، ولا تعد فى الولايات ولا فى الأعمال ، ولا يحكم عليها من قبل السلطان وال ، وانما يحكم عليها من قبل مقطعها .

وبلاد الواحات ، بين مصر والاسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة ، بعضها داخل بعض . وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ، ولا يفتقر الى سواه . وأرضها شبية وزاجية ، وعيون حامضة الطعم تستعمل كاستعمال الخل ، وعيون مختلفة الطعوم من الحامض والقابض والمالح . ولكل نوع منها خاصية ومنفعة ، وهى على قسمين : واحات داخلة ، وواحات خارجة ... جملتها أربع واحات .

ويقال ان الواحات ولدوا حويلا بن كوش ابن كنعان بن حام بن نوح ، وان أخرسبا بن كوش أبو الحبش وأبو شنبا بن كوش أبو زغاوة وأبو شفحيا بن كوش أبو الحبش الرمرم .

قال ابن وصيف شاه : ويقال ان قفطريم بنى المدائن الداخلة ، وعمل فيها عجائب : منها الماء القائم كالعمود لا ينحل ولا يذوب ، والبركة

(*) ص٢٣٢ جـ١ ، ط.بولاق .

التى تسمى فلسطين أى صيادة الطير ، اذا مر عليها الطير سقط فيها ، ولم يمكنه الخروج منها حتى يؤخذ .

وعمل أيضا عمودا من نحاس عليه صورة طائر . اذا قرب الأسد أو الحيات ، أو غيرها من الأشياء المضرة ، من تلك المدينة ، صفر تصفيرا عاليا ، فترجع تلك الدواب هاربة .

وعمل على أربعة أبواب هذه المدينة أربعة أصنام من نحاس ، لا يقرب منها غريب الا ألقى عليه النوم والسبات ، فينام عندها ، ولا يبرح حتى يأتيه أهل المدينة وينفخوا فى وجهه ليقوم ، وان لم يفعلوا ذلك لا يزال نائما عند الأصنام حتى يهلك .

وعمل منارا لطيفا من زجاج ملون ، على قاعدة من نحاس ، وعمل على رأس المنار صورة صنم من أخلاط كثيرة ، وفى يده كالقوس كأنه يرمى عنها ، فان عاينه غريب وقف فى موضعه ، ولم يبرح حتى ينحيه أهل المدينة . وكان ذلك الصنم يتوجه الى مهب الرياح الأربع من نفسه .

وقيل ان هذا الصنم على حاله الى الآن ، وان الناس تحاموا تلك المدينة — على كثرة ما فيها من الكنوز والعجائب الظاهرة — خوفا من ذلك الصنم أن تقع عين انسان عليه ، فلا يزال قائما حتى يتلف . وكان بعض الملوك عمل على قلعه فما أمكنه ، وهلك لذلك خلق كثير .

ويقال انه عمل فى بعض المدائن الداخلة مرآة يرى فيها جميع ما يسأل الانسان عنه .

وبنى غربى النيل ، وخلف الواحات الداخلة ، مدنا عمل فيها عجائب كثيرة ، ووكل الروحانيين بها الذين يمنعون منها ، فما يستطيع أحد أن يدنو اليها ولا يدخلها ، أو يعمل قرابين أولئك الروحانيين ، فيصل اليها حينئذ ، ويأخذ من كنوزها ما أحب من غير مشقة ولا ضرر .

وبنى الملك صا بن الساد — وقيل صا ابن مرقونس — بداخل الواحات مدينة ، وغرس حولها نخلا كثيرا ، وكان يسكن منف ، وملك الأحياز كلها ، وعمل عجائب وطلسمات ، ورد الكهنة الى مراتبهم ، ونفى الملهين وأهل الشر ممن كان يصحب الساد ابن مرقونس ، وجعل على أطراف مصر أصحاب أخبار يرفعون اليه ما يجرى فى حدودهم ، وعمل على غربى النيل منايرا يوقد عليها اذا حزبهم أمر أو قصدهم قاصد .

وكان لما ملك البلد بأسره ، جمع الحكماء اليه ، ونظر فى نجومه — وكان بها حاذقا — فرأى أن بلده لابد أن تغرق بالطوفان من نيلها ، ورأى أنها تخرب على يد رجل يأتى من ناحية الشام ... فجمع كل فاعل بمصر ، وبنى فى الواح الأقصى مدينة ، جعل طول حصنها فى الارتفاع خمسين ذراعا ، وأودعها جميع الحكم والأموال .

وهى المدينة التى وقع عليها موسى بن نصير فى زمن بنى أمية لما قدم من المغرب . فلما دخل مصر أخذ على الواح الأقصى — وكان عنده علم منها — فأقام سبعة أيام يسير فى رمال بين الغرب والجنوب ، فظهرت له مدينة عليها حصن وأبواب من حديد ، فلم يمكنه فتح الأبواب . وكان اذا صعد اليها الرجال ، وعلوا الحصن وأشرفوا على المدينة ، ألقوا بأنفسهم فيها . فلما أعياه أمرها مضى ، وهلك من أصحابه عدة .

قال : وفى تلك الصحارى كانت متنزهات القوم ومدنهم العجيبة وكنوزهم ، الا أن الرمال غلبت عليها ، ولم يبق يملك ملك الا وقد عمل للرمل طلسما لدفعه ، ففسدت طلسماتها لقدم الزمان .

قال : ولا ينبغى لأحد أن ينكر كثرة بنيانهم ، ولا مدائنهم ولا ما نصبوه من الأعلام العظام ، فقد كان للقوم بطش لم يكن لغيرهم ، وان آثارهم لبينة ، مثل الأهرام والأعلام والاسكندرية وما فى صحارى الشرق ، والجبال المنحوتة التى جعلوا كنوزهم فيها والأوديه المنحوتة ، ومثل ما بالصعيد من البرابى وما نقشوه عليها من حكمتهم ... فلو تعاطى جميع ملوك الأرض أن يبنوا مثل الهرمين ما تهيأ لهم ، وكذلك أن ينقشوا بربا لطال بهم الأمد ولم يمكنهم .

وحكى عن قوم من البنائين ، فى ضياع الغرب ، أن عاملا عندهم عنف بهم ، ففروا فى صحراء الغرب ومعهم زاد الى أن تنصلح أحوالهم ويرجعوا .

فلما كانوا على مسيرة يوم وبعض آخر ، قدموا الى سفح جبل ، فوجدوا عيرا أهليا قد خرج من بعض الشعاب ، فتبعه بعضهم ، فانتهى الى مساكن وأشجار ونخل ومياه

تطرد ، وقوم هناك * يرعون ولهم مساكن ، وكلمهم وأعجب بهم

فجاء الى أصحابه ، وقدم بهم على أولئك القوم ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم ، وأقاموا عندهم حتى صلحت أحوالهم ، وخرجوا ليأتوا بأهاليهم ومواشيهم ويقيموا عندهم ، فساروا مدة وهم لا يعرفون الطريق ولا يتأتى لهم العود ، فأسفوا على ما فاتهم .

وضل آخرون عن الطريق فى الغرب ، فوقعوا على مدينة عامرة كثيرة الناس والمواشى والنخل والشجر ، فأضافوهم وأطعموهم وسقوهم ، وباتوا فى طاحونة ، فسكروا من الشراب وناموا ، فلم ينتبهوا الا من حر الشمس ، فاذا هم فى مدينة خراب ليس فيها أحد .

فخافوا وخرجوا ، وظلوا يومهم سائرين الى المساء ، فظهرت لهم مدينة أكبر من الأولى وأعمر ، وأكثر أهلا وشجرا ومواشى ، فأنسوا بهم وأخبروهم بخبر المدينة الأولى ، فجعلوا يعجبون منهم ويضحكون ، وانطلقوا بهم الى وليمة لبعض أهل المدينة ، فأكلوا وشربوا ، وعنوا بهم حتى سكروا .

فلما كان من الغد انتبهوا ، فاذا هم فى مدينة عظيمة ليس فيها أحد ، وحولها نخل قد تساقط ثمره وتكدس . فخرجوا ، وهم يجدون ريح الشراب ومبادى الخمار ، فساروا يوما الى المساء ، واذا راع يرعى غنما ، فسألوه عن الطريق فدلهم ، فساروا بعض يوم من الغد ، فوصلوا مدينة الأشمونين بالصعيد .

(*) ص٢٢٤ جـ١ ، ط. بولاق .

قال : وهذه مدائن القوم الداخلة القديمة قد غلب عليها الجان ، ومنها ما سترته عن العيون ، فلا ينظر اليها أحد .

وقال : ان البودسير بن قفطريم بن قبطيم ابن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، فى أيامه بنيت بصحراء الغرب منابر ومتنزهات ، وحول اليها جماعة من أهل بيته ، فعمروا تلك النواحى ، وبنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عامرة كلها . وأقامت على ذلك مدة كثيرة ، فخالطهم البربر ونكحوا منهم ، ثم تحاسدوا ، فكانت بينهم حروب خربت فيها تلك الجهات وبادت ، الا بقية منازل تسمى الواحات .

ذكر مدينة سنترية

ومدينة سنترية من جملة الواحات ، بناها مناقيوش بانى مدينة اخميم . كان أحد ملوك القبط القدماء .

قال ابن وصيف شاه : وكان فى حزم أبيه وحنكته ، فعظم فى أعين أهل مصر . وهو أول من عمل الميدان ، وأمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه ، وأول من عمل المارستان لعلاج المرضى والزمنى ، وأودعه العقاقير ، ورتب فيه الأطباء ، وأجرى عليهم ما يسعهم ، وأقام الأمناء على ذلك .

وصنع لنفسه عيدا ، فكان الناس يجتمعون اليه فيه ، وسماه عيد الملك ، فى يوم من السنة ، فيأكلون ويشربون سبعة أيام ، وهو مشرف عليهم من مجلس على عمد قد طوقت بالذهب ، وألبست فاخر الثياب المنسوجة

بالذهب ، وعليه قبة مصفحة من داخل بالرخام والزجاج والذهب .

وفى أيامه بنيت سنترية فى صحراء الواحات ، عملها من حجر أبيض مربعة ، وفى كل حائط باب فى وسطه شارع الى حائط محاذ له . وجعل فى كل شارع يمنه ويسرة أبوابا تنتهى طرقاتها الى داخل المدينة ، وفى وسط المدينة ملعب يدور به من كل ناحية سبع درج ، وعليه قبة من خشب مدهون ، على عمد عظيمة من رخام ، وفى وسطه منار من رخام ، عليه صنم من صوان أسود يدور مع الشمس بدورانها ، وبسائر نواحى القبة صور معلقة تصفر وتصيح بلغات مختلفة .

فكان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعب وحوله بنوه وأقاربه وأبناء الملوك ، وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة والوزراء ، وعلى الثالثة رؤساء الجيش ، وعلى الرابعة الفلاسفة والمنجمون والأطباء وأرباب العلوم ، وعلى الخامسة أصحاب العمارات ، وعلى السادسة أصحاب المهن ، وعلى السابعة العامة . فيقال لكل صنف منهم : انظروا الى من دونكم ولا تنظروا الى من فوقكم ، لا تلحقونهم . وهذا ضرب من التأديب .

وقتله امرأته بسكين فمات . وكان ملكه ستين سنة .

وسنترية الآن بلد صغير ، يسكنه نحو ستمائة رجل من البربر يعرفون سيوة ، ولغتهم تعرف بالسيوية تقرب من لغة زناتة . وبها حدائق نخل ، وأشجار من زيتون وتين وغير ذلك ، وكرم كثير . وبها الآن نحو العشرين عينا تسيح بماء عذب . ومسافتها من الاسكندرية أحد عشر يوما ، ومن جيزة مصر أربعة عشر يوما

وهى قرية يصيب أهلها الحمى كثيرا ، وثمرها غاية فى الجودة ، وتعبث الجن بأهلها كثيرا ، وتختطف من انفرد منهم ، وتسمع الناس بها عزيف الجن .

ذكر الواحات الخارجة

بناها أحد ملوك القبط الأول ، ويقال له البودسير بن قفطيم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام

قال ابن وصيف شاه : وأراد البودسير أن يسير مغربا لينظر الى ما هنالك ، فوقع على أرض واسعة متخرقة * بالمياه والعيون كثيرة العشب ، فبنى فيها منابر ومتنزهات ، وأقام فيها جماعة من أهل بيته ، فعمروا تلك النواحى وبنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عمارة كلها .

وأقامت كذلك مدة كثيرة ، وخالطهم البربر ، فنكح بعضهم من بعض ، ثم انهم تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض ، فكانت بينهم حروب ، فخرب ذلك البلد وباد أهله ، الا بقية منازل تسمى الوحات .

وقال المسعودى : وأما بلاد الوالحات فهى بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر والغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم . وبها أرض شبة وزاجية ، وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم .

(*) ص٢٢ جـ١ ، ط. بولاق .

وصاحب الواحات فى وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) عبد الملك بن مروان ، وهو رجل من لواتة ، الا أنه مروانى المذهب ، ويركب فى آلاف من الناس خيلا ونجبا .

وبينه وبين الأحابش نحو من ستة أيام ، وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة . وفى أرضه خواص وعجائب ، وهو بلد قائم بنفسه ، غير متصل بغيره ولا يفتقر اليه . ويحمل من أرضه التمر والزبيب والعناب .

وحدثنى وكيل أبى الشيخ المعز حسام الدين عمرو بن محمد بن زنكى الشهرزورى ، انه سمع ببلاد الواحات أن فيها شجرة نارنج يقطف منها ، فى سنة واحدة ، أربعة عشر ألف حبة نارنج صفراء ، سوى ما يتناثر وسوى ما هو أخضر .

فلم أصدق ذلك لغرابته ، وقمت حتى شاهدت الشجرة المذكورة ، فاذا هى كأعظم ما يكون من شجر الجميز بمصر وأكبر . وسألت مستوفى البلد عنها ، فأحضر الى جرائد حساباته ، وتصفحها حتى أوقفنى على أن منها فى سنة كذا قطف من النارنجة الفلانية أربعة عشر ألف حبة نارنج مستوية صفراء ، سوى ما بقى عليها من الأخضر ، وسوى ما تناثر منها وهو صغير .

وبالواحات الشب الأبيض بواد تجاه مدينة ادفو . كان فى زمن الملك الكامل محمد ابن العادل أبى بكر ، وفى زمن ابنه الصالح نجم الدين أيوب ، على مقطعى الواحات حمل ألف قنطار شب أبيض فى كل سنة الى القاهرة ، ويطلق لهم فى نظير ذلك جوالى الواحات ، ثم أهمل هذا فبطل .

وفى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، سار ملك النوبة فى جيش عظيم الى الواحات ، فأوقع بأهلها وقتل منها وأسر كثيرا .

ذكر مدينة قوص

اعلم أن قوص أعظم مدائن الصعيد ، وهى على النيل ، بنيت بعد قفط فى أيام ملك من ملوك القبط الأول يقال له سدان بن عديم ابن البودسير بن قفطريم . قيل سميت باسم قوص بن قفط بن اخميم بن سيفافه بن أشمن ابن مصر .

قال ابن وصيف شاه : سدان بن عديم هو الذى بنى الأهرام الدهشورية من الحجارة التى قطعت فى زمان أبيه ، وعمل مصاحف النيرنجات وهيكل أرمنت ، وعمل فى المدائن الداخلة من أنصنا هيكلا وأقام فيه فى أتريب ، وهيكلا فى شرقى الاسكندرية ، وبنى فى الجانب الشرقى مدائن ، وفى أيامه بنيت قوص العالية ، وأسكن فيها قوما من أهل الحكمة وأهل الصناعات .

وكانت الحبش والسودان قد عاثوا فى بلده ، فأخرج لهم ابنه منقاوش فى جيش عظيم ، فقتل منهم وسبى ، واستعبد الذين سباهم وصار ذلك سنة لهم ، واقتطع معدن الذهب من أرضهم ، وأقام ذلك السبى يعملون فيه ويحملون الذهب اليه .

وهو أول من أحب الصيد ، واتخذ الجوارح ، وولد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب الأهلية ، وعمل من العجائب والطلسمات لكل فن ما لا يحصى كثرة .

وقال الأدفوى فى تاريخ الصعيد : وقوص بجانب قفط ، حكى بعض المؤرخين أنها شرعت فى العمارة ، وشرعت قفط فى الخراب من سنة أربعمائة قيل انه حضر مرة قاضى قوص ، فخرج من أسوان أربعمائة راكب بغلة الى لقائه .

وفى شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة ، أحضر الى الملك الظاهر بيبرس فلوس وجدت مدفونة بقوص فأخذ منها فلس ، فاذا على أحد وجهيه صورة ملك واقف وفى يده اليمنى ميزان وفى اليسرى سيف ، وعلى الوجه الآخر رأس فيه أذن كبيرة وعين مفتوحة .

وبدائر الفلس كتابة ، فقرأها راهب يونانى ، فكان تاريخه الى وقت قراءته ألفين وثلثمائة سنة ، وفيه « أنا غليات الملك : ميزان العدل والكرم فى يمينى لمن اطاع ، والسيف فى يسارى لمن عصى » . وفى الوجه الآخر : « أنا غليات الملك : أذنى مفتوحة لسماع المظلوم ، وعينى مفتوحة أنظر بها مصالح ملكى » .

وقوص كثيرة العقارب والسام أبرص ، وبها صنف من العقارب القتالات ، حتى انه كان يقال بها آكلة العقرب ، لأنه كان لا يرجى لمن لسعته حياة . واجتمع بها مرة ، فى يوم صائف ، على حائط الجامع سبعون سام أبرص صفا واحدا . وكان الواحد من أهلها اذا مشى فى الصيف ليلا لخارج داره يأخذ باحدى يديه سرجة تضىء له ، وبالأخرى مشك من حديد يشك به العقارب . ثم انها تلاشت بعد سنة ثمانمائة .

فلما كانت الحوادث والمحن ، مات بها سبعة عشر * ألف انسان فى سنة ست وثمانمائة . وكانت من العمارة بحيث انه تعطل منها ، فى شراقى البلاد سنة ست وسبعين وسبعمائة ، مائة وخمسون مغلقا (والمغلق عندهم بستان من عشرين فدانا فصاعدا ، وله ساقية بأربعة وجوه) وذلك سوى ما تعطل مما هو دون ذلك ، وهو كثير جدا .

ذكر مدينة اسنا

قال الأدفوى : وذكر أن اسنا فى سنة حصل منها أربعون ألف اردب تمر ، واثنا عشر ألف اردب زبيب . واسنا تشتمل على ما يقارب ثلاثة عشر ألف منزل . وقيل انه كان بها فى وقت سبعون شاعرا .

ذكر مدينة ادفو

ومدينة أدفو (يقال بالدال المهملة ، ويقال أيضا بالتاء المثناة من فوق) ، قال الأدفوى : أخبرنى الخطيب العدل أبو بكر ، خطيب أدفو ، أن جمارة طرحت ثلاثة شماريخ فى كل شمروخ تمرة واحدة ، وأنه قلع الجمارة بأصلها ووزنها فجاءت خمسة وعشرين درهما ، كلها بجريدها وخشبها ، وذلك بأدفو .

(*) ص٢٣٦ جـ١ ، ط. بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

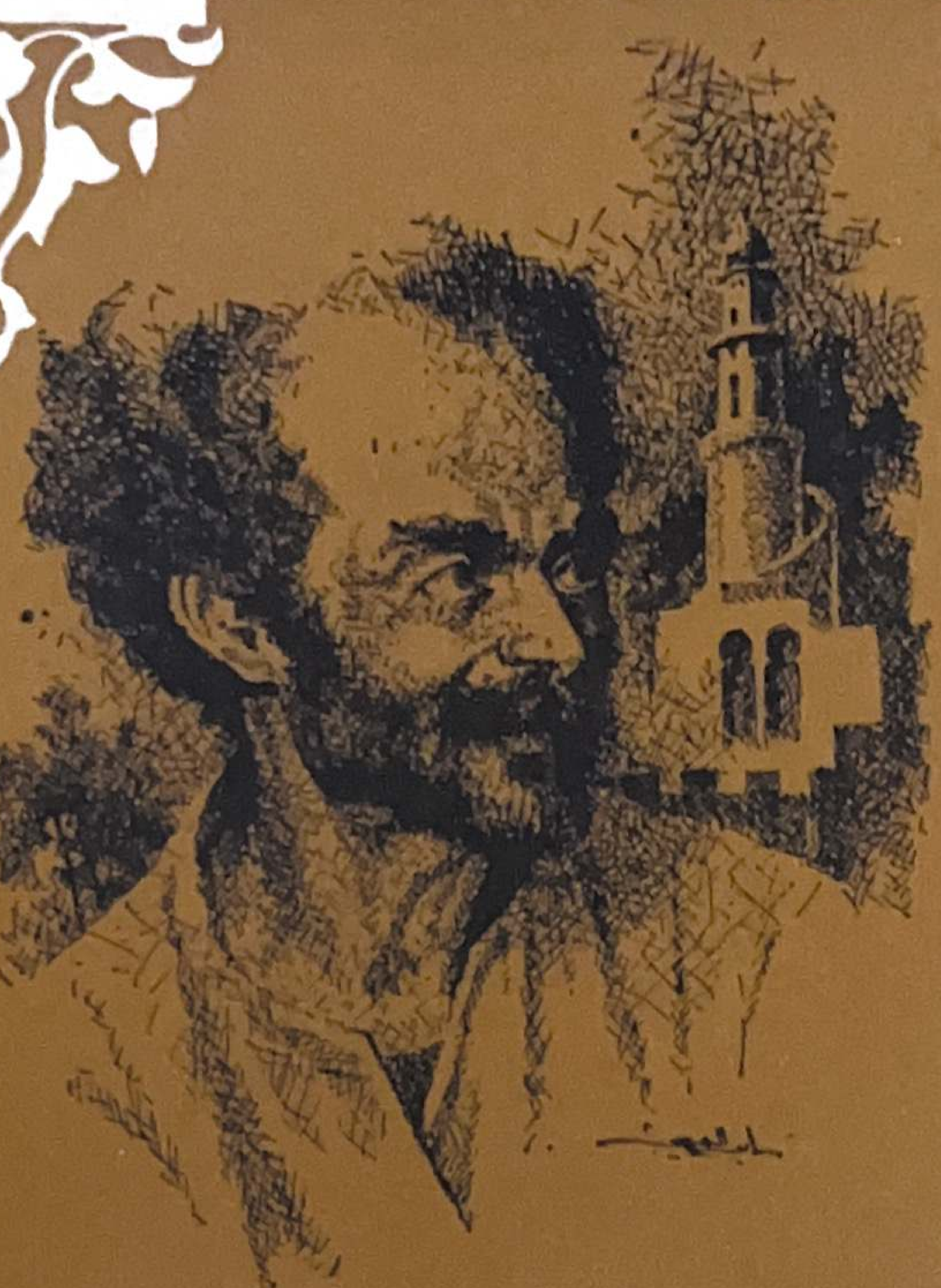
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٢ قروش

خطط المقريزى

الجزء
١٢



كتاب
التحرير

"كانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت مذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

ولما كان بعد سنة سبعمائة ، حفر صناع الطوب ، فظهرت صورة شخص من حجر شكل امرأة متربعة على كرسى ، وعليها مثال شبكة ، وفى ظهرها لوح مكتوب بالقلم اليونانى ... رأيتها على هذه الحالة فى مدينة أدفو .

اهناس

هى كورة من كور الصعيد ، يقال ان عيسى ابن مريم عليه السلام ولد بها ، وان نخلة مريم عليها السلام التى ذكرت فى قوله تعالى « وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » لم تزل بها الى آخر أيام بنى أمية .

والذى عليه الجماهرة أن عيسى عليه السلام انما ولد بقرية بيت لحم من مدينة بيت المقدس .

وبأهناس شجر البنج .

ذكر مدينه البهنسا

هذه المدينة فى جهة الغرب من النيل . بها تعمل الستور البهنسية ، وينسج المطرز والمقاطع السلطانية ، والمضارب الكبار والثياب المحبرة . وكان يعمل بها من الستور ما يبلغ طول الستر الواحد ثلاثين ذراعا ، وقيمة الزوج مائتا مثقال ذهب .

واذا صنع بها شىء من الستور والأكسية والثياب ، من الصوف أو القطن ، فلابد أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوبا ... على ذلك مضوا جيلا بعد جيل .

وقبط مصر مجمعون على أن المسيح وأمه مريم كانا بالبهنسا ، ثم انتقلا عنها الى القدس .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى عن المسيح وأمه « وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » : الربوة البهنسا .

وهذه المدينة بناها ملك من القبط يقال له مناوش بن منقاوش .

قال ابن وصيف شاه : واستخلف مناوش الملك ، فطلب الحكمة مثل أبيه ، واستخرج كتبها ، وأكرم أهلها ، وبذل فيهم الجوائز ، وطلب الأغراب فى عمل العجائب . وكان كل من ملوكهم يجهد جهده فى أن يعمل له غريبة من الأعمال لم تعمل لمن كان قبله . وثبت فى كتبهم ، وزبر على الحجارة فى تواريخهم .

وهو أول من عبد البقر من أهل مصر . وكان السبب فى ذلك أنه اعتل علة يئس منه فيها ، فرأى فى منامه صورة روحانى عظيم يقول له : انه لا يخرجك من علتك الا عبادتك البقر ، لأن الطالع كان وقت حلولها بك صورة ثور بقرنين .

ففعل ذلك ، وأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصورة ، وعمل له مجلسا فى قصره ، وسقفه بقبة مذهبة . فكان يبخره ويطيب موضعه ، ووكل به سائسا يقوم به ويكنس تحته ، ويعبده سرا من أهل مملكته ، فبرأ من علته .

وهو أول من عمل العجل فى عمله ، فكان يركب عليها البيوت من فوقها قباب الخشب. وعمل ذلك من أحب من نسائه وخدمه الى المواضع والمتنزهات ، وكان البقر يجره ، فاذا مر بسكان نزهة أقام فيه ، واذا مر بسكان خراب أمر بعمارته .

فيقال انه نظر الى ثور من البقر الذى يجر عجلته ، أبلق حسن الشية ، فأمر بترفيهه وسوقه بين يديه اعجابا به ، وجعل عليه جلا من ديباج .

فلما كان فى يوم ، وقد خلا فى موضع صار اليه ، وقد انفرد عن عبيده وخدمه ، والثور قائم ، اذ خاطبه الثور وقال له : لو رفهنى الملك عن السير معه ، وجعلنى فى هيكل وعبدنى ، وأمر أهل مملكته بعبادتى ، كفيته جميع ما يريد ، وعاونته على أمره ، وقويته فى مملكته ، وأزلت عنه جميع علله .

فارتاع لذلك ، وأمر بالثور فغسل وطيب وأدخل فى هيكل ، وأمر بعبادته .

فأقام ذلك الثور يعبد مدة ، وصار فيه آية ، وهو أنه لا يبول ولا يروث ، ولا يأكل الا أطراف ورق القصب الأخضر فى كل شهر مرة ... فافتتن الناس به *، وصار ذلك أصلا لعبادة البقر .

وبنى مواضع كنز فيها كنوزا ، وأقام عليها أعلاما . وبنى فى صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس ، وأقام فيها منارا ، ودفن حولها كنوزا . ويقال ان هذه المدينة قائمة ، وان

(*) ص٣٢٧ جـ١ ، ط. بولاق .

قوما جازوا بها من نواحى الغرب وقد ضلوا الطريق ، فسمعوا بها عزيف الجن ، ورأوا ضوءا يتراءى بها .

وفى بعض كتبهم أن ذلك الثور ، بعد مدة من عبادتهم له ، أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف ، ويؤخذ من رأسه شعرات ومن ذنبه ومن نحاتة قرونه وأظلافه ، ويجعل فى التمثال المذكور . وعرفهم أنه يلحق بعلله ، وأمرهم أن يجعلوا جسده فى جرن من حجر أحمر ، ويدفن فى الهيكل ، وينصب تمثاله عليه ، وزحل فى شرفه ، والشمس تنظر اليه من تثليث القمر زائد النور ، وينقش على التمثال علامات الكواكب السبعة .

ففعلوا ذلك ، وكللوه بجميع الأصناف من الجواهر ، وجعلوا عينيه جزعتين ، وغرسوا فى الهيكل عليه شجرة ، بعد ما دفنوه فى الجرن الأحمر ، وبنوا منارا طوله ثمانون ذراعا ، على رأسه قبة تتلون كل يوم لونا حتى تمضى سبعة أيام ، ثم تعود الى اللون الأول .

وكسوا الهيكل ألوان الثياب ، وشقوا نهرا من النيل الى الهيكل ، وجعل حوله طلسمات ، رؤوسها رؤوس القرود على أبدان الناس ، كل واحد منها لدفع مضرة وجلب منفعة .

وأقام عند الهيكل أربعة أصنام على أربعة أبواب ، ودفن تحت كل صنم صنفا من الكنوز ، وكتب عليها قربانها وبخورها ، وأسكنها الشجرة ... فكانت تعرف بمدينة الشجرة ، ومنها كانت أصناف الشجر تخرج .

وهو أول من عمل النيروز بمصر . وفى زمانه بنيت البهنسا ، وأقام بها أسطوانات ، وجعل فيما فوقها مجلسا من زجاج أصفر ، عليه قبة مذهبة ، اذا طلعت الشمس ألقت شعاعها على المدينة .

ويقال انه ملكهم ثمانمائة وثلاثين سنه ، ودفن فى أحد الأهرام الصغار القبلية ، وقيل فى غربى الأشمونين .

ودفن معه من المال والجوهر والعجائب شىء كثير ، وأصناف[1] الكواكب السبعة التى يرى الدفين والحية ، وألف سرج ذهبا وفضة ، وعشرة آلاف جام وغضار من ذهب وفضة وزجاج ، وألف عقاقير لفنون الأعمال . وزبروا عليه اسمه ومدة ملكه ووقت موته .

وفى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، ظهر بالأشمونين ، فى واد بين جبلين ، فساقى مربعة مملوءة ماء عذبا صافيا ، فمشى شخص على حافتها طول يوم وليلة فلم يبلغ آخرها . ويقال انها من عمل سوريد بانى الأهرام ، لتكون عدة لما كانوا قد توقعوه من حدوث طوفان نارى ... فردم هذا الوادى بعد ذلك خوفا من تلاف الناس .

يقول الشيخ الامام محمد بن أحمد الغرباني : حدثنى على بن حسن بن خالد الشعرى (ثلاث مرات لم يختلف قوله على فيها) قال : حدثنى رجل من فزارة الساكنين بكورة البهنسا ، قال : خرجت أنا ورجل رفيق لى نرتاد البلاد ، ونطلب الرزق فى الأرض ، وذلك بعد سنة عشر وثمانمائة ، فقطعنا الجبل الغربى من ناحية البهنسا ، وسرنا متوكلين على الله تعالى ، فأقمنا أياما ونحن نمشى ما بين الغرب والجنوب ، فوقعنا فى واد كثير الشجر والنبات والماء والكلأ ، ليس فيه أنيس .

(١) قوله « وأصناف الكواكب ... الخ » هكذا فى النسخ التى بيدى . ولا تخلو العبارة عن تحريف فاحش لا يفهم معه الكلام ، فليتأمل . اهـ .

وهو واد واسع فى الطول والعرض ، نحو يوم فى الطول ويوم فى العرض ، كله أعين وبساتين نخل وزيتون ، كثير الابل والمعز ، والذئب والضبع به كثير ، والابل به متوحشة وكذلك المعز قد صارت به وحشية ، بعد أن كانت آنسة به ، وليس بالوادى لا رائح ولا غاد من الناس .

قال : فأخبرنى أنهما أقاما بالوادى نحوا من شهرين أو ثلاثة ، وأنهما رأيا فى وسط الوادى مدينة حصينة منيعة عالية السور شامخة القصور ، فاذا تقربا من سورها سمعا ضجيجا عظيما وأصواتا مهولة مخوفة ، ورأيا دخانا يرتفع الى جو السماء حتى يغطى سور المدينة وجميع ما فيها ، وأن تلك الابل الوحشية عدت على رواحلهما الانسية فآذتها وقتلتها .

فتحيل عند ذلك الرجلان الفزاريان بحيل ، وفتلا حبالا وأشراكا شباكا من ليف النخل ، وقيدا تلك الابل الوحشية ، وفتلا خوصا ، وضفرا قفافا من الخوص لزادهما وملآها تمرا ، وزللا من تلك الابل الوحشية مكان رواحلهما عوضا عنها ، وركباها متوجهين نحو الشرق ، وحملا معهما من الجريد ، أعنى جريد النخل ، ما يعرفان به الطريق التى بينهما وبينها ؛ ويجعلان ذلك أمارات لمرورهما اليها .

فكانا كلما مرا على شرف ، جعلا عليه جريدتين علما ، حتى وصلا الى الجبل الغربى من مصر ، فنزلا الى البهنسا ، فعرفا قومهما ، وتحصلا بأهاليهما .

فلما علوا سطح الجبل الغربى ، وجدا كل ما فرقاه من جريد النخل على رؤوس الآكام مجتمعا فى مكان واحد فى أعلى الجبل ، فرجعا عند ذلك لأهاليهما ومن معهم الى أرض البهنسا .

وهذا ما حدثنى به . والله أعلم .

ذكر مدينة الاشمونين

كانت من أعظم مدن الصعيد ، يقال انها من بناء أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام .

وقال * ابن وصيف شاه : كان أشمون أعدل ولد أبيه ، وأرغبهم فى صنعة تبقى ويبقى ذكرها . وهو الذى بنى المجالس المصفحة بالزجاج الملون وسط النيل .

وتقول القبط : انه بنى سربا تحت الأرض ، من الأشمونين الى أنصنا تحت النيل . وقيل انه حفره وعمله لبناته لأنهن كن يمضين الى هيكل الشمس . وكان هذا السرب مبلط الأرض والحيطان والسقف بالزجاج الثخين الملون .

وقيل ان أشمون كان أطول اخوته ملكا . وقال أهل الأثر : انه ملك ثمانمائة سنة ، وان قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة سنة من ملكه ، وأقاموا تسعين سنة ، واستولوا على البلد ، فانتقلوا الى الدثينة من طريق الحجاز الى وادى القرى فعمروها ، واتخذوا بها المنازل والمصانع ، وسلط الله عليهم الذر فأهلكهم ، وعاد ملك مصر الى أشموم .

ويقال انه عمل على باب الأشمونين أوزة من نحاس ، فكان الغريب اذا جاء ليدخل المدينة ، صاحت الأوزة وصفقت بجناحيها فيعلم به ، فان أحبوا منعوه ، وان أحبوا تركوه . وكثرت الحيات فى وقته ، فكانوا يصيدونها ويعملون من لحومها أدوية وترياقات ، ثم ساقوها بسحرهم الى وادى الحيات فى جبال لوبية ومراقية ، فسجنوها هناك .

وقال فى كتاب هروشيش : ان أشمون ابن قبط أول ملوك المصريين ، وانه كان فى زمان شاروح بن راغو بن تالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وان سنى الدنيا صارت الى زمان شاروح ألفين وتسعمائة وخمس سنين ، يكون ذلك بعد الطوفان بستمائة وثلاث وستين سنة .

وبها كانت فرهة الخيل والبغال والحمير ، وكان يعمل بها فرش القرمز الذى يشبه الأرمنى .

وكان ينزل بأرض الأشمونين عدة بطون من بنى جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه — وكانوا بادية أصحاب شوكة — وكان معهم بنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان حلفاء لهم ، ومعهم بطن آخر يقال لهم بنو عسكر ، يقال ان أياهم كان مولى لعبد الملك بن

(*) ص ١٢٨ جـ ١ ، ط بولاق .

مروان ، ويزعمون أنهم من بنى أمية صلبية . وكان معهم أيضا حلفاء لهم بنو خالد بن يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان ... ينزلون أرض دلجة عند أشمون .

ذكر مدينة اخميم

ضبطها البكرى بكسر الهمزة واسكان الخاء ثم ميم وياء وميم على بناء افعيل . وهى فى الجانب الشرقى من النيل ، والذى بناها مناقيوش أحد ملوك القبط الأول .

قال ابن وصيف شاه : كان جلدا محتكما ، فاستأنف العمارة ، وبنى القرى ، ونصب الأعلام ، وجمع الحكم ومصاحف الملوك والحكماء ، وعمل العجائب ، وبنى لنفسه مدينة انفرد بها ، وعمل عليها حصنا ، ونصب عليه أربعة أعلام ، فى كل ركن من أركانه علم ، وبين تلك الأعلام ثمانون صنما من نحاس ، وأخلاط فى أيديها السلاح ، وزبر على صدرها آياتها .

وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة ، من أعلم الناس بالسحر ، وأبصرهم بأخذ التماسيح والسباع ، وكان يعلم الغلمان السحر ، فاذا حذقوا علم غيرهم . فأمر الملك أن يبنى له مدينة ، ويحول اليها وهى اخميم .

فملكهم مناقيوش نيفا وأربعين سنة ، ومات فدفن فى الهرم المحاذى لأطفيح ، ومعه شىء كثير من المال والجوهر والآنية والتماثيل ، وزبر عليه اسمه والوقت الذى هلك فيه .

قال : وذكر أهل اخميم أن رجلا أتى من الشرق ، وكان يلزم البربا ، ويأتى اليه كل يوم ببخور وخلوق ، فيبخر ويطيب صورة فى عضادة الباب ، فيجد تحتها دينارا فيأخذه وينصرف . ففعل ذلك مدة حتى وشى به غلام له الى عامل البلد ، فقبض عليه ، فبذل مالا وخرج عن البلد .

وكانت بربا اخميم من أعجب البرابى وأعظمها ، قد بنيت لخزن برهم ، فانهم قضوا على أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرائن ، لكنهم اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : تكون نار فتحرق ما على جميع وجه الأرض ، وقال آخرون : بل يكون ماء ... فعملوا هذه البرابى قبل الطوفان .

وكان فى هذه البربا صور الملوك الذين يملكون مصر ، وكانت مبنية بحجر المرمر ، وطول كل حجر منها خمسة أذرع فى سمك ذراعين ، وهى سبعة دهاليز سقوفها حجارة ، طول الحجر منها ثمانية عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع ، مدهونة باللازورد وغيره من الأصباغ التى يحسبها الناظر كأنما فرغ الدهان منها الآن لجدتها .

وكان كل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة السيارة ، وجدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيئات والمقادير ، فيها رموز علوم القبط ، من الكيمياء والسيمياء والطلسمات والطب والنجوم والهندسة وغير ذلك ، أودعوها تلك الصور .

وذكر ابن جبير فى رحلته أن طول هـذه البربا مائتان وعشرون ذراعا ، وسـعتها مائة وسـبعون ذراعا ، وأنها قائمـة على أربعين سـارية سـوى الحيطان ، دور كل سـارية خمسـون شبرا ، وبين كل سـاريتين ثلاثون شبرا .

ورؤوسها فى نهاية العظم كلها منقشـة من أسفلها الى أعلاها ، ومن رأس كل سارية الى الأخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت فيهـا ما ذرعه ستة وخمسـون شبرا طولا ، فى عرض عشرة أشبار وارتفاع ثمانية أشبار .

وسطحها من ألواح الحجارة ، كأنها فرش واحد ، فيه التصـاوير البديعة * والأصبغة الغريبة ، كهيئة الطيور والآدميين ، وغير ذلك فى داخلها وخارجها .

وعرض حائط البربا ثمانية عشر شـبرا من حجارة مرصوصة ... كذا قاسها ابن جبير فى سنة ثمان وسبعين وخمسـمائة .

ويقال ان ذا النون عرف منها علم الكيمياء .

وما زالت هذه البربا قائمة الى سنة ثمانين وسبعمائة ، فخربها رجل من أهل اخميـم ، يعرف بالخطيب كمال الدين بن بكر الخطيب علم الدين على ، ونال منها مالا ، فلم تطـل حياته ومات . ومن حينئذ تلاشى أمر اخميـم الى أن خربت .

وقد ذكر جماعة أن بربا اخميـم كانت فى هيئـة غلام أمرد عريان ، وأن قوما دخلوها مرة ، فتبعهم وأخذ يضربهم ضربا وجيعا حتى خرجوا هاربين . وحكى مثل ذلك عمن دخل الأهرام أيضا .

وقد حكى أن رجلا ألصق على صورة من بربا اخميم شمعة ، فكان اذا تركها فى موضع التجأت العقارب اليها ، واذا وضع الشمعة فى تابوت اجتمعت العقارب حوله .

ويقال انه كان فى بربا اخميم شيطان قائم على رجل واحدة ، وله يد واحدة وقد رفعها الى الهواء ، وفى جبهته وحواليه كتابة ، وله احليل ظاهر ملتصق بالحائط .

وكان يذكر أن من احتال حتى ينقب على ذلك الاحليل حتى يخرجه من غير أن ينكسر ، ويعلقه على وسطه ، فانه لا يزال منعظا الى أن ينزعه ، ويجامع ما أحب ولا يفتر ما دام معلقا عليه ، وأن بعض من ولى اخميم اقتلعه فوجد منه شيئا عجيبا من ذلك .

وكانت الأنطاع تجلب من اخميم ، وبهـا تعمل . ويقال انه كان بها اثنا عشر ألف عريف على السحرة ، وكان بها شجر البنج .

ويقال ان الذى بنى بربا اخميـم اسمـه دومريا ، وانه جعـل هذه البربا مثـلا للأمم الآتيـة بعـده ، وكتب فيهـا تواريخ الأمم والأجيال ومفـاخرهم التى يفتخـرون بها ، وصور فيها الأنبياء والحكماء ، وكتب فيها من يأتى من الملوك الى آخر الدهر .

وكان بناؤه اياها والنسر برأس الحمـل ، والنسر يقيم عندهم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة .

(*) ص٤٢٦ جـ١ ، طـ. بولاق .

قلت : والنسـر فى زماننـا بآخر باب برج الجدى ، فيكون على ذلك لهذه البربا منـذ بنيت نحو الثلاثين ألف سنة .

وذكر أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم القيسى ، فى كتاب تحفة الألبـاب ، أن هذه البربا مربعة من حجارة منحوتة ، ولها أربعة أبواب ، يفضى كل باب الى بيت له أربعـة أبواب كلها مظلمة ، ويصعد منها الى بيوت كالغرف على قدرها .

ذكر مدينة العقاب

قال المسعودى : مدينة العقاب غربى أهرام أبو صير بالجيزة ، على مسيرة خمسـة أيام بلياليها للراكب المجد ، وقد عور طريقهـا ، وعمى المـلك اليهـا والسـمت الذى يؤدى نحوها ، وفيها عجـائب البنيـان والجواهر والأموال .

وقال ابن وصيف شاه : وكان الوليد بن دومع العمليقى قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان ويقهر ملوكها ، فلما صار بالشام وجه غلاما له يقال له عون ، فسار الى مصر وفتحها ، ثم سار فتلقاه عون ودخـل مصر فاستباح أهلها .

ثم سـنح له أن يقف على مصب النيـل ، فخرج فى جيش كثيف ، واستخلف عونا على مصر ، وأقام فى غيبته أربعين سنة .

وان عونا ، بعد سبع سنين من مسـيره ، تجبر وادعى أنه الملك ، وأنكر أن يكون غلام الوليد وانما هو أخـوه ، وغلب بالسـحر ، وسبى الحرائر ، فمال الناس اليه ، ولم يدع امرأة من بنات ملوك مصر الا نكحها ، ولا مالا الا أخذه وقتل صاحبه . وهو مع ذلك يكرم الكهنة ، ويعظم الهياكل .

فاتفق أنه رأى الوليد فى منامه وهو يقول له : من أمرك أن تتسمى باسم الملك ، وقد علمت أنه من فعـل ذلك استحق القتـل ؟ ولكحت بنات الملوك ، وأخذت الأموال بغير واجب . ثم أمر بقدر ملئت زيتا ، وأحميت حتى غلت ، ونزع ثيـابه ليلقيـه فيها ، فأتاه عقاب فاختطفه وحلق به فى الجو ، وجعله فى هوة على رأس جبل ، فسقط الى واد فيـه حمأة منتنة .

فانتبه مرعوبا ، وقص ذلك على كهنتـه ، فقالوا : نحن نخلصك منه بأن تعمـل عقابا وتعبده ، فانه الذى خلصك فى نومك .

فقال : أشهد لقد قال لى : اعرف لى هذا المقام ولا تنسـه .

فعمل عقـابا من ذهب ، وجعـل عينيـه جوهرتين ، ووشحه بالجوهر ، وعمل له هيكلا لطيفا ، وأرخى عليه ستور الحرير ، وأقبلوا على تبخيره وقربانه حتى نطق لهم ، فأقبـل عون على عبـادته ، ودعا النـاس الى ذلك فأجابوه .

ثم أمر فجمع له كل صانع بمصر ، وأخرج أصـحابه الى صـحراء الغرب لطلب أرض سهلة ، حسنة الاسـتواء ، يدخل اليـها من مواضع صعبة وجبال وعرة ، بحيث تقرب من مغيض الماء — التى هى اليوم الفيوم ، وكانت مغيضا لماء النيل حتى أصلحها يوسف عليـه السـلام — ليجرى الماء منها الى المدينة .

فخرجوا ، وأقاموا شهرا يطوفون حتى وجدوا بغيته ؛ فلم يبق بمصر عامل ولا مهندس ، ولا أحد له بصر بالبناء وقطع الصخور ونحتها الا وجه اليها ، وأنفذ ألف رجل من الجيش وسبعمائة ساحر لمعاونتهم ، وأنفذ جميع الآلات والأزواد على العجل — وطريق هذه العجل الى الفيوم فى صحراء الغرب واضحة من خلف الأهرام .

فلما تكامل له ما أراد من نحت الحجارة ، خطوا المدينة فرسخين فى مثلها ، وحفروا فى « الوسط بئرا جعلوا فيها تمثال خنزير من نحاس بأخلاط ، ونصبوه على قاعدة نحاس ووجهه الى الشرق ، وذلك بطالع بيت زحل ومثلثاته وسلالته — وكان فى شرفه — وذبحوا خنزيرا ، ولطخوا التمثال بدمه فى وجهه ، وبخروه بشىء من شعره ، وحشوا جوفه بدمه وشعره وعظامه ولحمه ومرارته ، وجعلوا فى أذنيه من مرارته ، وحرقوا بقية الخنزير ، وجعلوا رماده فى قلة من نحاس بين يدى التمثال ، ونقشوه بآيات زحل .

ثم شقوا فى البئر من الجهات الأربع ، فى كل جهة سربا الى حيطان المدينة ، وعملوا على أفواهها منافس تجذب الهواء ، وسدوا البئر ، وعقدوا فيها قبة على عمد مرتفعة على حيطان المدينة ، وجعلوا فيها شوارع يتصل كل شارع بباب من أبواب المدينة ، ووصلوها بالطرقات والمنازل ، وجعلوا حول القبة تماثيل فرسان من نحاس بأيديها حراب ، ووجوهها تجاه الأبواب .

وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود ، فوقه حجر أحمر ، عليه حجر أصفر ، من فوقه حجر أخضر ، وفوق الجميع حجر أبيض يشف . وكلها مبنية بالرصاص المصبوب بين الحجارة ، وفى فلوجها أصفحة من حديد على بناء الأهرام .

وجعلوا طول حصنها ستين فراعا فى عرض عشرين ، وعلى رأس كل باب حصن بأعلاه عقاب كبير من صفر وأخلاط قد نشر جناحيه وهو أجوف ، وعلى كل ركن فارس بيده حربة ووجهه الى خارج المدينة .

وساق الماء الى الباب الشرقى ، ينحدر فى صبه الى الباب الغربى ويخرج الى صهاريج ، وكذلك من الباب الجنوبى الى الشمالى ، وقرب للعقاب عقبانا ذكورا ، واجتلب الرياح الى أفواه التماثيل ، فصار يسمع لها أصوات هائلة ، ووكل بها أرواحا تمنع الداخل اليها الا أن يكون من أهلها .

ونصب العقاب الذى يتعبد له تحت القبة فى وسط المدينة ، على قاعدة بأربعة أركان على كل ركن وجه شيطان ، وجعلها على عمود يديرها . فكان العقاب يدور الى الجهات ، فيقيم فى كل جهة ربع السنة .

فلما تم ذلك ، نقل الى المدينة الأموال والجواهر التى بمصر من عهد الملوك ، والتماثيل والحكم وتراب الفضة والعقاقير والسلاح ، وحول اليها كبار السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار ، وقسم المساكن بينهم ، فلا يختلط أهل صناعة بسواهم .

وعمل بها ربضا لأصحاب المهن والزراعة ، وعقد على تلك الأنهار قناطر يمشى عليها

---

(1) ص ٢٢ جـ ١ ، المسعودى .

الداخل الى المدينة ، وجعل الماء يدور حول الربض ، ونصب عليها أعلاما وحرسا ، ثم غرس وراء ذلك مما يتصل بالبرية النخل والكرم ، وجميع أصناف الشجر على أقسام مقسومة ، ومن وراء ذلك كله مزارع الغلات من كل جهة ... كل ذلك خوفا من الوليد .

قال : وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام ، وكان يقيم فيها ويخرج اليها ، ثم يعود الى منف ، وكان لها أربعة أعياد فى السنة ، وهى الأوقات التى يتحول العقاب فيها .

فلما تم لعون ذلك ، اطمأن قلبه ... الى أن وافى اليه كتاب الوليد من النوبة ، يأمره بحمل الأزواد ونصب الأسواق . فوجه اليه فى البر والبحر بما أراد ، وحول أهله ومن اصطفاه من بنات الملوك والكبراء الى المدينة . فلما قرب الوليد ، خرج اليها وتحصن فيها ، واستخلف على منف .

فقدم الوليد ، وقد سمع ما فعله عون ، فغضب وهم أن يبعث اليه جيشا ، فعرف بخبر المدينة ومنعتها وخبر السحرة ، فكتب اليه أن يقدم عليه ، ويحذره عاقبة التخالف .

فأجابه : ما على الملك منى مشونة ولا تعرض ، ولا عيب فى بلده لأنى عبده ، وأنا له رده فى هذا المكان من كل عدو يأتيه من الغرب ، ولا أقدر على المسير اليه لخوفى منه ، فليقرنى الملك بحالى كأحد عماله ، وأوجه اليه ما يلزمنى من خراجه وهداياه .

وبعث اليه بأموال جليلة وجوهر نفيس ... فكف عنه .

وأقام الوليد بمصر حتى مات .

ذكر مدينة الفيوم

اعلم أن موضع الفيوم كان مغيض ماء النيل . فلما ولى السيد يوسف الصديق عليه السلام تدبير أمور مصر ، عمرها .

قال ابن وصيف شاه : ثم ملك الريان بن الوليد — وهو فرعون يوسف ، والقبط تسميه نهراوش — فجلس على سرير الملك ، وكان عظيم الخلق ، جميل الوجه ، عاقلا متمكنا . فوعد بالجميل ، وأسقط عن الناس خراج ثلاث سنين ، وفرق المال فى الخاص والعام .

وملك على البلد رجلا من أهل بيته يقال له أطفين ، وهو الذى يسميه أهل الأثر العزيز ، فأمر أن ينصب له فى قصر الملك سرير من فضة يجلس عليه ، ويغدو فيه ويروح الى باب الملك ، ويخرج العمال والكتاب بين يديه .

فكفى نهراوش ما خالف ستره ، وقام بجميع أموره ، وخلاه للذته .

فانغمس نهراوش فى لهوه ، ولم ينظر فى عمل ، ولا ظهر للناس حينا ، والبلد عامر وهو لا يسأل عن شىء ، وعمل له مجالس من زجاج ملون ، وحولها ماء فيه أسماك مفرطة وبلور ملون ، فكان اذا وقعت عليه الشمس ظهر له شعاع عجيب . وعملت له عدة متنزهات على عدد أيام السنة ، فكان كل يوم فى موضع منها ، وعمل له فى كل موضع من الآنية والفرش ما ليس لغيره .

فاتصل بملوك * النواحى تشاغله بلذته وتدبير أطفين . فسار ملك من العماليق — يقال له أبو قابوس عاكر بن يتحوم — الى مصر ، ونزل على حدودها ، فجهز اليه العزيز جيشا عليه قائد يقال له بريانس ، فأقام يحاربه ثلاث سنين ، فظفر به العمليقى وقتله ، وهدم الأعلام والمصانع ، وقوى طمعه فى البلد .

فاجتمع الناس الى قصر الملك واستغاثوا ، فخرج اليهم ، وعرض جيوشه ، وخرج فى ستمائة ألف مقاتل سوى الأتباع ، فالتقوا من وراء الحوف ، وكان بينهما قتال شديد ، فانهزم العمليقى ، وتبعه نهراوش الى حد الشام ، وقتل خلقا من أصحابه ، وأفسد زروعهم وأشجارهم ، وحرق وصلب ، ونصب أعلاما على الأماكن التى وصلها ، وزبر عليها : « انى لمن تجاوز هذا المكان بالمرصاد » .

وقيل انه بلغ الموصل ، وضرب على أهل الشام خراجا ، وبنى عند العريش مدينة لطيفة وشحنها بالرجال .

ورجع الى مصر ، فحشد من جميع الأعمال جنودا ، واستعد لغزو ملك الغرب ، وخرج فى سبعمائة ألف ، فمر بأرض البربر ، وأجلى كثيرا منهم ، وجهز قائدا فى السفن من ناحية رقودة الى جزائر بنى يافث ، فعاث فيها ، وخرج من ناحية أرض البربر ، فقتل وصالح بعضهم على مال حملوه اليه .

ومضى الى أفريقية وقرطاجنة ، فصالحوه على مال ، ومر حتى بلغ مصب البحر الأخضر الى بحر الروم — وهو موضع أصنام النحاس — فأقام هناك صنما زبر عليه اسمه وتاريخ خروجه ، وضرب على أهل تلك النواحى الخراج .

وعدى الى الأرض الكبيرة ، وسار الى الأندلس ، فحاربه ملكها أياما ، ثم صالحه على مال ، وأن يمنع من يغزو مصر من ناحيته .

وانصرف على غير البحر مشرقا فى بلاد البربر ، فلم يمر بأمة الا ودخلت فى طاعته .

ومر فى الجنوب فقتل خلقا ، وبعث قائدا الى مدينة على البحر الأسود ، فخرج اليه ملكها ، وذكر له حال الريان ومصالحة الملوك له ، فقال : ما بلغنا أحد قط .

وسأله القائد عن البحر : هل ركبه أحد قط ؟

فقال : ما يقدر أحد على ركوبه ، وربما أظله غمام فلا يرى أياما .

وقدم الريان ، فحملوا الهدايا اليه ، وفاكهة أكثرها الموز ، وحجارة سوداء اذا جعلت فى الماء صارت بيضاء .

ثم سار الملك على أمم السودان الى مملكة الدمدم الذين يأكلون الناس ، فخرجوا اليه عراة ، فهزمهم وظفر بهم .

ومر على البحر المظلم ، فغشيهم منه غمام ، فترجع شمالا حتى انتهى الى تمثال من حجر أحمر يومىء بيده : ارجعوا ، وعلى صدره مزبور « ما ورائى أحد » .

(*) ص ٢٤١ جـ ١ ، ط . بولاق .

فسار الى مدينة النحاس فلم يصل اليها . ومضى الى الوادى المظلم ، فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة ، ولا يرون أحدا لشدة ظلمته .

وسار الى وادى الرمل ، فرأى على معبره أصناما عليها أسماء الملوك ، فأقام عليه صنما زبر عليه اسمه ، فلما أثبت الرمل جاز عليه الى الخراب المتصل بالبحر الأسود ، فرأى سباعا يزأر بعضها على بعض ، فحكم أنه لا مذهب له من ورائها .

فرجع وعدى وادى الرمل ، ومر بأرض العقارب ، فهلك بعض أصحابه ، ودفعوا عن أنفسهم أذاها بالرقى ، وجازها الى مدينة الحكماء — وتعرف بمدينة الكند — ففروا منه الى جبل ، فأقام عليه أياما حتى كاد يهلك جيشه عطشا .

فنزل اليه من الجبل رجل من أفاضل الحكماء ، وقد لبس شعره جسده ، فقال للملك : أين تريد أيها المغرور ، الممدود له فى الأجل ، المرزوق فوق الكفاية ؟ أتعبت نفسك وجيشك ، ألا اجتزأت بما تملكه ، واتكلت على خالقك ، وربحت الراحة ، وتركت العناء والغرر بهذا الخلق ؟

فعجب من قوله ، وسأله عن الماء فدله عليه .

وسأله عن موضعهم ، فقال : موضع لا يصل اليه أحد ، ولا بلغه قبلك أحد .

فقال : ما عيشك ؟

قال : من أصول النبات نقنع به ، ويكفينا اليسير .

قال : فمن أين تشربون ؟

قال : من الأمطار والثلوج .

قال : فلم هربتم منا ؟

قال : زهادة فى مخالطتكم ، والا فليس لنا ما نخافكم عليه .

قال : فكيف بكم اذا حميت الشمس ؟

قال : نأوى الى غيران تحت هذا الجبل .

قال : فهل لكم فى مال أخلفه لكم ؟

قال : انما يريد المال أهل الترف ، ونحن لا نستعمل منه شيئا ، استغنينا عنه بما قد اكتفينا به ، وعندنا منه ما لو رأيته لاحتقرت ما عندك .

قال : فأرنيه .

فانطلق بنفر من أصحابه الى أرض فى سفح جبلهم فيها قضبان ذهب نابتة ، وأراهم واديا لهم فى حافتيه حجارة زبرجد وفيروز .

فأمر نهراوش أصحابه أن يحملوا من كبار تلك الحجارة ، ففعلوا .

ورأى الحكيم جماعة الملك يصلون الى صنم يحملونه معهم ، فسأل الملك ألا يقيم بأرضهم ، وخوفه من عبادة الأصنام .

فودعه وسار ، فلم يمر بأمة الا أثر فيها ، حتى بلغ النوبة فصالحهم على مال ، وأقام على دنقلة صنما وزبر عليه اسمه ومسيره .

وسار يريد مدينة منف ، فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقونه بالفرح والسرور والرياحين والطيب الى أن بلغ منف ، فخرج

أهلها اليه مع العزيز بأصناف الرياحين والطيب .

وكان العزيز قد بنى له مجلسا من زجاج ملون ، وفرشه بأحسن فرش ، وغرس حوله الأشجار والرياحين ، وجعل فيه بحرة من زجاج سماوى ، وفى أرضه شبه السمك من زجاج أبيض ، فنزل الملك فيه ، وأقام الناس يأكلون ويشربون أياما كثيرة .

وتفقد جيشه ، ففقد منهم سبعين ألفا ، ووجد فيهم ممن أسره نيفا وخمسين ألفا .

فكانت * مدة غيبته عن مصر ، فى مسيره هذا ، لحدى عشرة سنة .

فلما بلغ الملوك قدومه هابوه ، واشتد بأسه وتجبر ، وبنى فى الجانب الشرقى قصورا من رخام ، ونصب عليها أعلاما ، وأمر بالعمارة واصلاح الجسور واستنباط الأراضى ، حتى زاد الخراج على مائة ألف ألف دينار .

ودخل الى البلد فى أيامه غلام من أهل الشام لحتال عليه اخوته وباعوه — وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف اليوم — فوقف الغلام ونودى عليه ، وهو يوسف الصديق ابن يعقوب بن ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم وسلامه ، فاشتراه اطفين ليهديه الى الملك .

فلما أتى به قصره رأته امرأته زليخا ، وهى ابنة عمه ، فقالت : اتركه لنا نربيه لينفعنا . وكان من أمرها ما قصه الله تعالى فى القرآن .

(*) ص٢٤٢ جـ١ ، ط بولاق .

فكانت تكتم حبه حتى غلبت ، فخلت به وتزينت له ، وعرفته أنها تحبه ، وأنه ان واتاها على ما تريده منه حبته بمال عظيم ... فامتنع من ذلك .

ورأت أن تغلبه ، فما زالت تعاركه ، وهو ممتنع منها ، الى أن وافى زوجها ، ورآه وهو هارب منها — وكان العزيز عنينا لا يأتى النساء — فجعل يوسف يعتذر اليه ، وقالت : انى كنت نائمة ، فأتانى يراودنى عن نفسى .

وتبين من شاهد أهلها أن الأمر من قبل امرأته ، فقال ليوسف : أعرض عن هذا (أى عن اعتذارك) ، وقال لها : استغفرى لذنبك .

وقد كان خبر أطفين والغلام بلغ الملك ، وكان نهراوش عاود العكوف على اللهو والاحتجاب عن الناس .

واتصل خبر زليخا ويوسف بنساء الخاصة ، فعيرنها بذلك ، فدعت جماعة منهن ، وصنعت لهن طعاما وشرابا ، وعملت مجلسين مذهبين ، وفرشتهما بديباج أصفر مذهب ، وأرخت عليهما ستور الديباج ، وأمرت المواشط بتزيين يوسف واخراجه من المجلس الذى يحاذى المجلس الذى كانت مع النسوة فيه ، وكان المجلس محاذيا للشمس .

فأخذته المواشط ، ونظمن شعره بأصناف الجواهر ، وألبسنه ثوب ديباج أصفر ، قد نسج بدارات حمر مذهبة فيها أطيار صغار خضر ، مبطن ببطانة خضراء ، ومن تحته غلالة حمراء ، وعلى رأسه تاج قد نظم بالدر والجوهر ، وأخرجن من تحت التاج أطراف شعره على جبهته ، ورددن ذوائبه على

صدره ، وجعلن جبهته مكشوفة والتاج محيط بها ، وفى أذنيه قرطى جوهر ، ومن خلف طوق القباء شعر مسبل بين كتفيه ، منظوم مشبك بالذهب والجوهر ، وفى عنقه طوق منظوم بذهب ، مشدد بجوهر أحمر ودر فاخر ، وفى وسطه منطقة ذهب ، فيها لوالب جوهر ملون ، ولها معاليق منظومة ، وألبسنه خفين أبيضين منقوشين بأخضر على نقوش ذهب ، وجعلن للقباء الذى عليه وشاحين وافراوز يحيط بأسفله ، وكميه من جوهر أخضر ، وعقربن صدغيه على خديه ، وكحلن عينيه ، ودفعن اليه مذبة شعرها أخضر .

فلما فرغ النساء من طعامهن ، وشربن أقداحا ، قدمت اليهن سكاكين قبضهن من جوهر ليقطعن بها الفاكهة .

فيقال انهن أخذن أترجا وهن يقطعنه ، اذ قالت لهن : قد بلغنى حديثكن فى أمرى مع عبدى .

فقلن لها : الأمر كما بلغك ، لأنك أعلى قدرا من هذا ، ومثلك يرتفع عن أولاد الملوك لحسنك وشرفك ، فكيف ترضين بغلامك ؟

فقالت : لم يبلغكن الصدق ، ولا هو عندى بهذا .

وأومأت الى المواشط أن يخرجن يوسف ، فرفعن الستور عن المجلس الذى يحاذى مجلسها ، وبرز منه يوسف محاذيا بوجهه الشمس ، فأشرق المجلس وما فيه من وجه يوسف ، وأقبل بالمذبة — وهن يرمقنه — فوقف على رأس زليخا يذب عنها .

فاشتغل النساء برؤيته ، وجعلن يقطعن أيديهن موضع الفاكهة التى كانت معهن ، ولا يعين الكلام ذهولا منهن بما رأين من حسن يوسف .

فقالت لهن زليخا : ما لكن قد اشتغلتن عن خطابى بالنظر الى عبدى ؟

فقلن : معاذ الله ! ما هذا عبدك ، ان هذا الا ملك كريم !

ولم يبق منهن امرأة الا حاضت ، وأنزلت شهوة من محبته .

فقالت زليخا عند ذلك : فهذا الذى لمتننى فيه .

فقلن : ما ينبغى لأحد أن يلومك فى هذا ، ومن لامك فقد ظلمك ، فدونكه .

قالت : قد فعلت فأبى على ، فخاطبنه لى .

فكانت كل واحدة منهن تخاطبه ، وتدعوه سرا الى نفسها ، وتبذل له وهو يمتنع عليها ، فاذا يئست منه أن يجيبها لنفسها ، خاطبته من جهة زليخا ، وقالت : مولاتك تحبك وأنت تكرهها ، ما ينبغى أن تخالفها .

فقال : ما لى بذلك حاجة .

فلما رأين ذلك أجمعن على أخذه غصبا .

فقالت زليخا : لا يجوز هذا ، لكنه ان لم يفعل لأمنعنه اللذات ، ولأسجننه ، وأنتزع جميع ما أعطيته .

فقال يوسف : « رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه » .

فأنست بالها — وكان صنما من زبرجد أخضر باسم عطارد — أنه اذ لم يفعل لتحبس له ذلك .

ثم أمرت بنزع ثيابه ، وألبسه الصوف ، وسألت العزيز حبسه ليزول ما قذفها به ، فأمر به فحبس .

ورأى الملك فى منامه كأن آتيا أتاه فقال له ان فلانا وفلانا قد عزما على قتلك (يريد صاحبي طعامه وشرابه) فلما أصبح قررهما ، فاعترفا له ، وقيل اعترف أحدهما وأنكر الآخر ، فأمر بحبسهما . وكان اسم صاحب الطعام « راسان » ، واسم صاحب الشراب « مرطس » .

وكان يوسف عليه السلام ، وهو فى السجن ، رءوفا بمن فيه ويعدهم * الفرج . فأخبره صاحبا طعام الملك وشرابه برؤياهما التى قصها الله فى كتابه ، فوقع كما قصه يوسف .

ورأى الملك البقرات والسنابل ، فعرفه الساقى خبر يوسف ، فمضى اليه وقصها عليه .

فلما عاد الى الملك ، قال : جيئونى به .

فقال يوسف : ما أخرج ، أو يكشف أمر النسوة اللاتى من أجلهن حبست .

فكشف عن ذلك ، فاعترفت زليخا بالقصة .

ووجه اليه ، فأخرج وغسل من درن السجن ، وألبس ما يليق بالدخول على الملوك .

فلما رآه امتلأ قلبه من حبه واكباره ، وسأله عن الرؤيا ، ففسرها كما قال الله تعالى .

فقال الملك : ومن يقوم لى بذلك ؟

قال : أنا .

فخلع عليه خلع الملوك ، وألبسه تاجا ، وأمر أن يطاف به ، وركب الجيش معه ، وتردد الى قصر الملك ، وجلس على سرير العزيز ، واستخلفه الملك على ملكه مكانه .

ويقال ان العزيز أطفين كان قد مات ، فزوجه امرأته .

وقال لها يوسف : هذا أصلح مما أردت .

فقالت : اعذرنى ان زوجى كان عنينا ، ولم ترك امرأة الا صبا قلبها اليك من حسنك .

وجاءت سنو خصب فى مصر ، فجمع يوسف الغلال وخزنها وأكثر منها . فلما جاءت سنو الجدب بدأ النيل فى النقصان ، وكان ينقص كل سنة أكثر من التى قبلها ، فقحط البلد حتى بيع القمح بالمال والجوهر والدواب والثياب والآنية والعقار ، وكاد أهل مصر يرحلون عنها لولا تدبير يوسف .

وقحط الشام أيضا ، وكان من مجىء اخوة يوسف ما قصه الله تعالى ، ووجه الى أبيه فحمل الى مصر وجميع أهله ، وخرج فى وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك .

وكان يعقوب مهابا ، فأعظمه الملك ، وسأله عن سنه وصناعته وعبادته .

فقال : سنى عشرون ومائة سنة ، وأما صناعتى فلنا غنم ترعى تنتفع بها ، وأعبد رب

(*) ص٢٤٢ ج١ ، ط.بولاق .

العالمين الذى خلقك وخلقنى ، وهو اله آبائى والهك واله كل شىء .

وكان فى مجلس الملك كاهن جليل القدر ، فقال للملك : انى أخاف أن يكون خراب مصر على يد ولد هذا .

فقال له الملك : فأنى لنا خبره .

فقال الكاهن ليعقوب : أرنى الهك أيها الشيخ .

قال : الهى أعظم من أن يرى .

قال : فانا نرى آلهتنا .

قال : ان آلهتكم من ذهب وفضة وحجارة وجوهر ونحاس وخشب مما يعمله بنو آدم ، وهم عبيد الهى ، لا اله الا هو العزيز الحكيم .

قال الكاهن : ان كل شىء لا تراه العيون ليس بشىء .

فغضب يعقوب وكذبه ، وقال : ان الله شىء لا كالأشياء ، وهو خالق كل شىء ... لا اله الا هو .

قال : فصفه لنا .

قال : انما يوصف المخلوق ، لكنه خالق واحد قديم مدبر أزلى ، يرى ولا يرى .

وقام يعقوب مغضبا ، فأجلسه الملك ، وأمر الكاهن فكف عنه .

فقال الكاهن : انا نجد فى كتبنا أن خراب مصر يجرى على أيدى هؤلاء .

فقال الملك : هذا يكون فى أيامنا ؟

قال : لا ، ولا الى مدة كثيرة ، والصواب أن يقتله الملك ولا يبقى من ذريته أحدا .

فقال الملك : ان كان الأمر كما تقول فلا يمكننا أن ندفعه ، ولا نقدر على قتل هؤلاء .

وأنزل يعقوب ومن معه بوادى السدير الى أن مات ، فحمل الى قرية ابراهيم عليه السلام ودفن عنده .

ويقال ان نهراوش الملك آمن ، وكتم ايمانه خوفا من فساد أمره .

وأقام ملكا مائة وعشرين سنة .

وفى وقته عمل يوسف الفيوم ، فان أهل مصر كانوا وشوا به الى الملك ، وقالوا : قد كبر ونقص نفعه ، فاختبره .

فقال له : انى وهبت هذه الناحية لابنتى — وكانت مغايض للماء — فدبرها لها .

فعملها يوسف ، واحتال للمياه حتى أخرجها وقلع أوحالها ، وساق المنهى وبنى اللاهون ، وجعل الماء فيها مقسوما موزونا ، وفرغ منها فى شهور أربعة ... فعجبوا من حكمته .

ويقال انه أول من هندس بمصر .

ومات نهراوش ، فخلف ابنه ذرمجوش ، وسمته أهل الأثر دارم بن الريان ، وهو الفرعون الرابع عندهم ، فخالف سنة أبيه . وكان يوسف خليفته ، فقبل منه بعضا ، وخالفه فى البعض .

فمات يوسف فى أيامه وله مائة وعشرون سنة ، فكفن وجعل فى تابوت من رخام ،

ودفن فى الجانب الغربى فأخصب ونقص الشرقى ، فحول اليه فأخصب ونقص الغربى ، فاتفقوا على أن يجعلوه فى الشرقى عاما وفى الغربى عاما ، ثم حدث لهم من الرأى أن يجعلوا له حلقا وثاقا وشدوا التابوت فى وسط النيل ، فأخصب الجانبان كلاهما .

وقال ابن عبد الحكم : فملكهم الريان بن الوليد بن دومع ، وهو صاحب يوسف النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى الملك رؤياه التى رأى وعبرها يوسف ، أرسل اليه الملك فأخرجه من السجن .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : فأتاه الرسول فقال : ألق عنك ثياب السجن ، والبس ثيابا جددا ، وقم الى الملك . فدعا له أهل السجن ، وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة .

فلما أتاه ، رأى غلاما حدثا فقال : أيعلم هذا رؤياى ولا تعلمها السحرة والكهنة ؟

وأقعده قدامه وقال له : لا تخف .

قال : فلما استنطقه وسأله ، عظم فى عينيه ، وجعل اليه أمره ، فدفع اليه خاتمه ، وولاه ما خلف بابه ، وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير ، وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك ، وضرب بالطبل بمصر أن يوسف خليفة الملك .

وعن عكرمة أن فرعون قال ليوسف : قد سلطتك على مصر ، غير أنى أريد أن أجعل كرسى أطول من كرسيك بأربع أصابع .

قال يوسف : نعم .

وأجلسه * على السرير ، ودخل الملك بيته مع نسائه ، وفوض أمر مصر كلها اليه ... فبسبب عبارة رؤيا الملك ، ملك يوسف مصر .

وعن الليث بن سعد قال : حدثنى مشيخة لنا ، قالوا : اشتد الجوع على أهل مصر ، فاشتروا الطعام بالذهب حتى لم يجدوا ذهبا ، فاشتروا بالفضة حتى لم يجدوا فضة ، فاشتروا بأغنامهم حتى لم يجدوا غنما . فلم يزل يبيعهم الطعام حتى لم يبق لهم فضة ولا ذهب ولا شاة ولا بقرة فى تلك السنين .

فأتوه فى الثالثة فقالوا : لم يبق لنا الا أنفسنا وأهلونا وأرضونا . فاشترى يوسف أرضهم كلها لفرعون ، ثم أعطاهم يوسف طعاما يزرعونه على أن لفرعون الخمس .

ويقال فى خبر بناء يوسف عليه السلام مدينة الفيوم : انه لما وزر لفرعون ثلاثين سنة عزله ، فقال : لم عزلتنى ؟

قال : لم أعزلك لريبة ، ولا أنسى بركتك ، ولكن آبائى عهدوا الى ألا يتولى لنا وزير أكثر من ثلاثين سنة ، وانا نخشى أن يتأصل الوزير حتى يدبر على الملك .

فقال له يوسف : قد علمت نصحى لك حتى صيرت ديار مصر كلها ملكا لك ، فأقطعنى أرضا تكون لقوتى وقوت أهلى وعشيرتى .

فقال له فرعون : اختر حيث شئت .

فمشى يوسف فى قفار الأرض ، حتى رأى أرض الفيوم وفيها جبل حائل بين النيل وبينها ، فوزن ماء النيل حتى رأى أن قاعها

(*) ص٢٤٤ جـ١ ، ط. بولاق .

يركبه النيل ، فخرق خرقا فى ذلك الجبل ، وساق الماء فيه الى الفيوم فسقى الأرض .

وعمل فى جوانب الماء ثلثمائة وستين قرية على عدد أيام السنة ، وشحنها بالغلال والأقوات التى ازدرعها ، فكان اذا نقص النيل ووقع الجوع بأرض مصر ، باع كل يوم ما جمعه فى قرية من قرى الفيوم ، حتى ملك مصر لنفسه كما جمعها للملك .

فعظم شأن يوسف وكثر ماله ، فرده الملك بعد مدة الى وزارته . وتوفى وهو وزير ، فأوصى بخروج جثته الى الأرض المقدسة .

فخرج بها هارون بن افرايم بن يوسف فى مائة ألف من بنى اسرائيل ، فهزمته الجبابرة فيما بين مصر والشام ، وهلك أكثر من معه ، وعاد بمن بقى معه الى مصر ، فأقاموا بها حتى بعث الله موسى بن عمران عليه السلام الى فرعون رسولا ، فخرج ببنى اسرائيل من مصر ومعه جثة يوسف عليه السلام .

وفى ذلك الزمان استنبطت الفيوم . وقيل كان سبب ذلك أن يوسف عليه السلام لما ملك مصر ، وعظمت منزلته من فرعون ، وجاوز سنه مائة سنة ، قال وزراء الملك له : ان يوسف قل علمه ، وتغير عقله ، وتفندت حكمته .

فعنفهم فرعون ، ورد عليهم مقالتهم ، وأساء اللفظ لهم ، فكفوا .

ثم عاودوه بذلك القول بعد سنين ، فقال لهم : هلموا ما شئتم ، من أى شىء اختبره به ؟

وكان بلد الفيوم يومئذ يدعى الجوبة ، وانما كانت لمصالة ماء الصعيد وفضوله ، فاجتمع رأيهم على أن تكون هى المحنة التى يمتحنون بها يوسف ، فقالوا لفرعون : سل يوسف أن يصرف ماء الجوبة عنها ويخرجه منها ، فتزداد بلدا الى بلدك ، وخراجا الى خراجك .

فدعا يوسف فقال : تعلم مكان ابنتى فلانة منى ، وقد رأيت اذا بلغت أن أطلب لها بلدا ، وانى لم أصب لها الا الجوبة — وذلك أنه بلد بعيد قريب ، لا يرى بوجه من الوجوه الا من غابة أو صحراء ، وكذلك ليست هى تؤتى من ناحية من النواحى من مصر الا من مفازة وصحراء ، فالفيوم وسط مصر كمثل مصر فى وسط البلاد ، لأن مصر لا تؤتى من ناحية من النواحى الا من صحراء أو مفازة — قال : وقد اقتطعتها اياها ، فلا تتركن وجها ولا نظرا الا بلغته .

فقال يوسف : نعم أيها الملك ، متى أردت ذلك فابعث الى ، فانى ان شاء الله فاعل ذلك .

قال : ان أحبه الى وأرفعه أعجله .

فأوحى الى يوسف أن تحفر ثلاثة خلج : خليجا من أعلى الصعيد من موضع كذا الى موضع كذا ، وخليجا شرقيا من موضع كذا الى موضع كذا ، وخليجا غربيا من موضع كذا الى موضع كذا .

فوضع يوسف العمال ، فحفر خليج المنهى من أعلى أشمون الى اللاهون ، وأمر البنائين

أن يحفروا اللاهون ، وحفر خليج الفيوم وهو الخليج الشرقى ، وحفر خليجا بقرية يقال لها بنهست من قرى الفيوم وهو الخليج الغربى

فخرج ماؤها من الخليج الشرقى فصب فى النيل ، وخرج من الخليج الغربى فصب فى صحراء بنهست الى الغرب ، فلم يبق فى الجوبة ماء .

ثم أدخلها الفعلة ، فقطع ما كان فيها من القصب والطرفاء ، وأخرجه منها .

وكان ذلك ابتداء جرى النيل ، وقد صارت أرض الجوبة نقية برية ، وارتفع ماء النيل فدخل فى رأس المنهى ، فجرى فيه حتى انتهى الى اللاهون ، فقطعه الى الفيوم فدخل خليجها فسقاها ، فصارت لجة من النيل .

وخرج اليها الملك ووزراؤه — وكان هذا كله فى سبعين يوما — فلما نظر اليها الملك قال لوزرائه أولئك : هذا عمل ألف يوم ... فسميت الفيوم ، وأقامت تزرع كما تزرع غوائط مصر .

قال : وقد سمعت فى استخراج الفيوم غير هذا ، أن يوسف عليه السلام ملك مصر وهو ابن ثلاثين ، فأقام يدبرها أربعين سنة ، فقال أهل مصر : قد كبر يوسف واختلف رأيه . فعزلوه ، وقالوا : اختر لنفسك من الموات أرضا نقطعها لنفسك وتصلحها وتعمل رأيك فيها ، فان رأينا من رأيك وحسن تدبيرك ما نعلم أنك فى زيادة من عقلك ، رددناك الى ملكك .

فاعترض البرية فى نواحى مصر ، فاختار موضع الفيوم ، فأعطيها ، فشق اليها خليج * المنهى من النيل حتى أدخله الفيوم كلها ، وفرغ من حفر ذلك كله فى سنة

قال يزيد بن أبى حبيب : وبلغنا أنه انما عمل ذلك بالوحى ، وقوى على ذلك بكثرة الفعلة والأعوان .

فنظروا فاذا الذى أحياه يوسف من الفيوم لا يعلمون له بمصر كلها مثلا ولا نظيرا ، فقالوا : ما كان يوسف قط أفضل عقلا ولا رأيا ولا تدبيرا منه اليوم ... فردوا اليه الملك

فأقام ستين سنة أخرى تمام مائة سنة ، حتى مات وهو ابن ثلاثين ومائة سنة .

قال : ثم بلغ يوسف قول وزراء الملك ، وأنه انما كان ذلك على المحنة منهم له ، فقال للملك : عندى من الحكمة والتدبير غير ما رأيت .

فقال له الملك : وما ذاك ؟

قال : أنزل الفيوم من كل كورة من كور مصر أهل بيت ، وآمر أهل كل بيت أن يبنوا لأنفسهم قرية — وكانت قرى الفيوم على عدد كور مصر — فاذا فرغوا من بناء قراهم ، صيرت لكل قرية من الماء بقدر ما أصير لها من الأرض ، لا يكون فى ذلك زيادة ولا نقص ، وأصير لكل قرية شربا فى زمان لا ينالهم الماء الا فيه ، وأصير مطاطئا للمرتفع ومرتفعا للمطاطىء بأوقات من الساعات فى

(*) ص٢٤٤ جـ١ ، ط. بولاق .

الليل والنهار ، وأصير لها قبضات ، فلا يقصر بأحد دون حقه ، ولا يزداد فوق قدره .

فقال له فرعون : هذا من ملكوت السماء .

قال : نعم .

فبدأ يوسف فأمر ببنيان القرى وحدد لها حدودا . وكانت أول قرية عمرت بالفيوم قرية يقال لها سانة ، وهى القرية التى كانت تنزلها بنت فرعون .

ثم أمر بحفر الخليج وبنيان القناطر . فلما فرغوا من ذلك استقبل وزن الأرض ووزن الماء . ومن يومئذ حدثت الهندسة ، ولم يكن الناس يعرفونها قبل ذلك .

وكان أول من قاس النيل بمصر يوسف ، ووضع مقياسا بمنف .

قال جامعه : وفى التوراة أن فرعون ألزم بنى اسرائيل البناء وضرب اللبن ، فبنوا له عدة مدن محصنة منها فيثوم وعرمسيس ... قال الشارح : هى الفيوم وحوف رمسيس .

وفى زمان الريان بن الوليد دخل يعقوب عليه السلام وولده مصر ، وهم ثلاثة وسبعون نفسا ما بين رجل وامرأة ، فأنزلهم يوسف ما بين عين شمس الى الفرما ، وهى أرض ريفية برية .

وكان يعقوب لما دنا من مصر ، أرسل يهوذا الى يوسف ، فخرج اليه يوسف فلقيه فالتزمه وبكى .

فلما دخل يعقوب على فرعون كلمه — وكان يعقوب شيخا كبيرا حليما ، حسن الوجه واللحية ، جهير الصوت — فقال له فرعون : أيها الشيخ ، كم أتى عليك ؟

قال : عشرون ومائة .

وكان بهمن ساحر فرعون قد وصفه صفة يعقوب ويوسف وموسى صلوات الله عليهم فى كتبه ، وأخبر أن خراب مصر وهلاك أهلها يكون على أيديهم ، ووضع البربايات وصفات من تخرب مصر على يديه . فلما رأى يعقوب قام الى مجلسه ، فكان أول ما سأله عنه أن قال : من تعبد أيها الشيخ ؟

قال له يعقوب : أعبد الله اله كل شىء .

فقال : فكيف تعبد من لا ترى ؟

قال يعقوب : انه أعظم وأجل من أن يراه أحد .

قال : فنحن نرى آلهتنا ؟

قال يعقوب : ان آلهتكم من عمل أيدى بنى آدم من يموت ويبلى ، وان الهى لأعظم وأرفع ، وهو أقرب الينا من حبل الوريد .

فنظر بهمن الى فرعون فقال : هذا الذى يكون هلاك بلادنا على يديه .

قال فرعون : أفى أيامنا أو فى أيام غيرنا ؟

قال : ليس فى أيامك ولا أيام بنيك .

قال الملك : فهل تجد هذا فيما قضى به الهكم ؟

قال : نعم .

قال : فكيف تقدر أن تقيل من يريد الهه هلاك قومه على يديه فلا يعبأ بهذا الكلام ؟

ومن كعب أن يعقوب عاش فى أرض مصر ست عشرة سنة ، فلما حضرته الوفاة قال ليوسف : لا تدفنى بمصر ، فاذا مت فاحملونى فادفنونى فى مغارة جبل حبرون (وحبرون مسجد ابراهيم الخليل عليه السلام ، وبينه وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا) .

قال : فلما مات لطخوه بمر وصبر ، وجعلوه فى تابوت من ساج ، فكانوا يفعلون به ذلك أربعين يوما ، حتى كلم يوسف فرعون فأعلمه أن أباه قد مات ، وأنه سأله أن يقبره فى أرض كنعان ، فأذن له ، وخرج معه أشراف أهل مصر حتى دفنه وانصرف .

وقيل : قبر يعقوب بمصر فأقام بها نحوا من ثلاث سنين ، ثم حمل الى بيت المقدس ، وأوصاهم بذلك عند موته .

قال : ثم مات الريان بن الوليد ، فملكهم من بعده ابنه دارم بن الريان . وفى زمانه توفى يوسف عليه السلام ، فلما حضرته الوفاة قال : انكم ستخرجون من أرض مصر الى أرض آبائكم ، فاحملوا عظامى معكم .

فمات فجعلوه فى تابوت ، ودفنوه فى أحد جانبى النيل ، فأخصب الجانب الذى كان فيه وأجدب الجانب الآخر ، فحولوه الى الجانب الآخر فأخصب الجانب الذى حولوه اليه وأجدب الآخر .

فلما رأوا ذلك ، جمعوا عظامه فجعلوها فى صندوق من حديد ، وجعلوا فيه سلسلة ، وأقاموا عمودا على شاطىء النيل ، وجعلوا فى أصله سكة من حديد ، وجعلوا السلسلة فى السكة ، وألقوا الصندوق فى وسط النيل ، فأخصب الجانبان جميعا .

وكان سبب حمل عظام يوسف من مصر الى الشام ، أن سارة ابنة أسر بن يعقوب عمرت حتى صارت عجوزا كبيرة ذاهبة البصر ، فلما سرى موسى عليه السلام ببنى اسرائيل غشيتهم ضبابة حالت بينهم وبين الطريق أن يبصروه ، وقيل لموسى : لن تعبر الا ومعك عظام يوسف .

قال : ومن يدرى أين * موضعها ؟

قالوا : عجوز كبيرة ذاهبة البصر تركناها فى الديار .

فرجع موسى ، فلما سمعت حسه ، قالت : ما ردك ؟

قال : أمرت أن أحمل عظام يوسف .

قالت : ما كنتم لتعبروا الا وأنا معكم .

قال : دلينى على عظام يوسف .

فدلته عليها ، فأخذ عظام يوسف معه الى التيه .

يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن ، صلوات الله عليهم ، أحد الأسباط الاثنى عشر ، ولد بأرض كنعان من بلاد الشام ، ورأى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين ، وعمره سبع عشرة سنة .

وكاد اخوته على ذلك ، وباعوه من قوم مدنيين ، فساروا به الى مصر وباعوه لقائد فرعون . فأقام فى منزله اثنى عشر شهرا ، ثم راودته امرأة العزيز عن نفسه فاعتصم ، وكذبت عليه الى أن حبس ، ومكث فى السجن عشر سنين ، وقيل غير ذلك .

(*) ص٢٢٦ جـ١ ، ط. بولاق .

فلم يزل فى السجن الى أن رأى الساقى والخباز ذينك المنامين ، وفسر لهما يوسف وخرجا ، فأنسى الساقى يوسف سنتين ، الى أن رأى الملك البقر والسنابل ، فذكره وأتاه فقص عليه الرؤيا وعبرها ، فأخرج من السجن وله حينئذ ثلاثون سنة ، فاستوزره الملك .

ومن ذلك الوقت الى أن صار يعقوب الى مصر تسع سنين ، منها سبع سنين من سنى الشبع ، وسنتان من سنى الجوع .

وكان ليعقوب فى السنة التى صار فيها الى مصر مائة سنة وثلاثون سنة ، وكان أهل بيته حينئذ سبعين نفسا . ومنذ سار الى مصر الى أن ولد موسى عليه السلام مائة وثلاثون سنة أخرى . فلما مضى له بمصر سبع عشرة سنة توفى وعمره مائة وسبع وأربعون سنة .

فخاف الأسباط حينئذ مقابلة يوسف اياهم ، فقالوا : ان أباك أوصى أن تغفر ذنب اخوتك ، فانك وهم عبيد الله أبيك .

فبكى يوسف وقال لهم : لا تحتاجون الى ذلك ، ووعدهم بخير تممه لهم .

ومات يوسف وله مائة سنة وعشر سنين . والله أعلم .

ذكر ما قيل فى الفيوم وخلجانها وضياعها

قال اليعقوبى : كان يقال فى متقدم الأيام مصر والفيوم ، لجلالة الفيوم وكثرة عمارتها ، وبها القمح الموصوف ، وبها يعمل الخيش . وحكى المسعودى أن معنى الفيوم ألف يوم .

قال القضاعى : الفيوم ، وهى مدينة دبرها يوسف النبى عليه السلام بالوحى ، وكانت ثلثمائة وستين ضيعة ، تمير كل ضيعة منها مصر يوما واحدا ، فكانت تمير مصر السنة .

وكانت تروى من اثنى عشر ذراعا ، ولا يستبحر ما زاد على ذلك ، فان يوسف عليه السلام اتخذ لهم مجرى ، ورتبه ليدوم لهم دخول الماء فيه ، وقومه بالحجارة المنضدة ، وبنى به اللاهون .

وقال ابن رضوان : الفيوم يخزن فيه ماء النيل ، ويزرع عليه مرات فى السنة ، حتى انك ترى هذا الماء اذا خلى يغير لون النيل وطعمه ، وأكثر ما تحسن هذه الحالة فى البحيرة التى تكون فى أيام القيظ منحطا ونهبا وصاعدا الى ما يلى الفيوم ، وهذه حالة تزيد فى رداءة أهل المدينة (يعنى مصر) ولا سيما اذا هبت ريح الجنوب ، فان الفيوم فى جنوب مدينة مصر على مسافة بعيدة من أرضها .

وقال القاضى السعيد أبو الحسن على ابن القاضى المؤتمن بقية الدولة أبى عمرو عثمان ابن يوسف القرشى المخزومى فى كتاب « المنهاج فى علم الخراج » : وهذه الأعمال من أحسن الأشياء تدبيرا ، وأوسعها أرضا وأجودها قطرا ، وانما غلب على بعضها الخراب لخلوها من أهلها ، واستيلاء الرمل على كثير من أرضها .

وقد وقفت على دستور عمله أبو اسحاق ابراهيم بن جعفر بن الحسن بن اسحاق ،

الذكر خلجان الأعمال الدثورة وما عليها من الضياع . وقد أوردته ههنا وان كان منه ما قد دثر ، ومنه ما تغيرت أسماؤه ، ومنه ما جهلت مواضعه بالدثور ... ولكن أوردته ليعلم منه حال العامر الآن ، ويستقصى به من له رغبة فى عمارة ما يقدر عليه من العامر . وفى ايراده مصلحة ليعلم شرب كل موضع . ونسخته :

« دستور » على ما أوضحه الكشف من حال الخلج الأمهات بمدينة الفيوم ، وما لها من المواضع ، وشرب كل ضيعة منها ، ورسمها فى السد والفتح والتعديل والتحرير وزمان ذلك ... عمل فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة .

نبتدىء ، بعون الله وحسن توفيقه ، بذكر حال البحر الأعظم الذى منه هذه الخلج ، فنذكر مادته التى صلاحه بصلاحها .

خليج الفيوم الأعظم : يصل الماء الى هذا الخليج من البحر الصغير المعروف بالمنهى ذى الحجر اليوسفى ، وفوقه هذا البحر عند الجبل المعروف بكرسى الساحرة من أعمال الأشمونين ، ومنه شرب بعض الضياع الأشمونية والقيسية والاهناسية ، وعلى جانبيه ضياع كثيرة شربها منه وشرب كروم ما له كروم منها .

قال : « الحجر اليوسفى » : والحجر اليوسفى جدار مبنى بالطوب والجير المعروف عند المتقدمين بالصاروج ، وهو الجير والزيت . وبناؤه من جهة الشمال الى الجنوب ، ويتصل من نهايته من الجنوب بجدار بناؤه مثل بنائه ، على استقامة من الغرب الى الشرق ، ويحصره * ميلان منه فى نهايته ، وطوله مائتا ذراع بذراع العمل . ويتصل بهذا الجدار ، على طول ثمانين ذراعا منه من جهة الغرب ، نهاية الجدار الأعظم من الجنوب .

وفائدة بناء الجدار الأعظم ، رد الماء اذا انتهى الى حدود اثنتى عشرة ذراعا الى مدينة الفيوم . وطول ما يتصل منه الجدار الذى من جهة الغرب الى الشرق ، ثم يتصل بالميل ، ثم ينخفض من حدود هذا الميل الى ميل مثله يقابله من جهة الشمال ، خمسون ذراعا . وبعد ما بين هذين الميلين — وهو المنخفض — مائة ذراع وعشرة أذرع . ومقدار المنخفض منه أربعة أذرع .

وهذا المنخفض هو الذى يسد بجسر من حشيش يسمى لبشا . وعرض ما يجرى عليه الماء — وهو موضع اللبش وما قابله الى جهة الشرق — أربعون ذراعا ، وعليه مسك اللبش الثانى .

ويتصل بهذا الميل الى جهة الشمال ما طوله ثلثمائة واثنان وسبعون ذراعا ، ثم يتصل به — على نهاية هذا الطول — جدار يمر على استقامته الى الحجر مبنى بالحجر ، طوله على استقامته الى جهة الشرق مائة ذراع ، ثم ينخفض أيضا من حيث يتصل بهذا الجدار ما طوله عشرون ذراعا ، وقدر المنخفض منه ذراعان . وهذا المنخفض أيضا يسد بجسر حشيش يسمى اللكيد .

وطول بقية الجدار الى نهايته من جهة الشمال مائة وستة وثلاثون ذراعا . وقبالة هذا

(*) ص۲٤٧ جـ۱ ، ط . بولاق .

بطوله منه مبلط ، وفيه قناطر مبنية بالحجر ، كانت قديما ترد الماء الى الفيوم من الخليج القديم الذى عنده السدود اليوم ، وكان عليها أبواب ، وعدتها عشر قناطر قديمة . فيكون جميع ذرع الجدار الأعظم من نهايته سبعمائة واثنين وسبعين ذراعا بذراع العمل ، دون الجدار المعترض من الغرب الى الشرق

ويمر هذا الجدار الأعظم من كلتا جهتيه جميعا حتى يتصل بالجبل ، فتوجد آثاره فى الفيط مرورا على غير استقامة ، وعرضه مختلف . وكلما انتهى الى سطحه قل عرضه . وعرض أعلاه مع الظاهر من أسفله جميعا ستة عشر ذراعا . وفيه منافس يخرج منها الماء ، وهى برابخ زجاج ملونة يشبه المينا وأزرق وسليمانى .

وهو من العجائب الحسنة فى عظم البناء واتقانه ، لأنه من الأبنية اللاحقة بمنارة الاسكندرية وبناء الأهرام . فمن معجزته أن النيل يمر عليه من عهد يوسف عليه السلام الى هذه الغاية وما تغير عن مستقره .

ويدخل الماء من هذا البحر ، فى هذا الزمان ، الى مدينة الفيوم من خليجها الأعظم ، ما بين أرض الضيعتين المعروفتين بدمونة واللاهون ، ومنه شرب هاتين الضيعتين وغيرهما سيحا ، ومنه شرب كرومها بالدواليب على أعناق البقر . وان قصر النيل عن الصعود الى سوادها ، سقيت منه على أعناق البقر وزرعت .

وينتهى فى الخليج الأعظم الى خليج يعرف بخليج الأواسى ، وليس عليه رسم فى سد ولا فتح ولا تعديل .

وينتهى الى الضيعة المعروفة ببياض ، فيملأ بركها وغيرها من البرك وللبرك مقاسم يصل الى كل مقسم منها لغايته ومقدار شرب ما عليه .

وينتهى الى الضيعة المعروفة بالأوسية الكبرى ، فمنه شربها من مقسمين لها ، وبرسمها باب ، ومنه يشرب نخلها وشجرها ، وعلى هذا الحد طاحونة تعمل بالماء .

ثم ينتهى الى ثلاثة مقاسم آخرها الضيعة المعروفة بمرطينة : منها مقسم لها ، ومقسم لقبالات عدة ، والمقسم الثالث يسقى أحد أحياء النخل . وبهذا الحى سواق وبساتين قد خربت ، وجميز دائر به . وكان بها بيوت فى أقنية النخل .

ثم ينتهى الى حى ثان على صفة الأول . ثم ينتهى الى الضيعة المعروفة بالجوبة فيملأ بركها . وينتهى الى ثلاثة مقاسم فى صف ، وفوقها خليج معطل ، ويشرب من هذه المقاسم عدة ضياع . ثم ينتهى الماء من هذا الخليج الى البطس ، وهو نهايته .

وعلى الخليج الأعظم بعد هذا أباليز ، شربها منه من أفواه لها سيحا . فاذا نضب ماء النيل نصب على أفواهها ، برسم صيد السمك ، شباك .

ثم ينتهى الخليج الأعظم ، على يمنة من يريد الفيوم ، الى خليج يعرف « بخليج سمسطوس » منه شرب سمسطوس وغيرها ، وأباليز كثيرة تجاوز الصحراء من المشرق منه ومن قبليه ، وهى ما بين هذا الخليج وخليج الأواسى .

ثم ينتهى الخليج الأعظم أيضا الى « خليج ذهالة » ، ومنه شرب عدة ضياع ، وعليه يزرع الأرز وغيره ، ثم ينتهى الخليج الأعظم الى ثلاثة خلج .

ثم ينتهى الى « خليج بينطاوة » . وبهذا الخليج ثلاثة أبواب قديمة يوسفية ، سعة كل باب منها ذراعان بذراع العمل ، ويمر فيه الماء . وينتهى أيضا الى بابين يوسفين .

ورسم هذا الخليج : أن يسد هو وسائر المطاطبة على استقبال عشر تخلو من هاتور الى سلخه ، ويفتح على استقبال كيهك الى عشر تبقى منه ، ثم يسد الى عشر تخلو من طوبة ، ثم يفتح ليلة الغطاس الى سلخ طوبة ، ثم يسد على استقبال أمشير الى عشرة تبقى منه ، ثم يفتح لعشر تبقى منه الى عشر تخلو من برمهات ، ثم يفتح الى عشر تخلو من برمودة ، ثم يعدل فى موضعه . وقد خرب ما على بحريه من الضياع ، ويشرب منه عدة ضياع . ولهذا الخليج مغيض معسول تحت الجبل بقبو يخرج منه الماء فى زمان تكاثره .

ثم ينتهى الخليج الأعظم الى «خليج دله» ، وهو من المطاطبة . وحكمه فى السد والفتح والتعديل والتحسين كما تقدم . وهو * على يسرة من يريد المدينة ، وله بابان يوسفيان مبنيان بالحجر سعة كل منهما ذراعان وربع ، ومنه شرب عدة ضياع أمهات وغيرها ، وفى وسطه مغيض لزمان الاستجار يفتح فيغيض الماء الى البركة العظمى ، وفى أقصى هذه البركة أيضا مغيض له أبواب ، يقال انها كانت من حديد ، فاذا زادت فتحت الأبواب فيمضى الماء الى الغرب ، وقيل انه يمر الى سنترية

وكان على هذين الخليجين بساتين وكروم كثيرة تشرب على أعناق البقر .

وينتهى الخليج الأعظم الى « خليج المجنونة » ، سمى بذلك لعظم ما يصير اليه من الماء . وحكمه فى السد وغيره على ما ذكر . ومنه شرب ضياع كثيرة ، وبه تدار طواحين ، واليه تصير مصالات مياه الضياع القبلية ، والى بركة فى أقصى مدينة الفيوم تجاور الجبل المعروف بأبى قطران ، ويلقى ما ينصب من مصالات الضياع البحرية فيها وهى البركة العظمى .

ثم ينتهى الخليج الأعظم الى « خليج تلاله » ، وله بابان يوسفيان متينان مبنيان بالحجر ، سعة كل منهما ذراعان وثلثا ذراع ، وليس فيه رسم سد ولا فتح ولا تعديل ولا تحييز ، الا فى تقصير النيل فانه يحيز بحشيش ، ومنه شرب طوائف المدينة وعدة أراض وضياع ، وفيه فوهة خليج البطش الذى اليه مفاضل المياه ، وفيه أبواب تسد حتى يصعد الماء الى أراض مرتفعة بقدر معلوم . واذا حدث بالسد حدث يفسده ، كانت النفقة عليه من الضياع التى تشرب منه بقدر استحقاقها .

ثم ينتهى الخليج الأعظم الى خلجان من جانبيه فى قبليه وبحريه .

ثم ينتهى الى « خليج سموة » ، وهو على يمنة من يريد مدينة الفيوم ، وهو من المطاطبة ، وله بابان يوسفيان سعة كل منهما

(*) ص٢٤٨ جـ١ ، ط.بولاق .

ذراعان ونصف ، وحكمه حكم ما تقدم ، ومنه شرب طوائف كثيرة وعدة ضياع .

وينتهى الى أربعة مقاسم بأبواب ، والى خلجان تسقى ضياعا كثيرة ، منها « خليج تبدود » فيه عين حلوة ، فاذا سد هذا الخليج سقى منها أراضى ما جاورها . وظهرت هذه العين لما عدم الماء ، وحفر هذا الموضع ليعمل بئرا ، فظهرت منه هذه العين فاكتفى بها .

ثم ينتهى الخليج الأعظم الى خلجان بها شاذروانات ومقاسم قديمة يوسفية . وبها أبواب يوسفية بها رسوم فى السد والفتح يشرب منها ضياع كثيرة .

ورسم الترع : أن يسد جميعها على استقبال عشرة أيام تخلو من هاتور الى سلخه ، وتفتح على استقبال كيهك مدة عشرين يوما ، وتسد لعشر تبقى منه الى الغطاس ، وتفتح يوم الغطاس الى سلخ طوبة ، وتسد على استقبال أمشير عشرين يوما ، ثم تفتح لعشر تبقى منه الى عشرين من برمهات ، وتفتح عشرة أيام تخلو من برمودة ، ثم تعدل فيهتم بعمارتها . ولهم فى التعديل قسم تعطى منه كل ناحية شربها بالعدل ، بقوانين معروفة عندهم .

وقد اختصرت أسماء الضياع التى ذكرها لخراب أكثرها الآن . والله أعلم .

ذكر فتح الفيوم ومبلغ خراجها وما فيها من المرافق

قال ابن عبد الحكم : فلما تم الفتح للمسلمين ، بعث عمرو بن العاص جرائد الخيل الى القرى التى حولها ، فأقامت الفيوم سنة لا يعلم المسلمون بمكانها ، حتى أتاهم رجل فذكرها لهم .

فأرسلَ عمرو معه ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفى . فلما سلكوا فى المجابة لم يروا شيئا ، فهموا بالانصراف ، فقالوا : لا تعجلوا ، سيروا ، فان كان قد كذب فما أقدركم على ما أردتم .

فلم يسيروا الا قليلا حتى طلع لهم سواد الفيوم ، فهجموا عليها ، فلم يكن عندهم قتال وألقوا بأيديهم .

قال : ويقال بل خرج مالك بن ناعمة الصدفى ، وهو صاحب الأشقر ، على فرسه ينفض المجابة ولا علم له بما خلفها من الفيوم ، فلما رأى سوادها رجع الى عمرو فأخبره بذلك .

قال : ويقال بل بعث عمرو بن العاص قيس ابن الحارث الى الصعيد ، فسار حتى أتى القيس فنزل بها ، وبه سميت القيس .

فراث على عمرو خبره ، فقال ربيعة بن حبيش : كفيت . فركب فرسه فأجاز عليه البحر — وكانت أنثى — فأتاه بالخبر . ويقال انه أجاز من ناحية الشرقية حتى انتهى الى الفيوم ، وكان يقال لفرسه الأعمى . والله أعلم .

وقال ابن الكندى فى كتاب « فضائل مصر » : ومنها كورة الفيوم ، وهى ثلثمائة وستون قرية دبرت على عدد أيام السنة لا تنقص عن الرى . فان قصر النيل فى سنة من السنين ، مار بلد مصر كل يوم قرية .

وليس فى الدنيا ما بنى بالوحى غير هذه الكورة ، ولا بالدنيا بلد أنفس منه ولا أخصب ولا أكثر خيرا ولا أغزر أنهارا . ولو قايسنا بأنهار الفيوم أنهار البصرة ودمشق ، لكان لنا بذلك الفضل .

ولقد عد جماعة من أهل العقل والمعرفة مرافق الفيوم وخيرها فاذا هى لا تحصى ، فتركوا ذلك وعدوا ما فيها من المباح — مما ليس عليه ملك لأحد من مسلم ولا معاهد يستعين به القوى والضعيف — فاذا هو فوق السبعين صنفا .

وقال ابن زولاق فى كتاب « الدلائل على أمراء مصر » للكندى : وعقدت لكافور الاخشيدى الفيوم فى هذه السنة (يعنى سنة ست وخمسين وثلثمائة) ستمائة ألف دينار ونيفا وعشرين ألف دينار .

وقال القاضى الفاضل * فى كتاب « متجددات الحوادث » ومن خطه نقلت : ان الفيوم بلغت فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة مبلغ مائة ألف واثنين وخمسين ألف دينار وسبعمائة وثلاثة دنانير .

وقال البكرى : والفيوم معروف هنالك ، يغل فى كل يوم ألفى مثقال ذهبا .

مدينة النحريرية

كانت أرضا مقطعة لعشرة من أجناد الحلقة من جملتهم شمس الدين سنقر السعدى ، فأخذ قطعة من أراضى زراعتها ، وجعلها اصطبلا لدوابه وخيله ، فتشكاه شركاؤه الى السلطان الملك المنصور قلاوون .

فسأله عن ذلك ، فقال : أريد أن أجعله جامعا تقام فيه الخطبة .

فأذن له السلطان فى ذلك .

فابتدأ عمارته فى أخريات سنة ثلاث وثمانين وستمائة حتى كمل فى سنة خمس وثمانين .

فعمل له السلطان منبرا ، وأقيمت به الجمعة ، واستمرت الى يومنا هذا .

وأنشأ السعدى حوانيت حول الجامع ، فلم تزل بيده حتى مات . وورثها ابناه عز الدين خليل وركن الدين عمر ، فباعاها بعد مدة للأمير شيخو العمرى ، فجعلها مما وقفه على الخانكاه والجامع اللذين أنشأهما بخط صليبة جامع ابن طولون خارج القاهرة .

فعمرت هذه الأرض بعمارة الجامع ، وسكنها الناس ، فصارت مدينة من مدائن أراضى مصر بحيث بلغت أنوال القزازين فيها ... ...

وترقى سنقر السعدى فى الخدم حتى صار من الأمراء ، وولى نقيب المماليك السلطانية ، وأنشأ المدرسة السعدية خارج القاهرة قريبا من حدرة البقر ، فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل ، فى سنة خمس عشرة وسبعمائة ، وبنى أيضا رباطا للنساء . وكان شديد الرغبة فى العمائر ، محبا للزراعة ، كثير المال ظاهر الغنى .

ثم انه أخرج الى طرابلس ، وبها مات سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

(*) ص٢٤٩ جـ١ ، ط.بولاق .

ذكر تاريخ الخليقة

اعلم أنه لما كانت الحوادث لا بد من ضبطها ، وكان لا يضبط ما بين العصور وبين أزمنة الحوادث الا بالتاريخ المستعمل العام الذى لا ينكره الجماعة أو أكثرها ، وذلك ان التاريخ المجمع عليه لا يكون الا من حادث عظيم يملأ ذكره الأسماع ...

وكانت زيادة ماء النيل ونقصانه انما يعتبرهما أهل مصر ويحسبون أيامهما بأشهر القبط ، وكذلك خراج أراضى مصر انما يحسبون أوقاته بذلك ، وهكذا زراعات الأراضى انما يعتمدون فى أوقاتها أيام الأشهر القبطية عادة ، وسلكوا فيها سبيل أسلافهم ، واقتفوا مناهج قدمائهم — وما برح الناس من قديم الدهر أسراء العوايد — احتيج فى هذا الكتاب الى ايراد جملة من تاريخ الخليقة لتعين موقع تاريخ القبط منها ، فان بذكر ذلك يتم الغرض ...

فأقول : التاريخ عبارة عن يوم ينسب اليه ما يأتى بعده . ويقال أيضا التاريخ عبارة عن مدة معلومة ، تعد من أول زمن مفروض ، لتعرف بها الأوقات المحدودة . ولا غنى عن التاريخ فى جميع الأحوال الدنيوية والأمور الدينية . ولكل أمة من أمم البشر تاريخ تحتاج اليه فى معاملاتها وفى معرفة أزمنتها ، تنفرد به دون غيرها من بقية الأمم .

وأول الأوائل القديمة وأشهرها هو كون مبدأ البشر . ولأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس فى كيفيته وسياقة التاريخ منه خلاف لا يجوز مثله فى التواريخ . وكل ما تتعلق معرفته ببدء الخلق وأحوال القرون السالفة ، فانه مختلط بتزويرات وأساطير ، لبعد العهد وعجز المعتنى به عن حفظه .

وقد قال الله سبحانه وتعالى : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، لا يعلمهم الا الله » . فالأولى ألا يقبل من ذلك الا ما يشهد به كتاب أنزل من عند الله يعتمد على صحته لم يرد فيه نسخ ولا طرقه تبديل ، أو خبر ينقله الثقات .

واذا نظرنا فى التاريخ وجدنا فيه بين الأمم خلافا كثيرا . وسأتلو عليك من ذلك ما لا أظنك تجده مجموعا فى كتاب ، وأقدم بين يدى هذا القول ما قيل فى مدة بقاء الدنيا .

ذكر ما قيل فى مدة أيام الدنيا ماضيها وباقيها

اعلم أن الناس قد اختلفوا قديما وحديثا فى هذه المسألة ، فقال قوم من القدماء الأول بالأكوار والأدوار ، وهم الدهرية ، وهؤلاء هم القائلون بعود العوالم كلها على ما كانت عليه بعد ألوف من السنين معدودة .

وهم فى ذلك غالطون من جهة طول أدوار النجوم . وذلك أنهم وجدوا قوما من الهند والفرس قد عملوا أدوارا للنجوم ليصححوا بها فى كل وقت مواضع الكواكب ، فظنوا أن العدد المشترك لجميعها هو عدد سنى العالم أو أيام العالم ، وأنه كلما مضى * ذلك العدد عادت الأشياء الى حالها الأول . وقد وقع فى

(*) ص٢٥٠ جـ١ ، ط.بولاق .

هذا الظن ناس كثير مثل أبى معشر وغيره ، وتبع هؤلاء خلق .

وأنت تقف على فساد هذا الظن ان كنت تخبر من العدد شيئا ما . وذلك أنك اذا طلبت عددا مشتركا بعده أعداد معلومة ، فانك تقدر أن تضع لكل زيج أياما معلومة كالذى وضعه الهند والفرس . فهؤلاء حيث جهلوا صورة الحال فى هذه الأدوار ، ظنوا أنها عدد أيام العالم ... فتفطن ترشد .

وعند هؤلاء أن الدور هو أخذ الكواكب من نقطة وهى سائرة حتى تعود الى تلك النقطة ، وأن الكور هو استئناف الكواكب فى أدوارها سيرا آخر الى أن تعود الى مواضعها مرة بعد أخرى .

وزعم أهل هذه المقالة أن الأدوار منحصرة فى أنواع خمسة :

الأول أدوار الكواكب السيارة فى أفلاك تداويرها .

الثانى أدوار مراكز أفلاك التدوير فى أفلاكها الحاملة .

الثالث أودار أفلاكها الحالة فى فلك البروج .

الرابع أدوار الكواكب الثابتة فى فلك البروج .

الخامس أدوار الفلك المحيط بالكل حول الأركان الأربعة .

وهذه الأدوار المذكورة : منها ما يكون فى كل زمان طويل مرة واحدة ، ومنها ما يكون فى كل زمان قصير مرة واحدة . فأقصر هذه الأدوار أدوار الفلك المحيط بالكل حول الأركان الأربعة ، فانه يدور فى كل أربع وعشرين ساعة دورة واحدة . وباقى الأدوار يكون فى أزمنة أخر أطول من هذه ، لا حاجة بنا فى هذه المسألة الى ذكرها .

قالوا : وأدوار الكواكب الثابتة فى فلك البروج تكون فى كل ستة وثلاثين ألف سنة شمسية مرة واحدة ، وحينئذ تنتقل أوجات الكواكب وجوزهراتها الى مواضع حضيضها ونوبهراتها وبالعكس ، فيوجب ذلك عندهم عود العوالم كلها الى ما كانت عليه من الأحوال فى الزمان والمكان والأشخاص والأوضاع ، بحيث لا يتخالف ذرة واحدة . وهم مع ذلك مختلفون فى كمية ما مضى من أيام العالم وما بقى .

فقال البراهمة من الهند فى ذلك قولا غريبا ، وهو ما حكاه عنهم الأستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب « القانون المسعودى » ، أنهم يسمون الطبيعة باسم ملك يقال له براهيم ، ويزعمون أنه محدث محصور الموت بين مبدأ وانتهاء ، عمره كعمرها مائة سنة برهموية ، كل سنة منها ثلثمائة وستون يوما ، زمان النهار منها بقدر مدة دوران الأفلاك والكواكب لاثارة الكون والفساد .

وهذه المدة بقدر ما بين كل اجتماعين للكواكب السبعة فى أول برج الحمل بأوجاتها وجوزهراتها ، ومقدارها أربعة آلاف ألف سنة وثلثمائة ألف ألف سنة وعشرون ألف ألف سنة شمسية ، وهو زمان اثنى عشر ألف

دورة للكواكب الثابتة ، على أن زمان الدورة الواحدة ثلثمائة ألف سنة وستون ألف سنة شمسية .

واسم هذا النهار بلغتهم « الكلية » ، وزمان الليل عندهم كزمان النهار ، وفى الليل تسكن المتحركات ، وتستريح الطبيعة من اثارة الكون والفساد ، ثم يثور فى مبدأ اليوم الثانى بالحركة والتكون ، فيكون زمان اليوم بليلته من سنى الناس ثمانية آلاف ألف سنة وستمائة ألف ألف سنة وأربعين ألف ألف سنة .

فاذا ضربنا ذلك فى ثلثمائة وستين ، تبلغ سنو أيام السنة البرهموية ثلاثة آلاف ألف ألف ألف سنة وعشرة آلاف ألف ألف سنة وأربعمائة ألف ألف سنة شمسية .

فاذا ضربناها فى مائة يبلغ عمر الملك الطبيعى البرهموى ، من سنى الناس ، ثلثمائة ألف ألف ألف ألف سنة وأحد عشر ألف ألف ألف سنة وأربعين ألف ألف سنة شمسية .

فاذا تمت هذه السنون بطل العالم عن الحركة والتكوين ما شاء الله ، ثم يستأنف من جديد على الوضع المذكور .

وقسموا زمان النهار المذكور الى تسع وعشرين قطعة ، وسموا كل أربع عشرة قطعة منها نوبا ، وسموا الخمس عشرة قطعة الباقية فصولا ، وجعلوا كل نوبة محصورة بين فصلين ، وكل فصل محصورا بين نوبتين ، وقدموا زمان الفصل على النوبة الى تمام المدة .

وزمان الفصل هو خمسا الدور ، والدور جزء من ألف جزء من المدة . فاذا قسمنا المدة على ألف ، تحصل زمان الدور أربعة آلاف ألف سنة وثلثمائة ألف سنة وعشرين ألف سنة ، وخمساه — أعنى زمان الفصل — ألف ألف سنة وسبعمائة ألف سنة وثمانية وعشرون ألف سنة .

وزمان النوبة عندهم أحد وسبعون دورا ، مقدارها من السنين ثلثمائة ألف ألف سنة وستة آلاف ألف سنة وسبعمائة ألف سنة وعشرون ألف سنة .

وقد قسموا الدور أيضا بأربع قطع : أولها أعظمها ، وهى مدة الفصل المذكور . وثانيها ثلاثة أرباع الفصل ، ومدتها ألف ألف سنة ومائتا ألف سنة وستة وتسعون ألف سنة . وثالثها نصف الفصل ، ومدته ثمانمائة ألف سنة وأربعة وستون ألف سنة . ورابعها ربع الفصل ، وهو عشر الدور المذكور ، ومدته أربعمائة ألف سنة واثنان وثلاثون ألف سنة .

ولكل واحد من هذه القطع الأربع اسم يعرف به ، فاسم القطعة الرابعة عندهم « كلكال » لأنهم يزعمون أنهم فى زمانها ، وأن الذى مضى من عمر الملك * الطبيعى — على زعم حكيمهم الأعظم المسمى عندهم برهمكوت — ثمان سنين وخمسة أشهر وأربعة أيام .

ونحن الآن فى نهار اليوم الخامس من الشهر السادس من السنة التاسعة ، ومضى من النهار الخامس ست نوب وسبعة فصول وسبعة وعشرون دورا من النوبة السابعة ،

(*) ص٢٥١ ج١ ، ط. بولاق .

وثلاث قطع من الدور المذكور — أعنى تسعة أعشاره — ومضى من القطعة الرابعة — أعنى من أول كلكال الى هلاك شككال عظيم ملوكهم ، الواقع فى آخر سنة ثمان وثمانين وثلثمائة للاسكندر — ثلاثة آلاف سنة ومائة سنة وتسع وسبعون سنة .

وقال : انما عرفنا هذا الزمان من علم الهى وقع الينا من عظماء أنبيائنا المتألهين برواياتهم جيلا بعد جيل على ممر الدهور والأزمان .

وزعموا أن فى مبدأ كل دور أو فصل أو قطعة أو نوبة تتجدد أزمنة العوالم وتنتقل من حال الى حال ، وأن الماضى من أول كلكال الى شككال ثلاثة آلاف ومائة وتسع وسبعون سنة .

والماضى من النهار المذكور ، الى آخر سنة ثمان وثمانين وثلثمائة للاسكندر ، ألف ألف ألف سنة وتسعمائة ألف ألف سنة واثنان وسبعون ألف ألف سنة وتسعمائة ألف سنة وسبعة وأربعون ألف سنة ومائة سنة وسبع وسبعون سنة .

فيكون الماضى من عمر الملك الطبيعى الى آخر هذه السنة : ستة وعشرين ألف ألف ألف ألف سنة وثلثمائة ألف ألف ألف سنة وخمسة عشر ألف ألف ألف سنة وسبعمائة ألف ألف سنة واثنين وثلاثين ألف ألف سنة وتسعمائة ألف سنة وسبعة وأربعين ألف سنة ومائة سنة وتسعا وسبعين سنة .

فاذا زدنا عليها الباقى من تاريخ الاسكندر ، بعد نقصان السنين المذكورة منه ، تحصل الماضى من عمر الملك بالوقت المفروض ... والله أعلم بحقيقة ذلك ■

وقال الحظا والأيعز فى ذلك قولا أعجب من قول الهند وأغرب ، على ما نقلته من زيج أدوار الأنوار ، وقد لخص هذا القول من كتب أهل الصين ، وذلك أنهم جعلوا مبادى سنيهم مبنية على ثلاثة أدوار :

الأول يعرف بالعشر ، مدته عشر سنين ، لكل سنة منها اسم يعرف به .

والثانى يعرف بالدور الاثنى عشرى ، وهو أشهرها خصوصا فى بلاد الترك ، يسمون سنيه بأسماء حيوانات بلغتى الحظا والأيعز .

والثالث مركب من الدورين جميعا ، ومدته ستون سنة ، وبه يؤرخون سنى العالم وأيامه ، ويقوم عندهم مقام أيام الأسبوع عند العرب وغيرها .

واسم كل سنة منها مركب من اسميها فى الدورين جميعا ، وكذلك كل يوم من أيام السنة .

ولهذا الدور ثلاثة أسماء وهى : شانكون ، وجونكون ، وخاون . ويصير بحسبها مرة أعظم ، ومرة أوسط ، ومرة أصغر . فيقال : دور شانكون الأعظم ، ودور جونكون الأوسط ، ودور خاون الأصغر .

وبهذه الأدوار يعتبرون سنى العالم وأيامه ، وجملتها مائة وثمانون سنة ، ثم تدور الأدوار الثلاثة عليها مرة أخرى .

واتفق وقوع مبدأ الدور الأعظم فى الشهر الأول من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ليزدجر ، واسمها بلغتهم « كادره » وبلغة العرب سنة الفار ■

وكان دخول أول فرودين هذه السنة من سنى العرب يوم الخميس ، وهو بلغتهم سن جن ، ومن هذا اليوم وعلى هذا التاريخ تترتب مبادى سنيهم وأيامهم فى الماضى والمستقبل .

وشهورهم اثنا عشر شهرا ، لكل شهر منها اسم بلغة الحظا وبلغة الأيعز ، لا حاجة بنا هنا الى ذكرها .

ويقسمون اليوم الأول بليلته اثنى عشر قسما ، كل قسم منها يقال له جاغ ، وكل جاغ ثمانية أقسام ، كل قسم منها يقال له كه .

ويقسمون اليوم بليلته أيضا عشرة آلاف فنك ، وكل فنك منها مائة مياو ، فيصيب كل جاغ ثمانمائة وثلاثة وثلاثين فنكا وثلث فنك ، وكل كه مائة وأربعة أفناك وسدس فنك .

وينسبون كل جاغ الى صورة من الصور الاثنتى عشرة . ومبدأ اليوم بليلته عندهم من نصف الليل . وفى منتصف جاغ كسكو يتغير أول النهار وآخره بحسب الطول والقصر ، من قبل أن كل جاغ ساعتان مستويتان . وفى منتصف النهار ينتصف جاغ يوند .

وهم يكبسون فى كل ثلاث سنين قمرية شهرا واحدا يسمونه سيون ، ليحفظوا بالكبس مبادى سنى الشمس فى زمان واحد من سنة أخرى ، ويكبسون أحد عشر شهرا فى كل ثلاثين سنة قمرية . ولا يقع عندهم شهر الكبس فى موضع واحد بعينه من السنة ، بل يقع فى كل موضع منها .

وكل شهر عدة أيامه اما ثلاثون يوما أو تسعة وعشرون يوما ، ولا يمكن عندهم أكثر من ثلاثة أشهر متوالية تامة ، ولا أكثر من شهرين ناقصين .

ومبادى شهورهم يوم الاجتماع ، ان وقع اجتماع النيرين نهارا ، فان وقع الاجتماع ليلا كان أول الشهر فى اليوم الذى بعد الاجتماع .

وزمان السنة الشمسية — بحسب أرصادهم — ثلثمائة وخمسة وستون يوما ، وألفان وأربعمائة وستة وثلاثة فنكا .

والسنة أربعة وعشرون قسما : كل قسم منها خمسة عشر يوما ، وألفان ومائة وأربعة وثمانون فنكا وخمسة أسداس فنك .

ولكل قسم من هذه الأقسام اسم ، وكل ستة أقسام منها فصل من فصول السنة . فاسم أول قسم من فصولها الحن ، وأوله أبدا حيث تكون الشمس فى ست عشرة درجة من * برج الدلو ، وهكذا أوائل كل فصل انما تكون فى حدود أواسط البروج الثابتة .

وكان بُعد مدخل الحن ، من أول الدور الستينى فى السنة المذكورة : أحد عشر يوما ، وسبعة آلاف وستمائة وستين فنكا .

واسم مدخله بى خاينى ، وكان بعد دخول السنة الفارسية المذكورة بنحو عشرين يوما ، ويبعد مدخله عن أول الدور فى كل سنة بقدر فضل سنة الشمس على سنة الدور ، وهو خمسة أيام وأربعة وعشرين فنكا . فان زادت الأيام على ستين يوما ، كان الباقى بُعد الحن فى تلك السنة عن أول الدور الستينى .

(*) ص٢٥٢ جـ١ ، ط.بولاق ■

ويتفاضل البعد بينهما فى كل سنة بقدر فضل سنة الشمس على سنة القمر التى هى ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما ، وثلاثة آلاف وستمائة واثنان وسبعون فنكا . ومقدار الفضل بينهما عشرة أيام ، وثمانية آلاف وسبعمائة وأربعة وستون فنكا . فان زادت الأيام على زمان الشهر القمرى الأوسط ، الذى هو تسعة وعشرون يوما وخمسة آلاف وثمانمائة وستة أفناك ، نقص منها هذا العدد واحتسب بالباقى .

فاذا عرفت هذا من حسابهم ، فاعلم أن عمر العالم عندهم ثلثمائة ألف ون وستون ألف ون ، كل ون عشرة آلاف سنة ... مضى من ذلك الى أول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ليزدجرد — وهى دور شانكون الأعظم — ثمانية آلاف ون وثمانمائة وثلاثة وستون ونا وتسعة آلاف وسبعمائة وأربعون سنة .

فتكون المدة العظمى على هذا : ثلاثة آلاف ألف ألف ألف سنة وستمائة ألف ألف ألف سنة (بهذه الصورة ٣٦٠٠٠٠٠٠٠٠) والماضى منها الى السنة المذكورة : ثمانية وثمانون ألف ألف سنة وستمائة ألف سنة وتسعة وثلاثون ألف سنة وسبعمائة سنة وأربعون سنة (بهذه الصورة ٨٨٦٣٩٧٤٠) .

ولله غيب السموات والأرض ، واليه يرجع الأمر كله .

وانما ذكرت طرفا من حساب سنى البراهمة ، وطرفا من حساب سنى الخطا والأيغر المستخرج من حساب الصين ، ليعلم المنصف أن ذلك لم يضعه حكماؤهم عبثا ... ولأمر ما جدع قصير أنفه .

وكم من جاهل بالتعاليم ، اذا سمع أقوالهم فى مدة سنى العالم ، يبادر الى تكذيبهم من غير علم بدليلهم عليه . وطريق الحق أن يتوقف فيما لا يعلمه حتى يتبين أحد طرفيه فيرجحه على الآخر ... والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقال أصحاب السند هند (ومعناه الدهر الداهر) : ان الكواكب وأوجاتها وجوزهراتها تجتمع كلها فى أول برج الحمل ، عند كل أربعة آلاف ألف ألف سنة وثلثمائة ألف ألف سنة وعشرين ألف ألف سنة شمسية ، وهذه مدة سنى العالم .

قالوا : واذا جمعت برأس الحمل فسدت المكونات الثلاث التى يحويها عالم الكون والفساد ، المعبر عنه بالحياة الدنيا ، وهذه المكونات هى المعدن والنبات والحيوان ، فاذا فسدت بقى العالم السفلى خرابا دهرا طويلا الى أن تتفرق الكواكب والأوجات والجوزهرات فى بروج الفلك ، فاذا تفرقت فيها بدأ الكون بعد الفساد ، فعادت أحوال العالم السفلى الى الأمر الأول ، وهذا يكون عودا بعد بدء الى غير نهاية .

قالوا : ولكل واحد من الكواكب والأوجات والجوزهرات عدة أدوار فى هذه المدة ، يدل كل دور منها على شىء من المكونات ، كما هو مذكور فى كتبهم ، مما لا حاجة بنا هنا الى ذكره . وهذا القول منتزع من قول البراهمة الذى تقدم ذكره .

وقال أصحاب الهازروان من قدماء الهند : ان كل ثلثمائة ألف سنة وستين ألف سنة شمسية يهلك العالم بأسره ، ويبقى مثل هذه المدة ، ثم يعود بعينه ويعقبه البدل ... وهكذا أبدا يكون الحال لا الى نهاية .

قالوا : ومضى من أيام العالم المذكورة الى طوفان نوح عليه السلام مائة ألف وثمانون ألف سنة شمسية ، ومضى من الطوفان الى سنة الهجرة المحمدية ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاث وعشرون سنة وأربعة أشهر وأيام ، وبقى من سنى العالم حتى يبتدىء ويفنى مائة ألف وبضع وسبعون ألف سنة شمسية ، أولها تاريخ الهجرة الذى يؤرخ به أهل الاسلام .

وقال أصحاب الأزجهير : مدة العالم ، التى تجتمع فيها الكواكب برأس الحمل هى وأوجاتها وجوزهراتها ، جزء من ألف جزء من مدة السند هند ... وهذا أيضا منتزع من قول البراهمة .

وقال أبو معشر وابن بوبخت : ان بعض الفرس يرى أن عمر الدنيا اثنا عشر ألف سنة بعدة البروج ، لكل برج ألف سنة .

فكان ابتداء أمر الدنيا فى أول ألف الحمل ، لأن الحمل والثور والجوزاء تسمى أشرف الشرف ، وينسب الى الحمل الفصل ، وفيها تكون الشمس فى شرفها وعلوها وطول نهارها ، ولذلك الدنيا كانت الى ثلاثة آلاف سنة علوية روحانية طاهرة .

ولأن السرطان والأسد والسنبلة منتقصة ، فان الشمس تنحط من علوها فى أول دقيقة من السرطان ، وكان قدر الدنيا وأبنائها منحطا فى الثلاثة آلاف الثانية .

ولأن الميزان أهبط الهبوط وبئر الآبار وضد البرج الذى فيه شرف الشمس ، دل على أنه أصابت الدنيا واكتسب أهلها المعصية ، والميزان والعقرب والقوس اذا نزلتها الشمس لم تزدد الا انحطاطا والأيام الا نقصانا * فلذلك دلت على البلايا والضيق والشدة والشر .

وحيث تبلغ الآلاف الى أول الجدى الذى فيه أول ارتفاع الشمس واشرافها على شرفها ، وفيه تزداد الأيام طولا ، والدلو والحوت اللذان تزداد الشمس فيهما صعودا حتى تصل لشرفها ، فيدل على ظهور الخير وضعف الشر ، وثبات الدين والعقل ، والعمل بالحق والعدل ، ومعرفة فضل العلم والأدب فى تلك الثلاثة الآلاف سنة .

وما يكون فى ذلك فعلى قدر صاحب الألف والمائة والعشرة ، وعلى حسب اتفاق الكواكب فى أول سلطان صاحب الألف . فلا يزال ذلك فى زيادة حتى يعود أمر الدنيا فى آخرها الى مثل ما كان عليه ابتداؤها وهى فى ألف الحمل .

وكلما تقارب آخر كل ألف من هذه الألوف ، اشتد الزمان وكثرت البلايا ، لأن أواخر البرج فى حدود النحوس ، وكذلك فى آخر المئين والعشرات ... فعلى هذا الانقضاء للدنيا اذا كان الزمان يعود الى الحمل كما بدأ أول مرة .

(*) ص٢٥٢ جـ١ ، ط.بولاق

وزعموا أن ابتداء الخلق بالتحرك ، كان والشمس فى ابتداء المسير : فدار الفلك ، وجرت المياه ، وهبت الرياح ، واتقدت النيران ، وتحرك سائر الخلائق بما هم عليه من خير وشر .

والطالع تلك الساعة تسع عشرة درجة من برج السرطان وفيه المشترى . وفى البيت الرابع الذى هو بيت العافية ، وهو برج الميزان ، زحل . وكان الذنب فى القوس ، والمريخ والجدى والزهرة وعطارد فى الحوت ، ووسط السماء برج الحمل ، وفى أول دقيقة منه الشمس ، وكان القمر فى الثور وفى بيت السعادة ، وكان الرأس فى برج الجوزاء وهو بيت الشقاء .

وفى تلك الدقيقة من الساعة كان استقبال أمر الدنيا ، فكان خيرها وشرها وانحطاطها وارتفاعها وسائر ما فيها ، على قدر مجارى البروج والنجوم وولاية أصحاب الألوف وغير ذلك من أحوالها .

ولأن المشترى كان فى السرطان فى شرفه ، وزحل فى الميزان فى شرفه ، والمريخ والشمس والقمر فى اشرافها ، دلت على كائنة جليلة ، فكان نشو العالم .

وانبرز زحل فتولى الألف هو والميزان ، وكان المشترى فى الطالع مقبولا ، وكذلك جميع الكواكب كانت مقبولة ، فدل على نماء العالم وحسن نشوه .

وكان زحل هو المستولى والعالى فى الفلك والبرج طويل المطالع ، فطالت أعمار تلك الألف ، وقويت أبدانهم ، وكثرت مياههم .

وكون الميزان تحت الأرض ، دل على خفاء أول حدوث العالم ، وعلى أن أهل ذلك الزمان ينظرون فى عمارة الأرضين وتشييد البنيان .

ثم ولى الألف الثانى العقرب والمريخ ، وكان فى الطالع المريخ ، فدل على القتل فى ذلك الألف ، وسفك الدماء والسبى والظلم والجور والخوف والهم والأحزان والفساد وجور الملوك .

وولى الألف الثالث القوس ، وشاركه عطارد والزهرة بطلوعهما ، وكان الذنب فى القوس : فدل المشترى على النجدة فى تلك الألف والشدة والجلد والبأس والرياسة والعدل ، وتقسيم الملوك الدنيا وسفك الدماء بسبب ذلك . ودلت الزهرة على ظهور بيوت العبادة وعلى الأنبياء . ودل عطارد على ظهور العقل والأدب والكلام .

وكون البرج مجسدا ، دل على انقلاب الخير والشر فى تلك الألف مرات ، وعلى ظهور ألوان من آيات الحق والعدل والجور .

ثم ولى الألف الرابع الجدى — وكان فيه المريخ — فدل على ما كان فى تلك الألف من اهراق الدماء ، ودلت الشمس على ظهور الخير والعلم ومعرفة الله تعالى وعبادته وطاعته وطاعة أنبيائه ، والرغبة فى الدين مع الشجاعة والجلد .

وكون البرج منقلبا هو والبرج الذى فيه الشمس ، دل على انقلاب ذلك فى آخرها ، وظهور الشر والتفرق والقسم والقتل وسفك الدماء والغصب فى أصناف كثيرة ، وتحول ذلك وتلونه .

وكون الجدى منحطا ، دلّ على أنّه يظهر فى آخر تلك الألف الحسن الشبيه بصفة زحل والمريخ ، وانقطاع العظماء والحكماء وبوارهم ، وارتفاع السفلة ، وخراب العامر ، وعمارة الخراب ، وكثرة تلون الأشياء .

وولى الألف الخامس الدلو بطلوع القمر — وكان القمر فى الثور — فدل الدلو لبرودته وعسره على سقوط العظماء وعطلة أمرهم ، وارتفاع السفلة والعبيد ، ومحمدة البخلاء ، وظهور الجيش الأسود والسواد ، وعلى كثرة التفتيش والتفكر وظهور الكلام فى الأديان ومحبة الخصومات .

وكون القمر فى شرفه يدل على قهر الملوك ، وظهور ولاة الحق ، ونفاذ الخير ، وظهور بيوت العبادة ، والكف عن الدماء ، والراحة والسعادة فى العامة ، وثبات ما يكون من العدل والخير وطول المدة فيه .

وكون البرج مائيا يدل على كثرة الأمطار والغرق ، وآفة من البرد يهلك فيها الكثير .

ويلى الألف السادس برج الحوت بطلوع المشترى والرأس ، فيدل على المحمده فى الناس عامة ، وعلى الصلاح والخير والسرور وذهاب الشر وحسن العيش .

ولكل واحد من الكواكب ولاية ألف سنة ، فصار عطارد خاتما فى برج السنبلة .

وزعم ابن بوبخت أن من يوم سارت الشمس ، الى تمام خمس وعشرين من ملك أنو شروان ، ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبع وستون سنة ، وذلك فى ألف الجدى وتدبير الشمس . ومنه * الى اليوم الأول من الهجرة سبع وثمانون سنة شمسية وستة وعشرون يوما . ومن الهجرة الى قيام يزدجرد تسع سنين وثلثمائة وسبعة وثلاثون يوما ... فذلك الجميع الى أن قام يزدجرد ثلاثة آلاف وتسعمائة وست وستون سنة .

وقال أبو معشر : وزعم قوم من الفرس أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة بعدة الكواكب السبعة . وزعم أبو معشر أن عمر الدنيا ثلثمائة ألف سنة وستون ألف سنة ، وأن الطوفان كان فى النصف من ذلك على رأس مائة ألف وثمانين ألف سنة

وقال قوم : عمر الدنيا تسعة آلاف سنة ، لكل كوكب من الكواكب السبعة السيارة ألف سنة ، وللرأس ألف سنة ، وللذنب ألف سنة ... وشرها ألف الذنب . وان الأعمار طالت فى تدبير آلاف الثلاثة العلوية ، وقصرت فى آلاف الكواكب السفلية .

وقال قوم : عمر الدنيا تسعة عشر ألف سنة بعدد البروج الاثنى عشر لكل برج ألف سنة ، وبعدد الكواكب السبعة السيارة لكل كوكب ألف سنة .

وقال قوم : عمر الدنيا أحد وعشرون ألف سنة ، بزيادة ألف للرأس وألف للذنب .

وقال قوم : عمر الدنيا ثمانية وسبعون ألف سنة : فى تدبير برج الحمل اثنا عشر ألف سنة ، وفى تدبير برج الثور أحد عشر ألف سنة ، وفى تدبير الجوزاء عشرة آلاف سنة .

(*) ص ٤٠٤ ج ١ ، طبعة بولاق

فكانت الأعمار فى هذا الربع أطول ، والزمان أجد . ثم تدبير الربع الثانى مدة أربعة وعشرين ألف سنة ، فتكون الأعمار دون ما كانت فى الربع الأول . وتدبير الربع الثالث خمسة عشر ألف سنة . وتدبير الربع الرابع ستة آلاف سنة .

وقال قوم : كانت المدة من آدم الى الطوفان ألفين وثمانين سنة وأربعة أشهر وخمسة عشر يوما ، ومن الطوفان الى ابراهيم عليه السلام تسعمائة واثنتين وأربعين سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما ... فذلك ثلاثة آلاف ومائتان وثلاث وعشرون سنة .

وقال قوم من اليهود : عمر الدنيا سبعون ألف سنة منحصرة فى ألف جيل . ولفقوا ذلك من قول موسى عليه السلام فى صلاته « ان الجيل سبعون سنة » ، ومن قوله فى الزبور « ان ابراهيم عليه السلام قطع معه الله تعالى عهدا لبقاء البشر ألف جيل » ، فجاء من ذلك أن مدة الدنيا سبعون ألف سنة ، واستظهروا لقولهم هذا بما فى التوراة من قوله « واعلم أن الله الهك هو القادر المهيمن الحافظ العهد والفضل لمحبيه وحافظى وصاياه لألف جيل » .

وذكر أبو الحسن على بن الحسين المسعودى فى كتاب « أخبار الزمان » عن الأوائل أنهم قالوا : كان فى الأرض ثمان وعشرون أمة ذات أرواح وأيد وبطش وصور مختلفات ، بعدد منازل القمر ، لكل منزلة أمة منفردة تعرف بها تلك الأمة . ويزعمون أن تلك الأمم كانت الكواكب الثابتة تدبرها ، وكانوا يعبدونها .

ويقال لما خلق الله تعالى البروج الاثنى عشر قسم دوامها فى سلطانها : فجعل للحمل اثنى عشر ألف عام ، وللثور أحد عشر ألف عام ، وللجوزاء عشرة آلاف عام ، وللسرطان تسعة آلاف عام ، وللأسد ثمانية آلاف عام ، وللسنبلة سبعة آلاف عام ، وللميزان ستة آلاف عام ، وللعقرب خمسة آلاف عام ، وللقوس أربعة آلاف عام ، وللجدى ثلاثة آلاف عام ، وللدلو ألفى عام ، وللحوت ألف عام ... فصار الجميع ثمانية وسبعين ألف عام .

فلم يكن فى عالم الحمل والثور والجوزاء حيوان ، وذلك ثلاثة وثلاثون ألف عام .

فلما كان عالم السرطان تكونت دواب الماء وهوام الأرض .

فلما كان عالم الأسد تكونت ذوات الأربع من الوحش والبهائم ، وذلك بعد تسعة آلاف عام من خلق دواب الماء والهواء .

فلما كان عالم السنبلة تكون الانسانان الأولان ، وهما أدمانوس وحنوانوس ، وذلك لتمام سبعة عشر ألف عام لخلق دواب الماء وهوام الأرض ، ولتمام ثمانية آلاف عام من خلق ذوات الأربع .

وخلقت الأرض فى عالم الميزان ، ويقال بل خلقت الأرض أولا ، وأقامت خالية ثلاثة وثلاثين ألف عام ليس فيها حيوان ولا عالم روحانى ، ثم خلق الله تعالى هوام الماء ودواب الأرض وما بعد ذلك على ما تقدم ذكره .

فلما تم أربعة وعشرون ألف عام لخلق دواب الماء وهوام الأرض ، ولتمام خمسة

عشر ألف عام من خلق ذوات الأربع ، ولتتمة سبعة آلاف عام من لدن تكون الانسانين ، خلقت الطيور .

ويقال ان مدة مقام الانسانين ونسلهما فى الأرض مائة ألف وثلاثة وثلاثون ألف عام : منها لزحل ستة وخمسون ألف عام ، وللمشترى أربعة وأربعون ألف عام ، وللمريخ ثلاثة وثلاثون ألف عام .

ويقال ان الأمم المخلوقات قبل آدم هى كانت الجبلة الأولى ، وهى ثمان وعشرون أمة بازاء منازل القمر ، خلقت من أمزجة مختلفة أصلها الماء والهواء والنار ، فتباين خلقها :

فمنها أمة خلقت طوالا زرقا ذوات أجنحة ، كلامهم قرقعة على صفة الأسود .

ومنها أمة أبدانهم أبدان الأسود ، ورؤوسهم رؤوس الطير ، لهم شعور وآذان طوال ، وكلامهم دوى .

ومنها أمة لها وجهان : وجه أمامها ، ووجه خلفها ، ولها أرجل كثيرة ، وكلامهم * كلام الطير .

ومنها أمة ضعيفة فى صور الكلاب ، لها أذناب ، وكلامهم همهمة لا يعرف .

ومنها أمة تشبه بنى آدم ، أفواههم فى صدورهم ، يصفرون اذا تكلموا تصفيرا .

ومنها أمة يشبهون نصف انسان ، لهم عين واحدة ، ورجل يقفزون بها قفزا ، ويصيحون كصياح الطير .

(*) ص٢٥٥ جـ١ ، ط.بولاق =

ومنها أمة لها وجوه كوجوه الناس ، وأصلاب كأصلاب السلاحف ، فى رؤوسهم قرون طوال ، لا يفهم كلامهم .

ومنها أمة مدورة الوجوه ، لهم شعور بيض وأذناب كأذناب البقر ، ورؤوسهم فى صدورهم ، لهم شعور وثدى . وهم اناث كلهن ليس فيهن ذكر ، يلقحن من الريح ويلدن أمثالهن ، ولهن أصوات مطربة ، يجتمع اليهن كثير من هذه الأمم لحسن أصواتهن .

ومنها أمة على خلق بنى آدم ، سود وجوههم ، ورؤوسهم كرؤوس الغربان .

ومنها أمة فى خلق الهوام والحشرات ، الا أنها عظيمة الأجسام ، تأكل وتشرب مثل الأنعام .

ومنها أمة كوجوه دواب البحر ، لها أنياب كأنياب الخنازير وآذان طوال .

ويقال ان هذه الثمانية والعشرين أمة تناكحت فصارت مائة وعشرين أمة .

وسئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : هل كان فى الأرض خلق قبل آدم يعبدون الله تعالى ؟

فقال : نعم ، خلق الله الأرض ، وخلق فيها الجن يسبحون الله ويقدسونه لا يفترون . وكانوا يطيرون الى السماء ، ويلقون الملائكة ويسلمون عليهم ، ويستعلمون منهم خبر ما فى السماء .

ثم ان طائفة منهم تمردت ، وعتت عن أمر ربها ، وبغت فى الأرض بغير الحق ، وعدا بعضهم على بعض ، وجحدوا الربوبية ،

وكفروا بالله وعبدوا ما سواه ، وتغايروا على الملك حتى سفكوا الدماء ، وأظهروا فى الأرض الفساد ، وكثر تقاتلهم ، وعلا بعضهم على بعض .

وأقام المطيعون لله تعالى على دينهم ، وكان ابليس من الطائفة المطيعة لله والمسبحين له ، وكان يصعد الى السماء فلا يحجب عنها لحسن طاعته .

ويروى أن الجن كانت تفترق على احدى وعشرين قبيلة ، وأن بعد خمسة آلاف سنة ملكوا عليهم ملكا يقال له شملال بن أرس ، ثم افترقوا فملكوا عليهم خمسة ملوك ، وأقاموا على ذلك دهرا طويلا .

ثم أغار بعضهم على بعض وتحاسدوا ، فكانت بينهم وقائع كثيرة ، فأهبط الله تعالى اليهم ابليس — وكان اسمه بالعربية الحارث ، وكنيته أبو مرة — ومعه عدد كثير من الملائكة ، فهزمهم وقتلهم .

وصار ابليس ملكا على وجه الأرض فتكبر وطغى ، وكان من امتناعه من السجود لآدم ما كان . فأهبطه الله تعالى الى الأرض ، فسكن البحر وجعل عرشه على الماء ، فألقيت عليه شهوة الجماع ، وجعل لقاحه لقاح الطير وبيضه .

ويقال ان قبائل الجن من الشياطين خمس وثلاثون قبيلة : خمس عشرة قبيلة تطير فى الهواء ، وعشر قبائل مع لهب النار ، وثلاثون قبيلة يسترقون السمع من السماء . ولكل قبيلة ملك موكل يدفع شرها .

ومنهم صنف من السعالى يتصورون فى صور النساء الحسان ، ويتزوجن برجال الانس ، ويلدن منهم .

ومنهم صنف على صور الحيات ، اذا قتل أحد منهم واحدة هلك من وقته ، فان كانت صغيرة هلك ولده أو عزيز عنده .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ان الكلاب من الجن ، فاذا رأوكم تأكلون فألقوا اليهم من طعامكم ، فان لهم أنفسا ... يعنى أنهم يأخذون بالعين .

وقد روى أن الأرض كانت معمورة بأمم كثيرة ، منهم الطم والرم والجن والبن والحسن والبسن ، وأن الله تعالى لما خلق السماء عمرها بالملائكة ، ولما خلق الله الأرض عمرها بالجن ، فعاثوا وسفكوا الدماء ، فأنزل الله اليهم جندا من الملائكة ، فأتوا على أكثرهم قتلا وأسرا .

فكان ممن أسر ابليس — وكان اسمه عزازيل — فلما صعد به الى السماء ، أخذ نفسه بالاجتهاد فى العبادة والطاعة رجاء أن يتوب الله عليه ، فلما لم يُجْد ذلك عليه شيئا خامر الملائكة القنوط ، فأراد الله أن يظهر لهم خبث طويته وفساد نيته ، فخلق آدم ، فامتحنه بالسجود له ليظهر للملائكة تكبره وابانة ما خفى عنهم من مكتوم أنبائه .

والى عمارة الأرض قبل آدم ممن أفسد فيها ، أشار بقوله تعالى حكاية عن الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ » ... يعنون كما فعل بها من قبل . والله أعلم بمراده .

وقال أبو بكر بن أحمد بن على بن وحشية فى كتاب « الفلاحة » : انه عرب هذا الكتاب ونقله من لسان الكلدانيين الى اللغة العربية ، وانه وجده من وضع ثلاثة حكماء قدماء ، وهم صغريث ، وسوساد ، وقوقاى .

ابتداء الأول وكان ظهوره فى الألف السابعة من سبعة آلاف سنى زحل ، وهى الألف التى يشارك فيها زحل القمر . وتممه الثانى وكان ظهوره فى آخر هذه الألف . وأكمله الثالث وكان ظهوره بعد مضى أربعة آلاف سنة من دور الشمس الذى هو سبعة آلاف سنة . وانه نظر الى ما بين زمان الأول والثالث ، فكان ثمانية عشر ألف سنة شمسية وبعض الألف التاسعة عشرة .

وقد اختلف أهل الاسلام فى هذه المسألة أيضا . فروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة ، واليوم ألف سنة ، فذلك سبعة آلاف سنة .

وروى سفيان عن * الأعمش ، عن أبى صالح قال : قال كعب الأحبار : الدنيا ستة آلاف سنة .

وعن وهب بن منبه أنه قال : قد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة وستمائة سنة . انى لأعرف كل زمان منها ومن فيه من الأنبياء .

فقيل له : فكم الدنيا ؟

قال : ستة آلاف سنة .

وروى عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أجلكم فى أجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى مغرب الشمس » .

وفى حديث أبى هريرة « الحقب ثمانون عاما ، اليوم منها سدس الدنيا » . والحقب هنا بكسر الحاء وضمها .

قال أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى فى كتاب « الاكليل » : وكأن الدنيا جزء من أربعة آلاف وسبعمائة وثلاثة وعشرين جزءا وثلث جزء من الحقب ، على أن السنة القمرية ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس وسدس يوم . فاذا كانت الدنيا ستة آلاف سنة واليوم ألف سنة ، تكون سنين قمرية ستة آلاف ألف سنة .

فاذا جعلناه جزءا وضربناه فى أجزاء الحقب — وهى أربعة آلاف وسبعمائة سنة وثلاث وعشرون وثلث — خرج من السنين ثمانية وعشرون ألف ألف ألف وثلثمائة ألف ألف وأربعون ألف ألف . واذا كانت جمعة من جمع الآخرة ، زدنا مع هذا العدد مثل سدسه . وهذا عدد الحقب .

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : الصواب من القول ما دل على صحته الخبر الوارد ، فذكر قوله عليه السلام « أجلكم فى أجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى مغرب الشمس » ، وقوله عليه السلام « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى ، وقوله عليه السلام « بعثت أنا والساعة جميعا ان كادت لتسبقنى » .

قال : فمعلوم ان كان اليوم أوله طلوع الشمس وآخره غروب الشمس ، وكان

(*) ص٥٦ ، جـ١ ، ط.بولاق .

صحيحا عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله « أجلكم فى أجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى مغرب الشمس » ، وقوله « بعثت أنا والساعة كهاتين » ، وأشار بالسبابة والوسطى . وكان قدر ما بين أوسط أوقات صلاة العصر — وذلك اذا صار ظل كل شىء مثليه على التحرى — انما يكون قدر نصف سبع اليوم يزيد قليلا أو ينقص قليلا ، وكذلك فضل ما بين الوسطى والسبابة انما يكون نحوا من ذلك .

وكان صحيحا مع ذلك قوله عليه السلام « لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم » يعنى نصف اليوم الذى مقداره ألف سنة ... فأولى التولين ، اللذين أحدهما عن ابن عباس والآخر عن كعب ، قول ابن عباس « ان الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف » .

واذا كان كذلك ، وكان قد جاء عنه عليه السلام « ان الباقى من ذلك فى حياته نصف يوم » وذلك خمسمائة عام اذا كان ذلك نصف يوم من الأيام التى قدر الواحد منها ألف عام ... كان معلوما أن الماضى من الدنيا ، الى وقت قوله عليه السلام ، ستة آلاف سنة وخمسمائة سنة أو نحو ذلك .

وقد جاء عنه عليه السلام خبر يدل على صحة قول من قال : ان الدنيا كلها ستة آلاف سنة ... لو كان صحيحا لم يعد القول به الى غيره ، وهو حديث أبى هريرة يرفعه « الحقب ثمانون عاما ، اليوم منها سدس الدنيا » فتبين من هذا الخبر أن الدنيا كلها ستة آلاف سنة .

وذلك أنه حيث كان اليوم ، الذى هو من أيام الآخرة ، مقداره ألف سنة من سنى الدنيا ، وكان اليوم الواحد من ذلك سدس الدنيا ، كان معلوما أن جميعها ستة أيام من أيام الآخرة ، وذلك ستة آلاف سنة .

وقال أبو القاسم السهيلى : وقد مضت الخمسمائة من وفاته صلى الله عليه وسلم الى اليوم بنيف عليها ، وليس فى قوله « لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم » ما ينفى الزيادة على النصف ، ولا فى قوله « بعثت أنا والساعة كهاتين » ما يقطع به على صحة تأويله (يعنى الطبرى) ، فقد نقل فى تأويله غير هذا ، وهو أنه ليس بينه وبين الساعة نبى ولا شرعة غير شرعته مع التقريب لحينها ، كما قال تعالى : « اقتربت الساعة » ، وقال : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » .

ولكن اذا قلنا انه عليه السلام انما بعث فى الألف الآخر بعد ما مضت منه سنون ، ونظرنا الى الحروف المقطعة فى أوائل السور وجدناها أربعة عشر حرفا ، يجمعها قولك « ألم يسطع نص حق كره » ، ثم نأخذ العدد على حساب أبى جاد ، فيجىء تسعمائة وثلاثة .

ولم يسم الله تعالى أوائل السور الا هذه الحروف ، فليس يبعد أن يكون من بعض مقتضياتها وبعض فوائدها ، الاشارة الى هذا العدد من السنين ، لما قدمناه من حديث الألف السابع الذى بعث عليه السلام فيه .

غير أن الحساب يحتمل أن يكون من مبعثه ، أو من وفاته ، أو من هجرته — وكل قريب بعضه من بعض — فقد جاء أشراطها « ولكن لا تأتيكم الا بغتة » .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزي رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء ١٣



كتاب التحرير

«وكانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وقد روى أنه عليه السلام قال : « ان أحسنت أمتى فبقاؤها يوم من أيام الآخرة (وذلك ألف سنة) ، وان أساءت فنصف يوم » . ففى الحديث تتميم للحديث المتقدم وبيان له ، اذ قد انقضت الخمسمائة والأمة باقية .

وقال شاذان البلخى المنجم : مدة ملة الاسلام ثلثمائة وعشر سنين . وقد ظهر كذب قوله ولله الحمد .

وقال أبو معشر : يظهر بعد المائة والخمسين من سنى الهجرة * اختلاف كثير .

وقال جراس : ان المنجمين أخبروا كسرى أنو شروان بتملك العرب وظهور النبوة فيهم ، وأن دليلهم الزهرة وهى فى شرفها والزهرة دليل العرب ، فتكون مدة ملك نبوتهم ألفا وستين سنة ، ولأن طالع القران الدال على ذلك برج الميزان والزهرة صاحبته فى شرفها .

قال : وسأل كسرى وزيره بزرجمهر عن ذلك . فأعلمه أن الملك يخرج من فارس وينتقل الى العرب ، وتكون ولادة القائم بامرة العرب لخمس وأربعين سنة من وقت القران ، وأن العرب تملك المشرق والمغرب من أجل أن المشترى دليل فارس قد قبل تدبير الزهرة دليل العرب ، والقران قد انتقل من المثلثة الهوائية الى المثلثة المائية والى برج العقرب منها وهو دليل العرب أيضا . وهذه الأدلة تقتضى بقاء الملة الاسلامية بقدر دور الزهرة ، وهو ألف وستون سنة شمسية .

وقال نفيل الرومى وكان فى أيام بنى أمية : تبقى ملة الاسلام بقدر مدة القران الكبيرة ، وهى تسعمائة وستون سنة شمسية . فاذا عاد القران بعد هذه المدة الى برج العقرب كما كان فى ابتداء الملة ، وتغير وضع تشكيل الفلك عن هيئته فى الابتداء ، فحينئذ يفتر العمل ، ويتجدد ما يوجب خلاف الظن .

قال : واتفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك المكونات بأسرها ، وذلك اذا قطع قلب الأسد أربعا وعشرين درجة من برج الأسد ، الذى هو حد المريخ ، بعد تسعمائة وستين سنة شمسية من قران الملة .

ويقال ان ملك رابلستان — وهى غزنة — بعث الى عبد الله أمير المؤمنين المأمون بحكيم اسمه دوبان فى جملة هدية ، فأعجب به المأمون وسأله عن مدة ملك بنى العباس ، فأخبره بخروج الملك عن عقبه واتصاله فى عقب أخيه ، وأن العجم تغلبهم على الخلافة ، فيتغلب الديلم أولا ثم يسوء حالهم ، حتى يظهر الترك من شمال المشرق فيملكوا الفرات والروم والشام .

وقال يعقوب بن اسحاق الكندى : مدة ملة الاسلام ستمائة وثلاث وتسعون سنة .

وقال الفقيه الحافظ أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم : وأما اختلاف الناس فى التاريخ ، فان اليهود يقولون أربعة آلاف سنة ، والنصارى يقولون الدنيا خمسة آلاف سنة ، وأما نحن (يعنى أهل الاسلام) فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا .

(*) ص٢٥٧ جـ١ ، ط . بولاق .

ومن ادعى فى ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل ، فقد قال ما لم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لفظة تصح ، بل صح عنه عليه السلام خلافه .

بل نقطع على أن للدنيا أمدا لا يعلمه الا الله تعالى ، قال الله تعالى : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم فى الأمم قبلكم الا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، والشعرة السوداء فى الثور الأبيض » .

وهذه نسبة من تدبرها ، وعرف مقدار عدد أهل الاسلام ، ونسبة ما بأيديهم من معمور الأرض وأنه الأكثر ، علم أن للدنيا أمدا لا يعلمه الا الله تعالى .

وكذلك قوله عليه السلام « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم أصبعيه المقدستين السبابة والوسطى — وقد جاء النص بأن الساعة لا يعلم متى تكون الا الله تعالى لا أحد سواه — فصح أنه صلى الله عليه وسلم انما عنى شدة القرب لا فضل السبابة على الوسطى ، اذ لو أراد ذلك لأخذت نسبة ما بين الأصبعين ونسب من طول الأصبع ، فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة ، وهذا باطل .

وأيضا فكان تكون نسبته صلى الله عليه وسلم ايانا الى من قبلنا بأننا كالشعرة فى الثور كذبا — ومعاذ الله من ذلك — فصح أنه عليه السلام انما أراد شدة القرب .

وله صلى الله عليه وسلم منذ بعث أربعمائة عام ونيف ، والله تعالى أعلم بما بقى للدنيا .

فاذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عند ما سلف ، لقلته وتفاهته بالاضافة الى ما مضى ، فهو الذى قاله صلى الله عليه وسلم من أننا فيمن مضى كالشعرة فى الثور أو الرقمة فى ذراع الحمار .

وقد رأيت بخط الأمير أبى محمد عبد الله ابن الناصر قال : حدثنى محمد بن معاوية القرشى أنه رأى بالهند بلدا له اثنتان وسبعون ألف سنة .

وقد وجد محمود بن سبكتكين بالهند مدينة يؤرخون بأربعمائة ألف سنة .

قال أبو محمد : الا أن لكل ذلك أولا ولابد ونهاية ، لم يكن شىء من العالم موجودا قبله .

ولله الأمر من قبل ومن بعد . والله أعلم .

ذكر التواريخ التى كانت للامم قبل تاريخ القبط

التاريخ كلمة فارسية أصلها ماروز ، ثم عرب .

قال محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف البلخى فى كتاب « مفاتيح العلوم » ، وهو كتاب جليل القدر : وهذا اشتقاق بعيد لولا أن الرواية جاءت به .

وقال قدامة بن جعفر فى كتاب «الخراج» : تاريخ كل شىء آخره ، وهو فى الوقت غايته . يقال فلان تاريخ قومه ، أى اليه ينتهى شرفهم . ويقال : ورخت الكتاب توريخا ، وأرخته تأريخا . اللغة الأولى لتميم ، والثانية لقيس .

ولكل أهل ملة تاريخ ، فكانت الأمم تؤرخ أولا بتاريخ * الخليقة وهو ابتداء كون النسل من آدم عليه السلام ، ثم أرخت بالطوفان ، وأرخت بيخت نصر ، وأرخت بفيلبش ، وأرخت بالاسكندر ، ثم بأغشطش ، ثم بأنطيس ، ثم بدقلطيانوس وبه تؤرخ القبط ، ثم لم يكن بعد تاريخ القبط الا تاريخ الهجرة ، ثم تاريخ يزدجرد ... فهذه تواريخ الأمم المشهورة ، وللناس تواريخ أخر قد انقطع ذكرها .

فأما تاريخ الخليقة — ويقال له ابتداء كون النسل ، وبعضهم يقول بدو التحرك — فان لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، والمجوس فى كيفيته وسياقة التاريخ منه خلافا كثيرا .

قال المجوس والفرس : عمر العالم اثنا عشر ألف عام على عدد بروج الفلك وشهور السنة . وزعموا أن زرادست صاحب شريعتهم قال : ان الماضى من الدنيا الى وقت ظهوره ثلاثة آلاف سنة مكبوسة الأرباع .

وبين ظهور زرادست وأول تاريخ الاسكندر ثلاثة آلاف ومائتا سنة وثمان وخمسون سنة .

واذا حسبنا من أول يوم كيومرت ، الذى هو عندهم الانسان الأول ، وجمعنا مدة كل من ملك بعده — فان الملك ملصق فيهم غير منقطع عنهم — كان العدد منه الى الاسكندر ثلاثة آلاف وثلثمائة وأربعا وخمسين سنة .

فاذا لم يتفق التفصيل مع الجملة ، وقال قوم الثلاثة الآلاف الماضية انما هى من خلق كيومرت ... فانه مضى قبله ألف سنة والفلك فيها واقف غير متحرك ، والطبائع غير مستحيلة ، والأمهات غير متمازجة ، والكون والفساد غير موجود فيها ، والأرض غير عامرة .

فلما تحرك الفلك ، حدث الانسان الأول فى معدن النهار ، وتولد الحيوان وتوالد ، وتناسل الانس فكثروا ، وامتزجت أجزاء العناصر للكون والفساد ... فعمرت الدنيا ، وانتظم العالم .

وقال اليهود : الماضى من آدم الى الاسكندر ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمان وأربعون سنة .

وقال النصارى : المدة بينهما خمسة آلاف ومائة وثمانون سنة . وزعموا أن اليهود نقصوها ليقع خروج عيسى ابن مريم عليه السلام فى الألف الرابع ، وسط السبعة آلاف التى هى مقدار العالم عندهم ، حتى تخالف ذلك الوقت الذى سبقت البشارة من الأنبياء الذين كانوا بعد موسى بن عمران عليه السلام بولادة المسيح عيسى .

واذا جمع ما فى التوراة التى بيد اليهود ، من المدة التى بين آدم عليه السلام وبين الطوفان ، كانت ألفا وستمائة وستا وخمسين سنة . وعند النصارى فى انجيلهم ألفان ومائتا سنة واثنتان وأربعون سنة .

وتزعم اليهود أن توراتهم بعيدة عن التخاليط ، وتزعم النصارى أن توراة السبعين التى هى بأيديهم لم يقع فيها تحريف ولا تبديل ، وتقول اليهود فيها خلاف ذلك ،

(*) ص٢٥٨ جا ، ط بولاق .

وتقول السامرية بأن توراتهم هى الحق وما عداها باطل . وليس فى اختلافهم ما يزيل الشك بل يقوى الجالية له .

وهذا الاختلاف بعينه بين النصارى أيضا فى الانجيل ، وذلك أن له عند النصارى أربع نسخ مجموعة فى مصحف واحد : أحدها انجيل متى ، والثانى لمارقوس ، والثالث للوقا ، والرابع ليوحنا ... قد ألف كل من هؤلاء الأربعة انجيلا على حسب دعوته فى بلاده . وهى مختلفة اختلافا كثيرا حتى فى صفات المسيح عليه السلام وأيام دعوته ، ووقت الصلب بزعمهم ، وفى نسبه أيضا . وهذا الاختلاف لا يحتمل مثله .

ومع هذا فعند كل من أصحاب مرقيون وأصحاب ابن ديصان انجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل ، ولأصحاب مانى انجيل على حدة يخالف ما عليه النصارى من أوله الى آخره ، ويزعمون أنه هو الصحيح وما عداه باطل ، ولهم أيضا انجيل يسمى انجيل السبعين ينسب الى تلامس ، والنصارى وغيرهم ينكرونه .

واذا كان الأمر من الاختلاف بين أهل الكتاب كما قد رأيت ، ولم يكن للقياس والرأى مدخل فى تمييز حق ذلك من باطله ، امتنع الوقوف على حقيقة ذلك من قبلهم ، ولم يعول على شىء من أقوالهم فيه .

وأما غير أهل الكتاب ، فانهم أيضا مختلفون فى ذلك .

قال أسوش : بين خلق آدم وبين ليلة الجمعة أول الطوفان ألفا سنة ومائتا سنة وست وعشرون سنة وثلاثة وعشرون يوما وأربع ساعات .

وقال ماشاه — واسمه منشا بن أثرى — منجم المنصور والمأمون فى كتاب «القرانات» : أول قران وقع بين زحل والمشترى فى بدء التحرك (يعنى ابتداء النسل من آدم) كان على مضى خمسمائة وتسع سنين وشهرين وأربعة وعشرين يوما مضت من ألف المريخ ، فوقع القران فى برج الثور من المثلثة الأرضية على سبع درج واثنتين وأربعين دقيقة ...

وكان انتقال الممر من برج الميزان ومثلثته الهوائية الى برج العقرب ومثلثه المائية ، بعد ذلك بألفى سنة وأربعمائة سنة واثنتى عشرة سنة وستة أشهر وستة وعشرين يوما ، ووقع الطوفان فى الشهر الخامس من السنة الأولى من القران الثانى من قرانات هذه المثلثة المائية ...

وكان بين وقت القران الأول الكائن فى بدء التحرك ، وبين الشهر الذى كان فيه الطوفان ، ألفان وأربعمائة وثلاث وعشرون سنة وستة أشهر واثنا عشر يوما ...

قال : وفى كل سبعة آلاف سنة وسنتين وعشرة أشهر وستة أيام ، يرجع القران الى موضعه من برج الثور الذى كان * فى بدء التحرك .

وهذا القول — أعزك الله — هو الذى اشتهر حتى ظن كثير من الملل أن مدة بقاء الدنيا سبعة آلاف سنة . فلا تغتر به ، وتنبه الى أصله تجده أوهى من بيت العنكبوت ، فاطرحه .

(*) ص٢٥٩ جـ١ ، ط.بولاق .

وقيل : كان بين آدم وبين الطوفان ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة ، وقيل كانت بينهما مدة ألفين ومائتين وست وخمسين سنة ، وقيل ألفان وثمانون سنة .

وأما تاريخ الطوفان فانه يتلو تاريخ الخليقة ، وفيه من الاختلاف ما لا يطمع فى حقيقته ، من أجل الاختلاف فيما بين آدم وبينه ، وفيما بينه وبين تاريخ الاسكندر .

فان اليهود عندهم أن بين الطوفان وبين الاسكندر ألفا وسبعمائة واثنتين وتسعين سنة .

وعند النصارى بينهما ألفا سنة وتسعمائة وثمان وثلاثون سنة .

والفرس وسائر المجوس ، والكلدانيون أهل بابل ، والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ، ينكرون الطوفان . وأقر به بعض الفرس ، لكنهم قالوا : لم يكن الطوفان بسوى الشام والمغرب ، ولم يعم العمران كله ، ولا غرق الا بعض الناس ، ولم يتجاوز عقبة حلوان ، ولا بلغ الى ممالك المشرق .

قالوا : ووقع فى زمان طمهورث ، وان أهل المغرب لما أنذر حكماؤهم بالطوفان ، اتخذوا المبانى العظيمة ، كالهرمين بمصر ونحوهما ، ليدخلوا فيها عند حدوثه .

ولما بلغ طهمورث الانذار بالطوفان ، قبل كونه بمائة واحدى وثلاثين سنة ، أمر باختيار مواضع فى مملكته صحيحة الهواء والتربة ، فوجد ذلك بأصبهان ، فأمر بتجليد العلوم ودفنها فيها فى أسلم المواضع .

ويشهد لهذا ما وجد بعد الثلثمائة من سنى الهجرة ، فى حى من مدينة أصبهان ، من التلال التى انشقت عن بيوت مملوءة أعدالا عدة كثيرة ، قد ملئت من لحاء الشجر التى تلبس بها القسى وتسمى التوز ، مكتوبة بكتابة لم يدر أحد ما هى .

وأما المنجمون فانهم صححوا هذه السنين من القران الأول من قرانات العلويين زحل والمشترى ، التى أثبت علماء أهل بابل والكلدانيين مثلها اذا كان الطوفان ظهوره من ناحيتهم ، فان السفينة استقرت على الجودى ، وهو غير بعيد من تلك النواحى .

قالوا : وكان هذا القران قبل الطوفان بمائتين وعشرين سنة ومائة وثمانية أيام ، واعتنوا بأمرها وصححوا ما بعدها ، فوجدوا ما بين الطوفان وبين أول ملك بخت نصر الأول ألفى سنة وستمائة وأربع سنين ، وبين بخت نصر هذا وبين الاسكندر أربعمائة وست وثلاثون سنة .

وعلى ذلك بنى أبو معشر أوساط الكواكب فى زيجه ، وقال : كان الطوفان عند اجتماع الكواكب فى آخر برج الحوت وأول برج الحمل . وكان بين وقت الطوفان وبين تاريخ الاسكندر قدر ألفى سنة وسبعمائة وتسعين سنة مكبوسة وسبعة أشهر وستة وعشرين يوما ، وبينه وبين يوم الخميس أول المحرم من السنة الأولى من سنى الهجرة النبوية ألف ألف يوم وثلثمائة ألف يوم وتسعة وخمسون ألف يوم وتسعمائة يوم وثلاثة وسبعون يوما ، يكون من السنين الفارسية المصرية ثلاثة

آلاف سنة وسبعمائة ستة وخمسا وعشرين سنة وثلثمائة يوم وثمانية وأربعين يوما .

ومنهم من يرى أن الطوفان كان يوم الجمعة . وعند أبى معشر أنه كان يوم الخميس .

ولما تقرر عنده الجملة المذكورة ، وخرجت له المدة التى تسمى أدوار الكواكب — وهى بزعمهم ثلثمائة ألف وستون ألف سنة شمسية ، وأولها متقدم على وقت الطوفان بمائة ألف وثمانين ألف سنة شمسية — حكم بأن الطوفان كان فى مائة ألف وثمانين ألف سنة ، وسيكون فيما بعد كذلك .

ومثل هذا لا يقبل الا بحجة ، أو من معصوم .

وأما تاريخ بخت نصر فانه على سنى القبط وعليه يعمل فى استخراج مواضع الكواكب من كتاب المجسطى ، ثم أدوار قاليس ، وأول أدواره فى سنة ثمانى عشرة وأربعمائة لبخت نصر ، وكل دور منها ست وسبعون سنة شمسية . وكان قاليس من جلة أصحاب التعاليم .

وبخت نصر هذا ليس هو الذى خرب بيت المقدس ، وانما هو آخر كان قبل بخت نصر مخرب بيت المقدس بمائة وثلاث وأربعين سنة ، وهو اسم فارسى أصله « بخت برسى » ومعناه كثير البكاء والأنين ، ويقال له بالعبرانية نصار ، وقيل تفسيره عطارد ، وهو ينطق وذلك لنحيه على الحكمة وتغريب أهلها ، ثم عرب فقيل بخت نصر .

وأما تاريخ فيلبش فانه على سنى القبط ، وكثيرا ما يستعمل هذا التاريخ من موت الاسكندر البناء المقدونى ، وكلا الأمرين سواء ، فان القائم بعد البناء هو فيلبش ، فسواء كان من موت الأول أو من قيام الآخر ، فان الحالة المؤرخة هى كالفصل المشترك بينهما ... وفيلبش هذا هو أبو الاسكندر المقدونى .

ويعرف هذا التاريخ بتاريخ الاسكندرانيين وعليه بنى تاون الاسكندرانى فى تاريخه المعروف بالقانون ، والله أعلم .

وأما تاريخ الاسكندر فانه على سنى الروم ، وعليه يعمل أكثر الأمم الى وقتنا هذا ، من أهل الشام وأهل بلاد الروم وأهل المغرب والأندلس والفرنج واليهود ، وقد تقدم الكلام عليه عند ذكر الاسكندرية من هذا الكتاب .

وأما * تاريخ أغشطش فانه لا يعرف اليوم أحد يستعمله ، وأغشطش هذا هو أول القياصرة ، ومعنى قيصر بالرومية : شق عنه . فان أغشطش هذا لما حملت به أمه ماتت فى المخاض ، فشق بطنها حتى أخرج منه ، فقيل قيصر . وبه يلقب من بعده من ملوك الروم .

ويزعم النصارى أن المسيح عليه السلام ولد لأربعين سنة من ملكه . وفى هذا القول نظر ، فانه لا يصح عند سياقة السنين والتواريخ ، بل يجىء تعديل ولادته عليه السلام فى السنة السابعة عشرة من ملكه .

(*) ص٢٦٠، ج١ ، ط. بولاق

وأما تاريخ أنطينس فان بطليموس صحح الكواكب الثابتة فى كتابه المعروف بالمجسطى لأول ملكه على الروم . وسنو هذا التاريخ رومية .

ذكر تاريخ القبط

اعلم أن السنة الشمسية عبارة عن عود الشمس فى فلك البروج ، اذا تحركت على خلاف حركة الكل ، الى أى نقطة فرضت ابتداء حركتها ، وذلك أنها تستوفى الأزمنة الأربعة التى هى الربيع والصيف والخريف والشتاء ، وتحوز طبائعها الأربع ، وتنتهى الى حيث بدأت .

وفى هذه المدة يستوفى القمر اثنتى عشرة عودة وأقل من نصف عودة ، ويستهل اثنتى عشرة مرة ، فجعلت المدة التى فيها عودات القمر الاثنتا عشرة فى فلك البروج ، سنة للقمر على جهة الاصطلاح ، وأسقط الكسر الذى هو أحد عشر يوما بالتقريب ، فصارت السنة على قسمين : سنة شمسية ، وسنة قمرية .

وجميع من على وجه الأرض من الأمم ، أخذوا تواريخ سنيهم من مسير الشمس والقمر : فالآخذون بسير الشمس خمس أمم ، هم اليونانيون والسريانيون والقبط والروم والفرس . والآخذون بسير القمر خمس أمم ، هم الهند والعرب واليهود والنصارى والمسلمون .

فأهل قسطنطينية والاسكندرية وسائر الروم والسريانيون والكلدانيون وأهل مصر ومن يعمل برأى المعتضد ، أخذوا بالسنة الشمسية التى هى ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم بالتقريب ، وصيروا السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما ، وألحقوا الأرباع بها فى كل أربع سنين يوما حتى انجبرت السنة ، وسموا تلك السنة كبيسة لانكباس الأرباع فيها .

وأما قبط مصر القدماء فانهم كانوا يتركون الأرباع حتى يجتمع منها أيام سنة تامة ، وذلك فى كل ألف وأربعمائة وستين سنة ، ثم يكبسونها سنة واحدة ، ويتفقون حينئذ فى أول تلك السنة مع أهل الاسكندرية وقسطنطينية .

وأما الفرس فانهم جعلوا السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما من غير كبس ، حتى اجتمع لهم من ربع اليوم — فى مائة وعشرين سنة — أيام شهر تام ، ومن خمس الساعة — الذى يتبع ربع اليوم عندهم — يوم واحد ، فألحقوا الشهر التام بها فى كل مائة وست عشرة سنة . واقتفى أثرهم فى هذا أهل خوارزم القدماء والصغد ومن دان بدين فارس .

وكانت الملوك البيشدادية منهم — وهم الذين ملكوا الدنيا بحذافيرها — يعملون السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما ، كل شهر منها ثلاثون يوما سواء ، وكانوا يكبسون السنة كل ست سنين بيوم ويسمونها كبيسة ، وكل مائة وعشرين سنة بشهرين : أحدهما بسبب خمسة الأيام ، والثانى بسبب ربع اليوم . وكانوا يعظمون تلك السنة ويسمونها المباركة .

وأما قدماء القبط وأهل فارس فى الاسلام وأهل خوارزم والصغد ، فتركوا الكبور ، أعنى الربع وما يتبعه أصلا .

وأما العبرانيون وجميع بنى اسرائيل والصابئون والحرانيون ، فانهم أخذوا السنة من مسير الشمس وشهورها من مسير القمر ، لتكون أعيادهم وصيامهم على حساب قمرى ، وتكون مع ذلك حافظة لأوقاتها من السنة ، فكبسوا كل تسع عشرة سنة قمرية بستة أشهر .

ووافقهم النصارى فى صومهم وبعض أعيادهم ، لأن مدار أمرهم على نسخ اليهود ، وخالفوهم فى الشهور الى مذهب الروم والسريانيين .

وكانت العرب فى جهالتها تنظر الى فضل ما بين سنتهم وسنة القمر ، وهو عشرة أيام واحدى وعشرون ساعة وخمس ساعة ، فيلحقون ذلك بها شهرا كلما تم منها ما يستوفى أيام شهر ، ولكنهم كانوا يعملون على أنه عشرة أيام وعشرون ساعة .

وكان يتولى ذلك النسأة من بنى كنانة المعروفون بالقلامس — واحدهم قلمس ، وهو البحر الغزير — وهو أبو ثمامة جنادة ابن عوف بن أمية بن قلع . وأول من فعل ذلك منهم حذيفة بن عبد فقيم ، وآخر من فعله أبو ثمامة .

وأخذ العرب الكبس من اليهود قبل مجىء دين الاسلام بنحو المائتى سنة ، وكانوا يكبسون فى كل أربع وعشرين سنة تسعة أشهر ، حتى تبقى أشهر السنة ثابتة مع الأزمنة على حالة واحدة ، لا تتأخر عن أوقاتها ولا تتقدم .

الى أن حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنزل الله تعالى عليه « انما النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة * ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدى القوم الكافرين » ، فخطب صلى الله عليه وسلم ، وقال : « ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » فبطل النسىء ، وزالت شهور العرب عما كانت عليه ، وصارت أسماؤها غير دالة على معانيها .

وأما أهل الهند ، فانهم يستعملون رؤية الأهلة فى شهورهم ، ويكبسون كل تسعمائة سنة وسبعين يوما بشهر قمرى ، ويجعلون ابتداء تاريخهم اتفاق اجتماع فى أول دقيقة من برج ما ، وأكثر طلبهم لهذا الاجتماع أن يتفق فى احدى نقطتى الاعتدالين ، ويسمون السنة الكبيسة بذمات .

فهذه آراء الخليقة فى السنة .

وأما اليوم فانه عبارة عن عود الشمس بدوران الكل الى دائرة قد فرضت .

وقد اختلف فيه : فجعله العرب من غروب الشمس الى غروبها من الغد . ومن أجل أن شهور العرب مبنية على مسير القمر ، وأوائلها مقيدة برؤية الهلال — والهلال يرى لدن غروب الشمس — صارت الليلة عندهم قبل النهار .

(*) ص ٢٦١ جـ ١ ، ط . بولاق .

وعند الفرس والروم اليوم بليلته من طلوع الشمس بارزة من أفق المشرق الى وقت طلوعها من الغد ، فصار النهار عندهم قبل الليل . واحتجوا على قولهم بأن النور وجود والظلمة عدم ، والحركة تغلب على السكون ، لأنها وجود لا عدم وحياة لا موت ، والسماء أفضل من الأرض ، والعامل الشاب أصح ، والماء الجارى لا يقبل عفونة كالراكد .

واحتج الآخرون بأن الظلمة أقدم من النور والنور طارىء عليها فالأقدم يبدأ به ، وغلبوا السكون على الحركة باضافة الراحة والدعة اليه ، وقالوا : الحركة انما هى الحاجة والضرورة والتعب تنتجه الحركة ، والسكون اذا دام فى الاستقصاءات مدة لم يولد فسادا ، فاذا دامت الحركة فى الاستقصاءات واستحكمت أفسدت ، وذلك كالزلازل والعواصف والأمواج وشبهها .

وعند أصحاب التنجيم أن اليوم بليلته من موافاة الشمس فلك نصف النهار الى موافاتها اياه فى الغد ، وذلك من وقت الظهر الى وقت العصر ، وبنوا على ذلك حساب أزياجهم .

وبعضهم ابتدأ باليوم من نصف الليل ، وهو صاحب زيج شهربارازانساه ، وهذا هو حد اليوم على الاطلاق اذا اشترط الليلة فى التركيب . فأما على التفصيل : فاليوم بانفراده والنهار بمعنى واحد ، وهو من طلوع جرم الشمس الى غروب جرمها ، والليل خلاف ذلك وعكسه .

وحد بعضهم أول النهار بطلوع الفجر ، وآخره بغروب الشمس ، لقوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل » ، وقال : هذان الحدان هما طرفا النهار .

وعورض بأن الآية انما فيها بيان طرفى الصوم لا تعريف أول النهار ، وبأن الشفق من جهة المغرب نظير الفجر من جهة المشرق ، وهما متساويان فى العلة ، فلو كان طلوع الفجر أول النهار لكان غروب الشفق آخره ، وقد التزم ذلك بعض الشيعة .

فاذا تقرر ذلك فنقول : تاريخ القبط يعرف عند نصارى مصر الآن بتاريخ الشهداء ، ويسميه بعضهم تاريخ دقلطيانوس .

ذكر دقلطيانوس
الذى يعرف تاريخ القبط به

اعلم أن دقلطيانوس هذا أحد ملوك الروم المعروفين بالقياصرة ، ملك فى منتصف سنة خمس وتسعين وخمسمائة من سنى الاسكندر .

وكان من غير بيت الملك ، فلما ملك تجبر ، وامتد ملكه الى مدائن الأكاسرة ومدينة بابل ، فاستخلف ابنه على مملكة رومة ، واتخذ تخت ملكه بمدينة انطاكية ، وجعل لنفسه بلاد الشام ومصر الى أقصى المغرب .

فلما كان فى السنة التاسعة عشرة من ملكه ، وقيل الثانية عشرة ، خالف عليه أهل مصر والاسكندرية ، فبعث اليهم وقتل منهم خلقا كثيرا ، وأوقع بالنصارى ، فاستباح دماءهم ،

وغلق كنائسهم ، ومنع من دين النصارى ، وحمل الناس على عبادة الأصنام ، وبالغ فى الاسراف فى قتل النصارى .

وأقام ملكا لحدى وعشرين سنة ، وهلك بعد علل صعبة دوّد منها بدنه ، وسقطت أسنانه .

وهو آخر من عبد الأصنام من ملوك الروم ، وكل من ملك بعده فانما كان على دين النصرانية ، فان الذى ملك بعده ابنه سنة واحدة ، وقيل أكثر من ذلك . ثم ملك قسطنطين الأكبر ، فأظهر دين النصرانية ونشره فى الأرض .

ويقال ان رجلا ثار بمصر يقال له « أجلة » وخرج عن طاعة الروم ، فسار اليه دقلطيانوس وحصر الاسكندرية ، دار الملك يومئذ ، ثمانية أشهر حتى أخذ أجلة وقتله ، وعم أرض مصر كلها بالسبى والقتل .

وبعث قائده فحارب سابور ملك فارس ، وقتل أكثر عسكره ، وهزمه وأسر امرأته واخوته ، وأثخن فى بلاده ، وعاد بأسرى كثيرة من رجال فارس ، ثم أوقع بعامة بلاد رومة فأكثر فى قتلهم وسبيهم ... فكانت أيامه شنعة ، قتل فيها من أصناف الأمم ، وهدم من بيوت العبادات ما لا يدخل تحت حصر .

وكانت واقعته بالنصارى * هى الشدة العاشرة ، وهى أشنع شدائدهم وأطولها ، لأنها دامت عليهم مدة عشر سنين ، لا يفتر يوما واحدا يحرق فيها كنائسهم ، ويعذب رجالهم ، ويطلب من استتر منهم أو هرب ليقتل ، يريد بذلك قطع أثر النصارى وابطال دين النصرانية من الأرض ، فلهذا اتخذوا ابتداء ملك دقلطيانوس تاريخا .

وكان ابتداء ملكه يوم الجمعة . وبينه وبين يوم الاثنين أول يوم من توت ، وهو أول أيام ملك الاسكندر بن فيلبش المقدونى ، خمسمائة وأربع وتسعون سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة أيام . وبين يوم الجمعة ، أول يوم من تاريخ دقلطيانوس ، وبين يوم الخميس أول يوم من سنة الهجرة النبوية ثلثمائة وثمان وثلاثون سنة قمرية وتسعة وثلاثون يوما .

وجعلوا شهور السنة القبطية اثنى عشر شهرا ، كل شهر منها عدده ثلاثون يوما سواء . فاذا تمت الأشهر الاثنا عشر ، أتبعوها بخمسة أيام زيادة على عدد أيامها ، وسموا هذه الخمسة الأيام أبو عمنا ، وتعرف اليوم بأيام النسىء .

فيكون الحال فى النسىء على ذلك ثلاث سنين متواليات ، فاذا كان فى السنة الرابعة جعلوا النسىء ستة أيام ، فتكون سنوهم ثلاث سنين متواليات كل سنة ثلثمائة وخمسة وستون يوما ، والرابعة يصير عددها ثلثمائة وستة وستين يوما .

ويرجع حكم سنتهم الى حكم سنة اليونانيين ، بأن تصير سنتهم الوسطى ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم ... الا أن الكبس يختلف ، فاذا كان كبس القبط فى سنة ، كان كبس اليونانيين فى السنة الداخلة .

وأسماء شهور القبط : توت ، بابه ، هاتور ، كيهك ، طوبة ، أمشير ، برمهات ، برمودة ، بشنس ، بؤونة ، أبيب ، مسرى .

(*) ص ٢٦٢ جـ ١ ، ط.بولاق .

فهذه اثنا عشر شهرا ، كل شهر منها عدده ثلاثون يوما واذا كانت عدة شهر مسرى ، وهو الشهر الثانى عشر ، زادوا أيام النسىء بعد ذلك ، وعملوا النوروز أول يوم من شهر توت .

ذكر اسابيع الايام

اعلم أن القدماء من الفرس والصغد وقبط مصر الأول لم يكونوا يستعملون الأسابيع من الأيام فى الشهور . وأول من استعملها اهل الجانب الغربى من الأرض ، لا سيما أهل الشام وما حواليه ، من أجل ظهور الأنبياء عليهم السلام فيما هنالك ، واخبارهم عن الأسبوع الأول وبدء العالم فيه ، وأن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام من الأسبوع .

ثم انتشر ذلك منهم فى سائر الأمم ، واستعملته العرب العاربة بسبب تجاور ديارهم وديار أهل الشام ، فانهم كانوا قبل تحولهم الى اليمن ببابل ، وعندهم أخبار نوح عليه السلام ، ثم بعث الله تعالى اليهم هودا ثم صالحا عليهما السلام ، وأنزل فيهم ابراهيم خليل الرحمن ابنه اسماعيل عليهما السلام ، فتعرب اسماعيل .

وكانت القبط الأول تستعمل أسماء الأيام الثلاثين من كل شهر ، فتجعل لكل يوم منها اسما كما هو العمل فى تاريخ الفرس وما زالت القبط على هذا الى أن ملك مصر أغشطش بن بوحس ، فأراد أن يحملهم على كبس السنين ليوافقوا الروم أبدا فيها ، فوجدوا الباقى حينئذ الى تمام السنة الكبيسة الكبرى خمس سنين ، فانتظر حتى مضى من ملكه خمس سنين ، ثم حملهم على كبس الشهور فى كل أربع سنين بيوم كما تفعل الروم .

فترك القبط من حينئذ استعمال أسماء الأيام الثلاثين لاحتياجهم فى يوم الكبس الى اسم يخصه ، وانقرض بعد ذلك مستعملو أسماء الأيام الثلاثين من أهل مصر والعارفون بها ، ولم يبق لها ذكر يعرف فى العالم بين الناس ، بل دثرت كما دثر غيرها من أسماء الرسوم القديمة والعادات الأول ... سنة الله فى الذين خلوا من قبل .

وكانت أسماء شهور القبط فى الزمن القديم : توت ، بؤونى ، أتور ، سواق ، طوبى ، ماكير ، فامينوت ، برموتى ، باحون ، باونى ، أفيعى ، ابيقا . وكل شهر منها ثلاثون يوما ، ولكل يوم اسم يخصه .

ثم أحدث بعض رؤساء القبط ، بعد استعمالهم الكبس ، الأسماء التى هى اليوم متداولة بين الناس بمصر . الا أن من الناس من يسمى كيهك كياك ، ويقول فى برمهات برمهوط ، وفى بشنس بشانس ، وفى مسرى ماسورى .

ومن الناس من يسمى الخمسة الأيام الزائدة أيام النسىء ، ومنهم من يسميها أبو عمنا ، ومعنى ذلك الشهر الصغير ، وهى كما تقدم تلحق فى آخر مسرى ، وفيه يزاد اليوم الكبيس ، فيكون أبو عمنا ستة أيام حينئذ ، ويسمون السنة الكبيسة النقط ، ومعناه العلامة .

ومن خرافات القبط أن شهورهم هي شهور سني نوح وشيث وآدم منذ ابتداء العالم ، وأنها لم تزل على ذلك الى أن خرج موسى ببني اسرائيل من مصر ، فعملوا أول سنتهم خامس عشر نيسان كما أمروا به في التوراة ، الى أن نقل الاسكندر رأس سنتهم الى أول تشرين .

وكذلك المصريون نقل بعض ملوكهم أول سنتهم الى أول يوم من ملكه ، فصار أول توت عندهم يتقدم أول يوم * خلق فيه العالم بمائتين وثمانية أيام . أولها يوم الثلاثاء ، وآخرها يوم السبت . وكان توت أوله في ذلك الوقت يوم الأحد ، وهو أول يوم خلق الله فيه العالم ، الذي يقال له الآن تاسع عشري برمهات .

وذلك أن أول من ملك على الأرض ، بعد الطوفان ، نمرود بن كنعان بن حام بن نوح ، فعمر بابل ، وهو أبو الكلدانيين . وملك بنو مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام مثش ، فبنى منف بمصر على النيل ، وسماها باسم جده مصرايم ، وهو ثاني ملك ملك على الأرض . وهذان الملكان استعملا تاريخ جدهما نوح عليه السلام ، واستن بسنتهم من جاء بعدهم حتى تغيرت كما تقدم .

ذكر اعياد القبط
من النصارى بديار مصر

روى يونس ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه قال : اجتنبوا عيد اليهود والنصارى ، فان السخط ينزل عليهم في مجامعهم ، ولا تعلموا رطانتهم فتخلقوا ببعض خلقهم .

وعن ابن عباس في قوله تعالى « والذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراما » قال : أعياد المشركين .

فقيل له : أوما هذا في الشهادة بالزور ؟

فقال : لا ، انما آية شهادة الزور « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

اعلم أن نصارى مصر من القبط ينتحلون مذهب اليعقوبية كما تقدم ذكره ، وأعيادهم الآن ، التي هي مشهورة بديار مصر ، أربعة عشر عيدا في كل سنة من سنيهم القبطية : منها سبعة أعياد يسمونها أعيادا كبارا ، وسبعة يسمونها أعيادا صغارا .

فالأعياد الكبار عندهم : عيد البشارة ، وعيد الزيتونة ، وعيد الفصح ، وعيد خميس الأربعين ، وعيد الخميس ، وعيد الميلاد ، وعيد الغطاس .

والأعياد الصغار : عيد الختان ، وعيد الأربعين ، وخميس العهد ، وسبت النور ، وأحد الحدود ، والتجلي ، وعيد الصليب .

ولهم مواسم أخر ليست هي عندهم من الأعياد الشرعية ، لكنها عندهم من المواسم العادية ، وهو يوم النوروز .

وسأذكر من خبر هذه الأعياد ما لا تجده مجموعا في غير هذا الكتاب ، على ما استخرجته من كتب النصارى وتواريخ أهل الاسلام .

(*) ص٢٦٢ جـ١ ، ط.بولاق .

عيد البشارة : هذا العيد عيد النصارى ، أصله بشارة جبريل مريم بميلاد المسيح عليهما السلام ، وهم يسمون جبريل غبريال ، ويقولون مارت مريم ، ويسمون المسيح ياشوع ، وربما قالوا السيد يشوع . وهذا العيد تعمله نصارى مصر في اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهات .

عيد الزيتونة : ويعرف عندهم بعيد الشعانين ، ومعناه التسبيح ، ويكون في سابع أحد من صومهم . وسنتهم في عيد الشعانين أن يخرجوا سعف النخل من الكنيسة ، ويرون أنه يوم ركوب المسيح العنو (وهو الحمار في القدس) ودخوله الى صهيون وهو راكب ، والناس بين يديه يسبحون ، وهو يأمر بالمعروف ، ويحث على عمل الخير ، وينهى عن المنكر ويباعد عنه .

وكان عيد الشعانين من مواسم النصارى بمصر التي تزين فيها كنائسهم . فلما كان لعشر خلون من شهر رجب ، سنة ثمان وسبعين وثلثمائة ، كان عيد الشعانين ، فمنع الحاكم بأمر الله ، أبو علي منصور بن العزيز بالله ، النصارى من تزيين كنائسهم وحملهم الخوض على ما كانت عادتهم ، وقبض على عدة ممن وجد معه شيئا من ذلك ، وأمر بالقبض على ما هو محبس على الكنائس من الأملاك ، وأدخلها في الديوان ، وكتب لسائر الأعمال بذلك ، وأحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق والشرطة .

عيد الفصح : هذا العيد عندهم هو العيد الكبير . ويزعمون أن المسيح عليه السلام لما تمالأ اليهود عليه ، واجتمعوا على تضليله وقتله ، قبضوا عليه وأحضروه الى خشبة ليصلب عليها ، فصلب على خشبة عليها لصان .

وعندنا — وهو الحق — أن الله تعالى رفعه اليه ، ولم يصلب ولم يقتل ، وأن الذي صلب على الخشبة مع اللصين ، غير المسيح ألقى الله عليه شبه المسيح !

قالوا : واقتسم الجند ثيابه ، وغشى الأرض ظلمة من الساعة السادسة من النهار الى الساعة التاسعة من يوم الجمعة خامس عشر هلال نيسان للعبرانيين ، وتاسع عشري برمهات ، وخامس عشري آذار سنة ... ...

ودفن الشبيه آخر النهار بقبر ، وأطبق عليه حجر عظيم ، وختم عليه رؤساء اليهود ، وأقاموا عليه الحرس باكر يوم السبت كيلا يسرق .

فزعموا أن المقبور قام من القبر ليلة الأحد سحرا ، ومضى بطرس ويوحنا التلميذان الى القبر ، واذا الثياب التي كانت على المقبور بغير ميت ، وعلى القبر ملاك الله بثياب بيض ، فأخبرهما بقيام المقبور من القبر .

قالوا : وفي عشية يوم الأحد هذا ، دخل المسيح على تلاميذه وسلم عليهم ، وأكل معهم وكلمهم وأوصاهم ، وأمرهم بأمور قد تضمنها انجيلهم .

وهذا العيد عندهم بعد عيد الصلبوت * بثلاثة أيام .

خميس الأربعين : ويعرف عند أهل الشام بالمسلاق ، ويقال له أيضا عيد الصعود ، وهو

(*) ص٢٦٤ جـ١ ، ط.بولاق .

الثاني والأربعون من الفطر . ويزعمون أن المسيح عليه السلام ، بعد أربعين يوما من قيامه ، خرج الى بيت عنيا والتلاميذ معه ، فرفع يديه وبارك عليهم وصعد الى السماء ، وذلك عند اكماله ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر .

وتوجه التلامذة الى أورشليم (يعني بيت المقدس) وقد وعدهم بإشعار أمرهم ، وغير ذلك مما هو معروف عندهم . فهذا اعتقادهم في كيفية رفع المسيح « ومن أصدق من الله حديثا » .

عيد العنصرة : وهو العنصرة ، ويعملونه بعد خمسين يوما من عيد القيام . ويزعمون أنه بعد عشرة أيام من الصعود وخمسين يوما من قيامة المسيح ، اجتمع التلاميذ في علية صهيون ، فتجلى لهم روح القدس في شبه ألسنة من نار ، فامتلأوا من روح القدس ، وتكلموا بجميع الألسن ، وظهرت على أيديهم آيات كثيرة ، فعاداهم اليهود وحبسوهم ، فخلصهم الله منهم ، وخرجوا من السجن وساروا في الأرض متفرقين يدعون الناس الى دين المسيح .

عيد الميلاد : يعملونه اليوم الذي ولد فيه المسيح ، وهو يوم الاثنين ، فيجعلون عشية ليلة الميلاد . ويستعملون فيه كثرة الوقود بالكنائس وتزيينها . ويعملونه بمصر في التاسع والعشرين من كيهك .

ولم يزل بمصر من المواسم المشهورة فكان يفرق فيه — أيام الدولة الفاطمية — على أرباب الرسوم من الأستاذين المحنكين والأمراء المطوقين وسائر الموالي من الكتاب وغيرهم الجامات من الحلاوة القاهرية ، والمثارد التي فيها السميذ ، وقربات الجلاب ، وطيافير الزلابية ، والسمك المعروف بالبوري .

ومن رسم النصارى في الميلاد اللعب بالنار .

ومن أحسن ما قيل :

ما اللعب بالنار في الميلاد من سفه
وانما فيه الاسلام مقصود
فيه يبث النصارى أن ربهم
عيسى بن مريم مخلوق ومولود

وأدركنا الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر اقليم مصر موسما جليلا ، يباع فيه من الشموع المزهرة بالأصباغ المليحة والتماثيل البديعة بأموال لا تحصر ، فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم حتى يشتري من ذلك لأولاده وأهله . وكانوا يسمونها الفوانيس (واحدها فانوس) ، ويعلقون منها في الأسواق بالحوانيت شيئا يخرج عن الحد في الكثرة والملاحة .

ويتنافس الناس في المغالاة في أثمانها ، حتى لقد أدركت شمعة عملت فبلغ مصروفها ألف درهم وخمسمائة درهم فضة ، عنها يومئذ ما ينيف على سبعين مثقالا من الذهب .

وأعرف السؤال في الطرقات أيام هذه المواسم ، وهم يسألون الله أن يتصدق عليهم بفانوس ، فيشترى لهم من صغار الفوانيس ما يبلغ ثمنه الدرهم وما حوله .

ثم لما اختلت أمور مصر ، كان من جملة ما بطل من عوائد الترف عمل الفوانيس في الميلاد الا قليلا .

الغطاس : ويعمل بمصر في اليوم الحادي عشر من شهر طوبة . وأصله عند النصارى أن يحيى بن زكرياء عليهما السلام — المعروف عندهم بيوحنا المعمداني — عمد المسيح (أي غسله) في بحيرة الأردن ، وعندما خرج المسيح عليه السلام من الماء اتصل به روح القدس .

فصار النصارى لذلك يغمسون أولادهم في الماء في هذا اليوم ، وينزلون فيه بأجمعهم ، ولا يكون ذلك الا في شدة البرد ، ويسمونه يوم الغطاس ، وكان له بمصر موسم عظيم الى الغاية .

قال المسعودي : ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها ، لا ينام الناس فيها ، وهي ليلة الحادي عشر من طوبة .

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر ، والاخشيد محمد بن طغج أمير مصر ، في داره المعروفة بالمختار ، في الجزيرة الراكبة للنيل ، والنيل يطيف بها ، وقد أمر فأسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع .

وقد حضر بشاطىء النيل في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين ومن النصارى : منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانية من النيل ، ومنهم على سائر الشطوط ، لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر والملاهي والعزف والقصف .

وهي أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سرورا ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثرهم في النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة للداء .

وقال المسبحي في تاريخه : من حوادث سنة سبع وستين وثلثمائة ، منع النصارى من اظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع ونزول الماء واظهار الملاهي ، ونودى أن من عمل ذلك نفي من الحضرة .

وقال : في سنة ثمان وثمانين وثلثمائة كان الغطاس ، فضربت الخيام والمضارب والأسرة في عدة مواضع على شاطىء النيل ، ونصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصراني كاتب الأستاذ برجوان ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وحضر المغنون والملهون ، وجلس مع أهله يشرب ... الى أن كان * وقت الغطاس فغطس وانصرف .

وقال : في سنة احدى وأربعمائة ، وفي ثامن عشري جمادى الأولى ، وهو عاشر طوبة ، منع النصارى من الغطاس ، فلم يغطس أحد منهم في البحر .

وقال في حوادث سنة خمس عشرة وأربعمائة : وفي ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة : كان غطاس النصارى ، فجرى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضأن وغيره ، ونزل أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله لقصر جده العزيز بالله في مصر ، لنظر الغطاس ومعه

(*) ص٢٦٥ جـ١ ، ط. بولاق .

الحرم ، ولودى ألا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم فى البحر فى النيل .

وضرب بدر الدولة ، الخادم الأسود متولى الشرطتين ، خيمة عند الجسر وجلس فيها ، وأمر أمير المؤمنين بأن توقد النار والمشاعل فى الليل ، وكان وقيدا كثيرا ، وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران ؛ فقسوا هناك طويلا الى أن غطسوا .

وقال ابن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة سبع عشرة وخمسمائة : وذكر الغطاس ، ففرق أهل الدولة ما جرت به العادة لأهل الرسوم من الأترج والنارنج والليمون فى المراكب ، وأطنان القصب والبورى ، بحسب الرسوم المقررة بالديوان لكل واحد .

الختان : يعمل فى سادس شهر بئونة . ويزعمون أن المسيح ختن فى هذا اليوم ، وهو الثامن من الميلاد . والقبط من دون النصارى تختن بخلاف غيرهم .

الأربعون : وهو عندهم دخول المسيح الهيكل . ويزعمون أن سمعان الكاهن دخل بالمسيح مع أمه وبارك عليه . ويعمل فى ثامن شهر أمشير .

خميس العهد : ويعمل قبل الفصح بثلاثة أيام . وسنتهم فيه أن يملأوا اناء من ماء ويزمزمون عليه ، ثم يغسل للتبرك به أرجل سائر النصارى ، ويزعمون أن المسيح فعل هذا بتلامذته فى مثل هذا اليوم كى يعلمهم التواضع ، ثم أخذ عليهم العهد ألا يتفرقوا ، وأن يتواضع بعضهم لبعض .

وعوام أهل مصر فى وقتنا يقولون : خميس العدس ، من أجل أن النصارى تطبخ فيه العدس المصفى . ويقول أهل الشام : خميس الأرز ، وخميس البيض . ويقول أهل الأندلس : خميس ابريل . وابريل اسم شهر من شهورهم .

وكان فى الدولة الفاطمية تضرب فى خميس العدس هذا خمسمائة دينار ؛ فتعمل خراريب تفرق فى أهل الدولة برسوم مفردة ، كما ذكر فى أخبار القصر من القاهرة ، عند ذكر دار الضرب من هذا الكتاب .

وادركنا خميس العدس هذا فى القاهرة ومصر وأعمالها من جلة المواسم العظيمة ، فيباع فى أسواق القاهرة من البيض المصبوغ عدة ألوان ما يتجاوز حد الكثرة ، فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء ، وينتدب لذلك من جهة المحتسب من يردعهم فى بعض الأحيان ، ويهادى النصارى بعضهم بعضا ، ويهدون الى المسلمين أنواع السمك المنوع مع العدس المصفى والبيض . وقد بطل ذلك لما حل بالناس ، وبقيت منه بقية .

سبت النور : وهو قبل الفصح بيوم . ويزعمون أن النور يظهر على قبر المسيح — بزعمهم — فى هذا اليوم بكنيسة القمامة من القدس ، فتشعل مصابيح الكنيسة كلها . وقد وقف أهل الفحص والتفتيش على أن هذا من جلة مخاريق النصارى لصناعة يعملونها .

وكان بمصر هذا اليوم من جلة المواسم . ويكون ثالث يوم من خميس العدس ، ومن توابعه .

حد الحدود : وهو بعد الفصح بثمانية أيام ، فيعمل أول أحد بعد الفطر لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم . وفيه يجددون الآلات والأثاث واللباس ، ويأخذون فى المعاملات والأمور الدنيوية والمعاش .

عيد التجلى : يعمل فى ثالث عشر شهر مسرى . يزعمون أن المسيح تجلى لتلاميذه بعد ما رفع ، وتمنوا عليه أن يحضر لهم ايلياء وموسى عليهما السلام ، فأحضرهما اليهم بمصلى بيت المقدس ، ثم صعد الى السماء وتركهم .

عيد الصليب : ويعمل فى اليوم السابع عشر من شهر توت ، وهو من الأعياد المحدثة ، وسببه ظهور الصليب — بزعمهم — على يد هيلانة أم قسطنطين ، وله خبر طويل عندهم ملخصه ما أنت تراه .

ذكر قسطنطين

وقسطنطين هذا هو ابن قسطنش بن وليطنوش بن أرشميوش بن دقبون بن كلوديش بن عايش بن كتيان أعب الأعظم الملقب قيصر .

وهو أول من ثبت دين النصرانية ، وأمر بقطع الأوثان وهدم هياكلها وبنيان البيع ، وآمن من الملوك بالمسيح . وكانت أمه هيلانة من مدينة الرها ، فنشأ بها مع أمه وتعلم العلوم ، ولم يزل فى غاية من القهر والسعادة ، معانا منصورا على كل من حاربه .

وكان فى أول أمره على دين المجوس ، شديدا على النصارى ماقتا لدينهم ، وكان سبب رجوعه عن ذلك الى دين النصرانية أنه ابتلى بجذام ظهر عليه ، فاغتم لذلك غما شديدا ، وجمع الحذاق من الأطباء ، فاتفقوا على أدوية دبروها له ، وأوجبوا أن يستنقع — بعد أخذ تلك الأدوية — فى صهريج مملوء من دماء أطفال رضع ساعة يسيل منهم .

فتقدم أمره بجمع جملة من أطفال الناس ، وأمر بذبحهم فى صهريج ليستنقع فى دمائهم وهى طرية ، فجمعت الأطفال لذلك ، وبرز ليمضى فيهم ما تقدم به من ذبحهم ، فسمع ضجيج النساء اللاتى أخذ * أولادهن ، فرحمهن وأمر فدفع لكل واحدة ابنها ، وقال : احتمال علتى أولى بى وأوجب من هلاك هذه العدة العظيمة من البشر .

فانصرف النساء بأولادهن وقد سررن سرورا كثيرا .

فلما صار من الليل الى مضجعه ، رأى فى منامه شيخا يقول له : انك رحمت الأطفال وأمهاتهم ، ورأيت احتمال علتك أولى من ذبحهم ؛ فقد رحمك الله ووهبك السلامة من علتك ، فابعث الى رجل من أهل الايمان يدعى « شلبشتر » قد فر خوفا منك ، وقف عندما يأمرك به ؛ والتزم ما يحضك عليه تتم لك العافية .

(*) ص٢٦٦ جـ١ ، ط.بولاق .

فاتبه مذعورا ، وبعث فى طلب شلبشتر الأسقف ، فأتى به اليه وهو يظن أنه يريد قتله ، لما عهده من غلظته على النصارى ومقته لدينهم . فعند ما رآه تلقاه بالبشر وأعلمه بما رآه فى منامه ؛ فقص عليه دين النصرانية ، وكانت له معه أخبار طويلة مذكورة عندهم . فبعث قسطنطين فى جمع الأساقفة المنفيين والمسيرين ، والتزم دين النصرانية ، وشفاه الله من الجذام ، فأيد الديانة ، وأعلن بالايمان بدين المسيح .

وبينا هو فى ذلك ، اذ توقع وثوب أهل رومة عليه وايقاعهم به ، فخرج عنها ، وبنى مدينة قسطنطينية بنيانا جليلا فعرفت به ، وسكنها فصارت موضع تخت الملك من عهده .

وقد كان النصارى ، من لدن زمان بيرون الملك الذى قبل الحواريين ومن بعده ممن ملك رومة ، فى كل وقت يقتلون ويحبسون ويشردون بالنفى . فلما سكن قسطنطين مدينة قسطنطينية ، جمع الى تقته أهل المسيح ، وقوى وجوههم ، وأذل عباد الأوثان .

فشق ذلك على أهل رومة ، وخلعوا طاعته ، وقدموا عليهم ملكا ، فأهمه ذلك ، ومرت له معهم عدة أخبار مذكورة فى تاريخ رومة .

ثم انه خرج من قسطنطينية يريد رومة ، وقد استعدوا لحربه ، فلما قاربهم أذعنوا له ، والتزموا طاعته ، فدخلها فأقام الى أن رجع لحرب الفرس ، وخرج اليهم فقهرهم ، ودانت له أكثر ممالك الدنيا .

فلما كان فى عشرين سنة من دولته ، خرجت الفرس على بعض أطرافه ، فغزاهم وأخرجهم عن بلاده .

ورأى فى منامه كأن بنودا شبه الصليب قد رفعت ، وقائلا يقول له : ان أردت أن تظفر بمن خالفك ، فاجعل هذه العلامات على جميع بركك وسككك .

فلما انتبه أمر بتجهيز أمه هيلانة الى بيت المقدس فى طلب آثار المسيح عليه السلام وبناء الكنائس واقامة شعائر النصرانية ، فسارت الى بيت المقدس ، وبنت الكنائس .

فيقال ان الأسقف مقاريوس دلها على الخشبة التى زعموا أن المسيح صلب عليها ، وقد قص عليها ما عمل به اليهود ، فحفرت ، فاذا قبر وثلاث خشبات على شكل الصليب ، فزعموا أنهم ألقوا الثلاث خشبات على ميت ، واحدة بعد واحدة ، فقام حيا عندما وضعت عليه الخشبة الثالثة منها .

فاتخذوا ذلك اليوم عيدا ، وسموه عيد الصليب ، وكان فى اليوم الرابع عشر من أيلول والسابع عشر من توت ، وذلك بعد ولادة المسيح بثلثمائة وثمان وعشرين سنة .

وجعلت هيلانة لخشبات الصليب غلافا من ذهب ، وبنت كنيسة القمامة ببيت المقدس على قبر المسيح بزعمهم ، وكانت لها مع اليهود أخبار كثيرة قد ذكرت عندهم ، ثم انصرفت بالصليب معها الى ابنها .

وما زال قسطنطين على ممالك الروم الى أن مات بعد أربع وعشرين سنة من ولايته ، فقام من بعده بممالك الروم ابنه قسطنطين الأصغر .

وقد كان لعيد الصليب بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه الى بنى وائل بظاهر فسطاط مصر ، ويتظاهرون فى ذلك اليوم بالمنكرات من أنواع المحرمات ، ويمر لهم فيه ما يتجاوز الحد .

فلما قدمت الدولة الفاطمية الى ديار مصر ، وبنوا القاهرة واستوطنوها ، وكانت خلافة أمير المؤمنين العزيز بالله ، أمر فى رابع شهر رجب فى سنة احدى وثمانين وثلثمائة — وهو يوم الصليب — فمنع الناس من الخروج الى بنى وائل ، وضبط الطرق والدروب .

ثم لما كان عيد الصليب فى اليوم الرابع عشر من شهر رجب سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة خرج الناس فيه الى بنى وائل ، وجروا على عادتهم فى الاجتماع واللهو

وفى صفر سنة اثنتين وأربعمائة ، قرىء فى سابعه سجل بالجامع العتيق وفى الطرقات ، كتب عن الحاكم بأمر الله ، يشتمل على منع النصارى من الاجتماع على عمل عيد الصليب ، وألا يظهروا بزينتهم فيه ، ولا تقربوا كنائسهم ، وأن يمنعوا منها .

ثم بطل ذلك حتى لم يكد يعرف اليوم بديار مصر ألبتة .

النيروز : هو أول السنة القبطية بمصر ، وهو أول يوم من توت . وسنتهم فيه اشعال النيران والتراش بالماء ، وكان من مواسم لهو المصريين قديما وحديثا .

قال وهب : بردت النار فى الليلة التى ألقى فيها ابراهيم وفى صبيحتها على الأرض كلها ، فلم ينتفع بها أحد فى الدنيا تلك الليلة وذلك الصباح ، فمن أجل ذلك بات الناس على النار فى تلك الليلة التى رمى فيها ابراهيم عليه السلام ، ووثبوا عليها وتبخروا بها ، وسموا تلك الليلة نيروزا ... والنيروز فى اللسان السريانى ، العيد .

وسئل ابن عباس عن النيروز : لم اتخذوه عيدا ؟

فقال : انه أول السنة المستأنفة وآخر السنة المنقطعة ، فكانوا يستحبون أن يقدموا فيه على ملوكهم بالطرف والهدايا ، فاتخذته الأعاجم سنة .

قال الحافظ أبو القاسم على بن * عساكر فى « تاريخ دمشق » ، من طريق ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : ان فرعون لما قال للملأ من قومه : « ان هذا لساحر عليم » .

قالوا له : ابعث الى السحرة .

فقال فرعون لموسى : ياموسى ، اجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت ، فتجتمع أنت وهارون وتجتمع السحرة .

فقال موسى : موعدكم يوم الزينة .

قال : ووافق ذلك يوم السبت فى أول يوم من السنة وهو يوم النيروز .

وفى رواية : ان السحرة قالوا لفرعون : أيها الملك واعد الرجل ، فقال : قد واعدته يوم

(*) ص٢٦٧ جـ ١، ط. بولاق .

الزينة وهو عيدكم الأكبر ، ووافق ذلك يوم السبت ، فخرج الناس لذلك اليوم .

قال : والنوروز أول سنة الفرس ، وهو الرابع عشر من آذار وفى شهر برمهات .

ويقال : أول من أحدثه جمشيد من ملوك الفرس ، وانه ملك الأقاليم السبعة ، فلما كمل ملكه ولم يبق له عدو ، اتخذ ذلك اليوم عيدا ، وسماه نوروزا فى اليوم الجديد .

وقيل ان سليمان بن داود عليهما السلام أول من وضعه ، فى اليوم الذى رجع اليه فيه خاتمه .

وقيل : هو اليوم الذى شفى فيه أيوب عليه السلام ، وقال الله سبحانه وتعالى له : « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » فجعل ذلك اليوم عيدا ، وسنوا فيه رش الماء .

ويقال : كان بالشام سبط من بنى اسرائيل أصابهم الطاعون ، فخرجوا الى العراق ، فبلغ ملك العجم خبرهم ، فأمر أن تبنى عليهم حظيرة يجعلون فيها ، فلما صاروا فيها ماتوا ، وكانوا أربعة آلاف رجل .

ثم ان الله تعالى أوحى الى نبى ذلك الزمان : أرأيت بلاد كذا وكذا ، فحاربهم بسبط بنى فلان .

فقال : يارب ، كيف أحارب بهم وقد ماتوا ؟

فأوحى الله اليه انى أحييهم لك .

فأمطرهم الله ليلة من الليالى فى الحظيرة ، فأصبحوا أحياء ، فهم الذين قال الله فيهم :

« ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » .

فرفع أمرهم الى ملك فارس ، فقال : تبركوا بهذا اليوم ، وليصب بعضكم على بعض الماء ، فكان ذلك اليوم يوم النوروز ، فصارت سنة الى اليوم .

وسئل الخليفة المأمون عن رش الماء فى النوروز ، فقال : قول الله تعالى « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » ... هؤلاء قوم أجدبوا — تقول مات فلان هزالا — فغيثوا فى هذا اليوم برشة من مطر فعاشوا ، فأخصب بلدهم ، فلما أحياهم الله بالغيث — والغيث يسمى الحيا — جعلوا صب الماء فى مثل هذا اليوم سنة يتبركون بها الى يومنا هذا .

وقد روى أن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ، قوم من بنى اسرائيل فروا من الطاعون .

وقيل : أمروا بالجهاد ، فخافوا الموت بالقتل فى الجهاد ، فخرجوا من ديارهم فرارا من ذلك فأماتهم الله ليعرفهم أنه لا ينجيهم من الموت شىء ، ثم أحياهم على يد حزقيل أحد أنبياء بنى اسرائيل ، فى خبر طويل قد ذكره أهل التفسير .

وقال على بن حمزة الأصفهانى فى كتاب « أعياد الفرس » : ان أول من اتخذ النيروز النيروز جمشيد — ويقال جمشاد — أحد ملوك الفرس الأول .

ومعنى النوروز اليوم الجديد . والنوروز عند الفرس يكون يوم الاعتدال الربيعى ، كما أن المهرجان أول الاعتدال الخريفى .

ويزعمون أن النوروز أقدم من المهرجان ، فيقولون : ان المهرجان كان فى أيام أفريدون ، وانه أول من عمله لما قتل الضحاك ، وهو بيوراست ، فجعل يوم قتله عيدا سماه المهرجان ، وكان حدوثه بعد النوروز بألفى سنة وعشرين سنة .

وقال ابن وصيف شاه فى ذكر مناوش بن منقاوش أحد ملوك القبط فى الدهر القديم : وهو أول من عمل النوروز بمصر ، فكانوا يقيمون سبعة أيام يأكلون ويشربون اكراما للكواكب .

وقال ابن رضوان : ولما كان النيل هو السبب الأعظم فى عمارة أرض مصر ، رأى المصريون القدماء — وخاصة الذين كانوا فى عهد قلديانوس الملك — أن يجعلوا أول السنة فى أول الخريف عند استكمال النيل الحاجة فى الأمر الأكثر ، فجعلوا أول شهورهم توت ثم بابه ثم هاتور ، وعلى هذا الولاء بحسب الشهور من ترتيب هذه الشهور .

وقال ابن زولاق : وفى هذه السنة (يعنى سنة ثلاث وستين وثلثمائة) منع أمير المؤمنين المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النوروز فى السكك ، ومن صب الماء يوم النوروز .

وقال : فى سنة أربع وستين ، وفى يوم النوروز ، زاد اللعب بالماء ووقود النيران ، وطاف أهل الأسواق وعملوا فيه ، وخرجوا الى القاهرة بلعبهم ، ولعبوا ثلاثة أيام ، وأظهروا السماجات والحلى فى الأسواق . ثم أمر المعز بالنداء بالكف ، وألا توقد نار ولا يصب ماء ، وأخذ قوم فحبسوا ، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال .

وقال ابن المأمون فى تاريخه : وحلّ موسم النوروز فى اليوم التاسع من رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة ، ووصلت الكسوة المختصة بالنوروز من الطراز وثغر الاسكندرية ، مع ما يتبعها من الآلات المذهبة والحريرى والسوادج ، وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية ، والعين والورق ، وجميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها ... بتفصيلها وأسماء أربابها .

وأصناف النوروز : البطيخ والرمان ، وعناقيد الموز ، وأفراد * البسر ، وأقفاص التمر القوصى ، وأقفاص السفرجل ، وبكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ومن لحم الضأن ومن لحم البقر ، من كل لون بكلة ، مع خبز مارق .

قال : وأحضر كاتب الدفتر الحسابات بما جرت به العادة ، من اطلاق العين والورق والكسوات على اختلافها ، فى يوم النوروز ، وغير ذلك من جميع الأصناف ، وهو : أربعة آلاف دينار ذهبا ، وخمسة عشر ألف درهم فضة ، والكسوات عدة كثيرة من شقق دبيقية مذهبات وحريريات ، ومعاجر وعصائب نسائيات ملونات ، وسقولاد مذهب وحريرى ومسفع ، وفوط دبيقية حريرية .

(*) ص٢٦٨ جـ١ ، ط.بولاق .

فأما الصين والورق والكسوت ، فذلك لا يخرج عن تحوزه القصور ودار الوزارة والشيوخ والأصحاب والحواشى لمستحقين ورؤساء المشارفات وحطوها ، لم يكن لأحد من الأمراء على اختلاف درجاتهم فى ذلك نصيب .

وأما الأصناف من البطيخ والرمان والبسر والموز والسفرجل والعناب والهراس على اختلافها ، فيشمل ذلك جميع من تقدم ذكرهم ، ويشركهم فيه جميع الأمراء أرباب الأطواق والأصناف ، وغيرهم من الأماثل والأعيان ممن له جاه ورسم فى الدولة .

وقال القاضى الفاضل فى متجددات سنة أربع وثمانين وخمسمائة : يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطى ، وهو مستهل توت وتوت أول سنتهم .

وقد كان بمصر ، فى الأيام الماضية والدولة الخالية ، من مواسم بطالاتهم ، ومواقيت ضلالاتهم ، فكانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة فيه .

ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ومعه جمع كثير ، ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه ، ويرسم على دور الأكابر بالجمل الكبار ، ويكتب مناشير ، ويندب مرسمين ، كل ذلك يخرج مخرج طير ، ويقنع بالميسور من الهبات .

ويجتمع المخنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة ، بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهى ، وترتفع الأصوات ، ويشرب الخمر والمزر شربا ظاهرا بينهم وفى الطرقات ، ويتراش الناس بالماء ، وبالماء والخمر وبالماء ممزوجا بالأقذار .

وان غلط مستور وخرج من بيته ، لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته ، فاما أن يفدى نفسه واما أن يفضح . ولم يجر الحال على هذا ، ولكن قد رش الماء فى الحارات ، وقد أحيا المنكرات فى الدور أرباب الخسارات .

وقال فى متجددات سنة اثنين وتسعين وخمسمائة : وجرى الأمر فى النوروز على العادة من رش الماء ، واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع ، وانقطع الناس عن التصرف ، ومن ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة ، وخرق به .

وما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء ، والتصافع بالجلود وغيرها ، الى أن كانت أعوام بضع وثمانين وسبعمائة ، وأمر الدولة بديار مصر وتدبيرها الى الأمير الكبير برقوق ، قبل أن يجلس على سرير الملك ويتسمى بالسلطان ، فمنع من لعب النوروز ، وهدد من لعبه بالعقوبة .

فانكف الناس عن اللعب فى القاهرة ، وصاروا يعملون شيئا من ذلك فى الخلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه ، بعد ما كانت أسواق القاهرة تتعطل فى يوم النوروز من البيع والشراء ، ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون عن حد الحياء والحشمة الى الغاية من الفجور والتهور .

وقلما انقضى يوم نوروز ، الا وقتل فيه قتيل أو أكثر ، ولم يبق الآن للناس من الفراغ ما يقتضى ذلك ، ولا من الرفه والبطر ما يوجب لهم عمله .

وما أحسن قول بعضهم :

كيف ابتهاجك بالنوروز ياسكنى
وكل ما فيه يحكينى وأحكيه

فتارة كلهيب النار فى كبدى
وتارة كتوالى دمعتى فيه

وقال آخر :

نورز الناس ونورزت ولكن بدموعى
وذكت نارهم والنار ما بين ضلوعى

وقال آخر :

ولما أتى النوروز ياغاية المنى
وأنت على الاعراض والهجر والصد

بعثت بنار الشوق ليلا الى الحشا
فنورزت صبحا بالدموع على الخد

ذكر ما يوافق ايام الشهور القبطية من الأعمال فى الزراعات وزيادة النيل وغير ذلك على ما نقله اهل مصر عن قدمائهم واعتمدوا عليه فى امورهم *

اعلم أن المصريين القدماء اعتمدوا فى تاريخهم السنة الشمسية ، كما تقدم ذكره ، ليصير الزمان محفوظا ، وأعمالهم واقعة فى أوقات معلومة من كل سنة ، لا يتغير وقت عمل من أعمالهم بتقديم ولا تأخير ألبتة .

توت : بالقبطى هو أيلول . وكانت عادة مصر مذ عهد فراعنتها ، فى استخراج خراجها وجباية أموالها ، أنه لا يستتم استيفاء الخراج من أهلها الا عند تمام الماء ، واقترانه على سائر أرضها ، ويقع اتمامه فى شهر توت

فاذا كان كذلك ، وربما كانت زيادة عن ذلك ، أطلق الماء فى جميع نواحيها من ترعها ، ثم لا يزال يترجح فى الزيادة والنقصان حتى يفرغ توت .

وفى أوله يكون يوم النوروز ، ورابعه أول أيلول ، وسابعه يلقط الزيتون ، وثانى عشره يطلع الفجر بالصرفة

وسابع عشره عيد الصليب ، فيشرط البلسان ، ويستخرج دهنه ، ويفتح ما يتأخر من الأبحر والترع ، وترتب المداسة لحفظ الجسور .

وفى ثامن عشره تنتقل الشمس الى برج الميزان ، فيدخل فصل الخريف . وفى خامس عشريه يطلع الفجر بالعوا ، ويكبر صغار السمك .

وفى هذا الشهر يعم ماء النيل أراضى مصر .

وفيه تسجل النواحى ، وتسترفع السجلات والقوانين ، وتطلق التقاوى من الغلال لتخضير الأراضى . وفيه يدرك الرمان والبسر والرطب والزيتون والقطن والسفرجل .

وفيه يكون هبوب ريح الشمال أقوى من هبوب ريح الجنوب ، وهبوب الصبا أقوى من الدبور .

* ص٢٦٩ ج١ ، ط بولاق *

وكان قدماء المصريين لا ينصبون فيه أساسا وفيه يكثر بسر العنب الشتوى ، وتبذر المحمضات .

بابه : فى أوله يحصد الأرز ، ويزرع الفول والبرسيم وسائر الحبوب التى لا تشق لها الأرض .

وفى رابعه أول تشرين الأول .

وفى ثامنه طلوع الفجر بالسماك ، وهو نهاية زيادة النيل وابتداء نقصه ، وقد لا يتم الماء فيه ، فيعجز بعض الأرض عن أن يركبها الماء ، فيكون من ذلك نقص الخراج عن الكمال .

وفى تاسعه يكون مجىء الكراكى الى أرض مصر . وفى عاشره يزرع الكتان

وفى ثانى عشره يكون ابتداء شق الأرض بصعيد مصر ، لبذر القمح والشعير

وفى ثامن عشره تنقل الشمس الى برج العقرب ، ويقطع الخشب .

وفى تاسع عشره يكون ابتداء نقص ماء النيل ، ويكثر البعوض .

وفى حادى عشريه يطلع الفجر بالغفر .

وفى هذا الشهر تصرف المياه عن الأراضى ، ويخرج المزارعون لتخضير الأراضى : فيبدأون ببذر زراعة القرط ، ثم بزراعة الغلة البدرية أولا فأولا .

وفيه يستخرج دهن الآس ودهن النيلوفر ، ويدرك التمر والزبيب والسمسم والقلقاس .

وفيه يكثر صغار السمك ويقل كباره ، ويسمن الراى والابريس من السمك خاصة

وتستحكم حلاوة الرمان ، ويكون فيه أطيب منه فى سائر الشهور التى يكون فيها ، ويضع الضأن والمعز والبقر الخيسية .

وفيه يملح السمك المعروف بالبورى ، ويهزل الضأن والمعز والبقر ولا تطيب لحومها ، وتدرك المحمضات .

وفيه يجب كتابة التذاكر بالأعمال القوصية . وفيه يغرس المنثور ويزرع السلجم .

هاتور : فى خامسه يكون أول تشرين الثانى ، ويطلع الفجر بالزبانا فى رابعه

وفى سادسه يزرع الخشخاش . وفى سابعه يصرف ماء النيل عن أراضى الكتان ، ويبذر فى النصف منه ، وبعد تمام شهر يسبخ .

وفى ثامنه أوان المطر الموسمى ، وفى حادى عشره تهب ريح الجنوب ، وفى خامس عشره تبرد المياه بمصر ، وفى سابع عشره يطلع الفجر بالاكليل ، وفى ثامن عشره تحل الشمس برج القوس ، وفى تاسع عشره يغلق البحر الملح ، وفى سابع عشريه تهب الرياح اللواقح .

وفى هذا الشهر يلبس أهل مصر الصوف من سابعه .

وفيه يكسر ما يحتاج اليه من قصب السكر برسم المعاصر ، ويراح الغلة فى جميع ما يحتاج اليه فيها ، ويهتم بعلف أبقارها وجمالها بعد بيع شارفها وعاجزها والتعويض عنه بغيره ، وافراد الأتبان برسم وقود القنود ، وترتيب القوامصة لعمل الأباليج والقواديس ، والأمطار برسم القنود والأعسال .

وفيه يدرك البنفسج والنيلوفر والمنثور ، ومن البقولات الاسباناخ والبلسان .

واختار قدماء المصريين فى هاتور نصب الأساسات ، وزرع القمح . وأطيب حملان السنة حمله وفيه يكثر العنب الذى كان يحمل من قوص .

كيهك : أوله الأربعينات بمصر ، ويدخل الطير وكره .

وفى سادسه بشارة مريم بحمل عيسى عليهما السلام . وفى سابعه أول كانون الأول .

وفى عاشره آخر الليالى البلق ، وأولها أول هاتور . وفى حادى عشره أول الليالى السود ، ويدخل النمل الأحجرة .

وفى ثالث عشره يطلع الفجر بالشولة ، وتظهر البراغيث ، ويسخن باطن الأرض .

وفى سادس عشره يسقط ورق الشجر .

وفى سابع عشره تنقل الشمس الى برج الجدى ، فيدخل فصل الشتاء ، ويزرع الهليون .

وفى حادى عشريه يكون آخر الليالى البلق ، وفى ثانى عشريه عيد البشارة ، وفى ثالث عشريه تزرع الحلبة والترمس .

وفى سادس عشريه يطلع الفجر بالنعائم .

وفى ثامن عشريه يبيض النعام ، وفى تاسع عشريه الميلاد .

وفى هذا الشهر يزرع الخيار بعد * اغراق أرضه .

(*) ص٢٧٠ جـ١ ، ط.بولاق .

وفيه تكامل بذر القمح والشعير والبرسيم الحراثى .

وفيه يستخرج خراج البرسيم بدار الوجه القبلى ، وفيه ترتب حراس الطير .

وفيه كسر قصب السكر واعتصاره ، واستخدام الطباخين لطبخ القنود .

وفيه يكون ادراك النرجس والمحمضات والفول الأخضر والكرنب والجزر والكراث الأبيض واللفت .

وفيه يقل هبوب ريح الشمال ، ويكثر هبوب ريح الجنوب .

وفيه يجود الجدا ، ويكون أطيب منها فى جميع الشهور التى يكون فيها .

وفيه يزرع أكثر حبوب الحرث ، ولا يزرع بعده فى شىء من أرض مصر غير السمسم والمقاثى والقطن .

طوبة : فى ثالثه ابتداء زراعة الحمص والجلبان والعدس .

وفى سادسه أول كانون الثانى .

وفى تاسعه يطلع الفجر بالبلد ، وعاشره صوم الغطاس ، وحادى عشره الغطاس .

وفى ثانى عشره يشتد البرد ، وفى رابع عشره يرتفع الوباء بمصر ، ويغرس النخل .

وفى سابع عشره تحل الشمس أول برج الدلو ، ويكثر الندى ، ويكون ابتداء غرس الأشجار .

وفى العشرين منه يكون آخر الليالى السود ، وحادى عشريه الليالى البلق الثانية ،

وفى ثانى عشره يطلع الفجر بسعد الذابح ، وفى ثالث عشره تهب الرياح الباردة

وفى رابع عشره تفرخ جوارح الطير . وفى خامس عشره يكون نتاج الابل المحمودة . وفى سابع عشره يصفو ماء النيل .

وفى ثامن عشره يتكامل ادراك القرط .

وفى هذا الشهر تقلم الكروم ، وينقف زرع القثاء من البستان وغيره ، وينقف زرع الكتان من الفجل وغيره .

وفيه تبرش الأراضى أول سكة برسم الصيف والقلقاس والقطن والسمسم ، ويثنى برشها فى أول أمشير .

وفيه تسقى أرض القلقاس والقصب ، وتكنس الجسور فى آخره .

وفيه تستخرج أراضى الغرس ، ويكثر القصب الرأس بعد اقراز ما يحتاج اليه من الزريعة ، وهو لكل فدان طين قيراط طين قصب رأس .

وفيه يهتم بعمارة السواقى ، وحفر الآبار ، وابتياع الأبقار .

وفيه يظهر اللوز الأخضر والنبق والهليون .

وفيه أيضا يكون هبوب ريح الجنوب أكثر من هبوب الشمال ، وهبوب الصبا أكثر من هبوب الدبور .

وفيه يكون الباقلا الأخضر والجزر أطيب منهما فى غيره .

وفيه يتناهى ماء النيل فى صفائه ، ويخزن فلا يتغير فى أوانيه ولو طال لبثه فيها .

وفيه تطيب لحوم الضأن أطيب منها فى سائر الشهور

وفيه تربط الخيول والبغال على القرط من أجل ربيعها .

وطوبة يطالب الناس بافتتاح الخراج ، ومحاسبة المتقبلين على الثمن من السجلات عن جميع ما بأيديهم من الحلول والعقود .

أمشير : فى أوله تختلف الرياح ، وفى خامسه يطلع الفجر بسعد بلع ، وفى سادسه يكون أول شباط .

وفى تاسعه يجرى الماء فى العود ، وحادى عشره أول جمرة باردة ، وسادس عشره تحل الشمس بأول برج الحوت .

وفى سابع عشره يخرج النمل من الأحجرة ، وفى ثامن عشره يطلع الفجر بسعد السعود .

وفى العشرين منه ثانى جمرة فاترة ، وفى ثالث عشريه تقلم الكروم ، وخامس عشريه يفرخ النحل .

وسابع عشريه ثالث جمرة حامية ، ويورق الشجر وهو آخر غرسها ، وفى آخره يكون آخر الليالى البلق .

وفى هذا الشهر يقلع السلجم ويستخرج خراجه ، وفيه يثنى برش الصياف ، وتبرش أيضا ثالث سكة .

وفيه يعمل مقاطع الجسور ، وتمسح الأراضى ، ويرقد البيض فى المعامل أربعة أشهر آخرها بشنس .

وفيه يكون ريح الشمال أكثر الرياح هبوبا

وفيه ينبغى أن تعمل أوانى الخزف للماء لتستعمل فيه طول السنة ، فان ما عمل فيه من أوانى الخزف يبرد الماء فى الصيف أكثر من تبريد ما يعمل فى غيره من الشهور .

وفيه يتكامل غرس الشجر وتقليم الكروم وفيه يدرك النبق واللوز الأخضر ويكثر البنفسج والمنثور .

ويقال : أمشير يقول للزرع سير ، ويلحق بالطويل القصير .

وفيه يقل البرد ، ويهب الهواء الذى فيه سخونة ما .

وفى أمشير يؤخذ الناس فيه باتمام ربع الخراج من السجلات .

برمهات : أول يوم منه يطلع الفجر بالأخبية ، وفى خامسه يحضن دود القز ، وسادسه يزرع السمسم .

وثانى عشره يقلع الكتان ، ورابع عشره يكون أول الاعجاز ، ويطلع الفجر بالفرغ المقدم .

وفى سادس عشره تفتح الحيات أعينها ، وفى سابع عشره تنقل الشمس الى برج الحمل ، وهو أول فصل الربيع ، ورأس سنة الجند ، ورأس سنة العالم .

وفى العشرين منه يكون آخر الاعجاز ، وثانى عشريه نتاج الخيل المحمودة ، وثالث عشريه يظهر الذباب الأزرق ، وخامس عشريه تظهر هوام الأرض ، وسابع عشريه يطلع الفجر بالفرغ المؤخر ، وفى آخره يتفرق السحاب .

وفى هذا الشهر تجرى المراكب السفرية فى البحر الملح الى ديار مصر من المغرب والروم ، ويهتم فيه بتجريد الأجناد الى الثغور كالاسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد .

وفيه كانت تجهز الأساطيل ومراكب الشوانى لحفظ الثغور .

وفيه زرع المقائى والصيفى ، ويدرك الفول والعدس ، ويقلع الكتان ، وتزرع أقصاب السكر فى الأرض المبروشة المختارة لذلك ، البعيدة العهد * عن الزراعة ، ويأخذ المقشرون فى تنظيف الأرض المزروعة من القش فى وقت الزراعة ، ويأخذ القطاعون فى قطع الزريعة ، ويأخذ المزارعون فى رمى قطع القصب .

وفيه يؤخذ فى تحصيل النطرون ، وحمله من وادى هبيت الى الشونة السلطانية .

وفيه يكون ريح الشمال أكثر الرياح هبوبا .

وفيه تزهر الأشجار ، وينعقد أكثر ثمارها .

وفيه يكون اللبن الرائب أطيب منه فى جميع الشهور التى يعمل فيها .

وفى برمهات يطالب الناس بالربع الثانى والثمن من الخراج .

برمودة : فى سادسه أول نيسان ، وفى عاشره يطلع الفجر بالرشاء ، وفى ثانى عشره يقلع الفجل ، وفى سابع عشره تحل الشمس أول برج الثور .

(*) ص٢٧١ جـ١ ، ط. بولاق

وفى ثالث عشره يطلع الفجر بالشرطين ، وهو رأس الحمل وأول منازل القمر ، وفيه ابتداء كسار الفول وحصاد القمح وهو ختام الزرع .

وفى هذا الشهر يهتم بقطع خشب السنط من الخراج الذى كان بمصر فى القديم أيام الدولة الفاطمية والأيوبية ، ويجر الى السواحل ليتيسر حمله فى زمن النيل الى ساحل مصر ، ليعمل شوانى وأحطابا برسم الوقود فى المطابخ السلطانية .

وفيه يكثر الورد ، ويزرع الخيار شنبر والملوخيا والبادنجان . وفيه يقطف أوائل عسل النحل ، وينفض بزر الكتان . وأحسن ما يكون الورد فيه من جميع زمانه

وفيه يظهر البطن الأول من الجميز . وفيه تقع المساحة على أهل الأعمال ، ويطالب الناس باغلاق نصف الخراج من سجلاتهم ، ويحصد بدرى الزرع .

بشنس : فى خامسه تكثر الفاكهة . وسادسه أول أيار ، وفيه طلوع الفجر بالبطين .

وثامنه عيد الشهيد ، وتاسعه انفتاح البحر المالح ، ورابع عشره يزرع الأرز ، وثامن عشره تحل الشمس أول برج الجوزاء ، وفيه يطيب الحصاد .

وفى تاسع عشره يطلع الفجر بالثريا ، وفيه زراعة الأرز والسمسم .

ورابع عشريه يكون عيد البلسان بالمطرية ، ويزعمون أنه اليوم الذى دخلت فيه مريم الى مصر .

وفى هذا الشهر يكون دراس الغلة ، وهدار الكتان ، ونفض البزر والتقاوى والأتبان وحملها .

وفيه زراعة البلسان وتقليمه وسقيه ، وتكريم أراضيه من بئونة الى آخر هاتور ، واستخراج دهنه بعد شرطه فى نصف توت ، وان كان فى أوله فهو أصلح الى آخر هاتور . وصلاح أيامه أيام الندى ، ويقيم فى الندى سنة كاملة الى أن يشرب أعكاره وأوساخه . ويطبخ الدهن فى الفصل الربيعى فى شهر برمهات ، فيعمل لكل رطل مصرى أربعة وأربعون رطلا من مائة ، فيحصل منه قدر عشرين درهما وما حولها من الدهن .

وفى هذا الشهر أكثر ما يهب من الرياح الشمالية .

وفيه يدرك التفاح القاسمى ، ويبتدى فيه التفاح المسكى والبطيخ العبدلى ، ويقال انه أول ما عرف بمصر عندما قدم اليها عبد الله بن طاهر بعد المائتين من سنى الهجرة ، فنسب اليه وقيل له العبدلى .

وفيه أيضا يبتدىء البطيخ الجربى والمشمش والخوخ الزهرى ، ويجنى الورد الأبيض .

وفيه تقرر المساحة ، ويطالب الناس بما يضاف الى المساحة من أبواب وجوه المال — كالصرف والجهبذة وحق المراعى والقرط والكتان — على رسوم كل ناحية .

ويستخرج فيه اتمام الربع مما تقررت عليه العقود والمساحة ، ويطلق الحصاد لجميع الناس .

بئونة : فى ثانيه يطلع الفجر بالدبران ، وفى خامسه يتنفس النيل ، وفى تاسعه أوان قطف النحل .

وفى حادى عشره تهب رياح السموم ، وفى ثانى عشره عيد ميكائيل فيؤخذ قاع النيل ، وفى ثالث عشره يشتد الحر ، وفى خامس عشره يطلع الفجر بالهنعة .

وفى عشريه تحل الشمس أول برج السرطان ، وهو أول فصل الصيف .

وفى سابع عشريه ينادى على النيل بما زاده من الأصابع . وفى ثامن عشريه يطلع الفجر بالهقعة .

وفى هذا الشهر تسفر المراكب لاحضار الغلال والتبن والقنود والأعسال وغير ذلك ، من الأعمال القوصية ونواحى الوجه البحرى .

وفيه يقطف عسل النحل ، وتخرص الكروم ، ويستخرج زكاتها .

وفيه يندى الكتان ، ويقلب أربعة أوجه فى بئونة وأبيب .

وفيه زراعة النيلة بالصعيد الأعلى ، وتحصد بعد مائة يوم ، ثم تترك وتحصد فى كل مائة يوم حصدة ، ويحصل فى أول كيهك وطوبة وأمشير وبرمهات ، ويطلع فى برمودة ، وتحصد فى عشرة أيام من أبيب ، وتقيم فى الأرض الجيدة ثلاث سنين ، وتسقى كل عشرة أيام دفعتين ، وثانى سنة ثلاث دفعات ، وثالث سنة أربع دفعات .

وفى هذا الشهر يكون التين الفيومى ، والخوخ الزهرى ، والكمثرى والقراصيا والقثاء والبلح والحصرم ، ويبتدىء ادراك العصفر .

وفيه يدخل بعض العنب ، ويطيب التوت الأسود ، ويقطف جمهور العسل فتكون رياحه قليلة ، والتين يكون فيه أطيب منه فى سائر الشهور ، وفيه يطلع النخل ، وفيه يستخرج تمام نصف الخراج مما بقى بعد المساحة .

أبيب : فى سابعه أول تموز ، وفى عاشره آخر قطع الخشب ، وفى حادى عشره يطلع الفجر بالذراع ، وثانى عشره ابتداء تعطين الكتان .

وفى خامس عشره يقل ماء الآبار ، وتدرك الفواكه ، ويموت الدود . وفى حادى (*) عشريه تحل الشمس أول برج الأسد ، وتذهب البراغيث ، ويبرد باطن الأرض ، وتهيج أوجاع العين .

وفى خامس عشريه يطلع الفجر بالنثرة ، وفى سادس عشريه تطلع الشعرى العبور اليمانية .

وفى هذا الشهر أكثر ما يهب من الرياح الشمال ، ويكثر فيه العنب ويجود .

وفيه يطيب التين المقرون بمجىء العنب ، ويتغير البطيخ العبدلى وتقل حلاوته ، وتكثر الكمثرى السكرية ، ويطيب البلح .

وفيه يقطف بقايا عسل النحل ، وتقوى زيادة ماء النيل فيقال « فى أبيب يدب الماء دبيب » .

وفيه ينقع الكتان بالمبلات ، ويباع برسيم البذر برسم زراعة القرط والكتان .

(*) ص٢٧٢، جـ١ ، ط. بولاق

وفيه تدرك ثمرة العنب ، ويحصد القرطم . وفيه تستم ثلاثة أرباع الخراج .

مسرى : فى سابعه يطلع الفجر بالطرف ، وفى ثامنه أول آب ، وفى حادى عشره يجمع القطن ، وفى رابع عشره يحمى الماء ولا يبرد ، وفى سابع عشره استكمال الثمار .

وفى عشريه يطلع الفجر بالجبهة ، وفى حادى عشريه تحل الشمس برج السنبلة .

وفى ثالث عشريه يتغير طعم الفاكهة لغلبة ماء النيل على الأرض ، وفى خامس عشريه يكون آخر السموم ، وفى تاسع عشريه يطلع سهيل بمصر .

وفى هذا الشهر يكون وفاء النيل ستة عشر ذراعا فى غالب السنين ، حتى قيل ان لم يوف النيل فى مسرى فانتظره فى السنة الأخرى .

وفيه يجرى ماء النيل فى خليج الاسكندرية ويسافر فيه المراكب بالغلال والبهار والسكر وسائر أصناف المتاجر . وفيه يكثر البسر . وكانوا يخرصون النخل ، ويخرجون زكاة الثمار فى هذا الشهر ، عندما كانت الزكوات يجبيها السلطان من الرعية .

وأكثر ما يهب فى هذا الشهر ريح الشمال .

وفيه يعصر قبط مصر الخمر ، ويعمل الخل من العنب . وفيه يدرك الموز ، وأطيب ما يكون الموز بمصر فى هذا الشهر .

وفيه يدرك الليمون التفاحى ، وكان من جملة أصناف الليمون بأرض مصر ليمون يقال له التفاحى ، يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه . وفيه يكون ابتداء ادراك الرمان .

واذا انقضت أيام مسرى ، ابتدأت أيام النسىء ، ففى أولها ابتداء هيج النعام ، وفى رابعها يطلع الفجر بالخراتان .

وفى مسرى يغلق الفلاحون خراج أراضى زراعاتهم ، وكانوا يؤخرون البقايا على دق الكتان فى مسرى وأبيب ، لأن الكتان يبل فى توت ، ويدق فى بابه .

ذكر تحويل السنة الخراجية القبطية الى السنه الهلاليه العربيه وكيف عمل ذلك فى الاسلام

قد تقدم ، فيما سلف من هذا الكتاب ، التعريف بالسنة الشمسية والسنه القمرية ، وما للأمم فى كبس السنين من الآراء . فلما جاء الله تعالى بالاسلام ، تحرز المسلمون من كبس السنين خشية الوقوع فى النسىء الذى قال الله سبحانه وتعالى فيه : « انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا » .

ثم لما رأوا تداخل السنين القمرية فى السنين الشمسية ، أسقطوا عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنة قمرية سنة ، وسموا ذلك الازدلاق ، لأن لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنتين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب .

وسأتلو عليك من نبأ ذلك ما لم أره مجموعا .

قال أبو الحسين عبد الله بن أحمد بن أبى طاهر فى كتاب « أخبار أمير المؤمنين المعتضد

بالله أبى العباس أحمد بن أبى أحمد طلحة الموفق ابن المتوكل » ومنه نقلت : وخرج أمر المعتضد فى ذى الحجة سنة احدى وثمانين ومائتين ، بتصيير النوروز لاحدى عشرة ليلة خلت من حزيران ، رأفة بالرعية وايثارا لارفاقها .

وقالوا : خرج التوقيع فى المحرم سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، بانشاء الكتب الى جميع العمال فى النواحى والأمصار ، بترك افتتاح الخراج فى النوروز الفارسى الذى يقع يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة خلت من صفر ، وأن يجعل ما يفتتح من خراج سنة اثنتين وثمانين ومائتين يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، وهو اليوم الحادى عشر من حزيران — ويسمى هذا النوروز المعتضدى — ترفيها لأهل الخراج ، ونظرا لهم .

ونسخة التوقيع الخارج فى تصيير افتتاح الخراج فى حزيران :

« أما بعد ، فان الله لما حول أمير المؤمنين للمحل الذى أحله به من أمور عباده وبلاده ، رأى أن من حق الله عليه ألا يكلفها الا ما به العدل والانصاف لها والسيرة القاصدة ، وأن يتولى لها صلاح أمورها ، ويستقرىء السير والمعاملات التى كانت تعامل بها ، ويقر منها ما أوجب الحق اقراره ، ويزيل ما أوجب ازالته ، غير مستكثر لها كثير ما يسقطه العدل ، ولا مستقل لها قليل ما يلزمه اياها الجور ...

« وقد وفق الله أمير المؤمنين لما يرجو أن يكون لحق الله فيها قاضيا ، ولنصيبها من العدل موازيا . وبالله يستعين أمير المؤمنين على حفظ ما استرعاه منها ، وحياطة ما قلده من أمورها ، وهو خير موفق ومعين ...

« وان أبا القاسم عبيد الله رفع الى أمير المؤمنين — فيما أمر أمير المؤمنين به ، من رد النوروز الذى يفتتح به الخراج بالعراق والمشرق وما يتصل بهما ويجرى مجراهما ، من الوقت * الذى صار فيه من الزمان الى الوقت الذى كان عليه متقدما ، مع ما أمر به فى مستقبل السنين من الكبس ، حتى يصير العدل عاما فى الزمان كله ، باقيا على غابر الدهر ومر الأيام — مؤامرة أمير المؤمنين ، فأمر بتسجيلها لك فى آخر كتابه ، مع ما وقع به فيها لتمثيله ... فافعل ذلك ان شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة احدى وثمانين ومائتين .

نسخة المؤامرة : « أنهيت الى أمير المؤمنين أن مما أنعم الله به على رعيته ، ورزقها اياه من رأفته وحسن نظره ، واقامته عليها من عدله وانصافه ، ورفعه عنها فى خلافته من الظلم الشامل ما كان الأقصى والأدنى ، والصغير والكبير ، والمسلم والذمى فيه سواء ... ما حررته من نقل كتب الخراج عن السنة التى كانت تنسب اليها من سنى الهجرة ، الى السنة التى فيها تدرك الغلات وتستخرج المال ...

« وان ذلك ما كان بعض أهل الجهل حاوله وبعض المتغلبين استعمله ، من تثبيت الخراج على أهله ، ومطالبتهم به قبل وقت الزراعة ،

(*) ص٢٧٢ جـ١ ، ط. بولاق .

واعياتهم بذكر سنة من السنين التي ينسب الخراج لاحداهما ، وتدرك الغلات ويقع الاستخراج في الأخرى منهما ، في حساب شهور الفرس التي عليها يجري العمل في الخراج بالسواد وما يليه ، والأهواز وفارس والجبل وما يتصل به من جميع نواحي المشرق وما يضاف اليه ...

« اذا كان عمل الشام والجزيرة والموصل جرى على حساب شهور الروم الموافقة للأزمنة ، فليست تختلف أوقاتها مع الكبيسة المستعملة فيها ...

« والعمل في خراج مصر وما والاها على شهور القبط الموافقة لشهور الروم ، وكانت من شهور الفرس قد خالفت موافقتها من الزمان بما ترك من الكبس ، منذ أزال الله ملك فارس ، وفتح للمسلمين بلادهم ، فصار النوروز — الذي كان الخراج يفتتح فيه بالعراق والمشرق — قد تقدم في ترك الكبس شهرين ، وصارا بينه وبين ادراك الغلة ...

« فأمر أمير المؤمنين — بما جبل الله عليه رأيه في التوصل الى كل ما عاد بصلاح رعيته ، وحسما للأسباب المؤدية الى اعياتها — بتأخير النوروز الذي يقع في شهور سنة اثنتين وثمانين ومائتين من سنى الهجرة ، عن الوقت الذي يتفق فيه أيام سنة الفرس — وهو يوم الجمعة لاحدى عشرة تخلو من صفر — مثل عدة أيام الشهرين من شهور الفرس التي ترك كبسها وهي ستون يوما ، حتى يكون نوروز السنة واقعا يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، وهو الحادي عشر من حزيران ...

« وهو يتصل بهما ويجرى مجراهما ، وينسب ويضاف اليهما ، وبسائر أعمالهم ، وبما يعمله أصحاب الحساب من التقويمات وجميع الأعمال ، وما يعده الفرس من شهورهم الى شهوره الكبيسة الأول والآخر ، ثم يكبس بعد ذلك في كل أربع سنين من سنى الفرس ، ولا يقع تفاوت بينه وبينها على مرور الأيام ...

« وليكن أيدا واقعا في حزيران ، وغير خارج عنه ، وأن يلغى ذكر كل سنة من أربع سنين تنسب الى الخراج بالعراق ، وفي المشرق والمغرب وسائر النواحي والآفاق ، اذ كان مقدار سنى أيام الهجرة والسنة الجامعة للأزمنة التي تتكامل فيها الغلات ...

« وأن يخرج التوقيع بذلك ، لتنشأ الكتب به من ديوان الرسائل الى ولاة المعاون والأحكام ، وتقرأ على المنابر ، ويحصل أصحاب المعاون الرعية عليه ، وتأخذها بامتثال ما أمر به أمير المؤمنين وسنة الحكام في ديوان حكمهم ، لتشيل الضمان والمقاطعين ذلك على حسبه ، واستطلع رأى أمير المؤمنين في ذلك ، فرأى أمير المؤمنين في ذلك موفق ان شاء الله تعالى ، وتكتب نسخة التوقيع بتنفيذ ذلك ان شاء الله تعالى » .

وكتب في شهر ذي الحجة لسنة احدى وثمانين ومائتين .

قال : وكان السبب في نقل الخراج الى حزيران في أيام المعتضد ، ما حدثني به أبو أحمد يحيى بن على بن يحيى المنجم القديم ،

قال : كنت أحدث أمير المؤمنين المعتضد ، فذكرت خبر المتوكل في تأخير النوروز .

فاستحسنه ، وقال لي : كيف كان ذلك ؟

قلت : حدثني أبي ، قال : دخل المتوكل ، قبل تأخير النوروز بعض بساتينه الخاصة التي كانت في يدي — وهو متوكىء على يحادثني ، وينظر الى ما أحدث في ذلك البستان — فمر بزرع فرآه أخضر ، فقال : ياعلى ، ان الزرع اخضر بعد ... ما أدرك ! وقد استأمرني عبيد الله بن يحيى في استفتاح الخراج ، فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج في النوروز ، والزرع لم يدرك بعد ؟

قال : فقلت له : ليس يجري الأمر اليوم على ما كان يجري عليه في أيام الفرس ، ولا النوروز في هذه الأيام في وقته الذي كان في أيامها .

قال : وكيف ذاك ؟

فقلت : لأنها كانت تكبس في كل مائة وعشرين سنة شهرا ، وكان النوروز اذا تقدم شهرا ، وصار في خمس من حزيران ، كبست ذلك الشهر ، فصار في خمس من أيار ، وأسقطت شهرا وردته الى خمس من حزيران ، فكان لا يتجاوز هذا .

فلما تقلد العراق خالد بن عبد الله القسرى ، وحضر الوقت الذي تكبس فيه الفرس ، منعها من ذلك وقال : هذا من النسىء الذي نهى الله عنه فقال : « انما النسىء زيادة في الكفر » ، وأنا لا أطلقه حتى أستأمر فيه أمير المؤمنين .

فبذلوا على ذلك مالا جليلا ، فامتنع * عليهم من قبوله ، وكتب الى هشام بن عبد الملك يعرفه ذلك ويستأمره ، ويعلمه أنه من النسىء الذي نهى الله عنه ، فأمر بمنعهم من ذلك .

فلما امتنعوا من الكبس ، تقدم النوروز تقدما شديدا حتى صار يقع في نيسان والزرع أخضر ، فقال له المتوكل : فاعمل لهذا ياعلى عملا ترد النوروز فيه الى وقته الذي كان يقع فيه في أيام الفرس ، وعرّف بذلك عبيد الله ابن يحيى ، وأدّ اليه رسالة مني في أن يجعل استفتاح الخراج فيه .

قال : فصرت الى أبي الحسن عبيد الله بن يحيى ، وعرفته ما جرى بيني وبين المتوكل ، وأديت اليه رسالته .

فقال لي : ياأبا الحسن ، قد والله فرجت عني وعن الناس ، وعملت عملا كثيرا يعظم ثوابك عليه ، وكسبت لأمير المؤمنين أجرا وشكرا ، فأحسن الله جزاءك ، فمثلك من يجالس الخلفاء .

وأحب أن يتقدم بالعمل الذي أمر به المتوكل ، وينفذه الى حتى أجرى الأمر عليه ، وأتقدم في كتب الكتب باستفتاح الخراج .

قال : فرجعت وحررت الحساب ، فوجدت النوروز لم يكن يتقدم في أيام الفرس أكثر من شهر ... يتقدم من خمس تخلو من حزيران فيصير في خمسة أيام تخلو من أيار ، فتكبس سنتها وترده الى خمسة أيام من حزيران .

(*) ص٢٧٤ جـ١ ، ط. بولاق .

وأنفذته الى عبيد الله بن يحيى ، فأمر أن يستفتح الخراج فى خمس من حزيران ، وتقدم الى ابراهيم بن العباس فى أن ينشىء كتابا عن أمير المؤمنين فى ذلك ينفذ نسخته الى النواحى ، فعمل ابراهيم بن العباس كتابه المشهور فى أيدى الناس .

قال أبو أحمد : فقال لى المعتضد : يايحيى ، هذا والله فعل حسن ، وينبغى أن يعمل به .

فقلت : ما أحد أولى بفعل الحسن ، واحياء السنن الشريفة ، من سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، لما جمعه الله فيه من المحاسن ، ووهبه له من الفضائل .

فدعا بعبيد الله بن سليمان ، وقال له : اسمع من يحيى ما يخبرك به ، وأمض الأمر فى استفتاح الخراج عليه .

قال : فصرت مع عبيد الله بن سليمان الى الديوان ، وعرفته الخبر ، فأحب تأخيره عن ذلك لئلا يجرى الأمر المجرى الأول بعينه ، فجعله فى أحد عشر من حزيران ، واستأمر المعتضد فى ذلك فأمضاه .

فقلت فى ذلك شعرا أنشدته للمعتضد فى هذا المعنى :

يوم نوروزك يوم واحد لا يتأخر
من حزيران يوافى أبدا فى أحد عشر

قال : وأخبرنى بعض مشايخ الكتاب ، قال : وكانت الخلفاء تؤخر النوروز عن وقته عشرين يوما وأقل وأكثر ، ليكون ذلك سببا لتأخير افتتاح الخراج على أهله .

وأما المهرجان فلم تكن تؤخره عن وقته يوما واحدا ، فكان أول من قدمه عن وقته بيوم ، المعتمد بمدينة السلام فى سنة خمس وستين ومائتين ، وأمر المعتضد بتأخير النوروز عن وقته ستين يوما

وقال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » — ومنه نقلت ما ذكر ابن أبى طاهر — وزاد : ونفذت الكتب الى الآفاق (يعنى عن المتوكل) فى محرم سنة ثلاث وأربعين ومائتين ، وقتل المتوكل ولم يتم له ما دبر .

واستمر الأمر حتى قام المعتضد ، فاحتذى ما فعله المتوكل فى تأخير النوروز ، غير انه نظر فاذا المتوكل أخذ ما بين سنته وبين أول تاريخ يزدجرد ، فأخذ المعتضد ما بين سنته وبين السنة التى زال فيها ملك الفرس بهلاك يزدجرد ، ظنا أن اهمالهم أمر الكبس من ذلك الوقت ، فوجده مائتى سنة وثلاثا وأربعين سنة ، حصتها من الأرباع ستون يوما وكسر ، فزاد ذلك على النوروز فى سنة ، وجعله منتهى تلك الأيام — وهو من خردادماه فى تلك السنة — وكان يوم الأربعاء ، ويوافقه اليوم الحادى عشر من حزيران ، ثم وضع النوروز على شهور الروم لتكبس شهوره اذا كبست الروم شهورها .

وقال القاضى السعيد ، ثقة الثقات ذو الرياستين ، أبو الحسن على بن القاضى المؤتمن ثقة الدولة أبى عمرو عثمان بن يوسف المخزومى فى كتاب «المنهاج فى علم الخراج» : والسنة الخراجية مركبة على حكم السنة

الشمسية ، لأن السنة الشمسية ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم ، ورتب المصريون سنتهم على ذلك ، ليكون أداء الخراج عند ادراك الغلات من كل سنة .

ووافقها السنة القبطية لأن أيام شهورها ثلثمائة وستون يوما ، ويتبعها خمسة أيام النسىء وربع يوم بعد تقضى مسرى ، وفى كل أربع سنين تكون أيام النسىء ستة أيام لينجبر الكسر ، ويسمون تلك السنة كبيسة ، وفى كل ثلاث وثلاثين سنة تسقط سنة ، فيحتاج الى نقلها لأجل الفصل بين السنين الشمسية والسنين الهلالية ، لأن السنة الشمسية ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم ، والسنة الهلالية ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وكسر ... ولما كان كذلك احتيج الى استعمال النقل الذى تطابق به احدى السنتين الأخرى .

وقد قال أبو الحسن على بن الحسن الكاتب رحمه الله : عهدت جباية أموال الخراج فى سنين ، قبل سنة احدى وأربعين ومائتين من خلافة أمير * المؤمنين المتوكل على الله رحمة الله عليه ، تجرى كل سنة فى السنة التى بعدها ، بسبب تأخير الشهور الشمسية عن الشهور القمرية فى كل سنة أحد عشر يوما وربع يوم وزيادة الكسر عليه .

فلما دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، كان قد انقضى من السنين التى قبلها ثلاث وثلاثون سنة ، أولهن سنة ثمان ومائتين من خلافة أمير المؤمنين المأمون رحمة الله عليه ، واجتمع من هذا المتأخر فيها أيام سنة شمسية كاملة ، وهى ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم وزيادة الكسر ، وبها ادراك غلات وثمار سنة احدى وأربعين ومائتين فى صفر سنة اثنتين وأربعين ومائتين .

وأمر أمير المؤمنين المتوكل على الله ، رحمة الله عليه ، بالغاء ذكر سنة احدى وأربعين ومائتين ، اذ كانت قد انقضت ، وبنسب الخراج الى سنة اثنتين وأربعين ومائتين .

فجرت الأعمال على ذلك سنة بعد سنة ، الى أن انقضت ثلاث وثلاثون سنة ، آخرهن انقضاء سنة أربع وسبعين ومائتين ، فلم ينبه كتاب أمير المؤمنين المعتمد على الله ، رحمة الله عليه ، على ذلك ، اذ كان رؤساؤهم فى ذلك الوقت اسماعيل بن بلبل وبنى الفرات .

ولم يكونوا عملوا فى ديوان الخراج والضياع فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله ، رحمة الله عليه ، ولا كانت أسنانهم أسنانا بلغت معرفتهم معها هذا النقل ، بل كان مولد أحمد بن محمد بن الفرات قبل هذه السنة بخمس سنين ، ومولد على أخيه فيها ، وكان اسماعيل بن بلبل يتعلم فى مجلس لم يبلغ أن ينسخ .

فلما تقلدت لناصر الدين أبى أحمد طلحة الموفق رحمه الله ، أعمال الضياع بقزوين ونواحيها لسنة ست وسبعين ومائتين — وكان مقيما بأذربيجان ، وخليفته بالجبل جرادة ابن محمد وأحمد بن محمد كاتبه — واحتجت الى رفع جماعتى اليه ، ترجمتها بجماعة سنة ست وسبعين ومائتين التى أدركت غلاتها

(*) ص٢٧٥ جـ١ ، ط. بولاق .

وثمارها فى سنة سبع وسبعين ومائتين ، ووجب الغاء ذكر سنة ست وسبعين ومائتين .

فلما وقفا على هذه الترجمة أنكراها ، وسألانى عن السبب فيها ، فشرحت لهما ، وأكدت ذلك بأن عرفتهما أنى قد استخرجت حساب السنين الشمسية والسنين القمرية من القرآن الكريم بعدما عرضته على أصحاب التفسير ، فذكروا أنه لم يأت فيه شىء من الأثر ، فكان ذلك أوكد فى لطف استخراجى .

وهو أن الله تعالى قال فى سورة الكهف : « ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا » فلم أجد أحدا من المفسرين عرف معنى قوله « وازدادوا تسعا » ، وانما خاطب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بكلام العرب وما تعرفه من الحساب .

فمعنى هذه التسع أن الثلثمائة كانت شمسية بحساب العجم ومن كان لا يعرف السنين القمرية ، فاذا أضيف الى الثلثمائة القمرية زيادة التسع ، كانت سنين شمسية صحيحة ... فاستحسناه .

فلما انصرف جرادة مع الناصر لدين الله الى مدينة السلام ، وتوفى الناصر رحمه الله ، وتقلد القاسم عبيد الله بن سليمان كتابة أمير المؤمنين المعتضد بالله ، أجرى له جرادة ذكر هذا النقل ، وشرح له سببه تقربا اليه ، وطعنا على أبى القاسم عبيد الله فى تأخيره اياه .

فلما وقف المعتضد على ذلك ، تقدم الى أبى القاسم بانشاء الكتب بنقل سنة ثمان وسبعين الى سنة تسع وسبعين ومائتين ، وكان هذا النقل بعد أربع سنين من وجوبه .

ثم مضت السنون سنة بعد سنة ، الى أن انقضت الآن ثلاث وثلاثون سنة : أولاهن السنة التى كان النقل وجب فيها وهى سنة خمس وسبعين ومائتين ، وآخرتهن انقضاء سنة سبع وثلثمائة ، وقد تهيأ ادراك الغلات والثمار فى صدر سنة ثمان وثلثمائة ونسبته اليها . وقد عملت نسخة هذا النقل ، نسختها تحت هذا الموضع ليوقف عليها .

وقد كان أصحاب الدواوين فى أيام المتوكل ، لما نقل سنة احدى وأربعين ومائتين الى سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، جبوا الجوالى والصدقات لسنتى احدى واثنتين وأربعين ومائتين فى وقت واحد : لأن الجوالى بسر من رأى ومدينة السلام وقصب المدن المشهورة كانت تجبى على شهور الأهلة وما كان من جماجم أهل القرى فى الخراج والضياع والصدقات والمستغلات ، كان يجبى على شهور الشمس .

وفى ثلاث وثلاثين سنة اجتمعت أيام سنة شمسية كاملة ، فألزم أهل الذمة خاصة بالجوالى ، ورفعها العمال فى حساباتهم . فمن لم يرفعها ألزموه بجوالى السنة الزائدة ، فأحفظ أنه اجتمع من ذلك ألوف دراهم ، ثم جددت الكتب الى العمال بأن تكون حساباتهم الجوالى على شهور الأهلة ، فجرى الأمر على ذلك .

قال القاضى أبو الحسن : وقد كان النقل أغفل فى الديار المصرية ، حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربعمائة الهلالية تجرى مع سنة سبع وتسعين الخراجية ، فنقلت سنة سبع

وتسعين وأربعمائة الى سنة احدى وخمسمائة . هكذا رأيت فى تعليقات أبى رحمه الله .

وآخر ما نقلت السنة فى وقتنا هذا سنة خمس وستين وخمسمائة الى سنة سبع وستين وخمسمائة الهلالية ، فتطابقت السنتان . وذلك أننى لما قلت للقاضى الفاضل أبى على * عبد الرحيم بن على البيسانى انه قد آن نقل السنة ، فأنشأ سجلا بنقلها نسخ الدواوين ، وحمل الأمر على حكمه . وما برح الملوك والوزراء يعتنون بنقل السنين فى أحيانها .

وقال أبو الحسين هلال بن المحسن الصابى : حدثنى أبو على قال : لما أراد الوزير أبو محمد المهلبى نقل سنة خمس وثلثمائة الهلالية ، أمر أبا اسحاق والدى وغيره من كتابه فى الخراج والرسائل ، بانشاء كتاب عن المطيع لله فى هذا المعنى .

فكتب كل منهم ، وكتب والدى الكتاب الموجود فى رسائله ، وعرضت النسخ على الوزير فاختاره منها ، وتقدم بأن يكتب الى أصحاب الأطراف ، وقال لأبى الفرج بن أبى هشام خليفته : اكتب الى العمال بذلك كتبا محققة ، وانسخ فى أواخرها هذا الكتاب السلطانى .

فغاظ أبا الفرج وقوع التفضيل والاختيار لكتاب والدى — وقد كان عمل نسخة اطرحت فى جملة ما اطرح — وكتب : « قد رأينا نقل سنة خمسين الى احدى وخمسين ، فاعمل على ذلك » . ولم ينسخ الكتاب السلطانى .

(*) ص٢٧٦ جـ١ ، ط.بولاق .

وعرف الوزير ما كتب به أبو الفرج فقال له : لماذا أغفلت نسخ الكتاب السلطانى فى آخر الكتب الى العمال واثباته فى الديوان ؟

فأجاب جوابا علك فيه .

فقال له : ياأبا الفرج ما تركت ذلك الا حسدا لأبى اسحاق ، وهو والله فى هذا الفن أكتب أهل زمانه ، فأعد الآن الكتب ، وانسخ الكتاب فى أواخرها .

قال القاضى أبو الحسن : وأنا أذكر بمشيئة الله نسخة الكتاب الذى أشار اليه أبو الحسن على بن الحسن الكاتب ، وكتاب أبى اسحاق وكتاب القاضى الفاضل ، ليتبين للناظر طريق نقل السنين الخراجية الى السنين الهلالية ... فاذا قاربت الموافقة ، وحسنت فيها المطابقة ، فالكتاب الفاضلى أكثر نجازا وأعظم اعجازا ، ولا يخفى على المتأمل قدر ما أورد فيه من البلاغة ، كما لا يخفى على العارف قدر ما تضمنه كتاب الصابى من الصناعة .

نسخة الكتاب الذى أشار اليه أبو الحسن الكاتب :

« ان أولى ما صرف اليه أمير المؤمنين عنايته ، وأعمل فيه فكره ورويته ، وشغل فيه تفقده ورعايته ، أمر الفىء الذى خصه الله به ، وألزمه جمعه وتوفيره وحياطته وتكثيره ، وجعله عماد الدين وقوام أمر المسلمين ...

« وفيما يصرف منه الى أعطيات الأولياء والجنود ، ومن يستعان به لتحصين البيضة ، والذب عن الحريم ، وحج البيت ، وجهاد العدو ، وسد الثغور ، وأمن السبل ، وحقن الدماء ، واصلاح ذات البين ...

« وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى ، راغبا اليه ومتوكلا عليه ، أن يحسن عونه على ما حمله منه ، ويديم توفيقه بما أرضاه ، وارشاده الى أن يقضى عنه وله ...

« وقد نظر أمير المؤمنين فيما كان يجرى عليه أمر جباية هذا الفيء فى خلافة آبائه الراشدين صلوات الله عليهم ، فوجده على حسب ما كان يدرك من الغلات والثمار فى كل سنة أولا أولا ، على مجارى شهور سنى الشمس فى النجوم التى يحل مال كل صنف منها فيها ...

« ووجد شهور السنة الشمسية تتأخر عن شهور السنة الهلالية أحد عشر يوما وربعا وزيادة عليه ، ويكون ادراك الغلات والثمار فى كل سنة بحسب تأخرها ...

« فلا تزال السنون تمضى على ذلك سنة بعد سنة حتى تنقضى منها ثلاث وثلاثون سنة ، وتكون عدة الأيام المتأخرة منها أيام سنة شمسية كاملة ، وهى ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم وزيادة عليه ، فحينئذ ينهيا بمشيئة الله تعالى وقدرته ، ادراك الغلات التى تجرى عليها الضرائب والطسوق فى استقبال المحرم من سنى الأهلة ...

« ويجب مع ذلك الغاء السنة الخارجة اذا كانت قد انقضت ، ونسبتها الى السنة التى أدركت الغلات والثمار فيها ، لأنه وجد ذلك قد كان وقع فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على الله ، رحمة الله عليه ، عند انقضاء ثلاث وثلاثين سنة ، آخرهن سنة احدى وأربعين ومائتين ...

« فجرت المكاتبات والحسبانات وسائر الأعمال بعد ذلك سنة بعد سنة ، الى أن مضت ثلاث وثلاثون سنة ، آخرتهن انقضاء سنة أربع وسبعين ومائتين ، ووجب انشاء الكتب بالغاء ذكر سنة أربع وسبعين ومائتين ونسبتها الى سنة خمس وسبعين ومائتين ، فذهب ذلك على كتاب أمير المؤمنين المعتمد على الله ، وتأخر الأمر أربع سنين ... الى أن أمر أمير المؤمنين المعتضد بالله ، رحمة الله عليه ، فى سنة سبع وسبعين ومائتين بنقل خراج سنة ثمان وسبعين الى سنة تسع وسبعين ومائتين ...

« فجرى الأمر على ذلك ، الى أن انقضت فى هذا الوقت ثلاث وثلاثون سنة ، أولاهن السنة التى كان يجب نقلها فيها وهى سنة خمس وسبعين ومائتين ، وآخرتهن انقضاء شهور خراج سنة سبع وثلثمائة ، ووجب افتتاح خراج ما يجرى على الضرائب والطسوق فى أولها ...

« وان من صواب التدبير واستقامة الأعمال ، واستعمال ما يخف على الرعية معاملتها به ، نقل سنة الخراج سنة سبع وثلثمائة الى سنة ثمان وثلثمائة ...

« فرأى أمير المؤمنين — لما يلزمه نفسه ويؤاخذها به من العناية بهذا الفيء ، وحياطة أسبابه واجرائها مجاريها ، وسلوك سبيل آبائه الراشدين ، رحمة الله عليهم أجمعين ، فيها — أن يكتب اليك والى سائر * العمال فى النواحى بالعمل على ذلك ، وأن يكون ما يصدر اليكم من الكتب ، وتصدرونه منكم ،

(١) ص٢٧٧ جـ١ ، ط. بولاق .

وتجرى عليه أعمالكم ورفوعكم وحساباتكم وسائر مناظراتكم ، على هذا النقل ...

« فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين ، واعمل به ، مستشعرا فيه وفى كل مضنة تقوى الله وطاعته ، ومستعملا عليه ثقات الأعوان وكفاتهم ، ومشرفا عليهم ومقوما لهم ، واكتب بما يكون منك فى ذلك ان شاء الله تعالى » .

نسخة أبى اسحاق الصابى :

« أما بعد ، فان أمير المؤمنين لا زال مجتهدا فى مصالح المسلمين ، وباعثا لهم على مراشد الدنيا والدين ، ومهيئا لهم أحسن الاختيار فيما يوردون ويصدرون ، وأصوب الرأى فيما يبرمون وينقضون . فلا يلوح له خلة داخلة على أمورهم الا سدها وتلافاها ، ولا حال عائدة بحظ عليهم الا اعتمدها وأتاها ، ولا سنة عادلة الا أخذهم باقامة رسمها وامضاء حكمها ، والاقتداء بالسلف الصالح فى العمل بها والاتباع لها ...

« واذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها ، وتجهله العامة بقصور أفهامها ، وكانت أوامره فيه خارجة اليك والى أمثالك من أعيان رجاله وأماثل عماله ، الذين يكتفون بالاشارة ويجتزون بيسير الابانة والعبارة ، لم يدع أن يبلغ من تخليص اللفظ وايضاح المعنى ، الى الحد الذى يلحق المتأخر بالمتقدم ، ويجمع بين العالم والمتعلم — ولا سيما اذا كان ذلك فيما يتعلق بمعاملات الرعية ، ومن لا يعرف الا الظواهر الجلية دون البواطن الخفية ، ولا يسهل عليه الانتقال عن العادات المتكررة الى الرسوم المتغيرة — ليكون القول بالمشروح لمن برز فى المعرفة مذكرا ، ولمن تأخر فيها مبصرا ...

« ولأنه ليس من الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين فى صدورها ، ولا أن يقتصر على اللمحة الدالة فى مخاطبة جمهورها . حتى اذا استوت الأقدام بطوائف الناس فى فهم ما أمروا به وفقه ما دعوا اليه ، وصاروا على حكمه سواء لا يعترضهم شك الشاكين ولا استرابة المستريبين ... اطمأنت قلوبهم ، وانشرحت صدورهم ، وسقط الخلاف بينهم ، واستمر الاتفاق بهم ، واستيقنوا أنهم مؤسسون على استقامة من المنهاج ، ومحروسون من حزائز الزيغ والاعوجاج ، فكان الانقياد منهم وهم دارون عالمون لا مقلدون مسلمون ، وطائعون مختارون لا مكرهون ولا مجبرون .

« وأمير المؤمنين يستمد الله تعالى فى جميع أغراضه ومراميه ومطالبه ومغازيه ، مادة من صنعه يقف بها على سنن الصلاح ، ويفتح له أبواب النجاح ، وينهضه بما أهله لحمله من الأعباء التى لا يدعى الاستقلال بها الا بتوفيقه ومعونته ، ولا يتوجه فيها الا بدلالته وهدايته ...

« وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل » يرى أن أولى الأقوال أن يكون سدادا ، وأحرى الأفعال أن يكون رشادا ، ما وجد له فى السابق من حكم الله أصول وقواعد ، وفى النص من كتابه آيات وشواهد ، وكان منصبا بالأمة الى قوام من دين أو دنيا ووفاق فى

آخرة أو أولى . فذلك هو البناء الذى يثبت ويعلو ، والغرس الذى ينبت ويزكو ، والسعى الذى تنجح مباديه وهواديه ، وتبهج عواقبه وتواليه ، وتستنير سبله لسالكيها ، وتوردهم موارد السعود فى مقاصدهم فيها ، غير ضالين ولا عادلين ، ولا منحرفين ولا زائلين ...

« وقد جعل الله عز وجل لعباده من هذه الأفلاك الدائرة والنجوم السائرة — فيما تتقلب عليه من اتصال وافتراق ، ويتعاقب عليها من اختلاف واتفاق — منافع تظهر فى كرور الشهور والأعوام ، ومرور الليالى والأيام ، وتفاوت الضياء والظلام ، واعتدال المسالك والأوطان ، وتغاير الفصول والأزمان ، ونشو النبات والحيوان ، مما ليس فى نظام ذلك خلل ولا فى صنعه زلل ، بل هو منوط بعضه ببعض ومحوط من كل ثلمة ونقض ...

« قال الله تعالى : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك الا بالحق » ، وقال جل من قائل : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى أجل مسمى ، وأن الله بما تعملون خبير » ، وقال تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم » ، وقال عزت قدرته : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » ...

« ففضل الله تعالى بهذه الآيات بين الشمس والقمر ، وأنبأنا — فى الباهر من حكمه والمعجز من كلامه — أن لكل منهما طريقا سخر فيها وطبيعة جبل عليها ، وأن تلك المباينة والمخالفة فى المسير يؤديان الى موافقة وملازمة فى التدبير . فمن هنالك زادت السنة الشمسية فصارت ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربعا بالتقريب المعمول عليه ، وهى المدة التى تقطع الشمس فيها الفلك مرة واحدة ، ونقصت الهلالية فصارت ثلثمائة وأربعة وخمسين يوما ، وهى المدة التى يجامع القمر فيها الشمس اثنتى عشرة مرة ...

« واحتيج اذا انساق هذا الفضل الى استعمال النقل الذى يطابق احدى السنين بالأخرى اذا افترقتا ويدانى بينهما اذا تفاوتتا ، وما زالت الأمم السالفة تكبس زيادات السنين على افتنان من طرقها ومذاهبها ، وفى كتاب الله عز وجل شهادة بذلك ، اذ يقول فى قصة أهل الكهف : « ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا » فكانت هذه الزيادة بأن الفضل فى السنين المذكورة على تقريب التقريب ...

« فأما الفرس فانهم أجروا معاملاتهم على السنة المعتدلة التى شهورها اثنا عشر شهرا وأيامها ثلثمائة وستون يوما ، ولقبوا الشهور باثنى عشر لقبا ، وسموا أيام الشهر منها بثلاثين اسما ، وأفردوا الخمسة الأيام الزائدة وسموها المسترقة ، وكبسوا الربع فى كل مائة وعشرين سنة شهرا ...

« فلما انقرض ملكهم ، بطل فى كبس هذا الربع تدبيرهم ، وزال نوروزهم عن سنته ، وانفرج ما بينه وبين حقيقة وقته انفراجا ، هو زائد لا يقف ودائر لا ينقطع ... حتى ان موضوعهم فى النوروز أن يقع فى مدخل

(*) ص٢٧٨ جـ١ ، ط. بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزي

الجزء

١٤

كتاب التحرير



« كانت مصر هي مسقط رأسي . وملعب أترابي . ومجمع ناسي . ومغنى عشيرتي وحامتي . وموطن خاصتي وعامتي . وجؤجؤي الذي ربى جناحي في وكره . وعش مأربي . فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت مذ شذوت العلم . وآتاني ربي الفطانة والفهم . أرغب في معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها . وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها »

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

الصيف ، وسينتهى الى أن يقع فى مدخل الشتاء ويتجاوز ذلك وموضوعهم فى المهرجان أن يقع فى مدخل الشتاء ، وينتهى الى أن يقع فى مدخل الصيف وينجاوز ...

« وأما الروم فكانوا أتقن منهم حكمة ، وأبعد نظرا فى العاقبة ، لأنهم رتبوا شهور السنة على أرصاد شهورها وأنواء عرفوها ، وفضوا الخمسة الأيام على الشهور وساقوها على الدهور ، وكبسوا الربع فى كل أربع سنين يوما ، ورسموا أن يكون الى شباط مضافا ، فقربوا ما بعَّده غيرهم ، وسهلوا على الناس أن يقتفوا أثرهم ...

« لا جرم أن المعتضد بالله رحمه الله ، على أصولهم بنى ولمثالهم احتذى ، فى تصييره نوروزه اليوم الحادى عشر من حزيران ، حتى سلم مما لحق النواريز فى سالف الأزمان ...

« وتلافوا الأمر فى عجز سنى الهلال عن سنى الشمس بأن جبروها بالكبس ، فكلما اجتمع من فصول سنى الشمس وما بقى تمام شهر ، جعلوا السنة الهلالية يتفق ذلك فيها ثلاثة عشر هلالا ، فربما تم الشهر الثالث عشر فى ثلاث سنين ، وربما تم فى سنتين بحسب ما يوجبه الحساب ، فتصير سنتا الشمس والهلال عندهم متقاربتين أبدا لا يتباعد ما بينهما ...

« وأما العرب فان الله تعالى فضلها على الأمم الماضية ، وورثها ثمرات مشاقها المنعبة ، وأجرى شهر صيامها ومواقيت أعيادها وزكاة أهل ملتها وجزية أهل ذمتها على السنة الهلاليه ، وتعبدها فيها برؤية الأهلة — ارادة منه أن تكون مناهجها واضحة وأعلامها لائحة — فيتكافأ فى معرفة الغرض ودخول الوقت ، الخاص منها والعام والناقص الفقه والتام والأنثى والذكر والصغير والكبير والأكبر ، فصاروا حينئذ يحسبون فى سنة الشمس حاصل الغلات المقسومة ، وخراج الأرض الممسوحة ، ويجبون فى سنة الهلال الجوالى والصدقات والأرجاء والمقاطعات والمستغلات وسائر مايجرى على المشاهرات...

« وحدث من التداخل بين السنين ما لو استمر لقبح جدا ، وازداد بعدا ، اذ كانت الجبايه الحراجية فى السنة التى ينتهى اليها تنسب الى الشمسية والى ماقبلها ، فوجب مع هذا أن تطرح تلك السنة وتلغى ، ويتجاوز الى ما بعدها ويتحطى ، ولم يجز لهم أن يعتدوا لمخالفتهم فى كبس السنة الهلالية بشهر ثالث عشر ، ولأنهم لو فعلوا ذلك لزحزحت الأشهر الحرم عن موافقها ، وارتجت المناسك عن حقائقها ، ونقصت الجباية فى سنى الأهلة القبطية بقسط ما استغرقه الكبس منها ...

« فانتظروا بذلك الفضل الى أن تتم السنة ، وأوجب الحساب المقرب أن يكون كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية ثلاثا وثلاثين هلالية ، فنقلوا المتقدمة الى المتأخرة نقلا لا يتجاوز الشمسية ، وكانت هذه الكلفة فى دنياهم مستسهلة مع تلك النعمة فى دينهم ...

« وقد رأى أمير المؤمنين نقل سنة خمسين وثلثمائة الحراجيه الى سنة احدى وخمسين وثلثمائة الهلالية ، جمعا بينهما ولزوما لتلك السنه فيهما ، فاعمل بما ورد به أمر أمير

المؤمنين عليك وتضمنه كتابه هذا اليك ، ومُر الكتاب قبلك أن يحتذوا رسمه فيما يكتبون به الى عمال نواحيك ، ويخلدونه فى الدواوين من ذكورهم ورفوعهم ، ويعدونه من خروج الأموال ، وينظمونه فى الدواوين والأعمال ، ويثبتون عليه الجماعات والحسبانات ، ويوغرون بكتبه من الروزنامجات والبراءات ، وليكن المنسوب من ذلك الى سنة خمسين وثلثمائة التى وقع النقل اليها ...

« وأقم فى نفوس من بحضرتك من أصناف الجند والرعية وأهل الملة والذمة ، أن هذا النقل لا يغير لهم رسما ، ولا يلحق بهم ثلما ، ولا يعود على قابضى العطاء بنقصان ما استحقوا قبضه ، ولا على مؤدى حق بيت المال باغضاء عما وجب اداؤه ... فان قرائح أكثرهم فقيرة الى افهام أمير المؤمنين الذى آثر أن تزاح فيه العلة ، ويسد به سهم الخلة ، اذ كان هذا الشأن لا يتجدد الا فى المدد الطوال التى فى مثلها يحتاج الى تعريف الناس . وأجب بما يكون منك جوابا يحسن موقعه لك ان شاء الله تعالى » .

وقال ابن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة احدى وخمسمائة : وأول ما تحدث فيه نقل السنة الشمسية الى العربية — وكان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين — فتحدث القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحى ، مع الأفضل بن أمير الجيوش فى ذلك ، فأجاب اليه ، وخرج أمره الى الشيخ أبى القاسم ابن الصيرفى بانشاء سجل به ، فأنشأ ما نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى ارتضى أمير المؤمنين أمينه فى أرضه وخليفته ، وألهمه أن يعم بحسن * التدبير عبيده وخليقته ، ووفقه لمصالح يستمد أسبابها ويفتح بحسن نظره أبوابها ، وأورثه مقام آبائه الراشدين الذين اختصهم بشرف المفخر ، وجعل اعتقاد موالاتهم سبب النجاة فى المحشر ، وعناهم بقوله « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » ، وأعلى منار سلطانه بمدبر أفلاك دولته ومبيد أعداء مملكته ، وأشرف من نصب للجند علما وراية ، ووقف على مصلحة البرية نظره ورأيه ، وأرشد بهدايته الألباب الحائرة ، وأذهب بمعدلته الأحكام الجائرة ، السيد الأجل الأفضل ...

« وتتم النعوت بالدعاء للذى كمل تدبيره نظام الصلاح وتممه ، وسدد تقريره الأمور فى كل ما قصده وسمه ، ونبه فى السياسة على ما أهمله من سبقه ، وأغفله من تقدمه ، وتتبع أحوال المملكة فلم يدع مشكلا الا أوضحه وبيّن الواجب فيه ، ولا خللا الا أصلحه وبادر بتلافيه ، ولا مهملا الا استعمله على ما يوافق الصواب ولا ينافيه : ايثارا لعمارة الأعمال ، وقصدا لما يقضى بتوفير الأموال ، وتوخيا لما عاد بضروب الاستغلال ، واعتناء برجال الدولة العلوية وأجنادها ، واهتماما بمصالحهم التى ضعفت قواهم عن ارتيادها ، ورعاية لمن ضمنه أقطار المملكة من الرعايا ، وحملا لهم على أعدل السنن وأفضل القضايا ...

« يحمده أمير المؤمنين على ما أعانه عليه من حسن النظر للأمة ، وادخره لأيامه من الفضائل

(*) ص٢٧٩ جـ١ ، ط.بولاق »

التى صفت بها ملابس النعمة ، ووفقه لما يعود على الكافة بشمول الانتفاع ، حتى صار استبدال الحقوق بواجبات الشريعة الواضحة الأدلة ، واستيفاؤها بمقتضى المعدلة فيما يجرى على أحكام الخراج وأوضاع الأهلة ...

« ويرغب اليه بالصلاة على محمد الذى ميزه بالحكمة وفصل الخطاب ، وبين به ما استبهم من سبل الصواب ، وأنزل عليه فى محكم الكتاب « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب كافيه فيما أعضل لما عدم المساعد ، وواقيه بنفسه لما تخاذل الكف والساعد ، وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين برضى الله تعالى فيما يقولون ويفعلون ، والذين يهدون بالحق وبه يعدلون ...

« وان أولى ما أولاه أمير المؤمنين حظا وافيا من تفقده ، وأسهم له جزءا وافرا من كريم تعهده ، ونظر اليه بعين اهتمامه ، واختصه بالقسم الأجزل من استماله ... أمر الأموال التى يستعان بها على سد الخلل ، وبرجائها يستدفع ما يطرق من الحادث الجلل ، وبوفورها تستثبت شئون المملكة وتستقيم أحوال الدول ، وباستخراجها على حكم العدل الشامل ، ووصية انصاف المعامل ، تكون العمارة التى هى أصل زيادتها ، ومادة كثرتها وغزارتها ...

« ولما كانت جباياتها على حكمين : أحدهما يجىء هلاليا ، وذلك ما لا يدخله عارض ولا اشكال ولا ابهام ، ولا يحتاج فيه الى ايضاح ولا افهام ، لأن شهور الهلال يشترك فى معرفتها الأمير والمقصر ، ويستوى فى الفهم بها المتقدم فى العلم والمتأخر ، اذ كان الناس آلفين لأزمنة متعبداتهم السنين مما يحفظ لهم نظام مرسومهم ...

« والآخر يجىء خراجيا ، ويثبت بنسبته الى الخراج ، لأنها تضبط أوقات ما يجرى ذلك لأجله من النيل المبارك والزراعة ، وتحفظ أحيانه دون السنة الهلالية وتحرس أوضاعه ، ولا يستقل بمعرفته الا من باشره ، وعرف موارده ومصادره ...

« فوجب أن يقصر على السنة الخراجية النظر ، ويفعل فيها ما تعظم به الفائدة ويحسن فيه الأثر ، ويعتمد فى ايضاح أمرها وتقديم حكمها على ما تتحلى به التواريخ وتزين به السير ، ويكون ذلك شاهدا لمساعى السيد الأجل الأفضل الذى لا يزال ساهرا ليله فى حياطة الهاجعين ، شاهرا سيفه فى حماية الوادعين ، مطلعا للدولة بدور السعادة وشموسها ، مذللا لها صعب الحوادث وشموسها ، ناطقة تارة بأن أمة هو راعيها ، قد فضل الله سائسها وأسعد مسوسها ...

« وهذا حين التبصير والارشاد ، وأوان التبيين للغرض والمراد ، لتساوى العامة والخاصة فى علمه ، وتسعهم الفائدة فى معرفة حكمه ، وتتحقق المنفعة لهم فيما يمنع من تداخل السنين واستقبالها ، وتتيقن المعدلة عليهم فيما يؤمن من المضار التى يحتاج الى استدراكها ...

« ومعلوم أن أيام السنة الخراجية — وهى السنة الشمسية — بخلاف السنة الهلالية ، لأن أيام السنة الخراجية ، من استقبال النوروز الى آخر النسىء ، ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم . وأيام السنة الهلالية ، لاستقبال المحرم الى آخر ذى الحجة ، ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما . والخلاف فى كل سنة بالتقريب أحد عشر يوما ، وفى كل ثلاث وثلاثين سنة سنة واحدة على حكم التقريب ، ويقتضيه ما تقدم من الترتيب ...

« فاذا اتفق أن يكون أول الهلالية موافقا لمدخل السنة الخراجية ، وكانت نسبتهما واحدة ، استمر اتفاق التسمية فيهما ، وبقى ذلك جاريا عليهما ، ولم يزالا متداخلين لكون مدخل الخراجية فى أثناء شهور الهلالية الى انقضاء ثلاث وثلاثين سنة ...

« فاذا انقضت هذه المدة بطلت المداخلة ، وخلت السنة * الهلالية من نوروز يكون فيها ، وبحكم ذلك بطل اتفاق التسمية ، ويكون التفاوت سنة واحدة للعلة المقدم ذكرها . ومن أين يستمر بينهما ائتلاف ، أو يعدم لهما اختلاف ؟ أم كيف يعتقد ذلك أحد من البشر ، والله تعالى يقول : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر » ؟ فقد وضح دليل التباعد بما جاء منصوصا فى الكتاب ، وظهر برهانه بما اقتضاه موجب الحساب ، فيحتاج بحكم ذلك الى نقل السنة الشمسية الى التى تليها ، لتكون موافقة للهلالية وجارية معها ...

« وفائدة النقل ألا تخلو السنة الهلالية من مال خاص ينسب الى السنة الموافقة لها ، لأن واجبات العسكرية على عظمها واتساعها ، وأرزاق المرتزقة على اختلاف أجناسها وأوضاعها ، جارية على أحكام الهلالية ، غير معدول بها عن ذلك فى حال من الأحوال ، والمحافظة على ثمرة ارتفاعها متعينة ، ومنفعة العناية بما تجرى عليه واضحة مبينة ...

« ولما أهلت سنة احدى وخمسمائة ، ودخلت فيها سنة تسع وتسعين وأربعمائة الخراجية ، الموافقة لسنة احدى وخمسمائة الهلالية ، كان فى ذلك من التباين والتعارض والتفاوت والتنافر — بحكم اهمال النقل فيما تقدم — ما صارت السنة الهلالية الحاضرة لا يجبى خراج ما يوافقها فيها ، ولا تدرك غلات السنة المجرى مالها عليها الا فى السنة التى تليها ، فهى تستهل وتنقضى وليس لها فى الخراجى ارتفاع ، والأعمال تطيف بالزراعة ولا حظ لها فى ذلك ولا انتفاع ...

« وهذه الحال المضرة بها على بيت المال غير خفية ، والأذية فيها للرجال المقطعين بادية ، وأسباب لحوقها اياهم مستمرة متمادية ... ولا سيما من وقع له بانبات ، وأنعم عليه بزيادات ، فانهم يتعجلون الاستقبال ، ويتأجلون الاستغلال ...

« ومتى لم تنقل هذه السنة الخراجية ، كانت متداخلة بين سنين هلالية ، وهى موافقة لغيرها ومالها يجرى على سنة تجرى بينهما . لأن مدخلها فى اليوم العاشر من المحرم سنة احدى وخمسمائة ، وانقضاؤها فى العشرين من المحرم سنة اثنتين وخمسمائة ، وهى متداخلة بين هاتين السنتين ، ومالها يجرى على سنة

(*) ص٢٨٠ جـ١ ، ط. بولاق .

احدى وخمسمائة . والحال فى ذلك لا ينتهى الى أمد ، ولا يزال الفساد يتزايد طول الأبد ...

« وقد رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه ، ما خرج به أمره الى السيد الأجل الأفضل الذى به على هذا الأمر وكشف غامضه ، وأزال بحسن توصله تنافيه وتناقضه ، أن يوعز الى ديوان الانشاء بكتب هذا السجل مضمنا ما رآه ودبره ، مودعا انفاذ ما أحكمه وقرره ، من نقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة الى سنة احدى وخمسمائة ، لتكون موافقة لها ، ويجرى عليها مالها ، ويكون ما يستأدونه من اقطاعاتهم ، ويستخرجونه من واجباتهم ، جاريا على نظام محروس ، ونطاق محيط غير منحوس ، وشاهدا بنصيب موف غير منقوص ، ويتضح ما أبهم اشكاله التعمية ، ويزول الاستكراه فى اختلاف التسمية ، ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية الى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة...

« وينسب مال الخراج والمقاسمات ، وما يستغل ويجبى من الاقطاعات — مما كان جاريا على ذكر سنة تسع وتسعين وأربعمائة — الى سنة احدى وخمسمائة ، وتجرى الاضافة اليها مجرى ما يرتفع من الهلالى فيها ، لتكون سنة احدى من هذه مشتملة على ما يخصها من مالها ، وعلى مال السنة الخراجية بما يشرح من انتقالها . وكذلك نقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة الخراجية الثابتة بالتسمية ، الى سنة احدى وخمسمائة المشار اليها ، ويكون مالها جاريا عليها ...

« فليعتمد ذلك فى الدواوين بالحضرة ، وفى سائر أعمال الدولة قاصيها ودانيها وفارسها وشاميها ، وليتنبه كافة الكتاب والمستخدمين ، وجميع العمال والمتصرفين ، الى اقتفاء هذه السنن واتباعه ، وليحذروا الخروج عن أحكامه المقررة وأوضاعه ، وليبادروا الى امتثال المرسوم فيه ، وليحذروا من تجاوزه وتعديه ، ولينسخ فى دواوين الأموال والجيوش المنصورة ، وليخلد بعد ذلك فى بيوت المال المعمورة » .

وكتب فى محرم سنة احدى وخمسمائة .

وقال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة ، ومن خطه نقلت : مستهل المحرم نسخ منشور بنقل السنة الخراجية الى السنة الهلالية ، والمطابقة بين اسمهما لموافقة الشهور العربية للشهور القبطية ، وخلو سنة سبع من نوروز ، فنقلت سنة خمس وستين وخمسمائة الخراجية الى هذه السنة .

وكان آخر نقل نقلته هذه السنة فى الأيام الأفضلية ، فان سنة ثمان وتسعين وأربعمائة وسنة تسع وتسعين الخراجيتين ، نقلتا الى سنة احدى وخمسمائة الخراجية .

وسبب هذا الافتراق بينهما زيادة عدد السنة الشمسية على عدد الهلالية أحد عشر يوما ، واغفال النقل فى سنة ثلاث وثلاثين فى أيام الوزير الأفضل رضوان بن ولخشى ، وانسحب ذيل هذه الزيادة وتداخل السنين بعضها فى بعض ، الى أن صار التفاوت بينهما سنتين فى هذه السنة ، فنقلت .

وهو انتقال لا يتعدى التسمية ، ولا يتجاوز اللفظ ، ولا ينقص * مالا لديوان ولا لمقطع ، وانما يقصد به ازالة الالباس وحل الاشكال .

وقال القاضى أبو الحسين : ونسخة الكتاب الذى أنشأه القاضى الفاضل :

« خرجت الأوامر الملكية الناصرية — زاد الله فى اعلائها — بابداع هذا المنشور :

« انا نؤثر من حسن النظر ما يؤثر أحسن الخبر ، ولا ينصرف بنا الفكر عما تحلى به السير وتجلى به الغير ، ولا تزال خواطرنا تعلى فتطلع الدرارى ، وتغوص فتخرج الدرر . وان أولى ما استحدث به البصائر ، وحرست فيه المصائر ، كل أمر يصحح المعاملات ويشرحها ، ويطلق عقولهم من عقول الاشكال ويسرحها ...

« ولما وجب نقل السنة الخراجية والمطابقة بينها وبين الهلالية ، لانفراجهما بسنتين وموافقة الشهور الخراجية والهلالية فى هذه السنة مطلع المستهلين ، أمضينا هذه السنة الخالية فى هذه السنة الآتية ، واستخرنا الله تعالى فى نقل سنتى خمس وست وستين وخمسمائة الى سنة سبع وستين وخمسمائة ، التى سميت بهذا النقل هلالية خراجية ، نفيا للأمور المشتبهة والتسمية المموهة ، وتنزيها لسنى الاسلام عن التكبيس ولتاريخه عن ملابسة التلبيس ، واعلاما بالوفاق الذى استشعرته آباؤها وبنوها ، واعلانا باتباعه عناية بعوايد السلف التى خلفوها للخلف وبنوها ...

« وفى ذلك ما تحمد به العواقب ، وتنفسح به المذاهب ، وتتيسر به المطالب ، ويزول به الاشكال ، ويؤمن به الاختلال ، وينحسم به الغلط فى الحساب ، ويؤلف بين السنين المختلفة الأنساب ، ويحفظ على القمر معاملته ويبعد عن التاريخ معاطلته ، ويقرب على الكاتب محاولته ، ويصرف عن نعمة الله هجنة كونها مقدمة فى التسنية مؤخرة فى التسمية ، وعن معاملة بيت المال وصمة كونها معذوقة بالمطل وقد بالغت فى التوفية ، لأن من أعطى فى سنة سبع وستين وخمسمائة استحقاق سنة خمس ، فلا ريب أنه قد مطل بحكم السمع ، وان كان قد أنجز بحكم الشرع ...

« فتوسم هذه السنة المباركة بالهلالية الخراجية ، وترفع الحسبانات بهذا الوضع ، ويعمل فى التقريرات والتسجيلات على هذا . فليفعل فى ذلك ما يقضى بارتاج هذا الانفراج وجبر هذا الصدع ، وليعلم فى الدواوين علمه ، ولينفذ فيها حكمه بعد ثبوته الى حيث يثبت مثله ان شاء الله تعالى » .

وأما تاريخ العرب فانه لم يزل فى الجاهلية والاسلام يعمل بشهور الأهلة . وعدة شهور السنة عندهم اثنا عشر شهرا ، الا انهم اختلفوا فى أسمائها :

فكانت العرب العاربة تسميها : ناتق ، ونقيل ، وطليق ، وأسخ ، وأنخ ، وحلك ، وكسح ، وزاهر ، ونوط ، وحرف ، وبغش . فناتق هو المحرم ، ونقيل هو صفر ... وهكذا ما بعده على سرد الشهور .

(*) ص٢٨١ جـ١ ، ط. بولاق .

وكانت ثمود تسميها : موجب ، وموجر ، ومورد ، وملزم ، ومصدر ، وهوبر ، وهوبل ، وموها ، وديمر ، ودابر ، وحيقل ، ومسبل . فموجب هو المحرم ، وموجر صفر ... الا أنهم كانوا يبدأون بالشهور من ديمر وهو شهر رمضان ، فيكون أول شهور السنة عندهم .

ثم كانت العرب تسميها بأسماء أخر ، وهى : مؤتمر ، وناجر ، وخوان ، وصوان ، وحنتم ، وزبا ، والأصم ، وعادل ، ونابق ، ووعل ، وهواع ، وبرك .

ومعنى المؤتمر أنه يأتمر بكل شىء مما تأتى به السنة من أقضيتها ، وناجر من النجر وهو شدة الحر ، وخوان فعال من الخيانة ، وصوان (بكسر الصاد وضمها) فعال من الصيانة ، والزبا الداهية العظيمة المتكاثفة ، سمى بذلك لكثرة القتال فيه .

ومنهم من يقول : بعد صوان الزبا ، وبعد الزبا بائدة ، وبعد بائدة الأصم ، ثم واغل ، وباطل ، وعادل ، ورنه ، وبرك .

فالبائد من القتال ، اذ كان فيه يبيد كثير من الناس ، وجرى المثل بذلك فقيل « العجب كل العجب بين جمادى ورجب » . وكانوا يستعجلون فيه ، ويتوخون بلوغ الثار والغارات قبل رجب فانه شهر حرام ، ويقولون له « الأصم » لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال ، فلا يسمع فيه صوت سلاح .

والواغل الداخل على شرب ولم يدعوه ، وذلك لأنه تهجم على شهر رمضان .

وكان يكثر فى شهر رمضان شربهم الخمر ، لأن الذى يتلوه هى شهور الحج .

وباطل هو مكيال الخمر ، سمى به لافراطهم فيه فى الشرب ، وكثرة استعمالهم لذلك المكيال .

وأما العادل فهو من العدل ، لأنه من أشهر الحج ، وكانوا يشتغلون فيه عن الباطل .

وأما الزبا فلأن الأنعام كانت تزب فيه لقرب النحر . وأما برك فهو لبروك الابل اذا حضرت المنحر .

وقد روى أنهم كانوا يسمون المحرم مؤتمر ، وصفر ناجر ، وربيع الأول نصار ، وربيع الآخر خوان ، وجمادى الأولى حنتن ، وجمادى الآخرة الرنة ، ورجب الأصم — وهو شهر مضر ، وكانت العرب تصومه فى الجاهلية ، وكانت تمتار فيه وتمير أهلها ، وكان يأمن بعضهم بعضا فيه ، ويخرجون الى الأسفار ولا يخافون — وشعبان عادل ، ورمضان ناتق ، وشوال واغل ، وذو القعدة هواع ، وذو الحجة برك ، ويقال فيه أيضا أبروك ، وكانوا يسمونه الميمون .

ثم سمت العرب أشهرها بالمحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الآخر ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، ورجب ، وشعبان ورمضان ، وشوال ، وذى القعدة ، وذى الحجة * .

واشتقوا أسماءها من أمور اتفق وقوعها عند تسميتها : فالمحرم كانوا يحرمون فيه

(*) ص٢٨٢ جـ١ ، ط. بولاق .

القتال ، وصفر كانت تصفر فيه بيوتهم لخروجهم الى الغزو ، وشهرا ربيع كانا زمن الربيع ، وشهرا جمادى كانا يجمد فيهما الماء لشدة البرد ، ورجب الوسط ، وشعبان يشعب فيه القتال ، ورمضان من الرمضاء لأنه كان يأتى فيه القيظ ، وشوال تشيل فيه الابل أذنابها ، وذو القعدة لقعودهم فى دورهم ، وذو الحجة لأنه شهر الحج .

وأنت اذا تأملت اشتقاق أسماء شهور الجاهلية أولا ، ثم اشتقاقها ثانيا ، تبين لك أن بين التسميتين زمانا طويلا ، فان صفر فى أحدهما هو صميم الحروب وفى الآخر رمضان ، ولا يمكن ذلك فى وقت واحد أو وقتين متقاربين .

وكانت العرب أولا تستعمل هذه الشهور على نحو ما يستعمله أهل الاسلام ، اما بطريق الهى أو لأن العرب لم يكن لها دراية بمراعاة حساب حركات النيرين ، فاحتاجت الى استعمال مبادى الشهور لرؤية الأهلة ، وجعلت زمان الشهر بحسب ما يقع بين كل هلالين : فربما كان بعض الشهور تاما أعنى ثلاثين يوما ، وربما كان ناقصا أعنى تسعة وعشرين يوما ، وربما كانت أشهر متوالية تامة أكثرها أربعة وهذا نادر ، وربما كانت أشهر متوالية ناقصة أكثرها ثلاثة .

وكان يقع حج العرب فى أزمنة السنة كلها ، وهو أبدا عاشر ذى الحجة من عهد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، فاذا انقضى موسم الحج تفرقت العرب طالبة أماكنها ، وأقام أهل مكة بها .

فلم يزالوا على ذلك دهرا طويلا الى أن غيروا دين ابراهيم واسماعيل ، فأحبوا أن يتوسعوا فى معيشتهم ، ويجعلوا حجهم فى وقت ادراك شغلهم من الأدم والجلود والثمار ونحوها ، وأن يثبت ذلك على حالة واحدة فى أطيب الأزمنة وأخصبها ... فتعلموا كبس الشهور من اليهود الذين نزلوا يثرب من عهد شمويل نبى بنى اسرائيل ، وعملوا النسىء قبل الهجرة بنحو مائتى سنة ، وكان الذى يلى النسىء يقال له القلمس ، يعنى الشريف .

وقد اختلف فى أول من أنسأ الشهور منهم :

فقيل القلمس هو عدى بن زيد .

وقيل القلمس هو سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، وأنه قال : أرى شهور الأهلة ثلثمائة وأربعة وخمسين يوما ، وأرى شهور العجم ثلثمائة وخمسة وستين يوما . فبيننا وبينهم أحد عشر يوما ، ففى كل ثلاث سنين ثلاثة وثلاثون يوما ، ففى كل ثلاث سنين شهر .

وكان اذا جاءت ثلاث سنين قدّم الحج فى ذى القعدة ، فاذا جاءت ثلاث سنين أخّر فى المحرم .

وكانت العرب اذا حجت قلدت الابل النعال وألبستها الجلال وأشعرتها ، فلا يتعرض لها أحد الا خثعم .

وكان النسىء فى بنى كنانة ، ثم فى بنى ثعلبة بن مالك بن كنانة ، وكان الذى يلى ذلك منهم أبو ثمامة المالكى . ثم فى بنى فقيم .

وبنو فقيم هم النساءة ، وهو منسىء الشهور ، وكان يقوم على باب الكعبة فيقول : ان آلهتكم العزى قد أنسأت صفر الأول ، وكان يحله عاما ويحرمه عاما ، وكان أتباعهم على ذلك غطفان وهوازن وسليم وتميم .

وآخر النساءة جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة بن عبد بن فقيم .

وقيل القلمس هو حذيفة بن عبد بن فقيم ابن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، ثم توارث ذلك منه بنوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الاسلام أبو ثمامة جنادة .

وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه ، فأحل لهم من الشهور وحرم ، فأحلوا ما أحل وحرموا ما حرم .

وكان اذا أراد أن ينسىء منها شيئا ، أحل المحرم فأحلوه ، وحرم مكانه صفر فحرموه ، ليواطئوا عدة الأربعة .

فاذا أرادوا الهدى ، اجتمعوا اليه فقال : اللهم انى لا أجاب ولا أعاب فى أمرى ، والأمر لما قضيت . اللهم انى قد أحللت دماء المحلين من طى وخثعم ، فاقتلوهم حيث ثقفتموهم (أى ظفرتم بهم) ، اللهم انى قد أحللت أحد الصفرين : الصفر الأول ، وأنسأت الآخر من العام المقبل .

وانما أحل دم طى وخثعم ، لأنهم كانوا يعدون على الناس فى الشهر الحرام من بين جميع العرب .

وقيل أول من أنسأ سرير بن ثعلبة والقرض . فأنسأ من بعده ابن أخيه القلمس ، واسمه عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة ، ثم صار النسىء فى ولده ، وكان آخرهم أبو ثمامة جنادة .

وقيل عوف بن أمية بن قلع ، عن أبيه أمية ابن قلع ، عن جده قلع بن عباد ، عن جد أبيه عباد بن حذيفة ، عن جد جده حذيفة بن عبد ابن فقيم .

وكان يقال لحذيفة القلمس ، وهو أول من أنسأ الشهور على العرب ، فأحل منها ما أحل ، وحرم ما حرم .

ثم كان بعد عوف المذكور ولده أبو ثمامة جنادة بن عوف ، وعليه قام الاسلام ، وكان أبعدهم ذكرا ، وأطولهم أمدا ... يقال انه أنسأ أربعين سنة .

ولهم يقول عمير بن قيس جذل الطعان يفتخر :

وأى الناس لم يسبق بوتر
وأى الناس لم يعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معد
شهور الحل نجعلها حراما ؟

وقال آخر * :

أتزعم انى من فقيم بن مالك
لعمرى لقد غيرت ما كنت أعلم
لهم ناسىء يمشون تحت لوائه
يحل اذا شاء الشهور ويحرم

(*) ص٢٨٣ جـ١ ، ط.بولاق .

وقيل كانت العرب تكبس فى كل أربع وعشرين سنة قمرية بتسعة أشهر ، فكانت شهورهم ثابتة مع الأزمنة ، جارية على سنن واحد ، لا تتأخر عن أوقاتها ولا تتقدم .

وكان النسىء الأول للمحرم ، فسمى صفر باسمه ، وشهر ربيع الأول باسم صفر .

ثم والوا بين أسماء الشهور ، فكان النسىء الثانى بصفر فسمى الذى كان يتلوه بصفر أيضا ، وكذلك حتى دار النسىء فى الشهور الاثنى عشر وعاد الى المحرم ، فأعادوا فعلهم الأول .

وكانوا يعدون أدوار النسىء ، ويحدون بها الأزمنة فيقولون : قد دارت السنون ، من لدن زمان كذا الى زمان كذا كذا وكذا ، دورة . فان ظهر لهم مع ذلك تقدم شهر عن فصله من الفصول الأربعة ، لما يجتمع من كسور سنة الشمس بقية فضل ما بينها وبين سنة القمر الذى ألحقوه بها ، كبسوها كبسا ثانيا .

وكان يظهر لهم ذلك بطلوع منازل القمر وسقوطها ... حتى هاجر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت نوبة النسىء بلغت شعبان ، فسمى محرما وشهر رمضان صفر .

وقيل ان الناسىء الأول نسأ المحرم وجعله كبسا ، وأخر المحرم الى صفر ، وصفر الى ربيع الأول ، وكذا بقية الشهور . فوقع لهم فى تلك السنة عاشر المحرم ، وجعل تلك السنة ثلاثة عشر شهرا ، ونقل الحج بعد كل ثلاث سنين شهرا .

فمضى على ذلك مائتان وعشر سنين ، وكان انقضاؤها سنة حجة الوداع .

وكان وقوع الحج فى السنة التاسعة من الهجرة عاشر ذى القعدة ، وهى السنة التى حج فيها أبو بكر الصديق رضى الله عنه بالناس .

ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السنة العاشرة حجة الوداع ، لوقوع الحج فيها عاشر ذى الحجة كما كان فى عهد ابراهيم واسماعيل ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى حجته هذه : « ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » ... يعنى رجوع الحج والشهور الى الوضع .

وأنزل الله تعالى ابطال النسىء بقوله تعالى : « انما النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم » فبطل ما أحدثته الجاهلية من النسىء ، واستمر وقوع الحج والصوم برؤية الأهلة ، ولله الحمد .

وكانت العرب لها تواريخ معروفة عندها قد بادت ، فمما كانت تؤرخ به أن كنانة أرخت من موت كعب بن لؤى ، حتى كان عام الفيل فأرخوا به ، وهو عام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان بين كعب بن لؤى والفيل خمسمائة وعشرون سنة ، وكان بين الفيل وبين الفجار أربعون سنة .

ثم عدوا من الفجار الى وفاة هشام بن المغيرة فكان ست سنين ، ثم عدوا من وفاة

هشام بن المغيرة الى بنيان الكعبة فكان تسع سنين ، ثم كان بين بنائها وبين هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة سنة .

ثم وقع التاريخ من الهجرة النبوية ... فعن سعيد بن المسيب قال : جمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الناس فسألهم : من أى يوم يكتب التاريخ ؟

فقال على بن أبى طالب : من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك أرض الشرك ... ففعله عمر .

وعن سهل بن سعد الساعدى قال : أخطأ الناس فى العدد ، ما عدوا من مبعثه ولا من وفاته ، انما عدوا من مقدمه المدينة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان التاريخ من السنة التى قدم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

وقال قرة بن خالد عن محمد : كان عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه عامل جاء من اليمن فقال لعمر : أما تؤرخون ؟ تكتبون فى سنة كذا وكذا من شهر كذا وكذا .

فأراد عمر والناس أن يكتبوا من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قالوا من عند وفاته ، ثم أرادوا أن يكون ذلك من الهجرة .

ثم قالوا : من أى شهر ؟ فأرادوا أن يكون من رمضان ، ثم بدا لهم فقالوا من المحرم .

وقال ميمون بن مهران : رفع الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه صك محله شعبان ، فقال : أى شعبان هو ؟ أشعبان الذى نحن فيه أو الآتى ؟

ثم جمع وجوه الصحابة فقال : ان الأموال قد كثرت ، وما قسمنا منها غير موقت ، فكيف التوصل الى ما يضبط به ذلك ؟

فقالوا : يجب أن يعرف ذلك من رسوم الفرس .

فعندها استحضر عمر رضى الله عنه الهرمزان وسأله عن ذلك .

فقال : ان لنا حسابا نسميه « ماهروز » معناه حساب الشهور والأيام .

فعربوا الكلمة ، وقالوا مؤرخ ، ثم جعلوه اسم التاريخ واستعملوه .

ثم طلبوا وقتا يجعلونه أولا لتاريخ دولة الاسلام ، فاتفقوا على أن يكون المبدأ من سنة الهجرة .

وكانت الهجرة النبوية من مكة الى المدينة وقد تصرم من شهور السنة وأيامها المحرم وصفر وأيام من ربيع الأول . فلما عزموا على تأسيس الهجرة ، رجعوا القهقرى ثمانية وستين يوما ، وجعلوا التاريخ من أول محرم هذه السنة .

ثم أحصوا من أول يوم فى المحرم الى آخر عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان عشر سنين وشهرين .

وأما اذا * حسب عمره المقدس من الهجرة حقيقة ، فيكون قد عاش صلى الله عليه

(*) ص٢٨٤ جـ١ ، ط.بولاق .

وسلم بعدها تسع سنين وأحد عشر شهرا واثنين وعشرين يوما .

وكان بين مولده صلى الله عليه وسلم ، وبين مولد المسيح عليه السلام ، خمسمائة وثمان وسبعون سنة ، تنقص شهرين وثمانية أيام .

وابتداء تاريخ الهجرة يوم الخميس أول شهر الله المحرم ، وبينه وبين الطوفان ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوما ، على ما عرفنا من الخلاف فى ذلك .

وبينه وبين تاريخ الاسكندر بن فيلبس المقدونى الرومى تسعمائة واحدى وستون سنة قمرية وأربعة وخمسون يوما ، تكون من السنين الشمسية تسعمائة واثنين وثلاثين سنة ومائتين وتسعة وثمانين يوما ، منها تسعة أشهر وتسعة عشر يوما .

وبينه وبين تاريخ القبط ثلثمائة وسبع وثلاثون سنة وتسعة وثلاثون يوما .

وقال ابن ماشا الله (*) : ان انتقال القر من المثلثة الهوائية التى هى برج الجوزاء دولتها ، الى برج السرطان ومثلثته المائية التى كانت دولة الاسلام فيها ، عند تمام ستة آلاف وثلثمائة وخمس وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما من وقت القران الأول الواقع فى بدء التحرك (يعنى خلق آدم عليه السلام) ، وان القران من هذه المثلثة وقع فى أربع درج ودقيقة واحدة من برج العقرب ، وهو قران الملة الاسلامية .

قال : وفى السنة الثانية من هذا القران ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بين دخول الشمس برج الحمل فى هذه السنة ، وبين أول يوم من سنة الهجرة ، سنون فارسية عدتها احدى وخمسون سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام وست عشرة ساعة ، فكان من وقت الطوفان الى وقت قران الملة ثلاثة آلاف وتسعمائة واثنتا عشرة سنة وستة أشهر وأربعة عشر يوما .

وزعمت اليهود أن من آدم عليه السلام الى سنة الهجرة أربعة آلاف واثنتين وأربعين سنة وثلاثة أشهر .

وزعمت النصارى أن بينهما خمسة آلاف وتسعمائة وتسعين سنة وثلاثة أشهر .

وزعمت المجوس ، أعنى الفرس ، أن بينهما أربعة آلاف ومائة واثنتين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوما .

وقد عرفت أن شهور تاريخ الهجرة قمرية ، وأيام كل سنة منها عدتها ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس وسدس يوم .

وجميع الأحكام الشرعية مبنية على رؤية الهلال عند جميع فرق الاسلام ، ما عدا الشيعة فان الأحكام مبنية عندهم على عمل شهور السنة بالحساب ، على ما ستراه فى ذكر القاهرة وخلفائها .

ثم لما احتاج منجمو الاسلام الى استخراج ما لابد منه ، من معرفة الأهلة وست القبلة

قوله « وقال ابن ... » الخ . هكذا هذه العبارة فى جميع النسخ التى بيدى ، ولا تخلو من تحريف كغيره كثير من عبارات هذا الكتاب ، ولا يعلم الغيب الا الله . اهـ .

وغير ذلك ، بنوا أزياجهم على التاريخ العربى ، وجعلوا شهور السنة العربية شهرا كاملا وشهرا ناقصا ، وابتدأوا بالمحرم اقتداء بالصحابة رضى الله عنهم .

فجعلوا المحرم ثلاثين يوما ، وصفر تسعة وعشرين يوما ، وربيعا الأول ثلاثين يوما ، وربيعا الآخر تسعة وعشرين يوما ، وجمادى الأولى ثلاثين يوما ، وجمادى الآخرة تسعة وعشرين يوما ، ورجب ثلاثين يوما ، وشعبان تسعة وعشرين يوما ، ورمضان ثلاثين يوما ، وشوالا تسعة وعشرين يوما ، وذا القعدة ثلاثين يوما ، وذا الحجة تسعة وعشرين يوما .

وزادوا من أجل كسر اليوم ، الذى هو خمس وسدس ، يوما فى ذى الحجة اذا صار هذا الكسر أكثر من نصف يوم ، فيكون شهر ذى الحجة فى تلك السنة ثلاثين يوما ، ويسمون تلك السنة كبيسة ، ويصير عددها ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما ، ويجتمع فى كل ثلاثين من الكبس أحد عشر يوما . والله أعلم .

وأما تاريخ الفرس — ويعرف أيضا بتاريخ يزدجرد — فانه من ابتداء تملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز ... أرخ به الفرس من أجل أن يزدجرد قام فى المملكة ، بعد ما تبدد ملك فارس ، واستولى عليه النساء والمتغلبون . وهو أيضا آخر ملوك فارس ، وبقتله تمزق ملكهم .

وأول هذا التاريخ يوم الثلاثاء ، وبينه وبين تاريخ الهجرة تسع سنين وثلثمائة وثمانية وثلاثون يوما . وأيام سنة هذا التاريخ تنقص عن السنة الشمسية ربع يوم ، فيكون فى كل مائة وعشرين سنة شهرا واحدا . ولهم فى كبس السنة آراء ليس هذا موضع ايرادها . وعلى هذا التاريخ يعتمد فى زمننا أهل العراق وبلاد العجم . ولله عاقبة الأمور .

ذكر فسطاط مصر

قال الجوهرى : الفسطاط بيت من شعر . قال : ومنه فسطاط مدينة مصر .

اعلم أن فسطاط مصر اختط فى الاسلام بعدما فتحت أرض مصر ، وصارت دار اسلام ، وقد كانت بيد الروم والقبط وهم نصارى ملكانية ويعقوبية وميانية .

وحين اختط المسلمون الفسطاط ، انتقل كرسى المملكة من مدينة الاسكندرية ، بعد ما كانت منزل الملك ودار الامارة زيادة على تسعمائة سنة ، وصار من حينئذ الفسطاط دار امارة ينزل به أمراء مصر . فلم يزل على (*) ذلك حتى بنى العسكر بظاهر الفسطاط ، فنزل فيه أمراء مصر وسكنوه ، وربما سكن بعضهم الفسطاط .

فلما أنشأ الأمير أبو العباس أحمد بن طولون القطائع بجانب العسكر ، سكن فيها ، واتخذها الأمراء من بعده منزلا ... الى أن انقرضت دولة بنى طولون ، فصار أمراء مصر من بعد ذلك ينزلون بالعسكر خارج الفسطاط .

وما زالوا على ذلك ، حتى قدمت عساكر الامام المعز لدين الله أبى تميم معد الفاطمى

(*) ص٢٨٨ جـ١ ، ط بولاق .

مع كاتبه جوهر القائد ، فبنى القاهرة وصارت خلافة .

واستمر سكنى الرعية بالفسطاط ، وبلغ من وفور العمارة وكثرة الخلائق ما أربى على عامة مدن المعمور — حاشا بغداد — وما زال على ذلك حتى تغلب الفرنج على سواحل البلاد الشامية ، ونزل مرى ملك الفرنج بجموعه الكثيرة على بركة الحبش يريد الاستيلاء على مملكة مصر وأخذ الفسطاط والقاهرة .

فعجز الوزير شاور بن مجير السعدى عن حفظ البلدين معا ، فأمر الناس بإخلاء مدينة الفسطاط واللحاق بالقاهرة لامتناع من الفرنج — وكانت القاهرة اذ ذاك من الحصانة والامتناع بحيث لا ترام — فارتحل الناس من الفسطاط ، وساروا بأسرهم الى القاهرة ، وأمر شاور فألقى العبيد النار فى الفسطاط ، فلم تزل به بضعا وخمسين يوما حتى احترقت أكثر مساكنه .

فلما رحل مرى عن القاهرة ، واستولى شيركوه على الوزارة ، تراجع الناس الى الفسطاط ورموا بعض شعثه ، ولم يزل فى نقص وخراب الى يومنا هذا . وقد صار الفسطاط يعرف فى زمننا بمدينة مصر . والله أعلم .

ذكر ما كان عليه موضع الفسطاط قبل الاسلام الى ان اختطه المسلمون مدينة

اعلم أن موضع الفسطاط — الذى يقال له اليوم مدينة مصر — كان فضاء ومزارع ، فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن ، يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع والمعلقة ، ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم ، عند مسيره من مدينة الاسكندرية ، ويقيم فيه ما شاء ، ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك من الاسكندرية .

وكان هذا الحصن مطلا على النيل ، وتصل السفن فى النيل الى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد ، ومنه ركب المقوقس فى السفن فى النيل من بابه الغربى حين غلبه المسلمون على الحصن المذكور ، وصار فيه الى الجزيرة التى تجاه الحصن ، وهى التى تعرف اليوم بالروضة قبالة مصر .

وكان مقياس النيل بجانب الحصن .

وقال ابن المتوج : وعمود القياس موجود فى زقاق مسجد ابن النعمان — قلت : وهو باق الى يومنا هذا ، أعنى سنة عشرين وثمانمائة .

وكان هذا الحصن لا يزال مشحونا بالمقاتلة وسيرد فى هذا الكتاب خبره ان شاء الله تعالى .

وكان بجوار هذا الحصن من بحريه ، وهى الجهة الشمالية ، أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق . وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى ، فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة .

وبجانب الحصن — فيما بين الكروم التى كانت بجانبه وبين الجرف الذى يعرف اليوم بجبل يشكر ، حيث جامع ابن طولون والكبش — عدة كنائس وديارات النصارى ، فى الموضع الذى كان يعرف فى أوائل الاسلام بالحمراء ، ويعرف الآن بخط قناطر السباع والسبع سقايات .

وبقى بالحمراء عدة من الديارات الى أن هدمت فى سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، على ما ذكر فى هذا الكتاب عند ذكر كنائس النصارى .

فلما افتتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية الفتح الأول ، نزل بجوار هذا الحصن ، واختط الجامع المعروف بالجامع العتيق وبجامع عمرو بن العاص ، واختطت قبائل العرب من حوله ، فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ، ونزل الناس بها .

فانحسر بعد الفتح بأعوام ماء النيل عن أرض تجاه الحصن والجامع العتيق ، فصار المسلمون يوقفون هناك دوابهم ، ثم اختطوا فيه المساكن شيئا بعد شىء .

وصار ساحل البلد حيث الموضع الذى يقال له اليوم فى مصر المعاريج ، مارا الى الكوم الذى على يسرة الداخل من باب مصر بحد الكبارة . وفى موضع هذا الكوم كانت الدور المطلة على النيل .

ويمر الساحل من باب مصر المذكور الى حيث بستان ابن كيسان ، الذى يعرف اليوم ببستان الطواشى ، فى أول مراغة مصر .

وجميع الأماكن التى تعرف اليوم بمراغة مصر وبالجرف الى الخليج عرضا ، ومن حيث قنطرة السد الى سوق المعاريج طولا ، كان غامرا بماء النيل ، الى أن انحسر عنه ماء النيل بعد سنة ستمائة من سنى الهجرة ، فصار رملة .

ثم اختط فيه الأمراء مما يلى النيل آدرا عندما عمر الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة ، واختط بعضه شونا — الى أن أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون جامعه ، المعروف بالجامع * الجديد الناصرى ، ظاهر مصر ، فعمر ما حوله .

وقد كان عند فتح مصر سائر المواضع التى من منشاة المهرانى الى بركة الحبش طولا ، ومن ساحل النيل بموردة الحلفاء ، وتجاه الجامع الجديد الى سوق المعاريج ، وما على سمته الى تجاه المشهد الذى يقال له مشهد الرأس — وتسميه العامة اليوم مشهد زين العابدين — كلها بحرا ... لا يحول بين الحصن والجامع ، وما على سمتهما الى الحمراء الدنيا التى منها اليوم خط قناطر السباع ، وبين جزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة ، شىء سوى ماء النيل .

وجميع ما فى هذه المواضع من الأبنية ، انكشف عنه النيل قليلا قليلا ، واختط على ما يتبين لك فى هذا الكتاب .

ذكر الحصن الذى يعرف بقصر الشمع

اعلم أن هذا القصر أحدث بعد خراب مصر على يد بخت نصر . وقد اختلف فى الوقت الذى بنى فيه ، ومن أنشأه من الملوك . فذكر الواقدى أن الذى بناه اسمه الريان بن الوليد ابن أرسلاوس .

(*) ص٢٨٦ جـ١ ، ط بولاق .

وكان هذا القصر يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر . وذلك أنه اذا حلت الشمس فى برج من البروج ، أوقد فى تلك الليلة الشمع على رأس ذلك القصر ، فيعلم الناس بوقود الشمع أن الشمس انتقلت من البرج الذى كانت فيه الى برج آخر غيره .

ولم يزل القصر على حاله الى أن خربت مصر زمن بخت نصر بن نيرُوز الكلدانى ، فأقام خرابا خمسمائة سنة ، ولم يبق منه الا أثره فقط .

فلما غلب الروم على مصر وملكوها من أيدى اليونانيين ، ولى مصر من قبلهم رجل يقال له أرجاليس بن مقراطيس ، فبنى القصر على ما وجد من أساسه .

وقال ابن سعيد : وصارت مصر والشام بعد بخت نصر فى مملكة الفرس ، فوليها منهم كشرجوش الفارسى بانى قصر الشمع ، وبعده طخارست الطويل الولاية ، وتوالت بعده نواب الفرس الى ظهور الاسكندر .

وقال غيره : ان الذى بناه طخشاشت ، أحد ملوك الفرس ، عندما سار لمحاربة أهل مصر ، فلما غلب قسطو ملك مصر الذى يعرف بفرعون سابان ، وفر منه الى مقدونية ، غلب على ملك مصر ، واستولى عليها ، وبنى للفرس قصرا ، وجعل فيه بيت نار على شاطىء النيل الشرقى ، وعرف بقصر الشمع لأنه كان له باب يقال له باب الشمع ، وجعل فى القصر بيت نار ، وهو باق .

وقال ابن عبد الحكم ، عن الليث بن سعد : وكانت الفرس قد أسست بناء الحصن الذى يقال له باب اليون ، وهو الحصن الذى بفسطاط مصر اليوم ، فلما انكشف جموع فارس عن الروم ، وأخرجتهم الروم من الشام ، أتمت بناء ذلك الحصن وأقامت به . فلم تزل مصر فى ملك الروم حتى فتحها الله تعالى على المسلمين .

قال : وكان أبو الأسود نصر بن عبد الجبار يقولها بالميم (يعنى باب اليوم) ، ويقال انما سمى كذا لأنهم كانوا يقولون : من يقاتل اليوم ؟

وقال القضاعى : ذكر الحصن المعروف بقصر الشمع : يقال ان فارس لما ظهرت على الروم ، وملكت عليهم الشام وملكت مصر ، بدأت ببناء هذا القصر ، وبنت فيه هيكلا لبيت النار ، ولم يتم بناؤه على أيديهم الى أن ظهرت الروم عليهم ، فتممت بناءه وحصنته ، ولم تزل فيه الى حين الفتح .

وهيكل النار هو القبة المعروفة اليوم بقبة الدخان ، وبحضرتها مسجد معلق أحدثه المسلمون .

وقال أبو عبيد البكرى : باب اليون بمصر ان كان عربيا فانه مثل يوم ويوح مما فاؤه ياء وعينه واو ، وقد يجوز أن يكون فعلا من بين — وهو اسم موضع — على مذهب أبى الحسن فى فعل من البيع بوع ... قال : وليست الألف واللام فيه للتعريف ، فعلى هذا يجب أن تثبت فى الرسم .

وقال أبو صخر :

وحلوا تهامى أرضنا وتبدلوا
بمكة باب اليون والربط بالعصب

والرواية فى شعر كثير عزة فى قوله :

جرى بين باب البون والعصب
دونه رياح أشفت بالنقى وأشمت

بالباء وبفتح النون غير مجرور للعجمة ، على أن همزته مقطوعة وصلها للضرورة .

وقال الحازمى : باب البون — بالباء — اسم مدينة مصر ، فتحها المسلمون وسموها الفسطاط .

وقال عبد الملك بن هشام : بابليون المنسوب اليه مصر ، هو بابليون بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وان من ولده عمرو بن امرىء القيس بن بابليون بن سبأ ، وهو الملك على مصر ، لما قدم اليها ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه . والقبط تسمى عمرا هذا طوطيس ، ومن ولده حلوان ابن بابليون بن عمرو بن امرىء القيس ، وبه سميت حلوان .

وقال القاضى القضاعى : فى ظاهر الفسطاط القصر المعروف بباب ليون بالشرف — ليون اسم بلد مصر بلغة السودان والروم — وقد بقيت من بنائه بقية مبنية بالحجارة * على طرف الجبل بالشرف ، وعليه اليوم مسجد .

قال المؤلف : فهذا — كما ترى — صريح فى أن قصر باب اليون غير قصر الشمع ، فان قصر الشمع فى داخل الفسطاط ، وقصر باب اليون هذا — عند القضاعى — على الجبل المعروف بالشرف ، والشرف خارج الفسطاط ، وهو خلاف ما قاله ابن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر . والله أعلم .

(*) ص٢٨٧ جـ١ ، ط. بولاق .

ويقال ان فى زمن ناحور بن شاروع — وهو الثامن عشر من آدم — ملك مصر رجل اسمه افطوطس مدة اثنتين وثلاثين سنة ، وانه أول من أظهر علم الحساب والسحر ، وحمل كتب ذلك من بلاد الكلدانيين الى مصر . وفى ذلك الزمان بنيت بابليون على بحر النيل بمصر ، وذلك لتمام ثلاثة آلاف وثلثمائة وتسعين للعالم .

وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب : وأما فسطاط مصر فان مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس ، وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن ، وعليه نزل عمرو بن العاص ، وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب اليه .

وهذا وهم من ابن سعيد ، فان فسطاط عمرو انما كان مضروبا عند درب حمام شمول بخط الجامع ... هكذا هو بخط الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة ، وهو أقعد بخطط مصر وأعرف من ابن سعيد .

وأما موضع الجامع فكان كروما وجنانا ، وحاز موضعه قيسبة التجيبى ثم تصدق به على المسلمين ، فعمل المسجد . وستقف على هذا ان شاء الله تعالى فى ذكر جامع عمرو ، عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب .

وقال ابن المتوج : خط قصر الشمع ، هذا الخط يعرف بقصر الشمع ، وفيه قصر الروم ، وفيه أزقة ودروب ... قال : وكنيسة المعلقة بمصر بباب القصر ، وهو قصر الروم .

وقال ابن عبد الحكم : وأقر عمرو بن العاص القصر لم يقسمه ووقفه .

وقال أبو عمرو الكندي في كتاب الأمراء، وقد ذكر قيام علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وطروق المسجد، في امارة يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة على مصر: وورد كتاب أبي جعفر المنصور على يزيد بن حاتم يأمره بالتحول من العسكر الى الفسطاط، وأن يجعل الديوان في كنائس القصر. وذلك في سنة ست وأربعين ومائة، والله أعلم.

ذكر حصار المسلمين للقصر وفتح مصر

اختلف الناس في فتح مصر.

فقال محمد بن اسحاق وأبو معشر ومحمد ابن عمرو الواقدي ويزيد بن أبي حبيب وأبو عمرو الكندي: فتحت سنة عشرين.

وقال سيف بن عمر: فتحت سنة ست عشرة.

وقيل فتحت سنة ست وعشرين، وقيل سنة احدى وعشرين، وقيل سنة اثنتين وعشرين.

والأول أصح وأشهر.

قال ابن عبد الحكم: لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية، قام اليه عمرو ابن العاص، فخلا به، فقال: يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير الى مصر. وحرضه عليها وقال: انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم، وهي أكثر الأرض أموالا، وأعجز عن القتال والحرب.

فتخوف عمر بن الخطاب وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك.

فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك، ويقال بل ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقال له عمر: سر وأنا مستخير الله في مسيرك، وسيأتيك كتابي سريعا ان شاء الله تعالى، فان أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف، وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك، واستعن بالله واستنصره.

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس.

واستخار عمر الله، فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب الى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك عمرا الكتاب اذ هو برفح.

فتخوف عمرو ان هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه، وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها، فقيل انها من مصر.

فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، فقال عمرو لمن معه: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟

قالوا: بلى.

قال: فان أمير المؤمنين عهد الي، وأمرني ان لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن

أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله.

ويقال بل كان عمرو بفلسطين، فتقدم عمرو بأصحابه الى مصر بغير اذن، فكتب فيه الى عمر رضي الله عنه، فكتب اليه عمر وهو دون العريش، فحبس الكتاب فلم يقرأه حتى بلغ العريش فقرأه، فاذا فيه:

« من عمر بن الخطاب الى العاصي ابن العاصي. أما بعد، فانك سرت الى مصر ومن * معك، وبها جموع الروم، وانما معك نفر يسير، ولعمري لو نكل بك ما سرت بهم، فان لم تكن بلغت مصر فارجع ».

فقال عمرو: الحمد لله أية أرض هذه؟

قالوا: من مصر ... فتقدم كما هو.

ويقال بل كان عمرو في جنده على قيسارية مع من كان بها من أجناد المسلمين وعمر بن الخطاب رضي الله عنه اذ ذاك بالجابية، فكتب سرا فاستأذن أن يسير الى مصر، وأمر أصحابه، فتنحوا كالقوم الذين يريدون أن يتنحوا من منزل الى منزل قريب، ثم سار بهم ليلا.

فلما فقده أمراء الأجناد، استنكروا الذي فعل، ورأوا أن قد غدر، فرفعوا ذلك الى عمر بن الخطاب.

فكتب اليه عمر: « الى العاصي ابن العاصي. أما بعد، فانك قد غررت بمن معك،

(*) ص٢٨٨ جـ١، ط. بولاق.

فان أدركك كتابي ولم تدخل مصر فارجع، وان أدركك وقد دخلت فامض، واعلم أني ممدك ».

ويقال ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب الى عمرو بن العاص بعد ما فتح الشام: أن اندب الناس الى المسير معك الى مصر، فمن خف معك فسر به. وبعث به مع شريك ابن عبدة. فندبهم عمرو، فأسرعوا الى الخروج مع عمرو.

ثم ان عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على عمر بن الخطاب، فقال عمر: كتبت الى عمرو بن العاص يسير الى مصر من الشام.

فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، ان عمرا لجريء، وفيه اقدام وحب للامارة، فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا.

فندم عمر على كتابه الى عمرو، وأشفق مما قال عثمان، فكتب اليه: « ان أدركك كتابي قبل أن تدخل الى مصر فارجع الى موضعك، وان كنت دخلت فامض لوجهك ».

فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو بن العاص الى مصر، توجه الى موضع الفسطاط، فكان يجهز على عمرو الجيوش، وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعيرج واليا عليه، وكان تحت يد المقوقس.

وأقبل عمرو حتى اذا كان بجبل الجلال نفرت معه راشدة وقبائل من لخم، فتوجه

عمرو حتى اذا كان بالعريش أدركه النحر ، فضحى عن أصحابه يومئذ بكبش .

وتقدم فكان أول موضع قوتل فيه الفرما ، قاتله الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ، ثم فتح الله عليه . وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى أن فرغ من حربه .

وكان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر ، كتب الى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا .

ثم توجه عمرو لا يدافع الا بالأمر الخفيف ، حتى نزل القواصر ، فسمع رجل من لخم نفرا من القبط يقول بعضهم لبعض : ألا تعجبون من هؤلاء القوم ، يقدمون على جموع الروم وانما هم فى قلة من الناس ؟!

فأجابه رجل منهم فقال : ان هؤلاء القوم لا يتوجهون الى أحد الا ظهروا عليه ... حتى يقتلوا خيرهم .

وتقدم عمرو لا يدافع الا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس ، فقاتلوه بها نحوا من الشهر حتى فتح الله عليه .

ثم مضى لا يدافع الا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين ، فقاتلوه بها قتالا شديدا .

وأبطأ عليه الفتح ، فكتب الى عمر يستمده ، فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف ، وقيل بل أمده باثنى عشر ألفا ، فوصلوا اليه أرسالا يتبع بعضهم بعضا ، فكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ... وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة .

ثم أحاط المسلمون بالحصن ، وأميره يومئذ المندقور — الذى يقال له الأعيرج — من قبل المقوقس بن قرقت اليونانى ، وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو فى سلطان هرقل ، غير أنه كان حاضر الحصن حين حاصره المسلمون ، فقاتل عمرو بن العاص من بالحصن .

وجاء رجل الى عمرو فقال : اندب معى خيلا حتى آتى من ديارتهم عند القتال .

فأخرج معه خمسمائة فارس ، عليهم خارجة ابن حذافة فى قول ، فساروا من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بنى وائل قبل الصبح .

وكانت الروم قد خندقوا خندقا ، وجعلوا له أبوابا ، وبنوا فى أفنيتها حسك الحديد ، فالتقى القوم حين أصبحوا ، وخرج خارجة من ورائهم ، فانهزموا حتى دخلوا الحصن ، وكانوا قد خندقوا حوله ، فنزل عمرو على الحصن ، وقاتلهم قتالا شديدا يصبحهم ويمسيهم .

وقيل انه لما أبطأ الفتح على عمرو ، كتب الى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه بذلك ، فأمده بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل منهم مقام الألف : الزبير بن العوام ، والمقداد ابن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، وقيل بل خارجة بن حذافة لا يعدون مسلمة .

وقال عمر : أعلم أن معك اثنى عشر ألفا ، ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة .

وقيل قدم الزبير فى اثنى عشر ألفا .

وان عمرا لما قدم من الشام كان فى عدة قليلة ، فكان يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم . فلما انتهى الى الخندق نادوه : أن قد رأينا ما صنعت ، وانما معك من أصحابك كذا وكذا ... فلم يخطئوا برجل واحد .

فأقام عمرو على ذلك أياما ، يغدو فى السحر فيصف أصحابه على أفواه الخندق عليهم السلاح ، فبينا هو على ذلك اذ جاءه خبر الزبير بن العوام أنه قدم * فى اثنى عشر ألفا ، فتلقاه عمرو ، ثم أقبلا يسيران .

ثم لم يلبث الزبير أن ركب ، ثم طاف بالخندق ، ثم فرق الرجال حول الخندق ، وألح عمرو على القصر ، ووضع عليه المنجنيق .

ودخل عمرو الى صاحب الحصن ، فتناظرا فى شىء مما هم فيه ، فقال عمرو : أخرج وأستشير أصحابى .

وقد كان صاحب الحصن أوصى الذى على الباب اذا مر به عمرو أن يلقى عليه صخرة فيقتله ، فمر عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب فقال له : قد دخلت ، فانظر كيف تخرج .

فرجع عمرو الى صاحب الحصن فقال له : انى أريد أن آتيك بنفر من أصحابى حتى يسمعوا منك مثل الذى سمعت .

(*) ص٢٨٩ جـ١ ، ط. بولاق .

فقال العلج فى نفسه : قتل جماعة أحب الى من قتل واحد وأرسل الى الذى كان أمره بما أمره به من قتل عمرو : ألا يتعرض له ، رجاء أن يأتيه بأصحابه فيقتلهم .

فخرج عمرو ... وعبادة بن الصامت فى ناحية يصلى وفرسه عنده ، فرآه قوم من الروم ، فخرجوا اليه وعليهم حلية وبزة ، فلما دنوا منه سلم من صلاته ، ووثب على فرسه ، ثم حمل عليهم .

فلما رأوه ولوا راجعين ، فأتبعهم فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم ، وهو لا يلتفت اليه ، حتى دخلوا الحصن ، ورمى عبادة من فوق الحصن بالحجارة ، فرجع ولم يتعرض لشىء مما طرحوا من متاعهم ، حتى رجع الى موضعه الذى كان به فاستقبل الصلاة ، وخرج الروم الى متاعهم يجمعونه .

فلما أبطأ الفتح على عمرو ، قال الزبير : انى أهب الله نفسى أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين .

فوضع سلما الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ، ثم صعد فأمرهم اذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا ، فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف ، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر .

وكبر الزبير ، فكبرت الناس معه ، وأجابهم المسلمون من خارج ، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعا ، فهربوا . وعمد

الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه ، واقتحم المسلمون الحصن .

فخاف المقوقس على نفسه ومن معه ، فحينئذ سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه اليه ، على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم ، فأجابه عمرو الى ذلك . وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر .

قال : وقد سمعت فى فتح القصر وجها آخر ، هو أن المسلمين لما حصروا باب اليون ، كان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس ، فقاتلوهم شهرا .

فلما رأى القوم الجد من العرب على فتحه والحرص ، ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه ، خافوا أن يظهروا عليهم ، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط ، وخرجوا من باب القصر القبلى ودونهم جماعة يقاتلون العرب ، فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم ، وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل .

ويقال ان الأعيرج تخلف فى الحصن بعد المقوقس ، وقيل خرج معهم ، فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف ، وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ، ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة .

فأرسل المقوقس الى عمرو : « انكم قوم قد ولجتم فى بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، وانما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وانما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا ان كان الأمر مخالفا لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شىء » .

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس ، حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس ، فقال لأصحابه : أترون أنهم يقتلون الرسل ، ويستحلون ذلك فى دينهم ؟

وانما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين .

فرد عليهم عمرو مع رسله : « أنه ليس بينى وبينكم الا احدى ثلاث خصال : اما ان دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا ، وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين » .

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال : كيف رأيتم هؤلاء ؟

قالوا : رأينا قوما الموت أحب الى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، انما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف

رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون فى صلاتهم .

فقال عند ذلك المقوقس : والذى يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل ، لم يجيبوا بعد اليوم اذا أمكنتهم الأرض ، وقووا * على الخروج من موضعهم .

فرد اليهم المقوقس رسله : ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ، ونتداعى نحن وهم الى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم .

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر ، أحدهم عبادة بن الصامت ، وكان طوله عشرة أشبار ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيبهم الى شىء دعوه اليه الا احدى هذه الثلاث خصال ، فان أمير المؤمنين قد تقدم الى فى ذلك ، وأمرنى ألا أقبل شيئا سوى خصلة من هذه الثلاث خصال .

وكان عبادة أسود ، فلما ركبوا السفن الى المقوقس ودخلوا عليه ، تقدم عبادة ، فهابه المقوقس لسواده ، وقال : نحوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى .

فقالوا جميعا : ان هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله .

(*) ص٢٩٠ ج١ ، ط.بولاق .

قال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وانما ينبغى أن يكون هو دونكم ؟

قالوا : كلا ، انه وان كان أسود كما ترى ، فانه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود وكلمنى برفق ، فانى أهاب سوادك ، وان اشتد كلامك على ، ازددت لك هيبة .

فتقدم عليه عبادة فقال : قد سمعت مقالتك ، وان فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا منى وأفظع منظرا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لى ... وأنا قد وليت وأدبر شبابى ، وانى مع ذلك — بحمد الله — ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا ، وكذلك أصحابى ...

وذلك انما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلب للاستكثار منها ، الا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك ، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا .

وما يبالى أحدنا ان كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك الا درهما ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله ، واقتصر على هذا الذى بيده ويبلغه ما كان فى الدنيا ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء ، انما النعيم والرخاء فى الآخرة .

وبذلك أمرنا الله ، وأمرنا به نبينا وعهد الينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا الا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس ذلك منه ، قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره ، وان قوله لأهيب عندى من منظره ... ان هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض ، ما أظن ملكهم الا سيغلب على الأرض كلها .

ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال له : أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك . ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها .

وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ... قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل . وانا لنعلم أنكم لم تقدروا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم .

وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار . فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به .

فقال عبادة بن الصامت : ياهذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك . أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه .

وان كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه . ان قتلنا من آخرنا ، كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شىء أقر لأعيننا ، ولا أحب لنا من ذلك .

وانا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين : اما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، ولأنها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا فى كتابه : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » .

وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وألا يرد الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وانما همنا ما أمامنا .

وأما قولك انا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا ، فنحن فى أوسع السعة ... لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه .

فانظر الذى تريد فبينه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها ،

الا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك فى الباطل ... بذلك أمرنى * الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل الينا :

اما ان أجبتم الى الاسلام الذى هو الدين القيم الذى لا يقبل الله غيره ، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته ، أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فان فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا ، وكان أخانا فى دين الله . فان قبلت ذلك أنت وأصحابك ، فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم .

وان أبيتم الا الجزية ، فأدوا الينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وأن نعاملكم على شىء نرضى به نحن وأنتم فى كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم اذ كنتم فى ذمتنا ، وكان لكم به عهد علينا .

وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت من آخرنا ، أو نصيب ما نريد منكم ... هذا ديننا الذى ندين الله تعالى به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظروا لأنفسكم .

فقال المقوقس : هذا ما لا يكون أبدا ، ما تريدون الا أن تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا .

فقال له عبادة : هو ذاك ، فاختر لنفسك ما شئت .

(*) ص ٢٩١ جـ١ ، ط. بولاق .

فقال المقوقس : أفلا تجيبونا الى خصلة غير هذه الثلاث خصال ؟

فرفع عبادة يديه الى السماء فقال : لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء ، ما لكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم .

فالتفت المقوقس عند ذلك الى أصحابه فقال : قد فرغ القوم فما ترون ؟

فقالوا : أويرضى أحد بهذا الذل ! أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم ، فهذا لا يكون أبدا أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل فى دين غيره لا نعرفه . وأما ما أرادوا أن يسبونا ويجعلونا عبيدا ، فالموت أيسر من ذلك ... لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا .

فقال المقوقس لعبادة : قد أبى القوم فما ترى ، فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون .

فقال عبادة وأصحابه : لا .

فقال المقوقس عند ذلك : أطيعونى وأجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث ، فوالله ما لكم بهم طاقة ، ولئن لم تجيبوا اليها طائعين لتجيبنهم الى ما هو أعظم كارهين .

فقالوا : وأى خصلة نجيبهم اليها ؟

قال : اذن أخبركم ، أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم ، ولابد من الثالثة .

قالوا : فنكون لهم عبيدا أبدا .

قال : نعم تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم ، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، خير لكم من أن تموتوا من آخركم ، وتكونوا عبيدا تباعوا وتمزقوا فى البلاد ، مستعبدين أبدا أنتم وأهليكم وذراريكم .

قالوا : فالموت أهون علينا .

وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط ، وبالجزيرة وبالقصر من جمع القبط والروم كثير . فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من بالقصر حتى ظفروا بهم ، وأمكن الله منهم ، فقتل منهم خلق كثير ، وأسر من أسر .

وانجرت السفن كلها الى الجزيرة ، وصار المسلمون يراقبونهم ، وقد أحدق بهم الماء من كل وجه ، لا يقدرون على أن ينفذوا نحو الصعيد ، ولا الى غير ذلك من المدن والقرى .

والمقوقس يقول لأصحابه : ألم أعلمكم وأخافه عليكم ، ما تنتظرون ؟ فوالله لتجيبنهم الى ما أرادوا طوعا ، أو لتجيبنهم الى ما هو أعظم منه كرها ، فأطيعونى من قبل أن تندموا .

فلما رأوا منهم ما رأوا ، وقال لهم المقوقس ما قال ، أذعنوا بالجزية ، ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه .

وأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص : انى لم أزل حريصا على اجابتكم الى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت الى بها ، فأبى على من حضرنى من الروم والقبط ، فلم يكن لى أن أفتات عليهم فى أموالهم . وقد عرفوا نصحى لهم وحبى صلاحهم ، ورجعوا الى قولى ، فأعطنى أمانا أجتمع أنا وأنت : أنا فى نفر من أصحابى ، وأنت فى نفر من أصحابك ، فان استقام الأمر بيننا تم ذلك جميعا ، وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه .

فاستشار عمرو أصحابه فى ذلك ، فقالوا : لا نجيبهم الى شىء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا ، وتصير الأرض كلها لنا فيئا وغنيمة ، كما صار لنا القصر وما فيه .

فقال عمرو : قد علمتم ما عهد الى أمير المؤمنين فى عهده ، فان أجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد الى فيها ، أجبتهم اليها وقبلت منهم ، مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم .

فاجتمعوا على عهد بينهم ، واصطلحوا على أن يفرض لهم على جميع من بمصر ، أعلاها وأسفلها ، من القبط : ديناران ديناران عن كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شىء .

وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم ، لا تعرض لهم فى شىء منها .

فشرط ذلك كله على القبط خاصة .

وأحصوا عدد القبط يومئذ ، خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض * عليهم الديناران — رفع

(*) ص ٤٤٢ ج ١ ، ط بولاق .

ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة — فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر — أعلاها وأسفلها — من جميع القبط ، فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا ، أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة .

وقال ابن لهيعة ، عن يحيى بن ميمون الحضرمى : لما فتح عمرو مصر ، صالح عن جميع من فيها من الرجال من القبط ، ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك ، ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبى ، فأحصوا بذلك على دينارين دينارين ، فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف .

قال : وشرط المقوقس للروم أن يخيروا : فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا ، أقام على ذلك لازما له مفترضا عليه ، ممن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها . ومن أراد الخروج منها الى أرض الروم ، خرج .

وعلى أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة ، حتى يكتب الى ملك الروم ويعلمه ما فعل ، فان قبل ذلك ورضيه ، جاز عليهم ، والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه .

وكتبوا به كتابا وكتب المقوقس الى ملك الروم كتابا يعلمه بالأمر كله

فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ، ويقول فى كتابه : « انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا ، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى ، فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا ، فان عندك بمصر من الروم ، وبالاسكندرية ومن معك ، أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت ، فعجزت عن قتالهم ، ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط أذلاء ، فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم ، فانهم فيكم ، على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم ، كأكلة ... ناهضهم القتال ، ولا يكن لك رأى غير ذلك » .

وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا الى جماعة الروم .

فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم : والله أعلم أنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على قوتنا وكثرتنا . ان الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا ، وذلك أنهم قوم الموت أحب الى أحدهم من الحياة ... يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل يتمنى ألا يرجع الى أهله ولا بلده ولا ولده ، ويرون أن لهم أجرا عظيما فيمن قتلوه منا ، ويقولون انهم ان قتلوا دخلوا الجنة ، وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة الا قدر بلغة العيش من الطعام واللباس . ونحن قوم نكره الموت ، ونحب الحياة ولذتها ... فكيف نستقيم نحن وهؤلاء ، وكيف صبرنا معهم ؟

واعلموا معشر الروم ، والله انى لا أخرج مما دخلت فيه ، ولا صالحت العرب عليه ، وانى لأعلم أنكم سترجعون غدا الى قولى ورأيى ، وتتمنون أن لو كنتم أطعتمونى ، وذلك أنى قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم

بعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ، أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا فى دهره على نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة .

ثم أقبل المقوقس الى عمرو فقال له : ان الملك قد كره ما فعلت وعجزنى ، وكتب الى والى جماعة الروم ألا نرضى بمصالحك ، وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم ، ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه ، وانما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى .

وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض ، وأنا متم لك على نفسى ، والقبط متمون لك على الصلح الذى صالحتهم عليه وعاقدتهم . وأما الروم فأنا منهم برئ .

وأنا أطلب اليك أن تعطينى ثلاث خصال : لا تنقض بالقبط وأدخلنى معهم وألزمنى ما لزمهم ، وقد اجتمعت كلمتى وكلمتهم على ما عاقدتك عليه فهم متمون لك على ما تحب . وأما الثانية ان سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئا وعبيدا ، فانهم أهل ذلك لأنى نصحتهم فاستغشونى ، ونظرت لهم فاتهمونى . وأما الثالثة أطلب اليك ان أنا مت أن تأمرهم أن يدفنونى بجسر الاسكندرية .

فأنعم له عمرو بذلك ، وأجابه الى ما طلب ، على أن يضمنوا له الجسرين جميعا ، ويقيموا لهم الأنزال والضيافة والأسواق والجسور ، ما بين الفسطاط الى الاسكندرية .

ففعلوا ، وصارت لهم القبط أعوانا كما جاء فى الحديث .

وقال ابن وهب فى حديثه عن عبد الرحمن ابن شريح : فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن ، فحاصرهم حتى سألوه أن يسير منهم بضعة عشر أهل بيت ويفتحوا له الحصن ، ففعل ذلك ، ففرض عليهم عمرو لكل رجل من أصحابه دينارا وجبة وبرنسا وعمامة وخفين .

وسألوه أن يأذن لهم أن يهيئوا له ولأصحابه صنيعا ، ففعل ، وأمر عمرو أصحابه فتهيئوا ولبسوا البرود ثم أقبلوا .

فلما فرغوا من طعامهم سألهم عمرو : كم أنفقتم ؟

قالوا : عشرين ألف دينار .

قال عمرو : لا حاجة لنا بصنيعكم بعد اليوم ، أدوا الينا عشرين ألف دينار .

فجاءه النفر من القبط ، فاستأذنوه الى قراهم وأهليهم ، فقال لهم عمرو : كيف رأيتم أمرنا .

قالوا : لم نر الا حسنا .

فقال الرجل الذى قال فى المرة الأولى : انكم لن تزالوا تظهرون على كل من لقيتم حتى تقتلوا خيركم رجلا .

فغضب عمرو وأمر به ، فطلب اليه أصحابه وأخبروه * أنه لايدرى مايقول حتى خلصوه .

فلما بلغ عمرا قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أرسل فى طلب ذلك القبطى فوجدوه قد هلك ، فعجب عمرو من قوله .

(*) ص ٢٩٢ جـ١ ، ط . بولاق .

ويقال ان عمرو بن العاص قال : فلما طعن عمر بن الخطاب ، قلت : هو ما قال القبطى . فلما حدثت أنه انما قتله أبو لؤلؤة رجل نصرانى ، قلت : لم يعن هذا انما عنى من قتله المسلمون . فلما قتل عثمان ، عرفت أن ما قال الرجل حق .

فلما فرغ القبط من صنيعهم ، أمر عمرو بن العاص بطعام فصنع لهم ، وأمرهم أن يحضروا لذلك ، فصنع لهم الثريد والعراق ، وأمر أصحابه بلباس الأكسية واشتمال الصماء والقعود على الركب .

فلما حضرت الروم ، وضعوا كراسى الديباج فجلسوا عليها ، وجلست العرب الى جوانبهم ، فجعل الرجل من العرب يلتقم اللقمة العظيمة من الثريد ، وينهش من ذلك اللحم ، فيتطاير على من الى جنبه من الروم .

فبشعت الروم ذلك وقالت : أين أولئك الذين كانوا أتونا قبل ؟ فقيل لهم أولئك أصحاب المشورة ، وهؤلاء أصحاب الحرب .

وقال الكندى : وذكر يزيد بن أبى حبيب أن عدد الجيش الذين كانوا مع عمرو بن العاص خمسة عشر ألفا وخمسمائة .

وذكر عبد الرحمن بن سعيد بن مقلاص أن الذين جرت سهمانهم فى الحصن من المسلمين اثنا عشر ألفا وثلثمائة ، بعد من أصيب منهم فى الحصار بالقتل والموت .

ويقال ان الذين قتلوا فى هذا الحصار من المسلمين دفنوا فى أصل الحصن .

وذكر القضاعى أن مصر فتحت يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين ، وقيل فتحت سنة ست عشرة ، وهو قول الواقدى ، وقيل فتحت والاسكندرية سنة خمس وعشرين ، والأكثر على أنها فتحت قبل عام الرمادة ، وكانت الرمادة فى آخر سنة سبع عشرة وأول ثمان عشرة .

ذكر ما قيل فى مصر هل فتحت بصلح او عنوة

وقد اختلف فى فتح مصر فقال قوم : فتحت صلحا ، وقال آخرون : انما فتحت عنوة .

فأما الذين قالوا : كان فتح مصر بصلح ، فان حسين بن شفى قال : لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية بقى من الأسارى بها ، ممن بلغ الخراج وأحصى يومئذ ، ستمائة ألف سوى النساء والصبيان .

فاختلف الناس على عمرو فى قسمهم ، فكان أكثر المسلمين يريد قسمها .

فقال عمرو : لا أقدر على قسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين .

فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها وأن المسلمين طلبوا قسمها .

فكتب اليه عمر رضى الله عنه : لا تقسمها ، وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين ، وقوة لهم على جهاد عدوهم .

فأقرها عمرو ، وأحصى أهلها ، وفرض عليهم الخراج ..

فكانت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين دينارين ، الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع ... الا الاسكندرية ، فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر مايرى من وليهم ، لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة .

وقال الليث عن يزيد بن أبي حبيب : مصر كلها صلح ، الا الاسكندرية فانها فتحت عنوة .

وقال عبد الله بن أبي جعفر : حدثني رجل ممن أدرك عمرو بن العاص قال : للقبط عهد عند فلان ، وعهد عند فلان ، فسمى ثلاثة نفر .

وفي رواية : أن عهد أهل مصر كان عند كبرائهم .

وفي رواية : سألت شيخا من القدماء عن فتح مصر قلت له : فان ناسا يذكرون أنه لم يكن لهم عهد .

فقال : ما يبالي ألا يصلي من قال انه ليس لهم عهد .

فقلت : فهل كان لهم كتاب ؟

فقال : نعم ، كتب ثلاثة : كتاب عند طلما صاحب اخنا ، وكتاب عند قزمان صاحب رشيد ، وكتاب عند يحنس صاحب البرلس .

قلت : كيف كان صلحهم ؟

قال : دينارين على كل انسان جزية ، وأرزاق المسلمين .

قلت : فتعلم ما كان من الشروط ؟

قال : نعم ، ستة شروط : لا يخرجون من ديارهم ، ولا تنزع نساؤهم ، ولا كفورهم ، ولا أراضيهم ، ولا يزاد عليهم .

وقال يزيد بن أبي حبيب ، عن أبي جمعة مولى عقبة ، قال : كتب عقبة بن عامر ، الى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، يسأله أرضا يسترفق بها عند قرية عقبة . فكتب له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع .

فقال له مولى له كان عنده : انظر — أصلحك الله — أرضا صالحة .

فقال له عقبة : ليس لنا ذلك . ان في عهدهم شروطا ستة : لا يؤخذ من أنفسهم شيء ، ولا من نسائهم ، ولا من أولادهم ، ولا يزاد عليهم ، ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم ... وأنا شاهد لهم بذلك .

وعن يزيد بن أبي حبيب ، عن عوف بن حطان ، أنه كان لقريات من مصر — منهن أم دنين وبلهيت — عهد ، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع بذلك ، كتب الى عمرو يأمره أن يخيرهم : فان دخلوا في الاسلام فذاك ، وان كرهوا فارددهم الى قراهم .

وقال يحيى بن أيوب وخالد بن حميد : ففتح الله أرض مصر كلها بصلح ... غير الاسكندرية ، وثلاث قريات ظاهرت الروم على المسلمين — سلطيس ، ومصيل ، وبلهيت — فانه كان للروم جمع ، فظاهروا الروم على المسلمين .

فلما ظهر عليها المسلمون استحلوها ، وقالوا : هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية .

فكتب * عمرو بن العاص بذلك الى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فكتب اليه عمر أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ، ويضربون عليهم الخراج ، ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط كله قوة للمسلمين ، لا يجعلون فيئا ولا عبيدا ... ففعلوا ذلك الى اليوم .

وقال آخرون : بل فتحت مصر عنوة بلا عهد ولا عقد .

قال سفيان بن وهب الخولاني : لما افتتحنا مصر بغير عهد ولا عقد ، قام الزبير بن العوام فقال : اقسمها ياعمرو بن العاص .

فقال عمرو : والله لا أقسمها .

فقال الزبير : والله لنقسمنها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر .

فقال عمرو : والله لا أقسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين .

فكتب الى عمر ، فكتب اليه عمر : أقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة .

وصولح الزبير على شيء أرضي به .

وقال ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة : ان مصر فتحت عنوة .

وعن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال : سمعت أشياخنا يقولون ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، منهم أبي يحدثنا عن أبيه ، وكان فيمن شهد فتح مصر .

وعن أبي الأسود ، عن عروة ، ان مصر فتحت عنوة .

(*) ص٢٩٤ جـ١ ، ط.بولاق .

وعن عمرو بن العاص أنه قال : لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد ... الا أهل أنطابلس ، كان لهم عهد يوفى به : ان شئت قتلت ، وان شئت خمست ، وان شئت بعت .

وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أن عمرو ابن العاص فتح مصر بغير عهد ولا عقد ، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حبس درها وضرعها أن يخرج منه شيء ، نظرا للاسلام وأهله .

وعن زيد بن أسلم قال : كان تابوت لعمر ابن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده ، فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد فمن أسلم منهم أقامه ، ومن أقام منهم قومه .

وكتب حيان بن شريح الى عمر بن عبد العزيز يسأله أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم .

فسأل عمر عراك بن مالك فقال : عراك ما سمعت لهم بعهد ولا عقد ، وانما أخذوا عنوة بمنزلة العبيد .

فكتب عمر الى حيان أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم .

وقال يحيى بن عبد الله بن بكير : خرج أبو سلمة بن عبد الرحمن يريد الاسكندرية في سفينة ، فاحتاج الى رجل يجذف ، فسخر رجلا من القبط ، فكلم في ذلك ، فقال : انما هم بمنزلة العبيد ان احتجنا اليهم .

وقال ابن لهيعة عن الصلت بن أبي عاصم : انه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز الى حيان ابن شريح أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد .

وعن عبيد الله بن أبى جعفر أن كاتب حيان حدثه أنه احتيج الى خشب لصناعة الجزيرة ، فكتب حيان الى عمر بن عبد العزيز يذكر ذلك له ، وأنه وجد خشبا عند بعض أهل الذمة ، وأنه كره أن يأخذها منهم حتى يعلمه .

فكتب اليه عمر : خذها منهم بقيمة عدل ، فانى لم أجد لأهل مصر عهدا أفى لهم به .

وقال عمر بن عبد العزيز لسالم : أنت تقول ليس لأهل مصر عهد ؟

قال : نعم .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده أن عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب فى رهبان يترهبون بمصر ، فيموت أحدهم وليس له وارث .

فكتب اليه عمر : « ان من كان منهم له عقب فادفع ميراثه الى عقبه ، فان لم يكن له عقب فاجعل ماله فى بيت مال المسلمين ، فان ولاءه للمسلمين » .

وقال ابن شهاب : كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة ، وبعضها عنوة ، فجعلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه جميعها ذمة ، وحملهم على ذلك ، فمضى ذلك فيهم الى اليوم .

واشترى الليث بن سعد شيئا من أرض مصر لأنه كان يحدث عن يزيد بن أبى حبيب أن مصر صلح .

وكان مالك بن أنس ينكر على الليث ذلك ، وأنكر عليه أيضا عبد الله بن لهيعة ونافع بن يزيد لأن مصر عندهم كانت عنوة .

ذكر من شهد فتح مصر من الصحابه رضى الله عنهم

قال ابن عبد الحكم : وكان من حفظ من الذين شهدوا فتح مصر ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغيرهم ، وممن لم يكن له برسول الله صلى الله عليه وسلم صحبة : الزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص — وكان أمير القوم — وعبد الله بن عمرو ، وخارجة بن حذافة العدوى ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وقيس بن أبى العاص السهمى ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن أبى سعد ابن أبى سرح العامرى ، ونافع بن عبد قيس الفهرى — ويقال بل هو عقبة بن نافع — وأبو عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهرى ، وأبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عبدة ، وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة ، ووردان مولى عمرو ابن العاص ، وكان حامل لواء عمرو بن العاص .

وقد اختلف فى سعد بن أبى وقاص ، فقيل انما دخلها بعد الفتح .

وشهد الفتح من الأنصار : عبادة بن الصامت ، وقد شهد بدرا وبيعة العقبة ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى — وقد شهد بدرا وهو الذى بعثه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى مصر ، فقاسم عمرو بن العاص ماله ، وهو أحد من كان صعد الحصن مع الزبير بن * العوام — ومسلمة بن مخلد

(*) ص٢٦٥ جـ١ ، ط.بولاق .

الأنصارى ، يقال له صحبة ، وأبو أيوب خالد ابن زيد الأنصارى ، وأبو الدرداء عويمر بن عامر ، وقيل عويمر بن زيد .

ومن أحياء القبائل : أبو نصرة جميل بن نصرة الغفارى ، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفارى وشهد الفتح مع عمرو بن العاص ، وهبيب بن معقل — واليه ينسب وادى هبيب الذى بالمغرب — وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى ، وكعب بن ضبة العبسى — ويقال كعب بن يسار بن ضبة — وعقبة بن عامر الجهنى — وهو كان رسول عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص حين كتب اليه يأمره أن يرجع ان لم يكن دخل أرض مصر — وأبو زمعة البلوى ، وبرح بن حسكل — ويقال برح بن عسكر — وشهد فتح مصر واختط بها ، وجنادة بن أمية الأزدى ، وسفيان بن وهب الخولانى وله صحبة ، ومعاوية بن خديج الكندى — وهو كان رسول عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية وقد اختلف فيه : فقال قوم له صحبة ، وقال آخرون : ليست له صحبة — وعامر مولى جمل ، الذى يقال له عامر جمل ، شهد الفتح وهو مملوك ، وعمار بن ياسر ، ولكن دخل بعد الفتح فى أيام عثمان ، وجهه اليها فى بعض أموره .

قال ابن عبد الحكم : منهم من اختط بالبلد فذكرنا خطته ، ومنهم من لم يذكر له خطة .

قال : فاختط عمرو بن العاص داره التى عند باب المسجد بينهما الطريق ، وداره الأخرى اللاصقة الى جنبها ، وفيها دفن عبد الله بن عمرو — فيما زعم بعض مشايخ البلد — لحدث كان يومئذ فى البلد ، والحمام الذى يقال له حمام الفار ... وانما قيل له حمام الفار ، لأن حمامات الروم كانت ديماسات كبارا ، فلما بنى هذا الحمام ورأوا صغره ، قالوا : من يدخل هذا ؟ هذا حمام الفار .

ذكر السبب فى تسميه مدينة مصر بالفسطاط

قال ابن عبد الحكم ، عن يزيد بن أبى حبيب : ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ، ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها ، همّ أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها .

فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى ذلك ، فسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل .

فكتب عمر الى عمرو : « انى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف » . فتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط .

قال : وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى ، والى عامله بالبصرة ، والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : « ألا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت » .

فتحول سعد من مدائن كسرى الى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة ، وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط .

قال : وانما سميت الفسطاط لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال من بها من الروم ، أمر بنزع فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو : لقد تحرم منا بمتحرم . فأمر به فأقر كما هو ، وأوصى به صاحب القصر .

فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا : أين تنزل ؟

قالوا : الفسطاط ، لفسطاط عمرو الذى كان خلفه ، وكان مضروبا فى موضع الدار التى تعرف اليوم بدار الحصار عند دار عمرو الصغيرة .

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى : كان فسطاط عمرو عند درب حمام شمول بخط الجامع .

وقال ابن قتيبة فى كتاب « غريب الحديث » فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « عليكم بالجماعة ، فان يد الله على الفسطاط » ... يرويه سويد بن عبد العزيز ، عن النعمان بن المنذر ، عن مكحول ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم .

والفسطاط المدينة ، وكل مدينة فسطاط ، ولذلك قيل لمصر فسطاط .

وقال البكرى الفسطاط (بضم أوله وكسره واسكان ثانيه) اسم لمصر .

ويقال فسطاط وبسطاط . قال المطرزى : وفسطاد وفستاط ، ويكسر أوائل جميعها ، فهى عشر لغات .

قال ابن قتيبة : كل مدينة فسطاط ، وذكر حديث « عليكم بالجماعة ، فان يد الله على الفسطاط » .

وأخبرنى أبو حاتم ، عن الأصمعى ، أنه قال : حدثنى رجل من بنى تميم قال : قرأت فى كتاب رجل من قريش : هذا ما اشترى فلان ابن فلان من عجلان مولى زياد ... اشترى منه خمسمائة جريب حيال الفسطاط (يريد البصرة) .

ومنه قول الشعبى فى الآبق : اذا أخذ فى الفسطاط عشرة ، واذا أخذ خارجا عن الفسطاط أربعون .

وأراد أن يد الله على أهل الأمصار ، وأن من شذ عنهم ، وفارقهم فى الرأى ، فقد خرج عن يد الله . وفى ذلك آثار ، والله أعلم .

ذكر الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط

اعلم أن الخطط التى كانت بمدينة فسطاط مصر ، بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة ، فقيل لتلك فى مصر خطة * ، وقيل لها فى القاهرة حارة .

قال القضاعى : ولما رجع عمرو من الاسكندرية ، ونزل موضع فسطاطه ، انضمت القبائل بعضها الى بعض ، وتنافسوا فى المواضع .

(*) ص٢٩٦ جـ١ ، ط.بولاق .

فولى عمرو على الخطط معاوية بن خديج التجيبى ، وشريك بن سمى الغطيفى ، وعمرو ابن قحزم الخولانى ، وحيويل بن ناشرة المعافرى . وكانوا هم الذين أنزلوا الناس ، وفصلوا بين القبائل ، وذلك فى سنة احدى وعشرين .

خطة أهل الراية : أهل الراية جماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس بن بغيض وحرش من بنى كنانة وليث بن بكر والعتقاء منهم ، الا أن منزل العتقاء فى غير الراية .

وانما سموا أهل الراية ، ونسبت الخطة اليهم ، لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان ، فكره كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته .

فجعل لهم عمرو بن العاص راية ولم ينسبها الى أحد ، فقال : يكون موقفكم تحتها ، فكانت لهم كالنسب الجامع ، وكان ديوانهم عليها .

وكان اجتماع هذه القبائل لما عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاية بينهم .

وهذه الخطة محيطة بالجامع من جميع جوانبه ، ابتدأوا من المصف الذى كانوا عليه فى حصارهم الحصن — وهو باب الحصن الذى يقال له باب الشمع — ثم مضوا بخطتهم الى حمام الفار ، وشرعوا بغربيها الى النيل ، فاذا بلغت الى النحاسين ، فالجانبان لأهل الراية الى باب المسجد الجامع ، المعروف بباب الوراقين ، ثم يسلك على حمام شمول .

وفى هذه الخطة زقاق القناديل الى تربة عفان ، الى سوق الحمام ، الى باب القصر الذى بدأنا بذكره .

خطة مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف ابن قضاعة بن مالك بن حمير : وخطة مهرة هذه قبلى خطة الراية . واختطت مهرة أيضا على سفح الجبل الذى يقال له جبل يشكر ، مما يلى الخندق ، الى شرقى العسكر ، الى جنان بنى مسكين .

ومن جملة خطة مهرة الموضع الذى يعرف اليوم بمساطب الطباخ ، واسمه حمد .

ويقال ان الخطة التى لهم قبلى الراية ، كانت حوزا لهم يربطون فيها خيلهم اذا رجعوا الى الجمعة ، ثم انقطعوا اليها وتركوا منازلهم بيشكر .

خطة تجيب : وتجيب هم بنو عدى وسعد ابنى الأشرس بن شبيب بن السكن بن الأشرس بن كندة ، فمن كان من ولد عدى وسعد يقال لهم تجيب - وتجيب أمهم .

وهذه الخطة تلى خطة مهرة ، وفيها درب المصوصة ، آخره حائط من الحصن الشرقى .

وخطط لخم فى موضعين : فمنها خطة لخم ابن عدى بن مرة بن أدد ومن خالطها من جذام ، فابتدأت لخم بخطتها من الذى انتهت اليه خطة الراية ، وأصعدت ذات الشمال .

وفى هذه الخطة سوق بربر ، وشارعه مختلط فيما بين لخم والراية .

ولهم خطتان أخريان : احداهما منسوبة الى بنى ربة بن عمرو بن الحارث بن وائل

ابن راشدة من لخم ، وأولها شرقي الكنيسة المعروفه بمكائيل التى عند خليج بنى وائل . وهذا الموضع اليوم وراقات يعمل فيها الورق بالقرب من باب القنطرة خارج مصر .

والخطة الثانية خطة راشدة بن أدب بن جزيله من لخم ، وهى متاخمة للخطة التى قبلها . وفى هذه الخطة جامع راشدة ، وجنان كهمس بن معمر الذى عرف بالمادرانى ، ثم عرف بجنان الأمير تميم ، وهو اليوم يقال له المعشوق ، بجوار الآثار النبوية .

ولهم مواضع مع اللفيف ، وخطط أيضا بالحمراء .

خطط اللفيف : انما سموا بذلك لالتفاف بعضهم ببعض . وسبب ذلك أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ، أخبر أن مراكب الروم قد توجهت الى الاسكندرية لقتال المسلمين ، فبعث عمرو بعمرو بن جمالة الأزدى الحجرى ليأتيه بالخبر ، فمضى .

وأسرعت هذه القبائل التى تدعى اللفيف ، وتعاقدوا على اللحاق به ، واستأذنوا عمرو بن العاص فى ذلك ، فأذن لهم ، وهم جمع كثير ، فلما رآهم عمرو بن جمالة استكثرهم ، وقال : تالله ما رأيت قوما قد سدوا الأفق مثلكم ، وانكم كما قال الله تعالى : « فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » ، فبذلك سموا من يومئذ اللفيف .

وسألوا عمرو بن العاص أن يفرد لهم دعوة ، فامتنعت عشائرهم من ذلك ، فقالوا لعمرو : فانا نجتمع فى المنزل حيث كنا . فأجابهم الى ذلك .

فكانوا مجتمعين فى المنزل ، متفرقين فى الديوان ، اذا دعى كل بطن منهم انضم الى بنى أبيه .

قال قتادة ومجاهد والضحاك بن مزاحم فى قوله : « جئنا بكم لفيفا » قال : جميعا .

وكان عامتهم من الأزد من الحجر ومن غسان ومن شجاعة ، والتف بهم نفر من جذام ولخم والزحاف وتنوخ من قضاعة ، فهم مجتمعون فى المنزل ، متفرقون فى الديوان .

وهذه الخطة أولها مما يلى الراية ، سالكا ذات الشمال الى نقاشى البلاط ، وفيها دار ابن عشرات الى نحو من سوق وردان .

خطط أهل الظاهر : انما سمى هذا المنزل بالظاهر ، لأن القبائل التى نزلته كانت بالاسكندرية ، ثم قفلت بعد قفول عمرو بن العاص ، وبعد أن اختط الناس خططهم .

فخاصمت الى عمرو ، فقال لهم معاوية بن خديج ، وكان ممن يتولى الخطط يومئذ : أرى لكم أن تظهروا على أهل هذه القبائل ، فتتخذوا منزلا ، فسمى الظاهر بذلك .

وكانت القبائل التى نزلت الظاهر * العتقاء ، وهم جماع من القبائل كانوا يقطعون على أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، فبعث اليهم ، فأتى بهم أسرى فأعتقهم ، فقيل لهم العتقاء .

وديوانهم مع أهل الراية ، وخطتهم بالظاهر متوسطة فيه ، وكان فيهم طوائف من الأزد وفهم .

(*) ص٢٦٧ جـ١ ، ط. بولاق .

وأول هذه الخطة من شرقى خطة لخم ، وتتصل بموضع العسكر .

ومن هذه الخطة سويقة العراقيين ، وعرفت بذلك لأن زيادا لما ولاه معاوية بن أبى سفيان البصرة ، غرب جماعة من الأزد الى مصر ، — وبها مسلمة بن مخلد — فى سنة ثلاث وخمسين ، فنزل منهم هنا نحو من مائة وثلاثين ، فقيل لموضعهم من خطة الظاهر سويقة العراقيين .

خطط غافق : هو غافق بن الحارث بن عك ابن عدثان بن عبد الله بن الأزد .

وهذه الخطة تلى خطة لخم الى خطة الظاهر ، بجوار درب الأعلام .

خطط الصدف : واسمه مالك بن سهل بن عمرو بن قيس بن حمير ، ودعوتهم مع كندة .

خطط الفارسيين : واستبد بخطة خولان من حضر فتح مصر من الفارسيين ، وهم بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الاسلام ، أسلموا بالشام ، ورغبوا فى الجهاد .

فنفروا مع عمرو بن العاص الى مصر ، فاختطوا بها ، وأخذوا فى سفح الجبل الذى يقال له جبل باب البون . وهذا الجبل اليوم شرقى من وراء خطة جامع ابن طولون ، تعرف أرضه بالأرض الصفراء ، وهى من جملة العسكر .

خطة مذحج (بالحاء قبل الجيم) : وهو مالك بن مرة بن أدد بن زيد بن كهلان .

خطة غطيف بن مراد .

خطة وعلان بن قرن بن ناجية بن مراد ، وكلهم من مذحج ، فاختطت وعلان من الزقاق الذى فيه الصنم المعروف بسرية فرعون ، وهذا الزقاق أوله باب السوق الكبير ، واختطت أيضا بخولان .

ثم انفردت وعلان بخططها مقابل المسجد المعروف بالدينورى ، وأسندت الى خولان .

وهذه الخطة اليوم كيمان تطل على قبر القاضى بكار .

خطة يحصب بن مالك بن أسلم بن زيد ابن غوث : وهذه الخطة موضعها كيمان ، وهى تتصل بالشرف ، الذى يعرف اليوم بالرصد ، المطل على راشدة .

خطة رعين بن زيد بن سهل .

خطة ذى الكلاع بن شرحبيل بن سعد من حمير .

خطة المغافر بن يعفر بن مرة بن أدد : وهذه الخطة من الرصد الى سقاية ابن طولون . وهى القناطر التى تطل على عفصة ، وتفصل بين القرافتين . والقناطر للمغافر ، ولهم الى مصلى خولان ، والى الكوم المشرف على المصلى .

خطة سبا وخطة الرحبة بن زرعة بن كعب .

خطة السلف بن سعد : فيما بين الكوم المطل على القاضى بكار وبين المغافر .

خطة بنى وائل بن زيد مناة بن أفصى بن اياس بن حرام بن جذام بن عدى : وهى من سفح الشرف المعروف بالرصد الى خطة خولان .

خطة القبض (بالتحريك) بن مرثد : وهى بجانب خطة بنى وائل الى نحو بركة الحبش .

قال : وكان سبب نزول بنى وائل والقبض وربة وراشدة والفارسيين هذه المواضع ، أنهم كانوا فى طوالع عمرو بن العاص ، فنزلوا فى مقدمة الناس ، وحازوا هذه المواضع قبل الفتح

خطط الحمراوات الثلاث . قال الكندى : وكانت الحمراء على ثلاثة : بنو نبه ، وروبيل ، والأزرق . وكانوا ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام الى مصر من عجم الشام ، ممن كان رغب فى الاسلام من قبل اليرموك ، ومن أهل قيسارية وغيرهم .

وقال القضاعى : وانما قيل الحمراء لنزول الروم بها .

وهى خطط بلىّ بن عمرو بن لحاف بن قضاعة ، وفهم ، وعدوان ، وبعض الأزد وهم ثراد ، وبنى بحر ، وبنى سلامان ، ويشكر بن لخم ، وهذيل بن مدركة بن الياس بن مضر ، وبنى نبه ، وبنى الأزرق وهم من الروم ، وبنى روبيل وكان يهوديا فأسلم .

فأول ذلك : الحمراء الدنيا خطة بلىّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، ومنها خطة ثراد من الأزد ، وخطة فهم بن عمرو بن قيس عيلان ، ومنها خطة بنى بحر بن سوادة من الأزد .

ومن ذلك : الحمراء الوسطى : منها خطة بنى نبه وهم قوم من الروم حضر الفتح منهم مائة رجل ، ومنها خطة هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر ، ومنها خطة بنى سلامان من الأزد ، ومنها خطة عدوان .

ومن ذلك : الحمراء القصوى ، وهى خطة بنى الأزرق ، وكان روميا ، حضر الفتح منهم أربعمائة ، وخطة بنى روبيل ، وكان يهوديا فأسلم ، وحضر الفتح منهم ألف رجل ، وخطة بنى يشكر بن جزيلة بن لخم .

وكانت منازل يشكر مفرقة فى الجبل ، فدثرت قديما وعادت صحراء ، حتى جاءت المسودة (يعنى جيوش بنى العباس) فعمروها . وهى الآن خراب

وقال ابن المتوج : الحمراوات ثلاث : أولى ، ووسطى ، وقصوى .

فأما الأولى فتجمع جابر الأور وعقبة العداسين ، وسوق وردان ، وخطة الزبير ، الى نقاشى البلاط ، طولا وعرضا ، على قدر ذلك

وأما الوسطى ، فمن درب نقاشى البلاط الى درب معانى ، طولا وعرضا على قدره .

وأما القصوى فمن درب معانى الى القناطر الظاهرية (يعنى قناطر السباع) ، وهى حد ولاية مصر من القاهرة .

وكانت هذه الحمراوات جل عمارة مصر فى زمن الروم .

فاذا الحمراء الأولى والوسطى هما الآن خراب ، وموضعهما فيما بين سوق المعاريج ، وحمام طن من شرقيهما * الى ما يقابل المراغة فى الشرق .

(*) ص ٢٩٨ جـ ١ ، ط . بولاق

وأما الحمراء الدنيا فهى الآن تعرف بخط قناطر السباع ، وبخط السبع سقايات ، وبحكر الخليلى وحكر أقبغا ، والكوم حيث الأسرى ، ومنها أيضا خط الكبش ، وخط الجامع الطولونى والعسكر ، ومنها حدرة بن قميحة الى حيث قنطرة السد ، وبستان الطواشى وما فى شرقيه الى مشهد الرأس المعروف بزين العابدين .

وسيأتى لذلك مزيد بيان ، ان شاء الله تعالى ، عند ذكر العسكر .

وكانت مدينة الفسطاط على قسمين : هما عمل فوق ، وعمل أسفل .

فعمل فوق له طرفان : غربى ، وشرقى . فالغربى من شاطىء النيل فى الجهة القبلية ، وأنت مار فى الشرف ، المعروف اليوم بالرصد ، الى القرافة الكبرى . والشرقى من القرافة الكبرى الى العسكر .

وعمل أسفل ما عدا ذلك الى حد القاهرة .

ذكر أمراء الفسطاط
من حين فتحت مصر الى ان بنى العسكر

اعلم أن عدة من ولى مصر من الأمراء فى الاسلام — منذ فتحت وسكن الفسطاط الى أن بنى العسكر — تسعة وعشرون أميرا فى مدة مائة وثلاث عشرة سنة وسبعة أشهر .

أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة النبوية — وهو يوم فتح مصر — وآخرها سلخ شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، آخر ولاية صالح بن على بن عبد الله بن عباس على مصر ، وأول ولاية أبى عون عبد الملك ، وهو أول من سكن العسكر من أمراء مصر .

وأول أمراء الفسطاط بعد الفتح — على ما ذكر الكندى وغيره — عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ابن مالك ... أبو عبد الله .

كان تاجرا فى الجاهلية ، وكان يختلف بتجارته الى مصر — وهى الأدم والعطر — ثم ضرب الدهر ضرباته حتى فتح المسلمون الشام ، فخلا بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فاستأذنه فى المسير الى مصر ، فسار فى سنة تسع عشرة ، وأتى الحصن فحاصره سبعة أشهر ، الى أن فتحه فى يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين .

وقيل كان فتح مصر فى ثانى عشر بئونة سنة سبع وخمسين وثلثمائة لدقلطيانوس ، فعلى هذا يكون فتح مصر فى سنة تسع عشرة من الهجرة .

وتحرير ذلك أن الذى بين يوم الجمعة ، أول يوم من ملك دقلطيانوس ، وبين يوم الخميس أول سنة الهجرة ، ثمان وثلاثون وثلثمائة سنة فارسية وتسعة وثلاثون يوما .

فاذا ألغينا ذلك من تاريخ مصر فى ثانى عشر بئونة سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، بقى ثمان عشرة سنة وثمانية أشهر وثلاثة أيام . وهذه سنون شمسية ، عنها من سنى القمر تسع عشرة سنة وشهر وثلاثة عشر يوما ، فيكون ذلك فى ثالث عشر ربيع الأول سنة

عشرين ... فلعل الوهم وقع فى الشهر الفطى .

وحاز الحصن بما فيه ، وسار الى الاسكندريه فى ربيع الأول منها ، فحاصرها ثلاثه اشهر ، ثم فتحها عنوة — وهو الفتح الأول — ويقال بل فتحها مستهل سنة احدى وعشرين ، ثم سار عنها الى برقه ، فافتتحها عنوه فى سنة اثنتين وعشرين ، وقيل فى سنة ثلاث وعشرين .

وقدم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدمتين : استخلف فى احداهما زكريا بن جهم العبدرى ، وفى الثانية ابنه عبد الله .

وتوفى عمر رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وبويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فوفد عليه عمرو ، وسأله عزل عبد الله بن سعد بن أبى سرح عن صعيد مصر — وكان عمر ولاه الصعيد — فامتنع من ذلك عثمان ، وعقد لعبد الله بن سعد على مصر كلها .

فكانت ولاية عمرو على مصر ، صلاتها وخراجها ، منذ افتتحها الى أن صرف عنها ، أربع سنين وأشهرا .

عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، واسمه الحسام بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى ، ولى من قبل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، فجاءه الكتاب بالفيوم ، فجعل لأهل أطواف جعلا ، ليقدموا به الفسطاط .

ثم ان منويل الخصى سار الى الاسكندرية فى سنة أربع وعشرين ، فسأل أهل مصر عثمان أن يرد عمرو بن العاص لمحاربته ، فرده واليا على الاسكندريه ، فحارب الروم بها حتى افتتحها ، وعبد الله بن سعد مقيم بالفسطاط ، حتى فتحت الاسكندرية الفتح الثانى عنوه فى سنة خمس وعشرين .

ثم جمع لعبد الله بن سعد أمير مصر ، صلاتها وخراجها ، ومكث أميرا مدة ولاية عثمان رضى الله عنه كلها ، محمودا فى ولايته .

وغزا ثلاث غزوات كلها لها شأن غزا أفريقيه سنة سبع وعشرين ، وقتل ملكها جرجير . وغزا غزوة الأساود حتى بلغ دنقله فى سنة احدى وثلاثين . وغزا ذا الصوارى فى سنة أربع وثلاثين ، فلقيهم قسطنطين بن هرقل فى ألف مركب ، وقيل فى سبعمائة مركب والمسلمون فى مائتى مركب ، فهزم الله الروم .

وانما سميت غزوة ذى الصوارى ، لكثرة صوارى المراكب واجتماعها .

ووفد على عثمان * حين تكلم الناس بالطعن على عثمان ، واستخلف عقبة بن عامر الجهنى — وقيل السائب بن هشام العامرى — وجعل على خراجها سليمان بن عتر التجيبى ، وكان ذلك سنة خمس وثلاثين فى رجب .

محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف : أمر فى شوال سنة خمس وثلاثين ، على عقبة بن عامر خليفة عبد الله بن سعد ، فأخرجه من الفسطاط ، ودعا الى خلع عثمان ، وأسعر البلاد ، وحرض على عثمان بكل شر يقدر عليه .

(*) ص٢٦٩ جـ١ ، ط. بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

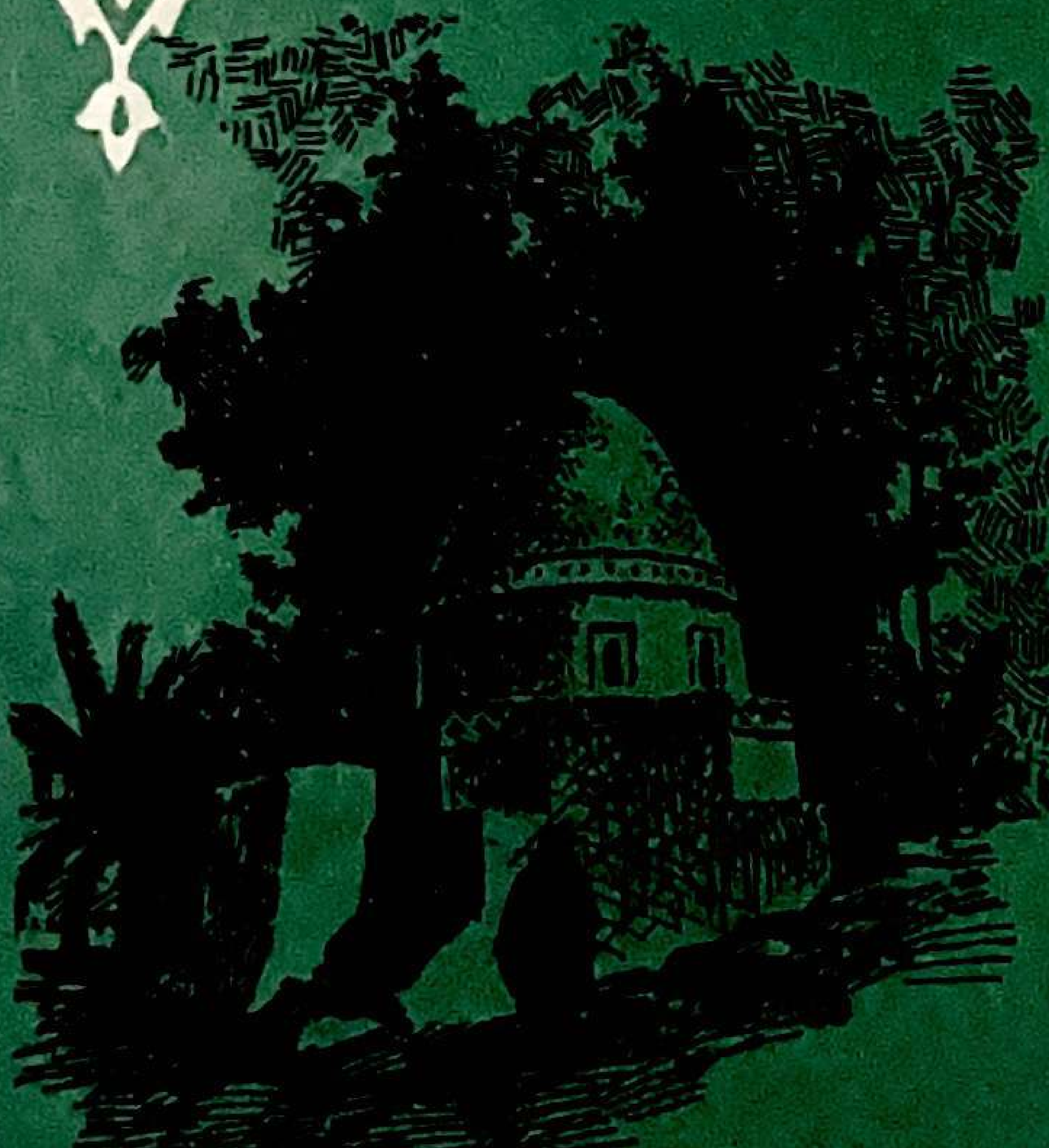
عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزي

الجزء
١٥

كتاب
التحرير



«وكانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها.»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

فاعتزله شيعة عثمان ونابذوه — وهم معاويه بن خديج ، وخارجة بن حذافة ، وبسر ابن أرطاة ، ومسلمة بن مخلد ، فى جمع كثير — وبعثوا الى عثمان بأمرهم وبصنيع ابن أبى حذيفة .

فبعث سعد بن أبى وقاص ليصلح أمرهم ، فخرج اليه جماعة ، فقلبوا عليه فسطاطه وشجوه وسبوه ، فركب وعاد راجعا ، ودعا عليهم . .

وأقبل عبد الله بن سعد ، فمنعوه أن يدخل ، فانصرف الى عسقلان . وقتل عثمان رضى الله عنه وابن سعد بعسقلان

ثم أجمع ابن أبى حذيفة على بعث جيش الى عثمان ، فجهز اليه ستمائة رجل عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوى .

ثم قتل عثمان فى ذى الحجة منها ، فثار شيعة عثمان بمصر ، وعقدوا لمعاويه بن خديج ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان ، وساروا الى الصعيد ، فبعث اليهم ابن أبى حذيفة خيلا فهزمت .

ومضى ابن خديج الى برقة ، ثم رجع الى الاسكندرية . فبعث اليه ابن أبى حذيفة بجيش آخر ، فاقتتلوا بخربتا فى أول شهر رمضان سنة ست وثلاثين ، فانهزم الجيش ، وأقامت شيعة عثمان بخربتا .

وقدم معاوية بن أبى سفيان يريد الفسطاط ، فنزل سلمنت فى شوال ، فخرج اليه ابن أبى حذيفة فى أهل مصر فمنعوه ، ثم اتفقا على أن يجعلا رهنا ويتركا الحرب .

فاستخلف ابن أبى حذيفة على مصر الحكم ابن الصلت ، وخرج فى الرهن هو وابن عديس وعدة من قتلة عثمان ، فلما بلغوا لد سجنهم معاوية بها وسار الى دمشق ، فهربوا من السجن ، وتبعهم أمير فلسطين فقتلهم فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين .

قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى : ولاه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، لما بلغه مصاب بن أبى حذيفة ، وجمع له الخراج والصلات .

فدخل مصر مستهل ربيع الأول سنة سبع وثلاثين ، فاستمال الخارجية بخربتا شيعة عثمان ، وبعث اليهم أعطياتهم ، ووفد عليه وفدهم فاكرمهم .

وكان من ذوى الرأى ، فجهد عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان على أن يخرجاه من مصر ليغلبا على أمرها ، فانها كانت من جيش على رضى الله عنه ، فامتنع منهما بالدهاء والمكايدة ، فلم يقدرا على مصر ، حتى كاد معاوية قيسا من قبل على رضى الله عنه ، فأشاع أن قيسا من شيعته ، وأنه يبعث اليه بالكتب والنصيحة سرا .

فسمع ذلك جواسيس على رضى الله عنه ، وما زال به محمد بن أبى بكر وعبد الله بن جعفر ، حتى كتب الى قيس بن سعد يامره بالقدوم اليه .

فولها الى أن عزل أربعة أشهر وخمسة أيام ، وصرف لخمس خلون من رجب سنة سبع وثلاثين .

فوليها الأشتر مالك بن الحارث بن خالد النخعي ، من قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فلما قدم القلزم شرب عسلا فمات ، فبلغ ذلك عمرا ومعاوية ، فقال عمرو : ان لله جنودا من عسل .

ثم وليها محمد بن أبى بكر الصديق من قبل على رضى الله عنه ، وجمع له صلاتها وخراجها ، فدخلها للنصف من رمضان سنة سبع وثلاثين ، فهدم دور شيعة عثمان ، ونهب أموالهم ، وسجن ذراريهم ، فنصبوا له الحرب ، ثم صالحهم على أن يسيرهم الى معاوية ، فلحقوا بمعاوية بالشام .

فبعث معاوية عمرو بن العاص فى جيوش أهل الشام الى الفسطاط ، وتغيب ابن أبى بكر ، فظفر به معاوية بن خديج فقتله ، ثم جعله فى جيفة حمار ميت ، وأحرقه بالنار لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمان وثلاثين . فكانت ولايته خمسة أشهر .

ثم وليها عمرو بن العاص ولايته الثانية ، من قبل معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، فاستقبل بولايته شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ، وجعل اليه الصلات والخراج جميعا ، وجعلت مصر له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة فى مصلحتها .

ثم خرج عمرو للحكومة ، واستخلف على مصر ابنه عبد الله ، وقيل بل خارجة بن حذافة ، ورجع الى مصر .

وتعاقد بنو ملجم عبد الرحمن وقيس ويزيد على قتل على ومعاوية وعمرو ، وتواعدوا ليلة من رمضان سنة أربعين ، فمضى كل منهم الى صاحبه ، وكان يزيد هو صاحب عمرو ، فعرضت لعمرو علة منعته من حضور المسجد ، فصلى خارجة بالناس ، فشد عليه يزيد فضربه حتى قتله .

فدخل به على عمرو ، فقال : أما والله ما أردت غيرك ياعمرو .

قال عمرو : ولكن الله أراد خارجة .

ولله در القائل :

وليتها اذ فدت عمرا بخارجة
فدت عليا بمن شاءت من البشر

وعقد عمرو لشريك بن سمى على غزو لواتة من البربر ، فغزاهم فى سنة أربعين وصالحهم .

ثم انتقضوا ، فبعث اليهم عقبة بن نافع ، فى سنة احدى وأربعين ، فغزاهم حتى هزمهم .

وعقد لعقبة أيضا على غزو هوارة ، وعقد لشريك * بن سمى على غزو لبدة ، فغزواهما فى سنة ثلاث وأربعين ، فقفلا وعمرو شديد الدنف فى مرض موته .

وتوفى ليلة الفطر ، فغسله عبد الله بن عمرو ، وأخرجه الى المصلى وصلى عليه . فلم يبق أحد شهد العيد الا صلى عليه ، ثم صلى بالناس صلاة العيد ، وكان أبوه استخلفه .

وخلف عمرو بن العاص سبعين بهارا دنانير (والبهار جلد ثور ، ومبلغه اردبان بالمصرى) فلما حضرته الوفاة أخرجه ، وقال : من يأخذه بما فيه ؟

فأبى ولداه أخذه وقالا : حتى ترد الى كل ذى حق حقه .

(*) ص ٢٠٠ جـ ١ ، ط بولاق .

فقال : والله ما أجمع بين اثنين منهم .

فبلغ معاوية ، فقال : نحن نأخذه بما فيه .

ثم وليها عتبة بن أبى سفيان من قبل أخيه معاوية بن أبى سفيان ، على صلاتها ، فقدم فى ذى القعدة سنة ثلاث وأربعين ، وأقام شهرا .

ثم وفد على أخيه ، واستخلف عبد الله بن قيس بن الحارث — وكان فيه شدة — فكره الناس ولايته ، وامتنعوا منها .

فبلغ ذلك عتبة ، فرجع الى مصر ، وصعد المنبر فقال : ياأهل مصر ، قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم ، وقد وليكم من اذا قال فعل ، فان أبيتم دراكم بيده ، فان أبيتم دراكم بسيفه ، ثم رجا فى الأخير ما أدرك فى الأول . ان البيعة شائعة : لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل ، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه .

فناداه المصريون من جنبات المسجد : سمعا سمعا ، فناداهم : عدلا عدلا ، ثم نزل .

ثم جمع له معاوية الصلات والخراج .

وعقد عتبة لعلقمة بن يزيد على الاسكندرية فى اثنى عشر ألفا من أهل الديوان تكون لها رابطة . ثم خرج اليها مرابطا فى ذى الحجة سنة أربع وأربعين ، فمات بها ، واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى .

فكانت ولايته سنة أشهر .

ثم وليها عقبة بن عامر بن عبس الجهنى ، من قبل معاوية ، وجعل له صلاتها وخراجها ، وكان قارئا فقيها مفرضا شاعرا ، له الهجرة والصحبة والسابقة .

ثم وفد مسلمة بن محمد بن الأنصارى على معاوية ، فولاه مصر وأمره أن يكتم ذلك عن عقبة بن عامر ، وجعل عقبة على البحر ، وأمره أن يسير الى رودس .

فقدم مسلمة فلم يعلم بامارته ، وخرج مع عقبة الى الاسكندرية ، فلما توجه سائرا استوى مسلمة على سرير امارته ، فبلغ ذلك عقبة فقال : أخلعا وغربة !

وكان صرفه لعشر بقين من ربيع الأول سنة سبع وأربعين ، وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر .

فولى مسلمة بن مخلد بن صامت بن نيار الأنصارى ، من قبل معاوية ، وجمع له الصلات والخراج والغزو ، فانتظمت غزواته فى البر والبحر .

وفى امارته نزلت الروم البرلس فى سنة ثلاث وخمسين ، فاستشهد يومئذ وردان مولى عمرو بن العاص فى جمع من المسلمين .

وهدم ما كان عمرو بن العاص بناه من المسجد وبناه ، وأمر بابتناء منارات المساجد كلها الا خولان وتجيب .

وخرج الى الاسكندرية فى سنة ستين ، واستخلف عابس بن سعيد .

ومات معاوية بن أبى سفيان فى رجب منها ، واستخلف ابنه يزيد بن معاوية ، فأقر مسلمة ، وكتب اليه بأخذ البيعة ، فبايعه الجند الا عبد الله بن عمرو بن العاص ، فدعا عابس بالنار ليحرق عليه بابه ، فحينئذ بايع ليزيد .

وقدم مسلمة من الاسكندرية ، فجمع لعابس مع الشرط القضاء فى سنة احدى وستين .

وقال مجاهد : صليت خلف مسلمة بن مخلد ، فقرأ سورة البقرة فما ترك الفا ولا واوا .

وقال ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد : كان مسلمة بن مخلد يصلى بنا ، فيقوم فى الظهر ، فربما قرأ الرجل البقرة .

وتوفى مسلمة وهو وال لخمس بقين من رجب سنة اثنتين وستين ، فكانت ولايته خمس عشرة سنة وأربعة أشهر ، واستخلف عابس بن سعيد .

ثم وليها سعيد بن يزيد بن علقمة بن يزيد ابن عوف الأزدى من أهل فلسطين . فقدم مستهل رمضان سنة اثنتين وستين ، فتلقاه عمرو بن قحزم الخولانى فقال : يغفر الله لأمير المؤمنين ، أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك يولى علينا أحدهم ؟

ولم تزل أهل مصر على الشنآن له ، والاعراض عنه ، والتكبر عليه حتى توفى يزيد ابن معاوية .

ودعا عبد الله بن الزبير رضى الله عنه الى نفسه ، فقامت الخوارج الذين بمصر وأظهروا دعوته ، وسار منهم اليه ، فبعث لعبد الرحمن ابن جحدم فقدم .

واعتزل سعيدا . فكانت ولايته سنتين غير شهر .

ثم وليها عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم ، من قبل عبد الله بن الزبير ، فدخل فى شعبان سنة أربع وستين فى جمع كثير من الخوارج ، فأظهروا التحكيم ودعوا اليه ، فاستعظم الجند ذلك ، وبايعه الناس على غل فى قلوب شيعة بنى أمية .

ثم بويع مروان بن الحكم بالخلافة فى أهل الشام ، وأهل مصر معه فى الباطن ، فسار اليها ، وبعث ابنه عبد العزيز فى جيش الى أيلة ليدخل مصر من هناك .

وأجمع ابن جحدم على حربه ، وحفر الخندق فى شهر ، وهو الذى فى شرقى القرافة .

وقدم مروان فحاربه ابن جحدم ، وقتل بينهما كثير من الناس ، ثم اصطلحا ، ودخل مروان لعشر من جمادى الأولى سنة خمس وستين .

فكانت مدة ابن جحدم تسعة أشهر .

ووضع مروان العطاء ، فبايعه الناس ، الا نفرا من المعافر قالوا : لا نخلع بيعة ابن الزبير ، فضرب أعناقهم — وكانوا ثمانين رجلا — وذلك للنصف من جمادى الآخرة .

ويومئذ مات عبد الله بن عمرو بن العاص * ، فلم يستطع أن يخرج بجنازته الى المقبرة لشغب الجند على مروان .

وجعل مروان صلات مصر وخراجها الى ابنه عبد العزيز وسار ، وقد أقام بها شهرين لهلال رمضان .

عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص أبو الأصبغ : ولى من قبل أبيه ، لهلال

(*) ص٢٠١ جـ١ ، ط.بولاق .

رجب سنة خمس وستين ، على الصلات والخراج .

ومات أبوه ، وبويع من بعده عبد الملك بن مروان ، فأقر أخاه عبد العزيز .

ووقع الطاعون بمصر سنة سبعين ، فخرج عبد العزيز منها ، ونزل حلوان فاتخذها دارا وسكنها ، وجعل بها الأعوان ، وبنى بها الدور والمساجد ، وعمرها أحسن عمارة ، وغرس نخلها وكرمها .

وعرّف بمصر — وهو أول من عرف بها — فى سنة احدى وسبعين ، وجهز البعث فى البحر لقتال ابن الزبير فى سنة اثنتين وسبعين .

ثم مات لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين ، فكانت ولايته عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما .

فولى عبد الله بن عبد الملك بن مروان من قبل أبيه ، على صلاتها وخراجها ، فدخل يوم الاثنين لاحدى عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ست وثمانين ، وهو ابن تسع وعشرين سنة ، وقد تقدم اليه أبوه أن يقتفى آثار عمه عبد العزيز ، فاستبدل بالعمال وبالأصحاب .

ومات عبد الملك ، وبويع ابنه الوليد بن عبد الملك ، فأقر أخاه عبد الله .

وأمر عبد الله فنسخت دواوين مصر بالعربية ، وكانت بالقبطية .

وفى ولايته غلت الأسعار ، فتشاءم الناس به — وهى أول شدة رأوها بمصر — وكان يرتشى .

ثم وفد على أخيه فى صفر سنة ثمان وثمانين ، واستخلف عبد الرحمن بن عمرو بن قحزم الخولانى ، وأهل مصر فى شدة عظيمة .

ورفع سقف المسجد الجامع فى سنة تسع وثمانين ، ثم صرف . فكانت ولايته ثلاث سنين وعشرة أشهر .

فولى قرة بن شريك بن مرثد بن الحارث العبسى للوليد بن عبد الملك ، على صلات مصر وخراجها ، فقدمها يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة تسعين .

وخرج عبد الله بن عبد الملك من مصر بكل ما ملكه ، فأحيط به فى الأردن ، وأخذ سائر ما معه ، وحمل الى أخيه .

وأمر الوليد بهدم ما بناه عبد العزيز فى المسجد ، فهدم أول سنة اثنتين وتسعين وبنى .

واستنبط قرة بن شريك بركة الحبش من الموات وأحياها ، وغرس فيها القصب ، فقيل لها اصطبل قرة واصطبل القاش .

ثم مات وهو وال ليلة الخميس لست بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين ، واستخلف على الجند والخراج عبد الملك بن رفاعة ... فكانت ولايته ست سنين وأياما .

ثم ولى عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمى ، من قبل الوليد بن عبد الملك ، على صلاتها .

وتوفى الوليد ، واستخلف سليمان بن عبد الملك ، فأقر ابن رفاعة .

وتوفى سليمان ، وبويع عمر بن عبد العزيز فعزل ابن رفاعة ... فكانت ولايته ثلاث سنين .

ثم ولى أيوب بن شرحبيل بن أكسوم بن أبرهة بن الصباح ، من قبل عمر بن عبد العزيز ، على صلاتها فى ربيع الأول سنة تسع وتسعين .

فورد كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بالزيادة فى أعطيات الناس عامة ، وحرمت الخمر ، وكسرت وعطلت حاناتها ، وقسم للغارمين بخمسة وعشرين ألف دينار ، ونزعت موارث القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها ، ومنع الناس الحمامات .

وتوفى عمر بن عبد العزيز ، واستخلف يزيد ابن عبد الملك ، فأقر أيوب على الصلات ، الى أن مات لاحدى عشرة ، وقيل لسبع عشرة ، خلت من رمضان سنة احدى ومائة ... فكانت ولايته سنتين ونصفا .

فولى بشر بن صفوان الكلبى ، من قبل يزيد بن عبد الملك ، قدمها لسبع عشرة خلت من رمضان سنة احدى ومائة .

وفى امرته نزل الروم تنيس .

ثم ولاه يزيد على افريقية ، فخرج اليها فى شوال سنة اثنتين ومائة ، واستخلف أخاه حنظلة .

فولى حنظلة بن صفوان باستخلاف أخيه ، فأقره يزيد بن عبد الملك ، وخرج الى الاسكندرية فى سنة ثلاث ومائة ، واستخلف عقبة بن مسلمة التجيبى .

وكتب يزيد بن عبد الملك ، فى سنة أربع ومائة ، بكسر الأصنام والتماثيل ، فكسرت كلها ومحيت التماثيل .

ومات يزيد بن عبد الملك ، وبويع هشام بن عبد الملك ، فصرف حنظلة فى شوال سنة خمس ومائة ... فكانت ولايته ثلاث سنين .

وولى محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، من قبل أخيه هشام بن عبد الملك ، على الصلات ، فدخل مصر لاحدى عشرة خلت من شوال سنة خمس ومائة .

ووقع وباء شديد بمصر ، فترفع محمد الى الصعيد هاربا من الوباء أياما ، ثم قدم وخرج عن مصر لم يلها الا نحوا من شهر ، وانصرف الى الأردن .

فولى الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم ، من قبل هشام بن عبد الملك ، على صلاتها ، فدخل لثلاث خلون من ذى الحجة سنة خمس ومائة .

وفى امرته كان أول انتقاض القبط فى سنة سبع ومائة . ورابط بدمياط ثلاثة أشهر ، ثم وفد الى هشام بن عبد الملك ، فاستخلف حفص بن الوليد . وقدم فى ذى القعدة من سنة سبع ، وانكشف النيل عن الأرض فبنى فيها .

وصرف فى ذى القعدة سنة ثمان ومائة باستعفائه ، لمغاضبة كانت بينه وبين عبد الله * ابن الحبحاب متولى خراج مصر ... فكانت ولايته ثلاث سنين سواء .

(*) ص٣٠٢ جـ١ ، ط.بولاق .

وولى حفص بن الوليد بن سيف بن عبد الله ، من قبل هشام بن عبد الملك ، ثم صرف بعد جمعتين يوم الأضحى بشكوى بن الحبحاب منه ، وقيل صرف سلخ ثمان ومائة .

فولى عبد الملك بن رفاعة ثانيا على الصلات ، فقدم من الشام عليلا لثنتى عشرة بقيت من المحرم سنة تسع ومائة ، وكان أخوه الوليد يخلفه من أول المحرم . وقيل بل ولى أول المحرم ، ومات للنصف منه . وكانت ولايته خمس عشرة ليلة .

ثم ولى أخوه الوليد بن رفاعة باستخلاف أخيه ، فأقره هشام بن عبد الملك على الصلات .

وفى ولايته نقلت قيس الى مصر ولم يكن بها أحد منهم ، وخرج وهيب اليحصبى شاردا فى سنة سبع عشرة ومائة من أجل أن الوليد أذن للنصارى فى ابتناء كنيسة « يومنا » بالحمراء .

وتوفى وهو وال أول جمادى الآخرة سنة سبع عشرة ، واستخلف عبد الرحمن بن خالد ... فكانت امرته تسع سنين وخمسة أشهر .

فولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى أبو الوليد ، من قبل هشام بن عبد الملك ، على صلاتها .

وفى امرته نزل الروم على تروجة فحاصروها ثم اقتتلوا فأسروا ، فصرفه هشام ... فكانت ولايته سبعة أشهر .

وولى حنظلة بن صفوان ثانيا ، فقدم لخمس خلون من المحرم سنة تسع ومائة ، فانتقض القبط ، وحاربهم فى سنة احدى وعشرين ومائة .

وقدم رأس زيد بن على الى مصر فى سنة اثنتين وعشرين ومائة .

ثم ولاه هشام افريقية ، فاستخلف حفص ابن الوليد بامرة هشام .

وخرج لسبع خلون من ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة ... فكانت ولايته هذه خمس سنين وثلاثة أشهر .

وولى حفص بن الوليد الحضرمى ثانيا ، باستخلاف حنظلة له ، على صلاتها ، فأقره هشام بن عبد الملك الى ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة أربع وعشرين ، فجمع له الصلات والخراج جميعا ، واستسقى الناس وخطب ودعا ، ثم صلى بهم .

ومات هشام بن عبد الملك ، واستخلف من بعده الوليد بن يزيد ، فأقر حفصا على الصلات والخراج .

ثم صرف عن الخراج بعيسى بن أبى عطاء ، لسبع بقين من شوال سنة خمس وعشرين ومائة ، وانفرد بالصلات ، ووفد على الوليد ابن يزيد ، واستخلف عقبة بن نعيم الرعينى .

وقتل الوليد بن يزيد وحفص بالشام ، وبويع يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فأمر حفصا باللحاق بجنده ، وأمّره على ثلاثين ألفا . وفرض الفروض ، وبعث بيعة أهل مصر الى يزيد بن الوليد .

ثم توفى يزيد ، وبويع ابراهيم بن الوليد ، وخلعه مروان بن محمد الجعدى ، فكتب

حفص يستعفيه من ولاية مصر ، فأعفاه مروان ... فكانت ولاية حفص هذه ثلاث سنين الا شهرا .

وولى حسان بن عتاهية بن عبد الرحمن التجيبي وهو بالشام ، فكتب الى خير بن نعيم باستخلافه ، فسلم حفص الى خير .

ثم قدم حسان لثنتى عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة على الصلات ، وعيسى بن أبي عطاء على الخراج ، فأسقط حسان فروض حفص كلها ،

فوثبوا به وقالوا : لا نرضى الا بحفص.

وركبوا الى المسجد ، ودعوا الى خلع مروان ، وحصروا حسان فى داره ، وقالوا له : أخرج عنا ، فانك لا تقيم معنا ببلد .

وأخرجوا عيسى بن أبي عطاء صاحب الخراج وذلك فى آخر جمادى الآخرة ، وأقاموا حفصا ... فكانت ولاية حسان ستة عشر يوما .

فولى حفص بن الوليد الثالثة كرها ، أخذه قواد الفروض بذلك ، فأقام على مصر رجب وشعبان ، ولحق حسان بمروان .

وقدم حنظلة بن صفوان من أفريقية — وقد أخرجه أهلها — فنزل الجيزة ، وكتب مروان بولايته على مصر .

فامتنع المصريون من ولاية حنظلة ، وأظهروا الخلع ، وأخرجوا حنظلة الى الحوف الشرقى ، ومنعوه من المقام بالفسطاط .

وهرب ثابت بن نعيم من فلسطين يريد الفسطاط ، فحاربوه وهزموه .

وسكت مروان عن مصر بقية سنة سبع وعشرين ومائة ، ثم عزل حفصا مستهل سنة ثمان وعشرين .

وولى الحوثرة بن سهيل بن العجلان الباهلى ، فسار اليها فى آلاف ، وقدم أول المحرم وقد اجتمع الجند على منعه ، فأبى عليهم حفص ، فخافوا حوثرة وسألوه الأمان ، فأمنهم .

ونزل ظاهر الفسطاط وقد اطمأنوا اليه ، فخرج اليه حفص ووجوه الجند ، فقبض عليهم وقيدهم ، فانهزم الجند .

ودخل معه عيسى بن أبي عطاء على الخراج لثنتى عشرة خلت من المحرم ، وبعث فى طلب رؤساء الفتنة ، فجمعوا له وضرب أعناقهم ، وقتل حفص بن الوليد .

ثم صرف فى جمادى الأولى سنة احدى وثلاثين ومائة ، وبعثه مروان الى العراق فقتل ، واستخلف على مصر حسان بن عتاهية ، وقيل أبا الجراح بشر بن أوس ، وخرج لعشر خلون من رجب . وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر .

ثم ولى المغيرة بن عبيد الله بن المغيرة الفزارى على الصلات من قبل مروان ، فقدم لست بقين من رجب سنة احدى وثلاثين ، وخرج الى الاسكندرية ، واستخلف أبا الجراح الحرشى.

وتوفى لثنتى عشرة خلت من جمادى الأولى* سنة اثنتين وثلاثين ومائة ... فكانت ولايته عشرة أشهر .

(*) ص ٣٠٢ جـ١ ، ط . بولاق

واستخلف ابنه الوليد بن المغيرة ، ثم صرف الوليد فى النصف من جمادى الآخرة .

وولى عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، من قبل مروان ، على الصلات والخراج — وكان واليا على الخراج قبل أن يولى الصلات — فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فأمر باتخاذ المنابر فى الكور ولم تكن قبله ، وانما كانت ولاة الكور يخطبون على العصى الى جانب القبلة .

وخرج القبط فحاربهم ، وقتل كثيرا منهم .

وخالف عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان ، واجتمع عليه جمع من قيس فى الحوف الشرقى ، فبعث اليهم عبد الملك بجيش ، فلم يكن حرب .

وسار مروان بن محمد الى مصر منهزما من بنى العباس ، فقدم يوم الثلاثاء لثمان بقين من شوال سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وقد سود أهل الحوف الشرقى وأهل الاسكندرية وأهل الصعيد وأسوان .

فعزم مروان على تعدية النيل ، وأحرق دار آل مروان المذهبة ، ثم رحل الى الجيزة وخرق الجسرين ، وبعث بجيش الى الاسكندرية ، فاقتتلوا بالكريون .

وخالفت القبط برشيد ، فبعث اليهم وهزمهم ، وبعث الى الصعيد .

فقدم صالح بن على بن عبد الله بن عباس فى طلب مروان ، هو وأبو عون عبد الملك بن يزيد ، يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة ، فأدرك صالح مروان ببوصير من الجيزة — بعد ما استخلف على الفسطاط معاوية بن بحيرة بن ريسان — فحارب مروان حتى قتل ببوصير يوم الجمعة لسبع بقين من ذى الحجة .

ودخل صالح الى الفسطاط يوم الأحد لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، وبعث برأس مروان الى العراق .

وانقضت أيام بنى أمية .

فولى صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، ولى من قبل أمير المؤمنين أبى العباس عبد الله ابن محمد السفاح ، فاستقبل بولايته المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، وبعث بوفد أهل مصر الى أبى العباس السفاح ببيعة أهل مصر ، وأسر عبد الملك بن موسى بن نصير وجماعة ، وقتل كثيرا من شيعة بنى أمية ، وحمل طائفة منهم الى العراق ، فقتلوا بقلنسوة من أرض فلسطين .

وأمر للناس بأعطياتهم للمقاتلة والعيال ، وقسمت الصدقات على اليتامى والمساكين ، وزاد صالح فى المسجد .

وورد عليه كتاب أمير المؤمنين السفاح بامارته على فلسطين والاستخلاف على مصر ، فاستخلف أبا عون مستهل شعبان سنة ثلاث وثلاثين ، وسار ومعه عبد الملك بن نصير ملزما وعدة من أهل مصر صحابة لأمير المؤمنين ، وأقطع الذين سودوا قطائع ، منها منية بولاق وقرى اهناس وغيرها .

ثم من بعد صالح بن على ، سكن أمراء مصر العسكر ، وأول من سكنه أبو عون .

والله تعالى أعلم .

ذكر العسكر الذى بنى بظاهر مدينـة فسطاط مصر

اعلم أن موضع العسكر قد كان يعرف فى صدر الاسلام بالحمراء القصوى . وقد تقدم أن الحمراء القصوى كانت خطة بنى الأزرق وبنى روبيل وبنى يشكر بن جزيلة ، ثم دثرت هذه الخطط بعد العمارة بتلك القبائل حتى صارت صحراء .

فلما قدم مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية ، الى مصر منهزما من بنى العباس ، نزلت عساكر صالح بن على وأبى عون عبد الملك بن يزيد فى هذه الصحراء — حيث جبل يشكر — حتى ملأوا الفضاء ، وأمر أبو عون أصحابه بالبناء فيه ، فبنوا وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة .

فلما خرج صالح بن على من مصر ، خرب أكثر ما بنى فيه ... الى زمن موسى بن عيسى الهاشمى ، فابتنى فيه دارا أنزل فيها حشمه وعبيده ، وعمر الناس .

ثم ولى السرى بن الحكم ، فأذن للناس فى البناء ، فابتنوا فيه وصار مملوكا بأيديهم ، واتصل بناؤه ببناء الفسطاط ، وبنيت فيه دار الامارة ومسجد جامع عرف بجامع العسكر ، ثم عرف بجامع ساحل الغلة .

وعملت الشرطة أيضا فى العسكر ، وقيل لها الشرطة العليا ، والى جانبها بنى أحمد بن طولون جامعه الموجود الآن .

وسمى من حينئذ ذلك الفضاء بالعسكر ، وصار أمراء مصر اذا ولوا ينزلون به من بعد أبى عون ، فقال الناس من يومئذ : كنا بالعسكر ، وخرجنا الى العسكر .

وكتب من العسكر ، وصار مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة .

وفيه بنى أحمد بن طولون مارستانه ، فأنفق عليه وعلى مستغله ستين ألف دينار ، وكان بالقرب من بركة قارون التى صارت كيمانا ، وبعضها بركة على يسرة من سار من حدرة ابن قميحة يريد قنطرة السد .

وعلى بركة قارون هذه كانت جنان بنى مسكين ، وبنى كافور الاخشيدى دارا أنفق عليها مائة ألف دينار ، وسكنها فى رجب سنة ست وأربعين وثلثمائة ، وانتقل منها بعد أيام لوباء وقع فى غلمانه من بخار البركة .

وعظمت العمارة فى العسكر جدا ، الى أن قدم أحمد بن طولون من العراق الى مصر ، فنزل بدار الامارة من العسكر ، وكان لها باب الى جامع العسكر ، وينزلها الأمراء منذ بناها صالح بن على بعد قتله مروان * .

وما زال بها أحمد بن طولون الى أن بنى القصر والميدان بالقطائع ، فتحول من العسكر وسكن قصره بالقطائع .

فلما ولى أبو الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون بعد أبيه ، جعل دار الامارة ديوان الخراج ، ثم فرقت حجرا بعد دخول محمد ابن سليمان الكاتب الى مصر وزوال دولة بنى طولون ، فسكن محمد بن سليمان بدار

(*) ص٣٠٤ جـ١ ، ط.بولاق .

الامارة فى العسكر عند المصلى القديم ، وكان المصلى القديم حيث الكوم المطل الآن على قبر القاضى بكار .

وما زالت الأمراء تنزل بالعسكر ... الى أن قدم القائد جوهر من المغرب ، وبنى القاهرة المعزية .

ولما بنى أحمد بن طولون القطائع ، اتصلت مبانيها بالعسكر ، وبنى جامعه على جبل يشكر ، فعمر ما هنالك عمارة عظيمة تخرج عن الحد فى الكثرة .

وقدم جوهر القائد بعساكر مولاه المعز لدين الله ، فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، والعسكر عامر ، الا أنه منذ بنيت القطائع ، هجر اسم العسكر ، وصار يقال مدينة الفسطاط والقطائع ، وربما قيل والعسكر أحيانا .

فلما خرب محمد بن سليمان قصر ابن طولون وميدانه ، بقى فى القطائع مساكن جليلة حيث كان العسكر .

وأنزل المعز لدين الله عمه أبا على فى دار الامارة ، فلم يزل أهله بها الى أن خربت القطائع ، فى الشدة العظمى التى كانت فى خلافة المستنصر ، أعوام بضع وخمسين وأربعمائة . فيقال انه كان هناك زيادة على مائة ألف دار سوى البساتين .

وما هذا ببعيد ، فان ذلك كان ما بين سفح الشرف الذى عليه الآن قلعة الجبل ، وبين ساحل مصر القديم حيث الآن الكبارة خارج مصر ، وما على سمتها الى كوم الجارح ، ومن كوم الجارح الى جامع ابن طولون وخط قناطر السباع وخط السبع سقايات ، الى قنطرة السد ومراغة مصر ، الى المعاريج بمصر ، والى كوم الجارح ... ففى هذه المواضع كان العسكر والقطائع .

ويخص العسكر من ذلك ما بين قناطر السباع وحدرة ابن قميحة ، الى كوم الجارح ، حيث الفضاء الذى يتوسط ما بين قنطرة السد وبين سور القرافة الذى يعرف بباب المجدم ... فهذا هو العسكر

ولما استولى الخراب فى المحنة ، أمر ببناء حائط يستر الخراب عن نظر الخليفة اذا سار من القاهرة الى مصر ، فيما بين العسكر والقطائع وبين الطريق ، وأمر ببناء حائط آخر عند جامع ابن طولون .

فلما كان فى خلافة الآمر بأحكام الله أبى على منصور بن المستعلى ، أمر وزيره أبو عبد الله محمد بن فاتك — المنعوت بالأجل المأمون — بن البطايحى فنودى مدة ثلاثة أيام فى القاهرة ومصر : بأن من كان له دار فى الخراب أو مكان فليعمره ، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه ، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له ولا حكر يلزمه ... وأباح تعمير جميع ذلك بغير طلب حق .

وكان سبب هذا النداء أنه لما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى فى آخر الشدة العظمى وقام بعمارة اقليم مصر ، أخذ الناس فى نقل ما كان بالقطائع والعسكر من أنقاض المساكن ، حتى أتى على معظم ما هنالك الهدم ، فصار

موحشا ، وخرب ما بين القاهرة ومصر من المساكن ، ولم يبق هنالك الا بعض البساتين .

فلما تلدى الوزير المأمون ، عمر الناس ما كان من ذلك مما يلى القاهرة من جهة المشهد النفيسى الى ظاهر باب زويلة — كما يرد خبر ذلك فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى — وتلت أنقاض العسكر كما تقدم . فصار هذا الفضاء الذى يتوصل اليه من مشهد السيدة نفيسة ومن الجامع الطولونى ومن قنطرة السد ومن باب المجدم فى سور القرافة ، وسلك فى هذا الفضاء الى كوم الجارح .

ولم يبق الآن من العسكر ما هو عامر سوى جبل يشكر الذى عليه جامع ابن طولون ، وما حوله من الكبش وحدرة ابن قميحة ، الى خط السبع سقايات وخط قناطر السباع الى جامع ابن طولون .

وأما سوق الجامع من قبليه ، وما وراء ذلك الى المشهد النفيسى والى القبيبات والرميلة تحت القلعة ، فانما هو من القطائع ، كما ستقف عليه عند ذكر القطائع ، وعند ذكر هذه الخطط ان شاء الله تعالى .

ولطالما سلكت هذا الفضاء الذى بين جامع ابن طولون وكوم الجارح حيث كان العسكر ، وتذكرت ما كان هنالك من الدور الجليلة والمنازل العظيمة والمساجد والأسواق والحمامات والبساتين والبركة البديعة والمارستان العجيب ، وكيف بادت حتى لم يبق لشيء منها أثر البتة ، فانشدت أقول :

وبادوا فلا مخبر عنهم
وماتوا جميعا وهذا الخبر

فمن كان ذا عبرة فليكن
فطينا فتى من مضى معتبر

وكان لهم أثر صالح
فأين هم ثم أين الأثر ؟

وسيأتى لذلك مزيد بيان عند ذكر القطائع ، وعند ذكر خط قناطر السباع وغيره من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى * .

ذكر من نزل العسكر من امراء مصر من حين بنى الى ان بنيت القطائع

اعلم أن أمراء مصر ما برحوا ينزلون فسطاط مصر ، منذ اختط بعد الفتح الى أن بنى أبو عون العسكر ، فصارت أمراء مصر من عهد أبى عون انما ينزلون بالعسكر .

وما برحوا على ذلك الى أن أنشأ الأمير أبو العباس أحمد بن طولون القصر والميدان والقطائع ، فتحول من العسكر الى القصر وسكن فيه ، وسكنه الأمراء من أولاده بعده الى أن زالت دولتهم .

فسكن الأمراء بعد ذلك العسكر الى أن زالت دولة الاخشيدية ، بقدوم جوهر القائد من المغرب .

وأول من سكن العسكر من أمراء مصر أبو عون عبد الملك بن يزيد ، من أهل جرجان ، ولى صلات مصر وخراجها باستخلاف صالح ابن على له فى مستهل شعبان سنة ثلاث وثلاثين ومائة .

(*) ص٣٠٥ ج١ ، ط. بولاق .

ووقع الوباء بمصر ، فهرب أبو عون الى يشكر ، واستخلف صاحب شرطته عكرمة بن عبد الله بن عمرو بن قحزم . وخرج الى دمياط فى سنة خمس وثلاثين ومائة ، واستخلف عكرمة ، وجعل على الخراج عطاء ابن شرحبيل .

وخرج القبط بسمنود ، فبعث اليهم وقتلهم .

وورد الكتاب بولاية صالح بن على على مصر وفلسطين والمغرب ، جمعت له ، ووردت الجيوش من قبل أمير المؤمنين السفاح لغزو المغرب .

فولى صالح بن على الثانية على الصلات والخراج ، فدخل لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ومائة ، فأقر عكرمة على شرطة الفسطاط ، وجعل على شرطته بالعسكر يزيد بن هانى الكندى ، وولى أبا عون جيوش المغرب ، وقدم أمامه دعاة لأهل أفريقية .

وخرج أبو عون فى جمادى الآخرة ، وجهزت المراكب من الاسكندرية الى برقة .

فمات السفاح فى ذى الحجة ، واستخلف أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور ، فأقر صالحا ، وكتب الى أبى عون بالرجوع ، ورد الدعاة وقد بلغوا شبرت .

وبلغ أبو عون برقة ، فأقام بها أحد عشر يوما ، ثم عاد الى مصر فى جيشه ، فجهزه صالح الى فلسطين لحربه ، فغلب وسير الى مصر ثلاثة آلاف رأس .

ثم خرج صالح الى فلسطين ، واستخلف ابنه الفضل ، فبلغ بلبيس ورجع .

ثم خرج لأربع خلون من رمضان سنة سبع وثلاثين ، فلقى أبا عون بالفرما ، فأمره على مصر صلاتها وخراجها ، ومضى .

فدخل أبو عون الفسطاط لأربع بقين من رمضان . فولى أبو عون ولايته الثانية من قبل صالح بن على ، ثم أفرده أبو جعفر بولايتها .

وقدم أبو جعفر بيت المقدس ، وكتب الى أبى عون بأن يستخلف على مصر ويخرج اليه ، فاستخلف عكرمة على الصلات وعطاء على الخراج ، وخرج للنصف من ربيع الأول سنة احدى وأربعين ومائة .

فلما صار الى أبى جعفر ببيت المقدس ، بعث أبو جعفر موسى بن كعب ... فكانت ولاية أبى عون هذه ثلاث سنين وستة أشهر .

فوليها موسى بن كعب بن عيينة ابن عائشة أبو عيينة من تميم ، من قبل أبى جعفر المنصور — وكان أحد نقباء بنى العباس — فدخلها لأربع عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة احدى وأربعين ومائة ، على صلاتها وخراجها .

ونزل العسكر وبها الناس من الجند يغدون ويروحون اليه كما كانوا يفعلون بالأمراء قبله ، فانتهوا عنه حتى لم يكن أحد يلزم بابه .

وكان قد اتهم فى خراسان بأمر أبى مسلم ، فأمر به أسد بن عبد الله البجلى ، والى خراسان ، فألجم بلجام ، ثم كسرت أسنانه ،

فكان يقول بمصر : كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز ، فلما جاء الخبز ذهبت الأسنان .

وكتب اليه أبو جعفر : « انى عزلتك من غير سخطة ، ولكن بلغنى أن غلاما يقتل بمصر يقال له موسى ، فكرهت أن تكونه » ... فكان ذلك موسى بن مصعب زمن المهدى ، كما يأتى ان شاء الله تعالى .

فولى موسى بن كعب سبعة أشهر ، وصرف فى ذى القعدة ، واستخلف على الجند ابن خاله ابن حبيب ، وعلى الخراج نوفل بن الفرات ، وخرج لست بقين منه .

فولى محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعى من قبل أبى جعفر ، على الصلات والخراج ، وقدم لخمس خلون من ذى الحجة سنة احدى وأربعين ومائة .

وبعث أبو جعفر الى نوفل بن الفرات « أن اعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر ، فان ضمنه فأشهد عليه واشخص الى ، وان أبى فاعمل على الخراج » .

فعرض عليه ذلك فأبى ، فانتقل نوفل الدواوين ، فافتقد ابن الأشعث الناس ، فقيل له « هم عند صاحب الخراج » ، فندم على تسليمه ، وعقد على جيش بعث به الى المغرب لحربه فانهزم .

وخرج ابن الأشعث يوم الأضحى سنة اثنتين وأربعين ، وتوجه الى الاسكندرية ، واستخلف محمد بن معاوية بن بجير بن رسان صاحب شرطته .

ثم صرف ابن الأشعث ... فكانت ولايته سنة وشهرا .

وولى حميد بن قحطبة بن شبيب بن خالد ابن سعدان الطائى من قبل أبى جعفر ، على الصلات والخراج ، فدخل فى عشرين ألفا من الجند لخمس خلون من رمضان سنة ثلاث وأربعين ومائة ، ثم قدم عسكر آخر فى شوال .

وقدم على بن محمد بن عبد الله بن حسن ابن الحسن داعية لأبيه وعمه ، فدس اليه حميد فتغيب ، فكتب بذلك الى أبى جعفر ، فصرفه * فى ذى القعدة ، وخرج لثمان بقين من ذى القعدة سنة أربع وأربعين .

فولى يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، من قبل أبى جعفر ، على الصلات والخراج ، فقدم على البريد للنصف من ذى القعدة ، فاستخلف على الخراج معاوية بن مروان بن موسى بن نصير .

وفى امرته ظهرت دعوة بنى الحسن بن على بمصر ، وتكلم بها الناس ، وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله . وطرق المسجد لعشر خلون من شوال سنة خمس وأربعين ، كما يذكر فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

ثم قدمت الخطباء برأس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على فى ذى الحجة فنصبت فى المسجد .

وورد كتاب أبى جعفر بأمر يزيد بن حاتم بالتحول من العسكر الى الفسطاط ، وأن يجعل الديوان فى كنائس القصر ، وذلك فى سنة ست وأربعين ومائة ، من أجل ليلة المسجد .

(*) ص٢٠٦ ج١ ، ط.بولاق .

ومنع يزيد أهل مصر من الحج سنة خمس وأربعين ، فلم يحج أحد منهم ولا من اهل الشام ، لما كان بالحجاز من الاضطراب بأمر بنى حسن .

ثم حج يزيد فى سنة سبع وأربعين ، واستخلف عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية ابن خديج صاحب شرطته ، وبعث جيشا لغزو الحبشة من أجل خارجي ظهر هناك ، فظفر به الجيش ، وقدم رأسه فى عدة رؤوس ، فحملت الى بغداد .

وضم يزيد برقة الى عمل مصر — وهو أول من ضمها الى مصر — وذلك فى سنة ثمان وأربعين .

وخرج القبط بسخا ، فى سنة خمسين ومائة ، فبعث اليهم جيشا ، فشته القبط ورجع منهزما . فصرفه أبو جعفر فى ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين ومائة ... فكانت ولايته سبع سنين وأربعة أشهر .

وولى عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية ابن خديج ، من قبل أبى جعفر ، على الصلات لثنتى عشرة بقيت من ربيع الآخر ، وهو أول من خطب بالسواد .

وخرج الى أبى جعفر لعشر بقين من رمضان سنة أربع وخمسين ومائة ، واستخلف أخاه محمدا ، ورجع فى آخرها .

ومات وهو وال مستهل صفر سنة خمس وخمسين ومائة ، واستخلف أخاه محمدا ... فكانت ولايته سنتين وشهرين .

فولى محمد بن عبد الرحمن بن معاوية ابن خديج باستخلاف أخيه ، فأقره أبو جعفر على الصلات .

ومات وهو وال للنصف من شوال ، فكانت ولايته ثمانية أشهر ونصفا ، واستخلف موسى ابن على .

فولى موسى بن على بن رباح باستخلاف محمد بن خديج ، فأقره أبو جعفر على الصلات . وخرج القبط ببيب فى سنة ست وخمسين فبعث اليهم وهزمهم .

وكان يروح الى المسجد ماشيا وصاحب شرطته بين يديه يحمل الحربة . واذا أقام صاحب الشرطة الحدود يقول له : « ارحم أهل البلاد » ، فيقول : « أيها الأمير ما يصلح الناس الا ما يفعل بهم » . وكان يحدث فيكتب الناس عنه

ومات أبو جعفر لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وبويع ابنه محمد المهدى ، فأقر موسى بن على الى سابع عشر ذى الحجة سنة احدى وستين ومائة ... فكانت ولايته ست سنين وشهرين .

وولى عيسى بن لقمان بن محمد الجمحى ، من قبل المهدى ، على الصلات والخراج ، فقدم لثلاث عشرة بقيت من ذى الحجة سنة احدى وستين ومائة ، وصرف لثنتى عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة اثنتين وستين ومائة ... فوليها أربعة أشهر .

ثم ولى واضح مولى أبى جعفر ، من قبل المهدى ، على الصلات والخراج ، فدخل لست بقين من جمادى الأولى ، وصرف فى رمضان .

فولى منصور بن يزيد بن منصور الرعينى — وهو ابن خال المهدى — على الصلات ، فقدم لاحدى عشرة خلت من رمضان سنة اثنتين وستين ومائة ، وصرف للنصف من ذى الحجة ... فكان مقامه شهرين وثلاثة أيام .

ثم ولى يحيى بن داود أبو صالح من أهل خراسان ، من قبل المهدى ، على الصلات والخراج . فقدم فى ذى الحجة ، وكان أبوه تركيا ، وهو من أشد الناس ، وأعظمهم هيبة ، وأقدمهم على الدم ، وأكثرهم عقوبة .

فمنع من غلق الدروب بالليل ومن غلق الحوانيت ، حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب .

ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها ، وقال : من ضاع له شىء فعلى أداؤه . وكان الرجل يدخل الحمام ، فيضع ثيابه ويقول : ياأبا صالح احرسها ... فكانت الأمور على هذا مدة ولايته .

وأمر الأشراف والفقهاء وأهل النوبات بلبس القلانس الطوال ، والدخول بها على السلطان يوم الاثنين والخميس بلا أردية .

وكان أبو جعفر المنصور اذا ذكره قال : « هو رجل يخافنى ولا يخاف الله » ... فولى الى المحرم سنة أربع وستين .

وقدم سالم بن سوادة التميمى ، من قبل المهدى ، على الصلات ، ومعه أبو قطيعة اسماعيل بن ابراهيم على الخراج لثنتى عشرة خلت من المحرم .

ثم ولى ابراهيم بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، من قبل المهدى ، على الصلات والخراج ، فقدم لاحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وستين ، وابتنى دارا عظيمة بالموقف من العسكر .

وخرج دحية بن المعصب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بالصعيد ، ونابذ ودعا الى نفسه بالخلافة ، فتراخى عنه * ابراهيم ، ولم يحفل بأمره حتى ملك عامة الصعيد .

فسخط المهدى لذلك ، وعزله عزلا قبيحا لسبع خلون من ذى الحجة سنة سبع وستين ... فوليها ثلاث سنين .

ثم ولى موسى بن مصعب بن الربيع من أهل الموصل ، على الصلات والخراج ، من قبل المهدى ، فقدم لسبع خلون من ذى الحجة المذكور ، فرد ابراهيم ، وأخذ منه وممن عمل له ثلثمائة ألف دينار ، ثم سيره الى بغداد .

وشدد موسى فى استخراج الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف مايقبل به ، وارتشى فى الأحكام ، وجعل خراجا على أهل الأسواق وعلى الدواب ... فكرهه الجند ونابذوه ، وثارت قيس واليمانية ، وكاتبوا أهل الفسطاط فاتفقوا عليه .

وبعث بجيش الى قتال دحية بالصعيد ، وخرج فى جند مصر كلهم لقتال أهل الحوف . فلما التقوا ، انهزم عنه أهل مصر بأجمعهم وأسلموه ، فقتل من غير أن يتكلم أحد من أهل مصر لتسع خلون من شوال سنة ثمان وستين ومائة ... فكانت ولايته عشرة أشهر .

(*) ص ٣٠٧ جـ١ ، ط ، بولاق

وكان ظالما غاشما ، سمعه الليث بن سعد يقرأ فى خطبته « انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » ، فقال الليث : اللهم لا تمقتنا .

ثم ولى عسامة بن عمرو باستخلاف موسى ابن مصعب ، وبعث الى دحية جيشا مع أخيه بكار بن عمرو ، فحارب يوسف بن نصير وهو على جيش دحية ، فتطاعنا ، ووضع يوسف الرمح فى خاصرة بكار ، ووضع بكار الرمح فى خاصرة يوسف ، فقتلا معا ، ورجع الجيشان منهزمين وذلك فى ذى الحجة .

وصرف عسامة ، لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة ، بكتاب ورد عليه من الفضل بن صالح بأنه ولى مصر وقد استخلفه ، فخلفه الى سلخ المحرم سنة تسع وستين ومائة .

ثم قدم الفضل بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، سلخ المحرم المذكور ، فى جيوش الشام .

ومات المهدى فى المحرم هذا ، وبويع موسى الهادى ، فأقر الفضل .

وقدم مصر يضطرب من أهل الحوف ومن خروج دحية ، فان الناس كانوا قد كاتبوه ودعوه ، فسير العساكر حتى هزم دحية ، وأسر وسيق الى الفسطاط ، فضربت عنقه ، وصلب فى جمادى الآخرة سنة تسع وستين .

فكان الفضل يقول : أنا أولى الناس بولاية مصر ، لقيامى فى أمر دحية وقد عجز عنه غيرى ... فعزل ، وندم على قتل دحية .

والفضل هو الذى بنى الجامع بالعسكر فى سنة تسع وستين ، فكانوا يجمعون فيه .

ثم ولى على بن سليمان بن على بن عبد الله ابن عباس ، من قبل الهادى ، على الصلات والخراج . فدخل فى سنة تسع وستين ومائة .

ومات الهادى للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، وبويع هارون بن محمد الرشيد ، فأقر على بن سليمان .

وأظهر فى ولايته الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنع الملاهى والخمور ، وهدم الكنائس المحدثة بمصر ، وبذل له فى تركها خمسون ألف دينار فامتنع .

وكان كثير الصدقة فى الليل ، وأظهر أنه تصلح له الخلافة وطمع فيها . فسخط عليه هارون الرشيد ، وعزله لأربع بقين من ربيع الأول سنة احدى وسبعين ومائة .

ثم ولى موسى بن عيسى بن موسى بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس ، من قبل الرشيد ، على الصلات . فأذن للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها على بن سليمان ، فبنيت بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة .

ثم صرف لأربع عشرة خلت من رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائة ... فكانت ولايته سنة وخمسة أشهر ونصفا .

ثم ولى مسلمة بن يحيى بن قرة بن عبيد الله البجلى من أهل جرجان ، من قبل الرشيد ، على الصلات ، ثم صرف فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ... فوليها أحد عشر شهرا .

ثم ولى محمد بن زهير الأزدى على الصلات والخراج لخمس خلون من شعبان ، فبادر الجند لعمر بن غيلان صاحب الخراج ، فلم يدفع عنه ، فصرف بعد خمسة أشهر فى سلخ ذى الحجة سنة ثلاث وسبعين ومائة .

فولى داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، وقدم هو وابراهيم بن صالح بن على ، فولى داود الصلات ، وبعث بابراهيم لاخراج الجند الذين ثاروا من مصر .

فدخل لأربع عشرة خلت من المحرم سنة أربع وسبعين ومائة ، فأخرجت الجند العديدة الى المشرق والمغرب فى عالم كثير ، فساروا فى البحر فأسرتهم الروم . وصرف لست خلون من المحرم سنة خمس وسبعين ... فكانت ولايته سنة ونصف شهر .

ثم ولى موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، على الصلات والخراج ، من قبل الرشيد . فدخل لسبع خلون من صفر سنة خمس وسبعين ، وصرف لليلتين بقيتا من صفر سنة ست وسبعين ومائة ... فولى سنة واحدة .

ثم ولى ابراهيم بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ثانيا من قبل الرشيد ، فكتب الى عامة بن عمرو فاستخلفه . ثم قدم نصر ابن كلثوم خليفته على الخراج مستهل ربيع الأول .

وتوفى عامة لسبع بقين من ربيع الآخر ، فقدم روح بن زنباع خليفة لابراهيم على الصلات والخراج . ثم قدم ابراهيم للنصف من جمادى الأولى ، وتوفى وهو وال لثلاث خلون من شعبان . فكان مقامه بمصر شهرين * وثمانية عشر يوما .

وقام بالأمر بعده ابنه صالح بن ابراهيم ، مع صاحب شرطته خالد بن يزيد .

ثم ولى عبد الله بن المسيب بن زهير بن عمرو الضبى ، من قبل الرشيد ، على الصلات لاحدى عشرة بقيت من رمضان سنة ست وسبعين ومائة ، وصرف فى رجب سنة سبع وسبعين ومائة .

فولى اسحاق بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، من قبل الرشيد ، على الصلات والخراج مستهل رجب فكشف أمر الخراج ، وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم . فخرج عليه أهل الحوف ، فحاربهم فقتل كثير من أصحابه .

فكتب الى الرشيد بذلك ، فعقد لهرثمة ابن أعين فى جيش عظيم وبعث به ، فنزل الحوف ، فتلقاه أهله بالطاعة واذعنوا ، فقبل منهم واستخرج الخراج كله .

فكان صرف اسحاق فى رجب سنة ثمان وسبعين ومائة .

فولى هرثمة بن أعين من قبل الرشيد ، على الصلات والخراج لليلتين خلتا من شعبان ، ثم سار الى افريقية لثنتى عشرة خلت من شوال ... فأقام بمصر شهرين ونصفا .

(*) ص٢٠٨ جـ١ ، ط. بولاق .

ثم ولى عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، من قبل الرشيد ، على الصلات والخراج . فلم يدخل مصر ، واستخلف عبد الله بن المسيب بن زهير الضبى ، وصرف فى سلخ سنة ثمان وسبعين ومائة .

فولى عبيد الله بن المهدى محمد بن عبد الله ابن محمد بن عبد الله بن عباس ، من قبل الرشيد ، على الصلات والخراج فى يوم الاثنين لثنتى عشرة خلت من المحرم سنة تسع وسبعين ومائة ، فاستخلف ابن المسيب ، ثم قدم لاحدى عشرة خلت من ربيع الأول ، وصرف فى شهر رمضان ، فولى تسعة أشهر ، وخرج من مصر لليلتين خلتا من شوال .

فأعاد الرشيد موسى بن عيسى وولاه مرة ثالثة على الصلات ، فقدم ابنه يحيى بن موسى خليفة له ، لثلاث خلون من رمضان ، ثم قدم آخر ذى القعدة ، وصرف فى جمادى الآخرة سنة ثمانين ومائة .

فولى الرشيد عبيد الله بن المهدى ثانيا على الصلات ، فقدم داود بن حباش خليفة له لسبع خلون من جمادى الآخرة ، ثم قدم لأربع خلون من شعبان ، وصرف لثلاث خلون من رمضان سنة احدى وثمانين ومائة .

فولى اسماعيل بن صالح بن على بن عبد الله ابن عباس على الصلات لسبع خلون من رمضان ، فاستخلف عون بن وهب الخزاعى ، ثم قدم لخمس بقين منه .

قال ابن عفير : ما رأيت على هذه الأعواد أخطب من اسماعيل بن صالح .

ثم صرف فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين ومائة .

فولى اسماعيل بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، من قبل الرشيد ، على الصلات . فقدم لأربع عشرة بقيت من جمادى الآخرة ، وصرف فى رمضان .

فولى الليث بن الفضل البيوردى ، من أهل بيورد ، على الصلات والخراج ، وقدم لخمس خلون من شوال .

ثم خرج الى الرشيد لسبع بقين من رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائة بالمال والهدايا ، واستخلف أخاه الفضل بن على [1] ، ثم عاد فى آخر السنة .

وخرج ثانيا بالمال لتسع بقين من رمضان سنة خمس وثمانين ، واستخلف هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج ، وقدم لأربع عشرة خلت من المحرم سنة ست وثمانين .

فكان كلما غلق خراج سنة ، وفرغ من حسابها ، خرج بالمال الى أمير المؤمنين هارون الرشيد ومعه الحساب .

ثم خرج عليه أهل الحوف ، وساروا الى الفسطاط . فخرج اليهم فى أربعة آلاف ليومين بقيا من شعبان سنة ست وثمانين ومائة ، واستخلف عبد الرحمن بن موسى بن على بن رباح على الجند والخراج .

(١) قوله « أخاه الفضل بن على » هكذا فى النسخ التى بيدى . ولعله أباه الفضل ... الخ . تأمل . ا هـ . مصححه

فواقع أهل الحوف ، وانهزم عنه الجند فبقى في نحو المائتين ، فحمل بهم وهزم القوم من أرض الجب الى عقبة ، وبعث الى الفسطاط بثمانين رأسا وقدم .

فرجع أهل الحوف ، ومنعوا الخراج . فخرج ليث الى الرشيد ، وسأله أن يبعث معه بالجيوش ، فانه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الأحواف الا بجيش .

فزعم محفوظ بن سليمان أنه يضمن خراج مصر عن آخره بغير سوط ولا عصا . فولاه الرشيد الخراج ، وصرف ليثا عن الصلاة والخراج ، وبعث أحمد بن اسماعيل على الصلاة مع محفوظ .

وكانت ولاية ليث أربع سنين وسبعة أشهر .

فولى أحمد بن اسماعيل بن على بن عبد الله ابن عباس ، من قبل الرشيد ، على الصلاة والخراج . وقدم لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين ، ثم صرف لثمان عشرة خلت من شعبان سنة تسع وثمانين ... فولى سنتين وشهرا ونصفا .

ثم ولى عبيد الله بن محمد بن ابراهيم ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس على الصلاة ، واستخلف لهيعة بن عيسى بن لهيعة الحضرمي ، ثم قدم للنصف من شوال .

وصرف لاحدى عشرة بقيت من شعبان سنة تسعين ومائة وخرج ، واستخلف هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج .

فولى الحسين بن جميل ، من قبل الرشيد ، على الصلاة . وقدم لعشر خلون من رمضان ، ثم جمع له الخراج مع الصلاة في رجب سنة احدى وتسعين .

وخرج أهل الحوف ، وامتنعوا من * أداء الخراج . وخرج أبو النداء بأيلة في نحو ألف رجل ، فقطع الطريق بأيلة وشعيب ومدين ، وأغار على بعض قرى الشام ، وضوى اليه من جذام جماعة ، فبلغ من النهب والقتل مبلغا عظيما .

فبعث الرشيد من بغداد جيشا لذلك ، وبعث الحسين بن جميل من مصر عبد العزيز ابن الوزير بن صابى الجروى في عسكر . فالتقى العسكران بأيلة ، فظفر عبد العزيز بأبي النداء .

وسار جيش الرشيد الى بلبيس في شوال سنة احدى وتسعين ومائة ، فأذعن أهل الحوف بالخراج .

وصرف ابن جميل لثنتي عشرة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وتسعين ومائة .

فولى مالك بن دلهم بن عمير الكلبي على الصلاة والخراج . وقدم لسبع بقين من ربيع الآخر .

وفرغ يحيى بن معاذ أمير جيش الرشيد من أمر الحوف ، وقدم الفسطاط لعشر بقين من جمادى الآخرة ، فكتب الى أهل الأحواف : « أن اقدموا حتى أوصى بكم مالك بن دلهم » . فدخل الرؤساء من اليمانية والقيسية ، فأخذت عليهم الأبواب وقيدوا ، وسار بهم للنصف من رجب .

(*) ص٢٠٦ جـ١ ، ط. بولاق .

وصرف مالك لأربع خلت من صفر سنة ثلاث وتسعين ومائة .

فولى الحسن بن التختاح بن التختكان على الصلاة والخراج ، فاستخلف العلاء بن عاصم الخولاني ، وقدم لثلاث خلون من ربيع الأول .

ثم مات الرشيد ، واستخلف ابنه محمد الأمين ، فثار الجند بمصر ، ووقعت فتنة عظيمة قتل فيها عدة . وسير الحسن مال مصر ، فوثب أهل الرملة وأخذوه .

وبلغ الحسن عزله ، فسار من طريق الحجاز لفساد طريق الشام لثمان بقين من ربيع الأول سنة أربع وتسعين ومائة ، واستخلف عوف بن وهب على الصلاة ، ومحمد بن زياد بن طبق القيسي على الخراج .

فولى حاتم بن هرثمة بن أعين ، من قبل الأمين ، على الصلاة والخراج . وقدم في ألف من الأبناء فنزل بلبيس ، فصالحه أهل الأحواف على خراجهم .

وثار عليه أهل بنو وتنى وعسكروا ، فبعث اليهم جيشا فانهزموا ، ودخل حاتم الى الفسطاط ومعه نحو مائة من الرهائن لأربع خلون من شوال . وصرف في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة .

فولى جابر بن الأشعث بن يحيى الطائي ، من قبل الأمين ، على الصلاة والخراج لخمس بقين من جمادى الآخرة ، وكان لينا .

فلما حدثت فتنة الأمين والمأمون ، قام السرى بن الحكم غضبا للمأمون ، ودعا الناس الى خلع الأمين ، فأجابوه وبايعوا المأمون لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، وأخرجوا جابر بن الأشعث ... وكانت ولايته سنة .

فولى عباد بن محمد بن حيان أبو نصر ، من قبل المأمون ، على الصلاة والخراج لثمان خلون من رجب ، بكتاب هرثمة بن أعين — وكان وكيله على ضياعه بمصر — في الثامن من رجب سنة ست وتسعين .

فبلغ الأمين ما كان بمصر ، فكتب الى ربيعة ابن قيس بن الزبير الجرشي — رئيس قيس الحوف — بولاية مصر ، وكتب الى جماعة بمعاونته .

فقاموا ببيعة الأمين ، وخلعوا المأمون ، وساروا لمحاربة أهل الفسطاط ... فخندق عباد .

وكانت حروب ، فقتل الأمين .

وصرف عباد في صفر سنة ثمان وتسعين ومائة ، فكانت ولايته سنة وسبعة أشهر .

فولى المطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعي ، من قبل المأمون ، على الصلاة والخراج . فدخل من مكة للنصف من ربيع الأول ، فكانت في أيامه حروب ، وصرف في شوال بعد سبعة أشهر .

فولى العباس بن موسى بن عيسى بن موسى ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، من قبل المأمون ، على الصلاة والخراج .

فقدم ابنه عبد الله ، ومعه الحسين بن عبيد ابن لوط الأنصاري ، في آخر شوال فسجنا المطلب .

فثار الجند مرارا ، فمنعهم الانصارى أعطياتهم وتهددهم ، وتحامل على الرعية وعسفها وتهدد الجميع ، فثاروا وأخرجوا المطلب من الحبس ، وأقاموه لأربع عشرة خلت من المحرم سنة تسع وتسعين ومائة .

وأقبل العباس فنزل بلبيس ، ودعا قيسا الى نصرته ، ومضى الى الجروى بتنيس ، ثم عاد فمات فى بلبيس لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة ، ويقال ان المطلب دس اليه سما فى طعامه فمات منه .

وكانت حروب وفتن ... فكانت ولاية المطلب هذه سنة وثمانية أشهر .

ثم ولى السرى بن الحكم بن يوسف — من قوم الزط ومن أهل بلخ — باجماع الجند عليه عند قيامه على المطلب فى مستهل رمضان سنة مائتين .

ثم ولى سليمان بن غالب بن جبريل البجلى على الصلات والخراج ، بمبايعة الجند له ، لأربع خلون من ربيع الأول سنة احدى ومائتين ، فكانت حروب .

ثم صرف بعد خمسة أشهر .

وأعيد السرى بن الحكم ثانيا ، من قبل المأمون ، على الصلات والخراج . فذمت ولايته ، وأخرجه الجند من الحبس لثنتى عشرة خلت من شعبان ، وتتبع من حاربه وقوى أمره ، ومات وهو وال لانسلاخ جمادى الأولى سنة خمس ومائتين ... فكانت ولايته هذه ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية عشر يوما .

فولى ابنه محمد بن السرى أبو نصر ، أول جمادى الآخرة ، على الصلات والخراج ، وكان الجروى قد غلب على أسفل الأرض * ، فجرت بينهما حروب .

ثم مات لثمان خلون من شعبان سنة ست ومائتين . وكانت ولايته أربعة عشر شهرا .

ثم ولى عبيد الله بن السرى بن الحكم ، بمبايعة الجند ، لتسع خلون من شعبان ، على الصلات والخراج . فكانت بينه وبين الجروى حروب ... الى أن قدم عبد الله بن طاهر ، وأذعن له عبيد الله فى آخر صفر سنة احدى عشرة ومائتين .

فولى عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، من قبل المأمون ، على الصلات والخراج . فدخل يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة احدى عشرة ومائتين ، وأقام فى معسكره حتى خرج عبيد الله بن السرى الى بغداد للنصف من جمادى الأولى .

ثم سار الى الاسكندرية مستهل صفر سنة اثنتى عشرة ، واستخلف عيسى بن يزيد الجلودى ، فحصرها بضع عشرة ليلة ، ورجع فى جمادى الآخرة ، وأمر بالزيادة فى الجامع العتيق فزيد فيه مثله .

وركب النيل متوجها الى العراق لخمس بقين من رجب ، وكان مقامه بمصر واليا سبعة عشر شهرا وعشرة أيام .

(*) ص ٢١٠ جـ ١ ، ط بولاق .

ثم ولى عيسى بن يزيد الجلودى ، باستخلاف ابن طاهر ، على صلاتها الى سابع عشر ذى القعدة سنة ثلاث عشرة ، فصرف ابن طاهر .

وولى الأمير أبو اسحاق بن هارون الرشيد مصر ، فأقر عيسى على الصلات فقط ، وجعل على الخراج صالح بن شيرازاد ، فظلم الناس وزاد عليهم فى خراجهم .

فانتقض أهل أسفل الأرض وعسكروا ، فبعث عيسى بابنه محمد فى جيش ، فحاربوه ، فانهزم وقتل أصحابه فى صفر سنة أربع عشرة .

فولى عمير بن الوليد التميمى ، باستخلاف أبى اسحاق بن الرشيد ، على الصلات لسبع عشرة خلت من صفر ، وخرج ومعه عيسى الجلودى لقتال أهل الحوف فى ربيع الآخر ، واستخلف ابنه محمد بن عمير .

فاقتتلوا ، وكانت بينهم معارك قتل فيها عمير لست عشرة خلت من ربيع الآخر ... فكانت مدة امرته ستين يوما .

فولى عيسى الجلودى ثانيا لأبى اسحاق على الصلات ، فحارب أهل الحوف بمنية مطر ، ثم انهزم فى رجب .

وأقبل أبو اسحاق الى مصر فى أربعة آلاف من أتراكه ، فقاتل أهل الحوف فى شعبان ، ودخل الى مدينة الفسطاط لثمان بقين منه ، وقتل أكابر الحوف . ثم خرج الى الشام غرة المحرم سنة خمس عشرة ومائتين فى أتراكه ، ومعه جمع من الأسارى فى ضر وجهد شديد .

وولى على مصر عبدويه بن جبلة من الأبناء على الصلات ، فخرج ناس بالحوف فى شعبان ، فبعث اليهم وحاربهم حتى ظفر بهم .

ثم قدم الأفشين حيدر بن كاوس الصغدى الى مصر لثلاث خلون من ذى الحجة ، ومعه على بن عبد العزيز الجروى لأخذ ماله ، فلم يدفع اليه شيئا فقتله .

وصرف عبدويه ، وخرج الى برقة .

وولى عيسى بن منصور بن موسى بن عيسى الرافعى . فولى من قبل أبى اسحاق أول سنة ست عشرة على الصلات ، فانتقضت أسفل الأرض — عربها وقبطها — فى جمادى الأولى ، وأخرجوا العمال لسوء سيرتهم ، وخلعوا الطاعة .

فقدم الأفشين من برقة للنصف من جمادى الآخرة ، ثم خرج هو وعيسى فى شوال ، فأوقعا بالقوم وأسرا منهم وقتلا ، ومضى الأفشين ورجع عيسى ، فسار الأفشين الى الحوف وقتل جماعتهم .

وكانت حروب ... الى أن قدم أمير المؤمنين عبد الله المأمون ، لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ، فسخط على عيسى ، وحل لواءه ، فأخذه بلباس البياض ، ونسب الحدث اليه والى عماله .

وسير الجيوش ، وأوقع بأهل الفساد ، وسبى القبط وقتل مقاتلتهم ، ثم رحل لثمان عشرة خلت من صفر بعد تسعة وأربعين يوما .

وولى كيدر — وهو نصر بن عبد الله أبو مالك الصغدى — فورد كتاب المأمون عليه بأخذ الناس بالمحنة فى جمادى الآخرة سنة ثمانى عشرة ، والقاضى بمصر يومئذ هارون بن عبد الله الزهرى ، فأجاب وأجاب الشهود ، ومن وقف منهم سقطت شهادته ، وأخذ بها القضاة والمحدثون والمؤذنون ... فكانوا على ذلك من سنة ثمانى عشرة الى سنة اثنتين وثلاثين .

ومات المأمون فى رجب سنة ثمانى عشرة ، وبويع أبو اسحاق المعتصم ، فورد كتابه على كيدر ببيعته ، ويأمره باسقاط من فى الديوان من العرب وقطع العطاء عنهم ، ففعل ذلك .

فخرج يحيى ابن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام .

ومات كيدر فى ربيع الآخر سنة تسع عشرة ومائتين .

فولى ابنه المظفر بن كيدر ، باستخلاف أبيه ، وخرج الى يحيى بن وزير ، وقاتله وأسره فى جمادى الآخرة .

ثم صرف مصر الى أبى جعفر اشناس ، فدعى له بها ، وصرف مظفر فى شعبان .

فولى موسى بن أبى العباس ثابت ، من قبل اشناس ، على الصلات مستهل شهر رمضان سنة تسع عشرة ، وصرف فى ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائتين ... فكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر .

فولى مالك بن كيدر بن عبد الله الصغدى ، من قبل اشناس ، على الصلات . وقدم لسبع بقين من ربيع الآخر ، وصرف لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ست وعشرين . فولى سنتين وأحد عشر يوما ، وتوفى لعشر خلون من شعبان سنة ثلاث وثلاثين * ومائتين .

فولى على بن يحيى الأرمنى ، من قبل اشناس ، على صلاتها . وقدم لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين .

ومات المعتصم فى ربيع الأول سنة سبع وعشرين ، وبويع الواثق بالله ، فأقره الى سابع ذى الحجة سنة ثمان وعشرين ومائتين . فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر .

ثم ولى عيسى بن منصور الثانية ، من قبل اشناس ، على صلاتها . فدخل لسبع خلون من المحرم سنة تسع وعشرين ومائتين .

ومات اشناس سنة ثلاثين ، وجعل مكانه ايتاخ ، فأقر عيسى .

ومات الواثق ، وبويع المتوكل ، فصرف عيسى للنصف من ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، وقدم على ابن مهرويه خليفة هرثمة بن النضر . ثم مات عيسى فى قبة الهواء بعد عزله لاحدى عشرة خلت من ربيع الآخر .

فولى هرثمة بن نضر الجبلى ، من أهل الجبل ، لايتاخ على الصلات . وقدم لست خلون من رجب سنة ثلاث وثلاثين ومائتين . فورد كتاب المتوكل بترك الجدال فى القرآن لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين ومائتين .

(*) ص٢١١ جـ١ ، ط. بولاق .

ومات هرثمة وهو وال لسبع بقين من رجب سنة أربع ، واستخلف ابنه حاتم بن هرثمة .

فولى حاتم بن هرثمة بن النضر باستخلاف أبيه له ، على الصلات ، وصرف لست خلون من رمضان .

فولى على بن يحيى بن الأرمنى الثانية ، من قبل ايتاخ على الصلات لست خلون من رمضان .

وصرف ايتاخ فى المحرم سنة خمس وثلاثين ، واستصفيت أمواله بمصر ، وترك الدعاء له ، ودعى للمنتصر مكانه ، وصرف على فى ذى الحجة منها .

فولى اسحاق بن يحيى بن معاذ بن مسلم الجبلى ، من قبل المنتصر ولى عهد أبيه المتوكل على الله ، على الصلات والخراج . فقدم لاحدى عشرة خلت من ذى الحجة ، فورد كتاب المتوكل والمنتصر باخراج الطالبين من مصر الى العراق ، فأخرجوا .

ومات اسحاق بعد عزله أول ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ومائتين .

فولى خوط عبد الواحد بن يحيى بن منصور بن طلحة بن زريق ، من قبل المنتصر ، على الصلات والخراج . فقدم لتسع بقين من ذى القعدة سنة ست وثلاثين ومائتين ، وصرف عن الخراج لتسع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين ، وأقر على الصلات . ثم صرف سلخ صفر سنة ثمان وثلاثين بخليفته عنبسة على الصلات والشركة فى الخراج مستهل ربيع الأول .

فولى عنبسة بن اسحاق بن شمر بن عبس أبو جابر ، من قبل المنتصر ، على الصلات وشريكا لأحمد بن خالد الضريفى صاحب الخراج . فقدم لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، وأخذ العمال برد المظالم ، وأقامهم للناس ، وأنصف منهم ، وأظهر من العدل ما لم يسمع بمثله فى زمانه .

وكان يروح ماشيا الى المسجد الجامع من العسكر ، وكان ينادى فى شهر رمضان : السحور ، وكان يرمى بمذهب الخوارج .

وفى ولايته نزل الروم دمياط ، وملكوها وما فيها ، وقتلوا بها جمعا كثيرا من الناس ، وسبوا النساء والأطفال . فنفر اليهم يوم النحر من سنة ثمانى وثلاثين فى جيشه وكثير من الناس ، فلم يدركهم .

وأضيف له الخراج مع الصلات ، ثم صرف عن الخراج أول جمادى الآخرة سنة احدى وأربعين وأفرد بالصلات ، وورد الكتاب بالدعاء للفتح بن خاقان فى ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين ، فدعا له .

وعنبسة هذا آخر من ولى مصر من العرب ، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع ، وصرف أول رجب منها .

فقدم العباس بن عبد الله بن دينار خليفة يزيد بن عبد الله ، بولاية يزيد .

وكانت ولاية عنبسة أربع سنين وأربعة أشهر ، وخرج الى العراق فى رمضان سنة أربع وأربعين .

فولى يزيد بن عبد الله بن دينار أبو خالد من الموالى ، ولاه المنتصر على الصلات ، فقدم

لعشر بقين من رجب سنة اثنتين وأربعين ، فأخرج المؤنثين من مصر ، وضربهم وطاف بهم ، ومنع من النداء على الجنائز ، وضرب فيه ، وخرج الى دمياط مرابطا فى المحرم سنة خمس وأربعين ، ورجع فى ربيع الأول ، فبلغه نزول الروم الفرما ، فرجع اليها فلم يلقهم .

وعطل الرهان ، وباع الخيل التى تتخذ للسلطان ، فلم تجر الى سنة تسع وأربعين .

وتتبع الروافض ، وحملهم الى العراق ، وبنى مقياس النيل فى سنة سبع وأربعين . وجرت على العلويين فى ولايته شدائد .

ومات المتوكل فى شوال ، وبويع ابنه محمد المنتصر ، ومات الفتح بن خاقان ، فأقر المنتصر يزيد على مصر .

ثم مات المنتصر فى ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ، وبويع المستعين ، فورد كتابه بالاستسقاء لقحط كان بالعراق ، فاستسقوا لسبع عشرة خلت من ذى القعدة ، واستسقى أهل الآفاق فى يوم واحد .

وخلع المستعين فى المحرم سنة اثنتين وخمسين ، وبويع المعتز ، فخرج جابر بن الوليد بأرض الاسكندرية ، وكانت هناك حروب ابتدأت من ربيع الآخر ، فقدم مزاحم بن خاقان من العراق معينا ليزيد فى جيش كثيف لثلاث عشرة بقيت من رجب ، فواقعهم حتى ظفر بهم .

ثم صرف يزيد ، وكانت مدته عشر سنين وسبعة أشهر وعشرة أيام .

فولى مزاحم بن خاقان بن * عرطوج أبو الفوارس التركى ، لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، على الصلاة من قبل المعتز .

وخرج الى الحوف فأوقع بأهله وعاد ، ثم خرج الى الجيزة ، فسار الى تروجة فأوقع بأهلها ، وأسر عدة من أهل البلاد ، وقتل كثيرا ، وسار الى الفيوم فطاش سيفه وكثر ايقاعه بسكان النواحى ، وعاد .

وولى الشرطة أرجوز ، فمنع النساء من الحمامات والمقابر ، وسجن المؤنثين والنوائح ، ومنع من الجهر بالبسملة فى الصلاة بالجامع فى رجب سنة ثلاث وخمسين ، ولم يزل أهل مصر على الجهر بها فى الجامع منذ الاسلام الى أن منع منها أرجوز .

وأخذ أهل الجامع بتمام الصفوف ، ووكل بذلك رجلا من العجم يقوم بالسوط من مؤخر المسجد ، وأمر أهل الحلق بالتحول الى القبلة قبل اقامة الصلاة ، ومنع من المساند التى يستند اليها ، ومن الحصر التى كانت للمجالس فى الجامع .

وأمر أن تصلى التراويح فى رمضان خمس تراويح ، ولم يزل أهل مصر يصلونها ستا الى شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين ومائتين . ومنع من التثويب ، وأمر بالأذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد ، وأن يغلس بصلاة الصبح .

ونهى أن يشق ثوب على ميت ، أو يسود وجه ، أو يحلق شعر ، أو تصيح امرأة ، وعاقب فى ذلك وشدد فيه .

(*) ص٢١٢ جـ١ ط. بولاق .

ثم مات مزاحم لخمس مضين من المحرم سنة أربع وخمسين .

فاستخلف ابنه أحمد بن مزاحم ، فولى باستخلاف أبيه على الصلات ، الى أن مات لسبع خلون من ربيع الآخر ، فكانت ولايته شهرين ويوما . فاستخلف أرجوز بن أولغ طرخان التركى على الصلات ، فولى خمسة أشهر ونصفا .

وخرج أول ذى القعدة بعد أن صرف بأحمد ابن طولون فى شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين . واليه كان أمر البلد جميعه من أيام مزاحم ، وفى أيام ابنه أحمد أيضا . والله تعالى أعلم .

ذكر القطائع ودولة بنى طولون

اعلم أن القطائع قد زالت آثارها ، ولم يبق لها رسم يعرف .

وكان موضعها من قبة الهواء التى صار مكانها قلعة الجبل الى جامع ابن طولون ، وهذا أشبه أن يكون طول القطائع . وأما عرضها فانه من أول الرميلة تحت القلعة الى الموضع الذى يعرف اليوم بالأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذى يقال له الآن زين العابدين .

وكانت مساحة القطائع ميلا فى ميل . فقبة الهواء كانت فى سطح الجرف الذى عليه قلعة الجبل ، وتحت قبة الهواء قصر ابن طولون ، وموضع هذا القصر الميدان السلطانى تحت القلعة ، والرميلة التى تحت القلعة مكان سوق الخيل والحمير والجمال كانت بستانا ، ويجاورها الميدان ، فى الموضع الذى يعرف اليوم بالقبيات ، فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذى أنشأه أحمد بن طولون . وبحذاء الجامع دار الامارة فى جهته القبلية ، ولها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير الى جوار المحراب . وهناك أيضا دار الحرم .

والقطائع عدة قطع تسكن فيها عبيد ابن طولون وعساكره وغلمانه ، وكل قطيعة لطائفة . فيقال قطيعة السودان ، وقطيعة الروم ، وقطيعة الفراشين ، ونحو ذلك ... فكانت كل قطيعة لسكنى جماعة بمنزلة الحارات التى بالقاهرة .

وكان ابتداء عمارة هذه القطائع وسببها أن أمير المؤمنين المعتصم بالله ، أبا اسحاق محمد ابن هارون الرشيد ، لما اختص بالأتراك ، ووضع من العرب وأخرجهم من الديوان وأسقط أسماءهم ومنعهم العطاء ، وجعل الأتراك أنصار دولته وأعلام دعوته ... كان من عظمت عنده منزلته ، قلده الأعمال الجليلة الخارجة عن الحضرة ، فيستخلف على ذلك العمل الذى تقلده من يقوم بأمره ، ويحمل اليه ماله ، ويدعى له على منابره كما يدعى للخليفة . وكانت مصر عندهم بهذه السبيل .

وقصد المعتصم ومن بعده من الخلفاء ، بذلك العمل مع الأتراك ، محاكاة ما فعله الرشيد بعبد الملك بن صالح ، والمأمون بطاهر ابن الحسين ... ففعل المعتصم مثل ذلك بالأتراك ، فقلد اشناس ، وقلد الواثق ايتاخ ،

وقلد المتوكل نقا ووصيف ، وقلد المهتدى ماجور ، وغير من ذكرنا من أعمال الأقاليم ما قد تضمنته كتب التاريخ ، فتقلد باكباك مصر ، وطلب من يخلفه عليها .

وكان أحمد بن طولون قد مات أبوه فى سنة أربعين ومائتين ، ولأحمد عشرون سنة منذ ولد من جارية كانت تدعى قاسم ، وكان مولده فى سنة عشرين ومائتين ، وولدت أيضا أخاه موسى وجبسية وسمانة .

وكان طولون من الطغرغر مما حمله نوح ابن أسد عامل بخارى الى المأمون — فيما كان موظفا عليه — من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك فى كل سنة ، وذلك فى سنة مائتين .

فنشأ أحمد بن طولون نشأ جميلا غير نشء أولاد العجم ، فوصف بعلو الهمة ، وحسن الأدب ، والذهاب بنفسه عما كان يترامى اليه أهل طبقته ، وطلب الحديث ، وأحب الغزو ، وخرج الى طرسوس * مرات ، ولقى المحدثين وسمع منهم ، وكتب العلم ، وصحب الزهاد وأهل الورع ، فتأدب بآدابهم .

وظهر فضله ، فاشتهر عند الأولياء ، وتميز على الأتراك ، وصار فى عداد من يوثق به ، ويؤتمن على الأموال والأسرار ... فزوجه ماجور ابنته ، وهى أم ابنه العباس وابنته فاطمة .

ثم انه سأل الوزير عبيد الله بن يحيى أن يكتب له برزقه على الثغر ، فأجابه ، وخرج الى طرسوس فأقام بها . وشق على أمه مفارقته ، فكاتبته بما أقلقه

فلما قفل الناس الى سر من رأى ، سار معهم الى لقاء أمه ، وكان فى القافلة نحو خمسمائة رجل ، والخليفة اذ ذاك المستعين بالله أحمد بن المعتصم ، وكان قد أنفذ خادما الى بلاد الروم لعمل أشياء نفيسة ، فلما عاد بها — وهى وقر بغل — الى طرسوس ، خرج مع القافلة .

وكان من رسم الغزاة أن يسيروا متفرقين ، فطرق الأعراب بعض سوادهم ، وجاء الصائح ، فبدر أحمد بن طولون لقتالهم وتبعوه ، فوضع السيف فى الأعراب ، ورمى بنفسه فيهم حتى استنقذ منهم جميع ما أخذوه وفروا منه .

وكان من جملة ما استنقذ من الأعراب البغل المحمل بمتاع الخليفة ، فعظم أحمد بما فعل عند الخادم ، وكبر فى أعين القافلة .

فلما وصلوا الى العراق ، وشاهد المستعين ما أحضره الخادم أعجب به ، وعرفه الخادم خروج الأعراب وأخذهم البغل بما عليه ، وما كان من صنع أحمد بن طولون ، فأمر له بألف دينار ، وسلم عليه مع الخادم ، وأمره أن يعرفه به اذا دخل مع المسلمين ... ففعل ذلك .

وتوالت عليه صلات الخليفة حتى حسنت حاله ، ووهبه جارية اسمها مياس استولدها ابنه خمارويه فى النصف من المحرم سنة خمسين ومائتين .

(*) ص٢١٢ جـ١ ، ط بولاق .

فلما خلع المستعين ، وبويع المعتز ، أخرج المستعين الى واسط ، واختار الأتراك أحمد ابن طولون أن يكون معه ، فسلم اليه ومضى به ، فأحسن عشرته ، وأطلق له التنزه والصيد ، وخشى أن يلحقه منه احتشام ، فألزمه كاتبه أحمد بن محمد الواسطى ، وهو اذ ذاك غلام حسن الشاهد حاضر النادرة ، فأنس به المستعين .

ثم ان فتيحة أم المعتز كتبت الى أحمد بن طولون بقتل المستعين وقلدته واسط ، فامتنع من ذلك ، وكتب الى الأتراك يخبرهم بأنه لا يقتل خليفة له فى رقبته بيعة .

فزاد محله عند الأتراك بذلك ، ووجهوا سعيدا الحاجب ، وكتبوا الى ابن طولون بتسليم المستعين له ، فتسلمه منه وقتله ، وواراه ابن طولون ، وعاد الى سر من رأى ، وقد تقلد باكباك مصر وطلب من يوجهه اليها ، فذكر له أحمد بن طولون ، فقلده خلافته ، وضم اليه جيشا .

وسار الى مصر ، فدخلها يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين ، متقلدا للقصبة دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها كالاسكندرية ونحوها . ودخل معه أحمد بن محمد الواسطى .

وجلس الناس لرؤيته ، فسأل بعضهم غلام أبى قبيل صاحب الملاحم — وكان مكفوفا — عما يجده فى كتبهم .

فقال : هذا رجل نجد صفته كذا وكذا ، وأنه يتقلد الملك هو وولده قريبا من أربعين سنة . فما تم كلامه حتى أقبل أحمد بن طولون ، واذا هو على النعت الذى قال .

ولما تسلم أحمد بن طولون مصر ، كان على الخراج أحمد بن محمد بن المدبر — وهو من دهاة الناس وشياطين الكتاب — فأهدى الى أحمد بن طولون هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار ، بعد ما خرج الى لقائه هو وشقير الخادم ، غلام فتيحة أم المعتز ، وهو يتقلد البريد .

فرأى ابن طولون بين يدى ابن المدبر مائة غلام من الغور ، قد انتخبهم وصيرهم عدة وجمالا ، وكان لهم خلق حسن وطول أجسام وبأس شديد ، وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض ، وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة ، وكانوا يقفون بين يديه فى حافتى مجلسه اذا جلس ، فاذا ركب ركبوا بين يديه ، فيصير له بهم هيبة عظيمة فى صدور الناس .

فلما بعث ابن المدبر بهديته الى ابن طولون ردها عليه ، فقال ابن المدبر : ان هذه لهمة عظيمة ، من كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الأطراف .

فخافه وكره مقامه بمصر معه ، وسار الى شقير الخادم صاحب البريد ، واتفقا على مكاتبة الخليفة بازالة ابن طولون .

فلم يكن غير أيام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول له : قد كنت — أعزك الله — أهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ، ولم يجز أن يغتنم مالك — كثره الله — فرددتها توفيرا عليك ، ونحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك ، فأنا اليهم أحوج منك .

فقال ابن المدبر لما بلغته الرسالة : هذه أخرى أعظم مما تقدم مذ ظهرت من هذا الرجل ، اذ كان يرد الأعراض والأموال ، ويستهدى الرجال ويثابر عليهم ... ولم يجد بدا من أن يضمهم اليه .

فتحولت هيبة ابن المدبر الى ابن طولون ، ونقصت مهابة ابن المدبر بمفارقة الغلمان مجلسه . فكتب ابن المدبر فيه الى الحضرة يغرى به ويحرض على عزله ، فبلغ ذلك ابن طولون فكتم فى نفسه ولم يبده .

واتفق موت المعتز فى رجب سنة خمس وخمسين ، وقيام المهتدى بالله محمد بن الواثق ، وقتل باكباك ورد جميع ما كان بيده الى ماجور التركى ، حمو ابن طولون ، فكتب اليه : « تسلم من نفسك لنفسك » ، وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر ، وكتب الى اسحاق بن دينار وهو يتقلد الاسكندرية * أن يسلمها لأحمد بن طولون .

فعظمت لذلك منزلته ، وكثر قلق ابن المدبر وغمه ، ودعته ضرورة الخوف من ابن طولون الى ملاطفته والتقرب من خاطره .

وخرج ابن طولون الى الاسكندرية ، وتسلمها من اسحاق بن دينار ، وأقره عليها .

وكان أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى يتقلد جندى فلسطين والأردن ، فلما مات وثب ابنه على الأعمال واستبد بها ، فبعث ابن المدبر سبعمائة ألف وخمسين ألف دينار حملا من مال مصر الى بغداد ، فقبض ابن شيخ عليها ، وفرقها فى أصحابه ، وكانت الأمور قد اضطربت ببغداد ، فطمع ابن شيخ فى التغلب على الشامات ، وأشيع أنه يريد مصر .

فلما قتل المهتدى فى رجب سنة ست وخمسين ، وبويع المعتمد بالله أحمد بن المتوكل ، لم يدع ابن شيخ له ، ولا بايع هو ولا أصحابه . فبعث اليه بتقليد أرمينية زيادة على ما معه من بلاد الشام ، وفسح له فى الاستخلاف عليها والاقامة على عمله ، فدعا حينئذ للمعتمد .

وكتب الى ابن طولون أن يتأهب لحرب ابن شيخ ، وأن يزيد فى عدته ، وكتب لابن المدبر أن يطلق له من المال ما يريده .

فعرض ابن طولون الرجال ، وأثبت من يصلح ، واشترى العبيد من الروم والسودان ، وعمل سائر ما يحتاج اليه ، وخرج فى تجمل كبير وجيش عظيم ، وبعث الى ابن شيخ يدعوه الى طاعة الخليفة ، ورد ما أخذ من المال ، فأجاب بجواب قبيح .

فسار لست خلون من جمادى الآخرة ، واستخلف أخاه موسى بن طولون على مصر ، ثم رجع من الطريق بكتاب ورد عليه من العراق ، ودخل الفسطاط فى شعبان .

وقدم من العراق ماجور التركى لمحاربة ابن شيخ ، فلقيه أصحاب ابن شيخ وعليهم ابنه ، فانهزموا منه وقتل الابن ، واستولى ماجور على دمشق ، ولحق ابن شيخ بنواحى أرمينية ، وتقلد ماجور أعمال الشام كله .

وصار أحمد بن طولون ، من كثرة العبيد والرجال والآلات ، بحال ضيق به داره ، ولا يتسع له ، فركب الى سفح الجبل فى شعبان ،

(*) ص٣١٤ جـ١ ، ط. بولاق .

وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى ، واختط موضعها ، فبنى القصر والميدان ، وتقدم الى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله ، فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط .

ثم قطعت القطائع ، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها : فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعه مفردة تعرف بهم ، وللفراشين قطيعه مفردة تعرف بهم ، ولكل صنف من الغلمان قطيعه مفردة تعرف بهم .

وبنى القواد مواضع متفرقة ، فعمرت القطائع عمارة حسنه ، وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران .

وسميت أسواقها : فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين ، وسوق الفاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين ، فكان فى دكاكين الفاميين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن ، وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين ، ولكل من الباعة سوق حسن عامر .

فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام .

وبنى ابن طولون قصره ووسعه وحسنه ، وجعل له ميدانا كبيرا يضرب فيه بالصوالجة ، فسمى القصر كله الميدان ، وكان كل من أراد الخروج من صغير وكبير اذا سئل عن ذهابه يقول : الى الميدان .

وعمل الميدان أبوابا لكل باب اسم ، وهى : باب الميدان ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وباب الصوالجة ، وباب الخاصة ولا يدخل منه الا خاصه ابن طولون ، وباب الجبل لأنه مما يلى جبل المقطم ، وباب الحرم ولايدخل منه الا خادم خصى أو حرمة ، وباب الدرمون لأنه كان يجلس عنده حاجب أسود عظيم الخلقة يتقلد جنايات الغلمان السودان الرجالة فقط ، يقال له الدرمون ، وباب دعناج لأنه كان يجلس عنده حاجب يقال له دعناج ، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج ، وباب الصلاة لأنه كان فى الشارع الأعظم ومنه يتوصل الى جامع ابن طولون ، وعرف هذا الباب أيضا بباب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من جبس .

وكان الطريق الذى يخرج منه ابن طولون — وهو الذى يعرج منه الى القصر — طريقا واسعا ، فقطعه بحائط ، وعمل فيه ثلاثة أبواب كأكبر ما يكون من الأبواب ، وكانت متصلة بعضها ببعض واحدا بجانب الآخر .

وكان ابن طولون اذا ركب يخرج معه عسكر متكاثف الخروج على ترتيب حسن بغير زحمة ، ثم يخرج ابن طولون من الباب الأوسط من الأبواب الثلاثة بمفرده من غير أن يختلط به أحد من الناس .

وكانت الأبواب المذكورة تفتح كلها فى يوم العيد ، أو يوم عرض الجيش ، أو يوم صدقة ، وما عدا هذه الأيام لا تفتح الا بترتيب فى أوقات معروفة .

وكان القصر له مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من أعلاه من يدخل ويخرج . وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ، ويخرجون من باب السباع .

وكان على باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع ، ليرى حركات الغلمان وتأهبهم وتصرفهم فى حوايجهم ، فاذا رأى فى حال أحد منهم نقصا أو خللا ، أمر له بما يتسع به ويزيد فى تجمله . وكان يشرف منه أيضا * على البحر ، وعلى باب مدينة الفسطاط وما يلى ذلك ... فكان متنزها حسنا .

وبنى الجامع فعرف بالجامع الجديد ، وبنى العين والسقاية بالمغافر ، وبنى تنور فرعون فوق الجبل . واتسعت أحواله ، وكثرت اصطبلاته وكراعه ، وعظم صيته ، فخافه ماجور ، وكتب فيه الى الحضرة يغرى به ، وكتب فيه ابن المدبر وشقير الخادم .

وكانت لابن طولون أعين وأصحاب أخبار يطالعونه بسائر ما يحدث . فلما بلغه ذلك ، تلطف أصحاب الأخبار له ببغداد عند الوزير ، حتى سير الى ابن طولون بكتب ابن المدبر وكتب شقير من غير أن يعلما بذلك ، فاذا فيها « ان أحمد بن طولون عزم على التغلب على مصر والعصيان بها » .

فكتم خبر الكتب ، وما زال بشقير حتى مات ، وكتب الى الحضرة يسأل صرف ابن المدبر عن الخراج وتقليد هلال ، فأجيب الى ذلك ، وقبض على ابن المدبر وحبسه ، وكانت له معه أمور آلت الى خروج ابن المدبر عن مصر .

وتقلد ابن طولون خراج مصر مع المعونة والثغور الشامية ، فأسقط المعاون والمرافق — وكانت بمصر خاصة فى كل سنة مائة ألف دينار — فأظفره الله عقيب ذلك بكنز فيه ألف ألف دينار بنى منه المارستان .

وخرج الى الشام وقد تقلدها ، فتسلم دمشق وحمص ، ونازل أنطاكية حتى أخذها .

وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة ، وكان راتبه لذلك فى كل شهر ألفى دينار ... سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم ، وسوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس فى القدور الفخار والقصاع ، على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة ، فى اثنين منها فالوذج ، والاثنان الآخران على القدر .

وكانت تعمل فى داره وينادى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر . وتفتح الأبواب ، ويدخل الناس الميدان ... وابن طولون فى المجلس الذى تقدم ذكره ينظر الى المساكين ، ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته .

ولقد قال له مرة ابراهيم بن قراطغان ، وكان على صدقاته : أيد الله الأمير ، انا نقف فى المواضع التى تفرق فيها الصدقة ، فتخرج

(*) ص٢١٥ جـ١ ، ط. بولاق .

لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشا ، والمعصم الرائع فيه الحديدة ، والكف فيها الخاتم .

فقال : ياهذا ، كل من مد اليك يده فأعطه ، فهذه هى اللطيفة المستورة التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى كتابه فقال : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » ، فاحذر أن ترد يدا امتدت اليك ، وأعط كل من يطلب منك .

فلما مات أحمد بن طولون ، وقام من بعده ابنه خمارويه ، أقبل على قصر أبيه وزاد فيه ، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه فجعله كله بستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، ونقل اليه الودى اللطيف الذى ينال ثمره القائم ، ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل ، وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران .

وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء ، فتنحدر الى فساقى معمولة ، ويفيض منها الماء الى مجار تسقى سائر البستان .

وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة ، يتعاهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى العجيب ، وأهدى اليه من خراسان وغيرها كل أصل عجيب ، وطعموا له شجر المشمش باللوز ، وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن .

وبنى فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص ، وزوقه بأصناف الأصباغ ، وبلط أرضه ، وجعل فى تضاعيفه أنهارا لطافا ، جداولها يجرى فيها الماء مدبرا من السواقى التى تدور على الآبار العذبة ، ويسقى منها الأشجار وغيرها .

وسرح فى هذا البرج من أصناف القمارى والدباسى والنونيات وكل طائر مستحسن حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الأنهار الجارية فى البرج ، وجعل فيه أوكارا فى قواديس لطيفة ممكنة فى جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيدانا ممكنة فى جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضا بالصياح ، وسرح فى البستان من الطير العجيب ، كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها ، شيئا كثيرا .

وعمل فى داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد ، المعمول فى أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه — على مقدار قامة ونصف — صورا فى حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه ، بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين ، والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر ، وفى آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة ، وهى مسمرة فى الحيطان ، ولونت * أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ... فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا .

(*) ص٢١٦ جـ١ ، ط. بولاق .

وجعل بين يدى هذا البيت فسقية مقدرة ، وملأها زئبقا ... وذلك أنه شكا الى طبيبه كثرة السهر ، فأشار عليه بالتغميز ، فأنف من ذلك وقال : لا أقدر على وضع يد أحد علىّ .

فقال له : تأمر بعمل بركة من الزئبق .

فعمل بركة — يقال انها خمسون ذراعا طولا فى خمسين ذراعا عرضا — وملأها من الزئبق ، فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة ، وجعل فى أركان البركة سككا من الفضة الخالصة ، وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة ، وعمل فرشا من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ، ويلقى على تلك البركة الزئبق ، وتشد زنانير الحرير التى فى حلق الفضة بسكك الفضة ، وينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه .

وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية ، فكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب اذا تألف نور القمر بنور الزئبق . ولقد أقام الناس بعد خراب القصر مدة يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة ، وما عرف ملك قط تقدم خمارويه فى عمل مثل هذه البركة .

وبنى أيضا فى القصر قبة تضاهى قبة الهواء سماها الدكة ، فكانت أحسن شىء بنى ، وجعل لها الستر التى تقى الحر والبرد ، فتسبل اذا شاء وترفع اذا أحب ، وفرش أرضها بالفرش السرية ، وعمل لكل فصل فرشا يليق به .

وكان كثيرا ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان وغيره ، ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة . وبنى ميدانا آخر أكبر من ميدان أبيه .

وكان أحمد بن طولون قد اتخذ حجرة بقربه فيها رجال سماهم بالمكبرين ، عدتهم اثنا عشر رجلا ، يبيت منهم فى كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل نوبا ، يكبرون ويسبحون ويحمدون ويهللون ، ويقرأون القرآن تطريبا بالحان ، ويتوسلون بقصائد زهدية ، ويؤذنون أوقات الأذان .

فلما ولى خمارويه ، أقرهم على حالهم ، وأجراهم على رسمهم . وكان يجلس للشرب مع حظاياه فى الليل وقيناته تغنيه ، فاذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون الله والقدح فى يده وضعه بالأرض وأسكت مغنياته ، وذكر الله معهم أبدا حتى يسكت القوم ... لا يضجره ذلك ، ولا يغيظه أن قطع عليه ما كان فيه من لذته بالسماع .

وبنى أيضا فى داره دارا للسباع ، عمل فيها بيوتا بآزاج ، كل بيت يسع سبعا ولبؤته ، وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بحركات ، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالزبل ، وفى جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء .

وبين يدى هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة ، فيها رمل مفروش بها ، وفى جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير .

فاذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته ، أو وضع وظيفة اللحم التى لغذائه ، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت ، وصاح بالسبع فيخرج الى القاعة المذكورة ، ويرد الباب ، ثم ينزل الى البيت من الطاق ، فيكنس الزبل ، ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ، ويضع الوظيفة من اللحم فى مكان معد لذلك بعد ما يخلص ما فيه من الغدد ، ويقطعه لها ، ويغسل الحوض ويملأه ماء ، ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه .

وقد عرف السبع ذلك ، فحال ما يرفع السائس باب البيت ، دخل اليه الأسد فأكل ما هيىء له من اللحم حتى يستوفيه ، ويشرب من الماء كفايته .

فكانت هذه مملوءة من السباع ، ولهم أوقات يفتح فيها سائر بيوت السباع ، فتخرج الى القاعة وتتمشى فيها ، وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضا ، فتقيم يوما كاملا الى العشى ، فيصيح بها السواس ، فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره .

وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين — يقال له زريق — قد أنس بخمارويه ، وصار مطلقا فى الدار لا يؤذى أحدا ، ويقام له بوظيفته من الغذاء فى كل يوم . فاذا نصبت مائدة خمارويه ، أقبل زريق معها ، وربض بين يديه ، فرمى اليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة ، والفضلة الصالحة من الجدى ، ونحو ذلك مما على المائدة ، فيتفكه به .

وكانت له لبؤة لم تستأنس كما أنس ، فكانت مقصورة فى بيت ، ولها وقت معروف يجتمع معها فيه .

فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه . فان كان قد نام على سرير ربض بين يدى السرير ، وجعل يراعيه ما دام نائما . وان كان انما نام على الأرض ، بقى قريبا منه ، وتفطن لمن يدخل ويقصد خمارويه ، لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة .

وكان على ذلك دهره ، قد ألف ذلك ودرب عليه ، وكان فى عنقه طوق من ذهب ، فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائما لمراعاة زريق له وحراسته اياه ... حتى اذا شاء الله انفاذ قضائه فى خمارويه ، كان بدمشق وزريق غائب عنه بمصر ، ليعلم أنه لا يغنى حذر من قدر .

وبنى أيضا دار الحرم ، ونقل اليها أمهات أولاد أبيه مع أولادهن ، وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده ، وأفرد لكل واحدة حجرة واسعة ، نزل فى كل حجرة منها بعد زوال دولتهم ، قائد جليل فوسعته ، وفضل عنه منها شىء .

وأقام * لكل حجرة ، من الأنزال والوظائف الواسعة ، ما كان يفضل عن أهلها منه شىء كثير .

فكان الخدم الموكلون بالحرم ، من الطباخين وغيرهم ، يفضل لكل منهم — مع كثرة عددهم — بعد التوسع فى قوته ، الزلة الكبيرة والتى فيها العدة من الدجاج ، فمنها

(*) ص٢١٧ جـ١ ، ط.بولاق .

ما قلع فخذها ومنها ما قد تشعب صدرها ، ومن الفراخ مثل ذلك ، مع القطع الكبار من الجدى ولحوم الضأن ، والعدة من ألوان عديدة ، والقطع الصالحة من الفالوذج ، والكثير من اللوزينج والقطائف ، والهرائس من المصيدة التى تعرف اليوم فى وقتنا هذا بالمامونية ، وأشباه ذلك مع الأرغفة الكبار .

واشتهر بمصر بيعهم لذلك وعرفوا به ، فكان الناس يتناوبونهم لذلك . وأكثر ماتباع الزلة الكبيرة منها بدرهمين ، ومنها ما يباع بدرهم ، فكان كثير من الناس يتفكهون من هذه الزلات .

وكان شياه موجودا فى كل وقت لكثرته واتساعه ، بحيث ان الرجل اذا طرقه ضيف خرج من فوره الى باب دار الحرم ، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه ، مما لا يقدر على عمل مثله ، ولا يتهيأ له من اللحوم والفراخ والدجاج والحلوى مثل ذلك .

واتسعت أيضا اصطبلات خمارويه ، فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلا مفردا : فكان للخيل الخاص اصطبل مفرد ، والدواب الغلمان اصطبلات عدة ، ولبغال القباب اصطبلات ، ولبغال النقل غير بغال القباب اصطبلات ، وللنجائب والبخاتى اصطبلات ... لكل صنف اصطبل مفرد ، للاتساع فى المواضع ، والتفنن فى الأثقال .

وعمل للنمور دارا مفردة ، وللفهود دارا مفردة ، وللفيلة دارا ، وللزرافات دارا .

كل ذلك سوى الاصطبلات التى بالجيزة ، فانه كان له فى عدة ضياع من الجيزة اصطبلات ، مثل نهيا ووسيم وسفط وطهرمس وغيرها ، وكانت هذه الضياع لا تزرع الا القرط برسم الدواب .

وكان للخليفة أيضا بمصر اصطبلات ، سوى ما ذكر ، تنتج فيها الخيل لحلبة السباق ، وللرباط فى سبيل الله تعالى برسم الغزو . وكان لكل دار من الدور المذكورة ، ولكل اصطبل ، وكلاء لهم الرزق السنى والوظائف الكثيرة والأموال المتسعة .

وبلغ رزق الجيش فى أيام خمارويه تسعمائة ألف دينار فى كل سنة ، وقام مطبخه — المعروف بمطبخ العامة — بثلاثة وعشرين ألف دينار فى كل شهر ، سوى ما هو موظف لجواريه وأرزاق من يخدمهن ويتصرف فى حوائجهن .

وكان قد اتخذ لنفسه ، من ولد الحوف وشناترة الضياع ، قوما معروفين بالشجاعة والبأس ، لهم خلق عظيم تام وعظم أجسام . وأدر عليهم الأرزاق ، ووسع لهم فى العطاء ، وشغلهم عما كانوا فيه من قطع الطريق واذية الناس بخدمته ، وألبسهم الأقبية وجواشن الديباج ، وصاغ لهم المناطق العراض الثقال ، وقلدهم السيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم .

فاذا مشوا بين يديه وموكبه على ترتيبه ، ومضت أصناف العسكر وطوائفه ، تلاهم السودان وعدتهم ألف أسود ، لهم درق من حديد محكم الصنعة ، وعليهم أقبية سود وعمائم سود ، فيخالهم الناظر اليهم بحرا أسود يسير لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم ،

ويصير لبريق درقهم وحلى سيوفهم والبيض التى تلمع على رؤوسهم من تحت العمائم زى بهج .

فاذا مضى السودان قدم خمارويه وقد انفرد عن موكبه ، وصار بينه وبين الموكب نحو نصف غلوة سهم والمختارة تحف به ، وكان تام الظهر ويركب فرسا تاما ، فيصير كالكوكب اذا أقبل لا يخفى على أحد ، كأنه قطعة جبل فى وسط المختارة .

وكان مهيبا ذا سطوة ، وقد وقع فى قلوب الكافة أنه متى أشار اليه أحد بأصبعه أو تكلم أو قرب منه ، لحقه مكروه عظيم ... فكان اذا أقبل كما ذكرنا ، لا يسمع من أحد كلمة ولا سعلة ولا عطسة ، ولا نحنحة ألبتة ، كأنما على رؤوسهم الطير .

وكان يتقلد فى يوم العيد سيفا بحمائل .

ولا يزال يتفرج ويتنزه ، ويخرج الى مواضع لم يكن أبوه يهش اليها ، كالأهرام ومدينة العقاب ونحو ذلك ، لأجل الصيد فانه كان مشغوفا به ، لا يكاد يسمع بسبع الا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون الى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم ، فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم ، فاذا قدم خمارويه من الصيد ، سار القفص وفيه السبع بين يديه .

وكانت حلبة السباق فى أيامهم تقوم مقام الأعياد ، لكثرة الزينة وركوب سائر الغلمان والعساكر — على كثرتهم — بالسلاح التام والعدد الكاملة ، فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون فى الأعياد ، وتطلق الخيل من غاياتها ، فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضا حتى يتم السبق .

قال القضاعى : المنظر بناه أحمد بن طولون فى ولايته لعرض الخيل . وكان عرض الخيل من عجائب الاسلام الأربعة التى منها هذا العرض ، ورمضان بمكة ، والعيد كان بطرسوس ، والجمعة ببغداد ... فبقى من هذه الأربعة شهر رمضان بمكة ، والجمعة ببغداد ، وذهبت اثنتان .

قال كاتبه : وقد ذهبت الجمعة ببغداد أيضا بعد القضاعى ، بقتل هولاكو للخليفة المستعصم ، وزوال شعائر الاسلام من العراق ، وبقيت مكة — شرفها (*) الله تعالى — وليس فى شهر رمضان الآن بها ما يقال فيه انه من عجائب الاسلام .

ولما تكامل عز خمارويه وانتهى أمره ، بدأ يسترجع منه الدهر ما أعطاه . فأول ما طرقه موت حظيته بوران التى من أجلها بنى بيت الذهب ، وصور فيه صورتها وصورته كما تقدم ، وكان يرى أن الدنيا لا تطيب له الا بسلامتها وبنظره اليها وتمتعه بها ، فكدر موتها عيشه ، وانكسر انكسارا بان عليه .

ثم انه أخذ فى تجهيز ابنته ، فجهزها جهازا ضاهى به نعم الخلافة ، فلم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس الا حمله معها . فكان من جملته دكة أربع قطع من ذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ، ومائة هون من ذهب .

(*) ص٢١٨ جـ١ ، ط.بولاق .

قال القضاعي : وعقد المعتضد النكاح على ابنته (يعني ابنة خمارويه) قطر الندى ، فحملها أبو الجيش خمارويه مع عبد الله بن الجصاص ، وحمل معها ما لم ير مثله ، ولا يسمع به .

ولما دخل اليه ابن الجصاص يودعه ، قال له خمارويه : هل بقي بيني وبينك حساب ؟

فقال : لا .

فقال : انظر حسابك .

فقال : كسر بقي من الجهاز .

فقال : أحضروه .

فأخرج ربع طومار فيه ثبت ذكر النفقة ، فاذا هي أربعمائة ألف دينار .

قال محمد بن علي المادرائي : فنظرت في الطومار ، فاذا فيه « وألف تكة ، الثمن عنها عشرة آلاف دينار » ... فأطلق له الكل .

قال القضاعي : وانما ذكرت هذا الخبر لتستدل به على أشياء : منها سعة نفس أبي الجيش . ومنها كثرة ما كان يملكه ابن الجصاص ، حتى انه قال : « كسر بقي من الجهاز » ، وهو أربعمائة ألف دينار ، لو لم يقتضه ذلك لم يذكره . ومنها ميسور ذلك الزمان ، لما طلب فيه ألف تكة من أثمان عشرة دنانير قدر عليها في أيسر وقت وأهون سعي ، ولو طلب اليوم خمسون لم يقدر عليها .

قال كاتبه : ولا يعرف اليوم ، في أسواق القاهرة ومصر ، تكة بعشرة دنانير اذا طلبت توجد في الحال ، ولا بعد شهر ، الا أن يتعنى بعملها فتعمل .

ولما فرغ خمارويه من جهاز ابنته ، أمر فبني لها — على رأس كل مرحلة تنزل بها — قصر فيما بين مصر وبغداد ، وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون في جماعة مع ابن الجصاص ، فكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصرا قد فرش فيه جميع ما يحتاج اليه ، وعلقت فيه الستور ، وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الاقامة .

فكانت في مسيرها من مصر الى بغداد — على بعد الشقة — كأنها في قصر أبيها ، تنتقل من مجلس الى مجلس ، حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، فزفت على الخليفة المعتضد .

وبعد ذلك قتل خمارويه بدمشق .

وكانت مدة بني طولون بمصر سبعا وثلاثين سنة وستة أشهر واثنين وعشرين يوما ، وولي منهم خمسة أمراء .

أولهم أحمد بن طولون : ولي مصر من قبل المعتز على صلاتها ، فدخل يوم الخميس لسبع بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين .

وخرج بغا الأصغر ، وهو أحمد بن محمد ابن عبد الله بن طباطبا ، فيما بين برقة والاسكندرية ، في جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ، وسار الى الصعيد ، فقتل في الحرب ، وحمل رأسه الى الفسطاط لاحدى عشرة بقيت من شعبان .

وخرج ابن الصوفي العلوي ، وهو ابراهيم ابن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ، ودخل اسنا في

ذي القعدة ، فنهب وقتل . فبعث اليه ابن طولون جيشا ، فهزم الجيش في ربيع الأول سنة ست وخمسين ، فبعث بجيش آخر ، فواقعه باخميم في ربيع الآخر ، فانهزم ابن الصوفي الى الواح فأقام به .

وخرج أحمد بن طولون يريد حرب عيسى ابن الشيخ ، ثم عاد فابتدأ في بناء الميدان .

وقدم العباس وخمارويه ، ابنا أحمد بن طولون ، من العراق على طريق مكة سنة سبع وخمسين .

وورد كتاب ماجور بتسلم أحمد بن طولون الأعمال الخارجة عن يده من أرض مصر ، فتسلم الاسكندرية ، وخرج اليها لثمان خلون من شهر رمضان ، واستخلف طغج صاحب الشرط .

ثم قدم لأربع عشرة بقيت من شوال ، وسخط على أخيه موسى ، وأمره بلباس البياض ، وخرج الى الاسكندرية ثانيا لثمان بقين من شعبان سنة تسع وخمسين ، واستخلف ابنه العباس .

وقدم لثمان خلون من شوال ، وأمر ببناء المسجد الجامع على الجبل في صفر سنة تسع وخمسين ، وبناء المارستان للمرضى .

وورد كتاب المعتمد يستحثه في حمل الأموال ، فكتب اليه : « لست أطيق ذلك والخراج بيد غيري » .

فأنفذ المعتمد نفيسا الخادم بتقليد أحمد بن طولون الخراج ، وبولايته على الثغور الشامية . فأقر أبا أيوب أحمد بن محمد بن شجاع على الخراج خليفة له عليه ، وعقد لطخشي بن بلبرد على الثغور ، فخرج في جمادى الأولى سنة أربع وستين .

وتقدم أبو أحمد الموفق الى موسى بن بغا في صرف أحمد بن طولون وتقليدها ماجور التركي والي دمشق ، فكتب اليه بذلك ، فتوقف لعجزه عن مقاومة ابن طولون ، فخرج موسى بن بغا ونزل الرقة .

فبلغ ابن طولون أنه سائر اليه ، فابتدأ في بناء الحصن بالجزيرة ليكون معقلا لماله وحرمه في سنة ثلاث وستين ، واجتهد في عمل المراكب الحربية ، وأطافها بالجزيرة .

فأقام موسى بالرقة عشرة أشهر ، واضطربت أموره ، ومات في صفر سنة * أربع وستين . ومات ماجور بدمشق ، واستخلف ابنه على ابن ماجور .

فحرك ذلك أحمد بن طولون على المسير ، وكتب الى ابن ماجور أنه سائر اليه ، وأمره باقامة الأنزال والميرة ... فأجاب بجواب حسن .

وشكا أهل مصر الى ابن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه ، فأمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر ، فابتدأ ببنائه في سنة أربع ، وتم في سنة ست وستين ومائتين .

وخرج في جيوشه لثمان بقين من شعبان سنة أربع وستين ، واستخلف ابنه العباس ، وضم اليه أحمد بن محمد الواسطي مدبرا ووزيرا ،

(*) ص٣١٦ ج١ ، ط.بولاق .

فبلغ الرملة ، وتلقاه محمد بن رافع واليها ، وأقام له بها الدعوة ، فأقره .

ومضى الى دمشق ، فتلقاه على بن ماجور ، وأقام له بها الدعوة ، فأقام حتى استوثق له أمرها .

ومضى الى حمص فتسلمها ، وبعث الى سيما الطويل - وهو بأنطاكية - يأمره بالدعاء له ، فأبى ، فسار اليه فى جيش عظيم وحاصره ، ورماه بالمجانيق حتى دخلها فى المحرم سنة خمس وستين ، فقتل سيما ، واستباح أمواله ورجاله .

ومضى الى طرسوس فدخلها فى ربيع الأول ، فضاقت به وغلا السعر بها ، فنابذه أهلها لقتالهم ، وأمر أصحابه أن ينهزموا عن أهل طرسوس ليبلغ طاغية الروم فيعلم أن جيوش ابن طولون - مع كثرتها وشدتها - لم تقم لأهل طرسوس فانهزموا .

وخرج عنهم ، واستخلف عليها طخشى ، فورد الخبر عليه بأن ابنه العباس قد خالف عليه ، فأزعجه ذلك وسار . فخاف العباس وقيد الواسطى ، وخرج بطائفته الى الجيزة لثمان خلون من شعبان سنة خمس وستين ومائتين فعسكر بها ، واستخلف أخاه ربيعة ابن أحمد ، وأظهر أنه يريد الاسكندرية وسار الى برقة .

فقدم أحمد بن طولون من الشام لأربع خلون من رمضان ، فأنفذ القاضى بكار بن قتيبة فى نفر بكتابه الى العباس ، فساروا اليه ببرقة ، فأبى أن يرجع ، وعاد بكار فى أول ذى الحجة .

ومضى العباس يريد أفريقية فى جمادى الأولى سنة ست وستين ، فنهب لبدة ، وقتل من أهلها عدة ، وضجت نساؤهم ، فاجتمع عليه جيش ابن الأغلب والأباضية ، فقاتلهم بنفسه وحسن بلاؤه يومئذ ، وقال :

لله درى اذ أعدو على فرسى
الى الهياج ونار الحرب تستعر
وفى يدى صارم أفرى الرؤوس به
فى حده الموت لا يبقى ولا يذر
ان كنت سائلة عنى وعن خبرى
فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أصلى ان سألت فما
فوقى لمفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة اذ
بالسيف أضرب والهامات تبتدر
اذن لعاينت منى ما تبادره
عنى الأحاديث والأنباء والخبر

وقتل يومئذ صناديد عسكره ووجوه أصحابه ، ونهبت أمواله ، وفر الى برقة فى ضر .

وعقد أحمد بن طولون على جيش ، وبعث به الى برقة فى رمضان سنة سبع وستين .

ثم خرج بنفسه فى عسكر عظيم ، يقال انه بلغ مائة ألف ، لثنتى عشرة خلت من ربيع الأول سنة ثمان وستين ، فأقام بالاسكندرية ، وفر اليه أحمد بن محمد الواسطى من عند العباس ، فصغر عنده أمر العباس ، فعقد على جيش سيره الى برقة ، فواقعوا أصحاب العباس وهزموهم وقتلوا منهم كثيرا ، وأدركوا العباس لأربع خلون من رجب .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وباقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
١٦



كتاب التحرير

"كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شدوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها"

تقى الدين احمد بن على المقريزى

وعاد أحمد الى الفسطاط لثلاث عشرة خلت منه ، وقدم العباس والأسرى فى شوال ، ثم أخرجوا أول ذى القعدة ، وقد بنيت لهم دكة عالية ، فضربوا وألقوا من أعلاها .

ثم بعث بلؤلؤ فى جيش الى الشام ، فخالف على أحمد ومال مع الموفق وصار اليه ، فخرج أحمد ، واستخلف ابنه خمارويه فى صفر سنة تسع وستين ، فنزل دمشق — ومعه ابنه العباس مقيد — فخالف عليه أهل طرسوس ، فخرج يريد محاربتهم ، ثم توقف لورود كتاب المعتمد عليه أنه قادم عليه ليلتجىء اليه .

فخرج كالمتصيد من بغداد ، وتوجه نحو الرقة . فبلغ أبا أحمد الموفق مسيره — وهو محارب لصاحب الزنج — فعمل عليه حتى عاد الى سامرا ، ووكل به جماعة ، وعقد لاسحاق ابن كنداج الخزرى على مصر .

فبلغ ذلك ابن طولون ، فرجع الى دمشق ، وأحضر القضاة والفقهاء من الأعمال ، وكتب الى مصر كتابا قرىء على الناس : بأن أبا أحمد الموفق نكث بيعة المعتمد ، وأسره فى دار أحمد بن الخصيب ، وأن المعتمد قد صار من ذلك الى ما لا يجوز ذكره وأنه بكى بكاء شديدا .

فلما خطب الخطيب يوم الجمعة ذكر ما نيل من المعتمد ، وقال : اللهم فاكفه من حصره وظلمه .

وخرج من مصر بكار بن قتيبة وجماعة الى دمشق ، وقد حصر أهل الشامات والثغور ، فأمر ابن طولون بكتاب فيه خلع الموفق من ولاية العهد لمخالفة المعتمد وحصره اياه ، وكتب فيه : « ان أبا أحمد الموفق خلع الطاعة وبرىء من الذمة ، فوجب جهاده على الأمة »

وشهد على ذلك جميع من حضر ، الا بكار ابن قتيبة ، وآخرين ، وقال بكار : لم يصح عندى ما فعله أبو أحمد ولم أعلمه . وامتنع من الشهادة والخلع ... وكان ذلك لاحدى عشرة خلت من ذى القعدة .

فبلغ ذلك الموفق ، فكتب الى عماله بلعن أحمد بن طولون على المنابر ، فلعن عليها بما صيغته : اللهم العنه لعنا يفل حده ويتعس جده ، واجعله مثلا للغابرين ، انك لا تصلح عمل المفسدين .

ومضى أحمد الى طرسوس فنازلها ، وكان البرد شديدا ، ثم رحل عنها الى أذنة ، وسار الى المصيصة فنزلت به علة الموت .

فأعدّ السير يريد مصر حتى بلغ الفرما ، فركب النيل الى الفسطاط ، فدخل لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة سبعين ، فأوقف بكار ابن قتيبة ، وبعث به الى السجن .

وتزايدت به العلة حتى مات ليلة الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين .

فلما بلغ المعتمد موته اشتد وجده وجزعه عليه ، وقال يرثيه :

(*) ص٣٢٠ ج١ ، ط.بولاق .

الى الله أشكو أسى عرانى كوقع الأسل
على رجل أروع يرى منه فضل الوجل
شهاب خبا وقده وعارض غيث أفل
شكت دولتى فقده وكان يزين الدول

فقام بعده ابنه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وبايعه الجند يوم الأحد لعشر خلون من ذى القعدة ، فأمر بقتل أخيه العباس لامتناعه عن مبايعته .

وعقد لأبى عبد الله أحمد الواسطى على جيش الى الشام لست خلون من ذى الحجة ، وعقد لسعد الأعسر على جيش آخر ، وبعث بمراكب فى البحر لتقيم على السواحل الشامية .

فنزل الواسطى فلسطين ، وهو خائف من خمارويه أن يوقع به لأنه كان أشار عليه بقتل أخيه العباس ، فكتب الى أبى أحمد الموفق يصغر أمر خمارويه ، ويحرضه على المسير اليه .

فأقبل من بغداد ، وانضم اليه اسحاق بن كنداج ومحمد بن أبى الساج ، ونزل الرقة فتسلم قنسرين والعواصم ، وسار الى شيزر ، فقاتل أصحاب خمارويه وهزمهم ، ودخل دمشق .

فخرج خمارويه فى جيش عظيم ، لعشر خلون من صفر سنة احدى وسبعين ، فالتقى مع أحمد بن الموفق بنهر أبى بطرس — المعروف بالطواحين — من أرض فلسطين ، واقتتلا ، فانهزم أصحاب خمارويه ، وكان فى سبعين ألفا وابن الموفق فى نحو أربعة آلاف ، واحتوى على عسكر خمارويه بما فيه .

ومضى خمارويه الى الفسطاط ، وأقبل كمين له عليه سعد الأعسر ، ولم يعلم بهزيمة خمارويه ، فحارب ابن الموفق حتى أزاله عن المعسكر ، وهزمه اثنى عشر ميلا ، ومضى الى دمشق فلم يفتح له .

ودخل خمارويه الى الفسطاط لثلاث خلون من ربيع الأول ، وسار سعد الأعسروالواسطى فملكا دمشق .

وخرج خمارويه من مصر لسبع بقين من رمضان ، فوصل الى فلسطين ، ثم عاد لاثنتى عشرة بقيت من شوال ، ثم خرج فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ، فقتل سعدا الأعسر ، ودخل دمشق لسبع خلون من المحرم سنة ثلاث وسبعين .

وسار لقتال ابن كنداج ، فكانت على خمارويه فانهزم أصحابه ، وثبت هو فى طائفة ، فهزم ابن كنداج وأتبعه حتى بلغ أصحابه سر من رأى ، ثم اصطلحا وتظاهرا ، وأقبل الى خمارويه فأقام فى عسكره ، ودعا له فى أعماله التى بيده .

وكاتب خمارويه أبا أحمد الموفق فى الصلح ، فأجابه الى ذلك ، وكتب له بذلك كتابا ، فورد عليه به فائق الخادم الى مصر فى رجب ، ذكر فيه أن المعتمد والموفق وابنه كتبوه بأيديهم ، وبولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة على مصر والشامات .

ثم قدم خمارويه سلخ رجب ، فأمر بالدعاء لأبى أحمد الموفق وترك الدعاء عليه ، وجعل على المظالم بمصر محمد بن عبدة بن حرب .

وبلغه مسير محمد بن أبى الساج الى أعماله ، فخرج اليه فى ذى القعدة ، ولقيه بثنية العقاب من دمشق ، فانهزم أصحاب خمارويه ، وثبت هو فحاربه حتى هزمه أقبح هزيمة .

وعاد الى مصر ، فدخلها لست بقين من جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ، ثم خرج الى الاسكندرية لأربع خلون من شوال ، وورد الخبر أنه دعى له بطرسوس فى جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين ، وخرج الى الشام لسبع عشرة من ذى القعدة .

ومات الموفق فى سنة ثمان وسبعين ، ثم مات المعتمد فى رجب سنة تسع وسبعين .

وبويع المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق ، فبعث اليه خمارويه بالهدايا ، وقدم من الشام لست خلون من ربيع الأول سنة ثمانين .

فورد كتاب المعتضد بولاية خمارويه على مصر هو وولده ثلاثين سنة ، من الفرات الى برقة ، وجعل له الصلات والخراج والقضاء وجميع الأعمال ، على أن يحمل فى كل عام مائتى ألف دينار عما مضى ، وثلثمائة ألف للمستقبل .

ثم قدم رسول المعتضد بالخلع ، وهى اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح ، مع خادم فى رمضان .

وعقد المعتضد نكاح قطر الندى بنت خمارويه فى سنة احدى وثمانين ، وفيها خرج خمارويه الى نزهته بيربوط فى شعبان ، ومضى الى الصعيد فبلغ سيوط ، ثم رجع من الشرق الى الفسطاط أول ذى القعدة .

وخرج الى الشام لثمان خلون من شعبان سنة اثنتين وثمانين ، فأقام بمنية الأصبغ ومنية مطر ، ثم رحل حتى أتى دمشق ، فقتل بها على فراشه ... ذبحه جواريه * وخدمه .

وحمل فى صندوق الى مصر ، وكان لدخول تابوته يوم عظيم ، واستقبله جواريه وجوارى غلمانه ونساء قواده ونساء القطائع بالصياح وما يصنع فى المآتم ، وخرج الغلمان وقد حلوا أقبيتهم ، وفيهم من سود ثيابه وشققها ، وكانت فى البلد ضجة عظيمة وصرخة تعتع القلوب حتى دفن .

وكانت مدته اثنتى عشرة سنة وثمانية عشر يوما .

ثم ولى أبو العساكر جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، لليلة بقيت من ذى القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، بدمشق . فسار الى مصر ، واشتمل على أمور أنكرت عليه ، فاستوحش من عظماء الجند وتنكر لهم ، فخافوه ودأبوا فى الفساد .

فخرج متنزها الى منية الأصبغ ، ففر جماعة من عظماء الدولة الى المعتضد ، وخلعه أحمد ابن طغان وكان على الثغر ، وخلعه طغج بن ابن جف بدمشق ، فوثب جيش على عمه

(*) ص٢٢١ جـ١ ، ط.بولاق .

مضر بن أحمد بن طولون فقتله ، فوثب عليه الجيش وخلعوه ، وجمعوا الفقهاء والقضاة ، فتبرأ من بيعته وحللهم منها .

وكان خلعه لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ، فولى ستة أشهر واثنى عشر يوما ، ومات فى السجن بعد أيام .

ثم ولى أبو موسى هارون بن خمارويه يوم خلع جيش ، فقام طائفة من الجند ، وكاتبوا ربيعة بن أحمد بن طولون وكان بالاسكندرية ودعوه ووعدوه بالقيام معه .

فجمع جمعا كثيرا من أهل البحيرة ومن البربر وغيرهم ، وسار حتى نزل ظاهر فسطاط مصر ، فخذله القوم وخرج اليه القواد ، فقاتلوه وأسروه لاحدى عشرة ليلة خلت من شعبان سنة أربع وثمانين ، وضرب ألف سوط ومائتى سوط ، فمات .

ومات المعتضد فى ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ، وبويع ابنه محمد المكتفى بالله ، وخرج القرمطى بالشام فى سنة تسعين ، فخرج القواد من مصر وحاربوه فهزمهم .

وبعث المكتفى محمد بن سليمان الكاتب فنزل حمص ، وبعث بالمراكب من الثغر الى سواحل مصر ، وأقبل الى فلسطين . فخرج هارون يوم التروية سنة احدى وتسعين ، وسير المراكب الحربية ، فالتقوا بمراكب محمد بن سليمان فى تنيس فغلبوا ، وملك أصحاب محمد بن سليمان تنيس ودمياط .

فسار هارون الى العباسة ، ومعه أهله وأعمامه فى ضيق وجهد ، فتفرق عنه كثير من

أصحابه ، وبقى فى نفر يسير وهو متشاغل باللهو .

فأجمع عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون على قتله ، فدخلا عليه وهو ثمل ، فقتلاه ليلة الأحد لاحدى عشرة بقيت من صفر سنة اثنتين وتسعين ، وسنه يومئذ اثنتان وعشرون سنة ، فكانت ولايته ثمان سنين وثمانية أشهر وأياما .

ثم ولى شيبان بن أحمد بن طولون أبو المواقيت لعشر بقين من صفر ، فرجع الى الفسطاط .

وبلغ طغج بن جف وغيره من القواد قتل هارون ، فأنكروه وخالفوا على شيبان ، وبعثوا الى محمد بن سليمان فأمنهم ، وحركوه على المسير الى مصر ، فسار حتى نزل العباسة ، فلقيه طغج فى ناس من القواد كثير ، فساروا به الى الفسطاط ، وأقبل اليهم عامة أصحاب شيبان .

فخاف حينئذ شيبان ، وطلب الأمان ، فأمنه محمد بن سليمان ، وخرج اليه لليلة خلت من ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وكانت ولايته اثنى عشر يوما .

ودخل محمد بن سليمان يوم الخميس أول ربيع الأول ، فألقى النار فى القطائع ، ونهب أصحابه الفسطاط ، وكسروا السجون وأخرجوا من فيها ، وهجموا الدور ، واستباحوا الحريم ، وهتكوا الرعية ، وافتضوا الأبكار ، وساقوا النساء ، وفعلوا كل قبيح ، من اخراج الناس من دورهم وغير ذلك .

وأخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون انسانا ، وأخرج قوادهم ... فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر ، وخلت منهم الديار ، وعفت منهم الآثار ، وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الذل بعد العز ، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام .

ثم سيق أصحاب شيبان الى محمد بن سليمان وهو راكب ، فذبحوا بين يديه كما تذبح الشياه ، وقتل من السودان سكان القطائع خلقا كثيرا .

فقال أحمد بن محمد الحبيشى :

الحمد لله اقرارا بما وهبا
قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا

الله أصدق هذا الفتح لا كذب
فسوء عاقبة المثوى لمن كذبا

فتح به فتح الدنيا محمدها
وفرج الظلم والاظلام والكربا

لا ريب رب هياج يقتضى دعة
وفى القصاص حياة تذهب الريبا

رمى الامام به عذراء غادرة
فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا

محمد بن سليمان أعزهم
نفسا وأكرمهم فى الذاهبين أبا

سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشرا
أضحى عرينهم الخطى لا القضبا

جثم الفضاء على اليحموم حين أتوا
مثل الزبا يمتحون الزبية الذأبا *

ايها علوت على الأيام مرتبة
أبا على ترى من دونها الرتب

لما أطال بنو طولون خطبتهم
من الخطوب وعافت منهم الخطبا

هارت بهارون من ذكراك بقعته
وشيب الرعب شيبانا وقد رعبا

وكم ترى لهم من جنة أنف
ومن نعيم جنى من غدرهم عطبا

فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم
كأنها من زمان غابر ذهبا

وقال أحمد بن يعقوب :

ان كنت تسأل عن جلالة ملكهم
فارتع وعج بمرابع الميدان

وانظر الى تلك القصور وماحوت
واسرح بزهرة ذلك البستان

وان اعتبرت ففيه أيضا عبرة
تنبيك كيف تصرف العصران

ياقتل هارون اجتثثت أصولهم
وأشبت رأس أميرهم شيبان

لم يغن عنكم بأس قيس اذا غدا
فى جحفل لجب ولا غسان

وعديه البطل الكمى وخزرج
لم ينصرا بأخيهما عدنان

زفت الى آل النبوة والهدى
وتمزقت عن شيعة الشيطان

(*) ص٢٢٢ جـ١ ، ط.بولاق .

وقال اسماعيل بن أبى هاشم :

قف وقفة بقباب باب الساج
والقصر ذى الشرفات والأبراج

وربوع قوم أزعجوا عن دارهم
بعد الاقامة أيما ازعاج

كانوا مصابيحا لدى ظلم الدجى
يسرى بها السارون فى الادلاج

وكأن أوجههم اذا أبصرتها
من فضة بيضاء أو من عاج

كانوا ليوثا لا يرام حماهم
فى كل ملحمة وكل هياج

فانظر الى آثارهم تلقى لهم
علما بكل ثنية وفجاج

وعليهم ما عشت لا أدع البكا
مع كل ذى نظر وطرف ساجى

وقال سعيد القاص :

جرى دمعه ما بين سحر الى نحر
ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر

وبات وقيذا للذى خامر الحشا
يئن كما أن الأسير من الأسر

وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى
يبيت على جمر ويضحى على جمر

تتابع أحداث يضيمن صبره
وغدر من الأيام والدهر ذو غدر

أصاب على رغم الأنوف وجدعها
ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر

طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها
بفقد بنى طولون والأنجم الزهر

وفقد بنى طولون فى كل موطن
أمر على الاسلام فقدا من القطر

فبادوا وأضحوا بعد عز ومنعة
أحاديث لا تخفى على كل ذى حجر

وكان أبو العباس أحمد ماجدا
جميل المحيا لا يبيت على وتر

كأن ليالى الدهر كانت لحسنها
واشراقها فى عصره ليلة القدر

يدل على فضل ابن طولون همة
محلقة بين السماكين والغفر

فان كنت تبغى شاهدا ذا عدالة
يخبر عنه بالجلى من الأمر

فبالجبل الغربى خطة يشكر
له مسجد يغنى عن المنطق الهذر

يدل ذوى الألباب أن بناءه
وبانيه لا بالضنين ولا الغمر

بناه بآجر وساج وعرعر
وبالمرمر المسنون والجص والصخر

بعيد مدى الأقطار سام بناؤه
وثيق المبانى من عقود ومن جدر

فسيح رحاب يحصر الطرف دونه
رقيق نسيم طيب العرف والنشر *

وتنور فرعون الذى فوق قلة
على جبل عال على شاهق وعر

(*) ص٢٢٢ جـ١ ، ط. بولاق .

بنى مسجدا فيه يروق بناؤه
ويهدى به فى الليل ان ضل من يسرى

تخال سنا قنديله وضياءه
سهيلا اذا ما لاح فى الليل للسفر

وعين معين الشرب عين زكية
وعين اجاج للرواة وللطهر

كأن وفود النيل فى جنباتها
تروح وتغدو بين مد الى جزر

فأرك بها مستنبطا لمعينها
من الأرض من بطن عميق الى ظهر

بناء لو ان الجن جاءت بمثله
لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر

يمر على أرض المغافر كلها
وشعبان والأحمور والحى من بشر

قبائل لا نوء السحاب يمدها
ولا النيل يرويها ولا جدول يجرى

ولا تنس مارستانه واتساعه
وتوسعة الأرزاق للحول والشهر

وما فيه من قوامه وكفاته
ورفقتهم بالمعتفين ذوى الفقر

فللميت المقبور حسن جهازه
وللحى رفق فى علاج وفى جبر

وان جئت رأس الجسر فانظر تأملا
الى الحصن أو فاعبر اليه على الجسر

ترى أثرا لم يبق من يستطيعه
من الناس فى بدو البلاد ولا حضر

مآثر لا تبلى وان باد أهلها
ومجد يؤدى وارثيه الى الفخر

لقد ضمن القبر المقدر فرعه
أجل اذا ماقيس من قبتى حجر

وقام أبو الجيش ابنه بعد موته
كما قام ليث الغاب فى الأسل السمر

أتته المنايا وهو فى أمن داره
فأصبح مسلوبا من النهى والأمر

كذاك الليالى من أعارته بهجة
فيالك من ناب حديد ومن ظفر

وورث هارون ابنه تاج ملكه
كذاك أبو الأشبال ذو الناب والهصر

وقد كان جيش قبله فى محله
ولكن جيشا كان مستقصر العمر

فقام بأمر الملك هارون مدة
على كظظ من ضيق باع ومن حصر

وما زال حتى زال والدهر كاشح
عقاربه من كل ناحية تسرى

تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا
كما ارفض سلك من جمان ومن شذر

فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله
لفقدهم فليبك حزنا على مصر

ليبك بنى طولون اذ بان عصرهم
فبورك من دهر وبورك من عصر

وقال أيضا :

من لم ير الهدم للميدان لم يره
تبارك الله ما أعلى وأقدره

لو ان عين الذى أنشاه تبصره
والحادثات تعاديه لأكبره

كانت عيون الورى تعشو اليه
اذا أضاف اليه الملك عسكره

أين الملوك التى كانت تحل به
وأين من كان بالآفاق ديره

وأين من كان يحميه ويحرسه
من كل ليث يهاب الليث منظره

صاح الزمان بمن فيه ففرقهم
وحط ريب البلى فيه فدمره

وأخلق الدهر منه حسن جدته
مثل الكتاب محا العصران أسطره

دكت مناظره واجتث جوسقه
كأنما الخسف فاجاه فدمره

أو هب اعصار نار فى جوانبه
فعاد معروفه للعين منكره

كم كان يأوى اليه فى مقاصره
أحوى أغن غضيض الطرف أحوره

كم كان فيه لهم من مشرب غدق
فصب صرف الردى فيه فكدره

أين ابن طولون بانيه وساكنه
أماته الملك الأعلى فأقبره *

ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر
طوبى لمن خصه رشد فذكره

وقال أحمد بن اسحاق الجفر :

واذا ما أردت أعجوبة الده
ر تراها فانظر الى الميدان

تنظر الجن والهموم وأنوا
عا توالت به من الأشجان

يعلم العالم البصير اذا الده
ر فيما يراه ذو ألوان

أين ما فيه من نعيم ومن عيـ
ـش رخى ونضرة وحسان

أين ذاك المسك الذى ديف بالعنـ
ـبر حتا وعل بالزعفران

أين ذاك الخز المضاعف والوشـ
ـى وما استخلصوا من الكتان

أين تلك القيان تشدو على العز
ف بما استحسنوا من الألحان

حوز الدهر آل طولون فى هو
ة قفر مسكونها غير دان

وتعاطى الميدان من بعد أهليـ
ـه دثارا تعوى بتلك المغانى

ثم أمر الحسن بن أحمد الماذرائى ، متولى خراج مصر ، بهدم الديوان ، فابتدىء فى هدمه فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، وبيعت أنقاضه ودثر كأنه لم يكن .

فقال محمد بن طسويه :

وكأن الميدان ثكلى أصيبت
بحبيب قد ضاع ليلة عرس

تتغشى الرياح منه محلا
كان للصون فى ستور الدمقس

وفرش الاضريج والبسط والديـ
ـباج فى نعمة وفى لين لمس

ووجوه من الوجوه حسان
وخدود مثل اللآلىء ملس

(*) ص٣٢٢ جـ ٤ ، ط بولاق .

كل نجلاء كالغزال ونجلا
ورداح من بين حور ولعس

آل طولون كنتم زينة الأر
ض فأضحى الجديد أهدام لبس

وقال ابن أبى هاشم :

يامنزلا لبنى طولون قد دثرا
سقاك صرف الغوادى القطر والمطرا

يامنزلا صرت أجفوه وأهجره
وكان يعدل عندى السمع والبصرا

بالله عندك علم من أحبتنا
أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

وقال :

ألا فاسأل الميدان ثم اسأل الجبل
عن الملك الماضى ابن طولون ما فعل

وعن ابنه العباس ان كنت سائلا
وأين أبو الجيش القماقمة البطل

وجيش وهارون الذى قام بعده
وشيبان بالأمس الذى خانه الأمل

ومن قبله أردى ربيعة يومه
وكان هزبرا لا يطاق اذا حمل

وأين ذراريهم وأين جموعهم
وكيف تقضى عنهم الملك فاضمحل

وأين بناء القصر والجوسق الذى
عهدناه معمور الفناء له زجل

لقد ملكوه برهة من زماننا
بدولتهم ثم انقضوا بانقضا الدول

فما منهم خلق يحس ولا يرى
يذكر طوال الدهر لما انقضى الأجل

وصاروا أحاديثا لمن جاء بعدهم
وكان بهم فى ملكهم يضرب المثل

وقال :

قف وقفة وانظر الى الميدان
والقصر ذى الشرفات والايوان

والجوسق العالى المنيف بناؤه
ما باله قفر من السكان

أين الذين لهوا به وعنوا به
زمنا مع القينات والنسوان

يجبى الخراج اليهم فى دارهم
لا يرهبون غوائل الحدثان

جمعوا الجموع مع الجموع فأكثروا
واستأثروا بالروم والسودان *

فانظر الى ما شيدوا من بعدهم
هل فيه غير البوم والغربان

أين الألى حفروا العيون بأرضه
وتأنقوا فيه وفى البنيان

غرسوا صنوف النخل فى ساحاته
وغرائب الأعناب والرمان

والزعفران مع البهار بأرضه
والورد بين الآس والريحان

كانوا ملوك الأرض فى أيامهم
كبراء كل مدينة ومكان

فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم
تحت الثرى يبلون فى الأكفان

(*) ص٣٢٦ جـ ٤ ، ط . بولاق .

الا أغيلمة أسارى بعدهم
فى دار مضيعة ودار هوان
متلفذين بأسرهم قد شردوا
ونفوا عن الأهلين والأوطان
والله وارث كلّ حى بعدهم
وله البقاء وكل شىء فان

وقال :

ان فى قبة الهواء لذى اللب معتبر
والقصور المشيدات مع الدور والحجر
والبساتين والمجالس والبيت والزهر
والجوارى المغنيات ذوى الدل والخفر
يتبخترن فى الحرير وفى الوشى والحبر
وملوك عبيدهم عدد الشوك والشجر
وجيوش مؤيدون لذى الباس بالظفر
من صنوف السودان والترك والروم والخزر
عمروا الأرض مدة ثم صاروا الى الحفر
واستبد الزمان من عاش منهم فلم يذر
فهم فى الهوان والذل أسرى على خطر
وهم بعد صفو عيش من الذل فى كدر
يال طولون ما لكم صرتم للورى سمر
يال طولون كنتم خبرا فانقضى الخبر

وقال :

مررت على الميدان معتبرا به
فناديته أين الجبال الشوامخ
خمار وعباس وأحمد قبلهم
وأين ترى شبانهم والمشايخ
وأين ذرارى آل طولون بعدهم
أما فيك منهم أيها الربع صارخ
وأين ثياب الخز والوشى والحلى
وأربابها ، أم أين تلك المطابخ
وأين فتات المسك والعنبر الذى
عنيت به دهرا وتلك اللطائخ
لقد غالك الدهر الخئون بصرفه
فأصبحت منحطا وغيرك بازخ

وقال :

مررت على الميدان بالأمس ضاحيا
فأبصرته قفر الجناب فراعنى
فناديت فيه : يال طولون ما لكم
فهود فما حلق بحرف أجابنى
فأذرت عينا ذات دمع غزيرة
ورحت كئيب القلب مما أصابنى
وانى عليهم ما بقيت لموجع
ولست أبالى من لحانى وعابنى

وحدث محمد بن أبى يعقوب الكاتب ، قال : لما كانت ليلة عيد الفطر ، من سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، تذكرت ما كان فيه آل طولون فى مثل هذه الليلة ، من الزى الحسن بالسلاح وملونات البنود ، والأعلام ، وشهرة الثياب ، وكثرة الكراع ، وأصوات الأبواق والطبول ، فاعترانى لذلك فكرة ، ونمت فى ليلتى فسمعت هاتفا يقول : ذهب الملك والتملك والزينة لما مضى بنو طولون .

وقال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » : رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة ، مضمونه فهرست شعراء الميدان

الذى لأحمد بن طولون ... قال : فاذا كانت أسماء الشعراء فى ثنتى عشرة كراسة ، كم يكون شعرهم مع أنه لم يوجد من ذلك الآن ديوان واحد ؟!

وقال أبو الخطاب بن دحية فى كتاب « النبراس » : وخربت قطائع أحمد بن طولون (يعنى فى الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر) ، وهلك جميع من كان بها من الساكنين ، وكانت نيفا على مائة ألف دار نزهة للناظرين محدقة بالجنان والبساتين . والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين * .

ذكر من ولى مصر من الامراء بعد خراب القطائع الى ان بنيت قاهرة المعز على يد القائد جوهر

وكان أول من ولى مصر — بعد زوال دولة بنى طولون وخراب القطائع — محمد بن سليمان الكاتب ، كاتب لؤلؤ غلام أحمد بن طولون ، دخل مصر يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، ودعا على المنبر لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده ، وجعل أبا على الحسين بن أحمد المادرانى على الخراج ، عوضا عن أحمد بن على المادرانى .

ثم ورد كتاب المكتفى بولاية عيسى بن محمد النوشرى أبى موسى ، فولى على الصلات ، ودخل خليفته لأربع عشرة خلت من جمادى الأولى ، فتسلم الشرطتين وسائر الأعمال .

ثم قدم عيسى لسبع خلون من جمادى الآخرة . وخرج محمد بن سليمان مستهل رجب ، وكان مقامه بمصر أربعة أشهر .

(*) ص٣٢٦ جـ١ ، ط.بولاق .

فأخرج كل من بقى من الطولونية ، فلما بلغوا دمشق ، انخنس عنهم محمد بن على بن الخليج فى جمع كثير ممن كره مفارقة مصر من القواد ، فعقدوا له عليهم ، وبايعوه بالامرة فى شعبان ، ورجع الى مصر .

فبعث اليه النوشرى بجيش أول رمضان وقد دخل أرض مصر ، ثم خرج اليه النوشرى ، وعسكر بباب المدينة أول ذى القعدة ، وسار الى العباسة ، ثم رجع لثلاث عشرة خلت منه ، وخرج الى الجيزة من غده ، وأحرق الجسرين ، وسار يريد الاسكندرية ، ففر عنه طائفة الى ابن الخليج ، فبعث اليه بجيش فهزمه ، وسار الى الصعيد .

ودخل محمد بن الخليج الفسطاط لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة ، فوضع العطاء ، وفرض الفروض .

وقدم أبو الأعز من قبل المكتفى فى طلب ابن الخليج ، فخرج اليه لثلاث خلون من المحرم سنة ثلاث وتسعين وحاربه ، فانهزم منه أبو الأعز ، وأسر من أصحابه جمعا كثيرا ، وعاد لثمان بقين منه .

فقدم فاتك المعتضدى من بغداد فى البر فعسكر ، وقدم دميانة فى المراكب ، فنزل فاتك النويرة . فخرج ابن الخليج وعسكر بباب المدينة ، وقام فى الليل بأربعة آلاف من أصحابه ليبيت فاتكا ، فأضلوا الطريق ، وأصبحوا قبل أن يبلغوا النويرة ، فعلم بهم فاتك ، فنهض بأصحابه وحارب ابن الخليج ، فانهزم عنه أصحابه ، وثبت فى طائفة ، ثم انهزم الى الفسطاط لثلاث خلون من رجب فاستتر .

ودخل دمياطة فى مراكب الثغور .

وأقبل عيسى النوشرى ، ومعه الحسين المادرانى ومن كان معهما ، لخمس خلون منه ، فعاد النوشرى الى ما كان عليه من صلاتها ، والمادرانى الى ما كان عليه من الخراج .

وعرف النوشرى بمكان ابن الخليج ، فهجم عليه وقيده لست خلون من رجب . وكانت مدة ابن الخليج بمصر سبعة أشهر وعشرين يوما .

ودخل فاتك فى عسكره الى الفسطاط لعشر خلون من رجب ، فأخرج ابن الخليج فى البحر لست خلون من شعبان ، فلما قدم بغداد طيف به وبأصحابه وهم ثلاثون نفرا ، فكان يوما مذكورا .

وابتدىء فى هدم ميدان بنى طولون فى شهر رمضان ، وبيعت أنقاضه .

وخرج فاتك الى العراق للنصف من جمادى الأولى سنة أربع وتسعين .

وأمر النوشرى بنفى المؤنثين ، ومنع النوح والنداء على الجنائز ، وأمر باغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلاتين ، ثم أمر بفتحه بعد أيام .

ومات المكتفى فى ذى القعدة سنة خمس وتسعين ، فشغب الجند بمصر ، وحاربوا النوشرى على طلب مال البيعة ، فظفر بجماعة منهم .

وبويع جعفر المقتدر ، فأقر النوشرى على الصلات .

وقدم زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب أمير أفريقية مهزوما من أبى عبد الله الشيعى ، فى رمضان سنة ست وتسعين الى الجيزة ، فمنعه النوشرى من العبور ، وكانت بين أصحابه وبين جند مصر منافسة ، ثم أذن له أن يعبر وحده .

ومات النوشرى لأربع بقين من شعبان سنة سبع وتسعين وهو وال . فكانت ولايته خمس سنين وشهرين ونصفا ، منها مدة ابن الخليج سبعة أشهر وعشرون يوما .

وقام من بعده ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى .

ثم ولى تكين الخزرى أبو منصور من قبل المقتدر على الصلات ، فدعى له بها يوم الجمعة لاحدى عشرة خلت من شوال ، وقدم خليفته لسبع بقين منه ، ثم قدم تكين لليلتين خلتا من ذى الحجة .

وتقدم اليه بالجد فى أمر المغرب والاحتراس منه ، فبعث جيشا الى برقة عليه أبو اليمن ، فحاربه حباسة بن يوسف بعساكر المهدى عبيد الله الفاطمى صاحب أفريقية ، واستولى على برقة ، وسار الى الاسكندرية فى زيادة على مائة ألف ، فدخلها فى المحرم سنة اثنتين وثلثمائة .

فقدمت الجيوش من العراق مددا لتكين فى صفر ، وقدم الحسين المادرانى وأحمد بن كيغلغ فى جمع من القواد ، وبرزت العساكر الى الجيزة فى جمادى الأولى ، وخرج تكين ... فكانت واقعة حباسة قتل فيها آلاف من الناس ، وعاد حباسة الى المغرب .

وقدم مؤنس الخادم من بغداد فى جيوشه للنصف من رمضان ومعه جمع من الأمراء ،

فنزل الحمراء ، ولقى الناس منهم شدائد ، وخرج ابن كيغلغ الى الشام فى رمضان .

وصرف تكين لأربع عشرة خلت من ذى القعدة ... صرفه مؤنس ، فخرج لسبع خلون من * ذى الحجة ، وأقام مؤنس يدعى ويخاطب بالأستاذ .

ثم ولى ذكا الرومى أبو الحسن الأعور من قبل المقتدر على الصلات ، فدخل لثنتى عشرة خلت من صفر سنة ثلاث وثلثمائة ، وخرج موسى بجميع جيوشه لثمان خلون من ربيع الآخر .

وخرج ذكا الى الاسكندرية فى المحرم سنة أربع وثلثمائة ، ثم عاد فى ثامن ربيع الأول ، وتتبع كل من يومأ اليه بمكاتبة المهدى صاحب أفريقية ، فسجن منهم وقطع أيدى أناس وأرجلهم ، وجلا أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية خوفا من صاحب برقة ، وسير العساكر الى الاسكندرية ، ثم فسد ما بينه وبين الرعية بسبب سب الصحابة رضى الله عنهم وسب القرآن .

وقدمت عساكر المهدى صاحب أفريقية الى لوبية ومراقية عليها أبو القاسم ، فدخل الاسكندرية ثامن صفر سنة سبع وثلثمائة ، وفر الناس من مصر الى الشام فى البر والبحر ، فهلك أكثرهم .

وأخرج ذكا الجند المخالفون له ، فعسكر بالجيزة .

وقدم أبو الحسن بن أحمد المادرانى واليا على الخراج ، فوضع العطاء .

(*) ص٣٢٧ جـ١ ، ط. بولاق .

وجد ذكا فى أمر الحرب ، واحتفر خندقا على عسكره بالجيزة . فمرض ومات لاحدى عشرة خلت من ربيع الأول بالجيزة . فكانت امرته أربع سنين وشهرا .

فولى تكين مرة ثانية من قبل المقتدر ، وقدمت جيوش العراق عليها محمود بن حمل وابراهيم بن كيغلغ فى ربيع الأول ، ودخل تكين لاحدى عشرة خلت من شعبان ، فنزل الجيزة وحفر خندقا ثانيا ، وأقبلت مراكب المغرب فظفر بها فى شوال .

وقدم مؤنس الخادم من بغداد بعساكره لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وثلثمائة ، فنزل الجيزة وكان فى نحو ثلاثة آلاف ، وسير ابن كيغلغ الى الأشمونين ، فمات بالبهنسا أول ذى القعدة .

وملك أصحاب المهدى الفيوم وجزيرة الأشمونين ، فقدم جنى الخادم من بغداد فى عسكر آخر ذى الحجة ، فعسكر بالجيزة ... فكانت حروب مع أصحاب المهدى بالفيوم والاسكندرية ، ورجع أبو القاسم بن المهدى الى برقة .

وصرف تكين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة تسع وثلثمائة .

فولى مؤنس أبا قابوس محمود بن حمل ، فأقام ثلاثة أيام وعزله ، ورد تكين لخمس بقين من ربيع الأول ، ثم صرفه بعد أربعة أيام وأخرجه الى الشام فى أربعة آلاف من أهل الديوان .

ثم ولى هلال بن بدر من قبل المقتدر على الصلات ، فدخل لست خلون من ربيع الآخر ،

وخرج مؤنس لثلاث عشرة خلت منه ومعه ابن حمل ، فشغب الجند على هلال ، وخرجوا الى منية الأصبغ ومعهم محمد بن طاهر صاحب الشرط ، فكثر النهب والقتل والفساد بمصر ، الى أن صرف عنها فى ربيع الآخر سنة احدى عشرة وثلثمائة ، وخرج فى نفر من أصحابه .

فولى أحمد بن كيغلغ من قبل المقتدر على الصلات ، وقدم ابنه أبو العباس خليفة له أول جمادى الأولى ، ثم قدم ومعه محمد بن الحسين بن عبد الوهاب الماذرائى على الخراج فى رجب ، فأحضرا الجند ووضعا العطاء ، وأسقطا كثيرا من الرجالة — وكان ذلك بمنية الأصبغ — فثار الرجالة به ، ففر الى فاقوس ، وأدخل الماذرائى الى المدينة لثمان خلون من شوال ، وأقام ابن كيغلغ بفاقوس الى أن صرف بقدوم رسول تكين فى ثالث ذى القعدة .

فولى تكين المرة الثالثة من قبل المقتدر على الصلات ، وخلفه ابن منجور الى أن قدم يوم عاشوراء سنة اثنتى عشرة وثلثمائة ، فأسقط كثيرا من الرجالة — وكانوا أهل الشر والنهب — ونادى براءة الذمة ممن أقام منهم بالفسطاط ، وصلى الجمعة فى دار الامارة بالعسكر ، وترك حضور الجمعة فى مسجد العسكر والمسجد الجامع العتيق فى سنة سبع عشرة ، ولم يصل فيه أحد من الأمراء فى دار الامارة الجمعة .

ثم قتل المقتدر فى شوال سنة عشرين ، وبويع أبو منصور القاهر بالله ، فأقر تكين حتى مات فى سادس عشر ربيع الأول سنة احدى وعشرين وثلثمائة ، فحمل الى بيت المقدس . وكانت امرته هذه تسع سنين وشهرين وخمسة أيام .

فقام ابنه محمد بن تكين موضعه ، وقام أبو بكر محمد بن على الماذرائى بأمر البلد كله ، ونظر فى أعماله ، فشغب الجند عليه فى طلب أرزاقهم ، وأحرقوا دوره ودور أهله .

فخرج ابن تكين الى منية الأصبغ ، فبعث اليه الماذرائى يأمره بالخروج من أرض مصر ، وعسكر بباب المدينة وأقام هناك بعد ما رحل ابن تكين الى سلخ ربيع الأول ، فلحق ابن تكين بدمشق ، ثم أقبل يريد مصر فمنعه الماذرائى .

ثم ولى محمد بن طغج بن جف الفرغانى أبو بكر ، من قبل القاهر بالله ، على الصلات . فورد كتابه لسبع خلون من رمضان سنة احدى وعشرين ، ودعى له وهو بدمشق مدة اثنين وثلاثين يوما ... الى أن قدم رسول أحمد بن كيغلغ بولايته الثانية من قبل القاهر بالله لتسع خلون من شوال ، واستخلف أبا الفتح بن عيسى النوشرى .

فشغب الجند فى أرزاقهم على الماذرائى صاحب الخراج ، فاستتر منهم ، فأحرقوا دوره ودور أهله ، وكانت فتن قتل فيها جماعة ... الى أن أتاهم محمد بن تكين من فلسطين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة اثنتين * وعشرين .

فأنكر الماذرائى ولايته ، وتعصب له طائفة ، ودعى له بالامارة ، وخرج قوم الى الصعيد فيهم ابن النوشرى ، فأمروه عليهم وهم على

(*) ص ٣٢٨ جـ١ ، ط بولاق .

الدعاء لابن كيغلغ ، فنزل منية الأصبغ لثلاث خلون من رجب ، فلحق به كثير من أصحاب تكين ، ففر ابن تكين ليلا ، ودخل ابن كيغلغ المدينة لست خلون منه . وكان مقام ابن تكين بالفسطاط مائة يوم واثنى عشر يوما .

وخلع القاهر ، وبويع أبو العباس الراضى بالله ، فعاد ابن تكين وأظهر أن الراضى ولاه . فخرج اليه العسكر وحاربوه فيما بين بلبيس وفاقوس ، فانهزم وجيء به الى المدينة ، فحمل الى الصعيد .

فورد الخبر بأن محمد بن طغج سار الى مصر بولاية الراضى له ، فبعث اليه ابن كيغلغ بجيش ليمنعوه من دخول الفرما ، فأقبلت مراكب ابن طغج الى تنيس ، وسارت مقدمته فى البر ، وكانت بينهما حروب فى تاسع عشر شعبان سنة ثلاث وعشرين كانت لأصحاب ابن طغج ، وأقبلت مراكبه الى الفسطاط سلخ شعبان ، وأقبل فعسكر ابن كيغلغ للنصف من رمضان ، ولاقاه لسبع بقين منه ، فسلم ابن كيغلغ الى محمد بن طغج من غير قتال .

وولى محمد بن طغج الثانية من قبل الراضى على الصلات والخراج ، فدخل لست بقين من رمضان ، وقدم أبو الفتح الفضل بن جعفر ابن محمد بن فرات بالخلع لمحمد بن طغج . وكانت حروب مع أصحاب ابن كيغلغ انهزموا منها الى برقة ، وساروا الى القائم بأمر الله محمد بن المهدى بالمغرب ، فحرضوه على أخذ مصر ، فجهز جيشا سار الى مصر ، فبعث ابن طغج عسكره الى الاسكندرية والصعيد .

ثم ورد الكتاب من بغداد بالزيادة فى اسم الأمير محمد بن طغج ، فلقب الاخشيد ودعى له بذلك على المنبر فى رمضان سنة سبع وعشرين .

وسار محمد بن رائق الى الشامات ، ثم سار فى المحرم سنة ثمان وعشرين ، واستخلف أخاه الحسن بن طغج ، فنزل الفرما وابن رائق بالرملة ، فسفر بينهما الحسن بن طاهر بن يحيى العلوى فى الصلح حتى تم ، وعاد الى الفسطاط مستهل جمادى الأولى .

ثم أقبل ابن رائق من دمشق فى شعبان ، فسير اليه الاخشيد الجيوش ، ثم خرج لست عشرة خلت من شعبان ، والتقيا للنصف من رمضان بالعريش ... فكانت بينهما وقعة عظيمة انكسرت فيها ميسرة الاخشيد ، ثم حمل بنفسه فهزم أصحاب ابن رائق ، وأسر كثيرا منهم ، وأثخنهم قتلا وأسرا .

ومضى ابن رائق فقتل الحسين بن طغج باللجون ، ودخل الاخشيد الرملة بخمسمائة أسير ، فتداعى ابن طغج وابن رائق الى الصلح ، فمضى ابن رائق الى دمشق على صلح ، وقدم الاخشيد محمد بن طغج الى مصر لثلاث خلون من المحرم سنة تسع وعشرين .

ومات الراضى بالله ، وبويع المتقى لله ابراهيم فى شعبان ، فأقر الاخشيد ، وقتل محمد بن رائق بالموصل ، قتله بنو حمدان فى شعبان سنة ثلاثين وثلثمائة ، فبعث الاخشيد بجيوشه الى الشام ، ثم سار لست خلون من شوال ، واستخلف أخاه أبا المظفر الحسن ابن طغج ، ودخل دمشق .

ثم عاد لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة احدى وثلاثين ، فنزل البستان الذى يعرف اليوم بالكافورى من القاهرة ، ثم دخل داره وأخذ البيعة لابنه أبى القاسم أونوجور على جميع القواد آخر ذى القعدة .

وسار المتقى لله الى بلاد الشام ومعه بنو حمدان ، فسار الاخشيد لثمان خلون من رجب سنة اثنتين وثلاثين ، واستخلف أخاه الحسن ، فلقى المتقى ، ثم رجع فنزل البستان لأربع خلون من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين .

وخلع المتقى ، وبويع عبد الله المستكفى لسبع خلون من جمادى الآخرة ، فأقر الاخشيد .

وبعث الاخشيد بحانك وكافور فى الجيوش الى الشام ، ثم خرج لخمس خلون من شعبان سنة ست وثلاثين ، واستخلف أخاه الحسن . فلقى على بن عبد الله بن حمدان بأرض قنسرين وحاربه ، ومضى فأخذ منه حلب .

وخلع المستكفى ، ودعى للمطيع لله الفضل ابن جعفر فى شوال سنة أربع وثلاثين ، فأقر الاخشيد الى أن مات بدمشق يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجة .

فولى بعده ابنه أونوجور أبو القاسم باستخلافه اياه ، وقبض على أبى بكر محمد ابن على بن مقاتل فى ثالث المحرم سنة خمس وثلاثين ، وجعل مكانه على الخراج محمد بن على المادرانى ، وقدم العسكر من الشام أول صفر .

فلم يزل أونوجور واليا الى أن مات لسبع خلون من ذى القعدة سنة سبع وأربعين وثلثمائة ، وحمل الى القدس فدفن عند أبيه .

وكان كافور متحكما فى أيامه ، ويطلق له فى السنة أربعمائة ألف دينار ، فلما مات قوى كافور ... وكانت ولايته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر .

فأقام كافور أخاه على بن الاخشيد أبا الحسن لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة ، فأقره المطيع لله على الحرب والخراج بمصر والشام والحرمين ، وصار خليفته على ذلك كافور غلام أبيه ، وأطلق له ما كان يطلق لأخيه فى كل سنة .

وفى سنة احدى وخمسين ترفع السعر ، واضطربت الاسكندرية والبحيرة بسبب المغاربة الواردين اليها ، وتزايد الغلاء ، وعز وجود القمح .

وقدم القرمطى الى الشام فى سنة ثلاث وخمسين ، وقل ماء النيل ، ونهبت ضياع مصر ، وتزايد الغلاء .

وسار * ملك النوبة الى أسوان ، ووصل الى اخميم ، فقتل ونهب وأحرق ، واشتد اضطراب الأعمال .

وفسد ما بين كافور وبين على بن الاخشيد ، فمنع كافور من الاجتماع به ، واعتل على بعد ذلك علة أخيه ، ومات لاحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، فحمل الى القدس .

(*) ص٢٢٩ جـ١ ، ط. بولاق .

وبقيت مصر بغير أمير أياما ، ولم يدع بها الا للمطيع لله وحده ، وكافور يدبر أمورها ومعه أبو الفضل جعفر بن الفرات .

ثم ولى كافور الخصى الأسود مولى الاخشيد ، من قبل المطيع ، على الحرب والخراج وجميع أمور مصر والشام والحرمين . فلم يغير لقبه ، وانما كان يدعى ويخاطب بالأستاذ ، وأخرج كتاب المطيع بولايته لأربع بقين من المحرم سنة خمس وخمسين ، فلم يزل الى أن توفى لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة .

فولى أحمد بن على الاخشيد أبو الفوارس وسنه احدى عشرة سنة ، فى يوم وفاة كافور ، وجعل الحسين بن عبيد الله بن طغج يخلفه ، وأبو الفضل جعفر بن الفرات يدبر الأمور ، وسمول الاخشيدى العساكر .

الى أن قدم جوهر القائد من المغرب بجيوش المعز لدين الله فى سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، ففر الحسين بن عبيد الله ، وتسلم جوهر البلاد كما سيأتى ان شاء الله تعالى .

فكانت مدة الدعاء لبنى العباس بمصر ، منذ ابتدئت دولتهم الى أن قدم القائد جوهر الى مصر ، مائتى سنة وخمسا وعشرين سنة . ومدة الدولة الاخشيدية بها أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما . ومنذ افتتحت مصر الى أن انتقل كرسى الامارة منها الى القاهرة ثلثمائة سنة وسبع وثلاثون سنة وأشهر . والله تعالى أعلم .

ذكر ما كانت عليه مدينة الفسطاط من كثرة العمارة

قال ابن يونس ، عن الليث بن سعد : ان حكيم بن أبى راشد حدثه ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، أنه وقف على جزار فسأله عن السعر ، فقال : بأربعة أفلس الرطل .

فقال له أبو سلمة : هل لك أن تعطينا بهذا السعر ما بدا لنا وبدا لك ؟

قال : نعم .

فأخذ منه أبو سلمة ، ومر فى القصبة حتى اذا أراد أن يوفيه ، قال : بعتنى بدينار ، ثم قال : اصرفه فلوسا ثم وفه .

وقال الشريف أبو عبد الله محمد بن أسعد الجوانى النسابة فى كتاب « النقط على الخطط » : سمعت الأمير تأييد الدولة تميم ابن محمد ، المعروف بالضمضام ، يقول فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة : وحدثنى القاضى أبو الحسين على بن الحسين الخلعى ، عن القاضى أبى عبد الله القضاعى ، قال : كان فى مصر الفسطاط من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد ، وثمانية آلاف شارع مسلوك ، وألف ومائة وسبعون حماما ، وان حمام جنادة فى القرافة ما كان يتوصل اليها الا بعد عناء من الزحام ، وان قبالتها فى كل يوم جمعة خمسمائة درهم .

وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى فى كتاب « الخطط » : انه طلب لقطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون ألف تكة بعشرة آلاف دينار ، من أثمان كل

تكة بعشرة دنانير ، فوجدت فى السوق فى أيسر وقت وأهون سعى .

وذكر عن القاضى أبى عبيد أنه لما صرف عن قضاء مصر ، كان فى المودع مائة ألف دينار ، وأن فائقا مولى أحمد بن طولون اشترى دارا بعشرين ألف دينار ، وسلم الثمن الى البائعين وأجلهم شهرين .

فلما انقضى الأجل ، سمع فائق صياحا عظيما وبكاء ، فسأل عن ذلك ، فقيل هم الذين باعوا الدار ، فدعاهم وسألهم عن ذلك ، فقالوا : انما نبكى على جوارك .

فأطرق وأمر بالكتب فردت عليهم ، ووهب لهم الثمن ، وركب الى أحمد بن طولون فأخبره ، فاستصوب رأيه واستحسن فعله .

ويقال انه كان لفائق ثلثمائة فرشة ، كل فرشة لحظية منشة .

وان دار الحرم بناها خمارويه لحرمه ، وكان أبوه اشتراها له ، فقام عليه الثمن وأجرة الصناع والبناء بسبعمائة ألف دينار .

وان عبد الله بن أحمد بن طباطبا الحسينى دخل الجامع ، فلم يجد مكانا فى الصف الأول ، فوقف فى الصف الثانى ، فالتفت أبو حفص بن الجلاب ، فلما رآه تأخر ، وتقدم الشريف مكانه ، فكافأه على ذلك بنعمة حملها اليه ودار ابتاعها له ، ونقل أهله اليها بعد أن كساهم وحلاهم .

وذكر غير القضاعى أنه دفع اليه خمسمائة دينار ... قال : ويقال انه أهدى الى أبى جعفر الطحاوى كتبا قيمتها ألف دينار .

وان رشيقا الاخشيدى استحجبه أبو بكر محمد بن على المادرائى ، فلما مضت عليه سنة رفع فيه أنه كسب عشرة آلاف دينار ، فخاطبه فى ذلك ، فحلف بالأيمان المغلظة على بطلان ذلك ، فأقسم أبو بكر المادرائى بمثل ما أقسم به : لئن خرجت سنتنا هذه ولم تكسب هذه الجملة ، لا صحبتنى !

ولم يزل فى صحبته الى أن صودر أبو بكر ، فأخذ منه ومن رشيق مال جزيل .

وذكر أن الحسن بن أبى المهاجر ، موسى ابن اسماعيل بن عبد الحميد بن بحر بن سعد ، كان * على البريد فى زمن أحمد بن طولون وقتله خمارويه . وسبب ذلك ما كان فى نفس على بن أحمد المادرائى منه ، فأغرى خمارويه به ، وقال : قد بقى لأبيك مال غير الذى ذكره فى وصيته ، ولم يقف عليه غير ابن مهاجر ، فطالبه .

فلم يزل خمارويه بابن مهاجر الى أن وصف له موضع المال من دار خمارويه ، فأخرج فكان مبلغه ألف ألف دينار ، فسلمه الى أحمد المادرائى ، فحمله الى داره .

وأقبلت توقيعات خمارويه ترد اليه بالصلات والنفقات ، فيخرجها من فضول أموال الضياع والمرافق ، وحصلت له تلك الأموال ، ولم يضع يده عليها الى أن قتل .

وصودر أبو بكر محمد بن على فى أيام الاخشيد وقبضت ضياعه ، فعاد الى تلك الألف ألف دينار مع ما سواها من ذخائره وأعراضه وعقده ... فما ظنك برجل ذخيرته ألف ألف دينار !

(*) ص ٢٢٠ جـ١ ، ط. بولاق .

سوى ما ذكر عن أبى بكر محمد بن على المادرائى أنه قال : بعث الى أبو الجيش خمارويه أن اشترى له أردية وأقنعة للجوارى ، وعمل دعوة خلا فيها بنفسه وبهم ، وغدوت متعرفا لخبره ، فقيل لى انه طرب لما هو فيه ، فنثر دنانير على الجوارى والغلمان ، وتقدّم اليهم أن ما سقط من ذلك فى البركة فهو لمحمد بن على كاتبى . فلما حضرت وبلغنى ذلك ، أمرت الغلمان فنزلوا فى البركة ، فأصعدوا الىّ منها سبعين ألف دينار ... فما ظنك بمال نثر على أناس فتطاير منه الى بركة ماء هذا المبلغ !

وقال ابن سعيد فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » : وفى الفسطاط دار ، تعرف بعبيد العزيز ، يصب فيها لمن بها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء ... وحسبك من دار واحدة يحتاج أهلها فى كل يوم الى هذا القدر من الماء !

وقال ابن المتوج فى كتاب « ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » عن ساحل مصر : ورأيت من نقل عمن نقل عمن رأى الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على النيل ، وكان عددها ستة عشر ألف سطل مؤبدة ببكر وأطناب بها ترخى وتملأ ... أخبرنى بذلك من أثق بنقله .

قال : وكان بالفسطاط فى جهته الشرقية حمام من بناء الروم عامرة زمن أحمد بن طولون ... قال الراوى : دخلتها فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون ، وطلبت بها صانعا يخدمنى ، فلم أجد فيها صانعا متفرغا لخدمتى ، وقيل لى ان كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة .

فسألت : كم فيها من صانع ؟

فأخبرت أن بها سبعين صانعا قلّ من معه دون ثلاثة ، سوى من قضى حاجته وخرج .

قال : فخرجت ولم أدخلها لعدم من يخدمنى بها ، ثم طفت غيرها ، فلم أقدر على من أجده فارغا الا بعد أربع حمامات ، وكان الذى خدمنى فيها نائبا .

فانظر — رحمك الله — ما اشتمل عليه هذا الخبر ، مع ما ذكره القضاعى من عدد الحمامات وأنها ألف ومائة وسبعون حماما ، تعرف من ذلك كثرة ما كان بمصر من الناس ... هذا والسعر راخ ، والقمح كل خمسة أرادب بدينار ، وبيعت عشرة أرادب بدينار فى زمن أحمد بن طولون .

قال ابن المتوج : خطة مسجد عبد الله أدركت بها آثار دار عظيمة قيل انها كانت دار كافور الأخشيدى ، ويقال ان هذه الخطة تعرف بسوق العسكر ، وكان به مسجد الزكاة ، وقيل انه كان منه قصبة سوق متصلة الى جامع أحمد بن طولون .

وأخبرنى بعض المشايخ العدول عن والده — وكان من أكابر الصلحاء — أنه قال : عددت من مسجد عبد الله الى جامع ابن طولون ثلثمائة وتسعين قدر حمص مصلوق بقصبة هذا السوق بالأرض ، سوى المقاعد والحوانيت التى بها الحمص .

فتأمل — أعزك الله — ما فى هذا الخبر مما يدل على عظمة مصر ، فان هذا السوق كان خارج مدينة الفسطاط ، وموضعه اليوم الفضاء الذى بين كوم الجارح وبين جامع ابن طولون .

ومن المعروف أن الأسواق التى تكون بداخل المدينة أعظم من الأسواق التى هى خارجها ، ومع ذلك ففى هذا السوق من صنف واحد من المآكل هذا القدر ، فكم ترى تكون جملة ما فيه من سائر أصناف المآكل ، وقد كان اذ ذاك بمصر عشرة أسواق كلها أو أكثرها أجل من هذا السوق ؟!

قال : ودرب السفافير بنى فيه زقاق بنى الرصاص ، كان به جماعة اذا عقد عندهم عقد لا يحتاجون الى غريب ، وكانوا هم وأولادهم نحوا من أربعين نفسا .

وقال ابن زولاق فى كتاب « سيرة المادرانيين » : ولما قدم الأستاذ مؤنس الخادم من بغداد الى مصر ، استدعى أبو على الحسين ابن أحمد المادرانى ، المعروف بأبى زنبور ، الدقاقَ — وهو الذى نسميه اليوم الطحان — وقال : ان الأستاذ مؤنسا قد وافى ، ولى بشتول قدر ستين ألف اردب قمحا ، فاذا وافى فقم له بالوظيفة .

فكان يقوم له بما يحتاج اليه من دقيق حُشْوارى مدة شهر . فلما كمل الشهر ، قال كاتب مؤنس للدقاق : كم لك حتى ندفعه اليك ؟

فأعلمه الخبر ، فقال : ما أحسب الأستاذ يرضى أن يكون فى ضيافة أبى على .

وأعلم مؤنسا بذلك ، فقال : أنا آكل خبز حسين ! لا يبرح الرجل حتى يقبض ماله .

فمضى الدقاق وأعلم أبا زنبور ، فقام من فوره الى مؤنس فأكب على رجليه ، فاحتشم منه وقال : والله لا أجيبك الا هذا الشهر الذى مضى ، ولا تعاود .

ثم رجع فقال للدقاق : قم له بالوظيفة فى المستقبل ، واعمل ما يريده .

قال : فجئته وقد فرغ القمح ، ومعى الحساب وأربعمائة دينار .

قال : ايش هذا ؟

فقلت : بقية ذلك القمح * .

فقال : أعفنى منه ... وتركه .

فتأمل ما اشتمل عليه هذا الخبر من سعة حال كاتب من كتاب مصر ، كيف كان له فى قرية واحدة هذا القدر من صنف القمح ، وكيف صار مما يفضل عنه حتى يجعله ضيافة ، وكيف لم يعبأ بأربعمائة دينار حتى وهبها لدقاق قمح . وما ذاك الا من كثرة المعاش ، وقس عليه باقى الأحوال .

وقال عن أبى بكر محمد بن على المادرانى : انه حج اثنتين وعشرين حجة متوالية ، أنفق فى كل حجة مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار ، وانه كان يخرج معه بتسعين ناقة لقبته التى يركبها ، وأربعمائة لجهازه وميرته ، ومعه المحامل فيها أحواض البقل وأحواض الرياحين وكلاب الصيد ، وينفق على الأشراف وأولاد الصحابة ولهم عنده ديوان بأسمائهم ، وانه أنفق فى خمس حجات أخر ألفى ألف دينار ومائتى ألف دينار .

وكانت جاريته تواصل معه الحج ، ومعها لنفسها ثلاثون ناقة لقبتها ، ومائة وخمسون عربيا لجهازها .

(*) ص٣٢١ جـ١ ، ط. بولاق .

وأحصى ما يعطيه كل شهر لحاشيته وأهل الستر وذوى الأقدار ، جراية من الدقيق الحشوارى ، فكان بضعا وثمانين ألف رطل.

وكان سنة القرمطى بمكة ، فمن جملة ما ذهب له به مائتا قميص ديبقى ، ثمن كل ثوب منها خمسون دينارا .

وقال مرة وهو فى عطلته : أخذ منى محمد ابن طغج الاخشيد عينا وعرضا يبلغ ألفا وثمانين ويبة دنانير .

فاستعظم من حضر ذلك ، فقال ابنه : الذى أخذ أكثر ، وأنا أوقفه عليه .

ثم قال لأبيه : يامولاى ، أليس نكبت ثلاث مرات ؟

قال : بلى .

قال : أليس أخذت ضياعك بالشام ؟

قال : نعم .

قال : فكم ثمنها ؟

قال : ألف ألف دينار .

قال : وضياعك بمصر

قال : قريب منها .

قال : وعرض وعين ؟

قال : كذلك .

فأمر بعض الحساب بضبط ذلك ، فجاء ما ينيف عن ثلاثين اردبا من ذهب

فانظر ما تضمنته أخبار المادرانى ، وقس عليها بقية أحوال مصر ، فما كان سوى كاتب الخراج وهذه أمواله كما قد رأيت .

وقال الشريف الجوانى : ان أبا عبد الله محمد بن مفسر قاضى مصر سمع بأن المادرانى عمل فى أيامه الكعك المحشو بالسكر ، والقرص الصغار المسمى « افطن له » ... فأمرهم بعمل الفستق الملبس بالسكر الأبيض الفانيد المطيب بالمسك ، وعمل منه فى أول الحال أشياء عوض لبه لب ذهب فى صحن واحد ، فمضى عليه جملة ، وخطف قدامه ، تخاطفه الحاضرون ، ولم يعد لعمله بل الفستق الملبس .

وكان قد سمع فى سيرة المادرانيين أنه عمل له هذا « الافطن له » وفى كل واحدة خمسة دنانير ، ووقف أستاذ على السماط فقال لأحد الجلساء : افطن له .

وكان عمل على السماط عدة صحون من ذلك الجنس ، لكن ما فيه الدنانير صحن واحد ، فلما رمز الأستاذ لذلك الرجل بقوله « افطن له » وأشار الى الصحن ، تناول ذلك الرجل منه ، فأصاب الذهب واعتمد عليه فحصل له جملة ، ورآه الناس وهو اذا أكل يخرج من فمه ويجمع بيده ويحط فى حجره ، فتنبهوا له وتزاحموا عليه ، فقيل لذلك من يومئذ « افطن له » .

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى « تاريخ مصر » : حدثنى بعض أصحابنا بتفسير رؤيا رآها غلام ابن عقيل الخشاب عجيبة ، فكانت حقا كما فسرت ، فسألت غلام ابن عقيل عنها .

فقال لى : أنا أخبرك ... كان أبى فى سوق الخشابين ، فأنفق بضاعته وورث حاله ومات ، فأسلمتنى أمى الى ابن عقيل — وكان صديقا لأبى — فكنت أخدمه ، وأفتح حانوته

واكسها ، لم أفرش له ما يجلس عليه ، فكان يجرى على رزقا أتقوت به ...

فانى يوما فى الحانوت وقد جلس أستاذى ابن عقيل ، فجاء ابن العسال مع رجل من أهل الريف يطلب عود خشب لطاحونة ، فاشترى من ابن عقيل عود طاحونة بخمسة دنانير . فسمعت قوما من أهل السوق يقولون : هذا ابن العسال المفسر للرؤيا عند ابن عقيل ، فجاء منهم قوم وقصوا عليه منامات رأوها ، ففسرها لهم .

فذكرت رؤيا رأيتها فى ليلتى ، فقلت له : انى رأيت البارحة فى نومى كذا وكذا ... فقصصت عليه الرؤيا .

فقال لى : أى وقت رأيتها من الليل ؟

فقلت : انتبهت بعد رؤياى فى وقت كذا .

فقال لى : هذه رؤيا لست أفسرها الا بدنانير كثيرة .

فألححت عليه ، فقال أستاذى ابن عقيل : فرّج عنه ، هذا غلام صغير فقير لا يملك شيئا .

فقال : لست آخذ الا عشرين دينارا .

فقال له ابن عقيل : ان قربت علينا وزنت أنا لك ذلك من عندى .

فلم يزل به ينزله حتى قال : والله لا آخذ أقل من ثمن العود الخشب : خمسة دنانير .

فقال له ابن عقيل : ان صحت الرؤيا دفعت اليك العود بلا ثمن .

فقال له : يأخذ مثل هذا اليوم ألف دينار .

قال أستاذى : فاذا لم يصح هذا ؟

فقال : يكون العود عندك الى مثل هذا اليوم ، فان كان لم يصح أخذ ما قلت له فى ذلك اليوم فليس لى عندك شىء ، ولا أفسر رؤيا أبدا .

فقال له أستاذى : قد أنصفت .

ومضت الجمعة ، فلما كان مثل ذلك اليوم غدوت مثل ما كنت أغدو الى دكان أستاذى ، ففتحتها ورششتها ، واستلقيت على ظهرى أفكر فيما قال لى ، ومن أين يمكن أن يصير الى ألف دينار ، فقلت : لعل سقف المكان ينفرج فيسقط منه هذا المال ، وجعلت أجيل فكرى ...

وانى كذلك الى ضحى ، اذ وقف على جماعة من أعوان الخراج معهم ناس ، فقالوا : هذه دكان ابن عقيل ، ثم قالوا لى : قم .

فقلت لهم : لست * ابن عقيل ، أنا غلامه .

فقالوا : بل أنت ابنه ، وجبذونى فأخرجونى من الدكان .

فقلت : الى أين ؟

فقالوا : الى ديوان الأستاذ أبى على الحسين ابن أحمد (يعنون أبا زنبور) .

فقلت : وما يصنع بى ؟

فقالوا : اذا جئت سمعت كلامه وما يريده منك .

وكنت بعقب علة ضعيف البدن ، فقلت : ما أقدر أمشى .

فقالوا : اكر حمارا تركبه .

ولم يكن معى ما أكترى به حمارا ، فنزعت تكة سراويلى من وسطى ودفعتها على درهمين

(*) ص٣٢٢ جـ١ ، ط. بولاق .

لمن أكرانى الحمار ، ومضيت معهم فجاءوا بى الى دار أبى زنبور ، فلما دخلت قال لى : أنت ابن عقيل ؟

فقلت : لا ياسيدى ، أنا غلام فى حانوته .

قال : أفليس تبصر قيمة الخشب ؟

قلت : بلى .

قال : فاذهب مع هؤلاء فقوّم لنا هذا الخشب ، فانظر بحيث لا يزيد ولا ينقص

فمضيت معهم ، فجاءوا بى الى شط البحر الى خشب كثير من أثل وسنط جاف ، وغير ذلك مما يصلح لبناء المراكب ، فقومته تقويم جزع حتى بلغت قيمته ألفى دينار .

فقالوا لى : انظر هذا الموضع الآخر فيه من الخشب أيضا .

فنظرت فاذا هو أكثر مما قومت بنحو مرتين ، فأعجلونى ولم أضبط قيمة الخشب .

فردونى الى أبى زنبور ، فقال لى : قومت الخشب كما أمرتك ؟

ففزعت ، فقلت : نعم .

فقال : هات كم قومته ؟

فقلت : ألفا دينار .

فقال : انظر لا تغلط .

فقلت : هو قيمته عندى .

فقال لى : فخذه أنت بألفى دينار .

فقلت : أنا فقير لا أملك دينارا واحدا ، فكيف لى بقيمته ؟

قال : ألست تحسن تدبيره وتبيعه ؟

فقلت : بلى .

قال : فدبره وبعه ، ونحن نصبر عليك بالثمن الى أن تبيع شيئا شيئا وتؤدى ثمنه .

فقلت : أفعل .

فأمر بكتاب يكتب علىّ فى الديوان بالمال ، فكتب على ، ورجعت الى الشط أعرف عدد الخشب ، وأوصى به الحراس .

فوافيت جماعة أهل سوقنا وشيوخهم قد أتوا الى موضع الخشب ، فقالوا لى : ايش صنعت ، قومت الخشب ؟

قلت : نعم .

قالوا : بكم قومته ؟

فقلت : بألفى دينار .

فقالوا لى : وأنت تحسن تقوم ! لا يساوى هذا هذه القيمة .

فقلت لهم : قد كتب على كتاب فى الديوان وهو عندى يساوى أضعاف هذا .

فقالوا لى : اسكت لا يسمعك أحد .

وكانوا قد قوموه قبلى لأبى زنبور بألف دينار ، فقال بعضهم لبعض : أعطوا هذا ربحه وتسلموه أنتم ... فقال قائل : أعطوه ربحه خمسمائة دينار .

فقلت : لا ، والله لا آخذ .

فقالوا : قد رأى رؤيا فزيدوه .

فقلت : لا ، والله لا آخذ أقل من ألف دينار .

قالوا : فلك ألف دينار ، فحوّل اسمك من الديوان نعطك اذا بعنا ألف دينار .

فقلت : لا والله لا أفعل حتى آخذ الألف دينار فى وقتى هذا .

فمضوا الى حوانيتهم والى منازلهم حتى جاءونى بألف دينار ، فقلت : لا آخـذها الا بنقد الصيرفى وميزانه

فمضيت معهم الى صـيرفى الناحيـة حتى وزنوا عنده الألف دينار ، ونقدتها وأخذتهـا فشددتها فى طرف ردائى ، ومضيت معهم الى الديوان ، وحولت أسـماءهم مكان اسمى ، ووفوا حق الديوان من عندهم .

ورجعت وقت الظهر الى أستاذى فقال لى : قبضت ألف دينار منهم ؟

فقلت : نعم ، ببركتك ... وتركت الدنانير بين يديه ، وقلت له : يا أستاذ خذ ثمن العود الخشب .

فقال : لا والله لا آخذ منك شيئا ، أنت عندى مقام ابنى .

وجاء فى الوقت ابن العـسال ، فدفع اليـه أستاذى العود الخشب ، فمضى ... فهذا خبر رؤياى وتفسيرها

فتأمل — أعزك الله — ما يشـتمل عليه من عظم ما كانت عليه مصر ، وسعة حال الديوان ، وكيف فضل فيـه خشب يسـاوى آلافا من الذهب ... ونحن اليوم فى زمن اذا احتيج فيه الى عمارة شىء من الأماكن السلطانية بخشب أو غيره ، أخذ من النـاس اما بغير ثمن أو بأخس القيم ، مع ما يصيب مالكه من الخوف والخسارة للأعوان .

وكيف لما قوم هـذا الخشب ، لم يكلف المشترى دفع المال فى الحال ... وفى زمننا اذا طرحت البضاعة السلطانية على الباعة يكلفون حمل ثمنها بالسرعة ، حتى ان فيهم من يبيعها بأقل من نصف ما اشتراها به ، ويكمل الثمن اما من ماله أو يقترضه بربح

وكيف لما علم اهل السوق أن الخشب بيع بدون القيمـة ، لم يمضـوا الى الديوان . ويدفعون فيه زيادة : اما لقلة شره النـاس اذ ذاك وتركهم الأخلاق الرذيلة من الحسـد ونحوه ، أو لعلمهم بعـدل السلطان وأنه لا ينكث ما عقده ... وفى زمننا لو ادعى عدو على عدوه أن البضاعة التى كان اشتراها من الديوان قيمتها أكثر مما أخذها به ، لقبل قوله وغـرم زيادة على ما ادعاه عـدوه من قلة القيمة جملة أخرى

لا جرم أنه تظاهر سفهاء الناس بكل رذيلة وذميمة من الأخلاق ، فان الملك سوق يجبى اليه ما نفق به .

وكيف لما علم ابن عقيل أن غلامه استفاد على اسمه ألف دينار ، لم يشره الى أخذها ، بل دفع عنه خمسة الدنانير . وما ذلك الا من انتشار الخير فى الناس ، وكثرة أموالهم ، وسعة حال كل أحد بحسبه ، وطيب نفوس الكافة ... ولعمرى لو سمع فى زمننا أحد من الأمراء والوزراء — فضلا عن الباعة — أن غلاما من غلمانه أخذ على اسمه عشر هـذا المبلغ ، لقامت قيامته

وكيف اتسعت أحوال الخشابين حتى وزنوا ألف دينار فى ساعة ... وانه ليعسر اليوم على الخشابين أن يزنوا فى يوم مائة دينار .

وهذا كله من وفور غنى النـاس بمصر ، وعظم أمرهم ، وكثرة سعاداتهم .

وكان * الفسطاط نحو ثلث بغداد — ومقداره فرسخ — على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ، وكانت مساكن أهلها خمس طبقات وستا وسبعا ، وربما سكن فى الدار الواحدة المائتان من الناس .

وكان فيه دار عبد العزيز بن مروان يصب فيها لمن فيها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء ، وكان فيها خمسة مساجد وحمامان وعدة أفران يخبز بها عجين أهلها .

وقد قال أبو داود فى كتاب « السنن » : شبرت قثاءة بمصر ثلاثة عشر شبرا ، ورأيت أترجة على بعير قطعتين : قطعت وصيرت على مثل عدلين ... ذكره فى باب صدقة الزرع من كتاب الزكاة .

قلت : وقد ذكر أن هذا كان فى جنان بنى سنان البصرى خارج مدينة الفسطاط ، وكانت بحيث لم ير أبدع منها .

فلما قدم أمير المؤمنين عبد الله المأمون بن هارون الرشيد مصر سنة سبع عشرة ومائتين ، رأى جنان بنى سنان هذه ، فأعجب بها وسأل ابراهيم بن سنان : كم عليه من الخراج لجنانه ؟

فذكر أنه يحمل الى الديوان فى كل سنة عشرين ألف دينار .

فقال المأمون : وكم ترد عليك هذه الجنان ؟

قال : لا أستطيع حصره ، الا أن ما زاد على مائة ألف دينار أتصدق به ولو درهما .

هذا وله ولد اسمه أحمد بن ابراهيم بن سنان يوصف بعلم وزهد . والله تعالى أعلم .

(*) ص٣٢٢ جـ١ ، ط ٠ بولاق

ذكر الآثار الواردة فى خراب مصر

روى قاسم بن أصبغ ، عن كعب الأحبار ، قال : الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية ، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة ، والكوفة آمنـة من الخراب حتى تكون الملحمة ، ولا يخرج الدجال حتى تفتح القسطنطينية .

وعن وهب بن منبه أنه قال : الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية ، وأرمينية آمنة من الخراب حتى تخرب مصر ، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الكوفة ، ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة ، فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت القسطنطينية على يدى رجل من بنى هاشم .

وخراب الأندلس من قبل الزنج ، وخراب أفريقية من قبل الأندلس ، وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها ، وخراب العراق من قبل الجوع والسيف ، وخراب الكوفة من قبل عدو من ورائهم يخفرهم حتى لا يستطيعوا أن يشربوا من الفرات قطرة ، وخراب البصرة من قبل العراق ، وخراب الأبلة من قبل عدو يخفرهم مرة برا ومرة بحرا ، وخراب الرى من قبل الديلم ، وخراب خراسان من قبل التبت ، وخراب التبت من قبل الصين ، وخراب الصين من قبل الهند ، وخراب اليمن من قبل الجراد والسلطان ، وخراب مكة من قبل الحبشة ، وخراب المدينة من قبل الجوع .

وفى رواية : وخراب أرمينيه من قبل الرجف والصواعق ، وخراب الأندلس وخراب الجزيرة من سنابك الخيل واختلاف الجيوش .

وعن عبد الله بن الصامت قال : ان أسرع الأرضين خرابا البصرة ومصر .

فقيل له : وما يخربهما وفيهما عيون الرجال والأموال ؟

فقال : يخربهما القتل الأحمر والجوع الأغبر ... كأنى بالبصرة كأنها نعامة جاثمة ، وأما مصر فان نيلها ينضب (أو قال ييبس) فيكون ذلك خرابها .

وعن الأوزاعى : اذا دخل أصحاب الرايات الصفر مصر ، فلتحفر أهل الشام أسرابا تحت الأرض .

وعن كعب : علامة خروج المهدى ألوية تقبل من قبل المغرب عليها رجل من كندة أعرج ، فاذا ظهر أهل المغرب على مصر ، فبطن الأرض يومئذ خير لأهل الشام .

وعن سفيان الثورى قال : يخرج عنق من البربر ، فويل لأهل مصر .

وقال ابن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن مولى لشرحبيل بن حسنة — أو لعمرو بن العاص — قال : سمعته يوما واستقبلنا فقال : ايها لك مصر اذا رميت بالقسى الأربع : قوس الأندلس ، وقوس الحبشة ، وقوس الترك ، وقوس الروم .

وعن قاسم بن أصبغ ، حدثنا أحمد بن زهير ، حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا ضمرة عن الشيبانى قال : تهلك مصر غرقا أو حرقا .

وعن عبد الله بن مغلا أنه قال لابنته : اذا بلغك أن الاسكندرية قد فتحت ، فان كان خمارك بالمغرب فلا تأخذيه حتى تلحقى بالمشرق .

وذكر مقاتل بن حيان عن عكرمة ، عن ابن عباس يرفعه ، قال : أنزل الله تعالى من الجنة الى الأرض خمسة أنهار : سيحون وهو نهر الهند ، وجيحون وهو نهر بلخ ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق ، والنيل وهو نهر مصر ... أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة ، من أسفل درجة من درجاتها ، على جناحى جبريل عليه السلام ، واستودعها الجبال ، وأجراها فى الأرض ، وجعل فيها منافع للناس فى أصناف معايشهم ، وذلك قوله عز وجل « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض » .

فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج ، أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام ، فرفع من الأرض القرآن كله والعلم كله والحجر من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه ، وهذه الأنهار الخمسة ... فيرفع كل ذلك الى السماء ، فذلك قوله تعالى « وانا على ذهاب به * لقادرون » ، فاذا رفعت هذه الأشياء من الأرض ، فقدت أهلها خير الدنيا والدين .

وقال ابن لهيعة ، عن عقبة بن عامر الحضرمى ، عن حيان بن الأعين ، عن عبد الله ابن عمرو ، قال : ان أول مصر خرابا أنطابلس .

(*) ص٢٢٢ جـ١ ، ط. بولاق =

وقال الليث بن سعد ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سالم بن أبى سالم ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : انى لأعلم السنة التى تخرجون فيها من مصر .

قال : فقلت له : ما يخرجنا منها يا أبا محمد أعدو ؟

قال : لا ، ولكن يخرجكم منها نيلكم هذا ، يغور فلا تبقى منه قطرة حتى تكون فيه الكثبان من الرمل ، وتأكل سباع الأرض حيتانه .

ذكر خراب الفسطاط

وكان لخراب مدينة فسطاط مصر سببان : أحدهما الشدة العظمى التى كانت فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى ، والثانى حريق مصر فى وزارة شاور بن مجير السعدى .

فأما الشدة العظمى فان سببها أن السعر ارتفع بمصر فى سنة ست وأربعين وأربعمائة وتبع الغلاء وباء ، فبعث الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على ، الى متملك الروم بقسطنطينية أن يحمل الغلال الى مصر ، فأطلق أربعمائة ألف اردب ، وعزم على حملها الى مصر ، فأدركه أجله ومات قبل ذلك .

فقام فى الملك بعده امرأة ، وكتبت الى المستنصر تسأله أن يكون عونا لها ، ويمدها بعساكر مصر اذا ثار عليها أحد ، فأبى أن يسعفها فى طلبتها ، فحردت لذلك ، وعاقت الغلال عن المسير الى مصر .

فحنق المستنصر ، وجهز العساكر — وعليها مكين الدولة الحسن بن ملهم — وسارت الى اللاذقية ، فحاربتها بسبب نقض الهدنة وامساك الغلال عن الوصول الى مصر ، وأمدها بالعساكر الكثيرة .

ونودى فى بلاد الشام بالغزو ، فنزل ابن ملهم قريبا من فامية ، وضايق أهلها ، وجال فى أعمال أنطاكية فسبى ونهب ، فأخرج صاحب قسطنطينية ثمانين قطعة فى البحر ، فحاربها ابن ملهم عدة مرار ، وكانت عليه ، وأسر هو وجماعة كثيرة فى شهر ربيع الأول منها .

فبعث المستنصر ، فى سنة سبع وأربعين ، أبا عبد الله القضاعى برسالة الى القسطنطينية . فوافى اليها رسول طغربل السلجوقى من العراق بكتابة يأمر متملك الروم بأن يمكن الرسول من الصلاة فى جامع القسطنطينية ، فأذن له فى ذلك ، فدخل اليه وصلى فيه صلاة الجمعة ، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى .

فبعث القاضى القضاعى الى المستنصر يخبره بذلك ، فأرسل الى كنيسة قمامة بيت المقدس وقبض على جميع ما فيها — وكان شيئا كثيرا — من أموال النصارى ، ففسد من حينئذ ما بين الروم والمصريين حتى استولوا على بلاد الساحل كلها ، وحاصروا القاهرة كما يرد فى موضعه ان شاء الله تعالى .

واشتد فى هذه السنة الغلاء ، وكثر الوباء بمصر والقاهرة وأعمالها الى سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، فحدث مع ذلك الفتنة العظيمة التى خرب بسببها اقليم مصر كله .

وذلك أن المستنصر لما خرج على عادته فى كل سنة على النجب مع النساء والحشم الى أرض الجب خارج القاهرة ، جرد بعض الأتراك سيفا وهو سكران على أحد عبيد الشراء ، فاجتمع عليه كثير من العبيد وقتلوه .

فحنق لقتله الأتراك ، وساروا بجميعهم الى المستنصر وقالوا : ان كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة ، وان كان من غير رضى أمير المؤمنين فلا نرضى بذلك .

فتبرأ المستنصر مما جرى وأنكره .

فتجمع الأتراك لمحاربة العبيد ، وكانت بينهما حروب شديدة بناحية كوم شريك قتل فيها عدة من العبيد ، وانهزم من بقى منهم .

فشق ذلك على أم المستنصر ، فانها كانت السبب فى كثرة العبيد السود بمصر . وذلك أنها كانت جارية سوداء فأحبت الاستكثار من جنسها ، واشترتهم من كل مكان . وعرفت رغبتها فى هذا الجنس ، فجلبت الناس الى مصر منهم حتى يقال انه صار فى مصر اذ ذاك زيادة على خمسين ألف عبد أسود .

فلما كانت وقعة كوم شريك ، أمدت العبيد بالأموال والسلاح سرا .

وكانت أم المستنصر قد تحكمت فى الدولة ، وحقدت على الأتراك ، وحثت على قتلهم مولاها أبا سعد التسترى ، فقويت العبيد لذلك حتى صار الواحد منهم يحكم بما يختار ، فكرهت الأتراك ذلك ... وكان ما ذكر .

فظفر بعض الأتراك يوما بشىء من المال والسلاح قد بعثت به أم المستنصر الى العبيد تمدهم به بعد انهزامهم من كوم شريك ، فاجتمعوا بأسرهم ، ودخلوا على المستنصر ، وأغلظوا فى القول . فحلف أنه لم يكن عنده علم بما ذكر ، وصار الى أمه فأنكرت ما فعلت .

وخرج الأتراك فصار السيف قائما ، ووقعت الفتنة ثانيا ، فانتدب المستنصر أبا الفرج بن المغربى ليصلح بين الطائفتين ، فاصطلحا على غل ، وخرج العبيد الى شبرا دمنهور ... فكان هذا أول اختلال أحوال أهل مصر .

ودبت عقارب العداوة بين الفئتين الى سنة تسع وخمسين ، فقويت شوكة الأتراك ، وضروا على المستنصر ، وزاد طمعهم * فيه ، وطلبوا منه الزيادة فى واجباتهم وضاقت أحوال العبيد ، واشتدت ضرورتهم ، وكثرت حاجتهم ، وقل مال السلطان ، واستضعف جانبه .

فبعثت أم المستنصر الى قواد العبيد تغريهم بالأتراك ، فاجتمعوا بالجيزة ، وخرج اليهم الأتراك ، ومقدمهم ناصر الدين حسين بن حمدان ، فاقتتلا عدة مرار ظهر فى آخرها الأتراك على العبيد ، وهزموهم الى بلاد الصعيد .

فعاد ابن حمدان الى القاهرة ، وقد عظم أمره وقوى جأشه ، وكبرت نفسه واستخف بالخليفة ، فجاءه الخبر أنه قد تجمع من العبيد ببلاد الصعيد نحو خمسة عشر ألف فارس ،

(*) ص٣٣٥ جـ١ ، ط. بولاق .

فقلق وبعث بمقدمى الأتراك الى المستنصر ، فأنكر ما كان من اجتماع العبيد ، وجفوا فى خطابهم ، وفارقوه على غير رضى منهم ، فبعثت أم المستنصر الى من بحضرتها من العبيد تأمرهم بالايقاع على غفلة بالأتراك ، فهجموا عليهم وقتلوا منهم عدة .

فبادر ابن حمدان الى الخروج ظاهر القاهرة ، وتلاحق به الأتراك ، وبرز اليهم العبيد المقيمون بالقاهرة ومصر ، وحاربوهم عدة أيام . فحلف ابن حمدان أنه لا ينزل عن فرسه حتى ينفصل الأمر اما له أو عليه . وجد كل من الفريقين فى القتال ، فظهرت الأتراك على العبيد ، وأثخنوا فى قتلهم وأسرهم ، فعادوا الى القاهرة ، وتتبع ابن حمدان من فى البلد منهم حتى أفنى معظمهم .

هذا والعبيد ببلاد الصعيد على حالهم ، وبالاسكندرية أيضا منهم جمع كثير ، فسار ابن حمدان الى الاسكندرية وحاصرهم فيها مدة حتى سألوه الأمان ، فأخرجهم وأقام فيها من يثق به .

وانقضت هذه السنة كلها فى قتال العبيد .

ودخلت سنة ستين وأربعمائة وقد خرق الأتراك ناموس المستنصر ، واستهانوا به واستخفوا بقدره ، وصار مقررهم فى كل شهر أربعمائة ألف دينار بعد ما كان ثمانية وعشرين ألف دينار ، ولم يبق فى الخزائن مال ، فبعثوا يطالبونه بالمال ، فاعتذر اليهم بعجزه عما طلبوه ، فلم يعذروه وقالوا : بع ذخائرك ، فلم يجد بدا من اجابتهم ، وأخرج ما كان فى القصر من الذخائر ، فصاروا يقومون ما يخرج اليهم بأخس القيم وأقل الأثمان ، ويأخذون ذلك فى واجباتهم .

وتجهز ابن حمدان ، وسار الى الصعيد يريد قتال العبيد — وكانت شرورهم قد كثرت ، وضررهم وفسادهم قد تزايد — فلقيهم وواقعهم غير مرة ، والأتراك تنكسر منهم وتعود الى محاربتهم ... الى أن حمل العبيد عليهم حملة انهزموا فيها الى الجيزة .

فافحشوا عند ذلك فى أمر المستنصر ، ونسبوه الى مباطنة العبيد وتقويتهم ، فأنكر ذلك وحلف عليه .

فأخذوا فى اصلاح شأنهم ولم شعثهم ، وساروا لقتال العبيد ، وما زالوا يلحون فى قتالهم حتى انكسرت العبيد كسرة شنيعة ، وقتل منهم خلق كثير وفر من بقى ، فذهبت شوكتهم ، وزالت دولتهم .

ورجع ابن حمدان وقد كشف قناع الحياء ، وجهر بالسوء للمستنصر ، واستبد بسلطنة البلاد .

ودخلت سنة احدى وستين وابن حمدان مستبد بالأمر مجاف للمستنصر ، فثقل مكانه على الأتراك ، وتفرغوا من العبيد ، والتفتوا اليه وقد استبد بالأمور دونهم ، واستأثر بالأموال عليهم ، ففسد ما بينهم وبينه ، وشكوا منه الى الوزير خطير الملك ، فأغراهم به ، ولامهم على ما كان من تقويته ، وحسن لهم الثورة به .

فصاروا الى المستنصر ووافقوه على ذلك ، فبعث الى ابن حمدان يأمره بالخروج عن مصر ، ويهدده ان امتنع . فلم يقدر على

الامتناع منه لفساد الأتراك عليه وميلهم مع المستنصر ، فخرج الى الجيزة ، وانتهب الناس دوره ودور حواشيه .

فلما جَشّن عليه الليل ، عاد من الجيزة سرا الى دار القائد تاج الملوك شادى ، وترامى عليه وقبل رجليه ، وسأله النصرة على الذكر والوزير الخطير ، فانهما قاما بهذه الفتنة ، فأجابه الى ذلك ، ووعده بقتل المذكورين ، وفارقه ابن حمدان .

فلما كان من الغد ركب شادى فى أصحابه ، وأخذ يسير بين القصرين بالقاهرة ، وأقبل الوزير الخطير فى موكبه ، فبادره شادى على حين غفلة وقتله ، ففر الذكر الى القصر والتجأ بالمستنصر ، فلم يكن بأسرع من قدوم ابن حمدان وقد استعد للحرب فيمن معه .

فركب المستنصر بلامة الحرب ، واجتمع اليه الأجناد والعامة ، وصار فى عدد لا ينحصر ويزيد الفرسان . فكانت بين الخليفة وابن حمدان حروب آلت الى هزيمة ابن حمدان ، وقتل كثير من أصحابه ، فمضى فى طائفة الى البحيرة ، وترامى على بنى سنبس وتزوج منهم .

فعظم الأمر بالقاهرة ومصر ، من شدة الغلاء وقلة الأقوات ، لما فسد من الأعمال بكثرة النهب وقطع الطريق ، حتى أكل الناس الجيف والميتات ، ووقف أرباب الفساد فى الطرق ، فصاروا يقتلون من ظفروا به فى أزقة مصر ، فهلك من أهل مصر فى هذه الحروب والفتن ما لا يمكن حصره .

واستد ذلك الى أن دخلت سنة ثلاث وستين ، فجهز المستنصر عساكره لقتال ابن حمدان بالبحيرة ، فسارت اليه ولم يوفق فى محاربته ، فكسرها كلها واحتوى على ما كان معها من سلاح وكراع ومال ، فتقوى به وقطع الميرة عن البلد ، ونهب أكثر الوجه البحرى ، وقطع منه الخطبة للمستنصر ، ودعا للخليفة القائم بأمر الله العباسى بالاسكندرية ودمياط وعامة الوجه البحرى .

فاشتد الجوع ، وتزايد الموتان بالقاهرة ومصر * ، حتى انه كان يموت الواحد من أهل البيت ، فلا يمضى يوم وليلة من موته حتى يموت سائر من فى ذلك البيت ولا يوجد من يستولى عليه .

ومدت الأجناد أيديها الى النهب ، فخرج الأمر عن الحد ، ونجا أهل القوة بأنفسهم من مصر ، وساروا الى الشام والعراق ، وخرج من خزائن القصر ما يجل وصفه . وقد ذكر طرف من ذلك فى أخبار القاهرة عند ذكر خزائن القصر .

فاضطر الأجناد ما هم فيه من شدة الجوع الى مصالحة ابن حمدان ، بشرط أن يقيم فى مكانه ويحمل اليه مال مقرر ، وينوب عنه شادى بالقاهرة . فرضى بذلك وسير الغلال الى القاهرة ومصر ، فسكن ما بالناس من شدة الجوع قليلا ...

ولم يكن ذلك الا نحو شهر ، ووقع الاختلاف عليه ، فقدم من البحيرة الى مصر وحاصرها وانتهبها ، وأحرق دورا عديدة بالساحل ، ورجع الى البحيرة .

فدخلت سنة أربع وستين والحال على ذلك ، وشادى قد استبد بأمر الدولة ، وفسد

(*) ص٣٣٦ جـ١ ، ط. بولاق .

ما بينه وبين ابن حمدان ، ومنعه من المال الذى تقرر له ، وشح به عليه فلم يوصله الا القليل .

فحرد من ذلك ابن حمدان ، وجمع العربان وسار الى الجيزة ، وخادع شادى حتى سار اليه ليلا فى عدة من الأكابر ، فقبض عليه وعليهم ، وبعث أصحابه فنهبوا مصر وأطلقوا فيها النار ، فخرج اليهم عسكر المستنصر من القاهرة وهزموهم .

فعاد الى البحيرة ، وبعث رسولا الى الخليفة القائم بأمر الله ببغداد باقامة الخطبة له ، وسأله الخلع والتشاريف . فاضمحل أمر المستنصر ، وتلاشى ذكره ، وتفاقم الأمر فى الشدة من الغلاء حتى هلكوا .

فسار ابن حمدان الى البلد وليس فى أحد قوة يمنعه بها ، فملك القاهرة ، وامتنع المستنصر بالقصر ، فسير اليه رسولا يطلب منه المال ، فوجده وقد ذهب سائر ما كان يعهده من أبهة الخلافة حتى جلس على حصير ، ولم يبق معه سوى ثلاثة من الخدم ، فبلغه رسالة ابن حمدان ، فقال المستنصر للرسول : ما يكفى ناصر الدولة أن أجلس فى مثل هذا البيت على هذا الحال ؟!

فبكى الرسول رقة له ، وعاد الى ابن حمدان ، فأخبره بما شاهد من اتضاع أمر المستنصر وسوء حاله .

فكف عنه ، وأطلق له فى كل شهر مائة دينار ، وامتدت يده وتحكم ، وبالغ فى اهانة المستنصر مبالغة عظيمة ، وقبض على أمه وعاقبها أشد العقوبة . واستصفى أموالها فحاز منها شيئا كثيرا .

فتفرق حينئذ عن المستنصر جميع أقاربه وأولاده من الجوع ، فمنهم من سار الى المغرب ، ومنهم من سار الى الشام والعراق .

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة فى كتاب « النقط » : حل بمصر غلاء شديد فى خلافة المستنصر بالله ، فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وأقام الى سنة أربع وستين وأربعمائة ، وعم مع الغلاء وباء شديد ، فأقام ذلك سبع سنين ، والنيل يمد وينزل فلا يجد من يزرع .

وشمل الخوف من العسكرية وفساد العبيد ، فانقطعت الطرقات برا وبحرا الا بالخفارة الكثيرة مع ركوب الغرر ، ونزا المارقون بعضهم على بعض ، واستولى الجوع لعدم القوت ، وصار الحال الى أن بيع رغيف من الخبز الذى وزنه رطل بزقاق القناديل ، كبيع الطرف فى النداء ، بأربعة عشر درهما ، وبيع اردب من القمح بثمانين دينارا ، ثم عدم ذلك وأكلت الكلاب والقطاط ، ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا .

وكان بمصر طوائف من أهل الفساد قد سكنوا بيوتا قصيرة السقوف ، قريبة ممن يسعى فى الطرقات ويطوف ، وقد أعدوا سلبا وخطاطيف ، فاذا مر بهم أحد شالوه فى أقرب وقت ، ثم ضربوه بالأخشاب وشرحوا لحمه وأكلوه !

قال : وحدثنى بعض نسائنا الصالحات قالت : كانت لنا من الجارات امرأة ترينا أفخاذها وفيها كالحفر ، فكنا نسألها فتقول : أنا ممن خطفنى أكلة الناس فى الشدة فأخذنى

انسان — وكنت ذات جسم وسمن — فأدخلنى الى بيت فيه سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتلى ، فأضجعنى على وجهى وربط فى يدى ورجلى سلبا الى أوتاد حديد عريانة ، ثم شرح من أفخاذى شرائح وأنا أستغيث ولا أحد يجيبنى ، ثم أضرم الفحم وشوى من لحمى وأكل أكلا كثيرا ، ثم سكر حتى وقع على جنبه لا يعرف أين هو ...

فأخذت فى الحركة الى أن انحل أحد الأوتاد ، وأعان الله على الخلاص وتخلصت ، وحللت الرباط ، وأخذت خرقا من داره ولففت بها أفخاذى ، وزحفت الى باب الدار ، وخرجت أزحف الى أن وقعت الى المأمن ، وجئت الى بيتى وعرفتهم بموضعه ، فمضوا الى الوالى ، فكبس عليه وضرب عنقه ، وأقام الدواء فى أفخاذى سنة الى أن ختم الجرح وبقى كذا حفرا .

وبسبب هذا الغلاء خرب الفسطاط ، وخلا موضع العسكر والقطائع وظاهر مصر مما يلى القرافة حيث الكيمان الآن الى بركة الحبش . فلما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى الى مصر وقام بتدبير أمرها ، نقلت أنقاض ظاهر مصر مما يلى القاهرة حيث كان العسكر والقطائع ، وصار فضاء وكيمانا فيما بين مصر والقاهرة ، وفيما بين مصر والقرافة ، وتراجعت أحوال الفسطاط بعد ذلك حتى قارب ما كان عليه قبل الشدة .

وأما حريق مصر فكان سببه أن الفرنج لما تغلبوا على ممالك الشام ، واستولوا على السواحل حتى صار بأيديهم ما بين ملطية (*) الى بلبيس ، الا مدينة دمشق فقط ، وصار أمر الوزارة بديار مصر لشاور بن مجير السعدى ، والخليفة يومئذ العاضد لدين الله عبد الله بن يوسف اسم لا معنى له ، وقام فى منصب الوزارة بالقوة فى صفر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وتلقب بأمير الجيوش ، وأخذ أموال بنى رزيك وزراء مصر وملوكها من قبله .

فلما استبد بالامرة ، حسده ضرغام صاحب الباب ، وجمع جموعا كثيرة وغلب شاور على الوزارة فى شهر رمضان منها ، فسار شاور الى الشام ، واستقل ضرغام بسلطنة مصر ، فكان بمصر فى هذه السنة ثلاثة وزراء هم : العادل بن رزيك بن طلائع بن رزيك ، وشاور ابن مجير ، وضرغام . فأساء ضرغام السيرة فى قتل أمراء الدولة ، وضعفت من أجل ذلك دولة الفاطميين بذهاب رجالها الأكابر .

ثم ان شاور استنجد بالسلطان نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام ، فأنجده وبعث معه عسكرا كثيرا فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين ، وقدم عليه أسد الدين شيركوه ، على أن يكون لنور الدين ، اذا عاد شاور الى منصب الوزارة ، ثلث خراج مصر بعد اقطاعات العساكر ، وأن يكون شيركوه عنده بعساكره فى مصر ولا يتصرف الا بأمر نور الدين .

فخرج ضرغام بالعسكر وحاربه فى بلبيس ، فانهزم وعاد الى مصر ، فنزل شاور بمن معه عند التاج خارج القاهرة ، وانتشر عسكره فى البلاد ، وبعث ضرغام الى أهل البلاد ، فأتوه خوفا من الترك القادمين معه ، وأتته

(*) ص٣٢٧ جـ١ ، ط. بولاق .

الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية ، فامتنعوا بالقاهرة وتطاردوا مع طلائع شاور بأرض الطبالة .

فنزل شاور فى المقس ، وحارب أهل القاهرة فغلبوه حتى ارتفع الى بركة الحبش ، فنزل على الرصد فاستولى على مدينة مصر ، وأقام أياما فمال الناس اليه ، وانحرفوا عن ضرغام لأمور . فنزل شاور باللوق ، وكانت بينه وبين ضرغام حروب آلت الى احراق الدور من باب سعادة الى باب القنطرة خارج القاهرة ، وقتل كثير من الفريقين ، واختل أمر ضرغام وانهزم .

فملك شاور القاهرة ، وقتل ضرغام آخر جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين ، فأخلف شيركوه ما وعد به السلطان نور الدين ، وأمره بالخروج عن مصر ، فأبى عليه واقتتلا . وكان شيركوه قد بعث بابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الى بلبيس ليجمع له الغلال وغيرها من الأموال ، فحشد شاور وقاتل الشاميين ، فجرت وقائع ، واحترق وجه الخليج خارج القاهرة بأسره وقطعة من حارة زويلة .

فبعث شاور الى الفرنج واستنجد بهم ، فطمعوا فى البلاد ، وخرج ملكهم مرى من عسقلان بجموعه ، فبلغ ذلك شيركوه ، فرحل عن القاهرة بعد طول محاصرتها ونزل بلبيس ، فاجتمع على قتاله بها شاور وملك الفرنج ، وحصروه بها — وكانت اذ ذاك حصينة ذات أسوار — فأقام محصورا مدة ثلاثة أشهر .

وبلغ ذلك نور الدين ، فأغار على ما قرب منه من بلاد الفرنج وأخذها من أيديهم ، فخافوه ووقع الصلح مع شيركوه على عوده الى الشام ، فخرج فى ذى الحجة ولحق بنور الدين .

فأقام وفى نفسه من مصر أمر عظيم ، الى أن دخلت سنة اثنتين وستين ، فجهزه نور الدين الى مصر فى جيش قوى فى ربيع الأول وسيره . فبلغ ذلك شاور ، فبعث الى مرى ملك الفرنج مستنجدا به ، فسار بجموع الفرنج حتى نزل بلبيس ، فوافاه شاور وأقام حتى قدم شيركوه الى أطراف مصر ، فلم يطق لقاء القوم ، فسار حتى خرج من أطفيح الى جهة بلاد الصعيد من ناحية بحر القلزم .

فبلغ شاور أن شيركوه قد ملك بلاد الصعيد ، فسقط فى يده ، ونهض للفور من بلبيس ومعه الفرنج . فكان من حروبه مع شيركوه ما كان حتى انهزم بالأشمونين ، وسار منها بعد الهزيمة الى الاسكندرية ، فملكها وأقر بها ابن أخيه صلاح الدين ، وخرج الى الصعيد ، فخرج شاور بالفرنج وحصر الاسكندرية أشد حصار ، فسار شيركوه من قوص ونزل على القاهرة وحاصرها فرحل الى شاور وكانت أمور آلت الى الصلح ، وسار شيركوه بمن معه الى الشام فى شوال .

فطمع مرى فى البلاد ، وجعل له شحنة بالقاهرة ، وصارت أسوارها بيد فرسان الفرنج ، وتقرر لهم فى كل سنة مائة ألف دينار ، ثم رحل الى بلاده وترك بالقاهرة من يثق به من الفرنج ، وسار شيركوه الى الشام .

فتحكم الفرنج فى القاهرة حكما جائرا ، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم ، وتيقنوا عجز الدولة عن مقاومتهم ، وانكشفت لهم عورات الناس ... الى أن دخلت سنة أربع وستين ، فجمع مرى جمعا عظيما من أجناس الفرنج ، وأقطعهم بلاد مصر ، وسار يريد أخذ مصر .

فبعث اليه شاور يسأله عن سبب مسيره ، فاعتل بأن الفرنج غلبوه على قصد ديار مصر ، وأنه يريد ألفى ألف دينار يرضيهم بها ، وسار فنزل على بلبيس وحاصرها حتى أخذها عنوة فى صفر فسبى أهلها ، وقصد القاهرة .

فسير العاضد كتبه الى نور الدين — وفيها شعور نسائه وبناته — يسأله انقاذ المسلمين من الفرنج .

وسار مرى من بلبيس ، فنزل على بركة الحبش — وقد انضم الناس من الأعمال الى القاهرة — فنادى شاور بمصر ألا يقيم بها أحد ، وأزعج الناس فى النقلة منها ، فتركوا أموالهم وأثقالهم ، ونجوا بأنفسهم وأولادهم * .

وقد ماج الناس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم الى المحشر : لا يعبأ والد بولده ، ولا يلتفت أخ الى أخيه ، وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر دينارا ، وكراء الحمل الى ثلاثين دينارا .

ونزلوا بالقاهرة فى المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات ، فصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم ، وقد سلبوا سائر أموالهم ، وينتظرون هجوم العدو على القاهرة بالسيف كما فعل بمدينة بلبيس .

(*) ص٣٢٨ جـ١ ، ط.بولاق .

وبعث شاور الى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء ، فصار منظرا مهولا ، فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما ، والنهابة من العبيد ورجال الأسطول وغيرهم بهذه المنازل فى طلب الخبايا .

فلما وقع الحريق بمصر ، رحل مرى من بركة الحبش ، ونزل بظاهر القاهرة مما يلى باب البرقية ، وقاتل أهلها قتالا كثيرا حتى زلزلوا زلزالا شديدا ، وضعفت نفوسهم وكادوا يؤخذون عنوة ، فعاد شاور الى مقاتلة الفرنج ، وجرت أمور آلت الى الصلح على مال .

فبينما هم فى جبايته ، اذ بلغ الفرنج مجىء أسد الدين شيركوه بعساكر الشام من عند السلطان نور الدين محمود ، فرحلوا فى سابع ربيع الآخر الى بلبيس ، وساروا منها الى فاقوس ، فصاروا الى بلادهم بالساحل .

ونزل شيركوه بالمقس خارج القاهرة ، وكان من قتل شاور واستيلاء شيركوه على مصر ما كان ... فمن حينئذ خربت مصر الفسطاط هذا الخراب الذى هو الآن كيمان مصر ، وتلاشى أمرها ، وافتقر أهلها وذهبت أموالهم وزالت نعمهم .

فلما استبد شيركوه بوزارة العاضد ، أمر باحضار أعيان أهل مصر الذين خلوا عن ديارهم فى الفتنة وصاروا بالقاهرة ، وتغمم لمصابهم ، وسفه رأى شاور فى احراق المدينة ، وأمرهم بالعود اليها .

فشكوا اليه ما بهم من الفقر والفاقة وخراب المنازل ، وقالوا : الى أى مكان نرجع ؟ وفى أى مكان ننزل ونأوى ، وقد صارت كما ترى ؟

وبكوا وأبكوا ، فوعدهم جميلا ، وترفق بهم ، وأمر فنودى فى الناس بالرجوع الى مصر .

فتراجع اليها الناس قليلا قليلا ، وعمروا ما حول الجامع ، الى أن كانت المحنة من الغلاء والوباء العظيم فى سلطنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب لسنتى خمس وست وخمسمائة فخرب من مصر جانب كبير .

ثم تحايا الناس بها ، وأكثروا من العمارة بجانب مصر الغربى على شاطىء النيل لما عمر الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة ، وصار بمصر عدة آدر جليلة وأسواق ضخمة .

فلما كان عـ... مصر والوباء الكائن فى سلطنة الملك العادل كتبغا سنة ست وتسعين وستمائة ، خرب كثير من مساكن مصر ، وتراجع الناس بعد ذلك فى العمارة ، الى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فحدث الفناء الكبير الذى أقفر منه معظم دور مصر وخربت .

ثم تحايا الناس من بعد الوباء ، وصار ما يحيط بالجامع العتيق وما على شط النيل عامرا الى سنة ست وسبعين وسبعمائة ، فشرقت بلاد مصر ، وحدث الوباء بعد الغلاء ، فخرب كثير من عامر مصر .

ولم يزل يخرب شيئا بعد شىء الى سنة تسعين وسبعمائة ، فعظم الخراب فى خط زقاق القناديل وخط النحاسين ، وشرع الناس فى هدم دور مصر وبيع أنقاضها ، حتى صارت على ما هى عليه الآن «وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » .

تم الجزء الأول من كتاب « الخطط » للمقريزى

وأول الجزء الثانى « ذكر ما قيل فى مدينة فسطاط مصر »

فهرس الجزء الأول
من كتاب « الخطط » للمقريزي

مطبعة
دار الهنا للطبع والنشر
شركة الإعلانات الشرقية
تليفون : ٤٩٠٠٠

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

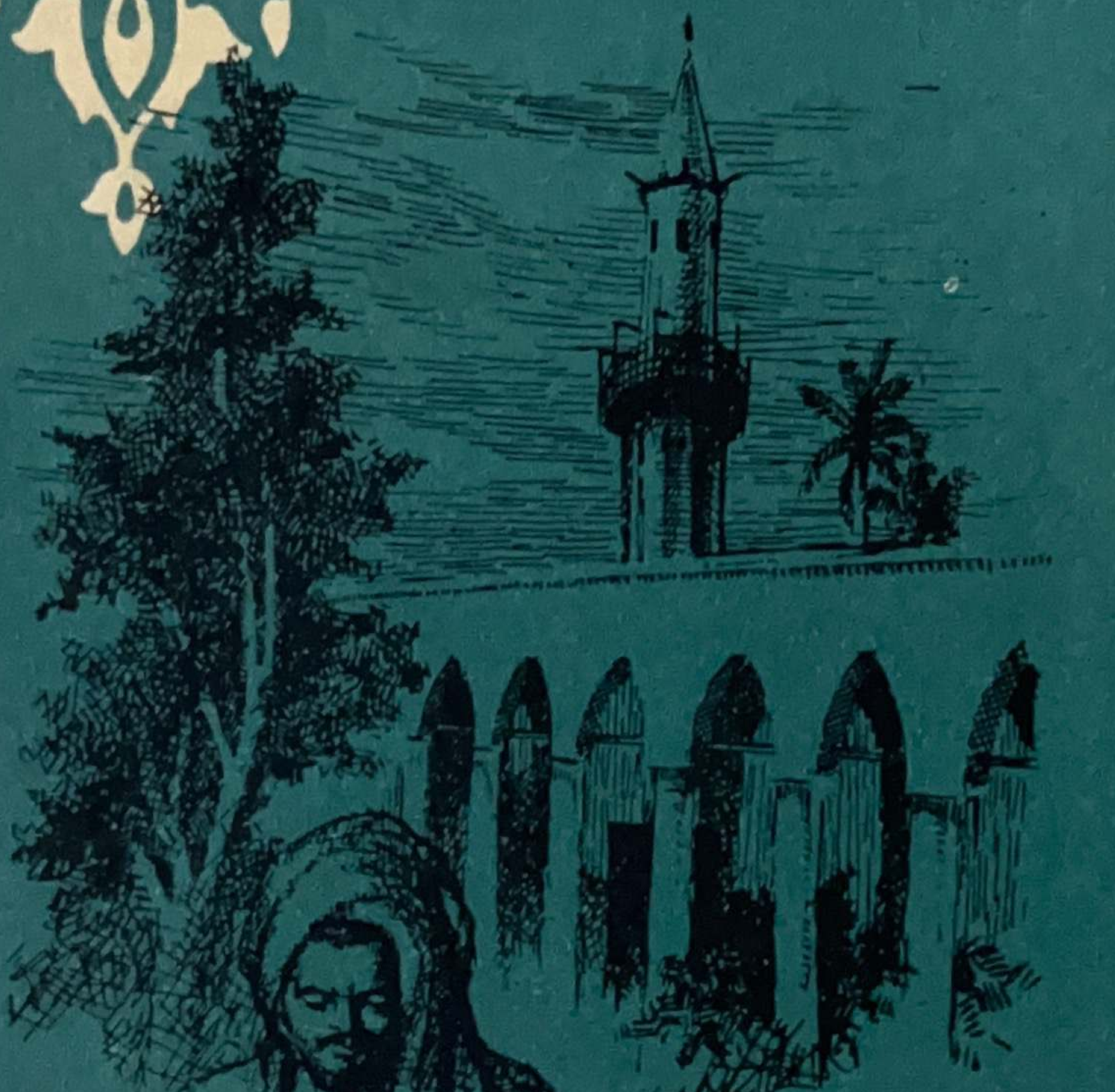
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

خطط المقريزى

الجزء ١٧

كتاب التحرير



"كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاعتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

خطط المقريزى

كتاب المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك باخبار إقليم مصر
والنيل وذكر القاهرة
ومايتعلق بها وبإقليميها ..
تأليف سيدنا الشيخ
الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على
ابن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى
رحمه الله ونفع بعلومه
آمين .

الجزء الثانى

تصدره
دار التحرير للطبع والنشر

عن
طبعة بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

ذكر ما قيل فى مدينة فسطاط مصر

قال ابن رضوان : والمدينة الكبرى اليوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء : الفسطاط ، والقاهرة ، والجزيرة ، والجيزة .

وبعد هذه المدينة عن خط الاستواء ثلاثون درجة ، والجبل المقطم فى شرقيها وبينها وبين مقابر المدينة . وقد قالت الأطباء : ان أردأ المواضع ما كان الجبل فى شرقيه يعوق ريح الصبا عنه .

وأعظم أجزائها هو الفسطاط ، ويلى الفسطاط من الغرب النيل ، وعلى شط النيل الغربى أشجار طوال وقصار .

وأعظم أجزاء الفسطاط موضع فى غور ، فانه يعلوه من المشرق المقطم ، ومن الجنوب الشرف ، ومن الشمال الموضع العالى من عل فوق ... أعنى الموقف والعسكر وجامع ابن طولون .

ومتى نظرت الى الفسطاط من الشرق ، أو من مكان آخر عال ، رأيت وضعها فى غور . وقد بين أبقراط أن المواضع المتسفلة أسخن من المواضع المرتفعة وأردأ هواء ، لاحتقان البخار فيها ، ولأن ما حولها من المواضع العالية يعوق تحليل الرياح لها .

وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة ، وأبنيتها عالية ، وقد قال روفس : اذا دخلت مدينة فرأيتها ضيقة الأزقة مرتفعة البناء ، فاهرب منها لأنها وبئة ... أراد أن البخار لا ينحل منها كما ينبغى لضيق الأزقة وارتفاع البناء .

ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت فى دورهم من السنانير * والكلاب ونحوها من الحيوان الذى يخالط الناس فى شوارعهم وأزقتهم ، فتعفن وتخالط عفونتها الهواء .

ومن شأنهم أيضا أن يرموا فى النيل الذى يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها ، وخرارات كنفهم تصب فيه ، وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء .

وفى خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها فى الهواء دخان مفرط .

وهى أيضا كثيرة الغبار لسخانة أرضها ، حتى انك ترى الهواء فى أيام الصيف كدرا يأخذ بالنفس ، ويتسخ الثوب النظيف فى اليوم الواحد .

واذا مر الانسان فى حاجة لم يرجع الا وقد اجتمع فى وجهه ولحيته غبار كثير ، ويعلوها فى العشيات — خاصة فى أيام الصيف — بخار كدر أسود وأغبر ، سيما اذا كان الهواء سليما من الرياح .

واذا كانت هذه الأشياء كما وصفنا ، فمن البين أنه يصير الروح الحيوانى الذى فيها حاله كهذه الحال ، فيتولد اذن فى البدن من هذه الأعراض فضول كثيرة واستعدادات نحو العفن ، الا أن الف أهل الفسطاط لهذه الحال وأنسهم بها ، يعوق عنهم أكثر شرها ، وان كانوا على كل حال أسرع أهل مصر وقوعا فى الأمراض .

وما يلى النيل من الفسطاط يجب أن يكون أرطب مما يلى الصحراء ، وأهل الشرق أصلح

(*) ص ٢٢٦ جـ ١ ، ط . بولاق .

حالا لتخرق الرياح لدورهم ، وكذلك عمل فوق والحمراء ، الا أن أهل الشرف الذى يشربونه أجود ، لأنه يستقى قبل أن تخالطه عفونة الفسطاط .

فأما القرافة فأجود هذه المواضع ، لأن المقطم يعوق بخار الفسطاط من المرور بها ، واذا هبت ريح الشمال مرت بأجزاء كثيرة من بخار الفسطاط والقاهرة على الشرف فغيرت حاله .

وظاهر أن المواضع المكشوفة فى هذه المدينة هى أصح هواء ، وكذلك حال المواضع المرتفعة . وأردأ موضع فى المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق الى ما يلى النيل والسواحل .

واذا كان فى الشتاء وأول الربيع ، حمل من بحر الملح سمك كثير ، فيصل الى هذه المدينة وقد عفن وصارت له رائحة منكرة جدا فيباع فى القاهرة ، ويأكله أهلها وأهل الفسطاط فيجتمع فى أبدانهم منه فضول كثيرة عفنة ... فلولا اعتدال أمزجتهم ، وصحة أبدانهم فى هذا الزمان ، لكان ذلك يولد فى أبدانهم أمراضا كثيرة قاتلة ، الا أن قوة الاستمرار تعوق عن ذلك .

وربما انقطع النيل فى آخر الربيع وأول الصيف من جهة الفسطاط ، فيعفن بكثرة ما يلقى فيه الى أن يبلغ عفنه الى أن تصير له رائحة منكرة محسوسة . وظاهر أن هذا الماء اذا صار على هذه الحال غير مزاج الناس تغيرا محسوسا .

قال : فمن البين أن أهل هذه المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع وقوعا فى الأمراض من جميع أهل هذه الأرض ، ما خلا أهل الفيوم فانها أيضا قريبة ، وأردأ ما فى المدينة الموضع الغائر من الفسطاط .

ولذلك غلب على أهلها الجبن وقلة الكرم ، وأنه ليس أحد منهم يغيث ولا يضيف الغريب الا فى النادر ، وصاروا من السعاية والاغتياب على أمر عظيم . ولقد بلغ بهم الجبن الى أن خمسة أعوان تسوق منهم مائة رجل وأكثر ، ويسوق الأعوان المذكورين رجل واحد من أهل البلدان الأخر ممن قد تدرب فى الحرب .

فقد استبان اذن العلة والسبب فى أن صار أهل المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع وقوعا فى الأمراض من جميع أهل هذه الأرض ، وأضعف أنفسا .

ولعل لهذا السبب اختار القدماء اتخاذ المدينة فى غير هذا الموضع : فمنهم من جعلها بمنف وهى مصر القديمة ، ومنهم من جعلها بالاسكندرية ، ومنهم من جعلها بغير هذه المواضع ، ويدل على ذلك آثارهم .

وقال ابن سعيد عن كتاب « الكمائم » : وأما فسطاط مصر فان مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس ، وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن ، وعليه نزل عمرو بن العاص ، وضرب فسطاطه ، حيث المسجد الجامع المنسوب اليه .

ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل ، ونسبت المدينة اليه ، فقيل فسطاط عمرو ،

وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر فاتخذوها سريرا للسلطنة ، وتضاعفت عمارتها ، فأقبل الناس من كل جانب اليها ، وقصروا أمانيهم عليها ... الى أن رسخت بها دولة بنى طولون فبنوا الى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع ، وبها كان مسجد ابن طولون الذى هو الآن الى جانب القاهرة .

وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ، ويحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد ، ولها متنزهات ، وهى فى الاقليم الثالث ، ولا ينزل فيها مطر الا فى النادر ، وترابها تثيره الأرجل وهو قبيح اللون تتكدر منه أرجاؤها ويسوء بسببه هواؤها ، ولها أسواق ضخمة الا أنها ضيقة ، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة .

ومذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط ، وفرط فى الاغتباط بها بعد الافراط ، وبينهما نحو ميلين .

وأنشد فيها الشريف العقيلى :

أحن الى الفسطاط شوقا واننى
لأدعو لها ألا يحل بها القطر *
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها
وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها
ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وقال عن كتاب آخر : فالفسطاط هى قصبة مصر ، والجبل المقطم شرقها وهو متصل بجبل الزمرد .

(*) ص٣٤٠ جـ١ ، ط. بولاق .

وقال عن كتاب ابن حوقل : والفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها ، وهى كبيرة نحو ثلث بغداد ، ومقدارها نحو فرسخ ، على غاية العمارة والطيبة واللذة ، ذات رحاب فى محالها ، وأسواق عظام فيها ضيق ومتاجر فخام ، ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ، ومتنزهات على ممر الأيام خضرة .

وفى الفسطاط قبائل ، وخطط للعرب تنسب اليها كالبصرة والكوفة ، الا أنها أقل من ذلك ، وهى سبخة الأرض ، غير نقية التربة ، وتكون بها الدار سبع طبقات وستا وخمسا ، وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس ، ومعظم بنيانهم بالطوب ، وأسفل دورهم غير مسكون ، وبها مسجدان للجمعة : بنى أحدهما عمرو بن العاص فى وسط الفسطاط ، والآخر على الموقف بناه أحمد بن طولون .

وكان خارج الفسطاط أبنية ، بناها أحمد ابن طولون ميلا فى ميل ، يسكنها جنده تعرف بالقطائع ، كما بنى بنو الأغلب خارج القيروان رقادة . وقد خربتا فى وقتنا هذا ، وأخلف الله بدل القطائع — بظاهر مدينة الفسطاط — القاهرة .

قال ابن سعيد : ولما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط ، فسار معى أحد أصحاب العزمة ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لى بمثلها فى بلد ، فركب منها حمارا وأشار الى أن أركب حمارا آخر ، فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلقته فى

بلاد المغرب ، فأعلمنى أنه غير معيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والسادة القاهرة يركبونها ، فركبت .

وعندما استويت راكبا ، أشار المكارى على الحمار فطار بى ، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ودنس ثيابى ، وعاينت ما كرهته .

ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكارى ، وقفت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج ، فقلت :

لقيت بمصر أشد البوار
ركوب الحمار وكحل الغبار

وخلفى مكار يفوق الرياح
لا يعرف الرفق بمعنى استطار

أناديه مهلا فلا يرعوى
الى أن سجدت سجود العثار

وقد مد فوقى رواق الثرى
وألحد فيه ضياء النهار

فدفعت الى المكارى أجرته ، وقلت له : لحسانك الى أن تتركنى أمشى على رجلى ، ومشيت الى أن بلغتها ، وقدرت الطريق بين القاهرة والفسطاط ، وحققت بعد ذلك نحو الميلين .

ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة ، وتأملت أسوارا مثلمة سوداء ، وآفاقا مغبرة .

ودخلت من بابها وهو دون غلق ، مفض الى خراب معمور بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف .

فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال ، الى أن سرت فى أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق ، والروايا التى على الجمال ، ما لا يفى به الا مشاهدته ومقاساته ، الى أن انتهيت الى المسجد الجامع ، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع اشبيلية وجامع مراكش .

ثم دخلت اليه ، فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء ، غير مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وتبسط فيه ، وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم ، يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق ، والباعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك ، والناس يأكلون منه فى أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على من يأكل قد جعلوا مايحصل لهم منهم رزقا ، وفضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع وفى زواياه ، والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون فى صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة ، الا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ، ما لا تجده فى جامع اشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه .

ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمت أنه سر مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه ، واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المصدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن ، وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك * ، ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب الا بالجاه والتعب .

ثم انفصلنا من هنالك الى ساحل النيل ، فرأيت ساحلا كدر التربة ، غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض ، الا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار الأرض والنيل ، ولئن قلت انى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل ، فانى أقول حقا .

والنيل هنالك ضيق لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته ، قد توسطت الماء ، ومالت الى جهة الفسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل .

وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من الفسطاط الى الجزيرة وهو غير طويل ، ومن الجانب الآخر الى البر الغربى — المعروف ببر الجيزة — جسر آخر من الجزيرة اليه . وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان ، ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين الجزيرة والفسطاط راكبا احتراما لموضع السلطان .

وبتنا فى ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل ، فقلت :

نزلنا من الفسطاط أحسن منزل
بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد

وقد جمعت فيه المراكب سحرة
كسرب قطا أضحى يزف على ورد

وأصبح يطغى الموج فيه ويرتمى
ويطفو حنانا وهو يلعب النرد

غدا ماؤه كالريق ممن أحبه
فمدت عليه حلية من حلى الخد

وقد كان مثل الزهر من قبل مده
فأصبح لما زاده المد كالورد

قلت هذا لأنى لم أذق فى المياه أحلى من مائه ، وأنه يكون قبل المد الذى يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض ، فاذا كان عباب النيل صار أحمر .

وأنشدنى علم الدين فخر الترك أيدمر ، عتيق وزير الجزيرة ، فى مدح الفسطاط وأهلها :

حبذا الفسطاط من والدة
جنبت أولادها در الجفا

يرد النيل اليها كدرا
فاذا مازج أهليها صفا

لطفوا فالمزن لا يألفهم
خجلا لما رآهم ألطفا

(*) ص ٢٤١ جـ ١ ، ط . بولاق .

ولم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط حتى انهم ألطف من أهل القاهرة وبينهما نحو ميلين . وجملة الحال أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره .

وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ، ومنها تجهز الى القاهرة وسائر البلاد .

وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى ، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زى الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية .

والخراب فى الفسطاط كثير ، والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان اليها ، وسكنى الأجناد فيها .

وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية ، وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة ، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر ... يعنى ابن سعيد ما بنى على شقة مصر من جهة النيل .

ذكر ما عليه مدينة مصر الآن وصفتها

قد تقدم من الأخبار جملة تدل على عظم ما كان بمدينة فسطاط مصر من المبانى وكثرتها ، ثم الأسباب التى أوجبت خرابها . وآخر ما رأيت من الكتب التى صنفت فى خطط مصر كتاب « ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » تأليف القاضى الرئيس تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج الزبيرى رحمه الله ، وقطع على سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

فذكر من الأخطاط المشهورة بذاتها لعهده اثنين وخمسين خطا ، ومن الحارات ثنتى عشرة حارة ، ومن الأزقة المشهورة ستة وثمانين زقاقا ، ومن الدروب المشهورة ثلاثة وخمسين دربا ، ومن الخوخ المشهور خمسا وعشرين خوخة ، ومن الأسواق المشهورة تسعة عشر سوقا ، ومن الخطط المشهورة بالدور ثلاثة عشر خطا ، ومن الرحاب المشهورة خمس عشرة رحبة ، ومن العقبات المشهورة احدى عشرة عقبة ، ومن الكيمان المسماة ستة كيمان ، ومن الأقباء عشرة أقباء ، ومن البرك خمس برك ، ومن السقائف خمسا وستين سقيفة ، ومن القياسر * سبع قياسر ، ومن مطابخ السكر العامرة ستة وستين مطبخا ، ومن الشوارع ستة شوارع ، ومن المحارس عشرين محرسا ، ومن الجوامع التى تقام فيها الجمعة بمصر وظاهرها من الجزيرة والقرافة أربعة عشر جامعا ، ومن المساجد أربعمائة وثمانين مسجدا ، ومن المدارس سبع عشرة مدرسة ، ومن الزوايا ثمانى زوايا ، ومن الربط التى بمصر والقرافة بضعا وأربعين رباطا ، ومن الأحباس والأوقاف كثيرا ، ومن الحمامات بضعا وسبعين حماما ، ومن الكنائس وديارات النصارى ثلاثين مابين دير وكنيسة .

وقد باد أكثر ما ذكره ودثر . وسيرد ما قاله من ذلك فى مواضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

فأقول : ان مدينة مصر محدودة الآن بحدود أربعة :

فحدها الشرقى اليوم من قلعة الجبل وأنت آخذ الى باب القرافة ، فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر الى كوم الجارح ، وتمر من كوم الجارح وتجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهى الى الرصد حيث أول بركة الحبش ... فهذا طول مصر من جهة المشرق ، وكان يقال لهذه الجهة عمل فوق .

وحدها الغربى من قناطر السباع خارج القاهرة الى موردة الحلفاء ، وتأخذ على شاطىء النيل الى دير الطين ... فهذا أيضا طولها من جهة المغرب .

وحدها القبلى من شاطىء النيل بدير الطين حيث ينتهى الحد الغربى ، الى بركة الحبش تحت الرصد حيث انتهى الحد الشرقى ... فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التى تسميها أهل مصر الجهة القبلية .

وحدها البحرى من قناطر السباع ، حيث ابتداء الحد الغربى ، الى قلعة الجبل حيث ابتداء الحد الشرقى ... فهذا عرض مصر من جهة الشمال التى تعرف بمصر بالجهة البحرية .

وما بين هذه الجهات الأربع فانه يطلق عليه الآن مصر ، فيكون أول عرض مصر فى الغرب بحر النيل ، وآخر عرضها فى الشرق أول القرافة ، وأول طولها من قناطر السباع ، وآخره بركة الحبش .

فاذا عرفت ذلك ، ففى الجهة الغربية خط السبع سقايات ، ويجاوره الخليج ، وعليه من شرقيه حكر أقبغا ، ومن غربيه المريس ومنشأة المهرانى ، ويحاذى المنشأة من شرقى الخليج خط قنطرة السد وخط بين الزقاقين وخط موردة الحلفاء وخط الجامع الجديد ، ومن شرقى خط الجامع الجديد خط المراغة ، ويتصل به خط الكبارة وخط المعاريج ، ويجاور خط الجامع الجديد من بحريه الدور التى تطل على النيل ، وهى متصلة الى جسر الأفرم المتصل بدير الطين وما جاوره الى بركة الحبش .

وهذه الجهة هى أعمر ما فى مصر الآن .

وأما الجهة الشرقية فليس فيها شىء عامر الا قلعة الجبل وخط المراغة المجاور لباب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة ، ويجاور خط مشهد السيدة نفيسة من قبليه الفضاء الذى كان موضع الموقف والعسكر الى كوم الجارح ، ثم خط كوم الجارح ، وما بين كوم الجارح الى آخر حد طول مصر عند بركة الحبش تحت الرصد فانه كيمان .

وهى الخطط التى ذكرها القضاعى ، وخربت فى الشدة العظمى زمن المستنصر ، وعند حريق شاور لمصر كما تقدم .

(*) ص٢٤٢ جـ١ ، ط . بولاق .

وأما عرض مصر الذى من قناطر السباع الى القلعة فانه عامر ، ويشتمل على بركة الفيل الصغرى بجوار خط السبع سقايات ، ويجاور الدور التى على هذه البركة من شرقيها خط الكبش ، ثم خط جامع أحمد بن طولون ، ثم خط القبيات ، وينتهى الى الفضاء الذى يتصل بقلعة الجبل .

وأما عرض مصر الذى من شاطىء النيل ، بخط دير الطين الى تحت الرصد حيث بركة الحبش ، فليس فيه عمارة سوى خط دير الطين ، وما عدا ذلك فقد خرب بخراب الخطط ، وكان فيه خط بنى وائل وخط راشدة ، فأما خط السبع سقايات فانه من جملة الحمراء الدنيا ، وسيرد عند ذكر الأخطاط ان شاء الله تعالى ، وما عدا ذلك فانه يتبين من ذكر ساحل مصر .

ذكر ساحل النيل بمدينة مصر

قد تقدم أن مدينة فسطاط مصر اختطها المسلمون حول جامع عمرو بن العاص وقصر الشمع ، وأن بحر النيل كان ينتهى الى باب قصر الشمع الغربى المعروف بالباب الجديد .

ولم يكن عند فتح أرض مصر بين جامع عمرو وبين النيل حائل ... ثم انحسر ماء النيل عن أرض تجاه الجامع وقصر الشمع ، فابتنى فيها عبد العزيز بن مروان ، وحاز منه بشر ابن مروان لما قدم على أخيه عبد العزيز ، ثم حاز منه هشام بن عبد الملك فى خلافته وبنى فيه .

فلما زالت دولة بنى أمية ، قبض ذلك فى الصواف ، ثم أقطعه الرشيد السرى بن الحكم ، فصار فى يد ورثته من بعده يكترونه ويأخذون حكره . وذلك أنه كان قد اختط فيها المسلمون شيئا بعد شىء ، وصار شاطىء النيل — بعد انحسار ماء النيل عن الأرض المذكورة — حيث الموضع الذى يعرف اليوم بسوق المعاريج .

قال القضاعى : كان ساحل أسفل الأرض بازاء المعاريج * القديم ، وكانت آثار المعاريج قائمة سبع درج حول ساحل البيما الى ساحل البورى اليوم ، فعرف ساحل البورى بالمعاريج الجديد (يعنى بالمعاريج الجديد موضع سوق المعاريج اليوم) .

وكان من جملة خطط مدينة فسطاط مصر الحمراوات الثلاث : فالحمراء الأولى من جملتها سوق وردان ، وكان يشرف بغربيه على النيل ، ويجاوره الحمراء الوسطى ، ومن بعضها الموضع الذى يعرف اليوم بالكبارة . وكانت على النيل أيضا ، وبجانب الكبارة ، الحمراء القصوى ، وهى من بحرى الحمراء الوسطى الى الموضع الذى هو اليوم خط قناطر السباع ، ومن جملة الحمراء القصوى خط خليج مصر من حد قناطر السباع الى تجاه قنطرة السد من شرقيها ، وبآخر الحمراء القصوى الكبش وجبل يشكر .

وكان الكبش يشرف على النيل من غربيه ، وكان الساحل القديم فيما بين سوق المعاريج اليوم الى دار التفاح بمصر وأنت مار الى باب

(*) ص٢٤٢ جـ١ ، ط. بولاق .

مصر بجوار الكبارة ، وموضع الكوم المجاور لباب مصر من شرقيه .

فلما خربت مصر بحريق شاور بن مجير اياها ، صار هذا الكوم من حينئذ وعرف بكوم المشانيق ، فانه كان يشنق بأعلاه أرباب الجرائم ، ثم بنى الناس فوقه دورا فعرف الى يومنا هذا بكوم الكبارة . وكان يقال لما بين سوق المعاريج وهذا الكوم لما كان ساحل النيل « القالوص » .

قال القضاعى : رأيت بخط جماعة من العلماء « القالوص » بألف ، والذى يكتب فى هذا الزمان « القلوص » بحذف الألف . فأما القلوص بحذف الألف فهى من الابل والنعام الشابة ، وجمعها قلص وقلاص وقلائص . والقلوص من الحبارى الأنثى الصغيرة .

فلعل هذا المكان سمى بالقلوص لأنه فى مقابلة الجمل الذى كان على باب الريحان الذى يأتى ذكره فى عجائب مصر . وأما القالوص بالألف فهى كلمة رومية ، ومعناها بالعربية مرحبا بك ، ولعل الروم كانوا يصفقون لراكب هذا الجمل ، ويقولون هذه الكلمة على عادتهم .

وقال ابن المتوج : والساحل القديم أوله من باب مصر المذكور (يعنى المجاور للكبارة) والى المعاريج جميعه كان بحرا يجرى فيه ماء النيل ، وقيل ان سوق المعاريج كان موردة سوق السمك ... يعنى ما ذكره القضاعى من أنه كان يعرف بساحل البورى ثم عرف بالمعاريج الجديد .

قال ابن المتوج : ونقل أن بستان الجرف المقابل لبستان حوض ابن كيسان كان صناعة العمارة . وأدركت أنا فيه بابها ، ورأيت زربية من ركن المسجد المجاور للحوض من غربيه تتصل الى قبالة مسجد العادل الذى بمراغة الدواب الآن .

قال مؤلفه رحمه الله : بستان الجرف يعرف بذلك الى اليوم ، وهو على يمنة من سلك الى مصر من طريق المراغة ، وهو جار فى وقف الخانقاه ، التى تعرف بالواصلة ، بين الزقاقين .

وحوض ابن كيسان يعرف اليوم بحوض الطواشى تجاه غيط الجرف المذكور ، يجاوره بستان ابن كيسان الذى صار صناعة — وقد ذكر خبر هذه الصناعة عند ذكر مناظر الخلفاء — ويعرف بستان ابن كيسان اليوم ببستان الطواشى أيضا ، وبين بستان الجرف وبستان الطواشى هذا مراغة مصر المسلوك منها الى الكبارة وباب مصر .

قال ابن المتوج : ورأيت من نقل عمن نقل عمن رأى هذا القلوص يتصل الى آدر الساحل القديم ، وأنه شاهد ما عليه من العمائر المطلة على بحر النيل من الرباع والدور المطلة ، وعد الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على بحر النيل ، فكانت عدتها ستة عشر ألف سطل مؤبدة بيكر ، مؤبد فيها أطناب ترخى بها وتملأ . أخبرنى بذلك من أثق بنقله ، وقال : انه أخبره من يثق به متصلا بالمشاهد له الموثوق به .

قال : وباب مصر الآن بين البستان الذى قبلى الجامع الجديد (يعنى بستان العالمة) وبين كوم المشانيق (يعنى كوم الكبارة) ، ورأيت السور يتصل به الى دار النحاس ، وجميع ما بظاهره شون .

ولم يزل هذا السور القديم ، الذى هو قبلى بستان العالمة ، موجودا أراه وأعرفه ... الى أن اشترى أرضه من باب مصر الى موقف المكارية بالخشابين القديمة الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى ، فأجر مكانه للعامة . وصار كل من استأجر قطعة هدم ما بها من البناء بالطوب اللبن ، وقلع الأساس الحجر وبنى به ، فزال السور المذكور ، ثم حدث الساحل الجديد .

قال مؤلفه رحمه الله : وهذا الباب الذى ذكره ابن المتوج ، كان يقال له باب الساحل . وأول حفر ساحل مصر فى سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وذلك أنه جف النيل عن بر مصر حتى احتاج الناس أن يستقوا من بحر الجيزة الذى هو فيما بين جزيرة مصر — التى تدعى الآن بالروضة — وبين الجيزة ، وصار الناس يمشون هم والدواب الى الجزيرة ، فحفر الأستاذ كافور الاخشيدى — وهو يومئذ مقدم أمراء الدولة لأونوجور بن الاخشيد — خليجا حتى اتصل بخليج بنى وائل ، ودخل الماء الى ساحل مصر .

ثم انه لما كان قبل سنة ستمائة ، تقلص الماء عن ساحل مصر القديمة ، وصار فى زمن الاحتراق يقل حتى تصير الطريق الى المقياس يبسا .

فلما كان فى سنة ثمان وعشرين وستمائة ، خاف السلطان الملك الكامل * محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من تباعد البحر عن العمران بمصر ، فاهتم بحفر البحر من دار الوكالة بمصر الى صناعة التمر الفاضلية ، وعمل فيه بنفسه ، فوافقه على العمل فى ذلك الجم الغفير ، واستوى فى المساعدة السوقة والأمير ، وقسط مكان الحفر على الدور بالقاهرة ومصر والروضة والمقياس .

فاستمر العمل فيه من مستهل شعبان الى سلخ شوال مدة ثلاثة أشهر ، حتى صار الماء يحيط بالمقياس وجزيرة الروضة دائما بعد ما كان عند الزيادة يصير جدولا رقيقا فى ذيل الروضة ، فاذا اتصل ببحر بولاق فى شهر أبيب كان ذلك من الأيام المشهودة بمصر .

فلما كانت أيام الملك الصالح ، وعمر قلعة الروضة ، أراد أن يكون الماء طول السنة كثيرا فيما دار بالروضة ، فأخذ فى الاهتمام بذلك ، وغرق عدة مراكب مملوءة بالحجارة فى بر الجيزة — تجاه باب القنطرة خارج مدينة مصر ومن قبلى جزيرة الروضة — فانعكس الماء ، وجعل البحر حينئذ يمر قليلا قليلا ، وتكاثر أولا فأولا فى بر مصر من دار الملك الى قريب المقس ، وقطع المنشاة الفاضلية .

قال ابن المتوج عن موضع الجامع الجديد : وكان فى الدولة الصالحية (يعنى الملك الصالح نجم الدين أيوب) رملة تمرغ الناس فيها الدواب فى زمن احتراق النيل وجفاف البحر

(*) ص٢٤٤ جـ١ ، ط.بولاق .

الذى هو أمامها . فلما عمر السلطان الملك الصالح قلعة الجزيرة ، وصار فى كل سنة يحفر هذا البحر بجنده ونفسه ويطرح بعض رمله فى هذه البقعة ، شرع خواص السلطان فى العمارة على شاطىء هذا البحر .

فذكر من عمر على هذا البحر من قبالة موضع الجامع الجديد الآن الى المدرسة المعزية ، وذكر ما وراء هذه الدور من بستان العالمة المطل عليه الجامع الجديد وغيره ، ثم قال : وانما عرف بالعالمة لأنه كان قد حله السلطان الملك الصالح لهذه العالمة ، فعمرت بجانبه منظرة لها ، وكان الماء يدخل من النيل لباب المنظرة المذكورة ، فلما توفيت بقى البستان مدة فى يد ورثتها ثم أخذ منهم .

وذكر أن بقعة الجامع الجديد كانت قبل عمارته شونا للاتبان السلطانية ، وكذلك ما يجاورها . فلما عمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الجامع الجديد ، كثرت العمائر من حد موردة الحلفاء على شاطىء النيل حتى اتصلت بدير الطين ، وعمر أيضا ما وراء الجامع من حد باب مصر — الذى كان بحرا كما تقدم — الى حد قنطرة السد .

وأدركنا ذلك كله على غاية العمارة ، وقد اختل منذ الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ، فخرب خط بين الزقاقين المطل من غربيه على الخليج ، ومن شرقيه على بستان الجرف ، ولم يبق به الا قليل من الدور . وموضعه كما تقدم كان فى قديم الزمان غامرا بماء النيل ، ثم ربى جرفا وهو بين الزقاقين المذكور ، فعمر عمارة كبيرة ، ثم خرب الآن ، وخرب أيضا خط موردة الحلفاء ، وكان فى القديم غامرا بالماء .

فلما ربى النيل الجرف المذكور ، وتربت الجزيرة قدام الساحل القديم — الذى هو الآن الكبارة الى المعاريج — وأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الجامع الجديد ، عمرت موردة الحلفاء هذه ، واتصلت من بحريها بمنشأة المهرانى ، ومن قبليها بالأملاك التى تمتد من تجاه الجامع الجديد الى دير الطين ، وصارت موردة الحلفاء عظيمة تقف عندها المراكب بالغلال وغيرها ، ويملأ منها الناس الروايا .

وكان البحر لا يبرح طول السنة هناك ، ثم صار ينشف فى فصل الربيع والصيف ، واستمر على ذلك الى يومنا هذا ، وخرب ما خلف الجامع الجديد أيضا من الأماكن التى كانت بحرا تجاه الساحل القديم ، ثم لما انحسر الماء صارت مراغة للدواب ، فعرفت اليوم بالمراغة .

وهى من آخر قنطرة السد الى قريب من الكبارة ، ويحصرها من غربيها بستان الجرف المقدم ذكره وعدة دور كانت بستانا وشونا الى باب مصر ، ومن شرقيها بستان ابن كيسان الذى صار صناعة ، وعرف الآن ببستان الطواشى ، ولم يبق الآن بخط المراغة الا مساكن يسيرة حقيرة .

ذكر المنشاة

اعلم أن خليج مصر كان يخرج من بحر النيل فيمر بطريق الحمراء القصوى ، وكان

فى الجانب الغربى من هذا الخليج عدة بساتين من جملتها بستان عرف ببستان الخشاب ، ثم خرب هذا البستان ، وموضعه الآن يعرف بالمريس .

فلما كان بعد الخمسمائة من سنى الهجرة ، انحسر النيل عن أرض فيما بين ميدان اللوق — الآتى ذكره فى الأحكار ظاهر القاهرة ان شاء الله تعالى — وبين بستان الخشاب المذكور ، فعرفت هذه الأرض بمنشأة الفاضل ، لأن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى أنشأ بها بستانا عظيما كان يمير أهل القاهرة من ثماره وأعنابه ، وعمر بجانبه جامعا ، وبنى حوله ، فقيل لتلك الخطة منشأة الفاضل .

وكثرت بها العمارة ، وأنشأ بها موفق الدين محمد بن أبى بكر المهدوى العثمانى الديباجى بستانا دفع له فيه ألف دينار فى أيام الظاهر بيبرس ، وكان الصرف قد بلغ * كل دينار ثمانية وعشرين درهما ونصفا .

فاستولى البحر على بستان الفاضل وجامعه ، وعلى سائر ما كان بمنشأة الفاضل من البساتين والدور ، وقطع ذلك حتى لم يبق لشىء منه أثر .

وما برح باعة العنب بالقاهرة ومصر تنادى على العنب ، بعد خراب بستان الفاضل هذا ، عدة سنين « رحم الله الفاضل ياعنب » اشارة لكثرة أعناب بستان الفاضل وحسنها .

وكان أكل البحر لمنشأة الفاضل هذه بعد سنة ستين وستمائة ، وكان الموفق الديباجى المذكور يتولى خطابة جامع الفاضل الذى كان بالمنشأة ، فلما تلف الجامع باستيلاء النيل عليه ، سأل الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وألح عليه — وكان من الزامه — حتى قام فى عمارة الجامع بمنشأة المهرانى .

ومنشأة المهرانى هذه موضعها فيما بين النيل والخليج ، وفيها من الحمراء القصوى فوهة الخليج انحسر عنها ماء النيل قديما ، وعرف موضعها بالكوم الأحمر من أجل أنه كان يعمل فيها أقمنة الطوب .

فلما سأل الصاحب بهاء الدين بن حنا الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع بهذا المكان ، ليقوم مقام الجامع الذى كان بمنشأة الفاضل ، أجابه الى ذلك ، وأنشأ الجامع بخط الكوم الأحمر كما ذكر فى خبره عند ذكر الجوامع .

فأنشأ هناك الأمير سيف الدين بلبان المهرانى دارا وسكنها ، وبنى مسجدا ، فعرفت هذه الخطة به ، وقيل لها منشأة المهرانى ، فان المهرانى المذكور أول من ابتنى فيها بعد بناء الجامع .

وتتابع الناس فى البناء بمنشأة المهرانى ، وأكثروا من العمائر حتى يقال انه كان بها فوق الأربعين من أمراء الدولة ، سوى من كان هناك من الوزراء وأماثل الكتاب وأعيان القضاة ووجوه الناس ، ولم تزل على ذلك حتى انحسر الماء عن الجهة الشرقية فخربت ، وبها الآن بقية يسيرة من الدور .

ويتصل بخط الجامع الجديد خط دار النحاس ، وهو مطل على النيل . ودار النحاس

(*) ص٢٤٥ جـ١ ، ط. بولاق .

هذه من الدور القديمة وقد دثرت ، وصار الخط يعرف بها .

قال القضاعى : دار النحاس اختطها وردان مولى عمرو بن العاص ، فكتب مسلمة بن مخلد — وهو أمير مصر — الى معاوية يسأله أن يجعلها ديوانا ، فكتب معاوية الى وردان يسأله فيها ، وعوضه فيها دار وردان التى بسوقه الآن .

وقال ربيعة : كانت هذه الدار من خطة الحجر من الأزد ، فاشتراها عمر بن مروان وبناها ، فكانت فى يد ولده ، وقبضت عنهم وبيعت فى الصوافى سنة ثمان وثلثمائة ، ثم صارت الى شمول الاخشيدى ، فبناها قيسارية وحماما ، فصارت دار النحاس قيسارية شمول .

وقال ابن المتوج : دار النحاس خط نسب لدار النحاس ، وهو الآن فندق الأشراف ذو البابين : أحدهما من رحبة أمامة ، والثانى شارع بالساحل القديم .

وبآخر هذه الشقة التى تطل على النيل جسر الأفرم ، وهو فى طرف مصر فيما بين المدرسة المعزية وبين رباط الآثار ، كان مطلا على النيل دائما ، والآن ينحسر الماء عنه عند هبوط النيل ، وعرف بالأمير عز الدين أيدمر الأفرم الصالحى النجمى أمير جندار ، وذلك أنه لما استأجر بركة الشعيبية — كما ذكر عند ذكر البرك من هذا الكتاب — جعل منها قدائين من غربيها أذن للناس فى تحكيرها ، فحكرت وبنى عليها عدة دور بلغت الغاية فى اتقان العمارة .

وتنافس عظماء دولة الناصر محمد بن قلاوون من الوزراء وأعيان الكتاب فى المساكن بهذا الجسر ، وبنوا وتأنقوا وتفننوا فى بديع الزخرفة ، وبالغوا فى تحسين الرخام ، وخرجوا عن الحد فى كثرة انفاق الأموال العظيمة على ذلك ، بحيث صار خط الجسر خلاصة العامر من اقليم مصر ، وسكانه أرق الناس عيشا وأترف المتنعمين حياة وأوفرهم نعمة ، ثم خرب هذا الجسر بأسره وذهبت دوره .

وأما الجهة الشرقية من مصر ففيها قلعة الجبل ، وقد أفردنا لها خبرا مستقلا يحتوى على فوائد كثيرة تضمنه هذا الكتاب ، فانظره .

ويتصل آخر قلعة الجبل بخط باب القرافة ، وهو من أطراف القطائع والعسكر ، ويلى خط باب القرافة الفضاء الذى كان يعرف بالعسكر ، وقد تقدم ذكره ، وكان بأطراف العسكر مما يلى كوم الجارح .

الموقف ... قال ابن وصيف شاه فى أخبار الريان بن الوليد ، وهو فرعون لبى الله يوسف صلوات الله عليه : ودخل الى البلد فى أيامه غلام من أهل الشام احتال عليه اخوته وباعوه — وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف اليوم — فأوقف الغلام ونودى عليه ، وهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم ، فاشتراه أطفين العزيز .

ويقال ان الذى أخرج يوسف من الجب مالك بن دعر بن حجر بن جزيلة بن لخم بن

عدى بن الحارث بن مرة بن آدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وقال القضاعى : كان الموقف فضاء لأم عبد الله بن مسلمة بن مخلد ، فتصدقت به على المسلمين ، فكان موقفا تباع فيه الدواب ، ثم ملك بعد . وقد ذكرته فى الظاهر (يعنى فى خطط أهل الظاهر) فان الموقف من جملة خطط أهل الظاهر .

وقال ابن المتوج « بقعة خط الصفاء » : هذا الخط دثر جميعه ولم يبق له أثر ، وهو قبلى الفسطاط أوله بجوار المصنع . وخط الطحانين * أدركته كان صفين طواحين متلاصقة متصلة من درب الصفاء الى كوم الجارح ، وأدركت به جماعة من أكابر المصريين أكثرهم عدول ، وكان المار بين هذين الصفين لا يسمع حديث رفيقه اذا حدثه لقوة دوران الطواحين ، وكان من جملتها طاحون واحد فيه سبعة أحجار ... دثر جميع ذلك ولم يبق له أثر .

قال : وبقعة درب الصفاء هو الدرب الذى كان باب مصر ، وقيل انه كان بظاهره سوق يوسف عليه السلام ، وكان بابا بمصراعين يعلوهما عقد كبير ، وهو بعتبة كبيرة سفلى من صوان ، وكان بجوار المصنع الخراب الموجود الآن ، وكان حول المصنع عمد رخام بدائره حاملة الساباط يعلوه مسجد معلق ... هدم ذلك جميعه فى ولاية سيف الدين ، المعروف بابن سلار ، والى مصر فى دولة الظاهر بيبرس . وهذا الدرب يسلك منه الى درب الصفاء والطحانين .

قال مؤلفه رحمه الله : كان هذا الباب المذكور أحد أبواب مدينة مصر ، وبابها الآخر من ناحية الساحل الذى موضعه اليوم باب مصر بجوار الكبارة . وأنا أدركت آثار باب الصفاء المذكور والمصنع الخراب ، وكان يصب فيه الماء للسبيل ، وهو قريب من كوم الجارح . وسيأتى ذكر كوم الجارح فى ذكر الكيمان من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

وأما الذى يلى كوم الجارح الى آخر حد طول مصر عند بركة الحبش فانها الخطط القديمة . وأدركتها عامرة لاسيما خط النخالين وخط زقاق القناديل وخط المصاصة ، وقد خرب جميع ذلك ، وبيعت أنقاضه من بعد سنة تسعين وسبعمائة .

وأما الجهة القبلية من مصر ، فان خط دير الطين حدثت العمارة فيه بعد سنة ستمائة ، لما أنشأ الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا الجامع هناك ، وعمر الناس فى جسر الأفرم ، وكان قبل ذلك آخر عمارة مدينة مصر دار الملك التى موضعها الآن بجوار المدرسة المعزية .

وأما موضع الجسر فانه كان بركة ماء تتصل بخط راشدة حيث جامع راشدة ، ومن قبلى هذه البركة البستان الذى كان يعرف ببستان الأمير تميم بن المعز ، ويعرف اليوم بالمعشوق ، وهو وقف على رباط الآثار ، ويجاور المعشوق بركة الحبش ، وما بين خط

(*) ص٣٤٦ جـ١ ط. بولاق .

دير الطين وآخر عرض مصر من الجهة القبلية طرف خط راشدة .

وأما الجهة البحرية من مصر ، فانه يتصل بخط السبع سقايات الدور المطلة على البركة التى يقال لها بركة قارون ، وهى التى تجاور الآن حدرة ابن قميحة ، وهى من جملة الحمراء القصوى ، وبقبلى البركة المذكورة الكوم المعروف بالأسرى ، وهو من جملة العسكر ، وسيرد ان شاء الله تعالى ذكره عند ذكر الكيمان .

ويجاور البركة المذكورة كورة خط الكبش — وقد ذكر فى الجبال ، ويأتى ان شاء الله تعالى له خبر عند ذكر الأخطاط — ويلى خط الكبش خط الجامع الطولونى ، ويلى خط الجامع القبيبات وخط المشهد النفيسى . وجميع ذلك الى قلعة الجبل من جملة القطائع .

ذكر ابواب مدينة مصر

وكان لفسطاط مصر أبواب فى القديم خربت وتجدد لها بعد ذلك أبواب أخر :

باب الصفاء : هذا الباب كان هو فى الحقيقة باب مدينة مصر وهى فى كمالها ، ومنه تخرج العساكر وتعبر القوافل ، وموضعه الآن بالقرب من كوم الجارح ، وهدم فى أيام الملك الظاهر بيبرس .

باب الساحل : كان يفضى بسالكه الى ساحل النيل القديم ، وموضعه قريب من الكبارة .

باب مصر : هذا الباب هو الذى بناه قراقوش ، ومنه يسلك الآن من دخل الى مدينة مصر من الطريق التى تعرف بالمراغة ، وهو مجاور للكوم الذى يقال له كوم المشانيق ويعرف اليوم بالكبارة .

وكان موضع هذا الباب غامرا بماء النيل . فلما انحسر الماء عن ساحل مصر ، صار الموضع المعروف بالمراغة ، والموضع المعروف بغيط الجرف الى موردة الحلفاء ، فضاء لا يصل اليه ماء النيل ألبتة .

فأحب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يدير سورا يجمع فيه القاهرة ومصر وقلعة الجبل ، فزاد فى سور القاهرة ، على يد قراقوش ، من باب القنطرة الى باب الشعرية والى باب البحر ... يريد أن يمد السور من باب البحر الى الكوم الأحمر — الذى هو اليوم حافة خليج مصر تجاه خط بين الزقاقين — ليصل أيضا من الكوم الأحمر الى باب مصر هذا ، فلم يتهيأ له هذا ، وانقطع السور عند جامع المقس .

وزاد فى سور القاهرة أيضا من باب النصر الى قلعة الجبل فلم يكمل له ، ومد السور من قلعة الجبل الى باب القنطرة خارج مصر ، فصار هذا الباب غير متصل بالسور .

باب القنطرة : هذا الباب فى قبلى مدينة مصر . عرف بقنطرة بنى وائل التى كانت هناك ، وهو أيضا من بناء قراقوش * .

(*) ص٣٤٧ جـ١ ، ط. بولاق .

ذكر القاهرة .. قاهرة المعز لدين الله

اعلم أن القاهرة المعزية رابع موضع انتقل سرير السلطنة اليه من أرض مصر فى الدولة الاسلامية ، وذلك أن الامارة كانت بمدينة الفسطاط ، ثم صار محلها العسكر خارج الفسطاط ، فلما عمرت القطائع صارت دار الامارة الى أن خربت .

فسكن الأمراء بالعسكر الى أن قدم القائد جوهر بعساكر مولاه الامام المعز لدين الله معد ، فبنى القاهرة حصنا ومعقلا بين يدى المدينة ، وصارت القاهرة دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه الى أن انقرضت الدولة الفاطمية .

فسكنها من بعدهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وابنه الملك العزيز عثمان ، وابنه الملك المنصور محمد ، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، وابنه الملك الكامل محمد وانتقل من القاهرة الى قلعة الجبل ، فسكنها بحرمه وخواصه ، وسكنها الملوك من بعده الى يومنا هذا .

فصارت القاهرة مدينة سكنى ، بعد ما كانت حصنا يعتقل به ودار خلافة يلتجأ اليها ، فهانت بعد العز ، وابتذلت بعد الاحترام .

وهذا شأن الملوك ، ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن والحصون ، وكذلك كانوا أيام العجم وفى جاهلية العرب ، وهم على ذلك فى أيام الاسلام ، فقد هدم عثمان بن عفان صومعة غمدان وهدم الآطام التى كانت بالمدينة ، وقد هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وقد هدم بنو العباس مدن الشام لبنى مروان .

وإذا تأملت البقاع وجدتها
تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وسيأتى من أخبار القاهرة ، والكلام على خططها وآثارها ، ما تنتهى اليه قدرتى ، وصل الى معرفته علمى . وفوق كل ذى علم عليم .

ذكر ما قيل فى نسب الخلفاء الفاطميين بناة القاهرة

اعلم أن القوم كانوا ينسبون الى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما . والناس فريقان فى أمرهم : فريق يثبت صحة ذلك . وفريق يمنعه وينفيهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويزعم أنهم أدعياء من ولد ديصان البونى الذى ينسب اليه البونة ، وأن ديصان كان له ابن اسمه ميمون القداح كان له مذهب فى الغلو ، فولد ميمون عبد الله .

وكان عبد الله عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب ، وأنه رتب سبع دعوات يتدرج الانسان فيها حتى ينحل عن الأديان كلها ، ويصير معطلا اباحيا لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ، ويرى أنه وأهل نحلته على هدى وجميع من خالفهم أهل ضلالة ...

وأنه قصد بذلك أن يجعل له أتباعا ، وكان يدعو الى الامام من آل البيت محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وأنه كان من الأهواز ، واشتهر بالعلم والتشيع ، وصار له دعاة ، وقصد بالمكروه ، ففر الى البصرة فاشتهر أمره ، وسار منها الى سلمية من أرض الشام ، فولد له ابن بها اسمه أحمد ومات .

فقام من بعده أحمد ، وبعث بالحسين الأهوازى داعية الى العراق ، فلقى أحمد بن الأشعث — المعروف بقرمط — فى سواد الكوفة ، ودعاه الى مذهبه فأجابه ، وقام هناك بالأمر . والى قرمط هذا تنسب القرامطة ...

وولد لأحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الحسين ومحمد المعروف بأبى الشلعلع . فلما مات أحمد خلفه ابنه الحسين فى الدعوة حتى مات ، فقام من بعده أخوه أبو الشلعلع . وكان لأحمد بن عبد الله ولد اسمه سعيد فصار تحت حجر عمه ، وبعث أبو الشلعلع بداعيين الى المغرب ، وهما أبو عبد الله وأخوه أبو العباس ، فنزلا فى البربر ودعوها .

واشتهر سعيد بسلمية بعد موت عمه ، وكثر ماله فطالبه السلطان ، ففر من سلمية الى مصر يريد المغرب . وكان على مصر عيسى النوشرى ، فورد عليه كتاب الخليفة ببغداد بالقبض عليه ففاته ، وصار بسلجماسة فى زى التجار . فبعث المعتضد من بغداد فى طلبه ، فأخذ وحبس حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعى من محبسه .

فتسمى حينئذ بعبيد الله ، وتكنى بأبى محمد ، وتلقب بالمهدى ، وصار اماما علويا من ولد محمد بن جعفر الصادق ، وانما هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان البونى الأهوازى ، وأصله من المجوس ... فهذا قول من ينكر نسبهم .

وبعض منكرى نسبهم فى العلوية يقول : ان عبيد الله من اليهود ، وان الحسين بن أحمد المذكور تزوج امرأة يهودية من نساء سلمية ، كان لها ابن من يهودى حداد مات وتركه لها ، فرباه الحسين وأدبه وعلمه ، ثم مات عن غير ولد فعهد الى ابن امرأته هذا ، فكان هو عبيد الله المهدى .

وهذه أقوال ان أنصفت تبين لك أنها موضوعة ، فان بنى على بن أبى طالب رضى الله عنه قد كانوا اذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلالة القدر عند الشيعة ، فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن * يهودى ، فهذا مما لا يفعله أحد ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف .

وانما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء بنى العباس عند ما غصوا بمكان الفاطميين ، فانهم كانوا قد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة ، وملكوا من بنى العباس بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن ، وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة .

وعجزت عساكر بنى العباس عن مقاومتهم فلاذت حينئذ بتنفير الكافة عنهم باشاعة الطعن فى نسبهم ، وبث ذلك عنهم خلفاؤهم ، وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم الذين كانوا يحاربون عساكر القاطمين كى يدفعوا بذلك

(*) ص٣٤٨ جـ١ ، ط. بولاق .

عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن مقاومتهم، ودفعهم عما غلبوا عليه من ديار مصر والشام والحرمين حتى اشتهر ذلك ببغداد.

وأسجل القضاة بنفيهم من نسب العلويين، وشهد بذلك من أعلام الناس جماعة، منهم الشريفان الرضي والمرتضى وأبو حامد الاسفرايني والقدوري في عدة وافرة، اجتمعوا لذلك، في سنة اثنتين وأربعمائة، أيام القادر.

وكانت شهادة القوم في ذلك على السماع، لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد. وأغلبها انما هم شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب، والمتطيرون من بني علي بن أبي طالب، الطاعنون فيهم منذ ابتداء دولتهم الأقاويل القبيحة. فنقل الاخباريون وأهل التاريخ ذلك كما سمعوه، ورووه حسب ما تلقوه من غير تمييز.

والحق من وراء هذا ... وكذلك بكتاب المعتضد من خلفاء بني العباس حجة، فانه كتب في شأن عبيد الله الى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسلجماسة بالقبض على عبيد الله.

فتفطن – أعزك الله – لصحة هذا الشاهد، فان المعتضد لولا صحة نسب عبيد الله عنده ما كتب لمن ذكرنا بالقبض عليه. اذ القوم حينئذ لا يدعون لدعي ألبتة، ولا يذعنون له بوجه، وانما ينقادون لمن كان علويا. فخاف مما وقع، ولو كان عنده من الأدعياء لما مر له بفكر، ولا خافه على ضيعة من ضياع الأرض.

وانما كان القوم – أعني بني علي بن أبي طالب – تحت ترقب الخوف من بني العباس لتطلبهم لهم في كل وقت، وقصدهم اياهم دائما بأنواع من العقاب، فصاروا ما بين طريد شريد وبين خائف يترقب. ومع ذلك فان لشيعتهم الكثيرة المنتشرة في أقطارهم، من المحبة لهم والاقبال عليهم، ما لا مزيد عليه.

وتكرر قيام الرجال منهم مرة بعد مرة، والطلب عليهم من ورائهم، فلاذوا بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون، حتى تسمى محمد بن اسماعيل الامام، جد عبيد الله المهدي، بالمكتوم ... سماه بذلك الشيعة عند اتفاقهم على اخفائه حذرا من المتغلبين عليهم.

وكانت الشيعة فرقا: فمنهم من كان يذهب الى أن الامام من ولد جعفر الصادق هو اسماعيل ابنه، وهؤلاء يعرفون من بين فرق الشيعة بالاسماعيلية من أجل أنهم يرون أن الامام من بعد جعفر ابنه اسماعيل، وأن الامام بعد اسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكتوم، وبعد ابنه محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق، ومن بعد جعفر الصادق ابنه محمد الحبيب. وكانوا أهل غلو في دعاويهم في هؤلاء الأئمة، وكان محمد بن جعفر هذا يؤمل ظهوره، وأنه يصير له دولة.

وكان باليمن من أهل هذا المذهب كثير، بعدن وبافريقية وفي كتامة ونفرة، تلقوا ذلك من عهد جعفر الصادق. فقدم على محمد بن جعفر والد عبيد الله رجل من شيعته باليمن، فبعث معه الحسن بن حوشب في سنة ثمان وستين ومائتين، فأظهرا أمرهما باليمن،

وأشهرا الدعوة في سنة سبعين، وصار لابن حوشب دولة بصنعاء، وبث الدعاة بأقطار الأرض، وكان من جملة دعاته أبو عبد الله الشيعي، فسيره الى المغرب فلقي كتامة ودعاهم.

فلما مات محمد بن جعفر عهد لابنه عبيد الله، فطلبه المكتفي العباسي. وكان يسكن عسكر مكرم، فسار الى الشام، ثم سار الى المغرب، فكان من أمره ما كان.

وكانت رجال هذه الدولة الذين قاموا ببلاد المغرب وديار مصر ... . [1] عشر رجلا.

هذه خلاصة أخبارهم في أنسابهم، فتفطن ولا تغتر بزخرف القول الذي لفقوه من الطعن فيهم. والله يهدي من يشاء.

ذكر الخلفاء الفاطميين

وكان ابتداء الدولة الفاطمية: أن أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء الشيعي، سار الى أبي القاسم الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي القائم ببلاد اليمن، وصار من كبار أصحابه وله علم وعنده دهاء ومكر.

فورد على ابن حوشب من المغرب خبر موت الحلواني داعيه في المغرب ورفيقه، فقال لأبي عبد الله الشيعي: قد خرب الحلواني وأبو يوسف بلاد المغرب وقد ماتا، وليس للبلاد الا أنت فانها موطأة ممهدة.

(١) هكذا بياض بالأصل. لعله اربعة عشر رجلا ؛ كما يؤخذ من بعض التواريخ. اهـ.

فخرج أبو عبد الله الى مكة، وقصد حجاج كتامة فجلس قريبا منهم، وسمعهم يتحدثون بفضائل البيت فحدثهم في معناه، فمالوا اليه وسألوه أن يأذن لهم في زيارته، فلما زاروه سألوه عن مقصده، فلم يخبرهم وأوهمهم أنه يريد مصر، فسروا بصحبته ورحلوا وهو رفيقهم *، فشاهدوا من عبادته وزهده ما زادهم رغبة فيه. هذا وهو يسألهم عن أحوالهم وقبائلهم حتى صار يعرف جميع أمورهم.

فلما وصلوا مصر، هموا بمفارقتهم، فقالوا: أي شيء تطلب من مصر؟

فقال: أطلب التعليم بها.

فقالوا: اذا كان قصدك هذا فبلادنا أنفع لك. وما زالوا به حتى سار معهم.

فلما وصلوا بلادهم اقترعوا فيمن يضيفه منهم ومن بقية أصحابهم، ووصلوا به أرض كتامة للنصف من ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائتين، وكادوا يحتربون عليه أيهم ينزل عنده.

فأبى أن ينزل عندهم، وقال: أين يكون فج الأخيار؟

فعجبوا لذلك اذ لم يكونوا ذكروه له قط، فدلوه عليه.

فسار اليه وقال: هذا فج الأخيار، وما سمي الأبكم. ولقد جاء في الآثار «للمهدي هجرة عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ... قوم اسمهم مشتق من الكتمان». وبخروجكم في هذا الفج سمي فج الأخيار.

(*) ص٣٤٩ جـ١، ط. بولاق.

فتسامعت به القبائل وأتوه ، فعظم أمره وهو لا يذكر اسم المهدى البتة .

فبلغ خبره ابراهيم بن أحمد بن الأغلب أمير أفريقية ، فبعث يسأل عن خبره ، وكانت له معه قصص آلت الى قيام أبى عبد الله ومحاربته لمن خالفه ، فظفر بهم وصارت اليه أموالهم ، وغلب على مدائن ، وهزم جيوش ابن الأغلب ، وقتل كثيرا من أصحابه .

فمات ابراهيم بن الأغلب ، وولى زيادة الله ابن الأغلب ، وكان كثير اللهو ، فقوى أمر أبى عبد الله ، وانتشرت جنوده فى البلاد ، وصار يقول : المهدى يخرج فى هذه الأيام ويملك الأرض ، فياطوبى لمن هاجر الى وأطاعنى . ويغرى الناس بزيادة الله بن الأغلب ويعيبه ، وكان أكثر خواص زيادة الله شيعة ، فلم يكن يسوءهم ظفر أبى عبد الله .

وأكثر من ذكر كرامات المهدى والإرسال الى أصحاب زيادة الله الى أن تمكن ، فبعث برجال من كتامة الى سلمية من أرض الشام ، فقدموا على عبيد الله وأخبروه بما فتح الله عليه — وكان قد اشتهر هناك وطلبه الخليفة المكتفى — فخرج من سلمية فارا ، ومعه ابنه أبو القاسم نزار ، ومعهما أهلهما ومواليهما فأقاما بمصر مستترين .

فوردت على عيسى النوشرى ، أمير مصر ، الكتب من بغداد بصفة عبيد الله وحليته ، وأنه يأخذ عليه الطريق ويقبضه . فبلغ ذلك عبيد الله فخرج والأعوان فى طلبه . ويقال ان النوشرى ظفر به ، فناشده الله فى أمره ، فخلى عنه ووصله .

فسار الى طرابلس وقد سبق خبره الى زيادة الله ، فسار الى قسطيلية ، فتقدم كتاب زيادة الله بن الأغلب الى عامل طرابلس بأخذ عبيد الله وقد فاتهم فلم يدركوه .

فرحل الى سلجماسة وأقام بها ، وقد أقيمت له المراصد بالطرقات ، فتلطف باليسع ابن مدرار صاحب سلجماسة وأهدى اليه ، فكف عنه . ووافاه كتاب زيادة الله بالقبض على عبيد الله ، فلم يجد بدا من أن قبض عليه وسجنه .

واشتغل زيادة الله بجمع العساكر لمحاربة أبى عبد الله وتجهيزهم اليه ، فغلبهم أبو عبد الله ، وغنم سائر ما معهم ، وقتل أكثرهم . وبلغه ما كان من سجن عبيد الله ، فكتب اليه يبشره ، فوصل اليه الكتاب وهو بالسجن مع قصاب دخل به اليه وهو يبيع اللحم .

وما زال أبو عبد الله يضايق زيادة الله الى أن فر الى مصر ، وقام من بعده ابراهيم بن الأغلب ، فلم يتم له أمر .

وملك أبو عبد الله القيروان ، ونزل برقادة مستهل رجب سنة ست وتسعين ومائتين ، فأمر ونهى ، وبث العمال فى الأعمال ، وقتل من يخاف شره ، وأمر فنقش على السكة فى أحد الوجهين « بلغت حجة الله » ، وفى الآخر « تفرق أعداء الله » ، ونقش على السلاح « عدة فى سبيل الله » ، ووسم الخيل على أفخاذها « الملك لله » ، وأقام على ما كان عليه من لبس الخشن الدون وتناول القليل الغليظ من الطعام .

فلما دخل شهر رمضان سار من رقادة فى جيوش عظيمة اهتز لها المغرب بأسره ، يريد سلجماسة ، فحاربه اليسع يوما كاملا الى الليل ، ثم فر فى خاصته .

فدخل أبو عبد الله من الغد الى البلد ، وأخرج عبيد الله وابنه ، ومشى فى ركابهما بجميع رؤساء القبائل وهو يقول للناس : هذا مولاكم ، وهو يبكى من شدة الفرح ، حتى وصل بهما الى فسطاط ضربه فى العسكر فأنزلهما فيه ، وبعث الخيل فى طلب اليسع ، فادركته وجاءت به فقتله .

وأقام عبيد الله بسلجماسة أربعين يوما ، ثم سار الى أفريقية فى ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ، ونزل برقادة ، وأمر يوم الجمعة أن يذكر فى الخطبة ، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين .

فدعى له فى جميع البلاد بذلك ، وجلس بعد الصلاة الدعاة ، ودعوا الناس كافة الى مذهبهم . فمن أجاب قبل منه ، ومن أبى قتل .

وعرض جوارى زيادة الله ، واختار منهن لنفسه ولولده ، وفرق ما بقى على وجوه كتامة ، وقسم عليهم أعمال أفريقية ، ودون الدواوين ، وجبى الأموال ، ودانت له البلاد .

فشق ذلك على أبى عبد الله ، ونافس المهدى ، وحسده من أجل أنه كف يده ويد أخيه أبى العباس ، فعظم عليه الفطام عن الأمر والنهى والأخذ والعطاء .

وأقبل أبو العباس يزرى على المهدى فى مجلس أخيه ، ويؤنب أخاه على ما فعل حتى أثر فى نفسه ، فسأل المهدى أن يفوض اليه الأمور ويجلس فى القصر

وكان قد بلغ المهدى مايجهر به أبوالعباس * من السوء فى حقه ، فرد أبا عبد الله ردا لطيفا ، وأسرها فى نفسه .

وأكثر أبو العباس من قوله حتى أغرى المقدمين بالمهدى ، وقال : ما هذا بالذى كنا نعتقد طاعته وندعو اليه ، لأن المهدى يأتى بالآيات الباهرة .

فمال اليه جماعة ، وواجه بعضهم المهدى بذلك ، وقال له : ان كنت المهدى فاظهر لنا آية ، فقد شككنا فيك .

فبعد ما بين المهدى وبين أبى عبد الله ، وأوجس كل منهما فى نفسه خيفة من الآخر ، وأخذ أبو العباس يدبر فى قتل المهدى والمهدى يحل ما كان يبرمه ، ثم رتب رجالا .

فلما ركب أبو عبد الله وأخوه الى قصر المهدى ثار بهما الرجال ، فقال أبو عبد الله : لا تفعلوا . فقالوا له : ان الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك .

فقتل هو وأخوه للنصف من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائتين بمدينة رقادة . فثارت فتنة بسبب قتلهما ، فركب المهدى حتى سكنت ، وتتبع جماعة منهم فقتلهم .

فلما استقام له الأمر ، عهد الى ابنه أبى القاسم ، وتتبع بنى الأغلب فقتل منهم جماعة .

(*) ص٣٥٠ جـ١ ، طبولاق .

وجهز فى سنة احدى وثلثمائة ابنه أبا القاسم بالعساكر الى مصر ، فأخذ برقة والاسكندرية والفيوم ، وكانت له مع عساكر مصر وعساكر العراق الواردة الى مصر مع مؤنس الخادم عدة حروب ، وعاد الى المغرب .

فجهز المهدى فى سنة اثنتين وثلثمائة حباسة بجيوش الى مصر ، فغلب على الاسكندرية ، وكان من أمره ما تقدم ذكره .

وكان للمهدى ببلاد المغرب عدة حروب .

وكان يوجد فى الكتب خروج أبى يزيد النكارى على دولته . فبنى المهدية ، وأدار عليها سورا جعل فيه أبوابا زنة كل مصراع منها مائة قنطار من حديد ، وكان ابتداء بنائها فى ذى القعدة سنة ثلاث وثلثمائة ، وبنى المصلى بظاهرها وقال : الى هنا يصل صاحب الحمار (يعنى أبا يزيد) فكان كذلك . وأنشأ صناعة فيها تسعمائة شونة ، وقال : انما بنيت هذه لتعتصم الفواطم بها ساعة من نهار ، فكان كذلك .

ثم انه جهز ابنه أبا القاسم فى سنة ست وثلثمائة على جيش الى مصر ، فأخذ الاسكندرية ، وملك جزيرة الأشمونين وكثيرا من صعيد مصر ، وكانت هناك حروب مع عساكر مصر والعراق ، ثم عاد الى المغرب .

وخرج أبو القاسم فى سنة خمس عشرة بالجيوش الى المغرب ، فحارب قوما وعاد .

فمات عبيد الله فى ليلة الثلاثاء منتصف شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ، بالمهدية من القيروان عن ثلاث وستين سنة .

وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرا وعشرين يوما . ولما مات أخفى ابنه موته .

وقام من بعد عبيد الله المهدى ولى عهده القائم بأمر الله أبو القاسم محمد — ويقال كان اسمه بالمشرق عبد الرحمن ، فتسمى فى بلاد المغرب بمحمد — وذلك بسلمية فى المحرم سنة ثمانين ومائتين . فلما فرغ من جميع ما يريده وتمكن ، أظهر موت أبيه .

واستقل بالأمر وله سبع وأربعون سنة ، وتبع سيرة أبيه ، وثار عليه جماعة فظفر بهم ، وبث جيوشه فى البر والبحر فسبوا وغنموا من بلد جنوة ، وبعث جيشا الى مصر ، فملكوا الاسكندرية والاخشيد يومئذ أمير مصر .

فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ، خرج عليه أبو يزيد مخلد بن كيداد النكارى الخارجى بأفريقية ، واشتدت شوكته ، وكثرت أتباعه ، وهزم جيوش القائم غير مرة ، وكان مذهبه تكفير أهل الملة واراقة دمائهم ديانة فملك باجة وحرقها ، وقتل الأطفال وسبى النسوان ، ثم ملك القيروان .

فاضطرب القائم ، وخاف الناس ، وهموا بالنقلة من زويلة .

وقوى أمر أبى يزيد ، ونازل المهدية وحصر القائم بها ، وكاد أن يغلب عليها . فلما بلغ المصلى حيث أشار المهدى أنه يصل ، هزمه أصحاب القائم ، وقتلوا كثيرا من أصحابه .

وكانت له قصص وأنباء ... الى أن مات القائم لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، عن أربع وخمسين سنة

وتسعة أشهر ، ولم يرق منبرا ، ولا ركب دابة لصيد مدة خلافته حتى مات ، وصلى مرة على جنازة ، وصلى بالناس العيد مرة واحدة .

وكانت مدة خلافته اثنتى عشرة سنة وستة أشهر وأياما ، وترك أبا الطاهر اسماعيل وأبا عبد الله جعفرا وحمزة وعدنان وعدة أخر .

وقام من بعده ، ابنه المنصور بنصر الله ، أبو الطاهر اسماعيل ، وكتم موت أبيه خوفا أن يعلم أبو يزيد فانه كان قريبا منه ، وأبقى الأمور على حالها ، ولم يتسم بالخليفة ، ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود ، وجد فى حرب أبى يزيد حتى ظفر به ، وحمل اليه ، فمات من جراحات كانت به سلخ المحرم سنة ست وثلاثين وثلثمائة .

ولم يزل المنصور الى أن مات سلخ شوال سنة احدى وأربعين وثلثمائة ، عن احدى وأربعين سنة وخمسة أشهر . وكانت مدة خلافته ثمان سنين ، وقيل سبع سنين وعشرة أيام . وقد اختلف فى تاريخ ولادته : فقيل ولد أول ليلة من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلثمائة بالمهدية ، وقيل بل ولد فى سنة اثنتين ، وقيل سنة احدى وثلثمائة .

وكان خطيبا بليغا يرتجل الخطبة لوقته ، شجاعا عاقلا .

وقام من بعده ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد وعمره نحو أربع وعشرين سنة ، فانه ولد للنصف من رمضان سنة سبع * عشرة وثلثمائة ، فانقاد اليه البربر وأحسن اليهم ، فعظم أمره .

(*) ص٣٥١ جـ١ ، ط. بولاق .

واختص من مواليه بجوهر ، وكناه بأبى الحسين ، وأعلى قدره ، وصيره فى رتبة الوزارة ، وعقد له على جيش كثيف ، فيهم الأمير زيرى بن مناد الصنهاجى . فدوخ المغرب ، وافتتح مدنا ، وقهر عدة أكابر وأسرهم ، حتى أتى البحر المحيط فأمر باصطياد سمكة منه ، وسيرها فى قلة من ماء الى المعز اشارة الى أنه ملك حتى سكان البحر المحيط الذى لا عمارة بعده ، ثم قدم غانما مظفرا ، فعظم قدره عند المعز .

ولما كان فى بعض الأيام ، استدعى المعز فى يوم شات عدة من شيوخ كتامة ، فدخلوا عليه فى مجلس قد فرش باللبود ، وحوله كساء وعليه جبة ، وحوله أبواب مفتحة تفضى الى خزائن كتب ، وبين يديه دواة وكتب ، فقال :

ياخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء — وانها الآن بحيث تسمع كلامى — أترى اخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء كما يفعل أرباب الدنيا ...

ثم رأيت أن أنفذ اليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حالى اذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم ، وأنى لا أفضلكم فى أحوالكم الا بما لابد لى منه من دنياكم ، وبما خصنى الله به من امامتكم ، وأنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ، وأنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا ، الا بما

بصوت أزوالكم ، ومسير بلادكم ، ومقتل أعدائكم ، وضع أضدادكم —

فافعلوا بالشيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم ، وينقلها الى غيركم ، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الى كتحننى عليكم ، ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل —

واقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ، ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم —

واعلموا أنكم اذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم ، انهضوا رحمكم الله ونصركم — فخرجوا عنه .

واستدعى يوما أبا جعفر حسين بن مهذب صاحب بيت المال — وهو فى وسط القصر قد جلس على صندوق ، وبين يديه ألوف صناديق مبددة — فقال له : هذه صناديق مال ، وقد شذ عنى ترتيبها فانظرها ورتبها .

قال : فأخذت أجمعها الى أن صارت رتبة ، وبين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين ، فأخذت اليه أعلمه ، فأمر برفعها فى الخزائن على ترتيبها ، وأن يغلق عليها وتختم بخاتمه ، وقال : قد خرجت عن خاتمنا وصارت اليك . فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار ، وذلك فى سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، فأنفقها أجمع على العساكر التى سيرها الى مصر من سنة ثمان وخمسين الى سنة اثنتين وستين وثلثمائة .

ولما أخذ فى تجهيز جوهر بالعساكر الى أخذ ديار مصر ، حتى تهيأ أمره وبرز للسير ، بعث المعز خفيفا الصقلبى الى شيوخ كتامة يقول : ياخواننا قد رأينا أن ننفذ رجالا الى بلدان كتامة يقيمون بينهم ، ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ، ويحفظونها عليهم فى بلادهم ، فاذا احتجنا اليها أنفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله .

فقال بعض شيوخهم لخفيف لما بلغه ذلك : قل لمولانا والله لا فعلنا هذا أبدا ، كيف تؤدى كتامة الجزية ، ويصير عليها فى الديوان ضريبة ، وقد أعزها الله قديما بالاسلام ، وحديثا معكم بالايمان ، وسيوفنا بطاعتكم فى المشرق والمغرب ؟!

فعاد خفيف الى المعز بذلك ، فأمر باحضار جماعة كتامة ، فدخلوا عليه وهو راكب فرسه ، فقال : ما هذا الجواب الذى صدر عنكم ؟

فقالوا : هذا جواب جماعتنا ، ما كنا يامولانا بالذى يؤدى جزية تبقى علينا .

فقام المعز فى ركابه وقال : بارك الله فيكم ، فكهذا أريد أن تكونوا ، وانما أردت أن أختبركم فأنظر كيف أنتم بعدى .

فسار جوهر ، وأخذ مصر كما قد ذكر فى ترجمته عند ذكر سور القاهرة من هذا الكتاب .

فلما ثبت قدم جوهر بمصر ، كتب اليه المعز جوابا عن كتابه : وأما ما ذكرت ياجوهر من أن جماعة بنى حمدان وصلت اليك كتبهم يبذلون الطاعة ، ويعدون بالمسارعة فى المسير اليك ، فاسمع لما أذكره لك : احذر أن تبتدىء أحدا من آل حمدان بمكاتبة رهبا له ولا رغبا ، ومن كتب اليك كتابا منهم فأجبه بالحسن الجميل ولا تستدعه اليك ، ومن ورد اليك منهم فأحسن اليه ، ولا تمكن أحدا منهم من قيادة جيش ولا ملك طرف ... فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب : يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب ، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم فى الله ، ويتظاهرون بالشجاعة ، وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة ... فاحذر كل الحذر من الاستناد الى أحد منهم .

ولما عزم المعز على المسير الى مصر ، أجال فكره فيمن يخلفه فى بلاد المغرب ، فوقع اختياره على جعفر بن على الأمير ، فاستدعاه وأسر اليه أنه يريد استخلافه بالمغرب *.

فقال : تترك معى أحد أولادك أو اخوتك يجلس فى القصر وأنا أدبر ، ولا تسألنى عن شىء من الأموال لأن ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه من الأموال ، واذا أردت أمرا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره الى .

فغضب المعز وقال : ياجعفر عزلتنى عن ملكى ، وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى ، واستبددت بالأعمال والأموال دونى . قم فقد أخطأت حظك ، وما أصبت رشدك ... فخرج عنه .

ثم انه استدعى يوسف بن زيرى الصنهاجى وقال له : تأهب لخلافة المغرب .

فأكبر ذلك وقال : يامولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب ، فكيف يصفو لى وأنا صنهاجى بربرى ؟ قتلتنى يامولانا بغير سيف ولا رمح .

فمازال به المعز حتى أجاب بشريطة أن المعز يولى القضاء والخراج لمن يراه ويختاره ، ويجعل الحيز لمن يثق به ، ويجعله قائما بين أيدى هؤلاء ، فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء به حتى يعمل به ما يجب ، ويكون الأمر لهم ، ويصير كالخادم بين أولئك ... فأعجب المعز ما قال وشكره .

فلما انصرف قال أبو طالب بن القائم بأمر الله للمعز : يامولانا ، وتثق بهذا القول من يوسف ، وأنه يقوم بوفاء ما ذكر ؟

فقال المعز : ياعمنا ، كم بين قول يوسف وقول جعفر ، فاعلم ياعم أن الأمر الذى طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير اليه أمر يوسف ، واذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ، ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوى العقل ، وهو نهاية ما يفعله .

وكانت أم الأمراء قد وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر ، فعرضها وكيلها فى مصر للبيع ، وطلب فيها ألف دينار . فحضر اليه

(*) ص٣٥٢ جـ١ ، ط بولاق .

فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتقلب الصبية ، فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار ، فاذا هى ابنة الاخشيد محمد بن طغج ، وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شغفتها حبا فاشترتها لتستمتع بها .

فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ ، وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الاخشيد مع الصبية الى آخره ، فقال المعز : ياأخواننا انهضوا الى مصر ، فلن يحول بينكم وبينها شىء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم ، فانهضوا لمسيرنا اليهم .

فقالوا : السمع والطاعة .

فقال : خذوا فى حوايجكم ، فنحن نتقدم الاختيار لمسيرنا ان شاء الله تعالى .

وكان قيصر ومظفر الصقليان قد بلغا رتبة عظيمة عند المنصور والد المعز ، وكان المظفر يدل على المعز من أجل أنه علمه الخط فى صغره ، فحرد عليه مرة وولى ، فسمعه المعز يتكلم بكلمة صقلية استراب منها ، ولقنها منه وأنفت نفسه من السؤال عن معناها . فأخذ يحفظ اللغات : فابتدأ يتعلم اللغة البربرية حتى أحكمها ، ثم تعلم الرومية والسودانية حتى أتقنهما ، ثم أخذ يتعلم الصقلية ، فمرت به تلك الكلمة ، فاذا هى سب قبيح ، فأمر بمظفر فقتل من أجل تلك الكلمة .

ويلغه أمر الحروب التى كانت بين بنى حسن وبنى جعفر بالحجاز ، حتى قتل من بنى حسن أكثر ممن قتل من بنى جعفر ، فأنفذ مالا ورجالا فى السر ما زالوا بالطائفتين حتى أصطلحتا ، وتحمل الرجال عن كل منهما الحمالات ، فجاء الفاضل فى القتلى لبنى حسن عند بنى جعفر نحو سبعين قتيلا ، فأدوا عنهم ، وعقدوا بينهم الصلح فى الحرم تجاه الكعبة ، وتحملوا عنهم الديات من مال المعز ، وكان ذلك فى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة .

فصارت هذه الفعلة يدا عند بنى حسن للمعز . فلما ملك جوهر مصر ، بادر حسن ابن جعفر الحسنى بالدعاء للمعز فى مكة ، وبعث الى جوهر بالخبر ، فسير الى المعز يعرفه باقامة الدعوة له بمكة ، فأنفذ اليه بتقليده الحرم وأعماله .

وسار المعز بعساكره من المغرب حتى نزل بالجيزة ، فعقد له جوهر جسرا جديدا عند المختار بالجزيرة ، فسار عليه ، وقد زينت له مدينة الفسطاط فلم يشقها ، ودخل الى القاهرة بجميع أولاده واخوته وسائر أولاد عبيد الله المهدى وبتوابيت آبائه ، وذلك لسبع خلون من رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة .

فعندما دخل القصر صلى ركعتين ، فاقتدى به من حضر ، وبات به ، ثم أصبح فجلس للهناء ، وأمر فكتب فى سائر مدينة مصر « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن أبى طالب » ، وأثبت اسم المعز لدين الله واسم أبيه عبد الله الأمير ، وجلس فى القصر على السرير

الذهب ، وصلى بالناس صلاة عيد الفطر فى المصلى ، فسبح فى كل ركعة وفى كل سجدة ثلاثين تسبيحة ، ثم خطب بعد الصلاة .

وركب لفتح خليج مصر يوم الوفاء ، وعمل عيد غدير خم ، ومات بعض بنى عمه فصلى عليه وكبر سبعا ، وكبر على ميت آخر خمسا . وقدمت القرامطة الى مصر ، فسير اليهم الجيوش وهزموهم .

وما زال الى أن توفى من علة اعتلها بعد دخوله الى القاهرة بسنتين وسبعة أشهر وعشرة أيام ، وعمره خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريبا . فان مولده بالمهدية فى حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلثمائة ، ووفاته بالقاهرة لأربع عشرة خلت من ربيع * الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة ، وكانت مدة خلافته بالمغرب وديار مصر ثلاثا وعشرين سنة وعشرة أيام .

وهو أول الخلفاء الفاطميين بمصر واليه تنسب القاهرة المعزية ، لأن عبده جوهرا القائد بناها حسب ما رسم له كما ذكر فى خبر بنائها .

وكان المعز عالما فاضلا جوادا حسن السيرة ، منصفا للرعية ، مغرما بالنجوم ، أقيمت له الدعوة بالمغرب كله وديار مصر والشام والحرمين وبعض أعمال العراق .

وقام من بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار ، فأقام فى الخلافة احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا ، ومات وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما ، فى الثامن والعشرين من رجب سنة ست وثمانين وثلثمائة ، بمدينة بلبيس وحمل الى القاهرة .

وقام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله أبو على المنصور ، وكانت مدة خلافته الى أن فقد خمسا وعشرين سنة وشهرا ، وفقد وعمره ست وثلاثون سنة وسبعة أشهر فى ليلة السابع والعشرين من شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة . وقد بسطت خبر العزيز والحاكم عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب .

وقام من بعده ابنه الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على بن الحاكم بأمر الله . ولد بالقاهرة يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، وبويع له بالخلافة يوم عيد النحر سنة احدى عشرة وأربعمائة وعمره ست عشرة سنة .

فخرج الى صلاة العيد وعلى رأسه المظلة وحوله العساكر ، وصلى بالناس فى المصلى ، وعاد فكتب بخلافته الى الأعمال .

وشرب الخمر ، ورخص فيه للناس وفى سماع الغناء ، وشرب الفقاع ، وأكل الملوخيا وجميع الأسماك ، فأقبل الناس على اللهو .

ووزر له الخطير رئيس الرؤساء أبو الحسن عمار بن محمد ، وكان يلى ديوان الانشاء وغيره ، واستوزره الحاكم الى أن فقد ، فتولى البيعة للظاهر ، ثم قتل بعد سبعة أشهر فى ربيع الأول سنة اثنتى عشرة .

فاستوزر بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين ، وكان يتولى الشرطة ،

(*) ص٣٥٢ جـ١ ، ط.بولاق .

ثم ولى ديوان الانشاء بعد ابن حيران ، وصرف عن الوزارة فى المحرم سنة ثلاث عشرة ، وقبض عليه فى شوال وقتل ، فوجد له من العين ستمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار .

وولى بعده الوزارة الأمير شمس الملوك المكين مسعود بن طاهر .

وفى سنة أربع عشرة قلد منتخب الدولة الدزبرى متولى قيسارية ولاية فلسطين ، فكانت له مع حسان بن مفرج بن جراح الطائى حروب .

وفيها نزع السعر بمصر ، وتعذر وجود الخبز .

وفى المحرم سنة خمس عشرة لقب الخادم الأسود معضاد ، بالقائد عز الدولة وسنائها أبى الفوارس معضاد الظاهرى ، وخلع عليه .

وثار رجل من بنى الحسين ببلاد الصعيد فقبض عليه ، وأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله ، ووجد معه قطعة من جلد رأسه وقطعة من الفوطة التى كانت عليه ، فسئل عن سبب قتله اياه ، فقال : غرت لله وللاسلام . ثم قتل نفسه بسكين كانت معه ، فقطعت رأسه وسيرت الى القاهرة .

وفيها اشتد الغلاء بمصر ، وكثر نقص النيل .

وفيها قرر الشريف الكبير العجمى والشيخ نجيب الدولة الجرجراى والشيخ العميد محسن بن بدوس مع القائد معضاد ، ألا يدخل على الظاهر أحد غيرهم ، وكانوا يدخلون كل يوم خلوة ، ويخرجون فيتصرفون فى سائر أمور الدولة والظاهر مشغول بلذاته .

وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلمة ، وابن خيران صاحب الانشاء ، وداعى الدعاة ، ونقيب نقباء الطالبيين ، وقاضى القضاة ، وربما دخلوا على الظاهر فى كل عشرين يوما مرة ، ومن عداهم لا يصل الى القاهرة ألبتة . والثلاثة الأول هم الذين يقضون الأشغال ، ويمضون الأمور بعد الاجتماع عند القائد معضاد .

ومنع الناس من ذبح الأبقار لقلتها ، وعزت الأقوات بمصر ، وقلت البهائم كلها حتى بيع الرأس البقر بخمسين دينارا .

وكثر الخوف فى ظواهر البلد ، وكثر اضطراب الناس ، وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجار ، فاختلف بعضهم على بعض ، وكثر ضجيج طوائف العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا ، وتحاسد زعماء الدولة ، فقبض على العميد محسن وضرب عنقه .

واشتد الغلاء ، وفشت الأمراض ، وكثر الموت فى الناس ، وفقد الحيوان فلم يقدر على دجاجة ولا فروج ، وعز الماء لقلة الظهر . فعم البلاد من كل جهة ، وعرض الناس أمتعتهم للبيع فلم يوجد من يشتريها .

وخرج الحاج ، فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم من بركة الجب ، وأخذت أموالهم ، وقتل منهم كثير ، وعاد من بقى ، فلم يحج أحد من أهل مصر .

وتفاقم الأمر فى شدة الغلاء فصاح الناس بالظاهر : الجوع ، الجوع ياأمير المؤمنين ، لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك ، فالله الله فى أمرنا .

وطرقت عساكر بن جراح الفرما ، ففر أهلها الى القاهرة .

وأصبح الناس بمصر على أقبح حال من الأمراض والموتان وشدة الغلاء وعدم الأقوات ، وكثر الخوف من الذعار التى تكبس ... حتى انه لما عمل سماط عيد النحر بالقصر ، كبس العبيد على السماط وهم يصيحون : الجوع ، ونهبوا سائر ما كان عليه *.

ونهبت الأرياف ، وكثر طمع العبيد ونهبهم ، وجرت أمور من العامة قبيحة .

واحتاج الظاهر الى القرض ، فحمل بعض أهل الدولة اليه مالا ، وامتنع آخرون .

واجتمع نحو الألف عبد لتنهب البلد من الجوع ، فنودى بأن من تعرض له أحد من العبيد فليقتله ، وندب جماعة لحفظ البلد ، واستعد الناس ، فكانت نهبات بالساحل ، ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها الى أن خندقوا عليهم خنادق ، وعملوا الدروب على الأزقة والشوارع .

وخرج معضاد فى عسكر فطردهم ، وقبض على جماعة منهم ضرب أعناقهم ، وأخذ العبيد فى طلب الجرجراى وغيره من وجوه الدولة ، فحرسوا أنفسهم وامتنعوا فى دورهم .

(*) ص٢٥٤ جـ١ ، ط. بولاق .

وانقضت السنة والناس فى انواع من البلاء .

وفى سنة ست عشرة ، أمر الظاهر فأخرج من بمصر من الفقهاء المالكية وغيرهم ، وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير ، وجعل لمن حفظ ذلك مالا .

وفى سنة سبع عشرة ، ثار بمصر رعاف عظيم بالناس ، وكثرت زيادة النيل عن العادة ، وتصدق الظاهر بمائة ألف دينار من أجل أنه سقط عن فرسه وسلم .

وفى سنة ثمان عشرة ، وقعت الهدنة مع صاحب الروم ، وخطب للظاهر فى بلاده ، وأعاد الجامع بقسطنطينية وعمل فيه مؤذنا ، فأعاد الظاهر كنيسة قمامة بالقدس ، وأذن لمن أظهر الاسلام فى أيام الحاكم أن يعود الى النصرانية ، فرجع اليها كثير منهم .

وصرف الظاهر وزيره عميد الدولة وناصحها أبا محمد الحسن بن صالح الروذبادى ، وأقام بدله أبا القاسم على بن أحمد الجرجراى .

وفى سنة عشرين كانت فتنة بين المغاربة والأتراك قتل فيها كثير .

وفى سنة احدى وعشرين ، بويع لابن الظاهر بولاية العهد وعمره ثمانية أشهر ، وأنفق على ذلك فى خلع لأهل الدولة وطعام ونثار للعامة ما يجل وصفه .

وفى سنة اثنتين وعشرين ، تحرك السعر لنقص ماء النيل ، ثم زاد بعد أوانه بأربعة أشهر .

وفى سنة ثلاث وعشرين ، قتل الظاهر أحد الدعاة ، فاضطربت الرعية والجند ، وتحدث الناس بخلعه ، ثم سكنت الفتنة بعد انفاق مال جزيل .

وفى سنة أربع وعشرين ، ركب ولى العهد من القاهرة الى مصر وقد زينت الطرقات ، فكان اذا مر بقوم قبلوا له الأرض ، ونثر يومئذ على العامة مبلغ خمسة آلاف دينار . فكان يوما عظيما .

وفى سنة خمس وعشرين ، بث الظاهر دعاته ببغداد عند اختلاف الأتراك بها ، فكثرت دعاته هناك ، واستجاب لهم خلق كثير .

فلما كان فى سنة ست وعشرين ، كثر الوباء بمصر. ومات الظاهر للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة عن اثنتين وثلاثين سنة الا أياما ، فكانت مدة خلافته خمس عشر سنة وثمانية أشهر وأياما .

وكان مشغوفا باللهو محبا للغناء ، فتأنق الناس فى أيامه بمصر ، واتخذوا المغنيات والرقاصات ، وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما .

واتخذ حجرا لمماليكه ، وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب ، واتخذ خزانة البنود ، وأقام فيها ثلاثة آلاف صانع ، وراسل الملوك ، واستكثر من شراء الجواهر ، وكانت مملكته بأفريقية ومصر والشام والحجاز .

وغلب صالح بن مرداس على حلب فى أيامه واستولى على ما يليها ، وتغلب حسان ابن جراح على أكثر بلاد الشام ، فتضعضعت الدولة .

وقام من بعده ابنه ولى العهد وبويع له ، وهو المستنصر بالله أبو تميم معد ، ومولده فى السادس عشر من جمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة ، وبويع للخلافة للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين ، وعمره يومئذ سبع سنين ، فأقام ستين سنة وأشهرا فى الخلافة ، كانت فيها أنباء وقصص شنيعة بديار مصر .

منها أن أمه كانت أمة سوداء لتاجر يهودى يقال له أبو سعد سهل بن هارون التسترى ، فابتاعها منه الظاهر ، واستولدها المستنصر . فلما أفضت الخلافة اليه استدنت أمه أبا سعد ورقته درجة علية . وكان الوزير يومئذ أبا القاسم الجرجراى ، فلم يتمكن أبو سعد من اظهار ما فى نفسه حتى مات الجرجراى .

وتولى أبو منصور صدقة بن يوسف العلاجى الوزارة ، فانبسطت يد أبى سعد ، وصار العلاجى يأتمر بأمره ، فعمل عليه وقتله كما ذكر فى خبر خزانة البنود . فحقدت أم المستنصر على العلاجى وصرفته عن الوزارة ، واستقر أبو البركات صفى الدين الحسين بن محمد بن أحمد الجرجراى فى الوزارة .

وفى سنة أربعين صار ناصر الدولة الحسين ابن حمدان ، متولى دمشق ، بالعساكر الى حلب ، وحارب متوليها ثمال بن صالح بن مرداس ، ثم رجع بغير طائل . فقلد مظفر الصقلبى دمشق ، وقبض على ابن حمدان وصادره ، واعتقله بصور ثم بالرملة .

وخرج أمير الأمراء رفق الخادم على عسكر تبلغ عدته نحو الثلاثين ألفا ، بلغت النفقة عليه أربعمائة ألف دينار ، يريد الشام ومحاربة بنى مرداس .

وفى المحرم سنة احدى وأربعين ، صرف قاضى القضاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان عن القضاء بعد ما باشره ثلاث عشرة سنة وشهرا وأربعة أيام ، وتقلد وظيفة القضاء بعده القاضى الأجل خطير الملك أبو محمد البازورى .

وفيها * حارب رفق بنى مرداس ، فظفروا به وأسروه فمات بقلعة حلب ، فأفرج عن ابن حمدان وبقى بالحضرة ، وقبض على الوزير أبى البركات الجرجراى ونفى الى الشام ، وعمل أبو الفضل صاعد بن مسعود واسطة لا وزيرا ، ثم قلد قاضى القضاة أبو محمد البازورى الوزارة مع وظيفة القضاء ، ولقب بسيد الوزراء .

وفى سنة اثنتين وأربعين ، كانت حروب البحيرة ، واخراج بنى قرة منها ، وانزال بنى سنبس بعدهم بها . وفيها دعا على بن محمد الصليحى باليمن للمستنصر ، وبعث اليه بمال النجوة والهدن .

وفى سنة أربع وأربعين ، كتب ببغداد محاضر بالقدح فى نسب الخلفاء المصريين ، ونفيهم من الانتساب الى على بن أبى طالب ، وسيرت الى الآفاق .

وقصر مد النيل ، فتحرك السعر بمصر . ثم قصر أيضا مد النيل فى سنة ست وأربعين ، فقوى الغلاء ، وكثر الموت فى الناس .

(*) ص٢٥٥ جـ١ ، ط. بولاق .

وفى سنة ثمان وأربعين ، خرج أبو الحارث البساسيرى من بغداد منتميا للمستنصر ، فسيرت اليه الأموال والخلع .

وفى سنة ثمان وأربعين عادت حلب الى مملكة المستنصر .

وفى سنة خمسين قبض على الوزير الناصر للدين أبى محمد البازورى ، وتقلد بعده الوزارة أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى ابن عبد الله بن محمد ، وولى القضاء بعد البازورى أبو على أحمد بن عبد الحكم ، ثم صرف بعبد الحاكم المليحى .

وفيها أخذ البساسيرى بغداد ، وأقام فيها الخطبة للمستنصر ، وفر الخليفة القائم بأمر الله العباسى الى قريش بن بدران ، فبعث به الى غانة ، وسيرت ثياب القائم وعمامته وغير ذلك من الأموال الى مصر .

وفيها سار ناصر الدولة الى دمشق أميرا عليها .

وفى سنة احدى وخمسين ، أقيمت دعوة المستنصر بالبصرة وواسط وجميع تلك الأعمال ، فقدم طغريل الى بغداد ، وأعاد الخليفة القائم بعد ما خطب للمستنصر ببغداد أربعون خطبة ، وقتل البساسيرى .

وفيها قطعت خطبة المستنصر أيضا من حلب ، فسار اليها ابن حمدان وحارب أهلها ، فانكسر كسرة شديدة شنيعة ، وعاد الى دمشق .

وفيها صرف أبو الفرج بن المغربى عن الوزارة ، وعبد الحاكم عن القضاء ، وأعيد

الى الوزارة أبو الفرج البابلى ، واستقر فى وظيفة القضاء أحمد بن أبى زكرى .

وفى سنة ثلاث وخمسين ، كثر صرف الوزراء والقضاة وولايتهم ، لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة وتقدم الأراذل ، بحيث كان يصل اليه فى كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المرافعات والسعايات . فاشتبهت عليه الأمور ، وتناقضت الأحوال ، ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم ، وخربت الأعمال وقل ارتفاعها ، وتغلب الرجال على معظمها مع كثرة النفقات والاستخفاف بالأمور وطغيان الأكابر .

الى أن آل الأمر الى حدوث الشدة العظمى كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب ، وكان من قدوم أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ست وستين وأربعمائة وقيامه بسلطنة مصر ، ما ذكر فى ترجمته عند ذكر أبواب القاهرة .

فلم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش ، ملجما عن التصرف الى أن مات فى سنة سبع وثمانين ، فأقام العسكر من بعده فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه ، فباشر الأمور يسيرا .

ومات المستنصر ليلة الخميس لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة سبع وثمانين عن سبع وستين سنة وخمسة أشهر . منها فى الخلافة ستون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام ، مرت فيها أهوال عظيمة ، وشدائد آلت به الى أن جلس على نخ ، وفقد القوت فلم يقدر عليه ، حتى كانت امرأة من الأشراف تتصدق عليه فى كل يوم بقعب فيه فتيت ، فلا يأكل سواه مرة فى كل يوم . وقد مر فى غير موضع من هذا الكتاب كثير من أخباره .

فلما مات المستنصر ، أقام الأفضل بن أمير الجيوش ، فى الخلافة من بعده ، ابنه المستعلى بالله أبا القاسم أحمد . وكان مولده فى العشرين من المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة ، فخالف عليه أخوه نزار وفر الى الاسكندرية ، وكان القائم بالأمور كلها الأفضل ، فحاربه حتى ظفر به وقتله ، كما تقدم فى خبر أفتكين عند خزائن القصر .

وفى سنة تسعين وقع بمصر غلاء ووباء ، وقطعت الخطبة من دمشق للمستعلى ، وخطب بها للعباسى ، وخرج الفرنج من قسطنطينية لأخذ سواحل الشام وغيرها من أيدى المسلمين ، فملكوا انطاكية .

وفى سنة احدى وتسعين خرج الأفضل بعسكر عظيم من القاهرة ، فأخذ بيت المقدس من الأرمن ، وعاد الى القاهرة .

وفى سنة اثنتين وتسعين ، ملك الفرنج الرملة وبيت المقدس ، فخرج الأفضل بالعساكر ، وسار الى عسقلان ، فسار اليه الفرنج وقاتلوه ، وقتلوا كثيرا من أصحابه ، وغنموا منه شيئا كثيرا وحصروه ، فنجا بنفسه فى البحر وصار الى القاهرة .

وفى سنة ثلاث وتسعين ، عم الوباء أكثر البلاد ، فهلك بمصر عالم عظيم .

وفى سنة أربع وتسعين ، خرج عسكر مصر لقتال الفرنج ، وكانت بينهما حروب كثيرة .

وفى سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، مات المستعلى بالله لثلاث عشرة بقيت من صفر ، وعمره سبع وعشرون سنة وسبعة وعشرون يوما ، ومدة خلافته سبع سنين وشهران .

وفى أيامه اختلت الدولة * ، وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام ، فانها صارت بين الأتراك والفرنج ، وصارت الاسماعيلية فرقتين : فرقة نزارية تطعن فى امامة المستعلى ، وفرقة ترى صحة خلافته .

ولم يكن للمستعلى مع الأفضل أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة ، وقيل انه سم ، وقيل بل قتل سرا .

فلما مات ، أقام الأفضل من بعده فى الخلافة ابنه الآمر بأحكام الله أبا على منصورا ، وعمره خمس سنين وشهر وأيام ، فقتل الأفضل فى أيامه ، وأقام فى الخلافة تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصفا . وقد ذكرت ترجمته عند ذكر الجامع الأقمر فى ذكر الجوامع من هذا الكتاب .

ولما قتل الآمر بأحكام الله ، أقيم من بعده الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله ، وكان قد ولد بعسقلان فى المحرم سنة سبع ، وقيل فى سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ، لما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده فى أيام الشدة ، فلذلك كان يقال له ، فى أيام الآمر بأحكام الله ، الأمير عبد المجيد العسقلانى ابن عم مولانا .

(*) ص٢٥٦ جـ١ ، ط. بولاق .

ولما قتل النزارية الخليفة الآمر ، أقام برغش وهزار الملوك الأمير عبد المجيد فى دست الخلافة ، ولقباه بالحافظ لدين الله ، وأنه يكون كفيلا لمنتظر فى بطن أمه من أولاد الآمر ، واستقر هزار الملوك وزيرا . فثار العسكر وأقاموا أبا على بن الأفضل وزيرا ، وقتل هزار الملوك ، ونهب شارع القاهرة ، وذلك كله فى يوم واحد .

فاستبد أبو على بالوزارة يوم السادس عشر من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وقبض على الحافظ وسجنه مقيدا ، فاستمر الى أن قتل أبو على فى سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين ، فأخرج من معتقله ، وأخذ له العهد على أنه ولى عهد كفيل لمن يذكر اسمه ، فاتخذ الحافظ هذا اليوم عيدا سماه عيد النصر ، وصار يعمل كل سنة .

ونهبت القاهرة يومئذ ، وقام يانس صاحب الباب بالوزارة ، الى أن هلك فى ذى الحجة منها بعد تسعة أشهر ، فلم يستوزر الحافظ بعده أحدا ، وتولى الأمور بنفسه الى سنة ثمان وعشرين ، فأقام ابنه سليمان ولى عهده مقام وزير ، فلم تطل أيامه سوى شهرين ومات ، فجعل مكانه ابن حيدرة ، فحنق ابنه حسن وثار بالفتنة ، وكان من أمره ما ذكر فى خبر الحارة اليانسية من هذا الكتاب .

فلما قتل حسن ، قام بهرام الأرمنى وأخذ الوزارة فى جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ، وكان نصرانيا ، فاشتد ضرر المسلمين من النصارى ، وكثرت أذيتهم .

فسار رضوان بن ولخشى — وهو يومئذ متولى الغربية — وجمع الناس لحرب بهرام ، وسار الى القاهرة ، فانهزم بهرام ، ودخل رضوان القاهرة ، واستولى على الوزارة فى جمادى الأولى سنة احدى وثلاثين ، فأوقع بالنصارى وأذلهم ، فشكره الناس ... الا أنه كان خفيفا عجولا ، فأخذ فى اهانة حواشى الخليفة وهم بخلعه ، وقال : ما هو بامام ، وانما هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يصح .

فتوحش الحافظ منه ، وما زال يدبر عليه حتى ثارت فتنة انهزم فيها رضوان ، وخرج الى الشام فجمع وعاد فى سنة أربع وثلاثين ، فجهز له الحافظ العساكر لمحاربته ، فقاتلهم وانهزم منهم الى الصعيد ، فقبض عليه واعتقل ، فلم يستوزر الحافظ أحدا بعده ... الى أن كانت سنة ست وثلاثين ، فغلت الأسعار بمصر ، وكثر الوباء ، وامتد الى سنة سبع وثلاثين فعظم الوباء .

وفى سنة اثنتين وأربعين ، خلص رضوان من معتقله بالقصر ، وخرج من نقب وثار بجماعة ، وكانت فتنة آلت الى قتله .

وفى سنة أربع وأربعين ، ثارت فتنة بالقاهرة بين طوائف العسكر ، فمات الحافظ ليلة الخامس من جمادى الآخرة عن سبع وسبعين سنة ، منها مدة خلافته ثمانى عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما أصابته فيها شدائد كثيرة . وكان حازما سيوسا كثير المداراة ، عارفا جماعا للمال ، مغرى بعلم النجوم ، يغلب عليه الحلم .

فلما مات والفتنة قائمة ، أقيم ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور اسماعيل ، ومولده للنصف من ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فأقام فى الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر الا خمسة أيام ، وكان محكوما عليه من الوزارة .

وفى أيامه أخذت عسقلان ، فظهر الخلل فى الدولة . وقد ذكرت أخباره فى خط الخشبية عند ذكر الخطط من هذا الكتاب .

فلما قتل ، أقيم من بعده ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى . أقامه فى الخلافة بعد مقتل أبيه الوزير عباس ، وعمره خمس سنين .

فقدم طلائع بن رزيك والى الأشمونين بجموعه الى القاهرة ، ففر عباس ، واستولى طلائع على الوزارة ، وتلقب بالصالح ، وقام بأمر الدولة الى أن مات الفائز لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين عن احدى عشرة سنة وستة أشهر ويومين ، منها فى الخلافة ست سنين وخمسة أشهر وأيام لم ير فيها خيرا ، فانه لما أخرج ليقام خليفة رأى أعمامه قتلى وسمع الصراخ ، فاختل عقله وصار يصرخ حتى مات .

فأقام الصالح بن رزيك فى الخلافة بعده العاضد لدين الله أبا محمد عبد الله ابن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله . ومولده لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين * وخمسمائة ، وكان عمره يوم بويع نحو احدى عشرة سنة .

(*) ص٣٥٧ جـ١ ، طـ بولاق .

وقام الصالح بتدبير الأمور الى أن قتل فى رمضان سنة ست وخمسين ، كما ذكر فى خبره عند ذكر الجوامع .

فقام من بعده ابنه رزيك بن طلائع وحسنت سيرته ، فعزل شاور بن مجير السعدى عن ولاية قوص ، فلم يقبل العزل ، وحشد وسار على طريق الواحات فى البرية الى تروجة ، فجمع الناس وسار الى القاهرة ، فلم يثبت رزيك وفر ، فقبض عليه بأطفيح .

واستقر شاور فى الوزارة لأيام خلت من صفر سنة ثمان وخمسين ، فأقام الى أن ثار ضرغام صاحب الباب ، ففر منه الى الشام ، واستبد ضرغام بالوزارة فقتل أمراء الدولة ، وأضعفها بسبب ذهاب أكابرها .

فقدم الفرنج ونازلوا مدينة بلبيس مدة ، ودافعهم المسلمون عدة مرار حتى عادوا الى بلادهم بالساحل ، ورجع العسكر الى القاهرة وقد قتل منهم كثير .

فوصل شاور بعساكر الشام فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين ، فحاربه ضرغام على بلبيس بعساكر مصر ، وكانت لهم معه معارك انهزموا فى آخرها ، وغنم شاور ومن معه سائر ما خرجوا به — وكان شيئا جليلا — فسروا بذلك ، وساروا الى القاهرة فكانت بين الفريقين حروب آلت الى هزيمة ضرغام وقتله فى شهر رمضان منها .

فاستولى شاور على الوزارة مرة ثانية ، واختلف مع الغز القادمين معه من الشام ، وكانت له معهم حروب آلت الى أن شاور كتب الى مرى ملك الفرنج يستدعيه الى القاهرة ، ليعينه على محاربة شيركوه ومن معه من الغز ، فحضر وقد صار شيركوه فى مدينة بلبيس .

فخرج شاور من القاهرة ، ونزل هو ومرى على بلبيس ، وحصرا شيركوه ثلاثة أشهر ، ثم وقع الصلح ، فسار شيركوه بالغز الى الشام ، ورحل الفرنج ، وعاد شاور الى القاهرة فى سنة ستين وخمسمائة ، فلم يزل الى أن قدم شيركوه من الشام بالعساكر مرة ثانية فى ربيع الآخر .

فخرج شاور من القاهرة الى لقائه ، واستدعى مرى ملك الفرنج ، فسار شيركوه على الشرق وخرج من أطفيح ، فسار اليه شاور بالفرنج ، وكانت له معه الوقعة المشهورة ، فسار شيركوه بعد الوقعة من الأشمونين وأخذ الاسكندرية ، وعاد شاور الى القاهرة .

وخرج شيركوه من الاسكندرية بعد أن استخلف عليها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولم يزل يسير من الاسكندرية الى قوص وهو يجبى البلاد . فخرج شاور من القاهرة بالفرنج ، ونازل الاسكندرية ، فبلغ شيركوه ذلك ، فعاد من قوص الى القاهرة وحصرها ، ثم كانت أمور آخرها مسير شيركوه وأصحابه من أرض مصر الى الشام فى شوال .

وقد طمع الفرنج فى البلاد ، وتسلموا أسوار القاهرة ، وأقاموا فيها شحنة معه عدة من الفرنج لمقاسمة المسلمين ما يتحصل من مال البلد ، وفحش أمر شاور وساءت سيرته ، وكثر تجريه على الدماء واتلافه للأموال .

فلما كان فى سنة أربع وستين ، قوى تمكن الفرنج فى القاهرة ، وجاروا فى حكمهم بها ، وركبوا المسلمين بأنواع الاهانة ، فسار مرى يريد أخذ القاهرة ، ونزل على مدينة بلبيس وأخذها عنوة .

فكتب العاضد الى نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام يستصرخه ، ويحثه على نجدة الاسلام وانقاذ المسلمين من الفرنج . فجهز أسد الدين شيركوه فى عسكر كثير ، وجهزهم وسيرهم الى مصر ، وقد أحرق شاور مدينة مصر كما تقدم .

ونزل مرى ملك الفرنج على القاهرة ، وألح فى قتال أهلها حتى كاد أن يأخذها عنوة ، فسير اليه شاور وخادعه حتى رضى بمال يجمعه له ، فشرع فى جبايته واذا بالخبر ورد بقدوم شيركوه فرحل الفرنج عن القاهرة فى سابع ربيع الآخر .

ونزل شيركوه على القاهرة بالنز ثالث مرة ، فخلع عليه العاضد وأكرمه ، فأخذ شاور يفتك بالنز على عادته ، فكان من قتله ما ذكر فى موضعه ، وذلك فى سابع عشر ربيع الآخر المذكور .

وتقلد شيركوه وزارة العاضد ، وقام بالدولة شهرين وخمسة أيام ، ومات فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة .

ففوض العاضد الوزارة لصلاح الدين يوسف بن أيوب ، فساس الأمور ودبر لنفسه ، فبذل الأموال ، وأضعف العاضد باستنفاد ماعنده من المال . فلم يزل أمره فى ازدياد ، وأمر العاضد فى نقصان ، وصار يخطب من بعد العاضد للسلطان محمد نور الدين ، واقطع أصحابه البلاد ، وأبعد أهل مصر وأضعفهم ، واستبد بالأمور ، ومنع العاضد من التصرف ، حتى تبين للناس ما يريده من ازالة الدولة ، الى أن كان من واقعة العبيد ما ذكر ، فأبادهم وأفناهم .

ومن حينئذ تلاشى العاضد وانحل أمره ، ولم يبق له سوى اقامة ذكره فى الخطبة فقط ..

هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه فى كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك ، حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد ، فطلبه منه وألجاه الى ارساله ، وأبطل ركوبه من ذلك الوقت ، وصار لا يخرج من القصر ألبتة .

وتتبع صلاح الدين جند العاضد ، وأخذ دور الأمراء واقطاعاتهم فوهبها لأصحابه ، وبعث الى أبيه واخوته وأهله فقدموا من الشام عليه .

فلما كان فى سنة ست وستين أبطل المكوس من ديار مصر ، وهدم دار المعونة بمصر ، وعمرها * مدرسة للشافعية ، وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية ، وعزل قضاة مصر الشيعة ، وقلد القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى ، وجعل اليه الحكم فى اقليم مصر كله . فعزل سائر القضاة ، واستناب قضاة شافعية ، فتظاهر الناس من تلك السنة بمذهب مالك والشافعى رضى الله عنهما ، واختفى مذهب الشيعة الى أن نسى من مصر .

(*) ص٤٥٨ جـ١ ، ط. بولاق ه

وأخذ فى غزو الفرنج ، فخرج الى الرملة وعاد فى ربيع الأول ، ثم سار الى أيلة ، ونازل قلعتها حتى أخذها من الفرنج فى ربيع الآخر ، ثم سار الى الاسكندرية ولم شعث سورها وعاد ، وسير نوران شاه ، فأوقع بأهل الصعيد ، وأخذ منهم ما لا يمكن وصفه كثرة وعاد .

فكثر القول من صلاح الدين وأصحابه فى ذم العاضد ، وتحدثوا بخلعه واقامة الدعوة العباسية بالقاهرة ومصر ، ثم قبض على سائر من بقى من أمراء الدولة وأنزل أصحابه فى دورهم فى ليلة واحدة ، فأصبح فى البلد من العويل والبكاء ما يذهل ، وتحكم أصحابه فى البلد بأيديهم ، وأخرج اقطاعات سائر المصريين لأصحابه ، وقبض على بلاد العاضد ومنع عنه سائر مواده ، وقبض على القصور وسلمها الى الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وجعله زمامها .

فضيق على أهل القصر ، وصار العاضد معتقلا تحت يده ، وأبطل من الأذان حى على خير العمل ، وأزال شعار الدولة ، وخرج بالعزم على قطع خطبة العاضد ... فمرض ومات وعمره احدى وعشرون سنة الا عشرة أيام ، منها فى الخلافة احدى عشرة سنة وستة أشهر وسبعة أيام ، وذلك فى ليلة يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة ، بعد قطع اسمه من الخطبة والدعاء للمستنجد العباسى بثلاثة أيام .

وكان كريما لين الجانب ، مرت به مخاوف وشدائد ، وهو آخر الخلفاء الفاطميين بمصر .

وكانت مدتهم بالمغرب ومصر ، منذ قام عبيد الله المهدى الى أن مات العاضد ، مائتى سنة واثنتين وسبعين سنة وأياما ، بالقاهرة منها مائتان وثمانى سنين ، فسبحان الباقى .

ذكر ما كان عليه موضع القاهرة قبل وضعها

اعلم أن مدينة الاقليم ، منذ كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه ، كانت مدينة الفسطاط — المعروفة فى زماننا بمدينة مصر — قبلى القاهرة . وبها كان محل الأمراء ومنزل ملكهم ، واليها تجبى ثمرات الأقاليم ، وتأوى الكافة .

وكانت قد بلغت من وفور العمارة ، وكثرة الناس ، وسعة الأرزاق ، والتفنن فى أنواع الحضارة ، والتأنق فى النعيم ، ما أربت به على كل مدينة فى المعمور ... حاشا بغداد ، فانها كانت سوق العالم ، وقد زاحمتها مصر وكادت أن تساميها الا قليلا .

ثم لما انقضت الدولة الاخشيدية من مصر ، واختل حال الاقليم بتوالى الغلوات وتواتر الأوباء والفنوات ، حدثت مدينة القاهرة عند قدوم جيوش المعز لدين الله أبى تميم معد أمير المؤمنين ، على يد عبده وكاتبه القائد جوهر ، فنزل حيث القاهرة الآن ، وأناخ هناك .

وكانت حينئذ رملة — فيما بين مصر وعين شمس — يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط الى عين شمس ، وكانت فيما بين

الخليج المعروف فى أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين ، ثم قيل له خليج القاهرة ، ثم هو الآن يعرف بالخليج الكبير وبالخليج الحاكمى ، وبين الخليج المعروف باليحاميم ، وهو الجبل الأحمر .

وكان الخليج المذكور فاصلا بين الرملة المذكورة وبين القرية التى يقال لها أم دنين ثم عرفت الآن بالمقس . وكان من يسافر من الفسطاط الى بلاد الشام ينزل بطرف هذه الرملة ، فى الموضع الذى كان يعرف بمنية الأصبغ ، ثم عرف الى يومنا بالخندق .

وتمر العساكر والتجار وغيرهم من منية الأصبغ الى بنى جعفر على غيفة وسلمنت الى بلبيس ، وبينها وبين مدينة الفسطاط أربعة وعشرون ميلا ، ومن بلبيس الى العلاقمة الى الفرما .

ولم يكن الدرب الذى يسلك فى وقتنا من القاهرة الى العريش فى الرمل يعرف فى القديم ، وانما عرف بعد خراب تنيس والفرما ، وازاحة الفرنج عن بلاد الساحل بعد تملكهم له مدة من السنين .

وكان من يسافر فى البر من الفسطاط الى الحجاز ينزل بجب عميرة ، المعروف اليوم ببركة الجب وببركة الحاج .

ولم يكن عند نزول جوهر بهذه الرملة فيها بنيان سوى أماكن هى بستان الاخشيد محمد بن طغج — المعروف اليوم بالكافورى — من القاهرة ، ودير للنصارى يعرف بدير العظام ، تزعم النصارى أن فيه بعض من أدرك المسيح عليه السلام ، وبقى الآن بئر هذا الدين ، وتعرف بئر العظام — والعامة تقول بئر العظمة — وهى بجوار الجامع الأقمر من القاهرة ، ومنها ينقل الماء اليه .

وكان بهذه الرملة أيضا مكان ثالث يعرف بقصير الشوك — بصيغة التصغير — تنزله بنو عذرة فى الجاهلية ، وصار موضعه عند بناء القاهرة يعرف بقصر الشوك من جملة القصور الزاهرة ... هذا الذى اطلعت عليه أنه كان فى موضع القاهرة قبل بنائها بعد الفحص والتفتيش .

وكان النيل حينئذ بشاطىء المقس يمر من موضع الساحل القديم بمصر — الذى هو الآن * سوق المعاريج ، وحمام طن ، والمراغة ، وبستان الجرف ، وموردة الحلفاء ، ومنشأة المهرانى — على ساحل الحمراء ، وهى موضع قناطر السباع ، فيمر النيل بساحل الحمراء الى المقس ، موضع جامع المقس الآن ، وفيما بين الخليج وبين ساحل النيل بساتين الفسطاط .

فاذا صار النيل الى المقس ، حيث الجامع الآن ، مر من هناك على طرف الأرض ، التى تعرف اليوم بأرض الطبالة ، من الموضع المعروف اليوم بالجرف ، وصار الى البعل ، ومر على طرف منية الاصبغ من غربى الخليج الى المنية .

وكان فيما بين الخليج والجبل ، مما يلى بحرى موضع القاهرة ، مسجد بنى على رأس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ثم مسجد تبر الاخشيدى ، فعرف بمسجد تبر ، والعامة تقول مسجد التبن .

(*) ص٣٥٦ ج١ ، ط.بولاق

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

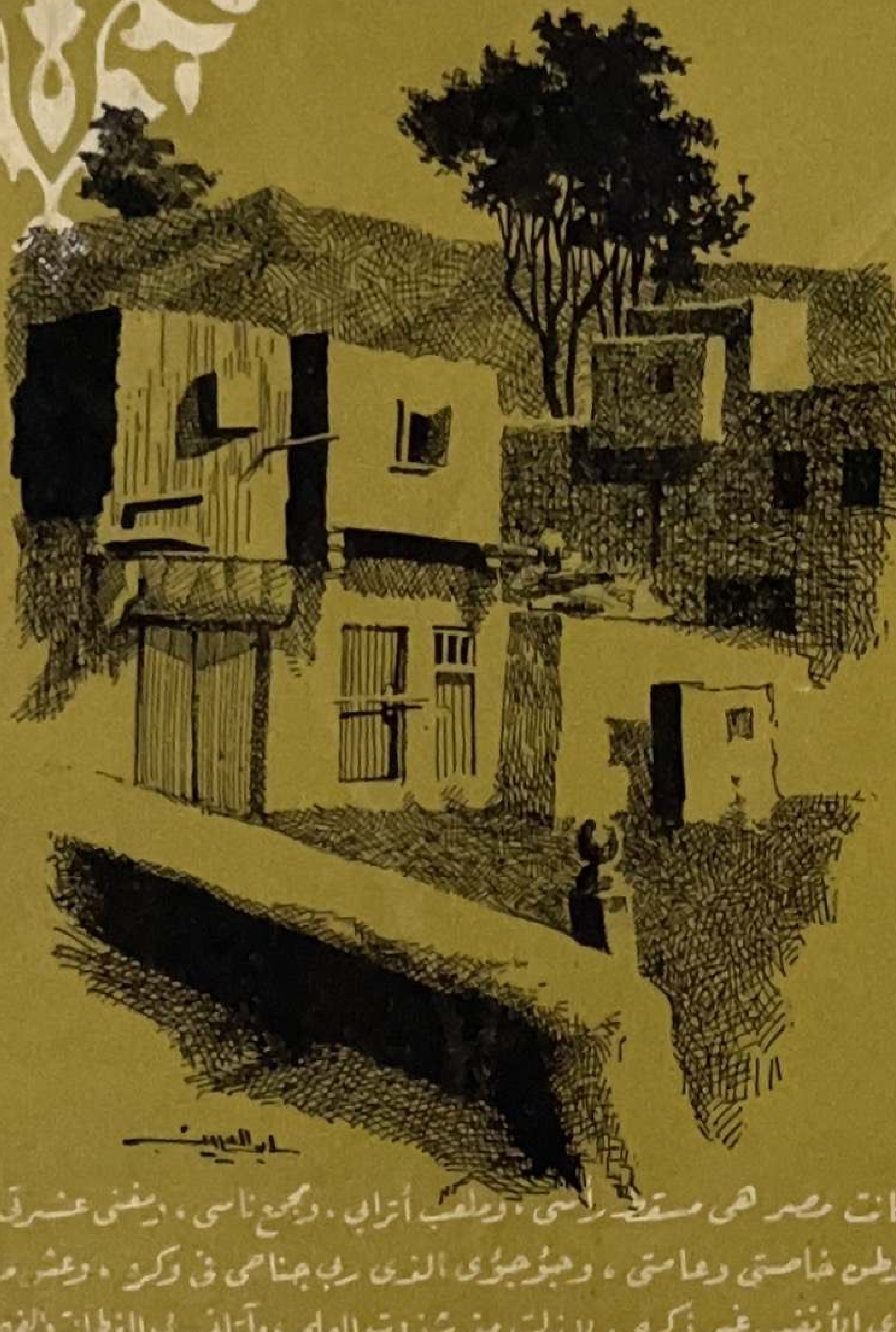
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
١٨



كتاب التحرير

«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شدوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

ولم يكن الممر من الفسطاط الى عين شمس والى الحوف الشرقى والى البلاد الشامية ، الا بحافة الخليج ، ولا يكاد يمر بالرملة التى فى موضعها الآن مدينة القاهرة كثير جدا ، ولذلك كان بها دير للنصارى ... الا أنه لما عمر الاخشيد البستان المعروف بالكافورى ، أنشأ بجانبه ميدانا وكان كثيرا ما يقيم به ، وكان كافور أيضا يقيم به .

وكان فيما بين موضع القاهرة ومدينة الفسطاط ، مما يلى الخليج المذكور ، أرض تعرف فى القديم منذ فتح مصر بالحمراء القصوى ، وهى موضع قناطر السباع وجبل يشكر ، حيث الجامع الطولونى وما دار به . وفى هذه الحمراء عدة كنائس وديارات للنصارى خربت شيئا بعد شىء ، الى أن خرب آخرها فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وجميع ما بين القاهرة ومصر ، مما هو موجود الآن من العمائر ، فانه حادث بعد بناء القاهرة ، ولم يكن هناك قبل بنائها شىء ألبتة سوى كنائس الحمراء . وسيأتى بيان ذلك مفصلا فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

ذكر حد القاهرة

قال ابن عبد الظاهر فى كتاب « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » : الذى استقر عليه الحال أن حد القاهرة من مصر من السبع سقايات ، وكان قبل ذلك من المجنونة الى مشهد السيدة رقية عرضا اهـ .

والآن تطلق القاهرة على ما حازه السور الحجر الذى طوله من باب زويلة الكبير الى باب الفتوح وباب النصر ، وعرضه من باب سعادة وباب الخوخة الى باب البرقية والباب المحروق .

ثم لما توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة ، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمائر بمدينة فسطاط مصر ، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر الى أن انتهت العمائر الى الريدانية ، وبنوا خارج باب القنطرة الى حيث الموضع الذى يقال له بولاق حيث شاطىء النيل ، وامتدوا بالعمارة من بولاق على الشاطىء الى أن اتصلت بمنشأة المهرانى ، وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق الى سفح الجبل بطول السور ... فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين : أحدهما يقال له القاهرة ، والآخر يقال له مصر .

فأما مصر فان حدها — على ما وقع عليه الاصطلاح فى زمننا هذا الذى نحن فيه — من حد أول قناطر السباع الى طرف بركة الحبش القبلى مما يلى بساتين الوزير ، وهذا هو طول حد مصر . وحدها فى العرض من شاطىء النيل ، الذى يعرف قديما بالساحل الجديد ، حيث فم الخليج الكبير وقنطرة السد الى أول القرافة الكبرى .

وأما حد القاهرة فان طولها من قناطر السباع الى الريدانية ، وعرضها من شاطىء النيل ببولاق الى الجبل الأحمر ... ويطلق على ذلك كله مصر والقاهرة .

وفى الحقيقة قاهرة المعز التى أنشأها القائد جوهر ، عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد الى مصر فى شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، انما هى ما دار عليه السور فقط . غير أن السور المذكور الذى أداره القائد جوهر ، تغير وعمل — منذ بنيت الى زمننا هذا — ثلاث مرات ، ثم حدثت العمائر فيما وراء السور من القاهرة ، فصار يقال لداخل السور القاهرة ، ولما خرج من السور ظاهر القاهرة .

وظاهر القاهرة أربع جهات :

الجهة القبلية وفيها الآن معظم العمارة ، وحد هذه الجهة طولا من عتبة باب زويلة الى الجامع الطولونى ، وما بعد الجامع الطولونى فانه من حد مصر . وحدها عرضا من الجامع الطيبرسى بشاطىء النيل غربى المريس الى قلعة الجبل ، وفى الاصطلاح الآن أن القلعة من حكم مصر .

والجهة البحرية وكانت ، قبل السبعمائة من سنى الهجرة وبعدها الى قبيل الوباء الكبير ، فيها أكثر العمائر والمساكن ثم تلاشت من بعد ذلك ، وطول هذه الجهة من باب الفتوح وباب النصر الى الريدانية . وعرضها من منية الأمراء ، المعروفة فى زمننا الذى نحن فيه بمنية الشيرج ، الى الجبل الأحمر . ويدخل فى هذا الحد مسجد تبر والريدانية .

والجهة الشرقية فانها حيث ترب أهل القاهرة ، ولم تحدث بها العمائر من التربة الا بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة . وحد هذه الجهة طولا [1] من باب القلعة المعروف بباب السلسلة الى ما يحاذى مسجد تبر فى سفح الجبل . وحدها عرضا فيما بين سور القاهرة والجبل .

والجهة الغربية فأكثر العمائر بها لم يحدث أيضا الا بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وانما كانت بساتين وبحرا . وحد هذه الجهة طولا من منية الشيرج الى منشأة المهرانى بحافة بحر النيل . وحدها عرضا من باب القنطرة وباب الخوخة وباب سعادة الى ساحل النيل .

وهذه الأربع جهات من خارج السور يطلق عليها ظاهر القاهرة .

وتحوى مصر والقاهرة من الجوامع والمساجد والربط والمدارس والزوايا ، والدور العظيمة والمساكن الجليلة ، والمناظر البهجة والقصور الشامخة ، والبساتين النضرة ، والحمامات الفاخرة ، والقياسر المعمورة بأصناف الأنواع ، والأسواق المملوءة مما تشتهى الأنفس ، والخانات المشحونة بالواردين ، والفنادق الكاظة بالسكان ، والترب التى تحكى القصور ... ما لا يمكن حصره ، ولا يعرف ما هو قدره . الا أن قدر ذلك — بالتقريب الذى يصدقه الاختبار — طولا بريدا وما يزيد عليه ، وهو من مسجد تبر الى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ، وعرضا يكون نصف بريد فما فوقه ، وهو من ساحل النيل الى الجبل .

---

[1] ص ٣٦٠ ج١ ، ط بولاق .

ويدخل فى هذا الطول والعرض بركة الحبش وما دار بها ، وسطح الجرف المسمى بالرصد ، ومدينة الفسطاط التى يقال لها مدينة مصر ، والقرافة الكبرى والصغرى ، وجزيرة الحصن المعروف اليوم بالروضة ، ومنشأة المهرانى ، وقطائع ابن طولون التى تعرف الآن بحدرة ابن قميحة ، وخط جامع ابن طولون ، والرميلة تحت القلعة ، والقبيبات وقلعة الجبل ، والميدان الأسود — الذى هو اليوم مقابر أهل القاهرة — خارج باب البرقية الى قبة النصر ، والقاهرة المعزية وهو ما دار عليه السور الحجر ، والحسينية والريدانية ، والخندق وكوم الريش وجزيرة الفيل ، وبولاق ، والجزيرة الوسطى المعروفة بجزيرة أروى ، وزربية قوصون ، وحكر ابن الأثير ، ومنشأة الكاتب ، والأحكار التى فيما بين القاهرة وساحل النيل ، وأراضى اللوق ، والخليج الكبير الذى تسميه العامة بالخليج الحاكمى ، والحبانية والصليبة والتبانة ، ومشهد السيدة نفيسة ، وباب القرافة ، وأرض الطبالة ، والخليج الناصرى ، والمقس والدكة ، وغير ذلك مما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وقد أدركنا هذه المواضع وهى عامرة ، والمشيخة تقول هى خراب بالنسبة لما كانت عليه قبل حدوث طاعون سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، الذى يسميه أهل مصر الفناء الكبير ، وقد تلاشت هذه الأماكن ، وعمها الخراب منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة . والله عاقبة الأمور .

ذكر بناء القاهرة وما كانت عليه فى الدولة الفاطمية

وذلك أن القائد جوهر الكاتب ، لما قدم الجيزة بعساكر مولاه الامام المعز لدين الله أبى تميم معد ، أقبل فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وسارت عساكره بعد زوال الشمس ، وعبرت الجسر أفواجا ، وجوهر فى فرسانه ، الى المناخ الذى رسم له المعز موضع القاهرة الآن ، فاستقر هناك واختط القصر .

وبات المصريون . فلما أصبحوا حضروا للهناء ، فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل ، وكانت فيه أزوارات غير معتدلة ، فلما شاهدها جوهر لم يعجبه ، ثم قال : قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة . فتركه على حاله وأدخل فيه دير العظام .

ويقال ان القاهرة اختطها جوهر فى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين ، واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها : فزويلة بنت الحارة المعروفة بها ، واختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية ، واختطت الروم حارتين : حارة الروم الآن ، وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر .

وقصد جوهر باختطاط القاهرة حيث هى اليوم أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها ، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره ، وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا ، وأعدها معقلا يتحصن به وتنزله عساكره ؛

والعسكر المتلاحق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة الى القاهرة وما وراءها من المدينة .

وكان مقدار القاهرة حينئذ أقل من مقدارها اليوم ، فان أبوابها كانت من الجهات الأربعة :

ففى الجهة القبلية — التى تفضى بالسالك منها الى مدينة مصر — بابان متجاوران يقال لهما بابا زويلة ، وموضعهما الآن بحذاء المسجد الذى تسميه العامة بسام بن نوح ، ولم يبق الى هذا العهد سوى عقده ، ويعرف بباب القوس . وما بين باب القوس هذا وباب زويلة الكبير ليس هو من المدينة التى أسسها القائد جوهر ، وانما هى زيادة حدثت بعد ذلك .

وكان فى جهة القاهرة البحرية — وهى التى يسلك منها الى عين شمس — بابان : أحدهما باب النصر وموضعه بأول الرحبة التى قدام الجامع * الحاكمى الآن ، وأدركت قطعة منه كانت قدام الركن الغربى من المدرسة القاصدية . وما بين هذا المكان وباب النصر الآن مما زيد فى مقدار القاهرة بعد جوهر .

والباب الآخر من الجهة البحرية باب الفتوح ، وعقده باق الى يومنا هذا مع عضادته اليسرى وعليه أسطر مكتوبة بالقلم الكوفى . وموضع هذا الباب الآن بآخر سوق المرحلين وأول رأس حارة بهاء الدين مما يلى باب الجامع الحاكمى . وفيما بين هذا العقد وباب الفتوح ، من الزيادات التى زيدت فى القاهرة من بعد جوهر .

وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة — وهى الجهة التى يسلك منها الى الجبل — بابان : أحدهما يعرف الآن بالباب المحروق ، والآخر يقال له باب البرقية ، وموضعهما دون مكانهما الآن . ويقال لهذه الزيادة من هذه الجهة « بين السورين » . وأحد البابين القديمين موجود الى الآن أسكفته .

وكان فى الجهة الغربية من القاهرة — وهى المطلة على الخليج الكبير — بابان : أحدهما باب سعادة ، والآخر باب الفرج . وباب ثالث — يعرف بباب الخوخة — أظنه حدث بعد جوهر .

وكان داخل سور القاهرة يشتمل على قصرين وجامع . يقال لأحد القصرين القصر الكبير الشرقى ، وهو منزل سكنى الخليفة ومحل حرمه ، وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة ، وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك . وهو الذى أسسه القائد جوهر ، وزاد فيه المعز ومن بعده من الخلفاء .

والآخر تجاه هذا القصر ، ويعرف بالقصر الغربى ، وكان يشرف على البستان الكافورى ويتحول اليه الخليفة فى أيام النيل للنزهة على الخليج ، وعلى ما كان اذ ذاك بجانب الخليج الغربى من البركة التى يقال لها بطن البقرة ، ومن البستان المعروف بالبغدادية ، وغيره من البساتين التى كانت تتصل بأرض اللوق وجنان الزهرى .

وكان يقال لمجموع القصرين القصور الزاهرة ، ويقال للجامع جامع القاهرة والجامع الأزهر .

فأما القصر الكبير الشرقى ، فانه كان من باب الذهب الذى موضعه الآن محراب المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وكان يعلو عقد باب الذهب منظرة يشرف الخليفة فيها من طاقات فى أوقات معروفة ، وكان باب الذهب هذا هو أعظم أبواب القصر .

ويسلك من باب الذهب المذكور الى باب البحر ، وهو الباب الذى يعرف اليوم بباب قصر بشتاك مقابل المدرسة الكاملية ، وهو من باب البحر الى الركن المخلق ، ومنه الى باب الريح .

وقد أدركنا منه عضادتيه وأسكفته ، وعليها أسطر بالقلم الكوفى ، وجميع ذلك مبنى بالحجر ، الى أن هدمه الأمير الوزير المشير جمال الدين يوسف الأستادار . وفى موضعه الآن قيسارية أنشأها المذكور بجوار مدرسته من رحبة باب العيد .

ويسلك من باب الريح المذكور الى باب الزمرذ — وهو موضع المدرسة الحجازية الآن — ومن باب الزمرذ الى باب العيد ، وعقده باق وفوقه قبة الى الآن فى درب السلامى بخط رحبة باب العيد .

وكان قبالة باب العيد هذا رحبة عظيمة فى غاية الاتساع ، تقف فيها العساكر الكثيرة من الفارس والراجل فى يومى العيدين ، تعرف برحبة العيد ، وهى من باب الريح الى خزانة البنود .

وكان يلى باب العيد السفينة ، وبجوار السفينة خزانة البنود ، ويسلك من خزانة البنود الى باب قصر الشوك .

وأدركت منه قطعة من أحد جانبيه كانت تجاه الحمام التى عرفت بحمام الأيدمرى ، ثم قيل لها فى زمننا حمام يونس ، بجوار المكان المعروف بخزانة البنود .

وقد عمل موضع هذا الباب زقاق يسلك منه الى المارستان العتيق وقصر الشوك ودرب السلامى وغيره ، ويسلك من باب قصر الشوك الى باب الديلم ، وموضعه الآن المشهد الحسينى .

وكان فيما بين قصر الشوك وباب الديلم رحبة عظيمة ، تعرف برحبة قصر الشوك ، أولها من رحبة خزانة البنود ، وآخرها حيث المشهد الحسينى الآن . وكان قصر الشوك يشرف على اصطبل الطارمة .

ويسلك من باب الديلم الى باب تربة الزعفران — وهى مقبرة أهل القصر من الخلفاء وأولادهم ونسائهم — وموضع باب تربة الزعفران فندق الخليلى فى هذا الوقت ويعرف بخط الزراكشة العتيق .

وكان فيما بين الديلم وباب تربة الزعفران ، الخوخ السبع التى يتوصل منها الخليفة الى الجامع الأزهر فى ليالى الوقدات ، فيجلس

(*) [illegible]

بسقيفة الجامع الأزهر وسمته حرمه كالمعلقة الوقيد والجمع . وبجوار الضوح السبع اصطبل الطارمة ، وهو برسم الخيل الخاص المعدة لركاب الخليفة .

وكان مقابل باب الديلم ، ومن وراء اصطبل الطارمة ، الجامع المعد لصلاة الخليفة بالناس أيام الجمع ، وهو الذي يعرف في وقتنا هذا بالجامع الأزهر ، ويسمى في كتب التاريخ بجامع القاهرة ، وقدام هذا الجامع رحبة متسعة من حد اصطبل الطارمة الى الموضع الذي يعرف اليوم بالأكفانيين .

ويسلك من باب تربة الزعفران الى باب الزهومة ، وموضعه الآن باب سر قاعة مدرسة الحنابلة من المدارس الصالحية ، وفيما بين تربة الزعفران وباب الزهومة خزائن السلاح وخزانة الدرق .

ويسلك ، من باب الزهومة الى باب الذهب المذكور أولا — وهذا هو دور القصر الشرقي الكبير .

وكان بحذاء رحبة باب العيد دار الضيافة ، وهي الدار المعروفة بدار سعيد السعداء — التي هي اليوم خانقاه الصوفية — ومقابلها دار الوزارة ، وهي حيث الزقاق المقابل لباب سعيد السعداء ، والمدرسة القراسنقرية ، وخانقاه بيبرس وما يجاورها الى باب الجوانية .

وما وراء هذه الأماكن ، وبجوار دار الوزارة ، الحجر ، وهي من حذاء دار الوزارة بجوار باب الجوانية الى باب النصر القديم .

(١) [illegible]

ومن وراء دار الوزارة المناخ السعيد ، ويجاوره حارة العطوفية ، وحارة الروم الجوانية .

وكان جامع الخطبة — الذي يعرف اليوم بجامع الحاكم — خارجا عن القاهرة ، وفي غربيه الزيادة التي هي باقية الى اليوم ، وكانت أهراء لخزن الغلال التي تختزن بالقاهرة كما هي عادة الحصون .

وكان في غربي الجامع الأزهر حارة الديلم ، وحارة الروم البرانية ، وحارة الأتراك — وهي تعرف اليوم بدرب الأتراك — وحارة الباطلية .

وفيما بين باب الزهومة ، والجامع الأزهر وهذه الحارات ، خزائن القصر وهي خزانة الكتب ، وخزانة الأشربة ، وخزانة السروج ، وخزانة الخيم ، وخزائن الفرش ، وخزائن الكسوات ، وخزائن دار أفتكين ، ودار الفطرة ، ودار التعبية ، وغير ذلك من الخزائن — هذا ما كان في الجهة الشرقية من القاهرة .

وأما القصر الصغير الغربي فانه موضع المارستان الكبير المنصوري الى جوار حارة برجوان . وبين هذا القصر وبين القصر الكبير الشرقي فضاء متسع يقف فيه عشرة آلاف من العساكر ، ما بين فارس وراجل ، يقال له بين القصرين .

وبجوار القصر الغربي الميدان — وهو الموضع الذي يعرف بالخرنشف — واصطبل الطارمة . وبحذاء الميدان البستان الكافوري المطل من غربيه على الخليج الكبير . ويجاور الميدان دار برجوان العزيزي ، وبحذائها رحبة الأفيال ، ودار الضيافة القديمة ، ويقال لهذه المواضع الثلاثة حارة برجوان .

ويقابل دار برجوان المنحر ، وموضعه الآن يعرف بالدرب الأصفر ، ويدخل اليه من قبالة خانقاه بيبرس . وفيما بين ظهر المنحر وباب حارة برجوان سوق أمير الجيوش ، وهو من باب حارة برجوان الآن الى باب الجامع الحاكمي .

ويجاور حارة برجوان من بحريها اصطبل الحجرية ، وهو متصل بباب الفتوح الأول ، وموضع باب اصطبل الحجرية يعرف اليوم بخان الوراقة والقيسارية ، تجاه الجملون الصغير وسوق المرحلين . وتجاه اصطبل الحجرية الزيادة ، وفيما بين الزيادة والمنحر درب الفرنجية .

وبجوار البستان الكافوري حارة زويلة ، وهي تتصل بالخليج الكبير من غربيها . وتجاه حارة زويلة اصطبل الجميزة ، وفيه خيول الخليفة أيضا . وفي هذا الاصطبل بئر زويلة ، وموضعها الآن قيسارية معقودة على البئر المذكورة ، يعلوها ربع يعرف بقيسارية يونس من خط البندقانيين .

فكان اصطبل الجميزة المذكور فيما بين القصر الغربي من بحريه وبين حارة زويلة ، وموضعه الآن قبالة باب سر المارستان المنصوري الى البندقانيين .

وبحذاء القصر الغربي من قبليه ، مطبخ القصر تجاه باب الزهومة المذكور ، والمطبخ موضعه الآن الصاغة قبالة المدارس الصالحية .

وبجوار المطبخ الحارة العدوية ، وهي من الموضع الذي يعرف بحمام خشيبة الى حيث الفندق الذي يقال له فندق الزمام . وبجوار العدوية حارة الأمراء ، ويقال لها اليوم سوق الزجاجين وسوق الحريريين الشراربيين .

ويجاور الصاغة القديمة حبس المعونة ، وهو موضع قيسارية العنبر . وتجاه حبس المعونة عقبة الصباغين وسوق القشاشين ، وهو يعرف اليوم بالخراطين . ويجاور حبس المعونة دكة الحسبة ودار العيار ، ويعرف موضع دكة الحسبة الآن بالأبزاريين . وفيما بين دكة الحسبة وحارتي الروم والديلم سوق السراجين ، ويقال له الآن الشوايين . وبطرف سوق السراجين مسجد ابن البناء الذي تسميه العامة سام بن نوح . ويجاور هذا المسجد باب زويلة .

وكان من حذاء حارة زويلة ، من ناحية باب الخوخة ، دار الوزير يعقوب بن كلس ، وصارت بعده دار الديباج ودار الاستعمال ، وموضعها الآن المدرسة الصالحية وماوراءها . وتتصل دار الديباج بالحارة الوزيرية ، والى جانب الوزيرية الميدان الآخر الى باب سعادة وفيما بين باب سعادة وباب زويلة أهراء أيضا وسطاح .

هذا ما كانت عليه صفة القاهرة في الدولة الفاطمية ، وحدثت هذه الأماكن شيئا بعد شيء . ولم تزل القاهرة دار خلافة ومنزل ملك ومعقل قتال ، لا ينزلها الا الخليفة وعساكره وخواصه الذين يشرفهم بقربه فقط .

وأما ظاهر القاهرة من جهاتها الأربع ، فانه كان في الدولة الفاطمية على ما أذكر :

أما الجهة القبلية — وهى التى فيما بين باب زويلة ومصر طولا ، وفيما بين الخليج الكبير والجبل عرضا — فانها كانت قسمين : ما حاذى يمينك اذا خرجت من باب زويلة تريد مصر ، وما حاذى شمالك اذا خرجت منه نحو الجبل .

فأما ما حاذى يمينك — وهى المواضع التى تعرف اليوم بدار التفاح ، وتحت الربع ، والشيشائين ، وقنطرة باب الخرق ، وما على حافتى الخليج من جانبيه * طولا الى الحمراء التى يقال لها اليوم خط قناطر السباع ، ويدخل فى ذلك سويقة عصفور ، وحارة الحمزيين ، وحارة بنى سوس الى الشارع ، وبركة الفيل والهلالية والمحمودية ، الى الصلبية ومشهد السيدة نفيسة — فان هذه الأماكن كلها كانت بساتين تعرف بجنان الزهرى ، وبستان سيف الاسلام وغير ذلك .

ثم حدث فى الدولة هناك حارات للسودان ، وعمر الباب الجديد — وهو الذى يعرف اليوم بباب القوس — من سوق الطيور فى الشارع عند رأس ... ... [1] ، وحدثت الحارة الهلالية ، والحارة المحمودية .

وأما ما حاذى شمالك — حيث الجامع المعروف بجامع الصالح ، والدرب الأحمر ، الى قطائع ابن طولون التى هى الآن الرميلة والميدان تحت القلعة — فان ذلك كان مقابر أهل القاهرة .

(*) ص٣٦٢ جـ١ ط بولاق .

(١) هكذا بياض فى الأصل .

وأما جهة القاهرة الغربية — وهى التى فيها الخليج الكبير ، وهى من باب القنطرة الى المقس وما جاور ذلك — فانها كانت بساتين من غربيها النيل ، وكان ساحل النيل بالمقس حيث الجامع الآن ، فيمر من المقس الى المكان الذى يقال له الجرف ، ويمضى على شالى أرض الطبالة الى البعل ، وموضع كوم الريش الى المنية .

ومواضع هذه البساتين اليوم أراضى اللوق والزهرى ، وغيرها من الحكورة التى فى بر الخليج الغربى الى بركة قرموط والخور وبولاق . وكان فيما بين باب سعادة وباب الخوخة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لا بنيان فيه ، والمناظر تشرف على ما فى غربى الخليج من البساتين التى وراءها بحر النيل .

ويخرج الناس فيما بين المناظر والخليج للنزهة ، فيجتمع هناك من أرباب البطالة واللهو ما لا يحصى عددهم ، ويمر لهم هنالك من اللذات والمسرات ما لا تسع الأوارق حكايته ، خصوصا فى أيام النيل عندما يتحول الخليفة الى اللؤلؤة ، ويتحول خاصته الى دار الذهب وما جاورها ، فانه يكثر حينئذ الملاذ بسعة الأرزاق وادرار النعم فى تلك المدة ، كما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وأما جهة القاهرة البحرية فانها كانت قسمين : خارج باب الفتوح ، وخارج باب النصر .

أما خارج باب الفتوح فانه كان هناك منظرة من مناظر الخلفاء ، وقدامها البستانان الكبيران : وأولهما من زقاق الكحل ،

وآخرهما منية مطر التى تعرف اليوم بالمطرية . ومن غربى هذه المنظرة — فى جانب الخليج الغربى — منظرة البعل فيما بين أرض الطبالة والخندق ، وبالقرب منها مناظر الخمس وجوه والتاج ذات البساتين الأنيقة المنصوبة لتنزه الخليفة .

وأما خارج باب النصر فكان به مصلى العيد التى عمل من بعضها مصلى الأموات لا غير ، والفضاء من المصلى الى الريدانية وكان بستانا عظيما ، ثم حدث فيما خرج من باب النصر تربة أمير الجيوش بدر الجمالى ، وعمر الناس الترب بالقرب منها ، وحدث فيما خرج عن باب الفتوح عمائر منها الحسينية وغيرها .

وأما جهة القاهرة الشرقية — وهى ما بين السور والجبل — فانه كان فضاء ، ثم أمر الحاكم بأمر الله أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور لتمنع السيول أن تدخل الى القاهرة ، فصار منها الكيمان التى تعرف بكيمان البرقية ، ولم تزل هذه الجهة خالية من العمارة الى أن انقرضت الدولة الفاطمية فسبحان الباقى بعد فناء خلقه .

ذكر ما صارت اليه القاهرة بعد استيلاء الدولة الأيوبية عليها

قد تقدم أن القاهرة انما وضعت منزل سكنى للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، ومعقل قتال يتحصن بها ويلتجأ اليها . وأنها ما برحت هكذا حتى كانت السنة العظمى فى خلافة المستنصر .

ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وسكن القاهرة ، وهى يباب دائرة خاوية على عروشها غير عامرة . فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن ، وكل من وصلت قدرته الى عمارة ، بأن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها ، وعمروا به المنازل فى القاهرة وسكنوها .

فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان ، الى أن انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن شادى فى سنة سبع وستين وخمسمائة ، فنقلها عما كانت عليه من الصيانة ، وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور ، وحط من مقدار قصور الخلافة وأسكن فى بعضها ، وتهدم البعض وأزيلت معالمه وتغيرت معاهده ... فصارت خططا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة .

ونزل السلطان منها فى دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل ، فكان السلطان صلاح الدين يتردد اليها ويقيم بها ، وكذلك ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر .

فلما كان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب ، تحول من دار الوزارة الى القلعة وسكنها ، ونقل سوق الخيل والجمال والحمير الى الرميلة تحت القلعة .

فلما خرب الشرق والعراق ، بهجوم عساكر التتر منذ كان جنكز خان فى أعوام بضع عشرة وستمائة ، الى أن قتل الخليفة المستعصم ببغداد فى صفر سنة ست وخمسين وستمائة ، كثر قدوم المشارقة * الى مصر ، وعمرت حافتى الخليج الكبير وما دار على بركة الفيل ، وعظمت عمارة الحسينية ...

فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة بعد سنة احدى عشرة وسبعمائة ، واستجد بقلعة الجبل المبانى الكثيرة من القصور وغيرها ، حدثت فيما بين القلعة وقبة النصر عدة ترب ، بعد ما كان ذلك المكان فضاء يعرف بالميدان الأسود وميدان القبق .

وتزايدت العمائر بالحسينية حتى صارت من الريدانية الى باب الفتوح .

وعمر جميع ما حول بركة الفيل والصليبة الى جامع ابن طولون ، وما جاوره الى المشهد النفيسى ، وحكر الناس أرض الزهرى وما قرب منها ، وهو من قناطر السباع الى منشأة المهرانى ، ومن قناطر السباع الى البركة الناصرية الى اللوق الى المقس .

فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى ، اتسعت الخطة فيما بين المقس والدكة الى ساحل النيل ، وأنشأ الناس فيها البساتين العظيمة والمساكن الكثيرة والأسواق والجوامع والمساجد والحمامات والشون ، وهى من المواضع التى من باب البحر خارج المقس الى ساحل النيل المسمى ببولاق ، ومن بولاق الى منية الشيرج ، ومنه فى القبلة الى منشأة المهرانى .

وعمر ما خرج عن باب زويلة يمنة ويسرة من قنطرة الخرق الى الخليج ، ومن باب زويلة الى المشهد النفيسى . وعمرت القرافة من باب القرافة الى بركة الحبش طولا ، ومن القرافة الكبرى الى الجبل عرضا ... حتى انه استجد فى أيام الناصر بن قلاوون بضع وستون حكرا ، ولم يبق مكان يحكر .

واتصلت عمائر مصر والقاهرة ، فصارا بلدا واحدا يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياسر والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والشون والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمتنزهات ، متصلا جميع ذلك بعضه ببعض ، من مسجد تبر الى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ، ومن شاطىء النيل بالجيزة الى الجبل المقطم .

وما زالت هذه الأماكن ، فى كثرة العمارة وزيادة العدد ، تضيق بأهلها لكثرتهم ، وتختال عجبا بهم لما بالغوا فى تحسينها وتأنقوا فى جودتها وتنميقها ... الى أن حدث الفناء الكبير فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فخلا كثير من هذه المواضع ، وبقى كثير أدركناه .

فلما كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة وقصر جرى النيل فى مده ، وخربت البلاد الشامية بدخول الطاغية تيمورلنك وتحريقها

(*) ص٣٦٤ جـ١ ، ط. بولاق .

وقتل أهلها ، وارتفاع أسعار الديار المصرية ، وكثرة الغلاء فيها وطول مدته ، وتلاف النقود المتعامل بها وفسادها ، وكثرة الحروب والفتن بين أهل الدولة ، وخراب الصعيد وجلاء أهله عنه ، وتداعى أسفل أرض مصر من البلاد الشرقية والغربية الى الخراب ، واتضاع أمور ملوك مصر ، وسوء حال الرعية ، واستيلاء الفقر والحاجة والمسكنة على الناس وكثرة تنوع المظالم الحادثة من أرباب الدولة بمصادرة الجمهور ، وتتبع أرباب الأموال واحتجاب ما بأيديهم من المال بالقوة والقهر والغلبة ، وطرح البضائع مما يتجر فيه السلطان وأصحابه على التجار والباعة بأغلى الأثمان ، الى غير ذلك مما لا يتسع لأحد ضبطه ، ولا تسع الأوراق حكايته ... كثر الخراب بالأماكن التى تقدم ذكرها وعم سائرها ، وصارت كيمانا وخرائب موحشة مقفرة يأويها البوم والرخم ، أو مستهدمة واقعة أو آيلة الى السقوط والدثور ... سنة الله التى قد خلت فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ذكر طرف مما قيل فى القاهرة ومتنزهاتها

قال أبو الحسن على بن رضوان الطبيب : ويلى الفسطاط فى العظم وكثرة الناس القاهرة ، وهى فى شمال الفسطاط ، وفى شرقيها أيضا الجبل المقطم يعوق عنها ريح الصبا ، والنيل منها أبعد قليلا ، وجميعها مكشوف للهواء ، وان كان عمل فوق ربما عاق عن بعض ذلك .

وليس ارتفاع الأبنية بها كارتفاع الفسطاط لكن دونها كثيرا ، وأزقتها وشوارعها — بالقياس الى أزقة الفسطاط وشوارعها — أنظف وأقل وسخا وأبعد عن العفن ، وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار ، واذا هبت ريح الجنوب أخذت من بخار الفسطاط على القاهرة شيئا كثيرا ، وقرب مياه آبار القاهرة من وجه الأرض مع سخافتها موجب ضرورة أن تكون يصل اليها بالرشح من عفونة الكنف شىء ما .

وبين القاهرة والفسطاط بطائح تمتلأ من رشح الأرض فى أيام فيض النيل ، ويصب فيها بعض خرارات القاهرة ، ومياه البطائح هذه رديئة وسخة أرضها ، وما يصب فيها من العفونة يقتضى أن يكون البخار المرتفع منها على القاهرة والفسطاط زائدا فى رداءة الهواء بهما . ويطرح فى جنوب القاهرة قذر كثير نحو حارة الباطلية ، وكذلك يطرح فى وسط حارة * العبيد .

الا أنه اذا تأملنا حال القاهرة كانت — بالاضافة الى الفسطاط — أعدل وأجود هواء وأصلح حالا ، لأن أكثر عفوناتهم ترمى خارج المدينة ، والبخار ينحل منها أكثر . وكثير أيضا من أهل القاهرة يشرب من ماء النيل وخاصة فى أيام دخوله الخليج ، وهذا الماء يستقى بعد مروره بالفسطاط واختلاطه بعفوناتها .

قال وقد اقتصر أمر الفسطاط والجيزة والجزيرة : فظاهر أن أصح أجزاء المدينة

(*) ص٣٦٥ جـ١ ، ط. بولاق .

الكبرى القرافة ، ثم القاهرة والشرف وعمل حوله مع الصحراء والجيزة ، وتشمل القاهرة أصح من جميع هذه لبعده عن بخار الفسطاط وقربه من الشمال ، وأرقى موضع في المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق الى ما يلي النيل والسواحل . والى جانب القاهرة من الشمال الخندق ، وهو في حور ، تصح تنجير أيضا لهذا السبب . وأما الشرف فمجاوره للنيل لجهته أرضه .

وقال ابن سعيد في كتاب « المغرب في حلى المغرب » عن البيهقي : وأما مدينة القاهرة فهي الحالية الباهرة التي تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها ، واتخذوها وطنا لخلافتهم ومركزا لأرجائها ، فنسي الفسطاط ، وزهد فيه بعد الاغتباط .

قال : وسميت القاهرة لأنها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أميرها ، وقدروا أن منها يملكون الأرض ويستولون على قهر الأمم ، وكانوا يظهرون ذلك ويتحدثون به .

قال ابن سعيد : هذه المدينة اسمها أعظم منها ، وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ، لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين . وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية الى البحر المحيط ، وخطب له في البحرين من جزيرة العرب عند القرامطة ، وفي مكة والمدينة وبلاد اليمن وما جاورها ، وقد علت كلمته ، وسارت سير الشمس في كل بقعة ، وهبت هبوب الريح في البر والبحر ، لا سيما وقد عاين مباني أبيه المنصور في مدينة المنصورة التي الى جانب القيروان ، وعاين المهدية مدينة جده عبيد الله المهدي ، لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ، وهي ناطقة الى الآن بألسن الآثار .

ولله در القائل :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشان

واهتم من بعد الخلفاء المصريون بالزيادة في تلك القصور ، وقد عاينت فيها ايوانا يقولون انه بني على قدر ايوان كسرى الذي بالمدائن ، وكان يجلس فيه خلفاؤهم ، ولهم على الخليج الذي بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار .

وأبصرت في قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس والجبس ، ذكر لي أنهم كانوا يجددون تبييضها في كل سنة .

والمكان المعروف في القاهرة بـ « بين القصرين » هو من الترتيب السلطاني ، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين .

ولو كانت القاهرة عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه الى أمد ضيق ، وتمر في ممر كدر حرج بين الدكاكين ، اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان ذلك مما تضيق منه الصدور ، وتسخن منه العيون .

ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه أمراء الدولة، وهو في موكب جليل ، وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير ، وعظم الازدحام ، وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك في جملتهم .

وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينهما ، ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها في ذلك ، ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى ، ويدركني وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم ، ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها ، واذا احتاج الانسان الى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور الى موضع يعرف بالمقس ، وجوها لا يبرح كدرا بما تثيره الأرجل من التراب الأسود .

وقد قلت فيها حين أكثر على رفاقي من الحض على العود فيها :

يقولون سافر الى القاهرة
وما لي بها راحة ظاهره
زحام وضيق وكرب وما
تثير بها أرجل السائرة

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا وجوا مغبرا ، فتنقبض نفسه ، ويفر أنسه .

وأحسن موضع في ظواهرها للفرجة أرض الطبالة ، لا سيما أرض القرط والكتان ، فقلت * :

سقى الله أرضا كلما زرت أرضها
كساها وحلاها بزينته القرط
تجلت عروسا والمياه عقودها
وفي كل قطر من جوانبها قرط

وفيها خليج لا يزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافي :

ما زالت الأمحال تأخذه
حتى غدا كذؤابة النجم

وقلت في نوار الكتان على جانبي هذا الخليج :

انظر الى النهر والكتان يرمقه
من جانبيه بأجفان لها حدق
رأته سيفا عليه للصبا شطب
فقابلته بأحداق بها أرق
وأصبحت في يد الأرواح تنسجها
حتى غدت حلقا من فوقها حلق
فقم وزرها ووجه الأفق متضح
أو عند صفرته ان كنت تغتبق

وأعجبني في ظاهرها بركة الفيل ، لأنها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم . وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرج

(*) ص٣٦٦ ج١ ، ط. بولاق .

أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم ، فيكون بذلك لها منظر عجيب وفيها أقول :

انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت
بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والأبصار ترمقها
كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت اليها ، وقد قابلتها الشمس بالغدو ، فقلت :

انظر الى بركة الفيل التى نحرت
لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك مجنونا ببهجتها
تهيم وجدا وحبا فى بدائعها

والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة ، لقرب النيل من الفسطاط ، فالمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة .

والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط ، لأنها أجل مدارس ، وأضخم خانات ، وأعظم ديارا لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها ، فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر ، وبها الطراز وسائر الأشياء التى تتزين بها الرجال والنساء .

الا أن فى هذا الوقت ، لما اعتنى السلطان الآن ببناء قلعة الجزيرة التى أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة ، عظمت عمارة الفسطاط ، وانتقل اليها كثير من الأمراء ، وضخمت أسواقها ، وبنى فيها للسلطان أمام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة ، تنقل اليها من القاهرة سوق الأجناد التى يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك .

ومعاملة القاهرة والفسطاط بالدراهم المعروفة بالسوداء ، كل درهم منها ثلث من الدرهم الناصرى ، وفى المعاملة بها شدة وخسارة فى البيع والشراء ، ومخاصمة مع الفريقين . وكان بها فى القديم الفلوس ، فقطعها الملك الكامل ، فبقيت الى الآن مقطوعة منها .

وهى فى الاقليم الثالث ، وهواؤها ردىء لا سيما اذا هب المريسى من جهة القبلة ، وأيضا رمد العين فيها كثير ، والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما أصناف الفضلاء ، وجوامك المدارس قليلة كدرة .

وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى فى كتابة الخراج والطب . والنصارى بها يمتازون بالزنار فى أوساطهم ، واليهود بعلامة صفراء فى عمائمهم ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة .

ومآكل أهل القاهرة الدميس والصير والصحناة والبطارخ ، ولا تصنع النيدة — وهى حلاوة القمح — الا بها وبغيرها من الديار المصرية ، وفيها جوار طباخات ، أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، لهن فى الطبخ صناعة عجيبة ورياسة متقدمة .

ومطابخ السكر ، والمطابخ التى يصنع فيها الورق المنصورى ، مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة .

ويصنع فيها من الأنطاع المستحسنة مايسفر الى الشام وغيرها ، ولها من الشروب الدمياطية وأنواعها ما اختصت به ، وفيها صناع للقسى كثيرون متقدمون ، ولكن قسى دمشق بها يضرب المثل واليها النهاية .

ويسفر من القاهرة الى الشام ما يكون من أنواع الكمرانات ، وخرائط الجلد والسيور وما أشبه ذلك .

وهى الآن عظيمة آهلة ، يجبى اليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ما لا يحيط بجملته وتفصيله الا خالق الكل جل وعلا .

وهى مستحسنة للفقير الذى لا يخاف على طلب زكاة ولا ترسيما وعذابا ، ولا يطلب برفيق له اذا مات ، فيقال له : ترك عندك مالا . فربما سجن فى شأنه ، أو ضرب وعصر .

والفقير المجرد فيها مستريح من جهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود السماعات والفرج فى ظواهرها ودواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب اليه نفسه * ... يحكم فيها كيف شاء من رقص فى السوق ، أو تجريد ، أو سكر من حشيشة أو غيرها ، أو صحبة المردان وما أشبه ذلك ، بخلاف غيرها من بلاد المغرب .

وسائر الفقراء لا يعترضون بالقبض للأسطول ، الا المغاربة فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر ، فقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لا يعرف ، وهم فى القدوم عليها بين حالين : ان كان المغربى غنيا طولب بالزكاة وضيقت عليه أنفاسه حتى يفر منها . وان كان مجردا فقيرا حمل الى السجن حتى يجىء وقت الأسطول .

(*) ص٢٦٧ جـ١ ، ط. بولاق .

وفى القاهرة أزاهير كثيرة غير منقطعة الاتصال ، وهذا الشأن فى الديار المصرية تفضل به كثيرا من البلاد .

وفى اجتماع النرجس والورد فيها أقول :

من فضل النرجس وهو الذى
يرضى بحكم الورد اذ يرأس
أما ترى الورد غدا قاعدا
وقام فى خدمته النرجس

وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز والتفاح ، وأما الأجاص فقليل غال ، وكذلك الخوخ ، وفيها الورد والنرجس والنسرين واللينوفر والبنفسج والياسمين والليمون الأخضر والأصفر .

وأما العنب والتين فقليل غال ، ولكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل منه الا القليل ، ومع هذا فشراؤه عندهم فى نهاية الغلاء . وعامتها يشربون المزر الأبيض المتخذ من القمح ، حتى ان القمح يطلع عندهم سعره بسببه فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعه وكسر أوانيه .

ولا ينكر فيها اظهار أوانى الخمر ، ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ، ولا تبرج النساء العواهر ، ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب .

وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ، ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة ،

قرأت فيه من تلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك في بعض الأحيان .

وهو ضيق عليه في الجملة سائر كبيرة السارة بعالم الطرب والتهتك والخلاعة ، حتى إن المتشددين والوشاة لا يجيزون العبور به في مركب . والمرج في جانبه بالليل منظر فتان ، وكثيرا ما يخرج فيه أهل الستر بالليل . وفي ذلك أقول :

لا تركبن في خليج مصر
إلا إذا أسدل الظلام
فقد علمت الذي عليه
من عالم كلهم طغام
صفاق العيون قد أقلا
سلاح ما بينهم كلام
يا سيدي لا تسر إليه
إلا إذا هوم النيام
والليل ستر على التصابي
عليه من فضله لثام
والمرج قد بثت عليه
منها دنانير لا ترام
وهو قد امتد والمباني
عليه في خدمة قيام
فكم مرجة جنينا
هناك أثمارها الآثام

الضحى . وفيه تطاول كثير .

وقال زكي الدين الحسني من رسالة كتبها من مصر ، في شهر رجب سنة اثنتين وسبعمائة الى أخيه وهو بدمشق يتشوق اليها ، ويذكر ما فيها من المواضع والمتنزهات ، ويذم من مصر بقوله :

« فكيف يبقى لي حل في جنة النعيم ورياضها ، ويرتع في ميادين المسرات وغياضها ، فقد ألقى من سلكه يد الأقدار الى أرض ليست بذات قرار ، ويدلوا بجنتهم ذات البلد المتنوح ، والورد المتفتح ، والنشر الفائح ، والماء الطلق السلسل ، والنسيم الصحيح العليل ... جنين فواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، وتصدعتهم يد القضاء فأخذتهم بالبأساء والضراء ، وأوقعتهم بمصر وشموسها وحميها وغمومها ، وحزونها ووعورها ، وحرورها وزفيرها وسعيرها ، وكيانها ونيرانها وسودانها ، وفلاحيها وملاحيها ، ومشارها ومسارها ، ومسالكها ومهالكها ، ومحاتها وعصفورها ونورها وعشورها ، ومخاوفه نورونها وحرارة تنورها ، وتدارس طلولها ووالتي أسطولها ، وتعكر مائها وتكدر هوائها ... فلو تراهم في أرجائها التصوى كالأباعر الهمل ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل » .

فأجابه من دمشق بكتاب من جملته على لسان دمشق كأنها تخاطبه :

« ويا أيها الولد العزيز ، كيف سمحت نظرتك السليمة ، ومروءتك الكريمة ، وسيرتك السنية ، وصيرك الحافظ ، ونيتك الراقب اللاحظ ، بذم من جنيت نعيمها ، وسكنت حريمها ، وقلت مصر وشموسها ، وسقت عليها القول من كل

جانب ، واستمرت لها التكدير حتى في المشارب والمسارب ...

« وعلا ذكرها وقد باكرها نيل نيل النعيم بسعيه بليل ، النسيم بكاس من تسنيه ، وطما البحر عليها زاخرا دافقا عن بكاء السحاب وتجهيه ، وعم معظم أرضها ، وعب عبابه في طولها وعرضها ، حتى كاد يعلو رفيع قصورها ، ويتسور بسوره شامخ سورها . ومع ذا لا تراه جسورا على ضعاف جسورها ، قد طبق التهائم والأنجاد ، وغرق الآكام والوهاد ، وعلا أعلى الصعيد والصعاد ، وأعاد البر سلطانه بحرا بالازدياد ...

« فاذا ارتوى أوام أكباد البلاد ، وروى السهل والوعر والهضاب والوهاد ، وذهب املاق الأرض بكل ملقة وخليج ، وانجاب عنها فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ... بدت روضة نضرة بأملاق مقطعة ، كزمردة خضراء بلآل مرصعة : فكم من غدير مستدير كبدر منير ، ودقيق مستطيل كسيف صقيل ، وكم من قليب قلاب بماء كجلاب ، وكم من عظيم بركة حركها النسيم بلطفه وطيها عبير عنبرها فضمخها بكفه ، وزهت بزهو نيلوفرها فعرفها بعرفه ، وكم ترى من ملقة لبقة ، عليها عيون النرجس محدقة ، كصحن خد عروس منمقة ...

« والنوار قد دارت بمدام الندى كؤوسه وجالت في مراح الأفراح نفوسه ، ونجم نجمه وابتسم عروسه ، وسامره الرذاذ المنهلّ ، وباكره الطل فكلله بلؤلؤه وقلده ، ووزاره

(١) ص ٣٦٨ ج ١ ، [illegible]

النسيم المعتل فأقامه وأقعده ، ولبق أرضه ورومه فذهبه وفضضه ...

« قد تاهت برياضها الغناء ، وزهت بزخرفها وزينتها الحسناء ، وامتد بساطها الزمردي ، وانبسط مدادها الزبرجدي ، فلا يدرك أقصاه ناظر مسافر ، ولا يحيط بمنتهاه خيال ولا خاطر ...

« فلله درها من روضة مزن ، وكعبة حسن ، ومقطعات بماء غير آسن ، وحرم بحر لحجاج طيره آمن . أتاها حجيج الطير من كل فج عميق ، ملبيا داعي حسنها من كل مكان سحيق ، قد امتطى ركبها متون الرياح ، وعلا جناحها عالم الأرواح ، ووصلن الادلاج بالصباح ، وقطعن أجناح الليل بخفاق الجناح كأنهن الدراري السواري ، أو المنشآت الجواري ، أو المطايا المهاري ...

تواصل من جو حوائم نيله
صعود على حكم الطريق نزولُ

« رفاق تعاهدن على الوفاء ، وتحالفن على النعماء والبلاء ، خرجن مهاجرات من الأوطان ألوفا ، وقدمن صافات كالمصلين صفوفا ، يقدمهن دليل كأنه امام ، قد قتل طرق الآفاق خبرا واستوى لديه الاضواء والاظلام ، أبصر من زرقاء اليمامة ، وأطير من الورقاء والهامة ، وأهدى من النجم ، وأشد من السهم ... يتناجين بلغات أعجميات ، مسبحات بألحان مطربات ، فطفن في حرمها الآمن ، واغتنمن بتلك المحاسن .

« فتراها عند اقبال نوها وحومها في جوها ، ما تستقيم خطا مستقيما ، وان كانت تصطف صفا عظيما : فمنها ما يستهل هلالا ،

ومنها ما يحكى بنات نعش حالا ، ومنها ما يمشى بادلاله دالا ، ومنها ما يخط نونا نونا فيحكى حاجبا مقرونا ، ومنها ما يكتب زينا فيعيدها عينا ، ومنها ما يصور ميم الهجاء فيشاهد مبسم السماء ، ومنها ما يأتى زرافات ووحدانا ، فيبدع فى اعجابه حسنا واحسانا .

« فكم من حبل أوز معلق بالسماء يحلق الى ذلك الماء ، وأوانس عرسات أيسات كيسات ، وصور صور كأمثال حور ، وطير لقلق مكتس بديباج مصبغ ، وجليل حبرج كملح متوج ، وكركى عرض طويل كبعير كبير جميل ، وغرير غر مغرو متغير ، وسيطر شديد شويطر ، وكم ضخم الدسيعة جوال ككوهى بالقوة المنيعة صوال ، ورخام مرزم كذى امرة محتشم ، وجلالة نسر فى الشائع القائع والحاضر الواقع ، أبهى من النسر الطائر والواقع ، وعظم عقاب تم الحسن بحسنه وكل الصيد فى ضننه ، وكم من خضارى وحرمان ، وبشنون وشهرمان ، صنوان وغير صنوان ، وكم من بط على شط وخلط ، وقطقط منقط ، وغر وغرنوق ، وكرسوغ مشوق ، ونورس مستأنس ...

« وقد امتلأت بهن الآفاق ، وتكللت بتجوبهن الأملاق ، وشربن من جريالها فأسكرهن الاصطباح والاغتباق : فكم من سود كخال بخد ، وأزرق كلازورد ، وأشقر كزهر ورد ، أحمر ناصع ، وأصفر فاقع ، وأبيض ذى خضاب عندمى ، بلطيف منقار بقمى ، ومبرقش ومبقع ، ومعمم ومقنع ، وأشقر منقش ، وأرقش مرشش ، وعودى وعندى ، وصينى مسنى ، وعينين كياقوتتين قد رصعتا فى لجين ، وكم من طائر أبهى من قمر سائر ، بفرق مثل صبح سافر .

« فتراهن فى الماء صموتا وقوفا ، صفوفا عكوفا ، كصور أصنام ، أو حجارة مبددة فى آكام ، وكم من أطيار طراف ملاح لطاف ، ذوات ألحان ونضرة وألوان ، وخلق وأخلاق ، ونطق وأطواق ، وايناس مع شماس ... قد ازدانت الأرض بأصواتها ، واختلاف لغاتها وعجائب صفاتها ، فبرزت بأنواع الأعاجيب ، وتجلت بأجمل الجلابيب ، وأبدعت فى صور الاحسان ، وتصورت فى بدائع الألوان ...

« فاذا بدت زرقاء فى زهر كتانها ، مذهبة بأزهار لبسانها * مفضضة بنجوم أقحوانها ، خلعت السماء عليها خلعة جميل أردانها . واذا فاح نشر نوار قرطها ، شمت المسك الذكى من مرطها ، ورأيت لآلىء سمطها ، مبسوطة على خضر بسطها ، ومغالاتها بغالية نور فولها ، وهزاتها اذا رفل النسيم فى ذيولها ، قد رصعت أغصانه بفصوص لجينها ، ونقطه من حسنها بسواد عينها : فعيونه كعيون غزلانها فى فتكها ، وأحدقه كأحداق ولدانها من تركها .

وكم لها من طرة معتبرة ، وجبهة منورة ، ووجنة مزعفرة ، وملاءة منشورة معصفرة ، وخد مورد ، وطرف مهند ، ولماها صيغ من عقيق الشقيق ، وسكرها من ذلك الريق على التحقيق .

« وأين بزوغ بشنينها ، وامتداد يقطينها ، وأين حلاوة عرائس نخلاتها ، وطلاوة أوانس

(*) ص٣٦٩ جـ١ ، ط بولاق *

قاماتها بمشابهتها فى صفاتها ، وغرائس فسيلاتها ، وأين نضيد طلعها ، وحميد فرعها ومديد جذعها ، وفر جمارها عن غرة جمارها واخضرار أكمامها ، واحمرار لثامها ، وبنان بسرها المطرف ، وبنان نثرها المشرف ، وانتظام سرورها بابتسام منثورها ...

« وورد واديها ومنحناها ، وندى ندها ونمر حناها ، وآسى آسها ، وطيب طيب أنفاسها ، وتبرجها بأترجها وتبهرجها بنارنجها ، وتختمها بمختمها ، وتبسمها عن بلسمها ، وتشقق أبرادها عن نهود كبادها ، وتضاعف أرجها بمضعف بنفسجها ...

« وجلالة مقدارها اذا فتحت أزرارها عن جل نارها ، وطيب شميمها من أشمومها ، ونسيمها ووسميها بأوسيمها ، وجنان قليوبها وحرمان قليبها ، وأحواضها يهنيها ورياضها ، وطربتها بمطريتها ، وتميس أنسها بمقسها ، وغريب غرسها يلقسها ، وعظيم آسها بمحلق مقياسها ...

« وكريم تحيتها من قبل اليمن هبوب أنفاسها ، واجتماع أسعدها ، وارتفاع رصدها ، وسواقيها الحنانة فى سجعها ، الهتانة بسكبها من دمعها ، وجنة لوقها ، ولجة بولاقها ، وبركة فيلها من بركة نيلها ، وجزيرة ذهبها ، وقلعة الجزيرة بذهبها ...

« من عجبها حكت فلكها فى بحرها ، وأحكمت مملكتها فى برها ، وعظم جللها بقلعة جبلها ، واعتلاء أعلامها ببناء أهرامها ...

« واذا نظرت الى سعود صعودها الى سعيد صعيدها ، واغتباطها بانحطاطها الى صوب سكندريتها ودمياطها ، ألهتك عن حسن الثريا ومناطها ...

« ولا تنس الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، التى تسبق عند طياب الرياح مفوقات السهام ، واعجابها بغرباتها البحرية ، وحراقاتها الحربية ، وشوانيها وهول مبانيها ، وجلال شكلها وجمال معانيها : تبدو موشاة بالنضار الأحمر ، منقشة باللون الأفخر ، فهى كالأرقم المنمر ، أو كمتلون الشمر ، أو الطاووس الذكر ، أو الناووس البنى الأصفر ... معمرة ببأس الحديد والأحجار ، محمولة على سيح الماء التيار ، مشحونة بالرجال ، منصورة عند القتال ، مصونة بالمجن والنبال ، تبرز مذكرة بالآية النوحية ، وتضمن احراز الهمة العلية الفتحية ...

« حصون أمنع من أعز قلاع ، تطير اذا فتح لها جناح القلاع ، فتسبق وفد الريح عند الاسراع ، وتفوق سرعة السحاب عند الاتساع : فهن مع العقبان فى النيق حوم ، وهن مع البنيان فى البحر عوم ، لو أقسم من رآها ، ولو قال مشاهد معناها : ان الله نفخ فيها الروح فأحياها ، لبر فى يمينه التى أقسم وتلاها ...

« وكم من مركب ، لحسنه معجب ، وكم من سفين قوى أمين ، وخضارى جليل ، وعشارى طويل ، ومسمارى طويل جميل ، وفستاوى عكاوى ، ولكة ودرمونة ومعدية مكينة ، وسلور دقيق ، وشختور رشيق ،

وقرقور رقيق ، وزورق ذى زوارق ، وطريدة بخيل الطراد معمورة ، دهماء يحمل الجياد والأجناد مشهورة ، ومخلوف فى الآفاق بالمعروف معروف ...

« وما أحلى بنان رطبها المخضب ، ورشيق قامة قصبها المقصب ، وبهجة فوزها بطلح موزها ، وخضر أعلام أوراقها ، وصفر كرام أعلاقها ... فلا البلاغة تبلغ من احصاء فضلها مراما ، ولا الفصاحة تصوغ لوصف تشبيهها كلاما . فنسأل الله تعالى أن يكنفها بركنه الذى لا يرام ، ويحرسها بعينه التى لا تنام ، بمنه وكرمه » .

وقال الرئيس شهاب الدين أحمد بن محيى الدين يحيى بن فضل الله العمرى كاتب السر :

لمصر فضل باهر
بعيشها الرغد النضر

فى كل سفح يلتقى
ماء الحياة والخضر

وقال ابراهيم بن القاسم الكاتب — الملقب بالرشيق — يتشوق الى مصر ، وقد خرج عنها فى سنة ست وثمانين وثلثمائة ، من قصيدة :

هل الريح ان سارت مشرقة تسرى
تؤدى تحياتى الى ساكنى مصر ؟

فما خطرت الا بكيت صبابة
وحملتها ما ضاق عن حمله صدرى *

لأنى اذا هبت قبولا بنشرهم
شممت نسيم المسك من ذلك النشر

فكم لى بالأهرام أو دير نهية
مصايد غزلان المطايد والقفر

الى جيزة الدنيا وما قد تضمنت
جزيرتها ذات المواخر والجسر

وبالمقس والبستان للعين منظر
أنيق الى شاطىء الخليج الى القصر

وفى بئر دوس مستراد وملعب
الى دير مرحنا الى ساحل البحر

فكم بين بستان الأمير وقصره
الى البركة النضراء من زهر نضر

تراها كمرآة بدت فى رفارف
من السندس الموشى تنشر للتجر

وكم ليلة لى بالقرافة خلتها
لما نلت من لذاتها ليلة القدر

وقال أحمد بن رستم بن اسفهسلار الديلمى ، يخاطب الوزير نجم الدين أبا يوسف ابن الحسين المجاور ، وتوفى فى رابع عشر ذى الحجة سنة احدى وعشرين وستمائة :

حى الديار بشاطىء مقياسها
فالمقسم الفياح بين دهاسها

فالروضتين وقد تضوع عرفها
أرج البنفسج فى غضارة آسها

فمنازل العين المنيفة أصبحت
يغنى سناها عن سنا نبراسها

فخليجها لذاته مطلوبة
تسمو محاسنه علا بأناسها

حافاته محفوفة بمنازل
نزلت بها الآرام دون كناسها

(*) ص ٢٧٠ جـ ١ ، ط . بولاق .

وقال العلامة جلال الدين محمد الشيرازى المعروف بامام منكلى بغا :

حيا الحيا مصرا وسكانها
وباكر الوسمى كثبانها

وجاد صوب المزن من أرضها
معاهد الأنس وأوطانها

معاهد بالأنس معمورة
لم أنس مهما عشت احسانها

كم أيقظتنى فى ذرا دوحها
عجماء لا تفقه ألحانها

وكم نعيم قد تخيلته
فيها وكم غازلت غزلانها

وعاينت عينى بها أغيدا
منعس المقلة وسنانها

تسحر بالتفتير ألحاظه
كأن من بابل شيطانها

وكم شجت قلبى بها غادة
قد كحلت بالغنج أجفانها

اذا دعت صبا الى حبها
لا يستطيع الصب عصيانها

وكم ليال لى بها قد مضت
تسحب بالاعجاب أردانها

والهف نفسى كيف شطت بها
حوادث قوضن بنيانها

فارقتها لا عن قلى صدنى
عنها فراق الروح جسمانها

واعتضت عن غزلانها والمها
نعاج جيرون وثيرانها

ياسائلى عن حالتى بعدها
هأنذا أذكر عنوانها

ما حال من فارق أصحابه
وفارق الدنيا وجيرانها

تقلب فوق الجمر أحشاؤه
تؤجج الأشواق نيرانها

والعين لا تنفك من عبرة
ترسل فوق الخد طوفانها

ياسائق النوق يبث الثرى
كمثل بث السحب تهتانها

حى ربا مصر وجناتها
وحورها العين وولدانها

ودورها الزهر وساحاتها
وبين قصريها وميدانها

وأرضها المخصب أرجاؤها
ونيلها الزاهى وخلجانها

والروضة الفيحاء تلك التى
تجلو عن الأنفس أحزانها

ومنية السيرج لا تنسها
وقرطها الأحوى وكتانها *

والتاج والخمس وجوه التى
أضحت من الأعين انسانها

وحى يابرق وجد بالحيا
جزيرة الفيل وغيطانها

وبانها الغض ونسرينها
ووردها البكر وريحانها

وظلها الضافى وأزهارها
وماءها الصافى وغدرانها

(*) ص ٣٧١ جـ ١ ، ط . بولاق .

والصقلة الأولى من وصفها
ومن أهليها وسكانها

لم آس للأنس استيحاشها
ولا اشتياقي وإيانها

ولا أوحشت التصابي ولا
تلك الخلاعات وأزمانها

أيام لا أنفك من صبوة
أهوى القينات وألحانها

أخطر تيها في رياض الصبا
مرح الأعطاف كسلانها

وخيل لهوى في ميادينها
تجري بها الصبوة أرسانها

وحصني القاهرة مخصبة
تعطف ريح اللهو أغصانها

حاشاي أن أنقض عهدا لها
حاشاي أن أصبح خوانها

حاشاي أن أهجرها قاليا
حاشاي أن أحدث سلوانها

حاشاي أن أرضى بديلا بها
بوادي الشام وقيعانها

ومطلعها النيل وحيتانها
ومنظرها الصلد وصوانها

قد نقلت الشمس إلى أفقها
وحنت الأشواق أغصانها

وأذكرت في البعد أحبابها
فهيج التبريح أشجانها

وما لها غيرك من ملجأ
يا أوحد الدنيا وإنسانها

ذكر ما قيل في مدة بقاء القاهرة ووقت خرابها

قال العارف محيي الدين محمد بن العربي الطائي الحاتمي في اللمحة المنسوبة إليه: قاهرة مصر في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة، وتخرب سنة ثمانين وسبعمائة.

ووقفت لها على شرح لم أعرف تصنيف من هو، فإنه لم يسم في النسخة التي وقفت عليها، وهو شرح لطيف قليل الفائدة، فإنه ترك كلام المصنف فيما مضى على ما هو معروف في كتب التواريخ، ولم يبحث عن مراده فيما يستقبل، وكانت الطلبة مائلة الى معرفة ما يستقبل، أكثر من المعرفة بحال ما مضى، لكن أخبرني غير واحد من الثقات أنه وقف لهذه اللمحة على شرح كبير في مجلدين.

قال هذا الشارح: كانت بداية عمارة القاهرة والطالع في شرفها: الشمس في برج الحمل، والقمر في برج الثور وهو برج ثابت — قال: عمر القاهرة ومدتها أربعمائة واحدى وستون سنة.

قال في الأصل: وإذا نزل زحل برج الجوزاء، تموت الأقوات بمصر، وتقل أشياؤهم، وكثر غلاؤهم، ويكون الموت فيهم، ويخرج أهل برقة عن أوطانهم، لاسيما اذا قارن زحل الجوزهر، فإن الحال يكون أشد وأقوى.

قال الشارح: كان ذلك في سنة أربع وستين وستمائة، في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، فإنه نزل زحل برج الجوزاء،

توقع الغلاء. وفي آخر سنة أربع وأول سنة خمس وتسعين وستمائة، في أيام الملك العادل كتبغا، حل زحل في برج الجوزاء وكان معه الجوزهر، فكانت أشد وأقوى، وكثر الغلاء والوباء.

قال: سئل العز عن الترك: ما هم؟

قال: قوم مسلمون، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الحدود والواجبات، ويقاتلون في سبيل الله أعداء الله.

فقيل له: أتطول مدتهم؟

قال: لا تطول مدتهم.

قيل: فكيف يكون زوالهم؟

قال: يكون هكذا.

وكان الى جانبه طبق كيزان، فحركه حركة شديدة فتكسرت الكيزان، فقال: هكذا يكون زوالهم، يقتل بعضهم بعضا.

قال:

الظفر يأتي من القران العاشر
وارحل بأهلك قبل نقر الناقر

قال الشارح: أول القران العاشر في سنة خمس وثمانين وسبعمائة، وفيه تكون حالات رديئة بأرض مصر، وهذا يوافق ما في القول عن القاهرة، وتخرب في سنة خمس وثمانين وسبعمائة — يعني بداية انحطاطها من سنة خمس وثمانين وسبعمائة التي فيها القران العاشر، ويثبت في عشرين سنة التي هي أيام القران.

وقد ذكر في الربع * الآخر أربعمائة واحدى وستين سنة، وقد تخيلت أنها مدة عمر القاهرة، فإذا زدتها على تاريخ عمارتها، بلغ ذلك ثمانمائة وتسع عشرة سنة، وفي ذلك الوقت يكون زوالها، وهو ما بين سنة ثمانين وسبعمائة الى سنة تسع عشرة وثمانمائة ويكون ذلك بسبب قحط عظيم، وقلة خير، وكثرة شر حتى تخرب وضعف أهلها.

قال: قران زحل والمريخ في برج الجدي يكون في سنة سبعين وسبعمائة، فتعد لكل مائة سنة من سني الهجرة ثلاث سنين، فيكون ثلاثا وعشرين سنة، تزيدها على سبعمائة وسبعين سنة، تبلغ سبعمائة وثلاثا وتسعين سنة، ففي مثلها من سني الهجرة يكون أول أوقات خراب القاهرة. انتهى.

وتهذيب هذا القول أن زحل كلما حل برج الجوزاء، اتضعت أحوال مصر، وقلت أموالهم، وكثر الغلاء والفناء عندهم بحسب الأوضاع الفلكية. وزحل يحل في برج الجوزاء كل ثلاثين سنة شمسية، فيقيم فيه نحوا من ثلاثين شهرا.

وأنت اذا اعتبرت أمور العالم، وجدت الحال كما ذكرنا، فإنه كلما حل زحل برج الجوزاء، وقع الغلاء بمصر.

وذكر أن القران العاشر تتضع فيه أحوال القاهرة، ورأينا الأمر كما ذكرنا، فإن القران العاشر كان في سنة ست وثمانين وسبعمائة، ومدة سنيه عشرون سنة شمسية، آخرها سابع عشر رجب سنة سبع وثمانمائة. وفي

(*) ص ٢٧٢ جـ ١ ط . بولاق .

هذه المدة اتضع حال القاهرة وأهلها اتضاعا قبيحا .

ومن الأوقات المحذورة لها أيضا اقتران زحل والمريخ فى برج السرطان ، ويكون ذلك فى كل ثلاثين سنة شمسية ، ويقترنان فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، وفى مدته تنقضى الأربعمائة والاحدى والستون سنة التى ذكر أنها عمر القاهرة فى سنة تسع عشرة وثمانمائة .

وشواهد الحال اليوم تصدق ذلك ، لما عليه أهل القاهرة الآن من الفقر والفاقة وقلة المال ، وخراب الضياع والقرى ، وتداعى الدور للسقوط ، وشمول الخراب أكثر معمور القاهرة ، واختلاف أهل الدولة ، وقرب انقضاء مدتهم ، وغلاء سائر الأسعار .

ولقد سمعت عمن يرجع اليه فى مثل ذلك ، أن العمارة تنتقل من القاهرة الى بركة الحبش، فيصير هناك مدينة . والله تعالى أعلم .

ذكر مسالك القاهرة وشوارعها على ما هى عليه الآن

وقبل أن نذكر خطط القاهرة فلنبتدىء بذكر شوارعها ومسالكها ، المسلوك منها الى الأزقة والحارات ، لتعرف بها الحارات والخطط والأزقة والدروب ، وغير ذلك مما ستقف عليه ان شاء الله تعالى .

فالشارع الأعظم (قصبة القاهرة) من باب زويلة الى بين القصرين ، عليه باب الخرنفش أو الخرشتف ، ومن باب الخرنفش يتفرق من هنالك طرقان : ذات اليمين ويسلك منها الى الركن المخلق ورحبة باب العيد الى باب النصر ، وذات اليسار ويسلك منها الى الجامع الأقمر ، والى حارة برجوان الى باب الفتوح .

فاذا ابتدأ السالك بالدخول من باب زويلة ، فانه يجد يمنة الزقاق الضيق الذى يعرف اليوم بسوق الخلعيين ، وكان قديما يعرف بالخشابين ، ويسلك من هذا الزقاق الى حارة البطلية وخوخة حارة الروم البرانية .

ثم يسلك الداخل أمامه فيجد على يسرته سجن متولى القاهرة — المعروف بخزانة شمايل — وقيسارية سنقر الأشقر ودرب الصفيرة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته حمام الفاضل المعدة لدخول الرجال ، وعلى يسرته — تجاه هذه الحمام — قيسارية الأمير بهاء الدين رسلان الدوادار الناصرى ، الى أن ينتهى بين الحوانيت والرباع فوقها الى باب زويلة الأول ، ولم يبق منهما سوى عقد أحدهما ، ويعرف الآن بباب القوس .

ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته الزقاق المسلوك فيه الى سوق الحدادين والحجارين — المعروف اليوم بسوق الانماطيين وسكن اللاهى — والى المحمودية ، والى سوق الأخفاقيين ، وحارة الجودرية والصوافين والقصارين والفحامين وغير ذلك . ويجد تجاه هذا الزقاق عن يمينه المسجد المعروف قديما بابن البناء — وتسميه العامة الآن بسام بن نوح — وهو فى وسط سوق الغرابليين والمناخليين ومن معهم من الضبيين .

ثم يسلك أمامه فيجد سوق السراجين — ويعرف اليوم بالشوايين — وفى هذا السوق على يمينه الجامع الظافرى ، المعروف بجامع الفكاهين ، وبجانبه الزقاق المسلوك منه الى حارة الديلم وسوق القفاصين وسوق الطيوريين والأكفانيين القديمة المعروفة الآن بسكنى دقاقى الثياب . ويجد على يسرته الزقاق المسلوك منه الى حارة الجودرية ودرب كركامة ودكة الحسبة ، المعروفة قديما بسوق الحدادين ، وسوق الوراقين القديمة ، والى سوق القماحين ، المعروف اليوم بالأبازرة ، والى غير ذلك .

ثم يسلك أمامه الى سوق الحلاويين الآن ، فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق الكعكيين ، المعروف قديما بالقطانين وسكنى الأساكفة ، والى بابى قيسارية جهاركس ، وعن يسرته قيسارية الشرب .

ثم يسلك * أمامه الى سوق الشرابشيين ، المعروف قديما بسكن الحالقين ، وعن يمنته درب قيطون .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق الشرابشيين ، فيجد عن يمنته قيسارية أمير على ، ويجد عن يسرته سوق الجملون الكبير ، المسلوك فيه الى قيسارية ابن قرش ، والى سوق العطارين والوراقين ، والى سوق الكفتيين والصيارف والاخفافين ، والى بئر زويلة والبندقانيين ، والى غير ذلك .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق الفرايين الآن — وكان يعرف اولا بدرب البيضاء — والى درب الأسوانى والى الجامع الأزهر وغير ذلك ، ويجد عن يسرته قيسارية بنى أسامة .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق الجوخيين واللجميين ، فيجد عن يمينه قيسارية السروج ، وعن يسرته قيسارية ... ...[1] .

ثم يسلك أمامه الى سوق السقطيين والمهامزيين ، فيجد عن يمينه درب الشمسى ، ويقابله باب قيسارية الأمير علم الدين الخياط ، وتعرف اليوم بقيسارية العصفر .

ثم يسلك أمامه شاقا فى السوق المذكور ، فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق الشاشيين وعقبة الصباغين ، المعروف اليوم بالخراطين ، والى سوق الخيميين ، والى الجامع الأزهر وغير ذلك . ويجد قبالة هذا الزقاق عن يسرته قيسارية العنبر ، المعروفة قديما بحبس المعونة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته الزقاق المسلوك فيه الى سوق الوراقين وسوق الحريريين الشراربيين ، المعروف قديما بسوق الصاغة القديمة ، والى درب شمس الدولة ، والى سوق الحريريين ، والى بئر زويلة والبندقانيين ، والى سويقة الصاحب والحارة الوزيرية ، والى باب سعادة وغير ذلك .

ثم يسلك أمامه شاقا فى بعض سوق الحريريين وسوق المتعيشين — وكان قديما سكنى الدجاجين والكعكيين ، وقبل ذلك أولا

(*) ص ٣٧٢ جـ١ ، ط . بولاق .

(١) هكذا بياض فى الأصل .

سكنى السيوفيين — فيجد عن يمينه قيسارية الصنادقيين ، وكانت قديما تعرف بفندق الدبابليين . ويجد عن يسرته مقابلها دار المأمون البطائحى المعروفة بمدرسة الحنفية ، ثم عرفت اليوم بالمدرسة السيوفية ، لأنها كانت فى سوق السيوفيين .

ثم يسلك أمامه فى سوق السيوفيين ، الذى هو الآن سوق المتعيشين ، فيجد عن يمينه خان مسرور وحجرتى الرقيق ، ودكة المماليك بينهما — ولم تزل موضعا لجلوس من يعرض من المماليك الترك والروم ونحوهم للبيع الى أوائل أيام الملك الظاهر برقوق ، ثم بطل ذلك — ويجد عن يسرته قيسارية الرماحين وخان الحجر ، ويعرف اليوم هذا الخط بسوق باب الزهومة .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يسرته الزقاق والساباط المسلوك فيه الى حمام خشيبة ودرب شمس الدولة ، والى حارة العدوية المعروفة اليوم بفندق الزمام ، والى حارة زويلة وغير ذلك . ويجد بعد هذا الزقاق ، قريبا منه فى صفه ، درب السلسلة .

ومن هنا ابتداء خط بين القصرين . وكان قديما ، فى أيام الدولة الفاطمية ، مراحا واسعا ليس فيه عمارة ألبتة يقف فيه عشرة آلاف فارس .

والقصران هما موضع سكنى الخليفة : أحدهما شرقى وهو القصر الكبير ، وكان على يمنة السالك من موضع خان مسرور طالبا باب النصر وباب الفتوح . وموضعه الآن المدارس الصالحية النجمية ، والمدرسة الظاهرية الركنية ، وما فى صفها من الحوانيت والرباع الى رحبة العيد ، وما وراء ذلك الى البرقية .

ويقابل هذا القصر الشرقى القصر الغربى ، وهو القصر الصغير . ومكانه الآن المارستان المنصورى ، وما فى صفه من المدارس والحوانيت الى تجاه باب الجامع الأقمر .

فاذا ابتدأ السالك بدخول بين القصرين من جهة خان مسرور ، فانه يجد على يسرته درب السلسلة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق الأمشاطيين المقابل لمدرسة الصالحية التى للحنفية والحنابلة ، والى الزقاق الملاصق لسور المدرسة المذكورة ، المسلوك فيه الى خط الزراكشة العتيق حيث خان الخليلى وخان منجك ، والى الخوخ السبع حيث الآن سوق الأبارين ، والى الجامع الأزهر ، والى المشهد الحسينى وغير ذلك .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق السيوفيين الآن ، فيجد على يساره دكاكين السيوفيين ، وعلى يمينه دكاكين النقليين ، ظاهر سوق الكتبيين الآن ، وعلى يساره سوق الصيارف برأس باب الصاغة ، وكان قديما مطبخ القصر قبالة باب الزهومة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه باب المدارس الصالحية تجاه باب الصاغة .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه القبة الصالحية ، وبجوارها المدرسة الظاهرية الركنية . ويجد على يساره باب المارستان

المنصورى ، وفى داخله القبة المنصورية التى فيها قبور الملوك ، وتحت شبابيكها دكك القفصيات التى فيها الخواتيم ونحوها فيما بين القبة المذكورة والمدرسة الظاهرية المذكورة ، وفى داخله أيضا المدرسة المنصورية ، وتحت شبابيكها أيضا دكك القفصيات فيما بين شبابيكها وشبابيك المدرسة الصالحية التى للشافعية والمالكية ، وتحتها خيمة الغلمان بجوار قبة الصالح ، وفى داخله أيضا المارستان الكبير المنصورى المتوصل من باب سره الى حارة زويلة ، والى الخرنشف والى الكافورى والى البندقانيين وغير ذلك .

ثم يسلك من باب المارستان ، فيجد على يمنته سوق السلاح والتشابين * الآن تحت الربع المعروف بوقف أمير سعيد ، ويجد على يسرته المدرسة الناصرية الملاصقة لمئذنة القبة المنصورية .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته خان بشتاك وفوقه الربع — وعرف الآن هذا الخان بالمستخرج — ويجد على يسرته المدرسة الظاهرية الجديدة بجوار المدرسة الناصرية ، وكانت قبل انشائها مدرسة فندقا يعرف بخان الزكاة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته باب قصر بشتاك ، ويجد على يسرته المدرسة الكاملية المعروفة بدار الحديث ، وهى ملاصقة للمدرسة الظاهرية الجديدة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته الزقاق المسلوك فيه الى بيت أمير سلاح المعروف

(*) ص ٣٧٤ جـ١ ط بولاق .

بقصر أمير سلاح ، وهو الأمير فخر الدين بكتاش الفخرى الصالحى النجمى ، والى دار الأمير سلار نائب السلطنة ، والى دار الطواشى سابق الدين ومدرسته التى يقال لها المدرسة السابقية .

وكان فى داخل هذا الزقاق مكان يتوصل اليه من تحت قبو المدرسة السابقية ، يعرف بالسودوس ، فيه عدة مساكن صارت كلها اليوم دارا واحدة انشاء الأمير جمال الدين الأستادار ، وكان تجاه باب المدرسة السابقية ربع تحته فرن ، ومن ورائه عدة مساكن يعرف مكانها بالحدرة ... فهدم الأمير جمال الدين المذكور الربع وما وراءه ، وحفر فيه صهريجا ، وأنشأ به عدة آدر هى الآن جارية فى أوقافه .

وكان يسلك من باب السابقية ، على باب الربع والفرن المذكورين ، الى دهليز طويل مظلم ينتهى الى باب القصر ، تجاه سور سعيد السعداء ، ومنه يخرج السالك الى رحبة باب العيد ، والى الركن المخلق ... فهدمه الأمير جمال الدين ، وجعل مكانه قيسارية ، وركب على رأس هذا الزقاق — تجاه حمام البيسرى — دربا فى داخله دروب ليصون أمواله ، وانقطع التطرق من هذا الزقاق ، وصار دربا غير نافذ .

ويجد السالك عن يسرته قبالة هذا الزقاق — وصار دربا مدربا — باب قصر البيسرية ، وقد بنى فى وجهه حوانيت بجانبها حمام البيسرى .

ومن هنا ينقسم شارع القاهرة المذكور الى طريقين : احداهما ذات اليمين ، والأخرى ذات اليسار .

فأما ذات اليسار فانها تتمة القصبة المذكورة . فاذا مر السالك من باب حمام الأمير يسرى ، فانه يجد على يسرته باب الخرنشف ، المسلوك فيه الى باب سر البيمرية ، والى باب حارة برجوان الذى يقال له أبو تراب ، والى الخرنشف واصطبل القطبية ، والى الكافورى ، والى حارة زويلة ، والى البندقانيين وغير ذلك .

ثم يسلك أمامه فيجد سوقا — يعرف آخيرا بالوزازين والدجاجين — يباع فيه الأوز والدجاج والعصافير وغير ذلك من الطيور ، وأدركناه عامرا سوقا كبيرا ، من جملته دكان لا يباع فيها غير العصافير ، فيشتريها الصغار للعب بها . وفى هذا السوق ، على يمنة السالك ، قيسارية يعلوها ربع كانت مدة سوقا يباع فيه الكتب ، ثم صارت لعمل الجلود ، وكانت من جملة أوقاف المارستان المنصورى ، فهدمها بعض من كان يتحدث فى نظره عن الأمير أيتمش فى سنة احدى وثمانمائة ، وعمرها على ما هى عليه الآن .

وعلى يسرة السالك فى هذا السوق ربع يجرى فى وقف المدرسة الكاملية ، وكان هذا السوق يعرف قديما بالتبانين والقماحين .

ثم يمر سالكا أمامه فيجد سوق الشماعين متصلا بسوق الدجاجين ، وكان سوقا كبيرا فيه صفان عن اليمين والشمال من حوانيت باعة الشمع ... أدركته عامرا ، وقد بقى منه الآن يسير .

وفى آخر هذا السوق ، على يمنة السالك ، الجامع الأقمر ، وكان موضعه قديما سوق القماحين ، وقباله درب الخضرى . وبجانب الجامع الأقمر من شرقيه الزقاق الذى يعرف بالمحايريين ، ويسلك فيه الى الركن المخلق وغيره ، وقبالة هذا الزقاق بئر الدلاء .

ثم يسلك المار أمامه فيجد على يمنته زقاقا ضيقا ينتهى الى دور ومدرسة تعرف بالشرابشية ، يتوصل من باب سرها الى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس .

ثم يسلك أمامه فى سوق المتعيشين ، فيجد على يسرته باب حارة برجوان .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المتعيشين . وقد أدركته سوقا عظيما لا يكاد يعدم فيه شىء مما يحتاج اليه من المأكولات وغيرها ، بحيث اذا طلب منه شىء من ذلك فى ليل أو نهار وجد ، وقد خرب الآن ولم يبق منه الا اليسير .

وكان هذا السوق قديما يعرف بسوق أمير الجيوش ، وبآخره خان الرواسين ، وهو زقاق على يمنة السالك غير نافذ .

ويقابل هذا الزقاق على يسرة السالك الى باب الفتوح ، شارع يسلك فيه الى سوق يعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش ، وكان قبل اليوم يعرف بسوق الخروقيين ، ويسلك من هذا السوق الى باب القنطرة فى شارع معمور بالحوانيت من جانبيه ، ويعلوها الرباع ، وفيما بين الحوانيت دروب ذات مساكن كثيرة .

ثم يسلك أمامه من رأس سويقة أمير الجيوش ، فيجد على يمينه الجملون الصغير المعروف بجملون ابن صيرم ، وكان مسكنا للبزازين ، فيه عدة حوانيت عامرة بأصناف

الثياب أدركتها عامرة ، وفيه مدرسة ابن صيرم المعروفة بالمدرسة الصيرمية ، وفى آخره باب زيادة الجامع الحاكمى . وكان على بابها عدة حوانيت تعمل فيها الضبب التى * برسم الأبواب .

ويخرج من هذا الجملون الى طريقين : احداهما يسلك فيها الى درب الفرنجية والى دار الوكالة وشارع باب النصر ، والأخرى الى درب الرشيدى النافذ الى درب الجوانية .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته شباك المدرسة الصيرمية ، ويقابله باب قيسارية خوند أردكين الأشرفية .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المرحلين ، وكان صفين من حوانيت عامرة فيها جميع ما يحتاج اليه فى ترحيل الجمال ، وقد خرب وبقى منه قليل . وفى هذا السوق على يسرة السالك زقاق يعرف بحارة الوراقة ، وفيه أحد أبواب قيسارية خوند المذكورة وعدة مساكن . وكان مكانه يعرف قديما باصطبل الحجرية .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته أحد أبواب الجامع الحاكمى وميضأته ، ويجد باب الفتوح القديم ، ولم يبق منه سوى عقدته وشىء من عضادته ، وبجواره شارع على يسرة السالك يتوصل منه الى حارة بهاء الدين وباب القنطرة .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المتعيشين ، فيجد على يمينه بابا آخر من أبواب الجامع الحاكمى . ثم يسلك أمامه فيجد عن يسرته زقاقا بساباط ينفذ الى حارة بهاء الدين ، فيه كثير من المساكن .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه باب الجامع الحاكمى الكبير ، ويجد عن يساره فندق العادل ، ويشق فى سوق عظيم الى باب الفتوح ، وهو آخر قصبة القاهرة .

وأما ذات اليمين من شارع بين القصرين ، فان المار اذا سلك من الدرب الذى يقابل حمام البيسرى طالبا الركن المخلق ، فانه يشق فى سوق القصاصين وسوق الحصريين الى الركن المخلق ، ويباع فيه الآن النعال ، وبه حوض فى ظهر الجامع الأقمر لشرب الدواب تسميه العامة حوض النبى ، ويقابله مسجد يعرف بمراكع موسى .

وينتهى هذا السوق الى طريقين : احداهما الى بئر العظام التى تسميها العامة بئر العظمة ، ومنها ينقل الماء الى الجامع الأقمر والحوض المذكور بالركن المخلق ، ويسلك منه الى المحايريين .

والطريق الأخرى تنتهى الى الفندق المعروف بقيسارية الجلود ، ويعلوها ربع ... أنشأت ذلك خوند بركة أم الملك الأشرف شعبان بن حسين . وبجوار هذه القيسارية بوابة عظيمة قد سترت بحوانيت يتوصل منها الى ساحة عظيمة هى من حقوق المنحر ، كانت خوند المذكورة قد شرعت فى عمارتها قصرا لها ، فماتت دون اكماله .

ثم يسلك أمامه فيجد الرباع التى تعلو الحوانيت ، والقيسارية المستجدة فى مكان باب القصر الذى كان ينتهى الى مدرسة سابق

(*) ص ٣٧٥ جـ١ ، ط ، بولاق .

الدين وبين القصرين ، وكان أحد أبواب القصر ، ويعرف بباب الريح . وهذه الرباع والقيسارية من جملة انشاء الأمير جمال الدين الأستادار ، وكانت قبله حوانيت ورباعا ، فهدمها وأنشأها على ما هى عليه اليوم .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه مدرسة الأمير جمال الدين المذكور ، وكان موضعها خانا وظاهره حوانيت ، فبنى مكانها مدرسة وحوضا للسبيل وغير ذلك . ويقال لهذه الأماكن رحبة باب العيد ، ويسلك منها الى طريقين : احداهما ذات اليمين ، والأخرى ذات اليسار .

فأما ذات اليمين فانها تنتهى الى المدرسة الحجازية ، والى درب قراصيا ، والى حبس الرحبة ، والى درب السلامى المسلوك منه الى باب العيد الذى تسميه العامة بالقاهرة ، والى المارستان العتيق ، والى قصر الشوك ودار الضرب ، والى باب سر المدارس الصالحية ، والى خزانة البنود .

ويسلك من رأس درب السلامى هذا ، فى رحبة باب العيد ، الى السفينة وخط خزانة البنود ورحبة الأيدمرى والمشهد الحسينى ودرب الملوخيا والجامع الأزهر والحارة الصالحية والحارة البرقية ، الى باب البرقية والباب المحروق والباب الجديد .

وأما ذات اليسار من رحبة باب العيد ، فان المار يسلك من باب مدرسة الأمير جمال الدين الى باب زاوية الخدام ، الى باب الخانقاه المعروفة بدار سعيد السعداء ، فيجد عن يمينه زقاقا بجوار سور دار الوزارة يسلك فيه الى خرائب تتر ، والى خط الفهادين ، والى درب ملوخيا وغير ذلك .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه المدرسة القراسنقرية وخانقاه ركن الدين بيبرس ، وهما من جملة دار الوزارة وما جاور الخانقاه الى باب الجوانية .

وتجاه خانقاه بيبرس الدرب الأصفر ، وهو المنحر الذى كانت الخلفاء تنحر فيه الأضاحى .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته دار الأمير قزمان بجوار خانقاه بيبرس ، وبجوارهما دار الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير ، وقد عرفت الآن بدار خوند طولوباى زوجة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، وبجوارها حمام الأمير الأعسر المذكور ... وجميع هذا من دار الوزارة . ويجد على يسرته درب الرشيدى تجاه حمام الأعسر المسلوك فيه الى درب الفرنجية وجملون ابن صيرم .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه الشارع المسلوك فيه الى الجوانية ، والى خط الفهادين ، والى درب ملوخيا والى العطوفية . وقد خربت هذه الأماكن . ويجد على يسرته الوكالة المستجدة من انشاء الملك الظاهر برقوق .

ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته زقاقا ، يسلك فيه الى جملون ابن صيرم والى درب الفرنجية .

ثم يسلك * أمامه فيجد على يمنته دار الأمير شهاب الدين أحمد ابن خالة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ودار الأمير علم الدين سنجر الجاولى — وهما من حقوق الحجر التى كانت بها مماليك الخلفاء وأجنادهم — ويجد على يسرته وكالة الأمير قوصون .

ثم يسلك من باب الوكالة ، فيجد مقابل باب قاعة الجاولى خان الجاولى وبعدها باب النصر القديم . وأدركت فيه قطعة كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربى ، وقد زال .

ويسلك منه الى رحبة الجامع الحاكمى ، فيجد على يمنته المدرسة القاصدية ، وعلى يسرته بابى الجامع الحاكمى ، وتجاه أحدهما الشارع المسلوك فيه الى حارة العبدانية وحارة العطوفية وغير ذلك . ومن باب الجامع الحاكمى ينتهى الى باب النصر فيما بين حوانيت ورباع ودور .

فهذه صفة القاهرة الآن ، وستقف ان شاء الله تعالى على كيفية ابتداء وضع هذه الأماكن ، وما صارت اليه ، وذكر التعريف بمن نسبت اليه أو عرفت به ، على ما التقطت ذلك من كتب التواريخ ومجامع الفضلاء ، ووقفت عليه بخطوط الثقاة ، وأخبرنى بذلك من أدركته من المشيخة ، وما شاهدته من ذلك سالكا فيه سبيل التوسط فى القول بين الاكثار والاختصار . والله الموفق بمنه وكرمه لا اله غيره .

(*) ص ٣٧٦ جـ ١ ، ط . بولاق .

ذكر سور القاهرة

اعلم أن القاهرة مذ أسست عمل سورها ثلاث مرات : الأولى وضعه القائد جوهر ، والمرة الثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام الخليفة المستنصر ، والمرة الثالثة بناه الأمير الخصى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب أول ملوك القاهرة .

السور الأول : كان من لبن ، وضعه جوهر القائد على مناخه الذى نزل به هو وعساكره حيث القاهرة الآن ، فأداره على القصر والجامع .

وذلك أنه لما سار من الجيزة ، بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، بعساكره وقصد الى مناخه الذى رسمه له مولاه الامام المعز لدين الله أبو تميم معد ، واستقرت به الدار اختط القصر ، وأصبح المصريون يهنونه فوجدوه قد حفر الأساس فى الليل ، فأدار السور اللبن ، وسماها المنصورية ... الى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ونزل بها ، فسماها القاهرة .

ويقال فى سبب تسميتها ان القائد جوهرا لما أراد بناءها أحضر المنجمين ، وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبدا .

فاختاروا طالعا لوضع الأساس وطالعا لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب

بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال : اذا تحركت الأجراس ، فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة .

فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك ، فاتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا ، فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع ... فمضى ذلك ، وفاتهم ما قصدوه :

ويقال ان المريخ كان فى الطالع ، عند ابتداء وضع الأساس — وهو قاهر الفلك — فسموها القاهرة ، واقتضى نظرهم أنها لاتزال تحت القهر .

وأدخل فى دائر هذا السور بئر العظام ، وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه المعز ، وعمر القصر بترتيب ألقاه اليه المعز .

ويقال ان المعز لما رأى القاهرة لم يعجبه مكانها ، وقال لجوهر : لما فاتك عمارة القاهرة بالساحل ، كان ينبغى عمارتها بهذا الجبل ... يعنى سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد المشرف على جامع راشدة .

ورتب فى القصر جميع ما يحتاج اليه الخلفاء بحيث لا تراهم الأعين فى النقلة من مكان الى مكان ، وجعل فى ساحاته البحرة والميدان والبستان ، وتقدم بعمارة المصلى بظاهر القاهرة .

وقد أدركت من هذا السور اللبن قطعا ، وآخر ما رأيت منه قطعة كبيرة كانت فيما بين باب البرقية ودرب بطوط ، هدمها شخص من الناس فى سنة ثلاث وثمانمائة ، فشاهدت من كبر لبنها ما يتعجب منه فى زمننا ، حتى ان اللبنة تكون قدر ذراع فى ثلثى ذراع .

وعرض جدار السور عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان ، وكان بعيدا عن السور الحجر الموجود الآن ، وبينهما نحو الخمسين ذراعا . وما أحسب أنه بقى الآن من هذا السور اللبن شىء .

وجوهر هذا مملوك رومى رباه المعز لدين الله أبو تميم معد ، وكناه بأبى الحسن ، وعظم محله عنده فى سنة سبع وأربعين وثلثمائة ، وصار فى رتبة الوزارة ، فصيره قائد جيوشه .

وبعثه فى صفر منها ومعه عساكر كثيرة ، فيهم الأمير زيرى بن مناد الصنهاجى وغيره من الأكابر ، فسار الى تاهرت وأوقع بعدة أقوام وافتتح مدنا ، وسار الى فاس فنازلها مدة ولم ينل منها شيئا ، فرحل عنها الى سجلماسة وحارب ثائرا فأسره بها .

وانتهى فى مسيره الى * البحر المحيط ، واصطاد منه سمكا ، وبعثه فى قلة ماء الى مولاه المعز ، وأعلمه أنه قد استولى على ما مر به من المدائن والأمم حتى انتهى الى البحر المحيط ، ثم عاد الى فاس فألح عليها بالقتال الى أن أخذها عنوة ، وأسر صاحبها وحمله هو والثائر بسجلماسة فى قفصين مع هدية الى المعز ، وعاد فى أخريات السنة وقد عظم شأنه وبعد صيته .

(*) ص ۳۷۷ جـ ۱ ، ط . بولاق .

ثم لما قوى عزم المعز على تسيير الجيوش لأخذ مصر وتهيأ أمرها ، فقدم عليها القائد جوهرا ، وبرز الى رمادة ومعه ما ينيف على مائة ألف فارس ، وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال ، وكان المعز يخرج اليه فى كل يوم ويخلو به ، وأطلق يده فى بيوت أمواله ، فأخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه .

وخرج اليه يوما فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش ، فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال : والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن الى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا .

وأمر المعز بافراغ الذهب فى هيئة الأرحية ، وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة ، وأمر أولاده واخوته الأمراء وولى العهد وسائر أهل الدولة أن يمشوا فى خدمته وهو راكب ، وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة فى خدمته .

فلما قدم برقة افتدى صاحبها من ترجله ومشيه فى ركابه بخمسين ألف دينار ذهبا ، فأبى جوهر الا أن يمشى فى ركابه ورد المال ، فمشى .

ولما رحل من القيروان الى مصر ، فى يوم السبت رابع عشر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، أنشد محمد بن هانى فى ذلك :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع
وقد راعنى يوم من الحشر أروع

غداة كأن الأفق سد بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

فلم أدر اذ ودعت كيف أودع
ولم أدر اذ شيعت كيف أشيع

ألا ان هذا حشد من لم يذق له
غرار الكرى جفن ولا بات يهجع

اذا حل فى أرض بناها مدائنا
وان سار عن أرض غدت وهى بلقع

تحل بيوت المال حيث محله
وجم العطايا والرواق المرفع

وكبرت الفرسان لله اذ بدا
وظل السلاح المنتضى يتقعقع

وعب عباب الموكب الفخم حوله
ورق كما رق الصباح الملمع

رحلت الى الفسطاط أول رحلة
بأيمن فال بالذى أنت تجمع

فان يك فى مصر ظماء لمورد
فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ويممهم من لا يغار بنعمة
فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

ولما دخل الى مصر واختط القاهرة ، وكتب بالبشارة الى المعز ، قال ابن هانى :

تقول بنو العباس قد فتحت مصر
فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الاسكندرية جوهر
تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

ولم يزل معظما مطاعا ، وله حكم ما فتح من بلاد الشام حتى ورد المعز من المغرب الى القاهرة .

وكان جعفر بن فلاح يرى نفسه أجل من جوهر ، فلما قدم معه الى مصر سيره جوهر الى بلاد الشام فى العساكر ، فأخذ الرملة وغلب الحسن بن عبد الله بن طغج ، وسار فملك طبرية ودمشق . فلما صارت الشام له ، شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر ، فأنفذ كتبه من دمشق الى المعز وهو بالمغرب سرا من جوهر ، يذكر فيها طاعته ، ويقع فى جوهر ، ويصف ما فتح الله للمعز على يده .

فغضب المعز لذلك ، ورد كتبه كما هى مختومة ، وكتب اليه : قد أخطأت الرأى لنفسك ، نحن قد أنفذناك مع قائدنا جوهر فاكتب اليه ، فما وصل منك الينا على يده قرأناه ، ولا تتجاوزه بعد ، فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذى أردته وان كنت أهله عندنا ، ولكنا لا نستفسد جوهرا مع طاعته لنا .

فزاد غضب جعفر بن فلاح ، وانكشف ذلك لجوهر ، فلم يبعث ابن فلاح لجوهر يسأله نجدة خوفا ألا ينجده بعسكر ، وأقام مكانه لا يكاتب جوهرا بشىء من أمره ، الى أن قدم عليه الحسن بن أحمد القرمطى ، وكان من أمره ما قد ذكر فى موضعه .

ولما مات المعز ، واستخلف من بعده ابنه العزيز ، وورد الى دمشق هفتكين الشرابى من بغداد ، ندب العزيز بالله جوهرا القائد الى الشام ، فخرج اليها بخزائن السلاح والأموال والعساكر العظيمة ، فنزل على دمشق لثمان بقين من ذى القعدة سنة خمس وستين وثلثمائة ، فأقام عليها وهو يحارب أهلها الى أن قدم الحسن بن أحمد القرمطى من الأحساء * الى الشام .

فرحل جوهر فى ثالث جمادى الأولى سنة ست وستين ، فنزل على الرملة والقرمطى فى أثره فهلك ، وقام من بعده جعفر القرمطى فحارب جوهرا ، واشتد الأمر على جوهر وسار الى عسقلان ، وحصره هفتكين بها حتى بلغ من الجهد مبلغا عظيما ، فصالح هفتكين وخرج من عسقلان الى مصر ، بعد أن أقام بها وبظاهر الرملة نحوا من سبعة عشر شهرا ، فقدم على العزيز وهو يريد الخروج الى الشام .

فلما ظفر العزيز بهفتكين ، واصطنعه فى سنة ثمانين وثلثمائة ، واصطنع منجوتكين التركى أيضا ، أخرجه راكبا من القصر وحده فى سنة احدى وثمانين ، والقائد جوهر وابن عمار ومن دونهما من أهل الدولة مشاة فى ركابه ، وكانت يد جوهر فى يد ابن عمار ، فزفر ابن عمار زفرة كاد أن ينشق لها وقال : لا حول ولا قوة الا بالله .

فنزع جوهر يده منه ، وقال : قد كنت عندى ياأبا محمد أثبت من هذا ، فظهر منك انكار فى هذا المقام . لأحدثنك حديثا عسى أن يسليك عما أنت فيه ، والله ما وقف على هذا الحديث أحد غيرى ...

لما خرجت الى مصر ، وأنفذت الى مولانا المعز من أسرته ، ثم حصل فى يدى آخرون

(*) ص ٣٧٨ جـ١ ، ط ، بولاق .

اعتقلتهم ، وهم نيف على ثلثمائة أسير من مذكوريهم والمعروفين فيهم ، فلما ورد مولانا المعز الى مصر أعلمته بهم ، فقال : اعرضهم على ، واذكر فى كل واحد حاله ...

ففعلت — وكان فى يده كتاب مجلد يقرأ فيه — فجعلت آخذ الرجل من يد الصقالبة ، وأقدمه اليه وأقول : هذا فلان ومن حاله وحاله ، فيرفع رأسه وينظر اليه ويقول : يجوز . ويعود الى قراءة مافى الكتاب ، حتى أحضرت له الجماعة ، وكان آخرهم غلاما تركيا ، فنظر اليه وتأمله ، ولما ولى أتبعه بصره ...

فلما لم يبق أحد قبلت الأرض وقلت : يامولانا ، رأيتك فعلت لما رأيت هذا التركى ما لم تفعله مع من تقدمه ...

فقال : ياجوهر يكون عندك مكتوما حتى ترى . انه يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتفق له فتوحات عظيمة فى بلاد كثيرة ، ويرزقه الله على يده ما لم يرزقه أحد منا مع غيره .

وأنا أظن أنه ذاك الذى قال لى مولانا المعز ، ولا علينا اذا فتح الله لموالينا على أيدينا أو على يد من كان ...

ياأبا محمد لكل زمان دولة ورجال ، أنريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا ؟ لقد أرجل لى مولانا المعز ، لما سرت الى مصر ، أولاده واخوته وولى عهده وسائر أهل دولته ، فتعجب الناس من ذلك ، وهاأنا اليوم أمشى راجلا بين يدى منجوتكين . أعزونا وأعزوا بنا غيرنا ، وبعد هذا فأقول : اللهم قرب أجلى ومدتى ، فقد أنفت على الثمانين أو أنا فيها .

فمات فى تلك السنة . وذلك أنه اعتل ، فركب اليه العزيز بالله عائدا ، وحمل اليه قبل ركوبه خمسة آلاف دينار ومرتبة مثقل ، وبعث اليه الأمير منصور بن العزيز بالله خمسة آلاف دينار .

وتوفى يوم الاثنين لسبع بقين من ذى القعدة سنة احدى وثمانين وثلثمائة . فبعث اليه العزيز بالحنوط والكفن ، وأرسل اليه الأمير منصور بن العزيز أيضا الكفن ، وأرسلت اليه السيدة العزيزية الكفن ، فكفن فى سبعين ثوبا ما بين مثقل ووشى مذهب ، وصلى عليه العزيز بالله ، وخلع على ابنه الحسين وحمله ، وجعله فى مرتبة أبيه ، ولقبه بالقائد ابن القائد ، ومكنه من جميع ما خلفه أبوه .

وكان جوهر عاقلا ، محسنا الى الناس ، كاتبا بليغا . فمن مستحسن توقيعاته على قصة رفعت اليه بمصر : « سوء الاجترام أوقع بكم حلول الانتقام ، وكفر الانعام أخرجكم من حفظ الذمام . فالواجب فيكم ترك الايجاب ، واللازم لكم ملازمة الاحتساب ، لأنكم بدأتم فأسأتم ، وعدتم فتعديتم . فابتداؤكم ملوم ، وعودكم مذموم ، وليس بينهما فرجة الا تقتضى الذم لكم والاعراض عنكم ، ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم » .

ولما مات رثاه كثير من الشعراء .

السور الثانى : بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ثمانين وأربعمائة ، وزاد فيه الزيادات التى فيما بين بابى زويلة وباب زويلة

الكبير ، وفيما بين باب الفتوح الذى عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن ، وزاد عند باب النصر أيضا جميع الرحبة التى تجاه جامع الحاكم الآن الى باب النصر ، وجعل السور من لبن ، وأقام الأبواب من حجارة .

وفى نصف جمادى الآخرة سنة ثمانى عشرة وثمانمائة ، ابتدىء بهدم السور الحجر فيما بين باب زويلة الكبير وباب الفرج ، عندما هدم الملك المؤيد شيخ الدور ليبنى جامعه ، فوجد عرض السور فى الأماكن نحو العشرة أذرع .

السور الثالث : ابتدأ فى عمارته السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة ست وستين وخمسائة ، وهو يومئذ على وزارة العاضد لدين الله . فلما كانت سنة تسع وستين وقد استولى على المملكة ، انتدب لعمل السور الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن .

وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سورا واحدا ، فزاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب القنطرة الى باب الشعرية ، ومن باب الشعرية الى باب البحر .

وبنى قلعة المقس وهى برج كبير ، وجعله على النيل بجانب جامع المقس ، وانقطع السور من هناك ، وكان فى أمله مد السور من المقس الى أن يتصل * بسور مصر .

وزاد فى سور القاهرة قطعة مما يلى باب النصر ، ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير ، ليتصل بسور قلعة الجبل ، فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة لموته . والى الآن آثار الجدر ظاهرة لمن تأملها فيما بين آخر السور الى جهة القلعة . وكذلك لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مصر .

وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة الآن تسعة وعشرين ألف ذراع وثلثمائة ذراع وذراعين بذراع العمل ، وهو الذراع الهاشمى : من ذلك ما بين قلعة المقس على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع ، ومن قلعة المقس الى حائط قلعة الجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلثمائة واثنان وتسعون ذراعا ، ومن جانب حائط قلعة الجبل من جهة مسجد سعد الدولة الى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع ، ومن وراء القلعة بجبال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع . وذلك طول قوسه فى أبراجه من النيل الى النيل .

وقلعة المقس المذكورة كانت برجا مطلا على النيل فى شرقى جامع المقس ، ولم تزل الى أن هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى عندما جدد الجامع المذكور فى سنة سبعين وسبعمائة ، وجعل فى مكان البرج المذكور جنينته وذكر أنه وجد فى البرج مالا ، وأنه انما جدد الجامع منه ، والعامة تقول اليوم جامع المقسى بالاضافة .

وكان يحيط بسور القاهرة خندق شرع فى حفره من باب الفتوح الى المقس فى المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وكان أيضا من الجهة الشرقية خارج باب النصر الى باب البرقية وما بعده . وشاهدت آثار الخندق باقية ، ومن ورائه سور بأبراج له عرض كبير مبنى بالحجارة ، الا أن الخندق انطم ، وتهدمت الأسوار التى كانت من ورائه .

وهذا السور هو الذى ذكره القاضى الفاضل فى كتابه الى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فقال : والله يحيى المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ، ويمتد عليهما رواقه ، فما عقيلة ما كان معصمها ليترك بغير سوار ، ولا خصرها ليتحلى بغير منطقة نضار . والآن قد استقرت خواطر الناس ، وأمنوا به من يد تتخطف ، ومن يد مجرم يقدم ولا يتوقف .

ذكر ابواب القاهرة

وكان للقاهرة من جهتها القبلية بابان متلاصقان يقال لهما بابا زويلة . ومن جهتها البحرية بابان متباعدان : أحدهما باب الفتوح ، والآخر باب النصر . ومن جهتها الشرقية ثلاثة أبواب متفرقة : أحدها يعرف الآن بباب البرقية ، والآخر بالباب الجديد ، والآخر بالباب المحروق . ومن جهتها الغربية ثلاثة أبواب : باب القنطرة ، وباب الفرج ، وباب سعادة ، وباب آخر يعرف بباب الخوخة .

ولم تكن هذه الأبواب على ما هى عليه الآن ، ولا فى مكانها عند ما وضعها جوهر .

باب زويلة

كان باب زويلة ، عندما وضع القائد جوهر القاهرة ، بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم بسام بن نوح . فلما قدم المعز الى القاهرة دخل من أحدهما — وهو الملاصق للمسجد الذى بقى منه الى اليوم عقد ، ويعرف بباب القوس — فتيامن الناس به ، وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه ، وهجروا الباب المجاور له ، حتى جرى على الألسنة أن من مر به لا تقضى له حاجة .

وقد زال هذا الباب ولم يبق له أثر اليوم ، الا أنه يفضى الى الموضع الذى يعرف اليوم بالحجارين ، حيث تباع آلات الطرب من الطنابير والعيدان ونحوهما ، والى الآن مشهور بين الناس أن من يسلك من هناك لا تقضى له حاجة ، ويقول بعضهم : من أجل أن هنالك آلات المنكر ، وأهل البطالة من المغنين والمغنيات .

وليس الأمر كما زعم ، فان هذا القول جار على ألسنة أهل القاهرة من حين دخل المعز اليها ، قبل أن يكون هذا الموضع سوقا للمعازف ، وموضعا لجلوس أهل المعاصى .

فلما كان فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، بنى أمير الجيوش بدر الجمالى ، وزير الخليفة المستنصر بالله ، باب زويلة الكبير الذى هو باق الى الآن وعلى أبراجه ، ولم يعمل له باشورة — كما هى عادة أبواب الحصون من أن يكون فى كل باب عطف حتى لا تهجم عليه العساكر فى وقت الحصار ،

(*) ص ٣٧٦ جـ١ ط . بولاق .

ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة — لكنه عمل فى بابه زلاقة كبيرة من حجارة صوان عظيمة ، بحيث اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت خوائم الخيل على الصوان .

فلم تزل هذه الزلاقة باقية الى أيام السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فاتفق مروره من هنالك ، فاختل فرسه وزلق به * وأحسبه سقط عنه ، فأمر بنقضها فنقضت ، وبقى منها شىء يسير ظاهر .

فلما ابتنى الأمير جمال الدين يوسف الأستادار المسجد المقابل لباب زويلة ، وجعله باسم الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق ، ظهر عند حفره الصهريج الذى به بعض هذه الزلاقة ، وأخرج منها حجارة من صوان لا تعمل فيها العدة الماضية ، وأشكالها فى غاية من الكبر لا يستطيع جرها الا أربعة أرؤس بقر ، فأخذ الأمير جمال الدين منها شيئا . والى الآن حجر منها ملقى تجاه قبو الخرنشف من القاهرة .

ويذكر أن ثلاثة اخوة قدموا من الرها ، بنائين بنوا باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح ، كل واحد بنى بابا ، وأن باب زويلة هذا بنى فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وأن باب الفتوح بنى فى سنة ثمانين وأربعمائة .

وقد ذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب « خطط القاهرة » أن باب زويلة هذا بناه العزيز بالله نزار بن المعز ، وتممه أمير الجيوش . وأنشد لعلى بن محمد النيلى :

ياصاح لو أبصرت باب زويلة
لعلمت قدر محله بنيانا

باب تأزر بالمجرة وارتدى الـ
شعرى ولاث برأسه كيوانا

لو ان فرعونا بناه لم يرد
صرحا ولا أوصى به هامانا

وسمعت غير واحد يذكر أن فردتيه يدوران فى سكرجتين من زجاج .

وذكر جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون ، أن فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة رتب أيدكين — والى القاهرة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون — على باب زويلة خليلية تضرب كل ليلة بعد العصر .

وقد أخبرنى من طاف البلاد ، ورأى مدن المشرق ، أنه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عظم باب زويلة ، ولا يرى مثل بدنتيه اللتين عن جانبيه .

ومن تأمل الأسطر التى قد كتبت على أعلاه من خارجه ، فانه يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر وتاريخ بنائه .

وقد كانت البدنتان أكبر مما هما الآن بكثير . هدم أعلاهما الملك المؤيد شيخ لما أنشأ الجامع داخل باب زويلة ، وعمر على البدنتين منارتين . ولذلك خبر تجده فى ذكر الجوامع عند ذكر الجامع المؤيدى .

(*) ص٣٨٠ جـ١ ، ط. بولاق .

باب النصر

كان باب النصر أولا دون موضعه اليوم . وأدركت قطعة من أحد جانبيه كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربى بحيث تكون الرحبة التى فيما بين المدرسة القاصدية وبين بابى جامع الحاكم القبلين خارج القاهرة . ولذلك تجد فى أخبار الجامع الحاكمى أنه وضع خارج القاهرة .

فلما كان فى أيام المستنصر ، وقدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ، وتقلد وزارته وعمر سور القاهرة ، نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر الى حيث هو الآن ، فصار قريبا من مصلى العيد ، وجعل له باشورة أدركت بعضها ... الى أن احتفرت أخت الملك الظاهر برقوق الصهريج السبيل تجاه باب النصر ، فهدمته وأقامت السبيل مكانه .

وعلى باب النصر مكتوب بالكوفى فى أعلاه « لا اله الا الله محمد رسول الله ، على ولى الله ، صلوات الله عليهما » .

باب الفتوح

وضعه القائد جوهر دون موضعه الآن ، وبقى منه الى يومنا هذا عقده وعضادته اليسرى ، وعليه أسطر من الكتابة بالكوفى ، وهو برأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمى .

وأما الباب المعروف اليوم بباب الفتوح ، فانه من وضع أمير الجيوش ، وبين يديه باشورة قد ركبها الآن الناس بالبنيان لما عمر ما خرج عن باب الفتوح .

أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى : كان مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار ، فلذلك عرف بالجمالى ، وما زال يأخذ بالجد من زمن سبيه فيما يباشره ، ويوطن نفسه على قوة العزم ، ويتنقل فى الخدم حتى ولى امارة دمشق ، من قبل المستنصر ، فى يوم الأربعاء ثالث عشرى ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة .

ثم سار منها كالهارب فى ليلة الثلاثاء لأربع عشرة خلت من رجب سنة ست وخمسين ، ثم وليها ثانيا يوم الأحد سادس شعبان سنة ثمان وخمسين ، فبلغه قتل ولده شعبان بعسقلان ، فخرج فى شهر رمضان سنة ستين وأربعمائة ، فثار العسكر وأخربوا قصره ، وتقلد نيابة عكا .

فلما كانت الشدة بمصر من شدة الغلاء وكثرة الفتن ، والأحوال بالحضرة قد فسدت ، والأمور قد تغيرت ، وطوائف العسكر قد شغبت ، والوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الأمر والنهى ، والرخاء قد أيس منه ، والصلاح لا مطمع فيه ، ولواتة قد ملكت الريف ، والصعيد بأيدى العبيد ، والطرقات قد * انقطعت برا وبحرا الا بالخفارة الثقيلة .

فلما قتل بلدكوش ناصر الدولة حسين بن حمدان ، كتب المستنصر اليه يستدعيه ليكون المتولى لتدبير دولته ، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من العساكر ، ولا يبقى أحدا من عسكر مصر ، فأجابه المستنصر الى ذلك .

(*) ص٣٨١ جـ١ ، ط. بولاق .

فاستخدم معه عسكرا ، وركب البحر من عكا فى أول كانون ، وسار بمائة مركب ، بعد أن قيل له ان العادة لم تجر بركوب البحر فى الشتاء لهيجانه وخوف التلف ، فأبى عليهم وأقلع ، فتمادى الصحو والسكون مع الريح الطيبة مدة أربعين يوما ، حتى كثر التعجب من ذلك ، وعد من سعادته .

فوصل الى تنيس ودمياط ، واقترض المال من تجارها ومياسيرها . وقام بأمر ضيافته وما يحتاج اليه من الغلال سليمان اللواتى كبير أهل البحيرة . وسار الى قليوب فنزل بها وأرسل الى المستنصر يقول : لا أدخل الى مصر حتى تقبض على بلدكوش — وكان أحد الأمراء ، وقد اشتد على المستنصر بعد قتل ابن حمدان — فبادر المستنصر وقبض عليه واعتقله بخزانة البنود .

فقدم بدر عشية الأربعاء ، لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة خمس وستين وأربعمائة ، فتهيأ له أن قبض على جميع أمراء الدولة .

وذلك أنه لما قدم لم يكن عند الأمراء علم من استدعائه ، فما منهم الا من أضافه وقدم اليه ... فلما انقضت نوبهم فى ضيافته ، استدعاهم الى منزله فى دعوة صنعها لهم ، وبيت مع أصحابه أن القوم اذا أجنهم الليل فانهم لابد يحتاجون الى الخلاء ، فمن قام منهم الى الخلاء يقتل هناك ، ووكل بكل واحد واحدا من أصحابه ، وأنعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الأمير من دار ومال واقطاع وغيره . فصار الأمراء اليه ، وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين ، فما طلع ضوء النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور الأمراء ، وصارت رؤوسهم بين يديه .

فقويت شوكته ، وعظم أمره ، وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقور ، وقلده وزارة السيف والقلم ، فصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يده ، وزيد فى ألقابه « أمير الجيوش ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين » ، وتتبع المفسدين فلم يبق منهم أحدا حتى قتله ، وقتل من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة .

ثم خرج الى الوجه البحرى ، فأسرف فى قتل من هنالك من لواتة ، واستصفى أموالهم ، وأزاح المفسدين وأفناهم بأنواع القتل ، وسار الى البر الشرقى فقتل منه كثيرا من المفسدين .

ونزل الى الاسكندرية ، وقد ثار بها جماعة مع ابنه الأوحد ، فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة الى أن أخذها عنوة ، وقتل جماعة ممن كان بها ، وعمر جامع العطارين من مال المصادرات ، وفرغ من بنائه فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

ثم سار الى الصعيد ، فحارب جهينة والثعالبة ، وأفنى أكثرهم بالقتل ، وغنم من الأموال ما لا يعرف قدره كثرة ... فصلح به حال الاقليم بعد فساده .

ثم جهز العساكر لمحاربة البلاد الشامية ، فسارت اليها غير مرة وحاربت أهلها ، ولم يظفر منها بطائل ، واستناب ولده شاهنشاه وجعله ولى عهده .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

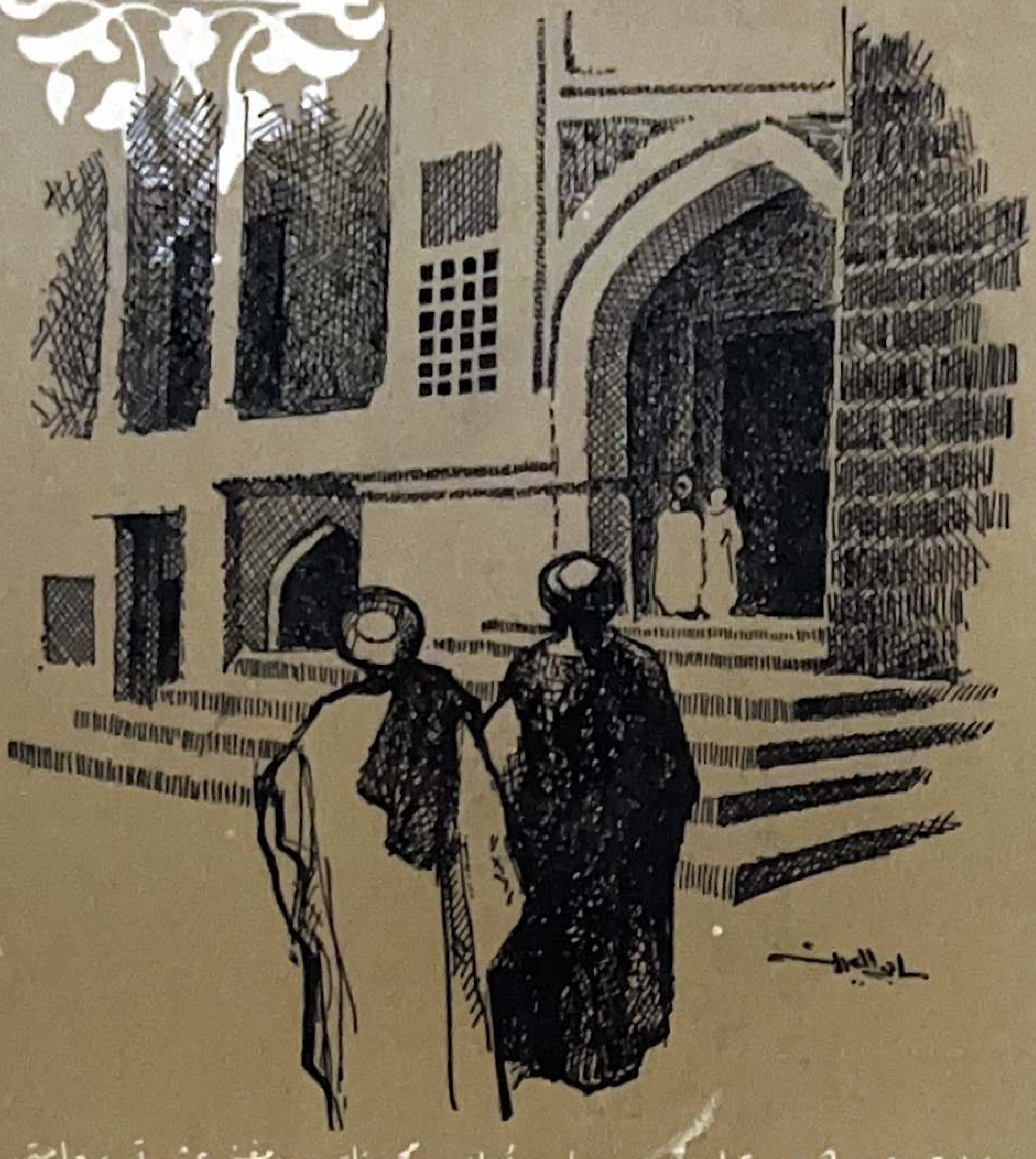
عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء

١٩



كتاب التحرير

"كانت مصر هى مسقط رأسى وملعب أترابى . ومجمع ناسى . ومغنى عشيرتى وحامتى ،
وموطن خاصتى وعامتى . وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره . وعش مأربى ، فلا
تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت منذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى
معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها . وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها"

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

فلما كان في سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، مات في ربيع الآخر ، وقيل في جمادى الأولى منها .

وقد تحكم في مصر تحكم الملوك ، ولم يبق للمستنصر معه أمر ، واستبد بالأمور فضبطها أحسن ضبط . وكان شديد الهيبة ، وافر الحرمة ، مخوف السطوة .

قتل من مصر خلائق لا يحصيها الا خالقها ، منها أنه قتل من أهل البحيرة نحو العشرين ألف انسان ، الى غير ذلك من أهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد وأسوان وأهل القاهرة ومصر — الا أنه عمر البلاد ، وأصلحها بعد فسادها وخرابها باتلاف المفسدين من أهلها . وكان له يوم مات نحو الثمانين سنة .

وكانت له محاسن : منها أنه أباح الأرض للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفهت أحوال الفلاحين واستغنوا في أيامه ، ومنها حضور التجار الى مصر لكثرة عدله بعد نزوحهم منها في أيام الشدة ، ومنها كثرة كرمه .

وكانت مدة أيامه بمصر احدى وعشرين سنة ، وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر .

ومن آثاره الباقية بالقاهرة : باب زويلة ، وباب الفتوح ، وباب النصر .

وقام من بعده بالأمر ابنه شاهنشاه ، ولقب بالأفضل ابن أمير الجيوش ، وبه وبأبيه الأفضل أئمة الخلفاء الفاطمية بعد تلاشي أمرها ، وعمرت الديار المصرية بعد خرابها واضمحلال أحوال أهلها .

والله هو الذي أخبر به المعز فيما تقدم من حكاية جوهر عنه ، فانه لم يتفق ذلك لأحد من رجال دولتهم غيره . والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

باب القنطرة

عرف بذلك لأن جوهرا القائد بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذي بظاهر القاهرة ، ليمشي عليها الى المقس عند مسير * القرامطة الى مصر في شوال سنة ستين وثلاثمائة .

باب الشعرية

يعرف بطائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية ، هم ومزاتة وزنارة وهوارة من أحلاف لواتة الذين نزلوا بالحوفية .

باب سعادة

عرف بسعادة بن حيان غلام المعز لدين الله ، لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القائد جوهر القاهرة نزل بالجيزة ، وخرج جوهر الى لقائه ، فلما عاين سعادة جوهرا ترجل ، وسار الى القاهرة في رجب سنة ستين وثلاثمائة ، فدخل اليها من هذا الباب فعرف به ، وقيل له باب سعادة .

ووافى سعادة هذا القاهرة بجيش كبير معه . فلما كان في شوال سيره جوهر في عسكر مجر عند ورود الخبر من دمشق بمجيء

(*) ص ١٥٨ ج ١ ، المقريزي .

الحسن بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم ، الى الشام ، وقتل جعفر بن فلاح . فسار سكان بريد الرملة ، فوصلها القرمطي فلم فصلها ، فتحاز من معه الى يافا ثم رجع الى مصر .

ثم خرج الى الرملة ، فملكها في سنة ستين وستين ، فتقدم اليه القرمطي ، فسار منه الى القاهرة ونزل على عين شمس بقرب من الخندق سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، ونشر جيوشه حوله ، ونسب عليه الشريف أبو جعفر مسلم ، وكان فيه بين الحصار .

الباب المحروق

كان يعرف قديما بباب القراطين . فلما زالت دولة بني أيوب ، واستقل بملك مصر الملك المعز عز الدين أيبك التركماني ، أول من ملك من المماليك بمملكة مصر في سنة خمسين وستمائة ، كان حينئذ أكبر الأمراء البحرية — مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب — الفارس أقطاي الجمدار ، وقد استفحل أمره ، وكثرت أتباعه ، وطغى وتجبر اليه ، وتزوج بابنة الملك المظفر صاحب حماة ، وبعث الى المعز بأن يخلي له قلعة الجبل ويخليها له حتى يسكنها بامرأته المذكورة .

فثقل المعز منه ، وأهمه شأنه ، وأخذ يدبر عليه ، فتقرر مع عدة من مماليكه أن يقتلوا بموضع من القلعة عينه لهم ، واذا جاء الفارس أقطاي قتلوه به ، وأرسل اليه وقت القائلة يستدعيه ليشاوره في أمر مهم . فركب في قلة يوم الاثنين حادي عشر شعبان سنة اثنتين وخمسين وستمائة في نفر من مماليكه ، وهو آمن مطمئن بما صار له في الأنفس من الحرمة والمهابة ، وبما يثق به من شجاعته . فلما صار بقلعة الجبل وانتهى الى قاعة العواميد ، عوق من معه من المماليك عن الدخول معه ، ووثب به المماليك الذين أعدهم المعز ، وتناولوه بالسيوف حتى هلك لوقته ، وغلقت أبواب القلعة وانتشر الصوت بمقتله في البلد .

فركب أصحابه وخشداشيته — وهم نحو السبعمائة فارس — الى تحت القلعة ، وفي ظنهم أن الفارس أقطاي لم يقتل ، وانما قبض عليه السلطان ، وأنهم يقاتلونه حتى يطلقه لهم ، فلم يشعروا الا برأس الفارس أقطاي وقد ألقيت عليهم من القلعة ، فانفضوا لوقتهم ، وتواعدوا على الخروج من مصر الى الشام . وأكابرهم يومئذ بيبرس البندقداري ، وقلاوون الألفي ، وسنقر الأشقر ، وبيسرى ، وسكز ، وبرامق .

فخرجوا في الليل من بيوتهم بالقاهرة الى جهة باب القراطين — ومن العادة أن تغلق أبواب القاهرة بالليل — فأحرقوا النار في الباب حتى سقط من الحريق وخرجوا منه ، فقيل له من ذلك الوقت « الباب المحروق » ، وعرف به .

وأما القوم فانهم ساروا الى الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب الشام ، فقبلهم وأنعم عليهم ، وأقطعهم اقطاعات ، والتكثر بهم .

وأصبح المعز وقد علم بخروجهم الى الشام ، فأوقع الحوطة على جميع أموالهم ونسائهم وأولادهم وحاشية تعلقاتهم وسائر

اتباعهم ، وتتبعهم ونادى عليهم في الأسواق بطلب البحرية ، وتحذير العامة من اخفائهم ، فصار اليه من أموالهم ما ملأ عينه .

واشتهرت البحرية في الشام الى أن قتل المعز أيبك ، وخلع ابنه المنصور ، وتسلطن الأمير قطز ، فتراجعوا في أيامه الى مصر ، وآلت أحوالهم الى أن تسلطن منهم بيبرس وقلاوون . ولله عاقبة الأمور .

باب البرقية

... ... (١) .

ذكر قصور الخلفاء ومناظرهم والالماع بطرف من مآثرهم ، وما صارت اليه أحوالها من بعدهم

اعلم أنه كان للخلفاء الفاطميين بالقاهرة وظواهرها قصور ومناظر : منها القصر الكبير الشرقي الذي وضعه القائد جوهر عندما أناخ في موضع القاهرة ، ومنها القصر الصغير الغربي ، والقصر النافعي ، وقصر الذهب ، وقصر الأقيال ، وقصر الظفر ، وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الزمرد ، وقصر النسيم ، وقصر الحريم ، وقصر البحر .

وهذه كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير ، ويقال لها القصور الزاهرة ، ويسمى مجموعها القصر . وكان بجوار القصر الغربي الميدان والبستان الكافوري .

وكان لهم عدة مناظر وآدر سلطانية غير هذه القصور : منها دار الضيافة ، ودار الوزارة ، ودار الوزارة القديمة ، ودار الضرب ، والمنظرة بالجامع الأزهر ، والمنظرة بجوار الجامع الأقمر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج بظاهر القاهرة ، ومنظرة الغزالة ، ودار الذهب ، ومنظرة التس ، ومنظرة الدكة والبعل ، والخمس وجوه والتاج ، وقبة الهواء ، والبساتين الجيوشية ، والبستان الكبير ، ومنظرة السكرة ، والمنظرة ظاهر باب الفتوح ، ودار الملك بمدينة مصر ، ومنازل العز بها ، ومنظرة الصناعة بالساحل ، ومنظرة بجوار جامع القرافة الكبرى — المعروف اليوم بجامع الأولياء — والأندلس بالقرافة ، والمنظرة ببركة الحبش .

وسأذكر من أخبار هذه الأماكن في مدة الدولة الفاطمية ، وما آل اليه حالها بحسب ما انتهى الى علمه ان شاء الله تعالى .

القصر الكبير

هذا القصر كان في الجهة الشرقية من القاهرة ، فلذلك يقال له القصر الكبير الشرقي ، ويسمى القصر المعزي لأن المعز لدين الله أبا تميم معدا هو الذي أمر عبده وكاتبه جوهرا ببنائه حين سيره من رمادة ، أحد بلاد أفريقية ، بالعساكر الى مصر ، وألقى اليه ترتيبه ، فوضعه على الترتيب الذي رسمه له .

ويقال ان جوهرا لما أسسه في الليلة التي أناخ قبلها في موضعه ، وأصبح رأى فيه أزورارات غير معتدلة لم تعجبه ، فقيل له في

(١) هكذا بياض في الأصل .
(٢) ص٣٨٦ جـ١ ، ط. بولاق .

تغييرها ، فقال : قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة ... فتركه على حاله .

وكان ابتداء وضعه ، مع وضع أساس سور القاهرة ، فى ليلة الأربعاء الثامن عشر من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وركب عليه بابان يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين ، ثم انه أدار عليه سورا محيطا به فى سنة ستين وثلثمائة .

وهذا القصر كان دار الخلافة ، وبه سكن الخلفاء الى آخر أيامهم . فلما انقرضت الدولة على يد السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، أخرج أهل القصر منه ، وأسكن فيه الأمراء . ثم خرب أولا فأولا .

وذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب « خطط القاهرة » ، عن مرهف بواب باب الزهومة ، أنه قال : اعلم هذا الباب المدة الطويلة ، وما رأيته دخل اليه حطب ، ولا رمى منه تراب .

قال : وهذا أحد أسباب خرابه لوقود أخشابه وتكويم ترابه .

قال : ولما أخذه صلاح الدين ، وأخرج من كان به ، كان فيه اثنا عشر ألف نسمة ، ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده ، فأسكنهم دار المظفر بحارة برجوان ، وكانت تعرف بدار الضيافة .

قال : ووجد الى جانب القصر بئر تعرف ببئر الصنم ، كان الخلفاء يرمون فيها القتلى ، فقيل ان فيها مطلبا وقصد تغويرها ، فقيل انها معمورة بالجان ، وقتل عمارها جماعة من أشياعه ، فردمت وتركت ... انتهى .

وكان صلاح الدين لما أزال الدولة أعطى هذا القصر الكبير لأمراء دولته ، وأنزلهم فيه فسكنوه ، وأعطى القصر الصغير الغربى لأخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب فسكنه ، وفيه ولد له ابنه الكامل ناصر الدين محمد .

وكان قد أنزل والده نجم الدين أيوب بن شادى فى منظرة اللؤلؤة .

ولما قبض على الأمير داود ابن الخليفة العاضد — وكان ولى عهد أبيه ، وينعت بالحامد لله — اعتقله وجميع اخوته ، وهم أبو الأمانة جبريل ، وأبو الفتوح وابنه أبو القاسم ، وسليمان بن داود بن العاضد ، وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد ، واسماعيل ابن العاضد ، وجعفر بن أبى الظاهر بن جبريل ، وعبد الظاهر بن أبى الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجماعة .

فلم يزالوا فى الاعتقال بدار المظفر وغيرها ، الى أن انتقل الكامل محمد بن العادل من دار الوزارة بالقاهرة الى قلعة الجبل ، فنقل معه ولد العاضد واخوته وأولاد عمه ، واعتقلهم بها ، وفيها مات داود بن العاضد . ولم يزل بقيتهم معتقلين بالقلعة .

الى أن استبد السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فأمر فى سنة ستين بالاشهاد على كمال الدين اسماعيل بن العاضد ، وعماد الدين أبى القاسم ابن الأمير أبى الفتوح بن العاضد ، وبدر الدين عبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد : أن جميع المواضع التى قبلى المدارس الصالحية من القصر الكبير ، والموضع المعروف بالتربة باطنا

وظاهرا بخط الخوخ السبع ، وجميع الموضع المعروف بالقصر اليافعى بالخط المذكور ، وجميع الموضع المعروف بالجباسة بالخط المذكور ، وجميع الموضع المعروف بخزائن السلاح السلطانية وما هو بحطه ، وجميع الموضع المعروف بسكن أولاد شيخ * الشيوخ وغيرهم ، من القصر الشارع بابه قبالة دار الحديث النبوى الكاملية ، وجميع الموضع المعروف بالقصر الغربى ، وجميع الموضع المعروف بدار القنطرة بخط المشهد الحسينى ، وجميع الموضع المعروف بدار الضيافة بحارة برجوان ، وجميع الموضع المعروف بدار الذهب بظاهر القاهرة ، وجميع الموضع المعروف باللؤلؤة ، وجميع قصر الزمرذ ، وجميع البستان الكافورى ... ملك لبيت المال ، بالنظر المولوى السلطانى الملكى الظاهرى ، من وجه صحيح شرعى لا رجعة لهم فيه ، ولا لواحد منهم فى ذلك ولا فى شيء منه ولاء ولا شبهة ، بسبب يد ولا ملك ولا وجه من الوجوه كلها ، خلا ما فى ذلك من مسجد لله تعالى ، أو مدفن لآبائهم .

فأشهدوا عليهم بذلك ، وورخوا الاشهاد بالثالث عشر من جمادى الأولى سنة سنين وستمائة ، وأثبت على يد قاضى القضاة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعى . وتقرر مع المذكورين أنه مهما كان قبضوه من أثمان بعض الأماكن المذكورة التى عاقد عليها وكلاؤهم واتصلوا اليه ، يحاسبوا به من جملة ما تحرر ثمنه عند وكيل بيت المال .

(*) ص٣٨٤ جـ١ ، ط.بولاق .

وقبضت أيدى المذكورين عن التصرف فى الأماكن المذكورة ، وغيرها مما هو منسوب الى آبائهم ، ورسم ببيع ذلك ، فباعه وكيل بيت المال كمال الدين ظافر شيئا بعد شيء . ونقضت تلك المبانى ، وابتنى فى مواضعها على غير تلك الصفة من المساكن وغيرها ، كما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وكان هذا القصر يشتمل على مواضع منها :

قاعة الذهب : وكان يقال لقاعة الذهب قصر الذهب ، وهو أحد قاعات القصر الذى هو قصر المعز لدين الله معد .

وبنى قصر الذهب العزيز بالله نزار بن المعز ، وكان يدخل اليه من باب الذهب الذى كان مقابلا للدار القطبية التى هى اليوم المارستان المنصورى ، ويدخل اليه أيضا من باب البحر الذى هو الآن تجاه المدرسة الكاملية . وجدد هذا القصر من بعد العزيز الخليفة المستنصر فى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .

وبهذه القاعة كانت الخلفاء تجلس فى الموكب يوم الاثنين ويوم الخميس . وبها كان يعمل سماط شهر رمضان للأمراء وسماط العيدين . وبها كان سرير الملك .

هيئة جلوس الخليفة بمجلس الملك : قال الفقيه أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن زولاق فى كتاب « سيرة المعز » : وكان وصول المعز لدين الله الى قصره بمصر فى يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وستين

وثلثمائة . ولما وصل الى قصره خر ساجدا ، ثم صلى ركعتين ، وصلى بصلاته كل من دخل معه .

واستقر فى قصره بأولاده وحشمه وخواص عبيده . والقصر يومئذ يشتمل على ما فيه من عين وورق وجوهر وحلى وفرش وأوان وثياب وسلاح وأسفاط وأعدال وسروج ولجم ، وبيت المال بحاله بما فيه ، وفيه جميع ما يكون للملوك .

وللنصف من رمضان جلس المعز فى قصره على السرير الذهب الذى عمله عبده القائد جوهر فى الايوان الجديد ، وأذن بدخول الأشراف أولا ، ثم أذن بعدهم للأولياء ولسائر وجوه الناس . وكان القائد جوهر قائما بين يديه يقدم الناس قوما بعد قوم .

ثم مضى القائد جوهر ، وأقبل بهديته التى عباها ظاهرة يراها الناس ، وهى : من الخيل مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة منها مذهب ومنها مرصع ومنها معنبر ، واحدى وثلاثون قبة على نوق بخاتى بالديباج والمناطق والفرش منها تسعة بديباج مثقل ، وتسع نوق مجنوبة مزينة بمثقل ، وثلاثة وثلاثون بغلا منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثون بغلا للنقل ، وتسعون نجيبا ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما فيها ، وفيها أوانى الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ، ودرجان من فضة مخرقة فيهما جوهر ، وشاشية مرصعة فى غلاف ، وتسعمائة ما بين سفط وتخت فيها سائر ما أعد له من ذخائر مصر .

وفى يوم عرفة نصب المعز الشمسية التى عملها للكعبة على ايوان قصره ، وسعتها اثنا عشر شبرا فى اثنى عشر شبرا ، وأرضها ديباج أحمر ، ودورها اثنا عشر هلال ذهب ، فى كل هلال أترجة ذهب مشبك ، جوف كل أترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام ، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفى دورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر قد فسر ، وحشو الكتابة در كبير لم ير مثله ، وحشو الشمسية المسك المسحوق ، يراها الناس فى القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها ، وانما نصبها عدة فراشين ، وجروها لثقل وزنها .

وقال فى كتاب « الذخائر والتحف وما كان بالقصر من ذلك » : ان وزن ما استعمل من الذهب الابريز الخالص فى سرير الملك الكبير مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال ، ووزن ما حلى به الستر الذى أنشأه سيد الوزراء أبو محمد البازورى من الذهب أيضا ثلاثون ألف مثقال ، وانه رصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه .

وذكر أن فى الشمسية الكبيرة ثلاثين ألف مثقال ذهبا وعشرين ألف درهم مخرقة ، وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه ، وأن فى الشمسية التى لم تتم من الذهب * سبعة عشر ألف مثقال .

وقال المرتضى أبو محمد عبد السلام بن محمد بن الحسن بن عبد السلام بن الطوير الفهرى القيسرانى الكاتب المصرى فى كتاب

(*) ص٣٨٥ ج١ ، ط.بولاق .

« نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين » الفاطمية والصلاحية (الفصل العاشر فى ذكر هيئتهم فى الجلوس العام بمجلس الملك) : ولا يتعدى ذلك يومى الاثنين والخميس ، ومن كان أقرب الناس اليهم ، ولهم خدم لا تخرج عنهم ، وينتظر لجلوس الخليفة أحد اليومين المذكورين ، وليس على التوالى بل على التفاريق .

فاذا تهيأ ذلك فى يوم من هذه الأيام ، استدعى الوزير من داره صاحب الرسالة على الرسم المعتاد فى سرعة الحركة ، فيركب فى أبهته وجماعته على الترتيب المقدم ذكره (يعنى فى ذكر الركوب أول العام ، وسيأتى ان شاء الله تعالى فى موضعه من هذا الكتاب) ، فيسير من مكان ترجله عن دابته بدهليز العمود الى مقطع الوزارة ، وبين يديه أجلاء أهل الامارة ... كل ذلك بقاعة الذهب التى كان يسكنها السلطان بالقصر

وكان الجلوس قبل ذلك بالايوان الكبير — الذى هو خزائن السلاح — فى صدره على سرير الملك ، وهو باق فى مكانه الى الآن من هذا المكان الى آخر أيام المستعلى .

ثم ان الآمر نقل الجلوس الى هذا المكان ، واسمه مكتوب بأعلى بإذهنجه الى اليوم

ويكون المجلس المذكور معلقا فيه ستور الديباج شتاء والدبيقى صيفا ، وفرش الشتاء بسط الحرير — عوضا عن الصوف — مطابقا لستور الديباج ، وفرش الصيف مطابقا لستور الدبيقى ما بين طبرى وطبرستانى مذهب معدوم المثل ، وفى صدره المرتبة المؤهلة لجلوسه فى هيئة جليلة على سرير الملك المغشى بالقرقوبى ، فيكون وجه الخليفة عليه قبالة وجوه الوقوف بين يديه .

فاذا تهيأ الجلوس استدعى الوزير من المقطع الى باب المجلس المذكور — وهو معلق وعليه ستر — فيقف بحذائه ، وعن يمينه زمام القصر ، وعن يساره زمام بيت المال .

فاذا انتصب الخليفة على المرتبة ، وضع أمين الملك مفلح — احد الاستاذين المحنكين الخواص — الدواة مكانها من المرتبة ، وخرج من المقطع الذى يقال له « فرد الكم » ، فاذا الوزير واقف أمام باب المجلس ، وحواليه الأمراء المطوقون أرباب الخدم الجليلة وغيرهم ، وفى خلالهم قراء الحضرة .

فيشير صاحب المجلس الى الأستاذين ، فيرفع كل منهم جانب الستر ، فيظهر الخليفة جالسا بمنصبه المذكور ، فستفتح القراء بقراءة القرآن الكريم ، ويسلم الوزير بعد دخوله اليه ، فيقبل يديه ورجليه ، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع وهو قائم قدر ساعة زمانية ، ثم يؤمر بأن يجلس على الجانب الأيمن ، وتطرح له مخدة تشريفا

ويقف الأمراء فى أماكنهم المقررة : فصاحب الباب واسفهسلار العساكر من جانبى الباب يمينا ويسارا ، ويليهم من خارجه لاصقا بعتبه زمام الامرية والحافظية كذلك ، ثم يرتبهم على مقاديرهم ، فكل واحد لا يتعدى مكانه ... هكذا الى آخر الرواق ، وهو الافريز العالى عن أرض القاعة ، ويعلوه الساباط على عقود القناطر التى على العهد هناك .

ثم أرباب القصب والعماريات يمنة ويسرة كذلك . ثم الأماثل والأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة ، ويقف مستندا للصدر الذى يقابل باب المجلس بواب الباب والحجاب . ولصاحب الباب فى ذلك المحل الدخول والخروج ، وهو الموصل عن كل قائل ما يقول .

فاذا انتظم ذلك النظام ، واستقر بهم المقام ، فأول ماثل للخدمة بالسلام قاضى القضاة والشهود المعروفون بالاستخدام ، فيجيز صاحب الباب القاضى دون من معه ، فيسلم متأدبا ، ويقف قريبا . ومعنى الأدب فى السلام أنه يرفع يده اليمنى ، ويشير بالمسبحة ويقول بصوت مسموع : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فيتخصص بهذا الكلام دون غيره من أهل السلام .

ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمامهم ، وهو من الأستاذين المحنكين . وبالأشراف الطالبين نقيبهم ، وهو من الشهود المعدلين ، وتارة يكون من الأشراف المميزين . فيمضى عليهم كذلك ساعتان زمانيتان أو ثلاث .

ويخص بالسلام فى ذلك الوقت من خلع عليه لقوص أو الشرقية أو الغربية أو الاسكندرية ، فيشرفون بتقبيل القبة .

فان دعت حاجة الوزير الى مخاطبة الخليفة فى أمر ، قام من مكانه وقرب منه منحنيا على سيفه ، فيخاطبه مرة أو مرتين .

ثم يؤمر الحاضرون فيخرجون ، حتى يكون آخر من يخرج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله ، ويخرج فيركب على عادته الى داره وهو مخدوم بأولئك .

ثم يرخى الستر ويغلق باب المجلس الى يوم مثله ، فيكون الحال كما ذكر ، ويدخل الخليفة الى مكانه المستقر فيه ومعه خواص أستاذيه .

وكان أقرب الناس الى الخلفاء الأستاذون المحنكون ، وهم أصحاب الأنس لهم ، ولهم من الخدم ما لا يتطرق اليه سواهم ، ومنهم زمام القصر ، وشاد التاج الشريف ، وصاحب بيت المال ، وصاحب الدفتر ، وصاحب الرسالة ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب المجلس ، وهم المطلعون على أسرار الخليفة .

وكانت لهم طريقة محمودة فى بعضهم بعضا منها أنه متى ترشح أستاذ للتحنيك وحنك ، حمل اليه كل * واحد من المحنكين بدلة من ثياب ومنديلا وفرشا وسيفا ، فيصبح لاحقا بهم وفى يديه مثل ما فى أيديهم

وكان لا يركب أحد فى القصر الا الخليفة ، ولا ينصرف ليلا ونهارا الا كذلك ، وله فى الليل شدادات من النساء يخدمن البغلات والحمير الاناث ، للجـ[illegible] فى السراديب القصيرة الأقباء ، والطلوع [illegible] الزلاقات الى أعالى المناظر والأماكن .

وفى كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق فى الليل .

(*) ص ٢٨ جـ ١ . ط . بولاق .

١

كيفية سماط شهر رمضان بهذه القاعة

قال ابن الطوير : فاذا كان اليوم الرابع من شهر رمضان ، رتب عمل السماط كل ليلة بالقاعة بالقصر الى السادس والعشرين منه ، ويستدعى له قاضى القضاة ليالى الجمع توقيرا له ، فأما الأمراء ففى كل ليلة منهم قوم بالنوبة ، ولا يحرمونهم الافطار مع أولادهم وأهاليهم ، ويكون حضورهم بسطور يخرج الى صاحب الباب واسفهسلاره ، فيعرف صاحب كل نوبة ليلته فلا يتأخر . ويحضر الوزير فيجلس صدره ، فان تأخر كان ولده أو أخوه ، وان لم يحضر أحد من قبله كان صاحب الباب .

ويهتم فيه اهتماما عظيما تاما بحيث لا يفوته شىء من أصناف المأكولات الفائقة والأغذية الرائقة ، وهو مبسوط فى طول القاعة ، ماد من الرواق الى ثلثى القاعة المذكورة . والفراشون قيام لخدمة الحاضرين وحواشى الأستاذين ، يحضرون الماء المبخر فى كيزان الخزف برسم الحاضرين .

ويكون انفصالهم العشاء الآخرة ، فيعمهم ذلك ويصل منه شىء الى أهل القاهرة من بعض الناس لبعض ، ويأخذ الرجل الواحد ما يكفى جماعة .

فاذا حضر الوزير ، أخرج اليه مما هو بحضرة الخليفة ، وكانت يده فيه ، تشريفا له وتطبيبا لنفسه ، وربما حمل لسحوره من خاص ما يعين لسحور الخليفة نصيب وافر .

ثم يتفرق الناس الى أماكنهم بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين .

قال : ومبلغ ما ينفق فى شهر رمضان لسماطه ، مدة سبعة وعشرين يوما ، ثلاثة آلاف دينار .

عمل سماط عيد الفطر بهذه القاعة

قال الأمير المختار عز الملك بن عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل بن عبد العزيز المسيحى فى تاريخه الكبير : وفى آخر يوم منه (يعنى شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة) حمل يانس الصقلبى ، صاحب الشرطة السفلى ، السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقا فيها تماثيل حلوى ، وحمل أيضا على بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر .

وقال ابن الطوير : فأما الأسمطة الباطنة التى يحضرها الخليفة بنفسه ، ففى يوم عيد الفطر اثنان ، ويوم عيد النحر واحد .

فأما الأول من عيد الفطر ، فانه يعبى فى الليل بالايوان قدام الشباك الذى يجلس فيه الخليفة ، فيمد ما مقداره ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع ، من الخشكنان والفانيذ والبسندود ، المقدم ذكر عمله بدار الفطرة .

فاذا صلى الفجر فى أول الوقت ، حضر اليه الوزير وهو جالس فى الشباك ، ومكن الناس من ذلك المدود ، فأخذ وحمل ونهب . فيأخذه من يأكله فى يومه ، ومن يدخره لغده ، ومن لا حاجة له به فيبيعه ، ويتسلط عليه أيضا حواشى القصر المقيمون هناك .

فاذا فرغ من ذلك وقد بزغت الشمس ، ركب من باب الملك بالايوان ، وخرج من باب العيد الى المصلى والوزير معه — كما وصفنا فى هيئة ركوب هذا العيد فى فصله — مخليا لقاعة الذهب لسماط الطعام .

فينصب له سرير الملك قدام باب المجلس فى الرواق ، وينصب فيه مائدة من فضة — ويقال لها المدورة — وعليها أوانى الفضيات والذهبيات والصينى الحاوية للأطعمة الخاص ، الفائحة الطيب الشهية ، من غير خضراوات ، سوى الدجاج الفائق المسمن المعمول بالأمزجة الطيبة النافعة .

ثم ينصب السماط أمام السرير الى باب المجلس قباله — ويعرف بالمحول — طول القاعة ، وهو اليوم الباب الذى يدخل منه اليها من باب البحر ، الذى هو باب القصر اليوم .

والسماط خشب مدهون شبه الدكك اللاطية ، فيصير من جمعه للأوانى سماطا عاليا فى ذلك الطول وبعرض عشرة أذرع ، فيفرش فوق ذلك الأزهار ، ويرص الخبز على حافتيه سواميذ ، كل واحد ثلاثة أرطال من نقى الدقيق ، ويدهن وجهها عند خبزها بالماء ، فيحصل لها بريق ويحسن منظرها .

ويعمر داخل ذلك السماط على طوله بأحد وعشرين طبقا : فى كل طبق أحد وعشرون ثنيا سمينا مشويا ، وفى كل من الدجاج والفراريج وفراخ الحمام ثلثمائة وخمسون طائرا ، فيبقى طائلا مستطيلا ، فيكون كقامة الرجل الطويل ، ويسور بشرائح الحلواء اليابسة ، ويزين بألوانها المصبغة .

ثم يسد خلل تلك الأطباق بالصحون الخزفية التى فى كل واحد منها سبع دجاجات ، وهى مترعة بالألوان الفائقة من الحلواء * المائعة والطباهجة المشققة ، والطيب غالب على ذلك كله ، فلا يبعد أن تناهز عدة الصحون المذكورة خمسمائة صحن ، ويرتب ذلك أحسن ترتيب من نصف الليل بالقاعة الى حين عود الخليفة من المصلى والوزير معه .

فاذا دخل القاعة ، وقف الوزير على باب دخول الخليفة لينزع عنه الثياب العيدية التى فى عمامتها السمة ، ويلبس سواها من خزائن الكسوات الخاصة التى قدمنا ذكرها .

وقد عمل بدار الفطرة قصران من حلوى ، فى كل واحد سبعة عشر قنطارا ، وحملا : فمنهما واحد يمضى به من طريق قصر الشوك الى باب الذهب ، والآخر يشق به بين القصرين يحملهما العتالون ، فينصبان أول السماط وآخره ، وهما شكل مليح ، مدهونان بأوراق الذهب ، وفيهما شخوص نائتة كأنها مسبوكة فى قوالب لوحا لوحا .

فاذا عبر الخليفة راكبا ، ونزل على السرير الذى عليه المدورة الفضة وجلس ، قام على رأسه أربعة من كبار الأستاذين المحنكين ، وأربعة من خواص الفراشين . ثم يستدعى الوزير فيطلع اليه ، ويجلس عن يمينه ، ويستدعى الأمراء المطوقين ومن يليهم من الأمراء دونهم ، فيجلسون على السماط كقيامهم بين يديه ، فيأكل من أراد من غير الزام ، فان فى الحاضرين من لا يعتقد الفطر فى ذلك اليوم . فيتولى على ذلك المسول

(*) ص٢٨٧ جـ١ ، ط. بولاق .

الآكلون ، وينقل الى دار أرباب الرسوم ، ويباح فلا يبقى منه الا السماط فقط ، فيعم أهل القاهرة ومصر من ذلك نصيب وافر .

فاذا انقضى ذلك عند صلاة الظهر ، انفض الناس ، وخرج الوزير الى داره مخدوما بالجماعة الحاضرين ، وقد عمل سماطا لأهله وحواشيه ومن يعز عليه ، لا يلحق بأيسر يسير من سماط الخليفة .

وعلى هذا العمل يكون سماط عيد النحر أول يوم منه ، وركوبه الى المصلى كما ذكرنا ، ولا يخرج عن هذا المنوال ، ولا ينقص عن هذا المثال ، ويكون الناس كلهم مفطرين ، ولا يفوت أحدا منهم شىء كما ذكرنا فى عيد الفطر .

قال : ومبلغ ما ينفق فى سماطى الفطر والأضحى أربعة آلاف دينار .

وكان يجلس على أسمطة الأعياد فى كل سنة رجلان من الأجناد ، يقال لأحدهما ابن فائز والآخر الديلمى ، يأكل كل واحد منهما خروفا مشويا وعشر دجاجات محلاة وجام حلوى عشرة أرطال ، ولهما رسوم تحمل اليهما بعد ذلك من الأسمطة لبيوتهما ، ودنانير وافرة على حكم الهبة .

وكان أحدهما أسر بعسقلان فى تجريدة جرد اليها ، وأقام مدة فى الأسر . فاتفق أنه كان عندهم عجل سمين فيه عدة قناطير لحم ، فقال له الذى أسره وهو يداعبه : ان أكلت هذا العجل أعتقتك .

ثم ذبحه وسوى لحمه وأطعمه حتى أتى على جميعه ، فوفى له وأعتقه ، فقدم على أهله بالقاهرة ، ورأيته يأكل على السماط .

الايوان الكبير

قال القاضى الرئيس محيى الدين عبد الله ابن عبد الظاهر الروحى الكاتب فى كتاب « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » : الايوان الكبير بناه العزيز بالله أبو منصور نزار بن المعز لدين الله معد فى سنة تسع وستين وثلثمائة ... انتهى .

وكان الخلفاء أولا يجلسون به فى يومى الاثنين والخميس الى أن نقل الخليفة الآمر بأحكام الله الجلوس منه فى اليومين المذكورين الى قاعة الذهب كما تقدم . وبصدر هذا الايوان كان الشباك الذى يجلس فيه الخليفة ، وكان يعلو هذا الشباك قبة .

وفى هذا الايوان كان يمد سماط الفطرة بكرة يوم عيد الفطر كما تقدم ، وبه أيضا كان يعمل الاجتماع والخطبة فى يوم عيد الغدير . وكان بجانب هذا الايوان الدواوين . وكان بهذا الايوان ضلعا سمكة اذا أقيما واريا الفارس بفرسه ، ولم يزالا حتى بعثهما السلطان صلاح الدين يوسف الى بغداد فى هدية .

عيد الغدير : اعلم أن عيد الغدير لم يكن عيدا مشروعا ، ولا عمله أحد من سالف الأمة المقتدى بهم . وأول ما عرف فى الاسلام بالعراق أيام معز الدولة على بن بويه ، فانه أحدثه فى سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ، فاتخذه الشيعة من حينئذ عيدا

وأصلهم فيه ما خرجه الامام أحمد فى مسنده الكبير ، من حديث البراء بن عازب

رضى الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر لنا ، فنزلنا بغدير خم ، ونودى « الصلاة جامعة » ، وكسح لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرتين فصلى الظهر ، وأخذ بيد على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : « ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » .

قالوا : بلى .

قال : « ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه » ؟

قالوا : بلى .

فقال : من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

قال : فلقيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : هنيئا لك يا ابن أبى طالب ، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة .

وغدير خم على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق ، وتصب فيه عين ، وحوله شجر كثير .

ومن سنتهم فى هذا العيد — وهو أبدا يوم الثامن عشر * من ذى الحجة — أن يحيوا ليله بالصلاة ، ويصلوا فى صبيحته ركعتين قبل الزوال ، ويلبسوا فيه الجديد ، ويعتقوا الرقاب ، ويكثروا من عمل البر ومن الذبائح .

ولما عمل الشيعة هذا العيد بالعراق ، أرادت عوام السنية مضاهاة فعلهم ونكايتهم ، فاتخذوا فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة — بعد عيد الغدير بثمانية أيام — عيدا أكثروا فيه من السرور واللهو ، وقالوا : هذا يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار هو وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وبالغوا فى هذا اليوم فى اظهار الزينة ونصب القباب وايقاد النيران ، ولهم فى ذلك أعمال مذكورة فى أخبار بغداد .

وقال ابن زولاق : وفى يوم ثمانية عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، وهو يوم الغدير ، تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة ومن تبعهم للدعاء لأنه يوم عيد ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب فيه واستخلفه ، فأعجب المعز ذلك من فعلهم ، وكان هذا أول ما عمل بمصر .

قال المسبحى : وفى يوم الغدير ، وهو ثامن عشر ذى الحجة ، اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء والفقهاء والمنشدون ، فكان جمعا عظيما أقاموا الى الظهر ، ثم خرجوا الى القصر فخرجت اليهم الجائزة . وذكر أن الحاكم بأمر الله كان قد منع من عمل عيد الغدير .

قال ابن الطوير : اذا كان العشر الأوسط من ذى الحجة ، اهتم الأمراء والأجناد بركوب عيد الغدير ، وهو فى الثامن عشر منه ، وفيه خطبة وركوب الخليفة بغير مظلة ولا سمة ، ولا خروج عن القاهرة ، ولا يخرج لأحد شىء .

فاذا كان ذلك اليوم ركب الوزير ، بالاستدعاء الجارى به العادة ، فيدخل القصر ، وفى دخوله بروز الخليفة لركوبه من الكرسى على عادته ، فيخدم ويخرج ويركب من مكانه

(*) ص٢٨٨ ج١ ، ط. بولاق .

من الدهليز ، ويخرج فيقف قبالة باب القصر ، ويكون ظهره الى دار فخر الدين جهاركس اليوم .

ثم يخرج الخليفة راكبا أيضا ، فيقف فى الباب — ويقال له القوس — وحواليه الأستاذون المحنكون رجالة ، ومن الأمراء المطوقين من يأمره الوزير باشارة خدمة الخليفة على خدمته ، ثم يجوز زى كل من له زى على مقدار همته .

فأول ما يجوز زى الخليفة ، وهو الظاهر فى ركوبه ، فتجد الجنائب الخاص التى قدمنا ذكرها أولا . ثم زى الأمراء المطوقين لأنهم غلمانه ، واحدا فواحدا بعددهم وأسلحتهم وجنائبهم ، الى آخر أرباب القصب والعماريات . ثم طوائف العسكر أزمتها أمامها وأولادهم مكانهم لأنهم فى خدمة الخليفة ، وقوف بالباب طائفة طائفة ، فيكونون أكثر عددا من خمسة آلاف فارس . ثم المترجلة الرماة بالقسى بالأيدى والأرجل ، وتكون عدتهم قريبا من ألف .

ثم الراجل من الطوائف الذين قدمنا ذكرهم فى الركوب ، فتكون عدتهم قريبا من سبعة آلاف ، كل منهم بزمام وبنود ورايات وغيرها ، بترتيب مليح مستحسن .

ثم يأتى زى الوزير مع ولده أو أحد أقاربه ، وفيه جماعته وحاشيته فى جمع عظيم وهيئة هائلة . ثم زى صاحب الباب وهم أصحابه وأجناده ونواب الباب وسائر الحجاب .

ثم يأتى زى اسفهسلار العساكر بأصحابه وأجناده فى عدة وافرة .

ثم يأتى زى والى القاهرة ، وزى والى مصر .

فاذا فرغا خرج الخليفة من الباب ، والوفوف بين يديه مشاة فى ركابه ، خارجا عن صبيان ركابه الخاص . فاذا وصل الى باب الزهومة بالقصر ، انعطف على يساره داخلا من الدرب هناك ، جائزا على الخوخ .

فاذا وصل الى باب الديلم الذى داخله المشهد الحسينى ، فيجد فى دهليز ذلك الباب قاضى القضاة والشهود ، فاذا وازاهم خرجوا للخدمة والسلام عليه ، فيسلم القاضى كما ذكرنا من تقبيل رجله الواحدة التى تليه ، والشهود أمام رأس الدابة بمقدار قصبة .

ثم يعودون ويدخلون من ذلك الدهليز الى الايوان الكبير ، وقد علق عليه الستور القرقوبية جميعه على سعته وغير القرقوبية سترا فسترا ، ثم يعلق بدائره على سعته ثلاثة صفوف : الأوسط طوارق فارسيات مدهونة ، والأعلى والأسفل درق ، وقد نصب فيه كرسى الدعوة وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب فى هذا العيد ، فيجلس القاضى والشهود تحته ، والعالم من الأمراء والأجناد والمتشيعين ومن يرى هذا الرأى من الأكابر والأصاغر .

فيدخل الخليفة من باب العيد الى الايوان الى باب الملك ، فيجلس بالشباك وهو ينظر القوم ، ويخدمه الوزير عندما ينزل ، ويأتى هو ومن معه فيجلس بمفرده على يسار منبر

الخطيب ، ويكون قد سير الخطيب بدلة حرير يصلي فيها ، والكون دينارا ، ويدفع له كراس محرر من ديوان الانشاء يتضمن نعت الخلافة من النبي صلى الله عليه وسلم الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ورضي عنه ، وبعدهم .

فاذا فرغ ونزل ، صلى قاضي القضاة بالناس ركعتين . فاذا قضيت الصلاة ، قام الوزير الى الشباك فيخدم الخليفة ، وينفض الناس بعد التهاني من الاسماعيلية بعضهم بعضا . وهو منتظم النظم من عيد النحر ، ونحر فيه الكريم .

قال : وكان الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ، لما سلم من يد أبي علي بن الأفضل — الذي كتيفات — لما تقدم له وخرج عليه * ، صلى عيدا في ذلك اليوم — وهو السادس عشر من المحرم — من غير ركوب ولا حركة ، بل في الايوان يصلي على قرنه وتخلصه من يوم التغيير .

فترتب المجلس المحول اليوم في الايوان التي بابه خورنق — وكان يقابل الايوان الكبير الذي هو اليوم خزائن السلاح — بخمس فرش ، وينصب له مرتبة هائلة قريبا من بعضه ، فيجتمع أرباب الدولة سيفا وقلما ، ويحضرون الى الايوان الى باب الملك المجاور الشباك .

فيخرج الخليفة راكبا الى المجلس ، فيترجل على بابه وبين يديه الخواص ، فيجلس على المرتبة ، ويقفون بين يديه صفين الى باب المجلس ، ثم يحمل قدامه كرسي الدعوة وعليه غشاء قرقوبي ، وحواليه الأمراء الأجلاء وأرباب الرتب .

فيصعد قاضي القضاة ، ويخرج من كمه كراسة مسطرة تتضمن فصولا كالفرج بعد الشدة بنظم مليح ، يذكر فيه كل من أصابه من الأنبياء والصالحين والملوك شدة وفرج الله عنه ، واحدا فواحدا ، حتى يصل الى الحافظ ، وتكون هذه الكراسة محمولة من ديوان الانشاء . فاذا تكاملت قراءتها ، نزل عن المنبر ودخل الى الخليفة ، ولا يكون عنده من الثياب أجل مما لبسه ، ويكون قد حمل الى القاضي قبل خطابه بدلة مميزة يلبسها للخطابة ، ويوصل اليه بعد الخطابة خمسون دينارا .

وقال الأمير جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون أبي عبد الله محمد بن فاتك بن مختار البطائحي في تاريخه : واستقبل عيد الغدير (يعني من سنة ست عشرة وخمسمائة) وهاجر الى باب الأجل (يعني الوزير المأمون البطائحي) الضعفاء والمساكين من البلاد ، ومن انضم اليهم من الموالي والأتباع ، على عادتهم في طلب الحلال وتزويج الأيامى ، وصار موسما يرصده كل أحد ، ويرتقبه كل غني وفقير — فجرى في معروفه على رسمه ، وبالغ الشعراء في مدحه بذلك .

ووصلت كسوة العيد المذكور ، فحمل ما يختص بالخليفة والوزير ، وأمر بتفرقة ما يختص بأزمة العساكر : فارسها وراجلها ، من عين وكسوة . ومبلغ ما يختص بهم من العين سبعمائة وتسعون دينارا ، ومن الكسوات مائة

* [illegible]

وأربع وأربعون قطعة . والهبة المختصة بهذا العيد برسم كبراء الدولة وشيوخها وأمرائها وضيوفها ، والأستاذين المحنكين والمميزين منهم ، خارجا عن أولاد الوزير واخوته .

وتفرق من مال الوزير بعد الخلع عليه ألفان وخمسمائة دينار وثمانون دينارا ، وأمر بتعليق جميع أبواب القصور ، وتفرقة المؤذنين بالجوامع والمساجد عليها ، وتقدم بأن تكون الأسمطة بقاعة الذهب على حكم سماط أول يوم من عيد النحر .

وفي باكر هذا اليوم ، توجه الخليفة الى الميدان ، وذبح ما جرت به العادة ، وذبح الجزارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة في عيد النحر ، وأمر بتفرقة ذلك للخصوص دون العموم .

وجلس الخليفة في المنظرة ، وخدمت الرهجية ، وتقدم الوزير والأمراء وسلموا ، فلما حان وقت الصلاة والمؤذنون على أبواب القصر يكبرون تكبير العيد ، الى أن دخل الوزير فوجد الخطيب على المنبر قد فرغ ، فتقدم القاضي أبو الحجاج يوسف بن أيوب فصلى به وبالجماعة صلاة العيد ، وطلع الشريف بن أنس الدولة وخطب خطبة العيد .

ثم توجه الوزير الى باب الملك ، فوجد الخليفة قد جلس قاصدا للقائه ، وقد ضربت المقدمة ، فأمره بالمضي اليها ، وخلع عليه خلعة مكملة من بدلات النحر ، وثوبها أحمر بالشدة الدالسية ، وقلده سيفا مرصعا بالياقوت والجوهر ، وعندما نهض ليقبل الأرض ، وجده قد أعد له العقد الجوهر ، وربطه في عنقه بيده ، وبالغ في اكرامه .

وخرج من باب الملك ، فتلقاه القرنون ، وسارع الناس الى خدمته ، وخرج من باب العيد وأولاده واخوته والأمراء المميزون بحجبه . وخدمت الرهجية وضربت العربية ، والموكب جميعه بزيه وقد أصلقت العساكر ، وتقدم الى ولده بالجلوس على أسمطته وتفرقها برسومها .

وتوجه الى القصر واستفتح القرآنون ، فسلم الحاضرون . وجرى الرسم في السماط الأول والثاني ، وتفرقة الرسوم والموائد ، على حكم أول يوم من عيد النحر .

وتوجه الخليفة بعد ذلك الى السماط الثالث الخاص بالدار الجليلة لأقاربه وجلسائه .

ولما انقضى حكم التعييد ، جلس الوزير في مجلسه ، واستفتح القرآنون ، وحضر الكبراء ورياض البلدين تهنيء بالعيد والخلع ، وخرج الرسم ، وتقدم الشعراء فأنشدوا وشرحوا الحال ، وحضر متولي خزائن الكسوة الخاص بالثياب التي كانت على المأمون قبل الخلع ، وقبضوا الرسم الجاري به العادة وهو مائة دينار ، وحضر متولي بيت المال وصحبته صندوق فيه خمسة آلاف دينار برسم فكاك العقد الجوهر والسيف المرصع .

فأمر الوزير المأمون الشيخ أبا الحسن بن أبي أسامة ، كاتب الدست الشريف ، بكتب مطالعة الى الخليفة بما حمل اليه من المال برسم منديل الكم ، وهو ألف دينار ، ورسم الأخوة والأقارب ألف دينار ، وتسلم متولي الدولة بقية المال ليفرق على الأمراء المطوقين والمميزين والضيوف والمستخدمين .

« المحول » : قال ابن عبد الظاهر : المحول هو مجلس الداعى ، ويدخل اليه من باب الريح ، وبابه من باب البحر * ، ويعرف بقصر البحر . وكان فى أوقات الاجتماع يصلى الداعى بالناس فى رواقه .

وقال المسبحى : وفى ربيع الأول (يعنى من سنة خمس وثمانين وثلثمائة) جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسى بالقصر لقراءة علوم آل البيت ، على الرسم المعتاد المتقدم له ولأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب ، فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا فكفنهم العزيز بالله .

وقال ابن الطوير : وأما داعى الدعاة فانه يلى قاضى القضاة فى الرتبة ، ويتزيا بزيه فى اللباس وغيره . ووصفه أنه يكون عالما بجميع مذاهب أهل البيت يقرأ عليه ، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه الى مذهبهم ، وبين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيبا ، وله نواب كنواب الحكم فى سائر البلاد ، ويحضر اليه فقهاء الدولة ، ولهم مكان يقال له دار العلم ، ولجماعة منهم على التصدير بها أرزاق واسعة .

وكان الفقهاء منهم يتفقون على دفتر يقال له مجلس الحكمة ، فى كل يوم اثنين وخميس ، ويحضر مبيضا الى داعى الدعاة فينفذه اليهم ، ويأخذه منهم ويدخل به الى الخليفة فى هذين اليومين المذكورين ، فيتلوه عليه ان أمكن ، ويأخذ علامته بظاهره ، ويجلس بالقصر لتلاوته على المؤمنين فى مكانين : للرجال على كرسى الدعوة بالايوان الكبير ، وللنساء بمجلس الداعى وكان من أعظم المبانى وأوسعها .

فاذا فرغ من تلاوته على المؤمنين والمؤمنات حضروا اليه لتقبيل يديه ، فيمسح على رؤوسهم بمكان العلامة ، أعنى خط الخليفة ، وله أخذ النجوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالهما لا سيما الصعيد ، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث ، فيجتمع من ذلك شىء كثير يحمله الى الخليفة بيده بينه وبينه ، وأمانته فى ذلك مع الله تعالى ، فيفرض له الخليفة منه ما يعينه لنفسه وللنقباء .

وفى الاسماعيلية الممولين من يحمل ثلاثة وثلاثين دينارا وثلثى دينار على حكم النجوى ، وصحبة ذلك رقعة مكتوبة باسمه ، فيتميز فى المحول ، فيخرج له عليها خط الخليفة « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » ، فيدخر ذلك ويتفاخر به .

وكانت هذه الخدمة متعلقة بقوم يقال لهم بنو عبد القوى ، أبا عن جد ، آخرهم الجليس . وكان الأفضل بن أمير الجيوش نفاهم الى المغرب ، فولد الجليس بالمغرب وربى به ، وكان يميل الى مذهب أهل السنة ، وولى القضاء مع الدعوة ، وأدركه أسد الدين شيركوه وأكرمه ، وجعله واسطة عند الخليفة العاضد ، وكان قد حجر على العاضد ، ولولاه لم يبق فى الخزائن شىء لكرمه ، وكأنه علم أنه آخر الخلفاء .

قال المسبحى : وكان الداعى يواصل الجلوس بالقصر لقراءة ما يقرأ على الأولياء

(*) ص٢٩٠ جـ١ ، ط. بولاق .

والدعاوى المتصلة ، فكان يفرد للأولياء مجلسا ، وللخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم مجلسا ، ولعوام الناس وللطارئين على البلد مجلسا ، وللنساء فى جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مجلسا ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلسا .

وكان يعمل المجالس فى داره ، ثم ينفذها الى من يختص بخدمه الدولة ، ويتخذ لهذه المجالس كتبا يبيضونها بعد عرضها على الخليفة . وكان يقبض فى كل مجلس من هذه المجالس ما يتحصل من النجوى من كل من يدفع شيئا من ذلك عينا وورقا من الرجال والنساء ، ويكتب أسماء من يدفع شيئا على ما يدفعه ، وكذلك فى عيد الفطر يكتب ما يدفع عن الفطرة ، ويحصل من ذلك مال جليل يدفع الى بيت المال شيئا بعد شىء ، وكانت تسمى مجالس الدعوة مجالس الحكمة .

وفى سنة أربعمائة كتب سجل عن الحاكم بأمر الله فيه رفع الخمس والزكاة والفطرة والنجوى التى كانت تحمل ، ويتقرب بها ، وتجرى على أيدى القضاة . وكتب سجل آخر بقطع مجالس الحكمة التى تقرأ على الأولياء يوم الخميس والجمعة ... انتهى .

ووظيفة داعى الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية . وقد لخصت من أمر الدعوة طرفا أحببت ايراده هنا .

وصف الدعوة وترتيبها : وكانت الدعوة مرتبة على منازل ، دعوة بعد دعوة .

الدعوة الأولى : سؤال الداعى لمن يدعوه الى مذهبه عن المشكلات ، وتأويل الآيات ، ومعانى الأمور الشرعية ، وشىء من الطبيعيات ومن الأمور الغامضة ، فان كان المدعو عارفا سلم له الداعى ، والا تركه يعمل فكره فيما ألقاه عليه من الأسئلة ، وقال له : ياهذا ان الدين لمكتوم ، وان الأكثر له منكرون وبه جاهلون ، ولو علمت هذه الأمة ماخص الله به الأئمة من العلم لم تختلف .

فيتشوق حينئذ المدعو الى معرفة ما عند الداعى من العلم ، فاذا علم منه الاقبال ، أخذ فى ذكر معانى القراءات وشرائع الدين ، وتقرير أن الآفة التى نزلت بالأمة وشتتت الكلمة ، وأورثت الأهواء المضلة ، ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم ، وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ، ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها .

غير أن الناس لما عدلوا عن الأئمة ، ونظروا فى الأمور بعقولهم ، واتبعوا ما حسن فى رأيهم ، وقلدوا سفلتهم ، وأطاعوا سادتهم وكبراءهم ، اتباعا للملوك ، وطلبا للدنيا التى هى أيدى متبعى الاثم وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة ، الذين يحبون العاجلة ، ويجتهدون فى طلب الرياسة على الضعفاء * ، ومكايدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته ، وتغيير كتاب الله عز وجل ، وتبديل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومخالفة دعوته ، وافساد شريعته ، وسلوك غير طريقته ، ومعاندة الخلفاء الأئمة من بعده

(*) ص٣٩١ جـ١ ، ط. بولاق .

يختر من قبل ذلك ، وصار الناس الى أنواع الضلالات

فان دين محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء بالتحلى ، ولا بأمانى الرجال ، ولا شهوات الناس ، ولا بما خف على الألسنة وعرفته دهماء العامة . ولكنه صعب مستصعب ، وأمر مستقبل ، وعلم خفى غامض ستره الله فى حجبه ، وعظم شأنه عن ابتذال أسراره . فهو سر الله المكتوم ، وأمره المستور الذى لا يطيق حمله ، ولا ينهض بأعبائه وثقله ، الا ملك مقرب ، أو نبى مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى ... فاذا ارتبط المدعو على الداعى وأنس له ، نقله الى غير ذلك .

فمن مسائلهم : ما معنى رمى الجمار والعدو بين الصفا والمروة ، ولم كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ، وما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير ، ولا يغتسل من البول النجس الكثير القذر ، وما بال الله خلق الدنيا فى ستة أيام ، أعجز عن خلقها فى ساعة واحدة ، وما معنى الصراط المضروب فى القرآن مثلا ، والكاتبين الحافظين ، وما لنا لا نراهما ، أخاف أن نكابره ونجاحده حتى أدلى العيون ، وأقام علينا الشهود ، وقيد ذلك فى القرطاس بالكتابة ؟

وما تبديل الأرض غير الأرض ، وما عذاب جهنم ، وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب ، وما معنى « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ، وما ابليس ، وما الشياطين ، وما وصفوا به وأين مستقرهم ، وما مقدار قدرهم ، وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت ، وأين مستقرهم ، وما سبعة أبواب النار ، وما ثمانية أبواب الجنة ، وما شجرة الزقوم النابتة فى الجحيم ، وما دابة الأرض ورؤوس الشياطين والشجرة الملعونة فى القرآن ، والتين والزيتون ؟

وما الخنس الكنس ، وما معنى الم والمص ، وما معنى كهيعص وحمعسق ، ولم جعلت السموات سبعا ، والأرضون سبعا ، والمثانى من القرآن سبع آيات ، ولم فجرت العيون اثنتى عشرة عينا ، ولم جعلت الشهور اثنى عشر شهرا ، وما يعمل معكم عمل الكتاب والسنة ، ومعانى الفرائض اللازمة ؟

فكروا أولا فى أنفسكم : أين أرواحكم ، وكيف صورها ، وأين مستقرها ، وما أول أمرها ، والانسان ما هو ، وما حقيقته ، وما الفرق بين حياته وحياة البهائم ، وفضل ما بين حياة البهائم وحياة الحشرات ، وما الذى بانت به حياة الحشرات من حياة النبات ؟

وما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلقت حواء من ضلع آدم » ؟

وما معنى قول الفلاسفة : الانسان عالم صغير ، والعالم انسان كبير ؟

ولم كانت قامة الانسان منتصبة دون غيره من الحيوانات ، ولم كان فى يديه من الأصابع عشر ، وفى رجليه عشر أصابع ، وفى كل أصبع من أصابع يديه ثلاثة شقوق ، الا الابهام فان فيه شقين فقط ؟

ولم كان فى وجهه سبع ثقب وفى سائر بدنه ثقبان ، ولم كان فى ظهره اثنتا عشرة عقده وفى عنقه سبع عقد ، ولم جعل عنقه

صورة ميم ، ويداه حاء ، وبطنه ميما ، ورجلاه دالا ، حتى صار ذلك كتابا مرسوما يترجم عن محمد ؟

ولم جعلت قامته اذا انتصب صورة ألف ، واذا ركع صارت صورة لام ، واذا سجد صارت صورة هاء ، فكان كتابا يدل على الله ؟

ولم جعلت أعداد عظام الانسان كذا ، وأعداد أسنانه كذا ، والأعضاء الرئيسة كذا ؟

الى غير ذلك من التشريح والقول فى العروق والأعضاء ووجوه منافع الحيوان .

ثم يقول الداعى : ألا تتفكرون فى حالكم وتعتبرون ، وتعلمون أن الذى خلقكم حكيم غير مجازف ، وأنه فعل جميع ذلك لحكمة ، وله فيها أسرار خفية حتى جمع ما جمع وفرق ما فرق ؟

فكيف يسعكم الاعراض عن هذه الأمور وأنتم تسمعون قول الله عز وجل « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون » ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فأى شىء رآه الكفار فى أنفسهم وفى الآفاق حتى عرفوا أنه الحق ؟ وأى حق عرفه من جحد الديانة ؟ ألا يدلكم هذا على أن الله جل اسمه أراد أن يرشدكم الى بواطن الأمور الخفية ، وأسرار فيها مكتومة لو تنبهتم لها وعرفتموها لزالت عنكم كل حيرة ، ودحضت كل شبهة ، وظهرت لكم المعارف السنية ؟

ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم التى من جهلها كان حريا ألا يعلم غيرها ؟ أليس الله تعالى يقول : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

ونحو ذلك من تأويل القرآن ، وتفسير السنن والأحكام ، وايراد أبواب من التجويز والتعليل .

فاذا علم الداعى أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه ، وطلب منه الجواب عنها ، قال له حينئذ : لا تعجل فان دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله ، ويجعل غرضا للعب . وجرت عادة الله وسنته فى عباده ، عند شرع من نصبه ، أن يأخذ العهد على من يرشده ، ولذلك قال : « واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » .

وقال * عز وجل : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

وقال جل جلاله : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، وقال : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » ، « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » ، وقال : « لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل » ، ومن أمثال هذا .

فقد أخبر الله تعالى أنه لم يملك حقه الا لمن أخذ عهده ، فأعطنا صفقة يمينك ، وعاهدنا بالمؤكد من أيمانك وعقودك : ألا تفشى لنا

(*) ص ٣٩٢ ج ١ ، ط . بولاق

سرا ، ولا تظاهر علينا أحدا ، ولا تطلب لنا غيلة ، ولا تكتمنا نصحا ، ولا توالى لنا عدوا .

فاذا أعطى العهد قال له الداعى : أعطنا جعلا من مالك نجعله مقدمة أمام كشفنا لك الأمور وتعريفك اياها — والرسم فى هذا الجعل بحسب ما يراه الداعى — فان امتنع المدعو أمسك عنه الداعى ، وان أجاب وأعطى نقله الى الدعوة الثانية .

وانما سميت الاسماعيلية بالباطنية ، لأنهم يقولون : لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطن ، ولكل تنزيل تأويل .

الدعوة الثانية : لا تكون الا بعد تقدم الدعوة الأولى . فاذا تقرر فى نفس المدعو جميع ما تقدم وأعطى الجعل ، قال له الداعى : ان الله تعالى لم يرض فى اقامة حقه وما شرعه لعباده ، الا أن يأخذوا ذلك عن أئمة نصبهم للناس ، وأقامهم لحفظ شريعته على ما أراده الله تعالى .

ويسلك فى تقرير هذا ، ويستدل عليه بأمور مقررة فى كتبهم ، حتى يعلم أن اعتقاد الأئمة قد ثبت فى نفس المدعو ، فاذا اعتقد ذلك نقله الى الدعوة الثالثة .

الدعوة الثالثة مرتبة على الثانية ، وذلك أنه اذا علم الداعى من دعاه أن ارتباطه على دين الله لا يعلم الا من قبل الأئمة ، قرر حينئذ عنده أن الأئمة سبعة ، قد رتبهم البارى تعالى كما رتب الأمور الجليلة ، فانه جعل الكواكب السيارة سبعة ، وجعل السموات سبعا ، وجعل الأرضين سبعا ، ونحو ذلك مما هو سبع من الموجودات .

وهؤلاء الأئمة السبعة هم : على بن أبى طالب ، والحسن بن على ، والحسين بن على ، وعلى بن الحسين الملقب زين العابدين ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد الصادق ، والسابع هو القائم صاحب الزمان .

وهم — أعنى الشيعة — مختلفون فى هذا القائم : فمنهم من يجعله محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق ويسقط اسماعيل بن جعفر ، ومنهم من يعد اسماعيل بن جعفر اماما ، ثم يعد ابنه محمد بن اسماعيل .

فاذا تقرر عند المدعو أن الأئمة سبعة ، انحل عن معتقد الامامية من الشيعة القائلين بامامة اثنى عشر اماما ، وصار الى معتقد الاسماعيلية بأن الامامة انتقلت الى محمد ابن اسماعيل بن جعفر .

فاذا علم الداعى ثبات هذا العقد فى نفس المدعو ، شرع فى ثلب بقية الأئمة الذين قد اعتقد الامامية فيهم الامامة ، وقرر عند المدعو أن محمد بن اسماعيل عنده علم المستورات وبواطن المعلومات التى لا يمكن أن توجد عند أحد غيره ، وأن عنده أيضا علم التأويل ومعرفة تفسير ظاهر الأمور ، وعنده سر الله تعالى فى وجه تدبيره المكتوم ، واتقان دلالاته فى كل أمر يسأل عنه فى جميع المعدومات ، وتفسير المشكلات وبواطن الظاهر كله ، والتأويلات وتأويل التأويلات .

وأن دعاته هم الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة ، لأنهم أخذوا عنه ، ومن جهته رووا ، وأن أحدا من الناس المخالفين لهم لا يستطيع أن يساويهم ، ولا

يقدر على التحقق بما عندهم الا منهم ... ويحتج لذلك بما هو معروف فى كتبهم مما لا يسع هذا الكتاب حكايته لطوله . فاذا انقاد المدعو وأذعن لما تقرر ، نقله الى الدعوة الرابعة .

الدعوة الرابعة : لا يشرع الداعى فى تقريرها حتى يتيقن صحة انقياد المدعو لجميع ما تقدم . فاذا تيقن منه صحة الانقياد ، قرر عنده أن عدد الأنبياء الناسخين للشرائع ، المبدلين لأحكامها ، أصحاب الأدوار وتقليب الأحوال ، الناطقين بالأمور ، سبعة فقط كعدد الأئمة سواء .

وكل واحد من هؤلاء الأنبياء لابد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته ، ويكون معه ظهيرا له فى حياته ، وخليفة له من بعد وفاته الى أن يبلغ شريعته الى أحد يكون سبيله معه كسبيله هو مع نبيه الذى اتبعه ، ثم كذلك كل مستخلف خليفة ... الى أن يأتى منهم على تلك الشريعة سبعة أشخاص ، ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون ، لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أولهم ، ويسمى الأول من هؤلاء السبعة « السوس » .

وانه لابد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاذ دورهم ، من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبى ينسخ شرع من مضى من قبله ، وتكون الخلفاء من بعده أمورهم تجرى كأمر من كان قبلهم ، ثم يكون من بعدهم نبى ناسخ يقوم من بعده سبعة صمت أبدا ... وهكذا حتى يقوم النبى السابع من النطقاء ، فينسخ جميع الشرائع التى كانت قبله ، ويكون صاحب الزمان الأخير .

فكان أول هؤلاء الأنبياء النطقاء آدم عليه السلام ، وكان صاحبه وسوسه ابنه شيث . وعدوا تمام السبعة الصامتين على شريعة آدم .

وكان الثانى من الأنبياء النطقاء نوح عليه السلام * ، فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم ، وكان صاحبه وسوسه ابنه سام ، وتلاه بقية السبعة الصامتين على شريعة نوح .

ثم كان الثالث من الأنبياء النطقاء ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه ، فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة نوح وآدم عليهما السلام ، وكان صاحبه وسوسه فى حياته والخليفة القائم من بعده المبلغ شريعته ، ابنه اسماعيل عليه السلام ، ولم يزل يخلفه صامت بعد صامت على شريعة ابراهيم حتى تم دور السبعة الصمت .

وكان الرابع من الأنبياء النطقاء موسى بن عمران عليه السلام ، فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم ونوح وابراهيم ، وكان صاحبه وسوسه أخوه هارون . ولما مات هارون فى حياة موسى ، قام من بعد موسى يوشع بن نون خليفة له صمت على شريعته وبلغها ، فأخذها عنه واحد بعد واحد الى أن كان آخر الصمت على شريعة موسى يحيى بن زكرياء ، وهو آخر الصمت .

ثم كان الخامس من الأنبياء النطقاء المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه ، فانه نطق بشريعة نسخ بها شرائع من كان قبله ، وكان

(*) ص٢٩٢ جـ١ ، ط.بولاق .

صاحبه وسوسه شمعون الصفا ، ومن بعده تمام السبعة الصمت على شريعة المسيح .

الى أن كان السادس من الأنبياء النطقاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فانه نطق بشريعة نسخ بها جميع الشرائع التى جاء بها الأنبياء من قبله ، وكان صاحبه وسوسه على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم من بعد على ستة صمتوا على الشريعة المحمدية ، وقاموا بميراث أسرارها ، وهم : ابنه الحسن ، ثم ابنه الحسين ، ثم على بن الحسين ، ثم محمد ابن على ، ثم جعفر بن محمد ، ثم اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو آخر الصمت من الأئمة المستورين .

والسابع من النطقاء هو صاحب الزمان ، وعند هؤلاء الاسماعيلية أنه محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وأنه الذى انتهى اليه علم الأولين ، وقام بعلم بواطن الأمور وكشفها ، واليه المرجع فى تفسيرها دون غيره ، وعلى جميع الكافة اتباعه والخضوع له والانقياد اليه والتسليم له ، لأن الهداية فى موافقته واتباعه ، والضلال والحيرة فى العدول عنه . فاذا تقرر ذلك عند المدعو ، انتقل الداعى الى الدعوة الخامسة .

الدعوة الخامسة مترتبة على ما قبلها . وذلك أنه اذا صار المدعو فى الرتبة الرابعة من الاعتقاد ، أخذ الداعى يقرر أنه لابد مع كل امام قائم فى كل عصر حجج متفرقون فى جميع الأرض عليهم تقوم ، وعدة هؤلاء الحجج أبدا اثنا عشر رجلا فى كل زمان ، كما أن عدد الأئمة سبعة .

ويستدل لذلك بأمور : منها أن الله تعالى لم يخلق شيئا عبثا ، ولا بد فى خلق كل شىء من حكمة . والا فلم خلق النجوم التى بها قوام العالم سبعة ، وجعل أيضا السموات سبعا ، والأرضين سبعا ، والبروج اثنى عشر ، والشهور اثنى عشر شهرا ، ونقباء بنى اسرائيل اثنى عشر نقيبا ، ونقباء رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار اثنى عشر نقيبا .

وخلق تعالى فى كف كل انسان أربع أصابع ، وفى كل اصبع ثلاثة شقوق ، تكون جملتها اثنى عشر شقا . على أنه فى ابهام كل يد شقان دلالة على أن الانسان بدنه كالأرض ، وأصابعه كالجزائر الأربع ، والشقوق التى فى الأصابع كالحجج ، والابهام الذى به قوام جميع الكف وسداد الأصابع ، كالذى يقوم الأرض بقدر ما فيها ، والشقان اللذان فى الابهام اشارة الى أن الامام وسوسه لا يفترقان .

وكذلك صار فى ظهر الانسان اثنتا عشرة خرزة اشارة الى الحجج الاثنى عشر ، وصار فى عنقه سبع ، فكان العنق عاليا على خرزات الظهر ، وذلك اشارة الى الأنبياء النطقاء والأئمة السبعة ، وكذلك الأثقاب السبعة التى فى وجه الانسان العالى على بدنه ... وأشياء من هذا النوع كثيرة . فاذا تمهد عند المدعو ما دعاه اليه الداعى وتقرر ، نقله حينئذ الى الدعوة السادسة .

الدعوة السادسة : لا تكون الا بعد ثبوت جميع ما تقدم فى نفس المدعو . وذلك أنه اذا صار الى الرتبة الخامسة ، أخذ الداعى فى تفسير معانى شرائع الاسلام — من الصلاة

والزكاة والحج والطهارة وغير ذلك من الفرائض — بأمور مخالفة للظاهر ، بعد تمهيد قواعد تبين فى أزمنة من غير عجلة ، تؤدى الى أن هذه الأشياء وضعت على جهة الرموز لمصلحة العامة وسياستهم ، حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض ، وتصدهم عن الفساد فى الأرض .. حكمة من الناصبين للشرائع ، وقوة فى حسن سياستهم لاتباعهم ، واتقانا منهم لما رتبوه من النواميس ونحو ذلك حتى يتمكن هذا الاعتقاد فى نفس المدعو .

فاذا طال الزمان ، وصار المدعو يعتقد أن أحكام الشريعة كلها وضعت على سبيل الرمز لسياسة العامة ، وأن لها معانى أخر غير ما يدل عليه الظاهر ، نقله الداعى الى الكلام فى الفلسفة ، وحضه على النظر فى كلام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ومن فى معناهم ، ونهاه عن قبول الأخبار والاحتجاج بالسمعيات ، وزين له الاقتداء بالأدلة العقلية والتعويل عليها .

فاذا استقر ذلك (*) عنده واعتقده ، نقله بعد ذلك الى الدعوة السابعة ، ويحتاج ذلك الى زمان طويل .

الدعوة السابعة : لا يفصح بها الداعى ما لم يكثر أنسه بمن دعاه ، ويتيقن أنه قد تأهل الى الانتقال الى رتبة أعلى مما هو فيه ، فاذا علم ذلك منه قال : ان صاحب الدلالة والناصب للشريعة لا يستغنى بنفسه ، ولابد له من صاحب معه يعبر عنه ، ليكون أحدهما الأصل والآخر عنه كان وصدر .

وهذا انما هو اشارة العالم السفلى لما يحويه العالم العلوى ، فان مدبر العالم فى أصل الترتيب وقوام النظام صدر عنه أول موجود بغير واسطة ولا سبب نشأ عنه ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » اشارة الى الأول فى الرتبة ، والآخر هو القدر الذى قال فيه : « انا كل شىء خلقناه بقدر » وهذا معنى ما نسمعه من أن الله أول ما خلق القلم فقال للقلم « اكتب » فكتب فى اللوح ما هو كائن .

وأشياء من هذا النوع موجودة فى كتبهم ، وأصلها مأخوذ من كلام الفلاسفة القائلين : الواحد لا يصدر عنه الا واحد وقد أخذ هذا المعنى المتصوفة ، وبسطوه بعبارات أخر فى كتبهم .

فان كنت ممن ارتاض وعرف مقالات الناس ، تبين لك ما ذكرت . ولا يحتمل هذا الكتاب بسط القول فى هذا المعنى .

واذا تقرر ما ذكر فى هذه الدعوة عند المدعو ، نقله الداعى الى الدعوة الثامنة .

الدعوة الثامنة : متوقفة على اعتقاد سائر ما تقدم ، فاذا استقر ذلك عند المدعو دينا له ، قال له الداعى : اعلم أن أحد المذكورين اللذين هما مدبر الوجود والصادر عنه ، انما تقدم السابق على اللاحق تقدم العلة على المعلول ، فكانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثانى بترتيب معروف فى بعضهم .

ومع ذلك فالسابق عندهم لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يقيد ، فلا يقال هو

(*) ص٣٩٤ جـ١ ، ط.بولاق .

موجود ولا معدوم ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ، وكذلك سائر الصفات — فان الاثبات عندهم يقتضى شركة بينه وبين المحدثات ، والنفى يقتضى التعطيل — وقالوا : ليس بقديم ولا محدث ، بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته ... كما هو مبسوط فى كتبهم .

فاذا استقر ذلك عند المدعو ، قرر عنده الداعى أن التالى يدأب فى أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق ، وأن الصامت فى الأرض يدأب فى أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء ، وأن الداعى يدأب فى أعماله حتى يبلغ منزلة السوس وحاله سواء . وهكذا تجرى أمور العالم فى أكواره وأدواره .

ولهذا القول بسط كثير ، فاذا اعتقده المدعو قرر عنده الداعى أن معجزة النبى الصادق الناطق ليست غير أشياء ينتظم بها سياسة الجمهور ، وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة تحوى معانى فلسفية تنبىء عن حقيقة أنية السماء والأرض ، وما يشتمل العالم عليه بأسره من الجواهر والأعراض : فتارة برموز يعقلها العالمون ، وتارة بافصاح يعرفه كل أحد ، فينتظم بذلك للنبى شريعة يتبعها الناس .

ويقرر عنده أيضا أن القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها سوى ما يفهمه العامة وغير ما يتبادر الذهن اليه ، وليس هو الا حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها ، من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع ، كما قد بسطه الفلاسفة فى كتبهم ، فاذا استقر هذا العقد عند المدعو ، نقله الداعى الى الدعوة التاسعة .

الدعوة التاسعة : هى النتيجة التى يحاول الداعى ، بتقرير جميع ما تقدم ، رسوخها فى نفس من يدعوه . فاذا تيقن أن المدعو تأهل لكشف السر والافصاح عن الرموز ، أحاله على ما تقرر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الالهى ، وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية .

حتى اذا تمكن المدعو من معرفة ذلك ، كشف الداعى قناعه وقال : ما ذكر من الحدوث والأصول رموز الى معانى المبادى وتقلب الجواهر ، وان الوحى انما هو صفاء النفس ، فيجد النبى فى فهمه ما يلقى اليه ويتنزل عليه ، فيبرزه الى الناس ، ويعبر عنه بكلام الله الذى ينظم به النبى شريعته ، بحسب ما يراه من المصلحة فى سياسة الكافة .

ولا يجب حينئذ العمل بها الا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء ، بخلاف العارف فانه لا يلزمه العمل بها ، ويكفيه معرفته فانها اليقين الذى يجب المصير اليه ، وما عدا المعرفة من سائر المشروعات ، فانما هى أثقال وآصار حملها الكفار أهل الجهالة لمعرفة الأعراض والأسباب .

ومن جملة المعرفة عندهم أن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع انما هم لسياسة العامة ، وأن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة ، وأن الامام انما وجوده فى العالم الروحانى اذا صرنا بالرياضة فى المعارف اليه ، وظهوره الآن انما

هو ظهور أمره ونهيه على لسان أوليائه ، ونحو ذلك مما هو مبسوط فى كتبهم . وهذا حاصل علم الداعى ، ولهم فى ذلك مصنفات كثيرة منها اختصرت ما تقدم ذكره .

ابتداء هذه الدعوة : اعلم أن هذه الدعوة منسوبة الى شخص كان بالعراق يعرف بميمون القداح ، وكان من غلاة الشيعة . فولد ابنا عرف بعبد الله بن ميمون ، اتسع علمه * ، وكثرت معارفه ، وكاد أن يطلع على جميع مقالات الخليقة ، فرتب له مذهبا ، وجعله فى تسع دعوات ، ودعا الناس الى مذهبه ، فاستجاب له خلق ، وكان يدعو الى الامام محمد بن اسماعيل ، وظهر من الأهواز ونزل بعسكر مكرم ، فصار له مال واشتهرت دعاته ، فأنكر الناس عليه وهموا به ، ففر الى البصرة ومعه من أصحابه الحسين الأهوازى .

فلما انتشر ذكره بها طلب ، فصار الى بلاد الشام وأقام بسلمية ، وبها ولد له ابنه أحمد ، فقام من بعد أبيه عبد الله بن ميمون ، فسير الحسين الأهوازى داعية له الى العراق ، فلقى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط بسواد الكوفة ، فدعاه واستجاب له ، وأنزله عنده . وكان من أمره ما هو مذكور فى أخبار القرامطة من كتابنا هذا ، عند ذكر المعز لدين الله معد .

ثم انه ولد لأحمد بن عبد الله ابنه الحسين ومحمد المعروف بأبى الشلعلع . فلما هلك أحمد خلفه ابنه الحسين ، ثم قام من بعده أخوه أبو الشلعلع ، وكان من أمرهم ما هو مذكور فى موضعه .

فانتشرت الدعاة فى أقطار الأرض ، وتفقهوا فى الدعوة حتى وضعوا فيها الكتب الكثيرة ، وصارت علما من العلوم المدونة ، ثم اضمحلت الآن وذهبت بذهاب أهلها ، ولهذا يقال ان أصل دعوة الاسماعيلية مأخوذ من القرامطة ، ونسبوا من أجلها الى الالحاد .

صفة العهد الذى يؤخذ على المدعو : وهو أن الداعى يقول لمن يأخذ عليه العهد ويحلفه : جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه ، وذمة رسوله وأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله ، وما أخذه على النبيين من عقد وعهد وميثاق ، أنك تستر جميع ما تسمعه وسمعته وعلمته وتعلمه وعرفته وتعرفه من أمرى وأمر المقيم بهذا البلد لصاحب الحق ، الامام الذى عرفت اقرارى له ونصحى لمن عقد ذمته ، وأمور اخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته المطيعين له على هذا الدين ، ومخالصته له من الذكور والاناث والصغار والكبار ... فلا تظهر من ذلك شيئا قليلا ولا كثيرا ، ولا شيئا يدل عليه الا ما أطلقت لك أن تتكلم به ، أو أطلقه لك صاحب الأمر المقيم بهذا البلد ، فتعمل فى ذلك بأمرنا ، ولا تتعداه ولا تزيد عليه ...

وليكن ما تعمل عليه قبل العهد وبعده بقولك وفعلك : أن تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وتشهد أن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وتقيم الصلاة لوقتها ، وتؤتى

(*) ص٣٩٥ ج١ ، ط. بولاق .

الزكاة لحقها ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت الحرام ، وتجاهد فى سبيل الله حق جهاده على ما أمر الله به ورسوله ، وتوالى أولياء الله ، وتعادى أعداء الله ، وتقوم بفرائض الله وسنته وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ظاهرا وباطنا وعلانية سرا وجهرا .

فان ذلك يؤكد هذا العهد ولا يهدمه ، ويثبته ولا يزيله ، ويقربه ولا يباعده ، ويشده ولا يضعفه ، ويوجب ذلك ولا يبطله ، ويوضحه ولا يعميه . كذلك هو الظاهر والباطن ، وسائر ما جاء به النبيون من ربهم صلوات الله عليهم أجمعين على الشرائط المبينة فى هذا العهد ... جعلت على نفسك الوفاء بذلك قل نعم . فيقول المدعو : نعم .

ثم يقول الداعى له : والصيانة له بذلك وأداء الأمانة ، على ألا تظهر شيئا أخذ عليك فى هذا العهد فى حياتنا ولا بعد وفاتنا ، لا فى غضب ولا على حال رضى ، ولا على رغبة ولا فى حال رهبة ، ولا عند شدة ولا فى حال رخاء ، ولا على طمع ولا على حرمان ... تلقى الله على الستر لذلك والصيانة له ، على الشرائط المبينة فى هذا العهد .

وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم : أن تمنعنى وجميع من أسميه لك وأثبته عندك مما تمنع منه نفسك ، وتنصح لنا ولوليك ولى الله نصحا ظاهرا وباطنا ، فلا تخن الله ووليه ولا أحدا من اخواننا وأوليائنا ومن تعلم أنه منا ، بسبب فى أهل ولا مال ، ولا رأى ولا عهد ولا عقد تتأول عليه بما يبطله .

فان فعلت شيئا من ذلك — وأنت تعلم أنك قد خالفته ، وأنت على ذكر منه — فأنت برىء من الله خالق السموات والأرض الذى سوى خلقك وألف تركيبك وأحسن اليك فى دينك ودنياك وآخرتك ، وتبرأ من رسله الأولين والآخرين وملائكته المقربين الكروبيين والروحانيين والكلمات التامات والسبع المثانى والقرآن العظيم ، وتبرأ من التوراة والانجيل والزبور والذكر الحكيم ، ومن كل دين ارتضاه الله فى مقدم الدار الآخرة ، ومن كل عبد رضى الله عنه ...

وأنت خارج من حزب الله وحزب أوليائه ، وخذلك الله خذلانا بينا يعجل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير الى نار جهنم التى ليس لله فيها رحمة ، وأنت برىء من حول الله وقوته ملجأ الى حول نفسك وقوتك ، وعليك لعنة الله التى لعن الله بها ابليس وحرم عليه بها الجنة وخلده فى النار ، ان خالفت شيئا من ذلك ، ولقيت الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان ...

ولله عليك أن تحج الى بيته الحرام ثلاثين حجة حجا واجبا ماشيا حافيا ، لا يقبل الله منك الا الوفاء بذلك . وكل ما تملك فى الوقت الذى تخالفه فيه ، فهو صدقة على الفقراء والمساكين الذين لا رحم بينك وبينهم ، لا يأجرك الله عليه ، ولا يدخل عليك بذلك منفعة * . وكل مملوك لك من ذكر أو أنثى فى ملكك ، أو تستفيده الى وقت وفاتك ، ان خالفت شيئا من ذلك ، فهم أحرار لوجه الله عز وجل . وكل امرأة لك أو تتزوجها الى

(*) ص٣٦٦ جـ١ ، ط . بولاق .

وقت وفاتك ، ان خالفت شيئا من ذلك ، فهن طوالق ثلاثا بتة ، طلاق الحرج لا مثوبة لك ولا خيار ولا رجعة ولا مشيئة . وكل ما كان لك من أهل ومال وغيرهما ، فهو عليك حرام ، وكل ظهار فهو لازم لك ...

وأنا المستحلف لك لامامك وحجتك ، وأنت الحالف لهما . وان نويت أو عقدت أو أضمرت خلاف ما أحلفك عليه وأحلفك به ، فهذه اليمين من أولها الى آخرها مجددة عليك لازمة لك ، لا يقبل الله منك الا الوفاء بها ، والقيام بما عاهدت بينى وبينك ، قل نعم ، فيقول نعم .

ولهم مع ذلك وصايا كثيرة أضربنا عنها خشية الاطالة ، وفيما ذكرناه كفاية لمن عقل .

الدواوين

وكانت دواوين الدولة الفاطمية ، لما قدم المعز لدين الله الى مصر ونزل بقصره فى القاهرة ، محلها بدار الامارة من جوار الجامع الطولونى .

فلما مات المعز ، وقلد العزيز بالله الوزارة ليعقوب بن كلس ، نقل الدواوين الى داره . فلما مات يعقوب نقلها العزيز بعد موته الى القصر ، فلم تزل به الى أن استبد الأفضل بن أمير الجيوش ، وعمر دار الملك بمصر ، فنقل اليها الدواوين ، فلما قتل عادت من بعده الى القصر ، وما زالت هناك حتى زالت الدولة .

قال فى كتاب « الذخائر والتحف » : وحدثنى من أثق به قال : كنت بالقاهرة يوما من شهور سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، وقد استفحل أمر المارقين ، وقويت شوكتهم ، وامتدت أيديهم الى أخذ الذخائر المصونة فى قصر السلطان بغير أمره .

فرأيت وقد دخل من باب الديلم ، أحد أبواب القصور المعمورة الزاهرة ، المعروف بتاج الملوك شادى ، وفخر العرب على بن ناصر الدولة بن حمدان ، ورضى الدولة بن رضى الدولة ، وأمير الأمراء بختكين بن بسكتكين ، وأمير العرب بن كيغلغ ، والأعز ابن سنان ، وعدة من الأمراء أصحابهم البغداديين وغيرهم ، وصاروا فى الايوان الصغير .

فوقفوا عند ديوان الشام لكثرة عددهم وجماعتهم ، وكان معهم أحد الفراشين المستخدمين برسم القصور المعمورة ، فدخلوا الى حيث كان الديوان النظرى فى الديوان المذكور ، وصحبتهم فعلة ، وانتهوا الى حائط مجير ، فأمروا الفعلة بكشف الجير عنه ، فظهرت حنية باب مسدود فأمروا بهدمه ، فتوصلوا منه الى خزانة ذكر أنها عزيزية من أيام العزيز بالله .

فوجدوا فيها من السلاح ما يروق الناظر ، ومن الرماح العزيزية المطلية أسنتها بالذهب ، ذات مهارك فضة مجراة بسواد ممسوح وفضة بياض ثقيلة الوزن ، عدة رزم أعوادها من الزان الجيد ، ومن السيوف المجوهرة النصول ، ومن النشاب الخلنجى وغيره ، ومن الدرق اللمطى والحجف التينى وغير ذلك ، ومن الدروع المكلل سلاح بعضها ، والمحلى

بعضها بالفضة المركبة عليه ، ومن التخافيف والجواشن والكراعيدات الملبسة ديباجا ، المكوكبة بكواكب فضة ، وغير ذلك مما ذكر أن قيمته تزيد على عشرين ألف دينار ... فحملوا جميع ذلك بعد صلاة المغرب .

ولقد شاهدت بعض حواشيهم وركابياتهم يكسرون الرماح ، ويتلفون بذلك أعوادها الزان ليأخذوا المهارك الفضة ، ومنهم من يجعل ذلك فى سراويله وعمامته وجيبه ، ومنهم من يستوهب من صاحبه السيف الثمين .

وكان فيها من الرماح الطوال الخطية السمر الجياد عده ، حملوا منها ما قدروا عليه ، وبقى منها ما كسره الركابية ومن يجرى مجراهم كانوا يبيعونه للمغازليين ولصناع المرادن حتى كثر هذا الصنف بالقاهرة . ولم تعترضهم الدولة ، ولا التفت الى قدر ذلك ولا احتفلت به ، وجعلته هو وغيره فداء لأموال المسلمين وحفظا لما فى منازلهم .

ديوان المجلس

قال ابن الطوير : ديوان المجلس هو أصل الدواوين قديما ، وفيه علوم الدولة بأجمعها ، وفيه عدة كتاب ، ولكل واحد مجلس مفرد ، وعنده معين أو معينان . وصاحب هذا الديوان هو المتحدث فى الاقطاعات ، ويلحق بديوان النظر ، ويخلع عليه وينشأ له السجل ، وله المرتبة والمسند والدواة والحاجب الى غير ذلك .

قال : ذكر خدمهم الخاصة المتصلة بهم .

فأولها دفتر المجلس ، وصاحبه من الأستاذين المحنكين ، ثم يتولاه أجل كتاب الدولة ممن يكون مترشحا لرأس الدواوين .

ويتضمن ذلك الدفتر — وله مكان ديوان بالقصر — الباطن من الانعام فى العطايا ، والظاهر من الرسوم المعروفة فى غرة السنة ، والضحايا ، والمرتب من الكسوات للأولاد والأقارب والجهات وأرباب الرتب على اختلاف الطبقات ، وما يرد من ملوك الدنيا من التحف والهدايا ، وما يرسل اليهم من الملاطفات ، ومقادير الصلات * للمترسلين بالمكاتبات ، وما يخرج من الأكفان لمن يموت من أرباب الجهات المحترمات .

ثم يضبط ما ينفق فى الدولة من المهمات ليعلم ما بين كل سنة من التفاوت : فالصرة المنعم بها فى أول العام من الدنانير والرباعية والقراريط تقرب من ثلاثة آلاف دينار ، وثمن الضحايا يقرب من ألفى دينار ، وما ينفق فى دار الفطرة فيما يفرق على الناس سبعة آلاف دينار ، وما ينفق فى دار الطراز للاستعمالات الخاص وغيرها فى كل سنة عشرة آلاف دينار ، وما ينفق فى مهم فتح الخليج غير المطاعم ألفا دينار ، وما ينفق فى شهر رمضان فى سماطه ثلاثة آلاف دينار ، وما ينفق فى سماطى الفطر والنحر أربعة آلاف دينار .

وهذا خارج عما يطلق للناس أصنافا من خزائنه من المآكل والمشارب والمواصلة من الهبات ، وما تخرج به الخطوط من التشريفات

(*) ص٣٩٧ جـ١ ، ط. بولاق .

والمسامحات ، وما يطلق من الأهراء من الغلات ... حتى لا يفوتهم علم شيء من هذه المطلقات .

وفى هذه الخدمة كاتب مستقل بين يدى صاحب ديوانه الأصلى ، ومعه كاتبان آخران لتنزيل ذلك فى الدفتر . والدفتر عبارة عن جرائد مسطوحات ينزل ذلك فيها فى أوقاته من غير فوات .

قال : واذا انقضى عيد النحر من كل سنة ، تقدم بعمل الاستيمار لتلك السنة تمام ذى الحجة منها ، فيجتمع كتاب ديوان الرواتب عند متوليه ، وتحمل العروض اليه .

فاذا تحررت نسخة التحرير بيضت بعد أن يستدعى من المجلس أوراق بالادرار الذى يقبض بغير خرج — وفى الادرار ماهو مستقر بالوجهين — فيضاف هذا المبلغ بجهاته الى المبالغ المعلومة بديوان الرواتب وجهاتها ، حتى لا يفوت من الاستيمار شيء من كل ما تقرر شرحه ، ويعلم مقداره عينا وورقا وغلة وغير ذلك .

فيحرر ذلك كله بأسماء المرتزقين ، وأولهم الوزير ومن يلوذ به ، وعلى ذلك الى أن ينتهى الجميع الى أرباب الضر .

فاذا تكمل استدعى له من خزانة الفرش وطاء حرير لشده ، وشرابة لمسكه اما خضراء أو حمراء ، ويعمل له صدر من الكلام اللائق بما بعده .

وهذا كله خارج عن الكسوات المطلقة لأربابها ، والرسوم المعدة فى كل سنة ، وما يحمل من دار الفطرة من الأصناف برسم عيد الفطر ، وعما يشهد به دفتر المجلس من العطايا الخافية والرسوم . وقد انعقد مرة — وأنا أتولى ديوان الرواتب — على ما مبلغه نيف ومائة ألف دينار أو قريب من مائتى ألف دينار ، ومن القمح والشعير على عشرة آلاف اردب .

فاذا فرغ من مسكه فى الشرابة ، حمل الى صاحب ديوان النظر ان كان ، والا فلصاحب ديوان المجلس ليعرضه على الخليفة ان كان (يعنى مستبدا) أو الوزير ، لاستقبال المحرم من السنة الآتية فى أوقات معلومة ، فيتأخر فى العرض ، وربما يستوعب المحرم ليحيط العلم بما فيه ، فاذا كمل العرض أخرج الى الديوان وقد شطب على بعضه .

وكانوا يتحرجون من الاقامات على مال الدولة التى لا أصل لها وعلى غير متوفر ، ويتنجزها أربابها بالمستقبلات على الخلفاء والوزراء ، وينقص قوم للاستكثار ، ويزاد قوم للاستحقاق ، ويصرف قوم ويستخدم آخرون ، على ما تقتضيه الآراء فى ذلك الوقت ، ثم يسلم لرب هذا الديوان ، فيحمل الأمر على ما شطب عليه ، وعلامة الاطلاق خروجه من العرض .

وقيل انه عمل مرة فى أيام المستنصر بالله ، فلما استؤذن على عرضه قال : هل وقع أحد بما فيه غيرنا ؟

قيل له : معاذ الله يامولانا ، ما تم انعام الا لك ، ولا رزق الا من الله على يديك .

فقال : ما ينقض به أمرنا ولا خطنا وما صرفناه فى دلتنا باذتنا .

وتقدم الى ولى الدولة ابن جبران كاتب الانشاء بامضائه للناس من غير عرض ، وحمل الأمر على حكمه ، ووقع عن الخليفة بظاهره : « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بادرار الأرزاق ، فليجروا على رسومهم فى الاطلاق ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

ووقع فى خلافة الحافظ لدين الله على استيمار الرواتب ما نصه : « أمير المؤمنين لا يستكثر فى ذات الله كثير الاعطاء ، ولا يكدره بالتأخير له والتسويف والابطاء . ولما انتهى اليه ما أرباب الرواتب عليه من القلق للامتناع من ايجاباتهم ، وحمل خروجاتهم : قد ضعفت قلوبهم ، وقنطت نفوسهم ، وساءت ظنونهم ... شملهم برحمته ورأفته ، وأمنهم مما كانوا وجلين من مخافته ، وجعل التوقيع بذلك بخط يده تأكيدا للانعام والمن ، وتهنئة بصدقة لا تتبع بالأذى والمن ...

« فليعتمد فى ديوان الجيوش المنصورة اجراء ما تضمنت هذه الأوراق ذكرهم ، على ما ألفوه وعهدوه من رواتبهم ، وايجابها على سياقها ليكافئهم ، من غير تأول ولا تعنت ، ولااستدراك ولا تعقب . وليجروا فى نسياتهم على عادتهم ، لا ينقض من أمرهم ما كان مبرما ، ولا ينسخ من رسمهم ما كان محكما ، كرما من أمير المؤمنين وفعلا مبرورا ، وعملا بما أخبر به عز وجل فى قوله تعالى « انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » . ولينسخ فى جميع الدواوين بالحضرة ان شاء الله تعالى » .

وقال فى كتاب « كنز الدرر » : ان فى سنة ست وأربعمائة ، عرض على الحاكم بأمر الله الاستيمار باسم المتفقهين والقراء والمؤذنين بالقاهرة * ومصر ، وكانت الجملة فى كل سنة أحدا وسبعين ألف دينار وسبعمائة وثلاثة وثلاثين دينارا وثلثى دينار وربع دينار . فأمضى جميع ذلك .

وقال ابن المأمون : وأما الاستيمار فبلغنى ممن أثق به أنه كان فى الأيام الأفضلية اثنى عشر ألف دينار ، وصار فى الأيام المأمونية لاستقبال سنة ست عشرة وخمسمائة ستة عشر ألف دينار . وأما تذكرة الطراز فالحكم فيها مثل الاستيمار . والشائع فيها أنها كانت تشتمل فى الأيام الأفضلية على أحد وثلاثين ألف دينار ، ثم اشتملت فى الأيام المأمونية على ثلاثة وأربعين ألف دينار ، وتضاعفت فى الأيام الآمرية .

وعرض روزنامج بما أنفق عينا من بيت المال — فى مدة أولها محرم سنة سبع عشرة وخمسمائة وآخرها سلخ ذى الحجة منها — فى العساكر المسيرة لجهاد الفرنج برا والأساطيل بحرا ، والمنفق فى أرباب النفقات من الحجرية والمصطيعية والسودان على اختلاف قبوضهم ، وما ينصرف برسم خزانة القصور الزاهرة ، وما يبتاع من الحيوان برسم المطابخ ، وما هو برسم منديل الكم الشريف فى كل سنة مائة دينار ، والمطلق فى الأعياد والمواسم ، وما ينعم به عند الركوبات من الرسوم والصدقات وعند العود منها ، وثمن الأمتعة المبتاعة من التجار على أيدى

(*) ص٣٦٨ جـ١ ، ط. بولاق .

الوكلاء ، والمطلق برسم الرسل والضيوف ومن يصل مستأمنا ودار الطراز ودار الديباج ، والمطلق برسم الصلات والصدقات ومن يهتدى للاسلام ، وما ينعم به على الولاة عند استخدامهم فى الخدم ، ونفقات بيت المال والعمائر ... وهو من العين : أربعمائة ألف وثمانية وستون ألفا وسبعمائة وسبعة وتسعون دينارا ونصف ، من جملة خمسمائة ألف وسبعة وستين ألفا ومائة وأربعين دينارا ونصف .

يكون الحاصل بعد ذلك ، مما يحمل الى الصناديق الخاص برسم المهمات لما يتجدد من تسفير العساكر ، وما يحمل الى الثغور عند نفاد ما بها : ثمانية وتسعين ألفا ومائة وسبعة وتسعين دينارا وربعا وسدسا . ولم يكن يكتب من بيت المال وصول ولا مجرى ولا تعرف .

وذلك خارج عما يحصل مشاهرة برسم الديوان المأمونى والأجلاء اخوته وأولاده ، وما أنعم به على ما تضمنت اسمه مشاهرة من الأصحاب والحواشى وأرباب الخدم ، والكتاب والأطباء والشعراء ، والفراشين الخاص والجوق والمؤديين ، والخياطين والرفائين وصبيان بيت المال ونواب الباب ونقباء الرسائل ، وأرباب الرواتب المستقرة من ذوى النسب والبيوتات ، والضعفاء ، والصعاليك من الرجال والنساء ، عن مشاهرتهم : ستة عشر ألفا وستمائة واثنان وثمانون دينارا وثلثا دينار ، يكون فى السنة مائتى ألف ومائة دينار .

فتكون الجملة سبعمائة ألف وسبعة وستين ألفا ومائتين وأربعة وتسعين دينارا ونصفا .

قال : وفى هذا الوقت (يعنى شوال سنة سبع عشرة وخمسمائة) وقعت مرافعة فى أبى البركات بن أبى الليث ، متولى ديوان المجلس ، صورتها :

« المملوك يقبل الأرض ، وينهى أنه ما واصل انهاء حال هذا الرجل وما يعتمده لأنه أهل أن ينال خدمة ، وانما هى نصيحة تلزمه فى حق سلطانه ، وقد حصل له من الأموال والذخائر ما لا عدد له ولا قيمة عليه ، ويضرب المملوك عن وجوه الجناية التى هى ظاهرة ، لأن السلطان لا يرضى بذكرها فى عالى مجلسه ، ولا سماعها فى دولته ، وله ولأهله مستخدمون فى الدولة ست عشرة سنة ، بالجارى الثقيل لكل منهم ...

« ويذكر المملوك ما وصلت قدرته الى علمه ، ما هو باسمه خاصة دون من هو مستخدم فى الدواوين من أهله وأصحابه ، ويبدأ بما باسمه : مياومة ادرارا من بيت المال والخزائن ودار التعبية والمطابخ وشون الحطب — وهو ما يبين برسم البقولات والتوابل — نصف دينار ، ومن الضأن رأس واحد ، ومن الحيوان ثلاثة أطيار ، ومن الحطب حملة واحدة ، ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلا ، ومن الخبز عشرون وظيفة ، ومن الفاكهة ثمرة زهرة قصريتان وشمامة ...

وفى كل اثنين وخميس من السماط بقاعة الذهب : طيفور خاص ، وصحن من الأوائل ، وخمسة وعشرون رغيفا من الخبز

المولدي والسيد . وفي كل يوم أحد وأربعاء من الأسمطة بالغدا والمأمونية مثل ذلك . وفي كل يوم سبت وثلاثاء من أسمطة الركوبات : خروف مشوي ، وجام حلوى ، ورباعي عنبا ...

ويحضر اليه في كل يوم من الاصطبلات : بغلة بمركوب محلى ، وبغلة برسم الراجل ، وفراشين من الجوق برسم خدمته وتبيت على بابه . واذا خرج من بين يدي السلطان في الليل ، كان له شمعة من الموكبيات توصله الى داره ، وزنها سبعة عشر رطلا ، ولا تعود . وبرسم ولده في كل يوم : ثلاثة أرطال لحم ، وعشرة أرطال دقيق ، وفي أيام الركوبات رباعي ...

« والمشاهرة جاري ديوان الخاص والمجلس برسمه مائة وعشرون دينارا ، وبرسم ولده راتبا عشرة دنانير ...

« وأثبت أربعة غلمان نصارى ، ولسبهم للاسلام ، في جملة المستخدمين في الركاب ، ولم يخدموا لا في الليل ولا في النهار ، بما مبلغه سبعة دنانير . ومن السكر خمسة عشر رطلا ، ومن عسل النحل عشرة أرطال ، ومن قلب الفستق ثلاثة * أرطال ، وقلب البندق خمسة أرطال ، وقلب اللوز أربعة أرطال ، وورد مربى رطلان ، زيت طيب عشرة أرطال ، شيرج خمسة أرطال ، زيت حار ثلاثون رطلا ، خل ثلاث جرار ، أرز نصف ويبة ، سماق أربعة أرطال ، حصرم وكشك وحب رمان وقراصيا بالسوية اثنا عشر رطلا ، سدر وأشنان ويبة ، ومن الكيزان عشرون شربة عربية والجية واحدة ، ومن الشمع ست شمعات : منهن اثنتان منويات ، وأربعة رطليات ...

« والمسانهة في بكور الغرة : برسم الخاصة خمسة دنانير ، وخمس رباعية ، وعشرة قراريط جدد . وبرسم ولده دينار رباعي ، وثلاثة قراريط ، وخروف مقموم ، وخمسة أرؤس ، وربع قنطار خبز بر ماذق ، وصحن أرز بلبن وسكر ...

« ومن السماط بالقصر في اليوم المذكور : خروف شواء ، وزبادي ، وجام حلوى ، والخبز وقطعة منفوخ ، ومن القمح ثلثمائة اردب ، ومن الشعير مائة وخمسون اردبا ، وفي المواليد الأربعة أربع صواني فطرة .

« وكسوة الشتاء : برسمه خاصة منديل حريري ، وشقة ديبقي حرير ، وشقة ديباج ، ورداء أطلس ، وشقة ديباج داري ، وشقتان سقلاطون احداهما اسكندرانية ، وشقتان عتابي ، وشقتان خز مغربي ، وشقتان اسكندراني ، وشقتان دمياطي ، وشقة طلي مرش وفوطة خاص . وبرسم ولده شقة سقلاطون داري ، وشقة عتابي داري ، وشقة خز مغربي ، وشقتان دمياطي ، وشقتان اسكندراني ، وشقة طلي وفوطة . وبرسم من عنده منديلا كم أحدهما خزائني خاص ، ونصفي أردية ديبقي ، وشقة سقلاطون داري ، وشقة عتابي ، وشقة سوسي ، وشقة دمياطي ، وشقتان اسكندراني وفوطة .

وبرسمه أيضا في عيد الفطر : طيفوران فطرة مشورة ، ومائة حبة بوري ، وبدلة

(*) ص٣٦٩ ج١ ، ط. بولاق .

مذهبة مكملة ، ولولده بدلة حرير ، وبرسم من عنده حلة مذهبة . وفي عيد النحر رسمه مثل عيد الفطر ، ويزيد عنه هبة مائة دينار . ولولده مثل عيد الفطر وزيادة عشرة دنانير ، ويساق اليه من الغنم ما لم يكن باسمه ...

« وفي موسم فتح الخليج : أربعون دينارا ، وصينية فطرة ، وطيفور خاص من القصر ، وخروف شواء ، وجام حلواء وبرسم ولده : خمسة دنانير ...

« ولخاصه في النوروز : ثلاثون دينارا ، وشقة ديبقي حريري ، وشقة لاذ ، ومعجر حريري ، ومنديل كم حريري ، وفوطة ، ومائة بطيخة ، وسبعمائة حبه رمان ، وأربعة عناقيد موز ، وفرد بسر ، وثلاثة أقفاص تمر قوصي ، وقفصان سفرجل ، وثلاث بكالي هريسة : واحدة بدجاج وأخرى بلحم ضأن ، والثالثة بلحم بقري ، وأربعو رطلا خبز بر ماذق .

ولولده خمسة دنانير ، وحوائج النوروز بما تقدم ذكره ...

« وبرسمه في الميلاد : جام قاهرية ، ومترد سميذ معتضي ، وزلابية ، وست قرابات جلاب ، وعشر حبات بوري ...

« وبرسم الغطاس : خمسمائة حبة ترنج ونارنج وليمون مركب ، وخمسة عشر طن قصب ، وعشر حبات بوري . وباسمه في عيد الغدير من السماط بالقصر مثل عيد النحر .

« وله هبة عن رسم الخلع من المجلس المأموني (يعني مجلس الوزارة) ثلاثون دينارا ، ولولده خمسة دنانير ...

« ومن تكون هذه رسومه ، في أي وجه تصرف أمواله ؟

« والذي باسم أخيه نظير ذلك ، وكذلك صهره في ديوان الوزارة ، وابن أخيه في الديوان التاجي ووجوه الأموال من كل جهة واصلة اليهم ، والأمانة مصروفة عنهم

« وقد اختصر المملوك فيما ذكر . والذي باسمه أكثر . واذا أمر بكشف ذلك من الدواوين ، تبين صحة قول المملوك ، وعلم أنه ممن يتجنب قول المحال ولا يرضاه لنفسه ، سيما ان رفعه الى المقام الكريم » .

وشنع ذلك بكثرة القول فيهم ، وعرض بالقبض عليهم ، وأوجب على نفسه أنه يثبت في جهاتهم من الأموال التي تخرج عن هذا الانعام ، ما يجده حاضرا مذخورا عند من يعرفه مائة ألف دينار .

فلم يسمع كلامه الى أن ظهر الراهب في الأيام الآمرية ، فوجد هو وغيره الفرصة فيهم ، وكثر الوقائع عليهم ، فقبض عليهم عن آخرهم ومن يعرفهم ، وأخذ منهم الجملة الكبيرة ، ثم بعد ذلك عادوا الى خدمهم بما كان من أسمائهم ، وتجدد من جاههم ، وانتقامهم من أعدائهم أكثر مما كان أولا ... انتهى .

فانظر — أعزك الله — الى سعة أحوال الدولة من معلوم رجل واحد من كتاب دواوينها ، يتبين لك — بما تقدم ذكره في هذه المرافعة — من عظم الشأن وكثرة العطاء ، ما يكون دليلا على باقي أحوال الدولة .

ديوان النظر

قال ابن الطوير : أما دواوين الأموال فان أجلها من يتولى النظر عليهم ، وله العزل والولاية ، ومن يده عرض الأوراق فى أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير ، ولم ير فيه نصرانى الا الأخرم ، ولم تتوصل اليه الا بالضمان . وله الاعتقال بكل مكان يتعلق بنواب الدولة ، وله الجلوس بالمرتبة والمسند ، وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ، وتخرج له الدواة بغير كرسى . وهو يندب المترسلين لطلب الحساب ، والحث على طلب الأموال ، ومطالبة أرباب الدولة ، ولا يعترض * فيما يقصده من أحد من الدولة .

ديوان التحقيق

هو ديوان مقتضاه المقابلة على الدواوين ، وكان لا يتولاه الا كاتب خبير ، وله الخلع والمرتبة والحاجب ، ويلحق رأس الديوان (يعنى متولى النظر) ، ويفتقر اليه فى أكثر الأوقات .

وقال ابن المأمون : وفى هذه السنة (يعنى سنة احدى وخمسمائة) فتح ديوان المجلس .

قال : ولما كثرت الأموال عند ابن أبى الليث صاحب الديوان ، رغب فى التجح على الأفضل بن أمير الجيوش ينهضه ، ويسأله أن يشاهده قبل حمله ، وذكر أنه سبعمائة ألف دينار خارجا عن نفقات الرجال .

(*) ص٤٠٢ ج١ ، ط.بولاق .

فجعلت الدنانير فى صناديق بجانب ، والدراهم فى صناديق بجانب ، وقام ابن أبى الليث بين الصفين . فلما شاهد الأفضل ابن أمير الجيوش ذلك ، قال لابن أبى الليث : ياشيخ ، تفرحنى بالمال ! وتربة أمير الجيوش ان بلغنى أن بئرا معطلة ، أو أرضا بائرة ، أو بلدا خراب ، لأضربن عنقك .

فقال : وحق نعمتك لقد حاشا الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب ، أو بئر معطلة ، أو أرض بور ... فأبى أن يكشف عما ذكر . انتهى .

وقتل ابن أبى الليث فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة .

ديوان الجيوش والرواتب

قال ابن الطوير : أما الخدمة فى ديوان الجيوش فتنقسم قسمين :

الأول ديوان الجيش ، وفيه مستوف أصيل ، ولا يكون الا مسلما ، وله مرتبة على غيره لجلوسه بين يدى الخليفة داخل عتبة باب المجلس ، وله الطراحة والمسند ، وبين يديه الحاجب ، وترد عليه أمور الأجناد ، وله العرض والحلى والثياب .

ولهذا الديوان خازنان برسم رفع الشواهد .

واذا عرض أحد الأجناد ، ورضى به عرض دوابه ، فلا يثبت له الا الفرس الجيد من ذكور الخيل واناثها ، ولا يترك لأحد منهم برذون ولا بغل وان كان عندهم البراذين والبغال ،

وليس لهم تغيير أحد من الأجناد الا برسوم ، وكذلك اقطاعهم .

ويكون بين يدى هذا المستوفى نقباء الأمراء ينهون اليه متجددات الأجناد من الحياة والموت والمرض والصحة ، وكان قد فسح للأجناد فى مقايضة بعضهم بعضا فى الاقطاع بالتوقيعات بغير علامة ، بل بتخريج صاحب ديوان المجلس .

ومن هذا الديوان تعمل أوراق أرباب الجرايات ، وما كان لأمير — وان علا قدره — بلد مقور الا نادرا .

وأما القسم الثانى من هذا الديوان فهو ديوان الرواتب ، ويشتمل على أسماء كل مرتزق وجار وجارية ، وفيه كاتب أصيل بطراحة ، وفيه من المعينين والمبيضين نحو عشرة أنفس . والتعريفات واردة عليه من كل عمل باستمرار من هو مستمر ، ومباشرة من استجد ، وموت من مات ، ليوجب استحقاقه على النظام المستقيم .

وفى هذا الديوان عدة عروض :

العرض الأول يشتمل على راتب الوزير وهو فى الشهر خمسة آلاف دينار ، ومن يليه من ولد وأخ من ثلثمائة دينار الى مائتى دينار ، ولم يقرر لولد وزير خمسمائة دينار سوى شجاع بن شاور المنعوت بالكامل ، ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من خمسمائة الى أربعمائة الى ثلثمائة ... خارجا عن الاقطاعات .

العرض الثانى حواشى الخليفة : وأولهم الأستاذون المحنكون على رتبهم وجوارى خدمهم التى لا يباشرها سواهم . فزمام القصر ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرسالة ، وصاحب الدفتر ، ومشاد التاج ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب المجلس : لكل واحد منهم مائة دينار فى كل شهر . ومن دونهم ينقص عشرة دنانير ، حتى يكون آخرهم من له فى كل شهر عشرة دنانير ، وتزيد عدتهم على ألف نفس . ولطبيبى الخاص ، لكل واحد خمسون دينارا . ولمن دونهما من الأطباء برسم المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير .

العرض الثالث يتضمن أرباب الرتب بحضرة الخليفة : فأوله كاتب الدست الشريف وجاريه مائة وخمسون دينارا ، ولكل واحد من كتابه ثلاثون دينارا ، ثم صاحب الباب وجاريه مائة وعشرون دينارا ، ثم حامل السيف وحامل الرمح لكل منهما سبعون دينارا ، وبقية الأزمة على العساكر والسودان من خمسين الى أربعين دينارا الى ثلاثين دينارا .

العرض الرابع يشتمل على المستقر لقاضى القضاة ومن يلى قاضى القضاة مائة دينار ، وداعى الدعاة مائة دينارا ، ولكل من قراء الحضرة عشرون دينارا الى خمسة عشر الى عشرة ، ولخطباء الجوامع من عشرين دينارا الى عشرة ، وللشعراء من عشرين دينارا الى عشرة دنانير .

العرض الخامس يشتمل على أرباب الدواوين ومن يجرى مجراهم : وأولهم من يتولى ديوان النظر وجاريه سبعون دينارا ، وديوان التحقيق جاريه خمسون دينارا ،

وديوان المجلس أربعون * دينارا ، وصاحب دفتر المجلس خمسة وثلاثون دينارا ، وكاتبه خمسة دنانير ، وديوان الجيوش وجاريه أربعون دينارا ، والموقع بالقلم الجليل ثلاثون دينارا ، ولجميع أصحاب الدواوين الجارى فيها المعاملات لكل واحد عشرون دينارا ، ولكل معين من عشرة دنانير الى سبعة الى خمسة دنانير .

العرض السادس يشتمل على المستخدمين بالقاهرة ومصر : لكل واحد من المستخدمين فى ولاية القاهرة وولاية مصر فى الشهر خمسون دينارا والحماة بالأهراء ، والمناخات ، والجوالى ، والبساتين ، والأملاك ، وغيرها ، لكل منهم من عشرين دينارا الى خمسة عشر الى عشرة الى خمسة دنانير .

العرض السابع : الفراشون بالقصور برسم خدمتها وتنظيفها خارجا وداخلا ، ونصب الستائر المحتاج اليها ، وخدمة المناظر الخارجة عن القصر . فمنهم خاص برسم خدمة الخليفة وعدتهم خمسة عشر رجلا ، منهم صاحب المائدة وحامى المطابخ ، من ثلاثين دينارا الى ما حولها ، ولهم رسوم متميزة ، ويقربون من الخليفة فى الأسمطة التى يجلس عليها . ويليهم الرشاشون داخل القصر وخارجه ولهم عرفاء ، ويتولى أمرهم أستاذ من خواص الخليفة ، وعدتهم نحو الثلثمائة رجل ، وجاريهم من عشرة دنانير الى خمسة دنانير

العرض الثامن : صبيان الركاب وعدتهم تزيد على ألفى رجل ، ومقدموهم أصحاب ركاب الخليفة وعدتهم اثنا عشر مقدما ، منهم مقدم المقدمين وهو صاحب الركاب اليمين ، ولكل من هؤلاء المقدمين فى كل شهر خمسون دينارا . ولهم نقباء من جهة المذكورين يعرفونهم ، وهم مقررون جوقا على قدر جواريهم : جوقة لكل منهم خمسة عشر دينارا ، وجوقة لكل منهم عشرة دنانير ، وجوقة لكل منهم خمسة دنانير . ومنهم من ينتدب فى الخدم السلطانية ، ويكون لهم نصيب فى الأعمال التى يدخلونها ، وهم الذين يحملون الملحقات لركوب الخليفة فى المواسم وغيرها .

وأول من قرر العطاء لغلمانه وخدمه ، وأولادهم الذكور والاناث ولنسائهم ، وقرر لهم أيضا الكسوة العزيز بالله نزار بن المعز .

ديوان الانشاء والمكاتبات

وكان لا يتولاه الا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالشيخ الأجل ، ويقال له كاتب الدست الشريف ، ويسلم المكاتبات الواردة مختومة ، فيعرضها على الخليفة من بعده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والاجابة عنها للكتاب والخليفة يستشيره فى أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه ، وهذا أمر لا يصل اليه غيره ، وربما بات عند الخليفة ليالى . وكان جاريه مائة وعشرين دينارا فى الشهر .

وهو أول أرباب الاقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم والملاطفات ، ولا سبيل أن يدخل الى ديوانه بالقصر ، ولا يجتمع بكتابه أحد الا الخواص ، وله حاجب من الأمراء

(*) ص٤٠١ جـ١ ، ط بولاق .

الشيوخ وفراشون ، وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند ، والدواة لكنها بغير كرسى ، وهى من أخص الدوى ، ويحملها أستاذ من أستاذى الخليفة .

التوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم

وكان لابد للخليفة من جليس يذاكره ما يحتاج اليه من كتاب الله ، وتجويد الخط وأخبار الأنبياء والخلفاء ، فهو يجتمع به فى أكثر الأيام ومعه أستاذ من المحنكين مؤهل لذلك فيكون الأستاذ ثالثهما ، ويقرأ على الخليفة ملخص السير ، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، وله بذلك رتبة عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست .

ويكون صحبته للجلوس دواة محلاة ، فاذا فرغ من المجالسة ألقى فى الدواة كاغد فيه عشرة دنانير ، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند مثلث خاص ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثانى مرة .

وله منصب التوقيع بالقلم الدقيق ، وله طراحة ومسند وفراش يقدم اليه ما يوقع عليه ، وله موضع من حقوق ديوان المكاتبات لا يدخل اليه أحد الا باذن ، وهو يلى صاحب ديوان المكاتبات فى الرسوم ، والكساوى وغيرها .

التوقيع بالقلم الجليل

وهى رتبة جليلة ، ويقال لها الخدمة الصغرى ، ولها الطراحة والمسند بغير حاجب ، بل الفراش لترتيب ما يوقع فيه .

مجلس النظر فى المظالم

كانت الدولة اذا خلت من وزير صاحب سيف ، جلس صاحب الباب فى باب الذهب بالقصر وبين يديه النقباء * والحجاب ، فينادى المنادى بين يديه : ياأرباب الظلامات ... فيحضرون : فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت الى الولاة والقضاة رسالة بكشفها . ومن تظلم ممن ليس من أهل البلدين أحضر قصة بأمره ، فيتسلمها الحاجب منه .

فاذا جمعها أحضرها الى الموقع بالقلم الدقيق فيوقع عليها ، ثم تحمل الى الموقع بالقلم الجليل ، فيبسط ما أشار اليه الموقع الأول ، ثم تحمل فى خريطة الى الخليفة ، فيوقع عليها ، ثم تخرج فى الخريطة الى الحاجب ، فيقف على باب القصر ويسلم كل توقيع لصاحبه .

فان كان وزيره صاحب سيف ، جلس للمظالم بنفسه ، وقبالته قاضى القضاة ومن جانبيه شاهدان معتبران ، ومن جانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق ، ويليه صاحب ديوان المال ، وبين يديه صاحب الباب واسفهسلار العساكر ، وبين أيديهما النواب والحجاب على طبقاتهم .

ويكون الجلوس بالقصر فى مجلس المظالم فى يومين من الأسبوع .

وكان الخليفة اذا رفعت اليه القصة وقع عليها « يعتمد ذلك ان شاء الله تعالى » ويوقع

(*) ص٤٠٢ جـ١ ، ط. بولاق .

فى الجانب الأيمن منها — يوقع بذلك ، فتخرج الى صاحب ديوان المجلس ، فيوقع عليها جليلا ، ويخلى مكان العلامة ، فيعلم عليها الخليفة وتثبت .

وكانت علامتهم أيضا « الحمد لله رب العالمين » .

وكان الخليفة يوقع فى المسامحة والتسويغ والتحبيس « قد أمضينا ذلك ، وقد أمضينا ذلك » . وكان اذا أراد أن يعلم ذلك الشىء الذى أنهى وقع « ليخرج الحال فى ذلك » . فاذا أحضر اليه اخراج الحال ، علم عليه .

فان كان حينئذ وزير ، وقع الخليفة بخطه « وزيرنا السيد الأجل — وذكر نعته المعروف به — أمتعنا الله ببقائه ، يتقدم بنجاز ذلك ان شاء الله تعالى » ، فيكتب الوزير تحت خط الخليفة « يمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، ويثبت فى الدواوين » .

رتب الأمراء

وكان أجل خدم الأمراء أرباب السيوف ، خدمة الباب . ويقال لمتولى هذه الخدمة صاحب الباب ، وينعت أولا بالمعظم .

وأول من خدم بها المعظم خمرتاش فى أيام الخليفة الحافظ ، وكان من العقلاء ، وناب عن الحافظ فى مرضه ، فلما عوفى أراده على الوزارة فامتنع

وله نائب يقال له النائب ، وتسمى الخدمة فيها بالنيابة الشريفة ، ومقتضاها أنها ميزة ، ولا يليها الا أعيان العدول وأرباب العمائم ، وينعت أيضا بعدى الملك .

وهو الذى يتلقى الرسل الواصلة من الدول ، ومعه نواب الباب فى خدمته ، ويحفظهم وينزلهم بالأماكن المعدة لهم ، ويقدمهم للسلام على الخليفة والوزير مع صاحب الباب ، فيكون صاحب الباب يمينا وهو يسار ، ويتولى افتقادهم والحث على ضيافتهم ، ولا يمكن من التقصير فى حقوقهم واجتماع الناس بهم ، والاطلاع على ما جاءوا فيه ، ولا من ينقل الأخبار اليهم

وتلى رتبة صاحب الباب الاسفهسلار ، وهو زمام كل زمام ، واليه أمور الأجناد .

ثم يليه حامل سيف الخليفة أيام الركوب بالمظلة واليتيمة ، ثم من يرم طائفتى الحافظية والآمرية وهما وجه الأجناد . وهؤلاء أرباب الأطواق ، ويليهم أرباب القصب والعماريات وهى الأعلام ، ثم زى الطوائف ، ثم من يترشح لذلك من الأماثل .

وكانت الدولة لا تسند ذلك الا الى أرباب الشجاعة والنجدة ، ولهذا دخل فيه أخلاط الناس من الأرمن والروم وغيرهم . وعلى ذلك كان عملهم لا للزينة والتباهى .

قاضى القضاة

وكان من عادة الدولة أنه اذا كان وزير رب سيف ، فانه يقلد القضاء رجلا نيابة عنه ، وهذا انما حدث من عهد أمير الجيوش بدر الجمالى .

واذا كان الخليفة مستبدا ، قلد القضاء رجلا ونعته بقاضى القضاة ، وتكون رتبته أجل رتب أرباب العمائم وأرباب الأقلام ، ويكون فى بعض الأوقات داعيا ، فيقال له حينئذ قاضى القضاة وداعى الدعاة ، ولا يخرج شىء من الأمور الدينية عنه .

ويجلس السبت والثلاثاء بزيادة جامع عمرو ابن العاص بمصر على طراحة ومسند حرير ، فلما ولى ابن عقيل القضاء رفع المرتبة والمسند ، وجلس على طراحات السامان ، فاستمر هذا الرسم .

ويجلس الشهود حواليه يمنة ويسرة بحسب تاريخ عدالتهم ، وبين يديه خمسة من الحجاب : اثنان بين يديه ، واثنان على باب المقصورة ، وواحد ينفذ الخصوم اليه .

وله أربعة من الموقعين بين يديه ، اثنان يقابلان اثنين . وله كرسى الدواة ، وهى دواة محلاة بالفضة تحمل اليه من خزائن القصور ، ولها حامل بجامكية فى الشهر على الدولة .

ويقدم له من الاصطبلات برسم ركوبه على الدوام بغلة شهباء ، وهو مخصوص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة ، وعليها من خزانة السروج سرج محلى ثقيل وراءه دفتر فضة ، ومكان الجلد حرير .

وتأتيه فى المواسم الأطواق ، ويخلع عليه * الخلع المذهبة بلا طبل ولا بوق ... الا اذ ولى الدعوة مع الحكم ، فان للدعوة فى خلعها الطبل والبوق والبنود الخاص ، وهى

(*) ص٤٠٢ جـ١ ، ط.بولاق .

نظير البنود التى يشرف بها الوزير صاحب السيف

واذا كان للحكم خاصة ، كان حواليه القراء رجالة ، وبين يديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفة والوزير ان كان ثم ، ويحمل بنواب الباب والحجاب ، ولا يتقدم عليه أحد فى محضر هو حاضره من رب سيف وقلم ، ولا يحضر لا ملاك ولا جنازة الا باذن ، ولا سبيل الى قيامه لأحد وهو فى مجلس الحكم ، ولا يعدل شاهد الا بأمره

ويجلس بالقصر فى يومى الاثنين والخميس أول النهار للسلام على الخليفة ، ونوابه لا يفترون عن الأحكام ، ويحضر اليه وكيل بيت المال .

وكان له النظر فى ديوان الضرب لضبط ما يضرب من الدنانير ، فكان يحضر مباشرة التعليق بنفسه ، ويختم عليه ويحضر لفتحه .

وكان القاضى لا يصرف الا بجنحة ، ولا يعدل أحدا الا بتزكية عشرين شاهدا ، عشرة من مصر وعشرة من القاهرة ، ورضى الشهود به ، ولا يحتمى أحد على الشرع ، ومن فعل ذلك أدب

قاعة الفضة

وهى من جملة قاعات القصر .

قاعة السدرة

كانت بجوار المدرسة والتربة الصالحية ، واشتراها قاضى القضاة شمس الدين محمد ابن ابراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور

لشمس الدين الحنبلي ، مدرس الحنابلة بالمدرسة الصالحية ، بألف وخمسة وثمانين دينارا ، في رابع عشر ربيع الآخر سنة ستين وستمائة ، من كمال الدين ظافر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال ، ثم باعها شمس الدين المذكور للملك الظاهر بيبرس في حادي عشري ربيع الآخر المذكور . وكان يتوصل اليها من باب البحر .

قاعة الخيم

كانت غربي قاعة السدرة . وقد دخلت قاعة السدرة وقاعة الخيم في مكان المدرسة الظاهرية العتيقة .

المناظر الثلاث

استجدهن الوزير المأمون البطائحي ، وزير الخليفة الآمر بأحكام الله ؛ إحداهن بين باب الذهب وباب البحر ، والأخرى على قوس باب الذهب ، ومنظرة ثالثة . وكان يقال لها الزاهرة والفاخرة والناضرة . وكان يجلس الخليفة في إحداها لعرض العساكر يوم عيد الغدير ، ويقف الوزير في قوس باب الذهب .

قصر الشوك

قال ابن عبد الظاهر : كان منزلا لبني عذرة قبل القاهرة يعرف بقصر الشوك ، وهو الآن أحد أبواب القصر ... انتهى .

والعامة تقول « قصر الشوق » .

وأدركت مكانه دارا استجدت بعد الدولة الفاطمية ، هدمها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار في سنة احدى عشرة وثمانمائة لينشئها دارا ، فمات قبل ذلك .

وموضعه اليوم بالقرب من دار الضرب فيما بينه وبين المارستان العتيق .

قصر أولاد الشيخ

هذا المكان من جملة القصر الكبير ، وكان قاعة ، سكنها الوزير الصاحب الأمير الكبير معين الدين حسين ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه ، في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فعرف به .

وأدركت هذا المكان خطا يعرف بالقصر ، يتوصل اليه من زقاق تجاه حمام بيسرى ، وفيه عدة دور ؛ منها دار الطواشي سابق الدين ، ومدرسته المعروفة بالمدرسة السابقية . وكان يتوصل اليه من الركن المخلق أيضا ، من الباب المظلم تجاه سور سعيد السعداء ، المعروف قديما بباب الريح .

ثم عرف بقصر ابن الشيخ ، وعرف في زمننا بباب القصر ، الى أن هدمه جمال الدين الأستادار كما يأتي ان شاء الله تعالى .

قصر الزمرد *

هو من جملة القصر الكبير ، وعرف أخيرا بقصر قوصون ، ثم عرف في زمننا بقصر الحجازية . وقيل له قصر الزمرد لأنه كان

(*) ص ٤٠٢ ، جـ ١ ، ط . بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٢٠



كتاب التحرير

«كانت مصر هى مسقط رأسى . وملعب أترابى . ومجمع ناسى . ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى . وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره . وعش مأربى . فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت منذ شذوت العلم . وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

بجوار باب الزمرذ أحد أبواب القصر . ووجد به فى سنة بضع وسبعين وسبعمائة تحت التراب عمودان عظيمان من الرخام الأبيض ، فعمل لهما ابن عابد رئيس الحراريق السلطانية أساقيل ، وجرهما الى المدرسة التى أنشأها الملك الأشرف شعبان بن حسين ، تجاه الطبلخاناة من قلعة الجبل .

وأدركنا لجر هذين العمودين أوقاتا فى أيام تجمع الناس فيها من كل أوب لمشاهدة ذلك ، ولهجوا بذكرهما زمنا ، وقالوا فيهما شعرا وغناء كثيرا ، وعملوا نموذجات من ثياب الحرير وتطريز المناديل عرفت بجر العمود .

وكانت الأنفس حينئذ منبسطة ، والقلوب خالية من الهموم ، وللناس اقبال على اللهو لكثرة نعمهم وطول فراغهم .

وكان العمودان المذكوران مما ارتدم من أنقاض القصر ، فسبحان الوارث .

الركن المخلق

موضعه الآن تجاه حوض الجامع الأقمر ، على يمنة من أراد الدخول الى المسجد المعروف الآن بمعبد موسى . وقيل له الركن المخلق لأنه ظهر فى سنة ستين وستمائة فى هذا الموضع حجر مكتوب عليه « هذا مسجد موسى عليه السلام » ، فخلق بالزعفران ، وسمى من ذلك اليوم بالركن المخلق .

وأخبرنى الأمير الوزير أبو المعالى يلبغا السالمى أنه قرأ فى الأسطر المكتوبة بأسكفة باب الجامع الأقمر كلاما من جملته « والحوانيت التى بالركن المخوق » بواو بعد الخاء . فرأيت بعد ذلك فى « الأمالى » للقالى وقال أبو عبيدة ، عن أبى عمرو : الخوقاء الصحراء التى لا ماء بها ، ويقال الواسعة ، وأخوق واسع .

فلعله سمى المخوق بمعنى الاتساع ، فكان ركنا متسعا وفى بناء واسع ، أو يكون المخلق باللام من قولهم قدح مخلق — بضم الميم وفتح الخاء وتشديد اللام وفتحها — أى مستو أملس . وكل ما لين وملس فقد خلق ، فكل مملس مخلق ، وسمته العامة بعد ذلك الركن المخلق عندما خلقوه بالزعفران ، والله أعلم .

السقيفة (١)

وكان من جملة القصر الكبير موضع يعرف بالسقيفة يقف عنده المتظلمون . وكانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كل ليلة لمن يأتيه من المتظلمين ، فاذا ظلم أحد وقف تحت السقيفة وقال بصوت عال : لا اله الا الله محمد رسول الله ، على ولى الله . فيسمعه الخليفة فيأمر باحضاره اليه ، أو يفوض أمره الى الوزير أو القاضى أو الوالى .

ومن غريب ما وقع أن الموفق بن الخلال لما كان يتحدث فى أمور الدواوين أيام الخليفة الحافظ لدين الله ، وخرج من انتدب بعد انحطاط النيل من العدول والنصارى

(١) قوله السقيفة ، هكذا هنا فى النسخ ، بالقاف والفاء ، وهو الظاهر المتبادر ، خلافا لما مر من انها سفينة بالفاء والنون • ا هـ • مصححه •

الكتاب الى الأعمال ، لتحرير ما شمله الرى وزرع من الأراضى ، وكتابة المكلفات .

فخرج الى بعض النواحى من يمسحها من شاد وناظر وعدول ، وتأخر الكاتب النصرانى ثم لحقهم وأراد التعدية الى الناحية ، فحمله ضامن تلك المعدية الى البر ، وطلب منه أجرة التعدية ، فنفر فيه النصرانى وسبه وقال : أنا ماسح هذه البلدة ، وتريد منى حق التعدية ؟

فقال له الضامن : ان كان لى زرع خذه . وقلع لجام بغلة النصرانى ، وألقاه فى معديته . فلم يجد النصرانى بدا من دفع الأجرة اليه حين أخذ لجام بغلته .

فلما تمم مساحة البلد ، وبيض مكلفة المساحة ليحملها الى دواوين الباب — وكانت عادتهم حينئذ كتب الجملة بزيادة عشرين فدانا — ترك بياضا فى بعض الأوراق ، وقابل العدول على المكلفة ، وأخذ الخطوط عليها بالصحة ، ثم كتب فى البياض الذى تركه « أرض اللجام باسم ضامن المعدية : عشرين فدانا قطيعة . كل فدان أربعة دنانير ، عن ذلك ثمانون دينارا » . وحمل المكلفة الى ديوان الأصل .

وكانت العادة اذا مضى من السنة الخراجية أربعة أشهر ، ندب من الجند من فيه حماسة وشدة ، ومن الكتاب العدول ، وكاتب نصرانى . فيخرجون الى سائر الأعمال لاستخراج ثلث الخراج على ما تشهد به المكلفات المذكورة ، فينفق فى الأجناد ، فانه لم يكن حينئذ للأجناد اقطاعات كما هو الآن .

وكان من العادة أن يخرج الى كل ناحية ممن ذكر من لم يكن خرج وقت المساحة ، بل ينتدب قوم سواهم . فلما خرج الشاد والكاتب والعدول لاستخراج ثلث مال الناحية ، استدعوا أرباب الزرع على ما تشهد به المكلفة ، ومن جملتهم ضامن المعدية . فلما حضر ألزم بستة وعشرين دينارا وثلثى دينار ، عن نظير ثلث المال الثمانين دينارا التى تشهد بها المكلفة عن خراج أرض اللجام .

فأنكر الضامن أن تكون له زراعة بالناحية ، وصدقه أهل البلد . فلم يقبل الشاد ذلك — وكان عسوفا — وأمر به فضرب بالمقارع ، واحتج بخط العدول على المكلفة ، وما زال به حتى باع معديته وغيرها ، وأورد ثلث المال الثابت فى المكلفة * .

وسار الى القاهرة ، فوقف تحت السقيفة ، وأعلن بما تقدم ذكره ، فأمر الخليفة الحافظ باحضاره . فلما مثل بحضرته قص عليه ظلامته مشافهة ، وحكى له ما اتفق منه فى حق النصرانى ، وما كاده به .

فأحضر ابن الخلال وجميع أرباب الدواوين ، وأحضرت المكلفات التى عملت للناحية المذكورة فى عدة سنين ماضية ، وتصفحت بين يديه سنة سنة ، فلم يوجد لأرض اللجام ذكر ألبتة .

فحينئذ أمر الخليفة الحافظ باحضار ذلك النصرانى وسمر فى مركب ، وأقام له من يطعمه ويسقيه ، وتقدم بأن يطاف به سائر الأعمال ، وينادى عليه ... ففعل ذلك .

(*) ص٤٠٥ جـ١ ، ط.بولاق .

وأمر بكف أيدى النصرانية كلها عن الخدم فى سائر المملكة ، فتعطلوا مدة الى أن ساءت أحوالهم .

وكان الحافظ مغرما بعلم النجوم ، وله عدة من المنجمين من جملتهم شخص صار اليه عدة من أكابر كتاب النصارى ، ودفعوا اليه جملة من المال ، ومعهم رجل منهم يعرف بالأخرم بن أبى زكريا ، وسألوه أن يذكر للحافظ فى أحكام تلك السنة حلية هذا الرجل ، فانه ان أقامه فى تدبير دولته زاد النيل ، ونما الارتفاع ، وزكت الزروع ، وتنجت الأغنام ، ودرت الضروع ، وتضاعفت الأسماك ، وورد التجار ، وجرت قوانين المملكة على أجمل الأوضاع .

فطمع ذلك المنجم فى كثرة ما عاينه من الذهب ، وعمل ما قرره النصارى معه .

فلما رأى الحافظ ذلك تعلقت نفسه بمشاهدة تلك الصفة ، فأمر باحضار الكتاب من النصارى ، وصار يتصفح وجوههم من غير أن يطلع أحدا على ما يريده ، وهم يؤخرون الأخرم عن الحضور اليه — قصدا منهم ، وخشية أن يفطن بمكرهم — الى أن اشتد الزامهم باحضار سائر من بقى منهم ، فأحضروه بعد أن وضعوا من قدره .

فلما رآه الحافظ ، رأى فيه الصفات التى عينها منجمه ، فاستدناه اليه وقربه ، وآل أمره الى أن ولاه أمير الدواوين .

فأعاد كتاب النصارى أوفر ما كانوا عليه ، وشرعوا فى التجبر ، وبالغوا فى اظهار الفخر ، وتظاهروا بالملابس العظيمة ، وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسومة بالسروج المحلاة واللجم الثقيلة ، وضايقوا المسلمين فى أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية ، واتخذوا العبيد والمماليك والجوارى من المسلمين والمسلمات .

وصودر بعض كتاب المسلمين فألجأته الضرورة الى بيع أولاده وبناته ، فيقال انه اشتراهم بعض النصارى ، وفى ذلك يقول ابن الخلال :

اذا حكم النصارى فى الفروج
وغالوا بالبغال وبالسروج

وذلت دولة الاسلام طرا
وصار الأمر فى أيدى العلوج

فقل للاعور الدجال هذا
زمانك ان عزمت على الخروج

وموضع السقيفة فيما بين درب السلامى وبين خزانة البنود ، يتوصل اليه من تجاه البئر التى قدام دار كانت تعرف بقاعة ابن كتيلة . ثم استولى عليها جمال الدين الأستادار ، وجعلها مسكنا لأخيه ناصر الدين الخطيب ، وغير بابها .

دار الضرب

هذا المكان ، الذى هو الآن دار الضرب من بعض القصر ، كان خزانة بجوار الايوان الكبير ، سجن بها الخليفة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد .

وذلك أن الآمر لما قتل فى يوم الثلاثاء رابع عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة قام العادل برغش وهزار الملوك جوامرد — وكانا أخص غلمان الآمر — بالأمير عبد المجيد ، ونصباه خليفة ، ونعتاه بالحافظ لدين الله ، وهو يومئذ أكبر الأقارب سنا .

وذكر أن الآمر قال قبل أن يقتل بأسبوع عن نفسه : « المسكين المقتول بالسكين » ، وأنه أشار الى أن بعض جهاته حامل منه ، وأنه رأى أنها ستلد ذكرا وهو الخليفة من بعده ، وأن كفالته للأمير عبد المجيد . فجلس على أنه كافل للمذكور ، وندب هزار الملوك للوزارة ، وخلع عليه .

فلم ترض الأجناد به ، وثاروا بين القصرين — وكبيرهم رضوان بن ولخشى — وقاموا بأبى على بن الأفضل ، الملقب بكتيفات ، وقالوا : لا نرضى الا أن يصرف هزار الملوك ، وتفوض الوزارة لأحمد بن الأفضل فى سادس عشره .

فكان أول ما بدأ به أن أحاط على الخليفة الحافظ وسجنه بالقاعة المذكورة وقيده ، وهم بخلعه فلم يتأت له ذلك . وكان اماميا ، فأبطل ذكر الحافظ من الخطبة ، وصار يدعو للقائم المنتظر ، ونقش على السكة « الله الصمد . الامام محمد » .

فلما قتل فى يوم الثلاثاء ، سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة ، بالميدان خارج باب الفتوح ، سارع صبيان الخاص الذين تولوا قتله الى الحافظ ، وأخرجوه من الخزانة * المذكورة ، وفكوا عنه قيده — وكان كبيرهم يانس — وأجلسوه فى الشباك على منصب الخلافة ، وطيف برأس أحمد بن الأفضل ، وخلع على يانس خلع الوزارة .

وما زالت الخلافة فى يد الحافظ حتى مات ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، عن سبع وستين سنة : منها خليفة ، من حين قتل ابن الأفضل ، ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وأيام .

خزائن السلاح

كانت بالايوان الكبير الذى تقدم ذكره ، فى صدر الشباك الذى يجلس فيه الخليفة ، تحت القبة التى هدمت فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة كما تقدم .

وخزائن السلاح المذكورة هى الآن باقية بجوار دار الضرب خلف المشهد الحسينى ، وعقد الايوان باق وقد تشعث .

المارستان العتيق

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمائة : فى تاسع ذى القعدة أمر السلطان (يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب) بفتح مارستان للمرضى والضعفاء ، فاختير له مكان بالقصر ، وأفرد برسمه من

(*) ص٤٠٦ جـ١ ، ط.بولاق .

أجرة الرباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار ، وغلات جهاتها الفيوم .

واستخدم له أطباء وطبائعيين وجرائحيين ومشارف وعاملا وخداما . ووجد الناس به رفقا ، واليه مستروحا ، وبه نفعا .

وكذلك بمصر أمر بفتح مارستانها القديم ، وأفرد برسمه من ديوان الأحباس ما تقدير ارتفاعه عشرون دينارا ، واستخدم له طبيب وعامل ومشارف ، وارتفق به الضعفاء ، وكثر بسبب ذلك الدعاء .

وقال ابن عبد الظاهر : كان قاعة بناها العزيز بالله فى سنة أربع وثمانين وثلثمائة . وقيل ان القرآن مكتوب فى حيطانها ، ومن خواصها أنه لا يدخلها نمل لطلسم بها .

ولما قيل ذلك لصلاح الدين رحمه الله قال : هذا يصلح أن يكون مارستانا . وسألت مباشريه عن ذلك فقالوا : انه صحيح .

وكان قديما المارستان — فيما بلغنى — القشاشين ، وأظنه المكان المعروف بدار الديلم انتهى

والقشاشين المذكورة تعرف اليوم بالخراطين ، المسلوك فيها الى الخميين والجامع الأزهر .

التربة المعزية

كان من جملة القصر الكبير التربة المعزية ، وفيها دفن المعز لدين الله آباءه الذين أحضرهم فى توابيت معه من بلاد المغرب وهم : الامام المهدى عبيد الله ، وابنه القائم بأمر الله محمد ، وابنه الامام المنصور بنصر الله اسماعيل .

واستقرت مدفنا يدفن فيه الخلفاء وأولادهم ونساؤهم ، وكانت تعرف بتربة الزعفران ، وهو مكان كبير من جملتها الموضع الذى يعرف اليوم بخط الزراكشة العتيق ، ومن هناك بابها .

ولما أنشأ الأمير جهاركس الخليلى خانه المعروف به بالخط المذكور ، أخرج ما شاء الله من عظامهم ، فألقيت فى المزابل على كيمان البرقية . ويمتد من هناك من حيث المدرسة البديرية ، خلف المدارس الصالحية النجمية ، وبها الى اليوم بقايا من قبورهم .

وكان لهذه التربة عوايد ورسوم : منها أن الخليفة كلما ركب بمظلة وعاد الى القصر ، لابد أن يدخل الى زيارة آبائه بهذه التربة ، وكذلك لابد أن يدخل فى يوم الجمعة دائما ، وفى عيدى الفطر والأضحى ، مع صدقات ورسوم تفرق .

قال ابن المأمون : وفى هذا الشهر (يعنى شوالا سنة ست عشرة وخمسمائة) تنبه ذكر الطائفة النزارية ، وتقرر بين يدى الخليفة الآمر بأحكام الله أن يسير رسول الى صاحب الموق ، بعد أن جمعوا الفقهاء من الاسماعيلية والامامية ، وقال لهم الوزير المأمون البطائحى : ما لكم من الحجة فى الرد على هؤلاء الخارجين على الاسماعيلية ؟

فقال كل منهم : لم يكن لنزار امامة ، ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ،

ووجب قتله — وذكروا حججهم . فكتب الكتاب .

ووصلت كتب من خواص الدولة تتضمن أن القوم قويت شوكتهم ، واستفحلت في البلاد مصلحتهم ، وأنهم سيروا الآن ثلاثة آلاف برسم النجوى وبرسم المؤمنين الذين تولى الرسل تسليمهم ، ويشكون في سخطهم .

فتقدم الوزير بالتحفظ عليهم ، والاحتراز التام على الخليفة في ركوبه ومنتزهاته ، وحفظ الدور والأسواق . ولم يزل البحث عليهم الى أن وجدوا فاعترفوا بأن خمسة منهم هم الرسل الواصلون بالمال — فصلبوا .

وأما المال ، وهو ألفا دينار ، فان الخليفة أبى قبوله ، وأمر أن ينفق في السودان عبيد الشراء . وأحضر من بيت المال نظير المبلغ ، وتقدم بأن يصاغ به قنديلان من ذهب وقنديلان من فضة ، وأن يحمل منها قنديل ذهب وقنديل فضة الى مشهد الحسين بثغر عسقلان ، وقنديل الى التربة المقدسة — تربة الأئمة بالقصر .

وأمر الوزير المأمون باطلاق ألفي دينار من ماله ، وتقدم بأن يصاغ بها قنديل ذهب وسلسلة فضة برسم المشهد العسقلاني ، وأن يصاغ على المصحف الذي بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالجامع العتيق بمصر من فوق الفضة ذهب .

وأطلق حاصل الصناديق التي تشتمل على مال النجوى برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرق في الجوامع الثلاثة : الأزهر بالقاهرة ، والعتيق بمصر ، وجامع القرافة ، وعلى فقراء المؤمنين على أبواب القصور .

وأطلق من الأهراء ألفي اردب قمحا ، وتصدق على عدة من الجهات بجملة كثيرة ، واشتريت عدة جوار من الحجر ، وكتب عتقهن الوقت ، وأطلق سراحهن .

وقال في كتاب « الذخائر » : ان الأتراك طلبوا من المستنصر نفقة في أيام الشدة فماطلهم ، وانهم هجموا على التربة المدفون فيها أجداده فأخذوا ما فيها من قناديل الذهب . وكانت قيمة ذلك مع ما اجتمع اليه من الآلات الموجودة هناك — مثل المداخن والمجامر وحلي المحاريب وغير ذلك — خمسين ألف دينار .

القصر النافعي

قال ابن عبد الظاهر : القصر النافعي قرب التربة ، يقرب من جهة السبع خوخ ، كان فيه عجائز من عجائز القصر وأقارب الأشراف ... انتهى .

وموضع هذا القصر اليوم فندق المهمندار الذي يدق فيه الذهب ، وما في قبليه من خان منجك ، ودار خواجا عبد العزيز المجاورة للمسجد الذي بحذاء خان منجك ، وما يجاور دار خواجا من الزقاق المعروف بدرب الحبشي .

وكان حد هذا القصر الغربي ينتهي الى الفندق الذي بالخيميين ، المعروف قديما بخان مشكورس ، ويعرف اليوم بخان القاضي .

(١) [illegible]

واشترى بعض هذا القصر ، لما بيع بعد زوال الدولة ، الأمير ناصر الدين عثمان بن سنقر الكاملي المهمندار ، الذي يعرف بفندق المهمندار ، بعد أن كان اصطبلا له .

واشترى بعضه الأمير حسام الدين لاجين الأيدمري — المعروف بالدوفيل — دوادار الملك الظاهر بيبرس ، وعمره اصطبلا ودارا ، وهي الدار التي تعرف اليوم بخواجا عبد العزيز على باب درب الحبشي ، ثم عمل الاصطبل الخان الذي يعرف اليوم بخان منجك .

وابتنى الناس في مكان درب الحبشي الدور ، وزال أثر القصر فلم يبق منه شيء ألبتة .

الخزائن التي كانت بالقصر

وكانت بالقصر الكبير عدة خزائن ، منها : خزانة الكتب ، وخزانة البنود ، وخزائن السلاح ، وخزائن الدرق ، وخزائن السروج ، وخزانة الفرش ، وخزانة الكسوات ، وخزائن الأدم ، وخزائن الشراب ، وخزانة التوابل ، وخزائن الخيم ، ودار التعبية ، وخزائن دار أفتكين ، ودار الفطرة ، ودار العلم ، وخزانة الجوهر والطيب .

وكان الخليفة يمضي الى موضع من هذه الخزائن ، وفي كل خزانة دكة عليها طراحة ، ولها فراش يخدمها وينظفها طول السنة ، وله جار في كل شهر ... فيطوفها كلها في السنة .

خزانة الكتب

قال المسبحي : وذكر عند العزيز بالله كتاب « العين » للخليل بن أحمد ، فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزانته نيفا وثلاثين نسخة من كتاب « العين » منها نسخة بخط الخليل ابن أحمد .

وحمل اليه رجل نسخة من كتاب « تاريخ الطبري » اشتراها بمائة دينار ، فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من « تاريخ الطبري » ، منها نسخة بخطه .

وذكر عنده كتاب « الجمهرة » لابن دريد ، فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها .

وقال في كتاب « الذخائر » : عدة الخزائن التي برسم الكتب ، في سائر العلوم بالقصر ، أربعون خزانة : خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة . وان الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة في شدة المستنصر ، ألفان وأربعمائة ختمة قرآن في ربعات بخطوط منسوبة ، زائدة الحسن ، محلاة بذهب وفضة وغيرهما . وان جميع ذلك كله ذهب فيما أخذه الأتراك في واجباتهم ببعض قيمته ، ولم يبق في خزائن القصر البرانية منه شيء بالجملة ، دون خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصل اليها .

ووجدت صناديق مملوءة أقلاما مبرية من براية ابن مقلة وابن البواب وغيرهما

قال : وكنت بمصر فى العشر الأول من محرم سنة احدى وستين وأربعمائة ، فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا محمولة الى * دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى ، فسألت عنها ، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير ابن الموفق فى الدين بايجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجيليين .

وان حصة الوزير أبى الفرج منها قومت عليه ، من جارى مماليكه وغلمانه ، بخمسة آلاف دينار . وذكر لى من له خبرة بالكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار .

ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة ابن حمدان من مصر فى صفر من السنة المذكورة ، مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبى الفرج وابن أبى كدينة وغيرهما .

هذا سوى ما كان فى خزائن دار العلم بالقاهرة ، وسوى ما صار الى عماد الدولة أبى الفضل بن المحترق بالاسكندرية ، ثم انتقل بعد مقتله الى المغرب .

وسوى ما ظفرت به لواتة محمولا مع ما صار اليه بالابتياع والغصب فى بحر النيل الى الاسكندرية ، فى سنة احدى وستين وأربعمائة وما بعدها ، من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل فى سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة ، التى أخذ جلودها عبيدهم واماؤهم برسم عمل ما يلبسونه فى أرجلهم ، وأحرق ورقها تأولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان — أعز الله أنصاره — وأن فيها كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم .

سوى ما غرق وتلف وحمل الى سائر الأقطار . وبقى منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب ، فصار تلالا باقية الى اليوم فى نواحى آثار تعرف بتلال الكتب .

وقال ابن الطوير : خزانة الكتب كانت فى أحد مجالس المارستان اليوم (يعنى المارستان العتيق) ، فيجىء الخليفة راكبا ، ويترجل على الدكة المنصوبة ويجلس عليها ، ويحضر اليه من يتولاها — وكان فى ذلك الوقت الجليس بن عبد القوى — فيحضر اليه المصاحف بالخطوط المنسوبة ، وغير ذلك مما يقترحه من الكتب . فان عنّ له أخذ شىء منها أخذه ثم يعيده .

وتحتوى هذه الخزانة على عدة رفوف فى دور ذلك المجلس العظيم ، والرفوف مقطعة بحواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل .

وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب من المجلّدات ، ويسير من المجردات : فمنها الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ وسير الملوك ، والنجامة والروحانيات والكيمياء ، من كل صنف نسخ . ومنها النواقص التى ما تممت ... كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة ، وما فيها من المصاحف الكريمة ، فى مكان فوقها .

(*) ص٤٠٨ جـ١ ، ط.بولاق .

وفيها من الدروج بخط ابن مقلة ونظائره كابن البواب وغيره ، وتولى بيعها ابن صورة فى أيام الملك الناصر صلاح الدين .

فاذا أراد الخليفة الانفصال ، مشى فيها مشية لنظرها ، وفيها ناسخان وفراشان : صاحب المكتبة وآخر ، فيعطى الشاهد عشرين دينارا ، ويخرج الى غيرها .

وقال ابن أبى طى ، بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر : ومن جملة ماباعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا .

ويقال انه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر . ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من « تاريخ الطبرى » الى غير ذلك

ويقال انها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب . وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة ... انتهى

ومما يؤيد ذلك أن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على ، لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة ، جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد ، وباع ابن صورة دلال الكتب منها جملة فى مدة أعوام ... فلو كانت كلها مائة ألف لما فضل عن القاضى الفاضل منها شىء .

وذكر ابن أبى واصل أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد .

خزانة الكسوات

قال ابن أبى طى : وعمل (يعنى المعز لدين الله) دارا وسماها دار الكسوة . كان يفصل فيها من جميع أنواع الثياب والبز ، ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف ، وكانت لأولاد الناس ونسائهم كذلك . وجعل ذلك رسما يتوارثونه فى الأعقاب ، وكتب بذلك كتبا ، وسمى هذا الموضع خزانة الكسوة .

وقال عند ذكر انقراض الدولة : ومن أخبارهم أنهم كانوا يخرجون من خزائن الكسوة الى جميع خدمهم وحواشيهم ، ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير ، كسوات الصيف والشتاء من العمامة الى السراويل ، وما دونه من الملابس والمنديل ، من فاخر الثياب ونفيس الملبوس . ويقومون لهم بجميع ما يحتاجون اليه من نفيس المطعومات والمشروبات .

وسمعت من يقول : انه حضر كسا القصر التى تخرج فى الصيف والشتاء ، فكان مقدارها ستمائة ألف دينار وزيادة .

وكانت خلعهم على الأمراء الثياب الديبقى والعمائم بالطراز الذهب . وكان طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار ، ويخلع على أكابر الأمراء الأطواق والأسورة والسيوف المحلاة . وكان يخلع على * الوزير عوضا عن الطوق عقد جوهر .

(*) ص٤٠٦ جـ١ ، ط.بولاق .

وقال ابن المأمون : وجلس الأجل (يعنى الوزير المأمون) فى مجلس الوزارة لتنفيذ الأمور وعرض المطالعات ، وحضر الكتاب ومن جملتهم ابن أبى الليث كاتب الدفتر ، ومعه ما كان أمر به من عمل جرائد الكسوة للشتاء بحكم حلوله وأوان تفرقتها ، فكان ما اشتمل عليه المتفق فيها ، لسنة ست عشرة وخمسمائة ، من الأصناف أربعة عشر ألفا وثلثمائة وخمس قطع .

وان أكثر ما أنفق عن مثل ذلك فى الأيام الأفضلية ، فى طول مدتها ، فى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة : ثمانية آلاف وسبعمائة وخمس وسبعون قطعة ، يكون الزائد عنها — بحكم ما رسم به فى منفق سنة ست عشرة — خمسة آلاف وستمائة وأربعا وثلاثين قطعة .

ووصلت الكسوة المختصة بالعيد فى آخر الشهر ، وقد تضاعفت عما كانت عليه فى الأيام الأفضلية لهذا الموسم . وهى تشتمل على ذهوب وسلف دون العشرين ألف دينار ، وهو عندهم الموسم الكبير ، ويسمى بعيد الحلل ، لأن الحلل فيه تعم الجماعة ، وفى غيره للأعيان خاصة .

فأحضر الأمير افتخار الدولة ، مقدم خزانة الكسوة الخاص ، ليتسلم ما يختص بالخليفة ، وهو برسم الموكب : بدلة [1] خاص جليلة مذهبة ، ثوبها موشح مجاوم مذايل ، عدتها باللفافتين احدى عشرة قطعة : السلف عنها مائة وستة وسبعون دينارا ونصف ، ومن الذهب العالى المغزول ثلثمائة وسبعة وخمسون مثقالا ونصف ، كل مثقال أجرة غزله ثمن دينار ، ومن الذهب العراقى ألفان وتسعمائة وأربع وتسعون قصبة .

تفصيل ذلك : شياشية طيم : السلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا . منديل بعمود ذهب : السلف سبعون وألفان ومائتان وخمسون قصبة ذهبا عراقيا ... فان كان الذهب نظير المصرى ، كان الذى يرقم فيه ثلثمائة وخمسة وعشرين مثقالا ، لأن كل مثقال نظير تسع قصبات ذهبا عراقيا .

وسط سرب بطانة للمنديل : السلف عشرة دنانير وسبعون قصبة ذهبا عراقيا . ثوب موشح مجاوم مطرف : السلف خمسون دينارا وثلثمائة وأحد وخمسون مثقالا ونصف ذهبا عاليا ، أجرة كل مثقال ثمن دينار ، تكون جملة مبلغه وقيمة ذهبه ثلثمائة وأربعة وتسعين دينارا ونصفا .

ثوب ديبقى حريرى وسطانى : السلف اثنا عشر دينارا . غلالة ديبقى حريرى : السلف عشرون دينارا . منديل كم أول مذهب : السلف خمسة دنانير ومائتان وأربع قصبات ذهبا عراقيا . منديل كم ثان حريرى : السلف خمسة دنانير . حجرة : السلف أربعة دنانير . عرضى مذهب : السلف خمسة دنانير وخمسة عشر مثقالا ذهبا عاليا . عرضى لفافة للتخت : دينار واحد ونصف .

بدلة ثانية برسم الجلوس على السماط ، عدتها باللفافتين عشر قطع : السلف مائة

(١) قوله « بدلة خاص » الخ .. ماذكره فى هذه البدله ، وما بعدها من الكسوات والحلل ، تفصيله فى الغالب لم يوافق اجماله على مقتضى مابيدى من النسخ ، ولا يخفى مافى عباراته ، فى هذا المقام وامثاله ، من القلق ومخالفة العربية . ا هـ مصححه .

وأربعة عشر دينارا ، ومن الذهب العالى خمسة وخمسون مثقالا ، ومن الذهب العراقى سبعمائة وأربعون قصبة .

تفصيل ذلك : شاشية طميم : السلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا . منديل : السلف ستون دينارا وستمائة قصبة ذهبا عراقيا . شقة وكم : السلف ستة عشر دينارا وخمسة وخمسون مثقالا ذهبا عاليا ، أجرة كل مثقال ثمن دينار . شقة ديبقى حريرى وسطانى : اثنا عشر دينارا . شقة ديبقى غلالة : ثمانية دنانير . منديل الكم الحريرى : خمسة دنانير . حجرة : أربعة دنانير . عرضى : خمسة دنانير . عرضى برسم التخت : دينار واحد ونصف .

وهذه البدلة لم تكن فيما تقدم فى أيام الأفضل ، لأنه لم يكن ثم سماط يجلس عليه الخليفة ، فانه كان قد نقل ما يعمل فى القصور من الأسمطة والدواوين الى داره فصار يعمل هناك .

ما هو برسم الأجل أبى الفضل جعفر أخى الخليفة الآمر : بدلة مذهبة مبلغها تسعون دينارا ونصف ، وخمسة وعشرون مثقالا ذهبا عاليا ، وأربعمائة وسبعون قصبة ذهبا عراقيا .

تفصيل ذلك : منديل : السلف خمسون دينارا وأربعمائة وسبعون قصبة ذهبا عراقيا . شقة ديبقى حريرى وسطانى : السلف عشرة دنانير . شقة غلالة ديبقى : السلف ثمانية دنانير . حجرة : ثلاثة دنانير وثلث . عرضى ديبقى : ثلاثة دنانير .

الجهة العالية بالدار الجديدة التى يقوم بخدمتها جوهر : حلة مذهبة موشح مجاوم مذايل مطرف ، عدتها خمس عشرة قطعة : سلفها ستة آلاف ، وثلثمائة وثلاثون قصبة .

تفصيل ذلك : مذهب مكلف موشح مجاوم السلف خمسة عشر دينارا وستمائة وستون قصبة . سداسى مذهب : السلف ثمانية عشر دينارا ومائتا قصبة . معجر أول مذهب موشح مجاوم مطرف : السلف خمسون دينارا وألف وتسعمائة قصبة . معجر ثان حريرى : السلف خمسة وثلاثون دينارا ونصف . رداء حريرى أول : السلف عشرة دنانير ونصف . رداء حريرى ثان : السلف تسعة دنانير . ذراعة ذراعة موشح مجاوم مذايل مذهبة : السلف خمسة وتسعون دينارا ، ومن الذهب العراقى ألفان وستمائة وخمس وخمسون قصبة .

شقة ديبقى حريرى وسطانى : السلف عشرون دينارا ونصف . شقة ديبقى بغير رقم برسم عجز التفصيل : ثلاثة دنانير . ملاءة ديبقى : السلف أربعة وعشرون دينارا وستمائة قصبة . منديل * كم أول : السلف ستة دنانير ومائة وستون قصبة . منديل كم ثان : السلف خمسة دنانير ومائة وستون قصبة . منديل كم ثالث : السلف خمسة دنانير . حجرة : ثلاثة دنانير . عرضى ديبقى : ثلاثة دنانير . جهة مكنون القاضى بمثل ذلك على الشرح والعدة .

جهة مرشد : حلة مذهبة عدتها أربع عشرة قطعة : السلف مائة وأحد وأربعون دينار ،

(*) ص٤١٠ جـ١ ، ط.بولاق .

ومن الذهب العراقى ألف وستمائة وتسع وثمانون قصبة . جهة عنبر مثل ذلك . السيدة جهة ظل مثل ذلك . جهة متجب مثل ذلك .

الأمير أبو القاسم عبد الصمد : بدلة مذهبة . الأمير داود مثله . السيدة العمة : حلة مذهبة . السيدة العابدة العمة مثل ذلك .

الموالى الجلساء من بنى الأعمام ، وهم : أبو الميمون ابن عبد المجيد ، والأمير أبو النصر ابن الأمير محسن ، والأمير أبو على ابن الأمير جعفر ، والأمير حيدرة ابن الأمير عبد المجيد ، والأمير موسى ابن الأمير عبد الله ، والأمير أبو عبد الله ابن الأمير داود : لكل منهم بدلة مذهبة .

البنون والبنات من بنى الأعمام غير الجلساء : لكل منهم بدلة حريرى .

ست سيدات : لكل منهن حلة حريرى .

جهة المولى أبى الفضل جعفر التى يقوم بخدمتها ريحان : حلة مذهبة .

جهة المولى عبد الصمد : حلة حريرى .

ما يختص بالدار الجيوشية والمظفرية ، فعلى ما كان بأساميهم .

المستخدمات لخزانة الكسوة الخاص : زين الخزان المقدمة حلة مذهبة . ست خزان لكل منهن حلة حريرى . عشر وقاقات لكل منهن كذلك . المعلمة مقدمة المائدة كذلك . رايات مقدمة خزان الشراب كذلك .

المستخدمات من أرباب الصنائع من المصورات ومن الصناف اليمن من الأفضليات : مائة وسبعون حلة مذهبة وحريرى ، على التفصيل المتقدم .

المستخدمات عند الجهات العالية : جهة جوهر عشرون حلة مذهبة وحريرى . وكذلك المستخدمات عند مكنون .

الأمراء الأستاذون المحنكون : الأمير الثقة زمام القصور : بدلة مذهبة . الأمير نسيب الدولة مرشد ، متولى الدفتر ، كذلك . الأمير خاصة الدولة ريحان ، متولى بيت المال ، كذلك . الأمير عظيم الدولة وسيفها ، حامل المظلة ، كذلك . الأمير صارم الدولة صاف ، متولى الستر ، كذلك . وقار الدولة اسعاف ، متولى المائدة ، مثله . الأمير افتخار الدولة جندب : بدلة مذهبة نظير البدلة المختصة بالأمير الثقة .

ولكل من غير هؤلاء المذكورين حلة حريرى أربع قطع ، ولفافة فوطة .

مختار الدولة ظل : بدلة حريرى . ستة أستاذين فى خزانة الكسوة الخاص عند الأمير افتخار الدولة جندب : لكل منهم بدلة مذهبة . جوهر زمام الدار الجديدة : بدلة حريرى . تاج الملك أمين بيت المال مثله . مفلح برسم الخدمة فى المجلس مثله . مكنون متولى خدمة الجهة العالية مثله . فنون متولى خدمة التربة مثله . مرشد الخاص مثله .

النواب عند الأمير الثقة فى زمام القصور — وعدتهم أربعة — لكل منهم بدلة حريرى . خرواني العظمى ، مقدم خزانة الشراب ،

ورفيقه : لكل منهما بدلة كذلك . الصقالبة أرباب المذاب — وعدتهم أربعة — لكل منهم بدلة حريرى وشقة وفوطة . نائب الستر مثل ذلك .

الأستاذون برسم خدمة المظلة — وعدتهم خمسة — لكل منهم منديل سوسى وشقة دمياطى وشقة اسكندرانى وفوطة . الأستاذون الشدادون برسم الدواب — وعدتهم ستة — كذلك .

ما حمل برسم السيد الأجل المأمون (يعنى الوزير) : بدلة خاصة مذهبة كبيرة موكبية ، عدتها احدى عشرة . وما هو برسم جهاته وبرسم أولاده : الأجل تاج الرياسة ، وتاج الخلافة ، وسعد الملك محمود ، وشرف الخلافة جمال الملك موسى — وهو صاحب التاريخ — نظير ما كان باسم أولاد الأفضل ابن أمير الجيوش ، وهم حسن وحسين وأحمد .

الأجل المؤتمن سلطان الملوك (يعنى أخا الوزير) عن تقدمة العساكر وزم الأزمة ، وبرسم الجهة المختصة به . وركن الدولة عز الملوك أبو الفضل جعفر عن حمل السيف الشريف — خارجا عما له من حماية خزانة الكسوات وصناديق النفقات ، وما يحمل أيضا للخزائن المأمونية ، مما ينفق منها على من يحسن فى الرأى من الحاشية المأمونية — ثلاثون بدلة .

الشيخ الأجل أبو الحسن بن أبى أسامة ، كاتب الدست الشريف ، بدلة مذهبة عدتها خمس قطع ، وكم وعرضى .

الأمير فخر الخلافة حسام الملك ، متولى حجبة الباب ، بدله مذهبة كذلك . القاضى ثقة الملك ابن النائب فى الحكم : بدلة مذهبة عدتها أربع قطع ، وكم وعرضى .

الشيخ الداعى ولى الدولة ابن أبى الحقيق : بدلة مذهبة . الأمير الشريف أبو على أحمد بن عقيل ، نقيب الأشراف ، بدلة حريرى ثلاث قطع ، وفوطة . الشريف أنس الدولة ، متولى ديوان الانشاء ، بدلة كذلك .

ديوان المكاتبات : الشيخ أبو الرضى ابن الشيخ الأجل أبى الحسن ، النائب عن والده فى الديوان المذكور ، بدلة مذهبة عدتها ثلاث قطع ، وكم . أبو المكارم هبة الله أخوه : بدلة مذهبة ثلاث قطع ، وفوطة . أبو محمد حسن أخوهما كذلك . أخوهم أبو الفتح : بدلة حريرى قطعتان وفوطة .

الشيخ أبو الفضل يحيى بن سعيد الندمى ، منشىء ما يصدر عن * ديوان المكاتبات ، ومحرر ما يؤمر به من المهمات : بدلة مذهبة عدتها ثلاث قطع ، وكم ، ومزنر . أبو سعيد الكاتب : بدلة حريرى . أبو الفضل الكاتب كذلك . الحاج موسى المعين فى الالصاق كذلك .

وأما الكتاب بديوان الانشاء فلم يتفق وجود الحساب الذى فيه أسماؤهم فيذكروا ، ومن القياس أن يكونوا قريبا من ذلك .

الشيخ ولى الدين أبو البركات ، متولى ديوان المجلس والخاص ، بدلة مذهبة عدتها

(*) ص٤١١ جا ، ط.بولاق .

تمس قطع ، وكم ، وعرضى . ولامرأته حلة مذهبة .

الشيخ أبو الفضائل هبة الله بن أبى الليث ، متولى الدفتر وما جمع اليه ، بدلة . أبو المجد ولده : بدلة حريرى . عدى الملك أبو البركات ، متولى دار الضيافة ، بدلة مذهبة ، وعده الضيوف الواردون الى الدولة جميعهم منهم من له بدلة مذهبة ، ومنهم من له بدلة حريرى . وكذلك من يتفق حضوره من الرسل على هذا الحكم .

مقدمو الركاب : عفيف الدولة مقبل : بدلة مذهبة . القائد موفق والقائد تميم مثل ذلك . أربعة من المقدمين برسم الشكيمة : لكل منهم بدلة حريرى . الرواض عدتهم ثلاثة لكل منهم بدلة حريرى . الخاص من الفراشين — وهم اثنان وعشرون رجلا — منهم أربعة مميزون لكل منهم بدلة مذهبة ، وبقيتهم لكل واحد بدلة حريرى .

الأطباء : الشديد أبو الحسن على بن أبى الشديد : بدلة حريرى . أبو الفضل النسطورى : بدلة حريرى . وكذلك الفئة المستخدمون برسم الحمام — وهم ثمانية — مقدمهم : بدلة مذهبة ، وبقيتهم لكل واحد بدلة حريرى .

والى القاهرة ووالى مصر : لكل منهما بدلة مذهبة .

المستخدمون فى المواكب : الأمير كوكب الدولة ، حامل الرمح الشريف وراء الموكب والدرقة المعزية ، بدلة حريرى . حاملا الرمحين المعزية أيضا أمام الموكب بغير درق : لكل منهما منديل وشقة وفوطة .

وهؤلاء الثلاثة رماح ما هى عربية ، بل هى خشوت قدم بها المعز من المغرب .

حاملا لواء الحمد المختصان بالخليفة عن يمينه ويساره : لكل منهما بدلة .

متولى بغل الموكب الذى يحمل عليه جميع العدة المغربية : بدلة حريرى .

متولى حمل المظلة كذلك . عشرة نفر من صبيان الخاص ، برسم حمل العشرة رماح العربية المغشاة بالديباج وراء الموكب ، لكل منهم منديل وشقة وفوطة . حامل السبع وراء الموكب : بدلة حريرى .

المقدمون من صبيان الخاص — وهم عشرون — لكل منهم بدلة . عرفاء الفراشين الذين ينحطون عن فراشى الخاص وفراشى المجلس وفراشى خزائن الكسوة الخاص : لكل منهم بدلة حريرى .

الفراشون فى خزائن الكسوات المستخدمون بالايوان — وهم الذين يشدون ألوية الحمد بين يدى الخليفة ليلة الموسم ، فانها لا تشد الا بين يديه ، ويبدأ هو باللف عليها بيده على سبيل البركة ، ويكمل المستخدمون بقية شدها ، وما سوى ذلك من القضب الفضة وألوية الوزارة وغيرها — وعدتهم سبعة : لكل منهم منديل سوسى وشقتان اسكندرانى .

المستخدمون برسم حمل القضب الفضة ولواءى الوزارة : أربعة عشر كذلك . مشارف خزانة الطيب — وكانت من الخدم

الجليلة ، وكان بها أعلام الجوهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد ، ويستدعى منها عند الحاجة ، ويعاد اليها عند الغنى عنها ، وكذلك السيف والثلاثة رماح المعزية — مشارف خزانة السروج : بدلة حريرى .

مشارف خزائن الفرش . وكاتب بيت المال ، ومشارف خزائن الشراب ، ومشارف خزائن الكتب : كل منهم بدلة حريرى . بركات الآدمى ، والمستخدمون بالدولة بالباب ، وسنان الدولة مز الكركندى عن زم الرهجية ، والمبيت على أبواب القصور — وكانت من الخدم الجليلة — والصبيان الحجرية المشدون بلواء الموكب بعد المقربين وعدتهم عشرين : لكل منهم الكسوة فى الشتاء والعيدين وغيرهما .

وعدة الذين يقبضون الكسوة فى العيدين من الفراشين أكثر من صبيان الركاب ، وذلك أنهم يتولون الأسطة ويقفون فى تقدمتها ، وينفرد عنهم المستخدمون فى الركاب بما لهم من المتحصل فى المخلفات فى العيدين ، وهو ما مبلغه ستة آلاف دينار ، ما لأحد معهم فيها نصيب .

وكان يكتب فى كل كسوة هى برسم وجوه الدولة رقعة من ديوان الانشاء ، فمما كتب به من انشاء ابن الصيرفى ، مقترنة بكسوة عيد الفطر من سنة خمس وثلاثة وخمسمائة :

« ولم يزل أمير المؤمنين منعما بالرغائب ، موليا احسانه كل حاضر من أوليائه وغائب ، مجزلا حظهم من منائحه ومواهبه ، موصلا اليهم من الحباء ما يقصر شكرهم عن حقه وواجبه . وانك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه ، وأحراهم باستنشاق نسيمه ، وأخلقهم بالجزء الأوفى منه عند فضه وتقسيمه . اذ كنت فى سماء المسابقة بدرا ، وفى جرائد المناصحة صدرا ، وممن أخلص فى الطاعة سرا وجهرا ، وحظى فى خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفا وسير له ذكرا ..

« ولما أقبل هذا العيد السعيد — والعادة فيه أن يحسن الناس هيئتهم ، ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم — ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه ، وفى المواسم التى تجاريه ، بكسوات على حسب منازلهم تجمع بين الشرف والجمال ، ولا يبقى بعدها مطمع للآمال ، وكنت من * أخص أمراء المقدمين ... » .

قال : ووصلت الكسوة المختصة بغرة شهر رمضان وجمعتيه : برسم الخليفة للغرة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة . وبرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر ، بدلة موكبية حريرى مكملة ، منديلها وطيلسانها بياض . وبرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعرى .

وما هو برسم أخى الخليفة للغرة خاصة بدلة مذهبة ، ويرسم له مع جهات الخليفة الخليفة أربع حلل مذهبات . وبرسم الوزير للغرة بدلة مذهبة مكملة موكبية ، وبرسم الجمعتين بدلتان حريرى .

ولم يكن لغير الخليفة وأخيه والوزير فى ذلك شىء فيذكر

(*) ص١٢ ، جـ١ ، ط.بولاق .

ووصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج . وهي برسم الخليفة تختان ضمنهما بدلتان : احداهما منديلها وطيلسانها طبيم برسم المقى ، والأخرى جيمهما حسروى برسم العود . وكذلك ما يختص بأخوته وجهاته بدلتان مذهبتان ، وأربع حلل مذهبة . وبرسم الوزير بدلة موكبية مذهبة فى تخت . وبرسم أولاده الثلاثة ثلاث بدلات مذهبة . وبرسم جهته حلة مذهبة فى تخت . وبقية ما يخص المستخدمين وابن أبى الرداد فى تخوت : كل تخت عدة بدلات .

وحضر متولى الدفتر ، واستأذن على ما يحمل برسم الخليفة ، وما يفرق ويفصل برسم الخلع ، وما يخرج من حاصل الخزائن عن الواصل — وهو ما يفصل برسم الخاص من الغلمان — برسم سبعمائة قباء وخمسمائة وشقتين سقلاطون داوى ، وبرسم رؤساء العشاريات من الشقق الدمياطى والمناديل السوسى والفوط الحرير الحمر ، وبرسم النواتية التى برسم الخاص من العشارية من الشقق الاسكندرانى والكلوتات .

وقد تقدم تفصيل الكسوات جميعها وعددها ، وأسماء المسترين لقبضها .

وقال فى كتاب « الذخائر » : وحدثنى من أثق به ، عن ابن عبد العزيز ، أنه قال : قومنا ما أخرج من خزائن القصر (يعنى فى سنى الشدة أيام المستنصر) من سائر ألوان الخسروانى ما يزيد على خمسين ألف قطعة ، أكثرها مذهب .

وسألت ابن عبد العزيز فقال : أخرج من الخزائن ما حورت قيمته على يدى وبحضرتى أكثر من ألف قطعة .

وحدثنى أبو الفضل يحيى بن ابراهيم البغدادى — أحد أصحاب الدواوين بالحضرة — أن الذى تولى أبو سعيد النهاوندى ، المعروف بالمعتمد ، بيعه خاصة من مخرج القصر ، دون غيره من الأمناء ، فى مدة يسيرة ثمانية عشر ألف قطعة من بلور ، ويحكم منها ما يساوى الألف دينار الى عشرة دنانير ونيف ، وعشرون ألف قطعة خسروانى .

وحدثنى عبد الملك أبو الحسن على بن عبد الجليل فخر الوزراء بن عبد الحاكم ، أن ناصر الدولة أرسل يطالب المستنصر بما بقى لغلمانه ، فذكر أنه لم يبق عنده شىء الا ملابسه ، فأخرج ثمانمائة بدلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة ، فتقومت وحملت اليه .

وقال ابن الطوير : الخدمة فى خزائن الكسوات لها رتبة عظيمة فى المباشرات . وهما خزانتان : فالظاهرة يتولاها خاصة أكبر حواشى الخليفة اما أستاذ أو غيره . وفيها من الحواصل ما يدل على اسباغ نعم الله تعالى على من يشاء من خلقه من الملابس الشروب ، والخاص الديبقى الملونة رجالية ونسائية ، والديباج الملونة والسقلاطون . واليها يحمل ما يستعمل فى دار الطراز بتنيس ودمياط واسكندرية من خاص المستعمل . وبها صاحب المقص ، وهو مقدم الخياطين ، ولأصحابه مكان لخياطتهم . والتفصيل يعمل على مقدار الأوامر وما تدعو الحاجة اليه .

ثم ينقل الى خزانة الكسوة الباطنة ما هو خاص للباس الخليفة . ويتولاها امرأة تنعت بزين الخزان أبدا ، وبين يديها ثلاثون جارية فلا يغير الخليفة أبدا ثيابه الا عندها ، ولباسه خافيا الثياب الداوية ، وسعة أكمامها سعة نصف أكمام الظاهر . وليس فى جهة من جهاته ثياب أصلا ، ولا يلبس الا من هذه الخزانة .

وكان برسم هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطىء الخليج — يعنى فيه أبدا النسرين والياسمين — فيحمل فى كل يوم منه شىء فى الصيف والشتاء ، لا ينقطع ألبتة ، برسم الثياب والصناديق .

فاذا كان أوان التفرقة الصيفية أو الشتوية ، شد لمن تقدم ذكره من أولاد الخليفة وجهاته وأقاربه وأرباب الرواتب والرسوم : من كل صنف شدة — على ترتيب مفروض — من شقق الديباج الملون والسقلاطون الى السوسى والاسكندرانى ، على مقدار الفصول من الزمان ، ما يقرب من مائتى شدة .

فالخواص فى العراضى الديبقى ، ودونهم فى أوطية حرير ، ودونهم فى فوط اسكندرية . ويدخل فى ذلك كتاب ديوانى الانشاء والمكاتبات دون غيرهم من الكتاب ، على مقدارهم . وذلك يخرج من الجوارى فى الشهر المطلقات .

وقال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة ، بعد وفاة العاضد : وكشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ، فقيل ان الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة : من موشى ومرصع ، وعقود ثمينة ، وذخائر فخمة ، وجواهر نفيسة ، وغير ذلك من ذخائر عظيمة الخطر . وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش *

خزائن الجوهر والطيب والطرائف

قال ابن المأمون : وكان بها الأعلام والجوهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد ، ويستدعى منها عند الحاجة ، ويعاد اليها عند الغنى عنها ، وكذلك السيف الخاص والثلاثة رماح المعزية .

وقال فى كتاب « الذخائر والتحف » : وذكر بعض شيوخ دار الجوهر بمصر أنه استدعى يوما ، هو وغيره من الجوهريين من أهل الخبرة بقيمة الجوهر ، الى بعض خزائن القصر (يعنى فى أيام الشدة زمن المستنصر) فأخرج صندوق كيل منه سبعة أمداد زمرذ ، قيمتها على الأقل ثلثمائة ألف دينار .

وكان هناك جالسا فخر العرب ابن حمدان ، وابن سنان ، وابن أبى كدينة ، وبعض المخالفين . فقال بعض من حضر من الوزراء المعطلين للجوهريين : كم قيمة هذا الزمرذ ؟

فقالوا : انا نعرف قيمة الشىء اذا كان مثله موجودا ، ومثل هذا لا قيمة له ولا مثل .

فاغتاظ وقال ابن أبى كدينة : فخر العرب كثير المؤنة ، وعليه خرج . فالتفت الى كتاب الجيش وبيت المال فقال : يحسب عليه فيه خمسمائة دينار ... فكتب ذلك ، وقبضه .

(*) ص٤١٢ جـ١ ، ط.بولاق .

وأخرج عقد جوهر قيمته على الأقل من ثمانين ألف دينار فصاعدا ، فتحريا فيه ، فقال : يكتب بألفى دينار . وتشاغلوا بنظر ما سواه ، وانقطع سلكه فتناثر حبه ، فأخذ واحد منهم واحدة فجعلها فى جيبه ، وأخذ ابن أبى كدينة أخرى ، وأخذ فخر العرب بعض الحب ، وباقى المخالفين التقطوا ما بقى منه ، وغاش كأن لم يكن .

وأخذ ما كان أنفذه الصليحى من نفيس الدر الرفيع الرائع وكيله — على ما ذكر — سبع ويبات .

وأخذوا ألفا ومائتى خاتم ذهبا وفضة ، فصوصها من سائر أنواع الجوهر المختلف الألوان والقيم والأثمان والأنواع — مما كان لأجداده وله ، وصار اليه من وجوه دولته — منها ثلاثة خواتم ذهب مربعة عليها ثلاثة فصوص ، أحدها زمرذ والاثنان ياقوت سماقى ورمانى ، بيعت بأثنى عشر ألف دينار بعد ذلك .

وأحضر خريطة فيها نحو ويبة جوهر ، وأحضر الخبراء من الجوهريين وتقدم اليهم بقيمتها ، فذكروا أن لا قيمة لها ، ولا يشترى مثلها الا الملوك ، فقومت بعشرين ألف دينار . فدخل جوهر الكاتب ، المعروف بالمختار عز الملك ، الى المستنصر وأعلمه أن هذا الجوهر اشتراه جده بسبعمائة ألف دينار واسترخصه ، فتقدم بانفاقه فى الأتراك ، فقبض كل واحد منهم جزءا بقيمة الوقت ، وفرق عليهم .

قال : فأما ما أخذ مما فى خزائن البلور والمحكم والمينا المجرى بالذهب والمجرود والبغدادى والخيارى والمدهون ، والخلنج والعينى والدهيمى والآمدى ، وخزائن الفرش والبسط والستور والتعاليق ، فلا يحصى كثرة .

وحدثنى من أثق به من المستخدمين فى بيت المال أنه أخرج يوما فى جملة ما أخرج من خزائن القصر عدة صناديق ، وأن واحدا منها فتح فوجد فيه على مثال كيزان الفقاع من صافى البلور المنقوش والمجرود شىء كثير ، وأن جميعها مملوء من ذلك وغيره .

وحدثنى من أثق به أنه رأى قدح بلور بيع مجرودا بمائتين وعشرين دينارا ، ورأى خردادى بلور بيع بثلثمائة وستين دينارا ، وكوز بلور بيع بمائتين وعشرة دنانير ، ورأى صحون مينا كثيرة تباع من المائة دينار الى ما دونها .

وحدثنى من أثق بقوله أنه رأى بطرابلس قطعتين من البلو الساذج الغاية فى النقاء وحسن الصنعة : احداهما خردادى ، والأخرى باطية ، مكتوب على جانب كل واحدة منهما اسم العزيز بالله ، تسع الباطية سبعة أرطال بالمصرى ماء ، والخردادى تسعة . وأنه عرضهما على جلال الملك أبى الحسن على بن عمار ، فدفع فيهما ثمانمائة دينار . فامتنع من بيعهما ، وكان اشتراهما من مصر من جملة ما أخرج من الخزائن .

وأن الذى تولى بيعه أبو سعيد النهاوندى من مخرج القصر ، دون غيره من الأمناء ، فى

مديدة يسيرة ثمانية عشر ألف قطعه من بلور ، ويحكم منها ما يساوى الألف دينار الى عشرة دنانير .

وأخرج من صوانى الذهب المجراة بالمينا وغير المجراة ، المنقوشة بسائر ألواع النقوش ، المملوء جميعها من سائر ألواعه وألوانه وأجناسه ، شىء كثير جدا .

ووجد فيما وجد غلف خيار مبطنة بالحرير محلاة بالذهب ، مختلفة الأشكال ، خالية مما فيها من الأوانى ، عدتها سبعة عشر ألف غلاف ، كان فى كل قطعة اما بلور مجرود أو محكم أو ما يشاكله . ووجد أكثر من مائة كأس بادزهر ونصب وأشباهها على أكثرها اسم هارون الرشيد وغيره .

ووجد فى خزائن القصر عدة صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة بنصب مختلفة من سائر الجواهر ، وصناديق كثيرة مملوءة من أنواع الدوى ، المربعة والمدورة والصغار والكبار ، المعمولة من الذهب والفضة والصندل والعود والأبنوس الزنجى والعاج ، وسائر أنواع الخشب المحلاة بالجوهر والذهب والفضة ، وسائر الأنواع الغريبة ، والصنعة المعجزة الدقيقة بجميع آلاتها ... فيها ما يساوى الألف دينار والأكثر والأقل ، سوى ما عليها من الجواهر .

وصناديق مملوءة مشارب ذهب وفضة مخرقة بالسواد صغار وكبار ، مصنوعة بأحسن * ما يكون من الصنعة وعدة أزيار صينى كبار مختلفة الألوان ، مملوءة كافورا

(*) ص٤١٤ جا ، ط. بولاق .

قيصوريا . وعدة من جماجم العنبر الشحرى ، ونوافج المسك التبتى وقواريره ، وشجر العود وقطعه .

ووجد للسيدة رشيدة ابنة المعز ، حين ماتت فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، ما قيمته ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار : من جملته ثلاثون ثوب خز مقطوع ، واثنا عشر ألفا من الثياب المصمت ألوانا ، ومائة قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا .

ومما وجد لها معصبات بجواهرها ، من أيام المعز وبيت هارون الرشيد ، الخز الأسود الذى مات فيه بطوس . وكان من ولى من الخلفاء ينتظرون وفاتها ، فلم يقض ذلك الا للمستنصر بالله ، فحازه فى خزانته .

ووجد لعبدة بنت المعز أيضا — وماتت فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة — ما لا يحصى ... حدثنى بعض خزان القصر أن خزائن السيدة عبدة ومقاصيرها وصناديقها ، وما يجب أن يختم عليه ، ذهب من الشمع فى خواتيمه — على الصحة والمشاهدة — أربعون رطلا بالمصرى ، وأن بطائق المتاع الموجود كتبت فى ثلاثين رزمة ورق .

ومما وجد لها أيضا أربعمائة قمطرة ، وألف وثلثمائة قطعة مينا فضة مخرقة ، زنة كل مينا عشرة آلاف درهم ، وأربعمائة سيف محلى بالذهب ، وثلاثون ألف شقة صقلية ، ومن الجوهر ما لا يحد كثرة ، وزمرذ كيله اردب واحد .

وأن سيد الوزراء أبا محمد البازورى وجد فى موجوداتها طستا وأبريقا ، فلفرط

المتحسنة لهما سائل المتحصر فيهما ، نوعيها له . ووجد منحن ياقوت لحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا . وأخرج أيضا تسعوق طستا وتسعون أبريقا من صافى البلور .

ووجد فى القصر خزائن مملوءة من سائر أنواع الصينى . منها اجاجين صينى كبار مملوءة ، كل اجانة منها على ثلاثة أرجل ، على صورة الوحوش والسباع ، قيمة كل قطعة منها ألف دينار ، مصورة شكل الثياب .

ووجد عدة أقفاص مملوءة بيض صينى ، مصول على هيئة البيض فى خلقته وبياضه ، يجعل فيهما ماء البيض التي يرشف يوم الصائم . ووجد حصير ذهب وزنها ثمانية عشر رطلا ، ذكر أنها الحصير التي جليت عليها بوران بنت الحسن بن سهل على المأمون .

وأخرج ثلاث وعشرون صينية مينا مجرى بالذهب بكتوب ، كان أرسلها ملك الروم الى العزيز بالله ، قومت كل صينية منها بثلاثة آلاف دينار ، أخذ جميعها الى فخر الدولة .

ووجد عدة صناديق مملوءة مرايا حديد من صينى ومن زجاج الميناء لا يحصى ما فيها كثرة ، جميعها محلى بالذهب المشبك والفضة ، ومنها المكلل بالجوهر فى غلف الكيمخت ، وسائر أنواع الحرير والخيزران وغيره ، مشبب بالذهب والفضة ، ولها الكاسات من العقيق وغيره .

وأخرج من الظال وقضبها الفضة والذهب شيء كثير . وأخرج من خزائن الفضة ما قيمته الف الف درهم من الآلات المصنوعة من الفضة ، المجراة بالذهب ، فيها ما زنة القطعة الواحدة منه خمسة آلاف درهم ، الغريبة النقش والصنعة ، التي تساوى خمسة دراهم بدينار . وأن جميعه بيع كل عشرين درهما بدينار ... سوى ما أخذ من الشاريات الموكبية ، وأعمدة الخيام وقضب المظال ، والمتحرقات والأعلام والقناديل والصناديق ، والتوقات والروازين والسروج واللجم ، والمناطق التي للعماريات ، والقباب وغيرها مثل ذلك وأضعافه .

وأخرج من الشطرنج والنرد المعمولة من سائر أنواع الجوهر والذهب والفضة والعاج والأبنوس ، برقاع الحرير والمذهب ، ما لا يعد كثرة وقيمة . وأخرج آلات فضة وزنها ثلثمائة ألف ونيف وأربعون ألف درهم ، تساوى ستة دراهم بدينار .

وأخرج أقفاص مملوءة من سائر آلات مصوغة مجراة بالذهب ، عدتها أربعمائة قفص كبار ، سبكت جميعها ، وفرقت على المخالفين . وأخرجت أربعة آلاف نرجسية مجوفة بالذهب يعمل فيها النرجس ، وألفا بنفسجية كذلك :

وأخرج من خزانة الطرائف ستة وثلاثون ألف قطعة من محكم وبلور ، وقوم السكاكين بأقل القيم ، فجاءت قيمتها على ذلك ستة وثلاثين ألف دينار . وأخرج من تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف قطعة ، أقل تمثال منها وزنه اثنا عشر منا وأكبره يجاوز تلك ، ومن تماثيل الطليفة ما لا يعد ، من جملتها ثمانمائة بطيخة كافور .

وأخرجت الكلوتة المرصعة بالجوهر ، وكانت من غريب ما فى القصر ونفيسه . ذكر أن قيمتها ثلاثون ألف دينار ومائة ألف دينار ، قومت بثمانين ألف دينار ، وكان وزن ما فيها من الجوهر سبعة عشر رطلا . اقتسمها فخر العرب وتاج الملوك ، فصار الى فخر العرب منها قطعة بلخش وزنها ثلاثة وعشرون مثقالا ، وصار الى تاج الملوك — مما وقع اليه — حبات در ، كل حبة ثلاثة مثاقيل ، عدتها مائة حبة . فلما كانت هزيمتهم من مصر نهبت .

وأخرج من خزائن الطيب خمسة صوارى عود هندى ، كل واحد من تسعة أذرع الى عشرة أذرع . وكافور قيصورى زنة كل حبة من خمسة مثاقيل الى ما دونها . وقطع عنبر وزن القطعة ثلاثة آلاف مثقال .

وأخرج متارد صينى محمولة على ثلاثة أرجل ، ملء كل وعاء منها مائتا رطل من الطعام ، وعدة قطع شب * وبادزهر : منها جام سعته ثلاثة أشبار ونصف وعمقه شبر مليح الصنعة ، وقاطرميز بلور فيه صور ثابتة تسع سبعة عشر رطلا ، وبلوجة بلور مجرور تسع عشرين رطلا وقصرية نصب كبيرة جدا ، وطابع ند فيه ألف مثقال كان فخر الدولة أبو الحسن على بن ركن الدولة بن بويه الديلمى عمله ، مكتوب فى وسطه « فخر الدولة شمس الملة » ، وأبيات منها :

ومن يكن شمس أهل الأرض قاطبة
فنده طابع من ألف مثقال

(*) ص٤١٥ جـ١ ط بولاق .

وطاووس ذهب مرصع بنفيس الجوهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس . وديك من الذهب له عرف مفروق . كأكبر ما يكون من أعراف الديوك ، من الياقوت الأحمر ، مرصع بسائر العنبر والجوهر ، وعيناه ياقوت . وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر ، وبطنه أبيض ، قد نظم من در رائع . ومجمع سكارج من بلور تخرج منه وتعود فيه ، فتحته أربعة أشبار ، مليح الصنعة فى غلاف خيزران . وبطيخة من الكافور فى شباك ذهب مرصعة ، وزنها خالصة سبعون مثقالا من كافور . وقطعة عنبر تسمى الخروف ، وزنها سوى ما يمسكها من الذهب ثمانون منا . وبطيخة كافور أيضا وجد ما عليها من الذهب ثلاثة آلاف مثقال . ومائدة نصب كبيرة واسعة ، قوائمها منها . وبيضة بلخش ، وزنها سبعة وعشرون مثقالا ، أشد صفاء من الياقوت الأحمر . وقاطرميز بلور مليح التقدير يسع مروقتين ، قوم فى المخرج بثمانمائة دينار ... دفع الى تاج الملوك فيه بعد ذلك ألفا دينار ، فامتنع من بيعه . ومائدة جزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة منها ، ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر فى أجانة ذهب ، تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيئته ، من الجواهر لا قيمة لها . وكوز زير بلور يحمل عشرة أرطال ماء . ودارج مرصع بنفيس الجوهر لا قيمة له . ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس .

وقبة الشاري وكرسيه وكسوة رحله التي استعمله على بن أحمد الجرجرائي ، وفيه مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم نقرة ، وأنفق الصناع عن أجرة صياغته ، وثمن ذهب الطلاء ، ألفان وتسعمائة دينار . وكان سعر الفضة حينئذ كل مائة درهم بستة دنانير وربع ، سعر ستة عشر درهما بدينار .

وأخرج الشاري الفضي الذي استعمله على أبي أحمد لأم المستنصر ، وكان فيه مائة ألف وعشرون ألف درهم نقرة ، وصرفت أجرة صياغة وطلاء ألفان وأربعمائة دينار ، وكسوة بمال جليل .

وأخرج جميع كسا الشاريات التي برسم البرية والبحرية ، وعددها وسلاسلها ورؤوس مخروطات وأهلة وصنوبرات — وكانت أربعمائة ألف دينار لستة وثلاثين عشاريا — وعدة سكاكين فضة فيها ما وزنه مائة وتسعة أرطال فضة .

وأخرج بستانا أرضه فضة مخرقة ذهبا ، وطينه ند ، وأشجاره فضة مذهبة مصوغة ، وأثماره عنبر وغيره ، وزنه ثلثمائة وستة أرطال . وطيخة كافور وزنها ستة عشر ألف مثقال . وقطع ياقوت أزرق زنة كل قطعة سبعون درهما . وقطع زمرد زنة كل قطعة ثمانون درهما . ونصاب مرآة من زمرد له طول وعرض ... كل ذلك أخذه الخادمون .

خزائن الفرش والأمتعة

قال في كتاب « الذخائر » : وحدثني من أثق به ، عن ابن عبد العزيز الأنماطي ، قال : قومنا ما أخرج من خزائن القصر من سائر الخسرواني ما يزيد على خمسين ألف قطعة ، أكثرها مذهب .

وسألت ابن عبد العزيز ، فقال : أخرج من الخزائن ما حررت قيمته على يدي وبحضرتي أكثر من مائة ألف قطعة

وأخرج مرتبة خسرواني حمراء بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ، ومرتبة قلموني بيعت بألفين وأربعمائة دينار ، وثلاثون سفنسية بيعت كل واحدة منها بثلاثين دينارا ونيف ، وعشرون ألف قطعة خسرواني في هديه لم يقطع منها شيء .

وكانت قيمة العرض المبيع بأقل القيم وأنزر الأثمان في مدة خمسة عشر يوما من صفر سنة ستين وأربعمائة — سوى ما نهب وسرق — ثلاثون ألف ألف دينار ، فقبض جميعها الجند والأتراك ... ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق

وحدثني الأمير أبو الحسن على بن الحسن — أحد مقدمي الحسينيين بالقصر — أن الفراشين دخلوا الى بعض خزائن الفرش ، لما اشتدت مطالبة الأتراك للمستنصر بالمال ، الى الخزانة المعروفة بخزانة الرفوف — وسميت بذلك لكثرة رفوفها ، ولكل رف منها سلم مفرد — فأنزلوا منها ألفي عدل شقق وسيم بعديها ، من سائر أنواع الخسرواني وغيره ، لم تستعمل بعد ، وجميع ما فيها مذهب معمول بسائر الأشكال والصور . وأنهم فتحوا عدلا منها فوجدوا ما

فيه أجلة معمولة للفيلة من « خسرواني أحمر مذهب كأحسن ما يكون من العمل ، وموضع نزول أفخاذ الفيل ورجليه سافجة بغير ذهب .

وأخرج من بعض الخزائن ثلاثة آلاف قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض في هديها لم يفصل ، من كسا بيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه وعتبه ومقاطعه وستوره ، وكل ما يحتاج اليه فيه .

قال : وأخرج من خزائن الفرش من البيوت الكاملة الفرش ، من القلموني والديبقي من سائر ألوانه وأنواعه ، المحصل والخسرواني والديباج الملكي والخز وسائر الحرير من جميع ألوانه وأنواعه ... ما لا يحصى كثرة ، ولا يعرف قدره تماما .

وأخرج من الحصر والأنخاخ السامانى المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة من المخرمة ، والطيور والفيلة المصورة بسائر أنواع الصور ، شيء كثير .

والتمس بعض الأتراك (*) من المستنصر مقرمة (يعني ستارة) سندس أخضر مذهبة ، فأخرج عدل منها مكتوب عليه « مائة وثمانية وثمانون » ، من جملة أعدال فيها من المتاع .

ووجد من الستور الحرير المنسوجة بالذهب ، على اختلاف ألوانها وأطوالها ، عدة مئين تقارب الألف ، فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها ، مكتوب على صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله

وأخرج من خزائن الفرش أربعة آلاف رزمة خسرواني مذهب ، في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته ، منسوجة في خيط واحد ، باقية على حالها لم تمس .

وصار الى فخر العرب مقطع من الحرير الأزرق التستري القرقوبي ، غريب الصنعة ، منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير ، كان المعز لدين الله أمر بعمله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة . فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها شبه جغرافية ، وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر . مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير ، وفي آخره « مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة » ، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار .

وصار الى تاج الملوك بيت أرمني أحمر منسوج بالذهب ، عمل للمتوكل على الله ، لا مثل له ولا قيمة ، وبساط خسرواني دفع اليه فيه ألف دينار فامتنع من بيعه .

وقال ابن الطوير : خزانة الفرش — وهي قريبة من باب الملك — يحضر اليها الخليفة من غير جلوس ، ويطوف فيها ويستخبر عن أحوالها ، ويأمر بادامة الاستعمال . وكان من حقوقها استعمال السامان في أماكن خارجها بالقاهرة ومصر ، ويعطى مستخدمها خمسة عشر دينارا (يعني يوم يطوف بها الخليفة) .

(*) ص٤١٦ جـ١ ، ط . بولاق .

خزائن السلاح

قال فى كتاب « الذخائر » : فأما خزائن السيوف والآلات والسلاح ، فانه أخذ بعضها لنفسه وقسم بين العشرة الأتراك على العسكر ، وهم [١] : ناصر الدولة بن حمدان ، وإلدكز ، و[illegible] ، وبلتكين ، وسلام عليك ، وشاور بن حسين .

حتى صار ذو الفقار الى تاج الملوك ، وصمصامة عمرو بن معدى كرب ، وسيف عبد الله بن وهب الراسبى ، وسيف كافور ، وسيف المعز ، وسيف أبى المعز ، الى الآخر من سنان ، وكان من المعز لدين الله — وكانت تساوى ألف دينار — وسيف الحسين بن على ابن أبى طالب عليهما السلام ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وسيف جعفر الصادق رضى الله عنه .

ومن الخوذ والدروع والمحققة ، والسيوف المحلاة بالذهب والفضة ، والسيوف الحديدية ، وصناديق النصول ، وجعاب السهام الخلنج ، وصناديق القسى ، ورزم الرماح الزان الخطية ، وشدات القسى الطوال ، والزرد والبيض ، مئين ألوف وكان كل صنف منها مفردا عشرات ألوف .

وقال ابن الطوير : خزانة السلاح يدخل اليها الخليفة ويطوفها قبل جلوسه على السرير هناك ، ويتأمل حواصلها من الكزاغندات المغمورة بالزرد ، المغشاة بالديباج ، المحكمة الصنعة ، والجواشن المغشاة المذهبة ، والزرديات السابغة برؤوسها ، والخوذ المحلاة بالفضة ، وكذلك أكثر الزرديات والسيوف ، على اختلافها من العربيات والقلجوريات ، والرماح والقنا ، والقنطاريات المدهونة والمذهبة ، والأسنة البرصانية ، والقسى لرماية اليد ، المنسوبة الى صناعها مثل الخطوط المنسوبة الى أربابها .

فيحضر اليها منها ما يجربه ، ويتأمل النشاب — وكانت نصوله مثلثة الأركان — على اختلافها ، ثم قسى الرجل والركاب ، وقسى اللولب التى زنة نصله خمسة أرطال ، ويرمى من كل سهم بين يديه فينظر كيف مجراه . والنشاب الذى يقال له الجراد ، وطوله شبر ، يرمى به عن قسى فى مجار معمولة برسمه ، فلا يقوى به الفارس أو الراجل الا وقد نفذ .

فاذا فرغ من نظر ذلك كله ، خرج من خزانة الفرق — وكانت فى المكان الذى هو خان مسرور ، وهى برسم الاستعمالات ، للأساطيل ، من الكبورة الخرجية والخوذ الجلودية الى غير ذلك — فيعطى مستخدمها خمسة وعشرون دينارا ، ويخلع على متقدم الاستعمالات جوكانية مرقشة حريرا ، وعمامة لطيفة .

خزائن السروج

قال فى كتاب « الذخائر » : أخرج فيما أخرج صناديق سروج محلاة بفضة محراة بسواد ممسوحة ، وجد على صندوق منها « الناس والسمون والثمانة » ، وعدة ما فيها زيادة على أربعة آلاف سرج .

وأخرج المستنصر من خزائن السروج خمسة آلاف سرج كان أبو سعد ابراهيم بن سهل التسترى دخرها له فيها وتقدم بحفظها ، كل سرج منها يساوى من سبعة آلاف دينار الى ألف وأكثرها عال . سبك جميعها وفرق فى الأتراك . كان برسم ركابه منها أربعة آلاف سرج . وأخذ من خزائن السيدة والدته أربعة آلاف سرج مثلها ودونها ، صنع بها مثل ذلك .

وقال ابن الطوير : خزانة السروج تحتوى على ما لا يحتوى عليه مملكة من الممالك ، وهى قاعة كبيرة بدورها مصطبة علوها قراءتان ، ومجالسها كذلك .

وعلى تلك المصطبة متكآت مخلصة الجانبين ، على كل متكأ ثلاثة سروج متطابقة ، وفوقه فى الحائط وتد مدهون مضروب فى الحائط قبل تبييضه ، وهو بارز بروزا متكئا عليه المركبات . الحلى على لجم تلك السروج الثلاثة من الذهب خاصة أو الفضة خاصة أو الذهب والفضة ، وقلائدها وأطواقها لأعناق الخيل .

وهى لخاص الخليفة وأرباب الرتب ما يزيد على ألف سرج : ومنها لجام هو الخاص ، ومنها الوسط ، ومنها الدون ، وهى خيار غيرها برسم العوارى لأرباب الرتب والخدم ، ومنها ما هو قريب من الخاص ، فيكون عند المستخدم بشداده الدائم ، وجاريه على الخليفة مادام مستخدما . والعلف مطلق من الأهراء .

أما الصاغة فان فيها منهم ومن المركبيين والخرازين عددا جما داخلين لا يفترون عن العمل .

وكل مجلس مضبوط بعدد متكآته وما عليها من السروج والأوتاد واللجم . وكل مجلس لذلك عند مستخدميه فى العرض ، فلا يختل عليهم منها شىء . وكذلك وسط قاعتها بعدة متوالية أيضا . والشدادون مطلوبون بالنقائص منها أيام المواسم ، وهم يحضرونها أو قيمتها ، فيعرض ويركب .

ويحضر اليها الخليفة ، ويطوفها من غير جلوس ، ويعطى حاميها للتفرقة فى المستخدمين عشرين دينارا .

ويقال ان الحافظ لدين الله عرضت له فيها حاجة ، فجاء اليها مع الحامى ، فوجد الشاهد غير حاضر وختمه عليها ، فرجع الى مكانه وقال : لا يفك ختم العدل الا هو ونحن نعود فى وقت حضوره ... انتهى .

وكان الخليفة الآمر بأحكام الله تحدثه نفسه بالسفر الى المشرق والغارة على بغداد ، فأعد لذلك سروجا مجوفة القرابيص ، وبطنها بصفائح من قصدير ليجعل فيها الماء ، وجعل لها فما فيه صفارة ، فاذا دعت الحاجة الى الماء شرب منه الفارس ، وكان كل سرج منها يسع سبعة أرطال ماء . وعمل عدة مخال للخيل من ديباج وقال فى ذلك :

دع اللوم عنى لست منى بموثق
فلا بد لى من صدمة المتحقق

---

(١) [illegible]

(١) [illegible]

وألقى حبالى من فرات ودجلة
وأجمع شمل الدين بعد تفرق

وأول من ركب المتصرفين في دولته من عبيده بمراكب الذهب في المواسم ، العزيز بالله نزار بن المعز .

خزائن الخيم

قال في كتاب « الذخائر » : وأخبرني سناء الرؤساء أبو الحسن علي بن أحمد بن مدبر ، وزير ناصر الدولة ، قال : أخرج فيما أخرج من خزائن القصر عدة لم تحص من أعدال الخيم والمضارب والقبابات والمسطحات والخركاوات والحصون والقصور والشراعات والمشارع والفساطيط ، المعمولة من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج الملكي والأرمني والبهنساوي والكردواني والجيد من الطلحي ، وما أشبه ذلك من سائر ألوانه وأنواعه .

ومن الستور والخيم أيضا : منها الفيل والسبع والخيل والطاوس والطير ، وغير ذلك من سائر الوحوش والطير ، والآدميين من سائر الأشكال والصور البديعة الرائعة . ومنها السواذج والنقوش في ظاهره بغرائب النقوش بجميع آلاتها ، من الأعمدة الملبسة أنابيب الفضة ، والثياب المذهبة وغير المذهبة من سائر أنواعها وألوانها ، والصفريات الفضة على أقدارها ، والحبال الملبسة القطن والحرير ، والأوتاد وسائر ما يحتاج اليه من جميع آلاتها وعدتها ، البطن جميعها بالديبقي الطميم المذهب والخسرواني المذهب ، وثياب الحرير الصيني والتستري والمذهب * والزجيج والشرق والشعرى والديباج والمريش ، وسائر أنواع الحرير من سائر الألوان وأنواعها كبارا وصغارا ، منها ما يحمل خرقه وأوتاده وعمده وسائر عدته على عشرين بعيرا ودون ذلك وفوقه .

فالمسطح بيت مربع له أربعة حيطان وسقف بستة أعمدة ، منها عمودان للحائط الواحد المرفوع للدخول والخروج .

والخيمة ظهرها حائط مربع ، وسقيفتها الى الباب حائط مربع ، وأركانها شوارك من الجانبين على قدر القائم ، وفيها أربعة أعمدة : اثنان في الباب ، واثنان في وسطها . وكلما زادت زاد عمدها وسقفها ، ولها حدان مشروكان من الجانبين .

والشراع حائط في الظهر مسقف على الرأس بعمودين ، من أى موضع دارت الشمس حول الى ناحية الشمس . والمشرعة فيه مثل المظلة على عمود واحد تام وشراع سايل خلفها ، من أى موضع دارت الشمس أدير والمظلة على حالها .

وحدثني أبو الحسن علي بن الحسن الخيمي قال : أخرجنا في جملة ما أخرج من خزائن القصر أيام المارقين ، حين اشتدت المطالبة على السلطان ، فسطاطا كبيرا أكبر ما يكون ، يسمى المدورة الكبيرة ، يقوم على فرد عمود طوله خمسة وستون ذراعا بالكبير

(*) ص٤١٨ ج١ ، ط بولاق .

ودائر فلكته عشرون ذراعا ، وقطرها ستة أذرع وثلثا ذراع ، ودائره خمسمائة ذراع ، وعدة قطع خرقه أربع وستون قطعة كل قطعة منها تحزم في عدل واحد ... يجمع بعضه الى بعض بعرى وشراريب حتى ينصب ، يحمل خرقه وحباله وعمده على مائة جمل .

وفي صفريته المعمولة من الفضة ثلاثة قناطير مصرية ، يحملها من داخلها قضبان حديد من سائر نواحيها ، تستلىء ماء من راوية جمل ... قد صور في رفرفه كل صورة حيوان في الأرض ، وكل عقد مليح وشكل ظريف . وفيه بادهنج طوله ثلاثون ذراعا في أعلاه .

كان أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري أمر بعمله أيام وزارته فعمله الصناع — وعدتهم مائة وخمسون صانعا — في مدة تسع سنين ، واشتملت النفقة عليه على ثلاثين ألف دينار . وكان عمله على مثال القاتول الذي كان العزيز بالله أمر بعمله أيام خلافته ... الا أن هذا أعلى عمودا منه وأوسع وأعظم وأحسن .

وكان الخليفة أنفذ الى متملك الروم في طلب عمودين للفسطاط طول كل واحد منهما سبعون ذراعا بعد أن غرم عليهما ألف دينار : أحدهما في هذا الفسطاط بعد أن قطع منه خمسة أذرع ، والآخر حمله ناصر الدولة بن حمدان حين خرج على الخليفة المستنصر بالله الى الاسكندرية ، وما أدرى ما فعل به .

قال : وأقمنا مدة طويلة في تفصيل بعضه من بعض ، وتقطيعه خرقا وشققا قومت على المذكورين بأقل القيم ، وتفرق في الآفاق .

وقال لي أيضا : أخرجنا مسطحا قلمونيا مخملا موجا من جانبيه — عمل بتنيس للعزيز بالله — يسمى دار البطيخ . ووسطه بكنيس على ستة أعمدة أربعة منها في أركان الكنيس ، وفي أربعة الأركان أربع قباب ، ومن القبة الى القبة رواق دائر عليه والقباب دونه ، وفي كل قبة أربعة أعمدة ، طول كل عمود من أعمدة الكنيس ثمانية عشر ذراعا وكذلك طول قائم القباب . وفعلنا به مثل ما فعلنا في الأول .

وقال لي : أخرجنا مسطحا عمل للظاهر لاعزاز دين الله بتنيس . ذهب في ذهب طميم قائم على عمود ، له ست صفارى بلور ، وستة أعمدة فضة . أنفق عليه أربعة عشر ألف دينار . ومسطحا ديبقيا كبيرا مذهبا بدوائر كردواني منقوش .

وأخرجنا قصورا تحيط بالخيام ، بشرفات من المخمل والقلموني والديبقي والديباج الخسرواني ، والحرير من سائر أنواعه وألوانه المذهبة المنقوشة ، بحياضها ودككها ومصاطبها وقدورها وزجاجها وسائر عددها .

وأخرجنا من الخيام الكردواني شيئا كثيرا . وأخرجنا خيمة كبيرة مدورة كردواني مليحة النقش والصنعة ، عدتها قطع كثيرة ، طول عمودها خمسة وثلاثون ذراعا ... فعلنا بجميعها مثل ما فعلنا بالأول .

وأخرج في جملتها الفسطاط الكبير المعروف بالمدورة الكبيرة ، المتولى عمله بحلب أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الأيسر في سنى نيف وأربعين وأربعمائة ، المنفق على

خرقه وتقشه وعمله وعدته ثلاثون ألف دينار ، الذى عموده أطول ما يكون من صوارى درامين الروم البنادقة أربعون ذراعا ، ودائر فلكة عموده أربعة وعشرون شبرا ، ويحمل على سبعين جملا ، ووزن صفريته الفضة قنطاران ، سوى أنابيب عمده ، ويتولى اتقان عمده ونصبه مائتا رجل من فراش ومعين . وهو شبيه بالقاتول العزيزى ، وسمى بالقاتول لأنه ما نصب قط الا وقتل رجلا أو رجلين ممن يتولى اتقانه من فراش وغيره .

قال : ووجد فى خزائن مملوءة من سائر أنواع الصوانى المدهونة ببغداد المذهبة ، التى حشيت كل واحدة منها بما دونها فى السعة الى ما سعته دون الدرهم . ومن سائر أنواع الأطباق الخلع الرازى فى هذه السعة ، وفوق ذلك ودونه ، قد حشيت بطونها بما دونها فى السعة الى ما سعته دون الدينار . ومن الموائد القوائمية ، الصغار والكبار ، ألوف . ومن موائد الكرم وما أشبهها شىء كثير . ومن الجفانى الحور الواسعة التى قد عملت مقابضها من الفضة ، وحليت بأنواع الحلى ، التى لا يقدر الجمل القوى على حمل جفنتين منها لعظمها ، تساوى الواحدة منها مائة دينار وفوقها ودونها ... شىء كثير .

ووجد من الدكك والمحاريب والأسرة ، العود والصندل والعاج والأبنوس والبقم ، شىء كثير مليح الصنعة .

وقال ابن ميسر : وعمل الأفضل ابن أمير الجيوش خيمة سماها خيمة الفرح ، اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع ، وقائمها ارتفاعه خمسون ذراعا بذراع العمل . صرف عليها عشرة آلاف دينار ، ومدحها جماعة من الشعراء .

خزانة الشراب

قال ابن المأمون : ولم يكن فى الايوان فيما تقدم شراب حلو ، بل انها قررت فى استقبال النظر المأمونى ، وأطلق لها من السكر مائة وخمسة عشر قنطارا ، وبرسم الورد المربى خمسة عشر قنطارا . وأما ما يستعمل بالكافورى من الحلو الفانيذ والحامض فالمبلغ فى ذلك — على ما حصره شاهده — فى السنة ستة آلاف وخمسمائة دينار . وما يحمل للكافورى أيضا برسم كرك الماورد ما يستدعيه متولى الشراب .

وقال ابن الطوير : خزانة الشراب — وهى أحد مجالسه أيضا (يعنى القاعة التى هى الان المارستان العتيق) — فاذا جلس الخليفة على السرير عرض عليه ما فيها حاميها وهو من كبار الأستاذين ، وشاهدها ... فيحضر اليه فراشوها بين يدى مستخدمها من عيون الأصناف العالية من المعاجين العجيبة فى الصينى والطافير الخلنج ، فيذوق ذلك شاهدها بحضرته ، ويستخبر عن أحوالها بحضور أطباء الخاص .

وفيها من الآلات والأزيار الصينى والبرابى عدة عظيمة للورد والبنفسج والمرسين ، وأصناف الأدوية من الراوند الصينى ومايجرى

(*) ص١٩ ، جـ١ ، ط. بولاق .

مجراه مما لا يقدر أحد على مثله الا هناك ، وما يدخل فى الأدوية من آلات العطر الى ذلك .

ويسأل عن الدرياق الفاروق ، ويأمرهم بتحصيل أصنافه ليستدرك عمله قبل انقطاع الحاصل منه ، ويؤكد فى ذلك تأكيدا عظيما .

ويستأذن على ما يطلق منها فى رقاع . أطباء الخاص للجهات وحواشى القصر ، فأذن فى ذلك ، ويعطى الحامى للتفرقة فى الجماعة ثلاثين دينارا .

خزانة التوابل

وقال ابن المأمون : فأما التوابل ، العالى منها والدون ، فانها جملة كثيرة . ولم يقع لى شاهد بها ، بل اننى اجتمعت بأحد من كان مستخدما فى خزانة التوابل ، فذكر أنها تشتمل على خمسين ألف دينار فى السنة ، وذلك خارج عما يحمل من البقولات — وهى باب مفرد — مع المستخدم فى الكافورى .

والذى استقر اطلاقه على حكم الاستيمار من الجرايات المختصة بالقصور والرواتب المستجدة ، والمطلق من الطيب ... ويذكر الطراز وما يبتاع من الثغور ويستعمل بها ، وغير ذلك .

فأولها جراية القصور ، وما يطلق لها من بيت المال ادرارا لاستقبال النظر المأمونى : ستة آلاف وثلثمائة وثلاثة وأربعون دينارا .

تفصيله : منديل الكم الخاص الآمرى فى الشهر ثلاثة آلاف دينار عن مائة دينار كل يوم ، أربع جمع الحمام فى كل جمعة مائة دينار أربعمائة دينار . وبرسم الأخوة والأخوات ، والسيدة الملكة والسيدات ، والأمير أبى على واخوته ، والموالى والمستخدمات ، ومن استجد من الأفضليات : ألفان وتسعمائة وثلاثة وأربعون دينارا .

ولم يكن للقصور فى الأيام الأفضلية من الطيب راتب فيذكر ، بل كان اذا وصلت الهدية والجاوى من البلاد اليمنية تحمل برمتها الى الايوان ، فينقل منها بعد ذلك للأفضل والطيب المطلق للخليفة من جملتها . فافتتح هذا الحكم ، وصار المرتب من الطيب مياومة ومشاهرة على ما يأتى ذكره .

ما هو برسم الخاص الشريف فى كل شهر : ند مثلث ثلاثون مثقالا ، عود صيفى مائة وخمسة دراهم ، كافور قديم خمسة عشر درهما ، عنبر خام عشرة مثاقيل ، زعفران عشرون درهما ، ماء ورد ثلاثون رطلا .

برسم بخور المجلس الشريف فى كل شهر فى أيام السلام : ند مثلث عشرة مثاقيل ، عود صيفى عشرون درهما ، كافور قديم ثمانية دراهم ، زعفران شعر عشرة دراهم .

ما هو برسم بخور الحمام فى كل ليلة جمعة عن أربع جمع فى الشهر : ند مثلث أربعة مثاقيل ، عود صيفى عشرة مثاقيل .

ما هو برسم السيدات والجهات والأخوة فى كل شهر : ند مثلث خمسة وثلاثون مثقالا ، عود صيفى مائة وعشرون درهما ، زعفران

شعر خسوق درهما ، عنبر خام عشرون مثقالا ، كافور قديم عشرون درهما ، مسك خمسة عشر مثقالا ، ماء ورد أربعون رطلا .

ما هو برسم المائدة الشريفة ما تسلمه المعلمة : مسك خمسة عشر مثقالا ، ماء ورد خمسة عشر رطلا .

ما هو برسم خزانة الشراب الخاص : مسك ثلاثة مثاقيل ، ند * مثلث سبعة مثاقيل ، عود صيفى خمسة وثلاثون درهما ، ماء ورد عشرون رطلا .

ما هو برسم بخور المواكب الستة ، وهى الجمعتان الكائنتان فى شهر رمضان برسم الجامعين بالقاهرة (يعنى الجامع الأزهر والجامع الحاكمى) والعيدان ، وعيد الغدير ، وأول السنة بالجوامع والمصلى : ند خاص جملة كثيرة لم تتحقق فتذكر .

ولم يكن للغرتين : غرة السنة ، وغرة شهر رمضان ، وفتح الخليج ، بخور فيذكر .

وعدة المبخرين فى المواكب ستة : ثلاثة عن اليمين ، وثلاثة عن الشمال . وكلّ منهم مشدود الوسط ، وفى كمه فحم برسم تعجيل المدخنة . والمداخن فضة .

وحامل الدرج الفضة الذى فيه البخور أحد مقدمى بيت المال ، وهو فيما بين المبخرين طول الطريق ، ويضع بيده البخور فى المدخنة .

وإذا مات أحد هؤلاء المبخرين لا يخدم عوضا عنه الا من يتبرع بمدخنة فضة ، لأن لهم رسوما كثيرة فى المواسم ، مع قربهم فى المواكب من الخليفة . ومن الوقت الذى يتبرع فيه بالمدخنة يرجع فى حاصل بيت المال . وإذا توفى حاملها لا ترجع لورثته .

وعدة ما يبخر فى الجوامع والمصلى غير هؤلاء ، فى مداخن كبار فى صوانى فضة ، ثلاث صوان : فى المحراب احداهن ، وعن يمين المنبر وشماله اثنتان ، وفى الموضع الذى يجلس فيه الخليفة الى أن تقام الصلاة صينية رابعة .

وأما البخور المطلق برسم المأمون فهو فى كل شهر : ند مثلث خمسة عشر مثقالا ، عود صيفى ستون درهما ، عنبر خام ستة مثاقيل ، كافور ثمانية دراهم ، زعفران شعر عشرة دراهم ، ماء ورد خمسة عشر رطلا .

ومنها مقرر المجامع : وما قرر من خزانة التفرقة فى كل يوم اثنا عشر مجمعا ، كل بيت عياره رطل واحد . ولكل مجمع ثلاثة أرطال جبن قريش ، وفاكهة بنصف درهم . والمستقر لهذه المجامع فى كل يوم من اللبن خمسة وثمانون رطلا .

ومنها مقرر الحلوى والفستق ، ومما استجد ما يعمل فى الايوان برسم الخاص فى كل يوم من الحلوى اثنا عشر جاما رطبة ويابسة نصفين . ووزن كلّ جام من الرطب عشرة أرطال ، ومن اليابس ثمانية أرطال .

ومقرر الخشكنانج والبسندود : فى كلّ ليلة على الاستمرار ، برسم الخاص الآمرى والمأمونى ، قنطار واحد سكر ، ومثقالان مسك ، ودينـاران برسم المؤن لعمل خشكنانج وبسندود فى قعبان ، وسلال صفصاف . ويحمل ثلثا ذلك الى القصر ، والثلث الى الدار المأمونية .

(*) ص٤٢٠ جـ١ ، ط.بولاق .

قال : وجرت مفاوضة بين متولى بيت المال ودار الفطرة بسبب الأصناف ، ومن جملتها الفستق وقلة وجوده ، وتزايد سعره الى أن بلغ رطل ونصف بدينار . وقد وقف منه لأرباب الرسوم ما حصل شكواهم بسببه . فجاوبه متولى الديوان بأن قال : ما تم موجب الانفاق لما هو راتب من الديوان .

وطالعا المقام العالى بأنه لما رسم لهما ، ذكرا جميع ما اشتمل عليه ما هو مستقر الانفاق من قلب الفستق .

والذى يطلق من الخزائن من قلب الفستق ادرارا مستقرا بغير استدعاء ولا توقيع ، مياومة كل يوم حسابا فى الشهر التام عن ثلاثين يوما : خمسمائة وخمسة وثمانون رطلا وفى الشهر الناقص عن تسعة وعشرين يوما خمسمائة وخمسة وستون رطلا ، حسابا عن كل يوم تسعة عشر رطلا ونصف .

من ذلك ما يستلمه الصناع الحلاويون والمستخدمون بالايوان مما يصنع به خاص ، خارجا عما يصنع بالمطابخ الآمرية ، عن اثنى عشر جام حلوى خاص ، وزنها مائة وثمانية أرطال : منها رطب ستون رطلا ، ويابس وغيره ثمانية وأربعون رطلا ... مما يصل فى يومه وساعته : منها ما يحملّ مختوما برسم المائدتين الآمرتين بالباذهنج والدار الجديدة ، اللتين ما يحضرهما الا من كبرت منزلته وعظمت وجاهته ، جامان رطبا ويابسا . وما يفرق فى العوالى من الموالى والجهات ، على أوضاع مختلفة ، تسع جامات . وما يحمل الى الدار المأمونية ، برسم المائدة بالدار دون السماط ، جام واحد تتمة المياومة المذكورة .

ما يتسلمه مقدم الفراشين فى خدمة المائدة الشريفة التى تتولاها المعلمة بالقصور الزاهرة ، أربعة أرطال فستق .

ما يتسلمه الشاهد والمشارف على المطابخ الآمرية ، مما يصنع فيها برسم الجامات الحلوى وغيره ، مما يكون على المدورة فى الأسمطة المستمرة بقاعة الذهب فى أيام السلام وفى أيام الركوبات وحلول الركاب بالمناظر : أربعة أرطال .

وما يتسلمه الحاج مقبل الفراش برسم المائدة المأمونية مما يوصله لزمام الدار دون المطابخ الرجالية : رطلان .

الحكم الثانى يطلق مشاهرة — بغير توقيع ولا استدعاء — بأسماء كبراء الجهات والمستخدمين من الأصحاب والحواشى فى الخدم المميزة ، وهو فى الشهر ثلاثة عشر رطلا . والديوان شاهد بأسماء أربابه .

وما يطلق من هذه الخزائن السعيدة بالاستدعاءات والمطالعات ويوقع عليه بالاطلاق من هذا الصنف فى كل سنة على ما يأتى ذكره .

وما يستدعى برسم التوسعة فى الراتب ، عند تحويل الركاب العالى الى اللؤلؤة مدة أيام النيل المبارك ، فى كل يوم رطلان .

وما يستدعى برسم الصيام مدة تسعة وخمسين يوما ، رجب وشعبان ، حسابا عن كل يوم رطلان : مائة وثمانية عشر رطلا * .

وما يستدعى لما يصنع بدار الفطرة فى كل ليلة برسم الخاص خشكنانج لطيفة وبسندود وجوارشات ونواطف ، ويحمل فى سلال صفصاف لوقته ، عن مدة أولها مستهل رجب وآخرها سلخ رمضان ، عن تسعة وثمانين يوما : مائة وثمانية وسبعون رطلا ، لكل ليلة رطلان . ويسمى ذلك بالتعبية .

وما يستدعيه صاحب بيت المال ومتولى الديوان ، فيما يصنع بالايوان الشريف برسم الموالد الشريفة الأربعة : النبوى ، والعلوى ، والفاطمى ، والآمرى — مما هو برسم الخاص والموالى والجهات بالقصور الزاهرة والدار المأمونية والأصحاب والحواشى — خارجا عما يطلق مما يصنع بدار الوكالة ، ويفرق على الشهود والمتصدرين والفقراء والمساكين مما يكون حسابه من غير هذه الخزائن : عشرون رطلا قلب فستق ، حسابا لكل يوم مؤبد منها خمسة أرطال .

ما يستدعى برسم ليالى الوقود الأربع ، الكائنات فى رجب وشعبان ، مما يعمل بالايوان برسم الخاصين والقصور خاصة : عشرون رطلا ، لكل ليلة خمسة أرطال .

وأما ما ينصرف فى الأسمطة والليالى المذكورات ، فى الجامع الأزهر بالقاهرة والجامع الظاهرى بالقرافة ، فالحكم فى ذلك يخرج عن هذه الخزائن ، ويرجع الى مشارف الدار السعيدة

وكذلك ما يستدعيه المستخدمون فى المطابخ الآمرية من التوسعة من هذا الصنف المذكور فى جملة غيره ، برسم الأسمطة لمدة تسعة وعشرين يوما من شهر رمضان وسلخه لأسماط فيه ، وفى الأعياد جميعها بقاعة الذهب .

وما يستدعيه النائب برسم ضيافة من يصرف من الأمراء فى الخدم الكبار ويعود الى الباب ، ومن يرد اليه من جميع الضيوف .

وما يستدعيه المستخدمون فى دار الفطرة برسم فتح الخليج ، وهى الجلتان الكبيرتان ... فجميع ذلك لم يكن فى هذه الخزائن محاسبته ولا ذكر جملته . والمعاملة فيه مع مشارف الدار السعيدة .

وأما ما يطلق من هذا الصنف من هذه الخزائن فى هذه الولائم والأفراح وارسال الأنعام ، فهو شىء لم تتحقق أوقاته ولا مبلغ استدعائه ... أنهى المملوكان ذلك . والمجلس فضل السمو والقدرة فيما يأمر به ان شاء الله تعالى .

(*) ص٤٢١ جـ١ ، ط.بولاق .

دار التعبية

قال ابن المأمون : دار التعبية كانت فى الأيام الأفضلية تشتمل على مبلغ يسير ، فانتهى الأمر فيها الى عشرة دنانير كل يوم ، خارجا عما هو موظف على البساتين السلطانية ، وهو النرجس والنينوفران الأصفر والأحمر ، والنخل الموقوف برسم الخاص ، وما يصل اليه من الفيوم وثغر الاسكندرية .

ومن جملتها تعبية القصور للجهات والخاص والسيدات ولدار الوزارة ، وتعبية المناظر فى الركوبات الى الجمع فى شهر رمضان ، خارجا عن تعبية الحمامات ، وما يحمل كل يوم من الزهرة ، وبرسم خزانة الكسوة الخاص ، وبرسم المائدة ، وتفرقة الثمرة الصيفية فى كل سنة على الجهات والأمراء والمستخدمين والحواشى والأصحاب ، وما يحمل لدار الوزارة والضيوف وحاشية دار الوزارة .

خزانة الادم

قال : وأما الراتب من عند بركات الأدمى ، فانه فى كل شهر ثمان زوجا أوطية . من ذلك : برسم الخاص ثلاثون زوجا ، برسم الجهات أربعون زوجا ، برسم الوزارة عشرة أزواج ... خارجا عن الساعيات ، فانها تستدعى من خزانة الكسوة ، وفى كل موسم تكون مذهبة .

خزائن دار افتكين

قال ابن الطوير : وكانت لهم دار كبرى يسكنها نصر الدولة أفتكين ، الذى رافق نزار بن المستنصر بالاسكندرية ، جعلوها برسم برسم الخزن ، فقيل خزائن دار أفتكين . وتحتوى على أصناف عديدة من الشمع المحمول من الاسكندرية وغيرها ، وجميع القلوب المأكولة من الفستق وغيره ، والأعسال على اختلاف أصنافها ، والسكر والقند والشيرج والزيت .

فيخرج من هذه الخزائن — بيد حاميها وهو من الأستاذين المميزين ، ومشارفها وهو من المعدلين — راتب المطابخ خاصا وعاما ليوم أو لأيام : ينفق منها للمستخدمين ، ثم لأرباب التوقيعات من الجهات ، وأرباب الرسوم فى كل شهر من أرباب الرتب ، حتى لا يخرج عما يحتاجونه فيها الا اللحم والخضراوات ، فهى أبدا معمورة بذلك . انتهى * .

« خبر نزار وأفتكين » : لما مات الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد ابن الامام الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على منصور ، فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، بادر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى الى القصر ، وأجلس أبا القاسم أحمد بن المستنصر فى منصب الخلافة ، ولقبه بالمستعلى بالله

وسير الى الأمير نزار والأمير عبد الله والأمير اسماعيل أولاد المستنصر فجاءوا اليه ، فاذا أخوهم أحمد — وهو أصغرهم — قد جلس على سرير الخلافة ، فامتعضوا لذلك وشق عليهم .

وأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض ، وقال لهم : قبلوا الأرض لمولانا المستعلى بالله وبايعوه ، فهو الذى نص عليه الامام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده .

(*) ص٤٢٢ جـ١ ط.بولاق *

فامتنعوا من ذلك وقال كل منهم ان أباه قد وعده بالخلافة .

وقال نزار : لو قطعت ما بايعت من هو أصغر منى سنا . وخط والدى عندى بأنى ولى عهده وأنا أحضره .

وخرج مسرعا ليحضر الخط ، فمضى لا يدرى به أحد ، وتوجه الى الاسكندرية .

فلما أبطأ مجيئه بعث الأفضل اليه ليحضر بالخط ، فلم يعلم له خبرا ، فانزعج لذلك انزعاجا عظيما .

وكانت نفرة نزار من الأفضل لأمور : منها أنه خرج يوما فاذا بالأفضل قد دخل من باب القصر وهو راكب ، فصاح به نزار : انزل يا أرمنى الجنس . فحقدها عليه ، وصار كل منهما يكره الآخر .

ومنها أن الأفضل كان يعارض نزارا فى أيام أبيه ، ويستخف به ، ويضع من حواشيه وأسبابه ، ويبطش بغلمانه . فلما مات المستنصر خافه لأنه كان رجلا كبيرا ، وله حاشية وأعوان ، فقدم لذلك أحمد بن المستنصر بعدما اجتمع بالأمراء وخوفهم من نزار ، وما زال بهم حتى وافقوه على الاعراض عنه .

وكان من جملتهم محمود بن مصال ، فسير خفية الى نزار ، وأعلمه بما كان من اتفاق الأفضل مع الأمراء على اقامة أخيه أحمد وادارته لهم عنه . فاستعد الى المسير الى الاسكندرية هو وابن مصال .

فلما فارق الأفضل ليحضر اليه بخط أبيه ، خرج من القصر متنكرا ، وسار هو وابن مصال الى الاسكندرية وبها الأمير نصر الدولة أفتكين ، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى ، ودخلا عليه ليلا ، وأعلماه بما كان من الأفضل ، وتراميا عليه ، ووعده نزار بأن يجعله وزيرا مكان الأفضل ... فقبلهما أتم قبول وبايع نزار ، وأحضر أهل الثغر لمبايعته فبايعوه ، ونعته بالمصطفى لدين الله .

فبلغ ذلك الأفضل ، فأخذ يتجهز لمحاربتهم وخرج فى آخر المحرم سنة ثمان وثمانين بعساكره ، وسار الى الاسكندرية . فبرز اليه نزار وأفتكين ، وكانت بين الفريقين عدة حروب شديدة انكسر فيها الأفضل ، ورجع بمن معه منهزما الى القاهرة . فقوى نزار وأفتكين ، وصار اليهما كثير من العرب ، واشتد أمر نزار وعظم ، واستولى على بلاد الوجه البحرى .

وأخذ الأفضل يتجهز ثانيا الى المسير لمحاربة نزار ، ودس الى أكابر العربان ووجوه أصحاب نزار وأفتكين ، وصاروا الى الاسكندرية فنزل الأفضل اليها وحاصرها حصارا شديدا ، وألح فى مقاتلتهم ، وبعث الى أكابر أصحاب نزار ووعدهم .

فلما كان فى ذى القعدة ، وقد اشتد البلاء من الحصار ، جمع ابن مصال ماله وفر فى البحر الى جهة بلاد المغرب . ففت ذلك فى عضد نزار ، وتبين فيه الانكسار .

واشتد الأفضل وتكاثرت جموعه ، فبعث نزار وأفتكين اليه يطلبان الأمان منه فأمنهما ،

ودخل الاسكندرية ، وقبض على نزار وأفتكين ، وبعث بهما الى القاهرة . فأما نزار فانه قتل فى القصر بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما ، وأما أفتكين فانه قتله الأفضل بعد قدومه .

ودار أفتكين هذه كانت خارج القصر ، وموضعها الآن حيث مدرسة القاضى الفاضل وآدره بدرب ملوخيا .

خزانة البنود

البنود هى الرايات والأعلام ، ويشبه ان تكون هى التى يقال لها فى زمننا العصائب السلطانية .

وكانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير ومن حقوقه فيما بين قصر الشوك وباب العيد . بناها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله . وكان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين فى سائر الصنائع .

وكانت أيام الظاهر هذا سكونا وطمأنينة ، وكان مشتغلا بالأكل والشرب والنزه وسماع الأغانى . وفى زمانه تأنق أهل مصر والقاهرة فى اتخاذ الأغانى والرقاصات ، وبلغ من ذلك المبالغ العجيبة ، واتخذت له حجرة المماليك ، وكانوا يعلمونهم فيها أنواع العلوم ، وأنواع آلة الحرب ، وصنوف حيلها من الرماية والمطاعنة والمسابقة وغير ذلك .

وقال فى كتاب « الذخائر والتحف » : ولما وهب السلطان (يعنى الخليفة المستنصر) لسعد الدولة ، المعروف بسلام عليك ، ما فى خزانة البنود من جميع المتاع والآلات وغير ذلك ، فى اليوم السادس من صفر سنة احدى وستين وأربعمائة ، حمل جميعه ليلا .

وكان فيما وجد * سعد الدولة فيها ألفا وتسعمائة درقة ، الى ما سوى ذلك من آلات الحرب وما سواه ، وغير ذلك من القضب الفضة والذهب والبنود وما سواه . وفى خلال ذلك سقط من بعض الفراشين مقط شمع موقد نارا ، فصادف هناك أعدال كتان ومتاعا كثيرا ، فاحترق جميعه . وكانت لتلك غلبة عظيمة وخوف شديد فيما يليها من القصر ودور العامة والأسواق .

وأعلمنى من له خبرة بما كان فى خزانة البنود أن مبلغ ما كان فيها من سائر الآلات والأمتعة والذخائر لا يعرف له قيمة عظما ، وأن المنفق فيها كل سنة من سبعين ألف دينار الى ثمانين ألف دينار ، من وقت دخول القائد جوهر وبناء القصر من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة الى هذا الوقت ، وذلك زائد عن مائة سنة ، وأن جميعه باق فيها على الأيام لم يتغير ، وأن جميعه احترق حتى لم يبق منه باقية ولا أثر ، وأنه احترق فى هذه الليلة من قربات النفط عشرات ألوف ، ومن زراقات النفط أمثالها .

فأما الدرق والسيوف والرماح والنشاب فلا تحصى بوجه ولا سبب ، مع ما فيها من قضب الفضة وثيابها المذهبة وغيرها ، والبنود المجملة ، وسروج ولجم ، وثياب الفرجية

(*) ص٤٢٢ جـ١ ، ط.بولاق .

المصبغات والبنادين وغيرها ، بعد أن أخذوا ما قدروا عليه ، حتى لواء الحمد وسائر البنود وجميع العلامات والألوية .

وحدثني من أثق به أيضا أنه احترق فيها من السيوف عشرات ألوف وما لا يحصى كثرة . وأن السلطان بعد ذلك بمدة طويلة احتاج الى اخراج شيء من السلاح لبعض مهماته ، فأخرج من خزانة واحدة — مما بقي وسلم — خمسة عشر ألف سيف مجوهرة سوى غيرها ... حدثني بجميعه الأجل عظيم الدولة متولي الستر الشريف . انتهى .

وجعلت خزانة البنود بعد هذا الحريق حبسا . وفيها يقول القاضي المهذب بن الزبير لما اعتقل بها ، وكتب بها للكامل بن شاور :

أياصاحبي سجن الخزانة خليا
نسيم الصبا يرسل الى كبدي نفحا
وقولا لضوء الصبح هل أنت عائد
الى نظري أم لا أرى بعدها صبحا ؟
ولا تيأسا من رحمة الله أن أرى
سريعا بفضل الكامل العفو والصفحا

وقال :

أياصاحبي سجن الخزانة خليا
من الصبح ما يبدو سناه لناظري
فوالله ما أدري أطرفي ساهر
على طول هذا الليل أم غير ساهر ؟
ومالي من أشكو اليه اذاكما
سوى ملك الدنيا شجاع بن شاور

واستمرت سجنا للأمراء والوزراء والأعيان الى أن زالت الدولة ، فاتخذها ملوك بني أيوب أيضا سجنا تعتقل فيه الأمراء والمماليك .

ومن غريب ما وقع بها أن الوزير أحمد ابن علي الجرجرائي لما توفي ، طلب الوزارة الحسن بن علي الأنباري ، فأجيب اليها ، فتعجل من سوء التدبير قبل تمامه ما فوته مراده ، وضيع ماله ونفسه .

وذلك أنه كان قد نبغ في أيام الحاكم بأمر الله أخوان يهوديان يتصرف أحدهما في التجارة ، والآخر في الصرف وبيع ما يحمله التجار من العراق ، وهما أبو سعد ابراهيم وأبو نصر هارون ابنا سهل التستري ، واشتهر من أمرهما في البيوع واظهار ما يحصل عندهما من الودائع الخفية لمن يفقد من التجار في القرب والبعد ، ما ينشأ به جميل الذكر في الآفاق ، فاتسع حالهما لذلك .

واستخدم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبا سعد ابراهيم بن سهل التستري في ابتياع ما يحتاج اليه من صنوف الأمتعة ، وتقدم عنده فباع له جارية سوداء ، فتحظى بها الظاهر وأولدها ابنه المستنصر فرعت لأبي سعد ذلك . فلما أفضت الخلافة الى المستنصر ولدها ، قدمت أبا سعد وتخصصت به في خدمتها .

فلما مات الوزير الجرجرائي ، وتكلم ابن الأنباري في الوزارة ، قصده أبو نصر أخو أبي سعد ، فجبهه أحد أصحابه بكلام مؤلم ، فظن أبو نصر أن الوزير ابن الأنباري اذا بلغه ذلك ينكر على غلامه ويعتذر اليه ، فجاء منه

خلاف ما ظنه ، وبلغه عنه أضعاف ما سمعه من الغلام ، فشكا ذلك الى أخيه أبي سعد ، وأعلمه بأن الوزير متغير النية لهما .

فلم يفتر أبو سعد عن ابن الأنباري ، وأغرى به أم المستنصر مولاته ، فتحدثت مع ابنها الخليفة المستنصر في أمره حتى عزله عن الوزارة . فسعى أبو سعد عند أم المستنصر لأبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي في الوزارة ، فاستوزره المستنصر ، وتولى أبو سعد الاشراف عليه ، وصار الوزير الفلاحي منقادا لأبي سعد تحت حكمه .

وأخذ الفلاحي يعمل على ابن الأنباري ويغري به ، ويصنع عليه ديونا ، ويذكر عنه ما يوجب الغضب عليه حتى تم له ما يريد ، فقبض عليه ، وخرّج عليه من الدواوين أموالا كثيرة مما كان يتولاه قديما ، وألزمه بحملها ، ونوع له أصناف العذاب ، واستصفى أمواله وهو معتقل * بخزانة البنود ، ثم قُتله في يوم الاثنين الخامس من المحرم سنة أربعين وأربعمائة بها .

فاتفق أن الفلاحي لما صرف عن الوزارة ، اعتقل بخزانة البنود حيث كان ابن الأنباري ثم قتل بها . وحفر له ليدفن فظهر في الحفر رأس ابن الأنباري ، قبل أن يمضي فيه القتل ، فقال : لا اله الا الله ، هذا رأس ابن الأنباري أنا قتلته ودفنته ههنا . وأنشد :

رب لحد قد صار لحدا مرارا
ضاحكا من تزاحم الأضداد

(*) ص٤٢٤ جـ١ ، ط.بولاق م

فقتل ودفن في تلك الحفرة مع ابن الأنباري فعد ذلك من غرائب الاتفاق .

ثم ان خزانة البنود جعلت منازل للأسرى من الفرنج المأسورين من البلاد الشامية أيام كانت محاربة المسلمين لهم . فأنزل بها الملك الناصر محمد بن قلاوون الأسارى بعد حضوره من الكرك ، وأبطل السجن بها .

فلم يزالوا فيها بأهاليهم وأولادهم في أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . فصار لهم فيها أفعال قبيحة ، وأمور منكرة شنيعة من التجاهر ببيع الخمر ، والتظاهر بالزنا واللياطة ، وحماية من يدخل اليها من أرباب الديون وأصحاب الجرائم وغيرهم ، فلا يقدر أحد — ولو جل — على أخذ من صار اليهم واحتمى بهم ... والسلطان يغضي عنهم ، لما يرى في ذلك من مراعاة المصلحة ، والسياسة التي اقتضاها الحال من مهادنة ملوك الفرنج .

وكان يسكن بالقرب منها الأمير الحاج آل ملك الجوكندار ، ويبلغه ما يفعله الفرنج من العظائم الشنيعة فلا يقدر على منعهم .

وفحش أمرهم ، فرفع الخبر الى السلطان ، وأكثر من شكاياتهم غير مرة ، والسلطان يتغافل عن ذلك ... الى أن كثرت مفاوضة الحاج آل ملك للسلطان في أمرهم ، فقال له السلطان : انتقل أنت عنهم ياأمير .

فلم يسعه الا الاعراض عن ذلك ، وعمر داره التي بالحسينية والاسطبل والجامع المعروف بآل ملك والحمام والفندق ، وانتقل من داره التي كان فيها بجوار خزانة البنود ،

وسكن بالحسينية الى أن مات السلطان الملك الناصر فى أخريات سنة احدى وأربعين وسبعمائة .

وتنقل الملك فى أولاده ... الى أن جلس الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وضرب شورى على من يكون نائب السلطنة بالديار المصرية يدبر أحوال المملكة — كما كانت العادة فى ذلك مدة الدولة التركية — فأشير بتولية الأمير بدر الدين جنكل بن البابا ، فتنصل من ذلك وأبى قبوله .

فعرضت النيابة على الأمير الحاج آل ملك ، فاستبشر وقال : لى شروط أشرطها على السلطان ، فان أجابنى اليها فعلت ما يرسم به ، وهى : ألا يفعل شىء فى المملكة الا برأيى ، وأن يمنع الناس من شرب الخمر ، ويقام منار الشرع ، ولا يعترض على أمر من الأمور ... فأجيب الى ما سأل .

وأحضرت التشاريف ، فأفيضت عليه بالجامع من قلعة الجبل فى يوم الجمعة الثانى عشر من المحرم سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، وأصبح يوم السبت جالسا فى دار النيابة من القلعة ، وحكم بين الناس .

وأول ما بدأ به أن أمر والى القاهرة بالنزول الى خزانة البنود ، وأن يحتاط على جميع ما فيها من الخمر والفواحش ، ويخرج الأسرى منها ، ويهدمها حتى يجعلها دكا ويسوى بها الأرض .

فنزل اليها ومعه الحاجب فى عدة وافرة ، وهجموا على من فيها وهم آمنون ، وأحاطوا بسائر ما تشتمل عليه — وقد اجتمع من العامة والغوغاء ما لا يقع عليه حصر — فأراقوا منها خمورا كثيرة تتجاوز الحد فى الكثرة ، وأخرج من كان فيها من النساء البغايا وغيرهن من الشباب وأرباب الفساد ، وقبض على الفرنج والأرمن ، وهدمها حتى لم يبق لها أثر .

ونودى فى الناس فحكروها ، وبنوا فيها الدور والطواحين على ما هى عليه الآن . وأمر بالأسرى فأنزلوا بالقرب من المشهد النفيسى بجوار كيمان مصر فهم هناك الى الآن ، وأنزل من كان منهم أيضا بقلعة الجبل فأسكنوا معهم .

وطهر الله تلك الأرض منهم ، وأراح العباد من شرهم . فانها كانت شر بقعة من بقاع الأرض ، يباع فيها لحم الخنزير على الوضم كما يباع لحم الضأن ، ويعصر فيها من الخمور فى كل سنة ما لا يستطيع أحد حصره ... حتى يقال انه كان يعصر بها فى كل سنة اثنان وثلاثون ألف جرة خمر ، ويباع فيها الخمر نحو اثنى عشر رطلا بدرهم ، الى غير ذلك من سائر أنواع الفسوق .

دار الفطرة

قال ابن الطوير : دار الفطرة خارج القصر بناها العزيز بالله ، وهو أول من بناها ، وقرر فيها ما يعمل مما يحمل الى الناس فى العيد . وهى قبالة باب الديلم من القصر الذى يدخل منه الى المشهد الحسينى .

ويكون مبدأ الاستعمال فيها ، وتحصل جميع أصنافها من السكر والعسل والقلوب والزعفران والطيب والدقيق ، لاستقبال النصف الثانى من شهر رجب كل سنة ليلا ونهارا ، من الخشكنانج والبسندود ، وأصناف الفانيذ الذى يقال له كعب * الغزال ، والبرماورد والفستق ، وهو شوابير مثال الصنج .

والمستخدمون يرفعون ذلك الى أماكن وسيعة مصونة ، فيحصل منه فى الحاصل شىء عظيم هائل بيد مائة صانع : للحلاويين مقدم ، وللخشكنانيين آخر . ثم يندب لها مائة فراش لحمل طيافير للتفرقة على أرباب الرسوم ، خارجا عمن هو مرتب لخدمتها من الفراشين الذين يحفظون رسومها ومواعينها الحاصلة بالدائم ، وعدتهم خمسة .

فيحضر اليها الخليفة والوزير معه ، ولا يصحبه فى غيرها من الخزائن لأنها خارج القصر وكلها للتفرقة . فيجلس على سريره بها ، ويجلس الوزير على كرسى ملبن على عادته فى النصف الثانى من شهر رمضان ، ويدخل معه قوم من الخواص ، ثم يشاهد ما فيها من تلك الحواصل المعمولة المعباة مثل الجبال من كل صنف ، فيفرقها من ربع قنطار الى عشرة أرطال الى رطل واحد وهو أقلها .

ثم ينصرف الخليفة والوزير بعد أن ينعم على مستخدميها بستين دينارا .

ثم يحضر الى حاميها ومشارفها الأدعية المعمولة المخرجة من دفتر المجلس ، كل دعو لتفريق فريق من خاص وغيره ، حتى لا يبقى أحد من أرباب الرسوم الا واسمه وارد فى دعو من تلك الأدعية .

ويندب صاحب الديوان الكتاب المسلمين فى الديوان ، فيسيرهم الى مستخدميها ، فيسلم كل كاتب دعوا أو دعوين أو ثلاثة ، على كثرة ما يحتويه وقلته ، ويؤمر بالتفرقة من ذلك اليوم .

فيقدمون أبدا مائتى طيفور من العالى والوسط والدون ، فيحملها الفراشون برقاع من كتاب الأدعية باسم صاحب ذلك الطيفور علا أو دنا ، وينزل اسم الفراش بالدعو أو عريفه حتى لا يضيع منها شىء ولا يختلط .

ولا يزال الفراشون يخرجون بالطيافير ملأى ويدخلون بها فارغة ، فبمقدار ماتحمل المائة الأولى عبيت المائة الثانية ، فلا يفتر ذلك طول التفرقة .

فأجل الطيافير ما عدد خشكنانه مائة حبة ، ثم الى سبعين وخمسين . ويكون على صاحب المائة طرحة فوق قوارته ، ثم الى خمسين ، ثم الى ثلاث وثلاثين ، ثم الى خمس وعشرين ، ثم الى عشرين . ونسبة منثور كل واحد على عدد خشكنانه .

ثم العبيد السودان بغير طيافير ، كل طائفة يتسلمه لها عرفاؤها فى افراد الخواص ، لكل طائفة على مقدارها الثلاثة الأفراد والخمسة والسبعة الى العشرة .

فلا يزالون كذلك الى أن ينقضى شهر رمضان ، ولا يفوت أحدا شىء من ذلك ، ويتهاداه الناس فى جميع الاقليم .

(*) ص ٤٢٥ ج ١ ط . بولاق .

قال : وما ينفق فى دار الفطرة ، فيما يفرق على الناس منها ، سبعة آلاف دينار .

وقال ابن عبد الظاهر : دار الفطرة بالقاهرة قبالة مشهد الامام الحسين عليه السلام ، وهى الفندق الذى بناه الأمير سيف الدين بهادر الآن فى سنة ست وخمسين وستمائة . أول من رتبها الامام العزيز بالله ، وهو أول من سنها .

وكانت الفطرة قبل أن ينتقل الأفضل الى مصر تعمل بالايوان وتفرق منه . وعندما تحول الى مصر نقل الدواوين من القصر اليها ، واستجد لها مكانا قبالة دار الملك بايوانى المكاتبات والانشاء ، فانهما كانا بقرب الدار ، ويتوصل اليهما من القاعة الكبرى التى فيها جلوسه .

ثم استجد للفطرة دارا عملت بعد ذلك وراقة ، وهى الآن دار الأمير عز الدين الأفرم بمصر قبالة دار الوكالة ، وعملت بها الفطرة مدة ، وفرق منها ... الا ما يخص الخليفة والجهات والسيدات والمستخدمات والأستاذين فانه كان يعمل بالايوان على العادة .

ولما توفى الأفضل ، وعادت الدواوين الى مواضعها ، أنهى خاصة الدولة ريحان — وكان يتولى بيت المال — أن المكان بالايوان يضيق بالفطرة ، فأمره المأمون أن يجمع المهندسين ، ويقطع قطعة من اسطبل الطارمة يبنيه دار الفطرة .

فأنشأ الدار المذكورة قبالة مشهد الحسين والباب الذى بمشهد الحسين يعرف بباب الديلم ، وصار يعمل بها ما استجد من رسوم المواليد والوقودات . وعقدت لها جملتان :

احداهما وجدت فسطرت ، وهى عشرة آلاف دينار ، خارجا عن جوارى المستخدمين .

والجملة الثانية فصلت فيها الأصناف . وشرحها : دقيق ألف حملة ، سكر سبعمائة قنطار ، قلب فستق ستة قناطير ، قلب لوز ثمانية قناطير ، قلب بندق أربعة قناطير ، تمر أربعمائة اردب ، زبيب ثلثمائة اردب ، خل ثلاثة قناطير ، عسل نحل خمسة عشر قنطارا ، شيرج مائتا قنطار ، حطب ألف ومائتا حملة ، سمسم اردبان ، آنيسون اردبان ، زيت طيب برسم الوقود ثلاثون قنطارا ، ماء ورد خمسون رطلا ، مسك خمس نوافج ، كافور قديم عشرة مثاقيل ، زعفران مطحون مائة وخمسون درهما .

ويد الوكيل برسم المواعين والبيض والسقائين وغير ذلك من المؤن ، على ما يحاسب به ، وبرفع المحازيم : خمسمائة دينار .

ووجدت بخط ابن ساكن قال : كان المرتب فى دار الفطرة ولها ما يذكر ، وهو : زيت طيب برسم القناديل خمسة عشر قنطارا ، مقاطع سكندرى برسم القوارات ثلثمائة مقطع ، طيافير جدد برسم السماط ثلثمائة طيفور ، شمع برسم السماط وتوديع الأمراء ثلاثون قنطارا ، أجرة الصناع ثلثمائة دينار ، جارى الحامى مائة وعشرون دينارا .

جارى العامل والمشارف مائة * وثمانون دينارا ، وشقة ديبقى بياض حريرى ، ومنديل ديبقى كبير حريرى ، وشقة سقلاطون أندلسى يلبسها قدام الفطرة يوم حملها ، ليفرق طيافير

(*) ص٤٢٦ ج١ ، ط. بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزي

الجزء
٢١



كتاب
التحرير

"كانت مصر هي مسقط رأسي، وملعب أترابي، ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامتي، وموطن خاصتي وعامتي، وجؤجؤي الذي ربي جناحي في وكره، وعش مأربي، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شذوت العلم، وآتاني ربي الفطانة والفهم، أرغب في معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

الفطرة على الأمراء وأرباب الرسومات وعلى طبقات الناس ، حتى يعم الكبير والصغير والضعيف والقوى .

ويبدأ بها من أول رجب الى آخر رمضان .

ذكر ما اختص من صفة الطيافير : الأعلى منها طيفور فيه مائة حبة خشكنانج وزنها مائة رطل ، وخمس عشرة قطعة حلاوة زنتها مائة رطل ، سكر سليمانى وغيره عشرة أرطال ، قلوبات ستة أرطال ، بسندود عشرون حبة ، كعك وزبيب وتمر قنطار ... جملة الطيفور ثلاثة قناطير وثلث الى ما دون ذلك ، على قدر الطبقات ، الى عشر حبات .

وقال ابن أبى طى : وعمل المعز لدين الله دارا سماها دار الفطرة . فكان يعمل فيها من الخشكنانج والحلواء والبسندود والفانيذ والكعك والتمر والبندق شىء كثير ، من أول رجب الى نصف رمضان ، فيفرق جميع ذلك فى جميع الناس ، الخاص والعام على قدر منازلهم ، فى أوان لا تستعاد . وكان قبل ليلة العيد يفرق على الأمراء الخيول بالمراكب الذهب والخلع النفيسة والطراز الذهب ، والثياب برسم النساء .

المشهد الحسينى

قال الفاضل محمد بن على بن يوسف بن ميسر : وفى شعبان سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، خرج الأفضل بن أمير الجيوش بعساكر جمة الى بيت المقدس ، وبه سكان وأبلغازى ابنا أرتق فى جماعة من أقاربهما ورجالهما وعساكر كثيرة من الأتراك ، فراسلهما الأفضل يلتمس منهما تسليم القدس اليه بغير حرب ، فلم يجيباه لذلك ، فقاتل البلد ، ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانبا ، فلم يجدا بدا من الاذعان له وسلماه اليه ، فخلع عليهما وأطلقهما .

وعاد فى عساكره وقد ملك القدس ، فدخل عسقلان ، وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، فأخرجه وعطره ، وحمله فى سفط الى أجل دار بها ، وعمر المشهد ، فلما تكامل حمل الأفضل الرأس الشريف على صدره ، وسعى به ماشيا الى أن أحله فى مقره . وقيل ان المشهد بعسقلان بناه أمير الجيوش بدر الجمالى ، وكمله ابنه الأفضل .

وكان حمل الرأس الى القاهرة من عسقلان ووصوله اليها فى يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . وكان الذى وصل بالرأس من عسقلان الأمير سيف المملكة تميم واليها كان ، والقاضى المؤتمن ابن مسكين مشارفها . وحصل فى القصر يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة المذكور .

ويذكر أن هذا الرأس الشريف لما أخرج من المشهد بعسقلان ، وجد دمه لم يجف ، وله ريح كريح المسك . فقدم به الأستاذ مكنون فى عشارى من عشاريات الخدمة ، وأنزل به الى الكافورى ، ثم حمل فى السرداب الى قصر الزمرذ ، ثم دفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة .

فكان كل من يدخل الخدمة يقبل الأرض أمام القبر . وكانوا ينحرون فى يوم عاشوراء

عند القبر الابل والبقر والغنم ، ويكثرون النوح والبكاء ، ويسبون من قتل الحسين . ولم يزالوا على ذلك حتى زالت دولتهم .

وقال ابن عبد الظاهر : مشهد الامام الحسين صلوات الله عليه قد ذكرنا أن طلائع ابن رزيك ، المنعوت بالصالح ، كان قد قصد نقل الرأس الشريف من عسقلان لما خاف عليها من الفرنج ، وبنى جامعه خارج باب زويلة ليدفنه به ويفوز بهذا الفخار . فغلبه أهل القصر على ذلك وقالوا : لا يكون ذلك الا عندنا ، فعمدوا الى هذا المكان ، وبنوه له ونقلوا الرخام اليه ، وذلك فى خلافة الفائز على يد طلائع فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

وسمعت من يحكى حكاية يستدل بها على بعض شرف هذا الرأس الكريم المبارك ، وهى أن السلطان الملك الناصر رحمه الله لما أخذ هذا القصر ، وشى اليه بخادم له قدر فى الدولة المصرية — وكان زمام القصر — وقيل انه يعرف الأموال التى بالقصر والدفائن ، فأخذ وسئل ، فلم يجب بشىء وتجاهل .

فأمر صلاح الدين نوابه بتعذيبه ، فأخذه متولى العقوبة ، وجعل على رأسه خنافس ، وشد عليها قرمزية — وقيل ان هذه أشد العقوبات ، وان الانسان لا يطيق الصبر عليها ساعة الا تنقب دماغه وتقتله — ففعل ذلك به مرارا وهو لا يتأوه ، وتوجد الخنافس ميتة .

فعجب من ذلك وأحضره ، وقال : هذا سر فيك ، ولا بد أن تعرفنى به .

فقال : والله ما سبب هذا الا أنى لما وصلت رأس الامام الحسين حملتها .

قال : وأى سر أعظم من هذا ! وراجع فى شأنه ، فعفا عنه .

ولما ملك السلطان الملك الناصر جعل به حلقة تدريس وفقهاء ، وفوضها للفقيه البهاء الدمشقى ، وكان يجلس للتدريس عند المحراب الذى الضريح خلفه . فلما وزر معين الدين حسين بن شيخ * الشيوخ بن حمويه ، وورد اليه أمر هذا المشهد بعد اخوته ، جمع من أوقافه ما بنى به ايوان التدريس الآن وبيوت الفقهاء العلوية خاصة .

واحترق هذا المشهد فى الأيام الصالحية فى سنة بضع وأربعين وستمائة ، وكان الأمير جمال الدين بن يغمور نائبا عن الملك الصالح فى القاهرة . وسببه أن أحد خزان الشمع دخل ليأخذ شيئا فسقطت منه شعلة ، فوقف الأمير جمال الدين المذكور بنفسه حتى طفىء .

وأنشدته حينئذ فقلت :

قالوا تعصب للحسين ولم يزل
بالنفس للهول المخوف معرضا

حتى انضوى ضوء الحريق وأصبح الـ
ـمسود من تلك المخاوف أبيضا

أرضى الاله بما أتى فكأنه
بين الأنام بفعله موسى الرضا

قال : ولحفظة الآثار وأصحاب الحديث ونقلة الأخبار ما اذا طولع وقف منه على

(*) ص٤٢٧ جـ١ ، ط بولاق .

المسطور ، وعلم منه ما هو غير المشهور . وانما هذه البركات مشاهدة مرئية ، وهى بصحة الدعوى ملية ، والعمل بالنية .

وقال فى كتاب « الدر النظيم فى أوصاف القاضى الفاضل عبد الرحيم » : ومن جملة مبانيه الميضأة قرب مشهد الامام الحسين بالقاهرة والمسجد والساقية ، ووقف عليها أراضى قرب الخندق ظاهر القاهرة . ووقفها دار جار ، والانتفاع بهذه المثوبة عظيم . ولما هدم المكان الذى بنى موضعه مئذنة ، وجد فيه شىء من طلسم لم يعلم لأى شىء هو ، فيه اسم الظاهر بن الحاكم واسم أمه رصد .

« خبر الحسين » : هو الحسين بن على بن أبى طالب — واسمه عبد مناف — بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ، أبو عبد الله ، وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولد لخمس خلون من شعبان سنة أربع ، وقيل سنة ثلاث ، وعق عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم سابعه بكبش ، وحلق رأسه وأمر أن يتصدق بزنته فضة ، وقال : « أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟ » .

فقال على بن أبى طالب : حربا .

فقال : « بل هو حسين » .

وكان أشبه الناس بالنبى صلى الله عليه وسلم ما كان أسفل من صدره ، وكان فاضلا دينا ، كثير الصوم والصلاة والحج .

وقتل يوم الجمعة ، لعشر خلون من المحرم يوم عاشوراء سنة احدى وستين من الهجرة ، بموضع يقال له « كربلاء » من أرض العراق بناحية الكوفة ، ويعرف الموضع أيضا بالطف ... قتله سنان بن أنس اليحصبى ، وقيل قتله رجل من مذحج ، وقيل قتله شمر بن ذى الجوشن وكان أبرص ، وأجهز عليه خولى بن يزيد الأصبحى من حمير ... حز رأسه وأتى عبيد الله بن زياد وقال :

أوقر ركابى فضة وذهبا
انى قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا
وخيرهم اذ ينسبون نسبا

وقيل قتله عمرو بن سعد بن أبى وقاص ، وكان الأمير على الخيل التى أخرجها عبيد الله ابن زياد الى قتل الحسين ، وأمر عليهم عمرو ابن سعد ، ووعده أن يوليه الرى ان ظفر بالحسين وقتله .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم نصف النهار ، وهو قائم أشعث أغبر بيده قارورة فيها دم ، فقلت : بأبى أنت وأمى ما هذا ؟ قال : « هذا دم الحسين لم أزل ألتقطه منذ اليوم » . فوجدته قد قتل فى ذلك اليوم .

وهذا البيت زعموا قديما لا يدرى قائله :

أترجو أمة قتلت حسينا
شفاعة جده يوم الحساب !!

وقتل مع الحسين سبعة عشر رجلا ، كلهم من ولد فاطمة ، وقيل قتل معه من أهل بيته واخوته ثلاثة وعشرون رجلا .

وكان سبب قتله أنه لما مات معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فى سنة ستين ، وردت بيعة اليزيد على الوليد بن عقبة بالمدينة ليأخذ البيعة على أهلها . فأرسل الى الحسين بن على والى عبد الله بن الزبير ليلا ، فأتى بهما فقال : بايعا .

فقالا : مثلنا لا يبايع سرا ، ولكنا نبايع على رؤوس الناس اذا أصبحنا .

فرجعا الى بيوتهما وخرجا من ليلهما الى مكة ، وذلك ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب . فأقام الحسين بمكة شعبان ورمضان وشوالا وذا القعدة ، وخرج يوم التروية يريد الكوفة بكتب أهل العراق اليه .

فلما بلغ عبيد الله بن زياد مسير الحسين من مكة ، بعث الحصين بن تميم التيمى صاحب شرطته ، فنزل القادسية ونظم الخيل ما بينها وبين جبل لعلع . فبلغ الحسين الحاجز له عن البلاد ، فكتب الى أهل الكوفة يعرفهم بقدومه مع قيس بن مسهر ، فظفر به الحصين ، وبعث به الى ابن زياد فقتله .

وأقبل الحسين يسير نحو الكوفة ، فأتاه خبر قتل مسلم بن عقيل وخبر قتل أخيه من الرضاعة ، فقام حتى أعلم الناس بذلك ، وقال : قد خذلنا شيعتنا ، فمن أحب أن ينصرف فلينصرف ، فليس عليه ذمام منا .

فتفرقوا حتى بقى فى أصحابه الذين جاءوا معه من مكة ، وسار فأدركه الخيل ، وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمى ، ونزل الحسين فوقفوا تجاهه وذلك فى نحر الظهيرة ، فسقى الحسين الخيل .

وحضرت صلاة الظهر فأذن مؤذنه ، وخرج فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس انها معذرة الى الله واليكم ، انى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم : أن أقدم علينا فليس لنا امام لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى . وقد جئتكم فان تعطونى ما أطمئن اليه من عهودكم أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا وكنتم لمقدمى كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذى أقبلت منه ... فسكتوا .

وقال للمؤذن : أقم . فأقام .

وقال الحسين للحر : أتريد أن تصلى أنت بأصحابك ؟

قال : بل صل أنت ونصلى بصلاتك .

فصلى بهم ، ودخل فاجتمع اليه أصحابه ، وانصرف الحر الى مكانه .

ثم صلى بهم العصر ، واستقبلهم فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : ياأيها الناس انكم ان تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله . ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ، السائرين فيكم بالجور والعدوان . فان أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا ، وكان رأيكم غير ما أتتنى به كتبكم ، انصرفت عنكم .

فقال الحر : انا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسل التى تذكر .

فأخرج خرجين مملوءين صحفا فنشرها بين أيديهم .

فقال الحر : انا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك ، وقد أمرنا اذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد .

(*) ص٤٢٨ جـ١ ، ط. بولاق .

فقال الحسين : الموت أدنى اليك من ذلك .

ثم أمر أصحابه لينصرفوا فركبوا ، فمنعهم الحر من ذلك ، فقال له الحسين : ثكلتك أمك ، ما تريد ؟

فقال له : والله لو كان غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائنا من كان . والله ما لى الى ذكر أمك من سبيل الا بأحسن ما تقدر عليه .

فقال له الحسين : ما تريد ؟

قال : أريد أن أنطلق بك الى ابن زياد .

وتراد الكلام ، فقال له الحر : انى لم أومر بقتالك ، وانما أمرت ألا أفارقك حتى أدخلك الكوفة ، فخذ طريقا لا تدخلك الكوفة ولا تزول الى المدينة حتى أكتب الى ابن زياد ، وتكتب أنت الى يزيد أو الى ابن زياد ، فلعل الله أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشىء من أمرك .

فتياسر عن طريق العذيب والقادسية ، والحر يسايره .

فلما كان يوم الجمعة الثالث من المحرم سنة احدى وستين ، قدم عمرو بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف ، وبعث الى الحسين رسولا يسأله : ما الذى جاء به ؟

فقال : كتب الى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم ، فاذا كرهونى فأنا أنصرف عنهم .

فكتب عمرو الى ابن زياد يعرفه ذلك . فكتب اليه أن يعرض على الحسين بيعة يزيد ، فان فعل رأينا فيه رأينا ، والا تمنعه ومن معه الماء .

فأرسل عمرو بن سعد خمسمائة فارس ، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء ، وذلك قبل قتله بثلاثة أيام ، ونادى مناد : ياحسين ألا تنظر الماء ، لا ترى منه قطرة حتى تموت عطشا !

ثم التقى الحسين بعمرو بن سعد مرارا .

فكتب عمرو بن سعد الى عبيد الله بن زياد : أما بعد ، فان الله قد أطفأ الثائرة وجمع الكلمة . وقد أعطانى الحسين أن يرجع الى المكان الذى أتى منه ، أو أن تسيره الى أى ثغر من الثغور شاء ، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده فى يده وفى هذا لكم رضى وللأمة صلاح .

فقال ابن زياد لشمر بن ذى الجوشن : اخرج بهذا الكتاب الى عمرو ، فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمى ، فان فعلوا فليبعث بهم ، وان أبوا فليقاتلهم . فان فعل فاسمع له وأطع ، وان أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس ، واضرب عنقه وابعث الى برأسه .

وكتب الى عمرو بن سعد : أما بعد ، فانى لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاوله ولا لتقعد له عندى شافعا . انظر فان نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا ، فابعث بهم الى سلما ، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون ، فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره ، فانه عاق شاق قاطع ظلوم . فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا ، وخل بين شمر وبين العسكر . والسلام .

فلما أتاه الكتاب ركب والناس معه بعد العصر ، فأرسل اليهم الحسين : ما لكم ؟

فقالوا : جاء أمر الأمير بكذا .

فاستمهلهم الى غدوة .

فلما أمسوا قام الحسين ومن معه الليل كله يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون . فلما صلى عمرو بن سعد الغداة يوم السبت — وقيل يوم الجمعة يوم عاشوراء — خرج فيمن معه . وعبى الحسين أصحابه ، وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا ، وركب ومعه مصحف بين يديه وضعه أمامه ، واقتتل أصحابه بين يديه .

وأخذ عمرو بن سعد سهما فرمى به وقال : اشهدوا انى أول من رمى الناس . وحمل أصحابه فصرعوا رجالا ، وأحاطوا بالحسين من كل جانب ، وهم يقاتلون قتالا شديدا حتى انتصف النهار ، ولا يقدرون يأتونهم الا من وجه واحد . وحمل شمر حتى بلغ فسطاط الحسين .

وحضر وقت الصلاة فسأل الحسين أن يكفوا عن القتال حتى يصلى ، ففعلوا . ثم اقتتلوا بعد الظهر أشد قتال ، ووصل الى الحسين وقد صرعت أصحابه ، ومكث طويلا * من النهار كلما انتهى اليه رجل من الناس رجع عنه وكره أن يتولى قتله .

فأقبل عليه رجل من كندة يقال له مالك ، فضربه على رأسه بالسيف قطع البرنس وأدماه ، فأخذ الحسين دمه بيده فصبه فى الأرض ، ثم قال : اللهم ان كنت حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير ، وانتقم من هؤلاء الظالمين .

واشتد عطشه فدنا ليشرب ، فرماه حصين ابن تميم بسهم فوقع فى فمه ، فتلقى الدم بيده ورمى به الى السماء ، ثم قال بعد حمد الله والثناء عليه : اللهم انى أشكو اليك ما يصنع بابن بنت نبيك . اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدا .

فأقبل شمر فى نحو عشرة الى منزل الحسين ، وحالوا بينه وبين رحله ، وأقدم عليه وهو يحمل عليهم وقد بقى فى ثلاثة ، ومكث طويلا من النهار ، ولو شاءوا أن يقتلوه لقتلوه ، ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء .

فنادى شمر فى الناس : ويحكم ما تنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم أمكم .

فحملوا عليه من كل جانب ، فضرب زرعة ابن شريك التميمى كفه الأيسر ، وضرب عاتقه وهو يقوم ويكبو . فحمل عليه فى تلك الحال سنان بن أنس النخعى فطعنه بالرمح فوقع ، وقال لخولى بن يزيد الأصبحى : احتز رأسه . فأرعد وضعف .

فنزل عليه وذبحه ، وأخذ رأسه فدفعه الى خولى ، وسلب الحسين ما كان عليه حتى سراويله ، ومال الناس فانتهبوا ثقله ومتاعه وما على النساء . ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وأربعون ضربة .

ونادى عمرو بن سعد فى أصحابه : من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه ؟ فانتدب عشرة

(*) ص٢٩٠ جـ١ ، ط. بولاق .

فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره .

وكان عدة من قتل معه اثنين وسبعين رجلا ، ومن أصحاب عمرو بن سعد ثمانية وثمانين رجلا غير الجرحى .

ودفن أهل العاضرية من بنى أسد الحسين بعد قتله بيوم ، وبعد أن أخذ عمرو بن سعد رأسه ورؤوس أصحابه ، وبعث بها الى ابن زياد ، فأحضر الرؤوس بين يديه ، وجعل ينكث بقضيب ثنايا الحسين وزيد بن أرقم حاضر .

وأقام ابن سعد بعد قتل الحسين يومين ، ثم رحل الى الكوفة ومعه ثياب الحسين واخوانه ومن كان معه من الصبيان ، وعلى ابن الحسين مريض ، فأدخلهم على زياد .

ولما مرت زينب بالحسين صريعا صاحت : يامحمداه هذا حسين بالعراء مزمل بالدماء مقطع الأعضاء ، يامحمد بناتك سبايا وذريتك مقتلة ! فأبكت كل عدو وصديق .

وطيف برأسه بالكوفة على خشبة ، ثم أرسل بها الى يزيد بن معاوية ، وأرسل النساء والصبيان وفى عنق على بن الحسين ويديه الغل ، وحملوا على الأقتاب .

فدخل بعض بنى أمية على يزيد ، فقال : أبشر ياأمير المؤمنين ، فقد أمكنك الله من عدو الله وعدوك ، قد قتل ووجه برأسه اليك .

فلم يلبث الا أياما حتى جىء برأس الحسين ، فوضع بين يدى يزيد فى طشت ، فأمر الغلام فرفع الثوب الذى كان عليه ، فحين رآه خمر وجهه بكمه كأنه شم منه رائحة ، وقال : الحمد لله الذى كفانا المؤنة بغير مؤنة . « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » .

قالت ريا حاضنة يزيد : فدنوت منه فنظرت اليه وبه ردغ من حناء . والذى أذهب نفسه ، وهو قادر على أن يغفر له ، لقد رأيته يقرع ثناياه بقضيب فى يده ، ويقول أبياتا من شعر ابن الزبعرى .

ومكث الرأس مصلوبا بدمشق ثلاثة أيام ثم أنزل فى خزائن السلاح ... حتى ولى سليمان بن عبد الملك فبعث اليه ، فجىء به وقد محل وبقى عظما أبيض ، فجعله فى سفط وطيبه ، وجعل عليه ثوبا ، ودفنه فى مقابر المسلمين .

فلما ولى عمر بن عبد العزيز ، بعث الى خازن بيت السلاح : أن وجه الى برأس الحسين بن على . فكتب اليه أن سليمان أخذه وجعله فى سفط ، وصلى عليه ودفنه .

فلما دخلت المسودة سألوا عن موضع الرأس الكريمة الشريفة ، فنبشوه وأخذوه . والله أعلم ما صنع به .

وقال السرى : لما قتل الحسين بن على بكت السماء عليه ، وبكاؤها حمرتها .

وعن عطاء فى قوله تعالى « فما بكت عليهم السماء والأرض » قال : بكاؤها حمرة أطرافها .

وعن على بن مسهر ، قال : حدثتنى جدتى قالت : كنت أيام الحسين جارية شابة ، فكانت السماء أياما كأنها علقة .

وعن الزهرى : بلغنى أنه لم يقلب حجر من أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين الا وجد تحته دم عبيط .

ويقال ان الدنيا أظلمت يوم قتل ثلاثا ، ولم يمس أحد من زعفرانهم شيئا فجعله على وجهه الا احترق . وانهم أصابوا ابلا فى عسكر الحسين يوم قتل ، فنحروها وطبخوها فصارت مثل العلقم ، فما استطاعوا أن يسيغوا منها شيئا .

وروى أن السماء أمطرت دما ، فأصبح كل شىء لهم ملآن دما .

ما كان يعمل فى يوم عاشوراء

قال ابن زولاق فى كتاب « سيرة المعز لدين الله » : فى يوم عاشوراء سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم الى المشهدين قبر كلثوم ونفيسة ، ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالتهم ، بالنياحة والبكاء على الحسين عليه السلام ، وكسروا أوانى السقائين فى الأسواق ، وشققوا الروايا ، وسبوا من ينفق فى هذا * اليوم ، ونزلوا حتى بلغوا مسجد الريح ، وثارت عليهم جماعة من رعية أسفل .

فخرج أبو محمد الحسين بن عمار — وكان يسكن هناك فى دار محمد بن أبى بكر — وأغلق الدرب ومنع الفريقين ، ورجع الجميع فحسن موقع ذلك عند المعز . ولولا ذلك لعظمت الفتنة ، لأن الناس قد غلقوا الدكاكين وأبواب الدور ، وعطلوا الأسواق .

(*) ص ٤٣٠ جـ١ ، طـ بولاق .

وانما قويت أنفس الشيعة بكون المعز بمصر ، وقد كانت مصر لا تخلو منهم فى أيام الاخشيدية والكافورية فى يوم عاشوراء عند قبر كلثوم وقبر نفيسة . وكان السودان وكافور يتعصبون على الشيعة ، وتتعلق السودان فى الطرقات بالناس ويقولون للرجل : من خالك ؟ فان قال معاوية أكرموه ، وان سكت لقى المكروه ، وأخذت ثيابه وما معه ... حتى كان كافور قد وكل بالصحراء ، ومنع الناس من الخروج .

وقال المسيحى : وفى يوم عاشوراء (يعنى من سنة ست وتسعين وثلثمائة) جرى الأمر فيه على ما يجرى كل سنة من تعطيل الأسواق ، وخروج المنشدين الى جامع القاهرة ، ونزولهم مجتمعين بالنوح والنشيد .

ثم جمع بعد هذا اليوم قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان سائر المنشدين الذين يتكسبون بالنوح والنشيد ، وقال لهم : لا تلزموا الناس أخذ شىء منهم اذا وقفتم على حوانيتهم ، ولا تؤذوهم ، ولا تتكسبوا بالنوح والنشيد ، ومن أراد ذلك فعليه بالصحراء .

ثم اجتمع بعد ذلك طائفة منهم يوم الجمعة فى الجامع العتيق بعد الصلاة وأنشدوا ، وخرجوا على الشارع بجمعهم وسبوا السلف . فقبضوا على رجل ، ونودى عليه : هذا جزاء من سب عائشة وزوجها صلى الله عليه وسلم . وقدم الرجل بعد النداء وضرب عنقه .

وقال ابن المأمون : وفى يوم عاشوراء (يعنى من سنة خمس عشرة وخمسمائة) عبى

السماط بمجلس العطايا من دار الملك بمصر التى كان يسكنها الأفضل بن أمير الجيوش . وهو السماط المختص بعاشوراء ، وهو يعبى فى غير المكان الجارى به العادة فى الأعياد ، ولا يعمل مدورة خشب ، بل سفرة كبيرة من أدم ، والسماط يعلوها من غير مرافع نحاس ، وجميع الزبادى أجبان وسلائط ومخللات وجميع الخبز من شعير .

وخرج الأفضل من باب فرد الكم ، وجلس على بساط صوف من غير مشورة ، واستفتح المقرئون ، واستدعى الأشراف على طبقاتهم ، وحمل السماط لهم . وقد عمل فى الصحن الأول الذى بين يدى الأفضل الى آخر السماط عدس أسود ، ثم بعده عدس مصفى الى آخر السماط ، ثم رفع وقدمت صحون جميعها عسل نحل .

ولما كان يوم عاشوراء من سنة ست عشرة وخمسمائة ، جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على باب الباذهنج (يعنى من القصر) بعد قتل الأفضل وعود الأسمطة الى القصر ، على كرسى جريد بغير مخدة ، متلثما هو وجميع حاشيته ، فسلم عليه الوزير المأمون وجميع الأمراء الكبار والصغار بالقراميز ، وأذن للقاضى والداعى والأشراف والأمراء بالسلام عليه ، وهم بغير مناديل ملثمون حفاة .

وعبى السماط فى غير موضعه المعتاد ، وجميع ما عليه خبز الشعير والحواضر على ما كان فى الأيام الأفضلية . وتقدم الى والى مصر والقاهرة بألا يمكنا أحدا من جمع ولا قراءة مصرع الحسين . وخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء الخاص والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم .

قال : وفى ليلة عاشوراء من سنة سبع عشرة وخمسمائة ، اعتمد الأجل الوزير المأمون على السنة الأفضلية من المضى فيها الى التربة الجيوشية ، وحضور جميع المتصدرين والوعاظ وقراء القرآن الى آخر الليل ، وعوده الى داره . واعتمد فى صبيحة الليلة المذكورة مثل ذلك ، وجلس الخليفة على الأرض متلثما يرى به الحزن ، وحضر من شرف بالسلام عليه والجلوس على السماط بما جرت به العادة .

قال ابن الطوير : اذا كان اليوم العاشر من المحرم احتجب الخليفة عن الناس ، فاذا علا النهار ركب قاضى القضاة والشهود وقد غيروا زيهم فيكونون كما هم اليوم ، ثم صاروا الى المشهد الحسينى — وكان قبل ذلك يعمل فى الجامع الأزهر — فاذا جلسوا فيه ومن معهم من قراء الحضرة والمتصدرين فى الجوامع ، جاء الوزير فجلس صدرا ، والقاضى والداعى من جانبيه ، والقراء يقرأون نوبة بنوبة ، وينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة شعرا يرثون به أهل البيت عليهم السلام . فان كان الوزير رافضيا تغالوا ، وان كان سنيا اقتصدوا .

ولا يزالون كذلك الى أن تمضى ثلاث ساعات ، فيستدعون الى القصر بنقباء الرسائل ، فيركب الوزير وهو بمنديل صغير الى داره ، ويدخل قاضى القضاة والداعى ومن معهما الى باب الذهب ، فيجدون

الدهاليز قد فرشت مصاطبها بالحصر بدل البسط ، وتنصب فى الأماكن الخالية من المصاطب دكك لتلحق بالمصاطب لتفرش ، ويجدون صاحب الباب جالسا هناك . فيجلس القاضى والداعى الى جانبه ، والناس على اختلاف طبقاتهم ، فيقرأ القراء وتنشد الشعراء أيضا .

ثم يفرش عليها سماط الحزن مقدار ألف زبدية من العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان الساذجة والأعسال النحل والفطير والخبز المغير لونه بالقصد . فاذا قرب الظهر وقف صاحب الباب وصاحب المائدة ، وأدخل * الناس للأكل منه . فيدخل القاضى والداعى ، ويجلس صاحب الباب نيابة عن الوزير ، والمذكوران الى جانبه ، وفى الناس من لا يدخل ، ولا يلزم أحد بذلك .

فاذا فرغ القوم انفصلوا الى أماكنهم ركبانا بذلك الزى الذى ظهروا فيه ، وطاف النواح بالقاهرة ذلك اليوم ، وأغلق البياعون حوانيتهم الى جواز العصر ، فيفتح الناس بعد ذلك ويتصرفون .

ذكر أبواب القصر الكبير الشرقى

وكان لهذا القصر الكبير الشرقى تسعة أبواب : أكبرها وأجلها باب الذهب ، ثم باب البحر ، ثم باب الريح ، ثم باب الزمرذ ، ثم باب العيد ، ثم باب قصر الشوك ، ثم باب الديلم ، ثم باب تربة الزعفران ، ثم باب الزهومة .

باب الذهب : وهو باب القصر الذى تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة ، فى يومى الاثنين والخميس ، للموكب المقدم ذكره بقاعة الذهب .

قال ابن أبى طيىء عن المعز لدين الله : انه لما خرج من بلاد المغرب أخرج أموالا كانت له ببلاد المغرب ، وأمر بسبكها أرحية كأرحية الطواحين ، وأمر بها حين دخل الى مصر فألقيت على باب قصره ، وهى التى كان الناس يسمونها الخشرات .

ولم تزل على باب القصر الى أن كان زمن الغلاء فى أيام الخليفة المستنصر بالله . فلما ضاق بالناس الأمر ، أذن لهم أن يبردوا منها ببارد ، فاتخذ الناس مبارد حادة ، وغرهم الطمع حتى ذهبوا بأكثرها ، فأمر بحمل الباقى الى القصر فلم تر بعد ذلك .

وقال ابن ميسر : ان المعز لما قدم الى القاهرة كان معه مائة جمل عليها الطواحين من الذهب . وقال غيره : كانت خمسمائة جمل على كل جمل ثلاثة أرحية ذهبا ، وانه عمل عضادتى الباب من تلك الأرحية ، واحدة فوق أخرى ، فسمى باب الذهب .

جلوس الخليفة فى الموالد بالمنظرة علو باب الذهب : قال ابن المأمون فى أخبار سنة ست عشرة وخمسمائة : وفى الثانى عشر من المحرم كان المولد الآمرى ، واتفق كونه فى هذا الشهر يوم الخميس ، وكان قد تقرر أن يعمل أربعون صينية خشكنانج وحلوى وكعك ، وأطلق برسم المشاهد المحتوية على الضرائح الشريفة لكل مشهد سكر وعسل ولوز ودقيق وشيرج .

وتقدم بأن يعمل خمسمائة رطل حلوى ، وتفرق على المتصدرين والقراء والفقراء : للمتصدرين ومن معهم فى صحون ، وللفقراء على أرغفة السميذ .

ثم حضر فى الليلة المذكورة القاضى والداعى والشهود ، وجميع المتصدرين وقراء الحضرة ، وفتحت الطاقات التى قبلى باب الذهب ، وجلس الخليفة وسلموا عليه .

ثم خرج متولى بيت المال بصندوق مختوم ، ضمنه عينا مائة دينار وألف وثمانمائة وعشرون درهما برسم أهل القرافة وساكنيها وغيرهم .

وفرقت الصوانى بعد ما حمل منها للخاص ، وزمام القصر ، ومتولى الدفتر خاصة ، والى دار الوزارة ، والأجلاء الأخوة والأولاد ، وكاتب الدست ، ومتولى حجبة الباب ، والقاضى ، والداعى ، ومفتى الدولة ، ومتولى دار العلم ، والمقرئين الخاص ، وأئمة الجوامع بالقاهرة ومصر وبقية الأشراف .

قال : وخرج الأمر (يعنى فى سنة سبع عشرة وخمسمائة) باطلاق ما يخص المولد الآمرى برسم المشاهد الشريفة من سكر وعسل وشيرج ودقيق ، وما يصنع مما يفرق على المساكين بالجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وبالقرافة خمسة قناطير حلوى وألف رطل دقيق ، وما يعمل بدار الفطرة ويحمل للأعيان والمستخدمين من بعد القصور والدار المأمونية صينية خشكنانج .

وحضر القاضى والداعى والمستخدمون بدار العيد والشهود فى عشية اليوم المذكور ، وقطع سلوك الطريق بين القصرين ، وجلس الخليفة فى المنظرة ، وقبلوا الأرض بين يديه ، والمقرئون الخاص جميعهم يقرأون القرآن ، وتقدم الخطيب وخطب خطبة وسع القول فيها ، وذكر الخليفة والوزير ، ثم حضر من أنشد وذكر فضيلة الشهر والمولود فيه . ثم خرج متولى بيت المال ومعه صندوق من مال النجاوى خاصة ، مما يفرق على الحكم المتقدم ذكره .

قال : واستهل ربيع الأول . ونبدأ بما شرف به الشهر المذكور ، وهو ذكر مولد سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم لثلاث عشرة منه ، وأطلق ما هو برسم الصدقات من مال النجاوى خاصة ستة آلاف درهم ، ومن الأصناف من دار الفطرة أربعون صينية فطرة ، ومن الخزائن برسم المتولين والسدنة للمشاهد الشريفة التى بين الجبل والقرافة التى فيها أعضاء آل رسول الله صلى الله عليه وسلم سكر ولوز وعسل وشيرج لكل مشهد ، وما يتولى تفرقته سنا الملك بن ميسر أربعمائة رطل حلاوة وألف رطل خبز .

قال : وكان الأفضل بن أمير الجيوش قد أبطل أمر الموالد الأربعة : النبوى ، والعلوى ، والفاطمى ، والامام الحاضر وما يهتم به ، وقدم العهد به حتى نسى * ذكرها ، فأخذ الأستاذون يجددون ذكرها للخليفة الآمر بأحكام الله ، ويرددون الحديث معه فيها ، ويحسنون له معارضة الوزير بسببها واعادتها

(*) ص ٤٣٦ جـ ١ ، ط بولاق .

(*) ص ٤٣٢ جـ ١ ، ط ، بولاق .

واقامة الجوارى والرسوم فيها . فأجاب الى ذلك ، وعمل ما ذكر .

وقال ابن الطوير : ذكر جلوس الخليفة فى الموالد الستة فى تواريخ مختلفة ، وما يطلق فيها — وهى : مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومولد فاطمة عليها السلام ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين عليهما السلام ، ومولد الخليفة الحاضر — ويكون هذا الجلوس فى المنظرة التى هى أنزل المناظر ، وأقرب الى الأرض ، قبالة دار فخر الدين جهاركس والفندق المستجد .

فاذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول ، تقدم بأن يعمل فى دار الفطرة عشرون قنطارا من السكر اليابس حلواء يابسة من طرائفها ، وتعبى فى ثلثمائة صينية من النحاس — وهو مولد النبى صلى الله عليه وسلم — فتفرق تلك الصوانى فى أرباب الرسوم من أرباب الرتب ، وكل صينية فى قوارة ، من أول النهار الى ظهره .

فأول أرباب الرسوم قاضى القضاة ، ثم داعى الدعاة ، ويدخل فى ذلك القراء بالحضرة ، والخطباء والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة وقومة المشاهد . ولا يخرج ذلك مما يتعلق بهذا الجانب بدعو يخرج من دفتر المجلس كما قدمناه .

فاذا صلى الظهر ركب قاضى القضاة والشهود بأجمعهم الى الجامع الأزهر ، ومعهم أرباب تفرقة الصوانى ، فيجلسون مقدار قراءة الختمة الكريمة .

ثم يستدعى قاضى القضاة ومن معه ، فان كانت الدعوة مضافة اليه والا حضر الداعى معه بنقباء الرسائل ، فيركبون ويسيرون الى أن يصلوا الى آخر المضيق من السيوفيين ، قبل الابتداء بالسلوك بين القصرين ، فيقفوا هناك . وقد سلكت الطريق على السالكين من الركن المخلق ومن سويقة أمير الجيوش عند الحوض هناك ، وكنست الطريق فيما بين ذلك ، ورشت بالماء رشا خفيفا ، وفرش تحت المنظرة المذكورة بالرمل الأصفر .

ثم يستدعى صاحب الباب من دار الوزارة ، ووالى القاهرة ماض وعائد لحفظ ذلك اليوم من الازدحام على نظر الخليفة . فيكون بروز صاحب الباب من الركن المخلق ، هو وقت استدعاء القاضى ومن معه من مكان وقوفهم ، فيقربون من المنظرة ، ويترجلون قبل الوصول اليها بخطوات ، فيجتمعون تحت المنظرة دون الساعة الزمانية بسمت وتشوف لانتظار الخليفة .

فتفتح احدى الطاقات فيظهر منها وجهه وما عليه من المنديل ، وعلى رأسه عدة من الأستاذين المحنكين وغيرهم من الخواص منهم . ويفتح بعض الأستاذين طاقة ، ويخرج منها رأسه ويده اليمنى فى كمه ، ويشير به قائلا : أمير المؤمنين يرد عليكم السلام ، فيسلم بقاضى القضاة أولا بنعوته ، وبصاحب الباب بعده كذلك ، وبالجماعة الباقية جملة جملة من غير تعين أحد .

فيستفتح قراء الحضرة بالقراءة ، ويكونون قياما فى الصدر وجوهم للحاضرين ،

وظهورهم الى حائط المنظرة . فيقدم خطيب الجامع الأنور — المعروف بجامع الحاكم — فيخطب كما يخطب فوق المنبر الى أن يصل الى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : وان هذا يوم مولده الى ما من الله به على ملة الاسلام من رسالته ، ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ، ثم يؤخر . ويقدم خطيب الجامع الأزهر ، فيخطب كذلك ، ثم خطيب الجامع الأقمر فيخطب كذلك . والقراء فى خلال خطابة الخطباء يقرأون .

فاذا انتهت خطابة الخطباء ، أخرج الأستاذ رأسه ويده فى كمه من طاقته ، ورد على الجماعة السلام ، ثم تغلق الطاقتان فتنفض الناس . ويجرى أمر الموالد الخمسة الباقية على هذا النظام الى حين فراغها على عدتها من غير زيادة ولا نقص ... انتهى .

وهذا الباب صار بعد زوال الدولة الفاطمية يقابل دار الأمير فخر الدين جهاركس الصلاحى ، التى عرفت بعد ذلك بالدار القطبية ، وهى الآن المارستان المنصورى ، وصار موضع هذا الباب محراب مدرسة الظاهر ركن الدين بيبرس .

باب البحر : هو من انشاء الحاكم بأمر الله أبى على منصور ، وهدم فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وشوهد فيه أمر عجيب .

قال جامع السيرة الظاهرية : لما كان يوم عاشوراء (يعنى من سنة اثنتين وسبعين وستمائة) رسم بنقض علو أحد أبواب القصر المسمى بباب البحر ، قبالة المدرسة دار الحديث الكاملية ، لأجل نقل عمد فيه لبعض العمائر السلطانية ، فظهر صندوق فى حائط عليه .

فللوقت أحضرت الشهود وجماعة كثيرة ، وفتح الصندوق ، فوجد فيه صورة من نحاس أصفر مفرغ ، على كرسى شبه الهرم ارتفاعه قدر شبر ، له أربعة أرجل تحمل الكرسى ، والصنم جالس متوركا ، وله يدان مرفوعتان ارتفاعا جيدا ، يحمل صحيفة دورها قدر ثلاثة أشبار .

وفى هذه الصحيفة أشكال ثابتة ، وفى الوسط صورة رأس بغير جسد ، ودائره مكتوب كتابة بالقبطى وبالقلفطيريات ، والى جانبها فى الصحيفة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة ، والى الجانب الآخر * شكل آخر وعلى رأسه صليب ، والآخر فى يده عكاز وعلى رأسه صليب ، وتحت أرجلهم أشكال طيور ، وفوق رؤوس الأشكال كتابة .

ووجد مع هذا الصنم فى الصندوق لوح من ألواح الصبيان التى يكتبون فيها بالمكاتب ، مدهون وجهه الواحد أبيض ، ووجهه الواحد أحمر ، وفيه كتابة قد تكشط أكثرها من طول المدة . وقد بلى اللوح ، وما بقيت الكتابة تلتئم ولا الخط يفهم .

وهذا نص ما فيه ، وأخليت مكان كتابته التى تكشطت ، وأما الوجه الأبيض فهو مكتوب بقلم الصحيفة القبطى . والمكتوب فى الوجه الأحمر على هذه الصورة :

(*) ص٤٢٣ جـ١ ، ط.بولاق .

السطر الأول : بقى منه مكتوبا الاسكندر .

السطر الثانى : الأرض وهبها له .

السطر الثالث : وجرب لكل .

السطر الرابع : أصحاب .

السطر الخامس : وهو يحرس .

السطر السادس : واحترازه بقوة .

السطر السابع : الملك مرجو وأبواب .

السطر الثامن : غير بيته سبعة .

السطر التاسع : عالم حكيم عالم فى عقله .

السطر العاشر : وصفها فلا تفسد .

السطر الحادى عشر : طارد كل سوء ، والذى صاغها النساء .

السطر الثانى عشر : سد أيضا كل آثار أسدية بيبرس وهى أحد .

السطر الثالث عشر : بيبرس ملك الزمان والحكمة . كلمة الله عز وجل .

هذا صورة ما وجد فى اللوح مما بقى من الكتابة ، والبقية قد تكشط .

وقيل ان هذا اللوح بخط الخليفة الحاكم . وأعجب ما فيه اسم السلطان ، وهو بيبرس .

ولما شاهد السلطان ذلك أمر بقراءته ، فعرض على قراء الأقلام فقرىء ، وذلك بالقلم القبطى .

ومضمونه طلسم عمل للظاهر بن الحاكم ، واسم أمه رصد ، وفيه أسماء الملائكة وعزائم ورقى وأسماء روحانية وصور ملائكة ، أكثره حرس لديار مصر وثغورها ، وصرف الأعداء عنها وكفهم عن طروقهم اليها ، وابتهال الى الله تعالى بأقسام كثيرة لحماية الديار المصرية ، وصونها من الأعداء ، وحفظها من كل طارق من جميع الأجناس .

وتضمن هذا الطلسم كتابة بالقلفطيريات وأوفاقا وصورا وخواص لا يعلمها الا الله تعالى . وحمل هذا الطلسم الى السلطان ، وبقى فى ذخائره .

قال : ورأيت فى كتاب عتيق رث سماه مصنفه « وصية الامام العزيز بالله والد الامام الحاكم بأمر الله لولده المذكور » . وقد ذكر فيه الطلسمات التى على أبواب القصر ، ومن جملتها أن أول البروج الحمل ، وهو بيت المريخ وشرف الشمس ، وله القوة على جميع سلطان الفلك لأنه صاحب السيف واسفهسلارية العسكر بين يدى الشمس الملك ، وله الأمر والحرب والسلطان والقوة ، والمستولى لقوة روحانيته على مدينتنا . وقد أقمنا طلسما لساعته ويومه ، لقهر الأعداء وذل المنافقين ، فى مكان أحكمناه على اشرافه عليه ، والحصن الجامع لقصر ، مجاورا لأول باب بنيناه ... هذا نص ما رأيته . انتهى .

ولعل معنى كتابة بيبرس فى هذا اللوح اشارة الى أن هدم هذا الباب يكون على زمان بيبرس ، فان القوم كانت لهم معارف كثيرة ، وعنايتهم بهذا الفن وافرة كبيرة . والله أعلم .

وموضع باب البحر هذا اليوم يعرف بباب قصر بشتاك قبالة المدرسة الكاملية .

باب الريح : كان على ما أدركته تجاه سور سعيد السعداء ، على يمنة السالك من الركن المخلق الى رحبة باب العيد . وكان بابا مربعا

يسلك فيه من دهليز مستطيل مظلم الى حيث المدرسة السابقية ودار الطواشى سابق الدين وقصر أمير السلاح ، وينتهى الى ما بين القصرين تجاه حمام البيسرى .

وعرف هذا الباب فى الدولة الأيوبية بباب قصر ابن الشيخ . وذلك أن الوزير الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ ، وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كان يسكن بالقصر الذى فى داخل هذا الباب ، ثم قيل له فى زمننا باب القصر .

وكان على حاله له عضادتان من حجارة ، ويعلوه أسكفة حجر مكتوب فيها نقرا فى الحجر عدة أسطر بالقلم الكوفى لم يتهيأ لى قراءة ما فيها ، وكان دهليز هذا الباب عريضا يتجاوز عرضه فيما أقدر العشرة أذرع فى طول كبير جدا ، ويعلو هذا الباب دور للسكنى تشرف على الطريق .

وما زال على ذلك الى أن أنشأ الأمير الوزير المشير جمال الدين يوسف الأستادار مدرسته برحبة باب العيد ، واغتصب لها أملاك الناس ، وكان مما اغتصب ما بجوار المدرسة المذكورة من الحوانيت والرباع التى فوقها وما جاور ذلك ، وهدمها ليبنيها على ما يريد .

فهدم هذا الباب فى صفر سنة احدى عشرة وثمانمائة . وبنى فى مكانه ، ومكان الدهليز المظلم الذى كان ينتهى بالسالك فيه من هذا الباب الى المدرسة السابقية ، هذه القيسارية الكبيرة ذات الحوانيت والسقيفة والأبواب الجديدة ، ودخل فيها بعض مما كان بجانبى هذا الباب من الحوانيت وعلوها .

ولما هدم هذا الباب ظهر فى داخل بنيانه شخص . وبلغنى ذلك فسرت الى الأمير المذكور — وكان بينى وبينه صحبة — لأشاهد هذا الشخص المذكور ، والتمست منه احضاره . فأخبرنى أنه أحضر اليه شخص من حجارة ، قصير القامة ، احدى عينيه أصغر من الأخرى .

فقلت : لابد لى من مشاهدته .

فأمر * باحضاره الموكل بالعمارة — وأنا معه اذ ذاك فى موضع الباب ، وقد هدم ما كان فيه من البناء — فذكر أنه رماه بين أحجار العمارة ، وأنه تكسر وصار فيما بينها ، ولا يستطيع تمييزه منها . فأغلظ عليه وبالغ فى الفحص عنه ، فأعياهم احضاره .

فسألت الرجل حينئذ عنه فقال لى : انهم لما انتهوا فى الهدم الى حيث كان هذا الشخص اذا بدائرة فيها كتابة وبوسطها شخص قصير ، صغير احدى العينين ، من حجارة .

وهذه كانت صفة جمال الدين ، فانه كان قصير القامة احدى عينيه أصغر من الأخرى . ويشبه — والله أعلم — أن يكون قد عين فى تلك الكتابة التى كانت حول الشخص أن هذا الباب يهدمه من هذه صفته ، كما وجد فى باب البحر اسم بيبرس الذى هدم على يديه وبأمره .

وقد ظفر جمال الدين هذا بأموال عظيمة ، وجدها فى داخل هذا القصر ، لما أنشأ داره الأولى فى الحدرة من داخل هذا الباب فى سنة ست وتسعين وسبعمائة . وكان لكثرة هذا

(*) ص٤٢٤ جـ١ ، ط.بولاق .

المال لا يستطيع كتمانه . ومن شدة خوفه يومئذ من الظاهر برقوق أن يظهر عليه لا يقدر أن يصرح به . فكان يقول لأصحابه وخواصه : وجدت فى هذا المكان سبعين قفة من حديد ... أخبرنى اثنان رئيسان من أعيان الدولة عنه أنه قال لهما هذا القول .

وكنت اذ ذاك ، أيام عمارته لهذه القاعة ، أتردد لشيخنا سراج الدين عمر بن الملقن رحمه الله تعالى بالمدرسة السابقية — وبها كان يسكن — فتعرفت بجمال الدين منه .

وكان يومئذ من عرض الجند ، ويعرف بأستادار نحاس ، فاشتهر هناك أنه وجد — حال هدمه وعمارته القاعة والرواق بالحدرة — مكانا مبنيا تحت الأرض مبيض الحيطان فيه مال . فما كان عندى شك أنه من أموال خبايا الفاطميين ، فانه قد ذكر غير واحد من الاخباريين أن السلطان صلاح الدين ، لما استولى على القصر بعد موت العاضد ، لم يظفر بشىء من الخبايا ، وعاقب جماعة فلم يوقفوه على أمرها .

باب الزمرذ : سمى بذلك لأنه كان يتوصل منه الى قصر الزمرذ . وموضعه الآن المدرسة الحجازية بخط رحبة باب العيد .

باب العيد : هذا الباب مكانه اليوم فى داخل درب السلامى بخط رحبة باب العيد . وهو عقد محكم البناء ، وبعلوه قبة قد عملت مسجدا ، وتحتها حانوت يسكنه سقاء ، ويقابله مصطبة .

وأدركت العامة وهم يسمون هذه القبة بالقاهرة ، ويزعمون أن الخليفة كان يجلس بها ويرخى كمه ، فتأتى الناس وتقبله . وهذا غير صحيح .

وقيل لهذا الباب باب العيد ، لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيد الى المصلى بظاهر باب النصر ، فيخطب بعد أن يصلى بالناس صلاة العيد ، كما ستقف عليه عند ذكر المصلى ان شاء الله تعالى .

وفى سنة احدى وستين وستمائة ، بنى الملك الظاهر بيبرس خانا للسبيل بظاهر مدينة القدس ، ونقل اليه باب العيد هذا فعمله بابا له . وتم بناؤه فى سنة اثنتين وستين

باب قصر الشوك : وهو الذى كان يتوصل منه الى قصر الشوك . وموضعه الآن تجاه حمام عرفت بحمام الأيدمرى — ويقال لها اليوم حمام يونس — عند موقف المكارية بجوار خزانة البنود ، على يمنة السالك منها الى رحبة الأيدمرى .

وهو الآن زقاق ينتهى الى بئر يستقى منها بالدلاء ، ويتوصل من هناك الى المارستان العتيق وغيره . وأدركت منه قطعة من جانبه الأيسر .

باب الديلم : وكان يدخل منه الى المشهد الحسينى . وموضعه الآن درج ينزل منها الى المشهد تجاه الفندق الذى كان دار الفطرة ، ولم يبق لهذا الباب أثر ألبتة .

باب تربة الزعفران : مكانه الآن بجوار خان الخليلى من بحريه ، مقابل فندق المهمندار الذى يدق فيه ورق الذهب ، وقد بنى بأعلاه طبقة ورواق ، ولا يكاد يعرفه كثير من الناس ، وعليه كتابة بالقلم الكوفى . وهذا

الباب كان يتوصل منه الى تربة القصر المذكورة فيما تقدم .

باب الزهومة : كان فى آخر ركن القصر ، مقابل خزانة الدرق التى هى اليوم خان مسرور . وقيل له باب الزهومة لأن اللحوم وحوائج الطعام ، التى كانت تدخل الى مطبخ القصر الذى للحوم ، انما يدخل بها من هذا الباب ، فقيل له باب الزهومة ، يعنى باب الزفر .

وكان تجاهه أيضا درب السلسلة الآتى ذكره ان شاء الله تعالى . وموضعه الآن قاعة الحنابلة من المدارس الصالحية ، تجاه فندق مسرور الصغير ، ومن بعد باب الزهومة المذكور باب الذهب الذى تقدم ذكره ... فهذه أبواب القصر الكبير التسعة .

ذكر المنحر *

وكان بجوار هذا القصر الكبير المنحر ، وهو الموضع الذى اتخذه الخلفاء لنحر الأضاحى فى عيد النحر وعيد الغدير ، وكان تجاه رحبة باب العيد .

وموضعه الآن يعرف بالدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس . وصار موضعه ما فى داخل هذا الدرب من الدور والطاحون وغيرها ، وظاهره تجاه رأس حارة برجوان ، يفصل بينه وبين حارة برجوان الحوانيت التى تقابل باب الحارة .

(*) ص٤٢٥ جـ١ ، ط. بولاق .

ومن جملة المنحر الساحة العظيمة التى عملت لها خوند بركة ، أم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، البوابة العظيمة بخط الركن المخلق ، بجوار قيسارية الجلود التى عمل فيها حوانيت الأساكفة .

وكان الخليفة اذا صلى صلاة عيد النحر وخطب ، ينحر بالمصلى ، ثم يأتى المنحر المذكور وخلفه المؤذنون يجهرون بالتكبير ، ويرفعون أصواتهم كلما نحر الخليفة شيئا . وتكون الحربة فى يد قاضى القضاة وهو بجانب الخليفة ليناوله اياها اذا نحر . وأول من سن منهم اعطاء الضحايا وتفرقتها فى أولياء الدولة ، على قدر رتبهم ، العزيز بالله نزار .

ما كان يعمل فى عيد النحر

قال المسيحى : وفى يوم عرفة (يعنى من سنة ثمانين وثلثمائة) حمل يانس صاحب الشرطة السماط ، وحمل أيضا على بن سعد المحتسب سماطا آخر . وركب العزيز بالله يوم النحر فصلى وخطب على العادة ، ثم نحر عدة نوق بيده ، وانصرف الى قصره ، فنصب السماط والموائد وأكل ، ونحر بين يديه ، وأمر بتفرقة الضحايا على أهل الدولة . وذكر مثل ذلك فى باقى السنين .

وقال ابن المأمون فى عيد النحر من سنة خمس عشرة وخمسمائة : وأمر بتفرقة عيد النحر والهبة وجملة العين ثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعون دينارا ، ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع برسم الأمراء المطوقين والأستاذين

المحنكين وكاتب الدست ومتولى حجبة الباب وغيرهم من المستخدمين .

وعدة ما ذبح ثلاثة أيام النحر ، فى هذا العيد وعيد الغدير ، ألفان وخمسمائة وأحد وستون رأسا . تفصيله : نوق مائة وسبعة عشر رأسا ، بقر أربعة وعشرون رأسا ، جاموس عشرون رأسا ... هذا الذى ينحره ويذبحه الخليفة بيده فى المصلى والمنحر وباب الساباط . ويذبح الجزارون من الكباش ألفين وأربعمائة رأس .

والذى اشتملت عليه نفقات الأسمطة فى الأيام المذكورة — خارجا عما يعمل بالدار المأمونية من الأسمطة ، وخارجا عن أسمطة القصور عند الحرم ، وخارجا عن القصور الحلواء والقصور المنفوخ المصنوعة بدار الفطرة — ألف وثلثمائة وستة وعشرون دينارا وربع وسدس دينار .

ومن السكر برسم القصور والقطع المنفوخ : أربعة وعشرون قنطارا . تفصيله : عن قصرين فى أول يوم خاصة اثنا عشر قنطارا ، المنفوخ عن ثلاثة الأيام اثنا عشر قنطارا .

وقال فى سنة ست عشرة وخمسمائة : وحضر وقت تفرقة كسوة عيد النحر ، ووصل ما تأخر فيها بالطراز ، وفرقت الرسوم على من جرت عادته — خارجا عما أمر به من تفرقة العين المختص بهذا العيد وأضحيته ، وخارجا عما يفرق على سبيل المناخ ، ومن باب الساباط مذبوحا ومنحورا — ستمائة دينار وسبعة عشر دينارا .

وفى التاسع من ذى الحجة جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على سرير الملك ، وحضر الوزير وأولاده ، وقاموا بما يجب من السلام ، واستفتح المقرئون ، وتقدم حامل المظلة وعرض ما جرت عادته من المظال الخمسة التى جميعها مذهب ، وسلم الأمراء على طبقاتهم ، وختم المقرئون ، وعرضت الدواب جميعها والعماريات والوحوش ، وعاد الخليفة الى محله .

فلما أسفر الصبح خرج الخليفة ، وسلم على من جرت عادته بالسلام عليه — ولم يخرج شىء عما جرت به العادة فى الركوب والعود — وغير الخليفة ثيابه ، ولبس مايختص بالنحر — وهى البدلة الحمراء بالشدة التى تسمى بشدة الوقار ، والعلم الجوهر فى وجهه بغير قضيب ملك فى يده — الى أن دخل المنحر . وفرشت الملاءة الديبقى الحمراء ، وثلاث بطائن مصبوغة خمر ليتقى بها الدم ، مع كون كل من الجزارين بيده مكبة صفصاف مدهونة يلقى بها الدم عن الملاءة ، وكبر المؤذنون ، ونحر الخليفة أربعا وثلاثين ناقة ، وقصد المسجد الذى آخر صف المنحر ، وهو مغلق بالشروب والفاكهة المعبأة فيه ، بمقدار ما غسل يديه ، ثم ركب من فوره .

وجملة ما نحره وذبحه الخليفة خاصة فى المنحر وباب الساباط — دون الأجل الوزير المأمون وأولاده واخوته — فى ثلاثة الأيام ما عدته ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأسا .

تفصيله : نوق مائة وثلاث عشرة ناقة ... نحر منها فى المصلى عقيب الخطبة ناقة ، وهى التى تهدى وتطلب من آفاق الأرض للتبرك

بلحمها . ونحر فى المناخ مائة ناقة ، وهى التى يحمل منها للوزير وأولاده واخوته والأمراء والضيوف والأجناد والعسكرية والمميزين من الراجل ، وفى كل يوم يتصدق منها على الضعفاء والمساكين بناقة واحدة ، وفى اليوم الثالث من العيد تحمل ناقة منحورة للفقراء فى القرافة .

وينحر فى باب الساباط ما يحمل الى من حوته القصور ، والى دار الوزارة ، والى الأصحاب والحواشى ، اثنتا عشرة ناقة وثمانى عشرة بقرة * وخمس عشرة جاموسة ، ومن الكباش ألف وثمانمائة رأس ، ويتصدق كل يوم فى باب الساباط بسقط ما يذبح من النوق والبقر .

وأما مبلغ المنصرف على الأسمطة فى ثلاثة الأيام ، خارجا عن الأسمطة بالدار المأمونية ، فألف وثلثمائة وستة وعشرون دينارا وربع وسدس دينار . ومن السكر برسم قصور الحلاوة والقطع المنفوخ المصنوعة بدار الفطرة خارجا عن المطابخ ، ثمانية وأربعون قنطارا .

وقال ابن الطوير : فاذا انقضى ذو القعدة وأهل ذو الحجة ، اهتم بالركوب فى عيد النحر — وهو يوم عاشره — فيجرى حاله كما جرى فى عيد الفطر من الزى والركوب الى المصلى ، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمر الموشح ، ولا ينخرم منه شىء .

وركوبه ثلاثة أيام متوالية . فأولها يوم الخروج الى المصلى والخطابة كعيد الفطر ، وثانى يوم وثالثه الى المنحر ، وهو المقابل لباب الريح الذى فى ركن القصر ، المقابل لسور دار سعيد السعداء ... الخانقاه اليوم — وكان براحا خاليا لا عمارة فيه — فيخرج من هذا الباب الخليفة بنفسه ، ويكون الوزير واقفا عليه ، فيترجل ويدخل ماشيا بين يديه بقربه ... هذا بعد انفصالهما من المصلى .

ويكون قد قيد الى هذا المنحر أحد وثلاثون فصيلا وناقة أمام مصطبة مفروشة يطلع عليها الخليفة والوزير ثم أكابر الدولة ، وهو بين الأستاذين المحنكين ، فيقدم الفراشون له الى المصطبة رأسا ، ويكون بيده حربة من رأسها الذى لا سنان فيه ، ويد قاضى القضاة فى أصل سنانها ، فيجعله القاضى فى نحر النحيرة ، ويطعن بها الخليفة ، وتجر من بين يديه حتى يأتى على العدة المذكورة .

فأول نحيرة هى التى تقدد ، وتسير الى داعى اليمن — وهو الملك فيه — فيفرقها على المعتقدين من وزن نصف درهم الى ربع درهم

ثم يعمل ثانى يوم كذلك ، فيكون عدد ما ينحر سبعا وعشرين ثم يعمل فى اليوم الثالث كذلك ، وعدة ما ينحر ثلاث وعشرون .

هذا وفى مدة هذه الأيام الثلاثة يسير رسم الأضحية الى أرباب الرتب والرسوم — كما سيرت الغرة فى أول السنة — من الدنانير ، بغير رباعية ولا قراريط ، على مثال الغرة من عشرة دنانير الى دينار .

وأما لحم الجزور فانه يفرق فى أرباب الرسوم للتبرك فى أطباق مع أدوان الفراشين . وأكثر ذلك تفرقة قاضى القضاة وداعى الدعاة

(*) ص٤٢٦ جـ١ ، ط.بولاق .

للطلبة بدار العلم ، والمتصدرين بجوامع القاهرة ، ونقباء المؤمنين بها من الشيعة للتبرك .

فاذا انقضى ذلك خلع الخليفة على الوزير ثيابه الحمر التى كانت عليه ، ومنديلا آخر بغير السمة والعقد المنظوم من القصر عند عود الخليفة من المنحر . فيركب الوزير من القصر بالخلع المذكورة شاقا القاهرة ، فاذا خرج من باب زويلة انعطف على يمينه سالكا على الخليج ، فيدخل من باب القنطرة الى دار الوزارة ... وبذلك انفصال عيد النحر .

وقال ابن أبى طى : عدة ما يذبح فى هذا العيد ، فى ثلاثة أيام النحر وفى يوم عيد الغدير ، ألفان وخمسمائة وأحد وستون رأسا . تفصيله : نوق مائة وسبعة عشر رأسا ، بقر أربعة وعشرون رأسا ، جاموس عشرون رأسا ... هذا الذى ينحره الخليفة ويذبحه بيده فى المصلى والمنحر وباب الساباط . ويذبح الجزارون بين يديه من الكباش ألفا وأربعمائة رأس .

وقال ابن عبد الظاهر : كان الخليفة ينحر بالمنحر مائة رأس ، ويعود الى خزانة الكسوة ، فيغير قماشه ويتوجه الى الميدان — وهو الخرنشف بباب الساباط — للنحر والذبح ، ويعود بعد ذلك الى الحمام ويغير ثيابه للجلوس على الأسمطة . وعدة ما يذبحه ألف وسبعمائة وستة وأربعون رأسا : مائة وثلاث عشرة ناقة ، والباقى بقر وغنم .

قال ابن الطوير : وثمن الضحايا على ما تقرر ما يقرب من ألفى دينار . وكانت تخرج المخلقات الى الأعمال بشائر بركوب الخليفة فى يوم عيد النحر . فمما كتب به الأستاذ البارع أبو القسم على بن منجب بن سليمان الكاتب ، المعروف بابن الصيرفى ، المنعوت بتاج الرياسة :

« أما بعد . فالحمد لله الذى رفع منار الشرع وحفظ نظامه ، ونشر راية هذا الدين وأوجب اعظامه ، وأطلع بخلافة أمير المؤمنين كواكب سعوده ، وأظهر للمؤالف والمخالف عزة أحزابه وقوة جنوده ، وجعل فرعه ساميا ناميا وأصله ثابتا راسخا ، وشرفه على الأديان بأسرها ، وكان لمراها قاصما ولأحكامها ناسخا ...

« يحمده أمير المؤمنين أن ألزم طاعته الخليقة ، وجعل كراماته الأسباب الجديرة بالامارة الخليقة . ويرغب اليه فى الصلاة على جده محمد الذى حاز الفخار أجمعه ، وضمن الجنة لمن آمن به واتبع النور الذى أنزل معه ، ورفعه الى أعلى منزلة تخير له منها المحل ، وأرسله بالهدى ودين الحق ، فزهق الباطل وخمدت ناره واضمحل ...

« صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب : خير الأمة وامامها ، وحبر الملة وبدر تمامها ، والموفى يومه فى الطاعات على ماضى أمسه ، ومن أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المباهلة مقام نفسه ، واختصه بأبعد غاية فى سورة براءة فنادى فى الحج بأولها ، ولم يكن غيره ينفذ نفاذه ولا يسد مكانه ، لأنه قال لا يبلغ عنى الا رجل من أهل بيتى عملا فى ذلك بما أمر الله سبحانه ...

« وعلى (*) الأئمة من ذريتهما خلفاء الله فى أرضه ، والقائمين فى سياسة خلقه بصريح الايمان ومحضه ، والمحكمين من أمر الدين ما لا وجه لحله ولا سبيل الى نقضه . وسلم عليهم أجمعين سلاما يتصل دوامه ولا يخشى انصرامه ، ومجّد وكرم ، وشرف وعظم ...

« وكتاب أمير المؤمنين هذا اليك يوم الأحد عيد النحر ، من سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، الذى تبلج فجره عن سيئات محصت ، ونفوس من آثار الذنوب خلصت ، ورحمة امتدت ظلالها وانتشرت ، ومغفرة هتنت ونشرت ...

« وكان من خبر هذا اليوم أن أمير المؤمنين برز لكافة من بحضرته من أوليائه ، متوجها لقضاء حق هذا العيد السعيد وأدائه ، فى عترة راسخة قواعدها متمكنة ، وعساكر جمة تضيق عنها ظروف الأمكنة ، ومواكب تتوالى كتوالى السيل ، وتهاب هيبة مجيئه فى الليل ، بأسلحة تحسر لها الأبصار وتبرق ، وترتاع الأفئدة منها وتفرق : فمن مشرفى اذا ورد تورد ، ومن سمهرى اذا قصد تقصد ، ومن عبد اذا عدت تبرأت المغافر من ضمانها ، ومن قسى اذا أرسلت بنانها وصلت الى القلوب بغير استئذانها ...

« ولم يزل سائرا فى هدى الامامة وأنوارها ، وسكينة الخلافة ووقارها ، الى أن وصل الى المصلى قدام المحراب ، وأدى الصلاة اذ لم يكن بينه وبين التقبيل حجاب . ثم علا المنبر فاستوى على ذروته ، ثم هلل الله وكبر وأثنى على عظمته ، وأحسن الى الكافة بتبليغ موعظته ، وتوجه الى ما أعد من البدن فنحره تكميلا لقربته ، وانتهى فى ذلك الى ما أمر الله عز وجل ، وعاد الى قصوره المكرمة ومنازله المقدسة ... قد رضى الله عمله ، وشكر فعله وتقبله ...

« أعلمك أمير المؤمنين بذلك لتشكر الله على النعمة فيه ، وتذيعه قبلك على الرسم ما تجاريه ، فاعلم هذا واعمل به ان شاء الله تعالى » .

(*) ص٤٢٧ ، جـ١ ، ط . بولاق

ذكر دار الوزارة الكبرى

وكان بجوار هذا القصر الكبير الشرقى ، تجاه رحبة باب العيد ، دار الوزارة الكبرى . ويقال لها الدار الأفضلية والدار السلطانية .

قال ابن عبد الظاهر : دار الوزارة بناها بدر الجمالى أمير الجيوش ، ثم لم يزل يسكنها من يلى امرة الجيوش الى أن انتقل الأمر عن المصريين وصار الى بنى أيوب . فاستقر سكن الملك الكامل بقلعة الجبل خارج القاهرة ، وسكنها السلطان الملك الصالح ولده ، ثم أرصدت دار الوزارة لمن يرد من الملوك ورسل الخليفة الى هذا الوقت .

وكانت دار الوزارة قديما تعرف بدار القباب ، وأضافها الأفضل الى دور بنى هريسة وعمرها دارا ، وسماها دار الوزارة ... انتهى .

والذى تدل عليه كتب ابتياعات الأملاك القديمة التى بتلك الخطة أنها من بناء الأفضل

لا من عمارة أبيه بدر . والعلو التى عمرها أمير الجيوش بدر هى داره بحارة برجوان التى قيل لها دار المظفر .

وما زال وزراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف ، من عهد الأفضل بن أمير الجيوش ، يسكنون بدار الوزارة هذه الى أن زالت الدولة . فاستقر بها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وابنه من بعده الملك العزيز عثمان ، ثم ابنه الملك المنصور ، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، ثم ابنه الملك الكامل ، وصاروا يسمونها الدار السلطانية .

وأول من انتقل عنها من الملوك وسكن بالقلعة الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وجعلها منزلا للرسل .

فلما ولى قطز سلطنة ديار مصر ، وتلقب بالملك العادل فى سنة سبع وخمسين وستمائة ، وحضر اليه البحرية — وفيهم بيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى — من الشام ، خرج الملك العادل قطز الى لقائهم ، وأنزل الأمير ركن الدين بيبرس بدار الوزارة ، فلم يزل بها حتى سافر صحبة قطز الى الشام وقتله ، وعاد الى مصر فتسلطن وسكن بقلعة الجبل .

وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة لما قتل الأشرف خليل بن قلاوون فى واقعة بيدرا ، ثم قتل بيدرا وأجلس الملك الناصر محمد على تخت الملك ، وثارت الأشرفية من المماليك على الأمراء ، وقتل من قتل منهم ... خاف بقية الأمراء من شر المماليك الأشرفية ، فقبض منهم على نحو الستمائة مملوك ، وأنزل بهم من القلعة ، وأسكن منهم نحو الثلثمائة بدار الوزارة ، وأسكن منهم كثير فى مناظر الكبش ، وأجريت عليهم الرواتب ، ومنعوا من الركوب ... الى أن كان من أمرهم ما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب .

ولما كانت سنة سبعمائة أخذ الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورى ، نائب السلطنة فى أيام الملك المنصور حسام الدين لاجين ، قطعة من دار الوزارة ، فبنى بها الربع المقابل خانقاه سعيد السعداء ، ثم بنى المدرسة المعروفة بالقراسنقرية ومكتب الأيتام .

فلما كانت دولة البرجية بنى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية والرباط بجانبها من جملة دار الوزارة ، وذلك فى سنة * تسع وسبعمائة ، ثم استولى الناس على ما بقى من دار الوزارة وبنوا فيها .

فمن حقوقها : الربع تجاه الخانقاه الصلاحية دار سعيد السعداء ، والمدرسة القراسنقرية ، وخانقاه ركن الدين بيبرس ، وما بجوارها من دار قزمان ودار الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير — المعروفة بدار خوند طولوباى الناصرية ، جهة الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون — وحمام الأعسر التى بجانبها ، والحمام المجاورة لها .

وما وراء هذه الأماكن من الآدر وغيرها ، وهى الفرن والطاحون التى قبلى المدرسة القراسنقرية ، ومن الآدر والخربة التى قبلى ربع قرا سنقر ، وما جاور باب سر المدرسة القراسنقرية من الآدر ، وخربة أخرى هناك ، والدار الكبرى المعروفة بدار الأمير سيف الدين برلغى الصغير صهر الملك المظفر بيبرس الجاشنكير — المعروفة اليوم بدار الغزاوى — وفيها السرداب الذى كان رزيك بن الصالح رزيك فتحه فى أيام وزارته من دار الوزارة الى سعيد السعداء ، وهو باق الى الآن فى صدر قاعتها ، وذكر أن فيه حية عظيمة .

ومن حقوق دار الوزارة المناخ المجاور لهذه القاعة .

وكان على دار الوزارة سور مبنى بالحجارة ، وقد بقى الآن منه قطعة فى حد دار الوزارة الغربى وفى حدها القبلى — وهو الجدار الذى فيه باب الطاحون والساقية تجاه باب سعيد السعداء ، من الزقاق الذى يعرف اليوم بخرائب تتر — ومنه قطعة فى حدها الشرقى عند باب الحمام والمستوقد بباب الجوانية .

وكان بدار الوزارة هذا الشباك الكبير المعمول من الحديد ، فى القبة التى دفن تحتها بيبرس الجاشنكير من خانقاهه ، وهو الشباك الذى يقرأ فيه القراء ، وكان موضوعا فى دار الخلافة ببغداد يجلس فيه الخلفاء من بنى العباس .

فلما استولى الأمير أبو الحارث البساسيرى على بغداد ، وخطب فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمى أربعين جمعة ، وانتهب قصر الخلافة ، وصار الخليفة القائم بأمر الله العباسى الى عانة ، وسير البساسيرى الأموال والتحف من بغداد الى المستنصر بالله بمصر فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ... كان من جملة ما بعث به منديل الخليفة القائم بأمر الله الذى عممه بيده ، فى قالب من رخام قد وضع فيه كما هو حتى لا تتغير شدته ، ومع هذا المنديل رداؤه ، والشباك الذى كان يجلس فيه ويتكىء عليه .

فاحتفظ بذلك الى أن عمرت دار الوزارة على يد الأفضل بن أمير الجيوش ، فجعل هذا الشباك بها يجلس فيه الوزير ويتكىء عليه . وما زال بها الى أن عمر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية ، وأخذ من دار الوزارة أنقاضا منها هذا الشباك ، فجعله فى القبة . وهو شباك جليل .

وأما العمامة والرداء فما زالا بالقصر حتى مات العاضد ، وتملك السلطان صلاح الدين ديار مصر ، فسيرهما فى جملة ما بعث من مصر الى الخليفة المستضىء بالله العباسى ببغداد ، ومعهما الكتاب الذى كتبه الخليفة القائم على نفسه ، وأشهد عليه العدول فيه أنه لا حق لبنى العباس ، ولا له من جملتهم ، فى الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء عليها السلام — وكان البساسيرى ألزمه حتى أشهد على نفسه بذلك ، وبعث بالاشهاد الى مصر — فأنفذه صلاح الدين الى بغداد مع ما سير به من التحف التى كانت بالقصر .

وأخبرنى شيخ معمر ، يعرف بالشيخ على السعودى ، ولد فى سنة سبع وسبعمائة ، قال : رأيت مرة وقد سقط من ظهر الرباط المجاور لخانقاه بيبرس ، من جملة ما بقى من سور دار الوزارة ، جانب ظهرت منه علبة فيها رأس انسان كبير .

(*) ص٤٢٨ جـ١ ، ط بولاق .

وعندى أن هذا الرأس من جملة رؤوس الأمراء البرقية الذين قتلهم ضرغام فى أيام وزارته للعاضد بعد شاور . فانه كان عمل الحيلة عليهم بدار الوزارة ، وصار يستدعى واحدا بعد واحد الى خزانة بالدار ، ويوهم أنه يخلع عليهم ، فاذا صار واحد منهم فى الخزانة قتل وقطع رأسه ، وذلك فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة .

وكانت دار الوزارة فى الدولة الفاطمية تشتمل على عدة قاعات ومساكن وبستان وغيره . وكان فيها مائة وعشرون مقسما للماء الذى يجرى فى بركها ومطابخها ونحو ذلك .

ذكر رتبة الوزارة وهيئة خلعهم ومقدار جاريهم وما يتعلق بذلك

أما المعز لدين الله ، أول الخلفاء الفاطميين بديار مصر ، فانه لم يوقع اسم الوزارة على أحد فى أيامه . وأول من قيل له الوزير فى الدولة الفاطمية الوزير يعقوب بن كلس ، وزير العزيز بالله أبى منصور نزار بن المعز ، واليه تنسب الحارة الوزيرية كما ستقف عليه عند ذكر الحارات من هذا الكتاب . فلما مات ابن كلس لم يستوزر العزيز بالله بعده أحدا ، وانما كان رجل يلى الوساطة والسفارة ، فاستقر فى ذلك جماعة كثيرة بقية أيام العزيز وسائر أيام ابنه أبى على منصور الحاكم بأمر الله .

ثم ولى الوزارة أحمد بن على الجرجرائى فى أيام الظاهر أبى هاشم على بن * الحاكم

(*) ص ٤٣٦ جـ ١ ، طبولاق .

وما زال الوزراء من بعده واحدا بعد واحد — وهم أرباب أقلام — حتى قدم أمير الجيوش بدر الجمالى .

قال ابن الطوير : وكان من زى هؤلاء الوزراء أنهم يلبسون المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلوقهم مثل العدول الآن ، وينفردون بلبس ثياب قصار يقال لها الدراريع (واحدها دراعة) وهى مشقوقة أمام وجهه الى قريب من رأس الفؤاد بأزرار وعرة ، ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك ، ومنهم من أزراره لؤلؤ . وهذه علامة الوزارة .

ويحمل له الدواة المحلاة بالذهب ، ويقف بين يديه الحجاب ، وأمره نافذ فى أرباب السيوف من الأجناد وأرباب الأقلام . وكان آخرهم الوزير ابن المغربى الذى قدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ، ووزر للمستنصر وزير سيف ، ولم يتقدمه فى ذلك أحد ... انتهى .

وترتيب وزارته بأن تكون وزارته وزارة صاحب سيف ، بأن تكون الأمور كلها مردودة اليه ومنه الى الخليفة دون سائر خدمه ، فعقد له هذا العقد ، وأنشىء له السجل ، ونعت بالسيد الأجل أمير الجيوش — وهو النعت الذى كان لصاحب ولاية دمشق — وأضيف اليه كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، وجعل القاضى والداعى نائبين عنه ومقلدين من قبله .

وكتب له فى سجله : « وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره . فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد ، ومصلحا للفساد ، ومدمرا أهل العناد » .

وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق ، وزيد له الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور زى قاضى القضاة ، وذلك فى سنة سبع وستين وأربعمائة . فصارت الوزارة من حينئذ وزارة تفويض ، ويقال لمتوليها أمير الجيوش ، وبطل اسم الوزير .

فلما قام شاهنشاه بن أمير الجيوش من بعد أبيه ، ومات الخليفة المستنصر ، وأجلس ابن بدر فى الخلافة أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلى ، صار يقال له الأفضل ، ومن بعده صار من يتولى هذه الرتبة يتلقب به أيضا .

وأول من لقب بالملك منهم مضافا الى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى ، عندما وزر للحافظ لدين الله ، فقيل له السيد الأجل الملك الأفضل ، وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة .

وفعل ذلك من بعده ، فتلقب طلائع بن رزيك بالملك المنصور ، وتلقب ابنه رزيك بن طلائع بالملك العادل ، وتلقب شاور بالملك المنصور ، وتلقب آخرهم صلاح الدين يوسف ابن أيوب بالملك الناصر . وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر الى آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، واليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية .

وصار حال الخليفة معه كما هو حال ملوك مصر من الأتراك اذا كان السلطان صغيرا والقائم بأمره من الأمراء ، وهو الذى يتولى تدبير الأمور كما كان الأمير يلبغا الخاصكى مع الأشرف شعبان ، وكما أدركنا الأمير برقوق قبل سلطنته مع ولدى الأشرف ، وكما كان الأمير أيتمش مع الملك الناصر فرج بعد موت الظاهر برقوق .

قال ابن أبى طى : وكانت خلعهم (يعنى الخلفاء الفاطميين) على الأمراء الثياب الديبقى ، والعمائم القصب بالطراز الذهب ، وكان طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار ، ويخلع على أكابر الأمراء الأطواق الذهب والأسورة والسيوف المحلاة . وكان يخلع على الوزير عوضا عن الطوق عقد جوهر .

قال ابن الطوير : وخلع عليه (يعنى على أمير الجيوش بدر الجمالى) بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق ، وزيد له الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور زى قاضى القضاة .

وهذه الخلع تشابه خلع الوزراء وأرباب الأقلام فى زمننا هذا . غير أنه لتصور أحوال الدولة ، جعل عوض العقد الجوهر الذى كان للوزير — ويفك بخمسة آلاف مثقال ذهبا — قلادة من عنبر مغشوش يقال لها العنبرية ، ويتميز بها الوزير خاصة ، ويلبس أيضا الطيلسان المقور ويسمى اليوم بالطرحة ، ويشاركه فيها جميع أرباب العمائم اذا خلع عليهم ، فانه تكون خلعهم بالطرحة .

وترك أيضا اليوم من خلعة الوزير وغيره الذؤابة المرخاة وهى العذبة ، وصارت الآن

من زى القضاة فقط وهجرها الوزراء . وشبه — والله أعلم — أن يكون وضعها فى الدولة الفاطمية الوزير فى خلعه اشارة الى أنه كبير أرباب السيوف والأقلام ، فانه كان مع ذلك يتقلد بالسيف . وكذلك ترك فى الدولة التركية من خلع الوزارة تقليد السيف ، لأنه لا حكم له على أرباب السيوف .

ولما قام الأفضل بن أمير الجيوش خلع أيضا عليه بالسيف والطيلسان المقور . وبعد الأفضل لم يخلع على أحد من الوزراء كذلك الى أن قدم طلائع بن رزيك ، ولقب بالملك الصالح عندما خلع عليه للوزارة ، وجعل فى خلعته السيف والطيلسان المقور .

قال ابن المأمون : وفى يوم الجمعة ثانيه (يعنى ثانى ذى الحجة يعنى سنة خمس عشرة وخمسمائة) خلع على القائد ابن فاتك البطائحى من الملابس الخاص الشريفة فى فرد كم مجلس الكعبة ، وطوق بطوق ذهب مرصع * وسيف ذهب كذلك ، وسلم على الخليفة الآمر بأحكام الله . وأمر الخليفة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه ، وأن يركب من المكان الذى كان الأفضل بن أمير الجيوش يركب منه .

ومشى فى ركابه القواد على عادة من تقدمه ، وخرج بتشريف الوزارة (يعنى من باب الذهب) ، ودخل من باب العيد راكبا ، وجرى الحكم فيه على ما تقدم للأفضل ، ووصل الى داره فضاعف الرسوم ، وأطلق الهبات .

ولما كان يوم الاثنين خامس ذى الحجة ، اجتمع أمراء الدولة لتقبيل الأرض بين يدى الخليفة الآمر على العادة التى قررها مستجدة ، واستدعى الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة .

فلما حضر أمر باحضار السجل للأجل الوزير المأمون من يده ، فقبله وسلمه لزمام القصر ، وأمر الخليفة الوزير المأمون بالجلوس عن يمينه .

وقرىء السجل على باب المجلس — وهو أول سجل قرىء فى هذا المكان ، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالايوان — ورسم للشيخ أبى الحسن أن ينقل النسبة للأمراء والمحنكين من الأمراء الى المأمونى للناس أجمع ، ولم يكن أحد منهم ينتسب للأفضل ولا لأمير الجيوش . وقدمت الدواة للمأمون ، فعلم فى مجلس الخليفة ، وتقدمت الأمراء والأجناد ، فقبلوا الأرض وشكروا على هذا الاحسان .

وأمر الخليفة باحضار الخلع لحاجب الحجاب حسام الملك ، وطوق بطوق ذهب وسيف ذهب ومنطقة ذهب . ثم أمر بالخلع للشيخ أبى الحسن بن أبى أسامة باستمراره على ما بيده من كتابة الدست الشريف ، وشرفه بالدخول الى مجلس الخليفة .

ثم استدعى الشيخ أبا البركات بن أبى الليث ، وخلع عليه بدلة مذهبة ، وكذلك أبو الرضى سالم ابن الشيخ أبى الحسن ، وكذلك أبو المكارم أخوه وأبو محمد أخوهما ، ثم أبو الفضل بن الميدمى ، ووهبه دنانير كثيرة

(*) ص ٤٤١ جـ ١ ، خـ ـطط ».

بحكم أنه الذى قرأ السجل ، وخلع على الشيخ أبى الفضائل بن أبى الليث صاحب دفتر المجلس .

ثم استدعى عدى الملك سعيد بن عماد الضيف ، متولى أمور الضيافات والرسل الواصلين الى الحضرة من مجلس الأفضل ، ولا يصل لعتبته أحد لا حاجب الحجاب ولا غيره سوى عدى الملك هذا ، فانه كان يقف من داخل العتبة . وكانت هذه الخدمة فى ذلك الوقت من أجل الخدم وأكبرها ، ثم عادت من أهون الخدم وأقلها .

فعند ذلك قال القاضى أبو الفتح بن قادوس يمدح الوزير المأمون عند مثوله بين يديه ، وقد زيد فى نعوته :

قالوا أتاه النعت وهو السيد ال
مأمون حقا والأجل الأشرف
ومغيث أمة أحمد ومجيرها
ما زادنا شيئا على ما نعرف

قال : ولما استمر حسن نظر المأمون للدولة وجميل أفعاله ، بلغ الخليفة الآمر بأحكام الله ، فشكره وأثنى عليه ، فقال له المأمون : ثم كلام يحتاج الى خلوة .

فقال الخليفة : تكون فى هذا الوقت . وأمر بخلو المجلس .

فعند ذلك مثل بين يدى الخليفة وقال له : يامولانا امتثالنا الأمر صعب ومخالفته أصعب ، وما يتسع خلافه قدام أمراء دولته وهو فى دست خلافته ومنصب آبائه وأجداده ، وما فى قواى ما يرومه منى ، ويكفينى هذا المقدار ، وهيهات أن أقوم به ، والأمر كبير .

فعند ذلك تغير الخليفة ، وأقسم ان كان لى وزير غيرك ، وهو فى نفسى من أيام الأفضل .

وهو مستمر على الاستعفاء الى أن بان له التغير فى وجه الخليفة ، وقال : ما اعتقدت أنك تخرج عن أمرى ، ولا تخالفنى .

فقال له المأمون عند ذلك : لى شروط ، وأنا أذكرها .

فقال له : مهما شئت اشترط .

فقال له : قد كنت بالأمس مع الأفضل ، وكان قد اجتهد فى النعوت وحل المنطقة فلم أفعل .

فقال الخليفة : علمت ذلك فى وقته .

قال : وكان أولاده يكتبون اليه بما يعلمه مولاى من كونى قد ختنه فى الماء والأهل ، وما كان والله العظيم ذلك منى يوما قط ، ثم مع ذلك معاداة الأهل جميعا والأجناد وأرباب الطيالس والأقلام ، وهو يعطينى كل رقعة تصل اليه منهم ، وما سمع كلام أحد منهم فى .

فعند ذلك قال له الخليفة : فاذا كان فعل الأفضل معك ما ذكرته ... ايش يكون فعلى أنا ؟

فقال المأمون : يعرفنى المولى ما يأمر به فأمتثله بشرط ألا يكون عليه زائد .

فأول ما ابتدأ به أن قال : أريد الأموال لا تجبى الا بالقصر ، ولا تصل الكسوات من الطراز والثغور الا اليه ، ولا تفرق الا منه ، وتكون أسمطة الأعياد فيه ، ويوسع

فى رواتب القصور من كل صنف ، وزيادة رسم منديل الكم .

فعند ذلك قال له المأمون : سمعا وطاعة . أما الكسوات والجباية من الأسمطة فمائكون الا بالقصور ، وأما توسعة الرواتب فما ثم من يخالف الأمر ، وأما زيادة رسم منديل الكم فقد كان الرسم فى كل يوم ثلاثين دينارا ، يكون فى كل يوم مائة دينار . ومولانا — سلام الله عليه — يشاهد ما يعمل بعد ذلك فى الركوبات وأسمطة الأعياد وغيرها فى سائر الأيام .

ففرح الخليفة ، وعظمت مسرته .

ثم قال المأمون : أريد بهذا مسطورا بخط أمير المؤمنين ، ويقسم لى فيه بآبائه الطاهرين الا يلتفت لحاسد ولا مبغض ، ومهما ذكر * فىّ يطلعنى عليه ، ولا يأمر فى بأمر سرا ولا جهرا يكون فيه ذهاب نفسى وانحطاط قدرى . وهذه الأيمان باقية الى وقت وفاتى ، فاذا توفيت تكون لأولادى ولمن أخلفه بعدى .

فحضرت الدواة ، وكتب ذلك جميعه ، وأشهد الله تعالى فى آخرها على نفسه . فعندما حصلّ الخط بيد المأمون ، وقف وقبل الأرض وجعله على رأسه . وكان الخط بالأيمان نسختين ، احداهما فى قصبة فضة .

قال : فلما قبض على المأمون فى شهر رمضان سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، أنفذ الخليفة الآمر بأحكام الله يطلب الأيمان ، فنفذ له التى فى القصبة الفضة ، فحرقها لوقتها ، وبقيت النسخة الأخرى عندى ، فعدمت فى الحركات التى جرت .

وقال ابن ميسر فى حوادث سنة خمس عشرة وخمسمائة : وفيها تشرف القائد أبو عبد الله محمد ابن الأمير نور الدولة أبى شجاع فاتك ابن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى — المعروف بابن البطائحى — فى الخامس من ذى الحجة ، وكان قبل ذلك عند الأفضل أستاداره ، وهو الذى قدمه الى هذه المرتبة .

واستقرت نعوته فى سجله المقرر على كافة الأمراء والأجناد : بالأجل المأمون ، تاج الخلافة ، وجيه الملك ، فخر الصنائع ، ذخر أمير المؤمنين . ثم تجدد له من النعوت بعد ذلك : الأجل المأمون ، تاج الخلافة ، عز الاسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين والدنيا . ثم نعت بما كان ينعت به الأفضل ، وهو : السيد الأجل المأمون ، أمير الجيوش ، سيف الاسلام ، ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين .

ولما كان يوم الثلاثاء التاسع من ذى الحجة — وهو يوم الهناء بعيد النحر — جلس المأمون فى داره عند أذان الصبح ، وجاء الناس لخدمته للهناء على طبقاتهم من أرباب السيوف والأقلام ، ثم الأمراء والأستاذون المحنكون والشعراء بعدهم .

فركب الى القصر ، وأتى باب الذهب ، فوجد المرتبة المختصة بالوزارة قد هيئت له فى موضعها الجارى به العادة ، وأغلق الباب الذى عندها على الرسم المعتاد لوزراء السيوف والأقلام . وهذا الباب يعرف بباب السرداب .

(*) ص٤٤١ جـ١ ، ط.بولاق .

فعندما شاهد الحال فى المرتبة ، توقف عن الجلوس عليها لأنها حالة لم يجر معه حديث فيها ، ثم ألجأته الضرورة لأجل حضور الأمراء الى الجلوس ، فجلس عليها ، وجلس أولاده الثلاثة عن يمينه ، وأخواه عن يساره ، والأمراء المطوقون خاصة دون غيرهم قيام بين يديه ، فانه لا يصل أحد الى هذا المكان سواهم . فلم يكن بأسرع من أن فتح الباب ، وخرج عدة من الأستاذين المحنكين بسلام أمير المؤمنين .

وخرج اليه الأمير الثقة ، متولى الرسالة وزمام القصور ، فعند حضوره وقف له أولاد المأمون وقبل الأرض ، وعاد فجلس مكانه ، المرتبة وقال : أمير المؤمنين يرد على السيد الأجل المأمون السلام . فوقف عند ذلك المأمون وقبل الأرض ، وعاد فجلس مكانه . وتأخر الأمير الى أن نزل من المصطبة ، وقبل الأرض وقبلّ يد المأمون ، ودخل من فوره من الباب ، وأغلق الباب على حاله على ما كان عليه الأفضل .

وكان الأفضل يقول : ما أزال أعد نفسى سلطانا حتى أجلس على تلك المرتبة ، والباب يغلق فى وجهى والدخان فى أنفى ، فان الحمام كانت من خلف الباب فى السرداب .

ثم فتح الباب وعاد الثقة ، وأشار بالدخول الى القصر ، فدخل الى المكان الذى هيئ له وعاد لمجلس الوزارة ، وبقى الأمراء بالدهاليز الى أن جلس الخليفة . واستفتح القراء ، واستدعى المأمون فحضر بين يديه ، وسلم عليه أولاده واخوته ، وأحل الأمراء على قدر طبقاتهم : أولهم أرباب الأطواق ، ويليهم أرباب العماريات والأقصاب ، ثم الضيوف والأشراف .

ثم دخل ديوان المكاتبات وسلم بهم الشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة ، ثم ديوان الانشاء وسلم بهم الشريف ابن أنس الدولة ، ثم بقية الطالبيين من الأشراف ، ثم سلم القاضى ابن الرسعنى بشهوده ، والداعى ابن عبد الحق بالمؤمنين ، ثم سلم القائد مقبل مقدم الركاب الآمرى بجميع المقدمين الآمرية ، ثم سلم بعدهم الشيخ أبو البركات بن أبى الليث متولى ديوان المملكة . ثم دخل الأجناد من باب البحر ، وسلم كل طائفة بمقدمها .

فلما انقضى ذلك دخل والى القاهرة ووالى مصر ، وسلم كل منهما ببياض أهل البلدين ، ثم دخل البطرك بالنصارى وفيهم كتاب الدولة من النصارى ، ورئيس اليهود ومعه الكتاب من اليهود ، ثم سلم المقربون وقد قارب القصر . ودخل الشعراء على طبقاتهم ، وأنشد كل منهم ما سمحت به قريحته .

قال : فكان هذا رتبة الوزير المأمون .

قال ابن المأمون : وأما ما قرر للوزارة عينا فى الشهر ، بغير ايجاب بل يقبض من بيت المال ، فهو ثلاثة آلاف دينار .

تفصيلها : ما هو على حكم النيابة فى العلامة ألف دينار ، وما هو على حكم الراتب ألف وخمسمائة دينار ، وما هو عن مائة غلام — برسم مجلسه وخدمته — لكل غلام خمسة دنانير فى الشهر .

فأما الغلمان الركابية ، وغيرهم من الفراشين والطباخين ، فعلى حكم ما يرغب فى اثباته .

وفى السنة : من الاقطاعات خمسون ألف دينار ، منها دهشور وجزيرة الذهب ، وبقية الجملة صنفقات . ومن البساتين ثلاثة : بستان * الأمير تميم ، وبستانان بكوم أشفين . ومن القوت (يعنى القمح) ، ومن القضم (يعنى الشعير) والبرسيم فى السنة عشرون ألف اردب قمحا وشعيرا . ومن الغنم برسم مطابخه ساقة من المراحات ثمانية آلاف رأس .

وأما الحيوان والأحطاب وجميع التوابل ، العال منها والدون ، فمهما استدعاه متولى المطابخ يطلق من دار أفتكين وشون الأحطاب وغير ذلك .

وقد تقدم مقرر كسوة الوزارة فى العيدين ، وفصلى الشتاء والصيف ، وموسم عيد الغدير ، وفتح الخليج ، وغير ذلك من غرتى شهر رمضان وأول العام وغيره ، كما سيرد فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

وقد استقصيت سير الوزراء فى كتابى الذى سميته « تلقيح العقول والآراء فى تنقيح أخبار الجلة الوزراء » فانظره .

ذكر الحجر التى كانت برسم الصبيان الحجرية

وكان بجوار دار الوزارة مكان كبير يعرف بالحجر (جمع حجرة) فيها الغلمان المختصون بالخلفاء ، كما أدركنا بالقلعة البيوت التى كان يقال لها الطباق .

وكانت هذه الحجر من جانب حارة الجوانية ، والى حيث المسجد الذى يعرف بمسجد القاصد ، تجاه باب الجامع الحاكمى الذى يفضى الى باب النصر .

فمن حقوق هذه الحجر : دار الأمير بهادر اليوسفى السلاحدار الناصرى ، التى تجاور المسجد الكائن على يمنة من سلك من باب الجوانية طالبا باب النصر ، ومنها الحوض المجاور لهذه الدار ، ودار الأمير أحمد قريب الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والمسجد المعروف بالنخلة ، وما يجاوره من القاعتين اللتين تعرف احداهما بقاعة الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وما فى جانبها الى مسجد القاصد ، وما وراء هذه الدور .

وكان لهؤلاء الحجرية اصطبل برسم دوابهم سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى . وما زالت هذه الحجر باقية ، بعد انقضاء دولة الخلفاء الفاطميين ، الى ما بعد السبعمائة فهدمت ، وابتنى الناس مكانها الأماكن المذكورة .

قال ابن أبى طى عن المعز لدين الله : وجعل كل ماهر فى صنعة صانعا للخاص ، وأفرد لهم مكانا برسمهم ، وكذلك فعل بالكتاب والأفاضل ، وشرط على ولاة الأعمال عرض أولاد الناس بأعمالهم ، فمن كان ذا شهامة وحسن خلقة أرسله ليخدم فى الركاب . فسيروا اليه عالما من أولاد الناس ، فأفرد لهم دورا وسماها الحجر .

(*) ص٤٤٢ ج١ ، ط.بولاق .

وقال ابن الطوير : وكوتب الأفضل بن أمير الجيوش من عسقلان باجتماع الفرنج . فاهتم للتوجه اليها ، فلم يبق ممكنا من مال وسلاح وخيل ورجال ، واستناب أخاه المظفر أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بدر بين يدى الخليفة مكانه ، وقصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج ، فوصل الى عسقلان ، وزحف عليها بذلك العسكر ، فخذل من جهة عسكره — وهى نوبة النصة — وعلم أن السبب فى ذلك من جنده . ولما غلب حرق جميع ما كان معه من الآلات .

وكان عند الفرنج شاعر منتجع اليهم ، فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج :

نصرت بسيفك دين المسيح ... فلله درك من صنجل
وما سمع الناس فيما رووه ... بأقبح من كسرة الأفضل

فتوصل الأفضل الى ذبح هذا الشاعر .

ولم ينتفع بعد هذه النوبة أحد من الأجناد بالأفضل ، وحظر عليهم النعوت ، ولم يسمع لأحد منهم كلمة .

وأنشأ سبع حجر ، واختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف راجل ، وقسمهم فى الحجر ، وجعل لكل مائة زماما ونقيبا ، وزم الكل بأمير يقال له الموفق ، وأطلق لكل منهم مايحتاج اليه من خيل وسلاح وغيره ، وعنى بهؤلاء الأجناد . فكان اذا دهمه أمر مهم ، جهزهم اليه مع الزمام الأكبر .

وقال ابن المأمون : وكان من جملة الحجرية الذين يحضرون السماط رجل يعرف بابن زحل . وكان يأكل خروفا كبيرا مشويا ويستوفيه الى آخره ، ثم يقدم له صحن كبير من القصور المعمولة بالسكر ، وجميع صنوف الحيوانات على اختلاف أجناسها ما لم يعمل قط مثله من الأطعمة ، فيأكل معظمه . وكان يقعد فى طرف المدورة حتى يكون بالقرب من نظر الخليفة لأميزته ، وكان من الأجناد وأسر فى أيام الأفضل ، وقيده الفرنجى الذى أسره وعذبه ، وطالت مدته فى الأسر وكان فقيرا .

فاتفق أن ذكر للفرنجى كثرة أكله ، فأراد أن يمتحنه ، فقال له : أحضر لى عجلا ، أكبر عجل عندكم ، آكله الى آخره .

فضحك منه الفرنجى ، ونقص عقله ، وأتاه بعجل كبير ، ويقال بخنزير ، فقال له : اذبحه واشوه ، وائتنى معه بجرة خل . ثم قال : اذا أكلته ما يكون لى عندك ؟

فغلط الفرنجى وقال له : أطلقك تمضى الى أهلك .

فاستحلفه على ذلك ، وغلظ عليه اليمين .

وأحضر الفرنجى عدة من أصحابه ليشاهدوا فعله . فلما استوفى العجل جميعه ، صلب كل من الحاضرين على وجهه * ، وتعجب من فعله ، وأطلقه .

فقال : أخاف من أن يعتقد أننى هربت ، فأرد اليكم .

فأحضر الفرنجى من العربان من سلمه اليهم ولم يشعر به الا بباب عسقلان فطلع منها ، وأعفى بعد ذلك من السفر ، وبقى برسم الأسمطة .

(*) ص٤٤٣ ج١ ، ط.بولاق .

وقال ابن عبد الظاهر : الحجر قرب من باب النصر ، وهو مكان كبير فى صف دار الوزارة ، الى جانبه باب القوس الذى يسمى باب النصر قديما ، على يمنة الخارج من القاهرة ... كان تربى فيه جماعة من الشباب يسمون صبيان الحجر يكونون فى جهات متعددة ، وهم يناهزون خمسة آلاف نسمة . ولكل حجرة اسم تعرف به ، وهى المنصورة والفتح ، والجديد وغير ذلك ... مفردة لهم ، وعندهم سلاحهم .

فاذا جردوا خرج كل منهم لوقته لا يكون له ما يمنعه ، وكانوا فى ذلك على مثال الذؤابة والأستار ، وكانوا اذا سمى الرجل منهم بعقل وشجاعة خرج من هناك الى الامرة أو التقدمة ، مثل على بن السلار وغيره ، ولا يأوى أحد منهم الا بحجرته بفرسه وعدته وقماشه . وللصبيان الحجرية حجرة مفردة : عليهم أستاذون يبيتون عندهم ، وخدام برسمهم .

ذكر المناخ السعيد

وكان من وراء القصر الكبير ، فيما يلى ظهر دار الوزارة الكبرى والحجر ، المناخ . وهو موضع برسم طواحين القمح التى تطحن جرايات القصور ، وبرسم مخازن الأخشاب والحديد ونحو ذلك .

قال ابن الطوير : وأما المناخات ففيها من الحواصل ما لا يحصره الا القلم من الأخشاب والحديد والطواحين النجدية والغشيمة ، وآلات الأساطيل من الأسلحة المعمولة بيد الفرنج القاطنين فيه ، والقنب والكتان والمنجنيقات المعدة ، والطواحين الدائرة برسم الجرايات المقدم ذكرها ، والزفت فى المخازن الذى عليه الأتربة ولا ينقطع الا بالمعاول .
وقد أدركت هذه الدولة (يعنى دولة بنى أيوب) منه شيئا كثيرا فى هذا المكان انتفع به .

واليه يأوى الفرنج فى بيوت برسمهم ، وكانت عدتهم كثيرة ، ففيه من النجارين والجزارين والدهانين والخبازين والخياطين والنعلة ، ومن العجانين والطحانين فى تلك الطواحين ، والفرانين فى أفران الجرايات .

وفى هذا المكان مادة أكثر أهل الدولة ، وحاميه أمير من الأمراء ، ومشارفه من العدول . وفيه أيضا شاهد النفقات ، وعامل يتولى التنفيذ مع المشارف ، وعامل برسم نظم الحساب من تعلقاتهما بجار غير جواريهم ، لأن أوقاتهم مستغرقة فى مباشرة الاطلاقات وغيرها .

وذكر ابن الطوير أن المأمون بن البطائحى استجد طواحين برسم الرواتب .

ذكر اصطبل الطارمة

الطارمة بيت من خشب ، وهو دخيل . وكان بجوار القصر الكبير ، تجاه باب الديلم من شرقى الجامع الأزهر ، اصطبل .

قال ابن الطوير : وكان لهم اصطبلان : أحدهما يعرف بالطارمة يقابل قصر الشوك ، والآخر بحارة زويلة يعرف بالجميزة .

وكان للخليفة الحاضر ما يقرب من ألف رأس — فى كل اصطبل النصف من ذلك — منها ما هو برسم الخاص ، ومنها ما يخرج برسم العوارى لأرباب الرتب والمستخدمين دائما ، ومنها ما يخرج أيام المواسم . وهى التغيرات المتقدم ذكر ارسالها لأرباب الرتب والخدم .

والمرتب لكل اصطبل منهما : لكل ثلاثة أرؤس سائس واحد ملازم ، ولكل واحد منها شداد برسم تسييرها . وفى كل اصطبل بئر بساقية تدور الى أحواض ، ومخازن فيها الشعير والأقراط اليابسة المحمولة من البلاد اليها ، ولكل عشرين رجلا من السواس عريف يلتزم دركهم بالضمان ، لأنهم الذين يتسلمون من خزائن السروج المركبات بالحلى ، ويعيدونها اليها كما تقدم ذكره فى خزائن السروج .

ولكل من الاصطبلين رائض كأمير اخور ، ولهما ميرة وجامكية متسعة . وللعرفاء على السواس ميرة ، وللجماعات الجرايات من القمح والخبز خارجا عن الجامكيات .

فاذا بقى لأيام المواسم التى يركب فيها الخليفة بالمظلة مدة أسبوع ، أخرج الى كل رائض فى الاصطبل مع أستاذ مظلة ديبقى مركبة على قفطارية مدهونة ، ويختص الرائض على ما يركبه الخليفة اما فرسين أو ثلاثة ، وعليهما المركبات الحلى التى يركبها الخليفة ، فيركبها الرائض بحائل بينه وبين السرج ، ويركب الأستاذ بغلة مظلة ، ويحمل تلك المظلة ويسير فى براح الاصطبل — وفيه سعة عظيمة — مارا وعائدا وحولها البوق والطبل . فيكرر ذلك عدة دفعات فى كل يوم مدة ذلك الأسبوع ، ليستقر ما يركبه الخليفة من الدواب على ذلك ، ولا ينفر منه فى حال الركوب عليه ، فيعمل كذلك فى كل اصطبل من الاصطبلين .

والدواب والبغلة التى تتهيأ هى التى يركبها الخليفة وصاحب المظلة يوم الموسم ، ولا يختل ذلك . ويقال انه ما راثت دابة * ولا بالت والخليفة راكبها ، ولا بغلة صاحب المظلة أيضا الى حين نزولهما عنهما .

وكان فى الساحل بطريق مصر من القاهرة ، فى البساتين المنسوبة الى ملك صارم الدين حللبا ، شونتان مملوءتان تبنا ، معبيتان كتعبيته فى المراكب كالجبلين الشاهقين . ولهما مستخدمون حام ومشارف وعامل بجامكية جيدة .

تصل بذلك المراكب التبانة المؤهلة له من موظف الأتبان بالبلاد الساحلية ، وغيرها مما يدخل اليه فى أيام النيل . ولها رؤساء ، وأمرها جار فى ديوان العمائر والصناعة . والانفاق منها بالتوقيعات السلطانية للاصطبلات المذكورة ، وغيرها من الأواسى الديوانية وعوامل بساتين الملك .

واذا جرى بين المستخدمين خلف فى الشنف التبن المعتبر ، عادوا الى قبضه بالوزن ، فيكون الشنف التبن ثلثمائة وستين رطلا بالمصرى نقيا . واذا أنفقوا دريسا قد تغيرت صورة قتة ، كان عن القتة اثنا عشر رطلا . ولم يزل ذلك كذلك الى آخر وقته .

(*) ص٤٤٤ جـ١ ، ط. بولاق .

ومما يخبر عنهم أنهم لم يركبوا حصانا أدهم قط ، ولا يرون اضافته الى دوابهم بالاصطبلات .

وقال ابن عبد الظاهر : اصطبل الطارمة كان اصطبلا للخليفة ، فلما زالت تلك الأيام اختط وبنى آدرا .

ذكر دار الضرب وما يتعلق بها

وكان بجوار خزانة الدرق ، التى هى اليوم خان مسرور الكبير ، دار الضرب . وموضعها حينئذ كان بالقشاشين التى تعرف اليوم بالخراطين . وصار مكان دار الضرب اليوم درب يعرف بدرب الشمسى فى وسط سوق السقطيين المهامزيين . وباب هذا الدرب تجاه قيسارية العصفر .

فاذا دخلت هذا الدرب ، فما كان على يسارك من الدور فهو موضع دار الضرب ، وبجوارها دار الوكالة الحافظية . فجعلت الحوانيت التى على يمينة من سلك من رأس الخراطين تجاه سوق العنبر ، طالبا الجامع الأزهر ، فى ظهر دار الضرب .

وأنشأ هذه الحوانيت وما كان يعلوها من البيوت الأمير المعظم خمرتاش الحافظى ، وجعلها وقفا ، وقال فى كتاب وقفها : وحد هذه الحوانيت الغربى ينتهى الى دار الضرب والى دار الوكالة . وقد صارت هذه الحوانيت الآن من جملة أوقاف المدرسة الجمالية مما اغتصب من الأوقاف .

وما زالت دار الضرب هذه فى الدولة الفاطمية باقية الى أن استبد السلطان صلاح الدين ، فصارت دار الضرب حيث هى اليوم كما تقدم ذكره .

وكان لدار الضرب المذكورة فى أيامهم أعمال ، ويعمل بها دنانير الغرة ودنانير خميس العدس ، ويتولاها قاضى القضاة لجلالة قدرها عندهم .

قال ابن المأمون : وفى شوال منها — وهى سنة ست عشرة وخمسمائة — أمر الأجل ببناء دار الضرب بالقاهرة المحروسة ، لكونها مقر الخلافة وموطن الامامة ، فبنيت بالقشاشين قبالة المارستان ، وسميت بالدار الآمرية ، واستخدم لها العدول ، وصار دينارها أعلى عيارا من جميع ما يضرب بجميع الأمصار ... انتهى .

وكانت دار الضرب المذكورة تجاه المارستان فكان المارستان بجوار خزانة الدرق : فما عن يمينك الآن ، اذا سلكت من رأس الخراطين ، فهو موضع دار الضرب ودار الوكالة هكذا الى الحمام التى بالخراطين وما وراءها . وما عن يسارك فهو موضع المارستان .

قال ابن عبد الظاهر : فى أيام المأمون بن البطائحى ، وزير الآمر بأحكام الله ، بنيت دار الضرب فى القشاشين قبالة المارستان الذى هناك ، وسميت بالدار الآمرية .

دار العلم الجديدة : وكان بجوار القصر الكبير الشرقى دار فى ظهر خزانة الدرق من باب تربة الزعفران ، لما أغلق الأفضل بن أمير الجيوش دار العلم التى كان الحاكم بأمر الله

فتحها فى باب التبانين ، اقتضى الحال بعد قتله اعادة دار العلم .

فامتنع الوزير المأمون من اعادتها فى موضعها ، فأشار الثقة زمام القصور بهذا الموضع ، فعمل دار العلم فى شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وولاها لأبى محمد حسن بن آدم ، واستخدم فيها مقرئين . ولم تزل دار العلم عامرة حتى زالت الدولة الفاطمية .

قال ابن عبد الظاهر : رأيت فى بعض كتب الأملاك القديمة ما يدل على أنها قريبة من القصر النافعى . وكذا ذكر لى السيد الشريف الحلبى أنها دار ابن أزدمر ، المجاورة لدار سكنى الآن ، خلف فندق مسرور الكبير . وكذلك قال لى والدى رحمه الله . وقد بناها جمال الدين الأستادار الحلبى دارا عظيمة غرم عليها مائة ألف وأكثر من ذلك على ما ذكره ... انتهى .

وموضع دار العلم هذه دار كبيرة ذات زلاقة بجوار درب ابن عبد الظاهر ، قريبا من خان الخليلى بخط الزراكشة العتيق .

موسم أول العام : قال ابن المأمون : وأسفرت غرة سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وبادر المستخدمون * فى الخزائن وصناديق الانفاق بحمل ما يحضر بين يدى الخليفة من عين وورق من ضرب السنة المستجدة ، ورسم جميع من يختص به من اخوته وجهاته وقرابته ، وأرباب الصنائع والمستخدمات ، وجميع الأستاذين العوالى والأدوان . وثنوا بحمل ما يختص بالأجل المأمون وأولاده واخوته ، واستأذنوا على تفرقة ما يختص بالأجل المأمون وأولاده والأصحاب والحواشى والأمراء والضيوف والأجناد ، فأمروا بتفرقته . والذى اشتمل عليه المبلغ فى هذه السنة نظير ما كان قبلها .

وجلس المأمون باكرا على السماط بداره ، وفرقت الرسوم على أرباب الخدم والمميزين من جميع أصنافه على ما تضمنته الأوراق ، وحضرت التعاشير والتشريفات وزى الموكب الى الدار المأمونية ، وتسلم كل من المستخدمين المدارج بأسماء من شرف بالحجبة ومصفات العساكر وترتيب الأسمطة ، وأصعد كل منهم الى شغله وتوجه لخدمته .

ثم ركب الخليفة ، واستدعى الوزير المأمون ، ثم خرج من باب الذهب وقد نشرت مظلته ، وخدمت الرهجية ، ورتب الموكب والجنائب ومصفات العساكر عن يمينه وشماله ، وجميع تجار البلدين — من الجوهريين والصيارف والصاغة والبزازين وغيرهم — قد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة .

وخرج من باب الفتوح ، والعساكر فارسها وراجلها بتجملها وزيها ، وأبواب حارات العبيد معلقة بالستور ، ودخل من باب النصر ، والصدقات تعم المساكين ، والرسوم تفرق على المستقرين ... الى أن دخل من باب الذهب ، فلقيه المقرئون بالقرآن الكريم فى طول الدهاليز ، الى أن دخل خزانة الكسوة الخاص

(*) ص٤٤٥ ج١ ، ط بولاق .

وغير ثياب الموكب بغيرها ، وتوجه الى تربة آبائه للترحيم على عادته ، وبعد ذلك الى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة .

وعبيت الأسمطة . وجرى الحال فيها ، وفى جلوس الخليفة ومن جرت عادته ، وتهيئة قصور الخلافة وتفرقة الرسوم ، على ما هو مستقر . وتوجه الأجل المأمون الى داره ، فوجد الحال فى الأسمطة على ما جرت به العادة ، والتوسعة فيها أكثر مما تقدمها .

وكذلك الهناء فى صبيحة الموسم بالدار المأمونية والقصور ، وحضر من جرت العادة بحضوره للهناء ، وبعدهم الشعراء على طبقاتهم ، وعادت الأمور فى أيام السلام والركوبات وترتيبها على المعهود .

وأحضر كل من المستخدمين فى الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكر والمطالعات : مما تحتاج اليه الدولة فى طول السنة ، وينعم به ويتصدق ، ويحمل الى الحرمين الشريفين من كل صنف على ما فصل فى التذاكر على يد المندوبين ، ويحمل الى الثغور ويخزن من سائر الأصناف ما يستعمل ويباع فى الثغور والبلاد ، والاستيمار وجريدة الأبواب ، وتذكرة الطراز والتوقيع عليها .

وقال ابن الطوير : فاذا كان العشر الأخير من ذى الحجة فى كل سنة ، انتصب كل من المستخدمين بالأماكن لاخراج آلات الموكب من الأسلحة وغيرها ، فيخرج من خزائن الأسلحة ما يحمله صبيان الركاب حول الخليفة من الأسلحة — وهو الصماصم المصقولة المذهبة مكان السيوف المحدبة ، والدبابيس الكيمخت الأحمر والأسود ورؤوسها مدورة مضرسة ، واللتوت كذلك ورؤوسها مستطيلة مضرسة أيضا ، وآلات يقال لها المستوفيات ، وهى عمد حديد من طول ذراعين مربعة الأشكال ، بمقابض مدورة ، فى أيديهم بعدة معلومة من كل صنف — فيتسلمها نقباؤهم ، وهى فى ضمانهم ، وعليهم اعادتها الى الخزائن بعد تقضى الخدمة بها .

ويخرج للطائفة من العبيد الأقوياء السودان الشباب — ويقال لهم أرباب السلاح الصغر ، وهم ثلثمائة عبد — لكل واحد حربتان بأسنة مصقولة تحتها جلب فضة كل اثنتين فى شرابة ، وثلثمائة درقة بكوامخ فضة ... يتسلم ذلك عرفاؤهم على ما تقدم ، فيسلمونه للعبيد لكل واحد حربتان ودرقة .

ثم يخرج من خزانة التجمل — وهى من حقوق خزائن السلاح — القصب الفضة برسم تشريف الوزير والأمراء أرباب الرتب ، وأزمة العساكر والطوائف من الفارس والراجل . وهى رماح ملبسة بأنابيب الفضة المنقوشة بالذهب الا ذراعين منها ، فيشد فى ذلك الخالى من الأنابيب عدة من المعاجر الشرب الملونة ، ويترك أطرافها المرقومة مسبلة كالصناجق ، وبرؤوسها رمامين منفوخة فضة مذهبة وأهلة مجوفة كذلك ، وفيها جلاجل لها حس اذا تحركت ، وتكون عدتها ما يقرب من مائة .

ومن العماريات — وهى شبه الكخاوات — من الديباج الأحمر وهو أجلها والأصفر والقرقوبى والسقلاطون ، مبطنة مضبوطة بزنانير حرير ، وعلى دائر التربيع منها مناطق

بكوامخ فضة مسمورة فى جلد ... نظير عدد القصب : فيسير من القصب عشرة ، ومن العماريات مثلها من الحمر خاصة .

ويخرج للوزير خاصة لواءان على رمحين طويلين ملبسين بمثل تلك الأنابيب ، ونفس اللواء ملفوف غير منشور . وهذا التشريف يسير أمام الوزير ، وهو للأمراء من ورائهم . ثم يسير للأمراء أرباب الرتب فى الخدم — وأولهم صاحب الباب ، وهو أجلهم — خمس قصبات وخمس عماريات ، ويرسل لأسفهسلار * العساكر أربع قصبات وأربع عماريات من عدة ألوان ، ومن سواهما من الأمراء على قدر طبقاتهم ثلاث ثلاث ، واثنتان اثنتان ، وواحدة واحدة .

ثم يخرج من البنود الخاص الديبقى المرقوم الملون عشرة برماح ملبسة بالأنابيب ، وعلى رؤوسها الرمامين والأهلة ، للوزير خاصة . ودون هذه البنود مما هو من الحرير على رماح غير ملبسة ، ورؤوسها وماميها من نحاس مجوف مطلى بالذهب . . فتكون هذه أمام الأمراء المذكورين ، من تسعة الى سبعة أذرع برأسها طلعة مصقولة ، وهى من خشب القنطاريات داخلة فى الطلعة وعقبها حديد مدور أسفل ، فهى فى كف حاملها الأيمن ، وهو يفتلها فيه فتلا متدارك الدوران ، وفى يده اليسرى نشابة كبيرة يخطر بها ، وعدتها ستون مع ستين رجلا يسيرون رجالة فى الموكب يسيرون يمنة ويسرة . ثم يخرج من النقارات حمل عشرين بغلا ، على كل بغل ثلاث ، مثل نقارات الكوسات بغير كوسات — يقال لها طبول — فيتسلمها صناعها ، ويسيرون فى الموكب اثنين اثنين ، ولها حس مستحسن ، وكان لها ميزة عندهم فى التشريف .

ثم يخرج لقوم متطوعين — بغير جار ولا جراية — تقرب عدتهم من مائة رجل ، لكل واحد درقة من درق اللمط وهى واسعة وسيف ، ويسيرون أيضا رجالة فى الموكب . هذا وظيفة خزائن السلاح .

ثم يحضر حامى خزائن السروج — وهو من الأستاذين المحنكين — اليها مع مشارفها — وهو من الشهود المعدلين — فيخرج منها برسم خاص الخليفة من المركبات الحلى ما هو برسم ركوبه وما يجنب فى موكبه مائة سرج : منها سبعون على سبعين حصانا ، ومنها ثلاثون على ثلاثين بغلة .

كل مركب مصنوع من ذهب ، أو من ذهب وفضة ، أو من ذهب منزل فيه المينا ، أو من فضة منزلة بالمينا ، وروادفها وقرابيسها من نسبتها ، ومنها ما هو مرصع بالجواهر الفائقة .

وفى أعناقها الأطواق الذهب وقلائد العنبر ، وربما يكون فى أيدى وأرجل أكثرها خلاخل مسطوحة دائرة عليها ، ومكان الجلد من السروج الديباج الأحمر والأصفر وغيرهما من الألوان ، والسقلاطون المنقوش بألوان الحرير ... قيمة كل دابة وما عليها من العدة ألف دينار »

(*) ص٤٤٦ جـ١ ، ط. بولاق »

فيشرف الوزير من هذه بعشرة حصن لركوبه وأولاده واخوته ومن يعز عليه من أقاربه .

ويسلم ذلك لعرفاء الاصطبلات ، بالعرض عليهم من الجرائد التى هى ثابتة فيها علاماتها فى أماكنها وأعدادها ، وعدد كل مركب منقوش عليه مثل أول وثان وثالث الى آخرها — كما هو مسطور فى الجرائد — فيعرف بذلك قطعة قطعة ، ويسلمها العرفاء للشدادين بضمان عرفائهم الى أن تعود ، وعليهم غرامة ما نقص منها واعادتها برمتها .

ثم يخرج من الخزائن المذكورة لأرباب الدواوين المرتبين فى الخدم ، على مقاديرهم ، مركبات أيضا من الحلى — دون ما تقدم ذكره — ما تقرب عدته من ثلثمائة مركب على خيل وبغلات وبغال ، يتسلمها العرفاء المتقدم ذكرهم على الوجه المذكور ، وينتدب حاجب يحضر على التفرقة لفلان وفلان من أرباب الخدم سيفا وقلما ، فيعرف كل شداد صاحبه ، فيحضر اليه بالقاهرة ومصر سحر يوم الركوب ، ولهم من الركاب رسوم من دينار الى نصف دينار الى ثلث دينار .

فاذا تكمل هذا الأمر ، وسلم أيضا الجمالون بالمناخات أغشية العمارات ، ويكون ارلاحة فى ذلك كله الى آخر الثامن والعشرين من ذى الحجة ، وأصبح اليوم التاسع والعشرين من سلخه على رأى القوم ... عزم الخليفة على الجلوس فى الشباك لعرض دوابه الخاص المقدم ذكرها ، ويقال له يوم عرض الخيل .

فيستدعى الوزير بصاحب الرسالة — وهو من كبار الأستاذين المحنكين وفصحائهم وعقلائهم ومحصليهم — فيمضى الى استدعائه فى هيئة المسرعين على حصان دهراج ، امتثالا لأمر الخليفة بالاسراع ، على خلاف حركته المعتادة . فاذا عاد مثل بين يدى الخليفة وأعلمه باستدعائه الوزير .

فيخرج راكبا من مكانه فى القصر — ولا يركب أحد فى القصر الا الخليفة — وينزل فى السدلا بدهليز باب الملك الذى فيه الشباك ، وعليه من ظاهره للناس ستر . فيقف من جانبه الأيمن زمام القصر ، ومن جانبه الأيسر صاحب بيت المال ، وهما من الأستاذين المحنكين .

فيركب الوزير من داره وبين يديه الأمراء ، فاذا وصل الى باب القصر ترجل الأمراء وهو راكب ، ويكون دخوله فى هذا اليوم من باب العيد ، ولا يزال راكبا الى أول باب من الدهاليز الطوال ، فينزل هناك ويمشى فيها وحواليه حاشيته وغلمانه وأصحابه ومن يراه من أولاده وأقاربه ، ويصل الى الشباك فيجد تحته كرسيا كبيرا من كراسى البلق الجيد ، فيجلس عليه ورجلاه تطأ الأرض .

فاذا استوى جالسا ، رفع كل أستاذ الستر من جانبه ؛ فيرى الخليفة جالسا فى المرتبة الهائلة ، فيقف ويسلم ويخدم بيده الى الأرض ثلاث مرات ، ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه فيجلس ، ويستفتح القراء بالقراءة قبل كل شىء بآيات لائقة بذلك الحال مقدار نصف ساعة ، ثم يسلم الأمراء .

ويسرع فى عرض الخيل والبغال الخاص المقدم ذكرها دابة دابة ، وهى هادئة كالعرائس بأيدى شداديها ، الى أن يكمل * عرضها ، فيقرأ القراء لختم ذلك الجلوس ، ويرخى الأستاذان الستر ، فيقدم الوزير ويدخل اليه ويقبل يديه ورجليه ، وينصرف عنه الى داره ، فيركب من مكان نزوله والأمراء بين يديه لوداعه الى داره ركبانا ومشاة الى قريب المكان .

فاذا صلى الخليفة الظهر بعد انقضاض ما تقدم ، جلس لعرض ما يلبسه فى عيد تلك الليلة — وهو يوم افتتاح العام — بخزائن الكسوات الخاص ، ويكون لباسه فيه البياض غير الموشح ، فيعين على منديل خاص وبدلة .

فأما المنديل فيسلم لشاد التاج الشريف ، ويقال له شدة الوقار — وهو من الأستاذين المحنكين ، وله ميزة لممارسة ما يعلو تاج الخليفة — فيشدها شدة غريبة لا يعرفها سواه ... شكل الاهليجة .

ثم يحضر اليه اليتيمة ، وهى جوهرة عظيمة لا يعرف لها قيمة ، فتنظم هى وحواليها مادونها من الجواهر ، وهى موضوعة فى الحافر ، وهو شكل الهلال من ياقوت أحمر ليس له مثال فى الدنيا ، فتنظم على خرقة حرير أحسن وضع ، ويخيطها شاد التاج بخياطة خفيفة ممكنة ... فتكون بأعلى جبهة الخليفة — ويقال ان زنة الجوهرة سبعة دراهم ، وزنة الحافر أحد عشر مثقالا — وبدائرها قصبة زمرذ ذبابى له قدر عظيم .

(*) ص٤٤٧ جـ١ ، ط. بولاق .

ثم يؤمر بشد المظلة التى تشابهها تلك البدلة المحضرة بين يديه ، وهى مناسبة للثياب ، ولها عندهم جلالة لكونها تعلو رأس الخليفة . وهى اثنا عشر شوركا ، عرض سفل كل شورك شبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلث ، وآخر الشورك من فوق دقيق جدا ، فيجتمع ما بين الشوارك فى رأس عودها بدائرة ، وهو قنطارية من الزان ملبسة بأنابيب الذهب ، وفى آخر أنبوبة تلى الرأس من جسمه فلكة بارزة مقدار عرض ابهام ، فيشد آخر الشوارك فى حلقة من ذهب ، ويترك متسعا فى رأس الرمح وهو مفروض ، فتلقى تلك الفلكة فتمنع المظلة من الحدور فى العمود المذكور . ولها أضلاع من خشب الخلنج مربعات مكسوة بوزن الذهب ، على عدد الشوارك ، خفاف فى الوزن طولها طول الشوارك ، وفيها خطاطيف لطاف وحلق يمسك بعضها بعضا ، وهى تنضم وتنفتح على طريقة شوكات الكيزان ، ولها رأس شبه الرمانة ، ويعلوه رمانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر يظهر للعيان ، ولها رفرف دائر يفتحها من نسبتها عرضه أكثر من شبر ونصف ، وسفل الرمانة فاصل يكون مقداره ثلاث أصابع . فاذا أدخلت الحلقة الذهب الجامعة لآخر شوارك المظلة فى رأس العمود ، ركبت الرمانة عليها ولفت فى عرض ديبقى مذهب ، فلا يكشفها منه الا حاملها عند تسليمها اليه أول وقت ركوبه .

ثم يؤمر بشد لواءى الحمد المختصين بالخليفة ، وهما رمحان طويلان ملبسان بمثل أنابيب عمود المظلة الى حد نصفهما ، وهما من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب ، وغير

منصوبين بل ملفوفين على جسم الرمحين ، ويعطيان ليخرجا بخروج المظلة الى أميرين من سعية الخليفة برسم حملهما .

ويخرج إحدى وعشرون راية لطاف من الحرير المرقوم ملونة بكتابة تخالف ألوانها من غيره ، ونص كتابتهما « نصر من الله وفتح قريب » على رماح مقومة من القنا المنتقى ، طول كل راية ذراعان فى عرض ذراع ونصف ، فى كل واحدة ثلاث طرازات ... فتسلم لإحد وعشرين رجلا من فرسان صبيان الخاص ، ولهم بشارة عود الخليفة سالما عشرون دينارا .

ثم يخرج رمحان رؤوسهما أهلة من ذهب صامتة ، فى كل واحد سبع من ديباج أحمر وأصفر ، وفى فمه طارة مستديرة يدخل فيها الريح ، فينتفخان فيظهر شكلهما ، ويتسلمهما فارسان من صبيان الخاص ، فيكونان أمام الرايات ..

ثم يخرج السيف الخاص ، وهو من صاعقة وقعت على ما يقال ، وجلبته ذهب مرصعة بالجوهر فى خريطة مرقومة بالذهب ، لا يظهر الا رأسه ليسلم الى حامله وهو أمر عظيم القدر . وهذه عندهم رتبة جليلة المقدار ، وهو أكبر حامل .

ثم يخرج الرمح ، وهو رمح لطيف فى غلاف منظوم من اللؤلؤ ، وله سنان مختصر بحلية ذهب ، ودرقة بكوامخ ذهب ، فيها سمة منسوبة الى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، فى غشاء من حرير ، لتخرج الى حاملها وهو أمير مميز . ولهذه الخدمة وصاحبها عندهم جلالة .

ثم تشعر الناس بطريق الموكب ، وسلوكه لا يتعدى دورتين : احداهما كبرى ، والأخرى صغرى . أما الكبرى فمن باب القصر الى باب النصر ، مارا الى حوض عز الملك نبا — ومسجده هناك وهو أقصاها — ثم ينعطف على يساره طالبا باب الفتوح الى القصر . والأخرى اذا خرج من باب النصر سار حافا بالسور ، ودخل من باب الفتوح .

فيعلم الناس بسلوك احداهما ، فيسيرون اذا ركب الخليفة فيها من غير تبديل للموكب ، ولا تشويش ولا اختلال . فلا يصبح الصبح من يوم الركوب الا وقد اجتمع من بالقاهرة ومصر من أرباب الرتب وأرباب التميزات من أرباب السيوف والأقلام قياما بين القصرين ، وكان براحا واسعا خاليا من البناء الذى فيه اليوم ، فيسع القوم لانتظار الخليفة .

ويبكر الأمراء الى الوزير الى داره ، فيركب الى القصر من غير استدعاء لأنها خدمة لازمة للخليفة ، فيسير أمامه تشريفه المقدم ذكره ، والأمراء بين يديه ركبانا ومشاة ، وأمامه أولاده واخوته * وكل منهم مرخى الذؤابة بلا حنك ، وهو فى أبهة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل وهو بالحنك ، ويتقلد بالسيف المذهب .

فاذا وصل القصر ترجل قبله أهله فى أخص مكان لا يصل الأمراء اليه ، ودخل من باب القصر وهو راكب دون الحاضرين الى دهليز يقال له دهليز العمود ، فيترجل على مصطبة هناك ، ويمشى بقية الدهليز الى القاعة ،

(*) ص٤٨٦ ج١ ، ط. بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

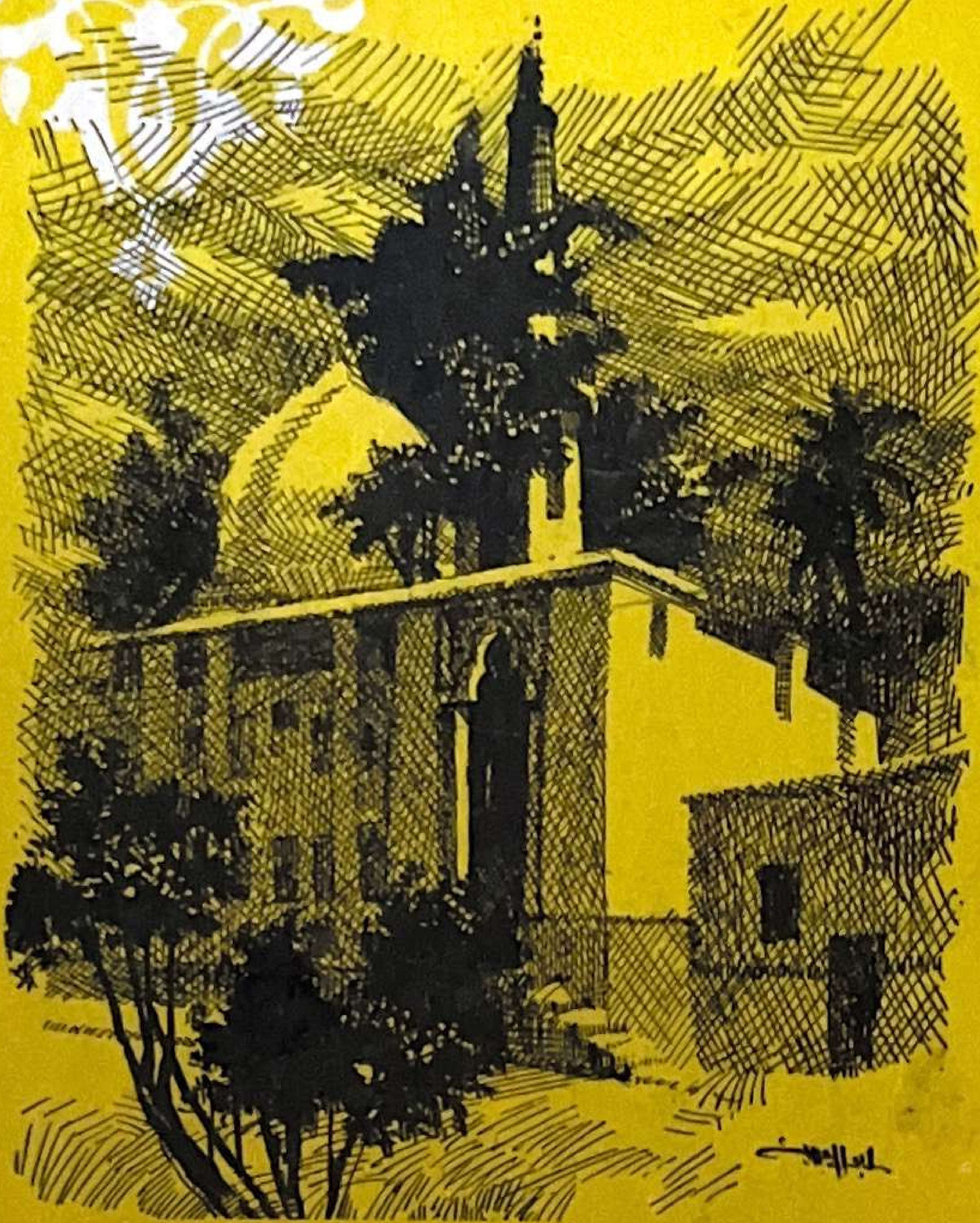
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٢٢



كتاب التحرير

«كانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت منذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

فيدخل مقطع الوزارة هو وأولاده واخـوته وخواص حاشيته ، ويجلس الأمراء بالقاعة على دكك معدة لذلك مكسوة فى الصيف بالحصر السامان وفى الشتاء بالبسط الجهرمية المحفورة .

فاذا أدخلت الدابة لركوب الخليفة ، وأسندت الى الكرسى الذى يركب عليه من باب المجلس ، أخرجت المظلة الى حاملها ، فيكشفها مما هى ملفوفة فيه غير مطوية ، فيتسلمها باعانة أربعة من الصقالبة برسم خدمتها ، فيركزها فى آلة حديد متخذة شكل القرن ، وهو مشدود فى ركاب حاملها الأيمن بقوة وتأكيد ، فيمسك العمود بحاجز فوق يده فيبقى وهو منتصب واقف . ولم يذكر قط أنها اضطربت فى ريح عاصف .

ثم يخرج بالسيف ، فيتسلمه حامله ، فاذا تسلمه أرخيت ذؤابته ما دام حاملا له . ثم تخرج الدواة فتسلم لحاملها وهو من الأستاذين المحنكين ، وكان الوزراء حملوها لقوم من الشهود المعدلين . وهى الدواة التى كانت من أعاجيب الزمان ، وهى فى نفسها من الذهب وحليتها مرجان ، وهى ملفوفة فى منديل شرب بياض مذهب .

وقد قال فيها بعض الشعراء يخاطب الخليفة التى صنعت حلية المرجان فى وقته ، وهذا من أغرب ما يكون ، ذكر ذلك فى بيتين وهما :

ألين لداود الحديد كرامة
فقدر منه السرد كيف يريد

ولان لك المرجان وهو حجارة
ومقطعه صعب المرام شديد

فيخرج الوزير ومن كان معه من المقطع ، وتنضم اليه الأمراء ، ويقفون الى جانب الراية .

فيرفع صاحب المجلس الستر ، فيخرج من كان عند الخليفة للخدمة منهم ، وفى أثرهم يبرز الخليفة بالهيئة المشروح حالها فى لباسه : الثياب المعروضة عليه ، والمنديل الحامل لليتيمة بأعلى جبهته ، وهو محنك مرخى الذؤابة مما يلى جانبه الأيسر ، ويتقلد بالسيف المغربى ، وبيده قضيب الملك وهو طول شبر ونصف من عود مكسو بالذهب المرصع بالدر والجوهر .

فيسلم على الوزير قوم مرتبون لذلك ، وعلى أهله وعلى الأمراء بعدهم ، ثم يخرج أولئك أولا فأولا ، والوزير يخرج بعد الأمراء فيركب ويقف قبالة باب القصر بهيئته .

ويخرج الخليفة وحواليه الأستاذون ، ودابته ماشية على بسط مفروشة خيفة من زلقها على الرخام . فاذا قارب الباب وظهر وجهه ، ضرب رجل ببوق لطيف من ذهب معوج الرأس — يقال له الغربية — بصوت عجيب يخالف أصوات البوقات .

فاذا سمع ذلك ضربت الأبواق فى الموكب ، ونشرت المظلة ، وبرز الخليفة من الباب ، ووقف وقفة يسيرة بمقدار ركوب الأستاذين المحنكين وغيرهم من أرباب الرتب الذين كانوا بالقاعة للخدمة ، وسار الخليفة وعلى يساره صاحب المظلة وهو يبالغ ألا يزول عنه ظلها .

ثم يكتنف الخليفة مقدمو صبيان الركاب : منهم اثنان فى الشكيمة ، واثنان فى عنق الدابة

من الجانبين ، واثنان فى ركابه . فالأيمن مقدم المقدمين ، وهو صاحب المقرعة التى يتناولها ويناولها ، وهو المؤدى عن الخليفة مدة ركوبه الأوامر والنواهى .

ويسير الموكب بالحث ، فأوله فروع الأمراء وأولادهم ، وأخلاط بعض العسكر الأماثل ، الى أرباب القصب ، الى أرباب الأطواق ، الى الأستاذين المحنكين ، الى حامل اللواءين من الجانبين ، الى حامل الدواة — وهى بينه وبين قربوس السرج — الى صاحب السيف وهما فى الجانب الأيسر ... كل واحد ممن تقدم ذكره بين عشرة الى عشرين من أصحابه . ويحجبه أهل الوزير المقدم ذكرهم من الجانب الأيمن بعد الأستاذين المحنكين .

ثم يأتى الخليفة وحواليه صبيان الركاب المذكورة تفرقة السلاح فيهم ، وهم أكثر من ألف رجل ، وعليهم المناديل الطبقيات ، ويتقلدون بالسيوف ، وأوساطهم مشدودة بمناديل ، وفى أيديهم السلاح مشهور ، وهم من جانبى الخليفة كالجناحين المادين ، وبينهما فرجة لوجه الفرس ليس فيها أحد ، وبالقرب من رأسها الصقلبيان الحاملان للمذبتين ، وهما مرفوعتان كالنخلتين لما يسقط من طائر وغيره . وهو سائر على تؤدة ورفق .

وفى طول الموكب من أوله الى آخره والى القاهرة مار وعائد يفسح الطرقات ويسير الركبان ، فيلقى فى عوده الاسفهسلار كذلك مارا وعائدا تحت الأجناد فى الحركة والانكار على المزاحمين المعترضين ، ويلقى فى عوده صاحب الباب — ومروره فى زمرة الخليفة — الى أن يصل الى الاسفهسلار ، فيعود لترتيب الموكب وحراسة طرقات الخليفة ، وفى يد كل منهم دبوس ، وهو راكب خير دوابه ، وأسرعها ... هذا لمن أمام الموكب .

ثم يسير خلف دابة الخليفة قوم من صبيان الركاب لحفظ أعقابه ، ثم عشرة يحملون * عشرة سيوف فى خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب غزيرة — يقال لها سيوف الدم — برسم ضرب الأعناق . ثم يسير بعدهم صبيان السلاح الصغير أرباب الفرنجيات المقدم ذكرهم أولا .

ثم يأتى الوزير فى هيئة ، وفى ركابه من أصحابه قوم يقال لهم صبيان الزرد ، من أقوياء الأجناد يختارهم لنفسه ، ما مقداره خمسمائة رجل من جانبيه بفرجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة ، وكأنه على وفز من حراسة الخليفة ، ويجتهد ألا يغيب عن نظره ، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير ، وهو مع عدة كثيرة تدوى بأصواتها وحسها الدنيا .

ثم يأتى حامل الرمح المقدم ذكره ودرقته حمراء ، ثم طوائف الراجل من الركابية والجيوشية وقبلها المصامدة ، ثم الفرنجية ، ثم الوزيرية زمرة زمرة فى عدة وافرة تزيد على أربعة آلاف فى الوقت الحاضر وهم أضعاف ذلك ، ثم أصحاب الرايات والسبعين ، ثم طوائف العساكر من الآمرية والحجرية الكبار والحافظية والحجرية الصغار المنقولين والأفضلية والجيوشية ، ثم الأتراك المصطنعون ثم الديلم ، ثم الأكراد ، ثم الغز المصطنعة .

(*) ص٤٤٩ جـ١ ، ط. بولاق .

وقد كان تقدم هؤلاء الفرسان عدة وافرة من المترجلة أرباب قسى اليد وقسى الرجل فى أكثر من خمسمائة ، وهم المعدون للأساطيل ، ويكون من الفرسان المقدم ذكرهم ما يزيد على ثلاثة آلاف . وهذا كله بعض من كل .

فاذا انتهى الموكب الى المكان المحدود عادوا على أدراجهم ، ويدخلون من باب الفتوح ، ويقفون بين القصرين بعد الرجوع كما كانوا قبله .

فاذا وصل الخليفة الى الجامع الأقمر بالقماحين اليوم ، وقف وقفة بجملته فى موكبه ، وانفرج الموكب للوزير فتحرك مسرعا ليصير أمام الخليفة حتى يدخل بين يديه ، فيمر الخليفة ويسكع له سكعة ظاهرة ، فيشير الخليفة للسلام عليه اشارة خفية — وهذه أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة ، ولا تكون الا للوزير صاحب السيف — وسبقه الى دخول باب القصر راكبا على عادته الى موضعه ، ويكون الأمراء قد نزلوا قبله لأنهم فى أوائل الموكب .

فاذا وصل الخليفة الى باب القصر ودخله ، ترجل الوزير ، ودخل قبله الأستاذون المحنكون وأحدقوا به ، والوزير أمام وجه الفرس مكان ترجله الى الكرسى الذى ركب منه ، فينزل عليه ويدخل الى مكانه بعد خدمة المذكورين له .

فيخرج الوزير ويركب من مكانه الجارى به على عادته ، والأمراء بين يديه وأقاربه حواليه ، فيركبون من أماكنهم ويسيرون صحبته الى داره ، فيدخل وينزل أيضا الى مكانه على كرسى ، فتخدمه الجماعة بالوداع .

ويتفرق الناس الى أماكنهم ، فيجدون قد أحضر اليهم الغرة . وهو أنه يقدم الخليفة بأن يضرب بدار الضرب فى العشر الأخر من ذى الحجة ، بتاريخ السنة التى ركب أولها فى هذا اليوم ، جملة من الدنانير والرباعية والدراهم المدورة المقسقلة .

فيحمل الى الوزير منها ثلثمائة وستون دينارا وثلثمائة وستون رباعيا وثلثمائة وستون قيراطا ، والى أولاده واخوته من كل صنف من ذلك خمسون ، والى أرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام من عشرة دنانير وعشر رباعيات وعشرة قراريط الى دينار واحد ورباعى واحد وقيراط واحد ، فيقبلون ذلك على حكم البرمكية من مبلغ الخليفة .

قال : ومبلغ الغرة التى ينعم بها فى أول العام المقدم ذكرها ، من الدنانير والرباعيات والقراريط ، ما يقرب من ثلاثة آلاف دينار ، والله تعالى أعلم .

ذكر ما كان يضرب فى خميس العدس من خراريب الذهب *

قال ابن المأمون : وأحضر الأجل المأمون كاتب الدفتر ، وأمره بالكشف عما كان يضرب برسم خميس العدس من الخراريب الذهب ، وهو خمسمائة دينار عن عشرين ألف خروبة . واستدعى كاتب بيت المال ، ووقع له باطلاق ألف دينار ، وأمره باحضار مشارف دار الضرب وسلمها اليه .

فاعتمد ذلك ، وضربت عشرون ألف خروبة وأحضرها ، فأمر بحملها الى الخليفة ، فسير

الخليفة منها الى المأمون ثلثمائة دينار . وذكر أنها لم تضرب فى مدة خلافة الحافظ لدين الله غير سنة واحدة ، ثم بطل حكمها ونسى ذكرها .

قال : وصار ما يضرب باسم الخليفة (يعنى الآمر بأحكام الله) فى ستة مواضع : القاهرة ، ومصر ، وقوص ، وعسقلان ، وصور ، والاسكندرية .

وقال ابن عبد الظاهر : خميس العدس كان يضرب فيه خمسمائة تصل عشرة آلاف خروبة كان الأفضل بن أمير الجيوش يحمل منها للخليفة مائتى دينار ، والبقية برسمه . ثم جعلت فى الأيام المأمونية ألف دينار ، وربما زادت أو نقصت يسيرا .

وقد تقدم أن قاضى القضاة كان يتولى عيار دار الضرب ، ويحضر التعليق بنفسه ويختم عليه ، ويحضر للموعد الآخر لفتحه .

ذكر دار الوكالة الآمرية (*)

كانت دار الوكالة المذكورة بجانب دار الضرب ، وموضعها الآن على يمنة السالك من رأس الخراطين الى سوق الخيميين والجامع الأزهر .

قال ابن المأمون فى شوال سنة ست عشرة وخمسمائة : ثم أنشأ (يعنى المأمون بن البطائحى ، وزير الخليفة الآمر بأحكام الله) دار الوكالة بالقاهرة المحروسة لمن يصل من العراقين والشاميين وغيرهما من التجار ، ولم يسبق الى ذلك .

(*) ص٤٨٦ ج١ ، ط بولاق .

ذكر مصلى العيد

وكان فى شرقى القصر الكبير مصلى العيد من خارج باب النصر وهذا المصلى بناه القائد جوهر لأجل صلاة العيد فى شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، ثم جدده العزيز بالله . وقد بقى الى الآن بعض هذا المصلى ، واتخذ فى جانب منه موضع مصلى الأموات اليوم .

ذكر هيئة صلاة العيد وما يتعلق بها

قال ابن زولاق : وركب المعز لدين الله يوم الفطر لصلاة العيد الى مصلى القاهرة التى بناها القائد جوهر ، وكان محمد بن أحمد بن الأدرع الحسنى قد بكر وجلس فى المصلى تحت القبة فى موضع ، فجاء الخدم وأقاموه وأقعدوا موضعه أبا جعفر مسلما ، وأقعدوه هو دونه . وكان أبو جعفر مسلم خلف المعز عن يمينه وهو يصلى

وأقبل المعز فى زيه وبنوده وقبابه ، وصلى بالناس صلاة العيد تامة طويلة ، قرأ فى الأولى بأم الكتاب و « هل أتاك حديث الغاشية » ، ثم كبر بعد القراءة ، وركع فأطال ، وسجد فأطال — أنا سبحت خلفه فى كل ركعة وفى كل سجدة نيفا وثلاثين تسبيحة — وكان القاضى النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير .

وقرأ فى الثانية بأم الكتاب وسورة والضحى ، ثم كبر أيضا بعد القراءة — وهى صلاة جده على بن أبى طالب عليه السلام —

وأطال أيضا فى الثانية الركوع والسجود — أنا سبحت خلفه نيفا وثلاثين تسبيحة فى كل ركعة وفى كل سجدة — وجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى كل سورة .

وأنكر جماعات يتوسمون بالعلم قراءته قبل التكبير لقلة علمهم ، وتقصيرهم فى العلوم ... حدثنا محمد بن أحمد قال : حدثنا عمر بن شبة ، حدثنا عبد الله ورجاء عن اسرائيل ، عن أبى اسحاق ، عن الحارث عن على عليه السلام ، أنه كان يقرأ فى صلاة العيد قبل التكبير .

فلما فرغ المعز من الصلاة صعد المنبر ، وسلم على الناس يمينا وشمالا ، ثم ستر بالسترين اللذين كانا على المنبر ، فخطب وراءهما على رسمه .

وكان فى أعلى درجة من المنبر وسادة ديباج مثقل ، فجلس عليها بين الخطبتين ، واستفتح الخطبة ببسم الله الرحمن الرحيم — وكان معه على المنبر القائد جوهر وعمار بن جعفر وشفيع صاحب المظلة — ثم قال : الله أكبر الله أكبر ، واستفتح بذلك ، وخطب وأبلغ وأبكى الناس وكانت خطبة بخشوع وخضوع .

فلما فرغ من خطبته ، انصرف فى عساكره ، وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخود على الخيل بأحسن زى ، وساروا بين يديه بالفيلين .

فلما حضر فى قصره أحضر الناس فأكلوا ، وقدمت اليهم السمط ، ونشطهم الى الطعام ، وعتب على من تأخر ، وهدد من بلغه عنه صيام العيد .

وقال المسبحى فى حوادث آخر يوم من رمضان سنة ثمانين وثلثمائة : وبقيت مصاطب ما بين القصور والمصلى الجديدة ظاهر باب النصر عليها المؤذنون ، حتى يتصل التكبير من المصلى الى القصر .

وفيه تقدم أمر القاضى محمد بن النعمان باحضار المتفقهة والمؤمنين (يعنى الشيعة) ، وأمرهم بالجلوس يوم العيد على هذه المصاطب ، ولم يزل يرتب الناس ، وكتب رقاعا فيها أسماء الناس ، فكانت تخرج رقعة رقعة ، فيجلس الناس على مصطبة مصطبة بالترتيب .

وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد ، وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحلى ، والعسكر فى زيه من الأتراك والديلم والعزيزية ، والاخشيدية والكافورية ، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب ، وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزواقة . وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر ، وبيده قضيب جده عليه السلام ، فصلى على رسمه وانصرف .

وقال ابن المأمون : ولما توفى أمير الجيوش بدر الجمالى ، وانتقل الأمر الى ولده الأفضل ابن أمير الجيوش ، جرى على سنن والده فى صلاة العيد ، ويقف فى قوس باب داره الذى عند باب النصر (يعنى دار الوزارة) .

فلما سكن بمصر ، صار يطلع من مصر باكرا ، ويقف على باب داره على الحالة الأولى حتى تستحق الصلاة ، فيدخل من باب العيد الى الايوان ، ويصلى به القاضى ابن

الرهجى ، ثم يجلس بعد الصلاة على المرتبة الى أن تنقضى الخطبة ، فيدخل من باب الملك ، ويسلم على الخليفة بحيث لا يراه أحد غيره ، ثم يخلع عليه ، ويتوجه الى داره بمصر ، فيكون * السماط بها مدى الأعياد .

فلما قتل الأفضل ، واستقر بعده المأمون بن البطائحى فى الوزارة ، قال : هذا نقص فى حق العيد ، ولا يعلم السبب فى كون الخليفة لا يظهر .

فقال له الخليفة الآمر بأحكام الله : فما تراه أنت ؟

فقال : يجلس مولانا فى المنظرة التى استجدت بين باب الذهب وباب البحر . فاذا جلس مولانا فى المنظرة وفتحت الطاقات ، وقف المملوك بين يديه فى قوس باب الذهب ، وتجوز العساكر فارسها وراجلها ، وتشملها بركة نظر مولانا اليها . فاذا حان وقت الصلاة ، توجه المملوك بالموكب والزى وجميع الأمراء والأجناد ، واجتاز بأبواب القصر ودخل الايوان .

فاستحسن ذلك منه ، واستصوب رأيه ، وبالغ فى شكره .

ثم عاد المأمون الى مجلسه ، وأمر بتفرقة كسوة العيد والهبات ... يعنى فى عيد النحر سنة خمس عشرة وخمسمائة .

وجملة العين ثلاثة آلاف وثلثمائة دينار وسبعة دنانير ، ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع ، برسم الأمراء المطوقين والأستاذين المحنكين وكتاب الدست ومتولى حجبة الباب وغيرهم .

قال : ووصلت الكسوة المختصة بالعيد فى آخر شهر رمضان (يعنى من سنة ست عشرة وخمسمائة) وهى تشتمل على دون العشرين ألف دينار . وهو عندهم الموسم الكبير ، ويسمى بعيد الحلل لأن الحلل فيه تعم الجماعة ، وفى غيره للأعيان خاصة . وقد تقدم تفصيلها عند ذكر خزانة الكسوة من هذا الكتاب .

قال : ولما كان فى التاسع والعشرين من شهر رمضان ، خرجت الأوامر بأضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة برسم السحور ، بحكم أنها ليلة ختم الشهر .

وحضر المأمون فى آخر النهار الى القصر للفطور مع الخليفة والحضور على الأسمطة على العادة ، وحضر اخوته وعمومته وجميع الجلساء ، وحضر المقرئون والمؤذنون ، وسلموا على عادتهم وجلسوا تحت الروشن .

وحمل من عند معظم الجهات والسيدات والمميزات من أهل القصور بلاحى وموكبيات مملوءة ماء ملفوفة فى عراضى ديبقى ، وجعلت أمام المذكورين ليشملها بركة ختم القرآن ، واستفتح المقرئون من الحمد الى خاتمة القرآن تلاوة وتطريبا .

ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع ودعا فأبلغ ، ورفع الفراشون ما أعدوه برسم الجهات ، ثم كبر المؤذنون وهللوا ، وأخذوا فى الصوفيات الى أن نثر عليهم من الروشن دراهم ودنانير ورباعيات .

(*) ص٤٥١ ج١ ، ط بولاق .

وقدمت جفان القطائف على الرسم مع الحلوى ، فجروا على عادتهم وملاوا أكمامهم ، ثم خرج أستاذ من باب الدار الجليلة بخلع خلعها على الخطيب وغيره ، ودراهم تفرق على الطائفتين من المقرئين والمؤذنين .

ورسم أن تحمل الفطرة الى قاعة الذهب ، وأن تكون التعبية فى مجلس الملك ، وتعبى الطيافير المشورة الكبار من السرير الى باب المجلس ، وتعبى من باب المجلس الى ثلثى القاعة سماطا واحدا مثل سماط الطعام ، ويكون جميعه سدا واحدا من حلاوة الموسم ، ويزين بالقطع المنفوخ ... فامتثل الأمر .

وحضر الخليفة الى الايوان ، واستدعى المأمون وأولاده واخوته ، وعرضت المظال المذهبة المحاومة ، وكان المقرئون يلوحون عند ذكرها بالآيات التى فى سورة النحل «والله جعل لكم مما خلق ظلالا » الى آخرها .

وجلس الخليفة ، ورفعت الستور ، واستفتح المقرئون ، وجدد المأمون السلام عليه ، وجلس على المرتبة عن يمينه ، وسلم الأمراء جميعهم على حكم منازلهم لا يتعدى أحد منهم مكانه ، والنواب جميعهم يستدعونهم بنعوتهم وترتيب وقوفهم ، وسلم الرسل الواصلون من جميع الأقاليم ، ووقفوا فى آخر الايوان ، وختم المقرئون وسلموا .

وخدمت الرهجية ، وتقدم متولى كل اصطبل من الرواض وغيرهم يقبل الأرض ويقف ، ودخلت الدواب من باب الديلم ، والمستخدمون فى الركاب بالمناديل يتسلمونها من الشداديين ، ويدورون بها حول الايوان .

ودواب المظلة متميزة عن غيرها يتسلمها الأستاذون والمستخدمون فى الركاب ، ويعلون بها الى قريب من الشباك الذى فيه الخليفة .

وكلما عرض دواب اصطبل قبل الأرض متوليه وانصرف ، وتقدم متولى غيره على حكمه ، الى أن يعرض جميع ما أحضروه ، وهو ما يزيد على ألف فرس ، خارجا عن البغال وما تأخر من المشاريات والحجور والمهارة .

ولما عرضت الدواب ، أبطلت الرهجية ، وعاد استفتاح المقرئين ، وكانوا محسنين فيما ينتزعونه من القرآن الكريم مما يوافق الحال ، مثل الآية من آل عمران « زين للناس حب الشهوات » الى آخرها ، ثم بعدها « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء» الى آخرها .

وعرضت الوحوش بالأجلة الديباج والديبقى بقباب الذهب والمناطق والأهلة ، وبعدها النجب والبخاتى بالأقتاب الملبسة بالديبقى الملون المرقوم ، وعرض السلاح وآلات الموكب جميعها ، ونصبت الكسوات على باب العيد ، وضربت طول الليل .

وحملت الفطرة الخاص التى يفطر عليها الخليفة بأصناف الجوارشات بالمسك والعود والكافور والزعفران ، والتمور المصبغة التى يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وغيره وتسد وتختم ، وسلمت للمستخدمين فى القصور ، وعبيت * فى مواعين الذهب المكللة بالجواهر ، وخرجت الأعلام والبنود . وركب المأمون ،

(*) ص٤٥٢ ج١ ، ط بولاق .

فلما حصل بقاعة الذهب ، أخذ فى مشاهدة السماط من سرير الملك الى آخرها .

وخرج الخليفة لوقته من الباذهنج ، وطلع الى سرير ملكه وبين يديه الصوانى المقدم ذكرها ، واستدعى بالمأمون فجلس عن يمينه بعد أداء حق السلام ، وأمر باحضار الأمراء المميزين والقاضى والداعى والضيوف ، وسلم كل منهم على حكم ميزته ، وقدمت الرسل وشرفوا بتقبيل الأرض ، والمقرئون يتلون ، والمؤذنون يهللون ويكبرون .

وكشفت القوارات الشرب المذهبات عما هو بين يدى الخليفة ، فبدأ وكبر ، وأخذ بيده تمرة فأفطر عليها ، وناول مثلها الوزير فأظهر الفطر عليها ، وأخذ الخليفة فى أن يستعمل من جميع ما حضر ، وناول وزيره منه وهو يقبله ويحمله فى كمه .

وتقدمت الأجلاء اخوة الوزير وأولاده من تحت السرير ، وهو يناولهم من يده ، فيجعلونه فى أكمامهم بعد تقبيله ، وأخذ كل من الحاضرين كذلك ، ويومىء بالفطور ويجعله فى كمه على سبيل البركة . فمن كان رأيه الفطور أفطر ، ومن لم يكن رأيه أوماً وجعله فى كمه ... لا ينتقد على أحد فعله .

ثم قال المأمون بعد ذلك : ما على من يأخذ من هذا المكان نقيصة ، بل به له الشرف والميزة . ومد يده وأخذ من الطيفور الذى كان بين يديه عود نبات ، وجعله فى كمه بعد تقبيله ، وأشار الى الأمراء فاعتمد كل من الحاضرين ذلك ، وملأوا أكمامهم .

ودخل الناس فأخذوا جميع ذلك .

ثم خرج الوزير الى داره والجماعة فى ركابه ، فوجد التعبية فيها من صدر المجلس الى آخره على ما أمر به ، ولم يعدم مما كان بالقصر غير الصوانى الخاص . فجلس على مرتبته والأجلاء أولاده .

واستدعى بالعوالى من الأمراء والقاضى والداعى والضيوف ، فحضروا وشرفوا بجلوسهم معه ، وحصل من مسرتهم بذلك ما بسطهم ، ورفعوا اليسير مما حضر على سبيل الشرف ، ثم انصرفوا ، وحضرت الطوائف والرسل على طبقاتهم ، الى أن حمل جميع ما كان بالدار بأسره .

وانقضى حكم الفطور ، وعاد للتنفيذ فى غيره ، وضربت الطبول والأبواق على أبواب القصور والدار المأمونية ، وأحضرت التغايير وفرقت على أربابها من الأجناد والمستخدمين ، وخرجت أزمة العساكر فارسها وراجلها ، وندب الحاجب الذى بيده الدعو لترتيب صفوفها من باب القصر الى المصلى .

ثم حضر الى الدار المأمونية الشيوخ المميزون ، وجلس المأمون فى مجلسه وأولاده بهيئة العيد وزينته ، ورفعت الستور ، وابتدأ المقرئون ، وسلم متولى الباب والشيوخ ، ولم يدخل المجلس غير كاتب الدست ومتولى الحجبة ، وبالغ كل منهما فى زيه وملبوسه ، وجروا على رسمهم فى تقبيل الأرض وعتبة المجلس .

ووصل الى الدار المأمونية التجمل الخاص — الذى برسم الخليفة — جميعه : القصب

الفضة ، والأعلام ، والمنجوقات ، والعقبات ، والعماريات ، ولواء الوزارة لركوب الخليفة بالمظلة بالطيم ، والمراكيب الذهب المرصعة بالجوهر ، وغير ذلك من التجملات .

وركب المأمون من داره ، وجميع التشاريف الخاص بين يديه ، وخدمت الرهجية ومن جملتهم الغربية — وهى أبواق لطاف عجيبة غريبة الشكل ، تضرب كل وقت يركب فيه الخليفة ، ولا تضرب قدام الوزير الا فى المواسم خاصة وفى أيام الخلع عليه — والأمراء مصطفون عن يمينه وعن شماله ، ويليهم اخوته ، وبعدهم أولاده .

ودخل الى الايوان ، وجلس على المرتبة المختصة به ، وعن يمينه جميع الأجلاء والمميزون وقوف أمامه ، ومن انحط عنهم من باب الملك الى الايوان قيام .

ويخرج خاصة الدولة ريحان الى المصلى بالفرش الخاص وآلات الصلاة ، وعلق المحراب بالشروب المذهبة ، وفرش فيه ثلاث سجادات متراكبة ، وأعلاها السجادة اللطيفة التى كانت عندهم معظمه — وهى قطعة من حصير ذكر أنها كانت من جملة حصير لجعفر ابن محمد الصادق عليهما السلام يصلى عليها — وفرش الأرض جميعها بالحصر المحاريب .

ثم علق على جانبى المنبر ، وفرش جميع درجه ، وجعل أعلاه المخاد التى يجلس عليها الخليفة ، وعلق اللواءان عليه ، وقعد تحت القبة خاصة الدولة ريحان والقاضى ، وأطلق البخور ، ولم يفتح من أبوابه الا باب واحد وهو الذى يدخل منه الخليفة .

ويقعد الداعى فى الدهليز ونقباء المؤمنين بين يديه ، وكذلك الأمراء والأشراف والشيوخ والشهود ومن سواهم من أرباب الحرف ، ولا يمكن من الدخول الا من يعرفه الداعى ويكون فى ضمانه .

واستفتحت الصلاة ، وأقبل الخليفة من قصوره بغاية زيه ، والعلم الجوهر فى منديله ، وقضيب الملك بيده ، وبنو عمه واخوته وأستاذوه فى ركابه ، وتلقاه المقرئون عند وصوله والخواص ، واستدعى بالمأمون ، فتقدم بمفرده وقبل الأرض ، وأخذ السيف والرمح من مقدمى خزائن الكسوة ، والرهجية تخدم ، وحمل لواء الحمد بين يديه الى أن خرج من باب العيد .

فوجد المظلة قد نشرت عن يمينه ، والذى بيده الدعو فى ترتيب الحجبة لمن شرف بها ... لا يتعدى أحد حكمه . وسائر المواكب بالجنائب * الخاص وخيل التخافيف ومصفات العساكر ، والطوائف جميعها بزيها وراياتها وراء الموكب الى أن وصل الى قريب المصلى ، والعماريات والزرافات . وقد شد على الفيلة بالأسرة مملوءة رجالا مشبكة بالسلاح لايتبين منهم الا الأحداق ، وبأيديهم السيوف المجردة والدرق الحديد الصينى .

والعساكر قد اجتمعت وترادفت صفوفا من الجانبين الى باب المصلى ، والنظارة قد ملأت الفضاء لمشاهدة ما لم يلفوه ، والموكب سائر بهم . وقد أحاط بالخليفة والوزير صبيان الخاص ، وبعدهم الأجناد بالدروع المسبلة ،

(*) ص٤٥٢ ج١ ، ط. بولاق .

والزرديات بالمغافر ملثمة ، والبروك الحديد بالعصاصم والدبابيس .

ولما طلع الموكب من ربوة المصلى ، ترجل متولى الباب والحجاب ، ووقف الخليفة بجمعه بالمظلة الى أن اجتاز المأمون راكبا بمن حول ركابه ، ورد الخليفة السلام عليه بكمه ، وصار أمامه ، وترجل الأمراء المميزون والأستاذون المحنكون بعدهم وجميع الأجلاء ، وصار كل منهم يبدأ بالسلام على الوزير ثم على الخليفة الى أن صار الجميع فى ركابه .

ولم يدخل من باب المصلى راكبا غير الوزير خاصة ، ثم ترجل على بابه الثانى الى أن وصل الخليفة اليه ، فاستدعى به ، فسلم وأخذ الشكيمة بيده الى أن ترجل الخليفة فى الدهليز الآخر ، وقصد المحراب والمؤذنون يكبرون قدامه .

واستفتح الخليفة فى المحراب ، وسامته فيه وزيره والقاضى والداعى عن يمينه وشماله ، ليوصلوا التكبير لجماعة المؤذنين من الجانبين ، ويتصل منهم التكبير الى مؤذنى مصلى الرجال والنساء الخارجين عن المصلى الكبير ، وكاتب الدست وأهله ومتولى ديوان الانشاء يصلون تحت عقد المنبر ، ولا يمكن غيرهم أن يكونوا معهم .

ولما قضى الخليفة الصلاة وهى ركعتان : قرأ فى الأولى بفاتحة الكتاب و « هل أتاك حديث الغاشية » ، وكبر سبع تكبيرات ، وركع وسجد . وفى الثانية بالفاتحة وسورة «والشمس وضحاها» ، وكبر خمس تكبيرات — وهذه سنة الجميع ومن ينوب عنهم فى صلاة العيدين على الاستمرار — وسلم .

وخرج من المحراب وعطف عن يمينه ، والحرص عليه شديد ، ولا يصل اليه الا من كان خصيصا به ، وصعد المنبر بالخشوع والسكينة ، وجميع من بالمصلى والتربة لا يسأم نظره ، ويكثرون من الدعاء له .

ولما حصل فى أعلى المنبر أشار الى المأمون فقبل الأرض ، وسارع فى الطلوع اليه ، وأدى ما يجب من سلامه وتعظيم مقامه ووقف بأعلى درجة . وأشار الى القاضى ، فتقدم وقبل كل درجة الى أن يصل الى الدرجة الثالثة ، وقف عندها ، وأخرج الدعو من كمه وقبله ووضعه على رأسه ، وأعلى بما تضمنه ، وهو ما جرت به العادة من تسمية يوم العيد وسنته والدعاء للدولة .

وكانت الحال فى أيام وزراء الأقلام والسيوف اذا حصل الخليفة فى أعلى المنبر بقى الوزير مع غيره ، وأشار الخليفة الى القاضى ، فيقبل الأرض ويطلع الى الدرجة الثالثة . ويخرج الدعو من كمه ويقبله ويضعه على رأسه ، ويذكر يوم العيد وسنته والدعاء للدولة ، ثم يستدعى بالوزير بعد ذلك ، فيصعد بعد القاضى .

فراعى الخليفة ذلك الأمر فى حق الوزير ، فجعل الاشارة منه اليه أولا ، ورفعه عن أن يكون مأمورا مثل غيره ، وجعلها له ميزة على غيره ممن تقدمه ، واستمرت فيما بعد .

واستفتح الخليفة بالتكبير الجارى به العادة فى الفطر والخطبتين الى آخرهما ، وكبر

المؤذنون ، ورفع اللواءان ، وترجل كل أحد من موضعه ، كما كان ركوبه ، وصار الجميع فى ركاب الخليفة ، وجرى الأمر فى رجوعه على ما تقدم شرحه ، ومضى الى تربة آبائه . وهى سنتهم فى كل ركبة بمظلة ، وفى كل يوم جمعة ، مع صدقات ورسوم تفرق .

وأما الوزير المأمون فانه توجه ، وخرج من باب العيد والأمراء بين يديه الى أن وصل الى باب الذهب ، فدخل منه بعد أن أمر ولده الأكبر بالوصول الى داره ، والجلوس على سماط العيد على عادته .

ولما دخل المأمون بقاعة الذهب ، وجد الشروع قد وقع من المستخدمين بتعبية السماط ، فأمر بتفرقة الرسوم على أربابها ، وهو ما يحمل الى مجلس الوزارة برسم الحاشية .

ولكل من حاشية أولاده واخوته ، وكاتب الدست ، ومتولى حجبة الباب ، ومتولى الديوان ، وكاتب الدفتر ، والنائب ... لكل منهم رسم يصرف قبل جلوس الخليفة ، وعند انقضاء الأسمطة لغير المذكورين على قدر منزلة كل منهم .

ثم حضر أبو الفضائل بن أبى الليث ، واستأذن على طيافير الفطرة الكبار التى فى مجلس الخليفة ، فأمره الوزير بأن يعتمد فى تفرقتها على ما كان يعتمده فى الأيام الأفضلية ، وهو لكل من يصعد المنبر مع الخليفة طيفور .

فلما أخذ الخليفة راحة بعد مضيه الى التربة ، جلس على السرير وبين يديه المائدة اللطيفة الذهب بالمينا معباة بالزبادى الذهب ، واستدعى الوزير ، واصطف الناس من المدورة الى آخر السماط من الجانبين على طبقاتهم ، ورفعت الستور واستفتح المقرئون .

ووقف الدولة اسعاف متولى المائدة مشدود الوسط ، ومقدم خزانة الشرب بيده شربة فى مرفع ذهب وغطاء مرصعين بالجوهر والياقوت ، ومتولى خزائن الانفاق بيده خريطة مملوءة دنانير لمن يقف يطلب صدقة وانعاما ، فيؤمر بما يدفع * اليه ، وتفرقة الرسوم الجارى بها العادة . ولعبت المنافقون والتحارية ، وتناوب القراء والمنشدون .

وأرخيت الستور ، وعبى السماط ثانيا على ما كان عليه أولا ، ثم رفعت الستور وجلس على المدورة والسماط من جرت العادة به ، وفرقت الدنانير على المقرئين والمنشدين والتحارية والمنافقين ، ومن هو معروف بكثرة الأكل ، ونهبت قصور الخليفة ، وفرق من الأصناف ما جرت به العادة .

وأرخيت الستور ، وأحضر متولى خزانة الكسوة الخاص للخليفة بدلة الى أعلى السرير حسبما كان أمره ، فلبسها وخلع الثياب التى كانت عليه على الوزير بعد ما بالغ فى شكره والثناء عليه .

وتوجه الى داره ، فوصل اليه من الخليفة الصوانى الخاص المكللة معباة على ما كانت بين يديه ، وغيرها من الموائد ، وكذلك الى أولاده واخوته صينية صينية ، ولكاتب الدست ومتولى حجبة الباب مثل ذلك .

(*) ص٤٥٤ جـ١ ، ط. بولاق .

ويكبر الوزير بجلوسه فى داره معلنا ، وتسارع الناس على طبقاتهم بالعيد والخلع ، وبما جرى فى صعود المنبر ، وحضر الشعراء وأسنيت لهم الجوائز .

وجرى الحال يومئذ فى جلوس الخليفة وفى السلام لجميع الشيوخ والقضاة والشهود والأمراء والكتاب ومقدمى الركاب والمتصدرين بالجوامع والفقهاء والقاهريين والمصريين واليهود برئيسهم والنصارى ببطريقهم ، على ما جرت به عادتهم ، وختم المقرئون ، وقدمت الشعراء على طبقاتهم الى آخرهم ، وجدد لكل من الحاضرين سلامه .

وانكفأ الخليفة الى الباذهنج لأداء فريضة الصلاة والراحة بمقدار ما عبيت المائدة الخاص ، واستحضر المأمون وأولاده واخوته على عادتهم ، واستدعى من شرف بحضور المائدة — وهم : الشيخ أبو الحسن كاتب الدست ، وأبو الرضى سالم ابنه ، ومتولى حجبة الباب ، وظهير الدين الكنانى — على ما كان عليه الحال قبل الصيام . وانقضى حكم العيد .

وقال ابن الطوير : اذا قرب آخر العشر الأخر من شهر رمضان ، خرج الزى من أماكنه على ما وصفنا فى ركوب أول العام ، ولكن فيه زيادات يأتى ذكرها ، ويركب فى مستهل شوال بعد تمام شهر رمضان ، وعدته عندهم أبدا ثلاثون يوما .

فاذا تهيأت الأمور من الخليفة والوزير والأمراء وأرباب الرتب على ما تقدم ، وصار الوزير بجماعته الى باب القصر ، ركب الخليفة بهيئة الخلافة من المظلة واليتيمة والآلات المقدم ذكرها ، ولباسه فى هذا اليوم الثياب البياض الموشحة المحومة وهى أجل لباسهم ، والمظلة كذلك فانها أبدا تابعة لثيابه ، كيف كانت الثياب كانت ، ويكون خروجه من باب العيد الى المصلى ، والزيادة ظاهرة فى هذا اليوم فى العساكر ، وقد انتظم القوم له صفين من باب القصر الى باب المصلى .

ويكون صاحب بيت المال قد تقدم على الرسم لفرش المصلى ، فيفرش الطراحات على رسمها فى المحراب مطابقة ، ويعلق سترين يمنة ويسرة : فى الأيمن البسملة والفاتحة و « سبح اسم ربك الأعلى » ، وفى الأيسر مثل ذلك و « هل أتاك حديث الغاشية » ، ثم يركز فى جانب المصلى لواءين مشدودين على رمحين ملبسين بأنابيب الفضة ، وهما مستوران مرخيان .

فيدخل الخليفة من شرقى المصلى الى مكان ليستريح فيه دقيقة ، ثم يخرج محفوظا كما يحفظ فى جامع القاهرة ، فيصير الى المحراب ، ويصلى صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة ، والوزير وراءه والقاضى ، ويقرأ فى كل ركعة ما هو مرقوم فى السترين .

فاذا فرغ وسلم ، صعد المنبر للخطابة العيدية يوم الفطر ، فاذا جلس فى الذروة — وهناك طراحة سامان أو ديبقى على قدرها ، وباقيه بستر ببياض على مقداره فى تقطيع درجه وهو مضبوط لا يتغير — فيراه أهل ذلك الجمع جالسا فى الذروة .

ويكون قد وقف أسفل المنبر الوزير ، وقاضى القضاة ، وصاحب الباب اسفهسلار

العساكر ، وصاحب السيف ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر ، وصاحب دفتر المجلس ، وصاحب المظلة ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرمح ، ونقيب الأشراف الطالبيين ، ووجه الوزير اليه ، فيشير اليه فيصعد ويقرب وقوفه منه ، ويكون وجهه موازيا رجليه فيقبلهما بحيث يراه العالم ، ثم يقوم ويقف على يمينه .

فاذا وقف أشار الى قاضى القضاة ، فيصعد الى سابع درجة ، ويتطلع اليه صاغيا لما يقول ، فيشير اليه ، فيخرج من كمه مدرجا قد أحضر اليه أمس من ديوان الانشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير ، فيعلن بقراءة مضمونه ، ويقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثبت بمن شرف بصعوده المنبر الشريف فى يوم كذا — وهو عيد الفطر من سنة كذا — من عبيد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، بعد صعود السيد الأجل ، ونعوته المقررة ودعائه المحرر .

فان أراد الخليفة أن يشرف أحدا من أولاد الوزير واخوته ، استدعاه القاضى بالنعت المذكور ، ثم يتلو ذلك ذكرَ القاضى — وهو القارىء — فلا يتسع له أن يقول عن نفسه نعوته ولا دعاءه ، بل يقول المملوك فلان بن فلان .

وقرأه مرة القاضى ابن أبى عقيلٍ ، فلما وصل الى اسمه قال : العبد الذليل ، المعترف بالصنع الجميل فى المقام الجليل ، أحمد بن عبد الرحمن بن * أبى عقيل . فاستحسن ذلك منه .

ثم حذا حذوه الأعز بن سلامة — وقد استقضى فى آخر الوقت — فقال : المملوك فى محل الكرامة ، الذى عليه من الولاء أصدق علامه ، حسن بن على بن سلامة .

ثم يستدعى من ذكرنا وقوفهم على باب المنبر بنعوتهم ، وذكر خدمهم ودعائهم على الترتيب . فاذا طلع الجماعة — وكل منهم يعرف مقامه فى المنبر يمنة ويسرة — أشار الوزير اليهم ، فأخذ من هو من كل جانب بيده نصيبا من اللواء الذى بجانبه ، فيستر الخليفة ويسترون ، وينادى فى الناس بأن ينصتوا .

فيخطب الخليفة من المسطور على العادة ، وهى خطبة بليغة موافقة لذلك اليوم . فاذا فرغ ألقى كل من فى يده من اللواء شىء خارج المنبر ، فينكشفون وينزلون أولا فأولا الأقرب فالأقرب الى القهقرى .

فاذا خلا المنبر منهم ، قام الخليفة هابطا ، ودخل الى المكان الذى خرج منه ، فلبث يسيرا وركب فى زيه المفخم ، وعاد من طريقه بعينها الى أن يصل الى قريب القصر ، فيتقدمه الوزير كما شرحنا .

ثم يدخل من باب العيد ، فيجلس فى الشباك وقد نصب منه الى فسقية كانت فى وسط الايوان ، مقدار عشرين قصبة سماط من الخشكنان والبستندود والبرماورد مثلَ الجبل الشاهق ، وفيه القطعة وزنها من ربع قنطار الى رطل .

فيدخل ذلك الجمع اليه ، ويفطر منه من يفطر ، وينقل منه من ينقل ، ويباح ولايحجر

(*) ص٥٥٤ جـ١ ، ط. بولاق *

عليه ، ولا مانع دونه . فيسر ذلك بأيدى الناس ، وليس هو مما يعتد به ولا يعبى ، مما يفرق للناس ويحمل الى دورهم .

ويعمل فى هذا اليوم سماط من الطعام فى القاعة يحضر عليه الخليفة والوزير .

فاذا انقضى ذو القعدة ، وهل هلال ذى الحجة ، اهتم بركوب عيد النحر . فيجرى حاله كما جرى فى عيد الفطر من الزى والركوب الى المصلى ، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمر الموشح ، ولا ينخرم منه شىء ... انتهى .

وصعد مرة الخليفة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد المنبر يوم عيد ، فوقف الشريف ابن أنس الدولة بازائه ، وقال مشيرا الى الحاضرين :

خشوعا فان الله هذا مقامه
وهمسا فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذى فى كل وقت بروزه
تحياته من ربنا وسلامه

فضرب الحافظ الجانب الأيسر من المنبر ، فرقى اليه زمام القصر ، فقال له : قل للشريف حسبك قضيت حاجتك . ولم يدعه يقول شيئا آخر .

وكانت تكتب المخلقات بركوب أمير المؤمنين لصلاة العيد ، ويبعث بها الى الأعمال . فمما كتب به من انشاد ابن الصيرفى :

« أما بعد . فالحمد لله الذى رفع بأمير المؤمنين عماد الايمان وثبت قواعده ، وأعز بخلافته معتقده وأذل بمهابته معانده ، وأظهر من نوره ما انبسط فى الآفاق وزال معه الاظلام ، ونسخ به ما تقدمه من الملل فقال ان الدين عند الله الاسلام ، وجعل المعتصم بحبله مفضلا على من يفاخره ويباهيه ، وأوجب دخول الجنة وخلودها لمن عمل بأوامره ونواهيه ...

« وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذى اصطفى له الدين ، وبعثه الى الأقربين والأبعدين ، وأيده فى الارشاد حتى صار العاصى مطيعا ، ودخل الناس فى التوحيد فرادى وجميعا ، وغدوا بعروته الوثقى متمسكين ، وأنزل عليه « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

« وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب امام الأمة ، وكاشف الغمة ، وأوجه الشفعاء لشيعته يوم العرض ، ومن الاخلاص فى ولائه قيام بحق وأداء فرض ، وعلى الأئمة من ذريتهما سادة البرية ، والعادلين فى القضية ، والعاملين بالسيرة المرضية ، وسلم وكرم ، وشرف وعظم ...

« وكتاب أمير المؤمنين هذا اليك يوم الثلاثاء عيد الفطر من سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وقد كان من قيام أمير المؤمنين بحقه وأدائه ، وجريه فى ذلك على عادته وعادة من قبله من آبائه ، ما ينبئك به ، ويطلعك على مستوره عنك ومغيبه . وذلك أن دنس ثوب الليل لما بيضه الصباح ، وعاد المحرم المحظور بما أطلقه المحلل المباح ، توجهت عساكر أمير المؤمنين من مظانها الى بابه ، وأفطرت بين يديه بعد ما حازته من أجر الصيام وثوابه ...

« ثم انثنت الى مصافها فى الهيئات التى يقصر عنها تجريد الصفات ، وتغنى مهابتها عن تجريد المرهفات ، وتشهد أسلحتها وعددها بالتنافس فى الهمم ، وتقلق مواضيها فى أغمادها شوقا الى الطلى والقمم . وقد امتلأت الأرض بازدحام الرجل والخيل ، وثار العجاج فلم ير أغرب من اجتماع النهار والليل ...

« وبرز أمير المؤمنين من قصوره ، وظهر للأبصار على أنه محتجب بضيائه ونوره ، وتوجه الى المصلى فى هدى جده وأبيه ، والوقار الذى ارتفع فيه عن النظير والشبيه . ولما انتهى اليه قصد المحراب واستقبله ، وأدى الصلاة على وضع رضيه الله وتقبله ، وأجرى أمرها على أفضل المعهود ، ووفاها حقها من القراءة والتكبير والركوع والسجود ...

« وانتهى الى المنبر فعلا وكبر * الله ، وهلله على ما أولاه ، وذكر الثواب على اخراج الفطرة وبشر به ، وان المسارعة اليه من وسائل المحافظة على الخير وقربه ، ووعظ وعظا ينتفع قابله فى عاجلته ومنقلبه ...

« ثم عاد الى قصوره الزاهرة ، مشمولا بالوقاية ، مكنوفا بالكفاية ، منتهيا فى ارشاد عبيده ورعاياه أقصى الغاية ...

« أعلمك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتعلم منه ما تسكن اليه ، وتعلن بتلاوته على الكافة ليشتركوا فى معرفته ويشكروا الله عليه . فاعلم هذا ، واعمل به ان شاء الله تعالى » .

وكان من أهل برقة طائفة ، تعرف بصبيان الخف ، لها اقطاعات وجرايات وكسوات ورسوم . فاذا ركب الخليفة فى العيدين مدوا حبلين مسطوحين من أعلى باب النصر الى الأرض : حبلا عن يمين الباب ، وحبلا عن شماله .

فاذا عاد الخليفة من المصلى ، نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيل من خشب مدهون ، وفى أيديهم رايات ، وخلف كل واحد منهم رديف ، وتحت رجليه آخر معلق بيديه ورجليه . ويعملون أعمالا تذهل العقول .

ويركب منهم جماعة فى الموكب على خيول ، فيركضون وهم يتقلبون عليها ، ويخرج الواحد منهم من تحت ابط الفرس وهو يركض ، ويعود يركب من الجانب الآخر ، ويعود وهو على حاله لا يتوقف ، ولا يسقط منه شىء الى الأرض ، ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف .

ذكر القصر الصغير الغربى

وكان تجاه القصر الكبير الشرقى الذى تقدم ذكره ، فى غربيه ، قصر آخر صغير يعرف بالقصر الغربى .

ومكانه الآن حيث المارستان المنصورى وما فى صفه من المدارس ، ودار الأمير بيسرى ، وباب قبو الخرنشف ، وربع الملك الكامل المطل على سوق الدجاجين اليوم — المعروف قديما بالتبانين — وما يجاوره من الدروب المعروف اليوم بدرب الخضيرى تجاه الجامع الأقمر ، وما وراء هذه الأماكن الى الخليج .

(*) ص٤٥٥ ج١ ، ط.بولاق .

وكان هذا القصر الغربى يعرف أيضا بقصر البحر . والذى بناه العزيز بالله نزار بن المعز

قال المسيحى : ولم ين مثله فى شرق ولا فى غرب .

وقال ابن أبى طى فى أخبار سنة سبع وخمسين وأربعمائة : ففيها تم الخليفة المستنصر بناء القصر الغربى وسكنه ، وغرم عليه ألفى ألف دينار ، وكان ابتداء بنيانه فى سنة خمسين وأربعمائة .

وكان سبب بنائه أنه عزم على أن يجعله منزلا للخليفة القائم بأمر الله صاحب بغداد ، ويجمع بنى العباس اليه ، ويجعله كالمجلس لهم . فخانه أمله ، وتمه فى هذه السنة ، وجعله لنفسه وسكنه .

وقال ابن ميسر : ان ست الملك أخت الحاكم كانت أكبر من أخيها الحاكم ، وإن والدها العزيز بالله كان قد أفردها بسكنى القصر الغربى ، وجعل لها طائفة برسمها كانوا يسمون بالقصرية .

وهذا يدلك على أن القصر الغربى كان قد بنى قبل المستنصر وهو الصحيح ، وكان هذا القصر يشتمل أيضا على عدة أماكن .

الميدان : وكان بجوار القصر الغربى ومن حقوقه الميدان ، ويعرف هذا الميدان اليوم بالخرنشف واصطبل القطبية .

البستان الكافورى : وكان من حقوق القصر الصغير الغربى البستان الكافورى . وكان بستانا أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج بن جف الاخشيد أمير مصر ، وكان مطلا على الخليج ، فاعتنى به الاخشيد ، وجعل له أبوابا من حديد ، وكان ينزل به ويقيم فيه الأيام . واهتم بشأنه من بعد الاخشيد ابناه الأمير أبو القاسم أونوجور بن الاخشيد ، والأمير أبو الحسن على بن الاخشيد فى أيام امارتهما بعد أبيهما .

فلما استبد من بعدهما الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدى بامارة مصر ، كان كثيرا ما يتنزه به ، ويواصل الركوب الى الميدان الذى كان فيه ، وكانت خيوله بهذا الميدان .

فلما قدم القائد جوهر من المغرب بجيوش مولاه المعز لدين الله لأخذ ديار مصر ، أناخ بجوار هذا البستان ، وجعله من جملة القاهرة .

وكان متنزها للخلفاء الفاطميين مدة أيامهم ، وكانوا يتوصلون اليه من سراديب مبنية تحت الأرض ، ينزلون اليها من القصر الكبير الشرقى ، ويسيرون فيها بالدواب الى البستان الكافورى ومناظر اللؤلؤة بحيث لا تراهم الأعين .

وما زال البستان عامرا الى أن زالت الدولة فحكر ، وبنى فيه فى سنة احدى وخمسين وستمائة ، كما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى ، عند ذكر الحارات والخطط من هذا الكتاب .

وأما الأقباء والسراديب فانها عملت أسربة للمراحيض ، وهى باقية الى يومنا هذا تصب فى الخليج .

القاعة : وكان من جملة القصر الغربى قاعة كبيرة — هى الآن المارستان المنصورى حيث المرضى — كانت سكن ست الملك أخت الحاكم بأمر الله ، وكانت أحوالها متسعة جدا .

قال فى كتاب « الذخائر والتحف » : وأهدت * السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله الى أخيها ، يوم الثلاثاء التاسع من شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا ، منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور ، وعشرون بغلة بسروجها ولجمها ، وخمسون خادما منهم عشرة صقالبة ، ومائة تخت من أنواع الثياب وفاخرها ، وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبديعه ، وشاشية مرصعة ، وأسفاط كثيرة من طيب من سائر أنواعه ، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر .

قال : وخلفت حين ماتت ، فى مستهل جمادى الأخرة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، ما لا يحصى كثرة ، وكان اقطاعها فى كل سنة يغل خمسين ألف دينار ، ووجد لها بعد وفاتها ثمانية آلاف جارية ، منها بنيات ألف وخمسمائة .

وكانت سمحة نبيلة ، كريمة الأخلاق والفعل . وكان فى جملة موجودها نيف وثلاثون زيرا صينيا مملوءا جميعها مسكا مسحوقا ، ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت ذكر أن فيها عشرة مثاقيل

قال المسيحى · ولدت بالمغرب فى ذى القعدة سنة خمس وثلثمائة

ولما زالت الدولة عرفت هذه الدار بالأمير فخر الدين جهاركس ٠٠٠٠ ٠٠٠٠ [1] موسك ثم الملك المفضل قطب الدين ٠٠٠٠ ٠٠٠٠ ابن الملك العادل .

(*) ص٥٧ ج١ ط. بولاق .
(١) هكذا بياض فى الأصل .

فلما كان فى شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، شرع الملك المنصور قلاوون الألفى فى بنائها مارستانا ومدرسة وتربة ، وتولى عمارتها الأمير علم الدين سنجر الشجاعى مدبر الممالك . ويقال ان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع .

ابواب القصر الغربى

كان لهذا القصر عدة أبواب : منها باب الساباط ، وباب التبانين ، وباب الزمرذ .

باب الساباط : هذا الباب موضعه الآن باب سر المارستان المنصورى الذى يخرج منه الآن الى الخرنشف وكان من الرسم أن يذبح فى باب الساباط المذكور مدة أيام النحر ، وفى عيد الغدير ، عدة ذبائح تفرق على سبيل الشرف .

قال ابن المأمون فى سنة ست عشرة وخمسمائة : وجملة ما نحره الخليفة الآمر بأحكام الله ، وذبحه خاصة فى المنحر وباب الساباط — دون المأمون وأولاده واخوته — فى ثلاثة الأيام ألف وسبعمائة وستة وأربعون رأسا ... فذكر ما كان بالمنحر .

قال : وفى باب الساباط ، مما يحمل الى من حوته القصور والى دار الوزارة والأصحاب والحواشى ، اثنتا عشرة ناقة ، وثمانية عشر رأس بقر ، وخمسة عشر رأس جاموس ، ومن الكباش ألف وثمانمائة رأس . وتصدق كل يوم فى باب الساباط بسقط ما يذبح من النوق والبقر .

وقال ابن عبد الظاهر : كان فى القصر باب يعرف بباب الساباط ، كان الخليفة فى العيد يخرج منه الى الميدان — وهو الخرنشف الآن — لينحر فيه الضحايا .

باب التبانين : هـذا البـاب مـكان باب الخرنشف الآن ، وجعل فى موضعه دار العلم التى بناها الحاكم ، الآتى ذكرها ان شاء الله تعالى .

باب الزمرذ : كان موضع اصطبل القطبية قريبا من باب البستان الكافورى الموجود الآن .

ذكر دار العلم

وكان بجوار القصر الغربى من بحريه دار العلم ، ويدخل اليها من باب التبانين — الذى هو الآن يعرف بقبو الخرنشف — وصار مكان دار العلم الآن الدار المعروفة بدار الخضيرى ، الكائنة بدرب الخضيرى المقابل للجامع الأقمر . ودار العلم هذه اتخذها الحاكم بأمر الله ، فاستمرت الى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش .

قال الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله المسيحى : وفى يوم السبت هذا (يعنى العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة) فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة ، وجلس فيها الفقهاء ، وحملت الكتب اليها من خزائن القصور المعمورة .

ودخل الناس اليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه ، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها . وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها .

وحصل فى هـذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، من الكتب التى أمر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ، ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . فكان * ذلك من المحاسن المأثورة أيضا التى لم يسمع بمثلها ، من اجراء الرزق السنى لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها ، من فقيه وغيره .

وحضرها الناس على طبقاتهم : فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر . وهى الدار المعروفة بمختار الصقلبى .

قال : وفى سنة ثلاث وأربعمائة ، أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغنى ابن سعيد ، وجماعة من الأطباء ، الى حضرة الحاكم بأمر الله ، وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه ، ثم خلع على الجميع ووصلهم .

ووقف الحاكم بأمر الله أماكن فى فسطاط مصر على عدة مواضع ، وضمنها كتابا ثبت على

(*) ص٤٥٨ جـ١ ، ط.بولاق .

قاضى القضاة مالك بن سعيد — وقد ذكر عند ذكر الجامع الأزهر — وقال فيه وقد ذكر دار العلم : ويكون العشر وثمن العشر لدار الحكمة ، لما يحتاج اليه فى كل سنة ، من العين المغربى مائتان وسبعة وخمسون دينارا .

من ذلك لثمن الحصر العبدانى وغيرها لهذه الدار عشرة دنانير ، ومن ذلك لورق الكاتب (يعنى الناسخ) تسعون دينارا ، ومن ذلك للخازن بها ثمانية وأربعون دينارا ، ومن ذلك لثمن الماء اثنا عشر دينارا ، ومن ذلك للفراش خمسة عشر دينارا ، ومن ذلك للورق والحبر والأقلام لمن ينظر فيها من الفقهاء اثنا عشر دينارا ، ومن ذلك لمرمة الستارة دينار واحد ، ومن ذلك لمرمة ما عسى أن يتقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها اثنا عشر دينارا ، ومن ذلك لثمن لبود للفرش فى الشتاء خمسة دنانير ، ومن ذلك لثمن طنافس فى الشتاء أربعة دنانير .

وقال ابن المأمون : وفى هذا الشهر (يعنى شهر ذى الحجة سنة ست عشرة وخمسمائة) جرت نوبة القصار — وهى طويلة وأولها من الأيام الأفضلية ، وكان فيهم رجلان يسمى أحدهما بركات ، والآخر حميد بن مكى الأطفيحى القصار — مع جماعة يعرفون بالبديعية ، وهم على الاسلام والمذاهب الثلاثة المشهورة ، وكانوا يجتمعون فى دار العلم بالقاهرة .

فاعتمد بركات من جملتهم أن استفسد عقول جماعة ، وأخرجهم عن الصواب — وكان ذلك فى أيام الأفضل — فأمر للوقت بغلق دار العلم والقبض على المذكور ، فهرب .

وكان من جملة من استفسد عقله بركات المذكور أستاذان من القصر . فلما طلب بركات المذكور واستتر ، دقق الأستاذان الحيلة الى أن أدخلاه عندهما فى زى جارية اشترياها ، وقاما بحقه وجميع ما يحتاج اليه ، وصار أهله يدخلون اليه فى بعض الأوقات .

فمرض بركات عند الأستاذين ، فحارا فى أمره ومداواته ، وتعذر عليهما احضار طبيب له ، واشتد مرضه ومات ، فأعملا الحيلة ، وعرفا زمام القصر أن احدى عجائزهما قد توفيت ، وأن عجائزهما يغسلنها على عادة القصور ، ويشيعنها الى تربة النعمان بالقرافة ، وكتبا عدة من يخرج .

ففسح لهما فى العدة ، وأخذا فى غسله وألبساه ما أخذاه من أهله — وهو ثياب معلمة وشاشية ومنديل وطيلسان مقور — وادرجوه فى الديبقى ، وتوجه مع التابوت الأستاذان المشار اليهما .

فلما قطعوا به بعض الطريق أرادا تكميل الأجر له على قدر عقولهما ، فقالا للحمالين : هو رجل تربيته عندنا ، فنادوا عليه نداء الرجال ، واكتموا الحال ، وهذه أربعة دنانير لكم ، فسر الحمالون بذلك .

فلما عادوا الى صاحب الدكان عرفوه بما جرى ، وقاسموه الدنانير . فخافت نفسه ، وعلم أنها قضية لا تخفى ، فمضى بهم الى

الـوالى وشرح له القضـية . فأودعهـم فى الاعتقال ، وأخذ الذهب منهم ، وكتب مطالعة بالحال .

فمن أول ما سمع القائد أبو عبد الله بن فاتك ، الذى قيـل له بعـد ذلك المأمون ، بالقضـية — وكان مدبر الأمـور فى الأيام الأفضلية — قال : هو بركات المطلوب .

وأمر باحضار الأسـتاذين والكشـف عن القضية ، واحضار الحمالين والكشف عن القبر بحضورهم . فاذا تحققوه أمرهم بلعنه : فمن أجاب الى ذلك منهم أطلقـوه ، ومن أبى أحضروه ... فحققوا معرفته : فمنهم من بصق فى وجهه وتبرأ منه ، ومنهم من هم بتقبيله ولم يتبرأ منه .

فجلس الأفضل واستدعى الوالى والسياف ، واستدعى من كان تحت الحوطة من أصحابه ، فكل من تبرأ منه ولعنه أطلق سبيله ، وبقى من الجـماعة ممن لم يتبرأ منه خمسـة نفر وصبى لم يبلغ الحلم ، فأمر بضرب رقابهم ، وطلب الأستاذين فلم يقدر عليهما .

وقال للصبى من لفظه : تبرأ منـه وأنعم عليك وأطلق سـبيلك .

فقال له : الله يطالبك ان لم تلحقنى بهم ، فانى مشاهد ما هم فيه . وأخذ بسـيفـه على الأفضل ، فأمر بضرب عنقه .

فلما توفى الأفضل أمر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطائحى ، باتخاذ دار العلم وفتحها على الأوضاع الشرعية .

ثم عاد حميد القصار المثنى بذكره ، وظهر ، وسكن مصر يدق الثياب بها ، ويطلع الى دار العلم ، وأفسد عقل أستاذ وخياط وجمـاعة وادعى الربوبية .

فحضر الداعى ابن عبد الحقيق الى الوزير المأمون ، وعرفه بأن هذا قد تعرف بطرف من علم الكلام على مذهب أبى الحسن الأشعرى ، ثم انسلخ عن الاسلام وسلك طريق الحلاج فى التمويه * ، فاستهوى من ضـعف عقله وقلت بصيرته .

فان الحـلاج فى أول أمره كان يدعى أنه داعية المهدى ، ثم ادعى أنه المهدى ، ثم ادعى الالهية وأن الجن تخدمه ، وأنه أحيا عدة من الطيور .

وكان هذا القصار شيعى الدين ، وجرت له أمور فى الأيام الأفضلية ، ونفى دفعة واعتقـل أخرى ، ثم هرب بعد ذلك ، ثم حضر وسار يواصـل طلوع الجبـل ، واسـتصحب من استهواه من أصحابه .

فاذا أبعد قال لبعضهم بعـد أن يصـلى ركعتين : نطلب شيئا تأكله أصحابنا . فيمضى ولا يلبث دون أن يعود ومعه ما كان أعده مع بعض خاصته الذين يطلعون على باطنه .

فكانوا يهابونه ويعظمونه حتى انهم يخافون الاثم فى تأمل صورته ، فلا ينفكون مطرقين بين يديه . وكان قصيرا دميم الخلقة ، وادعى مع ذلك الربوبية .

وكان ممن اختص بحميـد رجـل خيـاط وخصى . فرسم المأمون بالقبض على المذكور

(*) ص٥٩ جـ١ ، ط.بولاق .

وعلى جميع أصحابه . فهرب الخياط وطلب فلم يوجد ، ونودى عليه ، وبذل لمن يحضر به مال فلم يقدر عليه .

واعتقل القصار وأصـحابه ، وقرروا فلم يقروا بشىء من حاله .

وبعد أيام تماوت فى الحبس فلما استؤمر عليه أمر بدفنه ، فلما حمل ليـدفن ظهر أنه حى ، فأعيد الى الاعتقال ، وبقى كل من لم يتبرأ منه معتقلا ، ما خلا الخصى فانه لم يتبرأ منه .

وذكر أن القتل لا يصل اليه ، فأمر بقطع لسـانه ورمى قدامه وهو مصر على ما فى نفسه ، فأخرج القصار والخصى ومن لم يتبرأ منـه من أصـحابه ، فصلبـوا على الخشب وضربوا بالنشاب ، فماتوا لوقتهم .

ثم نودى على الخياط ثانيا ، فأحضر وفعل به ما فعل بأصحابه بعد أن قيـل له : هاأنت تنظره . فلم يتبرأ منه ، وصلب الى جانبه .

وذكر أن بعض أصحاب هذا القصار ممن لم يعرف أنه كان يشترى الكافور ، ويرميـه بالقرب من خشبته التى هو مصلوب عليها ، فيستقبل رائحتـه من سلك تلك الطريق ، ويقصد بذلك أن يربط عقول من كان القصار قد أضـله . فأمر المأمـون أن يحطـوا عن الخشب ، وأن تخلط رممهم ويدفنوا متفرقين حتى لا يعرف قبر القصار من قبورهم .

وكان قتلهم فى سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وابتـداء هـذه القضـية سـنة ثلاث عشرة وخمسمائة .

قال : وكان الشريف عبد الله يحـدث عن صديق له مأمون القول ، أنه أخبره أنه لما شاع خبر هذا القصـار وما ظهر منـه ، أراد أن يمتحنه ، فتسبب الى أن خالطه ، وصار فى جملة أصحابه ومن يعظمـه ويطلع معـه الى الجبل ، فأفسد عقله وغير معتقده ، وأخرجه عن الاسلام .

وأنه لامه على ذلك وردعه ، فحدثه بعجائب منهـا أنه قال : والله ما من الجمـاعة الذين يطلعون معـه الى الجبـل أحد الا ويسـأله ويستدعيه ما يريد على سـبيل الامتحـان ، فيحضره اليه لوقته .

وأن بيده سكينا لا تقطع الا بيده ، واذا أمسك طائرا وقبضه أحد من الحـاضرين ، يدفع السكين التى معه له ويقول له : اذبحه ، فلا تمشى فى يده ، فيأخذها هو ويذبحه بها ويجرى دمه ، ثم يعود ويسـكه بيده ويسرحه فيطير ، ويقول ان الحديد لا يعمل فيـه ، ويوسع القول فيما يشاهده منه ويسمعه .

فلما اعتقل القصار ، بقى هذا الرجل مصرا على اعتقاده ، فلما قتل وخرج اليـه وشاهده وتحقق موته ، علم أن ما كان فيه سحر وزور وافك ، فتصدق بجملة من ماله ، وعاد الى مذهبه وصح معتقده .

وقال ابن عبـد الظـاهر : دار العلم كان الأفضل بن أمير الجيـوش قد أبطلها ، وهى بجوار باب التبانين ، وهى متصـلة بالقصر الصغير ، وفيهـا مدفـون الداعى المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى الأعجمى ، وكان لا

يطالها أمور سببها اجتماع الناس ، والخوض فى المذاهب ، والخوف من الاجتماع على المذهب النزارى .

ولم يزل الخدام يتوصلون الى الخليفة الآمر بأحكام الله حتى تحدث فى ذلك مع الوزير المأمون ، فقال : أين تكون هذه الدار ؟

فقال بعض الخدام : تكون بالدار التى كانت أولا .

فقال المأمون : هذا لا يكون لأنه باب صار من جملة أبواب القصر وبرسم الحوائج ، ولا يمكن الاجتماع ، ولا يؤمن من غريب يتحصل به .

فأشار كل من الأستاذين بشىء ، فأشار بعضهم أن تكون فى بيت المال القديم .

فقال المأمون : ياسبحان الله قد منعنا أن تكون متاخمة للقصر الكبير الذى هو سكن الخليفة نجعلها ملاصقة !

فقال الثقة زمام القصور : فى جوارى موضع ليس ملاصقا للقصر ولا مخالطا له ، يجوز أن يعمر ويكون دار العلم .

فأجاب المأمون الى ذلك وقال : بشرط أن يكون متوليها رجلا دينا ، والداعى الناظر فيها ، ويقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن .

فاستخدم فيها أبو محمد حسن بن آدم فتولاها ، وشرط عليه ما تقدم ذكره ، واستخدم فيها مقرئون .

ذكر دار الضيافة

خرّج مالك فى الموطأ ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : «كان ابراهيم عليه السلام أول من ضيف الضيف» .

وأول من اتخذ دار ضيافة فى الاسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سنة * سبع عشرة ، وأعد فيها الدقيق والسمن والعسل وغيره ، وجعل بين مكة والمدينة من يحمل المنقطعين من ماء الى ماء حتى يوصلهم الى البلد .

فلما استخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه أقام الضيافة لأبناء السبيل والمتعبدين فى المسجد .

وأول من بنى دار الضيافة بمصر للناس عثمان بن قيس بن أبى العاص السهمى ، أحد من شهد فتح مصر من الصحابة .

وكان ميدان القصر الغربى — الذى هو الآن الخرنشف — دار الضيافة بحارة برجوان . وكانت هذه الدار أولا تعرف بدار الأستاذ برجوان ، وفيها كان يسكن حيث الموضع المعروف بحارة برجوان .

ثم لما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام الخليفة المستنصر من عكا ، واستبد بأمر الدولة ، أنشأ هناك دارا عظيمة وسكنها ، ولم يسكن بدار الديباج التى كانت دار الوزارة القديمة .

(*) ص٤٦٠ جـ١ ، ط. بولاق .

فلما مات أمير الجيوش بدر ، واستولى على سلطنة ديار مصر ابنه الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش ، وأنشأ دار القباب — التى عرفت بدار الوزارة الكبرى — قريبا من رحبة باب العيد ، أقر أخاه أبا محمد جعفرا المنعوت بالمظفر بن أمير الجيوش ، بدار أمير الجيوش من حارة برجوان ، فعرفت بدار المظفر ، وما زال بها حتى مات وقبر بها ، والى اليوم قبره بها ، وتسميه العامة جعفرا الصادق .

ولما مات المظفر اتخذت داره المذكورة دار ضيافة برسم الرسل الواردين من الملوك ، واستمرت كذلك الى أن انقرضت الدولة ، فأنزل بها السلطان صلاح الدين أولاد العاضد ، الى أن نقلهم الى قلعة الجبل الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب .

فلما كان فى سنة تسع وسبعين وستمائة ، تقدم أمر الملك المنصور قلاوون ، لوكيل بيت المال القاضى نجد الدين عيسى بن الخشاب ، ببيع دار المظفر ، فباع القاعة الكبرى وما هو من حقوقها ، وبيعت دار المظفر الصغرى ، وهدمها الناس وبنوا فى مكانها دورا .

وموضعها الآن دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى الحنفى ، وما بجوارها الى الدار التى بها سكنى اليوم ، وهى من حقوق دار المظفر الصغرى ، على ما فى كتبها القديمة . ولما أنشأ قاضى القضاة شمس الدّين المذكورة داره فى سنة سبع ، أو سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، ظهر من تحت الأرض عند حفر الأساس حجر عظيم ، قيل انه عتبة دار المظفر الكبرى . وكان اذ ذاك الأمير جهاركس الخليلى يتولى عمارة مدرسة الملك الظاهر برقوق التى فى خط بين القصرين ، فلما بلغه خبر هذا الحجر بعث اليه ، وأمر بجره الى العمارة ، فعمل عتبة باب المزملة التى للمدرسة .

وكان من وراء هذه الدار رحبة الأفيال ، أدركتها ساحة ثم عمر فيها .

قال ابن الطوير : الخدمة المعروفة بالنيابة للقاء المرسلين — وهى خدمة جليلة — يقال لمتوليها النائب ، وينعت بعدى الملك ، وهو ينوب عن صاحب الباب فى لقاء الرسل الوافدين على مسافة ، وانزال كل واحد فى دار تصلح له ، ويقيم له من يقوم بخدمته ، وله نظير فى دار الضيافة ، وهو يسمى اليوم بمهمندار ، ويرتب لهم ما يحتاجون اليه ، ولا يمكن أحدا من الاجتماع بهم ، ويذكر صاحب الباب بهم ، ويبالغ فى نجاز ما وصلوا فيه .

وهو الذى يسلم بهم أبدا عند الخليفة والوزير ، وينفذ بهم ويستأذن عليهم . ويدخل الرسول وصاحب الباب قابض على يده اليمنى ، والنائب بيده اليسرى ، فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم ، ويجتهد فى انفصالهم على أحسن الوجوه ، وبين يديه من الفراشين المقدم ذكرهم عدة لاعانته ، واذا غاب أقام عنه نائبا الى أن يعود ، وله من الجارى خمسون دينارا فى كل شهر ، وفى اليوم نصف قنطار خبز ، وقد يهدى اليه المرسلون طرفا فلا يتناولها الا باذن ... انتهى .

وفى هذه الدولة التركية يقال لمتولى هذه الوظيفة مهمندار ، ولا يليها عندهم الا صاحب

ـسيف من الأمراء العشراوات . وكانت في الدولة الفاطمية ، على ما ذكره ابن الطوير ، لا يليها الا أعيان العدول وأرباب العمائم ، وتعت أيضا بعدى ذلك . وأصل هذه الكلمة بالفارسية مهمان دار (ومعناها ملتقى الضيوف) .

ذكر اصطبل الحجرية

وكان بجوار دار الضيافة اصطبل الصبيان الحجرية المقدم ذكرهم . وموضع هذا الاصطبل اليوم يعرف بخان الوراقة ، داخل باب الفتوح القديم بسوق المرحلين ، على يسرة من أراد الخروج من باب الفتوح القديم ، تجاه زيادة الجامع الحاكمي .

ومن حقوق هذا الاصطبل أيضا الموضع الذي فيه الآن القيسارية المعروفة بقيسارية الست ، التي هي اليوم تجاه المدرسة الصيرمية والجلون الصغير . وكانت بهذا الاصطبل خيول الصبيان الحجرية ، احدى طوائف العساكر في زمن الخلفاء الفاطميين *

ذكر مطبخ القصر

وكان بجوار القصر الغربي ، قبالة باب الزهومة من القصر الكبير ، مطبخ القصر وموضعه الآن الصاغة تجاه المدارس الصالحية . ولما كانت مطبخا كان يخرج اليه من باب الزهومة . وذكر ابن عبد الظاهر انه كان يخرج من المطبخ المذكور ، مدة شهر رمضان ، ألف ومائتا قدر من جميع ألوان الطعام ، تفرق كل يوم على أرباب الرسوم والضعفاء .

(*) ص٤٦١ جـ١ ، ط.بولاق .

درب السلسلة : وكان بجوار مطبخ القصر درب السلسلة .

قال ابن الطوير *: ويبيت خارج باب القصر في كل ليلة خمسون فارسا . فاذا أذن بالعشاء الآخرة داخل القاعة ، وصلى الامام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين وغيرهم ، وقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولة ابن الكركندي ، فاذا علم بفراغ الصلاة أمر بضرب النوبات من الطبل والبوق ، ولواتقها من عدة وافرة ، بطرائق مستحسنة مدة ساعة زمانية .

ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمة فيقول : أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام ، فيصقع ويغرس حربة على الباب ، ثم يرفعها بيده ، فاذا رفعها أغلق الباب ، وسار حوالى القصر سبع دورات .

فاذا انتهى ذلك جعل على الباب البياتين والفراشين المقدم ذكرهم ، وانصرف المؤذنون الى خزائنهم هناك ، وترمى السلسلة عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين فينقطع المار من ذلك المكان الى أن تضرب النوبة سحرا قرب الفجر ، فتنصرف الناس من هناك بارتفاع السلسلة .

وقال ابن عبد الظاهر : درب السلسلة الذي هو الآن الى جانب السيوفيين ، كانت عنده سلسلة منه الى قبالته تعلق كل يوم من الظهر حتى لا يعبر راكب تحت القصر . وهذا الدرب يعرف بسنان الدولة بن الكركندي . وهذا الدرب هو المختص بالتقفيزة .

وهذه التقفيزة أمرها مستظرف ، لا من قبل الحسن بل من قبل التعجب من العقول ، ولها خمسة أوقات ، وهي : ليالي العيدين ، وغرة السنة ، وغرة شهر رمضان ، ويوم فتح الخليج .

وهو أنه يقف راكبا في وسط الزلاقة التي لباب الذهب قبالة الدار القطبية ، فيخرج اليه السلام من الخليفة ، ثم يخدم الرهجية ، ثم يصعد على كدرة باب الزهومة وقدامه دواب المظلة يسة ويسرة ، والرهجية تخدم ، وأرباب الضوء ومستخدمو الطرق على السلسلة .

فاذا كان الطرف وصلوا اليه ، واجتمعت الرهجية كلهم ، وركب فرسا وعليه ثياب حسنة ، وكشف عن راياته وأخذ بيده رمحا ، واجتمعت الرهجية حوله ، ويعبر مشورا وأولئك خلفه بالصراخ والصياح بشعار الامام ، ثم يسير بذاك الجمع وخيل المظلة الى أبواب القصر ، فيقف عند كل باب تخدم الرهجية الى أن يعودوا الى باب الذهب ، ثم الى دار الوزارة للهناء .

فلم يزالوا كذلك الى ولاية ابن الكركندي فبطلت هذه السنة في الأيام الآمرية .

وصاحب التقفيزة ممن وصل آباؤه صحبة المعز لدين الله من بلاد المغرب فكانت هذه سنتهم .

ذكر الدار المأمونية

وكان بجوار درب السلسلة الدار المأمونية وهي المدرسة السيوفية ، وكانت هذه الدار سكن المأمون بن البطائحي ، وعرفت قديما بقوام الدولة حبوب ، ثم جددها المأمون محمد ابن فاتك .

المأمون البطائحي : هو أبو عبد الله محمد ابن الأمير نور الدولة أبي شجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبي الحسن مختار المستنصري . اتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش في شهر شوال سنة احدى وخمسمائة عندما تغير على تاج المعالي مختار الذي كان اصطنعه وفخم أمره وسلم اليه خزائن أمواله وكسواته ، وسلم ما كان بيده من الخدمة لمحمد بن فاتك ، فتصرف فيها .

وقرر له الأفضل ما كان باسم مختار من العين خاصة دون الاقطاع ، وهو مائة دينار في كل شهر ، وثلاثون دينارا عن جاري الخزائن ، مضافا الى الأصناف الراتبة مياومة ومشاهرة ومسانهة .

فحسن عند الأفضل موقع خدمته ، فاعتمد عليه ، وسلم له جميع أموره ، وصرفه في كل أحواله . فلما كثر عليه الشغل استعان باخويه أبي تراب حيدرة وأبي الفضل جعفر ، فأطلق الأفضل لهما ما وسع به عليهما من المياومة والمشاهرة والمسانهة . ونعته الأفضل بالقائد ، فصار يخاطب بالقائد ويكاتب به ، وصار عنده بمنزلة الأستادار .

فلما قتل الأفضل ليلة عيد الفطر من سنة خمس عشرة وخمسمائة ، قام القائد أبو عبد الله بن فاتك لخدمة الخليفة الآمر بأحكام الله ، وأطلعه على أموال الأفضل ، وبالغ في مناصحته حتى لقد اتهم أنه هو الذي دبر في قتل الأفضل باشارة الخليفة *

(*) ص٤٦٢ جـ١ ، ط.بولاق .

فخلع عليه الآمر فى مستهل ذى القعدة بمجلس اللعبة من القصر ، وهو المجلس الذى يجلس فيه الخليفة ، ولم يخلع قبله على أحد فيه ، وحل المنطقة من وسطه ، وخلع على ولده وحل منطقته ، وخلع على اخوته .

واستمر تنفيذ الأمور اليه الى أن استهل ذو الحجة . ففى يوم الجمعة ثانيه خلع عليه من الملابس الخاص ، فى فرد كم مجلس اللعبة ، طوق ذهب مرصع وسيف ذهب كذلك ، وسلم على الخليفة .

وتقدم الأمر للأمراء وكافة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه ، وأن يركب من المكان الذى كان الأفضل يركب منه ، ومشى فى ركابه القواد على عادة من تقدمه ، وخرج بتشريف الوزارة ، ودخل من باب العيد راكبا . ووصل الى داره ، فضاعف الرسوم وأطلق الهبات .

فلما كان يوم الاثنين خامسه ، اجتمع الأمراء بين يدى الخليفة ، وأحضر السجل فى لفافة خاص مذهبة ، فسلمه الخليفة له من يده ، فقبله وسلمه لزمام القصر ، فأمره الخليفة بالجلوس الى جانبه عن يمينه ، وقرىء السجل على باب المجلس . وهو أول سجل قرىء هناك ، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالايوان .

ورسم للشيخ أبى الحسن بن أبى أسامة ، كاتب الدست ، أن ينقل نسبة الأمراء والمحنكين من الآمرى الى المأمونى ، وكذا الناس أجمع . ولم يكن أحد ينتسب الى الأفضل ولا لأمير الجيوش . وقدمت له الدواة فعلم فى مجلس الخليفة .

ونعت بالسيد الأجل المأمون تاج الخلافة ، ووجيه الملك فخر الصنائع ، ذخر أمير المؤمنين عز الاسلام ، فخر الأنام نظام الدين ، أمير الجيوش ، سيف الاسلام ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين .

وكان يجلس بداره فى يومى الأحد والأربعاء للراحة والنفقة فى العسكر الباطلية الى الظهر ، ثم يرفع النفقة ويحط السماط ، ويجلس بعد العصر والكتاب بين يديه ، فينفق فى الراجل الى آخر النهار .

وفى يوم الجمعة يطلق للمقرئين بحضرته خمسة دنانير ، ولكل من هو مستمر القراءة على بابه من الضعفاء والأجراء مما هو ثابت بأسمائهم خمسمائة درهم ، ولبقية الضعفاء والمساكين خمسمائة درهم أخرى . فاذا توجه يوم الجمعة الى القرافة يكون المبلغ المذكور مستقرا لأربابه .

ولم يزل الى ليلة السبت الرابع من رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة ، فقبض الآمر المذكور عليه وعلى اخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من خواصه وأهله واعتقله ، ثم صلبه مع اخوته فى سنة اثنتين وعشرين .

قيل ان سبب القبض عليه ما بلغ الآمر عنه أنه بعث الى الأمير جعفر بن المستعلى يغريه بقتل أخيه ليقيمه مكانه فى الخلافة . وكان الذى بلغ الآمر ذلك الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة . وبلغه أيضا عنه أنه سير لنجيب الدولة أبا الحسن الى اليمن ليضرب سكة عليها الامام المختار محمد بن نزار . وذكر عنه أنه سم شيئا ودفعه لقصاد الخليفة فنم عليه القصاد .

وكان مولد المأمون فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وكان من ذوى الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول ، كريما واسع الصدر ، سفاكا للدماء ، كثير التحرز والتطلع الى معرفة أحوال الناس من العامة والجند ، فكثر الوشاة فى أيامه .

حبس المعونة : وكان بجوار الدار المأمونية حبس المعونة ، وموضعه اليوم قيسارية العنبر .

قال ابن المأمون : فى سنة سبع عشرة وخمسمائة ، تقدم أمر المأمون الى الواليين بمصر والقاهرة باحضار عرفاء السقائين ، وأخذ الحجج على المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة اليهم ليلا ونهارا ، وكذلك يعتمد فى القربيين ، وأن يبيتوا على باب كل معونة ومعهم عشرة من الفعلة بالطوارى والمساحى ، وأن يقوما لهم بالعشاء من أموالهما بحكم فقرهم ... انتهى .

وكان حبس المعونة هذا يسجن فيه أرباب الجرائم كما هو اليوم السجن المعروف بخزانة شمائل ، وأما الأمراء والأعيان فيسجنون بخزانة البنود كما تقدم . ولم يزل هذا الموضع سجنا مدة الدولة الفاطمية ومدة دولة بنى أيوب ... الى أن عمره الملك المنصور قلاوون قيسارية ، أسكن فيها العنبرانيين فى سنة ثمانين وستمائة

ذكر الحسبة ودار العيار

وكان بجوار حبس المعونة دكة الحسبة ، ومكانها اليوم يعرف بالأبازرة ومكسر الحطب ، بجوار سوق القصارين والفحامين

قال ابن الطوير : وأما الحسبة فان من تسند اليه لا يكون الا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين ، لأنها خدمة دينية ، وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة كنواب الحكم ، وله الجلوس بجامعى القاهرة ومصر يوما بعد يوم .

ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ، ويأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحمهم ومعرفة من جزاره ، وكذلك الطباخون ، ويتتبعون الطرقات ويمنعون من المضايقة فيها ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر من وسق السلامة ، وكذلك مع الحمالين على البهائم *.

ويأمرون السقائين بتغطية الروايا بالأكسية — ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلوا ، كل دلو أربعون رطلا — وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم وهى زرق ، وينذرون معلمى المكاتب بألا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا ولا فى مقتل ، وكذلك معلمو العوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس ، ويقفون على من يكون سيىء المعاملة فينهونه بالردع والأدب ، وينظرون المكاييل والموازين .

وللمحتسب النظر فى دار العيار ، ويخلع عليه ، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر ، ولا يحال بينه وبين مصلحة اذا رآها ، والولاة تشد معه اذا احتاج الى ذلك ، وجاريه ثلاثون دينارا فى كل شهر ... انتهى .

(*) ص٤٦٣ جـ١ ، ط.بولاق .

وكان للعيار مكان يعرف بدار العيار تعير فيه الموازين بأسرها وجميع الصنج . وكان يُنفق على هذه الدار من الديوان السلطانى فيما تحتاج اليه من الأصناف ، كالنحاس والحديد والخشب والزجاج ، وغير ذلك من الآلات وأجر الصناع والمشارفين ونحوهم . ويحضر المحتسب أو نائبه الى هذه الدار ليعير المعمول فيها بحضوره ، فان صح ذلك أمضاه ، والا أمر بإعادة عمله حتى يصح .

وكان بهذه الدار أمثلة يصحح بها العيار ، فلا تباع الصنج والموازين والأكيال الا بهذه الدار ، ويحضر جميع الباعة الى هذه الدار باستدعاء المحتسب لهم ، ومعهم موازينهم وصنجهم ومكاييلهم ، فتعير فى كل قليل . فان وجد فيها الناقص استهلك ، وأخذ من صاحبه لهذه الدار ، وألزم بشراء نظيره مما هو محرر بهذه الدار والقيام بثمنه . ثم سومح الناس ، وصار يلزم من يظهر فى ميزانه أو صنجه خلل بإصلاح ما فيها من فساد فقط ، والقيام بأجرته فقط .

وما زالت هذه الدار باقية جميع الدولة الفاطمية . فلما استولى صلاح الدين على السلطنة ، أقر هذه الدار ، وجعلها وقفا على سور القاهرة مع ما كان جاريا فى أوقاف السور من الرباع والنواحى الجارية فى ديوان الأسوار . وما زالت هذه الدار باقية .

اصطبل الجميزة : وكان بجوار القصر الغربى من قبليه اصطبل الجميزة ، من جانب باب الساباط الذى هو الآن باب سر المارستان المنصورى . وقيل له اصطبل الجميزة من أجل أنه كان فى وسطه شجرة جميز كبيرة .

وكان موضع هذا الاصطبل تجاه من يخرج من باب الساباط ، فينزل من الحدرة التى هى الآن تجاه باب سر المارستان المتوصل منها الى حارة زويلة ، ويستد فيما حاذاه يسارك اذا وقفت بأول هذه الحدرة حيث الطاحون الكبيرة التى هى الآن فى أوقاف المارستان وما وراءها ، ويحاذيها الى الموضع المعروف اليوم بالبندقانيين .

وكانت بئره تعرف ببئر زويلة ، وعليها ساقية تنقل الماء لشرب الخيول . وموضع هذه البئر اليوم قيسارية تعرف بقيسارية يونس تجاه درب الأنجب . وقد شاهدت هذه البئر لما أنشأ الأمير يونس الدوادار هذه القيسارية والربع علوها ، فرأيت بئرا كبيرة جدا ، وقد عقد على فوهتها عقد وركب فوقه بعض القيسارية ، وترك منها شىء . ومنها الآن الناس تسقى بالدلاء .

وما زال هذا الاصطبل باقيا الى أن انقرضت الدولة الفاطمية فحكر ، وبنى فى مكانه الآدر التى هى موجودة الآن ، وحكره جار فى أوقاف الصلاح الأزبكى . وقد تقدم ذكر هذا الاصطبل عند ذكر اصطبل الطارمة ، فانظر رسومه هناك .

دار الديباج : وكان بجوار اصطبل الطارمة من غربيه دار الديباج ، وهى حيث المدرسة الصاحبية بسويقة الصاحب ، وما جاورها من جانبها وما خلفها الى الوزيرية ، وكانت هى دار الوزارة القديمة .

وأول من أنشأها الوزير يعقوب بن يونس بن كلس وزير العزيز بالله ، ثم سكنها الوزير

الناصر للدين ، قاضى القضاة وداعى الدعاة ، علم المجد أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن البازورى .

وما زالت سكن الوزراء الى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ، ووزره المستنصر ، وصار وزيرا مستبدا ، فأنشأ داره بحارة برجوان وسكنها ، وسكن من بعده ابنه الأفضل بن أمير الجيوش بدار القباب التى عرفت بدار الوزارة الكبرى .

وصارت هذه الدار تعرف بدار الديباج ، لأنه يعمل فيها الحرير الديباج ، ويتولاها الأماثل والأعيان . فممن وليها أبو سعيد بن قرقة الطبيب متولى خزائن السلاح وخزائن السروج والصناعات .

فلما انقرضت الدولة الفاطمية ، بنى الناس فى مكان دار الديباج المدرسة السيفية ، وما وراءها من المواضع التى تعرف أماكنها اليوم بدرب الحريرى ، وما جاور هذا الدرب الى المدرسة الصاحبية وما بجوارها وما هو فى ظهرها . فصار يعرف خط دار الديباج فى زمننا بخط سويقة الصاحب .

الأهراء السلطانية : وكانت أهراء الغلال السلطانية ، فى دولة الخلفاء الفاطميين ، حيث المواضع التى فيها الآن خزانة شمائل ، وما وراءها الى قرب الحارة الوزيرية .

قال ابن الطوير : وأما الأهراء فانها كانت فى عدة * أماكن بالقاهرة هى اليوم اصطبلات ومناخات ، وكانت تحتوى على ثلثمائة الف اردب من الغلات وأكثر من ذلك . وكان فيها مخازن يسمى أحدها بغدادى ، وآخر الفول ، وآخر القرافة .

ولها الحماة من الأمراء والمشارفين من العدول ، والمراكب واصلة اليها بأصناف الغلات الى ساحل مصر وساحل المقس ، والحمالون يحملون ذلك اليها بالرسائل على يد رؤساء المراكب وأمنائها من كل ناحية سلطانية ، وأكثر ذلك من الوجه القبلى .

ومنها اطلاق الأقوات لأرباب الرتب والخدم وأرباب الصدقات وأرباب الجوامع والمساجد ، وجرايات العبيد السودان بتعريفات ، وما ينفق فى الطواحين برسم خاص الخليفة . وهى طواحين مدارها سفل وطواحينها علو حتى لا تقارب زبل الدواب ، ويحمل دقيقها للخاص ، وما يختص بالجهات فى خرائط من شقق حلبية .

ومن الأهراء تخرج جرايات رجال الأسطول — وفيها ما هو قديم يقطع بالمناحى ، ويخلط فى بعض الجرايات بالجديد بجرايات المذكورين — وجرايات السودان ، ومنها ما يستدعى بدار الضيافة لأخباز الرسل ومن يتبعهم ، وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول .

فلا يفتر مستخدموها من دخل وخرج ، ولهم جامكية مميزة وجرايات برسم أقواتهم وشعير لدوابهم . وما يقبض من الواصلين بالغلال الا ما يماثل العيون المختومة معهم ، والا ذرى وطلب العجز بالنسبة .

(*) ص٤٦٤ جـ١ ، ط. بولاق .

وذكر ابن المأمون أن غلات الوجه القبلى كانت تحمل الى الأهراء . وأما الأعمال البحرية والبحيرة والجزيرتان والغربية والكفور والأعمال الشرقية ، فيحمل منها اليسير ، ويحمل باقيها الى الاسكندرية ودمياط وتنيس ، ليسير الى ثغر عسقلان وثغر صور . وأنه كان يسير اليهما فى كل سنة مائة وعشرون ألف اردب : منها لعسقلان خمسون ألفا ، ولصور سبعون ألفا ، فيصير هناك ذخيرة ، ويباع منها عند الغنى عنها .

قال : وكان متحصل الديوان فى كل سنة ألف ألف اردب .

وذكر جامع السيرة البازورية أن المتجر كان يقام به للديوان من الغلة ، وأن الوزير أبا محمد البازورى قال للخليفة المستنصر — وهو يومئذ يتقلد وظيفة قاضى القضاة ، وقد قصر النيل فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، ولم يكن بالمخازن السلطانية غلال فاشتدت المسغبة — يأمير المؤمنين ، ان المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين وربما أقحط السعر من مشتراها ، ولا يمكن بيعها ، فتتغير فى المخازن وتتلف . وانه يقام متجر لا كلفة فيه على الناس ، ويفيد أضعاف فائدة الغلة ، ولا يخشى عليه من تغير فى المخازن ولا انحطاط سعر ، وهو الصابون والخشب والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك .

فأمضى الخليفة ما رآه ، واستمر ذلك ، ودام الرخاء على الناس وتوسعوا .

ذكر المناظر التى كانت للخلفاء الفاطميين ومواضع نزههم وما كان لهم فيها من أمور جميلة

وكان للخلفاء الفاطميين مناظر كثيرة بالقاهرة ومصر والروضة والقرافة وبركة الحبش وظواهر القاهرة ، وكانت لهم عدة متنزهات أيضا .

فمن مناظرهم التى بالقاهرة : منظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة التاج والخمس وجوه ، ومنظرة الصناعة بمصر ، ودار الملك ومنازل العز والهودج بالروضة ، ومنظرة بركة الحبش والأندلس بالقرافة ، وقبة الهواء ، ومنظرة السكرة .

وكان من متنزهاتهم : كسر خليج أبى المنجا ، وقصر الورد بالخرقانية ، وبركة الجب .

منظرة الجامع الأزهر : وكان بجوار الجامع الأزهر من قبليه منظرة تشرف على الجامع الأزهر يجلس الخليفة فيها لمشاهدة ليالى الوقود .

ذكر ليالى الوقود

قال المسبحى فى حوادث شهر رجب من سنة ثمانين وثلثمائة : وفيه خرج الناس فى لياليه ، على رسمهم فى ليالى الجمع وليلة النصف ، الى جامع القاهرة (يعنى الجامع الأزهر)

عوضا عن القرافة ، وزيد فيه فى الوقيد على حافات الجامع ، وحول صحنه التنانير والقناديل والشمع على الرسم فى كل سنة ، والأطعمة والحلوى ، والبخور فى مجامر الذهب والفضة وطيف بها .

وحضر القاضى محمد بن النعمان فى ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد ، وقدمت اليه سلال الحلوى والطعام ، وجلس بين يديه القراء وغيرهم والمنشدون والنائحة . وأقام الى نصف الليل ، وانصرف الى داره بعد أن قدم الى من معه أطعمة من عنده وبخرهم .

وقال فى شعبان : كان الناس فى كل ليلة جمعة وليلة النصف ، على مثل ما كانوا عليه فى رجب وأزيد . وفى ليلة النصف من شعبان كان (*) للناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين ، وحضر القاضى محمد بن النعمان فى جميع شهوده ووجوه البلد ، ووقدت التنانير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه ، ووضع الشمع على المقصورة وفى مجالس العلماء ، وحمل اليهم العزيز بالله الأطعمة والحلوى والبخور ، فكان جمعا عظيما .

قال : وفى شهر رجب سنة اثنتين وأربعمائة ، قطع الرسم الجارى من الخبز والحلوى الذى يقام فى هذه الثلاثة الأشهر لمن يبيت بجامع القاهرة فى ليالى الجمع والأنصاف ، وحضر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى الى جامع القاهرة ليلة النصف من رجب ، واجتمع الناس بالقرافة على ما جرت به رسومهم من كثرة اللعب والمزاح .

روى الفاكهى فى كتاب « مكة » أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان يصيح فى أهل مكة ويقول : ياأهل مكة أوقدوا ليلة هلال المحرم ، فأوضحوا فجاجكم لحاج بيت الله ، واحرسوهم ليلة هلال المحرم حتى يصبحوا .

وكان الأمر على ذلك بمكة فى هذه الليلة حتى كانت ولاية عبد الله بن محمد بن داود على مكة ، فأمر الناس أن يوقدوا ليلة هلال رجب ، فيحرسوا عمار أهل اليمن ، ففعلوا ذلك فى ولايته ، ثم تركوه بعد . وفى ليلة النصف من رجب سنة خمس عشرة وأربعمائة ، حضر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله ومعه السيدات ، وخدم الخاصة وغيرهم وسائر العامة والرعايا ، فجلس الخليفة فى المنظرة .

وكان فى ليلة شعبان أيضا اجتماع لم يشهد مثله من أيام العزيز بالله ، وأوقدت المساجد كلها أحسن وقيد ، وكان مشهدا عظيما بعد عهد الناس بمثله ، لأن الحاكم بأمر الله كان أبطل ذلك فانقطع عمله .

وقال ابن المأمون : ولما كانت ليلة مستهل رجب (يعنى من سنة ست عشرة وخمسمائة) عملت الأسمطة الجارى بها العادة ، وجلس الخليفة الآمر بأحكام الله عليها ، والأجل المأمون الوزير ومن جرت عادته بين يديه .

وأظهر الخليفة من المسرة والانشراح ما لم تجر به عادته ، وبالغ فى شكر وزيره واطرائه ، وقال : قد أعدت لدولتى بهجتها ، وجددت

(*) ص٤٦٥ جـ١ ، ط.بولاق .

فيها من المحاسن ما لم يكن . وقد أخذت الأيام نصيبها من ذلك ، وبقيت الليالى — وقد كان بها مواسم قد زال حكمها ، وكان فيها توسعة وبر وتفقات — وهى ليالى الوقود الأربع ، وقد آن وقتهن ، فأشتهى نظرهن .

فامتثل الأمر ، وتقدم بأن يحصل الى القاضى خمسون دينارا يصرفها فى ثمن الشمع وأن يعتمد الركوب فى الأربع الليالى — وهى ليلة مستهل رجب ، وليلة نصفه ، وليلة مستهل شعبان ، وليلة نصفه — وأن يتقدم الى جميع الشهود بأن يركبوا صحبته ، وأن يطلق للجوامع والمساجد توسعة فى الزيت برسم الوقود ، ويتقدم الى متولى بيت المال بأن يهتم برسم هذه الليالى من أصناف الحلاوات ، مما يجب برسم القصور ودار الوزارة خاصة .

وقال فى سنة سبع عشرة وخمسمائة : وفى الليلة التى صبيحتها مستهل رجب ، حضر القاضى أبو الحجاب يوسف بن أيوب المغربى ، ووقع له بما استجد اطلاقه فى العام الماضى ، وهو خمسون دينارا من بيت المال لابتياع الشمع برسم أول ليلة من رجب .

واستدعى ما هو برسم التعبيتين : احداهما للمقصورة ، والأخرى للدار المأمونية — بحكم الصيام من مستهل رجب الى سلخ رمضان — ما يصنع فى دار الفطرة خشكنانج صغير وبسندود ، فى كل يوم قنطار سكر ومثقالا مسكا وديناران مؤونة .

وكان يطلق فى أربع ليالى الوقود — برسم الجوامع الستة الأزهر والأقمر والأنور بالقاهرة والطولونى والعتيق بمصر وجامع القرافة ، والمشاهد التى تضمنت الأعضاء الشريفة ، وبعض المساجد التى لأربابها وجاهة — جملة كبيرة من الزيت الطيب . ويختص بجامع راشدة ، وجامع ساحل الغلة بمصر ، والجامع بالمقس ، يسير .

قال : ولقد حدثنى القاضى المكين بن حيدرة ، وهو من أعيان الشهود ، أن من جملة الخدم التى كانت بيده مشارفة الجامع العتيق ، وأن القومة بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود بمدة الى أن يكملوا ثمانية عشر ألف فتيلة ، وأن المطلق برسمه خاصة ، فى كل ليلة برسم وقوده ، أحد عشر قنطارا ونصف قنطار زيت طيب .

وذكر ركوب القاضى والشهود فى الليلة المذكورة على جارى العادة قال : وتوجه الوزير المأمون يوم الجمعة ثانى الشهر بموكبه الى مشهد السيدة نفيسة وما بعده من المشاهد ، ثم الى جامع القرافة ، وبعده الى الجامع العتيق بمصر . وقد عم معروفه جميع الضعفاء وقومة المساجد والمشاهد ، وصلى الجمعة .

وعند انقضاء الصلاة ، أحضر اليه الشريف الخطيب المصحف الذى بخط أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فوقع باطلاق ألف دينار من ماله ، وأن يصاغ عليه فوق حلية الفضة حلية ذهب ، وكتب عليه اسمه .

وفى الخامس عشر من الشهر المذكور ليلة الوقود ، جرى الحال فى ركوب القاضى وشهوده على الترتيب الذى تقدم فى أول الشهر . ولما وصل الى الجامع وجده قد

عبى فى الرواق الذى عن يمين الخارج منه ، سماط كعك وخشكنانج وحلوى ، فجلس عليه بشهوده * ، ونهبه الفقراء والمساكين . وتوجه بعده الى ما سواه من جامع القرافة وغيره ، فوجد فى رواق الجامع المذكور سماطا مثل السماط المذكور ، فاعتمد فيه على ما ذكر . وله أيضا رسم صدقة فى هذا النصف للفقراء وأهل الربط ، مما يفرقه القاضى ، عشرة دنانير يفرقها القاضى .

وقال ابن الطوير : اذا مضى النصف من جمادى الآخرة — وكان عدده عندهم تسعة وعشرين يوما — أمر أن يسبك فى خزائن دار أفتكين ستون شمعة ، وزن كل شمعة منها سدس قنطار بالمصرى ، وحملت الى دار قاضى القضاة لركوب ليلة مستهل رجب .

فاذا كان بعد صلاة العصر من ذلك اليوم ، اهتم الشهود أيضا ، فمنهم من يركب بثلاث شمعات الى ثنتين الى واحدة . ويمضى أهل مصر منهم الى القاهرة ، فيصلون المغرب فى الجوامع والمساجد ، ثم ينتظرون ركوب القاضى .

فيركب من داره بهيئته ، وأمامه الشمع المحمول اليه موقودا مع المندوبين لذلك من الفراشين من الطبقة السفلى ، من كل جانب ثلاثون شمعة ، وبينهما المؤذنون بالجوامع يذكرون الله تعالى ، ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقدر محفوظ .

ويندب فى حجبته ثلاثة من نواب الباب ، وعشرة من الحجاب ، خارجا عن حجاب الحكم المستقرين وعدتهم خمسة فى زى الأمراء ، وفى ركابه القراء يطربون بالقراءة ، والشهود وراءه على الترتيب فى جلوسهم بمجلس الحكم الأقدم فالأقدم ، وحوالى كل واحد ما له من شمع .

فيشقون من أول شارع فيه دار القاضى الى بين القصرين . وقد اجتمع من العالم فى وقت جوازهم ما لا يحصى كثرة ، رجالا ونساء وصبيانا ، بحيث لا يعرف الرئيس من المرؤوس . وهو مار الى أن يأتى هو والشهود باب الزمرذ من أبواب القصر ، فى الرحبة الوسيعة ، تحت المنظرة العالية ، فى السعة العظيمة من الرحبة المذكورة ، وهى التى تقابل درب قراصيا .

فيحضر صاحب الباب ووالى القاهرة والقراء والخطباء ، كما شرحنا فى المواليد الستة ، ويترجلون تحتها ريثما يجلس الخليفة فيها وبين يديه شمع ، ويبين شخصه ، ويحضر بين يديه الخطباء الثلاثة ويخطبون كالمواليد ، ويذكرون استهلال رجب ، وأن هذا الركوب علامته ، ثم يسلم الأستاذ من الطاقة الأخرى استفتاحا وانصرافا كما ذكرنا .

ثم يركب الناس الى دار الوزارة ، فيدخل القاضى والشهود الى الوزير ، فيجلس لهم فى مجلسه ، ويسلمون عليه ، ويخطب الخطباء أيضا بأخف من مقام الخليفة ، ويدعون له ويخرجون عنه . فيشق القاضى والجماعة القاهرة ، وينزل على باب كل جامع بها ويصلى ركعتين .

ثم يخرج من باب زويلة طالبا مصر بغير نظام ، ووالى القاهرة فى خدمته اليوم ،

(*) ص٤٦٦ جـ١ ، ط. بولاق .

متكثرا من الأعوان والحفظة فى الطرقات ، الى جامع ابن طولون ، فيدخل القاضى اليه للصلاة ، فيجد والى مصر عنده للقاء القوم وخدمهم ، فيدخل المشاهد التى فى طريقه أيضا .

فاذا وصل الى باب مصر ترتب كما ترتب فى القاهرة ، وصار شاقا الشارع الأعظم الى باب الجامع من الزيادة التى يحكم فيها ، فيوقد له التنور الفضة الذى كان معلقا فيه . وكان مليحا فى شكله وتعليقه ، غير منافر فى الطول والعرض ، واسع التدوير ، فيه عشر مناطق فى كل منطقة مائة وعشرون براقة ، وفيه سروات بارزة مثل النخيل ، فى كل واحدة عدة بزاقات ، تقرب عدة ذلك من ثلثمائة ، ومعلق بدائر سفله مائة قنديل نجومية .

ويخرج له الحاكم فان كان ساكنا بمصر استقر بها ، وان كان ساكنا بالقاهرة وقف له والى القاهرة بجامع ابن طولون ، فيودعه والى مصر ، ويسير معه والى القاهرة الى داره .

فاذا مضى من رجب أربعة عشر يوما ، ركب ليلة الخامس عشر كذلك ، وفيه زيادة طلوعه — بعد صلاته بجامع مصر — الى القرافة ليصلى فى جامعها ، والناس يجتمعون له لينظروه ومن معه فى كل مكان ، ولايسلون من ذلك .

فاذا انقضت هذه الليلة ، استدعى منه الشمع ليكمل بعضه ، حتى يركب به فى أول شعبان ونصفه على الهيئة المذكورة ... والأسواق معمورة بالحلواء ، ويتفرغ الناس لذلك هذه الأربع الليالى .

منظرة اللؤلؤة : وكان للخلفاء الفاطميين منظرة — تعرف بقصر اللؤلؤة ، وبمنظرة اللؤلؤة — على الخليج بالقرب من باب القنطرة . وكان قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد متنزهات الدنيا المذكورة ، فانه كان يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ويطل من غربيه على الخليج .

وكان غربى الخليج اذ ذاك ليس فيه من المبانى شىء ، وانما كان فيه بساتين عظيمة وبركة تعرف ببطن البقرة ، فيرى الجالس فى قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبليها ، ويرى بحر النيل من وراء البساتين .

قال ابن ميسر : هذه المنظرة بناها العزيز بالله . ولما ولى برجوان وزارة الحاكم بأمر الله ، بعد أمين الدولة ابن عمار الكتامى ، سكن بمنظرة اللؤلؤة فى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وثلثمائة الى أن قتل .

وفى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة ، أمر الحاكم بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها ، فهدمت ونهبت وبيع ما فيها .

وقال المسيحى * : وفى سادس عشرى ربيع الآخر (يعنى سنة اثنتين وأربعمائة) أمر الحاكم بأمر الله بهدم الموضع المعروف باللؤلؤة على الخليج موازاة المقس ، وأمر بنهب أنقاضه ، فنهبت كلها ، ثم قبض على من وجد عنده شىء من نهب أنقاض اللؤلؤة واعتقلوا .

(*) ص٦٧، جـ١ ، ط.بولاق »

وقال ابن المأمون : ولما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة والمقام فيها مدة النيل على الحكم الأول (يعنى قبل وزارة أمير الجيوش بدر وابنه الأفضل) أمر بازالة ما لم تكن العادة جارية به من مضايقها بالبناء .

ولما بدت زيادة النيل ، وعول الخليفة الآمر بأحكام الله على السكن باللؤلؤة ، أمر الأجل الوزير المأمون بأخذ جماعة الفراشين ، الموقوفين برسم خدمتها ، بالمبيت بها على سبيل الحراسة لا على سبيل السكن بها ، وعندما بلغ النيل ستة عشر ذراعا أمر باخراج الخيم .

وعندما قارب النيل الوفاء ، تحول الخليفة فى الليل من قصوره ، بجميع جهاته واخوته وأعمامه والسيدات كرائمه وعماته ، الى اللؤلؤة ، وتحول المأمون الى دار الذهب ، وأسكن الشيخ أبا الحسن محمد بن أبى أسامة الغزالة على شاطىء الخليج ، وسكن حسام الملك حاجب الباب داره على الخليج .

وأمر متولى المعونة أن يكشف الآدر المطلة على الخليج قبلى اللؤلؤة ، ولا يسكن أحدا من السكن فى شىء منها الا من كان له ملك ، ومن كان ساكنا بالأجرة ينقل ، ويقام بالأجرة لرب الملك ليسكن بها حواشى الخليفة مدة سنة .

وقرر من التوسعة فى النفقات ، وما يكون برسم المستخدمين فى المبيتات ، ما يختص برواتب القصور مدة المقام فى اللؤلؤة فى أيام النيل ، مياومة من الغنم والحيوان وجميع الأصناف ، وهى جملة كبيرة . وأمر متولى الباب أن يندب فى كل يوم خروف شواء وقنطار خبز .

وكذلك جميع الدروب من يحرسها ، ويطلق لهم برسم الغداء مثل ذلك ، وتكون نوبة دائرة بينهم ، وبقية مستخدمى الركاب ملازمون لأبواب القصر على رسمهم ، وفى يومى الركوب يجتمعون للخدمة الا من هو فى نوبته فيما رسم له .

وأمر متولى زمام المماليك الخاص أن يكونوا بأجمعهم حيث يكون الخليفة ، وفى الليل يبيت منهم عدة برسم الخدمة تحت اللؤلؤة ، ولهم فى كل يوم مثل ما تقدم . والرهجية تقسم قسمين : أحدهما على أبواب القصور ، والآخر على أبواب اللؤلؤة ، وأصحاب الضوء مثل ذلك .

وقرر للجماعة المقدم ذكرها فى الليل ، عن رسم المبيت وعن ثمن الوقود ، ما يخرج اليهم مختوما بأسماء كل منهم . ويعرضهم متولى الباب فى كل ليلة بنفسه عند رواحه وعوده .

وكذلك ما يختص بدار الذهب من الحرس عليها من باب سعادة ومن باب الخوخة ، ولهم رسوم كما تقدم لغيرهم ، والمتفرجون يخرجون كل ليلة للنزهة عليهم ، ويقيمون الى بعض الليل حتى ينصرفوا ، من غير خروج فى شىء من ذلك عما يوجبه الشرع .

وفى يومى السلام يمضى الخليفة من قصوره بحيث لا يراه الا أستاذوه وخواصه ، الى قاعة الذهب من القصر الكبير الشرقى ، ويحضر الوزير على عادته اليه ... فيكون السلام بها على مستمر العادة ، والأسمطة بها

فى يومى الاثنين والخميس ، وتكون الركوبات من اللؤلؤة فى يومى السبت والثلاثاء الى المتنزهات .

وقال فى سنة سبع عشرة وخمسمائة : ولما جرى النيل ، وبلغ خمسة عشر ذراعا ، أمر باخراج الخيام والمضارب الديبقى والديباج ، وتحول الخليفة الآمر بأحكام الله الى اللؤلؤة بحاشيته .

وأطلقت التوسعة فى كل يوم لما يخص الخاص والجهات والأستاذين من جميع الأصناف . وانضاف اليها ما يطلق كل ليلة عينا وورقا وأطعمة للبياتين بالنوبة برسم الحرس بالنهار والسهر فى طول الليل ، من باب القنطرة بما دار الى مسجد الليمونة ، من التزين من صبيان الخاص والركاب والرهجية والسودان والحجاب ... كل طائفة بنقيبها . والعرض من متولى الباب واقع بالعدة فى طرفى كل ليلة ، ولا يمكن بعضهم بعضا من المنام ، والرهجية تخدم على الدوام .

وتحول الوزير المأمون الى دار الذهب ، وأطلقت التوسعة ، والحال فى اطلاق الأسمطة لهم فى الليل والنهار مستمر .

وقال ابن عبد الظاهر : المنظرة المعروفة باللؤلؤة على بر الخليج . بناها الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم (يعنى بعد ما هدمها أبوه الحاكم) ، وكانت معدة لنزهة الخلفاء ، وكان التوصل اليها من القصر (يعنى القصر الغربى) من باب مراد . وأظنه ، فيما ذكره لى علم الدين بن مماتى الوراق ، أنه شاهد فى كتب دار ابن كوخيا العتيقة أنه بابها .

وكانت عادة الخلفاء أن يقيموا بها أيام النيل . ولما حصل التوهم من النزارية والحشيشية قبل تصرفهم — لا سيما لصغر سن الخليفة وقلة حواشيه — أمر بسد باب مراد المذكور ، الذى يتوصل منه الى الكافورى والى اللؤلؤة ، وأسكن فى بعضها فراشين لحفظها .

فاذا كان فى صبيحة كسر الخليج ، استؤذن الأفضل بن أمير الجيوش فى فتح باب مراد ، الذى يتوصل منه الى اللؤلؤة وغيرها ، فيفتح ويروح الخليفة ليتفرج هو وأهله من النساء ، ثم يعود ويسد الباب ... هذا الى آخر أيام الأفضل . فلما راجع الوزير المأمون فى ذلك سارع * اليه ، فأصلحت وأزيل ما كان أنشىء قبالتها على ما سيذكر فى مكانه ان شاء الله تعالى . اهـ .

ومات بقصر اللؤلؤة من خلفاء الفاطميين الآمر بأحكام الله ، والحافظ لدين الله ، والفائز . وحملوا الى القصر الكبير الشرقى من السراديب .

ولما قدم نجم الدين أيوب بن شادى من الشام على ولده صلاح الدين يوسف ، وخرج الخليفة العاضد لدين الله الى لقائه بصحراء الهليلج بآخر الحسينية عند مسجد تبر ، أنزل بمنظرة اللؤلؤة ، فسكنها حتى مات فى سنة سبع وستين وخمسمائة .

واتفق أن حضر يوما عنده الفقيه نجم الدين عمارة اليمنى ، والرضى أبو سالم يحيى

(*) ص٤٦٨ جـ١ ، ط.بولاق .

الأحدب بن أبى حصيبة الشاعر فى قصر اللؤلؤة بعد موت الخليفة العاضد ، فأنشد ابن أبى حصيبة نجم الدين أيوب فقال :

يامالك الأرض لا أرضى له طرفا
منها وما كان منها لم يكن طرفا
قد عجل الله هذى الدار تسكنها
وقد أعد لك الجنات والغرفا
تشرفت بك عمن كان يسكنها
فالبس بها العز ولتلبس بك الشرفا
كانوا بها صدفا والدار لؤلؤة
وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

فقال الفقيه عمارة يرد عليه :

أثبت يامن هجا السادات والخلفا
وقلت ما قلته فى ثلبهم سخفا
جعلتهم صدفا حلوا بلؤلؤة
والعرف مازال سكنى اللؤلؤ الصدفا
وانما هى دار حل جوهرهم
فيها وشف فأسناها الذى وصفا
فقال لؤلؤة عجبا ببهجتها
وكونها حوت الأشراف والشرفا
فهم بسكناهم الآيات اذ سكنوا
فيها ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه
من البرية الا كل من عرفا
لولا تجسمهم فيه لكان على
ضعف البصائر للأبصار مختطفا
فالكلب ياكلب أسنى منك مكرمة
لأن فيه حفاظا دائما ووفا

فلله در عمارة ، لقد قام بحق الوفاء ، ووفى بحسن الحفاظ كما هى عادته . لا جرم أنه قتل فى واجب من يهوى كما هى سنة المحبين . فالله يرحمه ويتجاوز عنه .

منظرة الغزالة : وكان بجوار منظرة اللؤلؤة منظرة تعرف بالغزالة على شاطىء الخليج ، تقابل حمام ابن قرقة ، وقد خربت هذه المنظرة أيضا ، وموضعها الآن تجاه باب جامع ابن الغربى الذى من ناحية الخليج .

وقد خربت أيضا حمام ابن قرقة ، وصار موضعها فندقا بجوار حمام السلطان التى هناك يعرف بفندق عماد .

وموضع منظرة الغزالة اليوم ربع ، يعرف بربع غزالة ، الى جانب قنطرة الموسكى فى الحد الشرقى .

وكان يسكن بهذه المنظرة الأمير أبو القاسم بن المستنصر والد الحافظ لدين الله ، ثم سكنها أبو الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست ، وكان بعد ذلك ينزلها من يتولى الخدمة فى الطراز أيام الخلفاء .

قال ابن المأمون لما ذكر تحول الخليفة الآمر بأحكام الله الى اللؤلؤة : وأسكن الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة ، كاتب الدست ، الغزالة التى على شاطىء الخليج ، ولم يسكن

أحد فيها قبله ممن يجرى مجراه ، ولا كانت الا سكن الأمير أبى القاسم ولد المستنصر والد الامام الحافظ .

قال : وأما ما يذكره الطراز فالحكم فيه مثل الاستيمار . والشائع فيها أنها كانت تشتمل فى الأيام الأفضلية على أحد وثلاثين ألف دينار ، فمن ذلك السلف خاصة خمسة عشر ألف دينار ، قيمة الذهب العراقى والمصرى ستة عشر ألف دينار . ثم اشتملت فى الأيام المأمونية على ثلاثة وأربعين ألف دينار ، وتضاعفت فى الأيام الآمرية .

وقال ابن الطوير : الخدمة فى الطراز ، وينعت بالطراز الشريف ، ولا يتولاه الا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف ، وله اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين ، ومقامه بدمياط وتنيس وغيرهما ، وجاريه أمير الجوارى ، وبين يديه من المندوبين مائة رجل لتنفيذ الاستعمالات بالقرى ، وله عشارى دتماس مجرد معه ، وثلاثة مراكب من الدكاسات ، ولها رؤساء ونواتية لا يبرحون ، ونفقاتهم جارية من مال الديوان .

فاذا وصل بالاستعمالات الخاصة التى منها المظلة وبدلتها والبدنة واللباس الخاص الجمعى وغيره ، هيىء بكرامة عظيمة ، وندب له دابة من مراكب الخليفة لا تزال تحته حتى يعود الى خدمته ، وينزل فى الغزالة على شاطىء الخليج — وكانت من المناظر السلطانية ، وجددها شعاع بن شاور — ولو كان لصاحب الطراز فى القاهرة عشر دور لا يمكن من نزوله الا بالغزالة ، وتجرى عليه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة .

فيمثل * بين يدى الخليفة بعد حمل الأسفاط المشدودة على تلك الكساوى العظيمة ، ويعرض جميع ما معه ، وهو ينبه على شىء فشىء بيد فراشى الخاص فى دار الخليفة مكان سكنه ، ولهذا حرمة عظيمة ، ولا سيما اذا وافق استعماله غرضهم . فاذا انقضى عرض ذلك بالمدرج الذى يحضره ، سلم لمستخدم الكسوات ، وخلع عليه بين يدى الخليفة باطنا ، ولا يخلع على أحد كذلك سواه ، ثم ينكفىء الى مكانه .

وله فى بعض الأوقات التى لا يتسع له الانفصال ، نائب يعمل عنه بذلك غير غريب منه ، ولا يمكن أن يكون الا ولدا أو أخا ، فان الرتبة عظيمة ، والمطلق له من الجامكية فى الشهر سبعون دينارا ، ولهذا النائب عشرون دينارا ، لأنه يتولى عنه اذا وصل بنفسه ، ويقوم اذا غاب فى الاستعمال مقامه .

ومن أدواته أنه اذا عبى ذلك فى الأسفاط ، استدعى والى ذلك المكان ليشاهده عند ذلك ، ويكون الناس كلهم قياما لحلول نفس المظلة وما يليها من خاص الخليفة فى مجلس دار الطراز ، وهو جالس فى مرتبته ، والوالى واقف على رأسه خدمة لذلك . وهذا من رسوم خدمته وميزتها .

« دار الذهب » : وكان بجوار الغزالة دار الذهب . وموضعها الآن على يسرة الخارج من باب الخوخة فيما بينه وبين باب سعادة ، وكانت مطلة على الخليج ، وفى مكانها اليوم دار تعرف ببهادر الأعسر . وبقى منها عقد

(*) ص٤٦٦ جـ١ ، ط.بولاق .

بجوار دار الأعسر ، يعرف الآن بقبو الذهب ، من خطة بين السورين .

قال ابن المأمون لما ذكر تحول الخليفة الآمر بأحكام الله الى اللؤلؤة : ثم أحضر الوزير المأمون وكيله أبا البركات محمد بن عثمان ، وأمره أن يمضى الى دارى الفلك والذهب اللتين على شاطىء الخليج . فالدار الأولى التى من حيز باب الخوخة ، بناها فلك الملك — وذكر أنه من الأستاذين الحاكمية — ولم تكن تعرف الا بدار الفلك .

ولما بنى الأفضل بن أمير الجيوش الدار الملاصقة لها التى من حيز باب سعادة ، وسماها دار الذهب ، غلب الاسم على الدارين ويصلح ما فسد منهما ويضيف اليهما دار الشابورة . وذكر أن هذه الدار لم تسم بهذا الاسم الا لأن جزءا منها بيع فى أيام الشدة فى زمن المستنصر بشابورة .

قال : وعندما قارب النيل الوفاء تحول الخليفة فى الليل من قصوره ، بجميع جهاته واخوته وأعمامه والسيدات كرائمه وعماته ، الى اللؤلؤة ، وتحول الأجل المأمون بالأجلاء أولاده الى دار الذهب وما أضيف اليها .

وقال ابن عبد الظاهر : دار الذهب بناها الأفضل بن أمير الجيوش . وكانت عادة الأفضل أن يستريح بها : اذا كان الخليفة باللؤلؤة يكون هو بدار الذهب ، وكذلك كان المأمون من بعده . وكان حرس دار الذهب يسلم للوزيرية : من باب سعادة يسلم لهم ، ومن باب الخوخة للمصامدة أرباب الشعور وصبيان الخاص .

وكان المقرور لهم فى كل يوم سماطين : أحدهما بقاعة الفلك للصاليك الخاص والحاشية وأرباب الرسوم ، والآخر على باب الدار برسم المصامدة ... حتى انه من اجتاز ورأى أنه يجلس معهم على السماط لا يمنع ، والضعفاء والصعاليك يقعدون بعدهم ، وفى أول الليل بمثل ذلك . ولكل منهم رسم لجميع من يبيت من أرباب الضوء الى الأعلى .

منظرة السكرة : وكان من جملة مناظر الخلفاء ، منظرة تعرف بمنظرة السكرة ، فى بر الخليج الغربى ، يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج ، وكان لها بستان عظيم . بناها العزيز بالله بن المعز .

وقد دثرت هذه المنظرة ، ويشبه أن يكون موضعها فى المكان الذى يقال له اليوم المريس قريبا من قنطرة السد .

وكانت السكرة من جنات الدنيا المزخرفة ، وفيها عدة أماكن معدة لنزول الوزير وغيره من الأستاذين .

ذكر ما كان يعمل يوم فتح الخليج

قال ابن زولاق فى كتاب « سيرة المعز لدين الله » : وفى ذى القعدة (يعنى من سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، وهى السنة التى قدم فيها الخليفة المعز لدين الله الى القاهرة من بلاد المغرب) ركب المعز لدين الله عليه السلام لكسر خليج القنطرة ، فكسر بين يديه .

ثم سار على شاطىء النيل حتى بلغ الى بنى وائل ، ومر على سطح الجرف فى موكب

عظيم ، وخلفه وجوه أهل الدولة ، ومعه أبو جعفر أحمد بن نصر يسير معه ، ويعرفه بالمواضع التى يجتاز عليها ، ونجعت له الرعية بالدعاء .

ثم عطف على بركة الحبش ، ثم على الصحراء على الخندق الذى حفره القائد جوهر ، ومر على قبر كافور ، وعلى قبر عبد الله بن أحمد بن طباطبا الحسنى وعرفه به ، ثم عاد الى قصره .

وذكر الأمير المسيحى فى تاريخه الكبير ركوب العزيز بالله بن المعز ، وركوب الحاكم بأمر الله بن العزيز ، وركوب الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم ، فى كل سنة لفتح الخليج .

وقال ابن المأمون فى سنة ست عشرة وخمسمائة : وعندما بلغ النيل ستة عشر ذراعا ، أمر باخراج الخيم ، وأن يضرب الثوب الكبير الأفضلى المعروف بالقاتول . وهو أعظم ما فى الحاصل : بأربعة دهاليز * وأربع قاعات خارجا عن القاعة الكبيرة ، ومساحته على ما ذكر ألف ألف ذراع وأربعمائة ذراع بالذراع الكبير خارجا عن سرادقه ، وعمود القاعة الكبيرة منه ارتفاعه خمسون ذراعا .

ولما كمل استعماله فى أيام الأفضل ونصب ، تأذى منه جماعة ومات رجلان ، فسمى بالقاتول لأجل ذلك . ومازال لا يضرب الا بحضور المهندسين ، وتنصب له أساقيل عدة بأخشاب كثيرة ، والمستخدمون يكرهون ضربه ، ويرغبون فى ضرب أحد الثوبين الجيوشين ، وان كانا عظيمين الا أنهما لا يصلان بجملتهما الى مقايسته ولا مؤونته ولا صنعته .

وأقام هذا الثوب فى الاستعمال عدة سنين مع جمع الصناع عليه ، وما يضرب منه سوى القاعة الكبيرة لا غير وأربعة الدهاليز وبعض السرادق الذى هو سور عليه ، لضيق المكان الذى يضرب فيه ، وكونه لا يسعه بجملته .

قال : ووصلت كسوة موسم فتح الخليج ، وهى ما يختص بالخليفة وأخيه وبعض جهاته والوزير .

فأما ما يختص بالخليفة خاصة فبدلة ، شرحها :

بدنة طميم منديل سلفه مائة وعشرون دينارا ، وأحد طرفيه ثلاثة عشر ذراعا ذهبا عراقيا دمجا لوحا واحدا ، والثانى ثلاثة أذرع سلفه أربعة وعشرون دينارا . ثوب طميم سلفه خمسون دينارا ، والذهب الذى فى الثوب والمنديل والحنك ألف دينار وخمسة دنانير . فتكون جملتها بالسلف ألف دينار ومائة وخمسة وسبعين دينارا .

شاشية طميم للسلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا ، فتكون جملة سلفها وقيمة ذهبها ثمانية دنانير . منديل سلام سلفه ديناران وسبعون قصبة ، قيمته كذلك . وسط برسم المنديل بخوص ذهب سلفه اثنا عشر دينارا وسبعون قصبة ، قيمة ذلك عشرون دينارا . شقة ديبقى وسلطانى حريرى السلف اثنا عشر دينارا . غلالة ديبقى حريرى السلف عشرة دنانير .

(*) ص٤٧٠ جـ١ ، طبـ بولاق .

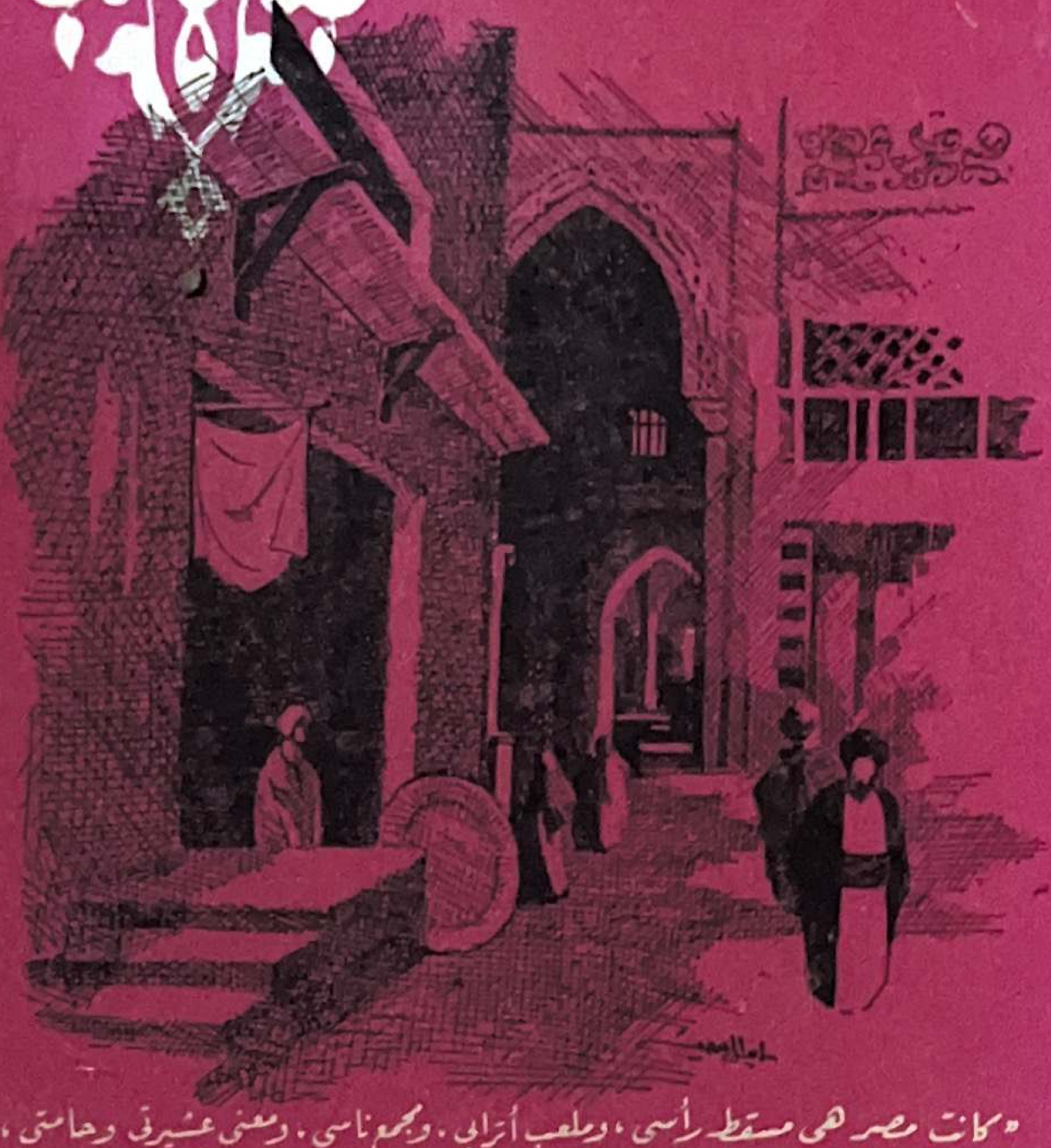
« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقىّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

خطط المقريزى

الجزء
٢٣



كتاب التحرير

«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شدوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها.»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

منديل كم مذهب السلف خمسة دنانير وماثتا قصبة وأربع قصبات ذهبا عراقيا ، قيمة ذلك خمسة وعشرون دينارا ، منديل كم ثان حريرى خمسة دنانير ، حجره أربعة دنانير ، عرضى لفافة خاص خمسة دنانير وستة عشر مثقالا ذهبا مصرية ، فتكون سلفه وذهبه خمسة وعشرين دينارا ، عرضى ثان برسم تغطية التخت دينار واحد ونصف .

تخت ثان ضمنه بدلة خاص حريرى برسم العود من السكرة ، شرحها :

منديل حريرى سلفه ستون دينارا ، وسط شرب رسمه اثنا عشر دينارا ، شفة ديبقى وكم عشرون دينارا ، شقة وسطانى اثنا عشر دينارا ، غلالة خمسة عشر دينارا ، غلالة عشرة دنانير ، منديل سلام ديناران ، منديل كم خمسة دنانير ، منديل كم ثان أيضا خمسة دنانير ، شاشية حريرى ديناران ، حجره أربعة دنانير ، عرضى لفافة خمسة دنانير ، عرضى ثان برسم لفافة التخت دينار واحد ونصف .

قال : ورأيت شاهدا أن قيمة كل حلة من هذه الحلل وسلفها اذا كانت حريرى ثلثمائة وستة دنانير ، واذا كانت مذهبة ألف دينار . واختصر ما باسم أبى الفضل جعفر أخى الخليفة وأربع جهات .

وأما ما يختص بالوزير فبدلة مذهبة ، شرحها : منديل سلفه سبعون دينارا وخمسمائة وسبعون قصبة عراقى ، جملة سلفه وذهبه مائة وأربعة عشر دينارا ، شقة ديبقى وكم السلف ستة عشر دينارا وثمانية وعشرون مثقالا ذهبا عاليا ، تكون جملة ذلك خمسين دينارا ، نصف شقة ديبقى وسطانى اثنا عشر دينارا ، ونصف شقة وسطانى برسم العود ثلاثة دنانير ، غلالة ديبقى سبعة دنانير ، ونصف شقة برسم الغلالة ديناران ، ونصف منديل كم سبعة دنانير واثنا عشر مثقالا ذهبا ، تكون قيمته تسعة عشر دينارا ، حجره ثلاثة دنانير ، عرضى أربعة دنانير وأحد عشر مثقالا ، تكون سلفه وذهبه سبعة عشر دينارا .

ثم ذكر بعد ذلك ما يكون لجهة الوزير ، وما يكون برسم صبيان الحمام ، وما يفصل برسم المماليك الخاص صبيان الرايات والرماح : خمسمائة شقة سقلاطون دارى تكون قيمتها سبعمائة وخمسين قباء ، يحمل منها برسم غلمان الوزير مائة قباء ، ويفرق جميع ذلك .

قال : ولم يكن لأحد من الأصحاب والحواشى وغيرهم فى هذا الموسم شىء فيذكر ، بل لهم من الهبات العين والرسوم الخارجة عن ذلك ما يأتى ذكره فى موضعه .

وفى صبيحة هذا الموسم خلع على ابن أبى الرداد وعلى رؤساء المراكب وغيرهم ، وحمل الى المقياس — برسم المبيت ، وركوب الخليفة بتجمله ومواكبه الى الكرة — ما فصله وبينه مما يطول ذكره .

وقال فى سنة سبع عشرة وخمسمائة : ولما جرى النيل ، وبلغ خمسة عشر ذراعا ، أمر باخراج الخيام والمضارب الديبقى والديباج ، وتحول الخليفة الى اللؤلؤة بحاشيته ، وتحول المأمون الى دار الذهب .

ووصلت كسوة الموسم المذكور من الطراز ، وان كانت يسيرة العدة فهى كثيرة القيمة ، ولم تكن للعموم من الحاشية والمستخدمين ، بل للخليفة خاصة واخوته وأربع من خواص جهاته والوزير وأولاده وابن أبى الرداد .

فلما وفى النيل ستة عشر ذراعا ، ركب الخليفة والوزير الى الصناعة بمصر ، ورميت العشاريات بين أيديهما ، ثم عديا فى احداها الى المقياس وصليا ، ونزل الثقة صدقة ابن أبى * الرداد منزله وخلق العمود .

وعاد الخليفة على فوره ، وركب البحر فى العشارى الفضى ، والوزير صحبته ، والرهجية تخدم برا وبحرا ، والعساكر طول البر قبالته الى أن وصل الى المقس .

ورتب الموكب ، وقدم العشارى بالخليفة الآمر بأحكام الله والوزير المأمون ، وسار الموكب والرهجية تخدم ، والصدقات والرسوم تفرق ، ودخل من باب القنطرة ، وقصد باب العيد ، واعتمد ما جرت به العادة من تقديم الوزير وترجله فى ركابه الى أن دخل من باب العيد الى قصره .

وتقدم بالخلع على ابن أبى الرداد : بدلة مذهبة ، وثوب ديبقى حريرى ، وطيلسان مقور ، وبياض مذهب ، وشقة سقلاطون ، وشقة تحتانى ، وشقة خز ، وشقة ديبقى ، وأربعة أكياس دراهم . ونشرت قدامه الأعلام الخاص الديبقى المحاومة بالألوان المختلفة التى لا ترى الا قدامه لأنها من جملة تجمل الخليفة ، وأطلق له برسم المبيت من البخور والشموع والأغنام والحلاوات كثير .

قال : وهيئت المقصورة فى منظرة السكرة برسم راحة الخليفة وتغيير ثيابه ، وقد وقعت المبالغة فى تعليقها وفرشها وتعبيتها ، وقدم بين يديه الصوانى الذهب التى وقع التناهى فيها من هم الجهات ، من أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها ، المعمولة من الذهب والفضة والعنبر ، والمرسين المشدود والمظفور عليها ، المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد .

من الصور الوحشية ما يشبه الفيلة جميعها عنبر معجون كخلقة الفيل ، وناباه فضة ، وعيناه جوهرتان كبيرتان فى كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده ، وعليه سرير منجور من عود بتكآت فضة وذهب ، وعليه عدة من الرجال ركبان ، وعليهم اللبوس تشبه الزرديات ، وعلى رؤوسهم الخود ، وبأيديهم السيوف المجردة والدرق ، وجميع ذلك فضة .

ثم صور السباع منجورة من عود ، وعيناه ياقوتتان حمراوان ، وهو على فريسته ، وبقية الوحوش ، وأصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة .

قال : ومن جملة ما وقع الاهتمام به فى هذا الموسم ما صار يستعمل فى الطراز ، وان لم يتقدم نظيره للولائم التى تتخذ برسم تغطية الصوانى ، عدة من عراضى ديبقى ، ثم قوارات شرب تكون من تحت العراضى على

(*) ص٤٧١ جـ١ ، ط.بولاق .

الصوانى ، مفتح كل قوارة منهن دون أربعة أشبار ، سلف كل واحدة منهن خمسة عشر دينارا ، ورقم فى كل منهن سجف ذهب عراقى ثمنه من أربعين الى ثلاثين دينارا ، تكون الواحدة بخمسين دينارا .

ويستعمل أيضا برسم الطرح ، من فوق القوارات الاسكندرانى التى تشد على الموائد التى تحمل من عند كل جهة ، قوارات ديبقى مقصور من كل لون محاومة بالرقم الحريرى ، مفتح كل قوارة أربعة أذرع ، يكون الثمن عن كل واحدة أربعين دينارا .

ولقد بيعت عدة من القوارات الشرب ، فسارع التجار العراقيون الى شرائها ، ونهاية ما بلغ ثمن كل واحدة منهن ستة عشر دينارا ، وسافروا بها الى البلاد ، فلم يبع لهم منها سوى اثنتين ، وعادوا بالبقية الى الديار المصرية فى سنة ست وثمانين وخمسمائة وحفظوا منهن شيئا عن السوق فلم يحفظ لهم رأس مالهن .

قال : وكان ما تقدم من الزبادى فى الطيافير من الصينى الى آخر أيام الأفضل بن أمير الجيوش وأيام المأمون ، وانما استجدت الأوانى الذهب فى أواخر الأيام الآمرية . والذى يعبى بين يدى الخليفة قوائمية ضمنها عدة من الطيافير المحمولة بالمرافع الفضة برسم الأطباق الحارة .

وليس فى المواسم مائدة بغير سماط للأمراء ويجلس عليها الخليفة ، غير هذا الموسم . وان كان يجرى مجرى الأعياد ، وله البخور مطلق مثلها ، وينفرد بالجلوس معه الجلساء المميزون والمستخدمون . وعند كمال تعبيتها وبخورها جلس الخليفة عليها ، عن يمينه وزيره ، وعن يساره أخوه ومن شرف بحضوره . وفى آخرها فرق منها ما جرت به العادة على سبيل البركة .

وقال فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة : ووصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج ، وهى برسم الخليفة تختان ضمنهما بدلتان : احداهما منديلها وثوبها طميم برسم المفى ، والأخرى جميعها حريرى برسم العود . وكذلك ما يخص اخوته وجهاته بدلتان مذهبتان ، وأربع حلل مذهبة . وبرسم الوزير بدلة موكبية مذهبة فى تخت . وبرسم أولاده الثلاثة ثلاث بدلات مذهبة . وبرسم جهته حلة مذهبة فى تخت . وهؤلاء المميزون لكل منهم تخت . وبقية ما يخص المستخدمين وابن أبى الرداد فى تخوت ، كل تخت فيه عدة بدلات .

وحضر متولى الدفتر ، واستأذن على ما يحمل برسم الخليفة ، وما يفرق وما يفصل برسم الخلع ، وما يخرج من حاصل الخزائن غير الواصل . وهو ما يفصل برسم الغلمان الخاص عن سبعمائة قباء خمسمائة وشقتان سقلاطون دارى ، وبرسم رؤساء العشارى من الشقق الدمياطى والمناديل السوسى والفوط الحرير الأحمر ، وبرسم النواتية التى برسم الخاص من العشارية من الشقق الاسكندرانى والكلوتات .

فوقع باتفاق جميع ذلك وتفصيل ما يجب منه . ثم ابتيع ذلك بمطالعة ثانية ، برسم ما هو مستمر العموم من النقد العين والورق

للموسم المذكور ، وهو من العين أربعة آلاف وخمسمائة دينار ، ومن الورق خمسة عشر ألف درهم . فوقع بإطلاق ذلك .

وذكر تفصيل الكسوات والهبات بأسماء أربابها .

وحضر متولى المائدة الآمرية بمطالعة يستدعى ما جرت به العادة فى هذا الموسم من الحيوان والضأن والبقر ، وغير ذلك من الأصناف ، برسم التفرقة والأسمطة . وحضر متولى دار التعبية يستدعى ما يبتاع به السكر والزهرة وهبة التعبيتين لتعبية السكرة ، لأجل حلول الركاب بها ومقامه فيها ، وتعبية جميع مقاصيرها التى برسم الأستاذين والأصحاب والحواشى ، وهو مائة دينار ، فوقع بإطلاقها .

وفى العاشر من الشهر المذكور (يعنى شهر رجب) وفى الليل ستة عشر قراطا ، فتوجه المقرئون الى صناعة العمائر بمصر ، ورميت الشارات بين يديه ، وقد جددت وزينت جميعها بالستور الديبقى الملونة والكوامخ والأهلة الذهب والفضة ، وشمل الانعام أرباب الرسوم على عادتهم .

وعدى فى احدى الشارات الى المقياس ، وخلق العمود بما جرت به عادتهم من الطيب ، وفرقت رسوم الاطلاق ، وانكفأ الى دار الذهب ، وأمر باطلاق ما يخص المبيت فى المقياس بجميع الشهود والمتصدرين وهى العشرات : من الخبز عشرة قناطير ، وعشرة خراف شوى ، وعشر جامات حلوى ، وعشر شمعات .

(*) ص ٤٧٣ جـ ١ ، ط بولاق .

وأول من يحضر المبيت الشريف الخطيب سيد القريين وامام المتصدرين ، وله والجماعة من المراسم التى تخرق أوفى نصيب .

قال : وخرج الخليفة بزى الخلافة ووقارها وناموسها : بالثياب الطيسم التى تذهل الأبصار ، والمنديل بالشدة العربية التى ينفرد بلباسها فى الأعياد والمواسم خاصة لا على الدوام — وكانت تسمى عندهم شدة الوقار — مرصعة بغالى الياقوت والزمرد والجوهر .

وعند لباسها تخفق لها الأعلام ، ويتجنب الكلام وبهاب ، ولا يكون سلام قريب منه وخليل غير الوزير الا بتقبيل الأرض من بعيد من غير دنو ، ثم بين يديه من مقدمى خزائنه من يحمل سيفه ورمحه المرصعين بأفخر ما يكون ، ثم النقاب التى كل منها عمودها ذهب وينفرد بحملها الصقالبة .

ومشى بين الصفين المرتبين راجلا على بسط حرير فرشت له ، وكل من الصفين يتناهى فى مواصلة تقبيل الأرض الى أن وصل الى مجلس خلافته ، وصعد على الكرسى المغشى بالديباج المنصوب برسم ركوبه .

وقد صفت الرواض وأزمة الاصطبلات خيل المظلة بعد أن أزالت الأغشية الحرير والشقق الديبقى المذهبة عن السروج ، وبقيت كما وصفها الله تعالى فى كتابه ، فقدم اليه ما وقع اختياره عليه ، وأمر بأن يجنب البقية فى الموكب بين يديه .

ولما علا ماقدم اليه استفتح مقرئو الحضرة ، وتسلم جميع مقدمى الركاب ركابه والرواض

الشكيمة ، وزال حكم الأستاذين المستخدمين فى كاب وعادت الموالى والآتا ب الى محالهم ، استدعى بالوزير بجميع نعوته ، فوصل تقبيل الأرض الى أن قبل كابه ، وشرفه بتقبيل يده بحكم خلوها من قضيب الملك فى هذه المواسم .

ولما أدى ما يجب من فرض السلام ، أخذ السيف من الأمير افتخار الدولة — أحد الأمراء الأستاذين المميزين المحنكين — متولى خزانة الكسوة الخاص ، وسلمه بعد أن قبله لأخيه الذى يتوله حمله فى الموكب بعد أن أرخيت عذبته تشريفا له مدة حمله خاصة .

وترفع بعد ذلك ، وشد وسطه بالمنطقة الذهب تأدبا وتعظيما لما معه ، وسلم الرمح والدرقة لمن يتولى حملهما بلواء الموكب . ولم يكن للخدمة المذكورة عذبة مرخاة ولا منطقة . واستدعى ركوب الوزير وأولاده من عند باب قاعة الذهب

وخرج الخليفة من القاعة المذكورة الى أول دهليز ، فتلقته جماعة صبيان ركابه عشرة المقدمين أرباب الميمنة والميسرة ، وصبيان وراء صبيان الرسائل وصبيان السلام ، كل سهم فى الخدمة المعينة لا يخرج عنها سواها ، وجبيعهم بالمناديل الشروب المعلمة ، وبأوساطهم العراض الديبقى لمقصورة ، وبيس الجميع عبيدا بشراء ولا دا ، بل مولدة وأولاد أعيان وأهل فهم ولسان .

ثم احتاط بركابه بعدهم من هو على غير زيهم ، بل بالقنانيز المفرجة والمناديل السوسى ، وهم المتولون لحمل السلاح الخاص —

الذى لا يكون الا فى موكبة خاصة على الاستمرار — من الصوارى والفرنجيات والدبابيس واللتوت والصماصم بالدرق الصينى واليمنى بالكوامخ الفضة والذهب .

ويحصل الاستدعاء من صبيان السلام فى مسافة الدهاليز ، لكل من هو مستخدم فى الموكب وركوبه من محل حجبته .

الى أن خرج الخليفة من باب الذهب ، وقد ضربت العربية وأبواق السلام ، واجتمع الرهج من كل مكان ، ونشرت المظلة ، فاجتمع اليها الزوبلة بالعدد العربية ، وظلل بها وسارت بسيره ، والقرآن الكريم عن يمينه ويساره ، والحجرية الصبيان المتمدون .

واجتمع الموكب بجملته على ما ذكر أولا ، والترتيب أمامه لمتولى الباب وحجابه وتلوه لمتولى الستر ، وكل منهم على حكم المدارج التى وصلت اليه ، لا سبيل الى الخروج عما رسم فيها .

وسار بجملة موكبه على ترتيب أوضاعه بين حصنين مانعين من طوارق عساكره فارسها وراجلها * كل طائفة تقدمها زمامها ، وقد ازدحموا فى المصفات بالعدد المذهبة الحربية والآلات المانعة المضيئة ، وليس ينهم طريق لسالك

وقد زين لهم جميع ما يكون أمامهم من الطرق جميعها ، حوانيتها وآدرها وجميع مساكنها وأبواب حاراتها ، بأنواع من الستور والديباج والديبقى على اختلاف أجناسها ، ثم بأصناف السلاح .

(*) ص ٤٧٢ جـ ١ ، ط بولاق .

وملأت النظارة الفجاج والبطاح والوهاد والربا ، والصدقات والرسوم تعم أهل الجانبين من أرباب الجوامع والمساجد ، وبوابى الأبواب والسقائين والفقراء والمساكين فى طول الطريق ، الى أن أطل على الخيام المنصوبة فوقف بموكبه .

واستدعى الوزير بعده من مقدمى ركابه ، فاجتاز راكبا بمفرده ، وجمع حاشيته بسلاحهم رجالة فى ركابه ، بعد أن بالغ فى الايماء بتقبيل الأرض أمامه ، فرد عليه بكلمة السلام .

وعاد الخليفة فى سيره بالموكب بعد أن حصل الوزير أمامه ، وترجل جميع من شرف بحجبته فى ركابه ، وآخرهم متولى حمل سيفه ورمحه ، وصبيان السلام يستدعون كل منهم الى تقبيل الأرض بجميع نعوته اكبارا له وتميزا ، واحتاطوا بركابه ، ووصل الى المضارب فى الحرس الشديد على أبوابها وسرادقاتها من كل جانب ، وقد تبين وجاهة من حصل بها ، ومكن من الدخول اليها .

وترجل الوزير فى الدهليز الثالث من دهاليزها ، وتقدم الى الخليفة وأخذ شكيمة الفرس من يد الرواض ، وشق به الخيام التى جمعت جميع الصور الآدمية والوحشية ، وقد فرشت جميعها بالبسط الجهرمية والأندلسية الى أن وصل الى القاعة الكبرى فيها .

وترجل على سرير خلافته ، وجلس فى محل عظمته ، وأجلس وزيره على الكرسى الذى أعد له ، واحتاط به المستخدمون حملة السلاح المتصب جميعه ، وحجبوا العيون عن النظر اليه ، وصف بين يديه الأمراء والضيوف والمشرفون بحجبته ، وختم المقرئون القرآن العظيم ، وقدم عدى الملك النائب شعراء المجلس على طبقاتهم .

وعند انقضاء خدمة آخرهم ، عادت المستخدمون والرواض مقدمة ما أمروا به من الدواب ، فعلاه الخليفة والوزير يمسك الشكيمة بيده ، وانتظم موكبا عظيما ، والقراء عوض الرهجية ، والجماعة فى ركابه رجالة على حكم ما كانوا عليه أولا ، وصعد من القاعة التى فى دهاليز الباب القبلى منها ، فخرج منه ، وانفصلت خدمة جميع الأمراء والضيوف من ركابه بأحسن وداع من تقبيل الأرض .

وصعد الخليفة ووزيره وأولاده واخوته والأصحاب والحواشى الى السكرة ، وهى من جنات الدنيا المزخرفة ، وتلقاه أخوه بعظمة سلامه وتقبيل الأرض بين يديه ، وجلس لوقته ، وفتحت الطاقات التى فى المنظرة ، وعن يمينه وزيره ، وعن يساره أخوه جالسان ، واعتمد الناس جميعهم عند مشاهدته تقبيل الأرض له وادامة النظر نحوه .

والمستخدمون جميعهم على السد مشدودى الأوساط واقفين عليه ، فلما أمرهم الوزير أن يكسروه ، قبلوا الأرض جميعا وانصرفوا عنه ، وتولته الفعلة فى البساتين السلطانية بالفتح من الجانبين ، والقرآن والتكبير من الجانب الغربى حيث الخليفة ، والرهج واللعب من الجانب الشرقى .

ولما كمل فتحه انحدرت العشاريات عن آخرها ، اللطيف منها يقدم الكبير ، والجميع

مزينة بالذهب والفضة والستور المرقومة ، ورؤساؤهم وخدامهم بالكسوات الجميلة .

وبعد ذلك غلقت الطاقات ، وحل الخليفة بالمقصورة التى لراحته ، وكذلك الوزير وأولاده واخوته ، وجميع الأمراء الأستاذين والأصحاب والحواشى .

واستدعى للوقت والى مصر من البر الشرقى ، وخلع عليه بدلة منديلها وثوبها مذهبان ، وثوبان عتابى وسقلاطون ، وقبل الأرض من تحت المنظرة ، وعدى فى البحر الى حفظ مكانه .

ثم استدعى بعده حامى البساتين ومشارفها ، فخلع عليهما بدلتين حريرى وثوبين سقلاطون وعتابى . ثم متولى ديوان العمائر كذلك ، ثم مقدمى الرؤساء كذلك .

واعتمد كل من سلم اليه الاثباتات المشتملة على أصناف الانعام من العين والورق وصوانى الفطرة ، والموائد التى يهتم بها جميع الجهات ، والخراف المشوية ، والجامات الحلواء ... تفرقة ذلك على ما رسم ، وهو شامل غير مخصص : من أخى الخليفة والوزير ، الى الأصحاب والحواشى من أرباب السيوف والأقلام ، ثم الأمراء المستخدمين والضيوف المميزين من الأجناد ، وغيرهم من الأدوان ممن يتعلق به خدمة تختص بالموسم من البحارة ، وأرباب اللعب وغيرهم .

وعبيت الأسمطة فى المسطحات المنصوبة لها بالجانب من الباب الغربى من الخيام ، وأمر الوزير أخاه بالمضى اليها والجلوس عليها ، فتوجه وبين يديه متولى حجبة الباب ونوابه والمعروفية والحجاب ، واستدعت الأمراء والضيوف بالسقاة من خيامهم ، وأجلس كلا منهم على السماط فى موضعه على عادتهم ، وتلاهم العساكر على طبقاتهم ، ولم يمنع حضورهم ما يسير لكل منهم من جميع ماذكر على حكم ميزته .

ولما انقضى حكم الأسمطة المختصة بالأمراء الكبار ، عاد أخو الوزير الى حيث مقر الخلافة ، وبقى متولى الباب * جالسا لأسمطة العبيد وجميع المستخدمين من الراجل والسودان ، وعبيت المائدة الخاص بالسكرة التى ما يحضرها الا الموالى الخاص المستخدمون فى الخدم الكبار ، ويجمع له حالتان : حضوره فى أشرف مقام ، وجلوسه فى محل يحصل له به حرمة وذمام .

وجلس الخليفة عليها ، وأخوه على شماله ووزيره على يمينه ، بعد أن أدى كل منهما ما يجب من سلامه وتعظيمه ، وحضر أولاد الوزير واخوته ، والشيخ أبو الحسن كاتب الدست وابنه سالم ، ومن الأستاذين المحنكين أرباب الخدم .

وجرى الحال فى المائدة الشريفة على ما هو مألوف ، وفرق من جملتها لكل من أرباب الخدم الذين لم يحضروا عليها ما هو لكل منهم على سبيل الشرف .

وتميز فى ذلك اليوم خاصة ما يختص بالقاضى وشهوده والداعى وابن خاله ، الذين يخصصون عن سواهم بمقامهم دون غيرهم فى قاعة الخيمة الكبرى أمام سرير الخلافة

(*) ص٤٧٢ جـ١ ، ط. بولاق .

المنصوب مدة النهار ، مع ما يحمل اليهم من الموائد وغيرها مما هو بأسمائهم في الاثباتات مذكور .

ولما تكامل وضع المائدة ، وانقضى حكمها ، قبل كل من الحاضرين الأرض ، وانصرف بعد أن استصحب منها ما تقتضيه نفسه على حكم الشرف والبركة . ويقضى بعد ذلك الفرائض الواجبة في وقتها ، ولابد من راحة بعدها .

وحضر مقدما الركاب ، وحاسبا كاتب الدفتر على ما معهما برسم تفرقة الرسوم والصدقات في مسافة الطريق ، فكمل لهما على ما بقى معهما مثل ما كان أولا .

ولما استحق العود ، عاد كل من المستخدمين الى شغله من ترتيب الموكب ومصفات العساكر ، وترتيب من يشرف بالحضرة من الأمراء والضيوف .

وفرقت الصوانى الخاص التى تكون بين يدى الخليفة مدة النهار ، الجامعة للثروة من كل جهة ، والزينة من كل معنى ، والغرابة من كل صنف .

وقد جمعت ملاذ جميع الحواس ، والعدة منها يسيرة ، وليس ذلك لتقصير من همم الجهات التى تتنوع فيها بالغرائب ، بل للتعب الشديد عليها ، ثم لضيق الزمان ، لأن كلا منها لا مندوحة أن يكون فيه زهرة وثمرة ، وطول المكث كذلك يتلف ما فيها . واذا شملت — مع قلتها — من له الوجاهة العالية من أخى الخليفة والوزير ، لم يكن له غير صينية واحدة .

وأخذ كل من الحاشية أهبة تجمله لموضع ميزته ، وغير الخليفة ثيابه بما يقتضيه الموكب وهو بدلة حريرى بشدة الوقار ، وعلم الجوهر .

وسير الى الوزير ، صحبة مقدم خزانة الكسوة الخاص على يد المستخدمين عنده من الأستاذين ، من جملة بدلات الجمع التى يتوجه منها الى زيه ما يؤمر به من يسعى اليه ، بدلة مكملة حريرى ومنديلها بياض بالشدة الدانية غير العربية .

ولما لبس ما سير اليه ، وحضر بين يديه لشكر نعمته ، أمره بركوب أخيه في احدى العشاريات ، فامتثل أمره ، وتوجه صحبته من السكرة بجميع خواصه وحواشيه ، وفتح لهم الباب الذى هو منها بشاطىء الخليج ، وقدم له احدى العشاريات الموكبية ، وفيها مقدم رياسة البحرية .

فركب فيها بجمعه ، والوزير واقف راجل على شاطىء الخليج خدمة له ، الى ان انحدرت العشاريات جميعها قدامه ، ومراكب اللعب بغير أحد من أرباب الرهج ، والمستخدمون في البرين يمنعون من يقاربه ، والمتفرجون لا يصدمهم ويردهم ما يحل بهم ، بل يرمون أنفسهم من على الدواب ، ويسيرون بسيره .

وعاد الوزير الى السكرة ، فلما شاهد الخليفة الدواب الخاص التى برسم ركوبه ، أمره بما وقع عليه اختياره منها وعلاه ، فاحتاط بركابه مقدمو الركاب ، واستفتح القراء ، وخرج من باب السكرة ، ودخل من باب الخليفة القبلى . وشق قاعتها على سرير

مملكته ، وخص بالسلام فيها شيوخ الكتاب العوالى والقاضى والداعى ومن معهما ، ولهم بذلك ميزة عظيمة يختصون بها دون غيرهم .

وخرج منها الى البستان المعروف بنزار ، وسار في ميدانه ... وجميعه من الجانبين سور معقود من شجر نارنج أصولها مفترقة وفروعها مجتمعة ، وظللت الطريق ، وعليها من الثمرة التى أخرجها من وقته الى هذا اليوم ، وقد خرجت بهجتها عن المعتاد ، وحصل عليها ثمرة سنتين : احداهما انتهت ، والأخرى في الابتداء .

وهو بهيئته وزيه وترتيب عساكره وأمرائه ، وخرج من الباب بعد أن عم من له رسم بانعامه ، وعاد الرهج والموكب على ما كان عليه فلما وصل الى السد الذى على بركة الحبش كسر بين يديه .

وقال في كتاب « الذخائر » : ان مما أخرج من القصر في سنة احدى وستين وأربعمائة ، في خلافة المستنصر ، قبة العشارى وقاربه وكسوة رحله . وهو مما استعمله الوزير أحمد بن على الجرجراى في سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، وكان فيه مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم فضة نقرة . وان المطلق لصناع الصاغة من أجرة ذلك ، وفى ثمن ذهب لطلائه خاصة ، ألفان وسبعمائة دينار .

وعمل أبو سهل التسترى لوالدة المستنصر عشاريا يعرف بالفضى ، وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة ألف وثلاثون ألف درهم ، ولزم ذلك أجرة الصناعة ولطلاء بعضه ألفان وأربعمائة دينار ، واستعمل كسوة برسمه * بمال جليل .

وأنفق على العشاريات التى برسم النزه البحرية ، التى عدتها ستة وثلاثون عشاريا بالتقدير ، بجميع آلاتها وكساها وحلاها من مناطق ورؤوس منجوقات وأهلة وصفريات وغير ذلك ، أربعمائة ألف دينار .

وقال ابن الطوير : اذا أذن الله سبحانه وتعالى بزيادة النيل المبارك ، طالع ابن أبى الرداد بما استقر عليه أذرع القاع في اليوم الخامس والعشرين من بؤونة ، وأرخه بما يوافقه من أيام الشهور العربى .

فعلم ذلك من مطالعته ، وأخرجت الى ديوان المكاتبات ، فنزلت في السير المرتب بأصل القاع ، والزيادة بعد ذلك في كل يوم تؤرخ بيومه من الشهر العربى ، وما وافقه من أيام الشهر القبطى ... لا يزال كذلك ، وهو محافظ على كتمان ذلك لا يعلم به أحد قبل الخليفة وبعده الوزير .

فاذا انتهى في ذراع الوفاء ، وهو السادس عشر ، الى أن يبقى منه أصبع أو اصبعان ، وعلم ذلك من مطالعته ، أمر أن يحمل الى المقياس في تلك الليلة من المطابخ عشرة قناطير من الخبز السميذ ، وعشرة من الخراف المشوية ، وعشرة من الجامات الحلواء ، وعشر شمعات .

ويؤمر بالمبيت في تلك الليلة بالمقياس ، فيحضر اليه قراء الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ، ومن يجرى

(*) ص٤٧٥ جـ١ ، ط.بولاق .

مجراهم . فيستعلون ذلك ، ويقدون الشمع عليهم من العشاء الآخرة ، وهم يتلون القرآن يرفق ، ويطربون بمكان التطريب ، فيختمون الختمة الشريفة . ويكون هذا الاجتماع فى جامع المقياس ، فيوفى الماء ستة عشر ذراعا فى تلك الليلة .

ولوفاء النيل عندهم قدر عظيم ، ويبتهجون به ابتهاجا زائدا . وذلك لأنه عمارة الديار ، وبه التئام الخلق على فضل الله ، فيحسن عند الخليفة موقعه ، ويهتم بأمره اهتماما عظيما أكثر من كل المواسم .

فاذا أصبح الصبح من هذا اليوم ، وحضرت مطالعة ابن أبى الرداد اليه بالوفاء ، ركب الى المقياس لتخليقه ، فيستدعى الوزير على العادة فيحضر الى القصر ، فيركب الخليفة بزى أيام الركوب ، من غير مظلة ولا ما يجرى مجراها بل فى هيئة عظيمة من الثياب ، والوزير تابعه فى الجمع الهائل على ترتيب الموكب .

ويخرج شاقا من باب زويلة ، وسالكا الشارع الى آخر الركن من بستان عباس ، المعروف اليوم بسيف الاسلام ، فيعطفه سالكا على جامع ابن طولون — والجسر الأعظم بين الركنين — الى الساحل بمصر ، الى الطريق المسلوكة على طرف الخشابين الشرقى على دار الفاضل الى باب الصاغة بجوارها — وله دهليز ماد بمصاطب مفروشة بالحصر العبدانى بسطا وتأزيرا — فيشقها والوزير تابعه ، ويخرج منها منعطفا على الصناعة الأخرى — وكانت برسم المكس — الى السيوفيين ، ثم على منازل العز التى هى اليوم مدرسة ، ثم الى دار الملك ، فيدخل من الباب المقابل لسلوكه ، فيترجل الوزير عنده للدخول بين يديه ماشيا الى المكان المعد له .

ويكون قد حمل أمس ذلك اليوم من القصر البيت المتخذ للعشارى الخاص . وهو بيت مثمن من عاج وأبنوس ، عرض كل جزء ثلاثة أذرع ، وطوله قامة رجل تام ، فيجمع بين الأجزاء الثمانية ، فيصير بيتا دوره أربعة وعشرون ذراعا ، وعليه قبة من خشب محكم الصناعة ، وهو بقبته ملبس بصفائح الفضة والذهب ... فيتسلمه رئيس العشاريات الخاص ، ويركبه على العشارى المختص بالخليفة ، ويجعل باكر ذلك اليوم الذى يركب فيه الخليفة على الباب الذى يخرج منه للركوب الى المقياس .

فاذا استقر الخليفة بالمنظرة بدار الملك التى يخرج من بابها الى العشارى وأسند اليه ، استدعى الوزير من مكانه ، فيحضر اليه ويخرج بين يديه الى أن يركب فى العشارى . فيدخل البيت المذهب وحده ، ومعه من الأستاذين المحنكين من يأمره من ثلاثة الى أربعة ، ثم يطلع فى العشارى خواص الخليفة خاصة ، ورسم الوزير اثنان أو ثلاثة من خواصه .

وليس فى العشارى من هو جالس سوى الخليفة باطنا ، والوزير ظاهرا فى رواق من باب البيت الذى هو بعرانيس من الجانبين قائمة مخروطة من أخف الخشب ، وهى مدهونة مذهبة ، وعليها من جانبيها ستور معمولة برسمها على قدرها .

فاذا اجتمع فى العشارى من جرت عادته بالاجتماع ، اندفع من باب القنطرة طالبا باب المقياس العالى على الدرج التى يعلوها النيل ، فيدخل الوزير ومعه الأستاذون بين يدى الخليفة الى الفسقية ، فيصلى هو والوزير ركعات كل واحد بمفرده .

فاذا فرغ من صلاته ، أحضرت الآلة التى فيها الزعفران والمسك ، فيديفها بيده بآلة ، ويتناولها صاحب بيت المال ، فيناولها لابن أبى الرداد ، فيلقى نفسه فى الفسقية وعليه غلالته وعمامته ، والعمود قريب من درج الفسقية ، فيتعلق فيه برجليه ويده اليسرى ، ويخلقه بيده اليمنى ، وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرأون القرآن نوبة بنوبة .

ثم يخرج على فوره راكبا فى العشارى المذكور ، وهو بالخيار : اما أن يعود الى دار الملك ويركب منها عائدا الى القاهرة ، أو ينحدر فى العشارى الى المقس . فيتبعه الموكب الى القاهرة .

ويكون فى البحر فى ذلك اليوم ألف قرقورة مشحونة بالعالم فرحا * بوفاء النيل وبنظر الخليفة .

فاذا استقر بالقصر ، اهتم بركوب فتح الخليج ، وفيه همة عظيمة ظاهرة للابتهاج بذلك .

ثم يصير ابن أبى الرداد ، باكر ثانى ذلك اليوم ، الى القصر بالايوان الكبير الذى فى الشباك الى باب الملك بجواره ، فيجد خلعة معبأة هناك ، فيؤمر بلبسها ، ويخرج من باب العيد شاقا بها بين القصرين من أوله قصدا لاشاعة ذلك — فان ذلك من علامة وفاء النيل ، ولأهل البلاد الى ذلك تطلع — وتكون خلعة مذهبة .

(*) ص٤٧٦ ج١ ، ط. بولاق .

وكان من العدول المحنكين ، فيشرف فى الخلعة بالطيلسان المقور ، ويندب له من التغييرات ولمن يريده خمس تغييرات مركبات بالحلى ، ويحمل أمامه على أربع بغال ، مع أربعة من مستخدمى بيت المال ، أربعة أكياس فى كل كيس خمسمائة درهم ظاهرة فى آكفهم ، وبصحبته أقاربه وبنو عمه وأصدقاؤه ، ويندب له الطبل والبوق ، ويكتنف به عدة كثيرة من المتصرفين الرجالة .

فيخرج من باب العيد ، ويركب احدى التغييرات وهى أميزها ، وتشرف أمامه بجملين من النقارات التى قدمنا ذكرها (يعنى فى ركوب أول العام) من زى الموكب فيسير شاقا القاهرة ، والأبواق تضرب أمامه كبارا وصغارا ، والطبل وراءه مثل الأمراء ، وينزل على كل باب يدخل منه الخليفة ، ويخرج من باب القصر فيقبله ويركب ... وهكذا يعمل كل من يخلع عليه من كبير وصغير من الأمراء المطوقين الى من دونهم سيفا وقلما .

ويخرج من باب زويلة طالبا مصر من الشارع الأعظم الى مسجد عبد الله الى دار الأنماط ، جائزا على الجامع الى شاطىء البحر ، فيعدى الى المقياس بخلعه وأكياسه . وهذه الأكياس معدة لأرباب الرسوم عليه فى خلعه ولنفسه ولبنى عمه بتقرير من أول الزمان .

فاذا انقضى هذا الشأن ، شرع فى الركوب الى فتح الخليج ثانى يوم — وقد كان وقع الاهتمام به منذ دخلت زيادة النيل ذراع الوفاء اهتماما عظيما — فيعمل فى بيت المال من التماثيل شكل الوحوش من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات عدة وافرة : منها ما هو ملبس بالعنبر ، ومنها ما هو ملبس بالصندل ، ثم شكل التفاح والأترج اللطيف ، والوحوش مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب الى غير ذلك .

ثم تخرج الخيمة التى يقال لها القاتول ، لأن فراشا سقط من أعلى عمودها فمات فسميت بذلك ، وطوله سبعون ذراعا ، وأعلاه صفرية فضة تسع راوية ماء ، وعليه الفلكة التى كانت فى الايوان الى قريب الوقت . ثم يعمل فى أول العمود شقة دائرة ، ثم أوسع منها ، ويتوالى ذلك الى احدى عشرة شقة ... فتصير سعة الخيمة ما يزيد على فدانين مستديرة ، وتنصب فى بر الخليج الغربى على حافته مكان بستان الحلى اليوم .

وكانت ثم منظرة ، يقال لها السكرة ، برسم جلوس الخليفة لفتح الخليج فى مثل هذا اليوم .

ونصب أرباب الرتب من الأمراء من بحرى تلك الخيمة الكبرى خياما كثيرة ، ويتمايزون فيها على قدر هممهم ، وضربهم اياها فى الأماكن الأقرب فالأقرب على قدر رتبهم .

فاذا تم ذلك ، وعزم الخليفة على الركوب ثالث يوم التخليق أو رابعه ، أخرج كل من المستخدمين فى المواضع المقدم ذكرها فى ركوب أول العام آلات الموكب على عادته ، ويزاد فيه اخراج أربعين بوقا ، عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة ، ويكون بواقوها ركبانا ، وأرباب الأبواق النحاس مشاة ، ومن الطبول الكبار التى مكان خشبها فضة عشرة .

فاذا حضر الوزير الى باب القصر ، خرج الخليفة فى هيئة عظيمة وهمة عالية ، وقد تضاعفت همم الأجناد فى ذلك اليوم فارسها وراجلها ، ويخرج زى الخليفة من المظلة والسيف والرمح والألوية والدواة ، وغير ذلك من الأستاذين المحنكين .

ويركب فى ذلك اليوم من الأقارب المقيمين بالقصر عشرون أو ثلاثون ، وهم بالنوبة فى كل سنة ، فيتقدمون الى المنظرة فى مكان لهم صحبة أستاذين لخدمتهم وحفظهم ، ويكون قد لف عمود الخيمة الكبرى المشار اليه اما بدبياج أبيض أو أحمر أو أصفر من أعلاه الى أسفله ، وينصب مسندا اليه سرير الملك ، ويغشى بقرقوبى ، وعرانيسه ذهب ظاهرة

فيخرج الخليفة للركوب ويركب ، فيخرج من باب القصر وعليه ثوب يقال له البدنة — وهو كله ذهب وحرير مرقوم ، والمظلة من شكله ، ولا يلبس هذا الثوب فى غير هذا اليوم — ويسير الموكب الهائل ، شاقا القاهرة من الطريق التى ركب منها لتخليق المقياس ، الا أنه لا يدخل طرق مصر من الخشابين ، بل خارجها من طريق الساحل .

فاذا جاز على جامع ابن طولون ، وجد قد ربط من رأس المنارة — من مكان العشارى النحاس — حبل طويل قوى موضوع آخره فى الطريق ، وفيه قوم يقال لهم النحتبارية ،

واحد فى زى فارس على شكل فرس وفى يده رمح وبكتفه درقة ، فينحدر على بكرة فى رجليه آخر ممسكها ، وهو يتقلب فى الهواء بطنا وظهرا حتى يصل الى الأرض

ويكون قاضى القضاة وأعيان الشهود جلوسا فى باب الجامع من هذه الجهة ، فاذا وزاهم الخليفة — وكانوا قد ركبوا — وقف لهم وقفة ، فيسلم على القاضى ، ثم يدخل فيقبل الرجل التى من جانبه لا غير ، ويدخل بالشهود * فى الفرجة أمام وجه الدابة بمقدار قصبة المساحة ، فيسلم عليهم ، ويرجعون الى دوابهم فيركبون .

ويكون قد نصب لهم بالقرب من الخيمة الكبرى خيمتان : احداهما ديباج أحمر ، والأخرى دبيقى أبيض ، بصفارى فضة لكل واحدة ، فيتم الخليفة بهيئته الى أن يدخل من باب الخيمة ، ويكون الوزير قد تقدمه على العادة ليخدمه ، فيجده راجلا على باب الخيمة ، فيمشى بين يديه الى سرير الملك .

فينزل ويجلس على المرتبة المنصوبة فيه ، ويحيط به الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون بعدهم

ويوضع للوزير الكرسى الجارى به عادته ، فيجلس عليه ورجلاه تحك الأرض ، ويقف أرباب الرتب صافين من ناحية سرير الملك الى ناحية الخيمة ، والقراء يقرأون القرآن ساعة زمانية . فاذا ختموا قراءتهم ، استأذن صاحب الباب على حضور الشعراء للخدمة بما يطلق هذا اليوم ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ، ولهم منازل على مقدار أقدارهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة فى الانشاد ، وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له النائب

وتقدم شاعر ، يقال له ابن جبر ، وأنشد قصيدة منها :

فتح الخليج فسال منه الماء
وعلت عليه الراية البيضاء

فصفت موارده لنا فكأنه
كف الامام فعرفها الاعطاء

فانتقد الناس عليه فى قوله « فسال منه الماء » ، وقالوا : أى شىء يخرج من البحر غير الماء ؟ فضيع ما قاله بعد هذا المطلع

وتقدم شاعر ، يقال له مسعود الدولة بن جرير ، وأنشد :

ما زال هذا السد ينظر فتحه
اذن الخليفة بالنوال المرسل

حتى اذا برز الامام بوجهه
وسطا عليه كل حامل معول

فجرى كأن قد ديف فيه عنبر
يعلوه كافور بطيب المندل

فانتقدوا عليه أيضا قوله فى البيت الثانى ، وقالوا : أهلك وجه الامام بسطوات المعاول عليه ، وان كان قصد فتح السد بالمعاول ، لكنه ما نظمه الا قلقا

ثم تقدم له شاعر شاهد ، يقال له كافى الدولة أبو العباس أحمد ، وأنشد قصيدة شهد

(*) ص٤٧٧ جـ ١، ط. بولاق

له جماعة منهم القاضى الأثير بن سنان ، فانه عملها بحضوره بهيها :

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهد
للنيل أم لك يا بن بنت محمد

أم لاجتماعكما معا فى موطن
وافيتما فيه لأصدق موعد

ليس اجتماع الخلق الا للذى
حاز الفضيلة منكما فى المولد

شكروا لكل منكما لوفائه
بالسعى لكن منهم للاجود

ولمن اذا اشتد الوفاء قصده
بالقصد ليس له كمن لم يقصد

هذا يفى ويعود ينقص تارة
وتسد أنت النقص ان لم يردد

وقواه ان بلغ النهاية قصرت
واذا بلغت الى النهاية تبتدى

فالآن قد ضاقت مسالك سعيه
بالسد فهو به يحال مقيد

فاذا أردت صلاحه فافتح له
ليرى جنابا مخصبا وثرى ندى

وأمر بفصد العرق منه فما شكا
جسم فصح الجسم ان لم يفصد

واسلم الى أمثال يومك هكذا
فى عيش مغبوط وعز مخلد

فأمر له على الفور بخمسين دينارا ، وخلع عليه وزيد فى جاريه .

ثم يقوم الخليفة عن السرير راكبا ، والوزير بين يديه ، حتى يطلع على المنظرة المعروفة بالسكرة ، وقد فرشت بالفرش المعدة لها ، فيجلس فيها ، ويتهيأ أيضا للوزير مكان يجلس فيه ؛ ويحيط بالسد حامى البساتين ومشارفها لأنه من حقوق خدمتهما ، فتفتح احدى طاقات المنظرة ، ويطل منها الخليفة على الخليج ، وطاقة تقاربها يتطلع منها أستاذ من الخواص ، ويشير بالفتح فيفتح بأيدى عمال البساتين بالمعاول ، ويخدم بالطبل والبوق من البرين .

فاذا اعتدل الماء فى الخليج ، دخلت العشاريات اللطاف — ويقال لها السماويات — وكأنها خدم بين يدى العشارى الذهبى المتقدم ذكره ، ثم العشاريات الخاص الكبار وهى ستة : الذهبى المذكور ، والفضى ، والأحمر ، والأصفر ، واللازوردى ، والصقلى — وكان أنشأه نجار من رؤساء الصناعة صقلى ، وزاد فيه على الانشاء المعتاد فنسب اليه — وهذه العشاريات لا تخرج عن خاص الخليفة فى أيام النيل وتحوله الى اللؤلؤة للفرجة ... وسارت فى الخليج ، وعلى بيت كل منها الستور الديبقى الملونة ، وبرؤوسها وفى أعناقها الأهلة وقلائد من * الخرز ، فتسند الى البر الذى فيه المنظرة الجالس فيه الخليفة .

فاذا استقر جلوس الخليفة والوزير بالمنظرة ودخل قاضى القضاة والشهود الخيمة الديبقى

(*) ص ٤٧٨ ج ١ ، ط بولاق .

البيضاء ، وصلت المائدة من القصر فى الجانب الغربى من الخليج ، على رؤوس الفراشين صحبة صاحب المائدة ، وعدتها مائة شدة فى الطيافير الواسعة ، وعليها القوارات الحرير ، وفوقها الطراحات ، ولها رواء عظيم ومسك فائح ، فتوضع فى خيمة واسعة منصوبة لذلك .

ويحمل للوزير ما هو مستقر له بعادة جارية ومن صوانى التماثيل المذكورة ثلاث صوان ، ويخصص منها أيضا لأولاده واخوته خارجا عن ذلك اكراما وافتقادا ، ويحمل الى قاضى القضاة والشهود شدة من الطعام الخاص من غير تماثيل توقيرا للشرع ، ويحمل الى كل أمير فى خيمته شدة طعام وصينية تماثيل ، ويصل من ذلك الى الناس شيء كثير .

ولا يزالون كذلك الى أن يؤذن بالظهر ، فيصلون ويقيمون الى العصر ، فاذا أذن به صلى ، وركب الموكب كله لانتظار ركوب الخليفة ، فيركب لابسا غير البدلة بل بهيئته ، والمظلة مناسبة لثيابه التى عليه ، واليتيمة والترتيب بأجمعه على حاله .

ويسير فى البر الغربى من الخليج ، شاقا البساتين هناك ، حتى يدخل من باب القنطرة الى القصر ، والوزير تابعه على الرسم المعتاد ، وسر فيه للقوم أحسن الأيام ، ويمضى الوزير الى داره مخدوما على العادة .

وقال فى كتاب « الذخائر والتحف » : ان المستعمل من الفضة قبة العشارى المعروف بالمقدم وقاربه وكسوة رحله ، فى سنة ست وثلاثين وأربعمائة فى وزارة على بن أحمد الجرجراى ، مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم نقرة . وان المطلق للصناع عن أجرة الصناعة ، وفى ثمن ذهب لطلائه خاصة ، ألفان وتسعمائة دينار وسبعون . وكانت الفضة فى ذلك الوقت كل مائة درهم بستة دنانير وربع ، سعر ستة عشر درهما بدينار .

ولما تولى أبو سعيد سهل التسترى الوساطة سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، استعمل لأم المستنصر عشاريا يعرف بالفضى ، وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة ألف وثلاثون ألف درهم ، ولزم ذلك أجرة الصناعة وللطلاء بعضه ألفان وأربعمائة دينار ، سوى كسوة له بمال جليل .

والمنفق على ستة وثلاثين عشاريا برسم النزه البحرية لآلاتها وحلاها ، من مناطق ورؤوس منجوقات وأهلة وصفريات وغير ذلك ، أربعمائة ألف دينار .

وكانت العادة عندهم اذا حصل وفاء النيل أن يكتب الى العمال . فما كتب من انشاء تاج الرياسة أبى القاسم على بن منجب بن سليمان الصيرفى :

« أما بعد ، فان أحق ما وجبت به التهنئة والبشرى ، وغدت المسار منتشرة تتوالى وتترى ، وكان من اللطائف التى غمرت بالمنة العظمى والنعمة الجسيمة الكبرى ... ما استدعى الشكر لموجد العالم وخالقه ، وظلت النعمة به عامة لصامت الحيوان وناطقه . وتلك الموهبة بوفاء النيل المبارك الذى يسره الله تعالى — وله الحمد — يوم كذا ...

« فان هذه العطية تؤدى الى خصب البلاد وعمارتها ، وشمول المصالح وغزارتها ، وتفضى بتضاعف المنافع والخيرات ، وتكاثر الأرزاق والأقوات ، وتساهم الفائدة فيها جميع العباد . وتنتهى البركة بها الى كل دان وناء وكل حاضر وباد . فأذع هذه النعمة قبلك ، وانشرها فى كل من يتدبر عملك ، رحثهم على مواصلة الشكر لهذه الألطاف الشاملة لهم ولك . فاعلم هذا ، واعمل به ان شاء الله تعالى » .

وكتب أيضا : « ان أولى ما تضاعف به الابتهاج والجذل ، وانفتح فيه ارجاء واتسع الأمل ، ما عم نفعه صامت الحيوان وناطقه ، وأحدث لكل أحد اغتباطا لزمه وآلى ألا يفارقه . وذلك ما منّ الله به من وفاء النيل المبارك الذى تحيا به كل أرض موات ، وتكتسى بعد اقشعرارها حلة النبات ، ويكون سببا لتوافر الأقوات . فانه وفى المقدار الذى يحتاج اليه ... فلتذع هذه المنة فى القاصى والدانى ، لتستعمل الكافة بينهم ضروب البشائر والتهانى ، ان شاء الله تعالى » .

وكتب أيضا : « من لطف الله الواجب حمده ، اللازم شكره وفضله ، الذى لا يمل بشره ، ولا يسأم ذكره ومثه ، الذى استبشر به الأنام ، وتضاعف فيه الانعام ، ومثل الله الحياة به فى قوله تعالى « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام » . . أمر النيل المبارك الذى يعم النجود والتهائم ، وتنتفع به الخلائق ، وترتع فيما يظهره البهائم ...

« وقد توجه اليك هذا الكتاب بهذه البشرى فلان ، فأجره على رسمه فى اظهاره مجملا وايصاله الى رسمه مكملا ، واذاعة هذه النفقة على الكافة ليتساهموا الاغتباط بها ، ويبالغوا فى الشكر لله سبحانه وتعالى بمقتضاها وعلى حسبها . فاعلم ذلك ، واعمل به ان شاء الله تعالى » .

منظرة الدكة : وكان من جملة مناظر الخلفاء الفاطميين منظرة تعرف بالدكة ، لها بستان عظيم بجوار المقس ، فيه بينه وبين أراضى اللوق ، وما زالت باقية حتى زالت الدولة ، وحكر مكان البستان ، وصار خطة تعرف الى اليوم * بخط الدكة ، فخربت المنظرة وزال أثرها .

قال ابن عبد الظاهر . الدكة بالمقس كانت بستانا ، وكان الخليفة اذا ركب من كسر الخليج من السكرة بمظلته يسير فى البر الغربى ، ومضارب الناس والأمراء وخيمهم عن يمينه وشماله ، الى أن يصل الى هذا البستان المعروف بالدكة ، وقد غلقت أبوابه ودهاليزه .

فيدخل اليه بمفرده ، ويسقى منه الفرس الذى تحته — وهى قضية ذكر المؤرخ للسيرة المأمونية أنهم كانوا يعتمدونها الى آخر وقت ، ولم يعلم سببها — ثم يخرج ويسير الى أن يقف على الترعة الآتى ذكرها ، ويدخل من باب القنطرة ، وينزل الى القصر .

والدكة الآن آدر وحارات شهرتها تغنى عن وصفها . فسبحان من لا يتغير .

(*) ص٤٧٩ جـ١ ، ط. بولاق .

وقال ابن الطوير عن الظاهر لاعزاز دين الله أبى هاشم على بن الحاكم بأمر الله : كان بمنظرة يقال لها الدكة بساحل المقس (يعنى أنه مات بها) .

منظرة المقس : وكان من جملة مناظرهم أيضا منظرة بجوار جامع المقس ، الذى تسميه العامة اليوم جامع المقسى وكانت هذه المنظرة بحرى الجامع المذكور ، وهى مطلة على النيل الأعظم ، وكان حينئذ ساحل النيل بالمقس

وكانت هذه المنظرة معدة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول الى غزو الفرنج فتحضر رؤساء المراكب بالشوانى وهى مزينة بأنواع العدد والسلاح ويلعبون بها فى النيل ، حيث الآن الخليج الناصرى ، تجاه الجامع ، وما وراء الخليج من غربيه .

قال ابن المأمون ، وذكر تجهيز العساكر فى البر عند ورود كتب صاحبى دمشق وحلب ، فى سنة سبع عشرة وخمسمائة ، ما يحس على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك : وركب الخليفة الآمر بأحكام الله ، وتوجه الى الجامع بالمقس ، وجلس بالمنظرة فى أعلاه ، واستدعى مقدم الأسطول الثانى ، وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة ، واعتمد ما جرت العادة به من الانعام عليهم

وعاد الخليفة الى البستان المعروف بالبعل الى آخر النهار ، وتوجه الى قصره بعد تفرقة جميع الرسوم والصدقات والهبات الجارى بها العادة فى الركوبات .

وقال ابن الطوير : فاذا تكملت النفقة ، وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ، ركب الخليفة والوزير الى ساحل المقس . وكان هناك على شاطىء البحر بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداعه (يعنى الأسطول) ولقائه اذا عاد .

فاذا جلس هو والوزير للوداع ، جاءت القواد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات فى البحر بين يديه ، وهى مزينة بأسلحتها ولبوسها ، وفيها المنجنيقات تلعب ، فتنحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل فى لقاء العدو بالبحر الملح .

ويحضر بين يدى الخليفة المقدم والرئيس فيوصيهما ، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة ، ويعطى المقدم مائة دينار ، والرئيس عشرين دينارا .

وتنحدر الى دمياط ، وتخرج الى البحر الملح ، فيكون لها ببلاد العدو صيت وهيبة . فاذا وقع لهم مركب لا يسألون عما فيه سوى الصغار والرجال والنساء والسلاح ، وما عدا ذلك فللأسطول .

واتفق مرة أن قدم على الأسطول سيف الملك الجمل ، فكسب بطشة عظيمة فيها ألف وخمسمائة شخص بعد أن بعث عليهم بالقتال ، وقتل منهم نحوا من مائة وعشرين رجلا ، وحضر الى القاهرة

ففرح الخليفة وركب الى المقس ، وجلس بالمنظرة للقائهم ، وأطلقوا الأسرى بين يديه تحت المنظرة من جانب البر . فاستدعيت الجمال لركوبهم ، وشق بهم القاهرة ومصر ،

وهم كل اثنين على جمل ظهرا لظهر . وعاد الخليفة الى القصر فجلس فى احدى مناظره لنظرهم فى جوازهم .

فلما عادوا بهم من مصر ، صاروا بهم الى المناخات ، فصح منهم ألف رجل ، فانضافوا الى من فى المناخ .

وأما النساء والصبيان فانهم دخلوا بهم الى القصر ، بعد أن حصل منهم للوزير نصيب وافر ، وأخذ الجهات والأقارب بقيتهن ، فيستخدمونهن ويعلمونهن الصنائع ، ويتولى الأستاذون تربية الصبيان وتعليمهم الخط والرماية ، ويقال لهم الترابى .

ومن استريب به من الأسرى ، ونبه عليه بقوة ، أوقع به . والشيخ الذى لا ينتفع به يمضى فيه حكم السيف بمكان يقال له بئر المنامة فى الخراب قرب مصر . ولم يسمع على الدولة قط أنها فادت أسيرا بمال ولا بأسير مثله . وهذه الحال فى كل سنة آخذة فى الزيادة لا النقص .

وقدم على الأسطول مرة أمير يقال له حرب ابن فور ، صاحب الحاجب لؤلؤ ، فكسب بطشه حصل فيها خمسمائة رجل ... انتهى .

وقد خربت هذه المنظرة . وكان موضعها برج كبير ، صار يعرف فى الدولة الأيوبية بقلعة المقس ، مشرف على النيل . فلما جدد الصاحب الوزير شمس الدين عبد الله المقسى جامع المقس ، على ما هو عليه الآن فى سنة سبعين وسبعمائة ، هدم هذا البرج ، وجعل مكانه جنينة شرقى الجامع ، وتحدث الناس أنه وجد فيه مالا . والله أعلم .

منظرة البعل : وكان من مناظرهم بظاهر القاهرة منظرة فى بستان أنيق ، يعرف بالبعل ، أنشأه الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى . وموضع هذا البستان الى اليوم يعرف بالبعل ، وصارت أرضه مزرعة * فى جانب الخليج الغربى بحرى أرض الطبالة فى كوم الريش مقابل قناطر الأوز .

وقد خربت المنظرة ، وبقى منها آثار أدركتها يعطن بها الكتان ، تدل على عظمها وجلالتها فى حال عمارتها . وكانت منظرة البعل من أجل متنزهاتهم ، وكان لهم بها أوقات عميمة المبرات جليلة الخيرات .

قال ابن المأمون : فأما يوم السبت والثلاثاء فيكون ركوب الوزير من داره بالرهجية ، ويتوجه الى القصر . فيركب الخليفة الى ضواحى القاهرة للنزهة فى مثل الروضة والمشتهى ودار الملك والتاج والبعل وقبة الهواء والخمسة وجوه والبستان الكبير . وكان لكل منظرة منهن فرش معلوم مستقر فيها من الأيام الأفضلية للصيف والشتاء .

وتفرق الرسوم ، ويسلم لمقدمىّ الركاب اليمين والشمال لكل واحد عشرون دينارا وخمسون رباعيا ، ولتالى مقدم الركاب اليمين مائة كاغدة فى كل كاغدة ثلاثة دراهم ، ومائة كاغدة فى كل كاغدة درهمان ، ولتالى مقدم الشمال مثل ذلك .

أما الدنانير فلكل باب يخرج منه من البلد دينار ، ولكل باب يدخل منه دينار ، ولكل جامع يجتاز عليه دينار ، ما خلا جامع مصر فان

(*) ص٤٨٠ ج١ ، ط.بولاق

رسمه خمسة دنانير ، ولكل مسجد يجتاز عليه رباعى ، ولكل من يقف ويتلو القرآن كاغدة ، والفقراء والمساكين من الرجال والنساء لكل من يقف كاغدة ، ولكل من يركب الخليفة ديناران . ويكون مع هذا متولى صناديق الانفاق يحجب الخليفة ، وبيده خريطة ديباج فيها خمسمائة دينار لما عساه يؤمر به .

فاذا حصل فى احدى المناظر المذكورة ، فرق من العين ما مبلغه سبعة وخمسون دينارا ، ومن الرباعية مائة وستة وثمانون دينارا للحواشى والأستاذين وأصحاب الدواوين والشعراء والمؤذنين والمقرئين والمنجمين وغيرهم ، ومن الخراف الشواء خمسون رأسا : منها طبقان حارة مكملة مشورة برسم المائدة الخاص — مضافا لما يحضر من القصور من الموائد الخاص والحلاوات — وطبق واحد برسم مائدة الوزير ، وبقية ذلك بأسماء أربابه ، ورأسا بقر برسم الهرائس .

فاذ جلس الخليفة على المائدة ، استدعى الوزير وخواصه ومن جرت العادة بجلوسه معه . ومن تأخر عن المائدة ممن جرت عادته بحضورها ، حمل اليه من بين يدى الخليفة على سبيل التشريف وعند عود الخليفة الى القصر ، يحاسب متولى الدفتر مقدمى الركاب على ما أنفق عليه فى مسافة الطريق من جامع ومسجد وباب ودابة وأما تفرقة الصدقات فهم فيها على حكم الأمانة .

قال : واذا وقع الركوب الى الميادين ، جرى الحال فيها على الرسم المستقر من الانعام ، ويؤمر متولى خزائن الخاص وصناديق الانفاق أن يكون معه خريطة فى السرج ديباج ، تسمى خريطة الموكب ، فيها ألف دينار معدة لمن يؤمر بالانعام عليه فى حال الركوب .

منظرة التاج : هى من جملة المناظر التى كانت الخلفاء تنزلها للنزهة ، بناها الأفضل ابن أمير الجيوش ، وكان لها فرش معد لها للشتاء والصيف . وقد خربت ولم يبق لها سوى أثر كوم ، توجد تحته الحجارة الكبار ، وما حول هذا الكوم صار مزارع من جملة أراضى منية الشيرج .

قال ابن عبد الظاهر : وأما التاج فكان حوله البساتين عدة ، وأعظم ما كان حوله قبة الهواء ، وبعدها الخمس وجوه التى هى باقية .

منظرة الخمس وجوه : كانت أيضا من مناظرهم التى يتنزهون فيها ، وهى من انشاء الأفضل بن أمير الجيوش ، وكان لها فرش معد لها ، وبقى منها آثار بناء جليل على بئر متسعة كان بها خمسة أوجه من المحال الخشب التى تنقل الماء لسقى البستان العظيم الوصف البديع الزى البهيج الهيئة . والعامة تقول التاج والسبع وجوه الى الآن .

وموضعها الى وقتنا هذا من أعظم متفرجات القاهرة ، وينبت هناك فى أيام النيل عندما يعم تلك الأراضى البشنين ، فتفتن رؤيته وتبهج النفوس نضارته وزينته ، فاذا نضب ماء النيل زرعت تلك البسطة قرطا وكتانا يقصر الوصف عن تعداد حسنه . وأدركت حول الخمس وجوه غروسا من نخل وغيره تشبه أن تكون من بقايا البستان القديم ، وقد تلاشت الآن .

ثم ان السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى ، جدد عمارة منظرة فوق الخمس وجوه ، ابتدأ بناءها فى يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة .

منظرة باب الفتوح : وكان للخلفاء الفاطميين منظرة خارج باب الفتوح ، وكان يومئذ ما خرج عن باب الفتوح براحا فيما بين الباب وبين البساتين الجيوشية . وكانت هذه المنظرة معدة لجلوس الخليفة فيها عند عرض العساكر ووداعها اذا سارت فى البر الى البلاد الشامية .

قال ابن المأمون : وفى هذا الشهر (يعنى المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة) وصلت رسل ظهير الدين طغدكين صاحب دمشق ، وآق سنقر صاحب حلب ، بكتب * الى الخليفة الآمر بأحكام الله ، والى الوزير المأمون الى القصر ، فاستدعوا لتقبيل الأرض كما جرت العادة من اظهار التجمل .

وكان مضمون الكتب — بعد التصدر والتعظيم والسؤال والضراعة — أن الأخبار تظافرت بقلة الفرنج بالأعمال الفلسطينية والثغور الساحلية ، وأن الفرصة قد أمكنت فيهم والله قد أذن بهلاكهم ، وأنهم ينتظرون انعام الدولة العلوية وعوايد أفضالها ، ويستنصرون بقوتها ، ويحثون على نصرة الاسلام ، وقطع دابر الكفر ، وتجهيز العساكر المنصورة والأساطيل المظفرة ، والمساعدة على التوجه نحوهم لئلا يتواصل مددهم ، وتعود الى القوة شوكتهم .

فقوى العزم على النفقة فى العساكر فارسها وراجلها وتجريدها ، وتقدم الى الأزمة باحضار الرجال الأقوياء ، وابتدىء بالنفقة فى الفرسان بين يدى الخليفة فى قاعة الذهب ، وأحضر الوزانون وصناديق المال ، وأفرغت الأكياس على البساط .

واستمر الحال بعد ذلك فى الدار المأمونية ، وتردد الرأى فيمن يتقدم ، فوقع الاتفاق على حسام الملك البرنى ، وأحضر مقدم الأساطيل الثانية لأن الأساطيل توجهت فى الغزو ، وخلع عليه ، وأمر بأن ينزل الى الصناعتين بمصر والجزيرة ، وينفق فى أربعين شينيا ، ويكمل نفقاتها وعددها ، ويكون التوجه بها صحبة العسكر .

وأنفق فى عشرين من الأمراء للتوجه صحبته فكملت النفقة فى الفارس والراجل ، وفى الأمراء السائرين ، وفى الأطباء والمؤذنين والقراء ، وندب من الحجاب عدة ، وجعل لكل منهم خدمة : فمنهم من يتولى خزانة الخيام ، وسير معه من حاصل الخزائن — برسم ضعفاء العسكر ومن لا يقدر على خيمة — خيم ، ومنهم حاجب على خزائن السلاح .

وأنفق فى عدة من كتاب ديوان الجيش لعرض العساكر ، وفى كتاب العربان . وأحضر مقدمو الحراسين بالخفار ، وتقدم اليها بأنه من تأخر عن العرض بعسقلان وقبض النفقة ، فلا واجب له ولا اقطاع .

وكتبت الكتب الى المستخدمين بالثغور الثلاثة ، الاسكندرية ودمياط وعسقلان ، باطلاق وابتياع ما يستدعى برسم الأسمطة على ثغر عسقلان للعساكر والعربان من الأصناف والغلال ، ووقع الاهتمام بنجاز أمر الرسل الواصلين

وكتبت الأجوبة عن كتبهم ، وجهز المال والخلع المذهبات ، والأطواق والسيوف والمناطق الذهب ، والخيل بالمراكب الحلى الثقال وغير ذلك من التجملات . وخلع على الرسل ، وأطلق لهم التغيير ، وسلمت اليهم الكتب والتذاكر ، وتوجهوا صحبه العسكر .

وركب الخليفة الآمر بأحكام الله الى باب الفتوح ، ونظر بالمنظرة ، واستدعى حسام الملك ، وخلع عليه بدلة جليلة مذهبة ، وطوقه بطوق ذهب ، وقلده ومنطقه بمثل ذلك .

ثم قال الوزير المأمون للأمراء بحيث يسمع الخليفة : هذا الأمير مقدمكم ومقدم العساكر كلها ، وما وعد به أنجزته ، وما قرره أمضيته . فقبلوا الأرض ، وخرجوا من بين يديه .

وسلم متولى بيت المال وخزائن الكسوة لحسام الملك الكتب بما ضمنته الصناديق من المال وأعدال الكسوات ، وحملت قدامه .

وفتحت طاقات المنظرة ، فلما شاهد العساكر الخليفة قبلوا الأرض ، فأشار اليهم بالتوجه ، فساروا بأجمعهم .

وركب الخليفة ، وتوجه الى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة ، واستدعى مقدم الأسطول وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدة .

منظرة الصناعة : وكان من جملة مناظر الخلفاء منظرة بالصناعة ، فى الساحل القديم من مصر ، يجلس بها الخليفة تارة حتى تقدم له العشاريات ، فيركبها ويسير للمقياس حتى يخلق بين يديه عند الوفاء . وكان بهذه الصناعة ديوان العمائر .

وأنشأ هذه المنظرة والصناعة التى هى فيها الوزير المأمون ، ولم تزل الى آخر الدولة ، ودهليزها ماد بمصاطب مفروشة بالحصر العبدانى بسطا وتأزيرا . وقد خربت هذه الصناعة والمنظرة ، وصار موضعهما الآن بستانا كان يعرف ببستان ابن كيسان ، ويعرف فى زمننا هذا الذى نحن فيه الآن ببستان الطواشى ، وهو بأول مراغة مصر تجاه غيط الجرف ، على يسرة من يسلك من المراغة يريد الكبارة وباب مصر .

قال ابن المأمون : وكانت جميع مراكب الأساطيل ما تنشأ الا بالصناعة التى بالجزيرة . فأنكر الوزير المأمون ذلك ، وأمر بأن يكون انشاء الشوانى وغيرها من المراكب النيلية الديوانية بالصناعة بمصر ، وأضاف اليها دار الزبيب ، وأنشأ المنظرة بها ، وهى باقية الى الآن عليها . وقصد بذلك أن يكون حلول الخليفة يوم تقدمه الأساطيل ورميه بالمنظرة المذكورة ، وأن يكون ما ينشأ من الحراريق والشلنديات فى الصناعة بالجزيرة .

قال : ولما وفى النيل ستة عشر ذراعا ، وركب الخليفة والوزير الى الصناعة بمصر ، ورميت العشاريات بين أيديهما ، ثم عديا فى احداها الى المقياس .

وقال ابن الطوير : الخدمة فى ديوان الجهاد — ويقال له ديوان العمائر — وكان محله بصناعة الانشاء بمصر للأسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والأحطاب وغيرها ،

(*) ص٤٨١ جـ١ ، ط.بولاق .

وكانت تزيد على خمسين عشاريا ، ويليها عشرون ديماسا * ، منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها . ولكل منها رئيس ونواتي لا يبرحون ينفق فيهم من مال هذا الديوان .

وبقية العشاريات الدواميس برسم ولاة الأعمال المميزة ، فهي تجر لهم ، وينفق في رؤسائها ورجالها إنما كانوا من مال هذا الديوان ، وتقيم مع أحدهم مدة مقامه ، فاذا صرف عاد فيه ، وخرج المتولى الجديد في العشارى المرسى بالصناعة ، ولا يخرج الا بتوقيع باطلاقه والانفاق فيه . وللمشارفين بالأعمال عشاريات دون هذه .

وفي هذا الديوان ، برسم خدمة ما يجرى في الأساطيل ، نائبان من قبل مقدم الأسطول . وفيه من الحواصل لعمارة المراكب شيء كثير . واذا لم يف ارتفاعه بما يحتاج اليه استدعى له من بيت المال ما يسد خلله .

قال : وكان من أهم أمورهم احتفالهم بالأساطيل والأجناد ، ومواصلة انشاء المراكب بمصر والاسكندرية ودمياط ، من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات ، الى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم ، مثل صور وعكا وعسقلان .

وكانت جريدة قواده أكثر من خمسة آلاف مدونة : منهم عشرة أعيان تصل جامكية كل منهم الى عشرين دينارا ، ثم الى خمسة عشر ، ثم الى عشرة دنانير ، ثم الى ثمانية ، ثم الى دينارين وهى أقلها . ولهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيه من النطرون ، فيصل دينارهم بالمناسبة الى نصف دينار وحواليه .

ويعين من هؤلاء القواد العشرة من يقع الاجماع عليه لرياسة الأسطول المتوجه للغزو ، فيكون معه الفانوس ، وكلهم يهتدون به ، ويقلعون باقلاعه ، ويرسون بارسائه . ويقدم على الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جنانا ، ويتولى النفقة فيهم للغزو الخليفة بنفسه بحضور الوزير .

فاذا أراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة — وكانت آخر وقت تزيد على خمسة وسبعين شينيا ، وعشر مسطحات ، وعشر حمالة — فيتقدم الى النقباء باحضار الرجال ، ويسمع بذلك من هو خارج مصر والقاهرة ، فيدخل اليها . ولهم المشاهرة والجرايات المتقررة مدة أيام السفر ، وهم معروفون عند عشرين نقيبا ، ولا يعترض أحد أحدا الا من رغب في ذلك من نفسه .

فاذا اجتمعت العدة المغلقة للمراكب المطلوبة ، أعلم المقدم بذلك الوزير ، فطالع الخليفة بالحال ، وفرز يوم للنفقة ، فحضر الوزير بالاستدعاء على العادة . فيجلس الخليفة على هيئته في مجلس ، ويجلس الوزير في مكانه ، ويحضر صاحبا ديوان الجيش وهما المستوفى ، وهو أميرهما ، ويجلس داخل عتبة المجلس — وهذه رتبة له مميزة — وكاتب الجيش الأصل ويجلس بجانبه تحت العتبة على حصر مفروشة بالقاعة . ولا يخلو المستوفى ان يكون عدلا ، أو من أعيان الكتاب المسلمين . وأما كاتب الجيش فيهودي في الأغلب .

(*) ص٤٨٢ جـ١ ، ط.بولاق .

ويفرش أمام المجلس أنطاع تصب عليها الدراهم ، ويحضر الوزانون ببيت المال بذلك . فاذا تهيأ الانفاق أدخل القابضون مائة مائة ، ويقفون في آخر الوقوف بين يدى الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة ، وتكون أسماؤهم قد رتبت في أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة .

ويستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق واحدا واحدا ، فاذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هو فيه الى الجانب الخالى ، فاذا تكمل عشرة رجال وزن الوزانون لهم النفقة — وكانت لكل واحد خمسة دنانير ، صرف كل دينار ستة وثلاثون درهما — فيتسلمها النقيب ، وتكتب بيده وباسمه ، وتمضى النفقة كذلك الى آخرها .

فاذا تم ذلك اليوم ، ركب الوزير من بين يدى الخليفة ، وانفض ذلك الجمع ، فيحمل من عند الخليفة مائدة يقال لها غداء الوزير ، وهى سبع مجيفات أوساط ، احداها بلحم دجاج وفستق والبقية من شواء ، وهى مكمورة بالأزهار ، فتكون هذه عدة أيام تارة متوالية وتارة متفرقة .

فاذا تكملت النفقة ، وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ، ركب الخليفة والوزير الى ساحل المقس .

وذكر ابن أبى طى أن المعز لدين الله أنشأ ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مدينة ، وعمل دار صناعة بالمقس .

« دار الملك » : وكان من جملة مناظرهم دار الملك بمصر ، وهى من انشاء الأفضل بن أمير الجيوش . ابتدأ فى بنائها وانشائها فى سنة احدى وخمسمائة ، فلما كملت تحول اليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها ، وحول اليها الدواوين من القصر فصارت بها ، وجعل فيها الأسمطة ، واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطايا كان يجلس فيه .

فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء ، وكان بها بستان عظيم ، وما زالت عظيمة الى أن انقرضت الدولة ، فجعلها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب دار متجر ، ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة . وموضع دار الملك ما وراء جبة الخروب بجوار المدرسة المعزية ، وبقى منها جدار يجلس تحته بياعو الحناء .

قال ابن المأمون : ومن جملة ما قرره القائد أبو عبد الله من تعظيم المملكة ، وتفخيم أمر السلطنة ، أن * المجلس الذى يجلس فيه الأفضل بدار الملك يسمى مجلس العطايا ، فقال القائد : مجلس يدعى بهذا الاسم ما يشاهد فيه دينار يدفع لمن يسأل !

وأمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس من كل لون اثنين ، وجعل فى سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار ، فى كل ظرف خمسة آلاف دينار سكب ، وبطاقة بوزنه وعدده وشرابة حرير كبيرة : من ذلك ستة ظروف دنانير بالسوية عن اليمين والشمال فى مجلس العطايا الذى برسم الجلوس ، وعند مرتبة الأفضل بقاعة اللؤلؤة ظرفان : أحدهما دنانير ، والآخر دراهم جدد .

(*) ص٤٨٣ جـ١ ، ط.بولاق .

فالذى فى اللؤلؤة برسم ما يستدعيه الأفضل اذا كان عند الحرم . وأما الذى فى مجلس العطايا فان جميع الشعراء لم يكن لهم فى الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعر جار . وانما كان لهم ، اذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أنشد منهم ، ما يسهله الله على حكم الجائزة . فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف . وكذلك من يتضرع ويسأل فى طلب صدقة أو ينعم عليه ابتداء بغير سؤال يخرج ذلك من الظروف . واذا انصرف الحاضرون نزل القائد المبلغ بخطه فى البطاقة ، ويكتب عليه الأفضل بخطه « صح » ، ويعاد الى الظرف ويختم عليه .

فلما استهل رجب من سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وجلس الأفضل فى مجلس العطايا على عادته ، وحضر الأجل المظفر أخوه للهناء وجلس بين يديه ، وشاهد الظروف والقائد وولده وأخوه قيام على رأسه ، وتقدمت الشعراء على طبقاتهم ... أمر لكل منهم بجائزة .

وشاع خبر الظروف ، وكثر القول فيها ، واستعظم أمرها ، وضوعف مبلغها واتسع هذا الانعام بالصدقات الجارى بها العادة فى مثل هذا الشهر لفقهاء مصر والرباطات بالقرافة وفقرائها .

وقال ابن الطوير ، وقد ذكر ركوب الخليفة فى أول العام وحضور الغرة : وينقطع الركوب بعد هذا اليوم الذى هو أول العام ، فيركبون فى آحاد الأيام الى أن يكمل شهر ، ولا يتعدى ذلك يومى السبت والثلاثاء .

فاذا عزم الخليفة على الركوب فى أحد هذه الأيام اعلم بذلك — وعلامته انفاق الأسلحة فى صبيان الركاب من خزانة السلاح خاصة دون ما سواها ، وأكثر ذلك الى مصر — ويركب الوزير صحبته من ورائه على أخصر من النظام المتقدم (يعنى فى ركوب أول العام) وأقل جمع فيخرج شاقا القاهرة وشوارعها على الجامع الطولونى على المشاهد الى درب الصفاء — ويقال له الشارع الأعظم — الى دار الأنماط الى الجامع العتيق .

فاذا وصل الى بابه ، وجد الشريف الخطيب قد وقف على مصطبة بجانبه فيها محراب ، مفروشة بحصر معلق عليها سجادة ، وفى يده المصحف المنسوب خطه الى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو من حاصله فاذا وازاه وقف فى موضعه ، وناوله المصحف من يده ، فيتسلمه منه ويقبله ويتبرك به مرارا ويعطيه صاحب الخريطة المرسومة للصلات ثلاثين دينارا ، وهى رسمه متى اجتاز به ، فيوصلها الشريف الى مشارف الجامع ، فيكون نصيبهما منها خمسة عشر دينارا ، والباقى للقومة والمؤذنين دون غيرهم .

ويسير الى أن يصل دار الملك ، فينزلها والوزير معه . ومنذ يخرج من باب القصر الى أن يصل الى دار الملك ، لا يمر بمسجد الا أعطى قيمه من الخريطة دينارا .

فلا يزال بدار الملك نهاره ، فتأتيه المائدة من القصر ، وعدتها خمسون شدة على رؤوس الفراشين مع صاحب المائدة — وهو أستاذ جليل غير محنك — وكل شدة فيها طيفور فيها الأوانى الخاص ، وفيها من الأطعمة

الخاص من كل نوع شهى وكل صنف من المطاعم العالية ، ولها رواء ورائحة المسك فائحة منها ، وعلى كل شدة طرحة حرير تعلو القوارة التى هى الشدة . فيحمل الى الوزير منها جزء وافر ، ولمن صحبه وللأمراء ولكافة الحاضرين فى الخدمة ، ويصل منها الى الناس بمصر من بعضهم بعضا شىء كثير .

ولا يزال الى أن يؤذن عليه بالعصر فيصلى ، ويتحرك الى العود الى القاهرة ، فيجلس فى طريقه لنظره ، فيركب

وزيه فى هذه الأيام أنه يلبس الثياب المذهبة البياض والملونة ، والمنديل من النسبة ، وهو مشدود شدة مفردة عن شدات الناس ، وذؤابته مرخاة من جانبه الأيسر ، ويتقلد بالسيف العربى المجوهر بلا حنك ولا مظلة ولا يتيمة ، لأن ذلك فى أوقات مخصوصه .

ولا يمر أيضا بمسجد فى سلوكه فى هذه الطريق بالساحل الا ويعطى قيمه دينارا أيضا كما جرى فى الرواح ، وينعطف من باب [illegible] ويدخل من باب زويلة شقا القاهرة حتى يدخل القصر ، فيكون ذلك من المحرم الى شهر رمضان اما أربع مرات أو خمس مرات .

ومن شعر الأسعد أسعد بن مهذب بن زكريا بن أبى مليح مما فى دار الملك هذه :

حللت بدار الملك والنيل آخذ ... بأطرافها والموج يوسعها ضربا

فخيلته قد غار لما وطئتها ... عليها فأضحى عند ذلك لها حربا

منازل العز *

بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز ، ولم يكن بمصر أحسن منه ، وكانت مطلة على النيل لا يحجبه شىء عن نظرها وما زال الخلفاء من بعد المعز يتداولونه ، وكانت معدة لنزههم ، وكان بجوارها حمام ، ولها منها باب ، وموضعها الآن مدرسة تعرف بالمدرسة التقوية منسوبة للملك المظفر تقى الدين عمرو ابن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى .

الهودج . وكان من متنزهاتهم العظيمة البناء ، العجيبة البديعة الزى ، بناء فى جزيرة الفسطاط — التى تعرف اليوم بالروضة — يقال له الهودج . بناه الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية التى غلب عليه حبها بجوار البستان المختار ، وكان يتردد اليه كثيرا ، وقتل وهو متوجه اليه ، وما زال متنزها للخلفاء من بعده .

قال ابن سعيد فى كتاب «المحلى بالأشعار» : قال القرطى فى تاريخه . تذاكر الناس فى حديث البدوية وابن مياح من بنى عمها ، وما يتعلق بذلك من ذكر الآمر ، حتى صارت رواياتهم فى هذا الشأن كأحاديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك .

والاختصار منه أن يقال ان الآمر كان قد بلى بعشق الجوارى العربيات ، وصارت له عيون بالبوادى . فبلغه أن جارية بالصعيد من أكمل العرب وأظرفهم شاعرة جميلة ، فيقال انه تزيا بزى بداة الأعراب ، وكان يجول فى

(*) ص٤٨٤ جـ١ ، ط.بولاق .

الأحياء الى أن انتهى الى حيها ، وبات هنالك فى ضافتة ، وتحيل حتى عاينها هنالك ، فما ملك صبره ، ورجع الى مقر ملكه ، وأرسل الى أهلها يخطبها وتزوجها .

فلما وصلت صعب عليها مفارقة ما اعتادته ، وأحبت أن تسرح طرفها فى الفضاء ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة . فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج ، وكان غريب الشكل ، على شط النيل .

وبقيت متعلقة الخاطر بابن عم لها ربيت معه يعرف بابن مياح ، فكتبت اليه من قصر الآمر :

يا ابن مياح اليك المشتكى
مالك من بعدكم قد ملكا

كنت فى حيى مطاعا آمرا
نائلا ما شئت منكم مدركا

فأنا الآن بقصر موصد
لا أرى الا حبيسا ممسكا

كم تثنينا كأغصان اللوا
حيث لا تخشى علينا دركا

فأجابها :

بنت عمى والتى غذيتها
بالهوى حتى علا واحتبكا

بحت بالشكوى وعندى ضعفها
لو غدا ينفع منا المشتكى

مالك الأمر اليه أشتكى
مالك وهو الذى قد ملكا

قال : وللناس فى طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول . وكان من عرب طى فى قصر الآمر طراد بن مهلهل النبهى ، فبلغته هذه القضية فقال :

الا بلغوا الآمر المصطفى
مقال طراد ونعم المقال

قطعت الأليفين عن ألفة
بها سمر الحى بين الرجال

كذا كان آباؤك الأكرمون
سألت فقل لى جواب السؤال

فقال الخليفة الآمر لما بلغته الأبيات : جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله .

وطلب فى أحياء العرب فلم يوجد ، فقالت العرب : ما أخسر صفقة طراد ، باع أبيات الحى بثلاثة أبيات !

وكان بالاسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد ، له مروءة عظيمة ، ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه أمداح كثيرة ... مدحه ظافر الحداد ، وأمية بن أبى الصلت وغيرهما .

وكان له بستان يتفرج فيه به جرن كبير من رخام ، وهو قطعة واحدة ، وينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره . وكان يجد فى نفسه برؤيته زيادة على أهل التنعم والمباهاة فى عصره .

فوشى به للبدوية محبوبة الآمر ، فسألت الخليفة الآمر فى حمل الجرن اليها ، فأرسل الى ابن حديد باحضار الجرن ، فلم يجد بدا

من حمله من البستان . فلما صار الى الآمر ، أمر بعمله فى الهودج .

فقلق ابن حديد ، وصارت فى قلبه حرارة من أخذ الجرن ، فأخذ يخدم البدوية ومن يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد فى الكثرة ، حتى قالت البدوية : هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ، ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا .

فلما قيل له هذا القول عنها قال : ما لى حاجة ، بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها فى عز ، غير رد الفسقية التى قلعت من دارى التى بنيتها * فى أيامهم من نعمتهم ، ترد الى مكانها .

فتعجبت من ذلك ، وردتها عليه ، فقيل له : حصلت فى حد أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب ، فنزلت همتك الى قطعة حجر !

فقال : أنا أعرف بنفسى ، ما كان لها أمل سوى ألا تغلب فى أخذ ذلك الحجر من مكانه ، وقد بلغها الله أملها .

وكان هذا المكين متولى قضاء الاسكندرية ونظرها فى أيام الآمر ، وبلغ من علو همته وعظم مروءته أن سلطان الملوك حيدرة ، أخا الوزير المأمون بن البطائحى ، لما قلده الآمر ولاية ثغر الاسكندرية فى سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وأضاف اليه الأعمال البحرية ، ووصل الى الثغر ، ووصف له الطبيب دهن شمع بحضور القاضى المذكور ، فأمر فى الحال بعض غلمانه بالمضى الى داره لاحضار دهن شمع .

(*) ص٤٨٥ جـ١ ، ط. بولاق .

فما كان أكثر من مسافة الطريق الا أن أحضر حقا مختوما ففك عنه ، فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاثة بيوت ، كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر : بيت دهن بمسك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب . ولم يكن فيه شىء مصنوع لوقته .

فعندما أحضره الرسول ، تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته . فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ فى شكر انعامه ، وحلف بالحرام ان عاد الى ملكه . فكان جواب المؤتمن : قد قبلته منك لا لحاجة اليه ، ولا لنظر فى قيمته ، بل لاظهار هذه الهمة واذاعتها . وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار .

فانظر — رحمك الله — الى من يكون دهن الشمع عنده فى اناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج اليه ألبتة ، فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات .

وهذا انما هو حال قاضى الاسكندرية ، ومن قاضى الاسكندرية بالنسبة الى أعيان الدولة بالحضرة ، وما نسبة أعيان الدولة — وان عظمت أحوالهم — الى أمر الخلافة وأبهتها الا يسير حقير .

وما زال الخليفة الآمر يتردد الى الهودج المذكور . الى أن ركب يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة يريد الهودج ، وقد كمن له عدة من النزارية فى فرن عند رأس الجسر من ناحية الروضة ، فوثبوا

عليه وأثخنوه بالجراحة حتى هلك ، وحمل فى العشارى الى اللؤلؤة فمات بها ، وقيل قبل أن يصل اليها .

وقد خرب هذا الهودج ، وجعل مكانه من الروضة ، ولله عاقبة الأمور .

قصر القرافة : وكان لهم بالقرافة قصر بنته السيدة تعريد أم العزيز بالله بن المعز فى سنة ست وستين وثلثمائة ، على يد الحسين بن عبد العزيز الفارسى المحتسب ، هو والحمام الذى فى غربيه ، وبنت البئر والبستان وجامع القرافة .

وكان هذا القصر نزهة من النزه من أحسن الآثار فى اتقان بنيانه وصحة أركانه ، وله منظرة مليحة كبيرة محمولة على قبو ماد تجوز المارة من تحته ، ويقيل المسافرون فى أيام القيظ هناك ، ويركب الراكب اليه على زلاقة . وكان كأحسن ما يكون من البناء ، وتحته حوض لسقى الدواب يوم الحلول فيه ، وكان مكانه بالقرب من مسجد الفتح .

ولما كان فى سنة عشرين وأربعمائة ، جدده الخليفة الآمر ، وعمل تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس فى الطاق بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية ، والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم ، والشموع الكثيرة تزهر ، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط ، ومدت لهم الأسمطة التى عليها كل نوع لذيذ وشهى من الأطعمة والحلوى أصنافا مصنفة .

فاتفق أن تواجد الشيخ أبو عبد الله بن الجوهرى الواعظ ، ومزق مرقعته ، وفرقت على العادة خرقا ، وسأل الشيخ أبو اسحاق ابراهيم — المعروف بالقارح المقرى — خرقة منها ووضعها فى رأسه . فلما فرغ التمزيق قال الخليفة الآمر بأحكام الله من طاق بالمنظرة : ياشيخ أبا اسحاق . قال : لبيك يامولانا . قال : أين خرقتى ! فقال مجيبا فى الحال : هاهى على رأسى ياأمير المؤمنين .

فاستحسن الآمر ذلك ، وأعجبه موقعه . فأمر فى الساعة والوقت من أحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية ، ففرقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ، ونثر عليهم متولى بيت المال من الطاق ألف دينار . فتخاطفها الحاضرون ، وتعاهد المغربلون الأرض التى هناك أياما لأخذ ما يواريه التراب

وما برح قصر الأندلس بالقرافة حتى زالت الدولة ، فهدم فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين وخمسمائة .

المنظرة ببركة الحبش : وكانت لهم منظرة تشرف على بركة الحبش .

قال الشريف أبو عبد الله محمد الجوانى فى كتاب « النقط على الخطط » : ان الخليفة الآمر بأحكام الله بنى على المنظرة التى يقال لها بئر دكة الخركة ، منظرة من خشب مدهونة ، فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحبش ، وصور فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر فى المدح وذكر الخركاة ، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب صورة * كل منهم رف لطيف مذهب .

(*) ص٤٨٦ جـ١ ، طـ بولاق

فلما دخل الآمر وقرأ الأشعار ، أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده . ففعلوا ذلك وأخذوا صررهم ، وكانوا عدة شعراء

البساتين : وكان للخلفاء عدة بساتين يتنزهون بها ، منها البساتين الجيوشية ، وهما بستانان كبيران : أحدهما من عند زقاق الكحل خارج باب الفتوح الى المطرية ، والآخر يمتد من خارج باب القنطرة الى الخندق . وكان لهما شأن عظيم

ومن شدة غرام الأفضل بالبستان الذى كان يجاور بستان البعل ، عمل له سورا مثل سور القاهرة ، وعمل فيه بحرا كبيرا وقبة عشارى تحمل ثمانية أرادب ، وبنى فى وسط البحر منظرة محمولة على أربع عواميد من أحسن الرخام ، وحفها بشجر النارنج ، فكان نارنجها لا يقطع حتى يتساقط ، وسلط على هذا البحر أربع سواق ، وجعل له معبرا من نحاس مخروط زنته قنطار ، وكان يملأ فى عدة أيام . وجلب اليه من الطيور المسموعة شيئا كثيرا ، واستخدم للحمام الذى كان به عدة مطيرين ، وعمر به أبراجا عدة للحمام والطيور المسموعة ، وسرح فيه كثيرا من الطاووس .

وكان البستانان اللذان على يسار الخارج من باب الفتوح بينهما بستان الخندق ، لكل منهما أربعة أبواب من الأربع جهات ، على كل منها عدة من الأرمن . وجميع الدهاليز مؤزرة بالحصر العبدانى ، وعلى أبوابها سلاسل كثيرة من حديد ، ولا يدخل منها الا السلطان وأولاده وأقاربه .

قال ابن عبد الظاهر : واتفقت جماعة على أن الذى يشتمل عليه مبيعهما فى السنة ، من زهر وثمر ، نيف وثلاثون ألف دينار ، وأنهما لا تقوم بمؤنهما على حكم اليقين لا الشك .

وكان الحاصل بالبستان الكبير والمحصن الى آخر الأيام الآمرية — وهى سنة أربع وعشرين وخمسمائة — ثمانمائة واحد عشر رأسا من البقر ، ومن الجمال مائة وثلاثة رؤوس ، ومن العمال وغيرهم ألف رجل .

وذكر أن الذى دار سور البستانين ، من سنط وجميز وأثل ، من أول حدهما الشرقى — وهو ركن بركة الأرمن — مع حدهما البحرى والغربى جميعا ، الى آخر زقاق الكحل ... فى هذه المسافة الطويلة سبعة عشر ألف ألف ومائتا شجرة ، وبقى قبليهما جميعا لم يحصن .

وأن السنط نغصن حتى لحق بالجميز فى العظم ، وأن معظم قرطه يسقط الى الطريق فيأخذه الناس ، وبعد ذلك يباع بأربعمائة دينار .

وكان به كل ثمرة لها دويرة مفردة ، وعليها سياج ، وفيها نخل منقوش فى ألواح عليها برسم الخاص لا تجنى الا بحضور المشارف ، وكان فيهما ليمون تفاحى يؤكل بقشره بغير سكر .

وأقام هذان البستانان بيد الورثة الجيوشية مع البلاد التى لهم ، مدة أيام الوزير المأمون ، لم تخرج عنهم . وكشف ذلك فى أيام الخليفة الحافظ ، فكان فيهما ستمائة رأس من البقر ،

وثمانون جملا . وقوّم ما عليهما من الأثل والجميز ، فكانت قيمته مائتى ألف دينار .

وطلب الأمير شرف الدين — وكانت له حرمة عظيمة — من الخليفة الحافظ قطع شجرة واحدة من سنط ، فأبى عليه ، فتشفع اليه وقومت بسبعين دينارا ، فرسم الخليفة ان كانت وسط البستان تقطع ، والا فلا .

ولما جرى فى آخر أيام الحافظ ما جرى من الخلف ، ذبحت أبقاره وجماله ، ونهب ما فيه من الآلات والأنقاض ، ولم يبق الا الجميز والسنط والأثل لعدم من يشتريه ... انتهى .

وكان هذان البستانان من جملة الحبس الجيوشى . وهو أن أمير الجيوش بدرا الجمالى حبس عدة بلاد وغيرها — منها فى البر الشرقى ناحية بهتيت والأميرية والمنية ، وفى البر الغربى ناحية سفط ونهيا ووسيم — مع هذين البستانين المذكورين ، على عقبه .

فاستأجر هذا الحبس الوزراء مدة سنين بأجرة يسيرة ، وصار يزرع فى الشرقى منه الكتان ، ومنه ما تبلغ قطيعته ثلاثة دنانير ونصفا وربعا عن كل فدان ، فيتناولون فيه ربحا جزيلا لأنفسهم .

فلما بعد العهد انقرضت أعقابه ، ولم يبق من ذريته سوى امرأة كبيرة . فأفتى الفقهاء بأن هذا الحبس باطل ، فصار للديوان السلطانى يتصرف فيه ، ويحمل متحصله مع أموال بيت المال .

وتلاشت البساتين ، وبنى فى أماكنها ما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وبنى العزيز بالله بستانا بناحية سردوس .

« قبة الهواء » : وكان من أحسن متنزهات الخلفاء الفاطميين قبة الهواء . وهى مستشرف بهج بديع فيما بين التاج والخمس وجوه ، يحيط به عدة بساتين لكل بستان منها اسم ، ولهذه القبة فرش معدة فى الشتاء والصيف ، ويركب اليها الخليفة فى أيام الركوبات التى هى يوم السبت والثلاثاء .

« بحر أبى المنجا » : وكان من متنزهات الخلفاء يوم فتح بحر أبى المنجا .

قال ابن المأمون : وكان الماء لا يصل الى الشرقية الا من السردوسى ومن الصماصم ومن المواضع البعيدة ، فكان أكثرها يشرق فى أكثر السنين . وكان أبو المنجا اليهودى مشارف الأعمال المذكورة ، فتضرر المزارعون اليه ، وسألوا فى فتح ترعة يصل الماء منها فى ابتدائه اليهم ، فابتدأ بحفر خليج أبى المنجا فى يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ست وخمسمائة .

وركب الأفضل بن أمير * الجيوش ضحى ، وصحبته القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحى وجميع اخوته والعساكر تحاذيه فى البر ، وجمعت شيوخ البلاد وأولادها ، وركبوا فى المراكب ومعهم حزم البوص فى البحر ، وصار العشارى والمراكب تتبعها الى أن رماها الموج الى الموضع الذى حفروا فيه البحر ، وأقام الحفر فيه سنتين ، وفى كل سنة تتبين الفائدة فيه ، وتتضاعف من ارتفاع البلاد ما يهوّن الغرامة عليه .

(*) ص٤٨٧ جـ١ ، ط. بولاق .

ولما عرض على الأفضل جملة ما أنفق فيه استعظمه ، وقال : غرمنا هذا المال جميعه والاسم لأبى المنجا . فغير اسمه ودعى بالبحر الأفضلى . فلم يتم ذلك ، ولم يعرف الا بأبى المنجا .

ثم جرى بين أبى المنجا وبين ابن أبى الليث صاحب الديوان ، بسبب الذى أنفق ، خطوب أدت الى اعتقال أبى المنجا عدة سنين ، ثم نفى الى الاسكندرية بعد أن كادت نفسه تتلف ، ولم يزل القائد أبو عبد الله بن فاتك يتلطف بحاله الى تضاعف من عبرة البلاد ما سهل أمر النفقة فيه .

ورأيت بخط ابن عبد الظاهر : وهذا أبو المنجا هو جد بنى صفير الحكماء اليهود ، والذين أسلموا منهم .

ولما طال اعتقال أبى المنجا فى الاسكندرية فى مكان بمفرده مضيقا عليه ، تحيل فى تحصيل مصحف وكتب ختمة ، وكتب فى آخرها « كتبها أبو المنجا اليهودى » ، وبعثها الى السوق ليبيعها .

فقامت قيامة أهل الثغر ، وطولع بأمره الى الخليفة ، فأخرج وقيل له : ما حملك على هذا ؟

فقال : طلب الخلاص بالقتل . فأدب ، وأطلق سبيله .

وقيل انه كان فى محبسه حية عظيمة ، فأحضر اليه فى بعض الأيام لبن ، فرأى الحية وقد شربت منه ودخلت حجرها ، فصار فى كل يوم يحضر لها لبنا ، فتخرج وتشرب منه وتدخل مكانها ولم تؤذه .

ولما ولى المأمون البطائحى وزارة الآمر بأحكام الله ، بعد الأفضل بن أمير الجيوش ؛ تحدث الآمر معه فى رؤية فتح هذا الخليج ، وأن يكون له يوم كخليج القاهرة . فندب الآمر معه عدى الملك أبا البركات بن عثمان وكيله ، وأمره بأن يبنى على مكان السد منظرة متسعة تكون من بحرى السد ، وشرع فى عمارتها بعد كمال النيل .

وما زال يوم فتح سد هذا البحر يوما مشهودا الى أن زالت الدولة الفاطمية . فلما استولى بنو أيوب من بعدهم على مملكة مصر أجروا الحال فيه على ما كان .

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمائة : وركب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لفتح بحر أبى المنجا وعاد .

قال : وفى سنة تسعين وخمسمائة ، كسر بحر أبى المنجا بعد أن تأخر كسره عن عيد الصليب بسبعة أيام ، وكان ذلك لقصور النيل فى هذه السنة ، ولم يباشر السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين بنفسه ، وركب أخوه شرف الدين يعقوب الطواشى لكسره .

وبدت فى هذا اليوم من مخايل القبوط ما يوجبه سوء الأفعال ، من المجاهرة بالمنكرات ، والاعلان بالفواحش . وقد أفرط هذا الأمر ، واشترك فيه الآمر والمأمور ، ولم ينسلخ شهر رمضان الا وقد شهد ما لم يشهده رمضان قبله فى الاسلام .

وبدا عقاب الله فى الماء الذى كانت المعاصى على ظهره . فان المراكب كان يركب فيها فى رمضان الرجال والنساء مختلطين مكشفات الوجوه ، وأيدى الرجال تنال منها ما تنال فى الخلوات ، والطبول والعيدان مرتفعات الأصوات والصنجات ، واستنابوا فى الليل عن الخمر بالماء والجلاب ظاهرا ، وقيل انهم شربوا الخمر مستورا ، وقربت المراكب بعضها من بعض ، وعجز المنكر عن الانكار الا بقلبه .

ورفع الأمر الى السلطان ، فندب حاجبه فى بعض الليالى ، ففرق منهم من وجده فى الحالة الحاضرة ، ثم عادوا بعد عوده . وذكر أنه وجد فى بعض المعادى خمرا فأراقه .

ولما استهل شوال ، وهو مطموع فيه ، تضاعف هذا المنكر ، وفشت هذه الفاحشة ونسأل الله العفو والعافية عن الكبائر ، والتجاوز عما تسقط فيه المعاذر .

وقال فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : كسر بحر أبى المنجا ، وباشر العزيز كسره ، وزاد النيل فيه أصبعا وهى الأصبع الثامنة عشرة من ثمانى عشر ذراعا . وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى .

وقد تلاشى فى زمننا أمر الاجتماع فى يوم فتح سد بحر أبى المنجا ، وقل الاحتفال به لشغل الناس بهمّ المعيشة .

« قصر الورد بالخاقانية » : وكان من أيام متنزهات الخلفاء يوم قصر الورد بناحية الخاقانية . وهى قرية من قرى قليوب كانت من خاص الخليفة ، وبها جنان كثيرة للخليفة ، وكانت من أحسن المتنزهات المصرية ، وكان بها عدة دويرات يزدرع فيها الورد . فيسير اليها الخليفه يوما ، ويصنع له فيها قصر عظيم من الورد ، ويخدم بضيافة عظيمة

قال ابن الطوير عن الخليفه الامر باحكام الله : وعمل له بالخاقانية — وكانت من خاص الخليفة — قصر من ورد ، فسار اليها يوما ، وخدم بضيافة عظيمة .

فلما استقر هناك خرج اليه أمير — يقال له حسام الملك — من الأمراء الذين كانو مع المؤتمن أخى المأمون البطائحى وتخاذلوا عنه ، فوصل الى الخاقانية وهو لابس لامة حربه * ، والتمس المثول بين يديه (يعنى الخليفة) .

فاستقل ما جاء به فى ذلك الوقت ، مما ينافى ما فيه الخليفة من الراحه والنزهه ، وحيل بينه وبين مقصوده ، فقال لجماعة من حواشى الخليفة : أنتم منافقون على الخليفة ، ان لم أصل اليه فانه يعاقبكم بذلك

فأطلعوا الخليفة على أمره وحليته بالسلاح وقوله ، فأمر باحضاره . فلما وقعت عينه عليه قال : يامولانا لمن تركت أعداءك (يعنى الوزير المأمون البطائحى وأخاه ، وكان الآمر قد قبض عليهما واعتقلهما) هذا والعهد قريب غير بعيد ، أأمنت الغدر ؟

فما أجابه الا وهو على الرهاويج من الخيل . فلم تمض ساعة الا وهو بالقصر ، فمضى الى مكان اعتقال المأمون وأخيه ، فزادهما وثاقا وحراسة .

وفى أثناء ذلك وصل ابن نجيب الدولة الذى كان سيره المأمون فى وزارته الى

(*) ص٤٨٨ جـ١ ، ط. بولاق .

اليمن ، لتحقيق نسبه أنه ولد من جارية نزار ابن المستنصر لما خرجت من القصر وهى به حامل ، ويدعو اليه بقية الناس . وأحضر الى القاهرة على جمل مشوه ، فأدخل خزانة البنود ، وقتل هو والمأمون وجماعة فى تلك الليلة ، وصلبوا ظاهر القاهرة .

« بركة الجب » : بظاهر القاهرة من بحريها ، وتسميها العامة فى زمننا هذا الذى نحن فيه بركة الحاج ، لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة الى الحج فى كل سنة ، ونزولهم عند العود بها ، ومنها يدخلون الى القاهرة .

ومن الناس من يقول : جب يوسف . وهو خطأ ، وانما هى أرض جب عميرة . وعميرة هذا هو ابن تميم بن جزء التجيبى من بنى القرناء ، نسبت هذه الأرض اليه . فقيل لها أرض جب عميرة ... ذكره ابن يونس .

وكان من عادة الخليفة المستنصر بالله ، أبى تميم معد بن الظاهر بن الحاكم ، فى كل سنة أن يركب على النجيب مع النساء والحشم الى جب عميرة هذا — وهو موضع نزهة — بهيئة أنه خارج الى الحج على سبيل اللعب والمجانة ، وربما حمل معه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء ، ويسقيه من معه .

وأنشده مرة الشريف أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة العقيلى فى يوم عرفة :

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء
ولا تضح ضحى الا بصهباء
وادرك حجيج الندامى قبل نفرهم
الى منى قصفهم مع كل هيفاء
وعج على مكة الروحاء مبتكرا
فطف بها حول ركن العود والنائى

قال ابن دحية : فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق ، فأقام بها سوق الفسوق على ساق . وفى ذلك العام أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين ، حتى بيع فى أيامه الرغيف بالثمن الثمين ، وعاد ماء النيل بعد عذوبته كالغسلين ، ولم يبق بشاطئيه أحد بعد أن كانا محفوفين بحور عين .

وقال ابن ميسر : فلما كان فى جمادى الآخرة من سنه أربع وخمسين وأربعمائة ، خرج المستنصر على عادته الى بركة الجب ، فاتفق أن بعض الأتراك جرد سيفا فى سكر منه على بعض عبيد الشراء ، فاجتمع عليه طائفة من العبيد وقتلوه .

فاجتمع الأتراك بالمستنصر ، وقالوا : ان كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة ، وان كان عن غير رضاك فلا نرضى بذلك .

فأنكر المستنصر ما وقع ، وتبرأ مما فعله العبيد . فتجمع الأتراك لحرب العبيد ، وبرز بعضهم الى بعض . وكان بين الفريقين قتال شديد على كوم شريك انهزم فيه العبيد ، وقتل منهم عدد كبير .

وكانت أم المستنصر تعين العبيد ، وتمدهم بالأموال والأسلحة . فاتفق فى بعض الأيام أن بعض الأتراك ظفر بشىء مما تبعث به أم المستنصر الى العبيد ، فأعلم بذلك أصحابه — وقد قويت شوكتهم بانهزام العبيد —

فاجتمعوا بأسرهم ، ودخلوا على المستنصر ، وخاطبوه فى ذلك ، وأغلظوا فى القول ، وجهروا بما لا ينبغى . وصار السيف قائما ، والحروب متتابعة ، الى أن كان من خراب مصر بالغلاء والفتن ما كان . وكان من قبل المستنصر يترددون الى بركة الجب .

قال المسبحى : ولاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، عرض العزيز بالله عساكره بظاهر القاهرة عند سطح الجب ، فنصب له مضرب ديباج رومى فيه ألف ثوب بصفرية فضة ، ونصبت له فازة مثقل وقبة مثقل بالجوهر ، وضرب لابنه الأمير أبى على منصور مضرب آخر .

وعرضت العساكر ، وكان عدتها مائة عسكرى ، وأقبلت أسارى الروم وعدتهم مائتان وخمسون ، فطيف بهم . وكان يوما عظيما حسنا لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار الى صلاة المغرب .

وما زالت بركة الجب متنزها للخلفاء والملوك من بنى أيوب . وكان السلطان صلاح الدين يبرز اليها للصيد ، ويقيم فيها الأيام ، وفعل ذلك الملوك من بعده . واعتنى بها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وبنى بها أحواشا وميدانا كما سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وبركة الجب وما يليها فى درك بنى صبرة . وهم ينسبون الى صبرة * بن بطيح بن مغالة ابن دعجان بن عنب بن الكليب بن أبى عمرو ابن دمية بن جدس بن أريش بن أراش بن جزيلة بن لخم . فهم أحد بطون لخم ، وفيهم بنو جذام بن صبرة بن بصرة بن غنم بن غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام أخى لخم .

« المشتهى » : وكان من مواضعهم التى أعدت للنزهة المشتهى .

ذكر الأيام التى كان الخلفاء الفاطميون يتخذونها أعيادا ومواسم تتسع بها احوال الرعيه وتكثر نعمهم

وكان للخلفاء الفاطميين فى طول السنة أعياد ومواسم ، وهى : موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين عليهما السلام ، ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان ، وغرة رمضان ، وسماط رمضان ، وليلة الختم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد النحر ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ، ويوم النوروز ، ويوم الغطاس ، ويوم الميلاد ، وخميس العدس ، وأيام الركوبات .

موسم رأس السنة : وكان للخلفاء الفاطميين اعتناء بليلة أول المحرم فى كل عام لأنها أول ليالى السنة وابتداء أوقاتها . وكان من رسومهم فى ليلة رأس السنة أن يعمل بمطبخ القصر عدة كثيرة من الخراف المقموم ،

(*) ص٨٩ جـ١ ، ط. بولاق .

والكثير من الرؤوس المقموم ، وتفرق على جميع أرباب الرتب وأصحاب الدواوين من العوالى والأدوان أرباب السيوف والأقلام ، مع جفان اللبن والخبز وأنواع الحلواء . فيعم ذلك سائر الناس من خاص الخليفة وجهاته والأستاذين المحنكين الى أرباب الضوء وهم المشاعلية ، وينتقل ذلك فى أيدى أهل القاهرة ومصر .

موسم أول العام : وكان لهم بأول العام عناية كبيرة . فيه يركب الخليفة بزيه المفخم وهيئته العظيمة كما تقدم ، ويفرق فيه دنانير الغرة التى مر ذكرها عند ذكر دار الضرب ، ويفرق من السماط الذى يعمل بالقصر ، لأعيان أرباب الخدم من أرباب السيوف والأقلام ، بتقرير مرتب : خرفان شواء ، وزبادى طعام ، وجامات حلواء وخبز ، وقطع منفوخة من سكر ، وأرز بلبن وسكر . فيتناول الناس من ذلك ما يجل وصفه ، ويتبسطون بما يصل اليهم من دنانير الغرة من رسوم الركوب كما شرح فيما تقدم .

يوم عاشوراء : كانوا يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق ، ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن . وقد ذكر عند ذكر المشهد الحسينى فانظره . وكان يصل الى الناس منه شىء كثير .

فلما زالت الدولة ، اتخذ الملوك من بنى أيوب يوم عاشوراء يوم سرور ، يوسعون فيه على عيالهم ، ويتبسطون فى المطاعم ، ويصنعون الحلاوات ، ويتخذون الأوانى الجديدة ، ويكتحلون ويدخلون الحمام ، جريا على عادة أهل الشام التى سنها لهم الحجاج فى أيام عبد الملك بن مروان ، ليرغموا بذلك آناف شيعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن فيه على الحسين بن على لأنه قتل فيه . وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسط . وكلا الفعلين غير جيد ، والصواب ترك ذلك والاقتداء بفعل السلف فقط .

وما أحسن قول أبى الحسين الجزار الشاعر يخاطب الشريف شهاب الدين ناظر الأهراء ، وكتب بها اليه ليلة عاشوراء عندما أخر عنه ما كان من جاريه فى الأهراء :

قل لشهاب الدين ذى الفضل الندى
والسيد بن السيد بن السيد
أقسم بالفرد العلى الصمد
ان لم يبادر لنجاز موعدى
لأحضرن للهناء فى غد
مكحل العينين مخضوب اليد

يعرض للشريف بما يرمى به الأشراف من التشيع ، وأنه اذا جاءه بهيئة السرور فى يوم عاشوراء غاظه ذلك ، لأنه من أفعال الغضب . وهو من أحسن ما سمعته فى التعريض فلله دره .

عيد النصر : وهو السادس عشر من المحرم . عمله الخليفة الحافظ لدين الله لأنه اليوم الذى ظهر فيه من محبسه ، ويفعل فيه ما يفعل فى الأعياد من الخطبة والصلاة والزينة والتوسعة فى النفقة .

وكتب فيه أبو القاسم على بن الصيرفى الى بعض الخطباء : « عيد النصر ، وهو أفضل الأعياد وأسناها وأعلاها ، وأدلها على تقصير الواصف * اذا بلغ وتناهى . ونحن نأمرك أن تبرز فى يوم الأحد السادس عشر من المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة على الهيئة التى جرت العادة بمثلها فى الأعياد ، وتوعد بأن تقرأ على الناس الخطبة التى سيرناها اليك قرين هذا الأمر بشرح هذا اليوم وتفصيله ، وذكر ما خصه الله به من تشريفه وتفضيله ، وتعتمد فى ذلك ما جرى الرسم فيه فى كل عيد ، وتنتهى فيه الى الغاية التى ليس عليها مزيد . فاعلم هذا واعمل به ان شاء الله تعالى » .

الموالد الستة : كانت مواسم جليلة يعمل الناس فيها ميزات من ذهب وفضة وخشكنانج وحلواء كما مر ذلك .

ليالى الوقود الأربع : كانت من أبهج الليالى وأحسنها . يحشر الناس لمشاهدتها من كل أوب ، وتصل الى الناس فيها أنواع من البر ، وتعظم فيها ميزة أهل الجوامع والمشاهد . فانظره فى موضعه تجده .

موسم شهر رمضان : وكان لهم فى شهر رمضان عدة أنواع من البر ، منها كشف المساجد .

قال الشريف الجوانى فى كتاب «النقط» : كان القضاة بمصر اذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام ، طافوا يوما على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر ، فيبدأون بجامع المقس ، ثم بجوامع القاهرة ، ثم بالمشاهد ، ثم بالقرافة ، ثم بجامع مصر ، ثم بمشهد الرأس ... لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وازالة شعثه . وكان أكثر الناس ، ممن يلوذ بباب الحكم والشهود والطفيليون ، يتعينون لذلك اليوم والطواف مع القاضى لحضور السماط .

ابطال المسكرات : قال ابن المأمون : وكانت العادة جارية من الأيام الأفضلية ، فى آخر جمادى الآخرة من كل سنة ، أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم ، ويحذر من بيع الخمر . فرأى الوزير المأمون لما ولى الوزارة بعد الأفضل بن أمير الجيوش أن يكون ذلك فى سائر أعمال الدولة . فكتب به الى جميع ولاة الأعمال ، وأن ينادى بانه من تعرض لبيع شىء من المسكرات أو لشرائها سرا أو جهرا ، فقد عرض نفسه لتلافها ، وبرئت الذمة من هلاكها .

ومنها غرة رمضان : وكان فى أول يوم من شهر رمضان يرسل لجميع الأمراء ، وغيرهم من أرباب الرتب والخدم ، لكل واحد طبق ، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق ، فيه حلواء وبوسطه صرة من ذهب . فيعم ذلك سائر أهل الدولة ، ويقال لذلك غرة رمضان .

ومنها ركوب الخليفة فى أول شهر رمضان : قال ابن الطوير : فاذا انقضى شعبان ، اهتم بركوب أول شهر رمضان — وهو يقوم مقام الرؤية عند المتشيعين — فيجرى أمره فى اللباس والآلات والأسلحة والعرض والركوب والترتيب والموكب والطريق المسلوكة ، كما وصفناه فى أول العام ، لا يختل بوجه . ويكتب الى الولاة والنواب والأعمال بمساطير مخلقة يذكر فيها ركوب الخليفة .

(*) ص٤٩٠ جـ١ ، ط. بولاق .

ومنها سماط شهر رمضان : وقد تقدم ذكر السماط فى قاعة الذهب من القصر

سحور الخليفة : قال ابن المأمون — وقد ذكر أسمطة رمضان ، وجلوس الخليفة بعد ذلك فى الروشن الى وقت السحور ، والمقرئون تحته يتلون عشرا ويطربون بحيث يشاهدهم الخليفة — ثم حضر بعدهم المؤذنون ، وأخذوا فى التكبير وذكر فضائل السحور ، وختموا بالدعاء ، وقدمت المخاد للوعاظ ، فذكروا فضائل الشهر ومدح الخليفة والصوفيات ، وقام كل من الجماعة للرقص .

ولم يزالوا الى أن انقضى من الليل أكثر من نصفه ، فحضر بين يدى الخليفة أستاذ بما أنعم به عليهم وعلى الفراشين ، وأحضرت جفان القطائف وجرار الجلاب برسمهم ، فأكلوا وملأوا أكمامهم ، وفضل عنهم ما تخطفه الفراشون .

ثم جلس الخليفة فى السدلا التى كان بها عند الفطور ، وبين يديه المائدة معبأة جميعها من جميع الحيوان وغيره ، والقعبة الكبيرة الخاص مملوءة أوساطه بالهمة المعروفة ، وحضر الجلساء واستعمل كل منهم ما اقتدر عليه ، وأومأ الخليفة بأن يستعمل من القعبة فيفرق الفراشون عليهم أجمعين وكل من تناول شيئا قام وقبل الأرض ، وأخذ منه على سبيل البركة لأولاده وأهله — لأن ذلك كان مستفاضا عندهم غير معيب على فاعله — ثم قدمت الصحون الصينى مملوءة قطائف ، فأخذ منها الجماعة الكفاية .

وقام الخليفة وجلس بالباذهنج ، وبين يديه السحورات المطيبات من لبنين رطب ومخض ، وعدة أنواع عصارات وافطلوات ، وسويق ناعم وجريش ... جميع ذلك بقلويات وموز ، ثم يكون بين يديه صينية ذهب مملوءة سفوفا . وحضر الجلساء ، وأخذ كل منهم فى تقبيل الأرض والسؤال بما ينعم عليه منه . فتناوله المستخدمون والأستاذون * وفرقوه ، فأخذه القوم فى أكمامهم ، ثم سلم الجميع وانصرفوا

ومنها الختم فى آخر رمضان : وكان يعمل فى التاسع والعشرين منه ... قال ابن المأمون : ولما كان التاسع والعشرين من شهر رمضان ، خرج الأمر بأضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة برسم السحور ، بحكم انها ليلة ختم الشهر .

وحضر الأجل الوزير المأمون فى آخر النهار الى القصر للفطور مع الخليفة والحضور على الأسمطة على العادة ، وحضر اخوته وعمومته وجميع الجلساء ، وحضر المقرئون والمؤذنون وسلموا على عادتهم ، وجلسوا تحت الروشن .

وحمل من عند معظم الجهات والسيدات والمميزات من أهل القصور ثلاجى وموكبيات مملوءة ماء ملفوفة فى عراضى ديبقى ، وجعلها امام المذكورين لتشملها بركة ختم القرآن الكريم ، واستفتح المقرئون من الحمد الى خاتمة القرآن تلاوة وتطريبا .

ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع ، ودعا فأبلغ ، ورفع الفراشون ما أعدوه برسم الجهات ، ثم كبر المؤذنون وهللوا ، وأخذوا

(*) ص٤٩١ جـ١ ، ط. بولاق .

فى الصوفيات الى أن نثر عليهم من الروشن دنانير ودراهم ورباعيات ، وقدمت جفان القطائف على الرسم مع البنود والحلواء ، فجروا على عادتهم وملأوا أكمامهم

ثم خرج أستاذ من باب الدار الجديدة بخلع خلعها على الخطيب وغيره ، ودراهم تفرق على الطائفتين من المقرئين والمؤذنين .

ذكر مذاهبهم فى اول الشهور

اعلم أن القوم كانوا شيعة ، ثم غلوا حتى عدوا من غلاة أهل الرفض . وللشيعة فى أثناء الشهور عمل أحسن ما رأيت فيه ما حكاه أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » قال [1] :

وفى سنين من الهجرة نجمت ناجمة لأجل أخذهم بالتأويل الى اليهود والنصارى ، فاذا لهم جداول وحسبانات يستخرجون بها شهورهم ، ويعرفون منها صيامهم — والمسلمون مضطرون الى رؤية الهلال ، وتفقد ما اكتساه القمر من النور — وجدوهم شاكين فى ذلك ، مختلفين فيه ، مقلدين بعضهم بعضا فى عمل رؤية الهلال بطريق الزيجات .

فرجعوا الى أصحاب علم الهيئة ، فألفوا زيجاتهم مفتتحة بمعرفة أوائل ما يراد من شهور العرب بصنوف الحسبانات ، فظنوا أنها معمولة لرؤية الأهلة ، فأخذوا بعضها

(1) قوله « وفى سنين ... الخ » . هكذا هذه العبارة موجودة فى جميع النسخ التى بيدى . ولا يخفى ما فيها من الركاكة والسقامة . فلتحرر بمراجعة أصلها . اهـ . مصححه .

ونسبوه الى جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام ، وزعموا أنه سر من أسرار النبوة .

وتلك الحسبانات مبنية على حركات التدبير الوسطى دون المعدلة ، أو معمولة على سنة القمر التى هى ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس يوم وسدس يوم ، وأن ستة أشهر من السنة تامة ، وستة أشهر ناقصة ، وأن كل ناقص منها فهو تال لتام .

فلما قصدوا استخراج الصوم والفطر بها ، خرجت قبل الواجب بيوم فى أغلب الأحوال ، فأولوا قوله عليه السلام « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » وقالوا : معنى صوموا لرؤيته ، أى صوموا اليوم الذى يرى فى عشيته ، كما يقال تهيأوا لاستقباله ، فيقدم التهيؤ على الاستقبال .

قال : ورمضان لا ينقص عن ثلاثين يوما أبدا .

قافلة الحاج : قال فى كتاب « الذخائر والتحف » : ان المنفق على الموسم كان فى كل سنة تسافر فيها القافلة مائة ألف وعشرين ألف دينار : منها ثمن الطيب والحلواء والشمع راتبا فى كل سنة عشرة آلاف دينار ، ومنها نفقة الوفد الواصلين الى الحضرة أربعون ألف دينار ، ومنها فى ثمن الحمايات والصدقات وأجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون ألف دينار . وان النفقة كانت فى أيام الوزير البازورى قد زادت فى كل سنة ، وبلغت الى مائتى ألف دينار ، ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك فى دولة من الدول .

موسم عيد الفطر : وكان لهم فى موسم عيد الفطر عدة وجوه من الخيرات : منها تفرقة الفطرة ، وتفرقة الكسوة ، وعمل السماط ، وركوب الخليفة لصلاة العيد . وقد تقدم ذكر ذلك كله فيما سبق .

عيد النحر : فيه تفرقة الرسوم من الذهب والفضة ، وتفرقة الكسوة لأرباب الخدم من أهل السيف والقلم ، وفيه ركوب الخليفة لصلاة العيد ، وفيه تفرقة الأضاحى ... كما مر ذلك مبينا فى موضعه من هذا الكتاب .

عيد الغدير : فيه تزويج الأيامى ، وفيه الكسوة وتفرقة الهبات لكبراء الدولة ورؤسائها وشيوخها وأمرائها وضيوفها والأستاذين المحنكين والمميزين ، وفيه النحر أيضا وتفرقة النحائر على أرباب الرسوم ، وعتق * الرقاب وغير ذلك ... كما سبق بيانه فيما تقدم .

كسوة الشتاء والصيف : وكان لهم فى كل من فصلى الشتاء والصيف كسوة تفرق على أهل الدولة وعلى أولادهم ونسائهم . وقد مر ذكر ذلك .

موسم فتح الخليج : وكانت لهم فى موسم فتح الخليج وجوه من البر : منها الركوب لتخليق المقياس ، ومبيت القراء بجامع المقياس ، وتشريف ابن أبى الرداد بالخلع وغيرها ، وركوب الخليفة الى فتح الخليج ، وتفرقة الرسوم على أرباب الدولة من الكسوة والعين والمآكل والتحف . وقد تقدم تفصيل ذلك .

(*) ص٤٩٢ جـ١ ، طـ بولاق .

ذكر النوروز

وكان النوروز القبطى فى أيامهم من جملة المواسم . فتتعطل فيه الأسواق ، ويقل فيه سعى الناس فى الطرقات ، وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم والرسوم من المال وحوائج النوروز .

قال ابن زولاق : وفى هذه السنة (يعنى سنة ثلاث وستين وثلثمائة) منع المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النوروز فى السكك ، ومن صب الماء يوم النوروز .

وقال فى سنة أربع وستين وثلثمائة : وفى يوم النوروز زاد اللعب بالماء ووقود النيران ، وطاف أهل الأسواق ، وعملوا فيلة وخرجوا الى القاهرة بلعبهم ، ولعبوا ثلاثة أيام ، وأظهروا السماجات والحلى فى الأسواق . ثم أمر المعز بالنداء بالكف ، وألا توقد نار ولا يصب ماء . وأخذ قوم فحبسوا ، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال .

وقال ابن ميسر فى حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة : وفيها أراد الآمر بأحكام الله أن يحضر الى دار الملك فى النوروز الكائن فى جمادى الآخرة فى المراكب ، على ما كان عليه الأفضل بن أمير الجيوش ، فأعاد المأمون عليه أنه لا يمكن ، فان الأفضل لا يجرى مجراه مجرى الخليفة ، وحمل اليه من الثياب الفاخرة برسم النوروز للجهات ما له قيمة جليلة .

وقال ابن المأمون : وحل موسم النوروز فى التاسع من رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة ، ووصلت الكسوة المختصة به من الطراز وثغر

الإسكندرية ، مع ما يحتاج من القلب المذهبة والترزى والسواسع ، وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق ، وجميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها وأسماء أربابها .

وأصناف النوروز : البطيخ ، والرمان ، وعناقيد الموز ، وأفراد البسر ، وأقفاص التمر القوصى ، وأقفاص السفرجل ، وبكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن ولحم البقر ، من كل لون بكلة مع خبز برماق .

قال : واستقر كاتب الدفتر الإنيالات بما جرت به العادة من إطلاق العين والورق والكسوات على اختلافها في يوم النوروز ، وغير ذلك من جميع الأصناف ، وهو أربعة آلاف دينار وخمسة عشر ألف درهم فضة ، والكسوات عدة كثيرة من شقق ديبقى مذهبات وحريرات ومعاجر وعصائب مشاومات ملونات وشقق لاذ مذهب وحريرى المستفع ، وفوط ديبقى حريرى .

فأما العين والورق والكسوات ، فذلك لا يخرج عن محوزه القصور ودار الوزارة والشيوخ والأصحاب والحواشى والمستخدمين ورؤساء الشارات وبحارتها ، ولم يكن لأحد من الأمراء على اختلاف درجاتهم فى ذلك نصيب .

وأما الأصناف من البطيخ والرمان والبسر والتمر والسفرجل والعناب والهرائس على اختلافها ، فيشمل ذلك جميع من تقدم ذكرهم ، ويشركهم فى ذلك جميع الأمراء أرباب الأطواق والأصناف وسائر الأماثل ، وقد تقدم شرح ذلك ، لوقع الوزير للأمون على جميع ذلك بالإنفاق .

وقال القاضى الفاضل فى تعليق المتجددات لسنة أربع وثمانين وخمسمائة : يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطى ، وهو مستهل توت — وتوت أول سنتهم — وقد كان بمصر فى الأيام الماضية والدولة الخالية (يعنى دولة الخلفاء الفاطميين) من مواسم بطالاتهم ، ومواقيت ضلالاتهم . فكانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة فى يومه .

ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ومعه جمع كثير ، ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه على دور الأكابر بالجمل الكبار ، ويكتب مناشير ، ويندب مترسمين .. كل ذلك يخرج مخرج الطير ، ويقنع بالميسور من الهبات .

ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة ، وبأيديهم الملاهى ، وترتفع الأصوات ، ويشرب الخمر والمزر شربا ظاهرا بينهم وفى الطرقات ، ويتراش الناس بالماء ، وبالماء والخمر ، وبالماء ممزوجا بالأقذار .

فإن غلط مستور وخرج من داره ، لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ، ويستخف بحرمته ، فإما فدى نفسه وإما فضح . ولم يجر * الحال فى هذا النوروز على هذا ، ولكن قد رش الماء فى الحارات ، وأحيا المنكر فى الدور أرباب الخسارات .

---

(١) ص ٤٩٢ جـ١ ، ط بولاق .

« تصدره دار التحرير للطبع والنشر »

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقىّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خُطَطُ المقريزى

الجزء ٢٤

كتاب التحرير



«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وقال فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : وجرى الأمر فى النوروز على العادة من رش الماء ، واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع ، وانقطع الناس عن التصرف ، ومن ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة وخرق به .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : ان أول من اتخذ النوروز جمشيد — ويقال فى اسمه أيضا جمشاد — أحد ملوك الفرس الأول . ومعناه اليوم الجديد . وللفرس فيه آراء وأعمال على مصطلحهم ، غير أنه فى غير هذا اليوم .

وقد صنف على بن حميرة الأصفهانى كتابا مفيدا فى أعياد الفرس .

وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر ، من طريق حماد بن سلمة ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة قال : كان اليوم الذى رد الله فيه الى سليمان بن داود خاتمه يوم النوروز ، فجاءت اليه الشياطين بالتحف ، وكانت تحفة الخطاطيف أن جاءت بالماء فى مناقيرها فرشته بين يدى سليمان . فاتخذ الناس رش الماء من ذلك اليوم .

وعن مقاتل بن سليمان قال : سمى ذلك اليوم نيروزا ، وذلك أنه وافق هذا اليوم الذى يسمونه النيروز ، فكانت الملوك تتيمن بذلك اليوم ، واتخذوه عيدا ، وكانوا يرشون الماء فى ذلك اليوم ويهدون كفعل الخطاف ، ويتيمنون بذلك .

ولله در القائل :

كيف ابتهاجك بالنوروز ياسكنى
وكل ما فيه يحكينى وأحكيه

فناره كلهيب النار فى كبدى
وماؤه كتوالى دمعتى فيه

وقال آخر :

نوروز الناس ونوروز ت ولكن بدموعى
وذكت نارهم والنار ما بين ضلوعى

وقال غيره :

ولما أتى النوروز ياغاية المنى
وأنت على الاعراض والهجر والصد

بعثت بنار الشوق ليلا الى الحشى
فنورزت صبحا بالدموع على الخد

الميلاد : وهو اليوم الذى ولد فيه عبد الله ورسوله المسيح عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم . والنصارى تتخذ ليلة يوم الميلاد عيدا ، وتعمله قبط مصر فى التاسع والعشرين من كيهك . وما برح لأهل مصر به اعتناء .

وكان من رسوم الدولة الفاطمية فيه تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية ، والمتارد التى فيها السمك ، وقرابات الجلاب وطيافير الزلابية والبورى . فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف والأقلام ، بتقرير معلوم على ما ذكره ابن المأمون فى تاريخه .

الغطاس : ومن مواسم النصارى بمصر عمل الغطاس فى اليوم الحادى عشر من طوبة .

قال المسعودى فى « مروج الذهب » : ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها ، وهى ليلة أحدى عشرة من طوبة .

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر ، والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختار فى الجزيرة الراكبة على النيل ، والنيل مطيف بها . وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع .

وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو ألوف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط . لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف .

وهى أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سرورا ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثرهم فى النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة للداء .

وقال المسبحى فى سنة ثمان وثمانين وثلثمائة : كان غطاس النصارى ، فضربت الخيام والمضارب والأشرعة فى عدة مواضع على شاطىء النيل ، فنصبت أسرة للرئيس فهد ابن ابراهيم النصرانى كاتب الأستاذ برجوان ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وحضر المغنون والملهون ، وجلس مع أهله يشرب الى أن كان وقت الغطاس ، فغطس وانصرف .

وقال فى سنة خمس عشرة وأربعمائة : وفى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة ، كان غطاس النصارى ، فجرى الرسم من الناس فى شراء الفواكه والضأن وغيره ، ونزل أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم لقصر جده العزيز بالله بمصر ، لنظر الغطاس ومعه الحرم .

ونودى ألا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم الى البحر فى الليل ، وضرب بدر الدولة الخادم الأسود ، متولى الشرطتين ، خيمة عند الجسر * وجلس فيها .

وأمر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بأن توقد المشاعل والنار فى الليل ، فكان وقيدا كثيرا ، وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران ، فقسوا هناك طويلا الى أن غطسوا .

وقال ابن المأمون: انه كان من رسوم الدولة أنه يفرق على سائر أهل الدولة الترنج والنارنج والليمون المراكبى ، وأطنان القصب والسمك والبورى ، برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام .

خميس العهد : ويسميه أهل مصر من العامة خميس العدس ، ويعمله نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام ، ويتهادون فيه . وكان من جملة رسوم الدولة الفاطمية فى خميس العدس ضرب خمسمائة دينار ذهبا عشرة آلاف خروبة ، وتفرقتها على جميع أرباب الرسوم كما تقدم .

أيام الركوبات : وكان الخليفة يركب فى كل يوم سبت وثلاثاء الى متنزهاته بالبساتين والتاج وقبة الهواء والخمس وجوه وبستان البعل ودار الملك ومنازل العز والروضة ، فيعم الناس فى هذه الأيام من الصدقات أنواع ما بين ذهب ومآكل وأشربة وحلاوات ، وغير

(*) ص٤٩٦ جـ١ ، ط.بولاق .

ذلك كما تقدم بيانه فى موضعه من هذا الكتاب .

صلاة الجمعة : وكان الخليفة يركب فى كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس : فى جامع القاهرة الذى يعرف بالجامع الأزهر مرة ، وفى جامع الخطبة المعروف بالجامع الحاكمى مرة ، وفى جامع عمرو بن العاص بمصر أخرى . فينال الناس منه فى هذه الجمع الثلاث رسوم وهبات وصدقات ، كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى عند ذكر الجامع الأزهر .

ولله در الفقيه عمارة اليمنى ، فقد ضمن مرثيته أهل القصر جملا مما ذكر . وهى القصيدة التى قال ابن سعد فيها : « ولم يسمع فيما يكتب فى دولة بعد انقراضها أحسن منها » :

رميت يادهر كف المجد بالشلل … وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعيت فى منهج الرأى العثور فان … قدرت من عثرات الدهر فاستقل
جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا … ينفك مابين قرع السن والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل … سعيت مهلا أما تمشى على مهل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة … على فجيعتها فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها … من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن … كمالها أنها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حين سما … رأس الحصان يهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش مكرمة … وخلة حرست من عارض الخلل
ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة … لك الملامة ان قصرت فى عذلى
بالله در ساحة القصرين وابك معى … عليهما لا على صفين والجمل
وقل لأهليهما والله ما التحمت … فيكم جراحى ولا قرحى بمندمل
ماذا عسى كانت الافرنج فاعلة … فى نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما … ملكتم بين حكم السبى والنفل
وقد حصلتم عليها واسم جدكم … محمد وأبوكم غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية … من الوقود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد … من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غداة خلت … رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ماتراءت من مكارمكم … حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم … واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم اذ أضحت مكارمكم … تشكو من الدهر حيفا غير محتمل

وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان فى يوم الخليج لكم
يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كم لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل *
والأرض تهتز فى يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض فى وشى وفى شية
مثل العرائس فى حلى وفى حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الأ
طباق الا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين ولا
ضيف المقيم وللطارى من الرسل
ثم الطراز بتنيس الذى عظمت
منه الصلات لأهل الأرض والدول
وللجوامع من احسانكم نعم
لمن تصدر فى علم وفى عمل
وربما عادت الدنيا فمعقلها
منكم وأضحت بكم محلولة العقل
والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم
ولا نجا من عذاب الله غير ولى
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ
من كف خير البرايا خاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التى خلقت
من خان عهد الامام العاضد بن على

(*) ص٩٥ جـ١ ، ط بولاق .

أئمتى وهداتى والذخيرة لى
اذا ارتهنت بما قدمت من عملى
تالله لم أوفهم فى المدح حقهم
لأن فضلهم كالوابل الهطل
ولو تضاعفت الأقوال واتسعت
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
باب النجاة هم دنيا وآخرة
وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى ومصابيح الدجى ومحـ
ـل الغيث ان ربت الأنواء فى المحل
أئمة خلقوا نورا فنورهم
من محض خالص نور الله لم يفل
والله ما زلت عن حبى لهم أبدا
ما أخر الله لى فى مدة الأجل

وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه الله ، وتمحلت له الذنوب ... انتهى ما ذكره رحمه الله تعالى .

ذكر ما كان من أمراء القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية

ولما مات العاضد لدين الله فى يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة ، احتاط الطواشى قراقوش على أهل العاضد وأولاده — فكانت عدة الأشراف فى القصور مائة وثلاثين ، والأطفال خمسة وسبعين — وجعلهم فى مكان أفرد لهم خارج القصر ، وجمع عمومته وعشيرته فى ايوان بالقصر واحترز عليهم ، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا ، وليكون ذلك أسرع لانقراضهم .

وتسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنفائس ، وكانت عظيمة الوصف ، واستعرض من فيه من الجوارى والعبيد ، فأطلق من كان حرا ، ووهب واستخدم باقيهم ، وأطلق البيع فى كل جديد وعتيق ، فاستمر البيع فيما وجد بالقصر عشر سنين .

وأخلى القصور من سكانها ، وأغلق أبوابها ، ثم ملكها أمراءه وضرب الألواح على ما كان للخلفاء وأتباعهم من الدور والرباع ، وأقطع خواصه منها وباع بعضها ، ثم قسم القصور : فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب ابن شادى فى قصر اللؤلؤة على الخليج ، وأخذ أصحابه دور من كان ينسب الى الدولة الفاطمية . فكان الرجل اذا استحسن دارا أخرج منها سكانها ونزل بها .

قال القاضى الفاضل : وفى ثالث عشريه (يعنى وبيعا الآخر سنة سبع وستين) كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ، فقيل ان الموجود فيه مائة صندوق كسوة فاخرة من موشح ومرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة ، وغير ذلك من ذخائر جمة الخطر . وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش وبيان .

وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن بها الأمير موسك ، والأمير أبو الهيجاء السمنى وغيره من الغز ، وملئت المناظر المصونة عن الناظر ، والمتنزهات التى لم يخطر ابتذالها فى الخاطر . فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ، ووارث الأرض ومورثها .

قال : ومقدار ما يحدس أنه خرج من القصر ، ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ، ما لا يفى به ملك الأكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ، ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ، ولا يقدر على حسابه الا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة .

وقال الحافظ جمال الدين يوسف اليغمورى : وجدت بخط المهذب أبى طالب محمد بن على بن الخيمى * ، حدثنى الأمير عضد الدين مرهف بن مجد الدين سويد الدولة بن منقذ ، أن القصر أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة : عشرة آلاف شريف وشريفة ، وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة ومولدة وتربية .

وقال ابن عبد الظاهر عن القصر لما أخذه صلاح الدين وأخرج من به : كان فيه اثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده ، ولما أخرجوا منه أسكنوا فى دار المظفر .

وقبض أيضا صلاح الدين على الأمير داود ابن العاضد — وكان ولى العهد ، وينعت بالحامد لله — واعتقل معه جميع أخوته الأمير أبو الأمانة جبريل ، وأبو الفتوح ، وابنه أبو القاسم ، وسليمان بن داود ، وعبد الظاهر حيدرة بن العاضد ، وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد ، واسماعيل بن العاضد ،

(*) ص٩٦ جـ١ ، ط بولاق .

وجعفر بن أبى الظاهر بن جبريل ، وعبد الظاهر بن أبى الفتوح بن جبريل بن الحافظ ، وجماعة من بنى أعمامه .

فلم يزالوا فى الاعتقال بدار الأفضل من حارة برجوان ، الى أن انتقل الملك الكامل محمد بن العادل بن أبى بكر بن أيوب من دار الوزارة بالقاهرة الى قلعة الجبل ، فنقل معه ولد العاضد واخوته وأولاد عمه واعتقلهم بالقلعة ، وبها مات العاضد . واستمر البقية حتى انقرضت الدولة الأيوبية .

وملك الأتراك الى أن تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى . فلما كان فى سنة ستين وستمائة ، أشهد على من بقى منهم — وهم كمال الدين اسماعيل بن العاضد ، وعماد الدين أبو القاسم بن الأمير أبى الفتوح ابن العاضد ، وبدر الدين عبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد — أن جميع المواضع التى قبلى المدارس الصالحية من القصر الكبير ، والموضع المعروف بالتربة ظاهرا وباطنا بخط الخوخ السبع ، وجميع الموضع المعروف بالقصر اليافعى بالخط المذكور ، وجميع الموضع المعروف بسكن أولاد شيخ الشيوخ وغيرهم من القصر الشارع بابه قبالة دار الحديث النبوى الكاملية ، وجميع الموضع المعروف بالقصر الغربى ، وجميع الموضع المعروف بدار الفطرة بخط المشهد الحسينى ، وجميع الموضع المعروف بدار الضيافة بحارة برجوان ، وجميع الموضع المعروف باللؤلؤة ، وجميع قصر الزمرذ ، وجميع البستان الكافورى ... ملك لبيت المال المولوى السلطانى الملكى الظاهرى ، من وجه صحيح شرعى لا رجعة لهم فيه ، ولا لواحد منهم فى ذلك ولا فى شىء منه ، ولا مثوبة بسبب يد ولا ملك ولا وجه من الوجوه كلها ، خلا ما فى ذلك من مسجد لله تبارك وتعالى أو مدفن لآبائهم .

وورخ ذلك الاشهاد بثالث عشر ربيع الأول سنة ستين وستمائة ، وأثبت على قاضى القضاة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز الشافعى رحمه الله تعالى . وتقرر مع المذكورين أن مهما كان قبضوه من أثمان بعض الأماكن المذكورة التى عاقد عليها وكلاؤهم ، واتصلوا اليه ، يحاسبوا به من جملة ما يحرز ثمنه عند وكيل بيت المال .

وقبضت أيدى المذكورين عن التصرف فى الأماكن المذكورة وغيرها ورسم ببيعها . فباعها وكيل بيت المال كمال الدين ظافر أولا فأولا ، ونقضت شيئا فشيئا ، وبنى فى أماكنها ما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

واشترى قاعة السدرة بجوار المدرسة والتربة الصالحية قاضى القضاة شمس الدين محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد بن على بن مسرور المقدسى الحنبلى ، مدرس الحنابلة بالمدرسة الصالحية ، بألف وخمسة وسبعين دينارا ، فى رابع جمادى الآخرة سنة ستين وستمائة ، من كمال الدين ظافر بن الفقيه نصر وكيل بيت المال ، ثم باعها المذكور للملك الظاهر بيبرس فى حادى عشرى جمادى الآخرة المذكور .

وقاعة السدرة هذه ، قد صارت هى وقاعة الخيم أصل المدرسة الظاهرية الركنية البيبرسية البندقدارية .

قال القاضى الفاضل[*] : وفى يوم الاثنين سادس شهر رجب (يعنى من سنة أربع وثمانين وخمسمائة) ظهر تسحب رجلين من المعتقلين فى القصر : أحدهما من أقارب المستنصر ، والآخر من أقارب الحافظ .

وأكبرهما سنا كان معتقلا بالايوان . حدث به مرض وأثخن فيه ، ففك حديده ونقل الى القصر الغربى فى أوائل سنة ثلاث وثمانين ، واستمر لما به ولم يستقل من المرض ، وطلب ففقد ، واسمه موسى بن عبد الرحمن أبى حمزة بن حيدرة بن أبى الحسن أخى الحافظ .

واسم الآخر موسى بن عبد الرحمن بن أبى محمد بن أبى اليسر بن محسن بن المستنصر ، وكان طفلا فى وقت الكائنة بأهله ، وأقام بالقصر الغربى مع من أسر به الى أن كبر وشب .

قال : وذكر أن القصر الغربى قد استولى عليه الخراب ، وعلا على جدرانه التشعث والهدم ، وأنه يجاور اصطبلات فيها جماعة من المفسدين ، وربما تسلق اليه للتطرق للنساء المعتقلات . والمتسلق منه اذا قويت نفسه على التسحب لم تكن عقلته فى القصر المذكور مانعة من التسحب .

قال : وعدد من بقى من هذه الذرية ، بدار المظفر والقصر الغربى والايوان ، مائتان واثنان وخمسون شخصا . ذكور ثمانية وتسعون ، واناث مائة وأربعة وخمسون ... تفصيله :

المقيمون بدار المظفر أحد وثلاثون ★ ذكور أحد عشر كلهم أولاد العاضد لصلبه . اناث عشرون بنات العاضد ، خمسة اخوته ، أربع جهات العاضد ، أربع بنات الحافظ ، ثلاث جهات يوسف ابنه ، وجبريل ابن عمه أربع .

المعتقلون بالايوان خمسة وخمسون رجلا ، منهم الأمير أبو الظاهر بن جبريل بن الحافظ .

المقيمون بالقصر الغربى مائة وستة وستون شخصا : ذكور اثنان وثلاثون ، أكبرهم عمره عشرون سنة ، وأصغرهم عمره سبع عشرة سنة . اناث مائة وأربع وثلاثون : بنات أربع وستون ، أخوات وعمات وزوجات سبعون .

قال : وفى جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، كانت عدة من فى دار المظفر بحارة برجوان ، والقصر الغربى والايوان ، من أولاد العاضد وأقاربه ومن معهم مضافا اليهم ، ثلثمائة واثنتين وسبعين نفسا : دار المظفر أحرار ومماليك مائة وست وستون نفسا . القصر الغربى أحرار مائة وأربعون نفسا . الايوان تسعة وسبعون رجلا بالغون .

وأما منازل العز فاشتراها الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب ابن شادى فى نصف شعبان سنة ست وستين وخمسمائة ، وجعلها مدرسة للفقهاء الشافعية واشترى الروضة وجعلها وقفا على المدرسة المذكورة . والله تعالى أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب ، وصلىَ الله على سيدنا محمد وآله وسلم ★ .

(*) ص٤٩٧ جـ١ ، ط. بولاق .

(*) ص٤٩٨ جـ١ ، ط. بولاق ، وهى نهاية الجزء الاول .

ذكر حارات القاهرة وظواهرها

قال ابن سيده : والحـارة كل محلة دنت منازلها . قال : والمحلة منزل القوم .

وبالقاهرة وظواهرها عدة حارات ، وهى :

« حارة بهاء الدين » : هذه الحارة كانت قديما خارج باب الفتوح الذى وضعه القائد جوهر عندما اختط أساس القاهرة من الطوب النيء . وقد بقى من هذا الباب عقدة برأس حارة بهاء الدين .

وصارت هذه الحارة اليوم من داخل باب الفتوح الذى وضعه أمير الجيوش بدر الجمالى ، وهو الموجود الآن .

وحد هذه الحـارة عرضـا من خط باب الفتوح الآن الى خط حارة الوراقة بسوق المرحلين ، وحدها طولا فيمـا وراء ذلك الى خط باب القنطرة .

وكانت هذه الحارة تعرف بحارة الريحانية والوزيرية — وهما طائفتـان من طـوائف عسكر الخلفاء الفاطميين — فان بها كانت مساكنهم ، وكان فيها لهاتين الطـائفتين دور عظيمة وحوانيت عديدة . وقيل لها أيضا بين الحارتين ، واتصلت العمارة الى السور .

ولم تزل الريحانية والوزيرية بهـذه الحارة الى أن كانت واقعة السلطـان صـلاح الدين يوسف بن أيوب بالعبيد .

ذكر واقعة العبيد

وسببها أن مؤتمن الخلافة جوهرا — أحد الأستاذين المحنكين [1] بالقصر — تحدث فى ازالة صلاح الدين يوسف بن أيوب من وزارة الخليفة العاضد لدين الله عندما ضايق أهل القصر ، وشدد عليهم ، واستبد بأمور الدولة ، وأضعف جانب الخلافة ، وقبض على أكابر أهل الدولة .

فصار مع جوهر عدة من الأمراء المصريين والجند ، واتفق رأيهم أن يبعثوا الى الفرنج ببلاد الساحل يستدعوهم الى القاهرة ، حتى اذا خرج صـلاح الدين الى قتالهم بعسكره ، ثاروا وهم بالقاهرة ، واجتمعوا مع الفرنج على اخراجه من مصر .

فسيروا رجلا الى الفرنج ، وجعلوا كتبهم التى معه فى نعل ، وخفظت بالجلد مخافة أن يفطن بها . فسار الرجل الى البير البيضاء قريبا من بلبيس ، فاذ بعض أصحاب صلاح الدين هنـاك ، فأنكر أمر الرجل من أجل أنه جعل النعلين فى يده ، ورآهما وليس فيهما أثر المشى والرجل رث الهيئة ، فارتاب وأخذ النعلين وشقهما فوجد الكتب ببطنهما .

فحمل الرجل والكتب الى صلاح الدين ، فتتبع خطوط الكتب حتى عرفت ، فاذا الذى كتبها من اليهود الكتاب ، فأمر بقتله ، فاعتصم بالاسلام وأسلم ، وحدثه الخبر .

(1) المحنكين : الحاذقين . كذا يؤخذ من «القاموس» .

فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة ، فاستشعر الشر ، وخاف على نفسه ، ولزم القصر ، وامتنع من الخروج منه . فأعرض صلاح الدين * عن ذلك جملة .

وطال الأمد ، فظن الخصى انه قد أهمل أمره ، وشرع يخرج من القصر ، وكانت له منظرة بناها بناحية الخرقانية فى بستان ، فخرج اليها فى جماعة . وبلغ ذلك صلاح الدين ، فأنهض اليه عدة هجموا عليه ، وقتلوه فى يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة سنة أربع وستين وخمسمائة ، واحتزوا رأسه وأتوا بها الى صلاح الدين

فاشتهر ذلك بالقاهرة وأشيع ، فغضب العسكر المصرى ، وثاروا بأجمعهم فى سادس عشريه ، وقد انضم اليهم عالم عظيم من الأمراء والعامة حتى صاروا ما ينيف على خمسين ألفا ، وساروا الى دار الوزارة ، وفيها يومئذ سـاكنا بها صـلاح الدين ، وقد استعدوا بالأسلحة .

فبادر شمس الدولة فخر الدين توران شاه أخو صلاح الدين ، وصرخ فى عساكر الغز ، وركب صلاح الدين وقد اجتمع اليه طوائف من أهله وأقاربه وجميع الغـز ، ورتبهم ووقفت الطائفة الريحانية ، والطائفة الجيوشية والطائفة الفرحية ، وغيرهم من الطوائف السودانية ، ومن انضم اليهم بين القصرين .

فثارت الحروب بينهم وبين صلاح الدين ، واشتد الأمر ، وعظم الخطب حتى لم يبق الا هزيمة صلاح الدين وأصحابه . فعنـد ذلك أمر توران شاه بالحملة على السـودان ، فقتل فيها أحد مقدميهم ، فانكف بأسـهم قليلا ، وعظمت حملة الغز عليهم ، فانكسروا الى باب الذهب ثم الى باب الزهومة ، وقتـل حينئذ عدة من الأمراء المصريين وكثير ممن عداهم .

وكان العاضد فى هذه الوقعـة يشرف من المنظرة . فلما رأى أهل القصر كـرة السودان وعساكر مصر ، رموا على الغز من أعلى القصر بالنشـاب والحجـارة حتى أنكوا فيهـم ، وكفوهم عن القتال وكادوا ينهزمون . فأمر حينئذ صلاح الدين النفاطين باحراق المنظرة ، فأحضر شمس الدولة النفاطين ، وأخذوا فى تطييب قارورة النفط ، وصوبوا بهـا على المنظرة التى فيها العاضد .

فخاف العاضـد على نفسـه ، وفتح باب المنظرة زعيم الخلافة أحد الأستاذين ، وقال بصوت عال : أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ، ويقول دونكم والعبيـد الكلاب ، أخرجوهم من بلادكم .

فلما سمع السـودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا ، فحمـل عليهم الغز فانكسروا ، وركب القـوم أقفيتهـم الى أن وصلوا الى السيوفيين ، فقتل منهم كثير وأسر منهم كثير ، وامتنعـوا هنـاك على الغز بمكان فأحرق عليهم .

وكان فى دار الأرمن التى كانت قريبا من بين القصرين خلـق عظيـم من الأرمن كلهم رماة ، ولهم جار فى الدولة يجـرى عليهم ، فعندما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة ، حتى امتنعوا عن أن يسيروا الى العبيـد ،

(*) ص٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

فأحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقا وقتلا ، ومروا الى العبيد .

فصاروا كلما دخلوا مكانا أحرق عليهم ، وقتلوا فيه ، الى أن وصلوا الى باب زويلة ، فاذا هو مغلوق ، فحصروا هناك ، واستمر فيهم القتل مدة يومين ، ثم بلغهم أن صلاح الدين أحرق المنصورة التى كانت أعظم حاراتهم .

واخذت عليهم أفواه السكك ، فأيقنوا أنهم قد أخذوا لا محالة ، فصاحوا : الأمان ، فأمنوا ، وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة ، وفتح لهم باب زويلة ، فخرجوا الى الجيزة . فعدا عليهم شمس الدولة فى العسكر — وقد قووا بأموال المهزومين وأسلحتهم — وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد ، وتلاشى من هذه الواقعة أمر العاضد .

وكان من غرائب الاتفاقات أن الدولة الفاطمية كان الذى افتتح لها بلاد مصر وبنى القاهرة جوهر القائد ، والذى كان سببا فى ازالة الدولة وخراب القاهرة جوهر المنعوت بمؤتمن الخلافة هذا .

ثم لما استبد صلاح الدين يوسف بسلطنة الديار المصرية ، بعد موت الخليفة العاضد لدين الله ، سكن هذه الحارة الأمير الطواشى الخصى بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدى ، فعرفت به .

« حارة برجوان » : منسوبة الى الأستاذ أبى الفتوح برجوان الخادم . وكان خصيا أبيض تام الخلقة ، ربى فى دار الخليفة العزيز بالله ، وولاه أمر القصور ، فلما حضرته الوفاة وصاه على ابنه الأمير أبى على منصور .

فلما مات العزيز بالله ، أقيم ابنه منصور فى الخلافة من بعده ، وقام بتدبير الدولة أبو محمد الحسن بن عمار الكتامى ، فدبر الأمور وبرجوان يناكده فيما يصدر عنه ، ويختص بطوائف من العسكر دونه ، الى أن أفسد أمر ابن عمار . فنظر برجوان فى تدبير الأمور يوم الجمعة لثلاث بقين من رمضان سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، وصار الواسطة بين الحاكم وبين الناس ، فأمر بجمع الغلمان ، ونهاهم عن التعرض لأحد من الكتاميين والمغاربة .

ووجه الى دار ابن عمار ، فمنع الناس عنها بعد أن كانوا قد أحاطوا بها وانتهبوا منها ، وأمر أن يجرى لأصحاب الرسوم والرواتب جميع ما كان ابن عمار قطعه ، وأجرى لابن عمار ما كان يجرى له فى أيام العزيز بالله من الجرايات لنفسه ولأهله وحرمه .

ومبلغ ذلك من اللحم والتوابل خمسمائة دينار فى كل شهر ، يزيد عن ذلك أو ينقص عنه على قدر الأسعار ، مع ما كان له من الفاكهة وهو فى كل يوم سلة بدينار ، وعشرة أرطال شمع بدينار ونصف ، وحمل بلح .

وجعل كاتبه أبا العلاء * فهد بن ابراهيم النصرانى يوقع عنه ، وينظر فى قصص الرافعين وظلاماتهم . فجلس لذلك فى القصر ، وصار يطالعه بجميع ما يحتاج اليه .

ورتب الغلمان فى القصر ، وأمرهم بملازمة الخدمة وتفقد أحوالهم ، وأزال علل أولياء

(*) ص٢ جـ٢ ، ط بولاق .

الدولة ، وتفقد أمور الناس وأزال ضروراتهم ، ومنع الناس كافة من الترجل له .

فكان الناس يلقونه فى داره ، فاذا تكامل لقاؤهم ركبوا بين يديه الى القصر ، ما عدا الحسين بن جوهر والقاضى ابن النعمان فقط ، فانهما كانا يتقدمانه من دورهما الى القصر أو يلحقانه ، ويكون سلامهما عليه فى القصر ، حتى أنه لقب كاتبه فهدا بالرئيس ، فصار يخاطب بذلك ويكاتب به .

وكان برجوان يجلس فى دهاليز القصر ، ويجلس الرئيس فهد بالدهليز الأول يوقع وينظر ، ويطالع برجوان ما يحتاج اليه مما يطالع به الحاكم ، فيخرج الأمر بما يكون العمل به .

وترقت أحوال برجوان الى أن بلغ النهاية ، فقصر عن الخدمة ، وتشاغل بلذاته ، وأقبل على سماع الغناء ، وأكثر من الطرب . وكان شديد المحبة فى الغناء ، فكان المغنون من الرجال والنساء يحضرون داره ، فيكون معهم كأحدهم .

ثم يجلس فى داره حتى يمضى صدر النهار ، ويتكامل جميع أهل الدولة وأرباب الأشغال على بابه . فيخرج راكبا ، ويمضى الى القصر فيمشى من الأمور ما يختار بغير مشاورة .

فلما تزايد الأمر وكثر استبداده ، تحرد له الحاكم ، ونقم عليه أشياء من تجريه عليه ومعاملته له بالاذلال وعدم الامتثال ، منها أنه استدعاه يوما وهو راكب معه ، فصار اليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه ، وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم ، ونحو ذلك من سوء الأدب .

فلما كان يوم الخميس سادس عشرى شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة ، أنفذ اليه الحاكم عشية للركوب معه الى المقياس ، فجاء بعد ما تباطأ وقد ضاق الوقت ، فلم يكن بأسرع من خروج عقيق الخادم باكيا يصيح : قتل مولاى وكان هذا الخادم عينا لبرجوان فى القصر .

فاضطرب الناس ، وأشرف عليهم الحاكم ، وقام زيدان صاحب المظلة فصاح بهم : من كان فى الطاعة فلينصرف الى منزله ، ويبكر الى القصر المعمور ... فانصرف الجميع .

فكان من خبر قتل برجوان أنه لما دخل الى القصر ، كان الحاكم فى بستان يعرف بدويرة التين والعناب ومعه زيدان ، فوافاه برجوان بها وهو قائم فسلم ووقف ، فسار الحاكم الى أن خرج من باب الدويرة ، فوثب زيدان على برجوان وضربه بسكين كانت معه فى عنقه ، وابتدره قوم كانوا قد أعدوا للفتك به ، فأثخنوه جراحة بالخناجر ، واحتزوا رأسه ودفنوه هناك .

ثم ان الحاكم أحضر اليه الرئيس فهدا بعد العشاء الأخيرة ، وقال له : أنت كاتبى . وأمنه وطمنه .

فكانت مدة نظر برجوان فى الوساطة سنتين وثمانية أشهر تنقص يوما واحدا .

ووجد الحاكم فى تركته مائة منديل — يعنى عمامة — كلها شروب ملونة معممة على مائة شاشية ، وألف سراويل دبيقية بألف تكة حرير أرمنى ، ومن الثياب المخيطة والصحاح والحلى والمصاغ والطيب والفرش

والصياغات الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة ، ومن العين ثلاثة وثلاثين ألف دينار ، ومن الخيل الركابية مائة وخمسين فرسا وخمسين بغلة ، ومن بغال النقل ودواب الغلمان نحو ثلثمائة رأس ، ومائة وخمسين سرجا منها عشرون ذهبا ، ومن الكتب شيء كثير . وحمل لجاريته من مصر الى القاهرة رحل على ثمانين حمارا .

قال ابن خلكان : وبرجوان بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الجيم والواو وبعد الألف نون ... هكذا وجدته مقيدا بخط بعض الفضلاء .

وقال ابن عبد الظاهر : ويسمى الوزغ ، سماه به الحاكم .

« حارة زويلة » : قال ابن عبد الظاهر : لما نزل القائد جوهر بالقاهرة ، اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها . فزويلة بنت الحارة المعروفة بها . والبئر التي تعرف ببئر زويلة في المكان الذي يعمل فيه الآن الروايا ، والبابان المعروفان ببابي زويلة .

وقال ياقوت : زويلة — بفتح الزاي وكسر الواو وياء ساكنة وفتح اللام — أربعة مواضع :

الأول : زويلة السودان ، وهي قصبة من أعمال فزان في جنوب أفريقية ، مدينة كثيرة النخل والزرع .

الثاني : زويلة المهدية ، بلد كالربض للمهدية ، اختطه عبد الله الملقب بالمهدي ، وأسكنه الرعية ، وسكن هو بالمهدية التي استجدها فكانت دكاكين الرعية وأمتعتهم بالمهدية ، ومنازلهم وحرمهم بزويلة ، فكانوا يظلون بالنهار في المهدية ، ويبيتون ليلا بزويلة . وزعم المهدي أنه فعل بهم ذلك لآمن غائلتهم ... قال : أحول بينهم وبين أموالهم ليلا ، وبينهم وبين نسائهم نهارا .

الثالث : باب زويلة بالقاهرة من جهة الفسطاط .

الرابع : حارة زويلة ، محلة كبيرة بالقاهرة بينها وبين باب زويلة عدة محال ، سميت بذلك لأن جوهرا غلام المعز لما اختط محله بالقاهرة ، أنزل أهل زويلة بهذا المكان فتسمى بهم .

« الحارة المحمودية » : الصواب في هذه الحارة أن يقال حارة المحمودية على الاضافة ، فانها عرفت بطائفة من طوائف عسكر الدولة الفاطمية كان يقال لها الطائفة المحمودية .

وقد ذكرها المسبحي * في تاريخه مرارا ... قال في سنة أربع وتسعين وخمسمائة : وفيها اقتتلت الطائفة المحمودية واليانسية .

واشتبه أمر هذه الحارة على ابن عبد الظاهر ، فلم يعرف نسبتها لمن ، وقال : لا أعلم في الدولة المصرية من اسمه محمود الا ركن الاسلام محمود بن أخت الصالح بن رزيك صاحب التربة بالقرافة ، اللهم الا أن يكون محمود بن مصال الملكي الوزير ، فقد ذكر ابن القفطي أن اسمه محمود ، ومحمود صاحب المسجد بالقرافة ، وكان في زمن السري بن الحكم قبل ذلك .

(*) ص٤ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

وهذا وهم آخر ، فان ابن مصال الوزير اسمه سليمان ، وينعت بنجم الدين .

ووقعت في هذه الحارة نكتة ... قال القاضي الفاضل في متجددات سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، والسلطان يومئذ بمصر الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين : وكان في شعبان قد تتابع أهل مصر والقاهرة في اظهار المنكرات وترك الانكار لها ، واباحة أهل الأمر والنهي فعلها ، وتفاحش الأمر فيها الى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره .

وأقيمت طاحون بالمحمودية لطحن حشيشة المزر وأفردت برسمه ، وحميت بيوت المزر وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة ، فمنها ما انتهى أمره في كل يوم الى ستة عشر دينارا ، ومنع المزر البيوتي ليتوفر الشراء من مواضع الحمى ، وحملت أواني الخمر على رؤوس الأشهاد وفي الأسواق من غير منكر ، وظهر من عاجل عقوبة الله تعالى وقوف زيادة النيل عن معتادها ، وزيادة سعر الغلة في وقت ميسورها .

« حارة الجودرية » : هذه الحارة عرفت أيضا بالطائفة الجودرية ، احدى طوائف العسكر في أيام الحاكم بأمر الله ، على ما ذكره المسبحي .

وقال ابن عبد الظاهر : الجودرية منسوبة الى جماعة تعرف بالجودرية اختطوها ، وكانوا أربعمائة . منهم أبو علي منصور الجودري الذي كان في أيام العزيز بالله ، وزادت مكانته في الأيام الحاكمية ، فأضيفت اليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك .

ولها حكاية سمعت جماعة يحكونها . وهي أنها كانت سكن اليهود والمعروفة بهم . فبلغ الخليفة الحاكم أنهم يجتمعون بها في أوقات خلواتهم ويغنون :

وأمة قد ضلوا ودينهم معتل

قال لهم نبيهم نعم الأدام الخل

ويسخرون من هذا القول ، ويتعرضون الى ما لا ينبغي ساعة . فأتى الى أبوابها وسدها عليهم ليلا وأحرقها . فالى هذا الوقت لا يبت بها يهودي ، ولا يسكنها أبدا .

وقد كان في الأيام العزيزية جودر الصقلبي أيضا ... ضرب عنقه ، ونهب ماله في سنة ست وثمانين وثلثمائة .

« حارة الوزيرية » : هي أيضا تنسب الى طائفة يقال لها الوزيرية من جملة طوائف العسكر . وكانت أولا تعرف بحارة بستان المصمودي ، وعرفت أيضا بحارة الأكراد .

قال ابن عبد الظاهر : الوزيرية منسوبة الى الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس .

وقال ابن الصيرفي : والطائفة المنعوتة بالوزيرية الى الآن منسوبة اليه ... يعني الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس أبو الفرج . كان يهوديا من أهل بغداد ، فخرج منها الى بلاد الشام ، ونزل بمدينة الرملة وأقام بها ، فصار فيها وكيلا للتجار بها ، واجتمع في قبله مال عجز عن أدائه .

ففر الى مصر فى أيام كافور الاخشيدى ، فتعلق بخدمته ، ووثب اليه بالمتجر ، فباع اليه أمتعة أحيل بثمنها على ضياع مصر ، فكثر لذلك تردده على الريف ، وعرف أخبار القرى .

وكان صاحب حيل ودهاء ومكر ومعرفة ، مع ذكاء مفرط وفطنة ، فمهر فى معرفة الضياع حتى كان اذا سئل عن أمر غلالها ومبلغ ارتفاعها وسائر أحوالها الظاهرة والباطنة ، أتى من ذلك بالغرض .

فكثرت أمواله ، واتسعت أحواله . وأعجب به كافور لما خبر فيه من الفطنة وحسن السياسة ، فقال : لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا .

فلما بلغه هذا عن كافور ، تاقت نفسه الى الولاية ، وأحضر من علمه شرائع الاسلام سرا .

فلما كان فى شعبان سنة ست وخمسين وثلثمائة ، دخل الى الجامع بمصر وصلى صلاة الصبح ، وركب الى كافور ومعه محمد بن عبد الله بن الخازن فى خلق كثير . فخلع عليه كافور ، ونزل الى داره ومعه جمع كثير ، وركب اليه أهل الدولة يهنونه ، ولم يتأخر عن الحضور اليه أحد .

فغص بمكانه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، وقلق بسببه ، وأخذ فى التدبير عليه ونصب الحبائل له حتى خافه يعقوب ، فخرج من مصر فارا منه يريد بلاد المغرب فى شوال سنة سبع وخمسين ، وقد مات كافور .

فلحق بالمعز لدين الله أبى تميم معد ، فوقع منه موقعا حسنا ، وشاهد منه معرفة وتدبيرا .

فلم يزل فى خدمته حتى قدم من المغرب الى القاهرة فى شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، فقلده فى رابع عشر المحرم سنة ثلاث وستين الخراج ، وجميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين ، وجميع ما يضاف الى ذلك ، وما يطرأ فى مصر وسائر الأعمال . وأشرك معه فى ذلك كله عسلوج بن الحسن ، وكتب لهما سجلا بذلك قرىء فى يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون .

فقبضت أيدى سائر العمال والمتضمنين ، وجلس يعقوب وعسلوج فى دار الامارة فى جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال ، وحضر الناس * للقبالات ، وطالبا بالبقايا من الأموال مما على الناس من المالكين والمتقبلين والعمال ، واستقصيا فى الطلب ، ونظرا فى المظالم .

فتوفرت الأموال ، وزيد فى الضياع ، وتزايد الناس وتكاشفوا ، وامتنعا أن يأخذا الا دينارا معزيا ، فاتضع الدينار الراضى وانحط ، ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار ، فخسر الناس كثيرا من أموالهم فى الدينار الأبيض والدينار الراضى . وكان صرف المعزى خمسة عشر درهما ونصفا .

واشتد الاستخراج ، فكان يستخرج فى اليوم نيف وخمسون ألف دينار معزية ،

(*) ص٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

واستخرج فى يوم واحد مائة وعشرون ألف دينار معزية ، وحصل فى يوم واحد من مال تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من مائتى ألف دينار وعشرين ألف دينار ... وهذا شىء لم يسمع قط بمثله فى بلد .

فاستمر الأمر على ذلك الى المحرم سنة خمس وستين وثلثمائة ، فتشاغل يعقوب عن حضور ديوان الخراج ، وانفرد بالنظر فى أمور المعز لدين الله فى قصره وفى الدور الموافق عليها .

وبعد ذلك بقليل مات المعز لدين الله فى شهر ربيع الآخر منها ، وقام من بعده فى الخلافة ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار ، ففوض ليعقوب النظر فى سائر أموره ، وجعله وزيرا له فى أول المحرم سنة سبع وستين وثلثمائة .

وفى شهر رمضان سنة ثمان وستين لقبه بالوزير الأجل ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه الا به ، وخلع عليه وحمل ، ورسم له فى المحرم سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة أن يبدأ له فى مكاتباته باسمه على عنوانات الكتب النافذة عنه ، وخرج توقيع العزيز بذلك .

وفى هذه السنة اعتقل فى القصر ، ورد الأمر الى خير بن القاسم . فأقام معتقلا عدة شهور ، ثم أطلق فى سنة أربع وسبعين ، وحمل على عدة خيول ، وقرىء سجل برده الى تدبير الدولة ، ووهبه خمسمائة غلام من الناشئة وألف غلام من المغاربة ملكه العزيز رقابهم .

فكان يعقوب أول وزراء الخلفاء الفاطميين بديار مصر ، فدبر أمور مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب ، وأعمال هذه الأقاليم كلها من الرجال والأموال والقضاء والتدبير ، وعمل له اقطاعا فى كل سنة بمصر والشام مبلغها ثلثمائة ألف دينار ، واتسعت دائرته ، وعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفى الكتب .

وكان يجلس كل يوم فى داره يأمر وينهى ، ولا يرفع اليه رقعة الا وقع فيها ، ولا يسأل فى حاجة الا قضاها . ورتب فى داره الحجاب نوبا ، وأجلسهم على مراتب ، وألبسهم الديباج وقلدهم السيوف ، وجعل لهم المناطق ، ورتب فرسين فى داره للنوبة لا تبرح واقفة بسروجها ولجمها لهم برد .

ونصب فى داره الدواوين : فجعل ديوانا للعزيزية فيه عدة كتاب ، وديوانا للجيش فيه عدة كتاب ، وديوانا للأموال فيه عدة كتاب وعدة جهابذة ، وديوانا للخراج ، وديوانا للسجلات والانشاء ، وديوانا للمستغلات ، وأقام على هذه الدواوين زماما . وجعل فى داره خزانة للكسوة ، وخزانة للمال ، وخزانة للدفاتر ، وخزانة للأشربة ، وعمل على كل خزانة ناظرا .

وكان يجلس عنده فى كل يوم الأطباء لينظروا فى حال الغلمان ، ومن يحتاج منهم الى علاج أو اعطاء دواء ، ورتب فى داره الكتاب والأطباء يقفون بين يديه ، وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأرباب الصنائع ، لكل طائفة مكان مفرد ، وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق .

وألف كتبا فى الفقه والقراءات ، ونصب له مجلسا فى داره يحضره فى كل يوم ثلاثاء ،

ويحضر اليه الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل يتناظرون بين يديه .

فمن تآليفه كتاب فى القراءات ، وكتاب فى الأديان — وهو كتاب الفقه واختصره — وكتاب فى آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها فى ألف ورقة ، وكتاب فى الفقه مما سمعه من الامام المعز لدين الله والامام العزيز بالله .

وكان يجلس فى يوم الجمعة أيضا ، ويقرأ مصنفاته على الناس بنفسه ، وفى حضرته القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود . فاذا فرغ من قراءة ما يقرأ من مصنفاته ، قام الشعراء ينشدون مدائحهم فيه .

وكان فى داره عدة كتاب ينسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدب وغيرها من العلوم ، فاذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت ، وجعل فى داره قراء وأئمة يصلون فى مسجد داره ، وأقام بداره عدة مطابخ لنفسه ولجلسائه ولغلمانه وحواشيه .

وكان ينصب مائدة لخاصته يأكل هو وخواصه من أهل العلم ووجوه كتابه وخواص غلمانه ومن يستدعيه عليها ، وينصب عدة موائد لبقية الحجاب والكتاب والحواشى .

وكان اذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمعه من المعز والعزيز ، لا يمنع أحد من مجلسه ، فيجتمع عنده الخاص والعام . ورتب عند العزيز بالله جماعة لا يخاطبون الا بالقائد ، وأنشأ عدة مساجد ومساكن بمصر والقاهرة .

وكان يقيم فى شهر رمضان الأطعمة للفقهاء ووجوه الناس وأهل الستر والتعفف ، ولجماعة كثيرة من الفقراء . وكان اذا فرغ الفقهاء والوجوه من الأكل معه يطاف عليهم بالطيب .

ومرض مرة من علة أصابت يده ، فقال فيه عبد الله بن محمد بن أبى الجرع * :

يد الوزير هى الدنيا فان ألمت   رأيت فى كل شىء ذلك الألما
تأمل الملك وانظر فرط علته   من أجله ، واسأل القرطاس والقلما
وشاهد البيض فى الأغماد حائمة   الى العدا ، وكثيرا ما روين دما
وأنفس الناس بالشكوى قد اتصلت   كأنما أشعرت من أجله سقما
هل ينهض المجد الا أن يؤيده   ساق يقدم فى انهاضه قدما ؟
لولا العزيز وآراء الوزير معا   تحيفتنا خطوب تشعب الأمما
فقل لهذا وهذا أنتما شرف   لا أوهن الله ركنيه ولا انهدما
كلاكما لم يزل فى الصالحات يدا   مبسوطة ولسانا ناطقا وفما
ولا أصابكما أحداث دهركما   ولا طوى لكما ما عشتما علما
ولا انحت عنك يامولاى عافية   فقد محوت بما أوليتنى العدما

(*) ص٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وكان الناس يفتون بكتابه فى الفقه، ودرس فيه الفقهاء بجامع مصر ، وأجرى العزيز بالله لجماعة فقهاء يحضرون مجلس الوزير أرزاقا فى كل شهر تكفيهم .

وكان للوزير مجلس فى داره للنظر فى رقاع المرافعين والمتظلمين ، ويوقع بيده فى الرقاع ، ويخاطب الخصوم بنفسه .

وأراد العزيز بالله أن يسافر الى الشام فى زمن ابتداء الفاكهة ، فأمر الوزير أن يأخذ الأهبة لذلك ، فقال : يامولاى لكل سفر أهبة على مقداره ، فما الغرض من السفر ؟

فقال : انى أريد التفرج بدمشق لأكل القراصيا .

فقال : السمع والطاعة .

وخرج فاستدعى جميع أرباب الحمام ، وسألهم عما بدمشق من طيور مصر وأسماء من هى عنده — وكانت مائة ونيفا وعشرين طائرا — ثم التمس من طيور دمشق التى هى فى مصر عدة ، فأحضرها ، وكتب الى نائبه بدمشق يقول : ان بدمشق كذا وكذا طائرا ، وعرفه أسماء من هى عنده ، وأمره باحضارها اليه جميعها ، وأن يصيب من القراصيا فى كل كاغدة ، ويشدها على كل طائر منها ، ويسرحها فى يوم واحد .

فلم يمض الا ثلاثة أيام أو أربعة حتى وصلت الحمائم كلها ، ولم يتأخر منها الا نحو عشر ، وعلى جناحها القراصيا . فاستخرجها من الكواغد ، وعملها فى طبق من ذهب وغطاها ، وبعث بها الى العزيز بالله مع خادم ، وركب اليه وقدم ذلك ، وقال : ياأمير المؤمنين قد حضرنا قبالك القراصيا ههنا ، فان أغناك هذا القدر والا استدعينا شيئا آخر .

فعجب العزيز بالوزير ، وقال : مثلك يخدم الملوك ياوزير .

واتفق أنه سابق العزيز بين الطيور ، فسبق طائر الوزير يعقوب طائر العزيز . فشق ذلك على العزيز ، ووجد أعداء الوزير سبيلا الى الطعن فيه ، فكتبوا الى العزيز « انه قد اختار من كل صنف أعلاه ، ولم يترك لأمير المؤمنين الا أدناه حتى الحمام » .

فبلغ ذلك الوزير ، فكتب الى العزيز :

قل لأمير المؤمنين الذى   له العلى والمثل الثاقب
طائرك السابق لكنه   لم يأت الا وله حاجب

فأعجب العزيز ذلك ، وأعرض عما وشى به .

ولم يزل على حال رفيعة ، وكلمة نافذة الى أن ابتدأت به علته يوم الأحد الحادى والعشرين من شوال سنة ثمانين وثلثمائة ، ونزل اليه العزيز بالله يعوده ، وقال له : وددت أنك تباع فأبتاعك بمالى ، أو تفدى فأفديك بولدى ، فهل من حاجة توصى بها يايعقوب ؟

فبكى وقبل يده ، وقال : أما فيما يخصنى فأنت أرعى بحقى من أن أسترعيك اياه ، وأرأف على من أن أوصيك به . ولكنى أنصح لك فيما يتعلق بك وبدولتك : سالم الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية

بالصوت والشكر ، ولا تبق على مفرج بن دغفل ان عرضت لك فيه فرصة .

وانصرف العزيز ، فأخذته السكتة . وكان في سياق الموت يقول : لا يغلب الله غالب .

ثم قضى نحبه ليلة الأحد لخمس خلون من ذي الحجة ، فأرسل العزيز بالله الى داره الكفن والحنوط ، وتولى غسله القاضي محمد ابن النعمان ، وقال : كنت والله أغسل لحيته وأنا أرفق به خوفا أن يخرج شيء في وجهي .

وكفن في خمسين ثوبا ثلاثين مثقلا — يعني منسوجا بالذهب — وثوبين مذهبا وشرب ديبقي مذهبا وحنط كافورا وقارورتين مسك ، وخمسين منا ماء ورد . وبلغت قيمة الكفن والحنوط عشرة آلاف دينار .

وخرج مختار الصقلبي وعلي بن عمر العداس والرجال بين أيديهم يقولون : لا يتكلم أحد ولا ينطق . وقد اجتمع الناس فيما بين القصر ودار الوزير التي عرفت بدار الديباج .

ثم خرج العزيز من القصر على بغلة ، والناس يمشون بين يديه وخلفه بغير مظلة والحزن ظاهر عليه ، حتى وصل الى داره ، فنزل وصلى عليه وقد طرح على تابوته ثوب مثقل ، ووقف حتى دفن بالقبة التي كان بناها وهو يبكي ، ثم انصرف .

وسمع العزيز وهو يقول : واطول (*) أسفي عليك يا وزير ، والله لو قدرت أفديك بجميع ما أملك لفعلت .

(*) يعني جدا ، طويلا .

وأمر باجراء غلمانه على عاداتهم ، وعتق جميع مماليكه ، وأقام ثلاثا لا يأكل على مائدته ، ولا يحضرها من عادته الحضور .

وعمل على قبره ثوبان مثقلان ، وأقام الناس عند قبره شهرا ، وغدا الشعراء الى قبره ، فرثاه مائة شاعر أجيزوا كلهم .

وبلغ العزيز أن عليه ستة عشر ألف دينار دينا ، فأرسل بها الى قبره ، فوضعت عليه ، وفرقت على أرباب الديون ، وألزم القراء بالمقام على قبره ، وأجرى عليهم الطعام .

وكانت الموائد تحضر الى قبره كل يوم مدة شهر . يحضر نساء الخاصة كل يوم ومعهن نساء العامة ، فتقوم الجواري بأقداح الفضة والبلور وملاعق الفضة ، فيسقين النساء الأشربة والسويق بالسكر ، ولم تتأخر نائحة ولا لاعبة عن حضور القبر مدة الشهر .

وخلف أملاكا وضياعا وقياسير ورباعا ، وعينا وورقا ، وأواني ذهبا وفضة وجوهرا وعنبرا وطيبا وثيابا ، وفرشا ومصاحف وكتبا ، وجواري وعبيدا ، وخيلا وبغالا ونوقا وحمرا وابلا وغلالا ، وخزائن مابين أشربة وأطعمة ... قومت بأربعة آلاف ألف دينار ، سوى ما جهز به ابنته وهو ما قيمته مائتا ألف دينار . وخلف ثمانمائة حظية سوى جواري الخدمة .

فلم يتعرض العزيز لشيء مما يملكه أهله وجواريه وغلمانه ، وأمر بحفظ جهاز ابنته الى أن زوجها ، وأجرى لمن في داره كل شهر ستمائة دينار للنفقة ، سوى الكسوة والجرايات وما يحمل اليهم من الأطعمة من القصر ، وأمر بنقل ما خلفه الى القصر . فلما تم له من يوم وفاته شهر ، قطع الأمير منصور ابن العزيز جميع مستغلاته .

وأقر العزيز جميع ما فعله الوزير وما ولاه من العمال على حاله ، وأجرى الرسوم التي كان يجريها ، وأقر غلمانه على حالهم وقال : هؤلاء صنائعي — وكانت عدة غلمان الوزير أربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية — وزاد العزيز أرزاقهم عما كانت عليه وأدناهم . واليهم تنسب الوزيرية ، فانها كانت مساكنهم .

واتفق أن الوزير عمر قبة أنفق عليها خمسة عشر ألف دينار . وآخر ما قال : لقد طال أمر هذه القبة ... ما هذه قبة ، هذه تربة ! فكانت كذلك ، ودفن تحتها . وموضع قبره اليوم المدرسة الصاحبية .

واتفق أنه وجد في داره رقعة مكتوب فيها :

احذروا من حوادث الأزمان
وتوقوا طوارق الحدثان
قد أمنتم ريب الزمان ونمتم
رب خوف مكمن في الأمان

فلما قرأها قال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ولم يلبث بعدها الا أياما يسيرة ومرض فمات .

« حارة الباطلية » : عرفت بطائفة يقال لهم الباطلية . قال ابن عبد الظاهر : وكان المعز لما قسم العطاء في الناس ، جاءت طائفة فسألت عطاء ، فقيل لها فرغ ما كان حاضرا ولم يبق شيء ، فقالوا : رحنا نحن في الباطل ... فسموا الباطلية ، وعرفت هذه الحارة بهم .

وفي سنة ثلاث وستين وستمائة احترقت حارة الباطلية ، عندما كثر الحريق في القاهرة ومصر ، واتهم النصارى بفعل ذلك . فجمعهم الملك الظاهر بيبرس ، وحملت لهم الأحطاب الكثيرة والحلفاء ، وقدموا ليحرقوا بالنار . فتشفع لهم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العساكر ، على أن يلتزموا بالأموال التي احترقت ، وأن يحملوا الى بيت المال خمسين ألف دينار ... فتركوا .

وجرى في ذلك ما تستحسن حكايته . وهو أنه قد جمع مع النصارى سائر اليهود ، وركب السلطان ليحرقهم بظاهر القاهرة ، وقد اجتمع الناس من كل مكان للتشفي بحرقهم لما نالهم من البلاء فيما دهوا به من حريق الأماكن ، لا سيما الباطلية فانها أتت النار عليها حتى حرقت بأسرها .

فلما حضر السلطان ، وقدم اليهود والنصارى ليحرقوا ، برز ابن الكازروني اليهودي — وكان صيرفيا — وقال للسلطان : سألتك بالله لا تحرقنا مع هؤلاء الكلاب الملاعين أعدائنا وأعدائكم ، أحرقنا ناحية وحدنا .

فضحك السلطان والأمراء ، وحينئذ تقرر الأمر على ما ذكر . فندب لاستخراج المال منهم الأمير سيف الدين بلبان المهراني ، فاستخلص بعض ذلك في عدة سنين . وتطاول

الحال فدخل كتاب الأمراء مع مخاديمهم ، وتحيلوا فى ابطال ما بقى ، فبطل فى أيام السعيد بن الظاهر .

وكان سبب فعل النصارى لهذا الحريق حنقهم لما أخذ الظاهر من الفرنج أرسوف وقيسارية وطرابلس ويافا وانطاكية .

وما زالت الباطلية خرابا ، والناس تضرب بحريقها المثل لمن يشرب الماء كثيرا فيقولون : كأن فى باطنه حريق الباطلية .

ولما عمر الطواشى بهادر المقدم داره بالباطلية ، عمر فيها مواضع بعد سنة خمس وثمانين وسبعمائة .

« حارة الروم » : قال ابن عبد الظاهر : واختطت الروم حارتين : حارة الروم الآن ، وحارة الروم الجوانية . فلما ثقل ذلك عليهم قالوا : الجوانية لا غير .

والوراقون الى هذا الوقت يكتبون حارة الروم السفلى ، وحارة الروم العليا المعروفة اليوم بالجوانية .

وفى سابع عشر ذى الحجة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم حارة الروم ، فهدمت ونهبت .

« حارة الديلم » : عرفت بذلك لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابى ، حين قدم ومعه أولاد * مولاه معز الدولة البويهى وجماعة من الديلم والأتراك ، فى سنة ثمان وستين وثلثمائة ، فسكنوا بها فعرفت بهم .

(*) ص٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

وهفتكين هذا يقال له ألفتكين أبو منصور التركى الشرابى ، غلام معز الدولة أحمد بن بويه ، ترقى فى الخدم حتى غلب فى بغداد على عز الدولة مختار بن معز الدولة ، وكان فيه شجاعة وثبات فى الحرب .

فلما سارت الأتراك من بغداد لحرب الديلم ، جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هفتكين ، الا أن أصحابه انهزموا عنه وصار فى طائفة قليلة ، فولى بمن معه من الأتراك وهم نحو الأربعمائة ، فسار الى الرحبة ، واخذ منها على البر الى أن قرب من حوشبة احدى قرى الشام ، وقد وقع فى قلوب العربان منه مهابة .

فخرج اليه ظالم بن مرهوب العقيلى من بعلبك ، وبعث الى أبى محمود ابراهيم بن جعفر ، أمير دمشق من قبل الخليفة المعز لدين الله ، يعلمه بقدوم هفتكين من بغداد لاقامة الخطبة العباسية وخوفه منه . فأنفذ اليه عسكرا وسار الى ناحية حوشبة يريد هفتكين ، وسار بشارة الخادم من قبل أبى المعالى بن حمدان عونا لهفتكين ، فرد ظالم الى بعلبك من غير حرب ، وسار بشارة بهفتكين الى حمص ، فحمل اليه أبو المعالى ، وتلقاه وأكرمه .

وكان قد ثار بدمشق جماعة من أهل الدعارة والفساد ، وحاربوا عمال السلطان ، واشتد أمرهم ، وكان كبيرهم يعرف بابن الماورد . فلما بلغهم خبر هفتكين بعثوا اليه من دمشق الى حمص يستدعونه ، ووعدوه بالقيام معه على عساكر المعز واخراجهم من

دمشق ليلى عليهم . فوقع ذلك منه بالموافقة ، وصار حتى نزل بثنية العقاب لأيام بقيت من شعبان سنة أربع وستين وثلثمائة .

فبلغ عسكر المعز خبر الفرنج ، وأنهم قد قصدوا طرابلس ، فساروا بأجمعهم الى لقاء العدو . ونزل هفتكين على دمشق من غير حرب فأقام أياما ، ثم سار يريد محاربة ظالم ففر منه ، ودخل هفتكين بعلبك . فطرقه العدو من الروم والفرنج ، وانتهبوا بعلبك ، وأحرقوا وذلك فى شهر رمضان ، وانتشروا فى أعمال بعلبك والبقاع يقتلون ويأسرون ويحرقون ، وقصدوا دمشق وقد التحق بها هفتكين ، فخرج اليهم أهل دمشق ، وسألوهم الكف عن البلد والتزموا بمال .

فخرج اليهم هفتكين وأهدى اليهم ، وتكلم معهم فى أنه لا يستطيع جباية المال لقوة ابن الماورد وأصحابه ، وأمر ملك الروم به فقبض عليه وقيده ، وعاد فجبى المال من دمشق بالعنف ، وحمل الى ملك الروم ثلاثين ألف دينار ، ورحل الى بيروت ، ثم الى طرابلس . فتمكن هفتكين من دمشق ، وأقام بها الدعوة لأبى بكر عبد الكريم الطائع بن المطيع العباسى ، وسير الى العرب السرايا فظفرت ، وعادت اليه بعدة ممن أسرته من رجال العرب فقتلهم صبرا .

وكان قد تخوف من المعز ، فكاتب القرامطة يستدعيهم من الأحساء للقدوم عليه لمحاربة عساكر المعز ، وما زال بهم حتى وافوا دمشق فى سنة خمس وستين ، ونزلوا على ظاهرها ومعهم كثير من أصحاب هفتكين الذين كانوا قد تشتتوا فى البلاد . فقوى بهم ، ولقى القرامطة وحمل اليهم وسر بهم ، فأقاموا على دمشق أياما ، ثم رحلوا نحو الرملة وبها أبو محمود فلحق بيافا ، ونزل القرامطة الرملة ، ونصبوا القتال على يافا حتى كلّ الفريقان ، وسئموا جميعا من طول الحرب .

وسار هفتكين على الساحل ، ونزل صيدا وبها ظالم بن مرهوب العقيلى وابن الشيخ من قبل المعز ، فقاتلهم قتالا شديدا انهزم منه ظالم الى صور ، وقتل بين الفريقين نحو أربعة آلاف رجل ، فقطع أيدى القتلى من عسكر المعز ، وسيرها الى دمشق فطيف بها ، ثم سار عن صيدا يريد عكا وبها عسكر المعز . وكان قد مات المعز فى شهر ربيع الآخر ، وقام من بعده ابنه العزيز بالله ، وسير جوهر القائد فى عسكر عظيم الى قتال هفتكين والقرامطة .

فبلغ ذلك القرامطة وهم على الرملة ، ووصل الخبر بسيره الى هفتكين وهو على عكا ، فخاف القرامطة وفروا عنها ، فنزلها جوهر . وسار من القرامطة الى الأحساء التى هى بلادهم جماعة ، وتأخر عدة ، وسار هفتكين من عكا الى طبرية ، وقد علم بسير القرامطة وتأخر بعضهم ، فاجتمع بهم فى طبرية واستعد للقاء جوهر وجمع الأقوات من بلاد حوران والثنية وأدخلها الى دمشق ، وسار اليها فتحصن بها . ونزل جوهر على ظاهر دمشق لثمان بقين من ذى القعدة ، فبنى على معسكره سورا ، وحفر خندقا عظيما وجعل له أبوابا . وجمع هفتكين الناس للقتال ، وكان قد بقى بعد ابن الماورد رجل يعرف بقسام التراب ، وصار فى عدة وافرة من الدعار ،

فأعانه هفتكين وقواه وأمده بالسلاح وغيره . ووقعت بينهم وبين جوهر حروب عظيمة طويلة الى يوم الحادى عشر من ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة ، فاختل أمر هفتكين وهم بالفرار ، ثم انه استظهر .

ووردت الأخبار بقدوم الحسن بن أحمد القرمطى الى دمشق ، فطلب جوهر الصلح على أن يرحل عن دمشق من غير أن يتبعه أحد . وذلك أنه رأى أمواله قد قلت ، وهلك كثير مما كان فى عسكره حتى صار أكثر عسكره رجالة وأعوزهم العلف ، وخشى قدوم القرامطة . فأجابه هفتكين وقد عظم فرحه واشتد سروره . فرحل فى ثالث جمادى الأولى ، وجد فى المسير وقد قرب القرامطة فأناخ بطبرية .

فبلغ ذلك القرمطى * ، فقصده وقد سار عنها الى الرملة ، فبعث اليه بسرية كانت لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب ، وأدركه القرمطى وسار فى أثره هفتكين . فمات الحسن بن أحمد القرمطى بالرملة ، وقام من بعده بأمر القرامطة ابن عمه جعفر ، ففسد ما بينه وبين هفتكين ، ورجع عن الرملة الى الأحساء ، وناصب هفتكين القتال ، وألح فيه على جوهر حتى انهزم عنه وسار الى عسقلان . وقد غنم هفتكين مما كان معه شيئا يجل عن الوصف ، ونزل على البلد محاصرا لها . وبلغ ذلك العزيز فاستعد للسير الى بلاد الشام .

فلما طال الأمر على جوهر ، راسل هفتكين حتى يقرر الصلح على مال يحمله اليه ، وأن يخرج من تحت سيف هفتكين ، فعلق سيفه على باب عسقلان ، وخرج جوهر ومن معه من تحته ، وساروا الى القاهرة ، فوجد العزيز قد برز يريد المسير فسار معه . وكان مدة قتال هفتكين لجوهر على ظاهر الرملة وفى عسقلان سبعة عشر شهرا .

وسار العزيز بالله حتى نزل الرملة . وكان هفتكين بطبرية ، فسار الى لقاء العزيز ومعه أبو اسحاق وأبو طاهر أخو عز الدولة بن بختيار بن أحمد بن بويه ، وأبو اللحاد مرزبان عز الدولة بن بختيار بن عز الدولة بن بويه ، فحاربوه فلم يكن غير ساعة حتى هزمت عساكر العزيز عساكر هفتكين ، وملكوه فى يوم الخميس لسبع بقين من المحرم سنة ثمان وستين وثلثمائة .

واستأمن أبو اسحاق ومرزبان بن بختيار ، وقتل أبو طاهر أخو عز الدولة بن بختيار ، وأخذ أكثر أصحابه أسرى ، وطلب هفتكين فى القتلى فلم يوجد ، وكان قد فر وقت الهزيمة على فرس بمفرده ، فأخذه بعض العرب أسيرا ، فقدم به على مفرج بن دعفل ابن الجراح الطائى وعمامته فى عنقه ، فبعث به الى العزيز ، فأمر به فشهر فى العسكر ، وطيف به على جمل ، فأخذ الناس يلطمونه ويهزون لحيته حتى رأى فى نفسه العبر .

ثم سار العزيز بهفتكين والأسرى الى القاهرة ، فاصطنعه ومن معه ، وأحسن اليه غاية الاحسان ، وأنزله فى دار وواصله بالعطاء والخلع ، حتى قال : لقد احتشمت من ركوبى مع مولانا العزيز بالله وتطوفى اليه ، بما غمرنى من فضله واحسانه .

(*) ص٩٠ جـ٢ ، طـ.بولاق .

فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة : ياعم ، والله انى أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى .

وبلغ العزيز أن الناس من العامة يقولون : ماهذا التركى ؟ فأمر به فشهر فى أجمل حال . ولما رجع من تطوفه ، وهب له مالا جزيلا ، وخلع عليه ، وأمر سائر الأولياء بأن يدعوه الى دورهم . فما منهم الا من عمل له دعوة ، وقدم اليه ، وقاد بين يديه الخيول .

ثم ان العزيز قال له بعد ذلك : كيف رأيت دعوات أصحابنا ؟

فقال : يامولانا حسنة فى الغاية ، وما فيهم الا من أنعم وأكرم .

فصار يركب للصيد والتفرج ، وجمع اليه العزيز بالله أصحابه من الأتراك والديلم ، واستحجبه واختص به . وما زال على ذلك الى أن توفى فى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة . فاتهم العزيز وزيره يعقوب بن كلس أنه سمه لأنه (هفتكين) كان يترفع عليه ، فاعتقله مدة ثم أخرجه .

« حارة الأتراك » : هذه الحارة تجاه الجامع الأزهر ، وتعرف اليوم بدرب الأتراك ، وكان نافذا الى حارة الديلم . والوراقون القدماء تارة يفردونها من حارة الديلم ، وتارة يضيفونها اليها ويجعلونها من حقوقها . فيقولون تارة : حارة الديلم والأتراك ، وتارة يقولون : حارتى الديلم والأتراك .

وقيل لها حارة الأتراك لأن هفتكين لما غلب ببغداد ، سار معه من جنسه أربعمائة من الأتراك ، وتلاحق به عند ورود القرامطة عليه بدمشق عدة من أصحابه ، فلما جمع لحرب العزيز بالله كان أصحابه ما بين ترك وديلم .

فلما قبض عليه العزيز ، ودخل به الى القاهرة فى الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وستين وثلثمائة كما تقدم ، نزل الديلم مع أصحابهم فى موضع حارة الديلم ، ونزل هفتكين بأتراكه فى هذا المكان فصار يعرف بحارة الأتراك .

وكانت مختلطة بحارة الديلم لأنهما أهل دعوة واحدة ، الا أن كل جنس على حدة لتخالفهما فى الجنسية ، ثم قيل بعد ذلك درب الأتراك .

« حارة كتامة » : هذه الحارة مجاورة لحارة الباطلية ، وقد صارت الآن من جملتها . كانت منازل كتامة بها عندما قدموا من المغرب مع القائد جوهر ثم مع العزيز . وموضع هذه الحارة اليوم حمام كواى وما جاورها مما وراء مدرسة ابن الغنام — حيث الموضع المعروف بدرب ابن الأعسر الى رأس الباطلية — وكانت كتامة هى أصل دولة الخلفاء الفاطميين .

ذكر ابى عبد الله الشيعى

هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى ، من أهل صنعاء اليمن ، ولى الحسبة فى بعض أعمال بغداد ، ثم سار الى ابن حوشب باليمن ، وصار من كبار أصحابه ، وكان له علم وفهم ، وعنده دهاء ومكر .

فورد على ابن حوشب موت الحلوانى داعى المغرب ورفيقه ، فقال لأبى عبد الله الشيعى : ان أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر فانها موطأة ممهدة لك .

فخرج من اليمن الى مكة ، وقد زوده ابن حوشب بمال * ، فسأل عن حجاج كتامة فأرشد اليهم ، واجتمع بهم وأخفى عنهم قصده . وذلك أنه جلس قريبا منهم فسمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت ، فحدثهم فى ذلك وأطال ، ثم نهض ليقوم ، فسألوه أن يأذن لهم فى زيارته فأذن لهم ، فصاروا يترددون اليه لما رأوا من علمه وعقله .

ثم انهم سألوه : أين يقصد ؟

فقال : أريد مصر .

فسروا بصحبته ورحلوا من مكة ، وهو لا يخبرهم شيئا من خبره وما هو عليه من القصد ، وشاهدوا منه عبادة وورعا وتحرجا وزهادة . فقويت رغبتهم فيه ، واشتملوا على محبته ، واجتمعوا على اعتقاده ، وساروا بأسرهم خدما له .

وهو فى أثناء ذلك يستخبرهم عن بلادهم ، ويعلم أحوالهم ، ويفحص عن قبائلهم ، وكيف طاعتهم للسلطان بأفريقية . فقالوا له : ليس له علينا طاعة ، وبيننا وبينه عشرة أيام .

قال : أتحملون السلاح ؟

قالوا : هو شغلنا .

وما برح حتى عرف جميع ما هم عليه .

فلما وصلوا الى مصر أخذ يودعهم . فشق عليهم فراقه ، وسألوه عن حاجته بمصر ، فقال : ما لى بها من حاجة الا أنى أطلب التعليم بها .

قالوا : فأما اذا كنت تقصد هذا ، فان بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ، ونحن أعرف بحقك . وما زالوا به حتى أجابهم الى المسير معهم .

فساروا به الى أن قاربوا بلادهم ، وخرج الى لقائهم أصحابهم — وكان عندهم حس كبير من التشيع ، واعتقاد عظيم فى محبة أهل البيت كما قرره الحلوانى — فعرفهم القوم خبر أبى عبد الله ، فقاموا بحق تعظيمه واجلاله ، ورغبوا فى نزوله عندهم ، واقترعوا فيمن يضيفه .

ثم ارتحلوا الى أرض كتامة ، فوصلوا اليها منتصف الربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائتين ، فما منهم الا من سأله أن يكون منزله عنده ، فلم يوافق أحدا منهم وقال : أين يكون فج الأخيار ؟

فعجبوا من ذلك ، ولم يكونوا قط ذكروه له منذ صحبوه ، فدلوه عليه فقصده وقال : اذا حللنا به صرنا نأتى كل قوم منكم فى ديارهم ، ونزورهم فى بيوتهم . فرضوا جميعا بذلك .

وسار الى جبل أيلحان وفيه فج الأخيار ، فقال : هذا فج الأخيار وما سمى الا بكم ، ولقد جاء فى الآثار للمهدى هجرة ينبو بها عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ، ولخروجكم فى هذا الفج سمى فج الأخيار .

(*) ص١٠ ج٢ ، ط. بولاق .

فتسامعت به القبائل ، وأتته البربر من كل مكان ، وعظم أمره حتى أن كتامة اقتتلت عليه مع قبائل البربر ، وهو لا يذكر اسم المهدى ولا يعرج عليه . فبلغ خبره ابراهيم بن الأغلب أمير افريقية ، فقال أبو عبد الله لكتامة : أنا صاحب البذر الذى قال لكم أبو سفيان والحلوانى .

فازدادت محبتهم له ، وعظم أمره فيهم ، وأتته القبائل من كل مكان . وسار الى مدينة ناصروق ، وجمع الخيل ، وصير أمرها للحسن ابن هارون كبير كتامة ، وخرج للحرب فظفر وغنم ، وعمل على ناصروق خندقا . فرجعت اليه قبائل من البربر وحاربوه ، فظفر بهم وصارت اليه أموالهم ، ووالى الغزو فيهم حتى استقام له أمرهم ، فسار وأخذ مدائن عدة .

فبعث اليه ابن الأغلب بعساكر كانت له معهم حروب عظيمة وخطوب عديدة ، وأنباء كثيرة آلت الى غلب أبى عبد الله وانتشار أصحابه من كتامة فى البلاد ، فصار يقول : المهدى يخرج فى هذه الأيام ويملك الأرض ، فياطوبى لمن هاجر الى وأطاعنى .

وأخذ يغرى الناس بابن الأغلب ، ويذكر كرامات المهدى وما يفتح الله له ، ويعدهم بأنهم يملكون الأرض كلها .

وسير الى عبيد الله بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح الله له ، وأنه ينتظره فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص ، وكان قد اشتهر بها ، وطلبه الخليفة المكتفى ، ففر منه بابنه أبى القاسم وسار الى مصر ، وكان لهما قصص مع النوشرى عامل مصر حتى خلصا منه ، ولحقا ببلاد المغرب .

وبلغ ابن الأغلب زيادة الله خبر مسير عبيد الله ، فأزكى له العيون ، وأقام له الأعوان حتى قبض عليه بسلجماسة — وكان عليها اليسع ابن مدرار — وحبس بها هو وابنه أبو القاسم .

وبلغ ذلك أبا عبد الله ، وقد عظم أمره ، فسار وضايق زيادة الله بن الأغلب ، وأخذ مدائنه شيئا بعد شىء ، وصار فيما ينيف على مائتى ألف ، وألح على القيروان حتى فر زيادة الله الى مصر ، وملكها أبو عبد الله ، ثم سار الى رقادة فدخلها أول رجب سنة ست وتسعين ومائتين ، وفرق الدور على كتامة ، وبعث العمال الى البلاد ، وجمع الأموال ، ولم يخطب باسم أحد .

فلما دخل شهر رمضان سار من رقادة ، فاهتز لرحيله المغرب بأسره ، وخافته زناتة وغيرها وبعثوا اليه بطاعتهم ، وسار الى سلجماسة ، ففر منه اليسع بن مدرار واليها ، ودخل البلد فأخرج عبيد الله وابنه من السجن ، وقال : هذا المهدى الذى كنت أدعوكم اليه .

وأركبه هو وابنه ، ومشى بسائر رؤساء القبائل بين أيديهما وهو يقول : هذا مولاكم ، ويبكى من شدة الفرح حتى وصل الى فسطاط ضرب له فأنزل فيه ، وبعث فى طلب اليسع ، فأدركه ، وحمل اليه فضربه بالسياط وقتله .

ثم سار المهدى الى رقادة ، فصار بها فى آخر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين .

ولما تمكن قتل أبا عبد الله وأخاه فى يوم الاثنين للنصف من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائتين ، فكان هذا ابتداء أمر الخلفاء الفاطميين * .

وما زالت كتامة هى أهل الدولة مدة خلافة المهدى عبيد الله ، وخلافة ابنه القاسم القائم بأمر الله ، وخلافة المنصور بنصر الله اسماعيل ابن القاسم ، وخلافة معد المعز لدين الله ابن المنصور . وبهم أخذ ديار مصر لما سيرهم اليها مع القائد جوهر فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وهم أيضا كانوا أكابر من قدم معه من المغرب فى سنة اثنتين وستين وثلثمائة .

فلما كان فى أيام ولده العزيز بالله نزار ، اصطنع الديلم والأتراك ، وقدمهم وجعلهم خاصته ، فتنافسوا وصار بينهم وبين كتامة تحاسد . الى أن مات العزيز بالله ، وقام من بعده أبو على المنصور الملقب بالحاكم بأمر الله ، فقدم ابن عمار الكتامى ، وولاه الوساطة — وهى فى معنى رتبة الوزارة — فاستبد بأمور الدولة ، وقدم كتامة وأعطاهم ، وحط من الغلمان الأتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز .

فاجتمعوا الى برجوان — وكان صقليا وقد تاقت نفسه الى الولاية — فأغرى المصطنعة بابن عمار حتى وضعوا منه واعتزل عن الأمر ، وتقلد برجوان الوساطة ، فاستخدم الغلمان المصطنعين فى القصر ، وزاد فى عطاياهم وقواهم . ثم قتل الحاكم ابن عمار وكثيرا من رجال دولة أبيه وجده ، فضعفت كتامة ، وقويت الغلمان .

فلما مات الحاكم ، وقام من بعده ابنه الظاهر لاعزاز دين الله على ، أكثر من اللهو ، ومال الى الأتراك والمشارقة ، فانحط جانب كتامة ، وما زال ينقص قدرهم ويتلاشى أمرهم ... حتى ملك المستنصر بعد أبيه الظاهر ، فاستكثرت أمه من العبيد حتى يقال انهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود ، واستكثر هو من الأتراك ، وتنافس كل منهما مع الآخر ، فكانت الحرب التى آلت الى خراب مصر وزوال بهجتها .

الى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ، وقتل رجال الدولة ، وأقام له جندا وعسكرا من الأرمن ، فصار من حينئذ معظم الجيش الأرمن ، وذهبت كتامة ، وصاروا من جملة الرعية ، بعد ما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها .

« حارة الصالحية » : عرفت بغلمان الصالح طلائع بن رزيك ، وهى موضعان : الصالحية الكبرى ، والصالحية الصغرى . وموضعهما فيما بين المشهد الحسينى ورحبة الأيدمرى وبين البرقية . وكانت من الحارات العظيمة ، وقد خربت الآن ، وباقيها متداع الى الخراب .

قال ابن عبد الظاهر : الحارة الصالحية منسوبة الى الصالح طلائع بن رزيك ، لأن غلمانه كانوا يسكنونها ، وهى مكانان . وللصالح دار بحارة الديلم كانت سكنه قبل الوزارة ، وهى باقية الى الآن ، وبها بعض ذريته . والمكان المعروف بخوخة الصالح نسبة اليه .

(*) ص١١ جـ٢ ، ط . بولاق .

« حارة البرقية » : هذه الحارة عرفت بطائفة من طوائف العسكر فى الدولة الفاطمية يقال لها الطائفة البرقية ... ذكرها المسبحى .

قال ابن عبد الظاهر : ولما نزل بالقاهرة (يعنى المعز لدين الله) اختطت كل طائفة خطة عرفت بها . قال : واختطت جماعة من أهل برقة الحارة المعروفة بالبرقية . انتهى .

والى هذه الحارة تنسب الأمراء البرقية .

ذكر الأمراء البرقية ووزارة ضرغام

وذلك أن الصالح طلائع بن رزيك كان قد أنشأ فى وزارته أمراء يقال لهم البرقية ، وجعل ضرغاما مقدمهم . فترقى حتى صار صاحب الباب ، وطمع فى شاور السعدى لما ولى الوزارة بعد رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك ، فجمع رفقته ، وتخوف شاور منه ، وصار العسكر فرقتين : فرقة مع ضرغام ، وفرقة مع شاور .

فلما كان بعد تسعة أشهر من وزارة شاور ، ثار ضرغام فى رمضان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وصاح على شاور فأخرجه من القاهرة ، وقتل ولده الأكبر المسمى بطى ، وبقى شجاع المنعوت بالكامل . وخرج شاور من القاهرة يريد الشام كما فعل الوزير رضوان بن ولخشى ، فانه كان رفيقا له فى تلك الكرة .

واستقر ضرغام فى وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد شاور ، وتلقب بالملك المنصور . فشكر الناس سيرته ، فانه كان فارس عصره ، وكان كاتبا جميل الصورة ، فكه المحاضرة ، عاقلا كريما ، لا يضع كرمه الا فى سمعة ترفعه أو مداراة تنفعه . الا أنه كان أذنا مستحيلا على أصحابه ، واذا ظن فى أحد شرا جعل الشك يقينا ، وعجل له العقوبة .

وغلب عليه مع ذلك فى وزارته أخواه ناصر الدين همام وفخر الدين حسام ، وأخذ يتنكر لرفقته البرقية الذين قاموا بنصرته ، وأعانوه على اخراج شاور وتقليده للوزارة ، من أجل أنه بلغه عنهم أنهم يحسدونه ويضعون منه ، وأن منهم من كاتب شاور وحثه على القدوم الى القاهرة ووعده بالمعاونة له .

فأظلم الجو بينه وبينهم ، وتجرد للايقاع بهم على عادته فى أسرع العقوبة ، وأحضرهم اليه فى دار الوزارة ليلا ، وقتلهم بالسيف صبرا ، وهم : صبح بن شاهنشاه ، والطهر مرتفع المعروف بالجلواص ، وعين الزمان ، وعلى بن الزبد ، وأسد الفازى ، وأقاربهم وهم نحو من سبعين أميرا سوى أتباعهم ، فذهبت لذلك رجال الدولة ، واختلت أحوالها وضعفت بذهاب أكابرها ، وفقد أصحاب الرأى والتدبير .

وقصد الفرنج ديار مصر ، فخرج اليهم همام أخو ضرغام وانهزم منهم ، وقتل منهم عدة ، ونزلوا * على حصن بلبيس ، وملكوا بعض السور ثم ساروا . وعاد همام عودا رديئا ، فبعث به ضرغام الى الاسكندرية وبها الأمير مرتفع الجلواص ، فأخذه العرب ، وقاده همام الى أخيه فضرب عنقه وصلبه على باب زويلة .

(*) ص١٢ جـ٢ ، ط . بولاق .

فما هو الا أن قدم رسل الفرنج على ضرغام فى طلب مال الهدنة المقرر فى كل سنة ، وهو ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، واذا بالخبر قد ورد بقدوم شاور من الشام ، ومعه أسد الدين شيركوه فى كثير من الغز . فأزعجه ذلك ، وأصبح الناس يوم التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة خائفين على أنفسهم وأموالهم ، فجمعوا الأقوات والماء وتحولوا من مساكنهم .

وخرج همام بالعسكر أول يوم من جمادى الآخرة ، فسار الى بلبيس ، وكانت له وقعة مع شاور انهزم فيها ، وصار الى شاور وأصحابه جميع ما كان مع عسكر همام وأسروا عدة . ونزل شاور بمن معه الى التاج ظاهر القاهرة فى يوم الخميس سادس جمادى الآخرة . فجمع ضرغام الناس ، وضم اليه طائفة الريحانية والطائفة الجيوشية بداخل القاهرة ، وشاور مقيم بالتاج مدة أيام وطوالعه من العربان ، فطارد عسكر ضرغام بأرض الطبالة خارج القاهرة .

ثم سار شاور ونزل بالمقس ، فخرج اليه عسكر ضرغام وحاربوه ، فانهزم هزيمة قبيحة ، وسار الى بركة الحبش ، ونزل بالشرف الذى يعرف اليوم بالرصد ، وملك مدينة مصر ، وأقام بها أياما . فأخذ ضرغام مال الأيتام الذى كان بمودع الحكم ، فكرهه الناس واستعجزوه ، ومالوا مع شاور . فتنكر منهم ضرغام ، وتحدث بايقاع العقوبة بهم ، فزاد بغضهم له .

ونزل شاور فى أرض اللوق خارج باب زويلة ، وطارد رجال ضرغام ، وقد خلت المنصورة والهلالية ، وثبت أهل اليانسية بها ، وزحف الى باب سعادة وباب القنطرة ، وطرح النار فى اللؤلؤة وما حولها من الدور . وعظمت الحروب بينه وبين أصحاب ضرغام ، وفنى كثير من الطائفة الريحانية ، فبعثوا الى شاور ووعدوه بأنهم عون له ، فانحل أمر ضرغام ، فأرسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمى ، فخرج الرجال الى شاور ، وصاروا من جملته .

وفترت همة أهل القاهرة ، وأخذ كل منهم يعمل الحيلة فى الخروج الى شاور . فأمر ضرغام بضرب الأبواق لتجتمع الناس ، فضربت الأبواق والطبول ما شاء الله من فوق الأسوار ، فلم يخرج اليه أحد ، وانفك عنه الناس ، فسار الى باب الذهب من أبواب القصر ومعه خمسمائة فارس ، فوقف وطلب من الخليفة أن يشرف عليه من الطاق ، وتضرع اليه وأقسم عليه بآبائه ، فلم يجبه أحد . واستمر واقفا الى العصر ، والناس تنحل عنه حتى بقى فى نحو ثلاثين فارسا ، فوردت عليه رقعة فيها « خذ نفسك وانج بها » .

واذا بالأبواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر شاور ، فمر ضرغام الى باب زويلة ، فصاح الناس عليه ولعنوه وتخطفوا من معه ، وأدركه القوم فأردوه عن فرسه قريبا من الجسر الأعظم فيما بين القاهرة ومصر ، واحتزوا رأسه فى سلخ جمادى الآخرة ، وفر منهم أخوه الى جهة المطرية ، فأدركه الطلب ، وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة ، وقتل أخوه الآخر عند بركة الفيل ، فصار حينئذ ضرغام ملقى يومين ، ثم حمل الى القرافة ودفن بها

وكانت وزارته تسعة أشهر ، وكان من أجل أعيان الأمراء ، وأشجع فرسانهم وأجودهم لعبا بالكرة ، وأشدهم رميا بالسهام ، ويكتب مع ذلك كتابة ابن مقلة ، وينظم الموشحات الجيدة .

ولما جىء برأسه الى شاور ، رفع على قناة وطيف به ، فقال الفقيه عمارة :

أرى جنك الوزارة صار سيفا
يحز بحده جيد الرقاب
كأنك رائد البلوى والا
بشير بالمنية والمصاب

فكان كما قال عمارة ، فان البلايا والمنايا من حينئذ تتابعت على دولة الخلفاء الفاطميين حتى لم يبق منهم عين تطرف . ولله عاقبة الأمور .

« حارة العطوفية » : هذه الحارة تنسب الى طائفة من طوائف العسكر يقال لها العطوفية .

وقال ابن عبد الظاهر : العطوفية منسوبة لعطوف ، أحد خدام القصر ، وهو عطوف غلام الطويلة ، وكان قد خدم ست الملك أخت الحاكم .

قال : وسكنت (يعنى الطائفة الجيوشية) بحارة العطوفية بالقاهرة .

ولله در الأديب ابراهيم المعمار اذ يقول مواليا يشتمل على ذكر حارات القاهرة ، وفيها تورية :

فى الجودرية رأيت صورة هلاليه
للباطلية تميل لا للعطوفيه
لها من اللؤلؤة ثغرين منشيه
ان حركوا وجهها بنت الحسينيه

وكانت العطوفية من أجل مساكن القاهرة ، وفيها من الدور العظيمة والحمامات والأسواق والمساجد ما لا يدخل تحت حصر ، وقد خربت كلها ، وبيعت أنقاضها وبيوتها ومنازلها ، وأضحت أوحش من وتد عير فى قاع .

وعطوف هذا كان خادما أسود . قتله الحاكم بجماعة من الأتراك وقفوا له فى دهليز القصر ، واحتزوا رأسه فى يوم الأحد لاحدى * عشرة خلت من صفر سنة احدى وأربعمائة ... قاله المسيحى .

« حارة الجوانية » : كان يقال لهذه الحارة أولا حارة الروم الجوانية ، ثم ثقل على الألسنة ذلك ، فقال الناس : الجوانية . وكان أيضا يقال لها حارة الروم العليا المعروفة بالجوانية :

وقال المسيحى ، وقد ذكر ما كتبه أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الأمانات فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة : وذكر أنه كتب أمانا للعرافة الجوانية . فدل أنه كان من جملة الطوائف قوم يعرفون بالجوانية .

قال ابن عبد الظاهر : قال لى مؤلفه القاضى زين الدين وفقه الله : ان الجوانية منسوبة للأشراف الجوانيين . منهم الشريف النسابة الجوانى .

(*) ص١٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

قال مؤلفه رحمه الله : فعلى هذا يكون بفتح الجيم . فان الجوانى – بفتح الجيم وتشديد الواو وفتحها وبعد الواو ألف ساكنة ثم نون – نسبة الى جوانٌ على وزن حرانٌ ، وهى قرية من عمل مدينة طيبة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وعلى القول الأول تكون الجوانية بفتح الجيم أيضا مع فتح الواو وتشديدها . فان أهل مصر يقولون لما خرج عن المدينة أو الدار « برا » ولما دخل « جوا » بضم الجيم ، وهو خطأ . ولهذا كان الوراقون يكتبون حارة الروم البرانية لأنها من خارج القصر ، ويكتبون حارة الروم الجوانية لأنها من داخل القاهرة ، ولا يصار اليها الا بعد المرور على القصر . وكان موضعها اذ ذاك من وراء القصر خلف دار الوزارة والحجر ، فكأنها فى داخل البلد .

ولذلك أصل ... قال ابن سيده فى مادة « ج و » من كتاب المحكم : « وجوا البيت داخله ... لفظة شامية » فتعين فتح الجيم من الجوانية ، ولا عبرة بما تقوله العامة عن ضمها .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى ابن الحسن بن محمد الجوانى ابن عبيد الله الجوانى ابن حسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب : وقيل لمحمد بن عبد الله « الجوانى » بسبب ضيعة من ضياع المدينة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، يقال لها الجوانية .

وكانت تسمى البصرة الصغرى لخيراتها وغلالها ، لا يطلب شىء الا وجد بها ، وهى قرية من « صرار » ضيعة الامام أبى جعفر محمد بن على الرضى .

وكانت الجوانية ضيعة لعبيد الله فتوفى عنها ، فورثها بعده ولده وأزواجه ، فاشترى محمد الجوانى ولده – بما حصل له بالميراث – الباقى من الورثة ، فحصلت له كاملة فعرف بها ، فقيل الجوانى .

قال : ولم تزل أجداد مؤلفه ببغداد الى حين قدوم ولده أسعد النحوى مع أبيه من بغداد الى مصر . ومولده بالموصل فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

« حارة البستان » : ويقال لها حارة بستان المصمودى ، وحارة الأكراد أيضا ، وهى الآن من جملة الوزيرية التى تقدم ذكرها .

« حارة المرتاحية » : هذه الحارة عرفت بالطائفة المرتاحية احدى طوائف العسكر . قال ابن عبد الظاهر : خط باب القنطرة يعرف فى كتب الأملاك القديمة بالمرتاحية .

« حارة الفرحية » بالحاء المهملة : كانت سكن الطائفة الفرحية ، وهى بجوار حارة المرتاحية . فالى يومنا هذا ، فيما بين سويقة أمير الجيوش وباب القنطرة ، زقاق يعرف بدرب الفرحية .

والفرحية كانت طائفة من جملة عبيد الشراء ، وكانت عبيد الشراء عدة طوائف ، وهم : الفرحية ، والجسينية ، والميمونية ، ينسبون الى ميمون ، وهو أحد الخدام .

« حارة فرج » بالجيم : كانت تعرف قديما بدرب النميرى ، ثم عرفت بالأمير جمال الدين

فرج من أمراء بنى أيوب ، وهى الآن داخلة فى درب الطفل من خط قصر الشوك .

« حارة قائد القواد » : هذه الحارة تعرف الآن بدرب ملوخيا ، وكانت أولا تعرف بحارة قائد القواد ، لأن حسين بن جوهر – الملقب قائد القواد – كان يسكن بها فعرفت به .

وهو حسين بن القائد جوهر أبو عبد الله الملقب بقائد القواد . لما مات أبوه جوهر القائد خلع العزيز بالله عليه ، وجعله فى رتبة أبيه ، ولقبه بالقائد ابن القائد ، ولم يتعرض لشىء مما تركه جوهر .

فلما مات العزيز ، وقام من بعده ابنه الحاكم ، استدناه ، ثم انه قلده البريد والانشاء فى شوال سنة ست وثمانين وثلثمائة ، وخلع عليه ، وحمله على فرس بموكب وقاد بين يديه عدة أفراس ، وحمل معه ثيابا كثيرة . فاستخلف أبا منصور بشر بن عبيد الله بن سورين الكاتب النصرانى على كتابة الانشاء ، واستخلف على أخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم أمير الدولة الموصلى .

ولما تقلد برجوان النظر فى تدبير الأمور ، وجلس للوساطة بعد ابن عمار ، كان الكافة يلقونه فى داره ، ويركبون جميعا بين يديه من داره الى القصر . ما خلا القائد حسين ومحمد ابن النعمان القاضى ، فانهما كانا يسلمان عليه بالقصر فقط .

فلما قتل الحاكم الأستاذ برجوان كما تقدم ، خلع على القائد حسين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة تسعين وثلثمائة ثوبا أحمر وعمامة زرقاء مذهبة ، وقلده سيفا محلى بذهب ، وحمله على فرس بسرج ولجام من ذهب ، وقاد بين يديه ثلاثة أفراس بمراكبها ، وحمل معه خمسين ثوبا صحاحا من كل نوع ، ورد اليه التوقيعات والنظر فى أمور الناس ، وتدبير المملكة كما كان برجوان ، ولم يطلق عليه اسم وزير .

فكان يبكر الى القصر ، ومعه خليفته الرئيس أبو العلاء فهد بن ابراهيم النصرانى كاتب برجوان * ، فينظران فى الأمور ، ثم يدخلان وينهيان الحال الى الخليفة ، فيكون القائد جالسا ، وفهد من خلفه قائما .

ومنع القائد الناس أن يلقوه فى الطريق ، أو يركبوا اليه فى داره ، وان من كان له حاجة فليلقه اياها بالقصر ، ومنع الناس من مخاطبته فى الرقاع بسيدنا ، وأمر ألا يخاطب ولا يكاتب الا بالقائد فقط ، وتشدد فى ذلك لخوفه من غيرة الحاكم .

حتى انه رأى جماعة من القواد الأتراك قياما على الطريق ينتظرونه ، فأمسك عنان فرسه ، ووقف وقال لهم : كلنا عبيد مولانا صلوات الله عليه ومماليكه ، ولست والله أبرح من موضعى أو تنصرفوا عنى ، ولا يلقانى أحد الا فى القصر . فانصرفوا .

وأقام بعد ذلك خدما من الصقالبة الطرادين على الطريق بالنوبة ، لمنع الناس المجىء الى داره ومن لقائه الا فى القصر ، وأمر أبا الفتوح مسعود الصقلبى صاحب الستر أن يوصل الناس بأسرهم الى الحاكم ، وألا يمنع أحدا عنه .

(*) ص١٤ ج٢ ، ط.بولاق .

فلما كان فى سابع عشر جمادى الآخرة ، قرىء سجل على سائر المنابر بتلقيب القائد حسين بقائد القواد ، وخلع عليه .

وما زال الى يوم الجمعة سابع شعبان سنة ثمان وتسعين وثلثمائة . فاجتمع سائر أهل الدولة فى القصر بعدما طلبوا ، وخرج الأمر اليهم ألا يقام لأحد ، وخرج خادم من عند الخليفة فأسر الى صاحب الستر كلاما ، فصاح : صالح بن على .

فقام صالح بن على الروذباذى ، متقلد ديوان الشام ، فأخذ صاحب الستر بيده وهو لا يعلم هو ولا أحد ما يراد به ، فأدخل الى بيت المال ، وأخرج وعليه دراعة مصمتة وعمامة مذهبة ومعه مسعود ، فأجلسه بحضرة قائد القواد ، وأخرج سجلا قرأه ابن عبد السميع الخطيب ، فاذا فيه رد سائر الأمور التى ينظر فيها قائد القواد حسين بن جوهر اليه ، فعندما سمع من السجل ذكره قام وقبل الأرض ، فلما انتهت قراءة السجل قام قائد القواد ، وقبل خد صالح وهناه وانصرف .

فكان يركب الى القصر ، ويحضر الأسمطة الى اليوم الثالث من شوال ، أمره الحاكم أن يلزم داره هو وصهره قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان ، وألا يركبا هما وسائر أولادهما . فلبسا الصوف ، ومنع الناس من الاجتماع بهما ، وصاروا يجلسون على حصر .

فلما كان فى تاسع عشر ذى القعدة ، عفا عنهما الحاكم ، وأذن لهما فى الركوب . فركبا الى القصر بزيهما من غير حلق شعر ولا تغيير حال الحزن

فلما كان فى حادى عشر جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، قبض على عبد العزيز ابن النعمان ، وطلب حسين بن جوهر ففر هو وابنه فى جماعة ، وكثر الصياح بدار عبد العزيز ، وغلقت حوانيت القاهرة وأسواقها ، فأفرج عنه ونودى : ألا يغلق أحد

فرد حسين بعد ثلاثة أيام بابنيه ، وتمثلوا بحضرة الحاكم ، فعفا عنهم ، وأمرهم بالمسير الى دورهم بعد أن خلع على حسين وعلى صهره عبد العزيز وعلى أولادهما ، وكتب لهما أمانان . ثم أعيد عبد العزيز فى شهر رمضان الى ما كان يتقلده من النظر فى المظالم .

ثم رد الحاكم ، فى شهر ربيع الأول سنة أربعمائة ، على حسين بن جوهر وأولاده وصهره عبد العزيز ما كان لهم من الاقطاعات ، وقرىء لهم سجل بذلك .

فلما كان ليلة التاسع من ذى القعدة ، فر حسين بأولاده وصهره وجميع أموالهم وسلاحهم . فسير الحاكم الخيل فى طلبهم نحو دجوة فلم يدركهم ، وأوقع الحوطة على سائر دورهم ، وجعلت للديوان المفرد — وهو ديوان أحدثه الحاكم يتعلق بما يقبض من أموال من يسخط عليه — وحمل سائر ما وجد لهم بعد ما ضبط

وخرجت العساكر فى طلب حسين ومن معه ، وأشيع أنه قد صار الى بنى قرة بالبحيرة ، فأنفذت اليه الكتب بتأمينه واستدعائه الى الحضور ، فأعاد الجواب : بأنه لا يدخل

ما دام أبو نصر بن عبدون النصرانى الملقب بالكافى ، ينظر فى الوساطة ، ويوقع عن الخليفة ، فانى أحسنت اليه أيام نظرى ، فسعى بى الى أمير المؤمنين ، ونال منى كل منال ، ولا أعود أبدا وهو وزير .

فصرف ابن عبدون فى رابع المحرم سنة احدى وأربعمائة ، وقدم حسين بن جوهر ومعه عبد العزيز بن النعمان وسائر من خرج معهما . فخرج جميع أهل الدولة الى لقائه ، وتلقته الخلع فأفيضت عليه وعلى أولاده وصهره ، وقيد بين أيديهم الدواب . فلما وصلوا الى باب القاهرة ترجلوا ومشوا ، ومشى الناس بأسرهم الى القصر فصاروا بحضرة الحاكم .

ثم خرجوا وقد عفا عنهم ، وأذن لحسين أن يكاتب بقائد القواد ، ويكون اسمه تاليا للقبه ، وأن يخاطب بذلك . وانصرف الى داره ، فكان يوما عظيما ، وحمل اليه جميع ما قبض له من مال وعقار وغيره ، وأنعم عليه ، وواصل الركوب هو وعبد العزيز بن النعمان الى القصر .

ثم قبض عليه وعلى عبد العزيز ، واعتقلا ثلاثة أيام ، ثم حلفا أنهما لا يغيبان عن الحضرة ، وأشهدا على أنفسهما بذلك ، وأفرج عنهما ، وحلف لهما الحاكم فى أمان كتبه لهما .

فلما كان فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة احدى وأربعمائة ، ركب حسين وعبد العزيز على رسمهما الى القصر . فلما خرج للسلام على الناس قيل للحسين وعبد العزيز وأبى على أخى الفضل اجلسوا لأمر تريده الحضرة منكم .

فجلس الثلاثة ، وانصرف الناس * ، فقبض عليهم وقتلوا فى وقت واحد ، وأحيط بأموالهم وضياعهم ودورهم ، وأخذت الأمانات والسجلات التى كتبت لهم ، واستدعى أولاد عبد العزيز بن النعمان وأولاد حسين بن جوهر ، ووعدوا بالجميل وخلع عليهم وجملوا . والله يفعل ما يشاء .

« حارة الأمراء » : ويقال لها أيضا حارة الأمراء الأشراف الأقارب ، وموضعها يعرف بدرب شمس الدولة ، وسيأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

« حارة الطوارق » : ويقال لها أيضا حارة صبيان الطوارق ، وهم من جملة طوائف العسكر ، كانوا معدين لحمل الطوارق . وموضع هذه الحارة فى طريق من سلك من الرقيق سوق الخلعيين داخل باب زويلة طالبا الباطلية ، بالزقاق الطويل الضيق الذى يقال له اليوم حلق الجمل ، السالك الى درب أرقطاى .

« حارة الشرابية » : عرفت بذلك لأنها كانت موضع سكن الغلمان الشرابية احدى طوائف العسكر ، وكانت فيما بين الباطلية وحارة الطوارق .

« حارة الدميرى وحارة الشامين » : هما من جملة العطوفية .

(*) ص١٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

« حارة المهاجرين » : وموضعها الآن من جملة المكان الذى يعرف بالرقيق المعد لسوق الخلعيين بجوار باب زويلة ، وكان بعد ذلك سوق الخشابين ، ثم هو الآن سوق الخلعيين .

وموضع هذه الحارة بجوار الخوخة التى كانت تعرف بالشيخ السعيد بن قشيرة النصرانى الكاتب ، وهى الخوخة التى يسلك اليها من الزقاق المقابل لحمام الفاضل المعد لدخول النساء ، ويتوصل منها الى درب كوز الزير بحارة الروم . وقد صارت هذه الحارة تعرف بدرب ابن المجندار ، وسيأتى ذكره ان شاء الله .

« حارة العدوية » : قال ابن عبد الظاهر : العدوية هى من باب الخشية الى أول حارة زويلة ، عند حمام الحمام الجلدكى الآن ، منسوبة لجماعة عدويين نزلوا هناك ، وهذا المكان اليوم هو عبارة عن الموضع الذى تلقاه عند خروجك من زقاق حمام خشية ، الذى يتوصل اليه من سوق باب الزهومة ، فاذا انتهيت الى آخر هذا الزقاق وأخذت على يمينك ، صرت فى حارة العدوية . وموضعها الآن من فندق بلال المغيثى الى باب سر المارستان .

وتدخل فى العدوية رحبة بيبرس التى فيها الآن فندق الرخام ، عن يمينك اذا خرجت فى الرحبة المذكورة — التى صارت الآن دربا — الى باب سر المارستان ، وما عن يسارك الى حمام الكريك وحمام الجوينى — الذى تقول له العامة الجينى — والى سوق الزجاجيين . وكل هذه المواضع هى من حقوق العدوية .

وكانت العدوية قديما واقعة فيما بين الميدان الذى يعرف اليوم بالخرشتف وحارة زويلة وبين سقيفة العداس والصاغة القديمة ، التى صار موضعها الآن سوق الحريريين الشرابشيين برأس الوراقين وسوق الزجاجيين .

« حارة العيدانية » : كانت تعرف أولا بحارة البديعيين ، ثم قيل لها بعد ذلك الحبانية ، من أجل البستان الذى يعرف بالحبانية ، الجارى فى وقف الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء . ويتوصل الى هذه الحارة من تجاه قنطرة آق سنقر ، وبعض دورها الآن يشرف على بستان الحبانية ، وبعضها يطل على بركة الفيل .

« حارة الحمزيين » : كانت أولا تعرف بالحبانية ، ثم قيل لها حارة الحمزيين من أجل أن جماعة من الحمزيين نزلوا بها : منهم الحاج يوسف بن فاتن الحمزى — والحمزيون أيضا ينسبون الى حمزة بن أدركة السارى . خرج بخراسان فى أيام هارون بن محمد الرشيد ، فعاث وأفسد ، وفض جموع عيسى ابن على عامل خراسان ، وقتل منهم خلقا ، وانهزم عيسى الى بابل ، ثم غرق حمزة بواد فى كرمان ، فعرفت طائفته بالحمزية — وأخوه ضرغام بن فاتن بن ساعد الحمزى ، والحاج عونى الطحان ابن يونس بن فاتن الحمزى ،

ورضوان بن يوسف بن فاتن الحمزى الحمامى ، وأخوه سالم بن يوسف بن فاتن الحمزى ، وكان هؤلاء بعد سنة ستمائة .

وهذه الحارة خارج باب زويلة .

ومن بلاد افريقية قرية يقال لها حمزى ، ينسب اليها محمد بن حمد بن خلف القيسى الحمزى من أهل القرية ، وقاضيها توفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، ولا يبعد أن تكون هذه الحارة نسبت الى أهل قرية حمزة هذه لنزولهم بها ، كنزول بنى سوس وكتامة وغيرهم فى المواضع التى نسبت اليهم .

« حارة بنى سوس » : عرفت بطائفة من المصامدة يقال لهم بنو سوس كانوا يسكنون بها .

« حارة اليانسية » : تعرف بطائفة من طوائف العسكر يقال لها اليانسية ، منسوبة لخادم خصى من خدام العزيز بالله ، يقال له أبو الحسن يانس الصقلى ، خلفه على القاهرة ، فلما مات العزيز أقره ابنه الحاكم بأمر الله على خلافة القصور ، وخلع عليه وحمله على فرسين .

فلما كان فى المحرم سنة ثمان وثمانين وثلثمائة سار لولاية برقة بعدما خلع عليه ، وأعطى خمسة آلاف دينار ، وعدة من الخيل والثياب .

قال ابن عبد الظاهر : اليانسية خارج باب زويلة . أظنها منسوبة ليانس وزير الحافظ لدين الله ، الملقب بأمير الجيوش سيف الاسلام ، ويعرف بيانس الفاصد ، وكان أرمنى الجنس ، وسمى الفاصد لأنه فصد الأمير حسن بن الحافظ ، وتركه محلولا فصاده حتى مات .

وله خبر غريب فى وفاته . كان الحافظ * قد نقم عليه أشياء طلب قتله بها باطنا ، فقال لطبيبه : اكفنى أمره بمأكل أو مشرب . فأبى الطبيب ذلك خوفا أن يصير عند الحافظ بهذه العين وربما قتله بها ، والحافظ يحثه على ذلك .

فاتفق ليانس الوزير المذكور أنه مرض بزحير ، وأن الحافظ خاطب الطبيب بذلك ، فقال : يامولاى قد أمكنتك الفرصة ، وبلغت مقصودك . ولو أن مولانا عاده فى هذه المرضة اكتسب حسن أحدوثة .

وهذه المرضة ليس دواؤه منها الا الدعة والسكون ، ولا شىء أضر عليه من الانزعاج والحركة . فبمجرد ما سمع بقصد مولانا له تحرك ، واهتم بلقاء مولانا وانزعج ، وفى ذلك تلاف نفسه . ففعل الخليفة ذلك ، وأطال الجلوس عنده ... فمات .

وهذا الخبر فيه أوهام : منها أنه جعل اليانسية منسوبة ليانس الوزير ، وقد كانت اليانسية قبل يانس هذا بمدة طويلة . ومنها أنه ادعى أن حسن بن الحافظ مات من فصادة ، وليس كذلك ، وانما مات مسموما . ومنها أنه زعم أن يانس تولى فصده ، وليس كذلك ، بل الذى تولى قتله بالسم أبو سعيد بن قرقة . ومنها أن الذى نقم عليه الحافظ من

(*) ص١٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

الأمراء فخانه فى ابنه حسن ، انما هو الأمير المعظم جلال الدين محمد المعروف بجلب راغب .

وهذا نص الخبر ، فنزه بالك ، والله تعالى أعلم .

ذكر وزارة ابى الفتح ناصر الجيوش يانس الارمنى

وكان من خبر ذلك أن الخليفة الآمر بأحكام الله أبا على منصورا لما قتله النزارية ، فى ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، أقام هزبر الملوك جوامرد العادل برغش الأمير أبا الميمون عبد المجيد فى الخلافة كفيلا للحمل الذى تركه الآمر ، ولقب بالحافظ لدين الله ، ولبس هزبر الملوك خلع الوزارة .

فثار الجند ، وأقاموا أبا على أحمد الملقب بكتيفات ، ولد الأفضل بن أمير الجيوش ، فى الوزارة . وقتل هزبر الملوك ، واستولى كتيفات على الآمر ، وقبض على الحافظ ، وسجنه بالقصر مقيدا الى أن قتل كتيفات فى المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة .

وبادر صبيان الخاص الذين تولوا قتله الى القصر ، ودخلوا ومعهم الأمير يانس متولى الباب الى الخزانة التى فيها الحافظ ، وأخرجوه الى الشباك ، وأجلسوه فى منصب الخلافة ، وقالوا له · والله ما حركنا على هذا الا الأمير يانس .

فجازاه الحافظ بأن فوض اليه الوزارة فى الحال وخلع عليه ، فباشرها مباشرة جيدة .

وكان عاقلا مهابا متمسكا متحفظا لقوانين الدولة . فلم يحدث شيئا ، ولا خرج عما يعينه الخليفة له . الا أنه بلغه عن أستاذ من خواص الخليفة شىء يكرهه ، فقبض عليه من القصر من غير مشاورة الخليفة ، وضرب عنقه بخزانة البنود . فاستوحش منه الخليفة وخشى من زيادة معناه ، وكانت هذه الفعلة غلطة منه .

ثم انه خاف من صبيان الخاص أن يفتكوا به كما فتكوا بكتيفات ، فتنكر لهم ، وتخوفوه أيضا . فركب فى خاصته وأركب العسكر ، وركب صبيان الخاص ، فكانت بينهما وقعة قبالة باب التبانين بين القصرين ، قوى فيها يانس ، وقتل من صبيان الخاص ما يزيد على ثلثمائة رجل من أعيانهم فيهم قتلة أبى على كتيفات ، وكانوا نحو الخمسمائة فارس ، فانكسرت شوكتهم ، وضعف جانبهم .

واشتد بأس يانس وعظم شأنه ، فثقل على الخليفة وتحيل منه ، فأحس بذلك ، فأخذ كل منهما فى التدبير على الآخر ، فأعجل يانس وقبض على حاشية الخليفة ، ومنهم قاضى القضاة وداعى الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح بن قادوس ، وقتلهما .

فاشتد ذلك على الحافظ ، ودعا طبيبه وقال : اكفنى أمر يانس . فيقال انه سمه فى ماء المستراح ، فانفتح دبره ، واتسع حتى ما بقى يقدر على الجلوس

فقال الطبيب · ياأمير المؤمنين قد أمكنتك الفرصة ، وبلغت مقصودك . فلو أن مولانا

عاده فى هذه المرضة اكتسب حسن الأحدوثة ، فان هذا المرض ليس له دواء الا الدعة والسكون ، ولا شىء عليه أضر من الحركة والانزعاج . وهو اذا سمع بقصد مولانا له تحرك ، واهتم للقاء وانزعج ، وفى ذلك تلاف نفسه . فنهض لعيادته .

وعندما بلغ ذلك يانس قام ليلقاه ، ونزل عن الفراش وجلس بين يدى الخليفة . فأطال الخليفة جلوسه عنده وهو يحادثه ، فلم يقم حتى سقطت أمعاء يانس ، ومات من ليلته فى سادس عشر ذى الحجة سنة ست وعشرين وخمسمائة .

وكانت وزارته تسعة أشهر وأياما ، وترك ولدين كفلهما الحافظ وأحسن اليهما .

وكان يانس هذا مولى أرمنيا لباديس جد عباس الوزير ، فأهداه الى الأفضل بن أمير الجيوش ، وترقى فى خدمته الى أن تأمر ، ثم ولى الباب — وهى أعظم رتب الأمراء — وكنى بأبى الفتح ، ولقب بالأمير السعيد . ثم لما ولى الوزارة نعت بناصر الجيوش سيف الاسلام ، وكان عظيم الهمة ، بعيد الغور ، كثير الشر ، شديد الهيبة .

ذكر الأمير حسن بن الخليفة الحافظ

ولما مات الوزير يانس ، تولى الخليفة الحافظ الأمور بنفسه ولم يستوزر أحدا ، وأحسن السيرة .

فلما كان فى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة عهد الى ولده سليمان — وكان أسن أولاده وأحبهم اليه — وأقامه مقام الوزير ، فمات بعد * شهرين من ولاية العهد ، فجعل مكانه أخاه حيدرة فى ولاية العهد ، ونصبه للنظر فى المظالم .

فشق ذلك على أخيه الأمير حسن — وكان كثير المال متسع الحال ، له عدة بلاد ومواش وحاشية وديوان مفرد — فسعى فى نقض ذلك بأن أوقع الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية ، وكانت الريحانية قوية الشوكة مهابة مخوفة الجانب .

فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين ، وصاح الجند : ياحسن يامنصور ياللحسينية . والتقى الفريقان فقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف نفس ، فكانت هذه الوقعة أول مصائب الدولة الفاطمية من فقد رجالها ونقص عساكرها ، فلم يبق من الطائفة الريحانية الا من نجا بنفسه من ناحية المقس ، وألقى نفسه فى بحر النيل .

واستظهر الأمير حسن وقام بالأمر ، وانضم اليه أوباش الناس ودعارهم ، ففرق فيهم الزرد ، وسماهم صبيان الزرد ، وجعلهم خاصته . فاحتفوا به وصاروا لا يفارقونه ، فان ركب أحاطوا به ، وان نزل لازموا داره ، فقامت قيامة الناس منهم .

وشرع فى تتبع الأكابر ، فقبض على ابن العساف وقتله ، وقصد أباه الخليفة الحافظ وأخاه حيدرة بالضرر حتى خافا منه وتغيبا ، فجد فى طلب أخيه حيدرة ، وهتك بأوباشه الذين اختارهم حرمة القصر ، وخرق ناموسه ،

(*) ص١٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وسلطهم يفتشون القصر فى طلب الخليفة الحافظ وابنه حيدرة ، واشتد بأسهم ، وحسنوا له كل رذيلة ، وجروه على الأذى .

فلم يجد الحافظ بدا من مداراة حسن وتلافى أمره عساه ينصلح ، وكتب سجلا بولايته العهد ، وأرسله اليه فقرىء على الناس . فما زاده ذلك الا جراءة عليه وافسادا له ، وشدد فى التضيق على أبيه ، وأخذ بأنفاسه . فبعث حينئذ الخليفة بالأستاذ ابن اسعاف الى بلاد الصعيد ليجمع من يقدر عليه من الريحانية ، فمضى واستصرخ الناس لنصرة الخليفة على ولده حسن ، وجمع أمما لا يحصيها الا الله وسار بهم .

فبلغ ذلك حسنا ، فزج عسكرا للقاء اسعاف فالتقيا ، وكانت بينهما وقعة هبت فيها ريح سوداء على عسكر اسعاف حتى هزمتهم ، وركبهم عسكر حسن فلم ينج منهم الا القليل ، وغرق أكثرهم فى البحر ، وأخذ اسعاف أسيرا ، فحمل الى القاهرة على جمل وفى رأسه طرطور لبد أحمر ، فلما وصل بين القصرين رشق بالنشاب حتى هلك ، ورمى من القصر الغربى بأستاذ آخر فقتلّ ، وقتل الأمير شرف الدين .

فاشتد ذلك على الحافظ وخاف على نفسه فكتب ورقة ، وكاد ابنه بأن ألقى اليه تلك الورقة وفيها : ياولدى أنت على كل حال ولدى ، ولو عمل كل منا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يصيبه مكروه ، ولا يحملنى قلبى ، وقد انتهى الأمر الى أمراء الدولة — وهم فلان وفلان — وقد شددت وطأتك عليهم وخافوك ، وهم معولون على قتلك ، فخذ حذرك ياولدى .

فعندما وقف حسن على الورقة ، غضب ولم يتأن ، وبعث الى أولئك ، فلما صاروا اليه أمر صبيان الزرد بقتلهم ، فقتلوا عن آخرهم — وكانوا عدة من أعيان الأمراء — وأحاط بدورهم وأخذ سائر ما فيها .

فاشتدت المصيبة ، وعظمت الرزية ، وتخوف من بقى من الجند ونفروا منه . فانه كان جريا مفسدا ، شديد الفحص عن أحوال الناس والاستقصاء لأخبارهم ، يريد اقلاب الدولة وتغييرها ليقدم أوباشه ، وأكثر من مصادرة الناس ، وقتل قاضى القضاة أبا الثريا نجم لأنه كان من خواص أبيه ، وقتل جماعة من الأعيان ، ورد اقضاء لابن ميسر .

وتفاقم أمره وعظم خطبه ، واشتدت الوحشة بينه وبين الأمراء والأجناد ، وهموا بخلع الحافظ ومحاربة ابنه حسن ، وصاروا يدا واحدة ، واجتمعوا بين القصرين وهم عشرة آلاف ما بين فارس وراجل ، وسيروا الى الحافظ يشكون ما هم فيه من البلاء مع ابنه حسن ، ويطلبون منه أن يزيله من ولاية العهد .

فعجز حسن عن مقاومتهم ، فانه لم يبق معه سوى الراجل من الطائفة الجيوشية ، ومن يقول بقولهم من الغز الغرباء ، فتحير وخاف على نفسه ، فالتجأ الى القصر ، وصار الى أبيه الحافظ فما هو الا أن تمكن منه أبوه ، فقبض عليه وقيده ، وبعث الى الأمراء

يخبرهم بذلك ، فأجمعوا على قتله ، فرد عليهم أنه قد صرفه عنهم ، ولا يمكنه أبدا من التصرف ، ووعدهم بالزيادة فى الأرزاق والاقطاعات ، وأن يكفوا عن طلب قتله .

فألحوا فى قتله ، وقالوا : اما نحن ، واما هو ... اشتد طلبهم اياه حتى أحضروا الأحطاب والنيران ليحرقوا القصر ، وبالغوا فى التجرى على الخليفة ، فلم يجد بدا من اجابتهم الى قتله ، وسألهم أن يمهلوه ثلاثا ، فأناخوا بين القصرين ، وأقاموا على حالهم حتى تنقضى الثلاث .

فما وسع الحافظ الا أن استدعى طبيبه — وهما أبو منصور اليهودى ، وابن قرقة النصرانى — وبدأ بأبى منصور ، وفاوضه فى عمله سقية قاتلة ، فامتنع من ذلك ، وحلف بالتوراة أنه لا يعرف عمل شىء من ذلك . فتركه وأحضر ابن قرقة ، وكلمه فى هذا ، فقال : الساعة ، ولا يتقطع منها جسده ، بل تفيض النفس لا غير .

فأحضر السقية من يومه ، فبعثها الى حسن مع عدة من الصقالبة ، وما زالوا يكرهونه على شربها حتى فعل ، ومات فى العشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

فبعث الحافظ الى القوم سرا يقول : قد كان ما أردتم ، فامضوا الى دوركم . فقالوا : لابد أن يشاهده منا من نثق به *.

(*) ص١٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

وندبوا منهم أميرا معروفا بالجراءة والشر يقال له المعظم جلال الدين محمد — ويعرف بجلب راغب الآمرى — فدخل الى القصر ، وسار جنب حسن ، فاذا به قد سجى بثوب ، فكشف عن وجهه ، وأخرج من وسطه آله من حديد ، وغرزه بها فى عدة مواضع من بدنه الى أن تيقن أنه قد مات ، وعاد الى القوم وأخبرهم ، فتفرقوا .

وعندما سكنت الدهماء ، حقد الحافظ لابن قرقة وقتله بخزانة البنود ، وأنعم بجميع ما كان له على أبى منصور اليهودى ، وجعله رئيس الأطباء ... فهذا ما كان من خبر يانس وكيفية موته ، وخبر حسن والخبر عن قتله .

« حارة المنتجبية » : قال ابن عبد الظاهر : بلغنى أن رجلا كان يتحجب لشمس الدين قاضى زادة ، كان يقول : ان هذه الخطة منسوبة لجده منتجب الدولة .

« الحارة المنصورية » : هذه الحارة كانت كبيرة متسعة جدا فيها عدة مساكن السودان . فلما كانت واقعتهم فى ذى القعدة سنة أربع وستين وخمسمائة ، كما تقدم فى ذكر حارة بهاء الدين ، أمر صلاح الدين يوسف بن أيوب بتخريب المنصورة هذه وتعفية أثرها ، فخربها خطلبا بن موسى الملقب صارم الدين ، وعملها بستانا .

وكان للسودان بديار مصر شوكة وقوة . فتبعهم صلاح الدين ببلاد الصعيد حتى أفناهم ، بعد أن كان لهم بديار مصر فى كل قرية ومحلة وضيعة ، مكان مفرد لا يدخله وال ولا غيره احتراما لهم . وقد كانوا يزيدون

على خمسين ألفا ، واذا ثاروا على وزير قتلوه ، وكان الضرر بهم عظيما لامتداد أيديهم الى أموال الناس وأهاليهم . فلما كثر بغيهم ، وزاد تعديهم ، أهلكهم الله بذنوبهم .

وفى واقعة السودان وتخريب المنصورة ، وقتل مؤتمن الخلافة الذى تقدم ذكره ، يقول العماد الأصفهانى الكاتب ، يخاطب بهاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب :

بالملك الناصر استنارت
في عصرنا أوجه الفضائل

يوسف مصر الذى اليه
تشد آمالنا الرواحل

رأيك فى الدهر عن رزايا
يجلى مهماته الجلائل

أجريت نيلين فى ثراها
نيل نجيع ونيل نائل

كم كرم من نداك جار
وكم دم من عداك سائل

وكم معاد بلا معاد
ومستطيل بغير طائل

وحاسد كاسد المساعى
وصائد ناقق الوسائل

أقررت عين الاسلام حتى
لم يبق فيها قذى لباطل

وكيف يزهى بملك مصر
من يستقل دنيا لنائل!

وما نفت السودان حتى
حكمت البيض فى المقاتل

صيرت رحب الفضا مضيقا
عليهم كفه لحائل

وكل رأى منهم كرا
وأرض مصر كلام واصل

وقد خلت منهم المغانى
وأقفرت منهم المنازل

وما أصيبوا الا بطل
فكيف لو أمطروا بوابل

وقد تجلى الحق ما بال
باطل فى مصر كان عاجل

والسود بالبيض قد تنحوا
فهى بواديهم نوازل

مؤتمن القوم خان حتى
عالته من شره الغوائل

عاملكم بالخنا فأضحى
ورأسه فوق رأس عامل

وحالف الذل بعد عز
والدهر أحواله حوائل

يامخجل البحر بالأيادى
قد آن أن تفتح السواحل

تقدس القدس من خبائث
أرجاس كفر غتم أراذل

وكان موضع المنصورة على يمنة من سلك فى الشارع خارج باب زويلة .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

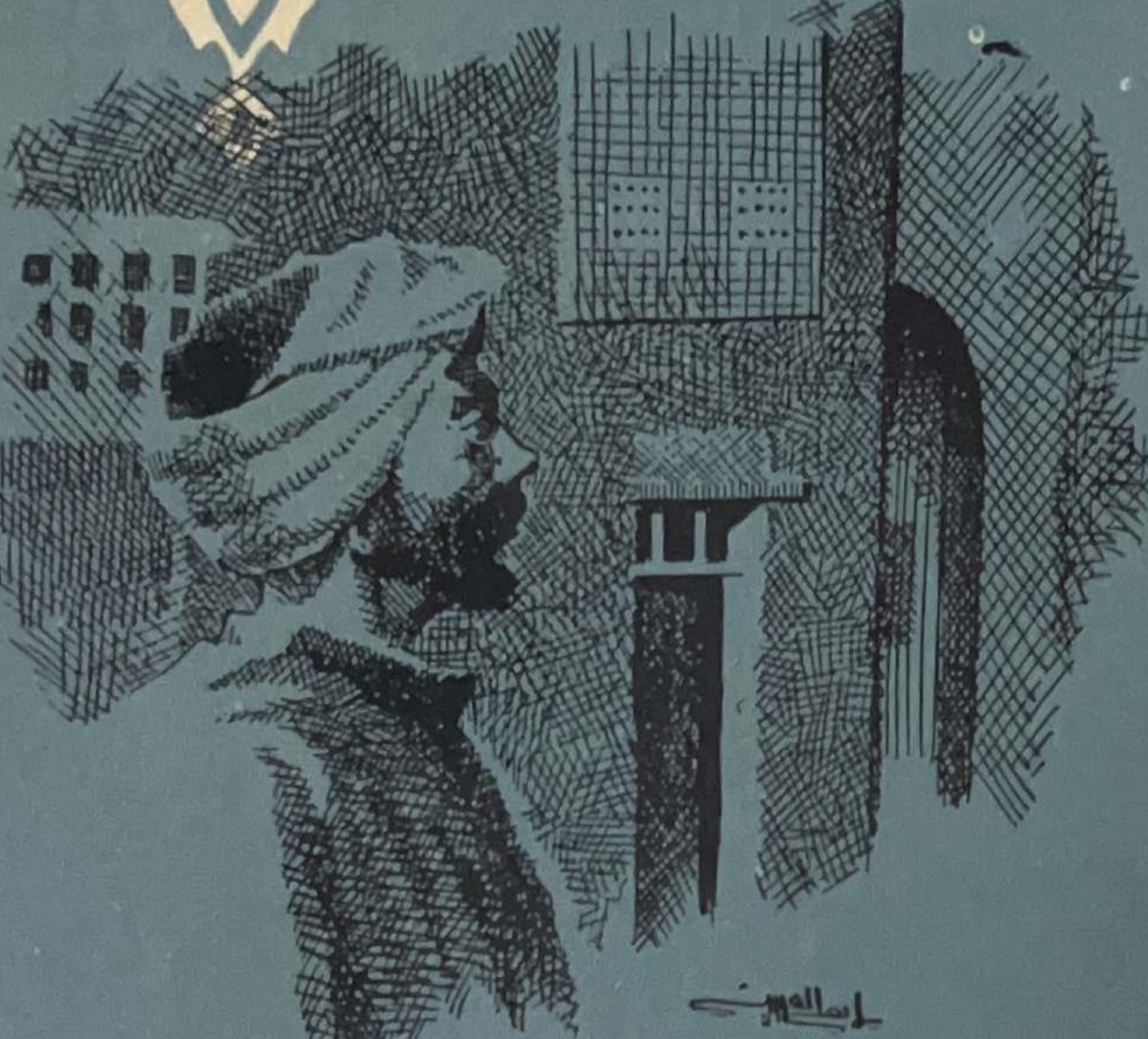
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٢٥



"كانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت منذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

كتاب التحرير

قال ابن عبد الظاهر : كانت للسودان حارة تعرف بهم تسمى المنصورة . خربها صلاح الدين ، وأخذها خطلبا فعمرها بستانا وحوضا . وهى الى جانب الباب الجديد (يعنى الذى يعرف اليوم بالقوس) عند رأس المنتجبية فيما بينها وبين الهلالية . وقد حكر هذا البستان فى الأيام الظاهرية .

وبعضها (يعنى المنصورة) من جهة بركة الفيل الى جانب بستان سيف الاسلام ، ويسمى الآن بحكر « الغتمى ، لأن الغتمى هذا كان شرع بستان سيف الاسلام ، فحكر هذه الجهة ، وهى الآن أحكار الديوان السلطانى .

وحكر الغتمى ، الذى كان بستان سيف الاسلام ، يعرف اليوم بدرب ابن البابا تجاه البندقدارية بجوار حمام الفارقانى ، قريب من صلبية جامع ابن طولون .

« حارة المصامدة » : هذه الحارة عرفت بطائفة المصامدة ، احدى طوائف عساكر الخلفاء الفاطميين ، واختطت فى وزارة المأمون البطايحى وخلافة الآمر بأحكام الله بعد سنة خمس عشرة وخمسمائة .

قال ابن عبد الظاهر : حارة المصامدة ... مقدمهم عبد الله المصمودى . وكان المأمون البطايحى ، وزير الخليفة الآمر بأحكام الله ، قدمه ونوه بذكره ، وسلم له أبوابه للمبيت عليها ، وأضاف اليه جماعة من أصحابه . فلما استخلص المصامدة وقربهم ، سير أبا بكر المصمودى ليختار لهم حارة . فتوجه بالجماعة الى اليانسية بالشارع ، فلم يجد بها مكانا ، ووجدها تضيق عنهم .

فسير المهندسين لاختيار حارة لهم . فاتفقوا على بناء حارة ظاهر باب الحديد ، على يمنة الخارج على شاطىء بركة الفيل ، فقال : بل تكون على يسرة الخارج والفسح قدامها الى بركة الفيل . فبنيت الحارة على يسرة الخارج من الباب المذكور ، وبنى بجانبها مسجد على زلاقة الباب المذكور ، وبنى أبوبكر المصمودى مسجدا أيضا — وهذه فيما أعتقد هى الهلالية — وحذر من بناء شىء قبالتها ، فى الفضاء الذى بينها وبين بركة الفيل ، لانتفاع الناس بها .

وصار ساحل بركة الفيل من المسجد قبالة هذه الحارة الى آخر حسن دويرة مسعود الى الباب الحديد . ولم يزل ذلك الى بعض أيام الخليفة الحافظ لدين الله .

قال : وبنى فى صف هذه الحارة من قبليها عدة دور بحوانيت تحتها ، الى أن اتصل البناء بالمساجد الثلاثة الحاكمية المعلقة ، والقنطرة المعروفة بدار ابن طولون ، وبعدها بستان ذكر أنه كان فى جملة قاعات الدار المذكورة .

قال : وأظن المساجد هى التى قبالة حوض الجاولى ... قال : وبنى المأمون ظاهره حوضا ، وأجرى الماء له ، وذلك قبالة مشهد محمد الأصغر ومشهد السيدة سكينة .

قال : وأظن هذا البستان ، هو الذى بنته شجر الدر بستانا ودارا وحمامات قريب من مشهد السيدة نفيسة .

(*) ص١٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

قال : وأمر المأمون بالنداء فى القاهرة ومصر ثلاثة أيام ، بأن من كانت له دار فى الخراب أو مكان يعمره ، ومن عجز عن أن يعمره فليؤجره من غير نقل شيء من أنقاضه ، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له فى شيء منه ولا حكر يلزمه . وأباح تعمير ذلك جميعه بغير طلب بحق فيه .

فطلب الناس كافة ما هو جار فى الديوان السلطانى وغيره ، وعمروه حتى صار البلدان لا يتخللهما داثر ولا دارس . وبنى فى الشارع (يعنى خارج باب زويلة) من الباب الجديد الى الجبل عرضا ، وهو الشقة الآن .

قال : وكان الخراب استولى على تلك الأماكن فى زمن المستنصر ، فى أيام وزارة اليازورى ، حتى انه كان بنى حائطا يستر الخراب عن نظر الخليفة اذا توجه من القاهرة الى مصر ، وبنى حائطا آخر عند جامع ابن طولون .

قال : وعمر ذلك حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمتخصصون يصلون العشاء الأخيرة بالقاهرة ، ويتوجهون الى مساكنهم فى مصر — لا يزالون فى ضوء وسرج وسوق موقود الى باب الصفا ، وهو الساحل الآن ، وذلك أنه يخرج من الباب الجديد الحاكمى على يمنة بركة الفيل الى بستان سيف الاسلام وعدة بساتين ، وقبالة جميع ذلك حوانيت مسكونة عامرة بالمتعيشين الى مصر ، والمعائش مستمرة الليل والنهار .

« حارة الهلالية » : ذكر ابن عبد الظاهر أنها على يسرة الخارج من الباب الجديد الحاكمى .

« حارة اليانزرة » : هذه الحارة خارج باب القنطرة على شاطىء الخليج من شرقيه ، فيما بين زقاق الكحل وباب القنطرة ، حيث المواضع التى تعرف اليوم ببركة جناق والسكاكين ، والى قريب من حارة بهاء الدين .

واختطت هذه الحارة فى الأيام الآمرية . وذلك أن زمام اليانزرة شكا ضيق دار الطيور بمصر ، وسأل أن يفسح لليانزرة فى عمارة حارة على شاطىء الخليج بظاهر القاهرة لحاجة الطيور والوحوش الى الماء ، فأذن له فى ذلك . فاختطوا هذه الحارة ، وجعلوا منازلهم مناظر على الخليج ، وفى كل دار باب سر ينزل منه الى الخليج .

واتصل بناء هذه الحارة بزقاق الكحل ، فعرفت بهم وسميت بحارة اليانزرة (واحدهم بازيار) . ثم ان المختار الصقلبى زمام القصر أنشأ بجوارها بستانا ، وبنى فيه منظرة عظيمة . وهذا البستان يعرف اليوم موضعه ببستان ابن صيرم خارج باب الفتوح .

فلما كثرت العمائر فى حارة اليانزرة ، أمر الوزير المأمون بعمل الأقمنة لشى الطوب على شاطىء الخليج الكبير ، الى حيث كان البستان الكبير الجيوشى الذى تقدم ذكره فى ذكر مناظر الخلفاء ومتنزهاتهم .

« حارة الحسينية » : عرفت بطائفة من عبيد الشراء يقال لهم الحسينية .

قال المسبحى فى حوادث سنة خمس وتسعين وثلثمائة : وأمر بعمل شونة مما يلى الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا ، فابتدىء بعملها فى ذى الحجة سنة أربع وتسعين وثلثمائة الى شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين ... فخامر قلوب الناس من ذلك جزع شديد ، وظن كل [*] من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن هذه الشونة عملت لهم . ثم قويت الاشاعات ، وتحدث العوام فى الطرقات أنها للكتاب وأصحاب الدواوين وأسبابهم .

فاجتمع سائر الكتاب ، وخرجوا بأجمعهم فى خامس ربيع الأول ، ومعهم سائر المتصرفين فى الدواوين من المسلمين والنصارى ، الى الرماحين بالقاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا الى القصر ، فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ويضجون ويسألون العفو عنهم — ومعهم رقعة قد كتبت عن جميعهم — الى أن دخلوا باب القصر الكبير ، وسألوا أن يعفى عنهم ، ولا يسمع فيهم قول ساع يسعى بهم .

وسلموا رقعتهم الى قائد القواد الحسين ابن جوهر ، فأوصلها الى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، فأجيبوا الى ما سألو ، وخرج اليهم قائد القواد فأمرهم بالانصراف والبكور لقراءة سجل بالعفو عنهم ، فانصرفوا بعد العصر .

وقرىء من الغد سجل كتب منه نسخة للمسلمين ، ونسخة للنصارى ، ونسخة لليهود ، بأمان لهم والعفو عنهم .

---

[*] ص٢٠ ج٢ ، ط . بولاق .

وقال فى ربيع الآخر : واشتد خوف الناس من أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، فكتب ما شاء الله من الأمانات للغلمان الأتراك الخاصة وزمامهم ، وأمرائهم من الصقالبة والكجورية والغلمان العرفاء ، والمماليك وصبيان الدار ، وأصحاب الاقطاعات والمرتزقة ، والغلمان الحاكمية القدم على اختلاف أصنافهم .

وكتب أمان لجماعة من خدم القصر ، الموسومين بخدمة الحضرة ، بعدما تجمعوا ، وساروا الى تربة العزيز بالله ، وضجوا بالبكاء ، وكشفوا رؤوسهم . وكتبت سجلات عدة بأمانات للديلم والجيل والغلمان الشرابية والغلمان الريحانية والغلمان البشارية والغلمان المفرقة العجم وغيرهم ، والنقباء والروم المرتزقة .

وكتبت عدة أمانات للزويليين والبنادين والطبالين والبرقيين والعطوفيين ، وللعرافة الجوانية ، والجودرية ، وللمظفرية ، وللصنهاجيين ، ولعبيد الشراء الحسينية ، وللميمونة ، وللفرحية ، وأمان لمؤذنى أبواب القصر ، وأمانات لسائر اليانزرة والفهادين والحجالين ، وأمانات أخر لعدة أقوام ... كل ذلك بعد سؤالهم وتضرعهم .

وقال فى جمادى الآخرة : وخرج أهل الأسواق على طبقاتهم : كل يلتمس كتب أمان يكون لهم . فكتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق على طبقاتهم نسخة واحدة ، وكان يقرأ جميعها فى القصر أبو على أحمد ابن عبد السميع العباسى ، وتسلم أهل كل سوق ما كتب لهم .

وهذه نسخة احداها بعد البسملة :

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، لأهل مسجد عبد الله : انكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين ، صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين . وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال : لا خوف عليكم ، ولا تمتد يد بسوء اليكم ، الا فى حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه . فليوثق بذلك ، وليعول عليه ان شاء الله تعالى . وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، والحمد لله ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة ، وسلم تسليما كثيرا » .

وقال ابن عبد الظاهر : فأما الحارات التى من باب الفتوح ميمنة وميسرة للخارج منه . فالميمنة الى الهليلجة والميسرة الى بركة الأرمن برسم الريحانية — وهى الحسينية الآن — وكانت برسم الريحانية الغزاوية والوزيرية والعجمان وعبيد الشراء . وكانت ثمانى حارات وهى : حارة حامد ، بين الحارتين ، المنشية الكبيرة ، الحارة الكبيرة ، الحارة الوسطى ، سوق الكبير ، الوزيرية . وللأجناد بظاهر القاهرة حارات ، وهى حارة الباطلية ، والحسينية ... جميع ذلك سكن الريحانية .

وسكن الجيوشية والعطوفية بالقاهرة وبظاهرها الهلالية والشوبك وحلب والحبانية والمأمونية وحارة الروم وحارة الصامدة والحارة الكبيرة والمنصورة الصغيرة والباتية وحارة أبى بكر والقس ورأس التبان والشارع . ولم يكن للأجناد فى هذا الوجه غير حارة عشر للمؤمنين المترجلة .

وكانت كل حارة من هذه بلدة كبيرة بالبزازين والعطارين والجزارين وغيرهم ، والولاة لا يحكمون عليها ، ولا يحكم فيها الا الأزمة ونوابهم . وأعظم الجميع الحارة الحسينية التى هى آخر صف الميمنة الى الهليلجة — وهى الحسينية الآن — لأنها كانت سكن الأرمن فارسهم وراجلهم ، وكان يجتمع بها قريب من سبعة آلاف نفس وأكثر من ذلك ، وبها أسواق عدة .

وقال فى موضع آخر : الحسينية منسوبة لجماعة من الأشراف الحسينيين كانوا فى الأيام الكاملية . قدموا من الحجاز ، فنزلوا خارج باب النصر بهذه الأمكنة واستوطنوها ، وبنوا بها مدابغ صنعوا بها الأديم المشبه بالطائفى . فسميت بالحسينية . ثم سكنها الأجناد بعد ذلك ، وابتنوا بها هذه الأبنية العظيمة .

وهذا وهم . فانه تقدم أن من جملة الطوائف فى الأيام الحاكمية الطائفة الحسينية ، وتقدم — فيما نقله ابن عبد الظاهر أيضا — أن الحسينية كانت عدة حارات ، والأيام الكاملية انما كانت بعد الستمائة ، وقد كانت الحسينية قبل ذلك بما ينيف عن مائتى سنة ... فتدبره .

واعلم أن الحسينية شقتان : احداهما * ما خرج عن باب الفتوح ، وطولها من خارج باب الفتوح الى الخندق ، وهذه الشقة هى التى كانت مساكن الجند فى أيام الخلفاء الفاطميين ، وبها كانت الحارات المذكورة . والشقة الأخرى ماخرج عن باب النصر وامتد فى الطول الى الريدانية ، وهذه الشقة لم يكن بها فى أيام الخلفاء الفاطميين سوى مصلى العيد تجاه باب النصر ، وما بين المصلى الى الريدانية فضاء لا بناء فيه ، وكانت القوافل اذا برزت تريد الحج تنزل هناك .

فلما كان بعد الخمسين وأربعمائة ، وقدم بدر الجمالى أمير الجيوش ، وقام بتدبير أمر الدولة الخليفة المستنصر بالله ... أنشأ بحرى مصلى العيد ، خارج باب النصر ، تربة عظيمة ، وفيها قبره هو وولده الأفضل بن أمير الجيوش وأبو على كتيفات بن الأفضل وغيره ، وهى باقية الى يومنا هذا ، ثم تتابع الناس فى انشاء الترب هناك حتى كثرت . ولم تزل هذه الشقة مواضع للترب ومقابر أهل الحسينية والقاهرة الى بعد السبعمائة .

ولقد حدثت عن المشيخة ممن أدرك بأن بما بين مصلى الأموات التى خارج باب النصر ، وبين دار كهرداش التى تعرف اليوم بدار الحاجب ، مكانا يعرف بالمراغة معدا لتمريغ الدواب به ، وأن ما فى صف المصلى من بحريها الترب فقط .

ولم تعمر هذه الشقة الا فى الدولة التركية لا سيما لما تغلب التتر على ممالك الشرق والعراق ، وجفل الناس الى مصر ، فنزلوا بهذه الشقة وبالشقة الأخرى ، وعمروا بها المساكن ، ونزل بها أيضا أمراء الدولة . فصارت من أعظم عمائر مصر والقاهرة ، واتخذ الأمراء بها — من بحريها فيما بين الريدانية الى الخندق — مناخات الجمال واصطبلات الخيل ، ومن ورائها الأسواق والمساكن العظيمة فى الكثرة ، وصار أهلها يوصفون بالحسن خصوصا لما قدمت الأويراتية .

ذكر قدوم الاويراتية

وكان من خبر هذه الطائفة أن بيدو بن طرغاى بن هولاكو لما قتل فى ذى الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة ، وقام فى الملك من بعده على المغل الملك غازان محمود بن خربنده ابن ابغاى ، تخوف منه عدة من المغل يعرفون بالأويراتية ، وفروا عن بلاده الى نواحى بغداد ، فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاى .

وجرت لهم خطوب آلت بهم الى اللحاق بالفرات ، فأقاموا بها هنالك ، وبعثوا الى نائب حلب يستأذنونه فى قطع الفرات ليعبروا الى ممالك الشام ، فأذن لهم ، وعدوا الفرات الى مدينة بهنسا ، فأكرمهم نائبها ، وقام لهم بما ينبغى من العلوفات والضيافات .

وطولع الملك العادل زين الدين كتبغا — وهو يومئذ سلطان مصر والشام — بأمرهم . فاستشار الأمراء فيما يعمل بهم ، فاتفق الرأى على استدعاء أكابرهم الى الديار المصرية ، وتفريق باقيهم فى البلاد الساحلية

(*) ص٢١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وغيرها من بلاد الشام . وخرج اليهم الأمير علم الدين سنجر الدواداري والأمير شمس الدين سنقر الأشقر الى دمشق ، فحضر من أكابر الأويراتية نحو الثلاثمائة للقدوم على السلطان ، وفرقاً من بقي منهم بالبقاع العزيزية وبلاد الساحل .

ولما قرب الجماعة من القاهرة ، خرج الأمراء بالعسكر الى لقائهم ، واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء لنظر اليهم ، فكان لدخولهم يوم عظيم ، وصعدوا الى قلعة الجبل ، فأنعم السلطان على طرغاي مقدمهم بإمرة طبلخاناة ، وعلى اللوص بإمرة عشرة ، وأعطى البقية تقادم في الحلقة والقاعات ، وأجرى عليهم الرواتب ، وأنزلوا بالحسينية .

وكانوا على غير الملة الاسلامية ، فشق ذلك على الناس ، وبلوا مع ذلك منهم بأنواع من البلاء لسوء أخلاقهم ، ونفرة نفوسهم ، وشدة جبروتهم .

وكان اذ ذاك بالقاهرة ومصر غلاء كبير ووباء عظيم ، فتضاعفت المضرة ، واشتد الأمر على الناس ، وقال في ذلك الأديب شمس الدين محمد بن دنيال :

ربنا اكشف عنا العذاب فانا
قد تلفنا في الدولة المغلية
جاءنا المغل والغلا فانضممنا
وانطفينا في الدولة المغلية

ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وتسعين وستمائة ، لم يصم أحد من الأويراتية . وقيل للسلطان ذلك ، فأبى أن يكرههم على الاسلام ، ومنع من معارضتهم ، ونهى أن يشوش عليهم أحد ، وأظهر العناية بهم . وكان مراده أن يجعلهم عونا له يتقوى بهم ، فبالغ في اكرامهم حتى أثر في قلوب أمراء الدولة منه احنا ، وخشوا ايقاعه بهم .

فان الأويراتية كانوا أهل جنس كبغا ، وكانوا مع ذلك صورا جميلة ، فافتتن بهم الأمراء ، وتنافسوا في أولادهم من الذكور والاناث ، واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم وتعشقوهم ، فكان بعضهم يستنزله من صاحبه من الحكم به وجعله محل شهوته .

ثم ما قنع الأمراء ما كان منهم بمصر حتى أرسلوا الى البلاد الشامية ، واستدعوا منهم طائفة كبيرة . فتكاثر نسلهم في القاهرة ، واشتدت الرغبة من الكافة في أولادهم ، على اختلاف الآراء في الاناث والذكور ، فوقع * التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة ... الى أن آل الأمر بسببهم ، وبأسباب أخر ، الى خلع السلطان الملك العادل كتبغا من الملك في صفر سنة ست وتسعين وستمائة .

فلما قام في السلطنة من بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين ، قبض على طرغاي مقدم الأويراتية وعلى جماعة من أكابرهم ، وبعث بهم الى الاسكندرية فسجنهم بها وقتلهم ، وفرق جميع الأويراتية على الأمراء ، فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم ، فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن والجمال البارع . وأدركنا من ذلك طرفا

(*) ص٣٢ جـ٢ ، ط بولاق .

جيدا ، وكان للناس في نكاح نسائهم رغبة ، ولآخرين شغف بأولادهم .

ولله در الشيخ تقي الدين السروجي اذ يقول من أبيات :

ياساعي الشوق الذي مذ جرى
جرت دموعي فهي أمواهه
خذ لي جوابا عن كتابي الذي
الى الحسينية عنوانه
فهي كما قد قيل وادي الحمى
وأهلها في الحسن غزلانه
امش قليلا وانعطف يسرة
يلقاك درب طال بنيانه
واقصد بصدر الدرب ذاك الذي
بحسنه تحسن جيرانه
سلم وقل يخشى مسن أي مسى
أشت حديثا طال كتمانه
وسل لي الوصل فان قال بي
فقل أوت قد طال هجرانه

وما برحوا يوصفون بالزعارة والشجاعة ، وكان يقال لهم البدورة : فيقال البدر فلان ، والبدر فلان ، ويعانون لباس الفتوة وحمل السلاح ، ويؤثر عنهم حكايات كثيرة وأخبار جمة .

وكانت الحسينية قد أربت في عمارتها على سائر أخطاط مصر والقاهرة ، حتى لقد قال لي ثقة ممن أدركت من الشيخة : انه يعرف الحسينية عامرة بالأسواق والدور ، وسائر شوارعها كافة بازدحام الناس من الباعة والمارة وأرباب المعايش ، وأصحاب اللهو والطرب . فيما بين الريدانية — محطة الحمل يوم خروج الحاج من القاهرة — والى باب الفتوح ، لا يستطيع الانسان أن يمر في هذا الشارع الطويل العريض ، طول هذه المسافة الكبيرة ، الا بمشقة من الزحام ... كما كنا نعرف شارع بين القصرين فيما أدركنا .

وما زال أمر الحسينية متماسكا الى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة وثمانمائة وما بعدها ، فخربت حاراتها ، ونقضت مبانيها ، وبيع ما فيها من الأخشاب وغيرها ، وباد أهلها .

ثم حدث بها ، بعد سنة عشرين وثمانمائة ، آية من آيات الله تعالى . وذلك أن في أعوام بضع وستين وسبعمائة ، بدا بناحية برج الزيات — فيما بين المطرية وسرياقوس — فساد الأرضة التي من شأنها العبث في الكتب والثياب ، فأكلت لشخص نحو ألف وخمسمائة فدة درس . فكنا لا نزال نتعجب من ذلك .

ثم فشت هناك ، وشنع عبثها في سقوف الدور ، وسرت حتى عاثت في أخشاب سقوف الحسينية وغلالت أهلها وسائر أمتعتهم ، حتى أتلفت شيئا كثيرا ، وقويت حتى صارت تأكل الجدران . فبادر أهل تلك الجهة الى هدم ما قد بقي من الدور ، خوفا عليها من الأرضة ، شيئا بعد شيء حتى قاربوا باب الفتوح وباب النصر .

وقد بقي منها اليوم قليل من كثير يخاف ان استمرت أحوال الاقليم على ما هي عليه

من الفساد أن تدثر وتمحى آثارها ، كما دثر سواها ، ولله در القائل :

والله ان لم يداركها وقد رحلت
بلمحة أو بلطف من لديه خفى
ولم يجد بتلافيها على عجل
ما أمرها صائر الا الى تلف

« حارة حلب » : هذه الحارة خارج باب زويلة ، تعرف اليوم بزقاق حلب ، وكانت قديما من جملة مساكن الأجناد .

قال ياقوت فى باب حلب : الأول حلب المدينة المشهورة بالشام ، وهى قصبة نواحى قنسرين والعواصم اليوم . الثانى حلب الساجود من نواحى حلب أيضا . الثالث كفر حلب من قراها أيضا . الرابع محلة بظاهر القاهرة بالشارع من جهة الفسطاط . والله تعالى أعلم .

ذكر اخطاط القاهرة وظواهرها

قد تقدم ذكر ما يطلق عليه حارة من الأخطاط . ونريد أن نذكر من الخطط ما لا يطلق عليه اسم حارة ولا درب ، وهى كثيرة ، وكل قليل تتغير أسماؤها ، ولابد من ايراد ما تيسر منها .

« خط خان الوراقة » : هذا الخط فيما بين حارة بهاء الدين وسويقة أمير الجيوش ، وفى شرقيه سوق المرجلين ، وهو يشتمل على عدة مساكن ، وبه طاحون ، وكان موضعه قديما اصطبل الصبيان الحجرية لموقف خيولهم كما تقدم . فلما زالت الدولة الفاطمية اختط مواضع للسكنى ، وقد شمله الخراب *.

« خط باب القنطرة » : هذا الخط كان يعرف قديما بحارة المرتاحية وحارة الفرحية والرماحين . وكان ما بين الرماحين — الذى يعرف اليوم بباب القوس داخل باب القنطرة — وبين الخليج فضاء لا عمارة فيه ، بطول ما بين باب الرماحين الى باب الخوخة والى باب سعادة والى باب الفرج . ولم يكن اذ ذاك على حافة الخليج عمائر ألبتة ، وانما العمائر من جانب الكافورى — وهى مناظر اللؤلؤة — وما جاورها من قبليها الى باب الفرج . وتخرج العامة عصريات كل يوم الى شاطىء الخليج الشرقى تحت المناظر للتفرج ، فان بر الخليج الغربى كان فضاء ما بين بساتين وبرك ، كما سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وثمانين وخمسمائة : فى شوال قطع النيل الجسور ، واقتلع الشجر ، وغرق النواحى ، وهدم المساكن ، وأتلف كثيرا من النساء والأطفال . وكثر الرخاء بمصر : فالقمح كل مائة اردب بثلاثين دينارا ، والخبز البايت ستة أرطال بربع درهم ، والرطب الأمهات ستة أرطال بدرهم ، والموز ستة أرطال بدرهم ، والرمان الجيد مائة حبة بدرهم ، والحمل الخيار بدرهمين ، والتين ثمانية أرطال بدرهم ، والعنب ستة أرطال بدرهم فى شهر بابه بعد انقضاء موسمه المعهود بشهرين ، والياسمين خمسة أرطال بدرهم .

(*) ص٢٢ ج٢ ، ط. بولاق .

وآل أمر أصحاب البساتين الى ألا يجمعوا الزهر لنقص ثمنه عن أجرة جمعه ، وثمر الحناء عشرة أرطال بدرهم ، والبسر عشرة أرطال بدرهم من جيده ، والمتوسط خمسة عشر رطلا بدرهم . وما فى مصر الا متسخط بهذه النعمة .

قال : ولقد كنت فى خليج القاهرة من جهة المقس لانقطاع الطرق بالمياه ، فرأيت الماء مملوءا سمكا والزيادة قد طبقت الدنيا ، والنخل مملوءا تمرا ، والمكشوف من الأرض مملوءا ريحانا وبقولا . ثم نزلت فوصلت الى المقس ، فوجدت من القلعة التى بالمقس الى منية السيرج غلالا قد ملأت صبرها الأرض ، فلا يدرى الماشى أين يضع رجله متصلا عرض ذلك الى باب القنطرة وعلى الخليج عند باب القنطرة من مراكب الغلة ما قد ستر سواحله وأرضه .

قال : ودخلت البلد فرأيت فى السوق من الأخباز واللحوم والألبان والفواكه ما قد ملأها ، وهجمت منه العين على منظر ما رأيت قبله مثله .

قال : وفى البلد من البغى ، ومن المعاصى ومن الجهر بها ، ومن الفسق بالزنا واللواط ، ومن شهادة الزور ، ومن مظالم الأمراء والفقهاء ، ومن استحلال الفطر فى نهار رمضان وشرب الخمر فى ليله ممن يقع عليه اسم الاسلام ، ومن عدم النكير على ذلك جميعه ... ما لم يسمع ولم يعهد مثله ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وظفر بجماعة مجتمعين فى حارة الروم يتغدون فى قاعة فى نهار رمضان فما كلموا ، وبقوم مسلمين ونصارى اجتمعوا على شرب خمر فى ليل رمضان فما أقيم فيهم حد .

وخط باب القنطرة فيما بين حارة بهاء الدين وسويقة أمير الجيوش ، وينتهى من قبليه الى خط بين السورين .

« خط بين السورين » : هذا الخط من حد باب الكافورى فى الغرب الى باب سعادة ، وبه الآن صفان من الأملاك : أحدهما مشرف على الخليج ، والآخر مشرف على الشارع المسلوك فيه من باب القنطرة الى باب سعادة . ويقال لهذا الشارع بين السورين ... تسميه العامة بها ، فاشتهر بذلك .

وكان فى القديم بهذا الخط البستان الكافورى . يشرف عليه بحده الغربى ثمة مناظر اللؤلؤة ، وقد بقيت منها عقود مبنية بالآجر يمر السالك فى هذا الشارع من تحتها ، ثم مناظر دار الذهب ، وموضعها الآن دار تعرف بدار بهادر الأعسر ، وعلى بابها بئر يستقى منها الماء فى حوض يشرب منه الدواب ، ويجاورها قبو معقود يعرف بقبو الذهب هو من بقية مناظر دار الذهب .

وبحد دار الذهب منظرة الغزالة ، وهى بجوار قنطرة الموسكى . وقد بنى فى مكانها ربع يعرف الى اليوم بربع غزالة ، ودار ابن قرقة — وقد صار موضعها جامع ابن المغربى — وحمام ابن قرقة ، وبقى منها البئر التى يستقى منها الى اليوم بحمام السلطان ، وعدة دور كلها فيما يلى شقة القاهرة من صف باب الخوخة .

وكان ما بين المناظر والخليج براحا ، ولم يكن شيء من هذه العمائر التى بحافة الخليج اليوم البتة . وكان الحاكم بأمر الله ، فى سنة احدى وأربعمائة ، منع من الركوب فى المراكب بالخليج ، وسد أبواب القاهرة التى تلى الخليج ، وأبواب الدور التى هناك والطاقات المطلة عليه ... على ما حكاه المسبحى .

وقال ابن المأمون فى حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة : ولما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة ، والمقام بها مدة النيل على الحكم الأول (يعنى قبل أيام أمير الجيوش بدر وابنه الأفضل) وإزالة ما لم تكن العادة جارية عليه من مضايقة اللؤلؤة بالبناء ، وأنها صارت حارات تعرف بالفرحية والسودان وغيرهما ... أمر حسام الملك متولى بابه باحضار عرفاء الفرحية ، والانكار عليهم فى تجاسرهم على ما استجدوه وأنشأوا عليه .

فاعتذروا بكثرة الرجال وضيق الأمكنة عليهم ، فبنوا لهم قباباً يسيرة . فتقدم (يعنى أمر الوزير المأمون) الى متولى الباب بالانعام عليهم ، وعلى جميع من بنى فى هذه الحارة بثلاثة آلاف درهم ، وأن يقسم بينهم بالسوية وبأمرهم بنقل قسمهم ، وأن يبنوا لهم حارة قبالة بستان الوزير (يعنى ابن المغربى) خارج الباب الجديد من الشارع خارج باب زويلة .

قال : وتحول الخليفة الى اللؤلؤة بحاشيته ، وأطلقت التوسعة فى كل يوم لما يخص الخاص والجهات والأستاذين من جميع الأصناف ، وأضاف اليها ما يطلق كل ليلة عيناً وورقاً وأطعمة للبائتين بالنوبة — برسم الحرس بالنهار والسهر فى طول الليل ، من باب قنطرة يبادر الى مسجد الليمونة من البرين — من صبيان الخاص والركاب والرهجية والسودان والحجاب ... كل طائفة بنقيبها . والعرض من متولى الباب واقع بالعدة فى طرفى كل ليلة ، ولا يمكن بعضهم بعضاً من المنام . والرهجية تخدم على الدوام .

« خط الكافورى » : هذا الخط كان بستانا من قبل بناء القاهرة وتلك الدولة الفاطمية لديار مصر . أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج بن جف الملقب بالاخشيد ، وكان بجانبه ميدان فيه الخيول ، وله أبواب من حديد . فلما قدم جوهر القائد الى مصر ، جعل هذا البستان من داخل القاهرة ، وعرف ببستان كافور ، وقيل له فى الدولة الفاطمية البستان الكافورى ، ثم اختط مساكن بعد ذلك .

قال ابن زولاق فى كتاب « سيرة الاخشيد » : ولست خلون من شوال سنة ثلاثين وثلثمائة ، سار الاخشيد الى الشام فى عساكره ، واستخلف أخاه أبا المظفر بن طغج .

قال : وكان يكره سفك الدماء ، ولقد شرع فى الخروج الى الشام فى آخر سفراته وسار العسكر — وكان نازلا فى بستانه فى موضع القاهرة اليوم — فركب للسير . فساعة خرج من باب البستان اعترضه شيخ يعرف بسعود الصابونى يتظلم اليه ، فنظر له فتطير به وقال : خذوه ابطحوه .

(١) ص٢٤ جـ١ ، ط بولاق .

فبطح ، وضرب خمس عشرة مقرعة وهو ساكت ، فقال الاخشيد : هو ذا يتشاطر . فقال له كافور : قد مات .

فانزعج واستقال سفرته وعاد لبستانه ، وأحضر أهل الرجل واستحلهم ، وأطلق لهم ثلثمائة دينار ، وحمل الرجل الى منزله ميتا ، وكانت جنازته عظيمة . وسافر الاخشيد فلم يرجع الى مصر ، ومات بدمشق .

وقال فى كتاب « تتمة كتاب أمراء مصر » للكندى : وكان كافور الاخشيدى أمير مصر يواصل الركوب الى الميدان والى بستانه فى يوم الجمعة ويوم الأحد ويوم الثلاثاء .

قال : وفى غد هذا اليوم (يعنى يوم الثلاثاء) مات الأستاذ كافور الاخشيدى لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة . ويوم مات الأستاذ كافور الاخشيدى ، خرج الغلمان والجند الى المنظرة ، وخربوا بستان كافور ، ونهبوا دوابه ، وطلبوا مال البيعة .

وقال ابن عبد الظاهر : البستان الكافورى هو الذى كان بستانا لكافور الاخشيدى ، وكان كثيرا ما يتنزه به ، وبنيت القاهرة عنده ، ولم يزل الى سنة احدى وخمسين وستمائة ، فاختطت البحرية والعزيزية به اصطبلات ، وأزيلت أشجاره .

قال : ولعمرى ان خرابه كان بحق . فانه كان عرف بالحشيشة التى يتناولها الفقراء والتى تطلع به ... يضرب بها المثل فى الحسن . قال شاعرهم نور الدين أبو الحسن على ابن عبد الله بن على الينبعى لنفسه :

رب ليلٍ قطعته ونديمى ... شاهدى وهو مسمعى وسميرى
مجلسى مسجد وشربى من خضـ ... ـراء تزهو بحسن لون نضير
قال لى صاحبى وقد فاح منها ... نشرها مزريا بنشر العبير :
أمن المسك ؟ قلت ليست من المسـ ... ـك ، ولكنها من الكافورى

وقال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد ابن محمود بن أحمد بن محمد الأسدى الدمشقى المعروف باليغمورى : أنشدنى الامام العالم ، المعروف بجموع الفضائل ، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الحنفى لنفسه ، وهو أول من عمل فيها :

وخضراء كافورية بات فعلها ... بألبابنا فعلَ الرحيق المعتق
اذا نفحتنا من شذاها بنفحة ... تدب لنا فى كل عضو ومنطق
غنيت بها عن شرب خمر معتق ... وبالدلق عن لبس الجديد المزوق

وأنشدنى الحافظ جلال الدين أبو المعز ابن أبى الحسن بن أحمد بن الصائغ المغربى لنفسه :

عاطنى خضراء كافورية ... يكتب الخمر لها من جندها
أسكرتنا فوق ما تسكرنا ... وربحنا أنفسا من حدها

وأنشدنى لنفسه :

قم عاطنى خضراء كافورية
قامت مقام سلافة الصهباء

يغدو الفقير اذا تناول درهما
منها له تيه على الأمراء *

وتراه من أقوى الورى فاذا خلا
منها عددناه من الضعفاء

وأنشدنى من لفظه لنفسه أيضا :

عاطيت من أهوى وقد زارلى
كالبدر وافى ليلة البدر

والبحر قد مد على متنه
شعاعه جسرا من التبر

خضراء كافورية رنحت
أعطافه من شدة السكر

يفعل منها درهم فوق ما
تفعل أرطال من الخمر

فراح نشوانا بها غافلا
لا يعرف الحلو من المر

قال وقد نال بها أمره
فبات مردودا الى أمرى

قتلتنى قلت نعم سيدى
قتلتك بالسكر وبالبحر

قال : وأمر السلطان الملك الصالح (يعنى نجم الدين أيوب) الأمير جمال الدين أبا الفتح موسى بن يغمور ، أن يمنع من يزرع فى الكافورى من الحشيشة شيئا . فدخل ذات يوم ، فرأى فيه منها شيئا كثيرا ، فأمر بأن يجمع فجمع وأحرق .

فأنشدنى فى الواقعة الشيخ الأديب الفاضل شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف لنفسه ، وذلك فى ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وستمائة :

صرف الزمان وحادث المقدور
تركا نكير الخطب غير نكير

ما سالما حيا ولا ميتا ولا
طودا سما بل دكدكا بالطور

لهفى وهل يجدى التلهف فى ردى
طرب الغنى وأنس كل فقير

أخت المذلة لارتكاب محرم
قطب السرور بأيسر الميسور

جمعت محاسن ما اجتمعن لغيرها
من كل شىء كان فى المعمور

منها طعام والشراب كلاهما
والبقل والريحان وقت حضور

هى روضة ان شئتها ورياضة
يغنى بها عن روضة وخمور

ما فى المدامة كلها منها سوى
اثم المدام وصحبة المخمور

كلا ونكهة خمرة هى شاهد
عدل على حد وجلد ظهور

أسفا لدهر لها ، ولربما
ظل الكريم بذلة المأسور

جمعت له الأشهاد كرما أخضرا
كعروسة تجلى بخضر حرير

زفوا لها نارا فخلنا جنة
برزت لنا قد زوجت بالنور

(*) ص٢٥ جـ٢ ، ط.بولاق .

ثم اكتست منها غلالة صفرة
فى خضرة مقرونة بزفير

فكأنها لهب اللظى فى خضرة
منها وطرف رمادها المنثور

جارى النضار على مذاب زمرد
تركا فتيت المسك فى الكافورى

لله درك حية أو ميتة
من منظر بهج بغير نظير

أوذيت غير ذميمة فسقى الحيا
تربا تضمن منك ذوب عبير

عندى لذكرك ما بقيت مخلدا
سح الدموع ونفثة المصدور

ذكر كافور الاخشيدى

كان عبدا أسود خصيا ، مثقوب الشفة السفلى ، بطينا قبيح القدمين ثقيل البدن . جلب الى مصر ، وعمره عشر سنين فما فوقها ، فى سنة عشر وثلثمائة . فلما دخل الى مصر تمنى أن يكون أميرها ، فباعه الذى جلبه لمحمد بن هاشم ، أحد المتقبلين للضياع ، فباعه لابن عباس الكاتب .

فمر يوما بمصر على منجم ، فنظر له فى نجومه وقال له : أنت تصير الى رجل جليل القدر ، وتبلغ معه مبلغا عظيما .

فدفع اليه درهمين لم يكن معه سواهما ، فرمى بهما اليه وقال : أبشرك بهذه البشارة وتعطينى درهمين .

ثم قال له : وأزيدك ، أنت تملك هذه البلد وأكثر منه ، فاذكرنى .

واتفق أن ابن عباس الكاتب أرسله بهدية يوما الى الأمير أبى بكر محمد بن طغج الاخشيدى — وهو يومئذ أحد قواد تكين أمير مصر — فأخذ كافورا ورد الهدية ، فترقى عنده فى الخدم حتى صار من أخص خدمه .

ولما مات الاخشيد بدمشق ضبط كافور * الأمور ، ودارى الناس ووعدهم ، الى أن سكنت الدهماء بعد أن اضطرب الناس ، وجهز أستاذه وحمله الى بيت المقدس ، وسار الى مصر فدخلها .

وقد انعقد الأمر بعد الاخشيد لابنه أبى القاسم أونوجور ، فلم يكن بأسرع من ورود الخبر من دمشق بأن سيف الدولة على بن حمدان أخذها وسار الى الرملة فخرج كافور بالعساكر ، وضرب الدبادب — وهى الطبول — على باب مضربه فى وقت كل صلاة ، وسار فظفر وغنم . ثم قدم الى مصر وقد عظم أمره ، فقام بخلافة أونوجور ، فخاطبه القواد بالأستاذ ، وصار القواد يجتمعون عنده فى داره ، فيخلع عليهم ويحملهم ويعطيهم ... حتى انه وقع لجانك — أحد القواد الاخشيدية — فى يوم بأربعة عشر ألف دينار ، فما زال عبدا له حتى مات .

وانبسطت يده فى الدولة ، فعزل وولى وأعطى وحرم ، ودعى له على المنابر كلها الا منبر مصر والرملة وطبرية ، ثم دعى له بها فى سنة أربعين وثلثمائة ، وصار يجلس للمظالم فى كل سبت ، ويحضر مجلسه القضاة

(*) ص٢٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

والوزراء والشهود ووجوه البلد . فوقع بينه وبين الأمير أونوجور ، وتحرز كل منهما من الآخر ، وقويت الوحشة بينهما ، وافترق الجند فصار مع كل واحد طائفة .

واتفق موت أونوجور فى ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلثمائة — ويقال انه سمه — وأقام أخاه أبا الحسن على بن الاخشيد من بعده ، واستبد بالأمر دونه ، وأطلق له فى كل سنة أربعمائة ألف دينار ، واستقل بسائر أحوال مصر والشام .

فسد ما بينه وبين الأمير أبى الحسن على ، فضيق عليه كافور ، ومنع أن يدخل عليه أحد ، فاعتل بعلة أخيه ومات — وقد طالت به — فى محرم سنة خمس وخمسين وثلثمائة .

فبقيت مصر بغير أمير أياما ، لا يدعى فيها سوى للخليفة المطيع فقط ، وكافور يدبر أمر مصر والشام فى الخراج والرجال .

فلما كان لأربع بقين من المحرم المذكور ، أخرج كافور كتابا من الخليفة المطيع بتقليده بعد على بن الاخشيد . فلم يغير لقبه بالأستاذ ، ودعى له على المنبر بعد الخليفة .

وكانت له فى أيامه قصص عظام . وقدم عسكر من المعز لدين الله أبى تميم معد من المغرب الى الواحات ، فجهز اليه جيشا أخرجوا العسكر وقتلوا منهم ، وصارت الطبول تضرب على بابه خمس مرات فى اليوم والليلة ، وعدتها مائة طبلة من نحاس .

وقدمت عليه دعاة المعز لدين الله من بلاد المغرب يدعونه الى طاعته فلاطفهم ، وكان أكثر الاخشيدية والكافورية وسائر الأولياء والكتاب قد أخذت عليهم البيعة للمعز .

وقصر مد النيل فى أيامه ، فلم يبلغ تلك السنة سوى اثنى عشر ذراعا وأصابع . فاشتد الغلاء ، وفحش الموت فى الناس حتى عجزوا عن تكفينهم ومواراتهم .

وأرجف بسير القرامطة الى الشام ، وبدت غلمانه تتنكر له ، وكانوا ألفا وسبعين غلاما تركيا سوى الروم والمولدين ، فمات لعشر بقين من جمادى الأول سنة سبع وخمسين وثلثمائة عن ستين سنة .

فوجد له من العين سبعمائة ألف دينار ، ومن الورق والحلى والجوهر والعنبر والطيب والثياب والآلات والفرش والخيام والعبيد والجوارى والدواب ما قوم بستمائة ألف ألف دينار .

وكانت مدة تدبيره أمر مصر والشام والحرمين احدى وعشرين سنة وشهرين وعشرين يوما ، منها منفردا بالولاية بعد أولاد أستاذه سنتان وأربعة أشهر وتسعة أيام . ومات عن غير وصية ولا صدقة ولا مأثرة يذكر بها ، ودعى له على المنابر بالكنية التى كناه بها الخليفة ، وهى أبو المسك ، أربع عشرة جمعة .

وبعده اختلت مصر ، وكادت تدمر ، حتى قدمت جيوش المعز على يد القائد جوهر ، فصارت مصر دار خلافة .

ووجد على قبره مكتوب :

ما بال قبرك ياكافور منفردا
بصائح الموت بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك من أدنى الرجال وقد
كانت أسود الشرى تخشاك فى الكثب

ووجد أيضا مكتوب :

انظر الى غير الأيام ما صنعت
أفنت أناسا بها كانوا وما فنيت
دنياهم أضحكت أيام دولتهم
حتى اذا فنيت ناحت لهم وبكت

« خط الخرشتف » : هذا الخط فيما بين حارة برجوان والكافورى ، ويتوصل اليه من بين القصرين ، فيدخل له من قبو يعرف بقبو الخرشتف — وهو الذى كان يعرف قديما بباب التبانين — ويسلك من الخرشتف الى خط باب سر المارستان ، والى حارة زويلة .

وكان موضع الخرشتف ، فى أيام الخلفاء الفاطميين ، ميدانا بجوار القصر الغربى والبستان الكافورى . فلما زالت الدولة اختط ، وصار فيه عدة مساكن ، وبه أيضا سوق .

وانما سمى بالخرشتف لأن المعز أول من بنى فيه الاصطبلات بالخرشتف ، وهو ما يتحجر مما يوقد به على مياه الحمامات من الأزبال وغيرها .

قال ابن عبد الظاهر : الحارة المعروفة بالخرشتف كانت قديما ميدانا للخلفاء . فلما ورد المعز بنوا به اصطبلات ، وكذلك القصر الغربى . وقد كان النساء اللاتى أخرجن من القصر يسكن بالقصر النافعى ، فامتدت الأيدى الى طوبه * وأخشابه وبيعت ، وتلاشى حاله ، وبنى به وبالميدان اصطبلات ودويرات بالخرشتف فسمى بذلك ، ثم بنى به الآدر والطواحين وغيرها ، وذلك بعد الستمائة . وأكثر أراضى الميدان حكر للآدر القطبية .

« خط اصطبل القطبية » : هذا الخط أيضا من جملة أراضى الميدان . ولما انتقلت القاعة التى كانت سكن أخت الحاكم بأمر الله بعد زوال الدولة الفاطمية ، صارت الى الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فاستقر بها هو وذريته ، فصار يقال لها الدار القطبية . واتخذ هذا المكان اصطبلا لهذه القاعة ، فعرف باصطبل القطبية .

ثم لما أخذ الملك المنصور قلاوون القاعة القطبية من مؤنسة خاتون ، المعروفة بدار اقبال ، ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، أخت المفضل قطب الدين أحمد المعروفة بخاتون القطبية ، وعملها المارستان المنصورى ، بنى فى هذا الاصطبل المساكن ، وصارت من جملة الخطط المشهورة ، ويتوصل اليه من وسط سوق الخرشتف ، ويسلك فيه من آخره الى المدرسة الناصرية والمدرسة الظاهرية المستجدة ، وعمل على أوله دربا يغلق . وهو خط عامر .

« خط باب سر المارستان » : هذا الخط يسلك اليه من الخرشتف ، ويصير السالك فيه الى البندقانيين . وبعض هذا الخط ،

(*) ص٢٧ جـ٢ ، ط.بولاق .

وهو جله ومعظمه ، من جملة اصطبل الجميزة الذى كان فيه خيول الدولة الفاطمية ، وقد تقدم ذكره . وموضع باب سر المارستان المنصورى هو باب الساباط . فلما زالت الدولة واختط الكافورى والخرشتف واصطبل القطبية ، صار هذا الخط واقعا بين هذه الأخطاط ، ونسب الى باب سر المارستان لأنه من هنالك . وأدركت بعض هذه الخطة وهى خراب .

ثم أنشأ فيه القاضى جمال الدين محمود القيصرى ، محتسب القاهرة ، فى أيام ولايته نظر المارستان فى سنة احدى وثمانين وسبعمائة ، الطاحون العظيمة ذات الأحجار والفرن والربع علوه فى المكان الخراب ، وجعل ذلك جاريا فى جملة أوقاف المارستان المنصورى .

« خط بين القصرين » : هذا الخط أعمر أخطاط القاهرة وأنزهها . وقد كان فى الدولة الفاطمية فضاء كبيرا وبراحا واسعا يقف فيه عشرة آلاف من العسكر ما بين فارس وراجل ويكون به طرادهم ووقوفهم للخدمة كما هو الحال اليوم فى الرميلة تحت قلعة الجبل .

فلما انقضت أيام الدولة الفاطمية ، وخلت القصور من أهاليها ، ونزل بها أمراء الدولة الأيوبية وغيروا معالمها ... صار هذا الموضع سوقا مبتذلا بعد ما كان ملاذا مبجلا ، وقعد فيه الباعة بأصناف المأكولات من اللحمان المتنوعة والحلاوات المصنعة والفاكهة وغيرها . فصار منتزها تمر فيه أعيان الناس وأماثلهم فى الليل مشاة لرؤية ما هناك من السرج والقناديل الخارجة عن الحد فى الكثرة ، ولرؤية ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مما فيه لذة للحواس الخمس .

وكانت تعقد فيه عدة حلق لقراءة السير والأخبار وانشاد الأشعار والتفنن فى أنواع اللعب واللهو ، فيصير مجمعا لا يقدر قدره ولا يمكن حكاية وصفه . وسأتلو عليك من أنباء ذلك ما لا تجده مجموعا فى كتاب .

قال المسبحى فى حوادث جمادى الآخر سنة خمس وتسعين وثلثمائة : وفيه منع كل أحد ممن يركب مع المكاريين أن يدخل من باب القاهرة راكبا ، ولا المكارين أيضا بحميرهم ، ولا يجلس أحد على باب الزهومة من التجار وغيرهم ، ولا يمشى أحد ملاصق القصر من باب الزهومة الى أقصى باب الزمرذ . ثم عفى عن المكاريين بعد ذلك ، وكتب لهم أمان قرىء .

وقال ابن الطوير : ويبيت خارج باب القصر كل ليلة خمسون فارسا . فاذا أذن العشاء الآخرة داخل القاعة ، وصلى الامام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين وغيرهم ، وقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولة بن الكركندى . فاذا علم بفراغ الصلاة ، أمر بضرب النوبات من الطبل والبوق وتوابعهما من عدة وافرة بطريق مستحسنة ساعة زمانية .

ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمة فيقول : أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام ، فيصقع ويغرس حربة على الباب ، ثم يرفعها بيده ، فاذا رفعها أغلق الباب ، وسار الى حوالى القصر سبع دورات . فاذا انتهى ذلك جعل على الباب البياتين والفراشين المقدم

ذكرهم ، وأفضى المؤذنون الى خزائنهم هناك ، ورميت السلسلة عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين ، فينقطع المار من ذلك المكان الى أن تضرب النوبة سحرا قرب الفجر ، فتنصرف الناس من هناك بارتفاع السلسلة . انتهى .

وأخبرنى المشيخة أنه ما زال الرسم الى قريب : أنه لا يمر بشارع بين القصرين حمل تبن ولا حمل حطب ، ولا يستطيع حد أن يسوق فرسا فيه ، فان ساق أحد أنكر عليه وخرق به .

وقال ابن سعيد فى كتاب « المغرب » : والمكان الذى كان يعرف فى القاهرة « بين القصرين » هو من الترتيب السلطانى ، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة كلها كذلك ، كانت عظيمة القدر ، كاملة الهمة السلطانية .

وقال ياقوت : وبين القصرين كان ببغداد بباب الطاق ، يراد به قصر أسماء بنت المنصور وقصر عبد الله بن المهدى ، وكان يقال لهما أيضا بين القصرين . وبين * القصرين بمصر والقاهرة ، وهما قصران متقابلان بينهما طريق العامة والسوق ، عمرهما ملوك مصر المغاربة المتعلونة الذين ادعوا أنهم علوية .

وحدثنى الفاضل الرئيس تقى الدين عبد الوهاب ، ناظر الخواص الشريفة ، ابن الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله بن أبى شاكر ، أنه كان يشترى فى كل ليلة من بين القصرين بعد العشاء الآخرة — برسم الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله بن خصيب — من الدجاج المطجن والقطا وفراخ الحمام والعصافير المقلاة بمبلغ مائتى درهم وخمسين درهما فضة ، يكون عنها يومئذ نحو من اثنى عشر مثقالا من الذهب ، وأن هذا كان دأبه فى كل ليلة . ولا يكاد مثل هذا ، مع كثرته لرخاء الأسعار ، يؤثر نقصه فيما كان هنالك من هذا الصنف ، لعظم ما كان يوضع فى بين القصرين من هذا النوع وغيره .

(*) ص٢٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

ولقد أدركنا ، فى كل ليلة من بعد العصر ، يجلس الباعة بصنف لحمان الطيور التى تقلى صفا من باب المدرسة الكاملية الى باب المدرسة الناصرية ، وذلك قبل بناء المدرسة الظاهرية المستجدة ، فيباع لحم الدجاج المطجن ولحم الأوز المطجن كل رطل بدرهم ، وتارة بدرهم وربع ، وتباع العصافير المقلوة كل عصفور بفلس ، حسابا عن كل أربعة وعشرين بدرهم . والمشيخة تقول : انا حينئذ فى غلاء لكثرة ما تصف من سعة الأرزاق ورخاء الأسعار فى الزمن الذى أدركوه قبل الفناء الكبير .

ومع ذلك فلقد وقع فى سنة ست وثمانين شىء لا يكاد يصدقه اليوم من لم يدرك ذلك الزمان . وهو أنه كان لنا ، من جيراننا بحارة برجوان ، شخص يعانى الجندية ويركب الخيل . فبلغنى عن غلامه أنه خرج فى ليلة من ليالى رمضان — وكان رمضان اذ ذاك فى فصل الصيف — ومعه رفيق له من غلمان الخيل ، وأنهما سرقا من شارع بين القصرين وما قرب منه بضعا وعشرين بطيخة خضراء ، وبضعا وثلاثين شقفة جبن . والشقفة أبدا من نصف رطل الى رطل .

فما منا الا من تعجب من ذلك ، وكيف تهيأ لاثنين فعل هذا ، وحمل هذا القدر يحتاج الى دابتين ... الى أن قدر الله تعالى لى بعد ذلك أن اجتمعت بأحد الغلامين المذكورين وسألته عن ذلك فاعترف لى به .

قلت : صف لى كيف عملتما .

فذكر أنهما كانا يقفان على حانوت الجبان أو مقعد البطيخى — وكان اذ ذاك يعمل من البطيخ فى بين القصرين مرصات كثيرة جدا ، فى كل مرص ما شاء الله من البطيخ — قال : فاذا وقفنا قلب أحدنا بطيخة ، وقلب الآخر أخرى ، فلشدة ازدحام الناس يتناول أحدنا بطيخته بخفة يد وصناعة ، ويقوم فلا يفطن به ، أو يقلب أحدنا ورفيقه قائم من ورائه ، والبياع مشغول البال لكثرة ما عليه من المشترين وما فى ذلك الشارع من غزير الناس ، فيحذفها من تحته وهو جالس القرفصاء ، فاذا أحس بها رفيقه تناولها ومر ، وكذلك كان فعلهم مع الجبانين وكانوا كثيرا . فانظر — أعزك الله — الى بضاعة يسرق منها مثل هذا القدر ، ولا يفطن به من كثرة ما هنالك من البضائع ولعظم الخلق .

ولقد حدثنى غير واحد ، ممن قدم مع قاضى القضاة عماد الدين أحمد الكركى ، أنه لما قدموا من الكرك فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، كادوا يذهلون عند مشاهدة بين القصرين . وقال لى ابنه محب الدين محمد : أول ما شاهدت بين القصرين حسبت أن زفة أو جنازة كبيرة تمر من هنالك ، فلما لم ينقطع المارة سألت : ما بال الناس مجتمعين للمرور من ههنا ؟ فقيل لى هذا دأب البلد دائما .

ولقد كنا نسمع أن من الناس من يقوم خلف الشاب أو المرأة ، عند التمشى بعد العشاء بين القصرين ، ويجامع حتى يقضى وطره وهما ماشيان من غير أن يدركهما أحد ، لشدة الزحام واشتغال كل أحد بلهوه .

وما برحت أجد من الازدحام مشقة ، حتى أفادنى بعض من أدركت أن من الرأى فى المشى أن يأخذ الانسان فى مشيه نحو شماله ، فانه لا يجد من المشقة كما يجد غيره من الزحام . فاعتبرت ذلك آلاف مرات فى عدة سنين فما أخطأ معى ، ولقد كنت أكثر من تأمل المارة بين القصرين ، فاذا هم صفان كل صف يمر من صوب شماله كالسيل اذا اندفع . وعلى هذا الذى أفادنى أن القلب من يسار كل أحد ، والناس تميل الى جهة قلوبهم ، فلذلك صار مشيهم من صوب شمائلهم ، وكذا صح لى مع طول الاعتياد .

ولما حدثت هذه المحن بعد سنة ست وثمانين وثمانمائة ، تلاشى أمر بين القصرين ، وذهب ما هناك . وما أخوفنى أن يكون أمر القاهرة كما قيل :

هذه بلدة قضى الله ياصا ... ح عليها كما ترى بالخراب
فقف العيس وقفة وابك من كا ... ن بها من شيوخها والشباب
واعتبر ان دخلت يوما اليها ... فهى كانت منازل الأحباب

« خط الخشبية » : هذا الخط يتوصل اليه من وسط سوق باب الزهومة ، ويسلك

فيه الى الحارة العدوية ، حيث فندق الرخام برحبة بيبرس ، والى درب شمس الدولة .

وقيل له خط الخشبية من أجل أن الخليفة الظافر لما قتله نصر بن عباس * ، وبنى على مكانه الذى دفنه فيه المسجد الذى يعرف اليوم بمسجد الخلعيين ، ويعرف أيضا بمسجد الخلفاء ... نصبت هناك خشبة حتى لايمر أحد من هذا الموضع راكبا ، فعرف بخشبية تصغير خشبة .

وما زالت هناك حتى زالت الدولة الفاطمية وقام السلطان صلاح الدين بسلطنة مصر ، فأزال الخشبية ، وعرف هذا الخط بها الى اليوم . ويقال له خط حمام خشيبة من أجل الحمام التى هناك .

ولمقتل الظافر خبر يحسن ذكره هنا .

ذكر مقتل الخليفة الظافر

وكان من خبر الظافر أنه لما مات الخليفة الحافظ لدين الله ، أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر ، فى ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، بويع ابنه أبو المنصور اسماعيل ، ولقب بالظافر بأمر الله بوصية من أبيه له بالخلافة ، وقام بتدبير الوزارة الأمير نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال .

فلم يرض الأمير المظفر على بن السلار — والى الاسكندرية والبحيرة يومئذ — بوزارة ابن مصال ، وحشد وسار الى القاهرة . ففر ابن مصال ، واستقر ابن السلار فى الوزارة ، وتلقب بالعادل . فجهز العساكر لمحاربة ابن مصال فحاربته وقتل .

فقوى واستوحش منه الظافر ، وخاف منه ابن السلار واحترز منه على نفسه ، وجعل له رجالا يمشون فى ركابه بالزرد والخود — وعددهم ستمائة رجل بالنوبة — ونقل جلوس الظافر من القاعة الى الايوان فى البراح والسعة ، حتى اذا دخل للخدمة يكون أصحاب الزرد معه .

ثم تأكدت النفرة بينهما ، فقبض على صبيان الخاص وقتل أكثرهم ، وفرق باقيهم وكانوا خمسمائة رجل . وما زال الأمر على ذلك الى أن قتله ربيبه عباس بن تميم بيد ولده نصر ، واستقر بعده فى وزارة الظافر .

وكان بين ناصر الدين نصر بن عباس الوزير وبين الظافر مودة أكيدة ومخالطة ، بحيث كان الظافر يشتغل به عن كل أحد ، ويخرج من قصره الى دار نصر بن عباس التى هى اليوم المدرسة السيوفية .

فخاف عباس من جراءة ابنه ، وخشى أن يحمله الظافر على قتله ، فيقتله كما قتل الوزير على بن السلار زوج جدته أم عباس . فنهاه عن ذلك ، وألحف فى تأنيبه وأفرط فى لومه ، لأن الأمراء كانوا مستوحشين من عباس ، وكارهين منه تقريبه أسامة بن منقذ لما علموه من أنه هو الذى حسن لعباس قتل ابن السلار كما هو مذكور فى خبره ، وهموا بقتله ، وتحدثوا مع الخليفة الظافر فى ذلك .

(*) ص٢٩ جـ٢ ، ط.بولاق م

فبلغ أسامة ما هم عليه — وكان غريبا من الدولة — فأخذ يغرى الوزير عباس بن تميم بابنه نصر ، ويبالغ فى تقبيح مخالطته للظافر ، الى أن قال له مرة : كيف تصبر على ما يقولُ الناس فى حق ولدك من أن الخليفة يفعل به ما يفعل بالنساء ؟ فأثر ذلك فى قلب عباس .

واتفق أن الظافر أنعم بمدينة قليوب على نصر بن عباس . فلما حضر الى أبيه ، وأعلمه بذلك ، وأسامة حاضر فقال له : ياناصر الدين ما هى بمهرك غالية ... يعرض له بالفحش .

فأخذ عباس من ذلك ما أخذه ، وتحدث مع أسامة لثقته به فى كيفية الخلاص من هذا ، فأشار عليه بقتل الظافر اذا جاء الى دار نصر على عادته فى الليل ، فأمره بمفاوضة ابنه نصر فى ذلك . فاغتنمها أسامة ، وما زال بنصر يشنع عليه ، ويحرضه على قتل الظافر حتى وعده بذلك .

فلما كان ليلة الخميس آخر المحرم من سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، خرج الظافر من قصره متنكرا ومعه خادمان كما هى عادته ، ومشى الى دار نصر بن عباس ، فاذا به قد أعد له قوما ، فعندما صار فى داخل داره وثبوا عليه ، وقتلوه هو وأحد الخادمين ، وتوارى عنهم الخادم الآخر ولحق بعد ذلك بالقصر ، ثم دفنوا الظافر والخادم تحت الأرض فى الموضع الذى فيه الآن المسجد .

وكان سنه يوم قتل احدى وعشرين سنة وتسعة أشهر ونصف ، منها فى الخلافة بعد أبيه أربع سنين وثمانية أشهر تنقص خمسة أيام ، وكان محكوما عليه فى خلافته . وفى أيامه ملك الفرنج مدينة عسقلان ، وظهر الوهن فى الدولة ، وكان كثير اللهو واللعب ، وهو الذى أنشأ الجامع المعروف بجامع الفاكهين .

وبلغ أهل القصر ما عمله نصر ابن عباس من قتل الظافر ، فكاتبوا طلائع بن رزيك — وكان على الأشمونين — وبعثوا اليه بشعور النساء يستصرخون به على عباس وابنه . فقدم بالجموع ، وفر عباس وأسامة ونصر . ودخل طلائع وعليه ثياب سود ، وأعلامه وبنوده كلها سود ، وشعور النساء التى أرسلت اليه من القصر على الرماح ... فكان فألا عجيبا . فانه بعد خمس عشرة سنة دخلت أعلام بنى العباس السود من بغداد الى القاهرة لما مات العاضد واستبد صلاح الدين بملك ديار مصر .

وكان أول ما بدأ به طلائع أن مضى ماشيا الى دار نصر ، وأخرج الظافر والخادم وغسلهما وكفنهما ، وحمل الظافر فى تابوت مغشى ، ومشى طلائع حافيا والناس كلهم حتى وصلوا الى القصر ، فصلى عليه ابنه الخليفة الفائز ، ودفن فى تربة القصر .

« خط سقيفة العداس » : هذا الخط فيما بين درب شمس الدولة والبندقانيين . كان يقال له أولا سقيفة العداس ، ثم عرف بالصاغة القديمة * ، ثم عرف بالأساكفة ، ثم هو الآن يعرف بالحريريين الشرابيين ، وبسوق الزجاجين ، وفيه يباع الزجاج ، وهو خط عامر .

(*) ص٣٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

وهذا العداس هو على بن عمر بن العداس أبو الحسن . ضمن فى أيام المعز لدين الله كورة بوصير ، فخلع عليه وحمله ، وسار خلفته بالبنود والطبول فى جمادى الأولى سنة أربع وستين وثلثمائة . فلما كان فى أول خلافة العزيز بالله بن المعز لدين الله ، ولاه الوساطة — وهى رتبة الوزارة — بعد موت الوزير يعقوب بن كلس ، ولم يلقبه بالوزير .

فجلس فى القصر لتسع عشرة خلت من ذى الحجة سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، وأمر ونهى ، ونظر فى الأموال ، ورتب العمال ، وأمر ألا يطلق شىء الا بتوقيعه ، ولا ينفذ الا ما أمر به وقرره . وأمره العزيز بالله ألا يرتفق ، أى يرتشى ، ولا يرتزق — يعنى أنه لا يقبل هدية — ولا يضيع دينارا ولا درهما .

فأقام سنة ، وصرف فى أول المحرم من سنة ثلاث وثمانين ، فقرر فى ديوان الاستيفاء .

الى أن كان جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، حسّن لأبى طاهر محمود النحوى الكاتب — وكان منقطعا اليه — أن يلقى الحاكم بأمر الله ، ويبلغه ما تشكوه الناس من تظافر النصارى وغلبتهم على المملكة وتوازرهم ، وأن فهد بن ابراهيم هو الذى يقوى نفوسهم ، ويفوض أمر الأموال والدواوين اليهم ، وأنه آفة على المسلمين وعدة للنصارى .

فوقف أبو طاهر للحاكم ليلا فى وقت طوافه فى الليل وبلغه ذلك ، ثم قال : يامولانا ان كنت تؤثر جمع الأموال واعزاز الاسلام ، فأرنى رأس فهد بن ابراهيم فى طشت ، والا لم يتم من هذا شىء !

فقال له الحاكم : ويحك ، ومن يقوم بهذا الأمر الذى تذكره ويضمنه ؟

فقال : عبدك على بن عمر بن العداس .

فقال : ويحك ، أويفعل هذا ؟!

قال : نعم ياأمير المؤمنين .

قال : قل له يلقانى ههنا فى غد .

ومضى الحاكم . فجاء أبو طاهر الى ابن العداس وأعلمه بما جرى ، فقال : ويحك قتلتنى وقتلت نفسك .

فقال : معاذ الله ! أفنصبر لهذا الكلب الكافر على ما يفعلّ بالاسلام والمسلمين ، ويتحكم فيهم من اللعب بالأموال ؟ والله ان لم تسع فى قتله ليسعين فى قتلك .

فلما كان فى الليلة القابلة ، وقف على بن عمر لعداس للحاكم ووافقه على ما يحتاج اليه . فوعده بانجاز ما اتفقا عليه ، وأمره بالكتمان . وانصرف الحاكم .

فلما أصبح ركب العداس الى دار قائد القواد حسين بن جوهر القائد ، فلقى عنده فهد ابن ابراهيم ، فقال له فهد : ياهذا ، كم تؤذينى وتقدح فىّ عند سلطانى ؟

فقال العداس : والله ما يقدح ولا يؤذينى عند سلطانى ، ويسعى على غيرك .

فقال فهد : سلط الله على من يؤذى صاحبه فينا ويسعى به سيف هذا الامام الحاكم بأمر الله .

فقال العداس : آمين ، وعجل ذلك ولا تمهله .

فقتل فهد فى ثامن جمادى الآخرة وضربت عنقه ، وكان له منذ نظر فى الرياسة خمس سنين وتسعة أشهر واثنى عشر يوما ، وقتل العداس بعده بتسعة وعشرين يوما . واستجيب دعاء كل منهما فى الآخر ، وذهبا جميعا ، ولا يظلم ربك أحدا .

وذلك أن الحاكم خلع على العداس فى رابع عشره وجعله مكان فهد ، وخلع على ابنه محمد بن على . فهناه الناس ، واستمر الى خامس عشرى رجب منها . فضربت رقبة أبى طاهر محمود بن النحوى — وكان ينظر فى أعمال الشام — لكثرة ما رفع عليه من التجبر والعسف . ثم قتل العداس فى سادس شعبان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، وأحرق بالنار .

« خط البندقانيين » : هذا الخط كان قديما اصطبل الجميزة ، أحد اصطبلات الخلفاء الفاطميين ، فلما زالت الدولة اختط ، وصارت فيه مساكن ، وسوق من جملته عدة دكاكين لعمل قسى البندق ، فعرف الخط بالبندقانيين لذلك

ثم انه احترق يوم الجمعة للنصف من صفر سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، والناس فى صلاة الجمعة ، فما قضى الناس الصلاة الا وقد عظم أمره . فركب اليه والى القاهرة والنيران قد ارتفع لهبها ، واجتمع الناس فلم يعرف من أين كان ابتداء الحريق .

واتفق هبوب رياح عاصفة ، فحملت شرر النار الى أمد بعيد ، ووصلت أشعتها الى أن رؤيت من القلعة . فركب الوزير منجك بمماليك الأمراء ، وجمعت السقاؤون لطفى النار ، فعجزوا عن اطفائها .

واشتد الأمر فركب الأمير شيخو والأمير طاز والأمير مغلطاى أميرآخور ، وترجلوا عن خيولهم ، ومنعوا النهابة من التعرض الى نهب البيوت التى احترقت .

وعم الحريق دكاكين البندقانيين ودكاكين الرسامين وحوانيت الفقاعين والفندق المجاور لها والربع علوه ، وعملت الى الجانب الذى يلى بيت بيبرس ركن الدين ، الملقب بالملك المظفر ، والربع المجاور لعالى زقاق الكنيسة . فما زال الأمير شيخو واقفا بنفسه ومماليكه ومعه الأمراء الى أن هدم ما هنالك .

والنار تأكل ما تمر به الى أن وصلت الى بئر الدلاء — التى كانت تعرف قديما ببئر زويلة ، ومنها كان يستقى لاصطبل الجميزة — فأحرقت ما جاور البئر من الأماكن الى حوانيت الفكاه والطباخ وما يجاورهما من الحوانيت والربع المجاور لدار الجوكندار ، وكادت أن تصل الى دار القاضى علاء الدين على بن فضل الله كاتب السر ، المجاورة لحمام الشيخ نجم الدين بن عبود .

ولم يبق أحد فى ذلك الخط حتى حول متاعه خوفا من الحريق . فكان أهل البيت * بينما هم فى نقل ثيابهم ، واذا بالنار قد أحاطت بهم ، فيتركون ما فى الدار وينجون بأنفسهم ... والأمر يعظم ، والهدم واقع فى الدور المجاورة لأماكن الحريق خشية من تعلق

(*) ص ٢١ ج ١ ، ط . بولاق .

النار بها ، فسرى الى جميع البلد الى أن أتى الهدم على سائر ما كان هنالك .

فأقام الأمر كذلك يومين وليلتين والأمراء وقوف . فلما خف انصرف الأمراء ، ووقف والى القاهرة ومعه عدة من الأمراء لطفى ما بقى ، فاستمروا فى طفئه ثلاثة أيام أخر .

وكان المصاب بهذا الحريق عظيما ... تلف فيه للناس من المال والثياب والمصاغ وغيره بالحريق والنهب ما لا يعلم قدره الا الله . هذا مع ما كان فيه الأمراء من منع النهابة ، وكفهم عن أموال الناس ، الا أن الأمر كان قد تجاوز الحد ، وعطب بالنار جماعة كثيرة ، ووصل حريق النار الى قيسارية طشتمر وربع بكتمر الساقى .

فلما كفى الله أمر هذا الحريق ، وأعان على طفئه ، بعد أن هدمت عدة أماكن جليلة ما بين رباع وحوانيت ، وقع الحريق فى أماكن من داخل القاهرة وخارج باب زويلة . ووجد فى بعض المواضع التى بها الحريق كعكات بزيت وقطران ، فعلم أن هذا من فعل النصارى ، كما وقع فى الحريق الذى كان فى أيام الملك الناصر ، وقد ذكر فى خبر السيرة الناصرية

فنودى فى الناس أن يحترسوا على مساكنهم . فلم يبق أحد من الناس ، أعلاهم وأدناهم ، حتى أعد فى داره أوعية ملآنة بالماء ما بين أحواض وأزيار ، وصاروا يتناوبون السهر فى الليل ، ومع ذلك فلا يدرى أهل البيت الا والنار قد وقعت فى بيتهم ، فيتداركون طفئها لئلا تشتعل ويصعب أمرها .

وترك جماعة من الناس الطبخ فى الدور ، وتمادى ذلك فى الناس من نصف صفر الى عاشر ربيع الأول . فأحضر الأمير سيف الدين تشتمر شاد الدواوين نشابة فى وسطها نفط قد وجدها فى سطح داره ، فأراها للأمراء وهى محروقة النصل .

فصدر أمر الوزير منجك للأمير علاء الدين على بن الكورانى والى القاهرة بالقبض على الحرافيش ، وتقييدهم وسجنهم خوفا من غائلتهم ونهبهم الناس عند وقوع الحريق . فتتبعهم وقبض عليهم فى الليل من بيوتهم ومن الحوانيت حتى خلت السكك منهم

ثم ان الأمراء كلموا الوزير فى أمرهم ، فأمر باطلاقهم ، ونودى فى البلد ألا يقيم فيها غريب ، وطلبوا الخفراء وولاة المراكز ، وأمروا بالاحتفاظ وتتبع الناس ، وأخذ من تتوهم فيه ريبة أو يذكر بشىء من أمر . هذا والحريق أمره فى تزايد ، وصار والى القاهرة من ذلك فى تعب كبير ، لا ينام هو ولا أعوانه فى الليل البتة لكثرة الضجات فى الليل .

ووقع حريق فى شونة حلفاء بمصر مجاورة لمطابخ السكر السلطانية . فركب القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص فى جماعة ، وخرج عامة أهل مصر ، وتكاثروا على الشونة حتى طفئت . ووقع الحريق فى عدة أماكن بمصر ، واستمر الحريق بمصر والقاهرة مدة شهر من ابتدائه بالبندقانيين ولم يعلم له سبب .

واستمر أكثر خط البندقانيين خرابا الى أن عمر الأمير يونس النوروزى ، دوادار الملك

الظاهر برقوق ، الربع فوق بئر الدلاء التى كانت تعرف ببئر زويلة ، وأنشأ بجوار درب الأنجب الحوانيت والرباع والقيسارية فى سنة تسع وثمانين وسبعمائة .

ثم أنشأ الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب ، ابن أخت الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، داره بجوار حمام ابن عبود ، فاتصل ظهرها بدكاكين البندقانيين ، فصار فيها ما كان من خراب الحريق هناك حيث الحوض الذى أنشأه تجاه دار بيبرس .

ولقد أدركنا فى خط البندقانيين عدة كثيرة من الحوانيت التى يباع فيها الفقاع تبلغ نحو العشرين حانوتا . وكانت من أنزه ما يرى ، فانها كانت كلها مرخمة بأنواع الرخام الملون ، وبها مصانع من ماء تجرى الى فوارات تقذف بالماء على ذلك الرخام حيث كيزان الفقاع مرصوصة ، فيستحسن منظرها الى الغاية ، لأنها من الجانبين والناس يمرون بينهما .

وكان بهذا الخط عدة حوانيت تعمل قسى البندق ، وعدة حوانيت لرسم أشكال ما يطرز بالذهب والحرير ، وقد بقيت من هذه الحوانيت بقايا يسيرة . وهو من أخطاط القاهرة الجسيمة .

« خط دار الديباج » : هذا الخط هو فيما بين خط البندقانيين والوزيرية . وكان أولا يعرف بخط دار الديباج ، لأن دار الوزير يعقوب بن كلس — التى من جملتها اليوم المدرسة الصاحبية ودرب الحريرى والمدرسة السيفية — عملت دارا ينسج فيها الديباج والحرير برسم الخلفاء الفاطميين ، وصارت تعرف بدار الديباج ، فنسب اليها الخط . الى أن سكن هناك الوزير صفى الدين عبد الله بن على بن شكر ، فى أيام العادل أبى بكر بن أيوب ، فصار يعرف بخط سويقة الصاحب . وهو خط جسيم به مساكن جليلة وسوق ومدرسة .

« خط الملحيين » : هذا الخط فيما بين الوزيرية والبندقانيين من وراء دار الديباج ، وتسميه العامة خط طواحين الملوحيين — بواو بعد اللام وقبل الحاء المهملة — وهو تحريف . وانما هو خط الملحيين ، عرف بطائفة من طوائف العسكر فى أيام الخليفة المستنصر بالله يقال لها الملحية ، وهم الذين قاموا بالفتنة فى أيام المستنصر الى أن كان من الغلاء ما أوجب خراب البلاد ، ونهب خزائن الخليفة المستنصر .

فلما قدم أمير * الجيوش بدر الجمالى الى القاهرة ، وتقلد وزارة المستنصر ، وتجرد لاصلاح اقليم مصر ، وتتبع المفسدين وقتلهم ، وسار فى سنة سبع وستين وأربعمائة الى الوجه البحرى ، وقتل لواتة وقتل مقدمهم سليمان اللواتى وولده ، واستصفى أموالهم ، ثم توجه الى دمياط وقتل فيها عدة من المفسدين .

فلما أصلح جميع البر الشرقى ، عدى الى البر الغربى ، وقتل جماعة من الملحية وأتباعهم بثغر الاسكندرية بعدما أقام أياما محاصر البلد وهم يمتنعون عليه ويقاتلونه ... الى أن أخذها عنوة ، فقتل منهم عدة كثير .

(*) ص٢٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وكان بهذا الخط عدة من الطواحين ، فسمى بخط طواحين الملحيين ، به الى الآن يسير من الطواحين .

« خط المسطاح » : هذا الخط فيما بين خط الملحيين وخط سويقة الصاحب ، وفيه اليوم سوق الرقيق — الذى يعرف بسوق الجوار — والمدرسة الحسامية ، وما دار به ويعرف بالمسطاح . وبخارج باب القنطرة ، قريب من باب الشعرية أيضا ، خط يعرف بالمسطاح .

« خط قصر أمير سلاح » : هذا الخط تجاه حمام البيسرى بين القصرين . يسلك فيه الى مدرسة الطواشى سابق الدين المعروفة بالسابقية ، وكان يخرج منه الى رحبة باب العيد من باب القصر ... الى أن هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، وبنى فى مكانه القيسارية المستجدة بجوار مدرسته من رحبة باب العيد ، فصار هذا الخط غير نافذ . وكان شارعا مسلوكا يمر فيه الناس والدواب بالأحمال ، فركب عليه جمال الدين المذكور دروبا لحفظ أمواله .

وكان هذا الخط من أخص أماكن القصر الكبير الشرقى . فلما زالت الدولة الفاطمية ، وتفرق أمراء صلاح الدين يوسف القصر ، عرف هذا المكان بقصر شيخ الشيوخ ابن حمويه الوزير لسكنه فيه ، ثم عرف بعد ذلك بقصر أمير سلاح وبقصر سابق الدين ، وهو الى الآن يعرف بذلك . وسبب شهرته بأمير سلاح أنه اتخذ به عمائر جليلة هى بيد ورثته الى الآن .

وأمير سلاح هذا هو « بكتاش الفخرى » الأمير بدر الدين أمير سلاح الصالحى النجمى . كان أولا مملوكا لفخر الدين ابن الشيخ ، فصار الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وتقدم عنده من جملة من قدمه من المماليك البحرية الذين ملكوا الديار المصرية من بعد انقضاء الدولة الأيوبية .

وتأمر فى أيام الملك الصالح ، وتقدم فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، واستمر أميرا ما ينيف على الستين سنة لم ينكب فيها قط .

وعظم فى أيام الملك المنصور قلاوون الألفى ... بحيث أن الأمير حسام الدين طرنطاى ، نائب السلطنة بديار مصر فى أيام قلاوون ، تجارى مرة مع السلطان فى حديث الأمراء . فقال له السلطان المنصور : أما اليوم فما بقى فى الأمراء غير أمير سلاح : اذا قلت فارس خيل شجاع ما يرد وجهه من عدوه ، واذا حلف ما يخون ، واذا قال صدق .

فقال طرنطاى : والله ياخوند له اقطاع عظيم ما كان يصلح الا لى .

فاحمر وجه السلطان وغضب ، وقال له : ويلك ! اياك أن تتكلم بهذا . والله مكان يصل فيه سيف أمير سلاح ما يصل نشابك ولا نشاب غيرك .

وكان كريما شجاعا . يسافر كل سنة مجردا بالعسكر ، فيصل الى حلب للغارة ومحاصرة قلاع العدو ، فاشتهر بذلك فى بلاد العدو ، وعظم صيته ، واشتدت مهابته . وكانت له رغبة فى شراء المماليك والخيول بأغلى القيم ،

وكان يبعث للأمراء المجردين معه النفقة ، ويقوم لهم بالشعير والأغنام . وبلغت مماليكه الغاية فى الحشمة ، وكان اقطاع كل منهم فى السنة عشرين ألف درهم فضة ، عنها يومئذ ألف مثقال من الذهب . ولكل من جنده خبز مبلغه فى السنة عشرة آلاف درهم ، سوى كلفهم من الشعير واللحم .

ومع ذلك فكان خيرا دينا ، له صدقات ومعروف واحسان كثير . ومات بعدما ترك امرته فى مرضه الذى مات فيه للنصف من ربيع الآخر سنة ست وسبعمائة ، رحمه الله .

وبهذا الخط عدة دور جليلة . يأتى ذكرها عند ذكر الدور من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

« أولاد شيخ الشيوخ » : جماعة أصلهم الذى ينتسبون اليه حمويه بن على . يقال انه من ولد رزم بن يونان أحد قواد كسرى أنو شروان ، وولى قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان ودبر دولته ، وهو جد شيخ الاسلام محمد وأخيه أبى سعد بنى حمويه بن محمد ابن حمويه .

وكان محمد وأبو سعد من ملوك خراسان ، فتركا الدنيا وأقبلا على طريق الآخرة ، ومات ركن الاسلام أبو سعد بنجران من قرى جوين فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، ومات أخوه شيخ الاسلام محمد بها فى سنة ثلاثين وخمسمائة .

وترك أبو سعد زين الدين أحمد وبنات ، وترك شيخ الاسلام محمد ولدا واحدا وهو أبو الحسن على . فتزوج على بن محمد بابنة عمه أبى سعد ، ورزق منها سعد الدين ومعين الدين حسنا وعماد الدين عمر . وترك زين الدين أحمد بن أبى سعد ركن الدين أبا سعد وعزيز الدين وزين الدين القاسم .

فقدم عماد الدين عمر بن على بن محمد بن حمويه الى دمشق ، وصار شيخ الشيوخ بها ، وقدم عليه ابنه شيخ الشيوخ صدر الدين على .

فلما مات عمر فى رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة بدمشق ، أقر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولده صدر الدين محمدا موضعه ، وصار شيخ الشيوخ بدمشق . فتزوج بابنة القاضى * شهاب الدين ابن أبى عصرون ، ورزق منها عشرة بنين : منهم عماد الدين عمر ، وفخر الدين يوسف ، وكمال الدين أحمد ، ومعين الدين حسين .

فأرضعت أمهم — بنت أبى عصرون — السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فصار أخا لأولاد صدر الدين شيخ الشيوخ من الرضاعة . وقدم صدر الدين الى القاهرة ، وولى تدريس الشافعى بالقرافة ومشيخة الخانقاه الصلاحية بسعيد السعدا ، ثم سافر فمات بالموصل فى رابع عشر جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمائة .

واستبد الملك الكامل بمملكة مصر بعد أبيه . فرقى أولاد صدر الدين شيخ الشيوخ محمد بن حمويه الأربعة ، وبعث عماد الدين عمر فى الرسالة الى الخليفة ببغداد ، وجمع له

(*) ص٢٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

بين رياسة العلم والقلم فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، ولم يجتمع ذلك لأحد فى زمانه .

وما زال على ذلك الى أن مات الملك الكامل ، وقام من بعده فى سلطنة مصر ابنه الملك العادل أبو بكر بن الكامل . فخرج الى دمشق ليحضر اليه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبى بكر بن أيوب نائب السلطنة بدمشق ، فدس عليه من قتله على باب الجامع فى سادس عشرى جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة .

وأما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين . فان الملك الكامل جعله أحد الأمراء ، وألبسه الشربوش والقباء ونادمه ، وبعثه فى الرسالة عنه الى ملك الفرنج ، ثم الى أخيه المعظم بدمشق ثم الى الخليفة ببغداد ، وأقامه يتحدث بمصر فى تدبير المملكة وتحصيل الأموال ، ثم بعثه حتى تسلم حران والرها ، وجهزه الى مكة على عسكره . فقاتل صاحبها الأمير راجح الدين بن قتادة ، وأخذها بالسيف ، وقتل عسكر اليمن .

وما زال مكرما محترما حتى مات الملك الكامل ، فقبض عليه العادل ابن الكامل واعتقله . فلما خلع العادل بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، أطلقه وأمّره وبالغ فى الاحسان اليه ، وبعثه على العساكر الى الكرك . فأوقع بالخوارزمية وبدد شملهم ، وكانوا قد قدموا من المشرق الى غزة ، وأقام الدعوة للصالح فى بلاد الشام وعاد .

ثم قدمه على العساكر . فأخذ طبرية من الفرنج وهدمها ، وأخذ عسقلان من الفرنج وهدم حصونها ، ونازل حمص حتى أشرف على أخذها . ثم تقدم على العساكر بقتال الفرنج بدمياط ، فمات السلطان عند المنصورة وقام بتدبير الدولة بعده خمسة وسبعين يوما الى أن استشهد فى رابع ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة ، فحمل من المنصورة الى القرافة فدفن بها .

وأما كمال الدين أحمد . فان الملك الكامل استنابه بحران والجزيرة ، وولى تدريس المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ، وتدريس الشافعى بالقرافة ، ومشيخة الشيوخ بديار مصر ، وقدمه الملك الصالح نجم الدين أيوب على العساكر غير مرة ، ومات بغزة فى صفر سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وأما معين الدين حسن فانه ولى مشيخة الشيوخ بديار مصر ، وبعثه الملك الكامل فى الرسالة عنه الى بغداد ، ثم أقامه نائب الوزارة الى أن مات . فاستوزره الملك الصالح نجم الدين أيوب فى ذى القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وجهزه على العساكر فى هيئة الملوك الى دمشق ، فقاتل الصالح اسماعيل بن العادل حتى ملكها ، ومات بها فى ثانى عشرى رمضان سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

وقد ذكرت أولاد شيخ الشيوخ فى كتاب « تاريخ مصر الكبير » ، واستقصيت فيه أخبارهم . والله تعالى أعلم .

« خط قصر بشتاك » : هذا الخط من جملة القصر الكبير ، ويتوصل اليه من تجاه المدرسة الكاملية ، حيث كان باب القصر المعروف بباب البحر ، وهدمه الملك الظاهر بيبرس كما تقدم

فى ذكر أبواب القصر ، وصار اليوم فى داخل هذا الباب حارة كبيرة ، فيها عدة دور جليلة منها قصر الأمير بشتاك ، وبه عرف هذا الخط .

و « بشتاك » هذا هو الأمير سيف الدين بشتاك الناصرى . قربه الملك الناصر محمد ابن قلاوون وأعلى محله ، وكان يسميه — بعد موت الأمير بكتمر الساقى — بالأمير فى غيبته . وكان زائد التيه ، لايكلم أستاداره وكاتبه الا بترجمان ، ويعرف بالعربى ولا يتكلم به ، وكان اقطاعه ست عشرة طبلخانة أكبر من اقطاع قوصون .

ولما مات بكتمر الساقى ، ورثه فى جميع أحواله واصطبله الذى على بركة الفيل وفى امرأته أم أحمد ، واشترى جاريته جوبى بستة آلاف دينار ، ودخل معها ما قيمته عشرة آلاف دينار ، وأخذ ابن بكتمر عنده . وزاد أمره ، وعظم محله ، فثقل على السلطان ، وأراد الفتك به فما تمكن .

وتوجه الى الحجاز ، وأنفق فى الأمراء وأهل الركب والفقراء والمجاورين بمكة والمدينة شيئا كثيرا الى الغاية ، وأعطى من الألف دينار الى المائة دينار الى الدينار ... بحسب مراتب الناس وطبقاتهم .

فلما عاد من الحجاز لم يشعر به السلطان الا وقد حضر فى نفر قليل من مماليكه ، وقال : ان أردت امساكى فهاأنا قد جئت اليك برقبتى . فغالطه السلطان ، وطيب خاطره . وكان يرمى بأوابد ودواهى من أمر الزنا .

وجرده السلطان لامساك تنكز نائب الشام . فحضر الى دمشق بعد امساكه هو وعشرة من الأمراء ، فنزلوا القصر الأبلق ، وحلف الأمراء كلهم للسلطان ولذريته ، واستخرج ودائع تنكز ، وعرض حواصله ومماليكه وجواريه وخيله * وسائر ما يتعلق به ، ووسط طغاى وجغاى مملوكى تنكز فى سوق الخيل ، ووسط دران أيضا بحضوره يوم المركب . وأقام بدمشق خمسة عشر يوما ، وعاد الى القلعة ، وبقى فى نفسه من دمشق ، وما تجاسر يفاتح السلطان فى ذلك .

فلما مرض السلطان وأشرف على الموت ، ألبس الأمير قوصون مماليكه ، فدخل بشتاك ، فعرف السلطان ذلك ، فجمع بينهما وتصالحا قدامه ، ونص السلطان على أن الملك بعده لولده أبى بكر . فلم يوافق بشتاك ، وقال : لا أريد الا سيدى أحمد .

فلما مات السلطان ، قام قوصون الى الشباك وطلب بشتاك ، وقال له : ياأمير المؤمنين أنا ما يجىء منى سلطان ، لأنى كنت أبيع الطسما والبرغالى والكشاتوين ، وأنت اشتريت منى وأهل البلاد يعرفون ذلك . وأنت ما يجىء منك سلطان لأنك كنت تبيع الكوزا ، وأنا اشتريت منك وأهل البلاد يعرفون ذلك . وهذا أستاذنا هو الذى وصى لمن هو أخبر به من أولاده ، وما يسعنا الا امتثال أمره حيا وميتا ، وأنا ما أخالفك ان أردت أحمد أو غيره ، ولو أردت أن تعمل كل يوم سلطانا ما خالفتك .

فقال بشتاك : هذا كله صحيح ، والأمر أمرك .

(*) ص٢٤ جـ٢ ، ط. بولاق

وأحضر المصحف وحلفا عليه وتعانقا ، ثم قاما الى رجلى السلطان فقبلاهما ، ووضعا أبا بكر بن السلطان على الكرسى ، وقبلا له الأرض وحلفا له ، وتلقب بالملك المنصور .

ثم ان بشتاكا طلب من السلطان الملك المنصور نيابة دمشق . فأمر له بذلك وكتب تقليده . وبرز الى ظاهر القاهرة وأقام يومين ، ثم طلع فى اليوم الثالث الى السلطان ليودعه . فوثب عليه الأمير قطلوبغا الفخرى وأمسك سيفه ، وتكاثروا عليه فأمسكوه ، وجهزوه الى الاسكندرية فاعتقل بها ، ثم قتل فى الخامس من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة لأول سلطنة الملك الأشرف كجك .

وكان شابا أبيض اللون ظريفا ، مديد القامة نحيفا ، خفيف اللحية كأنها عذار ، على حركاته رشاقة ، حسن العمة يتعمم الناس على مثالها . وكان يشبه بأبى سعيد ملك العراق ، الا انه كان غير عفيف الفرج ، زائد الهرج والمرج ، لم يعف عن مليحة ولا قبيحة ، ولم يدع أحدا يفوته ، حتى يمسك نساء الفلاحين وزوجات الملاحين ، واشتهر بذلك ورمى فيه بأوابد .

وكان زائد البذخ ، منهمكا على ما يقتضيه عنفوان الشبيبة ، كثير الصلف والتيه ، لا يظهر الرأفة ولا الرحمة فى تأنيه . ولما توجه بأولاد السلطان ليفرجهم فى دمياط ، كان يذبح لسماطه فى كل يوم خمسين رأسا من الغنم وفرسا لابد منه ، خارجا عن الأوز والدجاج . وكان راتبه دائما كل يوم من الفحم برسم المشوى مبلغ عشرين درهما عنها مثقال ذهب ، وذلك سوى الطوارىء .

وأطلق له السلطان كل يوم بقجة قماش من اللفافة الى الخف الى القميص واللباس والملوطة والبغلطاق والقباء الفوقانى بوجه اسكندرانى على سنجاب طرى مطرز مزركش رقيق وكلوتة وشاش ، ولم يزل يأخذ ذلك كل يوم الى أن مات السلطان . وأطلق له فى يوم واحد ، عن ثمن قرية تبنى بساحل الرملة ، مبلغ ألف ألف درهم فضة ، عنها يومئذ خمسون ألف مثقال من الذهب . وهو أول من أمسك بعد موت الملك الناصر .

وقال الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، ومن كتابه نقلت ترجمة بشتاك :

قال الزمان وما سمعنا قوله
والناس فيه رهائن الأشراك
من ينصر المنصور من كيدى وقد
صاد الردى بشتاك لى بشراك

« خط باب الزهومة » : هذا الخط عرف بباب الزهومة ، أحد أبواب القصر الكبير الشرقى الذى تقدم ذكره ، فانه كان هناك . وقد صار الآن فى هذا الخط سوق وفندق وعدة آدر ، يأتى ذكر ذلك كله فى موضعه ان شاء الله تعالى .

« خط الزراكشة العتيق » : هذا الخط فيما بين خط باب الزهومة وخط السبع خوخ ، وبعضه من دار العلم الجديدة ، وبعضه من جملة القصر النافعى ، وبعضه من تربة الزعفران وفيه اليوم فندق المهمندار الذى يدق فيه الذهب ، وخان الخليلى ، وخان

منجك ، ودار خواجا ، ودرب الحبش ، وغير ذلك كما ستقف عليه ان شاء الله .

« خط السبع خوخ العتيق » : هذا الخط فيما بين خط اصطبل الطارمة وخط الزراكشة العتيق . كان فيه قديما أيام الخلفاء الفاطميين سبع خوخ يتوصل منها الى الجامع الأزهر . فلما انقضت أيامهم ، اختط مساكن وسوقا يباع فيه الابر التى يخاط بها وغير ذلك ، فعرف بالأباريين .

« خط اصطبل الطارمة » : هذا الخط كان اصطبلا لخاص الخليفة يشرف عليه قصر الشوك والقصر النافعى ، وقد تقدم الكلام عليه . وكانت فيه طارمة يجلس الخليفة تحتها ، فعرف بذلك ، ثم هو الآن حارة كبيرة فيها عدة من المساكن ، وبه سوق وحمام ومساجد . وهذا الخط فيما بين رحبة قصر الشوك ورحبة الجامع الأزهر ، كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى فى ذكر الرحاب .

« خط الأكفانيين » : هذا الخط كان يعرف بخط الخرقيين : جمع خرقة .

« خط المناخ » : هذا الخط فيما بين البرقية والعطوفية . كان مواضع طواحين القصر ، وقد تقدم ذكره . ثم اختط * بعد ذلك ، وصار حارة كبيرة ، وهو الآن متداع للخراب .

« خط سويقة أمير الجيوش » : كان حارة الفرحية ، وسيأتى ذكره ان شاء الله تعالى فى الأسواق . وهذا الخط فيما بين حارة برجوان وخط خان الوراقة .

(*) ص٢٥ ج١ ، ط.بولاق .

« خط بركة الحبة » : هذا الخط يعرف اليوم ببكر الحطب ، وفيه سوق الأبازرة ، وهو فيما بين البندقانيين والمحمودية ، وفيه عدة أسواق ودور .

« خط الفهادين » : هذا الخط فيما بين الجوانية والمناخ .

« خط خزانة البنود » : هذا الخط فيما بين رحبة باب العيد ورحبة المشهد الحسينى ، وكان موضعه خزانة تعرف بخزانة البنود ، وكان أولا يعمل فيها السلاح ، ثم صارت سجنا لأمراء الدولة وأعيانها ، ثم أسكن فيها الفرنج الى ان هدمها الأمير الحاج آل ملك ، وحكر مكانها ، فبنى فيه الطاحون والمساكن كما تقدم .

«خط السقيفة» : هذا الخط فيما بين درب السلامى من رحبة باب العيد وبين خزانة البنود . كان يقف فيه المتظلمون للخليفة كما تقدم ذكره ، ثم اختط فصار فيه مساكن ، وهو خط صغير .

« خط خان السبيل » : هذا الخط خارج باب الفتوح ، وهو من جملة أخطاط الحسينية .

قال ابن عبد الظاهر : خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين قراقوش ، وأرصده لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة ، وبه بئر ساقية وحوض . انتهى .

وأدركنا هذا الخط فى غاية العمارة يعمل فيه عرصة تباع بها الغلال ، وكان فيه سوق يباع فيه الخشب ، ويجتمع الناس هناك بكرة

كل يوم جمعة ، فيباع فيه من الأوز والدجاج ما لا يقدر قدره ، وكانت فيه أيضا عدة مساكن ما بين دور وحوانيت وغيرها . وقد اختل هذا الخط .

« خط بستان ابن صيرم » : هذا الخط أيضا خارج باب الفتوح مما يلى الخليج وزقاق الكحل . كان من جملة حارة البيازرة ، فأنشأه زمام القصر المختار الصقلبى بستانا ، وبنى فيه منظرة عظيمة . فلما زالت الدولة الفاطمية ، استولى عليه الأمير جمال الدين سويخ بن صيرم ، أحد أمراء الملك الكامل ، فعرف به . ثم اختط وصار من أجل الأخطاط عمارة تسكنه الأمراء والأعيان من الجند ، ثم هو الآن آيل الى الدثور .

« خط قصر ابن عمار » : هذا الخط من جملة حارة كتامة ، وهو اليوم درب يعرف بالقماحين ، وفيه حمام كرائى ودار خوند شقرا ... يسلك اليه من خط مدرسة الوزير كريم الدين بن غنام ، ويسلك منه الى درب المنصورى .

وابن عمار هذا هو أبو محمد الحسن بن عمار بن على بن أبى الحسن الكلبى ، من بنى أبى الحسن أحد أمراء صقلية وأحد شيوخ كتامة . وصاه العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله لما احتضر ، هو والقاضى محمد بن النعمان ، على ولده أبى على منصور .

فلما مات العزيز بالله ، واستخلف من بعده ابنه الحاكم بأمر الله ، اشترط الكتاميون — وهم يومئذ أهل الدولة — ألا ينظر فى أمورهم غير أبى محمد بن عمار ... بعدما تجمعوا ، وخرج منهم طائفة نحو المصلى ، وسألوا صرف عيسى بن نسطورس ، وأن تكون الوساطة لابن عمار .

فندب لذلك ، وخلع عليه فى ثالث شوال سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، وقلد بسيف من سيوف العزيز بالله ، وحمل على فرس بسرج ذهب ، ولقب بأمين الدولة — وهو أول من لقب فى الدولة الفاطمية من رجال الدولة — وقيد بين يديه عدة دواب ، وحمل معه خمسون ثوبا من سائر البز الرفيع ، وانصرف الى داره فى موكب عظيم .

وقرىء سجله ، فتولى قراءته القاضى محمد ابن النعمان بجلوسه للوساطة ، وتلقيبه بأمين الدولة . وألزم سائر الناس بالترجل اليه ، فترجل الناس بأسرهم له من أهل الدولة ، وصار يدخل القصر راكبا ، ويشق الدواوين ، ويدخل من الباب الذى يجلس فيه خدم الخليفة الخاصة ، ثم يعدل الى باب الحجرة التى فيها أمير المؤمنين الحاكم ، فينزل على بابها ويركب من هناك .

وكان الناس من الشيوخ والرؤساء على طبقاتهم يبكرون الى داره ، فيجلسون فى الدهاليز بغير ترتيب والباب مغلق ، ثم يفتح فيدخل اليه جماعة من الوجوه ، ويجلسون فى قاعة الدار على حصير وهو جالس فى مجلسه ، ولا يدخل له أحد ساعة ، ثم يأذن لوجوه من حضر — كالقاضى ووجوه شيوخ كتامة والقواد — فتدخل أعيانهم .

ثم يأذن لسائر الناس ، فيزدحمون عليه بحيث لا يقدر أحد أن يصل اليه ، فمنهم من

يومىء بتقبيل الأرض ، ولا يرد السلام على أحد .

ثم يخرج فلا يقدر أحد على تقبيل يده سوى أناس بأعيانهم ، الا أنهم يومئون الى تقبيل الأرض ، وشرف أكابر الناس بتقبيل ركابه ، وأجل الناس من يقبل ركبته .

وقرب كتامة ، وأنفق فيهم الأموال وأعطاهم الخيول ، وباع ما كان بالاصطبلات من الخيل والبغال والنجب وغيرها وكانت شيئا كثيرا ، وقطع أكثر الرسوم التى كانت تطلق لأولياء الدولة من الأتراك ، وقطع أكثر ما كان فى المطابخ ، وقطع أرزاق جماعة ، وفرق كثيرا من جوارى القصر — وكان به من الجوارى والخدم عشرة آلاف جارية وخادم — فباع من اختار البيع ، وأعتق من سأل العتق طلبا للتوفير .

واصطنع أحداث المغاربة ، فكثر عتيهم ، وامتدت أيديهم الى الحرام فى الطرقات ، وشلحوا الناس ثيابهم . فضج الناس منهم ، واستغاثوا اليه بشكايتهم ، فلم يبد منه كبير نكير . فأفرط الأمر حتى تعرض جماعة منهم للغلمان الأتراك وأرادوا * أخذ ثيابهم ، فثار بسبب ذلك شر قتل فيه غلام من الترك وحدث من المغاربة ، فتجمع شيوخ الفريقين ، واقتتلوا يومين آخرها يوم الأربعاء تاسع شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة .

فلما كان يوم الخميس ركب ابن عمار لابسا آلة الحرب وحوله المغاربة ، فاجتمع الأتراك ، واشتدت الحرب ، وقتل جماعة وجرح كثير ، فعاد الى داره . وقام برجوان بنصرة الأتراك ، فامتدت الأيدى الى دار ابن عمار واصطبلاته ودار رشا غلامه ، فنهبوا منها ما لا يحصى كثرة فصار الى داره بمصر فى ليلة الجمعة لثلاث بقين من شعبان ، واعتزل عن الأمر . فكانت مدة نظره أحد عشر شهرا الا خمسة أيام ، فأقام بداره فى مصر سبعة وعشرين يوما .

ثم خرج اليه الأمر بعوده الى القاهرة ، فعاد الى قصره هذا ليلة الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ، فأقام به لا يركب ولا يدخل اليه أحد الا أتباعه وخدمه . وأطلقت له رسومه وجراياته التى كانت فى أيام العزيز بالله ، ومبلغها عن اللحم والتوابل والفواكه خمسمائة دينار فى كل شهر ، وفى اليوم سلة فاكهة بدينار وعشرة أرطال شمع ونصف حمل ثلج .

فلم يزل بداره الى يوم السبت الخامس من شوال سنة تسعين وثلثمائة . فأذن له الحاكم فى الركوب الى القصر ، وأن ينزل موضع نزول الناس ، فواصل الركوب الى يوم الاثنين رابع عشره . فحضر عشية الى القصر وجلس مع من حضر ، فخرج اليه الأمر بالانصراف ، فلما انصرف ابتدره جماعة من الأتراك وقفوا له ، فقتلوه واحتزوا رأسه ودفنوه مكانه ، وحمل الرأس الى الحاكم ، ثم نقل الى تربته بالقرافة فدفن فيها .

وكانت مدة حياته ، بعد عزله الى أن قتل ، ثلاث سنين وشهرا واحدا وثمانية وعشرين يوما . وهو من جملة وزراء الدولة المصرية . وولى بعده برجوان ، وقد مر ذكره .

(*) ص٣٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ذكر الدروب والأزقة

قد اشتملت القاهرة وظواهرها من الدروب والأزقة على شىء كثير . والغرض ذكر ماتيسر لى من ذلك .

« درب الأتراك » : هذا الدرب أصله من خط حارة الديلم ، وهو من الدروب القديمة ، وقد تقدم ذكره فى الحارات ، ويتوصل اليه من خطة الجامع الأزهر ، وقد كان فيما أدركناه من أعمر الأماكن .

أخبرنى خادمنا محمد بن السعودى قال : كنت أسكن فى أعوام بضع وستين وسبعمائة بدرب الأتراك ، وكنت أعانى صناعة الخياطة ، فجاءنى فى موسم عيد الفطر من لجيران أطباق الكعك والخشكنانج — على عدة أهل مصر فى ذلك — فملأت زيرا كبيرا كان عندى مما جاءنى من الخشكنانج خاصة لكثرة ما جاءنى من ذلك ... اذ كان هذا الخط خاصا بكثرة الأكابر والأعيان . وقد خرب اليوم منه عدة مواضع .

« درب الاسوانى » : ينسب الى القاضى أبى محمد الحسن بن هبة الله الأسوانى ، المعروف بابن عتاب .

« درب شمس الدولة » : هذا الدرب كان قديما يعرف بحارة الأمراء كما تقدم . فلما كان مجىء المعز الى مصر ، واستيلاء صلاح الدين يوسف على مملكة مصر ، سكن فى هذا المكان الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ابن أيوب فعرف به ، وسمى من حينئذ درب شمس الدولة ، وبه يعرف الى اليوم .

«توران شاه» : الملقب بالملك المعظم شمس الدولة بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان . قدم الى القاهرة مع أهله من بلاد الشام ، فى سنة أربع وستين وخمسمائة ، عندما تقلد صلاح الدين يوسف بن أيوب وزارة الخليفة العاضد لدين الله ، بعد موت عمه أسد الدين شيركوه .

وكانت له أعمال فى واقعة السودان تولاها بنفسه ، واقتحم الهول ، فكان أعظم الأسباب فى نصرة أخيه صلاح الدين وهزيمة السودان ، ثم خرج اليهم بعد انهزامهم الى الجيزة ، فأفناهم بالسيف حتى أبادهم . وأعطاه صلاح الدين قوص وأسوان وعيذاب ، وجعلها له اقطاعا ، فكانت عبرتها فى تلك السنة مائتى ألف وستة وستين ألف دينار .

ثم خرج الى غزو بلاد النوبة فى سنة ثمان وستين ، وفتح قلعة ابريم ، وسبى وغنم ، ثم عاد بعد ما أقطع أبريم بعض أصحابه .

وخرج الى بلاد اليمن فى سنة تسع وستين وكان بها عبد النبى أبو الحسن على بن مهدى قد ملك زبيد وخطب لنفسه . وكان الفقيه عمارة قد انقطع الى شمس الدولة ، وصار يصف له بلاد اليمن ، ويرغبه فى كثرة أموالها ، ويغريه بأهلها ، وقال فيه قصيدته المشهورة التى أولها :

العلم مذ كان محتاج الى القلم
وشفرة السيف تستغنى عن القلم

فبعثه ذلك على المسير الى بلاد اليمن . فسار اليها فى مستهل رجب ، ودخل مكة معتمرا ، وسار منها فنزل على زبيد فى سابع

شوال . وفى نهار الاثنين ثامن شوال فتحها بالسيف ، وقبض على على بن المهدى واخوته وأقاربه ، واستولى على ما كان فى خزائنه من مال ، وتسلم الحصون التى كانت بيده .

وفى مستهل ذى القعدة توجه قاصدا عدن ، وبذل لياسر بن بلال فى كل سنة ثلاثين ألف دينار ، وسلمها اليه ، فما رغب فى ذلك ، وكان قصده أن يقيم بها نائبا عن المجلس * الفخرى ، فلما أبى ذلك نزل عليها فى يوم الجمعة تاسع عشرى ذى القعدة ، وملكها فى ساعة بالسيف ، وقبض على ياسر واخوته وولدى الداعى ، فاحتوى على ما فيها ، وقبض على عبد النبى . واستولى أيضا على تعز وتفكر وصنعا وظفار وغيرها من مدن اليمن وحصونها ، وتلقب بالملك المعظم ، وخطب لنفسه بعد الخليفة العباسى .

وما زال بها الى سنة احدى وسبعين . فسار منها الى لقاء أخيه صلاح الدين ووصل اليه ، وملكه دمشق فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ، فأقام بها الى أن خرج السلطان صلاح الدين مرة من القاهرة الى بلاد الشام ، فجهزه فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين الى مصر ، وكان قد عمله نائبا ببعلبك ، فاستتاب عنه فيها ، ودخل الى القاهرة ، وأنعم عليه صلاح الدين بالاسكندرية ، فسار اليها وأقام بها الى أن توفى فى مستهل صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة بالاسكندرية فدفن بها .

وكان كريما واسع العطاء ، كثير الانفاق . مات وعليه مائتا ألف دينار مصرية دينا ، فقضاها عنه أخوه صلاح الدين . وكان سبب خروجه من اليمن أنه التاث بدنه بزبيد ، فارتجل له سيف الدولة مبارك بن منقذ :

واذا أراد الله سوءا بامرىء ... وأراد أن يحييه غير سعيد

أغراه بالترحال من مصر بلا ... سبب وأسكنه بصقع زبيد

فخرج من اليمن كما تقدم .

وحكى الأديب الفاضل مهذب الدين أبو طالب محمد بن على الحلى ، المعروف بابن الخيمى ، قال : رأيت فى النوم المعظم شمس الدولة وقد مدحته وهو فى القبر ميت ، فلف كفنه ورماه الى وأنشدنى :

لا تستقلن معروفا سمحت به ... ميتا ، وأمسيت عنه عاريا بدنى

ولا تظنن جودى شابه بخل ... من بعد بذلى بملك الشام واليمن

انى خرجت عن الدنيا وليس معى ... من كل ماملكت كفى سوى كفنى

وهذا الدرب من أعمر أخطاط القاهرة ، به دار عباس الوزير وجماعة ، كما تراه ان شاء الله تعالى .

« درب ملوخيا » : هذا الدرب كان يعرف بحارة قائد القواد كما تقدم ، وعرف الآن بدرب ملوخيا — وملوخيا كان صاحب ركاب الخليفة الحاكم بأمر الله ، ويعرف بملوخيا الفراش ، وقتله الحاكم وباشر قتله — وفى هذا الدرب مدرسة القاضى الفاضل ، وقد اتصل به الآن الخراب .

(*) ص٣٧ جـ٢ ، ط . بولاق .

« درب السلسلة » : هذا الدرب تجاه باب الزهومة . يعرف بالسلسلة التى كانت تمد كل ليلة بعد العشاء الآخرة كما تقدم ، وكان يعرف بدرب افتخار الدولة الأسعد ، وعرف ببستان الدولة بن الكركندى ، وهو الآن درب عامر .

« درب الشمسى » : هذا الدرب بسوق المهامزيين تجاه قيسارية العصفر . عرف بالأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى ، أحد الأمراء فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وقتل على عكا فى سنة تسعين وستمائة بيد الفرنج شهيدا .

وكان هذا الدرب فى القديم موضعه دار الضرب ، ثم صار من حقوق درب ابن طلائع بسوق الفرايين . وقد هدم بعض هذا الدرب الأمير جمال الدين يوسف الأستادار لما اغتصب الحوانيت التى كانت على يمنة السالك من الخراطين الى سوق الخيميين ، وكانت فى وقف المعظم تمرتاش الحافظى ، كما سيأتى ذكره عند ذكر مدرسته ان شاء الله تعالى .

« درب ابن طلائع » : هذا الدرب على يسرة من سلك من سوق الفرايين الآن ، الذى كان يعرف قديما بالخرقيين ، طالبا الى الجامع الأزهر . ويسلك فى هذا الدرب الى قيسارية السروج وباب سر حمام الخراطين ودار الأمير ألدمر .

وعرف هذا الدرب أولا بالأمير نور الدولة أبى الحسن على بن نجا بن راجح بن طلائع ، ثم عرف بدرب الجاولى الكبير — وهو الأمير عز الدين جاولى الأسدى مملوك أسد الدين شيركوه بن شادى — ثم عرف بدرب العماد سنينات ، ثم عرف بدرب ألدمر ، وبه يعرف الى الآن .

« ألدمر أمير جان دار سيف الدين » : أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون . خرج الى الحج فى سنة ثلاثين وسبعمائة . وكان أمير حاج الركب العراقى تلك السنة يقال له محمد الحويج من أهل توريز . بعثه أبو سعيد ملك العراق الى مصر ، وخف على قلب الملك الناصر ، ثم بلغه عنه ما يكرهه فأخرجه من مصر .

ولما بلغه أن حويج فى هذه السنة أمير الركب العراقى ، كتب الى الشريف عطيفة أمير مكة أن يعمل الحيلة فى قتله بكل ما يمكن . فأطلع على ذلك ابنه مباركا وخواص قواده ، فاستعدوا لذلك .

فلما وقف الناس بعرفة ، وعادوا يوم النحر الى مكة ، قصد العبيد اثارة فتنة ، وشرعوا فى النهب لينالوا غرضهم من قتل أمير الركب العراقى ، فوقع الصارخ — وليس عند المصريين خبر مما كتبه السلطان — فنهض أمير الركب الأمير سيف الدين خاص ترك ، والأمير أحمد قريب السلطان ، والأمير ألدمر أمير جان دار فى مماليكهم .

وأخذ ألدمر يسب الشريف رميثة ، وأمسك بعض قواده وأحدق به . فقام اليه الشريف عطيفة ولاطفه ، فلم يرجع . وكان حديد النفس شجاعا * ، فأقدم اليهم — وقد اجتمع قواده

(*) ص٣٨ جـ٢ ، ط . بولاق .

مكة وأشرافها وهم ملبسون يريدون الركب العراقى — وضرب مبارك بن عطيفة بدبوس فأخطاه ، وضربه مبارك بحربة نفذت من صدره ، فسقط عن فرسه الى الأرض . فارتج الناس ووقع القتال ، فخرج أمير الركب العراقى واحترس على نفسه فسلم . وسقط فى يد أمير مكة اذ فات مقصوده ، وحصل ما لم يكن بارادته . ثم سكنت الفتنة ، ودفن ألدمر .

وكان قتله يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة ، فكأنما نادى مناد فى القاهرة والقلعة ، والناس فى صلاة العيد ، بقتل ألدمر ووقوع الفتنة بمكة ، ولم يبق أحد حتى تحدث بذلك ، وبلغ السلطان فلم يكترث بالخبر ، وقال : أين مكة من مصر ، ومن أتى بهذا الخبر ؟

واستفيض هذا الخبر بقتل ألدمر حتى انتشر فى اقليم مصر كله . فما هو الا أن حضر مبشر الحاج فى يوم الثلاثاء ثانى المحرم سنة احدى وثلاثين وسبعمائة ، فأخبروا بالخبر مثل ما أشيع . فكان هذا من أغرب ما سمع به .

ولما بلغ السلطان خبر قتل ألدمر ، غضب غضبا شديدا ، وصار يقوم ويقعد ، وأبطل السماط . وأمر فجرد من العسكر ألف فارس ، كل منهم بخودة وجوشن ومائة فردة نشاب وقاس برأسين أحدهما للقطع والآخر للهدم ، ومع كل منهم جملان وفرسان وهجين . ورسم لأمير هذا العسكر أنه اذا وصل الى ينبع وعداه ، لا يرفع رأسه الى السماء بل ينظر الى الأرض ، ويقتل كل من يلقاه من العربان ، الا من علم أنه أمير عرب فانه يقيده ويسحبه معه . وجرد من دمشق ستمائة فارس على هذا الحكم .

وطلب الأمير أيتمش أمير هذا الجيش ومن معه من الأمراء والمقدمين ، وقال له بدار العدل يوم الخدمة : واذا وصلت الي مكة لا تدع أحدا من الأشراف ولا من القواد ولا من عبيدهم يسكن مكة ، وناد فيها من أقام بمكة حل دمه ، ولا تدع شيئا من النخل حتى تحرقه جميعه ، ولا تترك بالحجاز دمنة عامرة ، وأخرب المساكن كلها ، وأقم فى مكة بمن معك حتى أبعث اليك بعسكر ثان .

وكان القضاة حاضرين ، فقال قاضى القضاة جلال الدين القزوينى : يامولانا السلطان هذا حرم قد أخبر الله عنه أن من دخله كان آمنا وشرفه . فرد عليه جوابا فى غضب .

فقال الأمير أيتمش : ياخوند ، فان حضر رميثة للطاعة وسأل الأمان ؟

فقال : أمنه .

ثم لما سكن عنه الغضب ، كتب باستقرار أهل مكة وتأمينهم ، وكتب أمانا نسخته :

« هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم وأماننا ، للمجلس العالى الأسدى رميثة بن الشريف نجم الدين محمد بن أبى نمر ، بأن يحضر الى خدمة الصنجق الشريف ، صحبة الجناب العالى السيفى أيتمش الناصرى ، آمنا على نفسه وأهله وماله وولده وما يتعلق به ... لا يخشى حلول سطوة قاصمة ، ولا يخاف مؤاخذة حاسمة ، ولا يتوقع خديعة ولا مكرا ، ولا

يحذر سوءا ولا ضررا ، ولا يستشعر مخافة ولا ضرارا ، ولا يتوقع وجلا ، ولا يرهب بأسا . وكيف يرهب من أحسن عملا ؟

« بل يحضر الى خدمة الصنجق آمنا على نفسه وماله وآله ، مطمئنا واثقا بالله ورسوله ، وبهذا الأمان الشريف المؤكد الأسباب ، المبيض الوجه ، الكريم الأحساب . وكلما يخطر بباله أنا نؤاخذ به فهو مغفور ، ولله عاقبة الأمور . وله منا الاقبال والتقديم ، وقد صفحنا الصفح الجميل ، وان ربك هو الخلاق العليم ...

« فليثق بهذا الأمان الشريف ، ولا يسىء به الظنون ، ولا يصغى الى قول الذين لا يعلمون ، ولا يستشير فى هذا الأمر الا نفسه . فيومه عندنا ناسخ لأمسه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى خيرا » ...

« فتمسك بعروة هذا الأمان فانها وثقى ، واعمل عمل من لا يضل ولا يشقى . ونحن قد أمناك فلاتخف ، ورعينا لك الطاعة والشرف ، وعفا الله عما سلف . ومن أمناه فقد فاز ، فطب نفسا وقر عينا فأنت أمير الحجاز . والحمد لله وحده » .

وكان ألدمر فيه شهامة وشجاعة ، وله سعادة طائلة ضخمة ، ومتاجر وزراعات اقتنى بها أموالا جزيلة ، وزوج ابنه بابنة قاضى القضاة جلال الدين القزوينى .

« درب قيطون » : هذا الدرب بين قيسارية جهاركس وقيسارية أمير على ، وهو نافذ الى خلف مستوقد حمام القاضى ، وكان من حقوق درب الأسوانى .

« درب السراج » : هذا الدرب على يسرة من سلك من الجامع الأزهر طالبا درب الأسوانى وخط الأكفانيين . وكان من جملة خط درب الأسوانى ، ثم أفرد فصار من خط الجامع الأزهر . وكان يعرف أولا بدرب السراج ، ثم عرف بدرب الشامى ، وهو الآن يعرف بدرب ابن الصدر عمر

« درب القاضى » : هذا الدرب يقابل مستوقد حمام القاضى ، على يمنة من سلك من درب الأسوانى الى الجامع الأزهر ، وهو من حقوق درب الأسوانى . كان يعرف أولا بزقاق عزاز غلام أمير الجيوش شاور السعدى وزير العاضد ، ثم عرف بالقاضى السعيد أبى المعالى هبة الله بن فارس ، ثم عرف بزقاق ابن الامام ، وعرف أخيرا بدرب ابن لؤلؤ ، وهو شمس الدين محمد بن لؤلؤ التاجر بقيسارية جهاركس .

« درب البيضاء » : هو من جملة خط الاكفانيين الآن ، المسلوك اليه من الجامع الأزهر وسوق القرايين . وعرف بذلك لأنه كان به دار تعرف * بالدار البيضاء .

« درب المنقدى » : هذا الدرب بين سوق الخيميين وسوق الخراطين ، على يمنة من سلك من الخراطين الى الجامع الأزهر . كان يعرف قديما بزقاق غزال — وهو صنيعة الدولة أبو الظاهر اسماعيل بن مفضل بن

(*) ص ٣٩ ج ٢ ، ط بولاق .

غزال — ثم عرف بدرب المنقدى ، وهو الآن يعرف بدرب الأمير بكتمر أستادار العلاى .

« درب خرابة صالح » : هذا الدرب على يسرة من سلك من أول الخراطين الى الجامع الأزهر . كان موضعه فى القديم مارستانا ، ثم صار مساكن وعرف بخرابة صالح . وفيه الآن دار الأمير طينال التى صارت بيد ناصر الدين محمد البارزى كاتب السر ، وفيه أيضا باب سوق الصنادقيين .

« درب الحمام » : هذا الدرب على يمنة من سلك من آخر سويقة الباطلية الى الجامع الأزهر . عرف بحسام الدين لاجين الصفدى أستادار الأمير منجك .

« درب المنصورى » : هذا الدرب بأول الحارة الصالحية تجاه درب أمير حسين . عرف أولا بدرب الجوهرى — وهو شهاب الدين أحمد بن منصور الجوهرى ، كان حيا فى سنة ثمانين وستمائة — وعرف أخيرا بدرب المنصورى . وهو الأمير قطلوبغا المنصورى حاجب الحجاب فى أيام الملك الأشرف شعبان ابن حسين .

« درب أمير حسين » : هذا الدرب فى طريق من سلك من خط خان الدميرى طالبا الى حارة الصالحية وحارة البرقية . استجده الأمير حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ومات فى ليلة السبت رابع شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وسبعمائة ، وكان آخر من بقى من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو والد الملك الأشرف شعبان بن حسين .

« درب القماحين » : هذا الدرب كان يعرف بخط قصر ابن عمار من جملة حارة كتامة قريبا من الحارة الصالحية . وفيه اليوم دار خوند شقرا ، وحمام كراى وراء مدرسة ابن الغنام .

« درب العسل » : هذا الدرب على يمنة من خرج من خط السبع خوخ يريد المشهد الحسينى . كان يعرف أولا بخوخة الأمير عقيل ابن الخليفة المعز لدين الله أبى تميم معد أول خلفاء الفاطميين بالقاهرة ، ومات فى سنة أربع وسبعين وثلثمائة هو وأخوه الأمير تميم بن المعز بالقاهرة ، ودفنا بتربة القصر .

« درب الجباسة » : هذا الدرب تجاه من يخرج من سوق الأبارين الى المشهد الحسينى . وهو من جملة القصر الكبير ، وبه دار خوخى التى تعرف اليوم بدار بهادر .

« درب ابن عبد الظاهر » : هذا الدرب بجوار فندق الذهب بخط الزراكشة العتيق وفى صفه . وهو من حقوق دار العلم التى استجدت فى خلافة الآمر ووزارة المأمون البطايحى . فلما زالت الدولة اختط مساكن ، وسكن هناك القاضى محيى الدين ابن عبد الظاهر فعرف به .

« درب الخازن » : هذا الدرب ملاصق لسور المدرسة الصالحية التى للحنابلة ، ومجاور لباب سر قاعة مدرسة الحنابلة والسبيل الذى على باب فندق مسرور الصغير . استجده الأمير علم الدين سنجر الخازن الأشرف ، والى القاهرة ، المنسوب اليه حكر الخازن بخط الصلية .

وسنجر هذا كانت فيه حشمة ، وله ثروة زائدة ، ويحب أهل العلم . تنقل فى المباشرات الى أن صار والى القاهرة ، فاشتهر بدقة الفهم وصدق الحدس الذى لا يكاد يخطىء ، مع عقل وسياسة واحسان الى الناس ، وعزل بالأمير قديدار ، ومات عن تسعين سنة فى ثامن جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة .

« درب الحبيشى » : هذا الدرب على يمنة من سلك من خط الزراكشة العتيق طالبا سوق الأبارين ، وهو بجوار دار خواجا المجاورة لخان منجك . أصله من جملة القصر النافعى ، وكان يعرف بخط القصر النافعى ، ثم عرف بخط سوق الوراقين ، وهو الآن يعرف بدرب الحبيشى . وهو الأمير سيف الدين بلبان الحبيشى ، أحد الأمراء الظاهرية بيبرس .

« درب بقولا » الصفار : بحارة الروم . كان يعرف بدرب الرومى الجزار .

« درب دعشى » : هذا الدرب ينفذ الى الخوخة التى تخرج قبالة حمام الفاضل المرسوم لدخول النساء . كان يعرف قديما بدرب دغمش — ويقال طغمش — ثم عرف بدرب كوز الزير — ويقال كوز الزيت — ويعرف بدرب القضاة بنى غشم من حقوق حارة الروم .

« درب أرقطاى » : هذا الدرب بحارة الروم . كان يعرف بدرب الشاع ، ثم عرف بدرب شمخ — وهو تاج العرب شمخ الحلبى — ثم عرف بدرب المعظم . وهو الأمير عز الملك المعظم ابن قوام الدولة جبر — بجيم وباء موحدة — ثم عرف بدرب أرسلان ، وهو الأمير عز الدين أرسلان بن قرا رسلان الكاملى والد الأمير جاولى المعظمى المعروف بجاولى الصغير ، ثم عرف بدرب الباسعردى ، وهو الأمير علم الدين سنجر الباسعردى ، أحد أكابر المماليك البحرية الصالحية النجمية ، وولى نيابة حلب .

ثم عرف الى الآن بدرب ابن أرقطاى — والعامة تقول رقطاى بغير همز — وهو أرقطاى الأمير سيف الدين الحاج أرقطاى ، أحد مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وصار الى أخيه الملك الناصر محمد فجعله جمدارا .

وكان هو والأمير أيتمش نائب الكرك بينهما اخوة ، ولهما معرفة بلسان الترك القبجاقى ، ويرجع اليهما فى « الياسة » التى هى شريعة جنكز خان (*) ، التى تقول العامة وأهل الجهل فى زماننا : هذا حكم السياسة ... يريدون حكم الياسة .

ثم ان الملك الناصر أخرجه مع الأمير تنكز الى دمشق ، ثم استقر فى نيابة حمص لسبع مضين من رجب سنة عشر وسبعمائة ، فباشرها مدة . ثم نقله الى نيابة صفد فى سنة ثمان عشرة ، فأقام بها وعمر فيها أملاكا وتربة .

فلما كان فى سنة ست وثلاثين ، طلب الى مصر ، وجهز الأمير أيتمش أخوه مكانه ، وعمل أمير مائة بمصر . فلما توجه العسكر الى اياس خرج معهم وعاد ، فكان يعمل نيابة الغيبة اذا خرج السلطان للصيد . ثم أخرج

(*) ص٤٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

الى نيابة طرابلس عوضا عن طيبغا ، فأقام بها الى أن توجه الخجنا الى لحطمر نائب حلب ، وكان معه بعسكر طرابلس .

فلما جرى من هروب الخجنا ما جرى كان أرقطاى معه ، فأمسك واعتقل بسكندرية . ثم أفرج عن أرقطاى فى أول سلطنة الملك الصالح اسماعيل بوساطة الأمير ملكتمر الحجازى ، وجعل أميرا الى أن مات الصالح ، وقام من بعده الملك الكامل شعبان ، ورسم له بنيابة حلب عوضا عن الأمير يلبغا اليحياوى ، فحضر اليها فى جمادى الأولى سنة ست وأربعين ، فأقام بها نحو خمسة أشهر .

ثم طلب الى مصر فحضر اليها ، فلم يكن غير قليل حتى خلع الكامل وتسلطن المظفر حاجى ، وولاه نيابة السلطنة بمصر . فباشرها الى أن خلع المظفر ، وأقيم فى السلطنة الملك الناصر ، فاستعفى من النيابة وسأل نيابة حلب ، فأجيب وولى نيابة حلب ، وخرج اليها .

وما زال فيها الى أن نقل منها الى نيابة دمشق ، ففرح أهلها به وساروا الى حلب . فرحل عنها فنزل به مرض ، وسار وهو مريض ، فمات بعين مباركة ظاهر حلب يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة ، وقد أناف عن السبعين . فعاد أهل دمشق خائبين .

وكان ذكيا فطنا ، مصطلحا لسنا ، مع عجمة فى لسانه ، وله تشبيب مطبوع ، وميل الى الصور الجميلة ، ما يكاد يملك نفسه اذا شاهدها ، مع كرم فى المأكول .

« درب البغادين » بحارة الروم : يعرف بالبغادين من جملة طوائف العساكر فى الدولة الفاطمية ، ثم عرف بدرب أمير جاندار ، وهو ينفذ الى حمام الفاضل المرسوم بدخول الرجال . وأمير جاندار هذا هو الأمير علم الدين سنجر الصالحى المعروف بأمير جاندار .

« درب المكرم » بحارة الروم : يعرف بالقاضى المكرم جلال الدين حسين بن ياقوت البزاز نسيب ابن سنا الملك .

« درب الضيف » بحارة الديلم : عرف بالقاضى ثقة الملك أبى منصور نصر بن القاضى الموفق أمير الملك أبى الطاهر اسماعيل بن القاضى أمين الدولة أبى محمد الحسن بن على ابن نصر ابن الضيف ... كان موجودا فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . وبه أيضا رحبة تعرف برحبة الضيف منسوبة اليه .

« درب الرصاصى » بحارة الديلم : هذا الدرب كان يعرف بحكر الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء ، صهر بنى رزيك من وزراء الدولة الفاطمية ، ثم عرف بحكر تاج الملك بهران بن الأمير سيف الدين المذكور ، ثم عرف بالأمير عز الدين أيبك الرصاصى .

« درب ابن المجاور » : هذا الدرب على يسرة من دخل من أول حارة الديلم . كان فيه دار الوزير نجم الدين بن المجاور ، وزير الملك العزيز عثمان ، عرف به . وهو يوسف ابن الحسين بن محمد بن الحسين أبو الفتح نجم الدين الفارسى الشيرازى المعروف بابن المجاور .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

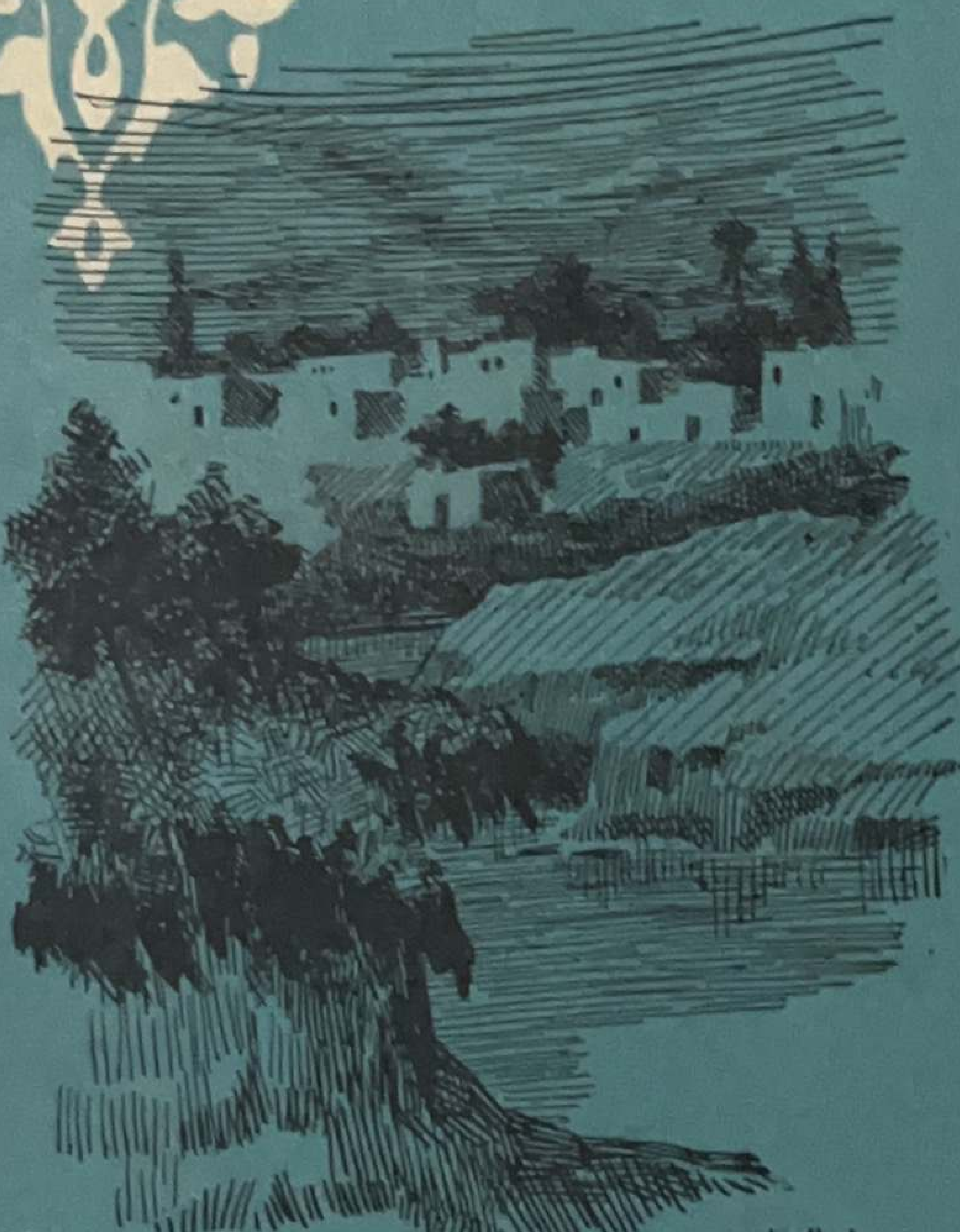
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش والقراء الجمهورية والسماء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٢٦



كتاب
التحرير

"كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها"

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

كان والده صوفيا من أهل فارس ثم من شيراز . قدم دمشق وأقام فى دويرة الصوفية بها ، وكان من الزهد والدين بمكان ، وأقام بمكة وبها مات فى رجب سنة ست وثمانين وخمسمائة . وكان أخوه أبو عبد الله قد سمع الحديث وحدث ، وقدم الى القاهرة ، ومات بدمشق أول رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة .

«درب الكهارية» : هذا الدرب فيه المدرسة الكهارية بجوار حارة الجودرية المسلوك اليه من القماحين ، ويتوصلُ منه الى المدرسة الشريفية .

« درب الصفيرة » بتشديد الفاء : هذا الدرب بجوار باب زويلة ، وهو من حقوق حارة المحمودية ، وكان نافذا الى المحمودية ، وهو الآن غير نافذ .

وأصله درب الصفيراء — تصغير صفراء ، هكذا يوجد فى الكتب القديمة — وقد دخل بجميع ما كان فيه من الدور الجليلة بالجامع المؤيدى .

« درب الأنجب » : هذا الدرب تجاه بئر زويلة التى من فوق فوهتها اليوم ربع يونس من خط البندقانيين . يعرف بالقاضى الأنجب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن نصر بن على أحد الشهود فى أيام قاضى القضاة سنان الملك أبى عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر ، وكان حيا فى سنة بضع وعشرين وخمسمائة . وينسب الى الحسين بن الأنجب المقدسى أحد الشهود المعدلين ، وكان موجودا فى سنة ستمائة . ثم عرف هذا الدرب بأولاد العميد الدمشقى فانه كان مسكنهم . ثم عرف بالباطى ، وهو قاضى القضاة جمال الدين يوسف .

« درب كنيسة جدة » بضم الجيم : هذا الدرب بالبندقانيين .كان يعرف بدرب بنت جدة ، ثم عرف بدرب الشيخ السديد الموفق .

« درب ابن قطز » : هذا الدرب بجوار مستوقد حمام الصاحب ورباط الصاحب من خط سويقة الصاحب . عرف بناصر الدين ابن بلغاق بن الأمير * سيف الدين قطز المنصورى ، ومات بعد سنة ثمان وتسعين وستمائة .

« درب الحريرى » : هذا الدرب من جملة دار الديباج هو ودرب ابن قطز المذكور قبله ، ويتوصل اليه اليوم من أول سويقة الصاحب ، وفيه المدرسة القطبية . عرف بالقاضى نجم الدين محمد بن القاضى فتح الدين عمر المعروف بابن الحريرى ، فانه كان ساكنا فيه .

« درب ابن عرب » : هذا الدرب بخط سويقة الصاحب . كان يعرف بدرب بنى أسامة الكتاب أهل الانشاء فى الدولة الفاطمية ، ثم عرف بدرب بنى الزبير الأكابر الرؤساء فى الدولة الفاطمية . ثم سكنه القاضى علاء الدين على بن عرب ، محتسب القاهرة فى أيام الأمير بليغاق وكيل بيت المال ، فعرف به الى اليوم.

وابن عرب هذا هو علاء الدين أبو الحسن على بن عبد الوهاب بن عثمان بن على بن محمد ، عرف بابن عرب ، ولى الحسبة

(*) ص٤١ جـ٢ ، ط. بولاق .

« درب مخلص » : هـذا الدرب بحـارة زويلة . عرف بمخلص الدولة أبى الحياء مطرف المستصرى ، ثم عرف بدرب الرايض ، وهو الأمير طراز الدولة الرايض باصطبل الخلافة .

« درب كوكب » : هذا الدرب هو الآن زقاق شارع يسلك فيـه من حارة زويلة الى درب الصـقالبة . عرف أولا بالقـائد الأعز مسعود المستصر ، ثم عرف بكوكب الدولة ابن الحناكى .

« درب الوشـاقى » بحارة زويلة : عرف بالأمير حسام الدين سنقر الوشاقى ، المعروف بالأعسر السـلاح دار ، أحد أمراء السلطـان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

« درب الصقالبة » بحارة زويلة : عـرف بطائفة الصقالبة ، لحدى طوائف العساكر فى أيام الخلفاء الفاطميـين ، وهم جماعة .

« درب الكنجى » بحارة زويلة : كان يعرف بدرب حليلة ، ثم عرف بالأمير شـمس الدين سنقر شاه الكنجى الحاجب الظاهرى ... قتله قلاوون أول سلطنته .

« درب رومية » : هـذا الدرب كان فى القديم فيما بين زقاق القابلة ودرب الزراق . فزقاق القابلة فيه اليوم كنيسة اليهود بحارة زويلة ، ويتوصل منه الى السبع سقايات ودار بيبرس التى عرفت بدار كاتب السر ابن فضل الله تجاه حمام ابن عبود . ودرب الزراق هو اليوم من جملة خط سويقة الصاحب . وبينهما الآن دور لا يوصل اليه الا بعد قطع مسافة .

ودرب رومية كان يعرف أولا بزقاق حسين ابن ادريس العزيزى ، أحد أتبـاع الخليفـة العزيز بالله * نزار بن المعز لدين الله ، ثم عرف بدرب رومية . وهو بجوار زقاق القابلة الذى عرف بزقاق العسل ، ثم عرف بزقاق المعصرة ، وعرف اليوم بزقاق الكنيـسة .

« درب الخضيرى » : هذا الدرب يقـابل باب الجامع الأقمر البحرى ، وهو من جملة حقوق القصر الصغير الغربى . عرف بالأمير عز الدين أيدمر الخضيرى ، أحد أمراء الملك المنصور قلاوون .

« درب شعلة » : هو الشارع المسلوك فيه من باب درب ملوخيـا الى خط الفهـادين والعطوفية . وقد خرب .

« درب نادر » : هذا الدرب بجوار المدرسة الجمالية ، فيمـا بين درب راشـد ودرب ملوخيا . عرف بسيف الدولة نادر الصقلبى ، وتوفى لاثنتى عشرة خلت من صفر سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة . فبعث اليه الخليفة العزيز بالله لكفنه خمسين قطعة من ديباج مثقـل . وخلف ثلثمائة ألف دينار عينا وآنية من فضة وذهب وعبيدا وخيلا ، وغير ذلك مما بلغت قيمته نحو ثمانين ألف دينار . وكان أحـد الخدام ... ذكره المسيحى فى تاريخه .

وقد ذكر ابن عبد الظاهر أن بالسويقة التى دون باب القنطرة دربا يعـرف بدرب نادر ، فلعله نسب اليه درب كان هناك فى القـديم أيضا .

(*) ص٢٢ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

بالقاهرة فى آخر صفر سـنة خمس وستين وسبعمائة ، وولى وكالة بيت المال أيضـا وتوفى .

« درب ابن منقش » : هذا الدرب تجـاه المدرسة الصاحبية . عرف أخيرا بتاج الدين موسى كاتب السعدى وناظر الخاص فى الأيام الظاهرية برقوق ، وله به دار مليحـة . وكان ماجنا متهتكا يرمى بالسوء ، وأما الديانة فانه قبطى ، وعنـه أخذ سعـد الدين ابراهيم بن غراب وظيفة ناظر الخاص وعاقبه بين يديه ، ثم صار يتردد بعد ذلك الى مجلسه . وهلك فى واقعة تيمور لنك بدمشق فى شعبان سـنة ثلاث وثمانمائة ، بعـد ما احترق بالنار لما احترقت دمشق ، وأكل الكلاب بعضه .

« درب مشترك » : هذا الدرب يقرب من درب العداس ، تجاه الخط الذى كان يعرف بالمسطاح ، وفيه الآن سوق الجوارى . عرف أولا بدرب الأختائى قاضى القضاة برهان الدين المالكى فانه كان يسكن فيه ، ثم هو الآن يقال له درب مشترك .

وهذه كلمة تركية أصلها بلسانهم «أججترك» — بضم الهمزة واشمامها ثم جيم بين الجيم والشين — ومعنى ذلك ثلاث ، وترك — بتاء مثناة من فوق ثم راء مهملة وكاف — ومعناها النخل . ومعنى هذا الاسـم ثلاث نخيـل ، وعربته العامة فقالت : مشترك . وهو مشترك السلاح دار الظاهر برقوق ، فانه سـكن بها ومات فى سنة ... ...

« درب العداس » : هذا الدرب فيمـا بين دار الديباج والوزيرية . عرف بعلى بن عمر العداس صاحب سقيفة العداس .

« درب كاتب سيدى » : هذا الدرب من جملة خط الملحيين . كان يعرف بدرب تقى الدين الأطرائى ، أحد موقعى الحكم عنـد قاضى القضاة تقى الدين الاخناوى ، ثم عرف بالوزير الصـاحب علم الدين عبـد الوهاب القبطى الشهير بكاتب سيدى .

« الوزير كاتب سيدى » : تسـمى لما أسلم بعبد الوهاب بن القسيس ، وتلقب علم الدين ، وعرف بين الكتاب الأقباط بكاتب سـيدى ، وترقى فى الخدم الديوانية حتى ولى ديوان المرتجع ، وتخصص بالوزير الصاحب شمس الدين ابراهيم كاتب أرلان ، فلما أشرف من مرضه على الموت عين للوزارة من بعده علم الدين هذا .

فولاه الملك الظاهر وظيفـة الوزارة بعـد موت الوزير شمس الدين ، فى سادس عشرى شعبان سـنة تسع وثمانين وسبعمائة ، فبـاشر الوزارة الى يوم السبت رابع عشرى رمضان سنة تسعين وسبعمائة . ثم قبض عليه ، وأقيم فى منصب الوزارة بدله الوزير الصاحب كريم الدين بن الغنام ، وسلمه اليه .

وكان قد أراد مصادرة كريم الدين . فاتفق استقراره فى الوزارة وتمكنه منـه ، فألزمه بحمل مال قرره عليه . فيقال انه حمل فى هذا اليوم ثلثمائة ألف درهم ، عنها اذ ذاك نحـو العشرة آلاف مثقال ذهبا ، ومات بعد ذلك من هذه السـنة . وكان كاتبا بليغا ، كتب بيده بضعا وأربعين رزمة من الورق . وكانت أيامه ساكنة ، والأحوال متمشية ، وفيه لين .

« درب راشد » : هذا الدرب تجاه خزانة البنود . عرف بيمين الدولة راشد العزيزى .

« درب النميرى » : عرف بالأمير سيف المجاهدين محمد بن النميرى ، أحد أمراء الخليفة الحافظ لدين الله ، وولى عسقلان فى سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وكانت ولايتها أكبر من ولاية دمشق .

وهذا الدرب كان ينفذ الى درب راشد ، وهو الآن غير نافذ . وفى داخله درب يعرف بأولاد الداية طاهر وقاسم الأفضلين أحد أتباع الأفضل بن أمير الجيوش ، وعرف الآن بدرب الطفل . وهو من جملة خطة قصر الشوك ، فانه قبالة باب قصر الشوك ، وبينهما سويقة رحبة الأيدمرى .

« درب قراصيا » : هذا الدرب من جملة الدروب القديمة ، وكان تجاه باب قصر الزمرذ الذى فى مكانه اليوم المدرسة الحجازية .

وهذا الدرب اليوم من جملة خطه رحبة باب العيد بجوار سجن الرحبة . وقد هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، وهدم كثيرا من دوره وعملها وكالة ، فمات ولم تكمل ، وهى الى الآن بغير تكملة . ثم كمله الملك المؤيد شيخ ، وجعله وقفا على جامعه ، وهو الى الآن خان عامر .

« درب السلامى » : هذا الدرب من جملة خط رحبة باب العيد ، وفيه الى اليوم أحد أبواب القصر المسمى بباب العيد ، والعامة تسميه القاهرة . وهذا الدرب يسلك منه الى خط قصر الشوك ، والى المارستان العتيق الصلاحى ، والى دار الضرب وغير ذلك . عرف بخواجا « مجد الدين السلامى » اسماعيل بن محمد بن ياقوت الخواجا مجد الدين السلامى ، تاجر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان يدخل الى باب الططر ، ويتجر ويعود بالرقيق وغيره ، واجتهد مع جوبان الى أن اتفق الصلح بين الملك الناصر وبين القان أبى سعيد ، فانتظم ذلك بسفارته وحسن سعيه ، فازدادت وجاهته عند الملكين .

وكان الملك الناصر يسفره ويقرر معه أمورا ، فيتوجه ويقضيها على وفق مراده بزيادات . فأحبه وقربه ، ورتب له الرواتب الوافرة فى كل يوم من الدراهم واللحم والعليق والسكر والحلواء والكماج والرقاق ، مما يبلغ فى اليوم مائة وخمسين درهما : عنها يومئذ ثمانية مثاقيل من الذهب ، وأعطاه قرية أراك ببعلبك ، وأعطى ممالبكه اقطاعات فى الحلقة .

وكان يتوجه الى الأردن ، ويقيم فيه الثلاث سنين والأربع والبريد لا ينقطع عنه ، وتجهز اليه التحف والأقمشة ليفرقها على من يراه من خواص أبى سعيد وأعيان الأردن ... ثقة بمعرفته ودرايته . وكان النشو ناظر الخاص لا يفارقه ، ولا يصبر عنه . ومن أملاكه ببلاد المشرق : السلامية ، والمأخوذة ، والمراوزة ، والمناصف . ولما مات الملك الناصر ، تغير عليه الأمير قوصون ، وأخذ منه مبلغا يسيرا .

وكان ذا عقل وافر وفكر مصيب ، وخبرة بأخلاق الملوك وما يليق بخواطرها ، ودراية بما

يتحفها به من الرقيق والجواهر ، ونطق سعيد ، وخلق رضى ، وشكالة حسنة ، وطلعة بهية . ومات فى داره من درب السلامى هذا يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ودفن بتربته خارج باب النصر .

ومولده فى سنة احدى وسبعين وستمائة بالسلامية — بلدة من أعمال الموصل على يوم منها بالجانب الشرقى — وهى بفتح السين المهملة وتشديد اللام وبعد الميم ياء مثناة من تحت مشددة ثم تاء التأنيث .

« درب خاص ترك » : هذا الدرب برحبة باب العيد . عرف بالأمير الكبير ركن الدين بيبرس — المعروف بخاص الترك الكبير — أحد الأمراء الصالحية النجمية ، أو بالأمير عز الدين أيبك المعروف بخاص الترك الصغير ، سلاح دار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .

« درب شاطى » : هذا الدرب يتوصل منه الى قصر الشوك . عرف بالأمير شرف الدين شاطى ، السلاح دار فى أيام الملك المنصور قلاوون . وكان أميرا كبيرا مقدما بالديار المصرية ، وأخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون الى الشام فأقام بدمشق ، وكانت له حرمة وافرة وديانة وفيه خير ، ومات بها فى الحادى والعشرين * من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة .

« درب الرشيدى » : هذا الدرب مقابل باب الجوانية . عرف بالأمير عز الدين ايدمر الرشيدى ، مملوك الأمير بلبان الرشيدى خوش داش الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .

وولى الأمير أيدمر هذا أستادارا لأستاذه بلبان ، ثم ولى أستادارا للأمير سلار ، ومات فى تاسع عشر شوال سنة ثمان وسبعمائة . وكان سكنه فى هذا الدرب ، وكان عاقلا ذا ثروة وجاه . وكان فى القديم موضع هذا الدرب براحا قدام الحجر .

« درب الفريحية » : هذا الدرب على يمنة من خرج من الجملون الصغير طالبا درب الرشيدى المذكور ، وهو من الدروب التى كانت فى أيام الخلفاء .

« درب الأصفر » : هذا الدرب تجاه خانقاه الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وموضع هذا الدرب هو المنحر الذى تقدم ذكره .

« درب الطاووس » : هذا الدرب فى الحدرة التى عند باب سر المارستان المنصورى على يسنة من ابتدأ الخراج منه ، وكان موضعه بجوار باب الساباط أحد أبواب القصر الصغير وقد تقدم ذكره .

ودرب الطاووس أيضا بالقرب من درب العداس فيما بين باب الخوخة والوزيرية .

« درب ماينجار » : : هذا الدرب بجوار جامع أمير حسين من حكر جوهر النوبى خارج القاهرة . عرف بالأمير ماينجار الرومى الواقدى أيام الملك الظاهر بيبرس . وقد خربت تلك الديار فى سلطنة الملك المؤيد شيخ .

(*) ص٤٢ ج٢ ، ط. بولاق .

« درب كوسا » : هو الآن يسلك فيه على شاطىء الخليج الكبير من قنطرة الأمير حسين الى قنطرة الموسكى . عرف بحسام الدين كوسا ، أحد مقدمى الحلقة فى أيام الملك المنصور قلاوون ، مات بعد سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

وهذا الموضع تجاه دار الذهب التى تعرف اليوم بدار الأمير حسين الطظرى ، السلاح دار الناصرى ، وقد خربت أيضا .

« درب الجاكى » : هذا الدرب بالحكر . عرف بالأمير شرف الدين ابراهيم بن على ابن الجنيد الجاكى المهمندار المنصورى . وقد دثر فى أيام المؤيد على يد الأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج الأستادار لما خرب ما هناك .

« درب الحرامى » بالحكر : عرف بسعد الدين حسين بن عمر بن محمد الحرامى وابنه محيى الدين يوسف ، وكانا من أجناد الحلقة .

« درب الزراق » بالحكر : عرف بالأمير عز الدين أيدمر الزراق أحد الأمراء . ولاه الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون نيابة غزة فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، فأقام بها مدة ، ثم استعفى بعد موت الملك الصالح وعاد الى القاهرة ، ثم توجه الى دمشق للحوطة على موجود الخاصكية يلبغا اليحياوى فى الأيام المظفرية وعاد .

فلما ركب العسكر على الملك المظفر ، لم يكن معه سوى الزراق وآق سنقر وأيدمر الشمسى . فنقم الخاصكية عليهم ذلك ، وأخرجوهم الى الشام ، فوصلوا اليها فى أول شوال سنة ثمان وأربعين ، فأقام الزراق بدمشق . ثم ورد مرسوم السلطان حسن بتوجيههم الى حلب ، فتوجه اليها على اقطاع وبها مات . وكان دينا لينا فيه خير .

وكان هذا الدرب عامرا ، وفيه دار الزراق الدار العظيمة . وقد خرب هذا الدرب وما حوله منذ كانت الحوادث فى سنة ست وثمانمائة ، ثم نقضت الدار فى أيام المؤيد شيخ على يد ابن أبى الفرج .

« زقاق طريف » بالطاء المهملة : هذا الزقاق من أزمة البرقية . عرف بالأمير فخر الدين طريف بن بكتوت ، وكان يعرف بزقاق منار ابن ميمون بن منار . توفى فى ذى الحجة سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

« زقاق منعم » بحارة الديلم : كان يعرف بساطب الديلم والأتراك ، ثم عرف بالأمير منعم الدولة باتكين البوسحاقى ، ثم عرف بزقاق جمال الدولة ، ثم بزقاق الجلاطى ، ثم بزقاق الصهرجتى . وهو القاضى المنتخب ثقة الدولة أبو الفضل محمد بن الحسين بن هبة الله بن وهيب الصهرجتى ، وكان حيا فى سنة ستين وخمسمائة .

« زقاق الحمام » بحارة الديلم : عرف قديما بخوخة المنقدى ، ثم عرف بخوخة سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء صهر بنى رزيك ، ثم عرف بزقاق حسام الرصاصى ، ثم عرف بزقاق المزار .

« زقاق الحرون » بحارة الديلم : عرف بالأمير الأوحد سلطان الجيوش زرى الحرون

رفيق العادل بن السلار ، وزير مصر فى أيام الخليفة الظافر بأمر الله ، ثم عرف بابن مسافر حين القضاة ، ثم عرف بزقاق القبة .

« زقاق الغراب » بالجودرية : كان يعرف بزقاق أبى المعز ، ثم عرف بزقاق ابن أبى الحسن العقيلى ، ثم قيل له زقاق الغراب نسبة الى أبى عبد الله محمد بن رضوان الملقب بغراب .

« زقاق عامر » بالوزيرية : عرف بعامر القماح فى حارة الأقانصة .

« زقاق فرج » بالجيم : من جملة أزقة درب ملوخيا . عرف بفرج مهتار الطشتخاناه للملك المنصور قلاوون . كان حيا فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

« زقاق حدرة » الزاهدى بحارة برجوان : عرفت بالأمير ركن الدين بيبرس الزاهدى الرماح الأحدب أحد الأمراء ، وممن له عدة غزوات فى الفرنج . ولما تمالأ الأمراء على الملك السعيد ابن الظاهر وسبقهم الى القلعة ، كان قدامه بيبرس الزاهدى هذا ، فسقط عن فرسه ، وخرجت له حدبة فى ظهره ، ومات فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة *.

وكان مكان هذه الحدرة أخصاصا ، وهى الآن مساكن بينها زقاق يسلك فيه من رأس الحارة الى رحبة الأفيال .

(*) ص٤٤ ج٢ ، ط. بولاق .

ذكر الخوخ

والقصد ايراد ما هو مشهور من الخوخ أو لذكره فائدة . والا فالخوخ والدروب والأزقة كثيرة جدا .

« الخوخ السبع » : كانت سبع خوخ ، فيما يقال ، متصلة باصطبل الطارمة . يتوصل منها الخلفاء اذا أرادوا الجامع الأزهر ، فيخرجون من باب الديلم — الذى هو اليوم باب المشهد الحسينى — الى الخوخ ، ويعبرون منها الى الجامع الأزهر . فانه كان حينئذ فيما بين الخوخ والجامع رحبة كما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وكان هذا الخط يعرف أولا بخوخة الأمير عقيل ، ولم يكن فيه مساكن . ثم عرف بعد انقضاء دولة الفاطميين بخط الخوخ السبع ، وليس لهذه الخوخ اليوم أثر ألبتة . ويعرف اليوم بالأبارين .

« باب الخوخة » : هو أحد أبواب القاهرة مما يلى الخليج ، فى حد القاهرة البحرى ، يسلك اليه من سويقة الصاحب ومن سويقة المسعودى . وكان هذا الباب يعرف أولا بخوخة ميمون دبه ، ويخرج منه الى الخليج الكبير . وميمون دبه يكنى بأبى سعيد ، أحد خدام العزيز بالله ، كان خصيا .

« خوخة أيدغمش » : هذه الخوخة فى حكم أبواب القاهرة . يخرج منها الى ظاهر القاهرة عند غلق الأبواب فى الليل وأوقات الفتن اذا غلقت الأبواب ، فينتهى الخارج منها

الى الدرب الأحمر واليانسية ، وسلك من هناك الى باب زويلة ، وصار اليها من داخل القاهرة اما من سوق الرقيق أو من حارة الروم من درب أرقطاى . وهذه الخوخة بجوار حمام أيدغمش .

وهو « أيدغمش الناصرى » الأمير علاء الدين . أصله من مماليك الأمير سيف الدولة بلبان الصالحى ، ثم صار الى الملك الناصر محمد بن قلاوون . فلما قدم من الكرك جعله أمير اخور عوضا عن الأمير بيبرس الحاجب ، ولم يزل حتى مات الملك الناصر ، فقام مع قوصون ، ووافقه على خلع الملك المنصور أبى بكر ابن الملك الناصر .

ثم لما هرب الطنبغا الفخرى ، اتفق الأمراء مع أيدغمش على الأمير قوصون ، فوافقهم على محاربته ، وقبض على قوصون وجماعته ، وجهزهم الى الاسكندرية ، وجهز من أمسك الطنبغا ومن معه ، وأرسلهم أيضا الى الاسكندرية .

وصار أيدغمش فى هذه النوبة هو المشار اليه فى الحل والعقد ، فأرسل ابنه فى جماعة من الأمراء والمشايخ الى الكرك بسبب احضار أحمد ابن الملك الناصر محمد . فلما حضر أحمد من الكرك ، وتلقب بالملك الناصر ، واستقر أمره بمصر ، أخرج أيدغمش نائبا بحلب .

فسار الى عين جالوت ، واذا بالفخرى قد صار اليه مستجيرا به ، فآمنه وأنزله فى خيمة . فلما ألقى عنه سلاحه واطمأن ، قبض عليه وجهزه الى الملك الناصر أحمد ، وتوجه الى حلب فأقام بها ... الى أن استقر الملك الصالح اسماعيل بن محمد فى السلطنة ، نقله عن نيابة حلب الى نيابة دمشق . فدخلها فى يوم العشرين من صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وما زال بها الى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة منها .

فعاد من مطعم طيوره ، وجلس بدار السعادة حتى انقضت الخدمة ، وأكل الطارى وتحدث ، ثم دخل الى داره فاذا جواريه يختصمن ، فضرب واحدة منهن ضربتين ، وشرع فى الضربة الثالثة فسقط ميتا ، ودفن من الغد فى تربته خارج ميدان الحصى ظاهر دمشق .

وكان جوادا كريما ، وله مكانة عند الملك الناصر الكبير بحيث انه أمر أولاده الثلاثة . وكان قد بعث الملك الصالح بالقبض عليه ، فبلغ القاصد موته فى قطيا فعاد .

« خوخة الأرقى » بحارة الباطلية : يخرج منها الى سوق الغنم وغيره ، وهى بجوار داره .

«خوخة عسلة» : هذه الخوخة من الخوخ القديمة الفاطمية ، وهى بحارة الباطلية مما يلى حارة الديلم ، فى ظهر الزقاق المعروف بخرابة العجيل ، بجوار دار الست حدق .

« خوخة الصالحية » : هذه الخوخة بجوار حبس الديلم ، قريبة من دار الصالح طلائع بن رزيك التى هدمها ابن قايسار وعمرها . وكانت تعرف هذه الخوخة أولا بخوخة بختكين — وهو الأمير جمال الدولة بختكين الظاهرى — ثم عرفت بخوخة الصالح طلائع

ابن رزيك ، لأن داره كانت هناك ، وبها كان سكنه قبل أن يلى وزارة الظافر

« خوخة المطوع » : هذه الخوخة بحارة كتامة ، فى أولها مما يلى الجامع الأزهر ، عند اصطبل الحسام الصفدى . عرفت بالمطوع الشيرازى .

« خوخة حسين » : هذه الخوخة فى الزقاق الضيق المقابل لمن يخرج من درب الأسوانى ، ويسلك فيه الى حكر الرصاصى بحارة الديلم . ويعرف هذا الزقاق بزقاق المزار ، وفيه قبر تزعم العامة ومن لا علم عنده أنه قبر يحيى بن عقب ، وأنه كان مؤدبا للحسين ابن على بن أبى طالب .

وهو كذب مختلق وافك مفترى . كقولهم فى القبر الذى بحارة برجوان انه قبر جعفر الصادق ، وفى القبر الآخر انه قبر أبى تراب النخشبى ، وفى القبر * الذى على يسرة من خرج من باب الحديد ظاهر زويلة انه قبر زارع النوى وانه صحابى ، وغير ذلك من أكاذيبهم التى اتخذها لهم شياطينهم أنصابا ليكونوا لهم عزا .

وسيأتى الكلام على هذه المزارات فى مواضعها من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

و « حسين » هذا هو الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء ، صهر بنى رزيك وزوج ابنة الصالح بن رزيك ، وكان كرديا .

قدمه الصالح بن رزيك ابن الصالح لما ولى الوزارة ونوه به . فلما مات ، وقام من بعده رزيك بن الصالح فى الوزارة ، كان حسين

(*) ص٤٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

هذا هو مدبر أمره بوصية الصالح . واستشار حسينا فى صرف شاور عن ولاية قوص ، فأشار عليه بإبقائه ، فأبى وولى الأمير أبى الرفعة مكانه .

وبلغ ذلك شاور ، فخرج من قوص الى طريق الواحات . فلما سمع زريك بمسيره ، رأى فى النوم مناما عجيبا ، فأخبر حسينا بأنه رأى مناما . فقال : ان بمصر رجلا يقال له أبو الحسن على بن نصر الأرتاجى ، وهو حاذق فى التعبير .

فأحضره وقال : رأيت كأن القمر قد أحاط به حنش ، وكأنى رواس فى حانوت .

فغالطه الأرتاجى فى تعبير الرؤيا ، وظهر ذلك لحسين ، فأمسك حتى خرج وقال له : ما أعجبنى كلامك ، والله لابد أن تصدقنى ولا بأس عليك .

فقال : يامولاى ، القمر عندنا هو الوزير ، كما أن الشمس الخليفة ، والحنش المستدير عليه حبس مصحف ، وكونه رواس اقلبها تجدها شاور مصحفا ، وما وقع لى غير هذا .

فقال حسين : اكتم هذا عن الناس .

وأخذ حسين فى الاهتمام بأمره ، ووطأ أنه يريد التوجه الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان قد أحسن الى أهلها ، وحمل اليها مالا وقماشا وأودعه عند من يثق به .

هذا وأمر شاور يقوى ويتزايد ، ويصل الارجاف به الى أن قرب من القاهرة . فصاح الصائح فى بنى رزيك — وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس — فأول من نجا بنفسه حسين وسار .

فسأل عنه رزنك ، فقالوا : خرج . فانقطع قلبه لأن حسينا كان مذكورا بالشجاعة مشهورا بها ، وله تقدم فى الدولة ومكانة وممارسة للحروب وخبرة بها . ولم يثبت بعد خروج حسين ، بل انهزم الى ظاهر أقفيح . فقبض عليه ابن النيض مقدم العرب ، وأحضره الى شاور فحبسه ، وصدقت رؤياه .

ومات حسين فى سنة ... ...

« خوخة الحلبى » : هذه الخوخة فى آخر اصطبل الطارمة بجوار حمام الأمير علم الدين سنجر الحلبى ، وفى ظهر داره .

« سنجر الحلبى » : أحد المماليك الصالحية . ترقى فى الخدم الى أن ولاه الملك المظفر سيف الدين قطز نيابة دمشق . فلما قتل قطز على عين جالوت ، وقام من بعده فى السلطنة بالديار المصرية الملك الظاهر بيبرس ، ثار سنجر بدمشق فى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، ودعا الى نفسه ، وتلقب بالملك المجاهد . وبقى أشهر والملك الظاهر يكاتب أمراء دمشق الى أن خامروا على سنجر ، وحاصروه بقلعة دمشق أياما .

فلما خشى أن يقبض عليه ، فر من القلعة الى بعلبك . فجهز اليه الظاهر الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى ، وما زال يحاصره حتى أخذه أسيرا ، وبعث به الى الديار المصرية ، فاعتقله الظاهر . وما زال فى الاعتقال من سنة تسع وخمسين الى سنة تسع وثمانين وستمائة ، مدة تنيف على ثلاثين سنة ، مدة أيام الملك الظاهر وولديه وأيام الملك المنصور قلاوون .

فلما ولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، أخرجه من السجن ، وخلع عليه ، وجعله أحد الأمراء الأكابر على عادته . فلم يزل أميرا بمصر الى أن مات على فراشه فى سنة اثنتين وتسعين وستمائة ، وقد جاوز تسعين سنة ، وانحنى ظهره وتقوس .

« خوخة الجوهرة » : هذه الخوخة بآخر حارة زويلة . عرفت اليوم بخوخة الوالى لقربها من دار الأمير علاء الدين السكورانى والى القاهرة ، وكان من خير الولاة يحفظ كتاب الحاوى فى الفقه على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، وأقام فى ولاية القاهرة من محرم سنة تسع وأربعين وسبعمائة بعد أستدمر القلنجى والى القاهرة الى ......

« خوخة مصطفى » : هذه الخوخة بآخر زقاق الكنيسة من حارة زويلة . يخرج منها الى القبو الذى عند حمام طاب الزمان ، المسلوك منه الى قبو منظرة اللؤلؤة على الخليج . عرفت بالأمير فارس المسكين مصطفى أحد أمراء بنى أيوب الملوك ، وهو أيضا صاحب هذا الحمام .

« خوخة ابن المأمون » : هذه الخوخة فى حارة زويلة ، بالدرب الذى بقرب حمام الكويك ، ويقال لهذه الخوخة اليوم باب حارة زويلة ، وأصلها خوخة فى درب ابن المأمون البطايحى .

« خوخة كوتية آق سنقر » : هذه الخوخة فى الزقاق الذى بظهر المدرسة الفخرية بآخر سويقة الصاحب . كان يسلك منها الى الخليج من جوار باب الذهب ، وموضعها بحذاء بيت القاضى أمين الدين ناظر الدولة . ولم تزل الى

أن بنى المهتار عبد الرحمن البابا داره بجوارها فى سنى بضع وتسعين وسبعمائة ، فسدها .

وعرفت هذه الخوخة أخيرا بخوخة الميسرى . وهو قمر الدين بن السعيد الميسرى .

« خوخة أمير حسين » : هذه الخوخة من جملة الوزيرية ، يخرج منها الى تجاه قنطرة أمير حسين . فتحها الأمير شرف الدين * حسين بن أبى بكر بن اسماعيل بن حيدرة بيك الرومى ، حين بنى القنطرة على الخليج الكبير ، وأنشأ الجامع بحكر جوهر النوبى .

وجرى فى فتح هذه الخوخة أمر لا بأس بايراده . وهو أن الأمير حسين قصد أن يفتح فى السور خوخة لتمر الناس من أهل القاهرة فيها الى شارع بين السورين ليعمر جامعه . فمنعه الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة من ذلك ، الا بمشاورة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وكان للأمير حسين اقدام على السلطان ، وله به مؤانسة . فعرفه أنه أنشأ جامعا ، وسأله أن يفسح له فى فتح مكان من السور ليصير طريقا نافذا يمر فيه الناس من القاهرة ويخرجون اليه . فأذن له فى ذلك وسمح به ، فنزل الى السور وخرق منه قدر باب كبير ، ودهن عليه رنكه بعد ما ركب هناك بابا ، ومر الناس منه .

واتفق أنه اجتمع بالخازن والى القاهرة ، وقال له على سبيل المداعبة : كم كنت تقول ما أخليك تفتح فى السور بابا حتى تشاور

(*) ص٦٤ ، ج٢ ، ط. بولاق .

السلطان . هاأنا قد شاورته ، وفتحت بابا على رغم أنفك .

فحنق الخازن من هذا القول ، وصعد الى القلعة ، ودخل على السلطان وقال : ياخوند ، أنت رسمت للأمير شرف الدين أن يفتح فى السور بابا ، وهو سور حصين على البلد ؟

فقال السلطان : انما شاورنى أن يفتح خوخة لأجل حضور الناس للصلاة فى جامعه .

فقال الخازن : ياخوند ، ما فتح الا بابا يعادل باب زويلة ، وعمل عليه رنكه ، وقصد يعمل سلطانا على البارد ، وما جرت عادة أحد بفتح سور البلد .

فأثر هذا الكلام من الخازن فى نفس السلطان أثرا قبيحا ، وغضب غضبا شديدا ، وبعث الى النائب — وقد اشتد حنقه — بأن يسفر حسين بن حيدر الى دمشق بحيث لا يبيت فى المدينة . فخرج من يومه من البلد بسبب ما تقدم ذكره .

ذكر الرحاب

الرحبة — باسكان الحاء وفتحها — الموضع الواسع ، وجمعها رحاب .

اعلم أن الرحاب كثيرة لا تتغير الا بأن يبنى فيها فتذهب ويبقى اسمها ، أو يبنى فيها ويذهب اسمها ويجهل ، وربما انهدم بنيان وصار موضعه رحبة أو دارا أو مسجدا . والغرض ذكر ما فيه فائدة .

« رحبة باب العيد » : هذه الرحبة كان أولها من باب الريح — أحد أبواب القصر ،

الذى أدركنا هدمه على يد الأمير جمال الدين الأستادار فى سنة احدى عشرة وثمانمائة — والى خزانة البنود .

وكانت رحبة عظيمة فى الطول والعرض ، غاية فى الاتساع . يقف فيها العساكر ، فارسها وراجلها ، فى أيام مواكب الأعياد ينتظرون ركوب الخليفة وخروجه من باب العيد ، ويذهبون فى خدمته لصلاة العيد بالمصلى خارج باب النصر ، ثم يعودون الى أن يدخل من الباب المذكور الى القصر . وقد تقدم ذكر ذلك .

ولم تزل هذه الرحبة خالية من البناء الى ما بعد الستمائة من الهجرة . فاختط فيها الناس ، وعمروا فيها الدور والمساجد وغيرها ، فصارت خطة كبيرة من أجل أخطاط القاهرة ، وبقى اسم رحبة باب العيد باقيا عليها لاتعرف الا به .

« رحبة قصر الشوك » : هذه الرحبة كانت قبلى القصر الكبير الشرقى فى غاية الاتساع كبيرة المقدار . وموضعها من حيث دار الأمير الحاج آل ملك ، بجوار المشهد الحسينى والمدرسة الملكية ، الى باب قصر الشوك عند خزانة البنود . وبينها وبين رحبة باب العيد خزانة البنود والسقيفة .

وكان السالك من باب الديلم — الذى هو اليوم المشهد الحسينى — الى خزانة البنود يمر فى هذه الرحبة ، ويصير سور القصر على يساره ، والمناخ ودار أفتكين على يمينه ، ولا يتصل بالقصر بنيان ألبتة .

وما زالت هذه الرحبة باقية الى أن خرب القصر بفناء أهله ، فاختط الناس فيها شيئا بعد شىء ، حتى لم يبق منها سوى قطعة صغيرة تعرف برحبة الأيدمرى .

« رحبة الجامع الأزهر » : هذه الرحبة كانت أمام الجامع الأزهر ، وكانت كبيرة جدا تبتدىء من خط اصطبل الطارمة الى الموضع الذى فيه مقعد الأكفانيين اليوم ، ومن باب الجامع البحرى الى حيث الخراطين ، ليس بين هذه الرحبة ورحبة قصر الشوك سوى اصطبل الطارمة .

فكان الخلفاء حين يصلون بالناس بالجامع الأزهر ، تترجل العساكر كلها ، وتقف فى هذه الرحبة حتى يدخل الخليفة الى الجامع . وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى عند ذكر الجوامع .

ولم تزل هذه الرحبة باقية الى أثناء الدولة الأيوبية ، فشرع الناس فى العمارة بها الى أن بقى منها ، قدام باب الجامع البحرى ، هذا القدر اليسير .

« رحبة الحلى » : هذه الرحبة الآن من خط الجامع الأزهر ، ومن بقية رحبة الجامع التى تقدم ذكرها . عرفت بالقاضى نجم الدين أبى العباس أحمد بن شمس الدين على بن نصر الله بن مظفر الحلى التاجر العادل لأنها تجاه داره .

« رحبة البانياسى » : هذه الرحبة بدرب الأتراك ، تجاه دار الأمير طيدمر الجمدار الناصرى ، وعرفت بالأمير نجم الدين محمود ابن موسى البانياسى لأن داره كانت فيها ، ومسجده المعلق هناك . ومات بعد سنة خمسمائة .

« رحبة الأيدمرى » : هذه الرحبة من جملة رحبة باب قصر * الشوك ، وعرفت بالأيدمرى لأن داره هناك .

و « الأيدمرى » هذا مملوك عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس . ترقى فى الخدم حتى تأمر فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، وعلت منزلته فى أيام الملك المنصور قلاوون ، ومات سنة سبع وثمانين وستمائة ، ودفن بتربته فى القرافة بجوار الشافعى رضى الله عنه .

« رحبة البدرى » : هذه الرحبة يدخل اليها من رحبة الأيدمرى من باب قصر الشوك ومن جهة المارستان العتيق ، وهى من جملة القصر الكبير . عرفت بالأمير بيدمر البدرى صاحب المدرسة البدرية ، فان داره هناك .

« رحبة ضروط » : هذه الرحبة بجوار دار آل ملك ، وهى من جملة رحبة قصر الشوك . عرفت بالأمير ضروط الحاجب فانه كان يسكن هناك .

« رحبة أقبغا » : هذه الرحبة هى الآن سوق الخيميين ، وهى من جملة رحبة الجامع الأزهر التى مر ذكرها . عرفت بالأمير أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر ، وصاحب المدرسة الأقبغاوية .

« رحبة مقبل » : هذه الرحبة كانت تعرف بخط بين المسجدين ، لأن هناك مسجدين أحدهما يقابل الآخر ، ويسلك من هذه الرحبة الى سويقة الباطلية والى زقاق تريده . وعرفت أخيرا بالأمير زين الدين مقبل الرومى أمير جاندار الملك الظاهر برقوق .

« رحبة الدمر » : هذه الرحبة فى الدرب أول سوق الفراين مما يلى الأكفانيين . عرفت بالأمير سيف الدين ألدمر الناصرى المقتول بمكة .

« رحبة قردية » : هذه الرحبة بخط الأكفانيين تجاه دار الأمير قردية الجمدار الناصرى . وكانت هذه الدار تعرف قديما بالأمير سنجر الشكارى ، وله أيضا مسجد معلق يدخل من تحته الى الرحبة المذكورة . وهناك اليوم قاعة الذهب التى فيها الذهب الشريط لعمل المزركش .

« رحبة المنصورى » قبالة دار المنصورى : عرفت بالأمير قطلوبغا المنصورى المقدم ذكره .

« رحبة المشهد » : هذه الرحبة تجاه المشهد الحسينى . كانت رحبة فيما بين باب الديلم أحد أبواب القصر — الذى هو الآن المشهد الحسينى — وبين اصطبل الطارمة .

« رحبة أبى البقاء » : هذه الرحبة من جملة رحبة باب العيد تجاه باب قاعة ابن كتيلة بخط السقيفة . عرفت بقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء محمد بن عبد البر بن يحيى ابن على بن تمام السبكى الشافعى ، ومولده فى سنة سبع وسبعمائة ، أحد العلماء الأكابر . تقلد قضاء القضاة بديار مصر والشام ، ومات فى ... ...

« رحبة الحجازية » : هذه الرحبة تجاه المدرسة الحجازية ، وهى من جملة رحبة باب العيد . عرفت برحبة الحجازية .

(*) ص٤٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

« رحبة قصر بشتاك » : هذه الرحبة تجاه قصر بشتاك ، وهى من جملة الفضاء الذى بين القصرين .

« رحبة سلار » : تجاه حمام البيسرى ودار الأمير سلار نائب السلطنة . هى أيضا من جملة الفضاء الذى كان بين القصرين .

« رحبة الفخرى » : هذه الرحبة بخط الكافورى ، تجاه دار الأمير سيف الدين قطلوبغا الطويل الفخرى السلاح دار الأشرف ، أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون .

« رحبة الأكز » بخط الكافورى : هذه الرحبة تجاه دار الأمير سيف الدين الأكز الناصرى الوزير ، وتعرف أيضا برحبة الأبوبكرى لأنها تجاه دار الأمير سيف الدين الأبوبكرى السلاح دار الناصرى . وهى شارعة فى الطريق : يسلك اليها من دار الأمير تنكز ، ويتوصل منها الى دار الأمير مسعود وبقية الكافورى .

« رحبة جعفر » : هذه الرحبة تجاه حارة برجوان ، ويشرف عليها شباك مسجد تزعم العوام أن فيه قبر جعفر الصادق . وهو كذب مختلق وافك مفترى ... ما اختلف أحد من أهل العلم بالحديث والآثار والتاريخ والسير أن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام مات قبل بناء القاهرة بدهر ، وذلك أنه مات سنة ثمان وأربعين ومائة ، والقاهرة بلا خلاف اختطت فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة بعد موت جعفر الصادق بنحو مائتى سنة وعشر سنين .

والذى أظنه أن هذا موضع قبر جعفر بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، المكنى بأبى محمد الملقب بالمظفر . ولما ولى أخوه الأفضل ابن أمير الجيوش الوزارة من بعد أبيه ، جعل أخاه المظفر جعفرا يلى العلامة عنه . ونعت بالأجل المظفر ، سيف الامام ، جلال الاسلام ، شرف الأنام ، ناصر الدين خليل ، أمير المؤمنين أبى محمد جعفر بن أمير الجيوش بدر الجمالى .

وتوفى ليلة الخميس لسبع خلون من جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة مقتولا ... يقال قتله خادمه جوهر بمباطنة من القائد أبى عبد الله محمد بن فاتك البطايحى . ويقال بل كان يخرج فى الليل يشرب ، فجاء ليلة وهو سكران ، فمازحه دراب حارة برجوان ، وتراميا بالحجارة ، فوقعت ضربة فى جنبه آلت به الى الموت .

والذى نقل أنه دفن بتربة أبيه أمير الجيوش . فاما أن يكون دفن هنا أولا ثم نقل ، أو لم يدفن هنا ولكنه من جملة ما ينسب اليه . فانه بجوار دار المظفر التى من جملتها دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى وما قاربها ، كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى عند ذكر دار المظفر .

« رحبة الأفيال » : هذه * الرحبة من جملة حارة برجوان . يتوصل اليها من رأس الحارة ، ويسلك فى حدرة الزاهدى اليها . وأدركتها ساحة كبيرة والمشيخة تسميها رحبة

(*) ص٤٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

الأفيال ، وكذا يوجد فى مكاتيب الدور القديمة . ويقال ان الفيلة فى أيام الخلفاء كانت تربط بهذه الرحبة أمام دار الضيافة .

ولم تزل خربة الى ما بعد سنة سبعين وسبعمائة ، فعمر بها دويرات ، ووجد فيها بئر متسعة ذات وجهين تشبه أن تكون البئر التى كانت سواس الفيلة يستقون منها ، ثم طمت هذه البئر بالتراب .

« رحبة مازن » : هذه الرحبة بحارة برجوان ، تجاه باب دار مازن التى خربت ، وفيها المسجد المعروف بمسجد بنى الكويك .

« رحبة أقوش » : هذه الرحبة بحارة برجوان ، تجاه قاعة الأمير جمال الدين أقوش الرومى السلاح دار الناصرى ، التى حل وقفها بهاء الدين محمد بن البرجى ، ثم بيعت من بعده . ومات أقوش سنة خمس وسبعمائة .

« رحبة برلغى » : هذه الرحبة عند باب سر المدرسة القراسنقرية ، تجاه دار الأمير سيف الدين برلغى الصغير ، صهر الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير . وهذه الرحبة من جملة خط دار الوزارة .

« رحبة لؤلؤ » : هذه الرحبة بحارة الديلم فى الدرب الذى بخط ابن الزلابى . وهى تجاه دار الأمير بدر الدين لؤلؤ الزردكاش الناصرى . وهو من جملة من فر مع الأمير قراسنقر وأقوش الأفرم الى ملك التتر بوسعيد .

« رحبة كوكاى » : هذه الرحبة بحارة زويلة . عرفت بالأمير سيف الدين كوكاى السلاح دار الناصرى ، وفيها المدرسة القطبية الجديدة .

« رحبة ابن أبى ذكرى » : هذه الرحبة بحارة زويلة ، وهى التى فيها البئر السائلة بالقرب من المدرسة العاشورية . عرفت بالأمير ابن أبى ذكرى ، وهى من الرحاب القديمة التى كانت أيام الخلفاء ، وبها الآن سوق حارة اليهود القرايين .

« رحبة بيبرس » : هذه الرحبة يتوصل اليها من سويقة المسعودى ومن حمام ابن عبود . عرفت بالملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، فان بصدرها داره التى كانت سكنه قبل أن يتقلد سلطنة ديار مصر ، وقد حل وقفها وبيعت .

« رحبة بيبرس الحاجب » : هذه الرحبة بخط حارة العدوية عند باب سر الصاغة . عرفت بالأمير بيبرس الحاجب لأن داره بها . وبيبرس هذا هو الذى ينسب اليه غيط الحاجب بجوار قنطرة الحاجب .

وبهذه الرحبة الآن فندق الأمير الطواشى ، زمام الدور السلطانية ، زين الدين مقبل . وبه صار الآن هذا الخط يعرف بخط فندق الزمام بعد ما كنا نعرفه يعرف بخط رحبة بيبرس الحاجب .

« رحبة الموفق » : تعرف هذه الرحبة بحارة زويلة ، تجاه دار الصاحب الوزير موفق الدين أبى البقاء هبة الله بن ابراهيم المعروف بالموفق الكبير ، وهى بالقرب من خوخة الموفق المتوصل منها الى الكافورى من حارة زويلة .

« رحبة أبى تراب » : هذه الرحبة فيما بين الخرشتف وحارة برجوان تشبه أن تكون من جملة الميدان ... أدركتها رحبة بها كيمان تراب .

وسبب نسبتها الى أبى تراب أن هناك مسجدا من مساجد الخلفاء الفاطميين تزعم العامة ، ومن لا خلاق له ، أن به قبر أبى تراب النخشبى .

وهذا القول من أبطل الباطل وأقبح شىء فى الكذب . فان أبا تراب النخشبى هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى ، صاحب حاتما الأصم وغيره ، وهو من مشايخ الرسالة ، ومات بالبادية ... نهشته السباع سنة خمس وأربعين ومائتين قبل بناء القاهرة بنحو مائة وثلاث سنين .

وقد أخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء اسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومى ، خال أبى رحمه الله ، قبل أن يختلط ... قال : أخبرنى مؤدبى الذى قرأت عليه القرآن ، أن هذا المكان كان كوما ، وأن شخصا حفر فيه ليبنى عليه دارا فظهرت له شرافات ، فما زال يتبع الحفر حتى ظهر هذا المسجد ، فقال الناس : هذا أبو تراب من حينئذ .

ويؤيد ما قال أنى أدركت هذا المسجد محفوفا بالكيمان من جهاته ، وهو نازل فى الأرض ينزل اليه بنحو عشر درج . وما برح كذلك الى ما بعد سنة ثمانى وسبعمائة ، فنقلت الكيمان التراب التى كانت هناك حوله ، وعمر مكانها ما هنالك من دور ، وعمل عليها درب من بعد سنة تسعين وسبعمائة ، وزالت الرحبة والمسجد على حاله . وأنا قرأت على بابه — فى رخامة قد نقش عليها بالقلم الكوفى — عدة أسطر تتضمن أن هذا قبر أبى تراب حيدرة بن المستنصر بالله أحد الخلفاء الفاطميين . وتاريخ ذلك — فيما أظن — بعد الأربعمائة .

ثم لما كان فى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، سولت نفس بعض السفهاء من العامة له أن يتقرب — بزعمه — الى الله تعالى بهدم هذا المسجد ، ويعيد بناءه . فجبى من الناس مالا شحذه منهم ، وهدم المسجد — وكان بناء حسنا — وردمه بالتراب نحو سبعة أذرع حتى ساوى الأرض التى تسلك المارة منها ، وبناه هذا البناء الموجود الآن . وبلغنى أن الرخامة التى كانت على الباب نصبوها على شكل قبر أحدثوه فى هذا المسجد .

وبالله ان الفتنة بهذا المكان ، وبالمكان الآخر من حارة برجوان الذى يعرف بجعفر الصادق ، لعظيمة . فانهما * صارا كالأنصاب التى كانت تتخذها مشركو العرب ... يلجأ اليهما سفهاء العامة والنساء فى أوقات الشدائد ، وينزلون بهذين الموضعين كربهم وشدائدهم التى لا ينزلها العبد الا بالله ربه ، ويسألون فى هذين الموضعين ما لا يقدر عليه الا الله تعالى وحده من وفاء الدين من غير جهة معينة وطلب الولد ونحو ذلك ، ويحملون النذور من الزيت وغيره اليهما ظنا أن ذلك ينجيهم من المكاره ، ويجلب اليهم المنافع . ولعمرى ان هى الا كرة خاسرة ، ولله الحمد على السلامة .

(*) ص٦ ج٢ ، ط.بولاق .

« رحبة أرقطاى » : هذه الرحبة بحارة الروم ، قدام دار الأمير الحاج أرقطاى نائب السلطنة بالديار المصرية .

« رحبة ابن الضيف » : هذه الرحبة بحارة الديلم ، وهى من الرحاب القديمة . عرفت بالقاضى أمين الملك اسماعيل بن أمين الدولة الحسن بن على بن نصر بن الضيف ، وفى هذه الرحبة الدار المعروفة بأولاد الأمير طنبغا الطويل بجوار حكر الرصاصى . وتعرف هذه الرحبة بحمدان البزاز ، وبابن المخزومى .

« رحبة وزير بغداد » : هذه الرحبة بدرب ملوخيا . عرفت بالأمير الوزير نجم الدين محمود بن على بن شردين المعروف بوزير بغداد . قدم الى مصر يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، هو وحسام الدين حسن بن محمد بن محمد الغورى الحنفى ، فارين من العراق بعد قتل موسى ملك التتر . فأنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون باقطاع امرة تقدمة ألف مكان الأمير طاز بغا ، عند وفاته فى ليلة السبت ثامن عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة .

فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقام فى الملك من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر بن محمد ، قلد الوزارة بالديار المصرية للأمير نجم الدين محمود وزير بغداد فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وبنى له دار الوزارة بقلعة الجبل — وأدركناها دار النيابة — وعمل له فيها شباك يجلس فيه . وكان هذا قد أبطله الملك الناصر محمد ، وخربت قاعة الصاحب .

فلم يزل الى أن صرف فى أيام الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون عن الوزارة بالأمير ملكتمر السرجوانى فى مستهل رجب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ثم أعيد فى آخر ذى الحجة بعد تمنع منه ، واشترط أن يكون جمال الكفاة ناظر الخاص معه صفة مشير . فأجيب الى ذلك .

فلما قبض على جمال الكفاة ، صرف وزير بغداد ، وولى بعده الوزارة الأمير سيف الدين أيتمش الناصرى ، فى يوم الأربعاء ثانى عشرى ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ، بحكم استعفائه منها . فباشرها أيتمش قليلا ، وسأل أن يعفى من المباشرة ، فأعفى وذلك لقلة المتحصل وكثرة المصروف فى الانعام على الجوارى والخدام وحواشيهم .

وكانت الكلف فى كل سنة ثلاثين ألف ألف دينار ، والمتحصل خمسة عشر ألف ألف نحو النصف . ومرتب السكر فى شهر رمضان كان ألف قنطار ، فبلغ ثلاثة آلاف قنطار .

« رحبة الجامع الحاكمى » : هذه الرحبة من غير قاهرة المعز التى وضعها القائد جوهر ، وكانت من جملة الفضاء الذى كان بين باب النصر والمصلى . فلما زاد أمير الجيوش بدر الجمالى فى مقدار السور ، صارت من داخل باب النصر الآن .

وكانت كبيرة فيما بين الحجر والجامع الحاكمى ، وفيما بين باب النصر القديم وباب النصر الموجود الآن ، ثم بنى فيها المدرسة القاصدية التى هى تجاه الجامع وما فى صفها الى حمام الجاولى . وبنى فيها الشيخ قطب

الدين الرماس دارا ملاصقة لجدار الجامع ، ثم هدمت كما سيأتى فى خبرها ان شاء الله تعالى عند ذكر الدور .

وفى موضعها الآن الربع والحوانيت سفله ، والقاعة الجارى ذلك فى أملاك ابن الحاجب ، وأدركت انشاءها فيما بعد سنة ثلاثين . وهذه الرحبة تؤخذ أجرتها لجهة وقف الجامع .

« رحبة كتبغا » : هذه الرحبة من جملة اصطبل الجميزة ، وهى الآن من خط الصيارف ، يسلك اليها من الجملون الكبير بسوق الشرابشيين ومن خط طواحين الملحيين وغيره . عرفت بالملك العادل زين الدين كتبغا ، فانها تجاه داره التى كان يسكنها وهو أمير قبل أن يستقر فى السلطنة ، وسكنها بنوه من بعده فعرفت به ، ثم حل وقفها فى زمننا وبيعت .

« رحبة خوند » : هذه الرحبة بآخر حارة زويلة ، فيما بينها وبين سويقة المسعودى ، يتوصل اليها من درب الصقالبة ومن سويقة المسعودى ، وهى من الرحاب القديمة . كانت تعرف فى أيام الخلفاء برحبة ياقوت ، وهو الأمير ناصر الدولة ياقوت والى قوص ، أحد أجلاء الأمراء .

ولما قام طلائع بن رزيك بالوزارة فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، هم ناصر الدولة ياقوت بالقيام عليه . فبلغ طلائع الملقب بالصالح بن رزيك ذلك ، فقبض عليه وعلى أولاده ، واعتقلهم فى يوم الثلاثاء تاسع عشرى ذى الحجة سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة . فلم يزل فى الاعتقال الى أن مات فيه يوم السبت سابع عشر رجب سنة ثلاث وخمسين . فأخرج الصالح أولاده من الاعتقال ، وأمرهم وأحسن اليهم .

ثم عرفت هذه الرحبة من بعده بولده الأمير ربيع الاسلام محمد بن ياقوت . ثم عرفت فى الدولة * الأيوبية برحبة ابن منقذ ، وهو الأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ . ثم عرفت برحبة الفلك المسيرى ، وهو الوزير فلك الدين عبد الرحمن المسيرى وزير الملك العادل أبى بكر بن الملك العادل ابن أيوب .

ثم عرفت الآن برحبة خوند . وهى الست الجليلة أردوتكين ابنة نوغيه السلاح دار ، زوج الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وامرأة أخيه من بعده الملك الناصر محمد ، وهى صاحبة تربة الست خارج باب القرافة . وكانت خيرة ، وماتت أيضا فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة .

« رحبة قراسنقر » : هذه الرحبة برأس حارة بهاء الدين تجاه دار الأمير قراسنقر ، وبها الآن حوض تشرب منه الدواب .

« رحبة بيغرا » بدرب ملوخيا : عرفت بالأمير سيف الدين بيغرا لأنها تجاه داره .

« رحبة الفخرى » بدرب ملوخيا : عرفت بالأمير منكلى بغا الفخرى ، صاحب التربة بظاهر باب النصر ، لأنها تجاه داره .

« رحبة سنجر » : هذه الرحبة بحارة الصالحية فى آخر درب المنصورى . عرفت

(*) ص٥٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

بالأمير سنجر الجمقدار علم الدين الناصرى لأنها تجاه داره . ثم عرفت برحبة ابن طرغاى وهو الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير سيف الدين طرغاى الجاشنكير ، نائب طرابلس .

« رحبة ابن علكان » : هذه الرحبة بالجودرية فى الدرب المجاور للمدرسة الشريفية . عرفت بالأمير شجاع الدين عثمان ابن علكان الكردى زوج ابنة الأمير يازكوج الأسدى ، وبابنه منها الأمير أبو عبد الله سيف الدين محمد بن عثمان . وكان خيرا استشهد على غزة بيد الفرنج فى غرة شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وكانت داره ودار أبيه بهذه الرحبة .

ثم عرفت بعد ذلك برحبة الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الصالحى .

« رحبة أزدمر » بالجودرية : هذه الرحبة بالدرب المذكور أعلاه . عرفت بالأمير عز الدين أزدمر الأعمى الكاشف لأنها كانت أمام داره .

« رحبة الأخناى » : هذه الرحبة فيما بين دار الديباج والوزيرية بالقرب من خوخة أمير حسين . عرفت بقاضى القضاة برهان الدين ابراهيم ابن قاضى القضاة علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران الأخناى المالكى لأنها تجاه داره . وقد عمر عليها درب فى أعوام بضع وتسعين وسبعمائة .

« رحبة باب اللوق » : رحاب باب اللوق خمس رحاب ينطلق عليها كلها الآن رحبة باب اللوق . وبها تجتمع أصحاب الحلق وأرباب الملاعب والحرف ، كالمشعبذين والمخايلين والحواة والمتأففين وغير ذلك ، فيحشر هنالك من الخلائق للفرجة ولعمل الفساد ما لاينحصر كثرة .

وكان قبل ذلك ، فى حدود ما قبل الثمانين وسبعمائة من سنى الهجرة ، انما تجتمع الناس لذلك فى الطريق الشارع المسلوك من جامع الطباخ بالخط المذكور الى قنطرة قدادار .

« رحبة التبن » : هذه الرحبة قريبة من رحبة باب اللوق ، فى بحرى منشاة الجوانية ، شارعة فى الطريق العظمى المسلوك فيها من رحبة باب اللوق الى قنطرة الدكة ، ويتوصل اليها السالك من عدة جهات .

وكانت هذه الرحبة قديما تقف بها الجمال بأحمال التبن لتباع هناك ، ثم اختطت وعمرت ، وصارت بها سويقة كبيرة عامرة بأصناف المأكولات . والخط انما يعرف برحبة التبن ، وقد خرب بعد سنة ست وثمانمائة .

« رحبة الناصرية » : هذه الرحبة كانت فيما بين الميدان السلطانى والبركة الناصرية أيام كانت تلك الخطة عامرة . وكان يتفق فى ليالى أيام ركوب السلطان الى الميدان فى كل سنة من الاجتماع والأنس ما ستقف على بعض وصفه عند ذكر المتنزهات ان شاء الله تعالى . وقد خربت الأماكن التى كانت هناك ، وجهلت هذه الرحبة الا عند القليل من الناس .

«رحبة أرغون أزكه» : والعامة تقول رحبة أزكى بياء . وهى رحبة كبيرة بالقرب من

البركة الناصرية . وهذه الرحبة وما حولها من جملة بستان الزهرى الآتى ذكره ان شاء الله فى الأحكار ، وعرفت بالأمير أرغون الزكى .

ذكر الدور

قال ابن سيده : الدار المحل يجمع البناء والعرصة التى هى من دار يدور لكثرة حركات الناس فيها ، والجمع أدور وأدؤر وديار وديارة وديارات وديران ودور ودورات ، والدارة لغة فى الدار ، والدار البلد .

والبيت من الشعر ما زاد على طريقة واحدة ، وهو مذكر يقع على الصغير والكبير ، وقد يقال للمبنى . والبيت أخص من غير الأبنية التى هى الأخبية بيت . وجمع البيت أبيات وأبابيت وبيوت وبيوتات . والبيت أخص من الدار ، فكل دار بيت ولا ينعكس .

ولم تكن العرب تعرف البيت الا الخباء . ثم لما سكنوا القرى والأمصار ، وبنوا بالمدر واللبن ، سموا منازلهم التى سكنوها دورا وبيوتا .

وكانت الفرس لا تبيح شرف البنيان ، كما لا تبيح شرف الأسماء ، الا لأهل البيوتات ، كصنيعهم فى النواويس والحمامات والقباب الخضر والشرف على حيطان الدار ، وكالعقد على الدهليز .

« دار الأحمدى » : هذه الدار من جملة حارة بهاء الدين ، وبها مشترف عال فوق بدنة من بدنات سور القاهرة ، ينظر منه أرض البالة ، وخارج باب الفتوح ، وهى احدى الدور الشهيرة . عرفت بالأمير بيبرس الأحمدى .

« بيبرس الأحمدى » ركن الدين أمير جاندار : تنقل فى الخدم أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون الى أن صار أمير جاندار أحد المقدمين . فلما مات الملك الناصر ، قوى عزم قوصون على اقامة الملك المنصور أبى بكر بعد أبيه وخالفه بشتاك . فلما نسب المنصور الى اللعب ، حضر الى باب القصر بقلعة الجبل وقال : أى شىء هذا اللعب !

فلما ولى الناصر أحمد أخرجه لنيابة صفد ، فأقام بها مدة . ثم أحس من الناصر أحمد بسوء ، فخرج من صفد بعسكره الى دمشق وليس بها نائب ، فهم الأمراء بامساكه ، ثم أخروا ذلك وأرسلوا اليه الاقامة ، فقدم البريد من الغد بامساكه . فكتب الأمراء من دمشق الى السلطان يشفعون فيه ، فعاد الجواب بأنه لابد من القبض عليه ونهب ماله وقطع رأسه وارساله ، فأبوا من ذلك ، وخلعوا الطاعة ، وشقوا العصا جميعا .

فلم يكن بأسرع من ورود الخبر من مصر بخلع الناصر أحمد ، واقامة الصالح اسماعيل فى الملك بدله ، والأحمدى مقيم بقصر تنكز من دمشق . فورد عليه مرسوم بنيابة طرابلس فتوجه اليها وأقام بها نحو الشهرين ، ثم طلب الى مصر فسار اليها ، وأخرج لمحاصرة أحمد بالكرك ، فحصره مدة ولم ينل منه شيئا ، ثم عاد الى القاهرة ، فأقام بها حتى مات فى يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم سنة ست وأربعين وسبعمائة ، وله من العمر نحو الثمانين سنة .

(١) [illegible] جـ٢ ، [illegible] .

وكان أحد الأبطال الموصوفين بقوة النفس ، وشدة العزم ، ومحبة الفقراء ، وايثار الصالحين ، وله مماليك قد عرفوا بالشجاعة والنجدة ، وكان ممن يقتدى برأيه ، وتتبع آثاره لمعرفته بالأيام والوقائع . وما برحت ذريته بهذه الدار الى الآن ، وأظنها موقوفة عليهم .

« دار قراسنقر » : هذه الدار برأس حارة بهاء الدين . أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر ، وبها كان سكنه ، وهى احدى الدور الجليلة ، ووجد بها فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة لما أحيط بها اثنان وثلاثون ألف ألف دينار ، ومائة ألف وخمسون ألف درهم فضة ، وسروج مذهبة وغير ذلك . فحمل الجميع الى بيت المال .

ولم تزل جارية فى أوقاف المدرسة القراسنقرية . الى أن اغتصبها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فيما اغتصب من الأوقاف ، وجعلها وقفا على مدرسته التى أنشأها برحبة باب العيد . فلما قتله الملك الناصر فرج بن برقوق ، ارتجع جميع ما خلفه ، وصار فى جملة الأموال السلطانية .

ثم أفرد من الأوقاف التى جعلها جمال الدين على مدرسته شيئا ، وجعل باقيها لأولاده وعلى تربته التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق بالصحراء تحت الجبل خارج باب النصر . فلما قتل الملك الناصر فرج ، صارت هذه الدار بيد الأمير طوغان الداودار . وكانوا كسارق من سارق .

وما من قتيل يقتل الا وعلى ابن آدم الأول كفل منه ، لأنه أول من سن القتل .

« دار البلقينى » : هذه الدار تجاه مدرسة شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى من حارة بهاء الدين . أنشأها قاضى قضاة العساكر بدر الدين محمد بن شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى الشافعى ، ومات فى يوم الخميس لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وسبعمائة ولم تكمل . فاشتراها أخوه قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الاسلام وكملها ، وبها الآن سكنه ، وهى من أجل دور القاهرة صورة ومعنى .

وقد ذكرت الأخوين وأباهما فى كتابى المنعوت بـ « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » فانظر هناك أخبارهم .

« دار منكوتمر » : هذه الدار بحارة بهاء الدين بجوار المدرسة المنكوتمرية . أنشأها الأمير منكوتمر نائب السلطنة بجوار مدرسته الآتى ذكرها عند ذكر المدارس ان شاء الله تعالى ، وهى من الدور الجليلة ، وبها الى اليوم بعض ذريته ، وهى وقف .

« دار المظفر » : هذه الدار كانت بحارة برجوان . أنشأها أمير الجيوش بدر الجمالى الى أن مات . فلما ولى الوزارة من بعده ابنه الأفضل بن أمير الجيوش ، وسكن دار القباب التى عرفت بدار الوزارة — وقد تقدم ذكرها — صار أخوه المظفر أبو محمد جعفر ابن أمير الجيوش بهذه الدار ، فعرفت به ، وقيل لها دار المظفر ، وصارت من بعده دار الضيافة كما مر فى هذا الكتاب .

وآخر ما أعرفه أنها كانت ربعا وحماما وخرائب ، فسقط الربع بعد سنة سبعين

وسبعمائة ، وكانت الحمام قد خربت قبل ذلك ، فلم تزل خرابا الى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة . فشرع قاضى القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر الطرابلسى الحنفى فى عمارتها ، فلما حفر أساس جداره القبلى ، ظهر تحت الردم عتبة عظيمة من حجر صوان مانع يشبه أن يكون عتبة دار المظفر .

وكان الأمير جهاركس الخليلى اذ ذاك يتولى عمارة المدرسة التى أنشأها الملك الظاهر برقوق بخط بين القصرين ، فبعث بالرجال لهذه العتبة ، وتكاثروا على جرها الى العمارة ، فجعلها فى المزملة التى تشرب منها الناس الماء بدهليز المدرسة الظاهرية .

وكمل قاضى القضاة شمس الدين بناء داره حيث كانت دار المظفر ، فجاءت من أحسن دور القاهرة ، وتحول اليها بأهله ، وما زال فيها حتى مات بها — وهو متقلد وظيفة قضاء * القضاة الحنفية بالديار المصرية — فى ليلة السبت الثامن عشر من ذى الحجة سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، وله من العمر سبعون سنة وأشهر .

ومولده بطرابلس الشام ، وأخذ الفقه على مذهب أبى حنيفة رحمه الله عن جماعة من أهل طرابلس ، ثم خرج منها الى دمشق ، فقرأ على صدر الدين محمد بن منصور الحنفى ، ووصل الى القاهرة وقاضى الحنفية بها قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى ، فلازمه وولاه العقود ، وأجلسه ببعض حوانيت الشهود ، فتكسب ممن تحمل الشهادة مدة ، وقرأ على قاضى القضاة سراج الهدى ولازمه ، فولاه نيابة القضاء بالشارع ، فباشرها مباشرة مشكورة ، وأجازه العلامة شمس الدين محمد ابن الصائغ الحنفى بالافتاء والتدريس .

فلما مات صدر الدين بن منصور ، قلده الملك الظاهر برقوق قضاء القضاة مكانه فى يوم الاثنين ثانى عشرى شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين وسبعمائة . فباشر القضاء بعفة وصيانة وقوة فى الأحكام لها النهاية ، ومهابة وحرمة وصولة تذعن لها الخاصة والعامة . الى أن صرف فى سابع عشر رمضان سنة احدى وتسعين وسبعمائة بشيخنا قاضى القضاة مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم التركمانى .

فلم يزل الى أن عزل مجد الدين ، وولى من بعده قاضى القضاة وناظر الجيوش جمال الدين محمود القيصرى ، وهو ملازم داره وما بيده من التدريس ، وهو على حال حسنة وتجلد من الكافة ... الى أن استدعاه السلطان فى يوم الثلاثاء تاسع شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، فقلده وظيفة القضاء عوضا عن محمود القيصرى ، فلم يزل حتى مات من عامه رحمه الله تعالى .

وهذه الدار على يسرة من سلك من باب حارة برجوان طالبا المسجد المسمى بجعفر . وأما الحمام فانها فى مكانها اليوم ساحة بجوار دار قاضى القضاة شمس الدين . ومن جملة حقوق دار المظفر رحبة الأفيال وحدرة الزاهداى ، الى الدار المعروفة بسكنى قريبا من حمام الرومى .

(*) ص ٦٥ جـ ٢ ، ط بولاق .

« دار ابن عبد العزيز » : هذه الدار بحارة برجوان ، على يمنة من سلك من باب الحارة طالبا حمام الرومى ، هى أيضا من جملة دار المظفر . كانت طاحونا ثم خربت ، فابتدأ عمارتها فخر الدين أبو جعفر محمد بن عبد اللطيف بن الكويك ناظر الأحباس ، ومات ولم تكمل .

فصارت لامرأته وابنة عمه خديجة ، فماتت فى رجب سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، وقد تزوجت من بعده بالقاضى الرئيس بدر الدين حسن بن عبد العزيز بن عبد الكريم بن أبى طالب بن على بن عبد الله بن سيدهم النجمى السيراونى ، فانتقلت اليه ، ومات فى سنة أربع وسبعين وسبعمائة فى العشرين من جمادى الأولى .

وورثه من بعد موته كريم الدين ابن أخيه — وهو عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز ابن عبد الكريم بن أبى طالب بن على بن عبد الله بن سيدهم ، ومات آخر ربيع الأول سنة سبع وثمانمائة عن سبعين سنة ، وولى نظر الجيوش بديار مصر للظاهر برقوق — فباعها لقريبه شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد العزيز ، وكملها وسكنها مدة طويلة الى أن باعها فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة بألفى دينار ذهبا لخوند فاطمة ابنة الأمير منجك ، فوقفتها على عتقائها ، وهى الى اليوم بيدهم .

وتعرف ببيت ابن عبد العزيز المذكور لطول سكنه بها . وكان خيرا عارفا يلى كتابة ديوان الجيش وعدة مباشرات ، ومات ليلة الثانى عشر من صفر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة .

« دار الجمقدار » : هذه الدار على يسرة من سلك من باب حارة برجوان تحت القبو طالبا حمام الرومى . عرفت بالأمير علم الدين سنجر الجمقدار من الأمراء البرجية ، وقدمه الملك الناصر محمد تقدمة ألف بعد مجيئه من الكرك الى مصر ، ثم أخرجه الى الشام ، فأقام بها الى أن حضر قطلوبغا الفخرى فى نوبة أحمد بالكرك ، فحضر معهم واستقر من الأمراء بالديار المصرية الى أن مات يوم الجمعة تاسع رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، وقد كبر وارتعش ، وكان روميا ألثغ .

ثم صارت لخالد بن الزراد المقدم . فلما قبض عليه ، ومات فى ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين وسبعمائة تحت المقارع ، ارتجعت عنه لديوان السلطان حسن ، فصارت فى يد ورثته الى أن باع بعض أولاده أسهما منها ، فاشتراها الأمير سودون الشيخونى نائب السلطنة . ثم تنقلت — وبعضها وقف بيد أولاد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون — الى أن ملك ما تملك منها بالشراء قاضى القضاة عماد الدين أحمد ابن عيسى الكركى ، وسكنها الى أن سافر ، فصارت من بعده لورثته ، فباعوها للشيخ زين الدين أبى بكر القمنى ، وهى بيده الآن .

« دار أقوش » الرومى بحارة برجوان : هذه الدار من أجل دور القاهرة ، وبابها من نحاس بديع الصنعة يشبه باب المارستان المنصورى ، وكان تجاهها اصطبل كبير يعلوه ربع فيه عدة مساكن . عرفت بالأمير جمال الدين أقوش الرومى السلاح دار الناصرى ،

وتوفى سنة سبع وسبعمائة ، وهى مما وقفه على تربته بالقرافة ، وقد خرب اصطبلها وعلوه وبيع نقض ذلك ، وتداعت الدار أيضا للسقوط فبيعت أنقاضا ، وصارت من جملة الأملاك .

« دار بنت السعيدى » : هذه * الدار بحارة برجوان . عرفت بقاعة حنيفة بنت السعيدى الى أن اشتراها شهاب الدين أحمد ابن طوغان دوادار الأمير سودون الشيخونى نائب السلطان ، فى سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، فأخذ عدة مساكن مما حولها وهدمها وصيرها ساحة بها .

فصارت من أعظم الدور اتساعا وزخرفة ، وفيها آبار سبعة معينة ، وفسقية ينقل اليها الماء بساقية على فوهة بئر . وما زال صاحبها شهاب الدين فيها الى أن سافر الى الاسكندرية فى محرم سنة ثمان وثمانمائة ، فمات رحمه الله ، وانتقلت من بعده لغير واحد بالبيع .

« دار الحاجب » : هذه الدار فيما بين الخرشتف وحارة برجوان . كان مكانها من جملة الميدان ، وكان يسلك من حارة برجوان فى طريق شارعة الى باب الكافورى . فلما عمر الأمير بكتمر هذه الدار ، جعل اصطبلها حيث كانت الطريق ، وركب بابا بخوخة مما يلى حارة برجوان ، واشترط عليه الناس ألا يمنع المارة من سلوك هذا المكان ، فوفى بما اشترط .

وما برح الناس يمرون من هذا الطريق فى وسط الاصطبل على باب داره ، سالكين من حارة برجوان الى الكافورى والخرشتف ومنه الى حارة برجوان . وأنا سلكت من هذه الطريق غير مرة ، وكان يقال لها خوخة الحاجب . ثم لما طال الأمد ، وذهبت المشيخة نسيت هذه الطريق ، وقفل الباب ، وانقطع سلوك الناس منه ، وصارت تلك الطريق من جملة حقوق الدار .

وما برحت هذه الدار ينصب على بابها الطوارق دائما كما كانت عادة دور الأمراء فى الزمن القديم . فلما تغيرت الرسوم ، وبطل ذلك ، قلعت الطوارق من جانبى الباب وأعلى أسكفته .

وباب هذه الدار تجاه باب الكافورى ، وعرفت بالأمير سيف الدين بكتمر الحاجب صاحب الدار خارج باب النصر والمدرسة بجواره ، ثم حل وقفها سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ، وبيعت كما بيع غيرها من الأوقاف . وهناك ترى ترجمته .

« دار تنكز » : هذه الدار بخط الكافورى كانت للأمير أيبك البغدادى ، وهى من أجل دور القاهرة وأعظمها . أنشأها الأمير تنكز نائب الشام ، وأظنه أوقفها فى جملة ما أوقف ، وكان بها ولده .

وسكنها قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم ابن جماعة ، فأنفق فى زخرفتها على ما أشيع سبعة عشر ألف درهم ، عنها يومئذ ما ينيف عن سبعمائة دينار مصرية . ولم تزل هذه الدار وقفا الى أن بيعت ، على أنها ملك فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة بدون ألف دينار ،

(*) ص٥٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

لزين الدين عبد الباسط بن خليل ، فجدد بناءها ، وبنى تجاهها جامعه .

« تنكز الأشرف » : سيف الدين أبو سعيد خليل . جلبه الى مصر وهو صغير الخواجا علاء الدين السوسى ، فنشأ بها عند الملك الأشرف خليل بن قلاوون .

فلما ملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، أمره امرة عشرة قبل توجهه الى الكرك ، وسافر معه الى الكرك ، وترسل عنه منها الى الأفرم ، فاتهمه أن معه كتبا الى الأمراء بالشام وعرض عليه العقوبة ، فأرجف منه وعاد الى الناصر ، فقال له : ان عدت الى الملك فأنت نائب دمشق .

فلما عاد الى الملك جهزه الى دمشق فوصلها فى العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، فباشر النيابة وتمكن فيها ، وسار بالعساكر الى ملطية ، وافتتحها فى محرم سنة خمس عشرة ، وعظم شأنه ، وأمن الرعايا حتى لم يكن أحد من الأمراء يظلم ذميا ، فضلا عن مسلم ، خوفا من بطشه وشدة عقوبته .

وكان السلطان لا يفعل شيئا بمصر الا ويشاوره فيه وهو بالشام ، وقدم غير مرة على السلطان ، فأكرمه وأجله بحيث أنه أنعم عليه فى قدومه الى مصر سنة ثلاث وثلاثين بما مبلغه ألف ألف درهم وخمسون ألف درهم ، عنها خمسون ألف دينار ونيف ، سوى الخيل . وزادت أملاكه وسعادته ، وأنشأ جامعا بدمشق بديع الوصف بهج الزى وعدة مواضع .

وكان الناس فى أيامه قد أمنوا كل سوء ... الا أنه كان يتخيل خيالا ، فيحتد خلقه ويشتد غضبه ، فهلك بذلك كثير من الناس ، ولا يقدر أحد أن يوضح له الصواب لشدة هيبته . وكان اذا غضب لا يرضى ألبتة بوجه ، واذا بطش كان بطشه بطش الجبارين ، ويكون الذنب صغيرا فلا يزال يكبره حتى يخرج فى عقوبة فاعله عن الحد .

ولم يزل الى أن أشيع بدمشق أنه يريد العبور الى بلاد الططر . فبلغ ذلك السلطان ، فتنكر له ، وجهز اليه من قبض عليه فى ثالث عشرى ذى الحجة سنة أربعين ، وأحيط بماله .

وقدم الأمير بشتاك الى دمشق لقبضه ، وخرج الى القصر ومعه من مال تنكز . وهو من الذهب العين ثلثمائة ألف وستة وثلاثون ألف دينار ، ومن الدراهم الفضة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم ، ومن الجوهر واللؤلؤ والزركش والقماش ثمانمائة حمل . ثم استخرج بعد ذلك من بقايا أمواله أربعون ألف دينار ، وألف ألف ومائة ألف درهم .

فلما وصل تنكز الى قلعة الجبل جهز الى الاسكندرية ، واعتقل فيها نحو الشهر ، وقتل فى محبسه ، ودفن بها فى يوم الثلاثاء حادى عشرى المحرم سنة احدى وأربعين وسبعمائة .

ومن الغريب أنه أمسك يوم الثلاثاء ، ودخل مصر يوم الثلاثاء ، ودخل الاسكندرية يوم الثلاثاء ، وقتل يوم الثلاثاء . ثم نقل الى دمشق فدفن بتربته جوار * جامعه ليلة الخامس من رجب سنة أربع وأربعين

(*) ص٥٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وسبعمائة ، بعد ثلاث سنين ونصف ، بشفاعة ابنته .

« دار أمير مسعود » : هذه الدار بآخر خط الكافورى . عرفت بالأمير بدر الدين مسعود بن خطير الرومى أحد الأمراء بمصر . أخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ذى الحجة سنة أربعين وسبعمائة الى نيابة غزة ، ثم نقل منها الى امرة دمشق ، وولى نيابة طرابلس ، ثم أعيد الى دمشق .

وأصله من أتباع الأمير تنكز ، فشكره عند الملك الناصر ، وقدمه حتى صار أميرا حاجبا . فلما قتل تنكز أخرجه لنيابة غزة ، وتنقل فى نيابة طرابلس ثلاث مرات الى أن استعفى من النيابة ، فأنعم عليه بامرة فى دمشق ، وعلى ولديه بامرة طبلخاناة .

وما زال مقيما بها حتى مات فى سابع شوال سنة أربع وخمسين وسبعمائة بدمشق . ومولده بها ليلة السبت سابع جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

« دار نائب الكرك » : هذه الدار فيما بين خط الخرشتف وخط باب سر المارستان المنصورى ، وهى من جملة أرض الميدان . عرفت بالأمير أقوش الأشرفى ، المعروف بنائب الكرك ، صاحب الجامع .

« أقوش الأشرفى » جمال الدين : ولاه الملك الناصر محمد بن قلاوون نيابة دمشق بعد مجيئه من الكرك ، وعزله تنكز بعد قليل ، واعتقله الى شهر رجب سنة خمس عشرة وسبعمائة ، ثم أفرج عنه وجعله رأس الميمنة ، وصار يقوم له اذا قدم مميزا له عن غيره من الأمراء .

وكان لا يلبس مصقولا ، ويمشى من داره هذه الى الحمام وهو حامل المئزر والطاسة وحده ، فيدخل الحمام ويخرج عريانا . فاتفق مرة أن رجلا رآه فعرفه ، وأخذ الحجر وحك رجله وغسله ، وهو لا يكلمه كلمة واحدة . فلما خرج وصار الى داره ، طلب الرجل وضربه ، وقال له : أنا مالى مملوك ، ما عندى غلام ، ما لى طاسة حتى تتجرأ على أنت .

وكان يتوجه الى معبد له فى الجبل الأحمر ، وينفرد فيه وحده اليومين والثلاثة ، ويدخل منه الى القاهرة وهو ماش وذيله على كتفه حتى يصل الى داره . وباشر نظر المارستان المنصورى مباشرة جيدة .

ثم أخرجه السلطان الى نيابة طرابلس فى أول سنة أربع وثلاثين وسبعمائة فأقام بها ، ثم طلب الاقالة ، فأعفى وقبض عليه واعتقل بقلعة دمشق ، ثم نقل منها الى صفد فحبس بها فى برج ، ثم أخرج منها الى الاسكندرية فمات بها معتقلا فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة .

وكان عسوفا جبارا فى بطشه ، مات عدة من الناس تحت الضرب قدامه ، وكان كريما سمحا الى الغاية . وعرف بنائب الكرك لأنه أقام فى نيابتها من سنة تسعين وستمائة الى سنة تسع وسبعمائة .

« دار ابن صغير » : هذه الدار من جملة الميدان ، وهى اليوم من خط باب سر المارستان المنصورى . أنشأها علاء الدين على

ابن نجم الدين عبد الواحد بن شرف الدين محمد بن صغير رئيس الأطباء ، ومات بحلب عندما توجه اليها فى خدمة الملك الظاهر برقوق فى يوم الجمعة تاسع عشر ذى الحجة سنة ست وتسعين وسبعمائة ودفن بها ، ثم نقلته ابنته الى القاهرة ودفنته بظاهرها .

« دار بيبرس الحاجب » : هذه الدار بخط حارة العدوية ، وهى الآن من خط باب سر المارستان . عرفت بالأمير بيبرس الحاجب صاحب غيط الحاجب فيما بين جسر بركة الرطلى والجرف .

« بيبرس الحاجب » الأمير ركن الدين . ترقى فى الخدم الى أن صار أميراخور . فلما حضر الملك الناصر من الكرك ، عزله بالأمير أيدغمش ، وعمله حاجبا ، وناب فى الغيبة عن الأمير تنكز بدمشق لما حج .

ثم تجرد الى اليمن وعاد ، فتنكر عليه السلطان ، وحبسه فى ذى القعدة سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وأفرج عنه فى رجب سنة خمس وثلاثين ، وجهزه من الاسكندرية الى حلب ، فصار بها أميرا من أمرائها .

ثم تنقل منها الى امرة بدمشق بعد عزل تنكز . فلم يزل بها الى أن توجه الفخرى وطشتمر الى مصر ، فأقره على نيابة الغيبة بدمشق ، وكان قد أسن ، ومات فى شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .

وأدركنا له حفيدا يعرف بعلاء الدين أمير على بن شهاب الدين أحمد بن بيبرس الحاجب . قرأ القراءات السبع على ولده ، وكان حسن الأداء للقراءة ، مشهورا بالعلاج يعالج بمائة وعشرة أرطال . مات وهو سائح فى سابع ربيع الآخر سنة احدى وثمانمائة .

« دار عباس » : هذه الدار كانت فى درب شمس الدولة . عرفت بالوزير عباس بن يحيى ابن تميم بن المعز ابن باديس . أصله من المغرب ، وترقى فى الخدم حتى ولى الغربية ، ولقب بالأمير ركن الاسلام .

وكانت أمه تحت الأمير المظفر على بن السلار والى البحيرة والاسكندرية . فلما رحل على بن السلار الى القاهرة ، وأزال الوزير نجم الدين سليمان بن مصال من الوزارة ، واستقر مكانه فى وزارة الخليفة الظافر بأمر الله ، وتلقب بالعادل ، قدمه لمحاربة ابن مصال فلم ينل غرضا ، فخرج اليه عباس حتى ظفر به .

وولى ناصر الدين نصير بن عباس ولاية مصر بشفاعة جدته أم عباس . فاختص به الخليفة الظافر ، واشتغل به عمن سواه — وكان جريا مقداما — فخرج اليه أمر عباس بالعسكر لحفظ عسقلان من الفرنج ، ومعه من * الأمراء ملهم والضرغام وأسامة ابن منقذ ، وكان أسامة خصيصا بعباس .

فلما نزلوا ببلبيس تذاكر عباس وأسامة مصر وطيبها ، وما هم خارجون اليه من مقاساة السفر ولقاء العدو ، فتأوه عباس أسفا على مفارقة لذاته بمصر ، وأخذ يثرب على العادل بن السلار ، فقال له أسامة : لو أردت كنت أنت سلطان مصر .

فقال : كيف لى بذلك ؟

(*) « ص٥٥ جـ٢ ، ط. بولاق »

قال : هذا ولدك ناصر الدين بينه وبين الخليفة مودة عظيمة ، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع زوج أمك ، فانه يحبك ويكرهه ، فاذا أجابك فاقتله وصر فى منزله .

فأعجب عباس ذلك ، وجهز ابنه لتقرير ما أشار به أسامة ، فسار الى القاهرة ودخلها على حين غفلة من العادل ، واجتمع بالخليفة وفاوضه فيما تقرر ، فأجابه اليه ، ونزل الى دار جدته . وكان من قتله للعادل على بن سلار ما كان .

فماج الناس ، وسرح الطائر من القصر الى عباس وهو على بلبيس فى الانتظار ، فقام من فوره ودخل القاهرة سحر يوم الأحد ثانى عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، فوجد عدة من الأتراك قد نفروا وخرجوا يدا واحدة الى الشام ، فصار الى القصر ، وخلع عليه خلع الوزارة ، فباشر الأمور ، وضبط الأحوال ، وأكرم الأمراء ، وأحسن الى الأجناد .

وازدادت مخالطة ولده للخليفة ، فخاف أن يقتله كما قتل ابن السلار ، فما زال به حتى قتل الخليفة الظافر كما تقدم ذكره ، وصار الى القصر على العادة . فلما جلس فى مقطع الوزارة سأل الاجتماع على الخليفة ، فدخل الزمام الى دور الحرم فلم يجد الخليفة ، فلما عاد اليه أحضر أخوى الظافر واتهمهما بقتله وقتلهما قدامه ، واستدعى بولد الظافر عيسى ولقبه بالفائز بنصر الله .

وكثرت النياحة على الظافر ، وبحث أهل القصر على كيفية قتله ، فكتبوا الى طلائع بن رزيك — وهو والى الأشمونين — يستدعونه فحشد وسار . فاضطرب عباس ، وكثرت مناكدة أهل القاهرة له ، حتى انه مر يوما فرمى من طاقة تشرف على شارع بقدر مملوء طعاما حارا ، فعول على الفرار ، وخرج ومعه ابنه وأسامة بن منقذ وجميع ما لهم من أتباع ومال وسلاح .

ودخل طلائع الى القاهرة ، واستقر فى وزارة الخليفة الفائز ، فسير أهل القصر الى الفرنج البريد بطلب عباس ، فخرجوا اليه . وكانت بينهم وبينه وقعة فر فيها أسامة فى جماعة الى الشام ، فظفر به الفرنج وقتلوه ، وأخذوا ابنه فى قفص من حديد ، وجهزوه الى القاهرة ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، فلما وصل ابنه الى القصر قتل ، وصلب على باب زويلة ، وأحرق بعد ذلك .

ثم عرفت هذه الدار بعد ذلك بدار تقى الدين صاحب حماة ، ثم خربت ، وحكر مكانها ، فصار يعرف بحكر صاحب حماة ، وبنى فيه عدة دور . وموضعها الآن بداخل درب شمس الدولة بالقرب من حمام عباس ، التى تعرف اليوم بحمام الكويك .

« دار ابن فضل الله » : هذه الدار فيما بين حارة زويلة والبندقانيين ، كان موضعها من جملة اصطبل الجميزة ، عرفت بابن فضل الله .

وبنو فضل الله جماعة : أولهم بمصر شرف الدين عبد الوهاب بن الصاحب جمال الدين أبى المآثر فضل الله ابن الأمير عز الدين الحلى بن دعجان العمرى . وولى كتابة السر

للملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم صرفه عنها وولاه كتابة السر بدمشق . فلم يزل بها حتى مات فى ثلاث شهر رمضان سنة سبع عشرة وسبعمائة .

وقد عمر وبلغ أربعا وتسعين سنة ، وخلف أموالا جمة . ورثاه الشهاب محمود وقد ولى بعده ، ورثاه علاء الدين على بن غانم والجمال ابن نباتة . وكان فاضلا بارعا أديبا ، عاقلا وقورا ناهضا ، ثقة أمينا مشكورا ، مليح الخط جيد الانشاء . حدث عن الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام وغيره .

ومنهم « محيى الدين » يحيى بن الصاحب جمال الدين أبى المآثر فضل الله بن مجلى ابن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبد الله بن على بن محمد بن أبى بكر عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى العمرى . وولى كتابة السر بالديار المصرية عن الملك الناصر ، نقل اليها من كتابة سر دمشق لما مرض علاء الدين باستدعائه الى مصر ، وأقيم بدله فى كتابة سر دمشق شرف الدين أبو بكر بن الشهاب محمود .

وكان استقراره فى محرم سنة ثلاثين وسبعمائة ، فباشرها الى ثانى عشر شعبان سنة ثنتين وثلاثين ، ونقل منها الى كتابة السر بدمشق ، وطلب شرف الدين ابن الشهاب محمود ، فاستقر فى كتابة السر بمصر الى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين ، وطلب محيى الدين من دمشق هو وابنه شهاب الدين أحمد ، فوصلا الى القاهرة غرة جمادى الأولى ، وخلع عليهما ووسم لهما بكتابة السر ، ونقل ابن شهاب محمود الى كتابة السر بدمشق .

فلم يزل محيى الدين يباشر كتابة السر هو وابنه الى أن كان من تنكز السلطان لولده شهاب الدين ما كان . وذلك أنه كان استعفى من الوظيفة لثقل سمعه وكبر سنه ، فأذن له أن يقيم ابنه القاضى شهاب الدين يباشر عنه ، فصار الاسم لمحيى الدين ، والمباشر ابنه شهاب الدين ... الى أن حضر الأمير تنكز نائب الشام الى القلعة ، وسأل السلطان فى علم الدين محمد بن قطب الدين أحمد بن مفضل — المعروف بابن القطب — أن يوليه * كتابة السر بدمشق .

وكان السلطان لا يمنع تنكز شيئا يسأله ، فخلع عليه ، وأقره فى ذلك عوضا عن جمال الدين عبد الله بن الأثير . فأخذ شهاب الدين ينقصه عند السلطان بأنه نصرانى الأصل ، وليس من أهل صناعة الأنشاء ونحو ذلك ، والسلطان مغض عنه غير ملتفت الى ما يرمى به رعاية لتنكز .

فلما كتب توقيع ابن القطب ، أراد تكثير الألقاب والزيادة له فى المعلوم . فامتنع شهاب الدين من كتابة ذلك . وكان حاد المزاج ، قوى النفس ، شرس الأخلاق ، ففاجأ السلطان بغلظة ومخاشنة فى القول .

وكان من كلامه : كيف تعمل قبطيا أسلميا كاتب السر وتزيد فى معلومه ؟ وبالغ فى الجراءة حتى قال : ما يفلح من يخدمك ،

(*) ص٥٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

وخدمتك على حرام . ونهض قائما لشدة حنقه . وكان هذا منه بحضرة الأمراء ، فغضبوا لذلك وهموا بضرب عنقه ، فأعفى السلطان عنه .

وبلغ محيي الدين ما كان من ابنه . فبادر الى السلطان ، وقبل الأرض ، واعترف بخطأ ابنه ، واعتذر عن تأخره بثقل سمعه . فرسم له أن يكون ابنه علاء الدين على يدخل ويقرأ البريد ، فاعتذر بأنه صغير لا يقوم بالوظيفة . فقال السلطان : أنا أربيه مثل ما أعرف . فصار يخلف أباه كما كان شهاب الدين .

وانقطع شهاب الدين فى منزله مدة سنتين الى أن مات أبوه محيي الدين فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بالقاهرة ، عن ثلاث وتسعين سنة ، وهو متمتع بحواسه . فدفن ظاهر القاهرة ، ثم نقل الى تربتهم من سفح قاسيون بدمشق .

وكان صدرا معظما ، وزينا كامل السؤدد ، حركا كاتبا بارعا . دبر الأقاليم بكفايته وحسن سياسته ووفور عقله وأمانته وشدة تحرزه ، وله النظم والنثر البديع الرايق . فمن شعره :

تضاحكنى ليلى فأحسب ثغرها
سنا البرق لكن أين منه سنا البرق

وأخفت نجوم الصبح حين تبسمت
فقمت بفرعيها أشد على الشرق

وقلت سواء جنح ليل وشعرها
ولم أدر أن الصبح من جهة الفرق

« علاء الدين » على بن يحيى بن فضل الله العمرى . استقل بوظيفة كتابة السر قبل موت أبيه محيي الدين ، وخلع عليه يوم الاثنين رابع شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وله من العمر أربع وعشرون سنة . فخرج وفى خدمته الصاحب والدوادار ، وتقدم أمر السلطان للموقعين بامتثال ما يأمرهم به عن السلطان . فشق ذلك على أخيه شهاب الدين وحده ، وربما قيل انه سمه ، فكان يعتريه دم منه الى أن مات .

ثم انه كتب قصة يسأل فيها السفر الى الشام ، وشكا كثرة التكلفة — وكان قبل ذلك جرى ذكره فى مجلس السلطان ، فذمه وتهدده — فعندما قرئت عليه قصته تحرك ما كان ساكنا من غضبه ، ورسم بإيقاع الحوطة عليه . فحمل من داره الى قاعة الصاحب من قلعة الجبل فى رابع عشرى شعبان سنة تسع وثلاثين ، وخرج اليه الأمير طاجار الدوادار ، وأمر به فعرى من ثيابه ليضرب بالمقارع ، فرفق به ولم يضربه ، واستكتبه خطه بحمل عشرة آلاف . فأحيط بداره ، وأخرج سائر ما وجد له وبيع عليه ، وأرسل مملوكه الى بلاد الشام ، فباع كل ما له فيها ، واقترض خمسين ألف درهم حتى حمل من ذلك كله مائة وأربعين ألف درهم ، عنها سبعة آلاف دينار .

فسكن أمره ، وخف الطلب عنه ، وأقام الى ثالث عشر ربيع الآخر سنة أربعين مدة سبعة أشهر وثمانية عشر يوما ... ففرج الله عنه بأمر عجيب . وهو أنه لما كان يباشر عن أبيه ، وقع شخص من الكتاب بشيء زور ،

فرسم السلطان بقطع يده ، وأمر به فسجن طول هذه السنين الى أن قدر الله سبحانه أنه رفع قصة يسأل فيها العفو عنه .

فلما قرئت على السلطان لم يعرفه ، فسأل عن خبره وشأنه ، فقيل له لا يعرف خبر هذا الا شهاب الدين بن فضل الله ، فبعث اليه بقاعة الصاحب يستخبره عنه ، فطالعه بقصته وما كان منه ، فألان الله له قلب السلطان ، ورسم بالافراج عن الرجل وعن شهاب الدين وعن مملوكه ، ففرج الله عن الثلاثة .

ونزل شهاب الدين الى داره ، وأقام الى أن قبض السلطان على الأمير تنكز نائب الشام ، فاستدعى شهاب الدين الى حضرته وحلفه ، وولاه كتابة السر بدمشق عوضا عن شرف الدين خالد بن عماد الدين اسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن خالد بن نصر المخزومى ، المعروف بابن القيسرانى ، فباشرها حتى مات دمشق .

وانفرد أخوه علاء الدين بكتابة السر الى أن مات ليلة الجمعة التاسع والعشرين من شهر رمضان ، سنة تسع وستين وسبعمائة ، بمنزله من القاهرة عن سبع وخمسين سنة ، وترك ستة بنين وأربع بنات .

« بدر الدين » محمد بن على بن يحيى ابن فضل الله . ولاه الملك الأشرف شعبان بن حسين كتابة السر ، وأبوه فى مرض موته ، يوم الخميس ثامن عشرى شهر رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة ، وله من العمر تسع عشرة سنة ، وجعل أخاه عز الدين حمزة نائبا عنه ،

فباشر الى شوال سنة أربع وثمانين وسبعمائة . فصرف بأوحد الدين عبد الواحد (*) ابن اسماعيل بن يس ، ولزم داره فلم يره أحد ألبتة الى أن مات أوحد الدين ، فنزل اليه الأمير يونس الدوادار واستدعاه ، فركب بثياب جلوسه من غير خف ولا فرجية ولا شاش ، وصعد الى القلعة ، فخلع عليه فى اليوم الرابع من ذى الحجة سنة ست وثمانين .

فلما ثار الأمير يلبغا الناصرى على الملك الظاهر وخلعه من الملك ، وأقام الملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان بن حسين ولقبه بالملك المنصور ، ثم خرج الملك الظاهر برقوق من محبسه بالكرك ، وصار الى محاربة الأمير تمربغا منطاش ومعه المنصور حاجى ، فخرج ابن فضل الله .

فلما انهزم منطاش على شقحب ، واستولى برقوق على المنصور والخليفة والقضاة والخزائن ، وكان ابن فضل الله وأخوه عز الدين فى من فر مع منطاش الى دمشق ، فأقام بها ، واستولى برقوق على تخت الملك بقلعة الجبل ، فولى علاء الدين على بن عيسى الكركى كتابة السر .

وأخذ ابن فضل الله يتحيل فى الخروج من دمشق ، وسير الى السلطان مطالعة فيها من شعره :

يقبل الأرض عبد بعد خدمتكم
قد مسه ضرر ما مثله ضرر

(*) ص٥٧ جـ٢ ، ط . بولاق .

حصر وحبس وترسيم أقام به
وفرقة الأهل والأولاد والفكر

لكنه والورى مستبشرون بكم
يرجو بكم فرجا يأتي وينتظر

والشغل يقضي لأن الناس قد ندموا
اذ عاينوا الجور من منطاش ينتشر

جوزوا كما فرطوا في حقكم ورأوا
ظلما عظيما به الأكباد تنفطر

والله ان جاءهم من بابكم أحد
قاموا له معكم بالروح وانتصروا

الله ينصركم طول المدى أبدا
يامن زمانهم من دهرنا غرر

قدم الى القاهرة ، ومعه أخوه عز الدين حمزة ، وجمال الدين محمود القيصري ناظر الجيش ، وتاج الدين عبد الرحيم بن أبي شاكر ، وشمس الدين محمد بن الصاحب . فما زال في داره الى أن سافر الملك الظاهر الى بلاد الشام في سنة ثلاث وتسعين . فتقدم أمره اليه بالمسير مع العسكر فسار بطالا ، وقدر الله تعالى ضعف علاء الدين الكركي ، فولاه كتابة السر ، وصرف الكركي في شوال .

وكانت هذه ولاية ثالثة . فباشر وتمكن هذه المرة من سلطانه تمكنا زائدا ، الى أن سافر السلطان الى البلاد الشامية في سنة ست وتسعين ، فمات بدمشق يوم الثلاثاء لعشرين من شوال سنة ست وتسعين وسبعمائة ، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون ، ومات أخوه حمزة بدمشق أيضا في أوائل المحرم سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، ودفن بها .

وانقطع بموتهما هذا البيت ، فلم يبق من بعدهما الا كما قال الله سبحانه : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » .

ومن شعر البدر محمد بن فضل الله ماكتبه عنوانا لكتاب الملك الظاهر برقوق ، جوابا عن كتاب تمرلنك الوارد الى مصر في سنة ست وتسعين وسبعمائة ، وعنوانه :

سلام واهداء السلام من البعد
دليل على حفظ المودة والعهد

فافتتح البدر العنوان بقوله :

طويل حياة المرء كاليوم في العد
فخبرته ألا يزيد على العد

فلا بد من نقص لكل زيادة
لأن شديد البطش يقتص للعبد

وكتب فيه من شعره أيضا جوابا عن كثرة تهديد تمرلنك وافتخاره :

السيف والرمح والنشاب قد علمت
منا الحروب فسل منها تليكا

اذا التقينا تجد هذا مشاهدة
في الحرب فاثبت فأمر الله آتيكا

بخدمة الحرمين الله شرفنا
فضلا وملكنا الأمصار تمليكا

وبالجميل وحلو النصر عودنا
خذ التواريخ واقرأها فتنبيكا

والأنبياء لنا الركن الشديد وكم
بجاههم من عدو راح مفكوكا

ومن يكن ربه الفتاح ناصره
ممن يخاف وهذا القول يكفيكا

وقال :

اذا المرء لم يعرف قبيح خطيئة
ولا الذنب منه مع عظيم بليته

فذلك عين الجهل منه مع الخطا
وسوف يرى عقباه عند منيته

وليس يجازى المرء الا بفعله
وما يرجع الصياد الا بنيته *

وهذه الدار كانت موجودة قبل بني فضل الله ، وتعرف بدار بيبرس ، فعمر فيها محيي الدين وابنه علاء الدين ، وكانت من أبهج دور القاهرة وأعظمها .

وما زالت بيد أولاد بدر الدين وأخيه عز الدين حمزة الى أن تغلب الأمير جمال الدين على أموال الخلق . فأخذ ابن أخيه الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب — المعروف بسيدي أحمد — ابن أخت جمال الدين دار بني فضل الله منهم ، كما أخذ خاله دور الناس وأوقافهم ، وعوض أولاد ابن فضل الله عنها ، وغير كثيرا من معالمها .

وشرع في الازدياد من العمارة اقتداء بخاله ، فأخذ دورا كانت بجوار مستوقد حمام ابن عبود المقابلة لدار ابن فضل الله ، واغتصب لها الرخام والأحجار والأخشاب ، وهدم عدة دور وكثيرا من الترب بالقرافة — منها تربة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وكانت عجيبة البناء — وأدخل ذلك في عمارته المذكورة ، ووسع فيها من جهة البندقانيين ما كان خرابا منذ الحريق الذي تقدم ذكره ، وأنشأ من هناك حوض ماء يشرب منه الدواب .

فلما قارب اكمالها ، قبض الملك الناصر فرج على خاله جمال الدين يوسف أستادار وقتله ، وكان أحمد هذا ممن قبض عليه معه . فوضع الأمير تغرى بردى — وهو يومئذ أجل أمراء الناصر — يده على هذه الدار ، وما رضي بأخذها حتى طلب كتابها ، فاذا به قد تضمن أن أحمد قد وقف هذه الدار ، فلم يزل بقضاة العصر حتى حكموا له بهذه الدار ، وجعلوها له بطريق من طرقهم ، فأقام فيها حتى أخرجه الناصر لنيابة دمشق في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، فنزل بها الأمير دمرداش .

فلما قتل الناصر ، وقام من بعده الملك المؤيد شيخ وقبض على الأمير دمرداس ، ثارت ابنة جمال الدين — وهي امرأة أحمد المذكور ولها منه أولاد — وأرادت استرجاع الدار كما فعلت في مدرسة أبيها ، وكان لها ولورثة تغرى بردى مخاصمات ، واستقرت لبني تغرى بردى .

« دار بيبرس » : هذه الدار فيما بين دار ابن فضل الله والسبع قاعات ، في ظهر حارة زويلة وقريبة من سويقة المسعودي ، تشبه أن تكون من جملة اصطبل الجميزة . كانت دار الشريف بن تغلب صاحب المدرسة الشريفية برأس حارة الجودرية .

ثم عرفت بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، فانه كان يسكنها وهو أمير قبل أن يلي السلطنة ، وجدد رخامها من الرخام الذي دل عليه الأمير ناصر الدين محمد ، ابن الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح ،

(*) ص٥٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

بالقصر الذى عرف بقصر أمير سلاح من جملة قصر الخلفاء ... كما سيأتى خبر ذلك عند ذكر الخانقاه الركنية بيبرس ، فان بيبرس هذا هو الذى أنشأها .

ولم تزل الى أن هدمها ناصر الدين محمد ابن البارزى الحموى كاتب السر بعد ما اشتراها نقضا ، كما اشترى غيرها من الأوقاف وذلك فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة .

« السبع قاعات » : هذه الدار عرفت بالسبع قاعات ، وهى يتوصل اليها من جوار دار بيبرس المذكورة ومن سويقة الصاحب ، وقد صارت عدة مساكن جليلة ، ومكانها من جملة اصطبل الجيزة . أنشأها الوزير الصاحب علم الدين بن زنبور ، ووقفها من جملة ما وقف . فلما قبض عليه الأمير صرغتمش حل أوقافه ، ووعد بالسبع قاعات خوند قطلوبنك ابنة الأمير تنكز الحسامى نائب الشام ، أم السلطان الملك الصالح صالح ابن الناصر محمد بن قلاوون .

ولقنه الشريفان شرف الدين على بن حسين ابن محمد نقيب الأشراف وأبو العباس الصفراوى : أن الناصر لما قبض على كريم الدين الكبير ، بعث الى كريم الدين من شهد عليه أن جميع ما صار بيده من الأملاك — وقفها وطلقها — انما هو من مال السلطان دون ماله ، وشهد بذلك عند قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، فأثبت بهذه الشهادة أن أملاك كريم الدين جارية فى أملاك السلطان فأقر السلطان ما وقفه كريم الدين منها على حاله ، وسماه الوقف الناصرى .

فلما جلس السلطان الملك الصالح بدار العدل ، وحضر قاضى القضاة والأمراء وغيرهم من أهل الدولة على العادة ، تكلم الأمير صرغتمش مع قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن بدر الدين محمد بن جماعة فى حل أوقاف ابن زنبور ، فانها ملك السلطان ومن ماله اشتراها ، وذكر قضية كريم الدين .

فأجابه بأن تلك القضية كانت صحتها مشهورة . وذلك أن خزائن السلطان وحواصله وأمواله كلها كانت بيد كريم الدين وفى داره يتصرف فيها على ما يختاره ... جعل له السلطان بتوكيله والاذن له فى التصرف . بخلاف ابن زنبور فانه كان يتصرف فى ماله الذى اكتسبه من المتجر وغيره ، فما وقفه وثبت وقفه وحكم قضاة الاسلام بصحته ، لا سبيل الى حله . وساعده فى ذلك القاضى موفق الدين عبد الله الحنبلى .

وتردد الكلام بينهما فى ذلك ، فاحتج عليهما الأمير صرغتمش بما لقنه الشريفان من مشاطرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عماله ، وأخذه من كل عامل نصف ماله ، وأن مال الوزير جميعه من مال السلطان .

فقال له ابن جماعة : ياأمير ان كنت تبحث معنا فى هذه المسألة بحثنا معك ، وان كان أحد قد ذكرها لك فليحضر حتى نبحث معه فيها ، فان الذى ذكر لك هذه المسألة انما قصد أن تصادر الناس وتأخذ أموالهم . فوافقه رفقته الثلاثة قضاة على قوله .

وأراد ابن جماعة بقوله هذا التعريض بالشريفين * — وكان اختصاصهما بالأمير صرغتمش وقيامها على ابن زنبور مشهورا — فشق هذا على الأمير صرغتمش ، وانفض المجلس وقد اشتد حنقه لما رد عليه من كلامه ، وعورض فيه من مراده .

فبعثت خوند أم السلطان الى ابن جماعة تعرفه ما وعدت به من مصير السبع قاعات اليها ، وأكدت عليه فى ألا يعارضها فى حل أوقاف ابن زنبور . فأجابها بتقبيح هذا ، وخوفها سوء عاقبته . فكفت عنه .

ولقوة غيظ الأمير صرغتمش مرض مرضا شديدا من انفتاح صدره ، ونفثه الدم حتى خيف عليه الموت ، ثم عوفى بعد ذلك بأيام ، وذلك كله فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة .

واستمرت السبع قاعات وقفا بيد ذرية ابن زنبور الى يومنا هذا ... الا أن الأمير صرغتمش المذكور أخذ رخامها ، ووجد فيها شيئا كثيرا من صينى ونحاس وقماش وغير ذلك قد أخفى فى زواياها .

« علم الدين » عبد الله بن تاج الدين أحمد ابن ابراهيم ، المعروف بابن زنبور ، أول ما باشر به استيفاء الوجه القبلى شريكا لوهب بن سنجر ، وطلع صحبته الأمير علم الدين عبد الرزاق كاشف الوجه القبلى ونهض فيه . فلما كانت مصادرة ابن الجيعان كاتب الاصطبل ، طلب السلطان سائر الكتاب — وكان منهم ابن زنبور — فعرضهم ليختار منهم ، فشكر الفخر ناظر الجيش منه ، وقال : هو ولد تاج الدين رفيقه . وشكره الأكوز .

فلما انفض المجلس طلبه وخلع عليه . فباشر نظر الاصطبل فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، ونال فيه سعادة طائلة ، واستمر الى أن مات السلطان الملك الناصر محمد ، وحكم الأمير أيدغمش ، فباشر استيفاء الصحبة .

فلما قبض على جمال الكفاة ، ناظر الخاص وناظر الجيش ، وعلى الموفق ناظر الدولة ، وعلى الصفى ناظر البيوت — المعروف بكاتب قوصون — فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ومات جمال الكفاة فى العقوبة يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول ... عين ابن زنبور لوظيفة ناظر الخاص ، ثم قرر فيها القاضى موفق الدين هبة الله بن ابراهيم ناظر الدولة .

وكان ابن زنبور وهو مستوفى الصحبة ، قد سيره جمال الكفاة قبل القبض عليه لكشف القلاع الشامية ، ومعه جاركتمر الصاحب ابعادا له ، وكان الأمير أرغون العلائى يعنى به . فلما قبض على جمال الكفاة ، تحدث له العلائى مع السلطان الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون فى نظر الخاص ، فبعث فى طلبه ، ثم لم يحضر الا بعد شهر ، فتحدث الوزير نجم الدين محمود بن على — المعروف بوزير بغداد — مع السلطان فى ولاية الموفق نظر الخاص ، فخلع عليه .

وحضر ابن زنبور من الشام ، فباشر نظر الدولة علم الدين بن سهلوك ، وابن زنبور على ما هى عادته فى استيفاء الصحبة ، ونهض فى المباشرة ، وحصل الأموال ، ودخل هو

(*) ص٥٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

والوزير نجم الدين ، وشكيا توقف الدولة من كثرة الانعامات والاطلاقات للخدم والجوارى ومن يلوذ بهم .

فتقرر الحال مع الأمراء على كتابة أوراق بكلفة الدولة . فلما قرئت بمحضر من الأمراء ، بلغت الكلف ثلاثين ألف ألف درهم ، والمتحصل خمسة عشر ألف درهم . فأبطل ما استجد بعد موت الملك الناصر بأسره ، فلم يستمر غير شهر واحد حتى عاد الأمر على ما كان عليه ، بحيث بلغ مصروف الحوائج خاناه فى كل يوم اثنين وعشرين ألف درهم ، بعدما كانت فى أيام الناصر محمد ثلاثة عشر ألف درهم .

فلما مات الملك الصالح اسماعيل ، وأقيم فى الملك من بعده أخوه الملك الكامل سيف الدين شعبان بن محمد ، صرف الموفق عن نظر الخاص ، ونقل ابن زنبور من استيفاء الصحبة اليها ، واستقر فخر الدين السعيد فى استيفاء الصحبة ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة . فباشر ذلك الى أخريات رجب نيفا وثمانين يوما . فولى الملك الكامل نظر الخاص لفخر الدين ابن السعيد مستوفى الدولة ، وأعاد ابن زنبور من نظر الخاص الى استيفاء الدولة .

فلما كان فى المحرم سنة سبع وأربعين ، أعيد نجم الدين وزير بغداد الى الوزارة ، وقرر ابن زنبور فى نظر الدولة . فاستمر الى أن قتل الكامل شعبان ، وأقيم فى الملك من بعده أخوه الملك المظفر حاجى فى مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين ، فطلب ابن زنبور ، وأعيد الى نظر الخاص ، وقبض على فخر الدين بن السعيد وطولب بالحمل ، وأضيف اليه نظر الجيش ، فباشر ذلك الى سنة احدى وخمسين ، فأضيف اليه الوزارة فى يوم الخميس سابع عشرى ذى القعدة ، وخلع عليه ، وكان له يوم عظيم جدا .

فلما كان يوم السبت ، جلس بشباك قاعة الصاحب من القلعة فى دست الوزارة ، واستدعى جميع المباشرين ، وطلب المقدم ابن يوسف ، وشد وسطه على ما كان عليه ، وطلب المعاملين وسلفهم على اللحم وغيره ، واستكتب المباشرين أنه لم يكن فى بيت المال ولا الأهراء من الدراهم والغلال شىء ألبتة ، ودخل بها وقرأها على السلطان والأمراء .

وشرع فى عرض أرباب الوظائف كلهم ، وطلب حساب الأقاليم بأسرها ، وولى صهره فخر الدين ماجد فرويته نظر البيوت ، وأنفق جامكية شهر ، وحمل الرواتب الى الدور السلطانية ، والأسمطة من السكر والزيت والقلوبات وغير ذلك ، وأقام بكتمر المومنى فى وظيفة شد الدواوين ، وألزم نفسه فى المجلس السلطانى بحضرة الأمراء أنه يباشر الوزارة بغير معلوم ، وقرر * ابنه فى ديوان المماليك والتزم أنه لا يتناول معلوما بل يوفر المعلومين للسلطان .

وأبطل رمى الشعير والبرسيم من بلاد مصر — وكان يحصل برميها ضرر كبير ، فان ذلك كان يحصل من سائر البلاد ، فيغرم على كل اردب أكثر من ثمنه — والتزم بتكفية بيت المال من الشعير والبرسيم بغير ذلك ، فبطل

(*) ص٦٠ ج٢ ، ط. بولاق .

على يديه ، وكتب به مرسوم . وكتب نقشا على حجر فى جانب باب القلة من قلعة الجبل ، وأمر بقياس أراضى الجيزة ، فجاء زيادتها عن الارتفاع الذى مضى ثلثمائة ألف درهم ، وعنها خمسة عشر ألف دينار .

فلم يزل الى سابع عشرى شوال سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، فأحيط به ، وقبض عليه حسدا له على ما صار اليه ولم يجتمع لغيره فى الدولة التركية . وتولى القيام عليه الأمير صرغتمش لأنه علم أنه من جهة الأمير شيخو ، ويقوم له بجميع ما يختاره ، وأعانه عليه الأمير طاز .

وما زال يدأب فى ذلك الى أن عاد السلطان الملك الصالح من دمشق فى يوم الاثنين خامس عشرى شوال سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة الى قلعة الجبل ، وعمل يوم الخميس سماطا مهما فى القلعة ، ولما انفض السماط ، خلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء ، وعلى الوزير وسائر المباشرين .

فاتفق — لما قدره الله تعالى — أنه حضر الى الأمير صرغتمش — وهو يومئذ رأس نوبة عشر — تشريف غير تشريفه ، ودون رتبته ، فأخذه ودخل الى الأمير شيخو ، وألقى البقجة قدامه ، وقال : انظر فعل الوزير معى . وكشف الخلعة .

فقال شيخو : هذا غلط .

فقام وقد أخذه من الغضب شبه الجنون ، وقال : هذا شغل الوزير ، وأنا ما أصبر على أن أهان لهذا الحد ، ولا بد لى من القبض عليه ، ومهما شئت أنت افعل بى .

وخرج فاذا الوزير داخل لشيخو وعليه خلعة ، فصاح فى مماليكه : خذوه .

فكشفوا الخلعة عنه ، وسحبوه الى بيت صرغتمش ، وسرح مماليكه فى القبض على جميع حاشية الوزير ، فقبض على سائر من يلوذ به لأنهم كانوا قد اجتمعوا بالقلعة .

وخالطت العامة المماليك فى القبض على الكتاب ، وأخذوا منهم فى ذلك اليوم شيئا كثيرا . حتى ان بعض الغلمان صار اليه فى ذلك اليوم ست عشرة دواة من دوى الكتاب ، فلم يمكن منها أربابها الا بمال يأخذه على كل دواة ما بين عشرين الى خمسين درهما ، وأما ما سلبوه من العمائم والثياب والمهاميز الفضة فشىء كثير .

وخرج الأمير قشتمر الحاجب وغيره فى جماعة الى دوره التى بالصوصة من مصر ، فأوقعوا الحوطة على حريمه وأولاده ، وختموا سائر بيوته وبيوت حواشيه — وكانوا قد اجتمعوا وتزينوا لقدوم رجالهم من السفر — وأنزل الوزير فى مكان مظلم من بيت صرغتمش .

فلما أصبح طلب ولد الوزير ، وصار به صرغتمش الى بيت أبيه ، وأحضر أمه ليعاقبه وهى تنظره حتى يدلوه على المال . ففتحوا له خزانة وجد فيها خمسة عشر ألف دينار وخمسين ألف درهم فضة ، وأخرج من بئر صندوق فيه ستة آلاف دينار وشىء من المصالح ، وحضرت أحماله من السفر ، فوجد فيها ستة آلاف دينار ومائة وخمسون ألف درهم وفضة ، وغير ذلك من تحف وثياب وأصناف .

وألزم والى مصر باحضار بناته . فنودى عليهن فى مصر والقاهرة ، وهجمت عدة دور بسببهن . ونال الناس من نكاية أعدائهم فى هذه الكائنة كل غرض ، فانه كان الرجل يتوجه الى أحد من جهة صرغتمش ، ويرمى عدوه بأن عنده بعض حواشى ابن زنبور ، فيؤخذ بمجرد التهمة . ولقى الناس من ذلك بلاء عظيما .

ثم حمل الى داره وعرى ليضرب ، فدل على مكان استخرج منه نحو من خمسة وستين ألف دينار ، فضرب بعد ذلك ، وعريت زوجته ، وضرب ولده فوجد له شىء كثير الى الغاية .

قال الصفدى خليل بن أيبك ، الملقب صلاح الدين ، فى كتاب « أعيان العصر » : وأما ما أخذ منه فى المصادرة فى حال حياته ، فنقلت من خط الشيخ بدر الدين الحمصى فى ورقة بخطه ، على ما أملاه القاضى شمس الدين محمد البهنسى :

أوانى ذهب وفضة ستون قنطارا ، جوهر ستون رطلا ، لؤلؤ اردبان ، ذهب مصكوك مائتا ألف وأربعة آلاف دينار ضمن صندوق ، ستة آلاف حياصة ضمن صناديق ، زركش ستة آلاف كلوتة ، ذخائر عدة ، قماش بدنة ألفان وستمائة فرجية ، بسط ... ... آلاف صنجة ، دراهم خمسون ألف درهم ، شاشات ثلثمائة شاش ، دواب عاملة سبعة آلاف حلابة ، ستة آلاف خيل وبغال ألف ، دراهم ثلاثة أرادب ، معاصر سكر خمس وعشرون معصرة ، اقطاعات سبعمائة كل اقطاع خمسة وعشرون ألف درهم ، عبيد مائة ، خدام ستون ، جوارى سبعمائة ، أملاك القيمة عنها ثلثمائة ألف دينار ، مراكب سبعمائة ، رخام القيمة عنه مائتا ألف درهم ، نحاس قيمته أربعة آلاف دينار ، سروج وبدلات خمسمائة ، مخازن ومتاجر أربعمائة ألف دينار ، نطوع سبعة آلاف ، دواب خمسمائة ، بساتين مائتان ، سواقى ألف وأربعمائة .

وكان فى وقت القبض عليه أشد الناس قياما فى افساد صورته الشريف شرف الدين على بن الحسين نقيب الأشراف ، والشريف أبو العباس الصفراوى ، وبدر الدين ناظر * الخاص ، وأمين الدين ، والصواف ، وأستادار الأمير صرغتمش .

فأول ما فتحوه من أبواب المكايد أن حسنوا لصرغتمش أن يأمره بالاشهاد عليه ، أن جميع ما له من الأملاك والبساتين والأراضى الوقف والطلق ، جميعها من مال السلطان دون ماله ، فصير اليه ابن الصدر عمر وشهود الخزانة ، فأشهد عليه بذلك .

ثم كتبوا فتيا فى رجل يدعى الاسلام ويوجد فى بيته كنيسة وصلبان وشخوص من تصاوير النصارى ولحم الخنزير ، وزوجته نصرانية ، وقد رضى لها بالكفر وكذلك بناته وجواريه ، وانه لا يصلى ولا يصوم ونحو ذلك . وبالغوا فى تحسين قتله حتى قالوا لصرغتمش : والله لو فتحت جزيرة قبرص ، ما كتب لك أجر من الله بقدر ما يؤجرك الله على ما فعلته مع هذا .

فأخرج فى باشا وزنجير ، وضرب فى رحبة قاعة الصاحب من القلعة بالمقارع ، وتوالت

(*) ص٦١ ج٢ ، ط.بولاق .

عقوبته ، واسلم لشاد الدواوين ليعاقبه حتى يموت .

فقام الأمير شيخو فى أمره ، فرده صرغتمش الى داره وأكرمه ، وأقام عنده الى سابع عشرى المحرم سنة أربع وخمسين ، فأخرجه من داره ، وتسلمه شاد الدواوين ، وعاقبه عقوبة الموت فى قاعة الصاحب .

فاتفق ركوب الأمير شيخو من داره الى القلعة وابن زنبور يعاقب ، فغضب من ذلك ووقف ومنع من ضربه . وبلغ الخبر صرغتمش فصعد الى القلعة ، وجرى له مع شيخو عدة مفاوضات كادت تفضى الى فتنة ، وآل الأمر فيها الى تسفير ابن زنبور الى قوص ، فأخرج من ليله . وكانت مدة شدته ثلاثة أشهر .

وأقام بمدينة قوص الى أن عرض له مرض أقام به أحد عشر يوما ، ومات يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة سنة أربع وخمسين وسبعمائة . وله بالقاهرة السبيل الذى على يسرة من دخل من باب زويلة بجوار خزانة شمائل ، وقد دخل فى الجامع المؤيدى .

« دار الدوادار » : هذه الدار فيما بين حارة زويلة واصطبل الجميزة ، وهى اليوم من جملة خط السبع قاعات عرفت ... ...

« دار فتح الله » : هذه الدار اليوم بخط سويقة المسعودى . كان موضعها زقاقا يعرف بزقاق البنادة ، وفيه باب قاعة أنشأها سعد الدين ابراهيم بن عبد الوهاب بن النجيب أبى الفضائل الميمونى ، أحد مباشرى ديوان الجيش . وهى قاعة فى غاية الملاحة من جودة رخام وكثرة دهان وحسن ترتيب .

ومات الميمونى فى ثانى ذى الحجة سنة خمس وتسعين وسبعمائة ، فسكنها فتح الله ابن معتصم وهو يومئذ رئيس الأطباء . فلما ولى كتابة السر شره الى العمارة ، فأخذ ما فى الزقاق المذكور من الدور شيئا بعد شىء ، وأخرج منها سكانها وهدمها ، وابتنى قاعة تجاه قاعة الميمونى ، وجعل فيها بئرا وفسقية ماء ، وبنى بها حماما ، ثم أنشأ اصطبلا كبيرا لخيوله .

ولم يقنع بذلك حتى حمل القضاة على الحكم له باستبدال دار الميمونى — وكانت وقفا على أولاد الميمونى ، ومن بعدهم على الحرمين — فعمل له طرق فى جواز الاستبدال بها ، على ما صار القضاة يعتمدونه منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة .

فلما تم حكم القضاة له بتملكها غير بابها ، وزاد فى سعتها ، وأضاف اليها عدة مواضع مما كان بجوارها ، وغرس فى جانبها عدة أشجار ، وزرع كثيرا من الأزهار التى حملت اليه من بلاد الشام ، وبالغ فى تحسين رخام هذه الدار .

وأنشأ دهيشة كبيرة الى الغاية ، بوسطها فسقية ماء ينخرط اليها الماء من شاذروان عجيب الصنعة بهج الزى ، وتشرف هذه الدهيشة على هذه الجنينة التى أبدع فيها كل الابداع . وركب علو هذه القاعة الأروقة العظيمة ، وبنى بجوارها عدة مساكن لمماليكه ، ومسجدا معلقا كان يصلى فيه وراء امام راتب قرره له بمعلوم جار . فجاءت هذه الدار من أجل دور القاهرة وأبهجها .

ووقف ذلك كله مع أشياء غيرها على تربته التى أنشأها خارج باب البرقية ، وعلى عدة جهات من البر . فلما نكب أكره حتى رجع عن وقف هذه الدار على ما عينه فى كتاب وقفه ، وجعلها وقفا على أولاد السلطان الملك المؤيد شيخ ، فلما مات المؤيد عاد ذلك الى وقف فتح الله .

« فتح الله » : ابن معتصم بن نفيس الاسرايلى الدوادى العنانى التبريزى ، رئيس الاطباء وكاتب السر ، ولد بتبريز فى سنة تسع وخمسين وسبعمائة . وكان قد قدم جده نفيس الى القاهرة فى سنة أربع وخمسين ، فأسلم وعظم بين الناس .

ثم قدم فتح الله مع أبيه ، فنشأ بالقاهرة فى كفالة عمه ، ونظر فى الطب ، وعاشر الفقهاء ، واتصل بصحبة بعض الأمراء ، فعرف منه أحد مماليكه ، وكان يسمى بشيخ ، فلما تأمر شيخ قربه وأنكحه أمة ، وفوض اليه أمر ديوانه .

ثم مات عمه بديع بن نفيس ، فأقره الملك الظاهر برقوق مكانه فى رياسة الأطباء . فباشرها مباشرة مشكورة ، واختص بالملك الظاهر برقوق اختصاصا كبيرا ، فلما مات بدر الدين محمود الكلستانى قلده وظيفة كتابة السر ، وخلع عليه فى يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى سنة احدى وثمانمائة ، ومات الظاهر ، وقد جعله أحد أوصيائه . فما زال الى أوائل ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة ، فقبض عليه ، واستقر بدله فى كتابة السر سعد الدين ابراهيم بن غراب ، وضرب حتى حمل مالا ، ثم أفرج عنه ، فلزم داره * الى شهر رمضان ، فحمل الى دار الوزير فخر الدين ماجد بن غراب ، وألزم بمال آخر فحمله وأطلق .

فقام الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى أمره ، وما زال بالملك الناصر فرج الى أن أعاده الى كتابة السر فى أوائل ذى الحجة . فاستقر فيها وتمكن من أعدائه ، وأراه الله مصارعهم ، واتسعت أحواله ، وانفرد بسلطانه وأنيط به جل الأمور . فأصبح عظيم المصر ، نافذ الأمر ، قائما بتدبير الدولة ، لا يجد أحد من عظماء الدولة بدا من حسن سفارته ، وأبدى للناس دينا وخيرا وتواضعا وحسن وساطة بين الناس وبين السلطان .

فلما كان من أمر الناصر وهزيمته على اللجون ما كان ، وقع فتح الله مع الخليفة المستعين بالله العباسى ابن محمد المتوكل على الله ، وعدة من كتاب الدولة ، فى قبضة الأمير ابن شيخ ونوروز ، وما زال عندهما حتى قتل الناصر ، وأقيم من بعده أمير المؤمنين المستعين بالله ، وهو على حاله من نفوذ الكلمة وتدبير الأمور .

فلما استبد الأمير شيخ بمملكة الديار المصرية ، واعتقل الخليفة ، وتلقب بالملك المؤيد شيخ فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة ، أقر فتح الله على رتبته . ثم قبض عليه يوم الخميس تاسع شوال ، وعوقب غير مرة ، وأحيط بجميع أمواله وأسبابه وحواشيه ، وبيع عليه بعض ما وجد له ، وحمل ما تحصل منه فبلغ ما ينيف عن أربعين ألف دينار سوى ما أخذ مما لم يبع وهو ما يجاوز ذلك .

(*) ص٦٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

خطط المقريزى

الجزء

٢٧

كتاب التحرير



«كانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى . ومجمع ناسى . ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت مذ شذوت العلم . وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وما زال فى العقوبة الى أن خنق فى ليلة الأحد خامس عشر شهر ربيع سنة ست عشرة وثمانمائة ، وحمل من الغد الى تربته فدفن بها .

وكان رحمه من خير أهل زمانه رياضة وديانة ، وطيب مقال وتأله وتنسك ، ومحبة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحسن قيام مع السلطان فى أمر الناس ، وبه كفى الله عن الناس من شر الناصر فرج شيئا كثيرا . وقد ذكرته بأبسط من هذا فى كتابى « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » وفى كتابى « خلاصة التبر فى أخبار كتابة السر » .

« دار ابن قرقة » : هذه الدار من الدور القديمة ، وهى بخط سويقة المسعودى الى خط بين السورين ، وقد تغيرت معالمها .

قال ابن عبد الظاهر : دار ابن قرقة هى الآن سكن الأمير صارم الدين المسعودى والى القاهرة ، بأول حارة زويلة من جهة باب الخوخة على يسرة السالك الى داخل الحارة ، وهى معروفة اليوم ، والى جانبها الحمام المعروفة بابن قرقة أيضا .

وهذه الدار والحمام أنشأهما أبو سعيد بن قرقة الحكيم ، وباعهما فى حال مصادرته مما خرج عليه ، فابتاعهما منه علم السعداء ، ثم سكنها الكامل بن شاور ، وهما من جهة الخليج . انتهى .

وهذه الدار والحمام قد هدمتا ، وصار موضع الدار الجامع المعروف بجامع ابن المغربى برأس سويقة الصاحب وما يجاوره من دور ابن أبى شاكر ، وآخر ما بقى منها شىء هدمه الوزير الصاحب تاج الدين عبد الرحيم ابن الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله بن تاج الدين موسى بن أبى شاكر فى رمضان سنة أربع وتسعين وسبعمائة .

و «ابن قرقة» هذا كان يتولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح ، وكان ماهرا فى علم الطب والهندسة ونحو ذلك من علوم الأوائل . وقتله الخليفة الحافظ لدين الله من أجل أنه دبر السم لابنه حسن بن الحافظ ، عندما ثار الجند وطلبوا من الخليفة قتل ابنه حسن كما تقدم ذكره ، فلما سكنت الدهماء قبض عليه الخليفة ، واعتقله بخزانة البنود ، وقتله فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

« دار خوند » : هذه الدار من حقوق حارة زويلة . عرفت بالست الجليلة خوند أردوتكين ابنة نوغية السلاح دار الططرى . تزوج بها الملك الأشرف خليل بن قلاوون ومات عنها ، فتزوجها من بعده أخوه الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، وولدت منه ولدين وماتا ، ثم طلقها ونزلت من القلعة ، فسكنت هذه الدار ، وأنشأت لها تربة بالقرافة تعرف الآن بتربة الست ، وجعلت لها عدة أوقاف .

وكانت من الخير على جانب عظيم ، لها معروف وصدقات واحسان عميم ، وماتت ولها ما ينيف على الألف ما بين جارية وخادم أعتقتهم كلهم ، وخلفت أموالا تخرج عن الحد فى الكثرة ، وكانت وفاتها فى ليلة السبت ثالث عشرى المحرم سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، ودفنت بتربتها .

فتقدم أمر السلطان للأمراء والقضاة لشهود جنازتها ، وحمل ما تركته من الأموال

والجواهر . وطلب أخوها جمال الدين خضر ابن نوغية ، وصولح على ارثه منها بمائة وعشرين ألف درهم ، عنها يومئذ سبعة آلاف دينار .

ولم تزل هذه الدار الى أن هدمت . فأخذها الأمير صلاح الدين محمد ، أستادار السلطان ابن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ، فى شهر رجب سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، وأدخلها فى داره التى أنشأها ، فجاءت من أجل دور القاهرة .

« دار الذهب » : هذه الدار خارج القاهرة فيما بين باب الخوخة وباب سعادة . بناها الأفضل أبو القاسم شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى . وكان فيما بين باب القنطرة وباب الخوخة منظرة اللؤلؤة التى تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء ، ويجاورها من حيز باب الخوخة دار الفلك ، وبناها فلك الملك * أحد الأستاذين الحاكمية ، ويلاصقها دار الذهب هذه ، ويجاور دار الذهب دار الشابورة .

ودار الذهب عرفت أخيرا بدار الأمير بهادر الأعسر شاد الدواوين ، ثم الآن عرفت بدار الأمير الوزير المشير الأستادار فخر الدين عبد الغنى ابن الأمير الوزير الأستادار تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج الأرمنى الأصل ، وعنى بها ، وهدم كثيرا من الدور التى كانت تجاهها على بر الخليج الشرقى ، وأنشأ هناك دارا يتطرق اليها من هذه الدار بساباط ، وأنشأ بجوارها جامعه الآتى ذكره وحمامه .

(*) ص٦٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

ثم هدم كثيرا من الدور التى كانت على الخليج ، وما وراءها بتلك الأحكار التى فى الجانب الغربى من الخليج ، وغرس فى أراضى تلك الدور الأشجار ، وجعلها بستانا تجاه داره ، فمات قبل أن تكمل ، وصار أكثر مواضع الدور التى خربها هناك كيمانا .

« دار الحاجب » خارج باب النصر تجاه مصلى الأموات : هذه الدار أنشأها الأمير سيف الدين كهرداش المنصورى ، أحد المماليك الزراقين ، وهو الذى فتح جزيرة أرواد فى المراكب المتوجهة الى بلاد الفرنج ، وتولى عمارة مئذنة المدرسة المنصورية لما تهدمت فى الزلزلة ، وتقدم وكثرت أمواله ، ومات بدمشق فى سنة أربع عشرة وسبعمائة .

فاشترى هذه الدار الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب ، ولم تزل بها ذريته من بعد الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر والأمير ناصر الدين محمد بن عبد الله ، وبها الآن ولدا الأمير ناصر الدين ، وهما الأمير على وعبد الرحمن . وما برح هذا البيت فيه الامرة والسعادة .

«بكتمر الحاجب» الأمير سيف الدين : كان أميراخور ، ثم ولى شد الدواوين بدمشق فى نيابة الأفرم ، ولم يكن لأحد معه كلام فى عزل ولا ولاية ، ثم ولى الحجوبية .

وتوجه الى صفد كاشفا على الأمير ناهض الدين عمر بن أبى الخير ، والى الولاة وشاد الدواوين بها ، ومعه معين الدين بن حشيش ، فحرر الكشف ، ورفعه حتى قال فيه زين الدين عمر بن حلاوات موقع صفد :

ياقاصدا صفدا فعد عن بلدة
من جور بكتمر الأمير خراب

لا شافع تغنى شفاعته ولا
جان له مما جناه متاب

حشر وميزان ونشر صحائف
وجرائد معروضة وحساب

وبها زبانية تحث على الورى
وسلاسل ومقامع وعقاب

ما فاتهم من كل ما وعدوا به
فى الحشر الا راحم وهاب

ولما قدم الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك الى دمشق ولاه الحجوبية ، ودخل فى خدمته الى مصر وهو حاجب ، ثم أخرجه ثانيا نائبا الى غزة فى سنة عشر وسبعمائة فأقام بها قليلا ، وطلبه وولاه الوزارة بالديار المصرية ، عوضا عن الصاحب فخر الدين بن الخليلى ، فى رمضان سنة عشر ، فباشر الوزارة الى أن قبض عليه مستهل ربيع الأول سنة خمس عشرة ، واعتقل مدة سنة ونصف ، وأخذ كثير من ماله .

ثم أفرج عنه وأخرج الى صفد نائبا فى سنة ست عشرة ، وأنعم عليه بمائة ألف درهم : عنها يومئذ خمسة آلاف دينار ، فأقام بها عشرة أشهر ، وطلب الى مصر فصار من الأمراء المشهورة ، فاذا تكلم السلطان فى المشورة لا يرد عليه غيره لما عنده من المعرفة والخبرة ، وتزوج بابنة الأمير جمال الدين آقوش المعروف بنائب الكرك وأولاده الذين ذكرنا منها .

وسرق له مال كثير من خزانته بهذه الدار ادعى أنه مبلغ مائتى ألف درهم ، وكان فى الباطن — على ما قيل — سبعمائة ألف درهم ، فما جسر يتفوه خوفا من السلطان . وكان اذ ذاك والى القاهرة الأمير سيف الدين قدادار ، المنسوب اليه القنطرة على الخليج ، فتقدم أمر السلطان اليه بتتبع من سرق المال .

فدس اليه الأمير بكتمر الساقى والوزير مغلطاى الجمالى والقاضى فخر الدين ناظر الجيش فى السر ، أن يتهاون فى أمر السرقة نكاية لبكتمر ، وأخذوا يحتجون لكل من اتهم ، ويقولون للسلطان : لعن الله ساعة هذه العملة ، كل يوم يموت من الناس تحت المقارع عدة ، والى متى يقتل المتهم الذى لا ذنب له .

فلما طال الأمر شكا بكتمر الى السلطان فى دار العدل ، فأحضر الوالى وسبه السلطان ، فقال : ياخوند ، اللصوص الذين أمسكتهم وعاقبتهم أقروا أن سيف الدين بخشى خازنداره اتفق معهم على أخذ المال وجماعة من ألزامه الذين فى بابه .

فقال السلطان للجمالى الوزير : احضر هؤلاء المذكورين وعاقبهم .

فأخذ بخشى وعصره — وكان عزيزا عند بكتمر ، قد زوجه بابنته ، وهو يثق بعقله ودينه وأمانته — فشق ذلك عليه ، واغتم غما شديدا مات منه فجأة فيما بين الظهر الى العصر من يومه سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

وكان خبيرا بالأمور ، بصيرا بالحوادث ، طويل الروح فى الكلام ، لا يمل من تطويله ولو قعد فى الحكم الواحد بين الأمير

واليهودى ثلاثة أيام ، ولا يلحقه من ذلك سآمة كآبة ، مع معرفة تامة وخبرة بالسياسة ... لم ير مثله فى حق أصحابه لكثرة تذكرهم فى غيبتهم ، والفكر فى مصالحهم * ، وتفقد أحوالهم ، ومن جفاه منهم عتب عليه .

وكان سمحا بجاهه ، بخيلا بماله الى الغاية ، ساقط الهمة فى ذلك ، وله متاجر وأملاك وسعادة لا تكاد تنحصر . ومع ذلك فله قدور يكريها لصلاقى الفول والحمص ، وغير ذلك من العدد والآلات ، وساحك على أجرها مساحكة يستحى من ذكرها ، وأنشأ عدة دور ، واقتنى كثيرا من البساتين .

وولى من بعده ابنه الأمير جمال الدين عبد الله الامرة ، وكان حاجبا ، ولأبيه فى سيرة البخل والحرص الشديد تابعا ومقلدا ، وتولى امرة الحاج غير مرة . وخرج فى سنة ست وثمانين وسبعمائة من القاهرة لولاية كشف الجسور بالغربية ، فورد عليه كتاب السلطان الملك الظاهر برقوق بالانكار وفيه تهديد مهول ، فداخله الخوف ومرض ، فحمل فى محفة الى القاهرة ، فدخلها يوم الأربعاء النصف من جمادى الأولى من تلك السنة ، فمات من يومه ، وأخذ اقطاعه الأمير يودى .

وصار ابنه ناصر الدين أحد الأمراء العشراوات ، سالكا طريق أبيه وجده فى الامساك ، الى أن مات خامس عشرى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانمائة ، ودفن بتربتهم خارج باب النصر .

« دار الجاولى » : هذه الدار من جملة الحجر التى تقدم ذكرها ، وهى تجاه الخان المجاور لوكالة قوصون . أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وجعلها وقفا على المدرسة المعروفة بالجاولية بخط الكبش جوار الجامع الطولونى .

وعرفت فى زماننا بقاعة البغادة ، لسكنى عبد الصمد الجوهرى البغدادى بها هو وأولاده فى سنة سبع وأربعين وسبعمائة الى بعد سنة ست عشرة وثمانمائة . وهى من الدور الجليلة ، الا أنها قد تشعثت لطول الزمن .

« دار أمير أحمد » : هذه الدار بجوار دار الجاولى من غربيها . عرفت بأمير أحمد قريب الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وعرفت فى زماننا بسكن أبو ذقن ناظر المواريث .

وهى من جملة ما اغتصبه جمال الدين يوسف الأستادار من الدور الوقف ، وجعلها لأخيه شمس الدين محمد البيرى قاضى حلب وشيخ الخانقاه البيبرسية ، فغير بابها وشرع فى عمارتها ، فقبض عليه عند القبض على أخيه وهو بها .

« دار اليوسفى » : هذه الدار بجوار باب الجوانية فيما بينها وبين الحوض المعد لشرب الدواب . أنشأها هى والحوض الأمير سيف الدين بهادر اليوسفى السلاح دار الناصرى .

« دار ابن البقرى » : هذه الدار أنشأها الوزير الصاحب سعد الدين سعد الله بن البقرى ، ابن أخت القاضى شمس الدين شاكر ابن غريل البقرى صاحب المدرسة البقرية . أظهر الاسلام ، وباشر فى الخدم الديوانية الى أن ولاه الملك الظاهر برقوق وظيفة نظر

(*) ص٦٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

الديوان المفرد ونظر الخاص ، عوضا عن الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن مكانس ، فى ثالث شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة . فباشر ذلك الى تاسع شهر رمضان سنة خمس وثمانين ، فقبض عليه .

ونزل الأمير يونس الدوادار والأمير قرقماس الخازندار الى داره هذه ، وأحاط بها ، وأخذ جميع ما فيها من المال والثياب والأوانى والحلى والجوارى وغير ذلك ، وحمل الى القلعة ، فبلغ قيمة ما وجد بداره فى هذه النوبة مائتى ألف دينار .

وسلم ابن البقرى لشاد الدواوين بقاعة الصاحب من القلعة ، فضرب بالمقارع نيفا وثلاثين شيبا ، وولى موفق الدين أبو الفرج نظر الخاص .

ثم ان الملك الظاهر لما عاد الى المملكة — بعد ثورة الأمير يلبغا الناصرى والأمير تمربغا منطاش عليه ، وخلعه من الملك وسجنه بالكرك ، ثم قيامه بأهل الكرك ودخوله الى القاهرة ، وعوده الى المملكة — ولى ابن البقرى الوزارة فى يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، عوضا عن موفق الدين أبى الفرج ، ثم صرف فى يوم الخميس لعشرين من شهر رمضان ، وأعيد الوزير أبو الفرج ، وأحيط بدور ابن البقرى ، وأسلم هو وابنه تاج الدين عبد الله الى الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا آص .

فلما استقر الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدى فى الوزارة يوم الثلاثاء سابع عشرى ذى الحجة منها ، عوضا عن الوزير أبى الفرج ، اشترط على السلطان أمورا منها استخدام الوزراء المعزولين . فجلس بشباك قاعة الصاحب من القلعة ، وبعث الى من بالقاهرة من الوزراء المعزولين ، وهم شمس الدين عبد الله المقسى ، وعلم الدين عبد الوهاب بن الطنساوى المعروف بسن ابرة ، وسعد الدين سعد الله بن البقرى ، وموفق الدين أبو الفرج ، وفخر الدين عبد الرحمن ابن عبد الرزاق بن ابراهيم بن مكانس .

فأقر المقسى وسن ابرة معا فى نظر الدولة ، وأقر ابن البقرى ناظر البيوت ومستوفى الدولة ، وقرر أبا الفرج فى استيفاء الصحبة ، وابن مكانس فى استيفاء الدولة شريكا لابن البقرى .

فكانوا يركبون فى خدمته دائما ، ويجلسون بين يديه ، وربما وقف ابن البقرى على قدميه بحضرته ، بعد أن كان ابن الحسام دواداره ، ولا يزال قائما بين يديه . فعد الناس هذا من أعظم المحن التى لم يشاهد فى الدولة التركية مثلها ، وهو أن يصير الرجل خادما لمن كان فى خدمته ، فنعوذ بالله من المحن .

ثم ان الوزير ابن الحسام قبض على ابن البقرى ، وألزمه بحمل سبعين ألف درهم . ثم أعيد الى الوزارة بعد القبض على الصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن عبد الله بن موسى ابن أبى بكر بن أبى شاكر فى ذى القعدة سنة خمس وتسعين ، وقبض عليه وعلى ولده فى حادى عشرى شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ، وسلما مع عدة من الكتاب لشاد الدواوين ، ثم أفرج عنهما على حمل مال .

(*) ص٦٥ جـ٢ ، ط.بولاق .

فلما ولى الأمير ناصر الدين محمد بن رجب ابن كلفت الوزارة ، بعد الوزير أبى الفرج ، قرر ابن البقرى فى نظر الدولة عوضا عن بدر الدين الأقفهسى ، واستخدم بقية الوزراء كما فعل الوزير ابن الحسام . فلما خلع السلطان على الأمير ناصر الدين محمد بن تنكز ، وجعله أستادار الأملاك فى رجب سنة سبع وتسعين ، قرر ابن البقرى ناظر الأملاك وخلع عليه ، فصار يتحدث فى نظر الدولة ونظر الأملاك .

فلما كان يوم الخميس رابع رجب سنة ثمان وتسعين ، أعيد الى الوزارة ، وصرف عنها الأمير مبارك شاه ناظر الظاهرى ، واستقر بدر الدين محمد بن محمد الطوخى فى نظر الدولة . ثم قبض عليه فى يوم الخميس رابع ربيع الأول سنة تسع وتسعين ، وأحيط بسائر ما قدر عليه من موجوده ، وولى الوزارة بعده ابن الطوخى ، وعوقب عقابا شديدا فى دار الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى .

ثم أخرج نهارا — وهو عار مكشوف الرأس ، وبيده حبل يجر به ، وثيابه مضمومة بيده الأخرى ، والناس تراه — من درب قراصيا برحبة باب العيد فى السوق الى دار ابن الطبلاوى ، وقد انتهك بدنه من شدة الضرب ، فسجن بدار هناك ، ثم خنق فى ليلة الاثنين رابع جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وسبعمائة .

وكان أحد كتاب الدنيا الذين انتهت اليهم السيادة فى كتابة الرسوم الديوانية ، مع عفة الفرج ، وجودة الرأى ، وحسن التدبير ... الا أنه لم يؤت سعدا فى وزارته ، وما برح ينكب كل قليل ، وكان يظهر الاسلام ، ويكتب بخطه كتب الحديث وغيرها ، ويتهم فى باطن الأمر بالتشدد فى النصرانية .

وولى ابنه تاج الدين عبد الله الوزارة ، ونظر الخاص ، ومات قتيلا تحت العقوبة عند الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى سنة ثمان وثمانمائة .

ودار ابن البقرى هذه من أعظم دور القاهرة ، وهى من جملة خط حارة الجوانية فى أولها .

« دار طولباى » : هذه الدار بجوار حمام الأعسر ، برأس حارة الجوانية ، تجاه درب الرشيدى . أنشأها الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير ، ثم عرفت بخوند طولباى الناصرية جهة الملك الناصر .

« طلنباى » — ويقال دلبية ، ويقال طلوبية — ابنة طغاجى بن هندر بن بكر بن دوشى خان ابن جنكز خان ، ذات الستر الرفيع الحانوتى .

كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد جهز الأمير أيدغدى الخوارزمى فى سنة ست عشرة وسبعمائة ، يخطب الى أزبك ملك التتار بنتا من الذرية الجنكزية .

فجمع أزبك أمراء التومانات — وهم سبعون أميرا — وكلمهم الرسول فى ذلك ، فنفروا منه . ثم اجتمعوا ثانيا ، بعد ما وصلت اليهم هداياهم ، وأجابوا ثم قالوا : الا أن هذا لا يكون الا بعد أربع سنين : سنة سلام ، وسنة خطبة ، وسنة مهاداة ، وسنة زواج ، واشتطوا فى طلب المهر . فرجع السلطان عن الخطبة .

ثم توجه سيف الدين طوخى بهدية وخلعة لأزبك ، فلبسها وقال لطوخى : قد جهزت لأخى الملك الناصر ما كان طلب ، وعينت له بنتا من بيت جنكز خان من نسل الملك باطو خان .

فقال طوخى : لم يرسلنى السلطان فى هذا .

فقال أزبك : أنا أرسلها اليه من جهتى .

وأمر طوخى بحمل مهرها ، فاعتذر بعدم المال ، فقال : نحن نقترض من التجار . فاقترض عشرين ألف دينار وحملها .

ثم قال : لا بد من عمل فرح تجتمع فيه الخواتين . فاقترض مالا آخر نحو سبعة آلاف دينار ، وعمل الفرح .

وجهزت الخاتون « طلنباى » ومعها جماعة من الرسل ، وهم : بابنجار من كبار المغل ، وطقبغا ، ومنعوش ، وطرحى ، وعثمان ، وبكتمر ، وقرطبا ، والشيخ برهان الدين امام الملك أزبك ، وقاضى حراى .

فساروا فى زمن الخريف ، وأقلعوا فلم يجدوا ريحا تسير بهم ، فأقاموا فى بر الروم على مينا ابن مشتا خمسة أشهر ، وقام بخدمتهم هو والأشكرى ملك قسطنطينية ، وأنفق عليهم الأشكرى ستين ألف دينار ، فوصلوا الى الاسكندرية فى شهر ربيع الأول سنة عشرين وسبعمائة .

فلما طلعت الخاتون من المراكب ، حملت فى خركاة من الذهب على العجل ، وجرها المماليك الى دار السلطنة بالاسكندرية .

وبعث السلطان الى خدمتها عدة من الحجاب وثمانى عشرة من الحرم ونزلت فى الحراقة ، فوصلت الى القلعة يوم الاثنين خامس عشرى ربيع الأول المذكور ، وفرش لها بالمناظر فى الميدان دهليز أطلس معدنى ، ومد لهم سماط .

وفى يوم الخميس ثانى عشريه ، أحضر السلطان رسل أزبك ، ووصل رسل ملك الكرج ورسل الأشكرى بتقادمهم . ثم بعث الى الميدان الأمير سيف الدين أرغون النائب والأمير بكتمر الساقى والقاضى كريم الدين ناظر الخاص ، فمشوا فى خدمة الخاتون الى القلعة وهى فى عز .

ثم عقد عليها يوم الاثنين سادس ربيع الآخر على ثلاثين ألف دينار ، حالة المعجل منها عشرون ألفا ، وعقد العقد قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، وقبل عن السلطان * النائب أرغون وبنى عليها .

وأعاد الرسل بعد أن شملهم من الانعام ما أربى على أملهم ، ومعهم هدية جليلة ، فساروا فى شعبان ، وتأخر قاضى حراى حتى حج ، وعاد فى سنة احدى وعشرين .

وماتت فى رابع عشرى ربيع الآخر سنة خمس وستين وسبعمائة ، ودفنت بتربتها خارج باب البرقية بجوار تربة خوند طغاى أم أنوك .

« دار حارس الطير » : هذه الدار بداخل درب قراصيا بخط رحبة باب العيد . عرفت بالأمير سيف الدين سنبغا حارس الطير . ترقى فى الخدم الى أن صار نائب السلطنة بديار

(*) ص٦٦ ج٢ ، ط بولاق .

مصر فى أيام السلطان حسن بن محمد بن قلاوون بعد يلبغا روس .

ثم عزل بالأمير قبلاى ، وجهز الى نيابة غزة فأقام بها شهرا ، وقبض عليه وحضر مقيدا الى الاسكندرية فى شعبان سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ، فسجن بها مدة . ثم أخرج الى القدس ، فأقام بطالا مدة ، ثم نقل الى نيابة غزة فى شعبان سنة ست وخمسين وسبعمائة .

« الدار القردمية » : هذه الدار خارج باب زويلة بخط الموازين من الشارع المسلوك فيه الى رأس المنجبية . بناها الأمير ألجاى الناصرى مملوك السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون .

وكان من أمره أنه ترقى فى الخدم السلطانية حتى صار دوادار السلطان بغير امرة ، رفيقا للأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار . فلما مات بهاء الدين ، استقر مكانه بامرة عشرة مدة ثلاث سنين ، ثم أعطى امرة طبلخاناه .

وكان فقيها حنفيا ، يكتب الخط المليح ، ونسخ بخطه القرآن الكريم فى ربعة ، وكان عفيفا عن الفواحش ، حليما لا يكاد يغضب ، مكبا على الاشتغال بالعلم ، محبا لاقتناء الكتب ، مواظبا على مجالسة أهل العلم .

وبالغ فى اتقان عمارة هذه الدار بحيث انه أنفق على بوابتها خاصة مائة ألف درهم فضة ، عنها يومئذ نحو الخمسة آلاف مثقال من الذهب . فلما تم بناؤها لم يتمتع بها غير قليل ، ومرض فمات فى أوائل شهر رجب — وقيل فى رمضان — سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وهو كهل ، فدفن بقرافة مصر .

فسكنها من بعده خوند عائشة خاتون — المعروفة بالقردمية — ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون زمانا فعرفت بها . وكانت هذه المرأة ممن يضرب بغناها وسعادتها المثل ، الا أنها عمرت طويلا ، وتصرفت فى مالها تصرفا غير مرضى ، فتلف فى اللهو حتى صارت تعد من جملة المساكين . وماتت فى الخامس من جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، ومخدتها من ليف .

ثم سكن هذه الدار الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار مدة ، وأنشأ تجاهها مدرسة .

« دار الصالح » : هذه الدار بحارة الديلم قريبا من السجن ، وكانت دار الصالح طلائع ابن رزيك يسكنها وهو أمير قبل أن يلى الوزارة ، بناها فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة . وما زالت باقية الى أن خربها الأمير الوزير ركن الدين عمر بن محمد بن قايماز فى سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وبناها على ما هى عليه الآن .

« دار بهادر » : هذه الدار بالقاهرة جوار المشهد الحسينى ، فى درب جرجى المقابل للأبارين المسلوك منه الى دار الضرب وغيره . أنشأها الأمير بهادر رأس نوبة ، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون ، واتفق أنه كان ممن مالأ الأمير بدر الدين بيدرا على قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون . فلما قدر الله بانتقاض أمر بيدرا ، وقتله ، واقامة الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أخيه الأشرف خليل ، قبض على جماعة ممن وافق على قتل الملك الأشرف خليل .

وقد تجمعت المماليك الأشرفية مع الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، وهو يومئذ وزيرا لديار مصر ، فى دار النيابة من قلعة الجبل عند الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة ، واذا بالأمير بهادر المذكور قد حضر هو والأمير جمال الدين أقوش الموصلى الحاجب المعروف بنميلة — وكانا قد اختفيا فرقا من سطوة الأشرفية حتى دبر أمرهما النائب ، وأذن لهما فى طلوع القلعة — فما هو الا أن أبصرهما الأشرفية حتى سلوا سيوفهم ، وضربوا رقبتيهما فى أسرع وقت . فدهش الحاضرون ، وما استطاعوا أن يتكلموا خوفا من الأشرفية .

واتفق فى بناء هذه الدار ما فيه عبرة لمن اعتبر . وذلك أن بهادر هذا لما حفر أساسها وجد هناك قبورا كثيرة ، فأخرج تلك العظام ورماها . فبلغ ذلك قاضى القضاة تقى الدين ابن دقيق العيد ، فبعث اليه ينهاه عن نبش القبور ورمى العظام ، ويخوفه عاقبة ذلك .

فقال : اذا مت يجروا رجلى ويرمونى .

فقال القاضى لما أعيد عليه هذا الجواب : وقد يكون ذلك .

فقدر الله أنه لما ضربت رقبته ورقبة أقوش ، ربط فى رجليهما حبل ، وجرا من دار النيابة بالقلعة الى المجاير والكيمان . نعوذ بالله من سوء عاقبة القضاء .

ثم عرفت هذه الدار ببيت الأمير جركتمر ابن بهادر المذكور . وكان خصيصا بالأمير قوصون ، فبعثه لقتل السلطان الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لما نفاه الى مدينة قوص بعد خلعه ، فتولى قتله . فلما قبض على قوصون ، قبض على جركتمر فى ثانى شعبان سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وقتل بالاسكندرية هو وقوصون فى ليلة الثلاثاء ثامن عشر شوال ... تولى قتلهما الأمير ابن طشتمر طلبة وأحمد بن صبيح .

وكان جركتمر هذا فيه أدب * وحشمة . وأول أمره كان من أصحاب الأمير بيبرس الجاشنكيرى ، فقدمه وأعطاه امرة عشرة ، ثم اتصل بالأمير أرغون النائب ، فأعطاه امرة طبلخاناه ، وكان يلعب بالأكرة ، ويجيد فى لعبها الى الغاية .

ثم عرفت هذه الدار بالأمير سيف الدين بهادر المنجكى أستادار الملك الظاهر برقوق ، لسكنه بها وتجديد عمارتها ، وأنشأ بجوارها حماما ، وكانت وفاته يوم الاثنين الثانى من جمادى الآخرة سنة تسعين وسبعمائة . وهذه الدار باقيه الى اليوم تسكنها الأمراء .

« دار البقر » : هذه الدار خارج القاهرة فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل ، بالخط الذى يقال له اليوم حدرة البقر ، كانت دارا للأبقار التى برسم السواقى السلطانية ، ومنشرا للزبل وفيه ساقية . ثم ان الملك الناصر محمد بن قلاوون أنشأها دارا واصطبلا ، وغرس بها عدة أشجار .

(*) ص٦٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وتولى عمارتها القاضي كريم الدين عبد الكريم الكبير ، فبلغ المصروف على عمارتها ألف ألف درهم . وعرفت بالأمير طقتمر الدمشقي ، ثم عرفت بدار الأمير طاش تمر حمص أخضر . وهذه الدار باقية الى وقتنا هذا ينزلها أمراء الدولة .

« قصر بكتمر الساقي » : هذا القصر من أعظم مساكن مصر ، وأجلها قدرا وأحسنها بنيانا ، وموضعه تجاه الكبش على بركة الفيل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون لسكن أجل أمراء دولته الأمير بكتمر الساقي ، وأدخل فيه أرض الميدان التي أنشأها الملك العادل كتبغا .

وقصد أن يأخذ قطعة من بركة الفيل ليتسع بها الاصطبل الذي للأمير بكتمر بجوار هذا القصر ، فبعث الى قاضي القضاة شمس الدين الحريري الحنفي ليحكم باستبدالها على قاعدة مذهبه . فامتنع من ذلك تنزها وتورعا ، واجتمع بالسلطان وحدثه في ذلك . فلما رأى كثرة ميل السلطان الى أخذ الأرض ، نهض من المجلس مغضبا ، وصار الى منزله .

فأرسل القاضي كريم الدين الكبير ، ناظر الخواص ، الى سراج الدين الحنفي عن أمر السلطان ، وقلده قضاء مصر منفردا عن القاهرة ، فحكم باستبدال الأرض في غرة رجب سنة سبع عشرة وسبعمائة ، فلم يلبث سوى مدة شهرين ، ومات في أول شهر رمضان . فاستدعى السلطان قاضي القضاة شمس الدين الحريري ، وأعاده الى ولايته .

وكمل القصر والاصطبل على هيئة قل ما رأت الأعين مثلها . بلغت النفقة على العمارة في كل يوم مبلغ ألف وخمسمائة درهم فضة ، مع جاه العمل ... لأن العجل التي تحمل الحجارة من عند السلطان ، والحجارة أيضا من عند السلطان ، والفعلة في العمارة أهل السجون المقيدون من المحابيس .

وقدر لو لم يكن في هذه العمارة جاه ولا سخرة ، لكان مصروفها في كل يوم مبلغ ثلاثة آلاف درهم فضة . وأقاموا في عمارته مدة عشرة أشهر ، فتجاوزت النفقة على عمارته مبلغ ألف ألف درهم فضة ، عنها زيادة على خمسين ألف دينار ، سوى ما حمل وسوى من سخر في العمل وهو بنحو ذلك .

فلما تمت عمارته سكنه الأمير بكتمر الساقي ، وكان له في اصطبله هذا مائة سطل نحاس لمائة سائس ، كل سائس على ستة أروس خيل ، سوى ما كان له في الحشارات والنواحي من الخيل ، وكان من المقرب يغلق باب اصطبله ، فلا يصير لأحد به حس .

ولما تزوج أنوك بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بابنة الأمير بكتمر الساقي ، في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، خرج شوارها من هذا القصر .

وكان عدة الحمالين ثمانمائة حمال : المائدة الزركش على أربعين حمالا عدتها عشرة موائد ، والمدورات ستة عشر حمالا ، والكراسي اثنا عشر حمالا ، وكراسي لطاف أربعة حمالين ، وقضيات تسعة وعشرون حمالا ، وسلم الدكك أربعة حمالين ، والدكك والتخوت الأبنوس المفضضة والموشقة مائة واثنين وستين حمالا ، والنحاس الكفت ثمانية وأربعين حمالا ، والصيني ثلاثة وثلاثين حمالا ، والزجاج المذهب اثنى عشر حمالا ، والنحاس الشامي اثنين وعشرين حمالا ، والبعلبكي المدهون اثنى عشر حمالا ، والخونجات والمحاق والزبادي والنحاس تسعة وعشرين حمالا ، وصناديق الحوائج خاناه ستة حمالين ، وغير ذلك تتمة العدة ، والبغال المحملة القرش واللحف والبسط والصناديق التي فيها المصاغ تسعة وتسعين بغلا .

قال العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي : قال لي المهذب الكاتب : الزركش والمصاغ ثمانون قنطارا بالمصري ذهب .

ولما مات بكتمر هذا صار هذا الوقف من بعده من جملة أوقافه ، فتولى أمره وأمر سائر أوقافه أولاده حتى انقرض أولاده وأولاد أولاده ، فصار أمر الأوقاف الى ابن ابنته ، وهو أحمد بن محمد بن قرطاي المعروف بأحمد ابن بنت بكتمر .

وهذا القصر في غاية من الحسن ، ولاينزله الا أعيان الأمراء ... الى أن كانت سنة سبع عشرة وثمانمائة ، وكان العسكر غائبا عن مصر مع الملك المؤيد شيخ في محاربة الأمير نوروز الحافظي بدمشق ، عمد هذا المذكور الى القصر ، فأخذ رخامه وشبابيكه وكثيرا من سقوفه وأبوابه وغير ذلك ، وباع الجميع ، وعمل بدل ذلك الرخام البلاط ، وبدل الشبابيك الحديد بالخشب . وفطن به أعيان الناس فقصدوه ، وأخذوا منه أصنافا عظيمة بثمن وبغير ثمن ، وهو الآن * قائم البناء يسكنه الأمراء .

(*) ص٦٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

« الدار البيسرية » : هذه الدار بخط بين القصرين من القاهرة . كانت في آخر الدولة الفاطمية ، لما قويت شوكة الفرنج ، قد أعدت لمن يجلس فيها من قصاد الفرنج عندما تقرر الأمر معهم على أن يكون نصف ما يحصل من مال البلد للفرنج ، فصار يجلس في هذه الدار قاصد معتبر عند الفرنج يقبض المال .

فلما زالت الدولة بالغز ، ثم زالت دولة بني أيوب ، وولي سلطنة مصر الملوك من الترك ... الى أن كانت أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ، شرع الأمير ركن الدين بيبرى الشمسي الصالحي النجمي في عمارتها في سنة تسع وخمسين وستمائة ، وتأنق في عمارتها ، وبالغ في كثرة المصروف عليها .

فأنكر الملك الظاهر ذلك من فعله ، وقال له : يا أمير بدر الدين أي شيء خليت للغزاة والترك ؟

فقال : صدقات السلطان ، والله ياخوند ما بيت هذه الدار الا حتى يصل خبرها الى بلاد العدو ، ويقال بعض مماليك السلطان عمر دارا غرم عليها مالا عظيما .

فأعجب من قوله ذلك السلطان ، وأنعم عليه بألف دينار عينا . وعد هذا من أعظم انعام السلطان .

فجاء سعة هذه الدار باصطبلها وبستانها والحمام بجانبها نحو فدانين ، ورخامها من أبهج رخام عمل في القاهرة وأحسنه صنعة ، فكثر تعجب الناس اذ ذاك من عظمها لما كان فيه أمراء الدولة ورجالها حينئذ من الاقتصاد ،

حتى ان الواحد منهم اذا صار أميرا لا يتغير عن داره التى كان يسكنها وهو من الأجناد .

وعندما كملت عمارة هذه الدار وقفها ، وأشهد عليه بوقفها اثنين وتسعين عدلا : من جملتهم قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد ، وقاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز ، وقاضى القضاة تقى الدين بن رزين ، قبل ولايتهم القضاة فى حال تحملهم الشهادة .

وما زالت بيد ورثة يسرى الى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . فشرهت نفس الأمير قوصون الى أخذها ، وسأل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ذلك ، فأذن له فى التحدث مع ورثة يسرى ، فأرسل اليهم ووعدهم ومناهم وأرضاهم حتى أذعنوا له .

فبعث السلطان الى قاضى القضاة شرف الدين الحرانى الحنبلى ، يلتمس منه الحكم باستبدالها ، كما حكم باستبدال بيت قتال السبع وحمامه الذى أنشأ جامعه بخط خارج الباب الجديد من الشارع ، فأجاب الى ذلك .

ونزل اليها علاء الدين بن هلال الدولة شاد الدواوين ومعه شهود القيمة . فقومت بمائة ألف درهم وتسعين ألف درهم نقرة ، وتكون الغبطة للأيتام عشرة آلاف درهم نقرة لتتم الجملة مائتى ألف درهم نقرة . وحكم قاضى القضاة شرف الدين الحرانى ببيعها ، وكان هذا الحكم مما شنع عليه فيه .

ثم اختلفت الأيدى فى الاستيلاء على هذه الدار ، واقتدى القضاة بعضهم ببعض فى الحكم باستبدالها . وآخر ما حكم به من استبدالها فى أعوام بضع وثمانين وسبعمائة ، فصارت من جملة الأوقاف الظاهرية برقوق ، وهى الآن بيد ابنة بيرم .

وكان لها باب بوابته من أعظم ما عمل من البوابات بالقاهرة ، ويتوصل الى هذه الدار من هذا الباب ، وهو بجوار حمام يسرى من شارع بين القصرين ، وقد بنى تجاه هذا الباب حوانيت حتى خفى ، وصار يدخل الى هذه الدار من باب آخر بخط الخرشتف .

« يسرى » : الأمير شمس الدين الشمسى الصالحى النجمى ، أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية ، تنقل فى الخدم حتى صار من أجل الأمراء فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، واشتهر بالشجاعة والكرم وعلو الهمة .

وكانت له عدة مماليك رتب كل واحد منهم مائة رطل لحم ، وفيهم من له عليه فى اليوم مبلغ ستين عليقة لخيله ، وبلغ عليق خيله وخيل مماليكه فى كل يوم ثلاثة آلاف عليقة سوى علف الجمال ، وكان ينعم بالألف دينار وبالخمسمائة غير مرة .

ولما فرق الملك العادل كتبغا المماليك على الأمراء ، بعث اليه بستين مملوكا ، فأخرج اليهم فى يومهم لكل واحد فرسين وبغلا .

وشكا اليه أستاداره كثرة خرجه ، وحسن له الاقتصاد فى النفقة ، فحنق عليه وعزله وأقام غيره ، وقال : لا يرنى وجهه أبدا . ولم يعرف عنه أنه شرب الماء فى كوز واحد مرتين ، وانما يشرب كل مرة فى كوز جديد ، ثم لا يعاود الشرب منه .

وتنكر عليه الملك المنصور قلاوون فسجنه فى سنة ثمانين وستمائة ، وما زال فى سجنه الى أن مات الملك المنصور ، وقام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل ، فأفرج عنه فى سنة اثنتين وتسعين وستمائة ، بعد عوده من دمشق بشفاعة الأمير بيدرا والأمير سنجر الشجاعى ، أمر أن يحصل اليه تشريف كامل ، ويكتب له منشور بامرة مائة فارس ، وأنه يلبس التشريف من السجن .

فجهز التشريف ، وحمل اليه المنشور فى كيس حرير أطلس ، وعظم فيه تعظيما زائدا وأثنى عليه ثناء جما ، وسار اليه بيدرا والشجاعى والدوادار والأفرم الى السجن ليمشوا فى خدمته الى أن يقف بين يدى السلطان . فامتنع من لبس التشريف ، والتزم بأيمان مغلظة أنه لا يدخل على السلطان الا بقيده ولباسه الذى كان عليه فى السجن .

وتسامعت الأمراء وأهل القلعة بخروجه ، فهرعوا اليه . وكان لخروجه نهار عظيم ، ودخل على السلطان * بقيده ، فأمر به ففك بين يديه ، وأفيض عليه التشريف ، فقبل الأرض ، وأكرمه السلطان وأمره . فنزل الى داره ، وخرج الناس الى رؤيته ، وسروا بخلاصه .

فبعث اليه السلطان عشرين فرسا وعشرين أكديشا وعشرين بغلا ، وأمر جميع الأمراء أن يبعثوا اليه ، فلم يبق أحد حتى سير اليه ما يقدر عليه من التحف والسلاح ، وبعث اليه أمير سلاح ألفى دينار عينا . وكانت مدة سجنه احدى عشرة سنة وأشهرا ، فصار يكتب بعد خروجه من السجن يسرى الأشرفى بعدما كان يكتب يسرى الشمسى .

وما زال الى أن تسلطن الملك المنصور لاجين فأخذ الأمير منكوتمر يغريه بالأمير يسرى ويخوفه منه ، وأنه قد تعين للسلطنة . فعمله كاشف الجيزة ، وأمره أن يحضر الخدمة يومى الاثنين والخميس بالقلعة ، ويجلس رأس الميمنة تحت الطواشى حسام الدين بلال المغيثى لأجل كبره وتقدمه .

ثم زاد منكوتمر فى الاغراء به والسلطنة تستمهله ، الى أن قبض عليه وسجنه فى سنة سبع وتسعين وستمائة ، وأحاط بسائر موجوده ، وحبس عدة من مماليكه . فسر منكوتمر بمسكه سرورا عظيما .

واستمر فى السجن الى أن مات فى تاسع عشر شوال سنة ثمان وتسعين وستمائة وعليه ديون كثيرة ، ودفن بتربته خارج باب النصر رحمه الله تعالى .

« قصر بشتاك » : هذا القصر هو الآن تجاه الدار البيسرية . وهو من جملة القصر الكبير الشرقى الذى كان مسكنا للخلفاء الفاطميين ، ويسلك اليه من الباب الذى كان يعرف فى أيام عمارة القصر الكبير فى زمن الخلفاء بباب البحر ، وهو يعرف اليوم بباب قصر بشتاك تجاه المدرسة الكاملية .

وما زال الى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى — المعروف بأمير سلاح — وأنشأ دورا واصطبلات ومساكن له ولحواشيه

(*) ص٦٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وصار ينزل اليه هو والأمير بدر الدين يسرى عند انصرافهما من الخدمة السلطانية بقلعة الجبل فى موكب عظيم زائد الحشمة ، ويدخل كل منهما الى داره . وكان موضع هذا القصر عدة مساجد ، فلم يتعرض لهدمها ، وأبقاها على ما هى عليه .

فلما مات أمير سلاح ، وأخذ الأميرقوصون الدار البيسرية كما تقدم ذكره ... أحب الأمير بشتاك أن يكون له أيضا دار بالقاهرة . وذلك أن قوصون وبشتاك كانا يتناظران فى الأمور ، ويتضادان فى سائر الأحوال ، ويقصد كل منهما أن يسامى الآخر ويزيد عليه فى التجمل .

فأخذ بشتاك يعمل فى الاستيلاء على قصر أمير سلاح حتى اشتراه من ورثته ، فأخذ من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قطعة أرض كانت داخل هذا القصر من حقوق بيت المال ، وهدم دارا كانت قد أنشئت هناك عرفت بدار قطوان الساقى ، وهدم أحد عشر مسجدا وأربعة معابد كانت من آثار الخلفاء يسكنها جماعة الفقراء ، وأدخل ذلك فى البناء الا مسجدا منها فانه عمره ، ويعرف اليوم بمسجد الفجل .

فجاء هذا القصر من أعظم مبانى القاهرة ، فان ارتفاعه فى الهواء أربعون ذراعا ، ونزول أساسه فى الأرض مثل ذلك ، والماء يجرى بأعلاه ، وله شبابيك من حديد تشرف على شارع القاهرة ، وينظر من أعلاه عامة القاهرة والقلعة والنيل والبساتين . وهو مشرق جليل مع حسن بنائه ، وتأنق زخرفته ، والمبالغة فى تزويقه وترخيمه .

وأنشأ أيضا فى أسفله حوانيت كان يباع فيها الحلوى وغيرها ، فصار الأمر أخيرا كما كان أولا بتسمية الشارع بين القصرين . فانه كان أولا — كما تقدم — بالقاهرة القصر الكبير الشرقى الذى قصر بشتاك من جملته ، وتجاهه القصر الغربى الذى الخرنشف من جملته ، فصار قصر بشتاك وقصر يسرى وما بينهما من الشارع يقال له بين القصرين .

ومن لا علم له يظن أنما قيل لهذا الشارع بين القصرين لأجل قصر يسرى وقصر بشتاك ، وليس هذا بصحيح ، وانما قيل له بين القصرين قبل ذلك من حين بنيت القاهرة ، فانه كان بين القصرين : القصر الكبير الشرقى ، والقصر الصغير الغربى . وقد تقدم ذلك مشروحا مبينا .

ولما أكمل بشتاك بناء هذا القصر والحوانيت التى فى أسفله ، والخان المجاور له فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، لم يبارك له فيه ولا تمتع به ، وكان اذا نزل اليه ينقبض صدره ، ولا تنبسط نفسه ما دام فيه حتى يخرج منه فترك المجىء اليه ، فصار يتعاهده أحيانا فيعتريه ما تقدم ذكره ، فكرهه وباعه لزوجة بكتمر الساقى .

وتداوله ورثتها الى أن أخذه السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فاستقر بيد أولاده الى أن تحكم الأمير الوزير المشير جمال الدين الأستادار فى مصر ، أقام من شهد عند قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفى بأن هذا القصر يضر بالجار والمار ، وأنه مستحق للازالة والهدم كما عمل ذلك فى غير موضع بالقاهرة .

فحكم له باستبداله ، وصار من جملة أملاكه . فلما قتله الملك الناصر فرج بن برقوق ، استولى على سائر ما تركه ، وجعل هذا القصر فيما عينه للتربة التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر .

فاستمر فى جملة أوقاف التربة المذكورة الى أن قتل الملك الناصر بدمشق فى حرب الأمير * شيخ والأمير نوروز ، وقدم الأمير شيخ الى مصر هو والخليفة المستعين بالله العباسى ابن محمد ، وقف له من بقى من أولاد جمال الدين وأقاربه — وكان لأهل الدولة يومئذ بهم عناية — فحكم قاضى القضاة صدر الدين على بن الآدمى الحنفى بارتجاع أملاك جمال الدين التى وقفها على ما كانت عليه ، فتسلمها أخوه ، وصار هذا القصر اليهم ، وهو الآن بيدهم .

« قصر الحجازية » : هذا القصر بخط رحبة باب العيد بجوار المدرسة الحجازية . كان يعرف أولا بقصر الزمرد ، فى أيام الخلفاء الفاطميين ، من أجل أن باب القصر الذى كان يعرف بباب الزمرد كان هناك ... كما تقدم ذكره فى هذا الكتاب عند ذكر القصور .

فلما زالت الدولة الفاطمية ، صار من جملة ما صار بيد ملوك بنى أيوب ، واختلفت عليه الأيدى الى أن اشتراه الأمير بدر الدين أمير مسعود بن خطير الحاجب من أولاد الملوك بنى أيوب ، واستمر بيده الى أن رسم بتسفيره من مصر الى مدينة غزة ، واستقر نائب السلطنة بها فى سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، وكاتب الأمير سيف الدين قوصون عليه وملكه اياه . فشرع فى عمارة سبع قاعات ، لكل قاعة اصطبل ومنافع ومرافق ، وكانت مساحة ذلك عشرة أفدنة ، فمات قوصون قبل أن يتم بناء ما أراد من ذلك .

فصار يعرف بقصر قوصون الى أن اشترته خوند تتر الحجازية ، ابنة الملك الناصر محمد ابن قلاوون وزوج الأمير ملكتمر الحجازى ، فعمرته عمارة ملوكية ، وتأنقت فيه تأنقا زائدا ، وأجرت الماء الى أعلاه ، وعملت تحت القصر اصطبلا كبيرا لخيول خدامها ، وساحة كبيرة يشرف عليها من شبابيك حديد ، فجاء شيئا عجيبا حسنه . وأنشأت بجواره مدرستها التى تعرف الى اليوم بالمدرسة الحجازية ، وجعلت هذا القصر من جملة ما هو موقوف عليها .

فلما ماتت سكنه الأمراء بالأجرة الى أن عمر الأمير جمال الدين يوسف الأستادار داره المجاورة للمدرسة السابقية ، وتولى أستادارية الملك الناصر فرج ، صار يجلس برحبة هذا القصر والمقعد الذى كان بها ، وعمل القصر سجنا يحبس فيه من يعاقبه من الوزراء والأعيان . فصار موحشا يروع النفوس ذكره ، لما قتل فيه من الناس خنقا وتحت العقوبة ، من بعد ما أقام دهرا وهو مغنى صبابات ، وملعب أتراب ، وموطن أفراح ودارعز ، ومنزل لهو ، ومحل أمانى النفوس ولذاتها .

ثم لما فحش كلب جمال الدين ، وشنع شرهه فى اغتصاب الأوقاف ، أخذ هذا القصر

(*) ص٧٠ ج٢ ، ط . بولاق

يتشعث شيء من زخارفه ، وحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفى باستبداله — كما تقدم الحكم فى نظائره — فقلع رخامه ، فلما قلع صار معطلا مدة ، وهم الملك الناصر فرج ببنائه رباطا ، ثم انثنى عزمه عن ذلك .

فلما عزم على السير الى محاربة الأمير شيخ والأمير نوروز فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، نزل اليه الوزير الصاحب سعد الدين ابراهيم بن البشيرى ، وقلع شبابيكه الحديد لتعمل آلات حرب .

وهو الآن بغير رخام ولا شبابيك ، قائم على أصوله لا يكاد ينتفع به . الا أن الأمير المشير بدر الدين حسن بن محمد الأستادار ، لما سكن فى بيت الأمير جمال الدين ، جعل ساحة هذا القصر اصطبلا لخيوله ، وصار يحبس فى هذا القصر من يصادره أحيانا .

وفى رمضان سنة عشرين وثمانمائة ذكر الأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج الأستادار ، ما يجده المسجونون فى السجن المستجد عند باب الفتوح بعد هدم خزانة شمائل ، من شدة الضيق وكثرة الغم ، فعين هذا القصر ليكون سجنا لأرباب الجرائم ، وأنعم على جهة وقف جمال الدين بعشرة آلاف درهم فلوسا عن أجرة سنتين ، فشرعوا فى عمله سجنا ، وأزالوا كثيرا من معالمه ، ثم ترك على ما بقى فيه ولم يتخذ سجنا .

« قصر يلبغا اليحياوى » : هذا القصر موضعه الآن مدرسة السلطان حسن المطلة على الرميلة تحت قلعة الجبل . وكان قصرا عظيما أمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ببنائه لسكن الأمير يلبغا اليحياوى ، وأن يبنى أيضا قصر يقابله برسم سكنى الأمير الطنبغا الماردينى ، لتزايد رغبته فيهما وعظيم محبته لهما ، حتى يكونا تجاهه ، وينظر اليهما من قلعة الجبل . وركب بنفسه الى حيث سوق الخيل من الرميلة تحت القلعة ، وسار الى حمام الملك السعيد ، وعين اصطبل الأمير أيدغمش أميراخور — وكان تجاهها — ليعمره هو وما يقابله قصرين متقابلين ، وضاف اليه اصطبل الأمير طاشتمر الساقى واصطبل الجوق ، وأمر الأمير قوصون أن يشترى ما يجاور اصطبله من الأملاك ، ويوسع فى اصطبله ، وجعل أمر هذه العمارة الى الأمير أقبغا عبد الواحد . فوقع الهدم فيما كان بجوار بيت الأمير قوصون ، وزيد فى الاصطبل ، وجعل باب هذا الاصطبل من تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة ، وأمر السلطان بالنفقة على العمارة من مال السلطان على يد النشو .

وكان للملك الناصر رغبة كبيرة فى العمارة بحيث انه أفرد لها ديوانا ، وبلغ مصروفها فى كل يوم اثنى عشر ألف درهم نقرة . وأقل ما كان يصرف من ديوان العمارة فى اليوم ، برسم العمارة ، مبلغ ثمانية آلاف درهم نقرة .

فلما كثر الاهتمام فى بناء القصرين المذكورين * ، وعظم الاجتهاد فى عمارتهما ، صار السلطان ينزل من القلعة لكشف العمل ، ويستحث على فراغهما .

وأول ما بدىء به قصر يلبغا اليحياوى ، فعمل أساسه حضيرة واحدة انصرف عليها

(*) ص٧١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وحدها مبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة ، ولم يبق فى القاهرة ومصر صانع له تعلق فى العمارة الا وعمل فيها حتى كمل القصر . فجاء فى غاية الحسن ، وبلغت النفقة عليه مبلغ أربعمائة ألف ألف وستين ألف درهم نقرة : منها ثمن لازورد خاصة مائة ألف درهم . فلما كملت العمارة نزل السلطان لرؤيتها .

وحضر يومئذ من عند الأمير سيف الدين طرغاى نائب حلب تقدمة ، من جملتها عشرة أزواج بسط أحدها حرير ، وعدة أوانى من بلور ونحوه وخيل وبخاتى ، فأنعم بالجميع على الأمير يلبغا اليحياوى ، وأمر الأمير أقبغا عبد الواحد أن ينزل الى هذا القصر ، ومعه الخوان سلار برفقته وسائر أرباب الوظائف ، لعمل مهم . فبات النشو ناظر الخاص هناك لتهيئة ما يحتاج اليه من اللحوم والتوابل ونحوها .

فلما تهيأ ذلك حضر سائر أمراء الدولة من أول النهار ، وأقاموا بقصر يلبغا اليحياوى فى أكل وشرب ولهو . وفى آخر النهار حضرت اليهم التشاريف السلطانية — وعدتها أحد عشر تشريفا — برسم أرباب الوظائف ، وهم الأمير أقبغا عبد الواحد ، والأستادار ، والأمير قوصون الساقى ، والأمير بشتاك ، والأمير طقوزدمر أمير مجلس فى آخرين . وحضر لبقية الأمراء خلع وأقبية على قدر مراتبهم .

فلبس الجميع التشاريف والخلع والأقبية ، وأركبوا الخيول المحضرة اليهم من الاصطبل السلطانى بسروج وكنابيش ما بين ذهب وفضة بحسب مراتبهم ، وساروا الى منازلهم .

وذبح فى هذا المهم ستمائة رأس غنم وأربعون بقرة وعشرون فرسا ، وعمل فيه ثلثمائة قنطار سكر برسم المشروب ... فان القوم يومئذ لم يكونوا يتظاهرون بشرب الخمر ولا شيء من المسكرات البتة ، ولا يجسر أحد على عمله فى مهم البتة .

وما زالت هذه الدار باقية الى أن هدمها السلطان الملك الناصر حسن ، وأنشأ موضعها مدرسته الموجودة الآن .

« اصطبل قوصون » : هذا الاصطبل بجوار مدرسة السلطان حسن ، وله بابان : باب من الشارع بجوار حدرة البقر ، وبابه الآخر تجاه باب السلسلة الذى يتوصل منه الى الاصطبل السلطانى وقلعة الجبل . أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجمقدار ، فأخذه منه الأمير سيف الدين قوصون ، وصرف له ثمنه من بيت المال ، فزاد فيه قوصون اصطبل الأمير سنقر الطويل .

وأمره الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمارة هذا الاصطبل ، فبنى فيه كثيرا ، وأدخل فيه عدة عمائر ما بين دور واصطبلات ، فجاء قصرا عظيما الى الغاية ، وسكنه الأمير قوصون مدة حياة الملك الناصر .

فلما مات السلطان ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، عمل عليه قوصون وخلعه ، وأقام بعده بدله الملك الأشرف كجك ابن الملك الناصر محمد . فلما كان فى سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، حدث فى شهر رجب منها فتنة بين الأمير قوصون وبين الأمراء وكبيرهم أيدغمش أميراخور ، فنادى

أيدغمش فى العامة : ياكسابة ، عليكم باصطبل قوصون انهبوه ... هذا وقوصون محصور بقلعة الجبل .

فأقبلت العامة من السؤال والغلمان والجند الى اصطبل قوصون ، فمنعهم المماليك الذين كانوا فيه ، ورموهم بالنشاب ، وأتلفوا منهم عدة . فثارت مماليك الأمير يلبغا اليحياوى من أعلى قصر يلبغا — وكان بجوار قصر قوصون حيث مدرسة السلطان حسن — ورموا مماليك قوصون بالنشاب حتى انكفوا عن رمى النهابة .

فاقتحم غوغاء الناس اصطبل قوصون ، وانتهبوا ما كان بركاب خاناته وحواصله ، وكسروا باب القصر بالفوس ، وصعدوا اليه بعد ما تسلقوا الى القصر من خارجه . فخرجت مماليك قوصون من الاصطبل يدا واحدة بالسلاح ، وشقوا القاهرة ، وخرجوا الى ظاهر باب النصر يريدون الأمراء الواصلين من الشام .

فأتت النهابة على جميع ما فى اصطبل قوصون من الخيل والسروج وحواصل المال التى كانت بالقصر ، وكانت تشتمل من أنواع المال والقماش والأوانى الذهب والفضة على ما لايحد ولايعد كثرة . وعندما خرجت العامة بما نهبته ، وجدت مماليك الأمراء والأجناد قد وقفوا على باب الاصطبل فى الرميلة لانتظار من يخرج ، وكان اذا خرج أحد بشىء من النهب أخذه منه أقوى منه ، فان امتنع من اعطائه قتل .

واحتمل النهابة أكياس الذهب ، ونثروها فى الدهاليز والطرق ، وظفروا بجواهر نفيسة وذخائر ملوكية وأمتعة جليلة القدر وأسلحة عظيمة وأقمشة مثمنة ، وجروا البسط الرومية والآمدية وما هو من عمل الشريف ، وتقاتلوا عليها ، وقطعوها قطعا بالسكاكين وتقاسموها ، وكسروا أوانى البلور والصينى ، وقطعوا سلاسل الخيل الفضة والسروج الذهب والفضة وفكوا اللجم ، وقطعوا الخيم وكسروا الخركاوات ، وأتلفوا سترها وأغشيتها الأطلس والزركش .

وذكر عن كاتب قوصون أنه قال : أما الذهب المكيس والفضة فكان ينيف على أربعمائة ألف دينار . وأما الزركش والحوايص والمعصبات ، ما بين خوانجات وأطباق فضة وذهب ، فانه فوق * المائة ألف دينار ، والبلور والمصاغ المعمول برسم النساء فانه لا يحصر . وكان هناك ثلاثة أكياس أطلس فيها جوهر قد جمعه فى طول أيامه لكثرة شغفه بالجوهر لم يجمع مثله ملك ، كان ثمنه نحو المائة ألف دينار .

وكان فى حاصله عدة مائة وثمانين زوج بسط ، منها ما طوله من أربعين ذراعا الى ثلاثين ذراعا عمل البلاد ، وستة عشر زوج من عمل الشريف بمصر ، ثمن كل زوج اثنا عشر ألف درهم نقرة ، منها أربعة أزواج بسط من حرير . وكان من جملة الخام نوبة خام جميعها أطلس معدنى قصب .. جميع ذلك نهب وكسر وقطع . وانحط سعر الذهب بديار مصر عقيب هذه النهبة من دار قوصون ، حتى بيع المثقال بأحد عشر درهما لكثرته فى أيدى الناس ، بعدما كان سعر المثقال عشرين درهما .

(*) ص٧٢ ج٢ ، ط. بولاق .

ومن حينئذ تلاشى أمر هذا القصر لزوال رخامه فى النهب ، وما برح مسكنا لأكابر الأمراء ، وقد اشتهر أنه من الدور المشئومة ، وقد أدركت فى عمرى غير واحد من الأمراء سكنه ، وآل أمره الى ما لا خير فيه . ومن سكنه الأمير بركة الزينبى ، ونهب نهبة فاحشة ، وأقام عدة أعوام خرابا لا يسكنه أحد ثم أصلح ، وهو الآن من أجل دور القاهرة .

« دار أرغون الكاملى » : هذه الدار بالجسر الأعظم على بركة الفيل . أنشأها الأمير أرغون الكاملى فى سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، وأدخل فيها من أرض بركة الفيل عشرين ذراعا .

« أرغون الكاملى » : الأمير سيف الدين نائب حلب ودمشق . تبناه الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون ، وزوجه أخته من أمه ، بنت الأمير أرغون العلائى ، فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، وكان يعرف أولا بأرغون الصغير .

فلما مات الملك الصالح ، وقام من بعده فى مملكة مصر أخوه الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ، أعطاه امرة مائة وتقدمة ألف ، ونهى أن يدعى أرغون الصغير ، وتسمى أرغون الكاملى .

فلما مات الأمير قطليجا الحموى فى نيابة حلب ، رسم له الملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون بنيابة حلب ، فوصل اليها يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رجب سنة خمسين وسبعمائة ، وعمل النيابة بها على أحسن ما يكون من الحرمة والمهابة ، وهابه التركمان والعرب ، ومشت الأحوال به .

ثم جرت له فتنة مع أمراء حلب ، فخرج فى نفر يسير الى دمشق ، فوصلها لثلاث بقين من ذى الحجة سنة احدى وخمسين ، فأكرمه الأمير أيتمش الناصرى نائب دمشق ، وجهزه الى مصر ، فأنعم عليه السلطان وأعاده الى نيابة حلب .

فأقام بها الى أن عزل أيتمش من نيابة دمشق فى أول سلطنة الملك الصالح صالح بن محمد ابن قلاوون ، فنقل من نيابة حلب الى نيابة دمشق ، فدخلها فى حادى عشرى شعبان سنة اثنتين وخمسين وأقام بها ، فلم يصف له بها عيش ، فاستعفى فلم يجب ، وما زال بها الى أن خرج يلبغا روس وحضر الى دمشق ، فخرج الى لد ، واستولى يلبغا روس على دمشق .

فلما خرج الملك الصالح من مصر ، وسار الى بلاد الشام بسبب حركة يلبغا روس ، تلقاه أرغون وسار بالعساكر الى دمشق ، ودخل السلطان بعده وقد فر يلبغا روس ، فقلده نيابة حلب فى خامس عشرى شهر رمضان ، وعاد السلطان الى مصر .

فلم يزل الأمير أرغون بحلب ، وخرج منها الى الابلستين فى طلب ابن دلغادر ، وحرقها وحرق قراها ، ودخل الى قيصرية ، وعاد الى حلب فى رجب سنة أربع وخمسين .

فلما خلع الملك الصالح بأخيه الملك الناصر حسن فى شوال سنة خمس وخمسين ، طلب الأمير أرغون من حلب فى آخر شوال . فحضر

الى مصر ، وعمل أمير مائة مقدم ألف الى تاسع صفر سنة ست وخمسين ، فأمسك وحمل الى الاسكندرية ، واعتقل فيها وعنده زوجته . ثم نقل من الاسكندرية الى القدس ، فأقام بها بطالا ، وبنى هناك تربة ، ومات بها يوم الخميس لخمس بقين من شوال سنة ثمان وخمسين وسبعمائة .

« دار طاز » : هذه الدار بجوار المدرسة البندقدارية تجاه حمام الفارقانى ، على يمنة من سلك من الصليبة يريد حدرة البقر وباب زويلة . أنشأها الأمير سيف الدين طاز فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، وكان موضعها عدة مساكن هدمها برضى أربابها وبغير رضاهم ، وتولى الأمير منجك عمارتها ، وصار يقف عليها بنفسه حتى كملت ، فجاءت قصرا مشيدا واصطبلا كبيرا ، وهى باقية الى يومنا هذا يسكنها الأمراء .

وفى يوم السبت سابع عشرى جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ، عمل الأمير طاز فى هذه الدار وليمة عظيمة حضرها السلطان الملك الصالح صالح وجميع الأمراء . فلما كان وقت انصرافهم قدم الأمير طاز للسلطان أربعة أفراس بسروج ذهب وكنابيش ذهب ، وقدم للأمير سنجر فرسين كذلك ، وللأمير صرغتمش فرسين ، ولكل واحد من أمراء الألوف فرسا كذلك . ولم يعهد قبل هذا أن أحدا من ملوك الأتراك نزل الى بيت أمير قبل الصالح هذا . وكان يوما مذكورا .

« طاز » : الأمير سيف الدين أمير مجلس . اشتهر ذكره فى أيام الملك الصالح اسماعيل ، ولم يزل أميرا الى أن خلع الملك الكامل شعبان وأقيم المظفر حاجى ، وهو أحد الأمراء الستة أرباب الحل والعقد . فلما خلع الملك * المظفر ، وأقيم الملك الناصر حسن ، زادت وجاهته وحرمته .

وهو الذى أمسك الأمير يلبغا روس فى طريق الحجاز ، وأمسك أيضا الملك المجاهد سيف الاسلام على بن المؤيد صاحب بلاد اليمن بمكة ، وأحضره الى مصر . وهو الذى قام فى نوبة السلطان حسن لما خلع ، وأجلس الملك الصالح صالح على كرسى الملك .

وكان يلبس فى درب الحجاز عباءة وسرقولا ويخفى نفسه ليتجسس على أخبار يلبغا روس . ولم يزل على حاله الى ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، فخلع الصالح وأعيد الناصر حسن ، فأخرج طاز الى نيابة حلب وأقام بها .

« دار صرغتمش » : هذه الدار بخط بئر الوطاويط ، بالقرب من المدرسة الصرغتمشية المجاورة لجامع أحمد بن طولون من شارع الصليبة . كان موضعها مساكن ، فاشتراها الأمير صرغتمش ، وبناها قصرا واصطبلا فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، وحمل اليه الوزراء والكتاب والأعيان من الرخام وغيره شيئا كثيرا . وقد ذكر التعريف به عند ذكر المدرسة الصرغتمشية من هذا الكتاب فى ذكر المدارس .

وهذه الدار عامرة الى يومنا هذا ، يسكنها الأمراء ، ووقع الهدم فى القصر خاصة فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

(*) ص٧٢ ج٢ ، ط. بولاق

«دار الماس» : هذه الدار بخط حوض ابن هنس ، فيما بينه وبين حدرة البقر ، بجوار جامع ألماس . أنشأها الأمير ألماس الحاجب ، واعتنى برخامها عناية كبيرة ، واستدعى به من البلاد .

فلما قتل فى صفر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، أمر السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون بقلع ما فى هذه الدار من الرخام ، فقلع جميعه ونقل الى القلعة . وهذه الدار باقية الى يومنا هذا ينزلها الأمراء .

« دار بهادر المقدم » : هذه الدار بخط الباطلية من القاهرة . أنشأها الأمير الطواشى سيف الدين بهادر ، مقدم المماليك السلطانية فى أيام الملك الظاهر برقوق .

وبهادر هذا من مماليك الأمير يلبغا ، وأقام فى تقدمة المماليك جميع الأيام الظاهرية ، وكثر ماله ، وطال عمره حتى هرم ، ومات فى أيام الملك الناصر فرج ، وهو على امرته وفى وظيفته تقدمة المماليك السلطانية ، يوم الأحد سابع عشر رجب سنة اثنتين وثمانمائة .

وموضع هذه الدار من جملة ما كان احترق من الباطلية فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، كما تقدم فى ذكر حارة الباطلية عند ذكر الحارات من هذا الكتاب . ولما مات المقدم بهادر استقرت من بعده منزلا لأمراء الدولة ، وهى باقية على ذلك الى يومنا هذا .

« دار الست شقراء » : هذه الدار من جملة حارة كتامة ، وهى اليوم بالقرب من مدرسة الوزير الصاحب كريم الدين بن غنام بجوار حمام كراى ، وهى من الدور الجليلة . عرفت بخوند الست شقراء ابنة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، وتزوجها الأمير روس ، ثم انحط قدرها واتضعت فى نفسها الى أن ماتت فى يوم الثلاثاء ثامن عشرى جمادى الأولى سنة احدى وتسعين وسبعمائة .

« دار ابن عنان » : هذه الدار بخط الجامع الأزهر . أنشأها نور الدين على بن عنان التاجر بقيسارية جهاركس من القاهرة ، وتاجر الخاص الشريف السلطانى فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون .

كان ذا ثروة ، ونعمة كبيرة ، ومال متسع . فلما زالت دولة الأشرف أجمع وداخله وهم ، أظهر فاقة ، وتذكر أنه دفن مبلغا كبيرا من الألف مثقال ذهب فى هذه الدار ، ولم يعلم به أحد سوى زوجته أم أولاده . فاتفق أنه مرض وخرس ، ومرضت زوجته أيضا ، فمات يوم الجمعة ثامن عشر شوال سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، وماتت زوجته أيضا .

فأسف أولاده على فقد ماله ، وحفروا مواضع من هذه الدار فلم يظفروا بشىء ألبتة ، وأقامت مدة بأيديهم وهى من وقف أبيهم ، ومات ولده شمس الدين محمد بن على ابن عنان يوم السبت تاسع صفر سنة ثلاث وثمانمائة، ثم باعوها سنة سبع عشرة وثمانمائة كما بيع غيرها من الأوقاف .

« دار بهادر الأعسر » : هذه الدار بخط بين السورين ، فيما بين سويقة المسعودى من القاهرة وبين الخليج الكبير الذى يعرف اليوم بخليج اللؤلؤة . كان مكانها من جملة دار

الذهب التى تقدم ذكرها فى ذكر مناظر الخلفاء من هذا الكتاب ، والى يومنا هذا بجوار هذه الدار قبو ، فيما بينها وبين الخليج ، يعرف بقبو الذهب من جملة أقباء دار الذهب ، ويمر الناس من تحت هذا القبو .

بهادر هذا هو الأمير سيف الدين بهادر الأعسر اليحياوى . كان مشرفا بمطبخ الأمير سيف الدين فجا الأمير شكار ، ثم صار زردكاش الأمير الكبير يلبغا الخاصكى ، وولى بعد ذلك مهمندار السلطان بدار الضيافة ، وولى وظيفة شد الدواوين .

الى أن قدم الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب بعساكر الشام الى مصر ، وأزال دولة الملك الظاهر برقوق فى جمادى سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، قبض عليه ونفاه من القاهرة الى غزة ، ثم عاد بعد ذلك الى القاهرة ، وأقام بها الى أن مات بهذه الدار فى يوم عيد الفطر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ، وحصرت تركته وكان فيها عدة كتب فى أنواع من العلوم .

وهذه الدار باقية الى يومنا هذا ، وعلى بابها بئر بجانبها حوض * يملأ لشرب الدواب منه .

« دار ابن رجب » : هذه الدار من جملة أراضى البستان الذى يقال له اليوم الكافورى كان اصطبلا للأمير علاء الدين على بن كلفت التركمانى شاد الدواوين فيما بين داره ودار الأمير تنكز نائب الشام . فلما استقر ناصر الدين محمد بن رجب فى الوزارة ، أنشأ هذا

(*) ص٧٤ جـ٢ ، طـ بولاق .

الاصطبل مقعدا صار يجلس فيه وقصر كبيرا ، واستولى من بعده على ذلك كله أولاده .

فلما عمر الأمير جمال الدين يوسف الاستادار مدرسته بخط رحبة باب العيد ، أخذ هذا القصر والاصطبل فى جملة ما أخذ من أملاك الناس وأوقافهم . فلما قتله الملك الناصر فرج ، واستولى على جميع ما خلفه ، أفرد هذا القصر والاصطبل فيما أفرده للمدرسة المذكورة ، فلم يزل من جملة أوقافها الى أن قتل الملك الناصر فرج ، وقدم الأمير شيخ نائب الشام الى مصر .

فلما جلس على تخت الملك ، وتلقب بالملك المؤيد فى غرة شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وقف اليه من بقى من أولاد علاء الدين على بن كلفت ، وهما امرأتان كانت احداهما تحت الملك المؤيد قبل أن يلى نيابة طرابلس ، وهو من جملة أمراء مصر فى أيام الملك الظاهر برقوق ، وذكرتا أن الأمير جمال الدين الأستادار أخذ وقف أبيهما بغير حق ، وأخرجتا كتاب وقف أبيهما .

ففوض أمر ذلك لقاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقينى الشافعى ، فلم يجد بيد أولاد جمال الدين مستندا ، فقضى بهذا المكان لورثة ابن كلفت ، وبقائه على ما وقفه حسبما تضمنه كتاب وقفه . فتسلم مستحقو وقف ابن كلفت القصر والاصطبل ، وهو الآن بأيديهم ، وبينهم وبين أولاد ابن رجب نزاع فى القصر فقط .

« محمد بن رجب » بن محمد بن كلفت : الأمير الوزير ناصر الدين . نشأ بالقاهرة على طريقة مشكورة ، فلما استقر ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدى شاد الدواوين ، بعد انتقال الأمير جمال الدين محمود بن على من شد الدواوين الى أستادارية السلطان فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة تسعين وسبعمائة ، أقام ابن رجب هذا أستادارا عند الأمير سودون باق ، وكانت أول مباشراته .

ثم ولى شد الدواوين بعد الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا آص فى ثامن شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين ، فباشر ذلك الى أن صرف بابن أقبغا آص فى سابع عشرى ذى الحجة ، وعوض فى شد الدواوين بشد دواليب الخاص عوضا عن خاله الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام عند انتقاله الى الوزارة .

فلم يزل الى أن توجه الملك الظاهر برقوق الى الشام ، وأقام الأمير محمود الأستادار . فقدم عليه ابن رجب بكتاب السلطان وهو مختوم ، فاذا فيه أن يقبض على ابن رجب ، ويلزمه بحمل مبلغ مائة وستين ألف درهم نقرة . فقبض عليه فى رابع شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وأخذ منه مبلغ سبعين ألف درهم نقرة .

فلما كان فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين ، صرف السلطان عن الوزارة الصاحب موفق الدين أبا الفرج ، واستقر بابن رجب فى منصب الوزارة وخلع عليه . فلم يغير زى الأمراء ، وباشر الوزارة على قالب ضخم وناموس مهاب ، وصار أميرا وزيرا مدبر الممالك .

وسلك سيرة خاله الوزير ناصر الدين محمد ابن الحسام فى استخدام كل من باشر الوزارة ، فأقام الصاحب سعد الدين بن نصر الله بن البقرى ناظر الدولة ، والصاحب كريم الدين عبد الكريم بن الغنام ناظر البيوت ، والصاحب علم الدين عبد الوهاب سن ابرة مستوفى الدولة ، والصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن أبى شاكر رفيقا له فى استيفاء الدولة .

وأنعم عليه بامرة عشرين فارسا فى سادس شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين . فلم يزل على ذلك ، الى أن مات من مرض طويل فى يوم الجمعة لأربع بقين من صفر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وهو وزير من غير نكبة ، فكانت جنازته من الجنائز المذكورة . وقد ذكرته فى كتاب « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » .

« دار القليجى » : هذه الدار من جملة خط قصر بشتاك ، كانت أولا من بعض دور القصر الكبير الشرقى ، الذى تقدم ذكره عند ذكر قصور الخلفاء ، ثم عرفت بدار حمال الكفاة .

وهو القاضى جمال الدين ابراهيم ، المعروف بحمال الكفاة ، ابن خالة النشو ناظر الخاص . كان أولا من جملة الكتاب النصارى فأسلم ، وخدم فى بستان الملك الناصر محمد بن قلاوون — الذى كان ميدانا للملك الظاهر بيبرس بأرض اللوق — ثم خدم فى ديوان الأمير بيدمر البدرى .

فلما عرض السلطان دواوين الأمراء ، واختار منهم جماعة ، كان من جملة من اختاره السلطان جمال الكفاة هذا ، فجعله مستوفيا الى أن مات المهذب كاتب الأمير بكتمر الساقى ، فولاه السلطان مكانه فى ديوان الأمير بكتمر ، فخدمه الى أن مات ، فخدم بديوان الأمير بشتاك . الى أن قبض الملك الناصر على النشو ناظر الخاص ، ولاه وظيفة نظر الخاص بعد النشو ، ثم أضاف اليه وظيفة نظر الجيش بعد المكين بن قزوينة عند غضبه عليه ومصادرته .

فباشر الوظيفتين الى أن مات الملك الناصر ، فاستمر فى أيام الملك المنصور أبى بكر والملك الأشرف كجك والملك الناصر أحمد . فلما ولى * الملك الصالح اسماعيل ، جعله مشير الدولة مع ما بيده من نظر الخاص والجيش — وكان الوزير اذ ذاك الأمير نجم الدين محمود وزير بغداد — وكتب له توقيع باستقراره فى وظيفة الاشارة .

فعظم أمره ، وكثر حساده الى أن قبض عليه وضرب بالمقارع ، وخنق ليلة الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ودفن بجوار زاوية ابن عبود من القرافة ، وكانت مدة نظره فى الخاص خمس سنين وشهرين تنقص أياما . وكان مليح الوجه ، حسن العبارة ، كثير التصرف ذكيا ، يعرف باللسان التركى ويتكلم به ، ويعرف باللسان النوبى والتكرورى .

ولم تزل هذه الدار بغير تكملة الى أن ترأس القاضى شمس الدين محمد بن أحمد القليجى الحنفى . كان أولا يكتب على مبيضة الغزل وهى يومئذ مضمنة لديوان السلطان ، ثم اتصل بقاضى القضاة سراج الدين عمر بن اسحاق الهندى وخدمه ، فرفع من شأنه واستنابه فى الحكم .

فعيب ذلك على الهندى ، وقال فيه شمس الدين محمد بن محمد الصائغ الحنفى :

ولما رأينا كاتب المكس قاضيا ... علمنا بأن الدهر عاد الى ورا

فقلت لصحبى ليس هذا تعجبا ... وهل يجلب الهندى شيئا سوى الخرا

وولى افتاء دار العلم ، وناب عن القضاة فى الحكم بعد مباشرة توقيع الحكم عدة سنين . فعظم ذكره ، وبعد صيته ، وصار يتوسط بين القضاة والأمراء فى حوائجهم ، ويخدم أهل الدولة فيما يعن لهم من الأمور الشرعية .

فصار كثير من أمور القضاة لا يقوم به غيره . حتى لقد كان شيخنا الأستاذ قاضى القضاة ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون يسميه دريد بن الصمة ... يعنى أنه صاحب رأى القضاة ، كما أن دريد بن الصمة كان صاحب رأى هوازن يوم حنين .

فلما فخم أمره أخذ هذه الدار ، وقد تم بناء جدرانها ، فرخمها وزخرفها وبيضها ، فجاءت فى أعظم قالب وأحسن هندام وأبهج زى ، وسكنها الى أن مات يوم الثلاثاء لعشرين من شهر رجب سنة سبع وتسعين وسبعمائة بعدما وقفها ، فاستمرت فى يد أولاده مدة الى أن أخذها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار كما أخذ غيرها من الدور .

(*) ص٧٥ جـ٢ ، ط . بولاق .

« دار بهادر المعزى » : هذه الدار بدرب راشد المجاور لخزانة البنود من القاهرة . عمرها الأمير سيف الدين بهادر المعزى .

كان أصله من أولاد مدينة حلب من أبناء التركمان ، واشتراه الملك المنصور لاجين قبل أن يلى سلطنة مصر وهو فى نيابة السلطنة بدمشق ، فترقى حتى صار أحد أمراء الألوف الى أن مات فى يوم الجمعة تاسع شعبان سنة تسع وثلاثين وسبعمائة عن ابنتين : احداهما تحت الأمير أسدمر المعزى ، والأخرى تحت مملوكه أقتمر .

وترك مالا كثيرا : منه ثلاثة عشر ألف ألف دينار ، وستمائة ألف درهم نقرة ، وأربعمائة فرس ، وثلثمائة جمل ، ومبلغ خمسين ألف اردب غلة ، وثمان حوايص ذهب ، وثلاث كلوتات زركش ، واثنى عشر طراز زركش وعقارا كثيرا . فأخذ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما خلفه .

وكان جميل الصورة ، معروفا بالفروسية ، ورمى فى القبق النشاب بيمينه ويساره ، ولعب الرمح لعبا جيدا . وكان لين الجانب ، حلو الكلام ، جميل العشرة ... الا أنه كان مقترا على نفسه فى مأكله وسائر أحواله لكثرة شحه ، بحيث انه اعتقل مرة فجمع من راتبه الذى كان يجرى عليه وهو فى السجن مبلغ اثنى عشر ألف درهم نقرة ، أخرجها معه من الاعتقال .

« دار طينال » : هذه الدار بخط الخراطين ، فى داخل الدرب الذى كان يعرف بخربة صالح ، كان موضعها وما حولها فى الدولة سنين وشهرين تنقص الذى كان يعرف بخربة صالح ، كان موضعها وما حولها فى الدولة الفاطمية مارستانا .

وأنشأ هذه الدار الأمير طينال أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون . أقامه ساقيا ، ثم عمله حاجبا صغيرا ، ثم أعطاه امرة دكتمر ، وجعله أمير مائة مقدم ألف . فباشر ذلك مدة .

ثم أخرجه لنيابة طرابلس فأقام بها زمانا ، ثم نقله الى نيابة صفد ، فمات بها فى ثالث شهر ربيع سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .

وكان ترى الجنس ، قصيرا الى الغاية ، مليح الوجه ، مشكورا فى أحكامه ، محبا لجمع المال شحيحا . وهذه الدار تشتمل على قائمتين متجاورتين ، وهى من الدور الجليلة . ولطينال أيضا قيسارية بسويقة أمير الجيوش .

« دار الهرماس » : هذه الدار كانت بجوار الجامع الحاكمى من قبليه ، شارعة فى رحبة الجامع ، على يسرة من يمر الى باب النصر . عمرها الشيخ قطب الدين محمد بن المقدسى ، المعروف بالهرماس ، وسكنها مدة .

وكان أثيرا عند السلطان الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون ، له فيه اعتقاد كبير . فعظم عند الناس قدره ، واشتهر فيما بينهم ذكره . الى أن دبت بينه وبين الشيخ شمس الدين محمد بن النقاش عقارب الحسد ، فسعى به عند السلطان الى أن تغير عليه وأبعده .

ثم ركب فى يوم ، سنة احدى وستين وسبعمائة ، من قلعة الجبل بعساكره الى باب زويلة . فعندما وصل اليه ترجل الأمراء كلهم

عن خيولهم ، ودخلوا مشاة من باب زويلة كما هى العادة ، وصار السلطان راكبا بمفرده وابن النقاش أيضا راكب بجانبه ، وسائر الأمراء والمماليك مشاة فى ركابه على ترتيبهم * ، الى أن وصل السلطان الى المارستان المنصورى بين القصرين ، فنزل اليه ودخل القبة ، وزار قبر أبيه وجده واخوته ، وجلس .

وقد حضر هناك مشايخ العلم والقضاة ، فتذاكروا بين يديه مسائل علمية ، ثم قام الى النظر فى أمور المرضى بالمارستان ، فدار عليهم حتى انتهى غرضه من ذلك ، وخرج فركب وسار نحو باب النصر ، والناس مشاة فى ركابه الا ابن النقاش فانه راكب بجانبه ، الى أن وصل الى رحبة الجامع الحاكمى ، فوقف تجاه دار الهرماس وأمر بهدمها ، فهدمت وهو واقف ، وقبض على الهرماس وابنه ، وضرب بالمقارع عدة شيوب ، ونفى من القاهرة الى مصياف .

فقال الامام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى فى ذلك :

قد ذاق هرماس الخساره
من بعد عز وجساره
حسب البهتان يبقى
أخرب الله دياره

فلما قتل السلطان فى سنة اثنتين وستين ، عاد الهرماس الى القاهرة ، وأعاد بعض داره .

فلما كانت سنة ثمانين وسبعمائة ، صارت هذه الدار الى الأمير جمال الدين عبد الله بن

(*) ص٧٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

بكتمر الحاجب ، فأنشأها قاعة وعدة حوانيت وربعا علو ذلك ، وانتقل من بعده الى أولاده ، وهو بأيديهم الى اليوم .

« دار أوحد الدين » : هذه الدار بداخل درب السلامى ، فى رحبة باب العيد مقابل قصر الشوك ، والى جانب المارستان العتيق الصلاحى . كان موضعها من حقوق القصر الكبير ، وصار أخيرا طاحونا ، فهدمها القاضى أوحد الدين عبد الواحد أيام كان يباشر توقيع الأمير الكبير برقوق بعد سنة ثمانين وسبعمائة .

فلما حفر أساس هذه الدار ، وجد فيه هيئة قبة معقودة من لبن ، وفى داخلها انسان ميت قد بليت أكفانه ، وصار عظما نخرا ، وهو فى غاية طول القامة يكون قدر خمسة أذرع ، وعظام ساقيه خلاف ما عهد من الكبر ، ودماغه عظيم جدا .

فلما كملت هذه الدار سكنها أيام مباشرته وظيفة كتابة السر الى أن مات بها ، وقد حبسها على أولاده ، فاستمرت بأيديهم الى أن أخذها منهم الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، كما أخذ غيرها من الأوقاف ، فاستمرت فى جملة ما بيده الى أن قتله الملك الناصر فرج ، فقبضها فيما قبض مما خلفه جمال الدين .

فلما قتل الملك الناصر فرج ، واستقل الملك المؤيد شيخ بمملكة مصر ، استرجع أولاد جمال الدين ما كان أخذه الناصر من أملاك جمال الدين ، وصارت بأيديهم الى أن وقف له أولاد أوحد الدين فى طلب دار أبيهم ، فعقد لذلك مجلس اجتمع فيه القضاة ، فتبين

أن الحق بيد أولاد أوحد الدين ، فقضى باعادة الدار الى ما وقفها عليه أوحد الدين ، فتسلمها أولاد أوحد الدين من ورثة جمال الدين ، وهى الآن بأيديهم .

« عبد الواحد » بن اسماعيل بن ياسين الحنفى ، أوحد الدين كاتب السر ، ولد بالقاهرة ، ونشأ بها فى كنف قاضى القضاة جمال الدين عبد الله بن على التركمانى الحنفى لصهارة كانت بين أبيه وبين التركمانية ، وباشر توقيع الحكم مدة .

واتفق أن أميرا من أمراء الملك الأشرف شعبان بن حسين ، يعرف بيونس الرماح ، مات . فادعى برقوق العثمانى ، أحد المماليك اليلبغاوية ، أنه ابن عم يونس هذا ، وأنه يستحق ارثه لموته عن غير ولد ، وحضر الى المدرسة الصالحية بين القصرين — حيث يجلس القضاة للحكم بين الناس — حتى يثبت ما ادعاه .

فلما أراد الله من اسعاد جد أوحد الدين ، لم يقف برقوق على أحد من موقعى الحكم الا عليه ، وأخبره بما يريد . فبادر الى توريق سؤال باسم برقوق ، وانهائه أنه ابن عم يونس الرماح ، وأن عنده بينة تشهد بذلك ، ودخل بهذا السؤال الى قاضى القضاة ، وأنهى العمل حتى ثبت أن برقوق ابن عم يونس يستحق ارثه .

فلما فرغ من ذلك دفع برقوق الى أوحد الدين مبلغ دراهم أجرة توريقه ، كما هى عادة أهل مصر فى هذا ، فامتنع من أخذها ، وألحف برقوق فى سؤاله وهو يمتنع . فتقلد له برقوق

المنة بذلك ، واعتقد أمانته وخيره ، وصار — لكثرة ركونه اليه — اذا قدم فلاحو اقطاعه يبعثهم اليه حتى يحاسبهم عما حملوه من الخراج .

فلما قتل الملك الأشرف ، وثارت المماليك وكان من أمرهم ما كان ... الى أن تغلب برقوق ، وصار من جملة الأمراء ، واستولى على الاصطبل السلطانى فى شهر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وسبعمائة ، وصار أميراخور أقام أوحد الدين موقعا عنده .

وما زال أمر برقوق يزداد قوة حتى أنيطت به أمور المملكة كلها ، فصار أوحد الدين صاحب الحل والعقد ، وكاتب السر بدر الدين محمد بن على بن فضل الله اسما لا معنى له ... الى أن جلس الأمير برقوق على تخت المملكة فى شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، فقرر القاضى أوحد الدين فى وظيفة كتابة السر عوضا عن ابن فضل الله ، وخلع عليه فى يوم السبت ثانى عشر شوال من السنة المذكورة . فباشر كتابة السر على القالب الجائز ، وضبط الأمور أحسن ضبط ، وعكف سائر الناس على بابه لتمكنه من سلطانه .

وكان الأمير يونس الدوادار يرى أنه أكثر الناس من الأمراء تمكينا من السلطان ، وجرت العادة * بانتماء كاتب السر الى الدوادار ، فأحب أوحد الدين الاستبداد على الأمير يونس الدوادار ، فقال للسلطان سرا فى غيبة يونس : ان السلطان يرسم بكتابة مهمات الدولة وأسرار المملكة الى البلاد الشامية

(*) ص٧٧ جـ٢ ، ط.بولاق .

وغيرها ، والأمير الدوادار يريد من المملوك أن يطلع على ذلك ، فلم يقدر المملوك على مخالفته ، ولا أمكنه اعلامه الا باذن .

فأنف السلطان من ذلك ، وقال : الحذر أن يطلع على شيء من مهمات السلطان أو أسراره .

فقال : أخاف منه ان سأل ولم أعلمه .

فقال السلطان : ما عليك منه .

فرأى أنه قد تمكن حينئذ فأمسك أياما .

ثم أراد الازدياد من الاستبداد ، فقال للسلطان سرا : قد رسم السلطان ألا يطلع أحد على سر السلطان ، ولا يعرف بما يكتب من المهمات ، وطائفة البريدية كلهم يمشون فى خدمة الدوادار ، فاذا اقتضت آراء السلطان تسفير أحد منهم فى مهم ، يحتاج المملوك الى استدعائه من خدمة الأمير الدوادار ، فاذا التمس منى أنى أخبره بالمعنى الذى توجه فيه البريدى لا أقدر على اعلامه بذلك ، ولا آمن ان كتمته . وانصرف .

فلما كان من الغد ، وطلع الأمراء الى الخدمة على العادة ، قال السلطان للأمير يونس الدوادار : أرسل البريدية كلهم الى كاتب السر ليمشوا ويركبوا معه . فلم يجد بدا من ارسالهم ، وحصل عنده من ارسالهم المقيم المقعد .

فصار البريدية يركبون نوبا فى خدمة أوحد الدين ، ويتصرف فى أمور الدولة وحده مع سلطانه . فانفرد بالكلمة ، وخضع له الخاص والعام . الا أنه نغص عليه فى نفسه ، ومرض مرضا طويلا سقطت معه شهوة الطعام بحيث انه لم يكن يشتهى شيئا من الغذاء ، وتنوع له المآكل بين يديه لكى تميل نفسه الى شيء منها ، ومتى تناول غذاء تقيأه فى الحال .

وما زال على ذلك الى أن مات عن سبع وثلاثين سنة ، فى يوم السبت ثانى ذى الحجة سنة ست وثمانين وسبعمائة ، ودفن خارج باب النصر . فلم يتأخر أحد من الأمراء والأعيان عن جنازته .

وكان حسن السياسة ، رضى الخلق ، عاقلا ، كثير السكون ، جيد السيرة ، جميل الصورة ، حسن الهيئة ، عارفا بأمر دنياه ، محبا للمداراة ، صاحب باطن ، قليل العلم . رحمه الله .

« ربع الزيتى » : هذا الربع كان بجوار قنطرة الحاجب التى على الخليج الناصرى ، وكان يشتمل على عدة مساكن ينزلها أهل الخلاعة للقصف . فانه كان يشرف من جهاته الأربع على رياض وبساتين .

ففى شرقيه غيط الزيتى وقد خرب وموضعه اليوم بركة ماء . وفى غربيه غيط الحاجب بيبرس — وأدركته عامرا ، وهو اليوم مزارع بعد ما كان له باب كبير بجانبه حوض ماء للسبيل ، وعليه سياج من طين دائر به — ومن قبلى هذا الربع الخليج وقنطرة الحاجب والجنينة التى بأرض الطبالة . ومن بحريه بساتين تتصل بالبعل وكوم الريش .

وما زال هذا الربع معمورا باللذات ، آهلا بكثرة المسرات ... الى أن كانت سنة الغرقة

— وهى سنة خمس وخمسين وسبعمائة — فخربت دور كوم الريش وغيرها ، ووصل ماء النيل الى قنطرة الحاجب ، فخرب ربع الزيتى ، وأهمل أمره ، حتى صار كوما عظيما ، تجاه قنطرة الحاجب وغيط الحاجب . وسمعت من أدركته يخبر عن هذا الربع بعجائب من الملاذ التى كانت فيه .

وكانت العامة تقول فى هزلها : ستى أين كنتى وأين رحتى واين جيتى . قالت : من ربع الزيتى .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام

« الدار التى فى أول البرقية من القاهرة التى حيطانها حجارة بيض منحوتة » : هذه الدار بقى منها جدار على يمين من سلك من المشهد الحسينى يريد باب البرقية ، وبقى منها أيضا جدار على يمين من سلك من رحبة الأيدمرى الى باب البرقية . وهى دار الأمير صبيح بن شاهنشاه ، أحد أمراء الدولة الفاطمية فى أيام الصالح طلائع بن رزيك ، وكانت فى غاية الكبر والتحسين .

قال بعض أصحاب الصالح : يامولانا أبقاك الله حتى تتم دار ابن شاهنشاه .

وكان الضرغام ، قبل أن يلى وزارة مصر ، قد فرس العادل أبا شجاع رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك ، فظهر منه فارسا فى غاية الفروسية ، بحيث انه قد حضر فى يوم عيد الحلقة ، وأخذ رمحا وحربة وقوسا وسهما ، فأخذ الحلقة بالرمح ، ورمى بالسهم فأصاب الغرض ، وحذف بالحربة فأثبتها فى المرمى ، ولعب بالرمح فى غاية الحسن . ثم دخل صبيح ابن شاهنشاه ، فعمل مثل ذلك .

فتحرك الضرغام — وكان يلبس عمامة بعذبة وأكمام واسعة على زى المصريين يومئذ — فتلثم بعذبته ، ولف أكمامه ، وأخذ رمحه ، ولعب به فى غاية الحسن ، وطرد كذلك ، ودخل فى الحلقة وأخذها .

فعجب منه كل من فى العسكر ، فأخذ عند ذلك الأمير صبيح بن شاهنشاه المبخرة ، وأتى اليه وقال : يامولاى كفاك الله أمر العين ، فان هذا شيء ما يقدر عليه أحد . وجعل يدور حول فرسه ويبخره ، والضرغام يتبسم ويعجبه ذلك .

وبعد هذا كان قتل ابن شاهنشاه على يده فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، ولم تكمل هذه الدار .

« دار ألتمر » : هذه الدار بمدينة مصر من خارجها ، فيما انحسر * عنه ماء النيل بعد الخمسمائة من سنى الهجرة ، وتعرف اليوم بصناعة ألتمر ، تجاه الصاغة بخط سوق المعاريج ، ومن جملتها بيت برهان الدين ابراهيم الحلى ومدرسته . وهذه الدار وقفها القاضى عبد الرحيم بن على البيسانى على فكاك الأسرى من المسلمين ببلاد الفرنج .

قال القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر فى كتاب « الدر النظيم فى أوصاف القاضى الفاضل عبد الرحيم » : ومن جملة بنائه دار ألتمر بمصر المحروسة ، ولها دخل عظيم يجمع ويشترى به الأسرى من بلاد

(*) ص٧٨ جـ٢ ، طـ. بولاق .

الفرنج ، وذلك مستمر الى هذا الوقت . وفى كل وقت يحضر بالأسارى فيلبسون ويطوفون ويدعون له ، وسمعتهم مرارا يقولون : « ياألله يارحمن يارحيم ، ارحم القاضى الفاضل عبد الرحيم » .

وقال القاضى جمال الدين بن شيث : كان للقاضى الفاضل ربع عظيم يؤجره بمبلغ كبير ، فلما عزم على الحج ركب ، ومر به ووقف عليه ، وقال : « اللهم انك تعلم أن هذا الخان ليس شىء أحب الى منه (أو قال أعز على منه) ، اللهم فاشهد أنى وقفته على فكاك الأسرى من بلاد الفرنج » .

وقال ابن المتوج : ومن جملة الأوقاف الوقف الفاضلى . وهو الدار المشهورة بصناعة التمر ، الوقف على فكاك الأسرى من يد العدو ، المشتملة على مخازن وأخصاص وشون ومنازل علوية وحوانيت بسجازها وظاهرها ، وهى اثنا عشر حانوتا ، وخمسة مقاعد ، وثمانية وخمسون مخزنا ، وخمسة عشر خصا ، وست قاعات وساحة ، وست شون ، وخمسة وسبعون منزلا ، وخمسة مقاعد علوية ... الأجرة عن ذلك جميعه ، الى آخر شعبان سنة تسع وثمانين وستمائة ، فى كل شهر ألف ومائة وستة ثلاثون درهما نقرة . واستجد بها القاضى جمال الدين الوجيزى خليفة الحكم بمصر ، حين كان ينظر فى الأوقاف ، دارا من ربع الوقف فأكلها البحر ، فأمر ببناء زربية أمامها من مال الوقف .

« عمارة أم السلطان » : هذه العمارة من جملة المنحر . كانت دارا تعرف بالأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ، ولها باب من الدرب الأصفر الذى هو الآن تجاه خانقاه بيبرس ، وباب من المحايريين تجاه الجامع الأقمر . عرفت هذه الدار بالأمير مظفر الدين موسى الصالح على بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى ، ثم خربت فأنشأتها خوند أم الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، وجعلت منها قيسارية بخط الركن المخلق يباع بها الجلود ، ويعلوها ربع جليل لسكن العامة يشتمل على عدة طباق ، ووقفت ذلك على مدرستها بخط التبانة خارج باب زويلة .

فلم تزل جارية فى وقفها الى أن اغتصبها الوزير الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فيما أخذ من الأوقاف ، وجعلها وقفا على مدرسته بخط رحبة باب العيد من القاهرة .

وجعلت خوند بركة من جملة هذه الدار قاعة لم يعمر فيها سوى بوابتها لا غير ، وهى أجل بوابات الدور ، وقد دخلت أيضا فيما أخذه جمال الدين ، وصارت بيد مباشرى مدرسته الى أن أخذها السلطان الملك الأشرف أبو العزيز برسباى الدقماقى الظاهرى ، وابتدأ بعملها وكالة فى شوال سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، فكملت فى رجب سنة ست وعشرين ، وغير من الطراز المنقوش فى الحجارة بجانبى باب الدخول اسم شعبان بن حسين وكتب برسباى ، فجاءت من أحسن المبانى ، ويعلوها طباق للسكنى .

ولم يسخر فى عمارتها أحد من الناس كما أحدثه ولاة السوء فى عمائرهم ، بل كان العمال من البنايين والفعلة ونحوهم يوفون أجورهم من غير عنف ولا عسف ، فانه كان

القائم على عمارتها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيش ، وهذه عادته فى أعماله ألا يكلف فيها العمال غير طاقتهم ، ويدفع اليهم أجورهم . والله أعلم .

ذكر الحمامات

قال ابن سيده : الحمام والحميم والحميمة جميعا الماء الحار ، والحميمة أيضا المخض اذا سخن ، وقد أحمه وحمه ، وكلما سخن فقد حم .

قال ابن الأعرابى : والحمائم جمع الحميم الذى هو الماء الحار . وهذا خطأ لأن فعيلا لا يجمع على فعائل ، وانما هو جمع الحميمة الذى هو الماء الحار لغة فى الحميم مذكر ، وهو أحد ما جاء من الأسماء على فعال نحو القذاف والجبان ، والجمع حمامات .

قال سيبويه : جمعوه بالألف والتاء وان كان مذكرا حيث لم يكسر ... جعلوا ذلك عوضا من التكسير .

والاستحمام الاغتسال بالماء الحار ، وقيل هو الاغتسال بأى ماء كان ، والحميم العرق ، واستحم الرجل عرق .

وأما قولهم لداخل الحمام اذا خرج « طاب حميمك » فقد يعنى به العرق ، أى طاب عرقك . واذا دعى له بطيب العرق فقد دعى له بالصحة ، لأن الصحيح يطيب عرقه .

وروى عن سفيان الثورى أنه قال : مادرهم ينفقه المؤمن هو فيه أعظم أجرا من درهم يعطيه صاحب حمام ليخليه له . قال محمد بن اسحاق فى كتاب « المبتدى » : ان أول من اتخذ الحمامات والطلاء بالنورة سليمان بن داود عليهما السلام ، وانه لما دخل ووجد حميمه قال : « أواه من عذاب الله أواه » .

وذكر المسيحى فى تاريخه أن العزيز * بالله نزار بن المعز لدين الله أول من بنى الحمامات بالقاهرة .

وذكر الشريف أسعد الجوانى ، عن القاضى القضاعى ، أنه كان فى مصر الفسطاط ألف ومائة وسبعون حماما .

وقال ابن المتوج : ان عدة حمامات مصر فى زمنه بضع وسبعون حماما .

وذكر ابن عبد الظاهر أن عدة حمامات القاهرة الى آخر سنة خمس وثمانين وستمائة تقرب من ثمانين حماما . وأقل ما كانت الحمامات ببغداد ، فى أيام الخليفة الناصر أحمد بن المستنصر ، نحو الألفى حمام .

« حماما السيدة العمة » : قال ابن عبد الظاهر : حماما الكافى يعرفان بحمامى السيدة العمة ، وانتقلتا الى الكامل بن شاور ، ثم الى ورثة الشريف بن ثعلب ، وهما الآن بأيديهم ، ولا تدور الا الواحدة .

وهاتان الحمامان كانتا على يمنة من يدخل من أول حارة الروم ، تجاه ربع الحاجب ، المعروف الآن بربع الزياتين ، علو الفندق الذى بابه بسوق الشوايين . وكانت احداهما برسم الرجال ، والأخرى برسم النساء ، وقد خربتا ولم يبق لهما أثر ألبتة .

(*) ص٧٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

«حمام الساباط» : قال ابن عبد الظاهر (*) : كان فى القصر الصغير باب يعرف بباب الساباط . كان الخليفة فى العيد يخرج منه الى الميدان — وهو الخرشتف الآن — الى المنحر لينحر فيه الضحايا .

قلت : حمام الساباط هذا يعرف فى زمننا بحمام المارستان المنصورى ، وهو برسم دخول النساء عند باب سر المارستان المنصورى . وهذا الحمام هو حمام القصر الصغير الغربى ، ويعرف أيضا بحمام الصنيمة .

فلما زالت دولة الخلفاء الفاطميين من القاهرة ، باعها القاضى مؤيد الدين أبو المنصور محمد بن المنذر بن محمد العدل الأنصارى الشافعى ، وكيل بيت المال فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، للأمير عز الدين أيبك العزيزى ، هى وساحات تحاذيها ، بألف ومائتى دينار فى ذى الحجة سنة تسعين وخمسمائة .

ثم باعها الأمير عز الدين أيبك للشيخ أمين الدين قيمار بن عبد الله الحموى التاجر بألف وستمائة دينار ، فورثها من بعده من استحق ارثه ، ثم اشترى من الورثة نصفها الأمير الفارس صارم الدين خطلبا الكاملى العادلى فى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وانتقلت أيضا منها حصة الى ملك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى النجمى ، أستادار الملك الظاهر بيبرس ، فى سنة ثمان وسبعين وستمائة .

فلما تملك الملك المنصور قلاوون الألفى ، وأنشأ المارستان الكبير المنصورى ، صارت فيما هو موقوف عليه ، وهى الآن فى أوقافه ، ولها شهرة فى حمامات القاهرة .

«حمام لؤلؤ» : هذه الحمام برأس رحبة الأيدمرى ملاصقة لدار السنانى . أنشأها الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب فى أيام ...

«حمام الصنيمة» : هذه الحمام كانت بالقرب من خزانة البنود ، على يسرة من سلك فى رحبة باب العيد الى قصر الشوك ، وقد خربت وعمل فى موضعها مبيضة للغزل بالقرب من الجمالية .

«حمام تتر» : هذه الحمام كانت بخط دار الوزارة الكبرى ، وقد خربت وصار مكانها دارا عرفت بالأمير الشيخ على ، وهى الدار المجاورة للمدرسة النابلسية فى الزقاق المقابل للخانقاه الصلاحية سعيد السعداء .

و «تتر» هذا — بتاءين مفتوحتين كل منهما منقوط بنقطتين من فوق — أحد مماليك أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . استولى على هذه الحمام ، وكانت معدة لدار الوزارة فى مدة الدولة الفاطمية ، فعرفت به وما حولها . والى الآن يعرف ذلك الخط بخط خرائب تتر ، والعامة تقول : خرائب التتر بالتعريف ، وهو خطأ .

«حمام كرجى» : هذه الحمام كانت بخط خرائب تتر أيضا ، فى جوار المدرسة النابلسية تجاه باب الخانقاه الصلاحية . عرفت بالأمير علم الدين كرجى الأسدى ، أحد الأمراء الأسدية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف

ابن أيوب . وقد خربت هذه الحمام ، وبنى فى مكانها هذا البناء الذى تجاه باب الخانقاه بأول الزقاق .

«حمام كتيلة» : هذه الحمام كانت داخل باب الخوخة برأس سويقة الصاحب . عرفت أخيرا بالأمير صارم الدين ساروج شاد الدواوين ، ثم خربت فى أيام ... ... ومكانها الآن مسمط يذبح فيه الغنم وتسمط .

«حمام ابن أبى الدم» : هذه الحمام كانت فيما بين سويقة المسعودى وباب الخوخة . أنشأها ابن أبى الدم اليهودى ، أحد كتاب الانشاء فى أيام الخليفة الحاكم ، وتولى ابن خيران الديوان ، ونقل عنه أنه وسع بين السطور فى كتاب كتبه الى الخليفة ... ... وهذه مكاتبة الأعلى الى الأدنى . فلما حضر وأنكر عليه ، ألحق بين السطر والسطر سطرا مناسبا للفظ والمعنى من غير أن يظهر ذلك ، فعفا عنه .

وقد خربت ، وصار مكانها دربا فيه دور يعرف بسكن القاضى بدر الدين حسن البرديني أحد خلفاء الحاكم العزيزى الشافعى . وأدركت بعض آثار هذه الحمام .

«حمام الحصينية» : هذه الحمام كانت فى سويقة الصاحب من داخل درب الحصينية ، الذى يعرف اليوم بدرب ابن عرب ، وقد خربت .

«حمام الذهب» : هذه الحمام كانت بدار الذهب ، احدى مناظر الخلفاء الفاطميين التى ذكرت فى المناظر من هذا الكتاب ، وقد خربت هذه الحمام ولم يبق لها أثر .

(*) ص٨٠ ج٢ ، ط. بولاق .

«حمام ابن قرقة» : هذه الحمام كانت بخط سويقة المسعودى من حارة زويلة . أنشأها أبو سعيد بن قرقة الحكيم ، متولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح فى الدولة الفاطمية ، بجوار داره التى تقدمت فى الدور من هذا الكتاب .

ثم عرفت هذه الحمام فى الدولة الأيوبية بالأمير صارم الدين المسعودى والى القاهرة ، المنسوب اليه سويقة المسعودى المذكورة فى الأسواق من هذا الكتاب .

ثم خربت هذه الحمام ، وعمل فى موضعها فندق عرف أخيرا بفندق عمار الحمامى بجوار جامع ابن المغربى من جانبه الغربى ، وأخذت بئر هذه الحمام فعملت للحمام التى تعرف اليوم بحمام السلطان .

«حمام السلطان» : هذه الحمام يتوصل اليها الآن من سويقة المسعودى ومن قنطرة الموسكى ، وهى من الحمامات القديمة . عرفت فى الدولة الفاطمية بحمام الأوحد ، ثم عرفت فى الدولة الأيوبية بحمام ابن يحيى ، وهو القاضى المفضل هبة الله بن يحيى العدل ، ثم عرفت بحمام الطيبرسى ، ثم هى الآن تعرف بحمام السلطان .

«حمام خوند» : هذه الحمام بجوار رحبة خوند المذكورة فى الرحاب من هذا الكتاب . وكانت برسم الدار التى تعرف الآن بدار خولند أردتكين ، ثم أفردت وصارت الى الآن حماما يدخله عامة الرجال فى أوائل النهار ، ثم تعقبهم النساء من بعد ... الى أن هدمها الأمير صلاح الدين محمد أستادار السلطان ابن الأمير

الوزير الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله فى شهر رجب سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، وعمل موضعها من جملة داره التى هناك .

« حمام ابن عبود » : هذه الحمام موضعها فيما بين اصطبل الجميزة ، المذكور فى اصطبلات الخلفاء من هذا الكتاب ، وبين رأس حارة زويلة ، وهى من الحمامات القديمة . عرفت بحمام الفلك ، وهو القاضى فلك الملك العادل ، ثم عرفت بالأمير على بن أبى الفوارس .

ثم عرفت بابن عبود . وهو الشيخ نجم الدين أبو على الحسين بن محمد بن اسماعيل ابن عبود القرشى الصوفى ، مات فى يوم الجمعة ثالث عشرى شوال سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ، بعد ما عظم قدره ، ونفذ فى أرباب الدولة نهيه وأمره . وهو صاحب الزاوية المعروفة بزاوية ابن عبود بلحف الجبل قريبا من الدينورى من القرافة ، فانظرها فى الزوايا من هذا الكتاب .

ولم تزل هذه الحمام جارية فى أوقاف التربة المذكورة الى أن تسلط الأمير جمال الدين على أموال أهل مصر . فاغتصب ابن أخته الأمير شهاب الدين أحمد ، المعروف بسيدى أحمد ابن أخت جمال الدين ، هذه الحمام ، واغتصب دار ابن فضل الله التى تجاه هذه الحمام ، واغتصب آدرا أخر بجوارها ، وعمر هناك دارا عظيمة كما قد ذكر فى الدور من هذا الكتاب .

« حمام الصاحب » : هذه الحمام بسويقة الصاحب . عرفت بالصاحب الوزير صفى الدين عبد الله بن شكر الدمرى ، صاحب المدرسة الصاحبية التى بسويقة الصاحب ، ثم تعطلت مدة سنين . فلما ولى الأمير تاج الدين الشوبكى ولاية القاهرة فى أيام الملك المؤيد شيخ جددها ، وأدار بها الماء فى سنة سبع عشرة وثمانمائة .

« حمام السلطان » : هذه الحمام كان موضعها قديما من جملة دار الديباج ، وهى الآن بخط بين العواميد من البندقانيين ، بجوار خوخة سوق الجوار ومدرسة سيف الاسلام . أنشأها الأمير فخر الدين عثمان بن قزل أستادار السلطان الملك الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب ، وتنقلت الى أن صارت فى أوقاف الملك الناصر محمد بن قلاوون .

« حماما طغريك » : هاتان الحمامان بجوار فندق فخر الدين بالقرب من سويقة حارة الوزيرية . أنشأهما الأمير حسام الدين طغربك المهرانى أحد الأمراء الأيوبية .

« حمام السوباشى » : هذه الحمام كانت بدرب طلائع بخط الخروقيين الذى يعرف اليوم بسوق الفرايين . عرفت بالأمير الفارس همام الدين أبو سعيد برغش السوباشى ، واسمه عمرو بن كحت بن شيرك العزيزى ، والى القاهرة .

« حمام عجينة » : هذه الحمام كانت بخط الأكفانيين . أنشأها الأمير فخر الدين ، أخو الأمير عز الدين موسك ، فى الدولة الأيوبية ، وتنقلت حتى صارت بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى مما أوقف عليهم ، وعرفت

أخيرا بحمام عجينة ، ثم خربت بعد سنة أربعين وسبعمائة ، وموضعها الآن خربة بجوار الفندق الكبير المعد لديوان المواريث .

« حمام درى » : هذه الحمام كانت بخط الأكفانيين الآن . عرفت بشهاب الدولة درى الصغير غلام المظفر بن أمير الجيوش .

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب « النقط لمعجم ما أشكل من الخطط » : شهاب الدولة درى — المعروف بالصغير المظفرى — غلام المظفر أمير الجيوش . كان أرمنيا وأسلم ، وكان من المشددين فى مذهب الامامية ، وقرأ الجمل فى النحو للزجاجى ، وكتاب اللمع لابن جنى .

وكانت له خرائط من القطن الأبيض فى يديه ورجليه ، وكان يتولى خزائن الكسوة ، ولا يدخل على بسط السلطان ولا بسط الخليفة الحافظ لدين الله ، ولا يدخل مجلسه الا بتلك الخرائط فى رجليه ، ولا يأخذ من أحد * شيئا الا وفى يديه خريطة .

يظن أن كل من لمسه نجسه ... وسوسة منه . فاذا اتفق أنه صافح أحدا ، أو مس رقعة بيده من غير خريطة ، لا يمس ثوبه بها أبدا حتى يغسلها ، فان لمس ثوبه بها غسل الثوب . وكان الأستاذون المحنكون يرمون له فى بساط الخليفة الحافظ العنب ، فاذا مشى عليه وانفجر ووصل ماؤه الى رجليه سبهم وحرد . فيعجب الخليفة من ذلك ويضحك ، ولا يؤاخذه بما صدر منه . ومات بعد سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة .

وقد خربت هذه الحمام ، ولم يبق لها أثر يعرف .

« حمام الرصاصى » : هذه الحمام كانت بحارة الديلم . أنشأها الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء المروانى ، حامل السيف المنصور ، وأوقفها هى وجميع الآدر المجاورة لها على أولاده وذريته . فلما زالت الدولة الفاطمية ، عرفت بالأمير عز الدين أيبك الرصاصى ، ولم تزل باقية الى بعد سنة أربعين وسبعمائة ثم خربت .

« حمام الجيوشى » : هذه الحمام كانت بحارة برجوان ، على يمنة من دخل من رأس الحارة ، وكانت من حقوق دار المظفر ابن أمير الجيوش ، ثم صارت بعد زوال الدولة الفاطمية من جملة ما أوقفه الملك العادل أبو بكر ابن أيوب على رباطه الذى كان بخط النخالين من فسطاط مصر . ثم وضع بنو الكويك ، أصهار قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة ، أيديهم عليها فى جملة ما وضعوا أيديهم عليه من الأوقاف بحارة ابن جماعة ، وانتفعوا بريعها مدة سنين ، ثم خربوها بعد سنة أربعين وسبعمائة .

وموضعها الآن بجوار دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى ، وبعضها داخل فى الدار المذكورة ، وبئرها بجوار القبو الذى يسلك من تحته الى حمام الرومى داخل حارة برجوان ، ويعلو هذا العقد حاصل الماء الذى

(*) ص٨١ جـ٢ ، ط. بولاق .

للحمام ، ويمر على مجراه من حجرة مركبة على جدار بجوار القبو الى الحمام المذكورة ، وآثار هذا الجدار باقية الى اليوم .

وكان قد استأجر هذه البئر والقبو بعد تعطل الحمام القاضى أبو الفداء تاج الدين اسماعيل بن أحمد بن الخطباء المخزومى ، من مباشرى أوقاف رباط العادل ، وبنى على البئر وبجوارها دارا سكنها مدة أعوام ، وأنشأ بأعلى حاصل الماء المركب على القبو مشرفا عاليا تأنق فى ترخيمه ودهانه ، وكتب بدائره :

مشترف كم شبهوه الأدبا
لحسنه اذ جاء شيئا عجبا
فقال قوم قلعة مبنية
وآخرون شبهوه مرقبا
وشاعر أعجبه ترخيمه
فقال تلك روضة فوق الربا
وقائل ماذا ترى تشبيهه
فقلت هذا منبر ابن الخطبا

ثم خربت هذه الدار بعد موت ابن الخطباء واحترقت فى سنة تسع وثمانمائة ، وآثارها باقية . وما زال ابن الخطباء يدفع حكر هذه البئر وهذا القبو لجهة الرباط العادلى حتى خرب ، وعفى أثره وجهل مكانه . وقد رأيته فى سنة أربع وتسعين وسبعمائة عامرا .

« حمام الرومى » : هذه الحمام بجوار حارة برجوان . عرفت بالأمير سنقر الرومى الصالحى ، أحد الأمراء فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، أنشأها بجوار اصطبله الذى يعرف اليوم باصطبل ابن الكويك ، وذلك تجاه رحبة داره التى عرفت بدار مازان ، ووقف هذه الدار والاصطبل والحمام المذكورة فى سنة اثنتين وستين وستمائة .

فأما الدار فانها صارت أخيرا بيد رجل من عامة الناس يعرف بعيسى البناء ، فباعها أنقاضا بعدما خربها فى سنة سبع وثمانمائة لرجل من المباشرين ، فهدمها ليعمرها عمارة جليلة ، فلم يمهل وعاجله القضاء فمات وصارت خربة ، فابتاعها بعض الناس من ورثة المذكور ، وشرع فى عمارة شىء منها .

وأما الاصطبل والحمام ، فوضع بنو الكويك أيديهم عليهما مدة أعوام حتى صارا ملكا لهم يورثان ، وهما الآن بيد شرف الدين محمد بن محمد بن الكويك ، وقد جعل ما يخصه من الحمام وقفا على نفسه ثم على أناس من بعده .

وفى هذه الحمام حصة أيضا وقفها شيخنا برهان الدين ابراهيم الشامى الضرير على أمته وهى بيدها .

« سنقر الرومى » الصالحى النجمى : أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين ايوب البحرية . ترقى عنده فى الخدم حتى صار جامدار ، وكان من خوشداشية بيبرس البندقدارى وأصدقائه .

فلما قتل الفارس أقطاى فى أيام المعز أيبك التركمانى ، وخرج البحرية من القاهرة الى بلاد الشام ، كان سنقر ممن خرج ورافق

بيبرس ، وارتفق بصحبته ونال منه مالا وثيابا وغير ذلك ، وتنقل معه فى الكرك ... الى أن كان من أمره فى الصيد مع صاحب الكرك ، فطلب سنقر من بيبرس شيئا فلم يجبه ، وامتنع من اعطائه ، فحنق وفارقه الى مصر فأقام بها .

ثم ان بيبرس قدم الى مصر بعد ذلك وقد صار أميرا ، فلم يعبأ سنقر به ، ولا قدم اليه شيئا كعادة الخوشداشية . فلما صار الأمر الى بيبرس ، وملك بعد قطز ، قدم سنقر وأعطاه * الاقطاعات الجليلة ونوه بقدره فلم يرض ، فصار اذا ورد عليه الانعام السلطانى لا يأخذه بقبول ، ويخلو كل وقت بجماعة بعد جماعة ، ويفرق فيهم المال ، فيبلغ ذلك السلطان ويغضى عنه ، وربما بعث اليه وحذره مع الأمير قلاوون وغيره فلم ينته .

ثم انه قتل مملوكين من مماليكه بغير ذنب ، فعز قتلهما على السلطان ، فطلبه فى رابع عشرى ذى الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة واعتقله . فقال : أريد أعرف ذنبى .

فبعث اليه السلطان يعدد ذنوبه ، فتحسر وقال : أواه لو كنت حاضرا قتل الملك المظفر قطز حتى أعاند فى الذى جرى .

وكان كثيرا ما يقول ذلك . وبلغ هذا القول منه السلطان فى حال امرته ، فقال : أنت أخى ، وتتحسر كونك ما قدرت أن تعين على .

« حماما سويد » : هاتان الحمامان بآخر سويقة أمير الجيوش . عرفتا بالأمير عز الدين معالى بن سويد . وقد خربت احداهما — ويقال انها غارت فى الأرض ، وهلك فيها جماعة — وبقيت الأخرى ، وهى الآن بيد الخليفة أبى الفضل العباسى بن محمد المتوكل .

« حمام طقلق » : هذا الحمام بجوار درب المنصورى من خط حارة الصالحية . صارت أخيرا بيد ورثة الأمير قطلوبغا المنصورى حاجب الحجاب فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين . وكانت معدة لدخول الرجال ، ثم تعطلت بعد سنة تسعين وسبعمائة وأخذ حاصلها . وعهدى بها بعد سنة ثمانمائة أطلالا واهية .

« حمام ابن علكان » : هذه الحمام كانت بحارة الجودرية . أنشأها الأمير شجاع الدين عثمان ابن علكان ، صهر الأمير الكبير فخر الدين عثمان بن قزل ، ثم انتقلت الى الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الصالحى النجمى ، وما زالت الى أن خربت بعد سنة أربعين وسبعمائة ، فعمر مكانها الأمير أزدمر الكاشف اصطبلا بعد سنة خمسين وسبعمائة .

« حمام الصاحب » : هذه الحمام بخط طواحين الملحيين .

« حمام كتبغا الأسدى » : هذه الحمام موضعها الآن المدرسة الناصرية بخط بين القصرين .

« حمام ألتطمش خان » : هذه الحمام كانت بجوار ميضأة الملك ركن الدين الظاهر بيبرس المجاورة للمدرسة الظاهرية بخط بين القصرين . أنشأتها الخاتون ألطتمش خان ،

(*) ص٨٢ جـ٦ ، ط. بولاق .

زوجة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، ثم خربت وصار موضعها زقاقا .

فلما ولى كمال الدين عمر بن العديم قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية فى سلطنة الملك الناصر فرج ، شرع فى عمارة هذا الزقاق فمات ولم يكمله ، فوضع الأمير جمال الدين يده فى العمارة ، وأنشأها فندقا جعله وقفا فيما وقف على مدرسته التى أنشأها برحبة باب العيد .

فلما قتله الملك الناصر فرج ، واستولى على جميع ما تركه ، جعل هذا الفندق من جملة ما أرصده للتربة التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر .

« حمام القاضى » : هذه الحمام من جملة خط درب الأسوانى ، وهى من الحمامات القديمة . كانت تعرف بانشاء شهاب الدولة بدر الخاص أحد رجال الدولة الفاطمية .

ثم انتقلت الى ملك القاضى رضى الدين عبد الناصر بن تقى الدين فعرفت به ، ثم صارت الى ملك القاضى السعيد أبى المعالى هبة الله ابن فارس ، وصارت بعده الى ملك القاضى كمال الدين أبى حامد محمد ابن قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى ، فعرفت بحمام القاضى الى اليوم .

ثم باع ورثة أبى حامد منها حصة للأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وصارت منها حصة الى الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى ، فجعلها وقفا على مدرسته المجاورة للجامع الأزهر .

« حمام الخراطين » : هذه الحمام أنشأها الأمير نور الدين أبو الحسن على بن نجا بن راجح بن طلائع ، فعرفت بحمام ابن طلائع . وكان بجوارها ثم حمام أخرى تعرف بحمام السوباشى فخربت . ومستوقد حمام ابن طلائع هذه الى الآن من درب ابن طلائع الشارع بسوق الفرايين الآن ، ولها منه أيضا باب .

وصارت أخيرا فى وقف الأمير علم الدين سنجر السرورى ، المعروف بالخياط ، والى القاهرة وتوفى فى سنة ثمان وتسعين وستمائة . فاغتصبها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى جملة ما اغتصب من الأوقاف والأملاك وغيرها ، وجعلها وقفا على مدرسته برحبة باب العيد ، وهى الآن موقوفة عليها .

« حمام الخشيبة » : هذه الحمام بجوار درب السلسلة . كانت تعرف بحمام قوام الدولة خير ، ثم صارت حماما لدار الوزير المأمون ابن البطائحى . فلما قتل الخليفة الآمر بأحكام الله ، وعملت خشبية تمنع الراكب أن يمر من تجاه المشهد الذى بنى هناك ، عرفت هذه الحمام بخشيبة (تصغير خشبة) ، وقد تقدم ذلك مبسوطا عند ذكر الأخطاط من هذا الكتاب .

قال ابن عبد الظاهر : مدرسة السيوفيين وقفها الأمير عز الدين فرج شاه على الحنفية . وكانت هذه الدار قديما تعرف بدار المأمون بن البطائحى وحمام الخشيبة كانت لها فبيعت . وهذه الحمام هى الآن فى أوقاف خوند طغاى أم أنوك ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون

على تربتها التى فى الصحراء خارج باب البرقية .

« حمام الكويك » : هذه الحمام فيما بين حارة زويلة ودرب شمس الدولة . أنشأها الوزير عباس أحد * وزراء الدولة الفاطمية ، لداره التى موضعها الآن درب شمس الدولة ، ثم جددها شخص من التجار يعرف بنور الدين على بن محمد بن أحمد بن محمود بن الكويك الربعى التكريتى ، فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فعرفت به الى اليوم .

« حمام الجوينى » : هذه الحمام بجوار حمام ابن الكويك فيما بينها وبين البندقانيين . عرفت بالأمير عز الدين ابراهيم بن محمد بن الجوينى ، والى القاهرة فى أيام الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، توفى سلخ جمادى الأولى سنة احدى وستمائة ، فانه أنشأها بجوار داره . والعامة تقول : حمام الجهينى ، بهاء ، وهو خطأ .

وتنقلت الى أن اشتراها القاضى أوحد الدين عبد الواحد بن ياسين ، كاتب السر الشريف فى أيام الملك الظاهر برقوق ، بطريق الوكالة عن الملك الظاهر ، وجعلها وقفا على مدرسته العظمى بخط بين القصرين ، وهى الآن فى جملة الموقوف عليها

« حمام القفاصين » : هذه الحمام بالقرب من رأس حارة الديلم . أنشأها نجم الدين يوسف بن المجاور ، وزير الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

(*) ص٨٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

« حمام الصغيرة » : هذه الحمام على يمنة من سلك من رأس حارة بهاء الدين ، وهى تجاه دار قراسنقر . أنشأها الأمير فخر الدين ابن رسول التركمانى . ورسول هذا جد ملوك اليمن الآن . وقد تعطلت هذه الحمام منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة .

« حمام الأعسر » : هذه الحمام موضعها من جملة دار الوزارة ، وهى الآن بجوار باب الجوانية . أنشأها الأمير شمس الدين سنقر المعزى الظاهرى المنصورى .

« سنقر الأعسر » : كان أحد مماليك الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الشام ، وجعله دواداره ، فباشر الدوادارية لأستاذه بدمشق ونفسه تكبر عنها .

فلما عزل أيدمر من نيابة الشام فى أيام الملك المنصور قلاوون وحضر الى قلعة الجبل ، اختار السلطان عدة من مماليكه منهم سنقر الأعسر هذا ، فاشتراه وولاه نيابة الأستادارية ثم سيره فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة الى دمشق وأعطاه امرة ، وولاه شد الدواوين بها وأستادارا .

فصارت له بالشام سمعة زائدة الى أن مات قلاوون ، وقام من بعده الأشرف خليل ، واستوزر الوزير شمس الدين السلعوس ... طلب سنقر الى القاهرة وعاقبه وصادره . فتوصل حتى تزوج بابنة الوزير على صداق مبلغه ألف وخمسمائة دينار فأعاده الى حالته .

ولم يزل الى أن تسلطن الملك العادل كتبغا ، واستوزر الصاحب فخر الدين بن خليل ،

وقبض على سنقر وعلى سيف الدين أستدمر وصادرهما ، وأخذ من سنقر خمسمائة ألف درهم ، وعزله من شد الدواوين ، وأحضره الى القاهرة .

فلما وثب الأمير حسام الدين لاجين على كتبغا وتسلطن ، ولى سنقر الوزارة عوضا عن ابن خليل فى جمادى الأولى سنة ست وتسعين وستمائة ، ثم قبض عليه فى ذى الحجة منها . وذلك أنه تعاظم فى وزارته ، وقام بحق المنصب يريد أن يتشبه بالشجاعى ، وصار لا يقبل شفاعة أحد من الأمراء ويخرق بنواجهم .

وكان فى نفسه متعاظما ، وعنده شمم الى الغاية ، مع سكون فى كلامه بحيث أنه اذا فاوض السلطان فى مهمات الدولة — كما هى عادة الوزراء — لا يجيب السلطان بجواب شاف . وصار يتبين منه للسلطان قلة الاكتراث به ، فأخذ فى ذمه ، وعيبه بما عنده من الكبر ، وصادفه الغرض من الأمراء ، وشرعوا فى الحط عليه حتى صرف وقيد .

فأرسل يسأل السلطان عن الذنب الذى أوجب هذه العقوبة ، فقال : ما له عندى ذنب غير كبره ، فانى كنت اذا دخل الى أحسب أنه هو السلطان وأنا الأعسر ، فصدره منقام ، وحديثى معه كأنى أحدث أستاذى . وقرر من بعده فى الوزارة ابن الخليلى .

فلما قتل لاجين ، وأعيد الملك الناصر محمد ابن قلاوون الى الملك ثانيا ، أفرج عن سنقر الأعسر وعن جماعة من الأمراء ، وأعاد الأعسر الى الوزارة فى جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة .

وفى وزارته هذه كانت هزيمة الملك الناصر بعساكره من غازان . فتولى ناصر الدين الشيخى ، والى القاهرة ، جباية الأموال من التجار وأرباب الأموال لأجل النفقة على العساكر .

وقرر فى وزارته على كل اردب غلة خروبة اذا طلع الى الطحان ، وقرر أيضا نصف السمسرة — ومعناها أنه كان للمنادى على الثياب أجرة دلالته على كل ما مبلغه مائة درهم درهمين ، فيؤخذ منه درهم منهما ويفضل له درهم — واستخدم على هاتين الجهتين نحو مائتين من الأجناد البطالين ، وتحصل فى بيت المال من أموال المصادرات مبلغ عظيم .

ثم خرج الوزير بمائة من مماليك السلطان ، وتوجه الى بلاد الصعيد — وقد وقعت له فى النفوس مهابة عظيمة — فكبس البلاد ، وأتلف كثيرا من المفسدين ، من أجل أنه لما حصلت وقعة غازان كثر طمع العربان فى المغل ، ومنعوا كثيرا من الخراج ، وعصوا الولاة ، وقطعوا الطريق .

وما زال يسير الى الأعمال القوصية ، فلم يدع فرسا لفلاح ولا قاض ولا متعمم حتى أخذه ، وتتبع السلاح ، ثم حضر بألف وستين فرسا وثمانمائة وسبعين جملا وألف وستمائة رمح وألف ومائتى سيف وتسعمائة درقة وستة آلاف رأس غنم ، وقتل عدة من (*) الناس ، فتمهدت البلاد ، وقبض الناس مغلهم بتمامه .

(*) ص ٨١ جـ ٤ ، ط . بولاق .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزي رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

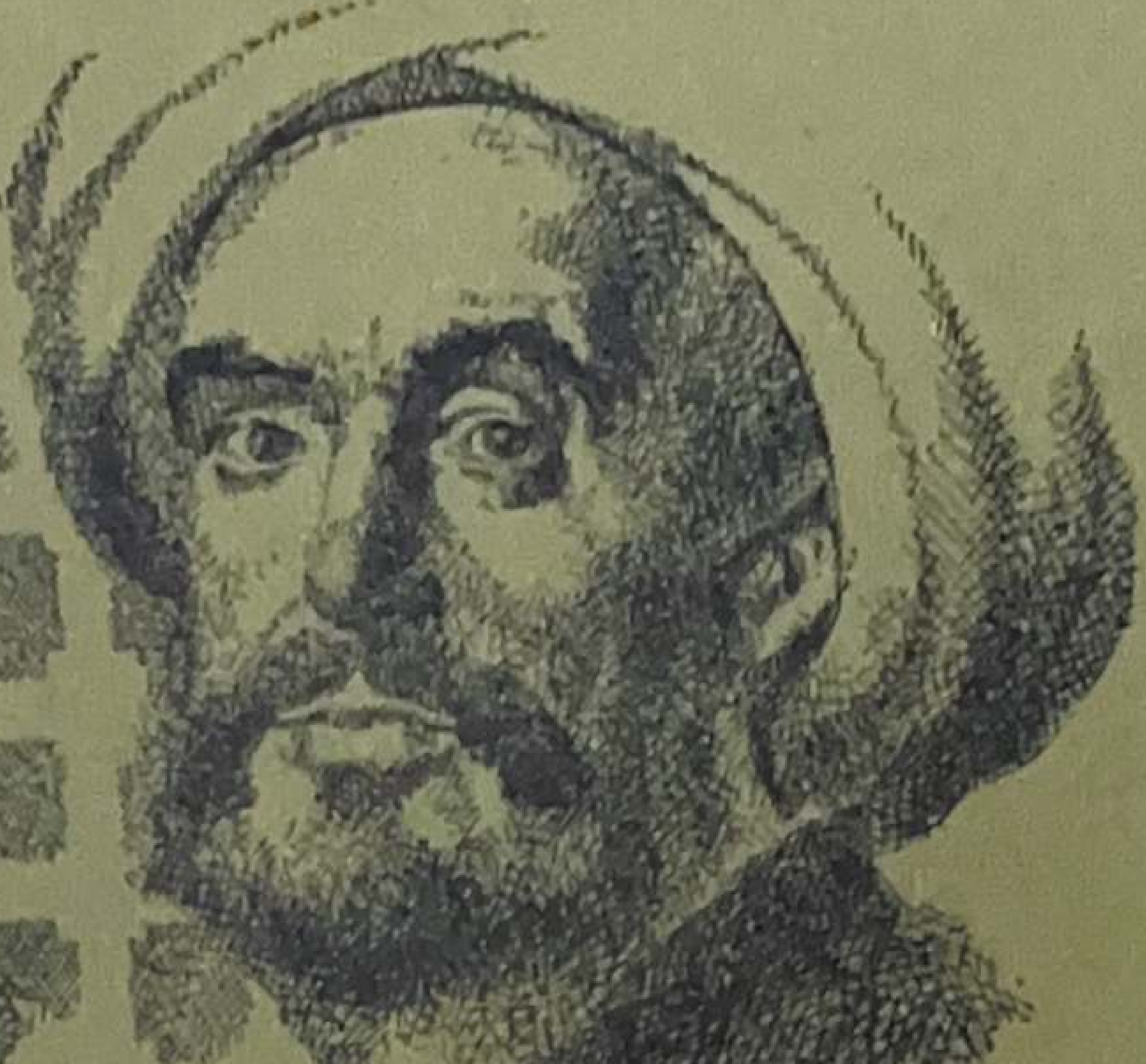
عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء ٢٨

كتاب التحرير



«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها.»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

واتفقت واقعة النصارى — التى ذكرت عند ذكر كنائس النصارى من هذا الكتاب — فى أيامه . فأمر بالتاج ابن سعيد الدولة أحد مستوفى الدولة — وكان فيه زهو وحمق عظيم ، وله اختصاص بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى — فعرى وضرب بالمقارع ضربا مبرحا ، فأظهر الاسلام وهو فى العقوبة ، فأمسك عنه ، وألزمه بحمل مال ، فالتجأ الى زاوية الشيخ نصر المنيحى وترامى على الشيخ ، فقام فى أمره حتى عفى عنه .

فكره الأمراء الأعسر لكثرة شممه وتعاظمه ، فكلموا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى — واليه أمر الدولة — فى ولاية الأمير عز الدين أيبك البغدادى الوزارة ، وساعدهم على ذلك الأمير سلار . فولى الأعسر كشف القلاع الشامية واصلاح أمورها وترتيب رجالها وسائر ما يحتاج اليه ، وخلع على الأمير أيبك خلع الوزارة فى آخر سنة سبعمائة .

فلما عاد استقر أحد أمراء الألوف ، وحج فى صحبة الأمير سلار ، ومات بالقاهرة بعد أمراض فى سنة تسع وسبعمائة . وكان عارفا خيرا مهيبا له سعادات طائلة ومكارم مشهورة ، ولحاشيته ثروة متسعة ، وغالب مماليكه تأمروا بعده ، وممن مدحه الوداعى وابن الوكيل .

« حمام الحسام » : هذه الحمام بداخل باب الجوانية .

« حمام الصوفية » : هذه الحمام بجوار الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء . أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لصوفية الخانقاه ، وهى الى الآن جارية فى أوقافهم ، ولا يدخلها يهودى ولا نصرانى .

« حمام بهادر » : هذه الحمام موضعها من جملة القصر ، وهى بجوار دار جرجى . أنشأها الأمير بهادر أستادار الملك الظاهر برقوق ، وقد تعطلت .

« حمام ألدود » : هذه الحمام خارج باب زويلة ، فى الشارع تجاه زقاق خان حلب ، بجوار حوض سعد الدين مسعود بن هنس ، عرفت بالأمير سيف الدين ألدود الجاشنكيرى أحد أمراء الملك المعز أيبك التركمانى ، وخال ولده الملك المنصور نور الدين على ابن الملك المعز أيبك .

فلما وثب الأمير سيف الدين قطز ، نائب السلطنة بديار مصر ، على الملك المنصور على ابن الملك المعز أيبك واعتقله ، وجلس على سرير المملكة ، قبض على الأمير ألدود فى ذى الحجة سنة سبع وخمسين وستمائة واعتقله .

وهذه الحمام الى اليوم بيد ذرية ألدود من قبل بناته موقوفة عليهم .

« حمام ابن أبى الحوافر » : هذه الحمام خارج مدينة مصر بجوار الجامع الجديد الناصرى . كان موضعها وما حولها عامرا بماء النيل ، ثم انحسر عنه الماء وصار جزيرة ، فبنى الناس عليها بعد الخمسمائة من سنى الهجرة ، كما ذكر عند ذكر ساحل مصر من هذا الكتاب .

وعرفت هذه الحمام بالقاضى فتح الدين أبى العباس أحمد ابن الشيخ جمال الدين أبى عمرو عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل ابن محمد بن أبى الحوافر ، رئيس الأطباء بديار مصر ، ومات ليلة الخميس الرابع عشر من شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة ، ودفن بالقرافة .

« حمام قتال السبع » : هذه الحمام خارج باب القوس من ظاهر القاهرة ، فى الشارع المسلوك فيه من باب زويلة الى صليبة جامع ابن طولون ، وموضعها اليوم بجوار جامع قوصون . عمرها الأمير جمال الدين أقوش المنصورى ، المعروف بقتال السبع ، الموصلى بجانب داره التى هى اليوم جامع قوصون .

فلما أخذ قوصون الدار المذكورة ، وهدمها وعمر مكانها هذا الجامع ، أراد أخذ الحمام — وكانت وقفا — فبعث الى قاضى القضاة شرف الدين الحنبلى الحرانى يلتمس منه حل وقفها ، فأخرب منها جانبا ، وأحضر شهود القيمة ، فكتبوا محضرا يتضمن أن الحمام المذكورة خراب .

وكان فيهم شاهد امتنع من الكتابة فى المحضر ، وقال : ما يسعنى من الله أن أدخل بكرة النهار فى هذا الحمام وأطهر فيها ، ثم أخرج منها وهى عامرة وأشهد بعد ضحوة نهار من ذلك اليوم أنها خراب . فشهد غيره ، وأثبت القاضى الحنبلى المحضر المذكور ، وحكم ببيعها . فاشتراها الأمير قوصون من ورثة قتال السبع ، وهى اليوم عامرة بعمارة ما حولها .

« حمام لؤلؤ » : هذه الحمام برأس رحبة الأيدمرى ملاصقة لدار الساتى من القاهرة . أنشأها الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب .

« لؤلؤ الحاجب » : كان أرمنى الأصل ومن جملة أجناد مصر فى أيام الخلفاء الفاطميين . فلما استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر ، خدم تقدمة الأسطول ، وكان حيثما توجه فتح وانتصر وغنم . ثم ترك الجندية وزوج بناته — وكن أربعا — بجهاز كاف ، وأعطى ابنيه ما يكفيهما ، ثم شرع يتصدق بما بقى معه على الفقراء بترتيب لا خلل فيه ، ودواما لا سآمة معه .

وكان يفرق فى كل يوم اثنى عشر ألف رغيف مع قدور الطعام ، واذا دخل شهر رمضان أضعف ذلك ، وتبتل للتفرقة من الظهر فى كل يوم الى نحو صلاة العشاء الآخرة ، ويضع ثلاثة مراكب طول كل مركب أحد وعشرون ذراعا مملوءة طعاما ، ويدخل الفقراء أفواجا وهو قائم مشدود الوسط كأنه راعى غنم ، وفى يده مغرفة وفى الأخرى جرة سمن ، وهو يصلح صفوف الفقراء ، ويقرب اليهم الطعام والودك ، ويبدأ بالرجال ثم بالنساء * ثم بالصبيان .

وكان الفقراء مع كثرتهم لا يزدحمون لعلمهم أن المعروف يعمهم . فاذا انتهت حاجة الفقراء بسط سماطا للأغنياء تعجز الملوك عن مثله .

(*) ص٨٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وكان له مع ذلك على الاسلام منة توجب أن يترحم عليه المسلمون كلهم . وهى أن فرنج الشوبك والكرك توجهوا نحو مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم لينبشوا قبره صلى الله عليه وسلم ، وينقلوا جسده الشريف المقدس الى بلادهم ، ويدفنوه عندهم ، ولا يسكنوا المسلمين من زيارته الا بجعل .

فأنشأ البرنس أرباط صاحب الكرك سفنا حملها على البر الى بحر القلزم ، وأركب فيها الرجال ، وأوقف مركبين على جزيرة قلعة القلزم تمنع أهلها من استقاء الماء . فسارت الفرنج نحو عيذاب ، فقتلوا وأسروا ، ومضوا يريدون المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ، وذلك فى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على حران . فلما بلغه ذلك بعث الى سيف الدولة ابن منقذ ، نائبه على مصر ، يأمره بتجهيز الحاجب لؤلؤ خلف العدو . فاستعد لذلك ، وأخذ معه قيودا ، وسار فى طلبهم الى القلزم ، وعمر هناك مراكب ، وسار الى أيلة فوجد مراكب للفرنج فحرقها وأسر من فيها .

وسار الى عيذاب ، وتبع الفرنج حتى أدركهم ولم يبق بينهم وبين المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ، الا مسافة يوم — وكانوا ثلثمائة ونيفا ، وقد انضم اليهم عدة من العربان المرتدة — فعندما لحقهم لؤلؤ ، فرت العربان فرقا من سطوته ، ورغبة فى عطيته ، فانه كان قد بذل الأموال حتى انه علق أكياس الفضة على رؤوس الرماح .

فلما فرت العربان التجأ الفرنج الى رأس جبل صعب المرتقى ، فصعد اليهم فى عشرة أنفس وضايقهم فيه ، فخارت قواهم بعدما كانوا معدودين من الشجعان ، واستسلموا ، فقبض عليهم وقيدهم ، وحملهم الى القاهرة . فكان لدخولهم يوم مشهود ، وتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة ، بعدما ساق رجلين من أعيان الفرنج الى منى ، ونحرهما هناك كما تنحر البدن التى تساق هديا الى الكعبة .

ولم يزل على فعل المعروف الى أن مات رحمه الله فى صميم الفلا ، وقد قرب منتهاه ، فى اليوم التاسع من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ودفن بتربته من القرافة ، وهى التى حفر فيها البئر ، ووجد فى قعرها عند الماء أسطام مركب .

وهذه الحمام تفتح تارة وتغلق كثيرا ، وهى باقية الى يومنا هذا من جملة أوقاف الملك . والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر القياسر

ذكر ابن المتوج قياسر مصر ، وهى : قيسارية المحلى ، وقيسارية الضيافة وقف المارستان المنصورى ، وقيسارية شبل الدولة ، وقيسارية ابن الأرسوفى ، وقيسارية ورثة الملك الظاهر بيبرس ، وقيساريتا ابن ميسر . وقد خربت كلها .

« قيسارية ابن قريش » : هذه القيسارية فى صدر سوق الجملون الكبير بجوار باب سوق الوراقين ، ويسلك اليها من الجملون ومن سوق الأخفافيين المسلوك اليه من البندقانيين . وبعضها الآن سكن الأرمنيين ، وبعضها سكن البزازين .

قال ابن عبد الظاهر : استجدها القاضى المرتضى ابن قريش فى الأيام الناصرية الصلاحية وكان مكانها اصطبلا . انتهى .

وهو القاضى المرتضى صفى الدين أبو المجد عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش المخزومى ، أحد كتاب الانشاء فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، قتل شهيدا على عكا فى يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ودفن بالقدس . ومولده فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وسمع السلفى وغيره .

« قيسارية الشرب » : هذه القيسارية بشارع القاهرة تجاه قيسارية جهاركس .

قال ابن عبد الظاهر : وقفها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجماعة الصوفية (يعنى بخانقاه سعيد السعداء) وكانت اصطبلا . انتهى .

وما برحت هذه القيسارية مرعية الجانب اكراما للصوفية ... الى أن كانت أيام الملك الناصر فرج ، وحدثت الفتن ، وكثرت مصادرات التجار ، انخرق ذاك السياج ، وعومل سكانها بأنواع من العسف . وهى اليوم من أعمر أسواق القاهرة .

«قيسارية ابن أبى أسامة» : هذه القيسارية بجوار الجملون الكبير ، على يسرة من سلك الى بين القصرين ، يسكنها الآن الخردفوشية . وقفها الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أحمد ابن الحسن بن أبى أسامة ، صاحب ديوان الانشاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله .

وكانت له رتبة خطيرة ، ومنزلة رفيعة ، وينعت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف ، ولم يكن أحد يشاركه فى هذا النعت بديار مصر فى زمانه . وكان وقف هذه القيسارية فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة . وتوفى فى شوال سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة .

« قيسارية سنقر الأشقر » : هذه القيسارية على يسرة من يدخل من باب زويلة ، فيما بين خزانة شمائل ودرب الصغيرة ، تجاه قيسارية الفاضل . أنشأها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الصالحى النجمى ، أحد المماليك البحرية ، ولم تزل الى أن هدمت وأدخلت * فى الجامع المؤيدى لأيام من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وثمانمائة .

« قيسارية أمير على » : هذه القيسارية بشارع القاهرة تجاه الجملون الكبير بجوار قيسارية جهاركس يفصل بينهما درب قيطون . عرفت بالأمير على ابن الملك المنصور قلاوون الذى عهد له بالملك ولقبه بالملك الصالح ، ومات فى حياة أبيه ... كما قد ذكر فى فندق الملك الصالح .

(*) ص٨٦ جـ٢ ، ط.بولاق م

« قيسارية رسلان » : هذه القيسارية فيما بين درب الصغيرة والحجارين . أنشأها الأمير بهاء الدين رسلان الدوادار ، وجعلها وقفا على خانقاه له بمنشاة المهرانى ، وكانت من أحسن القياسر . فلما عزم الملك المؤيد شيخ على بناء مدرسته ، هدمها فى جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، وعوض أهل الخانقاه عنها خمسمائة دينار .

« قيسارية جهاركس » : قال ابن عبد الظاهر : بناها الأمير فخر الدين جهاركس فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، وكانت قبل ذلك يعرف مكانها بفندق الفراخ ، ولم تزل فى يد ورثته ، وانتقل الى الأمير علم الدين أيتمش منها جزء بالميراث عن زوجته والى بنت شومان من أهل دمشق ، ثم اشتريت لوالدة خليل — المسماة بشجرة الدر الصالحية — فى سنة خمس وخمسين وستمائة . وهى مع حسنها واتقان بنائها كلها ، تجرد من الغصب جميع ما فيها .

وذكر بعض المؤرخين أن صاحبها جهاركس نادى عليها حين فرغت ، فبلغت خمسة وتسعين ألف دينار على الشريف فخر الدين اسماعيل ابن ثعلب ، وقال لصاحبها : أنا أنقدك ثمنها أى نقد شئت ، ان شئت ذهبا ، وان شئت فضة ، وان شئت عروض تجارة .

وقيسارية جهاركس تجرى الآن فى وقف الأمير بكتمر الجوكندار ، نائب السلطنة بعد سلار ، على ورثته .

وقال القاضى شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان : « جهاركس » بن عبد الله فخر الدين أبو المنصور الناصرى الصلاحى ، كان من أكبر أمراء الدولة الصلاحية ، وكان كريما نبيل القدر على الهمة .

بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة اليه ... رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون : لم نر فى شىء من البلاد مثلها فى حسنها وعظمها واحكام بنائها . وبنى بأعلاها مسجدا كبيرا وربعا معلقا . وتوفى فى بعض شهور سنة ثمان وستمائة بدمشق ، ودفن فى جبل الصالحية ، وتربته مشهورة هناك ، رحمه الله .

وجهاركس ، بفتح الجيم والهاء وبعد الألف راء ثم كاف مفتوحة ثم سين مهملة ، ومعناه بالعربى أربعة أنفس ، وهو لفظ عجمى .

وقال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد ابن محمود اليغمورى : سمعت الأمير الكبير الفاضل شرف الدين أبا الفتح عيسى ابن الأمير بدر الدين محمد بن أبى القاسم بن محمد بن أحمد الهكارى البحترى الطائى المقدسى بالقاهرة — ومولده سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالبيت المقدس ، شرفه الله تعالى ، وتوفى بدمشق فى ليلة الأحد تاسع عشرى ربيع الآخر سنة تسع وستمائة ، ودفن بسفح جبل قاسيون ، رحمه الله — قال :

حدثنى الأمير صارم الدين خطلبا التبنينى ، صاحب الأمير فخر الدين أبى المنصور جهاركس بن عبد الله الناصرى الصلاحى رحمه الله ، قال : بلغ الأمير فخر الدين أن بعض الأجناد عنده فرس قد دفع له فيه ألف دينار ولم يسمح ببيعه ، وهو فى غاية الحسن .

فقال لى الأمير : ياخطلبا اذا ركبنا ورأيت فى الموكب هذا الفرس نبهنى عليه حتى أبصره .

فقلت : السمع والطاعة .

فلما ركبنا فى الموكب مع الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر ، رحمه الله ، رأيت الجندى على فرسه ، فتقدمت الى الأمير فخر الدين ، وقلت له : هذا الجندى وهذا الفرس راكبه .

فنظر اليه وقال : اذا خرجنا من سماط السلطان ، فانظر أين الفرس وعرفنى به .

فلما دخلنا الى سماط الملك العزيز ، عجل الأمير فخر الدين وخرج قبل الناس ، فلما بلغ الى الباب قال لى : أين الفرس ؟

قلت : ها هو مع الركاب دار .

فقال لى : ادعه .

فدعوته اليه . فلما وقف بين يديه والفرس معه ، أمره الأمير بأخذ الغاشية ، ووضع الأمير رجله فى ركابه وركبه ، ومضى به الى داره وأخذ الفرس .

فلما خرج صاحبه ، عرفه الركاب دار بما فعله الأمير فخر الدين ، فسكت ومضى الى بيته ، وبقى أياما ولم يطلب الفرس .

فقال لى الأمير فخر الدين : ياخطلبا ، ماجاء صاحب الفرس ولا طلبه ، اطلب لى صاحبه .

قال : فاجتمعت به ، وأخبرته بأن الأمير يطلب الاجتماع به . فسارع الى الحضور .

فلما دخل عليه ، أكرمه الأمير ورفع مكانه ، وحدثه وآنسه وبسطه ، وحضر سماطه فقربه وخصصه من طعامه . فلما فرغ من الأكل ، قال له الأمير : يافلان ما بالك ما طلبت فرسك وله عندنا مدة ؟

فقال : ياخوند وما عسى أن يكون من هذا الفرس ، وما ركبه الأمير الا وهو قد صلح له ، وكلما صلح للمولى فهو على العبد حرام . ولقد شرفنى مولانا بأن جعلنى أهلا أن يتصرف فى عبده ، والمملوك يحسب أن هذا الفرس قد أصابه مرض فمات . وأما الآن فقد وقع فى محله وعند أهله ، ومولانا أحق به ، وما أسعد المملوك اذا صلح لمولانا عنده شىء .

فقال له الأمير : بلغنى أنك أعطيت فيه ألف دينار .

قال : كذلك كان .

قال : فلم لم تبعه ؟

فقال : يامولانا ، هذا الفرس * جعلته للجهاد ، وأحسن ما جاهد الانسان على فرس يعرفه ويثق به ، وما مقدار هذا الفرس له أسوة .

فاستحسن الأمير همته وشكره ، ثم أشار الى ، فتقدمت اليه فقال لى فى أذنى : اذا خرج هذا الرجل ، فاخلع عليه الخلعة الفلانية من أفخر ملبوس الأمير ، وأعطه ألف دينار وفرسه .

(*) ص٨٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلما نهض الرجل أخذته الى الفرش خاناه ، وخلعت عليه الخلعة ، ودفعت اليه الكيس وفيه ألف دينار .

فخدم وشكر وخرج ، فقدم اليه فرسه وعليه سرج خاص من سروج الأمير وعدة فى غاية الجودة ، فقيل اركب فرسك ، فقال : كيف أركبه وقد أخذت ثمنه ، وهذه الخلعة زيادة على ثمنه ؟

ثم رجع الى الأمير فقبل الأرض ، وقال : ياخوند تشريف مولانا لا يرد ، وهذا ثمن الفرس قد أحضره المملوك .

فقال له الأمير فخر الدين : ياهذا نحن جربناك فوجدناك رجلا جيدا ولك همة ، وأنت أحق بفرسك ، خذ هذا ثمنه ولا تبعه لأحد .

فخدمه وشكره ، ودعا له ، وأخذ الفرس والخلعة والألف دينار وانصرف .

وأخبرنى أيضا الأمير شرف الدين بن أبى القاسم ، قال : أخبرنى صارم الدين التبنينى أيضا أن الأمير فخر الدين خدم عنده بعض الأجناد ، فعرض عليه فأعجبه شكله ، وقال لديوانه : استخدموا هذا الرجل .

فتكلموا معه ، وقدروا له فى السنة اثنى عشر ألف درهم ، فرضى الرجل ، وانتقل الى حلقة الأمير قوصون ، وضرب خيمته وأحضر بركه .

فلما كان بعض الأيام رجع الأمير من الخدمة ، فعبر فى جنب خيمة هذا الرجل ، فرأى خيمة حسنة ، وخيلا جيادا وجمالا وبغالا وبركا فى غاية الجودة ، فقال : هذا البرك لمن ؟

فقيل : هذا برك فلان الذى خدم عند الأمير فى هذه الأيام .

فقال : قولوا له ما لك عندنا شغل تمضى فى حال سبيلك .

فلما قيل للرجل ذلك ، أمر بأن تحط خيمته ، وأتى الى وقال : يامولانا أنا رائح ، وهاأنا قد حملت بركى ، ولكن أشتهى منك ان تسأل الأمير : ما ذنبى ؟

قال : فدخلت الى الأمير ، وأخبرته بما قال الرجل .

فقال : والله ما له عندى ذنب ، الا أن هذا البرك وهذه الهمة يستحق بها أضعاف ما أعطى ، فأنكرت عليه كيف رضى بهذا القدر اليسير ، وهو يستحق أن تكون أربعين ألف درهم ، وتكون قليلة فى حقه ، فاذا خدم بثلاثين ألف درهم يكون قد ترك لنا عشرة آلاف درهم . فهذا ذنبه عندى .

فرجعت الى الرجل فأعلمته بما قال الأمير . فقال : انما خدمت عند الأمير ، ورضيت بهذا القدر لعلمى أن الأمير اذا عرف حالى فيما بعد لا يقنع لى بهذا الجارى ، فكنت على ثقة من احسان الأمير أبقاه الله ، وأما الآن فلا أرضى أن أخدم الا بثلاثين ألف درهم كما قال الأمير .

فرجعت الى الأمير وأخبرته بما قال الرجل ، فقال : يجرى له ما طلب . وخلع عليه ، وأحسن اليه .

وكان الأمير فخر الدين جاركس مقدم الناصرية ، والحاكم بديار مصر فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب الى أن مات العزيز . فمال الأمير فخر الدين جاركس الى ولاية ابن الملك العزيز ، وفاوض فى ذلك الأمير سيف الدين يازكوج الأسدى ، وهو يومئذ مقدم الطائفة الأسدية — وكان الملك العزيز قد أوصى بالملك لولده محمد ، وأن يكون الأمير الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى مدبر أمره — فأشار يازكوج بإقامة الملك الأفضل على بن صلاح الدين فى تدبير أمر ابن العزيز . فكره جاركس ذلك .

ثم انهم أقاموا ابن العزيز ، ولقبوه بالملك المنصور ، وعمره نحو تسع سنين ، ونصبوا قراقوش أتابكا وهم فى الباطن يختلفون عليه ، وما زالوا يسعون عليه فى ابطال أمر قراقوش حتى اتفقوا على مكاتبة الأفضل المتقدم ذكره وحضوره الى مصر ، وجعل أتابكية المنصور مدة سبع سنين حتى يتأهل بالاستبداد بالملك ، بشرط ألا يرفع فوق رأسه سنجق الملك ، ولا يذكر اسمه فى خطبة ولا سكة .

فلما سار القاصد الى الأفضل بكتب الأمراء ، بعث جاركس فى الباطن قاصدا ، على لسانه ولسان الطائفة الصلاحية ، بكتبهم الى الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وكتب الى الأمير ميمون القصرى صاحب نابلس يأمره بألا يطيع الملك الأفضل ، ولا يحلف له .

فاتفق خروج الملك الأفضل من صرخد ، ولقاه قاصد فخر الدين جاركس ، فأخذ منه الكتب وقال له : ارجع فقد قضيت الحاجة .

وسار الى القاهرة ومعه القاصد . فلما خرج الأمراء من القاهرة الى لقائه ببلبيس ، عمل له فخر الدين سماطا احتفل فيه احتفالا زائدا لينزل عنده ، فنزل عند أخيه الملك المؤيد نجم الدين مسعود ، فشق ذلك على جاركس ، وجاء الى خدمته .

فلما فرغ من طعام أخيه ، صار الى خيمة جاركس وقعد ليأكل ، فرأى جاركس قاصده الذى سيره فى خدمة الأفضل ، فدهش وأيقن بالشر ، فللحال استأذن الأفضل أن يتوجه الى العرب المختلفين بأرض مصر ليصلح بينهم ، فأذن له .

وقام من فوره ، واجتمع بالأمير زين الدين قراجا والأمير أسد الدين قراسنقر ، وحسن لهما مفارقة الأفضل ، فسارا معه الى القدس وغلبوا عليه ، ووافقهم الأمير عز الدين أسامة ، والأمير ميمون القصرى ، فقدم عليهم فى سبعمائة فارس . ولما صاروا كلمة واحدة ، كتبوا الى الملك العادل يستدعونه للقيام بأتابكية الملك (*) المنصور محمد بن العزيز بمصر .

وأما الأفضل فانه لما دخل من بلبيس الى القاهرة ، قام بتدبير الدولة وأمر الملك ، بحيث لم يبق للمنصور معه سوى مجرد الاسم فقط ، وشرع فى القبض على الطائفة الصلاحية أصحاب جاركس ، ففروا منه الى جاركس بالقدس ، فقبض على من قدر عليه منهم ونهب أموالهم .

(*) ص٨٨ ج٢ ، ط بولاق .

فلما زالت دولة الأفضل من مصر بقدوم الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، استولى فخر الدين جاركس على بانياس بأمر العادل ، ثم انحرف عنه ، وكانت له أبناء الى أن مات . فانقضى أمر الطائفة الصلاحية بموته وموت الأمير قراجا وموت الأمير أسامة ، كما انقضى أمر غيرهم .

« قيسارية الفاضل » : هذه القيسارية على يسرة من يدخل من باب زويلة . عرفت بالقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى ، وهى الآن فى أوقات المارستان المنصورى .

أخبرنى شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد العزيز العفرى البشبيشى ، رحمه الله ، قال : أخبرنى القاضى بدر الدين أبو اسحاق ابراهيم ابن القاضى صدر الدين أبى البركات أحمد بن فخر الدين أبى الروح عيسى بن عمر بن خالد ابن عبد المحسن ، المعروف بابن الخشاب ، أن قيسارية الفاضل وقفت بضع عشرة مرة ، منها مرتين أو أكثر زف كتاب وقفها بالأغانى فى شارع القاهرة .

وهى الآن تشتمل على قيسارية ذات بحرة ماء للوضوء بوسطها ، وأخرى بجانبها يباع فيها جهاز النساء وشوارهن ، ويعلوها ربع فيه عدة مساكن .

« قيسارية بيبرس » : هذه القيسارية على رأس باب الجودرية من القاهرة . كان موضعها دارا تعرف بدار الأنماط اشتراها وما حولها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى قبل ولايته السلطنة وهدمها ، وعمر موضعها هذه القيسارية والربع فوقها ، وتولى عمارة ذلك مجد الدين بن سالم الموقع .

فلما كملت طلب سائر تجار قيسارية جاركس وقيسارية الفاضل ، وألزمهم باخلاء حوانيتهم من القيسارتين وسكناهم بهذه القيسارية ، وأكرههم على ذلك ، وجعل أجرة كل حانوت منها مائة وعشرين درهما نقرة .

فلم يسع التجار الا استئجار حوانيتها ، وصار كثير منهم يقوم بأجرة الحانوت الذى ألزم به فى هذه القيسارية من غير أن يترك حانوته الذى هو معه باحدى القيسارتين المذكورتين . ونقل أيضا صناع الأخفاف ، وأسكنهم فى الحوانيت التى لخارجها ، فعمرت من داخلها وخارجها بالناس فى يومين .

وجاء الى مخدومه الأمير بيبرس — وكان قد ولى السلطنة ، وتلقب بالملك المظفر — وقال : بسعادة السلطان أسكنت القيسارية فى يوم واحد .

فنظر اليه طويلا ، وقال : ياقاضى ان كنت أسكنتها فى يوم واحد ، فهى تخلو فى ساعة واحدة .

فجاء الأمر كما قال . وذلك أنه لما فر بيبرس من قلعة الجبل ، لم يبت فى هذه القيسارية لأحد من سكانها قطعة قماش ، بل نقلوا كل ما كان لهم فيها ، وخلت حوانيتها مدة طويلة ، ثم سكنها صناع الأخفاف كل حانوت بعشرة دراهم ، وفى حوانيتها ما أجرته ثمانية دراهم .

وهى الآن جارية فى أوقاف الخانقاه الركنية بيبرس ، ويسكنها صناع الأخفاف ، وأكثر

حوانيتها غير مسكون لخرابها ولقلة الأخفافيين ويعرف الخط الذى هى فيه اليوم بالأخفافيين رأس الجودرية .

« القيسارية الطويلة » : هذه القيسارية فى شارع القاهرة بسوق الخردفوشيين ، فيما بين سوق المهامزيين وسوق الجوخيين ، ولها باب آخر عند باب سر حمام الخراطين . كانت تعرف قديما بقيسارية السروج . بناها ... ...

« قيسارية .... » : هذه القيسارية تجاه قيسارية السروج ، المعروفة الآن بالقيسارية الطويلة . بعضها وقفه القاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى على ملء الصهريج بدرب ملوخيا ، وبعضها وقف الصالح طلائع بن رزيك الوزير .

وقد هدمت هذه القيسارية . وبناها الأمير جانى بك داودار السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقى الظاهرى ، فى سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ، تربيعة تتصل بالوراقين ، ولها باب من الشارع ، وجعل علوها طباقا وعلى بابها حوانيت ، فجاءت من أحسن المبانى .

« قيسارية العصفر » : هذه القيسارية بشارع القاهرة ، لها باب من سوق المهامزيين وباب من سوق الوراقين ، عرفت بذلك من أجل أن العصفر كان يدق بها . أنشأها علم الدين سنجر المسرورى المعروف الخياط ، والى القاهرة ، ووقفها فى سنة اثنتين وتسعين وستمائة . ولم تزل باقية بيد ورثته الى أن ولى القاضى ناصر الدين محمد بن البارزى الحموى كتابة السر فى أيام المؤيد شيخ ، فاستأجرها مدة أعوام من مستحقيها ، ونقل اليها العنبريين فصارت قيسارية عنبر ، وذلك فى سنة ست عشرة وثمانمائة ، ثم انتقل منها أهل العنبر الى سوقهم فى سنة ثمانى عشرة وثمانمائة .

« قيسارية العنبر » : قد تقدم فى ذكر الأسواق أنها كانت سجنا ، وأن الملك المنصور قلاوون عمرها فى سنة ثمانين وستمائة ، وجعلها سوق عنبر .

« قيسارية الفائزى » : هذه القيسارية كانت بأول الخراطين مما يلى المهامزيين ، لها باب من المهامزيين وباب من الخراطين .

أنشأها الوزير * الأسعد شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن صاعد بن وهيب الفارسى . كان من جلة نصارى صعيد مصر ، وكتب على مبايض ناحية سيوط بدرهم وثلث فى كل يوم ، ثم قدم الى القاهرة وأسلم فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وخدم عند الملك الفائز ابراهيم ابن الملك العادل فنسب اليه ، وتولى نظر الديوان فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب مدة يسيرة .

ثم ولى بعض أعمال ديار مصر ، فنقل عنه ما أوجب الكشف عليه ، فندب موفق الدين الآمدى لذلك ، فاستقر عوضه ، وسجنه مدة ثم أفرج عنه . وسافر الى دمشق ، وخدم بها الأمير جمال الدين يغمور نائب السلطنة بدمشق .

(*) ص٨٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلما قدم الملك المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب من حصن كيفا الى دمشق ، بعد موت أبيه ليأخذ مملكة مصر، سار معه الى مصر فى شوال سنة سبع وأربعين وستمائة . فلما قامت شجرة الدر بتدبير المملكة بعد قتل المعظم ، تعلق بخدمة الأمير عز الدين أيبك التركمانى مقدم العساكر ، الى أن تسلطن وتلقب بالملك المعز ، فولاه الوزارة فى سنة ثمان وأربعين وستمائة .

فأحدث مظالم كثيرة ، وقرر على التجار وذوى اليسار أموالا تجبى منهم ، وأحدث التقويم والتصقيع على سائر الأملاك ، وجبى منها مالا جزيلا ، ورتب مكوسا على الدواب من الخيل والجمال والحمير وغيرها ، وعلى الرقيق من العبيد والجوارى ، وعلى سائر المبيعات ، وضمن المنكرات من الخمر والمزر والحشيش وبيوت الزوانى بأموال ، وسمى هذه الجهات بالحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية .

وتمكن من الدولة تمكنا زائدا الى الغاية ، بحيث أنه سار الى بلاد الصعيد بعساكر لمحاربة بعض الأمراء ، وكان الملك المعز أيبك يكاتبه بالمملوك ، وكثر ماله وعقاره حتى انه لم يبلغ صاحب قلم فى هذه الدول ما بلغه من ذلك ، واقتنى عدة مماليك منهم من بلغ ثمنه ألف دينار مصرية .

وكان يركب فى سبعين مملوكا من مماليكه سوى أرباب الأقلام والأتباع ، وخرج بنفسه الى أعمال مصر ، واستخرج أموالها . وكان ينوب عنه فى الوزارة زين الدين يعقوب بن الزبير ، وكان فاضلا يعرف اللسان التركى ، فصار يضبط له مجالس الأمراء ، ويعرفه ما يدور بينهم من الكلام .

فلم يزل على تمكنه وبسط يده وعظم شأنه الى أن قتل الملك المعز ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور نور الدين على وهو صغير ، فاستقر على عادته ... حتى شهد عليه الأمير سابق الدين بوزبا الصيرفى والأمير ناصر الدين محمد ابن الأطروش الكردى أمير جاندار أنه قال : المملكة لا تقوم بالصبيان الصغار ، والرأى أن يكون الملك الناصر صاحب الشام ملك مصر ، وأنه قد عزم على أن يسير اليه يستدعيه الى مصر ويساعده على أخذ المملكة .

فخافت أم السلطان منه ، وقبضت عليه وحبسته عندها بقلعة الجبل ، ووكلت بعذابه الصارم أحمر عينه العمادى الصالحى ، فعاقبه عقوبة عظيمة ، ووقعت الحوطة على سائر أمواله وأسبابه وحواشيه ، وأخذ خطه بمائة ألف دينار ، ثم خنق لليال مضت من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وستمائة ، ولف فى نخ ودفن بالقرافة . واستقر من بعده فى الوزارة قاضى القضاة بدر الدين السنجارى مع ما بيده من قضاء القضاة .

ولم تزل هذه القيسارية باقية — وكانت تعرف بقيسارية النشاب — الى أن أخذها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، هى والحوانيت على يمنة من سلك من الخراطين يريد الجامع الأزهر — وفيما بينهما كان باب هذه القيسارية ، وكانت هذه الحوانيت تعرف بوقف تمرتاش — وهدم الجميع وشرع

فى بنائه ، فقتل قبل أن يكمل ، وأخذه الملك الناصر فرج .

فبنيت الحوانيت التى هى على الشارع بسوق المهامزيين ، وصار ما بقى ساحة عمرها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقى ناظر الجيش قيسارية يعلوها ربع ، وبنى أيضا على حوانيت جمال الدين ربعا ، وذلك فى سنة خمس وعشرين وثمانمائة .

وقال الامام عفيف الدين أبو الحسن على بن عدلان يمدح الأسعد الفائزى ، رحمه الله ، ابن صاعد وابنه المرتضى :

مذ تولى أمورنا لم أزل منه ذا هبه
وهو ان دام أمره شدة العيش ذاهبه

« قيسارية بكتمر » : هذه القيسارية بسوق الحريريين بالقرب من سوق الوراقين . كانت تعرف قديما بالصاغة ، ثم صارت فندقا يقال له فندق حكم . وأصلها من جملة الدار العظمى التى تعرف بدار المأمون بن البطائحى ، وبعضها المدرسة السيوفية . أنشأ هذه القيسارية الأمير بكتمر الساقى فى أيام الناصر محمد بن قلاوون .

« قيسارية ابن يحيى » : هذه القيسارية كانت تجاه باب قيسارية جهاركس حيث سوق الطيور وقاعات الحلوى .

أنشأها القاضى المفضل هبة الله بن يحيى التميمى المعدل . كان موثقا كاتبا فى الشروط الحكمية فى حدود سنة أربعين وخمسمائة فى الدولة الفاطمية ، ثم صار من جملة العدول ، وبقى الى سنة ثمانين .

وله ابن يقال له كمال الدين عبد المجيد * ابن القاضى المفضل . ولكمال الدين ابن يقال له جلال الدين محمد بن كمال الدين عبد المجيد ابن القاضى المفضل هبة الله بن يحيى . مات فى آخر سنة ستين وسبعمائة .

وقد خربت هذه القيسارية ، ولم يبق لها أثر .

« قيسارية طاشتمر » : هذه القيسارية بجوار الوراقين ، لها باب كبير من سوق الحريريين على يسرة من سلك الى الزجاجين وباب من الوراقين .

أنشأها الأمير طاشتمر فى أعوام بضع وثلاثين وسبعمائة . وسكنها عقادو الأزرار حتى غصت بهم مع كبرها وكثرة حوانيتها ، وكان لهم منظر بهيج فان أكثرهم من بياض الناس ، وتحت يد كل معلم منهم عدة صبيان من أولاد الأتراك وغيرهم . فطالما مررت منها الى سوق الوراقين ، وداخلنى حياء من كثرة من أمر به هناك .

ثم لما حدثت المحن فى سنة ست وثمانمائة ، تلاشى أمرها ، وخرب الربع الذى كان علوها وبيعت أنقاضه ، وبقيت فيها اليوم بقية يسيرة .

« قيسارية الفقراء » : هذه القيسارية خارج باب زويلة بخط تحت الربع . أنشأها ....

« قيسارية بشتاك » : خارج باب زويلة بخط تحت الربع . أنشأها الأمير بشتاك الناصرى ، وهى الآن ... ...

(*) ص٩٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

« قيسارية المحسنى » : خارج باب زويلة تحت الربع ، أنشأها الأمير بدر الدين بيليك المحسنى والى الاسكندرية ، ثم والى القاهرة . كان شجاعا مقداما ، فأخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون الى الشام ، وبها مات فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة . فأخذ ابنه الأمير ناصر الدين محمد بن بيليك المحسنى امرته .

فلما مات الملك الناصر قدم الى القاهرة ، وولاه الأمير قوصون ولاية القاهرة فى سابع عشر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة . فلما قبض على قوصون فى يوم الثلاثاء آخر شهر رجب منها ، أمسك ابن المحسنى ، وأعيد نجم الدين الى ولاية القاهرة ، ثم عزل من يومه وولى الأمير جمال الدين يوسف والى الجيزة ، فأقام أربعة أيام ، وعزل بطلب العامة عزله ورجمه ، فأعيد نجم الدين .

« قيسارية الجامع الطولونى » : هذه القيسارية كان موضعها فى القديم من جملة قصر الامارة الذى بناه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون ، وكان يخرج منه الى الجامع من باب فى جداره القبلى . فلما خرب صار ساحة أرض ، فعمر فيها القاضى تاج الدين المناوى ، خليفة الحكم عن قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة ، قيسارية فى سنة خمسين وسبعمائة من فائض مال الجامع الطولونى ، فكمل فيها ثلاثون حانوتا .

فلما كانت ليلة النصف من شهر رمضان من هذه السنة ، رأى شخص من أهل الخير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه ، وقد وقف على باب هذه القيسارية وهو يقول : « بارك الله لمن يسكن هذه القيسارية » ، وكرر هذا القول ثلاث مرات . فلما قص هذه الرؤيا رغب الناس فى سكناها ، وصارت الى اليوم هى وجميع ذلك السوق فى غاية العمارة .

وفى سنة ثمانى عشرة وثمانمائة ، أنشأها قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينى ، من مال الجامع المذكور ، قيسارية أخرى . فرغب الناس فى سكناها لوفور العمارة بذلك الخط .

« قيسارية ابن مير الكبرى » : هذه القيسارية أدركتها بمدينة مصر فى خط سويقة وردان وهى عامرة يباع بها القماش الجديد من الكتان الأبيض والأزرق والطرح ، وتمضى تجار القاهرة اليها فى يومى الأحد والأربعاء لشراء الأصناف المذكورة .

وذكر ابن المتوج أن لها خمسة أبواب وأنها وقف ، ثم وقعت الحوطة عليها فجرت فى الديوان السلطانى ، وقصدوا بيعها مرارا فلم يقدر أحد على شرائها ، وكان بها عمد رخام فأخذها الديوان وعوضت بعمد كدان ، وأنه شاهدها مسكونة جميعها عامرة . انتهى .

وقد خرب ما حولها بعد سنة ستين وسبعمائة ، وتزايد الخراب حتى لم يبق حولها سوى كيمان ، فعمل لها باب واحد ، وتردد الناس اليها فى اليومين المذكورين لا غير . فلما كانت الحوادث منذ سنة ست وثمانمائة ، واستولى الخراب على اقليم مصر ، تعطلت هذه القيسارية ، ثم هدمت فى سنة ست عشرة وثمانمائة .

« قيسارية عبد الباسط » : هذه القيسارية برأس الخراطين من القاهرة . كان موضعها يعرف قديما بعقبة الصباغين ، ثم عرف بالقشاشين ، ثم عرف بالخراطين .

وكان هناك مارستان ووكالة فى الدولة الفاطمية ، وادركنا بها حوانيت تعرف بوقف تمرتاش المعظمى ، فأخذها الأمير جمال الدين الأستادار فيما أخذ من الأوقاف . فلما قتل أخذ الناصر فرج جانبا منها ، وجدد عمارتها ، ووقفها على تربة أبيه الظاهر برقوق .

ثم أخذها زين الدين عبد الباسط بن خليل فى أيام المؤيد شيخ ، وعمل فى بعضها هذه القيسارية وعلوها ، ووقفها على مدرسته وجامعه . ثم أخذ السلطان الملك الأشرف برسباى بقية الحوانيت من وقف جمال الدين ، وجدد عمارتها فى سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

ذكر الخانات والفنادق *

« خان مسرور » : خان مسرور مكانان : أحدهما كبير ، والآخر صغير . فالكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة الى الحريريين ، كان موضعه خزانة الدرق التى تقدم ذكرها فى خزائن القصر . والصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة الى الجامع الأزهر ، كان ساحة يباع فيها الرقيق بعدما كان موضع المدرسة الكاملية هو سوق الرقيق .

قال ابن الطوير : خزانة الدرق كانت فى المكان الذى هو خان مسرور ، وهى برسم استعمالات الأساطيل من الكبورة الخرجية والخود الجلودية وغير ذلك .

وقال ابن عبد الظاهر : فندق مسرور : مسرور هذا من خدام القصر . خدم الدولة المصرية ، واختص بالسلطان صلاح الدين رحمه الله ، وقدمه على حلقته . ولم يزل مقدما فى كل وقت ، وله بر واحسان ومعروف ، ويقصد فى كل حسنة وأجر وبر ، وبطل الخدمة فى الأيام الكاملية ، وانقطع الى الله تعالى ولزم داره .

ثم بنى الفندق الصغير الى جانبه ، وكان قبل بنائه ساحة يباع فيها الرقيق ، اشترى ثلثها من والدى رحمه الله والثلثين من ورثة ابن عنتر . وكان قد ملك الفندق الكبير لغلامه ريحان وحبسه عليه ، ثم من بعده على الأسرى والفقراء بالحرمين ، وهو مائة بيت الا بيتا ، وبه مسجد تقام فيه الجماعة والجمع .

ولمسرور المذكور بر كثير بالشام وبمصر . وكان قد وصى أن تعمل داره — وهى بخط حارة الأمراء — مدرسة ، ويوقف الفندق الصغير عليها . وكانت له ضيعة بالشام بيعت للأمير سيف الدين أبى الحسن القيمرى بجملة كبيرة ، وعمرت المدرسة المذكورة بعد وفاته .

انتهى .

وقد أدركت فندق مسرور الكبير فى غاية العمارة تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم وكان فيه أيضا مودع الحكم الذى فيه أموال اليتامى والغياب ، وكان من أجل الخانات وأعظمها .

(*) ص٦١ جـ٢ ، ط.بولاق .

فلما كثرت المحن بخراب بلاد الشام منذ سنة تيمورلنك ، وتلاشت أحوال اقليم مصر ، قل التجار وبطل مودع الحكم ، فقلت مهابة هذا الخان ، وزالت حرمته ، وتهدمت عدة أماكن منه . وهو الآن بيد القضاء .

« فندق بلال المغيثى » : هذا الفندق فيما بين خط حمام خشيبة وحارة العدوية . أنشأه الأمير الطواشى أبو المناقب حسام الدين بلال المغيثى ، أحد خدام الملك المغيث صاحب الكرك ، كان حبشى الجنس حالك السواد ، خدم عدة من الملوك ، واستقر لالا الملك الصالح على ابن الملك المنصور قلاوون ، وكان معظما الى الغاية يجلس فوق جميع أمراء الدولة .

وكان الملك المنصور قلاوون اذا رآه يقول : رحم الله أستاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب . أنا كنت أحمل شارموزة هذا الطواشى حسام الدين كلما دخل الى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده فأقدمها له .

وكان كثير البر والصدقات ، وله أموال جزيلة ، ومدحه عدة من الشعراء ، وأجاز على المديح ، وتجاوز عمره ثمانين سنة .

فلما خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون لقتال التتر ، فى سنة تسع وتسعين وستمائة ، سافر معه فمات بالسوادة ودفن بها ، ثم نقل منها بعد وقعة شقحب الى تربته بالقرافة فدفن هناك .

وما برح هذا الفندق يودع فيه التجار وأرباب الأموال صناديق المال . ولقد كنت أدخل فيه فاذا بدائره صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير ، لا يفضل عنها من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه ، وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة على ما يجل وصفه .

فلما أنشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل الزمام الفندق بالقرب منه ، وأنشأ الأمير قلمطاى الفندق بالزجاجين ، وأخذ الأمير يلبغا السالمى أموال الناس فى واقعة تيمورلنك فى سنة ثلاث وثمانمائة ، تلاشى أمر هذا الفندق ، وفيه الى الآن بقية .

« فندق الصالح » : هذا الفندق بجوار باب القوس الذى كان أحد بابى زويلة ، فمن سلك اليوم من المسجد المعروف بسام بن نوح يريد باب زويلة ، صار هذا الفندق على يساره . وأنشأه ، هو وما يعلوه من الربع ، الملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان الملك المنصور قلاوون .

وكان أبوه لما عزم على المسير الى محاربة التتر ببلاد الشام ، سلطنه وأركبه بشعار السلطنة من قلعة الجبل فى شهر رجب سنة تسع وسبعين وستمائة ، وشق به شارع القاهرة من باب النصر الى أن عاد الى قلعة الجبل ، وأجلسه على مرتبته وجلس الى جانبه ، فمرض عقيب ذلك ، ومات ليلة الجمعة الرابع من شعبان .

فأظهر السلطان لموته جزعا مفرطا وحزنا زائدا ، وصرخ بأعلى صوته « واولداه » ، ورمى كلوتته عن رأسه الى الأرض ، وبقى مكشوف الرأس الى أن دخل الأمراء اليه وهو مكشوف الرأس يصرخ « واولداه » ، فعندما

عاينوه كذلك ألقوا كلوتاتهم عن رؤوسهم وبكوا ساعة .

ثم أخذ الأمير طرنطاى النائب شاش السلطان من الأرض ، وناوله للأمير سنقر الأشقر ، فأخذه ومشى وهو مكشوف الرأس ، وباس الأرض وناول الشاش للسلطان ، فدفعه وقال : ايش أعمل بالملك بعد ولدى .

وامتنع من لبسه . فقبل الأمراء الأرض يسألون السلطان فى لبس شاشه ، ويخضعون له فى السؤال ساعة ، حتى أجابهم وغطى رأسه .

فلما أصبح خرجت جنازته من القلعة ، ومعها الأمراء من غير حضور السلطان * ، وساروا بها الى تربة أمه المعروفة بتربة خاتون ، قريبا من المشهد النفيسى ، فواروه وانصرفوا .

فلما كان يوم السبت ثانيه ، نزل السلطان من القلعة وعليه البياض تحزنا على ولده ، وسار ومعه الأمراء بثياب الحزن الى قبر ابنه ، وأقيم العزاء لموته عدة أيام .

« خان السبيل » : هذا الخان خارج باب الفتوح .

قال ابن عبد الظاهر : خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى ، خادم أسد الدين شيركوه وعتيقه ، لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة ، وبه بئر ساقية وحوض .

وقراقوش هذا هو الذى بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر التى بالجيزة على طريق الأهرام ، وعمر بالمقس رباطا ، وأسره الفرنج فى عكا وهو واليها ، فافتكه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعشرة آلاف دينار ، وتوفى مستهل رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ودفن بسفح الجبل المقطم من القرافة .

« خان منكورش » : هذا الخان بخط سوق الخيميين بالقرب من الجامع الأزهر .

قال ابن عبد الظاهر : خان منكورش بناه الأمير ركن الدين منكورش زوج أم الأوحد ابن العادل ، ثم انتقل الى ورثته ، ثم انتقل الى الأمير صلاح الدين أحمد بن شعبان الأربلى فوقفه ، ثم تحيل ولده فى ابطال وقفه ، فاشتراه منه الملك الصالح بعشرة آلاف دينار مصرية ، وجعله مرصدا لوالدة خليل ، ثم انتقل عنها . انتهى .

قال مؤلفه : ومنكورش هذا كان أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتقدم حتى صار أحد الأمراء الصالحية وعرف بالشجاعة والنجدة واصابة الرأى وجودة الرمى وثبات الجأش . فلما مات فى شوال سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، أخذ اقطاعه الأمير يازكوج الأسدى .

وهذا الخان الآن يعرف بخان النشارين على يسرة من سلك من الخراطين الى الخيميين ، وهو وقف على جهات بر .

« فندق ابن قريش » : هذا الفندق ... قال ابن عبد الظاهر : فندق ابن قريش استجده القاضى شرف الدين ابراهيم بن قريش كاتب الانشاء ، وانتقل الى ورثته . انتهى .

(*) ص٩٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

« ابراهيم بن عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش » : أبو اسحاق القرشى المخزومى المصرى الكاتب شرف الدين ، أحد الكتاب المجيدين خطا وانشاء ، خدم فى دولة الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وفى دولة ابنه الملك الكامل محمد ، بديوان الانشاء ، وسمع الحديث بمكة ومصر ، وحدث .

وكانت ولادته بالقاهرة فى أول يوم من ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وقرأ القرآن ، وحفظ كثيرا من كتاب «المهذب» فى الفقه على مذهب الامام الشافعى ، وبرع فى الأدب ، وكتب بخطه ما يزيد على أربعمائة مجلد ، ومات فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

« وكالة قوصون » : هذه الوكالة فى معنى الفنادق والخانات . ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب ونحو ذلك . وموضعها فيما بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء .

كانت أخيرا دارا تعرف بدار تعويل البوعانى ، فأخربها وما جاورها الأمير قوصون ، وجعلها فندقا كبيرا الى الغاية وبدائره عدة مخازن ، وشرط ألا يؤجر كل مخزن الا بخمسة دراهم من غير زيادة على ذلك ، ولا يخرج أحد من مخزنه ، فصارت هذه المخازن تتوارث لقلة أجرتها وكثرة فوائدها .

وقد أدركنا هذه الوكالة ، وان رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش ، لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع ، وازدحام الناس ، وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها . ثم تلاشى أمرها منذ خربت الشام فى سنة ثلاث وثمانمائة على يد تيمورلنك ، وفيها الى الآن بقية .

ويعلو هذه الوكالة رباع تشتمل على ثلثمائة وستين بيتا أدركناها عامرة كلها ، ويحزر أنها تحوى نحو أربعة آلاف نفس ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير . فلما كانت هذه المحن فى سنة ست وثمانمائة ، خرب كثير من هذه البيوت ، وكثير منها عامر آهل .

« فندق دار التفاح » : هذه الدار هى فندق تجاه باب زويلة . يرد اليه الفواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة ، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الواصل من البلاد الشامية انما يباع فى وكالة قوصون اذا قدم ، ومنها ينقل الى سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيهما . وكان موضع دار التفاح هذه فى القديم من جملة حارة السودان التى عملت بستانا فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وأنشأ هذه الدار الأمير طقوزدمر بعد سنة أربعين وسبعمائة، ووقفها على خانقاه بالقرافة . وبظاهر هذه الدار عدة حوانيت تباع فيها الفاكهة ، تذكر رؤيتها وشم عرفها الجنة لطيبها وحسن منظرها ، وتأنق الباعة فى تنضيدها ، واحتفافها بالرياحين والأزهار . وما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل الى الفواكه حر الشمس .

ولا يزال ذلك الموضع غضا طريا ، الا أنه قد اختل منذ سنة ست وثمانمائة ، وفيه بقية ليست بذاك ، ولم تزل الى أن هدم علو الفندق وما بظاهره من الحوانيت فى يوم السبت سادس عشر شعبان سنة * احدى وعشرين وثمانمائة .

وذلك أن الجامع المؤيدى جاء شبابيكه الغربية من جهة دار التفاح ، فعمل فيها كما صار يعمل فى الأوقاف ، وحكم باستبدالها ، ودفع فى ثمن نقضها ألف دينار افريقية عنها مبلغ ثلاثين ألف مؤيدى فضة .

وتحصل من أجرتها الى أن ابتدىء بهدمها فى كل شهر سبعة آلاف درهم فلوسا : عنها ألف مؤيدى . فاستشنع هذا الفعل . ومات الملك المؤيد ولم تكمل عمارة الفندق .

« وكالة باب الجوانية » : هذه الوكالة تجاه باب الجوانية من القاهرة ، فيما بين درب الرشيدى ووكالة قوصون . كان موضعها عدة مساكن ، فابتدأ الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار بهدمها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وبناها فندقا وربعا بأعلاه .

فلما كملت رسم الملك الظاهر برقوق أن تكون دار وكالة يرد اليها مايصل الى القاهرة ، وما يرد من صنف متجر الشام فى البحر كالزيت والرب والدبس ، ويصير ما يرد فى البر يدخل به على عادته الى وكالة قوصون ، وجعلها وقفا على المدرسة الخانقاه التى أنشأها بخط بين القصرين ، فاستمر الأمر على ذلك الى اليوم .

« خان الخليلى » : هذا الخان بخط الزراكشة العتيق . كان موضعه تربة القصر التى فيها قبور الخلفاء الفاطميين ، المعروفة بتربة الزعفران ، وقد تقدم ذكرها عند ذكر القصر من هذا الكتاب .

أنشأه الأمير جهاركس الخليلى ، أميراخور الملك الظاهر برقوق ، وأخرج منها عظام الأموات فى المزابل على الحمير ، وألقاها بكيمان البرقية هوانا بها . فانه كان يلوذ به شمس الدين محمد بن أحمد القليجى ، الذى تقدم ذكره فى ذكر الدور من هذا الكتاب ، وقال له : ان هذه عظام الفاطميين ، وكانوا كفارا رفضة .

فاتفق للخليلى فى موته أمر فيه عبرة لأولى الألباب ، وهو أنه لما ورد الخبر بخروج الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب ، ومجىء الأمير منطاش نائب ملطية اليه ومسيرهما بالعساكر الى دمشق ، أخرج الملك الظاهر برقوق خمسمائة من المماليك ، وتقدم لعدة من الأمراء بالمسير بهم .

فخرج الأمير الكبير أيتمش الناصرى والأمير جهاركس الخليلى هذا والأمير يونس الدوادار والأمير أحمد بن يلبغا الخاصكى والأمير ندكار الحاجب ، وساروا الى دمشق ، فلقيهم الناصرى ظاهر دمشق ، فانكسر عسكر السلطان لمخامرة ابن يلبغا وندكار ، وفر أيتمش الى قلعة دمشق .

(*) ص٩٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقتل الخليلى فى يوم الاثنين حادى عشر شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وسبعمائة وترك على الأرض عاريا وسوأته مكشوفة ، وقد انتفخ — وكان طويلا عريضا — الى أن تمزق وبلى ، عقوبة من الله تعالى بما هتك من رمم الأئمة وأبنائهم

ولقد كان — عفا الله عنه — عارفا خبيرا بأمر دنياه كثير الصدقة ، ووقف هذا الخان وغيره على عمل خبز يفرق بسكة على كل فقير منه فى اليوم رغيفان ، فعمل ذلك مدة سنين . ثم لما عظمت الأسعار بمصر ، وتغيرت نقودها من سنة ست وثمانمائة ، صار يحمل الى مكة مال ويفرق بها على الفقراء .

« فندق طرنطاى » : هذا الفندق كان بخارج باب البحر ظاهر المقس ، وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام ، وكان فيه ستة عشر عمودا من رخام ، طول كل عمود ستة أذرع بذراع العمل فى دور ذراعين ، ويعلوه ربع كبير .

فلما كان فى واقعة هدم الكنائس ، وحريق القاهرة ومصر فى سنة احدى وعشرين وسبعمائة ، قدم تاجر بعد العصر بزيت وزن فى مكسه عشرين ألف درهم نقرة ، سوى أصناف أخر قيمتها مبلغ تسعين ألف درهم نقرة ، فلم يتهيأ له الفراغ من نقل الزيت الى داخل هذا الفندق الا بعد العشاء الآخرة .

فلما كان نصف الليل ، وقع الحريق بهذا الفندق فى ليلة من شهر ربيع الآخر منها ، كما كان يقع فى غير موضع من فعل النصارى ، فاصبح وقد احترق جميعه حتى الحجارة التى كان مبنيا بها ، وحتى الأعمدة المذكورة ، وصارت كلها جيرا ، واحترق علوه ، وأصبح التاجر يستعطى الناس . وموضع هذا الفندق ... ...

ذكر الأسواق

قال ابن سيده : والسوق التى يتعامل فيها تذكر وتؤنث ، والجمع أسواق . وفى التنزيل « الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » . والسوقة لغة فيها . والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان ، الذكر والأنثى فى ذلك سواء .

وقد كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شىء كثير جدا قد باد أكثرها ، وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق ، فيما بين أراضى اللوق الى باب البحر بالمقس ، اثنان وخمسون سوقا أدركناها عامرة ، فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا . وهذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربى ، فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر .

وسأذكر من أخبار الأسواق ما أجد سبيلا الى ذكره ان شاء الله تعالى .

« القصبة » : قال ابن سيده : قصبة البلد مدينته ، وقيل معظمه .

والقصبة هى أعظم أسواق مصر . وسمعت * غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول : ان القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت . كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية

(*) ص٩٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

مما يلى الرمل الى المشهد النفيسى . ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لا يكاد أن ينكر هذا الخبر .

وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الأنواع ، فضلا عن احصاء ما فيها من الأشخاص . وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ، ويقولون : يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل .

يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن ، والتى يوضع فيها الجبن ، والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق الفوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها . فان هذه الأصناف المذكورة اذا حملت من الأسواق ، وأخذ ما فيها ، ألقيت الى المزابل .

ومن أدرك الناس قبل هذه المحن ، وأمعن النظر فيما كانوا عليه من أنواع الحضارة والترف ، لم يستكثر ما ذكرناه . وقد اختل حال القصبة وخرب ، وتعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت ... بعدما كانت مع سعتها تضيق بالباعة ، فيجلسون على الأرض فى طول القصبة بأطباق الخبز وأصناف المعايش ، ويقال لهم أصحاب المقاعد ، وكل قليل يتعرض الحكام لمنعهم واقامتهم من الأسواق ، لما يحصل بهم من تضييق الشوارع ، وقلة بيع أرباب الحوانيت . وقد ذهب والله ما هناك ، ولم يبق الا القليل .

وفى القصبة عدة أسواق منها ما خرب ، ومنها ما هو باق . وسأذكر منها ما يتيسر ان شاء الله تعالى .

« سوق باب الفتوح » : هذا السوق فى داخل باب الفتوح ، من حد باب الفتوح الآن الى رأس حارة بهاء الدين ، معمور الجانبين بحوانيت اللحامين والخضريين والفاميين والشرايحية وغيرهم ، وهو من أجل أسواق القاهرة وأعمرها . يقصده الناس من أقطار البلاد لشراء أنواع اللحمان الضأن والبقر والمعز ، ولشراء أصناف الخضراوات .

وليس هو من الأسواق القديمة ، وانما حدث بعد زوال الدولة الفاطمية عندما سكن قراقوش فى موضعه المعروف بحارة بهاء الدين ، وقد تناقص عما كان فيه منذ عهد الحوادث ، وفيه الى الآن بقية صالحة .

« سوق المرحلين » : هذا السوق أدركته من رأس حارة بهاء الدين الى بحرى المدرسة الصيرمية ، معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة برحالات الجمال وأقتابها وسائر ما تحتاج اليه ، يقصد من سائر اقليم مصر خصوصا فى مواسم الحج . فلو أراد الانسان تجهيز مائة جمل وأكثر فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك ، لكثرة ذلك عند التجار فى الحوانيت بهذا السوق وفى المخازن .

فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة وكثر سفر الملك الناصر فرج بن برقوق الى محاربة الأمير شيخ والأمير نوروز بالبلاد الشامية ، صار الوزراء يستدعون ما يحتاج اليه الجمال من الرحال والأقتاب وغيرها ، فاما لا يدفع ثمنها أو يدفع فيها الشىء اليسير من الثمن . فاختل من ذلك حال المرحلين ، وقلت أموالهم بعد ما كانوا مشتهرين بالغناء الوافر والسعادة الطائلة ، وخرب معظم حوانيت هذا السوق ، وتعطل أكثر ما بقى منها ولم يتأخر فيه سوى القليل .

« سوق خان الرواسين » : هذا السوق على رأس سويقة أمير الجيوش . قيل له ذلك من أجل أن هناك خانا تعمل فيه الرؤوس المغمومة . وكان من أحسن أسواق القاهرة : فيه عدة من البياعين ، ويشتمل على نحو العشرين حانوتا مملوءة بأصناف المآكل . وقد اختل وتلاشى أمره .

«سوق حارة برجوان» : هذا السوق من الأسواق القديمة ، وكان يعرف فى القديم أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش . وذلك أن أمير الجيوش بدر الجمالى لما قدم الى مصر فى زمن الخليفة المستنصر — وقد كانت الشدة العظمى — بنى بحارة برجوان الدار التى عرفت بدار المظفر ، وأقام هذا السوق برأس حارة برجوان .

قال ابن عبد الظاهر : والسويقة المعروفة بأمير الجيوش معروفة بأمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر ، وهى من باب حارة برجوان الى قريب الجامع الحاكمى . وهكذا تشهد مكاتيب دور حارة برجوان القديمة ، فان فيها « والحد القبلى ينتهى الى سويقة أمير الجيوش ، وسوق حارة برجوان هو فى الحد القبلى من حارة برجوان » .

وأدركت سوق حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة . ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة ، فنقول : بحارة برجوان حمامات (يعنى حمامى الرومى وحمام سويد ، فانه كان يدخل اليها من داخل الحارة) وبها فرنان ، ولها السوق الذى لا يحتاج ساكنها الى غيره .

وكان هذا السوق من سوق خان الرواسين الى سوق الشماعين معمور الجانبين بالعدة الوافرة من بياعى لحم الضأن السليخ ، وبياعى اللحم * السميط ، وبياعى اللحم البقرى . وبه عدة كثيرة من الزياتين ، وكثير من الجبانين والخبازين واللبانين والطباخين والشوايين والبواردية والعطارين والخضريين ، وكثير من بياعى الأمتعة .

حتى انه كان به حانوت لا يباع فيه الا حوائج المائدة ، وهى البقل والكراث والشمار والنعناع ، وحانوت لا يباع فيه الا الشيرج والقطن فقط برسم تعمير القناديل التى تسرج فى الليل . وسمعت من أدركت أنه كان يشترى من هذا الحانوت فى كل ليلة شيرج مما يوضع فى القناديل بثلاثين درهما فضة ، عنها يومئذ دينار ونصف . وكان يوجد بهذا السوق لحم الضأن النىء والمطبوخ الى ثلث الليل الأول ومن قبل طلوع الفجر بساعة .

(*) ص٩٥ جـ٢ ، ط.بولاق

وقد خرب أكثر حوانيت هذا السوق ولم يبق لها أثر ، وتعطل بأسره بعد سنة ست وثمانمائة ، وصار أوحش من وتد فى قاع ، بعد أن كان الانسان لا يستطيع أن يمر فيه من ازدحام الناس ليلا ونهارا الا بمشقة . وكان فيه قبانى برسم وزن الأمتعة والمال والبضائع لا يتفرغ من الوزن ، ولا يزال مشغولا به ومعه من يستحثه ليزن له .

فلما كان بعد سنة عشر وثمانمائة ، أنشأ الأمير طوغان الدوادار بهذا السوق مدرسة ، وعمر ربعا وحوانيت ، فتحايى بعض الشيء ، وقبض على طوغان فى سنة ست عشرة وثمانمائة ولم تكمل عمارة السوق ، وفيه الآن بقية يسيرة .

« سوق الشماعين » : هذا السوق من الجامع الأقمر الى سوق الدجاجين . كان يعرف فى الدولة الفاطمية بسوق القماحين ، وعنده بنى المأمون بن البطائحى الجامع الأقمر باسم الخليفة الآمر بأحكام الله ، وبنى تحت الجامع دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح .

وأدركت سوق الشماعين من الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكبية والفانوسية والطوافات ، لا تزال حوانيته مفتحة الى نصف الليل . وكان يجلس به فى الليل بغايا يقال لهن « زعيرات الشماعين » ، لهن سيما يعرفن بها وزى يتميزن به ، وهو لبس الملاءات الطرح ، وفى أرجلهن سراويل من أديم أحمر . وكن يعانين الزعارة ، ويقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم ، وفيهن من تحمل الحديد معها .

وكان يباع فى هذا السوق فى كل ليلة من الشمع بمال جزيل . وقد خرب ولم يبق به الا نحو الخمس حوانيت ، بعدما أدركتها تزيد على عشرين حانوتا ، وذلك لقلة ترف الناس ، وتركهم استعمال الشمع . وكان يعلق بهذا السوق الفوانيس فى موسم الغطاس ، فتصير رؤيته فى الليل من أنزه الأشياء .

وكان به فى شهر رمضان موسم عظيم ، لكثرة ما يشترى ويكترى من الشموع الموكبية التى تزن الواحدة منهن عشرة أرطال فما دونها ، ومن المزهرات العجيبة الزى المليحة الصنعة ، ومن الشمع الذى يحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه ... كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح ، فيمر فى ليالى شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه ، وقد تلاشى الحال فى جميع ما قلنا لفقر الناس وعجزهم .

«سوق الدجاجين» : هذا السوق كان مما يلى سوق الشماعين الى سوق قبو الخرشف . كان يباع فيه من الدجاج والأوز شيء كثير جليل الى الغاية ، وفيه حانوت فيه العصافير التى يبتاعها ولدان الناس ليعتقوها ، فيباع منها فى كل يوم عدد كثير جدا ، ويباع العصفور منها بفلس ، ويخدع الصبى بأنه يسبح فمن أعتقه دخل الجنة ، ولكل واحد حينئذ رغبة فى فعل الخير . وكان يوجد فى كل وقت بهذه الحوانيت من الأقفاص التى بها هذه العصافير آلاف ، ويباع بهذا السوق عدة أنواع من الطير ، وفى كل يوم جمعة

يباع فيه بكرة أصناف القمارى والهزارات والشحارير والببغا والسمان .

وكنا نسمع أن من السمان ما يبلغ ثمنه المئات من الدراهم ، وكذلك بقية طيور المسموع يبلغ الواحد منها نحو الألف ، لتنافس الناس فيها وتوفر عدد المعتنين بها ، وكان يقال لهم غواة طيور المسموع ... سيما الطواشية ، فانه كان يبلغ بهم الترف أن يقتنوا السمان ، ويتأنقوا فى أقفاصه ، ويتغالوا فى أثمانه ، حتى بلغنا أنه بيع طائر من السمان بألف درهم فضة ، عنها يومئذ نحو الخمسين دينارا من الذهب . كل ذلك لاعجابهم بصوته ، وكان صوته على وزن قول القائل : طقطلق وعوع ، وكلما كثر صياحه كانت المغالاة فى ثمنه .

فاعتبر بما قصصته عليك حال الترف الذى كان فيه أهل مصر ، ولا تتخذ حكاية ذلك هزؤا تسخر به ، فتكون ممن لا تنفعه المواعظ بل يمر بالآيات معرضا غافلا ، فتحرم الخير .

وكان بهذا السوق قيسارية عملت مرة سوقا للكتبيين ، ولها باب من وسط سوق الدجاجين ، وباب من الشارع الذى يسلك فيه من بين القصرين الى الركن المخلق . فاتفق أن ولى نيابة النظر فى المارستان المنصورى ، عن الأمير الكبير أيتمش النحاسى الظاهرى ، أمير يعرف بالأمير خضر ابن التنكزية ، فهدم هذا السوق والقيسارية وما يعلوها ، وأنشأ هذه الحوانيت والرباع التى فوقها تجاه ربع الكامل ، الذى يعلو ما بين درب الخضيرى وقبو الخرشف ، فلما كمل أسكن فى الحوانيت عدة من الزياتين وغيرهم . وبقى من الدجاجين بهذا السوق بقية قليلة .

« سوق بين القصرين » * : هذا السوق أعظم أسواق الدنيا فيما بلغنا . وكان فى الدولة الفاطمية براحا واسعا يقف فيه عشرة آلاف ما بين فارس وراجل ، ثم لما زالت الدولة ابتذل ، وصار سوقا يعجز الواصف عن حكاية ما كان فيه . وقد تقدم ذكره فى الخطط من هذا الكتاب ، وفيه الى الآن بقية تحزننى رؤيتها اذ صارت الى هذه القلة .

« سوق السلاح » : هذا السوق فيما بين المدرسة الظاهرية بيبرس وبين باب قصر بشتاك . استجد فيما بعد الدولة الفاطمية فى خط بين القصرين ، وجعل لبيع القسى والنشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح . وكان تجاهه خان يقابل الخان الذى هو الآن بوسط سوق السلاح ، وعلى بابه من الجانبين حوانيت تجلس فيها الصيارف طول النهار .

فاذا كان عصريات كل يوم جلس أرباب المقاعد تجاه حوانيت الصيارف لبيع أنواع من المآكل ، ويقابلهم تجاه حوانيت سوق السلاح أرباب المقاعد أيضا . فاذا أقبل الليل أشعلت السرج من الجانبين ، وأخذ الناس فى التمشى بينهما على سبيل الاسترواح والتنزه ، فيمر هنالك من الخلاعات والمجون ما لا يعبر عنه بوصف .

فلما أنشأ الملك الظاهر برقوق المدرسة الظاهرية المستجدة ، صارت فى موضع الخان

(*) ص٩٦ ج٢ ، ط.بولاق .

وحوانيت الصرف تجاه سوق السلاح ، وقل ما كان هناك من المقاعد ، وبقى منها شىء يسير .

« سوق القيصات » : بصيغة الجمع والتصغير ... هكذا يعرف ، كأنه جمع قميص . فانه كله معد لجلوس أناس على تخوت تجاه شبابيك القبة المنصورية ، وفوق تلك التخوت أقفاص صغار من حديد مشبك ، فيها الطرائف من الخواتيم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك . وهذه الأقفاص يأخذ أجرة الأرض التى هى عليها مباشر المارستان المنصورى .

وأصل هذه الأرض كانت من حقوق أرض موقوفة على جامع المقس ، فدخل بعضها فى القبة المنصورية ، وصار بعضها كما ذكرنا ، والى اليوم يدفع من وقف المارستان حكر هذه الأرض لجامع المقس .

ولما ولى نظر المارستان الأمير جمال الدين أقوش ، المعروف بنائب الكرك ، فى سنة ست وعشرين وسبعمائة ، عمل فيه أشياء من ماله : منها خيمة ذرعها مائة ذراع ، نشرها من أول جدار القبة المنصورية بحذاء المدرسة الناصرية الى آخر حد المدرسة المنصورية بجوار الصاغة ، فصارت فوق مقاعد الأقفاص تظلهم من حر الشمس ، وعمل لها حبالا تمد بها عند الحر وتجمع بها اذا امتد الظل ، وجعلها مرتفعة فى الجو حتى ينحرف الهواء . ثم لما كان شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، نقلت الأقفاص منه الى القيسارية التى استجدت تجاه الصاغة .

« سوق باب الزهومة » : هذا السوق عرف بذلك من أجل أنه كان هناك فى الأيام الفاطمية باب من أبواب القصر ، يقال له باب الزهومة ، تقدم ذكره فى ذكر أبواب القصر من هذا الكتاب .

وكان موضع هذا السوق فى الدولة الفاطمية سوق الصيارف ، ويقابله سوق السيوفيين من حيث الخشبية الى نحو رأس سوق الحريريين اليوم ، وسوق العنبر الذى كان اذ ذاك سجنا يعرف بالمعونة ، ويقابل السيوفيين اذ ذاك سوق الزجاجين ، وينتهى الى سوق القشاشين الذى يعرف اليوم بالخراطين .

فلما زالت الدولة الفاطمية تغير ذلك كله ، فصار سوق السيوفيين من جوار الصاغة الى درب السلسلة ، وبنى فيما بين المدرسة الصالحية وبين الصاغة سوق فيه حوانيت — مما يلى المدرسة الصالحية — يباع فيها الأمشاط بسوق الأمشاطيين ، وفيه حوانيت — فيما بين الحوانيت التى يباع فيها الأمشاط وبين الصاغة — بعضها سكن الصيارف ، وبعضها سكن النقليين ، وهم الذين يبيعون الفستق واللوز والزبيب ونحوه .

وفى وسط هذا البناء سوق الكتبيين يحيط به سوق الأمشاطيين وسوق النقليين ، وجميع ذلك جار فى أوقاف المارستان المنصورى .

وكان سوق باب الزهومة من أجل أسواق القاهرة وأفخرها ، موصوفا بحسن المآكل وطيبها .

واتفق فى هذا السوق أمر يستحسن ذكره لغرابته فى زمننا . وهو أنه عثر متولى الحسبة بالقاهرة ، فى يوم السبت سادس عشر شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، على رجل بواردى بهذا السوق ، يقال له محمد بن خلف ، عنده مخزن فيه حمام وزرازير متغيرة الرائحة لها نحو خمسين يوما ، فكشف عنها فبلغت عدتها أربعة وثلاثين ألفا ومائة وستة وتسعين طائرا : من ذلك حمام ألف ومائة وستة وتسعون ، وزرازير ثلاثة وثلاثون ألفا ، كلها متغيرة اللون والريح ، فأدبه وشهره . وفيه الى الآن بقايا .

« سوق المهامزيين » : هذا السوق مما استجد بعد زوال الدولة الفاطمية ، وكان بأوله حبس المعونة الذى عمله الملك المنصور قلاوون سوق العنبر ، ويقابله المارستان والوكالة ودار الضرب فى الموضع الذى يعرف اليوم بدرب الشمسى وما بحذائه من الحوانيت الى حمام الخراطين وما تجاه ذلك .

وهذا السوق معد لبيع المهاميز . وأدركت الناس وهم يتخذون المهماز كله ، قالبه وسقطه ، من الذهب الخالص ومن الفضة الخالصة ، ولا يترك ذلك الا من يتورع ويتدين ، فيتخذ القالب * من الحديد ويطليه بالذهب أو الفضة ، ويتخذ السقط من الفضة. وقد اضطر الناس الى ترك هذا ، فقل من بقى سقط مهمازه فضة ، ولا يكاد يوجد اليوم مهماز من ذهب .

وكان يباع بهذا السوق البدلات الفضة التى كانت برسم لجم الخيل ، وتعمل تارة من الفضة المجراة بالمينا ، وتارة بالفضة المطلية بالذهب ، فيبلغ زنة ما فى البدلة من خمسمائة درهم فضة الى ما دونها . وقد بطل ذلك .

وكان يباع به أيضا سلاسل الفضة ومخاطم الفضة المطلية ، تجعل تحت لجم الحجور من الخيل خاصة ، فيركب بها أعيان الموقعين وأكابر الكتاب من القبط ورؤساء التجار . وقد بطل ذلك أيضا .

ويباع فيه أيضا الدوى ، والطرف التى فيها الفضة والذهب ، كسكاكين الأقلام ونحوها . وكانت تجار هذا السوق تعد من بياض العامة .

ويتصل بسوق المهامزيين هذا « سوق اللجميين » : ويباع فيه آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد . وفى هذا السوق أيضا عدة وافرة من الطلائين ، وصناع الكفت برسم اللجم والركب والمهاميز ونحو ذلك ، وعدة من صناع مياتر السروج وقرابيسها .

وأدركت السروج تعمل ملونة ما بين أصفر وأزرق ، ومنها ما يعمل من الذبل ، ومنها ما يعمل سيورا من الجلد البلغارى الأسود . ويركب بهذه السروج السود القضاة ومشايخ العلم ، اقتداء بعادة بنى العباس فى استعمال السواد ، على ما جدده بديار مصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد زوال الدولة الفاطمية .

وأدركت السروج التى تركب بها الأجناد والكتاب يعمل للسرج فى قربوسه ستة أطواق من فضة مقبلة مطلية بالذهب ومعقربات من فضة ، ولا يكاد أحد يركب فرسا بسرج ساذج

(*) ص٩٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

الا أن يكون من القضاة ومشايخ العلم وأهل الورع .

فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق ، اتخذ سائر الأجناد السروج المغرقة ، وهى التى جميع قرابيسها من ذهب أو فضة اما مطلية أو سادجة ، وكثر عمل ذلك حتى لم يبق من العسكر فارس الا وسرجه كما ذكرنا ، وبطل السرج المسقط . فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ، غلب على الناس الفقر وكثرت الفتن ، فقلت سروج الذهب والفضة ، وبقى منها الى اليوم بقايا يركب بها أعيان الأمراء وأماثل المماليك .

« سوق الجوخيين » : هذا السوق يلى سوق اللجميين ، وهو معد لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج لعمل المقاعد والستائر وثياب السروج وغواشيها .

وأدركت الناس وقلما تجد فيهم من يلبس الجوخ ، وانما يكون من جملة ثياب الأكابر جوخ لا يلبس الا فى يوم المطر ، وانما يلبس الجوخ من يرد من بلاد المغرب والفرنج وأهل الاسكندرية وبعض عوام مصر ، فأما الرؤساء والأكابر والأعيان فلا يكاد يوجد فيهم من يلبسه الا فى وقت المطر ، فاذا ارتفع المطر نزع الجوخ .

وأخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء اسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطبا المخزومى ، خال أبى رحمه الله ، قال : كنت أنوب فى حسبة القاهرة عن القاضى ضياء الدين المحتسب ، فدخلت عليه يوما وأنا لابس جوخة لها وجه صوف مربع ، فقال لى : وكيف ترضى أن تلبس الجوخ ؟ وهل الجوخ الا لأجل البغلة ؟ ثم أقسم على أن أخلعها .

وما زال بى حتى عرفته أنى اشتريتها من بعض تجار قيسارية الفاضل ، فاستدعاه فى الحال ودفعها اليه ، وأمره باحضار ثمنها ، ثم قال لى : لاتعد الى لبس الجوخ استهجانا له .

فلما كانت هذه الحوادث ، وغلت الملابس ، دعت الضرورة أهل مصر الى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفه ، وصار معظم الناس يلبسون الجوخ ، فتجد الأمير والوزير والقاضى ، ومن دونهم ممن ذكرنا ، لباسهم الجوخ .

ولقد كان الملك الناصر فرج ينزل أحيانا الى الأصطبل وعليه قمجون من جوخ ، وهو ثوب قصير الكمين والبدن يخاط من الجوخ بغير بطانة من تحته ولا غشاء من فوقه ، فتداول الناس لبسه ، واجتلب الفرنج منه شيئا كثيرا لا توصف كثرته . ومحل بيعه بهذا السوق .

ويلى سوق الجوخيين هذا « سوق الشرابشيين » : وهذا السوق مما أحدث بعد الدولة الفاطمية . ويباع فيها الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم .

وانما قيل له سوق الشرابشيين ، لأنه كان من الرسم ، فى الدولة التركية ، أن السلطان والأمراء وسائر العساكر انما يلبسون على رؤوسهم كلوتة صفراء مضربة تضريبا عريضا ، ولها كلاليب بغير عمامة فوقها ، وتكون شعورهم مضفورة مدلاة بدبوقة ، وهى فى

كيس حرير اما أحمر أو أصفر ، وأوساطهم مشدودة ببنود من قطن بعلبكى مصبوغ عوضا عن الحوائص ، وعليهم أقبية اما بيض أو مشجرة أحمر وأزرق ، وهى ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج اليوم ، وأخفافهم من جلد بلغارى أسود ، وفى أرجلهم من فوق الخف سقمان وهو خف ثان ، ومن فوق القبا كمران بحلق وأبزيم ، وصوالق بلغارى كبار يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبة غلة ، مغروز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع .

فلم يزل هذا زيهم منذ استولوا بديار مصر على الملك من سنة ثمان وأربعين وستمائة ... الى أن قام فى المملكة الملك المنصور قلاوون ، فغير هذا الزى بأحسن منه ، ولبسوا الشاشات * ، وأبطلوا لبس الكم الضيق ، واقترح كل أحد من المنصورية ملابس حسنة .

فلما ملك ابنه الأشرف خليل جمع خاصكيته ومماليكه ، وتخير لهم الملابس الحسنة ، وبدل الكلوتات الجوخ والصفر . ورسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مماليكهم بالكلوتات الزركش والطرازات الزركش والكنابيش الزركش والأقبية الأطلس المعدنى حتى يميز الأمير بلبسه عن غيره ، وكذلك فى الملبوس الأبيض أن يكون رفيعا ، واتخذ السروج المرصعة والأكوار المرصعة فعرفت بالأشرفية . وكانت قبل ذلك سروجهم بقرابيس كبار شنعة ، وركب كبار بشعة .

فلما ملك ديار مصر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، استجد العمائم المصرية ، وهى صغار .

(*) ص٩٨ ج٢ ، ط. بولاق »

فلما قام الأمير يلبغا العمرى الخاصكى ، عمل الكلوتات اليلبغاوية ، وكانت كبارا . واستجد الأمير سلار ، فى أيام الملك الناصر محمد ، القباء الذى يعرف بالسلارى ، وكان قبل ذلك يعرف ببلغوطاق .

فلما تملك الملك الظاهر برقوق ، عمل هذه الكلوتات الجركسية ، وهى أكبر من اليلبغاوية وفيها عوج .

وأما الخلع فان السلطان كان اذا أمّر أحدا من الأتراك ألبسه الشربوش ، وهو شىء يشبه التاج كأنه شكل مثلث : يجعل على الرأس بغير عمامة ، ويلبس معه على قدر رتبته اما ثوب بخ أو طرد وحش أو غيره . فعرف هذا السوق بالشرابشيين نسبة الى الشرابيش المذكورة . وقد بطل الشربوش فى الدولة الجركسية .

وكان بهذا السوق عدة تجار لشراء التشاريف والخلع ، وبيعها على السلطان فى ديوان الخاص وعلى الأمراء ، وينال الناس من ذلك فوائد جليلة ، ويقتنون بالمتجر فى هذا الصنف سعادات طائلة .

فلما كانت هذه الحوادث منع الناس من بيع هذا الصنف الا للسلطان ، وصار يجلس به قوم من عمال ناظر الخاص لشراء سائر ما يحتاج اليه ، ومن اشترى من ذلك شيئا سوى عمال السلطان فله من العقاب ما قدر عليه . والأمر على هذا الى يومنا الذى نحن فيه .

وأول من علمته خلع عليه من أهل الدول جعفر بن يحيى البرمكى . وذلك أن أمير المؤمنين هارون الرشيد قال فى اليوم الذى

انعقد له فيه الملك : ياأخي ياجعفر ، قد أمرت لك بمقصوره في داري وما يصلح له من الفراش ، وعشر جوار تكن فيها ليلة مبيتك عندنا .

فقال : ياأمير المؤمنين ما من نعمة متواترة ولا فضل متظاهر ، الا ورأى أمير المؤمنين أجمل وأتم .

ثم انصرف وقد خلع عليه الرشيد ، وحمل بين يديه مائة بدرة دراهم ودنانير ، وأمر الناس فركبوا اليه حتى سلموا عليه ، وأعطاه خاتم الملك ليختم به على ما يريد . فبلغ بذلك صيته أقطار الأرض ، ووصل الى ما لم يصل اليه كاتب بعده . فاقتدى بالرشيد من بعده ، وخلعوا على أولياء دولتهم وولاة أعمالهم . واستمر ذلك الى اليوم .

وأول ما عرف شد السيوف في أوساط الجند ، أن سيف الدين غازى ابن عماد الدين أتابك زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل ، أمر الأجناد ألا يركبوا الا بالسيوف في أوساطهم والدبابيس تحت ركبهم . فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف . وهو أيضا أول من حمل على رأسه الصنجق في ركوبه .

وغازى هذا هو أخو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، ومات في آخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وولى الموصل بعده أخوه قطب الدين مودود .

« سوق الحوائصين » : هذا السوق يتصل بسوق الشرابشين ، وتباع فيه الحوائص — وهي التي كانت تعرف بالمنطقة في القديم — فكانت حوائص الأجناد أولا أربعمائة درهم فضة ونحوها . ثم عمل المنصور قلاوون حوائص الأمراء الكبار ثلثمائة دينار ، وأمراء الطبلخانات مائتى دينار ، ومقدمى الحلقة من مائة وسبعين الى مائة وخمسين دينارا .

ثم صار الأمراء والخاصكية ، في الأيام الناصرية وما بعدها ، يتخذون الحياصة من الذهب ، ومنها ما هو مرصع بالجوهر .

ويفرق السلطان في كل سنة على المماليك من حوائص الذهب والفضة شيئا كثيرا ، وما زال الأمر على ذلك الى أن ولى الناصر فرج . فلما كان في أيام الملك المؤيد شيخ ، قل ذلك .

ووجد في تركة الوزير الصاحب علم الدين عبد الله بن زنبور لما قبض عليه ستة آلاف حياصة ، وستة آلاف كلوتة جاركس .

وما برح تجار هذا السوق من بياض العامة ، وقد قل تجار هذا السوق في زمننا ، وصار أكثر حوانيته يباع فيها الطواقي التي يلبسها الصبيان ، وصارت الآن من ملابس الأجناد .

«سوق الحلاويين» : هذا السوق معد لبيع ما يتخذ من السكر حلوى ، وانما يعرف اليوم بحلاوة منوعة . وكان من أبهج الأسواق لما يشاهد في الحوانيت التي بها من الأواني وآلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة ذات القيم الكبيرة ، ومن الحلاوات المصنعة عدة ألوان وتسمى المجمعة ، وشاهدت بهذا

السوق السكر ينادى عليه كل قنطار بمائة وسبعين درهما .

فلما حدثت المحن ، وغلا السكر لخراب الدواليب التي كانت بالوجه القبلى ، وخراب مطابخ السكر التي كانت بمدينة مصر ... قل عمل الحلوى ، ومات أكثر صناعتها . ولقد رأيت مرة طبقا فيه نقل ، وعدة شقاف من خزف أحمر في بعضها لبن * وفي بعضها أنواع الأجبان ، وفيما بين الشقاف الخيار والموز ، وكل ذلك من السكر المعمول بالصناعة . وكانت أيضا لهم عدة أعمال من هذا النوع يحير الناظر حسنها .

وكان هذا السوق في موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظرا ، فانه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها تسمى العلاليق — واحدها علاقة — ترفع بخيوط على الحوانيت ، فمنها ما يزن عشرة أرطال الى ربع رطل ، تشترى للأطفال . فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده ، وتمتلىء أسواق البلدين مصر والقاهرة وأريافهما من هذا الصنف ، وكذلك يعمل في موسم نصف شعبان . وقد بقى من ذلك الى اليوم بقية غير طائلة .

وكذلك كانت تروق رؤية هذا السوق في موسم عيد الفطر ، لكثرة ما يوضع فيه من حب الخشكنانج وقطع البسندود والمشاش ، ويشرع في عمل ذلك من نصف شهر رمضان ، فتملأ منه أسواق القاهرة ومصر والأرياف ، ولم ير في موسم سنة سبع عشرة وثمانمائة من ذلك شيء بالأسواق ألبتة . فسبحان محيل الأحوال لا اله الا هو .

« سوق الشوايين » : هذا السوق أولا سوق وضع بالقاهرة ، وكان يعرف بسوق الشرايحيين ، وهو من باب حارة الروم الى سوق الحلاويين . وما زال يعرف بسوق الشرايحيين الى أن سكن فيه عدة من بياعى الشواء في حدود السبعمائة من سنى الهجرة ، فزالت عنه النسبة الى الشرايحيين وعرف بالشوايين ، وهو الآن سكن المتعيشين . وانتقل سوق الشرايحيين في زماننا الى خارج باب زويلة ، وعرف بالبسطيين كما سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

قال ابن زولاق في كتاب « سيرة المعز » : وفي شهر صفر من سنة خمس وستين وثلثمائة أنشىء سوق الشرايحيين بالقاهرة . وذكر ذلك ابن عبد الظاهر في كتاب « خطط القاهرة » .

وكان في القديم باب زويلة الذى وضعه القائد جوهر عند رأس حارة الروم ، حيث العقد المجاور الآن للمسجد الذى عرف اليوم بسام بن نوح ، وكان بجواره باب آخر موضعه الآن سوق الماطيين .

فلما نقل أمير الجيوش باب زويلة الى حيث هو الآن ، اتسع ما بين سوق الشرايحيين المذكور وبين باب زويلة الكبير ، وصار الآن فيه سوق الغرابليين ، وفيه عدة حوانيت تعمل مناخل الدقيق والغرابيل ، ويقابلهم عدة حوانيت يصنع فيها الأغلاق المعروفة بالضبب ، وما بعد ذلك الى باب زويلة فيه كثير من

(*) ص٩٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

الحوانيت يجلس ببعضها عدة من الجبانين لبيع أنواع الجبن المجلوب من البلاد الشامية وأدركنا هناك الى أن حدثت المحن من ذلك شيئا كثيرا يتجاوز الحد فى الكثرة .

وفى بعض تلك الحوانيت قوم يجلسون لعلاج من عساه ينصدع له عظم أو ينكسر أو يصيبه جرح ، يعرفون بالمجبرين . وهناك منهم بقية الى يومنا هذا . وبقية الحوانيت ما بين صيارفة وباعى طرف ومتعيشين فى المآكل وغيرها .

فهذه قصبة القاهرة ، وما فى ظاهر باب زويلة فانه خارج القاهرة ، والله تعالى أعلم .

الشارع خارج باب زويلة

هذا الشارع هو تجاه من خرج من باب زويلة ، ويمتد فيما بين الطريق السالك ذات اليمين الى الخليج ، وبين الطريق المسلوك فيه ذات اليسار الى قلعة الجبل .

ولم يكن هذا الشارع موجودا على ما هو عليه الآن عند وضع القاهرة ، وانما حدث بعد وضعها بعدة أعوام على غير هذه الهيئة . فلما كثرت العمائر خارج باب زويلة ، بعد سنة سبعمائة من سنى الهجرة ، صار على ما هو عليه الآن .

فأما أول أمره فان الخليفة الحاكم بأمر الله أنشأ الباب الجديد على يسرة الخارج من باب زويلة على شاطىء بركة الفيل ، وهذا الباب أدركت عقده عند رأس المنجبية بجوار سوق الطيور . ثم لما اختطت حارة اليانسية وحارة الهلالية ، صار ساحل بركة الفيل قبالتها ، واتصلت العمائر من الباب الجديد الى الفضاء الذى هو الآن خارج المشهد النفيسى .

فلما كانت الشدة العظمى فى خلافة المستنصر ، وخربت القطائع والعسكر ، صارت مواضعها خرابا الى خلافة الآمر بأحكام الله . فعمر الناس حتى صارت مصر والقاهرة لا يتخللهما خراب ، وبنى الناس فى الشارع من الباب الجديد الى الجبل عرضا حيث قلعة الجبل الآن ، وبنى حائط يستر خراب القطائع والعسكر .

فعمر من الباب الجديد طولا الى باب الصفا بمدينة مصر ... حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمستخدمون يصلون العشاء الآخرة بالقاهرة، ويتوجهون الى سكنهم فى مصر ، ولا يزالون فى ضوء وسرج وسوق موقود من الباب الجديد خارج باب زويلة الى باب الصفا حيث الآن كوم الجارح ، والمعاش مستمر فى الليل والنهار .

ووقف القاضى الرئيس المختار العدل زكى الدين أبو العباس أحمد بن مرتضى بن سيد الأهل بن يوسف حصة من البستان الكبير ، المعروف يومئذ بالمخاريق الكبرى الكائن فيما بين * القاهرة ومصر بعدوة الخليج ، على القربات ، وشرط أن الناظر يشترى فى كل فصل من فصول الشتاء من قماش الكتان الخام أو القطن ما يراه ، ويعمل ذلك جبانا وبغالطيقا محشوة قطنا ، وتفرق على الأيتام الذكور والاناث الفقراء غير البالغين بالشارع الأعظم خارج باب زويلة ، فيدفع لكل واحد جبة واحدة أو بغلطاقا ، فان تعذر ذلك كان على الأيتام المتصفين بالصفات المذكورة بالقاهرة ومصر وقرافتيهما . وكان هذا الوقف فى سنة ستين وستمائة .

(*) ص١٠٠ ج٢ ، ط.بولاق »

فلما كثرت العمائر خارج باب زويلة ، فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد سنة سبعمائة ، صار هذا الشارع أوله تجاه باب زويلة وآخره فى الطول الصليبة التى تنتهى الى جامع ابن طولون وغيره . لكنهم لا يريدون بالشارع سوى الى باب القوس الذى بسوق الطيوريين ، وهو الباب الجديد .

وبعد باب القوس سوق الطيوريين ، ثم سوق جامع قوصون ، وسوق حوض ابن هنس ، وسوق ربع طفجى . وهذه أسواق بها عدة حوانيت ، لكنها لا تنتهى الى عظم أسواق القاهرة ، بل تكون أبدا دونها بكثير ... فهذا حال القصبة والشارع خارج باب زويلة .

وقد بقيت عدة أسواق فى جانبى القصبة ولها أبواب شارعة ، وفيها أسواق أخر فى نواحى القاهرة ومسالكها سيأتى ذكرها بحسب القدرة ان شاء الله تعالى .

« سويقة أمير الجيوش » : هذه السويقة الآن ، فيما بين حارة برجوان وحارة بهاء الدين ، كانت تعرف بسوق الخروقيين فيما بعد زوال الدولة الفاطمية . وفى هذا السوق عمر الأمير مازكوج الأسدى مدرسته المعروفة الآن بالأزكجية .

وأدركت الناس الى هذا الزمن الذى نحن فيه لا يعرفون هذا السوق الا بسوق أمير الجيوش ، ويعبرون عنه بصيغة التصغير ، ولا أعرف لهم مستندا فى ذلك . والذى تشهد به الأخبار أن سوق أمير الجيوش هو السوق الذى برأس حارة برجوان ، ويمتد الى رأس سويقة أمير الجيوش الآن .

وهذه السويقة من أكبر أسواق القاهرة . بها عدة حوانيت فيها الرفاؤون والحباكون ، وعدة حوانيت للرسامين ، وعدة حوانيت للفرايين وعدة حوانيت للخياطين ، ومعظمها لسكن البزازين والخلعيين ، وفيها عدة من بياعى الأقباع .

ويباع فى هذا السوق سائر الثياب المخيطة والأمتعة من الفرش ونحوها . وهو شارع من شوارع القاهرة يسلك فيه من باب الفتوح وبين القصرين وباب النصر الى باب القنطرة وشاطىء النيل وغيره .

وكان ما بعد هذا السوق الى باب القنطرة معمور الجانبين بالحوانيت ، المعدة لبيع الظرائف والمغازل والكتان والأنواع من المآكل والعطر وغيره ، وقد خرب أكثر هذه الحوانيت فى سنى المحنة وما بعدها . ولسويقة أمير الجيوش عدة قياسر وفنادق ، والله أعلم .

« سوق الجملون الصغير » : هذا السوق يسلك فيه من رأس سويقة أمير الجيوش الى باب الجوانية وباب النصر ورحبة باب العيد . وهو مجاور لدرب الفرحية ، وفيه المدرسة الصيرمية ، وباب زيادة الجامع الحاكمى . وكان أولا يعرف بالأمراء القرشيين بنى النورى ، ثم عرف بالجملون الصغير ، وبجملون ابن صيرم . وهو الأمير جمال الدين شويخ ابن صيرم أحد الأمراء فى أيام الملك

الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، واليه تنسب المدرسة الصيرمية ، والخط المعروف خارج باب الفتوح ببستان ابن صيرم .

وأدركت هذا الجملون معمور الجانبين من أوله الى آخره بالحوانيت : ففى أوله كثير من البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان من الخام والأزرق وأنواع الطرح وأصناف ثياب القطن ، وينادى فيه على الثياب بحراج حراج ، وفيه عدة من الخياطين ، وعدة من البابية المعدين لغسل الثياب وصقالها . وبآخره كثير من الضببين ، بحيث لو أراد أحد أن يشترى منه ألف ضبة فى يوم لما عسر عليه ذلك .

فلما حدثت المحن خرب هذا السوق بخلو حوانيته ، وصار مقفرا من ساكنيه ، ثم انه عمر بعد سنة عشر وثمانمائة ، وفيه الآن نفر من البزازين وقليل ممن سواهم .

« سوق المحايرين » : هذا السوق فيما بين الجامع الأقمر وبين جملون بن صيرم . يسلك فيه من سوق حارة برجوان ومن سوق الشماعين الى الركن المخلق ورحبة باب العيد ، وهو من شوارع القاهرة المسلوكة ، وفيه عدة حوانيت لعمل المحاير التى يسافر فيها الى الحجاز وغيره ، وكان فيه تاجران قد تراضيا على ما يشتريانه من المحاير المعرضة للبيع . ولهذا السوق موسم عظيم عند سفر الحاج ، وعند سفر الناس الى القدس .

وبلغنى عن شيخ كان بهذا السوق أنه أوصى بعض صبيانه فقال له : يابنى لا تراع أحدا فى بيع فانه لا يحتاج اليك الا مرة فى عمره ، فخذ عدالك فى ثمن المحارة فانك لا تخشى من عوده مرة أخرى اليك ، وسوف اذا عاد من سفره اما الى الحجاز أو القدس فانه يحتاج الى بيعها ، فتزاهد عليه فى ثمنها ، واشترها بالرخيص .

وكذلك يفعل أهل هذا السوق الى اليوم ، فانهم لا يراعون بائعا ولا مشتريا . الا أن سوقهم لم يبق كما أدركناه ، فانه حدث سوق آخر يباع فيه المحاير بسوق الجامع الطولونى ، وصار بسوق الخيميين أيضا صناع * للمحاير .

وبلغنى أن بالمحايرين هذه أوقف أهل مصر امرأة من جريد مؤزرة ، بيدها ورقة فيها سب الخليفة الحاكم بأمر الله ولعنه ، عندما منع النساء من الخروج فى الطرقات . فعندما مر من هناك حسبها امرأة تسأله حاجة ، فأمر بأخذ الورقة منها ، فاذا فيها من السب ما أغضبه ، فأمر بها أن تؤخذ فاذا هى من جريد قد ألبس ثيابا ، وعمل كهيئة امرأة . فاشتد عند ذلك غضبه ، وأمر العبيد باحراق مدينة مصر ، فأضرموا فيها النار .

ولم أقف على هذا الخبر مسطورا . وقد ذكر المسبحى حريق الحاكم بأمر الله لمصر ، ولم يذكر قصة المرأة .

« الصاغة » : هذا المكان تجاه المدارس الصالحية بخط بين القصرين .

قال ابن عبد الظاهر : الصاغة بالقاهرة كانت مطبخا للقصر يخرج اليه من باب الزهومة ،

(*) ص ١٠١ جـ ٢ ، ط . بولاق .

وهو الباب الذى هدم وبنى مكانه قاعة شيخ الحنابلة من المدارس الصالحية .

وكان يخرج من المطبخ المذكور مدة شهر رمضان ألف ومائتا قدر من جميع الألوان فى كل يوم تفرق على أرباب الرسوم والضعفاء ، وسمى باب الزهومة — أى باب الزفر — لأنه لا يدخل باللحم وغيره الا منه فاختص بذلك . انتهى .

والصاغة الآن وقف على المدارس الصالحية وقفها الملك السعيد بركة خان ، المسمى بناصر الدين محمد ، ولد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، على الفقهاء المقررين بالمدارس الصالحية .

« سوق الكتبيين » : هذا السوق فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية . أحدث فيما أظن بعد سنة سبعمائة ، وهو جار فى أوقاف المارستان المنصورى .

وكان سوق الكتب قبل ذلك بمدينة مصر تجاه الجانب الشرقى من جامع عمرو بن العاص ، فى أول زقاق القناديل بجوار دار عمرو ، وأدركه وفيه بقية بعد سنة ثمانين وسبعمائة ، وقد دثر الآن فلا يعرف موضعه .

وكان قد نقل سوق الكتبيين من موضعه الآن بالقاهرة الى قيسارية كانت فيما بين سوق الدجاجين المجاور للجامع الأقمر وبين سوق الحصريين المجاور للركن المخلق . وكان يعلو هذه القيسارية ربع فيه عدة مساكن ، فتضررت الكتب من نداوة أقبية البيوت وفسد بعضها ، فعادوا الى سوق الكتب الأول حيث هو الآن .

وما برح هذا السوق مجمعا لأهل العلم يترددون اليه . وقد أنشدت قديما لبعضهم :

مجالسة السوق مذمومة
ومنها مجالس قد تحتسب
فلا تقربن غير سوق الجياد
وسوق السلاح وسوق الكتب
فهاتيك آلة أهل الوغى
وهاتيك آلة أهل الأدب

« سوق الصنادقيين » : هذا السوق تجاه المدرسة السيوفية . كان موضعه فى القديم من جملة المارستان ، ثم عرف بفندق الدبابليين ، وقيل له الآن سوق الصنادقيين . وفيه تباع الصناديق والخزائن والأسرة مما يعمل من الخشب .

وكان ما بظاهرها قديما يعرف بسكن الدجاجين ، وأدركناه يعرف بسوق السيوفيين ، وكان فيه عدة طباخين لا يزال دخان كوانينهم منعقدا لكثرته ... حتى قال لى شيخنا قاضى القضاة مجد الدين اسماعيل ابن ابراهيم الحنفى : ان قاضى القضاة جلال الدين جاد الله قال له : هذا السوق قطب دائرة الدخان .

وفى سوق الصنادقيين الى الآن بقية .

« سوق الحريريين » : هذا السوق من باب قيسارية العنبر الى خط البندقانيين . كان يعرف قديما بسقيفة العداس ، ثم عمل صاغة القاهرة ، ثم سكن هناك الأساكفة .

قال ابن عبد الظاهر : وكانت الصاغة قديما فيما تقدم مكان الأساكفة الآن . وهو الى الآن معروف بالصاغة القديمة ، وكان يعرف

بسقيفة العداس ... كذا رأيت فى كتب الأملاك .

وعرف هذا السوق فى زماننا بالحريريين الشراربيين ، وعرف بعضه بسوق الزجاجين ، وكان يسكن فيه أيضا الأساكفة . فلما أنشأ الأمير يونس الدوادار القيسارية على بئر زويلة بخط البندقانيين ، فى أعوام بضع وثمانين وسبعمائة ، نقل الأساكفة من هذا الخط ، ونقل منه أيضا بياعى أخفاف النساء الى قيساريته وحوانيته المذكورة .

« سوق العنبريين » : هذا السوق فيما بين سوق الحريريين الشراربيين وبين قيسارية العصفر ، وهو تجاه الخراطين . كان فى الدولة الفاطمية مكانه سجنا لأرباب الجرائم يعرف بحبس المعونة ، وكان شنيع المنظر ضيقا ، لا يزال من يجتاز عليه يجد منه رائحة منكرة .

فلما كان فى الدولة التركية ، وصار قلاوون من جملة الأمراء الظاهرية بيبرس ، صار يمر من داره الى قلعة الجبل على حبس المعونة هذا ، فيشم منه رائحة رديئة ، ويسمع منه صراخ المسجونين وشكواهم الجوع والعرى والقمل ، فجعل على نفسه ان الله تعالى جعل له من الأمر شيئا أن يبنى هذا الحبس مكانا حسنا . فلما صار اليه ملك ديار مصر والشام ، هدم حبس المعونة ، وبناه سوقا أسكنه بياعى العنبر .

وكان للعنبر اذ ذاك بديار مصر نفاق ، وللناس فيه رغبة زائدة ، لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وان سفلت * الا ولها قلادة من عنبر ، وكان يتخذ منه المخاد والكلل والستور وغيرها . وتجار العنبر يعدون من بياض الناس ، ولهم أموال جزيلة ، وفيهم رؤساء وأجلاء .

فلما صار الملك الى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، جعل هذا السوق وما فوقه من المساكن وقفا على الجامع الذى أنشأه بظاهر مصر جوار موردة الخلفاء ، المعروف بالجامع الجديد الناصرى ، وهو جار فى أوقافه الى يومنا هذا ... الا أن العنبر من بعد سنة سبعين وسبعمائة كثر فيه الغش حتى صار اسما لا معنى له ، وقلت رغبة الناس فى استعماله ، فتلاشى أمر هذا السوق بالنسبة لما كان .

ثم لما حدثت المحن بعد سنة ست وثمانمائة ، قل ترفه أهل مصر عن استعمال الكثير من العنبر ، فطرق هذا السوق ما طرق غيره من أسواق البلد ، وبقيت فيه بقية يسيرة ... الى أن خلع الخليفة المستعين بالله العباسى بن محمد فى سنة خمس عشرة وثمانمائة — وكان نظر الجامع الجديد بيده وبيد أبيه الخليفة المتوكل على الله محمد — فقصد بعض سفهاء العامة يكاتبه بتعطيل هذا السوق ، فاستأجر قيسارية العصفر ، ونقل سوق العنبر اليها ، وصار معطلا نحو سنتين ، ثم عاد أهل العنبر الى هذا السوق على عادتهم فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة .

« سوق الخراطين » : هذا السوق يسلك فيه من سوق المهامزيين الى الجامع الأزهر وغيره ، وكان قديما يعرف بعقبة الصباغين ، ثم عرف بسوق القشاشين ، وكان فيما بين دار

(*) ص١٠٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

الضرب والوكالة الآمرية وبين المارستان ، ثم عرف الآن بسوق الخراطين .

وكان سوقا كبيرا معمور الجانبين بالحوانيت المعدة لبيع المهد الذى يربى فيه الأطفال ، وحوانيت الخراطين ، وحوانيت صناع السكاكين وصناع الدوى ... يشتمل على نحو الخمسين حانوتا .

فلما حدثت المحن تلاشى هذا السوق ، واغتصب الأمير جمال الدين يوسف الأستادار منه عدة حوانيت ، من أوله الى الحمام التى تعرف بحمام الخراطين ، وشرع فى عمارتها . فعوجل بالقتل قبل اتمامها ، وقبض عليها الملك الناصر فرج فيما أحاط به من أمواله ، وأدخلها فى الديوان .

فقام بعمارة الحوانيت التى تجاه قيسارية العصفر من درب الشمسى الى أول الخراطين ، القاضى الرئيس تقى الدين عبد الوهاب بن أبى شاكر .

فلما كملت جعلها الملك الناصر فيما هو موقوف على تربته التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر ، وأفرد الحمام وبعض الحوانيت القديمة للمدرسة التى أنشأها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار برحبة باب العيد ، وما يقابل هذه الحوانيت هو وما فوقه وقف على المدرسة القراسنقرية وغيرها ، وهو متخرب متهدم .

« سوق الجملون الكبير » : هذا السوق بوسط سوق الشرابشيين ، يتوصل منه الى البندقانيين والى حارة الجودرية وغيرها ، أنشىء فيه حوانيت سكنها البزازون . وقفه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على تربة مملوكة يلبغا التركمانى عندما مات فى سنة سبع وسبعمائة ، ثم عمل عليه بابان بطرفيه بعد سنة تسعين وسبعمائة ، فصارت تغلق فى الليل .

وكان فيما أدركناه شارعا مسلوكا طول الليل يجلس تجاهه صاحب العسس — الذى عرفته العامة فى زماننا بوالى الطوف — من بعد صلاة العشاء فى كل ليلة ، وينصب قدامه مشعل يشعل بالنار طول الليل ، وحوله عدة من الأعوان وكثير من السقائين والنجارين والقصارين والهدادين ، بنوت مقررة لهم ، خوفا من أن يحدث بالقاهرة فى الليل حريق فيتداركون اطفاءه .

ومن حدث منه بالليل خصومة ، أو وجد سكران ، أو قبض عليه من السراق ، تولى أمره والى الطوف ، وحكم فيه بما يقتضيه الحال . فلما كانت هذه الحوادث بطل هذا الرسم فى جملة ما بطل .

وهذا السوق الآن جار فى وقف .....

« سوق الفرائين » : هذا السوق يسلك فيه من سوق الشرابشيين الى الأكفانيين والجامع الأزهر وغير ذلك . كان قديما يعرف بسوق الخروقيين ، ثم سكن فيه صناع الفراء وتجاره فعرف بهم .

وصار بهذا السوق ، فى أيام الملك الظاهر برقوق ، من أنواع الفراء ما يجل أثمانها وتتضاعف قيمها ، لكثرة استعمال رجال الدولة من الأمراء والمماليك لبس السمور والوشق والقماقم والسنجاب ، بعد ما كان ذلك فى

الدولة التركية من أعز الأشياء التي لا يستطيع أحد أن يلبسها .

ولقد أخبرني الطواشي الفقيه الكاتب الحاسب الصوفي زين الدين مقبل[1] ، الرومي الجنس المعروف بالشامي ، عتيق السلطان الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون : أنه وجد في تركة بعض أمراء السلطان حسن قباء بفرو قاقم ، فاستكثر ذلك عليه وتعجب منه ، وصار يحكي ذلك مدة لعزة هذا الصنف واحترامه ، لكونه من ملابس السلطان وملابس نسائه .

ثم تبذلت الأصناف المذكورة حتى صار يلبس السمور آحاد الأجناد وآحاد الكتاب وكثير من العوام ، ولا تكاد امرأة من نساء بياض الناس تخلو من لبس السمور ونحوه ؟ والى الآن عند الناس من هذا الصنف وغيره من الفرو شيء كثير .

« سوق الطاقيين » : هذا السوق فيما بين سوق الجملون الكبير وبين قيسارية الشرب الآتي ذكرها ان شاء الله ، تعالى عند ذكر القياسر . وباب هذا السوق شارع من القصبة ، ويعرف بسوق الخشية (تصغير خشبة) فانه عمل على بابه المذكور خشبة تمنع الراكب من التوصل اليه .

ويسلك من هذا السوق الى قيسارية الشرب وغيرها ، وهو معمور الجانبين بالحوانيت المعدة لبيع الكوافي والطواقي التي تلبسها الصبيان والبنات . وبظاهر هذا السوق أيضا في القصبة عدة حوانيت لبيع الطواقي وعملها .

وقد كثر لبس رجال الدولة ، من الأمراء والمماليك والأجناد ومن يتشبه بهم ، الطواقي في الدولة الجركسية ؛ وصاروا يلبسون الطاقية على رؤوسهم بغير عمامة ، ويمرون كذلك في الشوارع والأسواق والجوامع والمواكب — لا يرون بذلك بأسا بعدما كان نزع العمامة عن الرأس عارا وفضيحة ، ونوعوا هذه الطواقي ما بين أخضر وأحمر وأزرق وغيره من الألوان .

وكانت أولا ترتفع نحو سدس ذراع ، ويعمل أعلاها مدورا مسطحا . فحدث في أيام الملك الناصر فرج منها شيء ، عرف بالطواقي الجركسية ، يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثي ذراع ، وأعلاها مدور مقبب . وبالغوا في تبطين الطاقية بالورق والكثيرة فيما بين البطانة المباشرة للرأس والوجه الظاهر للناس ، وجعلوا من أسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو القرض الأسود يقال له القندس ، في عرض نحو ثمن ذراع ، يصير دائرا بجبهة الرجل وأعلى عنقه . وهم على استعمال هذا الزي الى اليوم ، وهو من أسمج ما عانوه .

وشبه الرجال في لبس ذلك بالنساء لمعنيين : أحدهما أنه فشا في أهل الدولة محبة الذكران ، فقصد نساؤهم التشبه بالذكران ليستملن قلوب رجالهن ، فاقتدى بفعلهن في ذلك عامة نساء البلد .

وثانيهما ما حدث بالناس من الفقر ، ونزل بهم من الفاقة ، فاضطر حال نساء أهل مصر الى ترك ما أدركنا فيه النساء من لبس الذهب والفضة والجواهر ولبس الحرير ، حتى لبسن

---

(1) ص ٣٠١ جـ ٢ ، ط بولاق .

هذه الطواقي ، وبالغن في عملها من الذهب والحرير وغيره ، وتواصين على لبسها .

ومن تأمل أحوال الوجود ، عرف كيف تنشأ أمور الناس في عاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم .

«سوق الخلعيين » : هذا السوق فيما بين قيسارية الفاضل ، الآتي ذكرها ان شاء الله تعالى ، وبين باب زويلة الكبير . وكان يعرف قديما بالخشابين ، وعرف اليوم بالزقيق — تصغير زقاق — وعرف أيضا بسوق الخلعيين ، كأنه جمع خلعي . والخلعي في زماننا هو الذي يتعاطى بيع الثياب الخلع وهي التي قد لبست .

وهذا السوق اليوم من أعمر أسواق القاهرة لكثرة ما يباع فيه من ملابس أهل الدولة وغيرهم ، وأكثر ما يباع فيه الثياب المخيطة ، وهو معمور الجوانب بالحوانيت ، ويسلك فيه من القصبة ليلا ونهارا الى حارة الباطلية وخوخة أيدغمش وغير ذلك . وفي داخل القاهرة أيضا عدة أسواق ، وقد خرب الآن أكثرها .

« سويقة الصاحب » : هذه السويقة يسلك اليها من خط البندقانيين ومن باب الخوخة وغير ذلك ، وهي من الأسواق القديمة . كانت في الدولة الفاطمية تعرف بسويقة الوزير — يعني أبا الفرج يعقوب بن كلس ، وزير الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز ، الذي تنسب اليه حارة الوزيرية — فانها كانت على باب داره التي عرفت بعده في الدولة الفاطمية بدار الديباج .

وصار موضعها الآن المدرسة الصاحبية ، ثم صارت تعرف بسويقة دار الديباج — يعني دار الطراز — ينسج فيها الديباج الذي هو الحرير ؛ وقيل لذلك الموضع كله خط دار الديباج ، ثم عرف هذا السوق بالسوق الكبير في أخريات الدولة الفاطمية .

فلما ولي صفي الدين عبد الله بن شكر الدميري وزارة الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، سكن في هذا الخط ، وأنشأ به مدرسته التي تعرف الى اليوم بالمدرسة الصاحبية ، وأنشأ به أيضا رباطه وحمامه المجاورين للمدرسة المذكورة ... عرفت من حينئذ هذه السويقة بسويقة الصاحب المذكور ، واستمرت تعرف بذلك الى يومنا هذا .

ولم تزل من الأسواق المعتبرة . يوجد فيها أكثر ما يحتاج اليه من المآكل ، لوفور نعم من يسكن هنالك من الوزراء وأعيان الكتاب . فلما حدثت المحن طرقها ما طرق غيرها من أسواق القاهرة ، فاختلت عما كانت ، وفيها بقية .

« سوق البندقانيين » : هذا السوق يسلك اليه من سوق الزجاجين ومن سويقة الصاحب ومن سوق الابزاريين وغيره . وكان يعرف قديما بسوق بئر زويلة .

وكان هنالك بئر قديمة تعرف ببئر زويلة ، برسم اصطبل الجميزة الذي كان فيه خيول الخلفاء الفاطميين ، وصار موضعه خط البندقانيين بعد ذلك ، كما ذكر عند اصطبلات الخلفاء الفاطميين من هذه الكتاب . وموضع هذه البئر اليوم قيسارية يونس والربع الذي يعلوها ، وبقي منها موضع ركب عليه حجر ، وأعدت لملء السقائين منها .

فلما زالت الدولة ، واختط موضع اصطبل الجميزة الدور وغيرها ، وعرف موضع الاصطبل بالبندقانيين ... قيل لهذا السوق سوق البندقانيين . وأدركته سوقا كبيرا ، معمور الجانبين بالحوانيت التى قد تهدم أعلاها منذ كان الحريق بالبندقانيين فى سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، كما ذكر فى خط البندقانيين عند ذكر الأخطاط من هذا الكتاب .

وفى هذا * السوق كثير من أرباب المعاش المعدين لبيع المأكولات من الشواء والطعام المطبوخ وأنواع الأجبان والألبان والبوارد والخبز والفواكه ، وعدة كثيرة من صناع قسى البندق ، وكثير من الرسامين ، وكثير من بياعى الفقاع . فلما حدثت المحن بعد سنة ست وثمانمائة ، اختل هذا السوق خللا كبيرا وتلاشى أمره .

« سوق الأخفافيين » : هذا السوق بجوار سوق البندقانيين ، يباع فيه الآن خفاف النسوان ونعالهن . وهو سوق مستجد أنشأه الأمير يونس النوروزى ، دوادار الملك الظاهر برقوق ، فى سنة بضع وثمانين وسبعمائة ، ونقل اليه الأخفافيين بياعى أخفاف النساء من خط الحريريين والزجاجين .

وكان مكانه مما خرب فى حريق البندقانيين فركب بعض القيسارية على بئر زويلة ، وجعل بابها تجاه درب الأنجب ، وبنى بأعلاها ربعا كبيرا فيه عدة مساكن ، وجعل الحوانيت بظاهرها وبظاهر درب الأنجب ، وبنى فوقها أيضا عدة مساكن . فعمر ذلك الخط بعمارة هذه الأماكن ، وبه الى الآن سكن بياعى أخفاف النساء ونعالهن التى يقال للنعل منها « سرموزة » ، وهو لفظ فارسى معناه « رأس الخف » ، فان سر رأس ، وموزة خف .

« سوق الكفتيين » : هذا السوق يسلك اليه من البندقانيين ومن حارة الجودرية ومن الجملون الكبير وغيره ، ويشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة .

وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم ، وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة ... أدركنا من ذلك شيئا لا يبلغ وصفه واصف لكثرته ، فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ، ولا بد أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت .

والدكة عبارة عن شىء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس ، أو من خشب مدهون . وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ كبراها ما يسع نحو الاردب من القمح ، وطول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض أصبعين ، ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها فى جوف بعض ، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر ، وغير ذلك من المناير والسرج وأحقاق الأشنان والطشت والابريق والمبخرة . فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهبا .

وكانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار ، تجهز فى

(*) ص١٠٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

شورتها ، عند بناء الزوج عليها ، سبع دكك : دكة من فضة ، ودكة من كفت ، ودكة من نحاس أبيض ، ودكة من خشب مدهون ، ودكة من صينى ، ودكة من بلور ، ودكة كداهى ، وهى آلات من ورق مدهون تحمل من الصين أدركنا منها فى الدور شيئا كثيرا . وقد عدم هذا الصنف من مصر الا شيئا يسيرا .

حدثنى القاضى الفاضل الرئيس تاج الدين أبو الفداء اسماعيل أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومى ، رحمه الله ، قال : تزوج القاضى علاء الدين بن عرب محتسب القاهرة بامرأة من بنات التجار تعرف بست العمائم ، فلما قارب البناء عليها والدخول بها ، حضر اليه فى يوم وكيلها وأنا عنده ، فبلغه سلامها عليه وأخبره أنها بعثت اليه بمائة ألف درهم فضة خالصة ليصلح بها لها ما عاه اختل من الدكة الفضة .

فأجابه الى ما سأل وأمره باحضار الفضة . فاستدعى الخدم من الباب فدخلوا بالفضة فى الحال ، وبالوقت أمر المحتسب بصناع الفضة وطلائها ، فأحضروا وشرعوا فى اصلاح ما أرسلته ست العمائم من أوانى الفضة واعادة طلائها بالذهب ... فشاهدنا من ذلك منظرا بديعا .

وأخبرنى من شاهد جهاز بعض بنات السلطان حسن بن محمد بن قلاوون — وقد حمل فى القاهرة — عندما زفت على بعض الأمراء فى دولة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، فكان شيئا عظيما : من جملته دكة من بلور تشتمل على عجائب ، منها زير من بلور قد نقش بظاهره صور ثابتة على شبه الوحوش والطيور ، وقدر هذا الزير ما يسع قربة ماء .

وقد قل استعمال الناس فى زمننا هذا للنحاس المكفت وعز وجوده ، فان قوما لهم عدة سنين قد تصدوا لشراء ما يباع منه ، وتنحية الكفت عنه طلبا للفائدة .

وبقى بهذا السوق الى يومنا هذا بقية من صناع الكفت قليلة .

« سوق الأقباعيين » : بخط تحت الربع خارج باب زويلة مما يلى الشارع المسلوك فيه الى قنطرة الخرق .

ما كان منه على يمنة السالك الى قنطرة الخرق ، فانه جار فى وقف الملك الظاهر بيبرس هو وما فوقه على المدرسة الظاهرية بخط بين القصرين وعلى أولاده ، ولم يزل الى يوم السبت خامس شهر رمضان سنة عشرين وثمانمائة ، فوقع الهدم فيه ليضاف الى عمارة الملك المؤيد شيخ المجاورة لباب زويلة .

وما كان من هذا السوق على يسرة من سلك الى القنطرة ، فانه جار فى وقف أقبغا عبد * الواحد على مدرسته المجاورة للجامع الأزهر ، وبعضه وقف امرأة تعرف بدنيا .

« سوق السقطيين » : هذا السوق خارج باب زويلة بجوار دار التفاح . أنشأه الأمير أقبغا عبد الواحد ، وهو جار فى وقفه .

« سويقة خزانة البنود » : هذه السويقة على باب درب راشد وتمتد الى خزانة البنود ، وكانت تعرف أولا بسويقة ريدان الصقلبى المنسوب اليه الريدانية خارج باب النصر .

(*) ص١٠٥ جـ٢ ، ط.بولاق .

« سويقة المسعودى » : هذه السويقة من حقوق حارة زويلة بالقاهرة . تنسب الى الأمير صارم الدين قايماز المسعودى ، مملوك الملك المسعود أقسيس ابن الملك الكامل .

وولى المسعودى هذا ولاية القاهرة — وكان ظالما غاشما جبارا — من أجل أنه كان فى دار ابن قرفة التى من جملتها جامع ابن المغربى وبيت الوزير ابن أبى شاكر . ثم ان فتح الدين بن معتصم الداودى التبريزى كاتب السر يجددها فى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، لأنه كان يسكن هناك .

ومات المسعودى فى يوم الاثنين النصف من ذى الحجة سنة أربع وستين وستمائة . ضربه شخص فى دار العدل بسكين كان يريد أن يقتل بها الأمير عز الدين الحلى نائب السلطنة ، فوقعت فى فؤاد المسعودى فمات لوقته .

« سويقة طغلق » : هذه السويقة على رأس الحارة الصالحية مما يلى الجامع الأزهر . عرفت بالأمير سيف الدين طغلق السلاح دار ، صاحب حمام طغلق التى بالقرب من الجامع الأزهر على باب درب المنصورى ، وصاحب دار طغلق التى عرفت اليوم بدار المنصورى فى الدرب المذكور .

وأول ما عمرت هذه السويقة لم يكن فيها غير أربع حوانيت ، ثم عمرت عمارة كبيرة لما خربت سويقة الصالحية التى كانت مما يلى باب البرقية فى حدود سنة ثمانين وسبعمائة ، ثم تلاشت من سنة ست وثمانمائة كما تلاشى غيرها من الأسواق ، وبقى فيها يسير جدا .

« سويقة الصوانى » : هذه السويقة خارج باب النصر وباب الفتوح بخط بستان ابن صيرم . عرفت بالأمير علاء الدين أبى الحسن على بن مسعود الصوانى ، مشد الدواوين فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وقيل بل قراجا الصوانى أحد مقدمى الحلقة فى أيام الملك المنصور قلاوون ، وكان فى حدود سنة احدى وثمانين وستمائة موجودا ، وكانت داره هناك .

وكان أيضا فى أيام الملك المنصور قلاوون الأمير زين الدين أبو المعالى أحمد بن شرف الدين أبى المفاخر محمد الصوانى ، شاد الدواوين ، وكان يسكن بمدينة مصر . والأمير علم الدين سنجر الصوانى أحد الأمراء المقدمين الألوف فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون والملك المظفر بيبرس ، وهو صاحب البئر التى بالباطلية المعروفة ببئر الدرابزين . وعز الدين أيبك الصوانى .

« سويقة البلشون » : هذه السويقة خارج باب الفتوح . عرفت بسابق الدين سنقر البلشون أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وسلاح درايته ، وكان له أيضا بستان بالمقس خارج القاهرة من بجوار الدكة يعرف ببستان البلشون .

« سويقة اللفت » : هذه السويقة كانت خارج باب النصر من ظاهر القاهرة حيث البئر التى فى شمالى مصلى الأموات ، المعروف ببئر اللفت ، تجاه دار ابن الحاجب . كانت تشتمل على عدة حوانيت يباع فيها اللفت والكرنب ، ويحمل منها الى سائر أسواق القاهرة ، ويباع اليوم فى بعض هذه الحوانيت الدريس لعلف الدواب .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٢٩

كتاب التحرير



«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاعتراف من آثارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها».

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

« سويقة زاوية الخدام » : هذه السويقة خارج باب النصر بحرى سويقة اللفت . كان فيها عدة حوانيت يباع فيها أنواع المآكل ، فلما كانت سنة ست وثمانمائة خربت ، ولم يبق فيها سوى حوانيت لا طائل بها .

« سويقة الرملة » : هذه السويقة كانت فيما بين سويقة زاوية الخدام وجامع آل ملك حيث مصلى الأموات التى هناك . كان فيها عدة حوانيت مملوءة بأصناف المآكل قد خرب سائرها ، ولم يبق لها أثر ألبتة .

« سويقة جامع آل ملك » : أدركتها الى سنة ست وثمانمائة ، وهى من الأسواق الكبار ، فيها غالب ما يحتاج اليه من الأدام . وقد خربت لخراب ما يجاورها .

« سويقة أبى ظهير » : كانت تلى سويقة جامع آل ملك . أدركتها عامرة .

« سويقة السنابطة » : كانت هناك . عرفت بقوم من أهل سنباط سكنوا بها . أدركتها أيضا عامرة .

« سويقة العرب » : هذه السويقة كانت تتصل بالريدانية ، خربت فى الغلاء الكائن فى سنة ست وسبعين وسبعمائة . وأدركت حوانيت هذه السويقة وهى خالية من السكان الا يسيرا وعقودها من اللبن . ويقال له وما وراءه خراب الحسينية .

وكانت فى غاية العمارة . وكان بأولها مما يلى الحسينية فرن ، أدركته عامرا الى ما بعد سنة تسعين وسبعمائة . بلغنى أنه كان قبل ذلك فى أعوام ستين وسبعمائة يخبز فيه كل يوم نحو سبعة آلاف رغيف لكثرة من حوله من السكان . وتلك الأماكن اليوم لا ساكن فيها الا البوم ، ولا يسمع بها الا الصدى .

« سويقة العزى » : هذه السويقة خارج باب زويلة قريبا من قلعة الجبل . كانت من جملة المقابر التى خارج القاهرة فيما بين الباب الجديد والحارات وبركة الفيل وبين الجبل الذى عليه الآن قلعة الجبل * . فلما اختطت هذه الجهة ، كما تقدم ذكره عند ذكر ظواهر القاهرة ، عرفت هذه السويقة بالأمير عز الدين أيبك العزى نقيب الجيوش ، واستشهد على عكا عندما فتحها الأشرف خليل بن قلاوون فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة . وهذه السويقة عامرة بعمارة ما حولها .

« سويقة العياطين » : هذه السويقة بخط المقس بالقرب من باب البحر . عرف بالفقير المعتقد مسعود بن محمد بن سالم العياط لسكنه بالقرب منها ، وله هناك مسجد بناه فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

وأخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسن ابن عمر الشهرزورى ، وكيل أبى رحمه الله ، أن النشو ناظر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، طرح على أهل هذه السويقة عدة أمطار عسل قصب ، وألزمهم فى ثمن كل قنطار بعشرين درهما . فوقفوا الى السلطان وعيطوا حتى أعفاهم من ذلك ، فقيل لها من حينئذ سويقة العياطين .

ولفظة عياط عند أهل مصر بمعنى صياح ، والعياط الصياح . وأصل ذلك فى اللغة أن العطعطة تتابع الأصوات واختلافها فى الحرب ،

(*) ص١٠٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وهى أيضا حكاية أصوات المجان اذا قالوا عيط عيط وذلك اذا غلبوا قوما ، وقد عطعطوا وعطعط بالذئب اذا قال له عاط عاط . فحرف عامة مصر ذلك ، وجعلوا العياط الصياح ، واشتقوا منه الفعل . فاعرف ذلك .

« سويقة العراقيين » : هذه السويقة بمدينة مصر الفسطاط . وانما عرفت بذلك لأن قريبا الأزدى وزحافا الطائى — وكانا من الخوارج — خرجا على زياد بن أمية بالبصرة ، فاتهم زياد بهما جماعة من الأزد ، وكتب الى معاوية ابن أبى سفيان يستأذنه فى قتلهم ، فأمر بتغريبهم عن أوطانهم .

فسيرهم الى مصر ، وأميرها مسلمة بن مخلد ، وذلك فى سنة ثلاث وخمسين ، وكان عددهم نحوا من مائتين وثلاثين ، فأنزلوا بالظاهر أحد خطط مصر — وكان اذ ذاك طرقا — أراد أن يسد بهم ذلك الموضع . فنزلوا فى الموضع المعروف بكوم سراج ، وكان فضاء ، فبنوا لهم مسجدا ، واتخذوا سوقا لأنفسهم ، فسمى سويقة العراقيين .

ذكر العوايد التى كانت بقصبة القاهرة

اعلم أن قصبة القاهرة ما برحت محترمة ، بحيث انه كان فى الدولة الفاطمية اذا قدم رسول متملك الروم ينزل من باب الفتوح ، ويقبل الأرض وهو ماش ، الى أن يصل الى القصر . وكذلك كان يفعل كل من غضب عليه الخليفة ، فانه يخرج الى باب الفتوح ويكشف رأسه ويستغيث بعفو أمير المؤمنين حتى يؤذن له بالمصير الى القصر .

وكان لها عوايد : منها أن السلطان من ملوك بنى أيوب ، ومن قام بعدهم من ملوك الترك ، لا بد اذا استقر فى سلطنة ديار مصر أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل اليها راكبا والوزير بين يديه على فرس ، وهو حامل عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه وقد أمسكه بيديه ، وجميع الأمراء ورجال العساكر مشاة بين يديه ، منذ يدخل الى القاهرة من باب الفتوح أو من باب النصر ، الى أن يخرج من باب زويلة . فاذا خرج السلطان من باب زويلة ركب حينئذ الأمراء وبقية العسكر .

ومنها أنه لا يمر بقصبة القاهرة حمل تبن ولا حمل حطب ، ولا يسوق أحد فرسا بها ، ولا يمر بها سقاء الا وراويته مغطاة .

ومن رسم أرباب الحوانيت أن يعدوا عند كل حانوت زيرا مملوءا بالماء ، مخافة أن يحدث الحريق فى مكان فيطفأ بسرعة ، ويلزم صاحب كل حانوت أن يعلق على حانوته قنديلا طول الليل يسرج الى الصباح .

ويقام فى القصبة قوم يكنسون الأزبال والأتربة ونحوها ، ويرشون كل يوم ، ويجعل فى القصبة طول الليل عدة من الخفراء يطوفون بها لحراسة الحوانيت وغيرها ، ويتعاهد كل قليل بقطع ما عساه تربى من الأوساخ فى الطرقات حتى لا تعلو الشوارع .

وأول من ركب بخلع الخليفة فى القاهرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة : تاسع شهر رجب

وصلت الخلع التى كانت نفذت الى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من الخليفة ببغداد ، وهى جبة سوداء وطوق ذهب ، فلبسها نور الدين بدمشق اظهارا لشعارها ، وسيرها الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ليلبسها . وكانت أنفذت له خلعة ذكر أنه استقصرها واستزراها واستصغرها دون قدره .

واستقر السلطان صلاح الدين بداره ، وباتت الخلع مع الواصل بها شاه ملك برأس الطابية . فلما كان العاشر منه ، خرج قاضى القضاة والشهود والمقرئون والخطباء الى خيمته ، واستقر المسير بالخلعة — وهو من الأصحاب النجمية — وزينت البلد ابتهاجا بها .

وفيه ضربت النوب الثلاث بالباب الناصرى على الرسم النورى فى كل يوم . فأما دمشق فالنوب المضروبة بها خمس على رسم قديم ، لأن الأتابكية لها قواعد ورسوم * مستقرة بينهم فى بلادهم .

وفى حادى عشره ركب السلطان بالخلع ، وشق بين القصرين والقاهرة . ولما بلغ باب زويلة نزع الخلع ، وأعادها الى داره ، ثم شمر للعب الأكرة . ولم يزل الرسم كذلك فى ملوك بنى أيوب حتى انقضت أيامهم ، وقام من بعدهم مماليكهم الأتراك ، فجروا فى ذلك عادة ملوك بنى أيوب .

الى أن قام فى مملكة مصر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وقتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله — وهو آخر خلفاء بنى العباس ببغداد — وقدم على الملك الظاهر أبو العباس أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله ابن الخليفة الناصر ، فى شهر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة ، فتلقاه وأكرمه وبايعه ، ولقبه بالخليفة المستنصر بالله ، وخطب باسمه على المنابر ونقش السكة باسمه .

فلما كان فى يوم الاثنين الرابع من شعبان ، ركب السلطان الى خيمة ضربت له بالبستان الكبير من ظاهر القاهرة ، ولبس خلعة الخليفة وهى جبة سوداء ، وعمامة بنفسجية ، وطوق من ذهب ، وسيف بداوى . وجلس مجلسا عاما ، حضر فيه الخليفة والوزير والقضاة والأمراء والشهود ، وصعد القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب السر منبرا نصب له ، وقرأ تقليد السلطان الذى عهد به اليه الخليفة ، وكان بخط ابن لقمان ومن انشائه .

ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق ، ودخل من باب النصر ، وشق القاهرة وقد زينت له ، وحمل الوزير الصاحب بهاء الدين محمد بن على بن حنا التقليد على رأسه قدام السلطان والأمراء ، ومن دونهم مشاة بين يديه ، حتى خرج من باب زويلة الى قلعة الجبل . فكان يوما مشهودا .

وفى ثالث شوال سنة اثنتين وستين وستمائة ، سلطن الملك الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ، وأركبه بشعار السلطنة ، ومشى قدامه وشق القاهرة كما تقدم ، وسائر الأمراء مشاة من باب النصر الى قلعة الجبل ، وقد زينت القاهرة .

(*) ص١٠٧ ج٢ ، ط. بولاق .

وآخر من ركب بشعار السلطنة وخلعة الخلافة والتقليد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، عند دخوله الى القاهرة من البلاد الشامية ، بعد قتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ، واستيلائه على المملكة فى ثامن جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة .

وقال المسبحى فى حوادث سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة : نودى فى السقائين أن يغطوا روايا الجمال والبغال لئلا تصيب ثياب الناس .

وقال فى سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة : أمر العزيز بالله أمير المؤمنين بنصب أزيار الماء مملوءة ماء على الحوانيت ، ووقود المصابيح على الدور ، وفى الأسواق . وفى ثالث ذى الحجة سنة احدى وتسعين وثلثمائة ، أمر أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله الناس بأن يقدوا القناديل فى سائر البلد على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ، ففعل ذلك . ولازم الحاكم بأمر الله الركوب فى الليل ، وكان ينزل كل ليلة الى موضع موضع والى شارع شارع والى زقاق زقاق .

وكان قد ألزم الناس بالوقيد . فتناظروا فيه ، واستكثروا منه فى الشوارع والأزقة ، وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة ، وصار الناس فى القاهرة ومصر طول الليل فى بيع وشراء ، وأكثروا أيضا من وقود الشموع العظيمة ، وأنفقوا فى ذلك أموالا عظيمة جليلة لأجل التلاهى ، وتبسطوا فى المآكل والمشارب وسماع الأغانى .

ومنع الحاكم الرجال المشاة بين يديه من المشى بقربه ، وزجرهم وانتهرهم ، وقال : لا تمنعوا أحدا منى . فأحدق الناس به ، وأكثروا من الدعاء له . وزينت الصاغة وخرج سائر الناس بالليل للتفرج ، وغلب النساء الرجال على الخروج بالليل ، وعظم الازدحام فى الشوارع والطرقات ، وأظهر الناس اللهو والغناء وشرب المسكرات فى الحوانيت وبالشوارع من أول المحرم سنة احدى وتسعين وثلثمائة . وكان معظم ذلك من ليلة الأربعاء تاسع عشره الى ليلة الاثنين رابع عشريه .

فلما تزايد الأمر وشنع ، أمر الحاكم بأمر الله الا تخرج امرأة من العشاء ، ومتى ظهرت امرأة بعد العشاء نكل بها ، ثم منع الناس من الجلوس فى الحوانيت ، فامتنعوا .

ولم يزل الحاكم على الركوب فى الليل الى آخر شهر رجب . ثم نودى فى شهر رجب سنة خمس وتسعين وثلثمائة : ألا يخرج أحد بعد عشاء الآخرة ، ولا يظهر لبيع ولا شراء . فامتنع الناس .

وفى سنة خمس وأربعمائة تزايد فى المحرم منها وقوع النار فى البلد ، وكثر الحريق فى عدة أماكن . فأمر الحاكم بأمر الله الناس باتخاذ القناديل على الحوانيت وأزيار الماء مملوءة ماء ، وبطرح السقائف التى على أبواب الحوانيت والرواشن التى تظل الباعة . فأزيل جميع ذلك من مصر والقاهرة .

ذكر ظواهر القاهرة المعزية

اعلم أن القاهرة المعزية يحصرها أربع جهات وهى : الجهة الشرقية ، والجهة الغربية ، والجهة الشمالية التى تسميها أهل مصر البحرية والجهة الجنوبية التى تعرف فى أرض مصر بالقبلية .

فأما الجهة الشرقية فانها من سور القاهرة * الذى فيه الآن باب البرقية والباب الجديد والباب المحروق ، وتنتهى هذه الجهة الى الجبل المقطم .

وأما الجهة الغربية فانها من سور القاهرة الذى فيه باب القنطرة وباب الخوخة وباب سعادة ، وتنتهى هذه الجهة الى شاطىء النيل .

وأما الجهة القبلية فانها من سور القاهرة الذى فيه باب زويلة ، وتنتهى هذه الجهة الى حد مدينة مصر .

وأما الجهة البحرية فانها من سور القاهرة الذى فيه باب النصر وباب الفتوح ، وتنتهى هذه الجهة الى بركة الجب التى تعرف اليوم ببركة الحاج .

وقد كانت هذه الجهة الشرقية ، عندما وضعت القاهرة ، فضاء فيما بين السور وبين الجبل لا بنيان فيه ألبتة ، وما زال على هذا الى أن كانت الدولة التركية ، فقيل لهذا الفضاء الميدان الأسود وميدان القبق — وسيرد ذكر هذا الميدان ان شاء الله تعالى — فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، عمل هذا الميدان مقبرة لأموات المسلمين ، وبنيت فيه الترب الموجودة الآن كما ذكر عند ذكر المقابر من هذا الكتاب .

وكانت الجهة الغربية تنقسم قسمين : أحدهما بر الخليج الشرقى ، والآخر بر الخليج الغربى .

فأما بر الخليج الشرقى فكان عليه بستان الأمير أبى بكر محمد بن طغج الاخشيد وميدانه ، وعرف هذا البستان بالكافورى . فلما اختط القائد جوهر القاهرة ، أدخل هذا البستان فى سور القاهرة ، وعمل بجانبه الميدان الذى يعرف اليوم بالخرشتف ، فصارت القاهرة تشرف من غربيها على الخليج . وبنيت على هذا الخليج مناظر ، وهى منظرة اللؤلؤة ومنظرة دار الذهب ومنظرة غزالة ، كما ذكر عند ذكر المناظر من هذا الكتاب .

وكان فيما بين البستان الكافورى والمناظر المذكورة وبين الخليج شارع تجلس فيه عامة الناس للتفرج على الخليج وما وراءه من البساتين والبرك ، ويقال لهذا الشارع اليوم بين السورين ، ويتصل بالبستان الكافورى وميدان الاخشيد بركة الفيل وبركة قارون ، ويشرف على بركة قارون الدور التى كانت متصلة بالعسكر ظاهر مدينة فسطاط مصر ... كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب ، عند ذكر البرك وعند ذكر العسكر .

وأما بر الخليج الغربى فان أوله الآن من موردة الخلفاء ، فيما بين خط الجامع الجديد خارج مصر وبين منشاة المهرانى ، وآخره أرض التاج والخمس وجوه وما بعدها من بحرى

(*) ص١٠٨ ج٢ ، ط. بولاق .

القاهرة . وكان أول هذا الخليج عند ... القاهرة بجانب خط السبع سقايات ، وكان ما بين خط السبع سقايات وبين الخارج من مدينة مصر غامرا بماء النيل ، كما ذكر في ساحل مصر من هذا الكتاب .

وكانت القنطرة التي يفتح سدها عند وفاء النيل ست عشرة ذراعا خلف السبع سقايات ، كما ذكر عند ذكر القناطر من هذا الكتاب .

وكان هناك منظرة السكرة التي يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج ، ولها بستان عظيم ، ويعرف موضعه اليوم بالمريس .

ويتصل ببستان منظرة السكرة بستان الزهري ، وهي من خط قناطر السباع الموجودة الآن بحذاء خط السبع سقايات الى أراضي اللوق ، ويتصل بالزهري عدة بساتين الى المقس . وقد صار موضع الزهري ، وما كان بجواره على بر الخليج من البساتين ، يعرف بالحكورة من أيام الملك الناصر محمد ابن قلاوون الى وقتنا هذا ، كما ذكر عند ذكر الأحكار من هذا الكتاب .

وكان الزهري وما بجواره من البساتين التي على بر الخليج الغربي والمقس ، كل ذلك مطل على النيل ، وليس لبر الخليج الغربي كبير عرض ، وانما بحر النيل في غربي البساتين على الموضع الذي يعرف اليوم باللوق الى المقس ، فيصير المقس هو ساحل القاهرة ، وتنتهي المراكب الى موضع جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع المقسي ، فكان ما بين الجامع المذكور ومنية عقبة التي بجوار الجيزة بحر النيل .

ولم يزل الأمر على ذلك الى ما بعد سنة سبعمائة . الا أنه كان قد انحسر ماء النيل ، بعد الخمسمائة من سني الهجرة ، عن أرض بالقرب من الزهري عرفت بمنشأة الفاضل وبستان الخشاب ، وهذه المنشأة اليوم يعرف بعضها بالمريس مما يلي منشأة المهراني ، وانحسر أيضا عن أرض تجاه البعل الذي في بحري القاهرة ، عرفت هذه الأرض بجزيرة الفيل .

وما برح ماء النيل ينحسر عن شيء بعد شيء الى ما بعد سنة سبعمائة . فبقيت عدة رمال فيما بين منشأة المهراني وبين جزيرة الفيل ، وفيما بين المقس وساحل النيل ، عمر الناس فيها الأملاك والمناظر والبساتين من بعد سنة اثنتي عشرة وسبعمائة ، وحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون فيها الخليج المعروف اليوم بالخليج الناصري ، فصار بر الخليج الغربي بعد ذلك أضعاف ما كان أولا من أجل انطراد ماء النيل عن بر مصر الشرقي .

ويعرف هذا البر اليوم بعدة مواضع . وهي في الجملة خط منشأة المهراني ، وخط المريس ، وخط منشأة الكتبة ، وخط قناطر السباع ، وخط ميدان السلطان ، وخط البركة الناصرية ، وخط الحكورة ، وخط الجامع الطيبرسي ، وربع بكتمر ، وتربة السلطان ، وخط باب اللوق ، وقنطرة الخرق ، وخط بستان العدة ، وخط زربية قوصون ، وخط حكر ابن الأثير ، وفم الخور ، وخط الخليج الناصري ، وخط * بولاق ، وخط جزيرة الفيل ، وخط الدكة ، وخط المقس ، وخط

(*) ص ١٠٦ جـ ٢ [illegible] .

بركة قرموط ، وخط أرض الطبالة ، وخط الجرف ، وأرض البعل وكوم الريش ، وميدان القمح ، وخط باب القنطرة ، وخط باب الشعرية ، وخط باب البحر وغير ذلك . وسيأتي من ذكر هذه المواضع ما يكفي ويشفي ان شاء الله تعالى .

وكانت جهة القاهرة القبلية من ظاهرها ليس فيها سوى بركة الفيل وبركة قارون ، وهي فضاء : يرى من خرج من باب زويلة عن يمينه الخليج وموردة السقائين ، وكانت تجاه باب الفتوح ، ويرى عن يساره الجبل ، ويرى تجاهه قطائع ابن طولون التي تتصل بالعسكر ويرى جامع ابن طولون وساحل الحمراء الذي يشرف عليه جنان الزهري ، ويرى بركة الفيل التي كان يشرف عليها الشرف الذي فوقه قبة الهواء . ويعرف اليوم هذا الشرف بقلعة الجبل .

وكان من خرج من مصلى العيد بظاهر مصر يرى بركتي الفيل وقارون والنيل . فلما كانت أيام الخليفة الحاكم بأمر الله ، أبي علي منصور ابن العزيز بالله أبي منصور نزار ابن الامام المعز لدين الله أبي تميم معد ، عمل خارج باب زويلة بابا عرف بالباب الجديد ، واختط خارج باب زويلة عدة من أصحاب السلطان : فاختطت المصامدة حارة المصامدة ، واختطت اليانسية والمنجبية وغيرهما . كما ذكر في موضعه من هذا الكتاب .

فلما كانت الشدة العظمى في خلافة المستنصر بالله ، اختلت أحوال مصر ، وخربت خرابا شنيعا . ثم عمر خارج باب زويلة في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون ابن فاتك بن البطائحي بعد سنة خمسمائة .

فلما زالت الدولة الفاطمية ، هدم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حارة المنصورة التي كانت سكن العبيد خارج باب زويلة وعملها بستانا . فصار ما خرج عن باب زويلة بساتين الى المشهد النفيسي ، وبجانب البساتين طريق يسلك منها الى قلعة الجبل التي أنشأها السلطان صلاح الدين المذكور على يد الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، وصار من يقف على باب جامع ابن طولون يرى باب زويلة .

ثم حدثت العمائر التي هي الآن خارج باب زويلة بعد سنة سبعمائة ، وصار خارج باب زويلة الآن ثلاثة شوارع : أحدها ذات اليمين والآخر ذات الشمال ، والشارع الثالث تجاه من خرج من باب زويلة . وهذه الشوارع الثلاثة تشتمل على عدة أخطاط .

فأما ذات اليمين فان من خرج من باب زويلة الآن يجد عن يمينه شارعا سالكا ينتهي به في العرض الى الخليج حيث القنطرة التي تعرف بقنطرة الخرق ، وينتهي به في الطول من باب زويلة الى خط الجامع الطولوني . وجميع ما في هذا الطول والعرض من الأماكن كان بساتين الى ما بعد السبعمائة .

وفي هذه الجهة اليمنى خط دار التفاح ، وسوق السقطيين ، وخط تحت الربع ، وخط القشاشين ، وخط قنطرة الخرق ، وخط شق الثعبان ، وخط قنطرة آقسنقر ، وخط الحبانية وبركة الفيل ، وخط قبو الكرماني ، وخط قنطرة طقزدمر والمسجد المعلق ، وخط قنطرة

مر شته ، وخط قناطر السباع ، وخط الجسر الأعظم ، وخط الكبش والجامع الطولوني ، وخط الصليبة ، وخط الشارع ، وما هنالك من الحارات التي ذكرت عند ذكر الحارات من هذا الكتاب .

وأما ذات اليسار فإن من خرج من باب زويلة الآن يجد عن يساره شارعا ينتهي به في العرض الى الجبل ، وينتهي به في الطول الى القرافة . وجميع ما في هذه الجهة اليسرى كان فضاء لا عمارة فيه ألبتة الى ما بعد سنة خمسمائة من الهجرة .

فلما عمر الوزير الصالح طلائع بن رزيك جامع الصالح الموجود الآن خارج باب زويلة ، صار ما بين يديه الى نحو قطائع ابن طولون مقبرة لأهل القاهرة الى أن زالت دولة الخلفاء الفاطميين ، وأنشأ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلعة الجبل على رأس الشرف المطل على القطائع ، وصار يسلك الى القلعة من هذه الجهة اليسرى فيما بين المقابر والجبل .

ثم حدثت بعد المحن هذه العمائر الموجودة هنالك شيئا بعد شيء من سنة سبعمائة ، وصار في هذه الجهة خط سوق السلاح ، وخط الدرب الأحمر ، وخط جامع الماردينى ، وخط سوق الغنم ، وخط التبانة ، وخط باب الوزير وقلعة الجبل والرميلة ، وخط القبيبات ، وخط باب القرافة .

وأما ما هو تجاه من خرج من باب زويلة فيعرف بالشارع — وقد تقدم ذكره عند ذكر الأسواق من هذا الكتاب — وهو ينتهي بالسالك الى خط الصليبة المذكور آنفا ، والى خط الجامع الطولوني وخط المشهد النفيسي ، والى العسكر وكوم الجارح وغير ذلك من بقية خطط ظواهر القاهرة ومصر .

وكانت جهة القاهرة البحرية من ظاهرها فضاء ينتهي الى بركة الجب ، والى منية الأصبغ التي عرفت بالخندق ، والى منية مطر التي تعرف بالمطرية ، والى عين شمس وما وراء ذلك — الا أنه كان تجاه القاهرة بستان ريدان ، ويعرف اليوم بالريدانية ، وعند مصلى العيد خارج باب النصر — حيث يصلى الآن على الأموات — كان ينزل هناك من يسافر الى الشام .

فلما كان قبل سنة خمسمائة ، ومات أمير الجيوش بدر الجمالي * في سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، بني خارج باب النصر له تربة دفن فيها ، وبني أيضا خارج باب الفتوح منظرة — قد ذكر خبرها عند ذكر المناظر من هذا الكتاب — وصار أيضا فيما بين باب الفتوح والمطرية بساتين قد تقدم خبرها .

ثم عمرت الطائفة الحسينية بعد سنة خمسمائة ، خارج باب الفتوح ، عدة منازل اتصلت بالخندق ، وصار خارج باب النصر مقبرة الى ما بعد سنة سبعمائة . فعمر الناس به حتى اتصلت العمائر من باب النصر الى الريدانية ، ونقلت العامة من العمارة ، ثم تناقصت من بعد سنة تسع وأربعين وسبعمائة الى أن فحش خرابها من حين حدثت المحن في سنة ست وثمانمائة .

---

* ص١١ جـ٢ ، [illegible] .

فهذا حال ظواهر القاهرة منذ اختطت والى يومنا هذا ، ويحتاج ما ذكر هنا الى مزيد بيان . والله أعلم .

ذكر ميدان القبق

هذا الموضع خارج القاهرة من شرقيها ، فيما بين النقرة التي ينزل من قلعة الجبل اليها وبين قبة النصر التي تحت الجبل الأحمر ، ويقال له أيضا الميدان الأسود ، وميدان العيد ، والميدان الأخضر ، وميدان السباق .

وهو ميدان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي . بنى به مصطبة في المحرم من سنة ست وستين وستمائة ، عندما احتفل برمي النشاب وأمور الحرب ، وحث الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك ، وصار ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر ، فلا يركب منها الى العشاء الآخرة ، وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان . فما بقي أمير ولا مملوك الا وهذا شغله ، وتوفر الناس على لعب الرمح ورمي النشاب .

وما برح من بعده من أولاده ، والملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي ، والملك الأشرف خليل بن قلاوون ، يركبون في الموكب لهذا الميدان ، وتقف الأمراء والمماليك السلطانية تسابق بالخيل فيه قدامهم ، وتنزل العساكر فيه لرمي القبق .

والقبق عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب في براح من الأرض ، ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيها ، وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها الى غرض هناك ، تمرينا لهم على احكام الرمي . ويعبر عن هذا بالقبق في لغة الترك .

قال جامع السيرة الظاهرية : وفي سابع عشر المحرم من سنة سبع وستين وستمائة ، حث السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري جميع الناس على رمي النشاب ولعب الرمح ، خصوصا خواصه ومماليكه .

ونزل الى الفضاء بباب النصر ظاهر القاهرة — ويعرف بميدان العيد — وبنى مصطبة هناك ، وأقام ينزل في كل يوم من الظهر ، ويركب منها عشاء الآخرة ، وهو واقف في الشمس يرمي ويحرض الناس على الرمي والرهان . فما بقي أمير ولا مملوك الا وهذا شغله ، واستمر الحال في كل يوم على ذلك حتى صارت تلك الأمكنة لا تسع الناس ، وما بقي لأحد شغل الا لعب الرمح ورمي النشاب .

وفي شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، تقدم السلطان الملك الظاهر الى عساكره بالتأهب للركوب واللعب بالقبق ورمي النشاب . واتفقت نادرة غريبة ، وهو أنه أمر برش الميدان الأسود تحت القلعة لأجل اللعب ، فشرع الناس في ذلك ، وكان يوما شديد الحر ، فأمر السلطان بتبطيل الرش رحمة للناس ، وقال : الناس صيام ، وهذا يوم شديد الحر . فبطل الرش .

وأرسل الله تعالى مطرا جودا استمر ليلتين ويوما حتى كثر الوحل ، وتلبدت الأرض ، وسكن العجاج ، وبرد الجو ، ولطف الهواء . فوكل السلطان من يحفظه من السوق فيه

يوم اللعب — وهو يوم الخميس السادس والعشرين من شهر رمضان — وأمر بركوب جماعة ثلاثة من كل حرفة الناس ، وكذلك من كل أمير ومن كل متقدم ألا تستبح اللعبا بهم .

وركبوا فى أحسن زى وأجمل لباس وأكمل شكل وأبهى منظر ، وركب السلطان ومعه من خواصه ومماليكه ألوف ، ودخلوا فى الطعان بالرماح . فكلا من أصاب خلع عليه السلطان . ثم ساق فى مماليكه الخواص خاصة ، ورتبهم أجمل ترتيب ، والتحق بهم الطعان البحرى ، فشاهد الناس أبهة عظيمة .

ثم أقيم القبق ، وحضر الناس لرمى النشاب ، وجعل لمن أصاب من القبقة رجال الحلقة البحرية والبحرية الصالحية وغيرهم بخلعة بمنجاب ، والأمراء فرسا من خيله الخاص بسلاحه وبرتوه الفضة والذهبية وجواهره .

وما زال فى هذه الأيام على هذه الصورة يتنوع فى دخوله وخروجه : تارة بالرماح ، وتارة بالنشاب ، وتارة بالدبابيس ، وتارة بالسيوف مسلولة . وذلك أنه ساق على عادته فى اللعب ، وسل سيفه ، وسل مماليكه سيوفهم ، وحمل هو ومماليكه حملة رجل واحد . فرأى الناس منظرا عجيبا .

وأقام على ذلك كل يوم من بكرة النهار الى قريب الغروب ، وقد ضربت الخيام لنزول الوضوء والصلاة ، وتنوع الناس فى تبديل العدد والآلات وتفاخروا وتكاثروا . فكانت هذه الأيام من الأيام المشهودة .

ولم يبق أحد من أبناء الملوك ، ولا وزير ، ولا أمير كبير ولا صغير ، ولا مقرئ ، ولا متقدم من مقدمى الحلقة ، ومقدمى البحرية الصالحية ، ومقدمى المماليك القاهرة البحرية ، ولا صاحب شغل ، ولا حامل عصا فى خدمة السلطان على بابه ، ولا حامل طير فى ركاب السلطان ، ولا أحد من خواص كتاب السلطان — الا وشرف بما يليق به على قدر منصبه . ثم تمت خلع السلطان لقضاة الاسلام والأئمة وشهود خزانة السلطان ، فشرفهم جميعهم ، ثم الولاة كلهم .

وأصبحوا بكرة يوم الأحد ، ثامن عشرى شهر رمضان ، لابسين الخلع . جميعهم فى أحسن صورة وأبهج زى وأبهى شكل وأجمل زينة ، بالكلوتات الزركش بالذهب والملابس التى ما سمع بأن أحدا جاد بمثلها ، وهى ألوف . وخدم الناس جميعهم ، وقبلوا الأرض وعليهم الخلع ، وركبوا وأعيدوا نهارهم على العادة . والأموال تفرق ، والأسمطة تصف ، والصدقات تنفق ، والرقاب تعتق .

وما زال الى أن أهل هلال شوال . فقام الناس وهنأوا الهناء ، فجلس لهم وعليهم خلعه . ثم ركب يوم العيد الى مصلاه ، فى أبهة بشعار السلطنة وأبهة الملك ، فصلى . ثم طلع قلعة الجبل ، وجلس على الأسمطة — وكان الاحتفال بها كبيرا — وأكل الناس ، ثم انتهبه الفقراء . وقام الى مقر سلطانه بالقبة المنيفة ، وقد غلقت وفرشت بأنواع الستور والكلل والفرش .

(١) ص١١١ ج١ ، السلوك .

وكانت قد تقدمت الى الأمراء باحضار أولادهم ، فأحضروا وخلع عليهم الخلع التصلة على قدرهم . فلما كان هذا اليوم أحضروا ، وختنوا بأجمعهم بين يدى السلطان ، وأخرجوا محمولين فى المحفات الى بيوتهم ، وعم الهناء كل دار . ثم أحضر الأمير نجم الدين خضر ولد السلطان فختن ، ورمى الناس جملة من الأموال ، اجتمع منها خزانة ملك كبير ، ترفت على من باشر الختان من الحكماء والمزينين وغيرهم .

وانقضت هذه الأيام . وجرى السلطان فيها على عادته كما كان ، من كونه لم يكلف أحدا من خلق الله تعالى بهدية يهديها ولا تحفة يتحفه بها فى مثل هذه المسرة ، كما جرت عادة من تقدمه من الملوك . ولم يسق من لا شمله احسانه غير أرباب الملاهى والأغانى ، فانه كان فى أيامه لم يتفق لهم مبلغ البتة .

ومن لعب بهذا الميدان القبق السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وعمل فيه المهم الذى لم يعمل فى دولة ملوك الترك بمصر مثله . وذلك أن خوند أردوتكين ابنة نوكية — ويقال نوغية — السلحدارية اشتملت من السلطان الملك الأشرف على حمل ، فظن أنها تلد ابنا ذكرا يرث الملك من بعده .

فأخذ عندما قاربت الوضع فى الاحتفال ، ورسم لوزيره الصاحب شمس الدين محمد ابن السلعوس أن يكتب الى دمشق بعمل مائة شمعدان نحاس مكفت بألقاب السلطان ، ومائة شمعدان أخر ، منها خمسون من ذهب وخمسون من فضة ، وخمسين سرجا من سروج الزركش ، ومائة وخمسين سرجا من الخيش ، وألف شمعة ، وأشياء كثيرة نحو ذلك .

فقدر الله تعالى أنها ولدت بنتا ، فانقبض لذلك ، وكره ابطال ما قد اشتهر عنه عمله . فأظهر أنه يريد ختان أخيه محمد وابن أخيه مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح على بن قلاوون ، ورسم لنقيب الجيش والحجاب باعلام الأمراء والعسكر أن يلبسوا كلهم آلة الحرب من السلاح الكامل هم وخيولهم ، ويصيروا بأجمعهم كذلك فى الميدان الأسود خارج باب النصر .

فاهتم الأمراء والعسكر اهتماما كبيرا لذلك ، وأخذوا فى تحسين العدد ، وبالغوا فى التأنق ، وتنافسوا فى اظهار التجمل الزائد . وخرج فى اليوم الرابع من اعلام الأمراء ، السوقة ونصبوا عدة صواوين فيها سائر البقول والمآكل ، فصار بالميدان سوق عظيم .

ونزل السلطان من قلعة الجبل بعساكره وعليهم لامة الحرب ، وقد خرج سائر من فى القاهرة ومصر من الرجال والنساء ، الا من خلفه العذر ، لرؤية السلطان . فأقام السلطان يومه ، وحصل فى ذلك اليوم للناس بهذا الاجتماع من السرور ما يعز وجود مثله .

وأصبح السلطان وقد استعد العسكر بأجمعه لرمى القبق ، ورسم للحجاب بألا يمنعوا أحدا من الجند ولا من المماليك ولا من غيرهم من الرمى ، ورسم للأمير بيسرى والأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح أن يتقدما الناس فى الرمى . فاستقبل الأمير بيسرى القبق وتحته سرج قد صنع

قربوسه الذى من خلفه وطيئا ، فصار مستلقيا على قفاه وهو يرمى ويصيب يمنة ويسرة ، والناس بأسرهم قد اجتمعوا للنظر حتى ضاق بهم الفضاء .

فلما فرغ دخل أمير سلاح من بعده ، وتلاه الأمراء على قدر منازلهم واحدا واحدا فرموا ، ثم دخل بعد الأمراء مقدمو الحلقة ، ثم الأجناد — والسلطان يعجب برميهم ، وتزايد سروره — حتى فرغ الرمى فعاد الى مخيمه ، ودار السقاة على الأمراء بأوانى الذهب والفضة والبلور يسقون السكر المذاب ، وشرب الأجناد من أحواض قد ملئت من ذلك — وكانت عدتها مائة حوض — فشربوا ولهوا ، واستمروا على ذلك يومين .

وفى اليوم الثالث ركب السلطان ، واستدعى الأمير يسرى وأمره بالرمى . فسأل السلطان أن يعفيه من الرمى ، ويمن عليه بالتفرج فى رمى النشاب من الأمراء وغيرهم . فأعفاه .

ووقف مع السلطان فى منزلته . وتقدم طقجى وعين الغزال وأمير عمر وكيلكدى وقشتمر العجمى وبرلغى وأعناق الحسامى وبكتوت ، ونحو الخمسين * من أمراء السلطان الشبان الذين أنشأهم من خاصكيته ، وعليهم تتريات حرير أطلس بطرازات زركش ، وكلوتات زركش وحوائص ذهب — وكانوا من الجمال البارع بحيث يذهل حسنهم الناظر ، ويدهش جمالهم الخاطر — فتعاظمت مسرة السلطان برؤيتهم ، وكثر اعجابه ، وداخله العجب ، واستخفه الطرب . وارتجت الدنيا بكثرة من حضر هناك من أرباب الملاهى والأغانى وأصحاب الملعوب .

فلما انقضى اللعب عاد السلطان الى دهليزه فى زينته ، ومرح فى مشيته تيها وصلفا . فما هو الا أن عبر الدهليز ، والناس من الطرب والسرور فى أحسن شىء يقع فى العالم ، واذا بالجو قد أظلم ، وثار ريح عاصف أسود الى أن طبق الأرض والسماء ، وقلع سائر تلك الخيم ، والقى الدهليز السلطانى ، وتزايد حتى ان الرجل لا يرى من بجانبه .

فاختلط الناس وماجوا ، ولم يعرف الأمير من الحقير ، وأقبلت السوقة والعامة تنهب ، وركب السلطان يريد النجاة بنفسه الى القلعة ، وتلاحق العسكر به ، واختلفوا فى الطرق لشدة الهول ، فلم يعبر الى القلعة حتى أشرف على التلف . وحصل فى هذا اليوم من نهب الأموال وانتهاك الحرم والنساء ما لا يمكن وصفه ، وما ظن كل أحد الا أن الساعة قد قامت . فتنغص سرور الناس ، وذهب ما كان هناك .

وما استقر السلطان بالقلعة حتى سكن الريح ، وظهرت الشمس ، وكأن ما كان لم يكن . فأصبح السلطان وطلب أرباب الملاهى بأجمعهم ، وحضر الأمراء لختان أخيه وابن أخيه ، وعمل مهم عظيم فى القاعة التى أنشأها بالقلعة وعرفت بالأشرفية . وقد ذكر خبر هذا المهم عند ذكر القلعة من هذا الكتاب .

وما برح هذا الميدان فضاء من قلعة الجبل الى قبة النصر ليس فيه بنيان ، وللملوك فيه من الأعمال ما تقدم ذكره ... الى أن كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون . فترك

(*) ص١١٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

النزول اليه ، وبنى مصطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش ، وصار ينزل هنالك .

ثم ترك تلك المصطبة فى سنة عشرين وسبعمائة ، وعاد الى ميدان القبق هذا ، وركب اليه على عادة من تقدمه من الملوك ، الى أن بنيت فيه الترب شيئا بعد شىء حتى انسدت طريقه ، واتصلت المبانى من ميدان القبق الى تربة الروضة خارج باب البرقية . وبطل السباق منه ورمى القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كما ذكر عند ذكر المقابر من هذا الكتاب .

وأنا أدركت عواميد من رخام قائمة بهذا الفضاء تعرف بين الناس بعواميد السباق ، بين كل عمودين مسافة بعيدة . وما برحت قائمة هنالك الى ما بعد سنة ثمانين وسبعمائة ، فهدمت عند ما عمر الأمير يونس الدوادار الظاهرى تربته تجاه قبة النصر ، ثم عمر أيضا الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق تربة هناك ، وتتابع الناس فى البنيان الى أن صار كما هو الآن . والله أعلم .

ذكر بر الخليج الغربى

قد تقدم أن هذا الخليج حفر قبل الاسلام بدهر ، وأن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، جدد حفره فى عام الرمادة ، باشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حتى صب ماء النيل فى بحر القلزم ، وجرت فيه السفن بالغلال وغيرها حتى عبرت منه الى البحر الملح ، وأنه ما برح على ذلك الى سنة خمسين ومائة فطم ، ولم يبق منه الا ما هو موجود الآن .

الا أن فم هذا الخليج ، الذى يصب فيه الماء من بحر النيل ، لم يكن عند حفره هذا الفم الموجود الآن . ولست أدرى أين كان فمه عند ابتداء حفره فى الجاهلية ، فان مصر فتحت وماء النيل عند الموضع الذى فيه الآن جامع عمرو ابن العاص بمصر ، وجميع ما بين الجامع وساحل النيل الآن انحسر عنه الماء بعد الفتح .

وآخر ما كان ساحل مصر من عند سوق المعاريج الذى هو الآن بمصر الى تجاه الكبش من غربيه . وجميع ما هو الآن موجود من الأرض ، التى فيما بين خط السبع سقايات الى سوق المعاريج ، انحسر عنه الماء شيئا بعد شىء ، وغرس بساتين . فعمل عبد العزيز ابن مروان أمير مصر قنطرة على فم هذا الخليج فى سنة تسع وستين من الهجرة ، بأوله عند ساحل الحمراء ، ليتوصل من فوق هذه القنطرة الى جنان الزهرى الآتى ذكرها ان شاء الله تعالى . وموضع هذه القنطرة بداخل حكر أقبغا المجاور لخط السبع سقايات .

وما برحت هذه القنطرة عندها السد الذى يفتح عند الوفاء الى ما بعد الخمسمائة من الهجرة ، فانحسر ماء النيل عن الأرض ، وغرست بساتين . فعمل الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى هذه القنطرة — التى تعرف اليوم بقنطرة السد — خارج مصر ، ليتوصل من فوقها الى بستان الخشاب ، وزيد فى طول الخليج ما بين قنطرة السباع الآن

وفي تجاه السد المذكورة ، وصار ما في شرقيه — مما انحسر عنه الماء — بستانا عرف ببستان الخارة ، وما في غربيه يعرف ببستان الحلي .

وكان بطرف خط السبع سقايات كنيسة الحمراء وعدة كنائس أخر ، بعضها الآن بحكر أقبغا تعرف بزاوية الشيخ يوسف العجمي ، لسكناه بها ، حتى هدمت بعد سنة عشرين وسبعمائة .

وما برحت هذه البساتين موجودة الى أن استولى عليها الأمير أقبغا عبد الواحد ، استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقلع أخشابها ، وأذن للناس في عمارتها . فحكرها الناس ، وبنوا فيها الآدر وغيرها ، فعرفت بحكر أقبغا .

وبأول هذا الخليج الآن من غربيه منشأة المهراني — وقد تقدم خبرها في هذا الكتاب عند ذكر مدينة مصر — ويجاور منشأة المهراني بستان الخشاب ، وبعضه الآن يعرف بالمريس ، وبعضه عمله الملك الناصر محمد بن قلاوون ميدانا يشرف على النيل من غربيه . ويعرف ساحل النيل هناك بموردة الجبس ، كما ذكر عند ذكر الميادين في هذا الكتاب ... ويجاور بستان الخشاب جنان الزهري .

وهذه المواضع التي ذكرت ، كلها مما انحسر عنه النيل ما خلا جنان الزهري فانها من قبل ذلك . وستقف على خبرها وخبر ما يجاورها من الأحكار ان شاء الله تعالى .

---

(١) ص ١١٢ جـ ٢ ، طـ بولاق .

ذكر الاحكار التي في غربي الخليج

قال ابن سيده : الاحتكار جمع الطعام ونحوه مما يؤكل ، واحتباسه انتظار وقت الغلاء به . والحكرة والحكر جميعا ما احتكر ، وحكره يحكره حكرا ظلمه وتنقصه وأساء معاشرته . انتهى .

فالتحكير على هذا المنع . فقول أهل مصر : حكر فلان أرض فلان ، يعنون منع غيره من البناء عليها .

« حكر الزهري » : هذا الحكر يشتمل فيه جميع بر ابن التبان الآتي ذكره ان شاء الله تعالى ، وشق الثعبان ، وبطن البقرة ، وسويقة القيمري ، وسويقة صفية ، وبركة الشقاف ، وبركة السباعين ، وقنطرة الخرق ، وحدرة المرادنيين ، وحكر الحلبي ، وحكر البواشقي ، وحكر كرجي ، وما بجانبه الى قناطر السباع ، وميدان المهاري الى الميدان الكبير السلطاني بموردة الجبس . وكان هذا قديما يعرف بجنان الزهري ، ثم عرف ببستان الزهري .

قال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس في « تاريخ الغرباء » : عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن ابن عوف الزهري يكنى أبا العباس ، وأمه أم عثمان بنت عثمان بن العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . مدني قدم مصر ، وولي الشرط بفسطاط مصر ، وحدث يروي عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة . روى عنه من أهل مصر أصبغ بن الفرج ، وسعيد بن أبي مريم ، وعثمان بن صالح ، وسعيد بن عفير وغيرهم .

وهو صاحب الجنان التي بالقنطرة — قنطرة عبد العزيز بن مروان — تعرف بجنان الزهري ، وهو حبس على ولده الى اليوم . وكان كتاب حبس الجنان عند جدي يونس بن عبد الأعلى وديعة عليه مكتوب « وديعة لولد ابن العباس الزهري ، لا يدفع لأحد الا أن يغري به سلطان » . الكتاب عندي الى الآن . توفي عبد الوهاب بن موسى بمصر في رمضان سنة عشرة ومائتين .

وقال القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة ابن جعفر القضاعي في كتاب « معرفة الخطط والآثار » : حبس الزهري هو الجنان التي عند القنطرة بالحمراء ، وهو عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز الزهري ، قدم مصر وولي الشرط بها . والجنان حبس على ولده .

وقال القاضي تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج في كتاب « ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » : حبس الزهري ... فذكره ، ثم قال : وهذا الحبس أكثره الآن أحكار ما بين بركة الشقاف وخليج شق الثعبان ، وقد استولى وكيل بيت المال على بعضه ، وباع من أرضه وآجر منها ، واجتمع هو وصحبه بين يدي الله عز وجل . انتهى .

ولما طال الأمد صار للزهري عدة بساتين : منها بستان أبي اليمان ، وبستان السراج ، وبستان الجبانية ، وبستان عز ز ، وبستان تاج الدولة قيماز ، وبستان القرغاني ، وبستان أرض الطيلسان ، وبستان البطرك ، وغيط الكردي ، وغيط الصفار . ثم عرف بير ابن التبان بعد ذلك .

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في كتاب « الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة » : شاطىء الخليج المعروف ببر التبان : « ابن التبان » المذكور هو رئيس المراكب في الدولة المصرية ، وكان له قدر ووجاهة في الأيام الآمرية وغيرها .

ولما كان في الأيام الآمرية ، تقدم الى الناس بالعمارة قبالة الخرق غربي الخليج . فأول من ابتدأ وعمر الرئيس ابن التبان ، فانه أنشأ مسجدا وبستانا ودارا ، فعرفت تلك الخطة به الى الآن . ثم بنى سعد الدولة والي القاهرة ، وناهض الدولة علي ، وعدي الدولة أبو البركات محمد بن عثمان ، وجماعة من فراشي الخاص . واتصلت العمارة ، بالآجر والسقوف النقية والأبواب المنظومة ، من باب البستان المعروف بالعشة على شاطىء الخليج الغربي ، الى البستان المعروف بأبي اليمن .

ثم ابتنى جماعة غيرهم ممن يرغب في الأجرة والفرجة ، على التراع التي تتصرف من الخليج الى الزهري والبساتين ، من المنازل والدكاكين شيئا كثيرا ، وهي الناحية المعروفة الآن بشق الثعبان وسويقة القيمري ، الى أن وصل البناء الى قبالة البستان المعروف بنور الدولة الربعي . وهذا البستان * معروف في هذا الوقت بالخطة المذكورة ، وهو متلاشي الحال بسبب ملوحة بئره .

وبستان نور الدولة هو الآن الميدان الظاهري والمناظر به ، وتفرقت الشوارع والطرق ، وسكنت الدكاكين والدور ، وكثر المترددون اليه والمعاش فيه الى أن استتاب

---

(١) ص ١١٤ جـ ١ ، طـ بولاق .

والى القاهرة بها نائبا عنه . ثم تلاشت تلك الأحوال ، وتغيرت الى أن صارت أطلالا ، وعفت تلك الآثار . ثم بعد ذلك حكر آدرا وبساتين ، وبنى على غير تلك الصفة المتقدم ذكرها ، وبنى على ما هو عليه .

ثم حكر بستان الزهرى آدرا ، ولم يبق منه الا قطعة كبيرة بستانا ، وهو الآن أحكار تعرف بالزهرى ، ويعرف البر جميعه بير ابن التبان الى هذا الوقت ، وولايته تعرف بولاية الحكر . وبنى به حمام الشيخ نجم الدين بن الرفعة ، وحمام تعرف بالقيسرى ، وحمام تعرف بحمام الداية على شاطىء الخليج . انتهى .

وبستان أبى اليمان يعرف اليوم مكانه بحكر آقبغا ، وفيه جامع الست مسكة ، وسويقة السباعين . وبستان السراج فى أرض باب اللوق يعرف موضعه الآن بحكر الخليلى . ويأتى ذكرهما ان شاء الله تعالى .

وقيماز هو تاج الدولة ، صهر الأمير بهرام الأرمنى وزير الخليفة الحافظ لدين الله ، وقتل عند دخول الصالح طلائع بن رزيك الى القاهرة فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وهزاز هو غلام الوزير شاور بن مجير السعدى وزير الخليفة العاضد لدين الله .

« حكر الخليلى » : هذا الحكر هو الخط الذى بقرب سويقة السباعين وجامع الست مسكة ، وهو بجوار حكر الزهرى . وكان بستانا يعرف ببستان أبى اليمان ، ومنهم من يكتب بستان أبى اليمن بغير ألف بعد الميم ، ثم عرف ببستان ابن جن حلوان . وهو الجمال محمد بن الزكى يحيى بن عبد المنعم بن منصور ، التاجر فى ثمرة البساتين ، عرف بابن جن حلوان ، مات فى سنة احدى وتسعين وستمائة .

وحد هذا البستان القبلى الى الخليج ، وكان فيه بابه والهاليا ، والحد البحرى ينتهى الى غيط قيماز ، والشرقى الى الآدر المحتكرة ، والغربى ينتهى الى قطعة تعرف قديما بابن أبى التاج . ثم عرف ببستان ابن السراج ، واستأجره ابن جن حلوان من الشيخ نجم الدين بن الرفعة الفقيه المشهور ، فى سنة ثمان وثمانين وستمائة ، فعرف به . ثم ان هذا البستان حكر بعد ذلك ، فعرف بحكر الخليلى وهو ... .

« حكر قوصون » : هذا الحكر مجاور لقناطر السباع . كان بستانين : أحدهما يعرف بالمخاريق الكبرى ، والآخر يعرف بالمخاريق الصغرى .

فأما المخاريق الكبرى فان القاضى الرئيس الأجل المختار العدل الأمين ، زكى الدين أبا العباس أحمد بن مرتضى بن سيد الأهل بن يوسف ، وقف حصة من جميع البستان المذكور الكبير — المعروف بالمخاريق الكبرى — الذى بين القاهرة ومصر ، بعدوة الخليج ، فيما بين البساتين المعروف أحدهما بالمخاريق الصغرى — ويعرف قديما بالشيخ الأجل ابن أبى أسامة ، ثم عرف بغيره — والبستان الذى يعرف بدويرة دينار ... يفصل بينهما الطريق بخط بستان الزهرى ، وبستان أبى اليمن ، وكنائس النصارى قبالة جوامع السعدية والسبع سقايات .

ولهذا البستان حدود أربعة : القبلى ينتهى الى الخليج الفاصل بينه وبين المواضع المعروفة بجوامع السعدية والسبع سقايات ، والحد الشرقى ينتهى الى البستان المعروف بالمخاريق الصغرى المقابل للمجنونة ، والبحرى ينتهى الى البستان المعروف قديما بابن أبى أسامة ، الفاصل بينه وبين بستان أبى اليمن المجاور للزهرى ، والحد الغربى ينتهى الى الطريق .

وجعل هذا البستان على القربات بعد عمارته ، وشرط أن الناظر يشترى فى كل فصل من فصول الشتاء ما يراه من قماش الكتان الخام أو القطن ، ويصنع ذلك جبابا وبغالطيق محشوة قطنا ، ويفرقها على الأيتام الذكور والاناث الفقراء غير البالغين بالشارع الأعظم خارج باب زويلة ... لكل واحد جبة أو بغلطاق . فان تعذر ذلك كان على الأيتام المتصفين بالصفة المذكورة بالقاهرة ومصر وقرافتيهما ، فان تعذر ذلك كان للفقراء والمساكين أينما وجدوا .

وتاريخ كتاب هذا الوقف فى ذى الحجة سنة ستين وستمائة .

وأما المخاريق الصغرى فانه بعدوة الخليج قبالة المجنونة بالقرب من بستان أبى اليمن ، ثم عرف أخيرا ببستان بهادر رأس نوبة ، ومساحته خمسة عشر فدانا . فاشتراه الأمير قوصون ، وقلع غروسه ، وأذن للناس فى البناء عليه ، فحكروه وبنوا فيه الآدر وغيرها ، وعرف بحكر قوصون .

« حكر الحلبى » : هذا الحكر الآن يعرف بحكر بيبرس الحاجب ، وهو مجاور للزهرى ولبركة الشقاف من غربيها . وأصله من جملة أراضى الزهرى اقتطع منه ، وباعه القاضى مجد الدين بن الخشاب وكيل بيت المال لابنتى السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة أربع وتسعين وستمائة ، وكان يعرف حين هذا البيع ببستان الجمال بن جن حلوان وبغيط الكردى وبستان الطيلسان وبستان الفرغالى .

وحد هذه القطعة القبلى الى بركة الطوابين ، والى الهدير الصغير . والحد البحرى ينتهى الى بستان الفرغالى ، والى بستان البواشقى . والحد الشرقى الى بركة الشقاف ، والى الطريق الموصلة الى الهدير الصغير . والحد الغربى * الى بستان الفرغانى .

ثم انتقل هذا البستان الى الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب ، فى أيام الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، وحكره فعرف به .

« حكر البواشقى » : عرف بالأمير أزدمر البواشقى مملوك الرشيدى الكبير ، أحد المماليك البحرية الصالحية ، وممن قام على الملك المعز أيبك عندما قتل الأمير فارس الدين أقطاى فى ذى القعدة سنة احدى وخمسين وستمائة ، وخرج الى بلاد الروم . ثم عرف الآن بحكر كرجى ، وهو بجوار حكر الحلبى المعروف بحكر بيبرس .

« حكر أقبغا » : هذا الحكر بجوار السبع سقايات ، بعضه بجانب الخليج الغربى ، وبعضه بجانب الخليج الشرقى . كان بستانا يعرف قديما بجنان الحارة ، ويسلك اليه من خط قناطر السباع على يمنة السالك طالبا

(*) ص١١٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

السبع سقايات بالقرب من كنيسة الحمراء . وكان بعضه بستانا ، يعرف ببستان المحلى ، وهو الذى فى غربى الخليج .

وكان بستان جنان الحارة بجوار بركة قارون ، وينتهى الى حوض الدمياطى الموجود الآن على يمنة من سلك من خط السبع سقايات الى قنطرة السد . فاستولى عليه الأمير أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، وأذن للناس فى تحكيره . فحكر وبنى فيه عدة مساكن ، والى يومنا هذا يجبى حكره ويصرف فى مصارف المدرسة الأقبغاوية المجاورة للجامع الأزهر بالقاهرة .

وأول من عمر فى حكر أقبغا هذا أستادار الأمير جنكل بن البابا ، فتبعه الناس . وفى موضع هذا الحكر كانت كنيسة الحمراء التى هدمها العامة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كما ذكر عند ذكر الكنائس من هذا الكتاب ، وهى اليوم زاوية تعرف بزاوية الشيخ يوسف العجمى ، وقد ذكرت فى الزوايا أيضا . وهذا الحكر لما بنى الناس فيه عرف بالآدر لكثرة من سكن فيه من التتر والوافدية من أصحاب الأمير جنكل بن البابا .

وعمر تجاه هذا الحكر الأمير جنكل حمامين هما هنالك الى اليوم ، وانشأ بعمارة هذا الحكر بظاهره سوق وجامع ، وعمر ما على البركة أيضا ، واتصلت العمارة منه فى الجانبين الى مدينة مصر .

واتصلت به عمائر أيضا ظاهر القاهرة ، بعدما كان موضع هذا الحكر مخوفا يقطع فيه الزعار الطريق على المارة من القاهرة الى مصر ، وكان والى مصر يحتاج الى أن يركز جماعة من أعوانه بهذا المكان لحفظ من يمر من المفسدين . فصار لما حكر كأنه مدينة كبيرة ، وهو الى الآن عامر ، وأكثر من يسكنه الأمراء والأجناد .

وهذا الحكر كان يعرف قديما بالحمراء الدنيا — وقد ذكر خبر الحمراوات الثلاث عند ذكر خطط مدينة فسطاط مصر من هذا الكتاب — وفى هذا الحكر أيضا كانت قنطرة عبد العزيز بن مروان التى بناها على الخليج ليتوصل منها الى جنان الزهرى ، وبعض هذا الحكر مما انحسر عنه النيل ، وهى القطعة التى تلى قنطرة السد .

« حكر الست حدق » : هذا الحكر يعرف اليوم بالمريس ، وكان بساتين من بعضها بستان الخشاب ، فعرف بالست حدق من أجل أنها أنشأت هناك جامعا كان موضعه منظرة السكرة ، فبنى الناس حوله .

وأكثر من كان يسكن هناك السودان . وبه يتخذ المزر ومأوى أهل الفواحش والقاذورات وصار به عدة مساكن ، وسوق كبير يحتاج محتسب القاهرة أن يقيم به نائبا عنه للكشف عما يباع فيه من المعايش .

وقد أدركنا المريس على غاية من العمارة ، الا أنه قد اختل منذ حدثت الحوادث من سنة ست وثمانمائة ، وبه الى الآن بقية من فساد كبير .

« حكر الست مسكة » : هذا الحكر بسويقة الساعين بقرب جوار حكر الست حدق . عرف بالست مسكة لأنها أنشأت به جامعا . وهذا الحكر كان من جملة الزهرى ، ثم أفرد وصار بستانا تنقل الى جماعة كثيرة .

فلما عمرت الست مسكة فى هذا الحكر الجامع ، بنى الناس حوله حتى صار متصلا بالعمارة من سائر جهاته ، وسكنه الأمراء والأعيان ، وأنشأوا به الحمامات والأسواق وغير ذلك .

وكانت حدق ومسكة من جوارى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . نشأتا فى داره ، وصارتا قهرمانتين لبيت السلطان يقتدى برأيهما فى عمل الأعراس السلطانية والمهمات الجليلة التى تعمل فى الأعياد والمواسم وترتيب شئون الحريم السلطانى وتربية أولاد السلطان . وطال عمرهما ، وصار لهما من الأموال الكثيرة والسعادات العظيمة ما يجل وصفه ، وصنعا برا ومعروفا كبيرا ، واشتهرا وبعد صيتهما وانتشر ذكرهما .

« حكر طقزدمر » : هذا الحكر كان بستانا مساحته نحو الثلاثين فدانا ، فاشتراه الأمير طقزدمر الحموى نائب السلطنة بديار مصر ودمشق ، وقلع أخشابه ، وأذن للناس فى البناء عليه . فحكروه ، وأنشأوا به الدور الجليلة ، واتصلت عمارة الناس فيه بسائر العمائر من جهاته . وأنشأ الأمير طقزدمر فيه أيضا على الخليج قنطرة ليمر عليها من خط المسجد المعلق الى هذا الحكر .

وصار هذا الحكر مسكن الأمراء والأجناد ، وبه السوق والحمامات والمساجد وغيرها ، وهو مما عمر فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون . ومات طقزدمر فى ليلة الخميس مستهل جمادى الآخرة * سنة ست وأربعين وسبعمائة .

(*) ص١١٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

« اللوق » : يقال لاق الشىء يلوقه لوقا ولوقه لينه . وفى الحديث الشريف « لا آكل الا ما لوق لى » . ولواق أرض معروفة ... قاله ابن سيده .

فكأن هذه الأرض لما انحسر عنها ماء النيل كانت أرضا لينة . والى الآن فى أراضى مصر ما اذا نزل عنها ماء النيل ، لا تحتاج الى الحرث للينها ، بل تلاق لوقا .

فصواب هذا المكان أن يقال فيه أراضى اللوق بفتح اللام . الا أن الناس انما عهدناهم يقولون قديما : باب اللوق ، وأراضى باب اللوق بضم اللام . ويجوز أن يكون من اللق بضم اللام وتشديد القاف .

قال ابن سيده : واللق كل أرض ضيقة مستطيلة ، واللق الأرض المرتفعة ، ومنه كتاب عبد الملك بن مروان الى الحجاج « لا تدع خقا ولا لقا الا زرعته » ... حكاه الهروى فى الغريبين . انتهى .

والخق — بضم الخاء المعجمة وتشديد القاف — الغدير اذا جف . وقيل الخق ما اطمأن من الأرض ، واللق ما ارتفع منها .

وأراضى اللوق هذه كانت بساتين ومزدرعات ، ولم يكن بها فى القديم بناء ألبتة ، ثم لما انحسر الماء عن منشأة الفاضل عمر فيها كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب .

ويطلق اللوق فى زمننا على المكان الذى يعرف اليوم بباب اللوق ، المجاور لجامع

الطباخ المطل على بركة الشقاف ، وما يسامته الى الخليج الذى يعرف اليوم بخليج فم الخور . وينتهى اللوق من الجانب الغربى الى منشأة المهرانى ، ومن الجانب الشرقى الى الدكة بجوار المقس .

وكان القاضى الفاضل قد اشترى قطعة كبيرة من أراضى اللوق هذه من بيت المال وغيره بجملة كبيرة من المال ، ووقفها على العين الزرقاء بالمدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ، وعرفت هذه الأرض بستان ابن قريش ، وبعضها دخل فى الميدان الظاهرى ، وعوض عنها أراض بأكثر من قيمتها . وكان متحصلّ هذا الوقف يحمل فى كل سنة الى المدينة لتنظيف العين وتنظيف مجاريها .

وأما الجانب الغربى من خليج فم الخور — المعروف اليوم بحكر ابن الأثير ، وبسويقة الموفق وموردة الملح — وساحل بولاق كله ، فانه محدث عمر بعد سنة سبعمائة كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى قريبا . فان النيل كان يمر من ساحل الحمراء بغربى الزهرى على الأراضى التى لما انحسر عنها عرفت بأراضى اللوق ، الى أن ينتهى الى ساحل المقس .

وكانت طاقات المناظر التى بالدكة تشرف على النيل الأعظم ، ولا يحول بينها وبين رؤية بر الجيزة شىء ، ويمر النيل من الدكة الى المقس ، ويمتد الى زريبة جامع المقس الذى هو الآن على الخليج الناصرى .

فلما انحسر ماء النيل عن أراضى اللوق ، اتصلت بالمقس ، وصارت عدة أماكن تعرف بظاهر اللوق ، وهى : بستان ابن ثعلب ، ومنشأة ابن ثعلب ، وباب اللوق ، وحكر قردمية ، وحكر كريم الدين ، ورحبة التبن ، وبستان السعيدى ، وبركة قرموط ، وخور الصعبى .

وصار بين اللوق وبين منشأة المهرانى ، التى هى بأول بر الخليج الغربى ، منشأة الفاضل ، والمنشأة المستجدة ، وحكر الخليلى ، وحكر الساباط — ويعرف بحكر بستان القاصد — وحكر كريم الدين الصغير ، وحكر المطوع ، وحكر العين الزرقاء .

وفى غربى هذه المواضع على شاطىء النيل زريبة قوصون ، وموردة البلاط ، وموردة الجبس ، وخط الجامع الطيبرسى ، وزريبة السلطان ، وربع بكتمر .

وأول ما بنيت الدور للسكن فى اللوق أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى . وذلك أنه جهز كشافة من خواصه ، مع الأمير جمال الدين الرومى السلاح دار والأمير علاء الدين آق سنقر الناصرى ، ليعرف أخبار هولاكو ، ومعهم عدة من العربان . فوجدوا طائفة من التتر مستأمنين وقد عزموا على قصد السلطان بمصر .

وذلك أن الملك بركة خان ملك التتر كان قد بعثهم نجدة لهولاكو . فلما وقع بينهما كتب اليهم بركة يأمرهم بمفارقة هولاكو والمصير اليه ، فان تعذر عليهم ذلك صاروا الى عسكر مصر ، فانه كان قد ركن الى الملك الظاهر ، وترددت القصاد بينهم بعد واقعة بغداد ورحيل هولاكو عن حلب ، فاختلف هولاكو مع ابن عمه بركة خان وتواقعا ، فقتل ولد هولاكو فى المصاف ، وانهزم عسكره ، وفر الى قلعة فى بحيرة أذربيجان .

فلما وردت الأخبار بذلك الى مصر ، كتب السلطان الى نواب الشام باكرامهم وتجهيز الاقامات لهم ، وبعث اليهم بالخلع والانعامات . فوصلوا الى ظاهر القاهرة — وهم نيف على مائتى فارس بنسائهم وأولادهم — فى يوم الخميس رابع عشرى ذى الحجة سنة ستين وستمائة .

فخرج السلطان يوم السبت سادس عشريه الى لقائهم بنفسه ومعه العساكر ، فلم يبق أحد حتى خرج لمشاهدتهم ، فاجتمع عالم عظيم تبهر رؤيتهم العقول ، وكان يوما مشهودا . فأنزلهم السلطان فى دور كان قد أمر بعمارتها من أجلهم فى أراضى اللوق ، وعمل لهم دعوة عظيمة هناك ، وحمل اليهم الخلع والخيول والأموال .

وركب السلطان الى الميدان ، وأركبهم معه للعب الأكرة ، وأعطى كبراءهم أمريات : فمنهم من عمله أمير مائة ، ومنهم دون ذلك ، ونزل بقيتهم من جملة البحرية ، وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير فى خدمته الأجناد والغلمان وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم ، وكثرت نعمهم ، وتظاهروا بدين الاسلام .

فلما * بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء ، وفد عليه منهم جماعة بعد جماعة ، وهو يقابلهم بمزيد الاحسان . فتكاثروا بديار مصر ، وتزايدت العمائر فى اللوق وما حوله ، وصار هناك عدة أحكار عامرة آهلة ، الى أن خربت شيئا بعد شىء وصارت كيمانا ، وفيها ما هو عامر الى يومنا هذا .

ولما قدمت رسل القان بركة فى سنة احدى وستين وسبعمائة ، أنزلهم السلطان الملك الظاهر باللوق ، وعمل لهم فيه مهما ، وصار يركب فى كل سبت وثلاثاء للعب الأكرة باللوق فى الميدان .

وفى سادس ذى الحجة من سنة احدى وستين ، قدم من المغل والبهادرية زيادة على ألف وثلثمائة فارس ، فأنزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهاليهم وأولادهم . وفى شهر رجب سنة احدى وستين وسبعمائة قدمت رسل الملك بركة ورسل الأشكرى ، فعملت لهم دعوة عظيمة باللوق .

فأما بستان ابن ثعلب فانه كان بستانا عظيم القدر مساحته خمسة وسبعون فدانا ، فيه سائر الفواكه بأسرها ، وجميع ما يزدرع من الأشجار والنخل والكروم والنرجس والهليون والورد والنسرين والياسمين والخوخ والكمثرى والنارنج والليمون التفاحى والليمون الراكب والمختن والجميز والقراصيا والرمان والزيتون والتوت الشامى والمصرى والمرسين والتامرحنا والبان وغير ذلك ، وبه الآبار المعينة ، وله الهماليات ، وفيه منظرة عظيمة وعدة دور .

ومن حقوق هذا البستان الأرض التى تعرف اليوم ببركة قرموط ، والأرض التى تعرف اليوم بالخور قبالة الأرض المعروفة بالبيضاء بجوار بستان السراج ، وبستان

(*) ص١١٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

الزهرى ، وبستان البورجى فيما بين هذه البساتين وبين خليج الدكة والمقس .

وكان على بستان ابن ثعلب سور مبنى ، وله باب جليل . وحده القبلى الى منشاة ابن ثعلب . وحده البحرى الى الأرض المجاورة للميدان السلطانى الصالحى والى أرض الجزائر ، وفى هذا الحد أرض الخور وهى من حقوقه . وحده الشرقى الى بستان الدكة وبستان الأمير قراقوش . وحده الغربى الى الطريق المسلوك فيها الى موردة السقائين قبالة بستان السراج . وموردة السقائين هذه موضع قنطرة الخرق الآن .

وابن ثعلب هذا هو الشريف الأمير الكبير فخر الدين اسماعيل بن ثعلب الجعفرى الزينبى ، أحد أمراء مصر فى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب وغيره ، وصاحب المدرسة الشريفية بجوار درب كركامة على رأس حارة الجودرية من القاهرة .

وانتقل من بعده الى ابنه الأمير حصن الدين ثعلب . فاشتراه منه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ، بثلاثة آلاف دينار مصرية ، فى شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وستمائة . وكان باب هذا البستان فى الموضع الذى يقال له اليوم باب اللوق .

وكان هذا البستان ينتهى الى خليج الخور ، وآخره من المشرق ينتهى الى الدكة بجوار المقس . ثم انقسم بعد ذلك قطعا ، وحكرت أكثر أرضه وبنى الناس عليها الدور وغيرها . وبقيت منه الى الآن قطعة عرفت ببستان الأمير أرغون النائب بديار مصر أيام الملك الناصر ، ثم عرف بعد ذلك ببستان ابن غراب .

وهو الآن على شاطىء الخليج الناصرى ، على يمنة من سلك من قنطرة قدادار بشاطىء الخليج من جانبه الشرقى الى بركة قرموط ، وبقيت من بستان ابن ثعلب قطعة تعرف ببستان بنت الأمير بيبرس الى الآن ، وهو وقف . ومن جملة بستان ابن ثعلب أيضا الموضع الذى يعرف ببركة قرموط ، والموضع المعروف بفم الخور .

وأما « منشاة ابن ثعلب » فانها بالقرب من باب اللوق ، وحكرت فى أيام الشريف فخر الدين بن ثعلب المذكور فعرفت به ، وهى تعرف اليوم بمنشاة الجوانية لأن جوانية الفم كانوا يسكنون فيها فعرفت بهم . وأدركتها فى غاية العمارة بالناس والمساكن والحوانيت وغيرها ، وقد اختلت بعد سنة ست وثمانمائة ، وأكثرها الآن زرائب للبقر .

وأما « باب اللوق » فانه كان هناك ، الى ما بعد سنة أربعين وسبعمائة بمدة ، باب كبير عليه طوارق حربية مدهونة ، على ما كانت العادة فى أبواب القاهرة وأبواب القلعة وأبواب بيوت الأمراء ، وكان يقال له باب اللوق .

فلما أنشأ القاضى صلاح الدين بن المغربى قيساريته التى بباب اللوق ، وجعلها لبيع غزل الكتان ، هدم هذا الباب ، وجعله فى الركن من جدار القيسارية القبلى مما يلى الغربى . وهذا هو باب الميدان الذى أنشاه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لما

اشترى بستان ابن ثعلب . وقد ذكر خبر هذا الميدان عند ذكر الميادين من هذا الكتاب .

وأما « حكر قردميه » فانه على يمنة من سلك من باب اللوق المذكور الى قنطرة قدادار ، وكان من جملة بستان ابن ثعلب فحكر ، وصار أخيرا بيد ورثة الأمير قوصون .

وكان حكرا عامرا الى ما بعد سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فخرب عند وقوع الوباء الكبير بمصر ، وحفرت أراضيه وأخذ طينها ، فصارت بركة ماء عليها كيمان خلف الدور التى على الشارع المسلوك فيه الى قنطرة قدادار .

وأما « حكر كريم الدين » فانه على يسرة من سلك من باب اللوق الى رحبة التبن والى الدكة * ، وكان يعرف قبل كريم الدين بحكر الصهيونى . وهذا الحكر الآن آئل الى الدثور .

وأما « رحبة التبن » فانها فى بحرى منشاة الجوانية ، شارعة فى الطريق العظمى التى يسلك فيها الى قنطرة الدكة من رحبة باب اللوق . عرفت بذلك لأنه كانت أحمال التبن تقف بها لتباع هناك ، فان القاهرة كانت توقر من مرور أحمال التبن والحطب ونحوهما بها . ثم اختطت من جملة ما اختط فى غربى الخليج ، وصار بها عدة مساكن وسوق كبير ، وقد أدركته غاصا بالعمارة ، وانما اختل حال هذا الخط من سنة ست وثمانمائة .

(*) ص١١٨ ج٢ ، ط. بولاق .

وأما « بستان السعيدى » فانه يشرف على الخليج الناصرى فى هذا الوقت ، وأدركنا ما حوله عامرا . وقد خربت الدور التى كانت هناك من جهة الطريق الشارع من باب اللوق الى الدكة ، وبها بقية آئلة الى الدثور .

وأما « بركة قرموط » فانها من حقوق بستان ابن ثعلب . ولما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى رمى فيها ما خرج عند حفره من الطين ، وأدركناها من أعمر بقعة فى أرض مصر ، وهى الآن خراب كما ذكر عند ذكر البرك من هذا الكتاب .

وأما « الخور » فان الخور فى اللغة مصب الماء ، وهو هنا اسم للأرض التى ما بين الخليج الناصرى والخليج الذى يعرف بفم الخور ، وجميع هذه الأرض من جملة بستان ابن ثعلب .

وكان يعرف بالخور الصعبى ، لأنه كانت به مناظر ، تعرف بمناظر الصعبى ، تشرف على النيل . وكان على شاطىء الخليج الكبير ، فى هذا الجانب الغربى الذى نحن فى ذكره ، بجوار بستان الخشاب الذى كان يتوصل اليه من قنطرة السد ، وبعضه الآن الميدان السلطانى ، بستان يعرف بالجزيرة ... يعنى بستان الجزيرة المعروف بالصعبى ، وكان من البساتين الجليلة .

وهذا الصعبى هو الشيخ كريم الدولة عبد الواحد بن محمد بن على الصعبى . مات فى شهر رمضان سنة ثلاث وستمائة بمصر . وكان له أخ يعرف بعبد العظيم بن محمد الصعبى .

. لما انحسر ماء النيل عن الرملة التى قبل لها منية بولاق تجاه المقس ، وعمرت هناك الدور ، اتصلت من قبليها بالخور ، وأنشىء بشاطىء النيل الذى بالخور دور تجل عن الوصف ، وانتظمت صفا واحدا من بولاق الى منشأة المهرانى وموردة الحلفاء ، ومن موردة الحلفاء على ساحل مصر الجديد الى دير الطين غربى بركة الحبش ... لو أحصى ما أنفق على بناء هذه الدور لقام بخراج مصر أيام كانت عامرة ؛ وقد خرب معظمها من سنة ست وثمانمائة . وقد تقدم ذكر منشأة الفاضل .

وأما حكر الساباط وحكر كريم الدين الصغير وحكر المطوع وحكر العين الزرقاء ، فانها بالقرب من الميدان الكبير السلطانى ، وقد خربت بعدما كانت عامرة بالدور والمتنزهات .

« بستان العدة » : هذا المكان من جملة الأحكار التى فى غربى الخليج ، وهو بجوار قنطرة الخرق وبجوار حكر النوبى ، قريب من باب اللوق تجاه الدور المطلة على الخليج من شرقيه ، المقابلة لباب سعادة وحارة الوزيرية .

كان بستانا جليلا . وقفه الأمير فارس المسلمين بدر بن رزيك أخو الصالح طلائع بن رزيك ، صاحب جامع الصالح خارج باب زويلة ، ثم انه خرب ، فحكر ، وبنى عليه عدة مساكن . وحكره يتعاطاه ورثة فارس المسلمين .

« حكر جوهر النوبى » : هذا الحكر تجاه الحارة الوزيرية من بر الخليج الغربى فى شرقى بستان العدة ، ويسلك منه الى قنطرة أمير حسين من طريق تجاه باب جامع أمير حسين الذى تعلوه المئذنة . وما زال بستانا الى نحو سنة ستين وستمائة ، فحكر وبنى فيه الدور فى أيام الظاهر بيبرس .

وعرف بجوهر النوبى أحد الأمراء فى الأيام الكاملية ، وقد تقدم بديار مصر تقدما زائدا ، وكان خصيا ، وهو ممن ثار على الملك العادل أبى بكر بن الكامل وخلعه . فلما ملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بعد أخيه العادل ، قبض على جوهر فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

« حكر خزائن السلاح » : هذا الحكر كان يعرف قديما بحكر الأوصية ، وهو فيما بين الدكة وقنطرة الموسكى . وقفه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب على مصالح خزائن السلاح ، هو وعدة أماكن بمدينة مصر مع مدينة قليوب وأراضيها ، فى جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وستمائة . وظهر كتاب الوقف المذكور من الخزائن السلطانية فى جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد خرب أكثر هذا الحكر وصار كيمانا .

« حكر تكان » : هذا الحكر بجوار سويقة العجمى الفاصلة بينه وبين حكر خزائن السلاح ، وكان يعرف قديما بحكر كونج ، وحده القبلى ينتهى الى حكر ابن الأسد جفريل ، والحد البحرى ينتهى الى حكر العلائى ، والحد الشرقى ينتهى الى حكر البغدادية ، والحد الغربى ينتهى الى حكر خزائن السلاح وسويقة العجمى .

وتكان هو الأمير سيف الدين تكان ، ويقال « تكام » بالميم عوضا عن النون .

وهذا الحكر استقر أخيرا فى أوقاف خوند أردوتكين ابنة نوكيه السلاح دار ، زوجة الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، على تربتها التى أنشأتها خارج باب القرافة التى تعرف اليوم بتربة الست . وقد خرب هذا الحكر ، وبيعت أنقاضه فى أعوام بضع * وتسعين وسبعمائة ، وجعل بعضه بستانا فى سنة ست وتسعين وسبعمائة .

« حكر ابن الأسد جفريل » : هذا الحكر فى قبلى حكر تكان . كان بستانا فحكر . وعرف بالأمير شمس الدين موسى ابن الأمير أسد الدين جفريل ، أحد أمراء الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بمصر .

« حكر البغدادية » : هذا الحكر بجوار خليج الذكر . كان من أعظم البساتين فى الدولة الفاطمية ، فأزال الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب أشجاره ونخله وجعله ميدانا ، ثم حكر وصارت فيه عدة مساكن . وهو الآن خراب يباب لا يأويه الا البوم والرخم .

« حكر خطلبا » : هذا الحكر حده القبلى الى الخليج ، وحده البحرى الى الكوم الفاصل بينه وبين حكر الأوصية المعروف بالجاولى ، وحده الشرقى الى بستان الجليس الذى عرف بابن منقذ ، والحد الغربى الى زقاق هناك .

وكان هذا الحكر بستانا اشتراه جمال الدين الطواشى ، من جمال الدين عمر بن ناصح الدين داود بن اسماعيل الملكى الكاملى ، فى سنة ست عشرة وستمائة . ثم ابتاعه منه الطواشى محيى الدين صندل الكاملى فى سنة عشرين وستمائة ، وباعه للأمير الفارس صارم الدين خطلبا الكاملى فى سنة احدى وعشرين وستمائة ، فعرف به .

وهو خطلبا بن موسى الأمير صارم الدين الفارسى التبتى الموصلى الكاملى . استقر فى ولاية القاهرة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم أضيفت له ولاية الفيوم فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ثم صرف عنها ، وسار متسلمه الى اليمن ليتسلمها ، فتسلمها فى جمادى الأولى .

وسار هو فى سادس شوال منها واليا على مدينة زبيد باليمن ، ومعه خمسمائة رجل ورفيقه الأمير باخل ، فبلغت النفقة عليه عشرين ألف دينار ، وكتب للطواشية بنفقة عشرة دنانير لكل منهم على اليمن . فأقام باليمن مدة ، ثم قدم الى القاهرة وصار من أصحاب الأمير فخر الدين جهاركس ، وتأخر الى أيام الملك الكامل ، وصار من أمرائه بالقاهرة الى أن مات فى ثالث شعبان سنة خمس وثلاثين وستمائة .

« حكر ابن منقذ » : هذا الحكر خارج باب القنطرة بعدوة خليج الذكر ، وكان بستانا يعرف ببستان الشريف الجليس ، ويعرف أيضا بالبطائحى ، ثم عرف بالأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائب الملك المعز سيف الأسلام ظهير الدين طغتكين بن نجم الدين أيوب بن شادى على مملكة اليمن .

وانتقل بعد ابن منقذ الى الشيخ عبد المحسن بن عبد العزيز بن على المخزومى ،

(*) ص ١١٦ ج ٢ ، ط . بولاق .

المعروف بابن الصيرفي ، فوقفه على جهات تؤول أخيرا الى الفقراء والمساكين المقيمين بمشهد السيدة نفيسة ، والفقراء والمساكين المنقطعين في حبوس القاهرة ، في سنة ثلاث وأربعين وستمائة . ثم أزيلت أنشاب هذا البستان ، وحكرت أرضه ، وبنيت الدور والمساكن عليها . وهو الآن خراب .

« حكر فارس المسلمين بدر بن رزيك » : هذا الحكر تجاه منظرة اللؤلؤة . كان من جملة البركة المعروفة ببطن البقرة ، ثم حكر وبني فيه ، وأكثره الآن خراب .

« حكر شمس الخواص مسرور » : هذا الحكر فيما بين خليج الذكر وحكر ابن منقذ . كان بستانا لشمس الخواص مسرور الطواشي ، أحد الخدام الصالحية ، مات في نصف شوال سنة سبع وأربعين وستمائة بالقاهرة . ثم حكر وبنى فيه الدور ، وموضعه الآن كيمان .

« حكر العلائي » : هذا الحكر يجاور « حكر تكاك » من بحريه . وكان بستانا جليل القدر ثم حكر ، وصار بعضه وقف تذكار بي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس ، وقفته في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة على نفسها ، ثم من بعدها على الرباط الذى أنشأته داخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس — وهو الرباط المعروف برواق البغدادية — وعلى المسجد الذى بحكر سيف الاسلام خارج باب زويلة ، وعلى تربتها التى بجوار جامع ابن عبد الظاهر بالقرافة .

وصار بعض هذا الحكر في وقف الأمير سيف الدين بهادر العلائي متولى البهنساء ، وكان وقفه في سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، فعرف بالحكر العلائي المذكور .

وأدركت هذا الحكر وهو من أعمر الأحكار وفيه درب الأمير عز الدين أيدمر الزراق ، أمير جاندار ووالي القاهرة ، وداره العظيمة ومساكنه الكثيرة . فلما حدثت المحن منذ سنة ست وثمانمائة خرب هذا الحكر ، وأخذت أنقاضه ، وبقيت دار الزراق الى سنة سبع عشرة وثمانمائة ، فشرع في الهدم فيها لأجل أنقاضها الجليلة .

« حكر الحريري » : هذا الحكر بجوار حكر العلائي المذكور من حده البحري ، وهو من جملة الأرض المعروفة بالأرض البيضاء ، وكان بستانا ثم حكر وصار في وقف خزائن السلاح . وأدركناه عامرا ، وفيه سوق يعرف بالسويقة البيضاء كانت بها عدة حوانيت وقد خرب هذا الحكر . وهذا الحريري هو الصاحب محيى الدين .

« حكر المساح » : عرف بالأمير شمس الدين سنقر المساح ، أحد أمراء الظاهر بيبرس ، قبض عليه في عدة من الأمراء في ذى الحجة سنة تسع وستين وستمائة .

« الدكة » : هذا المكان كان بستانا من أعظم بساتين القاهرة ، فيما بين أراضي اللوق والمقس * وبه منظرة للخلفاء الفاطميين تشرف طاقاتها على بحر النيل الأعظم ، ولا يحول بينها وبين بر الجيزة شيء .

فلما زالت الدولة الفاطمية تلاشى أمر هذا البستان وخرب ، فحكر موضعه وبنى الناس

(*) ص ١٢٠ ج ٢ ط. بولاق *

فيه ، فصار خطة كبيرة كأنه بلد جليل ، وصار به سوق عظيم ، وسكنه الكتاب وغيرهم من الناس ، وأدركته عامرا . ثم انه خرب منذ سنة ست وثمانمائة ، وبه الآن بقية مما قليل تدثر كما دثر ما هنالك وصار كيمانا .

ذكر المقس وفيه الكلام على المكس وكيف كان أصله في أول الاسلام

اعلم أن المقس قديم ، وكان في الجاهلية قرية تعرف بأم دنين ، وهي الآن محلة بظاهر القاهرة في بر الخليج الغربي . وكان عند وضع القاهرة هو ساحل النيل ، وبه أنشأ الامام المعز لدين الله أبو تميم معد الصناعة التى ذكرت عند ذكر الصناعات من هذا الكتاب ، وبه أيضا أنشأ الامام الحاكم بأمر الله أبو علي منصور جامع المقس الذى تسميه عامة أهل مصر في زمننا بجامع المقسي ، وهو الآن يطل على الخليج الناصري .

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في كتاب « فتوح مصر » وقد ذكر مسير عمرو بن العاص رضي الله عنه الى فتح مصر : فتقدم عمرو بن العاص رضي الله عنه ، لا يدافع الا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس ، فقاتلوه بها نحوا من شهر حتى فتح الله سبحانه وتعالى عليه . ثم مضى لا يدافع الا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين ، فقاتلوه بها قتالا شديدا ، وأبطأ عليه الفتح فكتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يستمده ، فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف . فقاتلهم ... وذكر تمام الخبر .

وقال القاضي أبو عبد الله القضاعي : المقس كانت ضيعة تعرف بأم دنين ، وانما سميت المقس لأن العاشر كان يقعد بها وصاحب المكس . فقيل المكس ، فقلب فقيل المقس .

قال المؤلف رحمه الله : الماكس هو العشار ، وأصل المكس في اللغة الجباية .

قال ابن سيده في كتاب « المحكم » : المكس الجباية ، مكسه يمكسه مكسا . والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية ، ويقال للعشار صاحب مكس ، والمكس انتقاص الثمن في البياعة .

قال الشاعر :

أفي كل أسواق العراق اتاوة
وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

ألا ينتهي عنا رجال وتتقي
محارمنا ،، لا يدرأ الدم بالدم

الاتاوة الخراج ، ومكس درهم أي نقص درهم في بيع ونحوه .

قال : وعشر القوم يعشرهم عشرا وعشورا ، وعشرهم أخذ عشر أموالهم ، وعشر المال نفسه وعشره كذلك ، والعشار قابض العشر ، ومنه قول عيسى بن عمرو لابن هبيرة وهو يضرب بين يديه بالسياط : تالله ان كانت الا ثيابا في أسفاط قبضها عشاروك .

وقال الجاحظ : ترك الناس مما كان مستعملا في الجاهلية أمورا كثيرة . فمن ذلك تسميتهم للاتاوة بالخراج ، وتسميتهم لما يأخذه السلطان من الحلوان والمكس بالرشوة .

وقال الخارجي : أفي كل أسواق العراق اتاوة ... البيت .

وكما قال العبدي في الجارود :

أكابن المعلى خلتنا أم حسبتنا
صوارى نعطى الماكسين مكوسا

الصوارى الملاحون ، والمكس ما يأخذه العشار . انتهى .

ويقال ان قوم شعيب عليه السلام كانوا مكاسين لا يدعون شيئا الا مكسوه ، ومنه قيل للمكس البخس ، لقوله تعالى : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » .

وذكر أحمد بن يحيى البلاذري ، عن سفيان الثوري ، عن ابراهيم بن مهاجر ، قال : سمعت زياد بن جرير يقول : أنا أول من عشر في الاسلام .

وعن سفيان ، عن عبد الله بن خالد ، عن عبد الرحمن بن معقل ، قال : سألت زياد بن جرير من كنتم تعشرون ؟

فقال : ما كنا نعشر مسلما ولا معاهدا ، بل كنا نعشر تجار أهل الحرب كما كانوا يعشروننا اذا أتيناهم .

وقال عبد الملك بن حبيب السلمي في كتاب « سيرة الامام » : العدل في مال الله ، عن السائب بن يزيد أنه قال : كنت على سوق المدينة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكنا نأخذ من القبط العشر .

وقال ابن شهاب : كان ذلك يؤخذ منهم في الجاهلية ، فألزمهم ذلك عمر بن الخطاب .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأخذ بالمدينة من القبط من الحنطة والزبيب نصف العشر ، يريد بذلك أن يكثر الحمل الى المدينة من الحنطة والزبيب ، وكان يأخذ من القطنية العشر .

وقال مالك رحمه الله : والسنة أن ما أقام الذمة في بلادهم التي صالحوا عليها فليس عليهم فيها الا الجزية ، الا أن يتجروا في بلاد المسلمين ويختلفوا فيها ، فيؤخذ منهم العشر فيما يديرون من التجارة . وان اختلفوا في العام الواحد مرارا الى بلاد المسلمين ، فعليهم كلما اختلفوا العشر . واذا اتجر الذمي في بلاده من أعلاها الى أسفلها ، ولم يخرج منها الى غيرها ، فليس عليه شيء ... مثل أن يتجر الذمي الشامي في جميع الشام * ، أو الذمي المصري في جميع مصر ، أو الذمي العراقي في جميع العراق .

وليس العمل عندنا على قول عمر بن عبد العزيز لزريق بن حيان : « واكتب لهم بما يؤخذ منهم كتابا الى مثله من الحول ، ومن مر بك من أهل الذمة فخذ مما يديرون من التجارات من كل عشرين دينارا دينارا ، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ، فان نقص منها ثلث دينار فدعها ولا تأخذ منها شيئا » . والعمل على أن يؤخذ منهم العشر ، وان خرجوا في السنة مرارا من كل ما اتجروا به قل أو كثر . وهذا قول ربيعة وابن هرمز .

وقال القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الحضرمي ، أحد أصحاب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه ، في كتاب « الرسالة » الى أمير

(*) ص١٢١ جـ٢ ، ط. بولاق *

المؤمنين هارون الرشيد ، وهو كتاب جليل القدر : حدثنا اسماعيل بن ابراهيم بن المهاجر ، قال : سمعت أبي يذكر ، قال : سمعت زياد ابن جرير ، قال : أول من بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه منا على العشور أنا ، فأمرني ألا أفتش أحدا ، وما مر على من شيء أخذت من حساب أربعين درهما درهما من المسلمين ، وأخذت من أهل الذمة من عشرين واحدا ، وممن لا ذمة له العشر ، وأمرني أن أغلظ على نصارى بني تغلب قال : انهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب ، فلعلهم يسلمون .

قال : وكان عمر رضي الله عنه قد اشترط على نصارى بني تغلب ألا ينصروا أولادهم

وحدثنا أبو حنيفة عن الهيثم ، عن أنس بن سيرين ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : بعثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه على العشور ، وكتب لي عهدا أن آخذ من المسلمين مما اختلفوا به لتجاراتهم ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر .

وحدثنا عاصم بن سليمان الأحول عن الحسن ، قال : كتب أبو موسى الأشعري الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : « ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أهل الحرب فيأخذون منهم العشر » .

فكتب اليه عمر رضي الله عنه : « فخذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما ، وليس فيما دون المائتين شيء ، فاذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ، فما زاد فبحسابه » .

وحدثنا عبد الملك بن جريج ، عن عمرو بن شعيب ، قال : ان أهل منبج — قوما من أهل الشرك وراء البحر — كتبوا الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا » .

قال : فشاور عمر رضي الله عنه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ، فأشاروا عليه به . فكانوا أول من عشره من أهل الحرب .

وحدثنا السدي بن اسماعيل ، عن عامر الشعبي ، عن زياد بن جرير الأسدي ، قال : ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعثه على عشور العراق والشام ، وأمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر .

فمر عليه رجل من بني تغلب من نصارى العرب ومعه فرس ، فقوموها بعشرين ألفا ، فقال : أمسك الفرس وأعطني ألفا ، أو خذ مني تسعة عشر ألفا وأعطني الفرس ... قال : أعطاه ألفا وأمسك الفرس .

قال : ثم مر عليه راجعا في سنته ، فقال : أعطني ألفا أخرى . فقال له التغلبي : كلما مررت بك تأخذ مني ألفا ؟!

قال : نعم .

فرجع التغلبي الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فوافاه بمكة وهو في بيت له ، فاستأذن عليه ، فقال : من أنت ؟

فقال : أنا رجل من نصارى العرب . وقص عليه قصته .

فقال له عمر رضى الله عنه : كفيت . ولم يزده على ذلك .

قال : فرجع الرجل الى زياد بن جرير ، وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا ، فوجد كتاب عمر رضى الله عنه قد سبق اليه « من مر عليك فأخذت منه صدقة ، فلا تأخذ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم من قابل ... الا أن تجد فضلا » .

قال : فقال الرجل : قد والله كانت نفسى طيبة أن أعطيك ألفا ، وانى أشهد الله تعالى أنى برىء من النصرانية ، وأنى على دين الرجل الذى كتب اليك هذا الكتاب .

وحدثنى يحيى بن سعيد ، عن زريق بن حيان — وكان على مكس مصر — فذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب اليه « أن انظر من مر عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر لك من التجارات ، من كل أربعين دينارا دينارا ، فما نقص فبحسابه حتى تبلغ عشرين دينارا ، فان نقصت فدعها ولا تأخذ منها . واذا مر عليك أهل الذمة فخذ مما يديرون من تجاراتهم من كل عشرين دينارا دينارا ، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ، ثم دعها لا تأخذ منها شيئا ، واكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم الى مثلها من الحول » .

وحدثنى أبو حنيفة ، عن حماد عن ابراهيم ، أنه قال : اذا مر أهل الذمة بالخمر للتجارة أخذ من قيمتها نصف العشر ، ولا يقبل قول الذمى فى قيمتها حتى يؤتى برجلين من أهل الذمة يقومانها عليه ، فيؤخذ نصف العشر من الذمى .

وحدثنا قيس بن الربيع . عن أبى فزارة ، عن يزيد بن الأصم ، عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، أنه قال : ان هذه المعاصر والقناطر سحت لا يحل أخذها .

فبعث عمالا الى اليمن ، ونهاهم أن يأخذوا من عاصر أو قنطرة أو طريق شيئا . فقدموا ، فاستقل المال ، فقالوا : نهيتنا . فقال : خذوا كما كنتم تأخذون .

وحدثنا محمد بن عبيد الله ، عن أنس بن سيرين ، قال : أرادوا أن يستعملونى * على عشور الأبلة فأبيت ، فلقينى أنس بن مالك رضى الله عنه فقال : ما يمنعك ؟

قلت : العشور أخبث ما عمل عليه الناس .

قال : فقال لى : لم لا تفعل ؟ عمر بن الخطاب رضى الله عنه صنعه : فجعل على أهل الاسلام ربع العشر ، وعلى أهل الذمة نصف العشر ، وعلى أهل المنزل ممن ليس له ذمة العشر .

وقال أبو الحسن المسعودى : ان كيقباذ ، أحد ملوك الفرس ، أول من أخذ العشر من الأرض ، وعمر بابل ومملكة الفرس . ورأيت فى التوراة التى فى يد اليهود أن أول من أخرج العشر من مواشيه وزروعه وجميع ماله خليل الله ابراهيم عليه السلام ، وكان يدفع ذلك الى ملك أورشليم التى هى أرض القدس واسمه ملكى صادق .

(*) ص١٢٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلما مات الخليل ابراهيم ، صلوات الله عليه وسلامه ، اقتدى به بنوه فى ذلك من بعده ، وصاروا يدفعون العشر من أموالهم ... الى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام . فأوجب على بنى اسرائيل اخراج العشر فى كل ما ملكت أيمانهم من جميع أموالهم بأنواعها ، وجعل ذلك حقا لسبط لاوى الذين هم قرابة موسى عليه السلام .

وقال ابن يونس فى « تاريخ مصر » : كان ربيعة بن شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه — أحد من شهد فتح مصر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — واليا لعمرو ابن العاص رضى الله عنه على المكس [1] . وكان زريق بن حيان على مكس أيلة فى خلافة عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه .

قال مؤلفه رحمه الله : ومع ذلك فقد كان أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل . روى ابن قتيبة فى كتاب « الغريب » أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله سهيلا ، كان عشارا باليمن ، فمسخه الله شهابا » . وروى ابن لهيعة ، عن عبد الرحمن بن ميمون، عن أبى ابراهيم المعافرى ، عن خالد بن ثابت ، أن كعبا أوصاه ، وتقدم اليه حين مخرجه مع عمرو بن العاص ألا يقرب المكس .

فهذا — أعزك الله — معنى المكس عند أهل الاسلام . لا ما أحدثه الظالم هبة الله بن صاعد الفائزى ، وزير الملك المعز أيبك التركمانى — أول من أقام من ملوك الترك بقلعة الجبل — من المظالم التى سماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية ، وتعرف اليوم بالمكوس .

فذلك الرجس النجس الذى هو أقبح المعاصى والذنوب الموبقات ، لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده ، وتكرر ذلك منه ، وانتهاكه للناس ، وأخذ أموالهم بغير حقها ، وصرفها فى غير وجهها . وذلك الذى لا يقربه متق ، وعلى آخذه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

ولنرجع الى الكلام فى المقس فنقول : من الناس من يسميه المقسم — بالميم بعد السين — قال ابن عبد الظاهر فى كتاب « خطط القاهرة » : وسمعت من يقول انه المقسم ، قيل لأن قسمة الغنائم عند الفتوح كانت به ، ولم أره مسطورا .

وقال العماد محمد بن أبى الفرج محمد ابن حامد الكاتب الأصفهانى فى كتاب « سنا البرق الشامى » : وجلس الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فى البرج الذى بجوار جامع المقسم ، فى السابع والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة .

وهذا المقسم على شاطىء النيل يزار ، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار ، وهو المكان الذى قسمت فيه الغنائم عند استيلاء الصحابة رضى الله عنهم على مصر . فلما أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بادارة السور على مصر والقاهرة ، تولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش ، وجعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقسم ، وبنى فيه برجا مشرفا على

(١) ينافى ما تقدم عن يحيى بن سعيد من انه كان على مكس مصر ، فلعله ولى المحلين . وليحرر ا.هـ.

النيل ، وبنى مسجدا جامعا ، واتصلت العمارة منه الى البلد ، وجامعه تقام فيه الجمعة والجماعات .

وهذا البرج عرف بقلعة قراقوش . وما برح هنالك الى أن هدمه الصاحب الوزير شمس الدين عبد الله المقسى ، وزير الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، فى سنة بضع وسبعين وسبعمائة عندما جدد جامع المقس الذى أنشأه الخليفة الحاكم بأمر الله ، فصار يعرف بجامع المقسى هذا الى اليوم . وما برح جامع المقس هذا يشرف على النيل الأعظم الى ما بعد سنة سبعمائة بعدة أعوام .

قال جامع السيرة الطولونية : وركب أحمد ابن طولون فى غداة باردة الى المقس ، فأصاب بشاطىء النيل صيادا عليه خلق لا يواريه منه شىء ، ومعه صبى له فى مثل حاله ، وقد ألقى شبكته فى البحر . فلما رآه رق لحاله ، وقال : يانسيم ادفع الى هذا عشرين دينارا . فدفعها اليه ولحق ابن طولون .

فسار أحمد بن طولون ولم يبعد ، ورجع فوجد الصياد ميتا والصبى يبكى ويصيح ، فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله وأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه ، وسأل الصبى عن أبيه ، فقال له : هذا الغلام (وأشار الى نسيم الخادم) دفع الى أبى شيئا ، فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتا .

فقال : فتشه يانسيم .

فنزل وفتشه ، فوجد الدنانير معه بحالها ، فحرض الصبى أن يأخذها . فأبى وقال : هذه قتلت أبى ، وان أخذتها قتلتنى .

فأحضر ابن طولون قاضى المقس وشيوخه ، وأمرهم أن يشتروا للصبى دارا بخمسمائة دينار تكون لها غلة ، وأن تحبس عليه ، وكتب اسمه فى أصحاب الجرايات وقال : أنا قتلت أباه لأن الغنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه . هذا * كان يجب أن يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر فى عينه .

وقال القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى رحمه الله فى تعليق المتجددات لسنة سبع وسبعين وخمسمائة : وفيه (يعنى يوم الثلاثاء لست بقين من المحرم) ركب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، أعز الله نصره ، لمشاهدة ساحل النيل — وكان قد انحسر وتشمر عن المقس وما يليه ، وبعد عن السور والقلعة المستجدين بالمقس — واحضر أرباب الخبرة ، واستشارهم . فأشير عليه باقامة الجراريف لرفع الرمال التى قد عارضت جزائرها طريق الماء ، وسدته ووقفت فيه .

وكان الأفضل بن أمير الجيوش لما تربى قدام دار الملك جزيرة رمل ، كما هى اليوم ، أراد أن يقرب البحر وينقل الجزيرة . فأشير عليه بأن يبنى مما يلى الجزيرة أنفا خارجا فى البحر ليلقى التيار وينقل الرمل . فعسر هذا ، وعظمت غرامته .

فأشار عليه ابن سيد بأن يأخذ قصارى فخار ، تثقب ويعمل تحتها رؤوس برابخ وتلطخ بالزفت ، وتكب القصارى عليها وتدفن فى الرمل . فاذا زاد النيل وركبها ، نزل من

(*) ص١٢٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

خروق القصارى الى الرؤوس فأدارها الماء ، ومنعتها القصارى أن تنحدر ، ودامت حركة الرمل بتحريك الماء للرؤوس ، فانتقل الرمل . وذكر أن للزفت خاصية فى تحويل الرمل .

قال : وفى هذا الوقت احترق النيل ، وصار البحر مخايض يقطعها الراجل ، وتوحل فيه المراكب ، وتشمر الماء عن ساحل المقس ومصر ، وربى جزائر رملية أشفق منها على المقياس لئلا يتقلص النيل عنه ويحتاج الى عمل غيره ، وخشى منها أيضا على ساحل المقس لكون بنيان السور كان اتصل بالماء ، وقد تباعد الآن عن السور ، وصار المد قوته من بر الغرب . ووقع النظر فى اقامة جراريف لقطع الجزائر التى رباها البحر ، وعمل أنوف خارجة فى بر الجيزة ليميل بها الماء الى هذا الجانب ، ولم يتم شىء من ذلك .

وقال ابن المتوج : فى سنة خمسين وستمائة انتهى النيل فى احتراقه الى أربعة أذرع وسبعة عشر أصبعا ، وانتهى فى زيادته الى ثمانية عشر ذراعا ، وكان مثل ذلك فى دولة الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وكان نيلا عظيما سد فيه باب المقس ... يعنى الباب الذى يعرف اليوم بباب البحر عند المقس . وفى سنة اثنتين وستين وستمائة ، أحضر الى الملك الظاهر بيبرس طفل وجد ميتا بساحل المقس ، له رأسان وأربعة أعين وأربعة أرجل وأربعة أيد .

وأخبرنى وكيل أبى الشيخ المعمر حسام الدين حسن بن عمر السهروردى رحمه الله ، ومولده سنة اثنتين وسبعمائة بالمقس ، أنه يعرف باب البحر هذا : اذا خرج منه الانسان فانه يرى بر الجيزة لا يحول بينه وبينها حائل ، فاذا زاد ماء النيل صار الماء عند الوكالة التى هى الآن خارج باب البحر ، المعروفة بوكالة الجبن ، واذا كان أيام احتراق النيل بقيت الرمال تجاه باب البحر ، وذلك قبل أن يحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى . فلما حفر الخليج المذكور ، أنشأ الناس البساتين والدور ، كما يجىء ان شاء الله تعالى ذكره .

وأدركنا المقس خطة فى غاية العمارة بها عدة أسواق ، ويسكنها أمم من الأكراد والأجناد والكتاب وغيرهم . وقد تلاشت من بعد سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، عند حدوث الغلاء بمصر ، فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين . فلما كانت المحن منذ سنة ست وثمانمائة ، خربت الأحكار والمقس وغيره . وفيه الى الآن بقية صالحة ، وبه خمسة جوامع تقام بها الجمعة وعدة أسواق ، ومعظمه خراب .

ذكر ميدان القمح

هذا المكان خارج باب القنطرة . يتصل من شرقيه بعدوة الخليج ، ومن غربيه بالمقس . وبعضهم يسميه ميدان الغلة . وكان موضعا للغلال أيام كان المقس ساحل القاهرة . وكانت صبر القمح وغيره من الغلال توضع من جانب المقس الى باب القنطرة عرضا ، وتقف المراكب من جانب المقس الى منية الشيرج طولا ، ويصير عند باب القنطرة فى أيام النيل من مراكب الغلة وغيرها ما يستر الساحل كله .

قال ابن عبد الظاهر : المكان المعروف بميدان الغلة وما جاوره الى ما وراء الخليج .

لما ضعف أمر الخلافة ، وهجرت الرسوم القديمة من التفرج فى اللؤلؤة وغيرها ، بنت الطائفة الفرحية الساكنون بالمقس لأنهم ضاق بهم المقس ، قبالة اللؤلؤة ، حارة سميت بحارة اللصوص ، بسبب تعديهم فيها مع غيرهم ، الى أن غيروا تلك المعالم . وقد كان ذلك قديما بستانا سلطانيا ، يسمى بالمقسى ، أمر الظاهر بن الحاكم بنقل أنشابه ، وحفره وجعله بركة قدام اللؤلؤة مختلطة بالخليج .

وكان للبستان المقدم ذكره ترعة من البحر يدخل منها الماء اليه — وهو خليج الذكر الآن — فأمر بابقائها على حالها مسلطة على البركة والخليج يستنقع الماء فيها . فلما نسى ذلك على ما ذكرناه ، عمد المذكورون وغيرهم الى اقتطاع البركة من الخليج ، وجعلوا بينها وبين الخليج جسرا ، وصار الماء يصل اليها من الترعة دون الخليج ، وصارت متنزها للسودان المذكورين فى أيام النيل * والربيع .

ولما كانت الأيام الآمرية أحب اعادة النزهة . فتقدم وزيره المأمون بن البطائحى باحضار عرفاء السودان المذكورين ، وأنكر عليهم ذلك ، فاعتذروا بكثر الرمال ، فأمر بنقل ذلك وأعطاهم انعاما ، فبنوا حارة بالقرب من دار كافور التى أسكنت بها الطائفة المأمونية ، قبالة بستان الوزير ، ومن المساجد الثلاثة المعلقة فى شرقيها . ثم أحضر الأبقار من البساتين والعدد والآلات ، ونقض الجسر الذى بين البركة والخليج ، وعمق البركة الى أن صار الخليج مسلطا عليها .

(*) ص١٢٤ جـ٢ ، ط. بولاق

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : هذه البركة عرفت ببطن البقرة ، وقد ذكر خبرها عند ذكر البرك من هذا الكتاب . وقد صار هذا الميدان اليوم سوقا تباع فيه القشة من النحاس العتيق والحصر وغير ذلك ، وفى بعضه سوق الغزل ، وبه جامع يشرف على الخليج ، وسكن هناك طائفة من المشارقة الحياك ، وفيه سوق عامر بالمعايش .

ذكر ارض الطبالة

هذه الأرض ، على جانب الخليج الغربى بجوار المقس ، كانت من أحسن متنزهات القاهرة . يمر النيل الأعظم من غربيها عندما يندفع من ساحل المقس — حيث جامع المقس الآن — الى أن ينتهى الى الموضع الذى يعرف بالجرف ، على جانب الخليج الناصرى بالقرب من بركة الرطلى .

ويمر من الجرف الى غربى البعل ، فتصير أرض الطبالة نقطة وسط : من غربيها النيل الأعظم ، ومن شرقيها الخليج ، ومن قبليها البركة المعروفة ببطن البقرة ، والبساتين التى آخرها حيث الآن باب مصر بجوار الكبارة ، وحيث المشهد النفيسى ، ومن بحريها أرض البعل ومنظرة البعل ومنظرة التاج والخمس وجوه وقبة الهواء .

فكانت رؤية هذه الأرض شيئا عجيبا فى أيام الربيع ، وفيها يقول سيف الدين على بن قزل المشد :

الى طبالة يعزون أرضا
لها من سندس الريحان بسط
وقد كتب الشقيق بها سطورا
وأحسن شكلها للطل نقط
رياض كالعرائس حين تجلى
يزين وجهها تاج وقرط

وانما قيل لها أرض الطبالة . لأن الأمير أبا الحارث أرسلان البساسيرى ، لما غاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسى ، وخرج من بغداد يريد الانتماء الى الدولة الفاطمية بالقاهرة ، أمده الخليفة المستنصر بالله ووزيره الناصر لدين الله عبد الرحمن البازورى ، حتى استولى على بغداد ، وأخذ قصر الخلافة ، وأزال دولة بنى العباس منها ، وأقام الدولة الفاطمية هناك ، وسير عمامة القائم وثيابه وشباكه الذى كان اذا جلس يستند اله ، وغير ذلك من الأموال والتحف الى القاهرة فى سنة خمسين وأربعمائة .

فلما وصل ذلك الى القاهرة ، سر الخليفة المستنصر سرورا عظيما ، وزينت القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة . فوقفت « نسب » طبّالة المستنصر — وكانت امرأة مرجلة تقف تحت القصر فى المواسم والأعياد ، وتسير أيام الموكب وحولها طائفتها وهى تضرب بالطبل وتنشد — فأنشدت وهى واقفة تحت القصر :

يابنى العباس ردوا
ملك الأمر معد
ملككم ملك معار
والعوارى تسترد

فأعجب المستنصر ذلك منها ، وقال لها : تمنّى .

فسألت أن تقطع الأرض المجاورة للمقس . فأقطعها هذه الأرض ، وقيل لها من حينئذ : « أرض الطبالة » . وأنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى تعرف بتربة نسب .

قال ابن عبد الظاهر : أرض الطبالة منسوبة الى امرأة مغنية تعرف بنسب — وقيل بطرب — مغنية المستنصر ... قال : فوهبها هذه الأرض المعروفة بأرض الطبالة ، وحكرت وبنيت آدرا وبيوتا ، وكانت من ملح القاهرة وبهجتها . انتهى .

ثم ان أرض الطبالة خربت فى سنة ست وتسعين وستمائة ، عند حدوث الغلاء والوباء فى سلطنة الملك العادل كتبغا ، حتى لم يبق فيها انسان يلوح ، وبقيت خرابا الى ما بعد سنة احدى عشرة وسبعمائة ، فشرع الناس فى سكناها قليلا قليلا .

فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى ، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب . فما زال بالمهندسين حتى مروا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوابين — التى تعرف اليوم ببركة الحاجب وبركة الرطلى — فمروا به من هناك حتى صب فى الخليج الكبير من آخر أرض الطبالة .

فعمر الأمير بكتمر المذكور هناك القنطرة ، التى تعرف بقنطرة الحاجب ، على الخليج الناصرى ، وأقام جسرا من القنطرة المذكورة الى قريب من الجرف . فصار هذا الجسر فاصلا بين بركة الحاجب والخليج الناصرى ،

وأذن للناس فى تحكيره * ، فبنوا عليه وعلى البركة الدور .

وعمرت بسبب ذلك أرض الطبالة ، وصار بها عدة حارات : منها حارة العرب ، وحارة الأكراد ، وحارة البزازرة ، وحارة العياطين وغير ذلك . وبقى فيها عدة أسواق وحمام وجوامع تقام بها الجمعة ، وأقبل الناس على التنزه بها أيام النيل والربيع ، وكثرت الرغبات فيها لقربها من القاهرة .

وما برحت على غاية من العمارة . الى أن حدث الغلاء فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، أيام الأشرف شعبان بن حسين ، فخرب كثير من حارات أرض الطبالة ، وبقيت منها بقية الى أن دثرت منذ سنة ست وثمانمائة ، وصارت كيمانا .

وبقى فيها من العامر الآن الأملاك المطلة على البركة ، التى ذكرت عند ذكر البرك من هذا الكتاب ، وفيها بقعة تعرف بالجنينة — تصغير جنة — من أخبث بقاع الأرض . يعمل فيها بمعاصى الله عز وجل ، وتعرف ببيع الحشيشة التى يبتلعها أراذل الناس .

وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة فى وقتنا هذا فشوا زائدا ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا ، وتظاهروا بها من غير احتشام ... بعدما أدركناها تعد من أرذل الخبائث ، وأقبح القاذورات ، وما شىء فى الحقيقة أفسد لطباع البشر منها . ولاشتهارها فى وقتنا هذا عند الخاص والعام ، بمصر والشام والعراق والروم ، تعين ذكرها . والله تعالى أعلم .

ذكر حشيشة الفقراء

قال الحسن بن محمد فى كتاب « السوانح الأدبية فى مدائح القنبية » : سألت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازى الحيدرى ببلدة تستر ، فى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، عن السبب فى الوقوف على هذا العقار ، ووصوله الى الفقراء خاصة ، وتعديه الى العوام عامة .

فذكر لى أن شيخه ، شيخ الشيوخ حيدرا رحمه الله ، كان كثير الرياضة والمجاهدة ، قليل الاستعمال للغذاء ، قد فاق فى الزهادة ، وبرز فى العبادة . وكان مولده بنشاور من بلاد خراسان ، ومقامه بجبل بين نشاور ومارماه ، وكان قد اتخذ بهذا الجبل زاوية وفى صحبته جماعة من الفقراء ، وانقطع فى موضع منها ، ومكث بها أكثر من عشر سنين لا يخرج منها ، ولا يدخل عليه أحد غيرى للقيام بخدمته .

قال : ثم ان الشيخ طلع ذات يوم ، وقد اشتد الحر وقت القائلة ، منفردا بنفسه الى الصحراء ، ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كنا نعهده من حاله قبل ، وأذن لأصحابه فى الدخول عليه ، وأخذ يحادثهم .

فلما رأينا الشيخ على هذه الحالة من المؤانسة ، بعد اقامته تلك المدة الطويلة فى الخلوة والعزلة ، سألناه عن ذلك فقال : بينما أنا فى خلوتى اذ خطر ببالى الخروج الى الصحراء منفردا ، فخرجت فوجدت كل شىء من النبات ساكنا لا يتحرك لعدم الريح وشدة

(*) ص١٢٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

القيظ ، ومررت بنبات له ورق ، فرأيته فى تلك الحال يميس بلطف ، ويتحرك من غير عنف كالثمل النشوان ، فجعلت أقطف منه أوراقا وآكلها ، فحدث عندى من الارتياح ما شاهدتموه ، وقوموا بنا حتى أوقفكم عليه لتعرفوا شكله .

قال : فخرجنا الى الصحراء ، فأوقفنا على النبات ، فلما رأيناه قلنا : هذا نبات يعرف بالقنب . فأمرنا أن نأخذ من ورقه ونأكله ، ففعلنا . ثم عدنا الى الزاوية فوجدنا فى قلوبنا من السرور والفرح ما عجزنا عن كتمانه .

فلما رآنا الشيخ على الحالة التى وصفنا أمرنا بصيانة هذا العقار ، وأخذ علينا الأيمان ألا نعلم به أحدا من عوام الناس ، وأوصانا ألا نخفيه عن الفقراء ، وقال : ان الله تعالى قد خصكم بسر هذا الورق ، ليذهب بأكله همومكم الكثيفة ، ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة . فراقبوه فيما أودعكم ، وراعوه فيما استرعاكم .

قال الشيخ جعفر : فزرعتها بزاوية الشيخ حيدر بعد أن وقفنا على هذا السر فى حياته ، وأمرنا بزرعها حول ضريحه بعد وفاته . وعاش الشيخ حيدر بعد ذلك عشر سنين وأنا فى خدمته ، لم أره يقطع أكلها فى كل يوم ، وكان يأمرنا بتقليل الغذاء وأكل هذه الحشيشة .

وتوفى الشيخ حيدر سنة ثمان عشرة بزاويته فى الجبل ، وعمل على ضريحه قبة عظيمة ، وأتته النذور الوافرة من أهل خراسان ، وعظموا قدره وزاروا قبره ، واحترموا أصحابه . وكان قد أوصى أصحابه عند وفاته أن يولكوا ظرفاء أهل خراسان وكبراءهم من هذا العقار وسره ، فاستعملوه .

قال : ولم تزل الحشيشة شائعة ذائعة فى بلاد خراسان ومعاملات فارس . ولم يكن يعرف أكلها أهل العراق ، حتى ورد اليها صاحب هرمز ومحمد بن محمد صاحب البحرين — وهما من ملوك سيف البحر المجاور لبلاد فارس — فى أيام الملك الامام المستنصر بالله ، وذلك فى سنة ثمان وعشرين وستمائة ، فحملها أصحابهما معهم ، وأظهروا للناس أكلها . فاشتهرت بالعراق ، ووصل خبرها الى أهل الشام ومصر والروم ، فاستعملوها .

قال : وفى هذه السنة ظهرت الدراهم ببغداد ، وكان الناس ينفقون القراضة .

وقد نسب اظهار الحشيشة الى الشيخ حيدر الأديب محمد بن على بن الأعمى الدمشقى فى أبيات ، وهى * :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر
معنبرة خضراء مثل الزبرجد
يعاطيكها ظبى من الترك أغيد
يميس على غصن من البان أملد
فتحسبها فى كفه اذ يديرها
كرقم عذار فوق خد مورد
يرنحها أدنى نسيم تنسمت
فتهفو الى برد النسيم المردد
وتشدو على أغصانها الورق فى الضحى
فيطربها سجع الحمام المغرد

(*) ص١١٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وفيها معان ليس فى الخمر مثلها
فلا تستمع فيها مقال مفند

هى البكر لم تنكح بماء سحابة
ولا عصرت يوما برجل ولا يد

ولا عبث القسيس يوما بكأسها
ولا قربوا من دنها كل مقعد

ولا نص فى تحريمها عند مالك
ولا حد عند الشافعى وأحمد

ولا أثبت النعمان تنجيس عينها
فخذها بحد المشرق المهند

وكف أكف الهم بالكف واسترح
ولا تطرح يوم السرور الى غد

وكذلك نسب اظهارها الى الشيخ حيدر الأديب أحمد بن محمد بن الرسام الحلبى فقال :

ومهفهف بادى النفار عهدته
لا ألتقيه قط غير معبس

فرأيته بعض الليالى ضاحكا
سهل العريكة رضا فى المجلس

فقضيت منه مآربى وشكرته
اذ صار من بعد التنافر مؤنسى

فأجابنى لا تشكرن خلائقى
واشكر شفيعك فهو خمر المفلس

فحشيشة الأفراح تشفع عندنا
للعاشقين ببسطها للأنفس

واذا هممت بصيد ظبى نافر
فاجهد بأن يرعى حشيش القنبس

واشكر عصابة حيدر اذ أظهروا
لذوى الخلاعة مذهب المتخمس

ودع المعطل للسرور وخلنى
من حسن ظن الناس بالمتلمس

وقد حدثنى الشيخ محمد الشيرازى القلندرى : أن الشيخ حيدرا لم يأكل الحشيشة فى عمره ألبتة ، وانما عامة أهل خراسان نسبوها اليه لاشتهار أصحابه بها ، وأن اظهارها كان قبل وجوده بزمان طويل . وذلك أنه كان بالهند شيخ يسمى بيرورطن هو أول من أظهر لأهل الهند أكلها ، ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك ، ثم شاع أمرها فى بلاد الهند حتى ذاع خبرها ببلاد اليمن ، ثم فشا الى أهل فارس ، ثم ورد خبرها الى أهل العراق والروم والشام ومصر فى السنة التى قدمت ذكرها .

قال : وكان بيرورطن فى زمن الأكاسرة ، وأدرك الاسلام وأسلم ، وان الناس من ذلك الوقت يستعملونها .

وقد نسب اظهارها الى أهل الهند على بن مكى فى أبيات أنشدنيها من لفظه ، وهى :

ألا فاكفف الأحزان عنى مع الضر
بعذراء زفت فى ملاحفها الخضر

تجلت لنا لما تحلت بسندس
فجلت عن التشبيه فى النظم والنثر

بدت تملأ الأبصار نورا بحسنها
فأخجل نورالروض والزهر بالزهر

عروس يسر النفس مكنون سرها
وتصبح فى كل الحواس اذا تسرى

فللذوق منها مطعم الشهد رائقا
وللشم منها فائق المسك بالنشر

وفى لونها للطرف أحسن نزهة
يميل الى رؤياه من سائر الزهر

تركب من قان وأبيض فاقتنت
تتيه على الأزهار عالية القدر

فيكسف نور الشمس حمرة لونها
وتخجل من مبيضه طلعة البدر

علت رتبة فى حسنها وكأنها
زبرجد روض جاده وابل القطر

تبدت فأبدت ما أجن من الهوى
وجاءت فولت جند همى والفكر

جميلة أوصاف جميلة رتبة
تغالت فغالى فى مدائحها شعرى

فقم فاتنه جيش الهم واكفف يد العنا
بهندية أمضى من البيض والسمر

بهندية فى أصل اظهار أكلها
الى الناس لا هندية اللون كالسمر *

تزيل لهيب الهم عنا بأكلها
وتهدى لنا الأفراح فى السر والجهر

قال : وأنا أقول انه قديم معروف منذ أوجد الله تعالى الدنيا ، وقد كان على عهد اليونانيين . والدليل على ذلك ما نقله الأطباء فى كتبهم ، عن بقراط وجالينوس ، من مزاج هذا العقار وخواصه ومنافعه ومضاره .

قال ابن جزلة فى كتاب « منهاج البيان » : القنب الذى هو ورق الشهدانج : منه بستانى ومنه برى . والبستانى أجوده ، وهو حار يابس فى الدرجة الثالثة ، وقيل حرارته فى الدرجة الأولى ، ويقال انه بارد يابس فى الدرجة الأولى . والبرى منه حار يابس فى الدرجة الرابعة .

(*) ص١٢٧ جـ٢ ، ط . بولاق

قال : ويسمى بالكف . أنشدنى تقى الدين الموصلى :

كف كف الهموم بالكف فالكف
شفاء للعاشق المهموم

بابنة القنب الكريمة لا بابـ
نة كرم بعدا لبنت الكروم

قال : والفقراء انما يقصدون استعماله — مع ما يجدون من اللذة — تجفيفا للمنى ، وفى ابطاله قطع لشهوة الجماع كى لا تميل نفوسهم الى ما يوقع فى الزنا .

وقال بعض الأطباء : ينبغى لمن يأكل الشهدانج أو ورقه أن يأكله مع اللوز أو الفستق أو السكر أو العسل أو الخشخاش ، ويشرب بعده السكنجبين ليدفع ضرره ، واذا قلى كان أقل لضرره ، ولذلك جرت العادة قبل أكله أن يقلى ، واذا أكل غير مقلى كان كثير الضرر .

وأمزجة الناس تختلف فى أكله : فمنهم من لا يقدر أن يأكله مضافا الى غيره ، ومنهم من يضيف اليه السكر أو العسل أو غيره من الحلاوات .

وقرأت فى بعض الكتب أن جالينوس قال : انها تبرىء من التخمة ، وهى جيدة للهضم .

وذكر ابن جزلة فى كتاب « المنهاج » أن بزر شجر القنب البستانى هو الشهدانج ، وثمره يشبه حب السمنة ، وهو حب يعصر منه الدهن .

وحكى عن حنين بن اسحاق أن شجرة البرى تخرج فى القفار المنقطعة على قدر ذراع ، وورقه يغلب عليه البياض .

وقال يحيى بن ماسويه فى كتاب « تدبير أبدان الأصحاء » : ان من غلب على بدنه البلغم ينبغى أن تكون أغذيته مسخنة مجففة ، كالزبيب والشهدانج .

وقال صاحب كتاب « اصلاح الأدوية » : ان الشهدانج يدر البول ، وهو عسر الانهضام ردىء الخلط للمعدة .

قال : ولم أجد لازالة الزفر من اليد أبلغ من غسلها بالحشيشة ، ورأيت من خواصها أن كثيرا من ذوات السموم — كالحية ونحوها — اذا شمت ريحها هربت ، ورأيت أن الانسان اذا أكلها ووجد فعلها فى نفسه ، وأحب أن يفارقه فعلها قطر فى منخريه شيئا من الزيت ، وأكل من اللبن الحامض . ومما يكسر قوة فعلها ويضعفه السباحة فى الماء الجارى ، والنوم يبطله .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : دع نزاهة القوم ، فما بلى الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم . ولقد حدثنى القاضى الرئيس تاج الدين اسماعيل بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومى ، قبل اختلاطه ، عن الرئيس علاء الدين بن نفيس ، أنه سئل عن هذه الحشيشة فقال : اعتبرتها فوجدتها تورث السفالة والرذالة . وكذلك جربنا فى طول عمرنا من عاناها ، فانه ينحط فى سائر أخلاقه الى ما لا يكاد أن يبقى له من الانسانية شىء ألبتة .

وقد قال ابن البيطار فى كتاب المفردات : ومن القنب نوع ثالث يقال له القنب الهندى ، ولم أره بغير مصر ، ويزرع فى البساتين ، ويقال له الحشيشة عندهم أيضا ، وهو يسكر جدا اذا تناول منه الانسان قدر درهم أو درهمين ، حتى ان من أكثر منه يخرجه الى حد الرعونة ، وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم ، وأدى بهم الحال الى الجنون ، وربما قتلت .

ورأيت الفقراء يستعملونها على أنحاء شتى . فمنهم من يطبخ الورق طبخا بليغا ، ويدعكه باليد دعكا جيدا حتى يتعجن ، ويعمل منه أقراصا . ومنهم من يجففه قليلا ، ثم يحمصه ويفركه باليد ، ويخلط به قليل سمسم مقشور وسكر ويستفه ويطيل مضغه . فانهم يطربون عليه ، ويفرحون كثيرا ، وربما أسكرهم فيخرجون به الى الجنون أو قريب منه . وهذا ما شاهدته من فعلها .

واذا خيف من الاكثار منه ، فليبادر الى القىء بسمن وماء سخن حتى تنقى منه المعدة ، وشراب الحماض لهم فى غاية النفع .

فانظر كلام العارف فيها ، واحذر من افساد بشريتك وتلاف أخلاقك باستعمالها . ولقد عهدناها وما يرمى بتعاطيها الا أراذل الناس ، ومع ذلك فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزي

الجزء
٣٠

كتاب
التحرير



«كانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت مذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها .»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وكان قد تتبع الأمير سودون الشيخونى رحمه الله الموضع الذى يعرف بالجنينة ، من أرض الطبالة وباب اللوق ، وحكر واصل ببولاق ، وأتلف ما هنالك من هذه الشجرة الملعونة ، وقبض على من كان يتلعها من أطراف الناس ورذلائهم ، وعاقب على فعلها بقلع الأضراس ، فقلع أضراس كثير من العامة فى نحو سنة ثمانين وسبعمائة .

وما برحت هذه الخبيثة تعد من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد أحمد بن أويس ، فارا من تيمورلنك ، الى القاهرة فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة . فتظاهر أصحابه بأكلها ، وشنع الناس عليهم ، واستقبحوا ذلك من فعلهم ، وعابوه عليهم . فلما سافر * من القاهرة الى بغداد ، وخرج منها ثانيا وأقام بدمشق مدة ، تعلم أهل دمشق من أصحابه التظاهر بها .

وقدم الى القاهرة شخص من ملاحدة العجم . صنع الحشيشة بعسل خلط فيها عدة أجزاء مجففة كعرق اللقاح ونحوه ، وسماها العقدة ، وباعها بخفية . فشاع أكلها ، وفشا فى كثير من الناس مدة أعوام .

فلما كان فى سنة خمس عشرة وثمانمائة ، شنع التجاهر بالشجرة الملعونة ، فظهر أمرها واشتهر أكلها ، وارتفع الاحتشام من الكلام بها ، حتى لقد كادت أن تكون من تحف المترفين .

وبهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق ، وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس ، وجهروا بالسوء من القول ، وتفاخروا بالمعايب ، وانحطوا عن كل شرف وفضيلة ، وتحلوا بكل ذميمة من الأخلاق ورذيلة ... فلولا الشكل لم تقض لهم بالانسانية ، ولولا الحس لما حكمت عليهم بالحيوانية . وقد بدا المسخ فى الشمائل والأخلاق ، المنذر بظهوره على الصور والذوات ، عافانا الله تبارك وتعالى من بلائه .

وأرض الطبالة الآن بيد ورثة الحاجب .

ذكرى ارض البعل والتاج

قال ابن سيده : البعل الأرض المرتفعة التى لا يصيبها المطر الا مرة واحدة فى السنة ، وقيل البعل كل شجر أو زرع لا يسقى ، وقيل البعل ما سقته السماء ، وقد استبعل الموضع . والبعل من النخل ما شرب بعروقه من غير سقى ولا ماء سماء ، وقيل هو ما اكتفى بماء السماء ، والبعل ما أعطى من الأتاوة على سقى النخل ، واستبعل الموضع والنخل صار بعلا .

وأرض البعل هذه بجانب الخليج تتصل بأرض الطبالة . كانت بستانا يعرف بالبعل وفيه منظرة ، أنشأه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وجعل على هذا البستان سورا . والى جانب بستان البعل هذا بستان التاج ، وبستان الخمس وجوه . وقد ذكرت مناظر هذه البساتين ، وما كان فيها للخلفاء الفاطميين من الرسوم ، عند ذكر المناظر من هذا الكتاب .

وأرض البعل فى هذا الوقت مزرعة تجاه قنطرة الاوز التى على الخليج . يخرج الناس للتنزه هناك أيام النيل وأيام الربيع .

(*) ص١٢٨ ج٢ ، ط. بولاق .

وكذلك أرض التاج فانها اليوم قد زالت منها الأشجار ، واستقرت من أراضى المنية الخراجية . وفى أيام النيل ينبت فيها نبات يعرف بالبشنين ، له ساق طويل وزهره شبه اللينوفر ، واذا أشرقت الشمس انفتح فصار منظرا أنيقا ، واذا غربت الشمس انضم .

ويذكر أن من العصافير نوعا صغيرا يجلس العصفور منه فى داخل البشنينة . فاذا أقبل الليل انضمت عليه وغطست فى الماء ، فبات فى جوفها آمنا الى أن تشرق الشمس ، فتصعد البشنينة وتتفتح فيطير العصفور . وهو شىء ما برحنا نسمعه .

وهذا البشنين يصنع من زهره دهن يعالج به فى البرسام وترطيب الدماغ فينجع ، وأصله يعرف بالبيارون ، يجمعه الأعراب ويأكلونه نيئا ومطبوخا ، وهو يميل الى الحرارة يسيرا ، ويزيد فى الباه ، ويسخن المعدة ويقويها ويقطع الزحير ... ذكر ذلك ابن البيطار فى كتاب « المفردات » .

وفى أيام الربيع تزرع هذه الأراضى ، فتذكر بحسنها ونضارتها جنة الخلد التى وعد المتقون . وأدركت بهذه الأرض بقايا نخل وأشجار ، وقد تلفت .

ذكر ضواحى القاهرة

قال ابن سيده : ضواحى كل شىء نواحيه البارزة للشمس ، والضواحى من النخل ما كان خارج السور على صفة عالية ، لأنها تضحى للشمس .

وفى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم لأهل بدر « لكم الضامنة من النخل ، ولنا الضاحية من البعل » ... يعنى بالضامنة ما أطاف به سور المدينة .

وضواحى الروم ما ظهر من بلادهم وبرز . ويقال فى زماننا لما خرج عن القاهرة ، مما هو فى جنبتى الخليج من القرى ، ضواحى القاهرة . وقد عرفت أصل ذلك من اللغة .

وتعرف البلاد التى من الضواحى فى غربى الخليج بالحبس الجيوشى ، وهى بهتيت والأميرية والمنية . وكان أيضا بناحية الجيزة ، من جملة الحبس الجيوشى ، ناحية سفط ونهيا ووسيم ... حبس هذه البلاد أمير الجيوش بدر الجمالى على عقبه .

فلما زالت الدولة الفاطمية ، جعل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه العادل أبى بكر بن أيوب ، وسلمه له فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وأفرد لديوان الأسطول من الأبواب الديوانية الزكاة التى كانت تجبى من الناس بمصر ، والحبس الجيوشى بالبرين ، والنطرون والخراج وما معه من ثمن القرظ ، وساحل السنط والمراكب الديوانية ، واشنا وطنتدى . وأحيل ورثة أمير الجيوش على غير الحبس الذى لهم . ثم أفتى الفقهاء ببطلان الحبس ، وقبضت النواحى ، وصارت من جملة أموال الخراج ، فعرفت ببلاد الملك .

وهذه الضواحى الآن منها ما هو وقف ، ومنها ما هو فى الديوان السلطانى ، وخراجها

يتميز على غيرها من النواحى ، ويزرع أكثرها من الكتان والمقاثى وغيرها * .

ذكر منية الأمراء

قال ياقوت فى كتاب « المشترك » : المنية ثلاثة وأربعون موضعا ، وجميعها بمصر غير واحدة ، وبمصر من القرى المسماة بهذا الاسم ما يقارب المائتين .

قال : ومنية الشيرج — ويقال لها منية الأمير ، ومنية الأمراء — بليدة فيها أسواق على فرسخ من القاهرة فى طريق الاسكندرية .

وذكر الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة ، أن قتلى أهل الشام الذين قتلوا فى وقعة الخندق بين مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن جحدم أمير مصر ، فى سنة خمس وستين من الهجرة ، دفنوا حيث موضع منية الشيرج هذه ، وكانوا نحوا من الثمانمائة .

وقال ابن عبد الظاهر : منية الأمراء من الحبس الجيوشى الشرقى الذى كان حبسه أمير الجيوش ثم ارتجع . وفى كل سنة يأكل البحر منها جانبا ، ويجدد جامعها ودورها حتى صار جامعها القديم ودورها فى بر الجيزة ، وغلب البحر عليها .

وهذه المنية من محاسن متنزهات القاهرة . وكانت قد كثرت العمائر بها ، واتخذها الناس منزل قصف ودار لعب ولهو ومغنى صبابات ، وبها كان يعمل عيد الشهيد — الذى تقدم ذكره عند ذكر النيل من هذا الكتاب — لقربها من ناحية شبرا ، وبها سوق فى كل يوم أحد يباع فيه البقر والغنم والغلال ، وهو من أسواق مصر المشهورة ، وأكثر من كان يسكن بها النصارى .

وكانت تعرف بعصر الخمر وبيعه . حتى انه لما عظمت زيادة ماء النيل فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وكانت الغرقة المشهورة وغرقت شبرا والمنية ، تلف فيها من جرار الخمر ماينيف على ثمانين ألف جرة مملوءة بالخمر ، وباع نصرانى واحد مرة فى يوم عيد الشهيد بها خمرا باثنى عشر ألف درهم فضة : عنها يومئذ نحو الستمائة دينار ، وكسر منها الأمير يلبغا السالمى فى صفر سنة ثلاث وثمانمائة ما ينيف على أربعين ألف جرة مملوءة بالخمر .

وما برحت تغرق فى الأنيال العالية الى أن عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، الجسر من بولاق الى المنية — كما ذكر عند ذكر الجسور من هذا الكتاب — فأمن أهلها من الغرق . وأدركناها عامرة بكثرة المساكن والناس والأسواق والمناظر ، وتقصد للنزهة بها أيام النيل والربيع ، لا سيما فى يومى الجمعة والأحد ، فانه كان للناس بها فى هذين اليومين مجتمع ينفق فيه مال كثير .

ثم لما حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ، ألح المناسر بالهجوم عليها فى الليل ، وقتلوا من أهلها عدة . فارتحل الناس منها ، وخلت أكثر دورها ، وتعطلت حتى لم يبق بها سوى طاحون واحدة لطحن القمح بعد ما كان بها ما ينيف على ثمانين طاحونة ، وبها الآن بقية . وهى جارية فى الديوان السلطانى المعروف بالمفرد .

(*) ص١٢٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ذكر كوم الريش

هذا اسم لبلد فيما بين أرض البعل ومنية الشيرج ، كان النيل يمر بغربيها بعد مروره بغربى أرض البعل ، وأدركت آثار الجروف باقية من غربى البعل وغربى كوم الريش الى أطراف المنية . حتى تغيرت الأحوال من بعد سنة ست وثمانمائة ، ففاض ماء النيل فى أيام الزيادة ، ونزل فى الدرب الذى كان يسلك فيه من أرض الطبالة الى المنية ، فانقطع هذا الدرب وترك الناس سلوكه .

وكان كوم الريش من أجل متنزهات القاهرة ، ورغب أعيان الناس فى سكناها للتنزه بها .

وأخبرنى شيخنا قاضى القضاة مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم الحنفى ، وخال أبى تاج الدين اسماعيل بن أحمد بن الخطباء ، أنهما أدركا بكوم الريش عدة أمراء يسكنون فيها دائما ، وأنه كان من جملة من يسكن فيها دائما نحو الثمانمائة من الجند السلطانى .

وأنا أدركت بها سوقا عامرا بالمعايش بأنواعها من المآكل ، لا أعرف اليوم بالقاهرة مثله فى كثرة المآكل . وأدركت بها حماما وجامعين تقام بهما الجمعة ، وموقف مكارية ، ومنارة لا يقدر الواصف أن يعبر عن حسنها لما اشتملت عليه من كل معنى رائق بهج .

وما برحت على ذلك الى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة . فطرقها أنواع الرزايا حتى صارت بلاقع ، وجهلت طرقها ، وتغيرت معاهدها ، ونزل بها من الوحشة ما أبكانى ، وأنشدت فى رؤيتها عندما شاهدتها خرابا :

قفرا كأنك لم تكن تلهو بها
فى نعمة وأوانس أتراب

« وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ، ان أخذه أليم شديد » .

ذكر بولاق

قد تقدم فى غير موضع من هذا الكتاب أن ساحل النيل كان بالمقس ، وأن الماء انحسر بعد سنة سبعين * وخمسمائة عن جزيرة عرفت بجزيرة الفيل ، وتقلص ماء النيل عن سور القاهرة الذى ينتهى الى المقس ، وصارت هناك رمال وجزائر ما من سنة الا وهى تكثر ، حتى بقى ماء النيل لا يمر بها الا أيام الزيادة فقط ، وفى طول السنة ينبت هناك البوص والحلفاء ، وتنزل المماليك السلطانية لرمى النشاب فى تلك التلال الرمل .

فلما كان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، رغب الناس فى العمارة بديار مصر ، لشغف السلطان الملك الناصر بها ومواظبته عليها ، فكأنما نودى فى القاهرة ومصر ألا يتأخر أحد من الناس عن انشاء عمارة ، وجد الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة فى البناء ، وصارت بولاق حينئذ تجاه بولاق التكرور ، يزرع فيها القصب والقلقاس على ساقية تنقل الماء من النيل حيث جامع الخطيرى الآن .

فعمر هناك رجل من التجار منظرة ، وأحاط جدارا على قطعة أرض غرس فيها عدة أشجار وتردد اليها للنزهة . فلما مات انتقلت الى ناصر الدين محمد بن الجوكندار ، فعمر الناس

(*) ص ١٢٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

بجانبها دورا على النيل ، وسكنوا ورغبوا فى السكنى هناك ، فامتدت المناظر على النيل من الدار المذكورة الى جزيرة الفيل ، وتفاخروا فى انشاء القصور العظيمة هناك ، وغرسوا من ورائها البساتين العظيمة . وأنشأ القاضى ابن المغربى رئيس الأطباء بستانا ، اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى بنحو مائة ألف درهم فضة .

وكثر التنافس بين الناس فى هذه الناحية ، وعمروها حتى انتظمت العمارة فى الطول على حافة النيل من منية الشيرج الى موردة الخلفاء بجوار الجامع الجديد خارج مصر ، وعمر فى العرض على حافة النيل الغربية من تجاه الخندق بحرى القاهرة الى منشاة المهرانى ، وبقيت هذه المسافة العظيمة كلها بساتين وأحكارا عامرة بالدور والأسواق والحمامات والمساجد والجوامع وغيرها ، وبلغت بساتين جزيرة الفيل خاصة ما ينيف على مائة وخمسين بستانا بعد ما كانت فى سنة احدى عشرة وسبعمائة نحو العشرين بستانا .

وأنشأ القاضى الفاضل جلال الدين القزوينى وولده عبد الله دارا عظيمة على شاطىء النيل بجزيرة الفيل عند بستان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب ، وأنشأ الأمير عز الدين الخطيرى جامعه ببولاق على النيل ، وأنشأ بجواره ربعين ، وأنشأ القاضى شرف الدين بن زنبور بستانا ، وأنشأ القاضى فخر الدين المعروف بالفخر ناظر الجيش بستانا ، وحكر الناس حول هذه البساتين وسكنوا هناك .

ثم حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، فعمر الناس على جانبى هذا الخليج . وكان أول من عمر ، بعد حفر الخليج الناصرى ، الماميزى أنشأ بستانا ومسجدا هما موجودان الى اليوم ، وتبعه الناس فى العمارة حتى لم يبق فى جميع هذه المواضع مكان بغير عمارة ، وبقى من يمر بها يتعجب ، اذ ما بالعهد من قدم بينا هى تلال رمل وحلاف ، اذ صارت بساتين ومناظر وقصورا ومساجد وأسواقا وحمامات وأزقة وشوارع .

وفى ناحية بولاق هذه كان خص الكيالة الذى يؤخذ فيه مكس الغلة ، الى أن أبطله الملك الناصر محمد بن قلاوون كما ذكر فى الروك الناصرى من هذا الكتاب . ولما كانت سنة ست وثمانمائة انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق ، ولم يزل يبعد حتى صار على ما هو عليه الآن .

وناحية بولاق الآن عامرة ، وتزايدت العمائر بها ، وتجدد فيها عدة جوامع وحمامات ورباع وغيرها .

ذكر ما بين بولاق ومنشاة المهرانى

وكان فيما بين بولاق ومنشاة المهرانى خط فم الخور ، وخط حكر ابن الأثير ، وخط زربية قوصون ، وخط الميدان السلطانى بموردة الملح ، وخط منشاة الكتبة .

فأما فم الخور فكان فيه من المناظر الجليلة الوصف عدة تشرف على النيل ، ومن ورائها البساتين ، وينفصل بين البساتين والدور المطلة

على النيل شارع مسلوك ، وأنشىء هناك حمام وجامع وسوق . وقد تقدم ذكر الخور .

وأنشأ هناك القاضى علاء الدين بن الأثير دارا على النيل ، وكان اذ ذاك كاتب السر ، وبنى الناس بجواره ، فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير ، واتصلت العمارة من بولاق الى فم الخور ، ومن فم الخور الى حكر ابن الأثير . وما برح فيه من مساكن الأكابر من الوزراء والأعيان ومن الدور العظيمة مايتجاوز الوصف .

وأما الزربية فان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لما وهب البستان الذى كان بالميدان الظاهرى للأمير قوصون ، أنشأ قدامه على النيل زربية ووقفها . فعمر الناس هناك حتى انتظمت العمارة من حكر ابن الأثير الى الزربية ، وعمر هناك حمام وسوق كبير وطواحين وعدة مساكن اتصلت باللوق .

وأما زربية السلطان فان الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، لما عمر ميدان المهارى المجاور لقناطر السباع الآن ، أنشأ زربية فى قبلى الجامع الطيبرسى * ، وحفر لأجل بناء هذه الزربية البركة المعروفة الآن بالبركة الناصرية حتى استعمل طينها فى البناء ، وأنشأ فوق هذه الزربية دار وكالة وربعين عظيمين : جعل أحدهما وقفا على الخانقاه التى أنشأها بناحية سرياقوس ، وأنعم بالآخر على الأمير بكتمر الساقى ، فأنشأ الأمير بكتمر بجواره حمامين : احداهما برسم الرجال ، والأخرى برسم النساء .

فكثر بناء الناس فيما هناك حتى اتصلت العمارة من بحرى الجامع الطيبرسى بزربية قوصون ، وصار هناك أزقة وشوارع ودروب ومساكن من وراء المناظر المطلة على النيل تتصل بالخليج ، وأكثر الناس من البناء فى طريق الميدان السلطانى ، فصارت العمائر منتظمة من قناطر السباع الى الميدان من جهاته كلها ، وتنافس الناس فى تلك الأماكن ، وتغالوا فى أجرها .

وعمر المكين ابراهيم بن قزوينة ناظر الجيش فى قبلى زربية السلطان — حيث كان بستان الخشاب — دارا جليلة ، وعمر أيضا صلاح الدين الكحال ، والصاحب أمين الدين عبد الله ابن الغنام ، وعدة من الكتاب ، فقيل لهذه الخطة منشأة الكتاب ، وأنشأ فيها الصاحب أمين الدين خانقاه بجوار داره ، وعمر أيضا كريم الدين الصغير حتى اتصلت العمارة بمنشأة المهرانى .

فصار ساحل النيل من خط دير الطين قبلى مدينة مصر الى منية الشيرج بحرى القاهرة : مسافة لا تقصر عن أزيد من نصف بريد بكثير ... كلها منتظمة بالمناظر العظيمة ، والمساكن الجليلة ، والجوامع والمساجد ، والخوانك والحمامات ، وغيرها من البساتين . لا تجد فيما بين ذلك خرابا ألبتة .

وانتظمت العمارة من وراء الدور المطلة على النيل حتى أشرفت على الخليج . فبلغ هذا البر الغربى من وفور العمارة ، وكثرة الناس ، وتنافسهم فى الاقبال على اللذات ، وتأنقهم فى الانهماك فى المسرات ، ما لا يمكن وصفه ولا يتأتى شرحه .

(*) ص١٢١ جـ٢ ، ط.بولاق .

حتى اذا بلغ الكتاب أجله ، وحدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ، وتقلص ماء النيل عن البر الشرقى ، وكثرت حاجات الناس وضروراتهم ، وتساهل قضاة المسلمين فى الاستبدال فى الأوقاف وبيع نقضها ... اشترى شخص الربعين والحمامين ودار الوكالة التى ذكرت على زربية السلطان بجوار الجامع الطيبرسى فى سنة سبع وثمانمائة ، وهدم ذلك كله ، وباع أنقاضه ، وحفر الأساسات ، واستخرج ما فيها من الحجر وعمله جيرا ، فنال من ذلك ربحا كثيرا .

وتتابع الهدم فى شاطىء النيل ، وباع الناس أنقاض الدور ، فرغب فى شرائها الأمراء والأعيان وطلاب الفوائد من العامة . حتى زال جميع ما هنالك من الدور العظيمة والمناظر الجليلة ، وصار الساحل — من منشأة المهرانى الى قريب من بولاق — كيمانا موحشة وخرائب مقفرة . كأن لم تكن مغنى صبابات ، وموطن أفراح ، وملعب أتراب ، ومرتع غزلان تفتن النساك هناك ، وتعيد الحليم سفيها ... « سنة الله فى الذين خلوا من قبل »

وانى اذا تذكرت ما صارت اليه ، أنشد قول عبد الله بن المعتز :

سلام على تلك المعاهد والربا
سلام وداع لا سلام قدوم

وصار بهذا العهد ما بين أول بولاق من قبليه الى أطراف جزيرة الفيل عامرا : من غربيه المفضى الى النيل ، ومن شرقيه الذى ينتهى الى الخليج . الا أن النيل قد نشأت فيه جزائر ورمال بعد بها الماء عن البر الشرقى ، وكثر العناء لبعده ، وفى كل عام تكثر الرمال ويبعد الماء عن البر . ولله عاقبة الأمور .

فهذا حال الجهة الغربية من ظواهر القاهرة فى ابتداء وضعها والى وقتنا هذا ، وبقى من ظواهر القاهرة الجهة القبلية والجهة البحرية ، وفيهما أيضا عدة أخطاط تحتاج الى شرح وتبيان . والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر خارج باب زويلة

اعلم أن خارج باب زويلة جهتان : جهة تلى الخليج ، وجهة تلى الجبل . فأما الجهة التى تلى الخليج فقد كانت عند وضع القاهرة بساتين كلها فيما بين القاهرة الى مصر . وعندى فيما ظهر لى أن هذه الجهة كانت فى القديم غامرة بماء النيل ، وذلك أنه لا خلاف بين أهل مصر قاطبة أن الأراضى التى هى من طين ابليز لا تكون الا من أرض ماء النيل .

فان أرض مصر تربة رملة سبخة ، وما فيها من الطين طرح يعلوها عند زيادة ماء النيل ، مما يحمله من البلاد الجنوبية من مسيل الأودية ، فلذلك يكون لون الماء عند الزيادة متغيرا ، فاذا مكث على الأرض قعد ما كان فى الماء من الطين على الأرض ، فسماه أهل مصر ابليز ، وعليه تزرع الغلال وغيرها ، وما لا يشمله ماء النيل من الأرض لا يوجد فيه هذا الطين ألبتة .

وأنت ان عرفت أخبار مصر بتأملك ما تضمنه هذا الكتاب ، ظهر لك أن موضع جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه كان كروما مشرفة على النيل ، وأن النيل انحسر بعد

الفتح مما كان تجاه الحصن الذى يقال له قصر الشمع وما هو الآن تجاه الجامع . وما زال ينحسر شيئا بعد شيء حتى صار الساحل بمصر من عند سوق * المعاريج الآن الى قريب من السبع سقايات . وجميع الأراضى التى فيها الآن الزرائب خارج مصر الى نحو السبع سقايات ، وما يقابل ذلك من بر الخليج الغربى ، كان غامرا بالماء كما تقدم .

وكان فى الموضع الذى تجاه المشهد المعروف بزين العابدين – وتسميه العامة الآن مشهد زين العابدين – بساتين شرقيها عند المشهد النفيسى ، وغربيها عند السبع سقايات : منها بساتين عرفت بجنان بنى مسكين ، وعندها بنى كافور الاخشيدى داره على البركة التى تجاه الكبش ، وتعرف اليوم بركة قارون . ومنها بستان يعرف ببستان ابن كيسان ، ثم صار صناعة ، وهو الآن يعرف ببستان الطواشى . ومنها بستان عرف آخرا بجنان الحارة ، وهو من حوض السبيلى الذى بقرب قنطرة السد الآن الى السبع سقايات ، وقرب السبع سقايات بركة الفيل .

ويشرف على بركة الفيل بساتين من دائرها ، والى وقتنا هذا عليها بستان يعرف بالحبانية ، وهم بطن من ديما بن عمرو بن عوف بن ثعلبة ابن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طئ ، قدموا فخذ من طئ ، والحبانيون بطن من ديما . وبستان الحبانية فصل الناس بينه وبين البركة بطريق تسلك فيها المارة .

وكان من شرقى بركة الفيل أيضا بساتين . منها بستان سيف الاسلام فيما بين البركة والجبل الذى عليه الآن قلعة الجبل ، وموضعه الآن المساكن التى من جملتها درب ابن البابا الى زقاق حلب وحوض ابن هنس . وعدة بساتين أخر الى باب زويلة .

وكذلك شقة القاهرة الغربية كانت أيضا بساتين . فموضع حارة الوزيرية الى الكافورى كان ميدان الاخشيد ، وبجانب الميدان بستانه الذى يقال له اليوم الكافورى . وما خرج عن باب الفتوح الى منية الأصبغ ، الذى يعرف اليوم بالخندق ، كان ذلك كله بساتين على حافة الخليج الشرقية . وقد ذكرت هذه المواضع فى هذا الكتاب مبينة .

وعند التأمل يظهر أن الخليج الكبير ، عند ابتداء حفره ، كان أوله اما عند مدينة عين شمس أو من بحريها ، لأجل أن القطعة التى بجانب هذا الخليج من غربيه ، والقطعة التى هى بشرقيه – فيما بين عين شمس ومووردة الحلفاء خارج مدينة فسطاط مصر – جميعها طين ابليز .

والطين المذكور لا يكون الا من حيث يمر ماء النيل ، فتعين أن ماء النيل كان فى القديم على هذه الأرض التى بجانبى الخليج ، فينتج أن أول الخليج كان عند آخر النيل من الجهة البحرية . وينتهى الطين الى نحو مدينة عين شمس من الجانب الشرقى ، ويصير ما بعد الخندق فى الجهة البحرية رملا لا طين فيه . وهذا بين لمن تأمله وتدبره .

وفى هذه الجهة التى تلى الخليج ، خارج باب زويلة ، حارات قد ذكرت عند ذكر

(*) ص١٢٦ جـ٢ ، ط بولاق .

الحارات من هذا الكتاب ، وبقيت هناك أشياء نحتاج أن نعرف بها وهى :

« حوض ابن هنس » : وهو حوض ترده الدواب ، وينقل اليه الماء من بئر ، وبه صارت تلك الخطة تعرف . وهى تلى حارة حلب ، ويسلك اليها من جانبه .

وهو وقف الأمير سعد الدين مسعود بن الأمير بدر الدين هنس بن عبد الله ، أحد الحجاب الخاص فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فى سلخ شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة ، وعمل بأعلاه مسجدا مرتفعا وساقية ماء على بئر معين . ومات يوم السبت عاشر شوال سنة سبع وأربعين وستمائة ، ودفن بجوار الحوض .

وكان هذا الحوض قد تعطل فى عصرنا . فجدده الأمير تتر ، أحد الأمراء الكبار فى الدولة المؤيدية ، فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة . ومات هنس أمير جندار السلطان الملك العزيز عثمان فى سنة احدى وتسعين وخمسمائة .

« مناظر الكبش » : هذه المناظر آثارها الآن على جبل يشكر ، بجوار الجامع الطولونى ، مشرفة على البركة ، التى تعرف اليوم ببركة قارون ، عند الجسر الأعظم الفاصل بين بركة الفيل وبركة قارون . أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى أعوام بضع وأربعين وستمائة .

وكان حينئذ ليس على بركة الفيل بناء ، ولا فى المواضع التى فى بر الخليج الغربى من قنطرة السباع الى المقس سوى البساتين * .

وكانت الأرض التى من صليبة جامع ابن طولون الى باب زويلة بساتين ، وكذلك الأرض التى من قناطر السباع الى باب مصر بجوار الكبارة ليس فيها الا البساتين .

وهذه المناظر تشرف على ذلك كله من أعلى جبل يشكر ، وترى باب زويلة والقاهرة ، وترى باب مصر ومدينة مصر ، وترى قلعة الروضة وجزيرة الروضة ، وترى بحر النيل الأعظم وبر الجيزة . فكانت من أجل متنزهات مصر ، وتأنق فى بنائها وسماها الكبش ، فعرفت بذلك الى اليوم .

وما زالت بعد الملك الصالح من المنازل الملوكية ، وبها أنزل الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسى لما وصل من بغداد الى قلعة الجبل ، وبايعه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بالخلافة ، فأقام بها مدة ، ثم تحول منها الى قلعة الجبل . وسكن بمناظر الكبش أيضا الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان فى أول خلافته .

وفيها أيضا كانت ملوك حماه من بنى أيوب تنزل عند قدومهم الى الديار المصرية . وأول من نزل منهم فيها الملك المنصور * لما قدم على الملك الظاهر بيبرس فى المحرم سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، ومعه ابنه الملك الأفضل نور الدين على ، وابنه الملك المظفر تقى الدين محمود . فعندما حل بالكبش أتاه الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى بالسماط ، فمده بين يديه ، ووقف كما يفعل بين يدى الملك

(*) ص١٢٢ جـ٢ ، ط بولاق .

الظاهر . فامتنع الملك المنصور من الرضا بقيامه على السماط وما زال به حتى جلس . ثم وصلت الخلع والمواهب اليه والى ولده وخواصه .

وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، أنزل بهذه المناظر نحو ثلثمائة من مماليك الأشرف خليل ابن قلاوون ، عندما قبض عليهم بعد قتل الأشرف المذكور .

ثم ان الملك الناصر محمد بن قلاوون هدم هذه المناظر المذكورة فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، وبناها بناء آخر ، وأجرى الماء اليها ، وجدد بها عدة مواضع ، وزاد فى سعتها ، وأنشأ بها اصطبلا تربط فيه الخيول .

وعمل زفاف ابنته على ولد الأمير أرغون ، نائب السلطنة بديار مصر ، بعد ما جهزها جهازا عظيما : منه بشخاناه ، وداير بيت ، وستارات ... طرز ذلك بثمانين ألف مثقال ذهب مصرى ، سوى ما فيه من الحرير وأجرة الصناع . وعمل سائر الأوانى من ذهب وفضة ، فبلغت زنة الأوانى المذكورة ما ينيف على عشرة آلاف مثقال من الذهب . وتناهى فى هذا الجهاز ، وبالغ فى الانفاق عليه حتى خرج عن الحد فى الكثرة ، فانها كانت أول بناته .

ولما نصب جهازها بالكبش نزل من قلعة الجبل ، وصعد الى الكبش وعاينه ورتبه بنفسه ، واهتم فى عمل العرس اهتماما ملوكيا ، وألزم الأمراء بحضوره . فلم يتأخر أحد منهم عن الحضور ، ونقط الأمراء الأغانى على مراتبهم من أربعمائة دينار كل أمير الى مائتى دينار ، سوى الشقق الحرير .

واستمر الفرح ثلاثة أيام بلياليها . فذكر الناس حينئذ أنه لم يعمل فيما سلف عرس أعظم منه ، حتى حصل لكل جوقة من جوق الأغانى اللاتى كن فيه خمسمائة دينار مصرية ، ومائة وخمسون شقة حرير . وكان عدة جوق الأغانى التى قسم عليهن ثمان جوق من أغانى القاهرة ، سوى جوق الأغانى السلطانية وأغانى الأمراء ، وعدتهن عشرون جوقة ، لم يعرف ما حصل لهذه العشرين جوقة من كثرة ما حصل .

ولما انقضت أيام العرس ، أنعم السلطان لكل امرأة من نساء الأمراء بتعبية قماش على مقدارها ، وخلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء والكتاب وغيرهم . فكان مهما عظيما تجاوز المصروف فيه حد الكثرة .

وسكن هذه المناظر أيضا الأمير صرغتمش فى أيام السلطان الملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون ، وعمر الباب الذى هو موجود الآن وبدنتى الحجر اللتين بجانبى باب الكبش بالحدرة .

ثم ان الأمير يلبغا العمرى ، المعروف بالخاصكى ، سكنه الى أن قتل فى سنة ثمان وستين وسبعمائة . فسكنه من بعده الأمير استدمر ، الى أن قبض عليه الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، وأمر بهدم الكبش . فهدم وأقام خرابا لا ساكن فيه الى سنة خمس وسبعين وسبعمائة ، فحكره الناس ، وبنوا فيه مساكن ، وهو على ذلك الى اليوم .

« خطب درب ابن البابا » : هذا الخط يتوصل اليه من تجاه المدرسة البندقدارية بجوار حمام الفارقانى ، ويسلك فيه الى خط واسع يشتمل على عدة مساكن جليلة ، ويتوصل منه الى الجامع الطولونى وقناطر السباع وغير ذلك .

وكان هذا الخط بستانا يعرف ببستان أبى الحسين بن مرشد الطائى ، ثم عرف ببستان نامش ، ثم عرف أخيرا ببستان سيف الاسلام طفتكين بن أيوب . وكان يشرف على بركة الفيل ، وله دهاليز واسعة عليها جواسق تنظر الى الجهات الأربع .

ويقابله — حيث الدرب الآن ، المدرسة البندقدارية وما فى صفها الى الصليبة — بستان يعرف ببستان الوزير ابن المغربى ، وفيه حمام مليحة . ويتصل ببستان ابن المغربى بستان عرف أخيرا ببستان شجر الدر ، وهو حيث الآن سكن الخلفاء بالقرب من المشهد النفيسى . ويتصل ببستان شجر الدر بساتين الى حيث الموضع المعروف اليوم بالكبارة من مصر .

ثم ان بستان سيف الاسلام حكره أمير يعرف بعلم الدين الغتمى . فبنى الناس فيه الدور فى الدولة التركية ، وصار يعرف بحكر الغتمى ، وهو الآن يعرف بدرب ابن البابا .

وهو الأمير الجليل الكبير جنكلى بن محمد ابن البابا بن جنكلى بن خليل بن عبد الله بدر الدين العجلى ، رأس الميمنة ، وكبير الأمراء الناصرية — محمد بن قلاوون — بعد الأمير جمال الدين نائب الكرك . قدم الى مصر فى أوائل سنة أربع وسبعمائة ، بعدما طلبه الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، ورغبه فى الحضور الى الديار المصرية ، وكتب له منشور باقطاع جيد ، وجهزه اليه . فلم يتفق حضوره الا فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان مقامه بالقرب من آمد ، فأكرمه وعظمه وأعطاه امرة .

ولم يزل مكرما معظما . وفى آخر وقته — بعد خروج الأمير أرغون النائب من مصر — كان السلطان يبعث اليه الذهب مع الأمير بكتمر الساقى وغيره ، ويقول له : لا تبس الأرض على هذا ، ولا تنزله فى ديوانك . وكان أولا يجلس رأس الميمنة ... ثانى نائب الكرك . فلما سار نائب الكرك لنيابة طرابلس ، جلس الأمير جنكلى رأس* الميمنة ، وزوج السلطان ابنه ابراهيم بن محمد بن قلاوون بابنة الأمير بدر الدين .

وما زال معظما فى كل دولة . بحيث أن الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون كتب له عنه « الأتابكى الوالدى البدرى » ، وزادت وجاهته فى أيامه الى أن مات يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجة سنة ست وأربعين وسبعمائة .

وكان شكلا مليحا حليما ، كثير المعروف والجود ، عفيفا لا يستخدم مملوكا أمرد ألبتة ، واقتصر من النساء على امرأته التى قدمت معه الى مصر ومنها أولاده . وكان يحب العلم وأهله ، ويطارح بمسائل علمية ، ويعرف ربع العبادات ويجيده ، ويتكلم على الخلاف فيه ، ويميل الى الشيخ تقى الدين أحمد بن

(*) ص ١٣٤ ج٢ ، ط.بولاق .

تيمية ، ويعادى من يعاديه ، ويكرم أصحابه ويكتب كلامه ، مع كثرة الاحسان الى الناس بماله وجاهه . وكان ينتسب الى ابراهيم بن أدهم ، وهو من محاسن الدولة التركية ، رحمه الله .

« حكر الخازن » : هذا المكان ، فيما بين بركة الفيل وخط الجامع الطولونى ، كان من جملة البساتين ، ثم صار اصطبلا للجوق الذى فيه خيول المماليك السلطانية . فلما تسلطن الملك العادل كتبغا أخرج منه الخيول ، وعمله ميدانا يشرف على بركة الفيل فى سنة خمس وتسعين وستمائة ، ونزل اليه ولعب فيه بالأكرة أيام سلطنته كلها ... الى أن خلعه الملك المنصور لاجين ، وقام فى الملك من بعده ، فأهمل أمره .

وعمر فيه الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة بيتا ، فعرف من حينئذ بحكر الخازن ، وتبعه الناس فى البناء هناك ، وأنشأوا فيه الدور الجليلة . فصار من أجل الأخطاط وأعمرها ، وأكثر من يسكن به الأمراء والمماليك .

« سنجر الخازن » : الأمير علم الدين الأشرفى ، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون ، وتنقل فى أيام ابنه الملك الأشرف خليل ، وصار أحد الخزان فعرف بالخازن . ثم ولى شد الدواوين مع الصاحب أمين الدين ، وانتقل منها الى ولاية البهنسا ، ثم الى ولاية القاهرة وشد الجهات . فباشر ذلك بعقل وسياسة وحسن خلق ، وقلة ظلم ومحبة للستر وتغافل عن مساوىء الناس ، واقالة عثرات ذوى الهيئات ، مع العصبية والمعرفة وكثرة المال وسعة الحال واقتناء الأملاك الكثيرة .

ثم انه صرف عن ولاية القاهرة بالأمير قدادار فى شهر رمضان سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، فوجد الناس من عزله بقدادار شدة . وما زال بالقاهرة الى أن مات ليلة السبت ثامن جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، فوجد له أربعة عشر ألف اردب غلة عتيقة وأموال كثيرة ، وله من الآثار مسجد بناه فوق درب استجده بحكر الخازن ، وخانقاه بالقرافة دفن فيها ، عفا الله عنه .

« ربع البزادرة » : هذا الربع تحت قلعة الجبل بسوق الخيل . عمر بعد سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وكان مكانه لا عمارة فيه ، فبنى الأجناد بجواره عدة مساكن ، واستجدوا حكرين من جواره . فامتدت العمائر الى تربة شجر الدر — حيث كان البستان المعروف بشجر الدر — وهناك الآن سكن الخلفاء . وامتدت العمائر من تربة شجر الدر الى المشهد النفيسى ، ومروا من تجاه المشهد بالعمائر الى أن اتصلت بعمائر مصر وباب القرافة .

« خط قناطر السباع » : كان هذا الخط فى أول الاسلام يعرف بالحمراء ، نزل فيه طائفة تعرف ببنى الأزرق وبنى روبيل . ثم دثرت هذه الخطة ، وبقيت صحراء فيها ديارات وكنائس للنصارى تعرف بكنائس الحمراء . فلما زالت دولة بنى أمية ، ودخل أصحاب بنى العباس الى مصر فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، نزلوا فى هذه الخطة ، وعمروا

بها فصارت تتصل بالعسكر . وقد تقدم خبر العسكر فى هذا الكتاب .

فلما خرب العسكر ، وصار هذا المكان بساتين وغيرها . الى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون البركة الناصرية ، وأنشأ ميدان المهارى والزريبة والربعين بجوار الجامع الطيبرسى على شاطىء النيل ، بنى الناس فى حكر أقبغا ، واتصلت العمائر من خط السبع سقايات وخط قناطر السباع حتى اتصلت بالقاهرة ومصر والقرافة ، وذلك كله من بعد سنة عشرين وسبعمائة .

« بئر الوطاويط » : هذه البئر أنشأها الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر ابن الفرات — المعروف بابن خترابة — لينقل منها الماء الى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين التى كانت بخط الحمراء ، وكتب عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الشكر وله الحمد ، ومنه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات ، وما وفقه له من البناء لهذه البئر وجريانها الى السبع سقايات التى أنشأها ، وحبسها لجميع المسلمين ، وحبسه وسبله وقفا مؤبدا لا يحل تغييره ولا العدول بشىء من مائه ، ولا ينقل ولا يبطل ، ولا يساق الا الى حيث مجراه الى السقايات المسبلة ، فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم . وذلك فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم » .

فلما طال الأمر خربت السقايات ، والى اليوم يعرف موضعها بخط السبع سقايات ، وبنى فوق البئر المذكورة ، وتولد فيها كثير من الوطاويط ، فعرفت ببئر الوطاويط (*) .

ولما أكثر الناس من بناء الأماكن ، فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، عمر هذا المكان ، وعرف الى اليوم بخط بئر الوطاويط . وهو خط عامر ...

فهذا ما فى جهة الخليج مما خرج عن باب زويلة .

وأما جهة الجبل فانها كانت عند وضع القاهرة صحراء . وأول من أعلم أنه عمر خارج باب زويلة من هذه الجهة الصالح طلائع بن رزيك ، فانه أنشأ الجامع الذى يقال له جامع الصالح ، ولم يكن بين هذا الجامع وبين هذا الشرف الذى عليه الآن قلعة الجبل بناء ألبتة .

الا أن هذا الموضع الآن عمل الناس فيه مقبرة ، فيما بين جامع الصالح وبين هذا الشرف ، من حين بنيت الحارات خارج باب زويلة . فلما عمرت قلعة الجبل ، عمر الناس بهذه الجهة شيئا بعد شىء ، وما برح من بنى هناك يجد عند الحفر رمم الأموات .

وقد صارت هذه الجهة فى الدولة التركية — لا سيما بعد سنة ثلاث عشرة وسبعمائة — من أعمر الأخطاط ، وأنشأ فيها الأمراء الجوامع والدور الملوكية ، وتجددت هناك عدة أسواق ، وصار الشارع خارج باب زويلة يفصل بين هذه الجهة وبين الجهة التى من حد الخليج . وكلتا هاتين الجهتين الآن عامرة .

(*) ص١٢٥ ج٢ ، ط.بولاق .

وفى جهة الجبل خط البسطين ، وخط الدرب الأحمر ، وخط سوق الغنم ، وخط جامع الماردينى ، وخط التبانة ، وخط باب الوزير ، وخط المصنع ، وخط سويقة العزى ، وخط مدرسة الجاى ، وخط الرميلة ، وخط القبيات ، وخط باب القرافة .

ذكر خارج باب الفتوح

اعلم أن خارج باب الفتوح الى الخندق كان كله بساتين ، وتمتد البساتين من الخندق بحافتى الخليج الى عين شمس . فيقابل باب الفتوح من خارجه المنظرة ، المقدم ذكرها عند ذكر المناظر التى كانت للخلفاء من هذا الكتاب ، ويلى هذه المنظرة بستان كبير عرف بالبستان الجيوشى ، أوله من عند زقاق الكحل الى المطرية . ويقابله فى بر الخليج الغربى بستان آخر يتوصل اليه من باب القنطرة ، وينتهى الى الخندق . وقد ذكر خبر هذين البساتين عند ذكر مناظر الخلفاء .

وكان بين هذين البستانين بستان الخندق ، وكان على حافة الخليج من شرقيه ، فيما بين زقاق الكحل وباب القنطرة — حيث المواضع التى تعرف اليوم ببركة جناق وبالكداشين — الى قرب من حارة بهاء الدين حارة ، تعرف بحارة البيازرة ، اختطت فى نحو من سنة عشرين وخمسمائة ، وكانت مناظرها تشرف على الخليج ، وبجوارها بستان مختار الصقلبى ، وعرف بعد ذلك بستان ابن صيرم الذى حكر ، وبنيت فيه المساكن الكثيرة بعد ذلك .

وكان أيضا خارج باب الفتوح حارة الحسينية ، وهم الريحانية احدى طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين ، وهذه الحارة اختطت بعد الشدة العظمى التى كانت بمصر فى خلافة المستنصر ، فصارت على يمين من خرج من باب الفتوح الى صحراء الهليلج . ويقابلها حارة أخرى تنتهى الى بركة الأرمن التى عند الخندق ، وتعرف اليوم ببركة قراجا ، وقد ذكرت هذه الحارات عند ذكر حارات القاهرة وظواهرها من هذا الكتاب .

ذكر الخندق

هذا الموضع قرية خارج باب الفتوح كانت تعرف أولا بمنية الأصبغ . ثم لما اختط القائد جوهر القاهرة أمر المغاربة أن يحفروا خندقا من جهة الشام من الجبل الى الابليز ، عرضه عشرة أذرع فى عمق مثلها . فبدىء به يوم السبت حادى عشرى شعبان سنة ستين وثلثمائة ، وفرغ فى أيام يسيرة .

وحفر خندقا آخر قدامه وعمقه ، ونصب عليه بابا يدخل منه — وهو الباب الذى كان على ميدان البستان الذى للاخشيد — وقصد أن يقاتل القرامطة من وراء هذا الخندق ، فقيل له من حينئذ الخندق ، وخندق العبيد ، والحفرة . ثم صار بستانا جليلا من جملة البساتين السلطانية فى أيام الخلفاء الفاطميين ، وأدركناها من متنزهات القاهرة البهجة الى أن خربت .

قال ابن عبد الحكم : وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أقطع ابن سندر منية الأصبغ ،

فحاز لنفسه منها ألف فدان . كما حدثنا يحيى بن خالد ، عن الليث بن سعد رضى الله عنه ، ولم يبلغنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقطع أحدا من الناس شيئا من أرض مصر ، الا ابن سندر فانه أقطعه منية الأصبغ ، فلم تزل له حتى مات ، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز من ورثته ، فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل .

وكان سبب اقطاع عمر رضى الله عنه ما أقطعه من ذلك — كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده — أنه كان لزنباع بن روح الجذامى غلام يقال له سندر ، فوجده يقبل جارية له ، فجبه وجدع أنفه وأذنه .

فأتى سندر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الى زنباع فقال : « لا تحملوهم من العمل ما لا يطيقون ، وأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، فان رضيتم * فأمسكوا ، وان كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله . ومن مثل به أو أحرق بالنار فهو حر ، وهو مولى الله ورسوله » .

فأعتق سندر ، فقال : أوص بى يارسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصى بك كل مسلم » .

فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتى سندر أبابكر رضى الله عنه فقال : احفظ فىّ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعاله أبو بكر رضى الله عنه حتى توفى .

(*) ص١٢٦ ج٢ ، ط . بولاق .

ثم أتى عمر رضى الله عنه فقال : احفظ فىّ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر رضى الله عنه : نعم ان رضيت أن تقيم عندى أجريت عليك ما كان يجرى عليك أبو بكر رضى الله عنه ، والا فانظر أى موضع أكتب لك .

فقال سندر : مصر لأنها أرض ريف .

فكتب له الى عمرو بن العاص « احفظ فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فلما قدم الى عمرو رضى الله عنه ، أقطع له أرضا واسعة ودارا . فجعل سندر يعيش فيها ، فلما مات قبضت فى مال الله تعالى .

قال عمرو بن شعيب : ثم أقطعها عبد العزيز ابن مروان الأصبغ بعد ، فهى من خير أموالهم ... قال : ويقال سندر وابن سندر .

وقال ابن يونس : مسروح بن سندر الخصى مولى زنباع بن روح بن سلامة الجذامى ، يكنى أبا الأسود ، له صحبة . قدم مصر بعد الفتح بكتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالوصاة ، فأقطع منية الأصبغ بن عبد العزيز . روى عنه أهل مصر حديثين ، روى عنه مزيد ابن عبد الله البرنى ، وربيعة بن لقيط التجيبى .

ويقال سندر الخصى ، وابن سندر أثبت ، توفى بمصر فى أيام عبد العزيز بن مروان . ويقال كان مولاه وجده يقبل جارية له ، فجبه وجدع أنفه وأذنيه ، فأتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا ذلك اليه ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى زنباع فقال : « لا تحملوهم (يعنى العبيد) ما لا يطيقون

وأطعموهم مما تأكلون ... » فذكر الحديث بطوله .

وذكر عن عثمان بن سويد بن سندر ، أنه أدرك مسروح بن سندر الذى جدعه زنباع بن روح — وكان جده لأمه — فقال : كان ربما تغدى معى بموضع من قرية عثمان ، واسمها سسم . وكان لابن سندر الى جانبها قرية يقال لها « قلون » قطيعة ، وكان له مال كثير من رقيق وغير ذلك ، وكان ذا دهاء منكرا جسيما ، وعمر حتى أدرك زمان عبد الملك بن مروان ، وكان لروح (١) بن سلامة أبى زنباع ، فورثه أهل التعدد بروح يوم مات .

وقال القضاعى : مسروح بن سندر الخصى — ويكنى أبا الأسود — له صحبة ، ويقال له سندر ، دخل مصر بعد الفتح سنة اثنتين وعشرين .

وقال الكندى فى كتاب « الموالى » ، قال : أقبل عمرو بن العاص رضى الله عنه يوما يسير وابن سندر معه ، فكان ابن سندر ونفر معه يسيرون بين عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، وأثاروا الغبار . فجعل عمرو عمامته على طرف أنفه ، ثم قال : اتقوا الغبار فانه أوشك شىء دخولا وأبعده خروجا ، واذا وقع على الرئة صار نسمة .

فقال بعضهم لأولئك النفر : تنحوا . ففعلوا الا ابن سندر ، فقيل له : ألا تتنحى ياابن سندر ؟ فقال عمرو : دعوه ، فان غبار الخصى لا يضر .

(١) قوله « وكان لروح ... الخ » هكذا فى النسخ ، وفى بعضها « اهل التعدد » بالتحية . وانظر ما معنى هذه العبارة . اهـ .

فسمعها ابن سندر فغضب ، وقال : أما والله لو كنت من المؤمنين ما آذيتنى .

فقال عمرو : يغفر الله لك ، أنا بحمد الله من المؤمنين .

فقال ابن سندر : لقد علمت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوصى بى ، فقال أوصى بك كل مؤمن .

وقال ابن يونس : أصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم يكنى أبا ريان . حكى عنه أبو حيرة عبد الله بن عباد المغافرى ، وعون ابن عبد الله وغيره . توفى ليلة الجمعة لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين قبل أبيه .

وقال أبو الفرج على بن الحسين الأصبهانى فى كتاب « الأغانى الكبير » : عن الرياشى قال عن سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام : ان أبا عذرتها عبد الله بن الحسن بن على ، ثم خلفه عليها العثمانى ، ثم مصعب بن الزبير ، ثم الأصبغ بن عبد العزيز ابن مروان .

قال : وكان يتولى مصر ، فكتبت اليه سكينة « ان مصر أرض وخمة » ، فبنى لها مدينة تسمى بمدينة الأصبغ . وبلغ عبد الملك تزوجه اياها ، فنفس بها عليه ، وكتب اليه « اختر مصر أو سكينة » ، فبعث اليه بطلاقها ، ولم يدخل بها ، ومتعها بعشرين ألف دينار .

قلت فى هذا الخبر أوهام : منها أن الأصبغ لم يل مصر ، وانما كان مع أبيه عبد العزيز ابن مروان . ومنها أن الذى بناه الأصبغ لسكينة منية الأصبغ هذه وليست مدينة .

ومنها ان الاصبغ لم يطلق سكينة ، وانما مات عنها قبل أن يدخل عليها .

وقال ابن زولاق فى كتاب « اتمام كتاب الكندى فى أخبار أمراء مصر » : وفى شوال (يعنى من سنة ستين وثلثمائة) كثر الارجاف بوصول القرامطة الى الشام ورئيسهم الحسن ابن محمد الأعسم .

وفى هذا الوقت ورد الخبر بقتل جعفر بن فلاح ... قتله القرامطة بدمشق . ولما قتل ملكت القرامطة دمشق ، وصاروا الى الرملة ، فانحاز معاذ بن حيان الى يافا متحصنا بها .

وفى هذا الوقت تأهب جوهر القائد لقتال القرامطة ، وحفر خندقا وعمل عليه بابا ، ونصب عليه بابى الحديد اللذين كانا على ميدان الاخشيد ، وبنى القنطرة على الخليج ، وحفر خندق السرى بن * الحكم ، وفرق السلاح على رجال المغاربة والمصريين ، ووكل بأبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات خادما يبيت معه فى داره ويركب معه حيث كان ، وأنفذ الى ناحية الحجاز فتعرف خبر القرامطة .

وفى ذى الحجة كبس القرامطة القلزم ، وأخذوا واليها .

ثم دخلت سنة احدى وستين وثلثمائة ، وفى المحرم بلغت القرامطة عين شمس . فاستعد جوهر للقتال لعشر بقين من صفر ، وغلق أبواب الطابية ، وضبط الداخل والخارج ، وأمر الناس بالخروج اليه ، وأن يخرج الأشراف كلهم ، فخرج اليه أبو جعفر مسلم وغيره بالمضارب .

(*) ص١٢٧ جـ٢ ، طـ بولاق .

وفى مستهل ربيع الأول التحم القتال مع القرامطة على باب القاهرة وكان يوم جمعة ، فقتل من الفريقين جماعة وأسر جماعة ، وأصبحوا يوم السبت متكافئين . ثم غدوا يوم الأحد للقتال ، وسار الحسن الأعسم بجميع عساكره ، ومشى للقتال على الخندق والباب مغلق . فلما زالت الشمس فتح جوهر الباب ، واقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل خلق كثير ، ثم ولى الأعسم منهزما ، ولم يتبعه القائد جوهر . ونهب سواد الأعسم بالجب ، ووجدت صناديقه وكتبه ، وانصرف فى الليل على طريق القلزم ، ونهب بنو عقيل وبنو طى كثيرا من سواده وهو مشغول بالقتال .

وكان جميع ما جرى على القرمطى بتدبير جوهر وجوائز أنفذها ، ولو أراد أخذ الأعسم فى انهزامه لأخذه ، ولكن الليل حجز فكره جوهر اتباعه خوفا من الحيلة والمكيدة ، وحضر القتال خلق من رعية مصر ، وأمر جوهر بالنداء فى المدينة : من جاء بالقرمطى أو برأسه فله ثلثمائة ألف درهم ، وخمسون خلعة ، وخمسون سرجا محلى على دوابها ، وثلاث جوائز .

ومدح بعضهم القائد جوهرا بأبيات منها :

كأن طراز النصر فوق جبينه
يلوح ، وأرواح الورى بيمينه

ولم يتفق على القرامطة منذ ابتداء أمرهم كسرة أقبح من هذه الكسرة . ومنها فارقهم من كان قد اجتمع اليهم من الكافورية والاخشيدية ، فقبض جوهر على نحو الألف منهم وسجنهم مقيدين .

وقال ابن زولاق فى كتاب « سيرة الامام المعز لدين الله » ومن خطه نقلت : وفى هـذا الشهر (يعنى المحرم سـنة ثلاث وستين وثلثمائة) تبسطت المغاربة فى نواحى القرافة والمعاير وما قاربهـا ، فنزلوا فى الدور ، وأخرجوا الناس من دورهم ، ونقلوا السكان ، وشرعوا فى السكنى فى المدينة ، وكان المعز قد أمرهم أن يسكنوا أطراف المدينة . فخرج الناس واستغاثوا بالمعز ، فأمرهم أن يسكنوا نواحى عين شمس .

وركب المعز بنفسه حتى شاهد المواضع التى ينزلون فيها ، وأمر لهم بمـال يبنون به — وهو الموضع الذى يعرف اليوم بالخندق والحفرة وخندق العبيد — وجعل لهم واليا وقاضيا ، ثم سكن أكثرهم بالمدينة مخالطين لأهل مصر . ولم يكن القـائد جوهر يبيحهم سكنى المدينة ولا المبيت بهـا ، وحظر ذلك عليهم ، وكان مناديه ينادى كل عشية : لا يبيتن أحد فى المدينة من المغاربة .

وقال ياقوت : منية الأصبغ تنسب الى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، ولا يعرف اليوم بمصر موضع يعرف بهذا الاسم ، وزعموا أنها القرية المعروفة بالخندق قريبا من شرق القاهرة .

وقال ابن عبد الظاهر : الخندق هو منية الأصبغ . وهو الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان .

قال مؤلفه رحمه الله : وقد وهم ابن عبد الظاهر فجعل أن الخندق احتفره العزيز بالله وانما احتفره جوهر كما تقدم . وأدركت الخندق قرية لطيفة يبرز النـاس من القاهرة اليها ليتنزهوا بها فى أيام النيـل والربيـع ، ويسكنها طائفة كبيرة ، وفيها بسـاتين عامرة بالنخيل الفخر والثمار ، وبها سـوق وجامع تقام به الجمعة وعليه قطعـة أرض من أرض الخندق يتولاها خطيبه .

فلما كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة خربت قرية الخندق ، ورحل أهلها منها ، ونقلت الخطبة من جامعـه الى جامع بالحسينية ، وبقى معطلا من ذكر الله تعـالى واقامة الصلاة مدة . ثم فى شعبان سـنة خمس عشرة وثمانمائة هدمه الأمير طوغان الدوادار ، وأخذ عمده وخشبه ، فلم يبق الا بقية أطلاله . وكانت قرية الخندق كأنها من حسنها ضرة لـكوم الريش ، وكانت تجاهها من شرقيها ، فخربتا جميعا .

« صحراء الأهليلج » : هذه البقعة شرقى الخندق فى الرمل ، واليها كانت تنتهى عمـارة الحسينية من جهة باب الفتوح ، وكان بهـا شجر الأهليلج الهندى فعرفت بذلك . وأظن أن هذا الأهليلج كان من جملة بستان ريدان الذى يعرف اليوم بالريدانية .

ذكر خارج باب النصر

أما خارج القاهرة من جهة باب النصر فانه ، عندما وضع القائد جوهر القاهرة ، كان فضاء ليس فيـه سوى مصلى العيد الذى بنـاه جوهر . وهذا المصلى اليوم يصلى على من مات فيه .

وما برح ما بين هذا المصلى وبستان ريدان ، الذى يعرف اليـوم بالريدانيـة ، لا عـمارة فيـه ... الى أن مات أمير الجيـوش بدر الجمالى فى سنة سبع وثمانين * وأربعمائة ، فدفن خارج باب النصر بحرى المصلى ، وبنى على قبره تربة جليلة وهى باقيـة الى اليـوم هناك . فتتابع بناء الترب من حينئذ خارج باب النصر فيمـا بين التـربة الجيوشـية والريدانية ، وقبر الناس موتاهم هنـاك ، لا سيما أهل الحـارات التى عرفت خارج باب الفتوح بالحسينية ، وهى الريدانيـة وحارة البزادرة وغيرها .

ولم تزل هذه الجهـة مقبرة الى ما بعـد السبعمائة بمدة . فرغب الأمير سـيف الدين الحاج آل ملك فى البناء هناك ، وأنشأ الجامع المعروف به فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وعمر دارا وحماما ، فاقتدى الناس به وعمروا هناك . وكان قد بنى تجاه المصلى قبل ذلك الأمير سيف الدين كهرداس المنصورى دارا تعرف اليوم بدار الحاجب ، فسكن فى هذه الجهة أمـراء الدولة ، وعملوا فيـما بين الريدانية والخنـدق مناخات الجمـال ، وهى باقية هناك .

فصارت هذه الجهة فى غاية العمارة ، وفيها من باب النصر الى الريدانية سبعة أسـواق جليلة يشتمل كل سوق منها على عدة حوانيت كثيرة : فمنها سوق اللفت ، وهو تجاه باب بيت الحاجب الآن عند البئر ، كان فيـه من جانبيه حوانيت يباع فيها اللفت ، ومن هذا السـوق يشترى أهل القاهرة هذا الصـنف والكرنب . وتعرف هذه البئر الى اليوم ببئر اللفت .

ويليها سويقة زاوية الخدام ، وأدركت بهذه السـويقة بقية صالحة ، ويلى ذلك سـوق جامع آل ملك ، وكان سـوقا عامرا ، فيه غالب ما يحتـاج اليـه من المآكل والأدوية والفواكه والخضر وغيرها ، وأدركتـه عامرا . ويليـه سويقة السـنابطة ، عرفت بقوم من أهل ناحية سنباط سـكنوا بها ، وكانت سـوقا كبيرا ، وأدركته عامرا . ويليها سـويقة أبى ظهير ، وأدركتها عامرة . ويليهـا سـويقـة العرب ، وكانت تتصل بالريدانيـة ، وتشتمل علـى حوانيت كثيرة جدا أدركتها عامرة وليس فيها سكان ، وكانت كلها من لبن معقود عقودا .

وكان بأول سـويقة العرب هذه فرن أدركته عامرا آهلا . بلغنى أنه كان يخبز فيه ، أيام عمارة هذا الـسوق وما حوله ، كل يوم نحو السبعة آلاف رغيف . وكان من وراء هـذا الـسوق أحواش فيها قباب معقودة من لبن ، أدركتها قائمة وليس فيها سكان ، وكان من جملة هذه الأحواش حوش فيه أربعمائة قبـة يسكن فيها البزادرة والمكارية ، أجرة كل قبة درهمان فى كل شـهر ، فيتحصـل من هذا الحوش فى كل شـهر مبلغ ثمانمائة درهم فضة ، وكان يعرف بحوش الأحمدى .

فلـما كان الغـلاء فى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين ، سـنة سبـع وسـبعين وسبعمائة ، خرب كثير مما كان بالقرب من الريدانية ، واختلت أحوال هذه الجهة ... الى أن كانت المحن من سـنة ست وثمانمـائة ،

(*) ص١٢٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

فتلاشت وهدمت دورها وبيعت أنقاضها ، وفيها بقية آئلة الى الدثور .

الريدانيــة

كانت بستانا لريدان الصقلبى أحد خدام العزيز بالله نزار بن المعز . كان يحمل المظلة على رأس الخليفة ، واختص بالحاكم ، ثم قتله فى يوم الثلاثاء لعشر بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة .

وريدان ان كان اسما عربيا ، فانه من قولهم : ريح ريدة ورادة وريدانة ، أى لينة الهبوب . وقيل ريح ريدة كثيرة الهبوب .

ذكر الخلجان التى بظاهر القاهرة

اعلم أن الخليج جمعه خلجان ، وهو نهر صغير يختلج من نهر كبير أو من بحر . وأصل الخلج الانتزاع ، خلجت الشىء من الشىء اذا انتزعته .

وبأرض مصر عدة خلجان : منها بظاهر القاهرة خليج مصر ، وخليج فم الخور ، وخليج الذكر ، والخليج الناصرى ، وخليج قنطرة الفخر . وسترى من أخبارها ما فيه كفاية ان شاء الله تعالى .

ذكر خليج مصر

هذا الخليج بظاهر مدينة فسطاط مصر ، ويمر من غربى القاهرة . وهو خليج قديم احتفره بعض قدماء ملوك مصر بسبب هاجر أم اسماعيل بن ابراهيم خليل الرحمن ، صلوات الله وسلامه عليهما ، حين أسكنها وابنها اسماعيل خليل الله ابراهيم عليهما الصلاة والسلام بمكة . ثم تمادت الدهور والأعوام ، فجدد حفره ثانيا بعض من ملك مصر من ملوك الروم بعد الاسكندر .

فلما جاء الله سبحانه بالاسلام — وله الحمد والمنة — وفتحت أرض مصر على يد عمرو بن العاص ... جدد حفره ، باشارة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى عام الرمادة . وكان يصب فى بحر القلزم ، فتسير فيه السفن الى البحر الملح ، وتمر فى البحر الى الحجاز واليمن والهند .

ولم يزل على ذلك الى أن قدم محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب بالمدينة النبوية ، والخليفة حينئذ بالعراق أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور ، فكتب الى عامله على مصر يأمره بطم خليج القلزم حتى لا تحمل الميرة من مصر الى المدينة . فطمه ، وانقطع * من حينئذ اتصاله ببحر القلزم ، وصار على ما هو عليه الآن .

وكان هذا الخليج أولا يعرف بخليج مصر . فلما أنشأ جوهر القائد القاهرة بجانب هذا الخليج من شرقيه ، صار يعرف بخليج القاهرة . وكان يقال له أيضا خليج أمير المؤمنين — يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه — لأنه الذى أشار بتجديد حفره . والآن تسميه العامة بالخليج الحاكمى ، وتزعم أن الحاكم بأمر الله أبا على منصورا احتفره . وليس هذا بصحيح ، فقد كان هذا الخليج قبل الحاكم بمدد متطاولة . ومن العامة من يسميه خليج اللؤلؤة أيضا .

(*) ص١٣٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

وسأقص عليك من أخبار هذا الخليج ما وقفت عليه من الأنباء .

قال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه ، فى أخبار طيطوس بن ماليا بن كلكن بن خربتا ابن ماليق بن تدراس بن صا بن مرقونس بن صا بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح : وجلس على سرير الملك بعد أبيه ماليا ، وكان جبارا جريئا شديد البأس مهيبا ، فدخل عليه الأشراف وهنوه ودعوا له ، فأمرهم بالاقبال على مصالحهم وما يعنيهم ، ووعدهم بالاحسان . والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر ، وهو فرعون ابراهيم عليه السلام ، وأن الفراعنة سبعة هو أولهم ، وأنه استخف بأمر الهياكل والكهنة .

وكان من خبر ابراهيم عليه السلام معه : أن ابراهيم لما فارق قومه ، أشفق من المقام بالشام ، لئلا يتبعه قومه ويردوه الى النمرود ، لأنه كان من أهل كوثا من سواد العراق . فخرج الى مصر ومعه سارة امرأته ، وترك لوطا بالشام وسار الى مصر . وكانت سارة أحسن نساء وقتها ، ويقال ان يوسف عليه السلام ورث جزءا من جمالها .

فلما سار الى مصر رأى الحرس المقيمون على أبواب المدينة سارة ، فعجبوا من حسنها ورفعوا خبرها الى طيطوس الملك ، وقالوا : دخل الى البلد رجل من أهل الشرق معه امرأة لم ير أحسن منها ولا أجمل .

فوجه الملك الى وزيره ، فأحضر ابراهيم صلوات الله عليه ، وسأله عن بلده فأخبره ، وقال : ما هذه المرأة منك ؟

فقال : أختى .

فعرف الملك بذلك ، فقال : مره أن يجئنى بالمرأة حتى أراها .

فعرفه ذلك ، فامتعض منه ولم تمكنه مخالفته ، وعلم أن الله تعالى لا يسوءه فى أهله ، فقال لسارة : قومى الى الملك فانه قد طلبك منى .

قالت : وما يصنع بى الملك وما رآنى قبل ؟

قال : أرجو أن يكون لخير .

فقامت معه حتى أتوا قصر الملك ، فأدخلت عليه ، فنظر منها منظرا راعه وفتنه ، فأمر باخراج ابراهيم عليه السلام ، فأخرج وندم على قوله انها أخته ، وانما أراد أنها أخته فى الدين .

ووقع فى قلب ابراهيم عليه السلام ما يقع فى قلب الرجل على أهله ، وتمنى أنه لم يدخل مصر ، فقال : اللهم لا تفضح نبيك فى أهله .

فراودها الملك عن نفسها ، فامتنعت عليه ، فذهب ليمد يده اليها فقالت : انك ان وضعت يدك على أهلكت نفسك لأن لى ربا يمنعنى منك .

فلم يلتفت الى قولها ، ومد يده اليها فجفت يده ، وبقى حائرا فقال لها : أزيلى عنى ما قد أصابنى .

فقالت : على ألا تعاود مثل ما أتيت .

قال : نعم .

فدعت الله سبحانه وتعالى ، فزال عنه ورجعت يده الى حالها .

فلما وثق بالصحة راودها ومناها ووعدها بالاحسان ، فامتنعت وقالت : قد عرفت ما جرى .

ثم مد يده اليها فجفت ، وضربت عليه أعضاؤه وعصبه ، فاستغاث بها وأقسم بالآلهة انها ان أزالت عنه ذلك فانه لا يعاودها ، فسألت الله تعالى فزال عنه ذلك ، ورجع الى حاله .

فقال : ان لك لربا عظيما لا يضيعك .

فأعظم قدرها وسألها عن ابراهيم ، فقالت : هو قريبى وزوجى .

قال : فانه قد ذكر أنك أخته .

قالت : صدق أنا أخته فى الدين ، وكل من كان على ديننا فهو أخ لنا .

قال : نعم الدين دينكم .

ووجه بها الى ابنته جوريا — وكانت من الكمال والعقل بمكان كبير — فألقى الله تعالى محبة سارة فى قلبها . فكانت تعظمها وأضافتها أحسن ضيافة ، ووهبت لها جوهرا ومالا . فأتت به ابراهيم عليه السلام ، فقال لها : رديه فلا حاجة لنا به ، فردته .

وذكرت ذلك جوريا لأبيها ، فعجب منهما وقال : هذا كريم من أهل بيت الطهارة ، فتحيلى فى برها بكل حيلة .

فوهبت لها جارية قبطية من أحسن الجوارى يقال لها آجر ، وهى هاجر أم اسماعيل عليه السلام ، وجعلت لها سلالا من الجلود ، وجعلت فيها زادا وحلوى ، وقالت : يكون هذا الزاد معك ، وجعلت تحت الحلوى جوهرا نقيا وحليا مكللا .

فقالت سارة : أشاور صاحبى .

فأتت ابراهيم عليه السلام واستأذنته ، فقال : اذا كان ماكولا فخذيه . فقبلته منها .

وخرج ابراهيم . فلما مضى وأمعنوا فى السير ، أخرجت سارة بعض تلك السلال ، فأصابت الجوهر والحلى ، فعرفت ابراهيم عليه السلام ذلك ، فباع بعضه وحفر من ثمنه البئر التى جعلها للسبيل ، وفرق بعضه فى وجوه البر ، وكان يضيف كل من مر به .

وعاش طيطوس الى أن وجهت هاجر من مكة تعرفه أنها بمكان جدب وتستغيثه . فأمر بحفر نهر فى شرقى مصر بسفح الجبل حتى ينتهى الى مرقى السفن فى البحر الملح ، فكان يحمل اليها الحنطة وأصناف الغلات فتصل الى جدة ، وتحمل من هناك على المطايا . فأحيى بلد الحجاز مدة .

ويقال انما حليت الكعبة فى ذلك العصر مما أهداه ملك مصر * . وقيل انه لكثرة ما كان يحمله طيطوس الى الحجاز سمته العرب وجرهم « الصادوق » ، ويقال انه سأل ابراهيم عليه السلام أن يبارك له فى بلده ، فدعا بالبركة لمصر ، وعرفه أن ولده سيملكها ، ويصير أمرها اليهم قرنا بعد قرن .

وطيطوس أول فرعون كان بمصر . وذلك أنه أكثر من القتل حتى قتل قراباته وأهل بيته وبنى عمه وخدمه ونساءه وكثيرا من الكهنة

(*) ص١٤٠ ج٢ ، ط. بولاق .

والحكماء ، وكان حريصا على الولد فلم يرزق ولدا غير ابنته جوريا أو جورياق . وكانت حكيمة عاقلة تأخذ على يده كثيرا ، وتمنعه من سفك الدماء ، فأبغضته ابنته ، وأبغضه جميع الخاصة والعامة ، فلما رأت أمره يزيد خافت على ذهاب ملكهم فسمته ، وهلك .

وكان ملكه سبعين سنة . واختلفوا فيمن يملك بعده ، وأرادوا أن يقيموا واحدا من ولد أتريب ، فقام بعض الوزراء ودعا لجورياق ، فتم لها الأمر ، وملكت .

فهذا كان أول أمر هذا الخليج . ثم حفره مرة ثانية أدريان قيصر ، أحد ملوك الروم ، ومن الناس من يسميه أندرويانوس ، ومنهم من يقول هوريانوس .

قال فى تاريخ مدينة رومة : وولى الملك أدريان قيصر أحد ملوك الروم ، وكانت ولايته احدى وعشرين سنة ، وهو الذى درس اليهود مرة ثانية اذ كانوا راموا النفاق عليه ، وهو الذى جدد مدينة يروشالم (يعنى مدينة القدس) ، وأمر بتبديل اسمها وأن تسمى ايليا .

وقال علماء أهل الكتاب عن أدريان هذا : وغزا القدس وأخربه فى الثانية من ملكه ، وكان ملكه فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة من سنى الاسكندر ، وقتل عامة أهل القدس ، وبنى على باب مدينة القدس منارا ، وكتب عليه « هذه مدينة ايليا » — ويسمى موضع هذا العمود الآن محراب داود — ثم سار من القدس الى بابل فحارب ملكها وهزمه ، وعاد الى مصر فحفر خليجا من النيل الى بحر القلزم ، وسارت فيه السفن ، وبقى رسمه عند الفتح الاسلامى فحفره عمرو بن العاص ، وأصاب أهل مصر منه شدائد ، وألزمهم بعبادة الأصنام .

ثم عاد الى بلاده بممالك الروم ، فابتلى بمرض أعيى الأطباء ، فخرج يسير فى البلاد يبتغى من يداويه ، فمر على بيت المقدس — وكان خرابا ليس فيه غير كنيسة للنصارى — فأمر ببناء المدينة وحصنها ، وأعاد اليها اليهود ، فأقاموا بها وملكوا عليهم رجلا منهم . فبلغ ذلك أدريان قيصر ، فبعث اليهم جيشا لم يزل يحاصرهم حتى مات أكثرهم جوعا وعطشا وأخذها عنوة ، فقتل من اليهود ما لا يحصى كثرة ، وأخرب المدينة حتى صارت تلالا لا عامر فيها ألبتة .

وتتبع اليهود يريد ألا يدع منهم على وجه الأرض أحدا ، ثم أمر طائفة من اليونانيين فتحولوا الى مدينة القدس وسكنوا فيها . فكان بين خراب القدس الخراب الثانى على يد طيطوس وبين هذا الخراب ثلاث وخمسون سنة ، فعمرت القدس باليونان . ولم يزل قيصر هذا ملكا حتى مات .

فهذا خبر حفر هذا الخليج فى المرة الثانية ، فلما جاء الاسلام جدد عمرو بن العاص حفره .

قال ابن عبد الحكم « ذكر حفر خليج أمير المؤمنين رضى الله عنه » : حدثنا عبد الله ابن صالح ، عن الليث بن سعد ، قال : ان الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى

سنة الرمادة ، فكتب رضى الله عنه الى عمرو ابن العاص وهو بمصر : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، الى العاصى بن العاصى ... سلام . أما بعد ، فلعمرى ياعمرو ما تبالى اذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى ، فياغوثاه ، ثم ياغوثاه ... » يردد ذلك .

فكتب اليه عمرو : « من عبد الله عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين . أما بعد ، فياليك ثم ياليك ، قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » . فبعث اليه بعير عظيمة . فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر ، يتبع بعضها بعضا .

فلما قدمت على عمر رضى الله عنه ، وسع بها على الناس ، ودفع الى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام ، وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص يقسمونها على الناس ، فدفعوا الى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام ، ويأتدموا بلحمه ، ويحتذوا بجلده ، وينتفعوا بالوعاء الذى كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره ... فوسع الله بذلك على الناس .

فلما رأى ذلك عمر رضى الله عنه حمد الله ، وكتب الى عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه ، فقدموا عليه . فقال عمر : ياعمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر ، وهى كثيرة الخير والطعام ، وقد ألقى فى روعى — لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم ، حين فتح الله عليهم مصر ، وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين — أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر ، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام الى المدينة ومكة ، فان حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ ما نريد ، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم .

فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر ، فثقل ذلك عليهم وقالوا : نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر ، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين ، وتقول له ان هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ، ولا نجد اليه سبيلا .

فرجع عمرو بذلك الى عمر .

فضحك عمر رضى الله عنه حين رآه ، وقال * : والذى نفسى بيده لكأنى أنظر اليك ياعمرو ، والى أصحابك ، حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج ، فثقل ذلك عليهم ، وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر ، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين ، وتقول له ان هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ، ولانجد اليه سبيلا .

فعجب عمرو من قول عمر ، وقال : صدقت والله ياأمير المؤمنين ، لقد كان الأمر على ما ذكرت .

فقال له عمر رضى الله عنه : انطلق بعزيمة منى حتى تجد فى ذلك ، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه ان شاء الله تعالى .

فانصرف عمرو ، وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد ، ثم احتفر الخليج فى حاشية الفسطاط ، الذى يقال له خليج أمير المؤمنين ، فساقه من النيل الى القلزم ، فلم يأت الحول

(*) ص١٤١ جـ٢ ، ط. بولاق .

حتى جرت فيه السفن ، فحمل فيه ما أراد من الطعام الى المدينة ومكة ، فنفع الله بذلك أهل الحرمين ، وسمى خليج أمير المؤمنين .

ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد عمر بن عبد العزيز ، ثم ضيعه الولاة بعد ذلك ، فترك وغلب عليه الرمل فانقطع ، فصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم .

قال : ويقال ان عمر رضى الله عنه قال لعمرو حين قدم عليه : ياعمرو ، ان العرب قد تشاءمت بى ، وكادت أن تغلب على رحلى ، وقد عرفت الذى أصابها ، وليس جند من الأجناد أرجى عندى أن يغيث الله بهم أهل الحجاز من جندك ، فان استطعت أن تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله تعالى .

فقال عمرو : ما شئت ياأمير المؤمنين . قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الاسلام ، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركه التجار ، فان شئت أن نحفره فننشىء فيه سفنا يحمل فيها الطعام الى الحجاز ، فعلته .

فقال عمر رضى الله عنه : نعم ، فافعل .

فلما خرج عمرو من عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ذكر ذلك لرؤساء أهل أرضه من قبط مصر ، فقالوا له : ماذا جئت به أصلح الأمير ؟ تريد أن تخرج طعام أرضك وخصبها الى الحجاز وتخرب هذه ، فان استطعت فاستقل من ذلك .

فلما ودع عمر رضى الله عنه قال له : ياعمرو انظر الى ذلك الخليج ، ولا تنسين حفره .

فقال له : ياأمير المؤمنين انه قد انسد ، وتدخل فيه نفقات عظيمة .

فقال له : أما والذى نفسى بيده انى لأظنك حين خرجت من عندى حدثت بذلك أهل أرضك ، فعظموه عليك وكرهوا ذلك . أعزم عليك الا ما حفرته وجعلت فيه سفنا .

فقال عمرو : ياأمير المؤمنين انه متى مايجد أهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا الى الجهاد .

قال : فانى سأجعل من ذلك أمرا ، لا يحمل فى هذا البحر الا رزق أهل المدينة وأهل مكة .

فحفره عمرو وعالجه ، وجعل فيه السفن .

قال : ويقال ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى عمرو بن العاص « الى العاصى ابن العاصى ، فانك لعمرى لا تبالى اذا سمنت أنت ومن معك أن أعجف أنا ومن معى ، فياغوثاه وياغوثاه » .

فكتب اليه عمرو : « أما بعد ، فياليك ثم ياليك ، أتتك عير أولها عندك وآخرها عندى ، مع أنى أرجو أن أجد السبيل الى أن أحمل اليك فى البحر » .

ثم ان عمرا ندم على كتابه فى الحمل الى المدينة فى البحر ، وقال : ان أمكنت عمر من هذا خرب مصر ، ونقلها الى المدينة . فكتب اليه : « انى نظرت فى أمر البحر ، فاذا هو عسر ولا يلتام ولا يستطاع » .

فكتب اليه عمر رضى الله عنه : « الى العاصى بن العاصى ، قد بلغنى كتابك تعتل

فى الذى كنت كتبت الى به من أمر البحر ، وأيم الله لتفعلن أو لأقلعن بأذنك ، ولأبعثن من يفعل ذلك » .

فعرف عمرو أنه الجد من عمر رضى الله عنه ، ففعل .

فبعث اليه عمر رضى الله عنه « ألا تدع بمصر شيئا من طعامها وكسوتها وبصلها وعدسها وخلها الا بعثت الينا منه » .

قال : ويقال ان الذى دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من القبط ، فقال لعمرو : أرأيت ان دللتك على مكان تجرى فيه السفن حتى تنتهى الى مكة والمدينة ، أتضع عنى الجزية وعن أهل بيتى ؟

قال : نعم .

فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب اليه أن افعل .

فلما قدمت السفن خرج عمر رضى الله عنه حاجا أو معتمرا ، فقال للناس : سيروا بنا ننظر الى السفن التى سيرها الله تعالى الينا من أرض فرعون حتى أتتنا . فأتى الجار ، وقال : اغتسلوا من ماء البحر فانه مبارك .

فلما قدمت السفن الجار وفيها الطعام ، صك عمر رضى الله عنه للناس بذلك الطعام صكوكا ، فتبايع التجار الصكوك بينهم قبل أن يقبضوها ، فلقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه العلاء بن الأسود رضى الله عنه فقال : كم ربح حكيم بن حزام ؟

فقال : ابتاع من صكوك الجار بمائة ألف درهم ، وربح عليها مائة ألف .

فلقيه عمر رضى الله عنه فقال له : ياحكيم كم ربحت ؟

فأخبره بمثل خبر العلاء . قال عمر رضى الله عنه : فبعته قبل أن تقبضه ؟

قال : نعم .

قال عمر رضى الله عنه : فان هذا بيع لا يصح ، فاردده .

فقال حكيم : ما علمت أن هذا بيع لا يصح ، وما أقدر على رده .

فقال عمر رضى الله عنه : لابد .

فقال حكيم : والله ما أقدر على ذلك وقد تفرق وذهب ، ولكن رأس مالى وربحى صدقة .

وقال القضاعى فى ذكر الخليج : أمر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن العاص عام الرمادة بحفر الخليج الذى بحاشية الفسطاط ، الذى يقال له خليج أمير المؤمنين * ، فساقه من النيل الى القلزم . فلم يأت عليه الحول حتى جرت فيه السفن ، وحمل فيه ما أراد من الطعام الى المدينة ومكة ، فنفع الله تعالى بذلك أهل الحرمين ، فسمى خليج أمير المؤمنين .

وذكر الكندى فى كتاب « الجند العربى » أن عمرا حفره فى سنة ثلاث وعشرين ، وفرغ منه فى ستة أشهر ، وجرت فيه السفن ووصلت الى الحجاز فى الشهر السابع ، ثم بنى عليه عبد العزيز بن مروان قنطرة فى ولايته على مصر .

(*) ص١٤٢ ج٢ ، ط.بولاق .

قال : ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ، ثم أضاعته الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل ، فانقطع وصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم .

وقال ابن قديد : أمر أبو جعفر المنصور بسد الخليج ، حين خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة ، ليقطع عنه الطعام ، فسد الى الآن .

وذكر البلاذرى أن أبا جعفر المنصور ، لما ورد عليه قيام بن عبد الله ، قال : يكتب الساعة الى مصر أن تقطع الميرة عن أهل الحرمين ، فانهم فى مثل الحرجة اذا لم تأتهم الميرة من مصر .

وقال ابن الطوير ، وقد ذكر ركوب الخليفة لفتح الخليج : وهذا الخليج هو الذى حفره عمرو بن العاص لما ولى على مصر ، فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، من بحر فسطاط مصر الحلو ، وألحقه بالقلزم بشاطىء البحر الملح ، فكانت مسافته خمسة أيام ، لتقرب معونة الحجاز من ديار مصر فى أيام النيل . فالمراكب النيلية تفرغ ما تحمله من ديار مصر بالقلزم ، فاذا فرغت حملت ما فى القلزم مما وصل من الحجاز وغيره الى مصر . وكان مسلكا للتجار وغيرهم فى وقته المعلوم .

وكان أول هذا الخليج من مصر يشق الطريق الشارع المسلوك منه اليوم الى القاهرة ، حافا بالقربوص الذى على البستان المعروف بابن كيسان مادا . وآثاره اليوم مادة باقية الى الحوض المعروف بسيف الدين حسين ، صهر ابن رزيك ، والبستان المعروف بالمشتهى . وفيه آثار المنظرة التى كانت معدة لجلوس الخليفة لفتح الخليج من هذا الطريق ، ولم تكن الآدر المبنية على الخليج ولا شىء منها هناك .

وما برح هذا الخليج متنزها لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة ، الى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف الآن بالخليج الناصرى .

قال المسيحى : وفى هذا الشهر (يعنى المحرم سنة احدى وأربعمائة) منع الحاكم بأمر الله من الركوب فى القوارب الى القاهرة فى الخليج ، وشدد فى المنع . وسدت أبواب القاهرة التى يتطرق منها الى الخليج ، وأبواب الطاقات من الدور التى تشرف على الخليج ، وكذلك أبواب الدور والخوخ التى على الخليج .

قال القاضى الفاضل فى متجددات حوادث سنة أربع وتسعين وخمسمائة : ونهى عن ركوب المتفرجين فى المراكب فى الخليج ، وعن اظهار المنكر ، وعن ركوب النساء مع الرجال ، وعلق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم .

قال : وفى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان ، ظهر فى هذه المدة من المنكرات ما لم يعهد فى مصر فى وقت من الأوقات ، ومن الفواحش ما خرج من الدور الى الطرقات ، وجرى الماء فى الخليج بنعمة الله تعالى بعد القنوط ووقوف الزيادة فى الذراع السادس عشر .

فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة فى مراكب فى نهار شهر رمضان ، ومعهم النساء الفواجر ،

وبأيديهن المزاهر يضربن بها وتسمع أصواتهن ووجوههن مكشوفة ، وحرفاؤهن من الرجال معهن فى المراكب : لا يمنعون عنهن الأيدى ولا الأبصار ، ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئا من أسباب الانكار ، وتوقع أهل المراقبة ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة .

وقال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون : وفى سنة ست وسبعمائة ، رسم الأميران بيبرس وسلار : بمنع الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكمى والتفرج فيه ، بسبب ما يحصل من الفساد ، والتظاهر بالمنكرات اللاتى تجمع الخمر وآلات الملاهى ، والنساء المكشوفات الوجوه ، المتزينات بأفخر زينة من كوافى الزركش والقنابيز والحلى العظيم ، ويصرف على ذلك الأموال الكثيرة ، ويقتل فيه جماعة عديدة .

ورسم الأميران المذكوران لمتولى الصناعة بمصر : أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور ، الا ما كان فيه غلة أو متجرا وما ناسب ذلك ... فكان هذا معدودا من حسناتهما ، ومسطورا فى صحائفهما .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : أخبرنى شيخ معمر ولد بعد سنة سبعمائة ، يعرف بمحمد المسعودى ، أنه أدرك هذا الخليج والمراكب تمر فيه بالناس للنزهة ، وأنها كانت تعبر من تحت باب القنطرة غادية ورائحة . والآن لا يمر بهذا الخليج من المراكب الا ما يحمل متاعا من متجر أو نحوه ، وصارت مراكب النزهة والتفرج انما تمر فى الخليج الناصرى فقط .

وعلى هذا الخليج الكبير فى زماننا هذا أربع عشرة قنطرة يأتى ذكرها ان شاء الله تعالى فى القناطر ، وحافتا هذا الخليج الآن معمورتان بالدور . وسيأتى ان شاء الله ذكر ذلك فى مواضعه من هذا الكتاب .

وقال ابن سعد : وفيها خليج لا يزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافى * :

ما زالت الأنحاء تأخذه
حتى غدا كذؤابة النجم

وقلت فى نور الكتان الذى على جانبى هذا الخليج :

انظر الى النهر والكتان يرمقه
من جانبيه بأجفان لها حدق
قد سل سيفا عليه للصبا شطب
فقابلته بأحداق بها أرق
وأصبحت فى يد الأرواح تنسجها
حتى غدت حلقا من فوقها حلق
فقم نزرها ووجه الأرض متضح
أو عند صفرته ان كنت تغتبق

قال وقد ذكر مصر : ولا ينكر فيها اظهار أوانى الخمر ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ، ولا تبرج النساء العواهر ، ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها . وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ، ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك فى بعض الأحيان .

(*) ص١٤٢ جـ٢ ، ط.بولاق *

وهو ضيق ، وعليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهكم والمجانة . حتى ان المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب ، وللسرج فى جانبيه بالليل منظر فتان ، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر . وفى ذلك أقول :

لا تركبن فى خليج مصر
الا اذا يسدلُ الظلام
فقد علمت الذى عليه
من عالم كلهم طغام
صفان للحرب قد أظلا
سلاح ما بينهم كلام
ياسيدى لا تسر اليه
الا اذا هوم النيام
والليل ستر على التصابى
عليه من فضله لثام
والسرج قد بددت عليه
منها دنانير لا ترام
وهو قد امتد والمبانى
عليه فى خدمة قيام
لله كم دوحة جنينا
هناك أثمارها الأثام

وقال ابن عبد الظاهر عن مختصر تاريخ ابن المأمون : ان أول من رتب حفر خليج القاهرة على الناس المأمون بن البطائحى ، وكذلك على أصحاب البساتين فى دولة الأفضل ، وجعل عليه واليا بمفرده .

ولله در الأسعد بن خطير المماتى حيث يقول :

خليج كالحسام له صقال
ولكن فيه للرائى مسره
رأيت به الملاح تجيد عوما
كأنهم نجوم فى مجره

وقال بهاء الدين أبو الحسن على بن الساعاتى فى يوم كسر الخليج :

ان يوم الخليج يوم من الحسـ
ـن بديع المرئىّ والمسموع
كم لديه من ليث غاب صؤول
ومهاة مثل الغزال المروع
وعلى السد عزة قبل أن تمـ
لكه ذلة المحب الخضوع
كسروا جسره هناك فحاكى
كسر قلب يتلوه فيض دموع

ذكر خليج فم الخور وخليج الذكر

قال ابن سيده فى كتاب « المحكم فى اللغة » : الخور مصب الماء فى البحر ، وقيل هو خليج من البحر ، والخور المطمئن من الأرض .

وخليج فم الخور يخرج الآن من بحر النيل ويصب فى الخليج الناصرى ليقوى جرى الماء فيه ويغزره . وكان قبل أن يحفر الخليج الناصرى يمد خليج الذكر ، وكان أصله ترعة يدخل منها ماء النيل للبستان الذى عرف بالمقسى ، ثم وسع .

قال ابن عبد الظاهر : وكان يخرج من البحر للمقسى الماء فى البرابخ ، فوسعه الملك الكامل وهو خليج الذكر . ويقال ان خليج الذكر حفره كافور الاخشيدى . فلما زال البستان المقسى فى أيام الخليفة الظاهر بن الحاكم ، وجعله بركة قدام المنظرة المعروفة باللؤلؤة ، صار يدخل الماء اليها من هذا الخليج . وكان يفتح هذا الخليج قبل الخليج الكبير .

ولم يزل حتى أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، بحفره فحفر ، وأوصل بالخليج الكبير . وشرع الأمراء والجند فى حفره من أخريات جمادى الآخرة ، فلما فتح كادت القاهرة * أن تغرق ، فسدت القنطرة التى عليه فهدمها الماء . ومن حينئذ عزم السلطان على حفر الخليج الناصرى . وأنا أدركت آثاره ، وفيه ينبت القصب المسمى بالفارسى .

وأخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسين ابن عمر الشهرزورى أنه يعرف خليج الذكر هذا وفيه الماء ، وسبح فيه غير مرة ، وأرانى آثاره . وكان الماء يدخل اليه من تحت قنطرة الدكة — الآتى ذكرها فى القناطر ان شاء الله تعالى — وعلى خليج فم الخور الآن قنطرة ، وعلى خليج الذكر قنطرة ... يأتى ذكرهما ان شاء الله تعالى عند ذكر القناطر .

وانما قيل له خليج الذكر لأن بعض أمراء الملك الظاهر ركن الدين بيبرس — كان يعرف بشمس الدين الذكر الكركى — كان له فيه أثر من حفره فعرف به . وكان للناس عند هذا الخليج مجتمع يكثر فيه لهوهم ولعبهم .

(*) ص١٤٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

قال المسيحى : وفى يوم الثلاثاء لخمس بقين منه (يعنى المحرم سنة خمس عشرة وأربعمائة) كان ثالث الفتح . فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى والمسلمين ، فى الخيام المنصوبة وغيرها ، خلق كثير للأكل والشرب واللهو ، ولم يزالوا هناك الى أن انقضى ذلك اليوم .

وركب أمير المؤمنين (يعنى الظاهر لاعزاز دين الله أبا الحسن على بن الحاكم بأمر الله) فى مركبه الى المقس ، وعليه عمامة شرب مفوطة بسواد وثوب دبيقى من شكل العمامة ، ودار هناك طويلا ، وعاد الى قصره سالما . وشوهد من سكر النساء وتهتكهن ، وحملهن فى قفاف الحمالين سكارى ، واجتماعهن مع الرجال ، أمر يقبح ذكره .

ذكر الخليج الناصرى

هذا الخليج يخرج من بحر النيل ، ويصب فى الخليج الكبير .

وكان سبب حفره أن الملك الناصر محمد ابن قلاوون لما أنشأ القصور والخانقاه بناحية سرياقوس ، وجعل هناك ميدانا يسرح اليه ، وأبطل ميدان القبق المعروف بالميدان الأسود ظاهر باب النصر من القاهرة ، وترك المسطبة التى بناها بالقرب من بركة الحبش لمطعم الطيور والجوارح ... اختار أن يحفر خليجا من بحر النيل ، لتمر فيه المراكب الى ناحية سرياقوس ، لحمل ما يحتاج اليه من الغلال وغيرها .

فتقدم الى الأمير سيف الدين أرغون ، نائب السلطنة بديار مصر ، بالكشف عن عمل ذلك . فنزل من قلعة الجبل بالمهندسين وأرباب الخبرة الى شاطىء النيل ، وركب النيل . فلم يزل القوم فى فحص وتفتيش الى أن وصلوا بالمراكب الى موردة البلاط ، من أراضى بستان الخشاب ، فوجدوا ذلك الموضع أوطأ مكان يمكن أن يحفر الا أن فيه عدة دور . فاعتبروا فم الخليج من موردة البلاط ، وقدروا أنه اذا حفر مر الماء فيه من موردة البلاط الى الميدان الظاهرى الذى أنشأه الملك الناصر بستانا ، ويمر من البستان الى بركة قرموط حتى ينتهى الى ظاهر باب البحر ، ويمر من هناك على أرض الطبالة فيصب فى الخليج الكبير .

فلما تعين لهم ذلك عاد النائب الى القلعة وطالعه بما تقرر . فبرز أمره لسائر أمراء الدولة باحضار الفلاحين من البلاد الجارية فى اقطاعاتهم ، وكتب الى ولاة الأعمال بجمع الرجال لحفر الخليج . فلم يمض سوى أيام قلائل حتى حضر الرجال من الأعمال ، وتقدم الى النائب بالنزول للحفر ومعه الحجاب . فنزل لعمل ذلك ، وقاس المهندسون طول الحفر من موردة البلاط — حيث تعين فم الخليج — الى أن يصب فى الخليج الكبير ، وألزم كل أمير من الأمراء بعمل أقصاب فرضت له .

فلما أهل شهر جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وقع الشروع فى العمل . فبدأوا بهدم ما كان هناك من الأملاك التى من جهة باب اللوق الى بركة قرموط ، وحصل الحفر فى البستان الذى كان للنائب ، فأخذوا منه قطعة ، ورسم أن يعطى أرباب الأملاك أثمانها : فمنهم من باع ملكه وأخذ ثمنه من مال السلطان ، ومنهم من هدم داره ونقل أنقاضها . فهدمت عدة دور ومساكن جليلة ، وحفر فى عدة بساتين . فانتهى العمل فى سلخ جمادى الآخرة على رأس شهرين ، وجرى الماء فيه عند زيادة النيل .

فأنشأ الناس عدة سواق ، وجرت فيه السفن بالغلال وغيرها . فسر السلطان بذلك ، وحصل للناس رفق ، وقويت رغبتهم فيه ، فاشتروا عدة أراض من بيت المال غرست فيها الأشجار ، وصارت بساتين جليلة . وأخذ الناس فى العمارة على حافتى الخليج ، فعمر ما بين المقس وساحل النيل ببولاق ، وكثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط الى حيث يصب فى الخليج الكبير بأرض الطبالة ، وصارت البساتين من وراء الأملاك المطلة على الخليج .

وتنافس الناس فى السكنى هناك ، وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق . وصار هذا الخليج مواطن أفراح ، ومنازل لهو ، ومغنى صبابات ، وملعب أتراب ، ومحل تيه وقصف فيما يمر فيه من المراكب ، وفيما عليه من الدور . وما برحت مراكب النزهة تمر فيه بأنواع الناس على سبيل اللهو ، الى أن منعت المراكب منه بعد قتل الأشرف ، كما يرد عند ذكر القناطر ان شاء الله تعالى * .

(*) ص١٤٥ جـ٢ ، ط.بولاق .

ذكر خليج قنطرة الفخر

هذا الخليج يبتدىء من الموضع الذى كان ساحل النيل ببولاق ، وينتهى الى حيث يصب فى الخليج الناصرى ، ويصب أيضا فى خليج لطيف تسقى منه عدة بساتين . وكل من هذين الخليجين معمور الجانبين بالأملاك المطلة والبساتين . وجميع المواضع التى يمر فيها الخليج الناصرى ، وأرض هذين الخليجين ، كانت غامرة بالماء ، ثم انحسر عنها الماء شيئا بعد شىء كما ذكر فى ظواهر القاهرة . وهذا الخليج حفر بعد الخليج الناصرى .

ذكر القناطر

اعلم أن قناطر الخليج الكبير عدتها الآن أربع عشرة قنطرة ، وعلى خليج فم الخور قنطرة واحدة ، وعلى خليج الذكر قنطرة واحدة ، وعلى الخليج الناصرى خمس قناطر ، وعلى بحر أبى المنجا قنطرة عظيمة ، وبالجيزة عدة قناطر .

ذكر قناطر الخليج الكبير

قال القضاعى : القنطرتان اللتان على هذا الخليج (يعنى خليج مصر الكبير) . أما التى فى طرف الفسطاط بالحمراء القصوى ، فان عبد العزيز بن مروان بن الحكم بناها فى سنة تسع وستين وكتب عليها اسمه ، وابتنى قناطر غيرها .

وكتب على هذه القنطرة المذكورة « هذه القنطرة أمر بها عبد العزيز بن مروان الأمير . اللهم بارك له فى أمره كله ، وثبت سلطانه على ما ترضى ، وأقر عينه فى نفسه وحشمه ، آمين » . وقام ببنائها سعد أبو عثمان .

وكتب عبد الرحمن فى صفر سنة تسع وستين : ثم زاد فيها تكين أمير مصر فى سنة ثمان عشرة وثلثمائة ورفع سمكها ، ثم زاد عليها الاخشيد فى سنة احدى وثلاثين وثلثمائة ، ثم عمرت فى أيام العزيز بالله .

وقال ابن عبد الظاهر : وهذه القنطرة ليس لها أثر فى هذا الزمان .

قلت : موضعها الآن خلف خط السبع سقايات . وهذه القنطرة هى التى كانت تفتح عند وفاء النيل فى زمن الخلفاء . فلما انحسر النيل عن ساحل مصر اليوم ، أهملت هذه القنطرة ، وعملت قنطرة السد عند فم بحر النيل . فان النيل كان قد ربى الجرف حيث غيط الجرف الذى على يمنة من سلك من المراغة الى باب مصر بجوار الكبارة .

« قنطرة السد » : هذه القنطرة موضعها مما كان غامرا بماء النيل قديما ، وهى الآن يتوصل من فوقها الى منشأة المهرانى وغيرها من بر الخليج الغربى . وكان النيل عند انشائها يصل الى الكوم الأحمر ، الذى هو جانب الخليج الغربى الآن ، تجاه خط بين الزقاقين . فان النيل كان قد ربى جرفا قدام الساحل القديم ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب ، فأهملت القنطرة الأولى لبعد النيل ،

وقدمت هذه القنطرة الى حيث كان النيل ينتهى ، وصار يتوصل منها الى بستان الخشاب الذى موضعه اليوم يعرف بالمريس وما حوله . وكان الذى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى أعوام بضع وأربعين وستمائة ، ولها قوسان .

وعرفت الآن بقنطرة السد من أجل أن النيل لما انحسر عن الجانب الشرقى ، وانكشفت الأراضى التى عليها الآن خط بين الزقاقين الى موردة الحلفاء ، وموضع الجامع الجديد الى دار النحاس ، وما وراء هذه الأماكن الى المراغة وباب مصر بجوار الكبارة وانكشف من أراضى النيل أيضا الموضع الذى يعرف اليوم بمنشأة المهرانى ... صار ماء النيل اذا بدت زيادته يجعل عند هذه القنطرة سد من التراب حتى يسند الماء اليه الى أن تنتهى الزيادة الى ست عشرة ذراعا ، فيفتح السد حينئذ ، ويمر الماء فى الخليج الكبير ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب ، والأمر على هذا الى اليوم .

« قناطر السباع » : هذه القناطر جانبها الذى يلى خط السبع سقايات من جهة الحمراء القصوى ، وجانبها الآخر من جهة جنان الزهرى . وأول من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، ونصب عليها سباعا من الحجارة — فان رنكه كان على شكل سبع — فقيل لها قناطر السباع من أجل ذلك ، وكانت عالية مرتفعة .

فلما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الميدان السلطانى ، فى موضع بستان الخشاب حيث موردة البلاط ، وتردد اليه كثيرا ، صار لا يمر اليه من قلعة الجبل حتى يركب قناطر السباع . فتضرر من علوها وقال للأمراء : ان هذه القنطرة حين أركب الى الميدان وأركب عليها يتألم ظهرى من علوها .

ويقال انه أشاع هذا . والقصد انما هو كراهته لنظر أثر أحد من الملوك قبله ، وبغضه أن يذكر لأحد غيره شىء يعرف به ، وهو كلما يمر بها يرى السباع التى هى رنك الملك الظاهر ، فأحب أن يزيلها لتبقى القنطرة منسوبة اليه ومعروفة به ، كما كان يفعل دائما فى محو آثار من تقدمه ، وتخليد ذكره ومعرفة الآثار به ونسبتها له .

فاستدعى الأمير * علاء الدين على بن حسن المروانى ، والى القاهرة وشاد الجهات ، وأمره بهدم قناطر السباع وعمارتها أوسع مما كانت بعشرة أذرع وأقصر من ارتفاعها الأول . فنزل ابن المروانى وأحضر الصناع ، ووقف بنفسه حتى انتهت ، فى جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، فى أحسن قالب على ماهى عليه الآن ، ولم يضع سباع الحجر عليها .

وكان الأمير الطنبغا الماردينى قد مرض ، ونزل الى الميدان السلطانى فأقام به ، ونزل اليه السلطان مرارا . فبلغ الماردينى ما يتحدث به العامة من أن السلطان لم يخرب قناطر السباع الا حتى تبقى باسمه ، وأنه رسم لابن المروانى أن يكسر سباع الحجر ويرميها فى البحر .

واتفق أنه عوفى عقيب الفراغ من بناء القنطرة وركب الى القلعة . فمر به السلطان

(*) ص١٤٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

— وكان قد شغفه حبا — فسأله عن حاله ، وحادثه الى أن جرى ذكر القنطرة ، فقال له السلطان . أعجبتك عمارتها ؟

فقال : والله ياخوند لم يعمل مثلها ، ولكن ما كملت .

فقال : كيف ؟

قال : السباع التى كانت عليها لم توضع مكانها ، والناس يتحدثون أن السلطان له غرض فى ازالتها لكونها رنك سلطان غيره .

فامتعض لذلك ، وأمر فى الحال باحضار ابن المروانى ، وألزمه باعادة السباع على ما كانت عليه . فبادر الى تركيبها فى أماكنها ، وهى باقية هناك الى يومنا هذا . الا أن الشيخ محمدا ، المعروف بصائم الدهر ، شوه صورها كما فعل بوجه أبى الهول ، ظنا منه أن هذا الفعل من جملة القربات . ولله در القائل :

وانما غاية كل من وصل
صيد بنى الدنيا بأنواع الحيل

« قنطرة عمر شاه » : هذه القنطرة على الخليج الكبير . يتوصل منها الى بر الخليج العربى .

« قنطرة طقزدمر » : هذه القنطرة على الخليج الكبير ، بخط المسجد المعلق ، يتوصل منها الى بر الخليج الغربى وحكر قوصون وغيره .

« قنطرة آق سنقر » : هذه القنطرة على الخليج الكبير : يتوصل اليها من خط قبو الكرمانى ومن حارة البديعيين ، التى تعرف اليوم بالحبانية ، ويمر من فوقها الى بر الخليج الغربى . وعرفت بالأمير آق سنقر ، شاد العمائر السلطانية فى أيام الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، عمرها لما أنشأ الجامع بالبركة الناصرية ، ومات بدمشق سنة أربعين وسبعمائة .

« قنطرة باب الخرق » : يقال للأرض البعيدة التى تخرقها الريح لاستوائها الخرق ، وهذه القنطرة على الخليج الكبير . كان موضعها ساحلا وموردة للسقائين فى أيام الخلفاء الفاطميين . فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب الميدان السلطانى بأرض اللوق ، وعمر به المناظر فى سنة تسع وثلاثين وستمائة ، أنشأ هذه القنطرة ليمر عليها الى الميدان المذكور . وقيل لها قنطرة باب الخرق .

« قنطرة الموسكى » : هذه القنطرة على الخليج الكبير . يتوصل اليها من باب الخوخة وباب القنطرة ، ويمر فوقها الى بر الخليج الغربى . أنشأها الأمير عز الدين موسك ، قريب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . وكان خيرا يحفظ القرآن الكريم ، ويواظب على تلاوته ، ويحب أهل العلم والصلاح ويؤثرهم . ومات بدمشق يوم الأربعاء ثامن عشرى شعبان سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

« قنطرة الأمير حسين » : هذه القنطرة على الخليج الكبير ، ويتوصل منها الى بر الخليج الغربى . فلما أنشأ الأمير سيف الدين حسين ابن أبى بكر بن اسماعيل بن حيدر بك الرومى الجامع المعروف بجامع الأمير حسين فى حكر

جوهر النوبى ، أنشأ هذه القنطرة ليصل من فوقها الى الجامع المذكور .

وكان يتوصل اليها من باب القنطرة ، فثقل عليه ذلك ، واحتاج الى أن فتح فى السور الخوخة المعروفة بخوخة الأمير حسين من الوزيرية ، فصارت تجاه هذه القنطرة . وقد ذكر خبرها عند ذكر الخوخ من هذا الكتاب ، والله تعالى أعلم .

« قنطرة باب القنطرة » : هذه القنطرة على الخليج الكبير . يتوصل اليها من القاهرة ، ويمر فوقها الى المقس وأرض الطبالة . وأول من بناها القائد جوهر لما نزل بمناخه وأدار السور عليه وبنى القاهرة . ثم قدم عليه القرمطى ، فاحتاج الى الاستعداد لمحاربته ، فحفر الخندق ، وبنى هذه القنطرة على الخليج عند باب جنان أبى المسك كافور الاخشيدى ، الملاصق للميدان والبستان الذى للأمير أبى بكر محمد الاخشيد ، ليتوصل من القاهرة الى المقس ، وذلك فى سنة ثنتين وستين وثلثمائة ، وبها تسمى باب القنطرة .

وكانت مرتفعة بحيث تمر المراكب من تحتها ، وقد صارت فى هذا الوقت قريبة من أرض الخليج لا يمكن المراكب العبور من تحتها ، وتسد بأبواب خوفا من دخول الزعار الى القاهرة .

« قنطرة باب الشعرية » : هذه القنطرة على الخليج الكبير . يسلك اليها من باب الفتوح ، ويمشى من فوقها الى أرض الطبالة ، وتعرف اليوم بقنطرة الخروبى .

« القنطرة الجديدة » : هذه القنطرة على الخليج الكبير . يتوصل اليها من زقاق الكحل وخط جامع الظاهر ، ويتوصل منها الى أرض الطبالة والى منية الشيرج وغير ذلك . أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة خمس وعشرين * وسبعمائة ، عندما انتهى حفر الخليج الناصرى .

وكان ما على جانبى الخليج من القنطرة الجديدة هذه الى قناطر الاوز عامرا بالأملاك ، ثم خربت شيئا بعد شىء من حين حدث فصل الباردة بعد سنة ستين وسبعمائة ، وفحش الخراب هناك منذ كانت سنة الشراقى فى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة . فلما غرقت الحسينية بعد سنة الشراقى ، خربت المساكن التى كانت فى شرقى الخليج ما بين القنطرة الجديدة وقناطر الاوز ، وأخذت أنقاضها ، وصارت هذه البرك الموجودة الآن .

« قناطر الاوز » : هذه القناطر على الخليج الكبير . يتوصل اليها من الحسينية ، ويسلك من فوقها الى أراضى البعل وغيرها . وهى أيضا مما أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة . وأدركت هناك أملاكا مطلة على الخليج بعد سنة ثمانين وسبعمائة .

وهذه القناطر من أحسن متنزهات أهل القاهرة أيام الخليج لما يصير فيه من الماء ، ولما على حافته الشرقية من البساتين الأنيقة ، الا أنها الآن قد خربت . وتجاه هذه القنطرة

(*) ص١٤٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

منظرة البعل ، التى تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء ، وبقيت آثارها الى الآن . أدركناها يعطن فيها الكتان ، وبها عرفت الأرض التى هناك ، فسميت الى الآن بأرض البعل .

وكان هناك صف من شجر السنط قد امتد من تجاه قناطر الاوز الى منظرة البعل ، وصار فاصلا بين مزرعتين يجلس الناس تحته فى يومى الأحد والجمعة للنزهة ، فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم ما لا يقع عليه حصر ، ويباع هناك مآكل كثيرة .

وكان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك . أدركتها وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة ، عنها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالا من الذهب . على أنه لا يباع فيها السمك الا نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك .

ولم يزل هذا السنط الى نحو سنة تسعين وسبعمائة فقطع . والى اليوم تجتمع الناس هناك ، ولكن شتان بين ما أدركنا وبين ما هو الآن . وقيل لها قناطر الاوز .

« قناطر بنى وائل » : هذه القناطر على الخليج الكبير تجاه التاج . أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة . وعرفت بقناطر بنى وائل من أجل أنه كان بجانبها عدة منازل يسكنها عرب ضعاف بالجانب الشرقى ، يقال لهم بنو وائل ، ولم يزالوا هناك الى نحو سنة تسعين وسبعمائة .

وكان بجانب هذه القناطر ، من الجانب الغربى ، مقعد أحدثه الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى لأخذ المكوس ، واستمر مدة ثم خرب . ولم ير أحسن منظرا من هذه القنطرة فى أيام النيل وزمن الربيع .

« قنطرة الأميرية » : هذه القنطرة هى آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحى القاهرة ، وهى تجاه الناحية المعروفة بالأميرية فيما بينها وبين المطرية . أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

وعند هذه القنطرة ينسد ماء النيل اذا فتح الخليج عند وفاء زيادة النيل ست عشرة ذراعا ، فلا يزال الماء عند سد الأميرية هذا الى يوم النوروز ، فيخرج والى القاهرة اليه ، ويشهد على مشايخ أهل الضواحى بتغليق أراضى نواحيهم بالرى . ثم يفتح هذا السد ، فيمر الماء الى جسر شيبين القصر ، ويسد عليه حتى يروى ما على جانبى الخليج من البلاد . فلا يزال الماء واقفا عند سد شيبين الى يوم عيد الصليب — وهو اليوم السابع عشر من النوروز — فيفتح حينئذ بعد شمول الرى جميع تلك الأراضى .

وليس بعد قنطرة الأميرية هذه قنطرة سوى قنطرة ناحية سرياقوس ، وهى أيضا انشاء الملك الناصر محمد بن قلاوون . وبعد قنطرة سرياقوس جسر شيبين القصر ، وسيأتى ذكره ان شاء الله تعالى عند ذكر الجسور من هذا الكتاب .

« قنطرة الفخر » : هذه القنطرة بجوار موردة البلاط ، من أراضى بستان الخشاب برأس الميدان ، وهى أول قنطرة عمرت على

الخليج الناصرى على فمه . أنشأها القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله بن خروف القبطى — المعروف بالفخر ناظر الجيش — فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة عند انتهاء حفر الخليج الناصرى . ومات فى رجب سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وقد أناف على السبعين سنة ، وتمكن فى الرياسة تمكنا كبيرا .

« قنطرة قدادار » : هذه القنطرة على الخليج الناصرى . يتوصل اليها من اللوق ، ويمشى فوقها الى بر الخليج الناصرى مما يلى النيل . وأول ما وضعت كانت تجاه البستان الذى كان ميدانا فى زمن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ... الى أن أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الميدان الموجود الآن بموردة البلاط ، من جملة أراضى بستان الخشاب ، فغرس فى الميدان الظاهرى الأشجار وصار بستانا عظيما كما ذكر ذلك فى موضعه من هذا الكتاب .

وعرفت هذه القنطرة بالأمير سيف الدين قدادار ، مملوك الأمير برلغى ، وكان خبره أنه تنقل فى الخدم حتى ولى الغربية من أراضى مصر فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، فلقى أهل البلاد منه شرا كثيرا ، ثم انتقل الى ولاية البحيرة .

فلما كان فى سنة أربع وعشرين * ، كثرت الشناعة فى القاهرة بسبب الفلوس ، وتعنت الناس فيها ، وامتنعوا من أخذها حتى وقف الحال وتحسن السعر . وكان حينئذ يتقلد الوزارة الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالى ، ويتقلد ولاية القاهرة الأمير علم الدين سنجر الخازن .

فلما توجه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من قلعة الجبل الى السرحة بناحية سرياقوس ، بلغه توقف الحال ، وطمع السوقة فى الناس ، وأن متولى القاهرة فيه لين ، وأنه قليل الحرمة على السوقة . وكان السلطان كثير النفور من العامة شديد البغض لهم ، ويريد كل وقت من الخازن أن يبطش بالحرافيش ويؤثر فيهم آثارا قبيحة ، ويشهر منهم جماعة ، فلم يبلغ من ذلك غرضه ... فكرهه ، واستدعى الأمير أرغون نائب السلطنة ، وتقدم اليه بالاغلاظ فى القول على الخازن بسبب فساد حال الناس ، وهشم بيروز أمره بالقبض عليه وأخذ ماله .

فما زال به النائب حتى عفا عنه ، وقال : السلطان يعزله ويولى من ينفع فى مثل هذا الأمر . فاختار ولاية قدادار عوضه لما يعرف من يقظته وشهامته وجراءته على سفك الدماء ، فاستدعاه من البحيرة ، وولاه ولاية القاهرة فى أول شهر رمضان من السنة المذكورة .

فأول ما بدأ به أن أحضر الخبازين والباعة ، وضرب كثيرا منهم بالمقارع ضربا مبرحا ، وسمر عدة منهم فى دراريب حوانيتهم ، ونادى فى البلد « من رد فلسا سمر » ، ثم عرض أهل السجن ، ووسط جماعة من المفسدين عند باب زويلة ... فهابته العامة ، وذعروا منه .

وأخذ يتتبع من عصر خمرا ، وأحضر عريف الحمالين وألزمه باحضار من كان يحمل العنب . فلما حضروا عنده استملاهم أسماء من يشترى العنب ومواضع مساكنهم ، ثم

(*) ص١٤٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

فتوقى الناس شره ، وشكاه الأمراء غير مرة الى السلطان فلم يلتفت لما يقال فيه . والنائب مستمر على الاخراق به الى أن قبض عليه السلطان ، فخلا الجو لقدادار ، واكثر من سفك الدماء ، واتلاف النفوس ، والتسلط على العامة لبغضهم اياه . والسلطان يعجبه منه ذلك ... بحيث انه أبرز مرسوما لسائر عماله وولاته أن أحدا منهم لا يقتص ممن وجب عليه القصاص ، فى النفس أو القطع ، الا أن يشاور فيه ويطالع بأمره . ما خلا قدادار متولى القاهرة ، فانه لا يشاور على مفسد ولا غيره ، ويده مطلقة فى سائر الناس .

فدهى الناس منه بعظائم ، وشرع فى كبس بيوت السعداء ، ومشت جماعة من المستصنعين فى البلد * ، وكتبوا الأوراق ورموها فى بيوت الناس بالتهديد ، فكثرت أسباب الضرر ، وكثر بلاء الناس به . وتعنت على الباعة ، ونادى : ألا يفتح أحد حانوته بعد عشاء الآخرة . فامتنع الناس من الخروج بالليل حتى كانت المدينة فى الليل موحشة .

واستجد على كل حارة دربا ، وألزم الناس بعمل ذلك . فجبيت بهذا السبب دراهم كثيرة ، وصار الخفراء فى الليل يدورون ومعهم الطبول فى كل خط ، فظفر بانسان قد سرق شيئا من بيت فى الليل وتزيا بزى النساء ، فسمره على باب زويلة . وما زال على ذلك حتى كثرت الشناعة ، فعزله السلطان فى سنة تسع وعشرين بناصر الدين ابن المحسنى . فأقام الى أيام الحج وسافر الى الحجاز .

(*) ص١٤٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

ورجع وهو ضعيف ، فمات فى سادس عشر صفر سنة ثلاثين وسبعمائة .

« قنطرة الكتبة » : هذه القنطرة على الخليج الناصرى ، بخط بركة قرموط ، عرفت بذلك لكثرة من كان يسكن هناك من الكتاب . أنشأها القاضى شمس الدين عبد الله ابن أبى سعيد بن أبى السرور — الشهير بغبريال بن سعيد — ناظر الدولة ، وولى نظر الدواوين بدمشق فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ... نقل اليها من نظر البيوت بديار مصر .

ثم استدعى من دمشق ، وقرر فى وظيفة ناظر النظار شريكا للقاضى شهاب الدين الأقفهسى ، واستقر كريم الدين الصغير مكانه ناظرا بدمشق وذلك فى شهر رمضان سنة أربع وعشرين وسبعمائة . ثم صرف غبريال من النظر بديار مصر ، وسفر الى دمشق فى ثامن عشر صفر سنة ست وعشرين ، وطلب كريم الدين الصغير من دمشق . ثم قرر فى مكان غبريال فى وظيفة النظر بديار مصر الخطير كاتب أرغون أخو الموفق ، وأعيد غبريال الى نظر دمشق . ومات بدمشق ، بعدما صودر وأخذ منه نحو ألفى ألف درهم ، فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة .

وأدركنا الأملاك منتظمة بجانبى هذا الخليج من أوله بموردة البلاط الى هذه القنطرة ، ومن هذه القنطرة الى حيث يصب فى الخليج الكبير .

فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة شرع الناس فى هدم ما على هذا الخليج من المناظر البهجة والمساكن الجليلة وبيع أنقاضها ،

أحضر خفراء الحارات والأخطاط ، ولم يزل بهم حتى دلوه على سائر من عصر الخمر .

فاشتهر ذلك بين الناس وخافوه . فحول أهل حارة زويلة ، وأهل حارتى الروم والديلم وغير ذلك من الأماكن ، ما عندهم من الخمر ، وصبوها فى البلاليع والأقنية ، وألقوها فى الأزقة ، وبذلوا المال لمن يأخذها منهم .

فحصل لكثير من العامة والأطراف منها شىء كثير ، حتى صارت تباع كل جرة خمر بدرهم ، ويمر الناس بأبواب الدور والأزقة فترى من جرار الخمر شيئا كثيرا ، ولا يقدر أحد أن يتعرض لشىء منها .

ثم ركب وكبس خط باب اللوق ، وأخذ منه شيئا كثيرا من الحشيش وأحرقه عند باب زويلة ، واستمر الحال مدة شهر ... ما من يوم الا ويهرق فيه خمر عند باب زويلة ، ويحرق حشيش . فطهر الله به البلد من ذلك جميعه ، وتتبع الزعار وأهل الفساد ، فخافوه وفروا من البلد .

فصار السلطان يشكره ، ويثنى عليه لما يبلغه من ذلك ، وأما العامة فانه ثقل عليها وكرهته . حتى انه لما تأمر ابن الأمير بكتمر الساقى ، وركب الى القبة المنصورية على العادة . ومعه أبوه والنائب وسائر الأمراء ... صاحت العامة للأمير بكتمر الساقى : يا أمير بكتمر بحياة ولدك اعزل هذا الظالم ، ورد علينا والينا (يعنون الخازن) .

فلما عرف بكتمر السلطان ذلك أعجبه ، وقال : يا أمير ما تخشى العامة والسوقة الا ظالما مثل هذا ما يخاف الله تعالى .

وزاد اعجاب السلطان به حتى قال له : لا تشاور فى أمر المفسدين .

فلم يغتر بذلك ، ورفع اليه جميع ما يتفق له ، وشاوره فى كل جليل وحقير ، وقال له : ان جماعة من الكتاب والتجار قد عصروا الخمر ، واستأذنه فى طلبهم ومصادرتهم . فتقدم له بمشاورة النائب فى ذلك ، واعلامه أن السلطان قد رسم بالكشف عمن عصر من الكتاب والتجار الخمر .

فلما صار الى النائب وعرفه الخبر ، أهانه وقال : ان السلطان لا يرضى بكبس بيوت الناس ، وهتك حرمهم وسترهم واقامة الشناعات .

وقام من فوره الى السلطان ، وعرفه ما يكون فى فعل ذلك من الفساد الكبير ، وما زال به حتى صرف رأيه عما أشار به قدادار من كبس الدور . وأخذ الناس فى مماقته ، والاخراق به فى كل وقت . فانه كان يعنى بالخازن ، ولم يعجبه عزله عن الولاية .

فكثر جور قدادار ، وزاد تتبعه للناس ، ونادى « ألا يعمل أحد حلقة فيما بين القصرين ولا يسمر هناك » ، وأمر ألا يخرج أحد من بيته بعد عشاء الآخرة ، وأقام عنه نائبا من بطالى الحسينية ضمن المسطبة منه فى كل يوم بثلثمائة درهم . وانحصر الناس منه ، وضاقوا به ذرعا لكثرة ما هتك أستارهم ، وخرق بكثير من المستورين . وتسلطت المستصنعة وأرباب المظالم على الناس ، وكانوا اذا رأوا سكران أو شموا منه رائحة خمر أحضروه اليه .

حتى ذهب ما كان على هذا الخليج من المنازل ما بين قنطرة الفخر التي تقدم ذكرها وآخر خط بركة قرموط ، وأصبحت موحشة قفراء بعدما كانت مواطن أفراح ومغنى صبابات ، لا يأويها الا الثعبان والبوم ... سنة الله في الذين خلوا من قبل .

« قنطرة المقسى » : هذه القنطرة على خليج فم الخور ، وهو الذى يخرج من بحر النيل ، ويلتقى مع الخليج الناصرى عند الدكة ، فيصيران خليجا واحدا يصب في الخليج الكبير .

كان موضعها جسرا يستند عليه الماء اذا بعث الزيادة الى أن تكمل أربعة عشر ذراعا فيفتح ، ويمر الماء فيه الى الخليج الناصرى وبركة الرطلى ، ويتأخر فتح الخليج الكبير حتى يرقى الماء ستة عشر ذراعا .

فلما انطرد ماء النيل عن البر الشرقى ، بقى تجاه هذا الخليج فى أيام احتراق النيل رملة لا يصل اليها الماء الا عند الزيادة ، وصار يتأخر دخول الماء فى الخليج مدة ، واذا كسر سد الخليج الكبير عند الوفاء مر الماء بهذا الخليج مرورا قليلا .

وما زال موضع هذه القنطرة سدا الى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين أبى الفرج عبد الله المقسى ، فى أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به ، واتصلت العمائر أيضا بجانبى هذا الخليج من حيث يبتدىء الى أن يلتقى مع الخليج الناصرى ، ثم خرب أكثر ما عليه من العمائر والمساكن بعد سنة ست وثمانمائة .

وكان للناس بهذا الخليج مع الخليج الناصرى فى أيام النيل مرور فى المراكب للنزهة يخرجون فيه عن الحد بكثرة التهتك والتمتع بكل ما يلهى ... الى أن ولى أمر الدولة ، بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حسين ، الأميران برقوق وبركة . فقام الشيخ محمد ، المعروف بصائم الدهر ، فى منع المراكب من المرور بالمتفرجين فى الخليج .

واستفتى شيخ الاسلام سراج الدين عمر ابن رسلان البلقينى . فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك فى المراكب من الحرمات ، ويتجاهر به من الفواحش والمنكرات . فبرز مرسوم الأميرين المذكورين بمنع المراكب من الدخول الى الخليج ، وركبت سلسلة على قنطرة المقسى هذه فى شهر ربيع الأول سنة احدى وثمانين وسبعمائة ، فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج الا أن يكون فيها غلة أو متاع . فقلق الناس لذلك ، وشق عليهم .

وقال الشهاب أحمد بن العطار الدنيسرى فى ذلك :

حديث فم الخور المسلسل ماؤه
بقنطرة المقسى قد سار فى الخلق
ألا فاعجبوا من مطلق ومسلسل
يقول لقد أوقفتم الماء فى حلقى

وقال :

تسلسلت قنطرة المقسى مما
ا قد جرى والمنع أضحى شاملا *
وقال أهل طيبة فى مجتمعهم
قوموا بنا نقطع السلاسلا

(*) ص ١٥٠ جـ٢ ، طبع بولاق .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

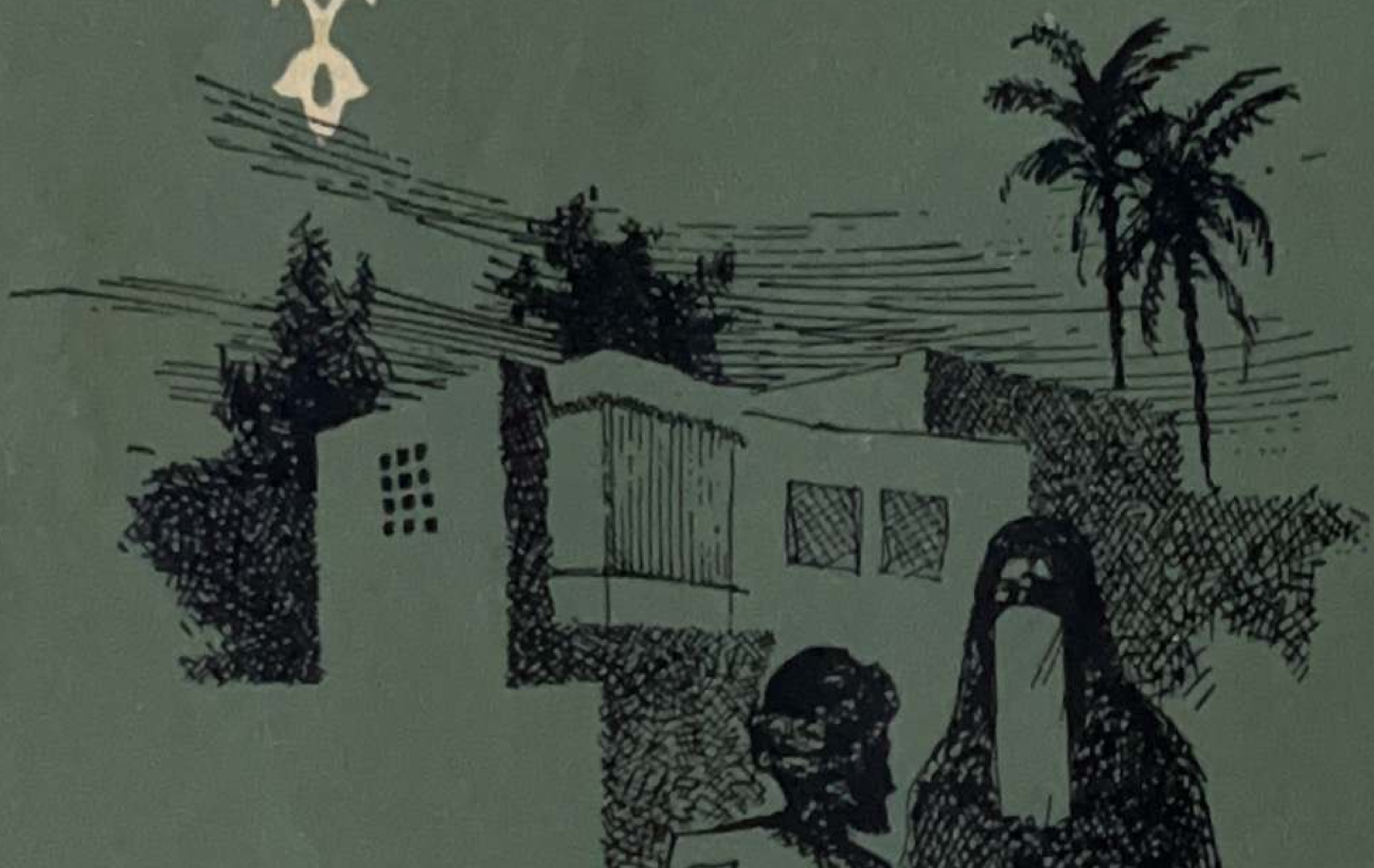
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزي رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزي

الجزء
٣١



كتاب
التحرير

«كانت مصر هي مسقط رأسي، وملعب أترابي، ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامتي، وموطن خاصتي وعامتي، وجؤجؤي الذي ربي جناحي في وكره، وعش مأربي، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شذوت العلم، وآتاني ربي الفطانة والفهم، أرغب في معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاعتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها.»

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

ولم تزل مراكب الفرجة ممتنعة من عبور الخليج الى أن زالت دولة الظاهر برقوق فى سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، فأذن فى دخولها ، وهى مستمرة الى وقتنا هذا .

« قنطرة باب البحر » : هذه القنطرة على الخليج الناصرى . يتوصل اليها من باب البحر ، ويمر الناس من فوقها الى بولاق وغيره . وهى مما أنشأه الملك الناصر محمد ابن قلاوون عند انتهاء حفر الخليج الناصرى فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

وقد كان موضعها فى القديم غامرا بالماء عندما كان جامع المقس مطلا على النيل . فلما انحسر الماء عن بر القاهرة ، صار ما قدام باب البحر رملة . فاذا وقف الانسان عند باب البحر رأى البر الغربى لا يحول بينه وبين رؤيته بنيان ولا غيره ، فاذا كان أوان زيادة ماء النيل صار الماء الى باب البحر ، وربما جلفط فى بعض السنين خوفا من غرق المقس .

ثم لما طال المدى غرق خارج باب البحر بأرض باطن اللوق ، وغرس فيه الأشجار ، فصار بساتين ومزارع ، وبقى موضع هذه القنطرة جرفا ، ورمى الناس عليه التراب فصار كوما يشنق عليه أرباب الجرائم ، ثم نقل ما هنالك من التراب ، وأنشئت هذه القنطرة ، ونودى فى الناس بالعمارة .

فأول ما بنى فى غربى هذه القنطرة مسجد المهاميزى وبستانه ، ثم تتابع الناس فى العمارة حتى انتظم ما بين شاطىء النيل ببولاق وباب البحر عرضا ، وما بين منشأة المهرانى ومنية الشيرج طولا ، وصار ما بجانبى الخليج معمورا بالدور ، ومن ورائها البساتين والأسواق والحمامات والمساجد ، وتقسمت الطرق ، وتعددت الشوارع ، وصار خارج القاهرة من الجهة الغربية عدة مدائن .

« قنطرة الحاجب » : هذه القنطرة على الخليج الناصرى . يتوصل اليها من أرض الطبالة ، ويسير الناس عليها الى منية الشيرج وغيرها . أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب فى سنة ست وعشرين وسبعمائة ، وذلك أنه كانت أرض الطبالة بيده . فلما شرع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى حفر الخليج الناصرى التمس بكتمر من المهندسين ، اذا وصلوا بالحفر الى حيث الجرف ، أن يمروا به على بركة الطوابين التى تعرف اليوم ببركة الرطلى ، وينتهوا من هناك الى الخليج الكبير ، ففعلوا ذلك . وكان قصدهم أولا أنه اذا انتهى الحفر الى الجرف مروا فيه الى الخليج الكبير من طرف البعل .

فلما تهيأ لبكتمر ذلك ، عمرت له أراضى الطبالة ، كما يأتى ذكرها ان شاء الله تعالى عند ذكر البرك ، فعمرت هذه القنطرة فى سنة خمس وعشرين وستمائة ، وأسند اليها جسرا عمله حاجزا بين بركة الحاجب المعروفة ببركة الرطلى وبين الخليج الناصرى ، وسيرد ذكره ان شاء الله تعالى عند ذكر الجسور .

ولما عمرت هذه القنطرة اتصلت العمائر فيما بينها وبين كوم الريش ، وعمر قبالتها ربع عرف بربع الزيتى . وكان على ظهر القنطرة صفان من حوانيت ، وعليها سقيفة تقى حر

الشمس وغيره . فلما غرق كوم الريش فى سنة بضع وستين وسبعمائة ، صار هذا الكوم الذى خارج القنطرة . ومن تحت هذه القنطرة يصب الخليج الناصرى فى الخليج الكبير ، ويمر الى حيث القنطرة الجديدة وقناطر الأوز وغيرها كما تقدم ذكره .

« قنطرة الدكة » : هذه القنطرة كانت تعرف بقنطرة الدكة ، ثم عرفت بقنطرة التركمانى من أجل أن الأمير بدر الدين التركمانى عمرها . وهذه القنطرة كانت على خليج الذكر ، وقد انطم ما تحتها ، وصارت معقودة على التراب لتلاف خليج الذكر .

ولله در ابراهيم المعمار حيث يقول :

ياطالب الدكة نلت المنى
وفزت منها ببلوغ الوطر
قنطرة من فوقها دكة
من تحتها تلقى خليج الذكر

« قناطر بحر أبى المنجا » : هذه القناطر من أعظم قناطر مصر وأكبرها . أنشأها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فى سنة خمس وستين وستمائة ، وتولى عمارتها الأمير عز الدين أيبك الأفرم .

« قناطر الجيزة » : قال فى كتاب « عجائب البنيان » : ان القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة ، ومن أعمال الجبارين ، وهى نيف وأربعون قنطرة . عمرها الأمير قراقوش الأسدى — وكان على العمائر فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — بما هدمه من الأهرام التى كانت بالجيزة ، وأخذ حجرها فبنى منه هذه القناطر ، وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل . وكان خصيا روميا سامى الهمة ، وهو صاحب الأحكام المشهورة والحكايات المذكورة ، وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بـ « الفاشوش فى أحكام قراقوش » .

وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة عنده ، فسدها رجاء أن يحبس الماء ، فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وانشقت ، ومع ذلك فما روى ما رجا أن يروى .

وفى سنة ثمان وسبعمائة رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمها ، فعمر * ما خرب منها ، وأصلح ما فسد فيها ، فحصل النفع بها . وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفا من حجارة ابتدأ به من حيز النيل بازاء مدينة مصر ، كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال ، حتى يتصل بالقناطر .

ذكر البرك

قال ابن سيده : البركة مستنقع الماء ، والبركة شبه حوض يحفر فى الأرض . انتهى .

وقد رأيت بخط معتبر ما مثاله « وملأوا البركة ماء » فنصب الباء وكسر الراء وفتح الكاف والتاء .

« بركة الحبش » : هذه البركة كانت تعرف ببركة المغافر ، وتعرف ببركة حمير ، وتعرف أيضا باصطبل قرة ، وعرفت أيضا باصطبل قامش . وهى من أشهر برك مصر ، وهى فى

(*) ص١٥١ جـ٢ ، ط . بولاق .

ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين الجبل والنيل .

وكانت من الموات . فاستنبطها قرة بن شريك العبسى أمير مصر ، وأحياها وغرسها قصبا . فعرفت باصطبل قرة ، وعرفت أيضا باصطبل قامش ، وتنقلت حتى صارت تعرف ببركة الحبش . ودخلت فى ملك أبى بكر الماردانى ، فجعلها وقفا ، ثم أرصدت لبنى حسن وبنى حسين ابنى على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فلم تزل جارية فى الأوقاف عليهم الى وقتنا هذا .

قال أبو بكر الكندى فى كتاب الأمراء : وقدم قرة بن شريك من وفادته فى سنة ثلاث وتسعين ، فاستنبط الاصطبل لنفسه من الموات ، وأحياه وغرسه قصبا . فكان يسمى اصطبل قرة ، ويسمى أيضا اصطبل القامش ، يعنون القصب ، كما يقولون : قامش مروان .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم فى كتاب « فتوح مصر » : وكان الاصطبل للأزد ، فاشتراه منهم الحكم ابن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم فبناه . وكان يجرى على الذى يقرأ فى المصحف الذى وضعوه فى المسجد ، الذى يقال له مصحف أسماء ، من كراه فى كل شهر ثلاثة دنانير .

فلما حيزت أموالهم (يعنى أموال بنى أمية) ، وضمت الى مال الله ، حيز الاصطبل فيما حيز . وكتب بأمر المصحف الى أمير المؤمنين أبى العباس السفاح ، فكتب « أن أقروا مصحفهم فى مسجدهم على حاله ، وأجروا على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير فى كل شهر من مال الله تعالى » .

وقال القضاعى : بركة الحبش كانت تعرف ببركة المغافر وحمير ، وتعرف باصطبل قامش . وكانت فى ملك أبى بكر محمد بن على الماردانى بجميع ما تشتمل عليه من المزارع والجنان خلا الجنان التى فى شرقيها ، وأظنها الجنان المنسوبة الى وهب بن صدقة وتعرف بالحبش ، فانى رأيت فى شرط هذه البركة « أن الحد الشرقى ينتهى الى الفضاء الفاصل بينها وبين الجنان المعروفة بالحبش » . فدل على أن الجنان خارجة عنها .

وذكر ابن يونس فى تاريخه أن فى قبلى بركة الحبش جنانا تعرف بقتادة بن قيس بن حبشى الصدف ، شهد فتح مصر ، والجنان تعرف بالحبش ، وبه تعرف بركة الحبش . وذكر بعد هذا الشرط أن الحد البحرى ينتهى الى البئر الطولونية ، والى البئر المعروفة بموسى بن أبى خليد ، وهذه البئر هى البئر المعروفة بالنعش .

ورأيت فى كتاب شرط هذه البركة : أنها محبسة على البئرين اللتين استنبطهما أبو بكر الماردانى ، فى بنى وائل ، بحضرة الخليج ، والقنطرة — المعروفة احداهما بالفندق والأخرى بالعتيق — وعلى السرب الذى يدخل منه الماء الى البئر الحجارة — المعروفة بالروا — التى فى بنى وائل ، ذات القناطر التى يجرى فيها الماء الى المصنعة التى بحضرة العقبة التى يصار منها الى يحصب — وهى المصنعة المعروفة بدليلة — وعلى القنوات المتصلة بها التى تصب الى المصنعة ذات العمد

الرخام القائمة فيها ، المعروفة بسينة ، وهى التى فى وسط يحصب . ويقال ان هناك كانت سوق ليحصب .

وذكر فى هذا الشرط دارا له فى موضع السقاية المعروفة بسقاية زوف ، وشرط أن تنشأ هذه الدار مصنعة على مثل هذه المصنعة المقدم ذكرها المعروفة بسينة — وهى سقاية زوف اليوم — وعلى القناة التى يجرى فيها الماء الى مصنعة ذكر أنه كان أنشأها عند البئر المعروفة اليوم ببئر القبة ، والحوض الذى هناك بحضرة المسجد المعروف بمسجد القبة . وكانت هذه المصنعة تسمى ربا .

وجعل هذا الحبس أيضا على البئر التى له بالجبانة بحضرة الخندق . وذكر أنها تعرف بالقبانية ، وأن ماءها يجرى الى المصنعة المقابلة للميدان من دار الامارة فى طريق المصلى القديم ، ثم الى المصنعة التى تحت مسجده المقابل لدار عبد العزيز ، ثم الى المصنعة المقابلة لمسجد التربة المجاورة لمسجد الأخضر ... وتاريخ هذا الشرط شهر رمضان سنة سبع وثلثمائة .

وجعل ما يفضل عن جميع ذلك مصروفا فى ابتياع بقر وكباش تذبح ويطبخ لحمها ، ويبتاع أيضا معها خبز بر ودراهم وأكسية وأعبية ، ويتصدق بذلك على الفقراء والمساكين بالمغافر وغيرها من القبائل بمصر . وكان بناؤه السقايتين اللتين بالموقف ، والسقايات التى بالمغافر وبزوف وبيحصب وبنى وائل ، وعمل المجارى فى سنة أربع ، وقيل فى سنة ثلاث وثلثمائة . وقد حبس أبو بكر على الحرمين ضياعا كان ارتفاعها نحو مائة ألف دينار ، منها سيوط وأعمالها وغيرها . انتهى .

وفى تواريخ النصارى أن الأمير أحمد بن طولون صادر البطريق ميخائيل بطرك اليعاقبة على عشرين ألف دينار . فباع * النصارى رباع الكنائس بالاسكندرية ، وأرض الحبش بظاهر مصر ، والكنيسة المجاورة للمعلقة بقصر الشمع بمصر لليهود ... قلت : هكذا فى تواريخهم ، ولا أعلم كيف ملكوا أرض الحبش ، فلعل المادرانى هو الذى اشتراها ثم وقفها .

وقال ابن المتوج « بركة الحبش » : هذه البركة مشهورة فى مكانها . وقد اتصل ثبوت وقفها عند قاضى القضاة بدر الدين أبى عبد الله محمد بن سعد الله بن جماعة ، رحمة الله عليه ، على أنها وقف على الأشراف الأقارب والطالبيين نصفين بينهما بالسوية : النصف الأول على الأقارب ، والنصف الآخر على الطالبيين .

وثبت قبله عند قاضى القضاة بدر الدين أبى المحاسن يوسف بن الحسن السنجارى ، أن النصف منها وقف على الأشراف الأقارب بالاستفاضة ، بتاريخ ثالث عشر ربيع الأول سنة أربعين وستمائة — وهم الأقارب الحسينيون ، وهو اذ ذاك قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى — وما مع ذلك من البلاد الشامية المضافة الى ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(*) ص١٥٢ جـ٢ ، طـ بولاق .

وثبت عند قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، رحمه الله تعالى — وكان قاضى القضاة بمصر والوجه القبلى وخطيب مصر — بالاستفاضة أيضا أن البركة المذكورة وقف على الأشراف الطالبيين ، بتاريخ التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة . وبعدهما قاضى القضاة وجيه الدين البهنسى فى ولايته .

ثم نفذهما بعد تنفيذ وجيه الدين المذكور ، فى شعبان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، قاضى القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن جماعة ، وهو حاكم الديار المصرية ، خلا ثغر الاسكندرية . وياتى أصل خبر هذه البركة مبينا مشروحا من أصلها فى مكانه ان شاء الله تعالى .

قال : فمن جملة الأوقاف بركة الأشراف المشهورة ببركة الحبش . وهذه البركة حدودها أربعة : الحد القبلى ينتهى بعضه الى أرض العدوية يفصل بينهما جسر هناك ، وباقيه الى غيطان بساتين الوزير . والحد البحرى ينتهى بعضه الى أبنية الأدر التى هناك المطلة عليها ، والى الطريق والى الجسر الفاصل بينها وبين بركة الشعيبية . والحد الشرقى الى حد بساتين الوزير المذكورة . والحد الغربى ينتهى بعضه الى بحر النيل والى أراضى دير الطين ، والى بعض حقوق جزيرة ابن الصابونى وجسر بستان المعشوق الذى هو من حقوق الجزيرة المذكورة .

وهذه البركة وقف الأشراف الأقارب والطالبيين ، نصفين بينهما بالسوية . والذى شاهدته من أمرها أنى وقفت على اسجال قاضى القضاة بدر الدين أبى المحاسن يوسف السنجارى ، رحمة الله تعالى عليه ، تاريخه ثانى عشر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة — وهو حينذاك حاكم القاهرة والوجه البحرى — على محضر شهد فيه بالاستفاضة أن نصف هذه البركة وقف على الأشراف الأقارب الحسينيين ، وثبت ذلك عنده .

ورأيت اسجال الشيخ قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام رحمه الله ، على محضر شهد فيه بالاستفاضة — وهو حين ذلك قاضى مصر والوجه القبلى — وأشهد عليه أنه ثبت عنده أن البركة المذكورة جميعها وقف على الأشراف الطالبيين ، وتاريخ اسجاله التاسع والعشرون من شهر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة . ثم نفذهما جميعا فى تاريخ واحد قاضى القضاة وجيه الدين البهنسى ، وهو قاضى القضاة حينذاك ، ثم نفذهما قاضى القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن جماعة ، وهو قاضى القضاة بالديار المصرية .

واستقر النصف من ريع هذه البركة على الأشراف الأقارب مع قلتهم ، والنصف على الأشراف الطالبيين مع كثرتهم . وتنازعوا غير مرة على أن تكون بينهم الجميع بالسوية فلم يقدروا على ذلك ، وعقد لهم مجلس غير مرة فلم يقدروا على تغييره .

وأحسن ما وصفت به بركة الحبش قول عيسى بن موسى الهاشمى أمير مصر ، وقد خرج الى الميدان الذى بطرف المقابر ، فقال لمن معه : أتتأملون الذى أرى ؟

قالوا : وما الذى يرى الأمير ؟

قال : أرى ميدان رهان ، وجنان نخل ، وبستان شجر ، ومنازل سكنى ، وذروة جبل ، وجبانة أموات ، وبحرا عجاجا ، وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومرتع خيل ، وساحل بحر ، وصائد نهر ، وقانص وحش ، وملاح سفينة ، وحادى ابل ، ومفازة رمل ، وسهلا وجبلا ... فهذه ثمانية عشر متنزها فى أقل من ميل فى ميل .

وأين هذه الأوصاف من وصف بعضهم قصر أنس بالبصرة فى قوله :

زر وادى القصر ، نعم القصر والوادى
لا بد من زورة من غير ميعاد
زره فليس له شىء يشاكله
من منزل حاضر ان شئت أو بادى
تلقى به السفن والأعياس حاضرة
والضب والنون والملاح والحادى

وقال * :

زر وادى القصر ، نعم القصر والوادى
وحبذا أهله من حاضر بادى
تلقى قراقرة والعيس واقفة
والضب والنون والملاح والحادى *

هكذا أنشدها أبو الفرج الأصبهانى رحمه الله تعالى فى كتاب الأغانى ، ونسبها لابن عيينة بن المنهال بن محمد بن أبى عيينة بن المهلب بن أبى صفرة ، شاعر من ساكنى البصرة . وقيل ان اسمه عذرة ، وقيل اسمه أبو عيينة وكنيته أبو المنهال ، وكان بعد المائتين .

وأنشد أبو العلاء المعرى فى رسالة الصاهل والساحج :

ياصاح الم بأهل القصر والوادى
وحبذا أهله من حاضر بادى
ترى قراقرة والعيس واقفة
والضب والنون والملاح والحادى

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى : وفى هذا الوقت من السنة (يعنى أيام النيل) تكون أرض مصر أحسن شىء منظرا ، ولا سيما متنزهاتها المشهورة ودياراتها المطروقة ، كالجزيرة والجيزة وبركة الحبش ، وما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة والقصف ، ويتناوبها ذوو الآداب والظرف .

واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان الى بركة الحبش ، وافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شموسا فى خلع بدور ، ونجوم نار فى غلائل نور ... الى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال بعضهم — وهو أمية المذكور — من قوله المشهور :

لله يومى ببركة الحبش
والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب
كصارم فى يمين مرتعش
ونحن فى روضة مفوفة
دبج بالنور عطفها ووشى
قد نسجتها يد الغمام لنا
فنحن من نسجها على فرش
فعاطنى الراح ان تاركها
من سورة الهم غير منتعش
وأثقل الناس كلهم رجل
دعاه داعى الهوى فلم يطش
فأسقنى بالكبار مترعة
فهن أشفى لشدة العطش

وقال أيضا :

علل فؤادك باللذات والطرب
وباكر الراح بالبانات والنخب
أما ترى البركة الغناء لابسة
وشيا من النور حاكته يد السحب
وأصبحت من جديد الروض فى حلل
قد أبرز القطر منها كل محتجب
من سوسن شرق بالطل محجره
وأقحوان شهى الظلم والشنب
فانظر الى الورد يحكى خد محتشم
ونرجس ظل يبدى لحظ مرتقب
والنيل من ذهب يطفو على ورق
والراح من ورق يطفو على ذهب
ورب يوم نقعنا فيه غلتنا
بجاحم من فم الابريق ملتهب
شمس من الراح حيانا بها قمر
موف على غصن يهتز فى كثب
أرخى ذوائبه وانهز منعطفا
كصعدة الرمح فى مسودة العذب
فاطرب ودونكها فاشرب فقد بعثت
على التصابى دواعى اللهو والطرب

وقال :

يانزهة الرصد المصرى قد جمعت
من كل شىء حلا فى جانب الوادى
فذا غدير وذا روض وذا جبل
والضب والنون والملاح والحادى

وقال ابراهيم بن الرفيق فى تاريخه : حدثنى محمد الكهينى — وكان أديبا فاضلا قد سافر ورأى بلدان المشرق — قال : مارأيت قط أجمل من أيام النوزور والغيطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين ، وغير ذلك من أيام اللهو التى كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة فى القصف والعزف . وذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير الا خرج الى بركة الحبش متنزها ، فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات والقباب والشراعات ، ويخرجون بالأهل والولد ، ومنهم من يخرج بالقينات المسمعات المماليك والمحررات ، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكهون وينعمون .

فاذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتى فارس من عبيده بالعس عليهم فى كل ليلة الى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم وينصرفوا ، فيسكرون وينامون كما ينام الانسان فى بيته ، ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة . ويركب * الأمير تميم فى عشارى ، ويتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة وطعاما ومشروبا ، فان كانت الليالى مقمرة ، والا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا . فاذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتا أمرهم باعادته ، وسألهم عما عز

(*) ص١٠٢ جـ١ ، ط. بولاق .

(*) ص١٥٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

عليهم ، فيأمر لهم به ، ويأمر لمن يغنى لهم ، وينتقل منهم الى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله ، ثم ينصرف الى قصوره وبساتينه التى على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضى هذه الأيام ويتفرق الناس .

وقال محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى الحنفى ، وتوفى بدمشق سنة احدى وخمسين وستمائة ، يصف بركة الحبش فى أيام الربيع :

اذا زين الحسناء قرط فهذه
يزينها من كل ناحية قرط
ترقرق فيها أدمع الطل غدوة
فتلك لآل قد تضمنها قرط

وقال ابن سعيد فى كتاب « المغرب » : وخرجت مرة حيث بركة الحبش التى يقول فيها أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى عفا الله عنه :

لله يومى ببركة الحبش
والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب
كصارم فى يمين مرتعش

وعاينت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج منظر ، ثم زرتها أيام غاض الماء وبقيت فيها مقطعات بين خضر من القرط والكتان تفتن الناظر ، وفيها أقول :

يابركة الحبش التى يومى بها
طول الزمان مبارك وسعيد
حتى كأنك فى البسيطة جنة
وكأن دهرى كله بك عيد
ياحسن ما يبدو بك الكتان فى
نواره أو زره معقود
والماء منك سيوفه مسلولة
والقرط فيك رواقه ممدود
وكأن أبراجا عليك عرائس
جليت وطيرك حولها غريد
ياليت شعرى هل زمانك عائد
فالشوق فيه مبدىء ومعيد

وكان ماء النيل يدخل الى بركة الحبش من خليج بنى وائل ، وكان خليج بنى وائل مما يلى باب مصر من الجهة القبلية ، الذى يعرف الى يومنا هذا بباب القنطرة من أجل أن هذه القنطرة كانت هناك .

قال ابن المتوج : ورأيت ماء النيل فى زمن النيل يدخل من تحته الى خليج بنى وائل .

قلت : وفى أيام الناصر محمد بن قلاوون استولى النشو ناظر الخاص على بركة الحبش ، وصار يدفع الى الأشراف من بيت المال مالا فى كل سنة . فلما مات الناصر وقام من بعده ابنه المنصور أبو بكر ، أعيدت لهم .

ذكر الماردانى

هو أبو بكر محمد بن على بن محمد بن رستم بن أحمد ، وقيل محمد بن على بن أحمد بن عيسى بن رستم ، وقيل محمد بن على بن أحمد بن ابراهيم بن الحسين بن عيسى ابن رستم الماردانى ، أحد عظماء الدنيا ، ولد بنصيبين لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائتين ، وقدم الى

مصر فى سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، وخلف أباه على بن أحمد الماردانى أيام نظره فى أمور أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وسنه يومئذ خمس عشرة سنة .

وكان معتدل الكتابة ، ضعيف الحظ من النحو واللغة . ومع ذلك فكان يكتب الكتب الى الخليفة فمن دونه على البديهة من غير نسخة ، فيخرج الكتاب سليما من الخلل .

ولما قتل أبوه فى سنة ثمانين ومائتين استوزره هارون بن خمارويه ، فدبر أمر مصر ... الى أن قدم محمد بن سليمان الكاتب من بغداد الى مصر ، وأزال دولة بنى طولون وحمل رجالهم الى العراق . فكان أبو بكر ممن حمله ، فأقام ببغداد الى أن قدم صحبة العساكر لقتال خباسة ، فدبر أمر البلد ، وأمر ونهى ، وحدث بمصر عن أحمد بن عبد الجبار العطاردى وغيره بسماعه منهم فى بغداد .

وكان قليل الطلب للعلم ، تغلب عليه محبة الملك وطلب السيادة . ومع ذلك كان يلازم تلاوة القرآن الكريم ، ويكثر من الصلاة ، ويواظب على الحج . وملك بمصر من الضياع الكبار ما لم يملكه أحد قبله ، وبلغ ارتفاعه فى كل سنة أربعمائة ألف دينار سوى الخراج ، ووهب وأعطى ، وولى وصرف ، وأفضل ومنع ، ورفع ووضع ، وحج سبعا وعشرين حجة أنفق فى كل حجة منها مائة وخمسين ألف دينار . وكان تكين أمير مصر يشيعه اذا خرج للحج ، ويتلقاه اذا قدم .

وكان * يحمل الى الحجاز جميع ما يحتاج اليه ، ويفرق بالحرمين الذهب والفضة والثياب والحلوى والطيب والحبوب ، ولا يفارق أهل الحجاز الا وقد أغناهم . وقيل مرة وهو بالمدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام : ما بات فى هذه الليلة أحد بمكة والمدينة وأعمالهما الا وهو شبعان من طعام أبى بكر الماردانى .

ولما قدم الأمير محمد بن طغج الاخشيد الى مصر استتر منه ، فانه كان منعه من دخول مصر ، وجمع العساكر لقتاله . فاجتمع له زيادة على ثلاثين ألف مقاتل ، وحاربهم بعد موت تكين أمير مصر ، ومرت به خطوب لكثرة فتن مصر اذ ذاك ، وأحرقت دوره ودور أهله ومجاوريه ، وأخذت أمواله ، واستتر فقبض على خليفته وعماله .

فكتب الى بغداد يسأل امارة مصر ، وكتب محمد بن تكين بالقدس يسأل ذلك ، فعاد الجواب بامارة ابن تكين ، وأن يكون الماردانى يدبر أمر مصر ويولى من شاء . فظهر عند ذلك من الاستتار ، وأمر ونهى ، ودبر أمر البلد ، وصار الجيش بأسره يغدو الى بابه ، فاتفق فى جماعة واصطنع قوما ، وقتل عدة من أصحاب ابن تكين .

وكان محمد بن تكين بالقدس — وأمر مصر كله للماردانى بمفرده — ومعه أحمد ابن كيغلغ ، وقد قدم من بغداد بولاية ابن تكين على مصر وولاية أبى بكر الماردانى تدبير الأمور . فاستمال أبو بكر أحمد بن كيغلغ حتى صار معه على ابن تكين وحاربه ، وكان من أمره ما كان ... الى أن قدمت عساكر الاخشيد . فقام أبو بكر لمحاربتهم ، ومنع الاخشيد من مصر ، فكان الاخشيد غالبا له

(*) ص١٥٥ جـ٢ ، ط . بولاق .

ودخل البلد . فاستتر منه أبو بكر الى أن دل عليه ، فأخذه وسلمه الى الفضل بن جعفر ابن الفرات .

فلما صار الى ابن الفرات قال له : ايش هذا الاستيحاش والتستر ، وأنت تعلم أن الحج قد أظل ويحتاج لاقامة الحج .

فقال له أبو بكر : ان كان الىّ فخمسة عشر ألف دينار .

فقال ابن الفرات : ايش خمسة عشر ألف دينار !

قال : ما عندى غير هذا .

فقال ابن الفرات : بهذا ضربت وجه السلطان بالسيف ، ومنعت أمير البلد من الدخول . ثم صاح : ياشادن ، خذه اليك .

فأقيم وأدخل الى بيت ، وكان يومئذ صائما ، فامتنع من تناول الطعام والشراب ، ولزم تلاوة القرآن والصلاة طول يومه وليلته وأصبح ، فامتنع ابن الفرات من الأكل اجلالا له . فلما كان وقت الفطر من الليلة الثانية ، امتنع أبو بكر من الفطر كما امتنع فى الليلة الأولى ، فامتنع ابن الفرات أيضا من الأكل ، وقال : لا آكل أبدا ، أو يأكل أبو بكر .

فلما بلغ ذلك أبا بكر أكل .

فأخذ ابن الفرات فى مصادرته ، وقبض على ضياعه التى بالشام ومصر ، وتتبع أسبابه ، ثم خرج به معه الى الشام وعاد به الى مصر ، ثم خرج به ثانيا الى الشام . فمات الفضل بن الفرات بالرملة ورجع أبو بكر الى مصر . فرد اليه الاخشيد أمور مصر كلها ، وخلع على ابنه ، وتقلد السيف ولبس المنطقة ، ولبس أبو بكر الدراعة تنزها .

ثم تنكر عليه الاخشيد ، وقبضه فى سنة احدى وثلاثين وثلثمائة ، وجعله فى دار ، وأعد له فيها من الفرش والآلات والأوانى والملبوس والطيب والطرائف وأنواع المآكل والمشارب ما بلغ فيه الغاية ، وتفقدها بنفسه ، وطافها كلها .

فقيل له : عملت هذا كله لمحمد بن على الماردانى .

فقال : نعم هذا ملك ، وأردت ألا يحتقر بشىء لنا ، ولا يحتاج أن يطلب حاجة الا وجدها ، فانه ان فقد عندنا شيئا مما يريده استدعى به من داره ، فنسقط نحن من عينيه عند ذلك ، فلم يزل معتقلا حتى خرج الاخشيد الى لقاء أمير المؤمنين المتقى لله ، فحمله معه .

ولما مات الاخشيد بدمشق كان أبو بكر بمصر . فقام بأمر أونوجور بن الاخشيد ، وقبض على محمد بن مقاتل وزير الاخشيد ، وأمر ونهى ، وصرف الأمور ... الى أن كانت واقعة غلبون واتصال أبى بكر به . فلما عادت الاخشيدية ، قبض على أبى بكر ، ونهبت دوره ، وأحرق بعضها ، وأخذ ابنه ، وقام أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات بأمر الوزارة .

فعندما قدم كافور الاخشيدى من الشام بالعساكر التى كانت مع الاخشيد ، أطلق أبا بكر وأكرمه ، ورد اليه ضياعه وضياع ابنه . فلما ماتت أم ولده ، لحقه كافور ومعه الأمير أونوجور عند المقابر ، وترجلا له

وعزياه ، ثم ركبا معه حتى صليا عليها . فلما مرض مرض موته ، عاده كافور مرارا الى أن مات فى شهر شوال سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، فدفن بداره ، ثم نقل الى المقابر .

وكانت فضائله جمة : منها أنه أقام أربعين سنة يصوم الدهر كله ، ويركب كل يوم الى المقابر بكرة وعشية ، فيقف له الموكب حتى يمضى الى تربة أولاده وأهله ، فيقرأ عندهم ويدعو لهم ، وينصرف الى المساجد فى الصحراء فيصلى بها والناس وقوف له ... الا أنه كان فى غاية العجلة ، لا يراجع فيما يريده ولو كان ما كان .

ولما أراد المقتدر أن يقيم وزيرا كتب رقعة فيها أسماء جماعة ، وأنفذت الى على بن عيسى ليشير بواحد منهم — وكان أبو بكر ممن كتب معهم اسمه — فكتب تحت اسم كل واحد منهم ما يستحقه من الوصف ، وكتب تحت اسم أبى بكر محمد بن على الماردانى « مترف عجول » .

وبنى أبو بكر السقايات والمساجد فى المغافر وفى يحصب وبنى وائل ، وليس لشىء منها اليوم * أثر يعرف . ومرت له فى هذا الكتاب أخبار ، وقد أفرد له ابن زولاق سيرة كبيرة وهذا منها ، والله أعلم .

ذكر بساتين الوزير

هذه البساتين فى الجهة القبلية من بركة الحبش . وهى قرية فيها عدة مساكن وبساتين كثيرة ، وبها جامع تقام فيه الجمعة ، وعرفت بالوزير أبى الفرج محمد بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين بن على بن محمد المغربى . وبنو المغربى أصلهم من البصرة ، وصاروا الى بغداد . وكان أبو الحسن على ابن محمد تخلف على ديوان المغرب ببغداد ، فنسب به الى المغرب ، وولد ابنه الحسين بن على ببغداد ، فتقلد أعمالا كثيرة ، منها تدبير محمد بن ياقوت عند استيلائه على أمر الدولة ببغداد .

وكان خال ولده على — وهو أبو على هارون بن عبد العزيز الأوارجى الذى مدحه أبو الطيب المتنبى — من أصحاب أبى بكر محمد بن رائق . فلما لحق ابن رائق ما لحقه بالموصل ، صار الحسين ابن على بن المغربى الى الشام ، ولقى الاخشيد وأقام عنده وصار ابنه أبو الحسن على بن الحسين ببغداد ، فأنفذ الاخشيد غلامه فاتك المجنون ، فحمله ومن يليه الى مصر .

ثم خرج ابن المغربى من مصر الى حلب ، ولحق به سائر أهله ، ونزلوا عند سيف الدولة أبى الحسن على بن عبد الله بن حمدان مدة حياته ، وتخصص به الحسين بن على بن محمد المغربى ، ومدحه أبو نصر بن نباتة ، وتخصص أيضا على بن الحسين بسعد الدولة ابن حمدان ، ومدحه أبو العباس النامى .

ثم شجر بينه وبين ابن حمدان ففارقه ، وصار الى بكجور بالرقة ، فحسن له مكاتبة العزيز بالله نزار والتحيز اليه .

فلما وردت على العزيز مكاتبة بكجور قبله واستدعاه ، وخرج من الرقة يريد

(*) ص١٥٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

دمشق ، فولاه العزيز بولاية دمشق وخلفه ، فتسلمها وخرج لمحاربة ابن حمدان بحلب بمشورة على بن المغربى ، فلم يتم له أمر ، وتأخر عنه من كاتبه ، فقال لابن المغربى : غررتنى فيما أشرت به على ، وتنكر له . ففر منه الى الرقة .

وكانت بين بكجور وبين ابن حمدان خطوب آلت الى قتل ابن بكجور ومسير ابن حمدان الى الرقة . ففر ابن المغربى منها الى الكوفة ، وكاتب العزيز بالله يستأذنه فى القدوم ، فأذن له .

وقدم الى مصر فى جمادى الأولى سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، وخدم بها وتقدم فى الخدم ، فحرض العزيز على أخذ حلب . فقلد بنجوتكين بلاد الشام ، وضم اليه أبا الحسن بن المغربى ليقوم بكتابته ، ونظر الشام وتدبير الرجال والأموال . فسار الى دمشق فى سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، وخرج الى حلب ، وحارب أبا الفضائل بن حمدان وغلامه لؤلؤ ، فكاتب لؤلؤ أبا الحسن بن المغربى ، واستماله حتى صرف بنجوتكين عن محاربة حلب ، وعاد الى دمشق .

وبلغ ذلك العزيز بالله . فاشتد حنقه على ابن المغربى ، وصرفه بصالح بن على الروذبادى ، واستقدم ابن المغربى الى مصر . ولم يزل بها حتى مات العزيز بالله ، وقام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله أبو على منصور ، فكان هو وولده أبو القاسم حسين من جلسائه . فلما شرع الحاكم بأمر الله فى قتل رجال الدولة من القواد والكتاب والقضاة ، قبض على علىّ ومحمد ابنى المغربى وقتلهما ، ففر منه أبو القاسم حسين بن على ابن المغربى الى حسان بن مفرج بن الجراح ، فأجاره .

وقلد الحاكم يارجتكين الشام . فخافه ابن جراح لكثرة عساكره ، فحسن له ابن المغربى مهاجمته ، فطرق يارجتكين فى مسيره على غفلة وأسره ، وعاد الى الرملة فشن الغارات على رساتيقها ، وخرج العسكر الذى بالرملة فقاتل العرب قتالا شديدا كادت العرب أن تنهزم لولا ثبتها ابن المغربى ، وأشار عليهم باشهار النداء بإباحة النهب والغنيمة فثبتوا ، ونادوا فى الناس ، فاجتمع لهم خلق كثير ، وزحفوا الى الرملة فملكوها ، وبالغوا فى النهب والهتك والقتل .

فانزعج الحاكم لذلك انزعاجا عظيما ، وكتب الى مفرج بن جراح يحذره سوء العاقبة ، ويلزمه باطلاق يارجتكين من بد حسان ابنه وارساله الى القاهرة ، ووعده على ذلك بخمسين ألف دينار . فبادر ابن المغربى لما بلغه ذلك الى حسان ، وما زال يغريه بقتل يارجتكين حتى أحضره وضرب عنقه . فشق ذلك على مفرج ، وعلم أنه فسد ما بينه وبين الحاكم .

فأخذ ابن المغربى يحسن لمفرج خلع طاعة الحاكم والدعاء لغيره الى أن استجاب له . فراسل أبا الفتوح الحسن بن جعفر العلوى أمير مكة يدعوه الى الخلافة ، وسهل له الأمر ، وسير اليه بابن المغربى يحثه على المسير ، وجرأه على أخذ مال تركه بعض المياسير ، ونزع المحارب الذهب والفضة

المنصوبة على الكعبة وضربها دنانير ودراهم وسماها الكعبية .

وخرج ابن المغربى من مكة فدعا العرب من سليم وهلال وعوف بن عامر ، ثم سار به وبمن اجتمع عليه من العرب حتى نزل الرملة . فتلقاه بنو الجراح ، وقبلوا له الأرض ، وسلموا عليه بامرة المؤمنين ، ونادى فى الناس بالأمان ، وصلى بالناس الجمعة .

فامتعض الحاكم لذلك ، وأخذ فى استمالة حسان ومفرج وغيرهما ، وبذل لهم الأموال ، فتنكروا على أبى الفتوح ، وقلد أيضا مكة بعض بنى عم أبى الفتوح . فضعف أمره ، وأحس من حسان بالغدر ، فرجع الى مكة وكاتب الحاكم واعتذر اليه ، فقبل عذره * .

وأما ابن المغربى فانه لما انحل أمر أبى الفتوح ، ورأى ميل بنى الجراح الى الحاكم كتب اليه :

وأنت ، وحسبى أنت تعلم أن لى
لسانا أمام المجد يبنى ويهدم

وليس حليما من تباس يمينه
فيرضى ، ولكن من تعض فيحلم

فسير اليه أمانا بخطه . وتوجه ابن المغربى قبل وصول أمان الحاكم اليه الى بغداد ، وبلغ القادر بالله خبره ، فاتهمه بأنه قدم فى فساد الدولة العباسية ، فخرج الى واسط واستعطف القادر ، فعطف عليه وعاد الى بغداد ، ثم مضى الى قرواش بن المقلد أمير العرب ، وسار معه الى الموصل فأقام بها مدة .

(*) ص١٥٧ جـ٢ ، ط . بولاق .

وخافه وزير قرواش فأخرجه الى ديار بكر ، فأقام عند أميرها نصير الدولة أبى نصر أحمد ابن مروان الكردى ، وتصرف له ، وكان يلبس فى هذه المدة المرقعة والصوف . فلما تصرف غير لباسه وانكشف حاله ، فصار كمن قيل فيه ، وقد ابتاع غلاما تركيا كان يهواه قبل أن يبتاعه :

تبدل من مرقعة ونسك
بأنواع المسك والشفوف

وعنّ له غزال ليس يحوى
هواه ولا رضاه بلبس صوف

فعاد أشد ما كان انتهاكا
كذاك الدهر مختلف الصروف

وأقام هناك مدة طويلة فى أعلى حال وأجل رتبة وأعظم منزلة ، ثم كوتب بالمسير الى الموصل ليستوزره صاحبها . فسار عن ميافارقين وديار بكر الى الموصل ، فتقلد وزارتها ، وتردد الى بغداد فى الوساطة بين صاحب الموصل وبين السلطان أبى على بن سلطان الدولة أبى شجاع بن بهاء الدولة أبى نصر بن عضد الدولة أبى شجاع بن ركن الدولة أبى على بن بويه ، واجتمع برؤساء الديلم والأتراك ، وتحدث فى وزارة الحضرة حتى تقلدها ، بغير خلع ولا لقب ولا مفارقة الدراعة ، فى شهر رمضان سنة خمس عشرة وأربعمائة ، فأقام شهورا ، وأغرى رجال الدولة بعضهم ببعض .

وكانت أمور طويلة آلت الى خروجه من الحضرة الى قرواش ، فتجدد للقادر بالله فيه سوء ظن بسبب ما أثاره من الفتنة العظيمة

بالكوفة ، حتى ذهبت فيها عدة نفوس وأموال . ففر الى أبى نصر بن مروان ، فاكرمه وأقطعه ضياعا وأقام عنده ، فكوتب من بغداد بالعود اليها ، فبرز عن ميافارقين يريد المسير الى بغداد فسم هناك ، وعاد الى المدينة فمات بها لأيام خلت من شهر رمضان سنة ثمان عشرة وأربعمائة . ومولده بمصر ليلة الثالث عشر من ذى الحجة سنة سبعين وثلثمائة .

وكان أسمر شديد السمرة ، بساطا عالما بليغا مترسلا ، متفننا فى كثير من العلوم الدينية والأدبية والنحوية ، مشارا اليه فى قوة الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر والبديهة ، عظيم القدر ، صاحب سياسة وتدبير وحيل كثيرة وأمور عظام . دوخ الممالك ، وقلب الدول ، وسمع الحديث ، وروى وصنف عدة تصانيف . وكان ملولا حقودا ، لا تلين كبده ، ولا تنحل عقده ، ولا يحنى عوده ، ولا ترجى وعوده . وله رأى يزين له العقوق ، ويبغض اليه رعاية الحقوق ، كأنه من كبره قد ركب الفلك ، واستولى على ذات الحبك .

وكان بمصر من بنى المغربى أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين المغربى ، قد قتل الحاكم جده محمدا مع أبيه على بن الحسين كما تقدم . فلما نشأ أبو جعفر صار الى العراق وخدم هناك ، وتنقلت به الأحوال ، ثم عاد الى مصر ، واصطنعه الوزير البارزى ، وولاه ديوان الجيش ، وكانت السيدة أم المستنصر تعنى به . فلما مات الوزير البارزى ، وولى بعده الوزير أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلى ، قبض عليه

فى جملة أصحاب البارزى واعتقله . فتقررت له الوزارة وهو فى الاعتقال ، وخلع عليه فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة خمسين وأربعمائة ، ولقب بالوزير الأجل الكامل الأوحد صفى أمير المؤمنين وخالصته . فما تعرض لأحد ، ولا فعل فى البابلى ما فعله البابلى فيه وفى أصحاب البارزى ، فأقام سنتين وشهورا ، وصرف فى تاسع شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة .

وكان الوزراء اذا صرفوا لم يتصرفوا . فاقترح أبو الفرج بن المغربى لما صرف أن يتولى بعض الدواوين ، فولى ديوان الانشاء الذى يعرف اليوم بوظيفة كتابة السر ، وهو الذى استنبط هذه الوظيفة بديار مصر ، واستحدث استخدام الوزراء بعد صرفهم عن الوزارة . ولم يزل نابه القدر الى أن توفى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

« بركة الشعيبية » : هذه البركة موضعها خلف جسر الأفرم ، فيما بينه وبين الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد ، وكانت تجاور بركة الحبش من بحريها ، وقد انقطع عنها الماء ، وصارت بساتين ومزارع وغير ذلك .

قال ابن المتوج : بركة الشعيبية بظاهر مصر . كان يدخل اليها ماء النيل ، وكان لها خليجان : أحدهما من قبليها ، وهو الآن بجوار منظرة الصاحب تاج الدين بن حنا المعروفة بمنظرة المعشوق . والثانى من بحريها *، ويقال له خليج بنى وائل ، عليه قنطرة بها عرف باب القنطرة بمصر . وكان

(*) ص١٥٨ جـ٢ ، ط . بولاق .

يجرى فيهما الماء من النيل اليها ، فكان الماء يدخل اليها فى كل سنة ويعمها ، ويدخل اليها الشخاتير .

وكان بدائرها من جانبها الشرقى آدر كثيرة ، وكانت نزهة المصريين . فلما استأجرها الأمير عز الدين أيبك الأفرم من الناظر عليها من جهة الحكم العزيزى ، حازها بالجسور عن الماء ، وغرس فيها الأشجار والكروم ، وحفر الآبار .

وهذه البركة مساحتها أربعة وخمسون فدانا ، ولها حدود أربعة : الحد القبلى ينتهى بعضه الى بعض أرض المعشوق الجارى فى وقف ابن الصابونى ، والى الجسر الفاصل بينها وبين بركة الحبش ، وفى هذا الجسر الآن قنطرة يدخل اليها الماء من خليج بركة الأشراف . والحد البحرى كان ينتهى بعضه الى منظرة قاضى القضاة بدر الدين السنجارى والى جسره . والحد الشرقى ينتهى الى الآدر التى كانت مطلة عليها ، وقد خرب أكثرها ، وكانت مسكن أعيان المصريين من القضاة والكتاب . والحد الغربى ينتهى الى جرف النيل .

ولما استأجرها الأفرم شرط له خمسة أفدنة يعمر عليها ، ويؤجرها لمن يعمر عليها : منها فدان واحد من بحريها ، وفدانان من غربيها ملاصقان لجدار البساتين ، وفدانان بالجرف الذى من حقوقها . فلما مات الأفرم طمع الأمير علم الدين الشجاعى فى ورثته وفى الوقف وأربابه ، فغصب أرض الجرف وجملتها فدانان ثم تركها . فلما كان فى أثناء دولة

الناصر محمد بن قلاوون ووزارة الأعسر ، بيعت أرضها لأرباب الأبنية التى عليها . وهذه البركة وقفها الخطير بن مماتى ، ودخل معهم بنو الشعيبية لاختلاط أنسابهم بالتناسل .

وقال فى موضع آخر : ومن جملة الأوقاف بركة الخطير بن مماتى المشهورة ببركة الشعيبية ، ومساحة أرضها أربعة وخمسون فدانا وربع ، ولها حدود أربعة : القبلى من البركة الصغرى منها الى الجسر الفاصل بينها وبين بركة الحبش ، وفيه قنطرة يمر منها الماء الى هذه البركة ، وباقى هذا الحد الى بعض أبنية مناظر المعشوق .

ومن جملة حقوق هذا الوقف المجاز المستطيل المسلوك فيه الى المنظرة المذكورة ، ومنه دهليزها والايوان البحرى . وهذا جميعه رأيته ترعة من تراع هذه البركة المذكورة يمر الماء فيها فى زمن النيل اليها . وكان باقى هذه المنظرة دارا مطلة على بحر النيل من شرقيها ، وعلى هذه الترعة من بحريها ، ثم ملكها الصاحب تاج الدين بن حنا وهدمها وردم الخليج ، وعمر المنظرة والحمام والبيوت الموجودة الآن ، وباقى ذلك كله فى أرض ابن الصابونى .

وحد هذه البركة من الجهة البحرية الى الطريق الآن ، وكان فيه جسر — يعرف بجسر الحيات — كان يفصل بين هذه البركة وبين بركة شطا ، وكان فيه قنطرة يجرى الماء فيها من هذه البركة الى بركة شطا ، وكان فى هذا الحد ترعة أخرى يجرى الماء فيها فى زمن النيل من البحر الى هذه البركة ، ورأيته

يجرى فيها ، ورأيت الشخاتير تدخل فيها الى هذه البركة .

وأما حدها الشرقى فانه كان الى أبنية الآدر المطلة على هذه البركة . وأما حدها الغربى فانه كان الى بحر النيل .

ولم تزل كذلك الى أن استأجرها الأمير عز الدين ايبك الأفرم ، فردم هذه الترعة ، وبنى حيطان هذا البستان ، وجر عليه ، وزرع فيه الشتول والخضراوات . وأقام على ذلك عدة سنين ، ثم استأجره اجارة ثانية ، واشترط البناء على ثلاثة أفدنة فى جانبه الغربى وفدان فى جانبه البحرى . فعمر الناس واستغنى عن الجسور ، ورخص على الناس حتى رغبوا فى العمارة ، وآجر كل مائة ذراع من ذلك بعشرة دراهم نقرة ، وعمر البئر المشهورة ببئر السواقى فعمرت أحسن عمارة .

فلما توفى الأفرم طمع الشجاعى فى أرباب الوقف وفى ورثته ، وانتزع منهم الفدادين المطلة على بحر النيل ، وابتاع ذلك من وكيل بيت المال ، وأعانه عليه قوم آخرون يجتمعون عند الله تعالى .

ذكر المعشوق

اعلم أن المعشوق اسم لمكان فيه أشجار بظاهر مصر ، من جملة خطة راشدة ، عرف أولا بجنان كهمس بن معمر ، ثم عرف بجنان الماردانى ، ثم عرف بجنان الأمير تميم بن المعز لدين الله ، ثم جدده الأفضل بن أمير الجيوش فعرف به . وآخرا صار من وقف ابن الصابونى ، فأخذه الصاحب تاج الدين محمد ابن حنا ، وعمر به مناظر ، وأوصى بعمارة رباط للآثار النبوية وأن توقف عليه .

فلما أنشىء الرباط المذكور ، أرصد لمصالحه ، وهو الآن وقف عليه . وأرض هذا البستان مما وقفه ابن الصابونى على بنيه ، وعلى رباطه المجاور لقبة الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه بالقرافة . وبنو الصابونى يستادون من المتحدث على رباط الآثار شيئا فى كل سنة عن حكر ارض بستان المعشوق .

قال القضاعى فى ذكر خطة راشدة : ومنها المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة ، والجنان المعروفة . كانت تعرف بكهمس بن معمر ، ثم عرفت بالماردانى ، وهو المعروف الآن بالأمير تميم بن المعز .

هذا وقد بنى المعتمد على الله أحمد بن المتوكل * فى الجانب الشرقى من « سر من رأى » قصرا سماه المعشوق وأقام به . وبين بغداد وتكريت منزلة فيها آثار بناء وقصور تسمى العاشق والمعشوق . وفيه أنشد الشريف زهرة بن على بن زهرة بن الحسن الحسينى ، وقد اجتاز به يريد الحج :

قد رأيت المعشوق وهو من الهجـ
ـر بحال تنبو النواظر عنه
أثر الدهر فيه آثار سوء
قد أدالت يد الحوادث منه

وقال : ابن يونس كهمس بن معمر بن محمد بن معمر بن حبيب ، يكنى أبا القاسم ،

(*) ص١٥٦ جـ٢ ، ط. بولاق

كان أبوه بصريا ، وولد هو بمصر ، وكان عاقلا ، وكانت القضاة تقبله . حدث عن محمد ابن رمح وعيسى بن حماد زغبة وسلمة بن شبيب ونحوهم . توفى فى يوم الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الأول سنة احدى عشرة وثلثمائة .

وقال ابن خلكان : تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى . كان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب ، وهو الذى بنى القاهرة المعزية . وكان تميم فاضلا شاعرا ماهرا لطيفا ظريفا ، ولم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيه ، وأشعاره كلها حسنة ، وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين وثلثمائة . وقد ذكر كلا من الماردانى وابن حنا والأفضل .

وأما ابن مماتى فانه أسعد بن مهذب بن زكريا بن قدامة بن نينا ، شرف الدين مماتى أبى المكارم بن سعيد بن أبى المليح ، الكاتب المصرى . أصله من نصارى سيوط من صعيد مصر ، واتصل جده أبو المليح بأمير الجيوش بدر الجمالى ، وزير مصر فى أيام الخليفة المستنصر بالله ، وكتب فى ديوان مصر ، وولى استيفاء الديوان .

وكان جوادا ممدوحا . انقطع اليه أبو الطاهر اسماعيل بن محمد ، المعروف بابن مكية الشاعر ، فمن قوله فيه لما مات :

طويت سماء المكرما
ت وكورت شمس المديح
وتناثرت شهب العلا
من بعد موت أبى المليح
ما كان بالنكس الدنى
ء من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعد ما
عذروا به دون المسيح

ورثاه جماعة من الشعراء . ولما مات ولى ابنه المهذب بن أبى المليح زكريا ديوان الجيش بمصر فى آخر الدولة الفاطمية . فلما قدم الأمير أسد الدين شيركوه ، وتقلد وزارة الخليفة العاضد ، شدد على النصارى ، وأمرهم بشد الزنانير على أوساطهم ، ومنعهم من ارخاء الذؤابة التى تسمى اليوم بالعذبة ، فكتب لأسد الدين :

يا أسد الدين ومن عدله
يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غيارا شد أوساطنا
فما الذى أوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبته ، ولا مكنه من ارخاء الذؤابة .

وعندما أيس من ذلك أسلم ، فقدم على الدواوين حتى مات . فخلفه ابنه أبو المكارم أسعد بن مهذب ، الملقب بالخطير ، على ديوان الجيش ، واستمر فى ذلك مدة أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأيام ابنه الملك العزيز عثمان ، وولى نظر الدواوين أيضا ، واختص بالقاضى الفاضل وحظى عنده ، وكان يسميه بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه .

وصنف عدة مصنفات : منها « تلقين اليقين » فيه الكلام على حديث « بنى الاسلام على خمس ... » ، وكتاب « حجة الحق على

الخلق » فى التحذير من سوء عاقبة الظلم ، وهو كبير ، وكان السلطان صلاح الدين يكثر النظر فيه ، وقال فيه القاضى الفاضل : وقفت من الكتب على ما لا تحصى عدده ، فما رأيت والله كتابا يكون قبالة باب منه ، وانه والله من أهم ما طالعه الملوك . وكتاب « قوانين الدواوين » صنفه للملك العزيز ، فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها ، وما يجرى فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذى يقع فى أيدى الناس جزء واحد اختصره منه غير المصنف . فان ابن مماتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ، ومساحة كل ضيعة ، وقانون ريها ، ومتحصلها من عين وغلة . ونظم سيرة السلطان صلاح الدين يوسف ، ونظم كليلة ودمنة ، وله ديوان شعر .

ولم يزل بمصر حتى ملك السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، ووزر له صفى الدين على بن عبد الله بن شكر ، فخافه الأسعد لما كان يصدر منه فى حقه من الاهانة . وشرع الوزير بن شكر فى العمل عليه ، ورتب له مؤامرات ونكبه ، وأحال عليه الأجناد . ففر من القاهرة وسقط فى حلب ، فتقدم بها حتى مات فى يوم الأحد سلخ جمادى الأولى سنة ست وستمائة عن اثنين وستين سنة .

وكان سبب تلقيب أبى مليح بمماتى أنه كان عنده ، فى غلاء مصر فى أيام المستنصر ، قمح كثير ، وكان يتصدق على صغار المسلمين وهو اذ ذاك نصرانى ، وكان الصغار اذا رأوه[1] قالوا : مماتى . فلقب بها .

(١) [illegible]

ومن شعره :

تسائلنى وتنهى عن أمور
سبيل الناس أن ينهوك عنها
أتقدر أن تكون كمثل عينى
وحقك ما على أضر منها

وقال فى أترجة كانت بين يدى القاضى الفاضل ، وهو معنى بديع :

لله بل للحسن أترجة
تذكر الناس بأمر النعيم
كأنها قد جمعت نفسها
من هيبة الفاضل عبد الرحيم

« بركة شطا » : هذه البركة موضعها الآن كيمان على يسرة من يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر طالبا جسر الأفرم ورباط الآثار . كان الماء يصير اليها من خليج بنى وائل ، وموضعه على يمنة من يخرج من باب القنطرة المذكورة ، وكان عليه قنطرة بناها العزيز بالله ابن المعز ، وبها سمى باب القنطرة هذا .

قال ابن المتوج : بركة شطا بظاهر مصر على يسرة من مر من باب القنطرة . وكان الماء يدخل اليها من خليج بنى وائل من برابخ بالسور المسجد ، ومن بركة الشعيبية من قنطرة فى وسط الجسر ، المعروف بجسر الحيات ، الذى كان يفصل بين البركتين المذكورتين ، وكان بوسطها مسجد يعرف بمسجد الجلالة بقناطر بوسطها كان يسلك عليها اليه ، وكان يطل على بركة شطا آدر خربت بانقطاع الماء عنها ، وكان الى جانبها بستان فيه منظرة وتراية وطاحون وحمام ، وبظاهر بابه حوض سبيل وقف ذلك المخلص للموقع ، وقد خرب .

« بركة قارون » : هذه البركة موضعها الآن فيما بين حدرة ابن قميحة ، خلف جامع ابن طولون ، وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة وبركة الفيل . وعليها الآن عدة آدر وتعرف ببركة قراجا ، وكان عليها عدة عمائر جليلة فى قديم الزمان عندما عمر العسكر والقطائع .

فلما خربت العسكر والقطائع — كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب — خرب ما كان من الدور على هذه البركة أيضا ... حتى انه كان من خرج من مصلى مصر القديم — وموضعه الآن الكوم الذى يطل على قبر القاضى بكار بالقرافة الكبرى — يرى بركة الفيل وقارون والنيل .

ولم يزل ما حول هذه البركة خرابا الى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون البركة الناصرية فى أراضى الزهرى . وكانت واقعة الكنائس فى سنة احدى وعشرين وسبعمائة ، فصار جانب هذه البركة الذى يلى خط السبع سقايات مقطع طريق فيه مركز يقيم فيه ، من جهة متولى مصر ، من يحرس المارة من القاهرة الى مصر .

ولم يكن هناك شىء من الدور ، وانما كان هناك بستان بجوار حوض الدمياطى ، الموجود الآن تجاه كوم الأسارى ، على يمنة من خرج وسلك من السبع سقايات الى قنطرة السد ، ويشرف هذا البستان على هذه البركة . فحكر أقبغا عبد الواحد مكانه ، وصارت فيه الدور الموجودة الآن ، كما ذكر عند حكر أقبغا فى ذكر الأحكار .

قال القضاعى : دار الفيل هى الدار التى على بركة قارون ... ذكر بنو مسكين انها من حبس جدهم . وكان كافور أمير مصر اشتراها ، وبنى فيها دارا ذكر أنه أنفق عليها مائة ألف دينار ، ثم سكنها فى رجب سنة ست وأربعين وثلثمائة .

وذكر اليمنى أنه انتقل اليها فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وأنه كان أدخل فيها عدة مساجد ومواضع اغتصبها من أربابها ولم يقم فيها غير أيام قلائل ، ثم أرسل الى أبى جعفر مسلم الحسينى ليلا فقال له : امض بى الى دارك . فمضى به فمر على دار ، فقال : لمن هذه ؟ فقال : لغلامك نحرير التربية . فدخلها وأقام فيها شهورا الى أن عمروا له دار خمارويه ، المعروفة بدار الحرم ، وسكنها . وقيل ان سبب انتقاله من جنان بنى مسكين بخار البركة ، وقيل وباء وقع فى غلمانه ، وقيل ظهر له بها جان .

وكانت دار الفيل هذه ينظر منها جزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة .

قال أبو عمر الكندى فى « كتاب الموالى » : ومنهم أبو غنيم ، مولى مسلمة بن مخلد الأنصارى . كان شريفا فى الموالى ، وولاه عبد العزيز بن مروان الجزيرة ثم عزله عنها . وكان يجلس فى داره التى يقال لها دار الفيل ، فينظر الى الجزيرة فيقول لاخوانه : أخبرونى

بأعجب شيء في الدنيا . قالوا : منارة الاسكندرية .

قال : ما أصبتم شيئا .

قالوا : فيقولون له : قناة قرطاجنة .

فيقول : ما صنعتم شيئا .

قالوا : فما تقول أنت ؟

قال : العجب أنى أنظر الى الجزيرة ولا أقدر أدخلها .

وعلى هذه البركة الآن عدة آدر جليلة ، وجامع وحمام وغير ذلك . والله تعالى أعلم بالصواب .

« بركة الفيل » : هذه البركة فيما بين مصر والقاهرة ، وهى كبيرة جدا ، ولم يكن فى القديم عليها بنيان . ولما وضع جوهر القائد مدينة القاهرة كانت تجاه القاهرة ، ثم حدثت حارة السودان وغيرها خارج باب زويلة . وكان ما بين حارة السودان وحارة اليانسية وبين بركة الفيل فضاء ، ثم عمر الناس حول بركة الفيل بعد الستمائة حتى صارت مساكنها أجل مساكن مصر كلها .

قال ابن سعيد وقد ذكر القاهرة : وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل ، لأنها « دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم ، فيكون بذلك لها منظر عجيب ، وفيها أقول :

انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت
بها المناظر كالأهداب للبصر

كأنما هى والأبصار ترمقها
كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت اليها ، وقد قابلتها الشمس بالغدو ، فقلت :

انظر الى بركة الفيل التى نحرت
لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك محفوفا بهجتها
تهيم وجدا وحبا فى بدائعها

وماء النيل يدخل الى بركة الفيل من الموضع الذى يعرف اليوم بالجسر الأعظم تجاه الكبش . وبلغنى أنه كان هناك قنطرة كبيرة تهدمت ، وعمل مكانها هذه المجاديل الحجر التى يمر عليها الناس .

ويعبر ماء النيل الى هذه البركة أيضا من الخليج الكبير من تحت قنطرة تعرف قديما وحديثا بالجنونة ، وهى الآن لا تشبه القناطر ، وكأنها سرب يعبر منه الماء ، وفوقه بقية عقد من ناحية الخليج ، كان قد عقده الأمير الطيبرس وبنى فوقه منتزها ، فقال فيه علم الدين بن الصاحب :

ولقد عجبت من الطيبرس وصحبه
وعقولهم بعقوده مفتونة
عقدوا عقودا لا تصح لأنهم
عقدوا لمجنون على مجنونة

وكان الطيبرس هذا يعتريه الجنون . واتفق أن هذا العقد لم يصح وهدم ، وآثاره باقية الى اليوم .

« بركة الشقاف » : هذه البركة فى بين الخليج الغربى بجوار اللوق ، وعليها الجامع

---

(1) ص ١٦١ ج١ ، « بولاق » .

المعروف بجامع الطباخ فى خط باب اللوق . وكانت هذه البركة من جملة أراضى الزهرى — كما ذكر فى حكر الزهرى عند ذكر الأحكار — وكان عليها فى القديم عدة مناظر منها منظرة الأمير جمال الدين موسى ابن يغمور ، وذلك أيام كانت أراضى اللوق مواضع نزهة ، قبل أن تحتكر وتبنى دورا ، وذلك بعد سنة ستمائة . والله تعالى أعلم .

« بركة السباعين » : عرفت بذلك لأنه اتخذ عليها دار للسباع ، وهى موجودة هناك الى يومنا هذا ، وهى من جملة حكر الزهرى وعليها الآن دور . ولم تحدث بها العمارة الا بعد سنة سبعمائة ، وانما كان جميع ذلك الخط ، وما حوله من منشأة المهرانى الى المقس بساتين ، ثم حكرت .

« بركة الرطلى » : هذه البركة من جملة أرض الطبالة . عرفت ببركة الطوابين من أجل أنه كان يعمل فيها الطوب . فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى ، التمس الأمير بكتمر الحاجب من المهندسين أن يجعلوا حفر الخليج على الجرف الى أن يمر بجانب بركة الطوابين هذه ، ويصب من بحرى أرض الطبالة فى الخليج الكبير ، فوافقوه على ذلك ، ومر الخليج من ظاهر هذه البركة كما هو اليوم . فلما جرى ماء النيل فيه روى أرض البركة ، فعرفت ببركة الحاجب ، فانها كانت بيد الأمير بكتمر الحاجب المذكور . وكان فى شرقى هذه البركة زاوية بها نخل كثير ، وفيها شخص يصنع الأرطال الحديد التى تزن بها الباعة ، فسماها الناس بركة الرطلى نسبة لصانع الأرطال ، وبقيت نخيل الزاوية قائمة بالبركة الى ما بعد سنة تسعين وسبعمائة .

فلما جرى الماء فى الخليج الناصرى ، ودخل منه الى هذه البركة ، عمل الجسر بين البركة والخليج ، فحكره الناس ، وبنوا فوقه الدور ، ثم تتابعوا فى البناء حول البركة حتى لم يبق بدائرها خلو ، وصارت المراكب تعبر اليها من الخليج الناصرى ، فتدورها تحت البيوت وهى مشحونة بالناس ، فتمر هنالك للناس أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف .

وتظاهر الناس فى المراكب بأنواع المنكرات من شرب المسكرات ، وتبرج النساء الفاجرات واختلاطهن بالرجال من غير انكار . فاذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرط وغيره ، فيجتمع فيها من الناس فى يومى الأحد والجمعة عالم لا يحصى لهم عدد .

وأدركت بهذه البركة ، من بعد سنة سبعين وسبعمائة الى سنة ثمانمائة ، أوقاتا انكفت فيها عمن كان بها أيدى الغير ، ورقدت عن أهاليها أعين الحوادث ، وساعدهم الوقت اذ الناس ناس والزمان زمان . ثم لما تكدر جو المسرات ، وتقلص ظل الرفاهة ، وانهلت سحائب المحن من سنة ست وثمانمائة ... تلاشى أمرها .

وفيها الى الآن بقية صبابة ، ومعالم أنس ، وآثار تنبىء عن حسن عهد . ولله در القائل :

فى أرض طبالتنا بركة
مدهشة للعين والعقل

ترجح فى ميزان عقلى على
كل بحار الأرض بالرطل *

« البركة المعروفة ببطن البقرة » : هذه البركة كانت فيما بين أرض الطبالة وأراضى اللوق . يصل اليها ماء النيل من الخور ، فيصير فى خليج الذكر اليها ، وكانت تجاه قصر اللؤلؤة ودار الذهب فى بر الخليج الغربى . وأول ما عرفت من خبر هذه البركة أنها كانت بستانا كبيرا ، فيما بين المقس وحارة الزهرى ، عرف ببستان المقس نسبة الى المقس ، ويشرف على بحر النيل من غربيه ، وعلى الخليج الكبير من شرقيه .

فلما كان فى أيام الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبى هاشم على بن الحاكم بأمر الله ، أمر بعد سنة عشر وأربعمائة بإزالة أنشاب هذا البستان ، وأن يعمل بركة قدام المنظرة التى تعرف باللؤلؤة . فلما كانت الشدة العظمى فى زمن الخليفة المستنصر بالله ، هجرت البركة ، وبنى فى موضعها عدة أماكن عرفت بحارة اللصوص اذ ذاك .

فلما كان فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ، ووزارة الأجل المأمون محمد بن فاتك البطائحى ، أزيلت الأبنية ، وعمق حفر الأرض وسلط عليها ماء النيل من خليج الذكر ، فصارت بركة عرفت ببطن البقرة ، وما برحت الى ما بعد سنة سبعمائة .

وكان قد تلاشى أمرها منذ كانت الغلوة ، فى زمن الملك العادل كتبغا سنة سبع وتسعين وستمائة ، فكان من خرج من باب القنطرة يجد عن يمينه أرض الطبالة من جانب الخليج الغربى الى حد المقس ، ويجد بطن البقرة عن يساره من جانب الخليج الغربى الى حد المقس . وبحر النيل الأعظم يجرى فى غربى بطن البقرة على حافة المقس الى غربى أرض الطبالة ، ويمر من حيث الموضع المعروف اليوم بالجرف الى غربى البعل ، ويجرى الى منية الشيرج ... فكان خارج القاهرة أحسن منتزه فى مصر من الأمصار .

وموضع بطن البقرة يعرف اليوم بكوم الجاكى المجاور لميدان القمح وما جاور تلك الكيمان والخراب الى نحو باب اللوق . وحدثنى غير واحد ممن لقيت من شيوخ المقس عن مشاهدة آثار هذه البركة ، وأخبرنى عمن شاهد فيها الماء . والى زمننا هذا موضع من غربى الخليج فيما يلى ميدان القمح ، يعرف ببطن البقرة ، بقية من تلك البركة يجتمع فيه الناس للنزهة .

« بركة جناق » : هذه البركة خارج باب الفتوح . كانت بالقرب من منظرة باب الفتوح التى تقدم ذكرها فى المناظر ، وكان ما حولها بساتين ، ولم يكن خارج باب الفتوح شىء من هذه الأبنية ، وانما كان هناك بساتين ، فكانت هذه البركة فيما بين الخليج الكبير وبستان ابن صيرم . فلما حكر بستان ابن صيرم ، وعمر فى مكانه الآدر وغيرها ، وعمر الناس خارج باب الفتوح ، عمر ما حول هذه البركة بالدور ، وسكنها الناس . وهى الى الآن عامرة ، وتعرف ببركة جناق .

(*) ص١٦٦ ج٣ ، ط بولاق .

« بركة الحجاج » : هذه البركة فى الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها . عرفت أولا بجب عميرة ، ثم قيل لها أرض الجب ، وعرفت الى اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم . وبعض من لا معرفة له بأحوال أرض مصر يقول : « جب يوسف عليه السلام » ، وهو خطأ لا أصل له .

وما برحت هذه البركة متنزها لملوك القاهرة .

قال ابن يونس : عميرة بن تميم بن جزء التجيبى ، من بنى القرناء ، صاحب الجب المعروف بجب عميرة ، فى الموضع الذى يبرز اليه الحاج من مصر لخروجهم الى مكة .

وقال أبو عمر الكندى فى كتاب « الخندق » : ان فرسان الخندق من جب عميرة بن تميم بن جزء ، وصاحب جب عميرة من بنى القرناء طعن فى تلك الأيام ، فارتث فمات بعد ذلك .

وقال فى كتاب « الأمراء » : ثم ان أهل الحوف خرجوا على ليث بن الفضل أمير مصر . وكان السبب فى ذلك أن ليثا بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم ، فانتقصوا من القصب أصابع . فتظلم الناس الى ليث فلم يسمع منهم ، فعسكروا وساروا الى الفسطاط .

فخرج اليهم ليث فى أربعة آلاف من جند مصر ليومين بقيا من شعبان سنة ست وثمانين ومائة ، فالتقى مع أهل الحوف لثنتى عشرة خلت من شهر رمضان ، فانهزم الجيش عن ليث ، وبقى فى مائتين أو نحوها ، فحمل عليهم من معه فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة . وكان التقاؤهم فى أرض جب عميرة ، وبعث ليث الى الفسطاط بثمانين رأسا ، ورجع الى الفسطاط .

وقال المسبحى : ولاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، عرض أمير المؤمنين العزيز بالله عساكره بظاهر القاهرة عند سطح الجب ، فنصب له مضرب ديباج رومى فيه ألف ثوب مفوفة فضة ، ونصبت له فازة مثقلة وقبة مثقلة بالجوهر ، وضرب لابنه المنصور مضرب آخر ، وعرضت العساكر فكانت عدتها مائة عسكر ، وأقبلت أسارى الروم — وعدتهم مائتان وخمسون — فطيف بهم . وكان يوما عظيما حسنا لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار الى صلاة المغرب .

وقال ابن ميسر : كان من عادة أمير المؤمنين المستنصر بالله أن يركب فى كل سنة على النجب ، مع النساء والحشم ، الى جب عميرة — وهو موضع نزهة — بهيئة أنه خارج للحج على سبيل الهزؤ والمجانة ، ومعه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء وسقيه الناس .

وقال أبو الخطاب بن دحية : وخطب لبنى عبيد ببغداد أربعين جمعة ، وذلك * للمستنصر بل للبطال المستهتر .

أنشده العقيلى صبيحة يوم عرفة :

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء
ولا تضحى ضحى الا بصهباء

(*) ص١٦٢ ج٣ ، ط بولاق .

وادركَ حجيج الندامى قبلَ نفرهم
الى منى قصفهم مع كل هيفاء

ووصل ألف القطع للضرورة وهو جائز .

فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق ، فأقام بها سوق الفسوق على ساق . وفى ذلك العام أخذه الله وأخذ أهل مصر بالسنين ، حتى بيع القرص فى أيامه بالثمن الثمين .

وقال القاضى الفاضل فى حوادث المحرم سنة سبع وسبعين وخمسمائة : وفيه خرج السلطان (يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب) الى بركة الجب للصيد ولعب الأكرة ، وعاد الى القاهرة فى سادس يوم من خروجه . وذكر من ذلك كثيرا عن السلطان صلاح الدين وابنه الملك العزيز عثمان .

وقال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون ، وفى حوادث صفر سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة : وفيه ركب السلطان الى بركة الحجاج للرمى على الكراكى ، وطلب كريم الدين ناظر الخاص ، ورسم أن يعمل فيها أحواشا للخيل والجمال وميدانا ، وللأمير بكتمر الساقى مثله .

فأقام كريم الدين بنفسه فى هذا العمل ، ولم يدع أحدا من جميع الصناع المحتاج اليهم يعمل فى القاهرة عملا ، فكان فيها نحو الألفى رجل ومائة زوج بقر ... حتى تمت المواضع فى مدة قريبة . وركب السلطان اليها ، وأمر بعمل ميدان لنتاج الخيل فعمل . وما برح الملوك يركبون الى هذه البركة لرمى الكراكى ، وهم على ذلك الى هذا الوقت . وقد خربت المبانى التى أنشاها الملك الناصر .

وأدركنا بهذه البركة مراحا عظيما للأغنام ، التى يعلفها التركمانى حب القطن وغيره من العلف ، فتبلغ الغاية فى السمن ... حتى انه يدخل بها الى القاهرة محمولة على العجل لعظم جثتها وثقلها وعجزها عن المشى ، وكان يقال كبش بركاوى نسبة الى هذه البركة . وشاهدت مرة كبشا من كباش هذه البركة وزنت شقته اليمنى فبلغت زنتها خمسة وسبعين رطلا سوى الالية ، وبلغنى عن كبش انه وزن ما فى بطنه من الشحم خاصة فبلغ أربعين رطلا ، وكانت آلايا تلك الكباش تبلغ الغاية فى الكبر .

وقد بطل هذا من القاهرة ، منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ، حتى لا يكاد يعرفه اليوم الا أفراد من الناس . وبركة الحجاج اليوم أرباب دركها قوم من العرب يعرفون ببنى صبرة .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب « الجوهر المكنون فى معرفة القبائل والبطون » : بنو بطيخ بطن من لخم ، وهم ولد بطيخ بن مغالة بن دعجان بن عميث بن كليب بن أبى الحارث بن عمرو بن رميمة بن جدس بن أرش بن أراش بن جديلة بن لخم ، وفخذها بنو صبرة بن بطيخ ، ولهم حارة مجاورة للخطة المعروفة اليوم بكوم دينار السايس .

وصبرة فى خندف وفى قيس ونزار ويمن : فالتى فى خندف فى بنى جعفر الطيار بنو صبرة

ابن جعفر بن داود بن محمد بن جعفر بن ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب فخذ ، والتى فى قيس بنو صبرة ابن بكر بن أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد ابن قيس بن غيلان فخذ ، وأما التى فى نزار ففى شيبان بنو صبرة بن عوف بن محكم بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ابن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب ابن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخذ

وأما التى فى يمن ففى لخم وجذام : فأما التى فى لخم فبنو صبرة بن بطيخ بن مغالة بن دعجان بن عميث بن كليب بن أبى الحارث بن عمرو بن رميمة بن جدس بن أرش بن أراش ابن جديلة بن لخم ، وأما التى فى جذام فبنو صبرة بن نصيرة بن غطفان بن سعد بن اياس ابن حرام بن جذام ، واليه يرجع الصبريون ، وهم بالشام ، والله تعالى أعلم .

« بركة قرموط » : هذه البركة فيما بين اللوق والمقس . كانت من جملة بستان ابن ثعلب . فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى من موردة البلاط ، رمى ما خرج من الطين فى هذه البركة ، وبنى الناس الدور على الخليج ، فصارت البركة من ورائها ، وعرفت تلك الخطة كلها ببركة قرموط .

وأدركنا بها ديارا جليلة تتباهى أربابها فى احكام بنائها وتحسين سقوفها ، وبالغوا فى زخرفتها بالرخام والدهان ، وغرسوا بها الأشجار ، وأجروا اليها المياه من الآبار ، فكانت تعد من المساكن البديعة النزهة . وأكثر من كان يسكنها الكتاب مسلموهم ونصاراهم وهم فى الحقيقة المترفون أولو النعمة ، فكم حوت تلك الديار من حسن ومستحسن .

وانى لأذكرها وما مررت بها قط الا وتبين لى من كل دار هناك آثار النعم : اما روائح تقالى المطابخ ، أو عبير بخور العود والند ، أو نفحات الخمر ، أو صوت غناء ، أو دق هاون ، ونحو ذلك مما يبين عن ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم . ثم هى الآن موحشة خراب ، قد هدمت تلك المنازل ، وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة * فزالت الطرق ، وجهلت الأزقة ، وانكشف البركة ، وبقى حولها بساتين خراب .

وبلغنى أن المراكب كانت تعبر الى هذه البركة للتنزه ، وما أحسب ذلك كان ، فانها كانت من جملة البستان ، ولم ينقل أنه كان بقربها خليج سوى الخور ، ويبعد أن يصل اليها . والله أعلم .

وقرموط هذا هو أمين الدين قرموط ، مستوفى الخزانة السلطانية .

« بركة قراجا » : هذه البركة خارج الحسينية قريبا من الخندق . عرفت بالأمير زين الدين قراجا التركمانى ، أحد أمراء مصر ، أنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون بالامرة فى سنة سبع عشرة وسبعمائة .

« البركة الناصرية » : هذه البركة من جملة جنان الزهرى . فلما خربت جنان

(*) ص١٦٤ جـ٢ ، طـ بولاق .

الزهرى ، صار موضعها كوم تراب . الى أن أنشأ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ميدان المهارى فى سنة عشرين وسبعمائة ، وأراد بناء الزرية بجانب الجامع الطيبرسى ، لحتاج فى بنائها الى طين . فركب وعين مكان هذه البركة ، وأمر الفخر ناظر الجيش فكتب أوراقا بأسماء الأمراء ، وانتدب الأمير بيبرس الحاجب . فنزل بالمهندسين ، فقاسوا دور البركة ، ووزع على الأمراء بالأقصاب ، فنزل كل أمير وضرب خيمة لعمل ما يخصه .

فابتدأوا العمل فى يوم الثلاثاء تاسع عشرى شهر ربيع الأول سنة احدى وعشرين وسبعمائة . فتمادى الحفر الى جانب كنيسة الزهرى — وكان اذ ذاك فى تلك الأرض عدة كنائس ، ولم يكن هناك شىء من العمائر التى هى اليوم حول البركة الناصرية ، ولا من العمائر التى فى خط قناطر السباع ، ولا فى خط السبع سقايات الى قنطرة السد ، وانما كانت بساتين وكنائس وديورة للنصارى — فاستولى الحفر على ما حول كنيسة الزهرى ، وصارت فى وسط الحفر حتى تعلقت .

وكان القصد أن تسقط من غير تعمد هدمها . فأراد الله تعالى هدمها على يد العامة ، كما ذكر فى خبرها عند ذكر كنائس النصارى من هذا الكتاب .

فلما تم حفر البركة نقل ما خرج منها من الطين الى الزربية ، وأجرى اليها الماء من جوار الميدان السلطانى الكائن بأراضى بستان الخشاب عند موردة البلاط . فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة ، فحكر الناس ما حولها ، وبنوا عليها الدور العظيمة . وما برح خط البركة الناصرية عامرا . الى أن كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة ، فشرع الناس فى هدم ما عليها من الدور ، فهدم كثير مما كان هناك ، والهدم مستمر الى يومنا هذا .

ذكر الجسور

الجَسر — بفتح الجيم — الذى تسميه العامة جسرا ... عن ابن دريد . وقال الخليل : الجِسر والجَسر لغتان ، وهو القنطرة ونحوها مما يعبر عليه .

وقال ابن سيده : والجسر الذى يعبر عليه ، والجمع القليل أجسر ... قال :

ان فراخا كفراخ الأوكر
بأرض بغداد وراء الأجسر

والكثير جسور .

« جسر الأفرم » : هذا الجسر بظاهر مدينة مصر ، فيما بين المدرسة المعزية برحبة الحناء قبلى مصر وبين رباط الآثار النبوية . كان موضعه فى أول الاسلام غامرا بماء النيل ، ثم انحسر عنه الماء فصار فضاء الى بحرى الخليج بنى وائل ، ثم ابتنى الناس فيه مواضع ، وكان هناك الهرى قريبا من الخليج . ثم صار موضع جسر الأفرم هذا ترعة يدخل منها ماء النيل الى البركة الشعيبية .

فلما استأجر الأمير عز الدين أيبك الأفرم بركة الشعيبية ، وجعلها بستانا كما تقدم ذكره

فى البرك ، ردم هذه الترعة ، وبنى حيطان البستان وجسر عليه ، فأقام على ذلك سنين . ثم لما استأجر أرض البركة — بعدما غرسها بالأشجار — اجارة ثانية ، اشترط البناء على ثلاثة أفدنة فى جانب البستان الغربى وفدان فى جانبه البحرى ، ونادى فى الناس بتحكيره ، وأرخص سعر الحكر ، وجعل حكر كل مائة ذراع عشرة دراهم .

فهرع الناس اليه ، واحتكروا منه المواضع ، وبنوا فيها الدور المطلة على النيل . فاستغنى بالعمائر عن عمل الجسر فى كل سنة بين البحر والبستان الذى أنشأه ، وبقى اسم الجسر عليه الى يومنا هذا . الا أن الآدر التى كانت هناك خربت منذ انطرد النيل عن البر الغربى ، بعدما بلغ ذلك الخط الغاية فى العمارة ، وكان سكن الوزراء والأعيان من الكتاب وغيرهم .

« الجسر الأعظم » : هذا الجسر فى زماننا هذا قد صار شارعا مسلوكا يمشى فيه من الكبش الى قناطر السباع . وأصله جسر يفصل بين بركة قارون وبركة الفيل ، وبينهما سرب يدخل منه الماء ، وعليه أحجار يراها من يمر هناك ، وبلغنى أنه كان هناك قنطرة مرتفعة . فلما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الميدان السلطانى عند موردة البلاط ، أمر بهدم القنطرة فهدمت ، ولم يكن اذ ذاك على بركة الفيل من جهة الجسر الأعظم مبان ، وانما كانت ظاهرة يراها المار . ثم أمر السلطان بعمل حائط قصير بطولها ، فأقيم الحائط وصفر بالطين الأصفر ، ثم حدثت الدور هناك .

« الجسر بأرض الطبالة » : هذا الجسر يفصل بين بركة الرطلى وبين الخليج * الناصرى . أقامه الأمير الوزير سيف الدين بكتمر الحاجب ، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة لما انتهى حفر الخليج الناصرى ، وأذن للناس فى البناء عليه . فحكر وبنيت فوقه الدور ، فصارت تشرف على بركة الرطلى وعلى الخليج ، وتجتمع العامة تحت مناظر الجسر ، وتمر بحافة الخليج للنزهة . فكثر اغتباط غوغاء الناس وفساقهم بهذا الجسر الى اليوم . وهو من أنزه فرج القاهرة ، لولا ما عرف به من القاذورات الفاحشة .

« الجسر من بولاق الى منية الشيرج » ■

كان السبب فى عمل هذا الجسر أن ماء النيل قويت زيادته فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة حتى أخرق من ناحية بستان الخشاب ، ودخل الماء الى جهة بولاق ، وفاض الى باب اللوق حتى اتصل بباب البحر وبساتين الخور ■ فهدمت عدة دور كانت مطلة على البحر وكثير من بيوت الحكورة ، وامتدا الماء الى ناحية منية الشيرج .

فقام الفخر ناظر الجيش بهذا الأمر ، وعرف السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أنه متى غفل دخل الماء الى القاهرة وغرق أهلها ومساكنها . فركب السلطان الى البحر ومعه الأمراء ، فرأى ما هاله ، وفكر فيما يدفع ضرر النيل عن القاهرة ، فاقتضى رأيه عمل جسر عند نزول الماء ، وانصرف .

(*) ص١٦٥ جـ٢ ، طـ بولاق ■

فقويت الزيادة ، وفاض الماء على منشأة المهرانى ومنشأة الكتبة ، وغرق بساتين بولاق والجزيرة حتى صار ما بين ذلك ملقة واحدة . وركب الناس المراكب للفرجة ، ومروا بها تحت الأشجار ، وصاروا يتناولون الثمار بأيديهم وهم فى المراكب . فتقدم السلطان لمتولى القاهرة ومتولى مصر ببث الأعوان فى القاهرة ومصر لرد الحمير والجمال التى تنقل التراب الى الكيمان ، وألزمهم بالقاء التراب بناحية بولاق . ونودى فى القاهرة ومصر : من كان عنده تراب ، فليرمه بناحية بولاق وفى الأماكن التى قد علا عليها الماء .

فاهتم الناس من جهة زيادة الماء اهتماما كبيرا ، خوفا أن يغرق الماء ويدخل الى القاهرة . وألزم أرباب الأملاك التى ببولاق والخور والمناشىء أن يقف كل واحد على اصلاح مكانه ، ويحترس من عبور الماء على غفلة . فتطلب كل أحد من الناس الفعلة من غوغاء الناس لنقل التراب ، حتى عدمت الحرافيش ، ولم تكن توجد لكثرة ما أخذهم الناس لنقل التراب ورميه . وتضررت الآدر القريبة من البحر بنزها ، وغرقت الأقصاب والقلقاس والنيلة وسائر الدواليب التى بأعمال مصر .

فلما انقضت أيام الزيادة ، ثبت الماء ولم ينزل فى أيام نزوله . ففسدت مطامير الغلات ومخازنها وشونها ، وتحسن سعر السكر والعسل ، وتأخر الزرع عن أوانه لكثرة ما مكث الماء . فكتب لولاة الأعمال بكسر الترع والجسور كى ينصرف الماء عن أراضى الزرع الى البحر الملح ، واحتاج الناس الى وضع الخراج عن بساتين بولاق والجزيرة ، ومسامحتهم بنظير ما فسد من الغرق ، وفسدت عدة بساتين الى أن أذن الله تعالى بنزول الماء ، فسقط كثير من الدور .

وأخذ السلطان فى عمل الجسور ، واستدعى المهندسين ، وأمرهم باقامة جسر يصد الماء عن القاهرة خشية أن يكون نيل مثل هذا ، وكتب باحضار خولة البلاد . فلما تكاملوا أمرهم ، فساروا الى النيل وكشفوا الساحل كله ، فوجدوا ناحية الجزيرة مما يلى المنية قد صارت أرضها وطية ، ومن هناك يخاف على البلد من الماء .

فلما عرفوا السلطان بذلك ، أمر بالزام من له دار على النيل بمصر أو منشأة المهرانى أو منشأة الكتاب أو بولاق ، أن يعمر قدامها على البحر زربية ، وأنه لا يطلب منهم عليها حكر ، ونودى بذلك ، وكتب مرسوم بمسامحتهم من الحكر عن ذلك . فشرع الناس فى عمل الزرابى ، وتقدم الى الأمراء بطلب فلاحى بلادهم ، واحضارهم بالبقر والجراريف لعمل الجسر من بولاق الى منية الشيرج .

ونزل المهندسون فقاسوا الأرض ، وفرضوا لكل أمير أقصابا معينة ، وضرب كل أمير خيمته ، وخرج لمباشرة ما عليه من العمل .

فأقاموا فى عمله عشرين يوما حتى فرغ ، ونصبت عنده الأسواق . فجاء ارتفاعه من الأرض أربع قصبات فى عرض ثمانى قصبات ، فانتفع الناس به انتفاعا كبيرا .

وقدر الله سبحانه وتعالى أن الزرع فى تلك السنة حسن الى الغاية ، وأفلح فلاحا عجيبا ، وانحط السعر لكثرة ما زرع من الأراضى وخصب السنة .

وكان قد اتفق فى سنة سبع عشرة وسبعمائة غرق ظاهر القاهرة أيضا . وذلك أن النيل وفى ستة عشر ذراعا فى ثالث عشر جمادى الأولى — وهو التاسع والعشرون من شهر أبيب أحد شهور القبط — ولم يعهد مثل ذلك ، فان الأنيال البدرية يكون وفاؤها فى العشر الأول من مسرى .

فلما كسر سد الخليج ، توقفت الزيادة مدة أيام ، ثم زاد وتوقف الى أن دخل تاسع توت والماء على سبعة عشر ذراعا وتسعة أصابع . ثم زاد فى يوم تسعة أصابع ، واستمرت الزيادة حتى صار على ثمانية عشر ذراعا وستة أصابع . ففاض الماء ، وانقطع طريق الناس فيما بين القاهرة ومصر وفيما بين كوم الريش والمنية ، وخرج من جانب المنية وغرقها . فكتب بفتح جميع الترع والجسور بسائر الوجه القبلى والبحرى ، وكسر بحر أبى المنجا * ، وفتح سد بلبيس وغيره قبل عيد الصليب ، وغرقت الأقصاب والزراعات الصيفية .

وعم الماء ناحية منية الشيرج وناحية شبرا ، فخربت الدور التى هناك ، وتلف للناس مال كثير : من جملته زيادة على ثمانين ألف جرة خمر فارغة تكسرت فى ناحية المنية وشبرا عند هجوم الماء ، وتلفت مطامير الغلة من الماء حتى بيع قدح القمح بفلس — والفلس يومئذ جزء من ثمانية وأربعين جزءا من درهم — وصار من بولاق الى شبرا بحرا واحدا تمر فيه المراكب للنزهة فى بساتين الجزيرة الى شبرا ، وتلفت الفواكه والمشمومات ، وقلت الخضر التى يحتاج اليها فى الطعام ، وغرقت منشأة المهرانى .

(*) ص١٦٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وفاض الماء من عند خانقاه رسلان ، وأفسد بستان الخشاب ، واتصل الماء بالجزيرة التى تعرف بجزيرة الفيل الى شبرا ، وغرقت الأقصاب التى فى الصعيد ، فان الماء أقام عليها ستة وخمسين يوما ، فعصرت كلها عسلا فقط ، وخربت سائر الجسور وعلاها الماء ، وتأخر هبوطه عن الوقت المعتاد ، فسقطت عدة دور بالقاهرة ومصر ، وفسدت منشأة الكتاب المجاورة لمنشأة المهرانى ... فلذلك عمل السلطان الجسر المذكور خوفا على القاهرة من الغرق .

« الجسر بوسط النيل » : وكان سبب عمل هذا الجسر أن ماء النيل قوى رميه على ناحية بولاق ، وهدم جامع الخطيرى ، ثم جدد وقويت عمارته وتيار البحر لا يزداد من ناحية البر الشرقى الا قوة . فأهم الملك الناصر أمره ، وكتب فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بطلب المهندسين من دمشق وحلب والبلاد الفراتية ، وجمع المهندسين من أعمال مصر كلها قبليها وبحريها .

فلما تكاملوا عنده ، ركب بعساكره من قلعة الجبل الى شاطىء النيل ، ونزل فى

الحراقة وبين يديه الأمراء وسائر أرباب الخبرة من المهندسين وخولة الجسور ، وكشف أمر شطوط النيل . فاقتضى الحال أن يعمل جسرا فيما بين بولاق وناحية أنبوبة من البر الغربى ، ليرد قوة التيار عن البر الشرقى الى البر الغربى .

وعاد الى القلعة . فكتبت مراسيم الى ولاة الأعمال باحضار الرجال صحبة المشدين ، واستدعى شاد العمائر السلطانية ، وأمره بطلب الحجارين وقطع الحجر من الجبل ، وطلب رئيس البحر وشاد الصناعة لاحضار المراكب . فلم يمض سوى عشرة أيام حتى تكامل حضور الرجال مع الشادين من الأقاليم .

وندب السلطان لهذا العمل الأمير أقبغا عبد الواحد والأمير برصبغا الحاجب فبرزا لذلك . وأحضر والى القاهرة ووالى مصر ، وأمرا بجمع الناس وتسخير كل أحد للعمل . فركبا وأخذا الحرافيش من الأماكن المعروفة بهم ، وقبضا على من وجد فى الطرقات وفى المساجد والجوامع ، وتتبعاهم فى الأسحار .

ووقع الاهتمام الكبير فى العمل من يوم الأحد عاشر ذى القعدة — وكانت أيام القيظ — فهلك فيه عدة من الناس . والأمير أقبغا فى الحراقة يستحث الناس على انجاز العمل ، والمراكب تحمل الحجر من الفص الكبير الى موضع الجسر .

وفى كل قليل يركب السلطان من القلعة ، ويقف على العمل ، ويهين أقبغا ويسبه ويستحثه ، حتى تم العمل للنصف من ذى الحجة .

وكانت عدة المراكب التى غرقت فيه وهى مشحونة بالحجارة اثنى عشر مركبا ، كل مركب منها تحمل ألف اردب غلة . وعدة المراكب التى ملئت بالحجر حتى هدم وصار جسرا ثلاثة وعشرون ألف مركب ، سوى ما عمل فيه من آلات الخشب والسرياقات .

وحفر فى الجزيرة خليج وطىء . فلما جرى النيل فى أيام الزيادة مر فى ذلك الخليج ، ولم يتأثر الجسر من قوة التيار ، وصارت قوة جرى النيل من ناحية أنبوبة بالبر الغربى ومن ناحية التكرورى أيضا . فسر السلطان بذلك ، وأعجبه اعجابا كثيرا . وكان هذا الجسر سبب انطراد الماء عن بر القاهرة حتى صار الى ما صار اليه الآن .

« الجسر فيما بين الجيزة والروضة » : كان السبب المقتضى لعمل هذا الجسر أن الملك الناصر لما عمل الجسر فيما بين بولاق وناحية أنبوبة وناحية التكرورى ، انطرد ماء النيل عن بر القاهرة ، وانكشفت أراض كثيرة ، وصار الماء يخاض من بر مصر الى المقياس ، وانكشف من قبالة منشأة المهرانى الى جزيرة الفيل والى منية الشيرج ، وصار الناس يجدون مشقة لبعد الماء عن القاهرة ، وغلت روايا الماء حتى بيعت كل راوية بدرهمين بعدما كانت بنصف وربع درهم .

فشكا الناس ذلك الى الأمير أرغون العلائى ، والى السلطان الملك الكامل شعبان ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون . فطلب المهندسين ورئيس البحر ، وركب السلطان بأمرائه من القلعة الى شاطىء النيل ، فلم

يتهيأ عمل لما كان من ابتداء زيادة النيل ... الا أن الرأى اقتضى نقل التراب والشقاف من مطابخ السكر التى كانت بمصر ، والقاء ذلك بالروضة لعمل الجسر .

فنقل شىء عظيم من التراب فى المراكب الى الروضة ، وعمل جسر من الجيزة الى نحو المقياس فى طول نحو ثلثى ما بينهما من المسافة فعاد الماء الى جهة مصر عودا يسيرا ، وعجزوا عن ايصال الجسر الى المقياس لقلة التراب ، وقويت الزيادة حتى علا الماء الجسر بأسره . واتفق قتل الملك الكامل بعد * ذلك ، وسلطنة أخيه الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون أول جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة .

فلما دخلت سنة ثمان وأربعين ، وقف جماعة من الناس للسلطان فى أمر البحر ، واستغاثوا من بعد الماء وانكشاف الأراضى من تحت البيوت وغلاء الماء فى المدينة ، فأمر بالكشف عن ذلك .

فنزل المهندسون ، واتفقوا على اقامة جسر ليرجع الماء عن بر الجيزة الى بر مصر والقاهرة وكتبوا تقدير ما يصرف فيه مائة وعشرين ألف درهم فضة . فأمر بجبايتها من أرباب الأملاك التى على شط النيل ، وأن يتولى القاضى ضياء الدين يوسف بن أبى بكر المحتسب جبايتها واستخراجها .

فقيست الدور ، وأخذ عن كل ذراع من أراضيها خمسة عشر درهما . وتولى قياسها أيضا المحتسب ووالى الصناعة ، فبلغ قياسها

(*) ص١٦٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

سبعة آلاف وستمائة ذراع ، وجبى نحو السبعين ألف درهم . فاتفق عزل الضياء عن الحسبة ونظر المارستان المنصورى ونظر الجوالى ، وولاية ابن الأطروش مكانه ، ثم قتل الملك المظفر وولاية أخيه الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سلطنة مصر بعده فى شهر رمضان منها .

فلما كان فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وقع الاهتمام بعمل الجسر . فنزل الأمير يلبغا أروس نائب السلطنة ، والأمير منجك الأستادار — وكان قد عزل من الوزارة — والأمير قيلاى الحاجب ، وجماعة من الأمراء ومعهم عدة من المهندسين الى البحر فى الحراريق والمراكب الى بر الجيزة ، وقاسوا ما بين بر الجيزة والمقياس ، وكتب تقدير المصروف : نحو المائة والخمسين ألف درهم ، وألف خشبة من الخشب ، وخمسمائة صار ، وألف حجر فى طول ذراعين وعرض ذراعين ، وخمسة آلاف شنفة ، وغير ذلك من أشياء كثيرة .

فركب النائب والوزير والأمير شيخو والأمراء الى الجيزة ، وأعادوا النظر فى أمر الجسر ومعهم أرباب الخبرة . فالتزم الأمير منجك بعمل الجسر ، وأن يتولى جباية المصروف عليه من سائر الأمراء والأجناد والكتاب وأرباب الأملاك بحيث انه لا يبقى أحد حتى يؤخذ منه .

فرسم لكتاب الجيش بكتابة أسماء الجند ، وقرر على كل مائة دينار من الاقطاعات درهم واحد ، وعلى كل أمير من خمسة آلاف درهم

الى أربعة آلاف درهم ، وعلى كل كاتب أمير ألف مائتا درهم ، وكاتب أمير الطبلخانات مائة درهم ، وعلى كل حانوت من حوانيت التجار درهم ، وعلى كل دار درهمان .

وعلى كل بستان الفدان من عشرين درهما الى عشرة دراهم ، وعلى كل طاحون خمسة دراهم عن الحجر ، وعلى كل صهريج فى تربة بالقرافة أو فى ظاهر القاهرة أو فى مدرسة من عشرة دراهم الى خمسة دراهم ، وعلى كل تربة من ثلاثة دراهم الى درهمين ، وعلى أصحاب المقاعد والمتعيشين فى الطرقات شيء .

وكشفت البساتين والدور التى استجدت من بولاق الى منية الشيرج ، والتى استجدت فى الحكورة ، والتى استجدت على الخليج الناصرى وعلى بركة الحاجب وفى حكر أخى صاروجا . وقيست أراضيها كلها ، وأخذ عن كل ذراع منها خمسة عشر درهما ، وأخذ عن كل قمين من أقمنة الطوب شيء ، وعن كل فاخورة من الفواخير شيء .

وفرض على كل وقف بالقاهرة ومصر والقرافتين ، من الجوامع والمساجد والخوانك والزوايا والربط ، شيء .

وكتب الى ولاة الأعمال بالجباية من ديورة النصارى وكنائسهم من مائتى درهم الى مائة درهم ، وقرر على الفنادق والخانات التى بالقاهرة ومصر شيء . وقرر على ضامنة الأغانى مبلغ خمسين ألف درهم . وأقيم لكل جهة شاد وصيرفى وكتاب وغير ذلك من المستخدمين من الأعوان .

فنزل من ذلك بالناس بلاء كبير وشدة عظيمة . فانه أخذ حتى من الشيخ والعجوز والأرملة ، وجبى المال منهم بالعسف . وأبطل كثير منهم سببه لسعيه فى الغرامة ، ودهى الناس مع الغرامة بتسلط الظلمة من العرفاء والضمان والرسل . فكان يغرم كل أحد للقابض والشاد والصيرفى والشهود — سوى ما قرر عليه — جملة دراهم . فكثر كلام الناس فى الوزير ، حتى صاروا يلهجون بقولهم : هذه سخطة مرصصة نزلت من السماء على أهل مصر . وقاسوا شدة أخرى فى تحصيل الأصناف التى يحتاج اليها

ونزل الوزير منجك ، وضرب له خيمة على جانب الروضة ، ونادى فى الحرافيش والفعلة « من أراد العمل يحضر ، ويأخذ أجرته درهما ونصفا وثلاثة أرغفة » .

فاجتمع اليه عالم كثير ، وجعل لهم شيئا يستظلون به من حر الشمس ، وأحسن اليهم ، ورتب عدة مراكب لنقل الحجر ، وأقام عدة من الحجارين فى الجبل لقطع الحجر ، وجمالا وحميرا تنقلها من الجبل الى البحر ، ثم تحمل من البر فى المراكب الى بر الجيزة .

وابتدأ بعمل الجسر من الروضة الى ساقية علم الدين بن زنبور ، وعارضه بجسر آخر من بستان التاج اسحاق الى ساقية ابن زنبور ، وأقام أخشابا من الجهتين ، وردم بينهما بالتراب والحجر والحلفاء ، ورتب الجمال السلطانية لقطع الطين من بر الروضة وحمله

الى وسط الجسر ، وأمر ألا يبقى بالقاهرة ومصر صانع الا حضر العمل ، وألزم من كان بالقرب من داره كوم تراب أن ينقله الى الجسر . فغرم كل واحد من الناس فى نقل التراب من ألف * درهم الى خمسمائة درهم . وكان كل ما ينقل فى المراكب من الحجر وغيره يرمى فى وسط جسر المقياس ، وتحمله الجمال الى الجسر .

ثم اقتضى الرأى حفر خليج يجرى الماء فيه عند زيادة النيل لتضعف قوة التيار عن الجسر . فأحضرت الأبقار والجراريف والرجال لأجل ذلك ، وابتدأوا حفره من رأس موردة الحلفاء تحت الدور الى بولاق ، وكانت الزيادة قد قرب أوانها ، فما انتهى الحفر حتى زاد ماء النيل وجرى فيه ، فسر الناس به سرورا كبيرا ، وانتهى عمل الجسر فى أربعة أشهر .

الا أن الشناعة قويت على الوزير ، وبلغ الأمراء النائب ما يقال عن منجك من كثرة جباية الأموال . فحدثه فى ذلك ومنعه . فاعتذر بأنه لم يسخر أحدا ، ولا استعمل الناس الا بالأجرة ، وأن فى هذا العمل للناس عدة منافع وما على من قول أصحاب الأغراض الفاسدة ونحو ذلك ، وتمادى على ما هو عليه .

فلما جرى الماء فى الخليج الذى حفر تحت البيوت من موردة الحلفاء الى بولاق ، مرت فيه المراكب بالناس للفرجة ، واحتاج منجك الى نقل خيمته من بر الروضة الى بر الجيزة ، وأحضر المراكب الكبار وملأها بالحجارة ، وغرق منها عشرة مراكب فى البحر ، وردم

(*) ص١٦٨ ج٢ ، ط.بولاق .

التراب عليها الى أن كمل نحو ثلثى العمل ، فقويت زيادة الماء ، وبطل العمل .

فلما كثرت الزيادة ، جمع منجك الحرافيش والأسرى ، وردم على الجسر التراب وقواه . فتحامل الماء عن البر الغربى الى البر الشرقى ، ومر من تحت الميدان السلطانى وزريبة قوصون الى بولاق ، فصار معظمه من هذه المواضع ، وحصل الغرض بكون الماء بالقرب من القاهرة . وانتهى طول جسر منجك الى مائتين وتسعين قصبة فى عرض ثمان قصبات وارتفاع أربع قصبات . والجسر الذى من الروضة الى المقياس طوله مائتان وثلاثون قصبة . وعدة ما رمى فى هذا العمل من المراكب المشحونة بالحجر اثنا عشر ألف مركب سوى التراب وغير ذلك .

وكان ابتداء العمل فى مستهل المحرم ، وانتهاؤه فى سلخ ربيع الآخر . ولم تنحصر الأموال التى جبيت بسببه ، فانه لم يبق بالقاهرة ومصر دار ولا فندق ولا حمام ولا طاحون ولا وقف جامع أو مدرسة أو مسجد أو زاوية ولا رزقة ولا كنيسة ، الا وجبى منه . فكان الرجل الواحد يغرم العشرة دراهم ، ومن خصه درهمان يحتاج الى غرامة أمثالهما وأضعافهما . وناهيك بمال يجبى من الديار المصرية على هذا الحكم كثرة .

وقد بقيت من جسر منجك هذا بقية ، هى معروفة اليوم فى طرف الجزيرة الوسطى .

« جسر الخليلى » : هذا الجسر فيما بين الروضة من طرفها البحرى وبين جزيرة أروى ،

المعروفة بالجزيرة الوسطى ، تجاه الخور . وكان سبب عمله أن النيل لما قوى رمى تياره على بر القاهرة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقام فى عمل الجسر ليصير رمى التيار من جهة البر الغربى كما تقدم ذكره ، انطرد الماء عن بر القاهرة ، وانكشف ما تحت الدور من منشأة المهرانى الى منية الشيرج .

وعمل منجك الجسر الذى مر ذكره ليعود الماء فى طول السنة الى بر القاهرة ، فلم يتهيأ كما كان أولا ، وجرى فى الخليج الذى احتفره تحت الدور من موردة الحلفاء بمصر الى بولاق ، وصار تجاه هذا الخليج جزيرة . والماء لا يزال ينطرد فى كل سنة عن بر القاهرة الى أن استبد بتدبير مصر الأمير الكبير برقوق .

فلما دخلت سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، قصد الأمير جهاركس الخليلى عمل جسر ليعود الماء الى بر القاهرة ، ويصير فى طول السنة هناك ويكثر النفع به ، فيرخص الماء المحمول فى الروايا ، ويقرب مرسى المراكب من البلد ، وغير ذلك من وجوه النفع .

فشرع فى العمل أول شهر ربيع الأول ، وأقام الخوازيق من خشب السنط ، طول كل خازوق منها ثمانية أذرع ، وجعلها صفين فى طول ثلثمائة قصبة وعرض عشر قصبات ، وسمر فيها أفلاق النخل الممتدة ، وألقى بين الخوازيق ترابا كثيرا ، وانتصب هناك بنفسه ومماليكه ، ولم يجب من أحد مالا ألبتة .

فانتهى عمله فى أخريات شهر ربيع الآخر ، وحفر فى وسط البحر خليجا من الجسر الى زربية قوصون .

وقال شعراء العصر فى ذلك شعرا كثيرا ، منهم عيسى بن حجاج :

جسر الخليلى المقر لقد رسا
كالطود وسط النيل كيف يريد

فاذا سألتم عنهما قلنا لكم
ذا ثابت دهرا ، وذاك يزيد

وقال الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار :

شكت النيل أرضه للخليلى فاحصره
ورأى الماء خائفا أن يطاها فجسره

وقال :

رأى الخليلى قلب الماء حين طغى
بنى على قلبه جسرا وحيره *

رأى ترمل أرضيه ووحدتها
والنيل قد خاف يغشاها فجسره

ومع ذلك ما ازداد الماء الا انطرادا عن بر القاهرة ومصر . حتى لقد انكشف بعد عمل هذا الجسر شىء كثير من الأراضى التى كانت غامرة بماء النيل ، وبعد النيل عن القاهرة بعدا لم يعهد فى الاسلام مثله قط .

« جسر شيبين » : أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، بسبب أن اقليم الشرقية كانت له

(*) ص١٦٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

سدود كلها موقوفة على فتح بحر أبى المنجا ، وفى بعض السنين تشرق ناحية شيبين وناحية مرصفا وغير ذلك من النواحى التى أراضيها عالية ، فشكا الأمير بشتاك من تشريق بعض بلاده التى فى تلك النواحى .

فركب السلطان من قلعة الجبل ، ومعه المهندسون وخولة البلاد — وكانت له معرفة بأمور العمائر ، وحدس جيد ، ونظر سعيد ، ورأى مصيب — فسار لكشف تلك النواحى حتى اتفق الرأى على عمل الجسر من عند شيبين القصر الى بنها العسل . فوقع الشروع فى عمله ، وجمع له من رجال البلاد اثنى عشر ألف رجل ومائتى قطعة جرافة ، وأقام فيه القناطر . فصار محبسا لتلك البلاد ، واذا فتح بحر أبى المنجا امتلأت الاملاق بالماء ، وأسند على هذا الجسر .

وفى أول سنة عمل هذا الجسر أبطل فتح بحر أبى المنجا تلك السنة ، وفتح من جسر شيبين هذا . وحصل بهذا الجسر نفع كبير لبلاد العلو ، واستبحر منه عدة بلاد وطيئة . والعمل على هذا الجسر الى يومنا هذا ، والله أعلم .

« جسرا مصر والجيزة » : اعلم أن الماء فى القديم كان محيطا بجزيرة مصر — التى تعرف اليوم بالروضة — طول السنة . وكان فيما بين ساحل مصر وبين الروضة جسر من خشب ، وكذلك فيما بين الروضة وبر الجيزة جسر من خشب ، يمر عليهما الناس والدواب من مصر الى الروضة ، ومن الروضة الى الجيزة .

وكان هذان الجسران من مراكب مصطفة بعضها بحذاء بعض وهى موثقة ، ومن فوق المراكب أخشاب ممتدة فوقها تراب ، وكان عرض الجسر ثلاث قصبات .

قال القضاعى : وأما الجسر فقال بعضهم : رأيت فى كتاب — ذكر أنه خط أبى عبد الله ابن فضالة — صفة الجسر وتعطيله وازالته ، وأنه لم يزل قائما الى أن قدم المأمون مصر ، وكان غربيا . ثم أحدث المأمون هذا الجسر الموجود اليوم الذى تمر عليه المارة وترجع من الجسر القديم . فبعد أن خرج المأمون عن البلد ، أتت ريح عاصف فقطعت الجسر الغربى ، فصدمت سفنه الجسر المحدث فذهبا جميعا ، فبطل الجسر القديم وأثبت الجديد . ومعالم الجسر القديم معروفة الى هذه الغاية .

وقال ابن زولاق فى كتاب « اتمام أمراء مصر » : ولعشر خلون من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، سارت العساكر لقتال القائد جوهر ، ونزلوا الجزيرة بالرجال والسلاح والعدة ، وضبطوا الجسرين . وذكر ما كان منهم ... الى أن قال : فى عبور جوهر أقبلت العساكر ، فعبرت الجسر أفواجا أفواجا ، وأقبل جوهر فى فرسانه الى المناخ موضع القاهرة .

وقال فى كتاب « سيرة المعز لدين الله » : وفى مستهل رجب سنة أربع وستين وثلثمائة ، أصلح جسر الفسطاط ، ومنع الناس من ركوبه ، وكان قد أقام سنين معطلا .

وقال ابن سعيد فى كتاب « المغرب » : وذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من

القسطاط الى الجزيرة ، وهو جسر طويل . ومن الجانب الآخر الى البر الغربى ، المعروف ببر الجيزة ، جسر آخر من الجزيرة اليه . واكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان ، ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين القسطاط والجزيرة راكبا احتراما لموضع السلطان ... يعنى الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وكان رأس هذا الجسر الذى ذكره ابن سعيد — حيث المدرسة الخروبية — من انشاء البدر أحمد بن محمد الخروبى التاجر على ساحل مصر ، قبلى خط دار النحاس .

وما برح هذا الجسر الى أن خرب الملك المعز أيبك التركمانى قلعة الروضة ، بعد سنة ثمان وأربعين وستمائة ، فأهمل . ثم عمره الملك الظاهر ركن الدين بيبرس على المراكب ، وصله من ساحل مصر الى الروضة ، ومن الروضة الى الجيزة ، لأجل عبور العسكر عليه لما بلغه حركة الفرنج ، فعمل ذلك .

« الجسر من قليوب الى دمياط » : هذا الجسر انشاه السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورى — المعروف بالجاشنكير — فى أخريات سنة ثمان وسبعمائة . وكان من خبره أنه ورد القصاد بموافقة صاحب قبرس عدة من ملوك الفرنج على غزو دمياط ، وأنهم أخذوا ستين قطعة .

فاجتمع الأمراء ، واتفقوا على انشاء جسر من القاهرة الى دمياط خوفا من حركة الفرنج فى أيام النيل ، فيتعذر الوصول الى دمياط .

وعين لعمل[1] ذلك الأمير أقوش الرومى الحسامى ، وكتب الأمراء الى بلادهم بخروج الرجال والأبقار ، ورسم للولاة بمساعدة أقوش ، وأن يخرج كل وال الى العمل برجال عمله وأبقارهم . فما وصل أقوش الى ناحية فارسكور ، حتى وجد ولاة ، الأعمال قد حضروا بالرجال والأبقار ، فرتب الأمور ، فعمل فيه ثلثمائة جرافة بستمائة رأس بقر وثلاثين ألف رجل .

وأقام أقوش الحرمة — وكان عبوسا قليل الكلام مهابا الى الغاية — فجد الناس فى العمل لكثرة من ضربه بالمقارع ، أو خزم أنفه ، أو قطع أذنه ، أو أخرق به ... الى أن فرغ فى نحو شهر واحد . فجاء من قليوب الى دمياط مسافة يومين فى عرض أربع قصبات من أعلاه وست قصبات من أسفله ، ومشى عليه ستة رؤوس من الخيل صفا واحدا فعم النفع به ، وسلك عليه المسافرون بعدما كان يتعذر السلوك أيام النيل لعموم الماء الأراضى . والله تعالى أعلم .

●●●

(وقد وجد بخط المؤلف رحمه الله فى أصله هنا ما صورته) :

أمراء الغرب ببيروت بيت حشمة ومكارم ؛ مقامهم بجبال الغرب من بلاد بيروت ، ولهم خدم على الناس وتفضيل ، وهم ينسبون الى الحسين بن اسحاق بن محمد التنوخى الذى مدحه أبو الطيب المتنبى بقوله :

شدوا بابن اسحاق الحسين فصافحت
وقاربها كيزانها والنمارق

---

(1) ص ١٧٠ جـ ٢ ، ط بولاق .

ثم كان كرامة بن بجير بن على بن ابراهيم ابن الحسين بن اسحاق بن محمد التنوخى . فهاجر الى الملك العادل نور الدين الشهيد محمود بن زنكى ، فأقطعه الغرب وما معه بامرته ، فسمى أمير الغرب . وكان منشوره بخط العماد الأصفهانى الكاتب .

فتحضر الأمير كرامة بعد البداوة ، وسكن حصن بلجمور من نواحى اقطاعه ، ويعلو على تل أعمال بغير بناء . ثم أنشأ أولاده هناك حصنا ، وما زالوا به .

وكان كرامة ثقيلا على صاحب بيروت ، وذلك أيام الفرنج ، فأراد أخذه مرارا فلم يجد اليه سبيلا . فأخذ فى الحيلة عليه ، وهادن أولاده وسالمهم حتى نزلوا الى الساحل ، وألفوا الصيد بالطير وغيره ، فراسلهم حتى صار يصطاد معهم ، وأكرمهم وحباهم وكساهم ، وما زال يستدرجهم مرة بعد مرة ، ثم أخرج ابنه معه وهو شاب ، وقال : قد عزمت على زواجه .

ثم دعا ملوك الساحل وأولاد كرامة الثلاثة فأتوه ، وتأخر أصغر أولاد كرامة مع أمه بالحصن فى عدة قليلة . فامتلأ الساحل بالشوانى والمدينة بالفرنج ، وتلقوهم بالشمع والأغانى ، فلما صاروا فى القلعة ، وجلسوا مع الملوك ، غدر بهم وأمسكهم وأمسك غلمانهم وغرقهم ، وركب بجموعه ليلا الى الحصن .

فأجفل الفلاحون والحريم والصبيان الى الجبال والشعر والكهوف ، وبلغ من بالحصن أن أولاد كرامة الثلاثة قد غرقوا ففتحوه . وخرجت أمهم ومعها ابنها حجى بن كرامة — وعمره سبع سنين — ولم يبق من بنيهم سواه . فأدرك السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، وتوجه اليه لما فتح صيدا وبيروت وباس رجله فى ركابه . فلمس بيده رأسه وقال له : أخذنا ثأرك طيب قلبك أنت مكان أبيك . وأمر له بكتابة أملاك أبيه بستين فارسا .

فلما كانت أيام المنصور قلاوون ، ذكر أولاد تغلب بن مسعر الشجاعى أن بيد الخليفة أملاكا عظيمة بغير استحقاق ومن جملتهم أمراء الغرب . فحملوا الى مصر ، ورسم السلطان باقطاع أملاك الجبلية مع بلاد طرابلس لأمرائها وجندها ، فأقطعت لعشرين فارسا من طرابلس . فلما كانت أيام الأشرف خليل بن قلاوون قدموا مصر ، وسألوا أن يخدموا على أملاكهم بالعدة ، فرسم لهم وأن يزيدوها عشرة أرماح .

فلما كان الروك الناصرى ، ونيابة الأمير تنكز بالشام ، وولاية علاء الدين بن سعيد كشف تلك الجهات ... رسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يستمر عليها بستين فارسا ، فاستمرت على ذلك .

ثم كان منهم الأمير ناصر الدين الحسين بن خضر بن محمد بن حجى بن كرامة بن بجير ابن على ، المعروف بابن أمير الغرب ، فكثرت مكارمه واحسانه وخدمته كل من يتوجه الى تلك الناحية . وكانت اقامته بقرية أعبية بالجبل ، وله دار حسنة فى بيروت . واتصلت خدمته الى كل غاد ورائح ، وباد الأكابر والأعيان ، مع رياسة كبيرة ، ومعرفة عدة صنائع يتقنها ، وكتابة جيدة ، وترسل وعدة

قصائد . ومولده فى محرم سنة ثمان وستين وستمائة ، وتوفى للنصف من شوال سنة احدى وخمسين وسبعمائة . انتهى .

(ووجد بخطه أيضا من أخبار اليمن ما مثاله) :

كان ابتداء دولة بنى زياد : أن محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن زياد سلمه المأمون ، مع عدة من بنى أمية ، الى الفضل بن سهل ابن ذى الرياستين . فورد على المأمون اختلال اليمن ، فأثنى الفضل على محمد هذا ، فبعثه المأمون أميرا على اليمن ، فحج ومضى الى اليمن ، وفتح بها من بعد محاربته العرب ، وملك اليمن ، وبنى مدينة زبيد فى سنة ثلاث ومائتين ، وبعث مولاه جعفرا بهدية جليلة الى المأمون فى سنة خمس ، وعاد اليه فى سنة ست ومعه من جهة المأمون ألفا فارس .

فقوى ابن زياد وملك جميع اليمن ، وقلد جعفرا الجبال ، وبنى بها مدينة الدمجرة . فظهرت كفاءة جعفر لكثرة دهائه ، فقتله ابن زياد ، ثم مات محمد بن زياد . فملك بعده * ابنه ابراهيم ، ثم ملك بعده ابنه أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم ، وطالت مدته ، ومات سنة احدى وسبعين وثلثمائة ، وترك طفلا اسمه زياد . فأقيم بعده ، وكفلته أخته هند ابنة اسحاق ، وتولى معها رشد عبد أبى الجيش حتى مات .

فولى بعد رشد عبده حسين بن سلامة — وكان عفيفا — فوزر لهند ولأخيها حتى ماتا .

ثم انتقل الملك الى طفل من آل زياد ، وقام بأمره عمته وعبد لحسين بن سلامة اسمه مرجان ، وكان لمرجان عبدان قد تغلبا على أمره — يقال لأحدهما قيس ، وللآخر نجاح — فتنافسا على الوزارة ، وكان قيس عسوفا ونجاح رفيقا ، وكان مرجان سيدهما يميل الى قيس ، وعمة الطفل تميل الى نجاح . فشكا قيس ذلك الى مرجان ، فقبض على الملك الطفل ابراهيم وعلى عمته تملك ، فبنى قيس عليهما جدارا . فكان ابراهيم آخر ملوك اليمن من آل زياد ، وكان القبض عليه وعلى عمته سنة سبع وأربعمائة . فكانت مدة بنى زياد مائتى سنة وأربعا وستين سنة .

فعظم قتل ابراهيم وعمته تملك على نجاح ، وجمع الناس ، وحارب قيسا بزبيد حتى قتل قيس ، وملك نجاح المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتى عشرة ، وقال لسيده مرجان : ما فعلت بمواليك وموالينا .

فقال : هم فى ذلك الجدار .

فأخرجهما وصلى عليهما ودفنهما ، وبنى عليهما مسجدا ، وجعل سيده مرجان موضعهما فى الجدار ، ووضع معه جثة قيس ، وبنى عليهما الجدار .

واستبد نجاح بمملكة اليمن ، وركب بالمظلة ، وضربت السكة باسمه . ونجاح مولى مرجان ، ومرجان مولى حسين بن سلامة ، وحسين مولى رشد ، ورشد مولى بنى زياد . ولم يزل نجاح ملكا حتى مات سنة اثنتين

(*) ص١٧١ ج٢ ط. بولاق .

وخمسين وأربعمائة ... ستة جارية أهداها اليه الصليحى . وترك من الأولاد عدة ، فملك منهم سعيد الأحول واخوته عدة سنين حتى استولى عليهم الصليحى ، فهربوا الى دهلك .

ثم قدم منهم جياش بن نجاح الى زبيد متنكرا ، وأخذ منها وديعة وعاد الى دهلك . فقدمها أخوه سعيد الأحول بعد ذلك واختفى بها ، واستدعى أخاه جياشا ، وسارا فى سبعين رجلا يوم التاسع من ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين ، وقصدوا الصليحى وقد سار الى الحج ، فوافوه عند بئر أم معبد ، وقتلوه فى ثانى عشرى ذى القعدة المذكور ، وقتل معه ابنه عبد الله واحتز سعيد رأسيهما ، واحتاط على امرأته أسماء بنت شهاب ، وعاد الى زبيد ومعه أخوه جياش ، والرأسان بين أيديهما على هودج أسماء ، وملك اليمن .

فجمع المكرم ابن أسماء ، فى سنة خمس وسبعين ، وسار من الجبال الى زبيد وقاتل سعيدا ، ففر سعيد ، وملك المكرم — واسمه أحمد — وأنزل رأس الصليحى وأخيه ودفنهما ، وولى زبيد خاله أسعد بن شهاب ، وماتت أسماء أمه بعد ذلك فى صنعاء سنة سبع وسبعين . ثم عاد ابنا نجاح الى زبيد ، وملكاها فى سنة تسع وسبعين ، ففر أسعد ابن شهاب . ثم غلبهما أحمد المكرم بن على الصليحى ، وقتل سعيد بن نجاح فى سنة احدى وثمانين ، وفر أخوه جياش الى الهند . ثم عاد وملك زبيد فى سنة احدى وثمانين المذكورة ، فولدت له جاريته الهندية ابنه الفاتك بن جياش .

وبقى المكرم فى الجبال يغير على بلاد جياش ، وجياش يملك تهامة حتى مات آخر سنة ثمان وتسعين . فملك بعده ابنه فاتك . وخالفه عليه أخوه ابراهيم ، ومات فاتك سنة ثلاث وخمسمائة . فملك بعده ابنه منصور بن فاتك وهو صغير ، فثار عليه عمه ابراهيم فلم يظفر ، وثار بزبيد عبد الواحد بن جياش وملكها ، فسار اليه عبد فاتك واستعادها .

ثم مات منصور ، وملك بعده ابنه فاتك بن منصور . ثم ملك بعده ابن عمه فاتك بن محمد بن فاتك بن جياش ، فى سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ، حتى قتل سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وهو آخر ملوك بنى نجاح . فتغلب على اليمن على بن مهدى فى سنة أربع وخمسين .

وأما « الصليحى » فانه على ابن القاضى محمد بن على . كان أبوه فى طاعته أربعون ألفا ، فأخذ ابنه التشيع عن عامر بن عبد الله الرواحى ، أحد دعاة المستضيء ، وصحبه حتى مات . وقد أسند اليه أمر الدعوة فقام بها ، وصار دليلا لحاج اليمن عدة سنين ، ثم ترك الدلالة فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، وصعد رأس جبل مسار فى ستين رجلا ، وجمع حتى ملك اليمن فى سنة خمس وخمسين وأقام على زبيد أسعد بن شهاب بن على الصليحى — وهو أخو زوجته وابن عمه — ثم انه حج فقتله بنو نجاح فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين .

واستقرت التهائم لبنى نجاح ، واستقرت صنعاء لأحمد بن على الصليحى المقتول ،

وتلقب بالملك المكرم ، ثم جمع وقصد سعيد ابن نجاح بزبيد ، وقاتله وهزمه الى دهلك ، وملك زبيد فى سنة خمس وسبعين . فساد سعيد وملك زبيد فى سنة تسع وسبعين ، فأتاه المكرم وقتله فى سنة احدى وثمانين . فملك جياش أخو سعيد .

ومات المكرم بصنعاء سنة أربع وثمانين . فملك بعده أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بن على الصليحى فى سنة أربع وثمانين ، حتى مات سنة خمس وتسعين . وهو آخر الصليحيين .

فملك بعده على بن ابراهيم بن نجيب الدولة . فقدم من مصر الى جبال اليمن فى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقام بأمر الدعوة والمملكة التى كانت بيد سبأ ، ثم قبض * عليه بأمر الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى بعد سنة عشرين وخمسمائة ، وانتقل الملك والدعوة الى الزريع بن عباس المكرم . وآل الزريع من آل عدن ، وهم من همدان ، ثم من جشم . وبنو المكرم يعرفون بآل الذئب .

وكانت عدن للزريع بن عباس وأحمد بن مسعود بن المكرم ، فقتلا على زبيد ، وولى بعدهما ولداهما أبو السعود بن زريع وأبو الغارات بن مسعود . ثم استولى على الملك والدعوة سبأ بن أبى السعود بن زريع حتى مات سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة . فولى بعده ولده الأعز على بن سبأ — وكان مقامه بالرمادة — فمات بالسل ، وملك أخوه المعظم محمد فى سنة ثمان وثلاثين . وولى من الصليحيين أيضا الملكة : السيدة سنة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحى ، زوجة أحمد المكرم ، ولقبت بالحرة ، ومولدها سنة أربعين وأربعمائة ، وربتها أسماء بنت شهاب ، وتزوجها الملك المكرم أحمد بن أسماء — وهو ابن على الصليحى — سنة احدى وستين ، وولاها الأمر فى حياته ، فقامت بتدبير المملكة والحروب ، وأقبل زوجها على لذاته حتى مات وتولى ابن عمه سبأ ، فاستمرت فى الملك حتى مات سبأ .

وتولى ابن نجيب الدولة حتى ماتت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وشاركه فى الملك المفضل أبو البركات بن الوليد الحميرى ، وكان يحكم بين يدى الملكة الحرة وهى من وراء الحجاب . ومات المفضل فى رمضان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وملك بلاده ابنه الملك المنصور منصور بن المفضل ، حتى ابتاع منه محمد بن سبأ بن أبى السعود معاقل الصليحيين ، وعدتها ثمانية وعشرون حصنا ، بمائة ألف دينار ، فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة . وبقى المنصور بعد حتى مات بعدما ملك نحو ثمانين سنة .

وأما « على بن مهدى » فانه حميرى من سواحل زبيد . كان أبوه مهدى رجلا صالحا ، ونشأ ابنه على طريقة حسنة ، وحج ووعظ . وكان فصيحا حسن الصوت ، عالما بالتفسير وغيره ، يتحدث بالمغيبات فتكون كما يقول ، وله عدة أتباع كثيرة وجموع عديدة . ثم قصد الجبال ، وأقام بها الى سنة احدى وأربعين وخمسمائة ، ثم عاد الى أملاكه ووعظ .

(*) ص١٧٢ جـ١ ، ط. بولاق .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقىّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

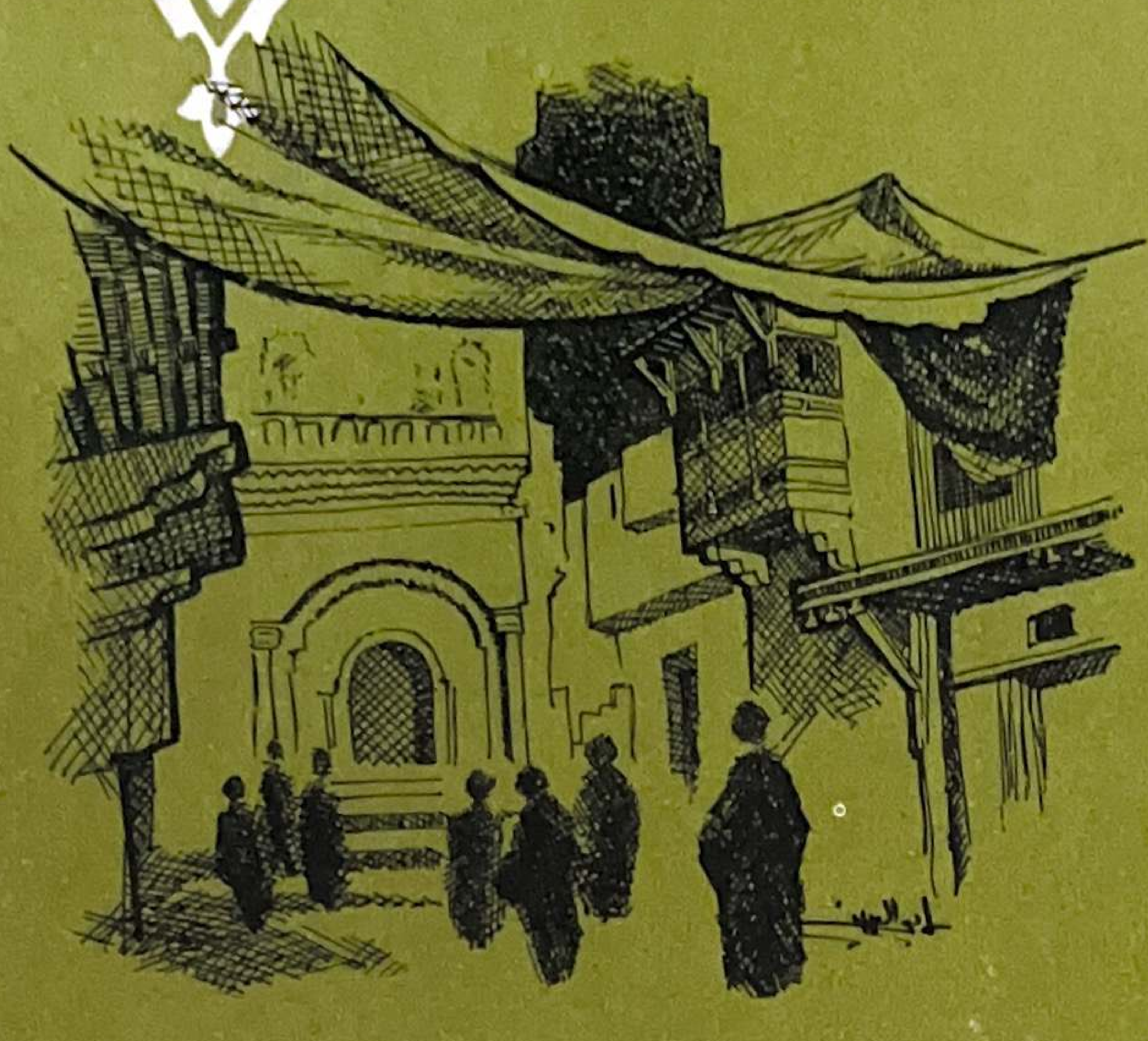
عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٣٢

كتاب التحرير



«كانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت منذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

ثم عاد الى الجبال ودعا الى نفسه . فأجابه بطن من خولان ، فسماهم الأنصار ، وسمى من صعد معه من تهامة المهاجرين ، وولى على خولان سبأ ، وعلى المهاجرين رجلا آخر ، وسمى كلا منهما شيخ الاسلام ، وجعلهما نقيبين على طائفتيهما فلا يخاطبه أحد غيرهما ، وهما يوصلان كلامه الى من تحت أيديهما .

وأخذ يغادى الغارات ويراوحها على التهائم حتى أجلى البوادى ، ثم حاصر زبيد حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بنى نجاح ، فحارب ابن مهدى عبيد فاتك حتى غلبهم ، وملك زبيد يوم الجمعة رابع عشر رجب سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، فبقى على الملك شهرين وأحدا وعشرين يوما ومات .

فملك بعده ابنه مهدى ، ثم عبد الغنى بن مهدى ، وخرجت المملكة عن عبد الغنى الى أخيه عبد الله ، ثم عادت الى عبد الغنى . واستقر حتى سار اليه توران شاه بن أيوب من مصر ، فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، وفتح اليمن ، وأسر عبد الغنى . وهو آخر ملوك بنى مهدى : يكفر بالمعاصى ، ويقتل من يخالف اعتقاده ، ويستبيح وطء نسائهم واسترقاق أولادهم . وكان حنفى الفروع ، ولأصحابه فيه غلو زائد ، ومن مذهبه قتل من شرب الخمر ومن سمع الغناء .

ثم ملك توران شاه بن أيوب عدن من ياسر وملك بلاد اليمن كلها ، واستقرت فى ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . وعاد شمس الدولة توران شاه بن أيوب الى مصر فى شعبان سنة ست وسبعين ، واستخلف على عدن عز الدين عثمان بن الزنجيلى ، وعلى زبيد حطان بن كليل بن منقذ الكافى ، فمات شمس الدولة بالاسكندرية ، فاختلف نوابه .

فبعث السلطان صلاح الدين يوسف جيشا فاستولى على اليمن ، ثم بعث فى سنة ثمان وسبعين أخاه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب . فقدم اليها وقبض على حطان بن كليل بن منقذ ، وأخذ أمواله — وفيها سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبا عينا — وسجنه ، فكان آخر العهد به ، ونجا عثمان بن الزنجيلى بأمواله الى الشام ، فظفر بها سيف الاسلام ، وصفت له مملكة اليمن حتى مات بها فى شوال سنة ثلاث وتسعين .

فأقيم بعده ابنه الملك المعز اسماعيل بن طغتكين بن أيوب ، فجعظ وادعى أنه أموى ، وخطب لنفسه بالخلافة ، وعمل طول كمه عشرين ذراعا . فثار عليه مماليكه وقتلوه فى سنة تسع وتسعين ، وأقاموا بعده أخاه الناصر ومات بعد أربع سنين . فقام من بعده زوج أمه غازى بن حزيل أحد الأمراء ، فقتله جماعة من العرب .

وبقى اليمن بغير سلطان ، فتغلبت أم الناصر على زبيد . فقدم سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن أيوب الى اليمن ، فعبر يحمل ركوته على كتفه ، فملكته أم الناصر البلاد وتزوجت به ، فاشتد ظلمه وعتوه ... الى أن قدم الملك المسعود أقسيس بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من مصر فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ، فقبض عليه وحمله الى مصر * ، فأجرى له الكامل ما يقوم

(*) ص١٧٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

به الى أن استشهد على المنصورة سنة سبع وأربعين وستمائة .

وأقام المسعود باليمن ، وحج وملك مكة أيضا فى شهر ربيع الأول سنة عشرين وستمائة وعاد الى اليمن ، ثم خرج عنها واستخلف عليها أستاداره على بن رسول ، فمات بمكة سنة ست وعشرين .

فقام على بن رسول على ملك اليمن حتى مات فى سنة تسع وعشرين ، واستقر عوضه ابنه عمر بن على بن رسول ، وتلقب بالمنصور حتى قتل سنة ثمان وأربعين . واستقر بعده ابنه المظفر يوسف بن عمر بن على بن رسول ، وصفا له اليمن ، وطالت أيامه .

انتهى ما ذكره المصنف بخطه فى تاريخه عفا الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مقره ومثواه .

***

(ووجد بخطه أيضا ما مثاله) :

السلطان محمد بن طغلق شاه ، وطغلق يلقب غياث الدين ، وهو مملوك السلطان علاء الدين محمود بن شهاب الدين مسعود ملك الهند . مقر ملكه مدينة دهلى ، وجميع البلاد برا وبحرا بيده الا الجزائر المغلغلة فى البحر ، وأما الساحل فلم يبق منه قيد شبر الا وهو بيده .

وأول ما فتح مملكة تكنك ... عدة قراها مائة ألف قرية وتسعمائة قرية . ثم فتح بلاد حاجنكيز ، وبها سبعون مدينة جليلة كلها بنادر على البحر .

ثم فتح بلاد لنكوتى ، وهى كرسى تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دواكير ، وبها أربع وثمانون قلعة كلها جليلات المقدار ، وبها ألف ألف قرية ومائتا ألف قرية . ثم فتح بلاد ورسند ، وكان بها ستة ملوك . ثم فتح بلاد المعبر ، وهو اقليم جليل له سبعون مدينة بنادر على البحر .

وجملة ما بيده ثلاثة وعشرون اقليما وهى اقليم دهلى ، واقليم الدواكير ، واقليم الملتان ، واقليم كهران ، واقليم سامان ، واقليم سوستان ، واقليم وجا ، واقليم هاسى ، واقليم سرستى ، واقليم المعبر ، واقليم تكنك ، كجرات ، واقليم بداون ، واقليم عوض ، واقليم التيوج ، واقليم لنكوتى ، واقليم بهار ، واقليم كرة ، واقليم ملاوة ، واقليم بهادر ، واقليم كلافور ، واقليم حاجنكيز ، واقليم بليخ ، واقليم ورسند .

وهذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة ومائتى مدينة .

ومدينة دهلى دور عمرانها أربعون ميلا ، وجملة ما يطلق عليه اسم دهلى احدى وعشرون مدينة ، وفى دهلى ألف مدرسة كلها للحنفية الا واحدة فانها للشافعية ، ونحو سبعين مارستانا ، وفى بلادها من الخوانك والربط نحو ألفين ، وبها جامع ارتفاع مئذنته ستمائة ذراع فى الهواء .

وللسلطان خدمة مرتين فى كل يوم : بكرة ، وبعد العصر . ورتب الأمراء على هذه الأنواع : أعلاهم قدرا الخانات ، ثم الملوك ، ثم الأمراء ، ثم الاسفهسلارية ، ثم الجند .

وفى خدمته ثمانون خانا ، وعسكره تسعمائة ألف فارس ، وله ثلاثة آلاف فيل تلبس فى الحروب البرك أسطونات الحديد المذهب ، وتلبس فى أيام السلم جلال الديباج وأنواع الحرير ، وتزين بالقصور والأسرة المصفحة ، ويشد عليها بروج الخشب يركب فيها الرجال للحرب ، فيكون على الفيل من عشرة رجال الى ستة .

وله عشرون ألف مملوك أتراك ، وعشرة آلاف خادم خصى ، وألف خازندار ، وألف مشبقدار ، ومائتا ألف عبد ركابية تلبس السلاح وتمشى بركابه وتقاتل رجالة بين يديه . والاسفهسلارية لا يؤهل منهم أحد لقرب السلطان ، وانما يكون منهم نوع الولاة .

والخان يكون له عشرة آلاف فارس ، وللملك ألف ، وللأمير مائة فارس ، وللاسفهسلار دون ذلك . ولكل خان عبرة لكين — كل لك مائة ألف تنكة ، كلُّ تنكة ثمانية دراهم — ولكل ملك من ستين ألف تنكة الى خمسين ألف تنكة ، ولكل أمير من أربعين ألف تنكة الى ثلاثين ألف تنكة ، ولكل اسفهسلار من عشرين ألف تنكة الى ما حولها ، ولكل جندى من عشرة آلاف تنكة الى ألف تنكة ، ولكل مملوك من خمسة آلاف تنكة الى ألف تنكة ، سوى طعامهم وكساويهم وعليقهم ، ولكل عبد فى الشهر منان من الحنطة والأرز ، وفى كل يوم ثلاثة أستار لحم وما يحتاج اليه ، وفى كل شهر عشر تنكات بيضاء ، وفى كل سنة أربع كساو .

وللسلطان دار طراز فيها أربعة آلاف قزاز لعمل أنواع القماش ، سوى ما يحمل له من الصين والعراق والاسكندرية ، ويفرق كل سنة مائتى ألف كسوة كاملة : فى فصل الربيع مائة ألف ، وفى فصل الخريف مائة ألف . ففى الربيع غالب الكسوة من عمل الاسكندرية ، وفى الخريف كلها حرير من عمل دار الطراز بدهلى وقماش الصين والعراق . ويفرق على الخوانك والربط الكساوى ، وله أربعة آلاف زركشى تعمل الزركش ، ويفرق كل سنة عشرة آلاف فرس مسرجة وغير مسرجة ، سوى ما يعطى الأجناد من البراذين فانه بلا حساب يعطى جشارات ، ومع هذا فالخيل عنده غالية مطلوبة .

وللسلطان نائب من الخانات — يسمى ابريت — اقطاعه قدر اقليم بحر العراق ، ووزير اقطاعه كذلك ، وله أربعة نواب مسمى كل واحد منهم من أربعين ألف تنكة الى عشرين ألف تنكة ، وله أربعة ريسان — أى كتاب سر — لكل واحد منهم ثلثمائة كاتب ، ولكل كاتب اقليم عشرة آلاف تنكة . ولصدر جهان — وهو قاضى القضاة — قرى يتحصل منها على نحو ستين ألف تنكة ، ولصدر الاسلام — وهو أكبر نواب القاضى — ولشيخ الاسلام — وهو شيخ الشيوخ — مثل ذلك ، وللمحتسب ثمانية آلاف تنكة *.

(*) ص١٧٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وله ألف طبيب ومائتا طبيب ، وعشرة آلاف بزدار تركب الخيل وتحمل طيور الصيد . وله ثلاثة آلاف سواق لتحصيل الصيد ، وخمسمائة نديم وألفان ومائتان للملاهي ، سوى مماليكه وهم ألف مملوك ، وألف شاعر باللغات العربية والفارسية والهندية يجرى عليهم ديوانه ، ومتى غنى أحد منهم لغيره قتله ، ولكل نديم قريتان أو قرية ، ومن أربعين ألف تنكة الى ثلاثين ألف تنكة الى عشرين ألف تنكة ، سوى الخلع والكساوى والافتقادات .

ويمد فى وقت كل خدمة فى المرتين من كل يوم سماط يأكل منه عشرون ألفا ، مثل الخانات والملوك والأمراء والاسفهسلارية وأعيان الأجناد . وله طعام خاص يأكل معه الفقهاء — وعدتهم مائتا فقيه — فى الغداء والعشاء ، فيأكلون ويتباحثون بين يديه . ويذبح فى مطابخه كل يوم ألفان وخمسمائة رأس من البقر ، وألفا رأس من الغنم ، سوى الخيل وأنواع الطير .

ولا يحضر مجلسه من الجند الا الأعيان ومن دعته ضرورة الى الحضور والندماء ، وأرباب الأغانى يحضرون بالنوبة ، وكذلك الريسان والأطباء ونحوهم لكل طائفة نوبة تحضر فيها الخدمة ، والشعراء تحضر فى العيدين والمواسم وأول شهر رمضان ، واذا تجدد نصر على عدو أو فتوح ونحو ذلك مما يعنى به السلطان .

وأمور الجند والعامة مرجعها الى أبرت ، وأمر القضاة كلهم مرجعه الى صدر جهان ، وأمر الفقهاء الى شيخ الاسلام ، وأمر الواردين والوافدين والأدباء والشعراء الى الريسان وهم كتاب السر .

وجهز هذا السلطان مرة أحد كتاب سره الى السلطان أبى سعيد رسولا ، وبعث معه ألف ألف تنكة ليتصدق بها فى مشاهد العراق ، وخمسمائة فرس . فقدم بغداد وقد مات أبو سعيد .

وكان هذا السلطان ترعد الفرائص لمهابته ، وتزلزل الأرض لموكبه : يجلس بنفسه لانصاف رعيته ولقراءة القصص عليه جلوسا عاما ، ولا يدخل أحد عليه ومعه سلاح ولو السكين ، ويجلس وعنده سلاح كامل لا يفارقه أبدا .

واذا ركب فى الحرب فلا يمكن وصف هيبته ، وله أعلام سود فى أوساطها تنابين من ذهب تسير عن يمينه ، وأعلام حمر فيها تنابين من ذهب تسير عن يساره ، ومعه مائتا جمل نقارات ، وأربعون جملا كوسات كبارا ، وعشرون بوقا ، وعشرة صنوج ، ويدق له خمس نوب كل يوم .

واذا خرج الى الصيد كان فى جف ، وعدة من معه زيادة على مائة ألف فارس ومائتى فيل ، وأربعة قصور خشب على ثمانمائة جمل ، كل قصر منها على مائتى جمل كلها ملبسة حريرا مذهبا ، كل قصر طبقتان سوى الخيم والجركاوات .

واذا انتقل من مكان الى مكان للنزهة ، يكون معه نحو ثلاثين ألف فارس ، وألف جنيب مسرجة ملجمة بالذهب المرصع بالجوهر والياقوت . واذا خرج فى قصره من موضع الى آخر ، يمر راكبا وعلى رأسه الجبر ،

والسلاح دارية وراءه بأيديهم السلاح ، وحوله نحو اثنا عشر ألف مملوك مشاة ، لا يركب منهم الا حامل الجبر والسلاح دارية والجمدارية حملة القماش .

واذا خرج للحرب أو سفر طويل ، حمل على رأسه سبع جبورة ، منها اثنان مرصعان ليس لهما قيمة ، وله فخامة عظيمة وقوانين وأوضاع جليلة . والخانات والملوك والأمراء لا يركب أحد منهم فى السفر والحضر الا بالأعلام ، وأكثر ما يحمل الخان سبعة أعلام ، وأكثر ما يحمل الأمير ثلاثة ، وأكثر ما يجره الخان فى الحضر عشرة جنائب ، وأكثر ما يجر الأمير فى الحضر جنيبان ، وأما فى السفر فحسبما يختار .

وكان للسلطان بر واحسان ، وفيه تواضع . ولقد مات عنده رجل فقير فشهد جنازته ، وحمل نعشه على عنقه . وكان يحفظ القرآن العزيز العظيم والهداية فى فقه الحنفية ، ويجيد علم المعقول ، ويكتب خطا حسنا ، ولذته فى الرياضة وتأديب النفس ، ويقول الشعر ويباحث العلماء ، ويؤاخذ الشعراء ، ويأخذ بأطراف الكلام على كل من حضر على كثرة العلماء عنده . والعلماء تحضر عنده ، وتفطر فى رمضان معه بتعيين صدر جهان لهم فى كل ليلة .

وكان لا يترخص فى محذور ، ولا يقر على منكر ، ولا يتجاسر أحد فى بلاده أن يتظاهر بمحرم . وكان يشدد فى الخمر ، ويبالغ فى العقوبة على من يتعاطاه من المقربين منه . وعاقب بعض أكابر الخانات على شرب الخمر ، وقبض عليه ، وأخذ أمواله . وجملتها أربعمائة ألف ألف مثقال وسبعة وثلاثين ألف ألف مثقال ذهبا أحمر ، زنتها ألف وسبعمائة قنطار بالمصرى .

وله وجوه بر كثيرة : منها أنه يتصدق فى كل يوم بلكين : عنهما من نقد مصر ألف ألف وستمائة ألف درهم ، وربما بلغت صدقته فى يوم واحد خمسين لكا ، ويتصدق عند كل رؤية هلال شهر بلكين دائما ، وعليه راتب لأربعين ألف فقير ، كل واحد منهم درهم فى كل يوم ، وخمسة أرطال بر وأرز ، وقرر ألف فقيه فى مكاتب لتعليم الأطفال القرآن ، وأجرى عليهم الأرزاق .

وكان لا يدع بدهلى سائلا ، بل يجرى على الجميع الأرزاق ، ويبالغ فى الاحسان الى الغرباء .

وقدم عليه رسول من أبى سعيد مرة بالسلام والتودد ، فخلع عليه وأعطاه حملا من المال . فلما أراد الانصراف أمره أن يدخل الخزانة ويأخذ * ما يختار ، فلم يأخذ غير مصحف ، فسأله عن ذلك فقال : قد أغنانى السلطان بفضله ، ولم أجد أشرف من كتاب الله . فزاد اعجابه به ، وأعطاه مالا جملته ثمانمائة تومان . والتوما عشرة آلاف دينار ، وكل دينار ستة دراهم ، تكون جملة ذلك ثمانية آلاف ألف دينار ، عنها ثمانية وأربعون ألف ألف درهم .

(*) ص١٧٥ ج٢ ، ط.بولاق »

وقصده شخص من بلاد فارس ، وقدم له كتبا فى الحكمة ، منها كتاب « الشفاء » لابن سينا ، فأعطاه جوهرا بعشرين ألف مثقال من الذهب . وقصده آخر من بخارى بحملى بطيخ أصفر ، فتلف غالبه حتى لم يبق منه الا اثنتان وعشرون بطيخة ، فأعطاه ثلاثة آلاف مثقال ذهبا . وكان قد التزم ألا ينطق فى اطلاقاته بأقل من ثلاثة آلاف مثقال ذهبا .

وبعث ثلاث لكوك ذهبا الى بلاد ما وراء النهر ليفرق على العلماء لك ، وعلى الفقراء لك ، ويبتاع له حوائج بلك . وبعث للبرهان الضياء عزمجى ، شيخ سمرقند ، بأربعين ألف تنكة .

وكان لا يفارق العلماء سفرا وحضرا . ومنار الشرع فى أيامه قائم ، والجهاد مستمر . فبلغ مبلغا عظيما فى اعلاء كلمة الايمان ، فنشر الاسلام فى تلك الأقطار ، وهدم بيوت النيران ، وكسر الندود والأصنام ، واتصل به الاسلام الى أقصى الشرق ، وعمر الجوامع والمساجد ، وأبطل التثويب فى الأذان ، ولم يخل له يوم من الأيام من بيع آلاف من الرقيق لكثرة السبى . حتى ان الجارية لا يتعدى ثمنها بمدينة دهلى ثمان تنكات ، والسرية خمس عشرة تنكة ، والعبد المراهق أربعة دراهم .

ومع رخص قيمة الرقيق فانه تبلغ قيمة الجارية الهندية عشرين ألف تنكة لحسنها ولطف خلقها ، وحفظها القرآن وكتابتها الخط ، وروايتها الأشعار والأخبار ، وجودة غنائها ، وضربها بالعود ، ولعبها بالشطرنج .

وهن يتفاخرن فتقول الواحدة : آخذ قلب سيدى فى ثلاثة أيام ، فتقول الأخرى : أنا آخذ قلبه فى يوم ، فتقول الأخرى : أنا آخذ قلبه فى ساعة ، فتقول الأخرى : أنا آخذ قلبه فى طرفة عين .

وكان ينعم على جميع من فى خدمته ، من أرباب السيوف والأقلام ، بكل جليل من البلاد والأموال والجواهر والخيول المجللة بالذهب وغير ذلك . الا الفيلة فانه لا يشاركه فيها أحد ، وللثلاثة آلاف فيل راتب عظيم ، فأكثرها مؤنة له فى كل يوم أربعون رطلا من أرز ، وستون رطلا من شعير ، وعشرون رطلا من سمن ، ونصف حمل من حشيش . وقيمها جليل القدر اقطاعه مثل اقليم العراق .

واذا وقف السلطان للحرب ، كان أهل العلم حوله ، والرماة قدامه ، وخلفه وأمامه الفيلة كما تقدم عليها الفيالة وقدامها العبيد المشاة ، والخيل فى الميمنة والميسرة . فتهيأ له من النصر ما لا تهيأ لأحد ممن تقدمه ، ففتح الممالك ، وهدم قواعد الكفار ، ومحا صور معابدهم ، وأبطل فخرهم .

وكان يجلس كل يوم ثلاثاء جلوسا عاما على تخت مصفح بالذهب ، وعلى رأسه جبر فى موكب عظيم ، وينادى مناديه : من له شكوى فى شخص ... فينظر فى ظلامات الناس . وكان لا يوجد بدهلى فى أيامه خمر ألبتة .

وأول من ملك مدينة دهلى قطب الدين أيبك . وذلك أن شهاب الدين محمد بن سالم بن الحسين ، أحد الملوك الغورية ، فتح

الهند بعد عدة حروب ، وأقطع مملوكه أيبك هذا مدينة دهلى . فبعث أيبك عسكرا عليه محمد بن بختيار ، فأخذ الى تخوم الصين ، وذلك كله فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة .

ثم ولى بعده أيتمش بن أيبك أربعين سنة ، فقام بعده ابنه علاء الدين على بن أيتمش بن أيبك ، ثم أخوه معز الدين بن أيتمش ، ثم أخته رضية خاتون فأقامت ثلاث سنين ، ثم أخوها ناصر الدين بن أيتمش ، فأقام أربعا وعشرين سنة ، ثم قام بعده مملوكه غياث الدين بليان سبعا وعشرين سنة ، ثم بعده معز الدين نيابا خمس سنين ، ثم ابنه شمس الدين كيمورس سبعة أشهر .

ثم خرج الملك عن بيت السلطان شمس الدين أيتمش ، وقويت التركمان العلجية — وكانوا أمراء يقال للواحد منهم خان — واستبد كبيرهم جلال الدين فيروز سبع سنين . ثم ابن أخيه علاء الدين محمود بن شهاب الدين مسعود اثنتين وعشرين سنة ، ومات سنة خمس عشرة وسبعمائة . ثم ابنه شهاب الدين عمر بن محمود بن مسعود سنة واحدة ، ولقب غياث الدين . ثم أخوه قطب الدين مبارك بن محمود أربع سنين ، وقتل سنة عشرين وسبعمائة . ثم علاء الدين خسرو مملوك علاء الدين محمود ، سبعة أشهر .

وملك غياث الدين طغلق شاه ، مملوك السلطان علاء الدين محمود بن مسعود ، فى أول شعبان سنة عشرين وسبعمائة . ثم ملك بعده ابنه محمد بن طغلق شاه صاحب الترجمة .

هذا آخر ما وجد بخطه رحمه الله تعالى .

(ووجد بخطه أيضا رحمه الله تعالى) :

ما أحسن قول الأديب محمد بن حسن بن شاور النقيب :

مشت أيامكم لا بل نراها ... جرت جريا على غير اعتياد
وما عقدت نواصيها بخير ... ولا كانت تعد من الجياد

« بدخشان » : مدينة فيما وراء النهر . بها معدن اللعل البدخشانى — وهو المسمى بالبلخش — وبها معدن اللازورد الفائق * ، وهما فى جبل بها يحفر عليهما فى معادنهما ، فيوجد اللازورد بسهولة ، ولا يوجد اللعل الا بتعب كبير وانفاق زائد ، وقد لا يوجد بعد التعب الشديد والنفقة الكثيرة ، ولهذا عز وجوده وغلت قيمته .

وأقصر ليل بلغار بالبحرين أربع ساعات ونصف . وأقصر ليل أفتكون ثلاث ساعات ونصف ، فهو أقصر من ليل بلغار بساعة واحدة . وبين بلغار وأفتكون مسافة عشرين يوما بالسير المعتاد . انتهى .

« السلطانية » : من عراق العجم . بناها السلطان محمد خدابنده أوكانيق بن أرغون ابن أبغا بن هولاكو . وخدابنده ملك بعد أخيه محمود غازان ، وملك بعد خدابنده ابنه السلطان أبو سعيد بهادر خان ، وكان الشيخ حسن بن حسين بن آقبغا مع قائد السلطان محمد بن طشتمر بن استيمر بن عترجى . ومذ مات أبو سعيد لم يجمع بعده على طاعة ملك ، بل تفرقوا ، وقام فى كل ناحية قائم . انتهى .

(*) ص١٧٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

(ووجد بخطه أيضا ما نصه) :

ولله در أبى اسحاق الأديب حيث قال :

اذا كنت قد أيقنت أنك هالك
فمالك مما دون ذلك تشفق
ومما يشين المرء ذا الحلم أنه
يرى الأمر حتما واقعا ثم يقلق

وحيث يقول :

ومن ضوى الخمسين من عمره
لاقى أمورا فيه مستنكره
وان تخطاها رأى بعدها
من حادثات الدهر ما لم يره

انتهى ما وجد بخطه فى أصله .

ذكر الجزائر

اعلم أن الجزائر التى هى الآن فى بحر النيل كلها حادثة فى الملة الاسلامية ، ما عدا الجزيرة التى تعرف اليوم بالروضة تجاه مدينة مصر . فان العرب لما دخلوا مع عمرو بن العاص الى مصر وحاصروا الحصن — الذى يعرف اليوم بقصر الشمع فى مصر — حتى فتحه الله تعالى عنوة على المسلمين ، كانت هذه الجزيرة حينئذ تجاه القصر . ولم يبلغنى الى الآن متى حدثت ، وأما غيرها من الجزائر فكلها قد تجددت بعد فتح مصر .

ويقال — والله أعلم — ان بلهيب ، الذى يعرف اليوم بأبى الهول ، طلسم وضعه القدماء لقلب الرمل عن بر مصر الغربى الذى يعرف اليوم ببر الجيزة . وانه كان فى البر الشرقى ، بجوار قصر الشمع ، صنم من حجارة على مسامتة أبى الهول — بحيث لو امتد خيط من رأس أبى الهول وخرج على استواء لسقط على رأس هذا الصنم — وكان مستقبل المشرق ، وانه وضع أيضا لقلب الرمل عن البر الشرقى .

فقدر الله سبحانه وتعالى أن كسر هذا الصنم على يد بعض أمراء الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى سنة احدى عشرة وسبعمائة ، وحفر تحته حتى بلغ الحفر الى الماء ظنا أنه يكون هناك كنز ، فلم يوجد شىء ، وكان هذا الصنم يعرف عند أهل مصر بسرية أبى الهول . فكان عقيب ذلك غلبة النيل على البر الشرقى ، وصارت هذه الجزائر الموجودة اليوم .

وكذلك قام شخص من صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر ، فى تغيير المنكر أعوام بضع وثمانين وسبعمائة . فشوه وجوه سباع الحجر التى على قناطر السباع خارج القاهرة وشوه وجه أبى الهول ، فغلب الرمل على أراضى الجيزة . ولا ينكر ذلك ، فلله فى خليقته أسرار يطلع عليها من يشاء من عباده ، والكل بخلقه وتقديره .

وقد ذكر الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه ، فى كتاب « أخبار مصر » فى خبر الواحات الداخلة ، أن فى تلك الصحارى كانت أكثر مدن ملوك مصر العجيبة وكنوزهم ، الا أن الرمال غلبت عليها ... قال : ولم يبق بمصر

ملك الا وقد عمل للرمال طلسما لدفعها ، ففسدت طلسماتها لقدم الزمان .

وذكر ابن يونس ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه قال : انى لأعلم السنة التى تخرجون فيها من مصر .

قال ابن سالم ، فقلت له : ما يخرجنا منها ياأبا محمد ، أعدو ؟

قال : لا ، ولكنكم يخرجكم منها نيلكم هذا ... يغور فلا تبقى منه قطرة حتى تكون فيه الكثبان من الرمل ، وتأكل سباع الأرض حيتانه .

وقال الليث عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير قال : ان الصحابى حدثه أنه سمع كعبا يقول : ستعرك العراق عرك الأديم ، وتفت مصر فت البعرة .

قال الليث ، وحدثنى رجل عن وهب المعافرى أنه قال : وتشق الشام شق الشعرة .

وسأذكر من خبر هذه الجزائر المشهورة ما وصلت الى معرفته ان شاء الله تعالى .

ذكر الروضة

اعلم أن الروضة تطلق فى زماننا هذا على الجزيرة التى بين مدينة مصر ومدينة الجيزة . وعرفت فى أول الاسلام * بالجزيرة وبجزيرة مصر ، ثم قيل لها جزيرة الحصن ، وعرفت الى اليوم بالروضة . والى هذه الجزيرة انتقل المقوقس لما فتح الله تعالى على المسلمين القصر وصار بها هو ومن معه من جموع الروم والقبط .

وبها أيضا بنى أحمد بن طولون الحصن ، وبها كانت الصناعة — يعنى صناعة السفن الحربية ، أى كانت بها دار الصناعة — وبها كان الجنان والمختار ، وبها كان الهودج الذى بناه الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية ، وبها بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة الصالحية ، وبها الى اليوم مقياس النيل .

وسأورد من أخبار الروضة هنا مالا تجده مجتمعا فى غير هذا الكتاب .

قال ابن عبد الحكم — وقد ذكر محاصرة المسلمين للحصن — : فلما رأى القوم الجد من المسلمين على فتح الحصن والحرص ، ورأوا صبرهم على القتال ورغبتهم فيه ، خافوا أن يظهروا عليهم . فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط ، وخرجوا من باب الحصن القبلى — ودونهم جماعة يقاتلون العرب — فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم ، وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل .

وتخلف فى الحصن بعد المقوقس الأعرج . فلما خاف فتح باب الحصن ، خرج هو وأهل القوة والشرف — وكانت سفنهم ملصقة بالحصن — ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة .

قال : وكان بالجزيرة (يعنى بعد فتح مصر) فى أيام عبد العزيز بن مروان ، أمير مصر ،

(*) ص١٧٧ جـ٢ ، ط.بولاق م

خمسمائة فاعل معدة لحريق يكون فى البلد او هدم .

وقال القضاعى : جزيرة فسطاط مصر — قال الكندى : بنيت بالجزيرة الصناعة فى سنة أربع وخمسين ، وحصن الجزيرة بناه أحمد ابن طولون فى سنة ثلاث ومائتين ليحرز فيه حرمه وماله . وكان سبب ذلك مسير موسى بن بغا العراقى من العراق واليا على مصر وجميع أعمال ابن طولون ، وذلك فى خلافة المعتمد على الله . فلما بلغ أحمد بن طولون مسيره ، استعد لحربه ومنعه من دخول أعماله .

فلما بلغ موسى بن بغا الى الرقة ، تثاقل عن المسير لعظم شأن ابن طولون وقوته . ثم عرضت لموسى علة طالت به وكان بها موته ، وثار عليه الغلمان وطلبوا منه الأرزاق ، وكان ذلك سبب تركه المسير . فلم يلبث موسى بن بغا أن مات ، وكفى ابن طولون أمره . ولم يزل هذا الحصن على الجزيرة حتى أخذه النيل شيئا بعد شىء ، وقد بقيت منه بقايا متقطعة الى الآن .

وقد اختصر القاضى القضاعى رحمه الله فى ذكر سبب بناء ابن طولون حصن الجزيرة .

وقد ذكر جامع « سيرة ابن طولون » أن صاحب الزنج لما تقدم البصرة ، فى سنة أربع وخمسين ومائتين ، واستفحل أمره ... أنفذ اليه أمير المؤمنين المعتمد على الله تعالى ، أبو العباس أحمد ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن الرشيد ، رسولا فى حمل أخيه الموفق بالله أبى أحمد طلحة من مكة اليه — وكان الخليفة المهتدى بالله محمد ابن الواثق بن المعتصم نفاه اليها — فلما وصل اليه ، جعل العهد بالخلافة من بعده لابنه المفوض ، وبعد المفوض تكون الخلافة للموفق طلحة ، وجعل غرب الممالك الاسلامية للمفوض وشرقها للموفق ، وكتب بينهما بذلك كتابا ارتهن فيه أيمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط .

وكان الموفق يحسد أخاه المعتمد على الخلافة ولا يراه أهلا لها . فلما جعل المعتمد الخلافة من بعده لابنه ثم للموفق بعده ، شق ذلك عليه ، وزاد فى حقده .

وكان المعتمد مشتغلا بملاذ نفسه من الصيد واللعب والتفرد بجواريه ، فضاعت الأمور ، وفسد تدبير الأحوال ، وفاز كل من كان متقلدا عملا بما تقلده .

وكان فى الشروط التى كتبها المعتمد بين المفوض والموفق : أنه ما حدث فى عمل كل واحد منهما من حدث ، كانت النفقة عليه من مال خراج قسمه .

واستخلف على قسم ابنه المفوض موسى بن بغا ، فاستكتب موسى بن بغا عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وانفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق ، وتقدم الى كل منهما ألا ينظر فى عمل الآخر ، وخلد كتاب الشروط بالكعبة وأفرد الموفق لمحاربة صاحب الزنج ، وأخرجه اليه وضم معه الجيوش .

فلما كبر أمره ، وطالت محاربته اياه ، وانقطعت مواد خراج المشرق عن الموفق ، وتقاعد التابع عن حمل المال الذى كان يحمل

فى كل عام ، واحتجوا بأشياء ... دعت الضرورة الموفق الى أن كتب الى أحمد بن طولون — وهو يومئذ أمير مصر — فى حمل ما يستعين به فى حروب صاحب الزنج .

وكانت مصر فى قسم المفوض لأنها من الممالك الغربية . الا أن الموفق شكا فى كتابه الى ابن طولون شدة حاجته الى المال بسبب ما هو بسبيله ، وأنفذ مع الكتاب نحريرا خادم المتوكل ليقبض منه المال . فما هو الا أن ورد نحرير على ابن طولون بمصر ، واذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه يأمره فيه بحمل المال اليه على رسمه ، مع ما جرى الرسم بحمله مع المال فى كل سنة من الطراز والرقيق والخيل والشمع وغير ذلك ، وكتب أيضا الى أحمد بن طولون كتابا فى السر « ان الموفق انما أنفذ نحريرا اليك عينا ومستقصيا على أخبارك ، وانه قد كاتب بعض أصحابك ، فاحترس منه ، واحمل المال الينا ، وعجل انفاذه » .

وكان نحرير لما قدم الى مصر أنزله أحمد ابن طولون معه فى داره بالميدان * ومنعه من الركوب ، ولم يمكنه من الخروج من الدار التى أنزله بها حتى سار من مصر ، وتلطف فى الكتب التى أجاب بها الموفق . ولم يزل بنحرير حتى أخذ جميع ما كان معه من الكتب التى وردت من العراق الى مصر ، وبعث معه الى الموفق ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار وما جرى الرسم بحمله من مصر ، وأخرج معه العدول ، وسار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش ، وأرسل الى ماخور متولى الشام ، فقدم عليه بالعريش ، وسلمه اليه هو والمال ، وأشهد عليه بتسليم ذلك . ورجع الى مصر ، ونظر فى الكتب التى أخذها من نحرير ، فاذا هى الى جماعة من قواده باستمالتهم الى الموفق ، فقبض على أربابها ، وعاقبهم حتى هلكوا فى عقوبته .

فلما وصل جواب ابن طولون الى الموفق ومعه المال ، كتب اليه كتابا ثانيا يستقل فيه المال ، ويقول : ان الحساب يوجب أضعاف ما حملت . وبسط لسانه بالقول ، والتمس فيمن معه من يخرج الى مصر ويتقلدها عوضا عن ابن طولون ، فلم يجد أحدا عوضه لما كان من كيس أحمد بن طولون وملاطفته وجوه الدولة .

فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال : وأى حساب بينى وبينه ، أو حال توجب مكاتبتى بهذا أو غيره ؟

وكتب اليه بعد البسملة : « وصل كتاب الأمير ، أيده الله تعالى ، وفهمته . وكان ، أسعده الله ، حقيقا بحسن التخير لمثلى ، وتصييره اياى عمدته التى يعتمد عليها ، وسيفه الذى يصول به ، وسنانه الذى يتقى الأعداء بحده ، لأنى دائب فى ذلك ، وجعلته وكدى ، واحتملت الكلف العظام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة ، واستدعاء كل منعوت بغنى وكفاية ، بالتوسعة عليهم ، وتواصل الصلات والمعاون لهم : صيانة لهذه الدولة ، وذبا عنها ، وحسما لأطماع المتشوفين لها والمنحرفين عنها ...

(*) ص١٧٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

« ومن كانت هذه سبيله فى الموالاة ، ومنهجه فى المناصحة ، فهو حرى أن يعرف له حقه ، ويوفر من الاعظام قدره ، ومن كل حال جليلة حظه ومنزلته ...

« فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما أمر به ، والجفاء فى المخاطبة بغير حال توجب ذلك ، ثم أكلف على الطاعة جعلا ، وألزم فى المناصحة ثمنا . وعهدى بمن استدعى ما استدعاه الأمير من طاعته أن يستدعيه بالبذل والاعطاء والارغاب والارضاء والاكرام لا أن يكلف ويحمل من الطاعة مؤنة وثقلا ...

« وانى لا أعرف السبب الذى يوجب الوحشة ، ويوقعها بينى وبين الأمير — أيده الله تعالى — ولا ثم معاملة تقتضى معاملة أو تحدث منافرة ، لأن العمل الذى أنا بسبيله لغيره ، والمكاتبة فى أموره الى من سواه ، ولا أنا من قبله . فانه والأمير جعفرا المفوض — أيده الله تعالى — قد اقتسما الأعمال ، وصار لكل واحد منهما قسم قد انفرد به دون صاحبه ، وأخذت عليه البيعة فيه أنه من نقض عهده ، أو أخفر ذمته ولم يف لصاحبه بما أكد على نفسه ، فالأمة بريئة منه ومن بيعته ، وفى حل وسعة من خلفه ...

« والذى عاملنى به الأمير من محاولة صرفى مرة ، واسقاط رسمى أخرى ، وما يأتيه ويسومنيه ناقض لشرطه مفسد لعهده . وقد التمس أوليائى ، وأكثروا الطلب فى اسقاط اسمه وازالة رسمه ، فآثرت الابقاء وان لم يؤثره ، واستعملت الأناة اذ لم تستعمل معى ، ورأيت الاحتمال والكظم أشبه بذوى المعرفة والفهم ، فصبرت نفسى على أحر من الجمر وأمر من الصبر ، وعلى ما لا يتسع به الصدر ...

« والأمير ، أيده الله تعالى ، أولى من أعاننى على ما أوثره من لزوم عهده ، وأتوخاه من تأكيد عقده ، بحسن العشرة والانصاف ، وكف الأذى والمضرة ، وألا يضطرنى الى ما يعلم الله عز وجل كرهى له : أن أجعل ما قد أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة ، والعساكر المتضاعفة التى قد ضرست رجالها من الحروب ، وجرت عليهم محن الخطوب ، مصروفا الى نقضها ...

« فعندنا وفى حيزنا من يرى أنه أحق بهذا الأمر وأولى من الأمير ، ولو أمنونى على أنفسهم — فضلا عن أن يعثروا منى على ميل أو قيام بنصرتهم — لاشتدت شوكتهم ، ولصعب على السلطان معاركتهم . والأمير يعلم أن بازائه منهم واحدا قد كبر عليه ، وفض كل جيش أنهضه اليه ، على أنه لا ناصر له الا لفيف البصرة وأوباش عامتها ، فكيف من يجد ركنا منيعا وناصرا مطيعا ؟..

« وما مثل الأمير فى أصالة رأيه يصرف مائة ألف عنان عدة له ، فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك . فان يكن من الأمير اعتاب أو رجوع الى ما هو أشبه به وأولى ، والا رجوت من الله عز وجل كفاية أمره ، وحسم مادة شره ، واجراءنا فى الحياطة على أجمل عادته عندنا . والسلام » .

فلما وصل الكتاب الى الموفق أقلقه ، وبلغ منه مبلغا عظيما ، وأغاظه غيظا شديدا . وأحضر موسى بن بغا — وكان عون الدولة

وأشد أهلها بأسا واقداما — فتقدم اليه فى صرف أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها ماخور . فامتثل ذلك ، وكتب الى ماخور كتاب التقليد وأنفذه اليه . فلما وصل اليه الكتاب ، توقف عن ارساله الى أحمد بن طولون لعجزه عن مناهضته .

وخرج موسى بن بغا عن الحضرة مقدرا أنه يدور عمل المفوض ليحمل الأموال منه ، وكتب الى ماخور أمير الشام والى أحمد بن طولون أمير مصر — لما بلغه * من توقف ماخور عن مناهضته — يأمرهما بحمل الأموال ، وعزم على قصد مصر والايقاع بابن طولون ، واستخلاف ماخور عليها ، فسار الى الرقة .

وبلغ ذلك ابن طولون فأقلقه وغمه ، لا لأنه يقصر عن موسى بن بغا ، لكن لتحمله هتك الدولة ، وأن يأتى سبيل من قاوم السلطان وحاربه وكسر جيوشه . الا أنه لم يجد بدا من المحاربة ليدفع عن نفسه ، وتأمل مدينة فسطاط مصر ، فوجدها لا تؤخذ الا من جهة النيل . فأراد — لكبر همته ، وكثرة فكره فى عواقب الأمور — أن يبنى حصنا على الجزيرة التى بين الفسطاط والجيزة ليكون معقلا لحرمه وذخائره ، ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتى من البر .

وقد زاد فكره فيمن يقدم من النيل . فأمر ببناء الحصن على الجزيرة ، واتخذ مائة مركب حربية سوى ما ينضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابيك وقوارب الخدمة . وعمد الى سد وجه البحر الكبير ، وأن يمنع ما يجىء اليه من مراكب طرسوس ، وغيرها من البحر الملح الى النيل ، بأن توقف هذه المراكب الحربية فى وجه البحر الكبير خوفا مما سيجىء من مراكب طرسوس — كما فعل محمد بن سليمان من بعده بأولاده ، كأنه ينظر الى الغيب من ستر رقيق — وجعل فيها من يذب عن هذه الجزيرة ، وأنفذ الى الصعيد والى أسفل الأرض بمنع من يحمل الغلال الى البلاد ، ليمنع من يأتى من البر الميرة .

وأقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر ، وقد اضطربت عليه الأتراك ، وطالبوه بأرزاقهم مطالبة شديدة ، بحيث استتر منهم كاتبه عبيد الله بن سليمان لتعذر المال عليه وخوفه على نفسه منهم . فخاف موسى بن بغا عند ذلك ، ودعته ضرورة الحال الى الرجوع ، فعاد الى الحضرة ولم يقم بها سوى شهرين ، ومات من علة فى صفر سنة أربع وستين ومائتين * .

هذا وأحمد بن طولون يجد فى بناء الحصن على الجزيرة ، وقد ألزم قواده وثقاته أمر الحصن ، وفرقه عليهم قطعا قام كل واحد بما لزمه من ذلك ، وكد نفسه فيه . وكان يتعاهدهم بنفسه فى كل يوم ، وهو فى غفلة عما صنعه الله تعالى له من الكفاية والغنى عما يعانيه . ومن كثرة ما بذل فى هذا العمل قدر أن كل طوبة منه وقفت عليه بدرهم صحيح .

(*) ص١٧٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ولما تواترت الأخبار بموت موسى بن بغا ، كف عن العمل ، وتصدق بمال كثير شكرا لله تعالى على ما منّ به عليه من صيانته عما يقبح فيه عنه الأحدوثة .

وما رأى الناس شيئا كان أعظم من عظيم الجد فى بناء هذا الحصن ، ومباكرة الصناع له فى الأسحار حتى فرغوا منه ، فانهم كانوا يخرجون اليه من منازلهم فى كل بكرة من تلقاء أنفسهم من غير استحثاث ، لكثرة ما سخا به من بذل المال . فلما انقطع البناء لم ير أحد من الصناع التى كانت فيه مع كثرتها ، كأنما هى نار صب عليها ماء فطفئت لوقتها . ووهب للصناع مالا جزيلا ، وترك لهم جميع ما كان سلفا معهم . وبلغ مصروف هذا الحصن ثمانين ألف دينار ذهبا .

وكان مما حمل أحمد بن طولون على بناء الحصن أن الموفق أراد أن يشغل قلبه ، فسرقت نعله من بيت حظية لا يدخلها الا ثقاته ، وبعثها الموفق اليه ، فقال له الرسول : من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الذى تعرفه ، أليس هو بقادر على أخذ روحك ؟ فوالله أيها الأمير لقد قام عليه أخذ هذه النعل بخمسين ألف دينار . فعند ذلك أمر ببناء الحصن .

وقال أبو عمر الكندى فى كتاب « أمراء مصر » : وتقدم أبو أحمد الموفق الى موسى ابن بغا فى صرف أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها ماخور التركى . فكتب موسى بن بغا بذلك الى ماخور — وهو والى دمشق يومئذ — فتوقف لعجزه عن مقاومة أحمد بن طولون ، فخرج موسى بن بغا فنزل الرقة .

وبلغ ابن طولون أنه سائر اليه ، ولم يجد بدا من محاربته . فأخذ أحمد بن طولون فى الحذر منه ، وابتدأ فى ابتناء الحصن الذى بالجزيرة التى بين الجسرين ، ورأى أن يجعله معقلا لماله وحرمه ، وذلك فى سنة ثلاث وستين ومائتين . واجتهد أحمد بن طولون فى بناء المراكب الحربية ، وأطافها بالجزيرة ، وأظهر الامتناع من موسى بن بغا بكل ما قدر عليه .

وأقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر ، وأحمد بن طولون فى احكام أموره ، واضطربت أصحاب موسى بن بغا عليه ، وضاق بهم منزلهم ، وطالبوا موسى بالمسير أو الرجوع الى العراق ... فبينا هو كذلك توفى موسى بن بغا فى سنة أربع وستين ومائتين .

وقال محمد بن داود لأحمد بن طولون وفيه تحامل :

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملا ساقيه زرقا الى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنا يستجن به بالعسف والضرب والصناع فى تعب
وراقب الجيزة القصوى فخندقها وكاد يصعق من خوف ومن رعب
له مراكب فوق النيل راكدة فما سوى القار للنظار والخشب

ترى عليها لباس الذل مذ بنيت بالشط ممنوعة من عزة الطلب *
فما بناها لغزو الروم محتسبا لكن بناها غداة الروع والعطب

وقال سعيد بن القاضى من أبيات :

وان جئت رأس الجسر فانظر تأملا الى الحصن أو فاعبر اليه على الجسر
ترى أثرا لم يبق من يستطيعه من الناس فى بدو البلاد ولا حضر
مآثر لا تبلى وان باد أهلها ومجد يؤدى وارثيه الى الفخر

وما زال حصن الجزيرة هذا عامرا أيام بنى طولون ، وعملت فيه صناعة مصر التى تنشأ فيها المراكب الحربية . فاستمر صناعة الى أن تقلد الأمير محمد بن طغج الاخشيد امارة مصر من قبل أمير المؤمنين الراضى بالله ، وسير مراكب من الشام عليها صاعد بن الكلكم ، فدخل تنيس ، وصارت مقدمته فى البر ، ودخل صاعد دمياط ، وسار فهزم جيش مصر الذى جهزه أحمد بن كيغلغ اليه بتدبير محمد ابن على الماردانى على بحيرة نوسا ، وأقبل فى مراكبه الى الفسطاط فكان بالجزيرة .

وقدم محمد بن طغج ، وتسلم البلد لست بقين من رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، وفر منه جماعة الى الفيوم . فخرج اليهم صاعد بن الكلكم فى مراكبه ، وواقعهم بالفيوم فقتل فى عدة من أصحابه ، وقدمت الجماعة فى مراكب ابن كلكم ، فأرسوا بجزيرة الصناعة وحرقوها ، ثم مضوا الى الاسكندرية وساروا الى برقة . فقال محمد ابن طغج : الصناعة هنا خطأ . وأمر بعمل صناعة فى بر مصر .

وحكى ابن زولاق فى « سيرة محمد بن طغج » أنه قال : أذكر أنى كنت آكل مع أبى منصور تكين أمير مصر ، وجرى ذكر الصناعة فقال تكين : صناعة يكون بيننا وبينها بحر خطأ . فأشارت الجماعة بنقلها ، فقال : الى أى موضع ؟ فأردت أن أشير عليه بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان ، ثم سكت ، وقلت أدع هذا الرأى لنفسى اذا ملكت مصر ، فبلغت ذلك والحمد لله وحده .

ولما أخذ محمد بن طغج دار خديجة كان يتردد اليها حتى عملت . فلما ابتدأوا بانشاء المراكب فيها ، صاحت به امرأة ، فقال : خذوها . فساروا بها الى داره ، فأحضرها مساء ، واستخبرها عن أمرها . فقالت : ابعث معى من يحمل المال .

فأرسل معها جماعة الى دار خديجة هذه ، فدلتهم على مكان استخرجوا منه عينا وورقا وحليا وثيابا وعدة ذخائر لم ير مثلها ، وصاروا بها الى محمد بن طغج . فطلب المرأة ليكافئها على ما كان منها ، فلم توجد . فكان هذا أول مال وصل الى محمد بن طغج بمصر .

قال : واستدعى محمد بن طغج الاخشيد صالح بن نافع وقال له : كان فى نفسى اذا ملكت مصر أن أجعل صناعة العمارة فى دار ابنة الفتح ، وأجعل موضع الصناعة من

(*) ص١٨٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

الجزيرة بستانا أسميه المختار . فاركب وخط لى بستانا ودارا ، وقدر لى النفقة عليها .

فركب صالح بجماعة ، وخطوا بستانا فيه دار للغلمان ودار للنوبة وخزائن للكسوة وخزائن للطعام ، وصوروه وأتوا به ، فاستحسنه وقال : كم قدرتم النفقة ؟

قالوا : ثلاثين ألف دينار .

فاستكثرها ... فلم يزالوا يضعون من التقدير حتى صار خمسة آلاف دينار . فأذن فى عمله . ولما شرعوا فيه ألزمهم المال من عندهم ، فقسط على جماعة ، وفرغ من بنائه . فاتخذه الاخشيد متنزها له ، وصار يفاخر به أهل العراق .

وكان نقل الصناعة من الجزيرة الى ساحل النيل بمصر فى شعبان سنة خمس وعشرين وثلثمائة .

فلم يزل البستان المختار متنزها الى أن زالت الدولة الاخشيدية والكافورية ، وقدمت الدولة الفاطمية من بلاد المغرب الى مصر . فكان يتنزه فيه المعز لدين الله معد وابنه العزيز بالله نزار ، وصارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس لها وال وقاض ، وكان يقال القاهرة ومصر والجزيرة .

فلما كانت أيام استيلاء الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وحجره على الخلفاء ، أنشأ فى بحرى الجزيرة مكانا نزها سماه الروضة ، وتردد اليها ترددا كثيرا ، فكان يسير فى العشاريات الموكبيات من دار الملك التى كانت سكنه بمصر الى الروضة ، ومن حينئذ صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة . فلما قتل الأفضل بن أمير الجيوش ، واستبد الخليفة الآمر بأحكام الله أبو على منصور بن المستعلى بالله ، أنشأ بجوار البستان المختار من جزيرة الروضة ، مكانا لمحبوبته العالية البدوية سماه الهودج .

« الهودج » : قال ابن سعيد فى كتاب « المحلى بالأشعار » عن تاريخ القرطبى : قد أكثر الناس فى حديث البدوية وابن مياح من بنى عمها ، وما يتعلق بذلك من ذكر الخليفة الآمر بأحكام الله ، حتى صارت رواياتهم فى هذا الشأن كأحاديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك .

والاختصار منه أن يقال ان الخليفة الآمر كان قد ابتلى بعشق الجوارى العربيات ، وصارت له عيون فى البوادى . فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرف نسائهم شاعرة جميلة .

فيقال انه تزيا بزى بداة الأعراب ، وصار يجول فى الأحياء الى أن انتهى الى حيها ، وبات هناك * فى ضائقة ، وتحيل حتى عاينها فما ملك صبره ، ورجع الى مقر ملكه وسرير خلافته ، فأرسل الى أهلها يخطبها ، فأجابوه الى ذلك وزوجوها منه .

فلما صارت الى القصور ، صعب عليها مفارقة ما اعتادت ، وأحبت أن تسرح طرفها فى الفضاء ، ولا تقبض نفسها تحت حيطان المدينة . فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة

(*) ص١٨١ جـ٢ ، ط. بولاق .

الفسطاط المعروف بالهودج ، وكان على شاطىء النيل فى شكل غريب .

وكان بالاسكندرية القاضى مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد ، قد استولى على أمورها ، وصار قاضيها وناظرها ، ولم يبق لأحد معه فيها كلام ، وضمن أموالها بجملة يحملها .

وكان ذا مروءة عظيمة يحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة ، وممن مدحه ظافر الحداد ، وأمية بن أبى الصلت ، وجماعة . وكان الأفضل بن أمير الجيوش اذا أراد الاعتناء بأحد كتب معه كتابا الى ابن حديد هذا ، فيغنيه بكثرة عطائه .

وكان له بستان يتفرج فيه ، به جرن كبير من رخام قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته ، وكان يجد فى نفسه برؤية هذا الجرن زيادة على أهل النعم ، ويباهى به أهل عصره . فوشى به للبدوية محبوبة الخليفة ، فطلبته من الخليفة ، فأنفذ فى الحال باحضاره .

فلم يسع ابن حديد الا أن قلعه من مكانه ، وبعث به وفى نفسه حزازة من أخذه منه ، وخدم البدوية ، وخدم جميع من يلوذ بها ، حتى قالت : هذا الرجل أخجلنا بكثرة هداياه وتحفه ، ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا .

فلما بلغه ذلك عنها قال : ما لى حاجة ، بعد الدعاء لله تعالى بحفظ مكانها وطول حياتها ، غير رد الجرن الذى أخذ من دارى التى بنيتها فى أيامى من نعمهم الى مكانه .

فلما سمعت هذا عنه تعجبت منه ، وأمرت برد الجرن اليه . فقيل له : قد وصلت الى حد أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب ، فنزلت همتك الى قطعة حجر !

فقال : أنا أعرف بنفسى ... ما كان لها أمل سوى ألا تغلب فى أخذ ذلك الجرن من مكانه ، وقد بلغها الله أملها .

وبقيت البدوية متعلقة الخاطر بابن عم لها ربيت معه يعرف بابن مياح ، فكتبت اليه وهى بقصر الخليفة الآمر :

يا ابن مياح اليك المشتكى / مالك من بعدكم قد ملكا
كنت فى حيى مرأ مطلقا / نائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مؤصد / لا أرى الا حبيسا ممسكا
كم تثنينا بأغصان اللوا / حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى / حيثما شاء طليق سلكا

فأجابها :

بنت عمى والتى غذيتها / بالهوى حتى علا واحتنكا
بحت بالشكوى وعندى ضعفها / لو غدا ينفع منها المشتكى
مالك الأمر اليه يشتكى / هالك وهو الذى قد هلكا

سأل داود غدا فى عصرة
مبديا باتيه ما قد ملكا

فبلغت الآمر ، فقال : لولا أنه أساء الأدب فى البيت الرابع لرددتها الى حيه ، وزوجتها به .

قال القرطبي : وللناس فى طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول .

وكان من عرب طيء فى عصر الخليفة الآمر طراد بن مهلهل . فلما بلغه قضية الآمر مع العالية البدوية قال :

ألا أبلغوا الآمر المصطفى
مقال طراد ونعم المقال
قطعت الأليفين عن ألفة
بها سمر الحى بين الرجال
كذا كان آباؤك الأقدمون
سألت فقل لى جواب السؤال

فلما بلغ الآمر شعره ، قال : جواب السؤال قطع لسانه على فضوله . وأمر بطلبه فى أحياء العرب ، ففر ولم يقدر عليه ، فقالت العرب : ما أخسر صفقة طراد ، باع أبيات الحى بثلاثة أبيات !

ولم يزل الآمر يتردد الى الهودج بالروضة للتنزهة فيه . الى أن ركب من القصر بالقاهرة يريد الهودج ، فى يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، فلما كان برأس الجسر وثب عليه قوم من النزارية ، قد كمنوا له فى فرن تجاه رأس الجسر بالروضة ، وضربوه بالسكاكين حتى أثخنوه ، وجرحوا جماعة من خدامه ، فحمل الى منظرة اللؤلؤة بشاطئ الخليج وقد مات *.

ذكر قلعة الروضة

اعلم أنه ما برحت جزيرة الروضة متنزها ملوكيا ومسكنا للناس ، كما تقدم ذكره ، الى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب سلطنة مصر ، فأنشأ القلعة بالروضة . فعرفت بقلعة المقياس ، وبقلعة الروضة ، وبقلعة الجزيرة ، وبالقلعة الصالحية .

وشرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان ، وابتدأ بنيانها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشره .

وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة ، وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها ، وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقياس وأدخلها فى القلعة .

وأنفق فى عمارتها أموالا جمة ، وبنى فيها الدور والقصور ، وعمل لها ستين برجا ، وبنى بها جامعا ، وغرس بها جميع الأشجار ، ونقل اليها عمد الصوان من البرابى وعمد الرخام ، وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب ، وما يحتاج اليه من الغلال والأزواد والأقوات ، خشية

(*) ص١٨٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

من محاصرة الفرنج فانهم كانوا حينئذ على عزم قصد بلاد مصر .

وبالغ فى اتقانها مبالغة عظيمة ، حتى قيل انه استقام كل حجر فيها بدينار ، وكل طوبة بدرهم .

وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل ، فصارت تدهش من كثرة زخرفتها ، وتحير الناظر اليها من حسن سقوفها المزينة وبديع رخامها .

ويقال انه قطع من الموضع الذى أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة ، كان رطبها يهدى الى ملوك مصر لحسن منظره وطيب طعمه ، وخرب الهودج والبستان المختار ، وهدم ثلاثة وثلاثين مسجدا عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين لذكر الله تعالى واقامة الصلوات .

واتفق له فى هدم بعض هذه المساجد خبر غريب . قال الحافظ جمال الدين يوسف ابن أحمد بن محمود بن أحمد الأسدى ، الشهير باليغمورى : سمعت الأمير الكبير الجواد جمال الدين أبا الفتح موسى ابن الأمير شرف الدين يغمور بن جلدك بن عبد الله ... قال : ومن عجيب ما شاهدته من الملك الصالح أبى الفتوح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ، رحمه الله تعالى ، أنه أمرنى أن أهدم مسجدا كان فى جوار داره بجزيرة مصر .

فأخرت ذلك ، وكرهت أن يكون هدمه على يدى ، فأعاد الأمر وأنا أكاسر عنه . وكأنه فهم منى ذلك ، فاستدعى بعض خدمه من نوابى وأنا غائب ، وأمره أن يهدم ذلك المسجد ، وأن يبنى فى مكانه قاعة ، وقدر له صفتها . فهدم ذلك المسجد ، وعمر تلك القاعة مكانه وكملت .

وقدمت الفرنج الى الديار المصرية ، وخرج الملك الصالح مع عساكره اليهم ، ولم يدخل تلك القاعة التى بنيت فى المكان الذى كان مسجدا . فتوفى السلطان فى المنصورة ، وجعل فى مركب ، وأتى به الى الجزيرة ، فجعل فى تلك القاعة التى بنيت مكان المسجد مدة الى أن بنيت له التربة التى فى جنب مدارسه بالقاهرة فى جانب القصر ، عفا الله عنه .

وكان النيل — عندما عزم الملك الصالح على عمارة قلعة الروضة — من الجانب الغربى ، فيما بين الروضة وبر الجيزة ، وقد انطرد عن بر مصر ، ولا يحيط بالروضة الا فى أيام الزيادة . فلم يزل يغرق السفن فى البر الغربى ، ويحفر فيما بين الروضة ومصر ما كان هناك من الرمال ، حتى عاد ماء النيل الى بر مصر ، واستمر هناك ، فأنشأ جسرا عظيما ممتدا من بر مصر الى الروضة ، وجعل عرضه ثلاث قصبات .

وكان الأمراء اذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة ، يترجلون عن خيولهم عند البر ، ويمشون فى طول هذا الجسر الى القلعة ، ولا يمكن أحد من العبور عليه راكبا سوى السلطان فقط .

ولما كملت تحول اليها بأهله وحرمه ، واتخذها دار ملك ، وأسكن فيها معه مماليكه البحرية ، وكانت عدتهم نحو الألف مملوك .

قال العلامة على بن سعيد فى « كتاب المغرب » وقد ذكر الروضة : هى أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجيزة ، وبها مقياس النيل ، وكانت متنزها لأهل مصر . فاختارها الصالح بن الكامل سرير السلطنة ، وبنى بها قلعة مسورة بسور ساطع اللون ، محكم البناء عالى السمك ، لم تر عينى أحسن منه .

وفى هذه الجزيرة كان الهودج الذى بناه الآمر خليفة مصر لزوجته البدوية التى هام فى حبها ، والمختار بستان الاخشيد وقصره ، وله ذكر فى شعر تميم بن المعز وغيره . ولشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار ، منها قول أبى الفتح بن قادوس الدمياطى :

أرى سرح الجزيرة من بعيد
كأحداق تغازل فى مغازل
كأن مجرة الجوزا أحاطت
وأثبتت المنازل فى المنازل

وكنت أشق فى بعض الليالى بالفسطاط على ساحلها ، فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل أمام سور هذه الجزيرة الدرى اللون . ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة ، وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت اليه * همة بانيها ، وهو من أعظم السلاطين همة فى البناء .

وأبصرت فى هذه الجزيرة ايوانا لجلوسه لم تر عينى مثاله ، ولا أقدر ما أنفق عليه ، وفيه من صفائح الذهب والرخام الأبنوسى والكافورى والمجزع ما يذهل الأفكار ، ويستوقف الأبصار .

ويفضل عما أحاط به السور أرض طويلة ، وفى بعضها حائر حظر به على أصناف الوحوش التى يتفرج عليها السلطان ، وبعدها مروج ينقطع فيها مياه النيل فينظر بها أحسن منظر .

وقد تفرجت كثيرا فى طرف هذه الجزيرة مما يلى بر القاهرة ، فقطعت فيه عشيات مذهبات لم تزل لأحزان الغربة مذهبات .

واذا زاد النيل فصل ما بينها وبين الفسطاط بالكلية . وفى أيام احتراق النيل يتصل برها ببر الفسطاط من جهة خليج القاهرة ، ويبقى موضع الجسر فيه مراكب .

وركبت مرة هذا النيل أيام الزيادة مع الصاحب المحسن محيى الدين بن ندا وزير الجزيرة ، وصعدنا الى جهة الصعيد ، ثم انحدرنا واستقبلنا هذه الجزيرة ، وأبراجها تتلألأ والنيل قد انقسم عنها ، فقلت :

تأمل لحسن الصالحية اذ بدت
وأبراجها مثل النجوم تلالا
وللقلعة الغراء كالبدر طالعا
تفرج صدر الماء عنه هلالا
ووافى اليها النيل من بعد غاية
كما زار مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شوق لحسنها
فمد يمينا نحوها وشمالا
جرى قادما بالسعد فاختط حولها
من السعد أعلاما فزاد دلالا

(*) ص١٨٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

ولم تزل هذه القلعة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب . فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى — أول ملوك الترك بمصر — أمر بهدمها ، وعمر منها مدرسته المعروفة بالمعزية فى رحبة الحناء بمدينة مصر . وطمع فى القلعة من له جاه ، فأخذ جماعة منها عدة سقوف وشبابيك كثيرة وغير ذلك ، وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

فلما صارت مملكة مصر الى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، اهتم بعمارة قلعة الروضة ، ورسم للأمير جمال الدين موسى بن يغمور أن يتولى اعادتها كما كانت . فأصلح بعض ما تهدم فيها ، ورتب فيها الجاندراية ، وأعادها الى ما كانت عليه من الحرمة .

وأمر بأبراجها ففرقت على الأمراء ، وأعطى برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاوون الألفى والبرج الذى يليه للأمير عز الدين الحلى ، والبرج الثالث من بروج الزاوية للأمير عز الدين أرغان ، وأعطى برج الزاوية الغربى للأمير بدر الدين الشمسى ، وفرقت بقية الأبراج على سائر الأمراء ، ورسم أن تكون بيوتات جميع الأمراء واصطبلاتهم فيها ، وسلم المفاتيح لهم .

فلما تسلطن الملك المنصور قلاوون الألفى ، وشرع فى بناء المارستان والقبة والمدرسة المنصورية ، نقل من قلعة الروضة هذه ما يحتاج اليه من عمد الصوان وعمد الرخام التى كانت قبل عمارة القلعة فى البرابى ، وأخذ منها رخاما كثيرا وأعتابا جليلة مما كان فى البرابى وغير ذلك . ثم أخذ منها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ما احتاج اليه من عمد الصوان فى بناء الايوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل والجامع الجديد الناصرى ظاهر مدينة مصر ، وأخذ غير ذلك حتى ذهبت كأن لم تكن .

وتأخر منها عقد جليل ، تسميه العامة القوس ، كان مما يلى جانبها الغربى . أدركناه باقيا الى نحو سنة عشرين وثمانمائة ، وبقى من أبراجها عدة قد انقلب أكثرها ، وبنى الناس فوقها دورهم المطلة على النيل .

قال ابن المتوج : ثم اشترى الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب جزيرة مصر ، المعروفة اليوم بالروضة ، فى شعبان سنة ست وستين وخمسمائة . وانما سميت بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها ، وبحر النيل حائز لها ودائر عليها . وكانت حصينة وفيها من البساتين والعمائر والثمار مالم يكن فى غيرها .

ولما فتح عمرو بن العاص مصر تحصن الروم بها مدة . فلما طال حصارها وهرب الروم منها ، خرب عمرو بن العاص بعض أبراجها وأسوارها ، وكانت مستديرة عليها ، واستمرت الى أن عمر حصنها أحمد بن طولون فى سنة ثلاث وستين ومائتين ، ولم يزل هذا الحصن حتى خربه النيل .

ثم اشتراها الملك المظفر تقى الدين عمر المذكور ، وبقيت على ملكه ... الى أن سير السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولده الملك العزيز عثمان الى مصر ومعه عمه الملك

العادل ، وكتب الى الملك المظفر بأن يسلم لهما البلاد ويقدم عليه الى الشام .

فلما ورد عليه الكتاب ، ووصل ابن عمه الملك العزيز وعمه الملك العادل ، شق عليه خروجه من الديار المصرية ، وتحقق أنه لا عود له اليها أبدا . فوقف هذه المدرسة التى تعرف اليوم فى مصر بالمدرسة التقوية — التى كانت تعرف بمنازل العز — ووقف عليها * الجزيرة بكاملها ، وسافر الى عمه فملكه حماة .

ولم يزل الحال كذلك . الى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فاستأجر الجزيرة من القاضى فخر الدين أبى محمد عبد العزيز ابن قاضى القضاة عماد الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد العلى بن عبد القادر السكرى ، مدرس المدرسة المذكورة ، لمدة ستين سنة فى دفعتين ، كل دفعة قطعة : فالقطعة الأولى من جامع غين الى المناظر طولا وعرضا من البحر الى البحر ، واستأجر القطعة الثانية وهى باقى أرض الجزيرة بما فيها من النخل والجميز والغروس .

فانه لما عمر الملك الصالح مناظر قلعة الجزيرة ، قطعت النخل ودخلت فى العمائر . وأما الجميز فانه كان بشاطىء بحر النيل صف جميز يزيد على أربعين شجرة ، وكان أهل مصر فرجهم تحتها فى زمن النيل والربيع ، قطعت جميعها فى الدولة الظاهرية ، وعمر بها شوانى عوض الشوانى التى كان قد سيرها الى جزيرة قبرس .

ثم سلم لمدرس التقوية القطعة المستأجرة من الجزيرة أولا فى سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وبقى بيد السلطان القطعة الثانية .

وقد خربت قلعة الروضة ، ولم يبق منها سوى أبراج قد بنى الناس عليها ، وبقى أيضا عقد باب من جهة الغرب يقال له باب الاصطبل . وعادت الروضة بعد هدم القلعة منها متنزها يشتمل على دور كثيرة ، وبساتين عدة ، وجوامع تقام بها الجماعات والأعياد ومساجد . وقد خرب أكثر مساكن الروضة ، وبقى فيها الى اليوم بقايا .

وبطرف الروضة « المقياس » الذى يقاس فيه ماء النيل اليوم ، ويقال له المقياس الهاشمى ، وهو آخر مقياس بنى بديار مصر .

قال أبو عمر الكندى : وورد كتاب المتوكل على الله بابتناء المقياس الهاشمى للنيل ، وبعزل النصارى عن قياسه . فجعل يزيد بن عبد الله بن دينار ، أمير مصر ، أبا الرداد المعلم . وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب الخراج فى كل شهر سبعة دنانير ، وذلك فى سنة سبع وأربعين ومائتين . وعلامة وفاء النيل ستة عشر ذراعا أن يسبل أبو الرداد ، قاضى البحر ، الستر الأسود الخليفى على شباك المقياس ، فاذا شاهد الناس هذا الستر قد أسبل تباشروا بالوفاء ، واجتمعوا على العادة للفرجة من كل صوب .

وما أحسن قول شهاب الدين بن العطار فى تهتك الناس يوم تخليق المقياس :

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم
ما أحسن الستر ، قالوا العفو مأمولُ

(*) ص١٨٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

ستر الاله علينا لا يزال فما
أحلى تهتكنا والستر مسبول

« جزيرة الصابونى » : هذه الجزيرة تجاه رباط الآثار ، والرباط من جملتها . وقفها أبو الملوك نجم الدين أيوب بن شادى وقطعة من بركة الحبش ، فجعل نصف ذلك على الشيخ الصابونى وأولاده ، والنصف الآخر على صوفية بسكان بجوار قبة الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ، يعرف اليوم بالصابونى .

« جزيرة الفيل » : هذه الجزيرة هى الآن بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة ، وتتصل بمنية الشيرج من بحريها ، ويمر النيل من غربيها ، وبها جامع تقام به الجمعة وسوق كبير وعدة بساتين جليلة .

وموضعها كله مما كان غامرا بالماء فى الدولة الفاطمية . فلما كان بعد ذلك انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل ، وترك فى مكانه ، فربا عليه الرمل ، وانطرد عنه الماء . فصارت جزيرة فيما بين المنية وأرض الطبالة سماها الناس جزيرة الفيل .

وصار الماء يمر من جوانبها : فغربيها تجاه بر مصر الغربى ، وشرقيها تجاه البعل ، والماء فيما بينها وبين البعل — الذى هو الآن قبالة قناطر الأوز — فان الماء كان يمر بالمقس من تحت زربية جامع المقس الموجود الآن على الخليج الناصرى ، ومن جامع المقس على أرض الطبالة الى غربى المصلى حتى ينتهى من تجاه التاج الى المنية .

وصارت هذه الجزيرة فى وسط النيل ، وما برحت تتسع الى أن زرعت فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . فوقفها على المدرسة التى أنشأها بالقرافة بجوار قبر الشافعى رضى الله عنه ، وكثرت أطيانها بانحسار النيل عنها فى كل سنة .

فلما كان فى أيام الملك المنصور قلاوون الألفى ، تقرب مجد الدين أبو الروح عيسى ابن عمر بن خالد بن عبد المحسن بن الخشاب ، المتحدث فى الأحباس ، الى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بأن فى أطيان هذه الجزيرة زيادة على ما وقفه السلطان صلاح الدين .

فأمر بقياس ما تجدد بها من الرمال ، وجعلها لجهة الوقف الصلاحى ، وأقطع الأطيان القديمة التى كانت فى الوقف ، وجعلها هى التى زادت .

فلما أمر الملك المنصور قلاوون بعمل المارستان المنصورى ، وقف بقية الجزيرة عليه . فغرس الناس بها الغروس ، وصارت بساتين ، وسكن الناس من المزارعين هناك .

فلما كانت أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد عوده الى قلعة الجبل من الكرك ، وانحسر النيل عن جانب المقس الغربى * ، وصار ما هنالك رمالا متصلة من بحريها بجزيرة الفيل المذكورة ، ومن قبليها بأراضى اللوق ... افتتح الناس باب العمارة بالقاهرة ومصر ، فعمروا فى تلك الرمال المواضع التى تعرف اليوم ببولاق خارج المقس ، وأنشأوا بجزيرة الفيل البساتين والقصور .

واستجد ابن المغربى الطبيب بستانا اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص ، للأمير

(*) ص١٨٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

سيف الدين طشتمر الساقى ، بنحو المائة ألف درهم فضة : عنها زهاء خمسة آلاف مثقال ذهبا .

وتابع الناس فى انشاء البساتين حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة . وحكر ما كان منها وقفا على المدرسة المجاورة للشافعى رضى الله عنه ، وما كان فيها من وقف المارستان ، وغرس ذلك كله بساتين ، فصارت تيف على مائة وخمسين بستانا الى سنة وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ونصب فيها سوق كبير يباع فيه أكثر ما يطلب من المآكل ، وابتنى الناس بها عدة دور وجامعا ، فبقيت قرية كبيرة .

وما زالت فى زيادة ونمو . فأنشأ قاضى القضاة جلال الدين القزوينى رحمه الله ، الدار المجاورة لبستان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب على النيل ، فجاءت فى غاية من الحسن . فلما عزل عن قضاء القضاة وسار الى دمشق ، اشتراها الأمير بشتاك بثلاثين ألف درهم ، وخربها وأخذ منها رخاما وشبابيك وأبوابا ، ثم باع باقى نقضها بمائة ألف درهم . فربح الباعة فى ذلك شيئا كثيرا .

ونودى على زريبتها فحكرت ، وعمر عليها الناس عدة أملاك ، واتصلت العمارة بالأملاك من هذه الزريبة الى منية الشيرج . ثم خربت شيئا بعد شىء ، وبقى ما على هذه الزريبة من الأملاك ، وهى تعرف اليوم بدار الطنبدى التاجر .

وأما بساتين الجزيرة فلم تزل عجبا من عجائب الدنيا ، من حسن المنظر وكثرة المتحصل . الى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فتلاشت وخرب كثير منها لغلو العلوفات من الفول والتبن ، وشدة ظلم الدولة ، وتعطل معظم سوقها . وفيها الى الآن بقية صالحة .

« جزيرة أروى » : هذه الجزيرة تعرف بالجزيرة الوسطى ، لأنها فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر الجيزة ، لم ينحسر عنها الماء الا بعد سنة سبعمائة .

وأخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء اسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومى ، عن الطبيب الفاضل شمس الدين محمد بن الأكفانى ، أنه كان يمر بهذه الجزيرة أول ما انكشفت ، ويقول : هذه الجزيرة تصير مدينة — أو قال تصير بلدة — على الشك منى . فاتفق ذلك ، وبنى الناس فيها الدور الجليلة والأسواق والجامع والطاحون والفرن ، وغرسوا فيها البساتين ، وحفروا الآبار ، وصارت من أحسن متنزهات مصر يحف بها الماء .

ثم صار ينكشف ما بينها وبين بر القاهرة ، فاذا كانت أيام زيادة ماء النيل أحاط الماء بها ، وفى بعض السنين يركبها الماء ، فتمر المراكب بين دورها وفى أزقتها . ثم لما كثر الرمل فيما بينها وبين البر الشرقى — حيث كان خط الزريبة وفم الخور — قل الماء هناك ، وتلاشت مساكن هذه الجزيرة منذ كانت الحوادث فى سنة ست وثمانمائة ، وفيها الى اليوم بقايا حسنة .

« الجزيرة التى عرفت بحليمة » : هذه الجزيرة خرجت ، فى سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، ما بين بولاق والجزيرة الوسطى . سمتها العامة بحليمة ، ونصبوا فيها عدة أخصاص ، بلغ مصروف الخص الواحد منها ثلاثة آلاف درهم نقرة فى ثمن رخام ودهان . فكان فيها من هذه الأخصاص عدة وافرة ، وزرع حول كل خص من المقاثى وغيرها ما يستحسن .

وأقام أهل الخلاعة والمجون هناك ، وتهتكوا بأنواع المحرمات ، وتردد الى هذه الجزيرة أكثر الناس حتى كادت القاهرة ألا يثبت بها أحد .

وبلغ أجرة كل قصبة بالقياس فى هذه الجزيرة ، وفى الجزيرة التى عرفت بالطمية فيما بين مصر والجيزة ، مبلغ عشرين درهما نقرة ، فوقف الفدان هناك بمبلغ ثمانية آلاف درهم نقرة ، ونصبت فى هذه الأفدنة الأخصاص المذكورة ، وكان الانتفاع بها فيما ذكر نحو ستة أشهر من السنة ، فعلى ذلك يكون الفدان فيها بمبلغ ستة عشر ألف درهم نقرة ، وأتلف الناس هناك من الأموال ما يجل وصفه .

فلما كثر تجاهرهم بالقبيح ، قام الأمير أرغون العلائى ، مع الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ، فى هدم هذه الأخصاص التى بهذه الجزيرة قياما زائدا حتى أذن له فى ذلك . فأمر والى مصر والقاهرة ، فنزلا على حين غفلة ، وكبسا الناس ، وأراقا الخمور ، وحرقا الأخصاص . فتلف للناس فى النهب والحريق وغير ذلك شىء كثير الى الغاية والنهاية .

وفى هذه الجزيرة يقول الأديب ابراهيم المعمار :

جزيرة البحر جنت بها عقول سليمة
لماحوت حسن مغنى ببسطة مستقيمة
وكم يخوضون فيها وكم مشوا بنميمة *
ولم تزل ذا احتمال ما تلك الا حليمة

ذكر السجون

قال ابن سيده : السجن الحبس ، والسجان صاحب السجن ، ورجل سجين مسجون ... قال : وحبسه يحبسه حبسا فهو محبوس وحبيس ، واحتبسه وحبسه أمسكه عن وجهه .

وقال سيبويه : حبسه ضبطه ، واحتبسه اتخذه حبسا ، والمحبس والمحبسة والمحتبس اسم الموضع .

وقال بعضهم : المحبس يكون مصدرا كالحبس ، ونظيره : الى الله مرجعكم ، أى رجوعكم . ويسألونك عن المحيض ، أى الحيض .

وروى الامام أحمد وأبو داود من حديث بهز بن حكيم ، عن أبيه عن جده رضى الله عنهم ، قال : ان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، حبس فى تهمة .

(*) ص١٨٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وفي جامع الجلال عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حبس فى تهمة يوما وليلة .

فالحبس الشرعى ليس هو السجن فى مكان ضيق ، وانما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه . سواء كان فى بيت أو مسجد ، أو كان يتولى نفس الخصم أو وكيله عليه ، وملازمته له . ولهذا سماه النبى صلى الله عليه وسلم أسيرا .

كما روى أبو داود وابن ماجة ، عن الهرماس بن حبيب عن أبيه رضى الله عنهما ، قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم بغريم لى ، فقال لى : « الزمه » . ثم قال لى : « ياأخا بنى تميم ، ما تريد أن تفعل بأسيرك» ، وفى رواية ابن ماجة : ثم مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بى آخر النهار ، فقال : « مافعل أسيرك ياأخا بنى تميم » ؟

وهذا كان هو الحبس على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ولم يكن له محبس معد لحبس الخصوم . ولكن لما انتشرت الرعية فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ابتاع من صفوان بن أمية رضى الله عنه دارا بمكة بأربعة آلاف درهم ، وجعلها سجنا يحبس فيها .

ولهذا تنازع العلماء : هل يتخذ الامام حبسا على قولين : فمن قال لا يتخذ حبسا ، احتج بأنه لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لخليفته من بعده حبس ، ولكن يعوقه بمكان من الأمكنة ، أو يقيم عليه حافظا — وهو الذى يسمى الترسيم — أو يأمر غريمه بملازمته . ومن قال له أن يتخذ حبسا ، احتج بفعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ومضت السنة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، أنه لا يحبس على الديون ، ولكن يتلازم الخصمان . وأول من حبس على الدين شريح القاضى .

وأما الحبس الذى هو الآن ، فانه لا يجوز عند أحد من المسلمين . وذلك أنه يجمع الجمع الكثير فى موضع يضيق عنهم ، غير متمكنين من الوضوء والصلاة ، وقد يرى بعضهم عورة بعض ، ويؤذيهم الحر فى الصيف والبرد فى الشتاء ، وربما يحبس أحدهم السنة وأكثر ولا جدة له ، وان أصل حبسه على ضمان .

وأما سجون الولاة فلا يوصف ما يحل بأهلها من البلاء ، واشتهر أمرهم أنهم يخرجون مع الأعوان فى الحديد حتى يشحذوا ، وهم يصرخون فى الطرقات : الجوع . فما تصدق به عليهم لا ينالهم منه الا ما يدخل بطونهم ، وجميع ما يجتمع لهم من صدقات الناس يأخذه السجان وأعوان الوالى ، ومن لم يرضهم بالغوا فى عقوبته .

وهم مع ذلك يستعملون فى الحفر وفى العمائر ، ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ، والأعوان تستحثهم . فاذا انقضى عملهم ردوا الى السجن فى حديدهم من غير أن يطعموا شيئا الى غير ذلك مما لا يسع حكايته هنا . وقد قيل ان أول من وضع السجن والحرس معاوية .

وقد كان فى مدينة مصر وفى القاهرة عدة سجون ، وهى : حبس المعونة بمصر ، وحبس الصيار بمصر ، وخزانة البنود بالقاهرة ، وحبس المعونة بالقاهرة ، وخزانة شمائل ، وحبس الديلم ، وحبس الرحبة ، والجب بقلعة الجبل .

« حبس المعونة بمصر » ، ويقال أيضا دار المعونة : كانت أولا تعرف بالشرطة ، وكانت قبلى جامع عمرو بن العاص . وأصله خطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى رضى الله عنهم . اختطها فى أول الاسلام — وقد كان موضعها فضاء — وأوصى فقال : ان كنت بنيت بمصر دارا ، واستعنت فيها بمعونة المسلمين ، فهى للمسلمين ينزلها ولاتهم .

وقيل بل كانت هى ودار الى جانبها لنافع ابن عبد قيس الفهرى ، وأخذها منه قيس بن سعد ، وعوضه دارا بزقاق القناديل . ثم عرفت بدار الفلفل لأن أسامة بن زيد التنوخى ، صاحب خراج مصر ، ابتاع من موسى بن وردان فلفلا بعشرين ألف دينار — كان كتب فيه الوليد بن عبد الملك ليهديه الى صاحب الروم — فخزنه فيها ، فشكا ذلك الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه حين تولى الخلافة ، فكتب أن تدفع اليه ، ثم صارت شرطة ودار الصرف .

فلما فرغ عيسى بن يزيد الجلودى من زيادة عبد الله بن طاهر فى الجامع ، بنى شرطة فى سنة ثلاث عشرة ومائتين فى خلافة المأمون ، ونقش فى لوح كبير نصبه على باب الجامع الذى يدخل منه الى الشرطة ما نصه « بركة من الله لعبده عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين ، أمر باقامة هذه الدار الهاشمية المباركة ، على يد * عيسى بن يزيد الجلودى مولى أمير المؤمنين ، سنة ثلاث عشرة ومائتين » .

ولم يزل هذا اللوح على باب الشرطة الى صفر سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، فقلعه يانس العزيزى ، وصارت حبسا يعرف بالمعونة ... الى أن ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فجعله مدرسة ، وهى التى تعرف اليوم بالشريفية .

« حبس الصيار » : هذا الحبس كان بمصر يحبس فيه الولاة بعدما عمل حبس المعونة مدرسة . وكان بأول الزقاق الذى فيه هذا الحبس حانوت يسكنه شخص يقال له منصور الطويل ، ويبيع فيه أصناف السوقة ، ويعرف هذا الرجل بالصيار من أجل أنه كانت له فى هذا الزقاق قاعة يخزن فيها أنواع الصير المعروف بالملوحة ، فقيل لهذا الحبس حبس الصيار .

ونشأ لمنصور الصيار هذا ولد عرف بين الشهود بمصر بشرف الدين بن منصور الطويل . فلما أحدث الوزير شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى المظالم فى سلطنة الملك المعز أيبك التركمانى ، خدم شرف الدين هذا على المظالم فى جباية التسقيع والتقويم ، ثم خدم بعد ابطال ذلك فى مكس القصب والرمان . فلما تولى قضاء القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، تأذى عنده بما باشره من هذه المظالم .

(*) ص١٨٧ جـ٢ ، ط.بولاق

وما زال هذا الحبس موجودا الى أن خربت مصر فى الزمان الذى ذكرناه فخرب ، وبقى موضعه وما حوله كيمانا .

« خزانة البنود » : هذه الخزانة بالقاهرة هى الآن زقاق ، يعرف بخط خزانة البنود ، على يمنة من سلك من رحبة باب العيد يريد درب ملوخيا وغيره . وكانت أولا فى الدولة الفاطمية خزانة من جملة خزائن القصر يعمل فيها السلاح ... يقال ان الخليفة الظاهر بن الحاكم أمر بها . ثم انها احترقت فى سنة احدى وستين وأربعمائة ، فعملت بعد حريقها سجنا يسجن فيه الأمراء والأعيان الى أن انقرضت الدولة ، فأقرها ملوك بنى أيوب سجنا .

ثم عملت منزلا للأمراء من الفرنج يسكنون فيها بأهاليهم وأولادهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد حضوره من الكرك . فلم يزالوا بها الى أن هدمها الأمير الحاج آل ملك الجوكندار ، نائب السلطنة بديار مصر ، فى سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، فاختط الناس موضعها دورا . وقد ذكرت فى هذا الكتاب عند ذكر خزائن القصر .

« حبس المعونة من القاهرة » : هذا المكان بالقاهرة موضعه الآن قيسارية العنبر برأس الحريريين . كان يسجن فيه أرباب الجرائم من السراق ، وقطاع الطريق ونحوهم فى الدولة الفاطمية .

وكان حبسا حرجا ضيقا شنيعا يشم من قربه رائحة كريهة . فلما ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون مملكة مصر ، هدمه وبناه قيسارية للعنبر . وقد ذكر عند ذكر الأسواق من هذا الكتاب .

« خزانة شمائل » : هذه الخزانة كانت بجوار باب زويلة على يسرة من دخل منه بجوار السور . عرفت بالأمير علم الدين شمائل والى القاهرة فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . وكانت من أشنع السجون وأقبحها منظرا ، يحبس فيها من وجب عليه القتل ، أو القطع ، من السراق وقطاع الطريق ، ومن يريد السلطان اهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة .

وكان السجان بها يوظف عليه والى القاهرة شيئا يحمله من المال له فى كل يوم ، وبلغ ذلك فى أيام الناصر فرج مبلغا كبيرا . وما زالت هذه الخزانة على ذلك الى أن هدمها الملك المؤيد شيخ المحمودى ، فى يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، وأدخلها فى جملة ما هدمه من الدور التى عزم على عمارة أماكنها مدرسة .

وشمائل هذا هو الأمير علم الدين . قدم الى القاهرة ، وهو من فلاحى بعض قرى مدينة حماة ، فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل ، فخدم جاندار فى الركاب السلطانى . الى أن نزل الفرنج على مدينة دمياط فى سنة خمس عشرة وستمائة ، وملكوا البر ، وحصروا أهلها وحالوا بينهم وبين من يصل اليهم . فكان شمائل هذا يخاطر بنفسه ، ويسبح فى الماء بين المراكب ، ويرد على السلطان الخبر .

فتقدم عند السلطان ، وحظى لديه حتى أقامه أمير جاندار ، وجعله من أكبر أمرائه ، ونصبه سيف نقمته ، وولاه ولاية القاهرة . فباشر ذلك الى أن مات السلطان ، وقام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر . فلما خلع بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تقدم على شمائل .

« المقشرة » : هذا السجن بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين الجامع الحاكمى ، كان يقشر فيه القمح . ومن جملته برج من أبراج السور ، على يمنة الخارج من باب الفتوح ، استجد بأعلاه دور لم تزل الى أن هدمت خزانة شمائل . فعين هذا البرج والمقشرة لسجن أرباب الجرائم ، وهدمت الدور التى كانت هناك فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ، وعمل البرج والمقشرة سجنا ، ونقل اليه أرباب الجرائم .

وهو من أشنع السجون وأضيقها ، يقاسى فيه المسجونون من الغم والكرب ما لا يوصف ... عافانا الله من جميع بلائه .

« الجب بقلعة الجبل » : هذا الجب كان بقلعة الجبل يسجن فيه الأمراء . وابتدىء عمله فى سنة احدى وثمانين وستمائة * ، والسلطان حينئذ الملك المنصور قلاوون . ولم يزل الى أن هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

وذلك أن شاد العمائر نزل اليه ليصلح عمارته ، فشاهد أمرا مهولا من الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة .

واتفق مع ذلك أن الأمير بكتمر الساقى كان عنده شخص يسخر به ويمازحه ، فبعث به الى الجب ودلى فيه ، ثم أطلعه من بعد ما بات به ليلة . فلما حضر الى بكتمر أخبره بما عاينه من شناعة الجب ، وذكر ما فيه من الروائح المهولة . وكان شاد العمائر فى المجلس فوصف ما فيه الأمراء الذين بالجب من الشدائد . فتحدث بكتمر مع السلطان فى ذلك ، فأمر باخراج الأمراء منه ، وردم وعمر فوقه أطباق المماليك . وكان الذى ردم به هذا الجب النقض الذى هدم من الايوان الكبير المجاور للخزانة الكبرى . والله أعلم بالصواب ١ .

(*) ص١٨٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

(١) تنبيه : لم يذكر المؤلف فى النشر جميع السجون التى ذكرها فى اللف ، بل أسقط منها اثنين وهما حبس الديلم وحبس الرحبة ، وذكر بدلهما اثنين وهما المقشرة والجب ، فليحرر . اهـ .

تم الجزء الثانى من كتاب « الخطط » للمقريزى
وأول الجزء الثالث « ذكر المواضع المعروفة بالصناعة »

فهرس الجزء الثانى

من كتاب « الخطط » للمقريزى

الموضوع — صفحة

الموضوع — صفحة

الموضوع — صفحة

الموضوع — صفحة

شركة الإعلانات الشرقية
تليفون : ٤٩٠٠٠

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء ٣٣



كتاب التحرير

«وكانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

خطط المقريزي

كتاب المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك باخبار إقليم مصر
والنيل وذكر القاهرة
ومايتعلق بها وبإقليميها..
تأليف سيدنا الشيخ
الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن علي
ابن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزي
رحمه الله ونفع بعلومه
آمين.

الجزء الثالث

عن
طبعة بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

تصدره
دار التحرير للطبع والنشر

ذكر المواضع المعروفة بالصناعة

لفظ الصناعة — بكسر الصاد — مأخوذ من قولك : صنعه يصنعه صنعا ، فهو مصنوع وصنيع ، عمله . واصطنعه اتخذه . والصناعة ما يستصنع من أمر ... هذا أصل الكلمة من حيث اللغة .

وأما فى العرف فالصناعة اسم لمكان قد أعد لانشاء المراكب البحرية التى يقال لها السفن ، واحدتها سفينة ، وهى بمصر على قسمين : نيلية ، وحربية .

فالحربية هى التى تنشأ لغزو العدو ، وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة ، فتمر من ثغر الاسكندرية وثغر دمياط وتنيس والفرما الى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج . وكانت هذه المراكب الحربية يقال لها الأسطول ، ولا أحسب هذا اللفظ عربيا .

وأما المراكب النيلية فانها تنشأ لتمر فى النيل ، صاعدة الى أعلى الصعيد ، ومنحدرة الى أسفل الأرض ، لحمل الغلال وغيرها .

ولما جاء الله تعالى بالاسلام لم يكن البحر يركب للغزو فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . وأول من ركب البحر فى الاسلام للغزو العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه ، وكان على البحرين من قبل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فأحب أن يؤثر فى الأعاجم أثرا يعز الله به الاسلام على يديه .

فندب أهل البحرين الى فارس فبادروا الى ذلك ، وفرقهم أجنادا على أحدها الجارود بن المعلى رضى الله عنه ، وعلى الثانى سوار بن همام رضى الله عنه ، وعلى الثالث خليد بن المنذر بن ساوى رضى الله عنه ، وجعل خليدا على عامة الناس . فحملهم فى البحر الى فارس بغير اذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان عمر رضى الله عنه لا يأذن لأحد فى ركوب البحر غازيا كراهة للتغرير بجنده ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته أبى بكر رضى الله عنه .

فعبرت تلك الجنود من البحرين الى فارس . فخرجوا فى اصطخر وبازائهم أهل فارس عليهم الهربذ ، فحالوا بين المسلمين وبين سفنهم . فقام خليد فى الناس فقال : أما بعد ، فان الله تعالى اذا قضى أمرا جرت المقادير على مطيته ، وان هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم الى حربهم ، وانما جئتم لمحاربتهم ، والسفن والأرض بعد الآن لمن غلب ، فاستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين .

فأجابوه الى القتال ، وصلوا الظهر ثم ناهزوهم . فاقتتلوا قتالا شديدا فى موضع يدعى طاووس ، فقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قبلها . وخرج المسلمون يريدون البصرة — اذ غرقت سفنهم ولم يجدوا فى الرجوع الى البحر سبيلا — فاذا بهم وقد أخذت عليهم الطرق ، فعسكروا وامتنعوا .

وبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فاشتد غضبه على العلاء رضى الله عنه ، وكتب اليه يعزله وتوعده ، وأمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه اليه : بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه ، وقال : الحق بسعد بن أبى وقاص بمن معك .

فخرج رضى الله عنه من البحرين بمن معه نحو سعد رضى الله عنه ، وهو يومئذ على الكوفة ، وكان بينهما تباين وتباعد .

وكتب عمر رضى الله عنه الى عتبة بن غزوان : « بأن العلاء بن الحضرمى حمل جندا من المسلمين فى البحر فأقطعهم الى فارس وعصانى ، وأظنه لم يرد الله عز وجل بذلك ، فخشيت عليهم ألا ينصروا وأن يغلبوا ، فاندب لهم الناس ، وضمهم اليك من قبل أن يجتاحوا » .

فندب عتبة رضى الله عنه الناس ، وأخبرهم بكتاب عمر رضى الله عنه . فانتدب عاصم ابن عمرو ، وعرفجة بن هرثمة ، وحذيفة بن محصن ، ومجزاة بن ثور ، ونهار بن الحارث ، والترجمان بن فلان ، والحصين بن أبى الحر ، والأحنف بن قيس ، وسعد بن أبى العرجاء ، وعبد الرحمن بن سهل ، وصعصعة بن معاوية رضى الله تعالى عنهم .

فساروا من البصرة فى اثنى عشر ألفا على البغال يجنبون الخيل ، وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم رضى الله عنهم . فساحل بهم حتى التقى أبو سبرة وخليد حيث أخذت عليهم الطرق ، وقد استصرخ أهل اصطخر أهل فارس كلهم ، فأتوهم من كل وجه * وكورة . فالتقوا هم وأبو سبرة ، فاقتتلوا ، ففتح الله على المسلمين ، وقتل المشركون ، وعاد المسلمون بالغنائم الى البصرة ، ورجع أهل البحرين الى منازلهم .

فلما فتح الله تعالى الشام ، ألح معاوية بن أبى سفيان — وهو يومئذ على جند دمشق والأردن — على عمر رضى الله عنه فى غزو البحر ، وقرب الروم من حمص ، وقال : ان قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم ... حتى اذا كاد ذلك يأخذ بقلب عمر رضى الله عنه ، اتهم معاوية لأنه المشير ، وأحب عمر رضى الله عنه أن يردعه فكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر « أن صف لى البحر وراكبه ، فان نفسى تنازعنى اليه وأنا أشتهى خلافها » .

فكتب اليه : « يا أمير المؤمنين انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء . ان ركد حزن القلوب ، وان زل أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود . ان مال غرق ، وان نجا برق » .

فلما جاءه كتاب عمرو ، كتب رضى الله عنه الى معاوية : « لا — والذى بعث محمدا بالحق — لا أحمل فيه مسلما أبدا . انا قد سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شىء فى الأرض يستأذن الله تعالى فى كل يوم وليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها . فكيف

(*) ص١٨٩ جـ٢ ، ط.بولاق .

أحمل الجنود فى هذا البحر الكافر المستصعب ؟ وتالله لمسلم واحد أحب الى مما حوته الروم . فاياك أن تعرض لى — وقد تقدمت اليك وقد علمت ما لقى العلاء منى ولم أتقدم اليه — فى مثل ذلك » .

وعن عمر رضى الله عنه أنه قال : لا يسألنى الله عز وجل عن ركوب المسلمين البحر أبدا . وروى عنه ابنه عبد الله ، رضى الله عنهما ، أنه قال : لولا آية فى كتاب الله تعالى لعلوت راكب البحر بالدرة .

ثم لما كانت خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، غزا المسلمون فى البحر . وكان أول من غزا فيه معاوية بن أبى سفيان ، وذلك أنه لم يزل بعثمان رضى الله عنه حتى عزم على ذلك فأخره ، وقال : تنتخب الناس ولا تقرع بينهم . خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه . ففعل ، واستعمل على البحر عبد الله ابن قيس الحاسى خليفة بنى فزارة ، فغزا خمسين غزوة من بين شاتية وصائفة فى البر والبحر ، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب . وكان يدعو الله تعالى أن يرزقه العافية فى جنده ، ولا يبتليه بمصاب أحد منهم ... حتى اذا أراد الله عز وجل أن يصيبه فى جنده ، خرج فى قارب طليعته ، فانتهى الى المرفاء من أرض الروم ، فثار به الروم وهجموا عليه ، فقاتلهم فأصيب وحده ، ثم قاتل الروم أصحابه فأصيبوا .

وغزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى البحر لما أتاه قسطنطين بن هرقل سنة أربع وثلاثين فى ألف مركب يريد الاسكندرية ، فسار عبد الله فى مائتى مركب أو تزيد شيئا وحاربه . فكانت وقعة ذات الصوارى التى نصر الله تعالى فيها جنده ، وهزم قسطنطين وقتل جنده .

وأغزى معاوية أيضا عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه فى البحر ، وأمره أن يتوجه الى رودس ، فسار اليها .

ونزل الروم على البرلس فى سنة ثلاث وخمسين ، فى امارة مسلمة بن مخلد الأنصارى رضى الله عنه على مصر ، فخرج اليهم المسلمون فى البر والبحر . فاستشهد وردان ، مولى عمرو بن العاص ، فى جمع كثير من المسلمين .

وبعث عبد الملك بن مروان ، لما ولى الخلافة ، الى عامله على افريقية حسان بن النعمان يأمره باتخاذ صناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية . ومنها كانت غزوة صقلية فى أيام زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب على شيخ الفتيا أسد بن الفرات .

ونزل الروم تنيس فى سنة احدى ومائة ، فى امارة بشر بن صفوان الكلبى على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك ، فاستشهد جماعة من المسلمين .

وقد ذكر فى أخبار الاسكندرية ودمياط وتنيس والفرما ، من هذا الكتاب ، جملة من نزلات الروم والفرنج عليها ، وما كان فى زمن الانشاء . فانظره تجده ان شاء الله تعالى .

وقد ذكر شيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، الحضرمى الاشبيلى ، تعليل امتناع المسلمين من ركوب البحر للغزو فى أول الأمر فقال :

« والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه .

والروم والفرنجة لممارستهم أحواله ، ومرباهم في التقلب على أعواده ، مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته ...

« فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ... استحدثوا بصرا بها . فتاقت أنفسهم الى الجهاد فيه ، وأنشأوا السفن والشواني ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر . واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب الى هذا البحر وعلى ضفته ، مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس » .

وأول ما أنشىء الأسطول بمصر في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم ، عندما نزل الروم دمياط في يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومائتين — وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحاق — * فملكوها ، وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين ، وسبوا النساء والأطفال ، ومضوا الى تنيس فأقاموا بأشتومها .

فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وصار من أهم ما يعمل بمصر ، وأنشئت الشواني برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة .

فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو . وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ، ولا جاهل بأمور الحرب .

هذا وللناس اذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله واقامة دينه ... لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ، ولكل أحد من الناس رغبة في أنه يعد من جملتهم ، فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه .

وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا : ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ، ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الاسلام بلاد العدو ، فانها كانت تسير من مصر ومن الشام ومن أفريقية . فلذلك احتاج خلفاء الاسلام الى الفداء .

وكان أول فداء وقع بمال في الاسلام أيام بني العباس ، ولم يقع في أيام بني أمية فداء مشهور ، وانما كان يفادى بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر والاسكندرية وبلاد ملطية وبقية الثغور الخزرية ، الى أن كانت خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد .

« الفداء الأول » : باللامس من سواحل البحر الرومي ، قريبا من طرسوس ، في سنة تسع وثمانين ومائة ، وملك الروم يومئذ نقفور بن اشبراق . وكان ذلك على يد القاسم ابن الرشيد ، وهو معسكر بمرج دابق من بلاد

(*) ص١٩٠ ج٢ ، ط.بولاق .

قنسرين في أعمال حلب ، ففودي بكل أسير كان ببلاد الروم من ذكر أو أنثى .

وحضر هذا الفداء من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار ، نحو من خمسمائة ألف انسان ، بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة ، قد أخذوا السهل والجبل ، وضاق بهم الفضاء ، وحضرت مراكب الروم الحربية ، بأحسن ما يكون من الزي ، معهم أسارى المسلمين . فكان عدة من فودي به من المسلمين ، في اثني عشر يوما ، ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير . وأقام ابن الرشيد باللامس أربعين يوما قبل الأيام التي وقع فيها الفداء وبعدها .

وقال مروان بن أبي حفصة في هذا الفداء يخاطب الرشيد من أبيات :

وفكت بك الأسرى التي شيدت بها
محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيى المسلمين فكاكها
وقالوا سجون المشركين قبورها

« الفداء الثاني » : كان في خلافة الرشيد أيضا باللامس في سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وملك الروم نقفور ، وكان القائم به ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي أمير الثغور الشامية ، وحضره ألوف من الناس . وكانت عدة من فودي به من المسلمين في سبعة أيام ألفين وخمسمائة من ذكر وأنثى .

« الفداء الثالث » : وقع في خلافة الواثق باللامس في المحرم سنة احدى وثلاثين ومائتين ، وملك الروم ميخائيل بن نوفيل .

وكان القائم به خاقان التركي . وعدة من فودي به من المسلمين في عشرة أيام أربعة آلاف وثلثمائة واثنان وستون من ذكر وأنثى .

وحضر مع خاقان أبو رملة ، من قبل قاضي القضاة أحمد بن أبي داود ، يمتحن الأسرى وقت المفاداة ، فمن قال منهم بخلق القرآن فودي به وأحسن اليه ، ومن أبى ترك بأرض الروم . فاختار جماعة من الأسرى الرجوع الى أرض النصرانية على القول بذلك .

وخرج من الأسرى مسلم بن أبي مسلم الحرمي — وكان له محل في الثغور — وكتب مصنفه في أخبار الروم وملوكهم وبلادهم ، فنالته محن على القول بخلق القرآن ثم تخلص .

« الفداء الرابع » : في خلافة المتوكل على الله باللامس أيضا في شوال سنة احدى وأربعين ومائتين ، والملك ميخائيل ، وكان القائم به سيف خادم المتوكل ، وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي القاضي ، وعلى ابن يحيى الأرمني أمير الثغور الشامية . وكانت عدة من فودي به من المسلمين في سبعة أيام ألفي رجل ومائة امرأة ، وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الاسلام مائة رجل ونيف ، فعوضوا مكانهم عدة أعلاج ... اذ كان الفداء لا يقع على نصراني ولا ينعقد .

« الفداء الخامس » : في خلافة المتوكل وملك الروم ميخائيل أيضا ، باللامس مستهل

صغر سنة ست وأربعين ومائتين . وكان القائم به على بن يحيى الأرمنى أمير الثغور ، ومعه نصر بن الأزهر الشيعى — من شيعة بنى العباس — المرسل الى الملك فى أمر الفداء من قبل المتوكل . وكانت عدة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفين وثلثمائة وسبعة وستين من ذكر وأنثى .

« الفداء السادس » : كان فى أيام المعتز ، والملك على الروم بسيل ، على يد شفيع الخادم فى سنة ثلاث وخمسين ومائتين .

« الفداء السابع » : فى خلافة المعتضد باللامش فى شوال سنة ثلاث وثمانين * ومائتين ، وملك الروم اليون بن بسيل ، وكان القائم به أحمد بن طغان ، أمير الثغور الشامية وأنطاكية من قبل الأمير أبى الجيش خمارويه ابن أحمد بن طولون .

وكانت الهدنة لهذا الفداء وقعت فى سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، فقتل أبو الجيش بدمشق فى ذى القعدة من هذه السنة ، وتم الفداء فى امارة ولده جيش بن خمارويه . وكان عدة من فودى به من المسلمين فى عشرة أيام ألفين وأربعمائة وخمسة وتسعين من ذكر وأنثى ، وقيل ثلاثة آلاف .

« الفداء الثامن » : فى خلافة المكتفى باللامش فى ذى القعدة سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وملك الروم اليون أيضا ، وكان القائم به رستم بن نزدوى أمير الثغور الشامية . وكانت عدة من فودى به من المسلمين فى أربعة أيام ألفا ومائة وخمسة وخمسين من ذكر وأنثى . وعرف بفداء الغدر ، وذلك أن الروم غدروا وانصرفوا ببقية الأسارى .

« الفداء التاسع » : فى خلافة المكتفى ، وملك الروم اليون ، باللامش أيضا فى شوال سنة خمس وتسعين ومائتين ، والقائم به رستم . وكانت عدة من فودى به من المسلمين ألفين وثمانمائة واثنين وأربعين من ذكر وأنثى .

« الفداء العاشر » : فى خلافة المقتدر باللامش فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وثلثمائة ، وملك الروم قسطنطين بن اليون ابن بسيل ، وهو صغير فى حجر أرمانوس . وكان القائم بهذا الفداء مؤنس الخادم ، وبشير الخادم الأفشينى أمير الثغور الشامية وأنطاكية ، والمتوسط له والمعاون عليه أبو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى التميمى الأذنى من أهل أذنة ، وعدة من فودى به من المسلمين فى ثمانية أيام ثلاثة آلاف وثلثمائة وستة وثلاثون من ذكر وأنثى .

« الفداء الحادى عشر » : فى خلافة المقتدر ، وملك أرمانوس وقسطنطين على الروم . وكان باللامش فى شهر رجب سنة ثلاث عشرة وثلثمائة ، والقائم به مفلح الخادم الأسود المقتدرى ، وبشير خليفة شمل الخادم على الثغور الشامية . وعدة من فودى به من المسلمين فى تسعة عشر يوما ثلاثة آلاف وتسعمائة وثلاثة وثلاثون من ذكر وأنثى .

« الفداء الثانى عشر » : فى خلافة الراضى باللامش ، فى سلخ ذى القعدة وأيام من ذى الحجة سنة ست وعشرين وثلثمائة ، والملكان على الروم قسطنطين وأرمانوس . والقائم به ابن ورقاء الشيبانى من قبل الوزير أبى الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ، وبشير الشملى أمير الثغور الشامية .

(*) ص١٩١ جـ١ ، ط. بولاق .

وعدة من فودى به من المسلمين فى ستة عشر يوما ستة آلاف وثلثمائة ونيف من ذكر وأنثى . وبقى فى أيدى الروم من المسلمين الأسرى ثمانمائة رجل ردوا ، ففودى بهم فى عدة مرارا ، وزيدوا فى الهدنة بعد انقضاء الفداء مدة ستة أشهر ، لأجل من تخلف فى أيدى الروم من المسلمين ، حتى جمع الأسارى منهم .

« الفداء الثالث عشر » : فى خلافة المطيع باللامش فى شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثلثمائة . والملك على الروم قسطنطين . والقائم به نصر الشملى من قبل سيف الدولة أبى الحسن على بن حمدان ، صاحب جند حمص وجند قنسرين وديار بكر وديار مصر والثغور الشامية والخزرية .

وكانت عدة من فودى به من المسلمين ألفين وأربعمائة واثنين وثمانين من ذكر وأنثى ، وفضل للروم على المسلمين قرضا مائتان وثلاثون لكثرة من كان فى أيديهم . فوفاهم سيف الدولة ذلك ، وحمله اليهم .

وكان الذى شرع فى هذا الفداء الأمير أبو بكر محمد بن طغج الاخشيد ، أمير مصر والشام والثغور الشامية . وكان ابو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى الأذنى شيخ الثغور ، قدم اليه — وهو بدمشق فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة — ومعه وسول ملك الروم فى اتمام هذا الفداء ، والاخشيد شديد العله ، فتوفى يوم الجمعة لثمان خلون من ذى الحجة منها .

وسار أبو المسك كافور الاخشيدى بالجيش راجعا الى مصر ، وحمل معه أبا عمير ورسول ملك الروم الى فلسطين ، فدفع اليهما ثلاثين ألف دينار من مال الفداء ، فسارا الى مدينة صور ، وركبا البحر الى طرسوس . فلما وصلا كاتب نصر الشملى أمير الثغور سيف الدولة ابن حمدان ، ودعا له على منابر الثغور ، فجد فى اتمام هذا الفداء ، فنسب اليه .

ووقعت أفدية أخرى ليس لها شهرة :

فمنها فداء فى خلافة المهدى محمد ، على يد النقاش الأنطاكى .

وفداء فى أيام الرشيد ، فى شوال سنة احدى وثمانين ومائة ، على يد عياض بن سنان أمير الثغور الشامية .

وفداء فى أيام الأمين ، على يد ثابت بن نصر ، فى ذى القعدة سنة أربع وتسعين ومائة .

وفداء فى أيام الأمين ، على يد ثابت بن نصر أيضا ، فى ذى القعدة سنة احدى ومائتين .

وفداء فى أيام المتوكل سنة سبع وأربعين ومائتين ، على يد محمد بن على .

وفداء فى أيام المعتمد على يد شفيع ، فى شهر رمضان سنة ثمان وخمسين ومائتين .

وفداء كان فى الاسكندرية ، فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة ، خرج فيه أبو بكر محمد بن على الماردانى من مصر ، ومعه الشريف أبو القاسم الرئيس والقاضى أبو حفص عمر بن الحسين العباسى وحمزة ابن محمد الكتانى ، فى جمع كبير . وكانت عدة * من فودى به من المسلمين ستين نفسا بين ذكر وأنثى .

فلما سار الروم الى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلثمائة ، اشتد أمرهم بأخذهم البلاد .

وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله ، وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه — وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد ، واعتناء بالأسطول — وواصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر واسكندرية ودمياط ، من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان .

وكانت جريدة قواد الأسطول فى آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة ، منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد — واحدهم قائد — وتصل جامكية كل واحد منهم الى عشرين دينارا ، ثم الى خمسة عشر دينارا ، ثم الى عشرة دنانير ، ثم الى ثمانية ، ثم الى دينارين وهى أقلها . ولهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيها من النطرون ، فيصل دينارهم بالمناسبة الى نصف دينار .

وكان يعين من القواد العشرة واحد ، فيصير رئيس الأسطول ، ويكون معه المقدم والقاووش . فاذا ساروا الى الغزو كان هو الذى يقلع بهم ، وبه يقتدى الجميع ، فيرسون بارسائه ، ويقلعون باقلاعه . ولابد أن يقدم على الأسطول أمير كبير من أعيان أمراء الدولة وأقواهم نفسا ، ويتولى النفقة فى غزاة الأسطول الخليفة بنفسه بحضور الوزير .

فاذا أراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة — وكانت فى أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة ، وآخر ما صارت اليه فى آخر الدولة نحو الثمانين شونة ، وعشر مسطحات ، وعشر حمالة فما تقصر عن مائة قطعة — فيتقدم الى النقباء باحضار الرجال — وفيهم من كان يتمعش بمصر والقاهرة ، وفيهم من هو خارج عنهما — فيجتمعون .

وكانت لهم المشاهرة والجرايات فى مدة أيام سفرهم ، وهم معروفون عند عشرين عريفا يقال لهم النقباء — واحدهم نقيب — ولا يكره أحد على السفر .

فاذا اجتمعوا أعلم النقباء المقدم ، فأعلم بذلك الوزير ، فطالع الوزير الخليفة بالحال ، فقرر يوما للنفقة ، فحضر الوزير بالاستدعاء من ديوان الانشاء على العادة . فيجلس الخليفة على هيئته فى مجلسه ، ويجلس الوزير فى مكانه ، ويحضر صاحبا ديوان الجيش وهما المستوفى والكاتب ، والمستوفى هو أميرهما ، فيجلس من داخل عتبة المجلس ، وهذه رتبة له يتميز بها ، ويجلس بجانبه من

(*) ص١٩٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

وراء العتبة كاتب الجيش فى قاعة الدار على حصر مفروشة .

وشرط هذا المستوفى أن يكون عدلا ومن أعيان الكتاب — ويسمى اليوم فى زمننا ناظر الجيش — وأما كاتب الجيش فانه كان فى غالب الأمر يهوديا . وللمجلس الذى فيه الخليفة والوزير أنطاع تصب عليها الدراهم ، ويحضر الوزانون ببيت المال لذلك .

فاذا تهيأ الانفاق أدخل الغزاة مائة مائة ، فيقفون فى آخريات من هو واقف فى الخدمة من جانب واحد نقابة نقابة ، وتكون أسماؤهم قد رتبت فى أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة . فيستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق المنفق عليهم واحدا واحدا ، فاذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هم فيه الى الجانب الآخر ، فاذا تكملت عشرة وزن الوزانون لهم النفقة .

وكانت مقررة لكل واحد خمسة دنانير ، صرف ستة وثلاثين درهما بدينار ، فيسلمها لهم النقيب ، وتكتب باسمه وبيده . وتمضى النفقة هكذا الى آخرها .

فاذا تم ذلك ركب الوزير من بين يدى الخليفة ، وانفض ذلك الجمع . فيحمل الى الوزير من القصر مائدة يقال لها غداء الوزير ، وهى سبع مجنقات أوساط : احداها بلحم الدجاج وفستق معمولة بصناعة محكمة ، والبقية شواء ، وهى مكمورة بالأزهار . فتكون النفقة على ذلك مدة أيام ، متوالية مرة ومتفرقة مرة .

فاذا تكاملت النفقة ، وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ، ركب الخليفة والوزير الى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة . وكان هناك على شاطئ النيل بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداع الأسطول ولقائه اذا عاد . فاذا جلس للوداع ، جاءت القواد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات فى البحر بين يديه وهى مزينة بأسلحتها ولبودها وما فيها من المنجنيقات ، فيرمى بها وتنحدر المراكب وتقلع ، وتفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدو .

ثم يحضر المقدم والرئيس الى بين يدى الخليفة فيودعهما ، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة ، ويعطى للمقدم مائة دينار وللرئيس عشرين دينارا ، وينحدر الأسطول الى دمياط ، ومن هناك يخرج الى بحر الملح ، فيكون له ببلاد العدو صيت عظيم ومهابة قوية .

والعادة أنه اذا غنم الأسطول ما عسى أن يغنم ، لا يتعرض السلطان منه الى شىء ألبتة ... الا ما كان من الأسرى والسلاح فانه للسلطان ، وما عداهما من المال والثياب ونحوهما فانه لغزاة الأسطول لا يشاركهم فيه أحد . فاذا قدم الأسطول خرج الخليفة أيضا الى منظرة المقس وجلس فيها للقائه .

وقدم الأسطول مرة بألف وخمسمائة أسير . وكانت العادة أن الأسرى ينزل بهم فى المناخ ، وتضاف الرجال الى من فيه من الأسرى ، ويمضى بالنساء والأطفال الى القصر بعدما

يعطى منهم الوزير طائفة . ويفرق ما بقى من النساء على الجهات والأقارب فيستخدمونهن ، ويربونهن حتى يتقن الصنائع . ويدفع الصغار من الأسرى الى الأستاذين فيربونهم ويتعلمون الكتابة والرماية ، ويقال لهم الترابى ، وفيهم من صار أميرا من صبيان خاص الخليفة .

ومن الأسرى من كان يستراب به فيقتل . ومن كان منهم شيخا لا ينتفع به ضربت عنقه ، وألقى فى بئر كانت فى خرائب مصر تعرف ببئر المنامة . ولم يعرف قط عن الدولة الفاطمية أنها فادت أسيرا من الفرنج بمال ولا بأسير مثله . وكان المنفق فى الأسطول كل سنة خارجا عن العدد والآلات .

ولم يزل الأسطول على ذلك الى أن كانت وزارة شاور ، ونزل مرى ملك الفرنج على بركة الحبش ، فأمر شاور بتحريق مصر وتحريق مراكب الأسطول ، فحرقت ونهبها العبيد فيما نهبوا .

فلما كان زوال الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، اعتنى أيضا بأمر الأسطول ، وأفرد له ديوانا عرف بديوان الأسطول ، وعين لهذا الديوان الفيوم بأعمالها ، والحبس الجيوشى فى البرين الشرقى والغربى . وهو من البر الشرقى تهتيل والأميرية والمنية ، ومن البر الغربى ناحية سفط ونهيا ووسيم والبساتين خارج القاهرة .

وعين له أيضا الخراج ، وهو أشجار من سنط لا تحصى كثرة ، فى البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والاخميمية والقوصية ... لم تزل بهذه النواحى لا يقطع منها الا ما تدعو الحاجة اليه ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار — وقد ذكر خبر هذا الخراج فى ذكر أقسام مال مصر من هذا الكتاب — وعين له أيضا النطرون ، وكان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار .

ثم أفرد لديوان الأسطول ، مع ما ذكر ، الزكاة التى كانت تجبى بمصر ، وبلغت فى سنة زيادة على خمسين ألف دينار ، وأفرد له المراكب الديوانية وناحية أشناى وطنبدى . وسلم هذا الديوان لأخيه الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب ، فأقام فى مباشرته وعمالته صفى الدين عبد الله بن على بن شكر . وتقرر ديوان الأسطول الذى ينفق فى رجاله نصف وربع دينار ، بعد ما كان نصف وثمن دينار .

فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، استمر الحال فى الأسطول قليلا ، ثم قل الاهتمام به ، وصار لا يفكر فى أمره الا عند الحاجة اليه .

فاذا دعت الضرورة الى تجهيزه ، طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا فى السلاسل نهارا ، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا ، ولا يصرف لهم الا شىء قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شىء كما يفعل بالأسرى من العدو .

(*) ص١٩٣ جـ٢ ، ط.بولاق .

فصارت خدمة الأسطول عارا يسب به الرجال ، واذا قيل لرجل فى مصر «ياأسطولى» غضب غضبا شديدا ، بعد ما كان خدام الأسطول يقال لهم « المجاهدون فى سبيل الله ، والغزاة فى أعداء الله » ، ويتبرك بدعائهم الناس .

ثم لما انقرضت دولة بنى أيوب ، وتملك الأتراك المماليك مصر ، أهملوا أمر الأسطول . الى أن كانت أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فنظر فى أمر الشوانى الحربية ، واستدعى برجال الأسطول — وكان الأمراء قد استعملوهم فى الحراريق وغيرها — وندبهم للسفر ، وأمر بمد الشوانى وقطع الأخشاب لعمارتها ، واقامتها على ما كانت عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، واحترز على الخراج ، ومنع الناس من التصرف فى أعواد العمل ، وتقدم بعمارة الشوانى فى ثغرى الاسكندرية ودمياط .

وصار ينزل بنفسه الى الصناعة بمصر ، ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشوانى ومصالحها ، واستدعى بشوانى الثغور الى مصر ، فبلغت زيادة على أربعين قطعة ، سوى الحراريق والطرائد فانها كانت عدة كثيرة ، وذلك فى شوال سنة تسع وستين وستمائة .

ثم سارت تريد قبرس ، وقد عمل ابن حسون رئيس الشوانى فى أعلامها الصلبان ، يريد بذلك أنها تخفى اذا عبرت البحر على الفرنج حتى تطرقهم على غفلة ، فكره الناس منه ذلك . فلما قاربت قبرس ، تقدم ابن حسون فى الليل ليهجم المينا ، فصدم الشونة المقدمة شعبا فانكسرت ، وتبعتها بقية الشوانى فتكسرت الشوانى كلها . وعلم بذلك متملك قبرس ، فأسر كل من فيها ، وأحاط بما معهم ، وكتب الى السلطان يقرعه ويوبخه ، وأن شوانيه قد تكسرت ، وأخذ ما فيها — وعدتها احدى عشرة شونة — وأسر رجالها .

فحمد السلطان الله تعالى ، وقال : الحمد لله منذ ملكنى الله تعالى ما خذل لى عسكر ولا ذلت لى راية ، وما زلت أخشى العين ، فالحمد لله تعالى بهذا ولا بغيره . وأمر بانشاء عشرين شونة ، وأحضر خمس شوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر ، ولازم الركوب الى صناعة العمارة بمصر كل يوم ، فى مدة شهر المحرم سنة سبعين وستمائة الى أن تنجزت ، فلما كان فى نصف المحرم سنة احدى وسبعين وستمائة زاد النيل حتى لعبت الشوانى بين يديه ، فكان يوما مشهودا .

وفى سنة اثنتين وتسعين وستمائة ، تقدم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن قلاوون الى الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس ، بتجهيز أمر الشوانى . فنزل الى الصناعة ، واستدعى الرئيس ، وهيأ جميع ما تحتاج اليه الشوانى حتى كملت عدتها نحو ستين * شونة ، وشحنها بالعدد وآلات الحرب ، ورتب بها عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح .

فأقبل الناس لمشاهدتهم من كل أوب قبل ركوب السلطان بثلاثة أيام ، وصنعوا لهم قصورا من خشب وأخصاص القش على

(*) ص١٩٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

شاطىء النيل خارج مدينة مصر وبالروضة ، واكتروا الساحات التى قدام الدور والزوايا بالمائتى درهم كل زربية فما دونها ... بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر الا وخرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك ، فصار جمعا عظيما .

وركب السلطان من قلعة الجبل بكرة ، والناس قد ملأوا ما بين المقياس الى بستان الخشاب الى بولاق ، ووقف السلطان ونائبه الأمير بيدر وبقية الأمراء قدام دار النحاس ، ومنع الحجاب من التعرض لطرد العامة .

فبرزت الشوانى واحدة بعد واحدة ، وقد عمل فى كل شونة برج وقلعة تحاصر ، والقتال عليها ملح ، والنفط يرمى عليها ، وعدة من النقابين فى اعمال الحيلة فى النقب ، وما منهم الا من أظهر فى شونته عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه .

وتقدم ابن موسى الراعى ، وهو فى مركب نيلية ، فقرأ قوله تعالى « بسم الله مجراها ومرساها ان ربى لغفور رحيم » ، ثم تلاها بقراءة قوله تعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء » الى آخر الآية ... هذا والشوانى تتواصل بمحاربة بعضها بعضا الى أن أذن لصلاة الظهر ، فمضى السلطان بعسكره عائدا الى القلعة . فأقام الناس بقية يومهم وتلك الليلة على ما هم عليه من اللهو فى اجتماعهم .

وكان شيئا يجل وصفه ، وأنفق فيه مال لا يعد ... بحيث بلغت أجرة المركب فى هذا اليوم ستمائة درهم فما دونها . وكان الرجل الواحد يؤخذ منه أجرة ركوبه فى المركب خمسة دراهم ، وحصل لعدة من النواتية أجرة مراكبهم عن سنة فى هذا اليوم . وكان الخبز يباع اثنا عشر رطلا بدرهم ، فلكثرة اجتماع الناس بمصر بيع سبعة أرطال بدرهم .

فبلغ خبر الشوانى الى بلاد الفرنج ، فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح .

فلما كان المحرم سنة اثنتين وسبعمائة ، فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ، جهزت الشوانى بالعدد والسلاح والنفطية والأزودة ، وعين لها جماعة من أجناد الحلقة ، وألزم كل أمير مائة بارسال رجلين من عدته ، وألزم أمراء الطبلخاناة والعشروات باخراج كل أمير من عدته رجلا ، وندب الأمير سيف الدين كهرداش المنصورى الزراق الى السفر بهم ، ومعه جماعة من مماليك السلطان الزراقين ، وزينت الشوانى أحسن زينة .

فخرج معظم الناس لرؤيتها ، وأقاموا يومين بلياليهما على الساحل بالبرين . وكان جمعا عظيما الى الغاية ، وبلغت أجرة المركب الصغير مائة درهم لأجل الفرجة .

ثم ركب السلطان بكرة يوم السبت ثانى عشر المحرم ، ومعه الأمير سلار النائب والأمير بيبرس الجاشنكير وسائر الأمراء والعسكر ، فوقفت المماليك على البر نحو بستان الخشاب ، وعدى الأمراء فى الحراريق الى الروضة .

وخرجت الشوانى واحدة بعد واحدة فلعبت منها ثلاثة ، وخرجت الرابعة وفيها الأمير

أقوش القارى ، من مينا الصناعة حتى توسط البحر ، فلعب بها الريح الى أن مالت ، وانقلبت فصار أعلاها أسفلها . فتداركها الناس ، ورفعوا ما قدروا عليه من العدد والسلاح ، وسلمت الرجال فلم يعدم منهم سوى أقوش وحده . فتنكد الناس ، وعاد الأمراء الى القلعة بالسلطان ، وجهز شونة عوضا عن التى غرقت .

وساروا الى ميناء طرابلس ، ثم ساروا ، ومعهم عدة من طرابلس — فأشرفوا من الغد على جزيرة أرواد من أعمال قبرس ، وقاتلوا أهلها وقتلوا أكثرهم ، وملكوها فى يوم الجمعة ثامن عشرى صفر ، واستولوا على ما فيها ، وهدموا أسوارها ، وعادوا الى طرابلس ، وأخرجوا من الغنائم الخمس للسلطان ، واقتسموا ما بقى منها ، وكان معهم مائتان وثمانون أسيرا . فسر السلطان بذلك سرورا كثيرا .

« صناعة المقس » : قال ابن أبى طى فى تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين الله : انه أنشأ دار الصناعة التى بالمقس ، وأنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مينا .

وقال المسيحى : ان العزيز بالله بن المعز هو الذى بنى دار الصناعة التى بالمقس ، وعمل المراكب التى لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا .

وقال فى حوادث سنة ست وثمانين وثلثمائة : ووقعت نار فى الأسطول وقت صلاة الجمعة لست بقين من شهر ربيع الآخر فأحرقت خمس عشاريات ، وأتت على جميع ما فى الأسطول من العدة والسلاح حتى لم يبق منه غير ستة مراكب فارغة لا شىء فيها . فحمل البحريون السلاح ، واتهموا الروم النصارى — وكانوا مقيمين بدار مانك بجوار الصناعة التى بالمقس — وحملوا على الروم هم وجموع من العامة معهم ، فنهبوا أمتعة الروم ، وقتلوا منهم مائة رجل وسبعة رجال ، وطرحوا جثثهم فى الطرقات ، وأخذ من بقى فحبس بصناعة المقس .

ثم حضر عيسى بن نسطورس ، خليفة أمير المؤمنين العزيز بالله فى الأموال ووجوهها بديار مصر والشام والحجاز ، ومعه يانس الصقلبى وهو يومئذ خليفة العزيز بالله على القاهرة عند مسيره الى الشام ، ومعهما مسعود الصقلبى متولى الشرطة . وأحضروا الروم من الصناعة * ، فاعترفوا بأنهم الذين أحرقوا الأسطول .

فكتب بذلك الى العزيز بالله — وهو مبرز يريد السفر الى الشام — وذكر له فى الكتاب خبر من قتل من الروم وما نهب ، وأنه ذهب فى النهب ما يبلغ تسعين ألف دينار .

فطاف أصحاب الشرط فى الأسواق بسجل فيه الأمر برد ما نهب من دار مانك وغيرها ، والتوعد لمن ظهر عنده منه شىء ، وحفظ أبو الحسن يانس البلد ، وضبط الناس .

وأمر عيسى بن نسطورس أن يمد للوقت عشرون مركبا ، وطرح الخشب ، وطلب الصناع ، وبات فى الصناعة ، وجد الصناع فى العمل . وأغلب أحداث الناس وعامتهم

(*) ص١٩٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

يلعبون برءوس القتلى ، ويجرون بأرجلهم فى الأسواق والشوارع ، ثم قرنوا بعضهم الى بعض على ساحل النيل بالمقس ، وأحرقوا يوم السبت .

وضرب بالحرس على البلد ألا يتخلف أحد ممن نهب شيئا حتى يحضر ما نهبه ويرده ، ومن علم عليه بشيء أو كتم شيئا أو جحده أو أخره ، حلت به العقوبة الشديدة . وتتبع من نهب ، فقبض على عدة قتل منهم عشرون رجلا ضربت أعناقهم ، وضرب ثلاثة وعشرون رجلا بالسياط ، وطيف بهم وفى عنق كل واحد رأس رجل ممن قتل من الروم ، وحبس عدة أناس ، وأمر بضرب من ضربت أعناقهم فصلبوا عند كوم دينار ، ورد المضربون الى المطبق .

وكان ضرب من ضرب من النهابة ، وقتل من قتل منهم برقاع كتبت لهم . تناول كل واحد منهم رقعة فيها مكتوب اما بقتل أو ضرب ، فأمضى فيهم بحسب ما كان فى رقاعهم من قتل أو ضرب .

واشتد الطلب على النهابة ، فكان الناس يدل بعضهم على بعض ، فاذا أخذ أحد ممن اتهم بالنهب حلف بالأيمان المغلظة أنه ما بقى عنده شيء .

وجد عيسى بن نسطورس فى عمل الأسطول وطلب الخشب ، فلم يدع عند أحد خشبا علم به الا أخذه منه ، وتزايد اخراج النهابة لما نهبوه ، فكانوا يطرحونه فى الأزقة والشوارع خوفا من أن يعرفوا به ، وحبس كثير ممن أحضر شيئا أو عرف عليه من النهب .

فلما كان يوم الخميس ثامن جمادى الأولى ضربت أعناقهم كلهم على يد أبى أحمد جعفر ، صاحب يانس ، فانه قدم فى عسكر كثير من اليانسية ، حتى ضربت أعناق الجماعة ، وأغلقت الأسواق يومئذ .

وطاف متولى الشرطة ، وبين يديه أرباب النفط بعددهم ، والنار مشتعلة ، واليانسية ركاب بالسلاح ، وقد ضرب جماعة ، وشهرهم بين يديه وهم ينادى عليهم : هذا جزاء من أثار الفتن ، ونهب حريم أمير المؤمنين ، فمن نظر فليعتبر ، فما تقال لهم عثرة ، ولا ترحم لهم عبرة ... فى كلام كثير من هذا الجنس . فاشتد خوف الناس ، وعظم فزعهم .

فلما كان من الغد نودى : معاشر الناس قد آمن الله من أخذ شيئا أو نهب شيئا على نفسه وماله ، فليرد من بقى عنده شيء من النهب ، وقد أجلناكم من اليوم الى مثله .

وفى سابع جمادى الآخرة نزل ابن نسطورس الى الصناعة ، وطرح مركبين فى غاية الكبر من التى استعملها بعد حريق الأسطول . وفى غرة شعبان نزل أيضا ، وطرح بين يديه أربعة مراكب كبارا من المنشأة بعد الحريق .

واتفق موت العزيز بالله ، وهو سائر الى الشام ، فى مدينة بلبيس . فلما قام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله فى الخلافة ، أمر فى خامس شوال بحط الذين صلبهم ابن

نسطورس ، فتسلمهم أهلهم ، وأعطى لأهل كل مصلوب عشرة دنانير برسم كفنه ودفنه .

وخلع على عيسى بن نسطورس ، وأقره فى ديوان الخاص ، ثم قبض عليه فى ليلة الأربعاء سابع المحرم سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، واعتقله الى ليلة الاثنين سابع عشريه . فأخرجه الأستاذ برجوان — وهو يومئذ يتولى تدبير الدولة — الى المقس ، وضرب عنقه .

فقال وهو ماض الى المقس : كل شيء قد كنت أحسبه الا موت العزيز بالله ، ولكن الله لا يظلم أحدا . والله انى لأذكر وقد ألقيت السهام للقوم المأخوذين فى نهب دار مانك — وفى بعضها مكتوب « يقتل » وفى أخرى « يضرب » — فأخذ شاب ممن قبض عليه رقعة منها فجاء فيها « يقتل » ، فأمرت به الى القتل ...

فصاحت أمه ولطمت وجهها ، وحلفت أنها وهو ما كانا ليلة النهب فى شيء من أعمال مصر ، وانما وردا مصر بعد النهب بثلاثة أيام . وناشدتنى الله تعالى أن أجعله من جملة من يضرب بالسوط ، وأن يعفى من القتل ، فلم ألتفت اليها ، وأمرت بضرب عنقه .

فقالت أمه : ان كنت لابد قاتله ، فاجعله آخر من يقتل لأتمتع به ساعة .

فأمرت به فجعل أول من ضرب عنقه .

فلطخت بدمه وجهها ، وسبقتنى — وهى منبوشة الشعر ذاهلة العقل — الى القصر .

فلما وافيت ، قالت لى : أقتلته ! كذلك يقتلك الله . فأمرت بها ، فضربت حتى سقطت الى الأرض . ثم كان من الأمر ما ترون مما أنا صائر اليه .

وكان خبره عبرة لمن اعتبر .

وفى نصف شعبان سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، ركب الحاكم بأمر الله الى صناعة المقس لتطرح المراكب بين يديه .

« صناعة الجزيرة » : هذه الصناعة كانت بجزيرة مصر ، التى تعرف اليوم بالروضة ، وهى أول صناعة عملت بفسطاط مصر . بنيت فى سنة أربع وخمسين من الهجرة ، وكان قبل بنائها هناك خمسمائة فاعل تكون مقيمة أبدا معدة لحريق يكون فى البلاد أو هدم . ثم اعتنى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون بانشاء المراكب الحربية * فى هذه الصناعة ، وأطافها بالجزيرة .

ولم تزل هذه الصناعة الى أيام الملك الأمير أبى بكر محمد بن طغج الاخشيد ، فأنشأ صناعة بساحل فسطاط مصر ، وجعل موضع هذه الصناعة البستان المختار ، كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب .

« صناعة مصر » : هذه الصناعة كانت بساحل مصر القديم . يعرف موضعها بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان ، امرأة الأمير أحمد بن طولون ... الى أن قدم الأمير أبو بكر محمد بن طغج الاخشيد أميرا على مصر من قبل الخليفة الراضى ، عوضا عن أحمد بن كيغلغ ، فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة وقد كثرت الفتن . فلم يدخل عيسى بن أحمد

(*) ص١٩٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

السلمى أبو مالك ، كبير المغاربة فى طاعته ، ومضى ومعه بحكم وعلى بن بدر ونظيف النوشرى وعلى المغربى الى الفيوم . فبعث اليهم الاخشيد صاعد بن الكلكم بمراكبه ، فقاتلوه وقتلوه وأخذوا مراكبه ، وركب فيها على بن بدر وبحكم ، وقدموا مدينة مصر أول يوم من ذى القعدة ، فأرسوا بجزيرة الصناعة .

وركب الاخشيد فى جيشه ، ووقف حيالهم والنيل بينهم وبينه ، فكره ذلك وقال : صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشىء . فأقام بحكم وعلى بن بدر الى آخر النهار ، ومضوا الى جهة الاسكندرية .

وعاد الاخشيد الى داره ، فأخذ فى تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة الى دار خديجة بنت الفتح فى شعبان سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، وكان اذ ذاك عندها سلم ينزل منه الى الماء . وعندما ابتدأ فى انشاء المراكب بها صاحت به امرأة ، فأمر بأخذها اليه ، فسألته أن يبعث معها من يحمل المال ، فسير معها طائفة ، فأتت بهم الى دار خديجة هذه ودلتهم على موضع منها . فأخرجوا منه عينا وورقا وحليا وغيره ، وطلبت المرأة فلم توجد ولا عرف لها خبر .

وكانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ فى الجزيرة وفى صناعتها الى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله تعالى . فلما ولى المأمون بن البطائحى أنكر ذلك ، وأمر أن يكون انشاء الشوانى والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر هذه ، وأضاف اليها دار الزبيب ، وأنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة يوم تقدمة الأسطول ورميه ، فأقر انشاء الحربيات والشلنديات بصناعة الجزيرة . وكان لهذه الصناعة دهليز ماد بمساطب مفروشة بالحصر العبدانية بسطا وتأزيرا ، وفيها محل ديوان الجهاد .

وكان يعرف فى الدولة الفاطمية ألا يدخل من باب هذه الصناعة أحد راكبا الا الخليفة والوزير اذا ركبا فى يوم فتح الخليج عند وفاء النيل . فان الخليفة كان يدخل من بابها ، ويشقها راكبا والوزير معه حتى يركب النيل الى المقياس — كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب — ولم تزل هذه الصناعة عامرة الى ما قبل سنة سبعمائة ، ثم صارت بستانا عرف ببستان ابن كيسان ، ثم عرف فى زمننا ببستان الطواشى .

وكان فيما بين هذه الصناعة والروضة بحر ، ثم تربى جرف عرف موضعه بالجرف ، وأنشىء هناك بستان عرف ببستان الجرف ، وصار فى جملة أوقاف خانقاه المواصلة ، وقيل لهذا الجرف بين الزقاقين ، وكان فيه عدة دور وحمام وطواحين وغير ذلك . ثم خرب من بعد سنة ست وثمانمائة ، وخرب بستان الجرف أيضا .

والى اليوم بستان الطواشى فيه بقية ، وهو على يسرة من يريد مصر من طريق المراغة ، وبظاهره حوض ماء ترده الدواب ، ومن وراء البستان كيمان فيها كنيسة للنصارى .

قال ابن المتوج : وكان مكان بستان ابن كيسان صناعة العمارة ، وأدركت فيه بابها ، وبستان الجرف المقابل لبستان ابن كيسان كان مكانه بحر النيل ، وان الجرف تربى فيه .

ذكر الميادين

« ميدان ابن طولون » : كان قد بناه وتأنق فيه تأنقا زائدا ، وعمل فيه المناخ وبركة الزئبق والقبة الذهبية . وقد ذكر خبر هذا الميدان عند ذكر القطائع من هذا الكتاب .

« ميدان الاخشيد » : هذا الميدان أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج الاخشيد أمير مصر بجوار بستانه الذى يعرف اليوم فى القاهرة بالكافورى ، ويشبه أن يكون موضع هذا الميدان اليوم حيث المكان المعروف بالبندقانيين وحارة الوزيرية وما جاور ذلك .

وكان لهذا البستان بابان من حديد . قلعهما القائد جوهر عندما قدم القرمطى الى مصر يريد أخذها ، وجعلهما على باب الخندق الذى حفره بظاهر القاهرة قريبا من مدينة عين شمس ، وذلك فى سنة ستين وثلثمائة

وكان هذا الميدان من أعظم أماكن مصر ، وكانت فيه الخيول السلطانية فى الدولة الاخشيدية .

« ميدان القصر » : هذا الميدان موضعه الآن فى القاهرة يعرف بالخرنشف . عمل عند بناء القاهرة بجوار البستان الكافورى ، ولم يزل ميدانا للخلفاء الفاطميين يدخل اليه من باب التبانين الذى موضعه الآن يعرف بقبو الخرنشف . فلما زالت الدولة الفاطمية تعطل ، وبقى الى أن بنى به العز اصطبلات بالخرنشف ، ثم حكر وبنى فيه ، فصار من أخطاط القاهرة

« ميدان قراقوش » : هذا الميدان خارج * باب الفتوح .

« ميدان الملك العزيز » : هذا الميدان كان بجوار خليج الذكر ، وكان موضعه بستانا .

قال القاضى الفاضل فى متجددات ثالث عشرى شهر رمضان سنة أربع وتسعين وخمسمائة : خرج أمر الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بقطع النخل المثمر المستغل تحت اللؤلؤة بالبستان المعروف بالبغدادية

وهذا البستان كان من بساتين القاهرة الموصوفة ، وكان منظرة من المناظر المستحسنة وكان له مستغل ، وكان قد عنى الأولون به لمجاورته اللؤلؤة واطلال جميع مناظرها عليه . وجعل هذا البستان ميدانا ، وحرث أرضه ، وقطع ما فيه من الأصول . ثم حكر الناس أرض هذا البستان ، وبنوا عليها ، وهو الآن دائر فيه كيمان وأتربة . انتهى

« الميدان الصالحى » : هذا الميدان كان بأراضى اللوق من بر الخليج الغربى ، وموضعه الآن من جامع الطباخ بباب اللوق الى قنطرة قدادار التى على الخليج الناصرى ، ومن جملته الطريق المسلوكة الآن من باب اللوق الى القنطرة المذكورة .

(*) ص١٩٧ جـ٢ ، ط.بولاق .

وكان أولا بستانا يعرف ببستان الشريف بن ثعلب . فاشتراه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، بثلاثة آلاف دينار مصرية ، من الأمير حصن الدين ثعلب ابن الأمير فخر الدين اسماعيل بن ثعلب الجعفرى ، فى شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وجعله ميدانا ، وأنشأ فيه مناظر جليلة تشرف على النيل الأعظم ، وصار يركب اليه ويلعب فيه بالكرة .

وكان عمل هذا الميدان سببا لبناء القنطرة — التى يقال لها اليوم قنطرة الخرق — على الخليج الكبير لجوازه عليها ، وكان قبل بنائها موضعها موردة سقائى القاهرة . وما برح هذا الميدان تلعب فيه الملوك بالكرة من بعد الملك الصالح الى أن انحسر ماء النيل من تجاهه وبعد عنه ، فأنشأ الملك الظاهر ميدانا على النيل .

وفى سلطنة الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى الصالحى النجمى ، قال له منجمه : ان امرأة تكون سببا فى قتله . فأمر أن تخرب الدور والحوانيت التى من قلعة الجبل بالتبانة الى باب زويلة والى باب الخرق والى باب اللوق الى الميدان الصالحى ، وأمر ألا يترك باب مفتوح بالأماكن التى يمر عليها يوم ركوبه الى الميدان ، ولا تفتح أيضا طاقة .

وما زال باب هذا الميدان باقيا ، وعليه طوارق مدهونة ، الى ما بعد سنة أربعين وسبعمائة ، فأدخله صلاح الدين بن المغربى فى قيسارية الغزل التى أنشأها هناك . ولأجل هذا الباب قيل لذلك الخط « باب اللوق » .

ولما خرب هذا الميدان حكر ، وبنى موضعه ما هنالك من المساكن . ومن جملته حكر مرادى ، وهو على يمنة من سلك من جامع الطباخ الى قنطرة قدادار ، وهو فى أوقاف خانقاه قوصون وجامع قوصون بالقرافة . وهذا الحكر اليوم قد صار كيمانا بعد كثرة العمارة به .

« الميدان الظاهرى » : هذا الميدان كان بطرف أراضى اللوق يشرف على النيل الأعظم ، وموضعه الآن تجاه قنطرة قدادار من جهة باب اللوق . أنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى لما انحسر ماء النيل ، وبعد عن ميدان أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وما زال يلعب فيه بالكرة هو ومن بعده من ملوك مصر ... الى أن كانت سنة أربع عشرة وسبعمائة . فنزل السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون اليه ، وخرب مناظره ، وعمله بستانا من أجل بعد البحر عنه ، وأرسل الى دمشق فحمل اليه منها سائر أصناف الشجر ، وأحضر معها خولة الشام والمطعمين، فغرسوها فيه وطعموها .

وما زال بستانا عظيما ، ومنه تعلم الناس بمصر تطعيم الأشجار فى بساتين جزيرة الفيل . وجعل السلطان فواكه هذا البستان ، مع فواكه البستان الذى أنشأه بسرياقوس ، تحمل بأسرها الى الشراب خاناه السلطانية بقلعة الجبل ، ولا يباع منها شىء ألبتة ، وتصرف كلفهما من الأموال الديوانية . فجادت فواكه هذين البستانين ، وكثرت حتى حاكت

بحسنها فواكه الشام ، لشدة العناية والخدمة بهما .

ثم ان السلطان لما اختص بالأمير قوصون ، أنعم بهذا البستان عليه . فعمر تجاهه الزربية — التى عرفت بزربية قوصون — على النيل ، وبنى الناس الدور الكثيرة هناك ... سيما لما حفر الخليج الناصرى . فان العمارة عظمت فيما بين هذا البستان والبحر ، وفيما بينه وبين القاهرة ومصر .

ثم ان هذا البستان خرب لتلاشى أحواله بعد قوصون ، وحكرت أرضه ، وبنى الناس فوقها الدور التى على يسرة من صعد القنطرة من جهة باب اللوق يريد الزربية . ثم لما خرب خط الزربية ، خرب ماعمر بأرض هذا البستان من الدور منذ سنة ست وثمانمائة . والله تعالى أعلم .

« ميدان بركة الفيل » : هذا الميدان كان مشرفا على بركة الفيل قبالة الكبش ، وكان أولا اصطبل الجوق برسم خيول المماليك السلطانية ... الى أن جلس الأمير زين الدين كتبغا على تخت الملك ، وتلقب بالملك العادل بعد خلعه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة .

فلما دخلت سنة خمس وتسعين ، كان الناس فى أشد ما يكون من غلاء الأسعار * وكثرة الموتان ، والسلطان خائف على نفسه ، ومتحرز من وقوع فتنة ، وهو مع ذلك ينزل من قلعة الجبل الى الميدان الظاهرى بطرف اللوق . فحسن بخاطره أن يعمل اصطبل الجوق المذكور ميدانا عوضا عن ميدان اللوق ، وذكر ذلك للأمراء فأعجبهم ذلك ، فأمر باخراج الخيل منه ، وشرع فى عمله ميدانا .

وبادر الناس من حينئذ الى بناء الدور بجانبه . وكان أول من أنشأ هناك الأمير علم الدين سنجر الخازن ، فى الموضع الذى عرف اليوم بحكر الخازن ، وتلاه الناس فى العمارة والأمراء . وصار السلطان ينزل الى هذا الميدان من القلعة ، فلا يجد فى طريقه أحدا من الناس سوى أصحاب الدكاكين من الباعة ، لقلة الناس وشغلهم مما هم فيه من الغلاء والوباء .

ولقد رآه شخص من الناس ، وقد نزل الى الميدان والطرقات خالية ، فأنشد ما قيل فى الطبيب ابن زهر :

قل للغلا أنت وابن زهر ... بلغتما الحد والنهايه
ترفقا بالورى قليلا ... فى واحد منكما كفايه

وما برح هذا الميدان باقيا الى أن عمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قصر الأمير بكتمر الساقى على بركة الفيل ، فأدخل فيه جميع أرض هذا الميدان ، وجعله اصطبل قصر الأمير بكتمر الساقى فى سنة سبع عشرة وسبعمائة . وهو باق الى وقتنا هذا .

« ميدان المهارى » : هذا الميدان بالقرب من قناطر السباع ، فى بر الخليج الغربى ، كان من جملة جنان الزهرى . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة عشرين وسبعمائة .

(*) ص١٩٨ ج٢ ، ط. بولاق .

ومن وراء هذا الميدان بركة ماء كان موضعها كرم القاضى الفاضل رحمة الله عليه .

قال جامع السيرة الناصرية : وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون له شغف عظيم بالخيل . فعمل ديوانا ينزل فيه كل فرس بشأنه ، واسم صاحبه ، وتاريخ الوقت الذى حضر فيه . فاذا حملت فرس من خيول السلطان أعلم به ، وترقب الوقت الذى تلد فيه .

واستكثر من الخيل حتى احتاج الى مكان برسم نتاجها . فركب من قلعة الجبل فى سنة عشرين وسبعمائة ، وعين موضعا يعمله ميدانا برسم المهارى ، فوقع اختياره على أرض بالقرب من قناطر السباع . وما زال واقفا بفرسه حتى حدد الموضع ، وشرع فى نقل الطين البليز اليه ، وزرعه من النخل وغيره ، وركب على الآبار التى فيه السواقى .

فلم يمض سوى أيام حتى ركب اليه ، ولعب فيه بالكرة مع الخاصكية ، ورتب فيه عدة حجور للنتاج ، وأعد لها سواسا وأميراخورية وسائر ما يحتاج اليه . وبنى فيه أماكن ، ولازم الدخول اليه فى ممره الى الميدان الذى أنشاه على النيل بموردة الملح .

فلما كان بعد أيام وأشهر ، حسن فى نفسه أن يبنى تجاه هذا الميدان — على النيل الأعظم بجوار جامع الطيبرسى — زريبة ، ويبرز بالمناظر التى ينشئها فى الميدان الى قرب البحر . فنزل بنفسه ، وتحدث فى ذلك ، فكثر المهندسون المصروف فى عينه ، وصعبوا الأمر من جهة قلة الطين هناك . وكان قد أدركه السفر للصعيد فترك ذلك

وما برحت الخيول فى هذا الميدان الى أن مات الملك الظاهر برقوق فى سنة احدى وثمانمائة . واستمر بعده فى أيام ابنه الملك الناصر فرج . الا أنه تلاشى أمره عما كان قبل ذلك ، ثم انقطعت منه الخيول وصار براحا خاليا

« ميدان سرياقوس » : كان هذا الميدان شرقى ناحية سرياقوس بالقرب من الخانقاه . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، وبنى فيه قصورا جليلة وعدة منازل للأمراء ، وغرس فيه بستانا كبيرا نقل اليه من دمشق سائر الأشجار التى تحمل الفواكه ، وأحضر معها خولة بلاد الشام حتى غرسوها وطعموا الأشجار . فأفلح فيه الكرم والسفرجل وسائر الفواكه .

فلما كمل فى سنة خمس وعشرين ، خرج ومعه الأمراء والأعيان ، ونزل القصور التى هناك ، ونزل الأمراء والأعيان على منازلهم فى الأماكن التى بنيت لهم . واستمر يتوجه اليه فى كل سنة ، ويقيم به الأيام ، ويلعب فيه بالكرة الى أن مات . فعمل ذلك أولاده الذين ملكوا من بعده .

فكان السلطان يخرج فى كل سنة من قلعة الجبل بعدما تنقضى أيام الركوب ، الى الميدان الكبير الناصرى على النيل ، ومعه جميع أهل الدولة من الأمراء والكتاب وقاضى العسكر وسائر أرباب الرتب ، ويسير الى السرحة

بناحية سرياقوس ، وينزل بالقصور ، ويركب الى الميدان هناك للعب بالكرة ، ويخلع على الأمراء وسائر أهل الدولة ، ويقيم فى هذه السرحة أياما . فيمر للناس فى اقامتهم بهذه السرحة أوقات لا يمكن وصف ما فيها من المسرات ، ولا حصر ما ينفق فيها من المآكل والهبات من الأموال .

ولم يزل هذا الرسم مستمرا الى سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، وهى آخر سرحة سار اليها السلطان بسرياقوس . ومن هذه السنة انقطع السلطان الملك الظاهر برقوق عن الحركة لسرياقوس ، فانه اشتغل فى سنة ثمانمائة بتحرك المماليك عليه من وقت قيام الأمير على باى الى أن مات .

وقام من بعده ابنه الملك الناصر فرج . فما صفا الوقت * فى أيامه من كثرة الفتن وتواتر الغلوات والمحن ... الى أن نسى ذلك ، وأهمل أمر الميدان والقصور وخرب ، وفيه الى اليوم بقية قائمة . ثم بيعت هذه القصور ، فى صفر سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، بمائة دينار لينقض خشبها وشبابيكها وغيرها ، فنقضت كلها .

وكان من عادته اذا مر فى متصيداته باقطاع الصيد لسرياقوس أو شبرا أو البحيرة ، أنه ينعم على أكابر أمراء الدولة قدرا وسنا : كل واحد بألف مثقال ذهبا ، وبرذون خاص مسرج ملجم ، وكنبوش مذهب .

وكان من عادة السلطان ، اذا خرج الى أمير كبير ، قدم له من الغنم والاوز والدجاج وقصب السكر والشعير ما تسمو همة مثله اليه . فيقبله السلطان منه ، وينعم عليه بخلعة كاملة ، وربما أمر لبعضهم بمبلغ مال .

وكانت عادة الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث يركب فى المدينة وخلفه جنيب ، وأما أكابرهم فيركب بجنيبين ... هذا فى المدينة والحاضرة . وهكذا يكون اذا خرج الى سرياقوس وغيرها من نواحى الصيد ، ويكون فى الخروج الى سرياقوس وغيرها من الأسفار لكل أمير طلب يشتمل على أكثر مماليكه ، وقدامهم خزانة محمولة على جمل واحد يجره راكب آخر على جمل والمال على جملين ، وربما زاد بعضهم على ذلك .

وأمام الخزانة عدة جنائب تجر على أيدى مماليك ركاب خيل وهجن وركاب من العرب على هجن ، وأمامها الهجن بأكوارها مجنوبة ، وللطبلخانات قطار واحد وهو أربعة ، ومركوب الهجان والمال قطاران ، وربما زاد بعضهم .

وعدد الجنائب فى كثرتها وقلتها الى رأى الأمير وسعة نفسه . والجنائب منها ما هو مسرج ملجم ، ومنها ما هو بعباءة لا غير . وكان يضاهى بعضهم بعضا فى الملابس الفاخرة والسروج المحلاة والعدد المليحة .

وكان من رسوم السلطان ، فى خروجه الى سرياقوس وغيرها من الأسفار ، ألا يتكلف اظهار كل شعار السلطنة ، بل يكون الشعار فى موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم وأستاداره ، وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن . وأما هو نفسه فانه يركب

(*) ص١٩٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

ومعه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص ، وجملة من خـواص مماليكه .

ولا يركب فى السير برقبة ولا بعصائب ، بل يتبعه جنائب خلفه ، ويقصـد فى الغالب تأخير النزول الى الليـل . فاذا جاء الليـل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل ، فاذا قارب مخيمـه تلقى بشـموع موكبيـة فى شمعدانات كفت ، وصـاحت الجاويشية بين يديه ، وترل الناس كافة . الا حملة السـلاح فانهم وراءه ، والوشاقية أيضا وراءه ، وتمشى الطبردارية حوله .

حتى اذا وصـل القصـور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم ، نزل عن فرسه ودخل الى الشقة — وهى خيمة مستديرة متسعة — ثم منـها الى شقـة مختـصرة ، ثم منـها الى اللاجوق . وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه ، وفى صدر اللاجوق قصر صغير من خشب برسـم المبيت فيـه . وينصب بازاء الشقة الحمام بقدور الرصاص والحوض ، على هيئة الحمام المبنى فى المدن الا أنه مختصر .

فاذا نام السلطان طافت به المماليـك دائرة بعد دائرة ، وطاف بالجميع الحرس ، وتدور الزفة حـول الدهليز فى كل ليـلة ، وتدور بسرياقوس حول القصر فى كل ليلة مرتين : الأولى منذ يأوى الى النوم ، والثانية عنـد قعوده من النوم .

وكل زفة يدور بها أمير جاندار — وهو من أكابر الأمراء — وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة . وينـام على باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم .

ويصحب السلطان فى السفر غالب ما تدعو الحاجة اليه حتى يكاد يكون معه مارستان ، لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الـكحل والجراح والأشربة والعقاقير ، وما يجـرى مجرى ذلك . وكل من عاده طبيب ، ووصف له ما يناسبه ، يصرف له من الشراب خاناه أو الدواء خاناه المحمولين فى الصحبـة . والله أعلم .

« الميدان الناصرى » : هذا الميـدان من جملة أراضى بستان الخشاب فيما بين مدينة مصر والقاهرة . وكان موضعه قديـما غامرا بماء النيل ، ثم عرف ببستان الخشاب .

فلما كانت سنة أربع عشرة وسبعمائة ، هدم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الميدان الظاهرى ، وغرس فيه أشـجارا كما تقدم ، وأنشـأ هـذا الميدان من أراضى بسـتان الخشاب . فانه كان حينئذ مطلا على النيل .

وتجهز فى سـنة ثمـان عشرة وسبعمائة للركوب اليه ، وفرق الخيـول على جميـع الأمراء ، واستجد ركوب الأوجاقية بكوافى الزركش على صفة الطاسات فوق رؤوسهم ، وسماهم الجفتاوات .

فيركب منهم اثنـان بثـوبى حرير أطلس أصفر ، وعلى رأس كل منهما كوفية الذهب ، وتحت كل واحد فرس أبيض بحلية ذهب . ويسيران معا بين يدى السلطان فى ركوبه من قلعة الجبل الى الميدان ، وفى عودته منه الى القلعة .

وكان السلطان اذا ركب الى هذا الميـدان للعب الأكرة ، يفرق حوائص ذهب على الأمراء المقدمين . وركوبه الى هذا الميدان دائما يوم السبت ، فى قوة الحر بعد وفاء النيل ، مدة شهرين من السنة . فيفرق فى كل ميدان على اثنين بالنوبة ، فمنهم من تجىء نوبته بعـد ثلاث سنين أو أربع سنين .

وكان من مصطلح الملوك * أن تكون تفرقة السلطـان الخيـول على الأمراء فى وقتين : أحدهما عندما يخـرج الى مرابط خيـله فى الربيع عند اكتمال تربيعها ، وفى هذا الوقت يعطى أمراء المئين الخيـول مسرجة ملجمـة بكنابيش مذهبة ، ويعطى أمراء الطبلخـانات خيلا عريا . والوقت الثانى يعطى الجميـع خيولا مسرجة ملجمـة بلا كنـابيش بفضـة خفيفة . وليس لأمراء العشراوات حظ فى ذلك الا ما يتفقـدهم به على سـبيل الانعـام . ولخاصكية السلطان المقربين ، من أمراء المئين وأمراء الطبلخانات ، زيادة كثيرة من ذلك ، بحيث يصل الى بعضهم المائة فرس فى السنة .

وكان من شعار السلطـان أن يركب الى الميدان وفى عنق الفرس رقبـة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب ، فتسـتر من تحت أذنى الفرس الى حيث السرج . ويكون قدامه اثنان من الأوشاقية راكبين على حصانين أشـهبين برقبتين نظير ما هو راكب به ، كأنهما معدان لأن يركبهما . وعلى الأوشـاقيين المذكورين قبـاءان أصـفران من حرير بطراز مزركش بالذهب ، وعلى رأسهما قبعان مزركشـان . وغاشية السرج محمولة أمام السلطان ، وهى أديم مزركش مذهب يحملها بعض الركابدارية قدامه ، وهو ماش فى وسط الموكب . ويكون قدامه فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمهـا الاطراب ، بل ما يقرع بالمهابة سامعـه . ومن خلف السلطان الجنائب ، وعلى رأسه العصائب السلطانية ، وهى صفر مطرزة بذهب بألقـابه واسمه .

(*) ص ٢٠٠ جـ٢ ، ط . بولاق .

وهذا لا يختص بالركوب الى الميدان ، بل يعمل هذا الشعار أيضا اذا ركب يوم العيد ، أو دخل الى القاهرة أو الى مدينـة من مدن الشام . ويزداد هذا الشعار فى يوم العيدين ودخول المدينـة ، برفع المظلة عـلى رأسـه — ويقال لها الجبر — وهو أطلس أصـفر مزركش من أعلاه قبـة وطـائر من فضـة مذهبة ... يحملها يومئـذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه الى جانب السلطان . ويكون أرباب الوظائف والسـلاحدارية كلهم خلف السلطـان ، ويكـون حـوله وأمامه الطبردارية — وهم طائفـة من الأكراد ذوى الاقطـاعات والامـرة — ويكونون مشـاة وبأيديهم الأطبار المشهورة .

ذكر قلعة الجبل

قال ابن سيده فى كتاب « المحـكم » : القلعـة — بتحريك القـاف واللام والعين وفتحها — الحصن الممتنع فى جبل ، وجمعها قلاع وقلع ، وأقلعـوا بهـذه البلاد بنوها فجعلوها كالقلعة ؛ وقيل القلعة — بسـكون اللام — حصن مشرف ، وجمعه قلوع :

وهذه القلعة على قطعة من الجبل ، وهى تتصل بجبل المقطم ، وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة . فتصير القاهرة فى الجهة البحرية منها ، ومدينة مصر والقرافة الكبرى وبركة الحبش فى الجهة القبلية الغربية ، والنيل الأعظم فى غربيها ، وجبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية .

وكان موضعها أولا يعرف بقبة الهواء ، ثم صار من تحته ميدان أحمد بن طولون ، ثم صار موضعها مقبرة فيها عدة مساجد ... الى أن أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب — أول الملوك بديار مصر — على يد الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وصارت من بعده دار الملك بديار مصر الى يومنا هذا .

وهى ثامن موضع صار دار المملكة بديار مصر . وذلك أن دار الملك كانت أولا قبل الطوفان مدينة أمسوس ، ثم صار تخت الملك بعد الطوفان بمدينة منف الى أن خربها بخت نصر . ثم لما ملك الاسكندر بن فيليش صار الى مصر ، وجدد بناء الاسكندرية . فصارت دار المملكة من حينئذ ، بعد مدينة منف ، الاسكندرية الى أن جاء الله تعالى بالاسلام ، وقدم عمرو بن العاص رضى الله عنه بجيوش المسلمين الى مصر وفتح الحصن ، واختط مدينة فسطاط مصر . فصارت دار الامارة من حينئذ بالفسطاط الى أن زالت دولة بنى أمية . وقدمت عساكر بنى العباس الى مصر ، وبنوا فى ظاهر الفسطاط العسكر . فصار الأمراء من حينئذ تارة ينزلون فى العسكر ، وتارة فى الفسطاط ... الى أن بنى أحمد بن طولون القصر والميدان ، وأنشأ القطائع بجانب العسكر . فصارت القطائع منازل الطولونية الى أن زالت دولتهم .

فسكن الأمراء بعد زوال دولة بنى طولون بالعسكر الى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر المعز لدين الله ، وبنى القاهرة المعزية . فصارت القاهرة من حينئذ دار الخلافة ، ومقر الامامة ، ومنزل الملك الى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

فلما استبد بعدهم بأمر سلطنة مصر ، بنى قلعة الجبل هذه ومات . فسكنها من بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، واقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده الى أن انقرضوا على يد مماليكهم البحرية ، وملكوا مصر من بعدهم ، فاستقروا بقلعة الجبل الى يومنا هذا .

وسأجمع ان شاء الله تعالى من أخبار قلعة الجبل هذه ، وذكر من ملكها ما فيه كفاية ، والله أعلم * .

ذكر ما كان عليه موضع قلعة الجبل قبل بنائها

اعلم أن أول ما عرف من خبر موضع قلعة الجبل أنه كان فيه قبة تعرف بقبة الهواء .

قال أبو عمرو الكندى فى كتاب « أمراء مصر » : وابتنى حاتم بن هرثمة القبة التى تعرف بقبة الهواء ، وهو أول من ابتناها ،

(*) ص٢٠١ ج٢ ، ط.بولاق .

وولى مصر الى أن صرف عنها فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة ... قال : ثم مات عيسى بن منصور ، أمير مصر ، فى قبة الهواء بعد عزله لاحدى عشرة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين ومائتين .

ولما قدم أمير المؤمنين المأمون الى مصر فى سنة سبع عشرة ومائتين ، جلس بقبة الهواء هذه . وكان بحضرته سعيد بن عفير ، فقال المأمون : لعن الله فرعون حيث يقول : « أليس لى ملك مصر » ؟ فلو رأى العراق وخصبها !

فقال سعيد بن عفير : ياأمير المؤمنين لا تقل هذا ، فان الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون» فما ظنك ياأمير المؤمنين بشىء دمره الله هذا بقيته !

ثم قال سعيد : لقد بلغنا أن أرضا لم تكن أعظم من مصر ، وجميع أهل الأرض يحتاجون اليها ، وكانت الأنهار بقناطر وجسور بتقدير ، حتى ان الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم يرسلونه متى شاءوا ويحبسونه متى شاءوا ، وكانت البساتين متصلة لا تنقطع . ولقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلىء مما يسقط من الشجر ، وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج الى خمار لكثرة الشجر .

وفى قبة الهواء حبس المأمون الحارث بن مسكين .

قال الكندى فى كتاب « الموالى » : قدم المأمون مصر — وكان بها رجل يقال له الحضرمى يتظلم من ابن اسباط وابن تميم — فجلس الفضل بن مروان فى المسجد الجامع ، وحضر مجلسه يحيى بن أكثم وابن أبى داود ، وحضر اسحاق بن اسماعيل بن حماد بن زيد — وكان على مظالم مصر — وحضر جماعة من فقهاء مصر وأصحاب الحديث .

وأحضر الحارث بن مسكين ليولى قضاء مصر ، فدعاه الفضل بن مروان . فبينا هو يكلمه ، اذ قال الحضرمى للفضل : سل — أصلحك الله — الحارث عن ابن أسباط وابن تميم .

قال : ليس لهذا أحضرناه .

قال : أصلحك الله ، سله .

فقال الفضل للحارث : ما تقول فى هذين الرجلين ؟

فقال : ظالمين غاشمين .

قال : ليس لهذا أحضرناك .

فاضطرب المسجد ، وكان الناس متوافرين . فقام الفضل وصار الى المأمون بالخبر ، وقال : خفت على نفسى من ثوران الناس مع الحارث .

فأرسل المأمون الى الحارث فدعاه ، فابتدأه بالمسألة ، فقال : ما تقول فى هذين الرجلين ؟

فقال : ظالمين غاشمين .

قال : هل ظلماك بشىء ؟

قال : لا .

قال : فعاملتهما ؟

قال : لا .

قال : فكيف شهدت عليهما ؟

قال : كما شهدت أنك أمير المؤمنين ولم أرك قط الا الساعة ، وكما شهدت أنك غزوت ولم أحضر غزوك .

قال : اخرج من هذه البلاد فليست لك ببلاد ، وبع قليلك وكثيرك فانك لا تعاينها أبدا . وحبسه فى رأس الجبل فى قبة ابن هرثمة .

ثم انحدر المأمون الى البشرود وأحضره معه . فلما فتح البشرود أحضر الحارث . فلما دخل عليه سأله عن المسألة التى سأله عنها بمصر ، فرد عليه الجواب بعينه ؛ فقال : فأى شىء تقول فى خروجنا هذا ؟

قال : أخبرنى عبد الرحمن بن القاسم ، عن مالك ، أن الرشيد كتب اليه فى أهل دهلك يسأله عن قتالهم ، فقال : ان كانوا خرجوا عن ظلم من السلطان فلا يحل قتالهم ، وان كانوا انما شقوا العصا فقتالهم حلال .

فقال المأمون : أنت تيس ، ومالك أتيس منك . ارحل عن مصر .

قال : ياأمير المؤمنين الى الثغور ؟

قال : الحق بمدينة السلام .

فقال له أبو صالح الحرانى : ياأمير المؤمنين تغفر زلته .

قال : ياشيخ تشفعت ، فارتفع .

ولما بنى أحمد بن طولون القصر والميدان تحت قبة الهواء هذه ، كان كثيرا ما يقيم فيها ، فانها كانت تشرف على قصره . واعتنى بها الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وجعل لها الستور الجليلة والفرش العظيمة ... فى كل فصل ما يناسبه .

فلما زالت دولة بنى طولون ، وخرب القصر والميدان ، كانت قبة الهواء مما خرب — كما تقدم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب — ثم عمل موضع قبة الهواء مقبرة ، وبنى فيها عدة مساجد .

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة فى كتاب « النقط فى الخطط » : والمساجد المبنية على الجبل المتصلة باليحاميم المطلة على القاهرة المعزية ، التى فيها المسجد المعروف بسعد الدولة ، والترب التى هناك ... تحتوى القلعة التى بناها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجميع ، وهى التى نعتها بالقاهرة . وبنيت هذه القلعة فى مدة يسيرة .

وهذه المساجد هى : مسجد سعد الدولة ، ومسجد معز الدولة والى مصر ، ومسجد مقدم ابن عليان من بنى بويه الديلمى ، ومسجد العدة ، بناه أحد الأستاذين الكبار المستنصرية — وهو عدة الدولة — وكان بعد مسجد معز الدولة ، ومسجد عبد الجبار بن عبد الرحمن بن شبل بن على ، رئيس الرؤساء وكافى الكفاة ، أبى يعقوب بن يوسف الوزير بهمدان ابن على . بناه وانتقل بالارث الى ابن عمه القاضى الفقيه أبى الحجاج يوسف بن عبد الجبار بن شبل ، وكان من أعيان السادة . ومسجد * قسطة ، وكان غلاما أرمنيا من

(*) ص٢٠٢ ج٢ ، ط.بولاق .

غلمان المظفر بن أمير الجيوش . مات مسموما من أكله هريسة .

وقال الحافظ أبو الطاهر السلفى : سمعت أبا منصور قسطة الأرمنى والى الاسكندرية يقول : كان عبد الرحمن خطيب ثغر عسقلان يخطب بظاهر البلد فى عيد من الأعياد ، فقيل له قد قرب منا العدو . فنزل عن المنبر ، وقطع الخطبة .

فبلغه أن قوما من العسكرية عابوا عليه فعله . فخطب فى الجمعة الأخرى ، داخل البلد فى الجامع ، خطبة بليغة قال فيها : قد زعم قوم أن الخطيب فزع ، وعن المنبر نزع . وليس ذلك عارا على الخطيب ، فانما ترسه الطيلسان ، وحسامه اللسان ، وفرسه خشب لا تجرى مع الفرسان . وانما العار على من تقلد الحسام ، وسن السنان ، وركب الجياد الحسان ، وعند اللقاء يصيح : الى عسقلان .

وكان قسطة هذا من عقلاء الأمراء المائلين الى العدل ، المثابرين على مطالعة الكتب ، وأكثر ميله الى التواريخ وسير المتقدمين ، وكان مسجده بعد مسجد شقيق الملك . ومسجد الديلمى كان على قرنة الجبل المقابل للقلعة من شرقيها الى البحرى ، وقبره قدام الباب . وتربة ولخشى الأمير ، والد السلطان رضوان بن ولخشى المنعوت بالأفضل ، كان من الأعيان الفضلاء الأدباء ، ضرب على طريقة ابن البواب وأبى على بن مقلة ، وكتب عدة ختمات ، وكان كريما شجاعا يلقب فحل الأمراء . وكانت هذه التربة آخر الصف .

ومسجد شقيق الملك الأستاذ خروان ، صاحب بيت المال ، أضيف الى سور القلعة البحرى الى المغرب قليلا . ومسجد أمين الملك صارم الدولة مفلح صاحب المجلس الحافظى ، كان بعد مسجد القاضى أبى الحجاج المعروف بمسجد عبد الجبار ، وهو فى وسط القلعة ، وبعده تربة لاون أخى يانس . ومسجد القاضى النبيه كان لهمام الدولة غنام ، ومات رسولا ببلاد الشام ، وشراه منه وأنشأه القاضى النبيه ، وقبره به ، وكان القاضى من الأعيان .

وقال ابن عبد الظاهر : أخبرنى والدى قال : كنا نطلع اليها (يعنى الى المساجد التى كانت موضع قلعة الجبل) قبل أن تسكن فى ليالى الجمع ، نبيت متفرجين كما نبيت فى جواسق الجبل والقرافة .

قال مؤلفه رحمه الله : وبالقلعة الآن مسجد الردينى . وهو أبو الحسن على بن مرزوق ابن عبد الله الردينى ، الفقيه المحدث المفسر . كان معاصرا لأبى عمرو عثمان بن مرزوق الحوفى ، وكان ينكر على أصحابه ، وكانت كلمته مقبولة عند الملوك ، وكان يأوى بمسجد سعد الدولة ، ثم تحول منه الى مسجد عرف بالردينى ، وهو الموجود الآن بداخل قلعة الجبل ، وعليه وقف بالاسكندرية ، وفى هذا المسجد قبر يزعمون أنه قبره ، وفى كتب المزارات بالقرافة أنه توفى ، ودفن بها فى سنة أربعين وخمسمائة بخط سارية شرقى تربة الكيروانى ، واشتهر قبره باجابة الدعاء عنده .

ذكر بناء قلعة الجبل

وكان سبب بنائها أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما أزال الدولة الفاطمية من مصر ، واستبد بالأمر ، لم يتحول من دار الوزارة بالقاهرة ، ولم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى سلطان الشام رحمة الله عليه . فامتنع أولا من نور الدين بأن سير أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، الى بلاد اليمن لتصير له مملكة تعصمه من نور الدين ، فاستولى شمس الدولة على ممالك اليمن .

وكفى الله تعالى صلاح الدين أمر نور الدين ، ومات فى تلك السنة ، فخلا له الجو وأمن جانبه . وأحب أن يجعل لنفسه معقلا بمصر ، فانه كان قد قسم القصرين بين أمرائه ، وأنزلهم فيهما . فيقال ان السبب الذى دعاه الى اختيار مكان قلعة الجبل ، أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير الا بعد يومين وليلتين ، فأمر حينئذ بانشاء قلعة هناك وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى . فشرع فى بنائها ، وبنى سور القاهرة الذى زاده فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وهدم ما هنالك من المساجد ، وأزال القبور ، وهدم الأهرام الصغار التى كانت بالجيزة تجاه مصر — وكانت كثيرة العدد — ونقل ما وجد بها من الحجارة ، وبنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة ، وقصد أن يجعل السور يحيط بالقاهرة والقلعة ومصر . فمات السلطان قبل أن يتم الغرض من السور والقلعة .

فأهمل العمل الى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل ، واستنابته فى مملكة مصر وجعله ولى عهد . فأتم بناء القلعة ، وأنشأ بها الآدر السلطانية وذلك فى سنة أربع وستمائة . وما برح يسكنها حتى مات ، فاستمرت من بعده دار مملكة مصر الى يومنا هذا .

وقد كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يقيم بها أياما ، وسكنها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين فى أيام أبيه مدة ، ثم انتقل منها الى دار الوزارة .

قال ابن عبد الظاهر : وسمعت حكاية تحكى * عن صلاح الدين أنه طلعها ومعه أخوه الملك العادل ، فلما رآها التفت الى أخيه وقال : ياسيف الدين قد بنيت هذه القلعة لأولادك .

فقال : ياخوند منّ الله عليك أنت وأولادك وأولاد أولادك بالدنيا .

فقال : ما فهمت ما قلت لك . أنا نجيب ما يأتى لى أولاد نجباء ، وأنت غير نجيب فأولادك يكونون نجباء . فسكت .

قال مؤلفه رحمه الله : وهذا الذى ذكره صلاح الدين يوسف ، من انتقال الملك عنه الى أخيه وأولاد أخيه ، ليس هو خاصا بدولته ،

(*) ص٢٠٣ ج٢ ، ط. بولاق

بل اعتبر ذلك فى الدول تجد الأمر ينتقل عن أولاد القائم بالدولة الى بعض أقاربه ... هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو القائم بالملة الاسلامية . ولما توفى صلى الله عليه وسلم ، انتقل أمر القيام بالملة الاسلامية بعده الى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤى . فهو رضى الله عنه يجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب .

ثم لما انتقل الأمر بعد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم الى بنى أمية ، كان القائم بالدولة الأموية معاوية بن أبى سفيان صخر ابن حرب بن أمية ، فلم تفلح أولاده ، وصارت الخلافة الى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية ، فتوارثها بنو مروان حتى انقضت دولتهم بقيام بنى العباس رضى الله عنه .

فكان أول من قام من بنى العباس عبد الله ابن محمد السفاح . ولما مات انتقلت الخلافة من بعده الى أخيه أبى جعفر عبد الله بن محمد المنصور ، واستقرت فى بنيه الى أن انقرضت الدولة العباسية من بغداد .

وكذا وقع فى دول العجم أيضا . فأول ملوك بنى بويه عماد الدين أبو على الحسن ابن بويه ، والقائم من بعده فى السلطنة أخوه حسن بن بويه . وأول ملوك بنى سلجوق طغريل ، والقائم من بعده فى السلطنة ابن أخيه البارسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق .

وأول قائم بدولة بنى أيوب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولما مات اختلف أولاده ، فانتقل ملك مصر والشام وديار بكر والحجاز واليمن الى أخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، واستمر فيهم الى أن انقرضت الدولة الأيوبية ، فقام بمملكة مصر المماليك الأتراك .

وأول من قام منهم بمصر الملك المعز أيبك ، فلما مات لم يفلح ابنه على ، فصارت المملكة الى قطز .

وأول من قام بالدولة الجركسية الملك الظاهر برقوق ، وانتقلت المملكة من بعد ابنه الملك الناصر فرج الى الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى .

وقد جمعت فى هذا فصلا كبيرا ، وقلما تجد الأمر بخلاف ما قلته لك . ولله عاقبة الأمور .

قال ابن عبد الظاهر : والملك الكامل هو الذى اهتم بعمارتها وعمارة أبراجها ، البرج الأحمر وغيره ، فكملت فى سنة أربع وستمائة ، وتحول اليها من دار الوزارة ، ونقل اليها أولاد العاضد وأقاربه وسجنهم فى بيت فيها . فلم يزالوا فيه الى أن حولوا منه فى سنة احدى وسبعين وستمائة .

قال : وفى آخر سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، شرع السلطان الملك المنصور قلاوون فى عمارة برج عظيم على جانب باب السر الكبير ، وبنى علوه مشترفات وقاعات مرخمة لم ير مثلها ، وسكنها فى صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة . ويقال ان قراقوش

كان يستعمل فى بناء القلعة والسور خمسين ألف أسير .

« البئر التى بالقلعة » : هذه البئر من العجائب . استنبطها قراقوش .

قال ابن عبد الظاهر : وهذه البئر من عجائب الأبنية : تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها ، وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق الى الماء ينزل البقر الى معينها فى مجاز ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء .

وقيل ان أرضها مسامتة أرض بركة الفيل ، وماؤها عذب . سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت جاء ماؤها حلوا ، فأراد قراقوش أو نوابه الزيادة فى مائها ، فوسع نقر الجبل ، فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها .

وذكر القاضى ناصر الدين شافع بن على فى كتاب « عجائب البنيان » أنه ينزل الى هذه البئر بدرج نحو ثلثمائة درجة .

ذكر صفة القلعة

وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عالٍ ، يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى تنتهى الى القصر الأبلق ، ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج القلاع .

ويدخل الى القلعة من بابين : أحدهما بابها الأعظم المواجه للقاهرة — ويقال له الباب المدرج — وبداخله يجلس والى القلعة ، ومن خارجه تدق الخليلية قبل المغرب . والباب الثانى باب القرافة . وبين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت ، وبجانبها القبلى سوق للمآكل .

ويتوصل من هذه الساحة الى دركاه جليلة كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، وفى وسط الدركاه باب القلعة ، ويدخل منه فى دهليز فسيح الى ديار وبيوت ، والى الجامع الذى تقام به الجمعة . ويمشى من دهليز باب القلعة ، فى مداخل أبواب ، الى رحبة فسيحة فى صدرها الايوان الكبير المعد لجلوس السلطان فى يوم المواكب واقامة دار * العدل ، وبجانب هذه الرحبة ديار جليلة ، ويمر منها الى باب القصر الأبلق .

وبين يدى باب القصر رحبة دون الأولى يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم الى الخدمة الدائمة بالقصر . وكان بجانب هذه الرحبة ، محاذيا لباب القصر ، خزانة القصر . ويدخل من باب القصر فى دهاليز خمسة الى قصر عظيم ، ويتوصل منه الى الايوان الكبير بباب خاص ، ويدخل منه أيضا الى قصور ثلاثة ، ثم الى دور الحرم السلطانية والى البستان والحمام والحوش .

وباقى القلعة فيه دور ومساكن للمماليك السلطانية ، وخواص الأمراء بنسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم وطشتخاناتهم وفرشخاناتهم وشربخاناتهم ومطابخهم وسائر وظائفهم .

(*) ص٢٠٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

وكانت أكابر أمراء الألوف ، وأعيان أمراء الطبلخاناه والعشراوات ، تسكن بالقلعة الى آخر أيام الناصر محمد بن قلاوون .

وكان بها أيضا طباق المماليك السلطانية ودار الوزارة — وتعرف بقاعة الصاحب — وبها قاعة الانشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص ، وبها الدور السلطانية من الطشتخاناه والركابخاناه والحوائجخاناه والزردخاناه .

وكان بها الجب الشنيع لسجن الأمراء ، وبها دار النيابة ، وبها عدة أبراج يحبس بها الأمراء والمماليك ، وبها المساجد والحوانيت والأسواق ، وبها مساكن تعرف بخرائب التتر كانت قدر حارة ... خربها الملك الأشرف برسباى فى ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وثمانمائة .

ومن حقوق القلعة الاصطبل السلطانى ، وكان ينزل اليه السلطان من جانب ايوان القصر . ومن حقوقها أيضا الميدان ، وهو فاصل بين الاصطبلات وسوق الخيل من غربيه ، وهو فسيح المدى ، وفيه يصلى السلطان صلاة العيدين ، وفيه يلعب بالأكرة مع خواصه ، وفيه تعمل المدات أوقات المهمات أحيانا .

ومن رأى القصور والايوان الكبير والميدان الأخضر والجامع ، يقر لملوك مصر بعلو الهمم وسعة الانفاق والكرم .

« باب الدرفيل » : هذا الباب بجانب خندق القلعة ، ويعرف أيضا بباب المدرج ، وكان يعرف قديما بباب سارية . ويتوصل اليه من تحت دار الضيافة ، وينتهى منه الى القرافة ، وهو فيما بين سور القلعة والجبل .

والدرفيل هو الأمير حسام الدين لاجين الأيدمرى ، المعروف بالدرفيل ، دوادار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى . مات فى سنة اثنتين وسبعين وستمائة .

« دار العدل القديمة » : هذه الدار موضعها الآن تحت القلعة يعرف بالطبلخاناه . والذى بنى دار العدل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فى سنة احدى وستين وستمائة ، وصار يجلس بها لعرض العساكر فى كل اثنين وخميس .

وابتدأ بالحضور فى أول سنة اثنتين وستين وستمائة . فوقف اليه ناصر الدين محمد بن أبى نصر ، وشكا أنه أخذ له بستان فى أيام المعز أيبك ، وهو بأيدى المقطعين ، وأخرج كتابا مثبتا ، وأخرج من ديوان الجيش مايشهد بأن البستان ليس من حقوق الديوان . فأمر برده عليه ، فتسلمه .

وأحضرت مرافعة فى ورقة مختومة . رفعها خادم أسود فى مولاه القاضى شمس الدين شيخ الحنابلة ، تضمنت أنه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته ، فانه لم يجعل للحنابلة مدرسا فى المدرسة التى أنشأها بخط بين القصرين ، ولم يول قاضيا حنبليا ، وذكر عنه أمورا قادحة . فبعث السلطان الورقة الى الشيخ ، فحضر اليه وحلف أنه ما جرى منه شىء ، وأن هذا الخادم طردته فاختلق على ما قال . فقبل السلطان عذره ، وقال : ولو

شتمتنى أنت فى حل . وأمر بضرب الخادم مائة عصا .

وغلت الأسعار بمصر حتى بلغ اردب القمح نحو مائة درهم وعدم الخبز . فنادى السلطان فى الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة ، ونزل فى يوم الخميس سابع ربيع الآخر منها ، وجلس بدار العدل هذه ، ونظر فى أمر السعر ، وأبطل التسعير ، وكتب مرسوما الى الأمراء ببيع خمسمائة اردب ، فى كل يوم ما بين مائتين الى ما دونهما ، حتى لا يشترى الخزان شيئا ، وأن يكون البيع للضعفاء والأرامل فقط دون من عداهم .

وأمر الحجاب فنزلوا تحت القلعة ، وكتبوا أسماء الفقراء الذين تجمعوا بالرميلة ، وبعث الى كل جهة من جهات القاهرة ومصر وضواحيهما حاجبا لكتابة أسماء الفقراء ، وقال : والله لو كان عندى غلة تكفى هؤلاء لفرقتها .

ولما انتهى احضار الفقراء أخذ منهم لنفسه ألوفا ، وجعل باسم ابنه الملك السعيد ألوفا ، وأمر ديوان الجيش فوزع باقيهم على كل أمير من الفقراء بعدة رجاله ، ثم فرق ما بقى على الأجناد ومفاردة الحلقة والمقدمين والبحرية ، وجعل طائفة التركمان ناحية ، وطائفة الأكراد ناحية ، وقرر لكل واحد من الفقراء كفايته لمدة ثلاثة أشهر .

فلما تسلم الأمراء والأجناد ما خصهم من الفقراء ، فرق من بقى منهم على الأكابر والتجار والشهود ، وعين لأرباب الزوايا مائة اردب قمح فى كل يوم ، تخرج من الشون السلطانية الى جامع أحمد بن طولون ، وتفرق على من هناك .

ثم قال : هؤلاء المساكين الذين جمعناهم اليوم ومضى النهار لابد لهم من شىء . وأمر ففرق فى كل منهم نصف درهم ليتقوت به فى يومه ، ويستمر له من الغد ما تقرر . فاتفق فيهم * جملة مال ، وأعطى للصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا طائفة كبيرة من العميان ، وأخذ الأتابك سيف الدين أقطاى طائفة التركمان .

ولم يبق أحد من الخواص والأمراء الحواشى ولا من الحجاب والولاة وأرباب المناصب وذوى المراتب وأصحاب الأموال حتى أخذ جماعة من الفقراء على قدر حاله . وقال السلطان للأمير صارم الدين المسعودى والى القاهرة : خذ مائة فقير وأطعمهم لله تعالى .

فقال : نعم قد أخذتهم دائما .

فقال له السلطان : هذا شىء فعلته ابتداء من نفسك ، وهذه المائة خذها لأجلى .

فقال للسلطان : السمع والطاعة . وأخذ مائة فقير زيادة على المائة التى عينت له .

وانقضى النهار فى هذا العمل ، وشرع الناس فى فتح الشون والمخازن وتفرقة الصدقات على الفقراء . فنزل سعر القمح ، ونقص الاردب عشرين درهما ، وقل وجود الفقراء ... الى أن جاء شهر رمضان ، وجاء المغل الجديد ، فأول يوم من بيع الجديد نقص سعر اردب القمح أربعين درهما ورقا .

(*) ص٥٠٢ جـ١ ، طـ بولاق .

وفى اليوم الذى جلس فيه السلطان بدار العدل للنظر فى أمور الأسعار ، قرئت عليه قصة ضمان دار الضرب ، وفيها أنه قد توقفت الدراهم ، وسألوا ابطال الناصرية فان ضمانهم بمبلغ مائتى ألف وخمسين ألف درهم . فوقع عليها يحط عنهم منها مبلغ خمسين ألف درهم ، وقال : نحط هذا ، ولا نؤذى الناس فى أموالهم .

وفى مستهل شهر رجب منها جلس أيضا بدار العدل . فوقف له بعض الأجناد بصغير يتيم ذكر أنه وصيه ، وشكا من قضيته . فقال السلطان لقاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز : ان الأجناد اذا مات أحد منهم استولى خجداشه على موجوده ، فيموت الوصى ويكبر اليتيم فلا يجد له مالا .

وتقدم اليه ألا يمكن وصيا من الانفراد بتركة ميت ، ولكن يكون نظر القاضى شاملا له ، وتصير أموال الأيتام مضبوطة بأمناء الحكم ، ثم انه استدعى نقباء العساكر وأمرهم بذلك . فاستمر الحال فيه على ما ذكر .

وفى خامس عشرى شعبان سنة ثلاث وستين وستمائة ، جلس بدار العدل ، واستدعى تاج الدين ابن القرطبى ، وقال له : قد أضجرتنى مما تقول عندى مصالح لبيت المال ، فتحدث الآن بما عندك . فتكلم فى حق قاضى القضاة تاج الدين ، وفى حق متولى جزيرة سواكن ، وفى حق الأمراء وأنهم اذا مات منهم أحد أخذ ورثته أكثر من استحقاقهم . فأنكر عليه وأمر بحبسه .

وتحدث السلطان فى أمر الأجناد ، وأنه اذا مات أحدهم فى مواطن الجهاد لا يصل اليه شاهد حتى يشهد عليه بوصيته ، وأنه يشهد بعض أصحابه ، فاذا حضر الى القاهرة لاتقبل شهادته — وكان الجندى فى ذلك الوقت لا تقبل شهادته — فرأى السلطان أن كل أمير يعين من جماعته عدة ممن يعرف خيره ودينه ليسمع قولهم ، وألزم مقدمى الأجناد بذلك .

فشرع قاضى القضاة فى اختيار رجال جياد من الأجناد ، وعينهم لقبول شهادتهم . ففرحت العساكر بذلك .

وجلس أيضا فى تاسع عشريه بدار العدل . فوقف له شخص ، وشكا أن الأملاك الديوانية لا يمكن أحد من سكانها أن ينتقل منها . فأنكر السلطان ذلك ، وأمر أن من انقضت مدة اجارته وأراد الخلو ، فلا يمنع من ذلك . وله فى ذلك عدة أخبار كلها صالحة ، رحمه الله تعالى .

وما برحت دار العدل هذه باقية الى أن استجد السلطان الملك المنصور قلاوون الايوان ، فهجرت دار العدل هذه ... الى أن كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة . فهدمها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وعمل موضعها الطبلخاناه ، فاستمرت طبلخاناه الى يومنا .

الا أنه كان فى أيام عمارتها انما يجلس بها دائما فى أيام الجلوس نائب دار العدل ، ومعه القضاة وموقع دار العدل والأمراء ، فينظر نائب دار العدل فى أمور المتظلمين ، وتقرأ عليه القصص . وكان الأمر على ذلك فى أيام

الظاهر بيبرس ، وأيام ابنه الملك السعيد بركة ، ثم أيام الملك المنصور قلاوون .

« الايوان » المعروف بدار العدل : هـذا الايوان أنشأه السلطان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى النجمى ، ثم يجدده ابنـه السلطان الملك الأشرف خليل ، واستمر جلوس نائب دار العدل به .

فلما عمل الملك الناصر محمـد بن قلاوون الروك ، أمر بهدم هذا الايوان فهدم ، وأعاد بناءه على ما هو عليه الآن وزاد فيه ، وأنشأ به قبة جليلة ، وأقام به عمدا عظيمة نقلها اليه من بلاد الصعيد ورخمه ، ونصب فى صدره سرير الملك ، وعمله من العاج والآبنوس ، ورفع سمك هذا الايوان ، وعمل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة .

وجعلَ بالايوان باب سر من داخل القصر ، وعمل باب الايوان مسبوكا من حديد بصناعة بديعة تمنع الداخل اليه ، وله منه باب يغلق ، فاذا أراد أن يجلس فتح حتى ينظر منه ومن تخاريم الحديد بقية العسكر الواقفين بساحة الايوان . وقرر للجلوس فيه بنفسه يوم الاثنين ويوم الخميس ، فاستمر الأمر على ذلك .

وكان أولا دون ما هو اليوم . فوسـع فى قبته ، وزاد فى ارتفاعه ، وجعل قدامه دركاه كبيرة ، فجاء من أعظم المبانى الملوكية .

وأول ما جلس فيه عند انتهاء عمل الروك ، بعد ما رسم لنقيب الجيش أن يستدعى سائر الأجناد . فلمـا تكامل حضورهم * جلس ، وعين أن يحضر فى كل يـوم مقـدما ألوف بمضافيهما . فكان المقـدم يقف بمضـافيه ، ويستـدعى بمضافيـه من تقدمته على قدر منازلهم . فيتقـدم الجنـدى الى السلطان فيسأله : أنت ابن من ومملوك من ؟ ثم يعطيه مثالا . واستمر على ذلك من مستهل المحرم سنة خمس عشرة وسبعمائة الى مستهل صفر منها .

وما برح بعد ذلك يواظب على الجلوس به فى يومى الاثنين والخميس ، وعنـده أمراء الدولة والقضاة والوزير وكاتب السر وناظر الجيش وناظر الخاص وكتاب الدست ، وتقف الأجناد بين يديه على قدر أقدارهم .

فلما مات الملك الناصر ، اقتدى به فى ذلك أولاده من بعده ، واستـمروا على الجلوس بالايوان . الى أن استبد بمملكة مصر الملك الظاهر برقوق ، فالتزم ذلك أيضا الا أنه صار يجلس فيه اذا طلعت الشمس جلوسا يسـيرا يقرأ عليه فيه بعض قصص لا لمعنى سوى اقامة رسوم المملكة فقط .

وكان من قبله من ملوك بنى قلاوون انمـا يجلسون بالايوان سحرا على الشمع ، وكان موضع جلوس السلطان فى الايوان للنظر فى المظالم . فأعرض الملك الظاهر عن ذلك ، وجعل لنفسه يومين يجلس فيهما بالاصطبلّ السلطانى للحكم بين الناس — كما سـيأتى ذكره عن قريب ان شاء الله تعالى — وصار الايوان فى أيام الظاهر برقوق ، وأيام ابنه الملك الناصر فرج وأيام الملك المؤيد شيخ ، انما هو شىء من بقايا الرسوم الملوكية لا غير .

(*) ص ٢٠٦ ج ٢ ، ط بولاق .

ذكر النظر فى المظالم

اعلم أن النظر فى المظالم عبارة عن قـود المتظالمين الى التناصـف بالرهبـة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة .

وكان من شروط الناظر فى المظالم أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع . لأنه يحتاج فى نظره الى سطوة الحماة وتثبت القضـاة ، فيحتاج الى الجمع بين صفتى الفريقين ، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين .

وهى خطة حدثت لفساد الناس ، وهى كلّ حكم يعجز عنه القاضى فينظر فيه من هـو أقوى منه يدا .

وأول من نظر فى المظالم من الخلفاء أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعـالى عنه . وأول من أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين ، من غير مباشرة النظر ، عبد الملك بن مروان . فكان اذا وقف منهـا على مشكل ، واحتاج فيها الى حكم ، ينفذ رده الى قاضيه ابن ادريس الأزدى فينفذ فيه أحكامه . وكان ابن ادريس هو المباشر ، وعبد الملك الآمر . ثم زاد الجور فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردها .

ثم جلس لها خلفاء بنى العباس . وأول من جلس منهم المهدى محمد ، ثم الهادى موسى ، ثم الرشيد هارون ، ثم المأمون عبـد الله ، وآخر من جلس منهم المهتدى بالله محمد بن الواثق .

وأولُ من أعلم أنه جلس بمصر من الأمراء للنظر فى المظالم الأمير أبو العباس أحمد بن طـولون ، فـكان يجلس لذلك يومين فى الأسبوع . فلما مات ، وقام من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه ، جعـل على المظالم بمصر محمد بن عبيدة بن حرب فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائتين .

ثم جلس لذلك الأستاذ أبو المسـك كافور الاخشيدى ، وابتـدأ ذلك فى سنة أربعين وثلثمائة — وهو يومئذ خليفـة الأمير أبى القاسم أونوجور بن الاخشيد — فعقد مجلسا صار يجلس فيه كل يوم سبت ، ويحضر عنده الوزير أبو الفضل جعفـر بن الفضـل بن الفرات وسائر القضاة والفقهـاء والشـهود ووجوه البلد . وما برح على ذلك مدة أيامه بمصر الى أن مات ، فلم ينتظـم أمر مصر بعده .

الى أن قدم القـائد أبو الحسين جـوهر بجيوش المعز لدين الله أبى تميم معد ، فكانَ يجلس للنظر فى المظالم ، ويوقـع على رقاع المتظلمين .

فمن توقيعاته بخطه على قصة رفعت اليه : « سوء الاجترام أوقع بكم طول الانتقام ، وكفر الانعـام أخرجـكم من حفظ الذمام . فالواجب فيكم ترك الايجاب ، واللازم لكم ملازمة الاجتناب ، لأنكم بدأتم فأسـأتم ، وعدتم فتعديتم . فابتداؤكم ملوم ، وعودكم مذموم ، وليس بينهما فرجة تقتضى الا الذم لكم ، والاعراض عنكم ، ليرى أمير المؤمنين رأيه فيكم » .

ولما قدم المعز لدين الله الى مصر ، وصارت دار خلافة ، استقر النظر فى المظالم مدة يضاف الى قاضى القضاة ، وتارة ينفرد بالنظر فيه أحد عظماء الدولة . فلما ضعف جانب المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر ، وكانت الشدة العظمى بمصر ، قدم أمير الجيوش بدر الجمالى الى القاهرة وولى الوزارة . فصار أمر الدولة كله راجعا اليه ، واقتدى به من بعده من الوزراء .

وكان الرسم فى ذلك أن الوزير صاحب السيف يجلس للمظالم بنفسه ، ويجلس قبالته قاضى القضاة وبجانبه شاهدان معتبران ، ويجلس بجانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق ، ويليه صاحب ديوان المال ، ويقف بين يدى الوزير صاحب الباب واسفهسلار العساكر ، وبين أيديهما الحجاب والنواب على طبقاتهم ، ويكون هذا الجلوس يومين فى الأسبوع .

وآخر من تقلد المظالم فى الدولة الفاطمية ، رزيك ابن الوزير الأجل الملك * الصالح طلائع ابن رزيك فى وزارة أبيه ، وكتب له سجل عن الخليفة منه : « وقد قلدك أمير المؤمنين النظر فى المظالم ، وانصاف المظلوم من الظالم » .

وكانت الدولة اذا خلت من وزير صاحب سيف ، جلس للنظر فى المظالم صاحب الباب فى باب الذهب من القصر ، وبين يديه الحجاب والنقباء ، وينادى مناد بحضرته : ياأرباب الظلامات . فيحضرون اليه : فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت الى الولاة أو القضاة رسالة بكشفها . ومن تظلم من أهل النواحى التى خارج القاهرة ومصر ، فانه يحضر قصة فيها شرح ظلامته ، فيتسلمها الحاجب منه حتى تجتمع القصص ، فيدفعها الى الموقع بالقلم الدقيق فيوقع عليها . ثم تحمل بعد توقيعه عليها الى الموقع بالقلم الجليل ، فيبسط ما أشار اليه الموقع بالقلم الدقيق . ثم تحمل التواقيع فى خريطة الى ما بين يدى الخليفة فيوقع عليها . ثم تخرج فى خريطتها الى الحاجب ، فيقف على باب القصر ، ويسلم كل توقيع الى صاحبه .

(*) ص ٤٠٧ ج ٢ ، ط ، بولاق .

وأول من بنى دار العدل من الملوك السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، رحمة الله تعالى عليه ، بدمشق عندما بلغه تعدى ظلم نواب أسد الدين شيركوه بن شادى الى الرعية ، وظلمهم الناس ، وكثرة شكواهم الى القاضى كمال الدين الشهرزورى وعجزه عن مقاومتهم .

فلما بنيت دار العدل أحضر شيركوه نوابه وقال : ان نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار الا بسببى ، والله لئن أحضرت الى دار العدل بسبب أحد منكم لأصلبنه ، فامضوا الى كل من كان بينكم وبينه منازعة فى ملك أو غيره فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بكل طريق أمكن ولو أتى على جميع ما بيدى .

فقالوا : ان الناس اذا علموا بذلك اشتطوا فى الطلب .

فقال : لخروج أملاكى عن يدى أسهل على من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم ، أو يساوى بينى وبين أحد من العامة فى الحكومة .

فخرج أصحابه وعملوا ما أمرهم به من ارضاء أخصامهم ، وأشهدوا عليهم .

فلما جلس نور الدين بدار العدل فى يومين من الأسبوع ، وحضر عنده القاضى والفقهاء ، أقام مدة لم يحضر أحد يشكو شيركوه فسأل عن ذلك فعرف بما جرى منه ومن نوابه فقال : الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا .

وجلس أيضا السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فى يومى الاثنين والخميس ، لاظهار العدل . ولما تسلطن الملك المعز أيبك التركمانى ، أقام الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى فى نيابة السلطنة بديار مصر فواظب الجلوس فى المدارس الصالحية بين القصرين ، ومعه نواب دار العدل ، ليرتب الأمور ، وينظر فى المظالم . فنادى باراقة الخمور ، وابطال ما عليها من المقرر .

وكان قد كثر الارجاف بمسير الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الشام ، لأخذ مصر . فلما انهزم الملك الناصر ، واستبد الملك المعز أيبك ، أحدث وزيره من المكوس شيئا كثيرا .

ثم ان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى بنى دار العدل ، وجلس بها للنظر فى المظالم كما تقدم . فلما بنى الايوان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، واظب الجلوس يوم الاثنين والخميس فيه ، وصار يفصل فيه الحكومات فى الأحايين اذا أعيى من دونه فصلها .

فلما استبد الملك الظاهر برقوق بالسلطنة ، عقد لنفسه مجلسا بالاصطبل السلطانى من قلعة الجبل ، وجلس فيه يوم الأحد ثامن عشرى شهر رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، وواظب ذلك فى يومى الأحد والأربعاء ، ونظر فى الجليل والحقير . ثم حول ذلك الى يومى الثلاثاء والسبت ، وأضاف اليهما يوم الجمعة بعد العصر ، وما زال على ذلك حتى مات .

فلما ولى ابنه الملك الناصر فرج بعده ، واستبد بأمره جلس للنظر فى المظالم بالاصطبل اقتداء بأبيه ، وصار كاتب السر فتح الدين فتح الله يقرأ القصص عليه ، كما كان يقرأها على أبيه . فانتفع أناس ، وتضرر آخرون بذلك ، وكان الضرر أضعاف النفع .

ثم لما استبد الملك المؤيد شيخ بالمملكة ، جلس أيضا للنظر فى المظالم كما جلسا . والأمر على ذلك مستمر الى وقتنا هذا ، وهو سنة تسع عشرة وثمانمائة .

وقد عرف النظر فى المظالم منذ عهد الدولة التركية بديار مصر والشام بحكم السياسة ، وهو يرجع الى نائب السلطنة وحاجب الحجاب ووالى البلد ومتولى الحرب بالأعمال . وسيرد ان شاء الله تعالى الكلام فى حكم السياسة عن قريب .

ذكر خدمة الايوان المعروف بدار العدل

كانت العادة أن السلطان يجلس بهذا الايوان بكرة الاثنين والخميس طول السنة ،

تلا شيء ومكان فانه لا يجلس فيه هذا المجلس . وجلوسه هذا انما هو للمظالم ، وفيه تكون الخدمة العامة واستحضار رسل الملوك غالبا . فاذا جلس للمظالم ، كان جلوسه على كرسي اذا قعد عليه يكاد تلحق الأرض رجله ، وهو منصوب الى جانب المنبر الذي هو تخت الملك وسرير السلطنة .

وكانت العادة أولا أن يجلس قضاة القضاة من المذاهب الأربعة * عن يمينه ، وأكبرهم الشافعي وهو الذي يلي السلطان ، ثم الى جانب الشافعي الحنفي ، ثم المالكي ، ثم الحنبلي . والى جانب الحنبلي الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر في الحسبة بالقاهرة .

ويجلس على يسار السلطان كاتب السر ، وقدامه ناظر الجيش ، وجماعة الموقعين المعروفين بكتاب الدست ، وموقعي الدست ... تكملة حلقة دائرة . فان كان الوزير من أرباب الأقلام كان بين السلطان وكاتب السر ، وان كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفا على بعد مع بقية أرباب الوظائف ، وان كان نائب السلطنة فانه يقف مع أرباب الوظائف .

ويقف من وراء السلطان صفان ، عن يمينه ويساره ، من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية . ويجلس على بعد بقدر خمسة عشر ذراعا ، عن يمنته ويسرته ، ذوو السن والقدر من أكابر أمراء المئين — ويقال لهم أمراء المشورة — ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء وأرباب الوظائف ، وهم وقوف وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة . ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية ، لاعطاء قصص الناس ، واحضار الرسل وغيرهم من الشكاة وأصحاب الحوائج والضرورات .

فيقرأ كاتب السر وموقعو الدست القصص على السلطان . فان احتاج الى مراجعة القضاة راجعهم فيما يتعلق بالأمور الشرعية والقضايا الدينية . وما كان متعلقا بالعسكر : فان كانت القصص في أمراء الاقطاعات قرأها ناظر الجيش ، فان احتاج الى مراجعة في أمر العسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه ، وما عدا ذلك يأمر فيه السلطان بما يراه .

وكانت العادة الناصرية أن تكون الخدمة في هذا الايوان على ما تقدم ذكره في بكرة يوم الاثنين . وأما بكرة يوم الخميس فان الخدمة على مثل ذلك ... الا أنه لا يتصدى السلطان فيه لسماع القصص ، ولا يحضره أحد من القضاة ولا الموقعين ولا كاتب الجيش ، الا ان عرضت حاجة الى طلب أحد منهم . وهذا القعود عادته طول السنة ما عدا رمضان .

وقد تغير بعد الأيام الناصرية هذا الترتيب ، فصارت قضاة القضاة تجلس عن يمنة السلطان ويسرته . فيجلس الشافعي عن يمينه ، ويليه المالكي ، ويليه قاضي العسكر ، ثم محتسب القاهرة ، ثم مفتي دار العدل الشافعي . ويجلس الحنفي عن يسرة السلطان ، ويليه الحنبلي . وصارت القصص تقرأ ، والقضاة وناظر الجيش يحضرون في يوم الخميس أيضا .

(*) ص ٢٠٨ ج ٣ ، ط . بولاق .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

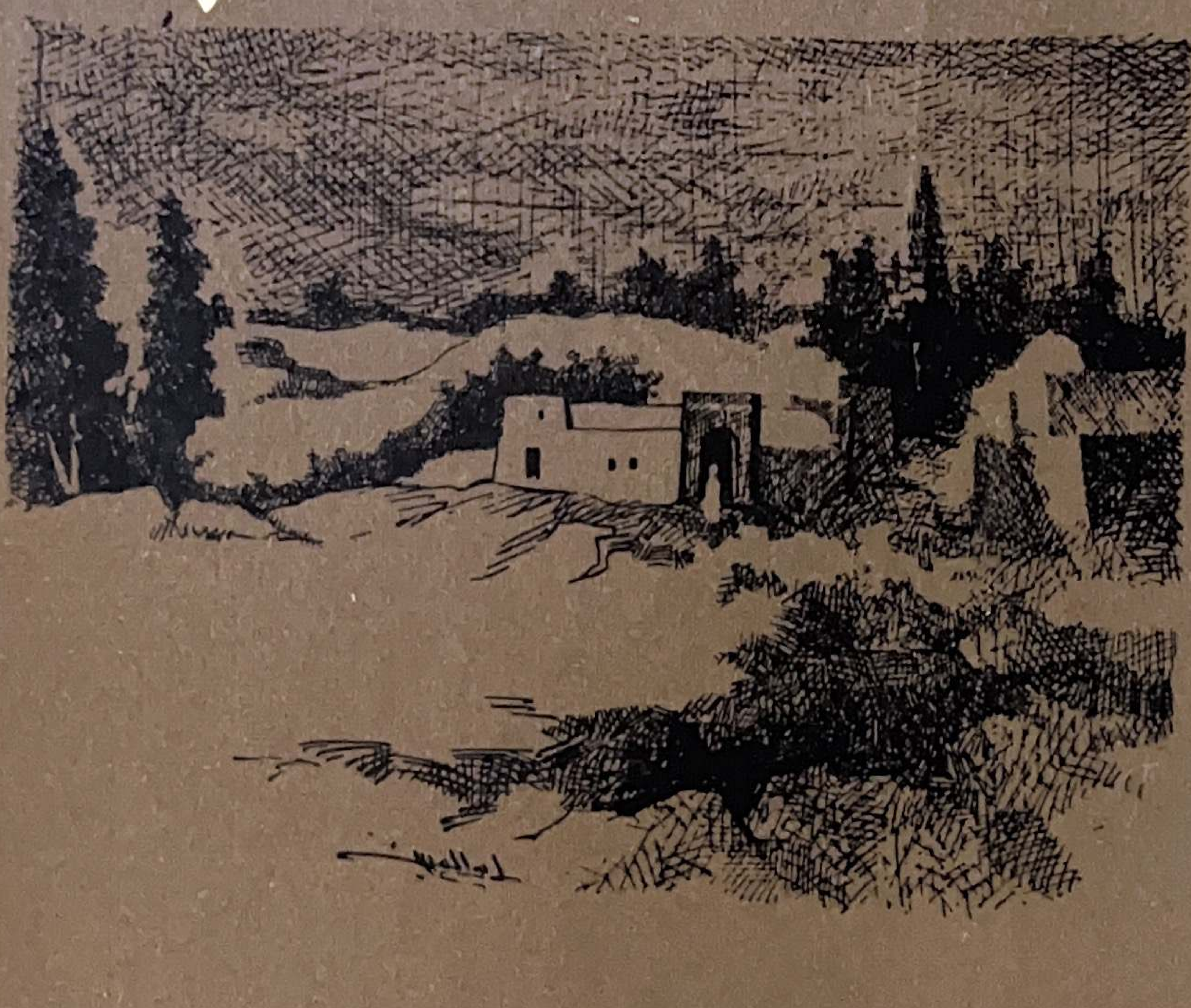
عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٣٤

كتاب
التحرير



«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجوجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها.»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وكانت العادة أيضا اذا ولى أحد المملكة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فانه عند ولايته يحضر الأمراء الى داره بالقلعة ، وتفاض عليه الخلعة الخليفية السوداء ومن تحتها فرجية خضراء ، وعمامة سوداء مدورة ، ويقلد بالسيف العربى المذهب .

ويركب فرس النوبة ، ويسير والأمراء بين يديه ، والغاشية قدامه ، والجاويشية تصيح ، والشبابة السلطانية ينفخ بها ، والطبردارية حواليه الى أن يعبر من باب النحاس الى درج هذا الايوان . فينزل عن الفرس ، ويصعد الى التخت فيجلس عليه ، ويقبل الأمراء الأرض بين يديه ، ثم يتقدمون اليه ويقبلون يده على قدر رتبهم ، ثم مقدمو الحلقة .

فاذا فرغوا حضر القضاة والخليفة ، فتفاض التشاريف على الخليفة ، ويجلس مع السلطان على التخت ، ويقلد السلطان المملكة بحضور القضاة والأمراء ، ويشهد عليه بذلك ، ثم ينصرف ومعه القضاة ، فيمد السماط للأمراء . فاذا انقضى أكلهم قام السلطان ودخل المقصورة وانصرف الأمراء .

ومما قيل فى هذا الايوان لما بناه السلطان الملك الناصر :

شرفت ايوانا جلست بصدره
فشرحت بالاحسان منه صدورا

قد كان يستعلى الفراقد رفعة
اذ حاز منك الناصر المنصورا

ملك الزمان ومن رعية ملكه
من عدله لا يظلمون نقيرا

لا زال منصور اللواء مؤيدا
أبد الزمان وضده مقهورا

وقيل أيضا :

ياملكا أطلع من وجهه
ايوانه لما بدا بدرا

أنسيتنا بالعدل كسرى ولن
نرضى لنا جبرا به كسرا

« القصر الأبلق » : هذا القصر يشرف على الاصطبل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى شعبان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وانتهت عمارته فى سنة أربع عشرة ، وأنشأ بجواره جنينة . ولما كمل عمل فيه سماطا حضره الأمراء وأهل الدولة ، ثم أفيضت عليهم الخلع ، وحمل الى كل أمير من أمراء المئين ومقدمى الألوف ألف دينار ، ولكل من مقدمى الحلقة خمسمائة درهم ، ولكل من أمراء الطبلخاناه عشرة آلاف درهم فضة : عنها خمسمائة دينار . فبلغت * النفقة على هذا المهم خمسمائة ألف ألف درهم .

وكانت العادة أن يجلس السلطان بهذا القصر كل يوم للخدمة ، ما عدا يومى الاثنين والخميس فانه يجلس للخدمة بدار العدل ، كما تقدم ذكره . وكان يخرج الى هذا القصر من القصور الجوانية ، فيجلس تارة على تخت الملك المنصوب بصدر ايوان هذا القصر المطل على الاصطبل ، وتارة يقعد دونه على الأرض والأمراء وقوف على ما تقدم . خلا أمراء المشورة والقرباء من السلطان فانه ليس

(*) ص٢٠٩ جـ٢ ، ط. بولاق هـ

لهم عادة بحضور هذا المجلس ، ولا يحضر هذا المجلس من الأمراء الكبار الا من دعت الحاجة الى حضوره .

ولا يزال السلطان جالسا الى الثالثة من النهار ، فيقوم ويدخل الى قصوره الجوانية ، ثم الى دار حريمه ونسائه . ثم يخرج فى أخريات النهار الى قصوره الجوانية ، فينظر فى مصالح ملكه . ويعبر اليه الى قصوره الجوانية خاصته من أرباب الوظائف فى الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة اليه ، ويقال لها خدمة القصر .

وهذا القصر تجاه بابه رحبة يسلك اليها من الرحبة التى تجاه الايوان . فيجلس بالرحبة التى على باب القصر خواص الأمراء قبل دخولهم الى خدمة القصر . ويمشى من باب القصر فى دهاليز مفروشة بالرخام ، قد فرش فوقه أنواع البسط ، الى قصر عظيم البناء شاهق فى الهواء بايوانين : أعظمهما الشمالى يطل منه على الاصطبلات السلطانية ، ويمتد النظر الى سوق الخيل والقاهرة وظواهرها الى نحو النيل ، وما يليه من بلاد الجيزة وقراها . وفى الايوان الثانى القبلى باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه الى الايوان الكبير أيام الموكب .

ويدخل من هذا القصر الى ثلاثة قصور جوانية : منها واحد مسامت لأرض هذا القصر ، واثنان يصعد اليهما بدرج ، فى جميعها شبابيك حديد تشرف على مثل منظرة القصر الكبير .

وفى هذه القصور كلها مجارى الماء مرفوعا من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مقره الى موضع ثم الى آخر ، حتى ينتهى الماء الى القلعة ، ويدخل الى القصور السلطانية والى دور الأمراء الخواص المجاورين للسلطان ، فيجرى الماء فى دورهم ، وتدور به حماماتهم . وهو من عجائب الأعمال لرفعته من الأرض الى السماء قريبا من خمسمائة ذراع من مكان الى مكان ، ويدخل من هذه القصور الى دور الحريم .

وهذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر ، موزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات ، وسقوفها كلها مذهبة قد موهت باللازورد ، والنور يخرق فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسى الملون كقطع الجوهر المؤلفة فى العقود . وجميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول اليها من أقطار الأرض ، مما لا يوجد مثله .

وتشرف الدور السلطانية من بعضها على بساتين وأشجار ، وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور الدواجن . وسيأتى ان شاء الله تعالى ذكر هذه القصور والبساتين والأحواش مفصلا .

وكان بهذا القصر الأبلق رسوم وعوايد ، تغير كثير منها وبطل معظمها ، وبقيت الى الآن بقايا من شعار المملكة ، ورسوم السلطنة . وسأقص من أنباء ذلك ان شاء الله تعالى ما لا تراه بغير هذا الكتاب مجموعا ، والله يؤتى فضله من يشاء .

« الأسمطة السلطانية » : وكانت العادة أن يمد بالقصر ، فى طرفى النهار من كل يوم ، أسمطة جليلة لعامة الأمراء خلا البرانيين — وقليل ماهم — فبكرة يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان ، ثم ثان بعده — يسمى الخاص — قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ، ثم ثالث بعده — ويسمى الطارى — ومنه مأكول السلطان .

وأما فى آخر النهار فيمتد سماطان الأول والثانى المسمى بالخاص ، ثم ان استدعى بطار حضر والا فلا . ما عدا المشوى فانه ليس له عادة محفوظة النظام ، بل هو على حسب ما يرسم به .

وفى كل هذه الأسمطة يؤكل ما عليها ، ويفرق نوالات ، ثم يسقى بعدها الأقسماء المعمولة من السكر والأفاويه المطيبة بماء الورد المبردة .

وكانت العادة أن يبيت فى كل ليلة ، بالقرب من السلطان ، أطباق فيها أنواع من المطجنات والبوادر والقطر والقشطة والجبن المقلى والموز والسكباج ، وأطباق فيها من الأقسماء والماء البارد ، برسم أرباب النوبة فى السهر حول السلطان ، ليتشاغلوا بالمأكول والمشروب عن النوم . ويكون الليل مقسوما بينهم بساعات الرمل ، فاذا انتهت نوبة نبهت التى تليها ، ثم ذهبت هى فنامت الى الصباح ... هكذا أبدا سفرا وحضرا .

وكانت العادة أيضا أن يبيت فى المبيت السلطانى من القصر ، أو المخيم ان كان فى السرحة ، المصاحف الكريمة لقراءة من يقرأ من أرباب النوبة ، ويبيت أيضا الشطرنج ليتشاغل به عن النوم .

وبلغ مصروف السماط ، فى كل يوم عيد الفطر من كل سنة ، خمسين ألف درهم : عنها نحو ألفين وخمسمائة دينار ... تنهبه الغلمان والعامة . وكان يعمل فى سماط الملك الظاهر برقوق فى كل يوم خمسة آلاف رطل من اللحم ، سوى الاوز والدجاج . وكان راتب المؤيد شيخ فى كل يوم لسماطه وداره ثمانمائة رطل من اللحم .

فلما كان فى المحرم سنة ست وعشرين * وثمانمائة ، سأل الملك الأشرف برسباى عن مقدار ما يطبخ له فى كل يوم بكرة وعشيا ، فقيل له ستمائة رطل فى الوجبتين ، فأمر أن يطبخ بين يديه لأنه بلغه أنه يؤخذ مما ذكر لشاد الشرابخاناه ونحوه مائة وعشرون رطلا . فجعل راتب اللحم فى كل يوم — بزيادة أيام الخدمة ونقصان أيام عدم الخدمة — خمسمائة رطل وستة أرطال عن وجبتى الغداء والعشاء ، ومن الدجاج ستة وعشرين طائرا ، ولعمل المامونية وطلين ونصفا من السكر ، وما يعمل برسم الجمدارية فانه بعسل النحل .

ذكر العلامة السلطانية

قد جرت العادة أن السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به . فأما مناشير الأمراء والجند وكل من له اقطاع ، فانه يكتب عليه علامته ، وكتبها الملك الناصر محمد بن قلاوون « الله أملى » ، وعمل ذلك الملوك بعده الى اليوم .

(*) ص ٢١٠ ، ج ٢ ، ط . بولاق

وأما تقاليد النواب ، وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب وبقية أرباب الوظائف ، وتواقيع أرباب الرواتب والاطلاقات ... فانه يكتب عليها اسمه واسم أبيه ان كان أبوه ملكا . فيكتب مثلا « محمد ابن قلاوون » ، أو « شعبان بن حسين » ، أو « فرج بن برقوق » . وان لم يكن أبوه ممن تسلطن — كبرقوق أو شيخ — فانه يكتب اسمه فقط ، ومثاله « برقوق » أو « شيخ » .

وأما كتب البريد ، وخلاص الحقوق والظلامات ، فانه يكتب أيضا عليها اسمه ، وربما كرم المكتوب اليه ، فكتب اليه « أخوه فلان » أو « والده فلان » ، و « أخوه » يكتب للأكابر من أرباب الرتب .

والذى يعلم عليه السلطان : اما اقطاع ، فالرسم فيه أن يقال «خرج الأمر الشريف» . واما وظائفه ورواتب واطلاقات ، فالرسم فى ذلك أن يقال «رسم بالأمر الشريف» . وأعلى ما يعلم عليه ما افتتح بخطبة أولها « الحمد لله » ثم ما افتتح بخطبة أولها « أما بعد حمدا لله » ، حتى يأتى على « خرج الأمر » فى المناشير أو « رسم بالأمر » فى التواقيع ، ثم بعد هذا أنزل الرتب ، وهو أن يفتتح فى المناشير « خرج الأمر » وفى التواقيع « رسم بالأمر » .

وتمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد لله أول الخطبة أن تطغر بالسواد ، وتتضمن اسم السلطان وألقابه . وقد بطلت الطغرا فى وقتنا هذا .

وكانت العادة أن يطالع نواب المملكة السلطان بما يتجدد عندهم : تارة على أيدى البريدية ، وتارة على أجنحة الحمام . فتعود اليهم الأجوبة السلطانية وعليها العلامة .

فاذا ورد البريدى ، أحضره أمير جاندار — وهو من أمراء الألوف — والدوادار وكاتب السر بين يدى السلطان . فيقبل البريدى الأرض ، ويأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدى ، ثم يناوله للسلطان فيفتحه . ويجلس حينئذ كاتب السر ويقرأه على السلطان سرا ، فان كان أحد من الأمراء حاضرا تنحى حتى يفرغ من القراءة ، ويأمر السلطان فيه بأمر . وان كان الخبر على أجنحة الحمام ، فانه يكتب فى ورق صغير خفيف ، ويحمل على الحمام الأزرق .

وكان لحمام الرسائل مراكز كما كان للبريد مراكز ، وكان بين كل مركزين من البريد أميال ، وفى كل مركز عدة خيول — كما بيناه فى ذكر الطريق فيما بين مصر والشام — وكانت مراكز الحمام كل مركز منها ثلاثة مراكز من مراكز البريد ، فلا يتعدى الحمام ذلك المركز ، وينقل عند نزوله المركز ما على جناحه الى طائر آخر ، حتى يسقط بقلعة الجبل ، فيحضره البراج ، ويقرأ كاتب السر البطاقة . وكل هذا مما يعلم عليه بالقصر .

ومما كان يحضر الى القصر بالقلعة فى كل يوم ورقة الصباح ، يرفعها والى القاهرة ووالى مصر ، وتشتمل على انهاء ما تجدد فى كل يوم

وليلة بحارات البلدين وأخطاطهما ، من حريق أو قتل قتيل أو سرقة سارق ونحو ذلك ، ليأمر السلطان فيه بأمره .

« الأشرفية » : هذا القصر ، المعروف بالأشرفية ، أنشأه الملك الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة اثنتين وتسعين وستمائة . ولما فرغ صنع به مهما عظيما لم يعمل مثله فى الدولة التركية ، وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح على بن قلاوون ، وجمع سائر أرباب الملاهى وجميع الأمراء ، ووقف الخازندارية بأكياس الذهب .

فلما قام الأمراء من الخاصكية للرقص ، نثر الخازندارية على كل من قام للرقص حتى فرغ الختان . فأنعم على كل أمير من الأمراء بفرس كامل القماش ، وألبس خلعة عظيمة ، وأنعم على عدة منهم كل واحد بألف دينار وفرس ، وأنعم على ثلاثين من الأمراء الخاصكية لكل واحد مبلغ خمسة آلاف دينار ، وأنعم على البليل المغنى بألف دينار .

وكان الذى عمل فى هذا المهم من الغنم ثلاثة آلاف رأس ، ومن البقر ستمائة رأس ، ومن الخيل خمسمائة اكديش ، ومن السكر برسم المشروب ألف قنطار وثمانمائة قنطار ، وبرسم الحلوى مائة وستون قنطارا . وبلغت النفقة على هذا المهم ، فى عمل السماط والمشروب والأقبية والطراز والسروج وثياب النساء ، مبلغ ثلثمائة ألف دينار عينا .

« اليسرية » : ومن جملة دور القلعة قاعة اليسرية . أنشأها السلطان الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون ، وكان ابتداء بنائها * فى أول يوم من شعبان سنة احدى وستين وسبعمائة ، ونهاية عمارتها فى ثامن عشرى ذى الحجة من السنة المذكورة . فجاءت من الحسن فى غاية لم ير مثلها ، وعمل لهذه القاعة من الفرش والبسط ما لا تدخل قيمته تحت حصر . فمن ذلك تسعة وأربعون ثريا برسم وقود القناديل ، جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة مائتا ألف وعشرون ألف درهم ، وكلها مطلية بالذهب . وجاء ارتفاع بناء هذه القاعة طولا فى السماء ثمانية وثمانين ذراعا .

وعمل السلطان بها برجا يبيت فيه من العاج والأبنوس مطعم يجلس بين يديه ، وأكتاف وباب يدخل منه الى أرض كذلك ، وفيه مقرنص قطعة واحدة يكاد يذهل الناظر اليه : بشبابيك ذهب خالص ، وطرازات ذهب مصوغ ، وشرافات ذهب مصوغ ، وقبة مصوغة من ذهب ... صرف فيه ثمانية وثلاثون ألف مثقال من الذهب ، وصرف فى مؤنه وأجره تتمة ألف ألف درهم فضة : عنها خمسون ألف دينار ذهبا . ويصدر ايوان هذه القاعة شباك حديد ، يقارب باب زويلة ، يطل على جنينة بديعة الشكل .

« الدهيشة » : عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة . وذلك أنه بلغه عن الملك المؤيد عماد الدين ، صاحب حماة ، أنه عمر بحماة دهيشة لم ير مثلها . فقصد مضاهاته ، وبعث الأمير أقجبا

(*) ص ٢١١ جـ ٢ ، ط . بولاق .

وابجيج المهندس لكشف دهيشة حماة ، وكتب لنائب حلب ونائب دمشق بحمل ألفى حجر بيض وألفى حجر حمر من حلب ودمشق ، وحشرت الجمال لحملها حتى وصلت الى قلعة الجبل . وصرف فى حمولة كل حجر من حلب اثنا عشر درهما ، ومن دمشق ثمانية دراهم .

واستدعى الرخام من سائر الأمراء وجميع الكتاب ، ورسم باحضار الصناع للعمل ، ووقع الشروع فيها حتى تمت فى شهر رمضان منها . وقد بلغ مصروفها خمسمائة ألف درهم ، سوى ما قدم من دمشق وحلب وغيرهما ، وعمل لها من الفرش والبسط والآلات ما يجل وصفه ، وحضر بها سائر الأغانى . وكان مهما عظيما .

« السبع قاعات » : هذه القاعات تشرف على الميدان وباب القرافة . عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأسكنها سراريه ، ومات عن ألف ومائتى وصيفة مولدة ، سوى من عداهن من بقية الأجناس .

« الجامع بالقلعة » : هذا الجامع أنشأه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة . وكان قبل ذلك هناك جامع دون هذا ، فهدمه السلطان ، وهدم المطبخ والحوائجخاناه والفراشخاناه ، وعمله جامعا . ثم أخربه فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، وبناه هذا البناء .

فلما تم بناؤه جلس فيه ، واستدعى جميع مؤذنى القاهرة ومصر ، وجميع القراء والخطباء ، وعرضوا بين يديه ، وسمع تأذينهم وخطابتهم وقراءتهم . فاختار منهم عشرين مؤذنا رتبهم فيه ، وقرر فيه درس فقه وقارئا يقرأ فى المصحف ، وجعل عليه أوقافا تكفيه وتفيض .

وصار من بعده من الملوك يخرجون أيام الجمع الى هذا الجامع ، ويحضر خاصة الأمراء معه من القصر ، ويجيء باقيهم من باب الجامع . فيصلى السلطان عن يمين المحراب فى مقصورة خاصة به ، ويجلس عنده أكابر خاصته ، ويصلى معه الأمراء خاصتهم وعامتهم خارج المقصورة ، عن يمنتها ويسرتها ، على مراتبهم . فاذا انقضت الصلاة دخل الى قصوره ودور حرمه ، وتفرق كل أحد الى مكانه .

وهذا الجامع متسع الأرجاء ، مرتفع البناء ، مفروش الأرض بالرخام ، مبطن السقوف بالذهب . وبصدره قبة عالية يليها مقصورة ، مستورة هى والرواقات بشبابيك الحديد المحكمة الصنعة ، ويحف صحنه رواقات من جهاته .

« الدار الجديدة » : هذه الدار عند باب سر القلعة المطل على سوق الخيل . عمرها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فى سنة أربع وستين وستمائة ، وعمل بها فى جمادى الأولى منها دعوة للأمراء عند فراغها .

« خزانة الكتب » : وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صفر سنة احدى وتسعين وستمائة . فتلف بها من الكتب ، فى الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم ، شيء كثير جدا كان من ذخائر الملوك . فانتهبها الغلمان ،

وبيعت أوراقا محرقة ظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم وغيرها ، وأخذوها بأبخس الأثمان .

« القاعة الصالحية » : عمرها الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت سكن الملوك الى أن احترقت فى سادس ذى الحجة سنة أربع وثمانين وستمائة ، واحترق معها الخزانة السلطانية .

« باب النحاس » : هذا الباب من داخل الستارة ، وهو أجل أبواب الدور السلطانية . عمره الناصر محمد بن قلاوون ، وزاد فى سعة دهليزه .

« باب القلة » : عرف بذلك من أجل أنه كان هناك قلة بناها الملك الظاهر بيبرس ، وهدمها الملك المنصور قلاوون فى يوم الأحد عاشر شهر رجب سنة خمس وثمانين وستمائة ، وبنى مكانها قبة فرغت عمارتها فى شوال منها . ثم هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وجدد باب القلة على ما هو عليه الآن ، وعمل له بابا ثانيا .

« الرفرف » : عمره الملك الأشرف خليل بن قلاوون * ، وجعله عاليا يشرف على الجيزة كلها ، وبيضه ، وصور فيه أمراء الدولة وخواصها ، وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها . وكان مجلسا يجلس فيه السلطان ، واستمر جلوس الملوك به ، حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وعمل بجواره برجا بجوار الاصطبل نقل اليه المماليك .

(*) ص ٢١٢ ج ٢ ، ط . بولاق .

« الجب » : كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء ، وكان مهولا مظلما كثير الوطاويط كريه الرائحة ، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه . عمره الملك المنصور قلاوون فى سنة احدى وثمانين وستمائة . فلم يزل الى أن قام الأمير بكتمر الساقى فى أمره ، مع الملك الناصر محمد بن قلاوون ، حتى أخرج من كان فيه من المحابيس ونقلهم الى الأبراج ، وردمه ، وعمر فوق الردم طباقا فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

« الطبلخاناه تحت القلعة » : ذكر هشام بن الكلبى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، لما قدم الشام ، تلقاه المقلسون من أهل الأديان بالسيوف والريحان . فكره عمر رضى الله عنه النظر اليهم ، وقال : ردوهم .

فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : انها سنة الأعاجم ، فان منعتهم ظنوا أنه نقض لعهدهم .

فقال عمر رضى الله عنه : دعوهم .

والتقليس الضرب بالطبل أو الدف .

وهذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت القلعة فيما بين باب السلسلة وباب المدرج ، كانت دار العدل القديمة التى عمرها الملك الظاهر بيبرس وتقدم خبرها .

فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ، هدمها الناصر محمد بن قلاوون ، وبناها هذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت قلعة الجبل ، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج ، وصار ينزل الى عمارتها كل قليل .

وتولى شد العمارة بها آق سنقر ، شاد العمائر ، ووجد فى أساسها أربعة قبور كبار المقدار ، عليها قطع رخام منقوش عليها أسماء المقبورين وتاريخ وفاتهم . فنبشوا ونقلوا قريبا من القلعة ، فكانوا خلقا كبيرا عظيما فى الطول والعرض ، على بعضهم ملاءة ديبيقية ملونة ساعة مستها الأيدى تمزقت وتطايرت هباء . وفيهم اثنان عليهما آلة الحرب وعدة الجهاد ، وبهما آثار الدماء والجراحات ، وفى وجه أحدهما ضربة سيف بين عينيه ، والجرح مسدود بقطنة . فلما أمسكت القطنة ، ورفعت عن الجرح فوق الحاجب ، نبع من تحتها دم يظن أنه جرح طرى . فكان فى ذلك موعظة وذكرى .

وكانت الطبلخاناه ساحة بغير سقف . فلما ولى الأمير سودون طاز أميراخور ، وسكن الاصطبل السلطانى ، عمر هذه الطباق فوق الطباق . وكان الغرض من عمارتها صحيحا ، فان المدرسة الأشرفية كانت حينئذ قائمة تجاه الطبلخاناة . ولما كان زمان الفتن بين أمراء الدولة ، تحصن فوقها طائفة ليرموا على الاصطبل والقلعة ، فأراد ببناء هذه الطباق فوق الطباق أن يجعل بها رماة حتى لا يقدر أحد يقيم فوق المدرسة الأشرفية . وقد بطل ذلك ، فان الملك الناصر فرج بن برقوق هدم المدرسة الأشرفية ، كما ذكر فى هذا الكتاب عند ذكر المدارس .

« الطباق بساحة الايوان » : عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأسكنها المماليك السلطانية ، وعمر حارة تختص بهم .

وكانت الملوك تعنى بها غاية العناية . حتى ان الملك المنصور قلاوون كان يخرج فى غالب أوقاته الى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ، ويأمر بعرضه عليه ، ويتفقد لحمهم ، ويختبر طعامهم فى جودته ورداءته . فمتى رأى فيه عيبا ، اشتد على المشرف والأستادار ، ونهرهما ، وحل بهما منه أى مكروه .

وكان يقول : كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال وعقار ، وأنا عمرت أسوارا ، وعملت حصونا مانعة لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك .

وكانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها . فلما تسلطن الملك الأشرف خليل ابن قلاوون ، سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة فى النهار ولا يبيتوا الا بها ، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها . ثم ان الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول الى الحمام يوما فى الأسبوع ، فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ، ثم يعودون آخر نهارهم . ولم يزل هذا حالهم الى أن انقرضت أيام بنى قلاوون .

وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة : أولها أنه اذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ، ونزله فى طبقة جنسه ، وسلمه لطواشى برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم . وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر اليها كل يوم ، ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط ، والتمرن بآداب الشريعة ، وملازمة الصلوات والأذكار .

وكان الرسم اذ ذاك ألا تجلب التجار الا المماليك الصغار . فاذا شب الواحد من المماليك ، علمه الفقيه شيئا من الفقه ، وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار الى سن البلوغ ، أخذ فى تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ، ولعب الرمح ، ونحو ذلك . فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج اليه . واذا ركبوا الى لعب الرمح ، أو رمى النشاب ، لا يجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم .

فينقل اذن الى الخدمة ، ويتنقل فى أطوارها رتبة بعد رتبة الى أن يصير من الأمراء . فلا يبلغ هذه الرتبة الا وقد تهذبت أخلاقه ، وكثرت * آدابه ، وامتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده فى رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ، ومرن على ركوب الخيل . ومنهم من يصير فى رتبة فقيه عارف ، أو أديب شاعر ، أو حاسب ماهر .

هذا ، ولهم أزمة من الخدام ، وأكابر من رؤوس النوب : يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى ، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ، ويناقشونه على حركاته وسكناته . فان عثر أحد من مؤدبيه الذى يعلمه القرآن ، أو الطواشى الذى هو مسلم اليه ، أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه ، على أنه اقترف ذنبا أو أخل برسم ، أو ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا ... قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه .

(*) ص ٢١٣ جـ ٢ ، ط . بولاق .

وبلغ من تأديبهم أن مقدم المماليك كان اذا أتاه بعض مقدمى الطباق فى السحر يشاور على مملوك أنه يغتسل من جنابة ، فيبعث من يكشف عن سبب جنابته : ان كان من احتلام ، فينظر فى سراويله هل فيه جنابة أم لا ، فان لم يجد به جنابة جاءه الموت من كل مكان .

فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون فى اظهار الجميل ، ويردعون من جار أو تعدى . وكانت لهم الادرارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة ، والمعاليم من الذهب والفضة ... بحيث تتسع أحوال غلمانهم ، ويفيض عطاؤهم على من قصدهم .

ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق ، راعى الحال فى ذلك بعض الشىء الى أن زالت دولته فى سنة احدى وتسعين وسبعمائة . فلما عاد الى المملكة ، رخص للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج . فنزلوا من الطباق من القلعة ، ونكحوا نساء أهل المدينة ، وأخلدوا الى البطالة ، ونسوا تلك العوايد .

ثم تلاشت الأحوال فى أيام الناصر فرج بن برقوق ، وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها ، حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم ، ورتب لكل واحد منهم فى اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس . فصار غذاؤهم فى الغالب الفول المصلوق عجزا عن شراء اللحم وغيره .

هذا ، وبقى الجلب من المماليك انما هم الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح

سفينة ، ووقاد فى تنور خباز ، ومحول ماء فى غيط أشجار ونحو ذلك . واستقر رأى الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم ، بل يتركون وشئونهم .

فبدلت الأرض غير الأرض ، وصارت المماليك السلطانيـة أرذل النـاس وأدناهم ، وأخسهم قدرا وأشحهم نفسا ، وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم اعراضا عن الدين . ما فيهم الا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب ... لا جرم أن خربت أرض مصر والشام — من حيث يصب النيل الى مجرى الفرات — بسوء ايالة الحكام ، وشدة عبث الولاة ، وسوء تصرف أولى الأمر . حتى انه ما من شهر الا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه .

وبلغت عدة المماليك السلطانيـة فى أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة . فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك ، وجعلهم طوائف : فأفرد طائفتى الأرمن والجركس ، وسماها البرجيـة لأنه أسكنها فى أبراج بالقلعة ، فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة . وأفرد جنس الخطا والقبجاق ، وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمرذية ، وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية ، وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية .

ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد ، وبعث فى طلبهم ، وبذل الرغائب للتجار فى حملهم اليه ، ودفع فيهم الأموال العظيمة ، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة فى يوم واحد ، ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك فى تنقل المماليك فى أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن كما تقدم ، وفى تدريجه من ثلاثة دنانير فى الشهر الى عشرة دنانير ، ثم نقله من الجامكية الى وظيفة من وظائف الخدمة ... بل اقتفى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة .

فأتاه من المماليك شىء كثير رغبـة فيما لديه ، حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذى يجلبه الى مصر . وبلغ ثمن المملوك فى أيامه الى مائة ألف درهم فما دونها ، وبلغت نفقات المماليك فى كل شهر الى سبعين ألف درهم ، ثم تزايدت حتى صارت فى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة مائتين وعشرين ألف درهم .

« دار النيابة » : كان بقلعة الجبل دار نيابة بناها الملك المنصور قلاوون فى سنة سبع وثمانين وستمائة ، سكنها الأمير حسام الدين طرنطاى ومن بعده من نواب السلطنة . وكانت النواب تجلس بشباكها ، حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وأبطل النيابة ، وأبطل الوزارة أيضا . فصار موضع دار النيابة ساحة .

فلما مات الملك الناصر ، أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره فى نيابة السلطنة ، فلم تكمل حتى قبض عليه . فولى نيابة السلطنة الأمير طشتمر حمص أخضر ، وقبض عليه . فتولى بعده نيابة السلطنة الأمير شمس

الدين آق سنقر ، فى أيام الملك الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فجلس بها فى يوم السبت أول صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة * فى شباك دار النيابة . وهو أول من جلس بها من النواب بعد تجديدها ، وتوارثها النواب بعده .

وكانت العادة أن يركب جيوش مصر يومى الاثنين والخميس فى الموكب تحت القلعة ، فيسيرون هناك من رأس الصوة الى باب القرافة ، ثم تقف العسكر مع نائب السلطنة ، وينادى على الخيل بينهم ، وربما نودى على كثير من آلات الجند والخيم والجركاوات والأسلحة ، وربما نودى على كثير من العقار . ثم يطلعون الى الخدمة السلطانيـة بالايوان بالقلعة على ما تقدم ذكره .

فاذا مثل النائب فى حضرة السلطان ، وقف فى ركن الايوان الى أن تنقضى الخدمة . فيخرج الى دار النيابة والأمراء معه ، ويمد السماط بين يديه كما يمد سماط السلطان ، ويجلس جلوسا عاما للناس ، وتحضره أرباب الوظائف ، وتقف قدامه الحجاب ، وتقرأ القصص ، وتقدم اليه الشكاة ، ويفصل أمورهم . فكان السلطان يكتفى بالنائب ، ولا يتصدى لقراءة القصص عليه وسماع الشكوى ، تعويلا منه على قيام النائب بهذا الأمر .

واذا قرئت القصص على النائب نظر : فان كان مرسومه يكفى فيها أصدره عنه ، وما لا يكفى فيه الا مرسوم السلطان ، أمر بكتابته عن السلطان وأصدره ، فيكتب ذلك ، وينبه

(*) ص٢١٤ ج٢ ، ط. بولاق

فيه على انه باشارة النائب ، ويميز عن نواب السلطان بالممالك الشامية بأن يعبر عنه «بكافل المملكة الشريفة الاسلامية» .

وما كان من الأمور التى لابد له من احاطة علم السلطان بها ، فانه اما أن يعلمه بذلك منه اليه وقت الاجتماع به ، أو يرسل الى السلطان من يعلمه به ويأخذ رأيه فيه .

وكان ديوان الاقطاع — وهو الجيش — فى زمان النيابة ليس لهم خدمة الا عند النائب ، ولا اجتماع الا به ، ولا يجتمع ناظر الجيش بالسلطان فى أمر من الأمور .

فلما أبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون النيابة ، صار ناظر الجيش يجتمع بالسلطان ، واستمر ذلك بعد اعادة النيابة . وكان الوزير وكاتب السر يراجعان النائب فى بعض الأمور دون بعض . ثم اضمحلت نيابة السلطنة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وتلاشت أوضاعها .

فلما مات أعيدت بعده ، ولم تزل الى أثناء أيام الظاهر برقوق . وآخر من وليها على أكثر قوانينها الأمير سودون الشيخى ، وبعده لم يل النيابة أحد فى الأيام الظاهرية . ثم ان الناصر فرج بن برقوق أقام الأمير تمراز فى نيابة السلطنة ، فلم يسكن دار النيابة فى القلعة ، ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب . ولم يل النيابة بعد تمراز أحد الى يومنا هذا .

وكانت حقيقة النائب أنه السلطان الثانى ، وكانت سائر نواب الممالك الشامية وغيرها تكاتبه فى غالب ما تكاتب فيه السلطان ،

ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان . وكان يستخدم الجند ، ويخرج الاقطاعات من غير مشاورة ، ويعين الامرة لكن بمشاورة السلطان .

وكان النائب هو المتصرف المطلق التصرف فى كل أمر : فيراجع فى الجيش والمال والخبر ، وهو البريد ، وكل ذى وظيفة لا يتصرف الا بأمره ، ولا يفصل أمرا معضلا الا بمراجعته . وهو الذى يستخدم الجند ، ويرتب فى الوظائف ، الا ما كان منها جليلا — كالوزارة ، والقضاء ، وكتابة السر ، والجيش — فانه يعرض على السلطان من يصلح . وكان قل الا يجاب فى شىء يعينه .

وكان من عدا نائب السلطنة بديار مصر يليه فى رتبة النيابة . وكل نواب الممالك تخاطب بملك الأمراء ، الا نائب السلطنة بمصر فانه يسمى « كافل الممالك » تمييزا له ، وابانة عن عظيم محله . وبالحقيقة ما كان يستحق اسم نيابة السلطنة ، بعد النائب بمصر ، سوى نائب الشام بدمشق فقط . وانما كانت النيابة تطلق أيضا على أكابر نواب الشام ، وليس لأحد منهم من التصرف ما كان لنائب دمشق . الا أن نيابة السلطنة بحلب تلى رتبة نيابة السلطنة بدمشق .

وقد اختلت الآن الرسوم ، واتضعت الرتب ، وتلاشت الأحوال ، وعادت أسماء لا معنى لها ، وخيالات حاصلها عدم . والله يفعل ما يشاء .

ذكر جيوش الدولة التركية وزيها وعوايدها

اعلم أنه قد كان بقلعة الجبل مكان معد لديوان الجيش ، وأدركت منه بقية الى أثناء دولة الظاهر برقوق . وكان ناظر الجيش وسائر كتاب الجيش لا يبرحون فى أيام الخدمة نهارهم مقيمين بديوان الجيش ، وكانت لهذا الديوان عوايد قد تغير أكثرها ، ونسى غالب رسومه .

وكانت جيوش الدولة التركية بديار مصر على قسمين : منهم من هو بحضرة السلطان ، ومنهم من هو فى أقطار المملكة وبلادها ، وسكان بادية كالعرب والتركمان . وجندها مختلط من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان ، وغالبهم من المماليك المبتاعين .

وهم طبقات : أكابرهم من له امرة مائة فارس وتقدمة ألف فارس ، ومن هذا القبيل تكون أكابر النواب ، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين

ثم أمراء الطبلخاناه ، ومعظمهم من تكون له امرة أربعين فارسا ، وقد يوجد فيهم من له أزيد من ذلك الى السبعين ، ولا تكون الطبلخاناه لأقل من أربعين .

ثم أمراء العشراوات ممن تكون له امرة عشرة ، وربما كان فيهم من له عشرون فارسا ، ولا يعدون * فى أمراء العشراوات .

ثم جند الحلقة ، وهؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان ، كما أن مناشير الأمراء من

(*) ص٢١٥ ج٢ ، ط. بولاق .

السلطان ، وأما أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم .

وكان منشور الأمير يعين فيه للأمير ثلث الاقطاع ولأجناده الثلثان ، فلا يمكن الأمير ولا مباشروه أن يشاركوا أحدا من الأجناد فيما يخصهم الا برضاهم .

وكان الأمير لا يخرج أحدا من أجناده حتى يتبين للنائب موجب يقتضى اخراجه . فحينئذ يخرجه نائب السلطان ، ويقيم عند الأمير عوضه . وكان لكل أربعين جنديا من جند الحلقة مقدم عليهم ، ليس له عليهم حكم الا اذا خرج العسكر لقتال ، فكانت مواقف الأربعين مع مقدمهم ، وترتيبهم فى موقفهم اليه .

ويبلغ بمصر اقطاع بعض أكابر أمراء المئين ، المقدمين من السلطان ، مائتى ألف دينار جيشية ، وربما زاد على ذلك . وأما غيرهم فدون ذلك يعبر أقلها الى ثمانين ألف دينار وما حولها .

وأما الطبلخاناه فمن ثلاثين ألف دينار الى ثلاثة وعشرين ألف دينار .

وأما العشراوات فأعلاها سبعة آلاف دينار الى ما دونها .

وأما اقطاعات أجناد الحلقة فأعلاها ألف وخمسمائة دينار ، وهذا القدر وما حوله اقطاعات أعيان مقدمى الحلقة ، ثم بعد ذلك الأجناد بابات ، حتى يكون أدناهم مائتين وخمسين دينارا . وسيرد تفصيل ذلك ان شاء الله تعالى .

وأما اقطاعات جند الأمراء فانها على مايراه الأمير من زيادة بينهم ونقص .

وأما اقطاعات الشام فانها لا تقارب هذا ، بل تكون على الثلثين مما ذكرنا . ما خلا نائب السلطنة بدمشق ، فانه يقارب اقطاعه على اقطاعات أكابر أمراء مصر المقربين . وجميع جند الأمراء تعرض بديوان الجيش ، ويثبت اسم الجندى وحليته ، ولا يستبدل أميره به غيره الا بتنزيل من عوض به وعرضه .

وكانت للأمراء على السلطان فى كل سنة ملابس ينعم بها عليهم ، ولهم فى ذلك حظ وافر . وينعم على أمراء المئين بخيول مسرجة ملجمة ، ومن عداهم بخيول عرى ، ويميز خاصتهم على عامتهم . وكان لجميع الأمراء — من المئين ، والطبلخاناه ، والعشراوات — على السلطان الرواتب الجارية فى كل يوم من اللحم وتوابله كلها ، والخبز ، والشعير لعليق الخيل ، والزيت . ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة فى كل سنة . وكذلك لجميع مماليك السلطان ، وذوى الوظائف من الجند .

وكانت العادة اذا نشأ لأحد الأمراء ولد أطلق له دنانير ولحم وخبز وعليق حتى يتأهل للاقطاع فى جملة الحلقة ، ثم منهم من ينتقل الى امرة عشرة ، أو الى امرة طبلخاناه بحسب الحظ .

واتفق للأميرين طرنطاى وكتبغا أن كلا منهما زوج ولده بابنة الآخر ، وعمل لذلك المهم العظيم . ثم سأل الأمير طرنطاى — وهو اذ ذاك نائب السلطان — الأمير بيلبك الأيدمرى والأمير طيبرس ، أن يسألا السلطان

الملك المنصور قلاوون فى الانعام على ولده وولد الأمير كتبغا باقطاعين فى الحلقة .

فقال لهما : والله لو رأيتهما فى مصاف القتال يضربان بالسيف ، أو كانا فى زحف قدامى ، أستقبح أن أعطى لهما أخبازا فى الحلقة ، خشية أن يقال أعطى الصبيان الأخباز . ولم يجب سؤالهما هذا ، وهم من قد عرفت .

لكن كان الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكى رحمه الله اذا مات الجندى أعطى اقطاعه لولده ، فان كان صغيرا رتب معه من يلى أمره حتى يكبر . فكان أجناده يقولون : الاقطاعات أملاكنا ، يرثها أولادنا الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها . وبه اقتدى كثير من ملوك مصر فى ذلك .

وللأمراء المقدمين حوائص ذهب فى وقت الركوب الى الميدان ، ولكل أمير من الخواص على السلطان مرتب من السكر والحلوى فى شهر رمضان ، ولسائرهم الأضحية فى عيد الأضحى على مقادير رتبهم ، ولهم البرسيم لتربيع دوابهم ، ويكون فى تلك المدة بدل العليق المرتب لهم .

وكانت الخيول السلطانية تفرق على الأمراء مرتين فى كل سنة : مرة عندما يخرج السلطان الى مرابط خيوله فى الربيع عند اكتمال تربيعها ، ومرة عند لعبه بالأكرة فى الميدان .

ولخاصة السلطان المقربين زيادة كثيرة من ذلك ، بحيث يصل الى بعضهم فى السنة مائة فرس . ويفرق السلطان أيضا الخيول على المماليك السلطانية فى أوقات أخر ، وربما يعطى بعض مقدمى الحلقة ، ومن نفق له فرس من المماليك ، يحضر من لحمه والشهادة بأنه نفق ، فيعطى بدله .

ولخاصة السلطان المقربين انعام من الانعامات ، كالعقارات ، والأبنية الضخمة التى ربما أنفق على بعضها زيادة على مائة ألف دينار . ووقع هذا فى الأيام الناصرية مرارا ، كما ذكر عند ذكر الدور من هذا الكتاب .

ولهم أيضا كساوى القماش المتنوع ، ولهم عند سفرهم الى الصيد وغيره العلوفات والانزال . وكانت لهم آداب لا يخلون بها : منها أنهم اذا دخلوا الى الخدمة بالايوان أو القصر وقف كل أمير فى مكانه المعروف به ، ولا يجسر أحد منهم ولا من المماليك أن يحدث رفيقه فى الخدمة ولا بكلمة واحدة ، ولا يلتفت الى نحوه أيضا ، ولا يجسر أحد منهم ، ولا من المماليك ، أن يجتمع بصاحبه فى نزهة ولا فى رمى النشاب ولا غير ذلك ، ومن بلغ السلطان عنه أنه اجتمع بآخر نفاه أو قبض عليه .

واختلف زى الأمراء والعساكر فى الدولة ★ التركية . وقد بينا ما كان عليه زيهم حتى غيره الملك المنصور قلاوون ، عند ذكر سوق الشرابشيين ، وصار زيهم اذا دخلوا الى الخدمة بالأقبية التترية والكلاوات فوقها ، ثم القباء الاسلامى فوقها ، وعليه تشد المنطقة والسيف .

(*) ص٢١٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ويتميز الأمراء والمقدمون وأعيان الجند بلبس أقبية قصيرة الأكمام فوق ذلك ، وتكون أكمامها أقصر من القباء التحتانى ، بلا تفاوت كبير فى قصر الكم والطول ، وعلى رؤوسهم كلهم كلوتات صغار غالبها من الصوف الملطى الأحمر ، وتضرب ويلف فوقها عمائم صغار .

ثم زادوا فى قدر الكلوتات وما يلف فوقها فى أيام الأمير يلبغا الخاصكى ، القائم بدولة الأشرف شعبان بن حسين ، وعرفت بالكلوتات الطرخانية ، وصاروا يسمون تلك الصغيرة ناصرية .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق ، بالغوا فى كبر الكلوتات ، وعملوا فى شدتها عوجا ، وقيل لها كلوتات جركسية . وهم على ذلك الى اليوم .

ومن زيهم لبس المهماز على الأخفاف ، ويعمل المنديل فى الحياصة على الصولق من الجانب الأيمن ، ومعظم حوائص المماليك فضة ، وفيهم من كان يعملها من الذهب ، وربما عملت باليشم .

وكانت حوائص أمراء المئين الأكابر ، التى تخرج اليهم مع الخلع السلطانية من خزانة الخاص ، يرصع ذهبها بالجواهر .

وكان معظم العسكر يلبس الطرز ، ولا يكفت مهمازه بالذهب ، ولا يلبس الطراز الا من له اقطاع فى الحلقة . وأما من هو بالجامكية أو من أجناد الأمراء ، فلا يكفت مهمازه بالذهب ، ولا يلبس طرازا .

وكانت العساكر من الأمراء وغيرهم تلبس المنوع من الكمخا والخطاى والكبخى والمخمل والاسكندرانى والشرب ، ومن النصافى والأصواف الملونة . ثم بطل لبس الحرير فى أيام الظاهر برقوق ، واقتصروا الى اليوم على لبس الصوف الملون فى الشتاء ، ولبس النصافى المصقول فى الصيف .

وكانت العادة أن السلطان يتولى بنفسه استخدام الجند . فاذا وقف قدامه من يطلب الاقطاع المحلول ، ووقع اختياره على أحد ، أمر ناظر الجيش بالكتابة له ، فيكتب ورقة مختصرة ، تسمى « المثال » ، مضمونها حيز فلان كذا ، ثم يكتب فوقه اسم المستقر له ، ويناولها السلطان ، فيكتب عليها بخطه « يكتب » ، ويعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض . ثم يعاد المثال الى ديوان الجيش ، فيحفظ شاهدا عندهم .

ثم تكتب مربعة مكملة بخطوط جميع مباشرى ديوان الاقطاع ، وهم كتاب ديوان الجيش ، فيرسمون علاماتهم عليها ، ثم تحمل الى ديوان الانشاء والمكاتبات ، فيكتب المنشور ويعلم عليه السلطان كما تقدم ذكره . ثم يكمل المنشور بخطوط كتاب ديوان الجيش ، بعد المقابلة على حجة أصله .

واستجد السلطان الملك المنصور قلاوون طائفة سماها البحرية . وهى أن البحرية الصالحية لما تشتتوا عند قتل الفارس أقطاى فى أيام المعز أيبك ، بقيت أولادهم بمصر فى حالة رذيلة . فعندما أفضت السلطنة الى قلاوون ، جمعهم ورتب لهم الجوامك والعليق

والعلم والكسوة ، ورسم أن يكونوا جالسين على باب القلعة وسماهم البحرية . والى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية .

وأما البلاد الشامية فليس النائب بالمملكة مستقل فى تأمير أمير عوض أمير مات ؛ بل اذا مات أمير – سواء كان كبيرا أو صغيرا – طالع السلطان بموته ، فأمر عوضه : اما ممن فى حضرته ، ويخرجه الى مكان الخدمة ، أو ممن هو فى مكان الخدمة ، أو ينقل من بلد آخر من يقع اختياره عليه .

وأما جند الحلقة فانهم اذا مات أحدهم استخدم النائب عوضه ، وكتب المثال على نحو من ترتيب السلطان ، ثم كتب المربعة وجهزها مع البريد الى حضرة السلطان ، فيقابل عليها فى ديوان الاقطاع ، ثم ان أمضاها السلطان كتب عليها « يكتب » ، فتكتب المربعة من ديوان الاقطاع ، ثم يكتب عليها المنشور كما تقدم فى الجند الذين بالحضرة ، والا لم يمضها السلطان أخرج الاقطاع لمن يريد .

ومن مات من الأمراء والجند قبل استكمال مدة الخدمة ، حوسب ورثته على حكم الاستحقاق ، ثم اما يرتجع منهم أو يطلق لهم ، على قدر حصول العناية بهم .

واقطاعات الأمراء والجند منها ما هو بلاد يستغلها مقطعها كيف شاء ، ومنها ما هو نقد على جهات يتناولها منها .

ولم يزل الحال على ذلك حتى راك الملك الناصر محمد بن قلاوون البلاد – كما تقدم فى أول هذا الكتاب ، عند الكلام على الخراج ومبلغه – فأبطل عدة جهات من المكوس ، وصارت الاقطاعات كلها بلادا .

والذى استقر عليه الحال فى اقطاعات الديار المصرية – مما رتبه الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى الروك الناصرى ، وهو عدة الجيوش المصورة فى الديار المصرية – أربعة وعشرون ألف فارس . تفصيل ذلك :

أمراء الألوف ومماليكهم : ألفان وأربعمائة وأربعة وعشرون فارسا . تفصيل ذلك : نائب ووزير وألوف خاصكية ثمانية أمراء ، وألوف خرجية أربعة عشر أميرا ، ومماليكهم ألفان وأربعمائة فارس .

أمراء طبلخاناه ومماليكهم : ثمانية آلاف ومائتا فارس . تفصيل ذلك : خاصكية أربعة وخمسون أميرا ، وخرجية مائة وستة وأربعون أميرا ، ومماليكهم ثمانية آلاف فارس كشاف .

وولاة بالأقاليم : خمسمائة وأربعة وسبعون . تفصيل ذلك : ثغر الاسكندرية واحد ، والبحيرة واحد ، والغربية واحد ، والشرقية واحد ، والمنوفية واحد ، وقطيا واحد ، وكاشف الجيزة واحد ، والفيوم واحد ، والبهنسا واحد ، والأشمونين واحد ، وقوص واحد ، وأسوان واحد ، وكاشف الوجه البحرى واحد ، وكاشف الوجه القبلى واحد ، ومماليكهم خمسمائة وستون .

أمراء العشراوات ومماليكهم : ألفان ومائتا فارس . تفصيل ذلك : خاصكية الاثرون ،

---
(١) ص ٢٢١ ج ١ ، خطط المقريزى

وخرجية مائة وسبعون أميرا ، ومماليكهم ألفان .

ولاة الأقاليم : سبعة وسبعون أميرا . تفصيلهم : أشمون الرمان واحد ، وقليوب واحد ، والجيزة واحد ، وتروجا واحد ، وحاجب الاسكندرية واحد ، والشيخ واحد ، ومنفلوط واحد ، ومماليكهم سبعون فارسا .

مقدمو الحلقة والأجناد : أحد عشر ألفا ومائة وستة وسبعون فارسا . تفصيل ذلك :

مقدمو المماليك السلطانية أربعون . مقدمو الحلقة مائة وثمانون

نقباء الألوف : أربعة وعشرون نقيبا .

مماليك السلطان وأجناد الحلقة : عشرة آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارسا . تفصيل ذلك : مماليك السلطان ألفا مملوك . أجناد الحلقة ثمانية آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارسا .

عبرة ذلك : الخاصكية الألوف والنائب والوزير : كل منهم مائة ألف دينار ، وكل دينار عشرة دراهم .

الارتفاع : ألف ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال : كل اردب واحد من القمح بعشرين درهما ، والحبوب كل اردب منها بعشرة دراهم . من ذلك : الكلف مائة ألف درهم ، والخالص تسعمائة ألف درهم .

الألوف الخرجية : كل منهم خمسة وثمانون ألف دينار ، كل دينار عشرة دراهم .

الارتفاع : ثمانمائة ألف وخمسون ألفا ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه . من ذلك : الكلف سبعون ألف درهم ، والخالص لكل منهم سبعمائة وثمانون ألف درهم .

الطبلخاناه الخاصكية : كل منهم أربعون ألف دينار ، كل دينار عشرة دراهم . الارتفاع : أربعمائة ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه . من ذلك : الكلف خمسة وثلاثون ألف درهم ، والخالص لكل منهم ثلثمائة وخمسة وستون ألف درهم .

الطبلخاناه الخرجية : ثلاثون ألف دينار ، كل دينار ثمانية دراهم . الارتفاع : مائتا ألف وأربعون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف أربعة وعشرون ألف درهم ، والخالص مائتا ألف وستة عشر ألف درهم .

العشراوات الخاصكية : كل منهم عشرة آلاف دينار ، كل دينار عشرة دراهم . الارتفاع : مائتا ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف سبعة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم ثلاثة وتسعون ألف درهم .

العشراوات الخرجية : كل منهم سبعة آلاف دينار ، كل دينار عشرة دراهم . الارتفاع : سبعون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف خمسة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم خمسة وستون ألف درهم .

الكشاف : لكل منهم عشرون ألف دينار ، كل دينار ثمانية دراهم . الارتفاع : مائة ألف

وستون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف خمسة عشر ألف درهم ، والخالص مائة ألف وخمسة وأربعون ألف درهم .

الولاة الاصطبلخاناه : كل منهم خمسة عشر ألف دينار ، كل دينار ثمانية دراهم . الارتفاع : مائة وعشرون ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف عشرة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم مائة ألف وعشرة آلاف درهم .

الولاة العشراوات : لكل منهم خمسة آلاف دينار ، كل دينار سبعة دراهم . الارتفاع : خمسة وثلاثون ألف درهم ، بما فيه من ثمن المغل على ما شرح . من ذلك : الكلف ثلاثة آلاف درهم ، والخالص لكل منهم اثنان وثلاثون ألف درهم .

مقدمو مماليك السلطان : كل منهم ألف ومائتا دينار ، كل دينار عشرة دراهم . الارتفاع : اثنا عشر ألف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح . من ذلك : الكلف ألف درهم ، والخالص لكل منهم أحد عشر ألف درهم .

مقدمو الحلقة : كل منهم ألف دينار ، كل دينار تسعة دراهم . الارتفاع : تسعة آلاف درهم ، بما فيه من ثمن الغلال . من ذلك : الكلف تسعمائة درهم ، والخالص لكلّ منهم ثمانية آلاف درهم ومائة درهم .

نقباء الألوف : لكل منهم أربعمائة دينار ، كل دينار تسعة دراهم . الارتفاع : ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، بما فيه من ثمن الغلال . من ذلك : الكلف أربعمائة درهم ، والخالص لكل منهم ثلاثة آلاف ومائتا درهم .

مماليك السلطان : ألفان .

بابة أربعمائة مملوك : لكل منهم ألف وخمسمائة دينار ، كل دينار عشرة دراهم ، عنها خمسة عشر ألف درهم .

بابة خمسمائة مملوك : كل واحد ألف وثلثمائة دينار ، سعره عشرة دراهم ، عنها ثلاثة عشر ألف درهم .

بابة خمسمائة مملوك : لكل منهم ألف دينار ومائتا دينار ، عنها اثنا عشر ألف درهم .

بابة ستمائة مملوك : لكل واحد * ألف دينار ، عنها عشرة آلاف درهم .

أجناد الحلقة : ثمانية آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارسا .

بابة ألف وخمسمائة فارس : لكل منهم تسعمائة دينار بتسعة آلاف درهم .

بابة ألف وثلثمائة وخمسين جنديا : لكل منهم ثمانمائة دينار بثمانية آلاف درهم .

بابة ألف وثلثمائة وخمسين جنديا : كل منهم سبعمائة دينار : عنها سبعة آلاف درهم .

بابة ألف وثلثمائة جندى ، لكل منهم ستمائة دينار بستة آلاف درهم .

بابة ألف وثلثمائة : كل منهم بخمسمائة دينار بخمسة آلاف درهم .

بابة ألف ومائة جندى : لكل منهم أربعمائة دينار بأربعة آلاف درهم .

(*) ص ٢١٨ جـ ٢ ط . بولاق .

بابة ألف واثنين وثلاثين جنديا : لكلّ منهم ثلثمائة دينار ، سعر عشرة دراهم ، عنها ثلاثة آلاف درهم .

وأرباب الوظائف من الأمراء بعد النيابة والوزارة : أمير سلاح ، والدوادار ، والحجبة وأمير جاندار ، والأستادار ، والمهمندار ، ونقيب الجيوش ، والولاة .

فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاوون ، حدث بين أجناد الحلقة نزول الواحد منهم عن اقطاعه لآخر ، بمال أو مقايضة الاقطاعات بغيرها ، فكثر الدخيل فى الأجناد بذلك ، واشترت السوقة والأراذل الاقطاعات . حتى صار فى زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات ، وخربت منهم أراضى اقطاعاتهم .

وأول ما حدث ذلك أن السلطان الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ، لما تسلطن فى شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة ، تمكن منه الأمير شجاع الدين اغرلو شاد الدواوين ، واستجد أشياء : منها المقايضة بالاقطاعات فى الحلقة ، والنزول عنها .

فكان من أراد مقايضة أحد باقطاعه حمل كل منهما مالا لبيت المال يقرر عليهما ، ومن اختار حيزا بالحلقة يزن على قدر عبرته فى السنة دنانير يحملها لبيت المال . فان كانت عبرة الحيز الذى يريده خمسمائة دينار فى السنة ، حمل خمسمائة دينار .

ومن أراد النزول عن اقطاعه ، حمل مالا لبيت المال بحسب ما يقرر عليه اغرلو . وأفرد لذلك ، ولما يؤخذ من طالبى الوظائف والولايات ديوانا ، سماه ديوان البدل . وكان يعين فى المنشور الذى يخرج بالمقايضة المبلغ الذى يقوم به كل من الجنديين .

وكان ابتداء هذا فى جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فقام الأمراء فى ذلك مع السلطان حتى رسم بابطاله .

فلما ولى الأمير منجك اليوسفى الوزارة ، وسيره فى المال ، فتح فى سنة تسع وأربعين باب النزول والمقايضات . فكان الجندى يبيع اقطاعه لكل من بذل له فيه مالا ، فأخذ كثير من العامة والاقطاعات . فكان يبذل فى الاقطاع مبلغ عشرين ألف درهم ، وأقل منه على قدر متحصله ، وللوزير رسم معلوم . ثم منع من ذلك .

فلما كانت نيابة الأمير سيف الدين قيلاى ، فى سنة ثلاث وخمسين ، مشى أحوال الأجناد فى المقايضات والنزولات . فاشترى الاقطاعات الباعة وأصحاب الصنائع ، وبيعت تقادم الحلقة وانتدب لذلك جماعة عرفت بالمهيسين ، بلغت عدتهم نحو الثلثمائة مهيس ، وصاروا يطوفون على الأجناد ، ويرغبونهم فى النزول عن اقطاعاتهم أو المقايضة بها ، وجعلوا لهم على كل ألف درهم مائة درهم .

فلما فحش الأمر ، أبطل الأمير شيخون العمرى النزولات والمقايضات ، عندما استقر رأس نوبة واستقل بتدبير أمور الدولة ، وتقدم لمباشرى ديوان الجيش ألا يأخذوا رسم المنشور والمحاسبة سوى ثلاثة دراهم ، بعدما كانوا يأخذون عشرين درهما .

ذكر الحجبة

وكانت رتبة الحجبة فى الدولة التركية جليلة ، وكانت تلى رتبة نيابة السلطنة ، ويقال لأكبر الحجبة حاجب الحجاب .

وموضوع الحجبة أن متوليها ينصف من الأمراء والجند : تارة بنفسه ، وتارة بمشاورة السلطان ، وتارة بمشاورة النائب . وكان اليه تقديم من يعرض ومن يرد ، وعرض الجند ، فان لم يكن نائب السلطنة فانه هو المشار اليه فى الباب ، والقائم مقام النواب فى كثير من الأمور .

وكان حكم الحاجب لا يتعدى النظر فى مخاصمات الأجناد ، واختلافهم فى أمور الاقطاعات ، ونحو ذلك .

ولم يكن أحد من الحجاب فيما سلف يتعرض للحكم فى شىء من الأمور الشرعية ، كتداعى الزوجين وأرباب الديون ، وانما يرجع ذلك الى قضاة الشرع .

ولقد عهدنا دائما أن الواحد من الكتاب أو الضمان ونحوهم يفر من باب الحاجب ، ويصير الى باب أحد القضاة ويستجير بحكم الشرع ، فلا يطمع أحد بعد ذلك فى أخذه من باب القاضى .

وكان فيهم من يقيم الأشهر والأعوام فى ترسيم القاضى ، حماية له من أيدى الحجاب . ثم تغير ما هنالك ، وصار الحاجب اليوم اسما لعدة جماعة من الأمراء يتصبون للحكم بين الناس ، لا لغرض الا لتضمين أبوابهم بمال مقرر فى كلّ يوم على رأس نوبة النقباء ، وفيهم غير واحد ليس لهم على الامرة اقطاع ، وانما يرتزقون من مظالم العباد .

وصار الحاجب اليوم يحكم فى كل جليل وحقير من الناس ، سواء كان * الحكم شرعيا أو سياسيا بزعمهم ، وان تعرض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب لم يمكن من ذلك .

ونقيب الحاجب اليوم ، مع رذالة الحاجب وسفالته ، وتظاهره من المنكر بما لم يكن يعهد مثله ، يتظاهر به أطراف السوقة . فانه يأخذ الغريم من باب القاضى ، ويتحكم فيه من الضرب وأخذ المال بما يختار ، فلا ينكر ذلك أحد ألبتة .

وكانت أحكام الحجاب أولا يقال لها حكم السياسة ، وهى لفظة شيطانية لا يعرف أكثر أهل زمننا اليوم أصلها ، ويتساهلون فى التلفظ بها ، ويقولون هذا الأمر مما لا يمشى فى الأحكام الشرعية ، وانما هو من حكم السياسة ... ويحسبونه هينا ، وهو عند الله عظيم . وسأبين معنى ذلك ، وهو فصل عزيز .

ذكر احكام السياسة

اعلم أن الناس فى زمننا ، بل ومنذ عهد الدولة التركية بديار مصر والشام ، يرون أن الأحكام على قسمين : حكم الشرع ، وحكم السياسة .

ولهذه الجملة شرح : فالشريعة هى ما شرع الله تعالى من الدين وأمر به ، كالصلاة والصيام والحج وسائر أعمال البر .

(*) ص٢١٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

واشتق الشرع من شاطىء البحر . وذلك أن الموضع الذى على شاطىء البحر تشرع فيه الدواب ، وتسميه العرب : « الشريعة » . فيقولون للابل ، اذا وردت شريعة الماء ، وشربت : قد شرع فلان ابله ، وشرعها — بتشديد الراء — اذا أوردها شريعة الماء .

والشريعة ، والشراع ، والشرعة : المواضع التى ينحدر الماء فيها . ويقال شرع الدين يشرعه شرعا ، بمعنى سنه . قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » .

ويقال ساس الأمر سياسة ، بمعنى قام به ، وهو سائس ، من قوم ساسة وسوس . وسوسه القوم : جعلوه يسوسهم . والسوس : الطبع والخلق ، فيقال الفصاحة من سوسه ، والكرم من سوسه ، أى من طبعه .

فهذا أصل وضع السياسة فى اللغة ، ثم رسمت بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح ، وانتظام الأحوال .

والسياسة نوعان : سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهى من الأحكام الشرعية ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها . وقد صنف الناس فى السياسة الشرعية كتبا متعددة .

والنوع الآخر : سياسة ظالمة ، فالشريعة تحرمها . وليس ما يقوله أهلّ زماننا فى شىء من هذا ، وانما هى كلمة مغلية أصلها «ياسة» ، فحرفها أهل مصر ، وزادوا بأولها سينا فقالوا : « سياسة » ، وأدخلوا عليها الألف واللام ، فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية ، وما الأمر فيها الا ما قلت لك .

واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة ، حتى انتشرت بمصر والشام . وذلك أن جنكز خان ، القائم بدولة التتر فى بلاد الشرق ، لما غلب الملك أونك خان ، وصارت له دولة ... قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه « ياسة » ، ومن الناس من يسميه « يسق » ، والأصل فى اسمه ياسة .

ولما تم وضعه ، كتب ذلك نقشا فى صفائح الفولاذ ، وجعله شريعة لقومه . فالتزموه بعد حتى قطع الله دابرهم .

وكان جنكز خان لا يتدين بشىء من أديان أهل الأرض — كما تعرف هذا ان كنت أشرفت على أخباره — فصار الياسة حكما بتا ، بقى فى أعقابه لا يخرجون عن شىء من حكمه .

وأخبرنى العبد الصالح ، الداعى الى الله تعالى ، أبو هاشم أحمد بن البرهان رحمه الله ، أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد .

ومن جملة ما شرعه جنكز خان فى الياسة أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن ، ومن لاط قتل ، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل ، ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فانه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير اذنهم قتل ، ومن وجد عبدا هاربا أو

أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل .

وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه الى أن يموت ثم يؤكل لحمه ، وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح ، ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه ، وهو يكر أو يفر في حالة القتال ، وكان وراءه أحد ، فانه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه ، فان لم ينزل ولم يناوله قتل .

وشرط الا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه مؤنة ولا كلفة ، والا يكون على أحد من الفقراء ، ولا القراء ، ولا الفقهاء ، ولا الأطباء ، ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلي الأموات كلفة ولا مؤنة .

وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى ، وجعل ذلك كله قربة الى الله تعالى .

وألزم قومه الا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولا ، ولو أنه أمير ومن يناوله أسير . وألزمهم الا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه ، بل يشركه معه في أكله . وألزمهم الا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ، ولا يتخطى أحد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذي يؤكل عليه ، وأن من مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير اذنهم وليس لأحد منعه .

وألزمهم الا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به ، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى ، ومنع أن يقال لشيء انه نجس ، وقال جميع الأشياء طاهرة ، ولم يفرق بين طاهر ونجس .

وألزمهم الا يتعصبوا لشيء من المذاهب ، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب ، وانما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط .

وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها اذا أرادوا الخروج الى القتال ، وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره ، وينظر حتى الابرة والخيط ، فمن وجده قد قصر في شيء مما يحتاج اليه عند عرضه اياه عاقبه ، وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف ، في مدة غيبتهم في القتال ، وجعل على العساكر اذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها اليه .

وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء ، وجعلهم أمراء ألوف ، وأمراء مئين ، وأمراء عشراوات . وشرع أن أكبر الأمراء اذا أذنب وبعث اليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه ، فانه يلقى نفسه الى الأرض بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع ، حتى يمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه .

وألزمهم الا يتردد الأمراء لغير الملك ، فمن تردد منهم لغير الملك قتل ، ومن تغير عن موضعه الذي يرسم له بغير اذن قتل ، وألزم السلطان باقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة .

وجعل حكم الياسة لولده جغتاي بن جنكز خان . فلما مات التزم من بعده من أولاده

[illegible]

وأباحهم حكم الياسة كالتزام أول المسلمين حكم القرآن ، وجعلوا ذلك دينا لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه .

فلما كثرت وقائع التتر في بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق ، وأسروا كثيرا منهم وباعوهم ، تنقلوا في الأقطار . واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية ، ومنهم من ملك ديار مصر ، وأولهم المعز أيبك . ثم كانت لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت ، وهزم التتار وأسر منهم خلقا كثيرا صاروا بمصر والشام .

ثم كثرت الوافدية في أيام الملك الظاهر بيبرس وملأوا مصر والشام ، وخطب للملك بركة بن يوشى بن جنكز خان على منابر مصر والشام والحرمين . فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل ، وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم . هذا وملوك مصر وأمراؤها وعساكرها قد ملئت قلوبهم رعبا من جنكز خان وبنيه ، وامتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم .

وكانوا انما ربوا بدار الاسلام ، ولقنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملة المحمدية ... فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد الى الرديء ، وفوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا اليه النظر في الأقضية الشرعية ، كتداعي الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك .

واحتاجوا في ذات أنفسهم الى الرجوع لعادة جنكز خان ، والاقتداء بحكم الياسة . فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم ، والأخذ على يد قويهم وانصاف الضعيف منه ، على مقتضى ما في الياسة . وجعلوا اليه مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية ، عند الاختلاف في أمور الاقطاعات ، لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب ، وكان من أجل القواعد وأفضلها . حتى تحكم القبط في الأموال وخراج الأراضي ، فشرعوا في الديوان ما لم يأذن به الله تعالى ، ليصير لهم ذلك سبيلا الى أكل مال الله تعالى بغير حقه . وكان مع ذلك يحتاج الحاجب الى مراجعة النائب أو السلطان في معظم الأمور .

هذا وستر الحياء يومئذ مسدول ، وظل العدل صاف ، وجناب الشريعة محترم ، وناموس الحشمة مهاب . فلا يكاد أحد أن يزيغ عن الحق ، ولا يخرج عن قضية الحياء ، ان لم يكن له وازع من دين ، كان له ناه من عقل . ثم تقلص ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور أنيابه ، وقلت المبالاة وذهب الحياء والحشمة من الناس ، حتى فعل من شاء ما شاء . وتعددت منذ عهد المحن التي كانت في سنة ست وثمانمائة الحجاب ، وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكما خفي معه نور الهدى ، وتسلطوا على الناس مقتا من الله لأهل مصر وعقوبة لهم بما كسبت أيديهم ... ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون .

وكان أول ما حكم الحجاب ، في الدولة التركية بين الناس بمصر ، أن السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون ،

استنقى الأمير شمس الدين آق سنقر الناصرى نائب طرابلس ليوليه نيابة السلطنة بديار مصر ، عوضا عن الأمير سيف الدين بيغوا ، أميرا حاجبا كبيرا يحكم بين الناس ، فخلع عليه فى جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة . فحكم بين الناس كما كان نائب السلطنة يحكم ، وجلس بين يديه موقعان من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوهم . فاستمر ذلك . ثم رسم فى جمادى الآخرة منها أن يكون الأمير رسلان بصل حاجبا مع بيغوا يحكم بالقاهرة * على عادة الحجاب .

فلما انقضت دولة الكامل بأخيه الملك المظفر حاجى بن محمد ، استقر الأمير سيف الدين أرقطاى نائب السلطنة ، فعاد أمر الحجاب الى العادة القديمة . الى أن كانت ولاية الأمير سيف الدين جرجى الحجابة ، فى أيام السلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون ، فرسم له أن يتحدث فى أرباب الديون وفصلهم من غرمائهم بأحكام السياسة . ولم تكن عادة الحجاب فيما تقدم أن يحكموا فى الأمور الشرعية .

وكان سبب ذلك وقوف تجار العجم للسلطان بدار العدل فى أثناء سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، وذكروا أنهم ما خرجوا من بلادهم الا لكثرة ما ظلمهم التتار وجاروا عليهم ، وأن التجار بالقاهرة اشتروا منهم عدة بضائع وأكلوا أثمانها ، ثم هم يثبتون على يد القاضى الحنفى اعسارهم وهم فى سجنه ، وقد أفلس بعضهم .

فرسم للأمير جرجى باخراج غرمائهم من السجن ، وخلاص ما فى قبلهم للتجار ، وأنكر على قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى ما عمله ، ومنع من التحدث فى أمر التجار والمديتين . فأخرج جرجى غرماء التجار من السجن ، وعاقبهم ، حتى أخذ للتجار أموالهم منهم شيئا بعد شىء . وتمكن الحجاب من حينئذ من التحكم على الناس بما شاءوا .

« أمير جاندار » : موضوع أمير جاندار التسلم لباب السلطان ، ولرتبة البرددارية ، وطوائف الركابية ، والحرامانية ، والجندارية . وهو الذى يقدم البريد اذا قدم مع الدوادار وكاتب السر ، واذا أراد السلطان تقرير أحد من الأمراء على شىء أو قتله بذنب كان ذلك على يد أمير جاندار . وهو أيضا المتسلم للزردخاناه ، وكانت أرفع السجون قدرا ومن اعتقل بها لا تطول مدته بها ، بل يقتل أو يخلى سبيله . وهو الذى يدور بالزفة حول السلطان فى سفره مساء وصباحا .

« الأستادار » : اليه أمر البيوت السلطانية كلها ، من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان ، وهو الذى كان يمشى بطلب السلطان فى السرحات والأسفار ، وله الحكم فى غلمان السلطان وباب داره ، واليه أمور الجاشنكيرية — وان كان كبيرهم نظيره فى الامرة من ذوى المئين — وله أيضا الحديث المطلق والتصرف التام فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت من بيوت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك .

ولم تزل رتبة الأستادار على ذلك . حتى كانت أيام الظاهر برقوق ، فأقام الأمير جمال

(*) ص٢٢١ جـ٢ ، ط . بولاق .

الدين محمود بن على بن أصفر عينه أستادارا ، وناط به تدبير أموال المملكة . فتصرف فى جميع ما يرجع الى أمر الوزير وناظر الخاص ، وصارا يترددان الى بابه ، ويمضيان الأمور برأيه .

فجلت من حينئذ رتبة الأستادار بحيث انه صار فى معنى ما كان فيه الوزير فى أيام الخلفاء ... سيما اذا اعتبرت حال الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى أيام الناصر فرج ابن برقوق ، كما ذكرناه عند ذكر المدارس من هذا الكتاب ، فانك تجده انما كان كالوزير العظيم لعموم تصرفه ، ونفوذ أمره فى سائر أحوال المملكة . واستقر ذلك لمن ولى الأستادارية من بعده ، والأمر على هذا الى اليوم .

« أمير سلاح » : هذا الأمير هو مقدم السلاحدارية ، والمتولى لحمل سلاح السلطان فى المجامع الجامعة ، وهو المتحدث فى السلاح خاناه وما يستعمل بها وما يقدم اليها ويطلق منها ، وهو أبدا من أمراء المئين .

« الدوادار » : ومن عادة الدولة أن يكون بها من أمرائها من يقال له الدوادار . وموضوعه لتبليغ الرسائل عن السلطان ، وابلاغ عامة الأمور ، وتقديم القصص الى السلطان ، والمشاورة على من يحضر الى الباب وتقديم البريد هو وأمير جاندار وكاتب السر . وهو الذى يقدم الى السلطان كل ما تؤخذ عليه العلامة السلطانية فى المناشير والتواقيع والكتب ، وكان يخرج عن السلطان بمرسوم مما يكتب ، فيعين رسالته فى المرسوم .

واختلفت آراء ملوك الترك فى الدوادار : فتارة كان من أمراء العشراوات والطبلخاناه ، وتارة كان من أمراء الألوف .

فلما كانت أيام الأشرف شعبان بن حسين ابن محمد بن قلاوون ، ولى الأمير أقتمر الحنبلى وظيفة الدوادارية — وكان عظيما فى الدولة — فصار يخرج المراسيم السلطانية بغير مشاورة كما يخرج نائب السلطنة ، ويعين فى المرسوم اذ ذاك أنه كتب برسالته . ثم نقل الى نيابة السلطنة ، وأقام الأشرف عوضه الأمير طاش تمر الدوادار ، وجعله من أكبر أمراء الألوف . فاقتدى به الملك الظاهر برقوق ، وجعل الأمير يونس الدوادار من أكبر أمراء الألوف . فعظمت منزلته ، وقويت مهابته .

ثم لما عادت الدولة الظاهرية بعد زوالها ، ولى الدوادارية الأمير بوطا ، فتحكم تحكما زائدا عن المعهود فى الدوادارية ، وتصرف كتصرف النواب ، وولى وعزل ، وحكم فى القضايا المعضلة . فصار ذلك من بعده عادة لمن ولى الدوادارية ... سيما لما ولى الأمير يشبك والأمير حكم الدوادارية فى أيام الناصر فرج ، فانهما تحكما فى جليل أمور الدولة وحقيرها من المال والبريد والأحكام والعزل والولاية . وما برح الحال على هذا فى الأيام الناصرية ، وكذلك الحال فى الأيام المؤيدية يقارب * ذلك .

« نقابة الجيوش » : هذه الرتبة كانت فى الدولة التركية من الرتب الجليلة ، ويكون متوليها كأحد الحجاب الصغار ، وله تحلية

(*) ص ٢٢٢ جـ ٢ ، ط . بولاق .

الجند فى عرضهم ، ومعه يمشى النقباء . فاذا طلب السلطان أو النائب أو حاجب الحجاب أميرا أو جنديا ، كان هو المخاطب فى الارسال اليه ، وهو الملزوم باحضاره . واذا أمر أحد منهم بالترسيم على أمير أو جندى ، كان نقيب الجيش هو الذى يرسم عليه . وكان من رسمه أنه هو الذى يمشى بالحراسة السلطانية فى الموكب حالة السرحة وفى مدة السفر .

ثم انحطت اليوم هذه الرتبة ، وصار نقيب الجيش عبارة عن كبير من النقباء المعدين لترويع خلق الله تعالى ، وأخذ أموالهم بالباطل على سبيل القهر عند طلب أحد الى باب الحاجب . ويضيفون الى أكلهم أموال الناس بالباطل افتراءهم على الله تعالى بالكذب ، فيقولون على المال الذى يأخذونه باطلا : هذا حق الطريق ... والويل لمن نازعهم فى ذلك . وهم أحد أسباب خراب الاقليم ، كما بين فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الأسباب التى أوجبت خراب الاقليم .

« الولاية » : وهى التى يسميها السلف الشرطة ، وبعضهم يقول صاحب العسس . والعسس : الطواف بالليل لتتبع أهل الريب ، يقول : عس يعس عسا وعسسا . وأول من عس بالليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، أمره أبو بكر الصديق رضى الله عنه بعس المدينة .

خرج أبو داود ، عن الأعمش ، عن زيد قال : أتى عبد الله بن مسعود فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرا ، فقال عبد الله رضى الله عنه : انا قد نهينا عن التجسس ، ولكن ان يظهر لنا شىء نأخذ به .

وذكر الثعلبى عن زيد بن وهب أنه قال : قيل لابن مسعود رضى الله عنه : هل لك فى الوليد بن عتبة تقطر لحيته خمرا ؟

فقال : انا قد نهينا عن التجسس ، فان ظهر لنا شىء نأخذ به .

وكان عمر رضى الله عنه يتولى فى خلافته العسس بنفسه ، ومعه مولاه أسلم رضى الله عنه ، وكان ربما استصحب معه عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه .

« قاعة الصاحب » : وكانت وظيفة الوزارة أجل رتب أرباب الأقلام ، لأن متوليها ثانى السلطان اذا أنصف وعرف حقه . الا أن ملوك الدولة التركية قدموا رتبة النيابة على الوزارة ، فتأخرت الوزارة حتى قعد بها مكانها ، ووليها فى الدولة التركية أناس من أرباب السيوف وأناس من أرباب الأقلام ، فصار الوزير اذا كان من أرباب الأقلام يطلق عليه اسم الصاحب ، بخلاف ما اذا كان من أرباب السيوف فانه لا يقال له الصاحب .

وأصل هذه الكلمة فى اطلاقها على الوزير أن الوزير اسماعيل بن عباد كان يصحب مؤيد الدولة أبا منصور بويه بن ركن الدولة الحسن ابن بويه الديلمى صاحب بلاد الرى . وكان مؤيد الدولة شديد الميل اليه والمحبة له فسماه الصاحب ، وكان الوزير حينئذ أبو الفتح على بن العميد يعاديه لشدة تمكنه من مؤيد الدولة ، فتلقب الوزراء بعد ابن عباد بالصاحب . ولا أعلم أحدا من وزراء خلفاء بنى العباس ، ولا وزراء الخلفاء الفاطميين ، قيل له الصاحب .

وقد جمعت فى وزراء الاسلام كتابا جليل القدر ، وأفردت وزراء مصر فى تصنيف بديع . والذى أعرف أن الوزير صفى الدين عبد الله بن شكر ، وزير العادل والكامل من ملوك مصر من بنى أيوب ، كان يقال له الصاحب ، وكذلك من بعده من وزراء مصر الى اليوم .

وكان وضع الوزير أنه أقيم لنفاذ كلمة السلطان وتمام تصرفه . غير أنها انحطت عن ذلك بنيابة السلطنة ، ثم انقسم ما كان للوزير الى ثلاثة : هم الناظر فى المال ، وناظر الخاص ، وكاتب السر فانه يوقع فى دار العدل ما كان يوقع فيه الوزير بمشاورة واستقلال .

ثم تلاشت الوزارة فى أيام الظاهر برقوق بما أحدثه من الديوان المفرد . وذلك أنه لما ولى السلطنة أفرد اقطاعه لما كان أميرا قبل سلطنته ، وجعل له ديوانا سماه الديوان المفرد ، وأقام فيه ناظرا وشاهدين وكتابا ، وجعل مرجع هذا الديوان الى الأستادار ، وصرف ما يتحصل منه فى جوامك مماليك استجدها شيئا بعد شىء حتى بلغت خمسة آلاف مملوك ، وأضاف الى هذا الديوان كثيرا من أعمال الديار المصرية .

وبذلك قوى جانب الأستادار ، وضعفت الوزارة ، حتى صار الوزير قصارى نظره التحدث فى أمر المكوس ، فيستخرجها من جهاتها ، ويصرفها فى ثمن اللحم وحوائج المطبخ وغير ذلك .

ولقد كان الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى يقول : الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش يشترى اللحم والحطب وحوايج الطعام ، وناظر الخاص غلام صلف يشترى الحرير والصوف والنصافى والسنجاب ، وأما ما كان للوزراء ونظار الخاص فى القديم فقد بطل .

ولقد صدق فيما قال ، فان الأمر على هذا . وما رأينا الوزارة من بعد انحطاط رتبتها يرتفع قدر متوليها الا اذا أضيفت الى الأستادارية ، كما وقع للأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، والأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج . وأما من ولى الوزارة بمفردها ، سيما من أرباب الأقلام ، فانما هو كاتب كبير يتردد ليلا ونهارا الى باب الأستادار ، ويتصرف بأمره ونهيه .

وحقيقة الوزارة اليوم * أنها انقسمت بين أربعة ، وهم : كاتب السر ، والأستادار ، وناظر الخاص ، والوزير .

فأخذ كاتب السر من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات ، والعزل ونحو ذلك فى دار العدل وفى داره .

وأخذ الأستادار التصرف فى نواحى أرض مصر ، والتحدث فى الدواوين السلطانية ، وفى كشف الأقاليم وولاة النواحى ، وفى كثير من أمور أرباب الوظائف .

وأخذ ناظر الخاص جانبا كبيرا من الأموال الديوانية السلطانية ليصرفها فى تعلقات الخزانة السلطانية .

وبقى للوزير شىء يسير جدا من النواحى ، والتحدث فى المكوس وبعض الدواوين ،

(*) ص٢٢٣ ج٢ ، ط.بولاق .

ومصارف المطبخ السلطانى والسواقى ، وأشياء أخر . واليه مرجع ناظر الدولة ، وشاد الدواوين ، وناظر بيت المال ، وناظر الأهراء ، ومستوفى الدولة ، وناظر الجهات . وأما ناظر البيوت وناظر الاصطبلات فان أمرهما يرجع الى غيره . والله أعلم .

« نظر الدولة » : هذه الوظيفة يقال لمتوليها ناظر النظار ، ويقال له ناظر المال ، وهو يعرف اليوم بناظر الدولة ، وتلى رتبته رتبة الوزارة . فاذا غاب الوزير ، أو تعطلت الوزارة من وزير ، قام ناظر الدولة بتدبير الدولة ، وتقدم الى شاد الدواوين بتحصيل الأموال وصرفها فى النفقات والكلف .

واقتصر الملك الناصر محمد بن قلاوون على ناظر الدولة مدة أعوام من غير تولية وزير ، ومشى أمور الدولة على ذلك حتى مات .

ولابد أن يكون مع ناظر الدولة مستوفون يضبطون كليات المملكة وجزئياتها . ورأس المستوفين مستوفى الصحبة ، وهو يتحدث فى سائر المملكة مصرا وشاما ، ويكتب مراسيم يعلم عليها السلطان : فتكون تارة بما يعمل فى البلاد ، وتارة بالاطلاقات ، وتارة باستخدام كتاب فى صغار الأعمال ، ومن هذا النحو وما يجرى مجراه ، وهى وظيفة جليلة تلى نظر الدولة . وبقية المستوفين كل منهم حديثة مقيد لا يتعدى حديثه قطرا من أقطار المملكة .

وهذا الديوان — أعنى ديوان النظر — هو أرفع دواوين المال ، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية ، وكل ديوان من دواوين المال انما هو فرع هذا الديوان ، واليه يرفع حسابه وتتناهى أسبابه ، واليه يرجع أمر الاستيمار الذى يشتمل على أرزاق ذوى الأقلام وغيرهم مياومة ومشاهرة ومسانهة من الرواتب .

وكانت أرزاق ذوى الأقلام مشاهرة من مبلغ عين وغلة ، وكان لأعيانهم الرواتب الجارية فى اليوم من اللحم بتوابله أو غير توابله ، والخبز والعليق لدوابهم ، وكان لأكابرهم السكر والشمع والزيت والكسوة فى كل سنة والأضحية ، وفى شهر رمضان السكر والحلوى .

وأكثرهم نصيبا الوزير ، وكان معلومه فى الشهر مائتين وخمسين دينارا جيشية ، مع الأصناف المذكورة والغلة وتبلغ نظير المعلوم ، ثم ما دون ذلك من المعلوم لمن عدا الوزير ، وما دون دونه . وكان معلوم القضاة والعلماء أكثره خمسون دينارا فى كل شهر ، مضافا لما بيدهم من المدارس التى يستدرون من أوقافها .

وكان أيضا يصرف على سبيل الصدقات الجارية والرواتب الدارة على جهات ما بين مبلغ وغلة وخبز ولحم وزيت وكسوة وشعير ... هذا سوى الأرض من النواحى التى يعرف المرتب عليها بالأرزاق الأحباسية .

وكانوا يتوارثون هذه المرتبات ابنا عن أب ، ويرثها الأخ عن أخيه ، وابن العم عن ابن العم ... بحيث ان كثيرا ممن مات ، وخرج ادراره من مرتبه لأجنبى ، لما جاء قريبه وقدم قصته يذكر فيها أولويته بما كان لقريبه ، أعيد اليه ذلك المرتب ممن كان خرج باسمه .

« نظر البيوت » : كان من الوظائف الجليلة ، وهى وظيفة متوليها منوط بالأستادار فكل ما يتحدث فيه أستادار السلطان فانه يشاركه فى التحدث ، وهذا كان أيام كون الأستادار ونظره لا يتعدى بيوت السلطان وما تقدم ذكره . فأما منذ عظم قدر الأستادار ونفذت كلمته فى جمهور أموال الدولة ، فان نظر البيوت اليوم شىء لا معنى له .

« نظر بيت المال » : كان وظيفة جليلة معتبرة ، وموضوع متوليها التحدث فى حمول المملكة مصرا وشاما الى بيت المال بقلعة الجبل ، وفى صرف ما ينصرف منه تارة بالوزن وتارة بالتسبيب بالأقلام .

وكان أبدا يصعد ناظر بيت المال ، ومعه شهود بيت المال وصيرفى بيت المال وكاتب المال ، الى قلعة الجبل . ويجلس فى بيت المال فيكون له هناك أمر ونهى وحال جليلة ، لكثرة الحمول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة فى الرواتب لأهل الدولة . وكانت أمرا عظيما بحيث أنها بلغت فى السنة نحو أربعمائة ألف دينار .

وكان لا يلى نظر بيت المال الا من هو من ذوى العدالات المبرزة . ثم تلاشى المال وبيت المال ، وذهب الاسم والمسمى ، ولا يعرف اليوم بيت المال من القلعة ، ولا يدرى ناظر بيت المال من هو .

« نظر الاصطبلات » : هذه الوظيفة جليلة القدر الى اليوم . وموضوعها الحديث فى أموال الاصطبلات والمناخات وعليقها ، وأرزاق من فيها من المستخدمين ، وما بها من الاستعمالات والاطلاق ، وكل ما يبتاع لها أو يبتاع بها . وأول من استجدها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو أول من زاد فى رتبة أميراخور ، واعتنى * بالأوجاقية والعرب الركابة .

وكان أبوه المنصور قلاوون يرغب فى خيل برقة أكثر من خيل العرب ، ولا يعرف عنه أنه اشترى فرسا بأكثر من خمسة آلاف درهم ، وكان يقول : خيل برقة نافعة ، وخيل العرب زينة ... بخلاف الناصر محمد ، فانه شغف باستدعاء الخيول من عرب آل مهنا وآل فضل وغيرهم ، وبسببها كان يبالغ فى اكرام العرب ، ويرغبهم فى أثمان خيولهم حتى خرج عن الحد فى ذلك .

فكثرت رغبة آل مهنا وغيرهم فى طلب خيول من عداهم من العربان ، وتتبعوا عتاق الخيل من مظانها ، وسمحوا بدفع الأثمان الزائدة على قيمتها ، حتى أتتهم طوائف العرب بكرائم خيولهم . فتمكنت آل مهنا من السلطان ، وبلغوا فى أيامه الرتب العلية . وكان لا يحب خيول برقة ، واذا أخذ منها شيئا أعده للتفرقة على الأمراء البرانيين ، ولا يسمح بخيول آل مهنا الا لأعز الأمراء وأقرب الخاصكية منها .

وكان جيد المعرفة بالخيل شياتها وأنسابها ، لا يزال يذكر أسماء من أحضرها اليه ومبلغ ثمنها . فلما اشتهر عنه ذلك ، جلب اليه أهل البحرين والحساء والقطيف وأهل الحجاز والعراق كرائم خيولهم ، فدفع لهم فى الفرس من عشرة آلاف درهم الى عشرين الى ثلاثين

(*) ص٢٢٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

ألف درهم ؛ عنها ألف وخمسمائة مثقال من الذهب ... سوى ما ينعم به على مالكه من الثياب الفاخرة له ولنسائه ، ومن السكر ونحوه ، فلم تبق طائفة من العرب حتى قادت اليه عتاق خيلها .

وبلغ من رغبة السلطان فيها أنه صرف فى أثمانها دفعة واحدة ، من جهة كريم الدين ناظر الخاص ، ألف ألف درهم فى يوم واحد ، وتكرر هذا منه غير مرة ، وبلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا الستين ألف درهم والسبعين ألف درهم ، واشترى كثيرا من الحجور بالثمانين ألفا والتسعين ألفا ، واشترى بنت الكرشاء بمائة ألف درهم : عنها خمسة آلاف مثقال من الذهب ... هذا سوى الانعامات بالضياع من بلاد الشام .

وكان من عنايته بالخيل لا يزال يتفقدها بنفسه . فاذا أصيب منها فرس أو كبر سنه ، بعث به الى الجشار . وتنزى الفحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه ، وكتاب الاصطبل تؤرخ تاريخ نزوها ، واسم الحصان والحجرة . فتوالدت عنده خيول كثيرة اكتفى بها عن الجلب ، ومع ذلك فلم تكن عنده فى منزلة ما يجلب منها . وبهذا ضخمت سعادة آل مهنا ، وكثرت أموالهم وضياعهم ، فعز جانبهم ، وكثر عددهم ، وهابهم من سواهم من العرب .

وبلغت عدة خيول الجشارات فى أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس ، وكان يعرضها فى كل سنة ويدوغ أولادها بين يديه ، ويسلمها للعربان الركابة ، وينعم على الأمراء الخاصكية بأكثرها ، ويتبجح بها ، ويقول : هذه فلانة بنت فلان ، وهذا فلان ابن فلانة ، وعمره كذا ، وشراء أم هذا كذا وكذا .

كان لا يزال يؤكد على الأمراء فى تضمير الخيول ، ويلزم كل أمير أن يضمر أربعة أفراس ، ويتقدم لأميراخور أن يضمر للسلطان عدة منها ، ويوصيه بكتمان خبرها ، ثم يشيع أنها لأيدغمش أميراخور ، ويرسلها مع الخيل فى حلبة السباق خشية أن يسبقها فرس أحد من الأمراء فلا يحتمل ذلك ، فانه ممن لا يطيق شيئا ينقص ملكه . وكان السباق فى كل سنة بميدان القبق ينزل بنفسه ، وتحضر الأمراء بخيولها المضمرة ، فيجريها وهو على فرسه حتى تنقضى نوبها . وكانت عدتها مائة وخمسين فرسا فما فوقها .

فاتفق أنه كان عند الأمير قطلوبغا الفخرى حصان أدهم سبق خيل مصر كلها فى ثلاث سنين متوالية أيام السباق ، وبعث اليه الأمير مهنا فرسا شهباء على أنها ان سبقت خيل مصر فهى للسلطان ، وان سبقها فرس ردت اليه ، ولا يركبها عند السباق الا بدوى قادها .

فركب السلطان للسباق فى أمرائه على عادته ، ووقف معه سليمان وموسى ابنا مهنا ، وأرسلت الخيول من بركة الحاج على عادتها ، وفيها فرس مهنا ، وقد ركبها البدوى عريا بغير سرج . فأقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدى ، وهى عرى بغير سرج ، والبدوى عليها بقميص وطاقية . فلما وقفت بين يدى السلطان ، صاح البدوى : السعادة لك اليوم يامهنا ، لا شقيت .

فشق على السلطان أن خيله سبقت ، وأبطل التضمير من خيله . وصارت الأمراء تضمر على عادتها .

ومات الناصر محمد عن أربعة آلاف وثمانمائة فرس ، وترك زيادة على خمسة آلاف من الهجن الأصائل والنوق المهريات والقرشيات سوى أتباعها ، وبطل بعده السباق .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق ، عنى بالخيل أيضا . ومات عن سبعة آلاف فرس ، وخمسة عشر ألف جمل .

« ديوان الانشاء » : وكان بجوار قاعة الصاحب بقلعة الجبل ديوان الانشاء . يجلس فيه كاتب السر ، وعنده موقعو الدرج وموقعو الدست ، فى أيام المواكب طول النهار ، ويحمل اليهم من المطبخ السلطانى المطاعم .

وكانت الكتب الواردة ، وتعليق ما يكتب من الباب السلطانى ، موضوعه بهذه القاعة . وأنا جلست بها عند القاضى بدر الدين محمد ابن فضل الله العمرى ، أيام مباشرتى التوقيع السلطانى ، الى نحو السبعين والسبعمائة .

فلما زالت * دولة الظاهر برقوق ثم عادت ، اختلت أمور كثيرة ، منها أمر قاعة الانشاء بالقلعة ، وهجرت ، وأخذ ما كان فيها من الأوراق وبيعت بالقنطار ، ونسى رسمها .

وكتابة السر رتبة قديمة ، ولها أصل فى السنة . فقد خرج أبو بكر عبد الله بن أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى ، فى كتاب « المصاحف » ، من حديث الأعمش ، عن ثابت بن عبيد ، عن زيد بن ثابت رضى الله عنه ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انها تأتينى كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد ، فهل تستطيع أن تعلم كتاب العبرانية (أو قال السريانية) » .

فقلت : نعم .

قال : فتعلمتها فى سبع عشرة ليلة .

ولم يزل خلفاء الاسلام يختارون لكتابة سرهم الواحد بعد الواحد . وكان موضوع كتابة السر فى الدولة التركية ، على ما استقر عليه الأمر فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، أن لمتوليها — المسمى بكاتب السر ، وبصاحب ديوان الانشاء ، ومن الناس من يقول ناظر ديوان الانشاء — قراءة الكتب الواردة على السلطان ، وكتابة أجوبتها اما بخطه ، أو بخط كتاب الدست أو كتاب الدرج ، بحسب الحال .

وله تسفير الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها ، وله تصريف المراسيم ورودا وصدورا ، وله الجلوس بين يدى السلطان بدار العدل لقراءة القصص ، والتوقيع عليها بخطه فى المجلس . فصار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة ، وصار اليه التحدث فى مجلس السلطان عند عقد المشورة ، وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم ، وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب اليه عند الاختلاف أو التدبير ، واليه ترجع أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم فى سائر المملكة مصرا وشاما ، فيمضى من أمورهم ما

(*) ص٢٢٥ ، جـ٢ ط. بولاق .

أحب ، ويشاور السلطان فيما لا بد من مشاورته فيه .

وكانت العادة أن يجلس تحت الوزير . فلما عظم تمكن القاضى فتح الدين فتح الله كاتب السر من الدولة ، جلس فوق الوزير الصاحب سعد الدين ابراهيم البشيرى . فاستمر ذلك لمن بعده .

ورتبة كاتب السر أجل الرتب ، وذلك أنها منتزعة من الملك . فان الدولة العباسية صار خلفاؤها فى أول أمرهم ، منذ عهد أبى العباس السفاح الى أيام هارون الرشيد ، يستبدون بأمورهم .

فلما صارت الخلافة الى هارون ، ألقى مقاليد الأمور الى يحيى بن جعفر البرمكى . فصار يحيى يوقع على رقاع الرافعين بخطه فى الولايات ، وازالة الظلامات ، واطلاق الأرزاق والعطيات . فجلت لذلك رتبته ، وعظمت من الدولة مكانته .

وكان هو أول من وقع من وزراء خلفاء بنى العباس ، وصار من بعده من الوزراء يوقعون على القصص كما كان يوقع .

وربما انفرد رجل بديوان السر وديوان الترسل . ثم أفردت فى أخريات دولة بنى العباس ، واستقل بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزراء . وكانوا ببغداد يقال لهم كتاب الانشاء ، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الانشاء ويطلق عليه تارة صاحب ديوان الانشاء ، وتارة كاتب السر . ومرجع هذا الديوان الى الوزير وكان يقال له الديوان العزيز ، وهو الذى يخاطبه الملوك فى مكاتبات الخلفاء .

وكان فى الدولة السلجوقية يسمى ديوان الانشاء بديوان الطغرا ، واليه ينسب مؤيد الدين الطغرائى . والطغرا هى طرة المكتوب ، فيكتب أعلى من البسملة بقلم غليظ ألقاب الملك ، وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ، ويستغنى بها عن علامة السلطان ، وهى لفظة فارسية .

وفى بلاد المغرب يقال لرئيس ديوان الانشاء صاحب القلم الأعلى . وأما مصر فانه كان بها فى القديم — لما كانت دار امارة — ديوان البريد . ويقال لمتوليه صاحب البريد ، واليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدى أصحاب البريد من الكتب ، وهو الذى يطالع بأخبار مصر . وكان لأمراء مصر كتاب ينشئون عنهم الكتب والرسائل الى الخليفة وغيره .

فلما صارت مصر دار خلافة ، كان القائد جوهر يوقع على قصص الرافعين . الى أن قدم المعز لدين الله فوقع ، وجعل أمر الأموال وما يتعلق بها الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، فوليا أموال الدولة .

ثم فوض العزيز بالله أمر الوزارة ليعقوب ابن كلس . فاستبد بجميع أحوال المملكة ، وجرى مجرى يحيى بن جعفر البرمكى ، وكان يوقع ، ومع ذلك ففى أمراء الدولة من يلى البريد . وجرى الأمر فيما بعد على أن الوزراء يوقعون ، وقد يوقع الخليفة بيده .

فلما كانت أيام المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر ، وصرف أبا جعفر محمد بن جعفر بن المغربى عن وزارته ، أفرد له ديوان الانشاء ، فوليه مدة طويلة ، وأدرك أيام أمير

الجيوش بدر الجمالى . وصار يلى ديوان الانشاء بعده الأكابر ، الى أن انقرضت الدولة وهو بيد القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى . فاقتدت بهم الدولة الأيوبية ، ثم الدولة التركية فى ذلك . وصار الأمر على هذا الى اليوم .

وصار متولى رتبة كتابة السر أعظم أهل الدولة ، الا أنه فى الدولة التركية يكون معه من الأمراء واحد يقال له الدوادار ، منزلته منزلة صاحب البريد فى الزمن الأول . ومنزلة كاتب السر منزلة صاحب ديوان الانشاء ، الا أنه يتميز بالتوقيع على القصص تارة بمراجعة السلطان ، وتارة بغير مراجعه . فلذلك يحتاج اليه * سائر أهل الدولة من أرباب السيوف والأقلام ، ولا يستغنى عن حسن سفارته نائب الشام فمن دونه . ولله الأمر كله .

وأما فى الدولة الأيوبية ، فان كتاب الدرج كانوا فى الدولة الكاملية قليلين جدا ، وكانوا فى غاية الصيانة والنزاهة وقلة الخلطة بالناس . واتفق أن الصاحب زين الدين يعقوب ابن الزبير كان من جملتهم ، فسمع الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه أنه يحضر فى السماعات ، فصرفه من ديوان الانشاء ، وقال : هذا الديوان لا يحتمل مثل هذا .

وكانت العادة ألا يحضر كتاب الانشاء الديوان يوم الجمعة . فعرض للملك الصالح فى بعض أيام الجمع شغل مهم ، فطلب بعض الموقعين فلم يجد أحدا منهم ، فقيل له انهم

(*) ص٢٢٦ ج٢ ، ط. بولاق .

لا يحضرون يوم الجمعة ، فقال : استخدموا فى الديوان كاتبا نصرانيا يقعد يوم الجمعة لمهم يطرأ . فاستخدم الأمجد بن العسال كاتب الدرج لهذا المعنى .

« نظر الجيش » : قد تقدم أنه كان يجلس بالقلعة دواوين الجيش فى أيام الموكب ، وتقدم فى ذكر الاقطاعات وذكر النيابة ما يدل على حال متولى نظر الجيش . ولابد مع ناظر الجيش أن يكون من المستوفين من يضبط كليات المملكة وجزئياتها فى الاقطاعات وغيرها .

« نظر الخاص » : هذه الوظيفة وان كان لها ذكر قديم من عهد الخلفاء الفاطميين ، فان متوليها لم يبلغ من جلالة القدر ما بلغ اليه فى الدولة التركية . وذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما أبطل الوزارة ، وأقام القاضى كريم الدين الكبير فى وظيفة نظر الخاص ، صار متحدثا فيما هو خاص بمال السلطان ... يتحدث فى مجموع الأمر الخاص بنفسه ، وفى القيام بأخذ رأيه فيه . فبقى تحدثه فيه وبسببه كأنه هو الوزير لقربه من السلطان وزيادة تصرفه .

والى ناظر الخاص التحدث فى الخزانة السلطانية ، وكانت بقلعة الجبل ، وكانت كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة . وكان نظر الخزانة منصبا جليلا ... الى أن استحدثت وظيفة نظر الخاص . فضعف أمر نظر الخزانة وأمر الخزانة أيضا ، وصارت تسمى الخزانة الكبرى ، وهو اسم أكبر من مسماه ، ولم يبق بها الا خلع يخلع منها أو

ما يحضر اليها ويصرف أولا فأولا ، وصار نظر الخزانة مضافا الى ناظر الخاص .

وكان الرسم ألا يلى نظر الخزانة الا القضاة أو من يلحق بهم . وما برحت الخزانة بقلعة الجبل حتى عملها الأمير منطاش سجنا لمماليك الظاهر برقوق فى سنة تسعين وسبعمائة ، فتلاشت من حينئذ ، ونسى أمرها ، وصارت الخلع ونحوها عند ناظر الخاص فى داره .

وكانت لأهل الدولة فى الخلع عوايد ، وهم على ثلاثة أنواع : أرباب السيوف ، والأقلام ، والعلماء . فأما أرباب السيوف فكانت خلع أكابر أمراء المئين الأطلس الأحمر الرومى ، وتحته الأطلس الأصفر الرومى ، وعلى الفوقانى طرز زركش ذهب وتحته سنجاب ، وله سجف من ظاهره مع الغشاء قندس ، وكلوتة زركش بذهب وكلاليب ذهب ، وشاش لانس رفيع موصول به فى طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان ، مع نقوش باهرة من الحرير الملون ، مع منطقة ذهب .

ثم تختلف أحوال المنطقة بحسب مقاديرهم ، فأعلاها ما عمل بين عمدها بواكر وسطى ، ومجنبتان بالبلخش والزمرذ واللؤلؤ ، ثم ما كان ببيكارية واحدة مرصعة ، ثم ما كان ببيكارية واحدة غير مرصعة . وأما من تقلد ولاية كبيرة منهم فانه يزاد سيفا محلى بذهب يحضر من السلاح خاناه ، ويحليه ناظر الخاص ، ويزاد فرسا مسرجا ملجما بكنبوش ذهب ، والفرس من الاصطبل ، وقماشه من الركاب خاناه . ومرجع العمل فى سروج الذهب والكنابيش الى ناظر الخاص .

وكان رسم صاحب حماة من أعلى هذه الخلع ، ويعطى بدل الشاش اللانس شاش من عمل الاسكندرية حرير شبيه بالطول ، وينسج بالذهب ، ويعرف بالمثمر ، ويعطى فرسين أحدهما كما ذكر ، والآخر يكون عوض كنبوشه زنارى أطلس أحمر .

وكانت لنائب الشام — على ما استقر فى أيام الناصر محمد بن قلاوون — مثل هذا ، وزيد لتتكز تركية زركش ذهب دائرة بالقباء الفوقانى .

ودون هذه الرتبة فى الخلع نوع يسمى طرز وحش ، يعمل بدار الطراز التى كانت بالاسكندرية وبمصر وبدمشق ، وهو مجوخ جاخات كتابة بألقاب السلطان ، وجاخات طرزوحش ، وجاخات ألوان ممتزجة بقصب مذهب . يفصل بين هذه الجاخات نقوش ، وطراز هذا يكون من القصب ، وربما كبر بعضهم فركب عليه طرازا مزركشا بالذهب ، وعليه فرو سنجاب وقندس كما تقدم ، وتحت القباء الطرزوحش قباء من المقترح الاسكندرانى الطرح ، وكلوتة زركش بكلاليب وشاش على ما تقدم ، وحياصة ذهب ، فتارة تكون ببيكارية ، وتارة لا يكون بها بيكارية ، وهذه لأصاغر أمراء المئين ومن يلحق بهم .

ودون هذه الرتبة فى الخلع كمخا عليه نقش من لون آخر غير لونه ، وقد يكون من نوع لونه بتفاوت بينهما ، وتحته سنجاب بقندس ، والبقية كما تقدم ، الا أن الحياصة والشاش لا يكونان بأطراف رقم ، بل تكون مجوخة بأخضر وأصفر مذهب ، والحياصة لا تكون ببيكارية .

ودون هذه المرتبة كمخا تكون واحدة بسنجاب مقندس ، والبقية على * ما ذكر ، وتكون الكلوتة خفيفة الذهب ، وجانباها يكادان يكونان خاليين بالجملة ، ولا حياصة له . ودون هذه الرتبة مجوم لون واحد ، والبقية على ما ذكر ، خلا الكلوتة والكلاليب . ودون هذه الرتبة مجوم مقندس ، وهو قباء ملون بجاخات من أحمر وأخضر وأزرق ، وغير ذلك من الألوان ، بسنجاب وقندس ، وتحته قباء اما أزرق أو أخضر ، وشاش أبيض بأطراف من نسبة ما تقدم ذكره . ثم دون هذا من هذا النوع .

وأما الوزراء والكتاب فأجل ما كانت خلعهم الكمخا الأبيض المطرز برقم حرير ساذج ، وسنجاب مقندس وتحته كمخا أخضر ، وبقيار كان من عمل دمياط مرقوم وطرحة .

ثم دون هذه الرتبة عدم السنجاب ، بل يكون القندس بدائر الكمين وطول الفرج ، ودونها ترك الطرحة ، ودونها أن يكون التحتانى مجوما ، ودون هذا أن يكون الفوقانى من الكمخا لكنه غير أبيض ، ودونه أن يكون الفوقانى مجوما أبيض ، ودونه أن يكون تحته عنابى .

وأما القضاة والعلماء فان خلعهم من الصوف بغير طراز ، ولهم الطرحة ، وأجلهم أن يكون أبيض ، وتحته أخضر ، ثم ما دون ذلك .

وكانت العادة أن أهبة الخطباء — وهى السواد — تحمل الى الجوامع من الخزانة ،

(*) ص٢٢٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وهى دلق مدور ، وشاش أسود ، وطرحة سوداء ، وعلمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب ، وثياب المبلغ قدام الخطيب مثل ذلك خلا الطرحة .

وكانت العادة اذا خلقت الأهبة المذكورة ، أعيدت الى الخزانة ، وصرف عوضها .

وكانت للسلطان عادات بالخلع : تارة فى ابتداء سلطنته ، وتشمل حينئذ الخلع سائر أرباب المملكة . بحيث خلع فى يوم واحد عند اقامة الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ، ألف ومائتا تشريف ، فى وقت لعبه بالكرة ، على أناس جرت عوايدهم بالخلع فى ذلك الوقت ، كالجوكندارية والولاة ومن له خدمة فى ذلك . وتارة فى أوقات الصيد عندما يسرح ، فاذا حصل أحد شيئا مما يصيده خلع عليه ، واذا أحضر أحد اليه غزالا أو نعاما خلع عليه قباء مسجفا مما يناسب خلعة مثله على قدره ، وكذلك يخلع على البزدارية وجملة الجوارح ومن يجرى مجراهم عند كل صيد .

وكانت العادة أيضا أن ينعم على غلمان الطشت خاناه والشراب خاناه والفراش خاناه ، ومن يجرى مجراهم ، فى كل سنة عند أوان الصيد . وكانت العادة أن من يصل الى الباب من البلاد ، أو يرد عليه أو يهاجر من مملكة أخرى اليه ، أن ينعم عليه مع الخلع بأنواع الادرارات والأرزاق والانعامات .

وكذلك التجار الذين يصلون الى السلطان ، ويبيعون عليه ، لهم مع الخلع الرواتب الدائمة من الخبز واللحم والتوابل والحلوى والعليق

والمسامحات ، بنظير كل ما يساع من الرقيق المماليك والجوارى ، مع ما يسامحون به أيضا من حقوق أخرى تطلق .

وكل واحد من التجار اذا باع على السلطان ، ولو رأسا واحدا من الرقيق ، فله خلعة مكملة بحبه — خارجا عن الثمن وما ينعم به عليه أو يسفر به — من مال السبيل ، على سبيل القرض ليتاجر به .

وأما جلابة الخيل من عرب الحجاز والشام والبحرين وبرقة وبلاد المغرب ، فان لهم الخلع والرواتب والعلوفات والأزوال ورسوم الاقامات ، خارجا عن مسامحات تكتب لهم بالمقررات عن تجارة يتجرون بها مما أخذوه من أثمان الخيول .

وكان يثمن الفرس بأزيد من قيمته . حتى ربما بلغ ثمنه على السلطان — الذى يأخذه محضره — نظير قيمته عليه عشر مرات ، غير الخلع وسائر ما ذكر . ولم يبق اليوم سوى ما يخلع على أرباب الدولة .

وقد استجد فى الأيام الظاهرية ، وكثر فى أيام الناصر فرج نوع من الخلع — يقال له الجبة — يلبسه الوزير ونحوه من أرباب الرتب العلية ... جعلوا ذلك ترفعا عن لبس الخلعة .

ولم تكن الملوك تلبس من الثياب الا المتوسط ، وتجعل حوائصها بغير ذهب . فلم تزد حياصة الناصر محمد على مائة درهم فضة ، ولم يزد أيضا سقط سرجه على مائة درهم فضة ، على عباءة صوف تدمرى أو شامى .

فلما كانت دولة أولاده بالغوا فى الترف ، وخالفوا فيه عوايد أسلافهم . ثم سلك الظاهر برقوق فى ملابسه بعض ما كان عليه الملوك الأكابر لا كله ، وترك لبس الحرير .

« الميدان بالقلعة » : هذا الميدان من بقايا ميدان أحمد بن طولون الذى تقدم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب ، ثم بناه الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة احدى عشرة وستمائة ، وعمر الى جانبه بركا ثلاثا لسقيه ، وأجرى الماء اليها ، ثم تعطل هذا الميدان مدة .

فلما قام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر محمد بن الكامل محمد اهتم به . ثم اهتم به الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل اهتماما زائدا ، وجدد له ساقية أخرى ، وأنشأ حوله الأشجار ، فجاء من أحسن شىء يكون الى أن مات . فتلاشى أمر الميدان بعده ، وهدمه الملك المعز أيبك سنة احدى وخمسين وستمائة ، وعفت آثاره .

فلما كانت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، ابتدأ الملك الناصر محمد بن قلاوون عمارته ، فاقتطع من باب الاصطبل الى قريب باب القرافة ، وأحضر جميع جمال الأمراء ، فنقلت اليه الطين حتى كساه كله وزرعه ، وحفر به الآبار * وركب عليها السواقى ، وغرس فيه النخل الفاخر والأشجار المثمرة ، وأدار عليه هذا السور الحجر الموجود الآن ، وبنى حوضا للسبيل من خارجه .

فلما كمل ذلك نزل اليه ولعب فيه الكرة مع أمرائه ، وخلع عليهم ، واستمر يلعب فيه يومى الثلاثاء والسبت ، وصار القصر الأبلق

(*) ص٢٢٨ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

يشرف على هذا الميدان ، فجاء ميدانا فسيح المدى يسافر النظر فى أرجائه .

واذا ركب السلطان اليه نزل من درج تلى قصره الجوانى . فينزل السلطان الى الاصطبل الخاص ، ثم الى هذا الميدان ، وهو راكب ، وخواص الأمراء فى خدمته . فيعرض الخيول فى أوقات الاطلاقات ، ويلعب فيه الكرة . وكان فيه عدة من أنواع الوحوش المستحسنة المنظر ، وكانت تربط به أيضا الخيول الخاصة للتفسح .

وفى هذا الميدان يصلى السلطان أيضا صلاة العيدين ، ويكون نزوله اليه فى يوم العيد وصعوده من باب خاص من دهليز القصر ، غير المعتاد النزول منه . فاذا ركب من باب قصره ، ونزل الى منفذه من الاصطبل الى هذا الميدان ، ينزل فى دهليز سلطانى قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة ، فيصلى ويسمع الخطبة . ثم يركب ويعود الى الايوان الكبير ، ويمد به السماط ، ويخلع على حامل القبة والطير ، وعلى حامل السلاح والأستادار والجاشنكير وكثير من أرباب الوظائف .

وكانت العادة أن تعد للسلطان أيضا خلعة العيد ، على أنه يلبسها كما كانت العادة فى أيام الخلفاء ، فينعم بها على بعض أكابر أمراء المئين . ولم يزل الحال على هذا الى أن كانت سنة ثمانمائة ، فصلى الملك الظاهر برقوق صلاة عيد النحر بجامع القلعة لتخوفه بعد وقعة الأمير على باى ، فهجر الميدان . واستمرت صلاة العيد بجامع القلعة من عامئذ طول الأيام الناصرية والمؤيدية .

« الحوش » : ابتدىء العمل فيه ، على أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة . وكان قياسه أربعة فدادين ، وكان موضعه بركة عظيمة قد قطع ما فيها من الحجر لعمارة قاعات القلعة حتى صارت غورا كبيرا .

ولما شرع فى العمل رتب على كل أمير من أمراء المئين مائة رجل ومائة بهيمة لنقل التراب برسم الردم ، وعلى كل أمير من أمراء الطبلخاناه بحسبه ، وندب الأمير أقبغا عبد الواحد شاد العمل . فحضر من عند كل من الأمراء أستاداره ومعه جنده ودوابه للعمل ، وأحضر الأسارى ، وسخر والى القاهرة ووالى مصر الناس ، وأحضرت رجال النواحى ، وجلس أستادار كل أمير فى خيمة ، ووزع العمل عليهم بالأقصاب .

ووقف الأمير أقبغا يستحث الناس فى سرعة العمل ، وصار الملك الناصر يحضر فى كل يوم بنفسه . فنال الناس من العمل ضرر زائد ، وأخرق أقبغا بجماعة من أماثل الناس ، ومات كثير من الرجال فى العمل ، لشدة العسف وقوة الحر ، وكان الوقت صيفا . فانتهى عمله فى ستة وثلاثين يوما .

وأحضر اليه من بلاد الصعيد ومن الوجه البحرى ألفى رأس غنم ، وكثيرا من الأبقار البلق لتوقف فى هذا الحوش ، فصار مراح غنم ومربط بقر . وأجرى الماء الى هذا الحوش من القلعة ، وأقام الأغنام حوله .

وتتبع فى كل سنة المراحات ، من عيذاب وقوص الى ما دونهما من البلاد ، حتى يؤخذ ما بهما من الأغنام المختارة ، وجلبها من بلاد

النوبة ومن اليمن . فبلغت عدتها بعد موته ثلاثين ألف رأس سوى آتباعها ، وبلغ البقل الأخضر الذى يشترى لفراخ الاوز فى كل يوم خمسين درهما : عنها زيادة على مثقالين من الذهب .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق ، عمل المولد النبوى بهذا الحوش فى أول ليلة جمعة من شهر ربيع الأول فى كل عام . فاذا كان وقت ذلك ضربت خيمة عظيمة بهذا الحوش ، وجلس السلطان وعن يمينه شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقينى ، ويليه ولد شيخ الاسلام ومن دونه ، وعن يسار السلطان الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلامة التوزرى المغربى ، ويليه قضاة القضاة الأربعة وشيوخ العلم ، ويجلس الأمراء على بعد من السلطان .

فاذا فرغ القراء من قراءة القرآن الكريم ، قام المنشدون واحدا بعد واحد — وهم يزيدون على عشرين منشدا — فيدفع لكل واحد منهم صرة فيها أربعمائة درهم فضة ، ومن كل أمير من أمراء الدولة شقة حرير . فاذا انقضت صلاة المغرب ، مدت أسمطة الأطعمة الفائقة فاكلت وحمل ما فيها ، ثم مدت أسمطة الحلوى السكرية من الجوارشات والعقائد ونحوها فتؤكل وتخطفها الفقهاء . ثم يكون تكميل انشاد المنشدين ووعظهم الى نحو ثلث الليل . فاذا فرغ المنشدون ، قام القضاة وانصرفوا ، وأقيم السماع بقية الليل . واستمر ذلك مدة أيامه ، ثم أيام ابنه الملك الناصر فرج .

ذكر المياه التى بقلعة الجبل

وجميع مياه القلعة من ماء النيل ، تنقل من موضع الى موضع حتى تمر فى جميع ما يحتاج اليه بالقلعة * . وقد اعتنى الملوك بعمل السواقى التى تنقل الماء من بحر النيل الى القلعة عناية عظيمة . فأنشأ الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، أربع سواق على بحر النيل تنقل الماء الى السور ، ثم من السور الى القلعة . وعمل نقالة من المصنع الذى عمله الظاهر بيبرس ، بجوار زاوية تقى الدين رجب ، التى بالرميلة تحت القلعة ، الى بئر الاصطبل .

فلما كانت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، عزم الملك الناصر على حفر خليج من ناحية حلوان الى الجبل الأحمر المطل على القاهرة ، ليسوق الماء الى الميدان الذى عمله بالقلعة ، ويكون حفر الخليج فى الجبل .

فنزل لكشف ذلك ومعه المهندسون ، فجاء قياس الخليج طولا اثنين وأربعين ألف قصبة ، فيمر الماء فيه من حلوان حتى يحاذى القلعة ، فاذا حاذاها بنى هناك خبايا تحمل الماء الى القلعة ليصير الماء بها غزيرا كثيرا ، دائما صيفا وشتاء لا ينقطع ولا يتكلف لحمله ونقله ، ثم يمر من محاذاة القلعة حتى ينتهى الى الجبل الأحمر ، فيصب من أعلاه الى تلك الأرض حتى تزرع .

وعندما أراد الشروع فى ذلك ، طلب الأمير سيف الدين قطلوبك بن قراسنقر الجاشنكير ، أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق ، بعدما فرغ من

(*) ص٢٢٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

بناء القناة ، وساق العين الى القدس . فحضر ومعه الصناع الذين عملوا قناة عين بيت المقدس ، على خيل البريد ، الى قلعة الجبل فأنزلوا . ثم أقيمت لهم الجرايات والرواتب ، وتوجهوا الى حلوان ، ووزنوا مجرى الماء ، وعادوا الى السلطان ، وصوبوا رأيه فيما قصد ، والتزموا بعمله .

فقال : كم تريدون ؟

قالوا : ثمانين ألف دينار .

فقال : ليس هذا بكثير ... فقال : كم تكون مدة العمل فيه حتى يفرغ ؟

قالوا : عشر سنين . فاستكثر طول المدة .

ويقال ان الفخر ، ناظر الجيش ، هو الذى حسن لهم أن يقولوا هذه المدة ، فانه لم يكن من رأيه عمل هذا الخليج . وما زال يخيل للسلطان ، من كثرة المصروف عليه ومن خراب القرافة ، ما حمله على صرف رأيه عن العمل ، وأعاد قطلوبك والصناع الى دمشق . فمات قطلوبك عقيب ذلك فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة فى ربيع الأول .

فلما كانت سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، اهتم الملك الناصر بسوق الماء الى القلعة وتكثيره بها ، لأجل سقى الأشجار وملء الفساقى ، ولأجل مراحات الغنم والأبقار . فطلب المهندسين والبنائين ، ونزل معهم وسار فى طول القناطر التى تحمل الماء من النيل الى القلعة حتى انتهى الى الساحل ، فأمر بحفر بئر أخرى ليركب عليها القناطر حتى تتصل بالقناطر العتيقة ، فيجتمع الماء من بئرين ، ويصير ماء واحدا يجرى الى القلعة فيسقى الميدان وغيره . فعمل ذلك .

ثم أحب الزيادة فى الماء أيضا ، فركب ومعه المهندسون الى بركة الحبش ، وأمر بحفر خليج صغير يخرج من البحر ، ويمر الى حائط الرصد ، وينقر فى الحجر تحت الرصد عشر آبار يصب فيها الخليج المذكور ، ويركب على الآبار السواقى لتنقل الماء الى القناطر العتيقة التى تحمل الماء الى القلعة زيادة لمائها .

وكان فيما بين أول هذا المكان الذى عين لحفر الخليج ، وبين آخره تحت الرصد ، أملاك كثيرة وعدة بساتين . فندب الأمير أقبغا عبد الواحد لحفر هذا الخليج ، وشراء الأملاك من أربابها . فحفر الخليج ، وأجراه فى وسط بستان الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وقطع أنشابه ، وهدم الدور ، وجمع عامة الحجارين لقطع الحجر ونقر الآبار .

وصار السلطان يتعاهد النزول للعمل كل قليل ، فعمل عمق الخليج من فم البحر أربع قصبات ، وعمق كل بئر فى الحجر أربعين ذراعا . فقدر الله تعالى موت الملك الناصر قبل تمام هذا العمل ، فبطل ذلك ، وانطم الخليج بعد ذلك ، وبقيت منه الى اليوم قطعة بجوار رباط الآثار .

وما زالت الحائط قائمة من الحجر فى غاية الاتقان من احكام الصنعة وجودة البناء ، عند سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد ، قائما من الأرض فى طول الجرف الى أعلاه . حتى هدمه الأمير يلبغا السالمى فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، وأخذ ما كان به من الحجر ،

ترم به القناطر التي تحمل الى اليوم الماء حتى يصل الى القلعة . وكانت تعرف بسواقي السلطان ، فلما هدمت جهل أكثر الناس أمرها ، ونسوا ذكرها .

« المطبخ » : كان أولا موضعه في مكان الجامع ، فأدخله السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون فيما زاده في الجامع ، وبنى هذا للمطبخ الموجود الآن ، وعمل عقوده بالحجارة خوفا من الحريق .

وكانت أحوال المطبخ متسعة جدا ... سيما في سلطنة الأشرف خليل بن قلاوون ، فانه تبسط في المآكل وغيرها . حتى لقد ذكر جماعة من الأعيان أنهم أقاموا مدة سفرهم معه يرسلون كل يوم عشرين درهما ، فيشترى لهم بها مما يأخذه الغلمان أربع خوافق صينى ، مملوءة طعاما مفتخرا بالقلوبات ونحوها ، في كل خافقية ما ينيف على خمسة عشر رطل لحم ، أو عشرة أطيار دجاج سمان .

وبلغ راتب الحوايج خاناه ، في أيام الملك العادل كتبغا ، كل يوم عشرين ألف رطل لحم ، وراتب البيوت والجرايات غير أرباب الرواتب في كل يوم سبعمائة اردب قمحا .

واعتبر القاضي شرف الدين عبد الوهاب النشو ، ناظر الخاص ، أمر المطبخ السلطاني في سنة تسع وثلاثين وسبعمائة * فوجد عدة الدجاج الذي يذبح في كل يوم للسماط ، وللمخاصي التي تخص السلطان ويبعث بها الى الأمراء سبعمائة طائر ، وبلغ مصروف الحوايج خاناه في كل يوم ثلاثة عشر ألف درهم .

(*) ص ٢٢٠ ج ٢ ، ط . بولاق .

فأكثر أولاد الناصر من مصروفها حتى توقفت أحوال الدولة في أيام الصالح اسماعيل .

وكتبت أوراق بكلف الدولة في سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، فبلغت في السنة ثلاثين ألف ألف درهم ، منها مصروف الحوايج خاناه في كل يوم اثنان وعشرون ألف درهم . وبلغ في أيام الناصر محمد بن قلاوون راتب السكر ، في شهر رمضان خاصة ، ألف قنطار . ثم تزايد حتى بلغ في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ثلاثة آلاف قنطار ، عنها ستمائة ألف درهم ، عنها ثلاثون ألف دينار مصرية .

وكان راتب الدور السلطانية ، في كل يوم من أيام شهر رمضان ، ستين قنطارا من الحلوى برسم التفرقة للدور وغيرها . وكانت الدولة قد توقفت أحوالها ، فوفر من المصروف في كل يوم أربعة آلاف رطل لحم ، وستمائة كماجة سميذ ، وثلثمائة اردب من الشعير ، ومبلغ ألفى درهم في كل شهر . وأضيف الى ديوان الوزارة سوق الخيل والدواب والجمال ، وكانت بيد عدة أجناد عوضوا عنها اقطاعات بالنواحي .

واعتبر في سنة ست وأربعين وسبعمائة متحصل الحاج على الطباخ ، فوجد له على المعاملين في كل يوم خمسمائة درهم ، ولابنه أحمد في كل يوم ثلثمائة درهم ... سوى الأطعمة المفتخرة وغيرها ، وسوى ما كان يتحصل له في عمل المهمات مع كثرتها . ولقد تحصل له من ثمن الرؤوس والأكارع وسقط الدجاج والأوز ، في مهم عمله للأمير بكتمر الساقي ، ثلاثة وعشرون ألف درهم ، عنها نحو

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

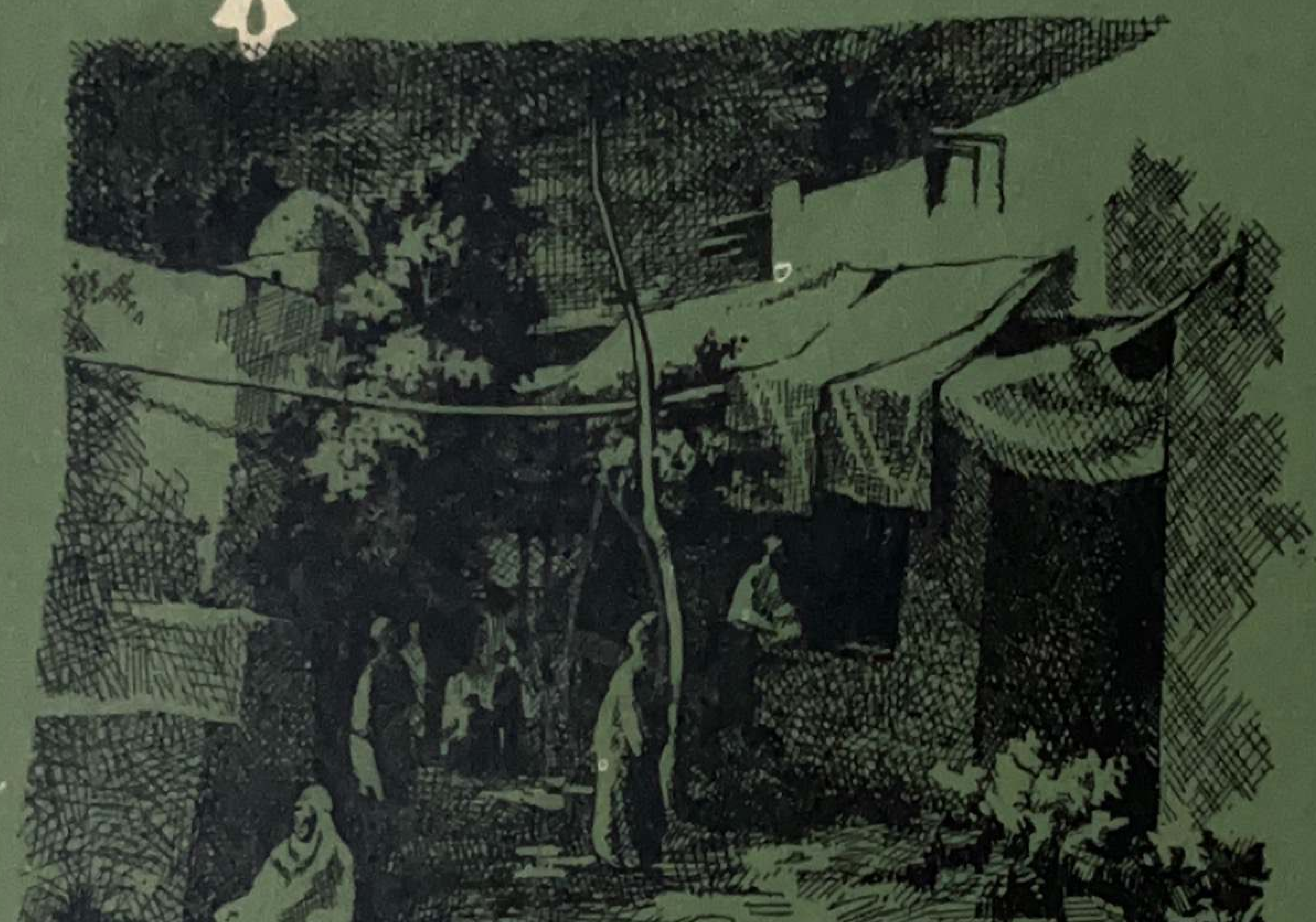
عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٣٥

كتاب
التحرير



"كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها"

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

ألفين ومائتى دينار . فأوقعت الحوطة عليه ، وصودر ، فوجد له خمسة وعشرون دارا على البحر وفى عدة أماكن .

واعتبر مصروف الحوايج خاناه ، فى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، فكان فى كل يوم اثنين وعشرين ألف رطل من اللحم .

« أبراج الحمام » : كان بالقلعة أبراج برسم الحمام التى تحمل البطائق ، وبلغت عدتها — على ما ذكره ابن عبد الظاهر فى كتاب تمائم الحمائم — الى آخر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وستمائة ألف طائر وتسعمائة طائر . وكان بها عدة من المقدمين لكل مقدم منهم جزء معلوم .

وكانت الطيور المذكورة لاتبرح فى الأبراج بالقلعة ، ما عدا طائفة منها فانها فى برج بالبرقية خارج القاهرة ، يعرف ببرج الفيوم ، رتبه الأمير فخر الدين عثمان بن قزل ، أستادار الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب ، وقيل له برج الفيوم ، فان جميع الفيوم كانت فى اقطاع ابن قزل ، وكانت البطائق ترد اليه من الفيوم ، ويبعثها من القاهرة الى الفيوم من هذا البرج ، فاستمر هذا البرج يعرف بذلك .

وكان بكل مركز حمام فى سائر نواحى المملكة ، مصرا وشاما ، ما بين أسوان الى الفرات . فلا تحصى عدة ما كان منها فى الثغور والطرقات الشامية والمصرية ، وجميعها تدرج وتنقل من القلعة الى سائر الجهات .

وكان لها بغال الحمل من الاصطبلات السلطانية ، وجامكيات البراجين والعلوفات تصرف من الأهراء السلطانية ، فتبلغ النفقة عليها من الأموال ما لا يحصى كثرة . وكانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع ويبة فول فى كل يوم .

وكانت العادة ألا تحمل البطاقة الا فى جناح الطائر لأمور : منها حفظ البطاقة من المطر ، وقوة الجناح . ثم انهم عملوا البطاقة فى الذنب .

وكانت العادة اذا بطق من قلعة الجبل الى الاسكندرية فلا يسرح الطائر الا من منية عقبة بالجيزة وهى أول المراكز ، واذا سرح الى الشرقية لا يطلق الا من مسجد تبر خارج القاهرة ، واذا سرح الى دمياط لا يسرح الا من ناحية بيسوس . وكان يسير مع البراجين من يوصلهم الى هذه الأماكن من الجاندارية .

وكذلك كانت العادة فى كل مملكة يتوخى الابعاد فى التسريح عن مستقر الحمام . والقصد بذلك أنها لا ترجع الى أبراجها من قريب . وكان يعمل فى الطيور السلطانية علائم ، وهى داغات فى أرجلها أو على مناقيرها ويسميها أرباب الملعوب « الاصطلاح » .

وكان الحمام اذا سقط بالبطاقة لا يقطع البطاقة من الحمام الا السلطان بيده من غير واسطة . وكانت لهم عناية شديدة بالطائر ، حتى ان السلطان اذا كان يأكل ، وسقط الطائر ، لا يمهل حتى يفرغ من الأكل ، بل يحل البطاقة ويترك الأكل ، وهكذا اذا كان نائما لا يمهل بل ينبه .

قال ابن عبد الظاهر : وهذا الذى رأينا عليه ملوكنا ، وكذلك فى الموكب وفى لعب الأكرة ، لأنه بلمحة يفوت ، ولا يستدرك المهم

العظيم ؛ اما من واصل أو هارب ، واما من متجدد فى الثغور .

قال : وينبغى أن تكتب البطائق فى ورق الطير المعروف بذلك ، ورأيت الأوائل لا يكتبون فى أولها بسملة ، وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنين ، وأنا أؤرخها بالسنة ، ولا يكثر فى نعوت المخاطب فيها ، ولا يذكر حشو فى الألفاظ ، ولا يكتب الا لب الكلام وزبدته . ولابد وأن يكتب « سرح الطائر ورفيقه » حتى ان تأخر الواحد ترقب حضوره أو تطلب .

ولا يعمل للبطائق هامش ولا تجمل ، ويكتب آخرها حسبلة ، ولا تعنون الا اذا كانت منقولة . مثل * أن تسرح الى السلطان من مكان بعيد ، فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد . وكل وال تصل اليه يكتب فى ظهرها انها وصلت اليه ونقلها ، حتى تصل مختومة .

قال : ومما شاهدته وتوليت أمره أنه فى شهور سنة ثمان وثمانين وستمائة ، حضر من جهة نائب الصبيبة نيف وأربعون طائرا صحبة البراجين ، ووصل كتابه أنه درجها الى مصر . فأقامت مدة لم يكن شغل تبطق فيه ، فقال براجوها : قد أزف الوقت عليها فى القرنصة .

وجرى الحديث مع الأمير بيدار نائب السلطنة ، فتقرر كتب بطائق على عشرة منها بوصولها لا غير ، وسرحت يوم أربعاء جميعها فاتفق وقوع طائرين منها ، فأحضرت بطائقهما وحصل الاستهزاء بها .

فلما كان بعد مدة وصل كتاب السلطان أنها وصلت الى الصبيبة فى ذلك اليوم بعينه ، وبطق بذلك فى ذلك اليوم بعينه الى دمشق ، ووصل الخبر الى دمشق فى يوم واحد . وهذا مما أنا مصرفه وحاضره والمشير به .

قال مؤلفه رحمه الله : قد بطل الحمام من سائر المملكة الا ما ينقل من قطيا الى بلبيس ، ومن بلبيس الى قلعة الجبل ، ولا تسل بعد ذلك عن شىء ، وكأنى بهذا القدر وقد ذهب . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

ذكر ملوك مصر منذ بنيت قلعة الجبل

اعلم أن الذين ولوا أرض مصر فى الملة الاسلامية على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : من ولى بفسطاط مصر منذ فتح الله تعالى أرض مصر على أيدى العرب ، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم وتابعيهم ، فصارت دار اسلام ، الى أن قدم القائد أبو الحسين جوهر من بلاد افريقية بعساكر مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد ، وبنى القاهرة . وهؤلاء يقال لهم أمراء مصر ، ومدتهم ثلثمائة وسبع وثلاثون سنة وسبعة أشهر وستة عشر يوما : أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة ، وآخرها يوم الاثنين سادس عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة . وعدة هؤلاء الأمراء مائة واثنا عشر أميرا .

والقسم الثانى : من ولى بالقاهرة منذ بنيت الى أن مات الامام العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله رحمه الله . وهؤلاء يقال لهم الخلفاء

(*) ص٢٢١ ج٢ ، ط.بولاق .

الفاطميون . ومدتهم بمصر مائتا سنة وثمانى سنين وأربعة أشهر واثنان وعشرون يوما : أولها يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وآخرها يوم الأحد عاشر المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة . وعدة هؤلاء الخلفاء أحد عشر خليفة .

والقسم الثالث : من ملك مصر بعد موت العاضد الى وقتنا هذا الذى نحن فيه . ويقال لهم الملوك والسلاطين ، وهم ثلاثة أقسام :

القسم الأول ملوك بنى أيوب ، وهم أكراد . والقسم الثانى البحرية وأولادهم ، وهم مماليك أتراك لبنى أيوب . والقسم الثالث مماليك أولاد البحرية ، وهم جراكسة .

وقد تقدم فى هذا الكتاب ذكر الأمراء والخلفاء . وستقف ان شاء الله تعالى على ذكر من ملك من الأكراد والأتراك والجراكسة وتعرف أخبارهم على ما شرطنا من الاختصار . اذ قد وضعت لبسط ذلك كتابا سميته كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، وجردت تراجمهم فى كتاب « التاريخ الكبير المقفى » . فتطلبهما تجد فيهما ما لا تحتاج بعده الى سواهما فى معناهما .

ذكر من ملك مصر من الأكراد

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى الأكراد .

فذكر العجم أن الأكراد فضل طعم الملك بيوراسف . وذلك أنه كان يأمر أن يذبح له كل يوم انسانان ، ويتخذ طعامه من لحومهما . وكان له وزير يسمى أرمايل ، وكان يذبح واحدا ، ويستحيى واحدا ويبعث به الى جبال فارس . فتوالدوا فى الجبال وكثروا .

ومن الناس من ألحقهم باماء سليمان بن داود عليهما السلام حين سلب ملكه ، ووقع على نسائه المنافقات الشيطان الذى يقال له الجسد ، وعصم الله تعالى منه المؤمنات ، فعلق منه المنافقات .

فلما رد الله تعالى على سليمان عليه السلام ملكه ، ووضع هؤلاء الاماء الحوامل من الشيطان قال : اكردوهم الى الجبال والأودية . فربتهم أمهاتهم ، وتناكحوا وتناسلوا . فذلك بدء نسب الأكراد .

والأكراد عند الفرس من ولد كرد بن اسفندام بن منوشهر . وقيل هم ينسبون الى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية ابن بكر ، وقيل هم من ولد عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء ، وقيل من بنى حامد بن طارق من بقية أولاد حميد بن زهير بن الحارث ابن أسد بن عبد العزى بن قصى . وهذه أقوال الفقهاء لهم ممن أراد الحظوة لديهم لما صار الملك اليهم .

وانما هم قبيل من قبائل العجم ، وهم قبائل عديدة : كورانية بنو كوران ، وهذبانية ، وبشتوية وشاصنجانية وسرنجية وبزولية ومهرانية وزردارية وكيكانية وجاك وكرودنلية وروادية ودسنية وهكارية وحميدية وورجكية ومروانية وجلانية وسنيكية وجونى .

وتزعم المروانية أنها من بنى * مروان بن الحكم ، ويزعم بعض الهكارية أنها من ولد عتبة بن أبى سفيان بن حرب .

(*) ص٢٢٢ ج٢ ، ط.بولاق .

وأول من ملك مصر من الأكراد الأيوبية « السلطان الملك الناصر صلاح الدين » أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أبى الشكر أيوب ابن شادى بن مروان الكردى ، من قبيل الروادية أحد بطون الهذبانية .

نشأ أبوه أيوب وعمه أسد الدين شيركوه ببلد دوين من أرض آذربيجان ، من جهة أران وبلاد الكرج ، ودخلا بغداد ، وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد . فبعث أيوب الى قلعة تكريت ، وأقامه بها مستحفظا لها ومعه أخوه شيركوه — وهو أصغر منه سنا — فخدم أيوب الشهيد زنكى لما انهزم ، فشكر له خدمته .

واتفق بعد ذلك أن شيركوه قتل رجلا بتكريت ، فطرد هو وأخوه أيوب من قلعتها ، فمضيا الى زنكى بالموصل ، فآواهما وأقطعهما اقطاعا عنده ، ثم رتب أيوب بقلعة بعلبك مستحفظا ، ثم أنعم عليه بامرة .

واتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكى فى أيام أبيه وخدمه . فلما ملك حلب بعد أبيه ، كان لنجم الدين أيوب عمل كثير فى أخذ دمشق لنور الدين . فتمكنا فى دولته حتى بعث شيركوه مع الوزير شاور بن مجير السعدى الى مصر ، فسار صلاح الدين فى خدمته من جملة أجناده .

وكان من أمر شيركوه ما كان حتى مات . فأقيم بعده ، فى وزارة العاضد ، ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب فى يوم الثلاثاء خامس عشرى جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، ولقبه بالملك الناصر ، وأنزله بدار الوزارة من القاهرة .

فاستمال قلوب الناس ، وأقبل على الجد ، وترك اللهو ، وتعاضد هو والقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه الله على ازالة الدولة الفاطمية ، وولى صدر الدين بن درباس قضاء القضاة ، وعزل قضاة الشيعة ، وبنى بمدينة مصر مدرسة للفقهاء المالكية ، ومدرسة للفقهاء الشافعية ، وقبض على أمراء الدولة ، وأقام أصحابه عوضهم ، وأبطل المكوس بأسرها من أرض مصر . ولم يزل يدأب فى ازالة الدولة حتى تم له ذلك ، وخطب لخليفة بغداد المستنصر بأمر الله أبى محمد الحسن العباسى .

وكان العاضد مريضا ، فتوفى بعد ذلك بثلاثة أيام ، واستبد صلاح الدين بالسلطنة من أول سنة سبع وستين وخمسمائة ، واستدعى أباه نجم الدين أيوب واخوته من بلاد الشام ، فقدموا عليه بأهاليهم . وتأهب لغزو الفرنج ، وسار الى الشوبك وهى بيد الفرنج فواقعهم ، وعاد الى أيلة فجبى الزكوات من أهل مصر ، وفرقها على أصنافها ، ورفع الى بيت المال سهم العاملين وسهم المؤلفة وسهم المقاتلة وسهم المكاتبين .

وأنزل الغز بالقصر الغربى ، وأحاط بأموال القصر ، وبعث بها الى الخليفة ببغداد والى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بالشام ، فأتته الخلع الخليفية فلبسها ، ورتب نوب الطبلخاناه فى كل يوم ثلاث مرات . ثم سار الى الاسكندرية ، وبعث ابن

أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب على عسكر الى برقة ، وعاد الى القاهرة .

ثم سار فى سنة ثمان وخمسين الى الكرك — وهى بيد الفرنج — فحصرها وعاد بغير طائل . فبعث أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب الى بلاد النوبة ، فأخذ قلعة ابريم ، وعاد بغنائم وسبى كثير ، ثم سار لأخذ بلاد اليمن فملك زبيد وغيرها .

فلما مات نور الدين محمود بن زنكى ، توجه السلطان صلاح الدين فى أول صفر سنة سبعين الى الشام ، وملك دمشق بغير مانع ، وأبطل ما كان يؤخذ بها من المكوس كما أبطلها من ديار مصر ، وأخذ حمص وحماة ، وحاصر حلب وبها الملك الصالح مجير الدين اسماعيل بن العادل نور الدين محمود بن زنكى ، فقاتله أهلها قتالا شديدا فرحل عنها الى حمص ، وأخذ بعلبك بغير حصار .

ثم عاد الى حلب ، فوقع الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام مع المعرة وكفر طاب ، ولهم ما بأيديهم . وعاد فأخذ بغزاس بعد حصار ، وأقام بدمشق ، وندب قراقوش التقوى لأخذ بلاد المغرب ، فأخذ أيجلن وعاد الى القاهرة . وكانت بين السلطان وبين الحلبيين وقعة هزمهم فيها ، وحصرهم بحلب أياما ، وأخذ بزاعة ومنبج وعزاز ، ثم عاد الى دمشق .

وقدم القاهرة فى سادس عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ، بعدما كانت لعساكره حروب كثيرة مع الفرنج ، فأمر ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر وقلعة الجبل ، وأقام على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فشرع فى بناء قلعة الجبل ، وعمل السور ، وحفر الخندق حوله . وبدأ السلطان بعمل مدرسة بجوار قبر الامام الشافعى رضى الله عنه فى القرافة ، وعمل مارستانا بالقاهرة .

وتوجه الى الاسكندرية ، فصام بها شهر رمضان ، وسمع الحديث على الحافظ أبى طاهر أحمد السلفى ، وعمر الأسطول ، وعاد الى القاهرة ، وأخرج قراقوش التقوى الى بلاد المغرب ، وأمر بقطع ما كان يؤخذ من الحجاج ، وعوض أمير مكة عنه فى كل سنة ألفى دينار وألف اردب غلة ، سوى اقطاعه بصعيد مصر وباليمن ومبلغه ثمانية آلاف اردب .

ثم سار من القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين الى عسقلان — وهى بيد الفرنج — وقتل وأسر وسبى وغنم ، ومضى يريدهم بالرملة * ، فقاتل البرنس أرناط متملك الكرك قتالا شديدا ، ثم عاد الى القاهرة .

ثم سار منها فى شعبان يريد الفرنج ، وقد نزلوا على حماة ، حتى قدم دمشق وقد رحلوا عنها ، فواصل الغارات على بلاد الفرنج ، وعساكره تغزو بلاد المغرب ، ثم فتح بيت الأحزان من عمل صفد ، وأخذه من الفرنج عنوة .

وسار فى سنة ست وسبعين لحرب فتح الدين قليج أرسلان صاحب قونيه من بلاد الروم وعاد ، ثم توجه الى بلاد الأرمن ، وعاد فخرب حصن بهنسا . ومضى الى القاهرة ،

(*) ص٢٢٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

فقدمها فى ثالث عشر شعبان ، ثم خرج الى الاسكندرية ، وسمع بها موطأ الامام مالك على الفقيه أبى طاهر بن عوف ، وأنشأ بها مارستانا ودارا للمغاربة ومدرسة ، وجدد حفر الخليج ونقل فوهته ، ثم مضى الى دمياط ، وعاد الى القاهرة .

ثم سار فى خامس المحرم سنة ثمان وسبعين على أيلة ، فأغار على بلاد الفرنج ، ومضى الى الكرك ، فعاثت عساكره ببلاد طبرية وعكا ، وأخذ الشقيف من الفرنج ، ونزل السلطان بدمشق ، وركب الى طبرية فواقع الفرنج . وعاد فتوجه الى حلب ونازلها ، ثم مضى الى البيرة على الفرات ، وعدى الى الرها فأخذها ، وملك حران والرقة ونصيبين ، وحاصر الموصل فلم ينل منها غرضا ، فنازل سنجار حتى أخذها .

ثم مضى على حران الى آمد فأخذها ، وسار على عين تاب الى حلب ، فملكها فى ثامن عشر صفر سنة تسع وسبعين ، وعاد الى دمشق ، وعبر الأردن وحرق بيسان على الفرنج ، وخرب لهم عدة حصون وعاد الى دمشق ، ثم سار الى الكرك فلم ينل منها غرضا وعاد .

ثم خرج فى سنة ثمانين من دمشق فنازل الكرك ، ثم رحل عنها الى نابلس فحرقها ، وأكثر من الغارات حتى دخل دمشق ، ثم سار منها الى حماة ، ومضى حتى بلغ حران ، ونزل على الموصل وحصرها ، ثم سار عنها الى خلاط فلم يملكها ، فمضى حتى أخذ ميافارقين وعاد الى الموصل ، ثم رحل عنها وقد مرض الى حران ، فتقرر الصلح مع المواصلة على أن خطبوا له بها وبديار بكر وجميع البلاد الأرتقية ، وضرب السكة فيها باسمه .

ثم سار الى دمشق ، فقدمها فى ثانى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ، وخرج منها فى أول سنة ثلاث وثمانين ، ونازل الكرك والشوبك وطبرية ، فملك طبرية فى ثالث عشرى ربيع الآخر من الفرنج . ثم واقعهم على حطين ، وهم فى خمسين ألفا ، فهزمهم بعد وقائع عديدة وأسر منهم عدة ملوك .

ونازل عكا حتى تسلمها فى ثانى جمادى الأولى ، وأنقذ منها أربعة آلاف أسير مسلم من الأسر ، وأخذ مجدل يافا وعدة حصون ، منها الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والنولة والطور وسبسطية ونابلس وتبنين وصرخد وصيدا وبيروت وجبيل ، وأنقذ من هذه البلاد زيادة على عشرين ألف أسير مسلم كانوا فى أسر الفرنج ، وأسر من الفرنج مائة ألف انسان ، ثم ملك منهم الرملة وبلد الخليل عليه السلام وبيت لحم من القدس ومدينة عسقلان ومدينة غزة وبيت جبريل .

ثم فتح بيت المقدس فى يوم الجمعة سابع عشرى رجب ، وأخرج منه ستين ألفا من الفرنج ، بعدما أسر ستة عشر ألفا ما بين ذكر وأنثى ، وقبض من مال المفاداة ثلثمائة ألف دينار مصرية ، وأقام الجمعة بالأقصى ، وبنى بالقدس مدرسة للشافعية ، وقرر على من يرد كنيسة قمامة من الفرنج قطيعة يؤديها . ثم نازل عكا وصور ، ونازل فى سنة أربع وثمانين حصن كوكب ، وندب العساكر الى صفد والكرك والشوبك .

وعاد الى دمشق فدخلها سادس ربيع الأول وقد غاب عنها فى هذه الغزوة أربعة عشر شهرا وخمسة أيام . ثم خرج منها بعد خمسة أيام ، فشن الغارات على الفرنج ، وأخذ منهم أنطرسوس ، وخرب سورها وحرقها ، وأخذ جبلة واللاذقية وصهيون والشغر وبكاس وبقراص . ثم عاد الى دمشق آخر شعبان ، بعدما دخل حلب ، فملكت عساكره الكرك والشوبك والسلع فى شهر رمضان .

وخرج بنفسه الى صفد ، وملكها من الفرنج فى رابع عشر شوال ، وملك كوكب فى نصف ذى القعدة ، وسار الى القدس ، ومضى بعد النحر الى عسقلان ونزل بعكا ، وعاد الى دمشق أول صفر سنة خمس وثمانين . ثم سار منها فى ثالث ربيع الأول ، ونازل شقيف أرنون ، وحارب الفرنج حروبا كثيرة ، ومضى الى عكا — وقد نزل الفرنج عليها ، وحصروا من بها من المسلمين — فنزل بمرج عكا وقاتل الفرنج من أول شعبان حتى انقضت السنة . وقد خرج الألمان من قسطنطينية فى زيادة على ألف ألف يريد بلاد الاسلام ، فاشتد الأمر .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان بالخروبة على حصار الفرنج ، والأمداد تصل اليه ، وقدم الألمان طرسوس يريد بيت المقدس ، فخرب السلطان سور طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل . وقوى الفرنج بقدوم ابن الألمان اليهم تقوية لهم ، وقد مات أبوه بطرسوس وملك بعده ، فقدر الله تعالى موته أيضا على عكا .

ودخلت سنة سبع وثمانين ، فملك الفرنج عكا فى سابع عشر جمادى الآخرة ، وأسروا من بها من المسلمين ، وحاربوا السلطان ، وقتلوا جميع من أسروه من المسلمين ، وساروا الى عسقلان . فرحل السلطان فى أثرهم ، وواقعهم بأرسوف ، فانهزم * من معه وهو ثابت حتى عادوا اليه ، فقاتل الفرنج ، وسبقهم الى عسقلان وخربها ، ثم مضى الى الرملة وخرب حصنها وخرب كنيسة لد .

ودخل القدس فأقام بها الى عاشر رجب سنة ثمان وثمانين ، ثم سار الى يافا فأخذها بعد حروب . وعاد الى القدس ، وعقد الهدنة بينه وبين الفرنج مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها حادى عشر شعبان ، على أن للفرنج من يافا الى عكا الى صور وطرابلس وانطاكية ، ونودى بذلك فكان يوما مشهودا .

وعاد السلطان الى دمشق ، فدخلها خامس عشرى شوال — وقد غاب عنها أربع سنين — فمات بها فى يوم الأربعاء سابع عشرى صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة عن سبع وخمسين سنة ، منها مدة ملكه بعد موت العاضد اثنتان وعشرون سنة وستة عشر يوما .

فقام من بعده بمصر ولده « السلطان الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان » ، وقد كان يومئذ ينوب عنه بمصر ، وهو مقيم بدار الوزارة من القاهرة ، وعنده جل عساكر أبيه من الأسدية والسلاحية والأكراد . فأتاه ممن كان عند أخيه الملك الأفضل على : الأمير فخر الدين جهاركس ، والأمير فارس الدين ميمون القصرى ، والأمير شمس الدين سنقر الكبير — وهم عظماء الدولة — فأكرمهم ، وقدم عليه القاضى الفاضل ، فبالغ فى كرامته .

(*) ص٢٣٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وتنكر ما بينه وبين أخيه الأفضل ، فسار من مصر لمحاربته ، وحصره بدمشق . فدخل بينهما العادل أبو بكر ، حتى عاد العزيز الى مصر على صلح فيه دخل ، فلم يتم ذلك ، وتوحش ما بينهما ، وخرج العزيز ثانيا الى دمشق ، فدبر عليه عمه العادل حتى كاد أن يزول ملكه وعاد خائفا ، فسار اليه الأفضل والعادل حتى نزلا بلبيس ، فجرت أمور آلت الى الصلح ، وأقام العادل مع العزيز بمصر ، وعاد الأفضل الى مملكته بدمشق .

فقام العادل بتدبير أمور الدولة ، وخرج بالعزيز لمحاربة الأفضل ، فحصراه بدمشق حتى أخذاها منه بعد حروب ، وبعثاه الى صرخد . وعاد العزيز الى مصر ، وأقام العادل بدمشق حتى مات العزيز فى ليلة العشرين من محرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، عن سبع وعشرين سنة وأشهر ، منها مدة سلطنته بعد أبيه ست سنين تنقص شهرا واحدا .

فأقيم بعده ابنه « السلطان الملك المنصور ناصر الدين محمد » ، وعمره تسع سنين وأشهر ، بعهد من أبيه . وقام بأمور الدولة بهاء الدين قراقوش الأسدى الأتابك ، فاختلف عليه أمراء الدولة ، وكاتبوا الملك الأفضل على بن صلاح الدين . فقدم من صرخد فى خامس ربيع الأول ، فاستولى على الأمور ، ولم يبق للمنصور معه سوى الاسم .

ثم سار به من القاهرة فى ثالث رجب يريد أخذ دمشق من عمه العادل بعدما قبض على عدة من الأمراء ، وقد توجه العادل الى ماردين ، فحصر الأفضل دمشق . وقد بلغ العادل خبره ، فعاد وسار يرده حتى دخل دمشق . فجرت حروب كثيرة آلت الى عود الأفضل الى مصر بمكيدة دبرها عليه العادل .

وخرج العادل فى أثره ، وواقعه على بلبيس ، فكسره فى سادس ربيع الآخر سنة ست وتسعين ، والتجأ الى القاهرة وطلب الصلح ، فعوضه العادل صرخد ، ودخل الى القاهرة فى يوم السبت ثامن عشره ، وأقام بأتابكية المنصور ، ثم خلعه فى يوم الجمعة حادى عشر شوال . وكانت سلطنته سنة وثمانية أشهر وعشرين يوما .

واستبد بالسلطنة بعده عم أبيه « السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب » . فخطب له بديار مصر وبلاد الشام وحران والرها وميافارقين ، وأخرج المنصور واخوته من القاهرة الى الرها ، واستناب ابنه الملك الكامل محمدا عنه ، وعهد اليه بعده بالسلطنة ، وحلف له الأمراء . فسكن قلعة الجبل ، واستمر أبوه فى دار الوزارة .

وفى أيامه توقفت زيادة النيل ، ولم يبلغ سوى ثلاثة عشر ذراعا تنقص ثلاثة أصابع ، وشرقت أراضى مصر الا الأقل ، وغلت الأسعار ، وتعذر وجود الأقوات حتى أكلت الجيف وحتى أكل الناس بعضهم بعضا ، وتبع ذلك فناء كبير ، وامتد ذلك ثلاث سنين ، فبلغت عدة من كفنه العادل وحده من الأموات فى مدة يسيرة نحو مائتى ألف وعشرين ألف انسان . فكان بلاء شنيعا .

وعقب ذلك تحرك الفرنج على بلاد المسلمين فى سنة تسع وتسعين . فكانت معهم عدة

حروب على بلاد الشام آلت الى أن عقد العادل معهم الهدنة . فعاودوا الحرب فى سنة ستمائة ، وعزموا على أخذ القدس ، وكثر عيثهم وفسادهم . وكانت لهم وللمسلمين شئون آلت الى نزولهم على مدينة دمياط فى رابع ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة ... والعادل يومئذ بالشام . فخرج الملك الكامل لمحاربتهم ، فمات العادل بمرج الصفر فى يوم الخميس سابع جمادى الآخرة منها ، وحمل الى دمشق . فكانت مدة سلطنته بديار مصر تسع عشرة سنة وشهرا واحدا وتسعة عشر يوما .

وقام من بعده ابنه « السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد » بعهد أبيه . فأقام فى السلطنة عشرين سنة وخمسة وأربعين يوما ، ومات بدمشق يوم الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وأقيم بعده ابنه « السلطان * الملك العادل سيف الدين أبو بكر » . فاشتغل باللهو عن التدبير ، وخرجت عنه حلب ، واستوحش منه الأمراء لتقريبه الشباب . وسار أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب من بلاد الشرق الى دمشق ، وأخذها فى أول جمادى الأولى سنة ست وثلاثين ، وجرت له أمور آخرها أنه سار الى مصر . فقبض الأمراء على العادل ، وخلعوه يوم الجمعة ثامن ذى القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة . فكانت سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيام .

(*) ص٢٢٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقام بعده بالسلطنة أخوه « السلطان الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب » . فاستولى على قلعة الجبل فى يوم الأحد رابع عشرى ذى القعدة ، وجلس على سرير الملك بها — وكان قد خطب له قبل قدومه — فضبط الأمور ، وقام بأعباء المملكة أتم قيام ، وجمع الأموال التى أتلفها أخوه .

وقبض على الأمراء ، ونظر فى عمارة أرض مصر ، وحارب عربان الصعيد ، وقدم مماليكه وأقامهم أمراء ، وبنى قلعة الروضة ، وتحول من قلعة الجبل اليها وسكنها ، وملك مكة ، وبعث لغزو اليمن ، وعمر المدارس الصالحية بين القصرين من القاهرة ، وقرر بها دروسا أربعة للشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة .

وفى أيامه نزل الفرنج على دمياط فى ثالث عشرى صفر سنة سبع وأربعين ، وعليهم الملك روا د فرنس ، وملكوها . وكان السلطان بدمشق ، فقدم عندما بلغه حركة الفرنج ، ونزل أشموم طناح وهو مريض ، فمات بناحية المنصورة مقابل الفرنج فى يوم الأحد رابع عشر شعبان منها . وكانت مدة سلطنته بعد أخيه تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما .

فقامت أم ولده خليل — واسمها شجرة الدر — بالأمر ، وكتمت موته ، واستدعت ابنه توران شاه من حصن كيفا ، وسلمت اليه مقاليد الأمور .

فقام من بعده ابنه « السلطان الملك المعظم غياث الدين توران شاه » . وقد سار من حصن كيفا فى نصف شهر رمضان ، فمر على دمشق ، وتسلطن بقلعتها فى يوم الاثنين لليلتين بقيتا

منه ، وركب الى مصر ، فنزل الصالحية طرف الرمل لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة . فأعلن حينئذ بموت الصالح ولم يكن أحد قبل ذلك يتفوه بموت السلطان ، بل كانت الأمور على حالها ، والخدمة تعمل بالدهليز ، والسماط يمد ، وشجرة الدر تدبر أمور الدولة ، وتوهم الكافة أن السلطان مريض ما لأحد عليه سبيل ولا وصول .

ثم سار المعظم من الصالحية الى المنصورة ، فقدمها يوم الخميس حادى عشريه ، فأساء تدبير نفسه ، وتهدد البحرية حتى خافوه — وهم يومئذ جمرة العسكر — فقتلوه بعد سبعين يوما فى يوم الاثنين تاسع عشرى المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة . وبموته انقضت دولة بنى أيوب من ديار مصر ، بعدما أقامت احدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوما ، وملك منهم ثمانية ملوك .

ذكر دولة المماليك البحرية

وهم الملوك الأتراك . وكان ابتداء أمر هذه الطائفة أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كان قد أقره أبوه السلطان الملك الكامل محمد ببلاد الشرق ، وجعل ابنه العادل أبا بكر ولى عهده فى السلطنة بمصر .

فلما مات قام من بعده العادل فى السلطنة ، وتنكر ما بينه وبين ابن عمه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وهو نائب دمشق ، فاستدعى الصالح نجم الدين أيوب من بلاد الشرق ، ورتب ابنه المعظم توران شاه على بلاد الشرق ، وأقره بحصن كيفا ، وقدم دمشق وملكها .

فكاتبه أمراء مصر تحثه على أخذها من أخيه العادل ، وخامر عليه بعضهم ، فسار من دمشق فى رمضان سنة ست وثلاثين . فانزعج العادل انزعاجا كبيرا ، وكتب الى الناصر داود صاحب الكرك ، فسار اليه ليعاونه على أخيه الصالح . فاتفق مسير الملك الصالح اسماعيل ابن العادل أبى بكر بن أيوب من حماة ، وأخذه دمشق للملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل محمد فى سابع عشرى صفر سنة سبع وثلاثين .

والملك الصالح نجم الدين أيوب يومئذ على نابلس . فانحل أمره ، وفارقه من معه حتى لم يبق معه الا مماليكه وهم نحو الثمانين ، وطائفة من خواصه نحو العشرين ، وأما الجميع فانهم مضوا الى دمشق . وكان الناصر داود قد فارق العادل ، وسار من القاهرة مغاضبا له الى الكرك ، ومضى الى الصالح نجم الدين أيوب ، وقبضه بنابلس فى ثانى عشر ربيع الأول منها ، وسجنه بالكرك .

فأقام مماليك الصالح بالكرك حتى خلص من سجنه فى سابع عشرى شهر رمضان منها . فاجتمع عليه مماليكه وقد عظمت مكانتهم عنده ، وكان من أمره ما كان حتى ملك مصر ، فرعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد ، وأكثر من شرائهم ، وجعلهم أمراء دولته وخاصته وبطانته ، والمحيطين بدهليزه اذا سافر ، وأسكنهم معه فى قلعة الروضة ، وسماهم البحرية . وكانوا دون الألف مملوك — قيل ثمانمائة وقيل سبعمائة وخمسون — كلهم أتراك .

فلما مات الملك الصالح بالمنصورة ، أحس الفرنج بشىء من ذلك * ، فركبوا من مدينة دمياط ، وساروا على فارسكور ، وواقعوا العسكر فى يوم الثلاثاء أول شهر رمضان سنة سبع وأربعين ، ونزلوا بقرية شرمشاح ثم بالبرمون ، ونزلوا تجاه المنصورة .

فكانت الحروب بين الفريقين الى خامس ذى القعدة ، فلم يشعر المسلمون الا والفرنج معهم فى المعسكر ، فقتل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وانهزم الناس ، ووصل روا د فرنس ملك الفرنج الى باب قصر السلطان . فبرزت البحرية ، وحملوا على الفرنج حملة منكرة حتى أزاحوهم ، وولوا فأخذتهم السيوف والدبابيس ، وقتل من أعيانهم ألف وخمسمائة . فظهرت البحرية من يومئذ واشتهرت .

ثم لما قدم الملك المعظم توران شاه ، أخذ فى تهديد شجرة الدر ومطالبتها بمال أبيه ، فكاتبت البحرية تذكرهم بما فعلته من ضبط المملكة حتى قدم المعظم ، وما هى فيه من الخوف منه ، فشق ذلك عليهم .

وكان قد وعد الفارس أقطاى المتوجه اليه من المنصورة لاستدعائه من حصن كيفا بامرة ، فلم يف له ، فتنكر له — وهو من أكابر البحرية — وأعرض مع ذلك عن البحرية ، واطرح جانب الأمراء وغيرهم حتى قتلوه .

وأجمعوا على أن يقيموا بعده فى السلطنة سرية أستاذهم « الملكة عصمة الدين أم خليل شجرة الدر الصالحية » . فأقاموها فى

(*) ص٢٣٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

السلطنة ، وحلفوا لها فى عاشر صفر ، ورتبوا الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى أحد البحرية مقدم العسكر . وسار عز الدين أيبك الرومى من العسكر الى قلعة الجبل ، وأنهى ذلك الى شجرة الدر .

فقامت بتدبير المملكة ، وعلمت على التواقيع بما مثاله « والدة خليل » ، ونقش على السكة اسمها ، ومثاله « المستعصمة الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين » .

وكانت البحرية قد تسلمت مدينة دمياط من الملك روا د فرنس بعدما قرر على نفسه أربعمائة ألف دينار ، وعاد العسكر من المنصورة الى القاهرة فى تاسع صفر ، وحلفوا لشجرة الدر فى ثالث عشره . فخلعت عليهم ، وأنفقت فيهم الأموال .

ولم يوافق أهل الشام على سلطنتها ، وطلبوا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب حلب ، فسار اليهم بدمشق ، وملكها . فانزعج العسكر بالقاهرة ، وتزوج الأمير عز الدين أيبك التركمانى بالملكة شجرة الدر ، ونزلت له عن السلطنة . وكانت مدتها ثمانين يوما .

وملك بعدها «السلطان الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانى الصالحى » أحد المماليك الأتراك البحرية . وكان قد انتقل الى الملك الصالح من أولاد ابن التركمانى ، فعرف بالتركمانى ، ورقاه فى خدمه حتى صار من جملة الأمراء ، ورتبه جاشنكير . فلما مات الصالح ، وقدمته البحرية عليهم فى

سلطنة شجرة الدر ، كتب اليهم الخليفة المستعصم من بغداد يذمهم على اقامة امرأة ، ووافق مع ذلك أخذ الناصر لدمشق وحركتهم لمحاربته .

فوقع الاتفاق على اقامة أيبك فى السلطنة ، فأركبوه بشعار السلطنة فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، ولقبوه بالملك المعز ، وجلس على تخت الملك بقلعة الجبل . فورد الخبر من الغد بأخذ الملك المغيث عمر بن العادل الصغير الكرك والشوبك ، وأخذ الملك السعيد قلعة الصبيبة .

فاجتمع رأى الأمراء على اقامة الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر — ويقال المسعود يوسف ابن الملك المسعود يوسف ، ويقال طسز ، ويقال أيضا أقسيس ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب — شريكا للمعز فى السلطنة . فأقاموه معه — وعمره نحو ست سنين — فى خامس جمادى الأولى ، وصارت المراسم تبرز عن الملكين . الا أن الأمر والنهى للمعز ، وليس للأشرف سوى مجرد الاسم .

وولى المعز الوزارة لشرف الدين أبى سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى — وهو أول قبطى ولى وزارة مصر — وخرج المعز بالعساكر وعربان مصر لمحاربة الناصر يوسف فى ثالث ذى القعدة ، وخيم بمنزلة الصالحية وترك الأشرف بقلعة الجبل ، واقتتل مع الناصر فى عاشره . فكانت النصرة له على الناصر ، وعاد فى ثانى عشره .

فنزل بالناس من البحرية بلاء لا يوصف ، ما بين قتل ونهب وسبى ، بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر ما زادوا فى الفساد على ما فعله البحرية . وكان كبراؤهم ثلاثة : الأمير فارس الدين أقطاى ، وركن الدين بيبرس البندقدارى ، وبلبان الرشيدى .

ثم فى محرم سنة تسع وأربعين ، خرج المعز بالأشرف والعساكر ، فنزل بالصالحية وأقام بها نحو سنتين ، والرسل تردد بينه وبين الناصر ، وأحدث الوزير الأسعد هبة الله الفائزى مظالم لم تعهد بمصر قبله . فورد الخبر فى سنة خمسين بحركة التتر على بغداد ، فقطع المعز من الخطبة اسم الأشرف ، وانفرد بالسلطنة ، وقبض على الأشرف وسجنه ، وكان الأشرف موسى آخر ملوك بنى أيوب بمصر .

ثم ان المعز جمع الأموال ، فأحدث الوزير مكوسا كثيرة سماها الحقوق السلطانية . وعاد المعز الى قلعة الجبل فى سنة احدى وخمسين ، وأوقع بعرب الصعيد ، وقبض على الشريف حصن الدين ثعلب بن ثعلب ، وأذل سائر عرب الوجهين القبلى والبحرى ، وأفناهم قتلا وأسرا وسبيا ، وزاد فى القطيعة * على من بقى منهم حتى ذلوا وقلوا ، ثم قتل الفارس أقطاى ففر منه معظم البحرية بيبرس وقلاوون فى عدد كثير منهم الى الشام وغيرها .

ولم يزل الى أن قتلته شجرة الدر فى الحمام ليلة الأربعاء رابع عشرى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة . فكانت مدته سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوما . وكان ظلوما غشوما ، سفاكا للدماء ، أفنى عوالم كثيرة بغير ذنب .

(*) ص ٢٢٧ جـ٢ ، ط. بولاق

وقام من بعده ابنه « السلطان الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك » فى يوم الخميس خامس عشرى ربيع الأول ، وعمره خمس عشرة سنة . فدبر أمره نائب أبيه الأمير سيف الدين قطز ، ثم خلعه فى يوم السبت رابع عشرى ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة . فكانت مدته سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام .

وقام من بعده « السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز » فى يوم السبت ، وأخرج المنصور بن المعز منفيا هو وأمه الى بلاد الأشكرى ، وقبض على عدة من الأمراء .

وسار فأوقع بجمع هولاكو على عين جالوت ، وهزمهم فى يوم الجمعة خامس عشرى رمضان سنة ثمان وخمسين ، وقتل منهم وأسر كثيرا ... بعدما ملكوا بغداد ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله عبد الله ، وأزالوا دولة بنى العباس ، وخربوا بغداد وديار بكر وحلب ، ونازلوا دمشق فملكوها .

فكانت هذه الوقعة أول هزيمة عرفت للتتر منذ قاموا . ودخل المظفر قطز الى دمشق ، وعاد منها يريد مصر . فقتله الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، قريبا من المنزلة الصالحية ، فى يوم السبت نصف ذى القعدة منها . فكانت مدته سنة تنقص ثلاثة عشر يوما .

وقام من بعده « السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقدارى الصالحى » التركى الجنس ، أحد المماليك البحرية ، وجلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين ، فلم يزل حتى مات بدمشق فى يوم الخميس سابع عشرى المحرم سنة ست وسبعين وستمائة . فكانت مدته سبع عشرة سنة وشهرين واثنى عشر يوما .

وقام من بعده ابنه « السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد بركة قان » وهو يومئذ بقلعة الجبل ينوب عن أبيه ، وقد عهد اليه بالسلطنة ، وزوجه بابنة الأمير سيف الدين قلاوون الألفى . فجلس على التخت فى يوم الخميس سادس عشرى صفر سنة ست وسبعين ، الى أن خلعه الأمراء فى سابع ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين . وكانت مدته سنتين وشهرين وثمانية أيام لم يحسن فيها تدبير ملكه ، وأوحش ما بينه وبين الأمراء .

فأقيم بعده أخوه « السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس » وعمره سبع سنين وأشهر ، وقام بتدبيره الأمير قلاوون أتابك العساكر ، ثم خلعه بعد مائة يوم ، وبعث به الى الكرك فسجن مع أخيه بركة بها .

وقام من بعده « السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى » أحد المماليك الأتراك البحرية . كان قبجاقى الجنس من قبيلة مرج أغلى ، فجلب صغيرا ، واشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقى العادلى بألف دينار ، وصار بعد موته الى الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة سبع وأربعين وستمائة ، فجعله من جملة البحرية .

فتنقلت به الأحوال حتى صار أتابك العساكر فى أيام العادل سلامش ، وذكر اسمه مع العادل

على المنابر . ثم جلس على التخت بقلعة الجبل فى يوم الأحد العشرين من شهر رجب سنة ثمان وسبعين ، وتلقب بالملك المنصور ، وأبطل عدة مكوس . فثار عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بدمشق ، وتسلطن ولقب نفسه بالملك الكامل فى يوم الجمعة رابع عشرى ذى الحجة . فبعث اليه وهزمه ، واستعاد دمشق .

ثم قدمت التتر الى بلاد حلب وعاثوا بها ، فتوجه اليهم السلطان بعساكره ، وأوقع بهم على حمص فى يوم الخميس رابع عشرى رجب سنة ثمانين وستمائة ، وهزمهم بعد مقتلة عظيمة . وعاد الى قلعة الجبل .

وتوجه فى سنة أربع وثمانين حتى نازل حصن المرقب ثمانية وثلاثين يوما ، وأخذه عنوة من الفرنج ، وعاد الى القلعة . ثم بعث العسكر فغزا بلاد النوبة فى سنة سبع وثمانين وعاد بغنائم كثيرة .

ثم سار فى سنة ثمان وثمانين لغزو الفرنج بطرابلس ، فنازلها أربعة وثلاثين يوما حتى فتحها عنوة فى رابع ربيع الآخر ، وهدمها جميعها ، وأنشأ قريبا منها مدينة طرابلس الموجودة الآن ، وعاد الى قلعة الجبل . وبعث لغزو النوبة ثانيا عسكرا ، فقتلوا وأسروا وعادوا .

ثم خرج لغزو الفرنج بعكا وهو مريض ، فمات خارج القاهرة ليلة السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة . فكانت مدته احدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوما .

وقام من بعده ابنه « السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل » فى يوم الأحد سابع ذى القعدة المذكور ، وسار لفتح عكا فى ثالث ربيع الأول سنة تسعين وستمائة ، ونصب عليها اثنين وتسعين منجنيقا ، وقاتل من بها من الفرنج أربعة وأربعين يوما حتى فتحها عنوة فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ، وهدمها * كلها بما فيها وحرقها ، وأخذ صور وحيفا وعثليت وأنطرسوس وصيدا وهدمها ، وأجلى الفرنج من الساحل ، فلم يبق منهم أحد ، ولله الحمد ، وتوجه الى دمشق .

وعاد الى مصر ، فدخل قلعة الجبل يوم الاثنين تاسع شعبان . ثم خرج فى ثامن ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وستمائة ، بعدما نادى بالنفير للجهاد ، فدخل دمشق وعرض العساكر ، ومضى منها فمر على حلب ، ونازل قلعة الروم ، ونصب عليها عشرين منجنيقا حتى فتحها بعد ثلاثة وثلاثين يوما عنوة ، وقتل من بها من النصارى الأرمن ، وسبى نساءهم وأولادهم ، وسماها قلعة المسلمين ، فعرفت بذلك .

وعاد الى مصر فدخل قلعة الجبل فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة ، وسار فى رابع المحرم سنة اثنتين وتسعين حتى بلغ مدينة قوص من صعيد مصر ، ونادى فيها بالتجهز لغزو اليمن وعاد .

---

* ص٢٢٨ جـ ٢ : خط . بولاق .

ثم سار مخفا على الهجن فى البرية الى الكرك ، ومضى الى دمشق ، فقدمها فى تاسع جمادى الآخرة ، وقصد غزو بهنسا وأخذها من الأرمن ، فقدموا اليه وسلموها من تلقاء أنفسهم ، وسلموا أيضا مرعش وتل حمدون .

ومضى من دمشق فى ثانى رجب ، وعبر من حمص الى سلمية ، وهجم على الأمير مهنا بن عيسى وقبضه واخوته ، وحملهم فى الحديد الى قلعة الجبل ، وعاد الى دمشق .

ثم رجع الى مصر ، فقدم قلعة الجبل فى ثامن عشرى رجب ، ثم توجه للصيد فبلغ الطرانة ، وانفرد فى نفر يسير ليصطاد . فاقتحم عليه الأمير بيدار فى عدة معه ، وقتلوه فى يوم السبت ثانى عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة . فكانت مدته ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيام . ثم حمل ودفن بمدرسة الأشرفية .

وأقيم من بعده أخوه « السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون » ، وعمره سبع سنين ، وقام الأمير زين الدين كتبغا بتدبيره ، ثم خلعه بعد سنة تنقص ثلاثة أيام .

وقام من بعده « السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى » ، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون ، وجلس على التخت بقلعة الجبل فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين ، وتلقب بالملك العادل .

فكانت أيامه شر أيام لما فيها من قصور مد النيل ، وغلاء الأسعار ، وكثرة الوباء فى الناس ، وقدوم الأويراتية . فقام عليه نائبه الأمير حسام الدين لاجين ، وهو عائد من دمشق بمنزلة العرجاء ، فى يوم الاثنين ثامن عشرى المحرم سنة ست وتسعين ، ففر الى دمشق ، واستولى لاجين على الأمر . فكانت مدته سنتين وسبعة عشر يوما . وقدم لاجين بالعسكر الى مصر .

وقام فى السلطنة « السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى » ، أحد مماليك المنصور قلاوون ، وجلس على التخت بقلعة الجبل ، وتلقب بالملك المنصور فى يوم الاثنين ثامن عشرى المحرم المذكور ، واستناب مملوكه منكوتمر . فنفرت القلوب عنه ، حتى قتل فى ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة . فكانت مدته سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما .

ودبر الأمراء بعده أمور الدولة ، حتى قدم من الكرك « السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون » ، وأعيد الى السلطنة مرة ثانية فى يوم الاثنين سادس جمادى الأولى ، وقام بتدبير الأمور الأميران سلار نائب السلطنة ، وبيبرس الجاشنكير أستادار ... حتى صار كأنه يريد الحج ، فمضى الى الكرك ، وانخلع من السلطنة . فكانت مدته تسع سنين وستة أشهر وثلاثة عشر يوما .

فقام من بعده « السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير » ، أحد مماليك المنصور قلاوون ، فى يوم السبت ثالث عشرى ذى الحجة سنة ثمان وسبعمائة ، حتى فر من

قلعة الجبل في يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان سنة تسع وسبعمائة ، فكانت مدته عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

ثم قدم من الشام في العساكر « السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون » ، وأعيد الى السلطنة مرة ثالثة في يوم الخميس ثاني شوال منها ، فاستبد بالأمر حتى مات في ليلة الخميس حادي عشري ذي الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة . وكانت مدته الثالثة اثنتين وثلاثين سنة وشهرين وخمسة وعشرين يوما ، ودفن بالقبة المنصورية على أبيه .

وأقيم بعده ابنه « السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر » بعهد أبيه ، في يوم الخميس حادي عشري ذي الحجة ، وقام الأمير قوصون بتدبير الدولة ، ثم خلعه بعد تسعة وخمسين يوما في يوم الأحد لعشرين من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة .

وأقام بعده أخاه « السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون » ولم يكمل له من العمر ثمان سنين . فتنكرت قلوب الأمراء على قوصون ، وحاربوه وقبضوا عليه كما ذكر في ترجمته ، وخلعوا الأشرف في يوم الخميس أول شعبان . فكانت مدته خمسة أشهر وعشرة أيام .

وقام الأمير أيدغمش بأمر الدولة ، وبعث يستدعي من بلاد الكرك « السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون » — وكان مقيما بقلعة الكرك من أيام أبيه — فقدم على البريد في عشرة من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشري شهر رمضان ، وعبر الدور من قلعة * الجبل بمن قدم معه ، واحتجب عن الأمراء ، ولم يخرج لصلاة العيد ، ولا حضر السماط على العادة ... الى أن لبس شعار السلطنة ، وجلس على التخت في يوم الاثنين عاشر شوال ، وقلوب الأمراء نافرة منه لاعراضه عنهم ، فساءت سيرته .

ثم خرج الى الكرك في يوم الأربعاء ثاني ذي القعدة ، واستخلف الأمير آق سنقر السلاري نائب الغيبة . فلما وصل قبة النصر نزل عن فرسه ، ولبس ثياب العرب ، ومضى مع خواصه أهل الكرك على البريد ، وترك الأطلاب فسارت على البر حتى وافته بالكرك ، فرد العسكر الى بلد الخليل ، وأقام بقلعة الكرك ، وتصرف أقبح تصرف . فخلعه الأمراء في يوم الأربعاء حادي عشري المحرم سنة ثلاث وأربعين . فكانت مدته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما .

وأقاموا بعده أخاه « السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل » في يوم الخميس ثاني عشري المحرم المذكور ، وقام الأمير أرغون زوج أمه بتدبير المملكة مع مشاركة عدة من الأمراء ، وسارت الأمراء والعساكر لقتال الناصر أحمد في الكرك حتى أخذ وقتل . فلما أحضرت رأسه الى السلطان الصالح ورآها فزع ، ولم يزل يعتاده المرض حتى مات ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة . فكانت مدته ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوما .

(*) ص٢٢٩ جـ٢ ، بولاق .

وقام بعده أخوه « السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان » بعهد أخيه ، وجلس على التخت من غد . فأوحش ما بينه وبين الأمراء حتى ركبوا عليه ، فركب لقتالهم فلم يثبت من معه ، وعاد الى القلعة منهزما ، فتبعه الأمراء وخلعوه وذلك في يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة . فكانت مدته سنة وثمانية وخمسين يوما .

فأقيم بعده أخوه « السلطان الملك المظفر زين الدين حاجي » من يومه ... فساءت سيرته ، وانهمك في اللعب . فركب الأمراء عليه ، فركب اليهم وحاربهم ، فخانه من معه ، وتركوه حتى أخذ ، وذبح في يوم الأحد ثاني عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة . وكانت مدته سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوما .

وأقيم من بعده أخوه « السلطان الملك الناصر بدر الدين أبو المعالي حسن بن محمد » في يوم الثلاثاء رابع عشره ، وعمره احدى عشرة سنة ، فلم يكن له من الأمر شيء ، والقائم بالأمر الأمير شيخو العمري . فلما أخذ في الاستبداد بالتصرف خلع ، وسجن في يوم الاثنين ثامن عشري جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين . فكانت مدته أربع سنين تنقص خمسة عشر يوما ، منها تحت الحجر ثلاث سنين ونيف ، ومدة استبداده نحو من تسعة أشهر .

وأقيم من بعده أخوه « السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح » في يوم الاثنين المذكور ، فكثر لهوه ، وخرج عن الحد في التبذل واللعب . فثار عليه الأميران شيخو وطاز ، وقبضا عليه ، وسجناه بالقلعة في يوم الاثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة . فكانت مدته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام .

وأعيد « السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون » في يوم الاثنين المذكور . فأقام حتى قام عليه مملوكه الأمير يلبغا الخاصكي ، وقتله في ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين . فكانت مدته هذه ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام .

وأقيم من بعده ابن أخيه « السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي ابن محمد بن قلاوون » ، وعمره أربع عشرة سنة ، في يوم الأربعاء المذكور . وقام بالأمر الأمير يلبغا ، ثم خلعه وسجنه بالقلعة في يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة .

وأقام بعده « السلطان الملك الأشرف زين الدين أبا المعالي شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون » ، وعمره عشر سنين ، في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان المذكور ، ولم يل من بني قلاوون من أبوه لم يتسلطن سواه .

فأقام تحت حجر يلبغا حتى قتل يلبغا في ليلة الأربعاء عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وسبعمائة . فأخذ يستبد بملكه حتى انفرد بتدبيره ... الى أن قتل في يوم الثلاثاء سادس ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، بعدما أقيم بدله ابنه في السلطنة . فكانت مدته أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوما .

فقام بالأمر ابنه « السلطان الملك المنصور علاء الدين على بن شعبان بن حسين » وعمره سبع سنين ، فى يوم السبت ثالث ذى القعدة المذكور ، وأبوه حى . فلم يكن حظه من السلطنة سوى الاسم ، حتى مات فى يوم الأحد ثالث عشرى صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة . فكانت مدته خمس سنين وثلاثة أشهر وعشرين يوما .

فأقيم بعده أخوه « السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى » فى يوم الاثنين رابع عشرى صفر المذكور . فقام بأمر الملك وتدبير الأمور الأمير الكبير برقوق ، حتى خلعه فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة . فكانت مدته سنة وشهرين بنقصان أربعة أيام .

وبه انقضت دولة المماليك البحرية الأتراك وأولادهم . ومدتهم مائة وست وثلاثون سنة وسبعة أشهر وتسعة أيام : أولها يوم الخميس عاشر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وآخرها يوم الثلاثاء * ثامن عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة . وعدتهم أربعة وعشرون ذكرا ما بين رجل وصبى ، وامرأة واحدة ، وأولهم امرأة ، وآخرهم صبى .

ولما أقيم الناصر حسن بعد أخيه المظفر حاجى ، طلب المماليك الجراكسة ، الذين قربهم المظفر ، بسفارة الأمير أغرلو ، فانه كان يدعى أنه كان جركسى الجنس ، وجلبهم من أماكن حتى ظهروا فى الدولة ، وكبرت عمائمهم وكلوتاتهم ، فأخرجوا منفيين أنحس خروج ، فقدموا على البلاد الشامية . والله تعالى أعلم .

(*) ص ٢٤٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

ذكر دولة المماليك الجراكسة

وهم واللاض والروس أهل مدائن عامرة ، وجبال ذات أشجار ، ولهم أغنام وزروع ، وكلهم فى مملكة صاحب مدينة سراى قاعدة خوارزم . وملوك هذه الطوائف لملك سراى كالرعية ، فان داروه وهادوه كف عنهم ، والا غزاهم وحصرهم ، وكم مرة قتلت عساكره منهم خلائق ، وسبت نساءهم وأولادهم ، وجلبتهم رقيقا الى الأقطار .

فأكثر المنصور قلاوون من شرائهم ، وجعلهم وطائفة اللاض جميعا فى أبراج القلعة ، وسماهم البرجية ، فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة ، وعمل منهم أوشاقية وجمقدارية وجاشنكيرية وسلاحدارية .

وأولهم « السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنص » . أخذ من بلاد الجركس ، وبيع ببلاد القرم ، فجلبه خواجا فخر الدين عثمان بن مسافر الى القاهرة ، فاشتراه منه الأمير الكبير يلبغا الخاصكى وأعتقه ، وجعله من جملة مماليكه الأجلاب ، فعرف ببرقوق العثمانى .

فلما قتل يلبغا أخرج الملك الأشرف الأجلاب من مصر . فسار منهم برقوق الى الكرك ، فأقام فى عدة منهم مسجونا بها عدة سنين ، ثم أفرج عنه وعمن كان معه . فمضوا الى دمشق ، وخدموا عند الأمير منجك نائب الشام . حتى طلب الأشرف اليلبغاوية ، فقدم برقوق فى جملتهم ، واستقر فى خدمة ولدى السلطان على وحاجى مع من استقر من خشداشيه ، فعرفوا باليلبغاوية ... الى أن

خرج السلطان الى الحج . فثاروا بعد سفره ، وسلطنوا ابنه عليا .

وحكم فى الدولة منهم الأمير قرطاى الشهابى . فثار عليه خشداشيه أينبك البدرى ، فأخرجه الى الشام ، وقام بعده بتدبير الدولة ، وخرج الى الشام ، فثارت عليه اليلبغاوية — وفيهم برقوق ، وقد صار من جملة الأمراء — فعاد قبل وصوله بلبيس ، ثم قبض عليه . وقام بتدبير الدولة غير واحد فى أيام يسيرة .

فركب برقوق فى يوم الأحد ثالث عشرى ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وسبعمائة وقت الظهيرة ، فى طائفة من خشداشيته ، وهجم على باب السلسلة ، وقبض على الأمير يلبغا الناصرى — وهو القائم بتدبير الدولة — وملك الاصطبل ، وما زال به حتى خلع الصالح حاجى .

وتسلطن فى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وقت الظهر ، فغير العوايد ، وأفنى رجال الدولة ، واستكثر من جلب الجراكسة ... الى أن ثار عليه الأمير يلبغا الناصرى — وهو يومئذ نائب حلب — وسار اليه ففر من قلعة الجبل فى ليلة الثلاثاء خامس جمادى الأولى سنة احدى وتسعين وملك الناصرى القلعة ، وأعاد الصالح حاجى ولقبه بالملك المنصور ، وقبض على برقوق وبعثه الى الكرك فسجنه بها .

فثار الأمير منطاش على الناصرى ، وقبض عليه ، وسجنه بالاسكندرية وخرج يريد محاربة برقوق — وقد خرج من سجن الكرك ، وسار الى دمشق فى عسكر — فحاربه برقوق على شقحب ظاهر دمشق ، وملك ما معه من الخزائن ، وأخذ الخليفة والسلطان حاجى والقضاة وسار الى مصر .

فقدمها فى يوم الثلاثاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين ، واستبد بالسلطنة حتى مات ليلة الجمعة للنصف من شوال سنة احدى وثمانمائة . فكانت مدته أتابكا وسلطانا احدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوما ، خلع فيها ثمانية أشهر وتسعة أيام .

وقام من بعده ابنه « السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج » فى يوم الجمعة المذكور ، وعمره نحو العشر سنين ، فدبر أمر الدولة الأمير الكبير أيتمش ، ثم ثار به الأمير يشبك وغيره ، ففر الى الشام ، وقتل بها .

ولم تزل أيام الناصر كلها كثيرة الفتن والشرور والغلاء والوباء . وطرق بلاد الشام فيها الأمير تيمورلنك ، فخربها كلها وحرقها ، وعمها بالقتل والنهب والأسر ، حتى فقد منها جميع أنواع الحيوانات ، وتمزق أهلها فى جميع أقطار الأرض . ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء ، فاشتد بها الغلاء على من تراجع اليها من أهلها ، وشنع موتهم .

واستمرت بها مع ذلك الفتن ، وقصر مد النيل بمصر حتى شرقت الأراضى الا قليلا ، وعظم الغلاء والفناء . فباع أهل الصعيد أولادهم من الجوع ، وصاروا أرقاء مملوكين وشمل الخراب الشنيع عامة أرض مصر وبلاد الشام ، من حيث مصب النيل من الجنادل الى حيث مجرى الفرات .

وابتلى مع ذلك بكثرة فتن الأميرين نوروز الحافظى وشيخ المحمودى ، وخروجهما ببلاد * الشام عن طاعته ، فتردد لمحاربتهما مرارا حتى هزماه ، ثم قتلاه بدمشق فى ليلة السبت سادس عشر صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة . فكانت مدته — منذ مات أبوه الى أن فر فى يوم الأحد خامس عشرى ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة واختفى ، وأقيم بعده أخوه عبد العزيز ، ولقب الملك المنصور — ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوما .

وأقام الناصر فى الاختفاء سبعين يوما ، ثم ظهر فى يوم السبت خامس عشر جمادى الآخرة ، واستولى على قلعة الجبل ، واستبد بسلكه أقبح استبداد ... الى أن توجه لحرب نوروز وشيخ ، وقاتلهما على اللجون فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرم سنة خمس عشرة ، فانهزم الى دمشق وهما فى اثره — وقد صار الخليفة المستعين بالله فى قبضتهما ومعه مباشرو الدولة — فنزل على دمشق وحصراه ، ثم ألزما الخليفة بخلعه من السلطنة ، فلم يجد بدا من ذلك ، وخلعه فى يوم السبت خامس عشريه ، ونودى بذلك فى الناس . فكانت مدته الثانية ست سنين وعشرة أشهر سواء .

وأقيم من بعده « الخليفة المستعين بالله أمير المؤمنين أبو الفضل العباس بن محمد العباسى » . وأصل هؤلاء الخلفاء بمصر أن أمير المؤمنين المستعصم بالله عبد الله ، آخر خلفاء بنى العباس ، لما قتله هولاكو بن تولى ابن جنكز خان فى صفر سنة ست وخمسين وستمائة ببغداد ، وخلت الدنيا من خليفة ، وصار الناس بغير امام قرشى الى سنة تسع وخمسين .

فقدم الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد ابن الخليفة الناصر العباسى من بغداد الى مصر فى يوم الخميس تاسع رجب منها . فركب السلطان الملك الظاهر بيبرس الى لقائه ، وصعد به قلعة الجبل ، وقام بما يجب من حقه ، وبايعه بالخلافة وبايعه الناس ، وتلقب بالمستنصر . ثم توجه لقتال التتر ببغداد ، فقتل فى محاربتهم لأيام خلت من المحرم سنة ستين وستمائة . فكانت خلافته قريبا من سنة .

ثم قدم من بعده الأمير أبو العباس أحمد ابن أبى على الحسن بن أبى بكر ، من ذرية الخليفة الراشد بالله أبى جعفر منصور بن المسترشد ، فى سابع عشرى ربيع الأول . فأنزله السلطان فى برج بقلعة الجبل ، وأجرى عليه ما يحتاج اليه ، ثم بايعه فى يوم الخميس ثامن المحرم سنة احدى وستين ، بعد ما أثبت نسبه على قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، ولقبه بالحاكم بأمر الله ، وبايعه الناس كافة .

ثم خطب من الغد ، وصلى بالناس الجمعة فى جامع القلعة ، ودعى له من يومئذ على منابر أراضى مصر كلها قبل الدعاء للسلطان ، ثم خطب له على منابر الشام ، واستمر الحال على الدعاء له ولمن جاء من بعده من الخلفاء . وما زال بالبرج الى أن منعه السلطان من الاجتماع بالناس فى المحرم سنة ثلاث وستين ، فاحتجب وصار كالمسجون زيادة على سبع وعشرين سنة ... بقية أيام الظاهر بيبرس

(*) ص٢٤١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وأيام ولديه محمد بركة وسلامش وأيام قلاوون .

فلما صارت السلطنة الى الأشرف خليل بن قلاوون ، أخرجه من سجنه مكرما فى يوم الجمعة العشرين من شهر رمضان سنة تسعين وستمائة ، وأمّره . فصعد منبر الجامع بالقلعة ، وخطب وعليه سواده ، وقد تقلد سيفا محلى ، ثم نزل فصلى بالناس صلاة الجمعة قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، وخطب أيضا خطبة ثالثة فى يوم الجمعة تاسع عشرى ربيع الأول سنة احدى وتسعين ، وحج سنة أربع وتسعين .

ثم منع من الاجتماع بالناس فامتنع . حتى أفرج عنه المنصور لاجين ، فى سنة ست وتسعين ، وأسكنه بمناظر الكبش ، وأنعم عليه بكسوة له ولعياله ، وأجرى عليه ما يقوم به . وخطب بجامع القلعة خطبة رابعة ، وصلى بالناس الجمعة ، ثم حج سنة سبع وتسعين ، وتوفى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة احدى وسبعمائة . فكانت خلافته مدة أربعين سنة ليس له فيها أمر ولا نهى ، انما حظه أن يقال أمير المؤمنين .

وكان قد عهد الى ابنه الأمير أبى عبد الله محمد المستمسك ، ثم من بعده لأخيه أبى الربيع سليمان المستكفى . فمات المستمسك فى حياته ، واشتد جزعه عليه ، فعهد لابنه ابراهيم بن محمد المستمسك . فلما مات الحاكم أقيم من بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بعهده له ، فشهد وقعة شقحب مع الملك الناصر محمد بن قلاوون وعليه سواده ، وقد أرخى له عذبة طويلة ، وتقلد سيفا عربيا محلى .

ثم تنكر عليه ، وسجنه فى برج بالقلعة نحو خمسة أشهر ، وأفرج عنه وأنزله الى داره قريبا من المشهد النفيسى بتربة شجرة الدر ، فأقام نحو ستة أشهر ، وأخرجه الى قوص فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وقطع راتبه ، وأجرى له بقوص ما يتقوت به . فمات بها فى خامس شعبان سنة أربعين .

وعهد الى ولده ، فلم يمض الملك الناصر محمد عهده ، وبويع ابن أخيه أبو اسحاق ابراهيم بن محمد المستمسك بن أحمد الحاكم بيعة خفية لم تظهر ، فى يوم الاثنين خامس عشرى شعبان المذكور ، وأقام الخطباء أربعة أشهر لا يذكرون فى خطبهم الخليفة ، ثم خطب له فى يوم الجمعة سابع ذى القعدة منها ، ولقب بالواثق بالله .

فلما مات الناصر محمد ، وأقيم بعده ابنه المنصور أبو بكر ، استدعى أبو القاسم أحمد ابن * أبى الربيع سليمان ، وأقيم فى الخلافة ، ولقب بالحاكم بعدما كان يلقب بالمستنصر ، وكنى بأبى العباس فى يوم السبت سلخ ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة . فاستمر حتى مات فى يوم الجمعة رابع شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

فأقيم بعده أخوه المعتضد بالله أبو بكر ، وكنيته أبو الفتح ، بن أبى الربيع سليمان فى يوم الخميس سابع عشره ، واستقر مع ذلك فى نظر مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ،

(*) ص٢٤٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

ليستعين بما يرد الى ضريحها من نذر العامة على قيام أوده — فان مرتب الخلفاء كان على مكس الصاغة ، وحسبه أن يقوم بما لابد منه فى قوتهم ، فكانوا أبدا فى عيش غير موسع — فحسنت حال المتفقد بما يبيعه من الشمع المحمول الى المشهد النفيسى ونحوه ، الى أن توفى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين . وكان يلثغ بالكاف ، وحج مرتين : احداهما سنة أربع وخمسين ، والثانية سنة ستين .

فأقيم بعده ابنه المتوكل على الله أبو عبد الله محمد ، بعهده اليه فى يوم الخميس ثانى عشره ، وخلع عليه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى ، وفوض اليه نظر المشهد ، ونزل الى داره . فلم يزل حتى تنكر له الأمير أينبك فى أول ذى القعدة سنة ثمان وسبعين ، بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وأخرجه ليسير الى قوص ، وأقام عوضه فى الخلافة ابن عمه زكريا بن ابراهيم بن محمد فى ثالث عشرى صفر سنة تسع وسبعين .

وكان قد أمر برد المتوكل من نفيه ، فرد الى منزله من يومه ، فأقام به حتى رضى عنه أينبك ، وأعاده فى العشرين من ربيع الأول منها الى خلافته . ثم سخط عليه الظاهر برقوق ، وسجنه مقيدا فى يوم الاثنين أول رجب سنة خمس وثمانين ، وقد وشى به أنه يريد الثورة وأخذ الملك .

وأقيم بعده فى الخلافة الواثق بالله أبو حفص عمر بن المعتصم أبى اسحاق ابراهيم بن محمد ابن الحاكم فى يوم الاثنين المذكور . فما زال خليفة حتى مات يوم السبت تاسع شوال سنة ثمان وثمانين . فأقام الظاهر بعده فى الخلافة أخاه زكريا بن ابراهيم فى يوم الخميس ثامن عشريه ، ولقب بالمستعصم ، وركب بالخلعة وبين يده القضاة من القلعة الى منزله .

فلما أشرف الظاهر برقوق على زوال ملكه ، وقرب الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب بالعساكر ، استدعى المتوكل على الله من محبسه ، وأعاده الى الخلافة ، وخلع عليه فى يوم الأربعاء أول جمادى الأولى سنة احدى وتسعين ، وبالغ فى تعظيمه ، وألعم عليه . فلم يزل على خلافته حتى توفى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب سنة ثمان وثمانمائة . وهو أول من اتسعت أحواله من الخلفاء بمصر ، وصار له اقطاعات ومال .

فأقيم فى الخلافة بعده ابنه المستعين بالله أبو الفضل العباس ، وخلع عليه فى يوم الاثنين رابع شعبان بالقلعة بين يدى الناصر فرج بن برقوق ، ونزل الى داره ، ثم سار مع الناصر الى الشام ، وحضر معه وقعة اللجون حتى انهزم . فدعاه الأميران شيخ ونوروز ، فمضى من موقفه اليهما ومعه مباشرو الدولة ، فأنزلاه ووكلا به ، وسارا به لحصار الناصر ، ثم ألزماه حتى خلعه من السلطنة . وأقامه شيخ فى السلطنة ، وبايعه ومن معه فى يوم السبت خامس عشرى المحرم سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وبعث الى نوروز وهو بشمالى دمشق حتى بايعه .

فنالوا باقامته اغراضهم من قتل الناصر وانتظام أمرهم ، ثم سار به شيخ الى مصر ، وأقام نوروز بدمشق . فلما قدم به أسكنه القلعة ، ونزل هو بالحراقة من باب السلسلة ، وقام بجميع الأمور ، وترك الخليفة فى غاية الحصر حتى استبد بالسلطنة . فكانت مدة الخليفة منذ أقاموه سلطانا سبعة أشهر وخمسة أيام . ونقل الخليفة الى بعض دور القلعة ، ووكل به من يحفظه وأهله .

وقام من بعده بالسلطنة « السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى » ، أحد مماليك الظاهر برقوق ، فى يوم الاثنين أول شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة . فسجن الخليفة فى برج بالقلعة ، ثم حمله الى الاسكندرية فسجنه بها . ولم يزل سلطانا حتى مات فى يوم الاثنين ثامن المحرم سنة أربع وعشرين . فكانت مدته ثمان سنين وخمسة أشهر وستة أيام .

فأقيم بعده ابنه « السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد » وعمره سنة واحدة ونصف . فقام بأمره الأمير ططر ، وفرق ما جمعه المؤيد من الأموال ، وخرج بالمظفر يريد محاربة الأمراء بالشام ، فظفر بهم وخلع المظفر . وكانت مدته ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام .

وقام بعده « السلطان الملك الظاهر أبو الفتح ططر » أحد مماليك الظاهر برقوق ، وجلس على التخت بقلعة دمشق فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان سنة أربع وعشرين . وقدم الى قلعة الجبل ، وهو موعوك البدن ، فى يوم الخميس رابع شوال ، فثقل فى مرضه من يوم الاثنين ثانى عشريه حتى مات فى يوم الأحد رابع عشرى ذى الحجة . فكانت مدته ثلاثة أشهر ويومين .

فأقيم بعده ابنه « السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد » وعمره نحو عشر سنين . فقام بأمره الأمير برسباى الدقماقى ، ثم خلعه بعد أربعة أشهر * وأربعة أيام .

وقام من بعده « السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى » أحد مماليك الظاهر برقوق ، وجلس على تخت الملك فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة .

هذا آخر الجزء الثالث من أصل مصنفه الامام المقريزى رحمه الله تعالى ورضى عنه .

***

(ووجد على هامش بعض النسخ ما صورته) :

وتوفى الأشرف برسباى ثالث عشر ذى الحجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة . فكانت مدته ست عشرة سنة وتسعة شهور .

ثم قام من بعده ولده « الملك العزيز يوسف » وسنه نحو خمس عشرة سنة ، ثم خلع فى تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة . فكانت مدته نحو ثلاثة أشهر .

وقام من بعده « الملك الظاهر جقمق » فى تاسع عشر ربيع المذكور ، وخلع نفسه من الملك فى مرض موته .

وتولى بعده بعهده ولده « الملك المنصور عثمان » فى حادى عشرى المحرم سنة سبع

(*) ص٢٤٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وخمسين وثمانمائة . فكانت مدة الظاهر جقمق أربع عشرة سنة ونحو عشرة شهور . ثم خلع ولده المنصور عثمان فى سابع ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، فأقام فى الملك أحدا وأربعين يوما .

وتولى عوضه « الملك الأشرف اينال » فى ثامن ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، وخلع نفسه فى مرض موته فى جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة . فكانت مدته ثمانى سنين وشهرين .

وتولى بعده ولده « الملك المؤيد أحمد » ، ثم خلع فى ثامن عشر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة . فكانت مدته أربعة أشهر .

وتولى « الملك الظاهر خشقدم » تاسع عشر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة ، ومات عاشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين . فكانت مدته نحو ست سنين ونصف .

ثم تولى « الملك الظاهر يلباى » فى حادى عشر الشهر المذكور ، ثم خلع فى سابع جمادى الأولى من السنة المذكورة . فكانت مدته ستة وخمسين يوما .

ثم تولى « الملك الظاهر تمربغا » فى ثامن جمادى الأولى المذكور ، ثم خلع فى العشر الأول من شهر رجب الفرد سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة . وكانت مدته نحو تسعة وخمسين يوما .

وتولى « الملك الأشرف قايتباى » فى ثانى عشر رجب من السنة المذكورة ، وتوفى فى ثانى عشرى ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة . فكانت مدته تسعا وعشرين سنة وأربعة شهور وأياما .

وتولى بعده ولده « الملك الناصر محمد » فى التاريخ المذكور ، ثم قتل بالجيزة فى آخر يوم الأربعاء النصف من ربيع الأول سنة أربع وتسعمائة . فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وأياما .

ثم تولى خاله « الملك الظاهر قانصوه الأشرفى قايتباى » فى ضحوة يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول المذكور ، ثم خلع فى سابع ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة . فكانت مدته نحو عشرين شهرا .

وتولى عوضه « الملك الأشرف جان بلاط الأشرفى قايتباى » ، وأتاه خبره بمنزلة الجديدة فى العود من المدينة الشريفة فى يوم الجمعة سادس عشرى ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة . فكانت مدته ستة شهور وأياما ، ثم خلع فى يوم السبت ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة .

وتولى « الملك العادل طومان باى الأشرفى قايتباى » ، ثم خلع سلخ رمضان من السنة المذكورة . فكانت مدته نحو مائة يوم .

وتولى بعده « الملك الأشرف قانصوه الغورى الأشرفى قايتباى » مستهل شوال من السنة المذكورة .

انتهى . والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر المساجد الجامعة

اعلم أن أرض مصر لما فتحت فى سنة عشرين من الهجرة ، واختط الصحابة رضى الله عنهم فسطاط مصر كما تقدم ، لم يكن بالفسطاط غير مسجد واحد ، وهو الجامع الذى يقال له فى مدينة مصر « الجامع العتيق » و « جامع عمرو بن العاص » .

وما برح الأمر على هذا الى أن قدم عبد الله ابن على بن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، من العراق فى طلب مروان بن محمد فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة . فنزل عسكره فى شمالى الفسطاط ، وبنوا هناك الأبنية ، فسمى ذلك الموضع بالعسكر ، وأقيمت هناك الجمعة فى مسجد . فصارت الجمعة تقام بمسجد عمرو بن العاص ، وبجامع العسكر .

الى أن بنى الأمير أحمد بن طولون جامعه على جبل يشكر ، فى سنة تسع وخمسين ومائتين حين بنى القطائع ، فتلاشى من حينئذ جامع العسكر ؛ وصارت الجمعة تقام بجامع عمرو وبجامع ابن طولون ... الى أن قدم جوهر القائد من بلاد القيروان بالمغرب ، ومعه عساكر مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد ، فبنى القاهرة ، وبنى الجامع الذى يعرف بالجامع الأزهر فى سنة ستين وثلثمائة . فكانت الجمعة تقام فى جامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر * ، وجامع القرافة الذى يعرف اليوم بجامع الأولياء .

ثم ان العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين الله ، بنى فى ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح الجامع ، الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم ، فى سنة ثمانين وثلثمائة ، وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله أبو على منصور ، وبنى جامع المقس وجامع راشدة . فكانت الجمعة تقام فى هذه الجوامع كلها ... الى أن انقرضت دولة الخلفاء الفاطميين فى سنة سبع وستين وخمس فبطلت الخطبة من الجامع الأزهر ، واستمرت فيما عداه .

فلما كانت الدولة التركية ، حدث بالقاهرة والقرافة ومصر وما بين ذلك عدة جوامع أقيمت فيها الجمعة . وما برح الأمر يزداد حتى بلغ عدد المواضع التى تقام بها الجمعة ، فيما بين مسجد تبر خارج القاهرة من بحريها الى دير الطين قبلى مدينة مصر ، زيادة على مائة موضع . وسيأتى من ذكر ذلك ما فيه كفاية ان شاء الله تعالى .

وقد بلغت عدة المساجد التى تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجدا :

منها بمدينة مصر : جامع عمرو بن العاص ، والجامع الجديد ، والمدرسة المعزية ، وجامع ابن اللبان ، وجامع القراء ، وجامع تقى الشار ، وجامع راشدة ، وجامع الفيلة ، وجامع دير الطين ، وجامع بساتين الوزير .

ومنها بالقرافة : جامع الأولياء ، وجامع الأفرم ، وخانكاه بكتمر ، وجامع ابن عبد الظاهر ، وجامع الجوانى ، وجامع الضراب ، وجامع قوصون ، وجامع الشافعى ، وجامع الديلمى ، وجامع محمود ، وجامع بقرب تربة الست .

ومنها بالروضة : جامع المقياس ، وجامع عين ، وجامع الرئيس ، وجامع الأباريقى ، وجامع المقسى .

ومنها بالحسينية خارج القاهرة : جامع أحمد الزاهد ، وجامع آل ملك ، وجامع كراى ، وجامع الكافورى بالقرب من السمياطية ، وجامع الخندق ، وجامع نائب الكرك ، وجامع

(*) ص ٢٤٤ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

سويقة الجيزة ، وجامع قيدار ، وجامع ابن شرف الدين ، وجامع الظاهر ، وجامع الحاج كمال التاجر ... تجدد هو وجامع سويقة الجيزة فى أيام الظاهر برقوق .

ومنها خارج القاهرة مما يلى النيل : جامع كوم الريش . جامع جزيرة الفيل . جامع أمين الدين بن تاج الدين موسى . جامع الفخر على النيل . جامع الأسيوطى . جامع الواسطى . جامع ابن بدر . جامع الخطيرى . جامع ابن غازى . جامع المقس . جامع ابن التركمانى . جامع بنت التركمانى . جامع الطوائى . جامع باب الرخاء . جامع الزاهد . جامع ميدان القمح . جامع صاروجا . جامع ابن زيد . جامع بركة الرطلى . جامع الكيمختى .

جامع باب الشعرية . جامع ابن ميالة . جامع ابن المغربى . جامع العجمى بقنطرة الموسكى . الجامع المعلق بقنطرة الموسكى أيضا . جامع الجاكى بسويقة الريش . جامع الروجى بسويقة الريش أيضا . جامع البكجرى . جامع ابن حسون بالدكة . جامع ابن المغربى على الخليج . جامع الطباخ بخط اللوق .

جامع الست نصيرة بخط باب اللوق — حيث كان الكوم فحفر ، فاذا بقبر عرف بالست نصيرة ، وعمل عليه مسجد ، وأقيمت به الجمعة فى أيام الظاهر برقوق — جامع شاكر بجوار قنطرة قدادار ، عمر سنة ست وعشرين وثمانمائة . جامع غيط القاصد خلف قنطرة قدادار . جامع الجزيرة الوسطى .

جامع كريم الدين بخط الزربية . جامع ابن غلاميا بخط الزربية أيضا . الجامع الأخضر .

جامع سويقة الموفق . جامع سلطان شاه بباب الخرق . جامع زين الدين الخشاب خارج باب اللوق ، كان زاوية للفقراء ، فأقيمت به الجمعة بعد سنة ثمانمائة . جامع منكلى بسويقة القيمرى .

ومنها فيما بين القاهرة ومصر : جامع بشتاك . جامع الاسماعيلى على البركة الناصرية . جامع الست مسكة . جامع آق سنقر بمجرى السقائين . جامع الشيخ محمد ابن حسن الحنفى . جامع ست حدق بالمريس . جامع الطيبرسى . جامع الرحمة عمارة الصاحب أمين الدين عبد الله بن غنام . جامع منشأة المهرانى . جامع يونس بالسبع سقايات على البركة . جامع بركة الأستادار بحدرة ابن قميحة . جامع ابن طولون . جامع المشهد النفيسى . جامع البقلى بالقبيبات . جامع شيخو . جامع قانباى برأس سويقة منعم . جامع ألماس . جامع قوصون . جامع الصالح . مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل . جامع الجاى . جامع الماردينى . جامع أصلم .

ومنها بقلعة الجبل : جامع الناصرى . جامع التوبة . جامع الاصطبل . الجامع المؤيدى .

ومنها خارج القاهرة بالترب وما قرب من القلعة : تربة جوشن ، وتربة الظاهر برقوق ، وتربة طشتمر حمص أخضر بالصحراء ، جامع الخضرى . جامع التوبة . الجامع المؤيدى .

ومنها بالقاهرة : الجامع الأزهر ، والجامع الحاكمى ، والجامع الأقمر ، ومدرسة الظاهر برقوق ، والمدرسة الصالحية والحجازية ، والمشهد الحسينى ، وجامع الفاكهانى ،

والزمامية ، والصاحبية ، والبوبكرية ، والجامع المؤيدى ، والأشرفية ، وجامع الدوادارى قريبا من البرقية ، وجامع التوبة بالبرقية ، مدرسة ابن البقرى والباسطية * .

ذكر الجوامع

اعلم أنه لما اتصلت مبانى القاهرة المعزية بمبانى مدينة فسطاط مصر بحيث صارتا كأنهما مدينة واحدة ، واتخذ أهل القاهرة وأهل مصر القرافتين لدفن أمواتهم ، ذكرت ما فى هذه المواضع الأربعة من المساجد الجامعة ، وأضفت اليها ما فى جزيرة فسطاط مصر — التى يقال لها الروضة — من الجوامع أيضا ، فانها متنزه أهل البلدين ، وجمعت الى ذلك ما فى ظواهر القاهرة ومصر من الجوامع مع التعريف بحال من أسسها . وبالله التوفيق .

الجامع العتيق

هذا الجامع بمدينة فسطاط مصر — ويقال له تاج الجوامع ، وجامع عمرو بن العاص — وهو أول مسجد أسس بديار مصر فى الملة الاسلامية بعد الفتح .

خرج الحافظ أبو القاسم بن عساكر ، من حديث معاوية بن قرة ، قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من صلى صلاة مكتوبة فى مسجد مصر من الأمصار كانت له كحجة متقبلة ، فان صلى تطوعا كانت له كعمرة مبرورة .

وعن كعب : من صلى فى مسجد مصر من الأمصار صلاة فريضة عدلت حجة متقبلة ، ومن صلى تطوعا عدلت عمرة متقبلة . فان أصيب فى وجهه ذلك حرم لحمه ودمه على النار أن تطعمه ، وذنبه على من قتله .

وأول مسجد بنى فى الاسلام مسجد قباء ، ثم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال هشام بن عمار : حدثنا المغيرة بن المغيرة ، حدثنا يحيى بن عطاء الخراسانى عن أبيه ، قال : لما افتتح عمر البلدان كتب الى أبى موسى ، وهو على البصرة ، يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة . وكتب الى سعد بن أبى وقاص ، وهو على الكوفة ، بمثل ذلك . وكتب الى عمرو بن العاص ، وهو على مصر ، بمثل ذلك . وكتب الى أمراء أجناد الشام ألا يتبددوا الى القرى ، وأن ينزلوا المدائن ، وأن يتخذوا فى كل مدينة مسجدا واحدا ، ولا تتخذ القبائل مساجد . فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده .

وقال أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب ابن حفص الكندى فى كتاب « أخبار مسجد أهل الراية الأعظم » وأول أمره وبنائه ، وزيادة الأمراء فيه وغيرهم ، ومجالس الحكام والفقهاء منه ، وغير ذلك ...

قال هبيرة بن أبيض عن شيخه تجيب : ان قيسبة بن كلثوم التجيبى ، أحد بنى سوم ، سار من الشام الى مصر مع عمرو بن العاص ، فدخلها فى مائة راحلة وخمسين عبدا وثلاثين فرسا .

فلما أجمع المسلمون وعمرو بن العاص على حصار الحصن ، نظر قيسبة بن كلثوم فرأى

(*) ص٢٤٥ ج٢ ، ط. بولاق .

جنانا تقرب من الحصن ، فعرج اليها فى أهله وعبيده فنزل ، وضرب فيها فسطاطه ، وأقام فيها طول حصارهم الحصن حتى فتحه الله عليهم .

ثم خرج قيبة مع عمرو الى الاسكندرية وخلف أهله فيها ، ثم فتح الله عليهم الاسكندرية ، وعاد قيبة الى منزله هذا فنزله ، واختط عمرو بن العاص داره مقابل تلك الجنان التى نزلها قيبة ، وتشاور المسلمون أين يكون المسجد الجامع ، فرأوا أن يكون منزل قيبة .

فسأله عمرو فيه وقال : أنا أختط لك يأبا عبد الرحمن حيث أحببت .

فقال قيبة : لقد علمتم يامعاشر المسلمين أنى حزت هذا المنزل وملكته ، وانى أتصدق به على المسلمين . وارتحل فنزل مع قومه بنى سوم واختط فيهم .

فبنى مسجدا فى سنة احدى وعشرين من الهجرة . وفى ذلك يقول أبو قبان بن نعيم بن بدر التجيبى :

وبابليون قد سعدنا بفتحها
وحزنا لعمر الله فيئا ومغنما

وقيبة الخير بن كلثوم داره
أباح حماها للصلاة وسلما

فكل مصلٍّ فى فنائنا صلاته
تعارف أهل المصر ما قلت فاعلما

وقال أبو مصعب قيس بن سلمة الشاعر فى قصيدته التى امتدح فيها عبد الرحمن بن قيبة :

وأبوك سلم داره وأباحها
لجباه قوم ركع وسجود

وقال الليث بن سعد : كان مسجدنا هذا حدائق وأعنابا .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى :

ومن جملة ـ ازرعها جامع مصر ، وقد بقى الى الآن من جملة الأشاب التى كانت فى البستان فى موضع الجامع شجرة زنزلخت ، وهى باقية الى الآن خلف المحراب الكبير والحائط الذى به المنبر .

ومن العلماء من قال : ان هذه الشجرة باقية من عهد موسى عليه السلام ، وكان لها نظير شجرة أخرى فى الوراقين احترقت فى حريق مصر سنة أربع وستين وخمسمائة .

وظهر بالجامع العتيق بئر البستان التى كانت به . وهى اليوم يستقى منها الناس الماء بموضع حلقة الفقيه ابن الجيزى المالكى .

قال الكندى : وقال يزيد بن أبى حبيب : سمعت أشياخنا ممن حضر مسجد الفتح يقولون : وقف على اقامة قبلة المسجد الجامع ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيهم الزبير بن * العوام ، والمقداد ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وفضالة بن عبيد ، وعقبة بن عامر ، رضى الله عنهم .

وفى رواية : أسس مسجدنا هذا أربعة من الصحابة : أبو ذر ، وأبو بصيرة ، ومحمئة بن جزء الزبيدى ، ونبيه بن صواب .

(*) ص٢٤٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقال عبد الله بن أبى جعفر : أقام محرابنا هذا عبادة بن الصامت ، ورافع بن مالك ، وهما نقيبان .

وقال داود بن عقبة : ان عمرو بن العاص بعث ربيعة بن شرحبيل بن حسنة وعمرو بن علقمة القرشى — ثم العدوى — يقيمان القبلة ، وقال لهما قوما : اذا زالت الشمس — أو قال : انتصفت الشمس — فاجعلاها على حاجبيكما . ففعلا .

وقال الليث : ان عمرو بن العاص ، كان يمد الحبال حتى أقيمت قبلة المسجد . وقال عمرو بن العاص : شرقوا القبلة تصيبوا الحرم ... قال : فشرقت جدا . فلما كان قرة ابن شريك تيامن بها قليلا . وكان عمرو بن العاص اذا صلى فى مسجد الجامع يصلى ناحية الشرق الا الشىء اليسير .

وقال رجل من تجيب : رأيت عمرو بن العاص دخل كنيسة فصلى فيها ، ولم ينصرف عن قبلتهم الا قليلا . وكان الليث وابن لهيعة اذا صليا تيامنا . وكان عمر بن مروان — عم الخلفاء — اذا صلى فى المسجد الجامع تيامن .

وقال يزيد بن حبيب فى قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » : هى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى نصبها الله عز وجل مقابل الميزاب ، وهى قبلة أهل مصر وأهل الغرب . وكان يقرأها « فلنولينك قبلة نرضاها » بالنون ... وقال : هكذا أقرأناها أبو الخير .

وقال الخليل بن عبد الله الأزدى : حدثنى رجل من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال : « ضع القبلة وأنت تنظر الى الكعبة » ، ثم مال بيده فأماط كل جبل بينه وبين الكعبة . فوضع المسجد وهو ينظر الى الكعبة ، وصارت قبلته الى الميزاب .

وقال ابن لهيعة : سمعت أشياخنا يقولون : لم يكن لمسجد عمرو بن العاص محراب مجوف . ولا أدرى بناه مسلمة ، أو بناه عبد العزيز . وأول من جعل المحراب قرة بن شريك .

وقال الواقدى : حدثنا محمد بن هلال قال : أول من أحدث المحراب المجوف عمر بن عبد العزيز ليالى بنى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم .

وذكر عمر بن شبية أن عثمان بن مظعون تفل فى القبلة ، فأصبح مكتئبا . فقالت له امرأته : ما لى أراك مكتئبا ؟

قال : لا شىء الا أنى تفلت فى القبلة وأنا أصلى . فعمدت الى القبلة فغسلتها ، ثم عملت خلوقا فخلقتها ، فكانت أول من خلّق القبلة .

وقال أبو سعيد سلف الحميرى : أدركت مسجد عمرو بن العاص طوله خمسون ذراعا فى عرض ثلاثين ذراعا ، وجعل الطريق يطيف به من كل جهة ، وجعل له بابان يقابلان دار عمرو بن العاص ، وجعل له بابان فى بحريه وبابان فى غربيه .

وكان الخارج اذا خرج من زقاق القناديل وجد ركن المسجد الشرقى محاذيا لركن دار عمرو بن العاص الغربى ، وذلك قبل أن أخذ من دار عمرو بن العاص ما أخذ ، وكان طوله من القبلة الى البحرى مثل طول دار عمرو بن

العاص ، وكان سقفه مطاطأ جدا ولا صحن له ، فاذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كل ناحية ، وبينه وبين دار عمرو سبع أذرع .

قلت : وأول من جلس على منبر أو سرير ذى أعواد ربيعة بن محاسن .

وقال القضاعى فى كتاب « الخطط » : وكان عمرو بن العاص قد اتخذ منبرا . فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعزم عليه فى كسره ، ويقول : أما يحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك . فكسره .

قال مؤلفه رحمه الله : وفى سنة احدى وستين ومائة ، أمر المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور بتقصير المنابر ، وجعلها بقدر منبر النبى صلى الله عليه وسلم .

قال القضاعى : وأول من صلى عليه من الموتى ، داخل الجامع ، أبو الحسن سعيد بن عثمان ، صاحب الشرط ، فى النصف من صفر . وكانت وفاته فجأة ، فأخرج ضحوة يوم الأحد السادس عشر من صفر ، وصلى عليه خلف المقصورة ، وكبر عليه خمسا . ولم يعلم أحد قبله صلى عليه فى الجامع .

وذكر عمر بن شبة فى « تاريخ المدينة » أن أول من عمل مقصورة بلبن عثمان بن عفان وكانت فيها كوى تنظر الناس منها الى الامام ، وأن عمر بن عبد العزيز عملها بالساج .

قال القضاعى : ولم تكن الجمعة تقام فى زمن عمرو بن العاص بشىء من أرض مصر الا فى هذا الجامع ... قال أبو سعيد عبد الرحمن ابن يونس : جاء نفر من بحافق الى عمرو بن العاص ، فقالوا : انا نكون فى الريف أفنجمع فى العيدين الفطر والأضحى ، ويؤمنا رجل منا ؟

قال : نعم .

قالوا : فالجمعة ؟

قال : لا ، ولا يصلى الجمعة بالناس الا من أقام الحدود ، وأخذ بالذنوب ، وأعطى الحقوق .

وأول من زاد فى هذا الجامع مسلمة بن مخلد الأنصارى سنة ثلاث وخمسين ، وهو يومئذ أمير مصر من قبل معاوية .

قال الكندى فى « كتاب أخبار مسجد أهل الراية » : ولما ضاق المسجد بأهله ، شكى ذلك الى مسلمة بن مخلد — وهو الأمير يومئذ — فكتب فيه الى معاوية بن أبى سفيان ، فكتب اليه يأمره بالزيادة فيه .

فزاد فيه من شرقيه مما يلى دار عمرو بن العاص ، وزاد فيه من بحريه ، ولم يحدث فيه حدثا من القبلى ولا من الغربى * ، وذلك فى سنة ثلاث وخمسين ، وجعل له رحبة فى البحرى منه كان الناس يصيفون فيها ، ولاطه بالنورة ، وزخرف جدرانه وسقوفه — ولم يكن المسجد الذى لعمرو جعل فيه نورة ولا زخرف — وأمر بابتناء منار المسجد الذى فى الفسطاط ، وأمر أن يؤذنوا فى وقت واحد ، وأمر مؤذنى الجامع أن يؤذنوا للفجر اذا مضى نصف الليل ، فاذا فرغوا من آذانهم أذن كل مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد ... قال ابن لهيعة : فكان لآذانهم دوى شديد .

(*) ص٢٤٧ ج٢ ، ط. بولاق .

فقال عابد بن هشام الأزدى — ثم السلامانى — لمسلمة بن مخلد :

لقد مدت لمسلمة الليالى
على رغم العداة مع الأمانى
وساعده الزمان بكل سعد
وبلغه البعيد من الأمانى
أمسلم فارتقى لا زلت تعلو
على الأيام مسلم والزمان
لقد أحكمت مسجدنا فأضحى
كأحسن ما يكون من المبانى
فتاه به البلاد وساكنوها
كما تاهت بزينتها الغوانى
وكم لك من مناقب صالحات
وأجدل بالصوامع للآذان
كأن تجاوب الأصوات فيها
اذا ما الليل ألقى بالجران
كصوت الرعد خالطه دوى
وأرعب كل مختطف الجنان

وقيل ان معاوية أمره ببناء الصوامع للاذان ...

قال : وجعل مسلمة للمسجد الجامع أربع صوامع فى أركانه الأربع ، وهو أول من جعلها فيه ، ولم تكن قبل ذلك ... قال : وهو أول من جعل فيه الحصر ، وانما كان قبل ذلك مفروشا بالحصباء ، وأمر ألا يضرب بناقوس عند الأذان (يعنى الفجر) . وكان السلم الذى يصعد منه المؤذنون فى الطريق ... حتى كان خالد بن سعيد ، فحوله داخل المسجد .

قال القاضى القضاعى : ثم ان عبد العزيز بن مروان هدمه فى سنة تسع وسبعين من الهجرة — وهو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان — وزاد فيه من ناحية الغرب ، وأدخل فيه الرحبة التى كانت فى بحريه ، ولم يجد فى شرقيه موضعا يوسعه به .

وذكر أبو عمر الكندى فى كتاب «الأمراء» أنه زاد فيه من جوانبه كلها .

ويقال ان عبد العزيز بن مروان لما أكمل بناء المسجد ، خرج من دار الذهب عند طلوع الفجر ، فدخل المسجد فرأى فى أهله خفة ، فأمر بأخذ الأبواب على من فيه ، ثم دعا بهم رجلا رجلا ، فيقول للرجل : ألك زوجة ؟ فيقول : لا ، فيقول : زوجوه ... ألك خادم ؟ فيقول : لا ، فيقول : اخدموه ... أحججت ؟ فيقول : لا ، فيقول : أحجوه ... أعليك دين ؟ فيقول : نعم ، فيقول : اقضوا دينه . فأقام المسجد بعد ذلك دهرا عامرا ، ولم يزل الى اليوم .

وذكر أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان — فى ولايته على مصر من قبل أخيه الوليد — أمر برفع سقف المسجد الجامع — وكان مطاطأ — وذلك فى سنة تسع وثمانين . ثم ان قرة بن شريك العبسى هدمه مستهل سنة اثنتين وتسعين بأمر الوليد بن عبد الملك — وهو يومئذ أمير مصر من قبله — وابتدأ فى بنيانه فى شعبان من السنة المذكورة ، وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بنى عامر بن لؤى ، وكانوا يجمعون الجمعة فى قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه ، وذلك فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، ونصب المنبر الجديد فى سنة أربع وتسعين ، ونزع المنبر الذى كان فى المسجد .

وذكر أن عمرو بن العاص كان جعله فيه ، فلعله بعد وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقيل هو منبر عبد العزيز بن مروان ، وذكر أنه حمل اليه من بعض كنائس مصر . وقيل ان زكريا بن برقتى ملك النوبة أهداه الى عبد الله ابن سعد بن أبى سرح ، وبعث معه نجاره حتى ركبه ... واسم هـذا النجـار بقطر من أهل دندرة . ولم يزل هذا المنبر فى المسجد حتى زاد قرة بن شريك فى الجامع ، فنصب منبرا سواه على ما تقدم شرحه .

ولم يكن يخطب فى القرى الا على العصا . الى أن ولى عبد الملك بن موسى بن نصير اللخمى مصر ، من قبل مروان بن محمـد ، فأمر باتخاذ المنابر فى القرى ، وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة . وذكر أنه لا يعـرف منبرا أقدم منه (يعنى من منبر قرة بن شريك) بعد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلم يزل كذلك الى أن قلع وكسر فى أيام العزيز بالله ، بنظر الوزير يعقوب بن كلس ، فى يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيـع الأول سنة تسع وسبعين وثلثمائة ، وجعـل مكانه منبر مذهب . ثم أخرج هذا المنبر الى الاسكندرية ، وجعـل فى جامع عمـرو بها ، وأنزل الى الجامع المنبر الكبير الذى هو به الآن ، وذلك فى أيام الحاكم بأمر الله فى شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعمائة .

وصرف بنـو عبـد السميع عن الخطابة ، وجعلت خطابة الجـامع العتيـق لجعفر بن الحسن بن خداع الحسينى ، وجعل الى أخيه الخطابة بالجامع الأزهر . وصرف بنو عبـد السميع بن عمر بن الحسين * بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عبيد الله بن العباس من جميع المنابر ، بعد أن أقاموا هم وسلفهم فيها ستين سنة .

وفى شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وجد المنبر الجديد الذى نصب فى الجامع قد لطخ بعذرة ، فوكل به من يحفظه ، وعمل له غشاء من أدم مذهب فى شعبان من هذه السـنة ، وخطب عليه ابن خداع وهو مغشى .

وزيادة قرة من القبلى والشرقى ، وأخـذ بعض دار عمرو وابنه عبد الله بن عمرو فأدخله فى المسجد ، وأخذ منهما الطريق الذى بين المسجد وبينهما ، وعوض ولد عمرو ما هو فى أيديهم اليوم من الرباع ، وأمر قرة بعمل المحراب المجوف على ما تقدم شرحه . وهـو المحـراب المعـروف بعمرو ، لأنه فى سمت محراب المسجد القديم الذى بناه عمرو .

وكانت قبلة المسـجـد القديم عند العمـد المذهبة فى صف التوابيت اليوم ، وهى أربعة عمد اثنان فى مقابلة اثنين ، وكان قرة أذهب رؤوسها ، وكانت مجالس قيس ، ولم يكن فى المسجد عمد مذهبة غيرها ، وكانت قديما حلقة أهل المدينة ، ثم زوق أكثر العمد وطوق فى أيام الاخشيد سنة أربع وعشرين وثلثمائة .

ولم يكن للجامع أيام قرة بن شريك غير هذا المحراب . فأما المحراب الأوسط الموجود اليوم ، فعرف بمحـراب عمر بن مروان عم الخلفاء ، وهو أخو عبد الملك وعبد العزيز ، ولعله أحدثه فى الجدار بعد قرة . وقد ذكر قوم أن قرة عمل هذين المحرابين .

(*) ص٢٤٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

وصار للجامع أربعة أبواب ، وهى الأبواب الموجودة فى شرقيه الآن ، آخرها باب اسرائيل وهو باب النحاسين . وفى غربيه أربعة أبواب شارعة فى زقاق كان يعـرف بزقاق البلاط ، وفى بحريه ثلاثة أبواب .

وبيت المال الذى فى علو الفوارة بالجامع بناه أسامة بن زيد التنوخى ، متولى الخراج بمصر ، سنة سبع وتسعين فى أيام سليمان بن عبد الملك ، وأمير مصر يومئذ عبد الملك بن رفاعة الفهمى ، وكان مال المسلمين فيه .

وطرق المسجد فى ليلة سنة خمس وأربعين ومائة فى ولاية يزيد بن حاتم المهلبى من قبل المنصور ... طرقه قوم ممن كان بايع على بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنـه — وكان أول علوى قدم مصر — فنهبـوا بيت المال ، ثم تضاربوا عليه بسيوفهم ، فلم يصل اليهم منه الا اليسير ، فأنفذ اليهم يزيد من قتل منهم جماعة ، وانهزموا .

وذكر أن هذا المكان تسور عليـه لص فى امارة أحمد بن طولون ، وسرق منـه بدرتى دنانير . فظفر به أحمد بن طولون ، واصطنعه وعفا عنه .

وفى سنة ثمـان وسبعين وثلثمـائة ، أمر العزيز بالله بعمل الفوارة تحت قبة بيت المال ، فعملت وفرغ منها فى شهر رجب سنة تسع وسبعين وثلثمائة .

ثم زاد فيه صالح بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما — وهو يومئـذ أمير مصر من قبل أبى العباس السـفاح — فى مؤخره أربع أساطين ، وذلك فى سنه ثلاث وثلاثين ومائة ، وهو أول من ولى مصر لبنى العباس ، فيقال انه أدخل فى الجامع دار الزبير ابن العوام ، رضى الله عنه ، وكانت غربى دار النحاس .

وكان الزبير تخلى عنها ، ووهبها لمواليـه لخصومة جرت بين غلمانه وغلمـان عمرو بن العاص ، واختط الزبير فيما يلى الدار المعروفة به الآن . ثم اشترى عبد العزيز بن مروان دار الزبير من مواليه ، فقسمها بين ابنه الأصبغ وأبى بكر .

فلما قدم صالح بن على ، أخـذها عن أم عاصم بنت عاصم بن أبى بكر ، وعن طفـل يتيم وهو حسان بن الأصبغ ، فأدخلها فى المسـجد . وباب السـكحل من هذه الزيادة — وهو الباب الخامس من أبواب الجـامع الشرقية الآن — وعمر صالح بن على أيضـا مقدم المسجد الجامع عند الباب الأول موضع البلاطة الحمراء .

ثم زاد فيـه موسى بن عيسى الهـاشمى — وهو يومئذ أمير مصر من قبل الرشيد — فى شعبان سنة خمس وسبعين ومائة الرحبة التى فى مؤخره ، وهى نصف الرحبة المعروفة بأبى أيوب . ولما ضاق الطريق بهـذه الزيادة أخذ موسى بن عيسى دار الربيع بن سليمان الزهرى ، شركة بنى مسـكين ، بغير عوض للربيع ، ووسـع بها الطريق ، وعوض بنى مسكين .

ووصل عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، مولى خزاعة ، أميرا من قبل المأمون ،

فى شهر ربيع الأول سنة حدى عشرة ومائتين ، وتوجه الى الاسكندرية مستهل صفر سنة اثنتى عشرة ومائتين ، ورجع الى الفسطاط فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وأمر بالزيادة فى المسجد الجامع ، فزيد فيه مثله من غربيه . وعاد ابن طاهر الى بغداد لخمس بقين من رجب من السنة المذكورة .

وكانت زيادة ابن طاهر المحراب الكبير وما فى غربيه الى حد زيادة الخازن . فأدخل فيه الزقاق المعروف أولا بزقاق البلاط ، وقطعة كبيرة من دار الرمل ، ورحبة كانت بين يدى دار الرمل ، ودورا ذكرها القضاعى .

وذكر بعضهم أن موضع فسطاط عمرو بن العاص حيث المحراب والمنبر ... قال : وكان الذى تم زيادة عبد الله بن طاهر ، بعد مسيره الى بغداد ، عيسى بن يزيد الجلودى . وتكامل ذرع الجامع ، سوى الزيادتين ، مائة وتسعين ذراعا بذراع العمل طولا ، فى مائة وخمسين ذراعا عرضا ... ويقال ان ذرع جامع ابن طولون مثل ذلك ، سوى الرواق المحيط بجوانبه الثلاثة .

ونصب عبد الله بن طاهر اللوح الأخضر ، فلما احترق * الجامع احترق ذلك اللوح . فجعل أحمد بن محمد العجيفى هذا اللوح مكان ذلك ، وهو هذا اللوح الأخضر الباقى الى اليوم . ورحبة الحارث هى الرحبة البحرية من زيادة الخازن ، وكانت رحبة يتبايع الناس فيها يوم الجمعة .

وذكر أبو عمر الكندى فى كتاب «الموالى» أن أبا عمرو الحارث بن مسكين بن محمد ابن يوسف — مولى محمد بن زبان بن عبد العزيز بن مروان — لما ولى القضاء من قبل المتوكل على الله فى سنة سبع وثلاثين ومائتين أمر ببناء هذه الرحبة ليتسع الناس بها ، وحول سلم المؤذنين الى غربى المسجد وكان عند باب اسرائيل ، وبلط زيادة ابن طاهر ، وأصلح بنيان السقف ، وبنى سقاية فى الحذائين ، وأمر ببناء الرحبة الملاصقة لدار الضرب ليتسع الناس بها .

وزيادة أبى أيوب أحمد بن محمد بن شجاع ابن أخت أبى الوزير أحمد بن خالد صاحب الخراج فى أيام المعتصم . كان أبو أيوب هذا أحد عمال الخراج زمن أحمد بن طولون ، وزيادته فى بقية الرحبة المعروفة برحبة أبى أيوب ، والمحراب المنسوب الى أبى أيوب هو الغربى من هذه الزيادة عند شباك الحذائين ، وكان بناؤها فى سنة ثمان وخمسين ومائتين . ويقال ان أبا أيوب مات فى سجن أحمد بن طولون بعد أن نكبه واصطفى أمواله ، وذلك فى سنة ست وستين ومائتين . وأدخل أبو أيوب فى هذه الزيادة أماكن ذكرها .

قال : وكان قد وقع فى مؤخر المسجد الجامع حريق ، فعمر وزيدت هذه الزيادة فى أيام أحمد بن طولون . ووقع فى الجامع ، فى ليلة الجمعة لتسع خلون من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين ، حريق أخذ من بعد ثلاث حنايا من باب اسرائيل الى رحبة الحارث بن مسكين ، فهلك فيه أكثر زيادة عبد الله بن طاهر ، والرواق الذى عليه اللوح الأخضر .

(*) ص٢٢٦ ج٢ ، طبولاق .

فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بعمارته ، على يد أحمد بن محمد العجيفى ، فأعيد على ما كان عليه ، وأنفق فيه ستة آلاف وأربعمائة دينار ، وكتب اسم خمارويه فى دائر الرواق الذى عليه اللوح الأخضر ، وهى موجودة الآن ، وكانت عمارته فى السنة المذكورة .

وأمر عيسى النوشرى ، فى ولايته الثانية على مصر فى سنة أربع وتسعين ومائتين ، باغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات . فكان يفتح للصلاة فقط ، وأقام على ذلك أياما ، فضج أهل المسجد ففتح لهم .

وزاد أبو حفص العباسى ، فى أيام نظره فى قضاء مصر خلافة لأخيه محمد ، الغرفة التى يؤذن فيها المؤذنون فى السطح . وكانت ولايته فى رجب من سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وكان امام مصر والحرمين ، واليه اقامة الحج . ولم يزل قاضيا بمصر خلافة لأخيه ، الى أن صرف من القضاء بالخصيبى فى ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، وتوفى فى سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة بعد قدومه من الحج .

ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن رواقا واحدا من دار الضرب — وهو الرواق ذو المحراب والشباكين ، المتصل برحبة الحارث ، ومقداره تسع أذرع — وكان ابتداء ذلك فى رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة . ومات قبل تمام هذه الزيادة ، وتممها ابنه على بن محمد ، وفرغت فى العشر الأخر من شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة .

وزاد فيه الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ، بأمر العزيز بالله ، الفوارة التى تحت قبة بيت المال — وهو أول من عمل فيه فوارة — وزاد فيه أيضا مساقف الخشب المحيطة بها ، على يد المعروف بالمقدسى الأطروش متولى مسجد بيت المقدس ، وذلك فى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة ، ونصب فيها حباب الرخام التى للماء .

وفى سنة سبع وثمانين وثلثمائة جدد بياض المسجد الجامع ، وقلع شىء كثير من الفسفساء الذى كان فى أروقته ، وبيض مواضعه ، ونقشت خمسة ألواح وذهبت ، ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية ، وهى التى عليها الآن . وكان ذلك على يد برجوان الخادم ، وكان اسمه ثابتا فى الألواح ، فقلع بعد قتله .

وقال المسبحى فى تاريخه : وفى سنة ثلاث وأربعمائة أنزل من القصر الى الجامع العتيق بألف ومائتين وثمانية وتسعين مصحفا ما بين ختمات وربعات ، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب ، ومكن الناس من القراءة فيها . وأنزل اليه أيضا بتور من فضة ، عمله الحاكم بأمر الله برسم الجامع ، فيه مائة ألف درهم فضة . فاجتمع الناس ، وعلق بالجامع بعد أن قلعت عتبتا الباب حتى أدخل به . وكان من اجتماع الناس لذلك ما يتجاوز الوصف .

قال القضاعى : وأمر الحاكم بأمر الله بعمل الرواقين اللذين فى صحن المسجد الجامع ، وقلع عمد الخشب وجسر الخشب التى كانت هناك ، وذلك فى شعبان سنة ست وأربعمائة .

وكانت العمد والجسر قد نصبها أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع ، فى سنة سبع وخمسين ومائتين ، زمن أحمد بن طولون .

لأن الحر اشتد على الناس فشكوا ذلك الى ابن طولون ، فأمر بنصب عمد الخشب ، وجعل عليها الستائر في السنة المذكورة .

وكان الحاكم قد أمر بأن تدهن هذه العمد الخشب بدهن أحمر وأخضر فلم يثبت عليها ، ثم أمر بقلعها ، وجعلها بين الرواقين .

وأول ما عملت المقاصير في الجوامع في أيام معاوية بن أبي سفيان سنة أربع وأربعين . وأول قرة بن شريك لما بنى الجامع بمصر عمل المقصورة * .

وفي سنة احدى وستين ومائة ، أمر المهدى بنزع المقاصير من مساجد الأمصار وتقصير المنابر ، فجعلت على مقدار منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أحدثت بعد ذلك .

ولما ولى مصر موسى بن أبي العباس من أهل الشاش من قبل أبي جعفر الشاشى ، أمر المعتصم ان يخرج المؤذنون الى خارج المقصورة — وهو أول من أخرجهم — وكانوا قبل ذلك يؤذنون داخلها .

ثم أمر الامام المستنصر بالله بن الظاهر بعمل الحجر المقابل للمحراب ، وبالزيادة في المقصورة في شرقيها وغربيها حتى اتصلت بالحظائر من جانبيها ، وبعمل منطقة فضة في صدر المحراب الكبير أثبت عليها اسم أمير المؤمنين ، وجعل لعمودى المحراب أطواق فضة . وجرى ذلك على يد عبد الله بن محمد ابن عبدون في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة .

قال مؤلفه رحمه الله : ولم تزل هذه المنطقة الفضة الى أن استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر — بعد موت الخليفة العاضد لدين الله — في محرم سنة سبع وستين وخمسمائة . فقلع مناطق الفضة من الجوامع بالقاهرة ومن جامع عمرو ابن العاص بمصر ، وذلك في حادى عشر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة .

قال القضاعي : وفي شهر رمضان من سنة أربعين وأربعمائة ، جددت الخزانة التي في ظهر دار الضرب في طريق الشرطة مقابلة لظهر المحراب الكبير . وفي شعبان من سنة احدى وأربعين وأربعمائة ، أذهب بقية الجدار القبلي حتى اتصل الاذهاب من جدار زيادة الخازن الى المنبر ، وجرى ذلك على يد القاضي أبي عبد الله أحمد بن محمد بن يحيى بن أبي زكريا .

وفي شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، عملت لموقف الامام في زمن الصيف مقصورة خشب ، ومحراب ساج منقوش بعمودى صندل . وتقلع هذه المقصورة في الشتاء اذا صلى الامام في المقصورة الكبيرة .

وفي شعبان سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، زيد في الخزانة مجلس من دار الضرب وطرق المستحم ، وزخرف هذا المجلس وحسن ، وجعل فيه محراب ، ورخم بالرخام الذي قلع من المحراب الكبير حين نصب عبد الله بن محمد بن عبدون منطقة الفضة في صدر المحراب الكبير . وجرت هذه الزيادة على يد القاضي أبي عبد الله أحمد بن محمد بن يحيى .

وفي ذى الحجة من سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، عمر القاضي أبو عبد الله أحمد

(*) ص٢٤٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

ابن محمد بن أبي زكريا غرفة المؤذنين بالسطح وحسنها ، وجعل لها روشنا على صحن الجامع وجعل بعدها مرقا ينزل منه الى بيت المال ، وجعل السطح مطلعا من الخزانة المستجدة في ظهر المحراب الكبير ، وجعل له مطلعا آخر من الديوان الذي في رحبة أبي أيوب .

وفي شعبان من سنة خمس وأربعين وأربعمائة ، بنيت المئذنة التي فيما بين مئذنة عرفة والمئذنة الكبيرة ، على يد القاضي أبي عبد الله أحمد بن أبي زكريا . انتهى ما ذكره القضاعي .

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ، تمكن الفرنج من ديار مصر ، وحكموا في القاهرة حكما جائرا ، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم ، وتيقنوا أنه لا حامى للبلاد من أجل ضعف الدولة ، وانكشفت لهم عورات الناس . فجمع مرى ملك الفرنج بالساحل جموعه ، واستجد قوما قشوى بهم عساكره ، وسار الى القاهرة من بلبيس بعد أن أخذها ، وقتل كثيرا من أهلها .

فأمر شاور بن مجير السعدى — وهو يومئذ مستول على ديار مصر وزارة للعاضد — باحراق مدينة مصر . فخرج اليها في اليوم التاسع من صفر من السنة المذكورة عشرون ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل مضرمة بالنيران ، وفرقت فيها . ونزل مرى بجموع الفرنج على بركة الحبش ، فلما رأى دخان الحريق تحول من بركة الحبش ، ونزل على القاهرة مما يلى باب البرقية ، وقاتل أهل القاهرة وقد انحشر الناس فيها .

واستمرت النار في مصر أربعة وخمسين يوما ، والنهابة تهدم ما بها من المبانى ، وتحفر لأخذ الخبايا ... الى أن بلغ مرى قدوم أسد الدين شيركوه بعسكر من جهة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام ، فرحل في سابع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة ، وتراجع المصريون شيئا بعد شيء الى مصر ، وتشعث الجامع .

فلما استبد السلطان صلاح الدين بمملكة مصر ، بعد موت العاضد ، جدد الجامع العتيق بمصر في سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ، ورخمه ورسم عليه اسمه ، وجعل في سقاية قاعة الخطابة قصبة الى السطح يرتفق بها أهل السطح ، وعمر المنظرة التي تحت المئذنة الكبيرة وجعل لها سقاية ، وعمر في كتف دار عمرو الصغرى البحرى مما يلى الغربى قصبة أخرى الى محاذاة السطح ، وجعل لها مشاة من السطح اليها يرتفق بها أهل السطح ، وعمر غرفة الساعات وحررت .

فلم تزل مستمرة الى أثناء أيام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ، أول من ملك من المماليك ، وجدد بياض الجامع ، وأزال شعثه ، وجلى عمده ، وأصلح رخامه حتى صار جميعه مفروشا بالرخام ، وليس في سائر أرضه شيء بغير رخام حتى تحت الحصر .

ولما تقلد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز أبي القاسم خلف بن رشيد * الدين محمود بن بدر ، المعروف بابن بنت الأعز العلائى الشافعى ، قضاء القضاة بالديار

(*) ص٢٥١ جـ٢ ، ط. بولاق .

المصرية ، ونظر الأحباس فى ولايته الثانية أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، كشف الجامع بنفسه ، فوجد مؤخره قد مال الى بحريه ، ووجد سوره البحرى قد مال ، وانقلب علوه عن سمت سفله ، ورأى فى سطح الجامع غرفا كثيرة محدثة ، وبعضها مزخرف .

فهدم الجميع ، ولم يدع بالسطح سوى غرفه المؤذنين القديمة وثلاث خزائن لرؤساء المؤذنين لا غير . وجمع أرباب الخبرة ، فاتفق الرأى على ابطال جريان الماء الى فوارة الفسقية — وكان الماء يصل اليها من بحر النيل — فأمر بابطاله لما كان فيه من الضرر على جدر الجامع ، وعمر بغلات بالزيادة البحرية تشد جدار الجامع البحرى ، وزاد فى عمد الزيادة ما قوى به البغلات المذكورة ، وسد شباكين كانا فى الجدار المذكور ليتقوى بذلك ، وأنفق المصروف على ذلك من مال الأحباس .

وخشى أن يتداعى الجامع كله الى السقوط ، فحدث الصاحب الوزير بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا فى مفاوضة السلطان فى عمارة ذلك من بيت المال . فاجتمعا معا بالسلطان الملك الظاهر بيبرس ، وسألاه فى ذلك . فرسم بعمارة الجامع .

فهدم الجدار البحرى من مقدم الجامع — وهو الجدار الذى فيه اللوح الأخضر — وحط اللوح ، وأزيلت العمد والقواصر العشر ، وعمر الجدار المذكور ، وأعيدت العمد والقواصر كما كانت ، وزيد فى العمد أربعة قرن بها أربعة مما هو تحت اللوح الأخضر والصف الثانى منه ، وفصل اللوح الأخضر أجزاء ، وجدد غيره وأذهب ، وكتب على اسم السلطان الملك الظاهر ، وجليت العمد كلها ، وبيض الجامع بأسره — وذلك فى شهر رجب سنة ست وستين وستمائة — وصلى فيه شهر رمضان بعد فراغه ، ولم تتعطل الصلاة فيه لأجل العمارة .

ولما كان فى شهور سنة سبع وثمانين وستمائة ، شكا قاضى القضاة تقى الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن بنت الأعز ، للسلطان الملك المنصور قلاوون ، سوء حال جامع عمرو بمصر ، وسوء حال الجامع الأزهر بالقاهرة ، وأن الأحباس على أسوأ الأحوال .

وأن مجد الدين بن الحباب أخرب هذه الجهة لما كان يتحدث فيها ، وتقرب بجزيرة الفيل — الوقف الصلاحى على مدرسة الشافعية — الى الأمير علم الدين الشجاعى ، وذكر له بأن فى أطيانها زيادة ، فقاسوا ما تجدد بها من الرمال وجعلوه للوقف ، وأقطعوا الأطيان القديمة الجارية فى الوقف . وتقرب أيضا اليه بأن فى الأحباس زيادة ، من جملتها بالأعمال الغربية ما مبلغه فى السنة ثلاثون ألف درهم ، وأن ذلك لجهة عمارة الجامعين . وسأل السلطان فى اعادة ذلك ، وابطال ما أقطع منه .

فلم يجب الى ذلك ، وأمر الأمير حسام الدين طرنطاى بعمارة الجامع الأزهر ، والأمير عز الدين الأفرم بعمارة جامع عمرو . فحضر الأفرم الى الجامع بمصر ، ورسم على مباشرى الأحباس ، وكشف المساجد لغرض كان فى نفسه ، وبيض الجامع ، وجرد نصف العمد التى فيه ، فصار العمود نصفه الأسفل أبيض

وباقيه بحاله ، ودهن واجهة غرفة الساعات بالسيلقون ، وأجرى الماء من البئر التى بزقاق الأقفال الى فسقية الجامع ، ورمى ما كان بالزيادات من الأتربة .

وبطر العوام به فيما فعله بالجامع ، فصاروا يقولون : « نقل الدبماس من البحر الى الجامع » لكونه دهن الغرفة بالسيلقون ، « وألبس العواميد الشيخ العريان » لكونه جرد نصفها التحتانى ، فصار أبيض الأسفل أسمر الأعلى ، كما كان الشيخ العريان ، فان نصفه الأسفل كان مستورا بمئزر أبيض وأعلاه عريان ، ولم يفعل بالجامع سوى ما ذكر .

ولما حدثت الزلزلة فى سنة اثنتين وسبعمائة تشعث الجامع . فاتفق الأميران بيبرس الجاشنكير وهو يومئذ أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والأمير سلار وهو نائب السلطنة — واليهما تدبير الدولة — على عمارة الجامعين بمصر والقاهرة . فتولى الأمير ركن الدين بيبرس عمارة الجامع الحاكمى بالقاهرة ، وتولى الأمير سلار عمارة جامع عمرو بمصر .

فاعتمد سلار على كاتبه بدر الدين بن خطاب . فهدم الحد البحرى من سلم السطح الى باب الزيادة البحرية والشرقية ، وأعاده على ما كان عليه ، وعمل بابين جديدين للزيادة البحرية والغربية ، وأضاف الى كل عمود من الصف الأخير المقابل للجدار الذى هدمه عمودا آخر تقوية له ، وجرد عمد الجامع كلها ، وبيض الجامع بأسره ، وزاد فى سقف الزيادة الغربية رواقين ، وبلط سفل ما أسقف منها .

وخرب بظاهر مصر وبالقرافتين عدة مساجد وأخذ عمدها ليرخم بها صحن الجامع ، وقلع من رخام الجامع الذى كان تحت الحصر كثيرا من الألواح الطوال ، ورص الجميع عند باب الجامع المعروف بباب الشرابيين ، فنقل من هناك الى حيث شاء ، ولم يعمل منه فى صحن الجامع شىء ألبتة ، وكان فيما نقل من ألواح الرخام ما طوله أربعة أذرع فى عرض ذراع وسدس ... ذهب بجميع ذلك .

ولما ولى علاء الدين بن مروانة نيابة دار العدل ، قسم جامعى مصر والقاهرة ، فجعل جامع القاهرة مع نبيه الدين بن السعرتى . وجامع عمرو مع بهاء * الدين بن السكرى ، فسقفت الزيادة البحرية الشرقية — وكانت قد جعلت حاصلا للحصر — وجعل لها درابزين بين البابين يمنع الجانبين من المار من باب الجامع الى باب الزيادة المسلوك منه الى سوق النحاسين ، وبلط أرضها ، ورقع بعض رخام صحن الجامع ، وبلط بعض المجازات ، وعمل عضائد أعتاب تحوز الصحن عن مواضع الصلاة .

ولما كان فى شهور سنة ست وتسعين وستمائة ، اشترى الصاحب تاج الدين دارا بسوق الأكفانيين وهدمها ، وجعل مكانها سقاية كبيرة ، ورفعها الى محاذاة سطح الجامع ، وجعل لها ممشى يتوصل اليها من سطح الجامع ، وعمل فى أعلاها أربعة بيوت يرتفق بهم فى الخلاء ، ومكانا برسم أزيار الماء العذب ، وهدم سقاية الغرفة التى تحت المئذنة المعروفة بالمنظرة ، وبناها برجا كبيرا من الأرض

(*) ص٢٥٢ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

الى العلو حيث كان أولا ، وجعل بأعلى هذا البرج بيتا مرتفعا يختص بالغرفة المذكورة كما كان أولا ، وبيتا ثانيا من خارج الغرفة يرتفق به من هو خارج الغرفة ممن يقرب منها .

وصير القاضى صدر الدين أبو عبد الله محمد ابن البارنبارى سقاية فى ركن دار عمرو البحرى الغربى من داره الصغرى بعدما كانت قد تهدمت ، فأعادها كأحسن ما كانت . ثم ان الجامع تشعث ومالت قواصره ، ولم يبق الا أن يسقط . وأهل الدولة ، بعد موت الملك الظاهر برقوق ، فى شغل من اللهو عن عمل ذلك .

فانتدب الرئيس برهان الدين ابراهيم بن عمر بن على المحلى ، رئيس التجار يومئذ بديار مصر ، لعمارة الجامع بنفسه وخوله ، وهدم صدر الجامع بأسره فيما بين المحراب الكبير الى الصحن طولا وعرضا ، وأزال اللوح الأخضر ، وأعاد البناء كما كان أولا ، وجدد لوحا أخضر بدل الأول ونصبه كما كان — وهو الموجود الآن — وجرد العمد كلها ، وتتبع جدر الجامع فرم شعثها كله ، وأصلح من رخام الصحن ما كان قد فسد ، ومن السقوف ما كان قد وهى ، وبيض الجامع كله .

فجاء كما كان ، وعاد جديدا بعدما كاد أن يسقط ... لولا أقام الله عز وجل هذا الرجل — مع ما عرف من شحه وكثرة ضنته بالمال — حتى عمره . فشكر الله سعيه ، وبيض محياه . وكان انتهاء هذا العمل فى سنة أربع وثمانمائة ولم يتعطل منه صلاة جمعة ولا جماعة فى مدة عمارته .

قال ابن المتوج : ان ذرع هذا الجامع اثنان وأربعون ألف ذراع بذراع البز المصرى القديم — وهو ذراع العمل المستمر الى الآن — فمن ذلك مقدمه ثلاثة عشر ألف ذراع وأربعمائة وخمسة وعشرون ذراعا ، ومؤخره مثل ذلك ، وصحنه سبعة آلاف وخمسمائة ذراع ، وكل من جانبيه الشرقى والغربى ثلاثة آلاف وثمانمائة وخمسة وعشرون ذراعا . وذرعه كله بذراع العمل ثمانية وعشرون ألف ذراع .

وعدد أبوابه ثلاثة عشر بابا : منها فى القبلى باب الزرلختة الذى يدخل منه الخطيب — كان به شجرة زرلخت عظيمة قطعت فى سنة ست وستين وسبعمائة — وفى البحرى ثلاثة أبواب ، وفى الشرقى خمسة ، وفى الغربى أربعة . وعدد عمده ثلثمائة وثمانية وسبعون عمودا ، فالبحرية الشرقية كانت لجلوس قاضى القضاة بها فى كل أسبوع يومين .

وكان بهذا الجامع القصص ... قال القضاعى : روى نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : لم يقص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبى بكر ولا عمر ولا عثمان رضى الله عنهم ، وانما كان القصص فى زمن معاوية رضى الله عنه .

وذكر عمر بن شبة قال : قيل للحسن : متى أحدث القصص ؟ قال : فى خلافة عثمان بن عفان . قيل : من أول من قص ؟

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

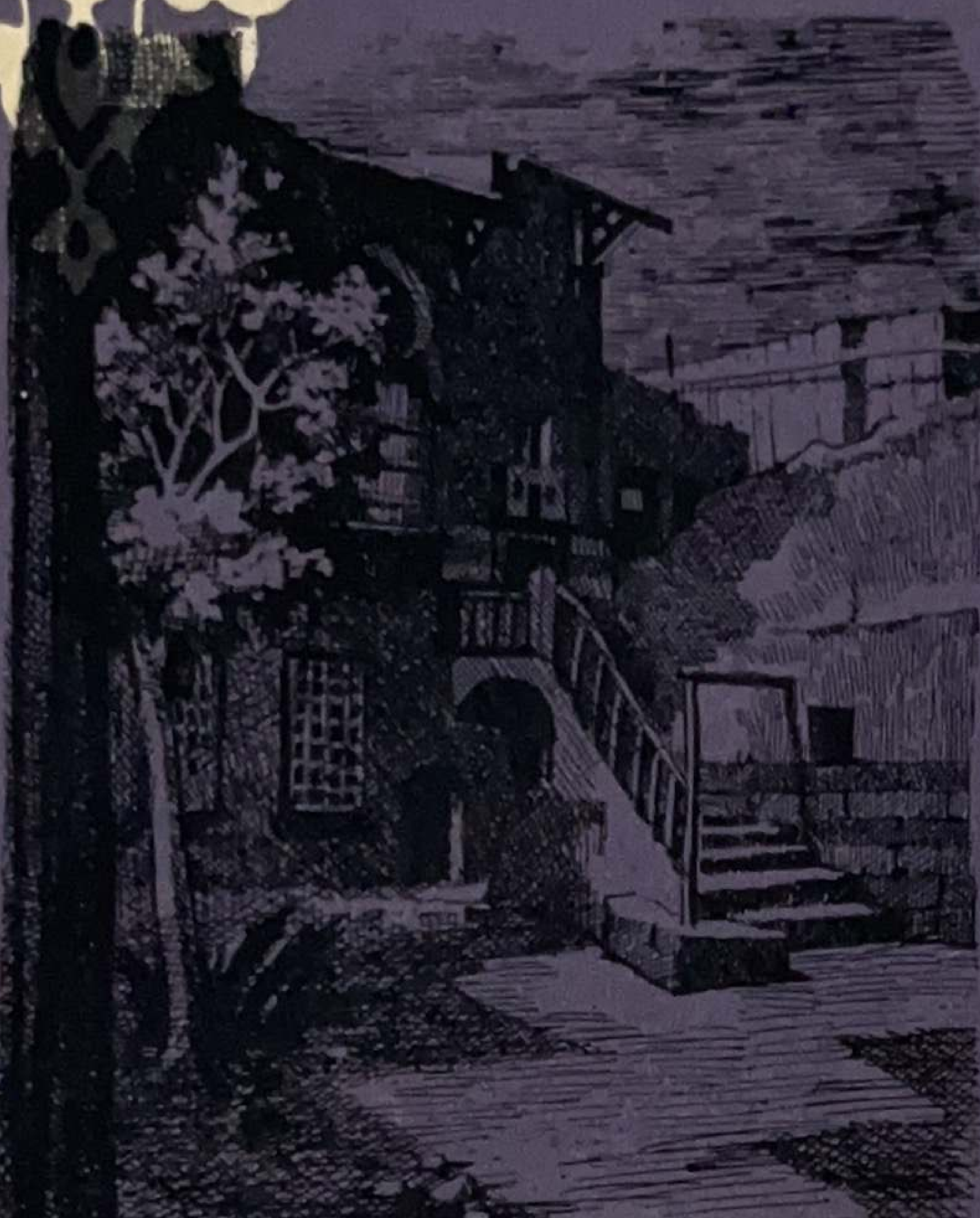
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

خطط المقريزى

الجزء
٣٦

كتاب
التحرير



"كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

قال : تميم الدارى .

وذكر عن ابن شهاب قال : أول من قص فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الدارى ... استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه ، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر . فاستأذن تميم عثمان بن عفان رضى الله عنه فى ذلك ، فأذن له أن يذكر يومين فى الجمعة . فكان تميم يفعل ذلك .

وروى ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، أن عليا رضى الله عنه قنت فدعا على قوم من أهل حربه . فبلغ ذلك معاوية ، فأمر رجلا يقص بعد الصبح ، وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام ... قال يزيد : وكان ذلك أول القصص .

وروى عن عبد الله بن مغفل قال : أمنا على رضى الله عنه فى المغرب . فلما رفع رأسه من الركعة الثالثة ذكر معاوية أولا ، وعمرو بن العاص ثانيا ، وأبا الأعور — يعنى السلمى — ثالثا ، وكان أبو موسى الرابع .

وقال الليث بن سعد : هما قصصان : قصص العامة ، وقصص الخاصة . فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه . وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية ... ولى رجلا على القصص . فاذا سلم من صلاة الصبح ، جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة .

ويقال ان أول من قص بمصر سليمان بن عتر التجيبى فى سنة ثمان وثلاثين ، وجمع له القضاء الى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأفرد * بالقصص . وكانت ولايته على القصص والقضاء سبعا وثلاثين سنة : منها سنتان قبل القضاء . ويقال انه كان يختم القرآن فى كل ليلة ثلاث مرات ، وكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، ويسجد فى المفصل ، ويسلم تسليمة واحدة ، ويقرأ فى الركعة الأولى بالبقرة ، وفى الثانية بقل هو الله أحد ، ويرفع يديه فى القصص اذا دعا .

وكان عبد الملك بن مروان شكا الى العلماء ما انتشر عليه من أمور رعيته ، وتخوفه من كل وجه . فأشار عليه أبو حبيب الحمصى القاضى بأن يستنصر عليهم برفع يديه الى الله تعالى . فكان عبد الملك يدعو ، ويرفع يديه ، وكتب بذلك الى القصاص . فكانوا يرفعون أيديهم بالغداة والعشى .

وفى هذا الجامع مصحف أسماء ، وهو الذى تجاه المحراب الكبير . قال القضاعى : كان السبب فى كتب هذا المصحف أن الحجاج بن يوسف الثقفى كتب مصاحف ، وبعث بها الى الأمصار ، ووجه الى مصر بمصحف منها . فغضب عبد العزيز بن مروان من ذلك — وكان الوالى يومئذ من قبل أخيه عبد الملك — وقال : يبعث الى جند أنا فيه بمصحف . فأمر فكتب له هذا المصحف الذى فى المسجد الجامع اليوم .

(*) ص٢٥٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلما فرغ منه قال : من وجد فيه حرفا خطأ فله رأس أحمر وثلاثون دينارا . فتداوله القراء ، فأتى رجل من قراء الكوفة ، اسمه زرعة بن سهل الثقفى ، فقرأه تهجيا ، ثم جاء الى عبد العزيز بن مروان فقال له : انى قد وجدت فى المصحف حرفا خطأ .

فقال : مصحفى ؟

قال : نعم .

فنظر فاذا فيه « ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة » ، فاذا هى مكتوبة «نجعة» قد قدمت الجيم قبل العين . فأمر بالمصحف فأصلح ما كان فيه ، وأبدلت الورقة ، ثم أمر له بثلاثين دينارا وبرأس أحمر .

ولما فرغ من هذا المصحف ، كان يحمل الى المسجد الجامع غداة كل جمعة من دار عبد العزيز ، فيقرأ فيه ثم يقص ، ثم يرد الى موضعه . فكان أول من قرأ فيه عبد الرحمن ابن حجيرة الخولانى ، لأنه كان يتولى القصص والقضاء يومئذ وذلك فى سنة ست وسبعين . ثم تولى بعده القصص أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزنى ، وكان قاضيا بالاسكندرية قبل ذلك .

ثم توفى عبد العزيز فى سنة ست وثمانين ، فبيع هذا المصحف فى ميراثه . فاشتراه ابنه أبو بكر بألف دينار ، ثم توفى أبو بكر . فاشترته أسماء ابنة أبى بكر بن عبد العزيز بسبعمائة دينار ، فأمكنت الناس منه ، وشهرته فنسب اليها . فلما توفيت أسماء ، اشتراه أخوها الحكم بن عبد العزيز بن مروان من ميراثها بخمسمائة دينار .

فأشار عليه توبة بن نمر الحضرمى القاضى — وهو متولى القصص يومئذ بالمسجد الجامع بعد عقبة بن مسلم الهمدانى ، واليه القضاء ، وذلك فى سنة ثمان عشرة ومائة — فجعله فى المسجد الجامع ، وأجرى على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير فى كل شهر من غلة الاصطبل . فكان توبة أول من قرأ فيه بعد أن أقر فى الجامع .

وتولى القصص بعد توبة أبو اسماعيل خير ابن نعيم الحضرمى القاضى فى سنة عشرين ومائة ، وجمع له القضاء والقصص . فكان يقرأ فى المصحف قائما ، ثم يقص وهو جالس ، فهو أول من قرأ فى المصحف قائما . ولم تزل الأئمة يقرأون فى المسجد الجامع فى هذا المصحف فى كل يوم جمعة . الى أن ولى القصص أبو رجب العلاء بن عاصم الخولانى فى سنة اثنتين وثمانين ومائة ، فقرأ فيه يوم الاثنين .

وكان قد جعل المطلب الخزاعى ، أمير مصر من قبل المأمون ، رزق أبى رجب العلاء عشرة دنانير على القصص . وهو أول من سلم فى الجامع تسليمتين ، بكتاب ورد من المأمون يأمر فيه بذلك . وصلى خلفه محمد بن ادريس الشافعى حين قدم الى مصر ، فقال : هكذا تكون الصلاة ، ما صليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رجب ، ولا أحسن .

ولما ولى القصص حسن بن الربيع بن سليمان من قبل عنبسة بن اسحاق — أمير مصر من قبل المتوكل — فى سنة أربعين ومائتين ، أمر أن تترك قراءة « بسم الله

الرحمن الرحيم » فى الصلاة فتركها الناس ، وأمر أن تصلى التراويح خمس تراويح ، وكانت تصلى قبل ذلك ست تراويح ، وزاد فى قراءة المصحف يوما . فكان يقرأ يوم الاثنين ويوم الخميس ويوم الجمعة .

ولما ولى حمزة بن أيوب بن ابراهيم الهاشمى القصص — بكتاب من المكتفى — فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، صلى فى مؤخر المسجد حين نكس ، وأمر أن يحمل اليه المصحف ليقرأ فيه . فقيل له : انه لم يحمل المصحف الى أحد قبلك ، فلو قمت وقرأت فيه فى مكانه ؟

فقال : لا أفعل ، ولكن ائتونى به ، فان القرآن علينا أنزل ، والينا أتى . فأتى به فقرأ فيه فى المؤخر .

وهو أول من قرأ فى المصحف فى المؤخر ، ولم يقرأ فى المصحف بعد ذلك فى المؤخر . الى أن تولى أبو بكر محمد بن الحسن السوسى الصلاة والقصص فى اليوم العشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعمائة ، فنصب المصحف فى مؤخر الجامع حيال الفوارة ، وقرأ فيه أيام نكس الجامع . فاستمر الأمر على ذلك الى الآن .

ولما تولى القصص أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلم الملطى فى سنة احدى وثلثمائة ، عزم على القراءة فى المصحف فى كل يوم . فتكلم على بن قديد فى ذلك ومنع منه ، وقال : أعزم على أن يخلق المصحف ويقطعه ؟ أيرى عبد العزيز بن مروان حيا فيكتب له مثله ؟ فرجع الى القراءة ثلاثة * أيام .

(*) ص ٢٥٤ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

وكان قد حضر الى مصر رجل من أهل العراق ، وأحضر مصحفا ذكر أنه مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وأنه الذى كان بين يديه يوم الدار — وكان فيه أثر الدم — وذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر . ودفع المصحف الى عبد الله بن شعيب المعروف بابن بنت وليد القاضى ، فأخذه أبو بكر الخازن ، وجعله فى الجامع وشهره ، وجعل عليه خشبا منقوشا . وكان الامام يقرأ فيه يوما ، وفى مصحف أسماء يوما . ولم يزل على ذلك الى أن رفع هذا المصحف ، واقتصر على القراءة فى مصحف أسماء ، وذلك فى أيام العزيز بالله لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وسبعين وثلثمائة .

وقد أنكر قوم أن يكون هذا المصحف مصحف عثمان رضى الله عنه ، لأن نقله لم يصح ، ولم يثبت بحكاية رجل واحد .

ورأيت أنا هذا المصحف ، وعلى ظهره ما نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين . هذا المصحف الجامع لكتاب الله ، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، حمله المبارك مسعود بن سعد الهيتى لجماعة المسلمين القراء للقرآن التالين له ، المتقربين الى الله جل ذكره بقراءته والمتعلمين له ، ليكون محفوظا أبدا مابقى ورقه ولم يذهب اسمه ... ابتغاء ثواب الله عز وجل ، ورجاء غفرانه . وجعله عدة ليوم فقره وفاقته وحاجته اليه . أناله الله ذلك برأفته ، وجعل ثوابه بينه وبين جماعة من نظر فيه » .

وقد درس ما بعد هذا الكلام من ظهر المصحف . والمندرس يشبه أن يكون :

« وتبصر فى ورقه ، وقصد بايداعه فسطاط مصر فى المسجد الجامع ، جامع المسلمين العتيق ، ليحفظ حفظ مثله مع سائر مصاحف المسلمين ، فرحم الله من حفظه ومن قرأ فيه ومن عنى به ، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء مستهل ذى القعدة سنة سبع وأربعين وثلثمائة وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى آله وسلم تسليما كثيرا ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

قال ابن المتوج : ودليل بطلان ما قاله هذا المعترض — ظهور التعصب على عثمان رضى الله عنه من تجيب وخلفائهم — أن الناس قد جربوا هذا المصحف ، وهو الذى على الكرسى الغربى من مصحف أسماء ، أنه ما فتح قط الا وحدث حادث فى الوجود لتحقيق ما حدث أولا . والله أعلم .

قال القضاعى : « ذكر المواضع المعروفة بالبركة من الجامع يستحب الصلاة والدعاء عندها » : منها البلاطة التى خلف الباب الأول فى مجلس ابن عبد الحكم .

ومنها باب البرادع ... روى عن رجل من صلحاء المصريين — يقال له أبو هارون الخرقى — قال : رأيت الله عز وجل فى منامى ، فقلت له : يارب أنت ترانى وتسمع كلامى ؟ قال : نعم . ثم قال : أتريد أن أريك بابا من أبواب الجنة ؟ قلت : نعم يارب . فأشار الى باب أصحاب البرادع ، أو الباب الأقصى مما يلى رحبة حارث . وكان أبو هارون هذا يصلى الظهر والعصر فيما بينهما .

وقال ابن المتوج : وعند المحراب الصغير ، الذى فى جدار الجامع الغربى ظاهر المقصورة فيما بين بابى الزيادة الغربية ، الدعاء عنده مستجاب .

قال : ومن ذلك باب مقصورة عرفة ، ومنها عند خرزة البئر التى بالجامع ، ومنها قبال اللوح الأخضر ، ومنها زاوية فاطمة . ويقال انها فاطمة ابنة عفان لما وصى والدها أن تترك لله فى الجامع ، فتركت فى هذا المكان فعرف بها .

ومنها سطح الجامع ، والطواف به سبع مرات : يبدأ بالأولى من باب الخزانة الأولى التى يستقبلها الداخل من باب السطح وهو يتلو الى أن يصل الى زاوية السطح ، التى عند المئذنة المعروفة بعرفة ، يقف عندها ثم يدعو بما أراد ، ثم يمر وهو يتلو الى أن يصل الى الركن الشرقى — عند المئذنة المشهورة بالكبيرة — ثم يدعو بما أراد . ويمر الى الركن البحرى الشرقى ، فيقف محاذيا لغرفة المؤذنين ويدعو . ثم يمر وهو يتلو الى المكان الذى ابتدأ منه ... يفعل ذلك سبع مرات فان حاجته تقضى .

قال القضاعى : ولم يكن الناس يصلون بالجامع بمصر صلاة العيد . حتى كانت سنة ست — ويقال سنة ثمان — وثلثمائة ، فصلى فيه رجل يعرف بعلى بن أحمد بن عبد الملك الفهمى — يعرف بابن أبى شيخة — صلاة الفطر . ويقال انه خطب من دفتر نظرا ، وحفظ

عنه اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم « مشركون » ! فقال بعض الشعراء :

وقام فى العيد لنا خاطب
فحرض الناس على الكفر

وتوفى سنة تسع وثلثمائة .

وبالجامع زوايا يدرس فيها الفقه : منها زاوية الامام الشافعى فعرفت به ، يقال انه درس بها الشافعى فعرفت به ، وعليها أرض بناحية سنديس ، وقفها السلطان الملك العزيز عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء .

ومنها الزاوية المجدية بصدر الجامع ، فيما بين المحراب الكبير ومحراب الخمس ، داخل المقصورة الوسطى ، بجوار المحراب الكبير . رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهذب الدين أبى المحاسن مهلب بن حسن بن بركات بن على بن * غياث المهلبى الأزدى البهنسى الشافعى ، وزير الملك الأشرف موسى ابن العادل أبى بكر بن أيوب بحران ، وقرر فى تدريسها قريبه قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسى ، وعمل على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة . ويعد تدريسها من المناصب الجليلة ، وتوفى المجد فى صفر سنة ثمان وعشرين وستمائة بدمشق عن ثلاث وستين سنة .

ومنها الزاوية الصاحبية حول عرفة . رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد ابن بهاء الدين بن حنا ، وجعل لها مدرسين :

(*) ص٢٥٥ جـ٢ ، ط.بولاق .

أحدهما مالكى ، والآخر شافعى ، وجعل عليها وقفا بظاهر القاهرة بخط البراذعيين .

ومنها الزاوية الكمالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يدخل اليه من سوق الغزل . رتبها كمال الدين السمنودى ، وعليها فندق بمصر موقوف عليها .

ومنها الزاوية التاجية أمام المحراب الخشب . رتبها تاج الدين السطحى ، وجعل عليها دورا بمصر موقوفة عليها .

ومنها الزاوية المعينية فى الجانب الشرقى من الجامع . رتبها معين الدين الدهروطى ، وعليها وقف بمصر .

ومنها الزاوية العلائية — تنسب لعلاء الدين الضرير — وهى فى صحن الجامع ، وهى لقراءة ميعاد .

ومنها الزاوية الزينية . رتبها الصاحب زين الدين لقراءة ميعاد أيضا .

ذكر ذلك ابن المتوج .

وأخبرنى المقرى الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى رحمه الله ، قال : أخبرنى المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ، قال : أخبرنى العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر ، قبل الوباء الكائن فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، بضعا وأربعين حلقة لاقراء العلم لا تكاد تبرح منه .

قال ابن المأمون : حدثنى القاضى المكين ابن حيدرة — وهو من أعيان الشهود

بمصر — أن من جملة الخدم التي كانت بيد والده مشارفة الجامع العتيق ، وأن القومة بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود عنده الى أن يعملوا ثمانية عشر ألف فتيلة ، وأن المطلق برسمه خاصة في كل ليلة برسم وقوده أحد عشر قنطارا ونصف زيتا طيبا .

ذكر المحاريب التي بديار مصر وسبب اختلافها وتعيين الصواب فيها وتبيين الخطأ منها

اعلم أن محاريب ديار مصر التي يستقبلها المسلمون في صلواتهم أربعة محاريب :

أحدها محراب الصحابة رضى الله عنهم ، الذي أسسوه في البلاد التي استوطنوها والبلاد التي كثر ممرهم بها من اقليم مصر . وهو محراب المسجد الجامع بمصر — المعروف بجامع عمرو — ومحراب المسجد الجامع بالجيزة ، وبمدينة بلبيس ، وبالاسكندرية ، وقوص ، وأسوان . وهذه المحاريب المذكورة على سمت واحد ، غير أن محاريب ثغر أسوان أشد تشريقا من غيرها ... وذلك أن أسوان مع مكة ، شرفها الله تعالى ، في الاقليم الثاني ، وهو الحد الغربي من مكة بغير ميل الى الشمال — ومحراب بلبيس مغرب قليلا .

والمحراب الثاني محراب مسجد أحمد بن طولون ، وهو منحرف عن سمت محراب الصحابة . وقد ذكر في سبب انحرافه أقوال :

منها أن أحمد بن طولون ، لما عزم على بناء هذا المسجد ، بعث الى محراب مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ سمته ، فاذا هو مائل عن خط سمت القبلة المستخرج بالصناعة نحو العشر درج الى جهة الجنوب . فوضع حينئذ محراب مسجده هذا مائلا عن خط سمت القبلة الى جهة الجنوب بنحو ذلك ، اقتداء منه بمحراب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه ، وخط له المحراب . فلما أصبح وجد النمل قد أطاف بالمكان الذي خطه له رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام . وقيل غير ذلك .

وأنت ان صعدت الى سطح جامع ابن طولون ، رأيت محرابه مائلا عن محراب جامع عمرو بن العاص الى الجنوب ، ورأيت محراب المدارس التي حدثت الى جانبه قد انحرفت عن محرابه الى جهة الشرق ، وصار محراب جامع عمرو فيما بين محراب ابن طولون والمحاريب الأخر .

وقد عقد مجلس بجامع ابن طولون ، في ولاية قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة ، حضره علماء الميقات — منهم الشيخ تقي الدين محمد بن محمد بن موسى الغزولي ، والشيخ أبو الطاهر محمد بن محمد — ونظروا في محرابه ، فأجمعوا على أنه منحرف عن خط سمت القبلة الى جهة الجنوب ، مغربا بقدر أربع عشرة درجة . وكتب بذلك محضر ، وأثبت على ابن جماعة .

والمحراب الثالث محراب جامع القاهرة — المعروف بالجامع الأزهر — وما في سمته من بقية محاريب القاهرة . وهي محاريب يشهد

الامتحان بتقدم واضعها في معرفة استخراج القبلة ، فانها على خط سمت القبلة من غير ميل عنه ولا انحراف ألبتة .

والمحراب الرابع محاريب المساجد التي في قرى بلاد الساحل ، فانها تخالف محاريب الصحابة . الا أن محراب جامع منية غمر قريب من سمت محاريب الصحابة . فان الوزير أبا * عبد الله محمد بن فاتك ، المنعوت بالمأمون البطائحي — وزير الخليفة الآمر بأحكام الله أبي علي منصور بن المستعلي بالله — أنشأ جامعا بمنية زفتا في سنة ست عشرة وخمسمائة فجعل محرابه على سمت المحاريب الصحيحة .

وفي قرافة مصر بجوار مسجد الفتح عدة مساجد تخالف محاريب الصحابة مخالفة فاحشة . وكذلك بمدينة مصر الفسطاط غير مسجد على هذا الحكم .

فأما محاريب الصحابة التي بفسطاط مصر والاسكندرية فان سمتها يقابل مشرق الشتاء — وهو مطالع برج العقرب — مع ميل قليل الى ناحية الجنوب . ومحاريب مساجد القرى ، وما حول مسجد الفتح بالقرافة ، فانها تستقبل خط نصف النهار — الذي يقال له خط الزوال — وتميل عنه الى جهة المغرب . وهذا الاختلاف بين هذين المحرابين اختلاف فاحش يفضي الى ابطال الصلاة .

وقد قال ابن عبد الحكم : قبلة أهل مصر أن يكون القطب الشمالي على الكتف الأيسر . وهذا سمت محاريب الصحابة . قال : واذا طلعت منازل العقرب ، وتكملت صورته ، فمحاذاته سمت القبلة لديار مصر وبرقة وافريقية وما والاها .

وفي الفرقدين والقطب الشمالي كفاية للمستدلين : فانهم ان كانوا مستقبلين في مسيرهم من الجنوب جهة الشمال استقبلوا القطب والفرقدين ، وان كانوا سائرين الى الجنوب من الشمال استدبروها ، وان كانوا سائرين الى الشرق من المغرب جعلوها على الأذن اليسرى ، وان كانوا سائرين من الشرق الى المغرب جعلوها على الأذن اليمنى ، وان كان مسيرهم الى النكباء التي بين الجنوب والصبا جعلوها على الكتف الأيسر ، وان كان مسيرهم الى النكباء التي بين الجنوب والدبور جعلوها على الكتف الأيمن ، وان كان مسيرهم الى النكباء التي بين الشمال والدبور وجعلوها على الحاجب الأيمن ، وان كان مسيرهم الى النكباء التي بين الشمال والصبا جعلوها على الحاجب الأيسر .

واذا عرف ذلك ، فانه يستحيل تصويب محرابين مختلفين في قطر واحد اذا زاد اختلافهما على مقدار ما يتسامح به في التيامن والتياسر . وبيان ذلك أن كل قطر من أقطار الأرض ، كبلاد الشام وديار مصر ونحوهما من الأقطار ، قطعة من الأرض واقعة في مقابلة جزء من الكعبة ، والكعبة تكون في جهة من جهات ذلك القطر . فاذا اختلف محرابان في قطر واحد ، فانا نتيقن أن أحدهما صواب والآخر خطأ . الا أن يكون القطر قريبا من مكة ، وخطته التي هو محدود بها متسعة اتساعا كثيرا يزيد على الجزء الذي يخصه لو وزعت الكعبة أجزاء متماثلة ، فانه حينئذ يجوز التيامن والتياسر في محاريبه . وذلك مثل بلاد

(*) ص٢٥٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

البجة ، فانها على الساحل الغربى من بحر القلزم ، ومكة واقعة فى شرقيها ، ليس بينهما الا مسافة البحر فقط وما بين جدة ومكة من البر .

وخطة بلاد البجة مع ذلك واسعة مستطيلة على الساحل : أولها عيذاب ، وهى محاذية لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتميل عنها فى الجنوب ميلا قليلا ، والمدينة شامية عن مكة بنحو عشرة أيام . وآخر بلاد البجة من ناحية الجنوب سواكن ، وهى مائلة فى ناحية الجنوب عن مكة ميلا كثيرا .

وهذا المقدار من طول بلاد البجة يزيد على الجزء الذى يخص هذه الخطة من الأرض ، لو وزعت الأرض أجزاء متساوية الى الكعبة ، فيتعين — والحالة هذه — التيامن أو التياسر فى طرفى هذه البلاد لطلب جهة الكعبة .

وأما اذا بعد القطر عن الكعبة بعدا كثيرا ، فانه لا يضر اتساع خطته ، ولا يحتاج فيه الى تيامن ولا تياسر لاتساع الجزء الذى يخصه من الأرض . فان كل قطر منها له جزء يخصه من الكعبة ، من أجل أن الكعبة من البلاد المعمورة كالكرة من الدائرة ، فالأقطار كلها فى استقبال الكعبة محيطة بها كاحاطة الدائرة بمركزها .

وكل قطر فانه يتوجه الى الكعبة فى جزء يخصه . والأجزاء المنقسمة — اذا قدرت الأرض كالدائرة — فانها تتسع عند المحيط ، وتتضايق عند المركز . فاذا كان القطر بعيدا عن الكعبة ، فانه يقع فى متسع الحد ، ولا يحتاج فيه الى تيامن ولا تياسر ، بخلاف ما اذا قرب القطر من الكعبة فانه يقع فى متضايق الجزء ، ويحتاج عند ذلك الى تيامن أو تياسر .

فان فرضنا أن الواجب اصابة عين الكعبة فى استقبال الصلاة لمن بعد عن مكة — وقد علمت ما فى هذه المسألة من الاختلاف بين العلماء — فانه لا يتسامح فى اختلاف المحاريب بأكثر من قدر التيامن والتياسر الذى لا يخرج عن حد الجهة ، فلو زاد الاختلاف حكم ببطلان أحد المحرابين ولابد . اللهم الا أن يكونا فى قطرين بعيدين بعضهما من بعض ، وليسا على خط واحد من مسامتة الكعبة ، وذلك كبلاد الشام وديار مصر . فان البلاد الشامية لها جانبان ، وخطتها متسعة مستطيلة فى شمال مكة ، وتمتد أكثر من الجزء الخاص بها بالنسبة الى مقدار بعدها عن الكعبة .

وفى هذين القطرين يجرى ما تقدم ذكره فى أرض البجة . الا أن التيامن والتياسر ظهوره فى البلاد الشامية أقل من ظهوره فى أرض البجة ، من أجل بعد البلاد الشامية عن الكعبة وقرب أرض البجة * . وذلك أن البلاد الشامية وقعت فى متسع الجزء الخاص بها ، فلم يظهر أثر التيامن والتياسر ظهورا كثيرا كظهوره فى أرض البجة ، لأن البلاد الشامية لها جانب شرقى وجانب غربى ووسط .

فجانبها الغربى هو أرض بيت المقدس وفلسطين الى العريش أول حد مصر ، وهذا الجانب من البلاد الشامية يقابل الكعبة على حد مهب النكباء التى بين الجنوب والصبا .

(*) ص٢٥٧ ج٢ ، ط. بولاق .

وأما جانب البلاد الشامية الشرقى فانه ما كان مشرقا من مدينة دمشق الى حلب والفرات ، وما يسامت ذلك من بلاد الساحل ، وهذه الجهة تقابل الكعبة مشرقا عن أوسط مهب الجنوب قليلا . وأما وسط بلاد الشام فانها دمشق وما قاربها ، وتقابل الكعبة على وسط مهب الجنوب ، وهذا هو سمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ميل يسير عنه الى ناحية المشرق .

وأما مصر فانها تقابل الكعبة فيما بين الصبا ومهب النكباء التى بين الصبا والجنوب . ولذلك لما اختلف هذان القطران — أعنى مصر والشام — فى محاذاة الكعبة ، اختلفت محاريبهما . وعلى ذلك وضع الصحابة رضى الله عنهم محاريب الشام ومصر على اختلاف السمتين . فأما مصر بعينها وضواحيها ، وما هو فى حدها أو على سمتها ، أو فى البلاد الشامية ، وما فى حدها أو على سمتها ... فانه لا يجوز فيها تصويب محرابين مختلفين اختلافا بينا .

فان تباعد القطر عن القطر بمسافة قريبة أو بعيدة ، وكان القطران على سمت واحد فى محاذاة الكعبة ، لم يضر حينئذ تباعدهما ، ولا تختلف محاريبهما ، بل تكون محاريب كل قطر منهما على حد واحد وسمت واحد ... وذلك كمصر وبرقة وافريقية وصقلية والأندلس . فان هذه البلاد وان تباعد بعضها عن بعض ، فانها كلها تقابل الكعبة على حد واحد ، وسمتها جميعها سمت مصر من غير اختلاف ألبتة . وقد تبين بما تقرر حال الأقطار المختلفة من الكعبة فى وقوعها منها .

وأما اختلاف محاريب مصر فان له أسبابا : أحدها حمل كثير من الناس قوله صلى الله عليه وسلم — الذى رواه الحافظ أبو عيسى الترمذى ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه — « ما بين المشرق والمغرب قبلة » على العموم . وهذا الحديث قد روى موقوفا على عمر وعثمان وعلى وابن عباس ومحمد ابن الحنفية رضى الله عنهم ، وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا .

قال أحمد بن حنبل : هذا فى كل البلدان ... قال : هذا المشرق وهذا المغرب وما بينهما قبلة .

قيل له : فصلاة من صلى بينهما جائزة ؟

قال : نعم ، وينبغى أن يتحرى الوسط .

وقال أحمد بن خالد : قول عمر « ما بين المشرق والمغرب قبلة » قاله بالمدينة . فمن كانت قبلته مثل قبلة المدينة ، فهو فى سعة مما بين المشرق والمغرب . ولسائر البلدان من السعة فى القبلة مثل ذلك بين الجنوب والشمال .

وقال أبو عمر بن عبد البر : لا خلاف بين أهل العلم فيه .

قال مؤلفه رحمه الله : اذا تأملت وجدت هذا الحديث يختص بأهل الشام والمدينة ، وما على سمت تلك البلاد شمالا وجنوبا فقط . والدليل على ذلك أنه يلزم من حمله على العموم ابطال التوجه الى الكعبة فى بعض الأقطار ، والله سبحانه قد افترض على الكافة أن يتوجهوا الى الكعبة فى الصلاة حيثما كانوا بقوله تعالى « ومن حيث خرجت فول وجهك

شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

وقد عرفت — ان كنت تمهرت فى معرفة البلدان وحدود الأقاليم — أن الناس فى توجههم الى الكعبة كالدائرة حول المركز : فمن كان فى الجهة الغربية من الكعبة ، فان جهة قبلة صلاته الى المشرق . ومن كان فى الجهة الشرقية من الكعبة ، فانه يستقبل فى صلاته جهة المغرب . ومن كان فى الجهة الشمالية من الكعبة ، فانه يتوجه فى صلاته الى جهة الجنوب . ومن كان فى الجهة الجنوبية من الكعبة ، كانت صلاته الى جهة الشمال .

ومن كان من الكعبة فيما بين المشرق والجنوب ، فان قبلته فيما بين الشمال والمغرب . ومن كان من الكعبة فيما بين الجنوب والمغرب ، فان قبلته فيما بين الشمال والمشرق . ومن كان من الكعبة فيما بين المشرق والشمال ، فقبلته فيما بين الجنوب والمغرب . ومن كان من الكعبة فيما بين الشمال والمغرب ، فقبلته فيما بين الجنوب والمشرق .

فقد ظهر ما يلزم ، من القول بعموم هذا الحديث ، من خروج أهل المشرق الساكنين به وأهل المغرب أيضا ، عن التوجه الى الكعبة فى الصلاة عينا وجهة . لأن من كان مسكنه من البلاد ما هو فى أقصى المشرق من الكعبة ، لو جعل المشرق عن يساره والمغرب عن يمينه ، لكان انما يستقبل حينئذ جنوب أرضه ، ولم يستقبل قط عين الكعبة ولا جهتها .

فوجب ولابد حملُ الحديث على أنه خاص بأهل المدينة والشام وما على سمت ذلك من البلاد . بدليل أن المدينة النبوية واقعة بين مكة وبين أوسط الشام على خط مستقيم ، والجانب الغربى من بلاد الشام — التى هى أرض المقدس وفلسطين — يكون عن يمين من يستقبل بالمدينة الكعبة ، والجانب الشرقى — الذى هو حمص وحلب وما والى ذلك — واقع عن يسار من استقبل * الكعبة بالمدينة .

والمدينة واقعة فى أوسط جهة الشام على جهة مستقيمة . بحيث لو خرج خط من الكعبة ومر على استقامة الى المدينة النبوية ، لنفذ منها الى أوسط جهة الشام سواء . وكذلك لو خرج خط من مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوجه على استقامة ، لوقع فيما بين الميزاب من الكعبة وبين الركن الشامى .

فلو فرضنا أن هذا الخط خرق الموضع الذى وقع فيه من الكعبة ومر ، لنفذ الى بيت المقدس عا ىاستواء من غير ميل ولا انحراف ألبتة . وصار موقع هذا الخط فيما بين نكباء الشمال والدبور وبين القطب الشمالى ، وهو الى القطب الشمالى أقرب وأميل ، ومقابلته ما بين أوسط الجنوب ونكباء الصبا والجنوب ، وهو الى الجنوب أقرب .

والمدينة النبوية مشرقة عن هذا السمت ، ومغربة عن سمت الجانب الآخر من بلاد الشام — وهو الجانب الغربى — تغريبا يسيرا . فمن يستقبل مكة بالمدينة يصير المشرق عن يساره ، والمغرب عن يمينه ، وما بينهما فهو قبلته ، وتكون حينئذ الشام بأسرها وجملة بلادها خلفه . فالمدينة على هذا فى أوسط جهات البلاد الشامية .

(*) ص٢٥٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

ويشهد بصدق ذلك ما رويناه من طريق مسلم رحمه الله ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : رقيت على بيت أختى حفصة ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا لحاجته ، مستقبلَ الشام مستدبر القبلة . وله أيضا من حديث ابن عمر : بينا الناس فى صلاة الصبح ، اذ جاءهم آت فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، فاستدار الى الكعبة .

فهذا — أعزك الله — أوضح دليل أن المدينة بين مكة والشام على حد واحد ، وأنها فى أوسط جهة بلاد الشام . فمن استقبل بالمدينة الكعبة ، فقد استدبر الشام . ومن استدبر بالمدينة الكعبة ، فقد استقبل الشام .

ويكون حينئذ الجانب الغربى من بلاد الشام ، وما على سمته من البلاد ، جهة القبلة عندهم أن يجعل الواقف مشرق الصيف عن يساره ، ومغرب الشتاء عن يمينه ، فيكون ما بين ذلك قبلته .

وتكون قبلة الجانب الشرقى من بلاد الشام وما على سمت ذلك من البلدان ، أن يجعل المصلى مغرب الصيف عن يمينه ، ومشرق الشتاء عن يساره ، وما بينهما قبلته .

ويكون أوسط البلاد الشامية — التى هى حد المدينة النبوية — قبلة المصلى بها أن يجعل مشرق الاعتدال عن يساره ، ومغرب الاعتدال عن يمينه ، وما بينهما قبلة له .

فهذا أوضح استدلال على أن الحديث خاص بأهل المدينة ، وما على سمتها من البلاد الشامية ، وما وراءها من البلدان المسامتة لها .

وهكذا أهل اليمن وما على سمت اليمن من البلاد . فان القبلة واقعة فيما هنالك بين المشرق والمغرب ، لكن على عكس وقوعها فى البلاد الشامية . فانه تصير مشارق الكواكب فى البلاد الشامية ، التى على يسار المصلى ، واقعة عن يمين المصلى فى بلاد اليمن . وكذلك كل ما كان من المغارب عن يمين المصلى بالشام ، فانه ينقلب عن يسار المصلى باليمن . وكل من قام ببلاد اليمن مستقبلا الكعبة ، فانه يتوجه الى بلاد الشام فيما بين المشرق والمغرب .

وهذه الأقطار سكانها هم المخاطبون بهذا الحديث ، وحكمه لازم لهم ، وهو خاص بهم دون من سواهم من أهل الأقطار الأخر . ومن أجل حمل هذا الحديث على العموم ، كان السبب فى اختلاف محاريب مصر .

السبب الثانى فى اختلاف محاريب مصر : أن الديار المصرية لما افتتحها المسلمون ، كانت خاصة بالقبط والروم مشحونة بهم ، ونزل الصحابة رضى الله عنهم من أرض مصر فى موضع الفسطاط — الذى يعرف اليوم بمدينة مصر — وبالاسكندرية ، وتركوا سائر قرى مصر بأيدى القبط ... كما تقدم فى موضعه من هذا الكتاب .

ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى ، وانما كانت رابطة تخرج الى الصعيد ، حتى اذا جاء أوان الربيع انتشر الأتباع فى القرى لرعى الدواب ومعهم طوائف من السادات . ومع ذلك فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينهى الجند عن الزرع ، ويبعث

الى قراه الاجناد بطعنه الرعية الطعامهم وأرزاق عيالهم ، وتعاهم عن الزرع .

وروى الامام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فى كتاب « فتوح مصر » من طريق ابن وهب ، عن حيوة بن شريح ، عن بكر بن عمرو ، عن عبد الله بن هبيرة : أن عمر بن الخطاب أمر مناديه أن يخرج الى أمراء الاجناد يتقدمون الى الرعية : أن عطاءهم قائم ، وأن أرزاق عيالهم سائل ، فلا يزرعون ولا يزارعون .

قال ابن وهب : وأخبرنى شريك بن عبد الرحمن المرادى ، قال : بلغنا أن شريك بن سمى الغطيفى ، أتى الى عمرو بن العاص ، فقال : انكم لا تعطونا ما يحسبنا أفتأذن لى بالزرع ؟

فقال له عمرو : ما أقدر على ذلك .

فزرع شريك من غير اذن عمرو . فلما بلغ ذلك عمرا ، كتب الى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سمى الغطيفى حرث بأرض مصر . فكتب اليه عمر « أن ابعث الى به » .

فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو أقرأه شريكا فقال شريك لعمرو : قتلتنى ياعمرو .

فقال عمرو : ما أنا بالذى قتلتك ، أنت صنعت هذا بنفسك .

فقال له : اذا كان هذا من رأيك فأذن لى بالخروج من غير * كتاب ، ولك على عهد الله أن أجعل يدى فى يده .

فأذن له بالخروج . فلما وقف على عمر

قال : تؤمننى ياأمير المؤمنين ؟

قال : ومن أى الأجناد أنت ؟

قال : من جند مصر .

قال : فلعلك شريك بن سمى الغطيفى .

قال : نعم ياأمير المؤمنين .

قال : لأجعلنك نكالا لمن خلفك .

قال : أوتقبل منى ما قبل الله تعالى من العباد ؟

قال : وتفعل ؟

قال : نعم .

فكتب الى عمرو بن العاص أن شريك بن سمى جاءنى تائبا فقبلت منه .

قال : وحدثنا عبد الله بن صالح بن عبد الرحمن بن شريح ، عن أبى قبيل ، قال : كان الناس يجتمعون بالفسطاط اذا قفلوا ، فاذا حضر مرافق الريف خطب عمرو بن العاص الناس فقال : قد حضر مرافق الريف ويمكم فانصرفوا . فاذا حمض اللبن ، واشتد العود ، وكثر الذباب ، فحى على فسطاطكم ، ولا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه وأهزل جواده .

وقال ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، قال : كان عمرو يقول للناس اذا قفلوا من غزوهم : انه قد حضر الربيع ، فمن أحب منكم أن يخرج بفرسه يربعه فليفعل ، ولا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه وأهزل فرسه . فاذا حمض اللبن ، وكثر الذباب ، ولوى العود ، فارجعوا الى قيروانكم .

وعن ابن لهيعة ، عن الأسود بن مالك الحميرى ، عن بحير بن ذاخر المعافرى ، قال :

رحت أنا ووالدى الى صلاة الجمعة تهجيرا — وذلك بعد حميم النصارى بأيام يسيرة — فأطلنا الركوع ، اذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس ، فذعرت فقلت : ياأبت من هؤلاء ؟ فقال : يابنى هؤلاء الشرط .

فأقام المؤذنون الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر . فرأيت رجلا ربعة ، قصير القامة ، وافر الهامة ، أدعج أبلج ، عليه ثياب موشاة كأن به العقيان تألق ، عليه حلة وعمامة وجبة ... فحمد الله وأثنى عليه حمدا موجزا ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم .

فسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام ، ويأمر بالاقتصاد ، وينهى عن الفضول ، وكثرة العيال ، واخفاض الحال فى ذلك ... فقال : « يامعشر الناس اياكم وخلالا أربعا ، فانها تدعو الى النصب بعد الراحة ، والى الضيق بعد السعة ، والى الذلة بعد العزة . اياكم وكثرة العيال ، واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال فى غير درك ولا نوال ...

« ثم انه لابد من فراغ يؤول اليه المرء فى توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها . ومن صار الى ذلك ، فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه ، فيحوز من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه غافلا ...

« يامعشر الناس انه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر . فحى لكم — على بركة الله تعالى — الى ريفكم ، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، واربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وأثقالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ...

« واياكم والمومسات المعسولات ، فانهن يفسدن الدين ، ويقصرن الهمم ... حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لهم فيكم صهرا وذمة » . فكفوا أيديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم . ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة ، حططته من فريضته قدر ذلك ...

« واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم ، والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ولم يارسول الله ؟ قال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » ...

« فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم . فاذا يبس

---

* مراده جدة ، طوال .

العود ، وسخن الماء ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصـوح البقـل ، وانقطع الورد من الشجر ... فحى الى فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعياله ، على ما أطاق من سعتـه أو عسرته . أقول قولى هذا ، وأستحفظ الله عليكم » .

قال : فحفظت ذلك عنه . فقال والدى ، بعد انصرافنا الى المنزل ، لما حكيت له خطبته : انه يابنى يحذر الناس اذا انصرفوا اليه على الرباط كما حذرهم على الريف والدعة .

قال : وكان اذا جاء وقت الربيع كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم الى حيث أحبوا . وكانت القرى التى يأخذ فيها معظمهم منوف وسمنود وأهناس وطحا . وكان أهل الراية متفرقين : فكان آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد يأخذون فى منوف ووسيم ، وكانت هذيل تأخذ فى بنا وبوصير ، وكانت عدوان تأخذ فى بوصير وقرى عك . والذى يأخذ فيه معظمهم بوصير ومنوف وسنديس وأتريب .

وكانت بلى تأخذ فى منف وطرانية ، وكانت فهم تأخذ فى أتريب وعين * شمس ومنوف ، وكانت مهرة تأخذ فى منا ونمى وبسطة ووسيم ، وكانت لخم تأخذ فى الفيوم وطرانية وقربيط ، وكانت جذام تأخذ فى قربيط وطرانية ، وكانت حضرموت تأخذ فى بنا وعين شمس وأتريب ، وكانت مراد تأخذ فى منف والفيوم ومعهم عبس بن زوف ، وكانت حمير تأخذ فى بوصير وقرى أهناس ، وكانت خولان تأخذ فى قرى أهناس والقيس والبهنسا .

(*) ص٢٦٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

وآل وعلة يأخذون فى سفط من بوصير ، وآل أبرهة يأخذون فى منف ، وغفار وأسلم يأخذون مع وائل من جذام وسعد فى بسطة وقربيط وطرانية ، وآل يسار بن ضبة فى أتريب . وكانت المعافر تأخذ فى أتريب وسخا ومنوف ، وكانت طائفة من تجيب ومراد يأخذون باليدقون .

وكان بعض هذه القبائل ربما جاور بعضا فى الربيع ، ولا يوقف فى معرفة ذلك على أحد ... الا أن معظم القبائل كانوا يأخذون حيث وصفنا . وكان يكتب لهم بالربيع فيربعون ما أقاموا وباللبن ، وكان لغفار وليث أيضا مربع بأتريب .

قال : وأقامت مدلج بخربتا فاتخذوها منزلا وكان معهم نفر من حمير حالفوهم فيها فهى منازلهم ، ورجعت خشين وطائفة من لخم وجذام فنزلوا أكتاف صان وابليل وطرانية . ولم تكن قيس بالحوف الشرقى قديما ، وانما أنزلهم به ابن الحبحاب . وذلك أنه وفد الى هشام بن عبد الملك ، فأمر له بفريضة خمسة آلاف رجل ، فجعل ابن الحبحاب الفريضة فى قيس ، وقدم بهم فأنزلهم الحوف الشرقى بمصر .

فانظر — أعزك الله — ما كان عليه الصحابة وتابعوهم عند فتح مصر من قلة السكنى بالريف . ومع ذلك فكانت القرى كلها فى جميع الاقليم ، أعلاه وأسفله ، مملوءة بالقبط والروم . ولم ينتشر الاسلام فى قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب — مولى سلول — قيسا بالحوف الشرقى . فلما كان فى المائة الثانية من

سنى الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها . وما برحت القبط تنقض وتحارب المسلمين الى ما بعد المائتين من سنى الهجرة .

قال أبو عمرو محمد بن يوسف الكندى فى كتاب « أمراء مصر » : وفى امرة الحر بن يوسف أمير مصر ، كتب عبيد الله بن الحبحاب — صاحب خراج مصر — الى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة . فزاد على كل دينار قيراطا ، فنقضت كورة تنو ونمى وقربيط وطرانية وعامة الحوف الشرقى . فبعث اليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم ، فقتل منهم خلق كثير . وذلك أول نقض القبط بمصر ، وكان نقضهم فى سنة تسع ومائة ، ورابط الحر بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر .

ثم نقض أهل الصعيد ، وحارب القبط عمالهم فى سنة احدى وعشرين ومائة . فبعث اليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر ، أهل الديوان ، فقتلوا من القبط ناسا كثيرا فظفر بهم . وخرج بحنس — وهو رجل من القبط — من سمنود ، فبعث اليه عبد الملك ابن مروان موسى بن نصير أمير مصر ، فقتل بحنس فى كثير من أصحابه ، وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة . وخالفت القبط أيضا برشيد ، فبعث اليهم مروان بن محمد الحمار — لما دخل مصر فارا من بنى العباس — عثمان ابن أبى سبعة فهزمهم .

وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا ، ونابذوا العمال ، وأخرجوهم فى سنة خمسين ومائة ، وصاروا الى شبرا سنباط ، وانضم اليهم أهل البشرود والأوسية والنخوم . فأتى الخبر يزيد بن حاتم ، فعقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه أهل مصر ، فخرجوا اليهم ، ولقيهم القبط وقتلوا من المسلمين ، فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط ، وانصرف العسكر الى مصر منهزما .

وفى ولاية موسى بن على بن رباح على مصر ، خرج القبط ببلهيت فى سنة ست وخمسين ومائة ، فخرج اليهم عسكر فهزمهم . ثم نقضت القبط فى جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين ، مع من نقض من أهل أسفل الأرض من العرب ، وأخرجوا العمال ، وخلعوا الطاعة لسوء سيرة العمال فيهم .

فكانت بينهم وبين الجيوش حروب امتدت الى أن قدم الخليفة عبد الله أمير المؤمنين المأمون الى مصر ، لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ، فعقد على جيش بعث به الى الصعيد ، وارتحل هو الى سخا .

وأوقع الأفشين بالقبط فى ناحية البشرود حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ، فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا وسبى أكثرهم .

وتتبع كل من يومأ اليه بخلاف ، فقتل ناسا كثيرا ، ورجع الى الفسطاط فى صفر ، ومضى الى حلوان ، وعاد لثمان عشرة خلت من صفر . فكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوما .

فانظر — أعزك الله — كيف كانت اقامة الصحابة انما هى بالفسطاط والاسكندرية ، وأنه لم يكن لهم كثير اقامة بالقرى ، وأن النصارى كانوا متمكنين من القرى والمسلمون

بها قليل ، وأنهم لم ينتشروا بالنواحى الا بعد عصر الصحابة والتابعين ... يتبين لك أنهم لم يؤسسوا فى القرى والنواحى مساجد .

وتفطن لشىء آخر . وهو أن القبط ما برحوا ، كما تقدم ، يثبتون لمحاربة المسلمين دالة منهم بما هم عليه من القوة والكثرة . فلما أوقع بهم المأمون الوقعة التى قلنا * ، غلب المسلمون على أماكنهم من القرى لما قتلوا منهم وسبوا ، وجعلوا عدة من كنائس النصارى مساجد .

وكنائس النصارى مؤسسة على استقبال المشرق واستدبار المغرب ، زعما منهم أنهم أمروا باستقبال مشرق الاعتدال ، وأنه الجنة لطلوع الشمس منه . فجعل المسلمون أبواب الكنائس محاريب عندما غلبوا عليها وصيروها مساجد ، فجاءت موازية لخط نصف النهار ، وصارت منحرفة عن محاريب الصحابة انحرافا كثيرا يحكم بخطئها وبعدها عن الصواب كما تقدم .

السبب الثالث : تساهل كثير من الناس فى معرفة أدلة القبلة . حتى انك لتجد كثيرا من الفقهاء لا يعرفون منازل القمر صورة وحسابا ، وقد علم من له ممارسة بالرياضيات أن بمنازل القمر يعرف وقت السحر وانتقال الفجر فى المنازل ، وناهيك بما يترتب على معرفة ذلك من أحكام الصلاة والصيام . وهذه المنازل التى للقمر من بعض ما يستدل به على القبلة والطرقات ، وهى من مبادىء العلم وقد جهلوه ، فمن أعوزه الأدنى فحريه أن يجهل ما هو أعلى منه وأدق .

(*) ص٢٦١ جـ٢ ، ط.بولاق .

السبب الرابع : الاعتذار بنجم سهيل ، فان كثيرا ما يقع الاعتذار عن مخالفة محاريب المتأخرين بأنها بنيت على مقابلة سهيل ، ومن هنا يقع الخطأ . فان هذا أمر يحتاج فيه الى تحرير ، وهو أن دائرة سهيل مطلعها جنوب مشرق الشتاء قليلا ، وتوسطها فى أوسط الجنوب ، وغروبها يميل عن أوسط الجنوب قليلا .

فلعل من تقدم من السلف أمر ببناء المساجد فى القرى على مقابلة مطالع سهيل — ومطلعه فى سمت قبلة مصر تقريبا — فجهل من قام بأمر البنيان فرق ما بين مطالع سهيل وتوسطه وغروبه ، وتساهل فوضع المحراب على مقابلة توسط سهيل — وهو أوسط الجنوب — فجاء المحراب حينئذ منحرفا عن السمت الصحيح انحرافا لا يسوغ التوجه اليه ألبتة .

السبب الخامس : أن المحاريب الفاسدة بديار مصر أكثرها فى البلاد الشمالية التى تعرف بالوجه البحرى . والذى يظهر أن الغلط دخل على من وضعها من جهة ظنه أن هذه البلاد لها حكم بلاد الشام . وذلك أن بلاد مصر التى فى الساحل كثيرة الشبه ببلاد الشام فى كثرة أمطارها وشدة بردها وحسن فواكهها ، فاستطرد الشبه حتى فى المحاريب ووضعها على سمت المحاريب الشامية ، فجاء شيئا خطأ .

وبيان ذلك أن هذه البلاد ليست بشمالية عن الشام ، حتى يكون حكمها فى استقبال الكعبة كالحكم فى البلاد الشامية ، بل هى مغربية عن الجانب الغربى من الشام بعدة أيام ،

وسمتاهما مختلفان فى استقبال الكعبة لاختلاف القطرين . فان الجانب الغربى من الشام كما تقدم مقابل ميزاب الكعبة على خط مستقيم ، وهو حيث مهب النكباء التى بين الشمال والدبور ، ووسط الشام كدمشق وما والاها شمال مكة من غير ميل ، وهم يستقبلون أوسط الجنوب فى صلاتهم بحيث يكون القطب الشمالى المسمى بالجدى وراء ظهورهم .

والمدينة النبوية بين هذا الحد من الشام وبين مكة مشرقة عن هذا الحد قليلا . فاذا كانت مصر مغربة عن الجانب الغربى من الشام بأيام عديدة ، تعين ووجب أن تكون محاريبها ولا بد مائلة الى جهة المشرق بقدر بعد مصر وتغريبها عن أوسط الشام ... وهذا أمر يدركه الحس ، ويشهد لصحته العيان . وعلى ذلك أسس الصحابة ، رضى الله عنهم ، المحاريب بدمشق وبيت المقدس مستقبلة ناحية الجنوب وأسسوا المحاريب بمصر مستقبلة المشرق مع ميل يسير عنه الى ناحية الجنوب .

فرض — رحمك الله — نفسك فى التمييز ، وعود نظرك التأمل ، واربأ بنفسك أن تقاد ، كما تقاد البهيمة ، بتقليدك من لا يؤمن عليه الخطأ . فقد نهجت لك السبيل فى هذه المسألة وألنت لك من القول ، وقربت لك حتى كأنك تعاين الأقطار وكيف موقعها من مكة .

ولى هنا مزيد بيان فيه الفرق بين اصابة العين واصابة الجهة . وهو أن المكلف لو وقف ، وفرضنا أنه خرج خط مستقيم من بين عينيه ، ومر حتى اتصل بجدار الكعبة من غير ميل عنها الى جهة من الجهات ... فانه لابد أن ينكشف لبصره مدى عن يمينه وشماله لاينتهى بصره الى غيره ان كان لاينحرف عن مقابلته .

فلو فرضنا امتداد خطين من كلا عينى الوقف — بحيث يلتقيان فى باطن الرأس على زاوية مثلثة ، ويتصلان بما انتهى اليه البصر من كلا الجانبين — لكان ذلك شكلا مثلثا ، بقسمة الخط الخارج من بين العينين الى الكعبة بنصفين ، حتى يصير ذلك الشكل بين مثلثين متساويين .

فالخط الخارج من بين عينى مستقبل الكعبة ، الذى فرق بين الزاويتين ، هو مقابلة العين التى اشترط الشافعى رحمه الله وجوب استقباله من الكعبة عند الصلاة . ومنتهى ما يكشف بصر المستقبل من الجانبين ، هو حد مقابلة الجهة التى قال جماعة من علماء الشريعة بصحة استقباله فى الصلاة .

والخطان الخارجان من العينين الى طرفيه هما آخر الجهة من اليمين والشمال . فمهما وقعت صلاة المستقبل على الخط الفاصل بين الزاويتين كان قد استقبل عين الكعبة ، ومهما وقعت صلاته منحرفة عن يمين الخط أو يساره — بحيث لا يخرج * استقباله عن منتهى حد الزاويتين المحدودتين بما يكشف بصره من الجانبين — فانه مستقبل جهة الكعبة . وان خرج استقباله عن حد الزاويتين من أحد الجانبين ، فانه يخرج فى استقباله عن حد جهة الكعبة .

وهذا الحد فى الجهة يتسع ببعد المدى ويضيق بقربه ، فأقصى ما ينتهى اليه اتساعه

(*) ص٢٦٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

ربع دائرة الأفق ... وذلك أن الجهات المعتبرة فى الاستقبال أربع : المشرق ، والمغرب ، والجنوب ، والشمال . فمن استقبل جهة من هذه الجهات ، كان أقصى ما ينتهى اليه سعة تلك الجهة ربع دائرة الأفق . وان انكشف لبصره أكثر من ذلك ، فلا عبرة به من أجل ضرورة تساوى الجهات . فانا لو فرضنا انسانا وقف فى مركز دائرة ، واستقبل جزءا من محيط الدائرة ، لكانت كلّ جهة من جهاته الأربع — التى هى وراءه وأمامه ويمينه وشماله — تقابل ربعا من أرباع الدائرة .

فتبين بما قلنا أن أقصى ما ينتهى اليه اتساع الجهة قدر ربع دائرة الأفق . فأى جزء من أجزاء دائرة الأفق قصده الواقف بالاستقبال فى بلد من البلدان ، كانت جهة ذلك الجزء المستقبل ربع دائرة الأفق ، وكان الخط الخارج من بين عينى الواقف الى وسط تلك الجهة هو مقابلة العين ، ومنتهى الربع من جانبيه يمنة ويسرة هو منتهى الجهة التى قد استقبلها .

فما خرج من محاريب بلد من البلدان عن حد جهة الكعبة ، لا تصح الصلاة لذلك المحراب بوجه من الوجوه . وما وقع فى جهة الكعبة ، صحت الصلاة اليه عند من يرى أن الفرض فى استقبال الكعبة اصابة جهتها . وما وقع فى مقابلة عين الكعبة ، فهو الأسد الأفضل الأولى عند الجمهور .

وان أنصفت علمت أنه مهما وقع الاستقبال فى مقابلة جهة الكعبة ، فانه يكون سديدا . وأقرب منه الى الصواب ما وقع قريبا من مقابلة العين يمنة أو يسرة ، بخلاف ما وقع بعيدا عن مقابلة العين فانه بعيد من الصواب ، ولعله هو الذى يجرى فيه الخلاف بين علماء الشريعة . والله أعلم .

وحيث تقرر الحكم الشرعى بالأدلة السمعية والبراهين العقلية فى هذه المسألة . فاعلم أن المحاريب المخالفة لمحاريب الصحابة ، التى بقرافة مصر وبالوجه البحرى من ديار مصر ، واقعة فى آخر جهة الكعبة من مصر ، وخارجة عن حد الجهة . وهى مع ذلك فى مقابلة مابين البجة والنوبة ، لا فى مقابلة الكعبة ، فانها منصوبة على موازاة خط نصف النهار .

ومحاريب الصحابة على موازاة مشرق الشتاء تجاه مطالع العقرب ، مع ميل يسير عنها الى ناحية الجنوب . فاذا جعلنا مشرق الشتاء المذكور مقابلة عين الكعبة لأهل مصر ، وفرضنا جهة ذلك الجزء ربع دائرة الأفق ، صار سمت المحاريب التى هى موازية لخط نصف النهار خارجا عن جهة الكعبة ، والذى يستقبلها فى الصلاة يصلى الى غير شطر المسجد الحرام . وهو خطر عظيم ، فاحذره .

واعلم أنّ صعيد مصر واقع فى جنوب مدينة مصر ، وقوص واقعة فى شرقى الصعيد وفيما بين مهب ريح الجنوب والصبا من ديار مصر . فالمتوجه من مدينة قوص الى عيذاب يستقبل مشرق الشتاء سواء الى أن يصل الى عيذاب ، ولا يزال كذلك اذا سار من عيذاب حتى ينتهى فى البحرَ الى جدة ، فاذا سار من جدة فى البر استقبل المشرق كذلك حتى يحل بمكة ، فاذا عاد من مكة استقبل المغرب .

فاعرف من هذا أن مكة واقعة فى النصف الشرقى من الربع الجنوبى بالنسبة الى أرض

مصر . وهذا هو سمت محاريب الصحابة التى بديار مصر والاسكندرية ، وهو الذى يجب أن يكون سمت جميع محاريب اقليم مصر .

برهان آخر : وهو أن من سار من مكة يريد مصر على الجادة ، فانه يستقبل ما بين القطب الشمالى — الذى هو الجدى — وبين مغرب الصيف مدة يومين وبعض اليوم الثالث ، وفى هذه المدة يكون مهب النكباء التى بين الشمال والمغرب تلقاء وجهه . ثم يستقبل بعد ذلك فى مدة ثلاثة أيام أوسط الشمال ، بحيث يبقى الجدى تلقاء وجهه ، الى أن يصلَ الى بدر .

فاذا سار من بدر الى المدينة النبوية ، صار مشرق الصيف تلقاء وجهه تارة ، ومشرق الاعتدال تارة الى أن ينتهى الى المدينة .

فاذا رجع من المدينة الى الصفراء ، استقبل مغرب الشتاء الى أن يعدل الى ينبع ، فيصير تارة يسير شمالا وتارة يسير مغربا ، ويكون ينبع من مكة على حد النكباء التى بين الشمال ومغرب الصيف .

فاذا سار من ينبع استقبل ما بين الجدى ومغرب الثريا — وهو مغرب الصيف — وهبت النكباء تلقاء وجهه الى أن يصل الى مدين . فاذا سار من مدين ، استقبل تارة الشمال وأخرى مغرب الصيف حتى يدخل أيلة . ومن أيلة لا يزال يستقبل مغرب الاعتدال تارة ، ويميل عنه الى جهة الجنوب مع استقبال مغرب الشتاء أخرى ، الى أن يصل الى القاهرة ومصر .

فلو فرضنا خطا خرج من محاريب مصر الصحيحة التى وضعها الصحابة ، ومر على استقامة من غير ميلٍ ولا انحراف ، لاتصل بالكعبة ولصق بها .

واعلم أن أهل مصر والاسكندرية وبلاد الصعيد وأسفل الأرض وبرقة وافريقية وطرابلس المغرب وصقلية والأندلس وسواحل المغرب الى السوس الأقصى والبحر المحيط ، وما على * سمت هذه البلاد ، يستقبلون فى صلاتهم من الكعبة ما بين الركن الغربى الى الميزاب .

فمن أراد أن يستقبل الكعبة فى شىء من هذه البلاد ، فليجعل بنات نعش اذا غربت خلف كتفه الأيسر ، واذا طلعت على صدغه الأيسر ، ويكون الجدى على أذنه اليسرى ، ومشرق الشمس تلقاء وجهه ، أو ريح الشمال خلف أذنه اليسرى ، أو ريح الدبور خلف كتفه الأيمن ، أو ريح الجنوب التى تهب من ناحية الصعيد على عينه اليمنى ... فانه حينئذ يستقبل من الكعبة سمت محاريب الصحابة الذين أمرنا الله باتباع سبيلهم ، ونهانا عن مخالفتهم بقوله عز وجل « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا » . ألهمنا الله بمنه اتباع طريقهم ، وصيرنا بكرمه من حزبهم وفريقهم . انه على كل شىء قدير .

جامع العسكر

هذا الجامع بظاهر مصر ، وهو حيث الفضاء الذى هو اليوم فيما بين جامع أحمد بن

(*) ص٢٦٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

طولون وكوم الجارح بظاهر مدينة مصر ، وكان الى جانب الشرطة والدار التى يسكنها أمراء مصر ، ومن هذه الدار الى الجامع باب ، وكان يجمع فيه الجمعة ، وفيه منبر ومقصورة .

وهذا الجامع بناه الفضل بن صالح بن على ابن عبد الله بن عباس ، فى ولايته امارة مصر ، ملاصقا لشرطة العسكر — التى كان يقال لها الشرطة العليا — فى سنة تسع وستين ومائة فكانوا يجمعون فيه .

وكانت ولاية الفضل امارة مصر ، من قبل المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور ، على الصلاة والخراج . فدخلها سلخ المحرم سنة تسع وستين ومائة فى عسكر من الجند عظيم أتى بهم من الشام ، ومصر تضطرم لما كان فى الحوف ، ولخروج دحية بن مصعب بن الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان . فقام فى ذلك ، وجهز الجنود حتى أسر دحية ، وضرب عنقه فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة . وكان يقول : أنا أولى الناس بولاية مصر لقيامى فى أمر دحية ، وقد عجز عنه غيرى حتى كفيت أهل مصر أمره . فعزله موسى الهادى لما استخلف بعد موت أبيه المهدى بعد ما أقره . فندم الفضل على قتل دحية ، وأظهر توبة ، وسار الى بغداد . فمات عن خمسين سنة فى سنة اثنتين وسبعين ومائة .

ولم يزل الجامع بالعسكر الى أن ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب مولى خزاعة ، على صلاة مصر وخراجها ، من قبل عبد الله أمير المؤمنين المأمون ، فى ربيع الأول سنة احدى عشرة ومائتين ، فزاد فى عمارته ، وكان الناس يصلون فيه الجمعة قبل بناء جامع أحمد بن طولون . ولم يزل هذا الجامع الى ما بعد الخمسمائة من سنى الهجرة .

قال ابن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة سبع عشرة وخمسمائة : وكان يطلق فى الأربع ليالى الوقود — وهى مستهل رجب ، ونصفه ، ومستهل شعبان ، ونصفه — برسم الجوامع الستة : الأزهر ، والأنور ، والأقمر بالقاهرة ، والطولونى ، والعتيق بمصر ، وجامع القرافة ، والمشاهد التى تتضمن الأعضاء الشريفة ، وبعض المساجد التى يكون لأربابها وجاهة ... جملة كثيرة من الزيت الطيب ، ويختص بجامع راشدة وجامع ساحل الغلة بمصر والجامع بالمقس يسير .

ويعنى بجامع ساحل الغلة جامع العسكر ، فان العسكر حينئذ كان قد خرب وحملت أنقاضه ، وصار الجامع بساحل مصر ، وهو الساحل القديم المذكور فى موضعه من هذا الكتاب .

ذكر العسكر

كان مكان العسكر فى صدر الاسلام يعرف بعد الفتح بالحمراء القصوى . وهى كما تقدم خطة بنى الأزرق ، وخطة بنى روبيل ، وخطة بنى يشكر بن جزيلة من لخم . ثم دثرت هذه الحمراء وصارت صحراء .

فلما زالت دولة بنى أمية ، ودخلت المسودة الى مصر فى طلب مروان بن محمد الجعدى فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة — وهى خراب

فضاء يعرف بعضه بجبل يشكر — نزل صالح ابن على بن عبد الله بن عباس ، وأبو عون عبد الملك بن يزيد ، بعسكرهما فى هذا الفضاء ، وأمر عبد الملك أبو عون أصحابه بالبناء فيه فبنوا ، وسمى من يومئذ بالعسكر .

وصار أمراء مصر اذا قدموا ينزلون فيه من بعد أبى عون ، وقال الناس من عهده : كنا بالعسكر ، وخرجنا الى العسكر ، وكنت فى العسكر . فصارت مدينة الفسطاط والعسكر ، ونزل الأمراء من عهد أبى عون بالعسكر .

فلما ولى يزيد بن حاتم امارة مصر ، وقام على بن محمد بن عبد الله بن حسن وطرق المسجد ، كتب أبو جعفر المنصور الى يزيد بن حاتم يأمره أن يتحول من العسكر الى الفسطاط ، وأن يجعل الديوان فى كنائس القصر وذلك فى سنة ست وأربعين ومائة .

الى أن قدم الأمير أبو العباس أحمد بن طولون من العراق ، أميرا على مصر ، فنزل بالعسكر بدار الامارة التى بناها صالح بن على بعد هزيمة مروان وقتله ، وكان لها باب الى الجامع الذى بالعسكر .

وكان الأمراء ينزلون بهذه الدار الى أن نزلها أحمد بن طولون ، ثم * تحول منها الى القطائع . وجعلها أبو الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون ، عند امارته على مصر ، ديوانا للخراج . ثم فرقت حجرا حجرا بعد دخول محمد بن سليمان الكاتب الى مصر وزوال دولة بنى طولون . وسكن محمد بن سليمان أيضا بدار فى العسكر عند المصلى القديم ، ونزلها الأمراء من بعده ... الى أن ولى الاخشيد محمد بن طغج ، فنزل بالعسكر أيضا .

ولما بنى أحمد بن طولون القطائع اتصلت مبانيها بالعسكر ، وبنى الجامع على جبل يشكر ، فعمر ما هنالك عمارة عظيمة ... بحيث كانت هناك دار على بركة قارون أنفق عليها كافور الاخشيدى مائة ألف دينار وسكنها ، وكان هناك مارستان أحمد بن طولون أنفق عليه وعلى مستغله ستين ألف دينار .

وقدمت عساكر المعز لدين الله مع كاتبه وغلامه جوهر القائد ، فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، والعسكر عامر . غير أنه منذ بنى أحمد بن طولون القطائع هجر اسم العسكر ، وصار يقال مدينة الفسطاط والقطائع . فلما خرب محمد بن سليمان الكاتب قصر ابن طولون وميدانه — كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب — صارت القطائع فيها المساكن الجليلة حيث كان العسكر .

وأنزل المعز لدين الله عمه أبا على فى دار الامارة ، فلم يزل أهله بها الى أن خربت القطائع فى الغلاء الكائن بمصر فى خلافة المستنصر أعوام بضع وخمسين وأربعمائة . فيقال انه كان هنالك ما ينيف على مائة ألف دار .

ولا ينكر ذلك . فانظر ما بين سفح الجبل — حيث القلعة الآن — وبين ساحل مصر القديم الذى يعرف اليوم بالكبارة ، وما بين كوم الجارح من مصر وقناطر السباع ... فهناك كانت القطائع والعسكر . ويخص العسكر من ذلك ما بين قناطر السباع

(*) ص٢٦٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

وحدرة ابن قميحة الى كوم الجارح ، حيث الفضاء الذى يتوسط فيما بين قنطرة السد وباب المخدم من جهة القرافة ... فهناك كان العسكر .

ولما استولى الخراب فى المحنة زمن المستنصر ، أمر الوزير الناصر للدين عبد الرحمن اليازورى ببناء حائط يستر الخراب اذا توجه الخليفة الى مصر فيما بين العسكر والقطائع وبين الطريق ، وأمر فبنى حائط آخر عند جامع ابن طولون .

فلما كان فى خلافة الآمر بأحكام الله أبى على منصور بن المستعلى بالله ، أمر وزيره أبو عبد الله محمد بن فاتك — المنعوت بالمأمون البطائحى — فنودى مدة ثلاثة أيام فى القاهرة ومصر : بأن من كان له دار فى الخراب أو مكان يعمره ، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه ، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له ولا حكر يلزمه . وأباح تعمير جميع ذلك بغير طلب حق .

فعمر الناس ما كان منه مما يلى القاهرة ، من حيث مشهد السيدة نفيسة الى ظاهر باب زويلة ، ونقلت أنقاض العسكر ، فصار الفضاء الذى يوصل اليه من مشهد السيدة نفيسة ومن الجامع الطولونى ومن قنطرة السد ، ويسلك فيه الى حيث كوم الجارح . والعامر الآن من العسكر جبل يشكر الذى فيه جامع ابن طولون ، وما حوله الى قناطر السباع ، كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى .

جامع ابن طولون

هذا الجامع موضعه يعرف بجبل يشكر .. قال ابن عبد الظاهر : وهو مكان مشهور باجابة الدعاء ، وقيل ان موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات .

وابتدأ فى بناء هذا الجامع الأمير أبو العباس أحمد بن طولون ، بعد بناء القطائع ، فى سنة ثلاث وستين ومائتين .

قال جامع السيرة الطولونية : كان أحمد بن طولون يصلى الجمعة فى المسجد القديم الملاصق للشرطة ، فلما ضاق عليه بنى الجامع الجديد مما أفاء الله عليه من المال الذى وجده فوق الجبل ، فى الموضع المعروف بتنور فرعون ، ومنه بنى العين . فلما أراد بناء الجامع قدر له ثلثمائة عمود ، فقيل له ما تجدها ، أو تنفذ الى الكنائس فى الأرياف والضياع الخراب فتحمل ذلك . فأنكر ذلك ولم يختره ، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره .

وبلغ النصرانى الذى تولى له بناء العين — وكان قد غضب عليه وضربه ، ورماه فى المطبق — الخبر . فكتب اليه يقول : أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمودى القبلة .

فأحضره ، وقد طال شعره حتى نزل على وجهه ، فقال له : ويحك ، ما تقول فى بناء الجامع !

فقال : أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد الا عمودى القبلة .

فأمر بأن تحضر له الجلود ، فأحضرت ، وصوره له ، فأعجبه واستحسنه ، وأطلقه وخلع عليه ، وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار ، فقال له : أنفق وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك .

فوضع النصرانى يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه ، وهو جبل يشكر ، فكان ينشر منه ويعمل الجير ، ويبنى الى أن فرغ من جميعه ، وبيضه وخلقه ، وعلق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال ، وفرش فيه الحصر ، وحمل اليه صناديق المصاحف ، ونقل اليه القراء والفقهاء ، وصلى فيه بكار بن قتيبة القاضى ، وعمل الربيع بن سليمان بابا . . فيما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال . «من بنى لله مسجدا ، ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له بيتا فى الجنة » .

فلما كان فى أول جمعة صلاها فيه أحمد ابن طولون ، وفرغت الصلاة * ، جلس محمد ابن الربيع خارج المقصورة ، وقام المستملى وفتح باب المقصورة ، وجلس أحمد بن طولون ولم ينصرف ، والغلمان قيام وسائر الحجاب ، حتى فرغ المجلس .

فلما فرغ المجلس ، خرج اليه غلام بكيس فيه ألف دينار ، وقال : يقول لك الأمير نفعك الله بما علمك ، وهذه لأبى طاهر (يعنى ابنه) . وتصدق أحمد بن طولون بصدقات عظيمة فيه ، وعمل طعاما عظيما للفقراء والمساكين . وكان يوما عظيما حسنا .

وراح أحمد بن طولون ، ونزل فى الدار التى عملها فيه للامارة — وقد فرشت وعلقت ، وحملت اليها الآلات والأوانى وصناديق الأشربة وما شاكلها — فنزل بها أحمد ، وجدد طهره ، وغير ثيابه ، وخرج من بابها الى المقصورة ، فركع وسجد شكرا لله تعالى على ما أعانه عليه من ذلك ويسره له .

فلما أراد الانصراف ، خرج من المقصورة حتى أشرف على الفوارة ، وخرج الى باب الريح . فصعد النصرانى الذى بنى الجامع ، ووقف الى جانب المركب النحاس وصاح : ياأحمد بن طولون ياأمير الأمان ، عبدك يريد الجائزة ، ويسأل الأمان ألا يجرى عليه مثل ما جرى فى المرة الأولى .

فقال له أحمد بن طولون : انزل فقد أمنك الله ، ولك الجائزة .

فنزل وخلع عليه ، وأمر له بعشرة آلاف دينار ، وأجرى عليه الرزق الواسع الى أن مات .

وراح أحمد بن طولون فى يوم الجمعة الى الجامع . فلما رقى الخطيب المنبر ، وخطب — وهو أبو يعقوب البلخى — دعا للمعتمد ولولده ، ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون ، ونزل عن المنبر . فأشار أحمد الى نسيم الخادم أن اضربه خمسمائة سوط .

فذكر الخطيب سهوه ، وهو على مراقى المنبر ، فعاد وقال : الحمد لله وصلى الله على محمد « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » ، اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين . وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطبة ، ثم نزل . فنظر أحمد الى نسيم أن

(*) ص٢٦٥ جـ٢ ، ط . بولاق .

اجعلها دنانير . ووقف الخطيب على ما كان منه ، فحمد الله تعالى على سلامته ، وهنأه الناس بالسلامة .

ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون فى الجامع عند العشاء — وكان فى شهر رمضان — فقال : متى يشترى هؤلاء الضعفاء افطارا لعيالهم وأولادهم ؟ اصرفوهم العصر . فصارت سنة الى اليوم بمصر .

فلما فرغ شهر رمضان قيل له : قد انقضى شهر رمضان ، فيعودون الى رسمهم . فقال : قد بلغنى دعاؤهم وقد تبركت به ، وليس هذا مما يوفر العمل علينا .

وفرغ منه فى شهر رمضان سنة خمس وستين ومائتين ، وتقرب الناس الى ابن طولون بالصلاة فيه ، وألزم أولادهم كلهم صلاة الجمعة فى فوارة الجامع ، ثم يخرجون بعد الصلاة الى مجلس الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم مع كل واحد منهم وراق وعدة غلمان . وبلغت النفقة على هذا الجامع فى بنائه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار .

ويقال ان أحمد بن طولون رأى فى منامه : كأن الله تعالى قد تجلى ووقع نوره على المدينة التى حول الجامع ، الا الجامع فانه لم يقع عليه من النور شىء . فتألم وقال : والله ما بنيته الا لله خالصا ومن المال الحلال الذى لا شبهة فيه .

فقال له معبر حاذق : هذا الجامع يبقى ويخرب كل ما حوله ، لأن الله تعالى قال : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا » ، فكل شىء يقع عليه جلال الله عز وجل لا يثبت .

وقد صح تعبير هذه الرؤيا . فان جميع ما حول الجامع خرب دهرا طويلا — كما تقدم فى موضعه من هذا الكتاب — وبقى الجامع عامرا ، ثم عادت العمارة لما حوله كما هى الآن .

قال القضاعى رحمه الله : وذكر أن السبب فى بنائه أن أهل مصر شكوا اليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه ، فأمر بانشاء المسجد الجامع بجبل يشكر بن جديلة من لخم . فابتدأ بنيانه فى سنة ثلاث وستين ومائتين ، وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين .

وقيل ان أحمد بن طولون قال : أريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى ، وان غرقت بقى . فقيل له : يبنى بالجير والرماد ، والآجر الأحمر القوى النار الى السقف ، ولا يجعل فيه أساطين رخام ، فانه لا صبر لها على النار .

فبناه هذا البناء ، وعمل فى مؤخره ميضأة ، وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية ، وعليها خدم ، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة . وبناه على بناء جامع سامرا ، وكذلك المنارة ، وعلق فيه سلاسل النحاس المفرغة والقناديل المحكمة ، وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية .

« حديث الكنز » : قال جامع السيرة : لما ورد على أحمد بن طولون كتاب المعتمد بما استدعاه من رد الخراج بمصر اليه ، وزاده المعتمد مع ما طلب الثغور الشامية ، رغب بنفسه عن المعادن ومرافقها ، فأمر بتركها ، وكتب باسقاطها فى سائر الأعمال ، ومنع

المتقبلين من الفسخ على المزارعين ، وخطر الارتفاق على العمال .

وكان قبل اسقاط المرافق بمصر قد شاور عبد الله بن دسومة فى ذلك — وهو يومئذ أمين على أبى أيوب متولى الخراج — فقال : ان أمننى الأمير تكلمت بما عندى .

فقال له : قد أمنك الله عز وجل .

فقال : أيها الأمير ان الدنيا والآخرة ضرتان ، والحازم من لم يخلط احداهما مع الأخرى ، والمفرط من خلط بينهما فيتلف أعماله ويبطل سعيه . وأفعال الأمير — أيده الله — الخير ، وتوكله توكل الزهاد ، وليس مثله * من ركب خطة لم يحكمها . ولو كنا نثق بالنصر دائما طول العمر ، لما كان شىء عندنا آثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل بعمارة الآجل ، ولكن الانسان قصير العمر ، كثير المصائب ، مدفوع الى الآفات . وترك الانسان ما قد أمكنه وصار فى يده تضييع ، ولعل الذى حماه نفسه يكون سعادة لمن يأتى من بعده ، فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ...

ويجتمع للأمير — أيده الله — بما قد عزم على اسقاطه من المرافق فى السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار . وان فسخ ضياع الأمراء والمتقبلين فى هذه السنة ، لأنها سنة ظمأ توجب الفسخ ، زاد مال البلد ، وتوفر توفرا عظيما ينضاف الى مال المرافق ، فيضبط به الأمير — أيده الله — أمر دنياه . وهذه طريقة أمور الدنيا ، وأحكام أمور الرياسة والسياسة ، وكل ما عدل الأمير — أيده الله — اليه من أمر غير هذا فهو مفسد لدنياه . وهذا رأيى ، والأمير — أيده الله — على ما عساه يراه .

فقال له : ننظر فى هذا ان شاء الله .

وشغل قلبه كلامه ، فبات تلك الليلة بعد أن مضى أكثر الليل يفكر فى كلام ابن دسومة ، فرأى فى منامه رجلا من اخوانه الزهاد بطرسوس وهو يقول له : ليس ما أشار به عليك من استشرته فى أمر الارتفاق والفسخ برأى تحمد عاقبته فلا تقبله ، ومن ترك شيئا لله عز وجل عوضه الله عنه ، فأمض ما كنت عزمت عليه .

فلما أصبح أنفذ الكتب الى سائر الأعمال بذلك ، وتقدم به فى سائر الدواوين بامضائه ، ودعى بابن دسومة فعرفه بذلك . فقال له : قد أشار عليك رجلان ، الواحد فى اليقظة والآخر ميت فى النوم ، وأنت الى الحى أقرب وبضمانه أوثق .

فقال : دعنا من هذا ، فلست أقبل منك .

وركب فى غد ذلك اليوم الى نحو الصعيد . فلما أمعن فى الصحراء ساخت فى الأرض يد فرس بعض غلمانه — وهو رمل — فسقط الغلام فى الرمل ، فاذا بفتق ففتح ، فأصيب فيه من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار .

وهو الكنز الذى شاع خبره .

وكتب به الى العراق أحمد بن طولون يخبر المعتمد به ، ويستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البر وغيرها ، فبنى منه المارستان . ثم أصاب

(*) ص٢٦٦ ، ج ٢ ، ط . بولاق .

بعده فى الجبل مالا عظيما ، فبنى منه الجامع ، ووقف جميع ما بقى من المال فى الصدقات . وكانت صدقاته ومعروفه لا تحصى كثرة .

ولما انصرف من الصحراء ، وحمل المال ، أحضر ابن دسومة وأراه المال ، وقال له : بئس الصاحب والمستشار أنت . هذا أول بركة مشورة الميت فى النوم ، ولولا أنى أمتنك لضربت عنقك .

وتغير عليه وسقط محله عنده . ورفع اليه بعد ذلك أنه قد أجحف بالناس ، وألزمهم أشياء ضجوا منها . فقبض عليه وأخذ ماله وحبسه ، فمات فى حبسه .

وكان ابن دسومة واسع الحيلة ، بخيل الكف ، زاهدا فى شكر الشاكرين ، لا يهش الى شىء من أعمال البر . وكان أحمد بن طولون من أهل القرآن ، اذا جرت منه اساءة استغفر وتضرع .

وقال ابن عبد الظاهر : سمعت غير واحد يقول : انه لما فرغ أحمد بن طولون من بناء هذا الجامع ، أمر للناس بسماع ما يقوله الناس فيه من العيوب . فقال رجل : محرابه صغير ، وقال آخر : ما فيه عمود ، وقال آخر : ليست له ميضأة .

فجمع الناس وقال : أما المحراب فانى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خطه لى ، فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذى خطه لى . وأما العمد فانى بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز ، وما كنت لأشوبه بغيره ، وهذه العمد اما أن تكون من مسجد أو كنيسة فنزهته عنها . وأما الميضأة فانى نظرت ، فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها ، وهاأنا أبنيها خلفه . ثم أمر ببنائها .

وقيل انه لما فرغ من بنائه رأى فى منامه : كأن نارا نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله . فلما أصبح قص رؤياه فقيل له : أبشر بقبول الجامع ، لأن النار كانت فى الزمان الماضى اذا قبل الله قربانا نزلت نار من السماء أخذته ، ودليله قصة قابيل وهابيل .

قال : ورأيت من يقول انه عمل به منطقة دائرة بجميعه من عنبر . ولم أر مصنفا ذكره ، الا انه مستفاض من الأفواه والنقلة .

وسمعت من يقول : انه عمر ما حوله حتى كان خلفه مصطبة ذراع فى ذراع : أجرتها فى كل يوم اثنا عشر درهما فى بكرة النهار لشخص يبيع الغزل ويشتريه ، والظهر لخباز ، والعصر لشيخ يبيع الحمص والفول .

وقيل عن أحمد بن طولون : انه كان لا يعبث بشىء قط . فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده ، واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به ، وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته . فطلب المعمار على الجامع ، وقال : تبنى المنارة التى للتأذين هكذا . فبنيت على تلك الصورة .

والعامة يقولون : ان العشارى الذى على المنارة المذكورة يدور مع الشمس . وليس صحيحا ، وانما يدور مع دوران الرياح . وكان الملك الكامل قد اعتنى بوقودها ليلة النصف من شعبان ثم أبطلها .

وقال المسيحى : ان الحاكم أنزل الى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفا .

وفى سنة ست وسبعين وثلثمائة ، فى ليلة الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى ، احترقت الفوارة التى كانت بجامع ابن طولون فلم يبق منها شىء . وكانت فى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها وهى مذهبة ، على عشر عمد رخام * ، وستة عشر عمود رخام فى جوانبها ، مفروشة كلها بالرخام . وتحت القبة قصعة رخام فسحتها أربعة أذرع ، فى وسطها فوارة تفور بالماء ، وفى وسطها قبة مزوقة يؤذن فيها وفى أخرى على سلمها ، وفى السطح علامات الزوال ، والسطح بدرابزين ساج ... فاحترق جميع هذا فى ساعة واحدة .

وفى المحرم سنة خمس وثمانين وثلثمائة ، أمر العزيز بالله بن المعز ببناء فوارة عوضا عن التى احترقت . فعمل ذلك على يد راشد الحنفى ، وتولى عمارتها ابن الرومية وابن البناء . وماتت أم العزيز فى سلخ ذى القعدة من السنة . والله أعلم .

« تجديد الجامع » : وكان من خبر جامع ابن طولون أنه لما كان غلاء مصر فى زمان المستنصر ، وخربت القطائع والعسكر ، عدم الساكن هناك ، وصار ما حول الجامع خرابا . وتوالت الأيام على ذلك ، وتشعث الجامع ، وخرب أكثره ، وصار أخيرا ينزل فيه المغاربة بأباعرها ومتاعها عندما تمر بمصر أيام الحج .

فهيأ الله جل جلاله لعمارة هذا الجامع أن كان بين الملك الأشرف خليل بن قلاوون وبين الأمير بيدر أمور موحشة تزايدت وتأكدت . الى أن جمع بيدر من يثق به ، وقتل الأشرف بناحية تروجة فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة — كما سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى عند ذكر مدرسته — وكان ممن وافق الأمير بيدرا على قتل الأشرف الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، والأمير قراسنقر .

فلما قتل بيدر فى محاربة مماليك الأشرف له ، فر لاجين وقراسنقر من المعركة ، فاختفى لاجين بالجامع الطولونى ، وقراسنقر فى داره بالقاهرة . وصار لاجين يتردد بمفرده من غير أحد معه فى الجامع — وهو حينئذ خراب لا ساكن فيه — وأعطى الله عهدا ، ان سلمه الله من هذه المحنة ومكنه من الأرض ، أن يجدد عمارة هذا الجامع ، ويجعل له ما يقوم به .

ثم انه خرج منه فى خفية الى القرافة ، فأقام بها مدة وراسل قراسنقر ، فتحيل فى لحاقه به . وعملا أعمالا الى أن اجتمعا بالأمير زين الدين كتبغا المنصورى — وهو اذ ذاك نائب السلطنة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والقائم بأمور الدولة كلها — فأحضرهما الى مجلس السلطان بقلعة الجبل ، بعد أن أتقن أمرهما مع الأمراء ومماليك السلطان ، فخلع عليهما ، وصار كل منهما الى داره وهو آمن . فلم تطل أيام الملك الناصر فى هذه الولاية حتى خلعه الأمير كتبغا ، وجلس على تخت الملك ، وتلقب بالملك العادل ، فجعل لاجين نائب السلطنة بديار مصر .

وجرت أمور اقتضت قيام لاجين على كتبغا وهم بطريق الشام ، ففر كتبغا الى دمشق ، واستولى لاجين على دست المملكة ، وصار الى مصر وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل ، وتلقب بالملك المنصور فى المحرم من سنة

(*) ص ٢٦٧ ، ج ٢ ، ط ، بولاق .

ست وتسعين وستمائة . فأقام قراسنقر فى نيابة السلطنة بديار مصر ، وأخرج الناصر محمد بن قلاوون من قلعة الجبل الى كرك الشوبك فجعله فى قلعتها . وأعانه أهل الشام على كتبغا حتى قبض عليه ، وجعله نائب حماة ، فأقام بها مدة سنين بعد سلطنة مصر والشام .

وخلع على الأمير علم الدين سنجر الدوادارى ، وأقامه فى نيابة دار العدل ، وجعل اليه شراء الأوقاف على الجامع الطولونى ، وصرف اليه كل ما يحتاج اليه فى العمارة ، وأكد عليه فى ألا يسخر فيه فاعلا ولا صانعا ، وألا يقيم مستحثا للصناع ، ولا يشترى لعمارته شيئا مما يحتاج اليه من سائر الأصناف الا بالقيمة التامة ، وأن يكون ما ينفق على ذلك من ماله . وأشهد عليه بوكالته .

فابتاع منية أندونة من أراضى الجيزة — وعرفت هذه القرية بأندونة ... كاتب بمصر كان نصرانيا فى زمن أحمد بن طولون ، وممن نكبه وأخذ منه خمسين ألف دينار — واشترى أيضا ساحة بجوار جامع أحمد بن طولون — مما كان فى القديم عامرا ثم خرب — وحكرها .

وعمر الجامع ، وأزال كل ما كان فيه من تخريب ، وبلطه ، وبيضه ، ورتب فيه دروسا لالقاء الفقه على المذاهب الأربعة التى عمل أهل مصر عليها الآن ، ودرسا يلقى فيه تفسير القرآن الكريم ، ودرسا لحديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ودرسا للطب . وقرر للخطيب معلوما ، وجعل له اماما راتبا ومؤذنين وفراشين وقومة ، وعمل بجواره مكتبا لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل ، وغير ذلك من أنواع القربات ووجوه البر . فبلغت النفقة على عمارة الجامع وثمن مستغلاته عشرين ألف دينار .

فلما شاء الله سبحانه أن يهلك لاجين ، زين له سوء عمله عزل الأمير قراسنقر من نيابة السلطنة ، فعزله ، وولى مملوكه منكوتمر — وكان عسوفا عجولا حادا ، ولاجين مع ذلك يركن اليه ، ويعول فى جميع أموره عليه ، ولا يخالف قوله ولا ينقض فعله — فشرع منكوتمر فى تأخير أمراء الدولة من الصالحية والمنصورية ، وأعجل فى اظهار التهجم لهم ، والاعلان بما يريده من القبض عليهم واقامة أمراء غيرهم .

فتوحشت القلوب منه ، وتمالأت على بغضه ، ومشى القوم بعضهم الى بعض ، وكاتبوا اخوانهم من أهل البلاد الشامية حتى تم لهم ما يريدون . فواعد جماعة منهم اخوانهم على قتل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر ... فما هو الا أن صلى السلطان العشاء الآخرة من ليلة الجمعة العاشر من شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة ، واذا بالأمير كرجى — وكان ممن هو قائم * بين يديه — تقدم ليصلح الشمعة ، فضربه بسيف قد أخفاه معه أطار به زنده ، وانقض عليه البقية من واعدوهم بالسيوف والخناجر ، فقطعوه قطعا وهو يقول : الله الله .

وخرجوا من فورهم الى باب القلة من قلعة الجبل ، فاذا بالأمير طفج قد جلس فى

(*) ٢٦٨ جـ ٢ ، ط . بولاق .

انتظارهم ومعه عدة من الأمراء — وكانوا اذ ذاك يبيتون بالقلعة دائما — فأمروا باحضار منكوتمر من دار النيابة بالقلعة ، وقتلوه بعد مضى نصف ساعة من قتل أستاذه الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى ... رحمه الله ، فلقد كان مشكور السيرة .

وفى سنة سبع وستين وسبعمائة ، جدد الأمير يلبغا العمرى الخاصكى درسا بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وقرر لكل فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهما واردب قمح . فانتقل جماعة من الشافعية الى مذهب الحنفية .

وأول من ولى نظره بعد تجديده الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وهو اذ ذاك دوادار السلطان الملك المنصور لاجين . ثم ولى نظره قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، ثم من بعده الأمير مكين فى أيام الناصر محمد ابن قلاوون ، فجدد فى أوقافه طاحونا وفرنا وحوانيت ؛ فلما مات وليه قاضى القضاة عز الدين بن جماعة ، ثم ولاه الناصر للقاضى كريم الدين الكبير ، فجدد فيه مئذنتين .

فلما نكبه السلطان عاد نظره الى قاضى القضاة الشافعى . وما برح الى أيام الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فولاه للأمير صرغتمش ، وتوفر فى مدة نظره من مال الوقف مائة ألف درهم فضة ، وقبض عليه وهى حاصلة . فباشره قاضى القضاة الى أيام الأشرف شعبان بن حسين ، ففوض نظره الى الأمير الجاى اليوسفى الى أن غرق .

فتحدث فيه قاضى القضاة الشافعى . الى أن فوض الملك الظاهر برقوق نظره الى الأمير قطلوبغا الصفوى فى العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . وكان الأمير منطاش مدة تحكمه فى الدولة فوضه الى المذكور فى أواخر شوال سنة احدى وتسعين وسبعمائة . ثم عاد نظره الى القضاة بعد الصفوى ، وهو بأيديهم الى اليوم .

وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، جدد الرواق البحرى الملاصق للمئذنة الحاج عبيد ابن محمد بن عبد الهادى الهويدى البازدار مقدم الدولة ، وجدد ميضأة بجانب الميضأة القديمة . وكان عبيد هذا بازدارا ، ثم ترقى حتى صار مقدم الدولة فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، ثم ترك زى المقدمين وتزيا بزى الأمراء ، وحاز نعمة جليلة وسعادة طائلة ، حتى مات يوم السبت رابع عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

ذكر دار الامارة

وكان بجوار الجامع الطولونى دار أنشأها الأمير أحمد بن طولون عندما بنى الجامع ، وجعلها فى الجهة القبلية ، ولها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة بجوار المحراب والمنبر ، وجعل فى هذه الدار جميع ما يحتاج اليه من الفرش والستور والآلات . فكان ينزل بها اذا راح الى صلاة الجمعة ، فانها كانت تجاه القصر والميدان ، فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه ، وكان يقال لها دار الامارة . وموضعها الآن سوق الجامع ، حيث البزازين وغيرهم ، ولم تزل هذه الدار باقية الى أن قدم الامام المعز لدين الله أبو تميم معد

من بلاد المغرب ، فكان يستخرج فيها أموال الخراج .

قال الفقيه الحسن بن ابراهيم بن زولاق فى كتاب « سيرة المعز » : ولست عشرة بقيت من المحرم (يعنى من سنة ثلاث وستين وثلثمائة) قلد المعز لدين الله الخراج وجميع وجوه الأعمال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطيين ، وجميع ما ينضاف الى ذلك وما يطرأ فى مصر وسائر الأعمال ، أبا الفرج يعقوب بن يوسف ابن كلس وعسلوج بن الحسن ، وكتب لهما سجلا بذلك قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون ، وجلسا غد هذا اليوم فى دار الامارة فى جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأعمال .

ثم خربت هذه الدار فيما خرب من القطائع والعسكر ، وصار موضعها ساحة ... الى أن حكرها الدويدارى عند تجديد عمارة الجامع كما تقدم . وقد ذكر بناء القيسارية فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الأسواق .

ذكر الأذان بمصر
وما كان فيه من الاختلاف

اعلم أن أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلال بن رباح ، مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، بالمدينة الشريفة وفى الأسفار . وكان ابن أم مكتوم — واسمه عمرو ابن قيس بن شريح من بنى عامر بن لؤى ، وقيل اسمه عبد الله وأمه أم مكتوم ، واسمها عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة من بنى مخزوم — ربما أذن بالمدينة .

وأذن أبو محذورة ، واسمه أوس — وقيل سمرة — ابن معير بن لوذان بن ربيعة بن معير ابن عريج بن سعد بن جمح . وكان استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يؤذن مع بلال ، فأذن له ، وكان يؤذن فى المسجد الحرام ، وأقام بمكة ومات بها ، ولم يأت المدينة .

قال * ابن الكلبى : كان أبو محذورة لا يؤذن للنبى صلى الله عليه وسلم بمكة الا فى الفجر ، ولم يهاجر وأقام بمكة .

وقال ابن جريج : علم النبى صلى الله عليه وسلم أبا محذورة الأذان بالجعرانة حين قسم غنائم حنين ، ثم جعله مؤذنا فى المسجد الحرام .

وقال الشعبى : أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلال وأبو محذورة وابن أم مكتوم . وقد جاء أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يؤذن بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المنبر .

وقال محمد بن سعد عن الشعبى : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة مؤذنين : بلال ، وأبو محذورة ، وعمرو بن أم مكتوم . فاذا غاب بلال أذن أبو محذورة ، واذا غاب أبو محذورة أذن ابن أم مكتوم ... قلت : لعل هذا كان بمكة .

وذكر ابن سعد أن بلالا أذن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه ، وأن عمر رضى الله عنه أراده أن يؤذن له فأبى عليه ، فقال له : الى من ترى أن أجعل النداء ؟

(*) ص ٢٦٩ ، ج ٢ ، ط ، بولاق .

فقال : الى سعد القرظ ، فانه قد أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فدعاه عمر رضى الله عنه ، فجعل النداء اليه والى عقبه من بعده .

وقد ذكر أن سعد القرظ كان يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء .

وذكر أبو داود فى مراسيله ، والدارقطنى فى سننه ، قال بكير بن عبد الله الأشج : كانت مساجد المدينة تسعة ، سوى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يصلون بأذان بلال رضي الله عنه .

وقد كان عند فتح مصر الأذان انما هو بالمسجد الجامع ، المعروف بجامع عمرو ، وبه صلاة الناس بأسرهم . وكان من هدى الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم ، المحافظة على الجماعة ، وتشديد النكير على من تخلف عن صلاة الجماعة .

قال أبو عمرو الكندى فى ذكر من عرف على المؤذنين بجامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر : وكان أول من عرف على المؤذنين أبو مسلم سالم بن عامر بن عبد المرادى — وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أذن لعمر بن الخطاب — سار الى مصر مع عمرو بن العاص يؤذن له حتى افتتحت مصر ، فأقام على الأذان ، وضم اليه عمرو بن العاص تسعة رجال يؤذنون هو عاشرهم . وكان الأذان فى ولده حتى انقرضوا .

قال أبو الخير : حدثنى أبو مسلم — وكان مؤذنا لعمرو بن العاص — أن الأذان كان أوله لا اله الا الله وآخره لا اله الا الله ، وكان أبو مسلم يوصى بذلك حتى مات ، ويقول : هكذا كان الأذان .

ثم عرف عليهم أخوه شرحبيل بن عامر — وكانت له صحبة — وفى عرافته زاد مسلمة ابن مخلد فى المسجد الجامع ، وجعل له المنار ولم يكن قبل ذلك . وكان شرحبيل أول من رقى منارة مصر للأذان .

وان مسلمة بن مخلد اعتكف فى منارة الجامع ، فسمع أصوات النواقيس عالية بالفسطاط ، فدعا شرحبيل بن عامر فأخبره بما ساءه من ذلك .

فقال شرحبيل : فانى أمدد بالأذان من نصف الليل الى قرب الفجر ، فانههم أيها الأمير أن ينقسوا اذا أذنت .

فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان . ومدد شرحبيل ومطط أكثر الليل ، الى أن مات شرحبيل سنة خمس وستين .

وذكر عن عثمان رضى الله عنه أنه أول من رزق المؤذنين . فلما كثرت مساجد الخطبة ، أمر مسلمة بن مخلد الأنصارى ، فى امارته على مصر ، ببناء المنار فى جميع المساجد ... خلا مساجد تجيب وخولان . فكانو يؤذنون فى الجامع أولا ، فاذا فرغوا أذن كل مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد ، فكان لأذانهم دوى شديد .

وكان الأذان أولا بمصر كأذان أهل المدينة ، وهو : الله أكبر ، الله أكبر ... وباقيه كما هو اليوم . فلم يزل الأمر بمصر على ذلك فى جامع عمرو بالفسطاط ، وفى جامع العسكر ، وفى جامع أحمد بن طولون وبقية المساجد ...

الى أن قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين الله ، وبنى القاهرة .

فلما كان فى يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلثمائة ، صلى القائد جوهر الجمعة فى جامع أحمد بن طولون ، وخطب به عبد السميع بن عمر العباسى بقلنسوة وسبنى وطيلسان دبسى ، وأذن المؤذنون : حى على خير العمل . وهو أول ما أذن به بمصر .

وصلى به عبد السميع الجمعة ، فقرأ سورة الجمعة و « اذا جاءك المنافقون » ، وقنت فى الركعة الثانية ، وانحط الى السجود ونسى الركوع . فصاح به على بن الوليد قاضى عسكر جوهر : بطلت الصلاة أعد ظهرا أربع ركعات .

ثم أذن بحى على خير العمل فى سائر مساجد العسكر ، الى حدود مسجد عبد الله .

وأنكر جوهر على عبد السميع أنه لم يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » فى كل سورة ، ولا قرأها فى الخطبة . فأنكره جوهر ، ومنعه من ذلك .

ولأربع بقين من جمادى الأولى المذكور ، أذن فى الجامع العتيق بحى على خير العمل ، وجهروا فى الجامع بالبسملة فى الصلاة . فلم يزل الأمر على ذلك طول مدة الخلفاء الفاطميين .

الا أن الحاكم بأمر الله فى سنة أربعمائة ، أمر بجمع مؤذنى القصر وسائر الجوامع ، وحضر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى ، وقرأ أبو على العباسى سجلا فيه الأمر بترك « حى على خير العمل » فى الأذان ، وأن يقال فى صلاة الصبح « الصلاة خير من النوم » ، وأن يكون ذلك من * مؤذنى القصر عند قولهم « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » . فامتثل ذلك .

ثم عاد المؤذنون الى قول « حى على خير العمل » فى ربيع الآخر سنة احدى وأربعمائة .

ومنع فى سنة خمس وأربعمائة مؤذنى جامع القاهرة ومؤذنى القصر من قولهم بعد الأذان « السلام على أمير المؤمنين » ، وأمرهم أن يقولوا بعد الأذان : « الصلاة رحمك الله » .

ولهذا الفعل أصل ... قال الواقدى : كان بلال رضى الله عنه يقف على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : « السلام عليك يارسول الله » ، وربما قال : « السلام عليك بأبى أنت وأمى يارسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، السلام عليك يارسول الله » .

قال البلاذرى ، وقال غيره : كان يقول : « السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الصلاة يارسول الله » .

فلما ولى أبو بكر رضى الله عنه الخلافة ، كان سعد القرظ يقف على بابه فيقول : « السلام عليك ياخليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الصلاة ياخليفة رسول الله » .

فلما استخلف عمر رضى الله عنه ، كان سعد يقف على بابه فيقول : « السلام عليك ياخليفة

(*) ص ٢٧٠ جـ٢ ، ط . بولاق .

خليفة رسول الله ورحمة الله ، حى على الصلاة حى على الفلاح ، الصلاة ياخليفة خليفة رسول الله » .

فلما قال عمر رضى الله عنه للناس : أنتم المؤمنون وأنا أميركم . فدعى أمير المؤمنين ... استطالة لقول القائل ياخليفة خليفة رسول الله ، ولمن بعده خليفة خليفة خليفة رسول الله ، كان المؤذن يقول : السلام عليك ، أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الصلاة ياأمير المؤمنين » . ثم ان عمر رضى الله عنه أمر المؤذن فزاد فيها « رحمك الله » . ويقال ان عثمان رضى الله عنه زادها .

وما زال المؤذنون اذا أذنوا سلموا على الخلفاء وأمراء الأعمال ، ثم يقيمون الصلاة بعد السلام . فيخرج الخليفة أو الأمير فيصلى بالناس ... هكذا كان العمل مدة أيام بنى أمية ، ثم مدة خلافة بنى العباس ، أيام كانت الخلفاء وأمراء الأعمال تصلى بالناس .

فلما استولى العجم ، وترك خلفاء بنى العباس الصلاة بالناس ، ترك ذلك كما ترك غيره من سنن الاسلام . ولم يكن أحد من الخلفاء الفاطميين يصلى بالناس الصلوات الخمس فى كل يوم ، فسلم المؤذنون فى أيامهم على الخليفة بعد الأذان للفجر فوق المنارات .

فلما انقضت أيامهم ، وغير السلطان صلاح الدين رسومهم ، لم يتجاسر المؤذنون على السلام عليه ، احتراما للخليفة العباسى ببغداد . فجعلوا عوض السلام على الخليفة السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمر ذلك قبل الأذان للفجر فى كل ليلة بمصر والشام والحجاز ، وزيد فيه بأمر المحتسب صلاح الدين عبد الله البرلسى « الصلاة والسلام عليك يارسول الله » . وكان ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة ، فاستمر ذلك .

ولما تغلب أبو على بن كتيفات بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، على رتبة الوزارة فى أيام الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله ، فى سادس عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وسجن الحافظ وقيده ، واستولى على سائر ما فى القصر من الأموال والذخائر وحملها الى دار الوزارة — وكان اماميا متشددا فى ذلك — خالف ما عليه الدولة من مذهب الاسماعيلية ، وأظهر الدعاء للامام المنتظر ، وأزال من الأذان « حى على خير العمل » ، وقولهم « محمد وعلى خير البشر » ، وأسقط ذكر اسماعيل ابن جعفر الذى تنتسب اليه الاسماعيلية .

فلما قتل فى سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة ، عاد الأمر الى الخليفة الحافظ ، وأعيد الى الأذان ما كان أسقط منه .

وأول من قال فى الأذان بالليل « محمد وعلى خير البشر » الحسين المعروف بأمير كابن شكنبه — ويقال اشكنبه ، وهو اسم أعجمى معناه الكرش — وهو على بن محمد ابن على بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وكان أول تأذينه بذلك فى أيام سيف الدولة بن حمدان بحلب فى سنة سبع وأربعين وثلثمائة ... قاله الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة .

ولم يزل الأذان بحلب يزاد فيه « حى على خير العمل ، ومحمد وعلى خير البشر » الى أيام نور الدين محمود . فلما فتح المدرسة الكبيرة ، المعروفة بالحلاوية ، استدعى أبا الحسن على بن الحسن بن محمد البلخى الحنفى اليها ، فجاء ومعه جماعة من الفقهاء ، وألقى بها الدروس . فلما سمع الأذان أمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان ، وقال لهم : مروهم يؤذنوا الأذان المشروع ، ومن امتنع كبوه على رأسه . فصعدوا وفعلوا ما أمرهم به . واستمر الأمر على ذلك .

وأما مصر فلم يزل الأذان بها على مذهب القوم . الى أن استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بسلطنة ديار مصر ، وأزال الدولة الفاطمية فى سنة سبع وستين وخمسمائة — وكان ينتحل مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، وعقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعرى رحمه الله — فأبطل من الأذان قول « حى على خير العمل » ، وصار يؤذن فى سائر اقليم مصر والشام بأذان أهل مكة ، وفيه تربيع التكبير وترجيع الشهادتين * .

فاستمر الأمر على ذلك الى أن بنت الأتراك المدارس بديار مصر ، وانتشر مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه فى مصر ، فصار يؤذن فى بعض المدارس التى للحنفية بأذان أهل الكوفة ، وتقام الصلاة أيضا على رأيهم ، وما عدا ذلك فعلى ما قلنا . الا أنه فى ليلة الجمعة اذا فرغ المؤذنون من التأذين ، سلموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو شىء أحدثه محتسب القاهرة صلاح الدين عبد الله بن عبد الله البرلسى بعد سنة ستين وسبعمائة .

فاستمر الى أن كان فى شعبان سنة احدى وتسعين وسبعمائة — ومتولى الأمر بديار مصر الأمير منطاش القائم بدولة الملك الصالح المنصور أمير حاج ، المعروف بحاجى بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون — فسمع بعض الفقراء الخلاطين سلام المؤذنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة جمعة ، وقد استحسن ذلك طائفة من اخوانه ، فقال لهم : أتحبون أن يكون هذا السلام فى كل أذان ؟ قالوا : نعم . فبات تلك الليلة ، وأصبح متواجدا يزعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه ، وأنه أمره أن يذهب الى المحتسب ، ويبلغه عنه أن يأمر المؤذنين بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل أذان .

فمضى الى محتسب القاهرة ، وهو يومئذ نجم الدين محمد الطنبدى — وكان شيخا جهولا ، وبلهانا مهولا ، سيىء السيرة فى الحسبة والقضاء ، متهافتا على الدرهم ولو قاده الى البلاء ، لا يحتشم من أخذ البرطيل والرشوة ، ولا يراعى فى مؤمن الا ولا ذمة ، وقد ضرى على الآثام ، وتجسد من أكل الحرام ... يرى أن العلم ارخاء العذبة وليس الجبة ، ويحسب أن رضا الله سبحانه فى ضرب العباد بالدرة وولاية الحسبة . لم تحمد الناس قط أياديه ، ولا شكرت أبدا مساعيه ، بل جهالاته شائعة ، وقبائح أفعاله ذائعة . أشخص غير مرة الى مجلس المظالم ، وأوقف مع من أوقف للمحاكمة بين يدى السلطان من أجل

(*) ص ٢٧١ جـ ٢ ، ط . بولاق .

عيوب فوادح ، حقق فيها شكاته عليه القوادح . وما زال فى السيرة مذموما ، ومن العامة والخاصة ملوما — وقال له : رسول الله يأمرك أن تتقدم لسائر المؤذنين بأن يزيدوا فى كل أذان قولهم « الصلاة والسلام عليك يارسول الله » ، كما يفعل فى ليالى الجمع .

فأعجب الجاهل هذا القول ، وجهل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر بعد وفاته الا بما يوافق ما شرعه الله على لسانه فى حياته . وقد نهى الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز عن الزيادة فيما شرعه حيث يقول : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اياكم ومحدثات الأمور » ... فأمر بذلك فى شعبان من السنة المذكورة .

وتمت هذه البدعة ، واستمرت الى يومنا هذا فى جميع ديار مصر وبلاد الشام ، وصارت العامة وأهل الجهالة ترى أن ذلك من جملة الأذان الذى لا يحل تركه ، وأدى ذلك الى أن زاد بعض أهل الالحاد فى الأذان ببعض القرى السلام بعد الأذان على شخص من المعتقدين الذين ماتوا . فلا حول ولا قوة الا بالله ، وانا لله وانا اليه راجعون .

وأما التسبيح فى الليل على المآذن ، فانه لم يكن من فعل سلف الأمة . وأول ما عرف من ذلك أن موسى بن عمران صلوات الله عليه ، لما كان ببنى اسرائيل فى التيه بعد غرق فرعون وقومه ، اتخذ بوقين من فضة مع رجلين من بنى اسرائيل ... ينفخان فيهما وقت الرحيل ، ووقت النزول ، وفى أيام الأعياد ، وعند ثلث الليل الأخير من كل ليلة . فتقوم عند ذلك طائفة من بنى لاوى — سبط موسى عليه السلام — ويقولون نشيدا منزلا بالوحى ، فيه تخويف وتحذير وتعظيم لله تعالى وتنزيه له تعالى ، الى وقت طلوع الفجر .

واستمر الحال على هذا كل ليلة مدة حياة موسى عليه السلام ، وبعده أيام يوشع بن نون ومن قام فى بنى اسرائيل من القضاة . الى أن قام بأمرهم داود عليه السلام ، وشرع فى عمارة بيت المقدس ، فرتب فى كل ليلة عدة من بنى لاوى يقومون عند ثلث الليل الآخر : فمنهم من يضرب بالآلات ، كالعود والسنطير والبربط والدف والمزمار ، ونحو ذلك . ومنهم من يرفع عقيرته بالنشائد المنزلة بالوحى على نبى الله موسى عليه السلام ، والنشائد المنزلة بالوحى على داود عليه السلام .

ويقال ان عدد بنى لاوى هذا كان ثمانية وثلاثين ألف رجل ... قد ذكر تفصيلهم فى كتاب الزبور . فاذا قام هؤلاء ببيت المقدس ، قام فى كل محلة من محال بيت المقدس رجال يرفعون أصواتهم بذكر الله سبحانه من غير آلات — فان الآلات كانت مما يختص ببيت المقدس فقط ، وقد نهوا عن ضربها فى غير البيت — فيتسامع من قرية بيت المقدس ، فيقوم فى كل قرية رجال يرفعون أصواتهم بذكر الله تعالى حتى يعم الصوت بالذكر جميع قرى بنى اسرائيل ومدنهم .

وما زال الأمر على ذلك فى كل ليلة الى أن خرب بخت نصر بيت المقدس ، وجلا بنى اسرائيل الى بابل ، فبطل هذا العمل وغيره من بلاد بنى اسرائيل مدة جلائهم فى بابل سبعين سنة . فلما عاد بنو اسرائيل من بابل ، وعمروا

البيت العمارة الثانية ، أقاموا شرائعهم ، وعاد قيام بنى لاوى بالبيت فى الليل ، وقيام أهل محال القدس وأهل القرى والمدن على ما كان العمل * عليه أيام عمارة البيت الأولى .

واستمر ذلك الى أن خرب القدس بعد قتل نبى الله يحيى بن زكريا ، وقيام اليهود على روح الله ورسوله عيسى بن مريم صلوات الله عليهم على يد طيطش ، فبطلت شرائع بنى اسرائيل من حينئذ ، وبطل هذا القيام فيما بطل من بلاد بنى اسرائيل .

وأما فى الملة الاسلامية ، فكان ابتداء هذا العمل بمصر وسببه أن مسلمة بن مخلد أمير مصر بنى منارا لجامع عمرو بن العاص واعتكف فيه ، فسمع أصوات النواقيس عالية ، فشكا ذلك الى شرحبيل بن عامر عريف المؤذنين . فقال : انى أمدد الأذان من نصف الليل الى قرب الفجر ، فانههم أيها الأمير أن ينقسوا اذا أذنت . فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان ، ومدد شرحبيل ومطط أكثر الليل .

ثم ان الأمير أبا العباس أحمد بن طولون كان قد جعل ، فى حجرة تقرب منه ، رجالا تعرف بالمكبرين عدتهم اثنا عشر رجلا ... يبيت فى هذه الحجرة كل ليلة أربعة يجعلون الليل بينهم عقبا . فكانوا يكبرون ويسبحون ويحمدون الله سبحانه فى كل وقت ، ويقرأون القرآن بألحان ، ويتوسلون ويقولون قصائد زهدية ، ويؤذنون فى أوقات الأذان . وجعل لهم أرزاقا واسعة تجرى عليهم .

فلما مات أحمد بن طولون ، وقام من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه ، أقرهم بحالهم ، وأجراهم على رسمهم مع أبيه . ومن حينئذ اتخذ الناس قيام المؤذنين فى الليل على المآذن ، وصار يعرف ذلك بالتسبيح .

فلما ولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر ، وولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدبانى المارانى الشافعى — كان من رأيه ورأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى الأصول . فحمل الناس الى اليوم على اعتقاده حتى يكفر من خالفه ، وتقدم الأمر الى المؤذنين أن يعلنوا — فى وقت التسبيح على المآذن بالليل — بذكر العقيدة التى تعرف بالمرشدة . فواظب المؤذنون على ذكرها فى كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة الى وقتنا هذا .

ومما أحدث أيضا : التذكير فى يوم الجمعة من أثناء النهار بأنواع من الذكر على المآذن ، ليتهيأ الناس لصلاة الجمعة . وكان ذلك بعد السبعمائة من سنى الهجرة ... قال ابن كثير رحمه الله : فى يوم الجمعة سادس ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، رسم بأن يذكر بالصلاة يوم الجمعة فى سائر مآذن دمشق ، كما يذكر فى مآذن الجامع الأموى ، ففعل ذلك .

الجامع الأزهر

هذا الجامع أول مسجد أسس بالقاهرة . والذى أنشأه القائد جوهر الكاتب الصقلى ، مولى الامام أبى تميم معد الخليفة أمير المؤمنين المعز لدين الله ، لما اختط القاهرة .

(*) ص٢٧٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وشرع فى بناء هذا الجامع فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلثمائة ، وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة احدى وستين وثلثمائة ، وجمع فيه .

وكتب بدائر القبة التى فى الرواق الأول — وهى على يمنة المحراب والمنبر — مانصه بعد البسملة :

« مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى ، وذلك فى سنة ستين وثلثمائة » . وأول جمعة جمعت فيه فى شهر رمضان لسبع خلون منه سنة احدى وستين وثلثمائة .

ثم ان العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين الله جدد فيه أشياء . وفى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة ، سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ، الخليفة العزيز بالله ، فى صلة رزق جماعة من الفقهاء . فأطلق لهم ما يكفى كل واحد منهم من الرزق الناض ، وأمر لهم بشراء دار وبنائها ، فبنيت بجانب الجامع الأزهر . فاذا كان يوم الجمعة حضروا الى الجامع ، وتحلقوا فيه بعد الصلاة الى أن تصلى العصر . وكان لهم أيضا من مال الوزير صلة فى كل سنة ، وكانت عدتهم خمسة وثلاثين رجلا . وخلع عليهم العزيز يوم عيد الفطر ، وحملهم على بغلات .

ويقال ان بهذا الجامع طلسما . فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به ، وكذا سائر الطيور من الحمام واليمام وغيره . وهو صورة ثلاثة طيور ، منقوشة كل صورة على رأس عمود ، فمنها صورتان فى مقدم الجامع بالرواق الخامس : منهما صورة فى الجهة الغربية فى العمود ، وصورة فى أحد العمودين اللذين على يسار من استقبل سدة المؤذنين . والصورة الأخرى فى الصحن فى الأعمدة القبلية مما يلى الشرقية .

ثم ان الحاكم بأمر الله جدده ، ووقف على الجامع الأزهر وجامع المقس والجامع الحاكمى ودار العلم بالقاهرة رباعا بمصر ، وضمن ذلك كتابا نسخته :

« هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى ، على جميع ما نسب اليه مما ذكر ووصف فيه ، من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة ...

« أشهدهم — وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله ، صلوات الله عليهما * ، على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله ، وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن ، وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب — بمحضر رجل متكلم ...

« أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة ، التى يذكر جميع ذلك ويحدد فى هذا الكتاب ، وأنها كانت من أملاك الحاكم الى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة والجامع

(*) ص٢٧٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

بالمقس اللذين أمر بانشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب ...

« منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة ، مشاعا جميع ذلك غير مقسوم . ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها ...

« فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة : جميع الدار المعروفة بدار الضرب ، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف ، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة ، الذى كله بفسطاط مصر ...

« ومن ذلك ماتصدق به على جامع المقس : جميع أربعة الحوانيت والمنازل التى علوها والمخزنين ، الذى ذلك كله بفسطاط مصر بالراية فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق . وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار ...

« ومن ذلك : جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضا ، بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسى ... بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه ، وكل حق هو له داخلٌ فيه وخارج عنه ...

« وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة بتلة ، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها ، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب . لا يوهنها تقادم السنين ، ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ، ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسموات ...

« على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى اليه ولايتها ، ويرجع اليه أمرها — بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من اشهارها — عند ذوى الرغبة فى اجارة أمثالها . فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك ، على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته ، من غير اجحاف بما حبس ذلك عليه . وما فضل كان مقسوما على ستين سهما ...

« فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، المذكور فى هذا الاشهاد ، الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع ... يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ومصلحة . وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون دينارا ونصف دينار وثمن دينار ...

« من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون دينارا . ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة الى ذلك ، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة اليها ، مائة دينار واحدة وثمانية دنانير . ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنا عشر دينارا ونصف وربع دينار . ومن ذلك

لثمن عود هندى للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع ، مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع ، خمسة عشر دينارا . ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلى سبعة دنانير ...

« ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب ، وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة ، خمسة دنانير . ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل ، عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلى ، دينار واحد . ومن ذلك لثمن فحم للبخور ، عن قنطار واحد بالفلفلى ، نصف دينار . ومن ذلك لثمن اردبين ملحا للقناديل ربع دينار . ومن ذلك ما قدر لمؤنة النحاس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع أربعة وعشرون دينارا .

« ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار . ومن ذلك لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار . ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ، ولثمن مائتى مكنسة لكنس هذا الجامع ، دينار واحد وربع دينار . ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء ، مع أجرة حملها ، ثلاثة دنانير . ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع ، راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل ، سبعة وثلاثون دينارا ونصف ...

« ومن ذلك لأرزاق المصلين (يعنى الأئمة) وهم ثلاثة ، وأربعة قومة وخمسة عشر مؤذنا ، خمسمائة دينار وستة وخمسون دينارا ونصف : منها للمصلين لكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار وثمن دينار فى كل شهر من شهور السنة ، والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران فى كل شهر . ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون دينارا . ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ، ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد * ومن ذلك لمرمة ما يحتاج اليه فى هذا الجامع فى سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون دينارا ...

« ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية ، لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ، ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار . ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ...

« ومن ذلك لثمن فدانين قرط ، لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة ، سبعة دنانير . ومن ذلك لأجرة متولى العلف ، وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك ، خمسة عشر دينارا ونصف . ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة ان عملت بهذا الجامع اثنا عشر دينارا » .

والى هنا انقضى حديث الجامع الأزهر ، وأخذ فى ذكر جامع راشدة ودار العلم وجامع المقس . ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلا فضة : فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلا ، ومنها لجامع راشدة تنور واثنا عشر قنديلا . وشرط أن تعلق فى شهر رمضان ، وتعاد الى مكان جرت عادتها أن تحفظ به .

وشرط شروطا كثيرة فى الأوقاف : منها أنه اذا فضل شىء واجتمع يشترى به ملك ،

(*) ص٢٧٤ ج٢ ، ط. بولاق م

كان حاز شيئاً واستهدم ولم يف الريع بعمارته بيع وصرف به ، وأشياء كثيرة . وحبس فيه أيضا عدة آدر وقياسر لا فائدة في ذكرها ، فانها مما خربت بمصر .

قال ابن عبد الظاهر عن هذا الكتاب : ورأيت منه نسخة ، وانتقلت الى قاضي القضاة تقي الدين بن رزين . وكان بصدر هذا الجامع في محرابه منطقة فضة ، كما كان في محراب جامع عمرو بن العاص بمصر ... قلع ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب في حادي عشر ربيع الأول سنة تسع وستين وخمسمائة ، لأنه كان فيها اسماء خلفاء الفاطميين ، فجاء وزنها خمسة آلاف درهم نقرة ، وقلع أيضا المناطق من بقية الجوامع .

ثم ان المستنصر جدد هذا الجامع أيضا . وجدده الحافظ لدين الله ، وأنشأ فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربي الذي في مقدم الجامع بداخل الرواقات — عرفت بمقصورة فاطمة من أجل أن فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها رؤيت بها في المنام — ثم انه جدد في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري .

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في كتاب « سيرة الملك الظاهر » : لما كان يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة ، أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة . وسبب ذلك أن الأمير عز الدين أيدمر الحلي كان جار هذا الجامع من مدة سنين ، فرعى — وفقه الله — حرمة الجار ، ورأى أن يكون كما هو جاره في دار الدنيا أنه غدا يكون ثوابه جاره في تلك الدار ، ورسم بالنظر في أمره ، وانتزع له أشياء مغصوبة كان شيء منها في أيدي جماعة وحاط أموره حتى جمع له شيئاً صالحا .

وجرى الحديث في ذلك . فتبرع الأمير عز الدين له بجملة مستكثرة من المال الجزيل ، وأطلق له من السلطان جملة من المال ، وشرع في عمارته . فعمر الواهي من أركانه وجدرانه وبيضه وأصلح سقوفه ، وبلطه وفرشه وكساه حتى عاد حرما في وسط المدينة ، واستجد به مقصورة حسنة ، وأثر فيه آثارا صالحة يثيبه الله عليها .

وعمل الأمير بيلبك الخازندار فيه مقصورة كبيرة ، رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الامام الشافعي رحمه الله ، ورتب في هذه المقصورة محدثا يسمع الحديث النبوي والرقائق ، ووقف على ذلك الأوقاف الدارة ، ورتب به سبعة لقراءة القرآن ، ورتب به مدرسا ... أثابه الله على ذلك .

ولما تكمل تجديده تحدث في اقامة جمعة فيه . فنودي في المدينة بذلك ، واستخدم له الفقيه زين الدين خطيبا ، وأقيمت الجمعة فيه في اليوم المذكور . وحضر الأتابك فارس الدين ، والصاحب بهاء الدين علي بن حنا ، وولده الصاحب فخر الدين محمد ، وجماعة من الأمراء والكبراء وأصناف العالم على اختلافهم ، وكان يوم جمعة مشهودا .

ولما فرغ من الجمعة ، جلس الأمير عز الدين الحلي والأتابك والصاحب ، وقرىء القرآن ، ودعى للسلطان . وقام الأمير عز الدين ودخل الى داره ، ودخل معه الأمراء ، فقدم لهم كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وانفصلوا .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وباقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزي رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خُطَطُ المقْريزى

الجزء
٣٧



كتاب التحرير

«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاعتراف من آثارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها.»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وكان قد جرى الحدث فى أمر جواز الجمعة فى الجامع ، وما ورد فيه من أقاويل العلماء ، وكتب فيها فتيا أخذ فيها خطوط العلماء بجوار الجمعة في هذا الجامع واقامتها ، فكتب جماعة خطوطهم فيها . وأقيمت صلاة الجمعة به واستمرت ، ووجد الناس به رفقا وراحة لقربه من الحارات البعيدة من الجامع الحاكمى .

قال : وكان سقف هذا الجامع قد بنى قصيرا ، فزيد فيه بعد ذلك وعلى ذراعا . واستمرت الخطبة فيه حتى بنى الجامع الحاكمى فانتقلت الخطبة اليه فان الخليفة كان يخطب فيه خطبة ، فى الجامع الأزهر خطبة ، وفى جامع ابن طولون خطبة ، وفى جامع مصر خطبة .

وانقطعت الخطبة من الجامع الأزهر لما استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطة . فانه قلد وظيفة القضاء لقاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس ، فعمل بمقتضى مذهبه — وهو امتناع اقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد ، كما هو مذهب الامام الشافعى — فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقر الخطبة * بالجامع الحاكمى من أجل أنه أوسع .

فلم يزل الجامع الأزهر معطلا من اقامة الجمعة فيه مائة عام ، من حين استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الى أن أعيدت الخطبة فى أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدم ذكره .

(*) ص٢٧٥ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

ثم لما كانت الزلزلة بديار مصر ، فى ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة ، سقط الجامع الأزهر والجامع الحاكمى وجامع مصر وغيره ، فتقاسم أمراء الدولة عمارة الجوامع ، فتولى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمى ، وتولى الأمير سلار عمارة الجامع الأزهر ، وتولى الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار عمارة جامع الصالح . فجددوا مبانيها ، وأعادوا ما تهدم منها .

ثم جددت عمارة الجامع الأزهر على يد القاضى نجم الدين محمد بن حسين بن على الأسعردى ، محتسب القاهرة ، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ..

ثم جددت عمارته فى سنة احدى وستين وسبعمائة عندما سكن الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرى فى دار الأمير فخر الدين أبان الزاهدى الصالحى النجمى ، بخط الأبارين بجوار الجامع الأزهر ، بعدما هدمها وعمرها داره التى تعرف هناك الى اليوم بدار بشير الجامدار .

فأحب لقربه من الجامع أن يؤثر فيه أثرا صالحا ، فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون فى عمارة الجامع — وكان أثيرا عنده خصيصا به — فأذن له فى ذلك .

وكان قد استجد بالجامع عدة مقاصير ، ووضعت فيه صناديق وخزائن حتى ضيقته . فأخرج الخزائن والصناديق ، ونزع تلك المقاصير ، وتتبع جدرانه وسقوفه بالاصلاح حتى عادت كأنها جديدة ، وبيض الجامع كله

وبلطه ، ومنع الناس من المرور فيه ، ورتب فيه مصحفا ، وجعل له قارئا .

وأنشأ على باب الجامع القبلى حانوتا لتسبيل الماء العذب فى كل يوم ، وعمل فوقه مكتب سبيل لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز .

ورتب للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم ، وأنزل اليه قدورا من نحاس جعلها فيه . ورتب فيه درسا للفقهاء من الحنفية ، يجلس مدرسهم لالقاء الفقه فى المحراب الكبير ، ووقف على ذلك أوقافا جليلة باقية الى يومنا هذا . ومؤذنو الجامع يدعون فى كل جمعة ، وبعد كل صلاة ، للسلطان حسن الى هذا الوقت الذى نحن فيه .

وفى سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، ولى الأمير الطواشى بهادر ، المقدم على المماليك السلطانية ، نظر الجامع الأزهر . فتنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق : بأن من مات من مجاورى الجامع الأزهر عن غير وارث شرعى وترك موجودا ، فانه يأخذه المجاورون بالجامع . ونقش ذلك على حجر عند الباب الكبير البحرى .

وفى سنة ثمانمائة هدمت منارة الجامع ، وكانت قصيرة ، وعمرت أطول منها ، فبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم نقرة ، وكملت فى ربيع الآخر من السنة المذكورة . فعلقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر ، وأوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها الى أسفلها . واجتمع القراء والوعاظ بالجامع ، وتلوا ختمة شريفة ، ودعوا للسلطان .

فلم تزل هذه المئذنة الى شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة . فهدمت لميل ظهر فيها ، وعمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع البحرى بعدما هدم الباب وأعيد بناؤه بالحجر ، وركبت المنارة فوق عقده ، وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التى كانت تجاه قلعة الجبل .

وهدمها الملك الناصر فرج بن برقوق ، وقام بعمارة ذلك الأمير تاج الدين التاج الشوبكى ، والى القاهرة ومحتسبها ، الى أن تمت فى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة وثمانمائة . فلم تقم غير قليل ، ومالت حتى كادت تسقط ، فهدمت فى صفر سنة سبع وعشرين وأعيدت .

وفى شوال منها ابتدىء بعمل الصهريج الذى بوسط الجامع . فوجد هناك آثار فسقية ماء ، ووجد أيضا رمم أموات . وتم بناؤه فى ربيع الأول ، وعمل بأعلاه مكان مرتفع له قبة يسبل فيه الماء ، وغرس بصحن الجامع أربع شجرات ، فلم تفلح وماتت .

ولم يكن لهذا الجامع ميضأة عندما بنى ، ثم عملت ميضأته حيث المدرسة الأقبغاوية ، الى أن بنى الأمير أقبغا عبد الواحد مدرسته المعروفة بالمدرسة الأقبغاوية هناك . وأما هذه الميضأة التى بالجامع الآن ، فان الأمير بدر الدين جنكل بن البابا بناها ، ثم زيد فيها بعد سنة عشر وثمانمائة ميضأة المدرسة الأقبغاوية .

وفى سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، ولى نظر هذا الجامع الأمير سودوب القاضى حاجب الحجاب ؛ فجرت فى أيام نظره حوادث لم يتفق مثلها . وذلك أنه لم يزل فى هذا الجامع منذ بنى عدة من الفقراء يلازمون الاقامة فيه ،

وبلغت عدتهم فى هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلا ، ما بين عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم .

فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، والاشتغال بأنواع العلوم الفقه والحديث والتفسير والنحو ، ومجالس الوعظ وحلق الذكر . فيجد الانسان اذا دخل هذا الجامع من الانس بالله ، والارتياح وترويح النفس ، ما لا يجده فى غيره ، وصار أرباب الأموال يقصدون * هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس اعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، وكل قليل تحمل اليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات لا سيما فى المواسم .

فأمر فى جمادى الأولى من هذه السنة باخراج المجاورين من الجامع ، ومنعهم من الاقامة فيه ، واخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسى المصاحف ... زعما منه أن هذا العمل مما يثاب عليه ، وما كان الا من أعظم الذنوب وأكثرها ضررا . فانه حل بالفقراء بلاء كبير من تشتت شملهم وتعذر الأماكن عليهم ، فساروا فى القرى ، وتبذلوا بعد الصيانة ، وفقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن ودراسة العلم وذكر الله .

ثم لم يرضه ذلك حتى زاد فى التعدى ، وأشاع أن أناسا يبيتون بالجامع ويفعلون فيه منكرات . وكانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس فى الجامع ما بين تاجر وفقيه وجندى وغيرهم ، منهم من يقصد بمبيته البركة ، ومنهم من لا يجد مكانا يأويه ، ومنهم من يستروح بمبيته هناك ... خصوصا فى ليالى الصيف وليالى شهر رمضان ، فانه يمتلىء صحنه وأكثر رواقاته .

فلما كانت ليلة الأحد الحادى عشر من جمادى الآخرة ، طرق الأمير سودوب الجامع بعد العشاء الآخرة والوقت صيف ، وقبض على جماعة وضربهم فى الجامع ، وكان قد جاء معه من الأعوان والغلمان وغوغاء العامة ومن يريد النهب جماعة ، فحل بمن كان فى الجامع أنواع البلاء ، ووقع فيهم النهب ، فأخذت فرشهم وعمائمهم ، وفتشت أوساطهم ، وسلبوا ما كان مربوطا عليها من ذهب وفضة .

وعمل ثوبا أسود للمنبر وعلمين مزوقين ، بلغت النفقة على ذلك خمسة عشر ألف درهم على ما بلغنى . فعاجل الله الأمير سودوب ، وقبض عليه السلطان فى شهر رمضان ، وسجنه بدمشق .

جامع الحاكم

هذا الجامع بنى خارج باب الفتوح ، أحد أبواب القاهرة ، وأول من أسسه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد ، وخطب فيه وصلى بالناس الجمعة ، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله . فلما وسع أمير الجيوش بدر الجمالى القاهرة ، وجعل أبوابها حيث هى اليوم ، صار جامع الحاكم داخل القاهرة ، وكان يعرف أولا بجامع الخطبة ، ويعرف اليوم بجامع الحاكم ، ويقال له الجامع الأنور .

(*) ص٢٧٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

قال الأمير مختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحي في « تاريخ مصر » : وفيه (يعني شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة) خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة مما يلي باب الفتوح من خارجه ، وبدىء بالبناء فيه وتحلق فيه الفقهاء الذين يتحلقون في جامع القاهرة (يعني الجامع الأزهر) ، وخطب فيه العزيز بالله .

وقال في حوادث سنة احدى وثمانين وثلثمائة : لأربع خلون من شهر رمضان ، صلى العزيز بالله في جامعه صلاة الجمعة وخطب . وكان في مسيره بين يديه أكثر من ثلاثة آلاف ، وعليه طيلسان ، وبيده القضيب ، وفي رجله الحذاء . وركب لصلاة الجمعة في رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة الى جامعه ومعه ابنه منصور ، فجعلت المظلة على منصور ، وسار العزيز بغير مظلة

وقال في حوادث سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة : وأمر الحاكم بأمر الله أن يتم بناء الجامع الذي كان الوزير يعقوب بن كلس بدأ في بنائه عند باب الفتوح ، فقدر النفقة عليه أربعون ألف دينار ، فابتدىء في العمل فيه . وفي صفر سنة احدى وأربعمائة زيد في منارة جامع باب الفتوح ، وعمل لها أركان طول كل ركن مائة ذراع .

وفي سنة ثلاث وأربعمائة ، أمر الحاكم بأمر الله بعمل تقدير ما يحتاج اليه جامع باب الفتوح من الحصر والقناديل والسلاسل ، فكان تكسير ما ذرع الحصر ستة وثلاثين ألف ذراع ، فبلغت النفقة على ذلك خمسة آلاف دينار .

قال : وتم بناء الجامع الجديد بباب الفتوح وعلق على سائر أبوابه ستور ديبقية عملت له ، وعلق فيه تنانير فضة عدتها أربع . وكثير من قناديل فضة ، وفرش جميعه بالحصر التي عملت له ، ونصب فيه المنبر ، وتكامل فرشه وتعليقه .

وأذن في ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ثلاث وأربعمائة لمن بات في الجامع الأزهر أن يمضوا اليه . فمضوا ، وصار الناس طول ليلتهم يمشون من كل واحد من الجامعين الى الآخر — بغير مانع لهم ، ولا اعتراض من أحد من عسس القصر ولا أصحاب الطوف — الى الصبح . وصلى فيه الحاكم بأمر الله بالناس صلاة الجمعة ، وهي أول صلاة أقيمت فيه بعد فراغه .

وفي ذي القعدة سنة أربع وأربعمائة ، حبس الحاكم عدة قياسر وأملاك على الجامع الحاكمي بباب الفتوح .

قال ابن عبد الظاهر : وعلى باب الجامع الحاكمي مكتوب « انه أمر بعمله الحاكم أبو على المنصور في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة » وعلى منبره مكتوب « انه أمر بعمل هذا المنبر للجامع الحاكمي المنشأ بظاهر باب الفتوح في سنة ثلاث وأربعمائة » .

ورأيت في سيرة الحاكم « وفي يوم الجمعة أقيمت الجمعة في الجامع الذي كان الوزير أنشأه بباب الفتوح » .

ورأيت في سيرة الوزير المذكور « في يوم الأحد عاشر * رمضان سنة تسع وسبعين

(*) ص٢٧٧ جـ٢ ، ط . بولاق .

وثلثمائة ، خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة ، خارج الطابية مما يلي باب الفتوح » .

قال : وكان هذا الجامع خارج القاهرة ، فجدد بعد ذلك باب الفتوح . وعلى البدنة التي تجاور باب الفتوح وبعض البرج مكتوب « ان ذلك بني سنة ثلاثين وأربعمائة في زمن المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش » . فيكون بينهما سبع وثمانون سنة .

قال : والفسقية وسط الجامع بناها الصاحب عبد الله بن على بن شكر ، وأجرى الماء اليها ، وأزالها القاضي تاج الدين بن شكر وهو قاضي القضاة في سنة ستين وستمائة . والزيادة التي الى جانبه قيل انها بناء ولده الظاهر على ولم يكملها . وكان قد حبس فيها الفرنج ، فعملوا فيها كنائس هدمها الملك الناصر صلاح الدين ، وكان قد تغلب عليها ، وبنيت اصطبلات .

وبلغني أنها كانت في الأيام المتقدمة قد جعلت أهراء للغلال . فلما كان في الأيام الصالحية ، ووزارة معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ للملك الصالح أيوب ولد الكامل ، ثبت عند الحاكم أنها من الجامع ، وأن بها محرابا ، فانتزعت وأخرج الخيل منها ، وبنى فيها ما هو الآن في الأيام المعزية على يد الركن الصيرفي ، ولم يسقف .

ثم جدد هذا الجامع في سنة ثلاث وسبعمائة وذلك أنه لما كان يوم الخميس ثالث عشرى ذي الحجة سنة اثنتين وسبعمائة ، تزلزلت أرض مصر والقاهرة وأعمالهما ، ورجف كل ما عليهما واهتز ، وسمع للحيطان قعقعة وللسقوف قرقعة ، ومارت الأرض بما عليها وخرجت عن مكانها .

وتخيل الناس أن السماء قد انطبقت على الأرض ، فهربوا من أماكنهم ، وخرجوا عن مساكنهم ، وبرزت النساء حاسرات ، وكثر الصراخ والعويل ، وانتشرت الخلائق ، فلم يقدر أحد على السكون والقرار ، لكثرة ما سقط من الحيطان ، وخر من السقوف والمآذن وغير ذلك من الأبنية . وفاض ماء النيل فيضا غير المعتاد ، وألقى ماكان عليه من المراكب التي بالساحل قدر رمية سهم ، وانحسر عنها فصارت على الأرض بغير ماء .

واجتمع العالم في الصحراء خارج القاهرة ، وباتوا ظاهر باب البحر بحرمهم وأولادهم في الخيم ، وخلت المدينة ، وتشعثت جميع البيوت حتى لم يسلم ولا بيت من سقوط أو تسقط أو ميل . وقام الناس في الجوامع يبتهلون ، ويسألون الله سبحانه طول يوم الخميس وليلة الجمعة ويوم الجمعة . فكان مما تهدم في هذه الزلزلة الجامع الحاكمي . فانه سقط كثير من البدنات التي فيه ، وخرب أعالي المئذنتين ، وتشعثت سقوفه وجدرانه .

فانتدب لذلك الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير . ونزل اليه ومعه القضاة والأمراء فكشفه بنفسه ، وأمر برم ما تهدم منه واعادة ما سقط من البدنات ، فأعيدت وفي كل بدنة منها طاق ، وأقام سقوف الجامع وبيضه حتى عاد جديدا ، وجعل له عدة أوقاف بناحية الجيزة وفي الصعيد وفي الاسكندرية ، تغل كل سنة شيئا كثيرا ، ورتب فيه دروسا أربعة لاقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة ،

ودرسا لاقراء الحديث النبوى ، وجعل لكل درس مدرسا وعدة كثيرة من الطلبة .

فرتب فى تدريس الشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى ، وفى تدريس الحنفية قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجى الحنفى ، وفى تدريس المالكية قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ، وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة شرف الدين الحرانى ، وفى درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعودا الحارثى ، وفى درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان ، وفى درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفى ، وفى التصدير لافادة العلوم علاء الدين على بن اسماعيل القونوى ، وفى مشيخة الميعاد المجد عيسى بن الخشاب .

وعمل فيه خزانة كتب جليلة ، وجعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم ، وعدة قراء يتناوبون قراءة القرآن ، ومعلما يقرىء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل . وحفر فيه صهريجا بصحن الجامع ليملأ فى كل سنة من ماء النيل ، ويسبل منه الماء فى كل يوم ، ويستقى منه الناس يوم الجمعة ، وأجرى على جميع من قرره فيه معاليم داره . وهذه الأوقاف باقية الى اليوم ، الا أن أحوالها اختلت كما اختل غيرها . فكان ما أنفق عليه زيادة على أربعين ألف دينار .

وجرى فى بنائه لهذا الجامع أمر يتعجب منه . وهو ما حدثنى به شيخنا الشيخ المعروف المسند المعمر ، أبو عبد الله محمد بن ضرغام ابن شكر المقرى بمكة فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة ... قال : أخبرنى من حضر عمارة الأمير بيبرس للجامع الحاكمى عند سقوطه فى سنة الزلزلة أنه لما شرع البناة فى ترميم ما وهى من المئذنة التى هى من جهة باب الفتوح ، ظهر لهم صندوق فى تضاعيف البنيان . فأخرجه الموكل بالعمارة وفتحه ، فاذا فيه قطن ملفوف على كف انسان بزنده ، وعليه أسطر مكتوبة لم يدر ما هى ، والكف طرية كأنها قريبة عهد بالقطع ثم رأيت هذه الحكاية بخط مؤلف السيرة الناصرية موسى ابن محمد بن يحيى أحد مقدمى الحلقة .

ثم جدد هذا الجامع ، وبلط جميعه فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى ولايته الثانية ، على يد الشيخ * قطب الدين محمد الهرماس فى سنة ستين وسبعمائة . ووقف قطعة أرض على الهرماس وأولاده ، وعلى زيادة فى معلوم الامام بالجامع ، وعلى ما يحتاج اليه فى زيت الوقود ومرمة فى سقفه وجدرانه .

وجرى فى عمارة الجامع على يد الهرماس ما حدثنى به الشيخ المعمر شمس الدين محمد ابن على ، امام الجامع الطيبرسى بشاطىء النيل قال : أخبرنى محمد بن عمر البوصيرى ، قال : حدثنا قطب الدين محمد الهرماس أنه رأى بالجامع الحاكمى حجرا ظهر من مكان قد سقط ، منقوشة عليه هذه الأبيات الخمسة :

ان الذى أسررت مكنون اسمه
وكتمته كيما أفوز بوصله
مال له جذر تساوى فى الهجا
طرفاه يضرب بعضه فى مثله

(*) ص٢٧٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

فيصير ذاك المال الا أنه
فى النصف منه تصاب أحرف كله
واذا نطقت بربعه متكلما
من بعد أوله نطقت بكله
لا نقط فيه اذا تكامل عده
فيصير منقوطا بجملة شكله

قال : وهذه الأبيات لغز فى الحجر المكرم .

وقال العلامة شمس الدين محمد بن النقاش فى كتاب « العبر فى أخبار من مضى وغبر » : وفى هذه السنة (يعنى سنة احدى وستين وسبعمائة) صودر الهرماس ، وهدمت داره التى بناها أمام الجامع الحاكمى ، وضرب ونفى هو وولده . فلما كان يوم الثلاثاء التاسع والعشرون من ذى القعدة ، استفتى السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى وقف حصة طندتا .

وهى الأرض التى كان قد سأله الهرماس أن يقفها على مصالح الجامع الحاكمى . فعين له خمسمائة وستين فدانا من طم طندتا ، وطلب الموقعين وأمرهم أن يكتبوا صورة وقفها ، ويحضروه ليشهدوا عليه به — وكان قد تقرر من شروطه فى أوقافه ما قيل انه رواية عن أبى حنيفة ، رحمة الله تعالى عليه ، من أن للواقف أن يشترط فى وقفه التغيير والزيادة والنقص وغير ذلك — فأحضر الكركى الموقع اليه الكتاب مطويا ، فقرأ منه طرته وخطبته وأوله ، ثم طواه وأعاده اليه مطويا ، وقال : اشهدوا بما فيه — دون قراءة وتأمل — فشهدوا هم بالتفصيل الذى كتبوه وقرروه مع الهرماس .

ولما اطلع السلطان على ذلك بعد نفى الهرماس ، طلب الكركى وسأله عن هذه الواقعة . فأجاب بما قد ذكرنا ، والله أعلم بصحة ذلك ، غير أن المعلوم المقرر أن السلطان ما قصد الا مصالح الجامع ... نعم سأله أزدمر الخازندار : هل وقفت حصة لطيفة على أولاد الهرماس ، فانه قد ذكر ذلك ؟

فقال : نعم أنا وقفت عليهم جزءا يسيرا لم أعلم مقداره . وأما التفصيل المذكور فى كتاب الوقف فلم أتحققه ولم أطلع عليه .

فاستفتى المفتين فى هذه الواقعة . فأما المفتون — كابن عقيل ، وابن السبكى ، والبلقينى والبسطامى ، والهندى ، وابن شيخ الجبل ، والبغدادى ونحوهم — فأجابوا ببطلان الحكم المترتب على هذه الشهادة الباطلة وبطلان التنفيذ . . وكان الحنفى حكم والبقية نفذوا . وأما الحنفى فقال : ان الوقف اذا صدر صحيحا على الأوضاع الشرعية . فانه لا يبطل بما قاله الشاهد ، وهو جواب عن نفس الواقعة . وأما الشافعى فكتب ما مضمونه . ان الحنفى ان اقتضى مذهبه بطلان ما صححه أولا ، نفذ بطلانه وحاصل ذلك أن القضاة أجابوا بالصحة ، والمفتين أجابوا بالبطلان .

فطلب السلطان المفتين والقضاة . فلم يحضر من الحكام غير نائب الشافعى ، وهو تاج الدين محمد بن اسحاق بن المناوى ، والقضاة الثلاثة الشافعى والحنفى والحنبلى وجدوا مرضى لم يمكنهم الحضور الى سرياقوس — فان السلطان كان قد سرح اليها على العادة فى كل سنة — فجمعهم السلطان فى

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بليالـيهن ، والوالى مار وعائد بينهم ، وقد ندب من يحفظ الناس ومتاعهم .

فيركب يوم الجمعة المذكور شاقا * لذلك كله على الشارع الأعظم ، الى مسجد عبد الله الخراب اليوم ، الى دار الأنماط ، الى الجامع بمصر . فيدخل اليه من المعونة — ومنها باب متصل بقاعة الخطيب — بالزى الذى تقدم ذكره فى خطبة الجامعين بالقاهرة وعلى ترتيبهما . فاذا قضى الصلاة عاد الى القاهرة من طريقه بعينها ، شاقا بالزينة الى أن يصل الى القصر ، ويعطى أرباب المساجد التى يمر عليها كل واحد دينارا .

وقال ابن المأمون : ووصل من الطراز الكسوة المختصة بغرة شهر رمضان وجمعتيه : برسم الخليفة للغرة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة ، وبرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر بدلة موكبية حرير مكملة منديلها وطيلسانها بياض ، وبرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعرى ، وما هو برسم أخى الخليفة للغرة خاصة بدلة مذهبة ، وبرسم أربع جهات للخليفة أربع حلل مذهبات ، وبرسم الوزير للغرة خلعة مذهبة مكملة موكبية ، وبرسم الجمعتين بدلتان حريريتان . ولم يكن لغير الخليفة وأخيه الوزير فى ذلك شىء فنذكره .

جامع راشدة

هذا الجامع عرف بجامع راشـدة لأنه فى خطة راشدة . قال القضاعى : خطة راشدة بن أدوب بن جديلة من لخم ، هى متاخمة للخطة

(*) ص٢٨١ ج٢ ، ط. بولاق .

التى قبلها الى الدير المعروف كان بأبى تكموس ثم هدم ، وهو الجامع الكبير الذى براشدة . وقد دثرت هذه الخطة ، ومنها المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة ، والجنان التى كانت تعرف بكهمس بن معمر ، ثم عرفت بالماردانى ، وهى اليوم تعرف بالأمير تميم .

وقال المسبحى فى حوادث سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة : وابتدىء بناء جامع راشدة فى سابع عشر ربيع الآخر ، وكان مكانه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصارى ، فبنى بالطوب ، ثم هدم وزيد فيه وبنى بالحجر ، وأقيمت به الجمعة .

وقال فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة : وفيه (يعنى شهر رمضان) فرش جامع راشدة ، وتكامل فرشه وتعليق قناديله وما يحتاج اليه . وركب الحاكم بأمر الله عشية يوم الجمعة الخامس عشر منه ، وأشرف عليه .

وقال فى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة : وفيه (يعنى شهر رمضان) صلى الحاكم بجامعه الذى أنشأه براشدة صلاة الجمعة وخطب . وفى شهر رمضان سنة أربعمائة ، أنزل بقناديل وتنور من فضة زنتها ألوف كثيرة ، فعلقت بجامع راشدة . وفى سنة احدى وأربعمائة هدم ، وابتدىء فى عمارته من صفر .

وفى شهر رمضان سنة ثلاث وأربعمائة : صلى الحاكم فى جامع راشدة صلاة الجمعة ، وعليه عمامة بغير جوهر وسيف محلى بفضة بيضاء دقيقة ، والناس يمشون بركابه من غير أن يمنع أحد منه . وكان يأخذ قصصهم ، ويقف وقوفا طويلا لكل منهم .

واتفق يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وأربعمائة أن خطب فيه خطيبان معا على المنبر . وذلك أن أبا طالب على بن عبد السميع العباسى استقر فى خطابته باذن قاضى القضاة أبى العباس أحمد بن محمد بن العوام ، بعد سفر العفيف البخارى الى الشام . فتوصل ابن عصفورة الى أن خرج له أمر أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله ، أن يخطب . فصعدا جميعا المنبر ، ووقف أحدهما دون الآخر وخطبا معا . ثم بعد ذلك استقر أبو طالب خطيبا ، وأن يكون ابن عصفورة يخلفه .

وقال ابن المتوج : هذا الجامع فيما بين دير الطين والفسطاط . وهو مشهور الآن بجامع راشدة ، وليس بصحيح ، وانما جامع راشدة كان جامعا قديم البناء بجوار هذا الجامع عمر فى زمن الفتح .. عمرته راشدة . وهى قبيلة من القبائل ، كقبيلة تجيب ومهرة ، نزلت فى هذا المكان ، وعمروا فيه جامعا كبيرا أدركت أنا بعضه ومحرابه . وكان فيه نخل كثير من نخل المقل ، ومن جملة ما رأيت فيه نخلة من المقل عددت لها سبعة رؤوس مفرعة منها ... فذاك الجامع هو المعروف بجامع راشدة .

وأما هذا الموجود الآن فمن عمارة الحاكم ، ولم يكن فى بناء الجوامع أحسن من بنائه . وقيل عمرته حظية الخليفة وكان اسمها راشدة ، وليس بصحيح ، والأول هو الصحيح . وفيه الآن نخل وسدر وبئر وساقية رجل ، وهو مكان خلوة وانقطاع ، ومحل عبادة وفراغ من تعلقات الدنيا .

قال مؤلفه : هذا وهم من ابن المتوج فى موضعين :

« أولهما » : أن راشدة عمرت هذا الجامع فى زمن فتح مصر ، وهذا قول لم يقله أحد من مؤرخى مصر . فهذا الكندى ثم القضاعى — وعليهما يعول فى معرفة خطط مصر — ومن قبلهما ابن عبد الحكم ... لم يقل أحد منهم ان راشدة عمرت زمن الفتح مسجدا ، ولا يعرف من هذا السلف رحمهم الله ، فى جند من أجناد الأمصار التى فتحتها الصحابة رضى الله عنهم ، أنهم أقاموا خطبتين فى مسجد واحد .

وقد حكينا ما تقدم عن المسبحى — وهو مشاهد — ما نقله من بناء الجامع المذكور فى موضع الكنيسة بأمر الحاكم بأمر الله ، وتغييره لبنائه غير مرة ، وتبعه القضاعى على ذلك . وقد وعد القضاعى والكندى فى كتابيهما * المذكور فيهما خطط مصر ، ما كان بمصر من مساجد الخطبة القديمة والمحدثة ، وذكرا مساجد راشدة ، ولم يذكرا فيها جامعا اختطته راشدة ، وذكرا هذا الدير ، وعين القضاعى اسمه ، هدم وبنى فى مكانه جامع راشدة . وناهيك بهما معرفة لآثار مصر وخططها .

و « الوهم الثانى » : الاستدلال على الوهم الأول بمشاهدة بقايا مسجد قديم . ولا أدرى كيف يستدل بذلك ؟ فمن أنكر أن يكون قد كان هناك مسجد ؟ بل المدعى أنه كان لراشدة مساجد ، لكن كونها اختطت جامعا هذا غير صحيح .

(*) ص٢٨٢ ج٢ ، ط. بولاق .

وقال ابن أبى طى فى أخبار سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة فى كتابه « تاريخ حلب » : كانت النصارى اليعقوبية قد شرعوا فى انشاء كنيسة كانت قد اندرست لهم بظاهر مصر ، فى الموضع المعروف براشدة ، فثار قوم من المسلمين ، وهدموا ما بنى النصارى . وأنهى الى الحاكم ذلك ، وقيل له : ان النصارى ابتدأوا بنائها ، وقال النصارى : انها كانت قبل الاسلام .

فأمر الحاكم حسين بن جوهر بالنظر فى حال الفريقين ، فمال فى الحكم مع النصارى ، وتبين للحاكم ذلك ، فأمر أن تبنى تلك الكنيسة مسجدا جامعا ، فبنى فى أسرع وقت ، وهو جامع راشدة ، وراشدة اسم الكنيسة ، وكان بجواره كنيستان : احداهما لليعقوبية ، والأخرى للنسطورية ، فهدمتا أيضا ، وبنيتا مسجدين .

وكان فى حارة الروم بالقاهرة آدر للروم وكنيستان لهم ، فهدمتا وجعلتا مسجدين أيضا ، وحول الروم الى الموضع المعروف بالحمراء ، وأسس الروم ثلاث كنائس عوضا عما هدم لهم . وهذا أيضا مصرح بأن جامع راشدة أسسه الحاكم ، وفيه وهم لكونه جعل راشدة اسما للكنيسة ، وانما راشدة اسم لقبيلة من العرب نزلوا عند الفتح هناك ، فعرفت تلك البقاع بخطة راشدة .

وقد جدد جامع راشدة مرارا ، وأدركته عامرا تقام فيه الجمعة ، ومتلىء بالناس لكثرة من حوله من السكان ، وانما تعطل من اقامة الجمعة بعد حوادث سنة ست وثمانمائة .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة : راشدة بطن من لخم ، وهم ولد راشدة بن الحارث بن أد بن جديلة ، من لخم ابن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد — وقيل راشدة بن أدوب — ويقال لراشدة خالفة ، ولهم خطة بمصر بالجبل المعروف بالرصد المطل على بركة الجيش ، وقد دثرت الخطة ، ولم يبق فى موضعها الا الجامع الحاكمى المعروف بجامع راشدة .

جامع المقس

هذا الجامع أنشأه الحاكم بأمر الله على شاطىء النيل بالمقس فى ... ... لأن المقس كان خطة كبيرة . وهى بلد قديم من قبل الفتح كما تقدم ذكر ذلك فى هذا الكتاب .

وقال فى الكتاب الذى تضمن وقف الحاكم بأمر الله الأماكن بمصر على الجوامع — كما ذكر فى خبر الجامع الأزهر — ما نصه : « ويكون جميع ما بقى ، مما تصدق به على هذه المواضع ، يصرف فى جميع ما يحتاج اليه فى جامع المقس المذكور من عمارته ، ومن ثمن الحصر العبدانية والمظفورة ، وثمن العود للبخور وغيره ، على ما شرح من الوظائف فى الذى تقدم » .

وكان لهذا الجامع نخل كثير فى الدولة الفاطمية ، ويركب الخليفة الى منظرة كانت بجانبه عند عرض الأسطول ، فيجلس بها لمشاهدة ذلك ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر المناظر .

وفى سنة سبع وثمانين وخمسمائة انشقت زربية من هذا الجامع فى شهر رمضان لكثرة زيادة ماء النيل ، وخيف على الجامع السقوط فأمر بعمارتها .

ولما بنى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب هذا السور الذى على القاهرة ، وأراد أن يوصله بسور مصر من خارج باب البحر الى الكوم الأحمر — حيث منشأة المهرانى اليوم — وكان المتولى لعمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، أنشأ بجوار جامع المقس برجا كبيرا عرف بقلعة المقس فى مكان المنظرة التى كانت للخلفاء .

فلما كان فى سنة سبعين وسبعمائة ، جدد بناء هذا الجامع الوزير الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى ، وهدم القلعة وجعل مكانها جنينة ، واتهمه الناس بأنه وجد هنالك مالا كثيرا ، وأنه عمر منه الجامع المذكور ، فصار العامة اليوم يقولون : جامع المقسى . ويظن من لا علم عنده أن هذا الجامع من انشائه ، وليس كذلك بل انما جدده وبيضه .

وقد انحسر ماء النيل عن تجاه هذا الجامع كما ذكر فى خبر بولاق والمقس ، وصار هذا الجامع اليوم على حافة الخليج الناصرى . وأدركنا ما حوله فى غاية العمارة ، وقد تلاشت المساكن التى هناك ، وبها الى اليوم بقية يسيرة .

ونظر هذا الجامع اليوم بيد أولاد الوزير المقسى . فانه جدده ، وجعل عليه أوقافا لمدرس وخطيب وقومة ومؤذنين وغير ذلك .

وقال جامع السيرة الصلاحية : وهذا المقسم على شاطىء النيل يزار ، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار ، وهو المكان الذى قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضى الله عنهم على مصر . فلما أمر السلطان صلاح الدين بادارة السور * على مصر والقاهرة ، تولى ذلك بهاء الدين قراقوش ، وجعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقس ، وبنى فيه برجا يشرف على النيل ، وبنى مسجده جامعا ، واتصلت العمارة منه الى البلد ، وصار تقام فيه الجمع والجماعات .

« العزيز بالله » : أبو النصر نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد . ولد بالمهدية من بلاد أفريقية فى يوم الخميس الرابع عشر من المحرم سنة أربع وأربعين وثلثمائة ، وقدم مع أبيه الى القاهرة وولى العهد . فلما مات المعز لدين الله أقيم من بعده فى الخلافة يوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة ، فأذعن له سائر عساكر أبيه ، واجتمعوا عليه ، وسير بذهب الى بلاد المغرب فرق فى الناس ، وأقر يوسف بن ملكين على ولاية أفريقية ، وخطب له بمكة .

ووافى الشام عسكر القرامطة ، فصاروا مع أفتكين التركى وقوى بهم ، وساروا الى الرملة وقاتلوا عساكر العزيز بيافا . فبعث العزيز جوهرا القائد بعساكر كثيرة ، وملك الرملة ، وحاصر دمشق مدة ، ثم رحل عنها بغير طائل ، فأدركه القرامطة ، وقاتلوه بالرملة وعسقلان نحو سبعة عشر شهرا . ثم خلص من تحت سيوف أفتكين وسار الى العزيز ، فوافاه وقد

(*) ص٢٨٢ جـ٤ ، ط. بولاق *

برزا من القاهرة فسار معه . ودخل العزيز الى الرملة ، وأسر افتكين فى المحرم سنة ثمان وستين وثلثمائة ، فأحسن اليه وأكرمه اكراما زائدا .

فكتب اليه الشريف أبو اسماعيل ابراهيم الرئيس يقول : يامولانا لقد استحق هذا الكافر كل عذاب ، والعجب من الاحسان اليه . فلما لقيه قال : ياابراهيم قرأت كتابك فى أمر افتكين ، وأنا أخبرك . اعلم أنا قد وعدناه الاحسان والولاية ، فلما قبل وجاء الينا نصب فازاته وخيامه حذاءنا ، وأردنا منه الانصراف ، فلج وقاتل . فلما ولى منهزما ، وسرت الى فازاته ودخلتها ، سجدت لله شكرا ، وسألته أن يفتح لى بالظفر به ، فجىء به بعد ساعة أسيرا ، أترى يليق بى غير الوفاء ؟

ولما وصل العزيز الى القاهر ، اصطنع افتكين ، وواصله بالعطايا والخلع ... حتى قال : لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا العزيز بالله ونظرى اليه بما غمرنى من فضله واحسانه .

فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمه حيدرة : ياعم أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى .

ومات بمدينة بلبيس من مرض طويل بالقولنج والحصاة ، فى اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة ، فحمل الى القاهرة ، ودفن بتربة القصر مع آبائه . وكانت مدة خلافته بعد أبيه المعز احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا ، ومات وعمره اثنان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما ، وكان نقش خاتمه « بنصر العزيز الجبار ، ينتصر الامام نزار » .

ولما مات وحضر الناس الى القصر للتعزية ، أفحموا عن أن يوردوا فى ذلك المقام شيئا ، ومكثوا مطرقين لا ينبسون . فقام صبى من أولاد الامراء الكتاميين ، وفتح باب التعزية وأنشد :

انظر الى العلياء كيف تضام ؟
ومآتم الأحساب كيف تقام
خبرتنى ركب الركاب ولم يدع
للسفر وجه ترحل فأقاموا

فاستحسن الناس ايراده ، وكأنه طرق لهم كيف يوردون المراثى . فنهض الشعراء والخطباء حينئذ وعزوا ، وأنشد كل واحد ما عمل فى التعزية .

وخلف من الأولاد ابنه المنصور ، وولى الخلافة من بعده ، وابنة تدعى «سيدة الملك» . وكان أسمر طوالا ، أصهب الشعر ، أعين أشهل ، عريض المنكبين ، شجاعا كريما ، حسن العفو والقدرة ، لا يعرف سفك الدماء ألبتة ، مع حسن الخلق والقرب من الناس ، والمعرفة بالخيل وجوارح الطير . وكان محبا للصيد مغرى به ، حريصا على صيد السباع .

ووزر له يعقوب بن كلس اثنتى عشرة سنة وشهرين وتسعة عشر يوما ، ثم من بعده على ابن عمر العداس سنة واحدة ، ثم أبو الفضل جعفر بن الفرات سنة ، ثم أبو عبد الله الحسين ابن الحسن البازيار سنة وثلاثة أشهر ، ثم أبو محمد بن عمار شهرين ، ثم الفضل بن صالح الوزيرى أياما ، ثم عيسى بن نسطورس سنة وعشرة أشهر . وكانت قضاته أبو طاهر محمد ابن أحمد ، ثم أبو الحسن على بن النعمان ، ثم أبو عبد الله محمد بن النعمان .

وخرج الى السفر أولا فى صفر سنة سبع وستين وعاد من العباسية ، وخرج ثانيا وظفر بافتكين ، وخرج ثالثا فى صفر سنة اثنتين وسبعين ورجع بعد شهر الى قصره بالقاهرة ، وخرج رابعا فى ربيع الأول سنة أربع وستين فنزل منية الأصبغ وعاد بعد ثمانية أشهر واثنى عشر يوما ، وخرج خامسا فى عاشر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين فأقام مبرزا أربعة عشر شهرا وعشرين يوما ، ومات فى هذه الخرجة ببلبيس .

وهو أول من اتخذ من أهل بيته وزيرا أثبت اسمه على الطرز ، وقرن اسمه باسمه ، وأول من لبس منهم الخفين والمنطقة ، وأول من اتخذ منهم الأتراك * واصطنعهم وجعل منهم القواد ، وأول من رمى منهم بالنشاب ، وأول من ركب منهم بالذؤابة الطويلة والحنك ، وضرب بالصوالجة ولعب بالرمح ، وأول من عمل مائدة فى الشرطة السفلى فى شهر رمضان يفطر عليها أهل الجامع العتيق ، وأقام طعاما فى جامع القاهرة لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان ، واتخذ الحمير لركوبه اياها .

وكانت أمه أم ولد اسمها « درزارة » . وكان يضرب بأيامه المثل فى الحسن ، فانها كانت كلها أعيادا وأعراسا لكثرة كرمه ومحبته للعفو واستعماله لذلك . ولا أعلم له بمصر من الآثار غير تأسيس الجامع الحاكمى ، وما عدا ذلك فذهب اسمه ومحى رسمه .

« الحاكم بأمر الله » : أبو على منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد ولد بالقصر من القاهرة المعزية ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، فى الساعة التاسعة ، والطالع من برج السرطان سبع وعشرين درجة ، وسلم عليه بالخلافة فى مدينة بلبيس بعد الظهر من يوم الثلاثاء عشرى شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة .

وسار الى القاهرة فى يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة ، والعزيز فى قبة على ناقة بين يديه ، وعلى الحاكم دراعة مصمت وعمامة فيها الجوهر ، وبيده رمح وقد تقلد السيف ، ولم يفقد من جميع ما كان مع العساكر شىء . ودخل القصر قبل صلاة المغرب ، وأخذ فى جهاز أبيه العزيز بالله ودفنه .

ثم بكر سائر أهل الدولة الى القصر يوم الخميس ، وقد نصب للحاكم سرير من ذهب عليه مرتبة مذهبة فى الايوان الكبير . وخرج من قصره راكبا وعليه معممة الجوهر ، والناس وقوف فى صحن الايوان ، فقبلوا له الأرض ، ومشوا بين يديه حتى جلس على السرير . فوقف من رسمه الوقوف ، وجلس من له عادة أن يجلس ، وسلم الجميع عليه

(*) ص٢٨٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

بالامامة واللقب الذى لخير له وهو « الحاكم بأمر الله » . وكان سنه يومئذ احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام .

فجعل أبا محمد الحسن بن عمار الكتامى واسطة ولقب بأمين الدولة ، وأسقط مكوسا كانت بالساحل ، ورد الى الحسين بن جوهر القائد البريد والانشاء فكان يخلفه ابن سورين ، وأقر عيسى بن نسطورس على ديوان الخاص ، وقلد سليمان بن جعفر بن فلاح الشام . فخرج ينجوتكين من دمشق ، وسار منها لمدافعة سليمان بن جعفر بن فلاح . فبلغ الرملة ، وانضم اليه ابن الجراح الطائى فى كثير من العرب ، وواقع ابن فلاح ، فانهزم وفر ، ثم أسر فحمل الى القاهرة وأكرم .

واختلف أهل الدولة على ابن عمار ، ووقعت حروب آلت الى صرفه عن الوساطة وله فى النظر أحد عشر شهرا غير خمسة أيام ، فلزم داره وأطلقت له رسوم وجرايات .

وأقيم الطواشى برجوان الصقلى مكانه فى الوساطة لثلاث بقين من رمضان سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، فجعل كاتبه فهد بن ابراهيم يوقع عنه ولقبه بالرئيس ، وصرف سليمان بن فلاح عن الشام بجيش بن الصمصامة .

وقلد فحل بن اسماعيل الكتامى مدينة صور ، وقلد يانس الخادم برقة ، وميسورا الخادم طرابلس ، ويمنا الخادم غزة وعسقلان . فواقع جيش الروم على فامية ، وقتل منهم خمسة آلاف رجل ، وغزا الى أن دخل مرعش . وقلد وظيفة قضاء القضاة أبا عبد الله الحسين بن على بن النعمان فى صفر سنة تسع وثمانين وثلثمائة بعد موت قاضى القضاة محمد بن النعمان .

وقتل الأستاذ برجوان لأربع بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، وله فى النظر سنتان وثمانية أشهر غير يوم واحد ، ورد النظر فى أمور الناس وتدبير المملكة والتوقيعات الى الحسين بن جوهر ، ولقب بقائد القواد ، فخلفه الرئيس بن فهد ، واتخذ الحاكم مجلسا فى الليل يحضر فيه عدة من أعيان الدولة ثم أبطله .

ومات جيش بن الصمصامة فى ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة . فوصل ابنه بتركته الى القاهرة ، ومعه درج بخط أبيه فيه وصية وثبت بما خلفه مفصلا ، وأن ذلك جميعه لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، لا يستحق أحد من أولاده منه درهما . وكان مبلغ ذلك نحو المائتى ألف دينار ما بين عين ومتاع ودواب ... قد أوقف جميع ذلك تحت القصر .

فأخذ الحاكم الدرج ونظره ، ثم أعاده الى أولاد جيش ، وخلع عليهم ، وقال لهم بحضرة وجوه الدولة : قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله ، وما وصى به من عين ومتاع ، فخذوه هنيئا مباركا لكم فيه . فانصرفوا بجميع التركة .

وولى دمشق فحل بن تميم ومات بعد شهور ، فولى على بن فلاح ، ورد النظر فى المظالم لعبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ومنع الناس كافة من مخاطبة أحد أو مكاتبته

بسيدنا ومولانا الا أمير المؤمنين وحده ، وأبيح دم من خالف ذلك ، وفى شوال قتل ابن عمار .

وفى سنة احدى وتسعين واصل الحاكم الركوب فى الليل ، كل ليلة ، فكان يشق الشوارع والأزقة . وبالغ الناس فى الوقود والزينة ، وأنفقوا الأموال الكثيرة فى المآكل والمشارب والغناء واللهو ، وكثر تفرجهم على ذلك حتى خرجوا فيه عن الحد فمنع النساء من الخروج فى الليل ، ثم منع الرجال من الجلوس فى الحوانيت .

وفى رمضان سنة * اثنتين وتسعين ، قلد تموصلت بن بكار دمشق عوضا عن ابن فلاح ، وابتدأ فى عمارة جامع راشدة فى سنة ثلاث وتسعين ، وقتل فهد بن ابراهيم وله منذ نظر فى الرياسة خمس سنين وتسعة أشهر واثنا عشر يوما ، فى ثامن جمادى الآخرة منها ، وأقيم فى مكانه على بن عمر العداس ، وسار الأمير ماروح لامارة طرابلس ، ووقع الشروع فى اتمام الجامع خارج باب الفتوح ، وقطع الحاكم الركوب فى الليل ، ومات تموصلت فولى دمشق بعده مفلح اللحيانى الخادم .

وقتل على بن عمر العداس والأستاذ زيدان الصقلى وعدة كثيرة من الناس وقلد امارة برقة صندل الأسود فى المحرم سنة أربع وتسعين وصرف الحسين بن النعمان عن القضاء فى رمضان منها ، وكانت مدة نظره فى القضاء خمس سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، واليه كانت الدعوة أيضا ، فيقال له قاضى القضاة وداعى الدعاة . وقلد عبد العزيز بن محمد بن النعمان وظيفة القضاء والدعوة ، مع ما بيده من النظر فى المظالم .

وفى سنة خمس وتسعين ، أمر النصارى واليهود بشد الزنار ولبس الغيار ، ومنع الناس من أكل الملوخية والجرجير والتوكلية والدلينس ، وذبح الأبقار السليمة من العاهة الا فى أيام الأضحية ، ومنع من بيع الفقاع وعمله البتة ، وألا يدخل أحد الحمام الا بمئزر ، وألا تكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج ، ولا يباع شىء من السمك بغير قشر ، ولا يصطاد أحد من الصيادين تتبع الناس فى ذلك كله ، وشدد فيه ، وضرب جماعة بسبب مخالفتهم ما أمروا به ونهوا عنه مما ذكر .

وخرجت العساكر لقتال بنى قرة أهل البحيرة . وكتب على أبواب المساجد وعلى الجوامع بمصر ، وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر ، سب السلف ولعنهم ، وأكره الناس على نقش ذلك وكتابته بالأصباغ فى سائر المواضع . وأقبل الناس من سائر النواحى فدخلوا فى الدعوة ، وجعل لهم يومان فى الأسبوع ، وكثر الازدحام ومات فيه جماعة ، ومنع الناس من الخروج بعد المغرب فى الطرقات ، وألا يظهر أحد بها لبيع ولا شراء . فخلت الطرق من المارة ، وكسرت أوانى الخمور ، وأريقت من سائر الأماكن ، واشتد خوف الناس بأسرهم ، وقويت الشناعات وزاد الاضطراب .

فاجتمع كثير من الكتاب وغيرهم تحت القصر ، وضجوا يسألون العفو . فكتب عدة أمانات لجميع الطوائف من أهل الدولة

(*) ص٢٨٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وغيرهم من الباعة والرعية ، وأمر بقتل الكلاب فقتل منها ما لا ينحصر حتى فقدت ، وفتحت دار الحكمة بالقاهرة وحمل اليها الكتب ، ودخل اليها الناس . فاشتد الطلب على الركابية المستخدمين فى الركاب ، وقتل منهم كثير ، ثم عفى عنهم وكتب لهم أمان . ومنع الناس كافة من الدخول من باب القاهرة ، ومنع الناس من المشى ملاصق القصر ، وقتل قاضى القضاة حسين بن النعمان وأحرق بالنار ، وقتل عددا كثيرا من الناس ضربت أعناقهم .

وفى سنة ست وتسعين خرج أبو ركوة يدعو الى نفسه ، وادعى أنه من بنى أمية . فقام بأمره بنو قرة لكثرة ما أوقع بهم الحاكم وبايعوه ، واستجاب له لواتة ومزاتة وزنادة ، وأخذ برقة ، وهزم جيوش الحاكم غير مرة وغنم ما معهم ، فخرج لقتاله القائد فضل بن صالح فى ربيع الأول وواقعه ، فانهزم منه فضل ، واشتد الاضطراب بمصر ، وتزايدت الأسعار .

واشتد الاستعداد لمحاربة أبى ركوة ، ونزلت العساكر بالجيزة ، وسار أبو ركوة ، فواقعه القائد فضل ، وقتل عدة ممن معه . فعظم الأمر ، واشتد الخوف ، وخرج الناس فباتوا بالشوارع خوفا من هجوم عساكر أبى ركوة . واستمرت الحروب ، فانهزم أبو ركوة فى ثالث ذى الحجة الى الفيوم ، وتبعه القائد فضل — بعد أن بعث الى القاهرة بستة آلاف رأس ومائة أسير — الى أن قبض عليه ببلاد النوبة ، وأحضر الى القاهرة فقتل بها ، وخلع على القائد فضل ، وسيرت البشائر بقتله فى الأعمال .

وفى سنة سبع وتسعين أمر بمحو سب السلف ، فمحى سائر ما كتب من ذلك وغلت الأسعار لنقص ماء النيل ، فانه بلغ ستة عشر أصبعا من سبعة عشر ذراعا ثم نقص ، ومات ينجوتكين فى ذى الحجة ، واشتد الغلاء فى سنة ثمان وتسعين ، وولى على بن فلاح دمشق ، وقبض جميع ما هو محبس على الكنائس وجعل فى الديوان ، وأحرق عدة صلبان على باب الجامع بمصر ، وكتب الى سائر الأعمال بذلك .

وفى سادس عشر رجب قرر مالك بن سعيد الفارقى فى وظيفة قضاء القضاة ، وتسلم كتب الدعوة التى تقرأ بالقصر على الأولياء ، وصرف عبد العزيز بن النعمان عن ذلك ، وصرف قائد القواد الحسين بن جوهر عما كان يليه من النظر فى سابع شعبان ، وقرر مكانه صالح بن على الروذبادى ، وقرر فى ديوان الشام مكانه أبو عبد الله الموصلى الكاتب ، وأمر حسين بن جوهر وعبد العزيز بلزوم دورهما ، ومنعا من الركوب وسائر أولادهما ، ثم عفا عنهما بعد أيام وأمرا بالركوب .

وتوقفت زيادة النيل ، فاستسقى الناس مرتين ، وأمر بابطال عدة مكوس ، وتعذر وجود الخبز لغلائه وقلته ، وفتح الخليج فى رابع توت والماء على خمسة عشر ★ ذراعا ، فاشتد الغلاء .

وفى تاسع المحرم — وهو نصف توت — نقص ماء النيل ولم يوف ستة عشر ذراعا ، فمنع الناس من التظاهر بالغناء ، ومن ركوب البحر للتفرج ، ومنع من بيع المسكرات ، ومنع الناس كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء الى الطرقات واشتد الأمر على الكافة لشدة ما داخلهم من الخوف ، مع شدة الغلاء وتزايد الأمراض فى الناس والموت

(★) ص٢٨٦ ج٢ ، ط. بولاق

فلما كان فى رجب انحلت الأسعار ، وقرىء سجل فيه : يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ، وصلاة الخمسين للذى جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ، ولا هم عنها يدفعون . يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التربيع عليها المربعون . يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ولا يؤذى من بها لا يؤذنون . لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف والحالف منهم بما حلف . لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده

ولقب صالح بن على الروذبادى بثقة ثقات السيف والقلم ، وأعيد القاضى عبد العزيز بن النعمان الى النظر فى المظالم . وتزايدت الأمراض ، وكثر الموت ، وعزت الأدوية ، وأعيدت المكوس التى رفعت ، وهدمت كنائس كانت بطريق المقس ، وهدمت كنيسة كانت بحارة الروم من القاهرة ونهب ما فيها . وقتل كثير من الخدام ومن الكتاب ومن الصقالبة ، بعدما قطعت أيدى بعضهم من الكتاب بالشطور على الخشبة من وسط الذراع ، وقتل القائد فضل بن صالح فى ذى القعدة .

وفى حادى عشر صفر صرف صالح بن على الروذبادى ، وقرر مكانه ابن عبدون النصرانى الكاتب ، فوقع عن الحاكم ونظر ، وكتب بهدم كنيسة قمامة ، وجدد ديوان — يقال له الديوان المفرد — برسم من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم ، وكثرت الأمراض ، وعزت الأدوية ، وشهر جماعة وجد عندهم فقاع وملوخية ودلنيس وضربوا ، وهدم دائر القصر .

واشتد الأمر على النصارى واليهود فى الزامهم لبس الغيار ، وكتب ابطال أخذ الخمس والنجاوى والفطرة ، وفر الحسين بن جوهر بأولاده وعبد العزيز بن النعمان ، وفر أبو القاسم الحسين بن المغربى ، وكتب عدة أمانات لعدة طوائف من شدة خوفهم ، وقطعت قراءة مجالس الحكمة بالقصر ، ووقع التشديد فى المنع من المسكرات ، وقتل كثير من الكتاب والخدام والفراشين ، وقتل صالح بن على الروذبادى فى شوال .

وفى رابع المحرم سنة احدى وأربعمائة ، صرف الكافى بن عبدون عن النظر والتوقيع ، وقرر بدله أحمد بن محمد القشورى الكاتب فى الوساطة والسفارة ، وحضر الحسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان الى القاهرة فأكرما ، ثم صرف ابن القشورى بعد عشرة أيام من استقراره وضربت عنقه ، وقرر بدله زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصرانى ، ولقب بالشافى .

ومنع الناس من الركوب فى المراكب فى الخليج ، وسدت أبواب الدور التى على

الخليج والطاقات المطلة عليه ، وأضيف الى قاضى القضاة مالك بن سعيد النظر فى المظالم ، وأعيدت مجالس الحكمة وأخذ مال النجوى ، وقتل ابن عبدون وأخذ ماله ، وضرب جماعة وشهروا من أجل بيعهم الملوخية والسمك الذى لا قشر له وبسبب بيع النبيذ .

وقتل الحسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة احدى وأربعمائة واحيط بأموالهما ، وأبطلت عدة مكوس ، ومنع الناس من الغناء واللهو ومن بيع المغنيات ومن الاجتماع بالصحراء .

وفى هذه السنة خلع حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح طاعة الحاكم ، أقام أبا الفتوح حسين بن جعفر الحسنى أمير مكة خليفة ، وبايعه ودعا الناس الى طاعته ومبايعته ، وقاتل عساكر الحاكم .

وفى سنة اثنتين وأربعمائة ، منع من بيع الزبيب وكوتب بالمنع من حمله ، وألقى فى بحر النيل منه شىء كثير وأحرق شىء كثير . ومنع النساء من زيارة القبور ، فلم ير فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة ، ومنع من الاجتماع على شاطىء النيل للتفرج ، ومنع من بيع العنب الا أربعة أرطال فما دونها ، ومنع من عصره ، وطرح كثير منه وديس فى الطرقات ، وغرق كثير منه فى النيل ، ومنع من حمله ، وقطعت كروم الجيزة كلها ، وسير الى الجهات بذلك .

وفى سنة ثلاث وأربعمائة نزع السعر ، وازدحم الناس على الخبز . وفى ثانى ربيع الأول منها هلك عيسى بن نسطورس ، فأمر النصارى بلبس السواد وتعليق صلبان الخشب فى أعناقهم ، وأن يكون الصليب ذراعا فى مثله ، وزنته خمسة أرطال ، وأن تكون مكشوفا بحيث يراه الناس ، ومنعوا من ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم البغال والحمير بسروج الخشب والسيور السود بغير حلية ، وأن يشدوا الزنانير ، ولا يستخدموا مسلما ولا يشتروا عبدا ولا أمة ، وتتبعت آثارهم فى ذلك فأسلم منهم عدة

وقرر حسين بن طاهر الوزان فى الوساطة والتوقيع عن الحاكم فى تاسع عشرى ربيع الأول منها ، ولقب أمين الأمناء ونقش الحاكم على خاتمه « بنصر الله العظيم الولى ينتصر الامام أبو على » ، وضرب جماعة بسبب اللعب بالشطرنج وهدمت الكنائس ، وأخذ جميع ما فيها وما لها من الرباع ، وكتب بذلك الى الأعمال فهدمت بها

وفيها لحق أبو الفتح بمكة ، ودعا للحاكم وضرب السكة باسمه وأمر الحاكم ألا يقبل أحد له الأرض ، ولا يقبل ركابه ولا يده عند السلام عليه فى المواكب ، فان الانحناء الى الأرض لمخلوق من صنيع الروم ، وألا يزاد على قولهم السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، ولا يصلى أحد عليه فى مكاتبة ولا مخاطبة ، ويقتصر فى مكاتبته على سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين ، ويدعى له بما يتفق من الدعاء لا غير فلم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى : اللهم صل على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى ، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء

(*) ص٢٨٧ ج٢ ، ط. بولاق .

أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك .

ومنع من ضرب الطبول والأبواق حول القصر ، فصاروا يطوفون بغير طبل ولا بوق . وكثرت انعامات الحاكم ، فتوقف أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان فى امضائها . فكتب اليه الحاكم بخطه بعد البسملة : « الحمد لله كما هو أهله :

أصبحت لا أرجو ولا أتقى
الا الهى وله الفضل
جدى نبيى وامامى أبى
ودينى الاخلاص والعدل

المال مال الله عز وجل ، والخلق عباد الله ، ونحن أمناؤه فى الأرض . أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام » .

وركب الحاكم يوم عيد الفطر الى المصلى بغير زينة ولا جنائب ولا أبهة ، سوى عشرة أفراس تقاد بسروج ولجم محلاة بفضة بيضاء خفيفة ، وبنود ساذجة ، ومظلة بيضاء بغير ذهب ، عليه بياض بغير طرز ولا ذهب ولا جوهر فى عمامته ، ولم يفرش المنبر ، ومنع الناس من سب السلف ، وضرب فى ذلك وشهر ، وصلى صلاة عيد النحر كما صلى صلاة عيد الفطر من غير أبهة ، ونحر عنه عبد الرحيم بن الياس بن أحمد بن المهدى ، وأكثر الحاكم من الركوب الى الصحراء بحذاء فى رجله وفوطة على رأسه .

وفى سنة أربع وأربعمائة ألزم اليهود أن يكون فى أعناقهم جرس اذا دخلوا الحمام ، وأن يكون فى أعناق النصارى صلبان ، ومنع الناس من الكلام فى النجوم ، وأقيم المنجمون من الطرقات ، وطلبوا فتغيبوا ونفوا . وكثرت هبات الحاكم وصدقاته وعتقه ، وأمر اليهود والنصارى بالخروج من مصر الى بلاد الروم وغيرها .

وأقيم عبد الرحيم بن الياس ولى العهد ، وأمر أن يقال فى السلام عليه « السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين » ، وصار يجلس بمكان فى القصر ، وصار الحاكم يركب بدراعة صوف بيضاء ، ويتعمم بفوطة وفى رجله حذاء عربى بقبالين ، وعبد الرحيم يتولى النظر فى أمور الدولة كلها . وأفرط الحاكم فى العطاء ، ورد ما كان أخذ من الضياع والأملاك الى أربابها .

وفى ربيع الآخر أمر بقطع يدى أبى القاسم الجرجانى ، وكان يكتب للقائد غين ، ثم قطع يد غين فصار مقطوع اليدين ، وبعث اليه الحاكم بعد قطع يديه بألف من الذهب والثياب ثم بعد ذلك أمر بقطع لسانه فقطع ، وأبطل عدة مكوس ، وقتل الكلاب كلها ، وأكثر من الركوب فى الليل .

ومنع النساء من المشى فى الطرقات ، فلم تر امرأة فى طريق ألبتة ، وأغلقت حماماتهن ، ومنع الأساكفة من عمل خفافهن ، وتعطلت حوانيتهم . واشتدت الاشاعة بوقوع السيف فى الناس فتهاربوا ، وغلقت الأسواق فلم يبع شىء . ودعى لعبد الرحيم بن الياس على المنابر ، وضربت السكة باسمه بولاية العهد .

وفي سنة خمس وأربعمائة قتل مالك بن سعيد الفارقي في ربيع الآخر . وكانت مدة نظره في قضاء القضاة ست سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ، وبلغ اقطاعه في السنة خمسة عشر ألف دينار . وتزايد ركوب الحاكم حتى كان يركب في كل يوم عدة مرات ، واشترى الحمير وركبها بدل الخيل .

وفي جمادى الآخرة منها قتل الحسين بن طاهر الوزان ، فكانت مدة نظره في الوساطة سنتين وشهرين وعشرين يوما ، فأمر أصحاب الدواوين بلزوم دواوينهم . وصار الحاكم يركب حمارا بشاشية مكشوفة بغير عمامة ، ثم أقام عبد الرحيم بن أبي السيد الكاتب وأخاه أبا عبد الله الحسين في الوساطة والسفارة ، وأقر في وظيفة قضاء القضاة أحمد بن محمد ابن أبي العوام .

وخرج الحاكم عن الحد في العطاء حتى أقطع نواتية المراكب والمشاعلية وبني قرة ، فما أقطع الاسكندرية والبحيرة ونواحيها . وقتل ابني أبي السيد ، فكانت مدة نظرهما اثنين وستين يوما . وقلد الوساطة فضل بن جعفر بن الفرات ، ثم قتله في اليوم الخامس من ولايته . وغلب بنو قرة على الاسكندرية وأعمالها .

وأكثر الحاكم من الركوب ، فركب في يوم ست مرات : مرة على فرس ، ومرة على حمار ، ومرة في محفة تحمل على الأعناق ، ومرة في عشاري في النيل بغير عمامة . وأكثر من اقطاع الجند والعبيد الاقطاعات ، وأقام ذا الرياستين قطب الدولة أبا الحسن علي بن جعفر بن فلاح في الوساطة والسفارة .

وولى عبد الرحيم بن الياس دمشق فسار اليها في جمادى الآخرة سنة تسع وأربعمائة ، فأقام فيها شهرين ، ثم هجم عليه قوم فقتلوا جماعة ممن عنده ، وأخذوه في صندوق وحملوه الى مصر ، ثم أعيد الى دمشق ، فأقام بها الى ليلة عيد الفطر وأخرج منها .

فلما كان لليلتين بقيتا من شوال سنة عشر وأربعمائة ، فقد الحاكم — وقيل ان أخته قتلته ، وليس بصحيح — وكان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر ، وكانت مدة خلافته خمسا وعشرين سنة وشهرا ، وكان جوادا ، سفاكا للدماء ، قتل عددا لا يحصى ، وكانت سيرته من أعجب السير ، وخطب له على منابر مصر والشام وأفريقية والحجاز .

وكان يشتغل بعلوم الأوائل ، وينظر في النجوم ، وعمل رصدا ، واتخذ بيتا في المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك . ويقال انه كان يعتريه جفاف في دماغه ، فلذلك كثر تناقضه . وما أحسن ما قال فيه بعضهم : كانت أفعاله لا تعلل ، وأحلام وساوسه لا تؤول .

وقال المسبحي : وفي محرم سنة خمس عشرة وأربعمائة ، قبض على رجل من بني حسين ثار بالصعيد الأعلى ، فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد ، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم ، وقطعة من الفوطة التي كانت عليه .
فقيل له : لم قتلته ؟
فقال : غيرة لله وللاسلام .
فقيل له : كيف قتلته ؟

---

(١) [illegible]

فأخرج سكينا ضرب بها فؤاده فقتل نفسه ، وقال : هكذا قتلته . فقطع رأسه ، وأنفذ به الى الحضرة مع ما وجد معه .

وهذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم ، لا ما تحكيه المشارقة في كتبهم من أن أخته قتلته .

جامع الفيلة

هذا الجامع بسطح الجرف المطل على بركة الحبش — المعروف الآن بالرصد — بناه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي في شعبان سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وبلغت النفقة على بنائه ستة آلاف دينار .

وانما قيل له جامع الفيلة لأن في قبلته تسع قباب في أعلاه ذات قناطر ، اذا رآها الانسان من بعيد شبهها بمفرعين على فيلة ، كالتي كانت تعمل في المواكب أيام الأعياد ، وعليها السرير وفوقها المدرعون ، أيام الخلفاء .

ولما كمل أقام في خطابته الشريف الزكي أمين الدولة أبا جعفر محمد بن محمد بن هبة الله بن علي الحسيني الأفطسي النسابة الكاتب الشاعر الطرابلسي بعد صرفه من قضاء الغربية .

فلما رقي المنبر أول خطبة أقيمت في هذا الجامع ، قال : بسم الله الحمد لله ، وارتج عليه فلم يدر ما يقول . وكان هناك الشيخ أبو القاسم علي بن منجب بن الصيرفي الكاتب ووالده مختص الدولة أبو المجد ، وأبو عبد الله ابن بركات النحوي ووجوه الدولة . فلما أضجر من حصر ، ونزل عن المنبر وقد حسم ، فتقدم قيم الجامع وصلى ، ومشى الشريف الى داره فاعتل ومات .

وكان قد ولى قضاء عسقلان وغيرها ، ثم قدم الى مصر فولى الحكم بالمحلة ، وولى ديوان الأحباس . وكان أحد الأعيان الأدباء العارفين بالنسب ، ومن الشعراء المجيدين والنحاة اللغويين . ولد بطرابلس الشام في سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، وقدم الى القاهرة في سنة احدى وخمسمائة ومدح الأفضل ، ومات في سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة وخمسمائة .

وقد ترشح للنقابة بمصر ولم ينلها مع تطلعه اليها ، وذيل كتاب أبي الغنائم الزيدي النسابة . ومن شعره بديهيا ، وقد نام مع جاريته على سطوح ، فطلع القمر عليهما فارتاعا من كشف الجيران عليهما :

ولما تلاقينا وغاب رقيبنا
ورمت التشكي في خلو وفي ستر
بدا ضوء بدر فافترقنا لضوئه
فيامن رأى بدرا ينم على بدر

وأهل المطالب يذكرون أن الأفضل وجد بموضع الصهريج مطلبا ، فختم عليه أشهرا الى أن نقله ، وعمله صهريجا وبنى عليه هذا المسجد .

وهذا الشرف الذي عليه جامع الفيلة منظرة في غاية الحسن لأن في قبليه بركة الحبش ، وبستان الوزير المغربي ، والعدوية ودير

السطوية ، وبئر أبى سلامة وهى بئر مدورة برسم الغنم ، وبئر النعش كان يستقى منها أصحاب الزوايا ، وهى بجوار عفصة الصغرى ، وهى بئر أبى موسى بن أبى خليد . وسميت بئر النعش لأنها على هيئة النعش ، وماؤها يهضم الطعام وهو أصح الأمواه .

وشرقى هذا الجبل جبل المقطم ، والجبانة والمغافر والقرافة ، وآخر الأكحول ، ورحان ووعين والكلاع والأكوع .

وغربى هذا الجبل المعشوق والنيل ، وبستان اليهودى الى القبلة ، وطوه والأهرام وراشدة .

وبحرى هذا الجبل بستان الأمير تميم ، وقنطرة خليج بنى وائل ، ودير المعدلين ، وعقبة يحصب ، ومحرس قسطنطين ، والشرف وغير ذلك .

وهذا الجامع لا تقام فيه اليوم جمعة ولا جماعة ، لخراب * ما حوله من القرافة وراشدة ، وينزل فيه أحيانا طائفة من العرب بابلهم يقال لهم المسلية . وعما قليل يدثر كما دثر غيره .

جامع المقياس

هذا الجامع بجوار مقياس النيل من جزيرة الفسطاط أنشأه ... ...

جامع الأقمر

قال ابن عبد الظاهر : كان مكانه علافون والحوض مكان المنظرة ، فتحدث الخليفة الآمر مع الوزير المأمون بن البطايحى فى انشائه جامعا . فلم يترك قدام القصر دكانا ، وبنى تحت الجامع المذكور فى أيامه دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح لا من صوب القصر » وكمل الجامع المذكور فى أيامه ، وذلك فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وذكر أن اسم الآمر والمأمون عليه .

وقال غيره : واشترى له حمام شمول ودار النحاس بمصر ، وحبسهما على سدنته ووقود مصابيحه ومن يتولى أمره ويؤذن فيه . وما زال اسم المأمون والآمر على لوح فوق المحراب ، وفيه تجديد الملك الظاهر بيبرس للجامع المذكور . ولم تكن فيه خطبة ، لكنه يعرف بالجامع الأقمر .

فلما كان فى شهر رجب سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، جدده الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا بن عبد الله السالمى ، أحد المماليك الظاهرية ، وأنشأ بظاهر بابه البحرى حوانيت يعلوها طباق ، وجدد فى صحن الجامع بركة لطيفة يصل اليها الماء من ساقية ، وجعلها مرتفعة ينزل منها الماء الى من يتوضأ من بزابيز نحاس ، ونصب فيه منبرا .

فكانت أول جمعة جمعت فيه رابع شهر رمضان من السنة المذكورة . وخطب فيه شهاب الدين أحمد بن موسى الحلبى — أحد نواب القضاة الحنفية — وارتج عليه ، واستمر الى أن مات فى سابع عشرى شهر ربيع الأول سنة احدى وثمانمائة . وبنى على يمنة المحراب البحرى مئذنة ، وبيض الجامع كله ، ودهن صدره بلازورد وذهب .

فقلت له : قد أعجبنى ما صنعت بهذا الجامع ، ما خلا تجديد الخطبة فيه وعمل بركة الماء . فان الخطبة غير محتاج اليها هاهنا لقرب الخطب من هذا الجامع ، وبركة الماء تضيق الصحن ، وقد أنشأت ميضأة بجوار بابه الذى من جهة الركن المخلق .

فاحتج لعمل المنبر بأن ابن الطوير قال فى كتاب « نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين » عند ذكر جلوس الخليفة فى المواليد الستة : ويقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك ، ثم يحضر خطيب الجامع الأقمر ويخطب كذلك .

قال : فهذا أمر قد كان فى الدولة الفاطمية ، وما أنا بالذى أحدثته ، وأما البركة ففيها عون على الصلاة لقربها من المصلين . وجعل فوق المحراب لوحا مكتوبا فيه ما كان فيه أولا ، وذكر فيه تجديده لهذا الجامع ، ورسم فيه نعوته وألقابه ، وجدد أيضا حوض هذا الجامع الذى تشرب منه الدواب ، وهو فى ظهر الجامع تجاه الركن المخلق .

وبئر هذا الجامع قديمة قبل الملة الاسلامية ، كانت فى دير من ديارات النصارى بهذا الموضع . فلما قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين الله ، فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، أدخل هذا الدير فى القصر — وهو موضع الركن المخلق تجاه الحوض المذكور — وجعل هذه البئر مما ينتفع به فى القصر .

وهى تعرف ببئر العظام ، وذلك أن جوهرا نقل من الدير المذكور عظاما كانت فيه من رمم قوم يقال انهم من الحواريين ، فسميت بئر العظام ، والعامة تقول الى اليوم بئر المعظمة ، وهى بئر كبيرة فى غاية السعة . وأول ما أعرف من اضافتها الى الجامع الأقمر أن العماد الدمياطى ركب على فوهتها هذه المحال التى بها الآن ، وهى من جيد المحال ، وكان تركيبها بعد السبعمائة فى أيام قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة الشافعى .

وبهذا الجامع درس من قديم الزمان . ولم تزل مئذنته التى جددها السالمى والبركة الى سنة خمس عشرة وثمانمائة . فولى نظر الجامع بعض الفقهاء ، فرأى هدم المئذنة من أجل ميل حدث بها فهدمها ، وأبطل الماء من البركة لافساد الماء بمروره جدار الجامع القبلى . والخطبة قائمة به الى الآن .

« الآمر بأحكام الله » : أبو على المنصور ابن المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على منصور . ولد يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم سنة تسعين وأربعمائة ، وبويع له بالخلافة يوم مات أبوه ، وهو طفل له من العمر خمس سنين وأشهر وأيام ، فى يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين . أحضره الأفضل بن أمير الجيوش ، وبايع له ونصبه مكان أبيه ، ونعته بالآمر بأحكام الله .

وركب الأفضل فرسا ، وجعل فى السرج شيئا وأركبه عليه لينمو شخص الآمر ، وصار ظهره فى حجر الأفضل ، فلم يزل تحت حجره حتى قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة وخمسمائة . فاستوزر بعده القائد أبا

(*) ص٢٨٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

عبد الله محمد * بن فاتك البطايحى ، ولقبه بالمأمون . فقام بأمر دولته الى أن قبض عليه فى ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة .

فتفرغ الآمر لنفسه ، ولم يبق له ضد ولا مزاحم ، وبقى بغير وزير ، وأقام صاحبى ديوان : أحدهما جعفر بن عبد المنعم ، والآخر سامرى يقال له أبو يعقوب ابراهيم ، ومعهما مستوف يعرف بابن أبى نجاح كان راهبا .

ثم تحكم هذا الراهب فى الناس ، وتمكن من الدواوين ، فابتدأ فى مطالبة النصارى ، وحقق فى جهاتهم الأموال ، وحملها أولا فأولا . ثم أخذ فى مصادرة بقية المباشرين والمعاملين والضمناء والعمال ، وزاد الى أن عم ضرره جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة ، بحيث لم يخل أحد من ضرره . فلما تفاقم أمره قبض عليه الآمر ، وضرب بالنعال حتى مات بالشرطة ، فجر الى كرسى الجسر ، وسمر على لوح وطرح فى النيل ، وحذف حتى خرج الى البحر المالح .

فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وثب جماعة على الآمر وقتلوه كما ذكر عند خبر الهودج . وكان كريما سمحا الى الغاية ، كثير النزهة ، محبا للمال والزينة ، وكانت أيامه كلها لهوا وعيشة راضية ، لكثرة عطائه وعطاء حواشيه ، بحيث لم يوجد بمصر والقاهرة اذ ذاك من يشكو زمانه ألبتة ... الى أن نكد بالراهب على الناس ، فقبحت سيرته ، وكثر ظلمه واغتصابه للأموال .

وفى أيامه ملك الفرنج كثيرا من المعاقل والحصون بسواحل الشام . فملكت عكا فى شعبان سنة سبع وتسعين ، وغزة فى رجب سنة اثنتين وخمسمائة ، وطرابلس فى ذى الحجة منها ، وبانياس وجبيل وقلعة تبنين فيها أيضا ، وملكوا صور فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة .

وكثرت المرافعات فى أيامه ، وأحدثت رسوم لم تكن ، وعمر الهودج بالروضة ودكة ببركة الحبش ، وعمر تنيس ودمياط ، وجدد قصر القرافة . وكانت نفسه تحدثه بالسفر والغارة الى بغداد ، ومن شعره فى ذلك :

دع اللوم عنى لست منى بموثق
فلا بد لى من صدمة المتحقق
وأسقى جيادى من فرات ودجلة
وأجمع شمل الدين بعد التفرق

وقال :

أما والذى حجت الى ركن بيته
جراثيم ركبان مقلدة شهبا
لأقتحمن الحرب حتى يقال لى
ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم
فيرضى بنا صحبا ونرضى به صحبا

وكان أسمر شديد السمرة ، يحفظ القرآن ويكتب خطا ضعيفا . وهو الذى جدد رسوم الدولة ، وأعاد اليها بهجتها بعدما كان الأفضل أبطل ذلك ، ونقل الدواوين والأسمطة من القصر بالقاهرة الى دار الملك بمصر كما ذكر هناك .

(*) ص٢٩٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

وقضاته ابن ذكا النابلسى ، ثم نعمة الله بن بشير ، ثم الرشيد محمد بن قاسم الصقلى ، ثم الجليس بن نعمة الله بن بشير النابلسى ، ثم صرفه ثانيا بمسلم بن الرسعنى ، وعزله بأبى الحجاج يوسف بن أيوب المغربى ، ثم مات ، فولى محمد بن هبة الله بن ميسر . وكتاب انشائه سنا الملك أبو محمد الزبيدى الحسنى ، والشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة ، وتاج الرياسة أبو القاسم بن الصيرفى ، وابن أبى الدم اليهودى . وكان نقش خاتمه « الامام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين » ، ووقع فى آخر أيامه غلاء قلق الناس منه .

وكان جريئا على سفك الدماء ، وارتكاب المحظورات واستحسان القبائح . وقتل وعمره أربع وثلاثون سنة وتسعة أشهر وعشرون يوما : منها مدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر ونصف ، وما زال محجورا عليه حتى قتل الأفضل . وكان يركب للنزهة دائما عندما استبد فى يومى السبت والثلاثاء ، ويتحول فى أيام النيل بحرمه الى اللؤلؤة على الخليج ، واختص بغلاميه برغش وهزار الملوك .

« يلبغا السالمى » أبو المعالى عبد الله الأمير سيف الدين الحنفى الصوفى الظاهرى . كان اسمه فى بلاده يوسف ، وهو حر الأصل ، وآباؤه مسلمون . فلما جلب من بلاد المشرق سمى يلبغا ، وقيل له السالمى نسبة الى سالم تاجره الذى جلبه . فترقى فى خدم السلطان الملك الظاهر برقوق ، الى أن ولاه نظر خانقاه الصلاح سعيد السعداء ، فى ثامن عشر جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، فأخرج كتاب الوقف ، وقصد أن يعمل بشرط الواقف وأخرج منها جماعة من بياض الناس . فجرت أمور ذكرت فى خبر الخانقاه .

وفى سابع عشرى صفر سنة ثمانمائة ، أنعم عليه الملك الظاهر بامرة عشرة عوضا عن الأمير بهادر فطيس ، ثم نقله الى امرة طبلخاناة ، ثم جعله ناظرا على الخانقاه الشيخونية بالصلبية فى تاسع شعبان سنة احدى وثمانمائة . فعسف بمباشريها ، وأراد حملهم على مر الحق فنفرت منه القلوب * .

ولما مرض الظاهر جعله أحد الأوصياء على تركته . فقام بتحليف المماليك السلطانية للملك الناصر فرج بن برقوق ، والانفاق عليهم بحضرة الناصر ، فأنفق عليهم كل دينار من حساب أربعة وعشرين درهما . ولما انقضت النفقة نودى فى البلد أن صرف كل دينار ثلاثون درهما ، ومن امتنع نهب ماله وعوقب ، فحصل للناس من ذلك شدة .

وكان قد كثر القبض على الأمراء بعد موت الظاهر . فتحدث مع الأمير الكبير أيتمش ، القائم بتدبير دولة الناصر فرج بعد موت أبيه ، فى أن يكون على كل أمير من المقدمين خمسون ألف درهم ، وعلى كل أمير من الطبلخاناه عشرون ألف درهم ، وعلى كل أمير عشرة خمسة آلاف درهم ، وعلى كل أمير خمسة ألفا درهم وخمسمائة درهم . فرسم بذلك ، وعمل به مدة أيام الناصر ، وحصل به رفق للأمراء ومباشريهم .

ثم خلع عليه واستقر أستادار السلطان ، عوضا عن الأمير الوزير تاج الدين عبد الرزاق

(*) ص٢٩١ جـ٢ ، ط.بولاق .

ابن أبى الفرج الملكى فى يوم الاثنين ثالث عشرى ذى القعدة من السنة المذكورة . فأبطل تعريف منية بنى خصيب ، وضمان العرصة وأخصاص الكيالين ، وكتب بذلك مرسوما سلطانيا ، وبعث به الى والى الأشمونين ، وأبطل وفر الشون السلطانية ، وما كان مقررا على البرد دار وهو فى الشهر سبعة آلاف درهم ، وما كان مقررا على مقدم المستخرج وهو فى الشهر ثلاثة آلاف درهم .

وكانت سماسرة الغلال تأخذ ممن يشترى شيئا من الغلة ، على كل اردب درهمين سمسرة وكيالة ولواحة وأمانة ، فألزمهم ألا يأخذوا عن كل اردب سوى نصف درهم ، وهدد على ذلك بالغرامة والعقوبة . وركب فى صفر سنة ثلاث وثمانمائة الى ناحية المنية وشبرا الخيمة من الضواحى بالقاهرة ، وكسر منها ما ينيف على أربعين ألف جرة خمر ، وخرب بها كنيسة كانت للنصارى ، وحمل عدة جرار فكسرها تحت قلعة الجبل وعلى باب زويلة ، وشدد على النصارى ، فلم يمكنه أمراء الدولة من حملهم على الصغار والمذلة فى ملبسهم .

وأمر فضرب الذهب كل دينار زنته مثقال واحد ، وأراد بذلك ابطال ما حدث من المعاملة بالذهب الافرنجى ، فضرب ذلك ، وتعامل الناس به مدة ، وصار يقال دينار سالمى الى أن ضرب الناصر فرج دنانير وسماها الناصرية ، وصار يحكم فى الأحكام الشرعية . فقلق منه أمراء الدولة وقاموا فى ذلك ، فمنع من الحكم الا فيما يتعلق بالديوان المفرد وغيره مما هو من لوازم الأستادار .

وأخذ فى مخاشنة الأمراء عندما عاد الناصر فرج وقد انهزم من تيمورلنك ، وشرع فى اقامة شعار المملكة والنفقة على العساكر التى رجعت منهزمة . فأخذ من بلاد الأمراء وبلاد السلطان عن كل ألف دينار فرسا أو خمسمائة درهم ثمنها ، وجبى من أملاك القاهرة ومصر وظواهرهما أجرة شهر ، وأخذ من الرزق عن كل فدان عشرة دراهم ، وعن الفدان من القصب المزروع والقلقاس والنيلة نحو مائة درهم ، وجبى من البساتين عن كل فدان مائة درهم .

وقام بنفسه وكبس الحواصل ليلا ونهارا ومعه جماعة من الفقهاء وغيرهم ، وأخذ مما فيها من الذهب والفضة والفلوس نصف ما يجد — سواء كان صاحب المال غائبا أو حاضرا — فعم ذلك أموال التجار والأيتام وغيرهم من سائر من وجد له مال ، وأخذ ما كان فى الجوامع والمدارس وغيرها من الحواصل . فشمل الناس من ذلك ضرر عظيم ، وصار يؤخذ من كل مائة درهم ثلاثة دراهم عن أجرة صرف ، وستة دراهم عن أجرة الرسول ، وعشرة دراهم عن أجرة نقيب . فنفرت منه القلوب ، وانطلقت الألسن بذمه والدعاء عليه .

وعرض مع ذلك الجند ، وألزم من له قدرة على السفر بالتجهز للسفر الى الشام لقتال تيمورلنك ، ومن وجده عاجزا عن السفر ألزمه بحمل نصف متحصل اقطاعه . فقبض عليه فى يوم الاثنين رابع عشر رجب سنة ثلاث وثمانمائة ، وسلم للقاضى سعد الدين ابراهيم ابن غراب ، وقرر مكانه فى الأستادارية . فلم

يزل الى يوم عيد الفطر من السنة المذكورة ، فأمر باطلاقه بعد أن حصر وأهين اهانة كبيرة ، ثم قبض عليه وضرب ضربا مبرحا حتى أشفى على الموت .

وأطلق فى نصف ذى القعدة وهو مريض ، فأخرج الى دمياط وأقام بها مدة ، ثم أحضر الى القاهرة ، وقلد وظيفة الوزارة فى سنة خمس وثمانمائة وجعل مشيرا . فأبطل مكوس البحيرة — وهو ما يؤخذ على ما يذبح من البقر والغنم — واستعمل فى أموره العسف ، وترك مداراة الأمراء واستعجل . فقبض عليه وعوقب ، وسجن الى أن أخرج فى رمضان سنة سبع وثمانمائة ، وقلد وظيفة الاشارة — وكانت للأمير جمال الدين يوسف الأستادار — فلم يترك عادته فى الاعجاب برأيه ، والاستبداد بالأمور ، واستعجال الأشياء قبل أوانها .

فقبض عليه فى ذى الحجة منها ، وسلم للأمير جمال الدين يوسف ، فعاقبه وبعث به الى الاسكندرية ، فسجن بها الى أن سعى جمال الدين فى قتله ، بمال بذله للناصر فيه حتى أذن له فى ذلك ، فقتل خنقا عصر يوم الجمعة وهو صائم السابع عشر من جمادى الآخرة سنة احدى عشرة وثمانمائة * ، رحمه الله .

وكان كثير النسك من الصلاة والصوم والصدقة . لا يخل بشىء من نوافل العبادات ، ولا يترك قيام الليل سفرا ولا حضرا ، ولا يصلى قط الا بوضوء جديد ، وكلما أحدث توضأ ، واذا توضأ صلى ركعتين . وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ويخرج فى كثرة الصدقات عن الحد ، ويقرأ فى كل ثلاثة أيام ختمة ، ولا يترك أوراده فى حال من الأحوال مع المروءة والهمة .

وسمع كثيرا من الحديث ، وقرأ بنفسه على المشايخ ، وكتب الخط المليح ، وقرأ القراءات السبع ، وعرف التصوف والفقه والحساب والنجوم ... الا أنه كان متهورا فى أخذ الأموال ، عسوفا لجوجا مصمما ، لا ينقاد الى أحد ، ويستبد برأيه فيغلط غلطات لا تحتمل ، ويستخف بغيره ، ويعجب بنفسه ، ويريد أن يجعل غاية الأمور بدايتها . فلذلك لم يتم له أمر .

جامع الظافر

هذا الجامع بالقاهرة فى وسط السوق الذى كان يعرف قديما بسوق السراجين ، ويعرف اليوم بسوق الشوايين . كان يقال له الجامع الأفخر ، ويقال له اليوم جامع الفاكهيين ، وهو من المساجد الفاطمية . عمره الخليفة الظافر بنصر الله أبو المنصور اسماعيل ابن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد ابن الآمر بأحكام الله منصور ، ووقف حوانيته على سدنته ومن يقرأ فيه .

قال ابن عبد الظاهر : بناه الظافر ، وكان قبل ذلك زريبة تعرف بدار الكباش ، وبناه فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . وسبب بنائه أن خادما رأى من مشرف عال ذباحا وقد أخذ رأسين من الغنم ، فذبح أحدهما ورمى

(*) ص٢٦٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

سكينه ، ومضى ليقضى حاجته ، فأتى رأس الغنم الآخر وأخذ السكين بفمه ورماها فى البالوعة ، فجاء الجزار يطوف على السكين فلم يجدها ، وأما الخادم فانه استصرخ وخلصه منه . وطولع بهذه القضية أهل القصر ، فأمروا بعمله جامعا ، ويسمى الجامع الأقمر ، وبه حلقة تدريس وفقهاء ومتصدرون للقرآن . وأول ما أقيمت به الجمعة فى ... ... ؟ .

جامع الصالح

هذا الجامع من المواضع التى عمرت فى زمن الخلفاء الفاطميين ، وهو خارج باب زويلة .

قال ابن عبد الظاهر : كان الصالح طلائع ابن رزيك — لما خيف على مشهد الامام الحسين رضى الله عنه اذ كان بعسقلان من هجمة الفرنج ، وعزم على نقله — قد بنى هذا الجامع ليدفنه به . فلما فرغ منه لم يمكنه الخليفة من ذلك ، وقال : لا يكون الا داخل القصور الزاهرة . وبنى المشهد الموجود الآن ودفن به .

وتم الجامع المذكور ، واستمر جلوس زين الدين الواعظ به وحضور الصالح اليه . فيقال ان الصالح لما حضرته الوفاة جمع أهله وأولاده ، وقال لهم فى جملة وصيته : ماندمت قط فى شىء عملته الا فى ثلاثة : الأول بنائى هذا الجامع على باب القاهرة فانه صار عونا لها ، والثانى توليتى لشاور الصعيد الأعلى ، والثالث خروجى الى بلبيس بالعساكر وانفاقى الأموال الجمة ، ولم أتم بهم الى الشام وأفتح بيت المقدس ، وأستأصل ساقة الفرنج . وكان قد أنفق فى العساكر فى تلك الدفعة مائة ألف دينار .

وبنى فى الجامع المذكور صهريجا عظيما ، وجعل ساقية على الخليج قرب باب الخرق تملأ الصهريج المذكور أيام النيل ، وجعل المجارى اليه . وأقيمت الجمعة فيه فى الأيام المعزية ، فى سنة بضع وخمسين وستمائة ، بحضور رسول بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله البادرانى ، وخطب به أصيل الدين أبو بكر الأسعردى وهى الى الآن . ولما حدثت الزلزلة سنة اثنتين وسبعمائة تهدم ، فعمر على يد الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار .

« طلائع بن رزيك » : أبو الغارات الملك الصالح ، فارس المسلمين ، نصير الدين . قدم فى أول أمره الى زيارة مشهد الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، بأرض النجف من العراق ، فى جماعة من الفقراء ، وكان من الشيعة الامامية ، وامام مشهد على رضى الله عنه يومئذ السيد ابن معصوم . فزار طلائع وأصحابه ، وباتوا هنالك .

فرأى ابن معصوم فى منامه على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو يقول له : قد ورد عليك الليلة أربعون فقيرا من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزيك من أكبر محبينا ، قل له اذهب فقد وليناك مصر .

فلما أصبح أمر أن ينادى : من فيكم طلائع ابن رزيك فليقم الى السيد ابن معصوم . فجاء طلائع وسلم عليه ، فقص عليه ما رأى .

(*) هكذا بياض فى الاصل .

فسار حينئذ الى مصر ، وترقى فى الخدم حتى ولى منية بنى خصيب . فلما قتل نصر بن عباس الخليفة الظافر ، بعث نساء القصر الى طلائع يستغثن به فى الأخذ بثأر الظافر ، وجعلن فى طى الكتب شعور النساء .

فجمع طلائع عندما وردت عليه الكتب الناس ، وسار يريد القاهرة لمحاربة الوزير عباس . فعندما قرب من البلد فر عباس ، ودخل طلائع الى القاهرة ، فخلع عليه خلع الوزارة ، ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير * الدين . فباشر البلاد أحسن مباشرة ، واستبد بالأمر لصغر سن الخليفة الفائز بنصر الله الى أن مات .

فأقام من بعده عبد الله بن محمد ، ولقبه بالعاضد لدين الله ، وبايع له ، وكان صغيرا لم يبلغ الحلم ، فقويت حرمة طلائع ، وازداد تمكنه من الدولة . فثقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم ، واستبداده بالأمر دونهم ، فوقف له رجال بدهاليز القصر ، وضربوه حتى سقط على الأرض على وجهه ، وحمل جريحا لا يعى الى داره ، فمات يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة .

وكان شجاعا كريما ، جوادا فاضلا ، محبا لأهل الأدب جيد الشعر ، رجل وقته فضلا وعقلا وسياسة وتدبيرا . وكان مهابا فى شكله عظيما فى سطوته ، وجمع أموالا عظيمة ، وكان محافظا على الصلوات فرائضها ونوافلها شديد المغالاة فى التشيع .

(*) ص ٢٩٣ ، ج ٢ ط . بولاق .

صنف كتابا سماه « الاعتماد فى الرد على أهل العناد » جمع له الفقهاء وناظرهم عليه ، وهو تتضمن امامة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والكلام على الأحاديث الواردة فى ذلك . وله شعر كثير يشتمل على مجلدين فى كل فن ، فمنه فى اعتقاده :

يا أمة سلكت ضلالا بينا ... حتى استوى اقرارها وجحودها
ملتم الى أن المعاصى لم يكن ... الا بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم ... منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون الهنا ... ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

وله قصيدة سماها « الجوهرية فى الرد على القدرية » . وجدد الجامع الذى بالقرافة الكبرى ، ووقف ناحية بلقس : على أن يكون ثلثاها على الأشراف من بنى حسن وبنى حسين ابنى على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وسبع قراريط منها على أشراف المدينة النبوية ، وجعل فيها قيراطا على بنى معصوم امام مشهد على رضى الله عنه .

ولما ولى الوزارة مال على المستخدمين بالدولة وعلى الأمراء ، وأظهر مذهب الامامية وهو مخالف لمذهب القوم ، وباع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقررة ، وجعل مدة كل متول ستة أشهر . فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة على البلاد ، وتعبوا من ذلك . وكان له مجلس فى الليل يحضره أهل العلم ويدونون شعره ، ولم يترك مدة أيامه غزو الفرنج

وتسيير الجيوش لقتالهم فى البر والبحر ، وكان يخرج البعوث فى كل سنة مرارا .

وكان يحمل فى كل عام الى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون اليه من الكسوة وغيرها . حتى يحمل اليهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها ، والأقلام والمداد وآلات النساء ، ويحمل كل سنة الى العلويين الذين بالمشاهد جملا كبيرة . وكان أهل العلم يفدون اليه من سائر البلاد ، فلا يخيب أمل قاصد منهم .

ولما كان فى الليلة التى قتل صبيحتها قال : فى هذه الليلة ضرب فى مثلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه . وأمر بقربة مثلثة ، فاغتسل وصلى على رأى الامامية مائة وعشرين ركعة أحيا بها ليله ، وخرج ليركب ، فعثر وسقطت عمامته عن رأسه وتشوشت .

فقعد فى دهليز دار الوزارة ، وأمر باحضار ابن الضيف — وكان يتعمم للخلفاء والوزراء وله على ذلك الجارى الثقيل — فلما أخذ فى اصلاح العمامة ، قال رجل للصالح : نعيذ بالله مولانا ، ويكفيه هذا الذى جرى أمرا يتطير منه ، فان رأى مولانا أن يؤخر الركوب فعل .

فقال : الطيرة من الشيطان ، ليس الى تأخير الركوب سبيل .

وركب فكان من ضربه ما كان ، وعاد محمولا ، فمات منها كما تقدم .

ذكر الأحباس وما كان يعمل فيها

اعلم أن الأحباس فى القديم لم تكن تعرف الا فى الرباع وما يجرى مجراها من المبانى ، وكلها كانت على جهات بر . فأما المسجد الجامع العتيق بمصر ، فكان يلى امامته فى الصلوات الخمس ، والخطابة فيه يوم الجمعة والصلاة بالناس صلاة الجمعة ، أمير البلد : فتارة يجمع للأمير بين الصلاة والخراج ، وتارة يفرد الخراج عن الأمير ، فيكون الأمير اليه أمر الصلاة بالناس والحرب ، ولآخر أمر الخراج وهو دون مرتبة أمير الصلاة والحرب . وكان الأمير يستخلف عنه فى الصلاة صاحب الشرطة اذا شغله أمر .

ولم يزل الأمر على ذلك الى أن ولى مصر عنبسة بن اسحاق بن شمر ، من قبل المستنصر ابن المتوكل ، على الصلاة والخراج . فقدمها لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، وأقام الى مستهل رجب سنة اثنتين وأربعين ومائتين وصرف . فكان آخر من ولى مصر من العرب ، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع ، وصار يصلى بالناس رجل يرزق من بيت المال ، وكذلك المؤذنون ونحوهم .

وأما الأراضى فلم يكن سلف الأمة من الصحابة والتابعين يتعرضون لها ، وانما حدث ذلك بعد عصرهم * . حتى ان أحمد بن طولون لما بنى الجامع والمارستان والسقاية ، وحبس على ذلك الأحباس الكثيرة ، لم يكن فيها سوى الرباع ونحوها بمصر ، ولم يتعرض الى شىء من أراضى مصر ألبتة . وحبس أبو بكر محمد بن على الماردانى بركة الحبش وسيوط وغيرهما على الحرمين وعلى جهات بر ، وحبس غيره أيضا .

(*) ص ٢٩٤ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

فلما قدمت الدولة الفاطمية من الغرب الى مصر ، بطل تحبيس البلاد ، وصار قاضى القضاة يتولى أمر الأحباس من الرباع ، واليه أمر الجوامع والمشاهد ، وصار للأحباس ديوان مفرد . وأول ما قدم المعز أمر فى ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وثلثمائة بحمل مال الأحباس من المودع الى بيت المال الذى لوجوه البر ، وطولب أصحاب الأحباس بالشرائط ليحملوا عليها وما يجب لهم فيها . وللنصف من شعبان ضمن الأحباس محمد بن القاضى أبى الطاهر محمد بن أحمد ، بألف ألف وخمسمائة ألف درهم فى كل سنة ، يدفع الى المستحقين حقوقهم ، ويحمل ما بقى الى بيت المال .

وقال ابن الطوير « الخدمة فى ديوان الأحباس » : وهو أوفر الدواوين مباشرة ، ولا يخدم فيه الا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدلين بحكم أنها معاملة دينية ، وفيها عدة مدبرين ينوبون عن أرباب هذه الخدم فى ايجاب أرزاقهم من ديوان الرواتب ، وينجزون لهم الخروج باطلاق أرزاقهم .

ولا يوجب لأحد من هؤلاء خرج الا بعد حضور ورقة التعريف من جهة مشارف الجوامع والمساجد باستمرار خدمته ذلك الشهر جميعه ، ومن تأخر تعريفه تأخر الايجاب له ، وان تمادى ذلك استبدل به أو توفر ما باسمه لمصلحة أخرى . خلا جوارى المشاهد فانها لا توفر ، لكنها تنقل من مقصر الى ملازم .

وكان يطلق لكل مشهد خمسون درهما فى الشهر برسم الماء لزوارها ، ويجرى من معاملة سواقى السبيل بالقرافة والنفقة عليها من ارتفاعه ، فلا تخلو المصانع ولا الأحواض من الماء أبدا ، ولا يعترض أحد من الانتفاع به . وكان فيه كاتبان ومعينان .

وقال المسبحى فى حوادث سنة ثلاث وأربعمائة : وأمر الحاكم بأمر الله باثبات المساجد التى لا غلة لها ولا أحد يقوم بها ، وما له منها غلة لا تقوم بما يحتاج اليه ... فأثبت فى عمل ورفع الى الحاكم بأمر الله . فكانت عدة المساجد على الشرح المذكور ثمانمائة وثلاثين مسجدا ، ومبلغ ما تحتاج اليه من النفقة فى كل شهر تسعة آلاف ومائتان وعشرون درهما ، على أن لكل مسجد فى كل شهر اثنى عشر درهما .

وقال فى حوادث سنة خمس وأربعمائة : وقرىء يوم الجمعة ثامن عشرى صفر سجل بتحبيس عدة ضياع — وهى أطفيح وصول وطوخ ، وست ضياع أخر ، وعدة قياسر وغيرها — على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع ، وعلى المصانع والقوام بها ، ونفقة المارستانات وأرزاق المستخدمين فيها ، وثمن الأكفان .

وقال الشريف بن أسعد الجوانى : كان القضاة بمصر اذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام ، طافوا يوما على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة : يبدأون بجامع المقس ، ثم القاهرة ، ثم المشاهد ، ثم القرافة ، ثم جامع مصر ، ثم مشهد الرأس ... لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وما تشعث منه ، وما زال الأمر على ذلك الى أن زالت الدولة الفاطمية .

فلما استقرت دولة بنى أيوب ، أضيفت الأحباس أيضا الى القاضى . ثم تفرقت جهات

الأحباس فى الدولة التركية ، وصارت الى يومنا هذا ثلاث جهات :

الأولى تعرف بالأحباس : ويلى هذه الجهة دوادار السلطان وهو أحد الأمراء ، ومعه ناظر الأحباس ولا يكون الا من أعيان الرؤساء وبهذه الجهة ديوان فيه عدة كتاب ومدبر . وأكثر ما فى ديوان الأحباس الرزق الأحباسية — وهى أراض من أعمال مصر — على المساجد والزوايا للقيام بمصالحها ، وعلى غير ذلك من جهات البر .

وبلغت الرزق الأحباسية فى سنة أربعين وسبعمائة ، عندما حررها النشو ناظر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، مائة ألف وثلاثين ألف فدان . عمل النشو بها أوراقا ، وحدث السلطان فى اخراجها عمن هى باسمه ، وقال : جميع هذه الرزق أخرجها الدواوين بالبراطيل ، والتقرب الى الأمراء والحكام ، وأكثرها بأيدى أناس من فقهاء الأرياف لا يدرون الفقه ، يسمون أنفسهم الخطباء ولا يعرفون كيف يخطبون ، ولا يقرأون القرآن ، وكثير منها بأسماء مساجد وزوايا معطلة وخراب . وحسّن له أن يقيم شادا وديوانا يسير فى النواحى ، وينظر فى المساجد التى هى عامرة ، ويصرف لها من رزقها النصف ، وما عدا ذلك يجرى فى ديوان السلطان . فعاجله الله ، وقبض عليه قبل عمل شىء من ذلك .

الجهة الثانية تعرف بالأوقاف الحكمية بمصر والقاهرة : ويلى هذه الجهة قاضى القضاة الشافعى ، وفيها ما حبس من الرباع على الحرمين وعلى الصدقات والأسرى وأنواع القرب . ويقال لمن يتولى هذه الجهة ناظر الأوقاف : فتارة ينفرد بنظر أوقاف مصر والقاهرة رجل واحد من أعيان نواب القاضى ، وتارة ينفرد بأوقاف القاهرة ناظر من الأعيان ويلى نظر أوقاف مصر * آخر ، ولكل من أوقاف البلدين ديوان فيه كتاب وجباة .

وكانت جهة عامرة يتحصل منها أموال جمة ، فيصرف منها لأهل الحرمين أموال عظيمة فى كل سنة ، تحمل من مصر اليهم مع من يثق به قاضى القضاة ، وتفرق هناك صررا ، ويصرف منها أيضا بمصر والقاهرة لطلبة العلم ولأهل الستر وللفقراء شىء كثير . الا أنها اختلت وتلاشت فى زمننا هذا ، وعما قليل ان دام ما نحن فيه لم يبق لها أثر ألبتة .

وسبب ذلك أنه ولى قضاء الحنفية كمال الدين عمر بن العديم فى أيام الملك الناصر فرج ، وولاية الأمير جمال الدين يوسف تدبير الأمور والمملكة ، فتظاهرا معا على اتلاف الأوقاف فكان جمال الدين اذا أراد أخذ وقف من الأوقاف ، أقام شاهدين يشهدان بأن هذا المكان يضر بالجار والمار ، وأن الحظ فيه أن يستبدل به غيره فيحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم باستبدال ذلك .

وشره جمال الدين فى هذا الفعل كما شره فى غيره ، فحكم له المذكور باستبدال القصور العامرة والدور الجليلة بهذه الطريقة .

(*) ص٢٩٥ جـ٢ ، ط.بولاق *

والناس على دين ملكهم . فصار كل من يريد بيع وقف أو شراء وقف ، سعى عند القاضى المذكور بجاه أو مال ، فيحكم له بما يريد من ذلك . واستدرج غيره من القضاة الى نوع آخر ، وهو أن تقام شهود القيمة فيشهدون بأن هذا الوقف ضار بالجار والمار ، وأن الحظ والمصلحة فى بيعه أنقاضا . فيحكم قاضى شافعى المذهب ببيع تلك الأنقاض .

واستمر الأمر على هذا الى وقتنا هذا الذى نحن فيه ، ثم زاد بعض سفهاء قضاة زمننا فى المعنى ، وحكم ببيع المساجد الجامعة اذا خرب ما حولها ، وأخذ ذرية واقفها ثمن أنقاضها ، وحكم آخر منهم ببيع الوقف ودفع الثمن لمستحقه من غير شراء بدل .

فامتدت الأيدى لبيع الأوقاف حتى تلف بذلك سائر ما كان فى قرافتى مصر من الترب ، وجميع ما كان من الدور الجليلة والمساكن الأنيقة بمصر الفسطاط ، ومنشأة المهرانى ومنشأة الكتاب ، وزربية قوصون ، وحكر ابن الأثير ، وسويقة الموفق ، وما كان فى الحكورة من ذلك ، وما كان بالجوانية والعطوفية وغيرها من حارات القاهرة وغيرها . فكان ما ذكر أحد أسباب الخراب كما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب .

الجهة الثالثة الأوقاف الأهلية : وهى التى لها ناظر خاص اما من أولاد الواقف أو من ولاة السلطان أو القاضى . وفى هذه الجهة الخوانك والمدارس والجوامع والترب ، وكان متحصلها قد خرج عن الحد فى الكثرة لما حدث فى الدولة التركية من بناء المدارس والجوامع والترب وغيرها ، وصاروا يفردون أراضى من أعمال مصر والشامات وفيها بلاد مقررة ، ويقيمون صورة يتملكونها بها ، ويجعلونها وقفا على مصارف كما يريدون .

فلما استبد الأمير برقوق بأمر بلاد مصر ، قبل أن يتلقب باسم السلطنة ، هم بارتجاع هذه البلاد ، وعقد مجلسا فيه شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى ، وقاضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى البقاء وغيره ، فلم يتهيأ له ذلك . فلما جلس على تخت الملك صار أمراؤه يستأجرون هذه النواحى من جهات الأوقاف ، ويؤجرونها للفلاحين بأزيد مما استأجروا .

فلما مات الظاهر فحش الأمر فى ذلك ، واستولى أهل الدولة على جميع الأراضى الموقوفة بمصر والشامات ، وصار أجودهم من يدفع فيها لمن يستحق ريعها عشر ما يحصل له ، والا فكثير منهم لا يدفع شيئا ألبتة ... لا سيما ما كان من ذلك فى بلاد الشام ، فانه استهلك وأخذ . ولذلك كان أسوأ الناس حالا فى هذه المحن التى حدثت منذ سنة ست وثمانمائة الفقهاء ، لخراب الموقوف عليهم وبيعه ، واستيلاء أهل الدولة على الأراضى .

الجامع بجوار تربة الشافعى بالقرافة

هذا الجامع كان مسجدا صغيرا . فلما كثر الناس بالقرافة الصغرى ، عندما عمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة بجوار قبر الامام الشافعى رضى الله عنه ، وجعل لها مدرسا وطلبة ... زاد الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى المسجد المذكور ،

ونصب به منبرا ، وخطب فيه ، وصليت الجمعة به فى سنة سبع وستمائة .

جامع محمود بالقرافة

هذا المسجد قديم ، والخطبة فيه متجددة ، ونسب لمحمود بن سالم بن مالك الطويل ، من أجناد السرى بن الحكم أمير مصر بعد سنة مائتين من الهجرة .

قال القضاعى : المسجد المعروف بمحمود ، يقال ان محمودا هذا كان رجلا جنديا من جند السرى بن الحكم أمير مصر ، وانه هو الذى بنى هذا المسجد . وذلك أن السرى بن الحكم ركب يوما ، فعارضه رجل فى طريقه فكلمه ووعظه بما غاظه ، فالتفت عن يمينه فرأى محمودا ، فأمره بضرب عنق * الرجل ، ففعل .

فلما رجع محمود الى منزله تفكر وندم ، وقال : رجل يتكلم بموعظة بحق ، فيقتل بيدى وأنا طائع غير مكره على ذلك ! فهلا امتنعت . وكثر أسفه وبكاؤه ، وآلى على نفسه أن يخرج من الجندية ولا يعود فيها ، ولم ينم ليلته من الغم والندم .

فلما أصبح غدا الى السرى فقال له : انى لم أنم فى هذه الليلة على قتل الرجل ، وأنا أشهد الله عز وجل وأشهدك أنى لا أعود فى الجندية ، فأسقط اسمى منهم ، وان أردت نعمتى فهى بين يديك . وخرج من بين يديه ، وحسنت توبته ، وأقبل على العبادة ، واتخذ المسجد المعروف بمسجد محمود وأقام فيه .

وقال ابن المتوج « المسجد الجامع المشهور بسفح المقطم » : هذا الجامع من مساجد الخطبة ، وهو بسفح الجبل المقطم بالقرافة الصغرى . وأول من خطب فيه السيد الشريف شهاب الدين الحسين بن محمد قاضى العسكر والمدرس بالمدرسة الناصرية الصلاحية بجوار جامع عمرو — وبه عرفت بالشريفية — وسفير الخلافة المعظمة ، وتوفى فى شوال سنة خمس وخمسين وستمائة ، وكان أيضا نقيب الأشراف .

جامع الروضة بقلعة جزيرة الفسطاط

قال ابن المتوج : هذا الجامع عمره السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكان أمام بابه كنيسة تعرف بابن لقلق بترك اليعاقبة ، وكان بها بئر مالحة ، وذلك مما عد من عجائب مصر أن فى وسط النيل جزيرة بوسطها بئر مالحة . وهذه البئر التى رأيتها كانت قبالة باب المسجد الجامع ، وانما ردمت بعد ذلك .

وهذا الجامع لم يزل بيد بنى الرداد ، ولهم نواب عنهم فيه . ثم لما كانت أيام السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى ، هدم هذا الجامع فى شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ، ووسعه بدور كانت الى جانبه ، وشرع فى عمارته فمات قبل الفراغ منه .

جامع غين بالروضة

قال ابن المتوج : المسجد الجامع بروضة مصر يعرف بجامع غين ، وهو القديم ، ولم تزل الخطبة قائمة فيه الى أن عمر جامع المقياس ، فبطلت الخطبة منه ، ولم تزل الخطبة بطالة منه الى الدولة الظاهرية . فكثرت عمائر

(*) ص٢٩٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

الناس حوله فى الروضة ، وقل الناس فى القلعة ، وصاروا يجدون مشقة فى مشيهم من أوائل الروضة .

وعمر الصاحب محيى الدين أحمد ، ولد الصاحب بهاء الدين على بن حنا ، داره على خوخة الفقيه نصر قبالة هذا الجامع فحسن له اقامة الجمعة فى هذا الجامع لقربه منه ومن الناس ، فتحدث مع والده ، فشاور السلطان الملك الظاهر بيبرس ، فوقع منه بموقع — لكثرة ركوبه بحر النيل ، واعتنائه بعمارة الشوانى ولعبها فى البحر ، ونظره الى كثرة الخلائق بالروضة — ورسم باقامة الخطبه فيه مع بقاء الخطبة بجامع القلعة لقوة نيته فى عمارتها على ما كانت عليه .

فأقيمت الخطبة به فى سنة ستين وستمائة . وولى خطابته أقضى القضاة جمال الدين بن الغفارى ، وكان ينوب بالجيزة فى الحكم ، ثم ناب فى الحكم بمصر عن قاضى القضاة وجيه الدين البهنسى ، وكان امامه فى حال عطلته من الخطبة ، فلما أقيمت فيه الخطبة ، أضيفت اليه الخطابة فيه مع الامامة .

« غين » : أحد خدام الخليفة الحاكم بأمر الله . خلع عليه فى تاسع ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة ، وقلده سيفا ، وأعطاه سجلا قرىء فاذا فيه أنه لقب بقائد القواد ، وأمر أن يكتب بذلك ويكاتب به ، وركب وبين يديه عشرة أفراس بسروجها ولجمها .

وفى ذى القعدة من السنة المذكورة ، أنفذ اليه الحاكم خمسة آلاف دينار وخمسة وعشرين فرسا بسروجها ولجمها ، وقلده الشرطتين والحسبة بالقاهرة ومصر والجيزة ، والنظر فى أمور الجميع وأموالهم وأحوالهم كلها ، وكتب له سجلا بذلك قرىء بالجامع العتيق . فنزل الى الجامع ومعه سائر العسكر والخلع عليه ، وحمل على فرسين .

وكان فى سجله مراعاة أمر النبيذ وغيره من المسكرات ، وتتبع ذلك والتشديد فيه ، وفى المنع من عمل الفقاع وبيعه ، ومن أكل الملوخيا والسمك الذى لا قشر له ، والمنع من الملاهى كلها ، والتقدم بمنع النساء من حضور الجنائز والمنع من بيع العسل ، وألا يتجاوز فى بيعه أكثر من ثلاثة أرطال لمن لا يسبق اليه ظنه أن يتخذ منه مسكرا فاستمر ذلك الى غرة صفر سنة أربع وأربعمائة ، فصرف عن الشرطتين والحسبة بمظفر الصقلى .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الآخر منها ، أمر بقطع يدى كاتبه أبى القاسم على ابن أحمد الجرجانى فقطعتا جميعا . وذلك أنه كان يكتب عند السيدة الشريفة أخت الحاكم ، فانتقل من خدمتها الى خدمة غين خوفا على نفسه من خدمتها ، فسخطت لذلك ، فبعث اليها يستعطفها ، ويذكر فى رقعته شيئا وقفت عليه ، فارتابت منه ، فظنت أن ذلك حيلة عليها ، وأنفذت الرقعة فى طى رقعتها الى الحاكم . فلما وقف عليها اشتد غضبه ، وأمر بقطع يديه جميعا فقطعتا .

وقيل بل كان غين هو الذى يوصل رقاع عقيل ، صاحب الخبر ، الى الحاكم فى كل يوم * . فيأخذها من عقيل وهى مختومة

(*) ص٢٩٧ جـ٢ ، ط.بولاق .

بخاتمه ، ويدفعها لكاتبه أبى القاسم الجرجانى حتى يخلو له وجه الحاكم ، فيأخذها حينئذ من كاتبه ويوقعه عليها .

وكان الجرجانى يفك الختم ويقرأ الرقاع . فلما كان فى يوم من الأيام فك رقعة ، فوجد فيها طعنا على غين أستاذه وقد ذكر فيها بسوء ، فقطع ذلك الموضع وأصلحه وأعاد ختم الرقعة

فبلغ ذلك عقيلا صاحب الخبر ، فبعث الى الحاكم يستأذنه فى الاجتماع به خلوة فى أمر مهم ، فأذن له ، وحدثه بالخبر ، فأمر حينئذ بقطع يدى الجرجانى فقطعتا ثم بعد قطع يديه بخمسة عشر يوما ، فى ثالث جمادى الأولى ، قطعت يد غين الأخرى كان قد أمر بقطع يده قبل ذلك بثلاث سنين وشهر ، فصار مقطوع اليدين معا .

ولما قطعت يده حملت فى طبق الى الحاكم . فبعث اليه بالأطباء ، ووصله ألف ... وعدة من أسفاط ثياب ، وعاده جميع أهل الدولة . فلما كان ثالث عشره أمر بقطع لسانه ، فقطع وحمل الى الحاكم ، فسير اليه الأطباء ، ومات بعد ذلك .

جامع الأفرم

قال ابن المتوج : هذا الجامع بسفح الرصد . عمره الأمير عز الدين أيبك بن عبد الله — المعروف بالأفرم — أمير جاندار الملكى الصالحى النجمى ، فى شهور سنة ثلاث وستين وستمائة ، لما عمر المنظرة هناك ، وعمر بجوارها رباطا للفقراء ، وقررهم عدة تنعقد بهم الجمعة ، وقرر اقامتهم فيه ليلا ونهارا ، وقرر كفايتهم وأعانتهم على الاقامة ، عمر لهم هذا الجامع يستغنون به عن السعى الى غيره .

وذكر أن الأفرم أيضا عمر مسجدا بجسر الشعيبية ، فى شعبان سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، جامعا هدم فيه عدة مساجد

الجامع بمنشأة المهرانى

قال ابن المتوج : والسبب فى عمارة هذا الجامع أن القاضى الفاضل كان له بستان عظيم فيما بين ميدان اللوق وبستان الخشاب الذى أكله البحر ، وكان يمير مصر والقاهرة من ثماره وأعنابه ، ولم تزل الباعة ينادون على العنب « رحم الله الفاضل يا عنب » الى مدة سنين عديدة بعد أن أكله البحر

وكان قد عمر الى جانبه جامعا وبنى حوله ، فسميت بمنشأة الفاضل ، وكان خطيبه أخا الفقيه موفق الدين بن المهدوى الديباجى العثمانى ، وكان قد عمر بجواره دارا وبستانا وغرس فيه أشجارا حسنة ، ودفع اليه فيه ألف دينار مصرية فى أول الدولة الظاهرية ، وكان الصرف قد بلغ فى ذلك الوقت كل دينار ثمانية وعشرين درهما ونصف درهم نقرة . فاستولى البحر على الجامع والدار والمنشأة ، وقطع جميع ذلك حتى لم يبق له أثر .

وكان خطيبه موفق الدين يسكن بجوار الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا ، ويتردد اليه والى ولده محيى الدين ، فوقف وضرع اليهما وقال : أكون غلام هذا الباب ويخرب جامعى . فرحمه الصاحب وقال :

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل
وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزي رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٣٨



كتاب التحرير

"كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

السمع والطاعة ، يدبر الله . ثم فكر فى هذه البقعة التى فيها هذا الجامع الآن ، وكانت تعرف بالكوم الأحمر ، مرصدة لعمل أقمنة الطوب الآجرية ، سميت بالكوم الأحمر .

وكان الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا قد عمر منظرة قبالة هذا الكوم — وهى التى صارت دار ابن صاحب الموصل — وكان فخر الدين كثير الاقامة فيها مدة الأيام المعزية ، فقلق من دخان الأقمنة التى على الكوم الأحمر ، وشكا ذلك لوالده ولصهره الوزير شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى . فأمرا بتقويمه ، فقوم ما بين بستان الحلى وبحر النيل ، وابتاعه الصاحب بهاء الدين .

فلما مات ولده فخر الدين ، وتحدث مع الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع هناك ، ملكه هذه القطعة من الأرض ، فعمر السلطان بها هذا الجامع ، ووقف عليه بقية هذه الأرض المذكورة فى شهر رمضان سنة احدى وسبعين وستمائة ، رجعل النظر فيه لأولاده وذريته ، ثم من بعدهم لقاضى القضاة الحنفى .

وأول من خطب فيه الفقيه موفق الدين محمد بن أبى بكر المهدوى العثمانى الدياجى الى أن توفى يوم الأربعاء ثالث عشر شوال سنة خمس وثمانين وستمائة . وقد تعطلت اقامة الجمعة من هذا الجامع لخراب ما حوله وقلة الساكنين هناك ، بعد أن كانت تلك الخطة فى غاية العمارة . وكان صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب قد عزم على نقل هذا الجامع من مكانه ، فاخترمته المنية قبل ذلك .

جامع دير الطين

قال ابن المتوج * هذا الجامع بدير الطين فى الجانب الشرقى ، عمره الصاحب تاج الدين ابن الصاحب فخر الدين * ، ولد الصاحب بهاء الدين المشهور بابن حنا ، فى المحرم سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، وذلك أنه لما عمر بستان المعشوق ومناظره ، وكثرت اقامته بها ، وبعد عليه الجامع — وكان جامع دير الطين ضيقا لا يسع الناس — فعمر هذا الجامع ، وعمر فوقه طبقة يصلى فيها ، ويعتكف اذا شاء ويخلو بنفسه فيها . وكان ماء النيل فى زمنه يصل الى جدار هذا الجامع .

وولى خطابته للفقيه جمال الدين محمد ابن الماشطة ، ومنعه من لبس السواد لأداء الخطبة فاستمر الى حين وفاته فى عاشر رجب سنة تسع وسبعمائة . وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة سابع صفر سنة اثنتين وسبعين وستمائة . وقد ذكرت ترجمة الصاحب تاج الدين عند ذكر رباط الآثار من هذا الكتاب .

« محمد بن على بن محمد بن سليم بن حنا » . أبو عبد الله الوزير الصاحب فخر الدين ابن الوزير الصاحب بهاء الدين . ولد فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وتزوج بابنة الوزير الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى ، وناب عن والده فى الوزارة ، وولى ديوان الأحباس ووزارة الصحبة فى أيام الظاهر بيبرس .

(*) ص٢٩٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

وسمع الحديث بالقاهرة ودمشق وحدث ، وله شعر جيد ، ودرس بمدرسة أبيه الصاحب بهاء الدين التى كانت فى زقاق القناديل بمصر . وكان محبا لأهل الخير والصلاح ، مؤثرا لهم ، متفقدا لأحوالهم . وعمر رباطا حسنا بالقرافة الكبرى ، رتب فيه جماعة من الفقراء .

ومن غرب ما يتعظ به الأرب أن الوزير الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير ، الذى كان بنو حنا يعادونه وعنه أخذوا الوزارة ، مات فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وستمائة بالسجن ، فأخرج كما تخرج الأموات الطرحاء على الطرقات من الغرباء ، ولم يشيع جنازته أحد من الناس مراعاة للصاحب بن حنا .

وكان فخر الدين هذا يتنزه فى أيام الربيع بمنية القائد — وقد نصبت له الخيام ، وأقيمت المطابخ ، وبين يديه المطربون — فدخل عليه البشير بموت الوزير يعقوب بن الزبير ، وأنه أخرج الى المقابر من غير أن يشيع جنازته أحد من الناس . فسر بذلك ولم يتمالك نفسه ، وأمر المطربين فغنوه ، ثم قام على رجليه ورقص هو وسائر من حضره ، وأظهر من الفرح والخلاعة ما خرج به عن الحد ، وخلع على البشير بموت المذكور خلعا سنية .

فلم يمض على ذلك سوى أقل من أربعة أشهر ، ومات فى حادى عشرى شعبان من السنة المذكورة ، ففجع به أبوه ، وكانت له جنازة عظيمة . ولما دلى فى لحده ، قام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى — صاحب البردة — فى ذلك الجمع الموفور بتربة ابن حنا من القرافة ، وأنشد :

نم هنيئا محمد بن على
بجميل قدمت بين يديكا
لم تزل عوننا على الدهر حتى
غلبتنا يد المنون عليكا
أنت أحسنت فى الحياة الينا
أحسن الله فى الممات اليكا

فباكى الناس ، وكان لها محل كبير ممن حضر . رحمة الله عليهم أجمعين .

وفى هذا الجامع يقول السراج الوراق :

بنيتم على تقوى من الله مسجدا
وخير مبانى العابدين المساجد
فقل فى طراز معلم فوق بركة
على حسنها الزاهى لها البحر حاسد
لها حلل حسنى ولكن طرازها
من الجامع المعمور بالله واحد
هو الجامع الاحسان والحسن الذى
أقر له زيد وعمرو وخالد
وقد صافحت شهب الدجى شرفاته
فما هى بين الشهب الا فراقد
وقد أرشد الضلال عالى مناره
فلا حائر عنه ولا عنه حائد
ونالت نواقيس الديارات وجمة
وخوف فلم يمدد اليهن ساعد
فتبكى عليهن البطاريق فى الدجى
وهن لديهم ملقيات كواسد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

جامع الظاهر

هذا الجامع خارج القاهرة . وكان موضعه ميدانا ، فأنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى جامعا

قال جامع السيرة الظاهرية : وفى ربيع الآخر (يعنى سنة خمس وستين وستمائة) اهتم السلطان بعمارة جامع بالحسينية ، وسير الأتابك فارس الدين أقطاى المستعرب والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا وجماعة من المهندسين ، لكشف مكان يليق أن يعمل جامعا ، فتوجهوا لذلك ، واتفقوا على مناخ الجمال السلطانية . فقال السلطان . « لا والله لا جعلت الجامع مكان الجمال ، وأولى جعلته ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتى

فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ربيع الآخر ركب السلطان ، وصحبته خواصه والوزير الصاحب بهاء الدين على بن حنا والقضاة ، ونزل الى ميدان قراقوش ، وتحدث فى أمره ، وقاسه ورتب أموره وأمور بنائه ، ورسم بأن يكون بقية الميدان وقفا على الجامع بحكر ، ورسم بين يديه هيئة الجامع ، وأشار أن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية ، وأن يكون على محرابه قبة على قدر قبة الشافعى رحمة الله عليه

وكتب فى وقته الكتب الى البلاد باحضار عمد رخام من سائر البلاد ، وكتب باحضار الجمال والجواميس والأبقار والدواب من سائر الولايات ، وكتب باحضار الآلات من الحديد والأخشاب النقية برسم الأبواب والسقوف وغيرها

ثم توجه لزيارة الشيخ الصالح خضر بالمكان الذى أنشأه له ، وصلى الظهر هناك ، ثم توجه الى المدرسة بالقاهرة فدخلها ، والفقهاء والقراء على حالهم وجلس بينهم . ثم تحدث وقال . هذا مكان قد جعلته لله عز وجل ، وخرجت عنه وقفا لله اذا مت لا تدفنونى هنا ، ولا تغيروا معالم هذا المكان ، فقد خرجت عنه لله تعالى . ثم قام من ايوان الحنفية ، وجلس بالمحراب فى ايوان الشافعية وتحدث وسمع القرآن والدعاء ورأى جميع الأماكن ، ودخل الى قاعة ولده الملك السعيد المبنية قريبا منها ثم ركب الى قلعة الجبل ، وولى عدة مشدين على عمارة الجامع .

وكان الى جانب الميدان قاعة ومنظرة عظيمة بناها السلطان الملك الظاهر . فلما رسم ببناء الجامع ، طلبها الأمير سيف الدين قشتمر العجمى من السلطان فقال الأرض قد خرجت عنها لهذا الجامع فاستأجرها من ديوانه والبناء والأصناف وهنك اباها وشرع فى العمارة فى منتصف جمادى الآخرة منها .

وفى أول جمادى الآخرة سنة ست وستين وستمائة ، سار السلطان من ديار مصر يريد بلاد الشام ، فنزل على مدينة يافا ، وتسلمها من الفرنج بأمان ، فى يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة المذكور ، وسير أهلها فتفرقوا فى البلاد ، وشرع فى هدمها ، وقسم أبراجها على الأمراء ، فابتدأ فى ذلك من ثانى عشريه ، وقاسوا شدة فى هدمها لحصانتها

(*) ص٢٩٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقوة بنائها ، لا سيما القلعة فانها كانت حصينة عالية الارتفاع ، ولها أساسات الى الأرض الحقيقية .

وباشر السلطان الهدم بنفسه وبخواصه ومماليكه ، حتى غلمان البيوتات التى له ، وكان ابتداء هدم القلعة فى سابع عشره ، ونقضت من أعلاها نظفت زلاقتها واستمر الأجناد فى ذلك ليلا ونهارا ، أخذ من أخشابها جملة ومن ألواح الرخام التى وجدت فيها ، ووسق منها مركبا من المراكب التى وجدت فى يافا ، وسيرها الى القاهرة ، ورسم بأن يعمل من ذلك الخشب مقصورة فى الجامع الظاهرى بالميدان من الحسينية ، والرخام يعمل بالمحراب ، فاستعمل كذلك .

ولما عاد السلطان الى مصر فى حادى عشرى ذى الحجة منها — وقد فتح فى هذه السفرة يافا وطرابلس وأنطاكية وغيرها — أقام الى أن أهلت سنة سبع وستين وستمائة فلما كملت عمارة الجامع فى شوال منها ركب السلطان ، ونزل الى الجامع وشاهده ، ورآه فى غاية ما يكون من الحسن ، أعجبه نجازه فى أقرب وقت ومدة مع علو الهمة فخلع على مباشريه — وكان الذى تولى بناءه الصاحب بهاء الدين بن حنا ، والأمير علم الدين سنجر السرورى متولى القاهرة — وزار الشيخ خضرا ، وعاد الى قلعته

وفى شوال منها تمت عمارة الجامع الظاهرى ، ورتب به خطيبا حنفى المذهب ، ووقف عليه حكر ما بقى من أرض الميدان ، ونزل السلطان اليه ، ورتب أوقافه ، ونظر فى أموره .

« بيبرس » الملك الظاهر ركن الدين البندقدارى : أحد المماليك البحرية الذين اختص بهم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وأسكنهم قلعة الروضة .

كان أولا من مماليك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى . فلما سخط عليه الملك الصالح أخذ مماليكه — ومنهم الأمير بيبرس هذا — وذلك فى سنة أربع وأربعين وستمائة وقدمه على طائفة من الجمدارية

وما زال يترقى فى الخدم الى أن قتل المعز أيبك التركمانى ، الفارس أقطاى الجمدار ، فى شعبان سنة اثنين وخمسين وستمائة وكانت البحرية قد تحازت اليه ، فركبوا فى نحو السبعمائة ، فلما ألقيت اليهم رأس أقطاى نه هوا ، واتفقوا على الخروج الى الشام — وكانت أعيانهم يومئذ بيبرس البندقدارى ، وقلاوون الألفى ، وسنقر الأشقر ، وبيسرى ، وزامق ، وتنكز — فساروا الى الملك الناصر صاحب الشام .

ولم يزل بيبرس ببلاد الشام الى أن قتل المعز أيبك ، وقام من بعده ابنه المنصور على ، وقبض عليه نائبه الأمير سيف الدين قطز ، وجلس على تخت المملكه ، وتلقب بالملك المظفر ، فقدم عليه بيبرس ، فأمره المظفر قطز ، ولما خرج قطز الى ملاقاة التتار ، وكان من نصرته عليهم ما كان ، رحل الى دمشق . فوشى اليه بأن الأمير بيبرس قد تنكر له وتغير عليه ، وأنه عازم على القيام بالحرب .

فأسرع قطز بالخروج من دمشق الى جهة مصر وهو مضمر لبيبرس السوء ، وعلم بذلك خواصه . فبلغ ذلك بيبرس * ، فاستوحش من قطز ، وأخذ كل منهما يحترس من الآخر على نفسه ، وينتظر الفرصة فبادر بيبرس وواعد الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير سيف الدين بهادر الركنى — المعروف بسم الموت — والأمير سيف الدين بلبان الهارونى والأمير بدر الدين آنص الأصبهانى .

فلما قربوا فى مسيرهم من القصير بين الصالحية والسعدية عند القرين ، انحرف قطز عن الدرب للصيد فلما قضى منه وطره وعاد — والأمير بيبرس يسايره هو أصحابه — طلب بيبرس منه امرأة من سبى التتار ، فأنعم عليه بها فتقدم ليقبل يده — وكانت اشارة بينه وبين أصحابه — فعندما رأوا بيبرس قد قبض على يد السلطان المظفر قطز ، بادر الأمير بكتوت الجوكندار وضربه بسيف على عاتقه أبانه ، واختطفه الأمير آنص وألقاه عن فرسه الى الأرض ، ورماه بهادر المعزى بسهم فقتله . وذلك يوم السبت خامس عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة .

ومضوا الى الدهليز للمشورة ، فوقع الاتفاق على الأمير بيبرس ، فتقدم اليه أقطاى المستعرب الجمدار — المعروف بالأتابك — وبايعه وحلف له ، ثم بقية الأمراء ، وتلقب بالملك الظاهر وذلك بمنزلة القصير . فلما تمت البيعة ، وحلف الأمراء كلهم ، قال له الأمير أقطاى المستعرب :

(*) ص٢٠٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

ياخوند لا يتم لك أمر الا بعد دخولك الى القاهرة وطلوعك الى القلعة .

فركب من وقته ومعه الأمير قلاوون ، والأمير بلبان الرشيدى ، والأمير بيلبك الخازندار وجماعة . يريدون قلعة الجبل . فلقيهم فى طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبى ، نائب الغيبة عن المظفر قطز ، وقد خرج لتلقيه . فأخبروه بما جرى وحلفوه ، فتقدمهم الى القلعة ، ووقف على بابها حتى وصلوا فى الليل ، فدخلوا اليها .

وكانت القاهرة قد زينت لقدوم السلطان الملك المظفر قطز ، وفرح الناس بكسر التتار عود السلطان فما راعهم ، وقد طلع النهار ، الا والمشاعلى ينادى : معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر بيبرس . فدخل على الناس من ذلك غم شديد ووجل عظيم ، خوفا من عود البحرية الى ما كانوا عليه من الجور والفساد وظلم الناس .

فأول ما بدأ به الظاهر أنه أبطل ما كان قطز أحدثه من المظالم عند سفره — وهو تصقيع الأملاك وتقويمها ، وأخذ زكاة ثمنها فى كل سنة ، وجباية دينار من كل انسان ، وأخذ ثلث التركة الأهلية — فبلغ ذلك فى السنة ستمائة ألف دينار . وكتب بذلك مسموحا قرىء على المنابر فى صبيحة دخوله الى القلعة ، وهو يوم الأحد سادس عشر ذى القعدة المذكور .

وجلس بالايوان وحلف العساكر ، واستناب الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار بالديار

المصرية . واستقر الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكا على عادته ، والأمير جمال الدين أقوش النجيبى أستادارا ، والأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى أمير جاندار ، والأمير لاجين الدرفيل وبلبان الرومى دوادارية ، والأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى أميراخور على عادته ، وبهاء الدين على بن حنا وزيرا ، والأمير ركن الدين التاجى الركنى والأمير سيف الدين بكجرى حجابا . ورسم باحضار البحرية الذين تفرقوا فى البلاد بطالين ، وسير الكتب الى الأقطار بما تجدد له من النعم ، ودعاهم الى الطاعة . فأذعنوا له ، وانقادوا اليه .

وكان الأمير علم الدين سنجر الحلبى نائب دمشق ، لما قتل قطز ، جمع الناس وحلفهم ، وتلقب بالملك المجاهد . وثار علاء الدين — الملقب بالملك السعيد — ابن صاحب الموصل فى حلب ، وظلم أهلها وأخذ منهم خمسين ألف دينار . فقام عليه جماعة — ومقدمهم الأمير حسام الدين لاجين العزيزى — وقبضوا عليه . فسير الظاهر الى لاجين بنيابة حلب .

فلما دخلت سنة تسع وخمسين قبض الظاهر على جماعة من الأمراء المعزية : منهم الأمير سنجر الغتمى ، والأمير بهادر المعزى ، والشجاع بكتوت .

ووصل الى السلطان الامام أبو العباس أحمد ابن الخليفة الظاهر العباسى من بغداد فى تاسع رجب ، فتلقاه السلطان فى عساكره ، وبالغ فى اكرامه ، وأنزله بالقلعة . وحضر سائر الأمراء والمقدمين ، والقضاة وأهل العلم والمشايخ ، بقاعة الأعمدة من القلعة بين يدى أبى العباس . فتأدب السلطان الظاهر ، ولم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسى .

وحضر العربان الذين قدموا من العراق وخادم من طواشية بغداد ، وشهدوا بأن العباس أحمد ولد الخليفة الظاهر ابن الخليفة الناصر . وشهد معهم بالاستفاضة الأمير جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر ، وعلم الدين ابن رشيق ، وصدر الدين موهوب الجزرى ، ونجيب الدين الحرانى ، وسديد الدين الزمنتى نائب الحكم بالقاهرة ... عند قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعى ، وأسجل على نفسه بثبوت نسب أبى العباس أحمد وهو قائم على قدميه ، ولقب بالامام المستنصر بالله .

وبايعه الظاهر على كتاب الله وسنة نبيه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها . فلما تمت البيعة ، قلد المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر أمر البلاد الاسلامية وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . وبايع الناس المستنصر على طبقاتهم ، وكتب الى الأطراف * بأخذ البيعة له واقامة الخطبة باسمه على المنابر ، ونقشت السكة فى ديار مصر باسمه واسم الملك الظاهر معا .

فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ، خطب الخليفة بالناس فى جامع القلعة .

(*) ص٢٠١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وركب السلطان فى يوم الاثنين رابع شعبان الى خيمة ضربت له بالبستان الكبير ظاهر القاهرة ، وأفيضت عليه الخلع الخليفية — وهى جبة سوداء ، وعمامة بنفسجية ، وطوق من ذهب — وقلد سيف عربى . وجلس مجلسا عاما حضره الخليفة والوزير وسائر القضاة والأمراء والشهود ، وصعد القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب السر منبرا نصب له ، وقرأ تقليد السلطان الملكة وهو بخطه من انشائه . ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق ، ودخل من باب النصر ، وشق القاهرة وقد زينت له ، وحمل الصاحب بهاء الدين بن حنا التقليد على رأسه قدام السلطان والأمراء مشاة بين يديه . وكان يوما مشهودا .

وأخذ السلطان فى تجهيز الخليفة ليسير الى بغداد . فرتب له الطواشى بهاء الدين صندلا الصالحى شرابيا ، والأمير سابق الدين بوزبا الصيرفى أتابكا ، والأمير جعفرا أستادارا ، والأمير فتح الدين بن الشهاب أحمد أمير جاندار ، والأمير ناصر الدين ابن صيرم خازندار ، والأمير سيف الدين بلبان الشمسى وفارس الدين أحمد بن أزدمر اليغمورى دوادارية ، والقاضى كمال الدين محمد السنجارى وزيرا ، وشرف الدين أبا حامد كاتبا .

وعين له خزانة وسلاحخاناه ، ومماليك عدتهم نحو الأربعين منهم سلاحدارية وجمدارية وزردكاشية ورمحدارية ، وجعل له طشتخاناه وفراشخاناه وشرابخاناه واماما ومؤذنا وسائر أرباب الوظائف ، واستخدم له خمسمائة فارس ، وكتب لمن قدم معه من العراق باقطاعات ، وأذن له فى الركوب والحركة حيث اختار .

وحضر الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأخوه الملك المجاهد سيف الدين اسحاق صاحب الجزيرة ، وأخوهما المظفر . فأكرمهم السلطان ، وأقرهم على ما بأيديهم ، وكتب لهم تقاليد ، وجهزهم فى خدمة الخليفة .

وسار الخليفة فى سادس شوال ، والسلطان فى خدمته ، الى دمشق . فنزل السلطان فى القلعة ، ونزل الخليفة فى التربة الناصرية بجبل الصالحية . وبلغت نفقة السلطان على الخليفة ألف ألف وستين ألف دينار .

وخرج من دمشق فى ثالث عشر ذى القعدة ، ومعه الأمير بلبان الرشيدى والأمير سنقر الرومى وطائفة من العسكر ، وأوصاهما السلطان أن يكونا فى خدمة الخليفة حتى يصل الى الفرات ، فاذا عبر الفرات أقاما بمن معهما من العسكر بالبر الغربى من جهات حلب لانتظار ما يتجدد من أمر الخليفة بحيث ان احتاج اليهم ساروا اليه .

فسار الى الرحبة ، وتركه أولاد صاحب الموصل وانصرفوا الى بلادهم . وسار الى مشهد على ، فوجد الامام الحاكم بأمر الله قد جمع سبعمائة فارس من التركمان وهو على عانة ، ففارقه التركمان ، وصار الحاكم الى المستنصر طائعا له . فأكرمه وأنزله معه ، وسارا الى عانة ، ورحلا الى الحديثة ، وخرجا منها الى هيت .

وكانت له حروب مع التتار فى ثالث محرم سنة ستين وستمائة ، قتل فيها أكثر أصحابه ، وفر الحاكم وجماعة من الأجناد ، وقدم المستنصر فلم يوفق له على خبر . فحضر الحاكم الى قلعة الجبل ، وبايعه السلطان والناس ، واستمر بديار مصر فى مناظر الكبش وهو جد الخلفاء الموجودين اليوم .

وفى سنة ست وستين قرر الظاهر بديار مصر أربعة قضاة ، وهم شافعى ومالكى وحنفى وحنبلى ، فاستمر الأمر على ذلك الى اليوم . وحدث غلاء شديد بمصر ، وعدمت الغلة . فجمع السلطان الفقراء وعدهم ، وأخذ لنفسه خمسمائة فقير يمونهم ، ولابنه السعيد بركة خان خمسمائة فقير ، وللنائب بيلبك الخازندار ثلثمائة فقير ، وفرق الباقى على سائر الأمراء ، ورسم لكل انسان فى اليوم برطلى خبز . فلم ير بعد ذلك فى البلد أحد من الفقراء يسأل .

وفى ثالث شوال سنة اثنتين وستين ، أركب السلطان ابنه السعيد بركة بشعار السلطنة ومشى قدامه ، وشق القاهرة والكل مشاة بين يديه من باب النصر الى قلعة الجبل ، وزينت البلد .

وفيها رتب السلطان لعب القبق بميدان العيد خارج باب النصر ، وختن الملك السعيد ومعه ألف وستمائة وخمسة وأربعون صبيا من أولاد الناس سوى أولاد الأمراء والأجناد ، وأمر لكل صغير منهم بكسوة على قدره ومائة درهم ورأس من الغنم ، فكان مهما عظيما ، وأبطل ضمان المزر وجهاته ، وأمر بحرق النصارى فى سنة ثلاث وستين ، فتشفع فيهم على أن يحملوا خمسين ألف دينار ، فتركوا .

وفى سنة أربع وستين افتتح قلعة صفد ، وجهز العساكر الى سيس ومقدمهم الأمير قلاوون الألفى ، فحصر مدينة أياس وعدة قلاع .

وفى سنة خمس وستين ، أبطل ضمان الحشيش من ديار مصر ، وفتح يافا والشقيف وأنطاكية .

وفى سنة سبع وستين حج ، فسار على غزة الى الكرك ومنها الى المدينة النبوية ، وغسل الكعبة بماء الورد بيده ، ورجع الى دمشق ، فأراق جميع الخمور ، وقدم الى مصر فى سنة ثمان وستين .

وفى * سنة سبعين خرج الى دمشق .

وفى سنة احدى وسبعين خرج من دمشق سائقا الى مصر — ومعه بيسرى ، وأقوش الرومى ، وجرمك الخازندار ، وسنقر الألفى — فوصل الى قلعة الجبل ، وعاد الى دمشق . فكانت مدة غيبته أحد عشر يوما ، ولم يعلم بغيبته من فى دمشق حتى حضر .

ثم خرج سائقا من دمشق يريد كبس التتار ، فخاض الفرات وقدامه قلاوون وبيسرى ، وأوقع بالتتار على حين غفلة ، وقتل منهم شيئا كثيرا ، وساق خلفهم بيسرى الى سروج ، وتسلم السلطان البيرة .

ووقع بمصر فى سنة اثنتين وسبعين وباء هلك به خلق كثير .

(*) ص ٢٠٦ ج٢ ، ط بولاق .

وفى سنة ثلاث وسبعين ، غزا السلطان سيس ، وافتتح قلاعا عديدة .

وفى سنة أربع وسبعين ، تزوج السعيد بن السلطان بابنة الأمير قلاوون ، وخرج العسكر الى بلاد النوبة فواقع ملكهم ، وقتل منهم كثيرا وفر باقيهم .

وفى سنة خمس وسبعين ، سار السلطان لحرب التتار ، فواقعهم على الابلستين وقد انضم اليهم الروم ، فانهزموا وقتل منهم كثير ، وتسلم السلطان قيسارية ونزل فيها بدار السلطان .

ثم خرج الى دمشق ، فوعك بها من اسهال وحمى مات منها يوم الخميس تاسع عشرى محرم سنة ست وسبعين وستمائة ، وعمره نحو من سبع وخمسين سنة ، ومدة ملكه سبع عشرة سنة وشهران .

وكان ملكا جليلا ، عسوفا عجولا ، كثير المصادرات لرعيته ودواوينه ، سريع الحركة ، فارسا مقداما . وترك من الذكور ثلاثة : السعيد محمد بركة خان وملك بعده ، وسلامش وملك أيضا ، والمسعود خضر ، ومن البنات سبع بنات . وكان طويلا مليح الشكل .

وفتح الله على يديه مما كان مع الفرنج : قيسارية وأرسوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وبغراص والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلبا ، وناصف الفرنج على المرقب وبانياس وانطرسوس ، وأخذ من صاحب سيس دربساك ودركوس وتلميش وكفردين ورعبان ومرزبان وكينوك وأذنة والمصيصة

وصار اليه من البلاد التى كانت مع المسلمين دمشق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة وتل باشر وصهيون وبلاطنس وقلعة الكهف والقدموس والعليقة والخوابى والرصافة ومصياف والقليعة والكرك والشوبك ، وفتح بلاد النوبة وبرقة .

وعمر الحرم النبوى وقبة الصخرة ببيت المقدس ، وزاد فى أوقاف الخليل عليه السلام ، وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية ومنار رشيد ، وردم فم بحر دمياط ، ووعر طريقه ، وعمر الشوانى ، وعمر قلعة دمشق وقلعة الصبية وقلعة بعلبك وقلعة الصلت وقلعة صرخد وقلعة عجلون وقلعة بصرى وقلعة شيزر وقلعة حمص .

وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة ، والجامع الكبير بالحسينية خارج القاهرة ، وحفر خليج الاسكندرية القديم وباشره بنفسه ، وعمر هناك قرية سماها الظاهرية ، وحفر بحر أشموم طناح على يد الأمير بلبان الرشيدى ، وجدد الجامع الأزهر بالقاهرة ، وأعاد اليه الخطبة ، وعمر بلد السعيديه من الشرقية بديار مصر ، وعمر القصر الأبلق بدمشق وغير ذلك .

ولما مات كتم موته الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار عن العسكر ، وجعله فى تابوت وعلقه ببيت من قلعة دمشق ، وأظهر أنه مرض ، ورتب الأطباء يحضرون على العادة ، وأخذ العساكر والخزائن ومعه محفة محمولة

في الموكب محترمة ، وأوهم الناس أن السلطان فيها وهو مريض ، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان ، وسار الى أن وصل الى قلعة الجبل بمصر وأشيع موته . رحمه الله تعالى .

جامع ابن اللبان

هذا الجامع بجسر الشعيبية — المعروف بجسر الأفرم — عمره الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، في سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

قال ابن المتوج : وكان سبب عمارته أنه لما كثرت الخلائق في خطة هذا الجامع ، قصد الأفرم أن يجعل خطبة في المسجد ، المعروف بمسجد الجلالة ، الذي ببركة الشقاف ظاهر سور الفسطاط المستجد ، وأن يزيد فيه ويعمره كما يختار . فمنعه الفقيه مؤتمن الدين الحارث ابن مسكين ، ورده عن غرضه .

فحسن له الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا عمارة هذا الجامع في هذه البقعة لقربه منه . فعمره في شعبان سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، لكنه هدم بسببه عدة مساجد .

وعرف هذا الجامع في زمننا هذا بالشيخ محمد بن اللبان الشافعي لاقامته فيه . وأدركناه عامرا ، وقد انقطعت منه في هذه المحن اقامة الجمعة والجماعة ، لخراب ما حوله وبعد البحر عنه .

الجامع الطيبرسي *

هذا الجامع عمره الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار ، نقيب الجيوش ، بشاطىء النيل في أرض بستان الخشاب ، وعمر بجواره خانقاه في جمادى الأولى سنة سبع وسبعمائة . وكان من أحسن متنزهات مصر وأعمرها .

وقد خرب ما حوله من الحوادث والمحن التي بعد سنة ست وثمانمائة ، بعد ما كانت العمارة منه متصلة الى الجامع الجديد بمصر ، ومنه الى الجامع الخطيري ببولاق ، ويركب الناس المراكب للفرجة من هذا الجامع الى الجامعين المذكورين مصعدين ومنحدرين في النيل ، ويجتمع بهذا الجامع الناس للنزهة ، فتمر به أوقات ومسرات لا يمكن وصفها . وقد خرب هذا الجامع وأقفر من المساكن ، وصار مخوفا بعدما كان ملهى وملعبا ... سنة الله في الذين خلوا من قبل .

ولطيبرس هذا المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر من القاهرة .

الجامع الجديد الناصري

هذا الجامع بشاطىء النيل من ساحل مصر الجديد . عمره القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ، ناظر الجيش ، باسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . وكان الشروع فيه يوم التاسع من المحرم سنة احدى عشرة وسبعمائة ، وانتهت عمارته في ثامن صفر سنة اثنتي عشرة وسبعمائة .

(*) ص٣٠٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

وأقيم في خطابته قاضي القضاة بدر الدين محمد بن ابراهيم بن جماعة الشافعي ، ورتب في امامته الفقيه تاج الدين بن مرهف . فأول ما صلى فيه صلاة الظهر من يوم الخميس ثامن صفر المذكور ، وأقيمت فيه الجمعة يوم الجمعة تاسع صفر ، وخطب عن قاضي القضاة بدر الدين ابنه جمال الدين .

ولهذا الجامع أربعة أبواب ، وفيه مائة وسبعة وثلاثون عمودا ، منها عشرة من صوان في غاية السمك والطول ، وجملة ذرعه أحد عشر ألف ذراع وخمسمائة ذراع بذراع العمل : من ذلك طوله من قبليه الى بحريه مائة وعشرون ذراعا ، وعرضه من شرقيه الى غربيه مائة ذراع ، وفيه ستة عشر شباكا من حديد ، وهو يشرف من قبليه على بستان العالمة ، وينظر من بحريه بحر النيل .

وكان موضع هذا الجامع في القديم غامرا بماء النيل ، ثم انحسر عنه النيل وصار رملة ، في زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، يمرغ الناس فيها دوابهم أيام احتراق النيل . فلما عمر الملك الصالح قلعة الروضة وحفر البحر ، طرح الرمل في هذا الموضع ، فشرع الناس في العمارة على الساحل .

وكان موضع هذا الجامع شونة . وقد ذكر خبر ذلك عند ذكر الساحل الجديد بمصر ، فانظره . وما برح هذا الجامع من أحسن متنزهات مصر الى أن خرب ما حوله . وفيه الى الآن بقية ، وهو عامر .

«محمد بن قلاوون» السلطان الملك الناصر أبو الفتح ناصر الدين ابن الملك المنصور — كان يلقب بحرفوش ، وأمه أشلون ابنة شنكاي — ولد يوم السبت النصف من المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة ، بقلعة الجبل من ديار مصر ، وولى الملك ثلاث مرات :

الأولى بعد مقتل أخيه الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، في رابع عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وعمره تسع سنين تنقص يوما واحدا . فأقام في الملك سنة الا ثلاثة أيام ، وخلع بمملوك أبيه كتبغا المنصوري يوم الأربعاء حادي عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة .

وأعيد الى المملكة ثانيا بعد قتل الملك المنصور لاجين يوم الاثنين سادس جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة . فأقام عشر سنين وخمسة أشهر وستة عشر يوما ، وعزل نفسه وسار الى الكرك . فولى الملك من بعده الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وتلقب بالملك المظفر ، في يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وسبعمائة .

ثم حضر من الكرك الى الشام وجمع العساكر . فخامر على بيبرس معظم جيش مصر وانحل أمره ، فترك الملك في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة . وطلع الملك الناصر الى قلعة الجبل يوم عيد الفطر من السنة المذكورة ، واستولى على ممالك مصر والشام والحجاز .

فأقام في الملك من غير منازع له فيه الى أن مات بقلعة الجبل في ليلة الخميس الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، وعمره سبع وخمسون سنة وأحد

عشر شهرا وخمسة أيام . وله في ولايته الثالثة مدة اثنين وثلاثين سنة وشهرين وعشرين يوما . وجملة اقامته في الملك عن المدد الثلاث ثلاث وأربعون سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام .

ولما مات ترك ليلته ومن الغد حتى تم الأمر لابنه أبي بكر المنصور في يوم الخميس المذكور . ثم أخذ في جهازه ، فوضع في محفة بعد العشاء الآخرة بساعة ، وحمل على بغلين ، وأنزل من القلعة الى الاصطبل السلطاني .

وسار به الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدي أمير جاندار ، والأمير نجم الدين أيوب والي القاهرة ، والأمير قطلوبغا الذهبي ، وعلم دار خوطا جار الدوادار . وعبروا به الى القاهرة من باب النصر ، وقد غلقت الحوانيت كلها ، ومنع الناس من * الوقوف للنظر اليه ، وقدام المحفة شمعة واحدة في يد علمدار فلما دخلوا به من باب النصر ، كان قدامه مسرجة في يد شاب وشمعة واحدة ، وعبروا به المدرسة المنصورة بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون .

وكان الأمير علم الدين سنجر الجاولي ، ناظر المارستان ، قد جلس ومعه القضاة الأربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سرياقوس ، والشيخ ركن الدين عمر ابن الشيخ ابراهيم الجعبري فحطت المحفة وأخرج منها ، فوضع بجانب الفسقية التي بالقبة ، وأمر ابن أبي الظاهر مغسل الأموات بتغسيله ، فقال : هذا ملك ، ولا أنفرد بتغسيله الا أن يقوم أحد منكم ويجرده على الدكة ، فاني أخشى أن يقال كان معه فص أو خاتم أو في عنقه خرزة

فقام قطلوبغا الذهبي وعلمدار ، وجرداه مع الغاسل من ثيابه . فكان على رأسه قبع أبيض من قطن ثيابه ، وعلى بدنه بغلطاق صدر أبيض وسراويل فنزعا ، وترك القميص عليه وغسل به ، ووجد في رجله الموجوعة بخشان مفتوحان . فغسل من فوق القميص ، وكفن في نصفية ، وعملت له أخرى طراحة ومخدة ، ووضع في تابوت من خشب ، وصلى عليه قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد ابن جماعة الشافعي بمن حضر .

وأنزل الى قبر أبيه في سحلية من خشب قد ربطت بحبل ، ونزل معه الى القبر الغاسل والأمير سنجر الجاولي ، ودفع الى الغاسل ثلثمائة درهم ، فباع ما نابه من الثياب بثلاثة عشر درهما سوى القبع فانه فقده ، وذكر الغاسل أنه كان محنكا بخرقة معقدة بثلاث عقد .

فسبحان من لا يحول ولا يزول ... هذا ملك أعظم المعمور من الأرض مات غريبا ، وغسل طريحا ، ودفن وحيدا . ان في ذلك لعبرة لأولي الألباب .

وفي ليلة السبت قرأ القراء عند القبر بالقبة القرآن ، وحضر بعض الأمراء .

وترك من الأولاد اثنى عشر ولدا ذكرا ، وهم : أحمد وهو أسنهم ، وكان بالكرك ، وأبو بكر وتسلطن من بعده ، وشقيقه رمضان ، ويوسف واسماعيل وتسلطن أيضا ، وشعبان وتسلطن ، وحسين ، وكجك وتسلطن ، وأمير حاج ، وحسن — ويدعى قماري — وتسلطن ، وصالح وتسلطن ، ومحمد . وترك من البنات ثمانيا متزوجات ، سوى من خلف من الصغار . وخلف من الزوجات جاريته طغاي ، وابنة الأمير تنكز نائب الشام .

ومات وليس له نائب بديار مصر ، ولا وزير ، ولا حاجب متصرف سوى أن برسبغا الحاجب تحكم في متعلقات أمور الاقطاعات وليس معه عصا الحجوبية ، وبدر الدين بكتاش نقيب الجيوش ، وأقبغا عبد الواحد أستادار السلطان مقدم المماليك ، وبيبرس الأحمدي أمير جاندار ، ونجم الدين أيوب والي القاهرة ، وجمال الدين جمال الكفاه ناظر الجيوش ، والموفق ناظر الدولة ، وصارم الدين أزبك شاد الدواوير ، وعز الدين عبد العزيز بن جماعة قاضي القضاة بديار مصر .

ونائب دمشق الأمير ألطنبغا ، نائب •••• الأمير طشتمر حمص أخضر ونائب طرابلس الحاج أرقطاي ، ونائب صفد الأمير أصلم ، ونائب غزة الأمير آق سنقر السلاري ، وصاحب حماه الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن المؤيد اسماعيل .

والأمراء مقدمو الألوف بديار مصر يوم وفاته خمسة وعشرون أميرا وهم . بدر الدين جنكلي ابن البابا ، والحاج آل ملك ، وبيبرس الأحمدي ، وعلم الدين سنجر الجاولي ، وسيف الدين كوكاي ، ونجم الدين محمود وزير بغداد .. هؤلاء برانية كبار .

والباقي مماليكه وخواصه ، وهم : ولده الأمير أبو بكر ، والأمير قوصون ، والأمير بشتاك ، وطقزدمر ، وأقبغا عبد الواحد الأستادار ، وأيدغمش أميراخور ، وقطلوبغا الفخري ، ويلبغا اليحياوي ، وملكتمر الحجازي ، وألطنبغا المارداني ، وبهادر الناصري ، وآق سنقر الناصري ، وقماري الكبير ، وقماري أمير شكار ، وطرغاي ، وأرتبغا أمير جاندار ، وبرسبغا الحاجب ، وبلدغي ابن العجوز أمير سلاح ، وبيغرا .

وكان السلطان أبيض اللون ، قد وخطه الشيب ، وفي عينيه حول ، برجله اليمنى ريح شوكة تنغص عليه أحيانا وتؤلمه ، وكان لا يكاد يمس بها الأرض ، ولا يمشي الا متكئا على أحد أو متوكئا على شيء ، ولا يصل الى الأرض الا أطراف أصابعه . وكان شديد البأس ، جيد الرأي ، يتولى الأمور بنفسه ، ويجود لخواصه .

وكان مهابا عند أهل مملكته ، بحيث أن الأمراء اذا كانوا عنده بالخدمه لا يجسر أحد أن يكلم آخر كلمة واحدة ، ولا يلتفت بعضهم الى بعض خوفا منه . ولا يمكن واحدا منهم أن يذهب الى بيت أحد ألبتة ، لا في وليمة ولا غيرها ، فان فعل أحد منهم شيئا من ذلك قبض عليه ، وأخرجه من يومه منفيا .

وكان مسددا عارفا بأمور رعيته وأحوال مملكته ، وأبطل نيابة السلطنة من ديار مصر من سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، وأبطل الوزارة ، وصار يتحدث بنفسه في الجليل من الأمور والحقير ، ويستجلب خاطر كل

(*) ص٢٠٤ ج٢ ، ط.بولاق .

أحد من صغير وكبير ... لا سيما حواشيه . فلذلك عظمت حاشية المملكة وأتباع السلطنة ، وتخولوا فى النعم الجزيلة ، حتى الخولة والكلابزية والأسرى من الأرمن والفرنج ، وأعطى البازدارية الأخباز فى الحلقة : فمنهم من كان اقطاعه الألف دينار فى السنة ، وزوج عدة منهم بجواريه ، وأفنى * خلقا كثيرا من الأمراء بلغ عددهم نحو المائتى أمير

وكان اذا كبر أحد من أمرائه ، قبض عليه وسلبه نعمته ، وأقام بدله صغيرا من مماليكه الى أن يكبر ، فيمسكه ويقيم غيره .. ليأمن بذلك شرهم . وكان كثير التخيل حازما ، حتى انه اذا تخيل من ابنه قتله .

وفى آخر أيامه شره فى جمع المال ، فصادر كثيرا من الدواوين والولاة وغيرهم ، ورمى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال . وكان مخادعا كثير الحيل ، لا يقف عند قول ، ولا يوف بعهد ، ولا يبر فى يمين .

وكان محبا للعمارة . عمر عدة أماكن ، منها جامع قلعة الجبل وهدمه مرتين ، وعمر القصر الأبلق بالقلعة ومعظم الأماكن التى بالقلعة ، وعمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من بحر النيل الى القلعة على السور ، وعمر الميدان تحت القلعة ، ومناظر الميدان على النيل .

وعمر قناطر السباع على الخليج ، ومناظر سرياقوس والخانقاه بسرياقوس ، وحفر الخليج الناصرى بظاهر القاهرة ، وعمر الجامع الجديد على شاطىء النيل بظاهر مصر ، وجدد جامع الفيلة الذى بالرصد ، والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة ، وغير ذلك مما يرد فى موضعه من هذا الكتاب .

وما زال يعمر منذ عاد الى ولاية الملك فى المرة الثالثة الى أن مات . وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة : عنها ثلثمائة وخمسون دينارا ... سوى من يسخره من المقيدين وغيرهم فى عمل ما يعمره .

وحفر عدة من الخلجانات والترع ، وأقام الجسور بالبلاد ... حتى انه كان ينصرف من الأخباز على ذلك ربع متحصل الاقطاعات . وحفر خليج الاسكندرية ، وبحر المحلة مرتين ، وبحر اللبينى بالجيزة ، وعمل جسر شيبين ، وعمل جسر أخباس بالشرقية والقليوبية مدة ثلاث سنين متوالية فلم ينجح ، فأنشأه بنيانا بالطوب والجير ، وأنفق فيه أموالا عظيمة .

وراك ديار مصر وبلاد الشام .

وعرض الجيش بعد حضوره فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وقطع ثمانمائة من الجند ، ثم قطع فى مرة أخرى ثلاثة وأربعين جنديا فى سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، ثم قطع خمسة وستين أيضا فى رمضان سنة احدى وأربعين وسبعمائة قبل وفاته بشهرين .

وفتح من البلاد جزيرة أرواد فى سنة اثنتين وسبعمائة ، وفتح ملطية فى سنة خمس عشرة وسبعمائة ، وفتح أناس فى ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وخربها ، ثم عمرها الأرمن . فأرسل اليها جيشا فأخذها ، ومعها عدة بلاد من بلاد الأرمن ، فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وأقام بها نائبا من أمراء حلب .

(*) ص٢٠٥ ج٢ ، ط.بولاق .

وعمر قلعة جعبر بعد أن دثرت ، وضربت السكة باسمه فى شوال سنة احدى وأربعين وسبعمائة قبل موته ... تولى ذلك الشيخ حسن بن حسين ، بحضور الأمير شهاب الدين أحمد قريب السلطان ، وقد توجه من مصر بهذا السبب . وخطب له أيضا فى أرتنا ببلاد الروم ، وضربت السكة باسمه ، وكذلك بلاد ابن قرمان وجبال الأكراد وكثير من بلاد الشرق .

وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم . يعرف مماليك أبيه ومماليك الأمراء بأسمائهم ووقائعهم ، وله معرفة تامة بالخيل وقيمها ، مع الحشمة والسيادة ... لم يعرف عنه قط أنه شتم أحدا من خلق الله ، ولا سفه عليه ، ولا كلمه بكلمة سيئة ، وكان يدعو الأمراء أرباب الأشغال بألقابهم .

وكانت همته علية ، وسياسته جيدة ، وحرمته عظيمة الى الغاية ، ومعرفته بمهادنة الملوك لا مرمى وراءها ... يبذل فى ذلك من الأموال ما لا يوصف كثرة ، فكان كتابه ينفذ أمره فى سائر أقطار الأرض كلها . وهو مع ما ذكرنا مؤيد فى كل أموره ، مظفر فى جميع أحواله ، مسعود فى سائر حركاته ، ما عانده أحد أو أضمر له سوءا الا وندم على ذلك أو هلك .

واشتهر فى حياته بديار مصر أنه اذا وقعت قطرة من دمه على الأرض لا يطلع نيل مصر مدة سبع سنين . فمتعه الله من الدنيا بالسعادة العظيمة فى المدة الطويلة ، مع كثرة الطمأنينة والأمن ، وسعة الأموال . واقتنى كل حسن ومستحسن من الخيل والغلمان والجوارى ، وساعده الوقت فى كل ما يحب ويختار الى أن أتاه الموت .

الجامع بالمشهد النفيسى

قال ابن المتوج : هذا الجامع أمر بانشائه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فعمر فى شهور سنة أربع عشرة وسبعمائة ، وولى خطابته علاء الدين محمد بن نصر الله بن الجوهرى شاهد الخزانة السلطانية ، وأول خطبته فيه يوم الجمعة ثامن صفر من السنة المذكورة ، وحضر أمير المؤمنين المستكفى بالله أبو الربيع سليمان وولده وابن عمه ، والأمير كهرداش متولى شد العمائر السلطانية وعمارة هذا الجامع ورواقاته والفسقية المستجدة .

وقيل ان جميع المصروف على هذا الجامع من حاصل المشهد النفيسى ، وما يدخل اليه من النذور ومن الفتوح .

جامع الأمير حسين *

هذا الجامع كان موضعه بستانا بجوار غيط العدة . أنشأه الأمير حسين بن أبى بكر بن اسماعيل بن حيدر بك مشرف الرومى . قدم مع أبيه من بلاد الروم الى ديار مصر فى سنة خمس وسبعين وستمائة ، وتخصص بالأمير حسام الدين لاجين المنصورى قبل سلطنته ،

(*) ص٢٠٦ ج٢ ، ط.بولاق .

فكانت له منه مكانة مكينة ، وصار أمير شكار ، وكان فيه بر ، وله صدقة ، وعنده تفقد لأصحابه .

وأنشأ أيضا القنطرة المعروفة بقنطرة الأمير حسين على خليج القاهرة ، وفتح الخوخة في سور القاهرة بجوار الوزيرية ، وجرى عليه من أجل فتحها ما قد ذكر عند ذكرها في الخوخ من هذا الكتاب ، وتوفي في سابع المحرم سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، ودفن بهذا الجامع

جامع الماس

هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة بناه الأمير سيف الدين الماس الحاجب ، وكمل في سنة ثلاثين وسبعمائة .

وكان الماس هذا أحد مماليك الناصر محمد ابن قلاوون ، فرقاه الى أن صار من أكبر الأمراء ولما أخرج الأمير أرغون الى نيابة حلب ، وبقي منصب النيابة شاغرا ، عظمت منزلة الماس ، وصار في منزلة النيابة الا انه لم يسم بالنائب ، ويركب الأمراء الأكابر والأصاغر في خدمته ، ويجلس في باب القلة من قلعة الجبل في منزلة النائب ، والحجاب وقوف بين يديه .

وما برح على ذلك حتى توجه السلطان الى الحجاز في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة . فتركه في القلعة هو والأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك ، والأمير أقبغا عبد الواحد ، والأمير طشتمر حمص أخضر ... هؤلاء الأربعة لا غير ، وبقية الأمراء اما معه في الحجاز واما في اقطاعاتهم ، وأمرهم ألا يدخلوا القاهرة حتى يحضر من الحجاز

فلما قدم من الحجاز نقم عليه ، وأمسكه في صفر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وكان لغضب السلطان عليه أسباب : منها أنه لما أقام في غيبة السلطان بالقلعة كان يراسل الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك ويوادده ، وبدت منه في مدة الغيبة أمور فاحشة من معاشرة الشباب ومن كلام في حق السلطان ، فوشى به أقبغا

وكان مع ذلك قد كثر ماله وزادت سعادته ، فهوى شابا من أبناء الحسينية يعرف بعمير ، وكان ينزل اليه ويجمع الأوباش ، ويحضر الشباب ويشرب ... فحرك ذلك عليه ما كان ساكنا ويقال ان السلطان لما مات الأمير بكتمر الساقي ، وجد في تركه جزدان فيه جواب الماس الى بكتمر الساقي « انني حافظ القلعة الى أن يرد على منك ما أعتمده » .

فلما وقف السلطان على ذلك أمر النشو بن هلال الدولة ، وشاهد الخزانة ، بايقاع الحوطة على موجوده فوجدا له ستمائة ألف درهم فضة ، ومائة ألف درهم فلوسا ، وأربعة آلاف دينار ذهبا ، وثلاثين حياصة ذهبا كاملة بكفتياتها وخلعها وجواهر وتحفا .

وأقام الماس عند أقبغا عبد الواحد ثلاثة أيام ، وقتل خنقا بمحبسه في الثاني عشر من صفر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، وحمل من القلعة الى جامعه فدفن به ، وأخذ جميع ما كان في داره من الرخام فقلع منها ، وكان رخاما فاخرا الى الغاية وكان أسمر طوالا ،

غتميا لا يفهم شيئا بالعربي ، ساذجا يجلس في بيته فوق لباد على ما اعتاده

وبهذا الجامع رخام كثير نقله من جزائر البحر وبلاد الشام والروم .

جامع قوصون

هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة . ابتدأ عمارته الأمير قوصون في سنة ثلاثين وسبعمائة . وكان موضعه دارا بجوار حارة المصامدة من جانبها الغربي تعرف بدار أقوش نميلة ، ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتال السبع الموصلي ، فأخذها من ولده وهدمها

وتولى بناءه شاد العمائر ، واستعمل فيه الأسرى . وكان قد حضر من بلاد توريز بناء ، فبنى مئذنتي هذا الجامع على مثال المئذنة التي عملها خواجا على شاه وزير السلطان أبي سعيد ، في جامعه بمدينة توريز

وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثلاثين وسبعمائة ، وخطب يومئذ قاضي القضاة جلال الدين القزويني بحضور السلطان ولما انقضت صلاة الجمعة أركبه الملك الناصر بغلة بخلعة سنية ، ثم سمعه السلطان الملك الناصر أن يستقر في خطابته ، فولى فخر الدين شكر

« قوصون » الأمير الكبير سيف الدين حضر من بلاد بركة الى مصر صحبة خوند ابنة أزبك ، امرأة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، في ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمائة ، ومعه قليل عصي وطسما ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم ، ليتجر فيه . فطاف بذلك في أسواق القاهرة وتحت القلعة ، وفي داخل قلعة الجبل

فاتفق في بعض الأيام أنه دخل الى الاصطبل السلطاني ليبيع ما معه فأعجبه بعض الأوشاقية — وكان صبيا جميلا طويلا ، له من العمر ما يقارب * الثماني عشرة سنة — فصار يتردد الى الأوشاقي الى أن رآه السلطان فوقع منه بموقع ، فسأل عنه ، فعرف بأنه يحضر ليبيع ما معه ، وأن بعض الأوشاقية تولع به فأمر باحضاره اليه ، وابتاع منه نفسه ليصير من جملة المماليك السلطانية ، فنزله من جملة السقاة ، وشغف به وأحبه حبا كثيرا

فأسلمه للأمير بكتمر الساقي ، وجعله أمير عشرة ، ثم أعطاه امرة طبلخاناه ، ثم جعله أمير مائة مقدم ألف ، ورقاه حتى بلغه أعلى المراتب . فأرسل الى البلاد ، وأحضر اخوته سوسون وغيره من أقاربه ، وأمّر الجميع واختص به السلطان بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله ، وزوجه بابنته وتزوج السلطان أخته فلما احتضر السلطان جعله وصيا على أولاده ، وعهد لابنه أبي بكر ، فأقيم في الملك من بعده

وأخذ قوصون في أسباب السلطنة ، وخلع أبا بكر المنصور بعد شهرين ، وأخرجه الى مدينة قوص ببلاد الصعيد ثم قتله ، وأقام كجك ابن السلطان وله من العمر خمس سنين ، ولقبه بالملك الأشرف ، وتقلد نيابة السلطنة بديار مصر ، فأمر من حاشيته وأقاربه ستين أميرا ، وأكثر من العطاء وبذل الأموال والانعام ، فصار أمر الدولة كله بيده .

(*) ص٢٠٧ ج٢ ، ط. بولاق .

هذا وأحمد ابن السلطان الملك الناصر مقيم بمدينة الكرك . فخافه قوصون ، وأخذ في التدبير عليه ، فلم يتم له ما أراد من ذلك ، وحرك على نفسه ما كان ساكنا . فطلب أحمد الملك لنفسه ، وكاتب الأمراء النواب بالمملكة الشامية والمصرية ، فأدعوا له .

وكان بمصر من الأمراء الأمير أيدغمش ، والأمير آل ملك ، وقمارى ، والماردانى وغيرهم . فتخيل قوصون منهم ، وأخذ في أسباب القبض عليهم . فعلموا بذلك وخافوا الفوت ، فركبوا للحرب وحصروه بقلعة الجبل حتى قبضوا عليه في ليلة الأربعاء آخر شهر رجب سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، ونهب داره وسائر دور حواشيه وأسبابه ، وحمل الى الاسكندرية صحبة الأمير قبلاى فقتل بها .

وكان كريما : يفرق في كل سنة للأضحية ألف رأس غنم وثلثمائة بقرة ، ويفرق ثلاثين حياصة ذهبا ، ويفرق كل سنة عدة أملاك فيها ما يبلغ ثمنه ثلاثين ألف درهم . وله من الآثار بظاهر مصر — سوى هذا الجامع — الخانقاه بباب القرافة ، والجامع تجاهها ، وداره التي بالرميلة تحت القلعة تجاه باب السلسلة ، وحكر قوصون

جامع الماردانى

هذا الجامع بجوار خط التبانة خارج باب زويلة ، كان مكانه أولا مقابر أهل القاهرة ، ثم عمر أماكن . فلما كان في سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، أخذت الأماكن من أربابها ، وتولى شراءها النشو فلم ينصف في أثمانها وهدمت ، وبنى مكانها هذا الجامع .

فبلغ مصروفه زيادة على ثلثمائة ألف درهم عنها نحو خمسة عشر ألف دينار ، سوى ما حمل اليه من الأخشاب والرخام وغيره من جهة السلطنة ، وأخذ ما كان في جامع راشدة من العمد فعملت فيه ، وجاء من أحسن الجوامع .

وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة رابع عشرى رمضان سنة أربعين وسبعمائة ، وخطب فيه الشيخ ركن الدين عمر بن ابراهيم الجعبرى ولم يتناول معلوما .

« ألطنبغا الماردانى الساقى » : أمير الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقدمه وزوجه ابنته . فلما مات السلطان ، تولى بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، ذكر أنه وشى بأمره الى الأمير قوصون وقال : قد عزم على امساكك . فتحيل قوصون وخلع أبا بكر وقتله بقوص ... هذا مع أن ألطنبغا كان قد عظم عند المنصور أكثر مما كان عند أبيه .

فلما أقيم الأشرف كجك ، وماج الناس ، وحضر الأمير قطلوبغا من الشام ، وشغب الأمراء على قوصون ، كان ألطنبغا أصل ذلك كله . ثم نزل الى الأمير أيدغمش أمير اخور ، واتفق معه على أن يقبض على قوصون ، وطلع الى قوصون وشاغله ، وخذله عن الحركة طول الليل والأمراء الكبار المشايخ عنده ، وما زال يسامره حتى نام . وكان من قيام الأمراء وركوبهم عليه ما كان الى أن أمسك ، وأخرج الى الاسكندرية .

ولما قدم ألطنبغا نائب الشام وأقام ، تقدم الماردانى وقبض على سيفه ، ولم يجسر غيره على ذلك ، فقويت بهذه الحركات نفسه ،

وصار يقف فوق ألتمر ثانى وهو أغاته . فشق ذلك عليه ، وكتم في نفسه الى أن ملك الصالح اسماعيل ، فتمكن حينئذ ألتمر ثانى ، وصار الأمر له ، وعمل على الماردانى ، فلم يشعر بنفسه الا وقد أخرج على خمس أرؤس من خيل البريد الى نيابة حماة في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين .

فسار اليها وبقي فيها نحو شهرين الى أن مات أيدغمش نائب الشام ، ونقل مقدم من نيابة حلب الى نيابة دمشق . فنقل الماردانى من نيابة حماه الى نيابة حلب ، وسار اليها في أول رجب من السنة المذكورة ، وجاء الأمير يلبغا اليحياوى الى نيابة حماه . فأقام الماردانى يسيرا في حلب ومرض ، ومات مستهل صفر سنة أربع وأربعين وسبعمائة .

وكان شابا طويلا رقيقا ، حلو الصورة لطيفا ، معشق الخطرة كريما ، صائب الحدس عاقلا *.

جامع اصلم

هذا الجامع داخل الباب المحروق . أنشأه الأمير بهاء الدين أصلم السلاحدار في سنة ست وأربعين وسبعمائة .

« أصلم » : أحد مماليك الملك المنصور قلاوون الألفي . فلما فرقت المماليك السلطانية في نيابة كتبغا ، بعد قتل الملك الأشرف خليل ابن قلاوون وسلطنة الناصر محمد بن قلاوون ، كان أصلم من نصيب الأمير سيف الدين أقوش المنصورى ، ثم انتقل الى الأمير سلار .

(*) ص٢٠٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

فلما حضر الملك الناصر محمد من الكرك ، بعد سلطنة بيبرس الجاشنكير ، خرج اليه أصلم بسنجا الملك ، وبشره بهروب بيبرس . فأنعم عليه بامرة عشرة ، ثم تنقل الى أن صار أمير مائة مقدم ألف ، وخرج في التجريدة الى اليمن ، فلما عاد اعتقله السلطان خمس سنين لكلام نقل عنه ، ثم أخرجه وأعاده الى منزلته ، ثم جهزه لنيابة صفد .

ومات الناصر وأصلم بصفد . فخرج الأمير قوصون مع الطنبغا نائب الشام الى حلب لامساك طشتمر ، فسار الى قارى ، ثم رجع وانضم الى الفخرى ، وأقام عنده على خان لاجين ، وتوجه معه صحبة عساكر الشام الى مصر ، فرسم له الملك الناصر أحمد بن محمد ابن قلاوون بامرة مائة في مصر على عادته .

وكان أحد المشايخ ، ويجلس رأس الحلقة ، ويجيد رمي النشاب ، مع سلامة صدر وخير ، الى أن مات في يوم السبت عاشر شعبان سنة سبع وأربعين وسبعمائة .

وأنشأ بجوار هذا الجامع دارا سنية وحوض ماء للسبيل . وبهذا الجامع درس ، وله أوقاف ، وهو من أحسن الجوامع .

جامع بشتاك

هذا الجامع خارج القاهرة بخط قبو الكرماني على بركة الفيل . عمره الأمير بشتاك فكمل في شعبان سنة ست وثلاثين وسبعمائة ، وخطب فيه تاج الدين عبد الرحيم ابن قاضي القضاة جلال الدين القزويني في يوم الجمعة سابع عشره . وعمر تجاهه خانقاه على الخليج

الكبير ، ونصب بينهما ساباطا يتوصل به من أحدهما الى الآخر .

وكان هذا الخط يسكنه بجماعة من الفرنج والأقباط ، ويرتكبون من القبائح ما يليق بهم . فلما عمر هذا الجامع ، وأعلن فيه بالأذان واقامة الصلوات ، تحسنت قلوبهم لذلك ، وتحولوا من هذا الخط وهو من أبهج الجوامع ، أحسنها رخاما وأنزهها ، وأدركناه اذا قويت زيادة ماء النيل فاضت بركة الفيل وغرقته ، فيصير لجة ما ، لكن منذ انحسر ماء النيل عن البلد الى جهة الغرب بطل ذلك .

وله من الآثار سوى ذلك قصر بشتاك بين القصرين . وقد تقدم ذكره .

جامع آق سنقر

هذا الجامع بسويقة السباعين على البركة الناصرية . عمره الأمير آق سنقر شاد العمائر السلطانية ، واليه تنسب قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير بخط قبو الكرمانى قبالة الحبانية ، وأنشأ أيضا دارا جليلة وحمامين بخط البركة الناصرية

وكان من جملة الأوشاقية فى أول أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم عمله أميراخور ، ونقله منها فجعله شاد العمائر السلطانية . وأقام فيها مدة فأثرى ثراء كبيرا ، وعمر ما ذكر ، وجعل على الجامع عدة أوقاف . فعزل وصودر وأخرج من مصر الى حلب ، ثم نقل منها الى دمشق ، فمات بها فى سنة أربعين وسبعمائة .

جامع آق سنقر

هذا الجامع قريب من قلعة الجبل ، فيما بين باب الوزير والتبانة ، كان موضعه فى القديم مقابر أهل القاهرة . وأنشأه الأمير آق سنقر الناصرى ، وبناه بالحجر ، وجعل صفوفه عقودا من حجارة ورخمه ، واهتم فى بنائه اهتماما زائدا حتى كان يقعد على عمارته بنفسه ، ويشيل التراب مع الفعلة بيده ، ويتأخر عن غدائه اشتغالا بذلك وأنشأ بجانبه مكتبا لاقراء أيتام المسلمين القرآن ، حانوتا لسقى الناس الماء العذب

ووجد عند حفر أساس هذا الجامع كثيرا من الأموات ، وجعل عليه ضيعة من قرى حلب تغل فى السنة مائة وخمسين ألف درهم فضة : عنها نحو سبعة آلاف دينار ، ورتب فيه درسا فيه عدة من الفقهاء ، وولى الشيخ شمس الدين محمد ابن اللبان الشافعى خطابته ، وأقام له سائر ما يحتاج اليه من أرباب الوظائف ، وبنى بجواره مكانا ليدفن فيه ، ونقل اليه ابنه فدفنه هناك .

وهذا الجامع من أجل جوامع مصر . الا أنه لما حدثت الفتن ببلاد الشام ، وخرجت النواب عن طاعة سلطان مصر منذ مات الملك الظاهر برقوق ، امتنع حضور معل وقف هذا الجامع لكونه فى بلاد حلب ، فتعطل الجامع من أرباب وظائفه الا الأذان والصلاة واقامة الخطبة فى الجمع والأعياد .

ولما كانت سنة خمس عشرة وثمانمائة ، أنشأ * فى وسطه الأمير طوغان الدوادار بركة ماء وسقفها ، ونصب عليها عمدا من رخام لحمل السقف أخذها من جامع الخندق ، فهدم الجامع بالخندق من أجل ذلك ، وصار الماء ينقل الى هذه البركة من ساقية الجامع التى كانت للميضأة

فلما قبض الملك المؤيد شيخ الظاهرى على طوغان ، فى يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأولى سنة ست عشرة وثمانمائة ، وأخرجه الى الاسكندرية واعتقله بها ، أخذ شخص الثور الذى كان يدير الساقية — فان طوغان كان أخذه منه بغير ثمن ، كما هى عادة أمرائنا — فبطل الماء من البركة .

« آق سنقر » السلارى الأمير شمس الدين : أحد مماليك السلطان الملك المنصور قلاوون . ولما فرقت المماليك فى نيابة كتبغا على الأمراء ، صار الأمير آق سنقر الى الأمير سلار ، فقيل له السلارى لذلك ولما عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ، اختص به ، ورقاه فى الخدم حتى صار أحد الأمراء المقدمين ، وزوجه بابنته ، وأخرجه لنيابة صفد ، فباشرها بعفة الى الغاية ، ثم نقله من نيابة صفد الى نيابة غزة :

فلما مات الناصر ، وأقيم من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، وخلع بالأشرف كجك ، وجاء الفخرى لحصار الكرك . قام آق سنقر بنصرة أحمد ابن السلطان فى الباطن . وتوجه الفخرى الى دمشق لما توجه الطنبغا الى حلب ليطرد طشتمر نائب حلب ، فاجتمع به وقوى عزمه ، وقال له : توجه أنت الى دمشق واملكها ، وأنا أحفظ لك غزة .

(*) ص٢٠٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقام فى هذه الواقعة قياما عظيما ، وأمسك الدروب . فلم يحضر أحد من الشام أو مصر ، من البريد وغيره ، الا وقبض عليه وحمل الى الكرك ، وحلف الناس للناصر أحمد ، وقام بأمره ظاهرا وباطنا ثم جاء الى الفخرى وهو على خان لاجين ، وقوى عزمه وعضده ، وما زال عنده بدمشق الى أن جاء ألطنبغا من حلب والتقوا ، وهرب ألطنبغا ، فاتبعه آق سنقر الى غزة وأقام بها ، ووصلت العساكر الشامية الى مصر .

فلما أمسك الناصر أحمد طشتمر النائب ، وتوجه به الى الكرك ، أعطى نيابة ديار مصر لآق سنقر ، فباشر النيابة وأحمد فى الكرك . الى أن ملك الملك الصالح اسماعيل بن محمد ، فأقره على النيابة ، وسار فيها سيرة مشكورة . فكان لا يمنع أحدا شيئا طلبه كائنا من كان ، ولا يرد سائلا يسأل ولو كان ذلك غير ممكن . فارتزق الناس فى أيامه ، واتسعت أحوالهم ، وتقدم من كان متأخرا حتى كان الناس يطلبون ما لا حاجة لهم به .

ثم ان الصالح أمسكه هو وبيغرا أميرجاندار وأولاجا الحاجب وقراجا الحاجب ، من أجل أنهم نسبوا الى المالأة والمداجاة مع الناصر أحمد ، وذلك يوم الخميس رابع المحرم سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، وكان ذلك آخر العهد به ، واستقر بعده فى النيابة الحاج آل ملك . ثم أفرج عن بيغرا وأولاجا وقراجا فى شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة .

جامع آل ملك

هذا الجامع فى الحسينية خارج باب النصر ، أنشأه الأمير سيف الدين الحاج آل ملك ، وكمل ، وأقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وهو من الجوامع المليحة ، وكانت خطته عامرة بالمساكن وقد خربت .

« آل ملك » الأمير سيف الدين : أصله مما أخذ فى أيام الملك الظاهر من كسب الابلستين ، لما دخل الى بلاد الروم فى سنة ست وسبعين وستمائة ، وصار الى الأمير سيف الدين قلاوون وهو أمير قبل سلطنته ، فأعطاه لابنه الأمير على . وما زال يترقى فى الخدم الى أن صار من كبار الأمراء المشايخ رؤوس المشورة فى أيام الملك الناصر محمد ابن قلاوون .

وكان لما خلع الناصر وتسلطن بيبرس يتردد بينهما من مصر الى الكرك ، فأعجب الناصر عقله وتأنيه ، وسير من الكرك يقول للمظفر : لا يعود يجيء الى رسولا غير هذا . فلما قدم الناصر الى مصر عظمه ، ولم يزل كبيرا موقرا مبجلا .

فلما ولى الناصر أحمد السلطنة أخرجه الى نيابة حماة ، فأقام بها الى أن تولى الصالح اسماعيل فأقدمه الى مصر ، وأقام بها على حاله الى أن أمسك الأمير آق سنقر السلارى نائب السلطنة بديار مصر ، فولاه النيابة مكانه فشدد فى الخمر الى الغاية وحد شاربها ، وهدم خزانة البنود وأراق خمورها ، وبنى بها مسجدا وحكرها للناس ، فسكنت الى اليوم كما تقدم ذكره ، وأمسك الزمام زمانا .

وكان يجلس للحكم فى الشباك بدار النيابة من قلعة الجبل طول نهاره ، لا يمل ذلك ولا يسأم ، وتروح أرباب الوظائف ولا يبقى عنده الا النقباء البطالة ، وكان له فى قلوب الناس مهابة وحرمة . الى أن تولى الكامل شعبان ، فأخرجه أول سلطنته الى دمشق نائبا بها عوضا عن الأمير طقزدمر .

فلما كان فى أول الطريق حضر اليه من أخذه ، وتوجه به الى صفد نائبا بها ، فدخلها آخر ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وسبعمائة . ثم سأل الحضور الى مصر ، فرسم له بذلك ، فلما توجه ووصل الى غزة أمسكه نائبها ، ووجهه الى الاسكندرية فى سنة سبع وأربعين فخنق بها .

وكان * خيرا فيه دين وعبادة ، يميل الى أهل الخير والصلاح وتعتقد بركته ، وخرج له أحمد بن أيبك الدمياطى مشيخة ، وحدث بها ، وقرئت عليه مرات وهو جالس فى شباك النيابة بقلعة الجبل . وعمر هذا الجامع ودارا مليحة عند المشهد الحسينى من القاهرة ، ومدرسته بالقرب منها .

وكان بركه من أحسن ما يكون ، وخيله مشهورة موصوفة ، وكان يقول : كل أمير لا يقوم رمحه ، ويسكب الذهب الى أن يساوى السنان ، ما هو أمير ... رحمة الله عليه .

(*) ص٣١٠ جـ٢ ، ط. بولاق »

جامع الفخر

فى ثلاثة مواضع : فى بولاق خارج القاهرة وفى الروضة تجاه مدينة مصر ، فى جزيرة الفيل على النيل ما بين بولاق ومنية السيرج .

أما جامع الفخر بناحية بولاق فانه موجود تقام فيه الجمعة الى اليوم ، كان أولا عند ابتداء بنائه تعرف موضعه بخط خص الكيالة ، وهو مكان كان يؤخذ فيه مكس الغلال المتاعة وقد ذكر ذلك عند ذكر أقسام مال مصر من هذا الكتاب .

وجامع الروضة باق تقام فيه الجمعة

أما الجامع بجزيرة الفيل فانه كان باقيا الى نحو سنة تسعين وسبعمائة ، وصليت فيه الجمعة غير مرة ثم خرب ، وموضعه باق بجوار دار تشرف على النيل ، تعرف دار الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن قطينة قريبا من الدار الحجازية .

و « الفخر » هذا هو محمد بن فضل الله القاضى فخر الدين ، ناظر الجيش المعروف بالفخر ، كان فى نصرانيته متألها ثم أكره على الاسلام ، فامتنع وهم بقتل نفسه وتغيب أياما ثم أسلم وحسن اسلامه ، وأبعد النصارى ولم يقرب أحدا منهم ، وحج غير مرة ، وتصدق فى آخر عمره مدة فى كل شهر ثلاثة آلاف درهم نقرة .

وبنى عدة مساجد بديار مصر ، وأنشأ عدة أحواض ماء للسبيل فى الطرقات وبنى مارستانا بمدينة الرملة ، ومارستانا بمدينة بلبيس ، وفعل أنواعا من الخير ، وكان حنفى المذهب ، وزار القدس عدة مرار ، وأحرم مرة من القدس بالحج ، وسار الى مكة محرما ، وكان اذا خدمه أحد مرة واحدة صار صاحبه طول عمره .

وكان كثير الاحسان ، لا يزال فى قضاء حوائج الناس ، مع عصبية شديدة لأصحابه وانتفع به خلق كثير لوجاهته عند السلطان واقدامه عليه ، بحيث لم يكن لأحد من أمراء الدولة عند الملك الناصر محمد بن قلاوون ما له من الاقدام ولقد قال السلطان مرة لجندى طلب منه اقطاعا : لا تطول ، والله لو أنك ابن قلاوون ما أعطاك القاضى فخر الدين خبزا يعمل أكثر من ثلاثة آلاف درهم .

وقال له السلطان فى يوم من الأيام وهو بدار العدل : يا فخر الدين تلك القضية طلعت فاشوش ، فقال له : ما قلت لك انها عجوز نحس . يريد بذلك بنت كوكاى امرأة السلطان عندما ادعت أنها حبلى

وله من الأخبار كثير ، وكان أولا كاتب المماليك السلطانية ، ثم صار من كتابة المماليك الى وظيفة نظر الجيش ، ونال من الوجاهة ما لم ينله غيره فى زمانه

وكان الأمير أرغون ، نائب السلطنة بديار مصر ، يكرهه ، واذا جلس للحكم يعرض عنه ويدير كتفه الى وجه الفخر . فعمل عليه الفخر حتى سار للحج ، فقال للسلطان : يا خوند ، ما يقتل الملوك الا النواب ، بيدرا قتل أخاك الملك الأشرف ، ولاجين قتل بسبب نائبه منكوتمر ، وخيل للسلطان الى أن أمر بسير الأمير أرغون من طريق الحجاز الى نيابة حلب .

وحسن للسلطان ألا يستوزر أحدا بعد الأمير بدر الجمالى فلم يول أحدا بعده الوزارة ، وصارت المملكة كلها — من أحوال الجيوش ، وأمور الأموال وغيرها — متعلقة بالفخر الى أن غضب عليه السلطان ونكبه ، وصادره على أربعمائة ألف درهم نقرة ، وولى وظيفة نظر الجيش الشيخ قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية

ثم رضى عن الفخر ، وأمر باعادة ما أخذ منه من المال اليه — وهو أربعمائة ألف درهم نقرة — فامتنع وقال أنا خرجت عنها للسلطان فليبن بها جامعا وبنى بها الجامع الناصرى — المعروف الآن بالجامع الجديد — خارج مدينة مصر بموردة الحلفاء

وزار مرة القدس وعبر كنيسة قمامة ، فسمع وهو يقول عندما رأى الضوء بها : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وباشر آخر عمره بغير معلوم ، وكان لا يأخذ من ديوان السلطان معلوما سوى كماجة ويقول أتبرك بها .

ولما مات فى رابع عشر رجب سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وله من العمر ما ينيف على سبعين سنة ، ترك موجودا عظيما الى الغاية .. قال السلطان لعنه الله ، خمس عشرة سنة ما يدعنى أعمل ما أريد . وأوصى للسلطان بمبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة ، فأخذ من تركته أكثر من ألف ألف درهم نقرة

ومن حين مات الفخر كثر تسلط السلطان الملك الناصر وأخذه أموال الناس . والى الفخر تنسب قنطرة الفخر التى على فم الخليج الناصرى المجاور لميدان السلطان بموردة الجبس ، وقنطرة الفخر التى على الخليج المجاور للخليج الناصرى . وأدركت ولده فقيرا يتكفف الناس بعد مال لا يحد كثرة *

جامع نائب الكرك

هذا الجامع بظاهر الحسينية ، مما يلى الخليج ، كان عامرا ، وعمر ما حوله عمارة كبيرة ، ثم خرب بخراب ما حوله من عهد الحوادث فى سنة ست وثمانمائة عمره الأمير جمال الدين أقوش ، المعروف بنائب الكرك ، وقد تقدم ذكره عند ذكر الدور من هذا الكتاب .

جامع الخطيرى ببولاق

هذا الجامع موضعه الآن بناحية بولاق خارج القاهرة كان موضعه قديما مغمورا بماء النيل الى نحو سنة سبعمائة فلما انحسر ماء النيل عن ساحل المقس ، صار ما قدام المقس رمالا لا يعلوها ماء النيل الا أيام الزيادة ثم صارت بحيث لا يعلوها الماء ألبتة . فزرع موضع هذا الجامع بعد سنة سبعمائة ، وصار متنزها يجتمع عنده الناس .

ثم بنى هناك شرف الدين بن زنبور ساقية ، وعمر بجوارها رجل يعرف بالحاج محمد ابن عز الفراش دارا تشرف على النيل ، وتردد

(*) ص٢١١ جـ٢ ، ط. بولاق *

اليها ، فلما مات أخذها شخص يقال له تاج الدين بن الأزرق ناظر الجهات ، وسكنها ، فعرفت بدار الفاسقين لكثرة ما يجرى بها من أنواع المحرمات

فاتفق أن النشو ناظر الخاص قبض على ابن الأزرق وصادره ، فباع هذه الدار فى جملة ما باعه من موجوده فاشتراها منه الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى وهدمها ، وبنى مكانها هذا الجامع ، وسماه جامع التوبة ، وبالغ فى عمارته ، وتأنق فى رخامه ، فجاء من أجل جوامع مصر وأحسنها

وعمل له منبرا من رخام فى غاية الحسن ، وركب فيه عدة شبابيك من حديد تشرف على النيل الأعظم ، وجعل فيه خزانه كتب جليلة نفيسة ، ورتب فيه درسا للفقهاء الشافعية ، ووقف عليه عدة أوقاف منها داره العظيمة التى هى فى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس

وكان جملة ما أنفق فى هذا الجامع أربعمائة ألف درهم نقرة ، وكمل عمارته فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وأقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة عشرى جمادى الآخرة فلما خلص ابن الأزرق من المصادرة حضر الى الأمير الخطيرى وادعى أنه باع داره وهو مكره ، فدفع اليه ثمنها مرة ثانية .

ثم ان البحر قوى على هذا الجامع وهدمه ، فأعاد بناءه بجملة كثيرة من المال ، ورمى قدام زريبته ألف مركب مملوءة بالحجارة . ثم انهدم بعد موته ، وأعيدت زريبته .

« أيدمر الخطيرى » الأمير عز الدين مملوك شرف الدين أوحد بن الخطيرى الأمير مسعود ابن خطير انتقل الى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فرقاه حتى صار أحد أمراء الألوف ، بعدما حبسه بعد مجيئه من الكرك الى مصر مدة ثم أطلقه ، وعظم مقداره الى أن بقى يجلس رأس الميسرة ومعه امرة مائة وعشرين فارسا .

وكان لا يمكنه السلطان من المبيت فى داره بالقاهرة ، فينزل اليها بكرة ويطلع الى القلعة بعد العصر . كذا أبدا ، فكانوا يرون ذلك تعظيما له وكان منور الشيبة كريما ، يحب التزوج الكثير والفخر ، بحيث أنه لما زوج السلطان ابنته بالأمير قوصون ، ضرب دينارين وزنهما أربعمائة مثقال ذهبا ، وعشرة آلاف درهم فضة ، برسم نقوط امرأته فى العرس اذا طلعت الى زفاف ابنة السلطان على قوصون .

وقيل له مرة : هذا السكر الذى يعمل فى الطعام ما يضر أن يعمل غير مكرر ، فقال : لا يعمل الا مكررا ، فانه يبقى فى نفسى أنه غير مكرر .

وكان لا يلبس قباء مطرزا ولا مصقولا ، ولا يدع أحدا عنده يلبس ذلك ، وكان يخرج الزكاة ، وأنشأ بجانب هذا الجامع ربعا كبيرا تنافس الناس فى سكناه . ولم يزل على حاله حتى مات يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، ودفن بتربته خارج باب النصر .

ولم يزل هذا الجامع مجمعا يقصده سائر الناس للتنزه فيه على النيل ، ويرغب كل أحد فى السكنى بجواره ، وبلغت الأماكن التى

بجواره من الأسواق والدور الغاية فى العمارة حتى صار ذلك الخط أعمر أخطاط مصر وأحسنها .

فلما كانت سنة ست وثمانمائة ، انحسر ماء النيل عما تجاه جامع الخطيرى ، وصار رملة لا يعلوها الماء الا فى أيام الزيادة ، وتكاثر الرمل تحت شبابيك الجامع ، وقربت من الأرض بعدما كان الماء تحته لا يكاد يدرك قراره . وهو الآن عامر ، الا أن الاجتماعات التى كانت فيه قبل انحسار النيل عما قبالته قلت ، واتضع حال ما يجاوره من السوق والدور . ولله عاقبة الأمور .

جامع قيدان

هذا الجامع خارج القاهرة ، على جانب الخليج الشرقى ، ظاهر باب الفتوح مما يلى قناطر الاوز تجاه أرض البعل . كان مسجدا قديم البناء ، فجدده الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى محرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وجدد حوض السبيل الذى فيه ، ثم ان الأمير مظفر الدين قيدان الرومى عمل به منبرا لاقامة الخطبة يوم الجمعة ، وكان * عامرا بعمارة ما حوله .

فلما حدث الغلاء فى سنة ست وسبعين وسبعمائة ، أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين ، خرب كثير من تلك النواحى وبيعت أنقاضها ، وكانت الغرقة أيضا ، فصار ما بين القنطرة الجديدة المجاورة لسوق جامع الظاهر ، وبين قناطر الاوز المقابلة لأرض البعل ، يبابا لا عامر له ولا ساكن فيه .

وخرب أيضا ما وراء ذلك من شرقيه الى جامع نائب الكرك ، وتعطل هذا الجامع ، ولم يبق منه غير جدر آيلة الى العدم ثم جدده مقدم بعض المماليك السلطانية فى حدود الثلاثين والثمانمائة ، ثم وسع فيه الشيخ أحمد ابن محمد الأنصارى العقاد — الشهير بالأزرارى — ومات فى ثانى عشر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة .

جامع الست حدق

هذا الجامع بخط المريس ، فى جانب الخليج الكبير مما يلى الغرب ، بالقرب من قنطرة السد التى خارج مدينة مصر . أنشأته الست حدق ، دادة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة . والى حدق هذه ينسب حكر الست حدق الذى ذكر عند ذكر الأحكار من هذا الكتاب .

جامع ابن غازى

هذا الجامع خارج باب البحر من القاهرة بطريق بولاق . أنشأه نجم الدين بن غازى دلال المماليك ، وأقيمت فيه الخطبة فى يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، والى اليوم تقام فيه الجمعة ، وبقية الأيام لا يزال مغلق الأبواب لقلة السكان حوله .

(*) ص٢١٢ ج٤ ، ط . بولاق .

جامع التركمانى

هذا الجامع فى المقس ، وهو من الجوامع المليحة البناء . أنشأه الأمير بدر الدين محمد التركمانى ، وكان ما حوله عامرا عمارة زائدة ، ثم تلاشى من الوقت الذى كان فيه الغلاء زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وما برح حاله يختل الى أن كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة ، فخرب معظم ما هنالك ، وفيه الى اليوم بقايا عامرة لا سيما بجوار هذا الجامع .

« التركمانى » محمد ، وينعت بالأمير بدر الدين محمد ابن الأمير فخر الدين عيسى التركمانى : كان أولا شادا ، ثم ترقى فى الخدم حتى ولى الجيزة ، وتقدم فى الدولة الناصرية . فولاه السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون شاد الدواوين ، والدولة حينئذ ليس فيها وزير ، فاستقل بتدبير الدولة مدة أعوام . وكان يلى نظر الدولة تلك الأيام كريم الدين الصغير ، فغص به ، وما زال يدبر عليه حتى أخرجه السلطان من ديار مصر ، وعمله شاد الدواوين بطرابلس .

فأقام هناك مدة سنتين ، ثم عاد الى القاهرة بشفاعة الأمير تنكز نائب الشام ، وولى كشف الوجه البحرى مدة ، ثم أعطى امرة طبلخاناه ، وأعطى أخوه على امرة عشرة ، وولده ابراهيم أيضا امرة عشرة .

وكان مهابا صاحب حرمة باسطة وكلمة نافذة . ومات عن سعادة طائلة بالمقس ، فى ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، وهو أمير .

جامع شيخو

هذا الجامع بسويقة منعم ، فيما بين الصليبة والرميلة ، تحت قلعة الجبل . أنشأه الأمير الكبير سيف الدين شيخو الناصرى ، رأس نوبة الأمراء ، فى سنة ست وخمسين وسبعمائة ، ورفق بالناس فى العمل فيه وأعطاهم أجورهم ، وجعل فيه خطبة وعشرين صوفيا ، وأقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومى الحنفى شيخهم . ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع ، نقل حضور الأكمل والصوفية اليها ، وزاد عدتهم . وهذا الجامع من أجل جوامع ديار مصر .

« شيخو » الأمير الكبير سيف الدين : أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون . حظى عند الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون ، وزادت وجاهته حتى شفع فى الأمراء ، وأخرجهم من سجن الاسكندرية . ثم انه استقر فى أول دولة الملك الناصر حسن أحد أمراء المشورة .

وفى آخر الأمر كانت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان فى أيام الخدمة ، وصار زمام الدولة بيده ، فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شر ، وكان يمنع كل حزب من الوثوب على الآخر ، فعظم شأنه الى أن رسم السلطان بامساك الأمير يلبغا روس نائب السلطنة بديار مصر وهو مسافر بالحجاز ، وكان شيخو قد خرج متصيدا الى ناحية طمان بالغربية .

فلما كان يوم السبت رابع عشرى شوال * سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، أمسك السلطان الأمير منجك الوزير ، وحلف الأمراء لنفسه ، وكتب تقليد شيخو بنيابة طرابلس ، وجهزه اليه مع الأمير سيف الدين طيبال الجاشنكير ، فسار اليه ،سفره من ،را فوصل الى دمشق ليلة الثلاثاء ابع ذى القعدة ، فظهر مرسوم السلطان باقامة شيخو فى دمشق على اقطاع الأمير يبلك السالمى ، وبتجهيز يبلك الى القاهرة فخرج يبلك من دمشق ، وأقام شيخو على اقطاعه بها

فما وصل يبلك الى القاهرة الا وقد وصل الى دمشق مرسوم بامساك شيخو ، تجهيزه الى السلطان ، وتقييد مماليكه . اعتقالهم بقلعة دمشق ، فأمسك وجهز مقيدا ، فلما صل الى قطيا توجهوا به الى الاسكندرية . فلم يزل معتقلا بها الى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن ، ،تولى أخوه الملك الصالح صالح ، فأفرج عن شيخو ،منجك الوزير عده من الأمراء ، فوصلوا الى القاهرة فى رابع شهر رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ، وأنزل فى الأشرفية بقلعة الجبل واستمر على عادته .

وخرج مع الملك الصالح الى الشام فى واقعة يلبغا روس ، وتوجه الى حلب هو والأمير طاز وأرغون الكاملى خلف يلبغا روس ، وعاد مع السلطان الى القاهرة ، وصمم حتى أمسك يلبغا روس ومن معه من الأمراء بعدما وصلوا الى بلاد الروم ، وحزت رؤوسهم . وأمسك أيضا ابن دلغار ، وأحضر الى القاهرة ، ووسط وعلق على باب زويلة .

ثم خرج بنفسه فى طلب الأحدب الذى خرج بالصعيد ، وتجاوز فى سفره قوص ، وأمسك عدة كثيرة ،وسطهم حتى سكنت الفتن بأرض مصر ، وذلك فى آخر سنة أربع وخمسين وأول سنة خمس وخمسين ثم خلع الملك الصالح ، وأقام بدله الملك الناصر حسنا فى ثانى شوال ، وأخرج الأمير طاز من مصر الى حلب نائبا بها ،معه اخوته وصارت الأمور كلها راجعة اليه ، وزادت عظمته ، وكثرت أمواله وأملاكه ومستأجراته حتى كاد يكاثر أمواج البحر بما ملك ، وقيل له قارون عصره وعزيز مصره .

وأنشأ خلقا كثيرا ، فقوى بذلك حزبه ، وجعل فى كل مملكة من جهته عدة أمراء ، وصارت نوابه بالشام وفى كل مدينة أمراء كبار ، وخدموه حتى قيل كان يدخل كل يوم ديوانه — من اقطاعه أملاكه ،مستأجراته بالشام وديار مصر — مبلغ مائتى ألف درهم نقرة وأكثر ، وهذا شىء لم يسمع مثله فى الدولة التركية ،ذلك سوى الانعامات السلطانية ، ،التقادم التى ترد اليه من الشام ومصر ، وما كان يأخذ من ابراطيل على ولاية الأعمال .

وجامعه هذا وخانقاهه التى بخط الصليبة لم يعمر مثلهما قبلهما ، ولا عمل فى الدولة التركية مثل أوقافهما ، وحسن ترتيب المعاليم بهما .

ولم يزل على حاله الى أن كان يوم الخميس ثامن شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ؛ فخرج عليه شخص من المماليك السلطانية

(*) ص٢١٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

المرتجعة عن الأمير منجك الوزير يقال له باى ، فجاء وهو جالس بدار العدل ، وضربه بالسيف فى وجهه وفى يده . فارتجت القلعة كلها ، وكثر هرج الناس حتى مات من الناس جماعة من الزحمة ، وركب من الأمراء الكبار عشرة وهم بالسلاح عليهم الى قبة النصر خارج القاهرة .

ثم أمسك باى ، فجاء وقرر ، فلم يعترف بشىء على أحد ، وقال : أنا قدمت اليه قصة لينقلنى من الجامكية الى الاقطاع ، فما قضى شغلى ، فأخذت فى نفسى من ذلك فسجن مدة ، ثم سمر وطيف به الشوارع وبقى شيخو عليلا من تلك الجراحة لم يركب ، الى أن مات ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ، ودفن بالخانقاه الشيخونية ، وقبره بها يقرأ عنده القرآن دائما .

جامع الجاكى

هذا الجامع كان بدرب الجاكى ، عند سويقة الريش من الحكر ، فى بر الخليج الغربى . أصله مسجد من مساجد الحكر ، ثم زاد فيه الأمير بدر الدين محمد بن ابراهيم المهمندار ، وجعله جامعه ، وأقام فيه منبرا فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة . فصار أهل الحكر يصلون فيه الجمعة الى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فخرب الحكر ، وبيعت أنقاض معظم الدور التى هناك .

وتعطل هذا الجامع من ذكر الله واقامة الصلاة لخراب ما حوله ، فحكم بعض قضاة الحنفية ببيع هذا الجامع . فاشتراه شخص من الوعاظ يعرف بالشيخ أحمد الواعظ الزاهد — صاحب جامع الزاهد بخط المقس — وهدمه ، وأخذ أنقاضه فعملها فى جامعه الذى بالمقس فى أول سنة سبع عشرة وثمانمائة .

جامع التوبة

هذا الجامع بجوار باب البرقية فى خط بين السورين . كان موضعه مساكن أهل الفساد وأصحاب الرأى . فلما أنشأ الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالى خانقاهه ، المعروفة بالجمالية ، قريبا من خزانة البنود بالقاهرة * ، كره مجاورة هذه الأماكن لداره وخانقاهه ، فأخذها وهدمها ، وبنى هذا الجامع فى مكانها ، وسماه جامع التوبة ، فعرف بذلك الى اليوم . وهو الآن تقام فيه الجمعة ، غير أنه لا يزال طول الأيام مغلق الأبواب لخلوه من ساكن ، وقد خرب كثير مما يجاوره ، وهناك بقايا من أماكن .

جامع صاروجا

هذا الجامع مطل على الخليج الناصرى بالقرب من بركة الحاجب ، التى تعرف ببركة الرطلى ، كان خطة تعرف بجامع العرب . فأنشأ بها هذا الجامع ناصر الدين محمد ، أخو الأمير صاروجا نقيب الجيش ، بعد سنة ثلاثين وسبعمائة . وكانت تلك الخطة قد عمرت عمارة زائدة ، وأدركت منها بقية جيدة

(*) ص٢١٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

الى أن دثرت فصارت كيمانا . وتقام الجمعة الى اليوم فى هذا الجامع أيام النيل .

جامع الطباخ

هذا الجامع خارج القاهرة ، بخط باب اللوق بجوار بركة الشقاف ، كان موضعه وموضع بركة الشقاف من جملة الزهرى . أنشأه الأمير جمال الدين آقوش ، وجدده الحاج على الطباخ فى المطبخ السلطانى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولم يكن له وقف ، فقام بمصالحه من ماله مدة . ثم انه صودر فى سنة ست وأربعين وسبعمائة ، فتعطل مدة نزول الشدة بالطباخ ، ولم تقم فيه تلك المدة الصلاة .

« على بن الطباخ » : نشأ بمصر ، وخدم الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو بمدينة الكرك . فلما قدم الى مصر جعله خوان سلار ، وسلمه المطبخ السلطانى ، فكثر ماله لطول مدته وكثرة تمكنه ، ولم يتفق لأحد من نظرائه ما اتفق له من السعادة الطائلة . وذلك أن الأفراح وما كان يصنع من المهمات والأعراس ونحوها ، مما كان يعمل فى الدور السلطانية وعند الأمراء والمماليك والحواشى ، مع كثرة ذلك فى طول تلك الأعوام ... كانت كلها انما يتولى أمرها هو بمفرده .

فمما اتفق له فى عمل مهم ابن بكتمر الساقى ، على ابنة الأمير تنكز نائب الشام ، أن السلطان الملك الناصر استدعاه آخر النهار الذى عمل فيه المهم المذكور ، وقال له : ياحاج على اعمل لى الساعة لونا من طعام الفلاحين ، وهو خروف رميس يكون ملهوج .

فولى ووجهه معبس ، فصاح به السلطان : ويلك مالك معبس الوجه ؟!

فقال : كيف ما أعبس وقد حرمتنى الساعة عشرين ألف درهم نقرة !

فقال : كيف حرمتك ؟

قال : قد تجمع عندى رؤوس غنم وبقر وأكارع وكروش وأعضاد وسقط دجاج واوز وغير ذلك مما سرقته من المهم ، وأريد أقعد وأبيعه ، وقد قلت لى اطبخ ، وبينا أفرغ من الطبيخ تلف الجميع .

فتبسم السلطان وقال له : رح اطبخ وضمان الذى ذكرت على .

وأمر باحضار والى القاهرة ومصر ، فلما حضرا ألزمهما بطلب أرباب الزفر الى القلعة ، وتفرقة ما ناب الطباخ من المهم عليهم واستخراج ثمنه . فللحال حضر المذكورون ، وبيع عليهم ذلك ، فبلغ ثمنه ثلاثة وعشرين ألف درهم نقرة . وهذا مهم واحد من ألوف ، مع الذى كان له من المعاليم والجرايات ومنافع المطبخ .

ويقال انه كان يتحصل له من المطبخ السلطانى فى كل يوم — على الدوام والاستمرار — مبلغ خمسمائة درهم نقرة ، ولولده أحمد مبلغ ثلثمائة درهم نقرة . فلما تحدث النشو فى الدولة خرج عليه تخاريج ، وأغرى به السلطان ، فلم يسمع فيه كلاما .

وما زال على حاله الى أن مات الملك الناصر وقام من بعده أولاده الملك المنصور أبو بكر ، والملك الأشرف كجك ، والملك الناصر أحمد ، والملك الصالح اسماعيل ، والملك الكامل شعبان ... فصادره فى سنة ست وأربعين وسبعمائة ، وأخذ منه مالا كثيرا .

ومما وجد له خمس وعشرون دارا مشرفة على النيل وغيره . فتفرقت حواشى الملك الكامل أملاكه ، فأخذت أم السلطان ملكه الذى كان على البحر — وكانت دارا عظيمة جدا — وأخذت أنقاض داره التى بالمحمودية من القاهرة ، وأقيم عوضه بالمطبخ السلطانى ، وضرب ابنه أحمد .

جامع الأسيوطى

هذا الجامع بطرف جزيرة الفيل ، مما يلى ناحية بولاق ، كان موضعه فى القديم غامرا بماء النيل . فلما انحسر عن جزيرة الفيل ، وعمرت ناحية بولاق ، أنشأ هذا الجامع القاضى شمس الدين محمد بن ابراهيم بن عمر السيوطى ناظر بيت المال ، ومات فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

ثم جدد عمارته بعدما تهدم وزاد فيه ناصر الدين محمد بن محمد بن عثمان بن محمد — المعروف بابن البارزى — الحموى كاتب السر ، وأجرى فيه الماء ، وأقام فيه الخطبة يوم الجمعة سادس عشرى * جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة . فجاء فى أحسن هندام وأبدع زى ، وصلى فيه السلطان الملك المؤيد شيخ الجمعة فى أول جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة .

(*) ص٢١٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

جامع الملك الناصر حسن

هذا الجامع يعرف بمدرسة السلطان حسن ، وهو تجاه قلعة الجبل فيما بين القلعة وبركة الفيل ، وكان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى الذى تقدم ذكره عند ذكر الدور .

وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة ، وأوسع دوره ، وعمله فى أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل . فلا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع ... أقامت العمارة فيه مدة ثلاث سنين لا تبطل يوما واحدا ، وأرصد لمصروفها فى كل يوم عشرون ألف درهم : عنها نحو ألف مثقال ذهبا .

ولقد أخبرنى الطواشى مقبل الشامى أنه سمع السلطان حسنا يقول : انصرف على القالب الذى بنى عليه عقد الايوان الكبير مائة ألف درهم نقرة . وهذا القالب مما رمى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور .

قال : وسمعت السلطان يقول : لولا أن يقال ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه .

وفى هذا الجامع عجائب من البنيان : منها أن ذرع ايوانه الكبير خمسة وستون ذراعا فى مثلها — ويقال انه أكبر من ايوان كسرى الذى بالمدائن من العراق بخمسة أذرع — ومنها القبة العظيمة التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ، ومنها المنبر الرخام الذى لا نظير له ، ومنها البوابة

العظيمة ، ومنها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع ... الى غير ذلك .

وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منابر يؤذن عليها ، فتمت ثلاث منابر . الى أن كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنين وستين وسبعمائة ، فسقطت المنارة التى على الباب ، فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك ومن غير الأيتام ، وسلم من الأيتام ستة أطفال فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها ، وتأخر هناك منارتان هما قائمتان الى اليوم .

ولما سقطت المنارة المذكورة ، لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة ، فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها :

أبشر فسعدك ياسلطان مصر أتى
بشيره بمقال سار كالمثل

ان المنارة لم تسقط لمنقصة
لكن لسر خفى قد تبين لى

من تحتها قرىء القرآن فاستمعت
فالوجد فى الحال أداها الى الميل

لو أنزل الله قرآنا على جبل
تصدعت رأسه من شدة الوجل

تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت
من خشية الله لا للضعف والخلل

وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت
بنفسها لجوى فى القلب مشتعل

فالحمد لله حظ العين زال بما
قد كان قدره الرحمن فى الأزل

لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة
شيدت بنيانها بالعلم والعمل

ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت
علما فليس بمصر غير مشتغل

فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما . ومات السلطان قبل أن يتم رخام هذا الجامع ، فأتمه من بعده الطواشى بشير الجمدار . وكان قد جعل السلطان على هذا الجامع أوقافا عظيمة جدا ، فلم يترك منها الا شىء يسير ، وأقطع أكثر البلاد التى وقفت عليه بديار مصر والشام لجماعة من الأمراء وغيرهم .

وصار هذا الجامع ضدا لقلعة الجبل ... قلما تكون فتنة بين أهل الدولة الا ويصعد عدة من الأمراء وغيرهم الى أعلاه ، ويصير الرمى منه على القلعة . فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق ، وأمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها الى المنارتين والبيوت التى كان يسكنها الفقهاء ، ويتوصل من هذه الدرج الى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة ، وهدمت البسطة العظيمة والدرج التى كانت بجانبى هذه البسطة التى كانت قدام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود الى الجامع .

وسد من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله ، وفتح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع ، ليتوصل منه الى داخل الجامع عوضا عن الباب المسدود . فصار هذا الجامع تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة ، وامتنع صعود المؤذنين الى المنارتين ، وبقى الأذان على درج هذا الباب . وكان ابتداء هدم ما ذكر فى يوم الأحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

ثم لما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار * باب زويلة ، اشترى هذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقا هناك بخمسمائة دينار ، ونقلا فى يوم الخميس سابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة ، فركب الباب على البوابة ، وعلق التنور تجاه المحراب . فلما كان فى يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، أعيد الأذان فى المئذنتين كما كان ، وأعيد بناء الدرج والبسطة ، وركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد ، واستمر الأمر على ذلك .

« الملك الناصر أبو المعالى الحسن بن محمد ابن قلاوون » : جلس على تخت الملك وعمره ثلاث عشرة سنة ، فى يوم الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، بعد أخيه الملك المظفر حاجى وأركب من باب الستارة بقلعة الجبل ، وعليه شعار السلطنة ، وفى ركابه الأمراء ، الى أن نزل بالايوان السلطانى . ومدبرو الدولة يومئذ : الأمير يلبغا روس ، والأمير ألجيبغا المظفرى ، والأمير شيخو ، والأمير طاز ، وأحمد شاد الشرابخاناه ، وأرغون الاسماعيلى .

فخلع على يلبغا روس ، واستقر فى نيابة السلطنة بديار مصر عوضا عن الحاج أرقطاى ، وقرر أرقطاى فى نيابة السلطنة بحلب ، وخلع على الأمير سيف الدين منجك اليوسفى واستقر فى الوزارة والأستادارية ، وقرر الأمير أرغون شاه فى نيابة السلطنة بدمشق

فلما دخلت سنة تسع وأربعين كثر انكشاف الأراضى من ماء النيل بالبر الشرقى ، فيما يلى بولاق الى مصر ، فاهتم الأمراء بسد البحر مما يلى الجيزة ، وفوض ذلك للأمير منجك ، فجمع مالا كثيرا وأنفقه على ذلك فلم يفد ، فقبض على منجك فى ربيع الأول .

وحدث الوباء العظيم فى هذه السنة ، وأخرج أحمد شاد الشرابخاناه لنيابة صفد ، وألجيبغا لنيابة طرابلس . فاستمر ألجيبغا بها الى شهر ربيع الأول سنة خمسين ، فركب الى دمشق ، وقتل أرغون شاه بغير مرسوم . فأنكر عليه وأمسك ، وقتل بدمشق .

وفى سنة احدى وخمسين سار من دمشق عسكر عدته أربعة آلاف فارس ، ومن حلب ألفا فارس الى مدينة سنجار ، ومعهم عدة كثيرة من التركمان ، فحصروها مدة حتى طلب أهلها الأمان ثم عادوا . وترشد السلطان ، واستبد بأمره ، وقبض على منجك ويلبغا روس ، وقبض بمكة على الملك المجاهد صاحب اليمن وقيد ، وحمل الى القاهرة فأطلق ، ثم سجن بقلعة الكرك .

فلما كان يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة ، ركب الأمراء على السلطان — وهم لاز واخوته ، ويلبغا الشمسى ، ويبغرا —

(*) ص٣١٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ووقفوا تحت القلعة ، وصعد الأمير طاز وهو لابس الى القلعة فى عدة وافرة ، وقبض على السلطان وسجنه بالدور ، فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر . وأقيم بدله أخوه الملك الصالح صالح .

فأقام السلطان حسن محتجبا على الاشتغال بالعلم : وكتب بخطه نسخة من كتاب « دلائل النبوة » للبيهقى ، الى يوم الاثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، فأقامه الأمير شيخو العمرى فى السلطنة وقبض على الصالح — وكانت مدة سجنه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما — فرسم بامساك الأمير طاز واخراجه لنيابة حلب .

وفى ربيع الأول سنة سبع وخمسين ، هبت ريح عاصفة من ناحية الغرب — من أول النهار الى آخر الليل — اصفر منها الجو ثم احمر ثم اسود ، فتلف منها شىء كثير

وفى شعبان سنة تسع وخمسين ضرب الأمير شيخو بعض المماليك بسيف ، فلم يزل عليلا حتى مات .

وفى سنة تسع وخمسين ، كان ضرب الفلوس الجدد ، فعمل كل فلس زنة مثقال . وقبض على الأمير طاز نائب حلب ، وسجن بالاسكندرية ، وقرر مكانه فى نيابة حلب الأمير منجك اليوسفى ، وأمسك الأمير صرغتمش فى شهر رمضان منها . وكانت حرب بين مماليكه ومماليك السلطان انتصر فيها المماليك السلطانية ، وقبض على عدة أمراء ، فأنعم السلطان على مملوكه يلبغا العمرى الخاصكى بتقدمة ألف ، عوضا عن تنكز بغا الماردانى أمير مجلس بحكم وفاته .

وفى سنة ستين فر منجك من حلب فلم يوقف به على خبر . فأقر على نيابة حلب الأمير بيدمر الخوارزمى ، وسار لغزو سيس ، فأخذ أدنة بأمان ، وأخذ طرسوس والمصيصة وعدة بلاد ، وأقام بها نوابا وعاد . فلما كانت سنة اثنتين وستين عدى السلطان الى بر الجيزة ، وأقام بناحية كوم برا مدة طويلة لوباء كان بالقاهرة . فتنكر الحال بينه وبين الأمير يلبغا الى ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى ، فركب السلطان فى جماعة ليكبس على الأمير يلبغا — وكان قد أحس بذلك وخرج عن الخيام ، وكمن بمكان وهو لابس فى جماعته — فلم يظفر السلطان به ورجع .

فثار به يلبغا فانكسر بمن معه ، وفر يريد قلعة الجبل ، فتبعه يلبغا ، وقد انضم اليه جمع كثير ، ودخل السلطان الى القلعة فلم يثبت ، وركب معه أيدمر الدوادار ليتوجه الى بلاد الشام ، ونزل الى بيت الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشى أمير حاجب ، فبعث فى الحال الى الأمير يلبغا يعلمه بمجىء السلطان اليه ، فبعث من قبضه هو والأمير أيدمر . ومن حينئذ لم يوقف له على خبر البتة ، مع كثرة فحص أتباعه * وحواشيه عن قبره وما آل اليه أمره . فكانت مدة ولايته هذه الثانية ست سنين وسبعة أشهر وأياما .

وكان ملكا حازما مهابا شجاعا ، صاحب حرمة وافرة وكلمة نافذة ودين متين ، حلف غير مرة أنه ما لاط ولا شرب خمرا ولا زنى . الا أنه كان يبخل ، ويعجب بالنساء ولا يكاد يصبر عنهن ، ويبالغ فى اعطائهن المال .

(*) ص٢١٧ ج٢ ، ط. بولاق .

وعادى فى دولته أقباط مصر ، وقصد اجتثاث أصلهم ، وكره المماليك ، وشرع فى اقامة أولاد الناس أمراء ، وترك عشرة بنين وست بنات . وكان أشقر أنمش ، وقتل وله من العمر بضع وعشرون سنة ، ولم يكن قبله ولا بعده فى الدولة التركية مثله .

جامع القرافة

هذا الجامع يعرف الآن بجامع الأولياء ، وهو بالقرافة الكبرى ، وكان موضعه يعرف فى القديم عند فتح مصر بخطة المغافر ، وهو مسجد بنى عبد الله بن مانع بن مورع ، يعرف بمسجد القبة .

قال القضاعى : كان القراء يحضرون فيه ثم بنى عليه المسجد الجامع الجديد ... بنته السيدة المعزية فى سنة ست وستين وثلثمائة — وهى أم العزيز بالله نزار ولد المعز لدين الله : أم ولد من العرب يقال لها تغريد ، وتدعى درزان — وبنته على يد الحسن بن عبد العزيز الفارسى المحتسب فى شهر رمضان من السنة المذكورة . وهو على نحو بناء الجامع الأزهر بالقاهرة .

وكان بهذا الجامع بستان لطيف فى غربيه وصهريج . وبابه الذى يدخل منه ذو المصاطب الكبير الأوسط ، تحت المنار العالى الذى عليه ، مصفح بالحديد الى حضرة المحراب . والمقصورة من عدة أبواب ، وعدتها أربعة عشر بابا مربعة مطوبة الأبواب ، قدام كل باب قنطرة قوس على عمودى رخام ثلاثة صفوف . وهو مكندج مزوق باللازورد والزنجفر والزنجار وأنواع الأصباغ ، وفيه مواضع مدهونة ، والسقوف مزوقة ملونة كلها ، والحنايا والعقود التى على العمد مزوقة بأنواع الأصباغ ... من صنعة البصريين ، وبنى المعلم المزوقين شيوخ الكتامى والنازوك .

وكان قبالة الباب السابع من هذه الأبواب قنطرة قوس مزوقة ، فى منحنى حافتيها شاذروان مدرج بدرج ، وآلات سود وبيض وحمر وخضر وزرق وصفر . اذا تطلع اليها من وقف فى سهم قوسها ، شائلا رأسه اليها ، ظن أن المدرج المزوق كأنه خشب كالمقرنص . واذا أتى الى أحد قطرى القوس نصف الدائرة ، ووقف عند أول القوس منها ورفع رأسه ، رأى ذلك الذى توهمه مسطحا لا نتو فيه ... وهذه من أفخر الصنائع عند المزوقين . وكانت هذه القنطرة من صنعة بنى المعلم ، وكان الصناع يأتون اليها ليعملوا مثلها فما يقدرون .

وقد جرى مثل ذلك للقصير وابن عزيز فى أيام البازورى ، سيد الوزراء ، الحسن بن على بن عبد الرحمن ، وكان كثيرا ما يحرض بينهما ، ويغرى بعضهما على بعض ، لأنه كان أحب ما اليه كتاب مصور أو النظر الى صورة أو تزويق . ولما استدعى ابن عزيز من العراق فأفسده ، وكان قد أتى به فى محاربة القصير ، لأن القصير كان يشتط فى أجرته ويلحقه عجب فى صنعته ، وهو حقيق بذلك لأنه فى عمل الصورة كابن مقلة فى الخط ، وابن عزيز كابن البواب .

وقد أمعن شرح ذلك فى الكتاب المؤلف فيه ، وهو طبقات المصورين المعنوت بضوء النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المزوقين من الناس » .

وكان اليازورى قد أحضر بمجلسه القصير وابن عزيز ، فقال ابن عزيز : انا أصور صورة اذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط .

فقال القصير : لكن أنا أصورها فاذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة فى الحائط .

فقالوا : هذا أعجب .

فأمرهما أن يصنعا ما وعدا به

فصورا صورة راقصتين فى صورة حنيتين مدهونتين متقابلتين : هذه ترى كأنها داخلة فى الحائط ، وتلك ترى كأنها خارجة من الحائط . فصور القصير راقصة بثياب بيض فى صورة حنية دهنها أسود كأنها داخلة فى صورة الحنية ، وصور ابن عزيز راقصة بثياب حمر فى صورة حنية صفراء كأنها بارزة من الحنية . فاستحسن اليازورى ذلك ، وخلع عليهما ، ووهبهما كثيرا من الذهب .

وكان بدار النعمان بالقرافة ، من عمل الكتامى ، صورة يوسف عليه السلام فى الجب وهو عريان والجب كله أسود ، اذا نظره الانسان ظن أن جسمه باب من دهن لون الجب .

وكان هذا الجامع من محاسن البناء ، وكان بنو الجوهرى يعظون بهذا الجامع على كرسى فى الثلاثة أشهر ، فتمر لهم مجالس مجلة تروق وتشوق ، ويقوم خادمهم زهر البان — وهو شيخ كبير — ومعه زنجلة ، اذا توسط أحدهم فى الوعظ ، ويقول

وتصدقى لا تأمنى أن تسألى
فاذا سألت عرفت ذل السائل

ويدور على الرجال والنساء ، فيلقى له فى الزنجلة ما يسره الله تعالى ، فاذا فرغ من التطواف ، وضع الزنجلة أمام الشيخ ، فاذا فرغ من وعظه فرق على الفقراء ما قسم لهم ، وأخذ الشيخ ما قسم له وهو الباقى ، ونزل عن الكرسى .

وكان (*) جماعة من الرؤساء يلزمون النوم بهذا الجامع ، ويجلسون * فى ليالى الصيف للحديث فى القمر فى صحنه ، وفى الشتاء ينامون عند المنبر ، كان يحصل لقيمه القاضى أبى حفص الأشربة والحلوى وغير ذلك

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة : حدثنى الأمير أبو على تاج الملك جوهر — المعروف بالشمس — الجيوشى ، قال : اجتمعنا ليلة جمعة فى جماعة من الأمراء بنو معز الدولة صالح وحاتم وراجح وأولادهم وغلمانهم ، وجماعة ممن يلوذ بنا كابن الموفق القاضى ابن داود وأبى المجد بن الصيرفى وأبى الفضل رزونة وأبى الحسن الرضيع . فعملنا سماطا وجلسنا ، واستدعينا من فى الجامع وأبى حفص فأكلنا ، ورفعنا الباقى الى بيت الشيخ أبى حفص قيم الجامع ، ثم تحدثنا ونمنا .

وكانت ليلة باردة ، فنمنا عند المنبر . واذا انسان نصف الليل ، ممن نام فى هذا الجامع

(*) ص٢١٨ ج٢ ، ط.بولاق .

من عابرى السبيل ، قد قام قائما وهو يلطم على رأسه ، ويصيح : وامالاه ، واماللاه !

فقلنا له : ويلك ! ما شأنك ، وما الذى دهاك ، ومن سرقك ، وما سرق لك ؟

فقال : ياسيدى أنا رجل من أهل طرا ، يقال لى أبو كريت الحاوى ، أمسى على الليل وبت عندكم ، وأكلت من خيركم — وسع الله عليكم — ولى جمعة أجمع فى سلتى من نواحى طرا ، والحى الكبير والجبل ، كل غريبة من الحيات والأفاعى مما لم يقدر عليه قط حاو غيرى ، وقد افتتحت الساعة السلة ، وخرجت الأفاعى وأنا نائم لم أشعر

فقلت له : ايش تقول ؟

فقال : اى والله ، ياللنجدات !

فقلنا : ياعدو الله أهلكتنا ومعنا صبيان وأطفال .

ثم انا نبهنا الناس ، وهربنا الى المنبر وطلعنا وازدحمنا فيه ، ومنا من طلع على قواعد العمد فتسلق وبقى واقفا

وأخذ ذلك الحاوى بحس ، وفى يده كنف الحيات ، ويقول : قبضت الرقطاء ثم يفتح السلة ويضع فيها ، ثم يقول : قبضت أم قرنين ويفتح ويضع فيها ، ويقول : قبضت الفلانى والفلانية من الثعابين والحيات — وهى معه بأسماء — ويقول : أبو تليس وأبو زعير ، ونحن نقول . اه ... الى أن قال : بس ازلوا ما بقى على هم ، ما بقى يهمكم كبير شىء .

قلنا : كيف ؟

قال : ما بقى الا البتراء وأم رأسين ، انزلوا فما عليكم منهما .

قلنا : كذا ، عليك لعنة الله ياعدو الله ، لا نزلنا للصبح ، فالمغرور من تغر

وصحنا بالقاضى أبى حفص القيم ، فأوقد الشمعة ، ولبس صاغات الخطس خوفا على رجليه وجاء ، فنزلنا فى الضوء ، وطلعنا المئذنة فمنا الى بكرة ، وتفرق شملنا بعد تلك الليلة .

وجمع القاضى القيم عياله ثانى يوم ، وأدخلوا عصيا تحت المنبر وسعفا ، وشالوا الحصر ، فلم يظهر لهم شىء ، وبلغ الحديث والى القرافة ابن شعلة الكتامى ، فأخذ الحاوى ، فلم يزل به حتى جمع ما قدر عليه ، وقال : ما أخليه الا الى السلطان . وكان الوزير اذ ذاك يانس الأرمنى .

وهذه القضية تشبه قضية جرت لجعفر بن الفضل بن الفرات وزير مصر — المعروف بابن حزابة — وذلك أنه كان يهوى النظر الى الحيات والأفاعى والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يجرى هذا المجرى من الحشرات . وكان فى داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيات ، ولها قيم فراش حاو من الحواة ، ومعه مستخدمون برسم الخدمة ونقل السلال وحطها

وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يصيد ما يقدر عليه من الحيات ، ويتباهون فى ذوات العجب من أجناسها وفى الكبار وفى الغريبة المنظر . وكان الوزير يثيبهم على ذلك أوفى

ثواب ، ويبذل لهم الجعل حتى يجتهدوا فى تحصيلها وكان له وقت يجلس فيه على دكة مرتفعة ، ويدخل المستخدمون بالمراة ، فيخرجون ما فى السلل ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام ، وهو يتعجب من ذلك ويستحسنه .

فلما كان ذات يوم أنفذ رقعة الى الشيخ الجليل ابن المدبر الكاتب — وكان من أعيان كتاب أيامه ودواوينه ، وكان عزيزا عنده وكان يسكن الى جوار دار ابن الفرات — يقول له فيها « نشعر الشيخ الجليل — أدام الله سلامته — أنه لما كان البارحة عرض علينا الحواة الحشرات الجارى بها العادات : انساب الى داره منها الحية البتراء وذات القرنين والعقربان الكبير وأبو صوفة ، وما حصلوا لنا الا بعد عناء ومشقة ، وجملة بذلناها للحواة ، ونحن نأمر الشيخ — وفقه الله — بالتقدم الى حاشيته وصبيته بصون ما وجد منها ، الى أن تنفذ الحواة لأخذها وردها الى سللها » .

فلما وقف ابن المدبر على الرقعة قلبها ، وكتب فى ذيلها : « أتانى أمر سيدنا الوزير — خلد الله نعمته وحرس مدته — بما أشار اليه فى أمر الحشرات ، والذى يعتمد عليه فى ذلك ، أن الطلاق يلزمه ثلاثا ان بات هو واحد من أهله فى الدار ، والسلام » .

وفى سنة ست عشرة وخمسمائة أمر الوزير أبو عبد الله محمد بن فاتك — المنعوت بالأجل المأمون البطائحى — وكيله أبا البركات محمد ابن عثمان برم شعث هذا الجامع ، وأن يعمر بجانبه طاحونا للسبيل ، ويبتاع لها الدواب ، ويتخير من الصالحين الساكنين بالقرافة من يجعله أمينا عليها ، ويطلق له ما يكفيه مع علف الدواب وجميع المؤن ، ويشترط عليه أن يواسى بين الضعفاء ، ويحمل عنهم كلفة طحن أقواتهم ، ويؤدى الأمانة فيها .

ولم يزل هذا الجامع على عمارته الى أن احترق فى السنة التى احترق فيها جامع عمرو ابن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة ، عند نزول مرى ملك الفرنج على القاهرة وحصارها ، كما تقدم ذكره عند ذكر خراب الفسطاط من هذا الكتاب . وكان الذى تولى احراق هذا الجامع ابن سماقة باشارة الأستاذ مؤتمن الخلافة جوهر ، وهو الذى أمر المذكور بحريق جامع عمرو بمصر . وسئل عن ذلك فقال : لئلا يخطب فيه لبنى العباس .

ولم يبق من هذا الجامع بعد حريقه سوى المحراب الأخضر . وكان مؤذن هذا الجامع فى أيام المستنصر ابن بقاء المحدث ابن بنت عبد الغنى بن سعيد الحافظ . ثم جددت عمارة هذا الجامع فى أيام المستنصر بعد حريقه . وأدركته لما كانت القرافة الكبرى عامرة سكنى السودان التكاررة ، وهو مقصود للبركة . فلما كانت الحوادث والمحن فى سنة ست وثمانمائة قل الساكن بالقرافة ، وصار هذا الجامع طول الأيام مغلوقا ، وربما أقيمت فيه الجمعة .

جامع الجيزة

بناه محمد بن عبد الله الخازن ، فى المحرم سنة خمسين وثلثمائة ، بأمر الأمير على بن عبد

(*) ص٣١٦ ج٢ ، ط. بولاق

الله بن الاخشيد . فتقدم كافور الى الخازن ببنائه ، فانه كان قد هدمه النيل ، وسقط فى سنة أربعين وثلثمائة ، وعمل له مستغلا . وكان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد جامع همدان ، وهو مسجد مزاحف بن عامر بن بكتل ، وقيل ان عقبة بن عامر فى امرته على مصر أمرهم أن يجمعوا فيه .

قال التميمى : وشارف بناء جامع الجيزة مع أبى بكر الخازن أبو الحسن بن جعفر الطحاوى ، واحتاجوا الى عمد للجامع ، فمضى الخازن فى الليل الى كنيسة بأعمال الجيزة ، فقلع عمدها ونصب بدلها أركانا ، وحمل العمد الى الجامع . فترك أبو الحسن بن الطحاوى الصلاة فيه مذ ذاك تورعا .

قال التميمى : وقد كان (يعنى ابن الطحاوى) يصلى فى جامع الفسطاط القديم ، وبعض عمده أو أكثرها ورخامه من كنائس الاسكندرية وأرياف مصر ، وبعضه بناء قرة بن شريك عامل الوليد بن عبد الملك .

جامع منجك

هذا الجامع يعرف موضعه بالثغرة تحت قلعة الجبل خارج باب الوزير . أنشأه الأمير سيف الدين منجك اليوسفى ، فى مدة وزارته بديار مصر ، فى سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، وصنع فيه صهريجا فصار يعرف الى اليوم بصهريج منجك ، ورتب فيه صوفية ، وقرر لهم فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وفى كل شهر معلوما ، وجعل فيه منبرا ، ورتب فيه خطيبا يصلى بالناس فيه صلاة الجمعة .

وجعل على هذا الموضع عدة أوقاف . منها ناحية بلقينة بالغربية ، وكانت مرصدة برسم الحاشية ، ففويت بخمسة وعشرين ألف دينار ، فاشتراها من بيت المال ، وجعلها واقفا على هذا المكان .

« منجك » الأمير سيف الدين اليوسفى : لما امتنع أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك ، وقام فى مملكة مصر بعده أخوه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ، وكان من محاصرته بالكرك ما كان الى أن أخذ ... فتوجه اليه وقطع رأسه ، وأحضرها الى مصر — وكان حينئذ أحد السلاحدارية — فأعطى امرة بديار مصر ، وتنقل فى الدول .

الى أن كانت سلطنة الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأخرجه من مصر الى دمشق ، وجعله حاجبا بها موضع ابن طغريل . فلما قتل الملك المظفر ، وأقيم بعده أخوه الملك الناصر حسن ، أقيم الأمير سيف الدين يلبغا روس فى نيابة السلطنة بديار مصر — وكان أخا منجك — فاستدعاه من دمشق ، وحضر الى القاهرة فى ثامن شوال سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، فرسم له بامرة تقدمة ألف ، وخلع عليه خلع الوزارة .

فاستقر وزيرا وأستادارا ، وخرج فى دست الوزارة والأمراء فى خدمته من القصر الى قاعة الصاحب بالقلعة ، فجلس بالشباك ، ونفذ أمور الدولة . ثم اجتمع الأمراء ، وقرأ عليهم أوراقا تتضمن ما على الدولة من المصروف ، ووفر من جامكية المماليك مبلغ ستين ألف درهم فى الشهر ، وقطع كثيرا من جوامك

الخدم والجوارى والبيوتات السلطانية ، وقص رواتب الدور من زوجات السلطان وجواريه ، وقطع رواتب الأغانى .

وعرض الاصطبل السلطانى ، وقطع منه عدة أميراخورية وسراخورية وسواس وغلمان ، ووفر من راتب الشعير نحو الخمسين اردبا فى كل يوم ، وقطع جميع الكلابزية وكانوا خمسين جوقة ، وأبقى منهم جوقتين ، ووفر جماعة من الأسرى والعتالين والمستخدمين فى العمائر ، وأبطل العمارة من بيت السلطان . وكانت الحوائجخاناه تحتاج فى كل يوم الى أحد وعشرين ألف درهم نقرة ، فاقتطع منها مبلغ ثلاثة آلاف درهم ، وبقى مصروفها فى اليوم ثمانية عشر ألف درهم نقرة .

وشرع ينكث على الدواوين ، ويحط على القاضى موفق الدين ناظر الدولة ، وعلى القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخواص ، ورسم ألا يستقر فى المعاملات سوى شاهد ولحد وعامل وشاد بغير معلوم ، وأغلظ على الكتاب والدواوين وهددهم وتوعدهم . فخافوه واجتمع بعضهم ببعض ، واشتوروا * فى أمرهم ، واتفقوا على مال يتوزعونه بينهم على قدر حال كل منهم ، وحملوه الى منجك سرا . فلم يمض من استقراره فى الوزارة شهر حتى صار الكتاب وأرباب الدواوين أحباءه وأخلاءه ، وتمكنوا منه أعظم ما كانوا قبل وزارته ، وحسنوا له أخذ الأموال .

فطلب ولاة الأقاليم ، وقبض على أقبغا والى الغربية ، وألزمه بحمل خمسمائة ألف درهم نقرة ، وولى عوضه الأمير أستدمر القلنجى ، ثم صرفه وولى بدله قطليجا مملوك بكتمر ، واستقر بأستدمر القلنجى فى ولاية القاهرة ، وأضاف له التحدث فى الجهات ، وولى البحرية لرجل من جهته ، وولى قوص لآخر ، وأوقع الحوطة على موجود اسماعيل الواقدى متولى قوص ، وأخذ جميع حواصله ، وولى طغاى كشف الوجه القبلى عوضا عن علاء الدين على بن الكورانى ، وولى ابن المزوق قوص وأعمالها ، وولى مجد الدين موسى الهدبانى الأشمونين عوضا عن ابن الأزكشى .

وتسامعت الولاة وأرباب الأعمال بأن الوزير فتح باب الأخذ على الولايات ، فهرع الناس اليه من جهات مصر والشام وحلب وقصدوا بابه . ووثب عنده جماعة برسم قضاء الأشغال ، فأتاهم أصحاب الأشغال والحوائج .

وكان السلطان صغيرا حظه من السلطنة أن يجلس بالايوان يومين فى الأسبوع ، ويجتمع أهل الحل والعقد مع سائر الأمراء فيه فاذا انقضت خدمة الايوان خرج الأمير منكليبغا الفخرى الأمير بيغرا والأمير يلبغا تر والمجدى وأرلان وغيرهم من الأمراء ، ويدخل الى القصر الأمير يلبغا روس نائب السلطنة والأمير سيف الدين منجك الوزير والأمير سيف الدين شيخو العمرى ، والأمير ألجيبغا المظفرى والأمير طيرق ، ويتفق الحال بينهم على ما يرونه

هذا والوزير أخو النائب متمكن تمكنا زائدا . وقدم من دمشق جماعة للسعى عند الوزير فى وظائف — منهم ابن السلعوس ،

(*) ص ٢٢ جـ ٢ ، ط . بولاق .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.

تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء

٣٩



كتاب التحرير

«كانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت منذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وصلاح الدين بن المؤيد ، وابن الأجل ، وابن عبد الحق — وتحدثوا مع ابن الأطروش محتسب القاهرة فى أغراضهم ، فسعى لهم حتى تقرروا فيما عينوا .

ولما دخلت سنة تسع وأربعين ، عرف الوزير السلطان والأمراء أنه لما ولى الوزارة لم يجد فى الأهراء ولا فى بيت المال شيئا ، وسأل أن يكون هذا بمحضر من الحكام . فرسم للقضاة بكشف ذلك ، فركبوا الى الأهراء بمصر والى بيت المال بقلعة الجبل ، وقد حضر الدواوين وسائر المباشرين ، وأشهدوا عليهم أن الأمير منجك لما باشر الوزارة لم يكن بالأهراء ولا ببيت المال قدح غلة ولا دينار ولا درهم ، وقرئت المحاضر على السلطان والأمراء .

فلما كان بعد ذلك توقف أمر الدولة على الوزير ، فشكا الى الأمراء من كثرة الرواتب . فاتفق الرأى على قطع نحو ستين سواقا ، فقطعهم ، ووفر لحومهم وعليقهم وسائر ما باسمهم من الكساوى وغيرها . وقطع من العرب الركابة والنجابة ، ومن أرباب الوظائف فى بيت السلطان ومن الكتاب والمباشرين ، ما جملته فى اليوم أحد عشر ألف درهم .

وفتح باب المقايضات باقطاعات الأجناد ، وباب النزول عن الاقطاعات بالمال ، فحصل من ذلك مالا كثيرا ، وحكم على أخيه نائب السلطنة بسبب ذلك ، وصار الجندى يبيع اقطاعه لكل من أراد سواء كان المنزول له جنديا أو عاميا ، وبلغ ثمن الاقطاع من عشرين ألف درهم الى ما دونها .

وأخذ يسعى أن تضاف وظيفة نظر الخاص الى الوزارة ، وأكثر من الحط على ناظر الخاص ، فلحترس ابن زنبور منه ، وشرع فى ابعاده مرة بعد مرة مع الأمير شيخو . فمنع شيخو منجك من التحدث فى الخاص وخرج عليه ، فشق ذلك على منجك ، وافترقا عن غير رضا .

فتغير يلبغا روس النائب على شيخو رعاية لأخيه ، وسأل أن يعفى من النيابة ، ويعفى منجك من الوزارة، واستقراره فى الأستادارية والتحدث فى عمل حفر البحر ، وأن يستقر أستدمر العمرى — المعروف برسلان بصل — فى الوزارة . فطلب ، وكان قد حضر من الكشف ، وألبس خلع الوزارة فى يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول .

وكان منجك قد عزل من الوزارة فى ثالث ربيع الأول المذكور ، وتولى أمر شد البحر . فجبى من الأجناد من كل مائة دينار درهما ، ومن التجار والمتعيشين فى مصر والقاهرة من كل واحد عشرة دراهم الى خمسة دراهم الى درهم ، ومن أصحاب الأملاك والدور فى مصر والقاهرة : على كل قاعة ثلاثة دراهم ، وعلى كل طبقة درهمين ، وعلى كل مخزن أو اصطبل درهما . وجعل المستخرج فى خان مسرور بالقاهرة ، والمشد على المستخرج الأمير بيلك ، فجبى مال كبير .

وأما أستدمر فان أحوال الدولة توقفت فى أيامه ، فسأل فى الاعفاء فأعفى ، وأعيد منجك الى الوزارة بعد أربعين يوما وقد تمنع تمنعا كبيرا . ولما عاد الى الوزارة فتح باب الولايات بالمال ، فقصده الناس وسعوا عنده ، فولى

وعزل ، وأخذ فى ذلك مالا كثيرا . فيقال انه أخذ من الأمير مازان لما نقله من المنوفية الى الغربية ، ومن ابن الغسانى لما نقله من الأشمونين الى البهنساوية ، ومن ابن سلمان لما ولاه منوف ، ستة آلاف دينار ووفر اقطاع شاد الدواوين ، وجعله باسم المماليك السلطانية ووفر * جوامكهم ورواتبهم .

وشرع أوباش الناس فى السعى عنده فى الوظائف والمباشرات بمال ،وأتوه من البلاد ، فقضى أشغالهم ، ولم يرد أحدا طلب شيئا . ووقع فى أيامه الفناء العظيم ، فانحلت اقطاعات كثيرة ، فاقتضى رأى الوزير أن يوفر الجوامك والرواتب التى للحاشية ، وكتب لسائر أرباب الوظائف وأصحاب الأشغال والمماليك السلطانية مثالات بقدر جوامك كل منهم ، وكذلك لأرباب الصدقات . فأخذ جماعة من الأقباط ومن الكتاب ومن الموقعين اقطاعات فى نظير جوامكهم ، وتوفر فى الدولة مال كبير عن الجوامك والرواتب .

ولما دخلت سنة خمسين رسم الأمير منجك الوزير لمتولى القاهرة بطلب أصحاب الأرباع ، وكتابة جميع أملاك الحارات والأزقة وسائر أخطاط مصر والقاهرة ، ومعرفة أسماء سكانها ، والفحص عن أربابها ... ليعرف من توفر عنه ملك بموته فى الفناء . فطلبوا الجميع وأمعنوا فى النظر ، فكان يوجد فى الحارة الواحدة والزقاق الواحد ما يزيد على عشرين دارا خالية لا يعرف أربابها ، فختموا على ما وجدوه من ذلك ، ومن الفنادق والخانات والمخازن حتى يحضر أربابها .

(*) ص٢٢١ جـ٢ ، ط.بولاق .

وفى شعبان عزل ولاة الأعمال ، وأحضرهم الى القاهرة وولى غيرهم ، وأضاف الى كل وال كشف الجسور التى فى عمله ، وضمن الناس سائر جهات القاهرة ومصر بحيث انه لا يتحدث أحد معه من المقدمين والدواوين والشادين ، وزاد فى المعاملات ثلثمائة ألف درهم ، وخلع عليه ونودى له بمصر والقاهرة ، فاشتد ظلمه وعسفه ، وكثرت حوادثه .

فلما كانت ليالى عيد الفطر ، عرف الوزير الأمراء أن سماط العيد ينصرف عليه جملة ولا ينتفع به أحد ، فأبطله ولم يعمل تلك السنة .

وفى ذى القعدة توقف حال الدولة ، ووقف مماليك السلطان وسائر المعاملين والحوائجكاشة ، وانزعج السلطان والأمراء بسبب ذلك على الوزير فاحتج بكثرة الكلف وطلب الموفق ناظر الدولة فقال ان الانعامات قد كثرت ، والكلف تزايدت ، وقد كانت الحوائجخاناه فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون فى اليوم ينصرف فيها مبلغ ثلاثة عشر ألف درهم ، واليوم يصرف فيها اثنان وعشرون ألف درهم .

فكتبت أوراق بمتحصل الدولة ومصروفها وبمتحصل الخاص ومصروفه . فجاءت أوراق الدولة ومتحصلها عشرة آلاف ألف درهم ، وكلفها أربعة عشر ألف ألف درهم وستمائة ألف درهم . ووجد الانعام من الخاص والجيش ، بما خرج من البلاد زيادة على اقطاعات الأمراء ، فكان زيادة على عشرين ألف دينار ، سوى جملة من الغلال ، وأن الذى استجد على الدولة من حين وفاة الملك الناصر

فى ذى الحجة سنة احدى وأربعين الى مستهل المحرم سنة خمسين وسبعمائة .

وكانت جملة الانعامات والاقطاعات بنواحى الصعيد والفيوم وبلاد الملك والوجه البحرى وما أعطى من الرزق للخدام والجوارى ، سبعمائة ألف ألف وألف ألف وستمائة ألف ... معينة بأسماء أربابها من أمير وخادم وجارية .

وكانت النساء قد أسرفن فى عمل القمصان والبغالطيق ، حتى كان يفضل من القميص كثير على الأرض ، وسعة الكم ثلاثة أذرع — ويسمينه البهطلة — وكان يغرم على القميص ألف درهم وأكثر ، وبلغ ازار المرأة الى ألف درهم ، وبلغ الخف والسرموزة الى خمسمائة درهم وما دونها الى مائة درهم ... فأمر الوزير منجك بقطع أكمام النساء ، وأخرق بهن ، وأمر الوالى بتتبع ذلك ، ونودى بمنع النساء من عمل ذلك ، وقبض على جماعة منهن ، وركب على سور القاهرة صور نساء عليهن تلك القمصان بهيئة نساء قد قتلن عقوبة على ذلك . فانكففن عن لبسها .

ومنع الأساكفة من عمل الأخفاف المثمنة ، ونودى فى القياسر من باع ازار حرير ماله للسلطان ، فنودى على ازار ثمنه سبعمائة وعشرون درهما فبلغ ثمانين درهما ، ولم يجسر أحد أن يشتريه . وبالغ الوزير فى الفحص عن ذلك حتى كشف دكاكين غسالى الثياب ، وقطع ما وجد من ذلك . فامتنع النساء من لبس ما أحدثته من تلك المنكرات .

ولما عظم ضرر الفار أيضا من كثرة شكاية الناس فيه ، فلم يسمع فيه الوزير قولا ، وقام فى أمره الأمير مغلطاى أميراخور ، فاستوحش منه الوزير .

واتفق أنه كان قد حج محمد بن يوسف مقدم الدولة فى محمل كبير بلغ عليق جماله فى اليوم مائتى عليقة . ولما قدم فى المحرم مع الحاج ، أهدى للنائب وللوزير وللأمير طاز وللأمير صرغتمش هدايا جليلة ، ولم يهد للأمير شيخو ولا للأمير ملغطاى شيئا . ثم لما عاب عليه الناس ذلك أهدى بعد عدة أيام للأمير شيخو هدية ، فردها عليه .

ثم انه أنكر على الوزير فى مجلس السلطان ما يفعله ولاة البر ، وما عليه مقدم الدولة من كثرة المال ، وأغلظ فى القول . فرسم بعزل الولاة ، والقبض على المقدم محمد بن يوسف وابن عمه المقدم أحمد بن زيد . فلم يسع الوزير غير السكوت .

فلما كان فى رابع عشرى شوال سنة احدى وخمسين ، قبض على الوزير منجك وقيد ، ووقعت الحوطة على سائر حواصله ، فوجدت له زردخاناه حمل خمسين جملا ، ولم يظهر من النقد * كثير مال فأمر بعقوبته . فلما خوف أقر بصندوق فيه جوهر ، وقال : سائر ما كان يتحصل لى من النقد كنت أشترى به أملاكا وضياعا وأصناف المتاجر . فأحيط بسائر أمواله وحمل الى الاسكندرية مقيدا ، واستقر الأمير بلبان السنانى نائب البيرة أستادارا عوض منجك بعد حضوره منها ، وأضيفت الوزارة الى القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص .

(*) ص٢٢٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

فلم يزل منجك مسجونا بالاسكندرية الى أن خلع الملك الناصر حسن . وأقيم بدله فى المملكة أخوه الملك الصالح صالح ، فأمر بالافراج عن الأمير شيخو والأمير منجك ، فحضرا الى القاهرة فى رجب سنة اثنتين وخمسين . ولما استقر الأمير منجك بالقاهرة بعث اليه الأمير شيخو خمس رؤوس خيل وألفى دينار ، وبعث اليه جميع الأمراء بالتقادم .

وأقام بطالا يجلس على حصير فوقه ثوب سرج عتيق ، وكلما أتاه أحد من الأمراء يبكى ويتوجع ويقول : أخذ جميع مالى حتى صرت على الحصير . ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجونا فى قيد ، هدد بالقتل ان لم يبع أملاكه ، وأنه خشى على نفسه القتل فوكل فى بيعها . فكتب له الفقهاء « لا يصح بيع المكره » . ودار على الأمراء ، وما زال بهم حتى تحدثوا له مع السلطان فى رد أملاكه عليه .

فعارضهم الأمير صرغتمش ، ثم رضى أن يرد عليه من أملاكه ما أنعم به السلطان على مماليكه . فاسترد عدة أملاك ، وأقام الى أن قام يلبغا روس بحلب ، فاختفى منجك وطلب فلم يوجد ، وأطلق النداء عليه بالقاهرة ومصر ، وهدد من أخفاه ، وألزم عربان العائد باقتفاء أثره ، فلم يوقف له على خبر ، وكبس عليه عدة أماكن بالقاهرة ومصر ، وفتش عليه حتى فى داخل الصهريج الذى بجامعه فأعيى أمره .

وأدرك السلطان السفر لحرب يلبغا روس ، فشرع فى ذلك الى يوم الخميس رابع شعبان ، فخرج الأمير طاز بمن معه .

وفى يوم الاثنين سابعه عرض الأمير شيخو والأمير صرغتمش أطلابهما ، وقد وصل الأمير طاز الى بلبيس ، فحضر اليه من أخبره أنه رأى بعض أصحاب منجك ، فسير اليه وأحضره وفتشه ، فوجد معه كتاب منجك الى أخيه يلبغا روس ، وفيه أنه مختف عند الحسام الصفدى أستاداره . فبعث الكتاب الى الأمير شيخو ، فوافاه والأطلاب خارجة ، فاستدعى بالحسام وسأله فأنكره ، فعاقبه الأمير صرغتمش فلم يعترف .

فركب الى بيت الحسام بجوار الجامع الأزهر وهجمه ، فاذا بمنجك ومعه مملوك ، فكتفه وسار به مشهورا بين الناس — وقد هرعوا من كل مكان — الى القلعة ، فسجن بالاسكندرية الى أن شفع فيه الأمير شيخو ، فأفرج عنه فى ربيع الأول سنة خمس وخمسين ورسم أن يتوجه الى صفد بطالا . فسار اليها من غير أن يعبر الى القاهرة .

فلما خلع الملك الصالح صالح ، وأعيد السلطان حسن فى شوال منها ، نقل منجك من صفد ، وأنعم عليه بنيابة طرابلس عوضا عن أيتمش الناصرى ، فسار اليها ، وأقام بها الى أن قبض على الأمير طاز نائب حلب فى سنة تسع وخمسين ، فولى منجك عوضا عنه .

ولم يزل بحلب الى أن فر منها فى سنة ستين فلم يعرف له خبر ، وعوقب بسببه خلق كثير . ثم قبض عليه بدمشق فى سنة احدى وستين ، فحمل الى مصر ، وعليه بشت صوف وعلى رأسه مئزر صوف ، فلم يؤاخذه السلطان ، وأعطاه امرة طبلخاناه ببلاد الشام ،

وجعله طرخاناه يقيم حيث شاء من البلاد الاسلامية ، وكتب له بذلك .

فلما قتل السلطان حسن ، وأقيم من بعده فى المملكة الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى فى جمادى الأولى سنة اثنتين وستين ، خامر الأمير بيدمر نائب الشام على الأمير يلبغا العمرى القائم بتدبير دولة الملك المنصور ، ووافقه جماعة من الأمراء منهم الأمير منجك ، فخرج الأمير يلبغا بالمنصور والعساكر من قلعة الجبل الى البلاد الشامية ، فوافى دمشق .

ومشى الناس بينه وبين الأمير بيدمر حتى حتى تم الصلح ، وحلف الأمير يلبغا أنه لا يؤذى بيدمر ولا منجك ، فنزلا من قلعة دمشق ، وقيدهما وبعث بهما الى الاسكندرية فسجنا بها . الى أن خلع الأمير يلبغا المنصور ، وأقام بدله الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وقتل الأمير يلبغا ، فأفرج الملك الأشرف عن منجك ، وولاه نيابة السلطنة بدمشق عوضا عن الأمير على الماردانى فى جمادى الأولى سنة تسع وستين .

فلم يزل فى نيابة دمشق الى أن حضر الى السلطان زائرا فى سنة سبعين بتقادم كثيرة جليلة ، وعاد الى دمشق ، وأقام بها الى أن استدعاه السلطان فى سنة خمس وسبعين الى مصر ، وفوض اليه نيابة السلطنة بديار مصر وعمله أتابك العساكر ، وجعل تدبير المملكة اليه ، وأن يخرج الأمهات للبلاد الشامية ، وأن يولى ولاة أقاليم مصر والكشاف ، ويخرج الاقطاعات بمصر من عبرة ستمائة دينار الى ما دونها .

وكانت عادة النواب قبله الا يخرج من الاقطاعات الا ما عبرته أربعمائة دينار فما دونها . فعمل النيابة على قالب جائر وحرمة وافرة الى أن مات حتف أنفه فى يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وله من العمر نيف وستون سنة ، وشهد جنازته سائر الأعيان ، ودفن بتربته المجاورة لجامعه هذا .

وله سوى الجامع * المذكور من الآثار بديار مصر خان منجك فى القاهرة ، ودار منجك برأس سويقة العزى بالقرب من مدرسة السلطان حسن ، وله بالبلاد الشامية عدة آثار من خانات وغيرها . رحمه الله .

الجامع الأخضر

هذا الجامع خارج القاهرة بخط فم الخور . عرف بذلك لأن بابه وقبته فيهما نقوش وكتابات خضر . والذى أنشأه خازندار الأمير شيخو واسمه ... ...

جامع البكجرى

هذا الجامع بحكر البكجرى قريبا من الدكة تعطلت الصلاة فيه منذ خربت تلك الجهات .

جامع السروجى

هذا الجامع بحكر ... ...

جامع كرجى

هذا الجامع بحكر أقوش .

(*) ص٣٢٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

جامع الفاخرى

هذا الجامع بسويقة الخادم الطواشى شهاب الدين فاخر المنصورى ، مقدم المماليك السلطانية ، ومات فى سابع ذى الحجة سنة سبع وثمانمائة . وكان ذا مهابة وأخلاق حسنة ، مع سطوة شديدة .

« ولهم بلبان الفاخرى » : الأمير سيف الدين ، نقيب الجيوش ، مات فى سنة سبع وتسعين وستمائة ، وولى نقابة الجيش بعد طيرس الوزيرى ، وكان جوادا عارفا بأمر الأجناد ، خيرا كثير الترف .

جامع ابن عبد الظاهر

هذا الجامع بالقرافة الصغرى ، قبلى قبر الليث بن سعد ، كان موضعه يعرف بالخندق . أنشأه القاضى فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر الجذامى السعدى الروحى ، من ولد روح بن زنباع الجذامى ، بجوار قبر أبيه . وأول ما أقيمت به الخطبة فى يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، وكان يوما مشهودا لكثرة من حضر من الأعيان . وولد بالقاهرة فى ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وسمع من ابن الجميزى وغيره ، وحدث وكتب فى الانشاء ، وساد فى دولة المنصور قلاوون بعقله ورأيه وهمته ، وتقدم على والده القاضى محيى الدين — وهو ماهر فى الانشاء والكتابة — بحيث كان من جملة من يصرفهم بأمره ونهيه ، وكان الملك المنصور يعتمد عليه ويثق به .

ولما ولى القاضى فخر الدين بن لقمان الوزارة ، قال له الملك المنصور : من يلى عوضك كتابة السر ؟

فقال : القاضى فتح الدين ابن عبد الظاهر .

فولاه كتابة السر عوضا عن ابن لقمان ، وتمكن من السلطان وحظى عنده ... حتى ان الوزير فخر الدين بن لقمان ناول السلطان كتابا ، فأحضر ابن عبد الظاهر لقراءته على عادته ، فلما أخذ الكتاب من السلطان ، أمر الوزير أن يتأخر حتى يقرأه ، فتأخر الوزير . ثم ان ابن لقمان صرف عن الوزاره ، وأعيد الى ديوان الانشاء ، فتأدب معه

فلما ولى وزارة الملك الأشرف خليل بن قلاوون شمس الدين بن السلعوس ، قال لفتح الدين : اعرض على كل يوم ما تكتبه .

فقال : لا سبيل لك الى ذلك ، ولا يطلع على أسرار السلطان الا هو ، فان اخترتم والا عينوا عوضى .

فلما بلغ السلطان ذلك قال . صدق .

ولم يزل على حاله الى أن مات — وأبوه حى — بدمشق فى النصف من شهر رمضان سنة احدى وتسعين وسبعمائة . فوجد فى تركه قصيدة مرثية قد عملها فى رفيقه تاج الدين أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير ، لما مرض وطال مرضه ، فاتفق أن عوفى ابن الأثير ، ولم يتأخر ابن عبد الظاهر بعد عافيته سوى ليال يسيرة ومرض ومات . فرثاه ابن الأثير بعد موته ، وولى وظيفة كتابة السر عوضا عنه .

ولم يكن ابن عبد الظاهر مجيدا فى صناعة الانشاء ، الا أنه دبر الديوان وباشره أحسن مباشرة . ومن شعره :

ان شئت تنظرنى وتنظر حالتى
فانظر اذا هب النسيم قبولا
فتراه مثلى رقة ولطافة
ولأجل قلبك لا أقول عليلا
فهو الرسول اليك منى ليتنى
كنت اتخذت مع الرسول سبيلا *

ولم يزل هذا الجامع عامرا الى أن حدثت المحن فى سنة ست وثمانمائة ، واختلت القرافة لخراب ما حوله ، وهو اليوم قائم على أصوله.

جامع بساتين الوزير التى على بركة الحبش

... ...

جامع الخندق

هذا الجامع بناحية الخندق خارج القاهرة ، ولم يزل عامرا بعمارة الخندق . فلما خربت مساكن الخندق تلاشى أمره ، ونقلت منه الجمعة ، وبقى معطلا الى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة . فأخذ الأمير طوغان الحسنى الدوادار عمده الرخام وسقوفه ، وترك جدرانه ومنارته وهى باقية ، وعما قليل تدثر كما دثر غيرها مما حولها .

جامع جزيرة الفيل

... ...

(*) ص٣٢٤ جـ٢ ، ط. بولاق =

جامع الطواشى

هذا الجامع خارج القاهرة فيما بين باب الشعرية وباب البحر . أنشأه الطواشى جوهر السحرتى اللالا ، وهو من خدام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم انه تأمر فى تاسع عشرى شهر رجب سنة خمس وأربعين وسبعمائة .

جامع كراى

هذا الجامع بالريدانية خارج القاهرة . عمره الأمير سيف الدين كراى المنصورى ، فى سنة احدى وسبعمائة ، لكثرة ما كان هناك من السكان . فلما خربت تلك الأماكن تعطل هذا الجامع ، وهو الآن قائم ، وجميع ما حوله داثر وعما قليل يدثر .

جامع القلعة

هذا الجامع بقلعة الجبل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة . وكان أولا مكانه جامع قديم ، وبجواره المطبخ السلطانى والحوائجخاناه والطشتخاناه والفراشخاناه ، فهدم الجميع وأدخلها فى هذا الجامع ، وعمره أحسن عمارة ، وعمل فيه من الرخام الفاخر الملون شيئا كثيرا ، وعمر فيه قبة جليلة ، وجعل عليه مقصورة من حديد بديعة الصنعة ، وفى صدر الجامع مقصورة من حديد أيضا برسم صلاة السلطان .

فلما تم بناؤه جلس فيه السلطان بنفسه ، واستدعى جميع المؤذنين بالقاهرة ومصر ، وسائر الخطباء والقراء ، وأمر الخطباء فخطب كل منهم بين يديه ، وقام المؤذنون فأذنوا وقرأ القراء فاختار الخطيب جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن القسطلانى ، خطيب جامع عمرو ، وجعله خطيبا بهذا الجامع ، واختار عشرين مؤذنا رتبهم فيه ، وجعل به قراء ودرسا وقارىء مصحف ، وجعل له من الأوقاف ما يفضل عن مصارفه .

فجاء من أجل جوامع مصر وأعظمها ، وبه الى اليوم يصلى سلطان مصر صلاة الجمعة ، والذى يخطب فيه ويصلى بالناس الجمعة قاضى القضاة الشافعى

جامع قوصون

هذا الجامع داخل باب القرافة تجاه خانقاه قوصون . أنشأه الأمير سيف الدين قوصون ، وعمر بجانبه حماما ، فعمرت تلك الجهة من القرافة بجماعة الخانقاه والجامع ، وهو باق الى يومنا .

جامع كوم الريش

هذا الجامع عمارة دولات شاه .

جامع الجزيرة الوسطى

أنشأه الطواشى مثقال ، خادم تذكار ابنة الملك الظاهر بيبرس ، وهو عامر الى يومنا هذا .

جامع ابن صارم

هذا الجامع بخط بولاق خارج القاهرة * . أنشأه محمد بن صارم شيخ بولاق فيما بين بولاق وباب البحر

جامع الكيمختى

هذا الجامع يعرف اليوم بجامع الجنينة ، وهو بجانب موضع الكيمخت على شاطىء الخليج من جملة أرض * الطبالة . كان موضعه دارا اشتراها معلم الكيمخت ، وكان يعرف بالحموى ، وعملها جامعا .

فضمن المعلم بعده رجل يعرف بالرومى ، فوقف عليه مواضع ، وجدد له مئذنة فى جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانمائة ، ووسع فى الجامع قطعة كانت مشترا وكان قبل ذلك قد جدد عمارته شخص يعرف بالفقيه زين الدين ريحان بعد سنة تسعين وسبعمائة ، وعمر بجانبه مساكن ، وهو الآن عامر بعمارة ما حوله

جامع الست مسكة

هذا الجامع بالقرب من قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير خارج القاهرة . أنشأته الست مسكة ، جارية الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأقيمت فيه الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة احدى وأربعين وسبعمائة وقد ذكرت مسكة هذه عند ذكر الأحكار .

(*) ص٢٢٥ جـ٢ ط. بولاق

جامع ابن الفلك

هذا الجامع بسويقة الجميزة من الحسينية خارج القاهرة . أنشأه مظفر الدين بن الفلك .

جامع التكرورى

هذا الجامع فى ناحية بولاق التكرورى . وهذه الناحية من جملة قرى الجيزة ، كانت تعرف بمنية بولاق ، ثم عرفت ببولاق التكرورى . فانه كان نزل بها الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكرورى ، وكان يعتقد فيه الخير ، وجربت بركة دعائه ، وحكيت عنه كرامات كثيرة .

منها أن امرأة خرجت من مدينة مصر تريد البحر ، فأخذ السودان ابنها ، وساروا به فى مركب ، وفتحوا القلع ، فجرت السفينة . وتعلقت المرأة بالشيخ تستغيث به ، فخرج من مكانه حتى وقف على شاطىء النيل ، ودعا الله سبحانه وتعالى ، فسكن الريح ووقفت السفينة عن السير ، فنادى من فى المركب يطلب منهم الصبى ، فدفعوه اليه وناوله لأمه .

وكان بمصر رجل دباغ أتاه عفص ، فأخذه منه أصحاب السلطان ، فأتى الى الشيخ وشكا اليه ضرورته ، فدعا ربه ، فرد الله عليه عفصه بسؤال أصحاب السلطان له فى ذلك .

وكان يقال له : لم لا تسكن المدينة ؟ فيقول : انى أشم رائحة كريهة اذا دخلتها . ويقال انه كان فى خلافة العزيز بن المعز ، وان الشريف محمد بن أسعد الجوانى جمع له جزءا فى مناقبه . ولما مات بنى عليه قبة وعمل بجانبه جامع جدده ووسعه الأمير محسن الشهابى مقدم المماليك ، وولى تقدمة المماليك عوضا عن الطواشى عنبر السحرتى أول صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ومات فى ٠٠٠

ثم ان النيل مال على ناحية بولاق هذه فيما بعد سنة تسعين وسبعمائة ، وأخذ منها قطعة عظيمة كانت كلها مساكن . فخاف أهل البلد أن يأخذ ضريح الشيخ والجامع لقربهما منه ، فنقلوا الضريح والجامع الى داخل البلد ، وهو باق الى يومنا هذا .

جامع البرقية

هذا الجامع بالقرب من باب البرقية بالقاهرة عمره الأمير مغلطاى الفخرى أخو الأمير ألماس الحاجب ، وكمل فى المحرم سنة ثلاثين وسبعمائة . وكان ظالما عسوفا متكبرا جبارا ، قبض عليه مع أخيه ألماس فى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، وقتل معه .

جامع الحرانى

هذا الجامع بالقرافة الصغرى فى بحرى الشافعى . عمره ناصر الدين بن الحرانى الشرابيشى فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

جامع بركة

هذا الجامع بالقرب من جامع ابن طولون ، يعرف خطه بحدرة ابن قميحة . عمره شخص من المجند يعرف ببركة ، كان يباشر أستادارية الأمراء ، ومات بعد سنة احدى وثمانمائة .

جامع بركة الرطلى

هذا الجامع كان يعرف موضعه ببركة الفول من جملة أرض الطبالة . فلما عمرت بركة الرطلى ، كما تقدم ذكره ، أنشىء هذا الجامع . وكان ضيقا قصير السقف ، وفيه قبة تحتها قبر دائر ، وهو قبر الشيخ خليل بن عبد ربه ، خادم الشيخ عبد العال * ، وتوفى فى المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة . فلما سكن الوزير الصاحب سعد الدين ابراهيم بن بركة البشيرى بجوار هذا الجامع ، هدمه ووسع فيه ، وبناه هذا البناء فى سنة أربع عشرة وثمانمائة .

وولد البشيرى فى سابع ذى القعدة سنة ست وستين وسبعمائة ، وتنقل فى الخدم الديوانية حتى ولى نظر الدولة الى أن قتل الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، فاستقر بعده فى الوزارة ، بسفارة فتح الدين فتح الله ابن كاتب السر ، فى يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة .

فباشر الوزارة بضبط جيد لمعرفته الحساب والكتابة . الا أنها كانت أيام محن احتاج فيها الى وضع يده ، وأخذ الأموال بأنواع الظلم . فلما قتل الملك الناصر فرج ، واستبد الملك المؤيد شيخ ، صرفه عن الوزارة فى يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة ست عشرة وثمانمائة ، ودفن بالقرافة .

وهذا الجامع عامر بعمارة ما حوله .

جامع الفوة

هذا الجامع فيما بين الخليجان السلطانية وباب القلعة ، المعروف بباب المدرج ، على رأس الفوة . أنشأه الأمير الكبير شيخ المحمودى ، لما قدم من دمشق بعد قتل الملك الناصر فرج ، واقامة الخليفة أمير المؤمنين المستعين بالله العباسى ابن محمد فى سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وسكن بالاصطبل السلطانى ، فشرع فى بناء دار يسكنها . فلما استبد بسلطنة مصر ، وتلقب بالملك المؤيد ، استغنى عن هذه الدار وكانت لم تكمل ، فعملها جامعا وخانقاه ، وصارت الجمعة تقام به .

جامع الحوش

هذا الجامع فى داخل قلعة الجبل بالحوش السلطانى . أنشأه السلطان الملك الناصر فرج ابن برقوق فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، فصار يصلى فيه الخدام وأولاد الملوك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى أن قتل الناصر فرج .

جامع الاصطبل

هذا الجامع فى الاصطبل السلطانى من قلعة الجبل . عمره ... ...

جامع ابن التركمان

هذا الجامع بالمقس خارج القاهرة .

(*) ص٢٢٦ جـ٢ ، ط بولاق .

جامع ...

هذا الجامع بخط السبع سقايات ، فيما بين القاهرة ومصر ، يطل على بركة قارون . أنشأه ... ...

جامع الباسطى

هذا الجامع فى بولاق خارج القاهرة . أدركت موضعه ، وهو مطل على النيل طول السنة . أنشأه شخص من عرض الفقهاء يعرف ... ... فى سنة سبع عشرة وثمانمائة .

جامع الحنفى

هذا الجامع خارج القاهرة . أنشأه الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن على الحنفى فى سنة سبع عشرة وثمانمائة .

جامع ابن الرفعة

هذا الجامع خارج القاهرة بحكر الزهرى . أنشأه الشيخ فخر الدين عبد المحسن بن الرفعة ابن أبى المجد العدوى .

جامع الاسماعيلى

أنشأه الأمير أرغون الاسماعيلى ، على البركة الناصرية ، فى شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

جامع الزاهد

هذا الجامع بخط المقس خارج القاهرة ، كان موضعه كوم تراب ، فنقله الشيخ المعتقد أحمد ابن ... ... المعروف بالزاهد ، وأنشأ موضعه هذا الجامع ، فكمل فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، وهدم بسببه عدة * مساجد قد خرب ما حولها ، وبنى بأنقاضها هذا الجامع .

وكان ساكنا مشهورا بالخير ، يعظ الناس بالجامع الأزهر وغيره ، ولطائفة من الناس فيه عقيدة حسنة ، ولم يسمع عنه الا خير . مات يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وثمانمائة أيام الطاعون ، ودفن بجامعه .

جامع ابن المغربى

هذا الجامع بالقرب من بركة قرموط ، مطل على الخليج الناصرى . أنشأه صلاح الدين يوسف بن المغربى رئيس الأطباء بديار مصر ، وبنى بجانبه قبة دفن فيها ، وعمل به درسا وقراء ومنبرا يخطب عليه فى يوم الجمعة . وكان عامرا بعمارة ما حوله ، فلما خرب خط بركة قرموط تعطل ، وهو آيل الى أن ينقض ويباع كما بيعت أنقاض غيره .

جامع الفخرى

هذا الجامع بجوار دار الذهب — التى عرفت بدار بهادر الأعسر — المجاورة لقبو الذهب من خط بين السورين فيما بين الخوخة وباب سعادة ، ويتوصل اليه أيضا من درب المداس المجاور لحارة الوزيرية .

أنشأه الأمير فخر الدين عبد الغنى ، ابن الأمير تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج

(*) ص٢٢٧ جـ٢ ، ط بولاق .

الأستادار ، فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة وخطب فيه يوم الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة المذكورة ، وعمل فيه عدة دروس .

وأول من خطب فيه الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب بن محمد البارنبارى الشافعى ، ثم تركه تنزها عنه .

وفى يوم الأحد ثامن شهر رمضان ، جلس فيه الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدائم البرماوى الشافعى للتدريس ، وأضيف اليه مشيخة التصوف ، وقرر قاضى القضاة شمس الدين محمد الديرى ، المقدسى الحنفى ، فى تدريس الحنفية ، وفى تدريس المالكية قاضى القضاة جمال الدين عبد الله بن مقداد المالكى ، وحضر البرماوى وظيفة التصوف بعد عصر يومه . فمات الأمير فخر الدين فى نصف شوال منها ولم يكمل ، فدفن هناك .

الجامع المؤيدى

هذا الجامع بجوار باب زويلة من داخله . كان موضعه خزانة شمائل حيث يسجن أرباب الجرائم ، وقيسارية سنقر الأشقر ، ودرب الصفيرة ، وقيسارية بهاء الدين أرسلان . أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى الظاهرى .

فهو الجامع الجامع لمحاسن البنيان ، الشاهد — بفخامة أركانه وضخامة بنيانه — أن منشئه سيد ملوك الزمان . يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس وايوان كسرى أنو شروان ، ويستصغر من تأمل بديع أسطوانه الخورنق وقصر غمدان ، ويعجب من عرف أوليه من تبديل الأبدال ، وتنقل الأمور من حال الى حال ... بينا هو سجن ترهق فيه النفوس وضام المجهود ، اذ صار مدارس آيات ، وموضع عبادات ، ومحل سجود ! فالله يعمره ببقاء منشيه ، ويعلى كلمة الايمان بدوام ملك بانيه .

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أوماترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
ان البناء اذا تعاظم قدره
أضحى يدل على عظيم الشان

وأول ما ابتدىء به فى أمر هذا الجامع : أن رسم ، فى رابع شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، بانتقال سكان قيسارية سنقر الأشقر التى كانت تجاه قيسارية الفاضل . ثم نزل جماعة من أرباب الدولة فى خامسه من قلعة الجبل ، وابتدىء فى الهدم فى القيسارية المذكورة وما يجاورها ، فهدمت الدور التى كانت هناك فى درب الصفيرة ، وهدمت خزانة شمائل فوجد بها من رمم القتلى ورؤوسهم شىء كثير ، وأفرد لنقل ما خرج من التراب عدة من الجمال والحمير بلغت علائقهم فى كل يوم خمسمائة عليقة .

وكان السبب فى اختيار هذا المكان دون غيره ، أن السلطان حبس فى خزانة شمائل هذه ، أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على المماليك الظاهرية ، فقاسى فى ليلة من البق والبراغيث شدائد ، فنذر لله تعالى ان تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عز وجلّ ، ومدرسة لأهل العلم ، فاختار لذلك هذه البقعة وفاء لنذره .

وفى رابع جمادى الآخرة كان ابتداء حفر الأساس ، وفى خامس صفر سنة تسع عشرة وثمانمائة وقع الشروع فى البناء . واستقر فيه بضع وثلاثون بناء ومائة فاعل ، ووفيت لهم ولمباشريهم أجورهم من غير أن يكلف أحد فى العمل فوق طاقته ، ولا سخر فيه أحد بالقهر فاستمر العمل الى يوم الخميس * سابع عشر ربيع الأول فأشهد عليه السلطان أنه وقف هذا مسجدا لله تعالى ، ووقف عليه عدة مواضع بديار مصر وبلاد الشام . وتردد ركوب السلطان الى هذه العمارة عدة مرار

وفى شعبان طلبت عمد الرخام وألواح الرخام لهذا الجامع ، فأخذ من الدور والمساجد وغيرها وفى يوم الخميس سابع عشرى شوال ، نقل باب مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ، والتنور النحاس المكفت ، الى هذه العمارة ، وقد اشتراهما السلطان بخمسمائة دينار . وهذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع ، وهذا التنور هو التنور المعلق تجاه المحراب .

وكان الملك الظاهر برقوق قد سد باب مدرسة السلطان حسن ، وقطع البسطة التى كانت قدامه كما تقدم ، فبقى مصراعا الباب والسد من ورائهما حتى نقلا مع التنور الذى كان معلقا هناك .

وفى ثامن عشره دفنت ابنة صغيرة للسلطان فى موضع القبة الغربية من هذا الجامع ، وهى ثانى ميت دفن بها .

(*) ص٢٢٨ ج ـ ٤ ، ط . بولاق .

وانعقدت جملة ما صرف فى هذه العمارة ، الى سلخ ذى الحجة سنة تسع عشرة ، على أربعين ألف دينار .

ثم نزل السلطان فى عشرى المحرم الى هذه العمارة ، ودخل خزانة الكتب التى عملت هناك ، وقد حمل اليها كتبا كثيرة فى أنواع العلوم كانت بقلعة الجبل وقدم له ناصر الدين محمد البارزى ، كاتب السر ، خمسمائة مجلد قيمتها ألف دينار ، فأقر ذلك بالخزانة ، وأنعم على ابن البارزى بأن يكون خطيبا وخازن الكتب هو ومن بعده من ذريته .

وفى سابع عشر شهر ربيع الآخر منها سقط عشرة من الفعلة : مات منهم أربعة ، وحصل ستة بأسوأ حال . وفى يوم الجمعة ثانى جمادى الأولى أقيمت الجمعة به ولم يكمل منه سوى الايوان القبلى ، وخطب وصلى بالناس عز الدين عبد السلام المقدسى — أحد نواب القضاة الشافعية — نيابة عن ابن البارزى كاتب السر .

وفى يوم السبت خامس شهر رمضان منها ابتدىء بهدم ملك بجوار ربع الملك الظاهر بيبرس ، مما اشتراه الأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج الأستادار ، ليعمل ميضأة واستمر العمل هناك .

ولازم الأمير فخر الدين الاقامة بنفسه ، واستعمل مماليكه وألزامه فيه ، وجد فى العمل كل يوم ، فكملت فى سلخه بعد خمسة وعشرين يوما . ووقع الشروع فى بناء حوانيت على بابها من جهة تحت الربع ، ويعلوها طباق .

وبلغت النفقة على الجامع الى أخريات شهر رمضان هذا ، سوى عمارة الأمير فخر الدين المذكور ، زيادة على سبعين ألف دينار . وتردد السلطان الى النظر فى هذا الجامع غير مرة .

فلما كان فى أثناء شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين ، ظهر بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع اعوجاج الى جهة دار التفاح ، فكتب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة الهدم ، وعرض على السلطان ، فرسم بهدمها .

فوقع الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشريه ، واستمر فى كل يوم ، فسقط يوم الخميس سادس عشريه منها حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة هلك تحته رجل ، فغلق باب زويلة خوفا على المارة من يوم السبت الى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى مدة ثلاثين يوما ، ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهرة .

وقال أدباء العصر فى سقوط المنارة المذكورة شعرا كثيرا . منه ما قاله حافظ الوقت شهاب الدين أحمد بن على بن حجر الشافعى رحمه الله :

لجامع مولانا المؤيد رونق
منارته تزهو من الحسن والزين
تقول وقد مالت عليهم تمهلوا
فليس على جسمى أضر من العين

فتحدث الناس أنه فى قوله بالعين قصد التورية لتخدم فى العين التى تصيب الأشياء فتتلفها ، وفى الشيخ بدر الدين محمود العينتابى ، فانه يقال له العينى أيضا .

فقال المذكور يعارضه :

منارة كعروس الحسن اذ جليت
وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعين ، قلت ذا غلط
ما أوجب الهدم الا خسة الحجر

يعرض بالشهاب ابن حجر . وكل منهما لم يصب الغرض ، فان العينى بدر الدين محمودا ناظر الأحباس ، والشيخ شهاب الدين أحمد ابن حجر ، كل منهما ليس له فى المئذنة تعلق حتى تخدم التورية ، وأقعد منهما بالتورية من قال :

على البرج من باب زويلة أسست
منارة بيت الله والمعهد المنجى
فأخلى بها البرج اللعين أمالها
ألا فاصرخوا ياقوم باللعن للبرج

وذلك أن الذى ولى تدبير أمر الجامع المؤيدى هذا ، وولى نظر عمارته ، بهاء الدين محمد بن البرجى ، فخدمت التورية فى البرجى كما ترى .

وتداول هذا الناس ، فقال آخر * :

عتبنا على ميل المنار زويلة
وقلنا تركت الناس بالميل فى هرج
فقال قرينى برج نحس أمالنى
فلا بارك الرحمن فى ذلك البرج

وقال الأديب شمس الدين محمد بن أحمد ابن كمال الجوجرى أحد الشهود :

منارة لثواب الله قد بنيت
فكيف هدت فقالوا نوضح الخبرا

(*) ص٢٢٦ ج٢ ، ط. بولاق .

أصابت العين أحجارا بها انفلقت
ونظرة العين قالوا تفلق الحجرا

وقال آخر * :

منارة قد هدمت بالقضا
والناس فى هرج وفى رهج
أمالها البرج فمالت به
فلعنة الله على البرج

وفى ثالث جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين ، استقر الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر فى تدريس الشافعية ، والشيخ يحيى بن محمد بن أحمد العجيسى المغربى فى تدريس المالكية ، وعز الدين عبد العزيز بن على بن الفخر البغدادى فى تدريس الحنابلة ، وخلع عليهم بحضرة السلطان . فدرس ابن حجر بالمحراب فى يوم الخميس ثالث عشره ، ونزل السلطان وأقبل ليحضر عنده وهو فى القاء الدرس ، ومنعه من القيام له فلم يقم واستمر فيما هو بصدده ، وجلس السلطان عنده مليا .

ثم درس يحيى المغربى فى يوم الخميس خامس عشره ، ودرس فيه أيضا الفخر البغدادى ، وحضر معهما قضاة القضاة والمشايخ .

وفى سابع عشره استقر بدر الدين محمود ابن أحمد بن موسى بن أحمد العينتابى ناظر الأحباس فى تدريس الحديث النبوى ، واستقر شمس الدين محمد بن يحيى فى تدريس القراءات السبع .

وفى يوم الجمعة حادى عشرى شوال منها ، نزل السلطان الى هذا الجامع ، وقد تقدم الى المباشرين من أمسه بتهيئة السماط العظيم للمدة فيه ، والسكر الكثير لتملأ البركة التى بالصحن من السكر المذاب ، والحلوى الكثيرة .. فهيىء ذلك كله . وجلس السلطان بكرة النهار بالقرب من البركة فى الصحن على تخت ، واستعرض الفقهاء ، فقرر من وقع اختياره عليه فى الدروس . ومد السماط العظيم بأنواع المطاعم ، وملئت البركة بالسكر المذاب ، فأكل الناس ونهبو ، وارتووا من السكر المذاب ، وحملوا منه ومن الحلوى ما قدروا عليه .

ثم طلب قاضى القضاة شمس الدين محمد ابن سعد الديرى الحنفى ، وخلع عليه كاملية صوف بفرو سمور ، واستقر فى مشيخة التصوف وتدريس الحنفية ، وجلس بالمحراب والسلطان عن يمينه ، ويليه ابنه المقام الصارمى ابراهيم ، وعن يساره قضاة القضاة ومشايخ العلم ، وحضر أمراء الدولة ومباشروها . فألقى درسا مفيدا الى أن قرب وقت الصلاة ، فدعا بفض المجلس . ثم حضرت الصلاة ، فصعد ناصر الدين محمد بن البارزى كاتب السر المنبر ، فخطب وصلى ، ثم خلع عليه واستقر خطيبا وخازن الكتب ، وخلع على شهاب الدين أحمد الأذرعى الامام ، واستقر فى امامة الخمس . وركب السلطان ، وكان يوما مشهودا .

ولما مات المقام الصارمى ابراهيم ابن السلطان دفن بالقبة الشرقية ، ونزل السلطان حتى شهد دفنه فى يوم الجمعة ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين ، وأقام حتى صلى به الخطيب محمد البارزى كاتب

السر صلاة الجمعة ، بعدما خطب خطبة بليغة ، ثم عاد الى القلعة . وأقام القراء على قبره يقرأون القرآن أسبوعا ، والأمراء وسائر أهل الدولة يترددون اليه ، وكانت ليالى مشهودة .

وفى يوم السبت آخره ، استقر فى نظر الجامع المذكور : الأمير مقبل الدوادار ، وكاتب السر ابن البارزى . فنزلا اليه جميعا ، وتفقدا أحواله ، ونظرا فى أموره . فلما مات ابن البارزى فى ثامن شوال منها ، انفرد الأمير مقبل بالتحدث .

الى أن مات السلطان فى يوم الاثنين ثامن المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، فدفن بالقبة الشرقية ، ولم تكن عمرت ، فشرع فى عمارتها حتى كملت فى شهر ذى القعدة منها . وكذلك الدرج التى يصعد منها الى باب هذا الجامع من داخل باب زويلة لم تعمل الا فى شهر رمضان منها ، وبقيت بقايا كثيرة من حقوق هذا الجامع لم تعمل : منها القبة التى تقابل القبة المدفون تحتها السلطان ، والبيوت المعدة لسكن الصوفية وغير ذلك ، فأفرد لعمارتها نحو من عشرين ألف دينار . واستقر نظر هذا الجامع بعد موت السلطان بيد كاتب السر .

الجامع الاشرفى

هذا الجامع فيما بين المدرسة السيوفية وقيسارية العنبر ... كان موضعه حوانيت تعلوها رباع ، ومن ورائها ساحات كانت قياسر بعضها وقف على المدرسة القطبية . فابتدأ الهدم فيها ، بعدما استبدلت بغيرها ، أول شهر رجب سنة * ست وعشرين وثمانمائة ، وبنى مكانها . فلما عمر الايوان القبلى ، أقيمت به الجمعة فى سابع جمادى الأولى سنة سبع وعشرين ، وخطب به الحموى الواعظ وقد ولى الخطابة المذكورة .

الجامع الباسطى

هذا الجامع بخط الكافورى من القاهرة . كان موضعه من جملة أراضى البستان ، ثم صار مما اختط كما تقدم ذكره . فأنشأه القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل بن ابراهيم الدمشقى ، ناظر الجيوش ، فى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة ، ولم يسخر أحدا فى عمله ، بل وفى لهم أجورهم . حتى كمل فى أحسن هندام ، وأكيس قالب ، وأبدع زى ، ترتاح النفوس لرؤيته ، وتبتهج عند مشاهدته ، فهو الجامع الزاهر ، والمعبد الباهى الباهر .

ابتدىء فيه باقامة الجمعة فى يوم الجمعة الثانى من صفر سنة ثلاث وعشرين ، ورتب فى خطابته فتح الدين أحمد بن محمد بن النقاش ، أحد شهود الحوانيت وموقعى القضاة ، ثم رتب به صوفية ، وولى مشيخة التصوف عز الدين عبد السلام بن داود ابن عثمان المقدسى الشافعى أحد نواب الحكم ... فكان ابتداء حضورهم بعد عصر يوم السبت أول شهر رجب منها . وأجرى للفقراء الصوفية الخبز فى كل يوم ، والمعلوم فى كل شهر ، وبنى لهم مساكن ، وحفر صهريجا يملأ من ماء النيل ، ويسبل فى كل يوم . فعم نفعه ، وكثر خيره .

(*) ص٣٢٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

ثم تجدد فى بولاق جامع ابن الجابى وجامع ابن السنيتى ، وتجدد فى مصر جامع الحسنات بخط دار النحاس ، وفى حكر الصبان الجامع المعروف بالمستجد ، وبجامع الفتح ، وفى حارة الفقراء جامع عبد اللطيف الطواشى الساقى .

وتجدد فى خارج القاهرة بسويقة صفية جامع ابن درهم ونصف ، وفى خط معدية فريج جامع كول بغا ، وفى رأس درب النيدى جامع حارس الطير . وفى سويقة عصفور جامع القاضى أمين الدين ، بجانب زاوية الفقيه المعتقد أبى عبد الله محمد الفارقانى ، بنى فى سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة . وبخط البراذعيين ورأس حارة الحرمين جامع الحاج محمد — المعروف بالمسكين مهتار — ناظر الخاص .

وتجدد فى المراغة جامع الشيخ أبى بكر المعرف ، بناه الحاج أحمد القماح . وأقيمت خطبة بخانكاه الأمير جانى بك الأشرفى خارج باب زويلة ، وتوفى يوم الخميس سابع عشرى ربيع الأول سنة احدى وثلاثين وثمانمائة . وبخط باب اللوق جامع مقدم السقائين قريبا من جامع الست نصرة ، وبخط تحت الربع خارج باب زويلة جامع وتجدد بالصحراء ، قريبا من تربة الظاهر برقوق ، خطبة فى تربة السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقى .

وتجدد فى آخر سويقة أمير الجيوش بالقاهرة جامع أنشأه الفقير المعتقد محمد الغمرى ، وأقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة رابع ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل أن يكمل وتجدد فى زاوية الشيخ أبى العباس البصير ، التى عند قنطرة الخرق ، خطبة . وتجدد فى حدود الكماجيين ، من أراضى اللوق ، خطبة بزاوية مطلة على غيط العدة .

وتجدد بالصحراء خطبة فى تربة الأمير مشير الدولة كافور الزمام ، وتوفى فى خامس عشر ربيع الآخر سنة ثلاثين وثمانمائة . وتجدد بخط الكافورى خطبة ... أحدثها بنو وفاء فى جامع لطيف جدا . وتجدد بمدرسة ابن البقرى ، من القاهرة أيضا ، خطبة فى أيام المؤيد شيخ .

وتجدد بحارة الديلم خطبة فى مدرسة أنشأها الطواشى مشير الدولة المذكور . وتجدد عند قنطرة قدادار خطبة أنشأها شاكر البناء . وخطبة بالقرب منها فى جامع أنشأه الحاج ابراهيم البردار الشهير بالحمصانى ، أحد الفقراء الأحمدية السطوحية ، فى حدود الثلاثين والثمانمائة .

ذكر مذاهب اهل مصر ونحلهم منذ افتتح عمرو ابن العاص رضى الله عنه ارض مصر الى ان صاروا الى اعتقاد مذاهب الائمة رحمهم الله تعالى وما كان من الأحداث فى ذلك

اعلم أن الله عز وجل لما بعث نبينا محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، رسولا الى كافة الناس جميعا — عربهم وعجمهم — وهم كلهم أهل شرك وعبادة لغير الله تعالى الا بقايا من أهل الكتاب .. كان من أمره ، صلى الله عليه وسلم ، مع قريش ما كان حتى هاجر من مكة الى المدينة . فكانت الصحابة رضوان الله عليهم حوله ، صلى الله عليه وسلم ، يجتمعون اليه فى كل وقت مع ما كانوا فيه من ضنك المعيشة وقلة القوت .

فمنهم من كان يحترف فى الأسواق ، ومنهم من كان يقوم على نخله ، ويحضر رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى كل وقت ، ومنهم طائفة عندما تجد أدنى فراغ مما هم بسبيله من طلب القوت .

فاذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسألة ، أو حكم بحكم ، أو أمر بشىء ، أو فعل شيئا ... وعاه من حضر عنـده من الصحابة ، وفات من غاب عنه علم ذلك . ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد خفى عليه * ما عمله حمل بن مالك بن النابغة — رجل من الأعراب من هذيل — فى دية الجنين ، وخفى عليه ؟

وكان يفتى فى زمن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، من الصحابة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبـد الرحمن بن عوف وعبـد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار ابن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعرى وسلمان الفارسى ، رضى الله عنهم .

فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، تفرقت الصحابة رضى الله عنهم : فمنهم من خرج لقتال مسيلمة وأهل الردة ، ومنهم من خرج لقتال أهل الشام ، ومنهم من خرج لقتال أهل العراق ... وبقى من الصحابة بالمدينة مع أبى بكر رضى الله عنه عدة .

فكانت القضية اذا نزلت بأبى بكر رضى الله عنه ، قضى فيها بما عنده من العلم بكتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان لم يكن عنده فيها علم من كتاب الله ، ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سأل من بحضرته من الصحابة رضى الله عنهم عن ذلك ، فان وجد عندهم علما من ذلك رجع اليه والا اجتهد فى الحكم .

ولما مات أبو بكر ، وولى أمر الأمة من بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فتحت الأمصار وزاد تفرق الصحابة ، رضى الله عنهم ، فيما افتتحوه من الأقطار . فكانت الحكومة تنزل بالمدينة أو غيرها من البلاد ، فان كان عند الصحابة الحاضرين لها فى ذلك أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم به ، والا اجتهد أمير تلك البلدة فى ذلك . وقد يكون فى تلك القضية حكم عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، موجود عند صاحب آخر .

وقد حضر المدنى ما لم يحضر المصرى ، وحضر المصرى ما لم يحضر الشامى ، وحضر الشامى ما لم يحضر البصرى ، وحضر البصرى ما لم يحضر الكوفى ، وحضر الكوفى ما لم يحضر المدنى ... كل هذا موجود فى الآثار ، وفيما علم من مغيب بعض الصحابة عن مجلس النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الأوقات وحضور غيره ، ثم مغيب الذى حضر أمس وحضور الذى غاب ، فيدرى كل واحد منهم ما حضر ، ويفوته ما غاب عنه . فمضى الصحابة رضى الله عنهم على ما ذكرنا ، ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم .

وكل طبقة من التابعين فى البلاد التى تقدم ذكرها ، فانما تفقهوا مع من كان عندهم من

(*) ص٢٣١ جـ٢ ، ط.بولاق .

الصحابة ، فكانوا لا يتعدون فتاويهم الا اليسير مما بلغهم عن غير من كان فى بلادهم من الصحابة رضى الله عنهم : كاتباع أهل المدينة فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، واتباع أهل الكوفة فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، واتباع أهل مكة فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، واتباع أهل مصر فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

ثم أتى من بعد التابعين رضى الله عنهم فقهاء الأمصار — كأبى حنيفة ، وسفيان ، وابن أبى ليلى بالكوفة ، وابن جريج بمكة ، ومالك وابن الماجشون بالمدينة ، وعثمان البتى وسوار بالبصرة ، والأوزاعى بالشام ، والليث بن سعد بمصر — فجروا على تلك الطريق من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده فيما كان عندهم ، واجتهادهم فيما لم يجدوا عندهم وهو موجود عند غيرهم .

وأما مذاهب أهل مصر ، فقال أبو سعيد بن يونس : ان عبيد بن مخمر المغافرى — يكنى أبا أمية : رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، شهد فتح مصر ، روى عنه أبو قبيل — يقال انه كان أول من أقرأ القرآن بمصر .

وذكر أبو عمرو الكندى ، أن أبا ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة ، مولى الملامس الحضرمى ، كان فقيها عفيفا شريفا ، ولد سنة عشر ومائة ، وكان أول الناس اقرا بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة ، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة .

وذكر عن أبى قبيل وغيره أن يزيد بن أبى حبيب أول من نشر العلم بمصر فى الحلال والحرام — وفى رواية ابن يونس : ومسائل الفقه — وكانوا قبل ذلك انما يتحدثون فى الفتن والترغيب .

وعن عون بن سليمان الحضرمى ، قال : كان عمر بن عبد العزيز قد جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال : رجلان من الموالى ، ورجل من العرب . فأما العربى فجعفر بن ربيعة ، وأما الموليان فيزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن أبى جعفر . فكأن العرب أنكروا ذلك ، فقال عمر بن عبد العزيز : ما ذنبى ان كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون .

وعن ابن أبى قديد : كانت البيعة اذا جاءت للخليفة ، أول من بايع عبد الله بن أبى جعفر ، ويزيد بن أبى حبيب ، ثم الناس بعد .

وقال أبو سعيد بن يونس فى « تاريخ مصر » عن حيوة بن شريح ، قال : دخلت على حسين بن شفى بن مانع الأصبحى وهو يقول : فعل الله بفلان ، فقلت : ماله ؟ فقال : عمد الى كتابين كان شفى سمعهما من عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : أحدهما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كذا ، وقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم كذا ، والآخر مايكون من الأحداث الى يوم القيامة ، فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب . قال أبو سعيد بن يونس : يعنى بقوله «الخولة والرباب» * مركبين كبيرين من سفن الجسر ، كانا يكونان عند رأس الجسر ، مما يلى

(*) ص٢٣٢ جـ٢ ط.بولاق .

القسطاط ، يجوز من تحتها — لكبرها — المراكب .

وذكر أبو عمرو الكندى أن أبا سعيد عثمان بن عتيق ، مولى غافق ، أول من رحل من أهل مصر الى العراق فى طلب الحديث ، توفى سنة أربع وثمانين ومائة . انتهى .

وكان حال أهل الاسلام من أهل مصر وغيرها من الأمصار ، فى أحكام الشريعة ، على ما تقدم ذكره . ثم كثر الترحل الى الآفاق وتداخل الناس والتقوا ، وانتدب أقوام لجمع الحديث النبوى وتقييده .

فكان أول من دون العلم محمد ابن شهاب الزهرى ، وكان أول من صنف وبوب سعيد ابن عروبة والربيع بن صبيح بالبصرة ، ومعمر ابن راشد باليمن ، وابن جريج بمكة ، ثم سفيان الثورى بالكوفة ، وحماد بن سلمة بالبصرة ، والوليد بن مسلم بالشام ، وجرير ابن عبد الحميد بالرى ، وعبد الله بن المبارك بمرو وخراسان ، وهشيم بن بشير بواسط . وتفرد بالكوفة أبو بكر بن أبى شيبة بتكثير الأبواب ، وجودة التصنيف ، وحسن التأليف .

فوصلت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاد البعيدة الى من لم تكن عنده ، وقامت الحجة على من بلغه شىء منها ، وجمعت الأحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأولة من الأحاديث ، وعرف الصحيح من السقيم ، وزيف الاجتهاد المؤدى الى خلاف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم والى ترك عمله ، وسقط العذر عن خالف ما بلغه من السنن ببلوغه اليه وقيام الحجة عليه .

وعلى هذا الطريق كان الصحابة رضى الله عنهم ، وكثير من التابعين ، يرحلون فى طلب الحديث الواحد الأيام الكثيرة ... يعرف ذلك من نظر فى كتب الحديث ، وعرف سير الصحابة والتابعين .

فلما قام هارون الرشيد فى الخلافة ، وولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم — أحد أصحاب أبى حنيفة رحمه الله تعالى — بعد سنة سبعين ومائة . فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر الا من أشار به القاضى أبو يوسف ، رحمه الله ، واعتنى به .

وكذلك لما قام بالأندلس الحكم المرتضى بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، بعد أبيه ، وتلقب بالمنتصر فى سنة ثمانين ومائة ، اختص يحيى بن يحيى بن كثير الأندلسى — وكان حج وسمع الموطأ من مالك الا أبوابا ، وحمل عن ابن وهب وعن ابن القاسم وغيره علما كثيرا ، وعاد الى الأندلس ، فنال من الرياسة والحرمة ما لم ينله غيره ، وعادت الفتيا اليه ، وانتهى السلطان والعامة الى بابه — فلم يقلد ، فى سائر أعمال الأندلس ، قاض الا باشارته واعتنائه . فصاروا على رأى مالك ، بعدما كانوا على رأى الأوزاعى .

وقد كان مذهب الامام مالك أدخله الى الأندلس زياد بن عبد الرحمن — الذى يقال له بسطور — قبل يحيى بن يحيى ، وهو أول من أدخل مذهب مالك الأندلس . وكانت أفريقية الغالب عليها السنن والآثار ... الى أن قدم عبد الله بن فروج ، أبو محمد الفارسى ،

بمذهب أبى حنيفة ، ثم غلب أسد بن الفرات ابن سنان ، قاضى أفريقية ، بمذهب أبى حنيفة .

ثم لما ولى سحنون بن سعيد التنوخى قضاء أفريقية بعد ذلك ، نشر فيهم مذهب مالك ، وصار القضاء فى أصحاب سحنون دولا يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشول . الى أن تولى القضاء بها بنو هاشم — وكانوا مالكية — فتوارثوا القضاء كما تتوارث الضياع . ثم ان المعز بن باديس حمل جميع أهل أفريقية على التمسك بمذهب مالك وترك ماعداه من المذاهب ، فرجع أهل أفريقية وأهل الأندلس كلهم الى مذهب مالك الى اليوم ، رغبة فيما عند السلطان وحرصا على طلب الدنيا ، اذ كان القضاء والافتاء فى جميع تلك المدن وسائر القرى ، لا يكون الا لمن تسمى بالفقه على مذهب مالك ، فاضطرت العامة الى أحكامهم وفتاواهم ، ففشا هذا هناك فشوا طبق تلك الأقطار .

كما فشا مذهب أبى حنيفة ببلاد المشرق . حيث أن أبا حامد الأسفرايني ، لما تمكن من الدولة فى أيام الخليفة القادر بالله أبى العباس أحمد ، قرر معه استخلاف أبى العباس أحمد ابن محمد البارزى الشافعى ، عن أبى محمد ابن الأكفانى الحنفى قاضى بغداد ، فأجيب اليه بغير رضا الأكفانى .

وكتب أبو حامد الى السلطان محمود بن سبكتكين وأهل خراسان أن الخليفة نقل القضاة عن الحنفية الى الشافعية . فاشتهر ذلك بخراسان ، وصار أهل بغداد حزبين .

وقدم بعد ذلك أبو العلاء صاعد بن محمد ، قاضى نيسابور ورئيس الحنفية بخراسان ، فأتاه الحنفية ، فثارت بينهم وبين أصحاب أبى حامد فتنة ارتفع أمرها الى السلطان .

فجمع الخليفة القائم الأشراف والقضاة ، وأخرج اليهم رسالة تتضمن : أن الأسفرايني أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والأمانة ، وكانت على أصول الدخل والخيانة . فلما تبين له أمره ، ووضح عنده خبث اعتقاده ، فيما سأل فيه من تقليد البارزى الحكم بالحضرة ، من الفساد والفتنة والعدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من ايثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم ... صرف البارزى ، وأعاد الأمر الى حقه ، وأجراه على قديم * رسمه ، وحمل الحنفيين على ما كانوا عليه من العناية والكرامة والحرمة والاعزاز ، وتقدم اليهم بألا يلقوا أبا حامد ، ولا يقضوا له حقا ، ولا يردوا عليه سلاما .

وخلع على أبى محمد الأكفانى ، وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة ، وظهر التسخط عليه والانحراف عنه ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، واتصل ببلاد الشام ومصر .

أول من قدم بعلم مالك الى مصر عبد الرحيم ابن خالد بن يزيد بن يحيى ، مولى جمح ، وكان فقيها ... روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد ، وتوفى بالاسكندرية سنة ثلاث وستين ومائة . ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم ، فاشتهر مذهب مالك بمصر ، أكثر من مذهب أبى حنيفة ، لتوفر

(*) ص٣٢٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

أصحاب مالك بمصر . ولم يكن مذهب أبي حنيفة ، رحمه الله ، يعرف بمصر .

قال ابن يونس . وقدم اسماعيل بن اليسع الكوفي قاضيا بعد ابن لهيعة ، وكان من خير قضاتنا ، غير انه كان يذهب الى قول أبي حنيفة ، ولم يكن أهل مصر يعرفون مذهب أبي حنيفة ، وكان مذهبه ابطال الأحباس ، فثقل أمره على أهل مصر ، وشنوه .

ولم يزل مذهب مالك مشتهرا بمصر حتى قدم الشافعي محمد بن ادريس الى مصر ، مع عبد الله بن العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، في سنة ثمان وتسعين ومائة . فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها — كبني عبد الحكم ، والربيع بن سليمان ، وأبي ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني ، وأبي يعقوب يوسف بن يحيى البويطي — وكتبوا عن الشافعي ما ألفه ، وعملوا بما ذهب اليه . ولم يزل أمر مذهبه يقوى بمصر ، وذكره ينتشر .

قال أبو عمرو الكندي في كتاب « أمراء مصر » : ولم يزل أهل مصر على الجهر بالبسملة في الجامع العتيق الى سنة ثلاث وخمسين ومائتين .. قال : ومنع أرجون ، صاحب شرطة مزاحم ابن خاقان أمير مصر ، من الجهر بالبسملة في الصلوات بالمسجد الجامع ، وأمر الحسين ابن الربيع امام المسجد الجامع بتركها ، وذلك في رجب سنة ثلاث وستين ومائتين ولم يزل أهل مصر على الجهر بها في المسجد الجامع منذ الاسلام الى أن منع منها أرجون .

قال : وأمر أن تصلي التراويح في شهر رمضان خمس تراويح ، ولم يزل أهل مصر يصلون ست تراويح ، حتى جعلها أرجون خمسا في شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، ومنع من التثويب ، وأمر بالأذان يوم الجمعة في مؤخر المسجد ، أمر بالتغليس بصلاة الصبح ، وذلك أنهم أسفروا بها .

وما زال مذهب مالك ومذهب الشافعي ، رحمهما الله تعالى ، يعمل بهما أهل مصر ، ويولى القضاء من كان يذهب ايهما أو الى مذهب أبي حنيفة رحمه الله الى أن قدم القائد جوهر من بلاد أفريقية ، في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، بجيوش مولاه المعز لدين الله أبي تميم معد ، وبنى مدينة القاهرة فمن حينئذ فشا بديار مصر مذهب الشيعة ، عمل به في القضاء والفتيا ، وأنكر ما خالفه ، ولم يبق مذهب سواه .

وقد كان التشيع بأرض مصر معروفا قبل ذلك .. قال أبو عمرو الكندي في « كتاب الموالي » عن عبد الله بن لهيعة أنه قال : قال يزيد بن أبي حبيب . نشأت بمصر وهي علوية ، فقلبتها عثمانية

وكان ابتداء التشيع في الاسلام أن رجلا من اليهود ، في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أسلم فقيل له عبد الله ابن سبأ ، وعرف بابن السوداء ، وصار ينتقل من الحجاز الى أمصار المسلمين يريد اضلالهم فلم يطق ذلك .

فرجع الى كيد الاسلام وأهله ، ونزل البصرة في سنة ثلاث وثلاثين ، فجعل يطرح على أهلها مسائل ولا يصرح . فأقبل عليه

جماعة ، ومالوا اليه ، وأعجبوا بقوله . فبلغ ذلك عبد الله بن عامر — وهو يومئذ على البصرة — فأرسل اليه ، فلما حضر عنده سأله : ما أنت ؟

فقال : رجل من أهل الكتاب ، رغبت في الاسلام وفي جوارك .

فقال : ما شيء بلغني عنك ؟ أخرج عني .

فخرج حتى نزل الكوفة ، فأخرج منها ، فسار الى مصر واستقر بها ، وقال : في الناس العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ، ويكذب أن محمدا يرجع .

وتحدث في الرجعة حتى قبلت منه . فقال بعد ذلك : انه كان لكل نبي وصي ، وعلي بن أبي طالب وصي محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن علي بن أبي طالب وصيه في الخلافة على أمته . واعلموا أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، فانهضوا في هذا الأمر ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، فأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس .

وبث دعاته ، وكاتب من مال اليه من أهل الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم ، وصاروا يكتبون الى الأمصار كتبا يضعونها في عيب ولاتهم ، فيكتب أهل كل مصر منهم الى أهل المصر الآخر بما يضعون حتى ملأوا بذلك الأرض اذاعة .

وجاء الى أهل المدينة من جميع الأمصار . فأتوا عثمان رضي الله عنه في سنة خمس وثلاثين ، وأعلموه ما أرسل به أهل الأمصار

من شكوى عمالهم . فبعث محمد بن مسلمة الى الكوفة ، وأسامة بن زيد الى البصرة ، وعمار بن ياسر الى مصر ، وعبد الله بن عمر الى الشام ... لكشف سير العمال . فرجعوا الى عثمان ، الا عمارا ، وقالوا : ما أنكرنا شيئا * .

وتأخر عمار ، فورد الخبر الى المدينة بأنه قد استماله عبد الله ابن السوداء في جماعة . فأمر عثمان عماله أن يوافوه بالمواسم ، فقدموا عليه واستشاروه ، فكل أشار برأي . ثم قدم المدينة بعد الموسم ، فكان بينه وبين علي بن أبي طالب كلام فيه بعض الجفاء بسبب اعطائه أقاربه ، ورفعه لهم على من سواهم .

وكان المنحرفون عن عثمان قد تواعدوا يوما يخرجون فيه بأمصارهم اذا سار عنها الأمراء ، فلم يتهيأ لهم الوثوب . وعندما رجع الأمراء من الموسم ، تكاتب المخالفون في القدوم الى المدينة لينظروا فيما يريدون .

وكان أمير مصر من قبل عثمان رضي الله عنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري . فلما خرج في شهر رجب من مصر في سنة خمس وثلاثين ، استخلف بعده عقبة بن عامر الجهني ... في قول الليث بن سعد . وقال يزيد بن أبي حبيب : بل استخلف على مصر السائب بن هشام العامري ، وجعل على الخراج سليم بن عنز التجيبي .

فانتزى محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، في شوال من السنة المذكورة ، وأخرج عقبة بن عامر من

(*) ص ٣٣٤ ج ٢ ، ط بولاق .

الفسطاط ، ودعا الى خلع عثمان رضي الله عنه ، وأسعر البلاد ، وحرض على عثمان بكل شيء يقدر عليه .

فكان يكتب الكتاب على لسان أزواج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ويأخذ الرواحل فيضمرها ، ويجعل رجالا على ظهور البيوت ووجوههم الى وجه الشمس لتلوح وجوههم تلوح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا الى طريق المدينة بمصر ، ثم يرسلوا رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم . وقد أمرهم اذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر في الكتب .

فيلقاهم رسول أولئك القوم ممن قد ذكر مكانهم ، فيتلقاهم ابن أبي حذيفة — والناس يقولون نلقى رسل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم — فاذا لقوهم قالوا لهم ما الخبر ؟ قالوا : لا خبر عندنا ، عليكم بالمسجد ليقرأ عليكم كتب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

فيجتمع الناس في المسجد اجتماعا ليس فيه تقصير ، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول : انا نشكو الى الله واليكم ما عمل في الاسلام وما صنع في الاسلام . فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء فيبكون ، ثم ينزل عن المنبر ، ويفترق الناس بما قرئ عليهم .

فلما رأت ذلك شيعة عثمان رضي الله عنه ، اعتزلوا محمد بن أبي حذيفة ، ونابذوه — وهم : معاوية بن حديج ، وخارجة بن حذافة ، وبسر بن أرطاة ، ومسلمة بن مخلد ، وعمرو بن قحزم الخولاني ، ومقسم بن بجرة ، وحمزة بن سرح بن كلال ، وأبو الكنود سعد بن مالك الأزدي ، وخالد بن ثابت الفهمي — في جمع كثير ، وبعثوا سلمة بن مخرمة التجيبي الى عثمان ليخبره بأمرهم ، وبصنيع ابن أبي حذيفة .

فبعث عثمان ، رضي الله عنه ، سعد بن أبي وقاص ليصلح أمرهم . فبلغ ذلك ابن أبي حذيفة ، فخطب الناس وقال : ألا ان الكذا والكذا قد بعث اليكم سعد بن مالك ليفل جماعتكم ، ويشتت كلمتكم ، ويوقع التخاذل بينكم — فانفروا اليه .

فخرج منهم مائة أو نحوها ، وقد ضرب فسطاطه وهو قائل ، فقلبوا عليه فسطاطه ، وشجوه وسبوه . فركب راحلته ، وعاد راجعا من حيث جاء ، وقال : ضربكم الله بالذل والفرقة ، وشتت أمركم ، وجعل بأسكم بينكم ، ولا أرضاكم بأمير ، ولا أرضاه عنكم .

وأقبل عبد الله بن سعد حتى بلغ جسر القلزم . فاذا بخيل لابن أبي حذيفة ، فمنعوه أن يدخل ، فقال : ويلكم دعوني أدخل على جندي فأعلمهم بما جئت به ، فاني قد جئتهم بخير . فأبوا أن يدعوه . فقال : والله لوددت أني دخلت عليهم ، فأعلمهم بما جئت به ، ثم مت . فانصرف الى عسقلان .

وأجمع محمد بن أبي حذيفة على بعث جيش الى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، فقال : من يشترط في هذا البعث . فكثر عليه من يشترط ، فقال : انما يكفينا منكم ستمائة رجل .

فشترط من أهل مصر ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس ، وعلى جماعتهم عبد الرحمن ابن عديس البلوي ، وهم : كنانة بن بشر بن سليمان التجيبي ، وعروة بن سليم الليثي ، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وسودان بن رومان الأصبحي ، وذرع بن يشكر اليافعي .

وسجن رجال من أهل مصر في دورهم ، منهم بسر بن أرطاة ومعاوية بن حديج . فبعث ابن أبي حذيفة الى معاوية بن حديج — وهو أرمد — ليكرهه على البيعة . فلما بلغ ذلك كنانة بن بشر — وكان رأس الشيعة الأولى — دفع عن معاوية ما كره .

ثم قتل عثمان رضي الله عنه في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ، فدخل الركب الى مصر وهم يرتجزون :

خذها اليك واحذرن أبا الحسن
انا نمر الحرب امرار الرسن
بالسيف كي تخمد نيران الفتن

فلما دخلوا المسجد صاحوا : انا لسنا قتلة عثمان ، ولكن الله قتله .

فلما رأى ذلك شيعة عثمان ، قاموا وعقدوا لمعاوية بن حديج عليهم ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان . فسار بهم معاوية الى الصعيد ، فبعث اليهم ابن أبي حذيفة ، فالتقوا بدقناس من كورة البهنسا ، فهزم أصحاب ابن أبي حذيفة ، ومضى معاوية حتى بلغ برقة ، ثم رجع الى * الاسكندرية . فبعث ابن أبي حذيفة بجيش آخر عليهم قيس بن حرمل ، فاقتتلوا بخربتا أول شهر رمضان سنة ست وثلاثين ، فقتل قيس .

وسار معاوية بن أبي سفيان الى مصر ، فنزل سلمنت من كورة عين شمس في شوال . فخرج اليه ابن أبي حذيفة في أهل مصر فمنعوه أن يدخلها . فبعث اليه معاوية : انا لا نريد قتال أحد ، انما جئنا نسأل القود لعثمان ، ادفعوا الينا قاتليه عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر ، وهما رأس القوم .

فامتنع ابن أبي حذيفة وقال : لو طلبت منا جديا أرطب السرة بعثمان ما دفعناه اليك !

فقال معاوية بن أبي سفيان لابن أبي حذيفة : اجعل بيننا وبينكم رهنا ، فلا يكون بيننا وبينكم حرب .

فقال ابن أبي حذيفة : فاني أرضى بذلك .

فاستخلف ابن أبي حذيفة على مصر الحكم ابن الصلت بن مخرمة ، وخرج في الرهن هو وابن عديس وكنانة بن بشر وأبو شمر بن أبرهة وغيرهم من قتلة عثمان . فلما بلغوا لد سجنهم بها معاوية ، وسار الى دمشق . فهربوا من السجن ، غير أبي شمر بن أبرهة فانه قال : لا أدخله أسيرا وأخرج منه آبقا ، وتبعهم صاحب فلسطين فقتلهم .

واتبع عبد الرحمن بن عديس رجل من الفرس ، فقال له عبد الرحمن بن عديس : اتق الله في دمي ، فاني بايعت النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة .

فقال له : الشجر في الصحراء كثير . فقتله .

(*) ص ٢٢٥ ج ٣ ، ط بولاق .

وقال محمد بن أبى حذيفة فى الليلة التى قتل فى صباحها عثمان فان يكن القصاص لعثمان فسنقتل من الغد فقتل من الغد

وكان قتل ابن أبى حذيفة ، وعبد الرحمن ابن عديس ، وكنانة بن بشر ، ومن كان معهم من الرهن ، فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين .

فلما بلغ على بن أبى طالب رضى الله عنه مصاب ابن أبى حذيفة ، بعث قيس بن سعد ابن عبادة الأنصارى على مصر ، وجمع له الخراج والصلاة فدخلها مستهل شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين ، واستمال الخارجية بخربتا ، دفع اليهم أعطياتهم ، وورد عليه وفدهم فاكرمهم وأحسن اليهم ومصر يومئذ من جيش على رضى الله عنه الا أهل خربتا الخارجين بها .

فلما ولى على رضى الله عنه قيس بن سعد — وكان من ذوى الرأى — جهد معاوية ابن أبى سفيان وعمرو بن العاص ، على أن يخرجاه من مصر ليغلبا على أمرها ، فامتنع عليهما بالدهاء والمكايدة ، فلم يقدروا على أن يلجا مصر حتى كاد معاوية قيسا من قبل على رضى الله عنه .

فكان معاوية يحدث رجالا من ذوى رأى قريش فيقول . ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب الى من مكايدة كدت بها قيس بن سعد حين امتنع منى ... قلت لأهل الشام « لا تسبوا قيسا ولا تدعوا الى غزوه ، فان قيسا لنا شيعة تأتيا كتبه ونصيحته سرا ألا ترون ماذا يفعل باخوانكم النازلين عنده بخربتا ؟ يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، ويؤمن سربهم ، ويحسن الى كل راكب يأتيه منهم .

قال معاوية · وطفقت أكتب بذلك الى شيعتى من أهل العراق فسمع بذلك جواسيس على بالعراق ، فأنهاه اليه محمد بن أبى بكر وعبد الله بن جعفر فاتهم قيسا ، فكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتا ، وبخربتا يومئذ عشرة آلاف

فأبى قيس أن يقاتلهم ، وكتب الى على رضى الله عنه : « انهم وجوه أهل مصر وأشرافهم ، وأهل الحفاظ منهم ، وقد رضوا منى أن أؤمن سربهم ، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم وقد علمت أن هواهم مع معاويه ، فلست بكائدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم وهم أسود العرب منهم : بسر بن أرطاة ، وسلمة بن مخلد ، ومعاوية ابن لخديج »

فأبى عليه الا قتالهم فأبى قيس أن يقاتلهم ، وكتب الى على رضى الله عنه : « ان كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غيرى »

وكتب معاوية رضى الله عنه الى بعض بنى أمية بالمدينة : « أن جزى الله قيس بن سعد خيرا ، فانه قد كف عن اخواننا من أهل مصر الذين قاتلوا فى دم عثمان ، واكتموا ذلك فانى أخاف أن يعزله على ان بلغه ما بينه وبين شيعتنا » .

حتى بلغ عليا رضى الله عنه ذلك ، فقال من معه من رؤساء أهل العراق وأهل المدينة : بدل قيس وتحول .

فقال على : ويحكم انه لم يفعل فدعونى .

قالوا : لتعزلنه فانه قد بدل .

فلم يزالوا به حتى كتب اليه : « انى قد احتجت الى قربك ، فاستخلف على عملك وأقدم » .

فلما قرأ الكتاب قال : هذا من مكر معاوية ولولا الكذب لمكرت به مكرا يدخل عليه بيته .

فوليها قيس بن سعد الى أن عزل عنها أربعة أشهر وخمسة أيام ، وصرف لخمس خلون من رجب سنة سبع وثلاثين . ثم وليها الأشتر مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعى من قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه . وذلك أن عبد الله بن جعفر كان اذا أراد ألا يمنعه على شيئا قال له بحق جعفر ، فقال له : أسألك بحق جعفر الا بعثت الأشتر الى مصر ، فان ظهرت فهو الذى تحب ، والا استرحت منه .

ويقال كان الأشتر قد ثقل على على رضى الله عنه وأبغضه وقلاه ، فولاه وبعثه . فلما قدم قلزم مصر ، لقى بما يلقى العمال به هناك ، فشرب شربة عسل فمات . فلما أخبر على بذلك قال : لليدين وللفم . وسمع عمرو ابن العاص بموت الأشتر فقال : ان لله جنودا من عسل ، أو قال : ان لله جنودا من العسل .

ثم وليها محمد بن أبى بكر * الصديق من قبل على رضى الله عنهم ، وجمع له صلاتها وخراجها . فدخلها للنصف من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين ، فلقيه قيس بن سعد فقال له : « انه لا يمنعنى نصحى لك عزله اياى ، ولقد عزلنى عن غير وهن ولا عجز ، فاحفظ ما أوصيك به يدم صلاح حالك : دع معاوية ابن خديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أرطاة ومن ضوى اليهم على ما هم عليه ، لا تكفهم عن رأيهم ، فان أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وان تخلفوا عنك فلا تطلبهم ...

« وانظر هذا الحى من مضر فأنت أولى بهم منى : فألن لهم جناحك ، وقرب عليهم مكانك ، وارفع عنهم حجابك . وانظر هذا الحى من مدلج ، فدعهم وما غلبوا عليه يكفوا عنك شأنهم ، وأنزل الناس من بعد على قدر منازلهم ، فان استطعت أن تعود المرضى ، وتشهد الجنائز ، فافعل فان هذا لا ينقصك ، ولن تفعل ، انك والله ما علمت لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة ، وتسارع الى ما هو ساقط عنك . والله موفقك » .

فعمل محمد بخلاف ما أوصاه به قيس ، فبعث الى ابن خديج والخارجة معه يدعوهم الى بيعته فلم يجيبوه ، فبعث الى دور الخارجة فهدمها ، ونهب أموالهم ، وسجن ذراريهم ، فنصبوا له الحرب ، وهموا بالنهوض اليه . فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم ، ثم صالحهم على أن يسيرهم الى معاوية ، وأن ينصب لهم جسر أنتقيوس يجوزون عليه ، ولا يدخلون الفسطاط . ففعلوا ولحقوا بمعاوية .

فلما أجمع على رضى الله عنه ومعاوية على الحكمين ، أغفل على أن يشترط على معاوية ألا يقاتل أهل مصر . فلما انصرف على الى العراق ، بعث معاوية رضى الله عنه عمرو بن العاص رضى الله عنه فى جيوش أهل الشام

(*) ص٢٣٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

الى مصر فاقتتلوا قتالا شديدا انهزم فيه أهل مصر ، ودخل عمرو بأهل الشام الفسطاط .

وتغيب محمد بن أبى بكر ، فأقبل معاوية ابن خديج فى رهط ممن يعينه على من كان يمشى فى قتل عثمان ، وطلب ابن أبى بكر ، فدلتهم عليه امرأة ، فقال . احفظونى فى أبى بكر

فقال معاوية بن خديج : قتلت ثمانين رجلا من قومى فى عثمان ، وأتركك وأنت صاحبه . فقتله ثم جعله فى جيفة حمار ميت فأحرقه بالنار .

فكانت ولاية محمد بن أبى بكر خمسة أشهر ، ومقتله لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمان وثلاثين .

ثم ولى عمرو بن العاص مصر من بعده ، فاستقبل بولايته هذه الثانية شهر ربيع الأول ، وجعل اليه الصلاة والخراج — كانت مصر قد جعلها معاوية له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة على مصلحتها — ثم خرج الى الحكومة ، واستخلف على مصر ابنه عبد الله ابن عمرو ، وقتل خارجة بن حذافة ، ورجع عمرو الى مصر فأقام بها

وتعاقد بنو ملجم — عبد الرحمن وقيس ويزيد — على قتل على رضى الله عنه وعمرو ومعاوية رضى الله عنهما ، وتواعدوا على ليلة من رمضان سنة أربعين ، فمضى كل منهم الى صاحبه .

فلما قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، واستقر الأمر لمعاوية ، كانت مصر — جندها وأهل شوكتها — عثمانية ، وكثير من أهلها علوية .

فلما مات معاوية ومات ابنه يزيد بن معاوية ، كان على مصر سعيد بن يزيد الأزدى على صلاتها فلم يزل أهل مصر على الشنآن له ، والاعراض عنه ، التكبر عليه ، منذ ولاه يزيد بن معاوية ، حتى مات يزيد فى سنة أربع وستين .

ودعا عبد الله بن الزبير الى نفسه . فقامت الخوارج بمصر فى أمره ، وأظهروا دعوته — وكانوا يحسبونه على مذهبهم — وأوفدوا منهم وفدا اليه ، فسار منهم نحو الألفين من مصر ، وسألوا أن يبعث اليهم بأمير يقومون معه ويوازرونه وكان كريب بن أبرهة الصباح ، وغيره من أشراف مصر يقولون : ماذا نرى من العجب أن هذه الطائفة المكتتمة تأمر فينا وتنهى ، ونحن لا نستطيع أن نرد أمرهم . ولحق بابن الزبير ناس كثير من أهل مصر .

وكان أول من قدم مصر برأى الخوارج حجر بن الحارث بن قيس المذحجى — وقيل حجر بن عمرو — ويكنى بأبى الورد ، وشهد مع على صفين ، ثم صار من الخوارج ، وحضر مع الحرورية النهروان . فخرج وصار الى مصر برأى الخوارج ، أقام بها حتى خرج منها الى ابن الزبير فى امارة مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر .

فلما مات يزيد بن معاوية ، وبويع ابن الزبير بعده بالخلافة ، بعث الى مصر بعبد الرحمن بن جحدم الفهرى . فقدمها فى طائفة من الخوارج ، فوثبوا على سعيد بن يزيد ،

فاعتزلهم . واستتر ابن جحدم ، وكثرت الخوارج بمصر منها وممن قدم من مكة ، فأظهروا فى مصر التحكيم ، ودعوا اليه ، فاستعظم الجند ذلك . وبايعه الناس على غل فى قلوب ناس من شيعة بنى أمية : منهم كريب بن أبرهة ، ومقسم بن بجرة ، وزياد بن حناطة التجيبى ، وعابس بن سعيد وغيرهم . فصار أهل مصر حينئذ ثلاث طوائف : علوية ، وعثمانية ، وخوارج .

فلما بويع مروان بن الحكم بالشام فى ذى القعدة سنة أربع وستين ، كانت شيعته من أهل مصر مع ابن جحدم ، فكاتبوه سرا حتى أتى مصر فى أشراف كثيرة ، وبعث ابنه عبد العزيز بن مروان فى جيش الى أيلة ليدخل من هناك مصر .

وأجمع ابن جحدم على حربه ومنعه ، فحفر الخندق فى شهر — وهو الخندق الذى بالقرافة — وبعث بمراكب فى البحر ليخالف الى عيالات أهل الشام ، وقطع بعثا فى البر ، وجهز جيشا آخر الى أيلة * لمنع عبد العزيز من المسير منها . فعرفت المراكب ، ونجا بعضها ، وانهزمت الجيوش . ونزل مروان عين شمس ، فخرج اليه ابن جحدم فى أهل مصر ، فتحاربوا واستجر القتل ، فقتل من الفريقين خلق كثير .

ثم ان كريب بن أبرهة وعابس بن سعيد وزياد بن حناطة وعبد الرحمن بن موهب المغافرى ، دخلوا فى الصلح بين أهل مصر وبين مروان فتم ، ودخل مروان الى الفسطاط لغرة جمادى الأولى سنة خمس وستين ، فكانت ولاية ابن جحدم تسعة أشهر .

ووضع العطاء فبايعه الناس ، الا نفرا من المعافر قالوا : لا نخلع بيعة ابن الزبير ، فقتل منهم ثمانين رجلا ... قدمهم رجلا رجلا فضرب أعناقهم وهم يقولون : انا قد بايعنا ابن الزبير طائعين ، فلم نكن لننكث بيعته . وضرب عنق الأكدر بن حمام بن عامر ، سيد لخم وشيخها ، وحضر هو وأبوه فتح مصر ، وكانا ممن ثار الى عثمان رضى الله عنه ، فتنادى الجند : قتل الأكدر . فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه ، فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفا .

وخشى مروان ، وأغلق بابه حتى أتاه كريب ابن أبرهة ، وألقى عليه رداءه ، وقال للجند : انصرفوا ، أنا له جار . فما عطف أحد منهم ، وانصرفوا الى منازلهم ، وكان للنصف من جمادى الآخرة . ويومئذ مات عبد الله بن عمرو ابن العاص ، فلم يستطع أحد أن يخرج بجنازته الى المقبرة لشغب الجند على مروان . ومن حينئذ غلبت العثمانية على مصر ، فتظاهروا فيها بسب على رضى الله عنه ، وانكفت ألسنة العلوية والخوارج .

فلما كانت ولاية قرة بن شريك العبسى على مصر ، من قبل الوليد بن عبد الملك فى سنة تسعين ، خرج الى الاسكندرية فى سنة احدى وتسعين . فتعاقدت السراة من الخوارج بالاسكندرية على الفتك به — وكانت عدتهم نحوا من مائة — فعقدوا لرئيسهم المهاجر بن أبى المثنى التجيبى ، أحد بنى فهم ، عليهم عند منارة الاسكندرية .

(*) ص ٢٣٧ ج ٢ ، ط بولاق .

[illegible]

ثم قتلت الخطيئة [illegible] ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ، في ذي الحجة من سنة [illegible] الى مصر [illegible] الجامع [illegible] علي بن محمد الى أبي جعفر [illegible]

[illegible]

عظيم ، فأخرج العمال ، وجبى الخراج . ولحق به عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب — الذى يقال له ابن الأرقط — فقوده أبو حرملة ، وضم اليه الأعراب ، وولاه بنا وبوصير وسنود .

فبعث يزيد أمير مصر بجمع من الأتراك فى جمادى الآخرة ، فقاتلهم ابن الأرقط ، وقتل منهم . ثم ثبتوا له ، فانهزم وقتل من أصحابه كثير ، وأسر منهم كثير . ولحق ابن الأرقط بأبى حرملة فى شرقيون ، فصار الى عسكر يزيد ، فانهزم أبو حرملة ، وقدم مزاحم بن خاقان من العراق فى جيش ، فحارب أبا حرملة حتى أسر فى رمضان .

واستأمن ابن الأرقط ، فأخذ وأخرج الى العراق فى ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، ففر منهم ، ثم ظفر به وحبس ، ثم حمل الى العراق فى صفر سنة خمس وخمسين ومائتين بكتاب ورد على أحمد بن طولون . ومات أبو حرملة فى السجن لأربع بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين ، وأخذ جابر بعد حروب ، وحمل الى العراق فى رجب سنة أربع وخمسين .

وخرج فى امرة أرجون التركى رجل من العلويين يقال له بغا الأكبر — وهو أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن حسن بن حسين بن على — بالصعيد ، فحاربه أصحاب أرجون ، وفر منهم فمات . ثم خرج بغا الأصغر — وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا — فيما بين الاسكندرية وبرقة فى جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائتين — والأمير يومئذ أحمد بن طولون — وسار فى جمع الى الصعيد . فقتل فى الحرب ، وأتى برأسه الى الفسطاط فى شعبان .

وخرج ابن الصوفى العلوى بالصعيد — وهو ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله ابن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب — ودخل اسنا فى ذى القعدة سنة خمس وخمسين ، ونهبها وقتل أهلها . فبعث اليه ابن طولون بجيش فحاربوه ، فهزمهم فى ربيع الأول سنة ست وخمسين بهو ، فبعث ابن طولون اليه بجيش آخر ، فالتقيا باخميم فى ربيع الآخر ، فانهزم ابن الصوفى ، وترك جميع مامعه ، وقتلت رجاله .

فأقام ابن الصوفى بالواح سنتين ، ثم خرج الى الأشمونين فى المحرم سنة تسع وخمسين ، وسار الى أسوان لمحاربة أبى عبد الرحمن العمرى ، فظفر به العمرى وبجميع جيشه ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ولحق ابن الصوفى بأسوان فقطع لأهلها ثلثمائة ألف نخلة . فبعث اليه ابن طولون بعثا ، فاضطرب أمره مع أصحابه فتركهم ، ومضى الى عيذاب فركب البحر الى مكة ، فقبض عليه بها ، وحمل الى ابن طولون فسجنه ثم أطلقه * ، فصار الى المدينة ومات بها .

وفى امارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، أنكر رجل من أهل مصر أن يكون أحد خيرا من أهل البيت ، فوثبت اليه العامة ، فضرب بالسياط يوم الجمعة فى جمادى الأولى سنة خمس وثمانين ومائتين .

(*) ص٣٢٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

وفى امارة ذكا الأعور على مصر ، كتب على أبواب الجامع العتيق ذكر الصحابة والقرآن ، فرضيه جمع من الناس ، وكرهه آخرون . فاجتمع الناس فى رمضان سنة خمس وثلثمائة الى دار ذكا يتشكرون على ما أذن لهم فيه ، فوثب الجند بالناس ، فنهب قوم ، وجرح آخرون ، ومحى ما كتب على أبواب الجامع ، ونهب الناس فى المسجد والأسواق ، وأفطر الجند يومئذ .

وما زال أمر الشيعة يقوى بمصر . الى أن دخلت سنة خمسين وثلثمائة ، ففى يوم عاشوراء كانت منازعة بين الجند وبين جماعة من الرعية ، عند قبر كلثوم العلوية ، بسبب ذكر السلف والنوح ، قتل فيها جماعة من الفريقين . وتعصب السودان على الرعية ، فكانوا اذا لقوا أحدا قالوا له : من خالك ؟ فان لم يقل معاوية والا بطشوا به وشلحوه . ثم كثر القول : معاويه خال على .

وكان على باب الجامع العتيق شيخان من العامة يناديان فى كل يوم جمعة فى وجوه الناس من الخاص والعام : معاوية خالى وخال المؤمنين ، وكاتب الوحى ، ورديف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان هذا أحسن ما يقولونه ... والا فقد كانوا يقولون : معاوية خال على من هاهنا — ويشيرون الى أصل الأذن — ويلقون أبا جعفر مسلما الحسينى ، فيقولون له ذلك فى وجهه وكان بمصر أسود يصيح دائما : معاوية خال على ، فقتل بتنيس أيام القائد جوهر .

ولما ورد الخبر بقيام بنى حسن بمكة ، ومحاربتهم الحاج ونهبهم ، خرج خلق من المصريين فى شوال ، فلقوا كافور الاخشيدى بالميدان ظاهر مدينة مصر ، وضجوا وصاحوا : معاوية خال على ، وسألوه أن يبعث لنصرة الحاج على الطالبيين .

وفى شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة ، أخذ رجل — يعرف بابن أبى الليث الملطى — ينسب الى التشيع ، فضرب مائتى سوط ودرة ، ثم ضرب فى شوال خمسمائة سوط ودرة ، وجعل فى عنقه غل وحبس ، وكان يتفقد فى كل يوم لئلا يخفف عنه ، ويبصق فى وجهه ، فمات فى محبسه فحمل ليلا ودفن . فمضت جماعة الى قبره لينشوه ، وبلغوا الى القبر ، فمنعهم جماعة من الاخشيدية والكافورية ، فأبوا وقالوا : هذا قبر رافضى . فثارت فتنة ، وضرب جماعة ، ونهبوا كثيرا حتى تفرق الناس .

وفى سنة ست وخمسين ، كتب فى صفر على المساجد ذكر الصحابة والتفضيل . فأمر الأستاذ كافور الاخشيدى بازالته ، فحدثه جماعة فى اعادة ذكر الصحابة على المساجد ، فقال : ما أحدث فى أيامى ما لم يكن ، وما كان فى أيام غيرى فلا أزيله ، وما كتب فى أيامى أزيله . ثم أمر من طاف وأزاله من المساجد كلها .

ولما دخل جوهر القائد بعساكر المعز لدين الله الى مصر ، وبنى القاهرة ، أظهر مذهب الشيعة ، وأذن فى جميع المساجد الجامعة وغيرها : « حى على خير العمل » ، وأعلن بتفضيل على بن أبى طالب على غيره ، وجهر بالصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم .

فشكا اليه جماعة من أهل المسجد الجامع أمر عجوز عمياء تنشد فى الطريق ، فأمر بها فحبست . فسر الرعية بذلك ، ونادوا بذكر الصحابة ، ونادوا : معاوية خال على وخال المؤمنين . فأرسل جوهر حين بلغه ذلك رجلا الى الجامع ، فنادى : أيها الناس أقلوا القول ودعوا الفضول ، فانما حبسنا العجوز صيانة لها ، فلا ينطقن أحد الا حلت به العقوبة الموجعة . ثم أطلق العجوز .

وفى ربيع الأول سنة اثنتين وستين ، عزر سليمان بن عروة المحتسب جماعة من الصيارفة فشغبوا وصاحوا : معاوية خال على بن أبى طالب . فهم جوهر أن يحرق رحبة الصيارفة ، لكن خشى على الجامع .

وأمر الامام بجامع مصر أن يجهر بالبسملة فى الصلاة — وكانوا لا يفعلون ذلك — وزيد فى صلاة الجمعة القنوت فى الركعة الثانية ، وأمر فى المواريث بالرد على ذوى الأرحام ، وألا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى الا الزوج أو الزوجة والأبوان والجدة ، ولا يرث مع الأم الا من يرث مع الولد .

وخاطب أبو الطاهر محمد بن أحمد قاضى مصر القائد جوهرا فى بنت وأخ ، وأنه كان حكم قديما للبنت بالنصف ، وللأخ بالباقى . فقال : لا أفعل . فلما ألح عليه ، قال : ياقاضى هذا عداوة لفاطمة عليها السلام . فأمسك أبو الطاهر ، ولم يراجعه بعد فى ذلك .

وصار صوم شهر رمضان والفطر على حساب لهم . فأشار الشهود على القاضى أبى الطاهر ألا يطلب الهلال ، لأن الصوم والفطر على الرؤية قد زال . فانقطع طلب الهلال من مصر ، وصام القاضى وغيره مع القائد جوهر كما يصوم ، وأفطروا كما يفطر .

ولما دخل المعز لدين الله الى مصر ، ونزل بقصره من القاهرة المعزية ، أمر فى رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، فكتب على سائر الأماكن بمدينة مصر « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم * أمير المؤمنين على ابن أبى طالب عليه السلام » .

وفى صفر سنة خمس وستين وثلثمائة ، جلس على بن النعمان القاضى بجامع القاهرة — المعروف بالجامع الأزهر — وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر بالاقتصار ، وكان جمعا عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرون .

ولما تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزيز بالله نزار بن المعز ، رتب فى داره العلماء من الأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين ، وأجرى لجميعهم الأرزاق ، وألف كتابا فى الفقه ، ونصب له مجلسا — وهو يوم الثلاثاء — يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل ، وتجرى بينهم المناظرات .

وكان يجلس أيضا فى يوم الجمعة ، فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه ، ويحضر عنده القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وأصحاب

(*) ص ٣٤٠ جـ ٢ ، ط. بولاق .

الحديث ، ووجوه أهل العلم والشهود فاذا انقضى المجلس من القراءة ، قام الشعراء لانشاد مدائحهم فيه ، وجعل للفقهاء فى شهر رمضان الأطعمة .

وألف كتابا فى الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله ، وهو مبوب على أبواب الفقه ، تكون قدره مثل نصف صحيح البخارى ... ملكته ووقفت عليه وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وكان يجلس لقراءة هذا الكتاب على الناس بنفسه ، وبين يديه خواص الناس وعوامهم ، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأفتى الناس به ، ودرسوا فيه بالجامع العتيق

وأجرى العزيز بالله لجماعة من الفقهاء ، يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه ، أرزاقا تكفيهم فى كل شهر ، وأمر لهم ببناء دار الى جانب الجامع الأزهر ، فاذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة الى أن تصلى صلاة العصر . وكان لهم من مال الوزير أيضا صلة فى كل سنة ، وعدتهم خمسة وثلاثون رجلا ، وخلع عليهم العزيز بالله فى يوم عيد الفطر ، وحملهم على بغال .

وفى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة ، أمر العزيز بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية . وفى سنة احدى وثمانين وثلثمائة ضرب رجل بمصر ، وطيف به المدينة ، من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس رحمه الله .

وفى شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلثمائة ، جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسى بالقصر فى القاهرة لقراءة علوم أهل البيت ، على الرسم المتقدم له ولأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب ، فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا .

وفى جمادى الأولى سنة احدى وتسعين وثلثمائة ، قبض على رجل من أهل الشام سئل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فقال : لا أعرفه . فاعتقله قاضى القضاة الحسين بن النعمان ، قاضى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على القاهرة المعزية ومصر والشامات والحرمين والمغرب ، وبعث اليه وهو فى السجن أربعة من الشهود وسألوه ، فأقر بالنبى صلى الله عليه وسلم وأنه نبى مرسل ، وسئل عن على بن أبى طالب فقال : لا أعرفه

فأمر قائد القواد الحسين بن جوهر باحضاره فخلا به ورفق فى القول له ، فلم يرجع عن انكاره معرفة على بن أبى طالب . فطولع الحاكم بأمره ، فأمر بضرب عنقه ، فضرب عنقه وصلب .

وفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، قبض على ثلاثة عشر رجلا ، وضربوا وشهروا على الجمال ، وحبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى .

وفى سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، قرىء سجل فى الجوامع بمصر والقاهرة والجزيرة : بأن تلبس النصارى واليهود الغيار والزنار ، وغيارهم السواد غيار العاصين العباسيين ، وأن يشدوا الزنار . وفيه وقوع وفحش فى حق أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

وقرىء سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخيا المحبة كانت لمعاوية بن أبى سفيان ، ومنعهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضى الله عنها ، ومن المتوكلية المنسوبة الى المتوكل ، والمنع من عجين الخبز بالرجل ، والمنع من أكل الدلينس ، ومن ذبح البقر الا ذا عاهة — ما عدا أيام النحر فانه يذبح فيها البقر فقط — والوعيد للنخاسين متى باعوا عبدا أو أمة لذمى .

وقرىء سجل آخر بأن يؤذن لصلاة الظهر فى أول الساعة السابعة ، ويؤذن لصلاة العصر فى أول الساعة التاسعة .

وقرىء أيضا سجل بالمنع من عمل الفقاع وبيعه فى الأسواق ، لما يؤثر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه من كراهية شرب الفقاع ، وضرب فى الطرقات والأسواق بالجرس ، ونودى ألا يدخل أحد الحمام الا بمئزر ، ولا تكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج ، ولا يباع شىء من السمك بغير قشر ، ولا يصطاده أحد من الصيادين . وقبض على جماعة وجدوا فى الحمام بغير مئزر ، فضربوا وشهروا .

وكتب فى صفر من هذه السنة على سائر المساجد ، وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه من جميع جوانبه ، وعلى أبواب الحوانيت والحجر ، وعلى المقابر والصحراء ... سب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك ولون بالأصباغ والذهب ، وعمل ذلك على أبواب الدور والقياسر ، وأكره الناس على ذلك .

وتسارع الناس الى الدخول فى الدعوة . فجلس لهم قاضى القضاة عبد * العزيز بن محمد بن النعمان ، فقدموا من سائر النواحى والضياع . فكان للرجال يوم الأحد ، وللنساء يوم الأربعاء ، وللأشراف وذوى الأقدار يوم الثلاثاء . وازدحم الناس على الدخول فى الدعوة ، فمات عدة من الرجال والنساء .

ولما وصلت قافلة الحاج ، مر بهم من سب العامة وبطشهم ما لا يوصف . فانهم أرادوا حمل الحاج على سب السلف فأبوا ، فحل بهم مكروه شديد .

وفى جمادى الآخرة من هذه السنة ، فتحت دار الحكمة بالقاهرة ، وجلس فيها القراء ، وحملت الكتب اليها من خزائن القصور ، ودخل الناس اليها ، وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء ، وحصل فيها من الكتب فى سائر العلوم ما لم ير مثله مجتمعا ، وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الأرزاق السنية ، وجعل فيها ما يحتاج اليه من الحبر والأقلام والمحابر والورق .

وفى يوم عاشوراء من سنة ست وتسعين وثلثمائة ، كان من اجتماع الناس ما جرت به العادة ، وأعلن بسب السلف فيه . فقبض على رجل نودى عليه : هذا جزاء من سب عائشة وزوجها صلى الله عليه وسلم ، ومعه من الرعاع ما لا يقع عليه حصر ، وهم يسبون السلف ، فلما تم النداء عليه ضرب عنقه . واستهل شهر رجب من هذه السنة بيوم الأربعاء ، فخرج أمر الحاكم بأمر الله أن يؤرخ بيوم الثلاثاء .

(*) ص ٣٤١ جـ ٢ ، ط. بولاق .

وفى سنة سبع وتسعين وثلثمائة ، قبض على جماعة ممن يعمل الفقاع ، ومن الساكين ومن الطباخين . وكبست الحمامات فأخذ عدة ممن وجد بغير مئزر ، فضرب الجميع لمخالفتهم الأمر ، وشهروا .

وفى تاسع ربيع الآخر ، أمر الحاكم بأمر الله بمحو ما كتب على المساجد وغيرها من سب السلف ، وطاف متولى الشرطة ، وألزم كل أحد بمحو ما كتب على المساجد من ذلك .

ثم قرىء سجل فى ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وثلثمائة : بألا يحمل شىء من النبيذ والمزر ، ولا يتظاهر به ، ولا بشىء من الفقاع والدلينس والسمك الذى لا قشر له والترمس العفن .

وقرىء سجل فى رمضان على سائر المنابر : بأنه يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون . صلاة الخمس الدين فيما جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ، ولاهم عنها يدفعون . يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التربيع عليها المربعون . يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون . ولا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف ، والحالف منهم بما حلف . لكل مسلم مجتهد فى دينه واجتهاده ، والى الله ربه معاده ، عنده كتابه وعليه حسابه .

وفى صفر سنة أربعمائة ، شهر جماعة بعدما ضربوا بسبب بيع الفقاع والملوخيا والدلينس والترمس .

وفى تاسع عشر شهر شوال ، أمر الحاكم بأمر الله برفع ما كان يؤخذ من الخمس والزكاة والفطرة والنجوى ، وأبطل قراءة مجالس الحكمة فى القصر ، وأمر برد التثويب فى الأذان ، وأذن للناس فى صلاة الضحى وصلاة التراويح ، وأمر المؤذنين بأسرهم فى الأذان بألا يقولوا « حى على خير العمل » وأن يقولوا فى الأذان للفجر « الصلاة خير من النوم » .

ثم أمر فى ثانى عشرى ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعمائة باعادة قول « حى على خير العمل » فى الأذان ، وقطع التثويب ، وترك قولهم « الصلاة خير من النوم » ، ومنع من صلاة الضحى وصلاة التراويح ، وفتح باب الدعوة ، وأعيدت قراءة المجالس بالقصر على ما كانت . وكان بين المنع من ذلك والأذن فيه خمسة أشهر .

وضرب فى جمادى من هذه السنة جماعة ، وشهروا بسبب بيع الملوخيا والسمك الذى لا قشر له وشرب المسكرات ، وتتبع السكارى فضيق عليهم .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرى شعبان سنة احدى وأربعمائة ، وقع قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى الى سائر الشهود والأمناء ، بخروج الأمر المعظم بأن يكون الصوم يوم الجمعة ، والعيد يوم الأحد .

وفى شعبان سنة اثنتين وأربعمائة ، قرىء سجل يشدد فيه النكير على بيع الملوخيا والفقاع والسمك الذى لا قشر له ، ومنع النساء من الاجتماع فى المآتم ومن اتباع الجنائز ، وأحرق الحاكم بأمر الله فى هذا

الشهر الزبيب الذى فى مخازن التجار ، وأحرق ما وجد من الشطرنج ، وجمع صيادى السمك وحلفهم بالأيمان المؤكدة ألا يصطادوا سمكا بغير قشر ، ومن فعل ذلك ضربت عنقه .

وأحرق فى خمسة عشر يوما ألفين وثمانمائة وأربعين قطعة زبيب : بلغ ثمن النفقة عليها خمسمائة دينار ، ومنع من بيع العنب الا أربعة أرطال فما دونها ، ومنع من اعتصاره ، وطرح عنبا كثيرا فى الطرقات وأمر بدوسه . فامتنع الناس من التظاهر بشىء من العنب فى الأسواق ، واشتد الأمر فيه ، وغرق منه ما حمل فى النيل .

وأحصى ما بالجيزة من الكروم ، فقطف ما عليها من العنب ، وطرح ما جمعه من ذلك تحت أرجل البقر لتدوسه ، وفعل مثل ذلك فى جهات كثيرة . وختم على مخازن العسل ، وغرق منه فى أربعة أيام * خمسة آلاف جرة واحدى وخمسين جرة فيها العسل ، وغرق من عسل النحل قدر احدى وخمسين زيرا .

وفى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة ، اشتد الانكار على الناس بسبب بيع الفقاع والزبيب والسمك الذى لا قشر له ، وقبض على جماعة وجد عندهم زبيب فضربت أعناقهم وسجنت عدة منهم وأطلقوا .

وفى شوال اعتقل رجل ، ثم شهر ونودى عليه : هذا جزاء من سب أبا بكر وعمر ، ويثير الفتن . فاجتمع خلق كثير بباب القصر ، فاستغاثوا لا طاقة لنا بمخالفة المصريين ، ولا بمخالفة الحشوية من العوام ، ولا صبر لنا على ما جرى ، وكتبوا قصصا . فصرفوا ، ووعدوا بالمجىء فى غد . فبات كثير منهم بباب القصر ، واجتمعوا من الغد فصاحوا وضجوا .

فخرج اليهم قائد القواد غين فنهاهم ، وأمرهم عن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن يمضوا الى معايشهم . فانصرفوا الى قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى وشكوا اليه ، فتبرم من ذلك ، فمضوا وفيهم من يسب السلف ، ويعرض بالناس . فقرىء سجل فى القصر بالترحم على السلف من الصحابة ، والنهى عن الخوض فى ذلك .

وركب مرة فرأى لوحا على قيسارية فيه سب السلف ، فأنكره ، وما زال واقفا حتى قلع . وضرب بالجرس فى سائر طرقات مصر والقاهرة ، وقرىء سجل بتتبع الألواح المنصوبة على سائر أبواب القياسر والحوانيت والدور والخانات والأرباع ، المشتملة على ذكر الصحابة والسلف الصالح رحمهم الله بالسب واللعن ، وقلع ذلك وكسره وتعفيه أثره ، ومحو ما على الحيطان من هذه الكتابة ، وازالة جميعها من سائر الجهات حتى لا يرى لها أثر فى جدار ولا نقش فى لوح ، وحذر فيه من المخالفة ، وهدد بالعقوبة . ثم انتقض ذلك كله ، وعاد الأمر الى ما كان عليه .

الى أن قتل الخليفة الآمر بأحكام الله أبو على منصور بن المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد ، وثار أبو على أحمد — الملقب كتيفات — بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش ، واستولى على الوزارة فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة وسجن الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد ابن الخليفة المستنصر بالله ، وأعلن بمذهب الامامية ، والدعوة للامام المنتظر ، وضرب دراهم نقشها « الله الصمد . الامام محمد » .

ورتب فى سنة خمس وعشرين أربعة قضاة : اثنان أحدهما امامى والآخر اسماعيلى ، واثنان أحدهما مالكى والآخر شافعى . فحكم كل منهما بمذهبه ، وورث على مقتضاه ، وأسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق ، وأبطل من الأذان « حى على خير العمل » وقولهم « محمد وعلى خير البشر » .

فلما قتل فى المحرم سنة ست وعشرين ، عاد الأمر الى ما كان عليه من مذهب الاسماعيلية . وما برح حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من دمشق عليها أسد الدين شيركوه ، وولى وزارة مصر للخليفة العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله ابن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله ، ومات .

فقام فى الوزارة بعده ابن أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فى جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، وشرع فى تغيير الدولة وازالتها ، وحجر على العاضد ، وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها ، وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية ومدرسة للفقهاء المالكية ، وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم ، وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى الشافعى ، فلم يستنب عنه فى اقليم مصر الا من كان شافعى المذهب . فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعى ، واختفى مذهب الشيعة والاسماعيلية والامامية حتى فقد من أرض مصر كلها .

وكذلك كان السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر حنفيا ، فيه تعصب . فنشر مذهب أبى حنيفة رحمه الله ببلاد الشام ، ومنه كثرت الحنفية بمصر ، وقدم اليها أيضا عدة من بلاد الشرق ، وبنى لهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية بالقاهرة ، وما زال مذهبهم ينتشر ويقوى ، وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ .

وأما العقائد فان السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن على بن اسماعيل الأشعرى ، تلميذ أبى على الجبائى ، وشرط ذلك فى أوقافه التى بديار مصر : كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الامام الشافعى من القرافة ، والمدرسة الناصرية التى عرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر ، والمدرسة المعروفة بالقمحية بمصر ، وخانكاه سعيد السعداء بالقاهرة .

فاستمر الحال على عقيدة الأشعرى بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن ، وبلاد المغرب أيضا لادخال محمد بن تومرت رأى الأشعرى اليها . حتى انه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد ، بحيث ان من خالفه

(*) ص٢٤٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

ضرب عنقه ، والأمر على ذلك الى اليوم . ولم يكن فى الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل ، ثم اشتهر مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل فى آخرها .

فلما كانت * سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، ولى بمصر والقاهرة أربعة قضاة وهم شافعى ومالكى وحنفى وحنبلى . فاستمر ذلك من سنة خمس وستين وستمائة ، حتى لم يبق فى مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الاسلام سوى هذه المذاهب الأربعة وعقيدة الأشعرى .

وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط فى سائر ممالك الاسلام ، وعودى من تمذهب بغيرها وأنكر عليه . ولم يول قاض ، ولا قبلت شهادة أحد ، ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس أحد ... ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب . وأفتى فقهاء هذه الأمصار فى طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب ، وتحريم ما عداها . والعمل على هذا الى اليوم .

واذ قد بينا الحال فى سبب اختلاف الأمة منذ توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى أن استقر العمل على مذهب مالك ، والشافعى ، وأبى حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، رحمة الله عليهم ... فلنذكر اختلاف عقائد أهل الاسلام منذ كان ، الى أن التزم الناس عقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، رحمه الله ورضى عنه .

(*) ص٣٤٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

ذكر فرق الخليقة واختلاف عقائدها وتباينها

اعلم أن الذين تكلموا فى أصول الديانات قسمان ، هما : من خالف ملة الاسلام ، ومن أقر بها . فأما المخالفون لملة الاسلام ، فهم عشر طوائف :

الأولى : الدهرية .

والثانية : أصحاب العناصر .

والثالثة : الثنوية وهم المجوس ، ويقولون بأصلين هما النور والظلمة ، ويزعمون أن النور هو يزدان والظلمة هو أهرمن ، ويقرون بنبوة ابراهيم عليه السلام .

وهم ثمان فرق : الكيومرتية أصحاب كيومرت الذى يقال انه آدم . والزروانية أصحاب زوران الكبير . والزرادشتية أصحاب زرادشت بن بيورشت الحكيم . والثنوية أصحاب الاثنين الأزليين . والمانوية أصحاب مانى الحكيم . والمزركية أصحاب مزرك الخارجى . والبيصانية أصحاب بيصان القائل بالأصلين القديمين . والفرقونية القائلون بالأصلين ، وأن الشر خرج على أبيه ، وأنه تولد من فكرة فكرها فى نفسه ، فلما خرج على أبيه — الذى هو الاله بزعمهم — عجز عنه ، ثم وقع الصلح بينهما على يد الندمات وهم الملائكة - ومنهم من يقول بالتناسخ ، ومنهم من ينكر الشرائع والأنبياء ، ويحكمون العقول ، ويزعمون أن النفوس العلوية تفيض عليهم الفضائل .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وباقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزي

الجزء
٤٠



كتاب التحرير

"كانت مصر هي مسقط رأسي، وملعب أترابي، ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامتي،
وموطن خاصتي وعامتي، وجؤجؤي الذي ربى جناحي في وكره، وعش مأربي، فلا
تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت منذ شذوت العلم، وآتاني ربي الفطانة والفهم، أرغب في
معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

والطائفة الرابعة : الطبائعيون .

والطائفة الخامسة : الصابئة القائلون بالهياكل والأرباب السماوية والأصنام الأرضية وانكار النبوات ، وهم أصناف ، وبينهم وبين الحنفاء مناظرات وحروب مهلكة ، وتولدت من مذاهبهم الحكمة الملطية ، ومنهم أصحاب الروحانيات ، وهم عباد الكواكب وأصنامها التى عملت على تمثالها .

والحنفاء هم القائلون بأن الروحانيات منها ما وجودها بالقوة ، ومنها ما وجودها بالفعل ، فما هو بالقوة يحتاج الى من يوجده بالفعل ، ويقرون بنبوة ابراهيم وأنه منهم . وهم طوائف : الكاظمة أصحاب كاظم بن تارح ، ومن قوله أن الحق فى الجمع بين شريعة ادريس وشريعة نوح وشريعة ابراهيم عليهم السلام . ومنهم البيدانية أصحاب بيدان الأصغر ، ومن قوله اعتقاد نبوة من يفهم عالم الروح ، وأن النبوة من أسرار الالهية . ومنهم القنطارية أصحاب قنطار بن أرفخشد ، ويقر بنبوة نوح .

ومن فرق الصابئة أصحاب الهياكل ، ويرون أن الشمس اله كل اله . والحرانية ومن قولهم المعبود واحد بالذات ، وكثير بالأشخاص فى رأى العين ، وهى : المدبرات السبع من الكواكب ، والأرضية الجزئية ، والعاملة الفاضلة .

والطائفة السادسة : اليهود .

والسابعة : النصارى .

والثامنة : أهل الهند القائلون بعبادة الأصنام ، ويزعمون أنها موضوعة قبل آدم .

ولهم حكم عقلية وأحكام وضعها الشلم أعظم حكامهم ، والمهندم قبله ، والبراهمة قبل ذلك ... فالبراهمة أصحاب برهام أول من أنكر نبوة البشر .

ومنهم البردة : زهاد عباد رجال الرماد الذين يهجرون اللذات الطبيعية ، وأصحاب الرياضة التامة ، وأصحاب التناسخ . وهم أقسام : أصحاب الروحانية ، والبهادرية ، والناسوتية ، والباهرية ، والكابلية أهل الجبل ، ومنهم الطبسيون ، أصحاب الرياضة الفاعلة ، حتى ان منهم من يجاهد نفسه حتى يسلطها على جسده ، فيصعد فى الهواء على قدر قوته .

وفى اليهود : عباد النار ، وعباد الشمس والقمر والنجوم ، وعباد الأوثان .

والطائفة التاسعة : الزنادقة ، وهم طوائف منهم القرامطة .

والعاشرة : الفلاسفة أصحاب الفلسفة . وكلمة فيلسوف معناها محب الحكمة ، فان فيلو محب ، وسوفا حكمة ، والحكمة قولية وفعلية ، وعلم الحكماء انحصر فى أربعة أنواع : الطبيعى ، والمدنى ، والرياضى ، والالهى . والمجموع ينصرف الى : علم ما ، وعلم كيف ، وعلم كم . فالعلم الذى يطلب فيه ماهيات الأشياء هو الالهى ، والذى يطلب فيه كيفيات الأشياء هو الطبيعى ، والذى يطلب فيه كميات الأشياء * هو الرياضى .

ووضع بعد ذلك أرسطو صنعة المنطق ، وكانت بالقوة فى كلام القدماء ، فأظهرها ورتبها .

(*) ص٢٤٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

واسم الفلاسفة يطلق على جماعة من الهند — وهم الطبيون والبراهمة — ولهم رياضة شديدة، وينكرون النبوة أصلا. ويطلق أيضا على العرب بوجه أنقص، وحكمتهم ترجع الى أفكارهم والى ملاحظة طبيعية، ويقرون بالنبوات، وهم أضعف الناس فى العلوم.

ومن الفلاسفة حكماء الروم وهم طبقات: فمنهم أساطين الحكمة وهم أقدمهم، ومنهم المشاءون، وأصحاب الرواق، وأصحاب أرسطو — وفلاسفة الاسلام.

فمن فلاسفة الروم الحكماء السبعة أساطين الحكمة — أهل ملطية وقونية — وهم: ثاليس الملطى، وانكساغورس، وانكسمالس وابنادقيس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون. ودون هؤلاء: فلوطس، وبقراط وديمقراطيس، وأسعر، والناس.

ومنهم حكماء الأصول من القدماء، ولهم القول بالسيمياء، ولهم أسرار الخواص والحيل والكيمياء والأسماء الفعالة والحروف، ولهم علوم توافق علوم الهند وعلوم اليونانيين. وليس من موضوع كتابنا هذا ذكر تراجمهم، فلذلك تركناها.

القسم الثانى: فرق أهل الاسلام الذين عناهم النبى، صلى الله عليه وسلم، بقوله: «ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة: ثنتان وسبعون هالكة، وواحدة ناجية».

وهذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افترقت اليهود على احدى وسبعين (أو اثنتين وسبعين) فرقة، وتفرقت النصارى على احدى وسبعين (أو اثنتين وسبعين) فرقة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة». قال البيهقى: حسن صحيح.

وأخرجه الحاكم وابن حبان فى صحيحه بنحوه. فأخرجه فى المستدرك من طريق الفضل ابن موسى، عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة، عن أبى هريرة به، وقال: هذا حديث كبير فى الأصول.

وقد روى عن سعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عمر، وعوف بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بمثله. وقد احتج مسلم بمحمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة، واتفقا جميعا على الاحتجاج بالفضل ابن موسى، وهو ثقة.

واعلم أن فرق المسلمين خمسة: أهل السنة والمرجئة، والمعتزلة، والشيعة، والخوارج. وقد افترقت كل فرقة منها على فرق: فأكثر افتراق أهل السنة فى الفتيا، ونبذ يسيرة من الاعتقادات. وبقية الفرق الأربع: منها من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد، ومنهم من يخالفهم الخلاف القريب.

فأقرب فرق المرجئة من قال: الايمان انما هو التصديق بالقلب واللسان معا فقط، وان الأعمال انما هى فرائض الايمان وشرائعه فقط، وأبعدهم أصحاب جهم بن صفوان ومحمد بن كرام. وأقرب فرق المعتزلة أصحاب الحسين النجار وبشر بن غياث المريسى، وأبعدهم أصحاب أبى الهذيل العلاف.

وأقرب مذاهب الشيعة أصحاب الحسن بن صالح بن حى، وأبعدهم الامامية. وأما الغالية فليسوا بمسلمين، ولكنهم أهل ردة وشرك. وأقرب فرق الخوارج أصحاب عبد الله بن يزيد الأباضى، وأبعدهم الأزارقة. وأما البطيخية ومن جحد شيئا من القرآن، أو فارق الاجماع من العجاردة وغيرهم، فكفار باجماع الأمة.

وقد انحصرت الفرق الهالكة فى عشر طوائف:

«الفرقة الأولى المعتزلة»: الغلاة فى نفى الصفات الالهية، القائلون بالعدل والتوحيد، وأن المعارف كلها عقلية حصولا ووجوبا قبل الشرع وبعده، وأكثرهم على أن الامامة بالاختيار. وهم عشرون فرقة:

احداها الواصلية: أصحاب واصل بن عطاء أبى حذيفة الغزال — مولى بنى ضبة، وقيل مولى بنى مخزوم — ولد بالمدينة سنة ثمانين، ونشأ بالبصرة، ولقى أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، ولازم مجلس الحسن بن الحسين البصرى، وأكثر من الجلوس بسوق الغزل ليعرف النساء المتعففات، فيصرف اليهن صدقته، فقيل له الغزال من أجل ذلك.

وكان طويل العنق جدا، حتى عابه عمرو بن عبيد بذلك، فقال: من هذه عنقه لا خير عنده. فلما برع واصل قال عمرو: ربما أخطأت الفراسة. وكان يلثغ بالراء، ومع ذلك كان فصيحا لسنا مقتدرا على الكلام قد أخذ بجوامعه، فلذلك أمكنه أن أسقط حرف الراء من كلامه. واجتناب الحروف صعب جدا، لا سيما مثل الراء لكثرة استعمالها.

وله رسالة طويلة لم يذكر فيها حرف الراء، أحد بدائع الكلام، وكان لكثرة صمته يظن به الخرس، توفى سنة احدى وثلاثين ومائة. وله كتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب الفتيا، وكتاب التوحيد، وعنه أخذ جماعة، وأخباره كثيرة. ويقال لهم أيضا الحسنية، نسبة الى الحسن البصرى.

وأخذ واصل العلم عن أبى هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية، وخالفه فى الامامة. واعتزاله يدور على أربع قواعد هى: نفى الصفات، والقول بالقدر، والقول بمنزلة بين المنزلتين، وأوجب الخلود فى النار على من ارتكب كبيرة.

فلما بلغ الحسن البصرى عنه * هذا، قال: هؤلاء اعتزلوا ... فسموا من حينئذ المعتزلة. وقيل ان تسميتهم بذلك حدثت بعد الحسن، وذلك أن عمرو بن عبيد لما مات الحسن، وجلس قتادة مجلسه، اعتزله فى نفر معه، فسماهم قتادة المعتزلة.

القاعدة الرابعة: القول بأن احدى الطائفتين من أصحاب الجمل وصفين مخطئة لا بعينها. وكان فى خلافة هشام بن عبد الملك.

والثانية العمروية: أصحاب عمرو، ومن قوله ترك قول على بن أبى طالب وطلحة والزبير رضى الله عنهم. وقال ابن منبه: اعتزل عمرو بن عبيد وأصحاب له الحسن، فسموا المعتزلة.

والثالثة الهذلية: أتباع أبى الهذيل محمد ابن الهذيل العلاف شيخ المعتزلة. أخذ عن

(*) ص٢٤٥ جـ٢، ط. بولاق.

عثمان بن خالد الطويل ، عن واصل بن عطاء ، ونظر فى الفلسفة ، ووافقهم فى كثير ، وقال : جميع الطاعات من الفرائض والنوافل ايمان .

وانفرد بعشر مسائل وهى : ان علم الله وقدرته وحياته هى ذاته ، وأثبت ارادات لا محل لها يكون البارى مريدا لها . وقال : بعض كلام الله لا فى محل وهو قوله كن ، وبعضه فى محل كالأمر والنهى . وقال فى أمور الآخرة كمذهب الجبرية . وقال : تنتهى مقدورات الله حتى لا يقدر على احداث شىء ، ولا على افناء شىء ، ولا احياء شىء ، ولا اماتة شىء ، وتنقطع حركات أهل الجنة والنار ، ويصيرون الى سكون دائم .

وقال : الاستطاعة عرض من الأعراض نحو السلامة والصحة ، وفرّق بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح . وقال : تجب معرفة الله قبل ورود السمع ، وان المرء المقتول ان لم يقتل مات فى ذلك الوقت ، ولا يزاد العلم ولا ينقص بخلاف الرزق . وقال : ارادة الله عين المراد ، والحجة لا تقوم فيما غاب الا بخبر عشرين .

والرابعة النظامية : أتباع ابراهيم بن سيار النظام — بتشديد الظاء المعجمة — زعيم المعتزلة ، وأحد السفهاء . انفرد بعدة مسائل ، وهى قوله : ان الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصى ، وانها غير مقدورة لله . وقال : ليس لله ارادة ، وأفعال العباد كلها حركات ، والنفس والروح هو الانسان ، والبدن انما هو آلة فقط ، وان كل ما جاوز القدرة من الفعل فهو من الله وهو فعله .

وأنكر الجوهر الفرد ، وأحدث القول بالطفرة ، وقال : الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت ، وزعم أن الله خلق الموجودات دفعة على ما هى عليه ، وأن الاعجاز فى القرآن من حيث الاخبار عن الغيب فقط ، وأنكر أن يكون الاجماع حجة ، وطعن فى الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، وقال قبحه الله : أبو هريرة أكذب الناس ، وزعم أنه ضرب فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنع ميراث العترة ، وأوجب معرفة الله بالفكر قبل ورود الشرع ، وحرم نكاح الموالى العربيات ، وقال : لا تجوز صلاة التراويح ، ونهى عن ميقات الحج ، وكذب بانشقاق القمر ، وأحال رؤية الجن ، وزعم أن من سرق مائتى دينار فما دونها لم يفسق ، وأن الطلاق بالكناية لا يقع وان كان بنية ، وأن من نام مضطجعا لا ينتقض وضوؤه ما لم يخرج منه الحدث ، وقال : لا يلزم قضاء الصلوات اذا فاتت .

والخامسة الأسوارية : أتباع أبى على عمرو ابن قائد الأسوارى ، القائل ان الله تعالى لا يقدر أن يفعل ما علم أنه لا يفعله .

والسادسة الاسكافية : أتباع أبى جعفر محمد بن عبد الله الاسكافى . ومن قوله : ان الله تعالى لا يقدر على ظلم العقلاء ، ويقدر على ظلم الأطفال والمجانين ، وانه لا يقال ان الله خالق المعازف والطنابير ، وان كان هو الذى خلق أجسامها .

والسابعة الجعفرية : أتباع جعفر بن حرب ابن مبشرة . ومن قوله : ان فى فساق هذه الأمة من هو شر من اليهود والنصارى

والمجوس ، وأسقط الحد عن شارب الخمر ، وزعم أن الصغائر من الذنوب توجب تخليد فاعلها فى النار ، وأن رجلا لو بعث رسولا الى امرأة ليخطبها ، فجاءته فوطئها من غير عقد لم يكن عليه حد ، ويكون وطؤه اياها طلاقا لها .

والثامنة البشرية : أتباع بشر بن المعتمر . ومن قوله الطعم واللون والرائحة والادراكات كلها من السمع يجوز أن تحصل متولدة ، وصرف الاستطاعة الى سلامة البنية والجوارح وقال : لو عذب الله الطفل الصغير لكان ظالما وهو يقدر على ذلك ، وقال : ارادة الله من جملة أفعاله ، ثم هى تنقسم الى صفة فعل وصفة ذات ، وقال باللطف المخزون ، وأن الله لم يخلقه لأن ذلك يوجب عليه الثواب ، وأن التوبة الأولى متوقفة على الثانية ، وأنها لا تنفع الا بعدم الوقوع فى الذى وقع فيه ، فان وقع لم تنفعه التوبة الأولى .

والتاسعة المزدارية : أتباع أبى موسى عيسى ابن صبيح — المعروف بالمزدار — تلميذ بشر بن المعتمر . وكان زاهدا ، وقيل له راهب المعتزلة ، وانفرد بمسائل : منها قوله ان الله قادر على أن يظلم ويكذب ولا يطعن ذلك فى الربوبية ، وجوز وقوع الفعل الواحد من فاعلين على سبيل التولد ، وزعم أن القرآن مما يقدر عليه ، وأن بلاغته وفصاحته لا تعجز الناس ، بل يقدرون على الاتيان بمثلها وأحسن منها . وهو أصل المعتزلة فى القول بخلق القرآن ، وقال : من أجاز رؤية الله بالأبصار بلا كيف فهو كافر ، والشاك فى كفره كافر أيضا .

والعاشرة الهشامية : أتباع هشام بن عمرو الفوطى الذى يبالغ فى القدر ، ولا ينسب الى الله فعلا من الأفعال * . حتى انه أنكر أن يكون الله هو الذى ألف بين قلوب المؤمنين ، وأنه يحبب الايمان للمؤمنين ، وأنه أضل الكافرين . وعاند ما فى القرآن من ذلك ، وقال : لا تنعقد الامامة فى زمن الفتنة واختلاف الناس ، وان الجنة والنار غير مخلوقتين ، ومنع أن يقال حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقال : لأن الوكيل دون الموكل .

وقال : لو أسبغ أحد الوضوء ، ودخل فى الصلاة بنية القربة لله تعالى والعزم على اتمامها ، وركع وسجد مخلصا فى ذلك كله ، الا أن الله علم أنه يقطعها فى آخرها ، فان أول صلاته معصية . ومنع أن يكون البحر انفلق لموسى ، وأن عصاه انقلبت حية ، وأن عيسى أحيا الموتى باذن الله ، وأن القمر انشق للنبى صلى الله عليه وسلم . وأنكر كثيرا من الأمور التى تواترت ، كحصر عثمان بن عفان رضى الله عنه وقتله بالغلبة ، وقال انما جاءته شرذمة قليلة تشكو عماله ، ودخلوا عليه وقتلوه فلا يدرى قاتله .

وقال : ان طلحة والزبير وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ما جاءوا للقتال فى حرب الجمل ، وانما برزوا للمشاورة ، وتقاتل أتباع الفريقين فى ناحية أخرى . وان الأمة اذا اجتمعت كلها ، وتركت الظلم والفساد ، احتاجت الى امام يسوسها ، فأما اذا عصت وفجرت وقتلت واليها فلا تنعقد الامامة لأحد . وبنى على ذلك أن امامة على رضى الله عنه

(*) ص٢٤٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

لم تنعقد ، لأنها كانت فى حال الفتنة بعد قتل عثمان — وهو أيضا مذهب الأصم ، وواصل ابن عطاء ، وعمرو بن عبيد — وأنكر افتضاض الأبكار فى الجنة ، وأنكر أن الشيطان يدخل فى الانسان ، وانما يوسوس له من خارج ، والله يوصل وسوسته الى قلب ابن آدم . وقال : لا يقال خلق الله الكافر لأنه اسم العبد والكفر جميعا ، وأنكر أن يكون فى أسماء الله الضار النافع .

والحادية عشرة الحائطية : أتباع أحمد ابن حائط ، أحد أصحاب ابراهيم بن سيار النظام ، وله بدع شنيعة : منها أن للخلق الهين : أحدهما خالق وهو الاله القديم ، والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم . وزعم أن المسيح ابن الله ، وأنه هو الذى يحاسب الخلق فى الآخرة ، وأنه هو المعنى بقول الله تعالى فى القرآن « هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » . وزعم فى قول النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله خلق آدم على صورته » أن معناه خلقه اياه على صورة نفسه ، وأن معنى قوله عليه السلام « انكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » انما أراد به عيسى .

وزعم أن فى الدواب والطيور والحشرات ، حتى البق والبعوض والذباب ، أنبياء لقول الله سبحانه « وان من أمة الا خلا فيها نذير » ، وقوله تعالى « وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه ، الا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ، ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها » .

وذهب مع ذلك الى القول بالتناسخ ، وزعم أن الله ابتدأ الخلق فى الجنة ، وانما خرج من خرج منها بالمعصية . وطعن فى النبى صلى الله عليه وسلم من أجل تعدد نكاحه ، وقال : ان أبا ذر الغفارى أنسك وأزهد منه ... قبحه الله . وزعم أن كل من نال خيرا فى الدنيا انما هو بعمل كان منه ، ومن ناله مرض أو آفة فبذنب كان منه . وزعم أن روح الله تناسخت فى الأئمة .

والثانية عشرة الحمارية : أتباع قوم من معتزلة عسكر مكرم . ومن مذهبهم أن الممسوخ انسان كافر معتقد الكفر ، وأن النظر أوجب المعرفة وهو لا فاعل له ، وكذلك الجماع أوجب الولد فشك فى خالق الولد ، وأن الانسان يخلق أنواعا من الحيوانات بطريق التعفين . وزعموا أنه يجوز أن يقدر الله العبد على خلق الحياة والقدرة .

والثالثة عشرة المعمرية : أتباع معمر بن عباد السلمى ، وهو أعظم القدرية غلوا ، وبالغ فى رفع الصفات والقدرة بالجملة ، وانفرد بمسائل : منها أن الانسان يدبر الجسد وليس بحال فيه ، والانسان عنده ليس بطويل ولا عريض ، ولا ذى لون وتأليف وحركة ، ولا حال ولا متمكن ، وأن الانسان شىء غير هذا الجسد ، وهو حى عالم قادر مختار ، وليس هو بمتحرك ، ولا ساكن ، ولا متلون ، ولا يرى ، ولا يلمس ، ولا يحلّ موضعا ، ولا يحويه مكان . فوصف الانسان بوصف الالهية عنده ، فان مدبر العالم موصوف عنده كذلك .

وزعم أن الانسان منعم فى الحياة ، ومعذب فى النار ، وليس هو فى الجنة ولا فى النار حالا ولا متمكنا . وقال : ان الله لم يخلق غير الأجسام ، والأعراض تابعة لها متولدة منها ، وأن الأعراض لا تتناهى فى كل نوع ، وأن الارادة من الله للشىء غير الله وغير خلقه ، وأن الله ليس بقديم لأن ذلك أخذ من قدم يقدم فهو قديم .

والرابعة عشرة الثمامية : أتباع ثمامة بن أشرس النميرى . وجمع بين النقائض ، وقال : العلوم كلها ضرورية ، فكل من لم يضطر الى معرفة الله فليس بمأمور بها ، وهو كالبهائم ونحوها . وزعم أن اليهود والنصارى والزنادقة يصيرون يوم القيامة ترابا كالبهائم ، لا ثواب لهم ، ولا عقاب عليهم ألبتة ، لأنهم غير مأمورين ، اذ هم غير مضطرين الى معرفة الله تعالى . وزعم أن الأفعال كلها متولدة لا فاعل لها ، وأن الاستطاعة هى السلامة وصحة الجوارح ، وأن العقل هو الذى يحسن ويقبح ، فتجب معرفة الله قبل ورد الشرع * ، وأن لا فعل للانسان الا الارادة وما عداها فهو حدث .

والخامسة عشرة الجاحظية : أتباع أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . وله مسائل تميز بها عن أصحابه : منها أن المعارف كلها ضرورية ، وليس شىء من ذلك من أفعال العباد ، وانما هى طبيعية ، وليس للعباد كسب سوى الارادة ، وأن العباد لا يخلدون فى النار بل يصيرون من طبيعتها ، وأن الله لا يدخل أحدا النار ، وانما النار تجذب أهلها بنفسها

(*) ص٢٤٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وطبيعتها ، وأن القرآن المنزل من قبيل الأجساد ، ويمكن أن يصير مرة رجلا ومرة حيوانا ، وأن الله لا يريد المعاصى ، وأنه لا يرى ، وأن الله يريد بمعنى أنه لا يغلط ، ولا يصح فى حقه السهو فقط ، وأنه يستحيل العدم على الجواهر من الأجسام .

والسادسة عشرة الخياطية : أصحاب أبى الحسين بن أبى عمرو الخياط ، شيخ أبى القاسم الكعبى ، من معتزلة بغداد . زعم أن المعدوم شىء ، وأنه فى العدم جسم ان كان فى حدوثه جسما ، وعرض ان كان فى حدوثه عرضا .

والسابعة عشرة الكعبية : أتباع أبى القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخى ، المعروف بالكعبى ، من معتزلة بغداد . انفرد بأشياء : منها أن ارادة الله ليست صفة قائمة بذاته ، ولا هو مدبر لذاته ، ولا ارادته حادثة فى محل ، وانما يرجع ذلك الى العلم فقط ، والسمع والبصر يرجع الى ذلك أيضا . وأنكر الرؤية ، وقال : اذا قلنا انه يرى المرئيات ، فانما ذلك يرجع الى علمه بها وتمييزها قبل أن توجد .

والثامنة عشرة الجبائية : أتباع أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، من معتزلة البصرة ، تفرد بمقالات : منها أن الله تعالى يسمى مطيعا للعبد اذا فعل ما أراد العبد منه ، وأن الله محبل للنساء بخلق الولد فيهن ، وأن كلام الله عرض يوجد فى أمكنة كثيرة ، وفى مكان بعد مكان ، من غير أن يعدم من مكانه الأول ، ثم يحدث فى الثاني . وكان يقف فى فضل على على أبى بكر ، وفضل أبى بكر

على على ، ومع ذلك يقول : ان أبا بكر خير من عمر وعثمان ، ولا يقول ان عليا خير من عمر وعثمان .

والتاسعة عشرة البهشمية : أتباع أبي هاشم عبد السلام بن أبي على الجبائي . انفرد ببدع في مقالاته : منها القول باستحقاق الذم من غير ذنب . وزعم أن القادر منا يجوز أن يخلو عن الفعل والترك ، وأن القادر المأمور المنهي اذا لم يفعل فعلا ولا ترك ، يكون عاصيا مستحق العقاب والذم لا على الفعل لأنه لم يفعل ما أمر به ، وأن الله يعذب الكافرين والعصاة لا على فعل مكتسب ولا على محدث منه .

وقال : التوبة لا تصح من قبيح ، مع الاصرار على قبيح آخر يعلمه أو يعتقده قبيحا وان كان حسنا ، وان التوبة لا تصح مع الاصرار على منع حبة واجبة عليه ، وان توبة الزاني بعد ضعفه عن الجماع لا تصح . وزعم أن الطهارة غير واجبة ، وانما أمر العبد بالصلاة في حال كونه متطهرا ، وأن الطهارة تجزىء بالماء المغصوب ، ولا تجزىء الصلاة في الأرض المغصوبة . وزعم أن الزنج والترك والهنود قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن . وقال أبو على وابنه أبو هاشم : الايمان هو الطاعات المفروضة .

والفرقة العشرون من المعتزلة الشيطانية : أتباع محمد بن نعمان — المعروف بشيطان الطاق — وهو من الروافض . شارك كلا من المعتزلة والروافض في بدعهم ، وقلما يوجد معتزلي الا وهو رافضي الا قليلا منهم . انفرد بطامة وهي أن الله لا يعلم الشيء الا ما قدره وأراده ، وأما قبل تقديره فيستحيل أن يعلمه ، ولو كان عالما بأفعال عباده لاستحال أن يمتحنهم ويختبرهم .

وللمعتزلة أسام : منها الثنوية ... سموا بذلك لقولهم : الخير من الله ، والشر من العبد . ومنهم الكيسانية ، والناكثية ، والأحمدية ، والوهبية ، والبترية ، والواسطية ، والواردية ... سموا بذلك لقولهم : لا يدخل المؤمنون النار وانما يردون عليها ، ومن أدخل النار لا يخرج منها قط . ومنهم الحرقية لقولهم : الكفار لا تحرق الا مرة ، والمفنية القائلون بفناء الجنة والنار ، والواقفية القائلون بالوقف في خلق القرآن . ومنهم اللفظية القائلون ألفاظ القرآن غير مخلوقة ، والملتزقة القائلون الله بكل مكان ، والقبرية القائلون بانكار عذاب القبر .

« الفرقة الثانية المشبهة » : وهم يغلون في اثبات صفات الله تعالى ضد المعتزلة ، وهم سبع فرق :

الهشامية : أتباع هشام بن الحكم ، ويقال لهم أيضا الحكمية ، ومن قولهم : الاله تعالى كنور السبيكة الصافية يتلألأ من جوانبه . ويرمون مقاتل بن سليمان بأنه قال : هو لحم ودم على صورة الانسان ، وهو طويل عريض عميق ، وأن طوله مثل عرضه ، وعرضه مثل عمقه ، وهو ذو لون وطعم ورائحة ، وهو سبعة أشبار بشبر نفسه . ولم يصح هذا القول عن مقاتل .

والجولقية : أتباع هشام بن سالم الجولقي ، وهو من الرافضه ايضا . ومن شيع

قوله أن الله تعالى على صورة الانسان ، نصفه الأعلى مجوف ، ونصفه الأسفل مصمت ، وله شعر أسود ، وليس بلحم ودم ، بل هو نور ساطع ، وله خمس حواس كحواس الانسان ، ويد ورجل وفم وعين وأذن وشعر * أسود ، لا الفرج واللحية .

والبيانية : أتباع بيان بن سمعان ، القائل : هو على صورة الانسان ، ويهلك كله الا وجهه لظاهر الآية « كل شيء هالك الا وجهه » .

والمغيرية : أتباع مغيرة بن سعيد العجلي ، وهو أيضا من الروافض . ومن شنائعه قوله أن أعضاء معبودهم على صورة حروف الهجاء ، فالألف على صورة قدميه . وزعم أنه رجل من نور على رأسه تاج من نور ، وزعم أن الله كتب بأصبعه أعمال العباد من طاعة ومعصية ، ونظر فيهما وغضب من معاصيهم فعرق ، فاجتمع من عرقه بحران عذب ومالح ، وزعم أنه بكل مكان لا يخلو عنه مكان .

والمنهالية : أصحاب منهال بن ميمون .

والزرارية : أتباع زرارة بن أعين .

واليونسية : أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي ، وكلهم من الروافض . وسيأتي ذكرهم ان شاء الله تعالى .

ومنهم أيضا : المانية ، والشاكية ، والعملية والمستثنية ، والبدعية ، والعشرية ، والأثرية .

ومنهم الكرامية : أتباع محمد بن كرام السجستاني ، وهم طوائف : الهيضمية ، والاسحاقية ، والجندية وغير ذلك . الا أنهم يعدون فرقة واحدة لأن بعضهم لا يكفر بعضا وكلهم مجسمة ... الا أن فيهم من قال : هو قائم بنفسه ، ومنهم من قال : هو أجزاء مؤتلفة ، وله جهات ونهايات .

ومن قول الكرامية أن الايمان هو قول مفرد ، وهو قول « لا اله الا الله » ، وسواء اعتقد أو لا . وزعموا أن الله جسم ، وله حد ونهاية من جهة السفل ، وتجوز عليه ملاقاة الأجسام التي تحته ، وأنه على العرش والعرش مماس له ، وأنه محل الحوادث من القول والارادة والادراكات والمرئيات والمسموعات ، وأن الله لو علم أحدا من عباده لا يؤمن به لكان خلقه اياهم عبثا ، وأنه يجوز أن يعزل نبيا من الأنبياء والرسل ، ويجوز عندهم على الأنبياء كل ذنب لا يوجب حدا ولا يسقط عدالة ، وأنه يجب على الله تعالى تواتر الرسل ، وأنه يجوز أن يكون امامان في وقت واحد ، وأن عليا ومعاوية كانا امامين في وقت واحد ، الا أن عليا كان على السنة ومعاوية على خلافها .

وانفرد ابن كرام في الفقه بأشياء : منها أن المسافر يكفيه من صلاة الخوف تكبيرتان ، وأجاز الصلاة في ثوب مستغرق في النجاسة . وزعم أن الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر العبادات تصح بغير نية ، وتكفي نية الاسلام ، وأن النية تجب في النوافل ، وأنه يجوز الخروج من الصلاة بالأكل والشرب والجماع عمدا ثم البناء عليها . وزعم بعض الكرامية أن لله علمين : أحدهما يعلم به جميع المعلومات ، والآخر يعلم به العلم الأول .

(*) ص٢٤٨ جـ٢ ، ط بولاق .

« الفرقة الثالثة القدرية » : الغلاة فى اثبات القدرة للعبد فى اثبات الخلق والايجاد ، وأنه لا يحتاج فى ذلك الى معاونة من جهة الله تعالى .

« الفرقة الرابعة المجبرة » : الغلاة فى نفى استطاعة العبد قبل الفعل وبعده ومعه ، ونفى الاختيار له ، ونفى الكسب .

وهاتان الفرقتان متضادتان ، ثم افترقت المجبرة على ثلاث فرق :

الجهمية : أتباع جهم بن صفوان الترمذى ، مولى راسب ، وقتل فى آخر دولة بنى أمية . وهو ينفى الصفات الالهية كلها ، ويقول : لا يجوز أن يوصف البارى تعالى بصفة يوصف بها خلقه ، وان الانسان لا يقدر على شىء ، ولا يوصف بالقدرة ولا الاستطاعة ، وان الجنة والنار يفنيان وتنقطع حركات أهلهما ، وان من عرف الله ولم ينطق بالايمان لم يكفر لأن العلم لا يزول بالصمت ، وهو مؤمن مع ذلك .

وقد كفره المعتزلة فى نفى الاستطاعة ، وكفره أهل السنة بنفى الصفات وخلق القرآن ونفى الرؤية . وانفرد بجواز الخروج على السلطان الجائر ، وزعم أن علم الله حادث لا بصفة يوصف بها غيره .

والبكرية : أتباع بكر ، ابن أخت عبد الواحد ، وهو يوافق النظام فى أن الانسان هو الروح ، وزعم أن البارى تعالى يرى فى القيامة فى صورة يخلقها ويكلم الناس منها ، وأن صاحب الكبيرة منافق فى الدرك الأسفل من النار ، وحاله أسوأ من حال الكافر . وحرم أكل الثوم والبصل ، وأوجب الوضوء من قرقرة البطن .

والضرارية : أتباع ضرار بن عمرو . وانفرد بأشياء : منها أن الله تعالى يرى فى القيامة بحاسة زائدة سادسة ، وأنكر قراءة ابن مسعود ، وشك فى دين عامة المسلمين وقال لعلهم كفار ، وزعم أن الجسم أعراض مجتمعة كما قالت النجارية .

ومن جملة المجبرة البطيخية أتباع اسماعيل البطيخى ، والصباحية أتباع أبى صباح بن معمر ، والفكرية ، والخوفية .

« الفرقة الخامسة المرجئة » : الارجاء اما مشتق من الرجاء ، لأن المرجئة يرجون لأصحاب المعاصى الثواب من الله تعالى ، فيقولون : لا يضر مع الايمان معصية ، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة . أو يكون مشتقا من الارجاء ، وهو التأخير ، لأنهم أخروا حكم أصحاب الكبائر الى الآخرة .

وحقيقة المرجئة أنهم الغلاة فى اثبات الوعد * والرجاء ، ونفى الوعيد والخوف عن المؤمنين . وهم ثلاثة أصناف : صنف جمعوا بين الرجاء والقدر ، وهم غيلان وأبو شمر من بنى حنيفة . وصنف جمعوا بين الارجاء والجبر ، مثل جهم بن صفوان . وصنف قال بالارجاء المحض .

وهم أربع فرق :

اليونسية : أتباع يونس بن عمرو ، وهو غير يونس بن عبد الرحمن القمى الرافضى .

---

* ص٢٤٦ جـ٢ ، ط بولاق .

زعم أن الايمان معرفة الله والخضوع له ، والمحبة ، والاقرار بأنه واحد ليس كمثله شىء .

والغسانية : أتباع غسان بن أبان الكوفى ، المنكر نبوة عيسى عليه السلام ، وتلمذ لمحمد ابن الحسن الشيبانى ، ومذهبه فى الايمان كمذهب يونس . الا أنه يقول : كلّ خصلة من خصال الايمان تسمى بعض الايمان ، ويونس يقول : كل خصلة ليست بايمان ولا بعض ايمان .

وزعم غسان أن الايمان لا يزيد ولا ينقص . وعند أبى حنيفة ، رحمه الله ، الايمان معرفة بالقلب واقرار باللسان ، فلا يزيد ولا ينقص كقرص الشمس .

والثوبانية : أتباع ثوبان المرجى ، ثم الخارجى المعتزلى ، وكان يقال له جامع النقائص ، هاجر الخصائص . ومن قوله : الايمان هو المعرفة والاقرار ، والايمان فعل ما يجب فى العقل فعله . فأوجب الايمان بالعقل قبل ورود الشرع ، وفارق الغسانية واليونسية فى ذلك .

والتومنية : أتباع أبى معاذ التومنى الفيلسوف . زعم أن من ترك فرضة لا يقال له فاسق على الاطلاق ، ولكن ترك الفريضة فسق . وزعم أن هذه الخصال التى تكون جملتها ايمانا ، فواحدة ليست بايمان ولا بعض ايمان ، وأن من قتل نبيا كفر لا لأجل القتل ، بل لاستخفافه به وبغضه له .

ومن فرق المرجئة : المريسية أتباع بشر بن غياث المريسى . كان عراقى المذهب فى الفقه ، تلميذا للقاضى أبى يوسف يعقوب الحضرمى ، وقال بنفى الصفات وخلق القرآن ، فأكفرته الصفاتية بذلك . وزعم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، ولا استطاعة مع الفعل ، فأكفرته المعتزلة بذلك . وزعم أن الايمان هو التصديق بالقلب ، وهو مذهب ابن الريوندى .

ولما ناظره الشافعى فى مسألة خلق القرآن ونفى الصفات ، قال له : نصفك كافر لقولك بخلق القرآن ونفى الصفات ، ونصفك مؤمن لقولك بالقضاء والقدر وخلق اكتساب العباد . وبشر معدود من المعتزلة لنفيه الصفات ، وقوله بخلق القرآن .

ومن فرق المرجئة : الصالحية أتباع صالح ابن عمرو بن صالح ، والجحدرية أتباع جحدر بن محمد التيمى ، والزيادية أتباع محمد بن زياد الكوفى ، والشبيبية أتباع محمد بن شبيب ، والناقضية ، والبهشمية .

ومن المرجئة جماعة من الأئمة : كسعيد بن جبير ، وطلق بن حبيب ، وعمرو بن مرة ، ومحارب بن دثار ، وعمرو بن ذر ، وحماد ابن سليمان ، وأبى مقاتل . وخالفوا القدرية والخوارج والمرجئة فى أنهم لم يكفروا بالكبائر ، ولا حكموا بتخليد مرتكبها فى النار ، ولا سبوا أحدا من الصحابة ، ولا وقعوا فيهم .

وأول من وضع الارجاء أبو محمد الحسن بن محمد — المعروف بابن الحنفية — بن على بن أبى طالب ، وتكلم فيه . وصارت المرجئة بعده أربعة أنواع : الأول مرجئة الخوارج ، الثانى مرجئة القدرية ، الثالث مرجئة الجبرية ، الرابع مرجئة الصالحية .

وكان الحسن بن محمد ابن الحنفية يكتب كتبه الى الأمصار يدعو الى الارجاء . الا أنه لم يؤخر العمل عن الايمان كما قال بعضهم ، بل قال : أداء الطاعات وترك المعاصى ليس من الايمان ، لا يزول بزوالها .

وقال ابن قتيبة : أول من وضع الارجاء بالبصرة حسان بن بلال بن الحارث المزنى . وذكر بعضهم أن أول من وضع الارجاء أبا سلت السمان ، ومات سنة اثنتين وخمسين ومائة .

« الفرقة السادسة الحرورية » : الغلاة فى اثبات الوعيد والخوف على المؤمنين ، والتخليد فى النار مع وجود الايمان . وهم قوم من النواصب الخوارج ، وهم مضادون المرجئة فى النفى والاثبات والوعد والوعيد .

ومن مفرداتهم أن من ارتكب كبيرة فهو مشرك ... ومذهب عامة الخوارج أنه كافر وليس بمشرك ، وقال بعضهم هو منافق فى الدرك الأسفل من النار . فعند الحرورية أن الاسم يتغير بارتكاب الكبيرة الواحدة ، فلا يسمى مؤمنا بل كافرا مشركا ، والحكم فيه أنه يخلد فى النار ، واتفقوا على أن الايمان هو اجتناب كل معصية .

وقيل لهم الحرورية ، لأنهم خرجوا الى حروراء لقتال على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعدتهم اثنا عشر ألفا ، ثم سار على رضى الله عنه اليهم وناظرهم ، ثم قاتلهم وهم أربعة آلاف ، فانضم اليهم جماعة حتى بلغوا اثنى عشر ألفا .

« الفرقة السابعة النجارية » : أتباع الحسن ابن محمد بن عبد الله النجار أبى عبد الله . كان حائكا ، وقيل انه كان يعمل الموازين ، وانه كان من أهل قم ... كان من جملة المجبرة ومتكلميهم ، وله مع النظام عدة مناظرات : منها أنه ناظره مرة ، فلما لم يلحن بحجته رفسه النظام ، وقال له : قم أخزى الله من ينسبك الى شىء من العلم والفهم * . فانصرف محموما ، واعتل حتى مات .

وهم أكثر معتزلة الرى وجهاتها . وهم يوافقون أهل السنة فى مسألة القضاء والقدر ، واكتساب العباد ، وفى الوعد والوعيد ، وامامة أبى بكر رضى الله عنه . ويوافقون المعتزلة فى نفى الصفات ، وخلق القرآن ، وفى الرؤية . وهم ثلاث فرق : البرغوثية ، والزعفرانية ، والمستدركة .

« الفرقة الثامنة الجهمية » : أتباع جهم بن صفوان . وهم يوافقون أهل السنة فى مسألة القضاء والقدر مع ميل الى الجبر ، وينفون الصفات والرؤية ، ويقولون بخلق القرآن . وهم فرقة عظيمة وعدادهم فى المعطلة المجبرة .

« الفرقة التاسعة الروافض » : الغلاة فى حب على بن أبى طالب ، وبغض أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية فى آخرين من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . وسموا رافضة لأن زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، رضى الله عنهم ، امتنع من لعن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وقال : هما وزيرا جدى محمد ، صلى الله عليه وسلم ،

(*) ص٢٥٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

فرفضوا رأيه . ومنهم من قال : لأنهم رفضوا رأى الصحابة رضى الله عنهم ، حيث بايعوا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما .

وقد اختلف الناس فى الامام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذهب الجمهور الى أنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وقال العباسية والربوبدية أتباع أبى هريرة الربوبدى — وقيل أتباع أبى العباس الربوبدى — هو العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، لأنه العم والوارث ، فهو أحق من ابن العم . وقال العثمانية وبنو أمية : هو عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه . وذهب آخرون الى غير ذلك . وقال الرافضة : هو على بن أبى طالب .

ثم اختلفوا فى الامامة اختلافا كثيرا حتى بلغت فرقهم ثلثمائة فرقة ، والمشهور منها عشرون فرقة :

الزيدية والصباحية : أقروا امامة أبى بكر رضى الله عنه ، ورأوا أنه لا نص فى امامة على رضى الله عنه ، واختلفوا فى امامة عثمان رضى الله عنه : فأنكرها بعضهم ، وأقر بعضهم أنه الامام بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لكن قالوا على أفضل من أبى بكر ، وامامة المفضول جائزة .

وقال الغلاة : هو على بالنص ، ثم الحسن وبعده الحسين ، وصار بعد الحسين الأمر شورى . وقال بعضهم : لم يرد النص الا بامامة على فقط ، وقال آخرون : نص على على بالوصف لا بالعين والاسم ، وقال بعضهم : قد جاء النص على امامة اثنى عشر آخرهم المهدى المنتظر .

وفرقهم العشرون هى :

الامامية : وهم مختلفون فى الامامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فزعم أكثرهم أن الامامة فى على بن أبى طالب وأولاده بنص النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن الصحابة كلهم قد ارتدوا الا عليا وابنيه الحسن والحسين وأبا ذر الغفارى وسلمان الفارسى وطائفة يسيرة . وأول من تكلم فى مذهب الامامية على بن اسماعيل بن هيثم التمار ، وكان من أصحاب على بن أبى طالب .

وذهبت القطعية منهم الى أن الامامة فى على ، ثم فى الحسن ، ثم فى الحسين ، ثم فى على بن الحسين ، ثم فى محمد بن على ، ثم فى جعفر بن محمد ، ثم فى موسى بن جعفر ، ثم فى على بن موسى . وقطعوا الامامة عليه ، فسموا القطعية لذلك ، ولم يكتبوا امامة محمد بن موسى ولا امامة الحسين بن محمد ابن على بن موسى .

وقالت الناووسية : جعفر بن محمد لم يمت ، وهو حى ينتظر .

وقالت المباركية أتباع مبارك : الامام بعد جعفر بن محمد ابنه اسماعيل بن جعفر ، ثم محمد بن اسماعيل .

وقالت الشميطية أتباع يحيى بن شميط الأحمسى — كان مع المختار قائدا من قواده ، فأنفذه أميرا على جيش البصرة يقاتل مصعب ابن الزبير فقتل بالمدار — الامامة بعد جعفر فى ابنه محمد وأولاده .

وقالت المعمرية أتباع معمر : الامامة بعد جعفر فى ابنه عبد الله بن جعفر وأولاده . ويقال لهم القطحية لأن عبد الله بن جعفر كان أفطح الرجلين .

وقالت الواقفية : الامام بعد جعفر ابنه موسى بن جعفر ، وهو حى لم يمت ، وهو الامام المنتظر . وسموا الواقفية لوقوفهم على امامة موسى .

وقالت الزرارية أتباع زرارة بن أعين : الامام بعد جعفر ابنه عبد الله ، الا أنه سأله عن مسائل فلم يمكنه الجواب عنها ، فادعى امامة موسى بن جعفر من بعد أبيه .

وقالت المفضلية أتباع المفضل بن عمرو : الامام بعد جعفر ابنه موسى ، وانه مات فانتقلت الامامة الى ابنه محمد بن موسى .

وقالت المفوضة من الامامية : ان الله تعالى خلق محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، وفوض اليه خلق العالم وتدبيره . وقال بعضهم : بل فوض ذلك الى على بن أبى طالب .

والفرقة الثانية من فرق الروافض : الكيسانية أتباع كيسان مولى على بن أبى طالب ، وأخذ عن محمد ابن الحنفية — وقيل بل كيسان اسم المختار بن عبيد الثقفى الذى قام لأخذ ثأر الحسين رضى الله عنه — زعموا أن الامام بعد على ابنه محمد ابن الحنفية ، لأنه أعطاه الراية يوم الجمل ، ولأن الحسين أوصى اليه عند خروجه الى الكوفة .

ثم اختلفوا فى الامام بعد ابن الحنفية . فقال بعضهم : رجع الأمر بعده الى أولاد الحسن * والحسين ، وقيل بل انتقل الى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية . وقالت الكربية أتباع أبى كرب بأن ابن الحنفية حى لم يمت ، وهو الامام المنتظر . ومن قول الكيسانية أن البدا جائز على الله ... وهو كفر صريح .

والفرقة الثالثة : الخطابية أتباع أبى الخطاب محمد بن أبى ثور — وقيل محمد بن أبى يزيد — الأجدع . ومذهبه الغلو فى جعفر بن محمد الصادق ، وهو أيضا من المشبهة ، وأتباعه خمسون فرقة ، وكلهم متفقون على أن الأئمة — مثل على وأولاده — كلهم أنبياء ، وأنه لابد من رسولين لكل أمة : أحدهما ناطق ، والآخر صامت ، فكان محمد ناطقا ، وعلى صامتا ، وأن جعفر بن محمد الصادق كان نبيا ، ثم انتقلت النبوة الى أبى الخطاب الأجدع ، وجوزوا كلهم شهادة الزور لموافقيهم ، وزعموا أنهم عالمون بما هو كائن الى يوم القيامة .

وقالت المعمرية منهم : الامام بعد أبى الخطاب رجل اسمه معمر ، وزعموا أن الدنيا لا تفنى ، وأن الجنة هى ما يصيبه الانسان من الخير فى الدنيا ، والنار ضد ذلك . وأباحوا شرب الخمر والزنى وسائر المحرمات ، ودانوا بترك الصلاة ، وقالوا بالتناسخ ، وأن الناس لا يموتون وانما ترفع أرواحهم الى غيرهم .

وقالت البزيغية منهم : ان جعفر بن محمد اله ، وليس هو الذى يراه الناس وانما تشبه على الناس ، وزعموا أن كل مؤمن يوحى

(*) ص١٢٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

اليه ، وأن منهم من هو خير من جبريل وميكائيل ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وزعموا أنهم يرون أمواتهم بكرة وعشيا .

وقالت العميرية منهم ، أتباع عمير بن بيان العجلى ، مثل ذلك كله ، وخالفوهم فى أن الناس لا يموتون .

وافترقت الخطابية بعد قتل أبى الخطاب فرقا : منها فرقة زعمت أن الامام بعد أبى الخطاب عمير بن بيان العجلى ، ومقالتهم كمقالة البزيغية ، الا أن هؤلاء اعترفوا بموتهم ، ونصبوا خيمة على كناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادة جعفر الصادق . فبلغ ذلك يزيد بن عمير ، فصلب عمير بن بيان فى كناسة الكوفة .

ومن فرقهم المفضلية أتباع مفضل الصيرفى . زعم أن جعفر بن محمد اله ، فطرده ولعنه .

وزعمت الخطابية بأجمعها أن جعفر بن محمد الصادق أودعهم جلدا يقال له « جفر » فيه كل ما يحتاجون اليه من علم الغيب وتفسير القرآن . وزعموا — لعنهم الله — أن قوله تعالى « ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » معناه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وأن الخمر والميسر أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأن الجبت والطاغوت معاوية بن أبى سفيان وعمرو ابن العاص رضى الله عنهما .

والفرقة الرابعة : الزيدية أتباع زيد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، القائلون بامامته وامامة من اجتمع فيه ست خصال : العلم ، والزهد ، والشجاعة ، وأن يكون من أولاد فاطمة الزهراء رضى الله عنها حسنيا أو حسينيا ، ومنهم من زاد صباحة الوجه ، وألا يكون فيه آفة . وهم يوافقون المعتزلة فى أصولهم كلها الا فى مسألة الامامة .

وأخذ مذهب زيد بن على عن واصل بن عطاء ، وكان يفضل عليا على أبى بكر وعمر مع القول بامامتهما .

وهم أربع فرق : الجارودية أتباع أبى الجارود ، ويكنى أبا النجم ، زياد بن المنذر العبدى . زعم أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على امامة على بالوصف لا بالتسمية ، وأن الناس كفروا بتركهم مبايعة على رضى الله عنه والحسن والحسين وأولادهما .

والجريرية أتباع سليم بن جرير . ومن قوله لم يكفر الناس بتركهم مبايعة على ، بل أخطأوا بترك الأفضل وهو على ، وكفروا الجارودية بتكفيرهم الصحابة ، الا أنهم كفروا عثمان بن عفان بالأحداث التى أحدثها ، وقالوا لم ينص علىّ على امامة أحد ، وصار الأمر من بعده شورى .

ومنهم البترية أتباع الحسن بن صالح بن كثير الأبتر . وقولهم أن عليا أفضل وأولى بالامامة ، غير أن أبا بكر كان اماما ، ولم تكن امامته خطأ ولا كفرا ، بل ترك على الامامة له ، وأما عثمان فيتوقف فيه .

ومنهم اليعقوبية أتباع يعقوب . وهم يقولون بأمامة أبى بكر وعمر ، ويتبرأون ممن تبرأ منهما ، وينكرون رجعة الأموات الى الدنيا قبل يوم القيامة ، ويتبرأون ممن دان بها ... الا أنهم متفقون على تفضيل علىّ على

أبى بكر وعمر ، من غير تفسيقهما ولاتكفيرهما ولا لعنهما ، ولا الطعن على أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

والفرقة الخامسة : السبائية أتباع عبد الله ابن سبأ الذى قال شفاها لعلى بن أبى طالب : أنت الاله . وكان من اليهود ، ويقول فى يوشع بن نون مثل قوله ذلك فى على ، وزعم أن عليا لم يقتل ، وأنه حى لم يمت ، وأنه فى السحاب ، وأن الرعد صوته والبرق سوطه ، وأنه ينزل الى الأرض بعد حين ... قبحه الله .

والفرقة السادسة : الكاملية أتباع أبى كامل . أكفر جميع الصحابة بتركهم بيعة على ، وكفر عليا بتركه قتالهم ، وقال بتناسخ الأنوار الالهية فى الأئمة .

والفرقة السابعة : البيانية أتباع بيان بن سمعان . زعم أن روح الاله حل فى الأنبياء ، ثم فى على ، وبعده فى محمد ابن الحنفية ، ثم فى ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد ، ثم حل بعد أبى هاشم فى بيان بن سمعان ... يعنى نفسه * ، لعنه الله .

والفرقة الثامنة : المغيرية أتباع مغيرة بن سعيد العجلى ، مولى خالد بن عبد الله ، طلب الامامة لنفسه بعد محمد بن عبد الله بن الحسن ، فخرج على خالد بن عبد الله القسرى بالكوفة فى عشرين رجلا فعطعطوا به ، فقال خالد : أطعمونى ماء ، وهو على المنبر ، فعير بذلك .

والمغيرة هذا قال بالتشبيه الفاحش ، وادعى النبوة ، وزعم أن معجزته علمه بالاسم الأعظم ،

(*) ص٢٥١ ج٢ ، ط بولاق .

وأنه يحيى الموتى ، وزعم أن الله لما أراد أن يخلق العالم كتب بأصبعه أعمال عباده ، فغضب من معاصيهم فعرق ، فاجتمع من عرقه بحران : أحدهما مالح والآخر عذب ، فخلق من البحر العذب الشيعة ، وخلق الكفرة من البحر الملح . وزعم أن المهدى يخرج وهو محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب .

والفرقة التاسعة : الهشامية ، وهم صنفان : أحدهما أتباع هشام بن الحكم ، والثانى أتباع هشام الجوالقى . وهما يقولان لاتجوز المعصية على الامام ، وتجوز على الأنبياء ، وأن محمدا عصى ربه فى أخذ الفداء من أسرى بدر ... كذبا لعنهما الله . وهما أيضا مع ذلك من المشبهة .

والفرقة العاشرة : الزرارية أتباع زرارة بن أعين ، أحد الغلاة فى الرفض ، ويزعم مع ذلك أن الله تعالى لم يكن فى الأزل عالما ولا قادرا حتى اكتسب لنفسه جميع ذلك ... قبحه الله .

والفرقة الحادية عشرة : الجناحية أتباع عبد الله بن معاوية ذى الجناحين ابن أبى طالب . وزعم أنه اله ، وأن العلم ينبت فى قلبه كما تنبت الكمأة ، وأن روح الاله دارت فى الأنبياء كما كانت فى على وأولاده ، ثم صارت فيه .

ومذهبهم استحلال الخمر والميتة ونكاح المحارم ، وأنكروا القيامة ، وتأولوا قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات » ، وزعموا أن كل ما فى القرآن من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، كناية عن قوم يلزم بغضهم ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية ، وكل ما فى القرآن من الفرائض التى أمر الله بها كناية عمن يلزم موالاتهم ، مثل على والحسن والحسين وأولادهم .

والثانية عشرة : المنصورية أتباع أبى منصور العجلى ، أحد الغلاة المشبهة ، زعم أن الامامة انتقلت اليه بعد محمد الباقر بن على بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وأنه عرج به الى السماء بعد انتقال الامامة اليه ، وأن معبوده مسح بيده على رأسه ، وقال له : يابنى بلغ عنى آية الكسف الساقط من السماء فى قوله تعالى « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم ... » الآية . وزعم أن أهل الجنة قوم تجب موالاتهم مثل على بن أبى طالب وأولاده ، وأن أهل النار قوم تجب معاداتهم مثل أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية ، رضى الله عنهم .

والثالثة عشرة : الغرابية . زعموا — لعنهم الله — أن جبريل أخطأ ، فانه أرسل الى على ابن أبى طالب فجاء الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا شعارهم اذا اجتمعوا أن يقولوا : « العنوا صاحب الريش » ، يعنون جبريل عليه السلام ، وعليهم اللعنة .

والرابعة عشرة : الذمية (بفتح الذال المعجمة) زعموا — أخزاهم الله — أن على ابن أبى طالب بعثه الله نبيا ، وأنه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ليظهر أمره ، فادعى النبوة لنفسه ، وأرضى عليا بأن زوجه ابنته ومولاه . ومنهم العليانية أتباع عليان بن ذراع السدوسى — وقيل الأسدى — كان يفضل عليا على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويزعم أن عليا بعث محمدا . وكان — لعنه الله — يذم النبى صلى الله عليه وسلم ، لزعمه أن محمدا بعث ليدعو الى على ، فدعا الى نفسه .

ومن العليانية من يقول بالهية محمد وعلى جميعا ، ويقدمون محمدا فى الالهية ، ويقال لهم الميمية . ومنهم من قال بالهية خمسة — وهم أصحاب الكساء : محمد ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين — وقالوا : خمستهم شىء واحد ، والروح حالة فيهم بالسوية لا فضل لواحد منهم على الآخر ، وكرهوا أن يقولوا « فاطمة » بالهاء ، فقالوا « فاطم » . قال بعضهم :

توليت بعد الله فى الدين خمسة
نبيا ، وسبطيه ، وشيخا ، وفاطما

والخامسة عشرة : اليونسية أتباع يونس بن عبد الله القمى ، أحد الغلاة المشبهة .

والسادسة عشرة : الرزامية أتباع رزام بن سابق . زعم أن الامامة انتقلت بعد على بن أبى طالب الى ابنه محمد بن الحنفية ، ثم الى ابنه أبى هاشم ، ثم الى على بن عبد الله بن عباس بالوصية ، ثم الى ابنه محمد بن على ، فأوصى بها محمد الى أبى العباس عبد الله بن محمد السفاح ، الظالم المتردد فى المذاهب ، الجاهل بحقوق أهل البيت .

والسابعة عشرة : الشيطانية أتباع محمد بن النعمان شيطان الطاق . وقد شارك المعتزلة والرافضة فى جميع مذهبهم ، وانفرد بأعظم الكفر — قاتله الله — وهو أنه زعم أن الله

لا يعلم الشيء حتى يقدره ، وقيل ذلك يستحيل عنه .

والثالثة عشرة : البيانية وهم من الروافض زعموا أن الامامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صارت فى على وأولاده الحسن والحسين * ومحمد ابن الحنفية ، ثم فى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وانتقلت منه الى على بن عبد الله بن عباس بوصية اليه ، ثم الى أبى العباس السفاح ، ثم الى أبى سلمة صاحب دولة بنى العباس .

وقام بناحية كش ، فيما وراء النهر ، رجل من أهل مرو أعور — يقال له هاشم — ادعى أن أبا سلمة كان الها انتقل اليه روح الله ، ثم انتقل اليه بعده . فانتشرت دعوته هناك ، واحتجب عن أصحابه ، واتخذ له وجها من ذهب ، فعرف بالمقنع .

ثم ان أصحابه طلبوا رؤيته . فوعدهم أن يريهم نفسه ان لم يحترقوا ، وعمل تجاه مرآه مرآة محرقة تعكس شعاع الشمس . فلما دخلوا عليه احترق بعضهم ، ورجع الباقون وقد فتنوا ، واعتقدوا أنه اله لا تدركه الأبصار ، وقالوا فى حروبهم بالهيه .

والتاسعة عشرة : الجعفرية .

والعشرون : الصالحية ، وهم والزيدية أمثل الشيعة ، فانهم يقولون بامامة أبى بكر ، وأنه لا نص فى امامة على ، مع أنه عندهم أفضل وأبو بكر مفضول .

ومن فرق الروافض : الحلولية ، والتناسخية ، والشركية يزعمون أن عليا شريك محمد صلى الله عليه وسلم ، والتناسخية القائلون ان الأرواح تتناسخ ، واللاعنة ، والمخطئة الذين يزعمون أن جبريل أخطأ ، والاسحاقية ، والخلفية الذين يقولون لا تجوز الصلاة خلف غير الامام ، والرجعية القائلون سيرجع على ابن أبى طالب وينتقم من أعدائه ، والمترجية الذين يترجون خروج المهدى ، والآمرية ، والحبية ، والجلالية ، والكريبية أتباع أبى كرب الضرير ، والحربية أتباع عبد الله بن عمرو الحربى .

« الفرقة العاشرة الخوارج » : ويقال لهم النواصب والحرورية — نسبة الى حروراء : موضع خرج فيه أولهم على على رضى الله عنه — وهم الغلاة فى حب أبى بكر وعمر وبغض على بن أبى طالب ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ولا أجل منهم ، فانهم القاسطون المارقون . خرجوا على على رضى الله عنه ، واتصلوا عنه بالجملة وتبرأوا منه ، ومنهم من صحبه ، ومنهم من كان فى زمنه . وهم جماعة قد دون الناس أخبارهم ، وهم عشرون فرقة .

الأولى : يقال لهم الحكمية ، لأنهم خرجوا على على رضى الله عنه فى صفين ، وقالوا : لا حكم الا لله ولا حكم للرجال ، وانحازوا عنه الى حروراء ، ثم الى النهروان . وسبب ذلك أنهم حملوه على التحاكم الى من حكم بكتاب الله ، فلما رضى بذلك — وكانت قضية الحكمين : أبى موسى الأشعرى وهو عبد الله ابن قيس ، وعمرو بن العاص — غضبوا من ذلك ، ونابذوا عليا ، وقالوا فى شعارهم : لا

(*) ص ٢٧٤ جـ ٤ ، ط بولاق .

حكم الا لله ولرسوله . وكان امامهم فى التحكيم عبد الله بن الكواء .

والثانية : الأزارقة أتباع أبى راشد نافع ابن الأزرق بن قيس بن نهار بن انسان بن أسد بن صبرة بن ذهل بن الدول بن حنيفة ، الخارج بالبصرة فى أيام عبد الله بن الزبير . وهم على التبرى من عثمان وعلى والطعن عليهما ، وأن دار مخالفيهم دار كفر ، وأن من أقام بدار الكفر فهو كافر ، وأن أطفال مخالفيهم فى النار ويحل قتلهم . وأنكروا رجم الزانى ، وقالوا من قذف محصنة حد ، ومن قذفه محصنا لا يحد ، ويقطع السارق فى القليل والكثير .

والثالثة : النجدات — ولم يقل فيهم النجدية ليفرق بينهم وبين من انتسب الى بلاد نجد — فانهم أتباع نجد بن عويمر . وهو عامر الحنفى الخارج باليمامة ، وكان رأسا ذا مقالة مفردة ، وتسمى بأمير المؤمنين ، وبعث عطية بن الأسود الى سجستان ، فأظهر مذهبه بسرو ، فعرفت أتباعه بالعطوية .

ومذهبهم أن الدين أمران : أحدهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، وتحريم دماء المسلمين وأموالهم . والثانى الاقرار بما جاء من عند الله تعالى جملة ، وما سوى ذلك من التحريم والتحليل وسائر الشرائع فان الناس يعذرون بجهلها ، وأنه لا يأثم المجتهد اذا أخطأ ، وأن من خالف أن يعذب المجتهد فقد كفر . واستحلوا دماء أهل الذمة فى دار التقية ، وقالوا من نظر نظرة محرمة ، أو كذب كذبة ، أو أصر على صغيرة ولم يتب منها ، فهو كافر . ومن زنى أو سرق أو شرب خمرا من غير أن يصر على ذلك ، فهو مؤمن غير كافر .

والرابعة : الصفرية أتباع زياد بن الأصفر ، ويقال أتباع النعمان بن صفر ، وقيل بل نسبوا الى عبد الله بن صفار ، وهو أحد بنى مقاعس ، وهو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار ، وقيل عبد الله الصفار من بنى صويمر بن مقاعس ، وقيل سموا بذلك لصفرة علتهم ، وزعم بعضهم أن الصفرية بكسر الصاد .

وقد وافق الصفرية الأزارقة فى جميع بدعهم ، الا فى قتل الأطفال . ويقال للصفرية أيضا الزيادية ، ويقال لهم أيضا النكار من أجل أنهم ينقصون نصف علىّ وثلث عثمان وسدس عائشة ، رضى الله عنهم .

والخامسة : العجاردة أتباع عبد الكريم بن عجرد .

والسادسة : الميمونية أتباع ميمون بن عمران . وهم طائفة من العجاردة وافقوا الأزارقة الا فى شيئين : أحدهما قولهم تجب البراءة من الأطفال حتى يبلغوا ويصفوا الاسلام ، والثانى استحلال أموال المخالفين لهم . فلم تستحل الميمونية مال أحد خالفهم ما لم يقتل المالك ، فاذا قتل صار ماله فيئا ... الا أنهم * ازدادوا كفرا على كفرهم ، وأجازوا نكاح بنات البنات وبنات البنين ، وبنات أولاد الاخوة وبنات أولاد الأخوات فقط .

(*) ص ٢٥٤ جـ ٢ ، ط بولاق .

والسابعة : الشعيبية وهم طائفة من العجاردة وافقوا الميمونية فى جميع بدعهم ، الا فى الاستطاعة والمشيئة ، فان الميمونية مالت الى القدرية .

والثامنة : الحمزية أتباع حمزة بن أدرك الشامى ، الخارج بخراسان فى خلافة هارون ابن محمد الرشيد ، وكثر عيثه وفساده ، ثم فض جموع عيسى بن على عامل خراسان ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، فانهزم منه عيسى الى كابل ، وآل أمر حمزة الى أن غرق فى كرمان بواد هناك ، فعرفت أصحابه بالحمزية .

وكان يقول بالقدر ، فكفرته الأزارقة بذلك . وقال أطفال المشركين فى النار ، فكفرته القدرية بذلك . وكان لا يستحل غنائم أعدائه ، بل يأمر باحراق جميع ما يغنمه منهم .

والتاسعة : الحازمية ، وهم فرقة من العجاردة قالوا فى القدر والمشيئة كقول أهل السنة ، وخالفوا الخوارج فى الولاية والعداوة فقالوا : لم يزل الله تعالى محبا لأوليائه ومبغضا لأعدائه .

والعاشرة : المعلومية ، مع المجهولية تباينا فى مسألتين : احداهما قالت المعلومية : من لم يعرف الله تعالى بجميع أسمائه فهو كافر ، وقالت المجهولية : لا يكون كافرا . والثانية وافقت المعلومية أهل السنة فى مسألة القدر والمشيئة ، والمجهولية وافقت القدرية فى ذلك .

والحادية عشرة : الصلتية أتباع عثمان بن أبى الصلت ، وهم طائفة من العجاردة انفردوا بقولهم : من أسلم توليناه لكن تبرأ من أطفاله ، لأنه ليس للأطفال اسلام حتى يبلغوا .

والثانية عشرة والثالثة عشرة : الأخنسية والمعبدية ، وهما فرقتان من الثعالبة أتباع ثعلبة بن عامر . وكان ثعلبة هذا مع عبد الكريم ابن عجرد ، ثم اختلفا فى الأطفال : فقال عبد الكريم : تبرأ منهم قبل البلوغ ، وقال ثعلبة : لا تبرأ منهم بل نقول نتولى الصغار .

فلم تزل الثعالبة على هذا الى أن خرج رجل ، عرف بالأخنس ، فقال : تتوقف عن جميع من فى دار التقية ، الا من عرفنا منه ايمانا فانا نتولاه ، ومن عرفنا منه كفرا تبرأنا منه ، ولا يجوز أن نبدأ أحدا بقتال . فتبرأت منه الثعالبة ، وسموه بالأخنس ، لأنه خنس منهم ، أى رجع عنهم .

ثم خرجت فرقة من الثعالبة ، قيل لها المعبدية أتباع معبد ، فخالفت الثعالبة فى أخذ الزكاة من العبيد والبهائم ، وكفرت كل فرقة منهما الأخرى .

والرابعة عشرة : الشيبانية أتباع شيبان بن سلمة ، الخارج فى أيام أبى مسلم الخراسانى القائم بدعوة الخلفاء العباسيين ، وكان معه ، فتبرأت منه الثعالبة لمعاونته لأبى مسلم . وهو أول من أظهر القول بالتشبيه ... تعالى الله عن ذلك .

والخامسة عشرة : الشبيبية أتباع شبيب بن يزيد بن أبى نعيم ، الخارج فى خلافة عبد الملك بن مروان ، وصاحب الحروب العظيمة مع الحجاج بن يوسف الثقفى . وهم على ما كانت عليه الحكمية الأولى ، الا أنهم انفردوا

من الخوارج بجواز امامة المرأة وخلافتها . واستخلف شبيب هذا أمه غزالة ، فدخلت الكوفة ، وقامت خطيبة ، وصلت الصبح بالمسجد الجامع ، فقرأت فى الركعة الأولى بالبقرة ، وفى الثانية بآل عمران ... وأخبار شبيب طويلة .

والسادسة عشرة : الرشيدية أتباع رشيد ، ويقال لهم أيضا العشرية من أجل أنهم كانوا يأخذون نصف العشر مما سقت الأنهار . فقال لهم زياد بن عبد الرحمن : يجب فيه العشر ، فتبرأت كل فرقة من الأخرى وكفرتها بذلك .

والسابعة عشرة : المكرمية أتباع أبى المكرم ، ومن قوله : تارك الصلاة كافر ، وليس كفره لترك الصلاة لكن لجهله بالله . وكذا قوله فى سائر الكبائر .

والثامنة عشرة : الحفصية أتباع حفص بن المقدام ، أحد أصحاب عبد الله بن أباض . تفرد بقوله : من عرف الله تعالى ، وكفر بما سواه من رسول وغيره ، فهو كافر وليس بمشرك . فأنكر ذلك الاباضية وقالوا : بل هو مشرك .

والتاسعة عشرة : الأباضية أتباع عبد الله بن أباض من بنى مقاعس ، واسمه الحارث بن عمرو — ويقال بل ينسبون الى « أباض » (بضم الهمزة) وهى قرية بالعرض من اليمامة نزل بها نجد بن عامر — وخرج عبد الله بن أباض فى أيام مروان وكان من غلاة الحكمة .

والفرقة العشرون : اليزيدية أتباع يزيد بن أبى أنيسة ، وكان أباضيا ، فانفرد ببدعة قبيحة . وهى أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم ، وينزل عليه كتابا جملة واحدة ينسخ به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن فرق الخوارج أيضا : الحارثية ، والأصومية أتباع يحيى بن أصوم ، والبيهسية أتباع أبى البيهس الهيصم بن خالد من بنى سعيد بن ضبعة : كان فى زمن الحجاج ، وقتل بالمدينة وصلب ، واليعقوبية أتباع يعقوب بن على الكوفى .

ومن فرقهم : الفضلية أتباع فضل بن عبد الله ، والشمراخية أتباع عبد الله بن شمراخ ، والضحاكية أتباع الضحاك .

والخوارج يقال لهم الشراة : واحدهم شارى ، مشتق من شرى الرجل اذا ألح ، أو معناه يستشرى * بالشر ، أو من قول الخوارج : شرينا أنفسنا لدين الله ، فنحن لذلك شراة . وقيل انه من قولهم : شاريته أى لاححته وماريته ، وقيل شرى الرجل غضبا اذا استطار غضبا ، وقيل لهم هذا لشدة غضبهم على المسلمين .

ذكر الحال فى عقائد أهل الاسلام منذ ابتداء الملة الاسلامية الى ان انتشر مذهب الأشعرية

اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، رسولا الى الناس جميعا ، وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى ، بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز الذى نزل به على قلبه صلى الله عليه

(*) ص٢٥٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وسلم الروح الأمين ، وبما أوحى اليه ربه تعالى .

فلم يسأله صلى الله عليه وسلم أحد من العرب بأسرهم — قرويهم وبدويهم — عن معنى شيء من ذلك ، كما كانوا يسألونه صلى الله عليه وسلم عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وغير ذلك مما لله فيه سبحانه أمر ونهى ، وكما سألوه صلى الله عليه وسلم عن أحوال القيامة والجنة والنار . اذ لو سأله انسان منهم عن شيء من الصفات الالهية ، لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم فى أحكام الحلال والحرام ، وفى الترغيب والترهيب وأحوال القيامة والملاحم والفتن ، ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث معاجمها ومسانيدها وجوامعها .

ومن أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوى ، ووقف على الآثار السلفية ، علم أنه لم يرد قط ، من طريق صحيح ولا سقيم ، عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم — على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم — انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة فى القرآن الكريم ، وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كلهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام فى الصفات ... نعم ، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل .

وانما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعام والعز والعظمة ، وساقوا الكلام سوقا واحدا .

وهكذا أثبتوا ، رضى الله عنهم ، ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك ، مع نفى مماثلة المخلوقين . فأثبتوا رضى الله عنهم بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم الى تأويل شيء من هذا ، ورأوا بأجمعهم اجراء الصفات كما وردت .

ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى ، وعلى اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة . فمضى عصر الصحابة رضى الله عنهم على هذا ... الى أن حدث فى زمنهم القول بالقدر ، وأن الأمر أنفة : أى أن الله تعالى لم يقدر على خلقه شيئا مما هم عليه .

وكان أول من قال بالقدر فى الاسلام معبد ابن خالد الجهنى ، وكان يجالس الحسن بن الحسين البصرى ، فتكلم فى القدر بالبصرة ، وسلك أهل البصرة مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله . وأخذ معبد هذا الرأى عن رجل من الأساورة يقال له أبو يونس سنسويه ، ويعرف بالأسوارى . فلما عظمت الفتنة به ، عذبه الحجاج وصلبه بأمر عبد الملك بن مروان سنة ثمانين . ولما بلغ عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما مقالة معبد فى القدر تبرأ من القدرية .

واقتدى بمعبد فى بدعته هذه جماعة .
وأخذ السلف رحمهم الله فى ذم القدرية ، وحذروا منهم كما هو معروف فى كتب الحديث . وكان عطاء بن يسار قاضيا يرى القدر ، وكان يأتى هو ومعبد الجهنى الى

الحسن البصرى ، فيقولان له : ان هؤلاء يسفكون الدماء ، ويقولون : انما تجرى أعمالنا على قدر الله . فقال : كذب أعداء الله فطعن عليه بهذا ومثله .

وحدث أيضا فى زمن الصحابة رضى الله عنهم مذهب الخوارج ، وصرحوا بالتكفير بالذنب ، والخروج على الامام وقتاله . فناظرهم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، فلم يرجعوا الى الحق ، وقاتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقتل منهم جماعة كما هو معروف فى كتب الأخبار .

ودخل فى دعوة الخوارج خلق كثير ، ورمى جماعة من أئمة الاسلام بأنهم يذهبون الى مذهبهم ، وعد منهم غير واحد من رواة الحديث كما هو معروف عند أهله .

وحدث أيضا فى زمن الصحابة رضى الله عنهم مذهب التشيع لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، والغلو فيه . فلما بلغه ذلك أنكره ، وحرق بالنار جماعة ممن غلا فيه ، وأنشد :

لما رأيت الأمر أمرا منكرا
أججت نارى ودعوت قنبرا

وقام فى زمنه رضى الله عنه عبد الله بن وهب ابن سبأ — المعروف بابن السوداء السبأى — وأحدث القول بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بالامامة من بعده ؛ فهو وصى رسول الله صلى الله عله وسلم ، وخليفته على أمته من بعده بالنص . وأحدث القول برجعة على بعد موته الى الدنيا ، وبرجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم * أيضا .

(*) ص ٢٥٦ جـ٢ ، ط بولاق .

وزعم أن عليا لم يقتل ، وأنه حى ، وأن فيه الجزء الالهى ، وأنه هو الذى يجيء فى السحاب ، وأن الرعد صوته والبرق سوطه ، وأنه لابد أن ينزل الى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جورا .

ومن ابن سبأ هذا تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة ، وصاروا يقولون بالوقف — يعنون أن الامامة موقوفة على أناس معينين — كقول الامامية بأنها فى الأئمة الاثنى عشر ، وقول الاسماعيلية بأنها فى ولد اسماعيل بن جعفر الصادق . وعنه أيضا أخذوا القول بغيبة الامام ، والقول برجعته بعد الموت الى الدنيا ، كما تعتقده الامامية الى اليوم فى صاحب السرداب ، وهو القول بتناسخ الأرواح . وعنه أخذوا أيضا القول بأن الجزء الالهى يحل فى الأئمة بعد على بن أبى طالب ، وأنهم بذلك استحقوا الامامة بطريق الوجوب ، كما استحق آدم عليه السلام سجود الملائكة ، وعلى هذا الرأى كان اعتقاد دعاة الخلفاء الفاطميين ببلاد مصر .

وابن سبأ هذا هو الذى أثار فتنة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى قتل — كما ذكر فى ترجمة ابن سبأ من كتاب « التاريخ الكبير المقفى » — وكان له عدة أتباع فى عامة الأمصار ، وأصحاب كثيرون فى معظم الأقطار . فكثرت لذلك الشيعة ، وصاروا ضدا للخوارج ، وما زال أمرهم يقوى وعددهم يكثر .

ثم حدث بعد عصر الصحابة رضى الله عنهم مذهب جهم بن صفوان ببلاد المشرق ، فعظمت الفتنة به . فانه نفى أن يكون لله تعالى صفة ،

وأورد على أهل الاسلام شكوكا أثرت فى الملة الاسلامية آثارا قبيحة تولد عنها بلاء كبير . وكان قبيل المائة من سنى الهجرة ، فكثر أتباعه على أقواله التى تؤول الى التعطيل .

فاكبر أهل الاسلام بدعته ، وتمالئوا على انكارها وتضليل أهلها ، وحذروا من الجهمية وعادوهم فى الله ، وذموا من جلس اليهم ، وكتبوا فى الرد عليهم ما هو معروف عند أهله .

وفى أثناء ذلك حدث مذهب الاعتزال ، منذ زمن الحسن بن الحسين البصرى رحمه الله بعد المائتين من سنى الهجرة ، وصنفوا فيه مسائل فى العدل والتوحيد ، واثبات أفعال العباد ، وأن الله تعالى لا يخلق الشر ، وجهروا بأن الله لا يرى فى الآخرة ، وأنكروا عذاب القبر على البدن ، واعلنوا بأن القرآن مخلوق محدث ... الى غير ذلك من مسائلهم .

فتبعهم خلائق فى بدعهم ، وأكثروا من التصنيف فى نصرة مذهبهم بالطرق الجدلية . فنهى أئمة الاسلام عن مذهبهم ، وذموا علم الكلام ، وهجروا من ينتحله . ولم يزل أمر المعتزلة يقوى ، وأتباعهم تكثر ، ومذهبهم ينتشر فى الأرض .

ثم حدث مذهب التجسيم المضاد لمذهب الاعتزال . فظهر محمد بن كرام بن عراق بن حزابة أبو عبد الله السجستانى ، زعيم الطائفة الكرامية ، بعد المائتين من سنى الهجرة ، وأثبت الصفات حتى انتهى فيها الى التجسيم والتشبيه ، وحج وقدم الشام ، ومات بزغرة فى صفر سنة ست وخمسين ومائتين ، فدفن بالمقدس .

وكان هناك من أصحابه زيادة على عشرين ألفا على التعبد والتقشف ، سوى من كان منهم ببلاد المشرق وهم لا يحصون لكثرتهم ، وكان اماما لطائفتى الشافعية والحنفية . وكانت بين الكرامية بالمشرق وبين المعتزلة مناظرات ، ومناكرات ، وفتن كثيرة متعددة أزماتها .

هذا وأمر الشيعة يفشو فى الناس . حتى حدث مذهب القرامطة المنسوبين الى حمدان الأشعث ، المعروف بقرمط من أجل قصر قامته وقصر رجليه وتقارب خطوه . وكان ابتداء أمر قرمط هذا فى سنة أربع وستين ومائتين ، وكان ظهوره بسواد الكوفة ، فاشتهر مذهبه بالعراق .

وقام من القرامطة ببلاد الشام صاحب الحال والمدثر والمطوق . وقام بالبحرين منهم أبو سعيد الجنابى من أهل جنابة ، وعظمت دولته ودولة بنيه من بعده ، حتى أوقعوا بعساكر بغداد ، وأخافوا خلفاء بنى العباس ، وفرضوا الأموال التى تحمل اليهم فى كل سنة على أهل بغداد وخراسان والشام ومصر واليمن ، وغزوا بغداد والشام ومصر والحجاز ، وانتشرت دعاتهم بأقطار الأرض .

فدخل جماعات من الناس فى دعوتهم ، ومالوا الى قولهم الذى سموه علم الباطن . وهو تأويل شرائع الاسلام ، وصرفها عن ظواهرها الى أمور زعموها من عند أنفسهم ، وتأويل آيات القرآن ودعواهم فيها تأويلا بعيدا ، انتحلوا القول به بدعا ابتدعوها بأهوائهم ، فضلوا وأضلوا عالما كثيرا .

هذا وقد كان المأمون عبد الله بن هارون الرشيد ، سابع خلفاء بنى العباس ببغداد ، لما شغف بالعلوم القديمة ، بعث الى بلاد الروم من عرّب له كتب الفلاسفة ، وأتاه بها فى أعوام بضع عشرة سنة ومائتين من سنى الهجرة ، فانتشرت مذاهب الفلاسفة فى الناس ، واشتهرت كتبهم بعامة الأمصار ، وأقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها ، وأكثروا من النظر فيها والتصفح لها . فانجر على الاسلام وأهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة فى الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع ، وزادتهم كفرا الى كفرهم .

فلما قامت دولة بنى بويه ببغداد فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، واستمروا الى * سنة سبع وثلاثين وأربعمائة ، وأظهروا مذهب التشيع ... قويت بهم الشيعة ، وكتبوا على أبواب المساجد فى سنة احدى وخمسين وثلثمائة « لعن الله معاوية بن أبى سفيان ، ولعن من أغضب فاطمة ، ومن منع الحسن أن يدفن عند جده ، ومن نفى أبا ذر الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى» . فلما كان الليل حكه بعض الناس ، فأشار الوزير المهلبى أن يكتب باذن معز الدولة « لعن الله الظالمين لأهل البيت » ولا يذكر أحد فى اللعن غير معاوية ، ففعل ذلك .

وكثرت ببغداد الفتن بين الشيعة والسنية ، وجهر الشيعة فى الأذان بحى على خير العمل فى الكرخ . وفشا مذهب الاعتزال بالعراق وخراسان وما وراء النهر ، وذهب اليه جماعة من مشاهير الفقهاء .

وقوى مع ذلك أمر الخلفاء الفاطميين بأفريقية وبلاد المغرب ، وجهروا بمذهب الاسماعيلية ، وبثوا دعاتهم بأرض مصر ، فاستجاب لهم خلق كثير من أهلها ، ثم ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وبعثوا بعساكرهم الى الشام .

فانتشرت مذاهب الرافضة فى عامة بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والكوفة والبصرة وبغداد وجميع العراق وبلاد خراسان وما وراء النهر ، مع بلاد الحجاز واليمن والبحرين ، وكانت بينهم وبين أهل السنة من الفتن والحروب والمقاتل ما لا يمكن حصره لكثرته .

واشتهرت مذاهب الفرق من القدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية والخوارج والروافض والقرامطة والباطنية حتى ملأت الأرض . وما منهم الا من نظر فى الفلسفة ، وسلك من طرقها ما وقع عليه اختياره ، فلم تبق مصر من الأمصار ، ولا قطر من الأقطار ، الا وفيه طوائف كثيرة ممن ذكرنا .

وكان أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى قد أخذ عن أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، ولازمه عدة أعوام . ثم بدا له فترك مذهب الاعتزال ، وسلك طريق أبى محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن كلاب ، ونسج على قوانينه فى الصفات والقدر ، وقال بالفاعل المختار ، وترك القول بالتحسين والتقبيح العقليين ، وما قيل فى مسائل الصلاح

(*) ص٣٥٧ جـ٢ ، ط.بولاق .

والأصلح ، وأثبت أن العقل لا يوجب المعارف قبل الشرع ، وأن العلوم وان حصلت بالعقل فلا تجب به ولا يجب البحث عنها الا بالسمع ، وأن الله تعالى لا يجب عليه شيء ، وأن النبوات من الجائزات العقلية والواجبات السمعية ... الى غير ذلك من مسائله التى هى موضوع أصول الدين .

وحقيقة مذهب الأشعرى ، رحمه الله ، أنه سلك طريقا بين النفى الذى هو مذهب الاعتزال ، وبين الاثبات الذى هو مذهب أهل التجسيم ، وناظر على قوله هذا ، واحتج لمذهبه .

فمال اليه جماعة ، وعولوا على رأيه : منهم القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى ، وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، والشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن محمد ابن مهران الأسفراينى ، والشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن على بن يوسف الشيرازى ، والشيخ أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى ، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم ابن أحمد الشهرستانى ، والامام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى ، وغيرهم ممن يطول ذكره . ونصروامذهبه ، وناظروا عليه ، وجادلوا فيه ، واستدلوا له فى مصنفات لا تكاد تحصر . فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى فى العراق من نحو سنة ثمانين وثلثمائة ، وانتقل منه الى الشام .

فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر ، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانى على هذا المذهب ، قد نشآ عليه منذ كانا فى خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ، وحفظ صلاح الدين فى صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى ، وصار يحفظها صغار أولاده ، فلذلك عقدوا الخناصر ، وشدوا البنان على مذهب الأشعرى ، وحملوا فى أيام دولتهم كافة الناس على التزامه .

فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بنى أيوب ، ثم فى أيام مواليهم الملوك من الأتراك . واتفق مع ذلك توجه أبى عبد الله محمد بن تومرت ، أحد رحالات المغرب ، الى العراق ، وأخذ عن أبى حامد الغزالى مذهب الأشعرى . فلما عاد الى بلاد المغرب ، وقام فى المصامدة يفقههم ويعلمهم ، وضع لهم عقيدة لقفها عنه عامتهم ، ثم مات .

فخلفه بعد موته عبد المؤمن بن على القيسى ، وتلقب بأمير المؤمنين ، وغلب على ممالك المغرب هو وأولاده من بعده مدة سنين ، وتسموا بالموحدين ... فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت ، اذ هو عندهم الامام المعلوم المهدى المعصوم ، فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يحصيها الا الله خالقها سبحانه وتعالى ، كما هو معروف فى كتب التاريخ .

فكان هذا هو السبب فى اشتهار مذهب الأشعرى ، وانتشاره فى أمصار الاسلام بحيث نسى غيره من المذاهب وجهل . حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، الا أن * يكون مذهب

(*) ص٣٥٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

الحنابلة ، أتباع الامام أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضى الله عنه ، فانهم كانوا على ما كان عليه السلف لا يرون تأويل ما ورد من الصفات . الى أن كان بعد السبعمائة من سنى الهجرة ، اشتهر بدمشق وأعمالها تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحكم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى ، فتصدى للانتصار لمذهب السلف ، وبالغ فى الرد على مذهب الأشاعرة ، وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة وعلى الصوفية .

فافترق الناس فيه فريقان : فريق يقتدى به ، ويعول على أقواله ، ويعمل برأيه ، ويرى أنه شيخ الاسلام وأجل حفاظ أهل الملة الاسلامية . وفريق يبدعه ويضلله ، ويزرى عليه باثباته الصفات ، وينتقد عليه مسائل : منها ما له فيه سلف ، ومنها ما زعموا أنه خرق فيه الاجماع ولم يكن له فيه سلف . وكانت له ولهم خطوب كثيرة ، وحسابه وحسابهم على الله الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وله الى وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقليل بمصر .

هذا وبين الأشاعرة والماتريدية أتباع أبى منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدى ، وهم طائفة الفقهاء الحنفية مقلدو الامام أبى حنيفة النعمان بن ثابت وصاحبيه أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم الحضرمى ومحمد بن الحسن الشيبانى رضى الله عنهم ، من الخلاف فى العقائد ما هو مشهور فى موضعه . وهو اذا تتبع يبلغ بضع عشرة مسألة ، كان بسببها فى أول الأمر تباين وتنافر ، وقدح كل منهم فى عقيدة الآخر ... الا أن الأمر آل آخرا الى الاغضاء ، ولله الحمد .

فهذا — أعزك الله — بيان ما كانت عليه عقائد الأمة — من ابتداء الأمر الى وقتنا هذا — قد فصلت فيه ما أجمله أهل الأخبار ، وأجملت ما فصلوا . فدونك ، طالب العلم ، تناول ما قد بذلت فيه جهدى ، وأطلت بسببه سهرى وكدى فى تصفح دواوين الاسلام وكتب الأخبار . فقد وصل اليك صفوا ، ونلته عفوا بلا تكلف مشقة ولا بذل مجهود ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده .

« أبو الحسن » على بن اسماعيل بن أبى بشر اسحاق بن سالم بن اسماعيل بن عبد الله ابن موسى بن بلال بن أبى بردة عامر بن أبى موسى — واسمه عبد الله بن قيس — الأشعرى البصرى : ولد سنة ست وستين ومائتين ، وقيل سنة سبعين ، وتوفى ببغداد سنة بضع وثلاثين وثلثمائة ، وقيل سنة أربع وعشرين وثلثمائة .

سمع زكريا الساجى ، وأبا خليفة الجمحى ، وسهل بن نوح ، ومحمد بن يعقوب المقرى ، وعبد الرحمن بن خلف الضبى المصرى ، وروى عنهم فى تفسيره كثيرا ، وتلمذ لزوج أمه أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، واقتدى برأيه فى الاعتزال عدة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة ، ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة .

وصعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسيا ، ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى . أنا فلان

ابن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى بالأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها . وأنا تائب مقلع ، معتقد الرد على المعتزلة ، مبين لفضائحهم ومعايبهم .

وأخذ من حينئذ في الرد عليهم ، وسلك بعض طريق أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن كلاب القطان ، وبنى على قواعده ، وصنف خمسة وخمسين تصنيفا : منها كتاب « اللمع » ، وكتاب « الموجز » ، وكتاب « ايضاح البرهان » ، وكتاب « التبين على أصول الدين » ، وكتاب « الشرح والتفصيل في الرد على أهل الافك والتضليل » ، وكتاب « الابانة » ، وكتاب « تفسير القرآن » يقال انه في سبعين مجلدا . وكانت غلته من ضيعة وقفها بلال بن أبي بردة على عقبه ، وكانت نفقته في السنة سبعة عشر درهما ، وكانت فيه دعابة ومزح كثير .

وقال مسعود بن شيبة في كتاب التعليم : كان حنفي المذهب ، معتزلي الكلام ، لأنه كان ربيب أبي علي الجبائي ، وهو الذي رباه وعلمه الكلام . وذكر الخطيب أنه كان يجلس أيام الجمعات في حلقة أبي اسحاق المروزي الفقيه في جامع المنصور .

وعن أبي بكر بن الصيرفي : كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري ، فحجزهم في أقماع السماسم .

وجملة عقيدته : أن الله تعالى عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حي بحياة ، مريد بارادة ، متكلم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، وأن صفاته أزلية قائمة بذاته تعالى ، لا يقال هي هو ولا هي غيره ، ولا لا هي هو ولا غيره ، وعلمه واحد يتعلق بجميع المعلومات ، وقدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصح وجوده ، وارادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص ، وكلامه واحد : هو أمر ونهي ، وخبر واستخبار ، ووعد ووعيد .

وهذه الوجوه راجعة الى اعتبارات في كلامه لا الى نفس الكلام ، والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة الى الأنبياء دلالات على الكلام الأزلي . فالمدلول — وهو القرآن المقروء — قديم أزلي ، والدلالة — وهي العبارات ، وهي القراءة — مخلوقة محدثة .

قال : وفرق بين القراءة والمقروء ، والتلاوة والمتلو . كما فرق بين الذكر والمذكور ...
قال : والكلام معنى قائم بالنفس ، والعبارة دالة على ما في النفس ، وانما تسمى العبارة كلاما مجازا .

قال : وأراد الله تعالى جميع الكائنات : خيرها وشرها ونفعها وضرها . ومال * في كلامه الى جواز تكليف ما لا يطاق ، لقوله : ان الاستطاعة مع الفعل ، وهو مكلف بالفعل قبله ، وهو غير مستطيع قبله ، على مذهبه ...
قال : وجميع أفعال العباد مخلوقة مبدعة من الله تعالى ، مكتسبة للعبد ، والكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد .

قال : والخالق هو الله تعالى حقيقة ، لا يشاركه في الخلق غيره ، فأخص وصفه هو

(*) ص٢٥٩ جـ٢ ، ط.بولاق *

القدرة والاختراع ، وهذا تفسير اسمه البارئ ...

قال : وكل موجود يصح أن يرى ، والله تعالى موجود ، فيصح أن يرى ، وقد صح السمع بأن المؤمنين يرونه في الدار الأخرى في الكتاب والسنة ، ولا يجوز أن يرى في مكان ولا صورة مقابلة واتصال شعاع ، فان ذلك كله محال . وماهية الرؤية له فيها رأيان : أحدهما أنه علم مخصوص يتعلق بالوجود دون العدم ، والثاني أنه ادراك وراء العلم . وأثبت السمع والبصر صفتين أزليتين ، هما ادراكان وراء العلم . وأثبت اليدين والوجه صفات خبرية ، ورد السمع بها فيجب الاعتراف به .

وخالف المعتزلة في الوعد والوعيد ، والسمع والعقل من كل وجه . وقال : الايمان هو التصديق بالقلب ، والقول باللسان . والعمل بالأركان فروع الايمان : فمن صدق بالقلب ، أي أقر بوحدانية الله تعالى ، واعترف بالرسل تصديقا لهم فيما جاءوا به ، فهو مؤمن . وصاحب الكبيرة اذا خرج من الدنيا من غير توبة ، حكمه الى الله : اما أن يغفر له برحمته أو يشفع له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واما أن يعذبه بعدله ، ثم يدخله الجنة برحمته ، ولا يخلد في النار مؤمن .

قال : ولا أقول انه يجب على الله سبحانه قبول توبته بحكم العقل ، لأنه هو الموجب لا يجب عليه شيء أصلا ، بل قد ورد السمع بقبول توبة التائبين ، واجابة دعوة المضطرين . وهو المالك لخلقه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم النار لم يكن جورا ، ولو أدخلهم الجنة لم يكن حيفا ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا ينسب اليه جور ، لأنه الملك المطلق .

والواجبات كلها سمعية ، فلا يوجب العقل شيئا ألبتة ، ولا يقتضي تحسينا ولا تقبيحا . فمعرفة الله تعالى ، وشكر المنعم ، واثابة الطائع ، وعقاب العاصي ... كل ذلك بحسب السمع دون العقل . ولا يجب على الله شيء : لا صلاح ولا أصلح ولا لطف ، بل الثواب والصلاح واللطف والنعم ، كلها تفضل من الله تعالى . ولا يرجع اليه تعالى نفع ولا ضر ، فلاينتفع بشكر شاكر ، ولايتضرر بكفر كافر ، بل يتعالى ويتقدس عن ذلك .

وبعث الرسل جائز لا واجب ولا مستحيل . فاذا بعث الله تعالى الرسول ، وأيده بالمعجزة الخارقة للعادة ، وتحدى ودعا الناس ، وجب الاصغاء اليه ، والاستماع منه ، والامتثال لأوامره ، والانتهاء عن نواهيه . وكرامات الأولياء حق ، والايمان بما جاء في القرآن والسنة من الاخبار عن الأمور الغائبة عنا — مثل اللوح والقلم ، والعرش والكرسي ، والجنة والنار — حق وصدق .

وكذلك الاخبار عن الأمور التي ستقع في الآخرة : مثل سؤال القبر ، والثواب والعقاب فيه ، والحشر والمعاد ، والميزان والصراط ، وانقسام فريق في الجنة وفريق في السعير ... كل ذلك حق وصدق يجب الايمان والاعتراف به . والامامة تثبت بالاتفاق والاختيار دون النص والتعيين على واحد معين ، والأئمة مترتبون في الفضل ترتبهم في الامامة .

قالَ : ولا أقولُ فى عائشة وطلحة والزبير ، رضى الله عنهم ، الا أنهم رجعوا عن الخطأ . وأقول : ان طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة ، وأقول فى معاوية وعمرو بن العاص : انهما بغيا على الامام الحق على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فقاتلهم مقاتلة أهل البغى . وأقول : ان أهل النهروان الشراة هم المارقون عن الدين ، وان عليا رضى الله عنه كان على الحق فى جميع أحواله ، والحق معه حيث دار .

فهذه جملة من أصول عقيدته التى عليها الآن جماهير أهل الأمصار الاسلامية ، والتى من جهر بخلافها أريق دمه .

والأشاعرة يسمون « الصفاتية » لاثباتهم صفات الله تعالى القديمة . ثم افترقوا فى الألفاظ الواردة فى الكتاب والسنة — كالاستواء ، والنزول ، والاصبع واليد ، والقدم ، والصورة ، والجنب ، والمجىء — على فرقتين : فرقة تؤول جميع ذلك على وجوه محتملة اللفظ . وفرقة لم يتعرضوا للتأويل ، ولا صاروا الى التشبيه ، ويقالُ لهؤلاء الأشعرية الأسرية .

فصار للمسلمين فى ذلك خمسة أقوالٌ : أحدها اعتقاد ما يفهم مثله من اللغة ، وثانيها السكوت عنها مطلقا ، وثالثها السكوت عنها بعد نفى ارادة الظاهر ، ورابعها حملها على المجاز ، وخامسها حملها على الاشتراك . ولكل فريق أدلة وحجاج تضمنتها كتب أصول الدين « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » ، « والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

« فصلٌ » : اعلم أن الله سبحانه طلب من الخلق معرفته بقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ... قال ابن عباس وغيره : يعرفون . فخلق تعالى الخلق ، وتعرف اليهم بألسنة الشرائع المنزلة ، فعرفه من عرفه سبحانه منهم على ما عرّفهم فيما تعرّف به اليهم .

وقد كان الناس ، قبل انزال الشرائع ببعثة الرسل عليهم السلام ، علمهم * بالله تعالى انما هو بطريق التنزيه له عن سمات الحدوث ، وعن التركيب ، وعن الافتقار ، ويصفونه سبحانه بالاقتدار المطلق . وهذا التنزيه هو المشهور عقلا ، ولا يتعداه عقل أصلا .

فلما أنزل الله شريعته على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأكمل دينه ، كان سبيل العارف بالله أن يجمع فى معرفته بالله بين معرفتين : احداهما المعرفة التى تقتضيها الأدلة العقلية ، والأخرى المعرفة التى جاءت بها الاخبارات الالهية ، وأن يرد علم ذلك الى الله تعالى ، ويؤمن به وبكل ما جاءت به الشريعة على الوجه الذى أراده الله تعالى ، من غير تأويل بفكره ، ولا تحكم فيه برأيه .

وذلك أن الشرائع انما أنزلها الله تعالى لعدم استقلال العقول البشرية بادراك حقائق الأشياء على ما هى عليه فى علم الله . وأنى لها ذلك وقد تقيدت بما عندها من اطلاق ما هنالك ؟ فان وهبها علما بمراده من الأوضاع الشرعية ، ومنحها الاطلاع على حكمه فى ذلك ... كان من فضله تعالى .

(*) ص ٣٦٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلا يضيف العارف هذه المنة الى فكره ، فان تنزيهه لربه تعالى بفكره يجب أن يكون مطابقا لما أنزله سبحانه على لسان رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، من الكتاب والسنة . والا فهو تعالى منزه عن تنزيه عقول البشر بأفكارها ، فانها مقيدة بأوطارها ، فتنزيهها كذلك مقيد بحسبها وبموجب أحكامها وآثارها ... الا اذا خلت عن الهوى ، فانها حينئذ يكشف الله لها الغطاء عن بصائرها ، ويهديها الى الحق . فتنزه الله تعالى عن التنزيهات العرفية بالأفكار العادية .

وقد أجمع المسلمون قاطبة على جواز رواية الأحاديث الواردة فى الصفات ونقلها وتبليغها ، من غير خلاف بينهم فى ذلك . ثم أجمع أهل الحق منهم على أن هذه الأحاديث مصروفة عن احتمال مشابهة الخلق ، لقول الله تعالى : « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » ، ولقول الله تعالى : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » .

وهذه السورة يقال لها سورة الاخلاص . وقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنها ، ورغب أمته فى تلاوتها ... حتى جعلها تعدل ثلث القرآن من أجل أنها شاهدة بتنزيه الله تعالى ، وعدم الشبه والمثل له سبحانه . وسميت سورة الاخلاص ، لاشتمالها على اخلاص التوحيد لله عن أن يشوبه ميل الى تشبيه بالخلق . وأما الكاف التى فى قوله تعالى « ليس كمثله شىء » فانها زائدة . وقد تقرر أن الكاف والمثل فى كلام العرب أتيا للتشبيه ، فجمعهما الله تعالى ، ثم نفى بهما عنه ذلك .

فاذا ثبت اجماع المسلمين على جواز رواية هذه الأحاديث ونقلها ، مع اجماعهم على أنها مصروفة عن التشبيه ، لم يبق فى تعظيم الله تعالى بذكرها الا نفى التعطيل ... لكون أعداء المرسلين سموا ربهم سبحانه أسماء نفوا فيها صفاته العلا . فقال قوم من الكفار : هو طبيعة ، وقال آخرون منهم : هو علة ، الى غير ذلك من الحادهم فى أسمائه سبحانه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأحاديث المشتملة على ذكر صفات الله العلا ، ونقلها عنه أصحابه البررة ، ثم نقلها عنهم أئمة المسلمين . حتى انتهت الينا ، وكل منهم يرويها بصفتها من غير تأويل لشىء منها ، مع علمنا أنهم كانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ... ففهمنا من ذلك أن الله تعالى أراد — بما نطق به رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، من هذه الأحاديث ، وتناولها عنه الصحابة رضى الله عنهم وبلغوها لأمته — أن يغص بها فى حلوق الكافرين ، وأن يكون ذكرها نكتا فى قلوب كل ضال معطل مبتدع يقفو أثر المبتدعة من أهل الطبائع وعباد العلل . فلذلك وصف الله تعالى نفسه الكريمة بها فى كتابه ، ووصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا بما صح عنه وثبت .

فدل على أن المؤمن اذا اعتقد أن الله «ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » ، وأنه أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له

كفوا أحد ... كان ذكره لهذه الأحاديث تمكين الاثبات ، وشجا فى حلوق المعطلة . وقد قال الشافعى رحمه الله : الاثبات أمكن ... نقله الخطابى . ولم يبلغنا عن أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم أنهم أولوا هذه الأحاديث .

والذى يمنع من تأويلها اجلال الله تعالى عن أن تضرب له الأمثال ، وأنه اذا نزل القرآن بصفة من صفات الله تعالى ، كقوله سبحانه « يد الله فوق أيديهم » ، فان نفس تلاوة هذا يفهم منها السامع المعنى المراد به ، وكذا قوله تعالى « بل يداه مبسوطتان » عند حكايته تعالى عن اليهود نسبتهم اياه الى البخل ، فقال تعالى : « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » ، فان نفس تلاوة هذا مبينة للمعنى المقصود .

وأيضا فان تأويل هذه الأحاديث يحتاج أن يضرب لله تعالى فيها المثل ، نحو قولهم فى قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » : الاستواء الاستيلاء ، كقولك « استوى الأمير على البلد » . وأنشدوا : « قد استوى بشر على العراق » ، فلزمهم تشبيه البارى تعالى ببشر .

وأهل الاثبات نزهوا جلال الله عن أن يشبهوه بالأجسام حقيقة ولا مجازا ، وعلموا — مع ذلك — أن هذا النطق يشتمل على كلمات متداولة بين الخالق وخلقه ، وتحرجوا أن يقولوا مشتركة ، لأن الله * تعالى لا شريك له . ولذلك لم يتأول السلف شيئا من أحاديث الصفات ، مع علمنا قطعا أنها عندهم مصروفة عما يسبق اليه ظنون الجهال من مشابهتها لصفات المخلوقين .

وتأمل تجد الله تعالى لما ذكر المخلوقات المتولدة من الذكر والأنثى فى قوله سبحانه « خلق لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه » ، علم سبحانه ما يخطر بقلوب الخلق فقال عز من قائل : « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » .

واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الاسلام : أن الفرس كانت من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر فى أنفسها ... بحيث انهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب — وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا — تعاظمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالمحاربة فى أوقات شتى ، وفى كل ذلك يظهر الله تعالى الحق .

وكان من قائميهم شنفاد وأشنيس والمقفع وبابك وغيرهم ، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار — الملقب خداشا — وأبو مسلم السروح ، فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع ، فأظهر قوم منهم الاسلام ، واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستبشاع ظلم على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى .

فقوم أدخلوهم الى القول بأن رجلا ينتظر ، يدعى المهدى ، عنده حقيقة الدين ، اذ لا يجوز أن يؤخذ الدين عن كفار ، اذ نسبوا أصحاب

(*) ص ١١٦ جـ ٢ ، ط. بولاق .

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكفر . وقوم خرجوا الى القول بادعاء النبوة لقوم سموهم به . وقوم سلكوا بهم الى القول بالحلول ، وسقوط الشرائع . وآخرون تلاعبوا بهم ، فأوجبوا عليهم خمسين صلاة فى كل يوم وليلة . وآخرون قالوا : بل هى سبع عشرة صلاة ، فى كل صلاة خمس عشرة ركعة . وهو قول عبد الله بن عمرو بن الحارث الكندى قبل أن يصير خارجيا صفريا .

وقد أظهر عبد الله بن سبأ الحميرى اليهودى الاسلام ليكيد أهله ، فكان هو أصل اثارة الناس على عثمان بن عفان رضى الله عنه . وأحرق على رضى الله عنه منهم طوائف أعلنوا بالهيته . ومن هذه الأصول حدثت الاسماعيلية والقرامطة .

والحق الذى لا ريب فيه أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه ، وجوهر لا سر تحته ، وهو كله لازم كل أحد لا مسامحة فيه . ولم يكتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشريعة ولا كلمة ، ولا أطلع أخص الناس به ، من زوجة أو ولد عم ، على شىء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم . ولا كان عنده صلى الله عليه وسلم سر ، ولا رمز ، ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم اليه . ولو كتم شيئا لما بلغ كما أمر ، ومن قال هذا فهو كافر باجماع الأمة .

وأصل كل بدعة فى الدين البعد عن كلام السلف ، والانحراف عن اعتقاد الصدر الأول . حتى بالغ القدرى فى القدر فجعل العبد خالقا لأفعاله ، وبالغ الجبرى فى مقابلته فسلب عنه الفعل والاختيار ، وبالغ المعطل فى التنزيه فسلب عن الله تعالى صفات الجلال ونعوت الكمال ، وبالغ المشبه فى مقابلته فجعله كواحد من البشر ، وبالغ المرجىء فى سلب العقاب ، وبالغ المعتزلى فى التخليد فى العذاب ، وبالغ الناصبى فى دفع على رضى الله عنه عن الامامة ، وبالغت الغلاة حتى جعلوه الها ، وبالغ السنى فى تقديم أبى بكر رضى الله عنه ، وبالغ الرافضى فى تأخيره حتى كفره .

وميدان الظن واسع ، وحكم الوهم غالب . فتعارضت الظنون ، وكثرت الأوهام ، وبلغ كل فريق فى الشر والعناد والبغى والفساد الى أقصى غاية وأبعد نهاية ، وتباغضوا وتلاعنوا ، واستحلوا الأموال ، واستباحوا الدماء ، وانتصروا بالدول ، واستعانوا بالملوك . فلو كان أحدهم اذا بالغ فى أمر ، نازع الآخر فى القرب منه — فان الظن لا يبعد عن الظن كثيرا ، ولا ينتهى فى المنازعة الى الطرف الآخر من طرفى التقابل — لكنهم أبوا الا ما قدمنا ذكره من التدابر والتقاطع . « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك » .

ذكر المدارس

قال ابن سيده : درس الكتاب يدرسه درسا ودراسة ، ودارسه من ذلك كأنه عاوده حتى انقاد لحفظه ، وقد قرىء بهما « وليقولوا درست » ودارست ، ذاكرتهم ، وحكى درست أى قرئت ، وقرىء درست ودرست ، أى هذه أخبار قد عفت وانمحت ، ودرّست أشد مبالغة ، والدراس المدارسة .

وقال ابن جنى : ودرسته اياه وأدرسته .

ومن الشاذ قراءة ابن حيوة « وبما كنتم تدرسون » . والمدرس : الموضع الذى يدرس فيه .

وقد ذكر الواقدى أن عبد الله ابن أم مكتوم قدم مهاجرا الى المدينة مع مصعب بن عمير رضى الله عنهما — وقيل قدم بعد بدر يسير — فنزل دار القراء .

ولما أراد الخليفة المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أبى أحمد طلحة بن المتوكل على الله جعفر ، بناء قصره * فى الشماسية ببغداد ، استزاد فى الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد . فسئل عن ذلك ، فذكر أنه يريده ليبنى فيه دورا ومساكن ومقاصير ، يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، ويجرى عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه .

والمدارس مما حدث فى الاسلام ، ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين ، وانما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة .

وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الاسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية ، وبنى بها أيضا الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أيضا المدرسة السعيدية ، وبنى بها أيضا مدرسة رابعة .

وأشهر ما بنى فى القديم المدرسة النظامية ببغداد ، لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم ، وهى منسوبة الى الوزير نظام الملك أبى على الحسن بن على بن اسحاق بن العباس الطوسى ، وزير ملك شاه بن ألب أرسلان ابن داود بن ميكال بن سلجوق فى مدينة بغداد .

وشرع فى بنائها فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وفرغت فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، ودرس فيها الشيخ أبو اسحاق الشيرازى الفيروزبادى ، صاحب كتاب «التنبيه فى الفقه» على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ورحمه . فاقتدى الناس به من حينئذ فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر ، وفى بلاد الجزيرة وديار بكر .

وأما مصر فانها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين ، ومذهبهم مخالف لهذه الطريقة ، وانما هم شيعة اسماعيلية كما تقدم .

وأول ما عرف اقامة درس من قبل السلطان ، بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر ، فى خلافة العزيز بالله نزار بن المعز ووزارة يعقوب بن كلس . فعمل ذلك بالجامع الأزهر ، كما تقدم ذكره ، ثم عمل فى دار الوزير يعقوب بن كلس مجلس يحضره الفقهاء فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم ، وعمل أيضا مجلس بجامع عمرو بن العاص من مدينة فسطاط مصر لقراءة كتاب الوزير . ثم بنى الحاكم بأمر الله أبو على منصور بن العزيز دار العلم بالقاهرة ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب .

فلما انقرضت الدولة الفاطمية ، على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر ، وأقام بها مذهب

(*) ص ٣٦٢ ج ٢ ، ط . بولاق .

الامام الشافعى ومذهب الامام مالك ، واقتدى بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكى . فانه بنى بدمشق وحلب وأعمالها عدة مدارس للشافعية والحنفية ، وبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر .

وأول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضا ، ثم المدرسة السيوفية التى بالقاهرة . ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين ، فى بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر وبالبلاد الشامية والجزيرة ، أولاده وأمراؤه . ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم الى يومنا هذا .

وسأذكر ما بديار مصر من المدارس ، وأعرف بحال من بناها ، على ما اعتدته فى هذا الكتاب من التوسط دون الاسهاب ، وبالله أستعين .

المدرسة الناصرية

بجوار الجامع العتيق من مدينة مصر من قبليه .

هذه المدرسة عرفت أولا بالمدرسة الناصرية ، ثم عرفت بابن زين التجار — وهو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقى ، المعروف بابن زين التجار ، أحد أعيان الشافعية ... درس بهذه المدرسة مدة طويلة . ومات فى ذى القعدة سنة احدى وتسعين وخمسمائة — ثم عرفت بالمدرسة الشريفية ، وهى الى الآن تعرف بذلك ، وكان موضعها يقال له الشرطة .

وذكر الكندى أنها خطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ، وعرفت بدار الفلفل . وقال ابن عبد الحكم : كانت فضاء قبل ذلك .

وقيل كانت هى والدار التى الى جانبها لنافع بن عبد الله بن قيس الفهرى ، فأخذها منه قيس بن سعد . وسميت دار الفلفل لأن أسامة ابن زيد التنوخى ، صاحب الخراج بمصر ، ابتاع من موسى بن وردان فلفلا بعشرين ألف دينار ليهديه الى صاحب الروم ، فخزنه فيها . ولما فرغ عيسى بن يزيد الجلودى من بناء زيادة الجامع ، بنى هذه الدار شرطة فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ، ثم صارت سجنا تعرف بالمعونة .

فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فى أول المحرم سنة ست وستين وخمسمائة ، وأنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية — وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد ، وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة — وهى أول مدرسة عملت بديار مصر . ولما كملت وقف عليها الصاغة — وكانت بجوارها — وقد خربت ، وبقى منها شىء يسير قرأت عليها اسم * الخليفة العزيز بالله ، ووقف عليها أيضا قرية تعرف ......

وأول من ولى التدريس بها لبن زين التجار فعرفت به ، ثم درس بها بعده ابن قطيطة بن الوزان ، ثم من بعده كمال الدين أحمد بن

(*) ص ٣٦٣ ج ٢ ، ط . بولاق .

شيخ الشيوخ ، وبعده الشريف القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد الحنفي — قاضي العسكر الأرموي — فعرفت به ، وقيل لها المدرسة الشريفية من عهده الى اليوم . ولولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت ، فان الكيمان ملاصقة لها بعدما كان حولها أعمر موضع في الدنيا .

وقد ذكر حبس المعونة عند ذكر السجون من هذا الكتاب .

المدرسة القمحية

هذه المدرسة بجوار الجامع العتيق بمصر . كان موضعها يعرف بدار الغزل — وهو قيسارية يباع فيها الغزل — فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية ، وكان الشروع فيها للنصف من المحرم سنة ست وستين وخمسمائة ، ووقف عليها قيسارية الوراقين وعلوها بمصر ، وضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية ، ورتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة .

وهذه المدرسة أجل مدرسة للفقهاء المالكية ، ويتحصل لهم من ضيعتهم التي بالفيوم قمح يفرق فيهم ، فلذلك صارت لا تعرف الا بالمدرسة القمحية الى اليوم . وقد أحاط بها الخراب ، ولولا ما يتحصل منها للفقهاء لدثرت .

وفي شعبان سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، أخرج السلطان الملك الأشرف برسباي الدقاقي ناحيتي الأعلام والحنبوشية — وكانتا من وقف السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على هذه المدرسة — وأنعم بهما على مملوكين من مماليكه ليكونا اقطاعا لهما .

مدرسة بازكوج

هذه المدرسة بسوق الغزل في مدينة مصر . وهي مدرسة معلقة بناها ... ...

مدرسة ابن الأرسوفي

هذه المدرسة كانت بالبزازين التي تجاور خط النخالين بمصر . عرفت بابن الأرسوفي التاجر العسقلاني ، وكان بناؤها في سنة سبعين وخمسمائة ، وهو عفيف الدين عبد الله ابن محمد الأرسوفي ، مات بمصر في يوم الاثنين حادي عشرى ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

مدرسة منازل العز

هذه المدرسة كانت من دور الخلفاء الفاطميين . بنتها أم الخليفة العزيز بالله بن المعز ، وعرفت بمنازل العز ، وكانت تشرف على النيل ، وصارت معدة لنزهة الخلفاء ، وممن سكنها ناصر الدولة حسين بن حمدان الى أن قتل ، وكان بجانبها حمام يعرف بحمام الذهب من جملة حقوقها ، وهي باقية .

فلما زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف ، أنزل في منازل العز الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب . فسكنها مدة ، ثم انه اشتراها والحمام

والاصطبل المجاور لها من بيت المال في شهر شعبان سنة ست وستين وخمسمائة ، وأنشأ فندقين بمصر بخط الملاحين ، وأنشأ ربعا بجوار أحد الفندقين ، واشترى جزيرة مصر التي تعرف اليوم بالروضة .

فلما أراد أن يخرج من مصر الى الشام ، وقف منازل العز على فقهاء الشافعية ، ووقف عليها الحمام وما حولها ، وعمر الاصطبل فندقا ، عرف بفندق النخلة ، ووقفه عليها ، ووقف عليها الروضة .

ودرس بها شهاب الدين الطوسي ، وقاضي القضاة عماد الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد العلي السكري ، وعدة من الأعيان . وهي الآن عامرة بعمارة ما حولها .

الملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان : هو ابن أخي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . قدم الى القاهرة في ... ... ، واستنابه السلطان على دمشق في المحرم سنة احدى وسبعين . ثم نقله الى نيابة حماة ، وسلم اليه سنجار لما أخذها في ثاني رمضان سنة ثمان وسبعين . فأقام بها .

ولحق السلطان على حلب ، فقدم عليه في سابع صفر سنة تسع وسبعين ، فأقام الى أن بعثه الى القاهرة نائبا عنه بديار مصر — عوضا عن الملك العادل أبي بكر بن أيوب — فقدمها في شهر رمضان سنة تسع وسبعين ، وأنعم عليه بالفيوم وأعمالها مع القايات وبوش ، وأبقى عليه مدينة حماة .

ثم خرج بعساكر مصر الى السلطان ، وهو بدمشق ، في سنة ثمانين لأجل أخذ الكرك من الفرنج * فسار اليها وحصرها مدة ، ثم رجع مع السلطان الى دمشق ، وعاد الى القاهرة في شعبان ، وقد أقام السلطان على مملكة مصر * ابنه الملك العزيز عثمان ، وجعل الملك المظفر كافلا له وقائما بتدبير دولته . فلم يزل على ذلك الى جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين ، فصرف السلطان أخاه الملك العادل عن حلب وأعطاه نيابة مصر .

فغضب الملك المظفر ، وعبر بأصحابه الى الجيزة يريد المسير الى بلاد المغرب واللحاق بغلامه بهاء الدين قراقوش التقوي . فبلغ السلطان ذلك ، فكتب اليه ، ولم يزل به حتى زال ما به . وسار الى السلطان ، فقدم عليه دمشق في ثالث عشرى شعبان ، فأقره على حماه والمعرة ومنبج وأضاف اليه ميافارقين ، فلحق به أصحابه ما خلا مملوكه زين الدين بوزبا ، فانه سار الى بلاد المغرب .

وكانت له في أرض مصر وبلاد الشام أخبار وقصص ، وعرفت له مواقف عديدة في الحرب مع الفرنج ، وآثار في المصافات . وله في أبواب البر أفعال حسنة ، وله بمدينة الفيوم مدرستان : احداهما للشافعية ، والأخرى للمالكية . وبنى مدرسة بمدينة الرها ، وسمع الحديث من السلفي وابن عوف .

وكان عنده فضل وأدب ، وله شعر حسن ، وكان جوادا شجاعا مقداما ، شديد البأس ، عظيم الهمة ، كثير الاحسان . ومات في نواحي خلاط ليلة الجمعة تاسع شهر رمضان سنة

(*) ص٢٦٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

سبع وثمانين وخمسمائة ، ونقل الى حماة ، فدفن بها فى تربة بناها على قبره ابنه الملك المنصور محمد .

مدرسة العادل

هذه المدرسة بخط الساحل ، بجوار الربع العادلى من مدينة مصر الذى وقف على الشافعى . عمرها الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فدرس بها قاضى القضاة تقى الدين أبو على الحسين بن شرف الدين أبى الفضل عبد الرحيم ابن الفقيه جلال الدين أبى محمد عبد الله بن نجم بن شاس بن نزار بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن شاس ، فعرفت به ، وقيل لها مدرسة ابن شاس الى اليوم . وهى عامرة ، وعرف خطها بالقشاشين ، وهى للمالكية .

مدرسة ابن رشيق

هذه المدرسة للمالكية ، وهى بخط حمام الريش من مدينة مصر . كان الكانم من طوائف التكرور ، لما وصلوا الى مصر فى سنة بضع وأربعين وستمائة قاصدين الحج ، دفعوا للقاضى علم الدين بن رشيق مالا بناها به ، ودرس بها فعرفت به ، وصار لها فى بلاد التكرور سمعة عظيمة ، وكانوا يبعثون اليها فى غالب السنين المال .

المدرسة الفائزية

هذه المدرسة فى مصر بخط ... ... أنشأها الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد ابن وهيب الفائزى ، قبل وزارته ، فى سنة ست وثلاثين وستمائة . ودرس بها القاضى محيى الدين عبد الله ابن قاضى القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة ، ثم قاضى القضاة صدر الدين موهوب الجزرى ، وهى للشافعية .

المدرسة القطبية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فى خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريرى ، كانت هى والمدرسة السيفية من حقوق دار الديباج التى تقدم ذكرها . وأنشأ هذه المدرسة الأمير قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدبانى ، فى سنة سبعين وخمسمائة ، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية . وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

المدرسة السيوفية

هذه المدرسة بالقاهرة ، وهى من جملة دار الوزير المأمون البطائحى . وقفها السلطان السيد الأجل الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب على الحنفية ، وقرر فى تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتى ، ورتب له فى كل شهر أحد عشر دينارا ، وباقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده على قدر طبقاتهم ، وجعل النظر للجبتى ، ومن بعده الى من له النظر فى أمور المسلمين .

وعرفت بالمدرسة السيوفية من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها ، وهى

الآن تجاه سوق الصنادقين . وقد وهم القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر ، فانه قال فى كتاب « الروضة الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » : مدرسة السيوفية ، وهى للحنفية ، وقفها عز الدين فرخشاه قريب صلاح الدين .

وما أدرى كيف وقع له هذا الوهم ؟ فان كتاب وقفها موجود قد وقفت عليه ، ولخصت منه ما ذكرته ، وفيه أن واقفها السلطان صلاح الدين * ، وخطه على كتاب الوقف ، ونصه « الحمد لله وبه توفيقى » . وتاريخ هذا الكتاب تاسع عشرى شعبان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ووقف على مستحقيها اثنين وثلاثين حانوتا ، بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان ، وذكر فى آخر كتاب وقفها : أن الواقف أذن لمن حضر مجلسه من العدول فى الشهادة والقضاء على لفظه بما تضمنه المسطور ، فشهدوا بذلك ، وأثبتوا شهادتهم آخره ، وحكم حاكم المسلمين على صحة هذا الوقف بعدما خاصم رجل من أهل هذا الوقف فى ذلك ، وأمضاه .

لكنه لم يذكر فى الكتاب اسجال القاضى بثبوته ، بل ذكر رسم شهادة الشهود على الواقف ، وهم : على بن ابراهيم بن نجا بن غنائم الأنصارى الدمشقى ، والقاسم بن يحيى ابن عبد الله بن قاسم الشهرزورى ، وعبد الله ابن عمر بن عبد الله الشافعى ، وعبد الرحمن ابن على بن عبد العزيز بن قريش المخزومى ، وموسى بن حكر بن موسك الهدبانى ، فى آخرين .

وهذه المدرسة هى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر ، وهى باقية بأيديهم .

المدرسة الفاضلية

هذه المدرسة بدرب ملوخيا من القاهرة . بناها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى بجوار داره ، فى سنة ثمانين وخمسمائة ، ووقفها على طائفتى الفقهاء الشافعية والمالكية ، وجعل فيها قاعة للاقراء : أقرأ فيها الامام أبو محمد الشاطبى ناظم الشاطبية ، ثم تلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبى ، ثم الشيخ على بن موسى الدهان وغيرهم . ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن سلامة الاسكندرانى .

ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم ، يقال انها كانت مائة ألف مجلد ، وذهبت كلها . وكان أصل ذهابها أن الطلبة التى كانت بها لما وقع الغلاء بمصر فى سنة أربع وتسعين وستمائة ، والسلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصورى ، مسهم الضر ، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز ، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب ، ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعارية فتفرقت .

وبها الى الآن مصحف قرآن كبير القدر جدا ، مكتوب بالخط الأول الذى يعرف بالكوفى ، تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان — ويقال ان القاضى الفاضل اشتراه

(*) ص٣٦٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

بنيف وثلاثين ألف دينار على آله مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه — وهو فى خزانة مفردة له بجانب المحراب من غربيه وعليه مهابة وجلالة .

والى جانب المدرسة كتاب برسم الأيتام . وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها ، وقد تلاشت لخراب ما حولها .

« عبد الرحيم » بن على بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد : القاضى الفاضل محيى الدين أبو على ، ابن القاضى الأشرف اللخمى العسقلانى البيسانى المصرى الشافعى ، كان أبوه يتقلد قضاء مدينة بيسان ، فلهذا نسبوا اليها .

وكانت ولادته بمدينة عسقلان فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة . ثم قدم القاهرة ، وخدم الموفق يوسف بن محمد بن الجلال ، صاحب ديوان الانشاء فى أيام الحافظ لدين الله ، وعنه أخذ صناعة الانشاء ، ثم خدم بالاسكندرية مدة .

فلما قام بوزارة مصر العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك ، خرج أمره الى والى الاسكندرية بتسييره الى الباب ، فلما حضر استخدمه بحضرته وبين يديه فى ديوان الجيش . فلما مات الموفق بن الجلال فى سنة ست وستين وخمسمائة — وكان القاضى الفاضل ينوب عنه فى ديوان الانشاء — عينه الكامل بن شاور ، وسعى له عند أبيه الوزير شاور بن مجير ، فأقره عوضا عن ابن الجلال فى ديوان الانشاء .

فلما ملك أسد الدين شيركوه احتاج الى كاتب ، فأحضره وأعجبه اتقانه وسمته ونصحه فاستكتبه . الى أن ملك صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، فاستخلصه وحسن اعتقاده فيه ، فاستعان به على ما أراد من ازالة الدولة الفاطمية حتى تم مراده ، فجعله وزيره ومشيره ... بحيث كان لا يصدر أمرا الا عن مشورته ، ولا ينفذ شيئا الا عن رأيه ، ولا يحكم فى قضية إلا بتدبيره . فلما مات صلاح الدين استمر على ما كان عليه ، عند ولده الملك العزيز عثمان ، فى المكانة والرفعة وتقلد الأمر .

فلما مات العزيز ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور بالملك ، ودبر أمره عمه الأفضل ... كان معهما على حاله . الى أن وصل الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام لأخذ ديار مصر ، وخرج الأفضل لقتاله ، فمات منكوبا أحوج ما كان الى الموت ، عند تولى الاقبال واقبال الادبار ، فى سحر يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة ودفن بتربته من القرافة الصغرى .

قال ابن خلكان : وزر للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتمكن منه غاية التمكن ، وبرز فى صناعة الانشاء ، وفاق المتقدمين * ، وله فيه الغرائب مع الاكثار ... أخبرنى أحد الفضلاء الثقات ، المطلعين على حقيقة أمره ، أن مسودات رسائله فى المجلدات والتعليقات فى الأوراق اذا جمعت ما تقصر عن مائة ، وهو مجيد فى أكثرها .

وقال عبد اللطيف البغدادى : دخلنا عليه فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو

(*) ص٣٦٦ جـ٢ ، ط . بولاق .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٤١



« كانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره ، لازلت مذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاعتراف من آثارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها »

تقى الدين احمد بن على المقريزى

كتاب التحرير

يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات ، لقوة حرصه فى اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة أعضائه .

وكان له غرام فى الكتابة وتحصيل الكتب ، وكان له الدين والعفاف والتقى ، والمواظبة على أوراد الليل ، والصيام وقراءة القرآن . وكان قليل اللذات ، كثير الحسنات ، دائم التهجد ، ويشتغل بعلوم الادب وتفسير القرآن . غير أنه كان خفيف البضاعة من النحو ، ولكن قوة الدراية توجب له قلة اللحن وكان لايكاد يضيع من زمانه شيئا الا فى طاعة ، وكتب فى الانشاء ما لم يكتبه غيره .

وحكى لى ابن القطان أحد كتابه قال : لما خطب صلاح الدين بمصر للامام المستضىء بأمر الله ، تقدم الى القاضى الفاضل بأن يكاتب الديوان العزيز وملوك الشرق . ولم يكن يعرف خطابهم واصطلاحهم ، فأوعز الى العماد الكاتب أن يكتب فكتب واحتفل ، وجاء بها مفضوضة ليقرأها الفاضل متصحا بها ، فقال : لا أحتاج أن أقف عليها . وأمر بختمها وتسليمها الى النجاب ، والعماد يبصر .

قال : ثم أمرنى أن ألحق النجاب ببلبيس ، وأن أفض الكتب ، وأكتب صدورها ونهايتها ، ففعلت ورجعت بها اليه . فكتب على حذوها وعرضها على السلطان ، فارتضاها ، وأمر بارسالها الى أربابها مع النجاب .

وكان متقللا فى مطعمه ومنكحه وملبسه ، ولباسه البياض لا يبلغ جميع ما عليه دينارين ، ويركب معه غلام وركابى ، ولا يمكن أحدا أن يصحبه ، ويكثر زيارة القبور وتشييع الجنائز وعيادة المرضى ، وله معروف فى السر والعلانية ، وأكثر أوقاته يفطر بعدما يتهور الليل .

وكان ضعيف البنية ، رقيق الصورة ، له حدبة يغطيها الطيلسان . وكان فيه سوء خلق يكمد به فى نفسه ، ولا يضر أحدا به . ولأصحاب الأدب عنده نفاق ، يحسن اليهم ولا يمن عليهم ، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء ، ولم يكن له انتقام من أعدائه الا بالاحسان اليهم أو بالاعراض عنهم . وكان دخله فى كل سنة ، من اقطاع ورباع وضياع خمسين ألف دينار ، سوى متاجره للهند والمغرب وغيرهما .

وكان يقتنى الكتب من كل فن ، ويجتلبها من كل جهة ، وله نساخ لا يفترون ومجلدون لا يبطلون .. قال لى بعض من يخدمه فى الكتب : ان عددها قد بلغ مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا . وهذا قبل موته بعشرين سنة .

وحكى لى ابن صورة الكتبى أن ابنه القاضى الأشرف التمس منى أن أطلب له نسخة الحماسة ليقرأها ، فأعلمت القاضى الفاضل : فاستحضر من الخادم الحماسات ، فأحضر له خمسا وثلاثين نسخة ، وصار ينفض نسخة نسخة ويقول : هذه بخط فلان ، وهذه عليها خط فلان .. حتى أتى على الجميع وقال : ليس فيها ما يصلح للصبيان . وأمرنى أن أشترى له نسخة بدينار .

قصده الناس من البلاد الشاسعة يستطرون احسانه وبره . وسار اليه شرف الدين بن عنين ، ومدحه بعدة قصائد بديعة ، فأجزل صلاته ، وأكثر من الاحسان اليه ، واكتسب من جهته مالا وافرا ، وخرج من اليمن . فلما قدم الى مصر — والسلطان اذ ذاك الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين — ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع زكاة ما معه من المتجر ، فعمل :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها
أهل ، ولا كل برق سحبه غدقه

بين العزيزين فرق فى فعالهما :
هذاك يعطى ، وهذا يأخذ الصدقه

وتوفى سيف الاسلام فى شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالمنصورة ، وهى مدينة باليمن اختطها رحمه الله تعالى .

المدرسة العاشورية

هذه المدرسة بحارة زويلة من القاهرة ، بالقرب من المدرسة القطبية الجديدة ورحبة كوكاى ... قال ابن عبد الظاهر : كانت دار اليهودى ابن جميع الطبيب ، وكان يكتب لقراقوش ، فاشترتها منه الست عاشوراء بنت ساروخ الأسدى — زوجة الأمير أيازكوج الأسدى — ووقفتها على الحنفية ، وكانت من الدور الحسنة .

وقد تلاشت هذه المدرسة ، وصارت طول الأيام مغلوقة لا تفتح الا قليلا ، فانها فى زقاق لا يسكنه الا اليهود ومن يقرب منهم فى النسب .

المدرسة القطبية

هذه المدرسة فى أول حارة زويلة برحبة كوكاى . عرفت بالست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون — المعروفة بدار اقبال العلائى — ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد واليه نسبت . وكانت ولادتها فى سنة ثلاث وستمائة ، ووفاتها ليلة الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وكانت قد سمعت الحديث ، وخرج لها الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد الظاهرى أحاديث ثمانيات حدثت بها . وكانت عاقلة دينة فصيحة ، لها أدب وصدقات كثيرة ، وتركت مالا جزيلا ، وأوصت ببناء مدرسة يجعل فيها فقهاء وقراء ، ويشترى لها وقف يغل . فبنيت هذه المدرسة ، وجعل فيها درس للشافعية ودرس للحنفية ، وقراء . وهى الى اليوم عامرة .

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة على شاطىء النيل من مدينة مصر . أنشأها تاج الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبى ، لما أنشأ بيتا كبيرا مقابل بيت أخيه عز الدين قبليه على شاطىء النيل ، وجعل فيه هذه المدرسة . وهى ألطف من مدرسة أخيه ، وبجنبها مكتب سبيل ، ووقف عليها أوقافا ، وجعل بها مدرس حديث فقط ، ومات بمكة فى آخر المحرم سنة خمس وثمانين وسبعمائة .

المدرسة الأزكشية

هذه المدرسة بالقاهرة على رأس السوق الذى كان يعرف بالخروقيين ، ويعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش . بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدى — مملوك أسد الدين شيركوه ، وأحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — وجعلها وقفا على الفقهاء من الحنفية فقط فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وكان أيازكوج رأس الأمراء الأسدية بديار مصر فى أيام السلطان صلاح الدين وأيام ابنه الملك العزيز عثمان ، وكان الأمير فخر الدين جهاركس رأس الصلاحية . ولم يزل على ذلك الى أن مات فى يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، ودفن بسفح المقطم ، بالقرب من رباط الأمير فخر الدين بن قزل .

المدرسة الفخرية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فيما بين سويقة الصاحب ودرب العداس . عمرها الأمير الكبير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومى ، أستادار الملك الكامل محمد بن العادل ، وكان الفراغ منها فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وكان موضعها أخيرا يعرف بدار الأمير حسام الدين ساروج بن أرتق شاد الدواوين .

ومولد الأمير فخر الدين فى سنة احدى وخمسين وخمسمائة بحلب ، وتنقل فى الخدم حتى صار أحد الأمراء بديار مصر ، وتقدم فى أيام الملك الكامل ، وصار أستاداره ، واليه أمر المملكة وتدبيرها الى أن سافر السلطان من القاهرة يريد بلاد المشرق . فمات بحران بعد مرض طويل فى ثامن عشر ذى الحجة سنة تسع وعشرين وستمائة .

وكان خيرا كثير الصدقة ، يتفقد أرباب البيوت . وله من الآثار ، سوى هذه المدرسة ، المسجد الذى تجاهها ، وله أيضا رباط بالقرافة *، والى جانبه كتاب سبيل ، وبنى بمكة رباطا .

المدرسة السيفية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فيما بين خط البندقانيين وخط الملحيين ، وموضعها من جملة دار الديباج . قال ابن عبد الظاهر : كانت دارا وهى من المدرسة القطبية ، فسكنها شيخ الشيوخ (يعنى صدر الدين محمد بن حمويه) ، وبنت فى وزارة صفى الدين عبد الله بن على بن شكران سيف الاسلام ، ووقفها وولى فيها عماد الدين ولد القاضى صدر الدين (يعنى ابن درباس) وسيف الاسلام هذا اسمه طغتكين بن أيوب .

« طغتكين » : ظهير الدين سيف الاسلام الملك المعز بن نجم الدين أيوب بن شادى ابن مروان الأيوبى . سيره أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب الى بلاد اليمن فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، فملكها واستولى على كثير من بلادها . وكان شجاعا كريما ، مشكور السيرة ، حسن السياسة .

(*) ص٣٦٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

مدرسة المحلى

هذه المدرسة على شاطىء النيل ، داخل صناعة التمر ، ظاهر مدينة مصر . أنشأها رئيس التجار برهان الدين ابراهيم بن عمر بن على المحلى ابن بنت العلامة شمس الدين محمد ابن اللبان ، وينتمى فى نسبه الى طلحة بن عبيد الله ، أحد العشرة رضى الله عنهم ، وجعل هذه المدرسة بجوار داره التى عمرها فى مدة سبع سنين ، وأنفق فى بنائها زيادة على * خمسين ألف دينار ، وجعل بجوارها مكتب سبيل ، لكن لم يجعل بها مدرسا ولا طلبة .

وتوفى ثانى عشرى ربيع الأول سنة ست وثمانمائة عن مال عظيم ، أخذ منه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق مائة ألف دينار ، وكان مولده سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ولم يكن مشكور السيرة فى الديانة ، وله من المآثر تجديد جامع عمرو بن العاص ، فانه كان قد تداعى الى السقوط ، فقام بعمارته حتى عاد قريبا مما كان عليه .. شكر الله له ذلك .

المدرسة الفارقانية

هذه المدرسة بابها شارع فى سويقة حارة الوزيرية من القاهرة . فتحت فى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى سنة ست وسبعين وستمائة . وبها درس للطائفة الشافعية ، ودرس للطائفة الحنفية .

أنشأها الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى السلاحدار . كان مملوكا للأمير نجم الدين أمير حاجب ، ثم انتقل الى الملك الظاهر بيبرس ، فترقى عنده فى الخدم حتى صار أحد الأمراء الأكابر ، وولاه الأستادارية ، وناب عنه بديار مصر مدة غيبته ، وقدمه على العساكر غير مرة ، وفتح له بلاد النوبة وكان وسيما جسيما ، شجاعا مقداما حازما ، صاحب دراية بالأمور وخبرة بالأحوال والتصرفات ، مدبرا للدول ، كثير البر والصدقة

ولما مات الملك الظاهر ، وقام من بعده فى ملك مصر ابنه الملك السعيد بركة قان ، ولاه نيابة السلطنة بديار مصر بعد موت الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار ، فأظهر الحزم ، وضم اليه طائفة : منهم شمس الدين أقوش ، وقطليجا الرومى ، وسيف الدين قليج البغدادى ، وسيف الدين بيجو البغدادى ، وسيف الدين شعبان أمير شكار ، وبكتمر السلاحدار .

وكانت الخاصكية تكرهه ، فاتفقوا مع مماليك بيلبك الخازندار على القبض عليه ، وتحدثوا مع الملك السعيد فى ذلك ، ومازالوا به حتى قبضوا عليه بمساعدة الأمير سيف الدين كوندك الساقى لهم ، وكان قد ربى مع السعيد فى المكتب ، فلم يشعر وهو قاعد بباب القلة من القلعة ، الا وقد سحب وضرب ونتفت لحيته وجر — وقد ارتكب فى اهانته أمر شنيع — الى البرج فسجن به ليالى قليلة ، ثم أخرج منه ميتا فى أثناء سنة ست وسبعين وستمائة ، وجهل قبره .

(*) ص٣٦٨ ج٢ ، ط. بولاق .

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة خارج باب زويلة ، من خط حارة حلب ، بجوار حمام قمارى . بناها الحكيم مهذب الدين أبو سعيد محمد بن علم الدين بن أبى الوحش بن أبى الخير بن أبى سليمان بن أبى حلقة ، رئيس الأطباء

كان جده الرشيد أبو الوحش نصرانيا متقدما فى صناعة الطب ، فأسلم ابنه علم الدين فى حياته ، وكان لا يولد له ولد فيعيش ، فرأت أمه ، وهى حامل به ، قائلا يقول : هبوا له حلقة فضة قد تصدق بوزنها ، وساعة يوضع من بطن أمه تثقب أذنه وتوضع فيها الحلقة ، ففعلت ذلك فعاش ، فعاهدت أمه أباه الا يقلعها من أذنه ، فكبر وجاءه أولاد وكلهم يموت ، فولد له ابنه مهذب الدين أبو سعيد ، فعمل له حلقة فعاش .

وكان سبب اشتهاره بأبى حلقة : أن الملك الكامل محمد بن العادل أمر بعض خدامه أن يستدعى بالرشيد الطبيب من الباب — وكان جماعة من الأطباء بالباب — فقال الخادم : من هو منهم ؟

فقال السلطان : أبو حلقة .

فخرج فاستدعاه بذلك ، فاشتهر بهذا الاسم . ومات الرشيد فى سنة ست وسبعين وستمائة .

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة بظاهر مدينة مصر ، تجاه المقياس بخط كرسى الجسر . أنشأها كبير الخرارية بدر الدين محمد بن محمد بن على الخروبى — بفتح الخاء المعجمة ، وتشديد الراء المهملة وضمها ، ثم واو ساكنة بعدها باء موحدة ، ثم ياء آخر الحروف — التاجر فى مطابخ السكر وفى غيرها بعد سنة خمسين وسبعمائة

وجعل مدرس الفقه بها الشيخ بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل ، والمعيد الشيخ سراج الدين عمر البلقينى . ومات سنة اثنتين وستين وسبعمائة .

وأنشأ أيضا ربعين بخط دار النحاس من مصر على شاطىء النيل ، وربعين مقابل المقياس بالقرب من مدرسته

ولبدر الدين هذا أخ من أبيه أسن منه ، يقال له صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبى ، عاش بعد أخيه ، وأنجب فى أولاده وأدركت لهم أولادا نجباء وكان أولا قليل المال ، ثم تمول . أنشأ تربة كبيرة بالقرافة ، فيما بين تربة الامام الشافعى وتربة الليث بن سعد ، مقابل السروتين وجددها حفيده نور الدين على بن عز الدين محمد بن صلاح الدين وأضاف اليها مطهرة حسنة ، ومات سنة تسع وستين وسبعمائة

وشرط بدر الدين فى مدرسته ألا يلى بها أحد من العجم وظيفة * من الوظائف ، فقال فى كل وظيفة منها : ويكون من العرب دون العجم . وكانت له مكارم ، جهز مرة ابن عقيل الى الحج بنحو خمسمائة دينار .

(*) ص٣٦٩ ج٢ ، ط. بولاق .

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة بخط الشون ، قبلى دار النحاس من ظاهر مدينة مصر . أنشأها عز الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد ابن على الخروبى ، وهى أكبر من مدرسة عمه بدر الدين . الا أنه مات سنة ست وسبعين وسبعمائة ، قبل استيفاء ما أراد أن يجعل فيها ، فليس لها مدرس ولا طلبة ، ومولده سنة ست عشرة وسبعمائة ، ونشأ فى دنيا عريضة . رحمه الله تعالى .

المدرسة الصاحبية البهائية

هذه المدرسة كانت بزقاق القناديل من مدينة مصر ، قرب الجامع العتيق . أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم ابن حنا فى سنة أربع وخمسين وستمائة

وكان اذ ذاك زقاق القناديل أعمر أخطاط مصر ، وانما قيل له زقاق القناديل من أجل أنه كان سكن الأشراف ، وكانت أبواب الدور يعلق على كل باب منها قنديل ... قال القضاعى : ويقال انه كان به مائة قنديل توقد كل ليلة على أبواب الأكابر .

وابن حنا هذا هو على بن محمد بن سليم — بفتح السين المهملة وكسر اللام ، ثم ياء آخر الحروف بعدها ميم — ابن حنا — بحاء مهملة مكسورة ، ثم نون مشددة مفتوحة بعدها ألف — الوزير الصاحب بهاء الدين . ولد بمصر فى سنة ثلاث وستمائة ، وتنقلت به الأحوال فى كتابة الدواوين الى أن ولى المناصب الجليلة ، واشتهرت كفايته ، وعرفت فى الدولة نهضته ودرايته .

فاستوزره السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فى ثامن شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وستمائة ، بعد القبض على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ، وفوض اليه تدبير المملكة وأمور الدولة كلها ، فنزل من قلعة الجبل بخلع الوزارة — ومعه الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار ، وجميع الأعيان والأكابر — الى داره .

واستبد بجميع التصرفات ، وأظهر عن حزم وعزم وجودة رأى وقام بأعباء الدولة ، من ولايات العمال وعزلهم ، من غير مشاورة السلطان ، ولا اعتراض أحد عليه فصار مرجع جميع الأمور ، ومصدرها عنه ، ومنشأ ولايات الخطط والأعمال من قلمه ، وزوالها عن أربابها لا يصدر الا من قبله . وما زال على ذلك طول الأيام الظاهرية .

فلما قام الملك السعيد بركة خان بأمر المملكة بعد موت أبيه الملك الظاهر ، أقره على ما كان عليه فى حياة والده ، فدبر الأمور ، وساس الأحوال وما تعرض له أحد بعداوة ولا سوء ، مع كثرة من كان يناويه من الأمراء وغيرهم ، الا وصده الله عنه ، ولم يجد ما يتعلق به عليه ، ولا ما يبلغ به مقصوده منه .

وكان عطاؤه واسعا ، وصلاته وكلفه للأمراء والأعيان ، ومن يلوذ به ويتعلق بخدمته ، تخرج عن الحد فى الكثرة ، وتتجاوز القدر فى السعة ... مع حسن ظن بالفقراء ، وصدق العقيدة فى أهل الخير والصلاح ، والقيام

بمصالحهم ، وتفقد أحوالهم ، وقضاء أشغالهم ، والمبادرة الى امتثال أوامرهم ، والعفة عن الأموال — حتى انه لم يقبل من أحد فى وزارته هدية ، الا أن تكون هدية فقير أو شيخ معتقد يتبرك بما يصل من أثره — وكثرة الصدقات فى السر والعلانية .

وكان يستعين على ما التزمه من المبرات ولزمه من الكلف بالمتاجر ، وقد مدحه عدة من الناس ، فقبل مديحهم وأجزل جوائزهم . وما أحسن قول الرشيد الفارقى فيه :

وقائل قال لى نبه لنا عمرا
فقلت ان عليا قد تنبه لى
مالى اذا كنت محتاجا الى عمر
من حاجة فليم حسبى انتباه على

وقول سعد الدين بن مروان الفارقى فى كتاب « الدرج » المختص به أيضا :

يمم عليا فهو بحر الندى
وناده فى المضلع المعضل
فرفده بحر على مجدب
ووفده مفض الى مفصل
يسرع ان سيل نداه وهل
أسرع من سيل أتى من على

الا أنه أحدث فى وزارته حوادث عظيمة ، وقاس أراضى الأملاك بمصر والقاهرة ، وأخذ عليها مالا ، وصادر أرباب الأموال وعاقبهم حتى مات كثير منهم تحت العقوبة ، واستخرج جوالى الذمة مضاعفة .

ورزىء بفقد ولديه : الصاحب فخر الدين محمد ، والصاحب زين الدين . فعوضه الله عنهما بأولادهما ، فما منهم الا نجيب صدر * رئيس فاضل مذكور . وما مات حتى صار جد جد ، وهو على المكانة وافر الحرمة ، فى ليلة الجمعة مستهل ذى الحجة سنة سبع وسبعين وستمائة ، ودفن بتربته من قرافة مصر .

ووزر من بعده الصاحب برهان الدين الخضر بن حسن بن على السنجارى ، وكان بينه وبين ابن حنا عداوة ظاهرة وباطنة ، وحقود بارزة وكامنة . فاوقع الحوطة على الصاحب تاج الدين محمد بن حنا بدمشق ، وكان مع الملك السعيد بها ، وأخذ خطه بمائة ألف دينار ، وجهزه على البريد الى مصر ليستخرج منه ومن أخيه زين الدين أحمد ابن عمه عز الدين تكملة ثلثمائة ألف دينار ، وأحيط بأسبابه ومن يلوذ به من أصحابه ومعارفه وغلمانه ، وطولبوا بالمال .

وأول من درس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين محمد ، ابن بانيها الوزير الصاحب بهاء الدين ، الى أن مات يوم الاثنين حادى عشرى شعبان سنة ثمان وستين وستمائة .

فوليها من بعده ابنه محيى الدين أحمد بن محمد الى أن توفى يوم الأحد ثامن شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة . فدرس فيها بعده الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين الى أن مات فى يوم الأربعاء سابع صفر سنة أربع وسبعمائة . فدرس بها ولده الصاحب شرف الدين .

(*) ص ٢٧٠ جـ ٢ ، ط . بولاق .

وتوارثها أبناء الصاحب ، يلون نظرها وتدريسها ، الصاحب بهاء الدين .
الى أن كان آخرهم صاحبنا الرئيس شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن الصاحب بهاء الدين ... وليها بعد أبيه عز الدين ، ووليها عز الدين بعد بدر الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الصاحب بهاء الدين .

فلما مات صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب ، لليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، وضع بعض نواب القضاة يده على ما بقى لها من وقف .

وأقامت هذه المدرسة مدة أعوام معطلة من ذكر الله واقام الصلاة ، لا يأويها أحد لخراب ما حولها ، وبها شخص يبيت بها كى لا يسرق ما بها من أبواب ورخام .

وكان لها خزانة كتب جليلة ، فنقلها شمس الدين محمد بن الصاحب ، وصارت تحت يده الى أن مات ، فتفرقت فى أيدى الناس ، وكان قد عزم على نقلها الى شاطىء النيل بمصر ، فمات قبل ذلك .

ولما كان فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، أخذ الملك الناصر فرج بن برقوق عمد الرخام التى كانت بهذه المدرسة — وكانت كثيرة العدد ، جليلة القدر — وعمل بدلها دعائم تحمل السقوف . الى أن كانت أيام الملك المؤيد شيخ ، وولى الأمير تاج الدين الشويكى الدمشقى ولاية القاهرة ومصر وحسبة البلدين وشد العمائر السلطانية ، فهدم هذه المدرسة فى أخريات سنة سبع عشرة وأوائل سنة ثمانى عشرة وثمانمائة .

وكانت من أجل مدارس الدنيا ، وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها ، ويتشاحنون فى سكنى بيوتها ، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة ، ثم تلاشى أمرها حتى هدمت ، وسيجهل عن قرب موضعها . ولله عاقبة الأمور .

المدرسة الصاحبية

هذه المدرسة بالقاهرة فى سويقة الصاحب . كان موضعها من جملة دار الوزير يعقوب بن كلس ، ومن جملة دار الديباج أنشأها الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر ، وجعلها وقفا على المالكية ، وبها درس نحو وخزانة كتب ، وما زالت بيد أولاده .

فلما كان فى شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ، جدد عمارتها القاضى علم الدين ابراهيم بن عبد اللطيف بن ابراهيم — المعروف بابن الزبير — ناظر الدولة فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، واستجد فيها منبرا ، فصار يصلى بها الجمعة الى يومنا هذا ، ولم يكن قبل ذلك بها منبر ، ولا تصلى فيها الجمعة

« عبد الله بن على بن الحسين » بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور بن ابراهيم بن عمار بن منصور بن على ، صفى الدين أبو محمد الشيبى ، الدميرى المالكى — المعروف بابن شكر — ولد بناحية دميرة ، احدى قرى مصر البحرية ، فى تاسع صفر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ومات أبوه ،

فتزوجت أمه بالقاضى الوزير الأعز فخر الدين مقدام ، ابن القاضى الأجل أبى العباس أحمد ابن شكر المالكى ، فرباه ، ونوه باسمه لأنه كان ابن عمه ، فعرف به وقيل له ابن شكر .

وسمع صفى الدين من الفقيه أبى الطاهر اسماعيل بن مكى بن عوف ، وأبى الطيب عبد المنعم بن يحيى وغيره ، وحدث بالقاهرة ودمشق ، وتفقه على مذهب مالك ، وبرع فيه ، وصنف كتابا فى الفقه كان كل من حفظه نال منه حظا وافرا ، وقصد بذلك أن يتشبه بالوزير عون الدين بن هبيرة .

كانت بداية أمره أنه لما سلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وأفرد له من الأبواب الديوانية الزكاة بمصر ، والحبس الجيوشى بالبرين ، والنطرون ، والخراج وما معه من ثمن القرظ ، وساحل السنط ، والمراكب الديوانية ، واسا وطنبدى استخدم العادل فى مباشرة ديوان هذه المعاملة الصفى بن شكر هذا ، وكان ذلك * فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ومن حينئذ اشتهر ذكره ، وتخصص بالملك العادل . فلما استقل بمملكة مصر ، فى سنة ست وتسعين وخمسمائة ، عظم قدره ، ثم استوزره بعد الصيعة بن النجار ، فحل عنده محل الوزراء الكبار والعلماء المشاورين ، وباشر الوزارة بسطوة وجبروت وتعاظم ، وصادر كتاب الدولة ، واستصفى أموالهم . ففر منه القاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل

(*) ص٢٧١ جـ٢ ، ط. بولاق .

الى بغداد ، واستشفع بالخليفة الناصر ، وأحضر كتابه الى الملك العادل يشفع فيه . وهرب منه القاضى علم الدين اسماعيل بن أبى الحجاج صاحب ديوان الجيش ، والقاضى الأسعد أسعد بن مماتى صاحب ديوان المال ، والتجآ الى الملك الظاهر بحلب ، فأقاما عنده حتى ماتا .

وصادر بنى حمدان ، وبنى الحباب ، وبنى الجليس ، وأكابر الكتاب ... والسلطان لا يعارضه فى شىء . ومع ذلك فكان يكثر التغضب على السلطان ، ويتجنى عليه وهو يحتمله ، الى أن غضب فى سنة سبع وستمائة ، وحلف أنه ما بقى يخدم . فلم يحتمله ، وولى الوزارة عوضا عنه القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر ، وأخرجه من مصر بجميع أمواله ، وحرمه وغلمانه ، وكان نقله على ثلاثين جملا ، وأخذ أعداؤه فى إغراء السلطان به ، وحسنوا له أن يأخذ ماله ، فأبى عليهم ، ولم يأخذ منه شيئا

وصار الى آمد ، فأقام بها عند ابن أرتق الى أن مات الملك العادل فى سنة خمسين وستمائة فطلبه الملك الكامل محمد ابن الملك العادل لما استبد بسلطنة ديار مصر بعد أبيه ، وهو فى نوبة قتال الفرنج على دمياط ، حين رأى أن الضرورة داعية لحضوره بعدما كان يعاديه . فقدم عليه فى ذى القعدة منها ، وهو بالمنزلة العادلية قريبا من دمياط .

فتلقاه وأكرمه ، وحادثه فيما نزل به من موت أبيه ، ومحاربة الفرنج ، ومخالفة الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب ، واضطراب أرض مصر بثورة العربان وكثرة خلافهم .

فتشجعه ، وتكفل له بتحصيل المال وتدبير الأمور ، وسار الى القاهرة ، فوضع يده فى مصادرات أرباب الأموال بمصر والقاهرة من الكتاب والتجار ، وقرر على الأملاك مالا ، وأحدث حوادث كثيرة ، وجمع مالا عظيما أمد به السلطان .

فكثر تمكنه منه ، وقويت يده ، وتوفرت مهابته ... بحيث انه لما انقضت نوبة دمياط ، وعاد الملك الكامل الى قلعة الجبل ، كان ينزل اليه ، ويجلس عنده بسطرته التى كانت على الخليج ، ويتحدث معه فى مهمات الدولة . ولم يزل على ذلك الى أن مات بالقاهرة ، وهو وزير ، فى يوم الجمعة ثامن شعبان سنة اثنتين وعشرين وستمائة

وكان بعيد الغور ، جماعا للمال ضابطا له من الانفاق فى غير واجب قد ملأت هيبته الصدور ، وانقاد له على الرغم والرضا الجمهور ، وأخمد جمرات الرجال وأضرم ومادا لم يخطر ايقاده على بال . وبلغ عند الملك الكامل بحيث انه بعث اليه بابنيه الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك العادل أبى بكر ، ليزوراه فى يوم عيد ، فقاما على رأسه قياما ، وأنشد زكى الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن وهيب القوصى قصيدة ، زاد فيها حين رأى الملكين قياما على رأسه .

لو لم تقم لله حق قيامه

ما كنت تقعد والملوك قيام

وقطع فى وزارته الأرزاق ، وكانت جملتها أربعمائة ألف دينار فى السنة ، وتسارع أرباب الحوائج والأطماع ومن كان يخافه الى بابه ، وملأوا طرقاته ... وهو يهينهم ، ولا يحفل بشيخ منهم وهو عالم ، وأوقع بالرؤساء وأرباب البيوت ، حتى استأصل شأفتهم عن آخرهم ، وقدم الأراذل فى مناصبهم .

وكان جلدا قويا حل به مرة دوسنطاريا قوية وأزمنت ، فيئس منه الأطباء ، وعندما اشتد به الوجع ، وأشرف على الهلاك ، استدعى بعشرة من وجوه الكتاب كانوا فى حبسه ، وقال : « أنتم فى راحة وأنا فى الألم ... كلا والله ! واستحضر المعاصير ، وآلات العذاب وعذبهم ، فصاروا يصرخون من العذاب ، وهو يصرخ من الألم طول الليل الى الصبح ، وبعد ثلاثة أيام ركب .

وكان يقول كثيرا « لم يبق فى قلبى حسرة الا كون البيسانى لم تمرغ شيبته على عتباتى — يعنى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فانه مات قبل وزارته — وكان درى اللون تعلوه حمرة ، ومع ذلك فكان طلق المحيا ، حلو اللسان ، حسن الهيئة ، صاحب دهاء ، مع هوج وخبث ، فى طيش ورعونة مفرطة ، وحقد لا تخبو ناره ، ينتقم وبظن أنه لم ينتقم فيعود .

وكان لا ينام عن عدوه ، ولا يقبل معذرة أحد ، ويتخذ الرؤساء كلهم أعداءه ، ولايرضى لعدوه بدون الهلاك والاستئصال ، ولا يرحم أحدا اذا انتقم منه ، ولا يبالى بعاقبة ، وكان له ولأهله كلمة يروتها ، ويعملون بها كما يعمل بالأقوال الالهية ، وهى « اذا كنت دقماقا فلا تكن وتدا » ، وكان الواحد منهم يعيدها فى اليوم مرات ، ويجعلها حجة عند انتقامه

وكان قد استولى على الملك العادل ظاهرا وباطنا ، ولا يمكن أحدا من الوصول اليه ...

حتى الطبيب والحاجب والفراش عليهم عيون له ، لا يتكلم أحد منهم بفضل كلمة خوفا منه

وكان أكبر أغراضه ابادة أرباب البيوت ، ومحو آثارهم ، وهدم ديارهم ، وتقريب الأسقاط وشرار الفقهاء وكان لا يأخذ من مال السلطان فلسا ولا ألف دينار ، ويظهر أمانة مفرطة ، فاذا لاح له مال عظيم احتجنه وبلغ اقطاعه فى السنة مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار .

وكان قد عمى ، فأخذ يظهر جلدا عظيما وعدم استكانة ، اذا حضر اليه الأمراء والأكابر ، وجلسوا على خوانه ، يقول قدموا اللون الفلانى للأمير فلان ، والصدر فلان ، والقاضى فلان ، وهو يبى أموره فى معرفة مكان المشار اليه برموز ومقدمات يكاد فيها دوائر الزمان

وكان يتشبه فى ترسله بالقاضى الفاضل ، وفى محاضراته بالوزير عون الدين بن هبيرة حتى اشتهر عنه ذلك ولم يكن فيه أهلية هذا ، ولكنه كان من دهاة الرجال . وكان اذا لحظ شخصا لا يقنع له الا بكثرة الغنى ونهاية الرفعة ، واذا غضب على أحد لا يقنع فى شأنه الا بمحو أثره من الوجود ، وكان كثيرا ما ينشد :

اذا حقرت امرأ فاحذر عداوته

من يزرع الشوك لم يحصد به عنبا

وينشد كثيرا :

تود عدوى ثم تزعم أننى

صديقك ان الرأى عنك لعازب

وأخذته مرة مرض من حمى قوية ، وحدث به النافض وهو فى مجلس السلطان ينفذ الأشغال ، فما تأثر ، ولا ألقى جنبه الى الأرض حتى ذهب هو كذلك .

وكان تعزز على الملوك الجبابرة ، وتقف الرؤساء على بابه من نصف الليل ومعهم المشاعل والشمع وعند الصباح يركب فلا يراهم ولا يرونه ، لأنه اما أن يرفع رأسه الى السماء تيها واما أن يعرج الى طريق غير التى هم بها ، واما أن يأمر الجاندرة التى فى ركابه بضرب الناس وطردهم من طريقه ، ويكون الرجل قد وقف على بابه طول الليل ، اما من أوله ، أو من نصفه ، بغلمانه ودوابه ، فيطرد عنه ولا يراه

وكان له بواب يأخذ من الناس مالا كثيرا ، ومع ذلك يهينهم اهانة مفرطة ، وعليه للصاحب فى كل يوم خمسة دنانير منها ديناران برسم الفقاع ، وثلاثة دنانير برسم الحلوى وكسوة غلمانه ، ونفقاته عليه أيضا ، ومع ذلك اقتنى عقارا وقرى

ولما كان بعد موت الصاحب ، قدم من بغداد رسول الخليفة الظاهر — وهو محيى الدين أبو المظفر بن الجوزى — ومعه خلعة الخليفة للملك الكامل ، وخلع لأولاده ، وخلعة للصاحب صفى الدين ، فلبسها فخر الدين سليمان كاتب الانشاء

وقبض الملك الكامل على أولاده تاج الدين يوسف ، وعز الدين محمد ، وحبسهما ، وأوقع الحوطة على سائر موجوده . رحمه الله وعفا عنه .

(*) ص٢٧٢ جـ٢ ، ط . بولاق .

المدرسة الشريفية

هذه المدرسة بدرب كركامة ، على رأس حارة الجودرية ، من القاهرة . وقفها الأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر اسماعيل ابن حصن الدولة فخر العرب ثعلب بن يعقوب ابن مسلم بن أبى جميل دحية بن جعفر بن موسى بن ابراهيم بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، الجعفرى الزينبى ، أمير الحاج والزائرين ، وأحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية ، وتمت فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ، وهى من مدارس الفقهاء الشافعية .

قال ابن عبد الظاهر : وجرى له فى وقفها حكاية مع الفقيه ضياء الدين بن الوراق . وذلك أن الملك العادل سيف الدين أبا بكر (يعنى ابن أيوب) لما ملك مصر — وكان قد دخلها على أنه نائب للملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف ، فقوى عليه ، وقصد الاستبداد بالملك — فأحضر الناس للحلف ، وكان من جملتهم الفقيه ضياء الدين بن الوراق ، فلما شرع الناس فى الحلف ، قال الفقيه ضياء الدين : ما هذا الحلف ؟ بالأمس حلفتم للمنصور ، فان كانت تلك الأيمان باطلة فهذه باطلة ، وان كانت تلك صحيحة فهذه باطلة .

فقال الصاحب صفى الدين بن شكر للعادل : أفسد عليك الأمور هذا الفقيه — وكان الفقيه لم يحضر الى ابن شكر ولا سلم عليه — فأمر العادل بالحوطة على جميع موجود الفقيه وماله وأملاكه ، واعتقاله بالرصد مرسما عليه فيه ، لأنه كان مسجده ، فأقام مدة سنين على هذه الصورة .

فلما كان فى بعض الأيام وجد غرة من المترسمين ، فحضر الى دار الوزارة بالقاهرة . فبلغ العادل حضوره فخرج اليه ، فقال له الفقيه : اعلم والله أنى لا حاللتك ولا أبرأتك ، أنت تتقدمنى الى الله فى هذه المدة ، وأنا بعدك أطالبك بين يدى الله تعالى . وتركه وعاد الى مكانه .

فحضر الشريف فخر الدين بن ثعلب الى الملك العادل ، فوجده متألما حزينا ، فسأله فعرفه ، فقال : يامولانا ، ولم تجرد السم فى نفسك ؟

فقال : خذ كل ما وقعت الحوطة عليه ، وكل ما استخرج من أجرة أملاكه ، وطيب خاطره .

وأما الفقيه ضياء الدين ، فانه أصبح ، وحضرت اليه جماعة من الطلبة * للقراءة عليه ، فقال لهم : رأيت البارحة النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول : يكون فرجك على يد رجل من أهل بيتى صحيح النسب .

فبينما هم فى الحديث ، واذا بغبرة ثارت من جهة القرافة ، فانكشفت عن الشريف بن ثعلب ، ومعه الموجود كله . فلما حضر عرفه الجماعة المنام ، فقال : ياسيدى اشهد علىّ أن جميع ما أملكه وقف وصدقة ، شكرا لهذه الرؤيا .

وخرج عن كلّ ما يملكه ، وكان من جملة ذلك المدرسة الشريفية لأنها كانت مسكنه ، ووقف عليها أملاكه ، وكذلك فعل فى غيرها .

(*) ص٣٧٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

ولم يحالل الفقيه الملك العادل ، ومات الملك العادل بعد ذلك ، ومات الفقيه بعده بمدة ، ومات الشريف اسماعيل بن ثعلب بالقاهرة فى سابع عشر رجب سنة ثلاث عشرة وستمائة .

المدرسة الصالحية

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة . كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقى ، فبنى فيه الملك الصالح نجم الدين أيوب هاتين المدرستين ، فابتدأ بهدم موضع أيوب هاتين المدرستين ، فابتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر ، فى ثالث عشر ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وستمائة ، ودك أساس المدارس فى رابع عشر ربيع الآخر سنة أربعين ، ورتب فيها دروسا أربعة للفقهاء المنتمين الى المذاهب الأربعة فى سنة احدى وأربعين وستمائة . وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة فى مكان .

ودخل فى هذه المدارس باب القصر المعروف بباب الزهومة ، وموضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن ، ثم اختط ما وراء هذه المدارس فى سنة بضع وخمسين وستمائة ، وجعل حكر ذلك للمدرسة الصالحية .

وأول من درس بها من الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد ابراهيم ابن عبد الواحد بن على بن سرور ، المقدسى الحنبلى الصالحى .

وفى يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وأربعين وستمائة ، أقام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ، الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى فى نيابة السلطنة بديار مصر فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية هذه مع نواب دار العدل ، وانتصب لكشف المظالم ، واستمر جلوسه بها مدة .

ثم ان الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس ، وقف الصاغة التى تجاهها ، وأماكن بالقاهرة وبمدينة المحلة الغربية ، وقطع أراضى جزائر بالأعمال الجيزية والأطفيحية ، على مدرسين أربعة ، عند كل مدرس معيدان وعدة طلبة ، وما يحتاج اليه من أئمة ومؤذنين وقومة وغير ذلك وثبت وقف ذلك على يد قاضى القضاة تقى الدين محمد ابن الحسين بن رزين الشافعى ، ونفذه قاضى القضاة شمس الدين أبو البركات محمد بن هبة الله بن شكر المالكى ، وذلك فى سنة سبع وسبعين وستمائة ، وهى جارية فى وقفها الى اليوم .

فلما كان فى يوم الجمعة حادى عشرى ربيع الأول سنة ثلاثين وسبعمائة ، رتب الأمير جمال الدين أقوش — المعروف بنائب الكرك — جمال الدين الغزاوى خطيبا بايوان الشافعية من هذه المدرسة ، وجعل له فى كل شهر خمسين درهما ، ووقف عليه وعلى مؤذنين وقفا جاريا ، فاستمرت الخطبة هناك الى يومنا هذا .

« قبة الصالح » : هذه القبة بجوار المدرسة الصالحية ، كان موضعها قاعة شيخ المالكية . بنتها عصمة الدين ، والدة خليل ، شجرة الدر لأجل مولاها الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما مات — وهو على مقاتلة الفرنج بناحية المنصورة — فى ليلة النصف من شعبان سنة

سبع وأربعين وستمائة . فكتمت زوجته شجرة الدر موته خوفا من الفرنج ، ولم تعلم بذلك أحدا سوى الأمير فخر الدين بن يوسف ابن شيخ الشيوخ ، والطواشي جمال الدين محسن فقط ، فكتما موته عن كل أحد .

وبقيت أمور الدولة على حالها ، وشجرة الدر تخرج المناشير والتواقيع والكتب ، وعليها علامة بخط خادم يقال له سهيل ، فلا شك أحد في أنه خط السلطان . وأشاعت أن السلطان مستمر المرض ، ولا يمكن الوصول اليه ، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان ... الى أن أنفذت الى حصن كيفا ، وأحضرت الملك المعظم توران شاه بن الصالح .

وأما الملك الصالح فان شجرة الدر أحضرته في حراقة من المنصورة الى قلعة الروضة ، تجاه مدينة مصر ، من غير أن يشعر به أحد الا من ائتمنته على ذلك . فوضع في قاعة من قاعات قلعة الروضة الى يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة ، فنقل الى هذه القبة بعد ما كانت شجرة الدر قد عمرتها على ما هي عليه .

وخلعت نفسها من سلطنة مصر ، ونزلت عنها لزوجها عز الدين أيبك قبل نقله ، فنقله المعز أيبك ، ونزل ومعه الملك الأشرف موسى ابن الملك المسعود ، وسائر المماليك البحرية والجمدارية والأمراء ، من قلعة الجبل الى قلعة الروضة . وأخرج الملك الصالح في تابوت ، وصلى عليه بعد صلاة الجمعة ، وسائر الأمراء وأهل الدولة قد لبسوا البياض حزنا عليه ، وقطع المماليك شعور رؤوسهم ، وساروا به الى هذه القبة ، فدفن ليلة السبت * .

فأصبح السلطان ، ونزلا الى القبة ، وحضر القضاة وسائر المماليك ، وأهل الدولة وكافة الناس ، وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر ، وعمل عزاء للملك الصالح بين القصرين بالدفوف مدة ثلاثة أيام ، آخرها يوم الاثنين ، ووضع عند القبر سناجق السلطان وبقجته وتركاشه وقوسه ، ورتب عنده القراء على ما شرطت شجرة الدر في كتاب وقفها ، وجعلت النظر فيها للصاحب بهاء الدين على بن حنا وذريته ، وهي بيدهم الى اليوم .

وما أحسن قول الأديب جمال الدين أبي المظفر عبد الرحمن بن أبي سعيد محمد بن محمد بن عمر بن أبي القاسم بن تخمش الواسطي — المعروف بابن المنيرة الشاعر — لما مر هو والأمير نور الدين تكريت بالقاهرة بين القصرين ، ونظر الى تربة الملك الصالح هذه وقد دفن بقاعة شيخ المالكية ، فأنشد :

بنيت لأرباب العلوم مدارسا
لتنجو بها من هول يوم المهالك

وضاقت عليك الأرض لم تلق منزلا
تحل به الا الى جنب مالك

وذلك أن هذه القبة التي فيها قبر الملك الصالح ، مجاورة لايوان الفقهاء المالكية المنتمين الى الامام مالك بن أنس رضى الله عنه ، فقصد التورية بمالك الامام المشهور ، ومالك خازن النار . أعاذنا الله منها .

(*) ص ٢٧١ ج ٢ ، ط . بولاق »

المدرسة الكاملية

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة ، وتعرف بدار الحديث الكاملية ، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي بن مروان ، في سنة اثنين وعشرين وستمائة ، وهي ثاني دار عملت للحديث .

فان أول من بنى دارا على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق . ثم بنى الكامل هذه الدار ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية ، ووقف عليها الربع الذي بجوارها على باب الخرنشف ، ويمتد الى الدرب المقابل للجامع الأقمر

وهذا الربع من انشاء الملك الكامل ، وكان موضعه من جملة القصر الغربي ، ثم صار موضعا يسكنه القماحون . وكان موضع المدرسة سوقا للرقيق ، ودارا تعرف بابن كستول

وأول من ولى تدريس الكاملية : الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية ، ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن علي ابن دحية ، ثم الحافظ عبد العظيم المنذري ، ثم الرشيد العطار

وما برحت بيد أعيان الفقهاء . الى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة فتلاشت كما تلاشى غيرها ، وولى تدريسها صبي لا يشارك الأناسي الا بالصورة ، ولا يمتاز عن البهيمة الا بالنطق ، واستمر فيها دهرا لا يدرس بها ، حتى نسيت أو كادت تنسى دروسها . ولا حول ولا قوة الا بالله .

« الملك الكامل » ناصر الدين أبو المعالي محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الكردي الأيوبي ، خامس ملوك بني أيوب الأكراد بديار مصر ، وولد في خامس عشري ربيع الأول سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وخلف أباه الملك العادل على بلاد الشرق .

فلما استولى على مملكة مصر ، قدم الملك الكامل الى القاهرة في سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ونصبه أبوه نائبا عنه بديار مصر ، وأقطعه الشرقية ، وجعله ولي عهده ، وحلف له الأمراء ، وأسكنه قلعة الجبل ، وسكن العادل في دار الوزارة بالقاهرة ، وصار يحكم بديار مصر مدة غيبة الملك العادل ببلاد الشام وغيرها بمفرده .

فلما مات الملك العادل ببلاد الشام ، استقل الملك الكامل بمملكة مصر في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ، وهو على محاربة الفرنج بالمنزلة العادلية قريبا من دمياط ، وقد ملكوا البر الغربي ، فثبت لقتالهم مع ما حدث من الوهن بموت السلطان .

وثارت العربان بنواحي أرض مصر ، وكثر خلافهم ، واشتد ضررهم . وقام الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبي الحسين علي بن أحمد الهكاري ، المعروف بابن المشطوب — وكان أجل الأمراء الأكابر ، وله لفيف من الأكراد الهكارية — يريد خلع

الملك الكامل ، وتمليك أخيه الملك الفائز ابراهيم بن العادل ، ووافقه على ذلك كثير من الأمراء .

فلم يجد الكامل بدا من الرحيل فى الليل جريدة ، وسار من العادلية الى أشموم طناح ونزل بها ، وأصبح العسكر بغير سلطان . فركب كل واحد هواه ، ولم يعرج واحد منهم على آخر ، وتركوا أثقالهم وسائر ما معهم . فاغتنم الفرنج الفرصة ، وعبروا الى بر دمياط ، واستولوا على جميع ما تركه المسلمون ، وكان شيئا عظيما .

وهم الملك الكامل بمفارقة أرض مصر ، ثم ان الله تعالى ثبته ، وتلاحقت به العساكر ، وبعد يومين قدم عليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بأشموم فاشتد عضده بأخيه ، وأخرج ابن المشطوب من العسكر الى الشام ، ثم أخرج الفائز ابراهيم الى الملوك الأيوبية بالشام والشرق يستنفرهم * لجهاد الفرنج .

وكتب الملك الكامل الى أخيه الملك الأشرف موسى شاه يستحثه على الحضور ، وصدر المكاتبة بهذه الأبيات :

يامسعدى ان كنت حقا مسعفى
فانهض بغير تلبث وتوقف
واحث قلوصك مرقلا أو موجفا
بتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ
الا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له
متوقع لقدومه متشوف

(*) ص٢٧٥ جـ٢ ، ط.بولاق .

واذا وصلت الى حماه فقل له
عنى بحسن توصل وتلطف
ان تأت عبدك عن قليل تلقه
ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن انجاده فلقاؤه
بك فى القيامة فى عراص الموقف

وجد الكامل فى قتال الفرنج ، وأمر بالنفير فى ديار مصر ، وأتته الملوك من الأطراف . فقدر الله أخذ الفرنج لدمياط ، بعدما حاصروها ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما ، ووضعوا السيف فى أهلها . فرحل الكامل من أشموم ، ونزل بالمنصورة ، وبعث يستنفر الناس ، وقوى الفرنج حتى بلغت عدتهم نحو المائتى ألف راجل وعشرة آلاف فارس .

وقدم عامة أهل أرض مصر ، وأتت النجدات من البلاد الشامية وغيرها فصار المسلمون فى جمع عظيم الى الغاية ، بلغت عدة فرسانهم خاصة نحو الأربعين ألفا .. وكانت بين الفريقين خطوب آلت الى وقوع الصلح ، وتسلم المسلمون مدينة دمياط فى تاسع عشرى رجب سنة ثمان عشرة وستمائة ، بعدما أقامت بيد الفرنج سنة وأحد عشر شهرا تنقص ستة أيام ، وسار الفرنج الى بلادهم .

وعاد السلطان الى قلعة الجبل ، وأخرج كثيرا من الأمراء الذين وافقوا ابن المشطوب من القاهرة الى الشام ، وفرق أخبازهم على مماليكه . ثم تخوف من أمرائه فى سنة احدى وعشرين بميلهم الى أخيه الملك المعظم ، فقبض على جماعة منهم ، وكاتب أخاه الملك الأشرف فى موافقته على المعظم . فقويت الوحشة بين

الكامل والمعظم ، واشتد خوف الكامل من عسكره ، وهم أن يخرج من القاهرة لقتال المعظم ، فلم يجسر على ذلك .

وقدم الأشرف الى القاهرة ، فسر بذلك سرورا كثيرا ، وتحالفا على المعاضدة ، وسافر من القاهرة فمال مع المعظم فتحير الكامل فى أمره ، وبعث الى ملك الفرنج يستدعيه الى عكا ، ووعده بأن يمكنه من بلاد الساحل ، وقصد بذلك أن يشغل سر أخيه المعظم فلما بلغ ذلك المعظم خطب للسلطان جلال الدين الخوارزمى ، وبعث يستنجد به على الكامل ، وأبطل الخطبة للكامل .

فخرج الكامل من القاهرة يريد محاربته فى رمضان سنة أربع وعشرين ، وسار الى العباسة ، ثم عاد الى قلعة الجبل ، وقبض على عدة من الأمراء ومماليك أبيه لمكاتبتهم المعظم ، وأنفق فى العسكر . فاتفق موت الملك المعظم فى سلخ ذى القعدة ، وقيام ابنه الملك الناصر داود بسلطنة دمشق ، وطلبه من الكامل الموادعة ، فبعث اليه خلعة سنية وسنجقا سلطانيا ، وطلب منه أن ينزل له عن قلعة الشوبك ، فامتنع الناصر من ذلك ، فوقعت المنافرة بينهما

وعهد الملك الكامل الى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأركبه بشعار السلطنة ، وأنزله بدار الوزارة ، وخرج من القاهرة فى العساكر يريد دمشق ، فأخذ نابلس والقدس . فخرج الناصر داود من دمشق ومعه عمه الأشرف ، وسارا الى الكامل يطلبان منه الصلح .

فلما بلغ ذلك الكامل رحل من نابلس يريد القاهرة ، فقدمها الناصر والأشرف ، وأقام بها الناصر ، وسار الأشرف والمجاهد الى الكامل ، فأدركاه بتل العجول ، فأكرمهما وقرر مع الأشرف انتزاع دمشق من الناصر واعطاءها للأشرف ، على أن يكون للكامل ما بين عقبة أفيق الى القاهرة ، وللأشرف من دمشق الى عقبة أفيق ، وأن يعين بجماعة من ملوك بنى أيوب .

فاتفق قدوم الملك الانبرطور الى عكا باستدعاء الملك الكامل له ، فتحير الكامل فى أمره لعجزه عن محاربته ، أخذ يلاطفه . وشرع الفرنج فى عمارة صيدا — وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب — فلما بلغ الناصر موافقة الأشرف للكامل ، عاد من نابلس الى دمشق ، واستعد للحرب . فسار اليه الأشرف من تل العجول ، وحاصره بدمشق .

وأقام الكامل بتل العجول ، وقد تورط مع الفرنج ، فلم يجد بدا من اعطائهم القدس ، على ألا يجدد سوره ، وأن تبقى الصخرة والأقصى مع المسلمين ، ويكون حكم قرى القدس الى المسلمين ، وأن القرى التى فيما بين عكا ويافا وبين لد والقدس للفرنج . وانعقدت الهدنة على ذلك لمدة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوما ، أولها ثامن ربيع الأول سنة ست وعشرين .

ونودى * فى القدس بخروج المسلمين منه ، وتسليمه الى الفرنج . فكان أمرا مهولا من شدة البكاء والصراخ ، وخرجوا بأجمعهم

(*) ص٢٧٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

فصاروا الى مخيم الكامل ، وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان . فشق عليه ذلك ، وأخذ منهم الستور وقناديل الفضة والآلات وزجرهم ، وقيل لهم امضوا حيث شئتم . فعظم على المسلمين هذا ، وكثر الانكار على الملك الكامل ، وشنعت المقالة فيه .

وعاد الانبرطور الى بلاده بعدما دخل القدس ، وكان مسيره فى آخر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين . وسير الكامل الى الآفاق بتسكين قلوب المسلمين وانزعاجهم لأخذ الفرنج القدس ، ورحل من تل العجوز يريد دمشق ، والأشرف على محاصرتها ، فجد فى القتال .

واشتد الأمر على الناصر الى أن ترامى فى الليل على الملك الكامل ، فأكرمه وأعاده الى قلعة دمشق ، وبعث من تسلمها منه ، وعوضه عن دمشق الكرك والشوبك والصلت والبلقاء والأغوار ونابلس وأعمال القدس ، ثم ترك الشوبك للكامل مع عدة مما ذكر .

وتسلم الكامل دمشق فى أول شعبان ، وأعطاها للأشرف ، وأخذ منه ما معه من بلاد الشرق ، وهى حران والرها وسروج وغير ذلك . ثم سار الكامل ، فأخذ حماه ، وتوجه منها فقطع الفرات ، ثم سار الى جعبر والرقة ، ودخل حران والرها ، ورتب أمورها ، وأتته الرسل من ماردين وآمد والموصل وأربل وغير ذلك ، وأقيمت له الخطبة بماردين ، وبعث يستدعى عساكر الشام لقتال الخوارزمى وهو بخلاط .

ثم رحل الكامل من حران لأمور حدثت ، وسار الى مصر . فدخلها فى شهر رجب سنة سبع وعشرين ، وقد تغير على ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وخلعه من ولاية العهد ، وعهد الى ابنه الملك العادل أبى بكر . ثم سار الى الاسكندرية فى سنة ثمان وعشرين ، ثم عاد الى مصر ، وحفر بحر النيل فيما بين المقياس وبر مصر ، وعمل فيه بنفسه ، واستعمل فيه الملوك من أهله والأمراء والجند . فصار الماء دائما فيما بين مصر والمقياس ، وانكشف البر فيما بين المقياس والجيزة فى أيام احتراق النيل .

* وخرج من القاهرة الى بلاد الشام ، فى آخر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ، واستخلف على ديار مصر ابنه العادل ، وأسكنه قلعة الجبل ، وأخذ الصالح معه . فدخل دمشق من طريق الكرك ، وخرج منها لقتال التتر ، وجعل ابنه الصالح على مقدمته ، فسار الى حران ، فرحل التتر عن خلاط . ثم رحل الى الرها ، وسار الى آمد ونازلها حتى أخذها ، وأنعم على ابنه الصالح بحصن كيفا وبعثه اليه ، وعاد الى مصر فى سنة ثلاثين ، فقبض على عدة من الأمراء .

ثم خرج فى سنة احدى وثلاثين الى دمشق ، وسار منها ودخل الدربند ، وقد أعجبته كثرة عساكره ، فانه اجتمع معه ثمانية عشر طلبا لثمانية عشر ملكا ، وقال : هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الاسلام ، ونزل على النهر الأزرق بأول بلد الروم ، وقد نزلت عساكر الروم ، وأخذت عليه رأس الدربند ومنعوه ، فتحير لقلة الأقوات عنده ، ولاختلاف ملوك بنى أيوب عليه ، ورحل الى مصر وقد فسد ما بينه وبين الأشرف وغيره .

وأخذ ملك الروم الرها وحران بالسيف . فتجهز الكامل وخرج بعساكره من القاهرة فى سنة ثلاث وثلاثين ، وسار الى الرها ، ونازلها حتى أخذها وهدم قلعتها ، وأخذ حران بعد قتال شديد ، وبعث من كان فيها من الروم الى القاهرة فى القيود — وكانوا زيادة على ثلاثة آلاف نفس — ثم خرج الى سنجر ، وعاد الى دمشق ، وسار منها الى القاهرة ، فدخلها فى سنة أربع وثلاثين .

ثم خرج فى سنة خمس وثلاثين ، ونزل على دمشق وقد امتنعت عليه ، فضايقها حتى أخذها من أخيه الملك الصالح اسماعيل ، وعوضه عنها بعلبك وبصرى وغيرهما فى تاسع عشر جمادى الأولى ، ونزل بالقلعة ، وأخذ يتجهز لأخذ حلب .

وقد نزل به زكام ، فدخل فى ابتدائه الحمام ، فاندفعت المواد الى معدته فتورم ، وثارت فيه حمى ، فنهاه الأطباء عن القيء ، وحذروه منه ، فلم يصبر وتقيأ ، فمات لوقته فى آخر نهار الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة عن ستين سنة . منها ملكه أرض مصر نحو أربعين سنة ، استبد فيها بعد موت أبيه مدة عشرين سنة وخمسة وأربعين يوما .

وكان يحب العلم وأهله ، ويؤثر مجالستهم ، وشغف بسماع الحديث النبوى وحدث ، وبنى دار الحديث الكاملة بالقاهرة . وكان يناظر العلماء ، ويمتحنهم بمسائل غريبة من فقه ونحو ، فمن أجاب عنها حظى عنده . وكان يبيت عنده بقلعة الجبل عدة من أهل العلم ، على أسرة بجانب سريره ، ليسامروه . وكان للعلم والأدب عنده نفاق ، فقصده الناس لذلك ، وصار يطلق الأرزاق الدارة لمن يقصده لهذا .

وكان مهابا حازما ، سديد الرأى ، حسن التدبير ، عفيفا عن الدماء . وكان يباشر أمور مملكته بنفسه ، من غير اعتماد على وزير ولا غيره ، ولم يستوزر بعد الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر أحدا ، وانما كان ينتدب من يختاره لتدبير الأشغال ، ويحضر عنده الدواوين ، ويحاسبهم بنفسه .

واذا ابتدأت زيادة النيل خرج ، وكشف الجسور ، ورتب الأمراء لعملها . فاذا انتهى عمل الجسور خرج ثانيا * وتفقدها بنفسه ، فان وقف فيها على خلل عاقب متوليها أشد العقوبة . فعمرت أرض مصر فى أيامه عمارة جيدة

وكان يخرج من زكوات الأموات التى تجبى من الناس سهمى الفقراء والمساكين ، ويعين مصرف ذلك لمستحقيه شرعا ، ويفرز منه معاليم الفقهاء والصلحاء . وكان يجلس كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم ، فيجتمعون عنده للمناظرة . وكان كثير السياسة ، حسن المداراة ، وأقام على كل طريق خفراء لحفظ المسافرين . الا أنه كان مغرما بجمع المال ، مجتهدا فى تحصيله ، وأحدث فى البلاد حوادث سماها « الحقوق » لم تعرف قبله .

ومن شعره قوله ، رحمه الله تعالى :

اذا تحققتم ما عند صاحبكم
من الغرام فذاك القدر يكفيه

(*) ص٢٧٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

أتم سكنتم فؤادى وهو منزلكم
وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

وقال له الطبيب علم الدين أبو النصر جرجس بن أبى حليقة ، فى اليوم الذى مات فيه : كيف نوم السلطان فى ليلته ؟ فأنشد :

ياخليلى خبرانى بصدق
كيف طعم الكرى فانى نسيت

ودفن أولا بقلعة دمشق ، ثم نقل الى بجوار جامع بنى أمية ، وقبره هناك . رحمه الله تعالى .

المدرسة الصيرمية

هذه المدرسة من داخل باب الجملون الصغير ، بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش ، فيما بينها وبين الجامع الحاكمى بجوار الزيادة . بناها الأمير جمال الدين شويخ ابن صيرم ، أحد أمراء الملك الكامل محمد ابن أبى بكر بن أيوب ، وتوفى فى تاسع عشر صفر سنة ست وثلاثين وستمائة .

المدرسة المسرورية

هذه المدرسة بالقاهرة داخل درب شمس الدولة . كانت دار شمس الخواص مسرور ، أحد خدام القصر ، فجعلت مدرسة بعد وفاته بوصيته ، وأن يوقف الفندق الصغير عليها . وكان بناؤها من ثمن ضيعة بالشام كانت بيده بيعت بعد موته ، وتولى ذلك القاضى كمال الدين خضر ، ودرس فيها .

وكان مسرور ممن اختص بالسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فقدمه على حلقته ، ولم يزل مقدما الى الأيام الكاملية ، فانقطع الى الله تعالى ، ولزم داره الى أن مات ، ودفن بالقرافة الى جانب مسجده . وكان له بر واحسان ومعروف ، ومن آثاره بالقاهرة فندق يعرف اليوم بخان مسرور الصفدى ، وله ربع بالشارع .

المدرسة القوصية

هذه المدرسة بالقاهرة ، فى درب سيف الدولة ، بالقرب من درب ملوخيا . أنشأها الأمير الكردى والى قوص .

مدرسة بحارة الديلم

... ...

المدرسة الظاهرية

هذه المدرسة بالقاهرة من جملة خط بين القصرين . كان موضعها من القصر الكبير يعرف بقاعة الخيم ، وقد تقدم ذكرها فى أخبار القصر . ومما دخل فى هذه المدرسة باب الذهب المذكور فى أبواب القصر .

فلما أوقع الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الحوطة على القصور والمناظر — كما تقدم ذكره — نزل القاضى كمال الدين طاهر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال ، وقوم قاعة الخيم هذه ، وابتاعها الشيخ شمس الدين محمد بن العماد ابراهيم المقدسى ، شيخ الحنابلة ومدرس

المدرسة الصالحية النجمية ، ثم باعها المذكور للسلطان ، فأمر بهدمها وبناء موضعها مدرسة .

فابتدىء بعمارتها فى ثانى ربيع الآخر سنة ستين وستمائة ، وفرغ منها فى سنة اثنتين وستين وستمائة . ولم يقع الشروع فى بنائها حتى رتب السلطان وقفها — وكان بالشام — فكتب بما رتبه الى الأمير جمال الدين بن يغمور ، وألا يستعمل فيها أحدا بغير أجرة ، ولا ينقص من أجرته شيئا .

فلما كان يوم الاحد خامس صفر سنة اثنتين وستين وستمائة (*) ، اجتمع أهل العلم بها — وقد فرغ منها — وحضر القراء ، وجلس أهل الدروس كل طائفة فى ايوان ، منها الشافعية بالايوان القبلى ، ومدرسهم الشيخ تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموى . والحنفية بالايوان البحرى ، ومدرسهم الصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحلبى وأهل الحديث بالايوان الشرقى ، ومدرسهم الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى والقراء بالقراءات السبع بالايوان الغربى ، وشيخهم الفقيه كمال الدين المحلى وقرروا كلهم الدروس ، وناظروا فى علومهم ، ثم مدت الأسمطة لهم فأكلوا ، وقام الأديب أبو الحسين الجزار فأنشد :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى
ومن يتعالى فى الثواب وفى الثنا

لقد ظهرت للظاهر الملك همة
بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنا

تجمع فيها كل حسن مفرق
فراقت قلوبا للأنام وأعينا

ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه الـ
نفيسة منها فى سرور وفى هنا

وما هى الا جنة الخلد أزلفت
له فى غد فاختار تعجيلها هنا

وقال السراج الوراق أيضا قصيدة منها :

مليك له فى العلم حب وأهله
فلله حب ليس فيه ملام

فشيدها للعلم مدرسة غدا
عراق اليها شيق وشآم

ولا تذكرن يوما نظامية لها
فليس يضاهى ذا النظام نظام

ولا تذكرن ملكا فبيبرس مالك
وكل مليك فى يديه غلام

ولما بناها زعزعت كل بدعة
متى لاح صبح فاستقر ظلام

وقد برزت كالروض فى الحسن أنبأت
بأن يديه فى النوال غمام

ألم تر محرابا كأن أزاهرا
تفتح عنهن الغداة كمام

وقال الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب .

قصد الملوك حماك والخلفاء
فافخر فان محلك الجوزاء

أنت الذى أمراؤه بين الورى
مثل الملوك وجنده أمراء

(*) ص٣٧٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

ملك ترثت الممالك باسمه
وتجملت بمدحه الفصحاء

وترفعت لعلاه خير مدارس
حلت بها علماء الفضلاء

يبقى كما يبقى الزمان وملكه
باق له ولحاسديه فناء

كم للفرنج وللتتار ببأسه
وسل مناها العفو والاعفاء

وطريقه لبلادهم موطوءة
وطريقهم لبلاده عذراء

دامت له الدنيا ودام مخلدا
ما أقبل الاصباح والامساء

فلما فرغ هؤلاء الثلاثة من انشادهم ، أفيضت عليهم الخلع . وكان يوما مشهودا .

وجعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم ، وبنى بجانبها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وأجرى لهم الجرايات والكسوة ، وأوقف عليها ربع السلطان خارج باب زويلة ، فيما بين باب زويلة وباب الفرج ، ويعرف ذلك الخط اليوم به ، فيقال خط تحت الربع .

وكان ربعا كبيرا لكنه خرب منه عدة دور فلم تعمر . وتحت هذا الربع عدة حوانيت هى الآن من أجل الأسواق ، والناس فى سكناها رغبة عظيمة ، ويتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه الى الحكام .

وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة ، الا أنها قد تقادم عهدها فرثت ، وبها الى الآن بقية صالحة ، ونظرها تارة يكون بيد الحنفية ، وأحيانا بيد الشافعية ، ويسارع فى نظرها أولاد الظاهر فيدفعون عنه ، والله عاقبة الأمور .

المدرسة المنصورية

هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصورى بخط بين القصرين بالقاهرة . أنشأها هى والقبة * التى تجاهها والمارستان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى ، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، ورتب بها دروسا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة ، ودرسا للطب ، ورتب بالقبة درسا للحديث النبوى ، ودرسا لتفسير القرآن الكريم وميعادا وكانت هذه التدارس لا يليها الا أجل الفقهاء المعتبرين ، ثم هى اليوم كما قيل .

تصدر للتدريس كل مهوس
بليد يسمى بالفقيه المدرس

فحق لأهل العلم أن يتمثلوا
ببيت قديم شاع فى كل مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس

« القبة المنصورية » هذه القبة تجاه المدرسة المنصورية ، وهما جميعا من داخل باب المارستان المنصورى ، وهى من أعظم المبانى الملوكية وأجلها قدرا وبها قبر تضمن الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، وابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون .

(*) ص٣٧٩ جـ٢ ، ط.بولاق .

وبها قاعة جليلة فى وسطها فسقية يصل اليها الماء من فوارة بديعة الزى ، وسائر هذه القاعة مفروش بالرخام الملون . وهذه القاعة معدة لاقامة الخدام الملوكية ، الذين يعرفون اليوم فى الدولة التركية بالطواشية : واحدهم « طواشى » ، وهذه لفظة تركية أصلها بلغتهم « طابوشى » ، فتلاعبت بها العامة وقالت : طواشى ، وهو الخصى .

ولهؤلاء الخدام فى كل يوم ما يكفيهم من الخبز النقى واللحم المطبوخ ، وفى كل شهر من المعاليم الوافرة ما فيه غنية لهم . وأدركتهم ولهم حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وجانب مرعى ، ويعد شيخهم من أعيان الناس يجلس على مرتبة ، وبقية الخدام فى مجالسهم لا يبرحون فى عبادة .

وكان يستقر فى وظائف هذه الخدمة أكابر خدام السلطان ، ويقيمون عنهم نوابا يواظبون الاقامة بالقبة ، ويرون — مع سعة أحوالهم ، وكثرة أموالهم — من تمام فخرهم وكمال سيادتهم ، انتماءهم الى خدمة القبة المنصورية ، ثم تلاشى الحال بالنسبة الى ما كان ، والخدام بهذه القاعة الى اليوم .

وقصد الملوك باقامة الخدام فى هذه القاعة ، التى يتوصل الى القبة منها ، اقامة ناموس الملك بعد الموت كما كان فى مدة الحياة ، وهم الى اليوم لا يمكنون أحدا من الدخول الى القبة الا من كان من أهلها .

ولله در يحيى بن حكم البكرى الجيانى المغربى — الملقب بالغزال لجماله — حيث يقول :

أرى أهل الثراء اذا توفوا
بنوا تلك المقابر بالصخور

أبوا الا مباهاة وتيها
على الفقراء حتى فى القبور

وفى هذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة ، وتعرف بدروس وقف الصالح . وذلك أن الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن محمد بن قلاوون ، قصد عمارة مدرسة ، فاخترمته المنية دون بلوغ غرضه . فقام الأمير أرغون العلائى ، زوج أمه ، فى وقف قرية ، تعرف بدهشا الحمام من الأعمال الشرقية ، عن أم الملك الصالح . فأثبته بطريق الوكالة عنها ، ورتب ما كان الملك الصالح اسماعيل قرره فى حياته لو أنشأ مدرسة ، وجعل ذلك الأمير أرغون مرتبا لمن يقوم به فى القبة المنصورية . وهو وقف جليل يتحصل منه فى كل سنة نحو الأربعة آلاف دينار ذهبا .

ثم لما كانت الحوادث ، وخربت الناحية المذكورة ، تلاشى أمر وقف الصالح ، وفيه الى اليوم بقية . وكان لا يلى تدريس دروسه الا قضاة القضاة ، فوليه الآن الصبيان ، ومن لا يؤهل — لو كان الانصاف — له .

وفى هذه القبة أيضا قراء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار ، وهم من جهة ثلاثة أوقاف : فطائفة من جهة وقف الملك الصالح اسماعيل ، وطائفة من جهة الوقف السيفى ، وهو منسوب الى الملك المنصور سيف الدين أبى بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وبهذه القبة امام راتب يصلى بالخدام والقراء وغيرهم الصلوات الخمس ، ويفتح له باب فيما بين القبة والمحرب يدخل منه من يصلى من الناس ، ثم يغلق بعد انقضاء الصلاة .

وبهذه القبة خزانة جليلة . كان فيها عدة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم ، مما وقفه الملك المنصور وغيره ، وقد ذهب معظم هذه الكتب ، وتفرق فى أيدى الناس .

وفى هذه القبة خزانة بها ثياب المقبورين بها ، ولهم فراش معلوم بمعلوم لتعهدهم ، ويوضع ما يتحصل من مال أوقاف المارستان بهذه القبة تحت أيدى الخدام

وكانت العادة أنه اذا أمر السلطان أحدا من أمراء مصر والشام ، فانه ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش ، وتوقد له القاهرة ، فيمر الى المدرسة الصالحية بين القصرين ، وعمل ذلك من عهد سلطنة المعز أيبك ومن بعده . فنقل ذلك الى القبة المنصورة ، وصار الأمير يحلف عند القبر المذكور ويحضر تحليفه ٭ صاحب الحجاب ، وتمد أسمطة جليلة بهذه القبة ، ثم ينصرف الأمير ، ويجلس له فى طول شارع القاهرة الى القلعة أهل الأغانى لتزفه فى نزوله وصعوده . وكان هذا من جملة متنزهات القاهرة ، وقد بطل ذلك منذ انقرضت دولة بنى قلاوون .

ومن جملة أخبار هذه القبة أنه لما كان فى يوم الخميس مستهل المحرم سنة تسعين وستمائة ، بعث الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون بجملة مال تصدق به فى هذه القبة ، ثم أمر بنقل أبيه من القلعة

فخرج سائر الأمراء ، ونائب السلطنة الأمير بيدرا بدر الدين ، والوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس التنوخى وحضروا بعد صلاة العشاء الآخرة ، ومشوا بأجمعهم قدام تابوت الملك المنصور الى الجامع الأزهر ، وحضر فيه القضاة ومشايخ الصوفية . فتقدم قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد ، وصلى على الجنازة ، وخرج الجسم أمامها الى القبة المنصورية حتى دفن فيها ، وذلك فى ليلة الجمعة ثانى المحرم ، وقيل عاشره

ثم عاد الوزير والنائب من الدهليز خارج القاهرة الى القبة المنصورية ، لعمل مجتمع بسبب قراءة ختمة كريمة ، فى ليلة الجمعة ثامن عشرى صفر منها ، وحضر المشايخ والقراء والقضاة فى جمع موفور ، وفرق فى الفقراء صدقات جزيلة ، ومدت أسمطة كثيرة ، وتفرقت الناس أطعمتها حتى امتلأت الأيدى بها ، وكانت احدى الليالى الغر ، كثر الدعاء فيها للسلطان وعساكر الاسلام بالنصر على أعداء الملة ، وحضر الملك الأشرف بكرة يوم الجمعة الى القبة المنصورية ، وفرق مالا كثيرا .

وكان الملك الأشرف قد برز يريد المسير لجهاد الفرنج ، وأخذ مدينة عكا ، فسار لذلك ، وعاد فى العشرين من شعبان — وقد فتح الله له مدينة عكا عنوة بالسيف ، وخرب أسوارها — وكان عبوره الى القاهرة من باب النصر ، وقد زينت القاهرة زينة عظيمة .

(٭) ص ٣٨٠ جـ٢ ، ط بولاق .

فعندما حاذى باب المارستان ، نزل الى القبة المنصورية ، وقد غصت بالقضاة والأعيان والقراء والمشايخ والفقهاء ، فتلقوه كلهم بالدعاء حتى جلس . فأخذ القراء فى القراءة ، وقام نجم الدين محمد بن فتح الدين محمد بن عبد الله بن مهلهل بن غياث بن نصر — المعروف بابن العنبرى الواعظ — وصعد منبرا نصب له ، فجلس عليه ، وافتتح ينشد قصيدة تشتمل على ذكر الجهاد وما فيه من الأجر ، فلم يسعد فيها بحظ ، وذلك أنه افتتحها بقوله .

زر والديك وقف على قبريهما
فكأننى بك قد نقلت اليهما

فعندما سمع الأشرف هذا البيت تطير منه ، ونهض قائما وهو يسب الأمير بيدرا نائب السلطنة لشدة حنقه ، وقال . ما وجد هذا شيئا يقوله سوى هذا البيت !

فأخذ بيدرا فى تسكين حنقه ، والاعتذار له عن ابن العنبرى بأنه قد انفرد فى هذا الوقت بحسن الوعظ ، ولا نظير له فيه ، الا أنه لم يرزق سعادة فى هذا الوقت . فلم يصغ السلطان الى قوله وسار ، فانفض المجلس على غير شىء ، وصعد السلطان الى قلعة الجبل .

ثم بعد أيام سأل السلطان عن وقف المارستان ، وأحب أن يجدد له وقفا من بلاد عكا التى افتتحها بسيفه ، فاستدعى القضاة ، وشاورهم فيما هم به من ذلك . فرغبوه فيه ، وحثوه على المبادرة اليه .

فعين أربع ضياع من ضياع عكا وصور ليقفها على مصالح المدرسة والقبة المنصورية ، ما تحتاج اليه من ثمن زيت وشمع ومصابيح وبسط وكلفة الساقية ، وعلى خمسين مقرئا يرتبون لقراءة القرآن الكريم بالقبة ، وامام راتب يصلى بالناس الصلوات الخمس فى محراب القبة ، وستة خدام يقيمون بالقبة — وهى الكابرة ، وتل الشيوخ ، وكردانة وضواحيها من عكا ، ومن ساحل صور معركة وصدفين — وكتب بذلك كتاب وقفه ، وجعل النظر فى ذلك لوزيره الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس .

فلما تم ذلك ، تقدم بعمل مجتمع بالقبة لقراءة ختمة كريمة ، وذلك ليلة الاثنين رابع ذى القعدة سنة تسعين وستمائة فاجتمع القراء والوعاظ والمشايخ والفقراء والقضاة لذلك ، وخلع على عامة أرباب الوظائف والوعاظ ، وفرقت فى الناس صدقات جمة .

وعمل مهم عظيم احتفل فيه الوزير احتفالا زائدا ، وبات الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة والأمير الوزير شمس الدين محمد بن السلعوس بالقبة . وحضر السلطان ، ومعه الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد ، وعليه سواده ، فخطب الخليفة خطبة بليغة حرض فيها على أخذ العراق من التتار . فلما فرغ من المهم ، أفاض السلطان على الوزير تشريفا سنيا .

وفى يوم الخميس حادى عشر ربيع الأول سنة احدى وتسعين وستمائة ، اجتمع القراء والوعاظ والفقهاء والأعيان بالقبة المنصورية لقراءة ختمة شريفة ، ونزل السلطان الملك الأشرف ، وتصدق بمال كثير .

وآخر من نزل الى القبة المنصورية من ملوك بنى قلاوون ، السلطان الملك الناصر حسن بن

محمد بن قلاوون فى سنة لحدى وستين وسبعمائة ، وحضر عنده بالقبة مشايخ العلم ، وبحثوا فى العلم ، وزار قبر أبيه وجده ، ثم خرج فنظر فى أمر المرضى بالمارستان ، وتوجه الى قلعة الجبل * .

المدرسة الناصرية

هذه المدرسة بجوار القبة المنصورية من شرقيها . كان موضعها حماما ، فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى بانشاء مدرسة موضعها . فابتدىء فى عملها ، ووضع أساسها ، وارتفع بناؤها عن الأرض الى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها . فكان من خلعه ما كان .

فلما عاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الى مملكة مصر فى سنة ثمان وتسعين وستمائة ، أمر باتمامها ، فكملت فى سنة ثلاث وسبعمائة . وهى من أجل مبانى القاهرة ، وبابها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم فانه من الرخام الأبيض البديع الرى الفائق الصناعة ، ونقل الى القاهرة من مدينة عكا

وذلك أن الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، لما فتح عكا عنوة فى سابع عشر جمادى الأولى سنة تسعين وستمائة ، أقام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى لهدم أسوارها وتخريب كنائسها . فوجد هذه البوابة على باب كنيسة من كنائس عكا ، وهى من رخام ، قواعدها وأعضادها وعمدها كل ذلك متصل بعضه ببعض ، فحمل الجميع الى القاهرة ، وأقام عنده الى أن قتل الملك الأشرف .

وتمادى الحال على هذا أيام سلطنة الملك الناصر محمد الأولى فلما خلع ، وتملك كتبغا ، أخذ دار الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ليعملها مدرسة ، فدل على هذه البوابة ، فأخذها من ورثة الأمير بيدرا — فانها كانت قد انتقلت اليه — وعملها كتبغا على باب هذه المدرسة .

فلما خلع من الملك ، وأقيم الناصر محمد ، اشترى هذه المدرسة قبل اتمامها والاشهاد بوقفها ، وولى شراءها وصيه قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ، وأنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة ، لكنها دون قبة أبيه ، ولما كملت نقل اليها أمه بنت سكباى بن قراجين .

ووقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرابشيين من القاهرة ، والربع الذى يعلوها — وكان يعرف بالدهيشة — ووقف عليها أيضا حوانيت بخط باب الزهومة من القاهرة ، ودار الطعم خارج مدينة دمشق

فلما مات ابنه أنوك من الخاتون طغاى ، فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، وعمره ثمانى عشرة سنة ، دفنه بهذه القبة ، وعمل عليها وقفا يختص بها . وهو باق الى اليوم يصرف لقراء وغير ذلك .

وأول من رتب فى تدرس المدرسة الناصرية من المدرسين . قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ليدرس فقه المالكية بالايوان الكبير القبلى ، وقاضى القضاة شرف الدين عبد الغنى الحرانى ليدرس فقه الحنابلة بالايوان الغربى ، وقاضى القضاة أحمد بن

(*) ص ٢٨١ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

السروجى الحنفى ليدرس فقه الحنفية بالايوان الشرقى ، والشيخ صدر الدين محمد بن المرحل — المعروف بابن الوكيل — الشافعى ليدرس فقه الشافعية بالايوان البحرى . وقرر عند كل مدرس منهم عدة من الطلبة ، وأجرى عليهم المعاليم ، ورتب بها اماما يؤم بالناس فى الصلوات الخمس ، وجعل بها خزانة كتب جليلة .

وادركت هذه المدرسة وهى محترمة الى الغاية . يجلس بدهليزها عدة من الطواشية ، ولا يمكن غريب أن يصعد اليها . وكان يفرق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها السكر فى كل شهر ، لكل أحد منهم نصيب ، ويفرق عليهم لحوم الأضاحى فى كل سنة . وقد بطل ذلك ، وذهب ما كان لها من الناموس . وهى اليوم عامرة من أجل المدارس .

المدرسة الحجازية

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة ، بجوار قصر الحجازية ، كان موضعها بابا من أبواب القصر يعرف بباب الزمرذ . أنشأتها الست الجليلة الكبرى خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، زوجة الأمير بكتمر الحجازى ، وبه عرفت .

وجعلت بهذه المدرسة درسا للفقهاء الشافعية قررت فيه شيخنا شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى ، ودرسا للفقهاء المالكية ، وجعلت بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة ، ورتبت لها اماما راتبا يقيم بالناس الصلوات الخمس ، وجعلت بها خزانة كتب .

وأنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها ، ورتبت بشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلا ونهارا ، وأنشأت بها منارا عاليا من حجارة ليؤذن عليه . وجعلت بجوار المدرسة مكتبا للسبيل ، فيه عدة من أيتام المسلمين ، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم ، ويجرى عليهم فى كل يوم لكل منهم من الخبز النقى خمسة أرغفة ومبلغ من الفلوس ، ويقام لكل منهم بكسوتى الشتاء والصيف .

وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية . وكان يفرق فيهم كل سنة ، أيام عيد الفطر ، الكعك والخشكنانك ، وفى عيد الأضحى اللحم ، وفى شهر رمضان يطبخ لهم الطعام . وقد بطل ذلك ، ولم يبق غير المعلوم فى كل شهر .

وهى من المدارس الكبسة ، وعهدى بها محترمة الى الغاية * ، يجلس بها عدة من الطواشية ، ولا يمكنون أحدا من عبور القبة التى فيها قبر خوند الحجازية الا القراء فقط وقت قراءتهم خاصة .

واتفق مرة أن شخصا من القراء كان فى نفسه شىء من أحد رفقائه ، فأتى الى كبير الطواشية بهذه القبة ، وقال له : ان فلانا دخل اليوم الى القبة وهو بغير سراويل . فغضب الطواشى من هذا القول ، وعد ذلك ذنبا عظيما وفعلا محذورا ، وطلب ذلك المقرىء ، وأمر به فضرب بين يديه ، وصار يقول له : تدخل على خوند بغير سراويل ! وهم باخراجه من

(*) ص ٢٨٢ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

وظيفة القراءة لولا ما حصل من شفاعة الناس فيه .

وكان لا يلى نظر هذه المدرسة الا الأمراء الأكابر ، ثم صار يليها الخدام وغيرهم وكان انشاؤها فى سنة احدى وستين وسبعمائة .

ولما ولى الأمير جمال الدين يوسف البجاسى وظيفة أستادارية السلطان الملك الناصر فرج ابن برقوق ، وعمر بجانب هذه المدرسة داره ثم مدرسته ، صار يحبس فى المدرسة الحجازية من يصادره أو يعاقبه ، حتى امتلأت بالمسجونين والأعوان المرسمين عليهم ، فزالت تلك الأبهة وذهب ذلك الناموس . واقتدى بجمال الدين من سكن بعده من الأستادارية فى داره ، وجعلوا هذه المدرسة سجنا ، ومع ذلك فهى من أبهج مدارس القاهرة الى الآن .

المدرسة الطيبرسية

هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر من القاهرة ، وهى غربيه مما يلى الجهة البحرية . أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى نقيب الجيوش ، وجعلها مسجدا لله تعالى زيادة فى الجامع الأزهر ، وقرر بها درسا للفقهاء الشافعية ، وأنشأ بجوارها ميضأة وحوض ماء سبيل ترده الدواب .

وتأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها ، حتى جاءت فى أبدع زى ، وأحسن قالب ، وأبهج ترتيب ، لما فيها من اتقان العمل وجودة الصناعة ، بحيث انه لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام ، فان جميعه أشكال المحاريب ، وبلغت النفقة عليها جملة كثيرة ، وانتهت عمارتها فى سنة تسع وسبعمائة . ولها بسط تفرش فى يوم الجمعة كلها منقوشة بأشكال المحاريب أيضا ، وفيها خزانة كتب ، ولها امام راتب

« طيبرس » بن عبد الله الوزيرى كان فى ملك الأمير بدر الدين بيليك مملوك الخازندار الظاهرى نائب السلطنة ، ثم انتقل الى الأمير بدر الدين بيدرا ، وتنقل فى خدمته حتى صار نائب الصبية ، ورأى ماما للمنصور لاجين يدل على أنه يصير سلطان مصر ، وذلك قبل أن يتقلد السلطنة وهو نائب الشام ، فوعده ان صارت اليه السلطنة أن يقدمه وينوه به

فلما تملك لاجين استدعاه ، وولاه نقابة الجيش بديار مصر — عوضا عن بلبان الفاخرى — فى سنة سبع وتسعين وستمائة . فباشر النقابة مباشرة مشكورة الى الغاية ، من اقامة الحرمة ، وأداء الأمانة ، والعفة المفرطة ، بحيث انه ما عرف عنه أنه قبل من أحد هدية ألبتة ، مع التزام الديانة والمواظبة على فعل الخير والغنى الواسع

وله من الآثار الجميلة الجامع والخانقاه بأراضى بستان الخشاب ، المطلة على النيل خارج القاهرة ، فيما بينها وبين مصر بجوار المنشأة . وهو أول من عمر فى أراضى بستان الخشاب ، وقد تقدم ذكر ذلك ، ومن آثاره أيضا هذه المدرسة البديعة الزى ، وله على كل من هذه الأماكن أوقاف جليلة .

ولم يزل فى نقابة الجيش الى أن مات فى العشرين من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وسبعمائة ، ودفن فى مكان بمدرسته هذه ، وقبره بها الى وقتنا هذا . ووجد له من بعده مال كثير جدا ، وأوصى الى الأمير علاء الدين

على الكورانى ، وجعل الناظر على وصيته الأمير أرغون نائب نائب السلطنة

واتفق أنه لما فرغ من بناء هذه المدرسة ، أحضر اليه مباشروه حساب مصروفها فلما قدم اليه استدعى بطشت فيه ماء ، وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شىء منها ، وقال : شىء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه .

ولهذه المدرسة شبابيك فى جدار الجامع تشرف عليه ، ويتوصل من بعضها اليه ، وما عمل ذلك حتى استفتى الفقهاء فيه ، فأفتوه بجواز فعله وقد تداول أيدى نظار السوء على أوقاف طيبرس هذا ، فخرب أكثرها ، وخرب الجامع والخانقاه ، وبقيت هذه المدرسة ... عمرها الله بذكره .

المدرسة الاقبغاوية

هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر ، على يسرة من يدخل اليه من بابه الكبير البحرى ، وهى تشرف بشبابيك على الجامع مركبة فى جداره ، فصارت تجاه المدرسة الطيبرسية . كان موضعها دار الأمير الكبير عز الدين أيدمر الحلى ، نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، وميضأة للجامع ، فأنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد * ، أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وجعل بجوارها قبة ومنارة من حجارة منحوتة .

وهى أول مئذنة عملت بديار مصر من الحجر بعد المنصورية ، وانما كانت قبل ذلك تبنى بالآجر ... بناها هى والمدرسة المعلم ابن السيوفى ، رئيس المهندسين فى الأيام الناصرية ، وهو الذى تولى بناء جامع الماردينى خارج باب زويلة ، وبنى مئذنته أيضا .

وهى مدرسة مظلمة ، ليس عليها من بهجة المساجد ، ولا أنس بيوت العبادات ، شىء ألبتة . وذلك أن أقبغا عبد الواحد اغتصب أرض هذه المدرسة ، بأن أقرض ورثة أيدمر الحلى مالا ، وأمهل حتى تصرفوا فيه ، ثم أعنتهم فى الطلب ، وألجأهم الى أن أعطوه دراهم ، فهدمها وبنى موضعها هذه المدرسة .

وأضاف الى اغتصاب البقعة أمثال ذلك من الظلم ، فبناها بأنواع من الغصب والعسف ، وأخذ قطعة من سور الجامع حتى ساوى بها المدرسة الطيبرسية ، وحشر لعملها الصناع من البنائين والنجارين والحجارين والمرخمين والفعلة ، وقرر مع الجميع أن يعمل كل منهم فيها يوما فى كل أسبوع بغير أجرة .

فكان يجتمع فيها فى كل أسبوع سائر الصناع الموجودين بالقاهرة ومصر ، فيجدون فى العمل نهارهم كله بغير أجرة ، وعليهم مملوك من مماليكه ، ولاه شد العمارة ، لم ير الناس أظلم منه ، ولا أعتى ولا أشد بأسا ، ولا أقسى قلبا ولا أكثر عنتا . فلقى العمال منه مشقات لا توصف ، وجاء مناسبا لمولاه .

وحمل مع هذا الى هذه العمارة سائر ما يحتاج اليه ، من الأمتعة وأصناف الآلات ، وأنواع الاحتياجات من الحجر والخشب والرخام والدهان وغيره ، من غير أن يدفع فى شىء منه ثمنا ألبتة ، وانما كان يأخذ ذلك اما بطريق الغصب من الناس ، أو على سبيل

(*) ص ٣٨٣ ، جـ ٢ ، ط بولاق .

الخيانة من عمائر السلطان ، فانه كان من جملة ما بيده شد العمائر السلطانية .

وناسب هذه الأفعال أنه ما عرف عنه قط أنه نزل الى هذه العمارة الا وضرب فيها من الصناع عدة ضربا مؤلما ، فيصير ذلك الضرب زيادة على عمله بغير أجرة ، فيقال فيه كملت خصالك هذه بعمارى . فلما فرغ من بنائها ، جمع فيها سائر الفقهاء وجميع القضاة .

وكان الشريف شرف الدين على بن شهاب الدين الحسين بن محمد بن الحسين — نقيب الأشراف ومحتسب القاهرة حينئذ — يؤمل أن يكون مدرسها ، وسعى عنده فى ذلك ، فعمل بسطا على قياسها بلغ ثمنها ستة آلاف درهم فضة ، ورشاه بها ، ففرشت هناك .

ولما تكامل حضور الناس بالمدرسة — وفى الذهن أن الشريف يلى التدريس ، وعرف أنه هو الذى أحضر البسط التى قد فرشت — قال الأمير أقبغا لمن حضر : لا أولى فى هذه الأيام أحدا . وقام .. فتفرق الناس .

وقرر فيها درسا للشافعية ولى تدريسه ... ودرسا للحنفية ولى تدريسه .... [1] وجعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ ، وقرر بها طائفة من القراء يقرأون القرآن بشباكها ، وجعل لها اماما راتبا ومؤذنا وفراشين وقومة ومباشرين ، وجعل النظر للقاضى الشافعى بديار مصر ، وشرط فى كتاب وقفه ألا يلى النظر أحد من ذريته ، ووقف على هذه الجهات حوانيت خارج باب زويلة بخط تحت الربع ، وقرية بالوجه القبلى .

وهذه المدرسة عامرة الى يومنا هذا الا أنه تعطل منها الميضأة ، وأضيفت الى ميضأة الجامع لتغلب بعض الأمراء — بمواطأة بعض النظار — على بئر الساقية التى كانت برسمها .

« أقبغا عبد الواحد » الأمير علاء الدين :

أحضره الى القاهرة التاجر عبد الواحد بن بدال ، فاشتراه منه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولقبه باسم تاجره الذى أحضره ، فحظى عنده ، وعمله شاد العمائر ، فنهض فيها نهضة أعجب منه السلطان وعظمه حتى عمله أستادار السلطان بعد الأمير مغلطاى الجمالى ، فى المحرم سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة ، وولاه مقدم المماليك فقويت حرمته وعظمت مهابته ، حتى صار سائر من فى بيت السلطان يخافه ويخشاه .

ومابرح على ذلك الى أن مات الملك الناصر ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، فقبض عليه فى يوم الاثنين سلخ المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وأمسك أيضا ولديه ، وأحيط بماله وسائر أملاكه ، ورسم عليه الأمير طيبغا المجدى ، وبيع موجوده من الخيل والجمال والجوارى والقماش والأسلحة والأوانى ... فظهر له شىء عظيم الى الغاية : من ذلك أنه بيع بقلعة الجبل — وبها كانت تعمل حلقات مبيعة — سراويل امرأته بمبلغ مائتى ألف درهم فضة : عنها نحو عشرة آلاف دينار ذهب ، وبيع له أيضا قبقاب وشرموزة وخف نسائى بمبلغ خمسة وسبعين ألف درهم

(1) هكذا بياض فى الأصل

فضة : عنها زيادة على ثلاثة آلاف دينار ، وبيعت بدلة مقانع بمائة ألف درهم .

وكثرت المرافعات عليه من التجار وغيرهم . فبعث السلطان اليه شاد الدواوين يعرفه أنه أقسم بتربة الشهيد (يعنى أباه) أنه متى لم يعط هؤلاء حقهم ، والا سمرتك على جمل ، وطفت بك المدينة . فشرع أقبغا فى استرضائهم وأعطاهم نحو المائتى ألف درهم فضة . ثم نزل اليه الوزير نجم الدين محمود بن سرور — المعروف بوزير بغداد — ومعه الحاج ابراهيم بن صابر مقدم الدولة ، لمطالبته بالمال ، فأخذا منه لؤلؤا وجواهر نفيسة ، وصعدا بها الى السلطان .

وكان سبب هذه النكبة أنه كان قد تحكم فى أمور الدولة السلطانية وأرباب الأشغال ، أعلاهم وأدناهم ، بما اجتمع له من الوظائف . وكان عنده فراش غضب عليه وأوجعه ضربا ، فانصرف من عنده ، وخدم فى دار الأمير أبى بكر ولد السلطان ، فبعث أقبغا يستدعى بالفراش اليه ، فمنعه عنه أبو بكر ، وأرسل اليه مع أحد مماليكه يقول له : انى أريد أن تهبنى هذا الغلام ، ولا تشوش عليه . فلما بلغه المملوك الرسالة ، اشتد حنقه وسبه سبا فاحشا ، وقال له : قل لأستاذك يسير الفراش وهو جيد له .

وكان قبل ذلك اتفق أن الأمير أبا بكر خرج من خدمة السلطان الى بيته ، فاذا الأمير أقبغا قد بطح مملوكا وضربه ، فوقف أبو بكر بنفسه ، وسأل أقبغا فى العفو عن المملوك ، وشفع فيه ، فلم يلتفت أقبغا اليه ، ولا نظر الى وجهه ، فخجل أبو بكر من الناس — لكونه وقف قائما بين يدى أقبغا وشفع عنده ، فلم يقم من مجلسه لوقوفه ، بل استمر قاعدا وأبو بكر واقف على رجليه ، ولا قبل مع ذلك شفاعته — ومضى وفى نفسه منه حنق كبير .

فلما عاد اليه مملوكه ، وبلغه كلام أقبغا بسبب هذا الفراش ، أكد ذلك عنده ما كان من الاحنة ، واخذ فى نفسه الى أن مات أبوه الملك الناصر ، وعهد اليه من بعده ، وكان قد التزم أنه ان ملكه الله ليصادرن أقبغا ، وليضربنه بالمقارع ، وقال للفراش : اقعد فى بيتى ، واذا حضر أحد لأخذك عرفت ما أعمل معه . وأخذ أقبغا يترقب الفراش ، وأقام أناسا للقبض عليه ، فلم يتهيأ له مسكه .

فلما أفضى الأمر الى أبى بكر ، استدعى الأمير قوصون — وكان هو القائم حينئذ بتدبير أمور الدولة — وعرفه ما التزمه من القبض على أقبغا ، وأخذ ماله وضربه بالمقارع ، وذكر له ولعدة من الأمراء ما جرى له منه . وكان لقوصون بأقبغا عناية ، فقال للسلطان : السمع والطاعة ، يرسم السلطان بالقبض عليه ومطالبته بالمال ، فاذا فرغ ماله يفعل السلطان ما يختاره .

وأراد بذلك تطاول المدة فى أمر أقبغا . فقبض عليه ، ووكل به رسل ابن صابر ، حتى انه بات ليلة قبض عليه من غير أن يأكل شيئا . وفى صبيحة تلك الليلة تحدث الأمراء مع السلطان فى نزوله الى داره محتفظا به ، حتى يتصرف فى ماله ، ويحمله شيئا بعد شىء .

(*) ص ٣٨٤ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

فنزل مع المجدى ، وباع ما يملكه ، وأورد المال .

فلما قبض على الحاج ابراهيم بن صابر ، وأقيم ابن شمس موضعه ، أرسله السلطان الى بيت أقبغا ليعصره ويضربه بالمقارع ويعذبه . فبلغ ذلك الأمير قوصون ، فمنع منه ، وشنع على السلطان كونه أمر بضربه بالمقارع ، وأمر بمراجعته . فحنق من ذلك ، وأطلق لسانه على الأمير قوصون ، فلم يزل به من حضره من الأمراء حتى سكت على مضض .

وكان قوصون يدبر فى انتقاض دولة أبى بكر الى أن خلعه ، وأقام بعده أخاه الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون ، وعمره نحو السبع سنين ، وتحكم فى الدوله . فأخرج أقبغا هو وولده من القاهرة ، وجعله من جملة أمراء الدولة بالشام . فسار من القاهرة فى تاسع ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، على حيز الأمير مسعود بن خطير بدمشق ، ومعه عياله فأقام بها .

الى أن كانت فتنة الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون ، وعصيانه بالكرك على أخيه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون ، فاتهم أقبغا بأنه بعث مملوكا من مماليكه الى الكرك ، وأن الناصر أحمد خلع عليه ، وضربت البشائر بقلعة الكرك ، وأشاع أن أمراء الشام قد دخلوا فى طاعته وحلفوا له ، وأن أقبغا قد بعث اليه مع مملوكه يبشره بذلك .

فلما وصل الى الملك الصالح كتاب عساف أخى شطى بذلك ، وصل فى وقت وروده كتاب نائب الشام الأمير طقزدمر ، بخبر فيه بأن جماعة من أمراء الشام قد كاتبوا أحمد بالكرك وكاتبهم ، وقد قبض عليهم ، ومن جملتهم أقبغا عبد الواحد . فرسم بحمله مقيدا ، فحمل من دمشق الى الاسكندرية ، وقتل بها فى آخر سنة أربع وأربعين وسبعمائة .

وكان من الظلم والطمع والتعاظم على جانب كبير ، وجمع من الأموال شيئا كثيرا وأقام جماعة من أهل الشر لتتبع أولاد الأمراء ، وتعرف أحوال من افتقر منهم أو احتاج الى شىء ، فلا يزالون به حتى يعطوه مالا على سبيل القرض بفائدة جزيلة الى أجل ، فاذا استحق المال أعسفه فى الطلب ، وألجأه الى بيع ما له من الأملاك ، وحلها ان كانت وقفا بعنايته به ، وعين لعمل هذه الحيل شخصا يعرف بابن القاهرى وكان اذا دخل لأحد من القضاة فى شراء ملك أو حل وقف ، لا يقدر على مخالفته ، ولا يجد بدا من موافقته

ومن غريب ما حكى عن طمع أقبغا أن مشد الحاشية دخل عليه ، وفى أصبعه خاتم بفص أحمر من زجاج له بريق ، فقال له أقبغا . ايش هو هذا الخاتم ؟.

فأخذ يعظمه ، وذكر أنه من تركة أبيه

فقال : بكم حسبوه عليك ؟

فقال . بأربعمائة درهم

فقال : أرنيه .

فناوله اياه ، فأخذه وتشاغل عنه ساعة ، ثم قال له : والله فضيحة أن نأخذ خاتمك ، ولكن خذه أنت وهات ثمنه !

ودفعه اليه ، وألزمه باحضار الأربعمائة درهم فما وسعه الا أن * أحضرها اليه . فعاقبه الله بذهاب ماله وغيره ، وموته غريبا .

المدرسة الحسامية

هذه المدرسة بخط المسطاح من القاهرة ، قريبا من حارة الوزيرية بناها الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى ، نائب السلطنة بديار مصر ، الى جانب داره ، وجعلها برسم الفقهاء الشافعية وهى فى وقتنا هذا تجاه سوق الرقيق ، ويسلك منها الى درب العداس والى حارة الوزيرية والى سويقة الصاحب وباب الخوخة وغير ذلك

وكان بجانبها طبقة لخياط ، فطلبت منه بثلاثة أمثال ثمنها فلم يبعها ، وقيل لطرنطاى : لو طلبته لاستحيى منك . فلم يطلبه ، وتركه وطبقته ، وقال : لا أشوش عليه

« طرنطاى » بن عبد الله : الأمير حسام الدين المنصورى . رباه الملك المنصور قلاوون صغيرا ، ورقاه فى خدمه . الى أن تقلد سلطنة مصر ، فجعله نائب السلطنة بديار مصر ، عوضا عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى ، وخلع عليه فى يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة ثمان وسبعين وستمائة . فباشر ذلك مباشرة حسنة .

الى أن كانت سنة خمس وثمانين ، فخرج من القاهرة بالعساكر الى الكرك — وفيها الملك المسعود نجم الدين خضر ، وأخوه بدر الدين سلامش ، ابنا الملك الظاهر بيبرس — فى رابع المحرم ، وسار اليها . فوافاه الأمير بدر الدين الصوانى بعساكر دمشق فى ألفى فارس ، ونازلا الكرك ، وقطعا الميرة عنها ، واستفسدا رجال الكرك حتى أخذا خضرا وسلامش بالامان فى خامس صفر ، وتسلم الأمير عز الدين أيبك الموصلى ، نائب الشوبك مدينة الكرك ، واستقر فى نيابة السلطنة بها ، وبعث الأمير طرنطاى بالبشارة الى قلعة الجبل فوصل البريد بذلك فى ثامن صفر

ثم قدم بابنى الظاهر ، فخرج السلطان الى لقائه فى ثانى عشر ربيع الأول ، وأكرم الأمير طرنطاى ، ورفع قدره ، ثم بعثه الى أخذ صهيون — وبها سنقر الأشقر — فسار بالعساكر من القاهرة فى سنة ست وثمانين ، ونازلها وحصرها حتى نزل اليه سنقر بالأمان ، وسلم اليه قلعة صهيون ، وسار به الى القاهرة . فخرج السلطان الى لقائه وأكرمه .

ولم يزل على مكانته الى أن مات الملك المنصور ، وقام فى السلطنة بعده ابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، فقبض عليه فى يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة سنة تسع وثمانين ، وعوقب حتى مات يوم الاثنين خامس عشره بقلعة الجبل ، وبقى ثمانية أيام بعد قتله مطروحا بحبس القلعة .

ثم أخرج فى ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة ، وقد لف فى حصير ، وحمل على جنوية الى زاوية الشيخ أبى السعود بالقرافة . فغسله الشيخ عمر السعودى شيخ الزاوية ، وكفنه من ماله ، ودفنه خارج الزاوية ليلا ، وبقى هناك الى سلطنة العادل كتبغا ، فأمر

(*) ص ٢٨٥ ، جـ ٢ ، ط . بولاق

بنقل جثته الى تربته التى أنشأها بمدرسته هذه .

وكان سبب القبض عليه وقتله أن الملك الأشرف كان يكرهه كراهة شديدة فانه كان يطرح جانبه فى أيام أبيه ، ويغض منه ويهين نوابه ، ويؤذى من يخدمه ، لأنه كان يميل الى أخيه الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون . فلما مات الملك الصالح على ، وانتقلت ولاية العهد الى الأشرف خليل بن قلاوون ، مال اليه من كان ينحرف عنه فى حياة أخيه ... الا طرنطاى ، فانه ازداد تماديا فى الاعراض عنه ، وجرى على عادته فى أذى من ينسب اليه ، وأغرى الملك المنصور بشمس الدين محمد بن السلعوس — ناظر ديوان الأشرف — حتى ضربه ، وصرفه عن مباشرة ديوانه .

والأشرف مع ذلك يتأكد حنقه عليه ، ولا يجد بدا من الصبر الى أن صار له الأمر بعد أبيه ، ووقف الأمير طرنطاى بين يديه فى نيابة السلطنة على عادته ، وهو منحرف عنه لما أسلفه من الاساءة عليه . وأخذ الأشرف فى التدبير عليه .. الى أن نقل له عنه أنه يتحدث سرا فى افساد نظام المملكة ، واخراج الملك عنه ، وأنه قصد أن يقتل السلطان وهو راكب فى الميدان الأسود الذى تحت قلعة الجبل عند ما يقرب من باب الاصطبل ، فلم يحتمل ذلك .

وعندها سير أربعة ميادين — والأمير طرنطاى ومن وافقه عند باب سارية — حتى انتهى الى رأس الميدان ، وقرب من باب الاصطبل ، وفى الظن أنه يعطف الى باب سارية ليكمل التسيير على العادة ، فعطف الى جهة القلعة ، وأسرع ودخل من باب الاصطبل . فبادر الأمير طرنطاى عندما عطف السلطان ، وساق فيمن معه ليدركوه ، ففاتهم وصار بالاصطبل فيمن خف معه من خواصه .

وما هو الا أن نزل الأشرف من الركوب ، فاستدعى بالأمير طرنطاى ، فمنعه الأمير زين الدين كتبغا المنصورى من الدخول اليه ، وحذره منه وقال له . والله انى أخاف عليك منه ، فلا تدخل عليه الا فى عصبة تعلم أنهم يمنعونك منه ان وقع أمر تكرهه

فلم يرجع اليه ، وغره أن أحدا لا يجسر عليه لمهابته فى القلوب ومكانته من الدولة ، وأن الأشرف لا يبادره بالقبض عليه ، وقال لكتبغا : والله لو كنت نائما ما جسر خليل ينبهنى .

وقام ومشى الى السلطان ، ودخل ومعه كتبغا . فلما وقف على عادته ، بادر اليه جماعة قد أعدهم السلطان * وقبضوا عليه ، فأخذه اللكم من كل جانب ... والسلطان يعدد ذنوبه ، ويذكر له اساءته وسبه . فقال له : ياخوند ، هذا جميعه قد عملته معك ، وقدمت الموت بين يدى ، ولكن والله لتندمن من بعدى .

هذا والأيدى تتناوب عليه ، حتى ان بعض الخاصكية قلع عينه ، وسحب الى السجن . فخرج كتبغا وهو يقول . ايش أعمل ؟ ويكررها . فأدركه الطلب ، وقبض عليه أيضا ، ثم آل أمر كتبغا بعد ذلك الى أن ولى سلطنة مصر .

(*) ص ٢٨٦ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

وأوقع الأشرف الحوطة على أموال طرنطاى ، وبعث الى داره الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . فوجد له من العين ستمائة ألف دينار ، ومن الفضة سبعة عشر ألف رطل ومائة رطل مصرى . عنها زيادة على مائة وسبعين قنطارا فضة سوى الأوانى ، ومن العدد والأسلحة والأقمشة والآلات والخيول والمماليك ما يتعذر احصاء قيمته ، ومن الغلات والأملاك شىء كثير جدا ووجد له من البضائع والأموال المسفرة على اسمه ، والودائع والمقارضات ، والقنود والأعمال ، والأبقار والأغنام ، والرقيق وغير ذلك . شىء يجل وصفه هذا سوى ما أخفاه مباشروه بمصر والشام .

فلما حملت أمواله الى الأشرف ، جعل يقلبها ويقول :

من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى

واتفق بعد موت طرنطاى أن ابنه سأل الدخول على السلطان الأشرف ، فأذن له فلما وقف بين يديه ، جعل المنديل على وجهه — وكان أعمى — ثم مد يده وبكى ، وقال : شىء لله ! وذكر أن لأهله أياما ما عندهم ما يأكلونه . فرق له وأفرج عن أملاك طرنطاى ، وقال : تبلغوا بريعها ... فسبحان من بيده القبض والبسط .

المدرسة المنكوتمرية

هذه المدرسة بحارة بهاء الدين من القاهرة . بناها بجوار داره الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى ، نائب السلطنة بديار مصر ، فكملت فى صفر سنة ثمان وتسعين وستمائة . وعمل بها درسا للمالكية قرر فيه الشيخ شمس الدين محمد بن أبى القاسم بن عبد السلام بن جميل التونسى المالكى ، ودرسا للحنفية درس فيه ... ... [1] ، وجعل فيها خزانة كتب ، وجعل عليها وقفا ببلاد الشام . وهى اليوم بيد قضاة الحنفية يتولون نظرها ، وأمرها متلاش ، وهى من المدارس الحسنة .

« منكوتمر » : هو أحد مماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى ترقى فى خدمته ، واختص به اختصاصا زائدا الى أن ولى مملكة مصر بعد كتبغا فى سنة ست وتسعين وستمائة ، فجعله أحد الأمراء بديار مصر ، ثم خلع عليه خلع نيابة السلطنة — عوضا عن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى — يوم الأربعاء النصف من ذى القعدة .

فخرج سائر الأمراء فى خدمته الى دار النيابة ، وباشر النيابة بتعاظم كثير ، وأعطى المنصب حقه من الحرمة الوافرة والمهابة التى تخرج عن الحد ، وتصرف فى سائر أمور الدولة من غير أن يعارضه السلطان فى شىء ألبتة ، وبلغت عبرة اقطاعه فى السنة زيادة على مائة ألف دينار .

ولما عمل الملك المنصور الروك ، المعروف بالروك الحسامى ، فوض تفرقة منالات اقطاعات الأجناد له ، فجلس فى شباك دار النيابة بقلعة الجبل ، ووقف الحجاب بين يديه ، وأعطى لكل تقدمة منالات ، فلم يجسر

(١) هكذا بياض فى الاصل

أحد أنْ يتحدثَ فى زيادة ولا نقصانٍ ، خوفا من سوء خلقه وشدة حمقه .

وبقى أياما فى تفرقة المثالات ، والناس على خوف شديد فان أقل الاقطاعات كان فى أيام الملك المنصور قلاوون عشرة آلاف درهم فى السنة ، وأكثره ثلاثين ألف درهم ، فرجع فى الروك الحسامى أكثر اقطاعات الحلقة الى مبلغ عشرين ألف درهم وما دونها

فشق ذلك على الأجناد وتقدم طائفة منهم ورموا مثالاتهم التى فرقت عليهم ، لأن الواحد منهم وجد مثاله محق النصف مما كان له قبل الروك ، وقالوا لمنكوتمر : اما أن تعطونا ما يقوم بكلفنا ، والا فخذوا أخباركم ونحن نخدم الأمراء أو نصير بطالين.

فغضب منكوتمر ، وأخرق بهم ، وتقدم الى الحجاب فضربوهم ، وأخذوا سيوفهم ، وأودعوهم السجون . وأخذ يخاطب الأمراء بفحش ، ويقول : أيما قواد شكا من خبزه ، ونقول نقول للسلطان ، فعلت به فعلت ، ايش يقول للسلطان ؟ ان رضى يخدم الا الى لعنة الله فشق ذلك على الأمراء ، وأسروا له الشر »

ثم انه لم يزل بالسلطان حتى قبض على الأمير بدر الدين بيسرى ، وحسن له اخراج أكابر الأمراء من مصر ، فجردهم الى سيس ، وأصبح وقد خلا له الجو فلم يرض بذلك حتى تحدث مع خوشداشيته بأنه لا بد أن ينشىء له دولة جديدة ، ويخرج طغجى وكرجى من مصر »

ثم انه جهز حمدان بن صلغاى الى حلب فى صورة أنه يستعجل العساكر من سيس ، وقرر معه القبض على عدة من الأمراء ، وأمره عدة ، أمراء جعلهم له عدة وذخرا وتقدم الى الصاحب فخر الدين الخليلى بأن يعمل أوراقا تتضمن أسماء أرباب الرواتب ليقطع أكثرها .

فلم تدخل سنة ثمان وتسعين ، حتى استوحشت خواطر الناس بمصر والشام من منكوتمر ، وزاد حتى أراد السلطان أن يبعث بالأمير طغا الى نيابة طرابلس ، فتنصل طغا من ذلك فلم يعفه السلطان منه وألح منكوتمر فى اخراجه ، واغلظ للأمير كرجى فى القول وحط على سلار وبيبرس الجاشنكير وأنظارهم وبعض منهم وكان كرجى شرس الأخلاق ، ضيق العطن ، سريع الغضب ، فهم غير مرة بالفتك بمنكوتمر ، وطغجى يسكن غضبه .

فبلغ السلطان فساد قلوب الأمراء والعسكر فبعث قاضى القضاة حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن الرومى* الحنفى الى منكوتمر يحدثه فى ذلك ويرجعه عما هو فيه فلم يلتفت الى قوله وقال . أنا ما لى حاجة بالنيابة ، أريد أخرج مع الفقراء

فلما بلغ السلطان عنه ذلك استدعاه ، وطيب خاطره ، ووعده بسفر طغجى بعد أيام ، ثم القبض على كرجى بعده فنقل هذا للأمراء ، فتحالفوا وقتلوا السلطان ، كما قد ذكر فى خبره ، وأول من بلغه خبر مقتل السلطان الأمير منكوتمر ، فقام الى شباك النيابة بالقلعة ، فرأى باب القلة وقد انفتح ،

(*) ٢٨٧ ، جـ ٢ ، ٤ ص بولاق »

وخرج الأمراء ، والشموع تقد ، والضجة قد ارتفعت ، فقال . والله قد فعلوها . وأمر فغلقت أبواب دار النيابة ، وألبس مماليكه آلة الحرب .

فبعث الأمراء اليه بالأمير الحسام أستادار ، فعرفه بمقتل السلطان ، وتلطف به حتى نزل وهو مشدود الوسط بمنديل ، وسار به الى باب القلة ... والأمير طغجى قد جلس فى مرتبة النيابة . فتقدم الى طغجى ، وقبل يده ، فقام اليه ، وأجلسه بجانبه . وقام الأمراء فى أمر منكوتمر يشفعون فيه ، فأمر به الى الجب وأنزلوه فيه .

وعندما استقر به أدليت له القفة التى نزل فيها ، وتصايحوا عليه بالصعود ، فطلع عليهم . واذا كرجى قد وقف على رأس الجب فى عدة من المماليك السلطانية ، فأخذ يسب منكوتمر ويهينه ، وضربه بلت ألقاه ، وذبحه بيده على الجب ، وتركه وانصرف فكان بين قتل أستاذه وقتله ساعة من الليل ، وذلك فى ليلة الجمعة عاشر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين .

المدرسة القراسنقرية

هذه المدرسة تجاه خانقاه الصلاح سعيد السعداء ، فيما بين رحبة باب العيد وباب النصر ، كان موضعها ، وموضع الربع الذى بجانبها الغربى ، مع خانقاه بيبرس وما فى صفها ، الى حمام الأعسر وباب الجوانية ... كل ذلك من دار الوزارة الكبرى التى تقدم ذكرها . أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، نائب السلطنة ، سنة سبعمائة . وبنى بجوار بابها مسجدا معلقا ، ومكتبا لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ، وجعل بهذه المدرسة درسا للفقهاء ، ووقف على ذلك داره التى بحارة بهاء الدين وغيرها . ولم يزل نظر هذه المدرسة بيد ذرية الواقف الى سنة خمس عشرة وثمانمائة ، ثم انقرضوا .

وهى من المدارس المليحة . وكنا نعهد البريدية اذا قدموا من الشام وغيرها لا ينزلون الا فى هذه المدرسة حتى يتهيأ سفرهم ، وقد بطل ذلك من سنة تسعين وسبعمائة .

« قراسنقر بن عبد الله » . الأمير شمس الدين الجوكندار المنصورى . صار الى الملك المنصور قلاوون ، وترقى فى خدمته الى أن ولاه نيابة السلطنة بحلب ، فى شعبان سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الباشقردى ، فلم يزل فيها الى أن مات الملك المنصور ، وقام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل بن قلاوون .

فلما توجه الأشرف الى فتح قلعة الروم ، عاد بعد فتحها الى حلب ، وعزل قراسنقر عن نيابتها ، وولى عوضه الأمير سيف الدين بلبان الطباخى ، وذلك فى أوائل شعبان سنة احدى وتسعين وكانت ولايته على حلب تسع سنين

فلما خرج السلطان من مدينة حلب ، خرج فى خدمته ، وتوجه مع الأمير بدر الدين بيدرا — نائب السلطنة بديار مصر — فى عدة من الأمراء لقتال أهل جبال كسروان . فلما عاد سار مع السلطان من دمشق الى القاهرة ، ولم يزل بها الى أن ثار الأمير بيدرا على الأشرف ، فتوجه معه وأعان على قتله . فلما

قتلَ بيدرا فر قراسنقر ولاجين فى نصف المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، واختفيا بالقاهرة .

الى أن استقر الأمر للملك الناصر محمد ابن قلاوون ، وقام فى نيابة السلطنة وتدبير الدولة الأمير زين الدين كتبغا ، فظهرا فى يوم عيد الفطر . وكانا عند فرارهما ، يوم قتل بيدرا ، أطلعا الأمير بيحاص الزينى — مملوك الأمير كتبغا نائب السلطنة — على حالهما ، فأعلم أستاذه بأمرهما ، وتلطف به حتى تحدث فى شأنهما مع السلطان ، فعفا عنهما .

ثم تحدث مع الأمير بكتاش الفخرى الى أن ضمن له التحدث مع الأمراء ، وسعى فى الصلح بينهما * وبين الأمراء والمماليك حتى زالت الوحشة ، وظهرا من بيت الأمير كتبغا . فأحضرهما بين يدى السلطان ، وقبلا الأرض ، وأفيضت عليهما التشاريف ، وجعلهما أمراء على عادتهما ، ونزلا الى دورهما ، فحمل اليهما الأمراء ما جرت العادة به من التقادم .

فلم يزل قراسنقر على امرته الى أن خلع الملك الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة ، وقام من بعده الملك العادل زين الدين كتبغا ، فاستمر على حاله ... الى أن ثار الأمير حسام الدين لاجين ، نائب السلطنة بديار مصر ، على الملك العادل كتبغا بمنزلة العوجاء من طريق دمشق . فركب معه قراسنقر وغيره من الأمراء الى أن فر كتبغا ، واستمر الأمر لحسام الدين لاجين ، وتلقب بالملك المنصور .

(*) ص ٢٨٨ ، جـ ٢ ، ط . بولاق

فلما استقر بقلعة الجبل ، خلع على الأمير قراسنقر ، وجعله نائب السلطنة بديار مصر فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة . فباشر النيابة الى يوم الثلاثاء للنصف من ذى القعدة فقبض عليه ، وأحيط بموجوده وحواصله ونوابه ودواوينه بديار مصر والشام ، وضيق عليه ، واستقر فى نيابة السلطنة بعده الأمير منكوتمر .

وعد السلطان من أسباب القبض عليه اسرافه فى الطمع ، وكثرة الحمايات ، وتحصيل الأموال على سائر الوجوه ، مع كثرة ما وقع من شكاية الناس من مماليكه ، ومن كاتبه شرف الدين يعقوب . فانه كان قد تحكم فى بيته تحكما زائدا ، وعظمت نعمته ، وكثرت سعادته ، وأسرف فى اتخاذ المماليك والخدم ، وانهمك فى اللعب الكثير ، وتعدى طوره ... وقراسنقر لا يسمع فيه كلاما . وحدثه السلطان بسببه ، وأغلظ فى القول ، وألزمه بضربه وتأديبه أو اخراجه من عنده ، فلم يعبأ بذلك .

وما زال قراسنقر فى الاعتقال الى أن قتلَ الملك المنصور لاجين ، وأعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة ، فأفرج عنه وعن غيره من الأمراء ، ورسم له بنيابة الصبيبة . فخرج اليها ، ثم نقل منها الى نيابة حماه بعد موت صاحبها الملك المظفر تقى الدين محمود ، بسفارة الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار .

ثم نقل من نيابة حماه بعد ملاقاة التتر الى نيابة حلب . واستقر عوضه فى نيابة حماه الأمير زين الدين كتبغا ، الذى تولى سلطنة مصر والشام ، وذلك فى سنة تسع وتسعين وستمائة ، وشهد وقعة شقحب مع الملك الناصر محمد بن قلاوون .

ولم يزل على نيابة حلب الى أن خلع الملك الناصر ، وتسلطن الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، وصاحب الناصر فى الكرك فلما تحرك لطلب الملك ، واستدعى نواب الممالك ، أجابه قراسنقر ، وأعانه برأيه وتدبيره ، ثم حضر اليه وهو بدمشق ، وقدم له شيئا كثيرا ، وسار معه الى مصر حتى جلس على تخت ملكه بقلعة الجبل ، فولاه نيابة دمشق ، عوضا عن الأمير عز الدين الأفرم ، فى شوال سنة تسع وسبعمائة .

وخرج اليها ، فسار الى غزة فى عدة من النواب ، قبضوا على المظفر بيبرس الجاشنكير ، وسار به هو والأمير سيف الدين الحاج بهادر الى الخطارة ، فتلقاهم الأمير أسندمر كرجى ، فتسلم منهم بيبرس ، وقيده وأركبه بغلا ، وأمر قراسنقر والحاج بهادر بالسير الى مصر . فشق على قراسنقر تقييد بيبرس ، وتوهم الشر من الناصر ، وانزعج لذلك انزعاجا كثيرا ، ألقى كلوتته عن رأسه الى الأرض ، وقال لفراشه الدنيا فانية ، ياليتنا متنا ولا رأينا هذا اليوم فترجل من حضر من الأمراء ، ورفعوا كلوتته ووضعوها على رأسه .

ورجع من فوره ، ومعه الحاج بهادر ، الى ناحية الشام ، وقد ندم على تشييع المظفر بيبرس ، فجد فى سيره الى أن عبر دمشق . وفى نفس السلطان منه كونه لم يحضر مع بيبرس ، وكان قد أراد القبض عليه ، فبعث الأمير نوغاى القبجاقى أميرا بالشام ليكون له عينا على الأمير قراسنقر ، ففطن قراسنقر لذلك وشرع نوغاى يتحدث فى حق قراسنقر بما لا يليق ، حتى ثقل عليه مقامه ، فقبض عليه بأمر السلطنة ، وسجن بقلعة دمشق

ثم ان السلطان صرفه عن نيابة دمشق ، وولاه نيابة حلب بسؤاله ، وذلك فى المحرم سنة احدى عشرة وسبعمائة وكتب السلطان الى عدة من الأمراء بالقبض عليه مع الأمير أرغون الدوادار ، فلم يتمكن من التحدث فى ذلك لكثرة ما ضبط قراسنقر أموره ، ولازمه عند قدومه عليه بتقليد نيابة حلب ، بحيث لم يتمكن أرغون من الحركة الى مكان الا وقراسنقر معه

فكثر الحديث بدمشق أن أرغون انما حضر لمسك قراسنقر ، حتى بلغ ذلك الأمراء ، وسمعه قراسنقر فاستدعى بالأمراء ، وحضر الأمير أرغون ، فقال قراسنقر بلغنى كذا ، وهاأنا أقول ان كان حضر معك مرسوم بالقبض على فلا حاجة الى فتنة ، أنا طائع السلطان ، وهذا سيفى خذه ، ومد يده وحلّ سيفه من وسطه .

فقال أرغون ، وقد علم أن هذا الكلام مكيدة ، وأن قراسنقر لا يمكن من نفسه : انى لم أحضر الا بتقليد الأمير نيابة حلب بمرسوم السلطان وسؤال الأمير ، وحاشا لله أن السلطان يذكر فى حق الأمير شيئا من هذا

فقال قراسنقر : غدا نركب ونسافر .

وانفض المجلس ، فبعث الى الأمراء ان لا يركب أحد منهم لوداعه ، ولا يخرج من اسه وفرق ما عنده من الحوائص ومن الدراهم على مماليكه ليتحملوا به على * أوساطهم ، وأمرهم بالاحتراس ، وقدم غلمانه وحواشيه أول الليل وركب وقت الصباح فى طلب عظيم — وكانت عدة مماليكه ستمائة مملوك قد جعلهم حوله ثلاث حلقات — وأركب آرغون الى جانبه .

وسار على غير الجادة حتى قارب حلب ، ثم عبرها فى العشرين من المحرم ، وأعاد أرغون بعدما أنعم عليه بألف دينار وخلعة وخيل وتحف ، وأقام بمدينة حلب خائفا يترقب ، وشرع يعمل الحيلة فى الخلاص ، وصادق العربان ، واختص بالأمير حسام الدين مهنا أمير العرب وبابنه موسى ، وأقدمه الى حلب ، وأوقفه على كتب السلطان اليه بالقبض عليه ، وأنه لم يفعل ذلك ، ولم يزل به حتى أفسد ما بينه وبين السلطان .

ثم انه بعث يستأذن السلطان فى الحج . فأعجب السلطان ذلك ، وظن أنه بسفره يتم له التدبير عليه لما كان فيه من الاحتراز الكبير ، وأذن له فى السفر ، وبعث اليه بألفى دينار مصرية ، فخرج من حلب ومعه أربعمائة مملوك معدة بالفرس والجنيب والهجن ، وسار حتى قارب الكرك ، فبلغه أن السلطان كتب الى النواب ، وأخرج عسكرا من مصر اليه .

فرجع من طريق السماوة الى حلب ، وبها الأمير سيف الدين قرطاى نائب الغيبة ، فمنعه من العبور الى المدينة ، ولم يمكن أحدا من مماليك قراسنقر أن يخرج اليه — وكانت

(*) ص ٢٨٩ ، جـ ٢ ط . بولاق .

مكاتبة السلطان قد قدمت عليه بذلك — فرحل حينئذ الى مهنا أمير العرب واستجار به ، فأكرمه وبعث الى السلطان يشفع فيه فلم يجد السلطان بدا من قبول شفاعة مهنا ، وخير قراسنقر فيما يريد ، ثم أخرج عسكرا من مصر والشام لقتال مهنا وأخذ قراسنقر .

فبلغه ذلك ، فاحترس على نفسه ، وكتب الى السلطان يسأله فى صرخد ، وقصد بذلك المطاولة ، فأجابه الى ذلك ، ومكنه من أخذ حواصله التى بحلب ، وأعطى مملوكه ألف دينار ، فلما قدم عليه لم يطمئن ، وعبر الى بلاد الشرق فى سنة ثنتى عشرة وسبعمائة فى عدة من الأمراء يريد خربندا ، فلما وصل الى الرحبة ، بعث بابنه فرج — ومعه شئ من أثقاله وخيوله وأمواله — الى السلطان بمصر ليعتذر من قصده خربندا ، ورحل بمن معه الى ماردين .

فتلقاه المغل ، وقام له نواب خربندا بالاقامات الى أن قرب الأردو . فركب خربندا اليه ، وتلقاه وأكرمه ومن معه ، وأنزلهم منزلا يليق بهم ، وأعطى قراسنقر المراغة من عمل أذربيجان ، وأعطى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم همدان ... وذلك فى أوائل سنة ثنتى عشرة وسبعمائة . فلم يزل هناك الى أن مات خربندا ، وقام من بعده أبو سعيد بركة بن خربندا .

فشق ذلك على السلطان ، وأعمل الحيلة فى قتل قراسنقر والأفرم ، وسير اليهما الفداوية . فجرت بينهم خطوب كثيرة ، ومات قراسنقر بالاسهال ببلد المراغة فى سنة ثمان وعشرين

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٤٢

كتاب التحرير



«كانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت منذ شذوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وسبعمائة ، يوم السبت سابع عشرى شوال ، قبل موت السلطان يسير .

فلما بلغ السلطان موته فى حادى عشر ذى القعدة عند ورود الخبر اليه ، قال : ما كنت أشتهى يموت الا من تحت سيفى ، وأكون قد قدرت عليه ، وبلغت مقصودى منه . وذلك أنه كان قد جهز اليه عددا كثيرا من الفداوية ، قتل منهم بسببه مائة وعشرون فداويا بالسيف سوى من فقد ، ولم يوقف له على خبر .

وكان قراسنقر جسيما جليلا ، صاحب رأى وتدبير ومعرفة ، وبشاشة وجه ، وسماحة نفس ، وكرم زائد ، بحيث لا يستكثر على أحد شيئا ، مع حسن الشاكلة ، وعظم المهابة ، والسعادة الطائلة ، وبلغت عدة مماليكه ستمائة مملوك ، ما منهم الا من له نعمة ظاهرة وسعادة وافرة . وله من الآثار بالقاهرة هذه المدرسة ، ودار جليلة بحارة بهاء الدين فيها كان سكنه .

المدرسة الغزنوية

هذه المدرسة برأس الموضع المعروف بسويقة أمير الجيوش ، تجاه المدرسة اليازكوجية . بناها الأمير حسام الدين قايماز النجمى ، مملوك نجم الدين أيوب والد الملوك ، وأقام بها الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن يوسف بن على بن محمد الغزنوى البغدادى المقرىء الفقيه الحنفى ، ودرس بها ، فعرفت به .

وكان اماما فى الفقه ، وسمع على الحافظ السلفى وغيره ، وقرأ بنفسه ، وسكن مصر آخر عمره . وكان فاضلا ، حسن الطريقة ، متدينا ، وحدث بالقاهرة بكتاب الجامع لعبد الرزاق بن همام ، فرواه عنه جماعة ، وجمع كتابا فى الشيب والعمر . وقرأ عليه أبو الحسن السخاوى ، وأبو عمرو بن الحاجب .

ومولده ببغداد فى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وتوفى بالقاهرة يوم الاثنين النصف من ربيع الأول سنة تسع وتسعين وخمسمائة .

وهى من مدارس الحنفية .

المدرسة البوبكرية

هذه المدرسة بجوار درب العباسى ، قريبا من حارة الوزيرية ، بالقاهرة . بناها الأمير سيف الدين أسنبغا ابن الأمير * سيف الدين بكتمر البوبكرى الناصرى ، ووقفها على الفقهاء الحنفية ، وبنى بجانبها حوض ماء للسبيل وسقاية ومكتبا للأيتام ، وذلك فى سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة ، وبنى قبالتها جامعا فمات قبل اتمامه .

وكان يسكن دار بدر الدين الأمير طرنطاى المجاورة للمدرسة الحسامية ، تجاه سوق الجوارى ، فلذلك أنشأ هذه المدرسة بهذا المكان لقربه منه . ثم لما كانت سنة خمس عشرة وثمانمائة جدد بهذه المدرسة منبرا ، وصار يقام بها الجمعة .

« أسنبغا » بن بكتمر الأمير ... ...

المدرسة البقرية

هذه المدرسة فى الزقاق الذى تجاه باب الجامع الحاكمى المجاور للمنبر ، ويتوصل من

(*) ص ٣٩٠ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

الأطباء تجاه داره ، ومات قبل اكمالها ، فدفن بعد موته فى قبة تجاه جامعه المطل على الخليج الناصرى بقرب بركة قرموط ، وصارت هذه المدرسة قائمة بغير اكمال . الى أن هدمها بعض ذريته فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، وباع أنقاضها ، فصار موضعها طاحونة .

المدرسة البيدرية

هذه المدرسة برحبة الأيدمرى ، بالقرب من باب قصر الشوك ، فيما بينه وبين المشهد الحسينى . بناها الأمير بيدر الأيدمرى .

المدرسة البديرية *

هذه المدرسة بجوار باب سر المدرسة الصالحية النجمية . كان موضعها من جملة تربة القصر التى تقدم ذكرها ، فنبش شخص من الناس — يعرف بناصر الدين محمد بن محمد بن بدير العباسى — ما هنالك من قبور الخلفاء ، وأنشأ هذه المدرسة فى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ، وعمل فيها درس فقه للفقهاء الشافعية ، درس فيه شيخنا شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينى ، وهى مدرسة صغيرة لا يكاد يصعد اليها أحد .

والعباسى هذا من قرية بطرف الرمل يقال لها العباسة . وله فى مدينة بلبيس مدرسة ، وقد تلاشت بعدما كانت عامرة مليحة .

المدرسة الملكية

هذه المدرسة بخط المشهد الحسينى من القاهرة . بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار تجاه داره ، وعمل فيها درسا للفقهاء الشافعية وخزانة كتب معتبرة ، وجعل لها عدة أوقاف . وهى الى الآن من المدارس المشهورة ، وموضعها من جملة رحبة قصر الشوك ، وقد تقدم ذكرها عند ذكر الرحاب من هذا الكتاب . ثم صار موضع هذه المدرسة دارا تعرف بدار ابن كرمون ، صهر الملك الصالح .

المدرسة الجمالية

هذه المدرسة بجوار درب راشد من القاهرة ، على باب الزقاق المعروف قديما بدرب سيف الدولة نادر . بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالى ، وجعلها مدرسة للحنفية وخانقاه للصوفية .

وولى تدريسها ومشيخة التصوف بها : الشيخ علاء الدين على بن عثمان التركمانى الحنفى ، وتداولها ابنه قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى ، وابنه قاضى القضاة صدر الدين محمد بن عبد الله بن على التركمانى الحنفى ، ثم قريبهم حميد الدين حماد ، وهى الآن بيد ابن حميد الدين المذكور .

وكان شأن هذه المدرسة كبيرا . يسكنها أكابر فقهاء الحنفية ، وتعد من أجل مدارس القاهرة ، ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظواهرها

(*) ص ٣٦١ ج ٢ ، ط . بولاق .

هذا الزقاق الى ناحية العطوف . بناها الرئيس شمس الدين شاكر بن غزيل (تصغير غزال) — المعروف بابن البقرى — أحد مسالمة القبط ، وناظر الذخيرة أيام الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون . وهو خال الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى .

وأصله من قرية تعرف بدار البقر ، احدى قرى الغربية ، نشأ على دين النصارى ، وعرف الحساب ، وباشر الخراج ... الى أن أقدمه الأمير شرف الدين بن الأزكشى — أستادار السلطان ، ومشير الدولة فى أيام الناصر حسن — فأسلم على يديه ، وخاطبه بالقاضى شمس الدين ، وخلع عليه ، واستقر به فى نظر الذخيرة السلطانية — وكان نظرها حينئذ من الرتب الجليلة — وأضاف اليه نظر الأوقاف والأملاك السلطانية ، ورتبه مستوفيا بمدرسة الناصر حسن .

فشكرت طريقته ، وحمدت سيرته ، وأظهر سيادة وحشمة ، وقرب أهل العلم من الفقهاء ، وتفضل بأنواع من البر . وأنشأ هذه المدرسة فى أبدع قالب وأبهج ترتيب ، وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ، وقرر فى تدريسها شيخنا سراج الدين عمر بن على الأنصارى — المعروف بابن الملقن — الشافعى ، ورتب فيها ميعادا وجعل شيخه صاحبنا الشيخ كمال الدين بن موسى الدميرى الشافعى ، وجعل امام الصلوات بها المقرىء الفاضل زين الدين أبا بكر بن الشهاب أحمد النحوى . وكان الناس يرحلون اليه فى شهر رمضان لسماع قراءته فى صلاة التراويح ، لشجا صوته ، وطيب نغمته ، وحسن أدائه ، ومعرفته بالقراءات السبع والعشر والشواذ .

ولم يزل ابن البقرى على حال السيادة والكرامة الى أن مرض مرض موته ، فأبعد عنه من يلوذ به من النصارى ، وأحضر الكمال الدميرى وغيره من أهل الخير . فما زالوا عنده حتى مات — وهو يشهد شهادة الاسلام — فى سنة ست وسبعين وسبعمائة ، ودفن بمدرسته هذه ، وقبره بها تحت قبة فى غاية الحسن ، وولى نظر الذخيرة بعده أبو غالب .

ثم استجد فى هذه المدرسة منبر ، وأقيمت بها الجمعة فى تاسع جمادى الأولى سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، باشارة علم الدين داود الكويز كاتب السر .

المدرسة القطبية

هذه المدرسة بأول حارة زويلة ، مما يلى الخرشف ، فى رحبة كوكاى . عرفت بالست الجليلة عصمة الدين خاتون مؤنسة القطبية — المعروفة بدار اقبال العلائى — ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب بن شادى . وكان وقفها فى سنة خمس وستمائة ، وبها درس للفقهاء الشافعية ، وتصدير قراءات وفقهاء يقرأون .

مدرسة ابن المغربى

هذه المدرسة آخر درب الصقالبة ، فيما بين سويقة المسعودى وحارة زويلة . بناها صلاح الدين يوسف بن ... ... ابن المغربى رئيس

وفى البلاد الشامية . وقد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولاة أمرها وتخريبهم أوقافها ، وتعطّل منها حضور الدرس والتصوف ، وصارت منزلا يسكنه أخلاط ممن ينسب الى اسم الفقه ، وقرب الخراب منها ، وكان بناؤها فى سنة ثلاثين وسبعمائة .

« مغلطاى » بن عبد الله الجمالى : الأمير علاء الدين — عرف بخرز ، وهى بالتركية عبارة عن الدين بالعربية — اشتراه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ونقله وهو شاب من الجامكية الى الامرة ، على اقطاع الأمير صارم الدين ابراهيم الابراهيمى ، نقيب المماليك السلطانية — المعروف بزير الأمرة — فى صفر سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وصار السلطان ينتدبه فى التوجه الى المهمات الخاصة به ، ويطلعه على سره .

ثم بعثه أمير الركب الى الحجاز فى هذه السنة . فقبض على الشريف أسد الدين رميثة ابن أبى نمى صاحب مكة ، وأحضره الى قلعة الجبل فى ثامن عشر المحرم سنة تسع عشرة وسبعمائة مع الركب . فأنكر عليه السلطان سرعة دخوله ، لما أصاب الحاج من المشقة فى الاسراع بهم .

ثم انه جعل أستادار السلطان ، لما قبض على القاضى كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم هبة الله ناظر الخواص ، عند وصوله من دمشق بعد سفره اليها لاحضار شمس الدين غبريال . فيوم حضر خلع عليه ، وجعل أستادارا عوضا عن الأمير سيف الدين بكتمر العلائى ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة .

ثم أضاف اليه الوزارة ، وخلع عليه فى يوم الخميس ثامن رمضان سنة أربع وعشرين ، عوضا عن الصاحب أمين الملك عبد الله بن الغنام ، بعدما استعفى من الوزارة واعتذر بأنه رجل غتمى ، فلم يعفه السلطان ، وقال : أنا أخلى من يباشر معك ، ويعرفك ما تعمل . وطلب شمس الدين غبريال ناظر دمشق منها ، وجعله ناظر الدولة رفيقا للوزير الجمالى .

فرفعت قصة الى السلطان ، وهو فى القصر من القلعة ، فيها الحط على السلطان بسبب تولية الجمالى الوزارة وألماس حاجبا ، وأنه بسبب ذلك أضاع أوضاع المملكة وأهانها ، وفرط فى أموال المسلمين والجيش ، وأن هذا لم يفعله أحد من الملوك ... فقد وليت الحجابة لمن لا يعرف يحكم ، ولا يتكلم بالعربى ، ولا يعرف الأحكام الشرعية . ووليت الوزارة والأستادارية لشاب لا يعرف يكتب اسمه ، ولا يعرف ما يقال له ، ولا يتصرف فى أمور المملكة ، ولا فى الأموال الديوانية ، الا أرباب الأقلام ، فانهم يأكلون المال ويحيلون على الوزير .

فلما وقف السلطان عليها ، أوقف عليها القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله — المعروف بالفخر ناظر الجيش — فقال : هذه ورقة الكتاب البطالين ممن انقطع * رزقه وكثر حسده . وقرر مع السلطان أن يلزم الوزير ناظر الدولة وناظر الخواص باحضار أوراق فى كل يوم تشتمل على أصل الحاصل ، وما حصل فى ذلك اليوم من البلاد الجهات وما

(*) ص٣٦٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

صرف ، وأنه لا يصرف لأحد شىء ألبتة الا بأمر السلطان وعلمه .

فلما حضر الوزير الجمالى ، أنكر عليه السلطان ، وقال له : ان الدواوين تلعب بك . وأمر فأحضر التاج اسحاق وغبريال ومجد الدين بن لعيبة ، وقرر معهم أن يحضروا آخر كل يوم أوراقا بالحاصل والمصروف ، وقد فصلت بأسماء ما يحتاج الى صرفه والى شرائه وبيعه . فصاروا يحضرون كل يوم الأوراق الى السلطان ، وتقرأ عليه ، فيصرف ما يختار ، ويوقف ما يريد . ورسم أيضا أن مال الجيزة كله يحمل الى السلطان ، ولا يصرف منه شىء .

ثم لما كانت الفتنة بثغر الاسكندرية بين أهلها وبين الفرنج ، وغضب السلطان على أهل الاسكندرية ، بعث بالجمالى اليها . فسار من القاهرة فى أثناء رجب سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، ودخل اليها ، فجلس بالخمس ، واستدعى بوجوه أهل البلد ، وقبض على كثير من العامة ، ووسط بعضهم ، وقطع أيدى جماعة وأرجلهم ، وصادر أرباب الأموال حتى لم يدع أحدا له ثروة حتى ألزمه بمال كثير . فباع الناس حتى ثياب نسائهم فى هذه المصادرة . وأخذ من التجار شيئا كثيرا ، مع ترفقه بالناس فيما يرد عليه من الكتب بسفك الدماء ، وأخذ الأموال .

ثم أحضر العدد التى كانت بالثغر مرصدة برسم الجهاد ، فبلغت ستة آلاف عدة ، ووضعها فى حاصل ، وختم عليه . وخرج من الاسكندرية بعد عشرين يوما ، وقد سفك دماء كثيرة ، وأخذ منها مائتى ألف دينار للسلطان ، وعاد الى القاهرة ، فلم يزل على حاله الى أن صرف عن الوزارة فى يوم الأحد ثانى شوال سنة ثمان وعشرين . ورسم أن توفر وظيفة الوزارة من ولاية وزير ، فلم يستقر أحد فى الوزارة ، وبقى الجمالى على وظيفة الأستادارية .

وكان سبب عزله عن الوزارة توقف حال الدولة ، وقلة الواصل اليها . فعمل عليه الفخر ناظر الجيش والتاج اسحاق ، بسبب تقديمه لمحمد بن لعيبة ، فانه كان قد استقر فى نظر الدولة والصحبة والبيوت ، وتحكم فى الوزير وتسلم قياده . فكتبت مرافعات فى الوزير ، وأنه أخذ مالا كثيرا من مال الجيزة ، فخرج الأمير أيتمش المجدى بالكشف عليه ، وهم السلطان بايقاع الحوطة به . فقام فى حقه الأمير بكتمر الساقى حتى عفى عنه ، وقبض على كثير من الدواوين .

ثم انه سافر الى الحجاز ، فلما عاد توفى بسطح عقبة أيلة ، فى يوم الأحد سابع عشر المحرم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، فصبر وحمل الى القاهرة ، ودفن بهذه الخانقاه فى يوم الخميس حادى عشرى المحرم المذكور ، بعدما صلى عليه بالجامع الحاكمى . وولى السلطان بعده الأستادارية الأمير أقبغا عبد الواحد . وكان ينوب عن الجمالى فى الأستادارية ألطنقش مملوك الأفرم ... نقله اليها من ولاية الشرقية .

وكان الجمالى حسن الطباع ، يميل الى الخير مع كثرة الحشمة ، ومما شكر عليه فى وزارته أنه لم يخل على أحد بولاية مباشرة ،

وأنشأ ناسا كثيرا ، وقصد من سائر الأعمال . وكان يقبل الهدايا ويحب التقادم ، فحلت له الدنيا ، وجمع منها شيئا كثيرا . وكان اذا أخذ من أحد شيئا على ولاية ، لا يعزله حتى يعرف أنه قد اكتسب قدر ما وزنه له ولو أكثر عليه في السعى ، فاذا عرف أنه أخذ ما غرمه ، عزله وولى غيره ، ولم يعرف عنه أنه صادر أحدا ، ولا اختلس مالا . وكانت أيامه قليلة الشر ، الا أنه كان يعزل ويولى بالمال ، فتزايد الناس في المناصب ، وكان له عقب بالقاهرة غير صالحين ولا مصلحين .

المدرسة الفارسية

هذه المدرسة بخط الفهادين ، من أول العطوفية بالقاهرة ، كان موضعها كنيسة تعرف بكنيسة الفهادين . فلما كانت واقعة النصارى في سنة ست وخمسين وسبعمائة ، هدمها الأمير فارس الدين البكى — قريب الأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار — وبنى هذه المدرسة ، ووقف عليها وقفا يقوم بما تحتاج اليه .

المدرسة السابقية

هذه المدرسة داخل قصر الخلفاء الفاطميين ، من جملة القصر الكبير الشرقى الذى كان داخل دار الخلافة ، ويتوصل الى هذه المدرسة الآن من تجاه حمام اليسرى بخط بين القصرين ، وكان يتوصل اليها أيضا من باب القصر — المعروف بباب الريح — من خط الركن المخلق ، وموضعه الآن قيسارية الأمير جمال الدين يوسف الأستادار .

بنى هذه المدرسة الطواشى الأمير سابق الدين مثقال الأنوكى ، مقدم المماليك السلطانية الأشرفية ، وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ... قرر في تدريسه شيخنا شيخ الشيوخ سراج الدين عمر بن على الأنصارى ، المعروف بابن * الملقن الشافعى ، وجعل فيها تصدير قراءات وخزانة كتب وكتابا يقرأ فيه أيتام المسلمين ، وبنى بينها وبين داره — التى تعرف بقصر سابق الدين — حوض ماء للسبيل . هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار لما بنى داره المجاورة لهذه المدرسة .

وولى سابق الدين تقدمة المماليك ، بعد الطواشى شرف الدين مختص الطغتمرى ، في صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة . ثم تنكر عليه الأمير يلبغا الخاصكى ، القائم بدولة الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وضربه ستمائة عصا وسجنه ، ونفاه الى أسوان في آخر شهر ربيع الأول سنة ثمان وستين . فلم يكن غير قليل حتى قتل الأمير يلبغا ، فاستدعى الأشرف سابق الدين بن قوص ، وصرف ظهير الدين مختارا — المعروف بشاذروان — عن التقدمة ، وأعاده اليها . فاستمر الى أن مات سنة ست وسبعين وسبعمائة .

المدرسة القيسرانية

هذه المدرسة بجوار المدرسة الصاحبية ، بسويقة الصاحب ، فيما بينها وبين باب الخوخة . كانت دارا يسكنها القاضى الرئيس شمس الدين محمد بن ابراهيم القيسرانى ، أحد موقعى الدست بالقاهرة ، فوقفها قبل

(*) ص٣٦٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

موته مدرسة ، وذلك في ربيع الأول سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، وتوفى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة .

وكان حشما كبير الهمة . سعى بالأمير سيف الدين بهادر الدمرداشى في كتابة السر بالقاهرة ، مكان علاء الدين على بن فضل الله العمرى ، فلم يتم ذلك ، ومات الأمير بهادر ، فانحط جانبه . وكانت دنياه واسعة جدا ، وله عدة مماليك يتوصل بهم الى السعى في أغراضه عند أمراء الدولة ، وكان ينسب الى شح كبير .

المدرسة الزمامية

هذه المدرسة بخط رأس البندقانيين من القاهرة ، فيما بين البندقانيين وسويقة الصاحب . بناها الأمير الطواشى زين الدين مقبل الرومى ، زمام الآدر الشريفة للسلطان الظاهر برقوق ، في سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، وجعل بها درسا وصوفية ومنبرا يخطب عليه في كل جمعة .

وبينها وبين المدرسة الصاحبية دون مدى الصوت ، فيسمع كل من صلى بالموضعين تكبير الآخر . وهذا وأنظاره بالقاهرة من شنيع ماحدث في غير موضع ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم على ازالة هذه المبتدعات .

المدرسة الصغيرة

هذه المدرسة فيما بين البندقانيين وطواحين الملحيين ، ويعرف خطها ببيت محب الدين ناظر الجيوش ، ويعرف أيضا بخط بين العواميد . بنتها الست أيدكين ، زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصرى ، في سنة احدى وخمسين وسبعمائة .

مدرسة تربة ام الصالح

هذه المدرسة بجوار المدرسة الأشرفية ، بالقرب من المشهد النفيسى فيما بين القاهرة ومصر ، موضعها من جملة ما كان بستانا . أنشأها الملك المنصور قلاوون على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، في سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، برسم أم الملك الصالح علاء الدين على بن الملك المنصور قلاوون .

فلما كمل بناؤها ، نزل اليها الملك المنصور ومعه ابنه الصالح على ، وتصدق عند قبرها بمال جزيل ، ورتب لها وقفا حسنا على قراء وفقهاء وغير ذلك . وكانت وفاتها في سادس عشر شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

مدرسة ابن عرام

هذه المدرسة بجوار جامع الأمير حسين ، بحكر جوهر النوبى من بر الخليج الغربى ، خارج القاهرة . أنشأها الأمير صلاح الدين خليل بن عرام ، وكان من فضلاء الناس ، تولى نيابة الاسكندرية ، وكتب تاريخا ، وشارك في علوم .

فلما قتل الأمير بركة بسجن الاسكندرية ، ثارت مماليكه على الأمير الكبير برقوق حنقا لقتله . فأنكر الأمير برقوق قتله ، وبعث الأمير يونس النوروزى دواداره لكشف ذلك ،

فنبش عنه قبره ، فاذا فيه ضربات عدة لحداهن فى رأسه ، فاتهم ابن عرام بقتله من غير اذن له فى ذلك . فأخرج بركة من قبره — وكان بثيابه من غير غسل ولا كفن — وغسله وكفنه .

واحضر ابن عرام معه ، فسجن بخزانة شمائل داخل باب زويلة من القاهرة ، ثم عصر ، وأخرج يوم الخميس خامس عشر رجب سنة اثنين وثمانين وسبعمائة من خزانة شمائل ، وأمر به فسمر عريان بعد ما ضرب عند باب القلة * بالمقارع ستة وثمانين بحضرة الأمير قطلودمر الخازندار والأمير مامور حاجب الحجاب .

فلما أنزل من القلعة ، وهو مسمر على الجمل ، أنشد :

لك قلبى تحله فدمى لم تحله
لك من قلبى المكا ن فلم لا تحله
قال ان كنت مالكا فلى الأمر كله

وما هو الا أن وقف بسوق الخيل تحت القلعة . واذا بمماليك بركة قد اكبت عليه تضربه بسيوفها حتى تقطع قطعا ، وحز رأسه وعلق على باب زويلة ، وتلاعبت أيديهم : فأخذ واحد أذنه ، وأخذ واحد رجله ، واشترى آخر قطعة من لحمه ولاكها . ثم جمع ما وجد منه ، ودفن بمدرسته هذه .

فقال فى ذلك صاحبنا الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار :

بدت أجزاء عرام خليلْ
مقطعة من الضرب الثقيلْ
وأبدت أبحر الشعر المرائى
محررة بتقطيع الخليلْ

المدرسة المحمودية

هذه المدرسة بخط الموازنيين ، خارج باب زويلة تجاه دار القردمية ، يشبه أن موضعها كان فى القديم من جملة الحارة التى كانت تعرف بالمنصورية . أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار فى سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، ورتب بها درسا ، وعمل فيها خزانة كتب لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها ، وهى باقية الى اليوم ، لا يخرج لأحد منها كتاب الا أن يكون فى المدرسة ، وبهذه الخزانة كتب الاسلام من كل فن . وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر .

« محمود » بن على بن أصفر عينه : الأمير جمال الدين الأستادار . ولى شد باب رشيد بالاسكندرية مدة ، وكانت واقعة الفرنج بها فى سنة سبع وستين وسبعمائة وهو مشد ، فيقال ان ماله الذى وجد له حصله يومئذ ، ثم انه سار الى القاهرة .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق ، خدم أستادارا عند الأمير سودون باق ، ثم استقر شاد الدواوين الى أن مات الأمير بهادر المنجكى أستادار السلطان ، فاستقر عوضا عنه فى وظيفة الأستادارية يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة تسعين وسبعمائة ، ثم خلع عليه فى يوم الخميس خامسه ، واستقر مشير الدولة . فصار يتحدث فى دواوين السلطنة الثلاثة ، وهى : الديوان المفرد الذى

(*) ص٢٩١ ج٢ ، ط. بولاق .

يتحدث فيه الأستادار ، وديوان الوزارة ويعرف بالدولة ، وديوان الخاص المتعلق بنظر الخواص . وعظم أمره ، ونفذت كلمته لتصرفه فى سائر أمور المملكة .

فلما زالت دولة الملك الظاهر برقوق بحضور الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب ، فى يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، بعساكر الشام الى القاهرة واختفى الظاهر ، ثم أمسكه ... هرب هو وولده ، فنهبت دوره .

ثم انه ظهر من الاستتار فى يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة ، وقدم للأمير يلبغا الناصرى مالا كثيرا ، فقبض عليه ، وقيده ، وسجنه بقلعة الجبل . وأقيم بدله فى الأستادارية الأمير علاء الدين أقبغا الجوهرى .

فلما زالت دولة يلبغا الناصرى بقيام الأمير منطاش عليه ، قبض على أقبغا الجوهرى فيمن قبض عليه من الأمراء ، وأفرج عن الأمير محمود فى يوم الاثنين ثامن شهر رمضان ، وألبسه قباء مطرزا بذهب ، وأنزله الى داره . ثم قبض عليه ، وسجن بخزانة الخاص فى يوم الأحد سادس عشر ذى الحجة ، فى عدة من الأمراء والمماليك ، عند عزم منطاش على السفر لحرب برقوق عند خروجه من الكرك ، ومسيره الى دمشق . فكانت جملة ما حمله الأمير محمود من الذهب العين ، للأمير يلبغا الناصرى وللأمير منطاش ، ثمانية وخمسين قنطارا من الذهب المصرى ، منها ثمانية عشر قنطارا فى ليلة واحدة .

فلم يزل فى الاعتقال الى أن خرج المماليك مع الأمير بوطا ، فى ليلة الخميس ثانى صفر سنة اثنين وتسعين وسبعمائة ، فخرج معهم ، وأقام بمنزله ... الى أن عاد الملك الظاهر برقوق الى المملكة فى رابع عشر صفر ، فخلع عليه ، واستقر أستادار السلطان على عادته ، فى يوم الاثنين تاسع عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة ، عوضا عن الأمير قرقماش الطشترى بعد وفاته . ثم خلع على ولده الأمير ناصر الدين محمد بن محمود فى يوم الخميس ثانى عشرى صفر سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، واستقر نائب السلطنة بثغر الاسكندرية عوضا عن الأمير الطنبغا المعلم .

فقويت حرمة الأمير محمود ، ونفذت كلمته ... الى يوم الاثنين حادى عشر رجب من السنة المذكورة . فثار عليه المماليك السلطانية بسبب تأخر كسوتهم ، ورموه من أعلى القلعة بالحجارة * ، وأحاطوا به وضربوه يريدون قتله . لولا أن الله أغاثه بوصول الخبر الى الأمير الكبير أيتمش — وكان يسكن قريبا من القلعة — فركب بنفسه ، وساق حتى أدركه ، وفرق عنه المماليك ، وسار به الى منزله حتى سكنت الفتنة ، ثم شيعه الى داره .

فكانت هذه الواقعة مبدأ انحلال أمره . فان السلطان صرفه عن الأستادارية ، وولى الأمير الوزير ركن الدين عمر بن قايماز فى يوم الخميس رابع عشرة ، وخلع على الأمير محمود قباء بطرز ذهب ، واستقر على امرته .

(*) ص٣٩٥ ج٢ ، ط. بولاق .

ثم صرف ابن قايماز عن الأستادارية ، وأعيد محمود فى يوم الاثنين خامس عشر رمضان ، وأنعم على ابن قايماز بامرة طبلخاناة ، فجدد بثغر الاسكندرية دار ضرب عمل فيها فلوس ناقصة الوزن ، ومن حينئذ اختل حال الفلوس بديار مصر .

ثم لما خرج الملك الظاهر الى البلاد الشامية فى سنة ست وتسعين ، سار فى ركابه ، ثم حضر الى القاهرة فى يوم الأربعاء سابع صفر سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، قبل حضور السلطان ، وكان دخوله يوما مشهودا . فلما عاد السلطان الى قلعة الجبل ، حدث منه تغير على الأمير محمود فى يوم السبت ثالث عشرى ربيع الأول ، وهم بالايقاع به .

فلما صار الى داره ، بعث اليه الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى يطلب منه خمسمائة ألف دينار ، وان توقف يحيط به ويضربه بالمقارع ، فنزل اليه ، وقرر الحال على مائة وخمسين ألف دينار . فطلع على العادة الى القلعة فى يوم الاثنين خامس عشريه ، فسبه المماليك السلطانية ورجموه ، ثم ان السلطان غضب عليه ، وضربه فى يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر بسبب تأخر النفقة ، وأخذ أمره ينحل .

فولى السلطان الأمير صلاح الدين محمد ابن الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير تنكز أستادارية الأملاك السلطانية فى يوم الاثنين خامس رجب ، وولى علاء الدين على بن الطبلاوى فى رمضان التحدث فى دار الضرب بالقاهرة والاسكندرية ، والتحدث فى المتجر السلطانى . فوقع بينه وبين الأمير محمود كلام كثير ، ورافعه ابن الطبلاوى بحضرة السلطان ، وخرج عليه من دار الضرب ستة آلاف درهم فضة .

فألزم السلطان محمودا بحمل مائة وخمسين ألف دينار فحملها ، وخلع عليه عند تكميله حملها فى يوم الأحد تاسع عشرى رمضان ، وخلع أيضا على ولده الأمير ناصر الدين ، وعلى كاتبه سعد الدين ابراهيم بن غراب الاسكندرانى ، وعلى الأمير علاء الدين على ابن الطبلاوى . ثم ان محمودا وعك بدنه ، فنزل اليه السلطان فى يوم الاثنين ثالث عشرى ذى القعدة يعوده ، فقدم له عدة تقادم ، قبل بعضها ورد بعضها ، وتحدث الناس أنه استقلها .

فلما كان يوم السبت سادس صفر سنة ثمان وتسعين ، بعث السلطان الى الأمير محمود الطواشى شاهين الحسنى ، فأخذ زوجته وكاتبه سعد الدين ابراهيم بن غراب ، وأخذ مالا وقماشا على حمالين وصار بهما الى القلعة ... هذا ومحمود مريض لازم الفراش . ثم عاد من يومه وأخذ الأمير ناصر الدين محمد بن محمود ، وحمله الى القلعة .

ثم نزل ابن غراب ومعه الأمير الى باى الخازندار فى يوم الأحد سابعه ، وأخذا من ذخيرة بدار محمود خمسين ألف دينار . وفى يوم الخميس حادى عشره ، صرف محمود عن الأستادارية ، واستقر عوضه الأمير سيف الدين قطلوبك العلائى أستادار الأمير الكبير أيتمش ، وقرر سعد الدين بن غراب ناظر الديوان المفرد ، فاجتمع مع ابن الطبلاوى على عداوة محمود والسعى فى اهلاكه ، وسلم ابن

محمود الى ابن الطبلاوى فى تاسع عشر ربيع الأول ليستخلص منه مائة ألف دينار .

ونزل الطواشى صندل المنجكى والطواشى شاهين الحسنى فى ثالث عشريه ومعهما ابن الطبلاوى ، فأخذا من خربة خلف مدرسة محمود زيرين كبيرين وخمسة أزيار صغارا وجد فيها ألف ألف درهم فضة ، فحملت الى القلعة ، ووجد أيضا بهذه الخربة جرتان : فى احداهما ستة آلاف دينار ، وفى الأخرى أربعة آلاف درهم فضة وخمسمائة درهم . وقبض على مباشرى محمود ومباشرى ولده وعوقب محمود .

ثم أوقعت الحوطة على موجود محمود فى يوم الخميس سابع جمادى الأولى ، ورسم عليه ابن الطبلاوى فى داره ، وأخذ مماليكه وأتباعه ، ولم يدع عنده غير ثلاثة مماليك صغار ، وظهرت أموال محمود شيئا بعد شيء . ثم سلم الى الأمير فرج شاد الدواوين فى خامس جمادى الآخرة ، فنقله الى داره وعاقبه وعصره فى ليلته ثم نقل فى شعبان الى دار ابن الطبلاوى ، فضربه وسعطه وعصره ، فلم يعترف بشيء .

وحكى عنه أنه قال : لو عرفت أنى أعاقب ما اعترفت بشيء من المال وظهر منه فى هذه المحنة ثبات وجلد وصبر ، مع قوة نفس وعدم خضوع ، حتى انه كان يسب ابن الطبلاوى اذا دخل اليه ، ولا يرفع له قدرا . ثم ان السلطان استدعاه الى ما بين يديه يوم السبت أول صفر سنة تسع وتسعين ، وحضر سعد الدين بن غراب ، فشافهه بكل سوء ، ورافعه فى وجهه حتى استغضب السلطان على محمود ، وأمر بمعاقبته حتى يموت .

فانزل الى بيت الأمير حسام الدين حسين ، ابن أخت الفرس شاد الدواوين — وكان أستادار محمود — فلم يزل عنده فى العقوبة ، الى أن نقل من داره الى خزانة * شمائل فى ليلة الجمعة ثالث جمادى الأولى ، وهو مريض ، فمات بها فى ليلة الأحد تاسع رجب سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، ودفن من الغد بمدرسته ، وقد أناف على الستين سنة .

وكان كثير الصلاة والعبادة ، مواظبا على قيام الليل . الا أنه كان شحيحا مسيكا ، شرها فى الأموال ، رمى الناس منه فى رماية البضائع بدواه ، اذا نسبت الى ما حدث من بعده كانت عاقبة ونعمة ، وأكثر من ضرب الفلوس بديار مصر حتى فسد بكثرتها حال اقليم مصر .

وكان جملة ما حمل من ماله ، بعد نكبته هذه ، مائة قنطار ذهبا وأربعين قنطارا : عنها ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار عينا ، وألف ألف درهم فضة . وأخذ له من البضائع والغلال والقنود والأعسال ما قيمته ألف ألف درهم وأكثر .

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة بحارة حلب ، خارج القاهرة ، عند حمام قمارى . بناها الحكيم مهذب الدين محمد بن أبى الوحش — المعروف بابن أبى حليقة (تصغير حلقة) — رئيس الأطباء بديار

(*) ص٢٩٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

مصر . ولى رياسة الأطباء فى حادى عشر رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة ، واستقر مدرس الطب بالمارستان المنصورى .

المدرسة السعدية

هذه المدرسة خارج القاهرة بقرب حدرة البقر ، على الشارع المسلوك فيه من حوض ابن هنس الى الصليبة ، وهى فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل . كان موضعها يعرف بخط بستان سيف الاسلام ، وهى الآن فى ظهر بيت قوصون المقابل لباب السلسلة من قلعة الجبل . بناها الأمير شمس الدين سنقر السعدى ، نقيب المماليك السلطانية ، فى سنة خمس عشرة وسبعمائة ، وبنى بها أيضا رباطا للنساء .

وكان شديد الرغبة فى العمائر ، محبا للزراعة ، كثير المال ، ظاهر الغنى . وهو الذى عمر القرية ، التى تعرف اليوم بالنحريرية ، من أعمال الغربية — وكانت اقطاعه — ثم انه أخرج من مصر بسبب نزاع وقع بينه وبين الأمير قوصون فى أرض أخذها منه ، فسار الى طرابلس ، وبها مات فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

المدرسة الطقجية

هذه المدرسة بخط حدرة البقر أيضا . أنشأها الأمير سيف الدين طقجى الأشرفى ، ولها وقف جيد .

« طقجى » الأمير سيف الدين : كان من جملة مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، ترقى فى خدمته حتى صار من جملة أمراء ديار مصر . فلما قتل الملك الأشرف ، قام طقجى فى المماليك الأشرفية ، وحارب الأمير بيدرا ، المتولى لقتل الأشرف ، حتى أخذه وقتله .

فلما أقيم الملك الناصر محمد بن قلاوون فى المملكة ، بعد قتل بيدرا ، صار طقجى من أكابر الأمراء ، واستمر على ذلك بعد خلع الملك الناصر بكتبغا مدة أيامه . الى أن خلع الملك العادل كتبغا ، وقام فى سلطنة مصر الملك المنصور لاجين ، وولى مملوكه الأمير سيف الدين منكوتمر نيابة السلطنة بديار مصر ، فأخذ يواحش أمراء الدولة بسوء تصرفه .

واتفق أن طقجى حج فى سنة سبع وتسعين وستمائة ، فقرر منكوتمر مع المنصور أنه اذا قدم من الحج يخرجه الى طرابلس ، ويقبض على أخيه الأمير سيف الدين كرجى . فعندما قدم طقجى من الحجاز ، فى صفر سنة ثمان وتسعين وستمائة ، رسم له بنيابة طرابلس ، فثقل عليه ذلك ، وسعى باخوته الأشرفية حتى أعفاه السلطان من السفر .

فسخط منكوتمر ، وأبى الا سفر طقجى ، وبعث اليه يلزمه بالسفر — وكان لاجين منقادا لمنكوتمر لا يخالفه فى شىء — فتواعد طقجى وكرجى مع جماعة من المماليك ، وقتلوا لاجين . وتولى قتله كرجى وخرج ، فاذا طقجى فى انتظاره على باب القلة من قلعة الجبل ، فسر بذلك ، وأمر باحضار من بالقلعة من الأمراء — وكانوا حينئذ يبيتون بالقلعة دائما — وقتل منكوتمر فى تلك الليلة ، وعزم على أنه يتسلطن ، ويقيم كرجى فى نيابة السلطنة ، فخذله الأمراء .

وكان الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى مير سلاح قد خرج فى غزاة وقرب حضوره ، فاستمهلوه بما يريد الى أن يحضر ، فأخر سلطنته ، وبقى الأمراء فى كل يوم يحضرون معه فى باب القلة ، ويجلس فى مجلس النيابة والأمراء عن يمينه وشماله ، ويمد سماط السلطان بين يديه . فلما حضر أمير سلاح بمن معه من الأمراء ، نزل طقجى والأمراء الى لقائهم بعدما امتنع امتناعا كبيرا ، وترك كرجى يحفظ القلعة بمن معه من المماليك الأشرفية ، وقد نوى طقجى الشر للأمراء الذين قد خرج الى لقائهم ، وعرف ذلك الأمراء المقيمون عنده فى القلعة ، فاستعدوا له ، وسار هو والأمراء الى أن لقوا الأمير بكتاش * ، ومعه من الأشرفية أربعمائة فارس تحفظه حتى يعود من اللقاء الى القلعة .

فعندما وافاه بقبة النصر وتعانقا ، أعلمه بقتل السلطان ، فشق عليه . وللوقت جرد الأمراء سيوفهم ، وارتفعت الضجة ، فساق طقجى من الحلقة والأمراء رواءه الى أن أدركه قراقوش الظاهرى ، وضربه بسيف ألقاه عن فرسه الى الأرض ميتا ، ففر كرجى ، ثم أخذ وقتل ، وحمل طقجى فى مزبلة من مزابل الحمامات على حمار الى مدرسته هذه ، فدفن بها ، وقبره هناك الى اليوم .

وكان قتله فى يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة ، بعد خمسة أيام من قتل لاجين ومنكوتمر .

(*) ص٢٦٧ ج٤ ، ط. بولاق .

المدرسة الجاولية

هذه المدرسة بجوار الكبش ، فيما بين القاهرة ومصر . أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، وعمل بها درسا وصوفية ، ولها الى هذه الأيام عدة أوقاف .

« سنجر » بن عبد الله : الأمير علم الدين الجاولى . كان مملوك جاولى ، أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس ، وانتقل بعد موت الأمير جاولى الى بيت قلاوون ، وخرج فى أيام الأشرف خليل بن قلاوون الى الكرك ، واستقر فى جملة البحرية بها الى أيام العادل كتبغا ، فحضر من عند نائب الكرك ومعه حوائجخاناه فرفعه كتبغا ، وأقامه على الخوشخاناه السلطانية . وصحب الأمير سلار وواخاه ، فتقدم فى الخدمة ، وبقى أستادارا صغيرا فى أيام بيبرس وسلار ، فصار يدخل على السلطان الملك الناصر ويخرج ، ويراعى مصالحه فى أمر الطعام ، ويتقرب اليه .

فلما حضر من الكرك ، جهزه الى غزة نائبا فى جمادى الأولى سنة احدى عشرة وسبعمائة ، عوضا عن الأمير سيف الدين قطلو أقتمر عبد الخالق بعد امساكه ، وأضاف اليه مع غزة الساحل والقدس وبلد الخليل وجبل نابلس ، وأعطاه اقطاعا كبيرا ، بحيث كان للواحد من مماليكه اقطاع يعمل عشرين ألفا وخمسة وعشرين ألفا .

وعمل نيابة غزة على القالب الجائر ... الى أن وقعت بينه وبين الأمير تنكز ، نائب

الشام ، بسبب دار كانت له تجاه جامع تنكز خارج دمشق من شمالها ، أراد تنكز أن يبتاعها منه ، فأبى عليه . فكتب فيه الى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأمسكه فى ثامن عشرى شعبان سنة عشرين وسبعمائة ، واعتقله نحوا من ثمان سنين ، ثم أفرج عنه فى سنة تسع وعشرين ، وأعطاه امرة أربعين . ثم بعد مدة أعطاه امرة مائة ، وقدمه على ألف ، وجعله من أمراء المشورة .

فلم يزل على هذا الى أن مات الملك الناصر ، فتولى غسله ودفنه . فلما ولى الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون سلطنة مصر ، أخرجه الى نيابة حماة ، فأقام بها مدة ثلاثة أشهر . ثم نقله الى نيابة غزة ، فحضر اليها ، وأقام بها نحو ثلاثة أشهر أيضا . ثم أحضره الى القاهرة ، وقرره على ما كان عليه ، وولى نظر المارستان بعد نائب الكرك عندما أخرج الى نيابة طرابلس . ثم توجه لحصار الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون ، وهو ممتنع فى الكرك ، فأشرف عليه فى بعض الأيام الناصر أحمد من قلعة الكرك ، وسبه وشيخه .

فقال له الجاولى : نعم أنا شيخ نحس ، ولكن الساعة ترى حالك مع الشيخ النحس . ونقل المنجنيق الى مكان يعرفه ، ورمى به ، فلم يخط القلعة ، وهدم منها جانبا ، وطلع بالعسكر وأمسك أحمد ، وذبحه صبرا ، وبعث برأسه الى الصالح اسماعيل ، وعاد الى مصر . فلم يزل على حاله الى أن مات فى منزله بالكبش ، يوم الخميس تاسع رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ودفن بمدرسته . وكانت جنازته حافلة الى الغاية .

قد سمع الحديث وروى ، وصنف شرحا كبيرا على مسند الشافعى رحمه الله ، وأفتى فى آخر عمره على مذهب الشافعى ، وكتب خطه على فتاوى عديدة .

وكان خبيرا بالأمور ، عارفا بسياسة الملك ، كفوا لما وليه من النيابات وغيرها ... لا يزال يذكر أصحابه فى غيبتهم عنه ، ويكرمهم اذا حضروا عنده ، وانتفع به جماعة من الكتاب والعلماء والأكابر . وله من الآثار الجميلة الفاضلة جامع بمدينة غزة فى غاية الحسن ، وله بها أيضا حمام مليح ، ومدرسة للفقهاء الشافعية ، وخان للسبيل .

وهو الذى مدن غزة ، وبنى بها أيضا مارستانا ، ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافا جليلة ، وجعل نظره لنواب غزة ، وعمر بها أيضا الميدان والقصر ، وبنى ببلد الخليل عليه السلام جامعا سقفه منه حجر نقر ، وعمل الخان العظيم بقاقون ، والخان بقرية الكثيب ، والقناطر بغابة أرسوف ، وخان رسلان فى حمراء بيسان ، ودارا بالقرب من باب النصر داخل القاهرة ، ودارا بجوار مدرسته على الكبش . وسائر عمائره ظريفة أنيقة ، محكمة متقنة مليحة . وكان ينتمى الى الأمير سلار ويجل ذكره .

المدرسة الفارقانية *

هذه المدرسة خارج باب زويلة من القاهرة ، فيما بين حدرة البقر وصليبة جامع ابن طولون ، وهى الآن بجوار حمام الفارقانى تجاه البندقدارية . بناها والحمام المجاور لها الأمير ركن الدين بيبرس الفارقانى . وهو غير الفارقانى المنسوب اليه المدرسة الفارقانية بحارة الوزيرية من القاهرة .

(*) ص ٢٦٨ جـ٢ ، ط بولاق .

المدرسة البشيرية

هذه المدرسة خارج القاهرة ، بحكر الخازن المطل على بركة الفيل ، كان موضعها مسجدا يعرف بمسجد سنقر السعدى الذى بنى المدرسة السعدية . فهدمه الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرى ، وبنى موضعه هذه المدرسة فى سنة احدى وستين وسبعمائة ، وجعل بها خزانة كتب ، وهى من المدارس اللطيفة .

المدرسة المهمندارية

هذه المدرسة خارج باب زويلة ، فيما بين جامع الصالح وقلعة الجبل ، يعرف خطها اليوم بخط جامع الماردانى خارج الدرب الأحمر . وهى تجاه مصلى الأموات ، على يمنة من سلك من الدرب الأحمر طالبا جامع الماردانى ، ولها باب آخر فى حارة اليانسية .

بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى ، المهمندار ونقيب الجيوش ، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وجعلها مدرسة وخانقاه ، وجعل طلبة درسها من الفقهاء الحنفية ، وبنى الى جانبها القيسارية والربع الموجودين الآن .

مدرسة الجاى

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل . كان موضعها وما حولها مقبرة ، ويعرف الآن خطها بخط سويقة العزى . أنشأها الأمير الكبير سيف الدين الجاى فى سنة ثمان وستين وسبعمائة ، وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ودرسا للفقهاء الحنفية وخزانة كتب ، وأقام بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة . وهى من المدارس المعتبرة الجليلة ، ودرس بها شيخنا جلال الدين التبانى الحنفى ، وكانت سكنه .

« الجاى » بن عبد الله اليوسفى : الأمير سيف الدين . تنقل فى الخدم حتى صار من جملة الأمراء بديار مصر . فلما أقام الأمير الأستدمر الناصرى بأمر الدولة ، بعد قتل الأمير يلبغا الخاصكى العمرى ، فى شوال سنة ثمان وستين وسبعمائة ، قبض على الجاى فى عدة من الأمراء ، وقيدهم وبعث بهم الى الاسكندرية ، فسجنوا الى عاشر صفر سنة تسع وستين .

فأفرج الملك الأشرف شعبان بن حسين عنه ، وأعطاه امرة مائة وتقدمة ألف ، وجعله أمير سلاح برانى . ثم جعله أمير سلاح أتابك العساكر وناظر المارستان المنصورى ، عوضا عن الأمير منكلى بغا الشمسى ، فى سنة أربع وسبعين وسبعمائة . وتزوج بخوند بركة أم السلطان الملك الأشرف ، فعظم قدره ، واشتهر ذكره ، وتحكم فى الدولة تحكما زائدا الى يوم الثلاثاء سادس المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة . فركب يريد محاربة السلطان

بسبب طلبه ميراث أم السلطان بعد موتها ، فركب السلطان وأمراؤه .

وبات الفريقان ليلة الأربعاء على الاستعداد للقتال الى بكرة نهار الأربعاء ، فواقع الجاى مع أمراء السلطان احدى عشرة وقعة ، انكسر فى آخرها الجاى ، وفر الى جهة بركة الحبش ، وصعد من الجبل من عند الجبل الأحمر الى قبة النصر ، ووقف هناك . فاشتد على السلطان ، فبعث اليه خلعة بنيابة حماه ، فقال : لا أتوجه الا ومعى مماليكى كلهم ، وجميع أموالى ، فلم يوافقه السلطان على ذلك ، وبات الفريقان على الحرب ، فانسل أكثر مماليك الجاى فى الليل الى السلطان .

وعندما طلع النهار يوم الخميس ، بعث السلطان عساكره لمحاربة الجاى بقبة النصر ، فلم يقاتلهم ، وولى منهزما — والطلب وراءه — الى ناحية الخرقانية بشاطىء النيل قريبا من قليوب . فتحير وقد أدركه العسكر ، فألقى نفسه بفرسه فى البحر يريد النجاة الى البر الغربى ، فغرق بفرسه ، ثم خلص الفرس وهلك الجاى ، فوقع النداء بالقاهرة وظواهرها على احضار مماليكه ، فأمسك منهم جماعة .

وبعث السلطان الغطاسين الى البحر تتطلبه ، فتبعوه حتى أخرجوه الى البر فى يوم الجمعة تاسع المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة . فحمل فى تابوت على لباد أحمر الى مدرسته هذه ، وغسل وكفن ودفن بها . وكان مهابا جبارا عسوفا عتيا ، تحدث فى الأوقاف ، فشدد على الفقهاء ، وأهان جماعة منهم . وكان معروفا بالاقدام والشجاعة .

مدرسة ام السلطان

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل ، يعرف خطها الآن بالتبانة ، وموضعها كان قديما مقبرة لأهل * القاهرة . أنشأتها الست الجليلة الكبرى بركة ، أم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فى سنة احدى وسبعين وسبعمائة ، وعملت بها درسا للشافعية ودرسا للحنفية ، وعلى بابها حوض ماء للسبيل . وهى من المدارس الجليلة ، وفيها دفن ابنها الملك الأشرف بعد قتله .

« بركة » : الست الجليلة خوند ، أم الملك الأشرف شعبان بن حسين ، كانت أمة مولدة . فلما أقيم ابنها فى مملكة مصر ، عظم شأنها ، وحجت فى سنة سبعين وسبعمائة بتجمل كثير وبرج زائد ، وعلى محفتها العصائب السلطانية والكئوسات تدق معها . وسار فى خدمتها من الأمراء المقدمين : بشتاك العمرى رأس نوبة ، وبهادر الجمالى ، ومائة مملوك من المماليك السلطانية أرباب الوظائف . ومن جملة ما كان معها قطار جمال محملة محائر ، قد زرع فيها البقل والخضراوات الى غير ذلك مما يجل وصفه .

فلما عادت فى سنة احدى وسبعين وسبعمائة ، خرج السلطان بعساكره الى لقائها ، وسار الى البويب فى سادس عشر المحرم ، وتزوجت بالأمير الكبير الجاى اليوسفى ، وبها طال واستطال . ماتت فى ثامن عشر ذى القعدة سنة أربع وسبعين وسبعمائة .

(*) ص٣٦٩ ج٢ ، ط. بولاق .

وكانت خيرة عفيفة ، لها بر كثير ومعروف معروف ، تحدث الناس بحجتها عدة سنين لما كان لها من الأفعال الجميلة فى تلك المشاهد الكريمة ، وكان لها اعتقاد فى أهل الخير ، ومحبة فى الصالحين ، وقبرها موجود بقبة هذه المدرسة . وأسف السلطان على فقدها ، ووجد وجدا كبيرا لكثرة حبه لها .

واتفق أنها لما ماتت أنشد الأديب شهاب الدين أحمد بن يحيى الأعرج السعدى :

فى ثامن العشرين من ذى قعدة
كانت صبيحة موت أم الأشرف
فالله يرحمها ويعظم أجره
ويكون فى عاشور موت اليوسفى

فكان كما قال . وغرق الجاى اليوسفى ، كما تقدم ذكره ، فى يوم عاشوراء

المدرسة الأيتمشية

هذه المدرسة خارج القاهرة ، داخل باب الوزير ، تحت قلعة الجبل برأس التبانة . أنشأها الأمير الكبير سيف الدين أيتمش البجاسى ، ثم الظاهرى ، فى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ، وجعل بها درس فقه للحنفية ، وبنى بجانبها فندقا كبيرا يعلوه ربع ، ومن ورائها خارج باب الوزير حوض ماء للسبيل وربعا ، وهى مدرسة ظريفة .

« أيتمش » بن عبد الله : الأمير الكبير سيف الدين البجاسى ، ثم الظاهرى ، كان أحد المماليك اليلبغاوية .

المدرسة المجدية الخليلية

هذه المدرسة بمصر يعرف موضعها بدرب البلاد . عمرها الشيخ الامام مجد الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الشيخ الامام أمين الدين أبى على الحسين بن الحسن بن ابراهيم الخليلى الدارى ، فتمت فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة ، وقرر فيها مدرسا شافعيا ومعيدين وعشرين نفرا طلبة ، واماما راتبا ومؤذنا ، وقيما لكنسها وفرشها ووقود مصابيحها وادارة ساقيتها ، وأجرى الماء الى فسقيتها .

ووقف عليها غيطا بناحية بارنبار من أعمال المزاحمتين ، وبستانا بمحلة الأمير من المزاحمتين بالغربية ، وغيطا بناحية نطوبس ، وربع غيط بظاهر ثغر رشيد ، وبستانا ونصف بستان بناحية بلقس ، ورباعا بمدينة مصر .

ومجد الدين هذا هو والد الصاحب الوزير فخر الدين عمر بن الخليلى . ودرس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين الى حين وفاته . وتوفى مجد الدين بدمشق فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمانين وستمائة ، وكان مشهورا بالصلاح .

المدرسة الناصرية بالقرافة

هذه المدرسة بجوار قبة الامام محمد بن ادريس الشافعى ، رضى الله عنه ، من قرافة مصر . أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ورتب بها مدرسا يدرس الفقه على مذهب الشافعى ، وجعل له

فى كلّ شهر من المعلوم عن التدريس أربعين دينارا معاملة صرف : كل دينـار ثلاثة عشر درهما وثلث درهم ، وعن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير ، ورتب له من الخبـز فى كل يوم ستين رطلا بالمصرى وراويتين من ماء النيل ، وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة .

ووقف عليـها حماما بجـوارها ، وفرنا تجاهها ، وحوانيت بظاهرها ، والجزيرة التى يقال لها جـزيرة الفيـل ببحر النيـل خارج القاهرة .

وولى تدريسها جماعة من الأكابر والأعيان ثم خلت من مدرس ثلاثين سنة ، واكتفى فيها بالمعيدين وهم عشرة أنفس . فلما كانت سنة ثمان وسبعين وستمائة * ، ولى تدريسها قاضى القضاة تقى الدين محمد بن رزين الحموى بعد عزله من وظيفـة القضاء ، وقرر له نصـف المعلوم . فلما مات وليها الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد بربع المعلوم . فلما ولى الصاحب برهان الدين الخضر السـنجارى التدريس ، قرر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف .

المدرسة المسلمية

هـذه المدرسـة بمدينـة مصر فى خط السـوريين . أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلم — بضم الميم وفتح السـين المهملة وتشديد اللام — البالسى الأصل ، ابن بنت كبير التجار شمس الدين محمد بن بسير — بفتح الباء أول الحروف وكسر السـين المهملة ، ثم ياء آخر الحروف بعدها راء — ومات فى سنة ست وسبعين وسبعمائة قبل أن تتم .

فوصى بتكملتها ، وأفرد لها مالا ، ووقف عليها دورا وأرضا بناحية قليوب ، وشرط أن يكون فيها مدرس مالـكى ومدرس شـافعى ومؤدب أطفـال وغير ذلك . فكملها مولاه ووصيه الكبير كافور الخصى الرومى بعـد وفاة أستاذه . وهى الآن عامرة .

وبلغ ابن مسلم هذا من وفور المال وعظم السعادة ، ما لم يبلغـه أحد ممن أدركناه ، بحيث انه جاء نصيب أحد أولاده نحو مائتى ألف دينار مصرية ، وكان كثير الصدقات على الفقراء ، مقترا على نفسـه الى الغاية ، وله أيضا مطهرة عظيمة بالقرب من جامع عمرو بن العاص ونفعها كبير ، وله أيضا دار جليلة على ساحل النيل بمصر . وكان أبوه تاجرا سفارا بعدما كان حمالا ، فصاهر ابن بسير ، ورزق محمدا هذا من ابنته .

فنشأ على صيانة ، ورزق الحظ الوافر فى التجارة وفى العبيـد . فكان يبعث أحدهم بمال عظيم الى الهند ، ويبعث آخر بمثل ذلك الى بلاد التـكرور ، ويبعث آخـر الى بلاد الحبشة ، ويبعث عدة آخرين الى عدة جهات من الأرض ، فمـا منهم من يعـود الا وقد تضاعفت فوائد ماله أضعافا مضاعفة .

مدرسة اينال

هذه المدرسة خارج باب زويلة ، بالقرب من باب حارة الهلالية ، بخط القمـاحين . كان

(*) ص٤٠٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

موضعها فى القديم من حقوق حارة المنصورة ، أوصى بعمارتها الأمير الكبير سـيف الدين اينال اليوسفى ، أحد المماليـك اليلبغاوية ، فابتدأ بعملها فى سنة أربع وتسعين ، وفرغت فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة .

ولم يعمل فيها سوى قراء يتناوبون قراءة القرآن على قبره فانه لما مات فى يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، دفن خارج باب النصر حتى انتهت عمارة هذه المدرسة ، فنقل اليها ودفن فيها .

و « اينال » هذا ولى نيابة حلب ، وصار فى آخر عمره أتابك العساكر بديار مصر حتى مات وكانت جنازته كثيرة الجمع مشى فيها السلطان الملك الظاهر برقوق والعساكر .

مدرسة الأمير جمال الدين الاستادار

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة . كان موضعها قيسارية يعلوها طاق كلها وقف فأخذها وهدمها ، وابتدأ بشق الأساس فى يوم السبت خامس جمادى الأولى سنة عشر وثمانمائة ، وجمع لها الآلات من الأحجار والأخشاب والرخام وغير ذلك .

وكان بمدرسة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمـد بن قلاوون ، التى كانت بالصوة تجاه الطبلخاناه من قلعة الجبل ، بقية من داخلها فيها شبابيك من نحـاس مكفت بالذهب والفضة ، وأبواب مصفحة بالنحاس البديع الصنعة المـكفت ، ومن المصـاحف والكتب فى الحديث والفقه وغيره من أنواع العلوم جملة .

فاشترى ذلك من الملك الصالح المنصور حاجى بن الأشرف بمبـلغ سـتمائة دينـار — وكانت قيمتها عشرات أمثـال ذلك — ونقلها الى داره . وكان ممـا فيـها عشرة مصاحف ، طول كل مصحف منها أربعة أشبار الى خمسة ، فى عرض يقرب من ذلك ، أحدها بخط ياقوت ، وآخر بخط ابن البـواب ، وباقيها بخطوط منسوبة ، ولها جلود فى غاية الحسن ، معمولة فى أكياس الحرير الأطلس . ومن الكتب النفيسة عشرة أحمال ، جميعهـا مكتوب فى أوله الاشهاد على الملك الأشرف بوقف ذلك ، ومقره فى مدرسته .

فلما كان يوم الخميس ثالث شهر رجب سنة احدى عشرة وثمانمائة ، وقد انتهت عمارتها ، جمع بها الأمير جمال الدين القضاة والأعيان ، وأجلس الشيخ همام الدين محمد بن أحمد الخوارزمى الشافعى على سـجادة المشيخة ، وعمله شيخ التصوف ومدرس الشافعية ، ومد سماطا جليلا أكل عليه كل من حضر ، وملأ البركة التى بوسط المدرسة ماء قد أذيب فيه سـكر مزج بمـاء الليمـون ، وكان يوما مشهودا .

وقـرر فى تدريس الحنفيـة بدر الدين * محمـود بن محمـد المعروف بالشيخ زاده الخرزيانى ، وفى تدريس المالكية شمس الدين محمد بن البساطى ، وفى تدريس الحنابلة فتح الدين أبا الفتح محمد بن نجم الدين محمد بن الباهلى ، وفى تدريس الحديث النبوى شهاب الدين أحمد بن على بن حجر ، وفى تدريس التفسير شيخ الاسلام قاضى القضـاة جلال

(*) ص ٤٠١ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

الدين عبد الرحمن بن البلقيني . فكان يجلس من ذكرنا واحدا بعد واحد في كل يوم ... الى أن كان آخرهم شيخ التفسير ، وكان مسك الختام ، وما منهم الا من يحضر معه ، ويلبسه ما يليق به من الملابس الفاخرة .

وقرر عنه كل من المدرسين الستة طائفة من الطلبة ، وأجرى لكل واحد ثلاثة أرطال من الخبز في كلّ يوم ، وثلاثين درهما فلوسا في كل شهر ، وجعل لكل مدرس ثلثمائة درهم في كل شهر ، ورتب بها اماما وقومة ومؤذنين وفراشين ومباشرين ، وأكثر من وقف الدور عليها ، وجعل فائض وقفها مصروفا لذريته . فجاءت في أحسن هندام ، وأتم قالب ، وأفخر زي ، وأبدع نظام . الا أنها وما فيها من الآلات ، وما وقف عليها ، أخذ من الناس غصبا ، وعمل فيها الصناع بأبخس أجرة مع العسف الشديد .

فلما قبض عليه السلطان ، وقتله في جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، واستولى على أمواله ... حسن جماعة للسلطان أن يهدم هذه المدرسة ، ورغبوه في رخامها فانه غاية في الحسن ، وأن يسترجع أوقافها فان متحصلها كثير ، فمال الى ذلك ، وعزم عليه .

فكرّه ذلك للسلطان الرئيس فتح الدين فتح الله كاتب السر ، واستشنع أن يهدم بيت بني على اسم الله يعلن فيه بالأذان خمس مرات في اليوم والليلة ، وتقام به الصلوات الخمس في جماعة عديدة ، ويحضره في عصر كل يوم مائة وبضعة عشر رجلا يقرأون القرآن في وقت التصوف ، ويذكرون الله ويدعونه ، وتتحلق به الفقهاء لدرس تفسير القرآن الكريم وتفسير حديث رسولٓ الله صلى الله عليه وسلم وفقه الأئمة الأربعة ، ويعلّم فيه أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل ، ويجرى على هؤلاء المذكورين الأرزاق في كل يوم ومن المال في كل شهر .

ورأى أن ازالة مثلٓ هذا وصمة في الدين ، فتجرد له ، وما زال بالسلطان يرغبه في ابقائها — على أن يزال منها اسم جمال الدين وتنسب اليه ، فانه من الفتن هدم مثلها ونحو ذلك — حتى رجع الى قوله ، وفوض أمرها اليه . فدبر ذلك أحسن تدبير .

وهو أن موضع هذه المدرسة كان وقفا على بعض الترب ، فاستبدل به جمال الدين أرضا من جملة أراضي الخراج بالجيزة ، وحكم له قاضي القضاة كمال الدين عمر بن العديم بصحة الاستبدال ، وهدم البناء ، وبنى موضعه هذه المدرسة ، وتسلم متولي موضعها الأرض المستبدل بها . الى أن قتل جمال الدين ، وأحيط بأمواله ، فدخل فيما أحيط به هذه الأرض المستبدل بها .

وادعى السلطان أن جمال الدين افتات عليه في أخذ هذه الأرض ، وأنه لم يأذن في بيعها من بيت المال . فأفتى حينئذ محمد شمس الدين المدني المالكي بأن بناء هذه المدرسة — الذي وقفه جمال الدين على الأرض التي لم يملكها بوجه صحيح — لا يصح ، وأنه باق على ملكه الى حين موته .

فندب عند ذلك شهود القيمة الى تقويم بناء المدرسة ، فقوموها باثني عشر ألف دينار ذهبا ، وأثبتوا محضر القيمة على بعض القضاة . فحمل المبلغ الى أولاده بجمال الدين

حتى تسلموه ، وباعوا بناء المدرسة للسلطان ، ثم استرد السلطان منهم المبلغ المذكور ، وأشهد عليه أنه وقف أرض هذه المدرسة بعدما استبدل بها ، وحكم حاكم حنفي بصحة الاستبدال .

ثم وقف البناء الذي اشتراه ، وحكم بصحته أيضا ، ثم استدعى بكتاب وقف جمال الدين ولخصه ثم مزقه ، وجدد كتاب وقف يتضمن جميع ما قرره جمال الدين في كتاب وقفه من أرباب الوظائف ، ومالهم من الخبز في كل يوم ، ومن المعلوم في كل شهر ، وأبطل ما كان لأولاد جمال الدين من فائض الوقف .

وأفرد لهذه المدرسة مما كان جمال الدين جعله وقفا عليها عدة مواضع تقوم بكفاية مصروفها ، وزاد في أوقافها أرضا بالجيزة ، وجعل ما بقي من أوقاف جمال الدين على هذه المدرسة : بعضه وقفا على أولاده ، وبعضه وقفا على التربة التي أنشأها في قبة أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر . وحكم القضاة الأربعة بصحة هذا الكتاب ، بعدما حكموا بصحة كتاب وقف جمال الدين ، ثم حكموا ببطلانه .

ثم لما تم ذلك محي من هذه المدرسة اسم جمال الدين ورنكه ، وكتب اسم السلطان الملك الناصر فرج بدائر صحنها من أعلاه ، وعلى قناديلها وبسطها وسقوفها . ثم نظر السلطان في كتبها العلمية الموقوفة بها ، فأقر منها جملة كتب بظاهر كل سفر منها فصل يتضمن وقف السلطان له ، وحمل كثير من كتبها الى قلعة الجبلٓ ، وصارت هذه المدرسة تعرف بالناصرية بعدما كان يقال لها الجمالية .

ولم تزل على ذلك حتى قتل الناصر ، وقدم الأمير شيخ الى القاهرة ، واستولى على أمور الدولة . فتوصل شمس الدين محمد ، أخو جمال الدين ، وزوّج ابنته لشرف الدين أبي بكر بن العجمي ، موقع الأستادار الأمير شيخ ، حتى أحضر قضاة القضاة ، وحكم الصدر على ابن الآدمي قاضي القضاة الحنفي برد * أوقاف جمال الدين الى ورثته ، من غير استيفاء الشروط في الحكم ، بل تهور فيه وجازف .

ولذلك أسباب : منها عناية الأمير شيخ بجمال الدين الأستادار . فانه لما انتقل اليه اقطاع الأمير بحاس بعد موت الملك الظاهر برقوق ، استقر جمال الدين أستاداره كما كان أستادار بحاس ، فخدمه خدمة بالغة ، وخرج الأمير شيخ الى بلاد الشام ، واستقر في نيابة طرابلس ، ثم في نيابة الشام ، وخدمة جمال الدين له ولحاشيته ومن يلوذ به مستمرة .

وأرسل مرة الأمير شيخ من دمشق بصدر الدين بن الآدمي المذكور في الرسالة الى الملك الناصر ، وجمال الدين حينئذ عزيز مصر ، فأنزله وأكرمه وأنعم عليه ، وولاه قضاء الحنفية وكتابة السر بدمشق ، وأعاده اليه . وما زال معتنيا بأمور الأمير شيخ ، حتى انه اتهم بأنه قد مالأه على السلطان ، فقبض عليه السلطان الملك الناصر بسبب ذلك ونكبه .

فلما قتل الناصر ، واستولى الأمير شيخ على الأمور بديار مصر ، ولي قضاء الحنفية

(*) ص٤٠٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

بديار مصر لصدر الدين علي بن الآدمي المذكور ، وولي أستاداره بدر الدين حسن بن محب الدين الطرابلسي أستادار السلطان . فخدم شرف الدين أبو بكر بن العجمي — زوج ابنة أخي جمال الدين — عنده موقعا وتمكن منه ، فأغراه بفتح الدين فتح الله كاتب السر ، حتى أثخن جراحة عند الملك المؤيد شيخ ، ونكبه بعدما تسلطن . استعان أيضا بقاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي ، فانه كان عشيره وصديقه من أيام جمال الدين ، ثم استمال ناصر الدين محمد بن البارزي ، موقع الأمير الكبير شيخ .

فقام الثلاثة مع شمس الدين ، أخي جمال الدين ، حتى أعيد الى مشيخة خانكاه بيبرس وغيرها من الوظائف التي أخذت منه عندما قبض عليه الملك الناصر وعاقبه . وتحدثوا مع الأمير الكبير في رد أوقاف جمال الدين الى أخيه وأولاده ، فان الناصر غصبها منهم ، وأخذ أموالهم وديارهم بظلمه الى أن فقدوا القوت ، ونحو هذا من القول — حتى حركوا منه حقدا كامنا على الناصر ، وعلموا منه عصبه لجمال الدين . هذا وغرض القوم في الباطن تأخير فتح الدين والايقاع به ، فانه ثقل عليهم وجوده معهم .

فأمر عند ذلك الأمير الكبير بعقد مجلس حضره قضاة القضاة والأمراء وأهل الدولة ، عنده بالحراقة من باب السلسلة ، في يوم السبت تاسع عشري شهر رجب سنة خمس عشرة . وتقدم أخو جمال الدين ليدعي على فتح الدين فتح الله كاتب السر ، وكان قد علم بذلك ، ووكل بدر الدين حسنا البرديني — أحد نواب الشافعية — في سماع الدعوى ورد الأجوبة .

فعندما جلس البرديني للمحاكمة مع أخي جمال الدين ، نهره الأمير الكبير وأقامه ، وأمر بأن يكون فتح الله هو الذي يدعى عليه ، فلم يجد بدا من جلوسه . فما هو الا أن ادعى عليه أخو جمال الدين بأنه وضع يده على مدرسة أخيه جمال الدين وأوقافه بغير طريق ، فبادر قاضي القضاة صدر الدين علي بن الآدمي الحنفي ، وحكم برفع يده وعود أوقاف جمال الدين ومدرسته الى ما نص عليه جمال الدين ، ونفذ بقية القضاة حكمه ، وانفضوا على ذلك .

فاستولى أخو جمال الدين وصهره شرف الدين على حاصل كبير ، كان قد اجتمع بالمدرسة من فاضل ريعها ومن مال بعثه الملك الناصر اليها ، ففرقوه . حتى كتبوا كتابا اخترعوه من عند أنفسهم ، جعلوه كتاب وقف المدرسة ، زادوا فيه أن جمال الدين اشترط النظر على المدرسة لأخيه شمس الدين المذكور وذريته ... الى غير ذلك مما لفقوه بشهادة قوم استمالوهم فمالوا . ثم أثبتوا هذا الكتاب على قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي ، ونفذه بقية القضاة .

فاستمر الأمر على هذا البهتان المختلق والافك المفترى مدة ، ثم ثار بعض صوفية هذه المدرسة ، وأثبت محضرا بأن النظر لكاتب السر فلما ثبت ذلك ، نزعت يد أخي جمال الدين عن التصرف في المدرسة ، وتولى نظرها ناصر الدين محمد بن البارزي كاتب السر ، واستمر الأمر على هذا .

فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب ما سمع به في تناقض القضاة ، وحكمهم بابطال ما صححوه ، ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه ... كل ذلك ميلا مع الجاه ، وحرصا على بقاء رياستهم . ستكتب شهادتهم ويسألون .

المدرسة الصرغتمشية

هذه المدرسة خارج القاهرة ، بجوار جامع الأمير أبي العباس أحمد بن طولون ، فيما بينه وبين قلعة الجبل . كان موضعها قديما من جملة قطائع ابن طولون ، ثم صار عدة مساكن فأخذها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري رأس نوبة النوب وهدمها ، وابتدأ في بناء المدرسة يوم الخميس من شهر رمضان سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وانتهت في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين .

وقد جاءت من أبدع المباني وأجلها ، وأحسنها قالبا ، وأبهجها منظرا . فركب الأمير صرغتمش في يوم الثلاثاء تاسعه ، وحضر اليه الأمير سيف الدين شيخو العمري مدبر * الدولة ، والأمير طاشتمر القاسمي حاجب الحجاب ، والأمير توقتاي الدوادار ، وعامة أمراء الدولة ، وقضاة القضاة الأربعة ، ومشايخ العلم .

ورتب مدرس الفقه بها قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر العميد بن العميد أمير غازي الأتقاني ، فألقى القوام الدرس ، ثم مد سماط جليل بالهمة الملوكية ، وملئت البركة التي بها سكرا قد أذيب بالماء ، فأكل الناس وشربوا ، وأبيح ما بقي من ذلك للعامة فانتهبوه . وجعل الأمير صرغتمش هذه المدرسة وقفا على الفقهاء الحنفية الآفاقية ، ورتب بها درسا للحديث النبوي ، وأجرى لهم جميعا المعاليم من وقف رتبه لهم . وقال أدباء العصر فيها شعرا كثيرا ، فقال العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفي :

ليهنك ياصرغتمش ما بنيته
لأخراك في دنياك من حسن بنيان
به يزدهي الترخيم كالزهر بهجة
فلله من زهر ولله من باني

وخلع في هذا اليوم على القوام خلعة سنية ، وأركبه بغلة رائعة ، وأجازه بعشرة آلاف درهم على أبيات مدحه بها في غاية السماجة وهي :

أرأيتم من حاز الرتبا
وأتى قربا ونفى ريبا
فبدا علما وسما كرما
ونما قدما ولقد غلبا
بتقى وهدى وندى وجدى
فعدا وسدى وجبى وحبا
أبدى سننا أحيا سننا
حلى زمنا عند الأدبا
هذا صرغتمش قد سكبت
أيام امارته السحبا
وأزال الجدب الى خصب
والضنك الى رغد قلبا
باعانة جبار ربي
ذي العرش وقد بذل النشبا
ملك فطن ركن لسن
حسن بسن ربي الأدبا

(*) ص٤٠٢ ج٢ ، ط. بولاق .

ملك الكبرا ملك الأمرا
ملك العلما ملك الأدبا
بحر طام غيث هام
قدر سام حامى الغربا
بشاشته وسماحته
وحماسه جلى الكربا
وديانته وصيانته
وأمانته حاز الربا
أبهى أصلا أسنى نسلا
أعلى فصلا مأوى العربا
نعم المأوى مصر لما
شملت قوما نبلا نجبا
قنعت نورا وسمت نورا
وعلت دورا وأرت طربا
لحقت دررا وسقت دررا
ودعت غررا [illegible] أدبا
وخطابته انقحرت وعلت
وسمت [illegible] أدبا
جدد دوما لم اجن جنى
منها ومنى [illegible] طلبا
من تأزمنى فنبى علا
فأراب له نعت [illegible]
تكون أبا لحنيفة [illegible]
م قوام الدين بدا لقبا
عش فى رحب لترى عجبا
من متجب عجب عجبا

« صرغتمش » الناصرى : الأمير سيف الدين رأس نوبة . جلبه الخواجا الصواف فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، فاشتراه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بمائتى ألف درهم فضة عنها يومئذ نحو أربعة آلاف مثقال ذهبا ، خلع على لخواجا تشريفا كاملا بحياصة ذهب ، كتب له توقيعا بمسامحة مائة ألف درهم من متجره ، فلم يعبأ به السلطان وصار فى أيامه من جملة الجمدارية .

وحكى عن القاضى شرف الدين عبد الوهاب ناظر الخاص ، أن السلطان أنعم على صرغتمش هذا بعشر طاقات أدم طائفى ، فلما جاء الى المشو ، تردد اليه مرارا حتى دفعها اليه ولم يزل خامل الذكر ، الى أن كانت أيام المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون ، فبعثه مسفرا مع الأمير فخر الدين اياز السلاح دار ، لما استقر فى نيابة حلب ، فلما عاد من حلب ترقى فى الخدمة ، وتمكن عند المظفر ، وتوجه فى خدمة الصالح بن محمد بن قلاوون الى دمشق فى نوبة بلبغا روس ، وصار السلطان يرجع الى رأيه .

فلما عاد من دمشق ، أمسك * الوزير علم الدين عبد الله زنبور بغير أمر السلطان وأخذ أمواله ، وعارض فى أمره الأمير شيخو والأمير طاز . من حينئذ عظم ، ولم يزل حتى خلع السلطان الملك الصالح ، وأعيد الناصر حسن بن محمد بن قلاوون . فلما أخرج الأمير شيخو ، انفرد صرغتمش بتدبير أمور المملكة ، وفخم قدره ، ونفذت كلمته ، فعزل قضاة مصر والشام ، وغير النواب بالمماليك .

والسلطان يحقد عليه ، الى أن أمسكه فى العشرين من شهر رمضان سنة تسع وخمسين ،

(*) ص٤٠٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

وقبض معه على الأمير طشتمر القاسمى حاجب الحجاب ، والأمير ملكتمر المحمدى وجماعة ، وحملهم الى الاسكندرية ، فسجنوا بها ، وبها مات صرغتمش بعد شهرين واثنى عشر يوما من سجنه فى ذى الحجة سنة تسع وخمسين وسبعمائة .

وكان مليح الصورة ، جميل الهيئة . يقرأ القرآن الكريم ، ويشارك فى الفقه على مذهب الحنفية ، ويبالغ فى التعصب لمذهبه ، ويقرب العجم ويكرمهم ، ويجلهم اجلالا زائدا ، ويشدو طرفا من النحو . وكانت أخلاقه شرسة ، ونفسه قوية ، فاذا بحث فى الفقه أو اللغة اشتط .

ولما تحدث فى الأوقاف وفى البريد ، خاف الناس منه ، فلم يكن أحد يركب خيل البريد الا بمرسومه . ومنع كل من يركب البريد أن يحمل معه قماشا ودراهم على خيل البريد ، واشتد فى أمر الأوقاف ، فعمرت فى مباشرته . ولما قبض عليه أخذ السلطان أمواله ، وكانت شيئا كثيرا يكل عنه الوصف .

ذكر المارستانات

قال الجوهرى فى الصحاح : والمارستان بيت المرضى ، معرب عن ابن السكيت .

وذكر الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه فى كتاب « أخبار مصر » : أن الملك مناقيوش ابن أشمون ، أحد ملوك القبط الأول بأرض مصر ، أول من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى ، وأودعها العقاقير ، ورتب فيها الأطباء ، وأجرى عليهم ما يسعهم . ومناقيوش هذا هو الذى بنى مدينة أخميم ، وبنى مدينة منترره .

وقال زاهد العلماء أبو سعيد منصور بن عيسى : أول من اخترع المارستان وأوجده بقراط بن أبوقليدس ، وذلك أنه عمل بالقرب من داره — فى موضع من بستان كان له — موضعا مفردا للمرضى ، وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم ، وسماه « أصدولين » أى مجمع المرضى .

وأول من بنى المارستان فى الاسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك ، وهو أيضا أول من عمل دار الضيافة ، وذلك فى سنة ثمان وثمانين . وجعل فى المارستان الأطباء ، وأجرى لهم الأرزاق ، وأمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا ، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق .

وقال جامع السيرة الطولونية — وقد ذكر بناء جامع ابن طولون — وعمل فى مؤخره ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية ، وعليها خدم ، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة .

مارستان ابن طولون

هذا المارستان موضعه الآن فى أرض العسكر — وهى الكيمان والصحراء التى فيما بين جامع ابن طولون وكوم الجارح ، وفيما بين قنطرة السد التى على الخليج ظاهر مدينة مصر ، وبين السور الذى يفصل بين القرافة وبين مصر — وقد دثر هذا المارستان فى جملة ما دثر ، ولم يبق له أثر .

وقال أبو عمر الكندى فى « كتاب الأمراء » : وأمر أحمد بن طولون أيضا ببناء المارستان للمرضى ، فبنى لهم فى سنة تسع وخمسين ومائتين .

وقال جامع السيرة الطولونية : وفى سنة احدى وستين ومائتين ، بنى أحمد بن طولون المارستان ، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان . ولما فرغ منه حبس عليه دار الديوان ، ودوره فى الأساكفة ، والقيسارية ، وسوق الرقيق . وشرط فى المارستان ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك ، وعمل حمامين للمارستان : احداهما للرجال ، والأخرى للنساء ، حبسهما على المارستان وغيره .

وشرط أنه اذا جيء بالعليل تنزع ثيابه ونفقته ، وتحفظ عند أمين المارستان ، ثم يلبس ثيابا ويفرش له ، ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ ، فاذا أكل فروجا ورغيفا ، أمر بالانصراف ، وأعطى ماله وثيابه .

وفى سنة اثنتين وستين ومائتين ، كان ما حبسه على المارستان والعين والمسجد فى الجبل — الذى يسمى بتنور فرعون — وكان الذى أنفق على المارستان ومستغله : ستين ألف دينار . وكان يركب بنفسه فى كل يوم جمعة ، ويتفقد خزائن المارستان وما فيها والأطباء ، وينظر الى المرضى وسائر الأعلاء والمحبوسين من المجانين .

فدخل مرة حتى وقف بالمجانين . فناداه واحد منهم مغلول : أيها الأمير ، اسمع كلامى ، ما أنا بمجنون ، وانما عملت على حيلة ، وفى نفسى شهوة رمانة عريشية أكبر ما يكون ، فأمر له بها من ساعته ، ففرح بها وهزها فى يده ووازنها ، ثم غافل * أحمد بن طولون ، ورمى بها فى صدره ، فنضحت على ثيابه ، ولو تمكنت منه لأتت على صدره . فأمرهم أن يحتفظوا به ، ثم لم يعاود بعد ذلك النظر فى المارستان .

مارستان كافور

هذا المارستان بناه كافور الاخشيدى ، وهو قائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور ابن محمد الاخشيدى ، بمدينة مصر فى سنة ست وأربعين وثلثمائة .

مارستان المغافر

هذا المارستان كان فى خطة المغافر التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر وبين مصلى خولان التى بالقرافة . بناه الفتح بن خاقان فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وقد باد أثره .

المارستان الكبير المنصورى

هذا المارستان بخط بين القصرين من القاهرة . كان قاعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد ، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس ، بعد زوال الدولة الفاطمية ، وبدار موسك ، ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وصار يقال لها الدار القطبية .

(*) ص ٤٠٥ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

ولم تزل بيد ذريته الى أن أخذها الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى ، من مؤنسة خاتون ، ابنة الملك العادل — المعروفة بالقطبية — وعوضت عن ذلك قصر الزمرذ برحبة باب العيد ، فى ثامن عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، بسفارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى مدبر الممالك ، ورسم بعمارتها مارستانا وقبة ومدرسة .

فتولى الشجاعى أمر العمارة ، وأظهر من الاهتمام والاحتفال ما لم يسمح بمثله ، حتى تم الغرض فى أسرع مدة وهى أحد عشر شهرا وأيام . وكان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع ، وخلفت ست الملك بها ثمانية آلاف جارية ، وذخائر جليلة منها قطعة ياقوت أحمر زنتها عشرة مثاقيل ، وكان الشروع فى بنائها مارستانا أول ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

وكان سبب بنائه أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير الى غزاة الروم ، فى أيام الظاهر بيبرس سنة خمس وسبعين وستمائة ، أصابه بدمشق قولنج عظيم ، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ ، وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به ، ونذر ان آتاه الله الملك أن يبنى مارستانا .

فلما تسلطن ، أخذ فى عمل ذلك ، فوقع الاختيار على الدار القطبية ، وعوض أهلها عنها قصر الزمرذ . وولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أمر عمارته ، فأبقى القاعة على حالها ، وعملها مارستانا ، وهى ذات ايوانات أربعة ، بكل ايوان شاذروان ، وبدور قاعتها فسقية يصير اليها من الشاذروانات الماء .

واتفق أن بعض الفعلة كان يحفر فى أساس المدرسة المنصورية ، فوجد حق أشنان من نحاس ، ووجد رفيقه قمقما نحاسا مختوما برصاص ، فأحضرا ذلك الى الشجاعى ، فاذا فى الحق فصوص ماس وياقوت وبلخش ولؤلؤ ناصع يدهش الأبصار ، ووجد فى القمقم ذهبا — كان جملة ذلك نظير ما غرم على العمارة — فحمله الى أسعد الدين كوهيا الناصرى العدل ، فرفعه الى السلطان .

ولما نجزت العمارة ، وقف عليها الملك المنصور من الأملاك — بديار مصر وغيرها — ما يقارب ألف ألف درهم فى كل سنة . ورتب مصارف المارستان ، والقبة ، والمدرسة ، ومكتب الأيتام . ثم استدعى قدحا من شراب المارستان ، وشربه وقال : قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى ، وجعلته وقفا على الملك والمملوك والجندى والأمير والكبير والصغير والحر والعبد الذكور والاناث . ورتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج اليه من به مرض من الأمراض .

وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى ، وقرر لهم المعاليم ، ونصب الأسرة للمرضى ، وفرشها بجميع الفرش المحتاج اليها فى المرض ، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعا : فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها ،

وأفرد قاعة للرمدى ، وقاعة للجرحى ، وقاعة لمن به اسهال ، وقاعة للنساء ، ومكانا للمبرودين ينقسم بقسمين : قسم للرجال ، وقسم للنساء .

وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن ، وأفرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات ونحوها ، ومواضع يخزن فيها الحواصل ، وجعل مكانا يفرق فيه الأشربة والأدوية ، ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء درس طب ، ولم يحص * عدة المرضى ، بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غنى وفقير ، ولا حد مدة لاقامة المريض به ، بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج اليه .

ووكل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى ، أمير جندار ، فى وقف ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم . وجعل النظر لنفسه أيام حياته ، ثم من بعده لأولاده ، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعى . فضمن وقفه كتابا تاريخه يوم الثلاثاء ثالث عشرى صفر سنة ثمانين وستمائة .

ولما قرىء عليه كتاب الوقف ، قال للشجاعى : ما رأيت خط الأسعد كاتبى مع خطوط القضاة ، أبصر ايش فيه زغل حتى ما كتب عليه . فما زال يقرب لذهنه أن هذا مما لا يكتب عليه الا قضاة الاسلام حتى فهم ذلك .

(*) ص٤٠٦ جـ٢ ، ط. بولاق *

فبلغ مصروف الشراب منه فى كل يوم خمسمائة رطل سوى السكر . ورتب فيه عدة ما بين أمين ومباشر ، وجعل مباشرين للادارة — وهم الذين يضبطون ما يشترى من الأصناف ، وما يحضر منها الى المارستان — ومباشرين لاستخراج مال الوقف ، ومباشرين فى المطبخ ، ومباشرين فى عمارة الأوقاف التى تتعلق به .

وقرر فى القبة خمسين مقرئا يتناوبون قراءة القرآن ليلا ونهارا ، ورتب بها اماما راتبا ، وجعل بها رئيسا للمؤذنين عندما يؤذنون فوق منارة ليس فى اقليم مصر أجل منها ، ورتب بهذه القبة درسا لتفسير القرآن فيه مدرس ومعيدان وثلاثون طالبا ، ودرس حديث نبوى ، وجعل بها خزانة كتب وستة خدام طواشية لا يزالون بها . ورتب بالمدرسة اماما راتبا ، ومتصدرا لاقراء القرآن ، ودروسا أربعة للفقه على المذاهب الأربعة .

ورتب بمكتب السبيل معلمين يقرئان الأيتام ، ورتب للأيتام رطلين من الخبز فى كل يوم لكل يتيم مع كسوة الشتاء والصيف .

فلما ولى الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك نظر المارستان ، أنشأ به قاعة للمرضى ، ونحت الحجارة المبنى بها الجدر كلها حتى صارت كأنها جديدة ، وجدد تذهيب الطراز بظاهر المدرسة والقبة ، وعمل خيمة تظل الأقفاص طولها مائة ذراع .. قام بذلك من ماله دون مال الوقف . ونقل أيضا حوض ماء كان برسم شرب البهائم من جانب باب المارستان ، وأبطله لتأذى الناس بنتن رائحة

ما يجتمع قدامه من الأوساخ ، وأنشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوض الحوض المذكور .

وقد تورع طائفة من أهل الديانة عن الصلاة فى المدرسة المنصورية والقبة ، وعابوا المارستان لكثرة عسف الناس فى عمله . وذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية مارستانا ، ندب الطواشى حسام الدين بلالا المغيثى للكلام فى شرائها . فساس الأمر فى ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون ببيعها ، على أن تعوض عنها بدار تلمها وعيالها ، فعوضت قصر الزمرذ برحبة باب العيد مع مبلغ مال حمل اليها ، ووقع البيع على هذا .

فندب السلطان الأمير سنجر الشجاعى للعمارة . فأخرج النساء من القطبية من غير مهلة ، وأخذ ثلثمائة أسير ، وجمع صناع القاهرة ومصر ، وتقدم اليهم بأن يعملوا بأجمعهم فى الدار القطبية ، ومنعهم أن يعملوا لأحد فى المدينتين شغلا ، وشدد عليهم فى ذلك — وكان مهابا — فلازموا العمل عنده ، ونقل من قلعة الروضة ما احتاج اليه من العمد الصوان والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك .

وصار يركب اليها كل يوم ، وينقل الأنقاض المذكورة على العجل الى المارستان ، ويعود الى المارستان ، فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لا يتوانوا فى عملهم . وأوقف مماليكه بين القصرين ، فكان اذا مر أحد — ولو جل — ألزموه أن يرفع حجرا ويلقيه فى موضع العمارة ، فينزل الجندى والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك .

فترك أكثر الناس المرور من هناك ، ورتبوا — بعد الفراغ من العمارة وترتيب الوقف — فتيا صورتها « ما يقول أئمة الدين فى موضع أخرج أهله منه كرها ، وعمر بمستحثين يعسفون الصناع ، وأخرب ما عمره الغير ، ونقل اليه ما كان فيه فعمر به ... هل تجوز الصلاة فيه أم لا ؟ » . فكتب جماعة من الفقهاء « لا تجوز فيه الصلاة » .

فما زال المجد عيسى بن الخشاب حتى أوقف الشجاعى على ذلك . فشق عليه ، وجمع القضاة ومشايخ العلم بالمدرسة المنصورية ، وأعلمهم بالفتيا . فلم يجبه أحد منهم بشىء ... سوى الشيخ محمد المرجانى ، فانه قال : أنا أفتيت بمنع الصلاة فيها ، وأقول الآن انه يكره الدخول من بابها . ونهض قائما ، فانفض الناس .

واتفق أيضا أن الشجاعى ما زال بالشيخ محمد المرجانى يلح فى سؤاله أن يعمل ميعاد وعظ بالمدرسة المنصورية ، حتى أجاب بعد تمنع شديد . فحضر الشجاعى والقضاة ، وأخذ المرجانى فى ذكر ولاة الأمور من الملوك والأمراء والقضاة ، وذم من يأخذ الأراضى غصبا ويستحث العمال فى عمائره ، وينقص من أجورهم ، وختم بقوله تعالى : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » . وقام .

فسأله الشجاعى الدعاء له ، فقال : ياعلم الدين * قد دعا لك ودعا عليك من هو خير منى ، وذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم

(*) ص٤٠٧ جـ٢ ، ط. بولاق *

« اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه » . وانصرف .

فصار الشجاعى من ذلك فى قلق ، وطلب الشيخ تقى الدين محمد بن دقيق العيد — وكان له فيه اعتقاد حسن — وفاوضه فى حديث الناس فى منع الصلاة فى المدرسة ، وذكر له أن السلطان انما أراد محاكاة نور الدين الشهيد والاقتداء به ، لرغبته فى عمل الخير ، فوقع الناس فى القدح فيه ، ولم يقدحوا فى نور الدين .

فقال له : ان نور الدين أسر بعض ملوك الفرنج وقصد قتله ، ففدى نفسه بتسليم خمسة قلاع ، وخمسمائة ألف دينار حتى أطلقه ، فمات فى طريقه قبل وصوله مملكته ، وعمر نور الدين بذلك المال مارستانه بدمشق من غير مستحث . فمن أين ياعلم الدين تجد مالا مثل هذا المال ، وسلطانا مثل نور الدين ؟ غير أن السلطان له نيته ، وأرجو له الخير بعمارة هذا الموضع . وأنت ان كان وقوفك فى عمله بنية نفع الناس فلك الأجر ، وان كان لأجل أن يعلم أستاذك علو همتك فما حصلت على شىء .

فقال الشجاعى : الله المطلع على النيات .

وقرر ابن دقيق العيد فى تدريس القبة .

قال مؤلفه : ان كان التحرج من الصلاة لأجل أخذ الدار القطبية من أهلها بغير رضاهم ، واخراجهم منها بعسف ، واستعمال أنقاض القلعة بالروضة . فلعمرى ما تملك بنى أيوب الدار القطبية ، وبناؤهم قلعة الروضة ، واخراجهم أهل القصور من قصورهم التى كانت بالقاهرة ، واخراج سكان الروضة من مساكنهم ... الا كأخذ قلاوون الدار المذكورة وبنائها بما هدمه من القلعة المذكورة ، واخراج مؤنسة وعيالها من الدار القطبية . وأنت ان أمعنت النظر ، وعرفت ما يجرى ، تبين لك أن ما القوم الا سارق من سارق ، وغاصب من غاصب .

وان كان التحرج من الصلاة لأجل عسف العمال ، وتسخير الرجال ... فشىء آخر . بالله عرفنى — فانى غير عارف — من منهم لم يسلك فى أعماله هذا السبيل ؟ غير أن بعضهم أظلم من بعض .

وقد مدح غير واحد من الشعراء هذه العمارة ، منهم شرف الدين البوصيرى فقال :

ومدرسة ود الخورنق أنه
لديها حظير والسدير غدير
مدينة علم والمدارس حولها
قرى أو نجوم بدرهن منير
تبدت فأخفى الظاهرية نورها
وليس بظهر للنجوم ظهور
بناء كأن النحل هندس شكله
ولانت له كالشمع فيه صخور
بناها سعيد فى بقاع سعيدة
بها سعدت قبل المدارس نور
ومن حيثما وجهت وجهك نحوها
تلقتك منها نضرة وسرور
اذا قام يدعو الله فيها مؤذن
فما هو الا للنجوم سمير

المارستان المؤيدى

هذا المارستان فوق الصوة ، تجاه طبلخاناه قلعة الجبل — حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان بن حسين التى هدمها الناصر فرج بن برقوق — وبابه هو حيث كان باب المدرسة ، الا أنه ضيق عما كان . أنشأه المؤيد شيخ فى مدة أولها جمادى الآخرة سنة احدى وعشرين وثمانمائة ، وآخرها رجب سنة ثلاث وعشرين ، ونزل فيه المرضى فى نصف شعبان ، وعملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدى المجاور لباب زويلة .

فلما مات الملك المؤيد ، فى ثامن المحرم سنة أربع وعشرين ، تعطل قليلا . ثم سكنه طائفة من العجم المستجدين فى ربيع الأول منها ، وصار منزلا للرسل الواردين من البلاد الى السلطان . ثم عمل فيه منبر ، ورتب له خطيب وامام ومؤذنون وبواب وقومة ، وأقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة . فاستمر جامعا تصرف معاليم أرباب وظائفه المذكورين من وقف الجامع المؤيدى .

ذكر المساجد

قال ابن سيده : المسجد الموضع الذى سجد فيه . وقال الزجاج : كل موضع يتعبد يه فهو مسجد ، ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » ، وقوله عز وجل : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » . المعنى على هذا المذهب أنه من أظلم ممن خالف قبلة الاسلام .

وقد كان حكمه ألا يجىء على مفعِل ، لأن حق اسم المكان والمصدر من فعل يفعل أن يجىء على مفعَل ، ولكنه أحد الحروف التى شذت فجاءت * على مفعِل .

قال سيبويه : وأما المسجد فانهم جعلوه اسما للبيت ، ولم يأت على فعل يفعل . كما قال فى المدق : انه اسم للجلود ... يعنى أنه ليس على الفعل ، ولو كان على الفعل لقيل مدق لأنه آلة ، والآلات تجىء على مفعل كمخزن ومكنس ومكسح .

والمسجدة الجمرة المسجود عليها ، وقوله تعالى « وأن المساجد لله » قيل هى مواضع السجود من الانسان : الجبهة ، واليدان ، والركبتان ، والرجلان .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب « النقط على الخطط » عن القاضى أبى عبد الله القضاعى : انه كان فى مصر الفسطاط من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد .

وقال المسيحى فى حوادث سنة ثلاث وأربعمائة : وأحصى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله المساجد التى لا غلة لها ، فكانت ثمانمائة مسجد . فأطلق لها فى كل شهر من بيت المال تسعة آلاف ومائتين عشرين درهما . وفى سنة خمس وأربعمائة حبس الحاكم بأمر الله سبع ضياع ، منها أطفيح وطوخ ، على القراء

(*) ص٤٠٨ جـ٢ ، ط . بولاق .

والمؤذنين بالجوامع ، وعلى ملء المصانع والمارستان ، وفى ثمن الأكفان .

وذكر ابن المتوج أن عدة المساجد بمصر فى زمنه أربعمائة وثمانون مسجدا ... ذكرها .

المسجد بجوار دير البعل

قد تقدم [١] فى أخبار الكنائس والديارات من هذا الكتاب خبر دير البعل ، وأنه يعرف بدير القطير .

ولما كان فى سنة خمس وسبعين وستمائة ، خرج جماعة من المسلمين الى دير البعل ، فرأوا آثار محاريب بجوار الدير ، فعرفوا الصاحب بهاء الدين بن حنا ذلك ، فسير المهندسين لكشف ما ذكر ، فعادوا اليه وأخبروه أنه آثار مسجد . فشاور الملك الظاهر بيبرس ، وعمره مسجدا بجانب الدير . وهو عامر الى الآن وبت به ، وهو من أحسن مشترفات مصر ، وله وقف جيد ومرتب يقوم به نصارى الدير .

مسجد ابن الجباس

هذا المسجد خارج باب زويلة ، بالقرب من مصلى الأموات ، دون باب اليانسية . عرف بالشيخ أبى عبد الله محمد بن على بن أحمد ابن محمد بن جوشن ، المعروف بابن الجباس — بجيم وباء موحدة بعدها ألف وسين مهملة — القرشى العقيلى ، الفقيه الشافعى المقرىء . كان فاضلا صالحا ، زاهدا عابدا مقرئا . كتب بخطه كثيرا ، وسمع الحديث النبوى . ومولده يوم السبت سابع عشر ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين وستمائة بالقاهرة ، ووفاته ... ...

مسجد ابن البناء

هذا المسجد داخل باب زويلة ، وتسميه العوام سام بن نوح النبى عليه السلام ، وهو من مختلقاتهم التى لا أصل لها ، وانما يعرف بمسجد ابن البناء .

وسام بن نوح لعله لم يدخل أرض مصر البتة . فان الله سبحانه وتعالى لما نجى نبيه نوحا من الطوفان ، خرج معه من السفينة أولاده الثلاثة ، وهم : سام ، وحام ، ويافث . ومن هذه الثلاثة ذرأ الله سائر بنى آدم ، كما قال تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » .

فقسم نوح الأرض بين أولاده الثلاثة :

فصار لسام بن نوح العراق وفارس الى الهند ، ثم الى حضرموت وعمان والبحرين وعالج ويبرين والدو ووبار والدهنا ، وسائر أرض اليمن والحجاز . ومن نسله الفرس والسريانيون والعبرانيون والعرب والنبط والعماليق .

وصار لحام بن نوح الجنوب مما يلى أرض مصر مغربا الى المغرب الأقصى . ومن نسله الحبشة والزنج ، والقبط سكان مصر وأهل النوبة ، والأفارقة وأهل أفريقية ، وأجناس البربر .

(١) قوله « قد تقدم ... الخ » فيه انه لم يتقدم ذلك ، وانما أخبار الكنائس والديارات سيأتى ذكرها فى آخر الكتاب . اهـ . مصححه .

وصار ليافث بن نوح بحر الخزر مشرقا الى الصين . ومن نسله الصقالبة والفرنج والروم والغوط وأهل الصين واليونانيون والترك .

وقد بلغنى أن هذا المسجد كان كنيسة لليهود القرايين ، تعرف بسام بن نوح ، وأن الحاكم بأمر الله أخذ هذه الكنيسة لما هدم الكنائس ، وجعلها مسجدا . وتزعم اليهود القرايون الآن بمصر أن سام بن نوح مدفون هنا ، وهم الى الآن يحلفون من أسلم منهم بهذا المسجد ... أخبرنى به قاضى اليهود ابراهيم بن فرج الله بن عبد الكافى الداودى العانانى . وليس هذا بأول شىء اختلقته العامة .

و «ابن البناء» هذا : هو محمد بن عمر بن أحمد بن جامع بن البناء أبو عبد الله الشافعى المقرىء . سمع من القاضى مجلى وأبى عبد الله الكيزانى وغيره ، وحدث وأقرأ القرآن ، وانتفع به جماعة وهو منقطع بهذا المسجد .

وكان يعرف خطه بخط بين البابين ، ثم عرف بخط الأقفاليين ، ثم هو الآن يعرف بخط الضبيين وباب * القوس .

ومات ابن البناء هذا فى العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وخمسمائة .

واتفق لى عند هذا المسجد أمر عجيب . وهو أنى مررت من هناك يوما أعوام بضع وثمانين وسبعمائة — والقاهرة يومئذ لا يمر الانسان بشارعها حتى يلقى عناء من شدة ازدحام الناس ، لكثرة مرورهم ركبانا ومشاة — فعندما حاذيت أول هذا المسجد اذا برجل يمشى أمامى ، وهو يقول لرفيقه : والله ياأخى ما مررت بهذا المكان قط الا وانقطع نعلى . فوالله ما فرغ من كلامه حتى وطىء شخص ، من كثرة الزحام ، على مؤخر نعله — وقد مد رجله ليخطو — فانقطع تجاه باب المسجد . فكان هذا من عجائب الأمور وغرائب الاتفاق .

(*) ص٤٠٩ جـ٢ ، ط.بولاق .

مسجد الحلبيين

هذا المسجد فيما بين باب الزهومة ودرب شمس الدولة ، على يسرة من سلك من حمام خشيبة طالبا البندقانيين . بنى على المكان الذى قتل فيه الخليفة الظافر نصر بن عباس الوزير ، ودفنه تحت الأرض .

فلما قدم طلائع بن رزيك من الأشمونين الى القاهرة ، باستدعاء أهل القصر له ليأخذ بثأر الخليفة ، وغلب على الوزارة ... استخرج الظافر من هذا الموضع ، ونقله الى تربة القصر ، وبنى موضعه هذا المسجد ، وسماه المشهد ، وعمل له بابين : أحدهما هذا الباب الموجود ، والباب الثانى كان يتوصل منه الى دار المأمون البطائحى — التى هى اليوم مدرسة تعرف بالسيوفية — وقد سد هذا الباب .

وما برح هذا المسجد يعرف بالمشهد . الى أن انقطع فيه محمد ابن أبى الفضل بن سلطان ابن عمار بن تمام ، أبو عبد الله الحلبى الجبرى ، المعروف بالخطيب . وكان صالحا كثير العبادة ، زاهدا منقطعا عن الناس ورعا ،

وسمع الحديث وحدث . وكان مولده فى شهر رجب سنة أربع وعشرين وستمائة بقلعة جعبر ، ووفاته بهذا المسجد — وقد طالت اقامته فيه — يوم الاثنين سادس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، ودفن بمقابر باب النصر رحمه الله .

وهذا المسجد من أحسن مساجد القاهرة وأبهجها .

مسجد الكافورى

هذا المسجد كان فى البستان الكافورى من القاهرة . بناه الوزير المأمون أبو عبد الله محمد فاتك البطائحى فى سنة ست عشرة وخمسمائة وتولى عمارته وكيله أبو البركات محمد بن عثمان ، وكتب اسمه عليه . وهو باق الى اليوم بخط الكافورى ، ويعرف هناك بمسجد الخلفاء ، وفيه نخل وشجر ، وهو مرخم برخام حسن .

مسجد رشيد

هذا المسجد خارج باب زويلة ، بخط تحت الربع ، على يسرة من سلك من دار التفاح يريد قنطرة الخرق . بناه رشيد الدين البهائى .

المسجد المعروف بزرع النوى

هذا المسجد خارج باب زويلة ، بخط سوق الطيور ، على يسرة من سلك من رأس المنجبية طالبا جامع قوصون والصلبية . وتزعم العامة أنه بنى على قبر رجل يعرف بزرع النوى ، وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا أيضا من افتراء العامة الكذب . فان الذين أفردوا أسماء الصحابة رضى الله عنهم — كالامام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى فى تاريخه الكبير ، وابن أبى خيثمة ، والحافظ أبى عبد الله بن منده ، والحافظ أبى نعيم الأصفهانى ، والحافظ أبى عمر بن عبد البر ، والفقيه الحافظ أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم — لم يذكر أحد منهم صحابيا يعرف بزرع النوى .

وقد ذكر فى أخبار القرافة من هذا الكتاب من قبر بمصر من الصحابة ، وذكر فى أخبار مدينة فسطاط مصر أيضا من دخل مصر من الصحابة ، وليس هذا منهم . وهذا ان كان هناك قبر ، فهو لأمين الأمناء أبى عبد الله الحسين بن طاهر الوزان .

وكان من أمره أن الخليفة الحاكم بأمر الله أبا على منصور بن العزيز بالله ، خلع عليه للوساطة بينه وبين الناس ، والتوقيع عن الحضرة ، فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعمائة . وكان قبل ذلك يتولى بيت المال ، فاستخدم فيه أخاه أبا الفتح مسعودا . وكان قد ظفر بمال يكون عشرات .... (1) وصياغات وأمتعة وطرائف وفرش وغير ذلك ، فى عدة آدر بمصر ، وجميعه مما خلفه قائد القواد الحسين بن جوهر القائد * . فباع المتاع ، وأضاف ثمنه الى العين ، فحصل منه

(1) قوله « يكون عشرات .. » هكذا فى النسخ . وانظر ما معناه ، ولعل المراد ما بين نقود وصياغات .. الخ ، كما يؤخذ مما بعد . وليحرر . اهـ . مصححه .

مال كثير ، وطالع الحاكم بأمر الله به أجمع لورثة * قائد القواد ، ولم يتعرض منه لشىء .

وكثرت صلات الحاكم وعطاؤه وتوقيعاته ، فانطلق فى ذلك . فاتصل به عن أمين الأمناء بعض التوقف ، فخرجت اليه رقعة بخطه فى الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وأربعمائة نسختها : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله كما هو أهله :

أصبحت لا أرجو ولا أتقى
الا الهى وله الفضل
جدى نبيى وامامى أبى
ودينى الاخلاص والعدل

ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، المال مال الله عز وجل ، والخلق عيال الله ، ونحن أمناؤه فى الأرض ، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها ، والسلام » .

ولم يزل على ذلك الى أن بطل أمره فى جمادى الآخرة من سنة خمس وأربعمائة ... وذلك أنه ركب مع الحاكم على عادته . فلما حصل بحارة كتامة خارج القاهرة ، ضرب رقبته هناك ، ودفن فى هذا الموضع تخمينا . واستحضر الحاكم جماعة الكتاب بعد قتله ، وسأل رؤساء الدواوين عما يتولاه كل واحد منهم ، وأمرهم بلزوم دواوينهم وتوفرهم على الخدمة .

وكانت مدة نظر ابن الوزان فى الوساطة والتوقيع عن الحضرة — وهى رتبة الوزارة — سنتين وشهرين وعشرين يوما . وكان توقيعه عن الحضرة الامامية « الحمد لله وعليه توكلى » .

(*) ص ٤١١ ج ٢ ، ط . بولاق .

مسجد الذخيرة

هذا المسجد تحت قلعة الجبل ، بأول الرميلة ، تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن ابن محمد بن قلاوون التى تلى بابها الكبير الذى سده الملك الظاهر برقوق . أنشأه ذخيرة الملك جعفر متولى الشرطة .

قال ابن المأمون فى تاريخه : وفى هذه السنة (يعنى سنة ست عشرة وخمسمائة) استخدم ذخيرة الملك جعفر فى ولاية القاهرة والحسبة بسجل أنشأه ابن الصيرفى ، وجرى من عسفه وظلمه ما هو مشهور ، وبنى المسجد الذى ما بين الباب الجديد الى الجبل الذى هو به معروف .

وسمى « مسجد لا بالله » بحكم أنه كان يقبض الناس من الطريق ويعسفهم ، فيحلفونه ويقولون له : «لا بالله» ، فيقيدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة ، ولم يعمل فيه منذ أنشاه الا صانع مكره أو فاعل مقيد . وكتبت عليه هذه الأبيات المشهورة :

بنى مسجدا لله من غير حله
وكان بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كد فرجها
لك الويل لا تزنى ولا تتصدقى

وكان قد أبدع فى عذاب الجناة وأهل الفساد ، وخرج عن حكم الكتاب . فابتلى بالأمراض الخارجة عن المعتاد ، ومات بعدما عجل الله له ما قدمه ، وتجنب الناس تشييعه والصلاة عليه ، وذكر عنه فى حالتى غسله وحلوله بقبره ما يعيذ الله كل مسلم من مثله .

وقال ابن عبد الظاهر : مسجد الذخيرة تحت قلعة الجبل . وذكر ما تقدم عن ابن المأمون .

مسجد رسلان

هذا المسجد بحارة اليانسية . عرف بالشيخ الصالح رسلان لاقامته به ، وقد حكيت عنه كرامات ، ومات به فى سنة احدى وتسعين وخمسمائة ، وكان يتقوت من أجرة خياطته للثياب . وابنه عبد الرحمن بن محمد بن رسلان أبو القاسم كان فقيها محدثا مقرئا . مات فى سنة سبع وعشرين وستمائة .

مسجد ابن الشيخى

هذا المسجد بخط الكافورى ، مما يلى باب القنطرة وجهة الخليج ، مجاور لدار ابن الشيخى . أنشأه المهتار ناصر الدين محمد بن علاء الدين على الشيخى ، مهتار السلطان بالاصطبلات السلطانية ، وقرر فيه شيخنا تقى الدين محمد بن حاتم . فكان يعمل فيه ميعادا يجتمع الناس فيه لسماع وعظه .

وكان ابن الشيخى هذا حشما فخورا خيرا ، يحب أهل العلم والصلاح ويكرمهم ، ولم نر بعده فى رتبته مثله ، ومات ليلة الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

مسجد يانس

هذا المسجد كان تجاه باب سعادة خارج القاهرة .

قال ابن المأمون فى تاريخه : وكان الأجل المأمون (يعنى الوزير * محمد بن فاتك البطائحى) قد ضم اليه عدة من مماليك الأفضل بن أمير الجيوش من جملتهم يانس ، وجعله مقدما على صبيان مجلسه ، وسلم اليه بيت ماله ، وميزه فى رسومه .

فلما رأى المذكور فى ليلة النصف من شهر رجب (يعنى سنة ست عشرة وخمسمائة) ما عمل فى المسجد المستجد قبالة باب الخوخة من الهمة ووفور الصدقات وملازمة الصلوات وما حصل فيه من المثوبات ، كتب رقعة يسأل فيها أن يفسح له فى بناء مسجد بظاهر باب سعادة .

فلم يجبه المأمون الى ذلك ، وقال له : ما ثم مانع من عمارة المساجد ، وأرض الله واسعة . وانما هذا الساحل فيه معونة للمسلمين ومورودة للسقائين ، وهو مرسى مراكب الغلة ، والمضرة فى مضايقة المسلمين فيه منه ، ولو لم يكن المسجد المستجد قبالة باب الخوخة محرسا لما استجد ، حتى انا لم نخرج بساحته الأولى ، فان أردت أن تبنى قبلى مسجد الريفى ، أو على شاطىء الخليج ، فالطريق ثم سهلة . فقبل الأرض وامتثل الأمر .

فلما قبض على المأمون ، وأمّر الخليفة يانس المذكور ، ولم يزل ينقله الى أن استخدمه فى حجبة بابه ... سأله فى مثل ذلك ، فلم يجبه . الى أن أخذ الوزارة ، فبناه فى المكان المذكور ، وكانت مدته يسيرة ، فتوفى

(*) ص11 جـ2 ، ط. بولاق .

قبل اتمامه واكماله ، فكمله أولاده بعد وفاته . انتهى .

وقد تقدم خبر وزارة أبى الفتح ناظر الجيوش يانس الأرمنى هذا عند ذكر الحارة اليانسية من هذا الكتاب .

مسجد باب الخوخة

هذا المسجد تجاه باب الخوخة بجوار مدرسة أبى غالب .

قال ابن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة : ولما سكن المأمون الأجل دار الذهب وما معها (يعنى فى أيام النيل للنزهة عند سكن الخليفة الآمر بأحكام الله بقصر اللؤلؤة المطل على الخليج) رأى قبالة باب الخوخة محرسا . فاستدعى وكيله ، وأمره بأن يزيل المحرس المذكور ، ويبنى موضعه مسجدا . وكان الصناع يعملون فيه ليلا ونهارا ، حتى انه تفطر بعد ذلك واحتيج الى تجديده .

المسجد المعروف بمعبد موسى

هذا المسجد بخط الركن المخلق من القاهرة ، تجاه باب الجامع الأقمر المجاور لحوض السبيل ، وعلى يمنة من سلك من بين القصرين طالبا رحبة باب العيد . أول من اختطه القائد جوهر عندما وضع القاهرة .

قال ابن عبد الظاهر : ولما بنى القائد جوهر القصر ، دخل فيه دير العظام — وهو المكان المعروف الآن بالركن المخلق ، قبالة حوض الجامع الأقمر وقريب دير العظام ، والمصريون يقولون بئر العظمة — فكره أن يكون فى القصر دير . فنقل العظام التى كانت به وارمى الى دير بناه فى الخندق ، لأنه كان يقال انها كانت عظام جماعة من الحواريين ، وبنى مكانها مسجدا من داخل السور (يعنى سور القصر) .

وقال جامع سيرة الظاهر بيبرس : وفى ذى الحجة سنة ستين وستمائة ، ظهر بالمسجد الذى بالركن المخلق من القاهرة حجر مكتوب عليه « هذا معبد موسى بن عمران عليه السلام » . فجددت عمارته ، وصار يعرف بمعبد موسى من حينئذ ، ووقف عليه ربع بجانبه ، وهو باق الى وقتنا هذا .

مسجد نجم الدين

هذا المسجد ظاهر باب النصر . أنشأه الملك الأفضل نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شادى يعقوب بن مروان الكردى ، والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وجعل الى جانبه حوض ماء للسبيل ترده الدواب فى سنة ست وستين وخمسمائة .

ونجم الدين هذا قدم هو وأخوه أسد الدين شيركوه من بلاد الأكراد الى بغداد ، وخدم بها ، وترقى فى الخدم حتى صار دزدارا بقلعة تكريت ومعه أخوه . ثم انه انتقل عنها الى خدمة الملك المنصور عماد الدين أتابك زنكى بالموصل ، فخدمه حتى مات ، فتعلق بخدمة ابنه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، فرقاه وأعطاه بعلبك ، وحج من دمشق سنة خمس وخمسمائة .

فلما قدم ابنه صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عمه أسد الدين شيركوه ، من عند نور الدين محمود الى القاهرة ، وصار الى وزارة العاضد بعد موت شيركوه ، قدم عليه أبوه نجم الدين فى جمادى الآخرة سنة خمس وستين وخمسمائة ، وخرج العاضد الى لقائه ، وأنزله بمناظر اللؤلؤة .

فلما استبد صلاح الدين بسلطنة مصر بعد موت الخليفة العاضد ، أقطع أباه نجم الدين الاسكندرية والبحيرة ، الى أن مات بالقاهرة فى يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة — وقيل فى ثامن عشره — من سقطة عن ظهر فرسه خارج باب النصر ، فحمل الى داره ، فمات بعد أيام .

وكان خيرا جوادا ، متدينا ، محبا لأهل العلم والخير * ، وما مات حتى رأى من أولاده عدة ملوك ، وصار يقال له أبو الملوك . ومدحه العماد الأصبهانى بعدة قصائد ، ورثاه الفقيه عمارة بقصيدته التى أولها :

هى الصدمة الأولى فمن بان صبره
على هول ملقاه تعاظم أمره

مسجد صواب

هذا المسجد خارج القاهرة بخط الصليبة . عرف بالطواشى شمس الدين صواب ، مقدم المماليك السلطانية ، ومات فى ثامن رجب سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، ودفن به . وكان خيرا ، دينا ، فيه صلاح .

المسجد بجوار المشهد الحسينى

هذا المسجد ... أنهى فى مستهل شهر رجب سنة اثنتين وستين وستمائة للملك الظاهر ركن الدين بيبرس — وهو بدار العدل — أن مسجدا على باب مشهد السيد الحسين عليه السلام ، والى جانبه مكان من حقوق القصر ، يبع وحمل ثمنه للديوان ، وهو ستة آلاف درهم .

فسأل السلطان عن صورة المسجد وهذا الموضع ، وهل كل منهما بمفرده أو عليهما حائط دائر ؟ فقيل له ان بينهما زرب قصب ، فأمر برد المبلغ ، وأبقى الجميع مسجدا ، وأمر بعمارة ذلك مسجدا لله تعالى .

مسجد الفجل

هذا المسجد بخط بين القصرين ، تجاه بيت البيسرى ، أصله من مساجد الخلفاء الفاطميين . أنشأه على ما هو عليه الآن الأمير بشتاك لما أخذ قصر أمير سلاح ودار أقطوان الساقى وأحد عشر مسجدا وأربعة معابد كانت من عمارة الخلفاء ، وأدخلها فى عمارته التى تعرف اليوم بقصر بشتاك ، ولم يترك من المساجد والمعابد سوى هذا المسجد فقط ، ويجلس فيه بعض نواب القضاة المالكية للحكم بين الناس .

وتسميه العامة مسجد الفجل ، وتزعم أن النيل الأعظم كان يمر بهذا المكان ، وأن الفجل كان يغسل موضع هذا المسجد فعرف بذلك . وهذا القول كذب لا أصل له . وقد تقدم فى

(*) ص٤١٢، ج٢ ، ط. بولاق .

هذا الكتاب ما كان عليه موضع القاهرة قبل بنائها ، وما علمت أن النيل كان يمر هناك أبدا ، وبلغنى أنه عرف بمسجد الفجل من أجل أن الذى كان يقوم به كان يعرف بالفجل ، والله أعلم .

مسجد تبر

هذا المسجد خارج القاهرة مما يلى الخندق . عرف قديما بالبئر والجميزة ، وعرف بمسجد تبر ، وتسميه العامة مسجد التبن وهو خطأ . وموضعه خارج القاهرة قريبا من المطرية .

قال القضاعى : مسجد تبر بنى على رأس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . أنفذه المنصور فسرقه أهل مصر ، ودفنوه هناك وذلك فى سنة خمس وأربعين ومائة ، ويعرف بمسجد البئر والجميزة .

وقال الكندى فى كتاب « الأمراء » : ثم قدمت الخطباء الى مصر برأس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة ، لينصبوه فى المسجد الجامع ، وقامت الخطباء فذكروا أمره .

وتبر هذا أحد الأمراء الأكابر فى أيام الأستاذ كافور الاخشيدى . فلما قدم جوهر القائد من المغرب بالعساكر ، ثار تبر الاخشيدى هذا فى جماعة من الكافورية والاخشيدية وحاربه ، فانهزم بمن معه الى أسفل الأرض . فبعث جوهر يستعطفه ، فلم يجب ، وأقام على الخلاف ، فسير اليه عسكرا حاربه بناحية صهرجت فانكسر ، وصار الى مدينة صور التى كانت على الساحل فى البحر .

فقبض عليه بها ، وأدخل الى القاهرة على فيل ، فسجن الى صفر سنة ستين وثلثمائة . فاشتدت المطالبة عليه ، وضرب بالسياط ، وقبضت أمواله ، وحبس عدة من أصحابه بالمطبق فى القيود الى ربيع الآخر منها . فجرح نفسه ، وأقام أياما مريضا ومات ، فسلخ بعد موته ، وصلب عند كرسى الجبل .

وقال ابن عبد الظاهر : انه حشى جلده تبنا وصلب ، فربما سمت العامة مسجده بذلك لما ذكرناه . وقيل ان تبرا هذا خادم الدولة المصرية ، وقبره بالمسجد المذكور ... قال مؤلفه : هذا وهم ، وانما هو تبر الاخشيدى .

مسجد القطبية

هذا المسجد كان حيث المدرسة المنصورية بين القصرين ، والله أعلم * .

ذكر الخوانك

الخوانك جمع خانكاه ، وهى كلمة فارسية معناها بيت . وقيل أصلها خونقاه ، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . والخوانك حدثت فى الاسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة ، وجعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى .

(*) ص٤١٢، ج٢ ، ط. بولاق .

• قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى رحمه الله : اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى « صحبة رسول الله » صلى الله عليه وسلم ، اذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم « الصحابة » . ولما أدرك أهل العصر الثانى ، سمى من صحب الصحابة «التابعين» ، ورأوا ذلك أشرف سمة ، ثم قيل لمن بعدهم « أتباع التابعين » .

ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب ، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين « الزهاد » و « العباد » . ثم ظهرت البدع ، وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا . فانفرد خواص أهل السنة — المراعون أنفسهم مع الله ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة — باسم « التصوف » ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة .

قال : وهذه التسمية غلبت على هذه الطائفة . فيقال : رجل صوفى ، وللجماعة : الصوفية ، ومن يتوصل الى ذلك يقال له : متصوف ، وللجماعة : المتصوفة . وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب . فأما قول من قال انه من الصوف ، وتصوف اذا لبس الصوف — كما يقال تقمص اذا لبس القميص — فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

ومن قال انهم ينسبون الى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنسبة الى

صفة

الصفة لا تجيء على نحو الصوفى . ومن قال انه من الصفاء ، فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة . وقول من قال انه مشتق من الصف ، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله تعالى ، فالمعنى صحيح لكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة من الصف . ثم ان هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم الى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق ، والله أعلم .

وقال الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر ابن محمد السهروردى رحمه الله : والصوفى يضع الأشياء فى مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلها . بالعلم يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه ، ويستر ما ينبغى أن يستر ، ويظهر ما ينبغى أن يظهر ، ويأتى بالأمور من مواضعها ... بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق واخلاص .

فقوم من المفتونين لبسوا ألبسة الصوفية لينسبوا اليهم ، وما هم منهم بشيء ، بل هم فى غرور وغلط يتسترون بلبسة الصوفية توقيا تارة ودعوة أخرى ، وينتهجون مناهج أهل الاباحة ، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت الى الله تعالى ، وأن هذا هو الظفر بالمراد ، والارتسام بمراسم الشريعة ... رتبة العوام والقاصرين الأفهام ، وهذا هو عين الالحاد والزندقة والابعاد . ولله در القائل :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا
فيه ، وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى
صافى وصوفى حتى سمى الصوفى

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

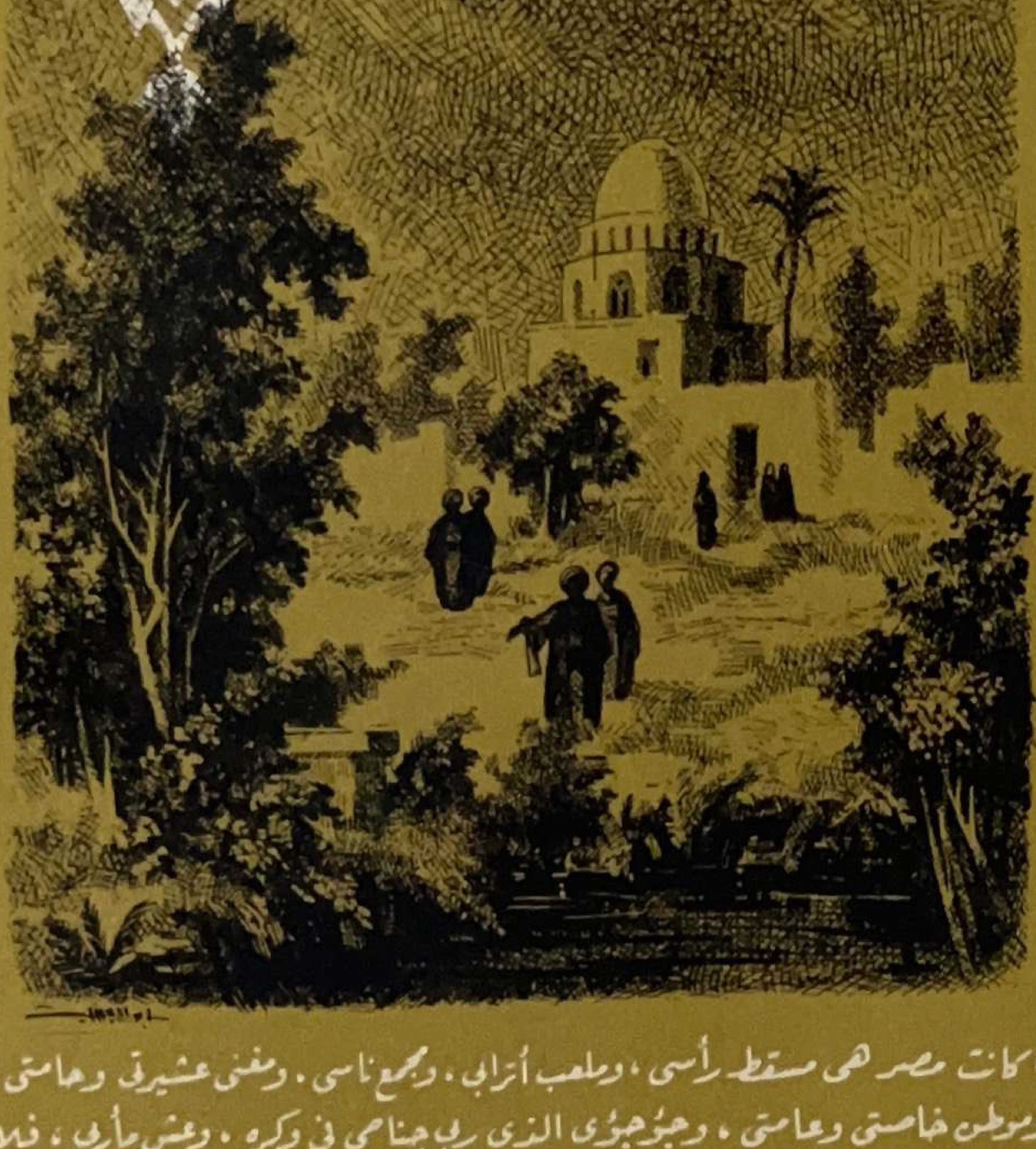
عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٤٣

كتاب التحرير



«كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها.»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

قال مؤلفه : ذهب والله ما هنالك ، وصارت الصوفية كما قال الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى :

ماشروط الصوفى فى عصرنا اليو
م سوى ستة بغير زياده

وهى (...) العلوق والسكر والسط
لة والرقص والغنا والقياده

واذا ما هذى وأبدى اتحادا
وحلولا من جهله أو اعاده

وأتى المنكرات عقلا وشرعا
فهو شيخ الشيوخ ذو السجاده

ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع ، لا ينسبون الى علم ولا ديانة ، والى الله المشتكى .

وأول من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان ابن صبرة . وذلك أنه عمد الى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة — وليس لهم تجارات ولا غلات — فبنى لهم دورا ، وأسكنهم فيها ، وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

فجاء يوما ليزورهم ، فسأل عنهم . فاذا عبد الله بن عامر ، عامل البصرة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قد دعاهم ، فأتاه ، فقال له : ياابن عامر ، ما تريد من هؤلاء القوم ؟

قال : أريد أن أقربهم فيشفعوا فأشفعهم ، ويسألوا فأعطيهم ، ويشيروا على فأقبل منهم .

فقال : لا ، ولا كرامة ! فتأتى الى قوم قد انقطعوا الى الله تعالى ، فتدنسهم بدنياك ، وتشركهم فى أمرك ، حتى اذا ذهبت أديانهم ، أعرضت عنهم ، فطاحوا لا الى الدنيا ولا الى الآخرة ... قوموا فارجعوا الى مواضعكم .

فقاموا . فأمسك ابن عامر ، فما نطق بلفظة ... ذكره أبو نعيم * .

الخانكاه الصلاحية
دار سعيد السعداء دويرة الصوفية

هذه الخانكاه بخط رحبة باب العيد من القاهرة . كانت أولا دارا تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء — وهو الأستاذ قنبر ، ويقال عنبر ، وذكر ابن ميسر أن اسمه بيان ، ولقبه سعيد السعداء — أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر ، عتيق الخليفة المستنصر . قتل فى سابع شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ورمى برأسه من القصر ، ثم صلبت جثته بباب زويلة من ناحية الخرق .

وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة . فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع ابن رزيك سكنها ، وفتح من دار الوزارة اليها سردابا تحت الأرض ليمر فيه . ثم سكنها الوزير شاور بن مجير فى أيام وزارته ، ثم ابنه الكامل .

فلما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد ، وغير رسوم الدولة الفاطمية ، ووضع من قصر الخلافة ، وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد ... عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ،

(*) ص٤١٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، وولى عليهم شيخا ، ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة ، وقيسارية الشراب بالقاهرة ، وناحية دهمرو من البهنساوية .

وشرط أن من مات من الصوفية ، وترك عشرين دينارا فما دونها كانت للفقراء ، ولا يتعرض لها الديوان السلطانى ، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره . ورتب للصوفية فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما بجوارهم .

فكانت أول خانكاه عملت بديار مصر ، وعرفت بدويرة الصوفية ، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ . واستمر ذلك بعده الى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة ، واتضعت الأحوال ، وتلاشت الرتب ، فلقب كل شيخ لخانكاه بشيخ الشيوخ .

وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح ، وترجى بركتهم . وولى مشيختها الأكابر والأعيان — كأولاد شيخ الشيوخ بن حمويه — مع ما كان لهم من الوزارة والامارة ، وتدبير الدولة ، وقيادة الجيوش ، وتقدمة العساكر . ووليها ذو الرياستين ، الوزير الصاحب ، قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن ، ابن ذى الرياستين الوزير الصاحب قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وجماعة من الأعيان . ونزل بها الأكابر من الصوفية .

وأخبرنى الشيخ أحمد بن على القصار ، رحمه الله ، أنه أدرك الناس فى يوم الجمعة يأتون من مصر الى القاهرة ، ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء ، عندما يتوجهون منها الى صلاة الجمعة بالجامع الحاكمى ، كى تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم .

وكان لهم فى يوم الجمعة هيئة فاضلة . وذلك أنه يخرج شيخ الخانقاه منها ، وبين يديه خدام الربعة الشريفة — قد حملت على رأس أكبرهم — والصوفية مشاة بسكون وخفر الى باب الجامع الحاكمى الذى يلى المنبر ، فيدخلون الى مقصورة كانت هناك على يسرة الداخل من الباب المذكور — تعرف بمقصورة البسملة ، فانه بها الى اليوم بسملة قد كتبت بحروف كبار — فيصلى الشيخ تحية المسجد تحت سحابة منصوبة له دائما ، وتصلى الجماعة . ثم يجلسون ، وتفرق عليهم أجزاء الربعة ، فيقرأون القرآن حتى يؤذن المؤذنون ، فتؤخذ الأجزاء منهم ، ويشتغلون بالتركع واستماع الخطبة وهم منصتون خاشعون .

فاذا قضيت الصلاة والدعاء بعدها ، قام قارىء من قراء الخانقاه ، ورفع صوته بقراءة ما تيسر من القرآن ، ودعا للسلطان صلاح الدين ولواقف الجامع ولسائر المسلمين . فاذا فرغ قام الشيخ من مصلاه ، وسار من الجامع الى الخانقاه والصوفية معه كما كان توجههم الى الجامع . فيكون هذا من أجمل عوايد القاهرة .

وما برح الأمر على ذلك . الى أن ولى الأمير يلبغا السالمى نظر الخانقاه المذكورة ، فى يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة سنة

سبع وتسعين وسبعمائة ، فنزل اليها وأخرج كتاب الوقف ، وأراد العمل بما فيه من شرط الواقف . فقطع من الصوفية المنزلين بها عشرات ممن له منصب ومن هو مشهور بالمال ، وزاد الفقراء المجردين — وهم المقيمون بها — فى كل يوم رغيفا من الخبز ، فصار لكل مجرد أربعة أرغفة بعدما كانت ثلاثة ، ورتب بالخانقاه وظيفتى ذكر بعد صلاة العشاء الآخرة ، وبعد صلاة الصبح .

فكثر النكير على السالمى ممن أخرجهم ، وزاد الأشلاء ، فقال بعض أدباء العصر فى ذلك :

يأأهل خانقة الصلاح أراكم
ما بين شاك للزمان وشاتم

يكفيكم ما قد أكلتم باطلا
من وقفها وخرجتم بالسالم

وكان سبب ولاية السالمى نظر الخانقاه المذكورة ، أن العادة كانت قديما أن الشيخ هو الذى يتحدث فى نظرها . فلما كانت أيام الظاهر برقوق ولى مشيختها شخص ، يعرف بالشيخ محمد البلالى ، قدم من البلاد الشامية ، وصار للأمير سودون الشيخونى — نائب السلطنة بديار مصر — فيه اعتقاد . فلما سعى له فى المشيخة * ، واستقر فيها بتعيينه ، سأله أن يتحدث فى النظر اعانة له ، فتحدث .

وكانت عدة الصوفية بها نحو الثلثمائة رجل : لكلّ منهم فى اليوم ثلاثة أرغفة زنتها ثلاثة أرطال خبز ، وقطعة لحم زنتها ثلث رطل فى مرق ، ويعمل لهم الحلوى فى كلّ شهر ، ويفرق فيهم الصابون ، ويعطى كل منهم فى السنة عن ثمن كسوة قدر أربعين درهما . فنزل الأمير سودون عندهم جماعة كثيرة عجز ريع الوقف عن القيام لهم بجميع ما ذكر ، فقطعت الحلوى والصابون والكسوة .

ثم ان ناحية دهمرو شرقت فى سنة تسع وتسعين لقصور ماء النيل ، فوقع العزم على غلق مطبخ الخانقاه وابطال الطعام ، فلم تحتمل الصوفية ذلك ، وتكررت شكواهم للملك الظاهر برقوق . فولى الأمير يلبغا السالمى النظر ، وأمره أن يعمل بشرط الواقف .

فلما نزل الى الخانقاه وتحدث فيها ، اجتمع بشيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى ، وأوقفه على كتاب الوقف . فأفتاه بالعمل بشرط الواقف ، وهو أن الخانقاه تكون وقفا على الطائفة الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة والقاطنين بالقاهرة ومصر ، فان لم يوجدوا كانت على الفقراء من الفقهاء الشافعية والمالكية الأشعرية الاعتقاد .

ثم انه جمع القضاة وشيخ الاسلام وسائر صوفية الخانقاه بها ، وقرأ عليهم كتاب الوقف وسأل القضاة عن حكم الله فيه . فانتدب للكلام رجلان من الصوفية هما زين الدين أبو بكر القمنى وشهاب الدين أحمد العبادى الحنفى ، وارتفعت الأصوات ، وكثر اللغط . فأشار القضاة على السالمى أن يعمل بشرط الواقف ، وانصرفوا . فقطع منهم نحو الستين رجلا منهم المذكوران .

(*) ص٤١٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

فامتعض العبادى ، وغضب من ذلك ، وشنع بأن السالمى قد كفر ، وبسط لسانه بالقول فيه ، وبحث منه سماجات ، فقبض عليه السالمى وهو ماش بالقاهرة ، فاجتمع عدة من الأعيان وفرقوا بينهما ، فبلغ ذلك السلطان ، فأحضر القضاة والفقهاء ، وطلب العبادى فى يوم الخميس ثامن شهر رجب ، وادعى عليه السالمى . فاقتضى الحال تعزيره ، فعزر وكشف رأسه ، وأخرج من القلعة ماشيا بين يدى القضاة ووالى القاهرة الى باب زويلة ، فسجن بحبس الديلم ، ثم نقل منه الى حبس الرحبة .

فلما كان يوم السبت حادى عشره ، استدعى الى دار قاضى القضاة جمال الدين محمود القيصرى الحنفى ، وضرب بحضرة الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى ، والى القاهرة ، نحو الأربعين ضربة بالعصا تحت رجليه . ثم أعيد الى الحبس ، وأفرج عنه فى ثامن عشره بشفاعة شيخ الاسلام فيه .

ولما جدد الأمير يلبغا السالمى الجامع الأقمر ، وعمل له منبرا ، وأقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الأول سنة احدى وثمانمائة ... ألزم الشيخ بالخانقاه والصوفية أن يصلوا الجمعة به . فصاروا يصلون الجمعة فيه الى أن زالت أيام السالمى ، فتركوا الاجتماع بالجامع الأقمر ، ولم يعودوا الى ما كانوا عليه من الاجتماع بالجامع الحاكمى ، ونسى ذلك .

ولم يكن بهذه الخانقاه مئذنة ، والذى بنى هذه المئذنة شيخ ولى مشيختها ، فى سنة بضع وثمانين وسبعمائة ، يعرف بشهاب الدين أحمد الأنصارى . وكان الناس يمرون فى صحن الخانقاه بنعالهم ، فجدد شخص من الصوفية بها — يعرف بشهاب الدين أحمد العثمانى — هذا الدرابزين ، وغرس فيه هذه الأشجار ، وجعل عليها وقفا لمن يتعاهدها بالخدمة .

خانقاه ركن الدين بيبرس

هذه الخانقاه من جملة دار الوزارة الكبرى ، التى تقدم ذكرها عند ذكر القصر من هذا الكتاب ، وهى أجل خانقاه بالقاهرة بنيانا وأوسعها مقدارا وأتقنها صنعة . بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى ، قبل أن يلى السلطنة وهو أمير ، فبدأ فى بنائها فى سنة ست وسبعمائة ، وبنى بجانبها رباطا كبيرا يتوصل اليه من داخلها ، وجعل بجانب الخانقاه قبة بها قبره .

ولهذه القبة شبابيك تشرف على الشارع المسلوك فيه من رحبة باب العيد الى باب النصر . من جملتها الشباك الكبير الذى حمله الأمير أبو الحارث البساسيرى من بغداد لما غلب الخليفة القائم العباسى ، وأرسل بعمامته وشباكه الذى كان بدار الخلافة فى بغداد وتجلس الخلفاء فيه ، وهو هذا الشباك كما ذكر فى أخبار دار الوزارة من هذا الكتاب .

فلما ورد هذا الشباك من بغداد ، عمل بدار الوزارة ، واستمر فيها . الى أن عمر الأمير بيبرس الخانقاه المذكورة ، فجعل هذا الشباك بقبة الخانقاه ، وهو بها الى يومنا

هذا . وانه لشباك جليل القدر حشم ، يكاد يتبين عليه أبهة الخلافة .

ولما شرع فى بنائها رفق بالناس ولاطفهم ، ولم يعسف فيها أحدا فى بنائها ، ولا أكره صانعا ، ولا غصب من آلاتها شيئا ، وانما اشترى دار الأمير عز الدين الأفرم التى كانت بمدينة مصر ، واشترى دار الوزير هبة الله بن صاعد الفائزى ، وأخذ ما كان فيهما من الأنقاض ، واشترى أيضا دار الأنماط التى كانت برأس حارة الجودرية من القاهرة ونقضها وما حولها ، واشترى أملاكا كانت قد * بنيت فى أرض دار الوزارة من ملاكها بغير اكراه وهدمها . فكان قياس أرض الخانقاه والرباط والقبة نحو فدان وثلث .

وعندما شرع فى بنائها حضر اليه الأمير ناصر الدين محمد ، ابن الأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح ، وأراد التقرب لخاطره ، وعرفه أن بالقصر الذى فيه سكن أبيه مغارة تحت الأرض كبيرة ، يذكر أن فيها ذخيرة من ذخائر الخلفاء الفاطميين ، وأنهم لما فتحوها لم يجدوا بها سوى رخام كثير ، فسدوها ولم يتعرضوا لشىء مما فيها . فسر بذلك ، وبعث عدة من الأمراء فتحوا المكان ، فاذا فيه رخام جليل القدر عظيم الهيئة ، فيه ما لايوجد مثله لعظمه ، فنقله من المغارة ، ورخم منه الخانقاه والقبة وداره التى بالقرب من البندقانيين وحارة زويلة ، وفضل منه شىء كثير عهدى أنه مختزن بالخانقاه ، وأظنه أنه باق هناك .

(*) ص ٤١٦ جـ ٢ ؛ ط . بولاق .

ولما كملت فى سنة تسع وسبعمائة ، قرر بالخانقاه أربعمائة صوفى ، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت ، وجعل بها مطبخا يفرق على كل منهم فى كل يوم اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر ، وجعل لهم الحلوى ، ورتب بالقبة درسا للحديث النبوى له مدرس وعنده عدة من المحدثين ، ورتب القراء بالشباك الكبير يتناوبون القراءة فيه ليلا ونهارا ، ووقف عليها عدة ضياع بدمشق وحماة ، ومنية المخلص بالجيزة من أرض مصر ، وبالصعيد والوجه البحرى ، والربع والقيسارية بالقاهرة .

فلما خلع من السلطنة ، وقبض عليه الملك الناصر محمد بن قلاوون وقتله ، أمر بغلقها فغلقت ، وأخذ سائر ما كان موقوفا عليها ، ومحا اسمه من الطراز الذى بظاهرها فوق الشبابيك ، وأقامت نحو عشرين سنة معطلة . ثم انه أمر بفتحها فى أول سنة ست وعشرين وسبعمائة ففتحت ، وأعاد اليها ما كان موقوفا عليها .

واستمرت الى أن شرقت أراضى مصر لقصور مد النيل ، أيام الملك الأشرف شعبان ابن حسين فى سنة ست وسبعين وسبعمائة ، فبطل طعامها ، وتعطل مطبخها ، واستمر الخبز ومبلغ سبعة دراهم لكل واحد فى الشهر بدل الطعام ، ثم صار لكل واحد منهم فى الشهر عشرة دراهم . فلما قصر مد النيل فى سنة ست وتسعين وسبعمائة بطل الخبز أيضا ، وغلق المخبز من الخانقاه ، وصار الصوفية يأخذون فى كل شهر مبلغا من الفلوس معاملة القاهرة ، وهم على ذلك الى اليوم .

وقد أدركتها ولا يسكن بوابها غير أعلها من العبور اليها والصلاة فيها لما لها فى النفوس من المهابة ، ومنع الناس من دخولها حتى الفقهاء والأجناد ، وكان لا ينزل بها أمرد وفيها جماعة من أهل العلم والخير . وقد ذهب ما هنالك ، فنزل بها اليوم عدة من الصغار ومن الأساكفة وغيرهم من العامة . الا أن أوقافها عامرة ، وأرزاقها دارة بحسب نقود مصر .

ومن حسن بناء هذه الخانقاه أنه لم يحتج فيها الى مرمة منذ بنيت الى وقتنا هذا . وهى مبنية بالحجر ، وكلها عقود محكمة بدل السقوف الخشب ، وقد سمعت غير واحد يقول : انه لم تبن خانقاه أحسن من بنائها .

«الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى» : اشتراه الملك المنصور قلاوون صغيرا ، ورقاه فى الخدم السلطانية الى أن جعله أحد الأمراء ، وأقامه جاشنكير ، وعرف بالشجاعة .

فلما مات الملك المنصور ، خدم ابنه الملك الأشرف خليلا ... الى أن قتله الأمير بيدرا بناحية تروجة . فكان أول من ركب على بيدرا فى طلب ثأر الملك الأشرف ، وكان مهابا بين خشداشيه ، فركبوا معه ، وكان من نصرتهم على بيدرا وقتله ما قد ذكر فى موضعه .

فاشتهر ذكره ، وصار أستادار السلطان فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سلطته الثانية ، رفيقا للأمير سلار نائب السلطنة ، وبه قويت الطائفة البرجية من المماليك ، واشتد بأسهم ، وصار الملك الناصر تحت حجر بيبرس وسلار الى أن أنف من ذلك ، وصار الى الكرك .

فأقيم بيبرس فى السلطنة يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وسبعمائة . فاستضعف جانبه ، وانحط قدره ، ونقصت مهابته ، وتغلب عليه الأمراء والمماليك ، واضطربت أمور المملكة لمكان الأمير سلار ، وكثرة حاشيته ، وميل القلوب الى الملك الناصر .

وفى أيامه عمل الجسر من قليوب الى مدينة دمياط ، وهو مسيرة يومين طولا فى عرض أربع قصبات من أعلاه وست قصبات من أسفله ، حتى انه كان يسير عليه ستة من الفرسان معا بحذاء بعضهم . وأبطل سائر الخمارات من السواحل وغيرها من بلاد الشام ، وسامح بما كان من المقرر عليها للسلطان ، وعوض الأجناد بدله ، وكبست أماكن الريب والفواحش بالقاهرة ومصر ، وأريقت الخمور ، وضرب أناس كثير فى ذلك بالمقارع ، وتتبع أماكن الفساد ، وبالغ فى ازالته ، ولم يراع فى ذلك أحدا من الكتاب ولا من الأمراء . فخف المنكر ، وخفى الفساد .

الا أن الله أراد زوال دولته ، فسولت له نفسه أن بعث الى الملك الناصر بالكرك يطلب منه ما خرج به معه من الخيل والمماليك ، وحمل الرسول اليه بذلك مشافهة أغلظ عليه فيها . فحنق من ذلك ، وكاتب نواب الشام وأمراء مصر فى السر يشكو ما حل به ، وترفق بهم وتلطف بهم * فرقوا له ، وامتعضوا لما به .

(*) ص٤١٧، جـ٢، ط. بولاق .

وتحول الناصر من الكرك ، وبرز عنها . فاضطرب الأمر بمصر ، واختل الحال من بيبرس ، وأخذ العسكر يسير من مصر الى الناصر شيئا بعد شىء ... وسار الناصر من ظاهر الكرك يريد دمشق فى غرة شعبان سنة تسع وسبعمائة . فعندما نزل الكسوة ، خرج الأمراء وعامة أهل دمشق الى لقائه ومعهم شعار السلطنة ، ودخلوا به الى المدينة — وقد فرحوا به فرحا كثيرا — فى ثانى عشر شعبان ، ونزل بالقلعة ، وكاتب النواب . فقدموا عليه ، وصارت ممالك الشام كلها تحت طاعته ، يخطب له بها ، ويجبى اليه مالها .

ثم خرج من دمشق بالعساكر يريد مصر ، وأمر بيبرس كل يوم فى نقص ... الى أن كان يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان . فترك بيبرس المملكة ، ونزل من قلعة الجبل ومعه خواصه الى جهة باب القرافة ، والعامة تصيح عليه وتسبه ، وترجمه بالحجارة — عصبية للملك الناصر ، وحبا له — حتى سار عن القرافة . ودعا الحرس بالقلعة ، فى يوم الأربعاء للملك الناصر ، فكانت مدة سلطنة بيبرس عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

وقدم الملك الناصر الى قلعة الجبل أول يوم من شوال ، وجلس على تخت المملكة ، واستولى على السلطنة مرة ثالثة . ونزل بيبرس بأطفيح ، ثم سار منها الى اخميم ، فلما صار بها تفرق عنه من كان معه من الأمراء والمماليك ، فصاروا الى الملك الناصر ، فتوجه فى نفر يسير على طريق السويس يريد بلاد الشام ، فقبض عليه شرقى غزة ، وحمل مقيدا الى الملك الناصر .

فوصل قلعة الجبل يوم الأربعاء ثالث عشر ذى القعدة ، وأوقف بين يدى السلطان ، وقبل الأرض ، فعنفه ، وعدد عليه ذنوبا ، ووبخه ، ثم أمر به فسجن فى موضع الى ليلة الجمعة خامس عشره ، وفيها لحق بربه تعالى . فحمل الى القرافة ، ودفن فى تربة الفارس أقطاى ، ثم نقل منها بعد مدة الى تربته بسفح المقطم فقبر بها زمانا طويلا ، ثم نقل منها ثالث مرة الى خانقاهه ، ودفن بقبتها ، وقبره هناك الى يومنا هذا . وأدركت بالخانقاه المذكورة شيخا من صوفيتها أخبرنى أنه حضر نقله من تربته بالقرافة الى قبة الخانقاه ، وأنه تولى وضعه فى مدفنه بنفسه .

وكان رحمه الله خيرا عفيفا ، كثير الحياء ، وافر الحرمة ، جليل القدر ، عظيما فى النفوس ، مهاب السطوة فى أيام امرته . فلما تلقب بالسلطنة ، ووسم باسم الملك ، اتضع قدره ، واستضعف جانبه ، وطمع فيه ، وتغلب عليه الأمراء والمماليك ، ولم تنجح مقاصده ، ولا سعد فى شىء من تدبيره الى أن انقضت أيامه ، وأناخ به حمامه ، رحمه الله .

الخانقاه الجمالية

هذه الخانقاه بالقرب من درب راشد ، يسلك اليها من رحبة باب العيد . بناها الأمير الوزير مغلطاى الجمالى فى سنة ثمانين وسبعمائة . وقد تقدم ذكرها عند ذكر المدارس من هذا الكتاب .

الخانقاه الظاهرية

هذه الخانقاه بخط بين القصرين ، فيما بين المدرسة الناصرية ودار الحديث الكاملية . أنشأها الملك الظاهر برقوق فى سنة ست وثمانين وسبعمائة . وقد ذكرت عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب .

الخانقاه الشرابيشية

هذه الخانقاه فيما بين الجامع الأقمر وحارة برجوان ، فى آخر المنحر الذى كان للخلفاء ، وهو يعرف اليوم بالدرب الأصفر ، ويتوصل منها الى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس ، وبابها الأصلى من زقاق ضيق بوسط سوق حارة برجوان . أنشأها الصدر الأجل نور الدين على بن محمد بن محاسن الشرابيشى ، وكان من ذوى الغنى واليسار ، صاحب ثراء متسع ، وله عدة أوقاف على جهات البر والقربات ، ومات فى ...... [1]

الخانقاه المهمندارية

هذه الخانقاه خارج باب زويلة ، فيما بين رأس حارة اليانسية وجامع المارديني . بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى ، المهمندار ونقيب الجيوش ، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة . وقد ذكرت فى المدارس من هذا الكتاب .

(١) هكذا بياض فى الأصل م

خانقاه بشتاك *

هذه الخانقاه خارج القاهرة ، على جانب الخليج من البر الشرقى ، تجاه جامع بشتاك . أنشأها الأمير سيف الدين بشتاك الناصرى ، وكان فتحها أول يوم من ذى الحجة سنة ست وثلاثين وسبعمائة ، واستقر فى مشيختها شهاب الدين القدسى ، وتقرر عنده عدة من الصوفية ، وأجرى لهم الخبز والطعام فى كل يوم .

فاستمر ذلك مدة ، ثم بطل ، وصار يصرف لأربابها عوضا عن ذلك فى كل شهر مبلغ ، وهى عامرة الى وقتنا هذا . وقد نسب اليها جماعة ، منهم الشيخ الأديب البارع بدر الدين محمد بن ابراهيم ، المعروف بالبدر البشتكى .

خانقاه ابن غراب

هذه الخانقاه خارج القاهرة ، على الخليج الكبير من بره الشرقى ، بجوار جامع بشتاك من غربيه . أنشأها القاضى الأمير سعد الدين ابراهيم بن عبد الرزاق بن غراب الاسكندرانى ناظر الخاص ، وناظر الجيوش ، وأستادار السلطان ، وكاتب السر ، وأحد أمراء الألوف الأكابر . أسلم جده غراب ، وباشر بالاسكندرية حتى ولى نظر الثغر ، ونشأ ابنه عبد الرزاق هناك ، فولى أيضا نظر الاسكندرية ، وولد له ماجد وابراهيم .

فلما تحكم الأمير جمال الدين محمود بن على فى الأموال أيام الملك الظاهر برقوق ، اختص بابراهيم ، وحمله الى القاهرة وهو

(*) ص٤١٨ جـ٢ ، ط.بولاق م

صبى ، واعتنى به ، واستكتبه فى خاص أمواله حتى عرفها .

فتنكر محمود عليه لأمر بدا منه فى ماله ، وهم به ، فبادر الى الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى ، وترامى عليه — وهو يومئذ قد نافس محمودا — فأوصله بالسلطان ، وأمكنه من سماع كلامه ، فملأ أذنه بذكر أموال محمود ، ووغر صدره عليه حتى نكبه ، واستصفى أمواله كما ذكر فى خبره عند ذكر مدرسة محمود من هذا الكتاب .

وولى ابن غراب نظر الديوان المفرد فى حادى عشر صفر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وعمره عشرون سنة أو نحوها — وهى أول وظيفة وليها — فاختص بابن الطبلاوى ولازمه وملأ عينه بكثرة المال . فتحدث له فى وظيفة نظر الخاص ، عوضا عن سعد الدين أبى الفرج ابن تاج الدين موسى ، فوليها فى تاسع عشر ذى القعدة ، وغص بمكان ابن الطبلاوى ، فعمل عليه عند السلطان حتى غيره عليه ، وولاه أمره ، فقبض عليه فى داره وعلى سائر أسبابه فى شعبان فى سنة ثمانمائة .

ثم أضيف اليه نظر الجيوش ، عوضا عن شرف الدين محمد الدماميني ، فى تاسع ذى القعدة سنة ثمانمائة ، فعفه عن تناول الرسوم وأظهر من الفخر والحشمة والمكارم أمرا كبيرا . وقدر الله موت السلطان فى شوال سنة احدى وثمانمائة ، بعدما جعله من جملة أوصيائه ، فباطن الأمير يشبك الخازندار على ازالة الأمير الكبير أيتمش القائم بدولة الناصر فرج بن برقوق ، وعمل لذلك أعمالا ، حتى كانت الحرب — بعد موت السلطان الملك الظاهر — بين الأمير أيتمش وبين الأمير يشبك ، فى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانمائة ، التى انهزم فيها أيتمش وعدة من الأمراء الى الشام .

وتحكم الأمير يشبك . فاستدعى عند ذلك ابن غراب أخاه فخر الدين ماجدا من الاسكندرية ، وهو يلى نظرها ، الى قلعة الجبل ، وفوضت اليه وزارة الملك الناصر فرج ابن برقوق ، فقاما بسائر أمور الدولة ... الى أن ولى الأمير يلبغا السالمى الأستادارية .

فسلك معه عادته من المنافسة ، وسعى به عند الأمير يشبك حتى قبض عليه ، وتقلد وظيفة الأستادارية عوضا عن السالمى ، فى رابع عشر رجب سنة ثلاث وثمانمائة ، مضافا الى نظر الخاص ونظر الجيوش . فلم يغير زى الكتاب ، وصار له ديوان كدواوين الأمراء ، ودقت الطبول على بابه ، وخاطبه الناس وكاتبوه بالأمير ، وسار فى ذلك سيرة ملوكية من كثرة العطاء ، وزيادة الأسمطة ، والاتساع فى الأمور ، والازدياد من المماليك والخيول ، والاستكثار من الخول والحواشى ... حتى لم يكن أحد يضاهيه فى شىء من أحواله . الى أن تنازع الأميران حكم وسودون طاز مع الأمير يشبك ، فكان هو المتولى كبر تلك الحروب .

ثم انه خرج من القاهرة مغاضبا لأمراء الدولة ، وصار الى ناحية تروجة يريد جمع العربان ومحاربة الدولة ، فلم يتم له ذلك وعاد ، فدخل القاهرة على حين غفلة ، فنزل عند جمال الدين يوسف الأستادار ، فقام

باصلاح أمره مع الأمراء حتى حصل له الغرض، فظهر واستولى على ما كان عليه .

الى أن تنكرت رجال الدولة على الملك الناصر، فقام مع الأمير يشبك بحرب السلطان الى أن انهزم الأمير يشبك بأصحابه الى الشام، فخرج معه فى سنة تسع وثمانمائة، وأمده ومن معه بالأموال العظيمة حتى صاروا عند الأمير شيخ نائب الشام، واستفز العساكر لقتال الملك الناصر، وحرضهم على المسير الى حربه، وخرج من دمشق مع العساكر يريد القاهرة .

وكان من وقعة السعيدية ما كان، على ما هو مذكور فى خبر الملك الناصر، عند ذكر الخانقاه الناصرية من هذا الكتاب . فاختفى الأمير يشبك وطائفة من الأمراء بالقاهرة، ولحق ابن غراب بالأمير اينال باى ابن قجماس — وهو يومئذ كبير الأمراء * الناصرية — وملأ عينه بالمال . فتوسط له مع الملك الناصر حتى أمنه، وأصبح فى داره وجميع الناس على بابه .

ثم تقلد وظيفة نظر الجيوش، واختص بالسلطان، وما زال به حتى استرضاه على الأمير يشبك ومن معه من الأمراء، وظهروا من الاستتار، وصاروا بقلعة الجبل، فخلع عليهم السلطان وأمرهم، وصاروا الى دورهم . فثقل على ابن غراب مكان فتح الدين فتح الله كاتب السر، فسعى به حتى قبض عليه، وولى مكانه كتابة السر ليتمكن من أغراضه .

فلما استقر فى كتابة السر، أخذ فى نقض دولة الناصر، الى أن تم له مراده، فصارت الدولة كلها على الناصر، فخلا به، وخيل له، وحسن له الفرار، فانقاد له، وترامى عليه، فأعد له رجلين أحدهما من مماليكه، ومعهما فرسان، ووقفا بهما وراء القلعة .

وخرج الناصر وقت القائلة، ومعه مملوك من مماليكه يقال له بيغوت، وركبا الفرسين، وسارا الى ناحية طرا، ثم عادا مع قاصدى ابن غراب فى مركب من المراكب النيلية ليلا الى دار ابن غراب، ونزلا عنده، وقد خفى ذلك على جميع أهل الدولة .

وقام ابن غراب بتولية عبد العزيز بن برقوق، وأجلسه على تخت الملك عشاء، ولقبه بالملك المنصور، ودبر الدولة كما أحب مدة سبعين يوما . الى أن أحس من الأمراء بتغير، فأخرج الناصر ليلا، وجمع عليه عدة من الأمراء والمماليك، وركب معه بلامة الحرب الى القلعة . فلم يلبث أصحاب المنصور وانهزموا، ودخل الناصر الى القلعة، واستولى على المملكة ثانيا، فألقى مقاليد الدولة الى ابن غراب، وفوض اليه ما وراء سريره، ونظمه فى خاصته، وجعله من أكابر الأمراء، وناط به جميع الأمور .

فأصبح مولى نعمة كل من السلطان والأمراء : يمن عليهم بأنه أبقى لهم مهجهم، وأعاد اليهم سائر ما كانوا قد سلبوها من ملكهم، وأمدهم بماله وقت حاجتهم وفاقتهم اليه، ويفخر ويتكثر بأنه أقام دولة وأزال دولة، ثم أزال ما أقام وأقام ما أزال، من

(*) ص١٩٠ جـ٢، ط.بولاق .

غير حاجة ولا ضرورة ألجأته الى شىء من ذلك، وأنه لو شاء أخذ الملك لنفسه .

وترك كتابة السر لغلامه وأحد كتابه فخر الدين بن المزوق، ترفعا عنها واحتقارا بها، ولبس هيئة الأمراء — وهى الكلوتة والقباء — وشد السيف فى وسطه، وتحول من داره التى على بركة الفيل الى دار بعض الأمراء بحدرة البقر . فغاضبه القضاة، وكان عند الانتهاء الانحطاط .

ونزل به مرض الموت، فنال فى مرضه من السعادة ما لم يسمع بمثله لأحد من أبناء جنسه، وصار الأمير يشبك ومن دونه من الأمراء يترددون اليه، وأكثرهم اذا دخل عليه وقف قائما على قدميه حتى ينصرف، الى أن مات يوم الخميس تاسع عشر شهر رمضان سنة ثمان وثمانمائة، ولم يبلغ ثلاثين سنة .

وكانت جنازته أحد الأمور العجيبة بمصر، لكثرة من شهدها من الأمراء والأعيان وسائر أرباب الوظائف، بحيث استأجر الناس السقائف والحوانيت لمشاهدتها، ونزل السلطان للصلاة عليه وصعد الى القلعة، فدفن خارج باب المحروق .

وكان من أحسن الناس شكلا، وأحلاهم منظرا، وأكرمهم يدا، مع تدين وتعفف عن القاذورات، وبسط يد بالصدقات . الا أنه كان غدارا، لا يتوانى عن طلب عدوه، ولا يرضى من نكبته بدون اتلاف النفس . فكم ناطح كبشا، وثل عرشا، وعالج جبالا شامخة، واقتلع دولا من أصولها الراسخة .

وهو أحد من قام بتخريب اقليم مصر *، فانه ما زال يرفع سعر الذهب حتى بلغ كل دينار الى مائتى درهم وخمسين درهما من الفلوس، بعدما كان بنحو خمسة وعشرين درهما، ففسدت بذلك معاملة الاقليم، وقلت أمواله، وغلت أسعار المبيعات، وساءت أحوال الناس . الى أن زالت البهجة، وانطوى بساط الرقة، وكاد الاقليم يدمر — كما ذكر ذلك عند ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب مصر من هذا الكتاب — عفا الله عنه وسامحه . فلقد قام بمواراة آلاف من الناس الذين هلكوا فى زمان المحنة سنة ست وسنة سبع وثمانمائة وتكفينهم، فلم ينس الله ذلك، وستره كما ستر المسلمين « وما كان ربك نسيا » .

الخانقاه البندقدارية

هذه الخانقاه بالقرب من الصليبة . كان موضعها يعرف قديما بدويرة مسعود، وهى الآن تجاه المدرسة الفارقانية وحمام الفارقانى . أنشأها الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى النجمى، وجعلها مسجدا لله تعالى وخانقاه، ورتب فيها صوفية وقراء فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة . وفى سنة ثمان وأربعين وستمائة، استنابه الملك المعز أيبك، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نواب دار العدل .

والى أيدكين هذا ينسب الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، لأنه كان أولا مملوكه، ثم انتقل منه الى الملك الصالح نجم الدين

ايوب ، فعرف بين المماليك البحرية بيبرس البندقدارى .

وعاش أيدكين الى أن صار بيبرس سلطان مصر ، وولاه نيابة السلطنة بحلب فى سنة تسع وخمسين وستمائة — وكان الغلاء بها شديدا — فلم تطل أيامه ، وفارقها بدمشق ، بعد محاربة سنقر الأشقر * والقبض عليه ، فى حادى عشر صفر سنة تسع وخمسين وستمائة فأقام فى النيابة نحو شهر ، وصرفه الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى .

فلما خرج السلطان الى الشام فى سنة احدى وستين وستمائة ، وأقام بالطور ، أعطاه امرة بمصر وطبلخاناه فى ربيع الآخر منها .

ومات فى ربيع الآخر سنة أربع وثمانين وستمائة ، ودفن بقبة هذه الخانقاه .

خانقاه شيخو

هذه الخانقاه فى خط الصليبة ، خارج القاهرة ، تجاه جامع شيخو . أنشأها الأمير الكبير سيف الدين شيخو العمرى فى سنة ست وخمسين وسبعمائة . كان موضعها من جملة قطائع أحمد بن طولون ، وآخر ما عرف من خبره أنه كان مساكن للناس ، فاشتراها الأمير شيخو من أربابها ، وهدمها فى المحرم من هذه السنة .

فكانت مساحة أرضها زيادة على فدان . فاختط فيها الخانقاه وحمامين وعدة حوانيت يعلوها بيوت لسكنى العامة ، ورتب بها دروسا عدة : منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة — وهم الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة — ودرسا للحديث النبوى ، ودرسا لاقراء القرآن بالروايات السبع ، وجعل لكل درس مدرسا وعنده جماعة من الطلبة ، وشرط عليهم حضور الدرس وحضور وظيفة التصوف .

وأقام شيخنا أكمل الدين محمد بن محمود فى مشيخة الخانقاه ومدرس الحنفية ، وجعل اليه النظر فى أوقاف الخانقاه ، وقرر فى تدريس الشافعية الشيخ بهاء الدين أحمد بن على السبكى ، وفى تدريس المالكية الشيخ خليلا — وهو متجند الشكل وله اقطاع فى الحلقة — وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة موفق الدين الحنبلى ، ورتب لكل من الطلبة فى اليوم الطعام واللحم والخبز ، وفى الشهر الحلوى والزيت والصابون ، ووقف عليها الأوقاف الجليلة .

فعظم قدرها ، واشتهر فى الأقطار ذكرها ، وتخرج بها كثير من أهل العلم ، وأربت فى العمارة على كل وقف بديار مصر ، الى أن مات الشيخ أكمل الدين فى شهر رمضان سنة ست وثمانين وسبعمائة ، فوليها من بعده جماعة .

ولما حدثت المحن كان بها مبلغ كبير من المال الذى فاض عن مصروفها ، فأخذه الملك الناصر فرج ، وأخذت أحوالها تتناقص حتى صار المعلوم يتأخر صرفه لأرباب الوظائف بها عدة أشهر ، وهى الى اليوم على ذلك .

الخانقاه الجاولية

هذه الخانقاه على جبل يشكر ، بجوار مناظر الكبش ، فيما بين القاهرة ومصر .

(*) ص٤٢٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، وقد تقدم ذكرها فى المدارس .

خانقاه الجيبغا المظفرى

هذه الخانقاه خارج باب النصر ، فيما بين قبة النصر وتربة عثمان بن جوشن السعودى . أنشأها الأمير سيف الدين الجيبغا المظفرى ، وكان بها عدة من الفقراء يقيمون بها ، ولهم فيها شيخ ، ويحضرون فى كل يوم وظيفة التصوف ، ولهم الطعام والخبز .

وكان بجانبها حوض ماء لشرب الدواب ، وسقاية بها الماء العذب لشرب الناس ، وكتاب يقرأ فيه أطفال المسلمين الأيتام كتاب الله تعالى ويتعلمون الخط ، ولهم فى كل يوم الخبز وغيره . وما برحت على ذلك الى أن أخرج الأمير برقوق أوقافها فتعطلت ، وأقام بها جماعة من الناس مدة ، ثم تلاشى أمرها ، وهى الآن باقية من غير أن يكون فيها سكان ، وقد تعطل حوضها ، وبطل مكتب السبيل .

« الجيبغا المظفرى » الخاصكى : تقدم فى أيام الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون تقدما كثيرا ، بحيث لم يشاركه أحد فى رتبته . فلما قام الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون فى السلطنة ، أقره على رتبته ، وصار أحد أمراء المشورة الذين يصدر عنهم الأمر والنهى .

فلما اختلف أمراء الدولة ، أخرج الى دمشق فى ربيع الأول سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وأقام بدمشق الى شعبان ، وسار الى نيابة طرابلس — عوضا عن الأمير بدر الدين مسعود بن الخطيرى — فلم يزل على نيابتها الى شهر ربيع الأول سنة خمسين وسبعمائة . فكتب الى الأمير أرغون شاه نائب دمشق يستأذنه فى التصيد الى الناعم ، فأذن له ، وسار من طرابلس ، وأقام على بحيرة حمص أياما يتصيد .

ثم ركب ليلا بمن معه ، وساق الى خان لاجين ظاهر دمشق ، فوصله أول النهار ، وأقام به يومه . ثم ركب منه بمن معه ليلا ، وطرق أرغون شاه وهو بالقصر الأبلق ، وقبض عليه وقيده فى ليلة الخميس ثالث عشرى شهر ربيع الأول ، وأصبح وهو * بسوق الخيل ، فاستدعى الأمراء ، وأخرج لهم كتاب السلطان بامساك أرغون شاه ، فأذعنوا له ، واستولى على أموال أرغون شاه .

فلما كان يوم الجمعة رابع عشريه ، أصبح أرغون شاه مذبوحا ، فأشاع الجيبغا أن أرغون شاه ذبح نفسه . وفى يوم الثلاثاء أنكر الأمراء أمره ، وثاروا لحربه ، فركب وقاتلهم ، وانتصر عليهم ، وقتل جماعة منهم ، وأخذ الأموال ، وخرج من دمشق ، وسار الى طرابلس فأقام بها .

وورد الخبر من مصر الى دمشق بانكار كل ماوقع ، والاجتهاد فى مسك الجيبغا . فخرجت عساكر الشام اليه ، ففر من طرابلس ، فأدركه عسكر طرابلس عند بيروت ، وحاربوه حتى قبضوا عليه ، وحمل الى عسكر دمشق ، فقيد

(*) ص٤٢١ جـ٢ ، ط.بولاق .

وسجن بقلعة دمشق فى ليلة السبت سادس عشر ربيع الآخر ، هو وفخر الدين اياس ، ثم وسط بمرسوم السلطان تحت قلعة دمشق بحضور عساكر دمشق ، ووسط معه الأمير فخر الدين اياس ، وعلقا على الخشب فى ثامن عشر ربيع الآخر سنة خمسين وسبعمائة ، وعمره دون العشرين سنة ، فما طر شاربه وكأنه البدر حسنا والغصن اعتدالا . ♦

خانقاه سرياقوس

هذه الخانقاه خارج القاهرة من شماليها ، على نحو بريد منها ، بأول تيه بنى اسرائيل باسم سرياقوس . أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وذلك أنه لما بنى الميدان والأحواش فى بركة الجب — كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر بركة الجب — اتفق أنه ركب على عادته للصيد هناك ، فأخذه ألم عظيم فى جوفه كاد يأتى عليه ، وهو يتجلد ويكتم ما به حتى عجز .

فنزل عن الفرس والألم يتزايد به ، فنذر لله ان عافاه الله ليبنين فى هذا الموضع موضعا يعبد الله تعالى فيه ، فخف عنه ما يجده ، وركب فقضى نهمته من الصيد ، وعاد الى قلعة الجبل ، فلزم الفراش مدة أيام ، ثم عوفى .

فركب بنفسه ، ومعه عدة من المهندسين ، واختط على قدر ميل من ناحية سرياقوس هذه الخانقاه ، وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى ، وبنى بجانبها مسجدا تقام به الجمعة ، وبنى بها حماما ومطبخا . وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة .

فلما كانت سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، كمل ما أراد من بنائها ، وخرج اليها بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانك ، ومدت هناك أسمطة عظيمة بداخل الخانقاه فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة . وتصدر قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى لاسماع الحديث النبوى ، وقرأ عليه ابنه عز الدين عبد العزيز عشرين حديثا تساعيا ، وسمع السلطان ذلك ، وكان جمعا موفورا ، وأجاز قاضى القضاة الملك الناصر ومن حضر برواية ذلك ، وجميع ما يجوز له روايته .

وعندما انقضى مجلس السماع ، قرر السلطان فى مشيخة هذه الخانكاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الأقصراى ، ولقبه بشيخ الشيوخ . فصار يقال له ذلك ولكل من ولى بعده ، وكان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ الا شيخ خانقاه سعيد السعداء .

وأحضرت التشاريف السلطانية ، فخلع على قاضى القضاة بدر الدين ، وعلى ولده عز الدين وعلى قاضى القضاة المالكية ، وعلى الشيخ مجد الدين أبى حامد موسى بن أحمد بن محمود الأقصراى شيخ الشيوخ ، وعلى الشيخ علاء الدين القونوى شيخ خانقاه سعيد السعداء ، وعلى الشيخ قوام الدين أبى محمد عبد المجيد بن أسعد بن محمد الشيرازى شيخ الصوفية بالجامع الجديد الناصرى خارج مدينة مصر ، وعلى جماعة كثيرة ، وخلع على سائر الأمراء وأرباب الوظائف ، وفرق بها ستين ألف درهم فضة ، وعاد الى قلعة الجبل .

فرغب الناس فى السكنى حول هذه الخانقاه وبنوا الدور والحوانيت والخانات ، حتى صارت بلدة كبيرة تعرف بخانقاه سرياقوس ، وتزايد الناس بها حتى أنشىء فيها سوى حمام الخانقاه عدة حمامات . وهى الى اليوم بلدة عامرة ، ولا يؤخذ بها مكس ألبتة مما يباع من سائر الأصناف احتراما لمكان الخانقاه ، ويعمل هناك فى يوم الجمعة سوق عظيم ، ترد الناس اليه من الأماكن البعيدة ، يباع فيه الخيل والجمال والحمير والبقر والغنم والدجاج والاوز وأصناف الغلات وأنواع الثياب وغير ذلك .

وكانت معاليم هذه الخانكاه من أسنى معلوم بديار مصر : يصرف لكل صوفى فى اليوم من لحم الضأن السليخ رطل قد طبخ فى طعم شهى ، ومن الخبز النقى أربعة أرطال . ويصرف له فى كل شهر مبلغ أربعين درهما فضة : عنها ديناران ، ورطل حلوى ، ورطلان زيتا من زيت الزيتون ، ومثل ذلك من الصابون . ويصرف له ثمن كسوة فى كل سنة ، وتوسعة فى كل شهر رمضان وفى العيدين وفى مواسم رجب وشعبان وعاشوراء وكلما قدمت فاكهة يصرف له مبلغ لشرائها .

وبالخانقاه خزانة بها السكر والأشربة والأدوية ، وبها الطبائعى والجرائحى والكحال ومصلح الشعر . وفى كل رمضان يفرق * على الصوفية كيزان لشرب الماء ، وتبيض لهم قدورهم النحاس ، ويعطون حتى الأشنان لغسل الأيدى من وضر اللحم ... يصرف ذلك من الوقف لكل منهم . وبالحمام الحلاق لتدليك أبدانهم وحلق رؤوسهم . فكان المنقطع بها لا يحتاج الى شىء غيرها ، ويتفرغ للعبادة ، ثم استجد بعد سنة تسعين وسبعمائة بها حمام أخرى برسم النساء .

(*) ص٤٢٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

وما برحت على ما ذكرنا . الى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فبطل الطعام ، وصار يصرف لهم فى ثمنه مبلغ من نقد مصر ، وهى الآن على ذلك . وأدركت من صوفيتها شخصا شيخا ، يعرف بأبى ظاهر ، ينام أربعين يوما بلياليها لا يستيقظ فيها ألبتة ، ثم يستيقظ أربعين يوما لا ينام فى ليلها ولا نهارها ... أقام على ذلك عدة أعوام ، وخبره مشهور عند أهل الخانقاه ، وأخبرنى أنه لم يكن فى النوم الا كغيره من الناس ، ثم كثر نومه حتى بلغ ما تقدم ذكره ، ومات بهذه الخانقاه فى نحو سنة ثمانمائة .

ومما قيل فى الخانقاه وما أنشأه السلطان بها :

سر نحو سرياقوس وانزل بفنا
أرجائها ياذا النهى والرشد
تلق محلا للسرور والهنا
فيه مقام للتقى والزهد
نسيمه يقول فى مسيره
تيهى ياعذبات الرند
وروضه الريان من خليجه
يقول دع ذكر أراضى نجد

خانقاه ارسلان

هذه الخانقاه فيما بين القاهرة ومصر ، من جملة أراضى منشأة المهرانى . أنشأها الأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار .

« أرسلان » : الأمير بهاء الدين الدوادار الناصرى . كان أولا عند الأمير سلار ، أيام نيابته مصر ، خصيصا به حظيا عنده . فلما قدم الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك بعساكر الشام ، ونزل بالريدانية ظاهر القاهرة فى شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة ، اطلع أرسلان على أن جماعة قد اتفقوا على أن يهجموا على السلطان ، ويفتكوا به يوم العيد أول شوال ، فجاء اليه وعرفه الحال ، وقال له : اخرج الساعة ، واطلع القلعة واملكها .

فقام السلطان ، وفتح باب سر الدهليز ، وخرج من غير الباب ، وصعد قلعة الجبل ، وجلس على سرير الملك ... فرعى السلطان له هذه المناصحة . ولما أخرج الأمير عز الدين أيدمر الدوادار من وظيفته ، رتب أرسلان فى الدوادارية .

وكان يكتب خطا مليحا ، ودربه القاضى علاء الدين بن عبد الظاهر وخرجه وهذبه ، فصار يكتب بخطه الى كتاب السر عن السلطان فى المهمات بعبارة مسددة وافية بالمقصود ، واستولى على السلطان بحيث لم يكن لغيره فى أيامه ذكر ، ولم يشتهر فخر الدين وكريم الدين بعظمة الا بعده ، واجتهدا فى ابعاده فما قدرا على ذلك .

وفى أيام توليته الدوادارية السلطانية ، أنشأ هذه الخانكاه على شاطىء النيل . وكان ينزل فى كل ليلة ثلاثاء اليها من القلعة ويبيت بها ، ويحتفل الناس للحضور اليها ، ويرسل عن السلطان الى مهنا أمير العرب ، ونفع الناس نفعا كبيرا ، وقلدهم مننا جسيمة ، ومات فى ثالث عشرى شهر رمضان سنة سبع عشرة وسبعمائة ، فوجد فى تركته ألف ثوب أطلس ، ونفائس كثيرة ، وعدة تواقيع ومناشير معلمة . فأنكر السلطان معرفتها ، ونسب اليه اختلاسها .

وأول من ولى مشيختها تقى الدين أبوالبقاء محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الرحيم الشريف الحسينى القنائى الشافعى ، جد الشيخ عبد الرحيم القنائى الصالح المشهور ، وأبوه ضياء الدين جعفر كان فقيها شافعيا . وكان أبو البقاء هذا عالما عارفا زاهدا ، قليل التكلف ، متقللا من الدنيا ، سمع الحديث وأسمعه . وولد فى سنة خمس وأربعين وستمائة ، ومات ليلة الاثنين رابع عشر جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، ودفن بالقرافة .

فتداول مشيختها القضاة الاخنائية ... الى أن كانت آخرا بيد شيخنا قاضى القضاة صدر الدين عبد الوهاب بن أحمد الاخنائى . فلما مات فى سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، تلقاها عنه عز الدين بن الصاحب ، ثم وليها من بعده ابنه شمس الدين محمد بن الصاحب ، رحمه الله .

خانقاه بكتمر

هذه الخانقاه بطرف القرافة فى سفح الجبل مما يلى بركة الحبش . أنشأها الأمير بكتمر الساقى ، وابتدأ الحضور بها فى يوم الثلاثاء ثامن شهر رجب سنة ست وعشرين وسبعمائة . وأول من استقر فى مشيختها الشمسى شمس الدين الرومى ، ورتب له عن معلوم المشيخة فى كل شهر مائة درهم ، وعن معلوم الامامة مبلغ خمسين درهما ، ورتب معه عشرين صوفيا : لكل منهم فى الشهر مبلغ ثلاثين درهما ... فجاءت من أجل مابنى بمصر . ورتب بها صوفية وقراء ، وقرر لهم الطعام والخبز فى كل يوم ، والدراهم والحلوى والزيت والصابون فى كل شهر ، وبنى بجانبها حماما ، وأنشأ * هناك بستانا .

فعمرت تلك الخطة ، وصار بها سوق كبير وعدة سكان ، وتنافس الناس فى مشيختها . الى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فبطل الطعام والخبز منها ، وانتقل السكان منها الى القاهرة وغيرها ، وخربت الحمام والبستان ، وصار يصرف لأرباب وظائفها مبلغ من نقد مصر ، وأقام فيها رجل يحرسها ، وتمزق ما كان فيها من الفرش والآلات النحاس والكتب والربعات والقناديل النحاس المكفت والقناديل الزجاج المذهب ، وغير ذلك من الأمتعة والنفائس الملوكية ، وخرب ما حولها لخلوه من السكان .

« بكتمر الساقى » : الأمير سيف الدين ، كان أحد مماليك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير . فلما استقر الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى المملكة بعد بيبرس ، أخذه فى جملة من أخذ من مماليك بيبرس ، ورقاه حتى صار أحد الأمراء الأكابر ، وكتب الى الأمير تنكز ، نائب السلطنة بدمشق ، بعد أن قبض على الأمير سيف الدين طغاى الكبير يقول له : هذا بكتمر الساقى يكون لك بدلا من من طغاى ، اكتب اليه بما تريد من حوائجك .

فعظم بكتمر ، وعلا محله ، وطار ذكره . وكان السلطان لا يفارقه ليلا ولا نهارا الا اذا كان فى الدور السلطانية ، ثم زوجه بجاريته وحظيه ، فولدت لبكتمر ابنه أحمد ، وصار السلطان لا يأكل الا فى بيت بكتمر مما تطبخه له أم أحمد فى قدر من فضة ، وينام عندهم ، ويقوم ، واعتقد الناس أن أحمد ولد السلطان لكثرة ما يطيل حمله وتقبيله .

ولما شاع ذكر بكتمر ، وتسامع الناس به ، قدموا اليه غرائب كل شىء ، وأهدوا اليه كل نفيس ، وكان السلطان اذا حمل اليه أحد من النواب تقدمة لابد أن يقدم لبكتمر مثلها أو قريبا منها ، والذى يصل الى السلطان يهب له غالبه . فكثرت أمواله ، وصارت اشارته لا ترد ، وهو عبارة عن الدولة ، واذا ركب كان بين يديه مائتا عصا نقيب ، وعمر له السلطان القصر على بركة الفيل .

ولما مات بطريق الحجاز فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ، خلف من الأموال والقماش والأمتعة والأصناف والزدخاناه ما يزيد على العادة والحد ، ويستحى العاقل من ذكره . فأخذ السلطان من خيله أربعين فرسا ، وقال : هذه لى ما وهبته اياها . وبيع الباقى من الخيل على ما أخذه الخاصكية بثمن بخس بمبلغ ألف ألف درهم فضة ومائتى ألف درهم وثمانين ألف درهم فضة ، خارجا عما فى الجشارات .

وأنعم السلطان بالزدخاناه والسلاحخاناه التى له على الأمير قوصون بعدما أخذ منها سرجا واحدا وسيفا : القيمة عن ذلك ستمائة

(*) ص٤٢٢ جـ٢ - ط. بولاق .

ألف دينار . وأخذ له السلطان ثلاثة صناديق جوهرا مثمنا لا تعلم قيمة ذلك .

وبيع له من الصينى ، والكتب والختم والربعات ونسخ البخارى ، والدوايات الفولاذ والمطعمة ، والبصم بسقط الذهب وغير ذلك ، ومن الوبر والأطلس ، وأنواع القماش السكندرى والبغدادى وغير ذلك ... شىء كثير الى الغاية المفرطة . ودام البيع لذلك مدة شهور .

وامتنع القاضى شرف الدين النشو ، ناظر الخاص ، من حضور البيع ، واستعفى من ذلك ، فقيل له : لأى شىء فعلت ذلك ؟ قال : ما أقدر أصبر على غبن ذلك ، لأن المائة درهم تباع بدرهم .

ولما خرج مع السلطان الى الحجاز ، خرج بتجمل زائد وحشمة عظيمة ، وهو ساقة الناس كلهم ، وكان ثقله وجماله نظير ما للسلطان ، ولكن يزيد عليه بالزركش وآلات الذهب . ووجد فى خزانته بطريق الحجاز بعد موته خمسمائة تشريف : منها ما هو أطلس بطرز زركش ، وما دون ذلك من خلع أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، ووجد معه قيود وجنازير .

وتنكر السلطان له فى طريق الحجاز ، واستوحش كل منهما من صاحبه . فاتفق أنهم فى العود مرض ولده أحمد ، ومرض من بعده ، فمات ابنه قبله بثلاثة أيام ، فحمل فى تابوت مغشى بجلد جمل ، ولما مات بكتمر دفن مع ولده بنخل ، وحث السلطان فى المسير . وكان لا ينام فى تلك السفرة الا فى برج خشب ، وبكتمر عنده وقوصون على الباب ، والأمراء المشايخ كلهم حول البرج بسيوفهم ، فلما مات بكتمر ، ترك السلطان ذلك ، فعلم الناس أن احترازه كان خوفا من بكتمر .

ويقال ان السلطان دخل عليه ، وهو مريض فى درب الحجاز ، فقال له : بينى وبينك الله .

فقال له : كل من فعل شيئا يلتقيه .

ولما مات صرخت زوجته أم ابنه أحمد ، وبكت وأعولت ... الى أن سمعها الناس تتكلم بالقبيح فى حق السلطان ، من جملته : أنت تقتل مملوكك ، أنا ابنى ايش كان ؟ فقال لها : بس ، تفشرين ، هاتى مفاتيح صناديقه ، فأنا أعرف كل شىء أعطيته من الجواهر ، فرمت بالمفاتيح اليه ، فأخذها .

ولما وصل السلطان الى قلعة الجبل أظهر الحزن والندامة عليه ، وأعطى أخاه قمارى امرة مائة وتقدمة ألف ، وكان يقول : ما بقى يجيئنا مثل بكتمر . وأمر فحملت جثته وجثة ابنه الى خانقاهه هذه ، ودفنتا بقبتها .

وبدت من السلطان أمور منكرة بعد موت بكتمر . فانه كان يحجر على السلطان ، ويمنعه من مظالم كثيرة ، وكان يتلطف بالناس ، ويقضى حوائجهم ، ويسوسهم أحسن سياسة ، ولا يخالفه السلطان فى شىء ، ومع ذلك فلم يكن له حماية ولا رعاية ، ولا لغلمانه ذكر ، ومن المغرب يغلق * باب اصطبله .

وكان مما له على السلطان من المرتب فى كلّ يوم مخفيتان ، يأخذ عنهما من بيت المال

(*) ص٤٢٤، جـ٢ ، ط. بولاق .

كل يوم سبعمائة درهم : عن كل مخفية ثلثمائة وخمسين درهما . وكان السلطان اذا أنعم على أحد بشىء أو ولاه وظيفة ، قال له : روح الى الأمير بكتمر ، وبوس يده . وكان جيد الطباع ، حسن الأخلاق ، لين الجانب ، سهل الانقياد . رحمه الله .

خانقاه قوصون

هذه الخانقاه فى شمالى القرافة ، مما يلى قلعة الجبل ، تجاه جامع قوصون . أنشأها الأمير سيف الدين قوصون ، وكملت عمارتها فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة ، وقرر فى مشيختها الشيخ شمس الدين أبا الثناء محمود ابن أبى القاسم أحمد الأصفهانى ، ورتب له معلوما سنيا من الدراهم والخبز واللحم والصابون والزيت ، وسائر ما يحتاج اليه حتى جامكية غلام بغلته ، واستقر ذلك فى الوقف من بعده لكل من ولى المشيخة بها .

وقرر بها جماعة كثيرة من الصوفية ، ورتب لهم الطعام واللحم والخبز فى كل يوم ، وفى الشهر المعلوم من الدراهم ومن الحلوى والزيت والصابون . وما زالت على ذلك الى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فبطل الطعام والخبز منها ، وصار يصرف لمستحقيها مال من نقد مصر ، وتلاشى أمرها من بعد ما كانت من أعظم جهات البر ، وأكثرها نفعا وخيرا . وقد تقدم ذكر قوصون عند ذكر جامعه من هذا الكتاب .

خانقاه طغاى النجمى

هذه الخانقاه بالصحراء خارج باب البرقية ، فيما بين قلعة الجبل وقبة النصر . أنشأها الأمير طغاى تمر النجمى ، فجاءت من المبانى الجليلة ، ورتب بها عدة من الصوفية ، وجعل شيخهم الشيخ برهان الدين الرشيدى ، وبنى بجانبها حماما ، وغرس فى قبليها بستانا ، وعمل بجانب الحمام حوض ماء للسبيل ترده الدواب ، ووقف على ذلك عدة أوقاف .

ثم ان الحمام والحوض تعطلا مدة . فلما ماتت أرزباى ، زوجة القاضى فتح الدين فتح الله كاتب السر ، فى سنة ثمان وثمانمائة ، دفنها خارج باب النصر ، وأحب أن يبنى على قبرها ويوقف عليها أوقافا . ثم بدا له فنقلها الى هذه الخانقاه ، ودفنها بالقبة التى فيها ، وأدار الساقية ، وملأ الحوض ، ورتب لقراء هذه الخانقاه معلوما ، وعزم على تجديد ما تشعث من بنائها وادارة حمامها . ثم بدا له فأنشأ بجانب هذه الخانقاه تربة ، ونقل زوجته مرة ثالثة اليها ، وجعل أملاكه وقفا على تربته .

« طغاى تمر النجمى » : كان دوادار الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون . فلما مات الصالح ، استقر على حاله فى أيام أخويه الملك الكامل شعبان والملك المظفر حاجى . وكان من أحسن الأشكال ، وأبدع الوجوه . تقدم فى الدول ، وصارت له وجاهة عظيمة ، وخدمه الناس .

ولم يزل على حاله الى أن لعب به أغرلو فيمن لعب ، وأخرجه الى الشام ، وألحقه بمن

أخذه من غزة ، وذلك فى أوائل جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

وطغاى هذا أول دوادار أخذ امرة مائة وتقدمة ألف ، وذلك فى أول دولة المظفر حاجى . ولما كانت واقعة الأمير ملكتمر الحجازى والأمير آق سنقر وعدة من الأمراء ، فى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، رمى طغاى تمر سيفه وبقى بغير سيفه بعض يوم ، ثم ان المظفر أعطاه سيفه . واستمر فى الدوادارية نحو شهر ، وأخرج هو والأمير نجم الدين محمود الوزير ، والأمير سيف الدين بيدمر البدرى على الهجن الى الشام ، فأدركهم الأمير سيف الدين منجك ، وقتلهم فى الطريق .

خانقاه أم أنوك

هذه الخانقاه خارج باب البرقية بالصحراء . التى أنشأتها الخاتون طغاى ، تجاه تربة الأمير طاشتمر الساقى ، فجاءت من أجل المبانى ، وجعلت بها صوفية وقراء ، ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة ، وقررت لكل جارية من جواريها مرتبا يقوم بها .

« طغاى الخوندة الكبرى » : زوجة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأم ابنه الأمير أنوك ، كانت من جملة امائه ، فأعتقها وتزوجها ، ويقال انها أخت الأمير أقبغا عبد الواحد ، وكانت بديعة الحسن ، باهرة الجمال ، رأت من السعادة ما لم يره غيرها من نساء الملوك الترك بمصر ، وتنعمت فى ملاذ ما وصل سواها لمثلها ، ولم يدم السلطان على محبة امرأة سواها ، وصارت خوندة بعد ابنة تنكز ، وأكبر نسائه حتى من ابنة الأمير تنكز .

وحج بها القاضى كريم الدين الكبير ، واحتفل بأمرها ، وحمل لها البقول فى محاير طين على ظهور الجمال ، وأخذ لها الأبقار الحلابة ، فسارت معها طول الطريق لأجل اللبن الطرى وعمل الجبن ، وكان يقلى لها الجبن فى الغداء * والعشاء . وناهيك بمن وصل الى مداومة البقل والجبن فى كل يوم — وهما أخس ما يؤكل — فما عساه يكون بعد ذلك ! وكان القاضى كريم الدين ، والأمير مجلس وعدة من الأمراء ، يترجلون عند النزول ، ويمشون بين يدى محفتها ، ويقبلون الأرض لها كما يفعلون بالسلطان .

ثم حج بها الأمير بشتاك فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، وكان الأمير تنكز اذا جهز من دمشق تقدمة الى السلطان ، لابد أن يكون لخوند طغاى منها جزء وافر . فلما مات السلطان الملك الناصر ، استمرت عظمتها من بعده الى أن ماتت ، فى شهر شوال سنة تسع وأربعين وسبعمائة أيام الوباء ، عن ألف جارية وثمانين خادما خصيا وأموال كثيرة جدا .

وكانت عفيفة طاهرة ، كثيرة الخير والصدقات والمعروف . جهزت سائر جواريها ، وجعلت على قبر ابنها — بقبة المدرسة الناصرية بين القصرين — قراء ، ووقفت على ذلك وقفا ، وجعلت من جملته خبزا يفرق على الفقراء ، ودفنت بهذه الخانقاه ، وهى من أعمر الأماكن الى يومنا هذا .

(*) ص٤٢٥ جـ٢ ، ط.بولاق .

خانقاه يونس

هذه الخانقاه من جملة ميدان القبق ، بالقرب من قبة النصر ، خارج باب النصر . أدركت موضعها وبه عواميد تعرف بعواميد السباق ، وهى أول مكان بنى هناك .

أنشأها الأمير يونس النوروزى الدوادار . كان من مماليك الأمير سيف الدين جرجى الادريسى ، أحد الأمراء الناصرية ، وأحد عتقائه ، فترقى فى الخدم من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون الى أن صار من جملة الطائفة اليلبغاوية . فلما قتل الأمير يلبغا الخاصكى ، خدم بعده الأمير أستدمر الناصرى الأتابك ، وصار من جملة دواداريته .

وما زال يتنقل فى الخدم الى أن قام الأمير برقوق — بعد قتل الملك الأشرف شعبان — فكان ممن أعانه ، وقاتل معه ، فرعى له ذلك ، ورقاه الى أن جعله أمير مائة مقدم ألف ، وجعله دواداره لما تسلطن . فسلك فى رياسته طريقة جليلة ، ولزم حالة جميلة : من كثرة الصيام والصلاة ، واقامة الناموس الملوكى ، وشدة المهابة ، والاعراض عن اللعب ، ومداومة العبوس ، وطول الجلوس ، وقوة البطش لسرعة غضبه ، ومحبة الفقراء ، وحضور السماع والشغف به ، واكرام الفقهاء وأهل العلم .

وأنشأ بالقاهرة ربعا وقيسارية بخط البندقانيين ، وتربة خارج باب الوزير تحت القلعة ، وأنشأ بظاهر دمشق مدرسة بالشرف الأعلى ، وأنشأ خانا عظيما خارج مدينة غزة ، وجعل بجانب هذه الخانقاه مكتبا يقرأ فيه أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وبنى بها صهريجا ينقل اليه ماء النيل .

وما زال على وفور حرمته ونفوذ كلمته . الى أن خرج الأمير يلبغا الناصرى ، نائب حلب ، على الملك الظاهر برقوق فى سنة احدى وتسعين وسبعمائة . وجهز السلطان الأمير أيتمش ، والأمير يونس هذا ، والأمير جهاركس الخليلى ، وعدة من الأمراء والمماليك ... لقتاله . فلقوه بدمشق وقاتلوه فهزمهم ، وقتل الخليلى ، وفر أيتمش الى دمشق .

ونجا يونس بنفسه يريد مصر . فأخذه الأمير عيفا بن شطى ، أمير الأمراء ، وقتله يوم الثلاثاء ثانى عشرى شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، ولم يعرف له قبر بعدما أعد لنفسه عدة مدافن فى غير ما مدينة من مصر والشام .

خانقاه طيبرس

هذه الخانقاه من جملة أراضى بستان الخشاب ، فيما بين القاهرة ومصر ، على شاطىء النيل . أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار ، نقيب الجيوش ، فى سنة سبع وسبعمائة ، بجوار جامعه ، المقدم ذكره عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب ، وقرر بها عدة من الصوفية ، وجعل لهم شيخا ، وأجرى لهم المعاليم .

ولم تزل عامرة الى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة . فابتاع شخص الوكالة والربعين — المعروفين بربع بكتمر —

والصامين ، ونقض ذلك ... فخرب الخط ، وصار مخوفا . فلما كان فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، نقل الحضور من هذه الخانقاه الى المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر ، وهى الآن بصدد أن تدثر ، وتمحى آثارها .

خانقاه اقبغـــا

هذه الخانقاه هى موضع من المدرسة الأقبغاوية ، بجوار الجامع الأزهر ، أفرده الأمير اقبغا عبد الواحد ، وجعل فيه طائفة يحضرون وظيفة التصوف ، وأقام لهم شيخا ، وأفرد لهم وقفا يختص بهم ، وهى باقية الى يومنا هذا . وله أيضا خانقاه بالقرافة .

الخانقاه الخروبية *

هذه الخانقاه بساحل الجيزة ، تجاه المقياس ، كانت منظرة من أعظم الدور وأحسنها . أنشأها زكى الدين أبو بكر بن على الخروبى كبير التجار ، ثم توارثها من بعده أولاد الخروبى التجار بمصر ، فلم تزل بأيديهم الى أن نزلها السلطان المؤيد شيخ ، فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رجب الفرد سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة ، وأقام بها . فاقتضى رأيه أن يجعلها خانقاه ، فاستدعى بابن الخروبى ليشتريها منه ، فتبرع بما يخصه منها ، وصار اليه باقيها .

فتقدم الى الأمير سيف الدين أبى بكر بن المسروق الأستادار بعملها خانقاه ، وسار منها فى يوم الأربعاء سادس عشره ، فأخذ الأمير

(*) ص٤٢٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

أبو بكر فى عملها حتى كملت فى آخر السنة . واستقر فى مشيختها شمس الدين محمد بن الحتى الدمشقى الحنبلى ، وخلع عليه يوم السبت سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ، ورتب له فى كل يوم عشرة مؤيدية : عنها مبلغ سبعين درهما فلوسا ، سوى الخبز والسكن ، وقرر عنده عشرة من الفقراء ، لكل منهم مع الخبز مؤيدى فى كل يوم . فجاءت من أحسن شئ .

ذكر الربط

الربط : جمع رباط ، وهو دار يسكنها أهل طريق الله ... قال ابن سيده : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها ، والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو ، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله ، ثم صار لزوم الثغر رباطا ، وربما سميت الخيل نفسها رباطا ، والرباط المواظبة على الأمر .

قال الفارسى : هو ثان من لزوم الثغر ، ولزوم الثغر ثان من رباط الخيل . وقوله تعالى « وصابروا ورابطوا » ، قيل معناه جاهدوا ، وقيل واظبوا على مواقيت الصلاة .

وقال أبو حفص السهروردى فى كتاب « عوارف المعارف » : وأصل الرباط ما تربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط ، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم فى الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد .

وروى داود بن صالح قال : قال لى أبو سلمة بن عبد الرحمن : ياابن أخى ، هل تدرى فى أى شئ نزلت هذه الآية « اصبروا وصابروا ورابطوا » ؟

قلت : لا .

قال : ياابن أخى ، لم يكن فى زمن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، غزو تربط فيه الخيل ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة .

فالرباط جهاد النفس ، والمقيم فى الرباط مرابط مجاهد نفسه . واجتماع أهل الربط اذا صح على الوجه الموضوع له الربط ، وتحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات وتوقى ما يفسد الأعمال ويصحح الأحوال ، عادت البركة على البلاد والعباد .

وشرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق ، وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات ، واجتناب التبعات ، ومواصلة الليل والنهار بالعبادة متعوضا بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الأوقات ، وملازمة الأوراد ، وانتظار الصلوات ، واجتناب الغفلات ... ليكون بذلك مرابطا مجاهدا .

والرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم ، ولكل قوم دار ، والرباط دارهم ، وقد شابهوا أهل الصفة فى ذلك ، فالقوم فى الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة ، ووضع الرباط لهذا المعنى .

قال مؤلفه رحمه الله : ولاتخاذ الربط والزوايا أصل من السنة . وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ لفقراء الصحابة ، الذين لا يأوون الى أهل ولا مال ، مكانا من مسجده كانوا يقيمون فيه ، عرفوا بأهل الصفة .

رباط الصاحب

هذا الرباط مطل على بركة الحبش . أنشأه الصاحب فخر الدين أبو عبد الله محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين أبى الحسن على ابن محمد بن سليم بن حنا ، ووقف عليه أبوه الصاحب بهاء الدين بعد موته عقارا بمدينة مصر ، وشرط أن يسكنه عشرة من الفقراء المجردين غير المتأهلين ، وذلك فى ذى الحجة سنة ثمان وستين وستمائة . وهو باق الى يومنا هذا ، وليس فيه أحد ، ويستأدى ريع وقفه من لا يقوم بمصالحه .

رباط الفخرى

هذا الرباط خارج باب الفتوح ، فيما بينه وبين باب النصر . بناه الأمير عز الدين أيبك الفخرى ، أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس .

رباط البغدادية

هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر ، تجاه خانقاه بيبرس ، حيث كان المنحر الذى ذكر عند ذكر القصر من هذا * الكتاب ، ومن الناس من يقول رواق البغدادية . وهذا الرباط بنته الست الجليلة تذكار باى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس ، فى سنة أربع وثمانين وستمائة ، للشيخة الصالحة زينب

(*) ص٤٢٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

ابنة أبي البركات ، المعروفة ببنت البغدادية ، فأنزلتها به ومعها النساء الخيرات . وما برح الى وقتنا هذا يعرف سكانه من النساء بالخير ، وله دائما شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن .

وآخر من أدركنا فيه الشيخة الصالحة ، سيدة نساء زمانها ، أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية ، توفيت فى ذى الحجة سنة أربع عشرة وسبعمائة ، وقد أنافت على الثمانين ، وكانت فقيهة وافرة العلم ، زاهدة قانعة باليسير ، عابدة واعظة ، حريصة على النفع والتذكير ، ذات اخلاص وخشية وأمر بالمعروف ، انتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر ، وكان لها قبول زائد ، ووقع فى النفوس .

وصار بعدها كل من قام بمشيخة هذا الرباط من النساء يقال لها البغدادية . وأدركنا الشيخة الصالحة البغدادية أقامت به عدة سنين على أحسن طريقة ، الى أن ماتت يوم السبت الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وسبعمائة .

وأدركنا هذا الرباط ، وتودع فيه النساء اللاتى طلقن أو هجرن ، حتى يتزوجن أو يرجعن الى أزواجهن ، صيانة لهن ... لما كان فيه من شدة الضبط ، وغاية الاحتراز ، والمواظبة على وظائف العبادات . حتى ان خادمة الفقيرات به كانت لا تمكن أحدا من استعمال ابريق بزبوز ، وتؤدب من خرج عن الطريق بما تراه .

ثم لما فسدت الأحوال من عهد حدوث المحن بعد سنة ست وثمانمائة ، تلاشت أمور هذا الرباط ، ومنع مجاوروه من سكنى النساء المعتدات به ، وفيه الى الآن بقايا من خير ، ويلى النظر عليه قاضى القضاة الحنفى .

رباط الست كليلة

هذا الرباط خارج درب بطوط ، من جملة حكر سنجر اليمنى ، ملاصق للسور الحجر بخط سوق الغنم وجامع أصلم . وقفه الأمير علاء الدين البراباه على الست كليلة ، المدعوة دولاى ، ابنة عبد الله التترية ، زوج الأمير سيف الدين البولى السلاحدار الظاهرى ، وجعله مسجدا ورباطا ، ورتب فيه اماما ومؤذنا ، وذلك فى ثالث عشرى شوال سنة أربع وتسعين وستمائة .

رباط الخازن

هذا الرباط بقرب قبة الامام الشافعى رحمة الله عليه من قرافة مصر . بناه الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الخازن ، والى القاهرة ، وفيه دفن . وهذا الخازن هو الذى ينسب اليه حكر الخازن خارج القاهرة .

الرباط المعروف برواق ابن سليمان

هذا الرواق بحارة الهلالية ، خارج باب زويلة ، عرف بأحمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن ابراهيم بن أبى المعالى بن العباس ، الرحبى البطائحى الرفاعى ، شيخ الفقراء الأحمدية الرفاعية بديار مصر .

كان عبدا صالحا ، له قبول عظيم من أمراء الدولة وغيرهم ، ويتردد اليه كثير من الفقراء الأحمدية ، وروى الحديث عن سبط السلفى وحدث ، وكانت وفاته ليلة الاثنين سادس ذى الحجة سنة احدى وتسعين وستمائة بهذا الرواق .

رباط داود بن ابراهيم

هذا الرباط بخط بركة الفيل . بنى فى سنة ثلاث وستين وستمائة .

رباط ابن ابى المنصور

هذا الرباط بقرافة مصر . عرف بالشيخ صفى الدين الحسين بن على بن أبى المنصور الصوفى المالكى ... كان من بيت وزارة ، فتجرد وسلك طريق أهل الله ، على يد الشيخ أبى العباس أحمد بن أبى بكر الجزار التجيبى المغربى ، وتزوج ابنته ، وعرف بالبركة ، وحكيت عنه كرامات ، وصنف كتاب « الرسالة » ذكر فيها عدة من المشايخ ، وروى الحديث وحدث ، وشارك فى الفقه وغيره .

وكانت ولادته فى ذى القعدة سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ووفاته برباطه هذا يوم الجمعة ثانى عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين وستمائة .

رباط المشتهى *

هذا الرباط بروضة مصر يطل على النيل . وكان به الشيخ المسلك ... ... [1] .

(*) ص٤٢٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

(١) هكذا بياض فى الأصل .

ولله در شيخنا العارف الأديب شهاب الدين أحمد بن أبى العباس الشاطر الدمنهورى حيث يقول :

بروضة المقياس صوفية
هم منية الخاطر والمشتهى

لهم على البحر أياد علت
وشيخهم ذاك له المنتهى

وقال الامام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى :

ياليلة مرت بنا حلوة
ان رمت تشبيها لها عبتها

لا يبلغ الواصف فى وصفها
حدا ولا يلقى له منتهى

بت مع المعشوق فى روضة
ونلت من خرطومه المشتهى

رباط الآثار

هذا الرباط خارج مصر ، بالقرب من بركة الحبش ، مطل على النيل ، ومجاور للبستان المعروف بالمعشوق .

قال ابن المتوج : هذا الرباط عمره الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد ، ولد الصاحب بهاء الدين على بن حنا ، بجوار بستان المعشوق ، ومات رحمه الله قبل تكملته ، ووصى أن يكمل من ريع بستان المعشوق ، فاذا كملت عمارته يوقف عليه ، ووصى الفقيه عز الدين بن مسكين ، فعمر فيه شيئا يسيرا وأدركه الموت الى رحمة الله تعالى ، وشرع الصاحب ناصر الدين محمد ،

ولد الصاحب تاج الدين ، فى تكملته ، فعمر فيه شيئا جيدا . انتهى .

وانما قيل له رباط الآثار ، لأن فيه قطعة خشب وحديد — يقال ان ذلك من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم — اشتراها الصاحب تاج الدين المذكور ، بمبلغ ستين ألف درهم فضة ، من بنى ابراهيم أهل ينبع ، وذكروا أنها لم تزل عندهم موروثة من واحد الى آخر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحملها الى هذا الرباط ، وهى به الى اليوم يتبرك الناس بها ، ويعتقدون النفع بها .

وأدركنا لهذا الرباط بهجة ، وللناس فيه اجتماعات ، ولسكانه عدة منافع ممن يتردد اليه أيام كان ماء النيل تحته دائما . فلما انحسر الماء من تجاهه ، وحدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ، قل تردد الناس اليه ، وفيه الى اليوم بقية .

ولما كانت أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، قرر فيه درسا للفقهاء الشافعية ، وجعل له مدرسا وعنده عدة من الطلبة ، ولهم جار فى كل شهر من وقف وقفه عليهم ، وهو باق أيضا . وفى أيام الملك الظاهر برقوق ، وقف قطعة أرض لعمل الجسر المتصل بالرباط ، وبهذا الرباط خزانة كتب ، وهو عامر بأهله .

« الوزير الصاحب » : تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الوزير الصاحب بهاء الدين على بن سليم بن حنا . ولد فى سابع شعبان سنة أربعين وستمائة ، وسمع من سبط السلفى وحدث ، وانتهت اليه رياسة عصره . وكان صاحب صيانة وسؤدد ومكارم ، وشاكلة حسنة وبزة فاخرة الى الغاية .

وكان يتناهى فى المطاعم والملابس والمناكح والمساكن ، ويجود بالصدقات الكثيرة ، مع التواضع ومحبة الفقراء وأهل الصلاح ، والمبالغة فى اعتقادهم . ونال فى الدنيا من العز والجاه ما لم يره جده الصاحب الكبير بهاء الدين ، بحيث انه لما تقلد الوزير الصاحب فخر الدين بن الخليلى الوزارة ، سار من قلعة الجبل — وعليه تشريف الوزارة — الى بيت الصاحب تاج الدين ، وقبل يده وجلس بين يديه ، ثم انصرف الى داره .

وما زال على هذا القدر من وفور العز ، الى أن تقلد الوزارة فى يوم الخميس رابع عشرى صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، بعد قتل الوزير الأمير سنجر الشجاعى ، فلم ينجب ، وتوقفت الأحوال فى أيامه ، حتى احتاج الى احضار تقاوى النواحى المرصدة بها للتخضير واستهلكها . ثم صرف فى يوم الثلاثاء خامس عشرى جمادى الأولى ، سنة أربع وتسعين وستمائة ، بفخر الدين عثمان ابن الخليلى .

وأعيد الى الوزارة مرة ثانية فلم ينجح ، وعزل وسلم مرة للشجاعى ، فجرده من ثيابه ، وضربه شيئا واحدا بالمقارع فوق قميصه ، ثم أفرج عنه على مال ، ومات فى رابع جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمائة ، ودفن فى تربتهم بالقرافة ، وكان له شعر جيد .

ولله در شيخنا الأديب جلال الدين محمد ابن خطيب داريا ، الدمشقى البيسانى ، حيث يقول فى الآثار :

ياعين ان بعد الحبيب وداره
ونأت مرابعه وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل
ان لم تريه فهذه آثاره

وقد سبقه لذلك الصلاح خليل بن أيبك الصفدى فقال * :

أكرم بآثار النبى محمد
من زاره استوفى السرور مزاره
ياعين دونك فانظرى وتمتعى
ان لم تريه فهذه آثاره

واقتدى بهما فى ذلك أبو الحزم المدنى فقال :

ياعين كم ذا تسفحين مدامعا
شوقا لقرب المصطفى ودياره
ان كان صرف الدهر عاقك عنهما
فتمتعى ياعين فى آثاره

رباط الأفرم

هذا الرباط بسفح الجرف الذى عليه الرصد ، وهو يشرف على بركة الحبش ، وكان من أحسن متنزهات أهل مصر . أنشأه الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، أمير خازندار ، الصالحى النجمى ، ورتب فيه صوفية وشيخا واماما ، وجعل فيه منبرا يخطب عليه للجمعة والعيدين ، وقرر لهم معاليم من أوقاف أرصدها لهم ، وذلك فى سنة ثلاث وستين وستمائة . وهو باق ، الا أنه لم يبق به ساكن لخراب ما حوله ، وله الى اليوم متحصل من وقفه .

والأفرم هذا هو الذى ينسب اليه جسر الأفرم خارج مصر ، وقد ذكر عند ذكر الجسور من هذا الكتاب .

الرباط العلائى

هذا الرباط خارج مصر ، بخط بين الزقاقين شرقى الخليج الكبير — يعرف اليوم بخانقاه المواصلة — وهو آيل الى الدثور لخراب ما حوله . أنشأه الملك علاء الدين أبو الحسن على ، ابن الملك المجاهد سيف الدين اسحاق صاحب الجزيرة ، ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، بجوار داره وحمامه وطاحونه ، وجعل له فيه مدفنا ، ووقف عليه بستان الجرف ، وبستانا بناحية شبرا ، وعدة حصص من قرى فلسطين والساحل ، وأحكارا ودورا بجانب الرباط .

ومات يوم الجمعة ثامن ربيع الآخر سنة احدى وثلاثين وسبعمائة ، ومولده يوم الجمعة ثامن عشرى المحرم سنة سبع وخمسين وستمائة بجزيرة ابن عمر ، وكان من الحلقة ، وسمع الحديث من النجيب الحرانى وابن عرنين وابن علاف ، ودفن فيه .

وبه الى الآن بقية ، ويحضره الفقهاء يوما فى الأسبوع ، وهم عشرة شيخهم منهم ، ومنهم قارىء ميعاد وقراء . وكان أولا معمورا بسكنى أهله دائما فيه ، وفى هذا الوقت لا يمكن سكناه لكثرة الخوف من السراق .

(*) ص٤٢٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

ذكر الزوايا

زاوية الدمياطي

هذه الزاوية فيما بين خط السبع سقايات وقنطرة السد ، خارج مصر ، الى جانب حوض السبيل المعد لشرب الدواب . أنشأها الأمير عز الدين أيبك الدمياطي الصالحي النجمي ، أحد الأمراء المقدمين الأكابر في أيام الملك الظاهر بيبرس ، وبها دفن لما مات بالقاهرة ليلة الأربعاء تاسع شعبان سنة ست وتسعين وستمائة . والى الآن يعرف الحوض المجاور لها بحوض الدمياطي .

زاوية الشيخ خضر

هذه الزاوية خارج باب الفتوح من القاهرة بخط زقاق الكحل ، تشرف على الخليج الكبير ، عرفت بالشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهراني العدوي ، شيخ السلطان الملك الظاهر بيبرس .

كان أولا قد انقطع بجبل المزة خارج دمشق ، فعرفه الأمير سيف الدين قشتمر العجمي ، وتردد اليه ، فقال له : لابد أن يتسلطن الأمير بيبرس البندقداري . فأخبر بيبرس بذلك .

فلما صارت المملكة اليه بعد قتل الملك المظفر قطز ، اشتمل على اعتقاده ، وقربه ، وبنى له زاوية بجبل المزة ، وزاوية بظاهر بعلبك ، وزاوية بحماه ، وزاوية بحمص ، وهذه الزاوية خارج القاهرة ، ووقف عليها أحكارا تغل في السنة نحو الثلاثين ألف درهم ، وأنزله بها .

وصار ينزل اليه في الأسبوع مرة أو مرتين ، ويطلعه على غوامض أسراره ، ويستشيره في أموره ، ولا يخرج عما يشير به ، ويأخذه معه في أسفاره ، وأطلق يده ، وصرفه في مملكته .

فهدم كنيسة اليهود بدمشق ، وهدم كنيسة للنصارى بالقدس ، كانت تعرف بالمصلبة ، وعملها زاوية ، وقتل قسيسها بيده ، وهدم كنيسة للروم بالاسكندرية — كانت من كراسي النصارى ، ويزعمون أن بها رأس يحيى بن زكريا — وعملها مسجدا سماه الخضر . فاتقى جانبه الخاص والعام حتى الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار نائب السلطنة ، والصاحب بهاء الدين علي بن حنا ، وملوك الأطراف .

وكان يكتب الى صاحب حماه ، وجميع الأمراء اذا طلب حاجة ، ما مثاله * : « الشيخ خضر .... الحمارة » . وكان ربع القامة كث اللحية ، يتعمم عراوي ، وفي لسانه عجمة ، مع سعة صدر ، وكرم شمائل ، وكثرة عطاء من تفرقة الذهب والفضة ، وعمل الأسمطة الفاخرة . وكانت أحواله عجيبة لا تتكيف ، وأقوال الناس فيه مختلفة : منهم من يثبت صلاحه ويعتقده ، ومنهم من يرميه بالعظائم .

وكان يخبر السلطان بأمور تقع ، منها أنه لما حاصر أرسوف — وهي أول فتوحاته — قال له : متى تأخذ هذه المدينة ؟ فعين له يوما يأخذها فيه ، فأخذها في ذلك اليوم بعينه ، واتفق له مثل ذلك في فتح قيسارية ، فلذلك كثر اعتقاده فيه .

(*) ص٤٢٠ ج٢ ، ط بولاق .

وما أحسن قول الشريف محمد بن رضوان الناسخ في ملازمة السلطان له في أسفاره :

ما الظاهر السلطان الا مالك الـ
دنيا بذاك لنا الملاحم تخبر
ولنا دليل واضح كالشمس في
وسط السماء لكل عين تنظر
لما رأينا الخضر يقدم جيشه
أبدا علمنا أنه الاسكندر

وما برح على رتبته الى ثامن عشر شوال سنة احدى وسبعين وستمائة ، فقبض عليه ، واعتقل بقلعة الجبل ، ومنع الناس من الاجتماع به . ويقال ان ذلك بسبب ان السلطان كان أعطاه تحفا قدمت من اليمن ، منها كرّ يمني مليح الى الغاية ، فأعطاه خضر لبعض المردان .

فبلغ ذلك الأمير بدر الدين الخازندار النائب — وكان قد ثقل عليه بكثرة تسلطه ، حتى لقد قال له مرة بحضرة السلطان : كأنك تشفق على السلطان وعلى أولاده مثل ما فعل قطز بأولاد المعز — فأسرها في نفسه ، وبلغ خبر الكر اليمني الى السلطان . فاستدعاه ، وحضر جماعة حاققوه على أمور كثيرة منكرة — كاللواط والزنا ونحوه — فاعتقله ، ورتب له ما يكفيه من مأكول وفاكهة وحلوى .

ولما سافر السلطان الى بلاد الروم ، قال خضر لبعض أصحابه : ان السلطان يظهر على الروم ، ويرجع الى دمشق فيموت بها بعد أن أموت أنا بعشرين يوما .

فكان كذلك ، ومات خضر في محبسه بقلعة الجبل في سادس المحرم ، أو سابعه ، من سنة ست وسبعين وستمائة ، وقد أناف على الخمسين ، فسلم الى أهله ، وحملوه الى زاويته هذه ، ودفنوه فيها .

وكان السلطان قد كتب بالافراج عنه ، فقدم البريد بعد موته ، ومات السلطان بدمشق في سابع عشري المحرم المذكور ، بعد خضر بعشرين يوما .

وهذه الزاوية باقية الى اليوم .

زاوية ابن منظور

هذه الزاوية خارج القاهرة ، بخط الدكة بجوار المقس ، عرفت بالشيخ جمال الدين محمد بن أحمد بن منظور بن يس بن خليفة ابن عبد الرحمن ، أبو عبد الله ، الكناني العسقلاني الشافعي الصوفي ، الامام الزهد .

كانت له معارف وأتباع ومريدون ومعرفة بالحديث . حدث عن أبي الفتوح الجلالي ، وروى عنه الدمياطي والدواداري وعدة من الناس ، ونظر في الفقه ، واشتهر بالفضيلة ، وكانت له ثروة وصدقات . ومولده في ذي القعدة سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، ووفاته بزاويته في ليلة الثاني والعشرين من شهر رجب الفرد سنة ست وتسعين وستمائة .

وكانت هذه الزاوية أولا تعرف بزاوية شمس الدين بن كرا البغدادي .

زاوية الظاهري

هذه الزاوية خارج باب البحر ، ظاهر القاهرة عند حمام طرغاي ، على الخليج الناصري . كانت أولا تشرف طاقاتها على بحر

النيل الأعظم ، فلما انحسر الماء عن ساحل المقس ، وحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى ، صارت تشرف على الخليج المذكور من بره الشرقى ، واتصلت المناظر هناك ... الى أن كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة . فخربت حمام طرغاى ، وبيعت أنقاضها وأنقاض كثير مما كان هناك من المناظر ، وأنشىء هناك بستان عرف أولا بعبد الرحمن ، صيرفى الأمير جمال الدين الأستادار ، لأنه أولا أنشأه ، ثم انتقل عنه .

و « الظاهرى » هذا : هو أحمد بن محمد ابن عبد الله أبو العباس جمال الدين الظاهرى . كان أبوه محمد بن عبد الله عتيق الملك الظاهر شهاب الدين غازى ، وبرع حتى صار اماما حافظا ، وتوفى ليلة الثلاثاء لأربع بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين وستمائة بالقاهرة ، ودفن بتربته خارج باب النصر .

وابنه عثمان بن أحمد بن محمد بن عبد الله فخر الدين بن جمال الدين الظاهرى الحلبى ، الامام العلامة المحدث الصالح ، ولد فى سنة سبعين وستمائة ، وأسمعه أبوه بديار مصر والشام ، وكان مكثرا ، ومات بزاويته هذه فى سنة ثلاثين وسبعمائة .

زاوية الجميزة*

هذه الزاوية موضعها من جملة أراضى الزهرى ، وهى الآن خارج باب زويلة بالقرب من معدية فريج . أنشأها الأمير سيف الدين جيرك السلاحدار المنصورى ، أحد أمراء الملك المنصور قلاوون ، فى سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، وجعل فيها عدة من الفقراء الصوفية .

زاوية الحلاوى

هذه الزاوية بخط الأبارين من القاهرة ، بالقرب من الجامع الأزهر . أنشأها الشيخ مبارك الهندى السعودى الحلاوى ، أحد الفقراء من أصحاب الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر البارينى الواسطى ، فى سنة ثمان وثمانين وستمائة ، وأقام بها الى أن مات ، ودفن فيها .

فقام من بعده ابنه الشيخ عمر بن على بن مبارك ، وكانت له سماعات ومرويات ، ثم قام من بعده ابنه شيخنا جمال الدين عبد الله ابن الشيخ عمر بن على ابن الشيخ مبارك الهندى ، وحدث ، فسمعنا عليه بها الى أن مات فى صفر سنة ثمان وثمانمائة ، وبها الآن ولده ، وهى من الزوايا المشهورة بالقاهرة .

زاوية نصر

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة . أنشأها الشيخ نصر بن سليمان أبو الفتح المنجبى ، الناسك القدوة ، وحدث بها عن ابراهيم بن خليل وغيره . وكان فقيها معتزلا عن الناس ، متخليا للعبادة ، يتردد اليه أكابر الناس وأعيان الدولة .

وكان للأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فيه اعتقاد كبير . فلما ولى سلطنة مصر ، أجل قدره وأكرم محله ، فهرع الناس اليه ، وتوسلوا به فى حوائجهم .

(*) ص٤٢١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وكان يتغالى فى محبة العارف محيى الدين محمد بن عربى الصوفى ، ولذلك كانت بينه وبين شيخ الاسلام أحمد بن تيمية مناكرة كبيرة ، ومات رحمه الله عن بضع وثمانين سنة فى ليلة السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وسبعمائة ، ودفن بها .

زاوية الخدام

هذه الزاوية خارج باب النصر ، فيما بين شقة باب الفتوح من الحسينية وبين شقة الحسينية خارج باب النصر ، أنشأها الطواشى بلال الفراجى ، وجعلها وقفا على الخدام الحبش الأجناد فى سنة سبع وأربعين وستمائة .

زاوية تقى الدين

هذه الزاوية تحت قلعة الجبل . أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، بعد سنة عشرين وسبعمائة ، لسكنى الشيخ تقى الدين رجب بن أشيرك العجمى . وكان وجيها محترما عند أمراء الدولة ، ولم يزل بها الى أن مات يوم السبت ثامن شهر رجب سنة أربع عشرة وسبعمائة . وما زالت منزلا لفقراء العجم الى وقتنا هذا .

زاوية الشريف مهدى

هذه الزاوية بجوار زاوية الشيخ تقى الدين المذكور . بناها الأمير صرغتمش فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

زاوية الطراطرية

هذه الزاوية بالقرب من موردة البلاط . بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، بوساطة القاضى شرف الدين النشو ناظر الخاص ، برسم الشيخين الأخوين محمد وأحمد — المعروفين بالطراطرية — فى سنة أربعين وسبعمائة .

وكانا من أهل الخير والصلاح ، ونزلا أولا فى مقصورة بالجامع الأزهر ، فعرفت بهما . ثم عرفت بعدهما بمقصورة الحسام الصفدى ، والد الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن الحسام ، وهذه المقصورة بآخر الرواق الأول مما يلى الركن الغربى .

ولم تزل هذه الزاوية عامرة ... الى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة ، وخرب خط زربية قوصون وما فى قبليه الى منشأة المهرانى ، وما فى بحريه الى قرب بولاق .

زاوية القلندرية

القلندرية طائفة تنتمى الى الصوفية ، وتارة تسمى أنفسها ملامتية . وحقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات ، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة الا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شىء من اللذات * المباحة ، واقتصروا على رعاية الرخصة ، ولم يطلبوا حقائق العزيمة ، والتزموا ألا يدخروا شيئا ، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا ، ولم يتقشفوا ، ولا

(*) ص٤٢٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

زهدوا ولا تعبدوا ، وزعموا أنهم قد قنعوا
بطيب قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على
ذلك ، وليس عندهم تطلع الى طلب مزيد
سوى ما هم عليه من طيب القلوب .

والفرق بين الملامتى والقلندرى : أن
لملامتى يعمل فى كتم العبادات ، والقلندرى
مل فى تخريب العادات . والملامتى يتمسك
ل أبواب البر والخير ، ويرى الفضل فيه ،
أنه يخفى أحواله وأعماله ، ويوقف نفسه
قف العوام فى هيئته وملبوسه ، تسترا
ال حتى لا يفطن له ، وهو مع ذلك متطلع
المزيد من العبادات . والقلندى لا يتقيد
ة ، ولا يبالى بما يعرف من حاله وما لا
ف ، ولا ينعطف الا على طيب القلوب وهو
ماله ... ...

ه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة ،
جهة التى فيها الترب والمقابر التى تلى
ن . أنشأها الشيخ حسن الجوالقى
رى ، أحد فقراء العجم القلندرية على
جوالقة . ولما قدم الى ديار مصر ، تقدم
راء الدولة التركية ، وأقبلوا عليه
ه ، فأثرى ثراء زائدا فى سلطنة الملك
كتبغا ، وسافر معه من مصر الى

أن السلطان اصطاد غزالا ، ودفعه
له الى صاحب حماه . فلما أحضره
سه تشريفا من حرير طرز وخش
ركش ، فقدم بذلك على السلطان ،
راء فى مداعبته ، وقالوا له على
كار : كيف تلبس الحرير والذهب

وهما حرام على الرجال ؟ فأين التزهد وسلوك طريق الفقراء ؟ ونحو ذلك .

فعندما حضر صاحب حماه الى مجلس السلطان على العادة ، قال له : ياخولد ، ايش عملت معى ؟ الأمراء أنكروا على ، والفقراء تطالبنى . فأنعم عليه بألف دينار . فجمع الفقراء والناس ، وعمل وقتا عظيما بزاوية الشيخ على الحريرى خارج دمشق .

وكان سمح النفس ، جميل العشرة ، لطيف الروح ، يحلق لحيته ولا يعتم ، ثم انه ترك الحلق ، وصارت له لحية ، وتعمم عمامة صوفية ، وكانت له عصبة ، وفيه مروءة وعصبية ، ومات بدمشق فى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة . وما زالت هذه الزاوية منزلا لطائفة القلندرية ، ولهم بها شيخ ، وفيها منهم عدد موفور .

وفى شهر ذى القعدة سنة احدى وستين وسبعمائة ، حضر السلطان الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون بخانقاه أبيه الملك الناصر ، فى ناحية سرياقوس خارج القاهرة ، ومد له شيخ الشيوخ سماطا ... كان من جملة من وقف عليه بين يدى السلطان الشريف على ، شيخ زاوية القلندرية هذه ، فاستدعاه السلطان ، وأنكر عليه حلق لحيته واستتابه ، وكتب له توقيعا سلطانيا ، منع فيه هذه الطائفة من تحليق لحاهم ، وأن من تظاهر بهذه البدعة قوبلَ على فعله المحرم ، وأن يكون شيخا على طائفته كما كان ما دام وداموا متمسكين بالسنة النبوية .

وهذه البدعة لها منذ ظهرت ما يزيد على أربعمائة سنة ، وأول ما ظهرت بدمشق فى سنة بضع عشرة وستمائة ، وكتب الى بلاد الشام بالزام القلندرية بترك زى الأعاجم والمجوس ، ولا يمكن أحد من الدخول الى بلاد الشام حتى يترك هذا الزى المبتدع واللباس المستبشع ، ومن لا يلتزم بذلك يعزر شرعا ، ويقلع من قراره قلعا . فنودى بذلك فى دمشق وأرجائها يوم الأربعاء سادس عشر ذى الحجة .

قبة النصر

هذه القبة زاوية يسكنها فقراء العجم ، وهى خارج القاهرة بالصحراء ، تحت الجبل الأحمر ، بآخر ميدان القبق من بحريه . جددها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، على يد الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك .

زاوية الركراكى

هذه الزاوية خارج القاهرة فى أرض المقس . عرفت بالشيخ المعتقد أبى عبد الله محمد الركراكى ، المغربى المالكى ، لاقامته بها . وكان فقيها مالكيا ، متصديا لأشغال المغاربة ، يتبرك الناس به ، الى أن مات بها يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، ودفن بها .

و « الركراكى » نسبة الى ركراكة ، بلدة بالمغرب ، هى أحد مراسى سواحل المغرب بقرب البحر المحيط ، تنزل فيه السفن ، فلا تخرج الا بالرياح العاصفة فى زمن الشتاء عند تكدر الهواء .

زاوية ابراهيم الصائغ

هذه الزاوية بوسط الجسر الأعظم ، تطل على بركة الفيل ، عمرها الأمير سيف الدين طغاى بعد سنة عشرين * وسبعمائة ، وأنزل فيها فقيرا عجميا من فقراء الشيخ تقى الدين رجب ، يعرف بالشيخ عز الدين العجمى ، وكان يعرف صناعة الموسيقى ، وله نغمة لذيذة وصوت مطرب وغناء جيد ، فأقام بها الى أن مات فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة . فغلب عليها الشيخ ابراهيم الصائغ الى أن مات يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، فعرفت به .

زاوية الجعبرى

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة . تنسب الى الشيخ برهان الدين ابراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبرى ، المعتقد الواعظ ، كان يجلس للوعظ ، فتجتمع اليه الناس ، ويذكرهم ويروى الحديث ، ويشارك فى علم الطب وغيره من العلوم ، وله شعر حسن ، وروى عن السخاوى ، وحدث عن البزراكى .

وكان له أصحاب يبالغون فى اعتقاده ، ويغلون فى أمره ، وكان لا يراه أحد الا أعظم قدره وأجله وأثنى عليه ، وحفظت عنه كلمات طعن عليه بسببها ، وعمر حتى جاوز الثمانين سنة .

فلما مرض أمر أن يخرج به الى مكان قبره ، فلما وقف عليه قال : قبير وحال دبير .

(*) ص٤٢٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

ومات بعد ذلك يوم فى يوم السبت رابع عشرى المحرم سنة سبع وثمانين وستمائة .

والجعابرة عدة ، منهم ... ...

زاوية ابى السعود

هذه الزاوية خارج باب القنطرة من القاهرة ، على حافة الخليج ، عرفت بالشيخ المبارك أيوب السعودى . كان يذكر أنه رأى الشيخ أبا السعود بن أبى العشائر ، وسلك على يديه ، وانقطع بهذه الزاوية ، وتبرك الناس به ، واعتقدوا اجابة دعائه ، وعمر وصار يحمل لعجزه عن الحركة . حتى مات ، عن مائة سنة ، أول صفر سنة أربع وعشرين وسبعمائة .

زاوية الحمصى

هذه الزاوية خارج القاهرة ، بخط حكر خزائن السلاح والأوسية ، على شاطىء خليج الذكر من أرض المقس بجوار الدكة . أنشأها الأمير ناصر الدين محمد — ويدعى طيقوش — ابن الأمير فخر الدين ألطنبغا الحمصى ، أحد الأمراء فى الأيام الناصرية . كان أبوه من أمراء الظاهر بيبرس .

ورتب بهذه الزاوية عشرة من الفقراء شيخهم منهم ، ووقف عليها عدة أماكن فى جوارها وحصة من قرية بورين من قرى ساحل الشام ، وغير ذلك فى سنة تسع وسبعمائة . فلما خرب ما حولها ، وارتدم خليج الذكر ، تعطلت .

وهى الآن قد عزم مستحقو ريعها على هدمها ، لكثرة ما أحاط بها من الخراب من سائر جهاتها ، وصار السلوك اليها مخوفا بعد ما كانت تلك الخطة فى غاية العمارة ، وفى جمادى سنة عشرين وسبعمائة هدمت .

زاوية المغربل

هذه الزاوية خارج القاهرة ، بدرب الزراق من الحكر ، عرفت بالشيخ المعتقد على المغربل ومات فى يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . ولما كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة ، خربت الحكورة ، وهدم درب الزراق وغيره .

زاوية القصرى

هذه الزاوية بخط المقس خارج القاهرة . عرفت بالشيخ أبى عبد الله محمد بن موسى عبد الله بن حسن القصرى ، الرجل الصالح الفقيه المالكى المغربى ، قدم من قصر كتامة بالمغرب الى القاهرة ، وانقطع بهذه الزاوية ، على طريقة جميلة من العبادة وطلب العلم ، الى أن مات بها فى التاسع من شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين وستمائة .

زاوية الجاكى

هذه الزاوية فى سويقة الريش ، من الحكورة خارج القاهرة ، بجانب الخليج الغربى . عرفت بالشيخ المعتقد حسين بن ابراهيم بن على الجاكى ، ومات بها فى يوم الخميس العشرين من شوال سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، ودفن خارج باب النصر ، وكانت جنازته عظيمة جدا .

وأقام الناس يتبركون بزيارة قبره . الى أن كانت سنة سبع عشرة وثمانمائة ، فأقبل الناس الى زيارة قبره ، وكان لهم هناك مجتمع عظيم فى كل يوم ، ويحملون النذور الى * قبره ، ويزعمون أن الدعاء عنده لا يرد ... فتنة أضل الشيطان بها كثير من الناس ، وهم على ذلك الى يومنا هذا .

زاوية الأبناسى

هذه الزاوية بخط المقس . عرفت بالشيخ الفقيه برهان الدين ابراهيم بن حسين بن موسى بن أيوب الأبناسى الشافعى . قدم من الريف ، وبرع فى الفقه ، واشتهر بسلامة الباطن ، وعرف بالخير والصلاح ، وكتب على الفتوى ، ودرس بالجامع الأزهر وغيره ، وتصدى لأشغال الطلبة عدة سنين ، وولى مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء .

وطلبه الأمير سيف الدين برقوق — وهو يومئذ أتابك العساكر — حتى يقلده قضاء القضاة بديار مصر . فغيب فرارا من ذلك ، وتنزها عنه ، الى أن ولى غيره . وكانت ولادته قبيل سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، ووفاته بمنزلة المويلح من طريق الحجاز — بعد عوده من الحج — فى ثامن المحرم سنة اثنتين وثمانمائة ، ودفن بعيون القصب .

زاوية اليونسية

هذه الزاوية خارج القاهرة ، بالقرب من باب اللوق ، تنزلها الطائفة اليونسية : واحدهم يونسى — بضم الياء المعجمة باثنتين من تحتها ، وبعد الياء واو ، ثم نون بعدها سين مهملة ، فى آخرها ياء آخر الحروف — نسبة الى يونس .

و «يونس» المنسوب اليه الطائفة اليونسية غير واحد : فمنهم يونس بن عبد الرحمن القمى ، مولى آل يقطين ، وهو الذى يزعم أن معبوده على عرشه ، تحمله ملائكته وان كان هو أقوى منها ، كالكركى تحمله رجلاه وهو أقوى منهما ... وقد كفر من زعم ذلك ، فان الله تعالى هو الذى يحمل العرش وحملته . وهذه الطائفة اليونسية من غلاة الشيعة .

واليونسية أيضا فرقة من المرجئة ينتمون الى يونس السموى . وكان يزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له ، وهو ترك الاستكبار عليه والمحبة له ، فمن اجتمعت فيه هذه الخلال فهو مؤمن . وزعم أن ابليس كان عارفا بالله ، غير أنه كفر باستكباره عليه .

ولهم يونس بن يونس بن مساعد الشيبانى ثم المخارقى ، شيخ الفقراء اليونسية ، شيخ صالح له كرامات مشهورة ، ولم يكن له شيخ ، بل كان مجذوبا ، جذب الى طريق الخير . توفى بأعمال دارا ، فى سنة تسع عشرة وسبعمائة ، وقد ناهز تسعين سنة ، وقبره مشهور يزار ويتبرك به ، واليه تنسب هذه الطائفة اليونسية .

زاوية الخلاطى

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة ، بالقرب من زاوية الشيخ نصر المنجبى .

(*) ص٣٢٤ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

توفت ... وكانت لهم وجاهة : منهم ناصر الدين محمد بن علاء الدين على بن محمد بن حسن الخلاطى ، مات فى نصف جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، ودفن بها .

الزاوية العدوية

هذه الزاوية بالقرافة . تنسب الى الشيخ عدى بن مسافر بن اسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان ، الهكارى القرشى الأموى ، وكان قد صحب عدة من المشايخ — كعقيل المنبجى ، وحماد الدباس ، وعبد القادر السهروردى ، وعبد القادر الجيلى — ثم انقطع فى جبل الهكارية من أعمال الموصل ، وبنى له زاوية ، فمال اليه أهل تلك النواحى كلها ميلا لم يسمع لأرباب الزوايا مثله ، حتى مات سنة سبع — وقيل سنة خمس — وخمسين وخمسمائة ، ودفن فى زاويته .

وقدم ابن أخيه الى هذه البلاد — وهو زين الدين — فأكرم وأنعم عليه بامرة ، ثم تركها وانقطع فى قرية بالشام — تعرف ببيت فار — على هيئة الملوك : من اقتناء الخيول المسومة والمماليك والجوارى والملابس ، وعمل الأسمطة الملوكية .

فافتتن به بعض نساء الطائفة القيمرية ، وبالغت فى تعظيمه ، وبذلت له أموالا عظيمة ، وحاشيتها تلومها فيه ، فلا تصغى الى قولهم . فاحتالوا حتى أوقفوها عليه ، وهو عاكف على المنكرات ، فما زادها ذلك الا ضلالا ، وقالت : أنتم تنكرون هذا عليه ، انما الشيخ يتدلل على ربه .

وأتاه الأمير الكبير علم الدين سنجر الدوادار ومعه الشهاب محمود لتحليفه ، فى أول دولة الأشرف خليل بن قلاوون ، الى قريته . فاذا هو كالملك فى قلعته : للتجمل الظاهر والحشمة الزائدة ، والفرش الأطلس ، وآنية الذهب والفضة ، والنضار الصينى وأشياء تفوت العد ... الى غير ذلك من الأشربة المختلفة الألوان ، والأطعمة المنوعة .

فلما دخلا عليه لم يحتفل بهما ، وقبل الأمير سنجر يده وهو جالس لم يقم ، وبقى قائما قدامه يحدثه ، وزين الدين يسأله ساعة ، ثم أمره أن يجلس ، فجلس على ركبتيه متأدبا بين يديه ، فلما حلفاه * ، أنعم عليهما بما يقارب خمسة عشر ألف درهم .

وتخلف من طائفته الشيخ عز الدين أميران ، وأنعم عليه بامرة دمشق ، ثم نقل الى امرة بصفد ، ثم أعيد الى دمشق ، وترك الامرة وانقطع بالمزة ، وتردد اليه الأكراد من كل قطر ، وحملوا اليه الأموال . ثم انه أراد أن يخرج على السلطان بمن معه من الأكراد فى كل بلد ، فباعوا أموالهم ، واشتروا الخيل والسلاح ، ووعد رجاله بنيابات البلاد ، ونزل بأرض اللجون .

فبلغ ذلك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فكتب الى الأمير تنكز نائب الشام بكشف أخبارهم ، وأمسك السلطان من كان بهذه الزاوية العدوية ، ودرك على أمير طبر ،

(*) ص٢٣٥ جـ٢ ، ط بولاق .

واختلفت الأخبار : فقيل انهم يريدون سلطنة مصر ، وقيل يريدون ملك اليمن . فقلق السلطان لأمرهم ، وأهمه ... الى أن أمسك الأمير تنكز عز الدين المذكور ، وسجنه فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة حتى مات ، وفرق الأكراد ، ولو لم يتدارك لأوشك أن يكون لهم نوبة .

زاوية السدار

هذه الزاوية برأس حاة الديلم . بناها الفقير المعتقد على بن السدار فى سنة سبعين وسبعمائة ، وتوفى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة .

ذكر المشاهد التى يتبرك الناس بزيارتها

مشهد زين العابدين

هذا المشهد فيما بين الجامع الطولونى ومدينة مصر ... تسميه العامة مشهد زين العابدين ، وهو خطأ . وانما هو مشهد رأس زيد بن على — المعروف بزين العابدين — ابن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام ، ويعرف فى القديم بمسجد محرس الخصى .

قال القضاعى : مسجد محرس الخصى بنى على رأس زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، حين أنفذه هشام بن عبد الملك الى مصر ، ونصب على المنبر بالجامع ، فسرقه أهل مصر ، ودفنوه فى هذا الموضع .

وقال الكندى فى كتاب « الأمراء » : وقدم الى مصر ، فى سنة اثنتين وعشرين ومائة ، أبو الحكم بن أبى الأبيض القيسى خطيبا برأس زيد بن على ، رضوان الله عليه ، يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة ، واجتمع الناس اليه فى المسجد .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب « الجوهر المكنون فى ذكر القبائل والبطون » : وبنو زيد بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام ، الشهيد بالكوفة ، ولم يبق له عليه السلام غير رأسه التى بالمشهد ، الذى بين الكومين بمصر ، بطريق جامع ابن طولون وبركة الفيل ، وهو من الخطط يعرف بمسجد محرس الخصى .

ولما صلب ، كشفوا عورته ، فنسج العنكبوت فسترها ، ثم انه بعد ذلك أحرق ، وذرى فى الريح ، ولم يبق منه الا رأسه التى بمصر . وهو مشهد صحيح لأنه طيف بها بمصر ، ثم نصبت على المنبر بالجامع بمصر فى سنة اثنتين وعشرين ومائة ، فسرقت ودفنت فى هذا الموضع الى أن ظهرت ، وبنى عليها مشهد .

وذكر ابن عبد الظاهر أن الأفضل بن أمير الجيوش ، لما بلغته حكاية رأس زيد ، أمر بكشف المسجد — وكان وسط الأكوام ، ولم يبق من معالمه الا محراب — فوجد هذا العضو الشريف .

قال محمد بن منجب بن الصيرفى : حدثنى الشريف فخر الدين أبو الفتوح ناصر الزيدى خطيب مصر — وكان من جملة من حضر الكشف — قال : لما خرج هذا العضو رأيته ،

وهو هامة وافرة ، وفى الجبهة أثر فى سعة الدرهم ، فضمخ وعطر ، وحمل الى دار حتى عمر هذا المشهد .

وكان وجدانه يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأول سنة خمس وعشرين وخمسمائة . وكان الوصول به فى يوم الأحد ، ووجدانه فى يوم الأحد .

« زيد بن على » بن الحسين بن على بن أبى طالب — كنيته أبو الحسن — الامام الذى تنسب اليه الزيدية ، احدى طوائف الشيعة ، سكن المدينة ، وروى عن أبيه على ابن الحسين — الملقب زين العابدين — وعن أبان بن عثمان ، وعبيد الله بن أبى رافع ، وعروة بن الزبير . وروى عنه محمد بن شهاب الزهرى ، وزكريا بن أبى زائدة ، وخلق ... ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : رأى جماعة من الصحابة .

وقيل لجعفر بن محمد الصادق عن الرافضة : انهم يتبرأون من عمك زيد .

فقال : برىء الله ممن تبرأ من عمى . كان والله أقرأنا لكتاب الله ، وأفقهنا فى دين الله ، وأوصلنا للرحم ، والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله .

وقال أبو اسحاق السبيعى : رأيت زيد بن على ، فلم أر فى أهله مثله ، ولا أعلم منه ولا أفضل ، وكان أفصحهم لسانا ، وأكثرهم زهدا وبيانا .

وقال الشعبى : والله ما ولد النساء أفضل من زيد بن على ، ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد .

وقال أبو حنيفة : شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله ، فما رأيت فى زمانه أفقه منه ولا أعلم ، ولا أسرع جوابا ولا أبين قولا ، لقد كان منقطع القرين .

وقال الأعمش * : ما كان فى أهل زيد بن على مثل زيد ، ولا رأيت فيهم أفضل منه ، ولا أفصح ولا أعلم ولا أشجع ، ولقد وفى له من تابعه لاقامتهم على المنهج الواضح .

وسئل جعفر بن محمد الصادق عن خروجه ، فقال : خرج على ما خرج عليه آباؤه .

وكان يقال لزيد حليف القرآن ، وقال : خلوت بالقرآن ثلاث عشرة سنة أقرأه وأتدبره ، فما وجدت فى طلب الرزق رخصة ، وما وجدت « ابتغوا من فضل الله » الا العبادة والفقه .

وقال عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب : لقد أصيب عندكم رجل ما كان فى زمانكم مثله ، ولا أراه يكون بعده مثله ... زيد بن على . لقد رأيته وهو غلام حدث ، وانه ليسمع الشىء من ذكر الله فيغشى عليه ، حتى يقول القائل : ما هو بعائد الى الدنيا !

وكان نقش خاتم زيد « اصبر تؤجر ، اصدق تنج » . وقرأ مرة قوله تعالى « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » . فقال : ان هذا لوعيد وتهديد من الله . ثم قال : اللهم لا تجعلنا ممن تولى عنك فاستبدلت به بدلا .

(*) ص٤٢٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

وكان اذا كلمه انسان ، وخاف أن يهجم على أمر يخاف منه مأثما ، قال له : ياعبد الله ، أمسك أمسك ، كف كف ، اليك اليك ، عليك بالنظر لنفسك . ثم يكف عنه ولا يكلمه .

وقد اختلف فى سبب قيام زيد ، وطلبه الأمر لنفسه . فقيل ان زيد بن على ، وداود ابن على بن عبد الله بن عباس ، ومحمد بن عمر بن على بن أبى طالب ، قدموا على خالد ابن عبد الله القسرى بالعراق ، فأجازهم ورجعوا الى المدينة . فلما ولى يوسف بن عمر العراق ، بعد عزل خالد ، كتب الى هشام ابن عبد الملك ، وذكر له أن خالدا ابتاع أرضا بالمدينة من زيد بعشرة آلاف دينار ، ثم رد الأرض عليه .

فكتب هشام الى عامل المدينة أن يسيرهم اليه ، ففعل ، فسألهم هشام عن ذلك ، فأقروا بالجائزة ، وأنكروا ما سوى ذلك ، وحلفوا . فصدقهم وأمرهم بالمسير الى العراق ليقابلوا خالدا ، فساروا على كره ، وقابلوا خالدا فصدقهم ، وعادوا نحو المدينة . فلما نزلوا القادسية ، راسل أهل الكوفة زيدا ، فعاد اليهم .

وقيل بل ادعى خالد القسرى أنه أودع زيدا وداود بن علي ونفرا من قريش مالا ، فكتب يوسف بن عمر بذلك الى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأحضرهم هشام من المدينة ، وسيرهم الى يوسف ليجمعهم وخالدا ، فقدموا عليه ، فقال يوسف لزيد : ان خالدا زعم أنه أودع عندك مالا .

فقال زيد : كيف يودعنى وهو يشتم آبائى على منبره ؟

فأرسل الى خالد ، فأحضره فى عباءة ، وقال له : هذا زيد قد أنكر أنك أودعته شيئا .

فنظر خالد اليه والى داود ، وقال ليوسف : أتريد أن تجمع اثمك مع اثمنا فى هذا ؟ كيف أودعه وأنا أشتم آباءه وأشتمه على المنبر ؟

فقال زيد لخالد : ما دعاك الى ما صنعت ؟

فقال : شدد على العذاب ، فادعيت ذلك ، وأملت أن يأتى الله بفرج قبل قدومك .

فرجعوا ، وأقام زيد وداود بالكوفة .

وقيل ان يزيد بن خالد القسرى هو الذى ادعى أن المال وديعة عند زيد . فلما أمرهم هشام بالمسير الى العراق الى يوسف ، استقالوه خوفا من شر يوسف وظلمه ، فقال : أنا أكتب اليه بالكف عنكم . وألزمهم بذلك .

فساروا على كره ، فجمع يوسف بينهم وبين يزيد ، فقال يزيد : ليس لى عندهم قليل ولا كثير .

فقال له يوسف : أتهزأ بأمير المؤمنين ؟

فعذبه يومئذ عذابا كاد يهلكه ، ثم أمر بالقرشيين فضربوا ، وترك زيدا ، ثم استحلفهم وأطلقهم ، فلحقوا بالمدينة ، وأقام زيد بالكوفة .

وكان زيد قال لهشام لما أمره بالمسير الى يوسف : والله ما آمن ان بعثتنى اليه ألا نجتمع أنا وأنت حيين أبدا .

قال : لا بد من المسير اليه ... فسار اليه .

وقيل كان السبب فى ذلك أن زيدا كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسين

بن على فى وقوف على [1] رضى الله عنه : فزيد يخاصم عن بنى حسين ، وجعفر يخاصم عن بنى حسن ، فكانا يبلغان كل غاية ، ويقومان فلا يعيدان مما كان بينهما حرفا .

فلما مات جعفر ، نازعه عبد الله بن الحسن ابن الحسن . فتنازعا يوما بين يدى خالد بن عبد الملك بن الحارث بالمدينة ، فأغلظ عبد الله لزيد ، وقال : ياابن السندية . فضحك زيد ، وقال : قد كان اسماعيل عليه السلام ابن أمة ، ومع ذلك فقد صبرت أمى بعد وفاة سيدها ، ولم يصبر غيرها ... يعنى فاطمة بنت الحسين أم عبد الله ، فانها تزوجت بعد أبيه الحسن بن الحسن .

ثم ان زيدا ندم ، واستحيى من فاطمة فانها عمته ، ولم يدخل اليها زمانا . فأرسلت اليه : ياابن أخى ، انى لأعلم أن أمك عندك ، كأم عبد الله عنده . وقالت لعبد الله : بئسما قلت لأم زيد ، أما والله لنعم دخيلة القوم كانت .

وذكر أن خالدا قال لهما : اغدوا علينا غدا فلست ابن عبد الملك ان لم أفصل بينكما .

فباتت المدينة تغلى كالمرجل : يقول قائل قال زيد كذا ، ويقول قائل قال عبد الله كذا . فلما كان من الغد ، جلس خالد فى المسجد ، واجتمع الناس ، فمن بين شامت ومهموم .

فدعا بهما خالد وهو يحب أن يتشاتما . فذهب عبد الله يتكلم ، فقال زيد : لاتعجل ياأبا محمد ، أعتق زيد كل ما يملك ان خاصمك الى خالد أبدا . ثم أقبل الى خالد ، فقال له : لقد جمعت ذرية رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر .

فقال خالد : أما لهذا السفيه أحد ؟

فتكلم رجل من الأنصار من آل * عمرو بن حزم ، فقال : ياابن أبى تراب وابن حسين السفيه ، أما ترى لوال عليك حقا ولا طاعة ؟!

فقال زيد : اسكت أيها القحطانى ، فانا لا نجيب مثلك .

قال : ولم ترغب عنى ؟ فوالله انى لخير منك وخير من أبيك ، وأمى خير من أمك .

فتضاحك زيد ، وقال : يامعشر قريش ، هذا الدين قد ذهب ، أفتذهب الأحساب ؟ فوالله ليذهب دين القوم وما تذهب أحسابهم .

فقام عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب ، فقال : كذبت والله أيها القحطانى ، فوالله لهو خير منك نفسا وأبا وأما ومحتدا . وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفا من حصباء وضرب بها الأرض ، وقال : والله انه ما لنا على هذا من صبر ، وقام .

ثم شخص زيد الى هشام بن عبد الملك ، فجعل هشام لا يأذن له ، وهو يرفع اليه القصص . فكلما يرفع قصة ، يكتب هشام فى أسفلها « ارجع الى منزلك » ، فيقول زيد : والله لا أرجع الى خالد أبدا .

ثم انه أذن له يوما بعد طول حبس ، فصعد زيد — وكان بادنا — فوقف فى بعض الدرج

---

(1) قوله « فى وقوف على ... » الخ ، هكذا فى النسخ ، ولعله محرف من رقوق (جمع رق) بمعنى الصحيفة ، لاشتمالها على حكم ونصائح مثلا ، وليحرر ، اهـ ... مصححه .

(*) ص٤٢٧ ج٢ ، ط. بولاق .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

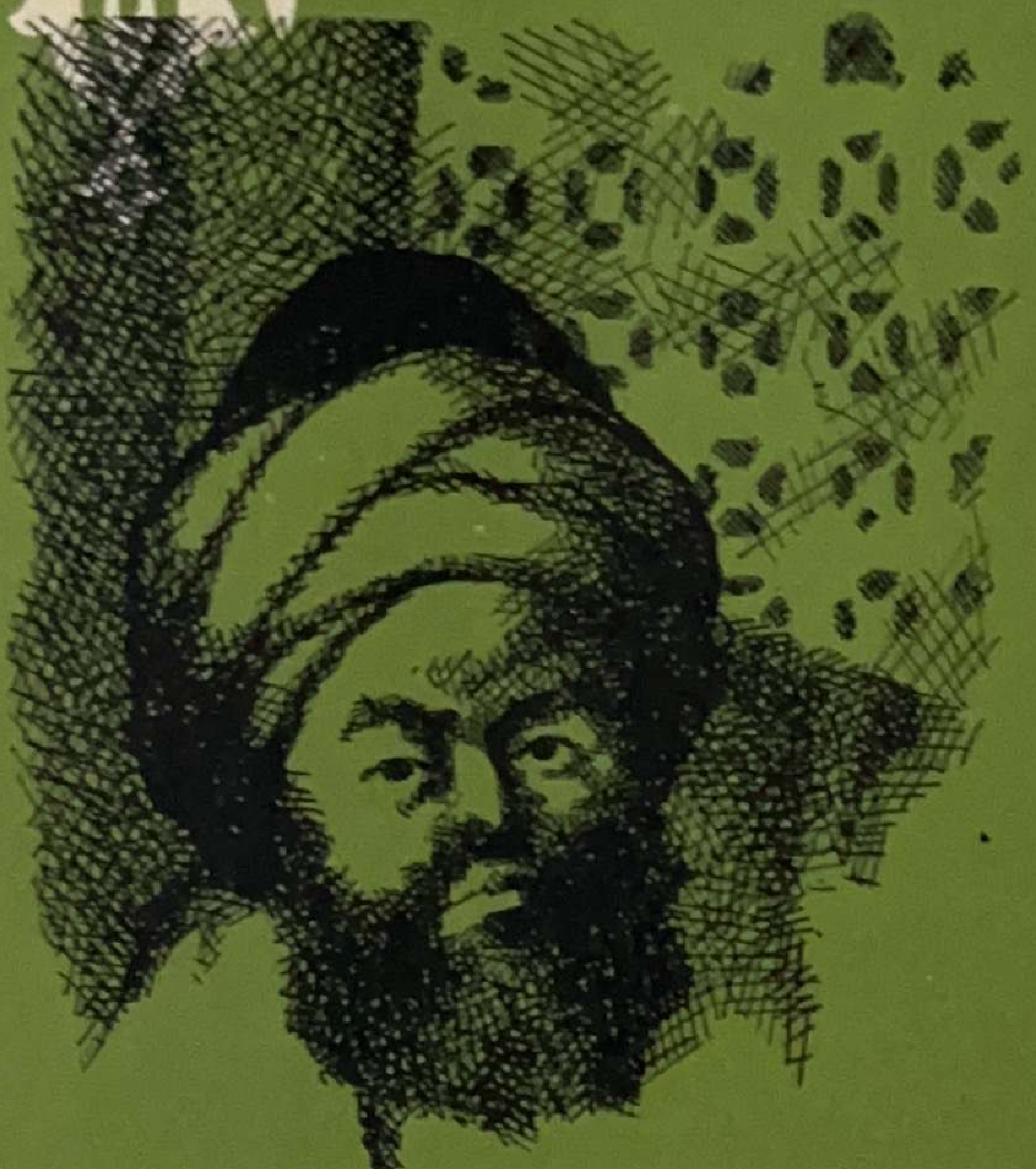
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقيّ الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزي

الجزء
٤٤



كتاب التحرير

«كانت مصر هي مسقط رأسي ، وملعب أترابي ، ومجمع ناسي ، ومغنى عشيرتي وحامتي ، وموطن خاصتي وعامتي ، وجؤجؤي الذي ربي جناحي في وكره ، وعش مأربي ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت منذ شذوت العلم ، وآتاني ربي الفطانة والفهم ، أرغب في معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

وهو يقول : والله لا يحب الدنيا احد الا ذل . ثم صعد — وقد جمع له هشام أهل الشام — فسلم ، ثم جلس . فرمى عليه هشام طويلة ، فحلف لهشام على شيء ، فقال هشام : لا أصدقك .

فقال : ياأمير المؤمنين ، ان الله لم يرفع أحدا عن أن يرضى بالله ، ولم يضع أحدا عن ألا يرضى بذلك منه .

فقال هشام : أنت زيد المؤمل للخلافة وما أنت والخلافة — لا أم لك — وأنت ابن أمة ؟

فقال زيد : لا أعلم أحدا عند الله أفضل من نبى بعثه ، ولقد بعث الله نبيا وهو ابن أمة ، ولو كان به تقصير عن منتهى غاية لم يبعث ، وهو اسماعيل بن ابراهيم ، والنبوة أعظم منزلة من الخلافة عند الله ، ثم لم يمنعه الله من أن جعله أبا للعرب ، وأبا لخير البشر محمد صلى الله عليه وسلم ، ومايقصر برجل أبوه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أمى فاطمة لا أفخر بأم .

فوثب هشام من مجلسه ، وتفرق الشاميون عنه ، وقال لحاجبه : لايبيت هذا فى عسكرى أبدا .

فخرج زيد وهو يقول : ما كره قوم قط جر السيوف الا ذلوا . وسار الى الكوفة ، فقال له محمد بن عمر بن على بن أبى طالب : أذكرك الله يازيد لما لحقت بأهلك ، ولا تأت أهل الكوفة ، فانهم لا يفون لك .

فلم يقبل ، وقال : خرج بنا هشام أسراء على غير ذنب من الحجاز الى الشام ، ثم الى الجزيرة ، ثم الى العراق ، ثم الى تيس ثقيف يلعب بنا . وأنشد :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى
أصبحت عن عرض الحياة بمعزل
فأجبتها ان المنية منزل
لابد أن أسقى بكاس المنهل
ان المنية لو تمثل مثلت
مثلى اذا نزلوا بضيق المنزل
فاثنى حبالك لا أبا لك واعلمى
انى امرؤ سأموت ان لم أقتل

أستودعك الله ، وانى أعطى الله عهدا أن دخلت يدى فى طاعة هؤلاء ما عشت .

وفارقه ، وأقبل الى الكوفة ، فأقام بها مستخفيا تنتقل فى المنازل . فأقبلت الشيعة تختلف اليه تبايعه ، فبايعه جماعة من وجوه أهل الكوفة .

وكانت بيعته : انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ، ورد المظالم ، وافعال الخير ، ونصرة أهل البيت ... أتبايعون على ذلك ؟

فاذا قالوا : نعم ، وضع يده على أيديهم ويقول : عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : لتؤمنن بيعتى ، ولتقاتلن عدوى ، ولتنصحن لى فى السر والعلانية . فاذا قال : نعم ، مسح يده على يده ، ثم قال : اللهم فاشهد .

فبايعه خمسة عشر ألفا — وقيل أربعون ألفا — وأمر أصحابه بالاستعداد . فأقبل من

يريد أن يلى ، ويخرج معه يستعد ونهيأ .

فشاع أمره فى الناس هذا على قول من زعم أنه أتى الكوفة من الشام ، واختفى بها يبايع الناس .

وأما على قول من زعم أنه أتى الى يوسف ابن عمر ، لمرافعة خالد بن عبد الله القسرى ، أو ابنه يزيد بن خالد ، فانه قال أقام زيد بالكوفة ظاهرا ، ومعه داود بن على بن عبد الله بن عباس ، وأقبلت الشيعة تختلف اليه ، وتأمره بالخروج ويقولون انا نرجو أن تكون أنت المنصور ، وان هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية .

فأقام بالكوفة ، ويوسف بن عمر يسأل عنه ، فيقال هو هاهنا ، ويبعث اليه ليسير ، فيقول : نعم ، ويعتل بالوجع . فمكث ما شاء الله . ثم أرسل اليه يوسف بالمسير عن الكوفة ، فاحتج بأنه يحاكم آل طلحة بن عبد الله بملك بينهما بالمدينة . فأرسل اليه ليوكل وكيلا ويرحل عنها .

فلما رأى الجد من يوسف فى أمره ، سار حتى أتى القادسية — وقيل الثعلبية — فتبعه أهل الكوفة ، وقالوا له نحن أربعون ألفا ، لم يتخلف عنك أحد ، نضرب عنك بأسيافنا ، وليس هاهنا من أهل الشام الا عدة يسيرة ، وبعض قبائلنا يكفيهم باذن الله ، وحلفوا له بالأيمان المغلظة .

فجعل يقول : انى أخاف أن تخذلونى وتسلمونى ، كفعلكم بأبى وجدى . فيحلفون له .

فقال له داود بن على : لا يغرك يا ابن عمى هؤلاء ، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك : جدك على بن أبى طالب حتى قتل ، والحسن من بعده بايعوه ، ثم وثبوا عليه وانتزعوا رداءه وجرحوه ؟ أوليس قد أخرجوا جدك الحسين ، وحلفوا له ، ثم خذلوه وأسلموه ، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه ؟ فلا ترجع معهم .

فقالوا : يا زيد ، ان هذا لا يريد أن تظهر أنت ، ويزعم أنه وأهل بيته أولى بهذا الأمر منكم .

فقال زيد لداود : ان عليا كان يقاتله معاوية بدهيه ، وان الحسين قاتله يزيد والأمر مقبل عليهم .

فقال له داود : انى أخاف ان رجعت معهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم ، وأنت أعلم .

ومضى داود الى المدينة ، ورجع زيد الى الكوفة فأتاه سلمة بن كهيل ، فذكر له قرابته من رسول الله صلىّ الله عليه وسلم وحقه ، فأحسن ، ثم قال له : نشدتك الله ، كم بايعك ؟

قال : أربعون ألفا

قال : فكم بايع جدك ؟

قال : ثمانون ألفا

قال : فكم حصل معه ؟

قال : ثلثمائة .

قال : نشدتك الله ، أنت خير أم جدك ؟

قال : جدى .

قال : فهذا القرن خير أم ذلك القرن ؟

قال : ذلك القرن .

(*) ص٢٣٨ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

قال : أفتطمع أن يفى لك هؤلاء ، وقد غدر أولئك بجدك ؟

قال : قد بايعونى ، ووجبت البيعة فى عنقى وعنقهم .

قال : أفتأذن لى أن أخرج من هذا البلد ، فلا آمن أن يحدث حدث فأهلك نفسى ؟

فأذن له ، فخرج الى اليمامة .

وكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن الى زيد : « أما بعد . فان أهل الكوفة نفج العلانية ، خور السريرة ، هوج فى الرد ، أجزع فى اللقا ، تقدمهم ألسنتهم ، ولا تشايعهم قلوبهم ، ولقد تواترت كتبهم الى بدعوتهم ، فصممت عن ندائهم ، وألبست قلبى غشاء من ذكرهم ، يأسا منهم ، واطراحا لهم . وما لهم مثل الا ما قال على بن أبى طالب صلوات الله عليه : ان أهملتم خضتم ، وان خورتم خرتم ، وان اجتمع الناس على امام طعنتم ، وان أجبتم الى مشاقة نكصتم » .

فلم يصغ زيد الى شىء من ذلك ، وأقام على حاله يبايع الناس ، ويتجهز للخروج ، وتزوج بالكوفة امرأتين ، وكان ينتقل تارة عند هذه فى بنى سلمة قومها ، وتارة عند هذه فى الأزد قومها ، وتارة فى بنى عبس ، وتارة فى بنى تغلب وغيرهم . الى أن ظهر فى سنة اثنتين وعشرين ومائة ، فأمر أصحابه بالاستعداد ، وأخذ من كان يريد الوفاء بالبيعة يتجهز .

فبلغ ذلك يوسف بن عمر ، فبعث فى طلب زيد ، فلم يوجد . وخاف زيد أن يؤخذ فتعجل قبل الأجل الذى جعله بينه وبين أهل الكوفة ، وعلى الكوفة يومئذ الحكم بن الصلت فى ناس من أهل الشام ، ويوسف ابن عمر بالحيرة .

فلما علم أصحاب زيد أن يوسف بن عمر قد بلغه الخبر ، وأنه يبحث عن زيد ، اجتمع الى زيد جماعة من رؤوسهم ، فقالوا : رحمك الله ، ما قولك فى أبى بكر وعمر ؟

فقال زيد : رحمهما الله وغفر لهما ، ما سمعت أحدا من أهل بيتى يقول فيهما الا خيرا ، وان أشد ما أقول فيما ذكرتم : انا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين ، فدفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا ، وقد ولوا فعدلوا فى الناس ، وعملوا بالكتاب والسنة .

قالوا : فلم يظلمك هؤلاء اذا كان أولئك لم يظلموا ؟ واذا كان هؤلاء لم يظلموا فلم تدعو الى قتالهم ؟

فقال : ان هؤلاء ليسوا كأولئك ، هؤلاء ظالمون لى ولأنفسهم ولكم ، وانما ندعوهم الى كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والى السنن أن تحيى ، والى البدع أن تطفأ ، فان أجبتمونا سعدتم ، وان أبيتم فلست عليكم بوكيل .

ففارقوه ونكثوا بيعته ، وقالوا : قد سبق الامام (يعنون محمدا الباقر ، وكان قد مات) ، وقالوا : جعفر ابنه امامنا اليوم بعد أبيه . فسماهم زيد الرافضة ، وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة حين فارقوه .

وكانت طائفة قد أتت جعفر بن محمد الصادق قبل قيام زيد ، وأخبروه ببيعته ،

فقال : بايعوه لهو والله أفضلنا وسيدنا . فعادوا وكتموا ذلك .

وكان زيد قد واعد أصحابه أول ليلة من صفر . فبلغ ذلك يوسف بن عمر ، فبعث الى الحكم عامله على الكوفة يأمره بأن يجمع الناس بالمسجد الأعظم يحصرهم فيه ، فجمعهم وطلبوا زيدا ، فخرج ليلا من دار معاوية بن اسحاق بن زيد بن حارثة الأنصارى ، وكان بها ، ورفعوا النيران ، ونادوا : يامنصور ، حتى طلع الفجر .

فلما أصبحوا نادى أصحاب زيد بشعارهم وثاروا ، فأغلق الحكم دروب السوق وأبواب المسجد على الناس ، وبعث الى يوسف بن عمر وهو بالحيرة ، فأخبره الخبر ، فأرسل اليه خمسين فارسا ليعرفوا الخبر ، فساروا حتى عرفوا الخبر ، وعادوا اليه .

فسارت الحيرة بأشراف الناس ، وبعث ألفين من الفرسان وثلثمائة رجالة معهم النشاب . وأصبح زيد ، فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتى رجل وثمانية عشر رجلا ، فقال : سبحان الله ! أين الناس ؟ فقيل : انهم فى المسجد الأعظم محصورون ، فقال : والله ما هذا بعذر لمن بايعنا .

وأقبل فلقيه على جبانة الصايدين خمسمائة من أهل الشام ، فحمل عليهم فيمن معه حتى هزمهم ، وانتهى الى دار أنس بن عمر الأزدى — وكان فيمن بايعه وهو فى الدار — فنودى فلم يجب ، فناداه زيد فلم يخرج اليه ، فقال زيد : ما أخلفكم ؟ قد فعلتموها ، الله حسيبكم .

ثم سار ويوسف بن عمر ينظر اليه ، وهو فى مائتى رجل ، فلو قصده زيد لقتله . والريان يتبع آثار زيد بالكوفة فى أهل الشام ، فأخذ زيد فى المسير ، حتى دخل الكوفة ، فسار بعض أصحابه الى الجبانة ، وواقعوا أهل * الشام ، فأسر أهل الشام منهم رجلا ، ومضوا به الى يوسف بن عمر فقتله .

فلما رأى زيد خذلان الناس اياه ، قال : قد فعلوها حسبى الله ، وسار ، وهو يهزم من لقيه ، حتى انتهى الى باب المسجد ، فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الباب ، ويقولون : ياأهل المسجد اخرجوا من الذل الى العز ، أخرجوا الى الدين والدنيا ، فانكم لستم فى دين ولا دنيا .

وزيد يقول : والله ما خرجت ، ولا قمت مقامى هذا ، حتى قرأت القرآن ، وأتقنت الفرائض ، وأحكمت السنن والآداب ، وعرفت التأويل كما عرفت التنزيل ، وفهمت الناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، والخاص والعام ، وما تحتاج اليه الأمة فى دينها مما لابد لها منه ولا غنى لها عنه ، وانى لعلى بينة من ربى .

فرماهم أهل المسجد بالحجارة من فوق المسجد ، فانصرف زيد فيمن معه ، وخرج اليه ناس من أهل الكوفة ، فنزل دار الرزق ، فأتاه الريان وقاتله ، وخرج أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسوأ شيء ظنا .

فلما كان من الغد ، أرسل يوسف بن عمر عدة عليهم العباس بن سعد المزنى ، فلقيهم

(*) س٤٣٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

زيد ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم أصحاب العباس ، وقتل منهم نحو من سبعين . فلما كان العشى ، عبى يوسف بن عمر الجيوش وسرحهم ، فالتقاهم زيد بمن معه ، وحمل عليهم حتى هزمهم وهو يتبعهم .

فبعث يوسف طائفة من الماشية ، فرموا أصحاب زيد ، وهو يقاتل حتى دخل الليل ، فرمى بسهم فى جبهته اليسرى ثبت فى دماغه . فرجع أصحابه ، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا للمساء والليل ، فأنزلوا زيدا فى دار ، وأتوه بطبيب فانتزع النصل ، فضج زيد ومات رحمه الله ، لليلتين خلتا من صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وعمره اثنتان وأربعون سنة .

ولما مات اختلف أصحابه فى أمره ، فقال بعضهم : نطرحه فى الماء ، وقال بعضهم : بل نحز رأسه ونلقيه فى القتلى ، فقال ابنه يحيى ابن زيد : والله لا يأكل لحم أبى الكلاب ، وقال بعضهم : ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين ، ونجعل عليه الماء ، ففعلوا ذلك ، وأجروا عليه الماء . وكان معه مولى سندى فدل عليه ، وقيل رآهم قصار فدل عليه .

وتفرق الناس من أصحاب زيد ، وسار ابنه يحيى نحو كربلاء ، وتتبع يوسف بن عمر الجرحى فى الدور حتى دل على زيد فى يوم جمعة ، فأخرجه ، وقطع رأسه وبعث به الى هشام بن عبد الملك ، فدفع لمن وصل به عشرة آلاف درهم ، ونصبه على باب دمشق ، ثم أرسله الى المدينة ، وسار منها الى مصر .

وأما جسده فان يوسف بن عمر صلبه بالكناسة ، ومعه ثلاثة ممن كانوا معه ، وأقام الحرس عليه . فمكث زيد مصلوبا أكثر من سنتين حتى مات هشام ، وولى الوليد من بعده ، وبعث الى يوسف بن عمر أن أنزل زيدا وأحرقه بالنار ، فأنزله وأحرقه ، وذرى رماده فى الريح .

وكان زيد لما صلب وهو عريان ، استرخى بطنه على عورته حتى مايرى من سوءته شيء .

ومر زيد مرة بمحمد بن الحنفية ، فنظر اليه وقال : أعيذك بالله أن تكون زيد بن على المصلوب بالعراق .

وقال عبد الله بن حسين بن على بن الحسين ابن على : سمعت أبى يقول اللهم ان هشاما رضى بصلب زيد فاسلبه ملكه ، وان يوسف ابن عمر أحرق زيدا اللهم فسلط عليه من لا يرحمه ، اللهم وأحرق هشاما فى حياته ان شئت ، والا فأحرقه بعد موته

قال : فرأيت والله هشاما محرقا لما أخذ بنو العباس دمشق ، ورأيت يوسف بن عمر بدمشق مقطعا على كل باب من أبواب دمشق منه عضو ، فقلت : ياأبتاه وافقت دعوتك ليلة القدر .

فقال : لا يابنى ، بل صمت ثلاثة أيام من شهر رجب ، وثلاثة أيام من شعبان ، وثلاثة أيام من شهر رمضان ... كنت أصوم الأربعاء والخميس والجمعة ، ثم أدعو الله عليهما من صلاة العصر يوم الجمعة حتى أصلى المغرب .

وبعد قتل زيد ، انتقض ملك بنى أمية وتلاشى ، الى أن أزالهم الله تعالى ببنى العباس .

وهذا المشهد باق بين كيمان مدينة مصر ، يتبرك الناس بزيارته ويقصدونه ، لا سيما فى يوم عاشوراء ، والعامة تسميه « زين العابدين » ، وهو وهم ، وانما زين العابدين أبوه ، وليس قبره بمصر ، بل قبره بالبقيع .

ولما قتل الامام زيد سودت الشيعة ، أى لبست السواد ، وكان أول من سود على زيد شيخ بنى هاشم فى وقته الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، ورثاه بقصيدة طويلة ، وشعره حجة احتج به سيبويه ، توفى سنة تسع وعشرين ومائة .

مشهد السيدة نفيسة

قال الشرف النقيب النسابة ، شرف الدين أبو على ، محمد بن أسعد بن على بن معمر ابن عمر الحسينى ، الجوانى المالكى ، فى كتاب « الروضة الأنيسة بفضل مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها » : نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام ، أمها أم ولد ، واخوتها القاسم ومحمد وعلى وابراهيم وزيد وعبيد الله ويحيى واسماعيل واسحاق وأم كلثوم ، أولاد الحسن بن زيد بن الحسن بن على ، فأمهم[1] أم سلمة ، واسمها زينب ابنة الحسن ابن الحسن بن على ، وأمها أم ولد.

تزوج أم كلثوم ، أخت نفيسة ، عبد الله ابن على بن * عبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، ثم خلف عليه الحسن بن زيد بن على ابن الحسن بن على .

وأما على وابراهيم وزيد ، اخوة نفيسة من أبيها ، فأمهم أم ولد تدعى أم عبد الحميد .

وأما عبيد الله بن الحسن بن زيد ، فأمه الزائدة بنت بسطام بن عمير بن قيس الشيبانى .

وأما اسماعيل واسحاق فهما لأمى ولد .

وكان اسماعيل من أهل الفضل والخير صاحب صوم ونسك ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما . وأما يحيى بن زيد فله مشهد معروف بالمشاهد ، يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وتزوج بنفيسة رضى الله عنها ، اسحاق ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام ، وكان يقال له اسحاق المؤتمن ، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين ... روى عنه الحديث ، وكان ابن كاسب اذا حدث عنه يقول : حدثنى الثقة الرضى اسحاق بن جعفر . وكان له عقب بمصر منهم بنو الرقى ، وبحلب بنو زهرة . ولدت نفيسة من اسحاق ولدين ، هما القاسم وأم كلثوم ، لم يعقبا .

وأما جد نفيسة ، وهو زيد بن الحسن بن على ، فروى عن أبيه وعن جابر وابن عباس ، وروى عنه ابنه . وكانت بينه وبين عبد الله ابن محمد بن الحنفية خصومة ، وفدا لأجلها

(*) ص٤٤٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

[1] قوله « فأمهم .. الخ » هكذا فى النسخ ، ولا يخفى ما فى هذه العبارة من الركاكة والتناقض ، والظاهر أن فيها سقطا ، والأصل فلما القاسم ومحمد ويحيى وأم كلثوم فأمهم .. الخ كما يدل على ذلك قوله « فأمهم » بالفاء ، وكذلك بقية العبارة حيث بين فيها أمهات ستة منهم ، وليحرر . اهـ . مصححه .

على الوليد بن عبد الملك ، وكان يأتى الجمعة من ثمانية أميال ، وكان اذا ركب نظر الناس اليه ، وعجبوا من عظم خلقه ، وقالوا : جده رسول الله .

وكتب اليه الوليد بن عبد الملك يسأله أن يبايع لابنه عبد العزيز ، ويخلع سليمان بن عبد الملك ، ففرق منه وأجابه . فلما استخلف سليمان ، وجد كتاب زيد بذلك الى الوليد ، فكتب الى أبى بكر بن حزم أمير المدينة : « ادع زيد بن الحسن فأقره الكتاب ، فان عرفه فاكتب الى ، وان هو نكل فقدمه ، فأصب يمينه عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ما كتبه ، ولا أمر به » .

فخاف زيد الله واعترف ، فكتب بذلك أبو بكر ، فكتب سليمان أن يضربه مائة سوط ، وأن يدرعه عباءة ويمشيه حافيا . فحبس عمر ابن عبد العزيز الرسول ، وقال حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب به فى حق زيد . فقال للرسول لا تخرج فان أمير المؤمنين مريض . فمات سليمان ، وأحرق عمر الكتاب .

وأما والد نفيسة ، وهو الحسن بن زيد ، فهو الذى كان والى المدينة النبوية من قبل أبى جعفر عبد الله بن محمد المنصور ، وكان فاضلا أديبا عالما ، وأمه أم ولد ، توفى أبوه وهو غلام ، وترك عليه دينا أربعة آلاف دينار ، فحلف الحسن ولده ألا يظل رأسه سقف الا سقف مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بيت رجل يكلمه فى حاجة ، حتى يقضى دين أبيه . فوفاه ، وقضاه بعد ذلك .

ومن كرمه أنه أتى بشاب شارب متأدب ، وهو عامل على المدينة ، فقال : ياابن رسول الله لا أعود ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم» ، وأنا ابن أبى أمامة بن سهل بن حنيف ، وقد كان أبى مع أبيك كما قد علمت .

قال : صدقت ، فهل أنت عائد ؟

قال : لا والله .

فأقاله ، وأمر له بخمسين دينارا ، وقال له : تزوج بها وعد الى . فتاب الشاب ، وكان الحسن بن زيد يجرى عليه النفقة .

وكانت نفيسة من الصلاح والزهد على الحد الذى لا مزيد عليه ، فيقال انها حجت ثلاثين حجة . وكانت كثيرة البكاء ، تديم قيام الليل وصيام النهار ، فقيل لها : ألا ترفقين بنفسك ؟

فقالت : كيف أرفق بنفسى وأمامى عقبة لا يقطعها الا الفائزون .

وكانت تحفظ القرآن وتفسيره . وكانت لا تأكل الا فى كل ثلاث ليال أكلة واحدة ، ولا تأكل من غير زوجها شيئا .

وقد ذكر أن الامام الشافعى محمد بن ادريس كان زارها ، وهى من وراء الحجاب ، وقال لها : ادعى لى ، وكان صحبته عبد الله ابن عبد الحكم . وماتت رضى الله عنها بعد موت الامام الشافعى رحمة الله عليه بأربع سنين ، لأن الشافعى توفى سلخ شهر رجب سنة أربع ومائتين ، وقيل انها كانت فيمن صلى على الامام الشافعى .

وتوفيت السيدة نفيسة فى شهر رمضان سنة ثمان ومائتين ، ودفنت فى منزلها ، وهو الموضع الذى به قبرها الآن ، ويعرف بخط درب السباع ودرب بزرب . وأراد اسحاق بن الصادق — وهو زوجها — أن يحملها ليدفنها بالمدينة ، فسأله أهل مصر أن يتركها ، ويدفنها عندهم لأجل البركة .

وقبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة باجابة الدعاء بمصر ، وهى أربعة مواضع : سجن نبى الله يوسف الصديق عليه السلام ، ومسجد موسى صلوات الله عليه وهو الذى بطرا ، ومشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، والمخدع الذى على يسار المصلى فى قبلة مسجد الاقدام بالقرافة . فهذه المواضع لم يزل المصريون ، ممن أصابته مصيبة أو لحقته فاقة أو جائحة ، يمضون الى أحدها ، فيدعون الله تعالى ، فيستجيب لهم ... مجرب ذلك . انتهى .

ويقال انها حفرت قبرها هذا ، وقرأت فيه تسعين ومائة ختمة ، وانها لما احتضرت خرجت من الدنيا ، وقد انتهت فى حزبها الى قوله تعالى « قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله ، كتب على نفسه الرحمة » . ففاضت نفسها رحمها الله تعالى مع قوله « الرحمة » .

ويقال ان الحسن بن زيد — والد السيدة نفيسة — كان مجاب الدعوة ممدوحا ، وان شخصا وشى به الى أبى جعفر المنصور أنه يريد الخلافة * لنفسه ، فانه كان قد انتهت اليه رياسة بنى حسن ، فأحضره من المدينة ، وسلبه ماله ، ثم انه ظهر له كذب الناقل عنه ، فمن عليه ورده الى المدينة مكرما . فلما قدمها بعث الى الذى وشى به بهدية ، ولم يعتبه على ما كان منه .

ويقال انه كان مجاب الدعوة . فمرت به امرأة ، وهو فى الأبطح ، ومعها ابن لها على يدها ، فاختطفه عقاب ، فسألت الحسن بن زيد أن يدعو الله لها برده ، فرفع يديه الى السماء ودعا ربه ، فاذا بالعقاب قد ألقى الصغير من غير أن يضره بشىء ، فأخذته أمه . وكان يعد بألف من الكرام .

ولما قدمت السيدة نفيسة الى مصر ، مع زوجها اسحاق بن جعفر ، نزلت بالمنصوصة ، وكان بجوارها دار فيها قوم من أهل الذمة ، ولهم ابنة مقعدة لم تمش قط . فلما كان فى يوم من الأيام ، ذهب أهلها فى حاجة من حوائجهم ، وتركوا المقعدة عند السيدة نفيسة ، فتوضأت وصبت من فضل وضوئها على الصبية المقعدة ، وسمت الله تعالى ، فقامت تسعى على قدميها ليس بها بأس ألبتة .

فلما قدم أهلها وعاينوها تمشى ، أتوا الى السيدة نفيسة — وقد تيقنوا أن مشى ابنتهم كان ببركة دعائها — وأسلموا بأجمعهم على يديها ، فاشتهر ذلك بمصر ، وعرف أنه من بركاتها .

وتوقف النيل عن الزيادة فى زمنها ، فحضر الناس اليها ، وشكوا اليها ما حصل من توقف النيل ، فدفعت قناعها اليهم ، وقالت لهم : ألقوه فى النيل ، فألقوه فيه ، فزاد حتى بلغ الله به المنافع .

(*) ص١٤٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وأسر ابن لامرأة ذمية فى بلاد الروم ، فأتت الى السيدة نفيسة ، وسألتها الدعاء أن يرد الله ابنها عليها . فلما كان الليل لم تشعر الذمية الا بابنها وقد هجم عليها دارها ، فسألته عن خبره ، فقال : ياأماه لم أشعر الا ويد قد وقعت على القيد الذى كان فى رجلى ، وقائل يقول : أطلقوه قد شفعت فيه نفيسة بنت الحسن ، فوالذى يحلف به ياأماه ، لقد كسر قيدى ، وما شعرت بنفسى الا وأنا واقف بباب هذه الدار . فلما أصبحت الذمية ، أتت الى السيدة نفيسة ، وقصت عليها الخبر ، وأسلمت هى وابنها ، وحسن اسلامهما .

وذكر غير واحد من علماء الأخبار بمصر أن هذا قبر السيدة نفيسة بلا خلاف ، وقد زار قبرها من العلماء والصالحين خلق لايحصى عددهم . ويقال ان أول من بنى على قبر السيدة نفيسة عبيد الله بن السرى بن الحكم أمير مصر ، ومكتوب فى اللوح الرخام الذى على باب ضريحها — وهو الذى كان مصفحا بالحديد — بعد البسملة ما نصه « نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه ، معد أبى تميم الامام المستنصر بالله ، أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين . أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش ، سيف الاسلام ، ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته ، وشد عضده بولده الأجل الأفضل ، سيف الامام ، جلال الاسلام ، شرف الأنام ، ناصر الدين خليل أمير المؤمنين ، زاد الله فى علائه ، وأمتع المؤمنين بطول بقائه ، فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة » .

والقبة التى على الضريح جددها الخليفة الحافظ لدين الله فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وأمر بعمل الرخام الذى بالمحراب .

مشهد السيدة كلثوم

هى كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسن بن على بن أبى طالب . موضعه بمقابر قريش بمصر بجوار الخندق . وهى أم جعفر بن موسى بن اسماعيل بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق . كانت من الزاهدات العابدات .

سنا وثنا

يقال انهما من أولاد جعفر بن محمد الصادق . كانتا تتلوان القرآن الكريم فى كل ليلة ، فماتت احداهما ، فصارت الأخرى تتلو ، وتهدى ثواب قراءتها لأختها حتى ماتت .

ذكر مقابر مصر والقاهرة المشهورة

القبر مدفن الانسان ، وجمعه قبور . والمقبرة موضع القبر . قال سيبويه : المقبرة ليس على الفعل ، ولكنه اسم ، وقبره يقبره دفنه ، وأقبره جعل له قبرا .

واعلم أن لأهل مدينة مصر ولأهل القاهرة عدة مقابر ، وهى القرافة : فما كان منها فى سفح الجبل يقال له القرافة الصغرى ، وما

كان منها فى شرق مصر بجوار المساكن يقال له القرافة الكبرى . وفى القرافة الكبرى كانت مدافن أموات المسلمين منذ افتتحت أرض مصر ، واختط العرب مدينة الفسطاط ، ولم يكن لهم مقبرة سواها .

فلما قدم القائد جوهر ، من قبل المعز لدين الله ، وبنى القاهرة ، وسكنها الخلفاء ، اتخذوا بها تربة * ، عرفت بتربة الزعفران ، قبروا فيها أمواتهم ، ودفن رعيتهم من مات منهم فى القرافة . الى أن اختطت الحارات خارج باب زويلة ، فقبر سكانها موتاهم خارج باب زويلة مما يلى الجامع ، فيما بين جامع الصالح وقلعة الجبل ، وكثرت المقابر بها عند حدوث الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر .

ثم لما مات أمير الجيوش بدر الجمالى ، دفن خارج باب النصر ، فاتخذ الناس هنالك مقابر موتاهم ، وكثرت مقابر أهل الحسينية فى هذه الجهة . ثم دفن الناس الأموات خارج القاهرة ، فى الموضع الذى عرف بميدان القبق ، فيما بين قلعة الجبل وقبة النصر ، وبنوا هناك الترب الجليلة ، ودفن الناس أيضا خارج القاهرة فيما بين باب الفتوح والخندق .

ولكل مقبرة من هذه المقابر أخبار ، سوف أقص عليك من أنبائها ما انتهت الى معرفته قدرتى ان شاء الله تعالى .

ويذكر أهل العناية بالأمور المتقادمة أن الناس فى الدهر الأول لم يكونوا يدفنون موتاهم . الى أن كان زمن دوناى — الذى يدعى سيد البشر ، لكثرة ما علم الناس من المنافع — فشكا اليه أهل زمانه ما يتأذون به من خبث موتاهم ، فأمرهم أن يدفنوهم فى خوابى ، ويسدوا رؤوسها ، ففعلوا ذلك . فكان دوناى أول من دفن الموتى .

وذكر أن دوناى هذا كان قبل آدم بدهر طويل ، مبلغه عشرون ألف سنة ، وهى دعوى لا تصح . وفى القرآن الكريم ما يقتضى أن قابيل بن آدم أول من دفن الموتى ، والله أصدق القائلين . وقد قال الشافعى رحمه الله : وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدا ، مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده .

ذكر القرافة

روى الترمذى من حديث أبى طيبة عبد الله بن مسلم ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه رفعه : « من مات من أصحابى بأرض ، بعث قائدا ونورا لهم يوم القيامة » . قال : وهذا حديث غريب ، وقد روى عن أبى طيبة عن ابن بريدة مرسلا ، وهذا أصح .

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم فى كتاب « فتوح مصر » : حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث بن سعد ، قال : سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار . فعجب عمرو من ذلك ، وقال . أكتب فى ذلك الى أمير المؤمنين . فكتب بذلك الى عمر رضى الله عنه . فكتب اليه عمر : « سله لم أعطاك به ما أعطاك ، وهى لا تزدرع ، ولا يستنبط بها ماء ، ولا ينتفع بها ؟ » .

(*) ص٤٤٢ جـ١ ، طـ. بولاق .

فسأله فقال : انا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة . فكتب بذلك الى عمر رضى الله عنه . فكتب اليه عمر : « انا لا نعلم غراس الجنة الا المؤمنين ، فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ، ولا تبعه بشىء » .

فكان أول من دفن فيها رجل من المغافر ، يقال له عامر ، فقيل عمرت .

فقال المقوقس لعمرو : ما ذلك ، ولا على هذا عاهدتنا . فقطع لهم الحد الذى بين المقبرة وبينهم .

وعن ابن لهيعة : أن المقوقس قال لعمرو : انا لنجد فى كتابنا أن ما بين هذا الجبل وحيث نزلتم ، ينبت فيه شجر الجنة . فكتب بقوله الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فقال : صدق ، فاجعلها مقبرة للمسلمين .

فقبر فيها ممن عرف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة نفر : عمرو بن العاص السهمى ، وعبد الله بن حذافة السهمى ، وعبد الله بن جزء الزبيدى ، وأبو بصيرة الغفارى ، وعقبة بن عامر الجهنى ، ويقال ومسلمة بن مخلد الأنصارى انتهى .

ويقال ان عامرا هو الذى كان أول من دفن بالقرافة ، قبره الآن تحت حائط مسجد الفتح الشرقى ، وقالت فيه امرأة من العرب :

قامت بواكيه على قبره
من لى من بعدك ياعامر
تركتنى فى الدار ذا غربة
قد ذل من ليس له ناصر

وروى أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى « تاريخ مصر » ، من حديث حرملة ابن عمران ، قال : حدثنى عمير بن أبى مدرك الخولانى ، عن سفيان بن وهب الخولانى ، قال : بينا نحن نسير مع عمرو بن العاص فى سفح هذا الجبل ، ومعنا المقوقس ، فقال له عمرو : يامقوقس ، ما بال جبلكم هذا أقرع ، ليس عليه نبات ولا شجر على نحو بلاد الشام ؟

فقال : لا أدرى ، ولكن الله أغنى أهله بهذا النيل عن ذلك ، ولكنه نجد تحته ما هو خير من ذلك .

قال : وما هو ؟

قال : ليدفنن تحته (أو ليقبرن تحته) قوم يبعثهم الله يوم القيامة لا حساب عليهم .

قال عمرو : اللهم اجعلنى منهم .

قال حرملة بن عمران : فرأيت قبر عمرو بن العاص ، وقبر أبى بصيرة ، وقبر عقبة بن عامر فيه .

وخرج أبو عيسى الترمذى ، من حديث أبى طيبة عبد الله بن مسلم ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه رفعه : « من مات من أصحابى بأرض بعث قائدا لهم ونورا يوم القيامة » .

وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى : القرافة هم بنو غض بن سيف بن وائل بن المغافر ، وفى نسخة بنو غصن .

وقال أبو عمرو الكندى : بنو جحض بن سيف بن وائل بن الجيزى بن شراحيل * بن

(*) ص٤٤٢ جـ٢ ، طـ. بولاق .

المعافر بن يعفر ، وقيل ان قرافة اسم أم عزافر وجعض ابنى سيف بن وائل بن الجيزى ، قد صحف القضاعى فى قوله « غصن » بالغين المعجمة ، والأقرب ما قاله الكندى ، لأنه أقعد بذلك .

وقال ياقوت : والقرافة — بفتح القاف وراء مخففة وألف خفيفة وفاء — الأول : مقبرة بمصر مشهورة ، مسماة بقبيلة من المعافر يقال لهم بنو قرافة . الثانى : القرافة محلة بالاسكندرية ، منسوبة الى القبيلة أيضا .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب « النقط » — وقد ذكر جامع القرافة ، الذى يقال له اليوم جامع الأولياء — : وكان جماعة من الرؤساء يلزمون النوم بهذا الجامع ، ويجلسون فى ليالى الصيف يتحدثون فى القمر فى صحنه ، وفى الشتاء ينامون عند المنبر ، وكان يحصل لقيمه الأشربة والحلوى والجرايات .

وكان الناس يحبون هذا الموضع ، ويلزمونه لأجل من يحضر من الرؤساء ، وكانت الطفيلية يلزمون المبيت فيه ليالى الجمع ، وكذلك أكثر المساجد التى بالقرافة والجبل والمشاهد ، لأجل ما يحمل اليها ، ويعمل فيها من الحلاوات واللحومات والأطعمة .

وقال موسى بن محمد بن سعيد فى كتاب « المغرب عن أخبار المغرب » : وبت ليالى كثيرة بقرافة الفسطاط ، وهى فى شرقيها ، بها منازل الأعيان بالفسطاط والقاهرة ، وقبور عليها مبان معتنى بها ، وفيها القبة العالية العظيمة المزخرفة — التى فيها قبر الامام الشافعى رضى الله عنه — وبها مسجد جامع ، وترب كثيرة عليها أوقاف للقراء ، ومدرسة كبيرة للشافعية .

ولا تكاد تخلو من طرب ، ولا سيما فى الليالى المقمرة ، وهى معظم مجتمعات أهل مصر ، وأشهر متنزهاتهم ، وفيها أقول :

ان القرافة قد حوت ضدين من
دنيا وأخرى فهى نعم المنزل
يغشى الخليع بها السماع مواصلا
ويطوف حول قبورها المتبتل
كم ليلة بتنا بها ونديمنا
لحن يكاد يذوب منه الجندل
والبدر قد ملأ البسيطة نوره
فكأنما قد فاض منه جدول
وبدا يضاحك أوجها حاكينه
لما تكامل وجهه المتهلل

وفوق القرافة من شرقيها جبل المقطم ، وليس له علو ولا عليه اخضرار ، وانما يقصد للبركة ، وهو نبيه الذكر فى الكتب ، وفى سفحه مقابر أهل الفسطاط والقاهرة .

والاجماع على أنه ليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها ، ولا أبهى ولا أعظم ولا أنظف من أبنيتها وقبابها وحجرها ، ولا أعجب تربة منها كأنها الكافور والزعفران ، مقدسة فى جميع الكتب ، وحين تشرف عليها تراها مدينة بيضاء ، والمقطم عال عليها كأنه حائط من ورائها .

وقال شافع بن على :

تعجبت من أمر القرافة اذ غدت
على وحشة الموتى لها قلبنا يصبو
فألفيتها مأوى الأحبة كلهم
ومستوطن الأحباب يصبو له القلب

وقال الأديب أبو سعيد محمد بن أحمد العميدى :

اذا ما ضاق صدرى لم أجد لى
مقر عبادة الا القرافه
لئن لم يرحم المولى اجتهادى
وقلة ناصرى لم ألق رافه

واعلم أن الناس فى القديم انما كانوا يقبرون موتاهم فيما بين مسجد الفتح وسفح المقطم ، واتخذوا الترب الجليلة أيضا فيما بين مصلى خولان وخط المغافر — التى موضعها الآن كيمان تراب — وتعرف الآن بالقرافة الكبرى .

فلما دفن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ابنه ، فى سنة ثمان وستمائة ، بجوار قبر الامام محمد بن ادريس الشافعى ، وبنى القبة العظيمة على قبر الشافعى ، وأجرى لها الماء من بركة الحبش بقناطر متصلة منها ... نقل الناس الأبنية من القرافة الكبرى الى ما حول الشافعى ، وأنشأوا هناك الترب . فعرفت بالقرافة الصغرى ، وأخذت عمائرها فى الزيادة ، وتلاشى أمر تلك . وأما القطعة التى تلى قلعة الجبل فتجددت بعد السبعمائة من سنى الهجرة .

وكان ما بين قبة الامام الشافعى ، رحمة الله عليه ، وباب القرافة ميدانا واحدا تسابق فيه الأمراء والأجناد ، ويجتمع الناس هنالك للتفرج على السباق ، فتصير الأمراء تسابق على حدة ، والأجناد تسابق فى جهة وهم منفردون عن الأمراء ، والشرط فى السباق من تربة الأمير يبدوا الى باب القرافة .

ثم استجد أمراء دولة الناصر محمد بن قلاوون فى هذه الجهة الترب . فبنى الأمير يلبغا التركمانى ، والأمير طقتمر الدمشقى ، والأمير قوصون وغيرهم من الأمراء . وتبعهم الجند وسائر الناس ، فبنوا الترب والخوانك والأسواق والطواحين والحمامات ، حتى صارت العمارة من بركة الحبش الى باب القرافة ، ومن حد مساكن مصر الى الجبل .

وانقسمت الطرق فى القرافة ، وتعددت بها * الشوارع ، ورغب كثير من الناس فى سكناها ، لعظم القصور التى أنشئت بها ، وسميت بالترب ، ولكثرة تعاهد أصحاب الترب لها ، وتواتر صدقاتهم ومبراتهم لأهل القرافة .

وقد صنف الناس فيمن قبر بالقرافة ، وأكثروا من التأليف فى ذلك ، ولست بصدد شىء مما صنفوا فى ذلك ، وانما غرضى أن أذكر ما تشتمل عليه القرافة .

وفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ظهر بالقرافة شىء ، يقال له القطربة ، تنزل من جبل المقطم ، فاختطفت جماعة من أولاد سكانها ، حتى رحل أكثرهم خوفا منها .

وكان شخص من أهل كبارة مصر — يعرف بحميد الفوال — خرج من اطفيح على حماره ،

(*) ص٤٤٤ ج٢ ، ط. بولاق .

فلما وصل الى حلوان عشاء ، رأى امرأة جالسة على الطريق ، فشكت اليه ضعفا وعجزا فحملها خلفه ، فلم يشعر بالحمار الا وقد سقط ، فنظر الى المرأة ، فاذا بها قد أخرجت جوف الحمار بمخاليها ، ففر وهو يعدو الى والى مصر ، وذكر له الخبر ، فخرج بجماعته الى الموضع ، فوجد الدابة قد أكل جوفها .

ثم صارت بعد ذلك تتبع الموتى بالقرافة ، وتنبش قبورهم ، وتأكل أجوافهم ، وتتركهم مطروحين ، فامتنع الناس من الدفن فى القرافة زمنا حتى انقطعت تلك الصورة .

ذكر المساجد الشهيرة بالقرافة الكبيرة

اعلم أن القرافة بمصر اسم لموضعين : القرافة الكبيرة ، حيث الجامع الذى يقال له جامع الأولياء ، والقرافة الصغيرة ، وبها قبر الامام الشافعى . وكانتا فى أول الأمر خطتين لقبيلة من اليمن ، هم من المغافر بن يعفر ، يقال لهم بنو قرافة .

ثم صارت القرافة الكبيرة جبانة ، وهى حيث مصلى خولان والبقعة ، وما هو حول جامع الأولياء ، فانه كان يشتمل على مساجد وربط وسوق وعدة مساكن : منها ما خرب ، ومنها ما هو باق ، وسترى من ذلك ما يتيسر ذكره .

مسجد الأقدام

هذا المسجد بالقرافة بخط المغافر . قال القضاعى : ذكر الكندى أن الجند بنوه ، وليس من الخطط .

وسمى الاقدام لأن مروان بن الحكم لما دخل مصر ، وصالح أهلها وبايعوه ، امتنع من بيعته ثمانون رجلا من المغافر سوى غيرهم ، وقالوا : لا تنكث بيعة ابن الزبير . فأمر مروان بقطع أيديهم وأرجلهم ، وقتلهم على بئر بالمغافر فى هذا الموضع ، فسمى المسجد بهم لأنه بنى على آثارهم . والآثار الأقدام ، يقال جئت على قدم فلان ، أى على أثره . وقيل بل أمرهم بالبراءة من على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فلم يتبرأوا منه ، فقتلهم هناك .

وقيل انما سمى مسجد الأقدام لأن قبيلتين اختلفتا فيه : كل تدعى أنه من خطتها . فقيس ما بينه وبين كل قبيلة بالأقدام ، وجعل لأقربهما منه .

والقديم من هذا المسجد هو محرابه ، والأروقة المحيطة به ، وأما خارجه فزيادة الاخشيد ، والزيادة الجديدة التى فى بحريه لسمعون — الملقب بسهم الدولة — متولى الستارة ، وكان من أهل السنة والخير .

ويقال انما سمى مسجد الأقدام لأنه كان يتداوله العباد ، وكانت حجارته كذانا ، فأثر فيها موضع أقدامهم ، فسمى لذلك مسجد الأقدام .

مسجد الرصد

هذا المسجد بناه الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، بعد بنائه للجامع المعروف بجامع الفيلة ، لأجل رصد الكواكب بالآلة التى يقال لها ذات الحلق ، كما ذكر فيما تقدم .

مسجد شقيق الملك

هذا المسجد بجوار مسجد الرصد . بناه شقيق الملك خسروان صاحب بيت المال ، أحد خدام القصر فى أيام الخليفة الحافظ لدين الله فى سنة احدى وأربعين وخمسمائة ، وعمل فيه للحافظ ضيافة عظيمة حضر فيها بنفسه ومعه الأمراء والأستاذون وكافة الرؤساء .

وكان فيه كرم وسمو همة ، وكان لمساجد القرافة والجبل عنده رونامج بأسماء أربابها ، فينفذ اليهم فى أيام العنب والتين لكل مسجد قفص رطب ، ويرسل فى كل ليلة من ليالى الوقود لكل مسجد خروف شواء وسطل جوذآب وجام حلوى ، ولاسيما اذا كان بائتا في هذا المسجد ، فانه لا يأكل حتى يسير ذلك لمن اسمه عنده .

وكان يعمل جفان القطائف المحشوة باللوز والسكر والكافور والمسك ، وفيها ما فيه بدل اللوز الفستق ، ويستدعى من لا يقدر على ذلك من أهل الجبل والقرافة وذوى البيوت المنقطعين ، ويأمر * اذا حضروا بسكب الحلو والشيرج عليه بالجرار ، ويأمرهم بالأكل منه والحمل معهم وكان أحبهم اليه من يأكل طعامه ، ويستدعى بره وانعامه ، رحمه الله .

مسجد الانطاكى

هذا المسجد كان أيضا بالرصد .

(*) ص٤٤٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

وما برحت هذه المساجد الثلاثة بالرصد يسكنها الناس الى ما بعد سنة ثمانين وسبعمائة . ثم خربت ، وصار الرصد من الأماكن المخوفة بعد ما أدركته متنزها للعامة .

مسجد النارنج

هذا المسجد عامر الى يومنا هذا ، فيما بين الرصد والقرافة الكبرى ، بجانب سقاية ابن طولون — المعروفة بعفصة الكبرى — غربيها الى البحرى قليلا ، وهو المطل على بركة الحبش شرقى الكتفى وقبلى القرافة . بنته الجهة الآمرية ، المعروفة بجهة الدار الجديدة ، فى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ... أخرجت له اثنى عشر ألف دينار على يد الأستاذين افتخار الدولة يمن ، ومعز الدولة الطويل المعروف بالوحش .

وتولى العمارة والانفاق عليه الشريف أبو طالب موسى بن عبد الله بن هاشم بن مشرف ابن جعفر بن المسلم بن عبيد الله بن جعفر بن محمد بن ابراهيم بن محمد اليمانى بن عبيد الله بن موسى الكاظم ، الحسينى الموسوى ، المعروف بابن أخى الطيب بن أبى طالب الوراق وسمى مسجد النارنج لأن نارنجه لا ينقطع أبدا .

مسجد الأندلس

هذا المسجد فى شرقى القرافة الصغرى بجانب مسجد الفتح ، فى الموضع الذى يعرف عند الزوار بالبقعة ، وهو مصلى المغافر على الجنائز . ويقال انه بنى عند فتح مصر ، وقيل بنى فى خلافة معاوية بن أبى سفيان . ثم بنته

جهة مكنون — واسمها علم الآمرية — أم ابنة الآمر ، التي يقال لها ست المصور ، فى سنة ست وعشرين وخمسمائة ، على يد المعروف بالشيخ أبي تراب .

و « جهة مكنون » هذه كان الخليفة الآمر بأحكام الله كتب صداقها ، وجعل المقدم منه أربعة عشر ألف دينار ، وكان لها صدقات وبر وخير وفضل ، وعندها خوف من الله ، وكانت تبعث الى الأشراف بصلات جزيلة ، وترسل الى أرباب البيوت والمستورين أموالا كثيرة .

ولما وهب الآمر لهزار الملوك ولبرغش ، فى كل يوم ، مائتى ألف دينار عينا . لكل منهما مائة ألف دينار ... حضر اليها عشاء على عادته ، فأغلقت باب مقصورتها قبل دخوله ، وقالت له : والله ما تدخل الى ، أو تهب لى مثل ما وهبت لواحد من غلاميك .

فقال : الساعة .

ثم استدعى بالفراشين فحضروا ، فقال : هاتوا مائة ألف دينار الساعة .

ولم يزل واقفا الى أن حضرت عشرة كيسة ، فى كل كيس عشرة آلاف دينار ، ويحمله عشرة من الفراشين . ففتحت له الباب ، ودخل اليها .

ومكنون هذا هو الأستاذ الذى كان برسم خدمتها — ويقال له مكنون القاضى لسكونه وهدوئه — وكان فيه خير وبر كبير .

وبجانب مسجد الأندلس هذا رباط من غربيه . بنته جهة مكنون هذه ، فى سنة ست وعشرين وخمسمائة ، برسم العجائز الأرامل .

فلما كان فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، بنى الحاجب للؤلؤ العادلى ، برحبة الأندلس والرباط ، بستانا وأحواضا ومقعدا ، وجمع بين مصلى الأندلس وبين الرباط بحائط بينهما ، وعمل ذلك لحلول العفيف حاتم بن مسلم المقدسى الشافعى به .

ولما مات السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى بدمشق ، فى المحرم سنة ست وسبعين وستمائة ، وقام من بعده فى السلطنة ابنه الملك السعيد محمد بركة خان ، عمل لأبيه عزاء بالأندلس هذا . فاجتمع هناك القراء والفقهاء ، وأقيمت المطابخ ، وهيئت المطاعم الكثيرة ، وفرقت على الزوايا ، ومدت أسمطة عظيمة بالخيام التى ضربت حول الأندلس . فأكل الناس على اختلاف طبقاتهم وقرأ القراء ختمة شريفة ، وعد هذا الوقت من المهمات العظيمة المشهورة بديار مصر .

وكان ذلك فى المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة ، على رأس سنة من موت الملك الظاهر ، فقال فى ذلك القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر :

يأيها الناس اسمعوا
قولا بصدق قد كسى
ان عزا السلطان فى
غرب وشرق ما نسى
أليس ذا مأتمه
يعمل فى الأندلس *

ثم عمل بعد ذلك مجتمع فى المدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعى من القرافة ،

(*) ص٤٤٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ومجتمع بجامع ابن طولون ، ومجتمع بجامع الظاهر من الحسينية خارج القاهرة ، ومجتمع بالمدرسة الظاهرية بين القصرين ، ومجتمع بالمدرسة الصالحية ، ومجتمع بدار الحديث الكاملية ، ومجتمع بالخانقاه الصلاحية لسعيد السعداء ، ومجتمع بالجامع الحاكمى .

وأقيم فى كل واحد من هذه المجتمعات الأطعمة الكثيرة ، وعمل للسكاررة خوان ، وللفقراء خوان حضره كثير من أهل الخير والصلاح ، فقيل فى ذلك :

فشكرا لها أوقات بر تقبلت
لقد كان فيها الخير والبر أجمعا
لقد عمت النعمى بها كل موطن
سقتها العوادى مربعا ثم مربعا
ولما مضى السلطان لم يمض جوده
وخلف فينا بره متنوعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
فدام له منا الدعاء مكررا
مدى دهرنا والله يسمع من دعا

مسجد البقعة

هذا المسجد مجاور لمسجد الفتح من غربيه . بناه الأمير أبو منصور صافى الأفضلى .

مسجد الفتح

هذا المسجد مشهور بجوار قبر الناطق . بناه شرف الاسلام سيف الامام يانس الرومى وزير مصر . وسمى بالفتح لأن معه كان انهزام الروم الى قصر الشمع ، حين قدم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود فيمن سواهما ، مددا لعمرو بن العاص ، وكان الفتح .

ويقال ان محرابه اللطيف الذى بجانبه الشرقى قديم ، وان تحت حائطه الشرقى قبر عامر الذى كان أول من دفن بالقرافة .

ومحراب مسجد الفتح منحرف عن خط سمت القبلة الى جهة الجنوب انحرافا كثيرا كما ذكر عند ذكر محاريب مصر من هذا الكتاب ، واستشهد يومئذ جماعة دفنوا فى مجرى الحصا ، فكان يرى على قبورهم فى الليل نور .

مسجد ام عباس جهة العادل بن سلار

هذا المسجد كان بجوار مصلى خولان بالمغافر غربى المقابر . بنته بلاوة زوج العادل ابن السلار ، سلطان مصر فى خلافة الظافر ، سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، على يد المعروف بالشريف عز الدولة الرضوى بن القفاص ، وكانت بلاوة مغربية ، وهى أم الوزير عباس الصنهاجى الباديسى . وقد دثر هذا المسجد .

مسجد الصالح

هذا المسجد كان بخط جامع القرافة ، المعروف بجامع الأولياء ، عرف بمسجد بنى عبيد الله ، وبمسجد القبة ، وبمسجد العزاء . والذى بناه الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر ، وكان فى أعلاه مناظر ، وعمارته متقنة الزى ، وأدركته عامرا الى ما بعد سنة ثمانمائة .

مسجد ولى عهد أمير المؤمنين

هو الأمير أبو هاشم العباس بن شعيب بن داود المهدى ، أحد الأقارب فى الأيام الحاكمية كان الى جانب مسجد الصالح ، وبجانبه تربته . وكان المسجد من حجر ، وبابه محمول على أربع حنايا ، وتحت الحنايا باب المسجد ، وفى شرقيه أيضا أربع حنايا .

وكانت دار أبى هاشم هذا بمصر دار الأفراح . ومن ولده الشريف الأمير الكبير أبو الحسن على ابن الأمير عباس بن شعيب بن أبى هاشم المذكور ، ويعرف بالشريف الطويل وبالنباش .

مسجد الرحمة

هذا المسجد كان فى صدر القرافة الكبرى ، بالقرب من تربة ركن الاسلام محمود ابن أخت الملك الصالح طلائع بن رزيك .

قال الكندى : ومنها مسجد القرافة ، وهم بنو محصن بن سيف بن وائل بن الجيزى ، قبلى القرافة على يمينك اذا أممت مسجد الأقدام ، مقابله فسقية صغيرة ، وله منارة ، يعرف بمسجد الرحمة . وعرف هذا المسجد بأبى تراب * الصواف ، وكيل الجهة التى بنت مسجد الأندلس ورباطه ومسجد رقية ، وأبو تراب هذا تولى بناءه ، وكان يقوم بخدمته الشيخ نسيم .

وأبو تراب هو الذى أخرج اليه ولد الآمر فى قفة من خوص فيها حوائج طبيخ من كراث

(*) ص٤٤٧ جـ١ ، ط.بولاق .

وبصل وجزر ، وهو طفل فى القماط ، فى أسفل القفة والحوائج فوقه ، ووصل به الى القرافة ، وأرضعته المرضعة بهذا المسجد ، وخفى أمره عن الحافظ حتى كبر وصار يسمى قفيفة . فلما حان نقعه ، نم عليه أبو عبد الله الحسين بن أبى الفضل عبد الله بن الحسين الجوهرى الواعظ ، بعدما مات الشيخ أبو تراب ، عند الحافظ . فأخذ الصبى وفصده فمات ، وخلع على ابن الجوهرى ، ثم نفى الى دمياط ، فمات بها فى جمادى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

مسجد مكنون

هو بجانب مسجد الرحمة . بناه الأستاذ مكنون القاضى ، الذى تقدم ذكره فى مسجد الأندلس .

مسجد جهة ريحان

هذا المسجد كان فى وجه مسجد أبى تراب ، قبالة دار البقر ، من القرافة الكبرى . وجدده أستاذ الجهة الحافظية ، واسمه ريحان فى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

مسجد جهة بيان

هذا المسجد كان فى بطحاء مسجد الأقدام بجوار ترب المادرانيين . بنته الجهة الحافظية ، المعروفة بجهة بيان الحامى ، على يد أبى الفضل الصعيدى المعروف بابن الموفق .

وحكى الخليفة عن هذه الجهة خبرا عجيبا ... قال القاضى المكين أبو الطاهر

اسماعيل بن سلامة : قال لى أمير المؤمنين الحافظ يوما : ياقاضى أبا الطاهر .

قلت : لبيك ياأمير المؤمنين .

قال : أحدثك بحديث عجيب .

قلت : نعم .

قال : لما جرى من أبى على بن الأفضل ما جرى ، بينا أنا فى الموضع الذى كنت معتقلا فيه ، رأيت كأنى قد جلست فى مجلس من مجالس القصر أعرفه ، وكأن الخلافة قد أعيدت الى ، وكأن المغنيات قد دخلن يهنيننى ويغنين بين يدى ، وفى جملتهن جارية معها عود (يعنى هذه الجارية المذكورة) فانشأت تغنى قول أبى العتاهية :

أتته الخلافة منقادة
اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له
ولم يك يصلح الا لها
ولو نالها أحد غيره
لزلزلت الأرض زلزالها

وكأنى قمت الى خزانة بالمجلس أخذت منها حقة فيها جوهر فملأت فمها منه .. ثم استيقظت . فوالله ياقاضى ما كان الا يومان حتى كسر على الحبس ، لما قتل أبو على بن الأفضل ، وقيل لى : السلام على أمير المؤمنين .

فلما خرجت ، وأقمت أياما ، جلست فى ذلك المجلس الذى رأيته فى النوم ، ودخل الجوارى يهنيننى ، فغنت احداهن — وهى ذات عود — ذلك الصوت بعينه ، فقلت لها : على رسلك حتى نقضى نحن أيضا من حقك ما يجب علينا ، وقمت الى الخزانة

وأخذت الحق الذى فيه الجوهر ، ثم جئت اليها وقلت لها : افتحى فاك ، ففتحته وحشوته جوهرا ، وقلت لها : ان لك علينا فى كل سنة فى مثل هذا اليوم مثل ذلك .

مسجد ثوبة

هو ابن ميسرة الكتامى مغنى المستنصر . كان فى شرقى الأقهوب ، وقبالته تربة تنسب الى الطبالة صاحبة أرض الطبالة ، وكلاهما فى القرافة الكبرى

مسجد درى

هذا المسجد كان فى القرافة الكبرى فى رحبة الأقهوب . بناه شهاب الدولة درى ، غلام المظفر أخى الأفضل بن أمير الجيوش ، فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وكان أرمنيا فأسلم ، وصار من المتشددين فى مذهب الامامية ، وقرأ الجمل للزجاجى فى النحو ، واللمع لابن جنى .

وكانت له خرائط من القطن الأبيض يلبسها فى يديه ورجليه ، وكان يتولى خزائن الكسوات ، ولا يدخل على بسط السلاطين ولا على بسط الخليفة الحافظ لدين الله ، ولا يدخل * مجلسه الا بالخرائط فى رجليه ، ولا يأخذ من أحد رقعة الا فى يده خريطة ، يظن أن من لمسه نجسه ، وسوسة منه .

فان اتفق أنه صافح أحدا ، أو أمسك رقعة بيده من غير خريطة ، لا يمس ثوبه ولا بدنه حتى يغسلها ، فان مس ثوبه غسل

(*) ص٤٤٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

الثوب . وكان الأستاذون يعبثون به ، ويرمون في بساط الخليفة الحافظ العنب ، فاذا مشى عليه والفجر ، ووصل ماؤه الى رجليه ، سبهم وحرد ، فيضحك الخليفة ، ولا يؤاخذه .

وصل مرة الوزير رضوان بن ولخشى دواة حليتها ألف دينار مرصعة ، فدخل عليه شهاب الدولة درى الصغير هذا ، وقد أحضرت الدواة المذكورة ، فقال له : يامولانا أحسن من مداد هذه الدواة ، ووقع على هذه ، فيكون ذلك زكاتها ، اذ لله فيه رضا ولنبيه .

وناوله رقعة الشريف القاضي ، سنا الملك أسعد الجواني النحوي ، يطلب فيها راتبا لابنه الشريف أبي عبد الله محمد في الشهر ثلاثة دنانير ، فوقع عليها . فلما كان في الليل رأى في نومه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وهو يقول : جزاك الله خيرا على فعلك اليوم .

مسجد ست غزال

هذا المسجد كان في القرافة الكبرى بجوار تربة النعمان . بنته ست غزال في سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وكانت غزال هذه صاحبة دواة الخليفة ، لا تعرف شيئا الا احكام الدوى والليق ومسح الأقلام والدواة ، وكان برسم خدمتها الأستاذ مأمون الدولة الطويل .

مسجد رياض

هو لوقافة الحافظ لدين الله ، كانت تقف بين يديه بالقصر . وكان بجوار الصنعة الصغرى الطولونية التي يجيء الماء اليها من عقصة الكبرى ، وكان فيه حوش به عدة بيوت للنساء المنقطعات .

مسجد عظيم الدولة

هذا المسجد كان معلقا بخط سوق القرافة الكبرى ، وكان عظيم الدولة هذا صقليا ، صاحب الستر وحامل المظلة . وكان بجوار هذا المسجد مسجد التساح ، ومسجد السدرة ، ومسجد جهة مراد .

وكان القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج هبة الله بن الميسر لما عمل قدامه منارة النحاس الرومية ذات السواعد ، واجتاز بها من تحت سدرة المسجد في ليلة الوقود ، نصف شهر رجب سنة ثلاثين وخمسمائة ، عاقتها السدرة ، فأمر بقطع بعضها ، فقيل له : لا تفعل فان قطع السدر محذور ، وقد روى أبو داود في كتاب « السنن » له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار » ، فقطعها على ركوب نصف شعبان ، فما أسنى ، وصرف في المحرم ، ونفي الى تنيس وقتل .

مسجد ابى صادق

هذا المسجد كان غربي مسجد الأقدام . بناه ابن سعدون ، أبو الحسن علي بن محمد البغدادي ، بعد سنة عشرين وأربعمائة ، وجدده أخوه أبو عبد الله الحسين بن محمد ابن الحسن بن سعدون البغدادي سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة .

وهو مسجد أبي صادق مرشد المديني المالكي المحدث ، وكان قارىء المصحف

بالجامع ومصليا به ، ومصدرا فيه لاقراء السبع . وكان فيه حنة على الحيوانات ، لا سيما على القطط والكلاب ، وكان مشارف الجامع ، وجعل عليه جاريا من الغدد كل يوم لأجل القطط . وكان عند داره ، بزقاق الأقفال من مصر ، كلاب يطعمها ويسقيها ، وربما تبع دابته منها شيء معه في الأسواق .

قال الشريف محمد بن أسعد الجواني النسابة في كتاب « النقط على الخطط » : حدثني الشيخ منجب ، غلام أبي صادق ، قال : كان لمولاي الشيخ أبي صادق كلب لا يفارقه أبدا : اذا كان راكبا يمشي خلفه ، فاذا وقفت بغلته قام تحت يديها ، فاذا رآه الناس قالوا : هذا أبو صادق وكلبه .

وحدثني قال : ولدت كلبة في مستوقد حمام ، وكان المؤذن يأتي خلف مولاي سحرا كل يوم لقراءة المصحف ، وكان مولاي يأخذ في كمه كل يوم رغيفا . فاذا حاذى موضع الكلبة ، قلع طيلسانه ، وقطع الخبز للكلبة ، ويرمي لها بنفسه الى أن تأكل ، ثم يستدعي الوقاد ويعطيه قيراطا ، ويقول له : اغسل قدحها واملأه ماء حلوا ، ويستحلفه على ذلك * . فلما كبر أولادها ، صار يأخذ بعد رغيفين الى أن كبروا وتفرقوا .

وحدثني قال : كان قد جعل كراء حانوت ، برسم القطاط بالجامع العتيق ، من الأحباس . وكان يؤتى بالغدد مقطعة ، فيجلس ويقسم عليها ، وان قطة كانت تحمل شيئا من ذلك وتمضي به ، وفعلت ذلك مرارا . فقال مولاي للشيخ أبي الحسن بن فرج : امض خلف هذه القطة ، وانظر الى أين تؤدي ذلك . فمضى ابن فرج فاذا بها تؤديه الى أولادها ، فعاد اليه وأخبره . فكان بعد ذلك يقطع غددا صغارا على قدر مساغ القطط الصغار ، وغددا كبارا للكبار ، ويرسل بجزء الصغار اليهم الى أن كبروا .

(*) ص٤٤٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

مسجد الفراش

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى . بناه أحمد فراش الأفضل بن أمير الجيوش . وبجواره مسجد بناء زيد بن حسام ، ومسجد الاجابة القديم ، وتربة العطار ، ودار البقر ، وقناطر الاطفيحي ... كل ذلك بالقرب من جامع القرافة .

مسجد تاج الملوك

هذا المسجد قدام دار النعمان وتربته من القرافة الكبرى . بناه تاج الملوك بدران بن أبي الهيجاء الكردي الماراني ، وهو أخو سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء ، صهر بني رزيك ، وكان مجتمع أهل مصر عنده في الأعياد والمواسم وليالي الوقود .

مسجد الثمار

هذا المسجد كان ملاصقا للزيادة التي في بحري مسجد الأقدام . وفيه قبور بني الثمار .

مسجد الحجر

هذا المسجد كان بحري مسجد عمار بن يونس مولى المغافر ، وشرقي قصر الزجاج من

القرافة الكبرى . بناه مولاة على بن يحيى بن طاهر — المعروف بابن أبى الخارجى الموصلى — فى ربيع الأول سنة ثلاثين وأربعمائة .

مسجد القاضى يونس

هذا المسجد كان غربى مسجد الحجر المذكور . بناه الشيخ عدى الملك بن عثمان ، صاحب دار الضيافة ، ثم صار بيد قاضى القضاة بمصر : الموفق كمال الدين أبى الفضائل يونس بن محمد بن الحسن — المعروف بجوامرد — خطيب القدس القرشى . وكان من الأعيان ، ولم يشرب قط من ماء النيل بل من ماء الآبار ، لم يأكل قط للسلطان خبزا ، وكان يروى الحديث عن جده .

مسجد الوزيرية

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى وله منارة بجوار باب رباط الحجازية وكانت الحجازية اعظة زمانها ، وكانت من الخيرات لها القبول التام ، وتدعى أم الخير ، وكان لها من الصيت كما كان لابن الجوهرى ، وكانت على غاية من الكرم وحسن الأخلاق والشيم .

ومن مكارم أخلاقها ، وحسن طباعها وكياسة انطباعها ، ما حكاه الجوانى النسابة فى كتاب « النقط على الخطط » ، قال حدثنى الشيخ أبو الحسن بن السراج ، المؤذن بالجامع بمصر ، قال : كان قدام الباب الأول من أبواب جامع مصر بياع رطب يقعد على الأرض وبين يديه أقفاص رطب من أحسن الأرطاب .

فبينا الحجازية الواعظة هذه ذات يوم قد قاربت الخروج من باب الجامع ، وهى فى حفدتها وجوارها ، واذا ذلك الرطاب ينادى على قفص رطب قدامه « معاشر الناس ، اشتروا الطيبة الحجازية على أربعة ، على أربعة . يريد على أربعة أرطال رطب بدرهم .

فلما سمعته الحجازية ، قفت قبل أن تخرج من باب الجامع ، وأنفذت اليه بعض الجوارى فصاحت به فلما أتاها قالت له : ياأخى قولك « الحجازية على أربعة » مشكل ، لا ترجع تنادى كذا ، وهذا رباعى هدية منى لك ربح هذا القفص ، ولا تناد كذا . فأخذه وقبل يدها ، وقال « السمع والطاعة .

مسجد ابن العكر (*)

هذا المسجد غربى مسجد أبى صادق ، بحضرة مسجد الأقدام قبالة قصر الكتفى ، وبحذاء مسجد النارنج بناه القاضى العادل ابن العكر .

مسجد ابن كباس

هذا المسجد كان مجاورا للقناطر الأطفيحية ، على يسار من أم طريق الجامع . بناه القاضى ابن كباس .

(*) ص٤٥٠ ، ج ٢ ، ط بولاق

مسجد الشهمية

هذا المسجد كان شرقى مسجد الأقدام ، وغربى قناطر ابن طولون ، مجاورا لتربة القاضى بن قابوس . كان يعرف بمسجد الفقاعة من الكلاع ، ويعرف أيضا بمسجد شادن الفضلى ، غلام الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات .

مسجد زنكادة

هذا المسجد كان غربى مسجد عمار بن يونس . بناه زنكادة المخنث ، بعدما تاب ، فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة .

جامع القرافة

هذا الجامع يعرف اليوم بجامع الأولياء وهو مسجد بنى عبد الله بن مانع بن مزروع ، ويعرف بمسجد القبة ، وقد ذكر عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب .

مسجد الأطفيحى

هذا المسجد كان فى البطحاء ، بجرى مجرى جامع الفيلة الى الشرق ، مخالطا لخطط الكلاع ورعين والأكنوع والأكحول . ويقال له مسجد رحاطة بن سعد الأطفيحى ، من أهل أطفيح ، شيخ له سمت ، كتب الحديث فى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وقبلها ، وسمع من الحباك ، وهو فى طبقته ، وهو رفيق الفراء ، وابن مشرف ، وابن الحطية ، وأبى صادق ، وسلك طريق أهل القناعة والزهد والعزلة كأبى العباس ابن الحطية .

وكان الأفضل الكبير شاهنشاه ، صاحب مصر ، قد لزمه ، واتخذ السعى اليه مفترضا ، والحديث معه شهوة وغرضا لا ينقطع عنه . وكان فكه الحديث ، قد وقف من أخبار الناس والدول على القديم والحديث ، وقصده الناس لأجل حلول السلطان عنده لقضاء حوائجهم ، فقضاها صار مسجده موئلا للحاضر والبادى ، وصدى لاجابة صوت النادى .

وشكا الشيخ الى الأفضل تعذر الماء ووصوله اليه ، فأمر ببناء القناطر ، التى كانت فى عرض القرافة ، من المجرى الكبيرة الطولونية . فبنيت الى المسجد الذى به الأطفيحى ، ومضى عليها من النفقة خمسة آلاف دينار ، وعمل الأطفيحى صهريج ماء شرقى المسجد عظيما محكم الصنعة ، وحماما وبستانا كان به نخلة سقطت بعد سنة خمسين وخمسمائة .

وعمل الأفضل له مقعدا بحذاء المسجد الى الشرق ، علو زيادة فى المسجد شرقيه ، وقاعة صغيرة مرخمة . اذا جاء عنده جلس فيها ، وخلا بنفسه ، واجتمع معه وحادثه وكان هذا المقعد على هيئة المنظرة بغير ستائر ، كل من قصد الأطفيحى من الكتفى يراه .

وكان الأفضل لا يأخذه عنه القرار . يخرج فى أكثر الأوقات من دار الملك — باكرا أو ظهرا أو عصرا — بغتة ، فيترجل ، ويدق الباب وقارا للشيخ — كما كان الصحابة رضى الله عنهم يقرعون أبواب النبى صلى الله عليه وسلم — بظفر الابهام والمسبحة ، كما يحصب بهما الحاصب .

فان كان الشيخ يصلى ، لا زال اقفا حتى يخرج من الصلاة ويقول من ؟ فيقول: ولدك شاهنشاه ، فيقول نعم ثم نفتح فيصافحه الأفضل ، ويمر بيده التى لمس بها يد الشيخ على وجهه ، ويدخل . فيقول الشيخ : نصرك الله ، أيدك الله سددك الله ، هذه الدعوات الثلاث لا غير أبدا . فيقول الأفضل . آمين .

وبنى له الأفضل المصلى ذات المحارب الثلاثة ، شرقى المسجد الى القبلى قليلا ، ويعرف بمصلى الاطفيحى كان يصلى فيه على جنائز موتى القرافة

وكان سبب اختصاص الأفضل بهذا الشيخ أنه لما كان محاصرا نزار بن المستنصر بالاسكندرية ، ناصر الدولة أفتكين الأرمنى ، أحد مماليك أمير الجيوش بدر ، وكانت أم الأفضل اذ ذاك — وهى عجوز لها سمت ووقار — تطوف كل يوم وفى الجمعة الجوامع والمساجد والرباطات والأسواق ، وتستقص الأخبار ، وتعلم محب ولدها الأفضل من مبغضه .

وكان الأطفيحى قد سمع بخبرها فجاءت يوم * جمعة الى مسجده ، وقالت له : ياسيدى ولدى فى العسكر مع الأفضل ، الله يأخذ لى الحق منه ، فانى خائفة على ولدى ، فادع الله لى أن يسلمه .

فقال لها الشيخ : ياأمة الله ، أما تستحين تدعين على سلطان الله فى أرضه ، المجاهد عن دينه ؟ الله تعالى ينصره ويظفره ويسلمه ويسلم ولدك ، ما هو ان شاء الله الا منصور مؤيد مظفر كأنك به وقد فتح الاسكندرية ، وأسر أعداءه ، وأتى على أحسن قضية وأجمل طوية ، فلا تشغلى لك سرا ، فما تكون الا خيرا ان شاء الله تعالى .

ثم انها اجتازت بعد ذلك بالفار الصيرفى بالقاهرة بالسراجين ، وهو والد الأمير عبد الكريم الآمرى صاحب السيف ، وكان عبد الكريم قد ولى مصر بعد ذلك فى الأيام الحافظية ، وكان عبد الكريم هذا له فى أيام الآمر وجاهة عظيمة وصولة ثم افتقر .

فوقفت أم الأفضل على الصيرفى تصرف دينارا ، وتسمع ما يقول لأنه كان اسماعيليا متغاليا ، فقالت له . ولدى مع الأفضل ، وما أدرى ما خبره ؟

فقال لها الفار المذكور : لعن الله المذكور الأرمنى الكلب ، العبد السوء ابن العبد السوء ، مضى يقاتل مولاه ومولى الخلق . كأنك والله ياعجوز برأسه جائزا من هاهنا على رمح ، قدام مولاه نزار ومولاى ناصر الدولة ، ان شاء الله تعالى ، والله يلطف بولدك ، من قال لك تخليه يمضى مع هذا الكلب المنافق ؟ وهو لا يعرف من هى .

ثم وقفت على ابن بابان الحلبى — وكان بزازا بسوق القاهرة — فقالت له مثل ما قالت للفار الصيرفى وقال لها مثل ما قال لها .

فلما أخذ الأفضل نزارا وناصر الدولة ، وفتح الاسكندرية حدثته والدته الحديث ، وقالت : ان كان لك أب بعد أمير الجيوش ، فهذا الشيخ الاطفيحى . فلما خلع عليه المستعلى بالقصر ، وعاد الى دار الملك بمصر ، اجتاز بالبزازين يوما ، فلما نظر الى ابن بابان الحلبى ، قال انزلوا بهذا فنزلوا به ، فقال : رأسه ، فضربت عنقه تحت دكانه ثم قال لعبد على أحد مقدمى ركابه قف هاهنا لا يضيع له شىء الى أن يأتى أهله ، فيتسلموا قماشه .

ثم وصل الى دكان الفار الصيرفى ، فقال : انزلوا بهذا ، فنزلوا به ، فقال رأسه ، فضربت عنقه تحت دكانه . وقال ليوسف الأصغر ، أحد مقدمى الركاب . اجلس على حانوته الى أن يأتى أهله ويتسلموا موجوده ، واياك وماله وصندوقه ، وان ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه ، كان لنا خصم أخذناه ، وقد فعلنا به ما يردع غيره عن فعله ، وما لنا ماله ولا فقر أهله

ثم أتى الأفضل الى الشيخ أبى طاهر الأطفيحى ، وقربه وخصصه ، الى أن كان من أمره ما شرحناه

مسجد الزيات

هذا المسجد مجاور بيت الخواص غربيه ، ومسجد ابن أبى الرداد يعرف بمسجد الأنطاكى ، ومسجد الفاخورى يعرف بمسجد البطحاء ، ومسجد ابن أبى الصغير ، قبلى مسجد بنى مانع ، وهو جامع القرافة . ومسجد الشريفة بنى فى سنة احدى وخمسمائة ، ومسجد ابن أبى كامل الطرابلسى كان بحارة الفرن ، بناه الأعز بن أبى كامل . والمعبد الذى كان على رأس العقبة التى يتوصل منها الى الرصد ، بناه أبو محمد عبد الله الطباخ ، ويقال انه كان بالقرافة الكبرى اثنا عشر ألف مسجد .

« القصر المعروف بباب ليون بالشرف » : هذا القصر كان على طرف الجبل ، بالشرف الذى يعرف اليوم ..... [1] وجاه الفتح وهو مبنى بالحجارة ، ثم صار فى موضعه مسجد عرف بمسجد المقس .

والمقس ضيعة كانت تعرف بأم دنين ، سميت المقس لأن العاشر كان يقعد بها وصاحب المكس ، فقلب فقيل « المقس » ، وليون اسم بلد بمصر ، بلغة السودان والروم وقد ذكر المقس عند ذكر ظواهر القاهرة من هذا الكتاب ، والله تعالى أعلم

ذكر الجواسق التى بالقرافة

قال ابن سيده : الجوسق الحصن ، وقيل : هو شبيه بالحصن ... معرب .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة فى « كتاب النقط على الخطط » : الجواسق بالقرافة والجبانة كانت تسمى القصور ، وكان بالقرافة قصر المكتفى ، وقصر بنى كعب ، وقصر بنى عقبة ، وقصر أبى قبيل ، وقصر العزيز ، وقصر البغدادى ، وقصر يشب ، وقصر ابن كرامة .

« جوسق بنى عبد الحكم » : كان جوسقا كبيرا له حوش ، وكان فى وسط القرافة ، بحضرة مسجد بنى سريع ، الذى يقال له

(*) ص٤٠١ جـ٢ ، ط. بولاق .

(١) هكذا بياض بالاصل .

الجامع العتيق ، وهو أحد الجواسق الثلاثة ؛ وهو جوسق عبد الله بن عبد الحكم الفقيه الامام ، ويجدد هذا الجوسق ابن اللهيب المغربى * .

«جوسق بنى غالب ، ويعرف ببنى بابشاد» : كان بالمغافر ، بنى فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، والى جانبه قبر الشيخ أبى الحسن طاهر بن بابشاد .

« جوسق ابن ميسر » : كان بجوار جوسق بنى غالب . بناه أبو عبد الله محمد ابن القاضى أبى الفرج هبة الله .

وكان أبو الفرج هو الخطيب بجامع مصر ويوم الغدير ، وهو شافعى المذهب ، وهو هبة الله بن هبة الله بن الميسر ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وخمسمائة .

وأبو عبد الله هذا هو الذى كان بعد ذلك قاضى القضاة بمصر ، وهو الذى حبس القياسر التى كانت فى القشاشين بمصر ، وكان يحمل قدامه المنارة الرومية النحاس ذات السواعد التى عليها الشمع ليالى الوقودات .

وكان فيه كرم . سمع بأن المادرانى عمل فى أيامه الكعك الصغير ، المحشو بالسكر — المسمى « افطن له » — فأمر هو بعمل لب الفستق الملبس بالسكر الأبيض الفائق المطيب بالمسك ، وعمل منه فى أول الحال شيئا عوض لبه لب ذهب فى صحن واحد ، فمضى فيه جملة ، وخطف قدامه ، تخاطفه الحاضرون ، ولم يعد لعمله بل الفستق الملبس ، وهو أول من أخرجه بمصر .

وكان قد سمع فى سيرة أبى بكر المادرانى أنه عمل هذا الافطن له ، وجعل فى كل واحد خمسة دنانير ، ووقف أستاذ على السماط ، فقال لأحد الجلساء : «افطن له» ، وكان على السماط عدة صحون من ذلك الجنس ، لكن ما فيها ما فيه دنانير الا صحن واحد . فلما رمز الأستاذ لأحد الجلساء على سماط المادرانى بقوله « افطن له » — وأشار الى الصحن — تناول الرجل منه ، فأصاب ذلك فاعتمد له ، فحصل له جملة . ورآه الناس وهو اذا أكل يخرج شيئا من فمه ويجمع بيده ، ويحط فى حجره ، فتنبهوا وتزاحموا عليه ، فقيل لذلك المعمول من ذلك الوقت : « افطن له » .

وقتل هذا القاضى فى تنيس ، فى أيام بهرام الوزير النصرانى الأرمنى ، سنة ست وعشرين وخمسمائة .

« جوسق ابن مقشر » : كان جوسقا طويلا ذا تربة الى جانبه .

« جوسق الشيخ أبى محمد » عامل ديوان الأشراف الطالبيين . وجوسق ابن عبد المحسن بخط الأكحول . وجوسق البغدادى الجرجراى — كان قبره الى جانبه — خرب فى سنة عشرين وخمسمائة وجوسق الشريف أبى اسماعيل ابراهيم بن نسيب الدولة الكلثمى الموسوى نقيب مصر .

« جوسق المادرانى » : هذا الجوسق لم يبق من جواسق القرافة غيره . وهو جوسق كبير جدا على هيئة الكعبة ، بالقرب من مصلى خولاق فى بحريه ، على جانبيه الممر من مقطع الحجارة . بناه أبو بكر محمد بن على المادرانى فى وسط قبورهم من الجبانة .

(*) ص٤٥٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

وكان الناس يجتمعون عند هذا الجوسق فى الأعياد ، ويوقد جميعه فى ليلة النصف من شعبان كل سنة وقودا عظيما ، ويتحلق القراء حوله لقراءة القرآن ، فيمر للناس هنالك أوقات ، فى تلك الليلة وفى الأعياد ، بديعة حسنة .

« جوسق حب الورقة » : كان هذا الجوسق بحضرة تربة ابن طباطبا . أدركته عامرا ، وقد خرب فيما خربه السفهاء من ترب القرافة وجواسقها ، زعما منهم أن فيها خبا .

وكان أكابر أمراء المغافر ، ومن بعدهم ومن يجرى مجراهم ، لكل منهم جوسق بالقرافة يتنزه فيه ، ويعبد الله تعالى هناك ، وكان من هذه الجواسق ما تحته حوض ماء لشرب الدواب وفسقية وبستان .

وكان بالقرافة عدة قصور وهى التى تسمى بالجواسق ، لها مناظر وبساتين ، الا أن الجواسق أكثرها بغير بساتين ولا بئر ، بل مناظر مرتفعة ، ويقال لها كلها قصور .

« قصر القرافة » : بنته السيدة تغريد أم العزيز بالله ، فى سنة ست وستين وثلثمائة ، على يد الحسن بن عبد العزيز الفارسى المحتسب ، هو الحمام الذى كان فى غربيه ، وبنت البئر والبستان المعروف بالتاج ، المعروف بحصن أبى المعلوم ، وبنت جامع القرافة .

ثم جدده الآمر بأحكام الله ، وبيضه فى سنة عشرين وخمسمائة ، وعمل شرقى بابه مصطبة للصوفية ، وكان مقدمهم الشيخ أبو اسحاق ابراهيم ، المعروف بالمادح ، وكان الآمر يجلس فى الطاق بالمنظر الذى بناه بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة قدامه .

وقد ذكر هذا القصر عند ذكر مناظر الخلفاء من هذا الكتاب . ولم يزل هذا القصر الى ربيع الآخر سنة سبع وستين وخمسمائة .

ذكر الرباطات التى كانت بالقرافة *

كان بالقرافة الكبيرة عدة دور ، يقال للدار منها رباط ، على هيئة ما كانت عليه بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، يكون فيها العجائز والأرامل العابدات ، وكانت لها الجرايات والفتوحات ، وكان لها المقامات المشهورة من مجالس الوعظ .

« رباط بنت الخواص » : كان تجاه مسجد يد الفقيه مجلى بن جميع بن نجا الشافعى ، مؤلف كتاب « الذخائر » ، وقاضى القضاة بمصر .

« رباط الأشراف » : كان برحبة جامع القرافة ... يعرف بالقراء ، وبنى عبد الله ، وبمسجد القبة ، وهو شرقى بستان ابن نصر . بناه أبو بكر محمد بن على المادرانى ، ووقفه على نساء الأشراف .

« رباط الأندلس » : بنته الجهة المعروفة بجهة مكنون الآمرية كما تقدم .

« رباط ابن العكارى » : كان بحضرة مسجد بنى سريع ، المعروف بالجامع العتيق .

« رباط الحجازية » : بنته ، وحبسته على الحجازية ، فوز جارية على بن أحمد الجرجراى الوزير ، هو والمسجد الذى تقدم ذكره .

(*) ص٤٥٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

« رباط رياض » : كان بجوار مسجد الحاجة رياض .

ذكر المصليات والمحاريب التى بالقرافة

وكان فى القرافة عدة مصليات وعدة محاريب ، منها :

« مصلى الشريفة » : كان بدرب القرافة بحضرة الجباسين وخطة الصدف بناه أبو محمد عبد الله بن الأرسوفى الشامى التاجر سنه سبع وسبعين وخمسمائة .

« مصلى المغافر » : وهو الأندلس . جدده ابن برك الاخشيدى ، ثم بنته جهة مكون الآمرية فى سنة ست وعشرين وخمسمائة .

« مصلى عقبة القرافة ، يعرف بمصلى الأندلسى » : كان ذا مصطبة مربعة على يسرة الطالع الى القرافة . بناه يوسف بن أحمد الأندلسى الأنصارى فى شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة .

« مصلى القرافة » : جدده الفقيه ابن الصباغ المالكى فى سنة عشرين وخمسمائة ، وكان بحضرة مسجد أبى تراب تجاه دار التبر .

« مصلى الفتح » : كان ملاصقا لمسجد الفتح . بناه أبو محمد القلعى المغربى المنجم الحافظى .

« مصلى جهة العادل » : أبى الحسن بن السلار وزير مصر .

« مصلى الاطفيحى » : بجوار مسجد الاطفيحى الذى تقدم ذكره .

« مصلى الجرجانى » : بناه الوزير على بن أحمد الجرجانى وكانت بالقرافة الكبرى والجبانة عدة محاريب خربت كلها .

« مصلى خولان » : هذه المصلى عرفت بطائفة من العرب الذين شهدوا فتح مصر ، يقال لهم خولان ، وهم من قبائل اليمن ، واسمه نكل بن عمرو بن مالك بن زيد بن عرب . وفى هذه المصلى مشهد الأعياد ، ويؤم الناس ويخطب لهم بها فى يوم العيد ، خطيب جامع عمرو بن العاص . وليست هذه المصلى هى التى أنشأها المسلمون عند فتح أرض مصر ، وانما كانت مصلى العيد فى أول الاسلام غير هذه .

قال القضاعى : مصلى العيد كان مصلى عمرو بن العاص مقابل اليحموم ، وهو الجبل المطل على القاهرة ، فلما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مصر ، أمر بتحويله ، فحول الى موضعه ، المعروف اليوم بالمصلى القديم ، عند درب السباع ، ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر سنة عشر ومائتين ، ثم بناه أحمد ابن طولون فى سنة ست وخمسين ومائتين ، واسمه باق عليه الى اليوم .

قال الكندى : ولما قدم شفى الأصبحى الى مصر ، وأهل مصر قد اتخذوا مصلى بحذاء ساقية أبى عون عند العسكر ، قال : ما لهم وضعوا مصلاهم فى الجبل الملعون ، وتركوا الجبل المقدس (يعنى المقطم) ؟

قال : فقدموا مصلاهم الى * موضعه الذى هو به اليوم (يعنى المصلى القديم المذكور) .

(*) ص٤٥١ جـ٢ ، ط. بولاق *

وقال الكندى : ثم ضاق المصلى بالناس فى امارة عنبسة بن اسحاق الضبى على مصر ، فى أيام المتوكل على الله ، فأمر عنبسة بابتناء المصلى الجديد . فابتدىء ببنائه فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة أربعين ومائتين ، وصلى فيه يوم النحر من هذه السنة .

وعنبسة هو آخر عربى ولى مصر ، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد ، وهو المصلى الذى بالصحراء عند الجارودى . ثم جدده الحاكم ، وزاد فيه ، رجعل له قبة وذلك فى سنة ثلاث وأربعمائة .

وكان أمراء مصر اذا خرجوا الى صلاة العيد بالمصلى ، أرقفوا جيشا فى سفح الجبل — مما يلى بركة الحبش — ليراعى الناس حتى ينصرفوا من الصلاة ، خوفا من البجة . فانهم قدموا غير مرة ، ركبانا على النجب ، حتى كبسوا الناس فى مصلاهم ، وقتلوا ونهبوا ، ثم رجعوا من حيث أتوا .

فخرج عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، غضبا لله وللمسلمين مما أصابهم من البجة ، فكمن لهم بالصعيد فى طريقهم ، حتى أقبلوا ، كعادتهم فى أخذ الناس فى مصلى العيد ، فكبسهم ، وقتل الأعور رئيسهم . بعدما أقبلوا الى المصلى فى العيد فى سنة ست وخمسين ومائتين — وأمير مصر أحمد بن طولون — على النجب ، وكبسوا الناس فى مصلاهم ، وقتلوا ونهبوا منهم ، وعادوا سالمين .

ثم دخل العمرى الى بلاد البجة غازيا ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وضايقهم فى بلادهم الى أن أعطوه الجزية — ولم يكونوا أعطوا أحدا قبله الجزية — وسار فى المسلمين وأهل الذمة سيرة حسنة ، وسالم النوبة . . الى أن بدأ النوبة بالغدر فى الموضع المعروف بالمريس . فمال عليهم وحاربهم ، وخرب ديارهم ، وسبى منهم عالما كبيرا ، حتى كان الرجل من أصحابه يبتاع الحاجة من الزيات والبقال بنوبى أو نوبية لكثرتهم معهم .

فجاءوا الى أحمد بن طولون ، وشكوا له من العمرى . فبعث اليه جيشا ليحاربه ، فأوقع بالجيش وهزمهم ، وكانت لهم أنباء وقصص . الى أن قتله غلامان من أصحابه ، وأحضرا رأسه الى أحمد بن طولون ، فأنكر فعلهما ، وضرب أعناقهما ، وغسل الرأس ودفنه .

ذكر المساجد والمعابد التى بالجبل والصحراء

وكان بجبل المقطم وبالصحراء — التى تعرف اليوم بالقرافة الصغرى — عدة مساجد وعدة مغاير ينقطع العباد بها ، منها ما قد دثر ، ومنه شىء قد بقى أثره .

« مسجد التنور » : هذا المسجد فى أعلى جبل المقطم من وراء قلعة الجبل فى شرقيها ، أدركته عامرا ، وفيه من يقيم به .

قال القضاعى : المسجد المعروف بالتنور بالجبل ، هو موضع تنور فرعون . كان يوقد له عليه ، فاذا رأوا النار علموا بركوبه ، فاتخذوا له ما يريد ، وكذلك اذا ركب منصرفا من عين شمس ، ثم بناه أحمد بن طولون

مسجدا فى صفر سنة تسع وخمسين ومائتين * ووجدت فى كتاب قديم أن يهودا بن يعقوب أخا يوسف عليه السلام ، لما دخل مع اخوته على يوسف ، وجرى من أمر الصواع ما جرى ، تأخر عن اخوته ، وأقام فى ذروة الجبل المقطم فى هذا المكان ، وكان مقابلا التنور فرعون الذى كان يوقد له فيه النار .

ثم خلا ذلك الموضع الى زمن أحمد بن طولون ، فأخبر بفضل الموضع ، وبمقام يهوذا فيه . فابتنى فيه هذا المسجد والمنارة التى فيه ، وجعل فيه صهريجا فيه الماء ، وجعل الانفاق عليه مما وقفه على البيمارستان بمصر والعين التى بالمعافر وغير ذلك .

ويقال ان تنور فرعون لم يزل فى هذا الموضع بحاله . الى أن خرج اليه قائد من قواد أحمد بن طولون ، يقال له وصيف قاطرميز ، فهدمه وحفر تحته ، وقدر أن تحته مالا ، فلم يجد فيه شيئا ، وزال رسم التنور وذهب .

وأنشد أبو عمرو الكندى فى كتاب « أمراء مصر » من أبيات لسعيد القاص :

وتنور فرعون الذى فوق قلة
على جبل عال على شاهق شمخ
بنى مسجدا فيه يروق بناؤه
ويهدى به فى الليل ان ضل من يسرى
تخال سنا قنديله وضياءه
سهيلا اذا ما لاح فى الليل للسفر

« القرقوبى » : قال القضاعى : المسجد المعروف بالقرقوبى هو على قرنة الجبل المطل على كهف السودان . بناه أبو الحسن القرقوبى الشاهد ، وكيل التجار بمصر ، فى سنة خمس عشرة وأربعمائة . وكان فى موضعه محراب حجارة يعرف بمحراب ابن الفقاعى ، الرجل الصالح ، وهو على يسار المحراب * .

« مسجد أمير الأمراء » رفق المستنصرى : على قرنة الجبل البحرية ، المطلة على وادى مسجد موسى عليه السلام .

« كهف السودان » : مغار فى الجبل لا يعلم من أحدثه ، ويقال ان قوما من السودان نقروه فنسب اليهم ، كان صغيرا مظلما ، فبناه الأحدب الأندلسى القزاز ، وزاد فى سقفه مواضع نقرها ، وبنى علوه ، ويقال انه أنفق فيه أكثر من ألف دينار ، ووسع المجاز الذى يسلك منه اليه ، وعمل الدرج النقر التى يصعد عليها اليه ، وبدأ فى بنيانه مستهل سنة احدى وعشرين وأربعمائة ، وفرغ منه فى شعبان من هذه السنة .

« العارض » : هذا المكان مغارة فى الجبل عرفت بأبى بكر محمد جد مسلم القارى لأنه نقرها ، ثم عمرت بأمر الحاكم بأمر الله ، وأنشئ فيها منارة هى باقية الى اليوم . وتحت العارض قبر الشيخ العارف عمر بن الفارض رحمه الله ، ولله در القائل :

جز بالقرافة تحت ذيل العارض
وقل السلام عليك يا ابن الفارض

وقد ذكر القضاعى أربع عشرة مغارة فى الجبل ، منها ما هو باق ، وليس فى ذكرها فائدة .

« اللؤلؤة » : هذا المكان مسجد فى سفح الجبل باق الى يومنا هذا . كان مسجدا

(*) ص٥٥ جـ٤ ، ط. بولاق

خرابا ، فبناه الحاكم بأمر الله ، وسماه اللؤلؤة . قيل كان بناؤه فى سنة ست وأربعمائة ، وهو بناء حسن .

« مسجد الهرعاء » : فيما بين اللؤلؤة ومسجد محمود ، وهو مسجد قديم يتبرك بالصلاة فيه ، وقد ذكر مسجد محمد عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب لأنه تقام فيه الجمعة .

« دكة القضاة » قال القضاعى : هى دكة مرتفعة عن المساجد فى الجبل ، كان القضاة بمصر يخرجون اليها لنظر الأهلة كل سنة ، ثم بنى عليها مسجد .

« مسجد فائق » مولى خمارويه بن أحمد ابن طولون : كان فى سفح الجبل مما يلى طريق مسجد موسى عليه السلام .

« مسجد موسى » : بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات .

« مسجد زهرون بالصحراء » : هو مسجد أبى محمد الحسن بن عمر الخولانى ، ثم عرف بابن المبيض . وكان زهرون قيمه ، فنسب اليه .

« مسجد الفقاعى » : هو أبو الحسن على ابن الحسن بن عبد الله ، كان أبوه فقاعيا بمصر ، وهو مسجد كبير ، بناه كافور الاخشيدى ، ثم جدده وزاد فيه مسعود بن محمد صاحب الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجرجراى .

وكان فى وسط هذا المسجد محراب مبنى بطوب . يقال انه من بناء حاطب بن أبى بلتعة رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس ، ويقال انه أول محراب اختط فى مصر ، وكان أبو الحسن التميمى قد زاد فيه بناء قبل ذلك .

« مسجد الكنز » : هذا المسجد كان شرقى الخندق ، وبحرى قبر ذى النون المصرى . وكان مسجدا صغيرا يعرف بالزمام ، ومات قبل تمامه ، فهدمه أبو طاهر محمد بن على القرشى القرقوبى ، ووسعه وبناه .

وحكى أنه لما هدمه رأى قائلا يقول فى المنام : على أذرع من هذا المسجد كنز . فاستيقظ وقال : هذا من الشيطان ، فرأى هذا القائل ثلاث مرات . فلما أصبح أمر بحفر الموضع فاذا فيه قبر ، وظهر له لوح كبير تحته ميت فى لحد ، كأعظم ما يكون من الناس جثة ورأسا ، وأكفانه طرية لم يبل منها الا ما يلى جمجمة الرأس ، فانه رأى شعر رأسه قد خرج من الكفن ، واذا له جمة . فراعه ما رأى ، وقال : هذا هو الكنز بلا شك ، وأمر باعادة اللوح والتراب كما كان ، وأخرج القبر عن سائر الحيطان ، وأبرزه للناس ، فصار يزار ويتبرك به .

« مسجد فى غربى الخندق » : أنشأه أبو الحسن بن النجار الزيات فى سنة احدى وأربعين وأربعمائة .

« مسجد لؤلؤ الحاجب » بالقرافة الصغرى : بنى بجانبه مقبرة ، وحفر عندها بئرا حتى انتهى الحفار الى قرب الماء ، فقال الحفار . انى أجد فى البئر شيئا كأنه حجر .

فقال له لؤلؤ : تسبب فى قلعه . فلما قلعه فار الماء وأخرجه ، واذا هو « اسطام مركب » وهو الخشبة التى تبنى عليها السفينة .

وهذا يصدق ما قاله أرسطاطاليس فى كتاب « الآثار العلوية » قال . ان أهل مصر يسكنون فيما انحسر عنه البحر الأحمر (يعنى بحر الشام) .

وقد ذكر خبر لؤلؤ هذا عند ذكر حمام لؤلؤ . .

« مقام المؤمن » : قيل انه مؤمن آل فرعون لأنه أقام فيه . وهذا بعيد من الصحة .

« قناطر ابن طولون وبئره » : هذه القناطر قائمة الى اليوم من بئر أحمد بن طولون التى عند بركة الحبش ، وتعرف هذه البئر عندنا بئر عفصة ، ولا تزال هذه القناطر الى أثناء القرافة الكبرى ، ومن هناك خفيت لتهدمها ، وهى من أعظم المبانى .

قال القضاعى « قناطر أحمد بن طولون وبئره بظاهر المغافر » : كان السبب فى بناء هذه القناطر أن أحمد بن طولون ركب فمر بمسجد الأقدام وحده ، وتقدم عسكره وقد كده العطش ، وكان فى المسجد خياط ، فقال : ياخياط ، أعندك ماء ؟

قال : نعم . فأخرج له كوزا فيه ماء وقال : اشرب ولا تمد (يعنى لا تشرب كثيرا) .

فتبسم أحمد بن طولون ، وشرب فمد فيه حتى شرب أكثره ، ثم ناوله اياه ، وقال : يافتى سقيتنا وقلت لا تمد !

(*) ص٥٦ جـ٢ ، ط . بولاق .

فقال : نعم ، أعزك الله ، موضعنا ههنا منقطع ، وانما أخيط جمعتى حتى أجمع ثمن راوية .

فقال له : والماء عندكم هاهنا معوز ؟

فقال : نعم .

فمضى أحمد بن طولون . فلما حصل فى داره قال : جيئونى بخياط فى مسجد الأقدام ، فما كان بأسرع من أن جاءوا به . فلما رآه قال : سر مع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية ويجروا الماء ، وهذه ألف دينار خذها .

وابتدأ فى الانفاق ، وأجرى على الخياط فى كل شهر عشرة دنانير ، وقال له : بشرلى ساعة يجرى الماء فيها . فجدوا فى العمل ، فلما جرى الماء أتاه مبشرا ، فخلع عليه وحمله ، واشترى له دارا يسكنها ، وأجرى عليه الرزق السنى الدارّ .

وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خليد المعروفة بالنعش . فقال : هذه العين لا تعرف أبدا الا بأبى خليد ، وانى أريد أن أستنبط بئرا . فعدل عن العين الى الشرق ، فاستنبط بئره هذه ، وبنى عليها القناطر ، وأجرى الماء الى الفسقية التى بقرب درب سالم .

وقال جامع السيرة الطولونية : وأما رغبته فى أبواب الخير فكانت ظاهرة بينة واضحة . فمن ذلك بناء الجامع والبيمارستان ، ثم العين التى بناها بالمغافر ، وبناها بنية صحيحة ورغبة قوية ، حتى انها ليس لها نظير ، ولهذا اجتهد

المادرانيون ، وأنفقوا الأموال الخطرة ليحكوها ، فأعجزهم ذلك ، لأنها وقعت فى موضع جيرانه كلهم محتاجون اليها .

وهى مفتوحة طول النهار لمن كشف وجهه للأخذ منها ، ولمن كان له غلام أو جارية ، والليل للفقراء والمساكين ... فهى حياة ومعونة . واتخذ لها مستغلا فيه فضل وكفاية لمصالحها .

والذى تولى لأحمد بن طولون بناء هذه العين رجل نصرانى ، حسن الهندسة حاذق بها ، وانه دخل الى أحمد بن طولون فى عشية من العشايا ، فقال له : اذا فرغت مما تحتاج اليه ، فأعلمنى لنركب اليها لنراها .

فقال : يركب الأمير اليها فى غد فقد فرغت .

وتقدم النصرانى فرأى موضعا بها يحتاج الى قصرية جير وأربع طوبات ، فبادر الى عمل ذلك . وأقبل أحمد بن طولون يتأمل العين ، فاستحسن جميع ما شاهده فيها ، ثم أقبل الى الموضع الذى فيه قصرية الجير ، فوقف بالاتفاق عليها ، فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأحمد ، ولسوء ظنه قدر أن ذلك لمكروه أراد به النصرانى ، فأمر به فشق عنه ما عليه من الثياب ، وضربه خمسمائة سوط ، وأمر به الى المطبق ، وكان المسكين يتوقع من الجائزة مثل ذلك دنانير ، فاتفق له اتفاق سوء .

وانصرف أحمد بن طولون وأقام النصرانى . الى أن أراد أحمد بن طولون بناء الجامع ، فقدر له ثلثمائة عمود ، فقيل له ما تجدها ، أو تنفذ الى الكنائس فى الأرياف والضياع الخراب فتحمل ذلك ، فأنكره ولم يختره ، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره .

وبلغ النصرانى وهو فى المطبق الخبر ، فكتب اليه : أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمودى القبلة ، فأحضره — وقد طال شعره حتى تدلى على وجهه — فبناه .

قال : ولما بنى أحمد بن طولون هذه السقاية ، بلغه أن قوما لا يستحلون شرب مائها .

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الفقيه : كنت ليلة فى دارى ، اذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون ، فقال لى : الأمير يدعوك . فركبت مذعورا مرعوبا ، فعدل بى عن الطريق ، فقلت : أين تذهب بى ؟

فقال : الى الصحراء والأمير فيها .

فأيقنت بالهلاك ، وقلت للخادم : الله الله فىَّ ، فانى شيخ كبير ضعيف مسن ، فتدرى ما يراد منى فارحمنى .

فقال لى : احذر أن يكون لك فى السقاية قول .

وسرت معه واذا بالمشاعل فى الصحراء ، وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشمع ، فنزلت وسلمت عليه ، فلم يرد على ، فقلت : أيها الأمير ان الرسول أعنتنى وكدنى وقد عطشت ، فيأذن لى الأمير فى الشرب ، فأراد الغلمان أن يسقونى ، فقلت : أنا آخذ لنفسى .

فاستقيت وهو يرانى ، وشربت وازددت فى الشرب حتى كدت أنشق ، ثم قلت : أيها الأمير ، سقاك الله من أنهار الجنة . فلقد أرويت * وأغنيت ، لا أدرى ما أصف ؟ أطيب الماء فى حلاوته وبرده ، أم صفائه ، أم طيب ريح السقاية ؟

قال : فنظر الى وقال : أريدك لأمر وليس هذا وقته ، فاصرفوه . فصرفت .

فقال لى الخادم : أصبت .

فقلت : أحسن الله جزاءك ، فلولاك لهلكت .

وكان مبلغ النفقة على هذه العين فى بنائها ومستغلها أربعين ألف دينار .

وأنشد أبو عمرو الكندى فى كتاب « الأمراء » لسعيد القاص أبياتا فى رثاء دولة بنى طولون ، منها فى العين والسقاية :

وعين معين الشرب عين زكية
وعين أجاج للرواة وللطهر
كأن وفود النيل فى جنباتها
تروح وتغدو بين مد الى جزر
فأرك بها مستنبطا لمعينها
من الأرض من بطن عميق الى ظهر
بناء لو ان الجن جاءت بمثله
لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر
يمر على أرض المغافر كلها
وشعبان والأحمور والحى من بشر
قبائل لا نوء السحاب يمدها
ولا النيل يرويها ولاجدول يجرى

(*) ص٤٥٧ جـ١ ، ط.بولاق .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة فى كتاب « الجوهر المكنون فى ذكر القبائل والبطون » : سريع فخذ من الأشعريين وهم ولد سريع بن ماتع ، من بنى الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهم رهط أبى قبيل التابعى الذى خطته اليوم الكوم ، شرقى قناطر سقاية أحمد بن طولون — المعروفة بعفصة الكبرة — بالقرافة

« الخندق » . هذا الخندق كان بقرافة مصر قد دثر ، وعلى شفيره الغربى قبر الامام الشافعى رضى الله عنه ، وكان من النيل الى الجبل . حفر مرتين . مرة فى زمن مروان بن الحكم ، ومرة فى خلافة الأمين محمد بن هارون الرشيد ، ثم حفره أيضا القائد جوهر .

قال القضاعى : الخندق هو الخندق الذى فى شرقى الفسطاط فى المقابر . كان الذى أثار حفره مسير مروان بن الحكم الى مصر ، وذلك فى سنة خمس وستين ، وعلى مصر يومئذ عبد الرحمن بن عقبة بن جحدم الفهرى ، من قبل عبد الله بن الزبير رضى الله عنه .

فلما بلغه مسير مروان الى مصر ، أعد واستعد وشاور الجند فى أمره . فأشاروا عليه بحفر الخندق ، والذى أشار به عليه ربيعة بن حبيش الصدفى . فأمر ابن جحدم باحضار المحارث من الكور لحفر الخندق على الفسطاط ، فلم تبق قرية من قرى مصر الا حضر من أهلها النفر .

وكان ابتداء حفره غرة المحرم سنة خمس وستين ، فما كان شىء أسرع من فراغهم منه ... حفروه فى شهر واحد . وكانت الحرب من ورائه يغدون اليها ويروحون ، فسميت تلك الأيام أيام الخندق والتراويح لرواحهم الى القتال . وكانت المعافر أكثر قبائل أهل مصر عددا ... كانوا عشرين ألفا .

ونزل مروان عين شمس ، لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين ، فى اثنى عشر ألفا ، وقيل عشرين ألفا ، فخرج أهل مصر الى مروان ، فحاربوه يوما واحدا بعين شمس ، ثم تحاجزوا ، ورجع أهل مصر الى خندقهم فتحصنوا به ، وصحبهم جيوش مروان على باب الخندق .

فاصطف أهل مصر على الخندق ، فكانوا يخرجون الى أصحاب مروان فيقاتلوهم نوبا نوبا ، وأقاموا على ذلك عشرة أيام ، ومروان مقيم بعين شمس .

وكتب مروان الى شيعته من أهل مصر — كريب بن أبرهة بن الصباح الحميرى ، وزياد بن حناطة التجيبى ، وعابس بن سعيد المرادى — يقول : انكم ضمنتم لى ضمانا لم تقوموا به ، وقد طالت الأيام والممانعة .

فقام كريب وزياد وعابس الى ابن جحدم ، فقالوا له : أيها الأمير ، انه لا قوام لنا بما ترى ، وقد رأينا أن نسعى فى الصلح بينك وبين مروان ، وقد مل الناس الحرب وكرهوها وقد خفنا أن يسلمك الناس الى مروان فيكون محكما فيك .

فقال : ومن لى بذلك ؟

فقال كريب : أنا لك به .

فسعى كريب وصاحباه فى الصلح على أمان كتبه مروان لأهل مصر وغيرهم ممن شرب ماء النيل ، وعلى أن يسلم لابن جحدم من بيت المال عشرة آلاف دينار ، وثلثمائة ثوب بقطرية ، ومائة ريطة ، وعشرة أفراس ، وعشرين بغلا ، وخمسين بعيرا . فتم الصلح على ذلك .

ودخل مروان الفسطاط مستهل جمادى الأولى سنة خمس وستين ، فنزل دار الفلفل ، ودفع الى ابن جحدم جميع ما صالحه عليه ، وسار ابن جحدم الى الحجاز ، ولم يلق كل واحد منهما الآخر .

وتفرق المصريون ، وأخذوا فى دفن قتلاهم والبكاء عليهم ، فسمع مروان البكاء ، فقال : ما هذه النوادب ؟ فقيل على القتلى ، قال : لا أسمع نائحة تنوح الا أحللت بمن هى فى داره العقوبة . فسكتن عند ذلك .

ودفن أهل مصر قتلاهم فيما بين الخندق والمقطم ، وهى المقابر التى يسميها المصريون مقابر الشهداء ، ودفن أهل الشام قتلاهم فيما بين الخندق ومنية الأصبغ . وكان قتلى أهل مصر ما بين الستمائة الى السبعمائة ، وقتلى أهل الشام * نحو الثلثمائة .

ولما برز مروان من الفسطاط سائرا الى الشام ، سمع وجبة النساء يندبن قتلاهن ، قال : ويحهن ، ما هذا ؟ قالوا : النساء على مقابرهن يندبن قتلاهن ، فعرج عليهن ، فأمر بالانصراف . قالوا : كذا هن كل يوم .

(*) ص٤٥٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

قال : فامنعوهن الا من سبب .

وخرج مروان من مصر الى الشام لهلال رجب سنة خمس وستين ، وكان مقامه بالفسطاط شهرين ، واستخلف ابنه عبد العزيز على مصر، وضم اليه بشر بن مروان — كان حدثا — ثم ولى عبد الملك بشرا بعد ذلك البصرة .

قال : ثم دثر هذا الخندق ... الى أيام خلع الأمين بمصر ، وبيعة المأمون ، وولى البلد عباد بن محمد بن حيان — مولى كندة — من قبل المأمون . فكتب الأمين بنصر الى أهل الحوفين فى القيام ببيعته ، وقتال عباد وأهل مصر ، فتجمع أهل الحوف لذلك واستعدوا .

وبلغ أهل مصر ، فأشاروا على عباد بحفر الخندق ، فحفروا خندقا من النيل الى الجبل ، واحتفروا هذا الخندق العتيق . فكان القتال عليه أياما متفرقة الى أن قتل الأمين ، وتمت بيعة المأمون . ثم لم يحفر بعد ذلك الى يومنا هذا .

وذكر ابن زولاق أن القائد جوهرا لما اختط القاهرة ، وكثر الارجاف بمسير القرامطة الى مصر ، حفر خندق السرى بن الحكم بباب مدينة مصر ، وعمل عليه بابا فى ذى القعدة سنة ستين وثلثمائة ، وحفر خندقا فى وسط مقبرة مصر ، وهو الخندق الذى حفره ابن جحدم .

ابتدأ حفره من بركة الحبش حتى وصله بخندق عبد الرحمن بن جحدم ، حتى بلغ به قبر محمد بن ادريس الشافعى ، ثم حفر من الجبل الى أن وصل لخندق ابن جحدم وسط المقابر ، وبدأ به يوم السبت التاسع من شوال سنة احدى وستين وثلثمائة ، وفرغ منه فى مدة يسيرة .

« القباب السبع » : هذه القباب بآخر القرافة الكبرى مما يلى مدينة مصر . قال ابن سعيد فى كتاب « المغرب » والقباب السبع ، المشهورة بظاهر الفسطاط ، هى مشاهد على سبعة من بنى المغربى ، قتلهم الخليفة الحاكم بعد فرار الوزير أبى القاسم الحسين بن على ابن المغربى الى أبى الفتوح حسن بن جعفر بمكة .

وفى ذلك يقول أبو القاسم بن المغربى :

اذا شئت أن ترنو الى الطف باكيا ... فدونك فانظر نحو أرض المقطم
تجد من رجال المغربى عصابة ... مضمخة الأجسام من حلل الدم
فكم تركوا محراب آى معطل ... وكم تركوا من سورة لم تختم

وقد ذكرت أخبار بنى المغربى عند ذكر بساتين الوزير من بركة الحبش . وتتعلق بهذا الموضع من خبرهم أن أبا الحسن ، على بن الحسين بن على بن محمد بن المغربى ، لما خرج من بغداد ، وصار الى مصر ، فى أيام العزيز بالله بن المعز لدين الله ، فى سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، رتب له فى كل سنة ستة آلاف دينار ، وصار من شيوخ الدولة .

فقال يوما لمؤدب ولده أبى القاسم حسين — وهو على بن منصور بن طالب ، المعروف بأبى الحسن دوخلة بن القادح — سرا : أنا أخاف همة ابنى أبى القاسم أن تنزو به الى أن

يوردنا موردا لا صدر عنه ، فان كانت الأنفاس مما تحفظ وتكتب ، فاكتبها واحفظها وطالعنى بها .

فقال أبو القاسم فى بعض الأيام لمؤدبه هذا : الى متى نرضى بالخمول الذى نحن فيه ؟

فقال له : وأى خمول هذا ؟ تأخذون من مولانا فى كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوكم من شيوخ الدولة .

فقال : أريد أن نصار الى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقانب ، ولا أرضى بأن يجرى علينا كالولدان والنسوان .

فأعاد ذلك على أبيه ، فقال : ما أخوفنى أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه . وقبض على لحيته وهامته وعلم ذلك أبو القاسم ، فصارت بينه وبين مؤدبه وحشة .

وكان ذلك فى خلافة الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز ، وتحدث القائد أبى عبد الله الحسين بن جوهر ، وكان الحاكم قد أكثر من قتل رؤساء دولته ، وصار يبعث الى القائد كلما قتل رئيسا برأسه ، ويقول : هذا عدوى وعدوك .

فقبض على أبى الحسن على بن الحسين المغربى ، والد الوزير أبى القاسم الحسين ، وعلى أخيه أبى عبد الله محمد بن الحسين ، وعلى محسن ومحمد أخوى الوزير المذكور لثلاث خلون من ذى القعدة سنة أربعمائة ، وفر الوزير أبو القاسم الحسين بن المغربى من مصر ، فى زى حمال ، لليال من ذى القعدة ، ولحق بحسان بن الجراح ، وكان من أمره ما كان .

ذكر الأحواض والآبار التى بالقرافة

« حوض القرافة » أمر ببنائه السيدة ست الملك ، عمة الحاكم بأمر الله ابنة المعز لدين الله ، فى شعبان سنة ست * وستين وثلثمائة ، واختل فى أيام العادل أبى الحسن ابن السلار ، وزير مصر فى سنة ست وأربعين وخمسمائة ، فأمر بعمارته .

ثم انشق فى سنة ثمانين وخمسمائة . فجدده القاضى السعيد ، ثقة الثقات ذو الرياستين : أبو الحسن على بن عثمان بن يوسف بن ابراهيم بن يوسف بن أحمد بن يعقوب بن مسلم بن منبه ، أحد بنى عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومى ، صاحب النظر فى ديوان مصر ، ومصنف كتاب « المنهاج فى أحكام الخراج » ، وهو كتاب جليل الفائدة .

ولم تزل آثار هذا القاضى حميدة ، ومقاصده سديدة ، وعنده نخوة قرشية ومروءة وعصبية . وهو وان طاب أصولا فقد زكا فروعا ، وان تفرقت فى سواه فضائل فقد جمعها الله جميعا ، ولم يزل مذ كان يسعى فى الأمانة على صراط مستقيم ، آخذا بقوله تعالى اخبارا عن الكريم ابن الكريم « اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » .

(*) ص٥٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

« الحوض بجوار قصر القرافة » : فى ظهر الحمام العزيزى ، بحضرة فرن القرافة ، أمرت ببنائه أم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله — واسمها السيدة رصد — على يد وكيلها الشريف المحدث أبى ابراهيم أحمد بن القاسم ابن الميمون بن حمزة الحسينى العبدلى ، شيخ القراء وابن الخطاب والفلكى .

« حوض بحضرة الأشعوب » : وهو قصر بنى عقيب .

« حوض فى داخل قصر أبى المعلوم » : مجاور للبئر الكبيرة ذات الدواليب . بناه المحتسب الفارسى ، مع عمارة البئر والميضأة ، فى أيام السيدة أم العزيز . ويقال ان الحوض والبئر من بناء المادرانى ، وانما جددته عمة الحاكم .

« حوض » بقصر بنى كعب وبجانبه بئر . أنشأه الحاجب لؤلؤ ، وهو من حقوق قصر بنى كعب . وقد خربت هذه الأحواض ودثرت .

ذكر الآبار التى ببركة الحبش والقرافة

« بئر أبى سلامة » : وتعرف ببئر الغنم ، وهى قبلى النوبية ، وموضعها أحسن موضع فى البركة ، وهى التى عنى أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز بقوله :

لله يومى ببركة الحبش
والأفق بين الضياء والغبش

والنيل تحت الرياح مضطرب
كصارم فى يمين مرتعش

ونحن فى روضة مفوفة
دبج بالنور عطفها ووشى

قد نسجتها يد الغمام لنا
فنحن من نسجها على فرش

وأثقل الناس كلهم رجل
دعاه داعى الهوى فلم يطش

فعاطنى الراح ان تاركها
من سورة الهم غير منتعش

واسقنى بالكبار مترعة
فهن أشفى لشدة العطش

«بئر غربى دير مرحنا وبستان العبيدى» : ودير مرحنا يعرف اليوم فى زماننا بدير الطين ، وهو عامر بالنصارى .

« بئر الدرج » : شرقى بساتين الوزير ، لها درج ينزل به اليها ، عملها الحاكم بأمر الله ، وشرقيها قبور النصارى ، وبعدهم الى جهة الجبل قبور اليهود ، البستان المجاور لعفصة الصغرى — أول بركة الحبش — على لسان الجبل الخارج الى البركة ، مجاورة لبئر النعش وبئر السقايين ، وهى المعروفة ببئر أبى موسى خليد ، وقد صار هذا البستان الى المهذب بن الوزير .

«بئر الزقاق» : شرقى بئر عفصة الصغرى ، والزقاق معروف اذ ذاك فى الجبل ، وفى أوله بئر مربعة كان يسقى منها البقر والغنم .

ذكر السبعة التى تزار بالقرافة

اعلم أن زيارة القرافة كانت أولا يوم الأربعاء ، ثم صارت ليلة الجمعة ، وأما زيارة

يوم السبت فقيل انها قديمة ، وقيل * متأخرة .

وأول من زار يوم الأربعاء ، وابتدأ بالزيارة من مشهد السيدة نفيسة ، الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله بن رافع بن يرحم بن رافع ، الشارعى الشافعى المغافرى ، الزوار المعروف بعابد . ومولده سنة احدى وستين وخمسمائة ، ووفاته بالهلالية خارج باب زويلة فى ليلة الثانى والعشرين من شعبان سنة ثمان ثلاثين وستمائة ، ودفن بسفح المقطم على تربة بنى نهار بحرى تربة الرديني .

وأول من زار ليلة الجمعة الشيخ الصالح المقرى أبو الحسن على بن أحمد بن جوشن — المعروف بابن الجباس — والد شرف الدين محمد بن على بن أحمد بن الجباس ، فجمع الناس وزار بهم فى ليلة الجمعة فى كل أسبوع ، وزار معه فى بعض الليالى السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب ، ومشى معه أكابر العلماء .

وكان سبب تجرد أبى الحسن بن الجباس وانقطاعه الى الله تعالى ، أنه دولب مطبخ سكر شركة رجل ، فوقف عليهما مال للديوان فسجنا بالقصر ، فقرأ ابن الجباس فى بعض الليالى سورة الرعد ، فسمعه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، فقام حتى وقف عليه وسأله عن خبره ، فأعلمه بأنه سجن على مبلغ كذا ، فأمر بالافراج عنه ، فأبى الا أن يفرج عن رفيقه أيضا ، فأفرج عنهما جميعا .

(*) ص٤٦٠ جـ٢ ، ط بولاق .

واتفق أنه مر فى بعض ليالى الزيارة بزاوية الفخر الفارسى ، فخرج وقال ، ما هذه البدعة ؟ فى غد أبطلها ثم دخل الزاوية وخرج بعد ساعة ، وأمر برد ابن الجباس ، فلما جاءه قال ، دم على ما أنت عليه ، فانى رأيت الساعة قوما ، فقالوا هل تعطينا ما يعطينا ابن الجباس فى ليالى الجمع ؟ فعلمت أن ذلك هو الدعاء والقراءة .

وأما زيارة يوم السبت ، فقد تقدم أنه اختلف فيها وحكى الموفق بن عثمان ، عن القضاعى ، أنه كان يحث على زيارة سبعة قبور ، وأن رجلا شكا اليه ضيق حاله والدين ، فقال له : عليك بزيارة سبعة قبور .

« أولهم » الشيخ أبو الحسن على بن محمد بن سهل بن الصائغ الدينورى ، وتوفى ليلة الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من شهر رجب سنة احدى وثلاثين وثلثمائة .

« والثانى » : عبد الصمد بن محمد بن أحمد بن اسحاق بن ابراهيم البغدادى ، صاحب الخلفاء ، وتوفى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة .

« والثالث » : أبو ابراهيم اسماعيل ابن ... ... [1] المزنى . وتوفى سنة أربع وستين ومائتين .

« والرابع » : القاضى بكار بن قتيبة . وتوفى سنة سبعين ومائتين .

(١) هكذا بياض فى الاصل . ورأيت فى بعض الكتب المتضمنة لاسماء الرواة والفقهاء وغيرهم ، ما نصه : (مزنى) — اكبر اصحابنا علما ، واعلم غلمان الشافعى ، الذى مهد المذهب ، ولبن كلام الشافعى — اسمه : اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل بن عمر بن اسحاق بن مسلم بن بهدلة بن عبد الله المزنى ، من قبيلة مزينة ، يكنى ابا ابراهيم ، مات بمصر سنة اربع وستين . ا هـ . بحروفه . اهـ . مصححه .

«والخامس» : القاضى المفضل بن فضالة . وتوفى سنة اثنين وخمسين ومائتين .

« والسادس » : القاضى أبو بكر عبد الملك ابن الحسن القنتى . وتوفى فى ذى الحجة سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة .

«والسابع» : أبو الفيض ذو النون ثوبان ابن ابراهيم المصرى . وتوفى سنة خمس وأربعين ومائتين .

وكانوا أولا يزورون بعد صلاة الصبح ، وهم مشاة على أقدامهم . الى أن كانت أيام شيخ الزوار محمد المجمى السعودى ، فزار راكبا فى يوم السبت بعد طلوع الشمس ، لأن رجليه كانتا معوجتين لا يستطيع المشى عليهما ، وذلك فى أواخر سنة ثمانمائة . وتوفى فى عاشر شهر رمضان سنة تسع وثمانمائة .

فجاء بعده الزائر شمس الدين محمد بن عيسى المرجوشى السعودى ، ومحيى الدين عبد القادر بن علاء الدين محمد بن علم الدين بن عبد الرحمن — الشهير بابن عثمان — ففعلا ذلك ، ومات ابن عثمان فى سابع شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وثمانمائة . فاستمرت الزيارة على ذلك .

وقد حكى صاحب كتاب « محاسن الأبرار ومجالس الأخيار » سبعة غير من ذكرنا ، وسماهم المحققين ، وهم : صلة بن مؤمل ، وأبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن على بن جعفر الخوارزمى ، وسالم البغيفه ، وأبو الفضل بن الجوهرى ، وأبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الحسين — عرف بالبزار — وأبو الحسن على — عرف بطير الوحش — وأبو الحسن على بن صالح الأندلسى الكحال .

وذكر أيضا سبعة أخر ، وهم : عقبة بن عامر الجهنى ، والامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى ، وأبو بكر الدقاق ، وأبو ابراهيم اسماعيل المزنى ، وأبو العباس أحمد الجزار ، والفقيه ابن دحية ، والفقيه ابن فارس اللخمى .

وزيارتهم يوم الجمعة بعد صلاة الصبح ، والعمل عليها فى الزيارة الآن . الا انهم يجتمعون طوائف، لكل طائفة شيخ ، ويقيمون مشاور كبارا وصغارا ، ويخرجون فى ليالى الجمع ، وفى كل سبت بكرة النهار ، وفى كل يوم أربعاء بعد الظهر ، وهم يذكرون الله ، فيزورون ، ويجتمع معهم من الرجال والنساء خلائق لا تحصى ، ومنهم من يعمل ميعاد وعظ ، ويقال لشيخ كل طائفة الشيخ الزائر . فتمر لهم فى الزيارة أمور منها ما يستحسن ، ومنها ما ينكر ، ولكل عبد ما نوى .

فمن أشهر مزارات القرافة « قبر الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى » رحمة الله ورضوانه * عليه . وتوفى يوم الجمعة آخر يوم من شهر رجب سنة أربع ومائتين بفسطاط مصر ، وحمل على الأعناق حتى دفن فى مقبرة بنى زهرة ، أولاد عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى رضى الله عنه ، وعرفت أيضا بتربة أولاد ابن عبد الحكم .

(*) ص٤٦١ جـ٢ ، طـ بولاق .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

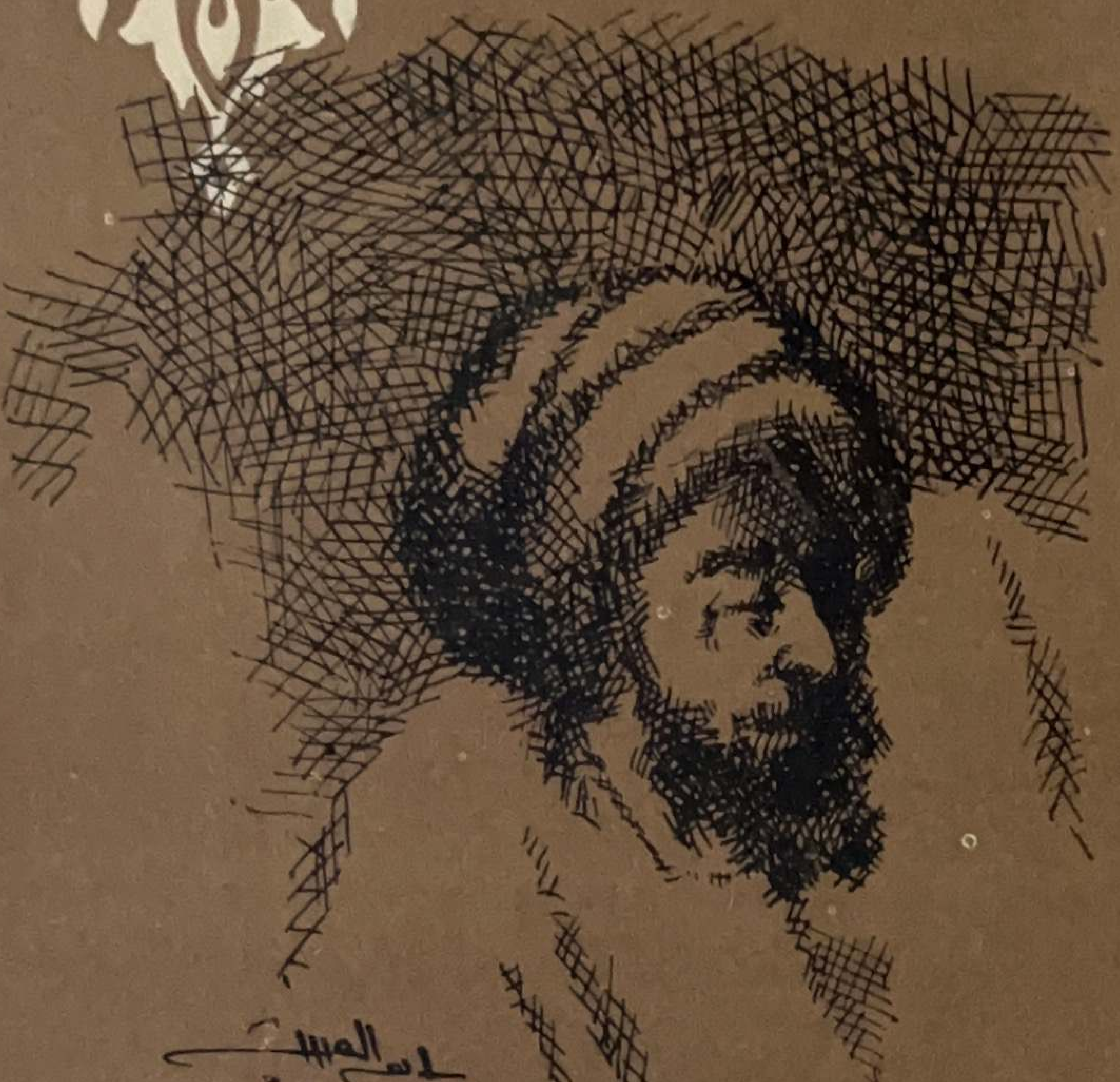
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٤٥



كتاب
التحرير

"كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره، لازلت منذ شذوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها."

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

قال القضاعى : وقد جرب الناس خير هذه التربة المباركة والقبر المبارك . وينقل عن المزنى أنه قال فيه :

سقى الله هذا القبر من وبل مزنه
من العفو ما يغنيه عن طلل المزن
لقد كان كفوًا للعداة ومعقلا
وركنا لهذا الدين بل أيما ركن

هكذا وقفت عليه ، ثم رأيت بعد ذلك أن المزنى رحمه الله لما دفن ، مر رجل على قبره ، واذا بهاتف يقول ... فذكر البيتين .

وقال آخر :

لله در الثرى كم ضم من كرم
بالشافعى حليف العلم والأثر
ياجوهر الجوهر المكنون من مضر
ومن قريش ومن ساداتها الأخر
لما توليت ولى العلم مكتئبا
وضر موتك أهل البدو والحضر

ولآخر :

أكرم به رجلا ما مثله رجل
مشارك لرسول الله فى نسبه
أضحى بمصردفينا فى مقطمها
نعم المقطم والمدفون فى تربه

ومناقب الشافعى رحمه الله كثيرة ، قد صنف الأئمة فيها عدة مصنفات ، وله فى تاريخى الكبير المقفى ترجمة كبيرة . ومن أبدع ما حكى من مناقبه : أن الوزير نظام الملك ، أبا على الحسن بن على بن اسحاق ، لما بنى المدرسة النظامية ببغداد ، فى سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، أحب أن ينقل الامام الشافعى من مقبرته بمصر الى مدرسته ، وكتب الى أمير الجيوش بدر الجمالى — وزير الامام المستنصر بالله معد — يسأله فى ذلك ، وجهز له هدية جليلة .

فركب أمير الجيوش فى موكبه ، ومعه أعيان الدولة ووجوه المصريين من العلماء وغيرهم ، وقد اجتمع الناس لرؤيته . فلما نبش القبر ، شق ذلك على الناس وماجوا ، وكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات ، وهموا برجم أمير الجيوش والثورة به ، فسكتهم ، وبعث يعلم الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بصورة الحال .

فأعاد جوابه بامضاء ما أراد نظام الملك ، فقرىء كتابه بذلك على الناس عند القبر ، وطردت العامة والغوغاء من حوله ، ووقع الحفر حتى انتهوا الى اللحد . فعندما أرادوا قلع ما عليه من اللبن ، خرج من اللحد رائحة عطرة أسكرت من حضر فوق القبر حتى وقعوا صرعى ، فما أفاقوا الا بعد ساعة ، فاستغفروا مما كان منهم ، وأعادوا ردم القبر كما كان ، وانصرفوا .

وكان يوما من الأيام المذكورة ، وتزاحم الناس على قبر الشافعى يزورونه مدة أربعين يوما بلياليها ، حتى كان من شدة الازدحام لا يتوصل اليه الا بعناء ومشقة زائدة . وكتب أمير الجيوش محضرا بما وقع ، وبعث به وبهدية عظيمة مع كتابه الى نظام الملك ، فقرىء هذا المحضر والكتاب بالنظامية ببغداد وقد اجتمع العالم على اختلاف طبقاتهم لسماع ذلك ، فكان يوما مشهودا ببغداد .

وكتب نظام الملك الى عامة بلدان المشرق — من حدود الفرات الى ما وراء النهر — بذلك ، وبعث مع كتبه بالمحضر وكتاب أمير الجيوش ، فقرئت فى تلك الممالك بأسرها ، فزاد قدر الامام الشافعى عند كافة أهل الأقطار وعامة جميع أهل الأمصار بذلك .

وقد أوردت فى كتاب « امتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والمتاع صلى الله عليه وسلم » نظير هذه الواقعة ، وقع لضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يزل قبر الشافعى يزار ، ويتبرك به . الى أن كان يوم الأحد ، لسبع خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وستمائة ، فانتهى بناء هذه القبة التى على ضريحه ، وقد أنشأها الملك الكامل المظفر المنصور أبو المعالى ناصر الدين محمد ، ظهير أمير المؤمنين ، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وبلغت النفقة عليها خمسين ألف دينار مصرية ، وأخرج فى وقت بنائها بعظام كثيرة من مقابر كانت هناك ، ودفنت فى موضع من القرافة .

وبهذه القبة أيضا قبر السلطان الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقبر أمه شمسة . وقيل فيها عدة أشعار ، منها قول الأديب الكاتب ضياء الدين أبى الفتح موسى بن ملهم :

مررت على قبة الشافعى
فعاين طرفى عليها العشارى
فقلت لصحبى لا تعجبوا
فان المراكب فوق البحار *

وقال علاء الدين أبو على عثمان بن ابراهيم النابلسى :

لقد أصبح الشافعى الاما
م فينا له مذهب مذهب
ولو لم يكن بحر علم لما
غدا وعلى قبره مركب

وقال آخر :

أتيت لقبر الشافعى أزوره
تعرضنا فلك وما عنده بحر
فقلت تعالى الله تلك اشارة
تشير بأن البحر قد ضمه القبر

وقال شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد البوصيرى صاحب البردة :

بقبة قبر الشافعى سفينة
رست فى بناء محكم فوق جلمود
ومذ غاض طوفان العلوم بقبره اسـ
ـتوى الفلك من ذاك الضريح على الجودى

ومنها « قبر الامام الليث بن سعد » رحمه الله . قد اشتهر قبره عند المتأخرين .

وأول ما عرفته من خبر هذا القبر : أنه وجدت مصطبة فى آخر قباب الصدف — وكانت قباب الصدف أربعمائة قبة فيما يقال — عليها مكتوب « الامام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث المصرى ، مفتى أهل مصر » .

(*) ص٤٦٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

كما ذكر فى كتاب « هادى الراغبين فى زيارة قبور الصالحين » لأبى محمد عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الكريم بن على بن محمد بن على بن طلحة ، وفى كتاب « مرشد الزوار » للموفق ابن عثمان ، وذكر الشيخ محمد الأزهرى فى كتابه « فى الزيارة » : أن أول من بنى عليه وحيز كبير التجار أبو زيد المصرى ، بعد سنة أربعين وستمائة .

ولم يزل البناء يتزايد الى أن جدد الحاج سيف الدين المقدم عليه قبته ، فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، قبيل سنة ثمانين وسبعمائة ثم جددت فى أيام الناصر فرج بن الظاهر برقوق ، على يد الشيخ أبى الخير محمد ابن الشيخ سليمان المادح ، فى محرم سنة احدى عشرة وثمانمائة .

ثم جددت فى سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة على يد امرأة قدمت من دمشق ، فى أيام المؤيد شيخ ، عرفت بسرحبا بنت ابراهيم بن عبد الرحمن أخت عبد الباسط ، وكان لها معروف وبر ، توفيت فى تاسع عشرى ذى القعدة سنة أربعين وثمانمائة .

ويجتمع بهذه القبة ، فى ليلة كل سبت ، جماعة من القراء ، فيتلون القرآن الكريم تلاوة حسنة حتى يختموا ختمة كاملة عند السحر ، ويقصد الميت عندهم ، للتبرك بقراءة القرآن ، عدة من الناس . ثم تفاحش الجمع ، وأقبل النساء والأحداث والغوغاء ، فصار أمرا منكرا ، لا ينصتون لقراءة ، ولا يتعظون بمواعظ ، بل يحدث منهم على القبور ما لا يجوز . ثم زادوا فى التعدى حتى حفروا ما هنالك خارج القبة من القبور ، وبنوا مبانى اتخذوها مراحيض وسقايات ماء .

ويزعم من لا علم عنده أن هذه القراءة ، فى كل ليلة سبت عند قبر الليث بزعمهم ، قديمة من عهد الامام الشافعى . وليس ذلك بصحيح ، وانما حدثت بعد السبعمائة من سنى الهجرة بمنام ذكر بعضهم أنه رآه ، وكانوا اذ ذاك يجتمعون للقراءة عند قبر أبى بكر الأدفوى .

ذكر المقابر خارج باب النصر

اعلم أن المقابر ، التى هى الآن خارج باب النصر ، انما حدثت بعد سنة ثمانين وأربعمائة . وأول تربة بنيت هناك تربة أمير الجيوش بدر الجمالى لما مات ودفن فيها ، وكان خطها يعرف برأس الطابية .

قال الشريف أمين الدولة ، أبو جعفر محمد ابن هبة الله العلوى الأفطسى ، وقد مر بتربة الأفضل :

أجرى دما أجفانيه   جدث برأس الطابيه
صدع الزمان صفاتيه   ... ... [1]
بال وما بليت أيا   ديه على الباقيه

وبخارج باب النصر ، فى أوائل المقابر ، قبر زينب بنت أحمد بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن الحنفية يزار ، وتسميه العامة مشهد الست زينب .

(1) هكذا بياض فى الأصل .

لم تتابع دفن الناس موتاهم فى الجهة ، التى هى اليوم من بحرى مصلى الأموات الى نحو الريدانية ، وكان ما فى شرقى هذه المقبرة الى الجبل براحا واسعا — يعرف بميدان القبق ، وميدان العيد ، والميدان الأسود — وهو ما بين قلعة الجبل الى قبة النصر تحت الجبل الأحمر .

فلما كان بعد سنة عشرين * وسبعمائة ، ترك الملك الناصر محمد بن قلاوون النزول الى هذا الميدان وهجره . فأول من ابتدأ فيه بالعمارة الأمير شمس الدين قراسنقر ، فاختط تربته التى تجاور اليوم تربة الصوفية ، وبنى حوض ماء للسبيل ، وجعل فوقه مسجدا . وهذا الحوض بجوار باب تربة الصوفية ، أدركته عامرا هو وما فوقه ، وقد تهدم وبقيت منه بقية .

ثم عمر بعده نظام الدين آدم ، أخو الأمير سيف الدين سلار ، تجاه تربة قراسنقر مدفنا وحوض ماء للسبيل ومسجدا معلقا ، وتتابع الأمراء والأجناد وسكان الحسينية فى عمارة الترب هناك ، حتى انسدت طريق الميدان ، وعمروا الجوانية أيضا . وأخذ صوفية الخانقاه الصلاحية لسعيد السعداء قطعة قدر فدانين وأداروا عليها سورا من حجر ، وجعلوها مقبرة لمن يموت منهم ، وهى باقية الى يومنا هذا ، وقد وسعوا فيها بعد سنة تسعين وسبعمائة بقطعة من تربة قراسنقر .

وما برح الناس يقصدون تربة الصوفية هذه لزيارة من فيها من الأموات ، ويرغبون فى الدفن بها . الى أن تولى مشيخة الخانقاه الشيخ شمس الدين محمد البلالى ، فسمح لكل أحد أن يقبر ميته بها على مال يأخذه منه ، فقبر بها كثير من أعوان الظلمة ومن لم تشكر طريقته ، فصارت مجمع نسوان ومجلس لعب .

وعمر أيضا بجوار تربة الصوفية الأمير مسعود بن خطير تربة ، وعمل لها منارة من حجارة لا نظير لها فى هيئتها ، وهى باقية . وعمر أيضا مجد الدين السلامى تربة ، وعمر الأمير سيف الدين كوكاى تربة ، وعمر الأمير طاجاى الدوادار ، على رأس القبق مقابل قبة النصر ، تربة . وعمر الأمير سيف الدين طشتمر الساقى على الطريق تربة . وبنى الأمراء الى جانبه عدة ترب ، وبنى الطواشى محسن البهاء تربة عظيمة ، وبنت خوند طغاى تربة تجاه تربة طشتمر الساقى ، وجعلت لها وقفا . وبنى الأمير طغاى تمر النجمى الدوادار تربة ، وجعلها خانقاه ، وأنشأ بجوارها حماما وحوانيت ، وأسكنها للصوفية والقراء . وبنى الأمير منكلى بغا الفخرى تربة ، والأمير طشتمر طللية تربة ، والأمير أرغان تربة . وبنى كثير من الأمراء وغيرهم الترب ، حتى اتصلت العمارة من ميدان القبق الى تربة الروضة خارج باب البرقية .

وما مات الملك الناصر حتى بطل من الميدان السباق بالخيل ، ومنعت طرقه من كثرة العمائر . وأدركت بعد سنة ثمانين وسبعمائة عدة عواميد من رخام منصوبة — يقال لها عواميد السباق — فيما بين قبة النصر وقرب من القلعة .

(*) ص٤٦٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

وأول من عمر فى البراح الذى كان فيه عواميد السباق الأمير يونس الدوادار ، فى أيام الملك الظاهر ، تربته الموجودة هناك . ثم عمر الأمير* قجماس ، ابن عم الملك الظاهر برقوق ، تربة بجانب تربة يونس . وأحيط على قطعة كبيرة حائط ، وقبر فيها من مات من مماليك السلطان ، وقبر فيها الشيخ علاء الدين السيرامى شيخ الخانقاه الظاهرية ، والشيخ المعتقد طلحة ، والشيخ المعتقد أبو بكر البجائى .

فلما مرض الملك الظاهر برقوق ، أوصى أن يدفن تحت أرجل هؤلاء الفقراء ، وأن يبنى على قبره تربة ، فدفن حيث أوصى ، وأخذت قطعة مساحتها عشرة آلاف ذراع ، وجعلت خانقاه ، وجعل فيها قبة على قبر السلطان وقبور الفقراء المذكورين ، وتجدد من حينئذ هناك عدة ترب جليلة ، حتى صار الميدان شوارع وأزقة .

ونقل الملك الناصر فرج بن برقوق سوق الجمال وسوق الحمير من تحت القلعة الى تجاه التربة التى عمرها على قبر أبيه ، فاستمر ذلك أياما فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، ثم أعيدت الأسواق الى مكانها . وكان قصده أن يبنى هناك خانا كبيرا ينزل فيه المسافرون ، ويجعل بجانبه سوقا ، ويبنى طاحونا وحماما وفرنا لتعمر تلك الجهة بالناس ، فمات قبل بناء الخان ، وخلت الحمام والطاحون والفرن بعد قتله .

ذكر كنائس اليهود

قال الله عز وجل : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » ، قال المفسرون : الصوامع للصابئين ، والبيع للنصارى ، والصلوات كنائس اليهود ، والمساجد للمسلمين ؛ قاله ابن قتيبة . والكنيس كلمة عبرانية معناها بالعربية الموضع الذى يجتمع فيه للصلاة .

ولهم بديار مصر عدة كنائس : منها كنيسة دموه بالجيزة ، وكنيسة جوجر من القرى الغربية ، وبمصر الفسطاط كنيسة بخط المصاصة فى درب الكرمة ، وكنيستان بخط قصر الشمع ، وبالقاهرة كنيسة بالجودرية ، وفى حارة زويلة خمس كنائس .

« كنيسة دموه » : هذه الكنيسة أعظم معبد لليهود بأرض مصر . فانهم لا يختلفون فى أنها الموضع الذى كان يأوى اليه موسى ابن عمران ، صلوات الله عليه ، حين كان يبلغ رسالات الله عز وجل الى فرعون ، مدة * مقامه بمصر ، منذ قدم من مدين الى أن خرج ببنى اسرائيل من مصر . ويزعم يهود أنها بنيت هذا البناء الموجود ، بعد خراب بيت المقدس الخراب الثانى على يد طيطش بيضع وأربعين سنة ، وذلك قبل ظهور الملة الاسلامية بما ينيف على خمسمائة سنة .

وبهذه الكنيسة شجرة زيزلخت فى غاية الكبر ، لا يشكون فى أنها من زمن موسى

(*) ص٤٦٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

عليه السلام ، ويقولون : ان موسى عليه السلام غرس عصاه فى موضعها ، فأنبت الله هناك هذه الشجرة ، وأنها لم تزل ذات أغصان نضرة ، وساق صاعد فى السماء ، مع حسن استواء وثخن فى استقامة .

الى أن أنشأ الملك الأشرف شعبان بن حسين مدرسته تحت القلعة ، فذكر له حسن هذه الشجرة ، فتقدم بقطعها لينتفع بها فى العمارة ، فمضوا الى ما أمروا به من ذلك ، فأصبحت وقد تكورت وتعقفت ، وصارت شنيعة المنظر ، فتركوها ، واستمرت كذلك مدة . فاتفق أن زنى يهودى بيهودية تحتها ، فتهدلت أغصانها ، وتحات ورقها ، وجفت حتى لم يبق بها ورقة خضراء ، وهى باقية كذلك الى يومنا هذا .

ولهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود بأهاليهم اليها فى عيد الخطاب ، وهو فى شهر سيوان ، ويجعلون ذلك بدل حجهم الى القدس .

وقد كان لموسى عليه السلام أنباء قد قصها الله تعالى فى القرآن الكريم وفى التوراة ، وروى أهل الكتاب وعلماء الأخبار من المسلمين كثيرا منها . وسأقص عليك فى هذا الموضع منها ما فيه كفاية ، اذ كان ذلك من شرط هذا الكتاب .

موسى بن عمران

وفى التوراة : عمرام بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن ، صلوات الله وسلامه عليهم ، أمه يوحانذ بنت لاوى ، فهى عمة عمران والد موسى . ولد بمصر فى اليوم السابع من شهر آذار سنة ثلاثين ومائة لدخول يعقوب على يوسف عليهما السلام بمصر .

وكان بنو اسرائيل — منذ مات لاوى بن يعقوب فى سنة أربع وتسعين لدخول يعقوب مصر — فى البلاء مع القبط . وذلك أن يوسف عليه السلام لما مات فى سنة ثمانين من قدوم يعقوب مصر ، كان الملك اذ ذاك بمصر دارم بن الريان — وهو الفرعون الرابع عندهم ، وتسميه القبط دريسوس — فاستوزر بعده رجلا من الكهنة يقال له بلاطس ، فحمله على أذى الناس ، وخالف ما كان عليه يوسف .

وساءت سيرة الملك حتى اغتصب كل امرأة جميلة بمدينة منف وغيرها من النواحى فشق ذلك من فعله على الناس ، وهموا بخلعه من الملك . فقام الوزير بلاطس فى الوساطة بينه وبين الناس ، وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين ، وفرق فيهم مالا حتى سكنوا .

واتفق أن رجلا من الاسرائيليين ضرب بعض سدنة الهياكل فأدماه ، وعاب دين الكهنة ، فغضب القبط ، وسألوا الوزير أن يخرج بنى اسرائيل من مصر ، فأبى .

وكان دارم الملك قد خرج الى الصعيد ، فبعث اليه يخبره بأمر الاسرائيلى ، وما كان من القبط فى طلبهم اخراج بنى اسرائيل من مصر ، فأرسل اليه ألا يحدث فى القوم حدثا دون موافاته .

فشغب القبط ، وأجمعوا على خلع الملك واقامة غيره . فسار اليهم الملك ، وكانت بينه

وبينهم حروب قتل فيها خلق كثير ، ظفر فيها الملك ، وصلب ممن خالفه بحافتى النيل طوائف لا تحصى ، وعاد الى أكثر مما كان عليه من ابتزاز النساء ، وأخذ الأموال ، واستخدام الأشراف والوجوه من القبط ومن بنى اسرائيل فأجمع الكل على ذمه

واتفق أنه ركب فى النيل ، فهاجت به الريح ، وأغرقه الله ومن معه ، ولم توجد جثته الا عند شطنوف . فأقام الوزير من بعده فى الملك ابنه معاديوش ، وكان صبيا — ويسميه بعضهم معدان — فاستقام الأمر له ، ورد النساء اللاتى اغتصبهن أبوه ، وهو خامس الفراعنة . فكثر بنو اسرائيل فى زمنه ، ولهجوا بثلب الأصنام وذمها .

وهلك بلاطس الوزير ، قام من بعده فى الوزارة كاهن يقال له املاده ، فأمر بافراد بنى اسرائيل ناحية فى البلد ، بحيث لا يختلط بهم غيرهم ، فاقطعوا موضعا فى قبلى مدينة منف صاروا اليه ، وبنوا فيه معبدا كانوا يتلون به صحف ابراهيم عليه السلام .

فخطب رجل من القبط بعض نسائهم ، فأبوا أن ينكحوه — وقد كان هويها — فأكبر القبط فعلهم ، وصاروا الى الوزير ، وشكوا من بنى اسرائيل ، وقالوا : هؤلاء قوم يعيبوننا ، ويرغبون عن مناكحتنا ، ولا نحب أن يجاورونا ما لم يدينوا بديننا .

فقال لهم الوزير : قد علمتم اكرام طوطيس الملك لجدهم ، ونهراوش من بعده ، وقد علمتم بركة يوسف ، حتى جعلتم قبره وسط النيل ، فأخصب جانبا مصر بمكانه . وأمرهم بالكف عن بنى اسرائيل ؛ فأمسكوا .

الى أن احتجب معدان وقام من بعده فى الملك ابنه اكسامس — الذى يسميه بعضهم كاسم — بن معدان بن الريان بن الوليد بن دومع العمليقى ، وهو السادس من فراعنة مصر ، وكان أولهم يقال له فرعان ، فصار ذلك اسما لكل من تجبر وعلا أمره .

وطالت أيام كاسم ، ومات وزير أبيه ، فأقام من بعده رجلا من بيت المملكة * يقال له ظلما بن قومس . وكان شجاعا ساحرا ، كاهنا كاتبا حكيما ، دهيا متصرفا فى كل فن ، وكانت نفسه تنازعه الملك — ويقال انه من ولد أشمون الملك ، وقيل من ولد صا — فأحبه الناس ، وعمر الخراب ، وبنى مدنا من الجانبين ، ورأى فى نجومه أنه سيكون حدث وشدة .

وشكا القبط اليه من الاسرائيليين ، فقال : هم عبيدكم . فكان القبطى اذا أراد حاجة ، سخر الاسرائيلى وضربه ، فلا يغير عليه أحد ولا ينكر عليه ذلك ، فان ضرب الاسرائيلى أحدا من القبط قتل ألبتة ، وكذلك كانت تفعل نساء القبط بالنساء الاسرائيليات . فكانت أول شدة وذل أصاب بنى اسرائيل ، وكثر ظلمهم وأذاهم من القبط .

واستبد الوزير ظلما بأمر البلد ، كما كان العزيز مع نهراوش ، وتوفى اكسامس الملك ، فاتهم ظلما بأنه سمه ، فركب فى سلاحه ، وأقام لاطس الملك مكان أبيه . وكان ابنه جريئا معجبا ، فصرف ظلما بن قومس عما كان عليه من خلافته ، واستخلف رجلا يقال

(*) ص٦٥ ، ج٢ ، ط. بولاق .

له « لاهوق » من ولد صا ، وانفذ ظلما عاملا على الصعيد ، وسير معه جماعة من الاسرائيليين ، وزاد تجبره وعتوه ، وأمر الناس جميعا أن يقوموا على أرجلهم فى مجلسه ، ومد يده الى الأموال ، ومنع الناس من فضول ما بأيديهم ، وقصرهم على القوت ، وابتز كثيرا من النساء ، وفعل أكثر مما فعله ملك تقدمه ، واستعبد بنى اسرائيل ، فأبغضه الخاص والعام .

وكان ظلما لما صرف عن الوزارة ، وخرج الى الصعيد ، أراد ازالة الملك ، والخروج عن طاعته . فجبى المال ، وامتنع من حمله ، وأخذ المعادن لنفسه ، وهم أن يقيم ملكا من ولد قبطرين ويدعو الناس الى طاعته ، ثم انصرف عن ذلك ، ودعا لنفسه ، وكاتب الوجوه والأعيان ، فافترق الناس ، وتطاول كل واحد من أبناء الملوك الى الملك ، وطمع فيه . ويقال ان روحانيا ظهر لظلما ، وقال له : ان أطعتنى قلدتك مصر زمانا طويلا ، فأجابه وقرب اليه أشياء ، منها غلام من بنى اسرائيل ، فصار عونا له .

وبلغ الملك خبر خروج ظلما عن طاعته ، فوجه اليه قائدا قلده مكانه ، وأمره أن يقبض على ظلما ، ويبعث به اليه موثقا ، فصار اليه ، وخرج ظلما للقائه ، وحاربه فظفر به ، واستولى على ما معه ، فجهز اليه الملك قائدا آخر فهزمه ، وسار فى أثره — وقد كثف جمعه — فبرز اليه الملك ، واحتربا ، فكانت لظلما على الملك فقتله ، واستولى على مدينة منف ، ونزل قصر المملكة .

وهذا هو فرعون موسى عليه السلام ، وبعضهم يسميه الوليد بن مصعب ، وقيل هو من العمالقة ، وهو سابع الفراعنة . ويقال انه كان قصيرا ، طويل اللحية ، أشهل العينين ، صغير العين اليسرى ، فى جبينه شامة ، وكان أعرج . وقيل انه كان يكنى بأبى مرة ، وان اسمه الوليد بن مصعب ، وانه أول من خضب بالسواد لما شاب ؛ دله عليه ابليس »

وقيل انه كان من القبط ، وقيل انه دخل منف على أتان يحمل النطرون ليبيعه ، وكان الناس قد اضطربوا فى تولية الملك ، فحكموه ورضوا بتولية من يوليه عليهم . وذلك أنهم خرجوا الى ظاهر مدينة منف ينتظرون أول من يظهر عليهم ليحكموه ، فكان هو أول من أقبل بحماره ، فلما حكموه ورضوا بحكمه ، أقام نفسه ملكا عليهم . وأنكر قوم هذا ، وقالوا : كان القوم أدهى من أن يقلدوا ملكهم من هذه سبيله .

فلما جلس فى الملك اختلف الناس عليه ، فبذل لهم الأموال ، وقتل من خالفه بمن أطاعه حتى اعتدل أمره ، ورتب المراتب ، وشيد الأعمال ، وبنى المدن ، وخندق الخنادق ، وبنى بناحية العريش حصنا ، وكذلك على جميع حدود مصر ، واستخلف هامان — وكان يقرب منه فى نسبه — وأثار الكنوز ، وصرفها فى بناء المدائن والعمارات ، وحفر خليج سردوس وغيره ، وبلغ الخراج بمصر فى زمنه سبعة وتسعين ألف ألف دينار ، بالدينار الفرعونى ، وهو ثلاثة مثاقيل .

وفرعون هو أول من عرف العرفاء على الناس . وكان ممن صحبه من بنى اسرائيل

رجل يقال له امرى — وهو الذى يقال له بالعبرانية عمرام وبالعربية عمران — بن قاهث ابن لاوى ، وكان قدم مصر مع يعقوب عليه السلام ، فجعله حرسا لقصره يتولى حفظه وعنده مفاتيحه وأغلاقه بالليل .

وكان فرعون قد رأى فى كهانته ونجومه أنه يجرى هلاكه على يد مولود من الاسرائيليين ، فمنعهم من المناكحة ثلاث سنين التى رأى أن ذلك المولود يولد فيها . فأتت امرأة امرى اليه فى بعض الليالى بشىء قد أصلحته له ، فواقعها ، فاشتملت منه على هارون ، وولدته لثلاث وسبعين من عمره ، فى سنة سبع وعشرين ومائة لقدوم يعقوب الى مصر ، ثم أتته مرة أخرى ، فحملت بموسى لثمانين سنة من عمره .

ورأى فرعون فى نجومه أنه قد حمل بذلك المولود ، فأمر بذبح الذكران من بنى اسرائيل ، وتقدم الى القوابل بذلك . فولد موسى عليه السلام فى سنة ثلاثين ومائة لقدوم يعقوب الى مصر ، وفى سنة أربع وعشرين وأربعمائة لولادة ابراهيم الخليل عليه السلام ، ولمضى ألف وخمسمائة وست سنين من الطوفان .

وكان من أمر ما قصه الله سبحانه من قذف أمه له فى التابوت ، فألقا النيل الى تحت قصر الملك ، وقد أرصدت أمه أخته على بعد لتنظر من يلتقطه . فجاءت ابنة * فرعون الى البحر مع جواريها ، فرأته واستخرجته من التابوت ، فرحمته وقالت · هذا من العبرانيين من لنا بظئر ترضعه ؟

(*) ص٦٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

فقالت لها أخته : أنا آتيك بها .

وجاءت بأمه ، فاسترضعتها له ابنة فرعون الى أن فصل ، فأتت به الى ابنة فرعون وسمته موسى ، وتبنته ونشأ عندها .

وقيل بل أخذته امرأة فرعون ، واسترضعت أمه ، ومنعت فرعون من قتله . الى أن كبر وعظم شأنه ، فرد اليه فرعون كثيرا من أمره ، وجعله من قواده — وكانت له سطوة — ثم وجهه لغزو اليونانيين ، وقد عاثوا فى أطراف مصر ، فخرج فى جيش كثيف وأوقع بهم ، فأظفره الله ، وقتل منهم كثيرا وأسر كثيرا ، وعاد غانما ، فسر ذلك فرعون ، وأعجب به هو وامرأته . واستولى موسى ، وهو غلام ، على كثير من أمر فرعون ، فأراد فرعون أن يستخلفه ؛ حتى قتل رجلا من أشراف القبط له قرابة من فرعون ، فطلبه .

وذلك أنه خرج يوما يمشى فى الناس — وله صولة بما كان له فى بيت فرعون من المربى والرضاع — فرأى عبرانيا ضرب ، فقتل المصرى الذى ضربه ودفنه ، وخرج يوما آخر فاذا برجلين من بنى اسرائيل ، وقد سطا أحدهما على الآخر ، فزجره ، فقال له : ومن جعل لك هذا ؟ أتريد أن تقتلنى كما قتلت المصرى بالأمس ؟

ونما الخبر الى فرعون فطلبه ، وألقى الله فى نفسه الخوف لما يريد من كرامته ، فخرج من منف ، ولحق بمدين عند عقبة أيلة — وبنو مدين أمة عظيمة ، من بنى ابراهيم عليه السلام ، كانوا ساكنين هناك — وكان فراره وله من العمر أربعون سنة ، فنزل عند

يبروق ، وهو شعيب عليه السلام ، من ولد مدين بن ابراهيم ، وكان من تزويجه ابنته ، ورعايته غنمه ، ما كان ، فأقام هنالك تسعا وثلاثين سنة ، نكح فيها صفوراء ابنة شعيب . وبنو اسرائيل مع فرعون وأهل مصر — كما قال الله تعالى — يسومونهم سوء العذاب ويستعبدونهم .

فلما مضى من سنة الثمانين لموسى شهر وأسبوع ، كلمه الله جل اسمه — وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر نيسان — وأمره أن يذهب الى فرعون ، وشد عضده بأخيه هارون ، وأيده بآيات : منها قلب العصا حية ، وبياض يده من غير سوء ، وغير ذلك من الآيات العشر التى أحلها الله بفرعون وقومه ، وكان مجىء الوحى من الله تعالى اليه وهو ابن ثمانين سنة .

ثم قدم مصر فى شهر أيار ، ولقى أخاه هارون ، فسر به ، وأطعمه جلبانا فيه ثريد ، وتنبأ هارون وهو ابن ثلاث وثمانين سنة ، وغدا به الى فرعون ، وقد أوحى اليهما أن يأتيا الى فرعون ليبعث معهما بنى اسرائيل فيستنقذانهم من هلكة القبط وجور الفراعنة ، ويخرجون الى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بملكها على لسان ابراهيم واسحاق ويعقوب ، فأبلغا ذلك بنى اسرائيل عن الله ، فآمنوا بموسى واتبعوه .

ثم حضرا الى فرعون ، فأقاما ببابه أياما — وعلى كل منهما جبة صوف ، ومع موسى عصاه — وهما لا يصلان الى فرعون لشدة حجابه . حتى دخل عليه مضحك كان يلهو به ، فعرفه أن بالباب رجلين يطلبان الاذن عليك ، يزعمان أن الههما قد أرسلهما اليك ، فأمر بادخالهما . فلما دخلا عليه خاطبه موسى بما قصه الله فى كتابه ، وأراه آية العصا وآيته فى بياض اليد .

فغاظ فرعون ما قاله موسى ، وهم بقتله ، فمنعه الله سبحانه بأن رأى صورة قد أقبلت ، ومسحت على أعينهم فعموا . ثم انه لما فتح عن عينيه ، أمر قوما آخرين بقتل موسى ، فأتتهم نار أحرقتهم ، فارداد غيظه ، وقال لموسى : من أين لك هذه النواميس العظام ؟ أسحرة بلدى علموك هذا ، أم تعلمته بعد خروجك من عندنا ؟

فقال : هذا ناموس السماء ، وليس من نواميس الأرض .

قال فرعون : ومن صاحبه ؟

قال : صاحب البنية العليا .

قال : بل تعلمتها من بلدى .

وأمر بجمع السحرة والكهنة وأصحاب النواميس ، وقال : اعرضوا علىّ أرفع أعمالكم ، فانى أرى نواميس هذا الساحر رفيعة جدا . فعرضوا عليه أعمالهم ، فسره ذلك ، وأحضر موسى ، وقال له : لقد وقفت على سحرك ، وعندى من يفوق عليك .

فواعدهم يوم الزينة . وكان جماعة من البلد قد اتبعوا موسى فقتلهم فرعون .

ثم انه جمع بين موسى وبين سحرته ، وكانوا مائتى ألف وأربعين ألفا ، يعملون من الأعمال ما يحير العقول ، ويأخذ القلوب ، من دخن ملونات ترى الوجوه مقلوبة مشوهة :

منها الطويل والعريض ، والمقلوب جهته الى أسفل ولحيته الى فوق ، ومنها ما له قرون ، ومنها ما له خرطوم وأنياب ظاهرة كأنياب الفيلة ، ومنها ما هو عظيم فى قدر الترس الكبير ، ومنها ما له آذان عظام ، وشبه وجوه القرود ، بأجساد عظيمة تبلغ السحاب ، وأجنحة مركبة على حيات عظيمة تطير فى الهواء ، ويرجع بعضها على بعض فيبتلعه ، وحيات يخرج من أفواهها نار تنتشر فى الناس ، وحيات تطير وترجع فى الهواء ، وتنحدر على كل من حضر لتبتلعه ، فيتهارب الناس منها ، وعصى تحلق فى الهواء ، فتصير حيات برؤوس وشعور وأذناب تهم بالناس أن تنهشهم ، ومنها ما له قوائم ، ومنها تماثيل مهولة .

وعملوا له دخنا تغشى أبصار الناس عن النظر فلا يرى بعضهم بعضا ، ودخنا تظهر صورا كهيئة الثيران فى الجو على دواب يصدم بعضها بعضا ، ويسمع لها ضجيج ، وصورا خضرا على * دواب خضر ، وصورا سودا على دواب سود هائلة .

فلما رأى فرعون ذلك ، سره ما رأى هو ومن حضره ، واغتم موسى ومن آمن به ، حتى أوحى الله اليه « لا تخف انك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا » .

وكان للسحرة ثلاثة رؤساء — ويقال بل كانوا سبعين رئيسا — فأسر اليهم موسى : قد رأيت ما صنعتم ، فان قهرتكم أتؤمنون بالله ؟ قالوا : نفعل . فغاظ فرعون مسارة موسى لرؤساء السحرة ، هذا والناس يسخرون من موسى وأخيه ، ويهزأون بهما وعليهما دراعتان من صوف ، وقد احتزما بليف .

فلوح موسى بعصاه حتى غابت عن الأعين ، وأقبلت فى هيئة تنين عظيم له عينان يتوقدان ، والنار تخرج من فيه ومنخريه ، فلا يقع على أحد الا برص ، ووقع من ذلك على ابنة فرعون فبرصت . وصار التنين فاغرا فاه ، فالتقط جميع ما عمله السحرة ، ومائتى مركب كانت مملوءة حبالا وعصيا وسائر من فيها من الملاحين — وكانت فى النهر الذى يتصل بدار فرعون — وابتلع عمدا كثيرة وحجارة قد كانت حملت الى هناك لينى بها .

ومر التنين الى قصر فرعون ليبتلعه — وكان فرعون جالسا فى قبة على جانب القصر ليشرف على عمل السحرة — فوضع نابه تحت القصر ، ورفع نابه الآخر الى أعلاه ، ولهب النار يخرج من فيه حتى أحرق مواضع من القصر ، فصاح فرعون مستغيثا بموسى عليه السلام ، فزجر موسى التنين ، فانعطف ليبتلع الناس ، ففروا كلهم من بين يديه وانساب يريدهم ، فأمسكه موسى ، وعاد فى يده عصا كما كان .

ولم ير الناس من تلك المراكب ، وما كان فيها من الحبال والعصى والناس ، ولا من العمد والحجارة ، وما شربه من ماء النهر حتى بانت أرضه أثرا . فعند ذلك قالت السحرة : ما هذا من عمل الآدميين ، وانما هو من فعل جبار قدير على الأشياء ! فقال

(*) ص٤٦٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

لهم موسى : أوفوا بعهدكم ، والا سلطته عليكم يبتلعكم كما ابتلع غيركم .

فآمنوا بموسى ، وجاهروا فرعون ، وقالوا : هذا من فعل اله السماء ، وليس هذا من فعل أهل الأرض . فقال : قد عرفت ألكم قد واطأتموه على وعلى ملكى حسدا منكم لى . وامر فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وصلبوا ، وجاهرته امرأته ، والمؤمن الذى كان يكتم ايمانه .

وانصرف موسى ، فأقام بمصر يدعو فرعون أحد عشر شهرا ، من شهر ايار الى شهر نيسان المستقبل ، وفرعون لايجيبه ، بل اشتد جوره على بنى اسرائيل واستعبادهم ، واتخاذهم سخريا فى مهنة الأعمال . فأصابت فرعون وقومه الجوائح العشر ، واحدة بعد أخرى ، وهو يتثبت لهم عند وقوعها ، ويفزع الى موسى فى الدعاء بانجلائها ، ثم يلح عند انكشافها ، فانها كانت عذابا من الله عز وجل عذب الله بها فرعون وقومه .

فمنها أن ماء مصر صار دما حتى هلك أكثر أهل مصر عطشا ، وكثرت عليهم الضفادع حتى وسخت جميع مواضعهم ، وقذرت عليهم عيشهم وجميع مآكلهم ، وكثر البعوض حتى حبس الهواء ومنع النسيم ، وكثر عليهم ذباب الكلاب حتى جرّح أبدانهم ونغص عليهم حياتهم ، وماتت دوابهم وأغنامهم فجأة ، وعم الناس الجرب والجدرى حتى زاد منظرهم قبحا على مناظر الجذمى .

ونزل من السماء برد مخلوط بصواعق أهلك كل ما أدركه من الناس والحيوانات ، وذهب بجميع الثمار ، وكثر الجراد والجنادب التى أكلت الأشجار ، واستقصت أصول النبات ، وأظلمت الدنيا ظلمة سوداء غليظة حتى كانت من غلظها تحس بالأجسام . وبعد ذلك كله نزل الموت فجأة على بكور أولادهم ، بحيث لم يبق لأحد منهم ولد بكر الا فجع به فى تلك الليلة ، ليكون لهم فى ذلك شغل عن بنى اسرائيل .

وكانت الليلة الخامسة عشرة ، من شهر نيسان سنة احدى وثمانين لموسى ، فعند ذلك سارع فرعون الى ترك بنى اسرائيل ، فخرج موسى عليه السلام من ليلته هذه ، ومعه بنو اسرائيل ، من عين شمس .

وفى التوراة أنهم أمروا عند خروجهم أن يذبح أهل كل بيت حملا من الغنم ان كان كفايتهم ، أو يشتركوا مع جيرانهم ان كان أكثر ، وأن ينضحوا من دمه على أبوابهم ليكون علامة، وأن يأكلوا شواءرأسه وأطرافه ومعاه ، ولا يكسروا منه عظما ، ولا يدعوا منه شيئا خارج البيوت ، وليكن خبزهم فطيرا ، وذلك فى اليوم الرابع عشر من فصل الربيع ، وليأكلوا بسرعة ، وأوساطهم مشدودة وخفافهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم ، ويخرجوا ليلا ، وما فضل من عشائهم ذلك أحرقوه بالنار . وشرع هذا عيدا لهم ولأعقابهم ، ويسمى هذا عيد الفصح .

وفيها أنهم أمروا أن يستعيروا منهم حليا كثيرا يخرجون به ، فاستعاروه وخرجوا فى تلك الليلة بما معهم من الدواب والأنعام ، وأخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام ؛ استخرجه موسى من المدفن الذى كان فيه

بالهام من الله تعالى . وكانت عدتهم ستمائة ألف رجل محارب ، سوى النساء والصبيان والغرباء ، وشغل القبط عنهم بالمآتم التى كانوا فيها على موتاهم ، فساروا ثلاث مراحل ليلا ونهارا ، حتى وافوا الى فوهة الجبروت — وتسمى نار موسى — وهو ساحل البحر بجانب الطور .

فانتهى خبرهم الى فرعون فى يومين وليلة ، فندم بعد خروجهم ، وجمع قومه وخرج فى كثرة ، كفاك * عن مقدارها قول الله عز وجل ، اخبارا عن فرعون ، أنه قال عن بنى اسرائيل — وعدتهم ما قد ذكر ، على ما جاء فى التوراة — « ان هؤلاء لشرذمة قليلون . وانهم لنا لغائظون » . ولحق بهم فى اليوم الحادى والعشرين من نيسان ، فأقام العسكران ليلة الواحد والعشرين على شاطىء البحر .

وفى صبيحة ذلك اليوم ، أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه ويقتحمه ، ففلق الله لبنى اسرائيل البحر اثنى عشر طريقا ، عبر كل سبط من طريق ، وصارت المياه قائمة عن جانبهم كأمثال الجبال ، وصير قاع البحر طريقا مسلوكا لموسى ومن معه ، وتبعهم فرعون وجنوده فلما خاض بنو اسرائيل الى عدوة الطور ، انطبق البحر على فرعون وقومه ، فأغرقهم الله جميعا ، ونجا موسى وقومه

ونزل بنو اسرائيل جميعا فى الطور ، وسبحوا مع موسى بتسبيح طويل قد ذكر فى التوراة . وكانت مريم ، أخت موسى وهارون ، تأخذ الدف بيدها ، ونساء بنى اسرائيل فى أثرها بالدفوف والطبول ، وهى ترتل التسبيح لهن ، ثم ساروا فى البر ثلاثة أيام ، وأقفرت مصر من أهلها ومر موسى بقومه ، ففنى زادهم فى اليوم الخامس من ايار ، فضجوا الى موسى ، فدعا ربه ، فنزل لهم المن من السماء ، فلما كان اليوم الثالث والعشرون من أيار عطشوا وضجوا الى موسى ، فدعا ربه ، فتفجر له عينا من الصخرة .

ولم يزل يسير بهم حتى وافوا طور سينين غرة الشهر الثالث لخروجهم من مصر ، فأمر الله موسى بتطهير قومه ، واستعدادهم لسماع كلام الله سبحانه ، فطهرهم ثلاثة أيام . فلما كان فى اليوم الثالث — وهو السادس من الشهر — رفع الله الطور ، وأسكنه نوره ، وظلل حواليه بالغمام ، وأظهر فى الآفاق الرعود والبروق والصواعق ، وأسمع القوم من كلامه عشر كلمات ، وهى : « أنا الله ربكم واحد ، لا يكن لكم معبود من دونى ، لا تحلف باسم ربك كاذبا ، اذكر يوم السبت واحفظه ، بر والديك وأكرمهما ، لا تقتل النفس ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد بشهادة زور ، لا تحسد أخاك فيما رزقه »

فصاح القوم وارتعدوا ، وقالوا لموسى : لا طاقة لنا باستماع هذا الصوت العظيم ، كن السفير بيننا وبين ربنا ، وجميع ما أمرتنا به سمعنا وأطعنا .

فأمرهم بالانصراف ، وصعد موسى الى الجبل فى اليوم الثانى عشر ، فأقام فيه أربعين يوما ، ودفع الله اليه اللوحين الجوهر المكتوب عليهما العشر كلمات ، ونزل فى اليوم الثانى

(*) ص٦٨ ، جـ١ ، ط. بولاق .

والعشرين من شهر تموز ، فرأى العجل ، فارتفع الكتاب وثقلا على يديه ، فألقاهما وكسرهما ، ثم برد العجل وذراه على الماء ، وقتل من القوم من استحق القتل .

وصعد الى الجبل فى اليوم الثالث والعشرين من تموز ، ليشفع فى الباقين من القوم ، ونزل فى اليوم الثانى من أيلول بعد الوعد من الله له بتعويضه لوحين آخرين مكتوبا عليهما ما كان فى اللوحين الأولين . فصعد الى الجبل ، وأقام أربعين ليلة أخرى ، وذلك من ثالث أيلول الى اليوم الثانى عشر من تشرين .

ثم أمره الله باصلاح القبة ، وكان طولها ثلاثين ذراعا فى عرض عشرة أذرع ، وارتفاع عشرة أذرع ، ولها سرادق مضروب حواليها مائة ذراع فى خمسين ذراعا ، وارتفاع خمسة أذرع فأخذ القوم فى اصلاحها ، وما تزين به من السور من الذهب والفضة والجواهر ، ستة أشهر الشتاء كله ولما فرغ منها نصبت فى اليوم الأول من نيسان فى أول السنة الثانية .

ويقال ان موسى عليه السلام حارب هنالك العرب ، مثل طسم وجديس والعماليق وجرهم وأهل مدين ، حتى أفناهم جميعا ، وانه وصل الى جبل فاران ، وهو مكة ، فلم ينج منهم الا من اعتصم بملك اليس ، أو انتمى الى بنى اسماعيل عليه السلام .

وفى ثلثى الشهر الباقى من هذه السنة ، ظعن القوم فى برية الطور بعد أن نزلت عليهم التوراة ، وجملة شرائعها ستمائة وثلاث عشرة شريعة .

وفى آخر الشهر الثالث حرمت عليهم أرض الشام أن يدخلوها ، وحكم الله تعالى عليهم أن يتيهوا فى البرية أربعين سنة لقولهم نخاف أهلها لأنهم جبارون . فأقاموا تسع عشرة سنة فى رقيم ، وتسع عشرة سنة فى أحد وأربعين موضعا مشروحة فى التوراة .

وفى اليوم السابع من شهر أيلول من السنة الثانية ، خسف الله بقارون وبأوليائه — بدعاء موسى عليه السلام عليهم — لما كذبوا .
وفى شهر نيسان من السنة الأربعين ، توفيت مريم ابة عمران ، أخت موسى عليه السلام ، ولها مائة وست وعشرون سنة وفى شهر آب منها ، مات هارون عليه السلام ، وله مائة وثلاث وعشرون سنة .

ثم كان حرب الكنعانيين وسيحون ، والعوج صاحب البثنية من أرض حوران ، فى الشهور التى بعد ذلك الى شهر شباط فلما أهل شباط أخذ موسى فى اعادة التوراة على القوم ، وأمر بكتب نسختها وقراءتها ، وحفظ ما شاهدوه من آثاره ، وما أخذوه عنه من الفقه ، وكان نهاية ذلك فى اليوم السادس من آذار .

وقال لهم فى اليوم السابع منه : انى فى يومى هذا استوفيت عشرين ومائة سنة ، وان الله قد عرفنى أنه يقبضنى فيه ، وقد أمرنى أن أستخلف عليكم يوشع بن نون ، ومعه السبعون رجلا الذين اخترتهم قبل هذا الوقت ، ومعهم العازر بن هارون ★ أخى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وأنا أشهد عليكم الله

(★) ص٤٦٩ جـ٢ ، ط. بولاق ★

الذى لا اله الا هو والأرض والسموات أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، ولا تبدلوا شرائع التوراة بغيرها .

ثم فارقهم ، وصعد الجبل ، فقبضه الله تعالى هناك ، وأخفاه ، ولم يعلم أحد منهم قبره ، ولا شاهده . وكان بين وفاة موسى وبين الطوفان ألف وستمائة وست وعشرون سنة ، وذلك فى أيام منوجهر ملك الفرس .

وزعم قوم أن موسى كان ألثغ . فمنهم من جعل ذلك خلقة ، ومنهم من زعم أنه انما اعتراه حين قالت امرأة فرعون لفرعون : لا تقتل طفلا لا يعرف الجمر من التمر . فلما دعا له فرعون بهما جميعا ، تناول جمرة فأهوى بها الى فيه ، فاعتراه من ذلك ما اعتراه . وذكر محمد بن عمر الواقدى أن لسان موسى كانت عليه شامة فيها شعرات ، ولا يدل القرآن على شىء من ذلك ، فليس فى قوله تعالى « واحلل عقدة من لسانى » دليل على شىء من ذلك دون شىء .

فأقاموا بعده ثلاثين يوما يبكون عليه الى أن أوحى الله تعالى الى يوشع بن نون بترحيلهم ، فقادهم وعبر بهم الأردن فى اليوم العاشر من نيسان ، فوافوا أريحا ، فكان منهم ما هو مذكور فى مواضعه . فهذه جملة خبر موسى عليه السلام .

«كنيسة جوجر» : هذه الكنيسة من أجل كنائس اليهود . ويزعمون أنها تنسب لنبى الله الياس عليه السلام ، وأنه ولد بها ، وكان يتعاهدها فى طول اقامته بالأرض الى أن رفعه الله اليه .

« الياس » : هو فينحاس بن العازر بن هارون عليه السلام ، ويقال الياسين بن ياسين عيزار بن هارون ، ويقال هو الياهو — وهى عبرانية معناها قادر أزلى — وعرب فقيل الياس .

ويذكر أهل العلم من بنى اسرائيل أنه ولد بمصر ، وخرج به أبوه العازر من مصر مع موسى عليه السلام وعمره نحو الثلاث سنين ، وأنه هو الخضر الذى وعده الله بالحياة ، وأنه لما خرج بلعام بن باعورا ليدعو على موسى صرف الله لسانه حتى يدعو على نفسه وقومه .

وكان من زنى بنى اسرائيل بنساء الأمورانيين وأهل مواب ما كان ، فغضب الله تعالى عليهم ، وأوقع فيهم الوباء ، فمات منهم أربعة وعشرون ألفا ... الى أن هجم فينحاس هذا على خباء فيه رجل على امرأة يزنى بها ، فنظمهما جميعا برمحه ، وخرج وهو رافعهما ، وشهرهما غضبا لله ، فرحمهم الله سبحانه ، ورفع عنهم الوباء وكانت له أيضا آثار مع نبى الله يوشع بن نون ، ولما مات يوشع قام من بعده فينحاس هذا هو وكالاب ابن يوفنا ، فصار فينحاس اماما ، وكالاب يحكم بينهم .

وكانت الأحداث فى بنى اسرائيل ، فساح الياس ، ولبس المسوح ، ولزم القفار ، وقد وعده الله عز وجل فى التوراة بدوام السلامة فأول ذلك بعضهم بأنه لا يموت فامتد عمره الى أن ملك يهوشافاط بن آسا بن أفيا بن رحبعم بن سليمان بن داود ، عليهما السلام ،

على سبط يهودا فى بيت المقدس ، وملك أحؤب بن عمرى على الأسباط من بنى اسرائيل بمدينة شمرون المعروفة اليوم بنابلس .

وساءت سيرة أحؤب حتى زادت فى القبح على جميع من مضى قبله من ملوك بنى اسرائيل ، وكان أشدهم كفرا ، وأكثرهم ركونا للمنكر ، بحيث أربى فى الشر على أبيه وعلى سائر من تقدمه ، وكانت له امرأة يقال لها سيصيال ابنة أشاعل ملك صيدا ، أكفر منه بالله وأشد عتوا واستكبارا ، فعبدا وثن بعل الذى قال له فيه جل ذكره : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين » ، وأقاما له مذبحا بمدينة شمرون .

فأرسل الله عز وجل الى أحؤب عبده الياس رسولا لينهاه عن عبادة وثن بعل ، ويأمره بعبادة الله تعالى وحده ، وذلك قول الله عز وجل من قائل : « وان الياس لمن المرسلين . اذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين . فكذبوه ... » ، ولما أيس من ايمانهم بالله وتركهم عبادة الوثن ، أقسم فى مخاطبته أحؤب ألا يكون مطر ولا ندى ، ثم تركه .

فأمره الله سبحانه أن يذهب ناحية الأردن . فمكث هناك مختفيا — وقد منع الله قطر السماء حتى هلكت البهائم وغيرها — فلم يزل الياس مقيما فى استارة الى أن جف ما كان عنده من الماء . وفى طول اقامته كان الله جل جلاله يبعث اليه بغربان تحمل له الخبز والللحم ، فلما جف ماؤه الذى كان يشرب منه لامتناع المطر ، أمره الله أن يسير الى بعض مدائن صيدا .

فخرج حتى وافى باب المدينة ، فاذا امرأة تحتطب ، فسألها ماء يشربه وخبزا يأكله ، فأقسمت له أن ما عندها الا مثل غرفة دقيق فى اناء وشىء من زيت فى جرة ، وأنها تجمع الحطب لتقتات منه هى وابنها . فبشرها الياس عليه السلام ، وقال لها : لا تجزعى وافعلى ما قلت لك ، واعملى لى خبزا قليلا قبل أن تعملى لنفسك ولولدك ، فان الدقيق لا يعجز من الاناء ولا الزيت من الجرة حتى ينزل المطر ، ففعلت ما أمرها به ، وأقام عندها ، فلم ينقص الدقيق ولا الزيت بعد ذلك . الى أن مات ولدها ، وجزعت عليه ، فسأل الياس ربه تعالى فأحيا الولد .

وأمره الله أن يسير الى أحؤب ملك بنى اسرائيل لينزل المطر عند اخباره له بذلك ، فسار اليه ، وقال له : اجمع بنى * اسرائيل وأبناء بعال . فلما اجتمعوا قال لهم الياس : الى متى هذا الضلال ؟ ان كان الرب الله فاعبدوه ، وان كان بعال هو الله ، فارجعوا بنا اليه . وقال : ليقرب كل منا قربانا ، فأقرب أنا لله ، وقربوا أنتم لبعال ، فمن تقبل منه قربانه ، ونزلت نار من السماء فأكلته ، فالهه الذى يعبد .

فلما رضوا بذلك ، أحضروا ثورين ، واختاروا أحدهما وذبحوه ، وصاروا ينادون عليه : يال بعال ، يال بعال ، والياس يسخر بهم ويقول : لو رفعتم أصواتكم قليلا فلعل

(*) ص٧٠٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

الهكم نائم أو مشغول . وهم يصرخون ويجرحون أيديهم بالسكاكين ودماؤهم تسيل ، فلما أيسوا من أن تنزل النار وتأكل قربانهم ، دعا الياس القوم الى نفسه ، وأقام مذبحا ، وذبح ثوره وجعله على المذبح ، وصب الماء فوقه ثلاث مرات ، وجعل حول المذبح خندقا محفورا . فلم يزل يصب الماء فوق اللحم حتى امتلأ الخندق من الماء ، وقام يدعو الله عز اسمه ، وقال فى دعائه : اللهم اظهر لهذه الجماعة أنك الرب ، وأنى عبدك عامل بأمرك . فأنزل الله سبحانه نارا من السماء أكلت القربان ، وحجارة المذبح التى كان فوقها اللحم ، وجميع الماء الذى صب حوله .

فسجد القوم أجمعون ، وقالوا : نشهد أن الرب الله ، فقال الياس : خذوا أبناء بعال ، فأخذوا وجىء بهم ، فذبحهم كلهم ذبحا ، وقال لأحؤب : انزل وكل واشرب ، فان المطر نازل ، فنزل المطر على ما قال .

وكان الجهد قد اشتد ، لانقطاع المطر مدة ثلاث سنين وأشهر ، وغزر المطر حتى لم يستطع أحؤب أن ينصرف لكثرته ، فغضبت سيصيال ، امرأة أحؤب ، لقتل أبناء بعال ، وحلفت بآلهتها لتجعلن روح الياس عوضهم .

ففزع الياس ، وخرج الى المفاوز وقد اغتم غما شديدا ، فأرسل الله اليه ملكا معه خبز ولحم وماء ، فأكل وشرب ، وقواه الله حتى مكث بعد هذه الأكلة أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب . ثم جاءه الوحى بأن يمضى الى دمشق ، فسار اليها ، وصحب اليسع بن شابات — ويقال بن حظور — فصار تلميذه . فخرج من أريحا ومعه اليسع حتى وقف على الأردن ، فنزع رداءه ولفه ، وضرب به ماء الأردن ، فافترق الماء عن جانبيه وصار طريقا .

فقال الياس حينئذ لليسع : اسأل ما شئت قبل أن يحال بينى وبينك ، فقال اليسع : اسأل أن يكون روحك فىّ مضاعفا ، فقال : لقد سألت جسيما ، ولكن ان أبصرتنى اذا رفعت عنك يكون ما سألت ، وان لم تبصرنى لم يكن . وبينما هما يتحدثان اذ ظهر لهما كالنار فرق بينهما ، ورفع الياس الى السماء واليسع ينظره ، فانصرف وقام فى النبوة مقام الياس .

وكان رفع الياس فى زمن يهورام بن يهوشافاط ، وبين وفاة موسى عليه السلام وبين آخر أيام يهورام خمسمائة وسبعون سنة ، ومدة نبوة موسى عليه السلام أربعون سنة . فعلى هذا يكون مدة عمر الياس ، من حين ولد بمصر الى أن رفع بالأردن الى السماء ، ستمائة سنة وبضع سنين .

والذى عليه علماء أهل الكتاب ، وجماعة من علماء المسلمين ، أن الياس حى لم يمت . الا أنهم اختلفوا فيه ، فقال : بعضهم انه هو فينحاس كما تقدم ذكره ، ومنع هذا جماعة وقالوا : هما اثنان ، والله أعلم .

« كنيسة المصاصة » : هذه الكنيسة يجلها اليهود ، وهى بخط المصاصة من مدينة مصر ، ويزعمون أنها رممت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وموضعها يعرف بدرب الكرمة ، وبنيت فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للاسكندر ، وذلك قبل الملة الاسلامية بنحو ستمائة واحدى

وعشرين سنة ، ويزعم اليهود أن هذه الكنيسة كانت مجلسا لنبى الله الياس .

« كنيسة الشاميين » : هذه الكنيسة بخط قصر الشمع من مدينة مصر . وهى قديمة مكتوب على بابها بالخط العبرانى — حفرا فى الخشب — أنها بنيت فى سنة ست وثلاثين وثلثمائة للاسكندر ، وذلك قبل خراب بيت المقدس الخراب الثانى — الذى خربه طيطش — بنحو خمس وأربعين سنة ، وقبل الهجرة بنحو ستمائة سنة وبهذه الكنيسة نسخة من التوراة لا يختلفون فى أنها كلها بخط عزرا النبى ، الذى يقال له بالعربية العزير .

« كنيسة العراقيين » : هذه الكنيسة أيضا بخط قصر الشمع .

« كنيسة بالجودرية » . هذه الكنيسة بحارة الجودرية من القاهرة . وهى خراب منذ أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله حارة الجودرية على اليهود ، كما تقدم ذكر ذلك فى الحارات ، فانظره .

« كنيسة القرائين » : هذه الكنيسة كان يسلك اليها من تجاه باب سر المارستان المنصورى فى حدرة ينتهى اليها بحارة زويلة ، وقد سدت الخوخة التى كانت هناك ، فصار لا يتوصل اليها الا من حارة زويلة . وهى كنيسة تختص بطائفة اليهود القرائين .

« كنيسة دار الحدرة » : هذه الكنيسة بحارة زويلة ، فى درب يعرف الآن بدرب الرايض ، وهى من كنائس ... ... [1] *

(*) ص٤٧١ جـ٢ ، ط. بولاق .

(1) هكذا بياض فى الأصل .

« كنيسة الربانيين » . هذه الكنيسة بحارة زويلة ، بدرب يعرف الآن بدرب البادين ، يسلك منه الى تجاه السبع قاعات والى سويقة المسعودى وغيرها وهى كنيسة تختص بالربانيين من اليهود .

« كنيسة ابن شميخ » هذه الكنيسة بجوار المدرسة العاشورية من حارة زويلة . وهى مما يختص به طائفة القرائين .

« كنيسة السمرة » هذه الكنيسة بحارة زويلة ، فى خط درب ابن الكورانى ، تختص بالسمرة .

وجميع كنائس القاهرة المذكورة محدثة فى الاسلام بلا خلاف .

ذكر تاريخ اليهود وأعيادهم

قد كانت اليهود أولا تؤرخ بوفاة موسى عليه السلام ، ثم صارت تؤرخ بتاريخ الاسكندر بن فيلبش . وشهور سنتهم اثنا عشر شهرا ، وأيام السنة ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما . فأما الشهور فانها : تشرى ، مرحشوان ، كسليو ، طيبث ، شفط ، آذر ، نيسن ، أيار ، سيوان ، تموز ، آب ، أيلول .

وأيام سنتهم أيام سنة القمر ، ولو كانوا يستعملونها على حالها لكانت أيام سنتهم وعدد شهورهم شيئا واحدا ، ولكنه لما خرج بنو اسرائيل من مصر مع موسى عليه السلام الى التيه ، وتخلصوا من عذاب فرعون وما كانوا فيه من العبودية ، وائتمروا بما أمروا به — كما وصف فى السفر الثانى من التوراة — اتفق ذلك ليلة اليوم الخامس

عشر من نيسن ، والقمر تام الضوء ، والزمان ربيع .

فأمروا بحفظ هذا اليوم ، كما قال فى السفر الثانى من التوراة : احفظوا هذا اليوم سنة ، لخلوفكم الى الدهر فى أربعة عشر من الشهر الأول وليس معنى الشهر الأول هذا شهر تشرى ، ولكنه عنى به شهر نيسن ، من أجل أنهم أمروا أن يكون شهر الناسخ رأس شهورهم ، ويكون أول السنة .

فقال موسى عليه السلام للشعب اذكروا اليوم الذى خرجتم فيه من التعبد ، فلا تأكلوا خميرا فى هذا اليوم ، فى الشهر الذى ينضر فيه الشجر . فلذلك اضطروا الى استعمال سنة الشمس ، ليقع اليوم الرابع عشر من شهر نيسن فى أوان الربيع حين تورق الأشجار وتزهو الثمار ، والى استعمال سنة القمر ليكون جرمه فيه بدرا تام الضوء فى برج الميزان .

وأحوجهم ذلك الى الحاق الأيام التى يتقدم بها عن الوقت المطلوب بالشهور اذا استوفيت أيام شهر واحد ، فألحقوها بها شهرا تاما سموه آذار الأول . وسموا آذار الأصل آذار الثانى لأنه ردف سميا له وتلاه ، وسموا السنة الكبيسة « عبورا » اشتقاقا من معبار ، وهى المرأة الحبلى بالعبرانية ، لأنهم شبهوا دخول الشهر الزائد فى السنة بحمل المرأة ما ليس من جملتها ، ولهم فى استخراج ذلك حسابات كثيرة مذكورة فى الأزياج .

وهم فى عمل الأشهر مفترقون فرقتين :

احداهما الربانية : واستعمالهم اياها على وجه الحساب بمسير الشمس والقمر الوسط ، سواء رؤى الهلال أو لم ير ، فان الشهر عندهم هو مدة مفروضة تمضى من لدن الاجتماع الكائن بين الشمس والقمر فى كل شهر . وذلك أنهم كانوا — وقت عودهم من الجالية ببابل الى بيت المقدس — ينصبون على رؤوس الجبال دبادب ، ويقيمون رقباء للفحص عن الهلال ، وألزموهم بايقاد النار ، وتدخين دخان يكون علامة لحصول الرؤية .

وكانت بينهم وبين السامرة العداوة المعروفة فذهبت السامرة ، ورفعوا الدخان فوق الجبل قبل الرؤية بيوم ، ووالوا بين ذلك شهورا اتفق فى أوائلها أن السماء كانت متغيمة ... حتى فطن لذلك من فى بيت المقدس ، ورأوا الهلال غداة اليوم الرابع أو الثالث من الشهر مرتفعا عن الأفق من جهة المشرق ، فعرفوا أن السامرة فتنتهم ، فالتجأوا الى أصحاب التعاليم فى ذلك الزمان ليأمنوا بما يتلقونه من حسابهم مكايد الأعداء ، واعتلوا لجواز العمل بالحساب ، ونيابته عن العمل بالرؤية ، بعلل ذكروها . فعمل أصحاب الحساب لهم الأدوار ، وعلموهم استخراج الاجتماعات ورؤية الهلال .

وأنكر بعض الربانية حديث الرقباء ورفعهم الدخان ، وزعموا أن سبب استخراج هذا الحساب هو أن علماءهم علموا أن آخر أمرهم الى الشتات ، فخافوا اذا تفرقوا فى الأقطار ، وعولوا على الرؤية ، أن تختلف عليهم فى البلدان المختلفة ، فيتشاجروا ، فلذلك

استخرجوا هذه الحسابات ، واعتنى بها اليعازر بن فروح ، وألزموهم بالتزامها والرجوع اليها حيث كانوا .

والفرقة الثانية هم الميلادية [1] الذين يعلمون مبادئ الشهور من الاجتماع ، ويسمون القراء والأسمعية ، لأنهم يراعون العمل بالنصوص دون الالتفات الى النظر والقياس . ولم يزالوا على ذلك الى أن قدم عانان رأس الجالوت من بلاد المشرق ، فى نحو الأربعين ومائة من الهجرة ، الى دار السلام بالعراق ، فاستعمل الشهور برؤية الأهلة ، على مثل ما شرع فى الاسلام ، ولم يبال بأى يوم وقع من الأسبوع ، وترك حساب الربانيين ، وكبس الشهور بأن نظر كل سنة الى زرع الشعير بنواحى العراق والشام ، فيما بين أول شهر نيسن الى أن يمضى منه أربعة عشر يوما ، فان وجد باكورة تصلح للفريك والحصاد ترك السنة بسيطة ، وان وجدها لم تصلح لذلك كبسها حينئذ .

وتقدمت المعرفة بهذه الحالة أن من أخذ برأيه يخرج لسبعة تبقى من شسفط ، فينظر بالشام والبقاع الشابهة له فى المزاج الى زرع الشعير ، فان وجد السفا — وهو شوك السنبل — قد طلع عد منه الى الفاسح خمسين يوما ، وان لم يره طالعا كبسها بشهر : فبعضهم يردف الكبس بشسفط ، فيكون فى السنة شسفط وشسفط مرتين ، وبعضهم يردفه بآذر ، فيكون آذر وآذر فى السنة مرتين . وأكثر استعمال العانانية لشسفط دون آذر ، كما أن الربانية تستعمل آذر دون غيره ، فمن يعتمد من الربانية على الشهور بالحساب ، يقول ان شهر تشرى لا يكون أوله يوم الأحد والأربعاء ، وعدته عندهم ثلاثون يوما أبدا ، وفيه عيد رأس السنة ، وهو عيد البشارة بعتق الأرقاء ، وهذا العيد فى أول يوم منه .

ولهم أيضا فى اليوم العاشر منه صوم الكبور ، ومعناه الاستغفار . وعند الربانيين أن هذا الصوم لا يكون أبدا يوم الأحد ولا الثلاثاء ولا الجمعة ، وعند من يعتمد فى الشهور الرؤية أن ابتداء هذا الصوم من غروب الشمس فى ليلة العاشر الى غروبها من ليلة الحادى عشر ، وذلك أربع وعشرون ساعة . والربانيون يجعلون مدة الصوم خمسا وعشرين ساعة الى أن تشتبك النجوم ، ومن لم يصم منهم هذا الصوم قتل شرعا ، وهم يعتقدون أن الله يغفر لهم فيه جميع الذنوب ، ما خلا الزنا بالمحصنات ، وظلم الرجل أخاه ، وجحد الربوبية .

وفيه أيضا عيد المظلة ، وهو سبعة أيام ، يعيدون فى أولها ، ولا يخرجون من بيوتهم كما هو العمل يوم السبت . وعدة أيام المظلة الى آخر اليوم الثانى والعشرين تمام سبعة أيام ، واليوم الثامن يقال له عيد الاعتكاف ، وهم يجلسون فى هذه الأيام السبعة — التى أولها خامس عشر تشرى — تحت ظلال سعف النخل الأخضر وأغصان الزيتون ، ونحوها من الأشجار التى لا يتناثر ورقها على الأرض ، ويرون أن ذلك تذكار منهم لاظلال

(*) ص٧٢، جـ٢ ، ط بولاق .

(١) فى الأصل « البلادية » ، وقد جاءت صحيحة فيما بعد .

الله آباءهم فى التيه بالغمام . وفيه أيضا ، عند القرائين خاصة ، صوم فى اليوم الرابع والعشرين منه ، يعرف بصوم كدليا ، وعند الربانيين يكون هذا الصوم فى ثالثه .

وشهر مرحشوان ربما كان ثلاثين يوما ، وربما كان تسعة وعشرين يوما ، وليس فيه عيد .

وكسليو ربما كان ثلاثين يوما ، وربما كان تسعة وعشرين يوما ، وليس فيه عيد ، الا أن الربانيين يسرجون على أبوابهم ليلة الخامس والعشرين منه ، وهو مدة أيام يسمونها الحنكة ، وهو أمر محدث عندهم .

وذلك أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس ، وقتل من كان فيه من بنى اسرائيل ، وافتض أبكارهم . فوثب عليه أولاد كاهنهم — وكانوا ثمانية — فقتله أصغرهم ، وطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل ، فلم يجدوا الا يسيرا وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج فى كل ليلة الى ثمان ليال ، فاتخذوا هذه الأيام عيدا ، وسموها أيام الحنكة ، وهى كلمة مأخوذة من التنظيف ، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار أشياع ذلك الجبار . والقراء لا يعملون ذلك ، لأنهم لا يعولون على شىء من أمر البيت الثانى .

وشهر طيبث عدد أيامه تسعة وعشرون يوما . وفى عاشره صوم ، سببه أنه فى ذلك اليوم كان ابتداء محاصرة بخت نصر لمدينة بيت المقدس ، ومحاصرة طيطش لها أيضا فى الخراب الثانى .

وشسفط أيامه أبدا ثلاثون يوما ، وليس فيه عيد .

وشهر آذر عند الربانيين — كما تقدم — يكون مرتين فى كل سنة : فآذر الأول عدد أيامه ثلاثون يوما ان كانت السنة كبيسة ، وان كانت بسيطة فأيامه تسعة وعشرون يوما ، وليس فيه عيد عندهم . وآذر الثانى أيامه تسعة وعشرون يوما أبدا ، وفيه عند الربانيين صوم الفوز فى اليوم الثالث عشر منه ، والفوز فى اليوم الرابع عشر واليوم الخامس عشر .

وأما القراءون فليس عندهم فى السنة شهر آذر سوى مرة واحدة ، ويجعلون صوم الفوز فى ثالث عشره ، وبعده الى الخامس عشره .

وهذا أيضا محدث . وذلك أن بخت نصر لما أجلى بنى اسرائيل من بيت المقدس وخربه ، ساقهم جلاية الى بلاد العراق ، وأسكنهم فى مدينة خى التى يقال لها أصبهان . فلما ملك أزدشير بن بابك ملك الفرس — وتسميه اليهود أحشوارش — كان له وزير يسمى هيمون ، وكان لليهود حينئذ حبر يقال له مردوخاى ، فبلغ أزدشير أن له ابنة عم جميلة الصورة ، فتزوجها وحظيت عنده ، واستدنى مردوخاى ابن عمها وقربه .

فحسده الوزير هيمون ، وعمل على هلاكه وهلاك اليهود الذين فى مملكة أزدشير ، ورتب مع نواب أزدشير فى سائر أعماله أن يقتلوا كل يهودى عندهم فى يوم عينه لهم ، وهو الثالث عشر من آذر ، فبلغ ذلك

مردوخاى ، فأعلم ابنة عمه بما دبره الوزير ، وحثها على اعمال الحيلة فى تخليص قومها من من الهلكة . فأعلمت أزدشير بحسد الوزير لمردوخاى على قربه من الملك واكرامه ، وما كتب به الى العمال من قتل اليهود ، وما زالت به تغريه على الوزير الى أن أمر بقتله وقتلَ أهله ، وكتب * لليهود أمانا .

فاتخذ اليهود هذا اليوم من كل سنة عيدا ، وصاموه شكرا لله تعالى ، وجعلوا من بعده يومين اتخذوهما أيام فرح وسرور ولهو ومهاداة من بعضهم لبعض ، وهم على ذلك الى اليوم . وربما صور بعضهم فى هذا اليوم صورة هيمون الوزير ، وهم يسمونه هامان ، فاذا صوروه ألقوه بعد العبث به فى النار حتى يحترق .

وشهر نيسن عدد أيامه ثلاثون يوما أبدا . وفيه عيد الفاسح ، الذى يعرف اليوم عند النصارى بالفسح ، ويكون فى الخامس عشر منه ، وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير ، وينظفون بيوتهم ، من أجل أن الله سبحانه خلص بنى اسرائيلَ من أسر فرعون فى هذه الأيام ، حتى خرجوا من مصر مع نبى الله موسى بن عمران عليه السلام ، وتبعهم فرعون فأغرقه الله ومن معه ، وسار موسى ببنى اسرائيل الى التيه

ولما خرجوا من مصر مع موسى ، كانوا يأكلون اللحم والخبز والفطير ، وهم فرحون بخلاصهم من يد فرعون ، فأمروا باتخاذ الفطير وأكله فى هذه الأيام ، ليذكروا ما من الله عليهم به من انقاذهم من العبودية ، وفى آخر هذه الأيام السبعة كان غرق فرعون ، وهو عندهم يوم كبير ولا يكون أول هذا الشهر عند الربانيين أبدا يوم الاثنين ، ولا يوم الأربعاء ولا يوم الجمعة ، ويكون أول الخمسينيات من نصفه

وشهر ايار عدد أيامه تسعة وعشرون يوما . وفيه عيد الموقف ، وهو حج الأسابيع ، وهى الأسابيع التى فرضت على بنى اسرائيل فيها الفرائض . ويقال لهذا العيد فى زمننا عيد العنصرة ، وعيد الخطاب ، ويكون بعد عيد الفطير ، وفيه خوطب بنو اسرائيل فى طور سيناء ، ويكون هذا العيد فى السادس منه ، وفيه أيضا يوم الخميس ، وهو آخر الخمسينيات ولا يكون عيد العنصرة عند الربانيين أبدا يوم الثلاثاء ، ولا يوم الخميس ولا يوم السبت .

وشهر تموز أيامه تسعة وعشرون يوما . وليس فيه عيد ، لكنهم يصومون فى تاسعه لأن فيه هدم سور بيت المقدس عند محاصرة بخت نصر له . والربانيون خاصة يصومون يوم السابع عشر منه ، لأن فيه هدم طيطش سور بيت المقدس ، وخرب البيت الخراب الثانى .

وشهر آب ثلاثون يوما وفيه عدد الفرائين صوم فى اليوم السابع واليوم العاشر ، لأن بيت المقدس خرب فيهما على يد بخت نصر . وفيه أيضا كان اطلاق بخت نصر النار فى مدينة القدس وفى الهيكل ويصوم الربانيون اليوم التاسع منه ، لأن فيه خرب البيت على يد طيطش الخراب الثانى

(*) ص٤٧٢ جـ١ ، ط. بولاق

وشهر أيلول تسعة وعشرون يوما أبدا ، وليس فيه عيد . والله تعالى أعلم

ذكر معنى قولهم يهودى

اعلم أن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، صلوات الله عليهم أجمعين ، سماه الله اسرائيل ، ومعنى ذلك الذى رأسه القادر ، وكان له من الولد اثنا عشر ذكرا ، يقال لكل واحد منهم سبط ويقال لمجموعهم الأسباط ، وهذه أسماؤهم . روبيل ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساخر ، وزبولون — والستة أشقاء : أمهم ليا بنت لابان بن بتويل ابن ناحور ، أخى ابراهيم الخليل — وكان ، وأشار ، ودان ، ونفتالى ، ويوسف ، وبنيامين

فلما كبر هؤلاء الأسباط الاثنا عشر ، قدم عليهم أبوهم يعقوب — وهو اسرائيل — ابنه يهوذا ، وجعله حاكما على اخوته الأحد عشر سبطا ، فاستمر رئيسا وحاكما على اخوته الى أن مات ، فورثت أولاد يهوذا رياسة الأسباط من بعده . الى أن أرسل الله تعالى موسى بن عمران بن قاهات بن لاوى بن يعقوب الى فرعون ، بعد وفاة يوسف بن يعقوب عليهما السلام بمائة وأربع وأربعين سنة ، وهم رؤساء الأسباط .

فلما نجى الله موسى وقومه بعد غرق فرعون ومن معه ، رتب عليه السلام بنى اسرائيل الاثنى عشر سبطا أربع فرق ، وقدم على جميعهم سبط يهوذا . فلم يزل سبط يهوذا مقدما على سائر الأسباط أيام حياة موسى عليه السلام وأيام حياة يوشع بن نون

فلما مات يوشع سأل بنو اسرائيل الله تعالى ، وابتهلوا اليه فى قبة الشمشار أن يقدم عليهم واحدا منهم ، فجاء الوحى من الله بتقديم عثنيآل بن قناز من سبط يهوذا ، فتقدم على سائر الأسباط ، وصار بنو يهوذا مقدمين على سائر الأسباط من حينئذ .

الى أن ملك الله على بنى اسرائيل نبيه داود — وهو من سبط يهوذا — فورث ملك بنى اسرائيل من بعده ابنه سليمان بن داود عليهما السلام . فلما مات سليمان افترق ملك بنى اسرائيل من بعده ، وصار لمدينة شمرون — التى يقال لها اليوم نابلس — عشرة أسباط ، وبقى بمدينة القدس سبطان : هما سبط يهوذا ، وسبط بنيامين .

وكان يقال لسكان شمرون بنو اسرائيل ، ويقال لسكان القدس بنو يهوذا . الى أن انقرضت دولة بنى اسرائيل من مدينة شمرون بعد مائتين واحدى وخمسين سنة ، فصاروا كلهم بالقدس تحت طاعة الملوك من بنى يهوذا الى أن قدم بخت نصر وخرب القدس ، وجلا جميع بنى اسرائيل الى بابل ، فعرفوا هناك بين الأمم ببنى يهوذا .

واستمر هذا سمة لهم بين الأمم بعد ذلك . الى أن * جاء الله بالاسلام ، فكان يقال للواحد منهم « يهوذى » بذال معجمة نسبة الى سبط يهوذا ، وتلاعب العرب بذلك على عادتهم فى التلاعب بالأسماء المعجمة ، وقالوها بدال مهملة ، وسموا طائفة بنى اسرائيل اليهود ، وبهذه اللغة نزل القرآن . ويقال ان

(*) ص٤٧٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

اول من سبى بنى اسرائيل اليهود بخت نصر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

ذكر معتقد اليهود وكيف وقع عندهم التبديل

اعلم أن الله سبحانه لما أنزل التوراة على نبيه موسى عليه السلام ، ضمنها شرائع الملة الموسوية ، وأمر فيها أن يكتب لكل من يلى أمر بنى اسرائيل كتاب يتضمن أحكام الشريعة لينظر فيه ، ويعمل به ، وسمى هذا الكتاب بالعبرانية « مشنا » ، ومعناه استخراج الأحكام من النص الالهى ، وكتب موسى عليه السلام بخط يده « مشنا » كأنه تفسير لما فى التوراة من الكلام الالهى .

فلما مات موسى عليه السلام ، وقام من بعده بأمر بنى اسرائيل يوشع بن نون ومن بعده . الى أن كانت أيام يهوياقيم ملك القدس ، غزاهم بخت نصر الغزوة الأولى وهم يكتبون لكل من ملكهم « مشنا » ، ينقلونها من المشنا التى بخط موسى ، ويجعلونها باسمه . فلما جلا بخت نصر يهوياقيم الملك ، ومعه أعيان بنى اسرائيل وكبراء بيت المقدس — وهم فى زيادة على عشرة آلاف نفس — ساروا ، ومعهم نسخ المشنا التى كتبت لسائر ملوك بنى اسرائيل بأجمعها ، الى بلاد المشرق .

فلما سار بخت نصر من بابل الكرة الثانية لغزو القدس ، وخربه ، وجلا جميع من فيه وفى بلاد بنى اسرائيل من الأسباط الاثنى عشر ، الى بابل ، أقاموا بها ، وبقى القدس خرابا لا ساكن فيه مدة سبعين سنة ، ثم عادوا من بابل بعد سبعين سنة ، وعمروا القدس ، وجددوا بناء البيت ثانيا ، ومعهم جميع نسخ المشنا التى خرجوا بها أولا .

فلما مضت من عمارة البيت الثانى بعد الجلاية ثلثمائة ونيف من السنين ، اختلف بنو اسرائيل فى دينهم اختلافا كثيرا ، فخرج طائفة من آل داود عليه السلام من بيت المقدس ، وساروا الى الشرق كما فعل آباؤهم أولا ، وأخذوا معهم نسخا من المشنا التى كتبت للملوك من مشنا موسى التى بخطه ، وعملوا بما فيها ببلاد الشرق من حين خرجوا من القدس الى أن جاء الله بدين الاسلام ، وقدم عانان رأس الجالوت من المشرق الى العراق ، فى خلافة أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور ، سنة ست وثلاثين ومائة من سنى الهجرة المحمدية .

وأما الذين أقاموا بالقدس من بنى اسرائيل بعد خروج من ذكرنا الى الشرق من آل داود فانهم لم يزالوا فى افتراق واختلاف فى دينهم الى أن غزاهم طيطش ، وخرب القدس الخراب الثانى — بعد قتل يحيى بن زكريا ، ورفع المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام — وسبى جميع من فيه وفى بلاد بنى اسرائيل بأسرهم ، وغيب نسخ المشنا التى كانت عندهم ، بحيث لم يبق معهم من كتب الشريعة سوى التوراة وكتب الأنبياء .

وتفرق بنو اسرائيل من وقت تخريب طيطش بيت المقدس فى أقطار الأرض ، وصاروا ذمة الى يومنا هذا . ثم ان رجلين ممن تأخر الى قبيل تخريب القدس — يقال لهما شماى وهلال — نزلا مدينة طبرية ،

وكتبا كتابا سمياه مشنا باسم مشنا موسى عليه السلام ، وضمنا هذا المشنا الذى وضعاه أحكام الشريعة ، ووافقهما على وضع ذلك عدة من اليهود .

وكان شماى وهلال فى زمن واحد ، وكانا فى أواخر مدة تخريب البيت الثانى ، وكان لهلال ثمانون تلميذا أصغرهم يوحانان بن زكاى ، وأدرك يوحانان بن زكاى خراب البيت الثانى على يد طيطش . وهلال وشماى أقوالهما مذكورة فى المشنا ، وهى فى ستة أسفار تشتمل على فقه التوراة ، واما رتبها النوسى ، من ولد داود النبى ، بعد تخريب طيطش للقدس بمائة وخمسين سنة .

ومات شماى وهلال ولم يكملا المشنا ، فأكمله رجل منهم يعرف بيهودا من ذرية هلال ، وحمل اليهود على العمل بما فى هذا المشنا ، وحقيقته أنه يتضمن كثيرا مما كان فى مشنا النبى موسى عليه السلام ، وكثيرا من آراء أكابرهم . فلما كان بعد وضع هذا المشنا بنحو خمسين سنة ، قام طائفة من اليهود يقال لهم السنهدوين — ومعنى ذلك الأكابر — وتصرفوا فى تفسير هذا المشنا برأيهم ، وعملوا عليه كتابا اسمه «التلمود» أخفوا فيه كثيرا مما كان فى ذلك المشنا ، وزادوا فيه أحكاما من رأيهم .

وصاروا منذ وضع هذا التلمود الذى كتبوه بأيديهم ، وضمنوه ما هو من رأيهم ، ينسبون ما فيه الى الله تعالى ، ولذلك ذمهم الله فى القرآن الكريم بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » .

وهذا التلمود نسختان مختلفتان فى الأحكام . والعمل الى اليوم على هذا التلمود عند فرقة الربانيين ، بخلاف القرائين فانهم لا يعتقدون العمل بما فى هذا التلمود .

فلما قدم عانان رأس * الجالوت الى العراق ، أنكر على اليهود عملهم بهذا التلمود ، وزعم أن الذى بيده هو الحق لأنه كتب من النسخ التى كتبت من مشنا موسى عليه السلام الذى بخطه . والطائفة الربانيون ومن وافقهم لا يعولون من التوراة التى بأيديهم الا على ما فى هذا التلمود ، وماخالف ما فى التلمود لا يعبأون به ولا يعولون عليه ، كما أخبر تعالى اذ يقول حكاية عنهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون » .

ومن اطلع على ما بأيديهم وما عندهم من التوراة ، تبين له أنهم ليسوا على شىء ، وأنهم ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس . ولذلك لما نبغ فيهم موسى بن ميمون القرطبى عولوا على رأيه ، وعملوا بما فى كتاب الدلالة وغيره من كتبه ، وهم على رأيه الى زمننا .

ذكر فرق اليهود الآن

اعلم أن اليهود الذين قطعهم الله فى الأرض أمما أربع فرق ، كل فرقة تخطىء الطوائف الأخر ، وهى : طائفة الربانيين ، وطائفة القرائين ، وطائفة العانانية ، وطائفة السمرة .

(*) ص٢٧٥، جـ٢ ، ط. بولاق .

وهذا الاختلاف حدث لهم بعد تخريب بخت نصر بيت المقدس ، وعودهم من أرض بابل بعد الجلاية الى القـدس ، وعـارة البيت ثانيا وذلك أنهم فى اقامتهم بالقـدس أيام العمارة الثانيـة ، افترقوا فى دينهم ، وساروا شيعا .

فلما ملكهم اليونان بعـد الاسـكندر بن فيلبش ، وقام بأمرهم فى القدس هورقانوس ابن شمعون بن مشيثا ، واستقام أمره فسمى ملـكا — وكان قبـل ذلك هو وجميع من تقدمه ، ممن ولى أمر اليهود فى القدس بعد عودهم من الجلاية ، انما يقال له الـكوهن الأكبر — فاجتمـع لهورقانوس منزلة الملك ومنزلة الكهونية ، واطمأن اليهود فى أيامه ، وأمنـوا سـائر أعدائهم من الأمم ، فبطروا معيشـتهم ، واختلفوا فى دينهم ، وتعـادوا بسبب الاختلاف .

وكان من جملة فرقهم اذ ذاك طائفة يقال لها الفروشيم — ومعناه المعتزلة — ومن مذهبهم القول بما فى التـوراة على معنى ما فسره الحكماء من أسلافهم وطائفـة يقـال لهم الصدوفية — بفاء — نسبوا الى كبير لهم يقال له صـدوف ، ومذهبهم القـول بنص التوراة ، وما دل عليه القول الالهى فيها دون ما عداه من الأقـوال . وطائفـة يقـال لهم الجسديم — ومعناه الصلحاء — ومذهبهم الاشتغال بالنسك وعبادة الله سبحانه ، والأخذ بالأفضل والأسلم فى الدين

وكانت الصدوفية تعـادى المعتزلة عداوة شـديدة ، وكان الملك هورقانوس أولا على رأى المعتزلة — وهو مذهب آبائه — ثم انه رجع الى مذهب الصدوفيـة ، وباين المعتزلة وعاداهم ، ونادى فى سـائر مملكته بمـنع الناس جملة من تعلم رأى المعتزلة والأخذ عن أحد منهم ، وتتبعهم وقتل منهم كثيرا .

وكانت العامة بأسرها مع المعتزلة ، فثارت الشرور بين اليهود ، واتصلت الحروب بينهم ، وقتل بعضهم بعضـا ... الى أن خرب البيت على يدطيطش الخراب الثـانى ، بعـد رفع عيسى صلوات الله عليه ، وتفرق اليهـود من حينـئذ فى أقطار الدنيـا ، وصاروا ذمة ، والنصارى تقتلهم حيثما ظفرت بهم . الى أن جاء الله بالملة الاسلاميـة ، وهم فى تفرقهم ثلاث فرق : الربانيون ، والقراء ، والسمرة .

فأما « الربانية » فيقـال لهم بنو مشـنو — ومعنى مشنو الثانى — وقيل لهم ذلك لأنهم يعتبرون أمر البيت الذى بنى ثانيا ، بعد عودهم من الجلاية وخربه طيطش ، وينزلونه فى الاحترام والاكرام والتعظيم منزلة البيت الأول الذى ابتدأ عمارته داود ، وأتمه ابنه سليمان عليهما السلام ، وخربه بخت نصر ... فصار كأنه يقال لهم أصحاب الدعوة الثانية . وهذه الفرقة هى التى كانت تعمل بمـا فى المشنا الذى كتب بطبرية بعد تخريب طيطش القدس ، وتعول فى أحكام الشريعة على ما فى التلمود الى هذا الوقت الذى نحن فيه ، وهى بعيدة عن العمل بالنصوص الالهيـة ، متبعة لآراء من تقدمها من الأحبار .

ومن اطلع على حقيقـة دينها ، تبين له أن الذى ذمهم الله به فى القرآن الكريم حق لا مرية فيه ، وأنه لا يصح لهم من اسم اليهودية

الا مجرد الانتماء فقط ، لا أنهم فى الاتباع على الملة الموسويه .. لا سيما منذ ظهر فيهم موسى بن ميمون القرطبى ، بعد الخمسمائة من سنى الهجرة المحمدية ، فانه ردهم مع ذلك معطلة ، فصاروا فى أصول دينهم وفروعه أبعد الناس عما جاء به أنبياء الله تعـالى من الشرائع الالهية .

وأما « القراء » فانهم بنو مقرا — ومعنى مقرا الدعوة — وهم لا يعولون على البيت الثانى جملة . ودعوتهم انما هى لما كان عليـه العمـل مدة البيت الأول ، وكان يقـال لهم أصـحاب الدعـوة الأولى ، وهم يحكمون نصوص التوراة ، ولا يلتفتون الى قول من خالفها ، ويقفون مع النص دون تقليـد من سلف . وهم مع الربانيين من العداوة بحيث لا يتناكحون ، ولا يتجاورون ، ولا يدخـل بعضهم كنيسـة بعض .

ويقال للقرائين أيضا المبادية ، لأنهم كانوا يعملون مبادى الشهور من الاجتماع الكائن بين الشـمس والقمر ، ويقـال لهم أيضا * الأسمعية ، لأنهم يراعون العمـل بنصـوص التوراة دون العمل بالقياس والتقليد .

وأما « العانانية » فانهم ينسبون الى عانان رأس الجالوت الذى قدم من المشرق ، فى أيام الخليفة أبى جعفر المنصور ، ومعه نسخ المشـنا الذى كتب من الخط الذى كتب من خط النبى موسى . وانه رأى ما عليه اليهود من الربانيين والقرائين يخالف ما معه ، فتجرد لخلافهم ، وطعن عليهم فى دينهم ، وازدرى بهم .

وكان عظيما عندهم يرون أنه من ولد داود عليه السلام ، وعلى طريق فاضلة من النسك على مقتضى ملتهم ، بحيث يرون أنه لو ظهر فى أيام عمارة البيت لكان نبيا ، فلم يقدروا على مناظرته لما أوتى مع ما ذكرنا من تقريب الخليفة له واكرامه .

وكان مما خالف فيـه اليهـود اسـتعمال الشهور برؤية الأهلة على مثل ما شرع فى الملة الاسلامية ، ولم يبـال فى أى يوم وقع من الأسبوع ، وترك حساب الربانيين ، وكبس الشهور ، وخطأهم فى العمل بذلك ، واعتمد على كشف زرع الشعير ، وأجمل القول فى المسيح عيسى بن مريم عليـه السلام ، وأثبت نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال : هو نبى أرسل الى العرب ، الا أن التـوراة لم تنسخ . والحق أنه أرسل الى الناس كافة صلى الله عليه وسلم .

ذكر السمرة

اعلم أن طائفة السـمرة ليسـوا من بنى اسرائيل ألبتة ، وانما هم قوم قدموا من بلاد المشرق ، وسكنوا بلاد الشـام وتهـودوا . ويقال انهم من بنى سامرك بن كفركا بن رمى — وهو شعب من شعوب الفرس — خرجوا الى الشام ومعهم الخيل والغنم والابل والقسى والنشاب والسيوف والمواشى ، ومنهم السمرة الذين تفرقوا فى البلاد .

ويقال ان سليمان بن داود لما مات ، افترق ملك بنى اسرائيل من بعده ، فصـار رحبعم

(*) ص٤٧٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ابن سليمان على سبط يهوذا بالقدس ، وملك يربعم بن نباط على عشرة أسباط من بنى اسرائيل ، وسكن خارجا عن القدس ، واتخذ عجلين دعا الأسباط العشرة الى عبادتهما من دون الله الى أن مات . فولى ملك بنى اسرائيل من بعده عدة ملوك ، على مثل طريقته فى الكفر بالله وعبادة الأوثان .

الى أن ملكهم عمرى بن نوذب ، من سبط منشا بن يوسف ، فاشترى مكانا من رجل اسمه شامر بقنطار فضة ، وبنى فيه قصرا ، وسماه باسم اشتقه من اسم شامر الذى اشترى منه المكان ، وصير حول هذا القصر مدينة ، وسماها مدينة شمرون ، وجعلها كرسى ملكه الى أن مات فاتخذها ملوك بنى اسرائيل من بعده مدينة للملك ، وما زالوا فيها الى أن ولى هوشاع بن ايلا ، وهم على الكفر بالله ، وعبادة وثن بعل وغيره من الأوثان ، مع قتل الأنبياء .

الى أن سلط الله عليهم سنجاريب ملك الموصل ، فحاصرهم بمدينة شمرون ثلاث سنين ، وأخذ هوشاع أسيرا ، وجلاه ومعه جميع من فى شمرون من بنى اسرائيل ، وأنزلهم بهراة وبلخ ونهاوند وحلوان . فانقطع من حينئذ ملك بنى اسرائيل من مدينة شمرون ، بعدما ملكوا من بعد سليمان عليه السلام مدة مائتى سنة واحدى وخمسين سنة .

ثم ان سنجاريب ملك الموصل نقل الى شمرون كثيرا من أهل كوشا وبابل وحماه ، وأنزلهم فيها ليعمروها ، فبعثوا اليه يشكون من كثرة هجوم الوحش عليهم بشمرون .

فسير اليهم من علمهم التوراة ، فتعلموها على غير ما يجب ، وصاروا يقرأونها ناقصة اربعة أحرف ، الألف والهاء والخاء والعين ؛ فلا ينطقون بشىء من هذه الأحرف فى قراءتهم التوراة ، وعرفوا بين الأمم بالسامرة لسكناهم بمدينة شمرون .

وشمرون هذه هى مدينة نابلس ، ويقال لها سمرون — بسين مهملة — ولسكانها سامرة ، ويقال معنى السمرة حفظة ونواطير .

فلم تزل السمرة بنابلس الى أن غزا بخت نصر القدس ، وأجلى اليهود منه الى بابل ، ثم عادوا بعد سبعين سنة ، وعمروا البيت ثانيا .

الى أن قام الاسكندر من بلاد اليونان ، وخرج يريد غزو الفرس ، فمر على القدس ، وخرج منه يريد عمان ، فاجتاز على نابلس ، وخرج اليه كبير السمرة بها — وهو سنبلاط السامرى — فأنزله ، وصنع له ولقواده وعظماء أصحابه صنيعا عظيما ، وحمل اليه أموالا جمة وهدايا جليلة ، واستأذنه فى بناء هيكل لله على الجبل ، الذى يسمى عندهم « طور بريك » ، فأذن له وسار عنه الى محاربة دارا ملك الفرس . فبنى سنبلاط هيكلا شبيها بهيكل القدس ليستميل به اليهود ، وموه عليهم بأن « طور بريك » هو الموضع الذى اختاره الله تعالى ، وذكره فى التوراة بقوله فيها « اجعل البركة على طور بريك » .

وكان سنبلاط قد زوج ابنته بكاهن من كهان بيت المقدس يقال له منشا ، فمقت اليهود منشا على ذلك ، وأبعدوه وحطوه عن مرتبته عقوبة له على مصاهرة سنبلاط . فأقام سنبلاط

منشا زوج ابنته كاهنا فى هيكل طور بريك ، وأتته طوائف من اليهود وضلوا به ، وصاروا يحجون الى هيكله فى الأعياد ، ويقربون قرابينهم اليه ، ويحملون اليه نذورهم وأعشارهم ، وتركوا قدس الله وعدلوا عنه . فكثرت الأموال فى هذا الهيكل ، وصار ضد البيت المقدس * ، واستغنى كهنته وخدامه ، وعظم أمر منشا ، وكبرت حاله .

فلم تزل هذه الطائفة تحج الى « طور بريك » حتى كان زمن هورقانوس بن شمعون الكوهن ، من بنى حشمتاى ، فى بيت المقدس . فسار الى بلاد السمرة ، ونزل على مدينة نابلس ، وحصرها مدة وأخذها عنوة ، وخرب هيكل طور بريك الى أساسه — وكانت مدة عمارته مائتى سنة — وقتل من كان هناك من الكهنة . فلم تزل السمرة بعد ذلك الى يومنا هذا تستقبل فى صلاتها — حيثما كانت من الأرض — طور بريك بجبل نابلس ، ولهم عبادات تخالف ما عليه اليهود ، ولهم كنائس فى كل بلد تخصهم .

والسمرة ينكرون نبوة داود ومن تلاه من الأنبياء ، وأبوا أن يكون بعد موسى عليه السلام نبى ، وجعلوا رؤساءهم من ولد هارون عليه السلام ، وأكثرهم يسكن فى مدينة نابلس ، وهم كثير فى مدائن الشام ، ويذكر أنهم الذين يقولون « لا مساس » ، ويزعمون أن نابلس هى بيت المقدس ، وهى مدينة يعقوب عليه السلام ، وهناك مراعيه .

(*) ص٤٧٧ جـ٢ ، ط.بولاق »

وذكر المسعودى أن السمرة صنفان متباينان : أحدهما يقال له الكوشان ، والآخر الروشان ، أحد الصنفين يقول بقدم العالم . والسامرة تزعم أن التوراة التى فى أيدى اليهود ليست التوراة التى أوردها موسى عليه السلام ، ويقولون توراة موسى حرفت وغيرت وبدلت ، وان التوراة هى ما بأيديهم دون غيرهم .

وذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى أن السامرة تعرف بالامساسية ... قال : وهم الأبدال الذين بدلهم بخت نصر بالشام حين أسر اليهود وأجلاها . وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بنى اسرائيل ، فلم يحربهم ولم يقتلهم ولم يسبهم ، وأنزلهم فلسطين من تحت يده ، ومذاهبهم ممتزجة من اليهودية والمجوسية .

وعامتهم يكونون بموضع من فلسطين يسمى نابلس ، وبها كنائسهم ، ولا يدخلون حد بيت المقدس منذ أيام داود النبى عليه السلام ... لأنهم يدعون أنه ظلم واعتدى ، وحول الهيكل المقدس من نابلس الى ايليا ، وهو بيت المقدس ، ولا يمسون الناس ، واذا مسوهم اغتسلوا ، ولا يقرون بنبوة من كان بعد موسى عليه السلام من أنبياء بنى اسرائيل

وفى شرح الانجيل أن اليهود انقسمت بعد أيام داود الى سبع فرق :

« الكتاب » : وكانوا يحافظون على العادات التى أجمع عليها المشايخ مما ليس فى التوراة .

و « المعتزله » : وهم الفريسيون ، وكانوا يظهرون الزهد ، ويصومون يومين في الأسبوع ، ويخرجون العشر من أموالهم ، ويجعلون خيوط القرمز في رؤوس ثيابهم ، ويغسلون جميع أوانيهم ، ويبالغون في اظهار النظافة .

و « الزنادقة » : وهم من جنس السامرة وهم من الصدوقية ، فيكفرون بالملائكة والبعث بعد الموت وبجميع الأنبياء ، ما خلا موسى فقط فانهم يقرون بنبوته .

و « المتطهرون » : وكانوا يغتسلون كل يوم ، ويقولون لا يستحق حياة الأبد الا من يتطهر كل يوم .

و « الأسابيون » : ومعناه الغلاظ الطباع ، وكانوا يوجبون جميع الاوامر الالهية ، وينكرون جميع الأنبياء سوى موسى عليه السلام ، ويتعبدون بكتب غير الأنبياء .

و « المتقشفون » : وكانوا يمنعون أكثر المآكل وخاصة اللحم ، ويمنعون من التزوج بحسب الطاقة ، ويقولون بأن التوراة ليست كلها لموسى ، ويتمسكون بصحف منسوبة الى أخنوخ وابراهيم عليه السلام ، وينظرون في علم النجوم ويعملون بها .

و « الهيرذوسيون » : سموا أنفسهم بذلك لموالاتهم هيرذوس ملكهم ، وكانوا يتبعون التوراة ويعملون بما فيها . انتهى .

وذكر يوسف بن كريون في تاريخه أن اليهود كانوا في زمن ملكهم هورقانوس — يعني في زمن بناء البيت بعد عودهم من الجلاية — ثلاث فرق : الفروشيم ، ومعناه المعتزلة ، ومذهبهم القول بما في التوراة وما فسروه الحكماء من سلفهم . والصدوقية ، أصحاب رجل من العلماء يقال له صدوف ، ومذهبهم القول بنص التوراة وما دلت عليه دون غيره . والجسديم ، ومعناه الصلحاء ، وهم المشتغلون بالعبادة والنسك ، الآخذون في كلّ أمر بالأفضل والأسلم في الدين . انتهى . وهذه الفرقة هي أصلّ فرقتي الربانيين والقراء .

«فصل» : زعم بعضهم أن اليهود عانانية ، وشمعونية — نسبة الى شمعون الصديق ، ولي القدس عند قدوم أبي الاسكندر — وجالوتية ، وفيومية ، وسامرية ، وعكبرية ، وأصبهانية ، وعراقية ، ومغاربة ، وشرشتانية ، وفلسطينية ، ومالكية ، وربانية .

فالعانانية [1] تقول بالتوحيد والعدل ونفي التشبية، والشمعونية تشبّه، وتبالغ الجالوتية في التشبيه . وأما الفيومية فانها تنسب الى أبي سعيد الفيومي ، وهم يفسرون التوراة على الحروف المقطعة . والسامرية ينكرون كثيرا من شرائعهم ، ولا يقرون بنبوة من جاء بعد يوشع . والعكبرية ، أصحاب أبي موسى البغدادي العكبري واسماعيل العكبري ، يخالفون أشياء من السبت وتفسير التوراة .

والأصبهانية أصحاب أبي عيسى الأصبهاني ، وادعى النبوة ، وأنه عرج به الى السماء فمسح الرب على رأسه ، وأنه رأى محمدا

(١) قوله « فالعانانية .. الخ » ، لم يذكر في النشر المغاربة كما ذكرهم في اللف ، وليحرر .اهـ . مصححة

صلى * الله عليه وسلم فآمن به . ويزعم يهود أصبهان أنه الدجال ، وأنه يخرج من ناحيتهم .

والعراقية تخالف الخرسانية في أوقات أعيادهم ، ومدد أيامهم .

والشرشتانية ، أصحاب شرشتان ، زعم أنه ذهب من التوراة ثمانون سوقة (أي آية) وادعى أن للتوراة تأويلا باطنا مخالفا للظاهر .

وأما يهود فلسطين فزعموا أن العزير ابن الله تعالى ، وأنكر أكثر اليهود هذا القول .

والمالكية تزعم أن الله تعالى لا يحيي يوم القيامة من الموتى الا من احتج عليه بالرسل والكتب . ومالك هذا هو تلميذ عانان

والربانية تزعم أن الحائض اذا مست ثوبا بين ثياب وجب غسل جميعها .

والعراقية تعمل رؤوس الشهور بالأهلة ، وآخرون بالحساب يعملون . والله أعلم .

« فصل » : وهم يوجبون الايمان بالله وحده ، وبموسى عليه السلام وبالتوراة ، ولا بد لهم من درسها وتعلمها ، ويغتسلون ويتوضأون ، ولا يمسحون رؤوسهم في وضوئهم ، ويبدأون بالرجل اليسرى ، وفي شيء منه خلاف بينهم ، وعانان يرى أن الاستنجاء قبل الوضوء ، ويرى أشمعث أن الاستنجاء بعد الوضوء ، ولا يتوضأون بما تغير لونه أو طعمه أو ريحه ، ولا يجيزون الطهارة من غدير ما لم يكن عشرة أذرع في مثلها ، والنوم قاعدا لا ينقض الوضوء عندهم ما لم يضع جنبه الأرض ... الا العانانية فان مطلق النوم عندهم ينقض .

ومن أحدث في صلاته من قيء أو رعاف أو ريح ، انصرف وتوضأ ، وبنى على صلاته ، ولا تجوز صلاة الرجل في أقل من ثلاثة أثواب : قميص ، وسراويل ، وملاءة يتردى بها ، فان لم يجد الملاءة صلى جالسا ، فان لم يجد القميص والسراويل صلى بقلبه ، ولا تجوز صلاة المرأة في أقل من أربعة أثواب . وعليهم فريضة ثلاث صلوات في اليوم والليلة : عند الصبح ، وبعد الزوال الى غروب الشمس ، ووقت العتمة الى ثلث الليل ، ويسجدون في دبر كل صلاة سجدة طويلة ، وفي يوم السبت وأيام الأعياد يزيدون خمس صلوات على تلك الثلاث .

ولهم خمسة أعياد :

« عيد الفطير » : وهو الخامس عشر من نيسن ، يقيمون سبعة أيام لا يأكلون سوى الفطير ، وهي الأيام التي تخلصوا فيها من فرعون وأغرقه الله .

و « عيد الأسابيع » : بعد الفطير بسبعة أسابيع ، وهو اليوم الذي كلم الله تعالى فيه بني اسرائيل من طور سيناء .

و « عيد رأس الشهر » : وهو أول تشري ، وهو الذي فدى فيه اسحاق عليه السلام من الذبح ، ويسمونه عيد رأس هشايا ، أي رأس الشهر .

و « عيد صوماريا » : يعني الصوم العظيم .

و « عيد المظلة » : يستظلون سبعة أيام بقضبان الآس والخلاف .

(*) ص٤٧٨ جـ٢ ، ط.بولاق .

وبجب عليهم الحج فى كل سنة ثلاث مرات لما كان الهيكل عامرا ، ويوجبون صوم أربعة أيام : أولها سابع عشر تموز من الغروب الى الغروب — وعند العانانية هو اليوم الذى أخذ فيه بخت نصر البيت — والثانى عاشر آب ، والثالث عاشر كانون الأول ، والرابع ثالث عشر آذار .

ويتشددون فى أمر الحائض بحيث يعتزلونها وثيابها وأوانيها ، وما مسته من شىء فانه ينجس ويجب غسله ، فان مست لحم القربان أحرق بالنار ، ومن مسها أو شيئا من ثيابها وجب عليه الغسل ، وما عجنته أو خبزته أو طبخته أو غسلته فكله نجس حرام على الطاهرين حل للحيض ، ومن غسل ميتا نجس سبعة أيام لا يصلى فيها ، وهم يغسلون موتاهم ولا يصلون عليهم

ويوجبون اخراج العشر من جميع ما يملك ولا يجب حتى يبلغ وزنه أو عدده مائة ، ولا يخرج العشر الا مرة واحدة ، ثم لا يعاد اخراجه .

ولا يصح النكاح عندهم الا بولى وخطبة وثلاثة شهود ، ومهر مائتى درهم للبكر ومائة للثيب ، لا أقل من ذلك ويحضر عند عقد النكاح كأس خمر وباقة مرسين ، فيأخذ الامام الكأس ، ويبارك عليه ، ويخطب خطبة النكاح ، ثم يدفعه الى الختن ويقول قد تزوجت فلانة بهذه الفضة أو بهذا الذهب — وهو خاتم فى يده — وبهذا الكأس من الخمر وبمهر كذا ، ويشرب جرعة من الخمر ، ثم ينهضون الى المرأة ، ويأمرونها أن تأخذ الخاتم والمرسين والكأس من يد الختن ، فاذا أخذت وشربت جرعة ، وجب عقد النكاح . ويضمن أولياء المرأة البكارة ، فاذا زفت اليه ، وكل الولى من يقف بباب الخلوة — وقد فرشت ثياب بيض — حتى يشاهد الوكيل الدم ، فان لم توجد بكرا رجمت .

ولا يجوز عندهم نكاح الاماء حتى يعتقن ، ثم ينكحن ، والعبد يعتق بعد خدمه لسنين معلومة ، وهى ست سنين ، ومنهم من يجوز بيع صغار أولاده اذا احتاج . ولا يجوزون الطلاق الا بفاحشة أو سحر ، أو رجوع عن الدين ، وعلى من طلق خمسة وعشرون درهما للبكر ، نصف ذلك للثيب ، وينزل فى كتابها طلاقها بعد أن تقول الزوج : أنت طالق منى مائة مرة ومختلعة منى ، وفى سعة أن تتزوجى من شئت ، ولا يقع طلاق الحامل أبدا ، نعم الا أن يجوزوه ، ويراجع الرجل امرأته ما لم تتزوج ، فان تزوجت حرمت عليه الى الأبد .

والخيار بين المتبايعين ما لم ينقل المبيع الى البائع .

والحدود عندهم على خمسة أوجه : حرق ، ورجم ، وقتل ، وتعزير ، وتغريم . فالحرق على من زنى بأم امرأته أو ربيبته أو بامرأة أبيه * أو امرأة ابنه ، والقتل على من قتل ، والرجم على المحصن اذا زنى أو لاط ، وعلى المرأة اذا مكنت من نفسها بهيمة ، والتعزير على من قذف ، والتغريم على من سرق ،

(*) ص٤٧٩ ج٢ ، ط.بولاق .

ويرون أن البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر .

وعندهم أن من أتى بشىء من سبعة وثلاثين [1] عملا فى يوم السبت أو ليلته ، استحق القتل ، وهى : كرب الأرض ، وزرعها ، وحصاد الزرع ، وسياقة الماء الى الزرع ، وحلب اللبن ، وكسر الحطب واشعال النار ، وعجن العجين ، وخبزه ، وخياطة الثوب ، وغسله ، ونسج سلكين ، وكتابة حرفين أو نحوهما ، وأخذ الصيد ، وذبح الحيوان ، والخروج من القرية ، والانتقال من بيت الى آخر ، والبيع ، والشراء ، والدق ، والطحن ، والاحتطاب ، وقطع الخبز ، ودق اللحم ، واصلاح النعل اذا انقطعت ، وخلط علف الدابة ، ولا يجوز للكاتب أن يخرج يوم السبت من منزله ومعه قلمه ، ولا الخياط ومعه ابرته . وكل من عمل شيئا استحق به القتل ، فلم يسلم نفسه ، فهو ملعون .

ذكر قبط مصر ودياناتهم القديمة وكيف تنصروا ثم صاروا ذمة للمسلمين وما كان لهم فى ذلك من القصص والأنباء وذكر الخبر عن كنائسهم ودياراتهم وكيف كان ابتداؤها ومصير أمرها

اعلم أن جميع أهل الشرائع ، أتباع الأنبياء — عليهم السلام — من المسلمين واليهود والنصارى ، قد أجمعوا على أن نوحا عليه السلام هو الأب الثانى للبشر ، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ، ومنه ذرأ الله تعالى جميع أولاد آدم ، فليس أحد من بنى آدم الا وهو من أولاد نوح .

وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك ، فأنكروا الطوفان ، وزعم بعضهم أن الطوفان انما حدث فى اقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط ، وأن أولاد كيومرت — الذى هو عندهم الانسان الأول — كانوا بالبلاد الشرقية من بابل ، فلم يصل الطوفان اليهم ولا الى الهند والصين .

والحق ما عليه أهل الشرائع ، وأن نوحا عليه السلام ، لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة نزل بهم ، وهم ثمانون رجلا سوى أولاده — فماتوا بعد ذلك ولم يعقبوا ، وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة ، ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح : « وجعلنا ذريته هم الباقين » .

وكان من خبر ذلك أن أولاد نوح الثلاثة — وهم سام ، وحام ، ويافث — اقتسموا الأرض . فصار لبنى سام بن نوح أرض العراق وفارس الى الهند ، ثم الى حضرموت وعمان والبحرين وعالج ويبرين ووبار والدو والدهنا ، وجميع أرض اليمن وأرض الحجاز . وصار لبنى حام بن نوح جنوب الأرض مما يلى أرض مصر ، مغربا الى بلاد المغرب الأقصى . وصار لبنى يافث بن نوح بحر الخزر ، مشرقا الى الصين .

فكان من ذرية سام نواح : القضاعيون ، والفرس ، والسريانيون ، والعبرانيون ، والعرب المستعربة ، والنبط ، وعاد وثمود ،

[1] قوله « سبعة وثلاثين » هكذا فى النسخ ، ولعل صوابه « سبعة وعشرين » ، ليوافق التفصيل بعده ، تأمل ، اهـ. مصححه .

والآموراني‍ـون ، والعماليق ، وأمم الهنـد وأهل السند ، وعدة أمم قد بادت

وكانت ذرية حام بن نوح من أربعة أولاده الذين هم كوش ومصرايم وقفط وكنعان . فمن كوش الحبشـة والزنج ، ومن مصرايم قبط مصر والنوبة ، ومن قفط الأفارقة أهل أفريقية ومن جاورهم الى المغرب الأقصى ، ومن كنعان أمم كان بالشام جاورهم موسى بن عمران عليه السلام وقومه من بنى اسرائيل ، ومنهم أجناس عديدة من البربر درجوا

وكانت مساكن بنى حام من صيدا الى أرض مصر ، ثم الى آخر أفريقية نحو البحر المحيط ، وانتشروا فيما بين ذلك الى الجنوب ، وهم ثلاثون جنسا .

وكان من ذرية يافث بن نوح : الصقلب ، والفرنجة ، والغاليـ‍ـون من قبـائل الروم ، والغوط ، وأهل الصـين ، وقـوم عرفـوا بالمادنـين ، واليونانيون ، والروم الفريقيون ، وقبائل الأتراك ، ويأجوج ومأجوج ، وأهل قبـرس ورودس . وعدة بنى يافث خمسة عشر جنسا ، سكنوا القطر الشمالى الى البحر المحيط ، فضاقت بهم بلادهم ، ولم تسـعهم لكثرتهم فخرجوا منها ، وتغلبوا على كثير من بلاد بنى سام بن نوح .

وذكر الأستاذ ابراهيم بن وصـيف شـاه الكاتب : أن القبط تنسب الى قبطيـم بن مصرايم بن مصر بن حام بن نوح ، وأن قبطيم أول من عمل العجائب بمصر وأثار بها المعادن وشق الأنهار ، لما ولى أرض مصر بعد أبيه مصرايم ، وأنه لحق ببلبلة الألسن وخرج منها وهو يعرف اللغـة القبطيـة ، وأنه ملك مدة ثمانين سنة ومات ، فاغتم لموته بنوه وأهله ، ودفنوه فى الجانب الشرقى من النيل بسرب تحت الجبل الكبير ، فقام من بعده فى ملك مصر ابنه قفطيم بن قبطيم

وزعم بعض النسابة أن مصر بن حام بن نوح — ويقال له مصرايم ، ويقال بل مصريم ابن هرمس بن هردوس جد الاسكندر ، وقيل بل قفط بن حام بن نوح — نكح بخت بنت يتاويل بن ترسل بن يافث بن نوح . فولدت له بوقير وقـبط أبا قـبط مصر . قال ابن اسحاق . ومن هاهنا قالوا ان مصر بن حام ابن نوح ، وانمـا هـو مصر بن هرمس بن هردوس بن ميطـون بن رومى بن ليطى بن يونان ، وبه سميت مصر ، فهى مقدونيـة . وقيل * القبط من ولد قبط بن مصر بن قفط ابن حام بن نوح ، وبمصر هذا سميت مصر .

ذكر ديانة القبط قبل تنصرهم

اعلم أن قبط مصر كانوا فى غابر الدهـر أهل شرك بالله يعبدون الكواكب ، ويقربون لها قرابينهم ، ويقيمون على أسمائها التماثيل كما هى أفعال الصابئة .

وذكر ابن وصيف شاه ، أن عبادة الأصنام أول ما عرفت بمصر ، أيام قفطريم بن قبطيم ابن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح ، وذلك أن ابليس أثار الأصنام التى غرقها الطوفان ، وزين للقبط عبادتها ، وأن البودشير بن قبطيم أول من تكهن وعمل بالسحر ، وأن مناوش

(*) ص٤٨٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

ابن منقاوش أول من عبد البقر من أهـل مصر .

وذكر الموفق أحـمد بن أبى القاسـم بن خليفة — المعروف بابن أبى أصيبعة — أنه كان للقبط مذهب مشهور من مذاهب الصابئة ولهم هياكل على أسماء الكواكب يحج اليها الناس من أقطار الأرض ، وكانت الحـكماء والفلاسفة ممن سواهم تتهافت عليهم ، وتريد التقرب اليهم لما كان عندهم من علوم السحر والطلسمات والهندسـة والنجـوم والطب والحساب والكيمياء ، ولهم فى ذلك أخبـار كثيرة ، وكانت لهم لغة يختصون بها ، وكانت خطوطهم ثلاثة أصناف خط العامة ، وخط الخاصة — وهو خط الكهنـة المختصر — وخط الملوك .

وقال ابن وصيف شاه : كانت كهنة مصر أعظم الكهان قدرا ، وأجلها علما بالكهانة ، وكانت حكماء اليـونانيين تصـفهم بذلك ، وتشهد لهم به ، فيقولون : اختبرنا حكماء مصر بكذا وكذا ، وكانوا ينحون بكهانتهم نحو الكواكب ، ويزعمون أنها هى التى تفيض عليهم العلوم وتخبرهم بالغيوب ، وهى التى تعلمهم أسرار الطـوالع وصفـة الطلاسم ، وتدلهم على العلوم المكتومة والأسماء الجليلة المخزونة .

فعملوا الطلسمات المشهورة ، والنواميس الجليلة ، وولدوا الأشكال الناطقة ، وصوروا الصور المتحركة ، وبنوا العالى من البنيان ، وزبروا علومهم فى الحجـارة ، وعملوا من الطلسمات ما دفعوا به الأعداء عن بلادهم ، فحكمهم باهرة ، وعجائبهم ظاهرة .

وكانت أرض مصر خمسا وثمانين كورة : منها أسفل الأرض خمس وأربعون كورة ، ومنها بالصعيد أربعون كورة ، وكان فى كل كورة رئيس من الكهنة وهم السحرة ، وكان الذى يتعبد منهم للكواكب السبعة السيارة سبع سنين يسمونه باهر ، والذى يتعبد منهم لها تسعا وأربعين سنة — لكل كوكب سبع سنين — يسمونه قاطر ، وهذا يقوم له الملك اجلالا ، ويجلسه معه الى جانبه ، ولا يتصرف الا برأيه ، وتدخل الكهنة ومعهم أصحاب الصنائع فيقفون حذاء القاطر .

وكان كل كاهن منهم ينفرد بخدمة كوكب من الكواكب السبعة السيارة لا يتعداه الى سواه ، ويدعى بعبد ذلك الكوكب ، فيقال : عبد القمر ، عبد عطارد ، عبد الزهرة ، عبد الشمس ، عبد المريخ ، عبد المشترى ، عبـد زحل . فاذا وقفوا جميعا قال القاطر لأحدهم : أين صاحبك اليوم ؟ فيقول : فى برج كذا ، ودرجة كذا ، ودقيقة كذا . ثم يقـول للآخر كذلك ، فيجيبه ، حتى يأتى على جميعهم ، ويعرف أماكن الكواكب من فلك البروج .

ثم يقول للملك : ينبغى أن تعمل اليوم كذا ، أو تأكل كذا ، أو تجـامع فى وقت كذا ، أو تركب وقت كذا ، الى آخـر ما يحتاج اليه ، والكاتب قائم بين يديه يكتب ما يقول ، ثم يلتفت القاطر الى أهل الصناعات ويخرجهم الى دار الحكمة ، فيضعون أيديهم فى الأعمال التى يصلح عملها فى ذلك اليوم ، ثم يؤرخ ما جرى فى ذلك اليوم فى صحيفة ، وتخزن فى خزائن الملك .

وكان الملك اذا همه أمر ، جمع الكهان خارج مدينة منف — وقد اصطف الناس لهم بشارع المدينة — ثم يدخل الكهان ركبانا على قدر مراتبهم والطبل بين أيديهم ، وما منهم الا من أظهر أعجوبة قد عملها : فمنهم من يعلو وجهه نور كهيئة نور الشمس لايقدر أحد على النظر اليه ، ومنهم من على بدنه جواهر مختلفة الألوان قد نسجت على ثوب ، ومنهم من يتوشح بحيات عظيمة ، ومنهم من يعقد فوقه قبة من نور ، الى غير ذلك من بديع أعمالهم . ويصيرون كذلك الى حضرة الملك ، فيخبرهم بما نزل به ، فيجيلون رأيهم فيه حتى يتفقوا على ما يصرفونه به .

وهذا — أعزك الله — من خبرهم لما كان الملك فيهم . فلما استولت العماليق على ملك مصر ، وملكتها الفراعنة ، ثم تداولتها من بعدهم أجناس أخر ، تناقصت علوم القبط شيئا بعد شيء الى أن تنصروا ، فغادروا عوايد أهل الشرك ، واتبعوا ما أمروا به من دين النصرانية ، كما ستقف عليه تلو هذا ان شاء الله تعالى .

ذكر دخول قبط مصر فى دين النصرانية

اعلم أن النصارى ، أتباع عيسى نبى الله ابن مريم عليه السلام ، سموا نصارى لأنهم ينتسبون الى قرية الناصرة من * جبل الجليل — بالجيم — ويعرف هذا الجبل بجبل كنعان ، وهو الآن فى زمننا من جملة معاملة صفد .

(*) ص٤٨١ جـ٤ ، ط. بولاق .

والأصل فى تسميتهم نصارى أن عيسى بن مريم ، عليه السلام ، لما ولدته أمه مريم ابنة عمران ببيت لحم ، خارج مدينة بيت المقدس ، ثم سارت به الى أرض مصر وسكنتها زمانا ، ثم عادت به الى أرض بنى اسرائيل قومها ، نزلت قرية الناصرة . فنشأ عيسى بها ، وقيل له يسوع الناصرى .

فلما بعثه الله تعالى رسولا الى بنى اسرائيل ، وكان من شأنه ما ستراه الى أن رفعه الله اليه ، تفرق الحواريون — وهم الذين آمنوا به — فى أقطار الأرض يدعون الناس الى دينه ، فنسبوا الى ما نسب اليه نبيهم عيسى بن مريم ، وقيل لهم الناصرية ، ثم تلاعب العرب بهذه الكلمة وقالوا : نصارى .

قال ابن سيده : ونصرى وناصرة ونصورية قرية بالشام ، والنصارى منسوبون اليها . هذا قول أهل اللغة ، وهو ضعيف الا أن نادر النسب يسيغه .

وأما سيبويه فقال : أما النصارى فذهب الخليل الى أنه جمع نصرى ونصران ، كما قالوا ندمان وندامى ، ولكنهم حذفوا احدى الياءين كما حذفوا من أثفية ، وأبدلوا مكانها ألفا . قال : وأما الذى نوجهه نحن عليه فانه جاء على نصران ، لأنه قد تكلم به ، فكأنك جمعت وقلت نصارى كما قلت ندامى ، فهذا أقيس ، والأول مذهب ، وانما كان أقيس لأنا لم نسمعهم قالوا نصرى .

والتنصر الدخول فى دين النصرانية ، ونصره جعله كذلك ، والأنصر الأقلف ، وهو

من ذلك لأن النصارى قلف . وفى شرح الانجيل أن معنى قرية ناصرة الجديدة ، والنصرانية التجدد ، والنصرانى المجدد . وقيل نسبوا الى نصران ، وهو من أبنية المبالغة ، ومعناه أن هذا الدين فى غير عصابة صاحبه ، فهو دين من ينصره من أتباعه .

واذا تقرر هذا ، فاعلم أن المسيح — روح الله وكلمته ألقاها الى مريم — هو « عيسى » . وأصل اسمه بالعبرانية ، التى هى لغة أمه وآبائها ، انما هو « ياشوع » ، وسمته النصارى « يسوع » ، وسماه الله تعالى — وهو أصدق القائلين — «عيسى» ، ومعنى يسوع فى اللغة السريانية المخلص ، قاله فى شرح الانجيل .

ونعته بالمسيح ، وهو الصديق ، وقيل لأنه كان لا يمسح بيده صاحب عاهة الا برأ ، وقيل لأنه كان يمسح رؤوس اليتامى ، وقيل لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن ، وقيل لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه عند ولادته صونا له من مس الشيطان .

وقيل المسيح اسم مشتق من المسح ، أى الدهن ، لأن روح القدس قام بجسد عيسى مقام الدهن الذى كان عند بنى اسرائيل يمسح به الملك ويمسح به الكهنوت ، وقيل لأنه مسح بالبركة ، وقيل لأنه أمسح الرجلين ليس لرجليه أخمص ، وقيل لأنه يمسح الأرض بسياحته لا يستوطن مكانا ، وقيل هى كلمة عبرانية أصلها « ماسيح » ، فتلاعبت بها العرب وقالت : مسيح .

وكان من خبره ، عليه السلام ، أن مريم ابنة عمران ، بينا هى فى محرابها ، اذ بشرها الله تعالى بعيسى ، فخرجت من بيت المقدس وقد اغتسلت من المحيض ، فتمثل لها الملك بشرا فى صورة يوسف بن يعقوب النجار — أحد خدام القدس — فنفخ فى جيبها ، فسرت النفخة الى جوفها ، فحملت بعيسى كما تحمل النساء بغير ذكر ، بل حلت نفخة الملك منها محل اللقاح ، ثم وضعت بعد تسعة أشهر — وقيل بل وضعت فى يوم حملها — بقرية بيت لحم ، من عمل مدينة القدس ، فى يوم الأربعاء خامس عشرى كانون الأول ، وتاسع عشرى كيهك ، سنة تسع عشرة وثلثمائة للاسكندر .

فقدمت رسل ملك فارس فى طلبه ، ومعهم هدية لها فيها ذهب ومر ولبان ، فطلبه هيرودس — ملك اليهود بالقدس — ليقتله وقد أنذر به . فسارت أمه مريم به ، وعمره سنتان ، على حمار ومعها يوسف النجار ، حتى قدموا الى أرض مصر ، فسكنوها مدة أربع سنين ، ثم عادوا وعمر عيسى ست سنين ، فنزلت به مريم قرية الناصرة من جبل الجليل فاستوطنتها .

فنشأ بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة ، فسار هو وابن خالته يحيى بن زكريا عليهما السلام الى نهر الأردن ، فاغتسل عيسى فيه ، فحلت عليه النبوة ، فمضى الى البرية ، وأقام بها أربعين يوما لا يتناول طعاما ولا شرابا ، فأوحى الله اليه بأن يدعو بنى اسرائيل الى عبادة الله تعالى ، فطاف القرى ، ودعا الناس الى الله تعالى ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وأحيا

الموتى بإذن الله ، وبكّت اليهود ، وأمرهم بالزهد فى الدنيا والتوبة من المعاصى .

فآمن به الحواريون — وكانوا قوما صيادين — وقيل قصارين ، وقيل ملاحين — وعددهم اثنا عشر رجلا ، وصدقوا بالانجيل الذى أنزله الله تعالى عليه ، وكذبه عامة اليهود وضللوه ، واتهموه بما هو برىء منه . فكانت له ولهم عدة مناظرات آلت بهم الى أن اتفق أحبارهم على قتله ، وطرقوه ليلة الجمعة ، فقيل انه رفع عند ذلك ، وقيل بل أخذوه وأتوا به الى بلاطس النبطى — شحنة القدس من قبل الملك طيباريوس قيصر — وراودوه على قتله وهو يدفعهم عنه ، حتى غلبوه على رأيه بأن دينهم اقتضى قتله ، فأمكنهم منه .

وعندما أدنوه من الخشبة ليصلبوه ، رفعه الله اليه — وذلك فى الساعة السادسة من يوم الجمعة خامس عشر شهر نيسن ، وتاسع عشرى شهر برمهات ، وخامس عشر شهر آذار ، وسابع عشر * شهر ذى القعدة — وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وثلاثة أشهر . فصلبوا الذى شبه لهم ، وصلبوا معه لصين ، وسمروهم بمسامير الحديد ، واقتسم الجند ثياب المصلوب . فغشيت الأرض ظلمة دامت ثلاث ساعات حتى صار النهار شبه الليل ، ورؤيت النجوم ، وكان مع ذلك هزة وزلزلة .

ثم أنزل المصلوب عن الخشبة بكرة يوم السبت ، ودفن تحت صخرة فى قبر جديد ، ووكل بالقبر من يحرسه لئلا يأخذ المقبور أصحابه . فزعم النصارى أن المقبور قام من قبره ليلة الأحد سحرا ، ودخل عشية ذلك اليوم على الحواريين وحادثهم ووصاهم ، ثم بعد الأربعين يوما من قيامه صعد الى السماء والحواريون يشاهدونه ، فاجتمعوا بعد رفعه بعشرة أيام فى علية صيون — التى يقال لها اليوم صهيون — خارج القدس ، وظهرت لهم خوارق ، فتكلموا بجميع الألسن ، فآمن بهم فيما يذكر زيادة على ثلاثة آلاف انسان ، فأخذهم اليهود وحبسوهم ، فظهرت كرامتهم ، وفتح الله لهم باب السجن ليلا ، فخرجوا الى الهيكل ، وطفقوا يدعون الناس ، فهمّ اليهود بقتلهم وقد آمن بهم نحو الخمسة آلاف انسان ، فلم يتمكنوا من قتلهم

فتفرق الحواريون فى أقطار الأرض يدعون الى دين المسيح

فسار بطرس رأس الحواريين ومعه شمعون الصفا الى أنطاكية وروميه ، فاستجاب لهم بشر كثير ، وقتل فى خامس أبيب وهو عيد القصرية .

وسار أندراوس أخوه الى نيقية وما حولها ، فآمن به كثير ، ومات فى برنطية فى رابع كيهك .

وسار يعقوب بن زبدى ، أخو يوحنا الانجيلى ، الى بلد أبدينية ، فتبعه جماعة ، وقتل فى سابع عشر برمودة .

وسار يوحنا الانجيلى الى آسيا وأفسس ، وكتب انجيله باليونانى ، بعدما كتب متى ومرقص ولوقا أناجيلهم ، فوجدهم قد قصروا فى أمور فتكلم عليها — وكان ذلك بعد رفع

(*) ص٨٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

المسيح بثلاثين سنة — وكتب ثلاث رسائل ، ومات وقد أناف على مائة سنة .

وسار فيلبس الى قيسارية وما حولها ، وقتل بها فى ثامن هاتور ، وقد اتبعه جماعات من الناس .

وسار برتولوماوس الى أرمينية وبلاد البربر وواحات مصر ، فآمن به كثير ، وقتل .

وسار توما الى الهند ، فقتل هناك .

وسار متى العشار الى فلسطين وصور وصيدا ومدينة بصرى ، وكتب انجيله بالعبرانى بعد رفع المسيح بتسع سنين ، ونقله يوحنا الى اللغة الرومية ، وقتل متى بقرطاجنة فى ثامن عشر بابه بعدما استجاب له بشر كثير .

وسار يعقوب بن حلفا الى بلاد الهند ، ورجع الى القدس ، وقتل فى عاشر أمشير .

وسار يهوذا بن يعقوب من أنطاكية الى الجزيرة ، فآمن به كثير من الناس ، ومات فى ثانى أبيب .

وسار شمعون الى سميساط وحلب ومنبج وبزنطية ، وقتل فى سابع أبيب .

وسار ميتاس الى بلاد الشرق ، وقتل فى ثامن عشر برمهات .

وسار بولص الطرسوسى الى دمشق وبلاد الروم وروميه ، فقتل فى خامس أبيب .

وتفرق أيضا سبعون رسولا أخر فى البلاد ، فآمن بهم الخلائق .

ومن هؤلاء السبعين مرقص الانجيلى ، وكان اسمه أولا يوحنا ، فعرف ثلاثة ألسن : الفرنجى ، والعبرانى ، واليونانى . ومضى الى بطرس بروميه وصحبه ، وكتب الانجيل عنده بالفرنجية بعد رفع المسيح باثنتى عشرة سنة ، ودعا الناس بروميه ومصر والحبشة والنوبة ، وأقام حنانيا أسقفا على الاسكندرية ، وخرج الى برقة ، فكثرت النصارى فى أيامه ، وقتل فى ثانى عيد الفصح بالاسكندرية .

ومن السبعين أيضا : لوقا الانجيلى الطبيب تلميذ بولص . كتب الانجيل باليونانية ، عن بولص بالاسكندرية ، بعد رفع المسيح بعشرين سنة ، وقيل باثنتين وعشرين سنة .

ولما فر بطرس رأس الحواريين من حبس روميه ، ونزل بأنطاكية ، أقام بها داريوس بطركا — وأنطاكية أحد الكراسى الأربعة التى للنصارى ، وهى : روميه ، والاسكندرية ، والقدس ، وأنطاكية — فأقام داريوس بطرك أنطاكية سبعا وعشرين سنة ، وهو أول بطاركتها ، وتوارث من بعده البطاركة بها البطركية واحدا بعد واحد .

ودعا شمعون الصفا بروميه خمسا وعشرين سنة ، فآمنت به بطركية وسارت الى القدس ، وكشفت عن خشبات الصليب ، وسلمتها الى يعقوب بن يوسف الأسقف ، وبنت هناك كنيسة ، وعادت الى روميه — وقد اشتدت على دين النصرانية — فآمن معها عدة من أهلها .

واجتمع الرسل بمدينة روميه ، ووضعوا القوانين ، وأرسلوها على يد قليموس ، تلميذ

بطرس ، فكتبوا فيها عدد الكتب التى يجب قبولها من العتيقة والجديدة .

فأما العتيقة : فالتوراة ، وكتاب يوشع بن نون ، وكتاب القضاة ، وكتاب راعوث ، وكتاب يهوديت ، وسفر الملوك ، وسفر بنيامين ، وكتب المقابين ، وكتاب عزرة ، وكتاب استير ، وقصة هامان ، وكتاب أيوب ، وكتاب مزامير داود ، وكتب سليمان بن داود ، وكتب الأنبياء — وهى ستة عشر كتابا — وكتاب يوشع بن شيراخ .

وأما الكتب الحديثة : فالأناجيل الأربعة ، وكتاب القتاليقون ، وكتاب بولس ، وكتاب الابركسيس — وهو قصص الحواريين — وكتاب قليمنوس ، وفيه ما أمر به الحواريون وما نهوا عنه .

ولما قتل الملك نيرون قيصر ، بطرس رأس الحواريين برومية ، أقيم من بعده أريوس بطرك رومية — وهو أول بطرك صار على رومية — فأقام فى البطركية اثنتى عشرة سنة ، وقام من بعده البطاركة بها واحدا بعد واحد الى يومنا هذا الذى نحن فيه .

ولما قتل يعقوب ، أسقف القدس ، على يد اليهود ، هدموا بعده البيعة ، وأخذوا خشبة الصليب والخشبتين معها ودفنوها ، وألقوا على موضعها ترابا كثيرا ، فصار كوما عظيما ، حتى أخرجتها هيلانة أم قسطنطين ، كما ستراه قريبا ان شاء الله تعالى .

وأقيم بعد قتل يعقوب سمعان ابن عمه ، أسقف القدس ، فمكث اثنتين وأربعين سنة أسقفا ومات ، فتداول الأساقفة بعده الأسقفية بالقدس واحدا بعد آخر .

ولما أقام مرقص حنانيا — ويقال أنانيو — بطرك الاسكندرية ، جعل معه اثنى عشر قسا ، وأمرهم اذا مات البطرك أن يجعلوا عوضه واحدا منهم ، ويقيموا بدل ذلك القس واحدا من النصارى حتى لا يزالوا أبدا اثنى عشر قسا ، فلم تزل البطاركة تعمل من القسوس ... الى أن اجتمع ثلثمائة وثمانية عشر ، كما ستراه ان شاء الله تعالى .

وكان بطرك الاسكندرية يقال له البابا من عهد حنانيا هذا ، أول بطاركة الاسكندرية ، الى أن أقيم ديمتريوس ، وهو الحادى عشر من بطاركة الاسكندرية ، ولم يكن بأرض مصر أساقفة ، فنصب الأساقفة بها ، وكثروا . فعزاها فى بطركيته هرقل ، وصار الأساقفة يسمون البطرك الأب ، والقسوس وسائر النصارى يسمون الأسقف الأب ، ويجعلون لفظة البابا تختص ببطرك الاسكندرية ، ومعناها أبو الآباء .

ثم انتقل هذا الاسم عن كرسى الاسكندرية الى كرسى رومية ، من أجل أنه كرسى بطرس رأس الحواريين ، فصار بطرك رومية يقال له البابا ، واستمر على ذلك الى زمننا الذى نحن فيه . وأقام أنانيو ، وهو حنانيا ، فى بطركية الاسكندرية اثنتين وعشرين سنة ، ومات فى عشرى هاتور سنة سبع وثمانين لظهور المسيح . فأقيم بعده مينيو ، فأقام ثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر ، ومات .

[illegible]

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

سناء
سناء عبد الله

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليميها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزي رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

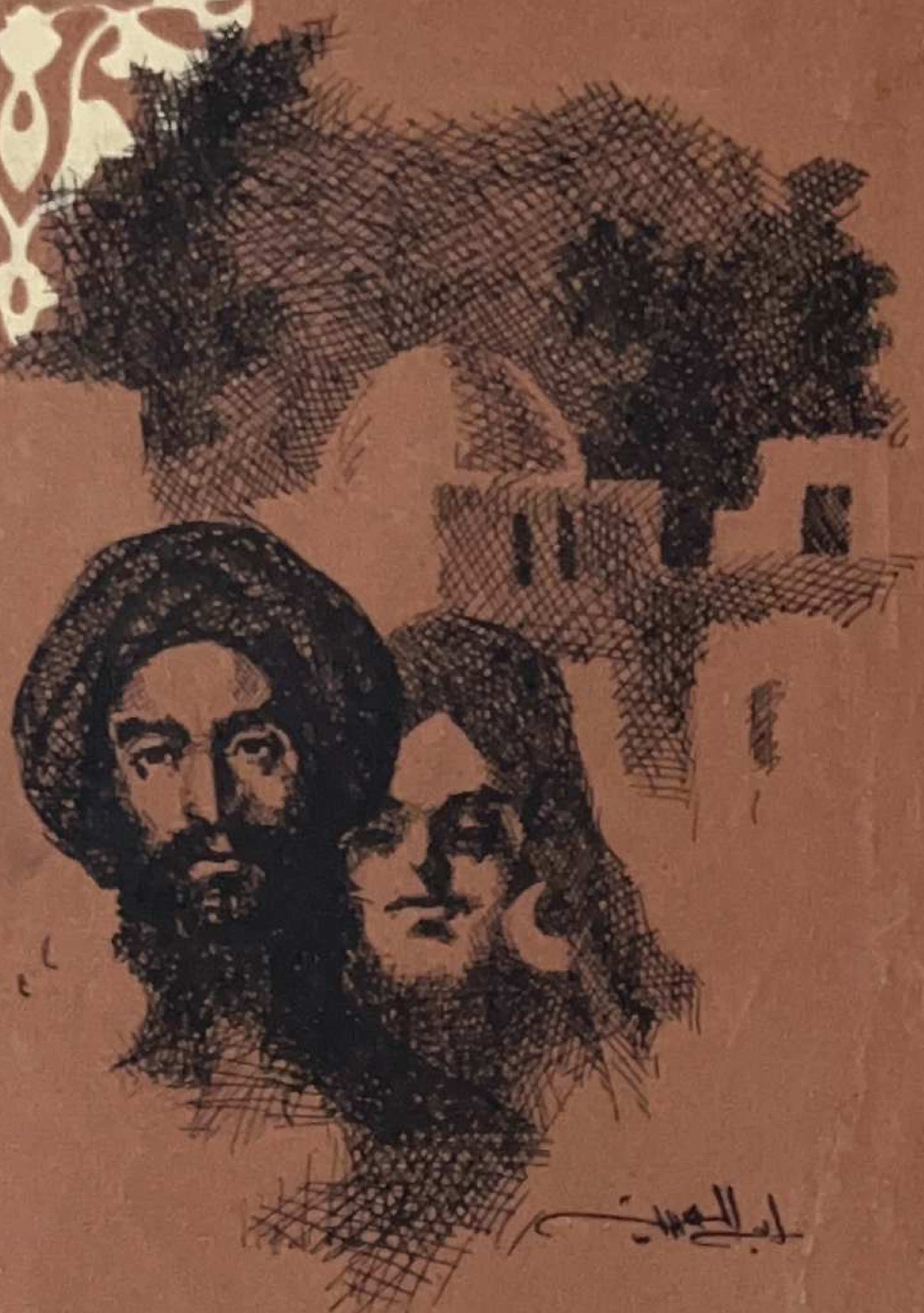
عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء
٤٦

كتاب
التحرير



«وكانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت مذ شدوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها»

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وفى أثناء ذلك ثار اليهود على النصارى ، وأخرجوهم من القدس ، فعبروا الأردن ، وسكنوا تلك الأماكن . فكان بعد هذا بقليل خراب القدس ، وجلاية اليهود ، وقتلهم على يد طيطش — ويقال طيطوس — بعد رفع المسيح بنحو أربع وأربعين سنة . فكثرت النصارى فى أيام بطركية مينيو ، وعاد كثير منهم الى مدينة القدس بعد تخريب طيطش لها ، وبنوا بها كنيسة وأقاموا عليها سمعان أسقفا ، ثم أقيم بعد ميو فى الاسكندرية فى البطركية كرنيانو

وفى أيام الملك اندبانوس قيصر ، أصاب النصارى منه بلاء كثير ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، واستعبد باقيهم . فنزل بهم بلاء لا يوصف فى العبوديه ، حتى رحمهم الوزراء وأكابر الروم ، وشفعوا فيهم ، فمن علم قيصر وأعتقهم . ومات كرنيانو بطرك الاسكندرية ، فى حادى عشر برمودة ، بعدما دبر الكرسى احدى عشرة سنة ، وكان حميد السيرة . فقدم بعده أبرسو ، فأقام اثنتى عشرة سنة ، ومات فى ثالث مسرى

واشتد الأمر على النصارى فى أيام الملك أريدويانوس ، وقتل منهم خلائق لا يحصى عددهم ، وقدم مصر ، فأفنى من بها من النصارى ، وخرب ما بقى فى مدينة القدس من كنيسة النصارى ، ومنعهم من التردد اليها ، وأنزل عوضهم بالقدس اليونانيين ، وسمى القدس ايليا ، فلم يتجاسر نصرانى أن يدنو من القدس .

وأقيم بعد موت أبريمو بطرك الاسكندرية يسطس ، فأقام احدى عشرة سنة ، ومات فى ثانى عشر بؤونة . فخلف بعده أرمايون ، فأقام عشر سنين وأربعة أشهر ، ومات فى عاشر بابة . فأقيم بعده موقيانو ، بطرك الاسكندرية ، تسع سنين وستة أشهر ، ومات فى سادس طوبة . فقدم بعده على الاسكندرية كلوتيانو ، فأقام أربع عشرة سنة ، ومات فى تاسع أبيب وفى أيامه اشتد الملك أوليانوس قيصر على النصارى ، وقتل منهم خلقا كثيرا .

وقدم على كرسى الاسكندرية بعد كلوتيانو غرنبو بطركا ، فأقام اثنتى عشرة سنة ، ومات فى خامس أمشير . وفى أيام بطركيته اتفق رأى البطاركة ، بجميع الأمصار ، على حساب فصح النصارى وصومهم ، ورتبوا كيف يستخرج ، ووضعوا حساب الأبقطى ، وبه يستخرجون معرفة وقت صومهم وفصحهم ، واستمر الأمر على ما رتبوه فيما بعد .

وكانوا قبل ذلك يصومون بعد الغطاس أربعين يوما — كما صام المسيح عليه السلام — ويفطرون ، وفى عيد الفسح يعملون الفسح مع اليهود . فنقل هؤلاء البطاركة الصوم ، أوصلوه بعيد الفسح ، لأن عيد الفسح كانت فيه قيامة المسيح من الأموات بزعمهم وكان الحواريون قد أمروا ألا يغير عن وقته ، أن يعملوه كل سنة فى ذلك الوقت

ثم أقيم بكرسى الاسكندرية بعد غرنبو فى البطركية بوليانوس ، فأقام عشر سنين ، ومات فى ثامن برمهات . فاستخلف بعده ديمتريوس فأقام بعده فى البطركية ثلاثا وثلاثين سنة ، ومات ، وكان فلاحا أميا ، وله زوجة ذكر عنه أنه لم يجامعها قط . وفى أيامه أثار الملك

سوريانوس قيصر على النصارى بلاء كبيرا في جميع مملكته * ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، وقدم مصر وقتل جميع من فيها من النصارى ، وهدم كنائسهم ، وبنى بالاسكندرية هيكلا لأصنامه .

ثم أقيم بعده في بطركية الاسكندرية باركلا ، فأقام ست عشرة سنة ، ومات في ثامن كيهك . فلقى النصارى من الملك مكسيموس قيصر شدة عظيمة ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، فلما ملك فيلبش قيصر أكرم النصارى .

وقدم على بطركية الاسكندرية ديوسيوس ، فأقام تسع عشرة سنة ، ومات في ثالث توت ، وفي أيامه كان الراهب أنطونيوس المصرى ، وهو أول من ابتدأ بلبس الصوف ، وابتدأ بعمارة الديارات في البرارى ، وأنزل بها الرهبان .

ولقى النصارى من الملك داقيوس قيصر شدة . فانه أمرهم أن يسجدوا لأصنامه ، فأبوا من السجود لها ، فقتلهم أبرح قتلة ، وفر منه الفتية أصحاب الكهف من مدينة أفس ، واختفوا في مغارة في جبل شرقى المدينة وناموا ، فضرب الله على آذانهم ، فلم يزالوا نائمين ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا . فقام من بعده بالاسكندرية مكسيموس ، وأقام بطركا اثنتى عشرة سنة ، ومات في رابع عشر برمودة .

فأقيم بعده تؤوبا بطركا مدة سبع سنين وتسعة أشهر ، ومات . وكانت النصارى قبله تصلى بالاسكندرية خفية من الروم خوفا من القتل ، فلاطف تؤوبا الروم ، وأهدى اليهم تحفا جليلة حتى بنى كنيسة مريم بالاسكندرية فصلى بها النصارى جهرا . واشتد الأمر على النصارى في أيام الملك طيباريوس قيصر ، وقتل منهم خلقا كثيرا

فلما كانت أيام دقلطيانوس قيصر ، خالف عليه أهل مصر والاسكندرية ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، وكتب بغلق كنائس النصارى ، وأمر بعبادة الأصنام ، وقتل من امتنع منها ، فارتد خلائق كثيرة جدا . وأقام في البطركية بعد تؤوبا بطرس ، فأقام احدى عشرة سنة ، وقتل في الاسكندرية بالسيف ، وقتل معه امرأته وابنتاه لامتناعهم من السجود للأصنام . فقام بعده تلميذه أرشلاوش ، فأقام ستة أشهر ومات .

وبدقلطيانوس هذا ، وقتله لنصارى مصر ، يؤرخ قبط مصر الى يومنا هذا — كما قد ذكرناه في تاريخ القبط عند ذكر التواريخ من هذا الكتاب — فراجعه ثم قام من بعده مكسيمانوس قيصر ، فاشتد على النصارى ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، حتى كانت القتلى منهم تحمل على العجل ، وترمى في البحر

ثم قام بعد أرشلاوش في بطركية الاسكندرية اسكندروس ، تلميذ بطرس الشهيد ، فأقام ثلاثا وعشرين سنة ، ومات في ثاني عشرى برمودة . وفي بطركيته كان مجمع النصارى بمدينة نيقية ، وفي أيامه كتب النصارى وغيرهم من أهل رومية الى قسطنطين — وكان على مدينة بزنطية — يحثونه على أن ينقذهم من جور مكسيمانوس ، وشكوا اليه عتوه ، فأجمع على المسير لذلك .

(*) ص٤٨١ جـ٢ ، ط. بولاق *

وكانت أمه هيلانى ، من أهل قرى مدينة الرها ، قد تنصرت على يد أسقف الرها ، وتعلمت الكتب . فلما مر بقريتها قسطس — صاحب شرطة دقلطيانوس — رآها فأعجبته ، فتزوجها ، وحملها الى بزنطية مدينته ، فولدت له قسطنطين ، وكان جميلا ، فانذر دقلطيانوس منجموه بأن هذا الغلام قسطنطين سيملك الروم ، ويبدل دينهم ، فأراد قتله ، ففر منه الى الرها ، وتعلم بها الحكمة اليونانية حتى مات دقلطيانوس ، فعاد الى بزنطية ، فسلمها له أبوه قسطس ومات .

فقام بأمرها ، بعد أبيه ، الى أن استدعاه أهل رومية ، فأخذ يدبر في مسيره ، فرأى في منامه كواكب في السماء على هيئة الصليب ، وصوت من السماء يقول له : احمل هذه العلامة تنتصر على عدوك . فقص رؤياه على أعوانه ، وعمل شكل الصلب على أعلامه وبنوده ، وسار لحرب مكسيمانوس برومية ، فبرز اليه وحاربه ، فانتصر قسطنطين عليه ، وملك رومية ، وتحول منها فجعل دار ملكه قسطنطينية . فكان هذا ابتداء رفع الصليب وظهوره في الناس ، فاتخذه النصارى من حينئذ وعظموه حتى عبدوه .

وأكرم قسطنطين النصارى ، ودخل في دينهم بمدينة نيقومديا في السنة الثانية عشرة من ملكه على الروم ، وأمر ببناء الكنائس في جميع ممالكه ، وكسر الأصنام ، وهدم بيوتها ، وعمل المجمع بمدينة نيقية .

وسببه : أن الاسكندروس ، بطرك الاسكندرية ، منع أريوس من دخول الكنيسة وحرمه لمقالته ، ونقل عن بطرس الشهيد بطرك اسكندرية انه قال عن أريوس : ان ايمانه فاسد ، وكتب بذلك الى جميع البطاركة .

فمضى أريوس الى الملك قسطنطين ومعه أسقفان فاستغاثوا به وشكوا الاسكندروس ، فأمر باحضاره من الاسكندرية ، فحضر هو وأريوس ، وجمع له الأعيان من النصارى ليناظروه .

فقال أريوس كان الأب اذ لم يكن الابن ، ثم أحدث الابن فصار كلمة له ، فهو محدث مخلوق فوض اليه الأب كل شىء ، فخلق الابن — المسمى بالكلمة — كل شىء من السموات والأرض وما فيهما ، فكان هو الخالق بما أعطاه الأب ثم ان تلك الكلمة تجسدت من مريم وروح القدس ، فصار ذلك مسيحا ، فاذا المسيح معنيان : كلمة ، وجسد ، وهما جميعا مخلوقان .

فقال الاسكندروس أيما أوجب عبادة من خلقنا ، أو عبادة من لم يخلقنا ؟

فقال أريوس . بل عبادة * من خلقنا أوجب .

فقال الاسكندروس : فان كان الابن خلقنا كما وصفت ، وهو مخلوق ، فعبادته أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق ، بل تكون عبادة الخالق كفرا ، وعبادة المخلوق ايمانا ، وهذا أقبح القبيح .

فاستحسن الملك قسطنطين كلام اسكندروس ، وأمره أن يحرم أريوس فحرمه ، وسأل اسكندروس الملك أن يحضر

(*) ص٤٨٥ جـ٢ ، ط. بولاق *

الأساقفة ، فأمر بهم ، فأتوه من جميع ممالكه ، واجتمعوا بعد ستة أشهر بمدينة نيقية ، وعدتهم ألفان وثلثمائة وأربعون أسقفا ، مختلفون في المسيح .

فمنهم من يقول : الابن من الأب بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة أخرى ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها . وهذه مقالة سبليوس الصعيدي ومن تبعه .

ومنهم من قال : ان مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر ، بل مر باحشائها كمرور الماء بالميزاب . وهذا قول اليان ومن تبعه .

ومنهم من قال : المسيح بشر مخلوق ، وان ابتداء الابن من مريم ، ثم انه اصطفى فصحبه النعمة الالهية بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى ابن الله تعالى عن ذلك ، ومع ذلك فالله واحد قيوم ، وأنكر هؤلاء الكلمة والروح فلم يؤمنوا بهما . وهذا قول بولس السيساطي بطرك أنطاكية وأصحابه .

ومنهم من قال : الآلهة ثلاثة : صالح ، وطالح ، وعدل بينهما . وهذا قول مرقيون وأتباعه .

ومنهم من قال : المسيح وأمه الهان من دون الله . وهذا قول المرايمة من فرق النصارى .

ومنهم من قال : بل الله خلق الابن — وهو الكلمة في الأزل — كما خلق الملائكة روحا طاهرة مقدسة بسيطة مجردة عن المادة ، ثم خلق المسيح في آخر الزمان من أحشاء مريم البتول الطاهرة ، فاتحد الابن المخلوق في الأزل بانسان المسيح ، فصارا واحدا .

ومنهم من قال : الابن مولود من الأب قبل كل الدهور ، غير مخلوق ، وهو جوهر من جوهره ونور من نوره ، وان الابن اتحد بالانسان المأخوذ من مريم ، فصارا واحدا وهو المسيح . وهذا قول الثلثمائة وثمانية عشر .

فتحير قسطنطين في اختلافهم ، وكثر تعجبه من ذلك ، وأمر بهم فأنزلوا في أماكن ، وأجرى لهم الأرزاق ، وأمرهم أن يتناظروا حتى يتبين له صوابهم من خطئهم . فثبت الثلثمائة وثمانية عشر على قولهم المذكور ، واختلف باقيهم .

فمال قسطنطين الى قول الأكثر ، وأعرض عما سواه ، وأقبل على الثلثمائة وثمانية عشر ، وأمر لهم بكراسى ، وأجلسهم عليها ، ودفع اليهم سيفه وخاتمه ، وبسط أيديهم في جميع مملكته . فباركوا عليه ، ووضعوا له كتاب « قوانين الملوك وقوانين الكنيسة » ، وفيه ما يتعلق بالمحاكمات والمعاملات والمناكحات ، وكتبوا بذلك الى سائر الممالك .

وكان رئيس هذا المجمع الاسكندروس بطرك الاسكندرية ، واسطارس بطرك انطاكية ، ومقاريوس أسقف القدس ، ووجه سلطوس بطرك رومية بقسيسين اتفقا معهم على حرمان أريوس ، فحرموه ونفوه .

ووضع الثلثمائة وثمانية عشر الأمانة المشهورة عندهم ، وأوجبوا أن يكون الصوم متصلا بعيد الفصح على ما رتبه البطاركة في أيام الملك أوراليانوس قيصر ، كما تقدم ، ومنعوا أن يكون للأسقف زوجة — وكان الأساقفة قبل ذلك اذا كان مع أحدهم زوجة لا يمنع منها اذا عمل أسقفا ، بخلاف البطرك فانه لا يكون له امرأة ألبتة — وانصرفوا من مجلس قسطنطين بكرامة جليلة .

والاسكندروس هذا هو الذى كسر الصنم النحاس الذى كان في هيكل زحل بالاسكندرية ، وكانوا يعبدونه ، ويجعلون له عيدا في ثاني عشر هتور ، ويذبحون له الذبائح الكثيرة فأراد الاسكندروس كسر هذ الصنم ، فمنعه أهل الاسكندرية ، فاحتال عليهم ، وتلطف في حيلته الى أن قرب العيد ، فجمع الناس ، ووعظهم ، وقبح عندهم عبادة الصنم ، وحثهم على تركه ، وأن يعمل هذا العيد الميكائيل ، رئيس الملائكة الذى شفع فيهم عند الاله ، فان ذلك خير من عمل العيد للصنم ، فلا يتغير عمل العيد الذى جرت عادة أهل البلد بعمله ، ولا تبطل ذبائحهم فيه .

فرضى الناس بهذا ، ووافقوه على كسر الصنم ، فكسره وأحرقه ، وعمل بيته كنيسة على اسم ميكائيل . فلم تزل هذه الكنيسة بالاسكندرية الى أن حرقها جيوش الامام المعز لدين الله أبى تميم معد ، لما قدموا في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، واستمر عيد ميكائيل عند النصارى بديار مصر باقيا يعمل في كل سنة .

وفي السنة الثانية والعشرين من ملك قسطنطين ، سارت أمه هيلانى الى القدس ، وبنت به كنائس للنصارى ، فدلها مقاريوس الأسقف على الصليب ، وعرفها ما عملته اليهود ، فعاقبت كهنة اليهود حتى دلوها على الموضع ، فحفرته فاذا قبر وثلاث خشبات ، زعموا أنهم لم يعرفوا الصليب المطلوب من الثلاث خشبات ، الا بأن وضعت كل واحدة منها على ميت قد بلى فقام حيا عندما وضعت عليه خشبة منها . فعملوا لذلك عيدا ، مدة ثلاثة أيام ، عرف عندهم بعيد الصليب .

ومن حينئذ عبد النصارى الصليب ، وعملت له هيلانى غلافا من ذهب ، وبنت كنيسة القيامة — التى تعرف بكنيسة قمامة — وأقامت مقاريوس الأسقف على بناء بقية الكنائس ، وعادت الى بلادها . فكانت مدة ما بين ولادة المسيح وظهور الصليب (*) ثلثمائة وثمان وعشرين سنة .

ثم قام في بطركية الاسكندرية ، بعد اسكندروس ، تلميذه اثناسيوس الرسولى ، فأقام ستا وأربعين سنة ، ومات بعد ما ابتلى بشدائد ، وغاب عن كرسيه ثلاث مرات .

وفي أيامه جرت مناظرات طويلة مع أوسانيوس للأسقف آلت الى ضربه وفراره . فانه تعصب لأريوس ، وقال : انه لم يقل ان المسيح خلق الأشياء ، وانما قال به خلق كل شيء ، لأنه كلمة الله التى بها خلق السموات والأرض ، وانما خلق الله تعالى جميع الأشياء بكلمته ، فالأشياء به كونت لا أنه كونها ، وانما الثلثمائة وثمانية عشر تعدوا عليه .

وفي أيامه تنصر جماعة من اليهود ، وطعن بعضهم في التوراة التى بأيدى اليهود ، وأنهم نقصوا منها ، وأن الصحيحة هى التى فسرها السبعون . فأمر قسطنطين اليهود باحضارها ،

(*) ص٤٨٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وعاقبهم على ذلك حتى دلوه على موضعها بمصر ، فكتب باحضارها فحملت اليه ، فاذا بينها وبين توراة اليهود نقص ألف وثلثمائة وتسع وستين سنة ، زعموا أنهم نقصوها من مواليد من ذكر فيها لأجل المسيح .

وفى أيامه بعثت هيلانى بمال عظيم الى مدينة الرها ، فبنى به كنائسها العظمة ، أمر قسطنطين باخراج اليهود من القدس ، وألزمهم بالدخول فى دين النصرانية ، ومن امتنع منهم قتل فتنصر كثير منهم ، وامتنع أكثرهم فقتلوا ، ثم امتحن من تنصر منهم بأن جمعهم يوم الفصح فى الكنيسة وأمرهم بأكل لحم الخنزير ، فأبى أكثرهم أن يأكل منه ، فقتل منهم فى ذلك اليوم خلائق كثيرة جدا .

ولما قام قسطنطين بن قسطنطين فى الملك بعد أبيه، غلبت مقالة أريوس على القسطنطينية وأنطاكية والاسكندرية ، وصار أكثر أهل الاسكندرية وأرض مصر أريوسيين ومانيين، واستولوا على ما بها من الكنائس ، ومال الملك الى رأيهم ، وحمل الناس عليه ، ثم رجع عنه .

وزعم أبرس ، أسقف القدس ، أنه ظهر من السماء ، على القبر الذى بكنيسة القمامة ، شبه صليب من نور فى يوم عيد العنصرة ، لعشرة أيام من شهر أيار ، فى الساعة الثالثة من النهار ، حتى غلب نوره على نور الشمس ، ورآه جميع أهل القدس عيانا ، فأقام فوق القبر عدة ساعات والناس تشاهده . فآمن يومئذ من اليهود وغيرهم عدة آلاف كثيرة .

ثم لما ملك موليانوس ابن عم قسطنطين ، اشتدت نكايته للنصارى ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، ومنعهم من النظر فى شىء من الكتب وأخذ أوانى الكنائس والديارات ، ونصب مائدة كبيرة عليها أطعمة مما ذبحه لأصنامه ، ونادى من أراد المال فليطرح البخور على النار ، وليأكل من ذبائح الحنفاء وليأخذ ما يريد من المال ، فامتنع كثير من الروم ، وقالوا : نحن نصارى ، فقتل منهم خلائق ، ومحا الصليب من أعلامه وبنوده

وفى أيامه سكن القديس أبارنوس برية الأردن ، وبنى بها الديارات ، وهو أول من سكن برية الأردن من النصارى .

فلما ملك يرسيانوس على الروم — وكان متنصرا — عاد كل من كان نفى من الأساقفة الى كرسيه ، وكتب الى اثناسيوس بطرك الاسكندرية ، أن يشرح له الأمانة المستقيمة ، فجمع الأساقفة وكتبوا له أن يلزم أمانة الثلثمائة وثمانية عشرة .

فثار أهل الاسكندرية على اثناسيوس ليقتلوه ففر ، وأقاموا بدله لوقيوس — وكان أريوسيا — فاجتمع مجمع الأساقفة بعد خمسة أشهر ، وحرموه ونفوه ، وأعادوا اثناسيوس الى كرسيه ، فأقام بطركا الى أن مات فخلفه بطرس ، ثم وثب الأرسيون عليه بعد سنتين ففر منهم ، وأعادوا لوقيوس ، فأقام بطركا ثلاث سنين ، ووثب عليه أعداؤه ففر منهم ، فردوا بطرس فى العشرين من أمشير ، فأقام سنة .

وقدم فى أيام واليس ملك الروم أريوس أسقف أنطاكية الى الاسكندرية باذن الملك ، وأخرج منها جماعة من الروم ، وحبس بطرس بطركها ، ونصب بدله أريوس السيماطى . ففر بطرس من الحبس الى رومية ، واستجار ببطركها .

وكان واليس أريوسيا ، فسار الى زيارة كنيسة مار توما بمدينة الرها ، ونفى أسقفها وجماعة معه الى جزيرة رودس ، ونفى سائر الأساقفة لمخالفتهم لرأيه ما عدا اثنين ، وأقام فى بطركية الاسكندرية طيماثاوس ، فأقام سبع سنين ومات .

وفى أيامه كان المجمع الثانى من مجامع النصارى بقسطنطينية ، فى سنة اثنتى عشرة ومائة لدقلطيانوس ، فاجتمع مائة وخمسون أسقفا ، وحرموا مقدنيون ، عدو روح القدس ، وكل من قال بقوله ، وسبب ذلك أنه قال : ان روح القدس مخلوق ، وحرموا معه غير واحد لعقائد شنيعة تظاهروا بها فى المسيح .

وزاد الأساقفة فى الأمانة التى رتبها الثلثمائة وثمانية عشرة : ونؤمن بالروح القدس ، الرب المحيى المنبثق من الأب — قلت : تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا — وحرموا أن يزاد فيها بعد ذلك شىء ، أو ينقص منها شىء . وكان هذا المجمع بعد مجمع نيقية بثمان وخمسين سنة .

وفى أيامه بنيت عدة كنائس بالاسكندرية ، واستتيب جماعة كثيرة من مقالة أريوس . وفى أيامه أطلق للأساقفة والرهبان أكل اللحم يوم الفصح ليخالفوا الطائفة المنانية ، فانهم كانوا يحرمون أكل اللحم مطلقا ، ورد الملك اغراديانوس كل من نفاه واليس من الأساقفة ، وأمر * أن يلزم كل واحد دينه ما خلا المنانية .

ثم أقيم بكرسى الاسكندرية تاوفيلا ، فأقام سبعا وعشرين سنة ، ومات فى ثامن عشر بابة . وفى أيامه ظهر الفتية أهل الكهف — وكان تاوداسيوس اذ ذاك ملكا على الروم — فبنى عليهم كنيسة ، وجعل لهم عيدا فى كل سنة .

واشتد الملك تاوداسيوس على الأرسيين ، وضيق عليهم ، وأمر فأخذت منهم كنائس النصارى بعدما حكموها نحو أربعين سنة ، وأسقط من جيشه من كان أريوسيا ، وطرد من كان فى ديوانه وخدمه منهم ، وقتل من الحنفاء كثيرا ، وهدم بيوت الأصنام بكل موضع ، وفى أيامه بنيت كنيسة مريم بالقدس .

وفى أيام الملك أرغاديوس بنى دير القصر — المعروف الآن بدير البغل — فى جبل المقطم شرقى طرا خارج مدينة فسطاط مصر .

ثم أقيم فى بطركية الاسكندرية كرلص ، فأقام اثنتين وثلاثين سنة ، ومات فى ثالث أبيب . وهو أول من أقام القومة فى كنائس الاسكندرية وأرض مصر .

وفى أيامه كان المجمع الثالث من مجامع النصارى ، بسبب نسطورس بطرك قسطنطين ، فانه منع أن تكون مريم أم عيسى ، وقال : انما ولدت مريم انسانا اتحد بمشيئة الاله (يعنى عيسى) فصار الاتحاد بالمشيئة

(*) ص٤٨٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

خاصة لا بالذات ، وان اطلاق الاله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة والكرامة .

وقال : ان المسيح حل فيه الابن الأزلى ، وانى أعبده لأن الاله حل فيه ، وانه جوهران وأقنومان ومشيئة واحدة . وقال فى خطبته يوم الميلاد : ان مريم ولدت انسانا ، وأنا لا أعتقد فى ابن شهرين وثلاثة الالهية ، ولا أسجد له سجودى للاله .

وكان هذا هو اعتقاد تادروس وديوادارس الأسقفين ، وكان من قولهما : ان المولود من مريم هو المسيح ، والمولود من الأب هو الابن الأزلى ، وانه حل فى المسيح فسمى ابن الله بالموهبة والكرامة ، وان الاتحاد بالمشيئة والارادة ، وأثبتوا لله — تعالى عن قولهم — ولدين : أحدهما بالجوهر ، والآخر بالنعمة .

فلما بلغ كرلس بطرك الاسكندرية مقالة نسطورس ، كتب اليه يرجعه عنها ، فلم يرجع . فكتب الى اكليس بطرك رومية ، والى يوحنا بطرك أنطاكية ، والى يوناليوس أسقف القدس ، يعرفهم بذلك . فكتبوا بأجمعهم الى نسطورس ليرجع عن مقالته ، فلم يرجع .

فتواعد البطاركة على الاجتماع بمدينة أفس . فاجتمع بها مائتا أسقف ، ولم يحضر يوحنا بطرك أنطاكية ، وامتنع نسطورس من المجىء اليهم بعدما كرروا الارسال فى طلبه غير مرة ، فنظروا فى مقالته ، وحرموه ونفوه . فحضر بعد ذلك يوحنا ، فعز عليه فصل الأمر قبل قدومه ، وانتصر لنسطورس ، وقال : قد حرموه بغير حق .

وتفرقوا من أفس على شر ، ثم اصطلحوا ، وكتب المشرقيون صحيفة بأمانتهم وبحرمان نسطورس ، وبعثوا بها الى كرلس . فقبلها ، وكتب اليهم بأن أمانته على ما كتبوا . فكان بين المجمع الثانى وبين هذا المجمع خمسون — وقيل خمس وخمسون — سنة .

وأما نسطورس فانه نفى الى صعيد مصر ، فنزل مدينة اخميم ، وأقام بها سبع سنين ، ومات فدفن بها . وظهرت مقالته ، فقبلها برصوما أسقف نصيبين ، ودان بها نصارى أرض فارس والعراق والموصل والجزيرة الى الفرات ، وعرفوا الى اليوم بالنسطورية .

ثم قدم تاوداسيوس ملك الروم ، فى الثانية من ملكه ، ديسقورس بطركا بالاسكندرية ، فظهر فى أيامه مذهب أوطاخى ، أحد القنومين بالقسطنطينية ، وزعم أن جسد المسيح لطيف غير مساو لأجسادنا ، وأن الابن لم يأخذ من مريم شيئا . فاجتمع عليه مائة وثلاثون أسقفا ، وحرموه .

واجتمع بالاسكندرية كثير من اليهود فى يوم الفسح ، وصلبوا صنما على مثال المسيح وعبثوا به ، فثار بينهم وبين النصارى شر قتل فيه بين الفريقين خلق كثير ، فبعث اليهم ملك الروم جيشا قتل أكثر يهود الاسكندرية .

وكان المجمع الرابع من مجامع النصارى بمدينة خلقدونية . وسببه أن ديسقورس ، بطرك الاسكندرية ، قال : ان المسيح جوهر من جوهرين ، وقنوم من قنومين ، وطبيعة من طبيعتين ، ومشيئة من مشيئتين . وكان

رأى مرقيانوس ملك الروم أنه جسد ، وأهل مملكته أنه جوهران وطبيعتان ومشيئتان وقنوم واحد . فلما رأى الأساقفة أن هذا رأى الملك خافوه ، فوافقوه على رأيه ، ما خلا ديسقورس وستة أساقفة ، فانهم لم يوافقوا الملك ، وكتب من عداهم من الأساقفة خطوطهم بما اتفقوا عليه .

فبعث ديسقورس يطلب منهم الكتاب ليكتب فيه . فلما وصل اليه كتابهم ، كتب فيه أمانته هو ، وحرمهم وكل من يخرج عنها . فغضب الملك مرقيانوس ، وهم بقتله ، فأشير عليه باحضاره ومناظرته ، فأمر به فحضر ، وحضر ستمائة وأربعة وثلاثون أسقفا . فأشار الأساقفة والبطاركة على ديسقورس بموافقة رأى الملك ، واستمراره على رياسته .

فدعا للملك وقال لهم : الملك لايلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة ، بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ، ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة فانهم يعرفون الكتب ، ولا يكون له هوى مع أحد ويتبع الحق .

فقالت بلخارية زوجة الملك مرقيانوس ، وكانت جالسة * بازائه : ياديسقورس قد كان فى زمان أمى انسان قوى الرأس مثلك ، وحرموه ونفوه عن كرسيه ، تعنى يوحنا فم الذهب بطرك قسطنطينية .

فقال لها : قد علمت ماجرى لأمك ، وكيف ابتليت بالمرض الذى تعرفينه ، الى أن مضت الى جسد يوحنا فم الذهب ، واستغفرت فعوفيت .

(*) ص٨٨٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

فحنقت من قوله ، ولكمته ، فانقلع له ضرسان ، وتناولته أيدى الرجال ، فنتفوا أكثر لحيته ، وأمر الملك بحرمانه ونفيه عن كرسيه . فاجتمعوا عليه وحرموه ونفوه ، وأقيم عوضه برطاوس .

ومن هذا المجمع افترق النصارى ، وصاروا ملكية على مذهب مرقيانوس الملك ، ويعقوبية على رأى ديسقورس ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائة لدقلطيانوس ، وكتب مرقيانوس الى جميع مملكته أن كل من لا يقول بقوله يقتل . فكان بين المجمع الثالث وبين هذا المجمع احدى وعشرون سنة .

وأما ديسقورس فانه أخذ ضرسيه وشعر لحيته ، وأرسلها الى الاسكندرية ، وقال : هذه ثمرة تعبى على الأمانة . فتبعه أهل اسكندرية ومصر ، وتوجه فى نفيه فعبر على القدس وفلسطين ، وعرفهم مقالته ، فتبعوه وقالوا بقوله ، وقدم عدة أساقفة يعقوبية ، ومات وهو منفى فى رابع توت ، فكانت مدة بطركيته أربع عشرة سنة . وبقى كرسى المملكة بغير بطرك مدة مملكة مرقيانوس ، وقيل بل قدم برطاوس .

وقد اختلف فى تسمية اليعقوبية بهذا : فقيل ان ديسقورس كان يسمى قبل بطركيته يعقوب ، وانه كان يكتب وهو منفى الى أصحابه بأن يثبتوا على أمانة المسكين المنفى يعقوب .

وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب ، وكان يرسله وهو منفى الى أصحابه ، فنسبوا اليه .

وقيل بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية ، وكان على رأى ديسقورس ، فكان ساويرس يحث يعقوب الى النصارى ، ويثبتهم على أمانة ديسقورس ، فنسبوا اليه .

وقيل بل كان يعقوب كثير العبادة والزهد ، يلبس خرق البراذع ، فسمى يعقوب البراذعى من أجل ذلك ، وانه كان يطوف البلاد ، ويرد الناس الى مقالة ديسقورس ، فنسب من اتبع رأيه اليه ، وسموا يعقوبية ، ويقال ليعقوب أيضا يعقوب السروجى .

وفى أيام مرقيانوس كان سمعان الحبيس ، صاحب العمود ، وهو أول راهب سكن صومعة ، وكان مقامه بمغارة فى جبل أنطاكية .

ولما مات مرقيانوس ، وثب أهل الاسكندرية على برطاوس البطرك ، وقتلوه فى الكنيسة ، وحملوا جسده الى الملعب الذى بناه بطليموس ، وأحرقوه بالنار من أجل أنه ملكى الاعتقاد ، فكانت مدة بطركيته ست سنين .

وأقاموا عوضه طيماتاوس — وكان يعقوبيا — فأقام ثلاث سنين ، وقدم قائد من قسطنطينية فنفاه ، وأقام عوضه ساويرس — وكان ملكيا — فأقام اثنتين وعشرين سنة ، ومات فى سابع مسرى .

فلما ملك زنيون بن لاون الروم ، أكرم اليعقوبية ، وأعزهم لأنه كان يعقوبيا ، وكان يحمل الى دير يوقنا كل سنة ما يحتاج اليه من القمح والزيت . وهرب ساويرس من كرسى الاسكندرية الى وادى هبيب ، ورجع طيماتاوس من نفيه ، فأقام بطركا بستين ومات . فأقيم بعده بطرس ، فأقام ثمان سنين وسبعة أشهر وستة أيام ، ومات فى رابع هتور .

فأقيم بعده اثناسيوس ، فأقام سبع سنين ، ومات فى العشرين من توت ، وفى أيامه احترق الملعب الذى بناه بطليموس . وأقيم يوحنا فى بطركية الاسكندرية — وكان يعقوبيا — فأقام تسع سنين ، ومات فى رابع بشنس ، فخلا الكرسى بعده سنة . ثم أقيم يوحنا الحبيس ، فأقام احدى وعشرين سنة ، ومات فى سابع عشرى بشنس . فأقيم بعده ديسقورس الجديد ، فأقام سنتين وخمسة أشهر ، ومات فى سابع عشر بابة .

وكتب ايليا بطرك القدس ، الى نسطاس ملك الروم ، بأن يرجع عن مقالة اليعقوبية الى مقالة الملكية ، وبعث اليه جماعة من الرهبان بهدية سنية . فقبل هديته ، وأجاز الرهبان بجوائز جليلة ، وجهز له مالا جزيلا لعمارة الكنائس والديارات والصدقات .

فتوجه ساويرس الى نسطاس ، وعرفه أن الحق هو اعتقاد اليعقوبية ، فأمر أن يكتب الى جميع مملكته بقبول قول ديسقورس ، وترك المجمع الخلقدونى . فبعث اليه بطرك أنطاكية بأن هذا الذى فعله غير واجب ، وأن المجمع الخلقدونى هو الحق . فغضب الملك ونفاه ، وأقام بدله .

فأمر ايليا ، بطرك القدس ، بجمع الرهبان ورؤساء الديارات . فاجتمع له منهم عشرة آلاف نفس ، وحرموا نسطاس الملك ومن يقول بقوله . فأمر نسطاس بنفى ايليا الى

مدينة أيلة ، فاجتمع بطاركة الملكية وأساقفتهم وحرموا الملك نسطاس ومن يقول بقوله .

وفى أيام نسطايوس الملك ، ألزم الحنفاء أهل حران — وهم الصابئة — بالتنصر . فتنصر كثير منهم ، وقتل أكثرهم على امتناعهم من دين النصرانية ، ورد جميع من نفاه نسطاس من الملكية ، فانه كان ملكيا . وأقيم طيماتاوس فى بطركية الاسكندرية — وكان يعقوبيا — فأقام ثلاث سنين وتفى .

وأقيم بدله أبوليناريوس ، وكان ملكيا ، فجد فى رجوع النصارى بأجمعهم الى رأى الملكية ، وبذل جهده فى ذلك ، وألزم نصارى مصر بقبول الأمانة المحدثة ، فوافقوه * ووافقه رهبان ديارات بومقار بوادى هبيب .

هذا ويعقوب البراذعى يدور فى كل موضع ، ويثبت أصحابه على الأمانة التى زعم أنها مستقيمة . وأمر الملك جميع الأساقفة بعمل الميلاد فى خامس عشرى كانون الأول ، وبعمل الغطاس لست تخلو من كانون الثانى ، وكان كثير منهم يعمل الميلاد والغطاس فى يوم واحد ، وهو سادس كانون الثانى ، وعلى هذا الرأى الأرمن الى يومنا هذا .

وفى هذه الأيام ظهر يوحنا النحوى بالاسكندرية ، وزعم أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة آلهة ، وثلاث طبائع وجوهر واحد . وظهر يوليان ، وزعم أن جسد المسيح نزل من السماء ، وأنه لطيف روحانى لا يقبل الآلام الا عند مقارفة الخطيئة ، والمسيح لم يقارف خطيئة ، فلذلك لم يصلب حقيقة ولم يتألم ولم يمت ، وانما ذلك كله خيال .

فأمر الملك البطرك طيماتاوس أن يرجع الى مذهب الملكية فلم يفعل ، فأمر بقتله ، ثم شفع فيه وتفى . وأقيم بدله بولس — وكان ملكيا — فأقام سنتين ، فلم يرضه اليعاقبة ، وقيل انهم قتلوه ، وصيروا عوضه بطركا ديلوس — وكان ملكيا — فأقام خمس سنين فى شدة من التعب ، وأرادوا قتله ، فهرب وأقام فى هربه خمس سنين ومات .

فبلغ ملك الروم يوسطيانوس أن اليعقوبية قد غلبوا على الاسكندرية ومصر ، وأنهم لا يقبلون بطاركته . فبعث أبوليناريوس أحد قواده ، وضم اليه عسكرا كبيرا ، الى الاسكندرية . فلما قدمها ، ودخل الكنيسة نزع عنه ثياب الجند ، ولبس ثياب البطاركة وقدس . فهم ذلك الجمع برجمه ، فانصرف وجمع عسكره ، وأظهر أنه قد أتاه كتاب الملك ليقرأه على الناس ، وضرب الجرس فى الاسكندرية يوم الأحد .

فاجتمع الناس الى الكنيسة حتى لم يبق أحد ، فطلع المنبر وقال : يا أهل الاسكندرية ان تركتم مقالة اليعقوبية ، والا أخاف أن يرسل الملك فيقتلكم ، ويستبيح أموالكم وحريمكم . فهموا برجمه ، فأشار الى الجند ، فوضعوا السيف فيهم ، فقتل من الناس ما لا يحصى عدده حتى خاض الجند فى الدماء ، وقيل ان الذى قتل يومئذ مائتا ألف انسان ، وفر منهم خلق الى الديارات بوادى هبيب ، وأخذ الملكية كنائس اليعاقبة . ومن يومئذ

(*) ص٤٨٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

صار كرسى اليعقوبية فى دير بومقار بوادى هبيب .

وفى أيامه ثارت السامرة على أرض فلسطين ، وهدموا كنائس النصارى ، وأحرقوا ما فيها ، وقتلوا جماعة من النصارى فبعث الملك جيشا قتلوا من السامرة خلقا كثيرا ، ووضع من خراج فلسطين جملة ، وجدد بناء الكنائس ، وأنشأ مارستانا ببيت المقدس للمرضى ، ووسع فى بناء كنيسة بيت لحم ، وبنى ديرا بطور سيناء ، وعمل عليه حصنا حوله عدة قلالى ، ورتب فيها حرسا لحفظ الرهبان .

وفى أيامه كان المجمع الخامس من مجامع النصارى . وسببه أن أريحانس ، أسقف مدينة منبج ، قال بتناسخ الأرواح ، وقال كل من أسقف أنقرة وأسقف المصيصة وأسقف الرها : ان جسد المسيح خيال لا حقيقى . فحملوا الى القسطنطينية ، وجمع بينهم وبين بطركها أوطس ، وناظرهم وأوقع عليهم الحرمان .

فأمر الملك أن يجمع لهم مجمع ، وأمر باحضار البطاركة والأساقفة ، فاجتمع مائة وأربعون أسقفا ، وحرموا هؤلاء الأساقفة ومن يقول بقولهم . فكان بين المجمع الرابع الخلقدونى وبين هذا المجمع مائة وثلاث وستون سنة .

ولما مات القائد الذى عمل بطرك الاسكندرية ، بعد سبع عشرة سنة ، أقيم بعده يوحنا — وكان منانيا — فأقام ثلاث سنين ومات .

وقدم اليعاقبة بطركا اسمه تاوداسيوس ، أقام مدة اثنتين وثلاثين سنة ، وقدم الملكية بطركا اسمه داقيوس . فكتب الملك الى متولى الاسكندرية أن يعرض على بطرك اليعاقبة أمانة المجمع الخلقدونى ، فان لم يقبلها أخرجه ، فعرض عليه ذلك فلم يقبله ، فأخرجه وأقام بعده بولص التنيسى ، فلم يقبله أهل الاسكندرية ومات ، فغلقت كنائس القبط اليعاقبة ، وأصابهم من الملكية شدائد كثيرة ، واستجد اليعاقبة بالاسكندرية كنيستين فى سنة ثمان وأربعين ومائتين لدقلطيانوس .

ومات تاوداسيوس ثامن عشرى بؤونة بعد اثنين وثلاثين سنة من بطركيته ، منها مدة أربع سنين مدة نفيه فى صعيد مصر ، وأقيم بعده بطرس — وكان يعقوبيا — فى خفية بدير الزجاج بالاسكندرية ، قدمه ثلاثة أساقفة . فأقام سنتين ، ومات فى خامس عشرى بؤونة ... ... [1] من اليعاقبة سنة واحدة .

وفى سنة احدى وثمانين وثمانمائة ، أقيم داميانو بطركا بالاسكندرية — وكان يعقوبيا — فأقام ستا وثلاثين سنة ، ومات فى ثامن عشرى بؤونة . وفى أيامه خربت الديارات ، وأقام الملكية لهم بالاسكندرية بطركا منانيا اسمه أتناس ، فأقام خمس سنين ومات . فأقيم بعده يوحنا — وكان منانيا — ولقب بالقائم بالحق ، فأقام خمسة أشهر ومات . فأقيم بعده يوحنا القائم بالأمر — وكان ملكيا — فأقام احدى عشرة سنة ، ومات .

(١) هكذا بياض فى الاصل .

وفى أيام الملك طيباريوس ملك الروم ، بنى النصارى بالمدائن — مدائن كسرى — هيكلا وبنوا أيضا بمدينة واسط هيكلا آخر .

وفى أيام الملك موريق قيصر ، زعم راهب اسمه مارون أن المسيح ، عليه السلام ، طبيعتان ومشيئة واحدة * وأقنوم واحد . فتبعه على رأيه أهل حماه وقنسرين والعواصم وجماعة من الروم ، ودانوا بقوله ، فعرفوا بين النصارى بالمارونية ، فلما مات مارون ، بنوا على اسمه دير مارون بحماة .

وفى أيام فوقا ملك الروم ، بعث كسرى ملك فارس جيوشه الى بلاد الشام ومصر ، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم ، وأتوا الى مصر فى طلبهم ، فقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر .

وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ، وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد المقدس ، فنالوا من النصارى كل منال ، وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيستين بالقدس ، وحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطرك القدس وكثيرا من أصحابه . ثم مضى كسرى بنفسه من العراق لغزو قسطنطينية ، تخت ملك الروم ، فحاصرها أربع عشرة سنة .

وفى أيام فوقا أقيم يوحنا الرحوم ، بطرك الاسكندرية ، على الملكية . فدبر أرض مصر كلها عشر سنين ، ومات بقبرس وهو فار من الفرس . فخلا كرسى اسكندرية من البطركية سبع سنين ، لخلو أرض مصر والشام من الروم ، واختفى من بقى بها من النصارى خوفا من الفرس .

وقدم اليعاقبة نسطاسيوس بطركا ، فأقام ثنتى عشرة سنة ، ومات فى ثانى عشرى كيهك سنة ثلاثين وثلثمائة لدقلطيانوس ، فاسترد ما كانت الملكية قد استولت عليه من كنائس اليعاقبة ، ورم ما شعثه الفرس منها . وكانت اقامته بمدينة الاسكندرية ، فأرسل اليه أنباسيوس بطرك أنطاكية هدية صحبة عدة كثيرة من الأساقفة ، ثم قدم عليه زائرا ، فتلقاه وسر بقدومه ، وصارت أرض مصر فى أيامه جميعها يعاقبة لخلوها من الروم .

فثارت اليهود فى أثناء ذلك بمدينة صور ، وراسلوا بقيتهم فى بلادهم ، وتواعدوا على الايقاع بالنصارى وقتلهم . فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفا ، وهدموا كنائس النصارى خارج صور فقوى النصارى عليهم وكاثروهم ، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة ، وقتل منهم خلق كثير .

وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية ، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ما خربه الفرس منها . فخرج اليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا له الهدايا الجليلة ، وطلبوا منه أن يؤمنهم ، ويحلف لهم على ذلك ، فأمنهم وحلف لهم .

(*) ص٤٩٠، جـ٢ ، ط. بولاق .

ثم دخل القدس — وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة — فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خرابا ، فساءه ذلك وتوجع له . وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس ، وايقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قياما كبيرا فى قتلهم عن آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسنوا له ذلك .

فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيوهم بأنه لا حرج عليه فى قتلهم ، فانهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه : بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه على ممر الزمان والدهور .

فمال الى قولهم ، وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم الا من فر واختفى . فكتب البطارقة والأساقفة الى جميع البلاد بالزام النصارى بصوم أسبوع فى السنة ، فالتزموا صومه الى اليوم ، وعرفت عندهم بجمعة هرقل ، وتقدم هرقل بعمارة الكنائس والديارات ، وأنفق فيها مالا كبيرا .

وفى أيامه أقيم أدراسلون ، بطرك اليعاقبة بالاسكندرية ، فأقام ست سنين ، ومات فى ثامن طوبة ، فخربت الديارات فى مدة بطركيته . وأقيم بعده على اليعاقبة بنيامين ، فعمر الدير الذى يقال له دير أبو بشاى ودير سيدة أبو بشاى ، وهما فى وادى هبيب ، فأقام تسعا وثلاثين سنة ، ملك الفرس منها مصر عشر سنين .

ثم قدم هرقل فقتل الفرس بمصر ، وأقام قيرش بطرك الاسكندرية — وكان منانيا — وطلب بنيامين ليقتله فلم يقدر عليه لفراره منه . وكان هرقل مارونيا ، فظفر بمينا أخى بنيامين ، فأحرقه بالنار عداوة لليعاقبة ، وعاد الى القسطنطينية . فاظهر الله دين الاسلام فى أيامه ، وخرج ملك مصر والشام من يد النصارى ، وصار النصارى ذمة للمسلمين .

فكانت مدة النصارى منذ رفع المسيح الى أن فتحت مصر ، وصار النصارى من القبط ذمة للمسلمين ... ... [1] منها مدة كونهم تحت أيدى الروم يقتلونهم أبرح قتل بالصلب بالصلب والتحريق بالنار والرجم بالحجارة وتقطيع الأعضاء ، ومنها مدة استيلائهم بتنصر الملوك * .

ذكر دخول النصارى من قبط مصر فى طاعة المسلمين وادائهم الجزية واتخاذهم ذمة لهم ، وما كان فى ذلك من الحوادث والأنباء

اعلم أن أرض مصر ، لما دخلها المسلمون ، كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى . وهم على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم : أحدهما أهل الدولة ، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم

(*) ص٤٩١ جـ٢ ، ط. بولاق .

(١) هكذا بياض فى الأصل .

وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية ، وكان عدتهم تزيد على ثلثمائة ألف رومى .

والقسم الآخر عامة أهل مصر — ويقال لهم القبط — وأنسابهم مختلطة ، لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الاسرائيلى الأصل من غيره . وكلهم يعاقبة : فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم التجار والباعة ، ومنهم الأساقفة والقسوس ونحوهم ، ومنهم أهل الفلاحة والزرع ، ومنهم أهل الخدمة والمهنة [illegible] بين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم ، ويوجب قتل بعضهم بعضا ، ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جدا ، فانهم فى الحقيقة أهل أرض مصر أعلاها وأسفلها .

فلما قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين معه الى مصر ، قاتلهم الروم حماية لملكهم ودفعا لهم عن بلادهم . فقاتلهم المسلمون ، وغلبوهم على الحصن كما تقدم ذكره . فطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية فصالحهم عليها ، وأقرهم على ما بأيديهم من الأراضى وغيرها ، وصاروا معه عونا للمسلمين على الروم حتى هزمهم الله تعالى ، وأخرجهم من أرض مصر .

وكتب عمرو لبنيامين بطرك اليعاقبة أمانا ، فى سنة عشرين من الهجرة ، فسره ذلك وقدم على عمرو ، وجلس على كرسى بطركيته بعدما غاب عنه ثلاث عشرة سنة . منها فى ملك فارس لمصر عشر سنين ، وباقيها بعد قدوم هرقل الى مصر . فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر ودياراتها كلها ، وانفردوا بها دون الملكية .

ويذكر علماء الأخبار من النصارى : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما فتح مدينة القدس ، كتب للنصارى أمانا على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم ، وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن ، وأنه جلس فى وسط صحن كنيسة القمامة ، فلما حان وقت الصلاة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده ، ثم جلس وقال للبطرك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى ، وقالوا ههنا صلى عمر .

وكتب كتابا يتضمن أنه لا يصلى أحد من المسلمين على الدرجة الا واحد واحد ، ولا يجتمع المسلمون بها للصلاة فيها ، ولا يؤذنون عليها ، وأنه أشار عليه البطرك باتخاذ موضع الصخرة مسجدا — وكان فوقها تراب كثير — فتناول عمر رضى الله عنه من التراب فى ثوبه ، فبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبق منه شىء ، وعمر المسجد الأقصى أمام الصخرة . فلما كانت أيام عبد الملك بن مروان ، أدخل الصخرة فى حرم الأقصى ، وذلك سنة خمس وستين من الهجرة .

ثم ان عمر رضى الله عنه أتى بيت لحم ، وصلى فى كنيسته عند الخشبة التى ولد فيها المسيح ، وكتب سجلا بأيدى النصارى . ألا يصلى فى هذا الموضع أحد من المسلمين الا رجل بعد رجل ، ولا يجتمعوا فيه للصلاة ، ولا يؤذنوا عليه .

ولما مات البطرك بنيامين فى سنة تسع وثلاثين من الهجرة بالاسكندرية ، فى امارة عمرو الثانية ، قدم اليعاقبة بعده آغاثو ، فأقام سبع عشرة سنة ، ومات سنة ست وخمسين . وهو الذى بنى كنيسة مرقص بالاسكندرية ، فلم تزل الى أن هدمت فى سلطنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب .

وكان فى أيامه الغلاء مدة ثلاث سنين ، وكان يهتم بالضعفاء .

فاقيم بعده ايساك — وكان يعقوبيا — فاقام سنتين وأحد عشر شهرا ومات . فقدم اليعاقبة بعده سيمون السريانى ، فأقام سبع سنين ونصفا ومات . وفى أيامه قدم رسول أهل الهند فى طلب أسقف يقيمه لهم ، فامتنع من ذلك حتى يأذن له السلطان ، وأقام غيره ، وخلا بعد موته كرسى الاسكندرية ثلاث سنين بغير بطرك .

ثم قدم اليعاقبة فى سنة احدى وثمانين الاسكندروس ، فأقام أربعا وعشرين سنة ونصفا — وقيل خمسا وعشرين سنة — ومات سنة ست ومائة . ومرت به شدائد صودر فيها مرتين ، أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار . وفى أيامه أمّر عبد العزيز بن مروان ، فأمر باحصاء الرهبان فأحصوا ، وأخذت منهم الجزية عن كل راهب دينار . وهى أول جزية أخذت من الرهبان .

ولما ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، اشتد على النصارى ، واقتدى به قرة بن شريك أيضا فى ولايته على مصر ، وأنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها . وكان عبد الله بن الحبحاب ، متولى الخراج ، قد زاد على القبط قيراطا فى كل دينار . فانتقض عليه عامة الحوف الشرقى من القبط ، فحاربهم المسلمون ، وقتلوا منهم عدة وافرة فى سنة سبع ومائة .

واشتد أيضا أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج على النصارى ، وأوقع بهم ، وأخذ أموالهم ، ووسم أيدى الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه . فكل من وجده بغير وسم قطع يده ، وكتب الى الأعمال * بأن من وجد من النصارى ، وليس معه منشور ، أن يؤخذ منه عشرة دنانير .

ثم كبس الديارات ، وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم ، فضرب أعناق بعضهم ، وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب . ثم هدمت الكنائس ، وكسرت الصلبان ، ومحيت التماثيل ، وكسرت الأصنام بأجمعها — وكانت كثيرة — فى سنة أربع ومائة ، والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك .

فلما قام هشام بن عبد الملك فى الخلافة ، كتب الى مصر بأن يجرى النصارى على عوايدهم وما بأيديهم من العهد . فقدم حنظلة ابن صفوان أميرا على مصر فى ولايته الثانية ، فتشدد على النصارى ، وزاد فى الخراج ، وأحصى الناس والبهائم ، وجعل على كلّ نصرانى وسما صورة أسد ، وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده .

ثم أقام اليعاقبة بعد موت الاسكندروس بطركا اسمه قسيما ، فأقام خمسة عشر شهرا

(*) ص٤٩٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

ومات . فقدموا بعده تادرس فى سنة تسع ومائة ، ومات بعد احدى عشرة سنة . وفى أيامه أحدثت كنيسة بوقنا بخط الحمراء ، ظاهر مدينة مصر ، فى سنة سبع عشرة ومائة ، فقام جماعة من المسلمين على الوليد بن رفاعة أمير مصر بسببها .

وفى سنة عشرين ومائة ، قدم اليعاقبة ميخائيل بطركا ، فأقام ثلاثا وعشرين سنة ومات . وفى أيامه انتقض القبط بالصعيد ، وحاربوا العمال فى سنة احدى وعشرين ، فحوربوا ، وقتل كثير منهم . ثم خرج يحنس بسمنود وحارب ، وقتل فى الحرب ، وقتل معه قبط كثير فى سنة اثنتين وثلاثين ومات . ثم خالفت القبط برشيد ، فبعث اليهم مروان ابن محمد ، لما قدم مصر ، وهزمهم .

وقبض عبد الملك بن موسى بن نصير أمير مصر على البطرك ميخائيل ، فاعتقله وألزمه بمال ، فسار بأساقفة فى أعمال مصر يسأل أهلها ، فوجدهم فى شدائد ، فعاد الى الفسطاط ودفع الى عبد الملك ما حصل له ، فأفرج عنه . فنزل به بلاء كبير من مروان ، وبطش به وبالنصارى ، وأحرق مصر وغلاتها .

وأسر عدة من النساء المترهبات ببعض الديارات ، وراود واحدة منهم عن نفسها ، فاحتالت عليه ، ودفعته عنها بأن رغبته فى دهن معها اذا ادّهن به الانسان لايعمل فيه السلاح ، وأوثقته بأن مكنته من التجربة فى نفسها ، فتمت حيلتها عليه ، وأخرجت زيتا ادهنت به ، ثم مدت عنقها ، فضربها بسيفه أطار رأسها . فعلم أنها اختارت الموت على الزنا .

وما زال البطرك والنصارى فى الحديد مع مروان ، الى أن قتل ببوصير ، فأفرج عنهم .

وأما الملكية فان ملك الروم لاون ، أقام قسيما بطرك الملكية بالاسكندرية فى سنة سبع ومائة ، فمضى ومعه هدية الى هشام بن عبد الملك . فكتب له برد كنائس الملكية اليهم ، فأخذ من اليعاقبة كنيسة البشارة .

وكان الملكية أقاموا سبعا وسبعين سنة بغير بطرك فى مصر ، من عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى خلافة هشام بن عبد الملك ، فغلب اليعاقبة فى هذه المدة على جميع كنائس مصر ، وأقاموا بها منهم أساقفة . وبعث اليهم أهل بلاد النوبة فى طلب أساقفة ، فبعثوا اليهم من أساقفة اليعاقبة ، فصارت النوبة من ذلك العهد يعاقبة .

ثم لما مات ميخائيل ، قدم اليعاقبة فى سنة ست وأربعين ومائة أنبا مينا ، فأقام سبع سنين ومات . وفى أيامه خرج القبط بناحية سخا ، وأخرجوا العمال فى سنة خمسين ومائة ، وصاروا فى جمع . فبعث اليهم يزيد ابن حاتم بن قبيصة أمير مصر عسكرا ، فأتاهم القبط ليلا ، وقتلوا عدة من المسلمين ، وهزموا باقيهم .

فاشتد البلاء على النصارى ، واحتاجوا الى أكل الجيف ، وهدمت الكنائس المحدثة بمصر ، فهدمت كنيسة مريم المجاورة لأبى شنودة بمصر ، وهدمت كنائس محارس قسطنطين . فبذل النصارى لسليمان بن على أمير مصر فى تركها خمسين ألف دينار ، فأبى .

فلما ولى بعده موسى بن عسى ، أذن لهم فى بنائها ، فنيت كلها بشوورة اللث بن سعد وعبد الله بن لهيعه قاضى مصر ، واحتجا بأن بناءها من عمارة البلاد ، وبأن الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين .

فلما مات أنبا مسنا ، قدم اليعاقبة بعده يوحنا ، فأقام ثلاثا وعشرين سنة ومات وفى أيامه خرج القبط بلهيت سنة سب وخمسين ، فبعث اليهم موسى بن على أمير مصر ، وهزمهم .

وقدم بعده اليعاقبة مرقص الجديد ، فأقام عشرين سنة وسبعين يوما ومات . وفى أيامه كانت الفتة بين الأمين والمأمون ، فانهبت النصارى بالاسكندرية ، وأحرقت لهم مواضع عديدة ، وأحرقت ديارات وادى هيب ونهبت ، فلم يبق بها من رهبانها الا نفر قليل .

وفى أيامه مضى بطرك الملكية الى بغداد ، وعالج بعض حظايا أهل الخليفة ، فانه كان حاذقا بالطب ، فلما عوفيت كتب له برد كنائس الملكية التى تغلب عليها اليعاقبة بمصر ، فاستردها منهم ، وأقام فى بطركية الملكية أربعين سنة ومات .

ثم قدم اليعاقبة بعد مرقص يعقوب ، فى سنة احدى عشرة ومائتين ، فأقام عشر سنين وثمانية أشهر ومات . وفى أيامه ★ عمرت الديارات ، وعاد الرهبان اليها ، وعمرت كنيسة بالقدس لمن يرد من نصارى مصر ، وقدم عليه ديونوسيس بطرك أنطاكية ، فأكرمه حتى عاد الى كرسيه .

وفى أيامه انتقض القبط فى سنه ست عشرة ومائتين . فأوقع بهم الأفشين حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون ، فحكم فيهم بقتل الرجال ، وبيع النساء والذريه ، فبيعوا وسبى أكثرهم

ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر ، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان ، وغلبهم المسلمون على عامه القرى فرجعوا من المحاربه الى المكايدة ، واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين ، وعملوا كتاب الخراج ، فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيره يأتى ذكرها ان شاء الله تعالى .

ثم قدم اليعاقبة سيماون بطركا فى سنة اثنين وعشرين ومائتين ، فأقام سنة ومات — وقيل بل أقام سبعة أشهر وستة عشر يوما — فخلا كرسى البطاركه بعده سنة وسبعة وعشرين يوما .

وقدم اليعاقبة يوساب فى دير بومقار بوادى هبيب ، فى سنة سبع وعشرين ومائتين ، فأقام ثمانى عشرة سنة ومات . وفى أيامه قدم مصر يعقوب مطران الحبشة ، وقد نفته زوجة ملكهم وأقامت عوضه أسقفا ، فبعث ملك الحبشة يطلب اعادته من البطرك ، فبعث به اليه ، وبعث أيضا عدة أساقفة الى أفريقية . وفى أيامه مات بطرك أنطاكية الوارد الى مصر فى السنة الخامسة عشرة من بطركيته .

(★) ص٤٩٢ جـ١ ، ط. بولاق .

وفى أيامه أمر المتوكل على الله ، فى سنة خمس وثلاثين ومائتين ، أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير ، وركوب السروج بالركب الخشب ، وعمل كرتين فى مؤخر السرج ، وعمل رقعتين على لباس رجالهم تخالفان لون الثوب . قدر كل واحدة منهما أربع أصابع ، ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى ، ومن خرج من نسائهم تلبس ازارا عسليا ، ومنعهم من لباس المناطق ، وأمر بهدم بيعهم المحدثة ، وبأخذ العشر من منازلهم ، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب .

ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم ، ونهى أن يظهروا فى شعانينهم صليبا ، وألا يشعلوا فى الطريق نارا ، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض ، وكتب بذلك الى الآفاق ثم أمر فى سنة تسع وثلاثين أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين على الذراريع والأقبية ، وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين .

فلما مات يوساب ، فى سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، خلا الكرسى بعده ثلاثين يوما . وقدم اليعاقبة قسيسا بدير بحنس ، يدعى بميكائيل ، فى البطركية . فأقام سنة وخمسة أشهر ، ومات فدفن بدير بومقار ، وهو أول بطرك دفن فيه ، فخلا الكرسى بعده أحدا وثمانين يوما .

ثم قدم اليعاقبة فى سنة أربع وأربعين ومائتين شماسا بدير بومقار ، اسمه قسيما ، فأقام فى البطركية سبع سنين وخمسة أشهر ومات . فخلا الكرسى بعده أحدا وخمسين يوما .

وفى أيامه أمر نوفيل بن ميخائيل ، ملك الروم ، بمحو الصور من الكنائس ، وألا تبقى صورة فى كنيسة . وكان سبب ذلك أنه بلغه عن قيّم كنيسة أنه عمل فى صورة مريم ، عليها السلام ، شبه ثدى يخرج منه لبن ينقط فى يوم عيدها . فكشف عن ذلك ، فاذا هو مصنوع ليأخذ به القيم المال ، فضرب عنقه ، وأبطل الصور من الكنائس ، فبعث اليه قسيما ، بطرك اليعاقبة ، وناظره حتى سمح باعادة الصور على ما كانت عليه .

ثم قدم اليعاقبة ساتير بطركا ، فأقام تسع عشرة سنة ومات .

فأقيم يوسانيوس فى أول خلافة المعتز ، فأقام احدى عشرة سنة ومات ، وعمل فى بطركيته مجارى تحت الأرض بالاسكندرية يجرى بها الماء من الخليج الى البيوت . وفى أيامه قدم أحمد بن طولون مصر أميرا عليها .

ثم قدم اليعاقبة ميخائيل ، فأقام خمسا وعشرين سنة ، ومات بعدما ألزمه أحمد بن طولون بحمل عشرين ألف دينار ، باع فيها رباع الكنائس الموقوفة عليها ، وأرض الحبش ظاهر فسطاط مصر ، وباع الكنيسة بجوار المعلقة من قصر الشمع لليهود ، وقرر الديارية على كل نصرانى قيراطا فى السنة ، فقام بنصف المقرر عليه . وفى أيامه قتل الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون .

فلما مات شغر كرسى الاسكندرية بعده من البطاركة أربع عشرة سنة . وفى يوم الاثنين ثالث شوال سنة ثلثمائة أحرقت الكنيسة

الكبرى ، المعروفة بالقيامة ، فى الاسكندرية . وهى التى كانت هيكل زحل ، وكانت من بناء كلابطرة .

وفى سنة احدى وثلثمائة قدم اليعاقبة غبريال بطركا ، فاقام احدى عشرة سنة ومات ، وأخذت فى أيامه الديارية على الرجال والنساء . وقدم بعده العاقبة فى سنة احدى عشرة وثلثمائة قسيما ، فاقام ثنتى عشرة سنة ومات .

وفى يوم السبت النصف من شهر رجب سنة ثنتى عشرة وثلثمائة ، أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق ، ونهبوا ما فيها من الآلات والأوانى ، وقيمتها كثيرة جدا ، ونهبوا ديرا للنساء بجوارها ، وشعثوا كنائس النسطورية واليعقوبية .

وفى سنة ثلاث عشرة وثلثمائة ، قدم * الوزير على بن عيسى بن الجراح الى مصر . فكشف البلد ، وألزم الأساقفة والرهبان وضعفاء النصارى بأداء الجزية ، فأدوها ، ومضى طائفة منهم الى بغداد ، واستغاثوا بالمقتدر بالله . فكتب الى مصر بالا يؤخذ من الأساقفة والرهبان والضعفاء جزية ، وأن يجروا على العهد الذى بأيديهم .

وفى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، قدم اليعاقبة بطركا اسمه ... ... [1] فأقام عشرين سنة ومات . وفى أيامه ثار المسلمون بالقدس سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، وحرقوا كنيسة القيامة ونهبوها ، وخربوا منها ما قدروا عليه .

وفى يوم الاثنين آخر شهر رجب سنة ثمان وعشرين وثلثمائة مات سعيد بن بطريق ، بطرك الاسكندرية على الملكية ، بعدما أقام فى البطركية سبع سنين ونصفا ، فى شرور متصلة مع طائفته . فبعث الأمير أبو بكر محمد بن طغج الاخشيد أبا الحسين من قواده فى طائفة من الجند ، الى مدينة تنيس حتى ختم على كنائس الملكية ، وأحضر آلاتها الى الفسطاط — وكانت كثيرة جدا — فافتكها الأسقف بخمسة آلاف دينار ، باعوا فيها من وقف الكنائس ، ثم صالح طائفته ، وكان فاضلا وله تاريخ مفيد .

وثار المسلمون أيضا بمدينة عسقلان ، وهدموا كنيسة مريم الخضراء ، ونهبوا ما فيها ، وأعانهم اليهود حتى أحرقوها ففر أسقف عسقلان الى الرملة ، وأقام بها حتى مات .

وقدم اليعاقبة فى سنة خمس وأربعين وثلثمائة تاوفانيوس بطركا ، فاقام أربع سنين وستة أشهر ومات . فأقيم بعده مينا ، فاقام احدى عشرة سنة ومات . فخلا الكرسى بعده سنة .

ثم قدم العاقبة أفراهام بن زرعة فى سنة ست وستين وثلثمائة ، فأقام ثلاث سنين وستة أشهر ، ومات مسموما من بعض كتاب النصارى ، وسببه أنه منعه من التسرى .

فخلا الكرسى بعده ستة أشهر . وأقيم فيلاياوس فى سنة تسع وستين ، فأقام أربعا وعشرين سنة ومات ، وكان مترفا . وفى أيامه أخذت الملكية كنيسة السيدة — المعروفة

(*) ص٤٩٢ ج٢ ، ط.بولاق م

(١) هكذا بياض فى الاصل م

بكنيسة البطرك — تسلمها منهم بطرك الملكية أرسانيوس فى أيام العزيز بالله نزار بن المعز .

وفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، قدم اليعاقبة زخريس بطركا ، فأقام ثمانى وعشرين سنة : منها فى البلايا مع الحاكم بأمر الله أبى على منصور بن العزيز بالله تسع سنين ، اعتقله فيها ثلاثة أشهر ، وأمر به فألقى للسباع هو وسوسنة النوبى ، فلم تضره فيما زعم النصارى . ولما مات خلا الكرسى بعده أربعة وسبعين يوما .

وفى بطركيته نزل بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها وذلك أن كثيرا منهم كان قد تمكن فى أعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم ، فاشتد بأسهم ، وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين .

فأغضب الحاكم بأمر الله ذلك — وكان لا يملك نفسه اذا غضب — فقبض على عيسى ابن نسطورس النصرانى ، وهو اذ ذاك فى رتبة تضاهى رتب الوزراء ، وضرب عنقه . ثم قبض على فهد بن ابراهيم النصرانى ، كاتب الأستاذ برجوان ، وضرب عنقه .

وتشدد على النصارى ، وألزمهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار فى أرساطهم ، ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب ، والتظاهر بما كانت عادتهم فعله فى أعيادهم من الاجتماع واللهو ، وقبض على جميع ما هو محبس على الكنائس والديارات ، وأدخله فى الديوان ، وكتب الى أعماله كلها بذلك ، وأحرق عدة صلبان كثيرة ، ومنع النصارى من شراء العبيد والاماء .

وهدم الكنائس التى بخط راشدة ظاهر مدينة مصر ، وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة ، وأباح ما فيها للناس ، فانتهبوا منها ما يجل وصفه ، وهدم دير القصير ، وأنهب العامة ما فيه ، ومنع النصارى من عمل الغطاس على شاطىء النيل بمصر ، وأبطل ما كان يعمل فيه من الاجتماع للهو .

وألزم رجال النصارى بتعليق الصلبان الخشب — التى زنة كل صليب منها خمسة أرطال — فى أعناقهم ، ومنعهم من ركوب الخيل ، وجعل لهم أن يركبوا البغال والحمير بسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضة ، بل تكون من جلود سود .

وضرب بالجرس فى القاهرة ومصر ألا يركب أحد من المكارية ذميا ، ولا يحمل نوتى مسلم أحدا من أهل الذمة ، وأن تكون ثياب النصارى وعمائمهم شديدة السواد ، وركب سروجهم من خشب الجميز ، وأن يعلق اليهود فى أعناقهم خشبا مدورا زنة الخشبة منها خمسة أرطال ، وهى ظاهرة فوق ثيابهم .

وأخذ فى هدم الكنائس كلها ، وأباح ما فيها وما هو محبس عليها للناس نهبا واقطاعا . فهدمت بأسرها ، ونهب جميع أمتعتها ، واقطع أحباسها ، وبنى فى مواضعها المساجد ، وأذن بالصلاة فى كنيسة شنودة بمصر ، وأحيط بكنيسة المعلقة فى قصر الشمع .

وأكثر الناس من رفع القصص بطلب كنائس أعمال مصر ودياراتها . فلم يرد قصة

منها الا وقد وقع عليها باجابة رافعها لما سأل .
فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات ، وباعوا بأسواق مصر ما وجدوا من أوانى الذهب والفضة وغير ذلك ، وتصرفوا فى أحباسها ووجد بكنيسة شودة مال جليل ، ووجد فى المعلقة من المصاغ وثياب الديباج أمر كثير جدا الى الغاية .

وكتب الى ولاة الأعمال تمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات (*) ، فعم الهدم فيها من سنة ثلاث وأربعمائة ، حتى ذكر من يوثق به فى ذلك أن الذى هدم الى آخر سنة خمس وأربعمائة ، بمصر والشام وأعمالها ، من الهياكل التى بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة ، ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة وقبض على أوقافها ، وكانت أوقافا جليلة على مبان عجيبة

وألزم النصارى أن تكون الصلبان فى أعناقهم اذا دخلوا الحمام ، وألزم اليهود أن يكون فى أعناقهم الأجراس اذا دخلوا الحمام ثم ألزم اليهود والنصارى بخروجهم كلهم من أرض مصر الى بلاد الروم . فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة ، واستغاثوا ولاذوا بعفو أمير المؤمنين حتى أعفوا من النفى وفى هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى .

وفى سنة سبع وأربعمائة ، وثب بعض أكابر البلغر على ملكهم « قسطورس » فقتله ، وملك عوضه ، وكتب الى باسيل ملك قسطنطينية بطاعته فأقره ، ثم قتل بعد سنة . فسار الملك باسيل اليهم ، فى شوال سنة ثمان وأربعمائة ، واستولى على مملكة البلغر ، وأقام فى قلاعها عدة من الروم ، وعاد الى قسطنطينية . فاختلط الروم بالبلغر ، ونكحوا منهم ، وصاروا يدا واحدة بعد شدة العداوة .

وقدم اليعاقبة عليهم سانوتين بطركا بالاسكندرية ، فى سنة احدى وعشرين وأربعمائة ، فى يوم الأحد ثالث عشرى برمهات فأقام خمس عشرة سنة ونصفا ، ومات فى طوبة ، وكان محبا للمال وأخذ الشرطونية . فخلا الكرسى بعده سنة وخمسة أشهر .

ثم قدم اليعاقبة أخرسطودس بطركا ، فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، فأقام ثلاثين سنة ، ومات بالمعلقة من مصر وهو الذى جعل كنيسة بومرقورة بمصر ، وكنيسة السيدة بحارة الروم من القاهرة فى أيام بطركيته . فلم يقم بعده بطرك اثنين وسبعين يوما .

ثم أقام اليعاقبة كيرلص ، فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصفا ، ومات بكنيسة المختار من جزيرة مصر — المعروفة بالروضة — فى سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وعمل بدلة للبطاركة من ديباج أزرق وبلارية ديباج أحمر بتصاوير ذهب ، وقطع الشرطونية . فلم يول بعده بطرك مدة مائة وأربعة وعشرين يوما

ثم أقيم ميخائيل الحبيس بسنجار فى سنة اثنين وثمانين وأربعمائة ، فأقام تسع سنين وثمانية أشهر ، ومات فى المعلقة بمصر .

(*) ص٤٩٥ جـ٢ ، ط . بولاق .

وكان المستنصر بالله ، لما نقص نيل مصر ، بعثه الى بلاد الحبشة بهدية سنية فتلقاه ملكها ، وسأله عن سبب قدومه ، فعرفه نقص النيل ، وضرر أهل مصر بسبب ذلك . فأمر بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ففتح ، فزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع ، واستمرت الزيادة حتى روت البلاد وزرعت ثم عاد البطرك فخلع عليه المستنصر وأحسن اليه .

وفى سنة اثنين وتسعين وأربعمائة ، قدم اليعاقبة مقارى بطركا بدير بومقار ، وكمل بالاسكندرية وعاد الى مصر ثم مضى الى دير بومقار فقدس به ، ثم جاء الى مصر فقدس بالمعلقة ، فأقام ستا وعشرين سنة وأحدا وأربعين يوما ومات . فخلت مصر من بطرك اليعاقبة سنتين وشهرين

وفى أيامه حدثت زلزلة عظيمة بمصر هدم فيها كنيسة المختار بالروضة ، واتهم الأفضل ابن أمير الجيوش بهدمها فانها كانت فى بستانه ، وفى أيامه أبطل عوايد كثيرة للنصارى ، فبطلت بعده .

ثم قدم اليعاقبة غبريال ، المكنى بأبى العلا صاعد بن تريك ، الشماس بكنيسة مرقوريوس فى سنة خمس وعشرين وخمسمائة بالمعلقة ، وكمل بالاسكندرية ، وقدس بالأديرة بوادى هبيب ، وأقام أربع عشرة سنة ومات . فخلا بعده كرسى اليعاقبة ثلاثة أشهر .

ثم قدم اليعاقبة ميخائيل بن التقدوسى ، الراهب بقلاية دمشرى ، بطركا ، فأقام مدة سنة وسبعين يوما . ثم أقيم يونس أبو الفتح بطركا بالمعلقة ، وكمل بالاسكندرية ، فأقام تسع عشرة سنة ، ومات فى سابع عشرى جمادى الآخرة سنة احدى وخمسين وخمسمائة . فخلا الكرسى بعده ثلاثة وأربعين يوما

وقدم مرقص بن زرعة ، المكنى بأبى الفرج ، بطرك اليعاقبة بمصر ، وكمل بالاسكندرية ، فأقام اثنين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما ومات .

وفى أيامه انتقل مرقص بن قنبر ، وجماعة من القبابرة ، الى رأى الملكية ، ثم عاد الى اليعقوبية فقبل ، ثم عاد الى الملكية ورجع فلم يقبل . وكان هذا البطرك له همة ومروءة ، وفى أيامه كان حريق شاور الوزير لمصر فى ثامن عشر هتور ، فاحترقت كنيسة بومرقورة ، وخلا بعده كرسى البطاركة سبعة وعشرين يوما .

ثم قدم اليعاقبة يونس بن أبى غالب بطركا ، فى يوم الأحد عاشر ذى الحجة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وكمل بالاسكندرية . فأقام ستا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما ، ومات يوم الخميس رابع عشر شهر رمضان سنة ثنتى عشرة وستمائة بالمعلقة بمصر ، ودفن بالحبش .

وكان فى ابتداء أمره تاجرا يتردد الى اليمن فى البحر حتى كثر ماله ، وكان معه مال لأولاد الخباب ، فاتفق أنه غرق فى بحر الملح وذهب ماله ، ونجا بنفسه الى القاهرة ، وقد أيس أولاد الخباب من مالهم . فلما لقيهم أعلمهم أن مالهم قد سلم ، فانه كان قد عمله

في نقائر خشب مسمرة في المركب ، فصار لهم به عناية .

فلما مات مرقص بن زرعة ، سعى يونس هذا للقس أبي ياسر * ، فقال له أولاد الخباب : خذ أنت البطركية ونحن نزكيك ، فوافقهم ، وأقيم بطركا ، فشق ذلك على أبي ياسر ، وهجره بعد صحبة طويلة . وكان معه لما استقر في البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء ، وأبطل الديارية ، ومنع الشرطونية ، ولم يأكل لأحد من النصارى خبزا ، ولا قبل من أحد هدية .

فلما مات قام أبو الفتوح نشو الخليفة ابن الميقاط ، كاتب الجيش مع السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، في ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومي ، فانه كان خصيصا به . فأجابه ، وكتب توقيعه من غير أن يعلم الملك الكامل محمد ابن السلطان .

فشق ذلك على النصارى ، وقام منهم الأسعد بن صدقة ، كاتب دار التفاح بمصر ، ومعه جماعة ، وتوجهوا سحرا ومعهم الشموع الى تحت قلعة الجبل — حيث كان سكن الملك الكامل — واستغاثوا به ، ووقعوا في القس ، وقالوا : لا يصلح ، وفي شريعتنا أنه لا يقدم البطرك الا باتفاق الجمهور عليه . فبعث الملك الكامل يطيب خواطرهم .

وكان القس قد ركب بكرة ، ومعه الأساقفة وعالم كثير من النصارى ، ليقدموه بالمعلقة بمصر وذلك يوم الأحد . فركب الملك الكامل بشجو كبير من القلعة الى أبيه بدار الوزارة

(*) ص٤٩٦ جـ٢ ، ط.بولاق .

من القاهرة حيث سكنه ، وأوقف ولاية القس .

فبعث السلطان في طلب الأساقفة ليتحقق الأمر منهم ، فوافقهم الرسل مع القس في الطريق ، فأخذوهم ودخل القس الى كنيسة بوجرج التي بالحمراء ، وبطلت بطركيته ، وأقامت مصر بغير بطرك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما .

ثم قدم هذا القس بطركا ، في يوم الأحد تاسع عشري شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، فأقام سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ، ومات يوم الثلاثاء سابع عشر شهر رمضان سنة أربعين وستمائة ، ودفن بدير الشمع بالجيزة .

وكان عالما بدينه ، محبا للرياسة ، وأخذ الشرطونية في بطركيته ، وكانت الديارات بأرض مصر قد خلت من الأساقفة ، فقدم جماعة أساقفة كثيرة بمال كثير أخذه منهم ، وقاسى شدائد ، ورافعه الراهب عماد المرشال ، ووكل عليه وعلى أقاربه وألزامه ، وساعده الراهب السني ابن الثعبان ، وأشاع مثالبه ، وقال : لا يصح له كهونية لأنه يقدم بالرشوة ، وأخذ الشرطونية .

وجمع عليه طائفة كثيرة ، وعقد مجلسا عند الصاحب معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ، في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأثبت على البطرك قوادح . فقام الكتاب النصارى في أمره مع الصاحب ، بمال يحمله الى السلطان ، حتى استمر على بطركيته ، وخلا كرسي البطاركة بعده سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يوما .

ثم قدم اليعاقبة أثناسيوس ابن القس أبي المكارم بن كليل بالمعلقة ، في يوم الأحد رابع شهر رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وكمل بالاسكندرية فأقام احدى عشرة سنة وخمسة وخمسين يوما ، ومات يوم الأحد ثالث المحرم سنة ستين وستمائة ، فخلت مصر من البطركية خمسة وثمانين يوما .

وفي أيامه أخذ الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي الجوالي من النصارى مضاعفة .

وفي أيامه ثارت عوام دمشق ، وخربت كنيسة مريم بدمشق بعد احراقها ونهب ما فيها ، وقتل جماعة من النصارى بدمشق ، ونهب دورهم وخرابها في سنة ثمان وخمسين وستمائة ، بعد وقعة عين جالوت وهزيمة المغل . فلما دخل السلطان الملك المظفر قطز الى دمشق ، قرر على النصارى بها مائة ألف وخمسين ألف درهم ؛ جمعوها من بينهم ، وحملوها اليه بسفارة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب أتابك العسكر .

وفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، كانت واقعة النصارى . ومن خبرها أن الأمير سنجر الشجاعي كانت حرمته وافرة في أيام الملك المنصور قلاوون ، فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير في أوساطهم ، ولا يجسر نصراني يحدث مسلما وهو راكب ، واذا مشى فبذلة ، ولا يقدر أحد منهم يلبس ثوبا مصقولا . فلما مات الملك المنصور ، وتسلطن من بعده ابنه الملك الأشرف خليل ، خدم الكتاب النصارى عند الأمراء الخاصكية ، وقووا نفوسهم على المسلمين ، وترفعوا في ملابسهم وهيئاتهم .

وكان منهم كاتب عند خاصكي يعرف بعين الغزال ، فصدف يوما في طريق مصر سمسار شونة مخدومه ، فنزل السمسار عن دابته ، وقبل رجل الكاتب فأخذ يسبه ، ويهدده على مال قد تأخر عليه من ثمن غلة الأمير ، وهو يترفق له ويعتذر ، فلا يزيده ذلك عليه الا غلظة .

وأمر غلامه فنزل ، وكتف السمسار ، ومضى به — والناس تجمع عليه — حتى صار الى صليبة جامع أحمد بن طولون ، ومعه عالم كبير ، وما منهم الا من يسأله أن يخلي عن السمسار ، وهو يمتنع عليهم ، فتكاثروا عليه ، وألقوه عن حماره ، وأطلقوا السمسار .

وكان قد قرب من بيت أستاذه ، فبعث غلامه لينجده بمن فيه ، فأتاه بطائفة من غلمان الأمير وأوجاقيته ، فخلصوه من الناس ، وشرعوا في القبض عليهم ليفتكوا بهم . فصاحوا عليهم ما يحل ، ومروا مسرعين الى أن وقفوا تحت القلعة ، واستغاثوا : نصر الله السلطان ، فأرسل يكشف الخبر . فعرفوه ما كان من استطالة الكاتب النصراني على السمسار ، وما جرى لهم .

فطلب عين الغزال ، ورسم العامة باحضار * النصارى اليه ، وطلب الأمير بدر الدين بيدرا النائب والأمير سنجر الشجاعي ، وتقدم اليهما باحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم . فما زالا به حتى استقر الحال على

(*) ص٤٩٧ جـ٢ ، ط.بولاق .

أن ينادى فى القاهرة ومصر لا ألا يخدم أحدا من النصارى واليهود عند أمير . وأمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الأسلام ، فمن امتنع من الاسلام ضربت عنقه ، ومن أسلم استخدموه عندهم ورسم للنائب بعرض جميع مباشرى ديوان السلطان ويفعل فيهم ذلك .

فنزل الطلب لهم وقد اختفوا فصارت العامة تسق الى بيوتهم وتنهبها ، حتى عم النهب بيوت النصارى واليهود بأجمعهم ، وأخرجوا نساءهم مسبات ، وقتلوا جماعة بأيديهم . فقام الأمير بيدرا النائب مع السلطان فى أمر العامة ، وتلطف به حتى ركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصرانى شنق . وقبض على طائفة من العامة ، وشهرهم بعدما ضربهم فانكفوا عن النهب بعدما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر ، وقتلوا منها جماعه

ثم جمع النائب كثيرا من النصارى ، كتاب السلطان والأمراء ، وأوقفهم بين يدى السلطان عن بعد منه . فرسم للشجاعى وأمير جاندار أن يأخذ عدة معهما ، وينزلوا الى سوق الخيل تحت القلعة ، ويحفروا حفيرة كبيرة ، ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين ، ويضرموا عليهم الحطب نارا

فتقدم الأمير بيدرا ، وشفع فيهم . فأبى أن يقبل شفاعته ، وقال : ما أريد فى دولتى ديوانا نصرانيا فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمته ، ومن امتنع ضربت عنقه . فأخرجهم الى دار النيابة ، وقال لهم : ياجماعة ما وصلت قدرتى مع السلطان فى أمركم الا على شرط ، وهو أن من اختار دينه قتل ، ومن اختار الاسلام خلع عليه وباشر

فابتدره المكين بن السقاعى ، أحد المستوفين ، وقال ياخوند وأينا قواد يختار القتل على هذا الدين الخراء ؟ والله دين نقتل ونموت عليه يروح لا كتب الله عليه سلامة ، قولوا لنا الذى تختاروه حتى نروح اليه

فغلب بيدرا الضحك ، وقال له . ويلك أنحن نختار غير دين الاسلام ؟

فقال . ياخوند ما نعرف ، قولوا ونحن نتبعكم

فأحضر العدول واستسلمهم ، وكتب بذلك شهادات عليهم ، ودخل بها على السلطان . فألبسهم تشاريف ، وخرجوا الى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس .

فبدأ بعض الحاضرين بالمكين بن السقاعى وناوله ورقة ليكتب عليها ، وقال . يامولانا القاضى اكتب على هذه الورقة ، فقال . يابنى ما كان لنا هذا القضاء فى خلد . فلم يزالوا فى مجلس الوزير الى العصر ، فجاءهم الحاجب وأخذهم الى مجلس النائب ، وقد جمع به القضاة ، فجددوا اسلامهم بحضرتهم .

فصار الذليل منهم باظهار الاسلام عزيزا ، يبدى من اذلال المسلمين ، والتسلط عليهم بالظلم ، ما كان يمنعه نصرانيته من اظهاره . وما هو الا كما كتب به بعضهم الى الأمير بيدرا النائب :

أسلم الكافرون بالسيف قهرا
وإذا ما خلوا فهم مجرمونا
سلموا من رواح مال وروح
فهم سالمون لا مسلمونا

وفى أخريات شهر رجب سنة سبعمائة ، قدم وزير متملك المغرب الى القاهرة حاجا ، وصار يركب الى الموكب السلطانى وبيوت الأمراء . فبينا هو ذات يوم بسوق الخيل تحت القلعة ، اذا هو برجل راكب على فرس ، وعليه عمامة بيضاء وفرجية مصقولة ، وجماعة يمشون فى ركابه ، وهم يسألونه ويتضرعون اليه ويقبلون رجليه ، وهو معرض عنهم وينهرهم ، ويصيح بغلمانه أن يطردوهم عنه . فقال له بعضهم : يامولاى الشيخ بحياة ولدك النشو تنظر فى حالنا . فلم يزده ذلك الا عتوا وتحامقا .

فرق المغربى لهم ، وهم بمخاطبته فى أمرهم ، فقيل له وانه مع ذلك نصرانى . فغضب لذلك ، وكاد أن يبطش به ، ثم كف عنه وطلع الى القلعة ، وجلس مع الأمير سلار نائب السلطان والأمير بيبرس الجاشنكير ، وأخذ يحادثهم بما رآه وهو يبكى رحمة للمسلمين بما نالهم من قسوة النصارى .

ثم وعظ الأمراء ، وحذرهم نقمة الله ، وتسليط عدوهم عليهم من تمكين النصارى من ركوب الخيل ، وتسلطهم على المسلمين واذلالهم اياهم ، وأن الواجب الزامهم الصغار وحملهم على العهد الذى كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فمالوا الى قوله ، وطلبوا بطرك النصارى وكبراءهم وديان اليهود .

فجمعت نصارى كنيسة المعلقة ، ونصارى دير البغل ونحوهم ، وحضر كبراء اليهود والنصارى ، وقد حضر القضاة الأربعة ، وناظروا النصارى واليهود . فأذعنوا الى التزام العهد العمرى ، وألزم بطرك النصارى طائفته النصارى بلبس العمائم الزرق ، وشد الزنار فى أوساطهم ، ومنعهم من ركوب الخيل والبغال ، والتزام الصغار ، وحرم عليهم مخالفة ذلك أو شىء منه ، وانه برىء من النصرانية ان خالف . ثم اتبعه ديان اليهود بأن أوقع الكلمة على من خالف من اليهود ما شرط عليه من لبس العمائم الصفر والتزام * العهد العمرى ، وكتب بذلك عدة نسخ سيرت الى الأعمال .

فقام المغربى فى هدم الكنائس . فلم يمكنه قاضى القضاة تقى الدين محمد بن دقيق العيد من ذلك ، وكتب خطه بأنه لا يجوز أن يهدم من الكنائس الا ما استجد بناؤه . فغلقت عدة كنائس بالقاهرة ومصر مدة أيام فسعى بعض أعيان النصارى فى فتح كنيسة حتى فتحها .

فثارت العامة ، ووقفوا للنائب والأمراء ، واستغاثوا بأن النصارى قد فتحوا الكنائس بغير اذن ، وفيهم جماعة تكبروا عن لبس العمائم الزرق ، واحتمى كثير منهم بالأمراء ، فنودى فى القاهرة ومصر : أن يلبس النصارى بأجمعهم العمائم الزرق ، ويلبس اليهود بأسرهم العمائم الصفر ، ومن لم يفعل ذلك نهب ماله وحل دمه . ومنعوا جميعا من

(*) ص ٤٩٨ جـ٢ ، طـ بولاق .

الخدمة فى ديوان السلطان ودواوين الأمراء حتى يسلموا .

فتسلطت الغوغاء عليهم وتتبعوهم ، فمن رأوه بغير الزى الذى رسم به ضربوه بالنعال وصفعوا عنقه حتى يكاد يهلك ، ومن مر بهم وقد ركب ولا يثنى رجله ألقوه عن دابته ، وأوجعوه ضربا . فاختفى كثير منهم ، وألجأت الضرورة عدة من أعيانهم الى اظهار الاسلام أنفة من لبس الأزرق وركوب الحمير .

وقد أكثر شعراء العصر فى ذكر تغيير زى أهل الذمة . فقال علاء الدين على بن مظفر الوداعى :

لقد ألزم الكفار شاشات ذلة
تزيدهم من لعنة الله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائما
ولكنهم قد ألزموكم براطيشا

وقال شمس الدين الطيبى :

تعجبوا للنصارى واليهود معا
والسامرين لما عمموا الخرقا
كأنما بات بالأصباغ منسهلا
نسر السماء فأضحى فوقهم زرقا

فبعث ملك برشلونة ، فى سنة ثلاث وسبعمائة ، هدية جليلة زائدة عن عادته ، عم بها جميع أرباب الوظائف من الأمراء مع ما خص به السلطان ، وكتب يسأل فى فتح الكنائس . فاتفق الرأى على فتح كنيسة حارة زويلة لليعاقبة ، وفتح كنيسة البندقانيين من القاهرة .

ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وسبعمائة ، هدمت كنائس أرض مصر فى ساعة واحدة ، كما ذكر فى أخبار كنيسة الزهرى . وفى سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، رسم بتحرير ماهو موقوف على الكنائس من أراضى مصر ، فأناف على خمسة وعشرين ألف فدان .

وسبب الفحص عن ذلك كثرة تعاظم النصارى ، وتعديهم فى الشر والاضرار بالمسلمين ، لتمكنهم من أمراء الدولة ، وتفاخرهم بالملابس الجليلة والمغالاة فى أثمانها ، والتبسط فى المآكل والمشارب ، وخروجهم عن الحد فى الجراءة والسلاطة . الى أن اتفق مرور بعض كتاب النصارى على الجامع الأزهر من القاهرة ، وهو راكب بخف ومهماز ، وبقباء اسكندرى طرح على رأسه ، وقدامه طرادون يمنعون الناس من مزاحمته ، وخلفه عدة عبيد بثياب سرية على أكاديش فارهة .

فشق ذلك على جماعة من المسلمين ، وثاروا به وأنزلوه عن فرسه ، وقصدوا قتله وقد اجتمع عالم كبير ، ثم خلوا عنه . وتحدث جماعة مع الأمير طاز فى أمر النصارى وما هم عليه ، فوعدهم بالانصاف منهم ، فرفعوا قصة على لسان المسلمين — قرئت على السلطان الملك الصالح صالح بحضرة الأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة — تتضمن الشكوى من النصارى ، وأن يعقد لهم مجلس ليلتزموا بما عليهم من الشروط .

فرسم بطلب بطرك النصارى وأعيان أهل ملتهم ، وبطلب رئيس اليهود وأعيانهم ،

وحضر القضاة والأمراء بين يدى السلطان ، وقرأ القاضى علاء الدين على بن فضل الله ، كاتب السر ، العهد الذى كتب بين المسلمين وبين أهل الذمة — وقد أحضروه معهم — حتى فرغ منه . فالتزم من حضر منهم بما فيه ، وأقروا به ، فعددت لهم أفعالهم التى جاهروا بها وهم عليها ، وأنهم لا يرجعون عنها غير قليل ، ثم يعودون اليها كما فعلوه غير مرة فيما سلف .

فاستقر الحال على أن يمنحوا من المباشرة بشىء من ديوان السلطان ودواوين الأمراء ولو أظهروا الاسلام ، وألا يكره أحد منهم على اظهار الاسلام ، ويكتب بذلك الى الأعمال .

فتسلطت العامة عليهم ، وتتبعوا آثارهم ، وأخذوهم فى الطرقات ، وقطعوا ما عليهم من الثياب ، وأوجعوهم ضربا ، ولم يتركوهم حتى يسلموا ، وصاروا يضرمون لهم النار ليلقوهم فيها . فاختفوا فى بيوتهم ، ولم يتجاسروا على المشى بين الناس ، فنودى المنع من التعرض لأذاهم .

فأخذت العامة فى تتبع عوراتهم ، وما علوه من دورهم على بناء المسلمين فهدموه ، واشتد الأمر على النصارى باختفائهم . حتى انهم فقدوا من الطرقات مدة ، فلم ير منهم ولا من اليهود أحد . فرفع المسلمون قصة ، قرئت فى دار العدل فى يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب ، تتضمن أن النصارى قد استجدوا عمارات فى كنائسهم ، ووسعوها .

هذا وقد اجتمع بالقلعة عالم عظيم ، واستغاثوا بالسلطان * من النصارى ، فرسم بركوب والى القاهرة ، وكشفه على ذلك . فلم تمهل العامة ومرت بسرعة ، فخربت كنيسة بجوار قناطر السباع ، وكنيسة بطريق مصر للأسرى ، وكنيسة الفهادين بالجوانية من القاهرة ، ودير نهيا من الجيزة ، وكنيسة بناحية بولاق التكرورى ، ونهبوا حواصل ما خربوه من ذلك — وكانت كثيرة — وأخذوا أخشابها ورخامها ، وهجموا كنائس مصر والقاهرة ، ولم يبق الا أن يخربوا كنيسة البندقانيين بالقاهرة ، فركب الوالى ومنعهم منها ، واشتدت العامة ، وعجز الحكام عن كفهم .

وكان قد كتب الى جميع أعمال مصر وبلاد الشام ألا يستخدم يهودى ولا نصرانى ولو أسلم ، وأنه من أسلم منهم لا يمكن من العبور الى بيته ولا من معاشرة أهله الا أن يسلموا ، وأن يلزم من أسلم منهم بملازمة المساجد والجوامع لشهود الصلوات الخمس والجمع ، وأن من مات من أهل الذمة يتولى المسلمون قسمة تركته على ورثته ان كان له وارث ، والا فهى لبيت المال ، وكان يلى ذلك البطرك . وكتب بذلك مرسوم قرىء على الأمراء ، ثم نزل به الحاجب فقرأه فى يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الآخرة بجوامع القاهرة ومصر ، فكان يوما مشهودا .

ثم أحضر فى أخريات شهر رجب ، من كنيسة شبرا بعدما هدمت ، أصبع الشهيد — الذى كان يلقى فى النيل حتى يزيد

(*) ص٤٩٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

بإصبعه — وهو في صندوق . فالحرق بين يدي السلطان بالميدان من قلعة الجبل ، وذري رماده في البحر خشية من أخذ النصارى له .

فقدمت الأخبار بكثرة دخول النصارى ، من أهل الصعيد والوجه البحري ، في الإسلام وتعلمهم القرآن ، وأن أكثر كنائس الصعيد هدمت وبنيت مساجد ، وأنه أسلم بمدينة قليوب في يوم واحد أربعمائة وخمسون نصرانيا ، وكذلك بعامة الأرياف ، مكرا منهم وخديعة حتى يستخدموا في المباشرات ، وينكحوا المسلمات . فتم لهم مرادهم ، واختلطت بذلك الأنساب حتى صار أكثر الناس من أولادهم .

ولا يخفى أمرهم على من نور الله قلبه . فإنه يظهر من آثارهم القبيحة ، إذا تمكنوا من الإسلام وأهله ، ما يعرف به الفطن سوء أصلهم وقديم معاداة أسلافهم للدين وحملته .

« فصل » : النصارى فرق كثيرة : الملكانية ، والنسطورية ، واليعقوبية ، والبوذعانية ، والمرقولية — وهم الرهاويون الذين كانوا بنواحي حران — وغير هؤلاء . فمنهم من مذهبه مذهب الحرانية ، ومنهم من يقول بالنور والظلمة والتسوية ، فكلهم يقرون بنبوة المسيح عليه السلام ، ومنهم من يعتقد مذهب أرسطاليس .

والملكانية واليعقوبية والنسطورية متفقون على أن معبودهم ثلاثة أقانيم ، وهذه الأقانيم الثلاثة شيء واحد ، وهو جوهر قديم ، ومعناه أب وابن وروح القدس إله واحد ، وأن الابن نزل من السماء ، فتدرع جسدا من مريم ، وظهر للناس يحيي ويبرىء وينبىء ، ثم قتل وصلب ، وخرج من القبر لثلاث ، فظهر لقوم من أصحابه ، فعرفوه حق معرفته ، ثم صعد الى السماء فجلس عن يمين أبيه ؛ هذا الذي يجمعهم اعتقاده .

ثم انهم يختلفون في العبارة عنه : فمنهم من يزعم أن القديم جوهر واحد يجمعه ثلاثة أقانيم — كل أقنوم منها على جوهر خاص — فأحد هذه الأقانيم أب ، وأحد غير مولود ، والثالث روح فائضة منبثقة بين الأب والابن وأن الابن لم يزل مولودا من الأب ، وأن الأب لم يزل والدا للابن ، لا على جهة النكاح والتناسل ، لكن على جهة تولد ضياء الشمس من ذات الشمس ، وتولد حر النار من ذات النار .

ومنهم من يزعم أن معنى قولهم أن الاله ثلاثة أقانيم ، أنها ذات لها حياة ونطق : فالحياة هي روح القدس ، والنطق هو العلم والحكمة .... [1] والنطق والعلم والحكمة والكلمة عبارة عن الابن ، كما يقال الشمس وضياؤها والنار وحرها ، فهو عبارة عن ثلاثة أشياء ترجع الى أصل واحد .

ومنهم من يزعم أنه لا يصح له أن يثبت الاله فاعلا حكيما ، الا أنه يثبته حيا ناطقا . ومعنى الناطق عندهم العالم المميز ، لا الذي يخرج الصوت بالحروف المركبة ، ومعنى الحي عندهم من له حياة بها يكون حيا ، ومعنى العالم من له علم به يكون عالما ؛ قالوا : فذاته وعلمه وحياته ثلاثة أشياء

(1) هكذا بياض في الأصل .

والأصل واحد . فالذات هي العلة للاثنين اللذين هما العلم والحياة ، والاثنان هما المعلولان للعلة .

ومنهم من يتنزه عن لفظ العلة والمعلول في صفة القديم ، ويقول : أب وابن ، ووالدة وروح ، وحياة وعلم ، وحكمة ونطق .

قالوا : والابن اتحد بانسان مخلوق ، فصار هو وما اتحد به مسيحا واحدا ، وان المسيح هو اله العباد وربهم .

ثم اختلفوا في صفة الاتحاد . فزعم بعضهم أنه وقع بين جوهر لاهوتي وجوهر ناسوتي اتحاد فصارا مسيحا واحدا ، ولم يخرج الاتحاد كل واحد منهما عن جوهرته وعنصره ، وأن المسيح اله معبود ، وأنه ابن مريم الذي حملته وولدته ، وأنه قتل وصلب .

وزعم قوم أن المسيح بعد الاتحاد جوهران أحدهما لاهوتي ، والآخر ناسوتي ، وأن القتل والصلب وقعا به من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، وأن مريم حملت المسيح وولدته من جهة ناسوته ، وهذا قول النسطورية . ثم يقولون : ان المسيح بكماله * اله معبود ، وانه ابن الله ، تعالى الله عن قولهم .

وزعم قوم أن الاتحاد وقع بين جوهرين : لاهوتي ، وناسوتي ، فالجوهر اللاهوتي بسيط غير منقسم ولا متجزىء . وزعم قوم أن الاتحاد على جهة حلول الابن في الجسد ومخالطته اياه . ومنهم من زعم أن الاتحاد على جهة الظهور ، كظهور كتابة الخاتم والنقش اذا وقع على طين أو شمع ، وكظهور صورة الانسان في المرآة ، الى غير ذلك من الاختلاف الذي لا يوجد مثله في غيرهم ، حتى لا تكاد تجد اثنين منهم على قول واحد .

والملكانية تنسب الى ملك الروم ، وهم يقولون : ان الله اسم لثلاثة معان ، فهو واحد ثلاثة ، وثلاثة واحد . واليعقوبية تقول : انه واحد قديم ، وانه كان لا جسم ولا انسان ، ثم تجسم وتأنس . والمرقولية قالوا : الله واحد ، وعلمه غيره قديم معه ، والمسيح ابنه على جهة الرحمة ، كما يقال ابراهيم خليل الله . والمرقولية تزعم أن المسيح يطوف عليهم كل يوم وليلة . والبوزغانية تزعم أن المسيح هو الذي يحشر الموتى من قبورهم ويحاسبهم .

« فصل » : وعندهم لابد من تنصير أولادهم ، وذلك أنهم يغسلون المولود في ماء قد أغلى بالرياحين وألوان الطيب في اجانة جديدة ، ويقرأون عليه من كتابهم ، فيزعمون أنه حينئذ ينزل عليه روح القدس ، ويسمون هذا الفعل المعمودية .

وطهارتهم انما هي غسل الوجه واليدين فقط ، ولا يختتن منهم الا اليعقوبية ، ولهم سبع صلوات يستقبلون فيها المشرق ، ويحجون الى بيت المقدس ، وزكاتهم العشر من أموالهم ، وصيامهم خمسون يوما .

فالثاني والأربعون منه عيد الشعانين ، وهو اليوم الذي نزل فيه المسيح من الجبل ودخل بيت المقدس . وبعده بأربعة أيام عيد الفصح ، وهو اليوم الذي خرج فيه موسى وقومه من مصر . وبعده بثلاثة أيام عيد القيامة ، وهو

(*) ص ٥٠٠ جـ ٢ ، ط . بولاق .

اليوم الذى خرج فيه المسيح من القبر بزعمهم . وبعده بثمانية أيام عيد الجديد ، وهو اليوم الذى ظهر فيه المسيح لتلامذته بعد خروجه من القبر . وبعده بثمانية وثلاثين يوما عيد السلاق ، وهو اليوم الذى صعد فيه المسيح الى السماء .

ولهم عيد الصليب ، وهو اليوم الذى وجدوا فيه خشبة الصليب ، وزعموا أنها وضعت على ميت فعاش . ولهم أيضا عيد الميلاد وعيد الفصح ، ولهم قرابين وكهنة : فالشماس فوقه القس ، وفوق القس الأسقف ، وفوق الأسقف المطران ، وفوق المطران البطرك .

والسكر عندهم حرام ، ولا يحل لهم أكل اللحم ولا الجماع فى الصوم ، وكل ما يباع فى السوق ولم تمسه أنفسهم يباح أكله ، ولا يصح النكاح الا بحضور شماس وقس وعدول ومهر ، ويحرمون من النساء مايحرمه المسلمون ، ولا يحل الجمع بين امرأتين ، ولا التسرى بالاماء الا أن يعتقن ويتزوج بهن ، وانما خدم العبد سبع سنين عتق .

ولا يحل طلاق المرأة ، الا أن تأتى بفاحشة مبينة فتطلق ، ولا تحل للزوج أبدا ، وحد المحصن اذا زنى الرجم ، فان زنى غير محصن وحملت منه المرأة تزوج بها ، ومن قتل عمدا قتل ، ومن قتل خطأ يعرب ولا يحل عليه ، وأكثر أحكامهم من التوراة ، وقد لعن منهم من لاط أو شهد بالزور أو قامر أو زنى أو سكر[1] .

(١) فى بعض النسخ هنا بياض نحو ورقة . اهـ .

ذكر ديارات النصارى

قال ابن سيده : الدير خان النصارى ، والجمع أديار ، وصاحبه ديار وديرانى . قلت : الدير عند النصارى يختص بالنساك المقيمين به ، والكنيسة مجتمع عامتهم للصلاة .

« القلاية بمصر » : هذه القلاية بجانب المعلقة ، التى تعرف بقصر الشمع ، فى مدينة مصر . وهى مجمع أكابر الرهبان وعلماء النصارى ، وحكمها عندهم حكم الأديرة .

« دير طرا » : ويعرف بدير أبى جرج ، وهو على شاطىء النيل .

وأبو جرج هذا هو جرجس . وكان ممن عاقبه الملك دقلطيانوس ليرجع عن دين النصرانية ، ونوع له العقوبات من الضرب والتحريق بالنار فلم يرجع ، فضرب عنقه بالسيف فى ثالث تشرين وسابع بابه .

« دير شهران » : هذا الدير فى حدود ناحية طرا ، وهو مبنى بالحجر واللبن ، وبه نخل ، وبه عدة رهبان . ويقال انما هو دير شهران بالهاء ، وان شهران كان من حكماء النصارى ، وقيل بل كان ملكا .

وكان هذا الدير يعرف قديما بمرقوريوس — الذى يقال له مرقورة وأبو مرقورة — ثم لما سكنه برصوما بن التبان ، عرف بدير برصوما . وله عيد يعمل فى الجمعة الخامسة من الصوم الكبير ، فيحضره البطرك وأكابر النصارى ، وينفقون فيه مالا كبيرا .

ومرقوريوس هذا كان ممن قتله دقلطيانوس ،

فى تاسع عشر تموز وخامس عشرى أبيب ، وكان جنديا .

« دير الرسل » : هذا الدير خارج ناحية الصف والودى ، وهو دير قديم لطيف .

« دير بطرس وبولص » : هذا الدير خارج أطفيح من قبليها ، وهو دير لطيف ، وله عيد فى خامس أبيب يعرف بعيد « القصرية » .

وبطرس هذا هو أكبر الرسل الحواريين ، وكان دباغا — وقيل صيادا — قتله الملك نيرون فى تاسع عشرى حزيران وخامس أبيب . وبولص هذا كان يهوديا ، فتنصر بعد رفع المسيح عليه السلام ، ودعا الى دينه ، فقتله الملك نيرون بعد قتله بطرس بسنة .

« دير الجميزة » : ويعرف بدير الجود ، ويسمى موضعه البحارة جزائر الدير ، وهو قبالة الميمون ، وهو عزبة لدير العزبة . بنى على اسم أنطونيوس — ويقال أنطونة — وكان من أهل قمن ، فلما انقضت أيام الملك دقلطيانوس وفاته الشهادة ، أحب أن يتعوض عنها بعبادة توصل ثوابها أو قريبا من ذلك ، فترهب .

وكان أول من أحدث الرهبانية للنصارى عوضا عن الشهادة ، وواصل أربعين يوما ليلا ونهارا طاويا لا يتناول طعاما ولا شرابا مع قيام الليل ، وكان هكذا يفعل فى الصيام الكبير كل سنة .

« دير العزبة » : هذا الدير يسار اليه فى الجبل الشرقى ثلاثة أيام بسير الابل ، وبينه وبين بحر القلزم مسافة يوم كامل ، وفيه غالب الفواكه مزدرعة ، وبه ثلاثة أعين تجرى ، وبناه أنطونيوس المقدم ذكره .

ورهبان هذا الدير لا يزالون دهرهم صائمين ، لكن صومهم الى العصر فقط ، ثم يفطرون ، ما خلا الصوم الكبير والبرمولات ، فان صومهم فى ذلك الى طلوع النجم . والبرمولات هى الصوم كذلك بلغتهم .

« دير أنبا بولا » : وكان يقال له أولا دير بولص ، ثم قيل له دير بولا ، ويعرف بدير النمورة أيضا . وهذا الدير فى البر الغربى من الطور ، على عين ماء يردها المسافرون . وعندهم أن هذه العين تطهرت منها مريم ، أخت موسى عليهما السلام ، عند نزول موسى ببنى اسرائيل فى برية القلزم .

وأنبا بولا هذا كان من أهل الاسكندرية ، فلما مات أبوه ترك له ولأخيه مالا جما ، فخاصمه أخوه فى ذلك وخرج مغاضبا له ، فرأى ميتا يقبّر فاعتبر به ، ومر على وجهه سائحا حتى نزل على هذه العين ، فأقام هناك والله تعالى يرزقه ، فمر به أنطونيوس ، وصحبه حتى مات ، فبنى هذا الدير على قبره . وبين هذا الدير والبحر ثلاث ساعات ، وفيه بستان فيه نخل وعنب ، وبه عين ماء تجرى أيضا .

« دير القصير » : قال أبو الحسن على بن محمد الشابشتى فى كتاب « الديارات » : وهذا الدير فى أعلى الجبل ، على سطح فى قلته ، وهو دير حسن البناء محكم الصنعة ، نزه البقعة ، وفيه رهبان مقيمون به ، وله بئر منقورة فى الحجر يستقى له منها الماء ، وفى

(*) ص٥٠١ جـ٢ ، ط.بولاق م

هيكله صورة مريم عليها السلام فى لوح ، والناس يقصدون الموضع للنظر الى هذه الصورة .

وفى أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه ابن أحمد بن طولون ، لها أربع طاقات الى أربع جهات ، وكان كثير الغشيان لهذا الدير ، معجبا بالصورة التى فيه ، يستحسنها ويشرب على النظر اليها . وفى الطريق الى هذا الدير من جهة مصر صعوبة ، وأما من قبليه فسهل الصعود والنزول ، والى جانبه صومعه لا تخلو من حبيس يكون فيها .

وهو مطل على القرية المعروفة بشهران ، وعلى الصحراء والبحر ، وهى قرية كبيرة عامرة على شاطىء البحر ، ويذكرون أن موسى صلوات الله عليه ولد فيها ، ومنها ألقته أمه الى البحر فى التابوت . وبه أيضا دير يعرف بدير شهران .

ودير القصير هذا أحد الديارات المقصودة والمتنزهات المطروقة ، لحسن موضعه واشرافه على مصر وأعمالها ، وقد قال فيه شعراء مصر ووصفوه ، فذكروا طيبه ونزهته ، ولأبى هريرة بن أبى عاصم فيه من المنسرح .

كم لى بدير القصير من قصف
مع كل ذى صبوة وذى ظرف

لهوت فيه بشادن غنج
تقصر عنه بدائع الوصف

وقال ابن عبد الحكم فى كتاب « فتوح مصر » : وقد اختلف فى القصير : فعن ابن لهيعة قال : ليس بقصير موسى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه موسى الساحر . وعن المفضل بن فضالة عن أبيه قال : دخلنا على كعب الأحبار ، فقال لنا . ممن أنتم ؟ قلنا : فتيان من أهل مصر ، فقال : ما تقولون فى القصير ؟ قلنا : قصير موسى ؟ فقال . ليس بقصير موسى ، ولكنه قصير عزيز مصر ، كان اذا جرى النيل يترفع فيه ، وعلى ذلك انه لمقدس من الجبل الى البحر .

قال : ويقال بل كان موقدا يوقد فيه لفرعون اذا هو ركب من منف الى عين شمس . وكان على المقطم موقد آخر ، فاذا رأوا النار علموا بركوبه فأعدوا له ما يريد ، وكذلك اذا ركب منصرفا من عين شمس . والله أعلم .

وما أحسن قول كشاجم :

سلام على دير القصير وسفحه
بجنات حلوان الى النخلات

منازل كانت لى بهن مآرب
وكن مواخيرى ومتنزهاتى

اذا جئتها كان الجياد مراكبى
ومنصرفى فى السفن منحدرات *

فأقبض بالأسحار وحشى عيبها
وأقتنص الانس فى الظلمات

معى كل بسام أغر مهذب
على كل ما يهوى النديم مواتى

ولحمان مما أمسكته كلابنا
علينا ومما صيد فى الشبكات

وكأس وابريق وناى ومزهر
وساق غرير فاتر اللحظات

(*) ص٥٠٢ ج٢ ، ط. بولاق =

كأن قضيب البان عند اهتزازه
تعلم من أعطافه الحركات

هنالك تصفو لى مشارب لذتى
وتصحب أيام السرور حياتى

وقال علماء الأخبار من النصارى ان أرقاديوس ، ملك الروم ، طلب أرسانيوس ليعلم ولده ، فظن أنه قتله ، ففر الى مصر وترهب ، فبعث اليه أمانا ، أعلمه أن الطلب من أجل تعليم ولده ، فاستعفى وحمل الى الجبل المقطم شرقى طرا ، وأقام فى مغارة ثلاث سنين ومات

فبعث اليه أرقادوس ، فاذا هو قد مات ، فأمر أن يبنى على قبره كنيسة وهو المكان المعروف بدير القصير ، ويعرف الآن بدير البغل ، من أجل أنه كان بغل يستقى عليه الماء ، فاذا خرج من الدير أتى المودة هنالك من يملأ عليه ، فاذا فرغ من الماء تركه فعاد الى الدير . وفى رمضان سنة أربعمائة أمر الحاكم بأمر الله بهدم دير القصير ، فأقام الهدم والنهب فيه مدة أيام .

«دير مرحنا» : قال الشابشتى دير مرحنا على شاطىء بركة الحبش ، وهو قريب من النيل ، والى جانبه بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز ، ومجلس على عمد حسن البناء مليح الصنعة مسور أنشأه الأمير تميم أيضا وبقرب الدير بئر ، تعرف ببئر ساتى ، عليها جميزة كبيرة يجتمع الناس اليها ، ويشربون تحتها .

وهذا الموضع من مغانى اللعب ، ومواطن القصف والطرب ، وهو نزه فى أيام النيل وزيادة البحر وامتلاء البركة ، حسن المنظر فى أيام الزرع والنواوير ، لا يكاد حينئذ يخلو من المتنزهين والمتطربين ، وقد ذكرت الشعراء حسنه وطيبه وهذا الدير يعرف اليوم بدير الطين (بالنون) .

« دير أبى النعناع » هذا الدير خارج أنصنا ، وهو من جملة عماراتها القديمة ، وكنيسته فى قصره لا فى أرضه ، وهو على اسم أبى نخنس القصير ، عيده فى العشرين من بابه ، وسيأتى ذكر أبى نخنس هذا .

« دير مغارة شقلقيل » هو دير لطيف معلق فى الجبل ، وهو نقر فى الحجر على صخرة تحتها عقبة ، لا يتوصل اليه من أعلاه ولا من أسفله ولا سلم له ، وانما جعل له نقور فى الجبل ، فاذا أراد أحد أن يصعد اليه أرخيت له سلبة فأمسكها بيده ، وجعل رجليه فى تلك النقور وصعد ، وبه طاحونة يديرها حمار واحد

ويطل هذا الدير على النيل تجاه منفلوط وتجاه أم القصور ، وتجاهه جزيرة يحيط بها الماء — وهى التى يقال لها شقلقيل — وبها قريتان : احداهما شقلقيل ، والأخرى بنى شقير . ولهذا الدير عيد يجتمع فيه النصارى ، وهو على اسم يومينا ، وهو من الأجناد الذين عاقبهم ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية ويسجد للأصنام ، فثبت على دينه ، فقتله فى عاشر حزيران وسادس عشر بابه .

« دير بقطر » : بحاجر أبنوب ، من شرقى بنى مر ، تحت الجبل على مائتى قصبة منه . وهو دير كبير جدا ، وله عيد يجتمع فيه

نصارى البلاد شرقا وغربا ، ويحضره الأسقف .

ويقطر هذا هو ابن رومانوس كان أبوه من وزراء ديقلطيانوس ، وكان هو جيلا شجاعا له منزلة من الملك ، فلما تنصر وعده الملك ، ومناه ليرجع الى عبادة الأصنام فلم يفعل ، فقتله فى ثانى عشرى نيسان وسابع عشرى برمودة .

« دير بقطر شق » فى بحرى أبنوت وهو دير لطيف خال ، وانما تأتيه النصارى مرة فى كل سنة .

وبقطر شق ممن عذبه ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية فلم يرجع ، فقتله فى العشرين من هتور ، وكان جنديا

« دير بوجرج » بنى على اسم بوجرج وهو خارج المعيصرة بناحية شرق نى مر ، وتارة يخلو من الرهبان ، وتارة يعمر بهم ، وله وقت يعمل العيد فيه .

« دير حماس » : وحماس اسم بلد هو بحريها ، وله عيدان فى كل سنة ، وجموعات متعددة .

« دير الطير » لا هذا الدير قديم ، وهو مطل على النيل ، وله سلالم منحوتة فى الجبل ، وهو قبالة سملوط .

وقال الشابشتى . وبنواحى اخميم دير كبير عامر يقصد من كل موضع ، وهو بقرب الجبل المعروف بجبل الكهف ، وفى موضع من الجبل شق ، فاذا كان يوم عيد هذا الدير لم يبق فى البلد بوقير حتى يجىء الى هذا الموضع ، فيكون أمرا عظيما * بكثرتها واجتماعها وصياحها عند الشق ، ولا يزال الواحد بعد الواحد يدخل رأسه فى ذلك الشق ويصيح ، ويخرج ويجىء غيره ؛ الى أن يعلق رأس أحدها ، وينشب فى الموضع ، فيضطرب حتى يموت ، وتتفرق حينئذ الباقية فلا يبقى منها طائر .

وقال القاضى أبو جعفر القضاعى : ومن عجائبها (يعنى مصر) شعب البوقيرات بناحية أشموم من أرض الصعيد ، وهو شعب فى جبل فيه صدع تأتيه البوقيرات فى يوم من السنة كان معروفا ، فتعرض أنفسها على الصدع ، فكلما أدخل بوقير منها منقاره فى الصدع مضى لطيته ، فلا تزال تفعل ذلك حتى يلتقى الصدع على بوقير منها فيحبسه ، وتمضى كلها ، ولا يزال ذلك الذى تحبسه معلقا حتى يتساقط

قال مؤلفه رحمه الله تعالى . وقد بطل هذا فى جملة ما بطل

« دير أبى هرمينة » بحرى فاو الخراب ، وبحريه بربا فاو وهى مملوءة كتبا وحكما ، وبين دير الطين وهذا الدير نحو يومين ونصف . وأبو هرمنة هذا من قدماء الرهبان المشهورين عند النصارى

« دير السبعة جبال بأخميم » هذا الدير داخل سبعة أودية ، وهو دير عال بين جبال شامخة ، ولا تشرق عليه الشمس الا بعد ساعتين من الشروق لعلو الجبل الذى هو فى

(*) ص٥٠٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

لحفه ، واذا بقى للغروب نحو ساعتين ، خيل لمن فيه أن الشمس قد غابت وأقبل الليل ، فيشعلون حينئذ الضوء فيه . وعلى هذا الدير من خارجه عين ماء تظلها صفصافة ، ويعرف هذا الموضع الذى فيه دير الصفصافة بوادى الملوك ، لأن فيه نباتا يقال له الملوكة ، وهو شبه الفجل ، وماؤه أحمر قان يدخل فى صناعة علم أهل الكيمياء .

ومن داخل هذا الدير « دير القرقس » ، وهو فى أعلى جبل قد نقر فيه ، ولا يعلم له طريق ، بل يصعد اليه فى نقور فى الجبل ، ولا يتوصل اليه الا كذلك . وبين دير الصفصافة ودير القرقس ثلاث ساعات ، وتحت دير القرقس عين ماء عذب وأشجار بان .

« دير صبرة » : فى شرقى أخميم ، عرف بعرب يقال لهم بنى صبرة ، وهو على اسم ميخائيل الملك ، وليس به غير راهب واحد

« دير أبى بشادة الأسقف » : قريب من ناحية أنقة ، وهو بالحاجر ، وتجاهه فى الغرب منشأة أخميم . وكان أبو بشادة هذا من علماء النصارى .

« دير بوهور الرهب » : ويعرف بدير سواده ، وسوادة عرب تنزل هناك ، وهو قبالة منية بنى خصيب ؛ خربته العرب .

وهذه الأديرة كلها فى الشرق من النيل ، وجميعها لليعاقبة ، وليس فى الجانب الشرقى الآن سواها ، وأما الجانب الغربى من النيل فانه كثير الديارات لكثرة عمارته .

« دير دموة بالجيزة » : ويعرف بدموة السباع ، وهو على اسم قزمان ودميان ، وهو دير لطيف ، وتزعم النصارى أن بعض الحكماء — كان يقال له سبع — أقام بدموة ، وأن كنيسة دموة التى بأيدى اليهود الآن كانت ديرا من ديارات النصارى ، فابتاعته منهم اليهود فى ضائقة نزلت بهم ، وقد تقدم ذكر كنيسة دموة . وقزمان ودميان من حكماء النصارى ورهبانهم العباد ، ولهما أخبار عندهم .

« دير نهيا » : قال الشابشتى : ونهيا بالجيزة ، وديرها هذا من أحسن ديارات مصر وأنزهها ، وأطيبها موضعا ، وأجلها موقعا ، عامر برهبانه وسكانه ، وله فى أيام النيل منظر عجيب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته ، فاذا انصرف الماء ، وزرعت الأرض ، أظهرت أراضيه غرائب النواوير وأصناف الزهر . وهو من المتنزهات الموصوفة ، والبقاع المستحسنة ، وله خليج يجتمع فيه سائر الطير ، فهو أيضا متصيد ممتع ، وقد وصفته الشعراء وذكرت حسنه وطيبه ؛ قلت : وقد خرب هذا الدير .

« دير طمويه » : قال ياقوت : طمويه — بفتح الطاء وسكون الميم وفتح الواو وياء ساكنة — قريتان بمصر : احداهما فى كورة المرتاحية ، والأخرى بالجيزة .

قال الشابشتى : وطمويه فى الغرب بازاء حلوان ، والدير راكب البحر ، حوله الكروم والبساتين والنخل والشجر ، وهو نزه عامر آهل ، وله فى النيل منظر حسن ، وحين تخضر الأرض يكون فى بساطين من البحر والزرع . وهو أحد متنزهات أهل مصر المذكورة ، ومواضع لهوها المشهورة .

ولابن أبى عاصم المصرى فيه من البسيط :

واشرب بطنوبه من صهباء صافية
تزرى بخمر قرى هيت وعانات *
عـلى رياض من النـوار زاهرة
تجرى اسماعيل فيها بين جنـات
كأن نبت الشـقيق العصفرى بها
كاسات خمر بدت فى اثر كاسات
كأن نرجسـها من حسـنه حدق
فى خضـرة يناجى بالاشارات
كأنما النيـل فى مر النسـيم به
مستلئم فى دروع سابريات
منازل كنت مفتونا بها سعفا
وكن قدما مواخيرى وحاناتى
اذ لا أزال ملمـا بالصبوح على
ضرب النواقيس صبا بالديارات

قلت : هذا الدير عند النصارى على اسم بوجرج ، ويجتمع فيه النصارى من النواحى .

« دير أقفاص » : وصوابها اقفهس وقد خرب .

« دير خارج ناحية منهرى » خامل الذكر لأنهم لا يطعمون فيه أحدا .

« دير الخادم » : على جانب المنهى بأعمال البهنسا ، على اسم غبريال الملك ، به بستان فيه نخل وزيتون .

« دير أشنين » عرف بناحية أشنين فانه فى بحريها ، وهو لطيف على اسم السـيدة مريم ، وليس به سوى راهب واحد .

« دير أيسوس » : ومعنى أيسوس يسوع . ويقال له دير أرجنوس ، وله عيد فى خامس عشرى بشنس فاذا كان ليلة هذا اليـوم سدت بئر فيه تعرف ببئر أيسوس ، وقـد اجتمع الناس الى الساعة السادسة من النهار ، ثم كشفوا الطابق عن البئر ، فاذا بها قد فاض ماؤها ثم يتزل ، فحيث وصل الماء قاسوا منه الى موضع استقر فيه الماء ، فما بلغ كانت زيادة النيل فى تلك السنة من الأذرع

« دير سدمنت » : على جـانب المنهى ، بالحاجر بين الفيـوم والريف ، على اسـم بوجرج وقد ضعفت أحواله عما كان عليه ، وقل ساكنه .

« دير النقلون » . ويقال له دير الخشـبة ودير غبريال الملك ، وهو تحت مغارة فى الجبل الذى يقال له طارف الفيوم ، وهذه المغـارة تعرف عندهم بمظلة يعقـوب ، ويزعمـون أن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر كان يستظل بها وهذا الجبل مطل على بلدين يقال لهما اطفيح شيلا شلا .

وسلالم لهذا الدير من بحر المنهى ، ومن تحت دير سدمنت ، ولهذا الدير عيد يجمع فيه نصارى الفيوم وغيرهم ، وهو على السكة التى تنزل الى الفيوم ، ولا يسلكها الا القليل من المسافرين .

« دير القلمون » . هـذا الدير فى برية ، تحت عقبة القلمون ، يتوصل المسـافر منها الى الفيوم ، يقال لها عقبة الغريق وبنى هذا الدير على اسم صموئيل الراهب ، وكان فى زمن الفترة ما بين عيسى ومحمد صـلى الله

(*) ص ٥٠٥ جـ ٢ ، ط . بولاق .

عليهما وسلم ، ومات فى ثامن كيهك . وفى هذا الدير نخل كثير يعمل من تمره العجوة ، وفيه أيضا شجر اللبخ ولا يوجد الا فيـه ، وثمره بقدر الليمون طعمه حلو فى مثل طعم الرامخ ، ولنواه عدة منافع .

وقال أبو حنيفة فى كتاب « النبات » : ولا ينبت اللبخ الا بأنصنا ، وهو عود تنشر منه ألواح السفن ، وربما أرعف ناشرها ، ويباع اللوح منها بخمسين دينارا ونحـوها ، واذا شد لوح منها بلوح ، وطرحا فى الماء سـنة ، التأما وصارا لوحا واحدا .

وفى هذا الدير قصران مبنيان بالحجارة ، وهما عاليان كبيران لبياضهما اشراق . وفيه أيضا عين ماء تجرى ، وفى خارجه عين أخرى . وبهذا الوادى عدة معابد قديمة ، وثم واد يقال له الأميلح فيه عين ماء تجرى ، ونخيل مثمرة تأخذ العرب ثمرها . وخارج هذا الدير ملاحة يبيع رهبان الدير ملحها ، فيعم تلك الجهات .

« دير السيدة مريم » : خارج طنبـدى ، ليس فيه سوى راهب واحد ، وهو على غير الطريق المسلوك . وكان بأعمال البهسا عدة ديارات خربت .

« دير برقانا » : بحرى بنى خالد ، وهو مبنى بالحجر ، وعمارته حسـنة ، وهو من أعمال المنية ، وكان به فى القديم ألف راهب ، وليس به الآن سوى راهبين ، وهو فى الحاجز تحت الجبل .

« دير بالوجه » : على جنب المنهى ، وهو لأهل دلجة ، وهو من الأديرة الكبار ، وقد خرب حتى لم يبق به سوى راهب أو راهبين ، وهو بازاء دلجة بينه وبينها نحو ساعتين .

« دير مرقورة » : ويقال أبو مرقورة . هذا الدير تحت دلجة بخارجها من شرقيها ، وليس به أحد * .

« دير صنبو » : فى خارجها من بحريها . على اسم السيدة مريم ، وليس به أحد .

« دير تادرس » : قبلى صنبو ، وقد تلاشى أمره لاتضاع حال النصارى

« دير الريرمـون » : فى شرقى ناحيـة الريرمون ، وهو شرقى ملوى وغربى أنصنا وهو على اسم الملك غبريال .

« دير المحرق » : تزعم النصارى أن المسيح عليـه السـلام أقام فى موضعه ستة أشهر وأياما . وله عيد عظيم — يعرف بعيد الزيتونة وعيد العنصرة — يجتمع فيه عالم كثير .

« دير بنى كلب » : عرف بذلك لنزول بنى كلب حوله ، وهو على اسم غبريال ، وليس فيه أحد من الرهبـان ، وانما هو كنيسـة لنصارى منفلوط ، وهو غربيها .

« دير الجاولية » : هـذا الدير ناحيـة الجاولية من قبليها ، وهو على اسم الشهيـد مرقورس — الذى يقال له مرقورة — وعليه رزق محبسة ، وتأتيـه النذورات والعوايد ، وله عيدان فى كل سنة .

« دير السبعة جبال » : هذا الدير عـلى رأس الجبل الذى غربى سيوط على شـاطىء النيل ، ويعرف بدير بخنس القصير ، وله عدة أعيـاد ، وخـرب فى سـنة احدى وعشرين وثمانمائة من منسر طرقه ليلا .

(*) ص ٥٠٥ جـ ٢ ، ط . بولاق .

« بكس » ، ويقال أبو بكس القصير . كان راهبا قديما له أخبار كثيرة ، منها أنه غرس خشبة يابسة في الأرض بأمر شيخه له ، وسقاها الماء مدة ، فصارت شجرة مثمرة يأكل منها الرهبان ، وسميت شجرة الطاعة وعلى في ديره .

« دير المطل » ، هذا الدير على اسم السيدة مريم ، وهو على طرف الجبل تحت دير السبعة جبال قبالة سيوط ، وله عيد يحضره أهل النواحي ، وليس به أحد من الرهبان .

الديرة ادرنكة

اعلم أن ناحية ادرنكة هي من قرى النصارى الصعايدة ، ونصاراها أهل علم في دينهم وتفاسيرهم في اللسان القبطي ، ولهم أديرة كثيرة في خارج البلد في قبليها مع الجبل ، وقد خرب أكثرها ، وبقي منها :

« دير بوجرج » ، وهو عامر البناء ، وليس به أحد من الرهبان ، ويعمل فيه عيد في أوانه .

« دير أرض الحاجر ودير ميكائيل ودير كرفونة » : على اسم السيدة مريم ، وكان يقال له « أرافونة وأغرافونا » ، ومعناه النساخ ، فإن نساخ علوم النصارى كانت في القديم تقيم به . وهو على طرف الجبل ، وفيه مغاير كثيرة ، منها ما يسير الماشي بجنبه نحو يومين .

« دير أبي بشام » ، تحت دير كرفونة بالحاجر ، وقد كان أبو بشام جنديا في أيام ديقلطيانوس قيصر ، وطلب ليرجع عن دينه ، ثم قتل في ثامن عشري كانون الأول ولم يرجع .

« دير بوساويرس » ، بحاجر أدرنكة ، كان على اسم السيدة مريم . وكان ساويرس من عظماء الرهبان ، فعمل بطركا وظهرت آية عند موته ، وذلك أنه أنذرهم لما سار إلى الصعيد بأنه إذا مات تنشق الجبل ، وتقع منه قطعة عظيمة على الكنيسة فلا تضرها . فلما كان في بعض الأيام سقطت قطعة عظيمة من الجبل كما قال ، فعلم رهبان هذا الدير بأن ساويرس قد مات ، فأرخوا ذلك فوجدوه وقت موته ، فسموا الدير حينئذ باسمه .

« دير تادرس » ، تحت دير بوساويرس . وتادرس اثنان كانا من أجناد ديقلطيانوس : أحدهما يقال له قاتل التنين ، والآخر الاسفهلار ، وقتلا كما قتل غيرهما .

« دير منسي آك » ، ويقال منساك وبني ساك وإيساك ، ومعنى ذلك إسحاق ، وكان على اسم السيدة ماريهام — يعني مار مريم — ثم عرف بمنساك ، وكان راهبا قديما له عندهم شهرة ، وبهذا الدير بئر تحته في الحاجر منها شرب الرهبان ، فإذا زاد النيل شربوا من مائه .

« دير الرمل » ، تحت دير منساك ، ويعرف بدير الأثل ، وهو لأعمال بوتيج ، ودير منساك لأهل ريفة هو ودير ساويرس ، ودير كرافونة لأهل سيوط ، ودير بوجرج لأهل أدرنكة . ودير الأثل كان في خراب ، فعمر بجانبه كهف لطيف عرف بمنشاة الشيخ ، لأن الشيخ أبابكر الشاذلي أنشأه ، وأنشأ بستانا كبيرا ، وقد

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقراء الجمهورية والمساء ٣ قروش

خطط المقريزى

الجزء

٤٧

كتاب التحرير



« كانت مصر هى مسقط رأسى . وملعب أترابى . ومجمع ناسى . ومغنى عشيرتى وحامتى . وموطن خاصتى وعامتى . وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره . وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازلت مذ شذوت العلم . وآتانى ربى الفطانة والفهم . أرغب فى معرفة أخبارها . وأحب الإشراف على الاعتراف من آبارها . وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها »

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

وبها مواضع منقورة آثار كبيرة ، ويقال بها الآثار ، الغربي من الساقية من الخشبة ، وربما أخذ منها صليب ، ويزعمون البقاع ، وخلاف ذلك .

والديرة المذكورة قريب بعضها من بعض ، وفيها كثير منقوش على ألواح فيها الموشحات من كتابة القبط ، كما على البرابي ، وهي مزخرفة بصنعة الصنائع مشتمل على علوم شتى .

ودير السبعة جبال ، ودير الطير ، ودير السباع ، خارج سيوط في الجبل . ويقال إنه كان في العاصي ثلاثة ومشحون ديرا ، وإن الساعي كان لا يزال من الجانبين إلى أسيوط في ظل البساتين ، وقد خرب ذلك وباد أهله .

« دير موشة » : ويعرف خارج سيوط من قبليها ، بني على اسم توما الرسول الهندي ، وهو بين الجبلين قريب من ريفة ، وفي أيام النيل لا يوصل إليه إلا في مركب ، وله أعياد .

والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطي الصعيدي ، وهو أصل اللغة القبطية ، وبعدها اللغة القبطية البحرية . ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية ، ولهم أيضا معرفة تامة باللغة الرومية .

« دير أبي مقروفة » : وأبو مقروفة اسم للبلدة التي بها هذا الدير . وهو منقور في لحف الجبل ، وفيه عدة مغاير ، وهو على اسم السيدة مريم . ومقابله في الشرق القرية الكرامي ... ، يأتيهم الفلاح من قرا ويكتب . وهو دير معطل .

« دير بومقام » : خارج قلسنا ، بالجانب الشرقي ، وكانوا فيما قبل ، وكانوا فيها ألوف .

« دير بوشنودة » : ويعرف بالدير الأبيض ، وهو غربي ناحية سوهاي ، ويقال بالصعيد ، وقد خرب ولم يبق منه إلا كنيسته . ويقال إن مساحته أربعة فدادين ونصف وربع ، والباقي منه نحو فدان ، وهو دير قديم .

« الدير الأحمر » : ويعرف بدير أبي بشاي ، وهو بحري الدير الأبيض بينهما نحو ثلاث ساعات ، وهو دير لطيف مبني بالطوب الأحمر . وأبو بشاي هذا من الرهبان المعاصرين لشنودة ، وهو تلميذه ، وصار من تحت يده ثلاثة آلاف راهب ، وله دير آخر في برية شيهات .

« دير أبي ميساس » : ويقال أبو ميسيس ، واسمه موسى . وهذا الدير تحت البلينا ، وهو دير كبير .

وأبو ميسيس هذا كان راهبا من أهل البلينا ، وله عندهم شهرة ، وهم ينذرونه ، ويوصلون له نذورهم .

ولم يبق بعد هذا الدير إلا أديرة بحاجر إسنا وقمولة قليلة العمارة . وكان بأصفون دير كبير ، وكانت أصفون من أحسن بلاد مصر ، وأكثر نواحي الصعيد فواكه ، وكان رهبان ديرها معروفين بالعلم والمهارة ، فخربت أصفون ، وخرب ديرها .

---

(١) [illegible]

وهذا آخر أديرة الصعيد ، وهى كلها متلاشية آئلة الى الدثور ، بعد كثرة عمارتها ، ووفور أعداد رهبانها وسعة أرزاقهم ، وكثرة ما كان يحمل اليهم .

وأما « الوجه البحرى » فكان فيه أديرة كثيرة خربت ، وبقى منها بقية . فكان بالمقس — خارج القاهرة من بحريها — عدة كنائس هدمها الحاكم بأمر الله أبو على منصور ، فى تاسع عشر ذى الحجة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، وأباح ما كان فيها ، فنهب منها شىء كثير جدا بعدما أمر ، فى شهر ربيع الأول منها ، بهدم كنائس راشدة خارج مدينة مصر من شرقيها ، وجعل موضعها الجامع المعروف براشدة .

وهدم أيضا فى سنة أربع وتسعين كنيستين هناك ، وألزم النصارى بلبس السواد وشد الزنار ، وقبض على الأملاك التى كانت محبسة على الكنائس والأديرة ، وجعلها فى ديوان السلطان ، وأحرق عدة كثيرة من الصلبان ، ومنع النصارى من اظهار زينة الكنائس فى عيد الشعانين ، وتشدد عليهم ، وضرب جماعة منهم .

وكانت بالروضة كنيسة بجوار المقياس ، فهدمها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

وكان فى ناحية أبى النمرس من الجيزة كنيسة ، قام فى هدمها رجل من الزيالعة ، لأنه سمع أصوات النواقيس يجهر بها فى ليلة الجمعة بهذه الكنيسة . فلم يتمكن من ذلك فى أيام الأشرف شعبان بن حسين ، لتمكن الأقباط فى الدولة ، فقام فى ذلك مع الأمير الكبير برقوق — وهو يومئذ القائم بتدبير الدولة — حتى هدمها على يد القاضى جمال الدين محمود العجمى ، محتسب القاهرة ، فى ثامن عشر رمضان سنة ثمانين وسبعمائة ، وعملت مسجدا .

« دير الخندق » : ظاهر القاهرة من بحريها عمره القائد جوهر عوضا عن دير هدمه فى القاهرة كان بالقرب من الجامع الأقمر ، حيث البئر التى تعرف الآن ببئر العظمة ، وكانت اذ ذاك تعرف ببئر العظام ، من أجل أنه نقل عظاما كانت بالدير ، وجعلها دير الخندق . ثم هدم دير الخندق فى رابع عشرى شوال سنة ثمان وسبعين وستمائة فى أيام المنصور قلاوون ، ثم جدد هذا الدير الذى هناك بعد ذلك ، وعمل كنيستين يأتى ذكرهما فى الكنائس .

« دير سرياقوس » · كان يعرف بأبى هور ، وله عيد يجتمع فيه الناس ، وكان فيه أعجوبة ذكرها الشابشتى .

وهو أن من كان به خنازير ، أخذه رئيس هذا الدير وأضجعه ، وجاءه بخنزير فلحس موضع الوجع ، ثم أكل الخنازير * التى فيه ، فلا يتعدى ذلك الى الموضع الصحيح ، فاذا نظف الموضع ، ذر عليه رئيس الدير من رماد خنزير فعل مثل هذا العمل من قبل ، ودهنه بزيت قنديل البيعة ، فانه يبرأ ، ثم يؤخذ ذلك الخنزير الذى أكل خنازير العليل ، فيذبح ويحرق ، ويعد رماده لمثل هذه الحالة .

(*) ص٥٠٧ ج٢ ، ط . بولاق .

فكان لهذا الدير دخل عظيم ممن يبرأ من هذه العلة ، وفيه خلق من النصارى .

« دير أتريب » : ويعرف بمارى مريم ، وعيده فى حادى عشرى بؤونة ، وذكر الشابشتى أن حمامة بيضاء تأتى فى ذلك العيد فتدخل المذبح ، لا يدرون من أين جاءت ، ولا يرونها الى يوم مثله . وقد تلاشى أمر هذا الدير حتى لم يبق به الا ثلاثة من الرهبان ، لكنهم يجتمعون فى عيده ، وهو على شاطىء النيل قريب من بنها العسل .

« دير المغطس » : عند الملاحات ، قريب من بحيرة البرلس ، وتحج اليه النصارى من قبلى أرض مصر ومن بحريها — مثل حجهم الى كنيسة القمامة — وذلك يوم عيده ، وهو فى بشنس ، ويسمونه عيد الظهور من أجل أنهم يزعمون أن السيدة مريم تظهر لهم فيه ، ولهم فيه مزاعم كلها من أكاذيبهم المختلقة .

وليس بحذاء هذا الدير عمارة ، سوى منشأة صغيرة فى قبليه بشرق ، وبقربه الملاحة التى يؤخذ منها الملح الرشيدى . وقد هدم هذا الدير فى شهر رمضان سنة احدى وأربعين وثمانمائة بقيام بعض الفقراء المعتقدين .

« دير العسكر » : فى أرض السباخ على يوم من دير المغطس ، على اسم الرسل ، وبقربه ملاحة الملح الرشيدى ، ولم يبق به سوى راهب واحد .

« دير جميانة » : على اسم بوجرج ، قريب من دير العسكر ، على ثلاث ساعات منه ، وعيده عقب عيد دير المغطس ، وليس به الآن أحد .

« دير الميمنة » : بالقرب من دير العسكر . كانت له حالات جليلة ، ولم يكن فى القديم دير بالوجه البحرى أكثر رهبانا منه ، الا أنه تلاشى أمره وخرب ، فنزله الحبش وعمروه . وليس فى السباخ سوى هذه الأربعة الأديرة .

وأما وادى هبيب ، وهو وادى النطرون — ويعرف ببرية شيهات ، وببرية الأسقط ، وبميزان القلوب — فانه كان بها فى القديم مائة دير ، ثم صارت سبعة ممتدة غربا على جانب البرية القاطعة بين بلاد البحيرة والفيوم . وهى فى رمال منقطعة ، وسباخ مالحة ، وبرار منقطعة معطشة ، وقفار مهلكة ، وشراب أهلها من حفائر ، وتحمل النصارى اليهم النذور والقرابين . وقد تلاشت فى هذا الوقت ، بعدما ذكر مؤرخو النصارى أنه خرج الى عمرو بن العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب ، بيد كل واحد عكاز ، فسلموا عليه ، وأنه كتب لهم كتابا هو عندهم .

فمنها « دير أبى مقار الكبير » : وهو دير جليل عندهم ، وبخارجه أديرة كثيرة خربت ، وكان دير النساك فى القديم ، ولا يصح عندهم بطركية البطرك حتى يجلسوه فى هذا الدير بعد جلوسه بكرسى اسكندرية . ويذكر أنه كان فيه من الرهبان ألف وخمسمائة لا تزال مقيمة به ، وليس به الآن الا قليل منهم .

والمقارات ثلاثة : أكبرهم صاحب هذا الدير ، ثم أبو مقار الاسكندرانى ، ثم أبو مقار الأسقف . وهؤلاء الثلاثة قد وضعت رممهم فى ثلاث أنابيب من خشب ، وتزورها النصارى بهذا الدير ، وبه أيضا الكتاب الذى كتبه عمرو بن العاص لرهبان وادى هبيب ، بجرايه نواحى الوجه البحرى ، على ما أخبرنى من أخبر برؤيته فيه .

« أبو مقار الأكبر » : هو مقاريوس . أخذ الرهبانية عن أنطونيوس ، وهو أول من لبس منهم القلنسوة والأسكيم — وهو سير من جلد فيه صليب يتوشح به الرهبان فقط — ولقى أنطونيوس بالجبل الشرقى من حيث دير العربة ، وأقام عنده مدة ، ثم ألبسه لباس الرهبانية ، وأمره بالمسير الى وادى النطرون ليقيم هناك ، ففعل ذلك .

واجتمع عنده الرهبان الكثيرة العدد ، وله منهم فضائل عديدة . منها : أنه كان لا يصوم الأربعين الا طاويا فى جميعها ، لا يتناول غذاء ولا شرابا البتة ، مع قيام ليلها ، وكان يعمل الخوص ويتقوت منه ، وما أكل خبزا طريا قط ، بل يأخذ القراقيش فيبلها فى نقاعة الخوص ، ويتناول منها هو ورهبان الدير ما يمسك الرمق من غير زيادة ، هذا قوتهم مدة حياتهم حتى مضوا لسبيلهم .

وأما أبو مقار الاسكندرانى ، فانه ساح من الاسكندرية الى مقاريوس المذكور ، وترهب على يديه . ثم كان أبو مقار الثالث ، وصار أسقفا .

« دير أبى يحنس القصير » : يقال انه عمر فى أيام قسطنطين بن هيلانة . ولأبى يحنس هذا فضائل مذكورة ، وهو من أجل الرهبان . وكان لهذا الدير حالات شهيرة ، وبه طوائف من الرهبان ، ولم يبق به الآن الا ثلاثة رهبان *.

« دير الياس » عليه السلام : وهو دير الحبشة . وقد خرب دير يحنس ، كما خرب دير الياس ، أكلت الأرضة أخشابهما فسقطا ، وصار الحبشة الى دير سيدة بويحنس القصير ، وهو دير لطيف بجوار دير بويحنس القصير .

وبالقرب من هذه الأديرة :

« دير أنبانوب » : وقد خرب هذا الدير أيضا .

« أنبا نوب » هذا من أهل سنبود قتل فى الاسلام ، ووضع جسده فى بيت بسنبود .

« دير الأرمن » : قريب من هذه الأديرة ، وقد خرب .

وبجوارها أيضا :

« دير بوبشاى » : وهو دير عظيم عندهم ، من أجل أن بوبشاى هذا كان من الرهبان الذين فى طبقة مقاريوس ويحنس القصير ، وهو دير كبير جدا .

« دير بازاء دير بوبشاى » : كان بيد اليعاقبة ، ثم ملكه رهبان السريان من نحو

(*) ص٥٠٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

المائة سنة ، وهو بيدهم الآن . ومواضع هذه الأديرة يقال لها بركة الأديرة .

« دير سيدة برموس » : على اسم السيدة مريم . فيه بعض رهبان ، وبازائه :

« دير موسى » : ويقال أبو موسى الأسود ويقال برمؤس ، وهذا الدير لسيدة برمؤس ، فبرموس اسم الدير .

وله قصة حاصلها أن مكسيموس ودوماديوس كانا ولدى ملك الروم ، وكان لهما معلم يقال له أرسانيوس ، فسار المعلم من بلاد الروم الى أرض مصر ، وعبر برية شيهات هذه ، وترهب وأقام بها حتى مات ، وكان فاضلا ، وأتاه فى حياته ابنا الملك المذكوران ، وترهبا على يديه ، فلما ماتا ، بعث أبوهما فبنى على اسمهما كنيسة برموس .

وأبو موسى الأسود كان لصا فاتكا قتل مائة نفس ، ثم انه تنصر وترهب ، وصنف عدة كتب ، وكان ممن يطوى الأربعين فى صومه ، وهو بربرى .

« دير الزجاج » : هذا الدير خارج مدينة الاسكندرية ، ويقال له الهانطون ، وهو على اسم بوجرج الكبير . ومن شرط البطرك أنه لا بد أن يتوجه من المعلقة بمصر الى دير الزجاج هذا ، ثم انهم فى هذا الزمان تركوا ذلك . فهذه أديرة اليعاقبة .

وللنساء ديارات تختص بهن ، فمنها :

« دير الراهبات » : بحارة زويلة من القاهرة ، وهو دير عامر بالأبكار المترهبات وغيرهن من نساء النصارى .

« دير البنات » : بحارة الروم بالقاهرة . عامر بالنساء المترهبات .

« دير المعلقة » : بمدينة مصر . وهو أشهر ديارات النساء ، عامر بهن .

« دير بربارة » : بمصر بجوار كنيسة بربارة . عامر بالبنات المترهبات .

« بربارة » : كانت قديسة فى زمان دقلطيانوس ، فعذبها لترجع عن ديانتها وتسجد للأصنام ، فثبتت على دينها ، وصبرت على عذاب شديد — وهى بكر لم يمسها رجل — فلما يئس منها ضرب عنقها وعنق عدة من النساء معها .

« وللنصارى الملكية » قلاية بطركهم بجوار كنيسة ميكائيل ، بالقرب من جسر الأفرم خارج مصر ، وهى مجمع الرهبان الواردين من بلاد الروم .

« دير بخنس القصير » : المعروف بالقصير ، وصوابه عندهم دير القصير ، على وزن شهيد ، وحرف فقيل دير القُصَيْر — بضم القاف وفتح الصاد وتشديد الياء — فسماه المسلمون دير القُصَيْر — بضم القاف وفتح الصاد واسكان الياء آخر الحروف — كأنه تصغير قصير .

وأصله — كما عرفتك — دير القصير الذى هو ضد الطويل ، وسمى أيضا دير هرقل ، ودير البغل ، وقد تقدم ذكره . وكان من أعظم ديارات النصارى ، وليس به الآن سوى واحد يحرسه ، وهو بيد الملكية .

« دير الطور » : قال ابن سيده : الطور الجبل ، وقد غلب على طور سيناء — جبل بالشام — وهو بالسريانية طورى ، والنسب اليه طورى وطوارى .

وقال ياقوت : طور سبعة مواضع .

الأول : طور زيتا ، بلفظ الزيت من الأدهان قصور ، علم لجبل بقرب رأس عين .

الثانى : طور زيت أيضا جبل بالبيت المقدس ، وهو شرقى سلوان .

الثالث : الطور علم لجبل بعينه مطلّ على مدينة طبرية بالأردن .

الرابع : الطور علم لجبل كورة تشتمل على عدة قرى بأرض مصر ، من الجهة القبلية بين مصر وجبل فاران .

الخامس : طور سيناء . اختلفوا فيه : فقيل هو جبل بقرب أيلة ، وقيل جبل بالشام ، وقيل سيناء حجازية ، وقيل سحرتية .

السادس : طور عبدين * — بفتح العين وسكون الباء الموحدة وكسر الدال المهملة وياء آخر الحروف ونون — اسم لبلدة من نواحى نصيبين ، فى بطن الجبل المشرف عليها المتصل بجبل جودى .

السابع : طور هارون أخى موسى عليهما السلام .

وقال الواحدى فى تفسيره : وقال الكلبى وغيره : والجبل فى قوله تعالى « ولكن انظر الى الجبلّ » أعظم جبل بمدين يقال له زبير ، وذكر الكلبى أن الطور سمى بيطور ابن اسماعيل . قال السهيلى : فلعله محذوف الياء ان كان صح ما قاله .

وقال عمر بن شبة : أخبرنى عبد العزيز ، عن أبى معشر ، عن سعيد بن أبى سعيد ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة أنهار [1] فى الجنة ، وأربعة أجبل وأربع ملاحم فى الجنة ، فأما الأنهار فسيحان وجيحان والنيل والفرات ، وأما الأجبل فالطور ولبنان وأحد وورقان » وسكت عن الملاحم .

وعن كعب الأحبار : معاقل المسلمين ثلاثة : فمعقلهم من الروم دمشق ، ومعقلهم من الدجال الأردن ، ومعقلهم من يأجوج ومأجوج الطور .

وقال شعبة عن أرطاة بن المنذر : اذا خرج يأجوج ومأجوج ، أوحى الله تعالى الى عيسى ابن مريم عليه السلام : أنى قد أخرجت خلقا من خلقى لا يطيقهم أحد غيرى ، فمر بمن معك الى جبل الطور ؛ فيمر ومعه من الذرارى اثنا عشر ألفا .

وقال طلق بن حبيب عن زرعة : أردت الخروج الى الطور ، فأتيت عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فقلت له ، فقال : انما تشد الرحال الى ثلاثة مساجد : الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، فدع عنك الطور فلا تأته .

(*) ص٥٠٦ جـ٦ ، ط . بولاق

(1) قوله « اربعة أنهار الخ » ، هكذا لفظ الحديث فى النسخ التى بيدى والعهدة عليها ، فليراجع فى مظانه ، او يصحح .

وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى ، وقد ذكر كور أرض مصر : ومن كور القبلة قرى الحجاز ، وهى كورة الطور وفاران ، وكورة راية والقلزم ، وكورة ايلة وحيزها ، ومدين وحيزها ، والعويند والحوراء وحيزهما ، ثم كورة بدا وشعيب .

قلت : لا خلاف بين علماء الأخبار ، من أهل الكتاب ، أن جبل الطور هذا هو الذى كلم الله تعالى نبيه موسى عليه السلام عليه أو عنده ، وبه الى الآن دير بيد الملكية ، وهو عامر ، وفيه بستان كبير به نخل وعنب وغير ذلك من الفواكه .

وقال الشابشتى : وطور سيناء هو الجبل الذى تجلى فيه النور لموسى بن عمران عليه السلام ، وفيه صعق ، والدير فى أعلى الجبل مبنى بحجر أسود ، عرض حصنه سبع أذرع ، وله ثلاثة أبواب حديد ، وفى غربيه باب لطيف ، وقدامه حجر أقيم : اذا أرادوا رفعه رفعوه ، واذا قصدهم أحد أرسلوه ، فانطبق على الموضع ، فلم يعرف مكان الباب .

وداخل الدير عين ماء ، وخارجه عين أخرى .

وزعم النصارى أن به نارا من أنواع النار التى كانت ببيت المقدس ، يقدون منها فى كل عشية ، وهى بيضاء لطيفة ضعيفة الحر لا تحرق ، ثم تقوى اذا أوقد منها السراج . وهو عامر بالرهبان ، والناس يقصدونه ، وهو من الديارات الموصوفة . قال ابن عامر فيه :

ياراهب الدير ماذا الضوء والنور
فقد أضاء بما فى ديرك الطور

هلّ حلت الشمس فيه دون أبرجها
أو غيب البدر فيه وهو مستور

فقال ما حله شمس ولا قمر
لكن تقرب فيه اليوم قوربن

قلت : ذكر مؤرخو النصارى أن هذا الدير أمر بعمارته يوسطيانوس ، ملك الروم بقسطنطينية ، فعمل عليه حصن فوقه عدة قلالى ، وأقيم فيه الحرس لحفظ رهبانه من قوم يقال لهم بنو صالح من العرب . وفى أيام هذا الملك كان المجمع الخامس من مجامع النصارى .

وبينه وبين القلزم — وكانت مدينة — طريقان : احداهما فى البر والأخرى فى البحر ، وهما جميعا يؤديان الى مدينة فاران ، وهى من مدائن العمالقة ، ثم منها الى الطور مسيرة يومين ، ومن مدينة مصر الى القلزم ثلاثة أيام ، ويصعد الى جبل الطور بستة آلاف وستمائة وست وستين مرقاة .

وفى نصف الجبل كنيسة لايلياء النبى ، وفى قلته كنيسة ، على اسم موسى عليه السلام ، بأساطين من رخام وأبواب من صفر ، وهو الموضع الذى كلم الله تعالى فيه موسى ، وقطع منه الألواح ، ولا يكون فيها الا راهب واحد للخدمة ، ويزعمون أنه لا يقدر أحد أن يبيت فيها ، بل يهيأ له موضع من خارج يبيت فيه . ولم يبق لهاتين الكنيستين وجود .

« دير البنات بقصر الشمع بمصر » : وهو على اسم بوجرج ، وكان مقياس النيل قبل الاسلام ، وبه آثار ذلك الى اليوم .

فهذا ما للنصارى اليعاقبة والملكية ، رجالهم ونسائهم ، من الديارات بأرض مصر قبليها وبحريها ، وعدتها ستة وثلاثون ديرا منها لليعاقبة .... دير ، وللملكية .... [1]

ذكر كنائس النصارى

قال الأزهرى : كنيسة اليهود جمعها كنائس ، وهى معربة أصلها كنشت . انتهى .

وقد نطقت العرب بذكر الكنيسة . قال العباس بن مرداس السلمى :

يدورون بى فى ظل كل كنيسة
وما كان قومى يبتنون الكنائسا

وقال ابن قيس الرقيات :

كأنها دمية مصورة
فى بيعة من كنائس الروم

« كنيستا الخندق » : ظاهر القاهرة . احداهما على اسم غبريال الملاك ، والأخرى على اسم مرقوريوس ، وعرفت برويس ، وكان راهبا مشهورا بعد سنة ثمانمائة . وعند هاتين الكنيستين يقبر النصارى موتاهم ، وتعرف بمقبرة الخندق . وعمرت هاتان الكنيستان عوضا عن كنائس المقس فى الأيام الاسلامية .

« كنيسة حارة زويلة بالقاهرة » : كنيسة عظيمة عند النصارى اليعاقبة ، وهى على اسم السيدة ، وزعموا أنها قديمة تعرف بالحكيم زايلون ، وكان قبل الملة الاسلامية بنحو مائتين وسبعين سنة ، وأنه صاحب علوم شتى ، وأن له كنزا عظيما يتوصل اليه من بئر هناك .

« كنيسة تعرف بالمغيثة » : بحارة الروم من القاهرة ، على اسم السيدة مريم ، وليس لليعاقبة بالقاهرة سوى هاتين الكنيستين .

وكان بحارة الروم أيضا كنيسة أخرى ، يقال لها كنيسة بربارة ، هدمت فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة . وسبب ذلك أن النصارى رفعوا قصة للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يسألون الاذن فى اعادة ما تهدم منها ، فأذن لهم فى ذلك ، فعمروها أحسن ما كانت . فغضبت طائفة من المسلمين ، ورفعوا قصة للسلطان بأن النصارى أحدثوا بجانب هذه الكنيسة بناء لم يكن فيها ، فرسم للأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة بهدم ما جددوه .

فركب ، وقد اجتمع الخلائق ، فبادروا وهدموا الكنيسة كلها فى أسرع وقت ، وأقاموا فى موضعها محرابا ، وأذنوا وصلوا وقرأوا القرآن ، كل ذلك بأيديهم ، فلم تمكن معارضتهم خشية الفتنة . فاشتد الأمر على النصارى ، وشكوا أمرهم للقاضى كريم الدين ناظر الخاص ، فقام وقعد غضبا لدين أسلافه ، وما زال بالسلطان حتى رسم بهدم المحراب ، فهدم وصار موضعه كوم تراب ، ومضى الحال على ذلك .

(1) هكذا بياض فى الأصل .

« كنيسة بومنا » : هذه الكنيسة قريبة من السد ، فيما بين الكيمان بطريق مصر ، وهى ثلاث كنائس متجاورة : احداها لليعاقبة ، والأخرى للسريان ، وأخرى للأرمن . ولها عيد فى كل سنة تجتمع اليه النصارى .

« كنيسة المعلقة » بمدينة مصر ، فى خط قصر الشمع ، على اسم السيدة . وهى جليلة القدر عندهم ، وهى غير القلاية التى تقدم ذكرها .

« كنيسة شنودة » بمصر : نسبت لأبى شنودة الراهب القديم ، وله أخبار : منها أنه كان ممن يطوى فى الأربعين اذا صام ، وكان تحت يده ستة آلاف راهب يتقوت هو واياهم من عمل الخوص ، وله عدة مصنفات .

« كنيسة مريم » : بجوار كنيسة شنودة . هدمها على بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، أمير مصر ، لما ولى من قبل أمير المؤمنين الهادى موسى فى سنة تسع وستين ومائة ، وهدم كنائس محرس قسطنطين ، وبذل له النصارى فى تركها خمسين ألف دينار فامتنع .

فلما عزل بموسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فى خلافة هارون الرشيد ، أذن موسى بن عيسى للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها على ابن سليمان ، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ، وقالا : هو من عمارة البلاد ، واحتجا بأن الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين .

« كنيسة بوجرج الثقة » : هذه الكنيسة فى درب ، بخط قصر الشمع بمصر ، يقال له درب الثقة ، ويجاورها كنيسة سيدة بوجرج .

« كنيسة بربارة » بمصر : كبيرة جليلة عندهم ، وهى تنسب الى القديسة بربارة الراهبة ، وكان فى زمانها راهبتان بكران ، وهما ايسى وتكلة ، ويعمل لهن عيد عظيم بهذه الكنيسة يحضره البطريق .

« كنيسة بوسرجة » : بالقرب من بربارة ، بجوار زاوية ابن النعمان ، فيها مغارة يقال ان المسيح وأمه مريم عليهما السلام جلسا بها .

« كنيسة بابليون » : فى قبلى قصر الشمع بطريق جسر الأفرم . وهذه الكنيسة قديمة جدا ، وهى لطيفة ، ويذكر * أن تحتها كنزا ببابليون ، وقد خرب ما حولها .

« كنيسة تاودورس الشهيد » : بجوار بابليون . نسبت للشهيد تاودورس الاسفهسلار .

« كنيسة بومنا » : بجوار بابليون أيضا . وهاتان الكنيستان مغلوقتان لخراب ما حولهما .

« كنيسة بومنا » : بالحمراء ، وتعرف الحمراء اليوم بخط قناطر السباع ، فيما بين القاهرة ومصر . وأحدثت هذه الكنيسة ، فى سنة سبع عشرة ومائة من سنى الهجرة ، باذن الوليد بن رفاعة أمير مصر . فغضب وهيب اليحصبى ، وخرج على السلطان ، وجاء الى

(*) ص ٥١١ جـ ٢ ، ط . بولاق م.

ابن رفاعة ليفتك به ، فأخذ وقتل ، وكان وهيب مدريا من اليمن قدم الى مصر .

فخرج القراء على الوليد بن رفاعة غضبا لوهيب وقاتلوه . وصارت معونة ، امرأة وهيب ، تطوف ليلا على منازل القراء تحرضهم على الطلب بدمه ، وقد حلقت رأسها ، وكانت امرأة جزلة . فأخذ ابن رفاعة أبا عيسى مروان ابن عبد الرحمن اليحصبي بالقراء ، فاعتذر وخلى ابن رفاعة عنهم ، فسكنت الفتنة بعدما قتل جماعة .

ولم تزل هذه الكنيسة بالحمراء الى أن كانت واقعة هدم الكنائس ، فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، على ما يأتى ذكر ذلك والخبر عن هدم جميع كنائس أرض مصر وديارات النصارى فى وقت واحد .

« كنيسة الزهرى » : كانت فى الموضع الذى فيه اليوم البركة الناصرية ، بالقرب من قناطر السباع ، فى بر الخليج الغربى غربى اللوق .

واتفق فى أمرها عدة حوادث . وذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما أنشأ ميدان المهارى ، المجاور لقناطر السباع ، فى سنة عشرين وسبعمائة ، قصد بناء زريبة على النيل الأعظم بجوار الجامع الطيبرسى . فأمر بنقل كوم تراب كان هناك ، وحفر ما تحته من الطين لأجل بناء الزريبة ، وأجرى الماء الى مكان الحفر ، فصار يعرف الى اليوم بالبركة الناصرية .

وكان الشروع فى حفر هذه البركة من آخر شهر ربيع الأول سنة احدى وعشرين وسبعمائة . فلما انتهى الحفر الى جانب كنيسة الزهرى — وكان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها ، وبجانبها أيضا عدة كنائس فى الموضع الذى يعرف اليوم بحكر أقبغا ما بين السبع سقايات وبين قنطرة السد خارج مدينة مصر — أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرى ، حتى بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان ليحفر ، وهو اليوم بركة الناصرية ، وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة .

وكان القصد من ذلك أن تسقط من غير قصد لخرابها ، وصارت العامة ، من غلمان الأمراء العمالين فى الحفر ، وغيرهم فى كل وقت يصرخون على الأمراء فى طلب هدمها ، وهم يتغافلون عنهم . الى أن كان يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة ، والعمل من الحفر بطال ، فتجمع عدة من غوغاء العامة بغير مرسوم السلطان ، وقالوا بصوت عال مرتفع : الله أكبر ، ووضعوا أيديهم بالمساحى ونحوها فى كنيسة الزهرى ، وهدموها حتى بقيت كوما ، وقتلوا من كان فيها من النصارى ، وأخذوا جميع ما كان فيها .

وهدموا كنيسة بومنا التي كانت بالحمراء ، وكانت معظمة عند النصارى من قديم الزمان ، وبها عدة من النصارى قد انقطعوا فيها ، ويحمل اليهم نصارى مصر سائر ما يحتاج اليه ، ويبعث اليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة . فوجد فيها مال كثير ما بين نقد ومصاغ وغيره ، وتسلق العامة الى أعلاها ،

وفتحوا أبوابها ، وأخذوا منها مالا وقماشا وجرار خمر ، فكان أمرا مهولا .

ثم مضوا من كنيسة الحمراء ، بعدما هدموها ، الى كنيستين بجوار السبع سقايات — تعرف احداهما بكنيسة البنات ، كان يسكنها بنات النصارى وعدة من الرهبان — فكسروا أبواب الكنيستين ، وسبوا البنات — وكن زيادة على ستين بنتا — وأخذوا ما عليهن من الثياب ، ونهبوا سائر ما ظفروا به ، وحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها ، هذا والناس فى صلاة الجمعة .

فعندما خرج الناس من الجوامع ، شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار ودخان الحريق ، ومرج الناس وشدة حركاتهم ومعهم ما نهبوه ، فما شبه الناس الحال لهوله الا بيوم القيامة ، وانتشر الخبر ، وطار الى الرميلة تحت قلعة الجبل . فسمع السلطان ضجة عظيمة ورجة منكرة أفزعته ، فبعث لكشف الخبر ، فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجا عظيما ، وغضب من تجرى العامة واقدامهم على ذلك بغير أمره ، وأمر الأمير أيدغمش أميراخور أن يركب بجماعة الأوشاقية ، ويتدارك هذا الخلل ، ويقبض على من فعله .

فأخذ أيدغمش يتهيأ للركوب ، واذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت فى القاهرة ، وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة . وجاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامة قامت بمصر فى جمع كثير جدا ، وزحفت الى كنيسة المعلقة بقصر الشمع ، فأغلقها النصارى وهم محصورون بها ، وهى على أن تؤخذ .

فتزايد غضب السلطان ، وهم أن يركب بنفسه * ويبطش بالعامة ، ثم تأخر لما راجعه الأمير أيدغمش ، ونزل من القلعة فى أربعة من الأمراء الى مصر ، وركب الأمير بيبرس الحاجب والأمير ألماس الحاجب الى موضع الحفر ، وركب الأمير طينال الى القاهرة ، وكل منهم فى عدة وافرة ، وقد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يعفو عن أحد .

فقامت القاهرة ومصر على ساق ، وفرت النهابة ، فلم يظفر الأمراء منهم الا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبه من الكنائس ، ولحق الأمير أيدغمش بمصر ، وقد ركب الوالى الى المعلقة قبل وصوله ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب ، فأخذه الرجم حتى فر منهم ، ولم يبق الا أن يحرق باب الكنيسة .

فجرد أيدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة ، فوجدوا عالما لا يقع عليه حصر ، وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل ، وأمر أصحابه بارجاف العامة من غير اهراق دم ، ونادى مناديه : من وقف حل دمه . ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا ، وصار أيدغمش واقفا الى أن أذن العصر خوفا من عود العامة ، ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هناك ، وترك معه خمسين من الأوشاقية .

وأما الأمير ألماس فانه وصل الى كنائس الحمراء وكنائس الزهرى ليتداركها ، فاذا بها

(*) ص٥١٢ جـ٢ ، ط . بولاق .

قد بقيت كيمانا ليس بها جدار قائم ، فعاد وعاد الأمراء ، فردوا الخبر على السلطان وهو لا يزداد الا حنقا ، فما زالوا به حتى سكن غضبه .

وكان الأمر في هدم هذه الكنائس عجبا من العجب ، وهو أن الناس لما كانوا في صلاة الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل ، فعندما فرغوا من الصلاة ، قام رجل موله وهو يصيح من وسط الجامع : اهدموا الكنيسة التي في القلعة اهدموها ، وأكثر من الصياح المزعج حتى خرج عن الحد ، ثم اضطرب .

فتعجب السلطان والأمراء من قوله ، ورسم لنقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك ، فمضيا من الجامع الى خرائب التتر من القلعة ، فاذا فيها كنيسة قد بنيت فهدموها ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بواقعة كنائس الحمراء والقاهرة ، فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير ، وطلب فلم يوقف له على خبر .

واتفق أيضا بالجامع الأزهر أن الناس لما اجتمعوا في هذا اليوم لصلاة الجمعة ، أخذ شخصا من الفقراء مثل الرعدة ، ثم قام بعلما أذن قبل أن يخرج الخطيب ، وقال : اهدموا كنائس الطغيان والكفرة ، نعم الله أكبر فتح الله ونصر ، وصار يزعج نفسه ، ويصرخ من الأساس الى الأساس . فحدق الناس بالنظر اليه ، ولم يدروا ما خبره ، وافترقوا في أمره ، فقائل : هذا مجنون ، وقائل : هذه اشارة لشيء . فلما خرج الخطيب أمسك عن الصياح ، وطلب بعد انقضاء الصلاة فلم يوجد ، وخرج الناس الى باب الجامع ، فرأوا النهابة ومعهم أخشاب الكنائس وثياب النصارى وغير ذلك من النهوب ، فسألوا عن الخبر ، فقيل قد نادى السلطان بخراب الكنائس ، فظن الناس الأمر كما قيل ، حتى تبين بعد قليل أن هذا الأمر انما كان من غير أمر السلطان . وكان الذي هدم في هذا اليوم من الكنائس بالقاهرة : كنيسة بحارة الروم ، وكنيسة بالبندقانيين ، وكنيستين بحارة زويلة .

وفي يوم الأحد الثالث من يوم الجمعة — الكائن فيه هدم كنائس القاهرة ومصر — ورد الخبر من الأمير بدر الدين بيلبك المحسني ، والى الاسكندرية ، بأنه لما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر بعد صلاة الجمعة ، وقع في الناس هرج ، وخرجوا من الجامع وقد وقع الصياح : هدمت الكنائس . فركب المملوك من فوره ، فوجد الكنائس قد صارت كوما ، وعدتها أربع كنائس ، وأن بطاقة وقعت من والي البحيرة : بأن كنيستين في مدينة دمنهور هدمتا والناس في صلاة الجمعة من هذا اليوم ، فكثر التعجب من ذلك .

الى أن ورد في يوم الجمعة سادس عشره الخبر ، من مدينة قوص ، بأن الناس عندما فرغوا من صلاة الجمعة في اليوم التاسع من شهر ربيع الآخر ، قام رجل من الفقراء وقال : يافقراء اخرجوا الى هدم الكنائس . وخرج في جمع من الناس ، فوجدوا الهدم قد وقع في الكنائس ، فهدمت ست كنائس كانت بقوص وما حولها في ساعة واحدة .

وتواتر الخبر من الوجه القبلي والوجه البحري بكثرة ما هدم في هذا اليوم ، وقت صلاة الجمعة وما بعدها ، من الكنائس والأديرة في جميع اقليم مصر كله ما بين قوص والاسكندرية ودمياط . فاشتد حنق السلطان على العامة خوفا من فساد الحال ، وأخذ الأمراء في تسكين غضبه ، وقالوا : هذا الأمر ليس من قدرة البشر فعله ، ولو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما قدر عليه ، وما هذا الا بأمر الله سبحانه وبقدره لما علم من كثرة فساد النصارى وزيادة طغيانهم ، ليكون ما وقع نقمة وعذابا لهم .

هذا والعامة بالقاهرة ومصر قد اشتد خوفهم من السلطان ، لما كان يبلغهم عنه من التهديد لهم بالقتل ، ففر عدة من الأوباش والغوغاء ، وأخذ القاضي * فخر الدين ، ناظر الجيش ، في ترجيع السلطان عن الفتك بالعامة وسياسة الحال معه ، وأخذ كريم الدين الكبير — ناظر الخاص — يغريه بهم الى أن أخرجه السلطان الى الاسكندرية بسبب تحصيل المال ، وكشف الكنائس التي خربت بها .

فلم يمض سوى شهر من يوم هدم الكنائس حتى وقع الحريق بالقاهرة ومصر في عدة مواضع ، وحصل فيه من الشناعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس . فوقع الحريق في ربع بخط الشوايين من القاهرة في يوم السبت عاشر جمادى الأولى ، وسرت النار الى ما حوله ، واستمرت الى آخر يوم الأحد . فتلف في هذا الحريق شيء كثير .

وعندما أطفيء وقع الحريق بحارة الديلم في زقاق العريسة ، بالقرب من دور كريم الدين ناظر الخاص في خامس عشرى جمادى الأولى ، وكانت ليلة شديدة الريح ، فسرت النار من كل ناحية حتى وصلت الى بيت كريم الدين . وبلغ ذلك السلطان ، فانزعج انزعاجا عظيما لما كان هناك من الحواصل السلطانية ، وسير طائفة من الأمراء لاطفائه ، فجمعوا الناس لاطفائه ، وتكاثروا عليه .

وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين الى ليلة الثلاثاء ، فتزايد الحال في اشتعال النار ، وعجز الأمراء والناس عن اطفائها لكثرة انتشارها في الأماكن وقوة الريح التي ألقت باسقات النخل ، وغرقت المراكب ، فلم يشك الناس في حريق القاهرة كلها ، وصعدوا المآذن ، وبرز الفقراء وأهل الخير والصلاح ، وضجوا بالتكبير والدعاء وجأروا ، وكثر صراخ الناس وبكاؤهم ، وصعد السلطان الى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح .

واستمر الحريق والاستحثاث يرد على الأمراء من السلطان في اطفائه الى يوم الثلاثاء . فنزل نائب السلطان ومعه جميع الأمراء وسائر السقائين ، ونزل الأمير بكتمر الساقي ، فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم منه ولا أشد هولا .

ووكل بأبواب القاهرة من يرد السقائين اذا خرجوا من القاهرة لأجل اطفاء النار ، فلم يبق

(*) ص٥١٣ ج٢ ، ط « بولاق »

أحد من سقائى الأمراء وسقائى البلد الا وعمل ، وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات ، وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين لهدم الدور . فهدم فى هذه النوبة ما شاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة .

وعمل فى هذا الحريق أربعة وعشرون أميرا من الأمراء المقدمين ، سوى من عداهم من أمراء الطبلخانات والعشراوات والمماليك ، وعمل الأمراء بأنفسهم فيه ، وصار الماء من باب زويلة الى حارة الديلم فى الشارع بحرا من كثرة الرجال والجمال التى تحمل الماء .

ووقف الأمير بكتمر الساقى والأمير أرغون النائب ، على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين الى بيت ولده بدرب الرصاصى ، وخربوا ستة عشر دارا من جوار الدار وقبالتها حتى تمكنوا من نقل الحواصل .

فما هو الا أن كمل اطفاء الحريق ونقل الحواصل ، واذا بالحريق قد وقع فى ربع الظاهر ، خارج باب زويلة ، وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتا ، وتحته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء ، وهب مع الحريق ريح قوية فركب الحاجب والوالى لاطفائه ، وهدموا عدة دور من حوله حتى انطفأ .

فوقع فى ثانى يوم حريق بدار الأمير سلار ، فى خط بين القصرين ، ابتدأ من البادهنج — وكان ارتفاعه عن الأرض مائة ذراع بالعمل — فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفىء . فأمر السلطان الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة ، والأمير ركن الدين بيبرس الحاجب ، بالاحتراز واليقظة .

ونودى بأن يعمل عند كل حانوت دن فيه ماء أو زير مملوء بالماء ، وأن يقام مثل ذلك فى جميع الحارات والأزقة والدروب . فبلغ ثمن كل دن خمسة دراهم بعد درهم ، وثمن الزير ثمانية دراهم . ووقع حريق بحارة الروم وعدة مواضع حتى انه لم يخل يوم من وقوع الحريق فى موضع .

فتنبه الناس لما نزل بهم ، وظنوا أنه من أفعال النصارى — وذلك أن النار كانت ترى فى منابر الجوامع وحيطان المساجد والمدارس — فاستعدوا للحريق ، وتتبعوا الأحوال حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبلولة بزيت وقطران .

فلما كان ليلة الجمعة النصف من جمادى ، قبض على راهبين عندما خرجا من المدرسة الكهارية بعد العشاء الآخرة ، وقد اشتعلت النار فى المدرسة ورائحة الكبريت فى أيديهما فحملا الى الأمير علم الدين الخازن والى القاهرة ، فأعلم السلطان بذلك ، فأمر بعقوبتهما .

فما هو الا أن نزل من القلعة ، واذا بالعامة قد أمسكوا نصرانيا ، وجد فى جامع الظاهر ومعه خرق على هيئة الكعكة فى داخلها قطران ونفط ، وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر ، وما زال واقفا الى أن خرج الدخان ، فمشى يريد الخروج من الجامع .

وكان قد فطن به شخص ، وتأمله من حيث لم يشعر به النصرانى ، فقبض عليه ، وتكاثر

الناس فجروه الى بيت الوالى ، وهو بهيئة المسلمين ، فعوقب عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب . فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط وتفرقته مع جماعة من أتباعهم ، وانه ممن أعطى ذلك ، وأمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر .

ثم أمر بالراهبين فعوقبا ، فاعترفا * أنهما من سكان دير البغل ، وأنهما هما اللذان أحرقا المواضع التى تقدم ذكرها بالقاهرة ، غيرة وحنقا من المسلمين لما كان من هدمهم الكنائس ، وأن طائفة النصارى تجمعوا ، وأخرجوا من بينهم مالا جزيلا لعمل هذا النفط .

واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الاسكندرية ، فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى ، فقال : النصارى لهم بطرك يرجعون اليه ، ويعرف أحوالهم . فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدث معه فى أمر الحريق ، وما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك ، فجاء فى حماية والى القاهرة ، فى الليل خوفا من العامة . فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم ، وأحضر اليه الثلاثة النصارى من عند الوالى ، قالوا لكريم الدين — بحضرة البطرك والوالى — جميع ما اعترفوا به قبل ذلك . فبكى البطرك عندما سمع كلامهم ، وقال : هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريبهم الكنائس . وانصرف من عند كريم الدين مبجلا مكرما ، فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها ، فركبها وسار .

فعظم ذلك على الناس ، وقاموا عليه يدا واحدة ، فلولا أن الوالى كان يسايره والا هلك . وأصبح كريم الدين يريد الركوب الى القلعة على العادة ، فلما خرج الى الشارع ، صاحت به العامة : ما يحل لك ياقاضى تحامى للنصارى وقد أحرقوا بيوت المسلمين ، وتركبهم بعد هذا البغال ، فشق عليه ما سمع ، وعظمت نكايته .

واجتمع بالسلطان ، فأخذ يهون أمر النصارى الممسوكين ، ويذكر أنهم سفهاء وجهال . فرسم السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم ، فنزل وعاقبهم عقوبة مؤلمة ، فاعترفوا بأن أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على احراق ديار المسلمين كلها ، وفيهم راهب يصنع النفط ، وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر : فجعل للقاهرة ثمانية ، ولمصر ستة .

فكبس دير البغل ، وقبض على من فيه ، وأحرق من جماعته أربعة بشارع صليبة جامع ابن طولون فى يوم الجمعة ، وقد اجتمع لمشاهدتهم عالم عظيم . فضرى من حينئذ جمهور الناس على النصارى ، وفتكوا بهم ، وصاروا يسلبون ما عليهم من الثياب ، حتى فحش الأمر ، وتجاوزوا فيهم المقدار ، فغضب السلطان من ذلك ، وهم أن يوقع بالعامة .

واتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير فى يوم السبت ، فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات ، وهم يصيحون : نصر الله الاسلام ، أنصر دين محمد بن عبد

(*) ص٥١٤ جـ٢ ، ط . بولاق .

الله ، فخرج من ذلك . وعندما نزل الميدان ، أحضر اليه الخازن نصرانيين قد قبض عليهما وهما يحرقان الدور ، فأمر بتحريقهما ، فأخرجا وعمل لهما حفرة ، وأحرقا بمرأى من الناس .

وبينا هم فى احراق النصرانيين اذا بديوان الأمير بكتمر الساقى قد مر يريد بيت الأمير بكتمر ، وكان نصرانيا ، فعندما عاينه العامة ، ألقوه عن دابته الى الأرض ، وجردوه من جميع ما عليه من الثياب ، وحملوه ليلقوه فى النار ، فصاح بالشهادتين ، وأظهر الاسلام ، فأطلق .

واتفق مع هذا مرور كريم الدين ، وقد لبس التشريف من الميدان ، فرجمه من هنالك رجما متتابعا ، وصاحوا به : كم تحامى للنصارى وتشد معهم ، ولعنوه وسبوه . فلم يجد بدا من العود الى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد ضجيج العامة وصياحهم حتى سمعهم السلطان .

فلما دخلَ عليه ، وأعلمه الخبر ، امتلأ غضبا ، واستشار الأمراء — وكان بحضرته منهم الأمير جمال الدين نائب الكرك ، والأمير سيف الدين البوبكرى ، والخطيرى ، وبكتمر الحاجب فى عدة أخرى — فقال الأبوبكرى : العامة عمى ، والمصلحة أن يخرج اليهم الحاجب ، ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم . فكره هذا من قوله السلطان ، وأعرض عنه .

فقال نائب الكرك : كل هذا من أجل الكتاب النصارى ، فان الناس أبغضوهم ، والرأى أن السلطان لا يعمل فى العامة شيئا ، وانما يعزلَ النصارى من الديوان . فلم يعجبه هذا الرأى أيضا ، وقال للأمير ألماس الحاجب : امض ومعك أربعة من الأمراء ، وضع السيف فى العامة ، من حين تخرج من باب الميدان الى أن تصل الى باب زويلة ، واضرب فيهم بالسيف من باب زويلة الى باب النصر بحيث لا ترفع السيف عن أحد ألبتة .

وقال لوالى القاهرة : اركب الى باب اللوق والى باب البحر ، ولا تدع أحدا حتى تقبض عليه وتطلع به الى القلعة ، ومتى لم تحضر الذين رجموا وكيلى (يعنى كريم الدين) والا وحياة رأسى شنقتك عوضا عنهم ، وعين معه عدة من المماليك السلطانية .

فخرج الأمراء بعدما تلكأوا فى المسير حتى اشتهر الخبر ، فلم يجدوا أحدا من الناس حتى ولا غلمان الأمراء وحواشيهم . ووقع القول بذلك فى القاهرة ، فغلقت الأسواق جميعها ، وحل بالناس أمر لم يسمع بأشد منه ، وسار الأمراء فلم يجدوا فى طول طريقهم أحدا الى أن بلغوا باب النصر ، وقبض الوالى من باب اللوق وناحية بولاق وباب البحر كثيرا من الكلابزية والنواتية وأسقاط الناس .

فاشتد الخوف ، وعدى كثير من الناس الى البر الغربى بالجيزة ، وخرج السلطان من الميدان ، فلم يجد فى طريقه الى أن صعد قلعة الجبل * أحدا من العامة . وعندما استقر بالقلعة ، سير الى الوالى يستعجل حضوره ، فما غربت الشمس حتى أحضر ممن أمسك من

(*) ص٥١٥ جـ٢ ، ط . بولاق .

العامة نحو مائتى رجل . فعزلَ منهم طائفة أمر بشنقهم ، وجماعة رسم بتوسيطهم ، وجماعة رسم بقطع أيديهم .

فصاحوا بأجمعهم : ياخوند ، ما يحل لك ما نحن الذين رجمنا . فبكى الأمير بكتمر الساقى ، ومن حضر من الأمراء رحمة لهم ، وما زالوا بالسلطان الى أن قال للوالى : اعزل منهم جماعة ، وانصب الخشب من باب زويلة الى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم . فلما أصبح يوم الأحد ، علق الجميع من باب زويلة الى سوق الخيل ، وكان فيهم من له بزة وهيئة ، ومر الأمراء بهم ، فتوجعوا لهم وبكوا عليهم . ولم يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة ومصر فى هذا اليوم حانوتا ، وخرج كريم الدين من داره يريد القلعة على العادة ، فلم يستطع المرور على المصلوبين ، وعدل عن طريق باب زويلة .

وجلس السلطان فى الشباك ، وقد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى ، فقطع أيدى وأرجل ثلاثة منهم ، والأمراء لا يقدرون على الكلام معه فى أمرهم لشدة حنقه . فتقدم كريم الدين ، وكشف رأسه ، وقبل الأرض وهو يسأل العفو ، فقبل سؤاله وأمر بهم أن يعملوا فى حفير الجيزة ، فأخرجوا وقد مات ممن قطع أيديهم اثنان ، وأنزل المعلقون من على الخشب .

وعندما قام السلطان من الشباك ، وقع الصوت بالحريق فى جهة جامع ابن طولون ، وفى قلعة الجبل ، وفى بيت الأمير ركن الدين الأحمدى بحارة بهاء الدين ، وبالفندق خارج باب البحر من المقس ، وما فوقه من الربع . وفى صبيحة يوم هذا الحريق ، قبض على ثلاثة من النصارى وجد معهم فتائل النفط ، فأحضروا الى السلطان ، واعترفوا بأن الحريق كان منهم ، واستمر الحريق فى الأماكن الى يوم السبت .

فلما ركب السلطان الى الميدان على عادته ، وجد نحو عشرين ألف نفس من العامة قد صبغوا خرقا بلون أزرق ، وعملوا فيها صلبانا بيضا ، وعندما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد : لا دين الا دين الاسلام . نصر الله دين محمد بن عبد الله . ياملك الناصر ياسلطان الاسلام انصرنا على أهل الكفر ، ولا تنصر النصارى .

فارتجت الدنيا من هول أصواتهم ، وأوقع الله الرعب فى قلب السلطان وقلوب الأمراء ، وسار وهو فى فكر زائد حتى نزل بالميدان ، وصراخ العامة لا يبطل . فرأى أن الرأى فى استعمال المداراة ، وأمر الحاجب أن يخرج وينادى بين يديه : من وجد نصرانيا فله ماله ودمه ، فخرج ونادى بذلك ، فصاحت العامة وصرخت : نصرك الله ، وضجوا بالدعاء .

وكان النصارى يلبسون العمائم البيض ، فنودى فى القاهرة ومصر : من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حل له دمه وماله ، ومن وجد نصرانيا راكبا حل له دمه وماله . وخرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء ، والا يركب أحد منهم فرسا ولا بغلا ، ومن ركب حمارا فليركبه مقلوبا ، ولا يدخل نصرانى الحمام الا وفى عنقه جرس ، ولا يتزيا أحد منهم بزى المسلمين .

ومنع الأمراء من استخدام النصارى ، وأخرجوا من ديوان السلطان ، وكتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من النصارى ، وكثر ايقاع المسلمين بالنصارى حتى تركوا السعى فى الطرقات ، وأسلم منهم جماعة كثيرة . وكان اليهود قد سكت عنهم فى هذه المدة ، فكان النصرانى اذا اراد أن يخرج من منزله ، يستعير عمامة صفراء من أحد من اليهود ، ويلبسها حتى يسلم من العامة .

واتفق أن بعض دواوين النصارى كان له عند يهودى مبلغ أربعة آلاف درهم نقرة ، فصار الى بيت اليهودى وهو متنكر فى الليل ليطالبه ، فأمسكه اليهودى وقال : أنا بالله وبالمسلمين ، وصاح . فاجتمع الناس لأخذ النصرانى ، ففر الى داخل بيت اليهودى ، واستجار بامرأته ، وأشهد عليه بابراء اليهودى حتى خلص منه . وعثر على طائفة من النصارى بظهر الخندق يعملون النفط لاحراق الأماكن ، فقبض عليهم وسمروا .

ونودى فى الناس بالأمان ، وأنهم يتفرجون على عادتهم عند ركوب السلطان الى الميدان . وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالنصارى ، وزادوا فى الخروج عن الحد ، فاطمأنوا ، وخرجوا على العادة الى جهة الميدان ، ودعوا للسلطان ، وصاروا يقولون : نصرك الله ياسلطان الأرض ، اصطلحنا اصطلحنا ، وأعجب السلطان ذلك ، وتبسم من قولهم . وفى تلك الليلة وقع حريق فى بيت الأمير ألماس الحاجب من القلعة ، وكان الريح شديدا ، فقويت النار وسرت الى بيت الأمير أيتمش ، فانزعج أهل القلعة وأهل القاهرة ، وحسبوا أن القلعة جميعها احترقت .

ولم يسمع بأشنع من هذه الكائنة . فانه احترق على يد النصارى بالقاهرة ربع فى سوق الشوايين ، وزقاق العريسة بحارة الديلم ، وستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين ، وعدة أماكن بحارة الروم ، ودار بهادر بجوار المشهد الحسينى ، وأماكن باصطبل الطارمة وبدرب العسل ، وقصر أمير سلاح ، وقصر سلار بخط بين القصرين ، وقصر بيسرى ، وخان الحجر والجملون ، وقيسارية الأدم ، ودار بيبرس ★ بحارة الصالحية ، ودار ابن المغربى بحارة زويلة ، وعدة أماكن بخط بئر الوطاويط وبالحكر وفى قلعة الجبل ، وفى كثير من الجوامع والمساجد الى غير ذلك من الأماكن بمصر والقاهرة يطول عددها .

وخرب من الكنائس كنيسة بخرائب التتر من قلعة الجبل ، وكنيسة الزهرى فى الموضع الذى فيه الآن البركة الناصرية ، وكنيسة الحمراء ، وكنيسة بجوار السبع سقايات ، تعرف بكنيسة البنات ، وكنيسة أبى المنيا ، وكنيسة الفهادين بالقاهرة ، وكنيسة بحارة الروم ، وكنيسة بالبندقانين ، وكنيستان بحارة زويلة ، وكنيسة بخزانة البنود ، وكنيسة بالخندق ، وأربع كنائس بثغر الاسكندرية ، وكنيستان بمدينة دمنهور الوحش ، وأربع كنائس بالغربية ، وثلاث كنائس بالشرقية ، وست كنائس بالبهناوية ، وبسيوط ومنفلوط ومنية الخصيب ثمان

(★) ص٥١٦ جـ٢ ، ط . بولاق .

كنائس ، وبقوص وأسوان احدى عشرة كنيسة ، وبالاطفيحية كنيسة ، وبسوق وردان من مدينة مصر ، وبالمصاصة وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس وخرب من الديارات شىء كثير ، وأقام دير البغل ودير شهران مدة ليس فيهما أحد .

وكانت هذه الخطوب الجليلة فى مدة يسيرة ، قلما يقع مثلها فى الأزمان المتطاولة ، هلك فيها من الأنفس ، وتلف فيها من الأموال وخرب من الأماكن ، ما لا يمكن وصفه لكثرته ، ولله عاقبة الأمور .

« كنيسة ميكائيل » هذه الكنيسة كانت عند خليج بنى وائل خارج مدينة مصر ، قبلى عقبة يحصب ، وهى الآن قريبة من جسر الأفرم ، أحدثت فى الاسلام ، وهى مليحة البناء .

« كنيسة مريم » : فى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ، خالية ليس بها أحد .

« كنيسة مريم » بناحيه العدوية من قبليها قديمة ، وقد تلاشت

« كنيسة أنطونيوس » . بناحية بياض قبلى أطفيح ، وهى محدثة

وكان بناحية شرنوب عدة كنائس خربت ، وبقى بناحية أهريت الجبل قبلى بياض بيومين .

« كنيسة السيدة » : بناحية أشكر وعلى بابها برج مبنى بلبن كبار ، يذكر أنه موضع ولد موسى بن عمران عليه السلام

« كنيسة مريم » : بناحية الخصوص ، وهى بيت فعملوه كنيسة لا يعبأ بها .

« كنيسة مريم » ، وكنيسة بخنس القصير ، وكنيسة غبريال » : هذه الكنائس الثلاث بناحية أبنوب .

« كنيسة أسوطير » ومعناه المخلص : هذه الكنيسة بمدينة أخميم ، وهى كنيسة معظمة عندهم ، وهى على اسم الشهداء ، وفيها بئر اذا جعل ماؤها فى القنديل صار أحمر قانيا كأنه الدم .

«كنيسة ميكائيل» . بمدينة اخميم أيضا .

ومن عادة النصارى بهاتين الكنيستين اذا عملوا عيد الزيتونة — المعروف بعيد الشعانين —أن يخرج القسوس والشمامسة بالمجامر والبخور والصلبان والأناجيل والشموع المشعلة ، ويقفوا على باب القاضى ، ثم أبواب الأعيان من المسلمين ، فيبخروا ويقرأوا فصلا من الانجيل ، ويطرحوا له طرحا ؛ يعنى يمدحونه .

« كنيسة بوبخوم » : بناحية أتفه ، وهى آخر كنائس الجانب الشرقى . وبخوم — ويقال بخوميوس — كان راهبا فى زمن بوشنودة ، ويقال له أبو الشركة من أجل أنه كان يربى الرهبان ، فيجعل لكل راهبين معلما ، وكان لا يمكن من دخول الخمر ولا اللحم الى ديره ، ويأمر بالصوم الى آخر التاسعة من النهار ، ويطعم رهبانه الحمص المصلوق — ويقال له عندهم حمص القلة — وقد خرب ديره ، وبقيت كنيسته هذه بأتفه قبلى أخميم .

« كنيسة مرقص الانجيلى » بالجيزة : خربت بعد سنة ثمانمائة ، ثم عمرت . ومرقص

هذا أحد الحواريين ، وهو صاحب كرسى مصر والحبشة .

« كنيسة بوجرج » : بناحية أبى النمرس من الجيزة . هدمت فى سنة ثمانين وسبعمائة — كما تقدم ذكره — ثم أعيدت بعد ذلك .

« كنيسة بوقار » : آخر أعمال الجيزة .

« كنيسة شنودة » : بناحية هربشت .

« كنيسة بوجرج » بناحية بيا : وهى جليلة عندهم يأتونها بالنذور ، ويحلفون بها ، ويحكون لها فضائل متعددة .

«كنيسة ماروطا القديس» بناحية سنطا : وهم يبالغون فى ماروطا هذا ، وكان من عظماء رهبانهم ، وجسده * فى أنبوبة بدير بوبشاى من برية شيهات يزورونه الى اليوم .

« كنيسة مريم بالبهنسا » : ويقال انه كان بالبهنسا ثلثمائة وستون كنيسة خربت كلها ، ولم يبق بها الا هذه الكنيسة لا غير .

« كنيسة صويل » الراهب بناحية شبرى .

« كنيسة مريم » بناحية طنبدى ، وهى قديمة .

« كنيسة ميخائيل » بناحية طنبدى ، وهى كبيرة قديمة ، وكان هناك كنائس كثيرة خربت . وأكثر أهل طنبدى نصارى أصحاب صنائع .

« كنيسة الأصطولى » أعنى الرسل بناحية أشنين ، وهى كبيرة جدا .

(*) ص٥١٧ جـ٢ ، ط . بولاق .

« كنيسة مريم » بناحيه اشنين ايضا ، وهى قديمة .

« كنيسة ميخائيل وكنيسة غبريال » بناحية أشنين أيضا . وكان بهذه الناحية مائة وستون كنيسة ، خربت كلها الا هذه الكنائس الأربع وأكثر أهل أشنين نصارى ، وعليهم الدرك فى الحقارة . وبظاهرها آثار كنائس يعملون فيها أعيادهم : منها كنيسة بوجرج ، وكنيسة مريم ، وكنيسة ماروطا ، وكنيسة بربارة ، وكنيسة كفريل ، وهو جبريل عليه السلام .

وفى منية ابن خصيب ست كنائس : كنيسة المعلقة وهى كنيسة السيدة ، وكنيسة بطرس وبولص ، وكنيسة ميكائيل ، وكنيسة بوجرج ، وكنيسة أنبا بولا الطموهى ، وكنيسة الثلاث فتية — وهم حنانيا ، وعزاريا ، وميصائيل — وكانوا أجنادا فى أيام بخت نصر ، فعبدوا الله تعالى خفية .

فلما عثروا عليهم ، راودهم بخت نصر أن يرجعوا الى عبادة الأصنام ، فامتنعوا من ذلك فسجنهم مدة ليرجعوا ، فلم يرجعوا ، فأخرجهم وألقاهم فى النار فلم تحرقهم . والنصارى تعظمهم وان كانوا قبل المسيح بدهر .

«كنيسة بناحية طحا» : على اسم الحواريين الذين يقال لهم عندهم الرسل .

« كنيسة مريم » بناحية طحا أيضا .

«كنيسة الحكيمين » بناحية منهرى : لها عيد عظيم فى بشنس يحضره الأسقف ، ويقام هناك سوق كبير فى العيد . وهذان الحكيمان هما قزمان ودميان الراهبان .

« كنيسة السيدة » بناحية بقرقاس : قديمة كبيرة .

وبناحية ملوى كنيسة « كنيسة الرسل » ، وكنيستان خراب : احداهما على اسم بوجرج ، والأخرى على اسم الملك ميخائيل .

وبناحية دلجة كنائس كثيرة لم يبق منها الا ثلاث كنائس : كنيسة السيدة وهى كبيرة ، وكنيسة شنودة ، وكنيسة مرقورة . وقد تلاشت كلها .

وبناحية صنبو كنيسة أنبا بولا ، وكنيسة بوجرج . وصنبو كثيرة النصارى .

وبناحية بيلاو — وهى بحرى صنبو — كنيسة قديمة ، بجانبها الغربى ، على اسم بوجرج وبها نصارى كثيرون فلاحون .

وبناحية دروط كنيسة ، وفى خارجها شبه الدير على اسم الراهب ساراماتون ، وكان فى زمان شنودة ، وعمل أسقفا ، وله أخبار كثيرة .

وبناحية بوق بنى زيد كنيسة كبيرة على اسم الرسل ، ولها عيد .

وبالقوصية كنيسة مريم ، وكنيسة غبريال .

وبناحية دمشير كنيسة الشهيد مرقوريوس وهى قديمة ، وبها عدة نصارى .

وبناحية أم القصور كنيسة بويخنس القصير ، وهى قديمة .

وبناحية بلوط ، من ضواحى منفلوط ، كنيسة ميخائيل ، وهى صغيرة .

وبناحية البلاعزة ، من ضواحى منفلوط ، كنيسة صغيرة يقيم بها القسيس بأولاده .

وبناحية شقلقيل ثلاث كنائس كبار قديمة : احداها على اسم الرسل ، وأخرى باسم ميخائيل ، وأخرى باسم بومنا .

وبناحية منشأة النصارى كنيسة ميخائيل : وبمدينة سيوط كنيسة بوسدرة ، وكنيسة الرسل ، وبخارجها كنيسة بومينا .

وبناحية درنكة كنيسة قديمة جدا على اسم الثلاثة فتية : حنانيا ، وعزاريا ، وميصائيل ، وهى مورد لفقراء النصارى . ودرنكة أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية ، فيتحدث صغيرهم وكبيرهم بها ، ويفسرونها بالعربية .

وبناحية ريفة كنيسة بوقلتة ، الطبيب الراهب ، صاحب الأحوال العجيبة فى مداواة الرمدى من الناس ، وله عيد يعمل بهذه الكنيسة ، وبها كنيسة ميخائيل أيضا ، وقد أكلت الأرضة جانب ريفة الغربى .

وبناحية موشة كنيسة مركبة على حمام ، على اسم الشهيد بقطر ، وبنيت فى أيام قسطنطين ابن هيلانة ، ولها رصيف عرضه عشرة أذرع ، ولها * ثلاث قباب ، ارتفاع كل منها نحو الثمانين ذراعا ، مبنية بالحجر الأبيض كلها ، وقد سقط نصفها الغربى ، ويقال ان هذه الكنيسة على كنز تحتها ، ويذكر أنه كان من سيوط الى موشة هذه مشاة تحت الأرض .

(*) ص٥١٨ جـ٢ ، ط . بولاق .

وبناحيه بقور ، من ضواحى بوتيج ، كنيسة قديمة للشهيد اكلوديس . وهو يعدل عندهم مرقوريوس وبجا أرجيرس ، وهو أبو جرج ، والاسفهلار تادروس ، وبارس ، وكان اكلوديوس أبوه من قواد دقلطيانوس وعرف هو بالشجاعة فتنصر ، فأخذه الملك وعذبه ليرجع الى عبادة الأصنام ، فثبت حتى قتل ، وله أخبار كثيرة

وبناحية القطيعة كنيسة على اسم السيدة . وكان بها أسقف ، يقال له ألدو ، بينه وبينهم منافرة ، فدفنوه حيا وهم من شرار النصارى معروفون بالشر ، كان منهم نصرانى ، يقال له جرجس بن الراهب تعدى طوره ، فضرب رقبته الأمير جمال الدين يوسف الأستادار بالقاهرة فى أيام الناصر فرج ابن برقوق .

وبناحيه بوتيج كنائس كثيرة قد خربت . وصار النصارى يصلون فى بيت لهم سرا ، فاذا طلع النهار خرجوا الى آثار كنيسة ، وعملوا لها سياجا من جريد شبه القفص ، وأقاموا هناك عباداتهم .

وبناحية بومقروفة كنيسة قديمة لميخائيل ، ولها عيد فى كل سنة وأهل هذه الناحية نصارى أكثرهم رعاة غنم ، وهم همج رعاع .

وبناحية دوينة كنيسة على اسم بويخنس القصير ، وهى قبة عظيمة ، وكان بها رجل ، يقال له يونس ، عمل أسقفا ، واشتهر بمعرفة علوم عديدة . فتعصبوا عليه حسدا منهم له على علمه ، ودفنوه حيا وقد توعك جسمه .

وبالمراغة التى بين طهطا وطما كنيسة .

وبناحية قلفاو كنيسة كبيرة ، وتعرف نصارى هذه البلدة بمعرفة السحر ونحوه . وكان بها فى أيام الظاهر برقوق شماس ، يقال له أبصاطيس ، له فى ذلك يد طولى ، ويحكى عنه ما لا أحب حكايته لغرابته

وبناحية فرشوط كنيسة ميخائيل ، وكنيسة السيدة مارت مريم وبمدينة هو كنيسة السيدة وكنيسة بومنا .

وبناحية بهجورة كنيسة الرسل ، وبباسنا كنيسة مريم ، وكنيسة ميخائيل ، وكنيسة يوحنا المعمدانى ، وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام . وبنقادة كنيسة السيدة ، وكنيسة يوحنا المعمدانى ، وكنيسة غبريال ، وكنيسة يوحنا الرحوم وهو من أهل انطاكية ذوى الأموال ، فزهد وفرق ماله كله فى الفقراء ، وساح — وهو على دين النصرانية — فى البلاد ، فعمل أبواه عزاءه ، وظنوا أنه قد مات ، ثم قدم أنطاكية فى حالة لا يعرف فيها ، وأقام فى كوخ على مزبلة ، وأقام رمقه بما يلقى على تلك المزبلة حتى مات ، فلما عملت جنازته كان ممن حضرها أبوه فعرف غلاف انجيله ، ففحص عنه حتى عرف أنه ابنه فدفنه ، وبنى عليه كنيسة أنطاكية .

وبمدينة قفط كنيسة السيدة ، وكان بأصفون عدة كنائس خربت بخرابها . وبمدينة قوص عدة أديرة ، وعدة كنائس خربت بخرابها ، وبقى بها كنيسة السيدة ، ولم يبق بالوجه القبلى من الكنائس سوى ما تقدم ذكرنا له .

واما الوجه البحرى

ففى منية صرد ، من ضواحى القاهرة ، كنيسة السيدة مريم ، وهى جليلة عندهم .

وبناحية سندوة كنيسة محدثة ، على اسم بوجرج .

وبمرصفا كنيسة مستجدة ، على اسم بوجرج أيضا .

وبسنود كنيسة على اسم الرسل ، عملت فى بيت .

وبسنباط كنيسة جليلة عندهم ، على اسم الرسل .

وبصندفة كنيسة معتبرة عندهم ، على اسم بوجرج .

وبالريدانية كنيسة السيدة ، ولها قدر جليل عندهم .

وفى دمياط أربع كنائس للسيدة ، ولميخائيل ، وليوحنا المعمدانى ، ولمارى جرجس ، ولها مجد عندهم .

وبناحية سبك العبيد كنيسة محدثة ، فى بيت مخفى ، على اسم السيدة .

وبالنحراوية كنيسة محدثة ، فى بيت مخفى ، وفى لقانة كنيسة بويخنس القصير ، وبدمنهور كنيسة محدثة ، فى بيت مخفى ، على اسم ميخائيل ، وبالاسكندرية المعلقة على اسم السيدة ، وكنيسة بوجرج ، وكنيسة يوحنا المعمدانى ، وكنيسة الرسل .

فهذه كنائس اليعاقبة بأرض مصر .

ولهم بغزة كنيسة مريم ، ولهم بالقدس القمامة ، وكنيسة صهيون .

وأما الملكية فلهم بالقاهرة كنيسة مارى نقولا بالبندقانيين ، وبمصر كنيسة غبريال الملاك بخط قصر الشمع ، وبها قلاية لبطركهم وكنيسة السيدة بقصر الشمع أيضا ، وكنيسة الملاك ميخائيل بجوار بربارة بمصر ، وكنيسة ماريوحنا بخط دير الطين . والله أعلم .

وهذا آخر الجزء الثانى ، وبتمامه تم الكتاب ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبى بعده ، ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا عدوان الا على الظالمين .

يقول[١] المستعين بربه القوى ، محمد ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن قطة العدوى ، مصحح دار الطباعة المصرية ، بلغه الله من الخير كل أمنية « ان من جملة المحاسن الممدوحة بكل لسان ، وأحاسن الآثار الغنى فضلها عن البيان ، التى ظهرت فى أيام صاحب العز والاقبال ، من طبع على المرحمة والعدالة فى الأقوال والأفعال ، واختص بحسن التبصر وسداد النظر ، ورعاية المصالح العامه لأهل البدو والحضر ، ووهب من صفات الكمال وكمال الصفات ما تقصر دون تعداده العبارات والاشارات ، من هو الفرقد التالى فى أفق الصدارة العثمانى ، عزيز الديار المصرية ، ذى المناقب الفاخرة السنيه ، حضرة أفندينا الحاج عباس باشا ، لا زال بصولة عدله جيش المظالم يتلاشى ، ولا برح قرير العين بأنجاله ، محفوظ الجناب ، نافذ القول فى حاله واستقباله ، ولا فتىء لواء عزه منشورا ، ولا انفك سعيه مشكورا ؛ طبع كتاب الخطط للعلامة المقريزى الشهير ، المجمع على فضله وعموم نفعه بلا نكير . كيف لا وقد جمع من تخطيط الحكومة المصرية ، وما يتعلق بها من المواد الجغرافية والتاريخية ، وذكر أصناف أهلها وولاتها ، وما عرض لها من تقلبات الأزمان وتغيراتها ، وما تضمنته من الأخلاق والعوايد الصحيح منها والفاسد ، وما توارد عليها من الدول والحكومات واختلاف الملل والديانات وغير ذلك من الفوائد ، وصحيح الأدلة والشواهد وعجائب الأخبار وغرائب الآثار ، ما يغنى الحاذق اللبيب ، ويكفى الماهر الأريب ، ويعتبر به المعتبرون ، ويتفكه به المتسامرون ، بل هو النديم الذى لا يمل ، والأنيس الذى فى استصحابه تهون الكرائم وتبذل ؛ بيد أنه يتحفك من تاريخ مصر بأظرف تحفه ، ويمنحك من طريف جغرافيتها وتليدها ألطف طرفه ، ويسكنك من قصور أبنائها أعلى غرفه وينشقك من زهر روض أخبارها شميمه وعرفه . غير أنه لما كان فن التاريخ ، مع جليل نفعه وجزيل فائدته عند أرباب المعارف ، وعظيم وقعه ، قد رميت سوقه فى هذه الأزمان بالكساد ، وتقاصرت عنه الهمم من كل حاضر وباد ، كان هذا الكتاب مما خيمت عليه عناكب النسيان ، وعزت نسخه فى ديارنا حتى كاد لا يعثر بها انسان ، فانها فيها قليلة محصورة ، متروكة الاستعمال مهجورة ، فكانت مع قلتها عارية عن صحتها ، فكم فيها من تحريف فاحش ، وسقط متفاحش ، وغلط مخل ، وخطأ مضجر وممل ، يفضى بالقارىء الى الملل ، ويعوضه عن النشاط الكسل ، لكن بحمد الله وعونه ، وعظيم فضله ومنه ، وبذل المجهود فى التصحيح ، واستفراغ الوسع فى التحرير والتنقيح ، جاءت النسخة المطبوعة صحيحة حسب الامكان ، جديرة بأن تحل محل القبول والاستحسان ، فان ما كان من عباراته بالتحريف سقيما ، ولم يفهم معنى مستقيما ، أجلت فيه ذهنى مع قصوره ، وكلفته التسلق على قصوره ، فان فتح له باب الرشاد ، وألهم المعنى المراد ، حمدت ربى حيث نلت أربى ، وان كانت الأخرى وكبا زند الفهم وما أورى ، نبهت على وجه التوقف فى

(١) نص تعليق مصحح طبعة بولاق .

الحاشية بالعبارة ، أو رقمت فيها رقما هندما ليكون الى التوقف اشارة ، وربما أشرب الى الصواب ، لكن على سبيل الرجاء فى الاستصواب ، وربما مر بك تعداد بعض أشياء يشم منها مخالفة العربية ، وتفصيل أمور تأباه بحسب الظاهر القواعد النحوية ، وعذرنا فى ذلك أن المؤلف نقلها كذلك عمن نقلها عن جريدة حساب ، وأثبتها على ما هى عليه فى تقييدات الكتاب ، فأبقيناها على حالها ، ولم ننسجها على غير منوالها ، حرصا على عدم التغيير فى عبارات المؤلفين حسبما نص عليه أئمة الدين ، لا سيما والمعنى معه ظاهر لا يخفى على السامع والناظر ، ثم انه لبعض الأسباب فاتنى تصحيح نحو اثنتين وعشرين ملزمة من أول الجزء الأول ، ومثلها من أول الثانى من هذا الكتاب ، لكن ان شاء الله تعالى يحصل الاطلاع عليها والنظر بعين التأمل اليها ، فان عثر فيها على ما يلزم التنبيه عليه والاشاره اليه نبهت عليه ، وأثبت ما يخص كل جزء بلصقه ، ليكون كل منهما مستوفيا لحقه ، هذا وكأنى بمتشقشق متشدق يعجل ببذاءة اللسان ولا يحقق ، قد استولى عليه الحسد فأعمى بصيرته ، ورفع بالذم والتشنيع عقيرته قائلا ما لا يليق الا به ، مذيعا ما هو أولى به ، وما درى الجهول أن فن التصحيح خطر دقيق ، وصاحبه بضد ما تبجح به جدير حقيق ، ولو ذاق نعرف وبالعجز أقر واعترف ، وبالجملة فذمه يشهد لى بالكمال أخذا بقول من قال :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص

فهى الشهادة لى بأنى كامل

على أنى والله معترف بقلة البضاعة ، وعدم الأهلية لهذه الصناعة ، ولكنما هى اقامات وانما الأعمال بالنيات * ، وأفوض أمرى الى اللطيف الخبير فانه نعم المولى ونعم النصير .

وكان طبع هذا الكتاب بدار الطباعة المصرية المنشأة ببولاق القاهرة المعزية ، لا زالت بأنفاس الحضرة الآصفية منبعا لنشر الكتب النافعة العلمية ، تحت ملاحظة صاحب نظارتها القائم بتدبيرها وادارتها ، رب العلم الذى لا يبارى ، والانشاء الذى لا يجارى ، من أحرز قصب السبق فى ميدان البراعة ، وانقاد له كل معنى أبى وأطاعه ، حضرة على أفندى جوده ، بلغه الله فى الدارين مأموله وقصده .

وكان طبعه على ذمة ملتزمه المتسبب بعد الطى فى نشر علمه واشتهاره فى الأقطار ، واستعماله عند أهل القرى والأمصار ، الباذل فى ذلك نفائس الكرائم ، المستصغر فى استحصاله الصعائب والعظائم ، المستنصر بمولاه فى حالتى الضعف والأيد : الخواجه رفائيل عبيد ، وقد وافق تاريخ تمامه وانتهاء الطبع الى حد ختامه يوم الاثنين التاسع عشر من شهر اليمن والخير صفر ، الذى هو من شهور سنة ألف ومائتين وسبعين من هجرة سيد النبيين والمرسلين ، صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين ، وعلى كل الصحابة والتابعين ، ورزقنا بجاههم الاعتصام بحبله على الدوام ، ومنحنا التوفيق لما يرضيه والفوز بحسن الختام ، آمين ؛

تم

فهرس الجزء الثالث
من كتاب « الخطط » للمقريزى

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

كتاب «الخطط» للمقريزى

أصدرت دار التحرير للطبع والنشر هذه الطبعة من كتاب «الخطط» فى سبعة واربعين عددا من :

« كتاب التحرير »

مقسمة الى ثلاثة أجزاء ، لكل جزء منها فهرس مستقل .

صدر العدد الأول فى ٢٧ من اغسطس سنة ١٩٦٧ ، والعدد الأخير فى ٢١ من يوليو سنة ١٩٦٨ .

وقد صمم الغلاف ، وعمل الرسوم التى نشرت عليه اسبوعيا ، الفنان عبد الغنى أبو العنين ، المستشار الفنى لدار التحرير .

تصدره دار التحرير للطبع والنشر

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك بأخبار إقليم مصر و النيل
وذكر القاهرة ومايتعلق بها وبإقليمها.
تأليف سيدنا الشيخ الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى رحمه الله ونفع بعلومه آمين.

عن طبعة
بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

الثمن ٦ قروش ولقر[illegible] ٣ قروش